د. أبو الفداء حسام بن مسعود

الكشاف المبين

لما في نفوس المستكبرين

دراسة في علم نفس المشركين والملحدين وبيان أصل الفساد في عمل العقل عند الفلاسفة ومن لف لفهم من أهل الملل



الكشاف المبين لما في نفوس المستكبرين

دراسة في علم نفس المشركين والملحدين وبيان أصل الفساد في عمل العقل عند الفلاسفة ومن لف لفهم من أهل الملل

كتبه المذنب المسيكين:

د. أبو الفداء حسام بن مسعود

غفر الله له ولوالديه والمسلمين

الطبعة الأولى ١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م

ⓒ **مركز الفكر الغربي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

بن مسعود، حسام

الكشاف المبين لما في نفوس المستكبرين دراسة في علم نفس المشركين والملحدين وبيان أصل الفساد في عمل العقل عند الفلاسفة ومن لف لفهم من أهل الملل./ حسام بن مسعود - الرياض، ١٤٤٢هـ

١١٣٦ ص ؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٢ - ٣ - ٩١٣٨٥ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - العقيدة الإسلامية ٢ - الإلحاد والملحدون

أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ٢٨٠٠/ ١٤٤٢

رقم الإيداع: ٢٨٠٠/ ١٤٤٢

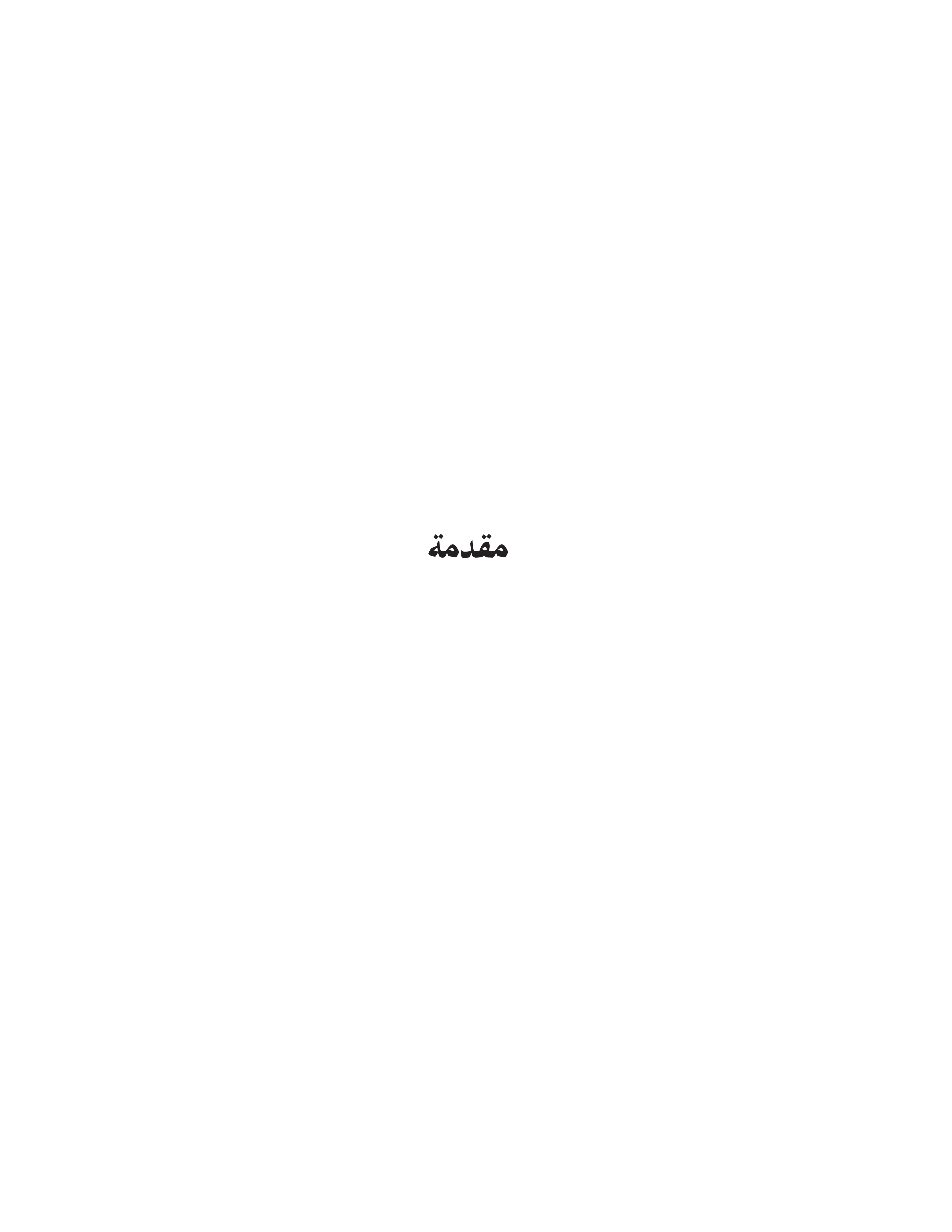
ردمك: ٢ - ٣ - ٩١٣٨٥ - ٦٠٣ - ٩٧٨

تصميم الغلاف: كريم بن منصور

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مركز الفكر الغربي، وإنما عن وجهة نظر المؤلف



فهرس المحتويات



مقدمة

الحمد لله الذي خلق كل شيء ثم هدىٰ، القائل في محكم التنزيل: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى**﴾ [**الأعلى**: ١٤]، والقائل: ﴿**وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٥٨]، والصلاة والسلام علىٰ القائل في جوامع الكلم كما عند مسلم في صحيحه: «لا يزال الناس يتساءلون حتىٰ يقولوا: هذا الله خلق كل شيء، فمن خلق الله؟ قال: فإذا وجد أحدكم ذلك، فليقل: آمنا بالله».

أما بعد، ففي هذا المجلد، أقدم بعون الله تعالىٰ دراسة علمية تحليلية فيها تقرير لحقيقة أن الهوىٰ المفسد للعقائد مرض نفسي وعقلي علىٰ ما يقتضيه المفهوم الشرعي السلفي الأشمل للمرض النفسي والعقلي، وبما يتعين أن يجري عليه التنظير في علمي النفس والاجتماع الحديث (بداية من الأصول المعيارية الكلية لكلا العلمين نفسيهما)، وأن بقاء الإنسان علىٰ عقيدة متناقضة تخالف الفطرة والبداهة العقلية في قضايا الغيب الكبرىٰ، من شأنه أن يفضي به – ولا بد – إلىٰ حالة يصح (بل يجب) أن تصنف علىٰ أنها مرض نفسي خطير (لا علىٰ أنها مذهب معرفي أو فلسفي معتبر!)، بل أخطر الأمراض كافة، وأن بقاءه علىٰ الشرك بأي صورة من صوره من بعد ما سمع الحق وقامت عليه حجته، هو آية ذاك المرض النفسي الخبيث، وأن العلة في ذلك إنما مرجعها إلىٰ فساد النفس وليس فساد آلة النظر، أو بعبارة أخرىٰ: فساد ميل القلب وهواه وليس فساد الإدراك المعرفي والعمل الذهني (كما يحلو للفلاسفة أن يظهروا الأمر عليه)! بل إنه في الحقيقة أخطر أمراض النفس علىٰ الإطلاق، لقول الملك جل وعلا: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [**الشمس**: ٧ – ١٠]. وأن هذا المرض يتناسب في شدته بالطرد عند المصابين به مع نسبة ما في نفس الواحد منهم من عقائد فاسدة في قضايا الغيب الكبرىٰ إلىٰ مجموع معارفهم في تلك البابة، ومع عظم موضوع تلك العقائد وما يترتب علىٰ الفساد فيها من تبعات، ومع مقدار ما في كل واحد من تلك العقائد من تناقض في المعاني والمقتضيات واللوازم، وهو ما يكون علىٰ أشد ما يمكن تصوره عند الملحد الذي ينفي كونه مخلوقا مصنوعا مربوبا من الأساس.

والكتاب يستهدف كذلك بيان أن التأسيس المعرفي في خطاب الكتاب والسنة إنما يبدأ من معالجة النفس والقلب والميل القلبي أولا، حتىٰ ترفع موانع الإقرار بالفطرة الصحيحة النقية الواضحة في النفس البشرية عند من أراد الله له الخير والهداية، ومن ثمّ تنضبط مصادر التلقي المعرفي لديه في الغيبيات، فيقتصر مفهوم «الدليل» و«المعرفة» فيها – من ثم – علىٰ ما جاء به الخبر في الكتاب والسنة وحدهما، ويسقط عنده ما سواهما في ذلك، وتتأسس العقائد التفصيلية لديه علىٰ ما في ذلك المصدر وحده لا غيره، ثم تتأسس مصادر التلقي الشرعي بالتبعية تأسيسا صحيحا علىٰ ما عليه أهل السنة والأثر في ذلك. فالحجة في كتاب الله تعالىٰ ليست جارية علىٰ شروط الفلاسفة فيما به تحصل المعارف الغيبية في نفوس البشر، وهذا أمر قد بسطنا عليه الكلام في كتاب «مفهوم العقل والحجة العقلية في القرآن عند أهل السنة والجماعة»، ونزيده تفصيلا في هذا الكتاب بعون الله تعالىٰ.

فنبين كيف أن هذا المنهج المعرفي الكلي الذي به جاء المرسلون كافة، هو خلاف مناهج الفلاسفة واللاهوتيين والمتكلمين من أهل الملل، ومنهم متكلمة أهل القبلة، إذ لا يعترف الفلاسفة بالفطرة مصدرا من مصادر المعرفة في نفس الإنسان، ومن ثم فلا تزال تراهم يكابرون ويمارون غاية المراء والسفسطة في الضروريات والبدهيات تبعا للهوىٰ المحض، التي منها قضية وجود الباري تبارك وتعالىٰ التي هي أصل أصول العقل نفسه عند البشر! فبدلا من أن يقابلهم المتكلمون بما قابلهم به الأنبياء والمرسلون وأتباعهم من زجر ووعظ وترهيب وحجز عن تلك السفسطة المحضة، وفضح لكذبهم واستكبارهم، قابلوهم بإجابة شرطهم المعرفي الفاسد والخضوع له، وإلغاء المعرفة الفطرية كأساس لإيمان المؤمنين، ثم البداءة بالتنظير والقياس العقلي في الغيبيات رجاء إثبات حدوث العالم ووجود الباري ومن ثم صحة دعوىٰ النبوة، علىٰ الترتيب الجدلي الذي شرطوه هم عليهم وطالبوهم به!

فإذا ما أتوا ببضاعتهم في ذلك التنظير الفاسد معرفيا (كما بسطنا بيانه في غير هذا الكتاب)، أصبح النص وفهمه عندهم تابعا لتلك النظريات بالضرورة، لأن ما استحق عندهم اسم المعرفة القطعية الضرورية عقلا في إثبات وجود الباري استحق بالتبعية أن

يكون هو أصل أصول الفهم والتأويل في سائر المعارف ذات الصلة، وأن يقدم علىٰ كل ما دونه في بنائهم المعرفي عند التعارض وتعذر الجمع! وإذا بمن كان حقيقته عند سلف الأمة الصالحين وأئمة المسلمين أنه كذاب خراص يكذب علىٰ نفسه وعلىٰ الناس إذ يزعم أنه لا يجد في نفسه معرفة ضرورية أولية بأنه مخلوق مربوب، وأن لربه عليه حقا، وهو إذن من أشد الناس سفاهة وجحودا ومرضا في القلب والعقل، إذا به يصبح عند هؤلاء من فضلاء النظار وكبار العقلاء «الباحثين عن الحقيقة» الذين ينبغي أن تعامل دعاواهم السوفسطائية المحضة معاملة الأدلة الباطلة أو المرجوحة في مسألة نظرية (نوعا)، ومن ثم ينبغي أن تقابل (في سياق المناظرة والمناقشة «العلمية») بأدلة مضادة من نفس النوع حتىٰ تصح «تترجح» أصول المعرفة الصحيحة في أصل أصول الدين! وإذا بالخلق وحدوث العالم يصبح نظرية ميتافزيقية خلافية بعدما كان من أمهات العقل في بدهياته ومسلماته الفطرية الأولىٰ، وإذا بالدين يحرَّف ويبدل بدعوىٰ الانتصار لأصوله الكبرىٰ بنصب البرهان العقلي والعلمي «المناسب لأهل هذا الزمان»، والله المستعان!

لهذا كان ولم يزل أهل الكلام (علىٰ اختلاف نظرياتهم ومفرداتهم الاعتقادية فيما بين طوائفهم وفرقهم قديمها ومعاصرها) أقرب أهل القبلة إلىٰ الشك والريبة والزندقة وإلىٰ مصادمة ثوابت الملة بالرأي عند كل زاوية من زوايا بحثهم وكلامهم، ومن ثم الانقلاب إلىٰ الدهرية المحضة، من حيث زعموا أنهم أسلم الناس من ذلك! وهذا شأن من سلكوا تلك النظرية المعرفية الفاسدة المدمرة، من أثر الهزيمة النفسية والشعور العميق بالنقص والضعف بإزاء بضاعة الفلاسفة ونظرياتهم بالغة العمق شديدة التعقد، كما بسطنا الكلام عليه في بابة «كبر الفلاسفة والمتكلمين»! فقد كان ولا يزال الباعث النفسي الفعلي الذي يحرك أصحاب البرهنة اللاهوتية والجدل الكلامي من أهل الملل من حيث لا يشعرون – لمواجهة الفلاسفة الدهريين – من أول ظهور لتلك الصناعات في الأمم السالفة، هو تبرئة من تكلف ذلك النظر والجدل من «تهمة» أن يكون إيمانه إيمان العامة السفهاء (المقلدين في الإيمان كما سموهم)، وأن يكون اعتقاده مصادما لما عليه جماهير المنظرين الكبار والفلاسفة المرموقين من أهل زمانه. وهي العلة القلبية

الخفية التي بسطنا الكلام في هذا الكتاب بعون من الله تعالىٰ في تحليلها واستظهارها عند أنواع المُسَفسطين الممارين بالتنظير في الغيبيات والإلهيات بعموم، سواء كانوا دهرية أو لاهوتيين أو متكلمين.

وببيان هذه المفارقة المنهجية العظيمة بين خطاب أتباع المرسلين وخطاب الفلاسفة والمتكلمين، وبيان كيف أن معالجة النفس البشرية لردها إلىٰ رشدها في البدهيات الفطرية والضروريات الجِبِلية هو رأس الخطاب العقلي عندنا، وأن إصلاح العقل والبرهان العقلي هو إصلاح النفس الذي جاء به الرسل والأنبياء، بينا كيف كان الإسلام رحمة للعالمين علىٰ الحقيقة، فأول ما كان الإسلام به رحمة للناس أن عافاهم الله به من تلك الصراعات النفسية المؤلمة مع عقائد الشرك والوثنية والإلحاد التي كانت ولا تزال بواطن نفوسهم تصرخ فيهم ببطلانها! فمن دخل فيه ورضي به دينا وانشرح له صدره فقد أصاب الفطرة الصحيحة في قضايا الغيب من كل باب ووجه، وسلمت نفسه من سائر التناقضات المعرفية والعقلية الفاحشة التي يعاني منها أهل الملل الباطلة والمحرفة كافة، ودخل فيمن قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿**إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [**هود**: ١١٩] مستثنيا إياهم من عموم بني آدم الذين قال فيهم من قبل ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾ الآيات [**هود**: ١١٨].

فأول رحمة جاء بها الإسلام، أن عوفي به أتباعه من شر الخلاف في أمثال هذه القضايا الكبرىٰ الأخطر علىٰ العقل والقلب، التي لا يعرف للخلاف فيها علاج أو مخرج عندهم إلا تلفيقات الفلاسفة والمتكلمين المتكلفة بين مفردات نظرياتهم الغيبية الساقطة، فعولجت نفوس المسلمين مما تعانيه النفوس المشركة من أثر ما هو معقود فيها من عقائد تناقض بدهيات العقل الأولىٰ أولا، ثم من أثر العدوان علىٰ الغيب وعلىٰ الرب بالأقيسة والنظريات ولو بدعوىٰ الانتصار للدين وأصوله، وقد بسطنا القول في بيان ذلك واستفضنا في التمثيل عليه في هذا الكتاب.

لذا فإننا نرمي بهذا الكتاب - تبعا - إلىٰ بيان أن الخوض مع المشركين عموما (ممن عرفنا ولو بغلبة الظن سماعهم برسالة محمد ﷺ وأنهم - من ثمّ - معرضون أو

مكذبون أو متغافلون[1]) ومجادلتهم في أمور الاعتقاد، لو لم تتخذ صفة معينة ومسلكا معينا وتلتزم ضابطا معينا يواطئ ما جاء به الأنبياء والمرسلون من طريقة ومنهاج في ذلك، فستكون بابا لزيادة ذلك المرض في نفوسهم (أي المشركين)، ليس هذا وحسب، بل وستفتح أبواب المرض وقسوة القلب علىٰ نفس الداعية الموحد نفسه من حيث لا يدري، وقد تورثه الشك والريبة واضطراب الاعتقاد من حيث لا يشعر، وتفتح أبواب الابتداع والتفرق في الدين والملة في أبواب الصفات والأفعال والحكمة والتعليل كما جرىٰ علىٰ أيدي المتكلمين الأوائل في القرون الثلاثة الأولىٰ ولا يزال إلىٰ قيام الساعة.

هذا وأنبه تنبيها مهما إلىٰ أن هذا الكتاب لست أرمي من تصنيفه إلىٰ تأسيس «علم جديد» كما قد يوهِم به عنوانه، ولست أدعو المتخصصين في علوم النفس من المسلمين – كما قد يتحمس لذلك بعض الإخوة – إلىٰ مواصلة التأليف علىٰ هذا المنوال وتلك الوتيرة، ولا إلىٰ تناول ونقد نظريات ما يسمىٰ بـ«علم نفس الدين» Psychology of Religion وما يقوم عليه من أصول داروينية وفرويدية، وإنما أردت أن أبين للعقلاء من المسلمين أن مرض الجحود والاستكبار والهوىٰ المستحكم (الذي هو مرض نفسي حتما وقطعا) ليس علاجه عند من ظهرت عليه أعراضه بالمحاججة والمقارعة بالأدلة والبراهين الكلامية والفلسفية (سواء من فلسفات اللغويات أو الماورائيات أو الطبيعيات فيما يقال له العلم الطبيعي أو غير ذلك) كما يتوهمه الأكثرون من دعاة المسلمين في هذا الزمان! فهؤلاء الذين عمدوا إلىٰ مخاطبتهم بتلك الأشياء لا تخفىٰ

(١) وكل مشرك لا يوصف بأنه من أهل الفترة، بضابطه الشرعي المعتبر، فلا يوصف إلا بأنه معرض متغافل أو مكذب جاحد لا محالة، ما دام باقيا على الشرك مقيما عليه. فلا مجال لأن يعذر مشرك بجهله أو اشتباه الأمر عليه يوم القيامة لأنه لم يفهم وجه بطلان الشرك الذي هو عليه في مقابل التوحيد الخالص والاستسلام التام للخالق الذي يدعو الإسلام إليه، فلم يجد – على الأقل – ما يدفعه لأن يعيد النظر في عقيدته ويطلب تلقي دين التوحيد والقرآن عن حملته صافيا كما أنزله الله! فعندما يكون سبب الجهل التجاهل والتهاون والتفريط، وليس العجز عن بلوغ منابع العلم وعن السماع والتلقي، فلا يكون صاحبه معذورا به، وهذا في المسائل النظرية نوعا (أي التي تحتاج إلى تقليب نظر وقياس عقلي)، فكيف بقضية قد عُلم بطلانها بالفطرة والبداهة الأولى، وجاءت فيها دعوى الرسول بمقتضى تلك الفطرة نفسها بما لا يتصور معه خفاء ولا اشتباه (أعني مطلق الإشراك برب العالمين)؟

عليهم ضرورات العقل التي ينكرون بعضها جحودا واستكبارا، ولا يمكن أن تخفىٰ أصلا لأنها من مقدمات العقل الأولىٰ التي يُستدل بها لا لها، وهم مع ذلك يزعمون ذلك الخفاء في شأنها (سواء بصريح القول أو بمقتضىٰ الحال)، ويزعمون افتقارها إلىٰ الدليل النظري الكافي للنهوض بها. فمن كانت هذه دعواهم فهم قوم كذَبة يكذبون علىٰ أنفسهم وعلىٰ الناس، مهما زعموا أنهم متجردون للحق، يتخذون من طول «المحاورة» و«المناقشة» و«البحث» في أوساطهم الفكرية والفلسفية غطاءً سيكولوجيا وسوسيولوجيا سابغا يسوّغون به لأنفسهم البقاء علىٰ ما هم عليه ما امتدت به أعمارهم، متسترين تحت دعوىٰ خفاء الحقيقة وشدة الداعي للتنقيب عنها والبحث عن أدلتها والمقارنة بين دعاوىٰ الناس فيها ودفع سائر ما عندهم من الشبهات المشوِّشة عليها، ونحو ذلك مما تطفح به منتديات ومحافل من يتعاملون معهم تحت ستار «مقارنة الأديان» و«حوار الأديان» وهذه الأشياء، وكأنها مسألة عويصة مما يستعصي علىٰ أفهام النظار والباحثين المتخصصين!

وسأبين في هذا الكتاب بحول الله تعالىٰ أن الإلحاد هو أعظم درجات الجحود والمكابرة في الواضحات الجليات، وأن الملحد أشد مرضا في هذا الجانب من غيره من أهل الملل الشركية لأنه يجحد مخلوقيته نفسها وسبب وجوده من الأساس!

إنني أزعم في هذا الكتاب – كما سيرىٰ القارئ الكريم بحول الله وقوته – أن عدم (أو ضعف) التمييز بين القضايا الضرورية الفطرية (التي لا تُعرف اكتسابا أي من طريق النظر) والمعارف النظرية المكتسبة التي تعرف بالاستدلال النظري (أيا ما كان نوعه)، عند تطبيق أدوات النظر والاستنباط والاستقراء (سواء كانت منطقية فلسفية أو رياضية أو تجريبية)، هو تلك الآفة التي نبتت منها ثمرة علم الكلام الخبيث في أمتنا وسائر الأمم من قبلها، فزاد افتراق وتشعب أهل الملة علىٰ فِرق شتىٰ، كل واحدة منها تُكفر أختها، وتزعم أن مستندها فيما خالفت به غيرها هو ضرورة العقل وبداهته وما تقتضيه تلك الضرورة، تماما كما افترقت بسبب بضاعة الفلاسفة من مثل ذلك سائر أقوام الأنبياء والمرسلين من قبل، كما قال ﷺ «ما ضل قوم بعد هدىٰ كانوا عليه إلا أوتُوا الجدل»، والجدل المقصود هنا: الفلسفة والكلام علىٰ وجه الأولوية، والله أعلم!

فمن أين تنبع تلك الفتنة العقلية وما دافعها في نفوس أصحابها وكيف يزدان بها الباطل للمشركين سواء كانوا وثنيين أو كتابيين أو دهرية ملحدين؟ وما مردود ذلك الفقه الذي نتلمسه في هذا الكتاب لنفوس المشركين وأسباب إعراضهم أو مكابرتهم عن الحق الجلي الظاهر وإصرار أكثرهم علىٰ المراء والجدال فيه، وصور الهوىٰ المحض الذي تتفنن نفوسهم في خدمته، علىٰ فقه الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلىٰ أسلوب الجدال مع المشركين عموما والملحدين خصوصا؟ هذه الأسئلة وغيرها يلزمنا أن نتناولها في إطار بحث كهذا، سائلين المولىٰ عز وجل أن يوفقنا فيها إلىٰ الصواب بلا إفراط ولا تفريط.

هذا وقد يلمس القارئ في كلامي تكرارا في كثير من المواضع، إذ أعيد كتابة الفكرة نفسها بأكثر من أسلوب وبأكثر من صياغة، وإني لأرجو منه المعذرة من ذلك وألا يجد فيه إملالا. فإن كثيرا من القضايا التي يتناولها هذا الكتاب وغيره مما كتبت، فيها من الدقة ما يلجئ إلىٰ تكرار البيان والشرح والتوضيح المرة بعد المرة، مع ضرب الأمثال ما اتسع المقام. ولعلي أضع الفكرة في حاشية من الحواشي، ثم أترسل في البيان والتحرير فإذا بها تطول وتتوسع حتىٰ تجاوز الصفحتين والثلاث وربما أكثر من ذلك في بعض المواضع! فالحواشي عندي – سواء في هذا الكتاب أو في غيره – ليست مقصورة علىٰ أن تكون مجرد تعليقات عابرة أو تخريجات إضافية أو إشارات مرجعية أو عزوا أو إحالة أو نحو ذلك وحسب، بل في كثير من الأحيان يكون موضوع الحاشية أهم عندي من الموضع الذي حشّيت بها عليه، وإنما وضعتها ثمّ لأني لم أجد لها موضعا أنسب لتظهر فيه من متن الكتاب.

فالذي أرجوه من القارئ الكريم أن يصبر علىٰ ذلك كله، وأن يصبر حتىٰ يفرغ من قراءة مادة الكتاب بتمامها إن لم تتضح له مسألة من مسائله أو لم يظهر له وجهها لأول وهلة. فأنا أكتب هذا الشطر من المقدمة الآن وقد أتممت كتابة ما يقارب السبعمائة من صفحات الكتاب، ومع هذا فما زلت إلىٰ الآن متحيرا في اختيار عنوانه، وقد عدلته عدة مرات، بل أجدني كلما أفضت في الكتابة فيه لم أزدد إلا حيرة في اختيار العنوان اللائق

به (وهي حيرة يعرفها عامة الأكاديميين عند إعدادهم الرسائل العلمية وليست غريبة عليهم من جهة الأصل)! فمع أنه بالأساس كتاب في علم النفس وفلسفته وأصوله الكلية عند المسلمين، إلا أن فيه تناولا موسعا لقضايا أصولية وفلسفية ومعرفية دقيقة قد احترت في جمعها تحت عنوان فرعي واحد (لا سيما قضية نقض «علم الكلام» ومنهجه الكلي، في إطار التأصيل لفقه الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في ضوء فقه نفوس الدهريين خاصة والمشركين عامة)!

فالله تعالىٰ أسأل أن أكون قد وفقت في جمع أطراف تلك المباحث وسبكها في كيان واحد متناسق يقوم فرعه علىٰ أصله قياما صحيحا، وأن يجعله لي كفارة للذنوب وقربة إليه في يوم العرض عليه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

كتبه وأتم تحريره في شعبان من سنة أربعين وأربعمائة وألف من الهجرة

أبو الفداء حسام بن مسعود

غفر الله له ولوالديه والمسلمين

الباب الأول

دعوى التوحيد التي جاءت بها الرسل معلومة صحتها بداهة دون بحث أو نظر، ولا يماري في ذلك إلا جاحد متفلسف أو مفتون متكلم.

فصل: مدخل موجز إلى بيان طريقة القرآن في المحاجة ومخاطبة عقول المشركين

في هذا القسم نحرر بحول الله تعالىٰ وقوته مبحثا في أسلوب القرآن الكريم في محاجة المشركين ومخاطبة عقولهم، بغية بيان أن المنهج الرباني يقوم علىٰ ثلاث ركائز معرفية أساسية:

فأما الركيزة الأولىٰ فهي أن الأصول الكلية لما هو مغروس في فطرة الإنسان من معرفة بدهية ضرورية كحقيقة وجوب وجود الباري وحقيقة وجوب تنزيهه عن كل نقيصة، لا تحتاج إلىٰ برهان لإثباتها من بعد خفاء أو دليل لتعريف البشر بها من بعد جهل، وهو ما يجعل الإسماع والتذكير – بمجرده – بهذه الحقائق (أعني كمال صفات الباري جل وعلا) وبما تقتضيه من العاقل المكلف من قول وفعل واعتقاد، كافيا تمام الكفاية لإقامة الحجة الرسالية علىٰ من خالف عن ذلك.

وأما الركيزة الثانية فهي أن من يماري في تلك الحقائق الكلية أو يزعم خفاءها عليه أو اشتباهها بضدها أو افتقارها إلىٰ دليل خارجي عند سماعها من مصادر الوحي، فهو مكابر معاند لا محالة، تخادعه نفسه لتوهمه بصحة ما هو عليه من عقائد مصادمة لأوليات العقل نفسه.

وأما الركيزة الثالثة، فهي حقيقة أن الوعظ البليغ والترغيب والترهيب بما في الغيب، ومعالجة جانبي المحبة (التي هي سبب حصول الرغبة في النفس) والبغض (الذي هو سبب حصول الرهبة)، أو إن شئت فقل الميل والنفور أو الطمع والخوف، مع استعمال أسلوب الصدمة النفسية إن أمكن، هو الطريق الأحكم والأرجىٰ (كما جاء به القرآن) وهو الأصل في دعوة من جادل في تلك الكليات البدهية الأولىٰ أو فيما تقتضيه من مقتضيات مباشرة واضحة (عند رجحان المصلحة الشرعية من مخاطبته ابتداء)، وليس تكلف المناظرة الكلامية أو الجدل الفلسفي أو اللاهوتي أو نحو ذلك.

هذه الركائز الثلاث هي الأصول الكلية التي يقوم عليها جميع ما في هذا الكتاب من تأصيل وتحرير. وقد رأيت أنه من المهم للغاية أن ينتبه إليها طلبة العلم في زماننا عند تطرقهم للخطاب الدعوي الموجه إلىٰ المشركين (سواء كانوا كتابيين أو وثنيين أو ملحدين)، نظرا لما لمسته من تساهل خطير من كثير من المنتسبين إلىٰ الدعوة والعمل الدعوي في مسألة الحوار والمناقشة والمناظرة في هذا الباب، ومن تقليل من قيمة الوعظ والتذكير في دعوة أهل الملل وفي أداء «الحجة» ونصب «البرهان»، لاختلال مفهوم «العقل» و«الدليل العقلي» نفسه في هذا السياق كما سنفيض في بيانه بحول من الله وقوة، ولسوء تقدير ما يمكن أن يرجىٰ الخير - من حيث المبدأ - من جعله مادة للمناقشة والجدال فيما بين الداعي إلىٰ الله وبين المشرك، في مقابل ما لا يصح أن نوحي للمخالف ولو بالتعريض من بعيد بأنه مما يتطرق إليه الاحتمال أو تتنازعه الأدلة النظرية «العقلية»!

وأعني بهذا الضرورة إلىٰ التفريق بين القضايا الضرورية الظاهرة التي لا تحتاج من العاقل إلىٰ استدلال أو استيضاح، والقضايا النظرية الدقيقة التي لا تعرف إلا بعد استجماع ما يلزم من أدلة وقرائن وبراهين، ومن ثمّ التفريق بين من كان صادقا في ادعائه خفاء الحق واشتباهه عليه، ومن نزعم أنه من المحال أن يكون صادقا في دعواه الجهل أو اشتباه الحق بالباطل في نظره! إنه ذلك التفريق بين العلم الفطري والعلم المكتسب الذي زعم المتكلمون الأوائل أنهم قائلون به متمسكون به في جدالهم مع المخالفين، ثم لم يلبثوا أن نقضوه في أول ما سجله التاريخ من مناظراتهم مع الدهرية الذين زعموا أن العالم قديم، فساحت بهم عقولهم وانطمست معالم الحق بين أيديهم، وتكلفوا من التنظير ما يفتح من أبواب الاشتباه والغموض ما لا يعلم منتهاه إلا الله، وهم يحسبون - مع ذلك - أن اليقين واطمئنان القلب لحقائق الرسالة وكلياتها الكبرىٰ وزوال الريبة والشك لا يتأتىٰ للمصابين به إلا بتعلم ما بَدعُوه من براهين فلسفية (سميت فيما بعد بالكلامية)، والله المستعان لا رب سواه.

واسمع إن شئت قول الله تعالىٰ في بيان الغاية من إنزال القرآن في آيات محكمة تامة الإحكام والإيجاز، من أوائل النصوص التي خاطب بها رسول الله قومه في مستهل

الدعوة، يقول تعالىٰ: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى**﴾ [**طه**: ٢، ٣] فالقرآن ما نزل إلا لتحقيق التذكرة المشفوعة بمحركات النفس من حب ورجاء وخوف، بما يحمل المخاطبين حملا علىٰ اتباع الرسول. ما نزل القرآن ليفتح أبواب الجدال والسجال الطويل مع أقوام لا يريدون إلا التماس المخارج اللفظية والأعذار المزخرفة الساقطة لصدهم عن الحق بعدما تبين! وإنما نزل ليزلزل القلوب ويُذكرها بما هو مركوز في فطرتها من بطلان الشرك وشناعته، ومن ثم وجوب اتباع الرسول علىٰ ما جاء به من التوحيد الخالص. يقول تعالىٰ: ﴿**أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [**الرعد**: ١٩]، ويقول: ﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [**القصص**: ٥١]، ويقول واصفا حال أهل النار: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾ [**فاطر**: ٣٧]، وغير ذلك مما جاء في بيان أن التذكرة التي تحقق الخشية وتورث التقوىٰ والإيمان والتسليم، هي مقصود الله تعالىٰ من تنزيل القرآن وإرسال الرسل.

فالحقيقة التي يجب أن يدركها طلبة العلم لا سيما في هذا الزمان الذي كثر فيه اللغط واللغو والكلام والجدال في كل شيء، وكثر تعرض المسلمين للأنساق الفكرية الوافدة والفلسفات المادية المستوردة، وأصيب كثير من العامة والخاصة فيه بهوان النفس وقلة الحيلة بإزاء عمق وصعوبة وغزارة تلك المادة النظرية الوافدة، أن الذي يماري في وجود من صنعه وركّبه وصوره، أو يماري في حقيقة أن الشرك بالخالق الواحد الأحد يلزم من مطلقه – لزوما ظاهرا صريحا لا يخفىٰ علىٰ عاقل – رميه سبحانه وتعالىٰ بالنقائص ومساواته بخلقه، أو يزعم أن أدلة صحة دعوة التوحيد التي جاء بها المرسلون وسلامتها من التناقض، تخفىٰ عليه وتحتاج إلىٰ إثبات عقلي أو برهان نظري حتىٰ يقبلها (إجمالا)، هذا لم يكن من مقاصد التنزيل ولا من طريقة القرآن ولا من تمام الحجة الرسالية في أي أمة من الأمم التي خوطبت بالرسل والرسالات من قبل، أن يخاض معه في جدال أو نقاش أو حوار نظري حتىٰ يجاب إلىٰ ما يطلب، علىٰ ما يجري بين النظار من مقابلة الحجة بالحجة والدليل بالدليل والرد بالرد ونحو ذلك! مثل هذا

إنما يوصف – بلا تردد ولا توقف – بأنه صاحب نفس مريضة خبيثة تخادعه بغشاوات من الهوىٰ العظيم قد تراكم بعضها فوق بعض طبقات، مهما زعم أنه صادق في طلب الحق وأنه حريص علىٰ التوصل إلىٰ «معرفته»! فلا يغرنكم كذبه عليكم وقد عرفتم أنه يكذب علىٰ نفسه التي بين جنبيه ابتداءً!

فإن خوصم مثل هذا ونوقش علىٰ هذا النحو الذي نراه قد شاع في أوساط المسلمين وذاع وانتشر، فقد تحقق لنفسه المريضة مأربها – بمجرد ذلك – من إيهامه بمعقولية ما هو عليه من موقف نظري يطلب فيه «الدليل» الذي يكفي لنقله من التكذيب بما يزعم خفاءه عليه من حقائق نقطع نحن بأنها بدهية فطرية ضرورية لا خفاء فيها ولا اشتباه، أو يكفي علىٰ الأقل لإزاحته عن التوقف النظري المستساغ – بزعمه – في ذلك الأمر، إلىٰ الإقرار به والشهادة بصحته وقبول ما يقتضيه ذلك الإقرار من الدخول في دين الإسلام.

فكثير من المسلمين يظنون أن قول الله تعالىٰ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [**النحل**: ١٢٥]، وقوله تعالىٰ في أهل الكتاب: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤] يفتح الباب للداعية المسلم علىٰ أوسعه ليخوض مع المشركين (من أهل الكتاب وغيرهم) في كل جدال وفي كل نقاش وفي كل اعتراض يثيرونه وكل دعوىٰ يأتون بها أيا ما كان موضوعها، ما دام «المخالف» ملتزما في ذلك بـ «آداب الحوار المتحضر» ولا يشتم محاوره المسلم ولا يتجاوز في حقه!

وهذا ظن فاسد ولا شك، يرجع إلىٰ قلة الفقه والبعد في زمان الغربة الشديدة عن منهاج النبوة وآثار السلف الصالحين من الصحابة والتابعين وطريقتهم في مخاطبة المشركين من كل نحلة ودين. وسببه فيما يظهر لي، أن أكثر المسلمين في زماننا هذا قد تربوا منذ نعومة الأظفار علىٰ مبدأ الحوار الحر المفتوح بين الناس في كل مكان وفي كل مسألة ولكل أحد، بلا قيد إلا ما يرتضيه المتحاوران – كيفما كان حالهما – ويتفقان عليه فيما بينهما، كما تمليه النحلة الأخلاقية الليبرالية والديموقراطية الغالبة في أكثر

أقطار الأرض اليوم. فترىٰ المسلم العامي (ويدخل في حكمه المبتدئون في طلب العلم الشرعي وطلبة العلم الصغار) لا يمانع من مناقشة كل مخالف في كل دعوىٰ أو اعتراض يؤتىٰ به أيا ما كان موضوعه، معتقدا أنه ما دام قد تحقق لديه شيء من العلم، وتمكن من إلزام محاوره باحترام مقدسات المسلمين واجتناب البذاءة في الألفاظ والتطاول علىٰ الله تعالىٰ ورسوله، والتزم هو كذلك بقول الله تعالىٰ: ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١٠٨] فقد حقق شرط الجدال بالتي هي أحسن، وسلم له مجادله من أن يكون داخلا فيمن استثناهم الله تعالىٰ من مشروعية الجدال بقوله ﴿**إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾[1].

ينبغي أن يكون معلوما أن الأصل في الجدال والمراء (الذي هو بمعنىٰ مقارعة الحجة بالحجة بين مختلفين) المنع لا الإباحة، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾ [**الكهف**: ٥٤] فلو كان الأصل في الجدال أنه محمود، ما ذُمّ الإنسان لكونه أكثر المخلوقات وقوعا فيه. وقال تعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٥٨] وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم قال: «ما ضل قوم بعد هدىٰ إلا أوتوا الجدل»، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾. فالأصل في الجدال أنه سبب للزيغ والضلالة وإشباع أهواء النفس، إلا ما كان بالتي هي أحسن. ويقول تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ**﴾ [**هود**: ١١٨، ١١٩] فكانت الرحمة في حق الإنسان الفرد أن يسلم من كثير مما اختلف الناس فيه، لا أن ينهض بينهم بالمخالفة والمخاصمة في أكثر أمرهم، والرحمة في حق الجماعة من الناس أن يقلَّ الخلاف وما يترتب عليه من الجدال والمراء والملاحاة بينهم، لا أن يزيد ويتسع[2]. ويقول تعالىٰ: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**

(١) علما بأن الظلم هنا يقصد به ظلم أهل الكتاب في استكبارهم عن قبول الحق، فما بالك بمن هم أشد إغراقا في المكابرة والجحود، وأشد تكذيبا ببدهيات العقل الأولى؟

(٢) فيما يسميه الفلاسفة والمفكرون ومن شاكلهم تلبيسا بـ «إثراء النقاش»، مع أن حقه في أكثر الأحيان أن يقال له «الإزراء بالنقاش»، وإلى الله المشتكى!

وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [**الأنفال**: ٤٦] فالتنازع (الذي يبدأ بالجدال لا محالة) يفضي – من جهة الأصل – إلىٰ الفشل وذهاب الريح.

ولما ذهب النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم إلىٰ بيت فاطمة وعلي رضي الله عنهما يوقظهما لقيام الليل، طرق الباب عليهما وقال: «ألا تصليان» أي صلاة الليل فقال علي ﵁: «يا رسول الله إنما نفوسنا بيد الله يطلبها متىٰ شاء»، فرجع النبي عليه الصلاة والسلام وهو يضرب فخذيه ويقول: «وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً، وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً»، فتأمل كيف أنه ﵇ عدّ هذا الجواب من علي ﵁ جدلا مكروها، وانصرف من غير أن يرد أو يخوض في ذلك، ﵇. وما أسهل وما أقرب أن يجد الواحد منا نفسه محمولا مدفوعا علىٰ أن يرد علىٰ قولة كهذه فيقول – مثلا –: «أنا جئتك أدعوك إلىٰ قيام الليل فلا تحتج علي بإرادة الله! فالله ما أجبرك علىٰ أن تتخلف عن صلاة الليل وكان بوسعك أن تقوم لها في وقتها!» لكنه ﵇ ما تكلف شيئا من ذلك، وما زاد علىٰ أن نبه عليا ﵁ إلىٰ أنه أتىٰ شيئا مكروها إجمالا، قالها وهو ينصرف عنه حتىٰ لا يدع له فرصة للدفع عن نفسه فيزيد بذلك من الجدل!

وفي الحديث عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلىٰ الجنة لمن حسن خلقه» (رواه أبو داود في سننه)، فلولا أن كان الأصل في الجدال والمراء الكراهة (حتىٰ مع كون المجادل علىٰ الحق) ما ورد الترغيب في تركه بمثل ما ترىٰ! وفي الحديث المتفق عليه قوله ﵇: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»، فجعل مطلق الخلاف في القرآن من الشر والفتنة، وأمر بتغليق أبواب الجدال عليه ما أمكن ذلك.

فواقع الحال أن ثمرة الجدال وعاقبته علىٰ المختلفين المتماريين ومن حضر مراءهما غير مأمونة (من حيث الأصل)، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لا تمارِ أخاك؛ فإنَّ المراء لا تفهم حكمته، ولا تُؤمَن غائلته»! وتأمل كثيرا في قوله ﵁ وعن أبيه «لا تفهم حكمته» يريد كثرة دخول الإجمال والاشتباه عند المراء، وقوله «لا

تؤمن غائلته» يريد ما يحرك ذلك المراء في النفوس وما يفضي إليه من ثمرة قلبية علىٰ المتخاصمين، وهاتان القضيتان الكليتان أيها القارئ الكريم، هما ما خصصت الشطر الأعظم من هذا المجلد الذي بين يديك لبيانه، فلله درّ سلفنا ما أحكمهم وما أوجز عبارتهم وما أبعدهم عن تشقيق الكلام!

وعن أبي الدرداء ﵁ أنه قال: «كفىٰ بك إثما ألا تزال مماريا»، وروي عن الإمام مالك رحمه الله (ومثله عن الشافعي أيضا) قوله: «المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن». وقال بلال بن سعد: «إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته»! قلت: يقول هذا الكلام في مسائل يتصور فيها الرأي والرأي المخالف وتقلب الأنظار، فما بالك بقضايا ضرورية لا يصح في العقل إيراد الاعتراضات عليها أصلا؟ حتىٰ عند المخاصمة في موارد النظر والرأي، فما أقرب أن تفتح باب الرأي عند المناظرة – من حيث لا تقصد – فيما لا سعة فيه للخلاف، وأن تشجع أولي الأهواء من الحاضرين والسامعين علىٰ الانتصار لأهوائهم بكل زخرف لفظي فائق وبيان ساحر! فاستخراج الأهواء الخفية في مثل ذلك نراه واقعا ملموسا حتىٰ بين الأفاضل والمشايخ وطلبة العلم إلا من رحم ربي. فالجدال يفتح من مداخل الهوىٰ إلىٰ نفوس الناس ما يحار الحليم من تأمله!

وكثيرا ما تكون تلك المداخل أخفىٰ مما يتصوره أكثر الناس، وما ذاك إلا لأن للمغالبة والانتصار علىٰ المخالف (الذي لا انفكاك للمجادل عنه) شهوةً وحبا عظيما في نفس الإنسان، فتحرك النفس عند المخاصمة أهواء خفية لا يُنتبه إليها إلا قليلا، لا سيما حب الظهور والتفوق والعلو علىٰ الخصم، وحب مناصرة الأحباب والموالين، والانتصار علىٰ الكارهين الناقمين، فكثيرا ما ترىٰ الرجل يندفع بالرد والجواب والكلام والمخاصمة والمناظرة وهو يحسب أنه ينصر الحق ويقاوم الباطل، مع أنه في الحقيقة ما يتحرك إلا من هوىٰ خفي في نفسه لا يدركه، ولو أنه تحرىٰ الإخلاص قبل شروعه فيما شرع فيه من ذلك لربما تبين له أنه ليس ثمة مصلحة شرعية راجحة ترجىٰ من فتح جدال كهذا أصلا، لا مع ذاك الخصم ولا مع غيره، ولربما تبين له عند التأمل الصادق المتجرد أن الحق في قول مخالفه، أو أن القولين عنده متقاربان فلا يقف في أي منهما

علىٰ حسم ويقين، وهذا من قبل أن يبادر بمجادلة خصمه من الابتداء! ولو أنه قرأ حجج الخصم في سياق المطالعة المنفردة المتأنية، لا في سياق المخاصمة والمنازعة (لا سيما ما كان منها علىٰ العلن وفي ملأ من الأقران وتحت ضغط من ذلك كله)، لربما تسرب إلىٰ نفسه الشك في رأيه وخياره ولربما أعاد النظر فيه وراجعه متحريا الصواب، وهو ما يمتنع حصوله غالبا في سياق المناظرة والمراء! ولذا كان أكثر ضلال الناس وفساد دينهم ودنياهم من كثرة الجدل. وأنا في الحقيقة لا أذكر أن مر بي في يوم من الأيام جدال أو مناظرة بين اثنين من الناس (حتىٰ بين منتسبين إلىٰ طلب العلم) انتهت بنزول أحد الخصمين علىٰ رأي خصمه وقبوله منه، والله المستعان!

ولهذا ترىٰ النص القرآني لما جاء بتشريع مجادلة أهل الكتاب، جاء بالاستثناء لأنه علىٰ خلاف الأصل الذي قررته النصوص الأخرىٰ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٦] فجدالهم للدعوة أو لغير ذلك ممنوع من حيث الأصل، إلا أن يكون علىٰ الشرط المذكور. وهو شرط سنبين في هذا الكتاب بحول الله وقوته أن الناس قد توسعوا فيه توسعا كبيرا علىٰ أثر طرائق المتكلمين والفلاسفة في الجدال والمخاصمة، فأدخلوا فيه ما ليس منه. هذا يقال في أهل الكتاب مع أنهم أقرب أهل الملل إلىٰ أهل القبلة في الاعتقاد وفي الأصل الرسالي، فكيف بمن عداهم من أهل النحل والفلسفات الوضعية الوثنية والمادية؟ لا شك أن الأمر في حقهم أضيق وأذمّ!

فمن الجدال ما يكون مذموما من جهة الموضوع أو مادة الجدال نفسها، يدخل المخالف بمجرد المخاصمة عليه في حكم «**الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**»، ولا يوصف المسلم الذي يخوض معه في ذلك بأنه قد جادل «**بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**». ومن هذا الصنف ما يكون موضوعه المطالبة بإقامة برهان عقلي نظري لصحة مسألة معلومة صحتها بالضرورة والبداهة، بدعوىٰ أنه لا يمكن للمخالف (الذي جاء بتلك المطالبة) أن يسلم بصحة قول العقلاء في تلك المسألة حتىٰ يقوم ذلك الدليل لديه، مع أننا نقطع بأن العقل لا يقوم إلا بها وبما كان في منزلتها من الحقائق الضرورية بالأساس! فهذا مما قال الله

تعالىٰ فيه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، فمجادلة المشركين للمرسلين (كل أمة لرسولها) للانتصار لشركهم إنما توصف – من جهة الأصل – بالجدال الباطل الذي لا غاية منه عند صاحبه إلا أن يدحض الحق ويطفئ نوره الذي يزعجه وتضيق به نفسه! لماذا؟ لأنه لا يتصور في العقل السوي (السالم من الهوىٰ والميل الباطل) أن يسعىٰ إنسان في سبيل إثبات صحة ما هو عليه من اتخاذ الشريك أو الندّ أو المكافئ لخالق السماوات والأرض (سواء بالاعتقاد الباطن أو بالقول الصريح أو بالعمل التعبدي الظاهر)، ويطيل الجدال في ذلك ويصر عليه ويتمسك بموقفه فيه ويترسل فيه، إلا أن يكون مكذبا متخرصا معاندا، يجحد الحق الذي تنادي به فطرته في نفسه، ويسعىٰ في دحضه وإسكاته وهو يعلم. وهو ما قال الله فيه كذلك: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨] فأي عاقل سوي النفس هذا الذي يرفع تلك المخلوقات الناقصة التي يعبدها من دون خالقها ومصورها (وهي ناقصة مهما علا شأنها وعظمت منزلتها بين المخلوقين أمثالها)، إلىٰ منزلة المكافأة مع خالق السماوات والأرض وما بينهما، ويرىٰ اشتراكها معه في شيء مما يختص به الباري من الصفات وما تقتضيه تلك الصفات من أفعال التعبد والتأليه، أو يزعم أنه مع تأليهه وعبادته ما عبد من دون الله، لا يعد فعله ذاك في مجرده إشراكا بالله، من جنس ما جاءت رسل الله بالنهي عنه والنذارة منه؟ أي عاقل هذا الذي يشتبه عليه خلق الله بخلق المخلوقين من بشر وغيرهم، فضلا عن أن يشتبه عليه الذي يخلق وينفع ويضر بالذي لا يخلق ولا ينفع ولا يضر؟ المجادل عن مثل هذا، ما يريد إلا الجدل والخصومة الكلامية والفلسفية يقينا! هي في نفسها بغيته، وهي مغنمه الذي يطمع في استدراج العقلاء إليه حتىٰ يوحي لنفسه ولغيره من الناس أنه علىٰ شيء ذي بال، يتسع العقل لاعتناقه والانتصار له!

تأمل حين جادلت متكلمة قريش في تسويغ شركهم والانتصار له بما يعدونه برهانا نظريا، بأي شيء رد عليهم رب العالمين! قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا

مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فأبىٰ سبحانه أن يختم الآية حتىٰ يصف هؤلاء المتكلمين بما هم أهله، أنهم كذبة كفار، لا يهديهم جل وعلا ولا يشرح صدورهم للحق، بل سيعاملهم يوم القيامة بما استحقوه لتلك الحالة! هذا هو المقصود من الحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، أن يقضي فيهم بما استحقوه علىٰ تلك المشارب والنحل التي تفرقوا عليها من بعد ما قامت عليهم الحجة الرسالية، لا أنه سيناظرهم يوم القيامة ويرد عليهم الدليل النظري بمثله، أو يعذرهم لقلة فهمهم واشتباه الأمر عليهم، كما قد يتوهمه بعض الجهلاء!

من جئته بقولك «اتق الله في نفسك ولا تدع ميتا من دون الله، تقول له (مدد يا فلان!) (مثلا)، هذا شرك في العبادة واضح لا يخفىٰ، فاتركه وتب إلىٰ الله»، فسمعته يجادل ويماري بأي وجه من وجوه الجدل، كأن يدعي أن هذا ليس شركا لأنه يطلب من المقبور أن يشفع له عند الله، أو نحو ذلك مما يتذرعون به كتلك الذريعة التي حكاها الله تعالىٰ من كلام متفلسفة قريش، فهذا ممن قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾! هو كاذب قطعا وبنص القرآن، يكذب علىٰ نفسه قبل غيره! ولو أنه نظر في نفسه بتجرد وصدق لأدرك أنه لا فرق بين ظاهر القول وباطنه في ذلك، وأن نفسه تحركه في كل مرة يأتي دعاء كهذا لأن يمحض الرجاء والتذلل لمن تعلق بدعائه وهو يزعم أنه قد اتخذه وسيلة إلىٰ رب العالمين! فالمشرك الذي يدعو من دون الله شيئا من خلقه علىٰ هذا النحو، إن رأيته يجادل وينازع منتصرا لصنيعه بالدليل النظري أو الكلامي أو اللاهوتي أو نحوه، فاعلم أن نفسه تزخرف له المخارج والذرائع التي لو تجرد من دوافع الهوىٰ لأدرك وهاءها الظاهر!

ويقول تعالىٰ: ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ**﴾ [**غافر**: ٤]. فالمقصود بالآيات ها هنا كل ما لا يبقىٰ لمن سمعه أو أبصره عذر إن بقي علىٰ صده وإعراضه عن الحق! فإذا جاءت دعوة الرسول وطابقت ما هو مركوز في نفوس الناس من الفطرة والبداهة العقلية (كقول إبراهيم لآزر فيما وصفه الله بالحجة

رفيعة الدرجة: ﴿**أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [**الأنعام**: ٧٤][(١)]، ثم رأيتهم بعد ذلك يمارون في تلك الآيات البينات التي جاءهم بها (سواء كانت مسموعة أو منظورة)، فاعلم أنهم لا خير فيهم.

ويسوق ابن كثير رحمه الله عند تفسير آية الزخرف ﴿**وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٥٨] رواية في السير عن محمد ابن إسحاق، قال: «قال وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتىٰ جلس معهم وفي المجلس غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتىٰ أفحمه ثم تلا عليه وعليهم ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٩٨] الآيات. ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرىٰ التميمي حتىٰ جلس فقال: أما والله لو وجدته لخصمته سلوا محمدا أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا والنصارىٰ تعبد المسيح عيسىٰ ابن مريم! فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرىٰ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» فأنزل الله عز وجل ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ١٠١]، أي عيسىٰ وعزير ومن عبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا علىٰ طاعة الله عز وجل فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله» اهـ.

ومع هذا ترىٰ كثيرا من الباحثين في علم الجدل يزعمون أن قوله تعالىٰ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [**النحل**: ١٢] يؤخذ

(١) ووجه كون هذه الكلمة من إبراهيم عليه السلام حجة دامغة كافية في نفسها لا تحتاج إلى دليل خارجي لإثباتها، ولا تستند إلى مقدمات كلية ينبغي أن يصوغها ويظهرها النبي من قبل تلك الكلمة حتى يؤسسها عليها، أنه من المحال أن تكون الأصنام التي نحتها الإنسان بيديه أحق من خالق الإنسان والحجر والشجر وكل شيء بأن تتخذ آلهة تعبد من دونه! هذا معنى واضح شديد الوضوح لا يحتاج إلى توضيح أو إلى مقدمات منطقية يؤسس عليها! لذا قال تعالى في تلك العبارة من إبراهيم عليه السلام وفيما تأسس عليها من وعظ وتخويف في كلامه: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [**الأنعام**: ٨٣].

منه أن من لم تردعه الموعظة الحسنة ولم تنفع معه، انتقلنا معه إلىٰ «المجادلة» (أي المناظرة)، علىٰ أساس أن عطف المجادلة علىٰ الموعظة في الآية من عطف المتباينين، وهذا التفريق من تأثير طريقة المتكلمين في الحقيقة، ولا دليل عليه في كلام العرب، وإنما ظهر في المسلمين بعدما وضع المتكلمون قواعد الجدل علىٰ مفهومه ومفهوم الدليل والبرهان عندهم. وقد تأثر المتكلمون في ذلك بفلاسفة اليونان (لا سيما أفلاطون وسقراط ومن تابعهما)، الذين كانوا يعدون الوعظ (أو بعبارة أدق: الخطابة أو فن البيان) Rhetoric وسيلة من وسائل السوفسطائيين للتلاعب بمشاعر العامة والجهلاء لإقناعهم بما يريدون من تعاليم أخلاقية ودعاوىٰ ميتافزيقية ونحوها من غير دليل أو برهان.

فأصبح لدىٰ المسلمين - علىٰ أثر ذلك - وإلىٰ يومنا هذا تفريق عملي بين الخطاب المنطقي الجدلي من جانب (الذي اصطلحوا علىٰ تسميته بـ«الحِجاج العقلي»)، والخطاب الوعظي البلاغي من الجانب الآخر (الذي هو عندهم أقرب إلىٰ السحر النفسي منه إلىٰ المحاججة). وهو تفريق لا يأتي تبعا للنظر في مادة الخطاب نفسها ابتداءً والغاية منه، ولا تبعا للنظر في أحوال نفوس المخاطبين وما تطمع فيه تلك النفوس وما يصلحها وما يفسدها، وإنما يأتي تبعا لشرط الفيلسوف المماري المكابر نفسه فيما يعد عنده حجاجا عقليا وما لا يعد كذلك! فالذي يأتيهم مجادلا بأساليب الفلاسفة بما يبدو منه أن له في تلك الصنعة سهما، صدروا له من يجادله بالفلسفة علىٰ طريقة النظار والمتكلمين بعيدا عن الوعظ بالترغيب والترهيب (لأنهم يكرهونه علىٰ شرطهم ولا يرونه شيئا)، وأصبح التطرق إلىٰ الموعظة مع مثل هذا مسلكا مذموما مرفوضا عندهم إجمالا، لماذا؟ لأنه هو - أي ذلك المخالف المجادل - يراه مذموما ولا يناسب الخطاب «المنطقي النظري» (أو العقلي باصطلاح المتكلمين) القائم علىٰ تبادل الأدلة والبراهين والأخذ والرد فيها! ونحن نقول إن من وافق علىٰ ذلك التفريق المتعسف وسلم بصحته فقد لزمه القول بأن ما جاء في القرآن من موعظة وتخويف (بل زجر شديد أحيانا) في مقام الجدل والمحاججة مع المشركين، مذموم كله، إذ لا يليق بالعقلاء ولا يقوم بالمطلوب (عقلا)، فلينتبه إلىٰ هذا.

ينبغي أن يكون معلوما – كما سنبسط القول ببيانه في هذا المجلد بعون الله تعالىٰ – أن الذهن وما يعتمل فيه من عمليات الإدراك والتأمل والتحليل «المنطقي» ليس منفصلا واقعيا عما يجري في باطن النفس من محبة وبغض، وما فيها من ميول ورغبات وشهوات ودوافع فردية محضة، ومن ثم فلا يصح الفصل أو اشتراط الفصل بين الجانبين في ثنائية نظرية وعملية صارمة Strict Dichotomy عند تحرير الخطاب المعرفي، وعند الكلام عن المحاججة العقلية إجمالا، بدعوىٰ «الموضوعية الأكاديمية» و«التحليل المنطقي المجرد» ونحو ذلك. فالمنطق النظري والميل الشعوري لا ينفصلان إلا في دوائر التنظير المعرفي عند تناول الباحثين لكل منهما تحليلا ودرسا، جريا علىٰ المنهج النظري السائد في ذلك Prevailing paradigm، الذي تفترق فيه النظاميات الأكاديمية Academic Disciplines تخصصا وتدريسا، وإلا فهما قرينان في العقل البشري لا ينفصلان، ولا تنفك عملية الفكر في نفس الإنسان عن الجمع بينهما، مهما زعم بعضهم خلاف ذلك!

ومعلوم أن علماء الإنسانيات علىٰ وجه الخصوص قد اضطروا بعد عقود من الجدال فيما بينهم إلىٰ الاعتراف بهذه الحقيقة عند دراستهم آليات تراكم المعرفة البشرية نفسها، ولا يماري منهم أحد اليوم في أن البحث السوسيولوجي ونحوه لا يمكن بحال من الأحوال أن يجريه أحد الباحثين المتخصصين في تلك العلوم في أي مسألة من المسائل وهو متجرد تمام التجرد من ميوله الفردية وشهواته ومطامعه الشخصية، ومن غير ذلك من المدخلات النفسية والاجتماعية العارضة التي تؤثر لا محالة في تفكير الباحث بصورة ما أو بأخرىٰ، وتؤثر في تصميمه لآلة البحث الميداني والتجريبي، وفي ترجيحه واختياره وتعامله مع ما بين يديه من الأدلة النظرية. فمسألة الفردية في التنظير العلمي Subjectivity لم تعد توضع في نفس القالب التسفيهي الحاد الذي وضعتها فيه الفلسفات «التنويرية» في أوروبا قبل قرون مضت وما عاد أحدهم يجرؤ علىٰ ذلك! وخير شاهد علىٰ هذا، اعتماد المنهج النوعي في البحث الإنساني Qualitative research في الأكاديميات المعاصرة علىٰ أنه منهج علمي صحيح معتبر في البحث الاجتماعي، بل واعتماد المدخل الفردي المحض في تحليل الواقع الاجتماعي، فيما يقال له Phenomenology.

ولا شك أن كل نظام أكاديمي Discipline تخلو ممارسة أصحابه من معيارية أخلاقية محكمة منزلة من وحي السماء، فالباب فيه مفتوح علىٰ مصراعيه لا محالة لارتكاب مطايا الهوىٰ واختراع الأدلة الزائفة من كل صنف ولون. ولكن بعيدا عن الاستطراد، فالقصد أن هذا التفريق النوعي في أسلوب المحاججة والدعوة إلىٰ الحق، تفريق فلسفي يوناني باطل قد أورث المعرفة البشرية بمجملها كثيرا من الفساد. وكثيرا ما ترىٰ في أوساطنا الأكاديمية معاشر المسلمين من يكره حتىٰ أن يتكلم الباحث عن نفسه في تحريره متن البحث بصيغة المتكلم (أنا أرىٰ كذا، أنا وجدتُ كذا، ظهر لي كذا .. الخ)، وهم يتوهمون أن هذا الاجتناب أرجىٰ لتحقيق «الموضوعية» وأليق بالبحث الأكاديمي الصارم! وهذا وهم لا حقيقة له إلا في أذهانهم، وإفراط لا تجده اليوم مشروطا في أي جهة من جهات النشر الأكاديمي العالمي أصلا، وإنما هو قالب من القوالب الموروثة التي يتوارثها كثير من الأكاديميين في بلادنا كما هي من غير تدبر ولا تأمل.

ولست أعني بالوهم توهمهم أن اجتناب صيغة المتكلم عند الكتابة يحقق الموضوعية التامة وانفصال الذات عن الخطاب العلمي فحسب، بل أعني فكرة «تحقق الموضوعية التامة» هذه في نفسها من الأساس. ماذا يقصدون بـ«الموضوعية» وما مفهومها عندهم؟ هل الموضوعية أن ينقل الباحث فكره واجتهاده للمتلقي فيتكلم وكأنه ليس هو صاحبه، فيحجم عن الإشارة إلىٰ نفسه مخافة أن يؤثر علىٰ قناعات القارئ من مجرد ذلك؟ أبدا! إن كان المقصود بالموضوعية حماية البحث العلمي من أهواء الباحثين وميولهم التي قد تشوش علىٰ الاستدلال النظري في أعمالهم وتحرف مساره، فنحن نقطع بأن هذا الفصل المتكلف بين القول والقائل عند تحرير البحث وكتابته، لا يقي الباحث من خطر اتباع الهوىٰ في تحرير القول والانتصار له أثناء العمل البحثي نفسه، بل لا تلازم بين القضيتين أصلا، لا طردا ولا عكسا! فما من كاتب أو باحث أو منظِّر إلا وهو يقدم للقراء خلاصة عقله وعصارة فكره هو وتنظيره هو بالضرورة، لا عقل غيره ولا فهم غيره، حتىٰ في تناوله لما ينقل من أقوال غيره من الباحثين وفي فهمه لها واستعماله إياها في عمله. وهذا أمر بدهي معروف. فأي شيء إذن يقصدون بـ«الموضوعية»؟

نقول إن الصواب الذي يجب أن يشترَط في الباحث العلمي، هو الاستعداد التام للتحرك مع الدليل حيثما ذهب، وألا يقع تدليس في عرض الأدلة أو كتمان لها أو تحريف فيها أو تلاعب بها أو نحو ذلك، وأن يقدر كل دليل منها بقدره الصحيح عند الموازنة، دون اقتراف المغالطات ونحوها من صور الاستدلال الزائف التي يسهل علىٰ النقاد استخراجها. فلو كان النظر العقلي عملية ميكانيكية صرفة، تجري علىٰ الطريقة التحليلية المنطقية في عقول البشر ونفوسهم، فما وجه تخوف العلماء والباحثين من تسرب الهوىٰ إلىٰ العمل البحثي نفسه وتلويثه مصادر التلقي المعرفي نفسها عند أصحاب الصناعات العلمية؟ ليست عملية التفكير العلمي والنظر العقلي علىٰ هذه الصفة الميكانيكية الساذجة التي تصورها فلاسفة اليونان ومناطقتهم وتابعهم عليها المتكلمون الأوائل! وانظر إن شئت في نظريات علم نفس الاقتصاد المعاصرة وما انتهوا إليه من تعريف العامل الاقتصادي Economic Agent علىٰ أنه كائن «لاعقلاني» Irrational من حيث الأصل! فإن كنا نتكلم عن «الهوىٰ» وعن «التجرد من الهوىٰ» من جهة أنه طريق لتحقيق الموضوعية المأمولة في بناء المعارف البشرية، فهذه أحوال نفسية باطنية صرفة كما لا يخفىٰ، يحتاج تحقيقها عند الباحث إلىٰ معالجة جوانب من نفسه لا ترتبط بنوع الدليل أو قوته أو رتبته المنطقية بقدر ما ترتبط بأحوال النفس من محبة وبغض وميل قلبي باطن.

لذا لا ينبغي لنا ولا يستقيم أن نمنع من مخاطبة تلك الجوانب النفسية والاجتماعية في سياق الجدال والتصنيف الأكاديمي إذا ما دعت الحاجة والمصلحة إلىٰ ذلك! فالباحث إن قدم حجته النظرية (في محلات النظر من المسائل العلمية) تقديما جيدا وأسس لها بالحجة والبرهان، وقدر منازل الأدلة والبراهين تقديرا صحيحا، فلا تثريب عليه إن تكلم بصيغة المتكلم وذكر شيئا عن نفسه بما تدعو إليه المصلحة، بل ولا أرىٰ مانعا من أن يبالغ في الانتصار الخطابي والبياني لاختياره في المسألة وفي التهوين من مذهب المخالف في المقابل، يريد بذلك إقناع القارئ بقوة ما ذهب إليه وفساد ما عليه المخالفون، ما دام قد استوفي من عرض الأدلة ما يسوغ به موقفه!

فإنما العبرة في ذلك الجانب (الذي تخاطب فيه العاطفة والهوىٰ والميل القلبي) بظهور الدليل، هل يظهر ظهورا يستدعي التشنيع علىٰ من خالف فيه أم لا؟ وكذلك – وهو الأهم – مدىٰ خطورة المسألة نفسها التي يتكلم فيها الباحث، لا بدرجة تأهل المخاطبين بالنص في القضايا العقلية والنظرية (هل هم عامة فيناسبهم الزيادة من الوعظ الخطابي والزخرف اللفظي ونحو ذلك، أم هم باحثون أكاديميون لا يليق بهم إلا العرض المنطقي المجرد للأدلة)! فإن الإنسان سواء كان أكاديميا متخصصا أو كان عاميا جاهلا فإن نفسه ودوافعه تتحرك تبعا لعوامل كثيرة لا عبرة في أكثرها بمقدار العلم أو حدة الذكاء أو درجة الدليل كما سنزيده بيانا ونمثل عليه في هذا الكتاب. فمن أراد أن يرشد تلك النفس إلىٰ الحق ويدفعها عما يهلكها دفعا، فلا يصح له بحال من الأحوال أن يجتنب تلك العوامل النفسية عند مخاطبتها بدعوىٰ أن الخطاب الأكاديمي «لا يليق» أن يكون خطابيا وعظيا. فتماما كما لا يصح أن يخاطب العامي خطابا وعظيا مجردا من الدلالة بما يناسب حاله، فلا يصح أن يُقتصر في مخاطبة الخواص علىٰ إيراد الأدلة وحسب، حتىٰ وإن كان المخالف منهم ينازع فيما لا يستساغ فيه النزاع!

فمن زعم أن المشتغلين بصنعة من الصناعات الأكاديمية في سياق مباحثتهم المسائل فيما بينهم، لا يحتاجون إلىٰ الخطاب الوعظي (أو النفسي بعبارة أعم) في كثير من المواضع في إطار ما يكتبون وما ينشرون وما يخاطب به بعضهم بعضا، فقد زعم لهم عقولا غير عقول البشر، ونفوسا لا تعمل كما تعمل نفوس بني آدم، وتناقض في زعمه أنه يريد دلالة القارئ إلىٰ الصواب، وإن كان ذلك القارئ ندا أو مكافئا له في الدرجة الأكاديمية.

وقد أشرنا إلىٰ أن درجة خطورة القضية محل البحث (أو بالأحرىٰ: خطورة التعلق بالقول الباطل فيها) لا بد وأن يكون لها أثرها علىٰ أسلوب الخطاب الذي يتناولها به الباحث. ولذلك فمن غير المستغرب أن يكون ظهور ذلك الأثر في سياق البحث الديني الشرعي كما لا يكون في غيره من مجالات البحث العلمي الأكاديمي، لأن الباحث فيه موقِّع عن رب العالمين، ولأن موضوع البحث نفسه ومادته ما بين أن تكون اجتهادا

يؤجر صاحبه سواء أصاب أو أخطأ، وبين أن تكون بدعة ضلالة يؤجر فيها الباحث لبيان الحق ودحض الباطل فيها، أو يحمل وزر نفسه ووزر من تابعوه علىٰ كلامه فيها من غير أن ينقص ذلك من أوزارهم شيئا! فلا ينبغي أن يطالب باحث شرعي في سياق التأليف الأكاديمي عند دراسته قضية من القضايا الخطيرة التي تضرب في أركان الدين وأصوله الكبرىٰ، وأجمع المسلمون علىٰ ضلالة وزيغ من خالف فيها، كقضايا العقيدة والمنهج التي هي فرقان بين السنة وأهلها والبدعة وأهلها، بين الفرقة الناجية والفرق النارية، بأن يتناول كلام ذلك المخالف فيها تناوله للمسائل الاجتهادية النظرية التي يستساغ فيها الخلاف!

ولذلك لا يستقيم ولا يصح ما يتكلفه كثير من المتكلمين من تفريق محدث بين «القول» و«القائل» (بهذا الإطلاق)، يريدون ما معناه أننا مهما أنكرنا القول علىٰ قائله ومهما كان فاسدا في اعتقادنا، فلا يصح أن نجعل ذلك الاستنكار سببا في الحطّ علىٰ صاحب القول والتنقص منه، أو حتىٰ لاتهامه بالهوىٰ ورميه بالزيغ! هذه الفلسفة الجهمية الإرجائية في النظر في أحوال الرجال عند ثبوت المخالفة (التي تشعب عنها اليوم فرع سماه بعض المعاصرين ببدعة «الموازنات»)، منبتها ذلك التفريق الأكاديمي المتكلف عند الفلاسفة (وكان المتكلمون تبعا لهم فيه، علىٰ تفاوت بين فرقهم وطوائفهم)، بين الموقف النظري الظاهر (الذي استوت فيه عند الفلاسفة سائر المسائل المعرفية، إذ كلها عندهم - من حيث أنهم أهل صناعة بحثية - مفتوحة للنظر المنطقي والجدال والخلاف العقلي!) والأحوال النفسية الباطنة!

فلا قول عند الفلاسفة يلزم من مجرد إظهاره - دع عنك المجادلة عنه والانتصار له - ثبوت الهوىٰ أو المرض في نفس قائله، ولا قول عند الفلاسفة يوصف صاحبه بأنه «ضال» أو «زائغ» أو «منحرف»، يتعين الحكم عليه (أخلاقيا) بالمحاصرة والبتر حتىٰ لا يفشو خطره وفساده بين العقلاء! فكل الطرق والمذاهب عندهم مستساغة وجميع الأقوال عندهم لها حظ من النظر، وكلها تستحق أن يُستمع لصاحبها وأن يسمح له بعرض «أدلته» فيها حتىٰ يرد عليها بمثلها (وجوبا)! هذه هي طبيعة صنعة الفلسفة التي

استحق أصحابها من أجلها أشدّ الذم (كأهل صنعة بحثية تنظيرية متخصصة) كما سيأتي بيانه في أقسام لاحقة من هذا الكتاب!

فالحق الذي لا شك فيه ولا ينبغي أن يخالف فيه مسلم عاقل، أن مسائل العلوم علىٰ درجات ومراتب، وأن المعلوم منه الضروري ومنه المكتسب. وأن المكتسب منه ما هو معلوم من الدين بالضرورة يكفر من خالف فيه، ومنه ما هو قطعي يحتمل الخفاء علىٰ العامي الجاهل ومنها ما هو ظني تتوارده الأدلة ويتصور فيه الخلاف بين الخاصة والعلماء، وما هو اجتهادي صرف لا دليل فيه إلا بإعمال كليات الشريعة! فمن خالف في الظاهر الجلي القطعي فهو مكابر بالضرورة، يستحق أن يتهم ويذم ويحذر منه العامة حتىٰ لا يغتروا به، ويجب أن يوجه إليه الخطاب بما يليق بحاله، إن اقتضت المصلحة الشرعية مخاطبته! أما من خالف فيما تتجاذبه أطراف الأدلة ويتصور فيه تقلب الأنظار، فلا يشنع عليه عند الرد أو المباحثة، إذ لا يلزم من مجرد مخالفته أن يكون من أهل الأهواء المكابرين المماحكين، يكذب عند زعمه أن دليل خصمه لا يظهر له! بل إن كان معلوما من حاله حسن السيرة وسلامة المنهج (إجمالا) فالواجب إحسان الظن به والتماس المعاذير.

هذا الخلل في التعامل مع مفهوم المسألة النظرية وحدّ النظر ومفهوم الدليل العقلي وتصور العملية العقلية الإدراكية نفسها، إنما هو من أثر طريقة المتكلمين في الجدال، التي ورثوها من قبل عن فلاسفة اليونان، الذين صيروا القطعيات والبدهيات الفطرية الكبرىٰ التي يقوم عليها ديننا إلىٰ نظريات جدلية يؤخذ فيها ويرد علىٰ طريقة النظار (ثم راح يكفّر بعضهم بعضا عليها، ويا للتناقض!)، بل ويذم «المقلد» فيها (بزعمهم أنه يكون مقلدا)!

أما نحن فنقول يجب أن يظهر في كلام الباحث الشرعي في تلك القضايا فرقان واضح لا لبس فيه بين الحق والباطل، وأن يقع فيه من الوعظ والزجر لذلك المخالف (مع ما يقدمه من الأدلة الشرعية) ما يتحقق به المقصود الشرعي من البحث. فالمقصود هنا لا يكون هو «البحث» في نفسه، ولا طريقة الباحث الأكاديمية في التحليل والنظر،

وإنما المقصود بيان الحق القطعي الضروري وإيصاله للمخاطب أيا من كان ذلك. فإن كان المخالف ينازع فيما لا يُتصور فيه نزاع إلا من صاحب هوىٰ يعميه عن الإقرار بما أجمع عليه عقلاء المسلمين، فلا يخاطب هذا مخاطبة الندّ والنظير الذي له في موقفه سعة، مهما علت منزلته العلمية بين أقرانه[1]. ولا يصح أن يصبح همّ المشرف الأكاديمي علىٰ رسالة بحثية كهذه أن يرىٰ مهارة الطالب في الانتصار النظري علىٰ ذلك الخصم، إذ المسألة نفسها لا ينبغي أن تُجعل من محلات النظر ابتداء!

بل لا ينبغي أن يسمىٰ مصنف كهذا «بحثا» أصلا، لأن المسألة ليست مطروحة للنظر و«البحث عن الحق فيها» إذا كانت هذه منزلتها عندنا. فإن كنتُ أصنف مصنفي هذا في إطار تخصص أكاديمي يجمعني الاشتغال به ببعض أهل البدع المخالفين لأهل السنة في أصول المنهج والاعتقاد، وعمدت إلىٰ مخاطبة بعضهم بالحق في بعض مسائل ذلك الخلاف، فلا يصح أن أخاطبه كما أخاطب باحثا سنيا سلفيا قد وقع – في تقديري – في خطأ من أخطاء الاجتهاد النظري! ولو فعلتُ لكنت غاشا له بذلك، إذ أوهمه بأن قيمة المسألة وخطورة النزاع فيها عندي علىٰ خلاف ما هي عليه في الحقيقة، مع أني أزعم أني أريد الوصول معه إلىٰ الحق فيها (بمقتضىٰ وصفها بأنها «بحث نظري» ووضعها في القالب الأكاديمي المعتاد للتصانيف النظرية)، وهذا من التناقض كما ترىٰ!

فإذا كان ذلك كذلك في المسائل المعلومة من الدين بالضرورة التي لا تُعرَف إلا اكتسابا، فكيف بمسائل نحن نقطع بأن الفطرة لا متسع فيها للقول المخالف أصلا، كقضايا وجود الباري ووجوب توحيده وإفراده بالربوبية والألوهية وكمال الأسماء

---

(١) وقد أبدى أحد أقربائي من الأطباء الأكاديميين ذات يوم امتعاضه مما وجد في بحث شرعي وقف عليه في مكتبتي ذات يوم (وكان أطروحة لرسالة دكتوراة لأحد الباحثين في نقد بعض عقائد اليهود والنصارى وبيان عوارها) من نزعة خطابية ولهجة شديدة في النكير والتبكيت من جانب الباحث، وقال إن ذلك مخالف لعرف البحث الأكاديمي ولا ينبغي أن يخرج البحث مكتوبا بهذه اللغة، فعجبت من ذلك جدا، وقلت: فلماذا يتكلف الرجل أن يكتب شيئا في موضوع كهذا أصلا، إن لم يكن يريد أن يحذر القارئ المسلم من خطورة تلك الطوام التي يعتقدها هؤلاء، التي قال الله تعالى في بعضها: ﴿**لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا** ﴿٨٩﴾ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا** ﴿٩٠﴾ **أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**﴾ [مريم: ٨٩ – ٩١]؟ سبحان الله! ألهذا الحدّ تُعمي «العصبيات الأكاديمية» أبصار بعض الناس؟

والصفات؟ كيف بمسائل يجب أن نقطع بأن من خالف ونازع فيها أتباع المرسلين فإنما يتبع هواه لا محالة، وأن من طالبهم فيها بالدليل النظري أو القياسي عليها فقد كذب علىٰ نفسه قطعا ويقينا؟ هذا هو مربط الفرس.

لهذا جاء القرآن مشحونا بالموعظة والترغيب والترهيب، وتبكيت المشركين بنحو قوله تعالىٰ ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ**﴾، ﴿**أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ .. الخ، بما تتحقق به الغاية من إقامة الحجة والبرهان العقلي علىٰ المخاطبين به بعيدا عن الجدل البيزنطي وتكلف النظر في البدهيات، وأكرر: البرهان «العقلي» وإن رغمت أنوف الفلاسفة! فهو وعظ يجذب النفس (أو يصدمها) للتسليم بالحق الفطري البدهي أولا، الذي عرفت صحته في باطنها وشهدت به علىٰ نفسها في عالم الذرّ، ثم يأتي بتأسيس الخبر المعرفي الغيبي والتكليف الشرعي علىٰ ذلك تبعا. فمن غير التسليم بالحق البدهي (ألا وهو القول بصحة التوحيد وبفساد الشرك في مقابله)، فلا قيام لشيء من أمر الدين ولا قبول لشيء من بضاعة المرسلين. والتسليم بصحة ذلك الأصل العقلي الكلي الذي جاء به المرسلون وعرفت نفوس البشر صحته بالبداهة، لا يمتنع عند الإنسان من خفاء الدليل المنطقي أو النظري عليه (الكلامي أو النظري أو العلمي أو القياسي، حسيا تجريبيا كان أو منطقيا)، ولكن من مرض في تلك النفس بالضرورة، فلا يصح أن تخاطب إلا بالوعظ البليغ أو التحدي الصادم والتعجيز الفاضح أو نحو ذلك مما تكلم به المرسلون، عسىٰ أن يتبصر صاحبها بموضع العلة والخلل فيها!

وفي الأثر عن ابن إسحاق فيما مر بك، لم يكن كلام النبي مع مشركي قريش من جنس البراهين الكلامية والفلسفية لإثبات شيء مما ثبت في بداهة العقول من أن الرب الباري لا يصح أن تشرَك معه مخلوقاته في العبادة والتأليه! ولو وقع ذلك منه عليه السلام في شيء من خطابه لتوافر الصحابة علىٰ نقله عنه ﷺ، ولكنه ما وقع! ولا يفهم مثل هذا من قول الراوي «فكلمه رسول الله ﷺ حتىٰ أفحمه». فالذي يظهر أن الإفحام هنا (إن صح هذا الأثر) إنما هو بمعنىٰ تقرير الحق المنزل في جواب أسئلة المشرك واعتراضاته مع بيان أن تلك الاعتراضات لا أساس لها، مع الاقتصار علىٰ القدر الذي يتحقق به ذلك الغرض بلا مراء ودون تكلف توضيح الواضحات علىٰ طريقة المتكلمين مع

خصومهم من الفلاسفة. ولهذا لما أتم الرسول ﷺ ذلك الجدال في مجلسه معهم، ختم كلامه بآيات زجر وتخويف صريح ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ الآيات! فهل يُتصور أن تورد آية شديدة كهذه علىٰ المخالف عند قطع الجدال معه، لو كان ذلك الجدال علىٰ مفهوم المتكلمين للمناظرات الجدلية؟ أبدا! إنما هو أشبه أن يكون قد ظهر له ﷺ جحود خصمه في ذاك المجلس ولجاجته وجداله العقيم وإصراره علىٰ دفع الحق الواضح ولي اللسان والتفلسف ومخالفة البداهة، فقطع الطريق عليه بالوعيد والتهديد بعدما بين الحق بما لا مزيد عليه ولا تكلف فيه ولا تنطع، والله أعلم.

والسبب في ذلك أن المجادل في علو دعوة التوحيد (عقلا) علىٰ دعوة الشرك، المنتصر لشركه بالخصومة والجدال واللجاج، لا يكون ذلك منه إلا استكبارا وأنفة عن قبول الحق والتسليم به بالضرورة. يقول تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [**غافر**: ٥٦]، ويقول جل من قائل: ﴿**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ [**الشورى**: ١٦]، ويقول: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [**التوبة**: ٣٢] فيقينا ليس مع من يزعم أن عبادة الملائكة ونحوها من الصور المخلوقة لا فساد فيها ولا بطلان (ويخاصم علىٰ ذلك وينتصر له)، إلا الكبر في نفسه والختم علىٰ سمعه وبصره، وهو محاجج في الله من بعد ما استجيب له، يريد أن يطفئ نور الحق بفيه (بكلامه وجداله)، فحق مثله أن يُقطع بعد إحراجه ببيان الحق الجلي الواضح، لا أن تفتح معه أبواب المناظرة الكلامية الفلسفية ليثير الغبار علىٰ الواضحات الجليات!

ولهذا لما دخل ابن الزبعري إلىٰ المجلس بعد انصراف النبي ﷺ وقال «أما والله لو وجدته لخصمته...» وبلغ ذلك الرسول ﷺ، لم يدعُه ليتحداه في «مناظرة علنية» حتىٰ يثبت للناس أنه ما كان له ليخصمه عليه والسلام كما يزعم، كما تميل إليه نفوس كثير من المشتغلين بدعوة المشركين في زماننا هذا، يسارعون إلىٰ عقد المناظرات

ويتحدون المشركين بها تشهيا وتشوفا، وكما نقطع بأنها لو قيلت لأحدهم لأبىٰ إلا أن يعقد المناظرة العلنية من أجل ذلك! وإنما اكتفىٰ ﷺ بأن بين لمن نقل إليه الكلام من المسلمين، أن الله تعالىٰ ما كان ليعذب ملكا أو نبيا أو رسولا أو رجلا صالحا قد رضي عنه من قبل، بما صنعه سفهاء الناس من بعده من اتخاذه إلها وعبادته من دون الله! وإنما يعذب بالشرك من يرتضيه لنفسه أو لغيره، ومن يزينه للناس من شياطين الإنس والجن، فيدعوهم إلىٰ عبادته هو أو عبادة غيره من دون الله.

ولأن الأمر قد يرد عليه الاشتباه، من جهة أنه قد يظن أن ذلك النبي الذي اتخذه أتباعه إلها وعبدوه قد قصر عن أداء ما عليه من التبليغ والبيان (مثلا) فعبده القوم المخاطبون بدعوته لهذا السبب،أ نزّل رب العالمين نصّا يحسم الأمر فقال جل وعلا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ١٠١]، ولولا هذا ما تكلف رسول الله ﷺ الرد والبيان والتوضيح، لأنه لا يخفىٰ أن السؤال سؤال رجل مكابر معاند يريد الانتصار لما هو عليه من الشرك برب العالمين، فجاء يزعم أنه قد وقع علىٰ ما يصلح أن يكون برهانا نظريا علىٰ بطلان رسالة محمد ﷺ، وأنه لو خاصمه عليه لخصمه وأفحمه! فلا يؤتىٰ بمثل هذا لتعقد معه المناظرة والمناقشة والمحاورة العلنية كما ترجو نفسه المريضة، وإنما يُكتفىٰ ببيان مكابرته وجحوده بكلام موجز بليغ لمن سأل من المسلمين، كما كان صنيع رسول الله ﷺ في الرواية. ومن زعم أنه ﷺ ناظر ذلك المجرم المكابر إجابة لذاك التحدي من جانبه، فليأتنا بالنص علىٰ ذلك!

لذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»:

> وإن سألنا [أي المشرك] عن سؤال يقدح في القرآن أجبناه عنه[1]، كما كان النبي ﷺ إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالا يوردونه علىٰ القرآن،

---

(١) ولست أرتضي هذا التعميم المجمل من الإمام رحمه الله، وقد بينت في موضع آخر من هذا المجلد أن أكثر دعاوى المشركين وأهل الكتاب في الاعتراض على النص القرآني إنما هي عبث محض، يغني فهمها عن تكلف الرد عليها، ويظهر ما في قلب صاحبها من استكبار وعناد من مجرد طرحه إياها على المسلمين، فمثل هذا لا يقال إنه إن سألنا كان له أن نجيبه!

فإنه كان يجيبه عنه كما أجاب ابن الزبعري لما قاس المسيح علىٰ آلهة المشركين، وظن أن العلة في الأصل بمجرد كونهم معبودين، وأن ذلك يقتضي كل معبود غير الله، فإنه يعذب في الآخرة، فجعل المسيح مثلا لآلهة المشركين قاسهم عليه قياس الفرع علىٰ الأصل.

قلت: فإن سلمنا جدلا بأن مثل ابن الزبعري يُتصور أن يخفىٰ عليه جواب مسألة كهذه (كما يبدو من كلام ابن تيمية رحمه الله)، فقد نزل من الله تعالىٰ نص محكم قد أغلق الباب دونها، فمن سأل فيها اليوم أجيب به - مع نحو كلام رسول الله ﷺ - من غير زيادة ولا تنطع ولا تطويل، ألا وهو قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ١٠١]، وإن كنت لا أتصور إلا أنه كان يريد المخاصمة والتفنن في طريق لخصم النبي عليه السلام وفتنة الناس عنه، لا أنه اختلط عليه الأمر «فظن أن العلة بكونهم معبودين»، والله أعلم.

ولا شك أن ما كان من جواب النبي عليه السلام لأسئلة أهل الكتاب، كسؤال نصارىٰ نجران عن قوله تعالىٰ ﴿**أُخْتَ هَارُونَ**﴾ - مثلا - فلا يدخل في جنس ما نستنكره في هذا الكتاب من طريقة المتكلمين في المخاصمة، فهذه الأسئلة مما قد يحتاج بعض المسلمين إلىٰ جوابه حتىٰ يتضح لهم المراد، ومن ثمّ يتعين البيان ويحرم الكتمان عند الحاجة، فكيف إذا كان السائل كتابيا؟ ليس الشأن هنا في بذل الجواب عما تشابه من كلام الله، فقد جعل الله تعالىٰ ما تشابه من النص ابتلاءً لأهل الإسلام أنفسهم، فكيف بمن سواهم ممن جاء سائلا عنه؟ وإنما الشأن في تكلف الفلاسفة وتنطع المتكلمين الذي تقلب به المسائل البدهية والقضايا الواضحة الجلية إلىٰ مسائل نظرية تفتح للأخذ والرد والمناظرة علىٰ طريقة السوفسطائيين، كمن جاء من أهل الكتاب يريد المجادلة الفلسفية انتصارا لزعمه أن المسيح قد اجتمعت فيه الإنسانية (الناسوت) والإلهية (اللاهوت) معا، مثلا، أو انتصارا لقوله بأن الله ثلاثة آلهة وإله واحد معا وأن هذا لا يصادم البداهة الأولىٰ، أو أنه مات علىٰ الصليب ثم بعث نفسه من بين الأموات، سبحانه وتعالىٰ وتقدس، أو نحو ذلك مما تمجه العقول السوية والفطر السليمة ولا يفتقر إلىٰ دليل نظري حتىٰ يظهر وجه الحق فيه لمن يفهم لغة القرآن فهما صحيحا. هذا من لا ينبغي أن يجاب إلىٰ طلب

المناظرة ولا يخاض معه في ذلك، لأن مثله لا ترجىٰ له الهداية أصلا، إذ ليس ثمة ما يُتصور خفاؤه عليه من الحق في تلك القضية التي جاء يتكلم فيها، فيرجىٰ إظهار دليل ذلك الحق في سياق مناظرته إذا ما وقعت، بل لا يمكن إلا أن يكون هذا مغرقا في الهوىٰ الصارف عن سماع الحق، فيكون من المستثنين في آية الجدال في قوله تعالىٰ ﴿**إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾ [**البقرة**: ١٥٠]، والله أعلم.

وإلا فكيف يشتبه عاقل في فساد أي دعوىٰ نظرية فلسفية يضربها أصحابها للانتصار لأمثال تلك الدعاوىٰ، أو يتصور أن يظهر له في شيء منها «دليل» معارض؟ من جاءنا يريد المناظرة لينتصر لزعمه أن يمينه هي شماله، أو أن فوقه هو تحته، كيف نجيبه إلىٰ طلبه، ونحن نرجو أن نخرج معه من المناظرة ببيان الحق و«إقناعه به»؟ هذا هو ما نزعم أنه لم يكن من صنيع الأنبياء والمرسلين ولا وقع في جدالهم أبدا، بل نحن ننزههم عنه ولله الحمد.

ونقول إن المتأمل في قواعد العلماء في علم الجدل، يجد أنها لا تنطبق ولا يمكن أن تنطبق إلا علىٰ مناقشة تقع بين رجلين يتنازعان مسألة يُتصور في القول الحق فيها – من حيث المبدأ – أن يخفىٰ علىٰ عاقل لا دراية له بأدلته (وإلا ما جاز البحث فيها بالنظر والترجيح من الأساس)، فهما يتناظران عليها علىٰ تلك الطريقة التي يستعملها النظار في جدالهم، بقصد تجلية ذلك الدليل والوصول إلىٰ الاتفاق علىٰ مدلوله إذا ما ظهر. بل قد صرح العلماء في تلك القواعد نفسها بالمنع من مجادلة ومناظرة أهل السفسطة والمكابرة والمراء. ذلك أن المناظرة إن انتهت إلىٰ دلالة واضحة بينة يقتضي العقل السوي سلامتها من المعارض، ثم جحد الخصم تلك الدلالة، فقد وجب الانصراف عنه وإنهاء المناظرة لأنه يكون بذلك «سوفسطائيا»، يجادل في الحق بعدما تبين. فكيف بمن جاء يريد المجادلة والمناظرة في شيء من القضايا البينة بنفسها ابتداءً، وزعم أنها تفتقر إلىٰ دليل وبرهان؟ هذا لا يخاض معه في الجدال أصلا لأنه لا يمكن الانتهاء معه إلىٰ بيان الحق، بل لا نشرع معه في جواب طلبه (أعني رغبته في المناظرة وادعاءه أن معه «أدلة نظرية» تحتاج إلىٰ جواب ونظر) إلا ازددنا بذلك ابتعادا – لا محالة – عن ذاك

الحق الواضح الذي زعم خفاءه عليه، كما سيأتي بيانه بشيء من البسط لاحقا في هذا المجلد!

ثم إن من قواعدهم أيضا تجنب الحيل في المناظرة، والحيل هي وسائل أهل المراء والسفسطة وطرقهم إلىٰ مغالبة الخصوم اتباعا لأهوائهم. فإن كان الجدال مع الخصم سيبدأ بادعائه أنه لا يظهر له ما نقول إن العقلاء يتفقون علىٰ أنه حق بين بنفسه ضرورة لا يفتقر إلىٰ دليل، فكيف يتصور أن يجري الجدال في محل نزاعنا معه إلا علىٰ التماس سائر صنوف التحايل والتشويش والتشغيب من جانب ذلك المخالف المماري، والصرف عن ذاك الحق الواضح وادعاء خفائه وافتقاره إلىٰ برهان نظري؟[١]

(١) ينبغي أن يعلم أننا عندما نقول «العقلاء» فلسنا نقصد جميع بني آدم ممن بلغوا الحلم وبلغوا القدرة على التمييز والتفكير والتحليل .. الخ! وإنما نقصد كل من شهد بما ركبه الله في نفسه من المعارف الفطرية البدهية، وعمل بمقتضاها! فهذا البحث في مفهوم «العقل» ومن الذي يتصف به وكيف يعرف العاقل من المجنون أو السفيه أو نحوه، هو عندنا من مباحث علم النفس التي يجب أن تقوم قياما تاما على الكتاب والسنة وفهم السلف ﷺ. ذلك أن المرض النفسي (أو العقلي إن شئت) إنما هو وصفنا لكل حالة يعمل فيها عقل الإنسان عملا فاسدا منحرفا، على أن يُستمد تعريف ذلك الفساد استمدادا صحيحا (من الناحية المعرفية) كما سيأتي طرحه ومناقشته في فصل لاحق من فصول هذا المجلد، عند كلامنا على فلسفة علم النفس وتعريف العقل السليم والعقل المعوج والمرض العقلي عند النفسانيين. ولكن قبل أن ندلف بك أيها القارئ الكريم إلى ذلك الفصل، دعنا نتفق ابتداءً على أن صفة العقل لا يستحقها استحقاقا كاملا إلا من استقام اعتقاده وعمله على دين الفطرة، على الحنيفية البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك، التي قال فيها رب العزة جل وعلا: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ [**البقرة**: ١٣٠]، فالله تعالى يصف كل من رغب عن ملة إبراهيم، دين الإسلام الذي جاءت به رسل الله كافة، بأنه سفيه مختل العقل لا محالة.

وهنا قد يطرح فلاسفة علم النفس اعتراضا سخيفا، فيقول القائل منهم: «كيف تقولون إن الإسلام والتوحيد لا يعرف صحته إلا من صحت عقولهم، وتقولون في نفس الوقت إن من علامات صحة العقل قبول التوحيد والدخول في دين الإسلام؟ أليس هذا دورا منطقيا؟» أو بعبارة أخرى: أيهما أسبق في بناء المعرفة النظرية، معرفة أن الإسلام حق، ومن ثم استخلاص وصف العقل ووصف السفه من نصوصه، أم معرفة وصف العقل، ومن ثم معرفة أن الإسلام حق لموافقته ذلك الوصف؟

ونجيب عن ذلك بأن صاحب هذا الاعتراض يختلق مشكلة من لا شيء، مدارها عنده وعند كل من يحاول أن يجيبه عنها بنفس منطقه: ادعاء أن صحة الأصول الكلية لدعوى التوحيد (وأعني ها هنا القول بوجود الباري وبكمال صفاته وتنزهه عن الشرك) تفتقر إلى برهان نظري فلسفي مكتسب، يتأسس على معرفته لدى الإنسان – إن تحصل لديه العلم به – الموقف العقلي «الصحيح» المفضي إلى قبول دين الإسلام أو رده على من جاء به من المرسلين. فنحن عندما نتعامل مع مسألتين نظريتين («أ» و«ب» مثلا)، ونقول إن معرفة صحة

يقول الجويني رحمه الله في الكافية (ص٢٢ - ٢٣):

ثم من الجدال ما يكون محمودًا مرضيـًا، ومنه ما يكون مذمومـًا محرمـًا، فالمذموم منه ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناد أو ليلبس الحق بالباطل، أو للمماراة وطلب

الأولى يقتضي القول بصحة الثانية، فلا شك أنه ينبغي لنا أن نقف على أدلة صحة «أ» أولا. ولكن عندما تكون «أ» هذه دعوى مطابقة لبدهيات العقل والفطرة، فليس ثمة «دور منطقي» ولا مصادرة على الدليل ولا شيء من تلك الأغلاط في النظر والاستدلال، وإنما تكون كلا الدعوتين «أ» و«ب» صحيحتين بالضرورة، بلا نظر ولا استدلال أصلا. والضروريات يجب أن تتوافق بداهة، إن لم تتلازم فيما بينها! فلا نحتاج إلى من يعرفنا أولا بأننا مخلوقون مربوبون، وبناء على ذلك ننظر فيما إذا كان خالقنا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له! بل كلتا القضيتين عندنا ضروريتان متلازمتان، لا تفتقر أي منهما إلى ما يثبت صحتها، ولا إلى ما يؤسس إحداهما على الأخرى كما هو الشأن في تراتيب النظر! ذلك أن رسالة التوحيد إنما جاءت بتنبيه البشر إلى ما غفلوا عنه أو تغافلوه من معان بدهية ضرورية، لو أنصفوا وتجردوا للحق لعلموا أن العقل لا يقوم إلا بها. فالإسلام لم يأت بنظرية فلسفية في تعريف ماهية العقل وكيف يستحق الإنسان أن يوصف به، وإنما جاء بخبر غيبي لا يملك العقل السوي إلا أن يقطع بأنه الحق من ربه! فإن قبلت نفسه ذلك الحق كما ينبغي لها، فقد تحققت بالتعريف الصحيح للعقل السوي بمجرد ذلك، وإلا فلا. فإن لم يتجرد المشرك (بما في ذلك الفلاسفة والدهرية وأضرابهم) من أهواء نفسه ويتأمل في أصول فطرتها وبداهتها الأولى تأملا مستقلا، فليس في الأرض من يمكنه أن يدله على بطلان اعتراضه ذاك ولا أن يخرجه مما هو فيه! وما كان لينتقل بميل نفسه وهواها إلى قبول الحق الذي سمعه إلا أن يشاء الله وحده ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً**﴾ [**الكهف**: ١٧]!

ذلك أننا نزعم أن صحة دين التوحيد معلومة لمن يسمع بها بالبداهة الأولى، فمن زعم أنه لا يجد تلك الصحة في نفسه، ففطرته تالفة لا محالة، والعيب في نفسه لا في دعوى المرسلين، ومهما جئته بآية أو بينة لن يقبل منك، وستبقى أنت السفيه المريض في نظره، يستند في تعريفه للعقل والسفه إلى فلسفته المعرفية التي اختارها لنفسه. وكما لا يمكن لأحد من الناس أن يقنع إنسانا بأنه موجود حقيقة لا وهما، وأن الشمس التي يراها في كبد السماء موجودة في الواقع لا في ذهنه، فكذلك لا يمكن لأحد من الناس أن يقنع إنسانا بأنه مخلوق مصنوع، وأن خالقه وصانعه كامل الصفات لا تلحق به نقائص المخلوقات، وأن ذلك الخالق إن بعث في خلقه رسولا بتكليف وأمر ونهي فلا يصح في العقل أن يكلفهم بعبادة مخلوق مثلهم، ودعاء ذلك المخلوق وسؤاله ما لا يتوجه المخلوق بمثله إلا لخالقه وخالق كل شيء! هذه المعاني من زعم أنه لا يراها ضرورة بدهية من غير بحث أو نظر، فلا نكون عقلاء على الحقيقة - أي بما تقتضيه البداهة في وصف العقل - إن لم نقطع بأن العيب في عقله هو لا فيها، فلولا ما في نفسه من خلل يميل بها إلى ما اختاره من الباطل، ما رأيته يماري في البدهيات الواضحة ويلتمس الدعاوى النظرية لإبطالها. ولهذا ما وصف رب العزة تبارك وتعالى ذلك الميل عن دعاوى المرسلين إلا بأنه من سفه الإنسان نفسه. والقصد أن العقلاء إنما كملت عقولهم واستحقوا الوصف بالعقل لأنهم مالت نفوسهم إلى قبول الحق الموافق لفطرتهم وبداهة أذهانهم من غير مكابرة ولا سفسطة ولا مراء، فإن هم فعلوا، عرف بعضهم بعضا، وتبين لهم من العاقل حقا ومن السفيه، وعرفوا بيقين لا يتزعزع أن الله تعالى لا يهدي القوم الظالمين.

الجاه والتقدم إلىٰ غير ذلك من الوجوه المنهي عنها، وهي التي نص الله في كتابه علىٰ تحريمها فقال: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا**﴾ [**الزخرف**: ٥٨].. وفي مثله قال ﷺ: «دع المراء وإن كنت محقا»، وهذا فيمن خرج عن أدب الجدل أو لم يقطع اللجاج بعد ظهور الحق كدأب الكفار مع الرسل، وأما الجدال المحمود والمدعو إليه فهو الذي يحقق الحق ويكشف عن الباطل ويوصل إلىٰ الرشد مع من يرجىٰ رجوعه عن الباطل إلىٰ الحق، وفيه قال سبحانه: وجادلهم بالتي هي أحسن.

ولينتبه القارئ الكريم إلىٰ أن الجويني كان متكلما أشعريا بالأساس. ففي قوله رحمه الله «وهذا فيمن لم يقطع اللجاج بعد ظهور الحق كدأب الكفار مع الرسل» ما يوحي بمشروعية هذا الصنف من الجدال مع الكفار، الذي يواصل فيه المشرك المخاصمة والمحاورة بدعوىٰ طلب ظهور الحق الذي لم يظهر من أول وهلة، وأن هذا الصنف من الجدل النظري هو ما جاء به المرسلون لأقوامهم!

وهذا كلام فيه نظر. فنحن نقول إن كان أصل الغاية من مجادلة المشرك أن ندعوه إلىٰ التوبة والرجوع عن الشرك الذي هو عليه، فكيف نبدأ في مخاطبته بمسألة نظرية (وهو جنس المسائل التي يُتصور فيها ألا يكون الحق ظاهرا للمخالف من أول وهلة)، حتىٰ نقول إنه إن لم ينقطع «بعد ظهور الحق له»، أي بعد تبادل الحجة والحجة المقابلة ونقض حجة الخصم بما يرجىٰ معه إظهار الحق علىٰ طريقة أهل الصناعات النظرية بعموم، فهو داخل حالئذ في الجدال المذموم؟ إن كان موضوع الجدال مما لا يتصور خفاء الحق فيه علىٰ العقلاء من الابتداء، ففتح الجدال النظري فيه علىٰ هذا النحو مذموم مطلقا (من الأساس)، سواء انقطع المجادل بعد حين أو لم ينقطع! وإن كان موضوعا مما يتصور خفاء الحق فيه، فليس من الحكمة أصلا أن نبادر المشركين عند دعوتهم إلىٰ التوحيد بالجدال في شيء من أمر دينهم مما يتصور خفاء الحق فيه، وإنما نخاطبهم بنقض أصل الشرك الذي هم عليه، ذاك الأصل الجلي الظاهر المصادم للفطرة السوية، الذي لا يماري في بطلانه عاقل، فنعظهم فيه ونذكرهم بالحق ولا نفتح لهم بابا للمراء والسفسطة في ذلك، فإن فعلنا فقد حاججناهم علىٰ ما نزعم ها هنا أنه طريقة القرآن وطريقة المرسلين، والله أعلم.

ثم إن مسألة انقطاع الخصم لظهور الحق بين المتخاصمين في المسائل النظرية، هذه مسألة نفسية صرفة في الحقيقة، يتفاوت فيها الناس تفاوتا كبيرا. فما دامت المسألة محل النزاع من المسائل النظرية التي يرد عليها اختلاف الأفهام، فمهما كان الحق ظاهرا لأحد المتخاصمين فقد لا يكون علىٰ ذات القدر من الظهور للآخر، ويبقىٰ كذلك لديه مهما تناظرا. ونحن نقول إن الذي يواصل الجدال والمخاصمة حتىٰ من بعد ما يتبين له وهاء مستنده، هذا في نفسه هوىٰ يقينا، ولكن كيف نعرف نحن أنه قد تبين له وهاء مستنده؟ لو اعترف هو بذلك لانتهىٰ الأمر، ولكن إن لم يعترف، فهل نحكم عليه بأنه صاحب هوىٰ؟ ما ضابط ذلك وما حده؟ صحيح إن صاحب الهوىٰ لا يعترف ببطلان موقفه إلا أن يعافيه الله من ذلك الهوىٰ، ولكن ما الشأن في أمر نحن نعترف ابتداءً بأن اختلاف الأفهام فيه وارد غير مستبعد؟

تأمل بارك الله فيك، لست أسأل «كيف نعرف وهاء مستنده؟» فهذا ما نظن أننا نعرفه علىٰ أي حال، لظهور الدليل عليه في أنظارنا (وإن زعم الخصم أنه لا يظهر له)، ولكن أسأل: «كيف نعرف أنه هو قد عرف وهاء مستنده وتبين له ذلك، ومع هذا لم يزل يصر علىٰ مذهبه عنادا ومكابرة، وعلىٰ مواصلة الجدال والمناظرة؟» كثير من علماء الجدل سيقرر في هذا المقام أن العناد والمكابرة لها قرائنها، وهذا صحيح ولا شك، علىٰ الأقل من جهة التنظير، ولكن في بعض الأحيان لا يظهر شيء من تلك القرائن علىٰ طول ما يجري بين المتخاصمين من جدال ومناظرة، وفي أحيان أخرىٰ تظهر أشياء من كلا الخصمين يعدها الآخر قرينة علىٰ المكابرة! فما النهاية وما الثمرة إذن وقد رأيناهما لا ينقطعان؟ إن تصورنا هذا الإشكال، فسيظهر لنا علىٰ الفور أن الاستناد إلىٰ عدم الانقطاع من بعد «ظهور الحق» في المسألة النظرية بين المتناظرين ليس ضابطا لمعرفة وقوع الهوىٰ في نفس أحدهما، لأن الظهور والخفاء – في هذا الصنف من المسائل – تتفاوت فيه عقول الناس!

لقد كنت في يوم من الأيام من أصحاب الجدال الطويل في بعض المنتديات الشرعية علىٰ شبكة الإنترنت، وكنت أخوض مع بعض طلبة العلم في مسائل خلافية

اجتهادية، آتيهم فيها ذات اليمين وذات الشمال حتىٰ أشعر وكأن الأمر قد ظهر كظهور الشمس في كبد السماء، ومع هذا لا يفتأ المخالف يجادل ولا يملّ ولا أراه ينقطع! فهل يكون لي - إذن - أن أحكم عليه بأن لديه هوىً خفي؟ هذا ما تحدثني نفسي باعتقاده علىٰ أي حال، ولكن ما دليله عندي إذا كنت أشهد بأن المسألة قد تتفاوت فيها الأفهام؟ أولو كان هو أيضا يحسب أن حجته هي الأتمّ والأحسن، وأنها هي الأوفىٰ بالمطلوب، وأني أجادل في أمر ظاهر واضح محسوم لصالحه؟ فأي ثمرة ترجىٰ من الاستمرار في ذلك النزاع إذن إلا أن يسوء ظنّ الواحد منا بأخيه، ولا ينتهي أي من المتخاصمين إلىٰ النزول عن قوله إلىٰ قول خصمه إلا في القليل النادر؟[1]

لهذا أثر عن الشافعي رحمه الله قوله: «ما ناظرت أحدا في مسألة إلا رجوت أن يكون الحق معه»، فهذا من شدة حرصه رحمه الله علىٰ دفع تلك الشهوة في نفسه وحب الظهور والعلو والانتصار علىٰ الخصم، فهو - والله - أمر من أصعب ما يكون علىٰ نفس الإنسان!

فكيف يستجاز فتح الباب لتلبيس مسلمات الفطرة الأولىٰ بلبوس احتمال الخفاء النظري وبلبوس ذلك المعيار غير المنضبط لمعرفة حصول «الظهور» عند الخصم الذي يقتضي انقطاعه (إن كان صادقا متجردا عند أهل الجدل)، ولتزيين تلك الأهواء التي يقتضيها طابع المدافعة والاعتذار في سياق المناظرة، لمخالف قد قطعنا من البداية

---

(١) ذكرت فيما تقدم أني خضت في المنتديات الشرعية كثيرا من الجدل والمناظرة مع بعض طلبة العلم، وإلى الآن لا أكاد أذكر إلا مرة واحدة فقط سبق لي أن انتقلت فيها عن مذهبي إلى قول المخالف أثناء المناظرة لاقتناعي بكلامه، ولا أذكر حدوث ذلك لأحد ممن ناظرتهم أبدا والله، ولا أذكر أني رأيته في منتدى من المنتديات الشرعية إلا في القليل النادر، والله المستعان! فالذي يحدث في الحقيقة أن الملاحاة بين المتخاصمين إذا طالت (لا سيما إن لم يظهر فيها دليل جديد لأحد القولين)، فإن ميل النفس للتمسك بمذهبها ورغبتها في الانتصار على الخصم المخالف تكون هي الدافع الأقوى والأخفى لاستمرار الجدال بين الخصمين، ويكون من العسير للغاية على أي منهما أن ينتبه لذلك الدافع الخفي ويعالجه من نفسه. هذا الداعي النفسي الباطن واقع لا محالة في أي مناظرة أيا ما كان موضوعها، بالنظر إلى طبيعة المناظرة نفسها (إذ تميل النفس إلى طبعها بطابع المنافسة والمبارزة الذهنية والعلمية من حيث لا تشعر)، ومع ذلك لا يمكننا في أكثر الأحيان أن نحكم بأن الحق قد تبين للخصم وهو مع ذلك يصر ويعاند تبعا لذلك الدافع في نفسه، فمن المحتمل - بالنظر إلى طبيعة المسألة نفسها المتنازع عليها - ألا يكون الأمر كذلك!

بأنه صاحب هوىٰ عظيم إذ يماري في تلك الحقائق الجلية، ثم يقال إن ذلك من نصرة الحق ومن الذبّ عن الدين، بل أكثر من هذا: نرىٰ في انقطاعه إن وقع (عاجلا أو آجلا) انتصارا للحق وزهوقا للباطل؟

الآفة في الحقيقة ليست في السؤال: هل يظهر للمتكلم عند مناظرته الفلاسفة ومجادلتهم، أن مخالفه من فلاسفة الإلحاد جاحد للحق مكابر مماحك، أم لا يظهر له ذلك! فنحن لا نزعم أن المتكلمين يخفىٰ عليهم جحود وتلاعب خصومهم من الفلاسفة، ولكن السؤال: ما هو ضابط المتكلمين في علم الجدل عندهم لإنهاء المناظرة والمجادلة مع مثل هذا وكيف يتحققون به؟ إن قالوا: «كشف الجحود والمماحكة وفضح الخصم» أو «انقطاع المعاند» أو «إلزامه بلوازم ظاهرة» أو نحو ذلك، قلنا فما حدّ ذلك الكشف والفضح وكيف يتحقق؟ وكيف تضمنون الانتهاء فيه إلىٰ نهاية يتفق جميع العقلاء بضرورة العقل علىٰ أنها هي القاضية الحاسمة التي لا نقد بعدها ولا اعتراض؟ بعد كم رد ورد مقابل في تصوركم يتحقق ذلك الانكشاف وما ضابطه، مع ما يغرق فيه الطرفان من تعقيد في تنظير الكليات والعموميات والاصطلاح المجمل في أكثره والتكلف وتشقيق الكلام وزخرفته؟ وكيف العمل إن لم ينقطع الخصم أبدا وأصر علىٰ المواصلة والمجادلة والتنطع علىٰ كل كلمة يتكلم بها المتكلم، يشوش عليها ويحيلها عن موضعها (وهو أمر يحسنه الفلاسفة ويجيدونه كما هو معلوم)؟

ما صفة «الانقطاع» هذا وما حده وما ضابطه؟ أن يشهد الفيلسوف الملحد أنه قد عجز وسقطت حجته، ويكف عن المناظرة في تلك المسألة من أجل ذلك؟ سلمنا بأنه فعل (كما سيأتي معنا مثاله في قسم لاحق من هذا الكتاب)، فما ثمرة ذلك الانقطاع علىٰ التحقيق وقد عرفنا أن لديه هو وأقرانه من نحو تلك المغالطات والدعاوىٰ الساقطة (التي ترتبط كل واحدة منها ببعض المقدمات التي يجب اعتبارها مسلمة عقلية حتىٰ يستقيم هذا البرهان أو ذاك) ما لو أفنىٰ الواحد منا عمره في الرد عليه فلن يأتي علىٰ بعضه فضلا عن مجموعه (ولن يأتي فيه علىٰ الأغلب إلا بما يزيد الحق غبشا والتباسا!)، وعرفنا أنه (أي الفيلسوف) يشترط علىٰ خصمه أن يرد علىٰ تلك «البراهين

والدعاوىٰ الفلسفية» كلها بنفس تلك الطريقة التي يتعلمونها ويتدربون عليها (الطريقة التحليلية المنطقية) حتىٰ «يقنعه» بأنه ليس علىٰ شيء؟

ثم لو أنه انقطع في هذه المناظرة العلنية أو تلك، سواء بالتصريح بالعجز أو بمجرد الانصراف والسكوت، ثم جاء غيره من بعده ليقول «إن هذه الحجة التي انتهت إليها المناظرة ليست قاطعة وما كان لصاحبي أن ينقطع منها، ولو أنه تدبر لأمكنه الجواب بكذا وكذا» (وما أكثر ما يكون ذلك بين الفلاسفة والمتكلمين واللاهوتيين علىٰ اختلاف نحلهم!)، فكان ماذا؟ أقول: ما دامت مادة النزاع والجدال قضية بدهية ضرورية من الأصل، فلا رجاء في الوصول من المناظرة عليها إلىٰ شيء ذي بال أبدا، مهما جاء المتكلم ببراهين تقوم علىٰ مقدمات بدهية هي الأخرىٰ، لأن المجادل المتفلسف لو كان صادقا في طلب الحق، بحيث ينقطع عند الحق البدهي الظاهر ويسلم به لخصمه بمجرد أن يسمعه، ويلتزم لوازمه الواضحة من حيث المبدأ بمجرد أن يطالب بها، ما طلب المناظرة في مسألة بدهية فطرية من الأساس! فمجرد طلب التقديم بحقائق بدهية لإثبات حقائق أخرىٰ بدهية مثلها، دور منطقي سخيف كان ولا يزال المتكلمون يُستدرجون إليه في كل مرة وهم يزعمون أنهم ملتزمون بإفحام الخصم وقطعه بالحجة بمجرد أن تظهر، فلا يقع الانقطاع إن وقع إلا من ارتباك الخصم أو ضعف نظره أو ضيق صدره، لا من انتهاء الجدال إلىٰ برهان لا إجمال فيه ولا اشتباه ولا مدخل لنقد أو اعتراض! وكيف ينتهي إلىٰ شيء وهو إنما بدأ بالمعاني البعيدة المجملة رجاء إثبات حقيقة بدهية لا تخفىٰ علىٰ عاقل؟ كيف يوصل منه إلىٰ خير أو حق وهو إنما بدأ بقبول زعم المخالف خفاء الحق البدهي الواضح وافتقاره إلىٰ دليل نظري يثبته؟

وكمثال لفساد طريقة أهل الكلام والنظار في الجدل عند تطبيقها علىٰ أهل الملل الشركية (وفيهم وعلىٰ رأسهم الملاحدة الدهرية)، ومناقضتها لهذا المنهج الجدلي نفسه الذي قرره الجويني في النقل الآنف، تأمل ما صنعه القاسم بن إبراهيم الرسي المعتزلي الزيدي (المتوفىٰ في ٢٦٤ هـ) مع رجل ملحد دهري، كان (كما حكىٰ في رسالته الموسومة: «الدليل الكبير في الرد علىٰ الزنادقة والملحدين») من قبل يحضر مجالس الفقهاء والمتكلمين في مصر، ويسألهم في مسائل الإلحاد والدهرية سؤال

المتحدي المبارز، فكان منهم من يجيبه ومنهم من يشتمه ويطرده من مجلسه، حتىٰ دعاه صاحبنا يوما إلىٰ منزله، وقابله بقوله: «إنه بلغني أنك تعرضت لنا وسألت أهل نحلتنا عن مسائلك، تريد أن تصيد أغمارهم بحبائلك، حين رأيت من ضعف علمائهم عن القيام بحجج الله والذب عن دينه، ونطقت علىٰ لسان الشيطان لعنه الله: وقال ﴿**لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا**﴾ [**النساء**: ١١٨] !» فقال الملحد: «أما إذ عبت أولئك وعيرتهم بالجهل، فإني سائلك وممتحنك. فإن أنت أجبت وإلا فأنت مثلهم» فتأمل كيف كان جواب القاسم، قال: «قل ما بدا لك وأحسن الاستماع وعليك بالنصفة وإياك والظلم ومكابرة العيان ودفع الضرورات والمعقولات، أجبك عنه وبالله أستعين وعليه أتوكل وهو حسبي وكفىٰ ونعم الوكيل.» ثم راح يسرد كلاما طويلا علىٰ طريقة الفلاسفة ونظريات المتكلمين في الحدوث وامتناع تعدد القدماء والهيولىٰ وهذه الأشياء، يبدو الجاهل به وكأنه لا طريق أمامه لتحصيل المعرفة الفطرية البدهية بأنه مخلوق مصنوع مربوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ولو أنا عاصرنا ذاك المتكلم المفتون الذي غر نفسه وغر ذاك الملحد وغر قوما لا يعلم عددهم إلا الله من بعده بمناظرته العقيمة تلك، لقلنا له: يا رجل، إن كنت صادقا في اعتقادك ما وسمت الملحد به في أول كلامك، من كونه شيطانا مريدا يطمع في أن يصيد من سميتهم بـ«الأغمار» و«الجهلاء» في حبائله، فما بالك تشترط عليه ما يخالف ذلك الطبع الخبيث فيمن هم علىٰ شاكلته، فتأمره بالنصفة وترك الظلم والمكابرة، وأنىٰ ترجو ذلك من مثله وأنت تعلم أنه ليس من طبعه ولا طريقته؟ بل أعجب من هذا أنك تطالبه بألا يدفع الضرورات والمعقولات، ألست تقول بأن وجود باريه وخالقه الذي جاء يجادلك فيه، هو عندك من الضرورات؟ إن قلت إنه من الضرورات فهذا رجل جاءك بما يخالف شرطك هذا بمجرد أن طلب منك المناظرة من الأساس، فإن تكلفت مناظرته تناقضت بمجرد ذلك، لأن مجرد الجدال من جانبه يكون إذن «وعلىٰ شرطك أنت» مكابرة ودفعا للضرورات!

أنت مطالب علىٰ شرطك أنت – كمتكلم – بأن تقطعه إذا ما بدا الحق ظاهرا وأخذ هو يكابر فيه! فهل دعوىٰ أنه مخلوق مصنوع، التي جاء يطلب الجدال عليها، لا يصبح

الحق فيها ظاهرا عندك أنت إلا بعد تحرير تلك البضاعة النظرية التي جئت أنت بها؟ فبأي شيء جاء الأنبياء والمرسلون إذن وفيم كانت رسالتهم وعلىٰ أي شيء قامت في عقول المخاطبين؟ ولو لم يكن وجود باريك عندك من ضرورات العقل الأولىٰ، فأي ضرورات تلك التي تحسب أنها يمكن أن يوصل منها بطريقة الحجاج النظري الفلسفي التي تكلفتها مع الملحد، إلىٰ إثباته نظريا؟ نظرية الهيولىٰ؟ دليل الحدوث ونظرية تسلسل الحوادث وتعدد القدماء؟ نظرية الجوهر والعرض؟ أهذه الأشياء التي جئتم فيها بالعجب العجاب، ودرتم فيها حول أذيالكم، من ضرورات العقل التي يُتهم المجادل فيها في نيته وفي عقله، إن لم توصله إلىٰ المطلوب؟ وهل حقا ترىٰ في مقدمات تلك النظريات ما هو أظهر في العقل وأقرب إلىٰ أن يجزم به العقلاء، من حقيقة أن الإنسان ما وُجد في هذا العالم الذي يراه من حوله إلا من فعل خالق عليم خلقه من قبل وركبه ولا بد، ومن ثم تجعلها (أي تلك النظريات والمفاهيم) طريقا إلىٰ «إثبات» تلك الحقيقة (الضرورية) ونصب البرهان عليها؟ أنت إذن كخصمك والله، لا عقل لكما جميعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تأمل كيف يتعالىٰ المتكلم – علىٰ عادة القوم – فيرمي من رفضوا مجادلة ذلك المجرم الملحد من أقرانه من العلماء بالجهل والقصور، إذ يقول للملحد: «حين رأيت من ضعف علمائهم عن القيام بحجج الله والذب عن دينه .. الخ»! فأي علماء هؤلاء الذين ضعفوا عن القيام بحجج الله علىٰ الملحد يا رجل؟ وهل يحتاج الملحد إلىٰ أكثر من أن يسمع كلام رب العالمين حتىٰ تقوم عليه حجة الله جل وعلا بتمامها؟ وهل للذاب عن دين الله مع مثل هذا العابث المسفسط إلا أن يذبه بيده كما يُذب الذباب عن الطعام، فإن لم يقدر علىٰ أن يسحبه سحبا ليضرب ولي الأمر عنقه وتطهر الأرض من نجسه، طرده من مجلسه ونفر الناس عنه ولم يعبأ به، كما صنع كثير من أولئك الأفاضل الذين رميتهم جميعا بالجهل والضعف؟ تأمل كيف لا يعقل ذاك المتكلم – الذي كان يحسب أن عقله قد كمل غاية الكمال بما صنعه في تلك المناظرة ونحوها – لازم قوله إن العلماء الكبار ضعفوا عن إثبات وجود باريهم، حتىٰ جاء هو بما عجزوا عنه جميعا! فلا هم علماء إذن ولا مسلمون أصلا إذ لا قيام لفقههم ولا لعلومهم ولا لدينهم علىٰ

علم بما يثبت به وجود الباري نفسه! بل ولا هم عقلاء أصلا، إذ من لا يدري أمخلوق هو أم لا، مربوب أم لا، هذا حقيق بأن يعد في جملة المجانين! [١]

بل تأمل كيف أنه لا يرىٰ لازم كلامه هذا من الرجوع بالتهمة في العقل والإيمان علىٰ رسول الله ﷺ نفسه وعلىٰ صحابته من بعده، إذ لم يأت أحد منهم بشيء من ذاك اللجج الفلسفي الطويل الذي فرح به المتكلم! فمم كل هذا ومن أي شيء أتىٰ؟ إنه مرض النفس وغرورها! إنه الافتتان – افتتان المتكلم – بما عند الملحد المتفلسف من بضاعة في النظريات والعقليات والطبيعيات ونحوها، وكراهته أن يبدو «ضعيفا» عاجزا عن الإتيان بمثلها، وعن التغلب عليه بها! فلو صدق المتكلمون في زعمهم أن وجود باريهم معدود عندهم من جملة الضرورات العقلية الأولىٰ، وأن الجدال النظري لا يجوز مع من يدفع الضروريات (نوعا) ويكابر فيها، لما كانوا متكلمين ولما اشتغلوا بالكلام يوما ما، لأنهم ما جعلوه صنعة وفنا يحترفونه إلا من أجل أن ينافسوا الفلاسفة بالجدال في تلك الضروريات نفسها! فتأمل كيف قامت تلك الصنعة نفسها عند أصحابها علىٰ التناقض الفاحش والكذب علىٰ النفس (تماما كربيبتها التي تفرعت عنها: صنعة الفلسفة الغيبية)، وكيف جعل الله الملاحدة والدهريين فتنة عظيمة وابتلاء كبيرا لأتباع المرسلين من القرون الأولىٰ وإلىٰ أن تطلع الشمس من مغربها، والله المستعان لا رب سواه!

وليس الأمر قاصرا علىٰ الملاحدة والدهريين، فمسالك المتكلمين مذمومة حتىٰ عند مجادلة أهل الكتاب. فمما يروىٰ [٢] أن الفقيه المالكي محمد بن سحنون (المتوفىٰ في ٢٥٦ هـ) كانت له مناظرة طويلة مع رجل يهودي يجيد الكلام بمصر (أيضا!) امتدت بينهما من قبيل صلاة الظهر إلىٰ بعد صلاة الفجر، يوما وليلة كاملتين، لا يتوقفان إلا ليصلي ابن سحنون، حتىٰ «انقطع» اليهودي فيما يقال (ولا أدري أي انقطاع هذا! لعله الإعياء لا الانقطاع!)، وقيل إنه أسلم بعد ذلك. والسؤال الآن: هل يحتاج الواحد من

(١) وهذا بالضبط ما كتبت هذا الكتاب لبيانه وتحريره على ما ينبغي أن تكون عليه أصول علم النفس عند المسلمين، والله الموفق المعين.

(٢) وأنقله عن مقال بعنوان «جهود علماء المالكية في محاورة أهل الكتاب»، للباحث «سمير قدوري» وهو منشور على هذا الرابط: /http://vb.tafsir.net/tafsir35861 في الثامن من محرم ١٤٣٥ من الهجرة

بني إسرائيل إلىٰ يوم وليلة كاملتين من الجدل في أصول الدين، حتىٰ يظهر له الدليل علىٰ أن محمدا قد جاء بالحق، وعلىٰ بطلان دينه الذي استحق اليهود من أجله لعنة الله تعالىٰ وغضبه عليهم؟

وروي كذلك (نقلا عن نفس المصدر) أن عبد الله ابن إسحاق بن التبان القيرواني المالكي (المتوفىٰ في ٣٧١ هـ)، ناظر رجلا نصرانيا كان رأسا في مذهبه وكان قد وفد علىٰ عبد الله بن محمد الكاتب صاحب القيروان، فلما بعث عبد الله الكاتب إلىٰ أبي محمد ليناظره، جلس معه وخيره بين خصلتين، أن يطيل مع النصراني أو أن يوجز، فاختار له أن يوجز مع الرجل ولا يطيل، فلما عقدت المناظرة بينهما، قال له: أنتم تعتقدون ثلاثة؟ فقال النصراني: نعم. فقال: أخبرني، الواحد مفتقر إلىٰ اثنين، أم مستغن عنهما؟ فقيل إن النصراني حينئذ ضربت عليه الكآبة والحزن وانقطع! ونحن نقول إن مسألة الانقطاع هذه لا عبرة بها في مقام كهذا وفي سياق جدال كهذا إن وقعت، لأنه ما من «رأس» من أي ملة من الملل يسمع كلاما من هذا الصنف في مقام الدفاع عن ملته إلا وستراه يتفنن – لا محالة – في التفلسف والسفسطة، بقدر ما بلغ به أن يكون «رأسا» في تلك الملة من ذكاء ونبوغ، لا سيما إن كانت المناظرة علنية علىٰ ملأ من الناس، وسيكون في كلامه من موارد الإشكال ما يسقط ذلك «البرهان القاطع» المزعوم علىٰ صاحبه في أعين الحاضرين! فما كان من شيء أهون علىٰ الحاذق من أحبار القوم إن حضر مجلسا كذاك أن يجيب بنحو من هذا الجواب: «لا مفتقر ولا مستغن، بل محب موافق لهما، وهم جميعا كالكيان الواحد»! والنصارىٰ يعتقدون أن الثالوث منشأه المحبة من الأساس، بمعنىٰ أن الرب يجب أن يجد ما يحبه محبة وافرة في كل لحظة، من الأزل وإلىٰ الأبد، لأن عدم المحبوب نقص وهو محال، فوجب بزعمهم أن يكون الرب ثالوثا قديما يحب بعضه بعضا! فأنا أعجب كيف عجز ذلك الرأس النصراني في ذاك السياق عن التفلسف بهذا الكلام أو نحوه، أو بأي اعتراض يشغب به ويكابر؟ وما حظه من دراسة لاهوت النصارىٰ ونظريات متكلميهم وسفسطاتهم، إن كان لا يجد أن يجيب جوابا كهذا؟

نعم قد يجيبه المتكلم حينئذ بأن المسألة علىٰ التناقض لا علىٰ التضاد (باصطلاح المناطقة)، بمعنىٰ أن الشيء إما أن يكون مفتقرا لشيء آخر أو أن يكون مستغنيا عنه، فلا يرتفع الوصفان جميعا، ولكن هل تحسب أن المناظرة ستنتهي وأن الحق سيظهر عند هذا الحد؟ أبدا! بل قد يأتي الجواب بأن الاستغناء لا يتنافىٰ مع كمال كل فرد من أفراد الثالوث، ولا تتنافىٰ محبتهم لبعضهم البعض مع كونهم لا يفتقر أحدهم للآخر أو يضطر إليه .. الخ. وحينئذ يدخل الجدال في شعاب من التشقيق والتنطع بالمجملات والكليات العريضة لا أول لها ولا آخر، مدارها علىٰ دعوة المتكلم خصمه إلىٰ تصور معاني إضافية علىٰ معنىٰ الثالوث (كصفات أفراد ذلك الثالوث)، بغية إظهار فساده بدلالة الالتزام والاقتضاء، مع أن فساده العقلي في الحقيقة ظاهر غاية الظهور، بمجرد فهم معنىٰ لفظة «الثالوث» نفسها في اللغة (ثلاثة أشياء هي شيء واحد في نفس الوقت، أي ١ = ٣) من غير تكلف شيء مما وراء ذلك، فهو معنىٰ مما يقال فيه إنه تغني روايته عن تكلف إبطاله، فبأي منطق يُتكلف «الدليل النظري» لبيان فساده علىٰ هذا النحو، وكأنه لا يظهر إلا به أو بمثله؟!

هذه هي أم المفاسد في طريقة المتكلمين والفلاسفة، التي من أجلها ذم سلفنا الكلام وأهله! المتكلم يأبىٰ إلا أن يحدث إلزامه لمخالفه جريا علىٰ الطريقة الفلسفية المعتبرة في عصره، أيا ما كانت! ولذا لن ترىٰ هذا يأتي بجواب إلا جاء الآخر بجواب عنه (كما ضربنا لك المثال عليه افتراضا)، هو أبعد من سابقه عن أصل الفساد الذي فيه حجة الحق لا في غيره، ولا يأتي هذا بإلزام إلا أجابه الآخر بالتنصل منه، ولعله أن يستطيل ذلك الجدال (وربما بدا الخصم في بعضه موفقا إلىٰ حدّ بعيد) حتىٰ يبلغ يوما وليلة كاملة كمناظرة ابن سحنون مع المتكلم اليهودي (علىٰ التسليم بصحة الرواية)، فبالله ما ثمرة ذلك إن وقع وما مصلحته للمسلم أو للكتابي؟

القصد أنه حتىٰ وإن كان النصراني المذكور في تلك الرواية قد انقطع حقا، فليس هذا بما يجعلنا نستحسن ذلك المسلك الكلامي الذي سلكه معه عبد الله بن إسحاق، ففساد الثالوث أظهر من هذا بكثير! فساده واضح في أن الواحد لا يمكن أن يكون

واحدا وثلاثة معا، وهو أمر لا يحتاج إلىٰ شرح أو بيان، ولا إلىٰ برهان نظري من نحو ما جاء به صاحبنا، يحصل فيه الإلزام من جهة قاعدة عدم ارتفاع النقيضين أو غيرها، ومن زعم أنه لا يرىٰ أصل الفساد في مسألة الثالوث أو لا يعقله فهو مكابر قطعا ويقينا!

ومع هذا، فما زلنا نرىٰ من آن لآخر في مجادلات العلماء للنصارىٰ وغيرهم من أهل الملل ما وفق فيه بعضهم لمواطأة طريقة الأنبياء والمرسلين، من غير أن تراهم ينصب الواحد منهم البرهان العقلي النظري علىٰ صحة قضية بدهية من مقدمات العقل الأولىٰ، فينفتح علىٰ يديه باب للسفسطة والمراء فيما لا يفتقر إلىٰ برهان أصلا! وهذا ولا شك باب فضل إلهي وإلهام رباني، ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [**البقرة**: ٢٦٩].

فهذا القاضي أبو بكر الباقلاني رحمه الله (المتوفىٰ ٤٠٣ هـ) يجادل بطركا من بطاركة الروم في مجادلة أعدها من أقرب ما رأيت شبها بطريقة الأنبياء والمرسلين، وأبعده عن تفلسف المتكلمين وتكلفهم (وكان هو من كبارهم رحمه الله وعفا عنه)، فقد ذكر ابن حيّان القرطبي المؤرخ عمن حدثه (والرواية منقولة بلفظها من المصدر السابق) أن طاغية الروم وعد القاضي أبا بكر بالاجتماع معه في محفل من محافل النصرانية ليوم سمّاه. فحضر أبو بكر وقد احتفل المجلس، وبولغ في زينته، فأدناه الملك وألطف سؤاله، وأجلسه علىٰ كرسيه، دون سريره بقليل. والملك في أبّهته وخاصته، عليه التاج، والذرية ورجال مملكته علىٰ مراتبهم. وجاء البطرك قيم ديانتهم، وقد أوعد الملك إليه في التيقظ، وقال له: إن فناخسرو ملك الفرس، الذي سمعت بدهائه وبكرامته، لا ينفذ إلا من يشبهه في نحلته وحيلته، فتحفظ منه، وأظهر دينك. فلعلك تتعلق منه بسقطة، أو تعثر منه علىٰ زلة تقضي بفضلنا عليه. فجاء البطرك قيم الديانة، وولي النِّحلة. فسلم القاضي عليه أحفل سلام، وسأله أحفىٰ سؤال، وقال له: كيف الأهل والولد؟ فعظم قوله هذا عليه، وعلىٰ جميعهم وتغيروا له، وصلبوا علىٰ وجوههم، وأنكروا قول أبي بكر عليه، فقال: يا هؤلاء تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ الصاحبة والولد، وتربُون به عن ذلك، ولا تستعظمونه لربكم، عزّ وجهه، فتضيفون ذلك إليه؟ سوءة لهذا الرأي ما

أبين غلطه! فسُقط في أيديهم، ولم يردوا جوابا. وتداخَلَتهم له هيبة عظيمة، وانكسروا. ثم قال الملك للبطرك: ما ترىٰ في أمر هذا الشيطان؟ قال: تقضي حاجته، وتلاطف صاحبه، وتبعث بالهدايا إليه، وتخرج العراقي عن بلدك من يومك إن قدرت، وإلا لم آمن الفتنة منه علىٰ النصرانية. ففعل الملك ذلك وأحسن جواب عضد الدولة، وهداياه، وعجل تسريحه، ومعه عدة من أسارىٰ المسلمين والمصاحف. ووكل بالقاضي من جنده من يحفظه، حتىٰ وصل إلىٰ مأمنه. قال غيره: وكان سير القاضي إلىٰ ملك الروم سنة نيف وثمانين وثلاثمائة.

قلت: فتأمل كيف استغل رحمه الله ما عليه القوم من تنزيه رهبانهم عن اتخاذ الولد، ليلزمهم بأن ما هو عليه من تنزيه الرب جل وعلا عن ذلك كله أولىٰ ولا بد، وذلك نظير ما في قول الله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ**﴾ [**الزخرف**: ١٧]، فالبيان المطلوب قد تم بمجرد بيان حقيقة أنهم قد نسبوا إلىٰ خالقهم ما يكره بعضهم أن ينسبه إلىٰ نفسه ويترفع عنه! تحقق غرض الخطاب الدعوي والمحاججة العقلية بمثل ذلك كاملا غير منقوص من غير أن يقدم الداعية بين يدي خصمه «برهانا كلاميا» نظريا لامتناع أن يتخذ الرب ولدا، أو حتىٰ أن يتكلف استعمال اصطلاحات منطقية من أي نوع، كأن يتكلم عن لزوم النقص من مطلق معنىٰ الاستيلاد أو اتخاذ الولد (مثلا)، أو عن وجوب أحدية واجب الوجود وامتناع أن يصير نوعا تتعدد أفراده بأن يكون له ذرية لامتناع تعدد القدماء أو نحو ذلك مما قد يتفنن فيه المتكلمون من ألوان البرهان العقلي، فيفتح بذلك بابا للخصم ليتناول مقدمات هذا البرهان أو ذاك وألفاظه وتراكيبه ومصطلحاته بالتنقير والنقد والتحليل والمراجعة، ثم يتوالىٰ الرد والرد المقابل، بما يوهم بأن القضية مطروحة (نوعا) للنظر وترجيح الأدلة، بل بأنها مفتقرة لذلك (معرفيا)، فلا يزيد الحق بذلك إلا بعدا عن نفوس السامعين، ولا تزيد به القلوب المريضة إلا زيغا ومرضا! فبعيدا عن ذلك كله، وعن طرائق المتكلمين التي كان لأشعريته متمرسا فيها، ما زاد الشيخ رحمه الله علىٰ أن بادر باستخراج ما في نفوسهم من استشناع لبعض خصال المخلوقات من اتخاذها الصاحبة والولد، وإظهار

ذلك للناس من حولهم، حتىٰ يصدمهم ويصدم من حضر ذلك المجلس (صدمة نفسية مباشرة) بتناقضهم الواضح إذ يجوزون اتخاذ الولد في حق ربهم ويستشنعونه في حق عظمائهم!

هذه الصدمة النفسية هي أقرب شيء شبها في طريقة المحاججة بما صنعه إبراهيم عليه السلام عندما حطم الأصنام ثم طالب الكهنة بأن يسألوا كبيرها (الذي تركه قائما) عمن حطمها، من غير أن يخوض معهم في تفلسفهم وألاعيب متكلميهم بما يسمونه «برهانا عقليا»! وكذلك يوم أن جادل عليه السلام النمرود إذ زعم ذاك الطاغوت المتغطرس أنه رب قائم بنفسه غير مربوب، فطالبه بأن يأتي بالشمس من مغربها، فأحرجه أشد ما يكون الإحراج بذلك أمام بطانته وغيرهم ممن حضروا تلك الواقعة! فنحن نقول من استطاع أن يأتي بمثل ذلك عند مخاطبة أهل الملل من وثنيين وكتابيين وملاحدة، مع سوق نصوص الوحي الشريف سوقا صحيحا، فقد جادل بالحكمة والموعظة الحسنة، وبين الحق أحسن بيان، وزلزل قلوب المخالفين بفضح الرؤوس منهم ومصادمة أهواء الأتباع والموالين وإحراجهم جميعا (مع مراعاة ضابط المصلحة الشرعية في الجدال العلني)، وهو ما جاء بمثله القرآن بما لا مزيد عليه، أما أن يقال للواحد من هؤلاء: «إن هذه الثلاثة إما أن يستغني أحدها عن الآخر وإما أن يفتقر إليه، فما جوابك؟»، فإما سكت وإما أدخلنا في فلسفة القوم ونظرياتهم اللاهوتية وتنظيراتهم في أحوال الأقانيم وعلاقة الواحد منها بالآخر وهذه الأشياء، فهذا من طريقة الفلاسفة والمتكلمين لا من طريقة الأنبياء والمرسلين، مهما انقطع النصراني أو تخلف عن الجواب، ومهما دخل في الإسلام من دخل فيما بعد علىٰ أثر ذلك (فيما يبدو للناس)، والله أعلىٰ وأعلم.

لذا نقول لو أن نصرانيا جاء يطلب المجادلة والمناظرة[١] في زعمنا نحن المسلمين بطلان اعتقاد الثالوث مثلا، لم يصح لنا أن نجيبه إلىٰ ذلك. لماذا؟ لأن حقيقة طلبه هذا أنه يريد منك إما أن تقيم له برهانا نظريا يثبت به بطلان معنىٰ الثالوث في العقل المجرد، أو أن ترد بدليل نظري علىٰ دعوىٰ سوفسطائية وضعها اللاهوتيون لنصرة تلك العقيدة

(١) على هذه الطريقة التي وضعها الفقهاء والمتكلمون في علم الجدل، ويحترف نحوا منها أهل العلوم والنظار والفلاسفة في مسائل علومهم على اختلاف تخصصاتهم.

عندهم، وهذا طلب ساقط من الأساس، دافعه الهوىٰ والمكابرة في نفس صاحبه (كما سيأتي بيانه وبحثه في فصول هذا الكتاب)، لأنه لا يُتصور في العقل أن يقام دليل نظري تثبت به صحة (أو فساد) الدعوىٰ القائلة بأن الباري إله واحد وثلاثة آلهة في نفس الوقت، أو بأن شيئا ما يوصف بأنه واحد، يصح في العقل أن يوصف كذلك بأنه ثلاثة أشياء، أيا ما كان ذلك الشيء! هذا صنف من المعاني تغني حكايته عن تكلف إبطاله، فكيف يُناظَر من زعم أن لديه دليلا علىٰ صحته؟!

ولذا لا يصح بحال أن تكون هذه المسألة من جنس المسائل التي يمكن أن يدخل فيها المسلم حوارا مع خصمه وهو يقول له في مستهل النقاش كما يقول بعض الجهلاء: «أشهدك أيها المحاور وأشهد الناس علىٰ أني لو تبين لي أنك علىٰ حق بعد هذا الحوار فسأترك ما أنا عليه وأوافقك علىٰ ما أنت عليه»! أي شيء هذا الذي تجيز لنفسك موافقة خصمك عليه يا مسكين، وأي حق هذا الذي تزعم أنه يمكن (عقلا) أن ينتهي النقاش بينك وبين خصمك إلىٰ إثبات أنه عند ذلك الخصم لا عندك؟ هذا كلام لا يقوله في مقام كهذا إلا أحد رجلين لا ثالث لهما: إما كاذب يخادع محاوره حتىٰ يدخل معه في نقاش عبثي لن يخرجا منه إلا وقد ازداد مخالفه عنادا ومكابرة وبعدا عن الحق الظاهر الجلي وتشويشا عليه في نفسه ونفوس من حضروه لا محالة (وسنبين وجه ذلك من الناحية النفسية بتفصيل فيما يلي من فصول هذا الكتاب)، وإما زنديق سوفسطائي متفلسف، لا يرىٰ بأسا في أن يخرج من ذلك النقاش وهو علىٰ دين مخالفه تحقيقا، نسأل الله السلامة!

ونقول لا وجه لقول بعضهم إن قول المسلم في مناظرة كهذه إنه مستعد لقبول الحق لو ظهر علىٰ يد الخصم، هو من افتراض الممتنعات كما في قول الله تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ**﴾ [**الزخرف**: ٨١] لأن الله عز وجل لم يأمر محمدا عليه السلام بأن يجعل هذا القول ونحوه بين يدي مناظرة كلامية يطالب فيها خصمه بأن يأتي بدليل نظري (عقلي) علىٰ إمكان أن يكون للباري ولد، ثم يتكلف الرد علىٰ دليله المزعوم بطريقة الفلاسفة، سبحانه وتعالىٰ عن ذلك علوا كبيرا! هذا من قبيل التنزل

لمزيد من نقض الباطل الظاهر وإسقاطه، ومثله قد يأتي في سياق نحو هذا: «لو كنت أعلم أن لله ولدا لكنت دعوت الناس إليه، ولكن هذا محال أصلا والله منزه عنه، فاتقوا الله واستغفروه وتوبوا إليه من تلك المقالة الشنيعة» فأين مخاطبة الناس بعبارة كهذه من دعوتهم «للمناظرة» حول نسبة الولد إلىٰ رب العالمين؟ لهذا أردف سبحانه في الآية التالية مباشرة من سورة الزخرف بقوله: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴿٨٢﴾ **فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٨٢، ٨]، ولم يقل جل وعلا: «قل فإن كان لديكم برهان علىٰ أن لله ولدا فهاتوه لأجادلكم فيه وأثبت لكم بطلانه»! أبدا، بل عمد علىٰ الفور إلىٰ تسبيح ذاته العلية وتحميدها وتنزيهها، وهو ما تقتضيه الفطرة والبداهة في عقول العقلاء، وتحتاج نفوسهم إلىٰ سماعه والإكثار منه، من غير أن يكون ثمة افتقار إلىٰ نصب البرهان أو الدليل «النظري».

هذا مسلك برهاني مخالف لمفهوم البرهان عند الفلاسفة وأذنابهم من اللاهوتيين والمتكلمين، تقوم به الحجة علىٰ أساس استحضار معرفة فطرية بدهية متحققة في النفس ابتداءً، لا علىٰ أساس إكساب السامع معرفة يفتقر إليها (بأصل خلقته) من طريق الدليل النظري! وهو سياق المحاجة في النص القرآني نفسه كما ترىٰ في كل ما يناظره من أنواع القضايا البدهية الفطرية، لا أنها تكون «مناظرة» بين الفريقين في تلك المسألة، يأتي فيها كل واحد منهما بدليله ليتبادلا النظر ويتجاذبا أطراف الترجيح!

من هنا فإننا نقول إن المجادل جدالا نظريا في مسألة كهذه، إنما ينادي علىٰ نفسه بضياع الحق وفساد الدين، وإنما مثله كالذي يريد الدخول إلىٰ بيت من البيوت، فتراه يبدأ من عتبة باب ذلك البيت نفسه ثم ينطلق بحثا عنه في سائر شعاب القرية وقد ولاه دبره ومنه انطلق في رحلته لا من غيره! ولهذا قيل في الفلاسفة إن مثل الواحد منهم كمثل من يعلم أنه فقد شيئا من متاعه في الطريق، ومع ذلك تراه يصر علىٰ البحث والتنقيب عنه في قعر بيته لأنه يحب البحث هنالك! أنىٰ لمثل هذا أن يكون صادقا في طلب الوصول إلىٰ بغيته، وبأي عقل يُحمد له مسلكه ذاك أو بأي نية يشجعه العاقل عليه أو يخوض فيه معه؟ لهذا لم نر في القرآن حجة تقام علىٰ صاحب دعوىٰ التثليث

أحسن ولا أبلغ ولا أوفىٰ بالمطلوب من قوله جل شأنه وتقدس اسمه: ﴿**وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**﴾ [النساء: ١٧١]، فلماذا كانت تلك الآية الموجزة حجة بالغة كافية في أداء المطلوب من مخاطبة أصحاب الثالوث؟ لماذا لم نر جوابا في القرآن عن كلام فلاسفة اللاهوت في الانتصار لثالوثهم (وما أكثر ما ترىٰ من ذلك في مصنفاتهم، وقد كان يتكلم به الأحبار والرهبان في زمان الوحي في جزيرة العرب ولا شك) ولا حتىٰ الإشارة إليه ولو من بعيد؟ لأن الحق في ذلك ظاهر جلي لا يفتقر إلىٰ دليل، ولا يماري فيه إلا مماحك معاند. فالعاقل لا يفتقر إلىٰ من يقدم له دليلا نظريا علىٰ أن الشيء الواحد (الله) لا يمكن أن يكون واحدا وثلاثة في نفس الوقت!

وتأمل سياق محاججة القرآن لهم في موضع آخر، يقول جل وعلا: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٧] . فالسياق كما ترىٰ ليس سياق «مناظرة» ولا مجادلة ولا رد علىٰ ما عند المخالفين من «دليل لاهوتي» أو شبهة دليل عقلي علىٰ صحة اعتقادهم في ثالوثهم، وإنما هو سياق وعيد شديد ونذارة من المراء في الحق الواضح والإصرار علىٰ مخالفته! «لقد كفر الذين قالوا تلك المقالة وهم يعلمون أنه ما من إله إلا إله واحد بالضرورة، فإن لم ينتهوا عن هذا ويتوبوا ويستغفروا فلهم كذا وكذا»! فلماذا لا يكفينا كلام ربنا فيما حاجج به أصحاب الثالوث عندما يأتينا أحدهم بالجدال فيه؟ هب أن أحدهم قال في جواب هذه الآية: «ولكن نحن نقول إن الله إله واحد، وهذا الإله الواحد هو في نفس الوقت ثلاثة آلهة»، كما هو قولهم واعتقادهم، فهل يرجىٰ من خوض الجدال معه أي ثمرة؟ كيف يأتي القرآن بمثل هذا البيان الكافي، ثم نرىٰ من المسلمين من يدخل مع بعض أهل الكتاب في جدال فلسفي عبثي حول دعاوىٰ القوم في العلاقة بين اللاهوت والناسوت وفي حقيقة الأقانيم وهذه الأشياء، يزعم أنه يريد أن يثبت لهم بطلان اعتقادهم في الثالوث؟ أتزايدون علىٰ رب العالمين؟

حتىٰ عندما يأتي الخطاب بمثل قوله تعالىٰ ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [**البقرة**: ١١١] في مقام مخاطبة المشركين ببطلان ما اتخذوه من دون الله من آلهة، فلا يكون هذا دعوة من صاحب الخطاب للمخاطبين أن يدخلوا معه في «مناظرة» يأتوه فيها بأدلتهم اللاهوتية ليتكلف هو الرد علىٰ كل واحد منها، ثم يأتيه منهم الرد علىٰ رده، وهكذا في سجال طويل كما يصنع اللاهوتيون وأشباههم! فإن الله تعالىٰ يخاطبهم – كذلك – بقوله: ﴿**قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [يونس: ٦] فهو يخبرهم بأنهم يكذبون إذ يزعمون قيام الدليل علىٰ ذلك عندهم، وأنهم بذلك يقولون علىٰ الله ما لم يأتهم به خبر منه لأنه محال أن يأتيهم بمثله خبر أصلا، وليس هذا دعوة لهم أن يخرجوا أدلتهم المزعومة في كتبهم وعند علمائهم حتىٰ «يناقشهم» فيها الرسول ﷺ! وكذلك الشأن في كل من اتخذ مع الله إلها وجعل له شركاء فيما خلق وفي العبادة والتأله! هو يعلم بداهة وضرورة أنه لا دليل لديه، وأنه من المحال أن يكون لديه دليل ولا شبهة دليل! فلا نقول له هات برهانك إن كنت صادقا طلبا للدخول معه في «مناظرة» جدلية، وإنما هو افتراض للممتنع عقلا في سياق لا يخفىٰ فيه أنه ممتنع، لمزيد من صدم النفس بالحق ولإفاقتها مما توهم به صاحبها أنه علىٰ شيء. فلو انفتح الباب «للمناظرة» في ذلك والمناقشة حوله علىٰ تلك الصورة المنتشرة في زماننا، لضاع الأثر المطلوب، ولفات المقصود من الخطاب، فتأمل.

والقصد أن من طلب المناظرة من المشركين في مسألةٍ الحقُّ فيها ظاهر بين بنفسه ولا يفتقر إلىٰ دليل نظري (كمسألة معقولية الثالوث مثلا، وبطلان عبادة مخلوق من مخلوقات الله معه) فلا يجيب المسلم إلا بالتذكير بالحق بأوجز عبارة ثم الوعظ البليغ كما هو مسلك القرآن، فإن أجابه إلىٰ طلبه المناظرة علىٰ تلك الطريقة المنهجية المتبعة في المسائل النظرية، كان مخالفا للشرع والعقل ولأصول علم الجدل نفسه كما سيأتي. أما من قصد بـ«مناظرة المشركين» عند دعوتهم إلىٰ الدين ما جاء بمثله القرآن وخاطبهم به الأنبياء والمرسلون، فنعم هذا مشروع قطعا، وفيه الكفاية – يقينا – لمن تجردت

نفسه من الأهواء. ولكن معلوم أن مصطلح «المناظرة» إن أطلق اليوم لم يكن هذا هو المراد به، وإنما أريد به تلك الطريقة الجدلية المشهورة التي لا تصح إلا في النظريات من المسائل، ولا تكون عند استعمالها في أمثال تلك البدهيات الأولىٰ إلا ضربا من السفسطة التي من أجلها استحق الفلاسفة والمتكلمون الذمّ الشديد عند السلف، ولا ترجع علىٰ الدعوة إلا بالضرر والفساد.

قال الإمام أبو نصر عبيد الله السجزي رحمه الله (المتوفىٰ في ٤٤٤ هـ) فيما عده من «فضائح الأشاعرة» في رسالته إلىٰ أهل زبيد في الرد علىٰ من أنكر الحرف والصوت (ص. ٣٠٥):

> **ومنها**: أن الملحد، والمجوسي، واليهودي، والنصراني ينبغي أن يُدعوا إلىٰ المناظرة ويُتعلم الكلام لجدالهم والله سبحانه قد منع من الجلوس مع الخائضين في آياته، واتفق أهل الحل والعقد من العلماء علىٰ أن الملحد، والمجوسي، وأهل سائر النحل لا يلزمنا جدالهم، وأجمع أكثرهم علىٰ أن الجدال منسوخ بالأمر بالقتال، وفي مناظرتهم أكبر فساد (لانتشار) شبههم بها في الناس، وجواز عدم من يصل إلىٰ حلها في الحال.

فبصرف النظر عن الخلاف في مسألة النسخ وأي القولين هو الراجح فيها، فإنما نورد هذا النقل لنبين الفرق بين موقف أئمة السلف الأول من خوض الجدال مع أهل الأهواء الكبرىٰ علىٰ طريقة الكلام، وموقف الخلف من ذلك وتساهلهم فيه. الآفة وبيت الداء أن أكثر المسلمين اليوم أصبحوا لا يتصورون طريقة لمخاطبة أهل الملل إلا تلك الطرق التي تربوا عليها في سياق انتشرت فيه مادة المتكلمين ومصنفاتهم في ذلك، وفي سياق تلك المجتمعات الديموقراطية التي يقتات المثقفون فيها علىٰ تشعب وتوافر وتكاثر موضوعات الجدال الفلسفي واللاهوتي والكلامي بين الناس ودخولها في كل شيء واستمرارها أبدا بما لا غاية له عندهم ولا انتهاء. فالآن أصبحت كل المسائل مفتوحة للجدال والمناقشة، وكل القضايا المعرفية يجوز لكل أحد أن يضرب فيها برأيه ثم يخرج علىٰ الناس يبث فيهم ذلك الرأي وينشره من غير أن يتعرض له أولو السلطان في البلاد بشيء، حتىٰ أصبح تراكم تلك المناقشات والمجادلات والمناظرات

عندهم وتوسعها وتشعبها وانتشارها وتكاثر الآراء والمذاهب فيها مطلبا وغاية في نفسه، علىٰ طريقة الفلاسفة، وأصبحوا يعيِّرون الساكت أو الممتنع عن الخوض في تلك الضروب مع أصحابها بقلة العلم أو قلة العقل أو ضعف الحجة أو الجبن عن المواجهة أو الانغلاق وضيق العطن أو نحو ذلك من اتهامات قد تضاعفت أسباب كرهها والجزع منها في نفوس المفتونين في زماننا هذا أضعافا مضاعفة. فقد أصبح اجتناب ذلك التنطع الشديد والتعمق الذميم والإعراض عنه من الصعوبة علىٰ نفوس الناس بمكان سحيق، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الملا علي القاري الماتريدي في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» عند شرحه قول رسول الله ﷺ (حديث ٦٥، مجلد ١، ص. ١٣٧): «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّىٰ يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَنْتَهِ». (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ):

> (**وَلْيَنْتَهِ**): بِسُكُونِ اللَّامِ، وَتُكْسَرُ؛ أَيْ: لِيَتْرُكِ التَّفَكُّرَ فِي هَذَا الْخَاطِرِ، وَلْيَشْتَغِلْ بِأَمْرٍ آخَرَ؛ لِئَلَّا يَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَوْقَعَهُ فِيهِ رَجَاءَ أَنْ يَقِفَ مَعَهُ، وَيَتَمَكَّنَ فِي نَفْسِهِ فَيَحْصُلَ لَهَا شَكٌّ وَرَيْبٌ فِي تَنْزِيهِهِ تَعَالَىٰ عَنْ سِمَاتِ الْحُدُوثِ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ، فَمَنْ تَنَبَّهَ، وَكَفَّ عَنِ الِاسْتِرْسَالِ مَعَ ذَلِكَ الْخَاطِرِ، وَأَشْغَلَ نَفْسَهُ حَتَّىٰ انْصَرَفَتْ عَنْهُ فَقَدْ خَلَصَ، وَمَنْ لَا فَقَدِ ارْتَبَكَ فَيُخْشَىٰ عَلَيْهِ مَزَلَّةُ الْقَدَمِ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، وَإِنَّمَا أُمِرَ بِذَيْنِكَ دُونَ الِاحْتِجَاجِ وَالتَّأَمُّلِ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْعِلْمَ بِاسْتِغْنَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُؤَثِّرِ، وَالْمُوجِدِ ضَرُورِيٌّ لَا يَقْبَلُ احْتِجَاجًا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَيْءٌ يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ إِمَّا لِيُحَجَّكَ إِنْ جَادَلْتَهُ؛ لِأَنَّهُ مُسَلَّطٌ عَلَىٰ الْقُلُوبِ بِإِلْقَاءِ الْوَسَاوِسِ عَلَيْهَا لِيَخْتَبِرَ إِيمَانَهَا، وَوَسَاوِسُهُ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ فَمَتَىٰ عَارَضْتَهُ بِمَسْلَكٍ وَجَدَ مَسْلَكًا آخَرَ إِلَىٰ مَا يُرِيدُهُ مِنَ الْمُغَالَطَةِ، وَالتَّشْكِيكِ، وَإِمَّا لِيُضَيِّعَ وَقْتَكَ، وَيُكَدِّرَ عَيْشَكَ إِنِ اسْتَرْسَلْتَ مَعَهُ، وَإِنْ حَجَجْتَهُ فَلَا أَخْلَصَ لَكَ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ جُمْلَةً، وَالِالْتِجَاءِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ كَمَا قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [**الأعراف**: ٢] ثَانِيهُمَا: أَنَّ الْغَالِبَ فِي مَوَارِدِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ أَنَّهُ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ رُكُودِ النَّفْسِ، وَعَدَمِ اشْتِغَالِهَا بِالْمُهِمَّاتِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهَا، فَهَذَا لَا يَزِيدُهُ فِكْرُهُ فِي ذَلِكَ إِلَّا الزَّيْغَ عَنِ الْحَقِّ، فَلَا عِلَاجَ لَهُ إِلَّا الِالْتِجَاءَ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ، وَالِاعْتِصَامَ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: لَوْ أَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

فِي مُحَاجَّتِهِ لَكَانَ الْجَوَابُ سَهْلًا عَلَىٰ كُلِّ مُوَحِّدٍ أَيْ: بِإِثْبَاتِ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ عَلَىٰ أَنْ لَا خَالِقَ لَهُ تَعَالَىٰ بِإِبْطَالِ التَّسَلْسُلِ، وَنَحْوِهِ كَاسْتِحْضَارِ أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ دَاخِلَةٌ تَحْتَ اسْمِ الْخَلْقِ، فَلَوْ جَازَ أَنْ يُقَالَ: مَنْ خَلَقَ الْخَالِقَ لَأَدَّىٰ إِلَىٰ مَا لَا يَتَنَاهَىٰ، وَهُوَ بَاطِلٌ قَطْعًا، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِمَذَمَّةِ عِلْمِ الْكَلَامِ، وَدَلَالَةٌ عَلَىٰ حُرْمَةِ الْمِرَاءِ، وَالْمُجَادَلَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ، وَصِفَاتِهِ، وَإِيمَاءٌ إِلَىٰ صِحَّةِ إِيمَانِ الْمُقَلِّدِ. (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

قلت: عجيب والله كيف يناقض أهل الكلام أنفسهم، ويشهد الواحد منهم علىٰ نفسه بفساد مسلكه في المحاججة الكلامية في نفس السياق الذي يسوق فيه بضاعته منها! من كان يشهد بأن العلم بوجود الباري ضروري لا يقبل احتجاجا، فلماذا يشتغل بعلم الكلام بدعوىٰ إقامة الحجج العقلية وإثبات «وجود الصانع» و«حدوث العالم» وهذه الأشياء، طلبا لمحاججة قوم هذا هو عين سؤالهم واعتراضهم الذي جاؤوا به؟ ألا يشهد هذا الحديث بأن تلك المحاججة والمجادلة (وأي صورة من صور الترسل مع سؤال كهذا من الأساس) مرض شيطاني يجب علىٰ المسلم أن يبرأ منه؟ إن كنت تعلم أن النبي ﷺ لم يأذن في محاججة الشيطان والترسل معه عندما قذف بذاك السؤال الخبيث في نفس المسلم، فلماذا تكلفت المحاججة بالتسلسل وهذه الأشياء وأبيت إلا أن تكتب ما كتبت في مقام شرح الحديث نفسه رحمك الله وغفر لك؟ [1] ثم كيف يكون

(١) ومع هذا فللإمام الخطابي رحمه الله رسالة قيمة للغاية، يبدو أنه ألفها في آخر أمره، ولعله كان يخاطب بها نفسه قبل غيره، جعلها تحت عنوان: «الغنية عن الكلام وأهله»، فقدم لها بنصيحة قيمة أسوقها لأهميتها ولشدة تعلقها بما نقرره في هذا الكتاب، حيث قال رحمه الله:

«عصمنا الله وإياك - أخي - من الأهواء المضلة، والآراء المغوية، والفتن المحيرة، ورزقنا وإياك الثبات على السنة، والتمسك بها، ولزوم الطريقة المستقيمة التي درج عليها السلف، وانتهجها بعدهم صالحو الخلف، وجنبنا وإياك مداحض البدع، وبنيات طرقها العادلة عن نهج الحق وسواء الواضحة، وأعاذنا وإياك من حيرة الجهل وتعاطي الباطل، والقول بما ليس لنا به علم، والدخول فيما لا يعنينا، والتكلف لما قد كفينا الخوض فيه ونهينا عنه، ونعمنا وإياك بما علمنا، وجعله سببا لنجاتنا، ولا جعله وبالا علينا برحمته. وقفت على مقالك - أخي - وليك الله بالحسنى، وما وصفته من أمر ناحيتك، وما ظهر بها من مقالات أهل الكلام وخوض الخائضين فيها، وميل بعض منتحلي السنة إليها، واغترارهم بها، واعتذارهم في ذلك بأن الكلام وقاية للسنة، وجنة لها يذب به عنها، ويذاد بسلاحه عن حرمها، وفهمت ما ذكرته من ضيق صدرك بمجالستهم، وتعذر الأمر عليك في مفارقتهم، لأن موقفك بين أن تسلم لهم ما يدعونه من ذلك فتقبله، وبين أن تقابلهم على ما يزعمونه فترده وتنكره، وكلا الأمرين يصعب عليك، أما القبول فلأن الدين يمنعك منه، ودلائل الكتاب والسنة تحول بينك وبينه، وأما الرد والمقابلة، فلأنهم يطالبونك بأدلة العقول، ويؤاخذونك بقوانين الجدل،

ولا يقنعون منك بظواهر الأمور.»

ثم قال: «واعلم يا أخي – أدام الله سعادتك – أن هذه الفتنة قد عمت اليوم وشملت، وشاعت في البلاد واستفاضت، فلا يكاد يسلم من رهج غبارها إلا من عصمه الله تعالى، وذلك مصداق قول النبي ﷺ «إن الدين بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء». فنحن اليوم في ذلك الزمان وبين أهله، فلا تنكر ما نشاهده منه، وسلوا الله العافية من البلاء. واحمده على ما وهب لك من السلامة وحاط به من الرعاية وجميل الولاية.»

قلت: إذا كان هذا ما رأى رحمه الله في حال أهل زمانه، فكيف لو بعثه الله في زماننا هذا ورأى ما آل إليه حال الناس، على ما أغرقتهم فيه وسائل «الإعلام» من فضائيات وصحف وشبكات الإنترنت والشبكات الاجتماعية ونحوها من جدل طويل واسع لا ينقطع ليل نهار في كل شيء وخوض مستمر في كل مسألة ومع كل أحد، وتشجيع لكل جاهل على أن يبدي «رأيه» في كل شيء ويكتب ويعبر وينشر ويصبح له منبره الخاص الذي تتوافد عليه الناس من عرف منهم ومن لم يعرف؟ نسأل الله العافية والسلامة.

ثم أضاف رحمه الله كلاما طيبا يدل على تفطنه لحيل الشيطان والنفس في استدراج المرء (لا سيما الأذكياء من الناس) إلى تلك الضروب وزخرفتها له، تلك الحيل التي سيأتي تناولنا لها بتفصيل في هذا الكتاب (لا سيما في فصل بعنوان كبر الفلاسفة)، فقال:

«ثم إني تدبرت في هذا الشأن، فوجدت عظم السبب فيه: أن الشيطان صار اليوم بلطيف حيلته، يسول لكل من أحس في نفسه بزيادة فهم، وفضل ذكاء وذهن، ويوهمه أنه إن رضي في عمله ومذهبه بظاهر من السنة، واقتصر على واضح بيان منها، كان أسوة للعامة، وعد واحدا من الجمهور والكافة، فإنه قد ضل فهمه واضمحل لطفه وذهنه، فحركهم بذلك على التنطع في النظر، والتبدع لمخالفة السنة والأثر، ليبينوا بذلك من طبقة الدهماء، ويتميزوا في الرتبة عمن يرونه دونهم في الفهم والذكاء، فاختدعهم بهذه الحجة حتى استزلهم عن واضح المحجة، وأورطهم في شبهات تعلقوا بزخارفها، وتاهوا عن حقائقها، فلم يخلصوا منها إلى شفاء نفس، ولا قبلوها بيقين علم. ولما رأوا كتاب الله تعالى ينطق بخلاف ما انتحلوه، ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه، ضربوا بعض آياته ببعض، وتأولوها على ما سنح لهم في عقولهم، واستوى عندهم على ما وضعوه من أصولهم، ونصبوا العداوة لأخبار رسول الله ﷺ ولسنته المأثورة عنه، وردوها على وجوهها، وأساءوا في نَقَلَتها القالة، ووجهوا عليهم الظنون، ورموهم بالتزندق، ونسبوهم إلى ضعف المنة، وسوء المعرفة لمعاني ما يروونه من الأحاديث، والجهل بتأويله. ولو سلكوا سبيل القصد ووقفوا عندما انتهى بهم التوقيف، لوجدوا برد التقى، وروح القلوب ولكثرت البركة وتضاعف النماء، وانشرحت الصدور، ولأضاءت فيها مصابيح النور، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. واعلم أدام الله توفيقك، أن الأئمة الماضين والسلف المتقدمين لم يتركوا هذا النمط من الكلام، وهذا النوع من النظر، عجزا عنه ولا انقطاعا دونه، وقد كانوا ذوي عقول وافرة، وأفهام ثاقبة، وقد كان وقع في زمانهم هذه الشبه والآراء، وهذه النحل والأهواء، وإنما تركوا هذه الطريقة وأضربوا عنها – لما تحققوا من فتنتها، وحذروه من سوء مغبتها، وقد كانوا على بينة من أمرهم، وعلى بصيرة من دينهم – لما هداهم الله له من توفيقه، وشرح به صدورهم من نور معرفته، ورأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته، وتوقيف السنة وبيانها غناءً ومندوحة عما سواهما، وأن الحجة قد وقعت بهما، والعلة أزيحت بمكانهما. فلما تأخر الزمان بأهله، وفترت عزائمهم في طلب حقائق علوم الكتاب والسنة، وقلت عنايتهم بها، واعترضهم الملحدون بشبههم، والمتحذلقون بجدلهم، حسبوا أنهم إن لم يردوهم عن أنفسهم

مقلدا من التزم هذا النهي الواضح عن الخوض بنظره وفكره في سؤال كهذا؟ كيف توصف تلك الضروريات العقلية نفسها (بشهادتكم) التي لا يأتي العلم فيها اكتسابا من بعد جهل وخلو للنفس كما تقررون، بأن من لم يتكلف النظر فيها فهو مقلد، ثم يختلف النظار في صحة (أو كمال) إيمانه من عدمها؟ من فقه هذا الحديث حق الفقه، فلن يصف المؤمن الممتنع عن النظر والاستدلال لوجود الباري والكلام فيما خاضت فيه شياطين الإنس والجن تنطعا وعدوانا بأنه مقلد ابتداء، حتىٰ ينظر بعد ذلك هل يصح إيمانه أم لا!

بهذا النمط من الكلام، ولم يدافعوهم بهذا النوع من الجدل، لم يقووهم، ولم يظهروا في الحجاج عليهم، فكان ذلك ضلة من الرأي وغبنا منه، وخدعة من الشيطان والله المستعان.»

قلت: فما أحوجنا لتأمل هذا الكلام وتدبره في زمان أغرق فيه الناس – أضعاف ما شهده هو في زمانه – في مجالسة الزنادقة والملاحدة والخوض معهم واستضافتهم في الفضائيات ونحوها وتعريض المسلمين لكلامهم بدعوى الرد عليه، والله المستعان لا رب سواه!

ثم مضى رحمه الله ليبين أن طريقة الكتاب والسنة في نصب البرهان العقلي على صحة رسالة محمد ﷺ تختلف اختلافا جذريا أصيلا عما يسلكه المتكلمون من طرائق الفلاسفة الذين يكذبون البدهيات والفطريات ويكفرون بالرسل والرسالات ويحاربون المرسلين! وقرر ما حاصله أن طريقة المتكلمين تفتح باب الجدل والاختلاف في أمور لا ينبغي أن يخفى مفهومها عن عقول الأسوياء أصلا، وأن ما في الكتاب والسنة يكفيهم (أي في باب الدلالة العقلية) ويغنيهم عن سلوك ذلك المسلك من الأساس. وجاء بإشارة باهرة في كلام الله تعالى إلى بطلان مسالك الفلاسفة والمتكلمين في قوله تعالى ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾ [**النساء**: ٨٢]، فقال ما حاصله أننا لو كنا وجدنا في القرآن ما نجده في كلام الفلاسفة من براهين فلسفية يرجى بها التدليل على ما لا تفتقر العقول فيه إلى دليل أصلا، يجري عليها النزاع والخلاف النظري في كل لفظة من ألفاظها وبنية من مبانيها على طريقة المتكلمين، لجزمنا بأنه ليس من عند الله جل وعلا! ونحن نقول إن هذا التفريق بين كلام الله جل وعلا وكلام غيره – من هذا الوجه – ليس فرقانا بين طريقة الرب جل وعلا وأنبيائه في مخاطبة البشر من جانب، وطريقة الفلاسفة والمتكلمين والمتنطعين من الجانب الآخر وحسب، وإنما هو آية الآيات ورأس البراهين على أنه كلام الله المنزل وأنه ليس من كلام البشر! ذلك أنه لو كان من كلام البشر، لرأيت فيه من جنس كلام الفلاسفة والمتكلمين ما يرجو به صاحبه أن يظهر به علوه العقلي وتفوقه على أهل الملل المخالفة، حتى يجذب إليه الأنظار ويقتنص قلوب أولي النفوس الضعيفة بزخرف القول ونطاعته التي تحار فيها عقول الناس، كما سلكه عامة الفلاسفة الذين تأله بعضَهم أتباعُهم من قبل تألها، وكاد بعضهم الآخر أن يصبح إلها معبودا من دون الله! ولكنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي لا تختلط لديه منازل المعارف البشرية، ولا يشتبه لديه العلم البدهي الفطري الواضح بالعلم النظري، ولا يرد على كلامه التناقض والاختلاف، ولا يفتقر الحق الذي فيه إلى دليل إضافي خارج عنه ينبغي تحريره أولا حتى يقبله العقلاء! فالحمد لله الذي كفى العقلاء بكتابه وأغناهم عن تنطع المتنطعين وسفسطة السفهاء والمفتونين.

التقليد لا يُتصور إلا في العلوم المكتسبة النظرية المبنية علىٰ دليل أو شبهة دليل، أما المعارف الضرورية الفطرية فلا يتصور فيها التقليد إلا فيمن زاغ عنها واعتنق ما يخالفها في محلها تبعا لسنن الآباء ودعاواهم وتخرصاتهم! فلولا أنه اكتسب من الاعتقاد ما يخالف ما جبل الله عليه نفسه من فطرة التوحيد، ما صار مشركا! ولهذا وُصف في الحديث بأن أبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه من بعد أن كان موحدا علىٰ الفطرة! فإذا جاءته دعوة المرسلين، لم تأته في ذلك الأصل العظيم بعلم مكتسب يفتقر إلىٰ دليل خارج عنه، إذ تدعوه إلىٰ نبذ الشرك وإلىٰ تنزيه ربه وباريه وتوحيده بما هو أهله، وإنما تأتيه بتذكيره بما وقر في فطرته من معرفة ضرورية قد طُبعت في نفسه في «ميثاق الذرّ»، ثم تراكمت عليها طبقات الهوىٰ والاعتقاد الفاسد حتىٰ كتمتها وأخفتها إخفاءً! فلا يكون مقلدا من قبِل بتلك الدعوىٰ وآمن بها كما هي من غير أن يطلب برهانا أو دليلا نظريا علىٰ صحتها! وإنما يكون شيطانا من يطلب ذلك الدليل ويزعم الافتقار إليه ويطلب الجدال عليه، كما هو مقتضىٰ الحديث، فيا ليت القوم يتأملون!

ولعل السبب في تضخم وتوغل العقلية السوفسطائية الغوغائية المتنطعة في زماننا هذا، هو عظم ما تراكم في أكاديميات الفلاسفة الغربيين من جدال طويل وتشعب فاحش، صار معه كل شيء عند دعاة الفلسفة التنويرية الأوروبية (التي التاثت بها أحلام الكثيرين في بلاد المسلمين علىٰ تفاوت) محلا لعشرات المذاهب والفلسفات والنظريات، مهما كان الموضوع من ضروريات العقل وبدهياته الأولىٰ. فصارت تلك البدهيات من جملة «النظريات» التي ترد عليها الإيرادات والاعتراضات أشكالا وألوانا، وأصبح القائلون بها مطالبين – في أوساط النخبة – بالرد علىٰ كل شاردة وواردة من مثل ذلك، ولا يحترمون ولا يقام لهم وزن بين الخاصة في أكاديميات العلوم إلا بذلك! والآن أصبح كل سؤال يطرحه سائل ما – لا سيما في قضايا الغيب الكبرىٰ – من الواجب عندهم أن يلتزم المجيب في جوابه عنه بأن يرد أولا علىٰ جميع ما طرحه الفلاسفة من اعتراضات علىٰ ذاك الجواب ونحوه (في إطار ما يقال له في أوساط الأكاديميين «مراجعة الأدبيات» Literature Review)، وأن يلتزم بالمنهج النظري التحليلي المتبع عند القوم في ذلك، مهما كانت الدعوىٰ التي يأتي بها الواحد من هؤلاء ساقطة في موازين العقلاء الأسوياء،

ومهما كانت المسألة نفسها مما لا يجيز العقل طرحه للنظر ابتداءً، دع عنك وقوع النزاع علىٰ جوابه. فإن لم يلتزم الداعية المسلم بذلك القالب الجدلي، فليس هو عندهم إلا خطيبا متفننا في إلهاب مشاعر الناس Rhetorician من غير علم ولا حجة ولا برهان! وأكثر المسلمين اليوم لا يتصورون – مثلا – أن يأتي فيلسوف من الفلاسفة إلىٰ عالم من علماء الدين، يريد مجادلته في وجود الباري أو في كمال صفاته، فيرده ذلك العالم ويزجره ويعنفه أشد التعنيف، هذا موقف يستنكرونه جدا ويعدون صاحبه متهربا من الإجابة أو قاصرا عنها، مع أن هذا ما كان عليه السلف ﵃ وآثارهم طافحة بذلك لمن راجعها! بل الواجب عندهم أن يجري الجدال علىٰ شرط الأكاديمية الفلسفية المعظمة في زماننا وإلا لم يكن له وزن ولا قيمة!

ومما يجدر ذكره في هذا السياق، أني كنت في حداثة أسناني في طلب العلم أستضعف ما يكتبه بعض كبار العلماء والمشايخ من أجوبة عن بعض «شبهات» الملاحدة، فلا يزيد الواحد منهم فيها علىٰ تقرير المعنىٰ البدهي الواضح في إيجاز، مع تلاوة بعض آيات كتاب الله تعالىٰ، ثم الوعظ والتذكير أو الزجر والتحذير بما يناسب. فكنت عندما أقف علىٰ جواب كهذا، أستشعر أن صاحبه لم يؤد المطلوب من «إقامة الدليل العقلي»، وأقول في نفسي – كما يصنع كثير من طلبة العلم اليوم – إنه كان عليه أن يتكلف إثبات وجود الله أولا، ثم إثبات أن القرآن منزل من عنده ثانيا، قبل أن يسوق إليه نصوص الوحي في مقام المحاججة! فمن أين أخذنا – نحن المسلمين – هذا التصورالفاسد للدليل العقلي والكفاية البرهانية وقيام الحجة في تلك القضايا، وكأنما نفرِّع بدعوانا هذه تنظيرا احتماليا علىٰ أصل نظري احتمالي مثله؟ ومن الذي أغرىٰ الأكثرين منا علىٰ القول بوجوب نصب البرهان النظري في مسألة وجود بارينا علىٰ طريقة الفلاسفة، بل من الذي علم المسلمين أن تكلف الرد والجواب لازم ضروري لكل دعوىٰ ولكل اعتراض أو سؤال يطرحه السفهاء والمجرمون من هنا وهناك علىٰ أصول ديننا؟ إنه الافتتان ببضاعة الفلاسفة، الذي يأتي من التلذذ بذاك التفوق العقلي الذي يستشعره أصحاب تلك البضاعة في القدرة علىٰ فهمها وتفكيك كل صعب عسير منها، والإتيان فيها بكل جديد وعجيب تعجز عن دركه وتصوره عقول أكثر الناس!

وليس هذا الافتتان بجديد (من جهة النوع) في بلاد المسلمين في الحقيقة، وإنما ازداد الناس فيه إغراقا علىٰ المستوىٰ الاجتماعي بعد علو فلسفة التنوير والحداثة وما بعدها في بلاد الغرب كما أشرنا، وازدادت - بل تضاعفت - دوافع النفوس الضعيفة وحواملها علىٰ اقتحام تلك المسالك المذمومة والخوض مع أهلها في كل مناسبة وفي كل مكان، لا سيما بتعاظم محافل المنافسة الأكاديمية بين أعداد من الباحثين تقدر بمئات الآلاف في شتىٰ مستويات النشر الأكاديمي. كل من تقدم للتسجيل للماجستير والدكتوراه فلا بد أن يقبل منه طرحه وإضافته أيا ما كانت، ما دام فيها الجديد والمزيد، وفيها من حسن التحليل والترتيب والنظر ما يدل علىٰ براعة الباحث، وإن كان موضوع البحث لا يستحق ثمن الورق الذي طبع عليه، بل حقه أن يقذف في التنور قذفا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فمن قبل تلك الفوضىٰ الشاملة، وفي القرون الثلاثة الفاضلة، كان أول ظهور المتكلمين في أهل القبلة تبعا لافتتان أناس من المتشرعين والتزامهم بطريقة معاصريهم وسابقيهم من الفلاسفة في بحث قضايا الغيب الكبرىٰ، معتقدين أن دعاوىٰ الفلاسفة من الدهرية والملاحدة لا يصلح لجوابها إلا سلوك نفس المسلك النظري الذي تكلفه أصحابها في صياغتها، فلا يؤتىٰ صاحب الدليل النظري المزعوم علىٰ قدم العالم - مثلا - إلا بدليل نظري مثله علىٰ حدوث العالم ولا بد، مستندا إلىٰ نفس نوع المقدمات الكوزمولوجية، رجاء أن تقوم عليه الحجة «العقلية» أو «العلمية» المطلوبة ويقتنع ببطلان كلامه، وإلا بقيت دعواه تلك بلا جواب «عقلي» كاف! فصاروا من حيث لا يشعرون خاضعين خضوعا تاما لشرط الفيلسوف الدهري الجاحد في طريقة المحاججة والبرهنة، متقيدين بمفهومه هو للعقل والدليل والبرهان العقلي ومفهومه للضروريات والبدهيات الأولىٰ ومفهومه وتصوره للمعرفة نفسها (كما سيأتي تناوله بمبحث مستقل في الفصل التالي)، وميتافزيقاه المعتمدة أكاديميا فيما يتعلق بالعالم المحسوس، وصار هذا هو أساس «علم الكلام»، ومن قبله «علم اللاهوت» عند أهل الكتاب، حتىٰ رأينا من أولئك المتكلمين من يعظمون أرسطو اليوناني تعظيمهم للرسول ﷺ، ويرون في

تصانيفه وغيره من فلاسفة اليونان منتهىٰ الحكمة وغاية الكمال العقلي [١]، ولا حول ولا قوة إلا بالله! واليوم نرىٰ نظير ذلك في أينشتاين وميتافزيقاه وفلسفته الفيزيائية كما بسطنا الكلام علىٰ ذلك بحول الله وقوته في غير هذا الكتاب.

ونحن معاشر المسلمين أهل السنة نقول ليس لأحد من مخالفينا أن يلزمنا بمنهجه هو في الجدال والنظر وبناء المعرفة! أولو كنا نراه منهجا فاسدا، أو علىٰ الأقل لا يصح أن يطبق في قضايا الغيب عامة، وفي أمهات القضايا الغيبية الكبرىٰ خاصة، التي تنازعتها الملل فيما بينها؟

هذا الاختلاف في مفهوم الحجة العقلية في تلك القضايا كان سببا في تطاول بعض سفهائهم علىٰ كتاب الله جل وعلا وزعمهم أنه كتاب وعظي «ضعيف من الناحية الفلسفية والحجاجية» فلا يقطع النزاع مع الفلاسفة ولا يرد علىٰ أسئلتهم واعتراضاتهم التي لا أول لها ولا آخر.[٢] وهذا من خفة عقولهم وخداعهم أنفسهم لو كانوا يعقلون، لأن السفيه خفيف العقل هو من يشتغل بالرد علىٰ كل دعوىٰ تأتيه من أهل السفسطة المتفننين في التشويش علىٰ الحق بكل طريقة، ولا يميز بين ما يصح النظر فيه من القضايا المعرفية وما لا يطرحه إنسان للسؤال فضلا عن النظر والاستدلال النظري إلا زال عنه اسم العقل بالكلية! فهو سفيه مهما أغرق في التنظير والتأصيل والتحليل والترميز وبناء النتائج علىٰ المقدمات أشكالا وألوانا! هذه السفاهة هي صنعة الفلاسفة

---

(١) وهو ما حمل ابن تيمية رحمه الله على وضع مجلد كامل في بيان فساد المنطق الأرسطي الذي اغتر به المتكلمون في زمانه ومن قبله أشد الغرور!

(٢) ومن المؤسف حقا أن ترى بعض المفتونين يتكلفون استخراج «البرهان النظري» الذي يطلبه الملحد من نصوص القرآن، بغية بيان أن الله تعالى قد تكلم في كتابه بـ«البرهان العقلي» على شرط هؤلاء ومفهومهم للبرهان العقلي، من فرط كراهيتهم أن يبدو القرآن خاليا من مثل بضاعتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. لست أتكلم عمن أغرقوا في البدع الكلامية وصرحوا بأنهم معتزلة أو أشاعرة أو نحو ذلك، فالواحد من هؤلاء جار على نفس ذاك المفهوم عند الفيلسوف على أي حال ولا يضيره ذلك بل يراه هو الغاية في كمال العقل، وإنما المؤسف أن ترى ذلك المسلك عند بعض المنتسبين إلى أهل السنة والأثر وطريقة السلف الصالح ﷺ، يظهر في تصانيفهم وكلامهم من حيث لا يشعرون، كما سأضرب عليه مثالا فيما يأتي من بعض كلامي القديم.

وحرفتهم كما سيأتي معك التمثيل عليه في قسم لاحق من هذا الكتاب، يتكلفونها في أي مسألة تمر عليهم أيا ما كان موضوعها ولا يبالون!

وأما العاقل الحكيم فهو الذي يعلم كيف يتكلم بما يحصل به المقصود علىٰ أتم وجه، بلا زيادة ولا نقصان، فيقيم حجته بأوجز عبارة وأبلغ بيان، ويذكر العقلاء بمقتضىٰ ما هو مطبوع في نفوسهم من حقائق بدهية ضرورية، يؤسس دعوته علىٰ استصحابها ولا يُستدرج إلىٰ المجادلة والمراء فيها وعليها هي نفسها، وإنما يعامل أصحاب المراء والخصومة في مثل ذلك علىٰ بصيرة بدوافعهم وحيلهم وما تزينه لهم نفوسهم التي في صدورهم وشياطين الإنس والجن من حولهم ليل نهار، فلا يُفصل ولا يفسر ولا يُنَظر إلا في موضع يرجىٰ فيه من ذلك زيادة التوضيح والبيان وتجلية الحق تحقيقا لا وهما، ولا يجمل حيث يحسن التفصيل، ولا يفصِّل فيما لا يفتقر في مثله إلىٰ تفصيل، ولا يسيء إلىٰ الحق الظاهر الذي معه بالغرق في مستنقعات السفسطة والتشويش والعبث كما هي طرائق الفلاسفة ومن تشبع بطريقتهم من المتكلمين.

نقول إنه لا يعترض علىٰ القرآن وعلىٰ بلاغة وظهور الحجة القرآنية وكفايتها لأداء المطلوب إلا رجل غارق حتىٰ أذنيه في الأهواء والشهوات. ونحن ما شرعنا في تأليف هذا الكتاب إلا لبيان حقيقة هذا المرض الشيطاني وكشف أعراضه وعلاماته عند أصحابه، وتنبيه المسلمين لحيلهم وألاعيبهم التي يخادعون بها أنفسهم قبل غيرهم، حتىٰ لا يكون المسلم عونا لشياطين هؤلاء علىٰ نوال مرادهم من حيث يحسب أنه يحسن صنعا.

فمثلا يأتي أحدهم بقوله إن القرآن فيه تكرار، والتكرار حشو لا فائدة منه، فما جوابكم أيها المسلمون؟ فما يكون من أخينا المسلم الذي يتعرض لهذا الكلام إلا أن يذهب لينقب في الكتب ليأتي بكلام أهل العلم في فوائد التكرار وخصائص النظم القرآني وثمراته، ثم يقدمها لذاك المكابر الجاحد وهو يرجو أن يكون فيها «إفحام» وإسكات له، ثم يحزن حين يراه يواصل الجدال بالاعتراض علىٰ تلك الفوائد نفسها وبالمجادلة فيها، ولعله لا يدري أي شيء يصنع معه حينئذ ولا بأي شيء يجيبه، وهو

حريص علىٰ الرد والجواب علىٰ اعتراضاته السوفسطائية الجوفاء تلك مهما كثرت، لأنه يكره أن «ينقطع» عن مجادلة الخصم فيوحي لنفسه ولمن تابع تلك «المناظرة» بأنه قد سقطت حجته وانهزم! فعلىٰ أي شيء قامت تلك «المناظرة» من الأساس؟ قامت علىٰ إطلاق رجل خبيث الزعم بأن التكرار في الكلام لا يأتي بفائدة، فهل في عقول العقلاء الأسوياء ما يصح به ذلك الإطلاق؟ أبدا! فمن التكرار ما يفيد قطعا، ولو بمجرد التذكرة والاستحضار لا غير، وهذا أمر لا مراء فيه. فهل وقع من التكرار في القرآن تناقض أو تفاوت أو اختلاف لا يقبل الجمع بوجه من الوجوه المعقولة، أو تفويت للمقصود من الوحي نفسه؟ أبدا! ولو ظفر صاحب هذا الاعتراض بمثل ذلك من تنقيبه في كتاب الله لهرع به إلينا ولجعله هو اعتراضه ورأس هجومه ولا شك!

فما القضية إذن؟ القضية أن هذا رجل مكابر لا يعجبه القرآن ولا من بعثه الله بالقرآن ولا يريد أن يؤمن بأن محمدا نبي مرسل من عند خالقه ومليكه، فهو يطلق الاعتراضات التافهة هنا وهناك لا لشيء إلا للتشويش علىٰ ما عرف في باطن نفسه أنه الحق. فهل من الحكمة والموعظة الحسنة أو من الجدال بالتي هي أحسن أن نأتي إلىٰ مثل هذا ونقدم إليه بضاعتنا التي اجتهدها أهل العلم بكتاب الله تعالىٰ في بيان فائدة كذا وفائدة كذا لنناقشه بها أو نناظره في دعواه تلك؟ وهل يقاس مثل هذا علىٰ جواب النبي ﷺ عن كلام ابن الزبعري وعلىٰ جوابه عن سؤالات المشركين وأهل الكتاب فيما نقله أهل السير كما أشرنا إليه آنفا؟ أبدا! أمثال هذه الاعتراضات السخيفة تطوىٰ ويقذف بها في وجه صاحبها ولا يلتفت إليها أصلا، فإن ذاعت بين المسلمين أو خشي علىٰ بعضهم من التأثر بها، خوطبوا بما يناسب حالهم من جواب مجمل محكم لا يخلو من وعظ يليق بالمقام. أما أن يقال لمثل هذا المكابر هلم إلينا لنناظرك ونفحكم ونغلبك .. الخ، فهذا عبث ولا شك.

ومن هذا أن يأتيك أحدهم يقول لك إن القرآن فيه نصوص يأتي كلام الرب فيها بصيغة المتكلم، ونصوص أخرىٰ يكون الكلام فيها عنه بالضمير الثالث (كقوله تعالىٰ: «هو الله الذي لا إله إلا هو» وقوله «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفىٰ» ونحو

ذلك) وهذه النصوص تتداخل بصورة تدل علىٰ الاضطراب في تأليفه وقد تفضي إلىٰ سوء الفهم، أو يقول إنها تدل علىٰ عدم اتحاد المصدر الذي جاء منه النص. وهذا لا يقال فيه إلا أنه كذاب مماحك، لأن الاضطراب إنما يقع عندما يعجز السامع عن تمييز وجه الخطاب أو يخفىٰ عليه المقصود به، وهذا لا يعاني منه من يقرأ كتاب الله طرفة عين. والعظماء من البشر يتكلمون عن أنفسهم بصيغة الغائب أحيانا (كقول ملك من الملوك عن نفسه في كتاب من كتبه: الملك فلان صاحب المقام المنيف هو خادم المملكة الساهر علىٰ مصالح الرعية .. الخ) ولا يقال إن هذا يدل علىٰ أن غيرهم هو المتكلم، أو يوقع السامعين في الاضطراب! ولا نحتاج إلىٰ أن نبين أن من طريقة العرب الالتفات بالضمائر وأن هذا يحفز ذهن السامع، إلىٰ آخر ذلك، لأن الاعتراض سوفسطائي ساقط بالأساس، ولو دخلنا مع صاحبه في مناظرة لأشبعنا له شهوته ونولناه مراده (وسيأتي في قسم لاحق بيان وجه ذلك في علم النفس بطريقة تحليلية)!

ومن ذلك أن يأتيك أحدهم طالبا المناظرة في قوله: «إن ثمة خللا منطقيا في محاجة القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [**الأنعام**: ١٠١] فهذه الآية يبدو منها وكأن الله يعجز عن اتخاذ الولد من غير أن تكون له صاحبة، وهذا يعارض كمال صفة القدرة في حقه، لأنه لا بد وأنه قادر علىٰ اتخاذ الولد من غير صاحبة ومن غير جماع ونحو ذلك، فكيف يرتب امتناع اتخاذ الولد نظريا علىٰ مقدمة وحيدة مفادها عدم اتخاذ الصاحبة؟» ونقول ليس هذا إلا مزيدا من السفاهة التي يعلم صاحبها أنه جاحد للحق مكابر فيه! فهو أحد رجلين: رجل يريد أن ينتصر لقوله باتخاذ الله الولد، بدعوىٰ أنه لا يلزم منه أن يكون لله صاحبة! وآخر يريد أن يتخذ من نظرية المنطق الأرسطية والمدرسة التحليلية الغربية معيارا للحكم علىٰ النص القرآني! فتأمل كيف يتجاهل - متعمدا - وجه الاستبشاع في الآية وما فيها من تنبيه العقلاء إلىٰ ذاك الانتقاص الشنيع من كمال رب العالمين في مجرد نسبة الولد أو الصاحبة إليه، أو نحو ذلك من علامات النقص الذي لا يليق - بالبداهة المجردة - بمقام رب العالمين، بأن يصرف نظر خصمه إلىٰ مسألة عدم التلازم «المنطقي» بين الصاحبة والولد! من الذي قال إن الآية جاءت بنصب «البرهان المنطقي

النظري» أصلا؟ وإنما استصحبت مسلمات البداهة الواضحة، وأسست عليها تشنيعا لا تخطئه قلوب العقلاء الأسوياء ولا تشتبه فيه ولا تفتقر إلىٰ علم إضافي قبله حتىٰ تعقله وتشهد بأنه الحق! فليس المطلوب تعليم من يجهل بالدليل القاضي بالقول بأن الله لا يصح أن يتخذ ولدا، لأن هذا لا يجهله عاقل! وإنما المطلوب ضرب الجاحدين والمعرضين بمطرقة علىٰ رؤوسهم حتىٰ يقرنوا تلك الخصال المستحقرة (نوعا) كاتخاذ الولد والصاحبة والذرية والأنداد والشركاء .. الخ، المقصورة كلها علىٰ جنس المخلوقين بداهة، بعضها ببعض، ويستشعروا شناعة ما نسبوه منها إلىٰ خالقهم سبحانه وتعالىٰ وتقدس وما في ذلك من عدوان عظيم!

هذا هو قوام الحجة القرآنية في مثل ذلك، وليس الإثبات النظري لامتناع اتخاذ الولد في حق رب العالمين، وإلا فأي قلوب تلك التي تغافلت عن ذاك التشنيع والتبكيت الشديد، وراحت تجادل وتماري في «البرهان المنطقي» الذي لم تف به الآية؟ وأي عقول تلك التي تهاونت مع جحود هؤلاء واستكبارهم عن الحق، ومنحتهم حقا «فكريا» في الانتصار لتلك الأمراض في نفوسهم ونصبت لهم من «يناظرهم» ليروا فساد منطقهم بـ«الدليل النظري»؟

القصد أن من جاء باعتراض كهذا، فلا ثمرة ترجىٰ بحال من الأحوال من مناقشته عليه. فهو يحيل هذا النص الذي جاء لتبكيته هو وأمثاله وتوبيخهم لاعتقادهم جواز الولد في حق خالقهم (علىٰ المعنىٰ اللغوي الصريح للفظة «ولد»)، إلىٰ «حجة منطقية» علىٰ طريقة المناطقة، ثم يزعم أنها مختلة ناقصة من هذا الوجه! فلو أننا سلمنا له بأن اتخاذ الولد في حق الله تعالىٰ لا يستلزم اتخاذ الصاحبة، فهل يسلم هو لنا بأن مطلق اتخاذ الولد نقيصة في حق ربه وخالقه؟ أبدا، وإلا ما جاء ليجادل في آية كهذه يقول إنها لا تقوم بها حجة عليه، مع أن حقه أن يخجل من نفسه أشد الخجل عند سماعها لو كان في نفسه حبة خردل من صدق وتجرد للحق!

تقدم معنا في بداية هذا المبحث تقرير أن القرآن لا يقيم البرهان الفلسفي لإثبات قضايا بينة بنفسها ببداهة العقل، ولا يحاجج المشركين علىٰ طريقة الفلاسفة، وإنما يقيم

من الدلائل والآيات علىٰ صدق ما جاء به المرسلون ما لا يماري فيه إلا من سفه نفسه. وليس هذا لكونه (أي القرآن) موجها لمخاطبة جميع البشر في جميع العصور والأزمان كما قال بعضهم، بحيث أنه لو كان خطابه علىٰ طريقة الفلاسفة لما فهمه أكثر الناس! ولكن لأن طريقة الفلاسفة نفسها في تناول تلك القضايا الفطرية الضرورية طريقة عبثية سوفسطائية لا توصل إلىٰ الحق ولا تليق بعاقل يحترم عقله ويصدق نفسه! ولا يقال إن استعراض القرآن لمحاجة إبراهيم عليه السلام لمن حاججهم دليل علىٰ مشروعية «مناظرة» المشركين في أصول شركهم ولإثبات صحة التوحيد علىٰ تلك الطريقة الكلامية، فما هكذا كانت طريقة إبراهيم في المحاججة أصلا.

فقد ذهبت طوائف المتكلمة من المفسرين وغيرهم إلىٰ مشروعية النظر (أي الاستدلال علىٰ طريقة الفلاسفة والمتكلمين) والمناظرة الكلامية للمشركين مستدلين بقوله جل وعلا عن الخليل عليه السلام: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [**الأنعام**: ٧٥ – ٧٩].

قال الرازي في تفسيره المسمىٰ «مفاتيح الغيب» فيما بوَّب له بقوله «القول في إقامة الدلالة علىٰ التوحيد»:

> وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَالِاسْتِقْصَاءُ فِي شَرْحِ أَحْوَالِهِ فِي هَذَا الْبَابِ يَطُولُ وَلَهُ مَقَامَاتٌ: أَحَدُهَا: مَعَ نَفْسِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ**﴾ وَهَذَا هُوَ طَرِيقَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِتَغَيُّرِهَا عَلَىٰ حُدُوثِهَا، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ مَدَحَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**﴾ [**الأنعام**: ٨٣].

قلت: فتأمل قوله «وهذا هو طريقة المتكلمين في الاستدلال بتغيرها علىٰ حدوثها»،

مع أن النص ليس فيه ذكر الحدوث ولا التغير ولا شيء من ذلك أصلا! فإنما أراد الرازي أن يلبس طريقة المرسلين في القرآن لبوس طرائق المتكلمين في «إقامة الدليل النظري» علىٰ صحة التوحيد، مع أنه كان يرىٰ بجلاء أن القرآن لم يأت بنصب البرهان الكلامي أو النظري المنطقي علىٰ «وجود الصانع» لا في هذا المحل ولا في غيره، وإنما جاء بالتأسيس علىٰ ما هو مركوز في فطر الناس من معرفة بطلان الشرك بداهة وصحة التوحيد بداهة، فشنع علىٰ المشركين أشد التشنيع، وذكرهم بآلاء الله وعلامات قدرته حتىٰ لا يبقىٰ لأحد منهم حجة يوم القيامة! فلا رأينا في سياق تلك المحاججة الربانية «دليل الحدوث» ولا غيره من أدلة المتكلمين، لا في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ طرفة عين! ونحن عندما نخاطب إنسانا فنقول له قولا نحو هذا: «تذكر أنك مخلوق، جئت إلىٰ هذا العالم بعد أن لم تكن شيئا، فاتق الله الذي خلقك وسواك فعدلك، ولا تشرك به شيئا»، فلا نكون بذلك قد أقمنا برهانا نظريا كما يحلو للمتكلمين أن يلصقوه بنظائر هذه الحجة في القرآن! أقمنا الحجة الدامغة نعم، أما البرهان النظري علىٰ المعنىٰ الذي تابعوا هم عليه الفلاسفة فلا! ولو تكلم القرآن في معنىٰ كهذا بالبرهان النظري علىٰ هذا الوجه ما كانت حجته دامغة أصلا! البرهان النظري الكلامي (كدليل الحدوث) له ترتيب معروف وصورة معروفة بمقدمات ونتائج ونحو ذلك، فأين تلك الصورة في كتاب الله أو في سنة رسوله؟ أين قرر إبراهيم عليه السلام كمقدمة برهانية أن «تغير الشيء دليل علىٰ حدوثه»، هكذا بإطلاق كلي كما عند المتكلمين، يجعله كلية عقلية صحيحة بنفسها توجب الوصول بقياس الشمول عليها مع غيرها من مثلها إلىٰ إثبات الصانع، في إطار ما يمكن أن يوصف بأنه «برهان نظري»؟ هذا وأيم الله كذب علىٰ خليل الرحمن وافتراء علىٰ القرآن، والله المستعان.

وقال الزمخشري المعتزلي في كشافه عند هذا الموضع:

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾: فعلنا ذلك. ونرىٰ: حكاية حال ماضية، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم علىٰ الخطإ في دينهم، وأن يرشدهم إلىٰ طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلىٰ أن شيئا منها لا يصح أن يكون إلها، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثا أحدثها،

وصانعا صنعها، ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها. ﴿هَذَا رَبِّي﴾: قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكىٰ قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأنّ ذلك أدعىٰ إلىٰ الحق وأنجىٰ من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلىٰ حال، المتنقلين من مكان إلىٰ مكان، المحتجبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام بازِغا مبتدئا في الطلوع ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾: تنبيه لقومه علىٰ أنّ من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضال، وأنّ الهداية إلىٰ الحق بتوفيق الله ولطفه ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾: من باب استعمال النصفة أيضا مع خصومه. ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي للذي دلت هذه المحدثات عليه وعلىٰ أنه مبتدؤها ومبتدعها. وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه الله.

قلت: تأمل قوله «فأراد أن ينبههم علىٰ الخطإ في دينهم، وأن يرشدهم إلىٰ طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلىٰ أن شيئا منها لا يصح أن يكون إلها، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثا أحدثها، وصانعا صنعها، ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها» اهـ.

فبالله أين تكلم إبراهيم عليه السلام مع قومه بـ«إقامة دليل الحدوث»؟ سبحان الله، ألا تستحيون؟ إن هذا المسلك الذي قرره الزمخشري ليس من طرائق المرسلين وإنما هو من طرائق الفلاسفة والنظار، وليس في عبارة ولفظ النبي عليه السلام كما يحكيها الله تعالىٰ ما يدل علىٰ سلوكه مع قومه ولو من بعيد! ففي طريقة النظار يأتي العالم إلىٰ الجاهل فيرشده إلىٰ ما خفي عليه من أدلة هذه المسألة أو تلك مما تجري في مثله الأنظار وتطلب في مثله الأدلة (النظرية)، فيعرفه بذلك أن من النظر في تلك المسألة ما هو صحيح ومنه ما ليس بصحيح، وأن النظر غير الصحيح لا يوصل منه إلىٰ معرفة صحيحة، فيبادر بنقض شبهاته التي زعم – من فساد نظره – أنها أدلة علىٰ صحة مذهبه، ثم ينصب الدليل الصحيح في مكانها، بما يترجح به المذهب الصالح علىٰ المذهب الفاسد في ميزان «النظر الصحيح».

فهل هذا ما صنعه إبراهيم عليه السلام فيما حكاه الله من أمره في هذه الآيات؟ هل جاء يعلمهم «النظر الصحيح في الإلهيات»؟ هل حدثهم بـ«دليل الحدوث»؟ هل ورد عنه في هذه الآيات أو في غيرها من نصوص الوحي الشريف أنه عليه السلام قال لهم ما معناه إن الأفول دليل علىٰ الحدوث والحدوث دليل علىٰ المحدث، وأن التسلسل ممتنع لذا فالمحدث الأول لا بد ألا يكون عينا حادثة وألا تقوم به الحوادث والأعراض فلا يتصف بكذا ولا يرد عليه كذا ولا كذا.. إلىٰ غير ذلك من صور التنظير الكلامي (أو الفلسفي) الذي ينتصر له الزمخشري بهذه النصوص؟ أبدا لم يفعل ذلك عليه السلام، وهذا واضح! فمن زعم أن هذه المحاججة النبوية (ولا أقول مناظرة لاشتباه هذه اللفظة باصطلاح المتكلمين وأصحاب فنون الجدل) كانت من جنس مخاصمات المتكلمين مع مخالفيهم من الفلاسفة من أهل الملل الشركية، فقد أتىٰ بباطل عظيم!

وأبطل منه وأفسد، قول من قال إن هذا من «نظر» إبراهيم واستدلاله في نفسه حتىٰ يعرف هو بطلان تلك المعبودات بالدليل والبرهان ابتداءً! هذا القول في تأويل الآيات مردود وإن كان مما يروىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما (والله أعلم بصحة الرواية)! فالقول بأن العلم ببطلان الشرك هو معرفة مكتسبة (نوعا) يصل إليها الإنسان بعد الاستدلال والنظر، يخالف ما في الفطرة أولا، ثم يخالف الحديث المتفق عليه من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». فالفطرة هنا المقصود بها العلم بصحة التوحيد وأن هذا العلم هو الأصل في البشر بلا نزاع بين السلف في ذلك. وعليه فليس أمام الذين نسبوا النظر إلىٰ إبراهيم عليه السلام إلا أحد خصلتين لا ثالث لهما: إما أن يقولوا إن إبراهيم كان علىٰ الفطرة ابتداء قبل تلك الواقعة أو أنه كان قد تحول عنها وتلبس بالشرك. فإن كانت الأولىٰ فما وجه الاستدلال أصلا وما الداعي إليه عنده؟ الفطرة هي ما جُبل عليه الإنسان من بداهة العقل الأولىٰ غير المكتسبة التي تدعو صاحبها للحكم ببطلان الشرك كله والنفور عنه من غير تفصيل، وإلىٰ تنزيه الرب الخالق عن كل نقيصة من أول وهلة دون افتقار إلىٰ دليل (معرفة مكتسبة)! فمن كان علىٰ ذلك ابتداءً ففي أي شيء ينظر بعدُ ولماذا يستدل

وأي شيء يحمله علىٰ النظر؟ وإن قالوا إنها الثانية (أي أنه كان قد تحول عن فطرته إلىٰ الشرك قبل هذا الاستدلال) فهل وقف أصحاب هذا القول علىٰ بينة من أن أبوي الخليل عليه السلام قد حولاه عن فطرته بتربيته علىٰ الشرك من قبل، بما جعله جاهلا عميا عن فطرة التوحيد، حتىٰ أخذ يحمل نفسه فيما بينه وبين نفسه علىٰ مراجعة الاعتقاد والتأمل في آيات الله؟ فأين هم من قوله تعالىٰ عن إبراهيم في غير موضع: ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، وما فيه من إطلاق في زمان الماضي لا يقيد إلا بدليل صحيح؟ وأين هم من قوله تعالىٰ عنه: ﴿**إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [**الصافات**: ٨٤]؟

ثم إن قدرنا أن جاؤونا ببينة علىٰ كونه قد تلبس بالشرك وبتبدل الفطرة قبل النظر المزعوم (وليسوا بفاعلين)، فمن زعم منهم أن الفطرة المدفونة في نفس رجل مشرك تحت طبقات الشرك التي تربىٰ عليها وما سبق له من استحسان ذلك، قد تدعوه يوما ما إلىٰ التدرج في الانخلاع منه استقلالا والوصول إلىٰ توحيد رب البريات (الذي هو نداء الفطرة)، من طريق الاستدلال الاستقرائي الناقص بالنظر في آحاد المعبودات علىٰ هذا النحو الذي يزعمونه (أيها أكمل وأحق بالعبادة)، فليتحفنا بدليله علىٰ ذلك أيضا! وحتىٰ لو فعلوا، فوالله لست أرىٰ من عقلاء المشركين من يروم المفاضلة بين آلهة قومه علىٰ هذا النحو الذي نسبه أصحاب هذا القول إلىٰ الخليل إبراهيم عليه السلام، بحثا عن الإله الحق، فيعبد الكوكب أولا ليلة، ثم لما يأفل الكوكب يدرك حينها أنه ما كان يصح أن يعبده من الأساس،[1] ثم يعبد القمر ليلة حتىٰ يأفل فيدرك حينها أنه لا يصح أن يكون هو الخالق الباري، ثم يعبد الشمس يوما حتىٰ تغيب،[2] يمكث كل هذا في ضياع لا يدري أي شيء من تلك الأجرام - المتساوية كلها بداهة في النقص والتفاضل مع ما في السماوات من مثلها - أحق بأن يعبد، حتىٰ ينتهي من ذاك «النظر» و«الاستدلال» أخيرا

(١) مع أنه كان يرى السماء مشحونة بالنجوم والكواكب والأجرام من أول وهلة، فمن البداهة الأولى ألا يكون شيء منها هو الخالق! فأي بلادة هذه التي تدعو رجلا ليمكث ليلة كاملة يعبد واحدا من تلك الكواكب حتى يتبين له ذلك المعنى؟

(٢) مع أنه لا بد وأن يكون قد شهدها وهي تشرق أولا من بعد إظلام تلك الليلة التي عبد فيها القمر بزعمهم، فأي بلادة هذه التي تجعل رجلا يمكث في عبادتها يوما كاملا فلا يتنبه إلى أنها تأفل إلا إذا رآها تغيب؟ أو بعبارة أخرى: لو كان هذا منه «استدلالا» فكيف لم يدله الشروق على ما دله عليه الغروب؟

إلىٰ معرفة ما انطوت عليه فطرته ابتداء من أن خالق السماوات والأرض لا يمكن أن يكون شيئا من تلك الأشياء الداخلة في تركيب عالمنا (جنسا)، وأنه عال فوقها جميعا حتما وقطعا ولا بد، وأنه هو الأحق بأن يعبد وحده!

فلو كان مراد إبراهيم عليه السلام أن يبني لنفسه دليلا كلاميا أو «عقليا» (علىٰ اصطلاح الفلاسفة والمتكلمين في مفهوم الدليل العقلي) يصل هو من طريقة إلىٰ اكتساب المعرفة ببطلان الشرك (أو إلىٰ إزالة وهم النفس بصحة الشرك، مثلا!)، فليس هذا بطريق من طرق الاستدلال العقلي أصلا، لا علىٰ ما جاء في القرآن من عبارة ولفظ وترتيب في حكايته، ولا علىٰ ما هو مطروق عند اللاهوتيين والمتكلمين والمتفلسفين من أهل الملل من أنواع الاستدلال، ولا علىٰ ما تكلفه الزمخشري فيما مر معك نقله من تلبيسه لبوس «دليل الحدوث» الذي اخترعته المتكلمة!

بل إني لأزعم أن القول بجعل هذا هو مراد إبراهيم عليه السلام من فعله ذاك، يلزم منه إلباسه بلبوس الناظر الجاهل البليد قليل الحيلة، الذي لا يدري يمينه من شماله في طرائق الاستدلال النظري التي يحسنها الفلاسفة والنظار، ولا يتصور ما قد يورده المخالفون من احتمالات وأجوبة وإيرادات علىٰ «دليله» ذاك، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فلو كان إيمانه قائما علىٰ هذا «الدليل» أو «النظر العقلي» كأصل وأساس كما يريد المتكلمون أن يثبتوه، لكان الشك إلىٰ نفسه أقرب من الإيمان، ولتعرض في كل يوم إلىٰ فكرة جديدة أو وسواس جديد لدليل مخالف يرىٰ نفسه مضطرا إلىٰ دفعه عن نفسه حتىٰ يسلم له «دليله» ذاك من المعارض! فأي رسول وأي نبي هذا الذي يصطفيه رب العزة للرسالة [1] بعدما سعىٰ علىٰ طريقة الفلاسفة في صباه بالجريان في دائرة «الدليل» و«الدليل المقابل» علىٰ وجود باريه نفسه من الأساس، علىٰ هذا النحو الذي يتفنن فيه المتكلمون، وينسبونه زورا وبهتانا إلىٰ خليل الرحمن؟! أي رسول أو نبي هذا الذي يمكن أن يكون في صدره شيء من مصارعات الفلاسفة والمتكلمين وأضرابهم

(١) وما أدراك ما حمل وما ثقل تلك الرسالة التي كُلف بها إبراهيم الخليل، الذي وصفه ربه بأنه كان أمة، وأمره بأن يذبح ابنه بيده ابتلاء واختبارا، وأن يتركه وأمه في الصحراء، فأجاب مذعنا في كل مرة، عليه صلاة ربي وسلامه!

في «النظر العقلي في وجود الباري»، دع عنك أن تكون هذه هي طريقه هو نفسه إلىٰ تحصيل الإيمان والتصديق واليقين كما يزعمون؟ معاذ الله وحاشا رسله وأنبياءه أن يكونوا كذلك! [1]

(١) ولو كان إبراهيم ﷺ من أصحاب البراهين الكلامية والفلسفية، لما اطمأن قلبه من رؤية آيات الله كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فلو كان ممن مسهم الشيطان بداء النظر في البدهيات، لحدثه في نفسه بالسؤال: «ولكن ما البرهان العقلي على وجوب تفرد الرب الخالق بالقدرة على إحياء الموتى؟ ألا يجوز أن يتمكن مخلوق من المخلوقات من إحياء الموتى أيضا؟» أو بنحو ذلك من الاعتراضات السوفسطائية الباردة على الحق الجلي الذي لا يجد العاقل في نفسه ما يدفعه! ولكن كما ترى فهو ما كان يريد تلك الآية من ربه استدلالا ولا نظرا، وإنما كما صرح بلسانه: «وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي»، فاليقين درجات كما قرره أهل العلم، وقد كان إبراهيم ﷺ متحققا بأعلى درجاته، عليه وعلى نبينا وسائر المرسلين صلوات الله وسلامه. لقد ضربت مثالا في سياق هذا الكلام لتساؤل ساقط قد يقذفه الشيطان في نفس المتكلم أو المتفلسف، وأنا أعلم أن بعض القراء الآن قد أطلق ذهنه في التفكير في جوابه والنظر في البرهان العقلي للرد عليه، وهو يحسب أن حاله بعد تكلف الجواب ستكون أحسن (في مقدار اليقين والإيمان في صدره) من حاله قبل ذلك!

وحتى لا يقال إني قذفت بالشبهة ثم تركتها بلا جواب، أقول إن السؤال غير وارد - كاعتراض - على طلب إبراهيم ﷺ لما يزداد به يقينه في عظمة ربه. فسواء كان إحياء الموتى من خصائص الربوبية التي ينفرد بها الرب وجوبا أو جاز في العقل أن يقدر عليه بعض المخلوقين أخذا بأسباب مخلوقة (لا استقلالا لأن المخلوق لا يستقل بقدرته على شيء مما يفعل أصلا، وإنما قدرته وما يقدر عليه من خلق الله)، فرؤية إبراهيم ﷺ شيئا ميتا قد أحياه الله تعالى جوابا لطلبه تزيده يقينا في قدرة ربه ولا شك، وهو المطلوب، وانتهت القضية! فماذا يكسب العاقل من فتح سؤال كهذا في محل كهذه إلا تشتيت الذهن وإعياء القلب وانتهاك عرى الإيمان؟ لا شيء على الإطلاق! وهل كان سؤال كهذا ليطرأ على ذهن نبي من أنبياء الله يوما ما؟ أبدا وحاشاه! ولكن صاحب صنعة الكلام قد يكون طلبه رؤية ذلك الفعل من الله تعالى طلبا «للاستدلال» على ربوبيته (بجنس الأدلة النظرية التي يشترطها على نفسه وغيره ويشترطها عليه أقرانه) وعلى أنه الواحد الأحد الذي لا شريك له في ملكه، ظنا منه أن هذا ما تطمئن به نفسه، فإن أجيب هذا إلى ما طلب، لم يتحقق لديه اليقين كما كان يرجو، وإنما طرأت على ذهنه المزيد والمزيد من الاعتراضات والافتراضات والاستشكالات الفلسفية المربكة! فإن لم يطرأ سؤال كهذا على ذهنه هو من تحديث شيطانه، فسيوحي إليه بها شيطان من شياطين الفلاسفة من أقرانه الذين يخالطهم ويطالع زبالتهم ليل نهار لا محالة، كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

والقصد أن الفرق بين نفس المؤمن العاقل الذي يؤسس إيمانه على فطرة نقية صافية في الابتداء، ونفس المتفلسف المتنطع بنظره في كل شيء حتى لا تسلم من نظره وتكلفه المرض أصول فطرته وعقله نفسه (والمتكلم تبع له في الطريقة والمشرب)، الفرق بين هذين فيما يتعلق بمطلب تحقيق المزيد من التصديق واليقين في نفسيهما، فرق عظيم خطير، ينسفه المتكلمون نسفا في كل مرة ينسبون نبيا من أنبياء الله إلى طريقتهم الخبيثة!

فأي شيء هو إذن؟ إن لم يكن هذا الصنيع الذي حكاه لنا القرآن عن الخليل عليه السلام من جنس تعليم «النظر الصحيح» (كما عند المتكلمة) ولا من جنس الاستدلال النظري الفردي لمعرفة بطلان الشرك، فأي شيء كان هو؟ لست أراه إلا كما ذهب إليه أكثر أئمة التفسير رحمهم الله تعالىٰ من أنه عليه السلام أراد أن يبكت المشركين ويحرجهم بخطاب حاصله الاستفهام الاستنكاري، فيكون قوله ﴿هَذَا رَبِّي﴾ استفهاما حذفت أداته وتقديره «أهذا ربي؟» كما يجري علىٰ ألسنة العرب أحيانا. هذا أليق بالمرسلين وأنسب لطريقتهم ولا شك.

ففي ليلة جاءهم وأشار إلىٰ كوكب من الكواكب التي كانوا يعبدونها وقال ما معناه «أهذا ربي؟ هذا الكوكب هو ربي؟» ثم لما أفل الكوكب واختفي عن الأنظار جاءهم يقول «لا أحب الآفلين ولست أعبد إلها يزول!»، ثم صنع مثل ذلك مع القمر (وهو أوضح وأجلىٰ وأكبر من الكوكب)، ثم صنع مثل ذلك مع الشمس (وهي أظهر من سابقيها) وكلها معبودات عبدها قومه من دون الله، فكان يأتيهم في كل مرة بما يحرجهم وينغص علىٰ نفوسهم، ليقرر براءته مما يشركون، وليذكرهم بسفاهة الشرك الذي هم عليه، لعل منهم من يستيقظ ضميره للحق الجلي الظاهر! فيقرر بين أيديهم أنه قد وجه وجهه للذي فطر السماوات كلها وما فيها والأرض وما فيها، وبأنه بريء مما يشركون، لا أنه كان يريد أن يعلمهم كيف يكون الاستدلال علىٰ صحة التوحيد بـ«دليل الحدوث» أو كيف يُنتهج طريق «النظر الصحيح» للوصول إلىٰ معرفة أن هذه الأشياء لا يمكن أن

فبينما يبحث أحدهما عن «دليل قطعي» وكأن العلم بعظمة ربه وسعة قدرته يفتقر في نفسه إلى دليل قطعي يحسم «النظر» في المسألة، تجد الآخر ينفر أشد النفور من مجرد فكرة طرح القضية «للنظر العقلي» والاستدلال من الأساس، فهو مؤمن قطعا وموقن قطعا من قبل تحقق ما طلب من الزيادة، كما في جواب إبراهيم القاطع لربه لما سأله «أولم تؤمن»، فليس هو خائضا في جدال مع فيلسوف يطالبه بالدليل النظري على صحة دعواه أن الرب الخالق الباري على كل شيء قدير، فلا يزال باحثا عن المزيد والمزيد من «الأدلة» يجمع بعضها إلى بعض على طريقة الاستقراء النظري ليتحقق له المطلوب! مثل هذا لا يصل إلى يقين أبدا إلا أن يرحمه ربه، وسيَر المتكلمين وخواتيمهم تشهد بذلك لمن بحث فيها!

فيا عباد الله يا من عددتم أنفسكم من المتكلمين وفرحتم بذلك، قد أشفقت عليكم والله من فرط إغراقكم فيما غرقتم فيه وأنتم تحسبون أنه يحقق اليقين والطمأنينة في نفوسكم ونفوس من تابعكم، مع أنه – والله – لا يزيدها إلا رهقا، لو كنتم تعقلون!

يكون أي منها هو الرب الخالق الباري! أي «نظر» وأي «استدلال» هذا الذي تكلفتموه، وأي معرفة تلك بمناهج النظر أو طرائق الاستدلال التي زعمتم الافتقار إليها في مقام كهذا قاتلكم الله؟

ثم إنه لا يعقل ولا يصح بحال من الأحوال أن يكون من محاججة الأنبياء والمرسلين للمشركين أن يقول الواحد منهم لقومه علىٰ سبيل التنزل سأعبد معكم هذا الإله اليوم، ليأتي في آخر اليوم فيقول لهم: «تأملوا، ها قد ذهب إلهنا، وهذا دليل علىٰ أنه كان إلها باطلا، فلنعبد إذن إلها أكبر منه غدا ثم نرىٰ!» معاذ الله أن يكون هذا ما سلكه الخليل عليه السلام مع قومه في مقام محاججتهم! لذا فمن الشناعة بمكان قول الزمخشري فيما تقدم نقله عنه: «﴿ **هَذَا رَبِّي** ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأنّ ذلك أدعىٰ إلىٰ الحق وأنجىٰ من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿ **لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ** ﴾» اهـ. أي إنصاف يا رجل وقد زعمت أن رسولا من رسل الله قد شهد علىٰ نفسه بالشرك، حتىٰ ينصف خصمه في المناظرة ويبين أنه علىٰ استعداد لترك «مذهبه» في المسألة إن تبين له بطلانه؟ هل القول بالتوحيد مذهب من المذاهب النظرية التي لا يصح أن يتمسك بها صاحبها عند الجدال حتىٰ لا يبدو متعصبا أو غير منصف، علىٰ أساس أنه يرد عليه المعارض المستساغ في عقول الأسوياء؟

هو كذلك عند أهل الكلام لزاما وإن أنكروا التزامه، فإن خوضهم في الجدال والمناظرة الكلامية فيه علىٰ هذا النحو الذي ينتصر له الزمخشري وأضرابه، يقتضي أن يكون كذلك لا محالة: مذهبا نظريا يجب أن يشهد الموحد باستعداده للتنازل عنه إن تبين له بطلانه، حتىٰ «ينصف» المخالف، وحتىٰ يكون للمناظرة وجه ومعنىٰ من الأساس، وإلا فلو دخلت المناظرة الكلامية وخصمك يعلم من البداية أنك صاحب قطع ويقين لا تنوي الزوال عنه طرفة عين لأنك ترىٰ خلافه من المحالات بل تراه أقبح السفاهات وأعظم البوائق، فما وجه «المناظرة» والمخاصمة أصلا وما حقيقتها؟ ليس أمامك إذن أيها المتكلم إلا أحد طريقين كلاهما يتنزه عنه الأنبياء والمرسلون وأتباعهم

يقينا: إما أن تكذب وتدعي أنك ترىٰ الشرك مذهبا مستساغا وأن «الأدلة النظرية» قد تفضي إلىٰ ترجيحه عندك وأن المناظرة قد تكشف لك عن صحته، فتنصف مخالفك بالإقرار له بذلك في الابتداء، وإما أن تشرك بالله تحقيقا وتخلع ربقة الإسلام من عنقك بالكلية، حتىٰ تعود جاهلا بالتوحيد كخصمك، فإن اتفقتما علىٰ أنه الحق دخلتما فيه معا، وإلا دخلت أنت في الشرك معه! فهنيئا لك «نصفتك» المزعومة، نسأل الله السلامة!

ومما يؤكد صحة هذا القول الذي ننتصر له هاهنا في تفسير الآيات، سياقها الذي جاءت فيه، فالسباق واللحاق كلاهما يعضدان القول بأن المقام مقام تبكيت وتشنيع وتبرؤ من الشرك وأهله، لا مقام «مناظرة» (علىٰ مفهوم المتكلمين والنظار)! ففي الآية السابقة مباشرة لهذه الآيات في سورة الأنعام يقول رب العالمين: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**﴾ [**الأنعام**: ٧٤] ثم في الآية التالية مباشرة يقول تعالىٰ: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ [**الأنعام**: ٧٥] فعلىٰ أي شيء يعود قوله تعالىٰ ﴿**وَكَذَلِكَ**﴾؟ المقصود والله أعلم أن الله تعالىٰ ألهمه – في سياق النكير علىٰ أبيه وقومه – أن ينظر في بديع صنع الله في سماواته وأرضه ليأتيهم بنكير ووعظ بليغ علىٰ عبادتهم الأجرام والكواكب والشمس والقمر من دون الله! ثم بعد أن تنتظم الآيات بذلك النكير الذي أسقط به في أيديهم في أمر الكواكب والقمر والشمس، يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ**﴾ [**الأنعام**: ٨٠] فتأمل كيف أنه عليه السلام أنكر عليهم فتحهم باب الجدال معه في صحة التوحيد لما جادلوه فيما جاءهم به من النكير والتبكيت، لا أنه جاءهم يطلب «المناظرة» ليخوض معهم في الحجاج الفلسفي والكلامي و«النظر الصحيح في وجود الصانع»! فلو كان يرضىٰ منهم ذلك الصنف من الجدال (من حيث الأصل)، لمكث يناظرهم علىٰ طريقة المتكلمين، فيسمع منهم – مثلا – قولهم إنهم يعبدون الشمس لأنها تنفعهم بكذا وكذا من المنافع الدنيوية الظاهرة، فكما تنفعهم فقد تضرهم إن أرادت ذلك، فيجيبهم بأن نفعها قائم بها وهي قائمة بغيرها، فليست هي النافعة علىٰ الحقيقة، ولا تستقل بنفع ولا ضر، ويبين لهم الفرق بين القائم بغيره والقائم

بنفسه، ثم يسمع منهم اعتراضا فلسفيا علىٰ فكرة قيام الشيء بنفسه وعلىٰ مسألة واجب الوجود، فيأتيهم بأجوبة المتكلمين عن ذلك، وهكذا في أخذ ورد طويل لا انتهاء له ولا انقطاع فيه، ومراء من يماري في بطلان ملة لا يخفىٰ بطلانها علىٰ عاقل صادق بادي الرأي! ولكنه ما فعل هذا عليه السلام وحاشاه، ولا قريبا منه، بل قطعهم من أول وهلة كما ترىٰ باستنكار تلك «المحاججة» من جانبهم ثم ثنىٰ بعبارة بليغة موجزة قرر فيها – علىٰ طريقة المرسلين لا المناطقة والمتكلمين – أنه لا يخاف ما جعلوه لربهم شريكا مهما خوفوه!

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذا الموضع من سورة الأنعام (وتأمل الفارق بين كلام المفسر السلفي وكلام المفسر الخلفي في تناول كلام الله جل وعلا):

«وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، هَلْ هُوَ مَقَامُ نَظَرٍ أَوْ مُنَاظَرَةٍ؟ فَرَوَىٰ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ مَقَامُ نَظَرٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مُسْتَدِلًّا بِقَوْلِهِ: **﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾** [**الأنعام**: ٧٧] وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: قَالَ ذَلِكَ حِينَ خَرَجَ مِنَ السَّرَبِ الَّذِي وَلَدَتْهُ فِيهِ أُمُّهُ، حِينَ تَخَوَّفَتْ عَلَيْهِ النَّمْرُودَ بْنَ كَنْعَانَ، لَمَّا أَنْ قَدْ أُخْبِرَ بِوُجُودِ مَوْلُودٍ يَكُونُ ذَهَابُ مُلْكِكَ عَلَىٰ يَدَيْهِ، فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْغِلْمَانِ عامئذٍ. فَلَمَّا حَمَلَتْ أُمُّ إِبْرَاهِيمَ بِهِ وَحَانَ وَضْعُهَا، ذَهَبَتْ بِهِ إِلَىٰ سَرَبٍ ظاهر البلد، فولدت فيه إِبْرَاهِيمَ وَتَرَكَتْهُ هُنَاكَ. وَذَكَرَ أَشْيَاءَ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، كَمَا ذَكَرَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَالْحَقُّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَانَ فِي هَذَا الْمَقَام مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ، مُبَيِّنًا لَهُمْ بُطْلَانَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْهَيَاكِلِ وَالْأَصْنَام، فَبَيَّنَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ مَعَ أَبِيهِ خَطَأَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَام الْأَرْضِيَّةِ، الَّتِي هِيَ عَلَىٰ صُورَةِ الْمَلَائِكَةِ السَّمَاوِيَّةِ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ إِلَىٰ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَحْقَرُ مِنْ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَإِنَّمَا يَتَوَسَّلُونَ إِلَيْهِ بِعبَادَةِ مَلَائِكَتِهِ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. وَبَيَّنَ فِي هَذَا الْمَقَام خَطَأَهُمْ وَضَلَالَهُمْ فِي عِبَادَةِ الْهَيَاكِلِ، وَهِيَ الْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ السَّبْعَةُ الْمُتَحَيِّرَةُ، وَهِيَ: الْقَمَرُ، وَعُطَارِدُ، وَالزَّهْرَةُ، وَالشَّمْسُ، وَالْمِرِّيخُ، وَالْمُشْتَرَىٰ، وَزُحَلُ،

وَأَشُدُّهُنَّ إِضَاءَةً وَأَشْرَقُهُنَّ عِنْدَهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ الْقَمَرُ، ثُمَّ الزُّهَرَةُ. فَبَيَّنَ أَوَّلًا أَنَّ هَذِهِ الزُّهْرَةَ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا مُسَخَّرَةٌ مَقَدَّرَةٌ بِسَيْرٍ مُعَيَّنٍ، لَا تَزِيغُ عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا وَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا تَصَرُّفًا، بَلْ هِيَ جِرْمٌ مِنَ الْأَجْرَامِ خَلَقَهَا اللَّهُ مُنِيرَةً، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ، ثُمَّ تَسِيرُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ حَتَّىٰ تَغِيبَ عَنِ الْأَبْصَارِ فِيهِ، ثُمَّ تَبْدُو فِي اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ عَلَىٰ هَذَا الْمِنْوَالِ. وَمِثْلُ هَذِهِ لَا تَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ. ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَىٰ الْقَمَرِ. فَبَيَّنَ فِيهِ مِثْلَ مَا بَيَّنَ فِي النَّجْمِ.

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَىٰ الشَّمْسِ كَذَلِكَ. فَلَمَّا انْتَفَتِ الْإِلَهِيَّةُ عَنْ هَذِهِ الْأَجْرَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ أَنْوَرُ مَا تَقَعُ عَلَيْهِ الْأَبْصَارُ، وَتَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالدَّلِيلِ الْقَاطِعِ، ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون**﴾ أَيْ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ عِبَادَتِهِنَّ وَمُوَالَاتِهِنَّ، فَإِنْ كَانَتْ آلِهَةً، فَكِيدُونِي بِهَا جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ، ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ أَيْ: إِنَّمَا أَعْبُدُ خَالِقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَمُخْتَرِعَهَا وَمُسَخِّرَهَا وَمُقَدِّرَهَا وَمُدَبِّرَهَا، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَإِلَهُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [**الأعراف**: ٥٤] وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ [الْخَلِيلُ] نَاظِرًا فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِي حَقِّهِ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٥١، ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [**النحل**: ١٢٠ – ١٢٣]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين**﴾ [**الأنعام**: ١٦] .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كل مولود يولد علىٰ الْفِطْرَةِ» وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حَمَّادٍ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«قَالَ اللَّهُ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ» وَقَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] وَمَعْنَاهُ عَلَىٰ أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ سَائِرِ الْخَلِيقَةِ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ -الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] نَاظِرًا فِي هَذَا الْمَقَامِ؟! بَلْ هُوَ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَالسَّجِيَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ. وَمِمَّا يُؤَيِّدُ أَنَّهُ كَانَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ لَا نَاظِرًا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١]».

ولعل من المتكلمين المعتزلة وغيرهم من يعترض الآن فيقول: أنت تستحسن طريقة أبي الفداء ابن كثير رحمه الله في ذاك النقل الطويل وتقول إنها طريقة عالم سلفي، مع أنك تراه يتكلم في أثنائها عن «الدليل القاطع» الذي حاجج به إبراهيم قومه ويشرح ويبين وجه الدلالة فيه، بما لا يختلف عن طريقة الزمخشري (الخلفي) إلا في ادعاء هذا الأخير أن إبراهيم أقام عليهم برهان الحدوث! فلو كان الخلاف غايته نفوركم من هذا البرهان بالذات، فدعوه إذن وخذوا غيره، فالذي جاء به ابن كثير في هذا النقل الطويل قد يصلح أن يكون برهانا آخر من براهين المتكلمين، والطريقة واحدة!

ونقول إن هذا الكلام مردود من أكثر من وجه:

فأما **أولا** فكلام ابن كثير رحمه الله جاء في معرض بيان وجه الكفاية والحجية فيما تكلم به إبراهيم عليه السلام في النكير علىٰ قومه، ولم يزعم رحمه الله أن إبراهيم قد خاطبهم بدليل كذا أو ببرهان كذا كما زعمه الزمخشري ليا لعنق النص وتحريفا لمعناه. بل لم

يزعم رحمه الله أن إبراهيم قد فصل معهم عند محاجحتهم هذا التفصيل الذي استعمله هو في كلامه، ولا زعم أنه أجابهم بها لما جادلوه في حجته، ومن زعم بذلك فقد رجم بالغيب وقال عن أنبياء الله ما لا يعلم، بل خالف ما هو ظاهر من قوله تعالىٰ في هذا السياق نفسه: ﴿**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ**﴾ [**الأنعام**: ٨٠] ! ولا شك أن ثمة فرقا بين إقامة الحجة علىٰ المخالف بما فيه الكفاية من ألفاظ وعبارات، وبين شرح تلك العبارات وبيان وجه حجيتها للقارئ المسلم في مقام دفع شبهة تأويل فاسد عنها (وهو هنا زعم بعضهم أنها كانت منه علىٰ سبيل النظر لا المناظرة، عليه السلام). فالعاقل من عقلاء المشركين لا يفتقر إلىٰ هذا الشرح أصلا حتىٰ تقوم عليه الحجة بخطاب إبراهيم عليه السلام كما جاءت حكايته في القرآن، ومن زعم أنه لم يفهم وجه الحجية في ذلك فهو كذاب جاحد! وإنما يأتي شرح وجه الحجية في كلام بعض أهل العلم من أهل السنة في أمثال هذه التصانيف التي يكتبونها لخطاب المسلمين عموما والمتكلمين خصوصا، لمصلحة يرونها في ذلك الشرح والبيان، فهم في ذلك ما بين مصيب معتدل ومخطئ قد جاوز حد الاعتدال، وجنح إلىٰ التكلف المذموم من حيث لا يشعر، فما بين الأجر والأجرين فيما نرجوه لهم، رحمهم الله تعالىٰ.

وأما **ثانيا**، فإن ابن كثير لم يزعم افتقار المخاطبين بخطاب الخليل عليه السلام إلىٰ من ينصب لهم دليلا أو برهانا عقليا علىٰ وجود من صنعهم ابتداء، أو «يعلمهم منهج النظر الصحيح والترتيب المنطقي الفلسفي»! بل لم يزعم (**ثالثا**) أنه عليه السلام حاججهم في بيان أن توحيد الباري هو مقتضىٰ «الاستدلال العقلي» السليم وأن الشرك باطل لأنه يلزم منه النقص في حقه وهو ممتنع، ولا زعم أنه تكلف أن يبين لهم بالخطاب المفصل (علىٰ نحو ما صنع هو رحمه الله في النقل الآنف) أن تلك الأشياء التي عبدوها ناقصة بالضرورة لأنها مضبوطة علىٰ فلك لا تخرج منه، مركبة في نظام العالم خاضعة لناموسه المفروض عليه من فوق تلك السماوات نفسها وما فيها من أجرام، إلىٰ آخر هذا الكلام الذي فطر الإنسان علىٰ معرفته في نفسه والعبارة عنه من غير ما اكتساب أو نظر.

وعليه فمن الواضح أن مفهومه رحمه الله للمناظرة والتدليل القاطع علىٰ خلاف مفهوم المتكلمين، فالمراد عنده رحمه الله بقوله «الدليل القاطع» أي الحق الواضح

المعلومة صحته بمجرد سماعه، الذي لا يماري فيه إلا سفسطاء. ومعلوم أن الفلاسفة وأهل الجحود والاستكبار بعموم لا يتحصل معهم القطع واليقين أصلا ولا يعرفونه، لذا كانوا حربا علىٰ الإيمان وعلىٰ مطلق مبدأ التسليم للمرسلين، فمهما زعم المتكلمون أن منهم من يمكنه أن «يقطع» فيلسوفا ويفحمه ويسكته فهم كاذبون بذلك، وإذا انقطع أحدهم فلا بد أن ترىٰ غيره من أقرانه يواصل من بعده فيما انقطع هو عنه كما أشرنا آنفا. فما كان الفلاسفة ليسمعوا كلاما من مثل هذا الذي جاء به إبراهيم قومه من غير أن يجادلوا فيه ويزعموا أنه ليس بحجة عقلية ولا يكفي عقولهم ولا يحقق لهم المعرفة، والمتكلم ما سلك طريقة الفلاسفة في الجدال والمناظرة إلا ليصل بها إلىٰ إسكاتهم وإقناعهم– فيما يرجو – باستعمال ما يرونه هم برهانا عقليا، مع أنك ترىٰ إبراهيم عليه السلام ينكر عليهم مجادلتهم إياه في دعواه ولا يقبل منهم المراء فيها أصلا! والمتكلم يجري مناظراته علىٰ أصول علم الجدل فيشترط ظهور الحق والبرهان القاطع حتىٰ يقطع الجدال، فعند أي حد يرىٰ المتكلمون أن هذه «المناظرة» قد وصلت مع الخصم إلىٰ حدّ القطع والإفحام وهي لم تبدأ أصلا، بل لم يحك لنا القرآن ما أجاب به المشركون عن كلام إبراهيم وما إذا كان الجواب قد قوبل منه بجواب مقابل من مثله أم لا، وإنما علمنا أنه أنكر عليهم محاجتهم له إنكارا مجملا، مشحونا بالتشنيع كما ترىٰ؟

ونقول إنه قد أخطأ من ذهب من أهل العلم إلىٰ ادعاء أن إبراهيم عليه السلام كان متنزلا مع المجادل في هذا المقام (وهو قول بعض الأشاعرة والحنابلة)، [1] لأن التنزل لا يكون إلا بما يظهر معه في الكلام أنه تنزل وافتراض، ولا نجد ذلك في النص! ومن

(١) قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره عند هذا الموضع: «﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: على وجه التنزل مع الخصم أي: هذا ربي، فهلم ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان.» اهـ.

وهذا الكلام منه رحمه الله تعالى فيه نظر، فمن الواضح أن إبراهيم عليه السلام لم يقل لهم «هلم ننظر» ولا قال ما في معناه، ولم يطالبهم بإظهار ما عندهم من دليل زائف على صحة ما هم فيه حتى يرده عليهم، بل زجرهم عندما هموا بمجادلته عن آلهتهم ومعبوداتهم، مع ما نقطع بأنه كان مخزونا حاضرا عند علمائهم ورؤوس الكهنوت الديني عندهم – كما لدى سائر أهل الملل – من دعاوى الأدلة والبراهين الفلسفية واللاهوتية السوفسطائية الناصرة لشركهم ولآلهتهم، وما لديهم من تفصيل العقائد فيها! فكيف يكون قد دعاهم إلى النظر في براهين ربوبية الله جل وعلا (على مفهوم النظار للبرهان النظري) وهو ينكر عليهم – في صريح النص – ما هموا به من محاجته في الله تعالى ابتداءً؟

قال إن إبراهيم عليه السلام استدل بأفول تلك الأجرام ومغيبها علىٰ عدم استحقاقها للعبودية، فقد وقع بذلك في طريقة المتكلمين من حيث لا يشعر، ولزمه الرد علىٰ ما قد يقال في جواب ذلك من نحو قول أحدهم: «هذا يتطلب التسليم مسبقا بمقدمة مفادها أنه لا يستحق العبادة إلا ما لا يغيب عن الأبصار طرفة عين، مع أن الرب الذي تعبدونه محتجب بالغيب لا يرىٰ طرفة عين، فهل تسلمون بهذه المقدمة؟» فإن قال نسلم بها، لزمه هذا اللازم وانفتح عليه باب من أبواب الجدل واللجاج الإلحادي لا أول له ولا آخر، وإن قال إن المقصود هنا بالمَغيب: «الانتقال إلىٰ حال المغيب بعد حال الشهادة»، انفتح علىٰ يديه الكلام في مسألة التغير والتحول التي ننكر علىٰ المتكلمين زعمهم أن الخليل عليه السلام كان مستندا إليها في حجته، وإن قال إن المقصود بالمغيب: غياب الشيء عن النظر مع غياب أثره بالكلية، جاءه من يجيب بأن الكواكب والشمس والقمر يبقىٰ شيء من أثرها علىٰ الأرض حتىٰ بعد مغيبها عن القطر الذي غابت عنه، ولعله يرجع في ذلك إلىٰ شيء من مباحث الطبيعيين التي ثبتت بالحس والمشاهدة والتجريب عندهم. فمن قال إن إبراهيم كان مناظرا علىٰ هذا المفهوم للجدال والمناظرة، فهل يحسبه كان خائضا مع هؤلاء في مثل ذلك، ملزما نفسه بالرد عليه، كما يلتزمه المتكلم والفيلسوف في الدفاع عن «دليله» النظري؟ فليأتنا إذن ببرهانه إن كان من الصادقين، من غير أن يحرف الكلم عن مواضعه ويتنطع علىٰ نصوص القرآن، وليحرر لنا - إذن - مفهومه لقوله تعالىٰ: ﴿**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ**﴾ [**الأنعام**: ٨٠] !

فلو تأملت في ذلك كله ونحوه لرأيته عين ما ننكره علىٰ المتكلمين ابتداء من ادعاء ما لم يأت به القرآن في طرائق الأنبياء، ومن تكلف ما لم يتكلفوه أصلا! فالمقام لم يكن مقام مناظرة كلامية علىٰ هذه الوتيرة، ولم يكن سعيا من رسول من رسل الله في بيان السبب النظري في عدم استحقاق تلك الأشياء لأن تعبد من دون الله، يجعله «دليلا عقليا» علىٰ صحة مراده، وكأنما يريد إنشاء ذلك المعنىٰ المراد في نفس المخاطب من بعد خلوها منه، وإنما كان المقام مقام تشنيع وتسفيه لمن عبد الشمس لأنه يراها تضيء فوق رأسه بالنهار ثم لما غابت عنه بالليل لم يجد ما يعبده! تماما كما حطم الأصنام عليه السلام

ثم أحرجهم بطلب الإجابة عن ذلك من صنم من بينها قد تعمد أن يتركه قائما! فلكأنما كان يهزأ بعقولهم ﷺ في كل ذلك، يريد أن يحرجهم ويشعرهم بشناعة ما هم عليه من اعتقاد وعبادة، لعل نفوسهم تنزجر أو تهتز من ذلك، لا أنه أراد أن يقدم إليهم الدليل النظري علىٰ بطلان شركهم ببيان سبب الفساد العقلي في عبادة كل من الشمس والقمر والكوكب والوثن!

وقد قوبل - كما هو معلوم - بثمرة ذلك المتوقعة من أمثالهم من المكابرين الجاحدين مع أمثاله من المرسلين، إذ جمعوا أمرهم علىٰ أن يحرقوه حيا ﷺ ونجّاه الله منهم. فلو كان متكلما جاء يطالبهم بأن يصدروا له علماء اللاهوت منهم حتىٰ يجادلهم ويطيل معهم النفس في المناظرة الفلسفية لإثبات أن الشرك باطل عقلا وأن التوحيد هو الحق، لاستطابوا ذلك منه جدا ولاستحسنوه أشد الاستحسان، ولبدؤوا معه جدالا طويلا لا ينتهي أبدا، فلا يزداد طولا وتشعبا ذلك السجال إلا ازداد الحق خفاء من تحته كما يطمعون!

ونحن نقول إن هذا التشنيع والتبكيت علىٰ هذه الطريقة الألمعية التي حكاها القرآن، هو الحد المشروع من المجادلة والمناظرة في مثل هذه الحالة وهو طريقة المرسلين في ذلك وهو حجة بالغة علىٰ المشركين المعاندين قطعا لا يملكون لها دفعا يوم القيامة. فإن أردت أن تسميه بإقامة الدليل العقلي (كما سماه ابن كثير بالدليل القاطع) فاعلم أن مصطلح «الدليل العقلي» لا يطلق غالبا إلا أريد به البرهان النظري علىٰ قواعد الجدل والنظر والترجيح، كما يكون عند الفقهاء والأصوليين (وهو عندهم قسيم للدليل النقلي) وعند المتكلمين والفلاسفة والنظار في كل صنعة من صناعات المعرفة، وها أنت ترىٰ أن هذا ليس من تلك البابة في شيء أصلا، مهما حاول المتكلمة بتنطعهم وتشدقهم أن يجعلوه كذلك. فإن رأيت استعمال كلمة «دليل» في كلام الأئمة من أهل السنة في باب محاججة المشركين وبيان بطلان ما هم عليه، فاعلم أن مرادهم هو نحو ما جاء في القرآن والسنة من ذكر آيات الله الظاهرة في خلقه، يستصحب عند سوقها علىٰ المخاطبين بها العلم الضروري الفطري بكونها مخلوقة

مصنوعة كلها، وبكون صانعها عند الغاية من كمال الصفة لا محالة فلا ترد عليه نقائص جنس المخلوقات أصلا، فيأتي التذكير بتلك الآيات ليواطئ الفطرة المستقرة في نفس الإنسان فيتحقق المطلوب من البشارة والنذارة، وتكون هذه هي دلالة القرآن وطريقة المرسلين في الجدال مع المشركين، بخلاف ما سلكه المتكلمون من البداءة بإثبات هذه القضايا البدهية الفطرية نفسها (كقضية حدوث العالم مثلا) وتحويلها إلىٰ مسائل نظرية تفتقر إلىٰ مقدمات منطقية، جريا علىٰ شرط الفلاسفة وطريقتهم في نفي العلم البدهي الفطري أولا ثم التماس الدليل «العقلي» الموصل إليه قبل التأسيس عليه! فليس ما يريده أئمة السنة رحمهم الله تعالىٰ بـ«الدليل» و«الدليل العقلي» و«العقل» كما يريده الفلاسفة والمتكلمون، فلينتبه لهذا، والله المستعان!

ومن أمثلة حجاج القرآن علىٰ هذه الطريقة الربانية الرفيعة ما حكاه ربنا تبارك وتعالىٰ من محاججة إبراهيم عليه السلام - أيضا - للطاغوت النمرود ورد هذا الأخير عليه في قوله تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥٨] فليس هذا مما يقال له «مناظرة» لا في اللغة ولا في الاصطلاح (سواء في علم الجدل أو علىٰ الاستعمال الشائع بين الناس الآن)، وإنما هي مجادلة عارضة وقعت بين رسول من المرسلين وطاغوت من الطواغيت، فجاء فيها الخليل عليه السلام بحجتين بعدما تبين له أن أولاهما لم تف بالمطلوب (ألا وهو إحراج ذاك الطاغوت وتعجيزه)، وانتهىٰ الأمر عند ذلك. فلو قدرنا أن الرجل لم يبهت ولم يدر بأي شيء يجيب، إلا أن يرجع بجواب عبثي عن تلك الحجة الظاهرة، لما خاض معه إبراهيم عليه السلام في الجدال بعدُ، لأن المقصود من المحاججة قد تحقق بهذا القدر وقضي الأمر.

فهب أن النمرود أجاب هنا بقوله (مثلا): «ليس امتناعي عن تحريك الشمس من المغرب إلىٰ المشرق دليلا علىٰ أني مربوب لمن تدعوني إلىٰ عبادته»، مثلا، فتراه يخترع من السفسطة الفلسفية ما يجيده بعض الناس، فهل يُظن بإبراهيم عليه السلام أن يواصل

الرد عليه ومجادلته إذن؟ الجواب كلا، لأنه لو فعل لنزل بحجته من منزلتها الظاهرة الجلية إلىٰ ما هو دونها. إذ الرجل قد ابتدأ بدعوىٰ أن سعة ملكه وشدة بطشه دليل في نفسها علىٰ أنه كامل الربوبية مستغن عن عبادة الله، فجاءت حجة إبراهيم عليه السلام الأخيرة بما يفي بالمطلوب علىٰ تمامه، ويصيب مواضع الفطرة العقلية المستقيمة في نفوس السامعين، من غير أن يكون فيها ألفاظ مشتبهة أو وجوه محتملة أو مجار للنظر العقلي لاختلاف التأويل أو خفاء متصور لبعض المعنىٰ أو نحو ذلك. لا سيما وقد سبق منه قوله «أنا أحيي وأميت»! فلو جاءه نمرود بهذا القول الذي ضربنا به المثل فقد حاد إذن حيدة لا تخفىٰ، ولم يكن من الحكمة ولا من فقه الدعوة أن يخوض معه في ذلك أو أن يتكلف الرد عليه فيما يدعي، وإنما حسبه أن يستنكر ذلك منه ويتركه وشأنه.

والظاهر أن النمرود هو الذي بدأ بالدعوىٰ الفاسدة ﴿**حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ**﴾، فاقتضت المصلحة أن يرد عليه إبراهيم عليه السلام، ولكن لما كانت دعوىٰ الرجل مخالفة لبدهيات العقل الأولىٰ، وكان في إحراجه وفضحه خير يرجىٰ (إن لم يكن بإظهار الحق بين يديه، فلبطانته ومن حوله ممن حضر من الناس)، تفنن إبراهيم عليه السلام في الإتيان بجواب حاسم يحرج ذلك المكابر ويكسر قرنه. فلما رأىٰ الرجل قد استعمل التشابه والإجمال في معنىٰ «الإحياء» في حجته الأولىٰ واحتماله معنيين (معنىٰ ابتداء الخلق، ومعنىٰ ترك قتل النفس والتجاوز عنها، كما في قوله تعالىٰ «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا»)، لم يأت جوابه بأن قال «أنت تعلم أني إنما أقصد كذا لا كذا، وأني أطالبك بأن تخلق ذبابا أو تبعث الروح في رجل ميت، وهو ما أعنيه بالإحياء» كما قد يقع من غيره في مثل موقفه، وإنما انتقل من فوره إلىٰ حجة أظهر تفي بالمطلوب، من غير أن يفتح بابا لذاك العبث من تلاعب باشتباه الألفاظ وباشتراك المعاني. فلماذا اختار الانتقال إلىٰ حجة أظهر، عليه السلام، ولم يعمد إلىٰ الدفاع عن حجته الأولىٰ؟

الجواب أنه لو فتح الباب للجدال مع ذاك المكابر الجاحد في جوابه عن الحجة الأولىٰ لظهر الأمر للناس علىٰ أنهما في «مناظرة» ومخاصمة علنية علىٰ طريقة الفلاسفة، ولأورث ذلك لدىٰ الحضور صورة مغلوطة مفادها ورود النظر والظن والاحتمال علىٰ

موضوع النزاع! مع أن القضية التي أراد ذاك الطاغوت الجاحد أن يجادل فيها قضية جلية ظاهرة من بدهيات العقل الأولىٰ (أنه محال أن يكون المخلوق الناقص الذي علم أنه مخلوق ناقص، الذي خرج من فرج أمه لا يعقل شيئا، ربا مستغنيا عن باريه ورازقه)، فلا منتفع ولا مستفيد من الإيهام بانتقالها من تلك المنزلة إلىٰ منزلة الدعاوىٰ النظرية المفتقرة إلىٰ دليل، إلا ذاك الطاغوت وأتباعه وأنصاره عند التأمل. وما أراد الرجل من مجادلة إبراهيم عليه السلام إلا هذا في الحقيقة، لأنه يقينا لم يكن يخفىٰ عليه وهاء دعواه تلك وبطلانها في العقل الصريح، وإنما أراد بها التذرع للبقاء علىٰ ما هو عليه من علو وجبروت، ورد دعوىٰ الرسول وصرف الناس عنها. ولهذا فوت إبراهيم عليه السلام تلك الفرصة عليه علىٰ أكمل ما يكون من ذلك، ولم يفتح له باب الجدال والمناظرة في مسألة لا تحتاج إلىٰ دليل أصلا.

وبمزيد من التدبر يظهر لنا أن الحجة التي أقامها عليه إبراهيم عليه السلام (سواء الأولىٰ أو الثانية) لم تكن برهانا منطقيا علىٰ طريقة الفلاسفة والمتكلمين (بما أن المقدمة الأولىٰ كذا والثانية كذا إذن فالنتيجة كذا)، وإنما هي تحدٍّ عملي مباشر لذاك الجاحد بأن يأتي بما يلزم من عجزه عن الإتيان به انشكاف كذبه (المعلوم بداهة) وافتضاحه به علىٰ رؤوس الأشهاد (وهو المطلوب). فمراد إبراهيم عليه السلام في الحقيقة إنما كان أن يكشف كذب الرجل وجحوده وتكبره علىٰ قبول الحق الواضح بعدما تبين له، ويفضحه بذلك أمام نفسه وغيره بصورة عملية مباشرة، وليس أن يقيم البرهان العقلي علىٰ حقيقة قد عُرفت صحتها بالبداهة، بما يفتح باب المناظرة والمراء فيها، وينزل بها إلىٰ أوحال الجدل السوفسطائي المقبوح، فتأمل. وحتىٰ والحالة هذه، فلما وجد مسلكه الأول قد ماریٰ فيه الرجل وتفلت، لم يناقشه في ذلك، ولم يعالج اللفظ والبناء والتركيب فيما سبق من كلامه ليدفع وجه الرد، وإنما أتاه بمسلك ثان يقوم بالمطلوب علىٰ أحسن وجه، ثم قطع الأمر عند ذلك ولم يزد.

فوجه علو حجة إبراهيم عليه السلام ليس في كون المجادل قد انقطع وبهت بسببها، فقد كان من الممكن أن يمضي إلىٰ مزيد من السفسطة والمماراة كما هو شأن الكثيرين

ممن يجيدون ذلك، وإنما كان علوها في كونها قد أصابت المطلوب من إحراج ذاك الكاذب الفاجر وتعجيزه أمام أتباعه وتذكيرهم بما عرفوه بفطرتهم من كذب دعواه، من غير أن يلتمس البرهان النظري علىٰ صحة البدهيات الأولىٰ والضروريات العقلية كما هو دأب الفلاسفة، بما يفتح الباب واسعا للإجمال والأخذ والرد والسفسطة في الواضحات. فكأنما قال لذاك المكابر بحزم واستعلاء بالحق الظاهر الذي معه: «يا من تزعم أنك لا حد ولا منتهىٰ لقدرتك ولا تفتقر إلىٰ رب من فوقك، قل للشمس أن تشرق من المغرب إن كنت تقدر!»، فإذا عجز – وهو عاجز قطعا وبداهة – فقد تحقق المقصود، ورأىٰ الناس آية تذكرهم بما عرفوه بالفطرة من كذبه فيما يدعي، وانتهت القضية. فأين هذا من طرائق الفلاسفة والمتكلمين، وكيف يقال إن هذه «مناظرة» علىٰ اصطلاحهم وطريقتهم؟

ونظير ذلك ما صنعه ﷺ من قبل بآلهة قومه فيما حكاه القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١ – ٧٠]

فتأمل كيف حطم الأصنام تحطيما، ثم قال لهم حين سألوه عن ذلك: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ**﴾، فهل هذا مما يمكن عده برهانا «نظريا» أو كلاميا؟ كلا، وإنما هو تحد لإحراج المكابر الجاحد وفضحه، من طريق مباشرة لا يدعىٰ المخالف فيها للتشويش علىٰ البدهيات العقلية الأولىٰ بطرائق المسفسطين وجريا علىٰ شروطهم! فكأنما يقول عليه السلام: «أنتم تزعمون أن تلك الآلهة التي مثلتموها في تلك الأصنام تملك لنفسها الضر والنفع، وها أنا ذا قد أهنتها أبلغ الإهانة ولم أتعرض منها لشيء، ولم أجد منها دفعا ولا منعا ولا انتصارا، فكفاكم كذبا علىٰ أنفسكم وعلىٰ أتباعكم بعبادة ما علمتم أنه مخلوق مربوب مثلكم، وأن العقل يأبىٰ أن يكون هو المستحق للعبادة من دون الرب الواحد الأحد سبحانه!» هذا هو مضمون الكلام ومقصوده، ولكنه لم يصرح به ولم يفصل فيه علىٰ نحو ما فعلت أنا الآن، لأنه لو فعل لفتح الباب لأن يقول أحدهم (مثلا): «ولكن لا يلزم أن ينزل عليك غضب الآلهة من فعلتك هذه الآن وفورا، بل قد ينزل لاحقا، ولعلهم تركوك لتفعل ما فعلت من غير منع حتىٰ يكون امتحانا لإيمان الناس بهم وبقدرتهم»! وحينئذ ينفتح باب للجدال في شبهة ساقطة يُشوش بها علىٰ الحق الجلي الواضح الذي قصد إبراهيم إلىٰ بيانه وصدم نفوسهم به بحسم لا مزيد عليه، ألا وهو أن تلك المعبودات كلها مخلوقة مربوبة، ولا يجوز أن تُتخذ آلهة تعبد من دون الله! فأي إله هذا الذي يجوز عليه التحطيم والتدمير علىٰ أي حال؟

ولهذا لم يجدوا جوابا لما قاله إبراهيم إلا أن ينكسوا علىٰ رؤوسهم من شدة الضيق بذلك الصنيع وقالوا ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ**﴾، فشهدوا علىٰ أنفسهم بأنهم أهل كذب ومكابرة من حيث لا يشعرون، وهذا هو عين المقصود. ثم ما لبثوا أن انتصروا لباطلهم (وهم يعلمون بطلانه وفساده)، وانقلبوا علىٰ إبراهيم عليه السلام بالبطش والعقاب، كما هو متوقع من أمثالهم.

والقصد أنه لم يتكلف إبراهيم عليه السلام أن يدخل مع قومه (في أي شيء مما رأينا من حججه الرسالية الباهرة التي أقامها عليهم غير مرة) في جدال أو مراء فلسفي أو

كلامي يأتي فيه بأدلة وجوب إفراد الباري بالربوبية التامة وما يقتضيه ذلك من تفرده بحق الألوهية دون غيره من الموجودات، ولم يتكلف بيان الفرق بين واجب الوجود وما دونه من الموجودات، ولم يعمد إلىٰ بيان امتناع حوادث لا أول لها، أو معلولات لا علة لها، ولم يتفنن في تلك المسالك التي تفتح من أبواب الجدال في البدهيات الأولىٰ ما الله به عليم. وإنما قصد إلىٰ إحراجهم وكشف كذبهم أمام أنفسهم وأمام أتباعهم بأبلغ طريق، حتىٰ يكون في ذلك صدمة إفاقة للغافلين بهدم ما تعلقت به أهواء القوم وشهواتهم في الصدود عن الحق، ودعوة لنفوس العقلاء من أتباعهم إلىٰ ترك تلك الزخارف الفلسفية والحيل التلبيسية التي تصرفهم عن الحق الواضح الجلي، وقبول ما جاءهم به الرسول وقد علموا موافقته لفطرتهم المجردة. ولو أنه ﷺ تكلف الخوض مع فلاسفتهم وكهنتهم في الجدال «اللاهوتي» الفلسفي لما تحقق له هذا المقصد، بل لابتعد عن نواله أشدّ ما يكون البعد!

قال تعالىٰ في محاججة إبراهيم لقومه: ﴿**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [**الأنعام**: ٨٠ – ٨٣]

فتأمل أيها القاري الكريم في موضوع وطريقة هذه الحجة التي أثنىٰ الله تعالىٰ عليها في كلام إبراهيم لقومه. لم يقل لهم إن المخلوق ناقص والناقص لا يمكن أن يكون هو علة العلل ومن ثم فلا يمكن أن يكون هو الأحق بالعبادة .. الخ، وإنما خاطب نفوسهم وأهواءهم خطابا مباشرا بليغا حتىٰ يخوفهم من مقام من عاندوه وبارزوه بالشرك والمعصية، مؤسسا ذلك كله علىٰ ما هو مركوز في فطرهم يقينا – مهما كذبوا وادعوا خلاف ذلك – من الإقرار بأن الخالق ليس بمخلوق وأنه فوق مخلوقاته جميعا بالضرورة، وأنه ليس منها ما يماثله أو يكافئه بالضرورة.

فقال لهم ما معناه: «كيف تطالبونني بالخوف من بطش تلك المخلوقات التي عبدتموها من دون الباري الذي خلقكم وإياهم وإياي وخلق كل شيء، ولا تخافون أنتم من بطشه بكم وغضبه عليكم وقد جعلتم له أندادا وشركاء؟ اتقوا الله يا هؤلاء وأقلعوا عن الشرك وارجعوا إلىٰ ما علمتم أنه الحق لعلكم تفلحون!» هذه وما سبقها مما مر معك هي الحجة الدامغة التي رفع الله بها إبراهيم علىٰ قومه درجات ودرجات، فلا فيها تحرير «مقدمات» و«نتائج» ولا فيها جمع «للأدلة» و«القرائن» ولا استعمال لمصطلحات الفلاسفة والمتكلمين، ولا لشيء من مقدماتهم ونظرياتهم الميتافزيقية، ولا فيها توضيح للواضحات الجليات ولا شيء من ذلك! وإنما هي خطاب مباشر لعقول ونفوس المجرمين الظالمين، بغرض استخراج الحق الذي علموه بداهة، من تحت تلك الحُجُب والأستار الكثيفة التي دفنوه تحتها في نفوسهم، ومن ثم دفعه إلىٰ وعيهم الحاضر، وتحريك قلوبهم بالخوف من أثر البقاء علىٰ ما هم عليه من التكذيب به، كل هذا في عبارة واحدة بليغة موجزة! هذا هو خطاب العقل كما جاء به الأنبياء، هذه هي أدلتهم وحججهم التي خاطبوا بها أقوامهم، بعيدا عما غرق فيه الفلاسفة وأشباههم وأذنابهم من تنطع علىٰ الواضحات وسفسطة في البدهيات، وإغراق للنفوس في أهوائها وشهواتها وزخرفتها لهم باسم العقل ونظر العقل، والعقل من ذلك كله براء. إنه خطاب من بصَّره الله بنفوس أهل الشرك وما يعتمل فيها، وألهمه الحكمة وحسن البيان، فأي حجة للحق يمكن أن تكون أرفع أو أبلغ أو أوفىٰ بمقصود الدعوة من هذا؟

فالحمد لله القائل ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [**البقرة**: ٢٦٩].

قال الله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١١٢، ١١٣] فأعداء الأنبياء من الإنس والجن هم الذين تفننوا في ابتكار زخارف القول التي يغتر بها الواحد منهم ويكذب بها علىٰ نفسه، ويشوش بها علىٰ الحق الجلي

الظاهر تشويشا، فتميل إليه قلوب المعاندين المكابرين، وترتضيه وتمضي إلىٰ الزيادة منه كما نرىٰ من أحوالهم في كل زمان. وتأمل دقة وبراعة العبارة القرآنية في قوله جل وعلا: ﴿**تَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ...**﴾، فالإصغاء هو الميل للسماع بشوق وشغف، وهؤلاء تميل قلوبهم ويتلهفون ويتحرقون شغفا وحبا لتلقي المزيد من تلك «الحجج» و«البراهين» والدعاوىٰ الفلسفية والتشبع بالمزيد من زخرفها وبهرجها والتفوق فيها، ولا يكتفون من تلك البضاعة، رجاء أن يوهم الواحد منهم نفسه بأنه علىٰ شيء، ويرتضي لنفسه ويسوغ (يزين) لها البقاء علىٰ ما هي عليه واقتراف ما هي ماضية في اقترافه من الإشراك بالله رب العالمين. هذه الصنعة يحترفها شياطين الإنس والجن ويتفننون فيها غاية التفنن. فحري بمن سعىٰ في دعوة الخلق إلىٰ الحق أن يتفطن إلىٰ تلك الزخارف علىٰ اختلاف فنونها وصورها وأن ينفذ ببصره إلىٰ ما تحتها من أمراض القلوب، فلا يُستدرج إلىٰ إعانة أصحابها علىٰ الاستزادة منها من حيث يحسب أنه يجاهدهم باللسان والحجة والبيان، وأنه يقرب قلوب عامة المشركين بذلك إلىٰ قبول الحق الواضح الذي معه.

ويقول سبحانه: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١٢١ – ١٢٦]

فيبين جل وعلا أن هذا الإيحاء من الشياطين للمشركين بأن يجادلوا المؤمنين هو ما يتزين به ذلك المراء بفنونه وبهرجه وزخرفه وما فيه من مكر وتلاعب أمام

أعين نفوسهم، ولا يراه على حقيقته (أنه ظلمات بعضها فوق بعض) إلا من فقه أحوال هؤلاء وعرفها بنور الوحي الشريف الذي يقذفه الله في قلبه فضلا ومنة. فتأمل كيف أنهم من كبرهم وغرورهم يشترطون على ربهم أن يأتي البرهان على نحو ما يختارون، وأن يأتي الدين من التكاليف بما يريدون ويشتهون، وأن يبعث به من الرسل من يحبون ويعظمون، وما ذاك إلا لأن صدورهم ضيقة متحرجة أشد الحرج من دعوى الحق التي جاء بها رسل الله، يكرهونها أشد ما أنت راء من الكراهية، أنفة واستكبارا على الخضوع لمن اصطفاه الله رسولا، واستثقالا لما جاء به من أوامر الله ونواهيه!

فمهما جئتهم بالأدلة والآيات الباهرة رأيتهم يتأولونها ويتلاعبون بها من رجس قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ [**آل عمران**: ٧] فأثبت سبحانه أن ابتغاءهم الفتنة وابتغاءهم التأويل هو دافعهم وحاملهم النفسي الباطن على ترك المحكم وتتبع المتشابه من نصوص الوحي المطهر: هم يبتغون ذلك ويشتهونه، ولولا هذا الهوى وتلك الشهوة المتمكنة من جذوع قلوبهم، لأعملوا النظر في المتشابهات إعمالا بدهيا بحملها على المحكمات القطعيات كما يكون من سائر العقلاء.

وتتبع المتشابه والمجمل من الكلام خصلة يتفنن أصحابها فيها ليس فقط في تناول متشابه نصوص الوحي ولكن فيما تشابه من كلام كل من جاءهم بدعوى لا تعجبهم، وسيأتي معنا في باب لاحق من أبواب هذا الكتاب بيان أحوال الفلاسفة والسوفسطائيين في ذلك، ففيه من العبرة في معرفة أحوال نفوس أهل الأهواء ما يعتبر به أولو الألباب. وسيرى معنا القارئ الكريم، بحول الله تعالى، تفنن القوم في تتبع اشتباه العبارات واشتراك الألفاظ واحتمال الكلام غير وجه من وجوه التأويل، سعيا في الانتصار لأهوائهم، متجاهلين ما تصرخ به فطرتهم وبداهة عقولهم في بواطن نفوسهم الخبيثة من ضرورة الإقرار بصحة دعوى رسل الله إليهم والعمل بمقتضاها.

وتأمل هذا التعبير القرآني الدقيق في وصف ما يقضيه الله في أمر من أراد له الهداية، إذ لم يقل سبحانه إنه يُظهر له أو يجلي له ما كان خافيا عليه من برهان صحة الملة، أو يُفهمه ما تعذر عليه فهمه من قبل مما جاء به الأنبياء والمرسلون من بيان أن التوحيد حق وأن الشرك باطل بجميع صوره، فإن حجة الحق في ملة محمد ﷺ سهلة واضحة جلية لا يصعب فهمها ولا تخفىٰ علىٰ ذي عينين ولله الحمد والمنة، وإنما قال سبحانه «يشرح صدره للإسلام». وشرح الصدر إنما يأتي بأن يزال ما فيه من أسباب التعلق بالباطل ومحبته ومحبة ما يرتبط به من أحوال دنيوية يشتهي الإنسان أن يبقىٰ عليها، ويزال كذلك ما في النفس من كراهية ونفور من أهل الحق بسبب بعض أحوالهم الدنيوية، وما في تلك النفس من خوف من تبعات الانتقال من موالاة الأهل والأحباب إلىٰ معاداتهم، والانتقال من معاداة من كانوا من قبل أعداءً مُبغَّضين إلىٰ موالاتهم، وغير ذلك من حُجُب وغشاوات نفسية يعلو بعضها فوق بعض طبقات فتحجب نور الحق الجلي الواضح عن عين النفس، وتنقله إلىٰ باطن الوعي تخفيه في صندوق مظلم وتغلق عليه الأقفال، كما في قوله تعالىٰ ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [**محمد**: ٢٤]. فالمانع من تدبر القرآن وقبول ما جاء به من الحق ليس اشتباه ذلك الحق، وإنما إحكام الأقفال علىٰ تلك القلوب والغشاوات علىٰ الأعين! فإذا ما انزاحت تلك الأقفال والغشاوات، انشرح ذلك الصندوق المقفل وانفتح بأمر الله تعالىٰ، ورضي صاحبه بالدخول فيما عرف من الحق من غير ما تحرج ولا ضيق ولا ضجر.

وفي مقابل شرح الصدر بالإيمان، تجد شرح الصدر بالكفر كذلك، نسأل الله السلامة والعافية، يقول تعالىٰ: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [**النحل**: ١٠٦]، فكما أن قلب الكافر قد ينفتح لما قد يعرض عليه من الحق مما كان من قبل لا يميل إليه ولا يرتضيه، بل ينفر منه ومن أهله، فكذلك قد يقع للمؤمن أن ينفتح قلبه للكفر ويجد نفسه مائلا إليه وإلىٰ أصحابه، سلمنا الله والمسلمين من ذلك. فمن انشرح صدره بالكفر وزال عنه اطمئنان القلب بالإيمان ومحبته والحرص علىٰ الموت عليه، هذا من استحق غضب الله تعالىٰ وعذابه الأليم.

قال تعالىٰ في تحذير المؤمنين من مشابهة المنافقين: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٢٤] فأثبت أن المنافقين لا يتركون الجهاد في سبيل الله من خفاء أدلة وجوبه عليهم، ولا من اشتباه الأمر عليهم واختلاط الحق بالباطل في ذلك، ولكن من غلبة حب الآباء والأبناء والأزواج والأموال، علىٰ حب الله ورسوله في قلوبهم ومن ثم حب الموت في سبيله. هذا هو تفسير نفاقهم وسببه النفسي، كما فصله رب العزة تبارك وتعالىٰ بأحكم تفصيل. فلو أنهم اهتدوا وصلحت قلوبهم، لعلموا أنهم علىٰ سفاهة، وأن العقل السوي يأبىٰ أن يباع المصير الأخروي الأبدي لعرض من الدنيا قليل زائل!

ولكن واقع الأمر أن قوة الإيمان والتصديق في النفس الإنسانية منفكة عن قوة الدليل المعرفي الذي به تتحقق المعرفة، فلا تقوم المعرفة في نفس الإنسان قياما يليق بها ويناسبها مناسبة صحيحة موضوعيا إلا في نفس العاقل السالم من الأهواء والميول المانعة، التي تبغض المرء في مقتضيات القبول والتسليم ولوازمه السلوكية. فقد تعلم أنك علىٰ خطأ ولكنك تأبىٰ أن تسلم بصحة تلك المعرفة مهما ظهرت لك، وتصر علىٰ البقاء علىٰ خلافها، وهذا حين يكون قول القلب فاسدا، وعمله جاريا علىٰ تزيين ذلك الفساد لصاحبه بألوان المحابّ والمكاره. فهذا كله لا ينافي معرفة صاحب ذلك القلب بفساد ما هو عليه من حيث هي معرفة مجردة، تقوم بها الحجة عليه، وإنما ينافي قول القلب بقبولها والتسليم بها تصديقا وإذعانا. بل قد يكون الإنسان عند الغاية من تحصل دواعي المعرفة في نفسه ببطلان ما هو عليه، وكلما تفكر في حاله خاليا علم أن الأدلة كلها تشهد بفساد اعتقاده، ومع ذلك يكابر ويعاند ويصر علىٰ البقاء عليه ما دام حيا، ولا «يصدق» دعوىٰ من يزعمون أنه علىٰ باطل وضلالة، بل يُكذِّب بها ويرفضها ويلفظها في نفسه أشد ما يكون ذلك، ولربما زينت له نفسه أن يقاتل في سبيل اعتقاده الفاسد إن وصل الأمر إلىٰ ذلك!

ولهذا فلعلنا نحتاج إلىٰ أن نعرف «اليقين» في النفس الإنسانية علىٰ نوعين، يقين ظاهر Conscious Certainty ويقين باطن Subconscious Certainty! الأول منهما هو قول القلب الظاهر للنفس الذي يجري عليه العمل في عموم أمره، والثاني هو صوت الفطرة الباطنة! فإن اتفق اليقينان في قضية وجود الباري وقضية كمال صفاته وقضية استحقاقه للإفراد بالعبادة وحده، حصلت الطمأنينة وتم للإنسان بناء المعرفة علىٰ أرسخ ما يكون عليه العقل والعلم من أساس في نفوس البشر، وإلا كان ذلك المرض الذي يأتي بسط الكلام عليه في هذا الكتاب.

فإذا وصفنا النوع الأول بأنه انشراح الصدر للمعتقد والتعلق به ومحبته ومحبة الانتصار له في كل مناسبة، وتصديقه إلىٰ حدّ قد يوصف بأنه «عين اليقين» (أي كأنه يراه بعيني رأسه)، كان المشرك متيقنا (مصدقا)، منشرحا صدره لعقيدة هو يعلم في باطن نفسه (بيقين مناقض) أنها باطلة لا ينصرها دليل ولا يقوم بها برهان، بل لو تأمل متجردا في حجج مخالفيه لوجدها لا مدفع لها، لأنه يشهد في باطن نفسه، في ميثاق الفطرة، بصحتها في نفسها واستغناءها عما يثبت صحتها! ولكنه مع ذلك التناقض، محب لما هو عليه، كاره لخلافه، فنفسه تصطنع له اليقين والتصديق اصطناعا، تزخرفه له زخرفة وتزينه تزيينا.

فمن قال – مثلا – أنا ملحد عن يقين، أو هندوسي عن يقين أو نحو ذلك، فلعله أصاب في وصف حاله من كونه شديد التمسك بملته لا يتصور الزوال عنها بحال من الأحوال! ولكن كما أسلفنا فليست شدة التمسك وقوة التصديق في نفس أحد من البشر متوقفة علىٰ سلامة البناء المعرفي الفردي من التناقض أو النقص أو الفساد وحسب. بل قد يزعم إنسان ما أنه متيقن من صحة قضية هو يعلم أنه لا يملك لها دليلا، بل يعلم بيقين أنها منافيه لبداهة العقل الأولىٰ بالأساس، ويكون هذا الزعم هو ما تسوله له نفسه وتوهمه به إيهاما، من شدة حرصه علىٰ اعتناق تلك القضية والتسليم بصحتها! ومثل هذا المخادع لنفسه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة: ٩]، لا تزال نفسه تناديه، من آن لآخر، ببطلان ما هو

عليه وبأن الحق بخلافه، وبأنه إنما أسس تصديقه ويقينه علىٰ الهوىٰ والميل القلبي لا علىٰ ما في فطرته من معرفة ضرورية أو ما عنده من دليل وبرهان، فيتعرض لأحوال من الشك والتقلب يتلمس دفعها بحيل كثيرة سنعرض لشيء منها في هذا المجلد بحول الله تعالىٰ وقوته.

وقد جاء الجمع بين اليقينين المتناقضين في نفس المشرك المكابر في قوله تعالىٰ في آل فرعون: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [**النمل**: ١٤] ! فالجحود بآيات موسىٰ والإصرار الشديد عليه، الذي بلغ حد القتال من أجله، إنما يرجع إلىٰ اليقين الظاهر في الاعتقاد الباطل، بينما يجد أحدهم في باطن نفسه يقينا مناقضا في بطلان ما هو عليه! ولهذا علق أئمة الإسلام صحة الإيمان باليقين الظاهر، الذي هو قول القلب، وليس باليقين الفطري الباطن الذي لا تخلو منه نفس منفوسة! المعرفة الفطرية اليقينية بصحة ما جاءت به الرسل، لا تزول في باطن نفس المشرك مهما أخفاها وتنكر لها، فليست العبرة في الإيمان بها، وإنما بقول القلب بعد حصول السمع!

وعليه فلفظة «الشك» غالبا ما تطلق ويراد بها نقيض المعنىٰ الأول لليقين (اليقين الظاهر)، فإذا كانت قوة التصديق للدعوىٰ المعرفية (أيا ما كان موضوعها) تبدأ في أعلاها باليقين وتمر بمراتب الظن والاحتمال، فإن أدناها يكون هو «الشك». وأحيانا يطلق «الشك» ويراد به الظن والاحتمال، أو إيراد المعارض، كما في اصطلاح فلاسفة الطبيعيات والتجريبيات المعاصرين، فعندهم أن التشكيك في نظريات الطبيعيات طمعا في الوصول إلىٰ ما هو أحسن منها، حال مستحسنة مستطابة، ولكنها لا تجيز لصاحبها (المتشكك) اعتقاد بطلان تلك النظريات وترك العمل بها البتة، ما دام لم يصل – بعد – إلىٰ ما يقتضي تركها والزوال عنها. ويطلق لفظ «المتشكك» في سياق الكلام عن الدين في استعمالنا العربي المعاصر ويراد به الملحد الذي يزعم أنه لا «تترجح» لديه أدلة الموحدين علىٰ صحة دينهم. ومع أنه – ككل مشرك – يعلم في باطن نفسه (بيقين باطن) أنه ليس علىٰ شيء في تشكيكه فيما شكك فيه، إلا أنه قد عقد لنفسه – بهواه

المحض – هذه المنزلة (في قول القلب) ما بين التصديق والتكذيب، واستحسن البقاء عليها إلىٰ حين أن تميل به نفسه إلىٰ غيرها إن مالت.

ولهذا نقول إنه لا تلازم بين المرتبة التي يقف عندها الإنسان ما بين التصديق الذي يوجب العمل والتكذيب الذي يوجب الترك، وبين قوة الدليل (موضوعيا) المتحصل لديه علىٰ صحة ما هو عليه، لأن هواه يحمله علىٰ التهرب من قبول دلالة الدليل والتسليم بصحتها علىٰ أي حال، كما سيأتي تفصيله والتمثيل عليه في فصول هذا الكتاب بعون الله تعالىٰ. ولهذا استحق هؤلاء أن يوصفوا في القرآن بالسفاهة وأن يُنزع عنهم اسم العقل والعلم والفقه.. الخ، لأن العقل إنما يوصف به من يصدق فطرته ويصدق ما جاء به الدليل الصحيح ويخضع نفسه وجوارحه لمقتضىٰ ذلك التصديق أيا ما كان ذلك المقتضىٰ وإن كان له كارها. فمن كان علىٰ خلاف ذلك، بل بلغ أن أظهر اليقين التام والتصديق المطلق، وخدع نفسه لاعتناق دعوىٰ هو مستيقن في باطن نفسه بطلانها، خدمة لهواه وشهوته، فلا عقل لهذا ولا علم، ولا يوصف إلا بمحض السفاهة، نسأل الله السلامة.

ولهذا نقول إن الداعية إلىٰ الله تعالىٰ الذي يرجو مخاطبة أمة الدعوة، ليست وظيفته أن يتكلف مخاطبة المشركين بإثبات ما عرف العقلاء صحته وظهوره من الحقائق الوجودية الكبرىٰ ببداهة العقل الأولىٰ، وكان من فطرتهم التي جبلوا عليها، ولا أن يتكلف الدفاع عن تلك الحقائق ضد اعتراض المعترضين منهم بتكلف صياغة الحجج والبراهين النظرية لتأسيسها، وإنما وظيفته أن يفضح كذب أئمة الباطل فيهم وتناقضهم في ادعاء أنهم علىٰ شيء (كما مر بك مثاله من صنيع المرسلين)، وأن يفيق الغافلين من أتباعهم بالوعظ تارة، والتذكير تارة، لعل الله تعالىٰ يشرح بذلك صدورهم لسماع الحق وللتسليم بما عرفوه ببداهة العقل من امتناع أن يكون الحق في غيره. وحينئذ تميل بهم نفوسهم – بفضل الله تعالىٰ وتوفيقه – إلىٰ قبوله والدخول فيه، فإن فعلوا، زال «يقينهم» الأول وانقلب التصديق فيما كانوا يصدقونه من قبل تكذيبا والتكذيب تصديقا، واستقامت لهم نفوسهم علىٰ بناء معرفي صحيح لا يتناقض، وهو ما يجعل

نفوسهم تتحقق باليقين والتصديق فيما آمنت به علىٰ نحو لا يتطرق إليه (من بواطن نفوسهم في فطرتها) أي داع للتكذيب أو التشكيك البتة كما كانوا يتعرضون له من قبل ويكتمونه أو يتغافلونه. ثم لا يزول أحدهم عن ذلك اليقين إلا إن رجعت الأهواء لتراوده وتتجاذب خيوط نفسه من جديد. ذلك أن الحق في دعوىٰ المرسلين واضح جلي لا يحتاج إلىٰ برهان أصلا، وإنما يحتاج إلىٰ التذكير والبشارة والنذارة التي جاء بها المرسلون حتىٰ يفيء المخاطَب بالدعوة إلىٰ نداء الفطرة والبداهة العقلية في نفسه وينشرح له صدره، ثم يعمل بمقتضاه وهو به راض مطمئن النفس.

ولهذا ترىٰ خطاب القرآن مشحونا بالوعظ والترهيب والترغيب بقصد تحقيق التقوىٰ في النفوس ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾، علىٰ أساس من تذكير المخاطبين بما علموه بالبداهة العقلية من فساد ما هم عليه من الشرك. والفرق المنهجي كبير بين التذكير بالحقائق الفطرية البدهية والنذارة من عاقبة التكذيب بها وبما تقتضي قبوله والتسليم بصحته مما جاء به المرسلون، وبين نصب البرهان العقلي النظري علىٰ صحة تلك الحقائق الفطرية نفسها من الأساس، فهذا الأخير لم نره في القرآن ولا في شيء مما جاء به النبي العدنان، صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ولا فيما أثر عن صحابته من مجادلة أهل الملل.

وليس هذا راجعا – كما قد يتوهمه بعض المتكلمين – لاختلاف حال المخاطبين بالقرآن في زمان التنزيل عن حال الناس اليوم، فإن المعارف الفطرية الجلية الظاهرة كانت ولا تزال ظاهرة باهرة واضحة تقوم عليها مبادئ المنطق البشري نفسه، عند الأولين كما عند الآخرين ولا فرق، ولا يدعي خفاءها إلا جاحد معاند! وحقيقة أن الأكثرين من المتثقفة اليوم قد تابعوا طرائق الفلاسفة وأغرقوا في التشكيك والتنظير لإثبات أو مناقشة معاني قد عُلمت صحتها بالبداهة الأولىٰ، لا تعني أن خطاب القرآن ما عاد يكفي وحده لإقامة حجة الحق عليهم كما قامت علىٰ الذين من قبلهم، ولهدايتهم الطريق إلىٰ تطهير نفوسهم من تلك الأهواء والشهوات والألاعيب الفلسفية الخبيثة التي استغرقت أمة الدعوة في زماننا هذا (من كان منهم يرجىٰ له ذلك)! وإنما تعني أن

الدعاة أصبحوا مطالبين بالمزيد من الوعظ والتذكير والتخويف، والتزام طريقة الأنبياء والمرسلين، ومراجعة المنهج والطريق والوسائل مراجعة شاملة، مع مزيد من الحذر والاحتراز – علىٰ أشد ما يكون ذلك – من الخوض مع الخائضين والمجادلين ومن تنويل أصحاب تلك الأهواء ما يريدون من حيث لا يشعرون!

فكثيرا ما نسمع بعض الدعاة يقولون إن الزمان اليوم أصبح زمان «علم» (يقصدون النظريات الطبيعية التي صارت لها السيادة الفكرية في بلاد الغرب في زماننا) وهو ما يجعلنا مطالبين بالتوسع في أبحاث ما يقال له «الإعجاز العلمي» في القرآن، حتىٰ يكون طريقا سريعا ومضمونا لبيان الحق ودعوة أهل هذا الزمان إليه! وهذا الكلام خطير وينبغي الوقوف معه والتنبه إلىٰ لوازمه وتبعاته، كما أطلنا النفس في بيانه في غير هذا الكتاب. فالله تعالىٰ لم يخاطب العقلاء في القرآن بفيزياء ولا كيمياء ولا جيولوجيا ولا فلك ولا جغرافيا ولا شيء من ذلك، تماما كما نقول إنه سبحانه لم يخاطبهم ببراهين الفلسفة علىٰ طريقة التحليليين والمناطقة ونحوهم. وإنما خاطبهم بمقتضيات ما شهدت له البداهة العقلية والفطرة السوية المستقيمة بأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

أنت – أيها المخاطب – ترىٰ في السماوات والأرض آيات عظمة ربك وخالقك الذي تشهد فطرتك بربوبيته عليك (ومنها كذا وكذا مما نذكرك به تذكيرا)، فما بالك تكذب به وتشرك معه غيره في العبادة والتأليه؟ ألا تستحي؟ ألا تخاف عاقبة صدودك عن الحق وتكذيبك بما جاء به الرسول؟ فاعلم إذن أن عاقبتك إن أبيت إلا الموت علىٰ هذا بعدما سمعت ما سمعت وعلمت ما علمت: الخلود في عذاب أبدي لا يزول، وإن آمنت وصدقت بالحق كان لك الخلود في نعيم مقيم لا يزول! هذه هي فحوىٰ الرسالة التي جاء بها القرآن وأساس الحجة الرسالية، وهي خطاب للعاقل الذي يعلم في باطن نفسه – مهما زعمت الفلاسفة خلاف ذلك – أنه مخلوق وأن خالقه عند الغاية من كمال الصفات وجوبا، فلا يحتاج إلىٰ أكثر من التذكير والوعظ البليغ (بما يناسب حاله) علىٰ نحو ما نرىٰ في القرآن.

فمن أكبر الغلط وأخطره أن يأتي الداعية إلىٰ جوهر حجة القرآن وأساسه ولبه الذي به آمن الناس ودخلوا في دين الله أفواجا من كل عصر ومصر (ألا هو موافقته الفطرة والبداهة في التذكير ببطلان الشرك بشتىٰ صوره، والوعظ والتخويف من الإصرار علىٰ البقاء علىٰ ذلك)، فيهمله ولا يعتني به، لصالح تلك الأبحاث النظرية الحادثة التي جعلوها هي رأس الحجة ومفتاح الدلالة علىٰ صدق كتاب الله وصدق رسالة محمد بن عبد الله ﷺ، حتىٰ رأينا منهم من يكتفي بها، بدعوىٰ أن هذا ما يناسب أحوال الناس في هذا الزمان، وهو «لغة العصر»، والله المستعان! فقد رأيت بعض من يتنسبون إلىٰ الدعوة يكتفي بسوق بعض تلك الأبحاث لمن يدعوه إلىٰ الله تعالىٰ وهو يحسب أن المخاطب بها سيرىٰ فيها ما يكفي لتحقق المقصود، ولا يدري المسكين من هؤلاء أن ذاك المخاطب الذي يرجىٰ له أن يهتدي بسبب تلك الأبحاث، إن لم يكن قد وجد في مجرد حقيقة دعوة الإسلام (دعوة محمد بن عبد الله عليه السلام للدخول في التوحيد الخالص والبراءة من الشرك بشتىٰ صوره) دليلا ظاهرا علىٰ أن القرآن حق وجميع ما سواه من الملل والفلسفات باطل ساقط بالضرورة والبداهة، فلا بد وأن في نفسه من الأدران ما لا يرجىٰ علاجه باستمالة نفسه لفكرة موافقة القرآن لما هو سائد في بلاده وزمانه من سلطان فكري وثقافي!

ذلك أن تلك النفس ما تأبّت علىٰ الحق الظاهر والحجة الواضحة لدين الإسلام وجحدتها، إلا لمحبتها وميلها لذلك الفكر السائد نفسه، وطمعها في اعتناق ما يستطيبه ويستحسنه رؤوس ذلك الفكر في تلك المجتمعات (من حيث المبدأ)! فلا يغرنك أيها الداعي إلىٰ الله أن ترىٰ الناس تدخل في الدين بالمئات بل الآلاف بعد سماعهم محاضرة في «الإعجاز العلمي» ونحوه. مثل هذا لو جئته بعد إعلانه الدخول في الإسلام بيوم أو يومين، وقلت له إن الله يأمرك بكذا وينهاك عن كذا، لرأيته يجادل أشد المجادلة، ويرجو منك الإجابة عما قاله هؤلاء وهؤلاء من أعداء الدين، فلا تخرج معه من شبهة حتىٰ تدخل في أختها، فإذا بك تكتب وتحاضر وتنصح وتُنظر بما لا يجري معك إلا علىٰ ما تشتهيه نفس ذلك المريض المفتون في كل مرة!

وما ذاك إلا لأن ما فسد أصله فسد فرعه بالضرورة! فإذا كان دخول صاحبنا هذا في الإسلام قد جاء تبعا لإيقافك إياه علىٰ ما يحب وما يهوىٰ أن يسمع، فلن يزال يرجو أن يسمع منك – كذلك – أن الإسلام منع الرقّ واتخاذ السراري في الحروب وحرمه، علىٰ وفق ما تربىٰ عليه من قيم أخلاقية في مجتمعه تجعل من مطلق فكرة الرقّ جريمة أخلاقية كبرىٰ، ويرجو أن يسمع منك أن الإسلام أعطىٰ المرأة من «الحقوق» ما منحه لها الفكر السائد في مجتمعه كذلك وجعله من مسلمات نظامه الأخلاقي، ويود لو يسمع منك أنه لم يكن في الإسلام جهاد ولا أمر بالقتال أصلا، إلا دفاعا عن النفس أو دفعا للصائل أو نحو ذلك مما يجيزه نظامه الأخلاقي الذي تربىٰ عليه، وحتىٰ هذا قد يقبله علىٰ مضض واستحياء لأن ثقافته النصرانية ذات السيادة والتعظيم في مجتمعه، تعلمه أن الحرب شر كلها والقتل عدوان كله، ويود لو يسمع منك أنه لا حد للردة في الإسلام ولا قتل لمن يفارق الدين، لأن ثقافته الديموقراطية العصرية علمته أن يستحسن حرية الاعتقاد مطلقا، وحرية الدخول والخروج من الأديان والفلسفات والدعوة إليها ونشرها من غير منع ولا بطش! فهو يود كذلك لو يسمع أن الإسلام يوافق كبرىٰ نظريات ما يقال له «العلم الحديث» تمام الموافقة ولا يخالفها، لأن ثقافة مجتمعه التي تربىٰ عليها علمته أن قبول تلك النظريات السائدة تحت هذا الاسم هناك هو غاية ما يُبتغىٰ من علم ومعرفة، وغاية ما يرام من علو فكري ورقي ثقافي وكمال عقلي، وأن الأديان كلها باطلة لمخالفتها ما عليه الطبيعيون من منهج في بناء المعرفة (لا سيما فيما نعده من الغيبيات)! هذه معان تربىٰ عليها هؤلاء المساكين في بلادهم، كانوا ولا يزالون يجدونها في الهواء الذي يتنفسونه! فبدلا من أن يجدوا من يكسحها من قلوبهم كسحا بمثل ذاك البيان الجامع البليغ الشافي الذي جاء به القرآن، تراهم يخاطَبون بكلام «الدفاعيين» Apologists من المتكلمين ومن تأثر بطريقتهم، تحت شعار (الرد علىٰ الشبهات)، تُجمع فيها تلك الدعاوىٰ الشيطانية في مكان واحد ويُرد علىٰ كل واحدة منها بطريقة تكاد توحي إليهم بأن حياتهم وعاداتهم الاجتماعية بل حتىٰ قيمهم الأخلاقية الكلية وتصوراتهم للمجتمع البشري وسياسته تبعا لها لن تتغير كثيرا

إن هم دخلوا في الإسلام، كما هي طريقة دعاة التنصير Evangelists من اللاهوتيين وأضرابهم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذلك أنك إن تأملت في عمل أكثر هؤلاء «الدعاة» (وكثير منهم جهال قصاص في الحقيقة وليسوا دعاة علىٰ شرط أهل العلم في الاشتغال بالدعوة إلىٰ الله ومخاطبة جماهير الناس) رأيتهم لا يزيدون في ردودهم علىٰ تلك الاعتراضات الشيطانية التي يقال لها «شبهات» إلا تزيينا لتلك التعلقات والمواريث والقيم الفكرية الكلية الراسخة في نفوس هؤلاء المساكين من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعا. تراهم يعملون علىٰ إثبات أن تلك الأشياء المكروهة عندهم لها في الإسلام محاسن راجحة بحسب موازين مجتمعهم الأخلاقية، التي هي عين ما كان يجب أن يدعوهم الداعي من هؤلاء إلىٰ الانخلاع منه بالكلية وإلىٰ التسليم بأن الخير فيما جاء به الشرع ولا بد وإن كرهه من كرهه، وبأن الشر في خلافه لا محالة وإن أحبه من أحبه!

لذا تكون الثمرة غالبا أن ترىٰ الواحد منهم لا يدخل في الإسلام إلا علىٰ بدعة عقلية كلية، فيجنح إلىٰ الاعتزال أو التمشعر أو العقلانية (الاعتزال المعاصر) أو إلىٰ طريقة التطويريين والتصميميين ونحوهم من أصحاب الطرق الكلامية المعاصرة في الرد علىٰ الدهرية المعاصرين، وترىٰ الواحد من عموم المخاطَبين بتلك الدعوة المعوجة لا يزداد إلا تعظيما للفكر السائد في مجتمعه، وترسيخا لذلك الشرط الشيطاني الذي يوشك أحدهم أن يصرح به تصريحا فيقول: «إما أن يكون الدين علىٰ وفق ما هو سائد في مجتمعي وعلىٰ وفق ما تربيت عليه من معايير أخلاقية، وإما ألا يكون هو الدين الحق! يجب أن يأتي الدين بما يجعلني علىٰ ما أحب أن أكون عليه من منزلة في مجتمعي، وإلا فلا دخول لي فيه!»

وهذا هو شرط أهل الأهواء بعامة فيما تبطنه نفوسهم للانتقال من مللهم التي هم عليها إلىٰ ما جاء به المرسلون: أن يأتي هؤلاء المرسلون بما يحبه الواحد منهم لنفسه ويهواه من حال يكون عليها بعد التحول إليه، لا بما يكرهه ويراه ثقيلا علىٰ نفسه وعلىٰ نفوس المقربين إليه من حوله! لذا لم يعامل الأنبياء والمرسلون عامة المشركين عند

مبادأتهم بالدعوة بتكلف «الرد علىٰ الشبهات»، كما لم يخاطبوهم بكلام الفلاسفة علىٰ طريقة اللاهوتيين والمتكلمين، وإنما خاطبوهم بالوعظ البليغ الذي يهز أركان القلب، وبالتذكرة الموجزة الواضحة بآلاء الله من غير خوض ولا مراء، عسىٰ الله أن يشرح منهم صدرا للتسليم بما عرف من الحق والدخول فيه.

ولذا أقول إن ثمرة الاستزادة من أبحاث ما يقال له «الإعجاز العلمي» (علىٰ ما في عامتها من ليّ لأعناق النصوص وافتعال لتفاسير جديدة مخالفة لما كان عليه السلف، وتكثّر من نظريات ربما لا يلبث أصحابها أن يتحولوا عنها ويقولوا ببطلانها غدا!)، أن يصبح العلم الأعلىٰ والأرفع منزلة في نفس المخاطب بتلك الأبحاث كلها إنما هو ذاك العلم الدنيوي التجريبي ونظرياته ومباحثه وليس النص القرآني نفسه! العلم الطبيعي هو العلم القطعي اليقيني عنده، الذي إليه يستند كل من يريد إثبات صحة ومعقولية ما هو عليه من اعتقاد، حتىٰ الاستدلال علىٰ صحة النص القرآني نفسه وصحة نسبته إلىٰ رب العالمين يصبح هذا هو الطريق الأظهر والأمضىٰ والمستند الأعلىٰ للوصول إليه!

وإذا بما حقه أن يدخل إلىٰ قلوب البشر علىٰ أنه علم قطعي يقيني لا يتطرق إليه الشك بحال، يعامل وكأنه تبع لعلم من العلوم البشرية النظرية التي كان ولم يزل وسيظل الأصل فيها الشك والتقلب والظن الضعيف! بل يصبح الأمر وكأنه لولا التنظير الطبيعي ما قامت لأصحاب ذلك الكتاب حجة أصلا! فإذا ما انهارت هذه النظرية أو تلك غدا كما هو معتاد في تلك العلوم، وقد جعلها أصحاب الإعجاز (أعني النظرية) دليلا علىٰ صدق القرآن بادعاء الموافقة بينه وبينها، زاد ميل تلك النفس (الزائغة المفتونة من الأساس) إلىٰ رفع ذلك العلم الدنيوي فوق ما جاء به الوحي وما اشتغل به علماؤه من بحث في معانيه ومراميه، وزاد استرواحها وركونها إلىٰ من يشككون في نسبة ذلك الكتاب إلىٰ رب العالمين من الأساس، وزاد قبولها لجعل تلك المدرسة المعرفية الطبيعية هي الأساس في تحقيق كل معرفة صحيحة كما هو الفكر السائد فعلا في مجتمعها. فمهما اغتر هؤلاء بكثرة من يجيبهم إلىٰ الدخول في الإسلام بسبب كثرة ما يعرضونه لهم من تلك الأبحاث، فلا عبرة بهذا في الحكم علىٰ تلك الطريقة في الحقيقة، لأنها لا ترسخ

في قلوب من تعجبهم وتستهويهم من المسلمين الجدد اليقين بصحة القرآن بقدر ما تزين لها التيقن بعلو نظريات العلم الطبيعي (إجمالا) علىٰ سائر مصادر المعرفة البشرية في زماننا، ومن ثم تزيدهم تعلقا بشهوات وشبهات تجعلهم معرضين في كل لحظة للسقوط والردة إلىٰ أسوأ مما كانوا عليه قبل إسلامهم، والله المستعان!

والحاصل أننا نقول إن هذا الفارق المنهجي بين طريقة الأنبياء والمرسلين وأتباعهم، وطريقة الفلاسفة والمتكلمين والدفاعيين ومن تأثر بهم، فارق في غاية الأهمية والخطورة، من ضبطه وأحكم تصوره فقد ظفر بالدخول في قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [**يوسف**: ١٠٨]. إنه الفارق بين من يعي موطن العلة في نفوس المخاطبين بدعوة التوحيد، تلك العلة التي صدتهم من قبل عن قبول الحق الجلي الظاهر الذي جاء به الإسلام، وزينت لهم البقاء علىٰ ما هم عليه من الشرك وهم يعلمون بطلانه، وبين من لا يبالي بأي طريق دخل الناس في الدين، المهم أن يعلنوا إسلامهم ويضافوا إلىٰ رصيد الداعية أو جماعته أو حزبه وتنتهي القضية!

تأمل أيها القارئ الكريم بأي شيء أمر الله موسىٰ وهارون يوم أرسلهما إلىٰ فرعون مصر، ذلك الطاغوت المتأله المتجبر الذي جمع الناس علىٰ عبادته من دون الله، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ [**طه**: ٤٤] وتأمل الغايتين والمقصدين المباشرين من الخطاب الدعوي نفسه: لعله يتذكر أو يخشىٰ! أما الغرض الأول فهو أن يُذكَّر أهل الباطل بما عرفوه من الحق بل تيقنته نفوسهم في بواطنها، وهم يروغون ويتهربون منه ليل نهار! وأما الغرض الثاني فهو أن يخوَّفوا من ثمرة إصرارهم علىٰ البقاء علىٰ ذلك الباطل وهم يعلمون! ولما كان في إلانة القول بتلك الدعوة ما هو أرجىٰ لاجتناب إثارة ما في نفس ذلك الجبار من كبر وغرور من مبدأ الكلام، وجههم الله تعالىٰ لالتزام ذلك المسلك في مخاطبته، حتىٰ مع كونهم لا رجاء لهم في هدايته أصلا. ولأن الله تعالىٰ يعلم أن تلك النفس فيها ما فيها، أرسلهما إليه هو وقومه بآيات (معجزة)، فلم يكن الإعجاز بغرض تقديم الدليل الذي لو نقص أو تخلف ظهوره لما

كملت أركان الدعوة أو لخفي ما في دعوة موسىٰ وهارون من حق جلي واضح، كلا، ولكن كان الإعجاز بقصد التخويف واستعراض المزيد من آيات وعلامات عظمة ذلك الخالق وقدرته، الذي يكذب به ذاك المجرم وأتباعه وهم يعلمون، حتىٰ إذا ما نزل العذاب علىٰ وجه العقوبة، كان عند الغاية من الشدة والبشاعة، كما في قوله تعالىٰ لبني إسرائيل يوم طالبوا المسيح بأن ينزل عليهم مائدة: ﴿**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [**المائدة**: ١١٥].

فليس الأمر أنهم قبل نزولها كانوا معذورين بكفرهم وردهم ما جاءهم به رسول الله من الحق، كلا، ولكن الأمر أنهم بعدما جاءتهم تلك الآية، أصبحوا مستحقين لأضعاف ما كانوا قد استحقوه من قبل من العذاب لتكذيبهم الرسول وصدهم عن سبيل الله![1]

---

(١) وقد رأيت من الغلط العظيم عند بعض الإخوة زعمهم أن المعجزة التي يجعلها الله للرسول إن لم تظهر للإنسان فإنه يعذر يوم القيامة بتكذيبه بذلك الرسول وكفره به، وهذا كلام ما أنزل الله به من سلطان! يقول أحدهم (هداه الله للعلم النافع):

«لم أسمع عن نبي جادل قومه بدون معجزة، وإلا فلن يلومهم الله إن لم يؤمنوا به لو أن معجزات الرسول ﷺ لقومه سقطت لما آمن به الصحابه رضوان الله عليهم. ومعجزات الرسول ﷺ لقومه أصبحت الآن من الغيبيات، للإيمان بها نحتاج الى معجزة تدل على صدقها، بعباره أخرى: إعجاز علمي وما شابه!»

قلت: فتأمل كيف أراد صاحب هذا الكلام أن يقرر أن الحجة الرسالية لا تقوم إلا بظهور «المعجزة»، وأن الصحابة لو لم يروا معجزات الرسول لما آمنوا به (مع أنه يعلم أن الإيمان دخل قلوب أكثرهم قبل أن يروا منه أي إعجاز على المفهوم الذي يتصوره!)، ثم يجمع إلى هذه الدعوى الباهتة مقدمة أخرى مفادها أن المعجزات التي رآها الصحابة إنما كانت حوادث تاريخية لم نرها نحن، ثم يخرج من هاتين المقدمتين بنتيجة مفادها وجوب أن نعمل على تعظيم مباحث ما يقال له الإعجاز العلمي بإجمال، لأنه لولاها لما قامت حجة الرسالة في هذا الزمان أصلا! هكذا يعتقد هذا المسكين، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولعله لو سألته لاستدل بقوله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»، وصحيح أن الله تعالى ما بعث رسولا إلا آتاه من البينات والآيات المحكمات (الكونية والشرعية) ما بمثله يؤمن البشر، ولكن كيف يكون هذا دليلا على أن المعجزة الحسية أو الآية المادية لو لم تظهر للإنسان ليراها بعينيه أو يبلغه خبرها الموثوق، فإنه لا تقوم عليه الحجة الرسالية؟ هذا من التحكم في آيات الله وبراهينه بلا سلطان!

ولو أن المستدل بهذا الحديث على هذا الظن عنده، أكمل نص الحديث إلى آخره لوجده حجة عليه فيما يشترط من أنواع الآيات، فالنبي ﷺ يردف بقوله: «وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»! فالوحي نفسه هو الآية الكبرى التي أظهرها الله على يدي النبي ﷺ وتحدى الناس إلى قيام الساعة بأن يأتوا بمثله. وليس التحدي كما يفهم صاحبنا هذا في أن يأتوا بنص قديم كقدمه، يوافق اكتشافا ماديا حديثا و«ينبئ» به قبل مئات السنين (فقد وقع ذلك في كتب النصارى والهندوس وهم أيضا

فإذا علموا هذا، وظهرت لهم تلك الآية، فلعله يثقل ميزان الخشية والخوف في نفوس

يعدونه إعجازا!)! وإنما التحدي أن يأتوا بنص بشري لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا تناقض ولا اختلاف فيه ولا نقص في معناه أو مبناه، ولا يتصور في العقل ما هو أهدى منه، يدعو الناس إلى التوحيد الصرف، ونبذ الشرك وأسبابه، وسائر ما فيه فلاحهم تأسيسا على ذلك، يخاطبهم بما يعظم به قدر الرب في نفوسهم ويحقر – في المقابل – صنيع من سموا آلهة من خلقه وعبدوها من دونه، فجعلوا بعضها أولادا له أو بنات أو أندادا أو شركاء أو وسطاء، على اختلاف نحلهم ومللهم في ذلك، أو قالوا إنما هي حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، في جحود لا يخفى على ذي بصر!

هذا المعنى الأكمل الأسمى عقلا وشعورا، الذي لا يماري فيه عاقل، هو ما لن تجده على الوجه الأكمل والأتم إلا في القرآن وحده! فمهما عملوا فلن يأتوا بمثل القرآن في ذلك ولا قريب منه أبدا! لذا قال جل وعلا: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾ [النساء: ٨٢]، فحجية القرآن قائمة وباقية من مجرد تدبر آياته ومعانيه بتجرد وسلامة نفس، وهذا أصل الإعجاز والتحدي والآية التي كانت ولا تزال باقية إلى قيام الساعة!

فما أحوج شباب المسلمين في زماننا إلى من يجلي لهم هذه الحقيقة، ويبين لهم بطلان ذلك الشرط الكلامي الفاسد القائل بأن المشركين إذا عظم في نفوسهم ضرب من ضروب البحث النظري (سواء كان علما طبيعيا أو فلسفة إلهية أو غير ذلك من صناعات معرفية وعقلية يستحسنونها في زمان ما) لزمنا معاشر الدعاة إلى الله أن نتعلمه ونتقنه حتى نخاطبهم به، وحتى تقوم عليهم حجة الإسلام من طريقه! لقد رأيت من فساد تنظير بعض متكلمة هذا الزمان، من يستند في تقريره هذا الشرط الذي ما أنزل الله به من سلطان إلى قوله جل وعلا: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [إبراهيم: ٤] وإلى الأثر «خاطبوا الناس على قدر عقولهم» ونحوه، وهذا استناد أقرع واستدلال لا يصح بحال! فلا يخفى أن اللسان المقصود هنا هو اللغة، أي لا تقوم الحجة على الإنسان حتى يخاطبه الرسول بلغته، لا أن يخاطبه بالعلم الطبيعي إن كان من المتخصصين في الطبيعيات، أو الرياضيات أو المنطق أو الفلسفة إن كان من أصحابها، أو نحو ذلك من عبث المتكلمين، الذي قلبوا به حجة الرسول الجلية الظاهرة إلى جدليات نظرية لا أول لها ولا آخر، في صناعات نظرية لا ينبغي أن تدخل تلك القضايا في مباحثها أصلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ثم كيف يكون شرطهم ذاك في تقديم الخطاب بالطبيعيات لمن يحبون الطبيعيات من المشركين، داخلا في العمل بالأثر المذكور في وجوب مخاطبة الناس على قدر عقولهم حتى لا يفتنوا؟ أي المسلكين أبعد عن أن تكون فيه فتنة للناس لو كنتم تعقلون: مسلك يخاطبهم بالبيان والتذكير بالحق الجلي الواضح الذي لا يماري فيه عاقل كما جاء به القرآن صريحا واضحا ناصعا لا لغو فيه ولا عبث ولا تنظير ولا تنطع، يعظهم موعظة بليغة تزلزل أركان نفوسهم إن كان يرجى لمثلهم أن يسمعوا؟ أم مسلك جاء بالنظريات الطبيعية والبراهين الفلسفية والرياضية ونحوها من صور الاستنباط النظري التي يطول فيها الجدل والمراء ولا ينتهي، ولا يرجى في مسائلها الوصول (نوعا) إلى أكثر من ظن راجح على أحسن الأحوال، حتى يخاطب أصحاب تلك الأشياء بما يشترطونه هم من فرط هواهم وتعظيمهم لما هم فيه من تنطع مهلك وتكلف وتعمق ممرض، وحتى لا نبدو نحن وكأننا الفقراء أو الجهلاء في تلك البضاعة؟

نقول إن إعجاز القرآن (أو بعبارة أدق: برهان إلهيته) ماثل بالأساس في معانيه وما جاء به من مفاهيم لا تحتاج إلى علم طبيعي ولا فلسفي ولا شيء من تنظير الناس حتى يفهموه ويروا تمامه وإحكامه وقيامه

بالحجة، وأنه لا يمكن إلا أن يكون كلام رب العالمين وحده لا شريك له، وحتى يؤمنوا به كما آمن الناس على اختلاف عقولهم وعلومهم في كل عصر ومصر! فلماذا يصر إخواننا على استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وعلى تطويل الطريق وتشعيبه والتشقيق على سالكه؟ وكيف يكون هذا هو مقتضى الحكمة والجدال بالتي هي «أحسن»؟ من أراد أن يزيد على ذلك الكمال العقلي والبياني الواضح في النص القرآني نفسه، بعض الحقائق القطعية التي يصح أن تعد من دلائل صدق النبوة، فليأت بذلك على سبيل الزيادة والاستئناس لا على سبيل التأسيس! فإن من لم «يقتنع» بصحة ما جاء به القرآن من دعوة وإرشاد ووعظ وتذكير ببطلان الشرك وفساده، من بعد سماعه كما سمعه الذين آمنوا به من قبل، فلا خير فيه ولا يرجى له إيمان بشيء مما سوى ذلك!

من سمع بالقرآن وبمقصده الدعوي ومنتهى رسالته للناس ومر بشيء من آياته، لزمه – من مجرد ذلك– أن يشهد بأنه كلام الله الذي خلقه وسواه وعدله في أي صورة ما شاء ركبه، فلو كان صادقا في طلب الحق لما تخلف عن ذلك، فإن تخلف بعد ذلك السماع فهو معرض أو مكابر لا محالة! والخلفاء الراشدون عليهم رضوان الله تعالى ما كانوا يمهلون النصارى – مثلا – بعد دخولهم بلادهم بالغزو والفتح، لسنوات طويلة من الجدال الكلامي والبحث والتحري الذي يزعمون لزومه حتى «يعرفوا الحق ويتبين لهم» وحتى «تزول عنهم جميع الشبهات»، بل كانوا يفرضون عليهم الجزية والصغار إن لم يقبلوا بالإسلام بعد سماعه فيما جاءهم به الغزاة الفاتحون! فلو كان مراؤهم وجدالهم في التوحيد من بعد سماع القرآن مستساغا – من حيث الأصل – لما فرض عليهم الصغار لإصرارهم على البقاء على ما هم عليه من الشرك! لو كانت حجة الإسلام مما يحتاج إلى شرح طويل وتعليم وتنظير وبيان ومناقشة في دعاوى الفلاسفة واللاهوتيين ونحو ذلك من اعتراضات لا أول لها ولا آخر، حتى تظهر وتقوم تلك الحجة على وجهها الأكمل، للزم أن يكون تشريع تلك المسألة على خلاف ما جاءت به شريعة الإسلام! إذ كيف نفرض الذلة والصغار على من نظن أنه لم يسمع ما يكفي ليظهر له بطلان ما هو عليه وصحة ما جئناه به في مقابله، أو لم يظهر له وجه بطلان ما هو عليه في مقابله؟

لذا ذهب بعض السلف ﷺ إلى القول بنسخ الأمر بمجادلة أهل الكتاب في أمر الدين بإطلاق (وترك مجادلة الوثنيين والدهرية من باب أولى)، من بعد نزول آية السيف والأمر بالقتال! وسواء قلنا بذلك النسخ أو لم نقل به، فنحن نسأل كل عاقل من إخواننا الذين شرطوا ذلك الشرط فيما يرتضونه من صور مجادلة المشركين: إن لم نرج أن يظهر للمشرك (أيا ما كانت ملته) الحق الجلي الواضح في مضمون رسالة القرآن نفسها وما تدعو الناس إليه من تعظيم مقام ربهم وخالقهم بما هو أهله وتقديره حق قدره، ومن أن ذلك لا يكون إلا بنبذ ما هو عليه من الإشراك به سبحانه وعبادته وحده لا شريك له، فكيف ترجى له تلك الثمرة من إسماعه تأويلا نظريا لنص من النصوص بما يوافق شيئا من بضاعة النظر الطبيعي الحديث؟ كيف يقدم هذا على ذاك فيما يرجى حصول الهداية من طريقه من ألوان الخطاب؟ وكيف يرجى لقلب السامع أن ينصلح وينشرح بنور الحق على النحو الأتمّ، إذا كنا نتحرى مخاطبته بما يحب هو ويهوى– على مرض قلبه – من ألوان التنظير الفلسفي والعلمي، لعله يرضى بالحق الجلي الذي معنا؟ وأي ثمرة جناها المتكلمون الأوائل والأواخر من ذاك الشرط الذي شرطوه على أنفسهم إلا إفساد الدين نفسه على عامة المسلمين بتلك الأهواء، إذ تحال الجليات الواضحات التي جاء بمصداقها رسل الله إلى نظريات وجدليات بدعوى التدليل العقلي، لو كنتم صادقين؟

إن المتأمل فيما جاءت به شريعة الإسلام في الغزو والفتح يجدها قد جاءت بضد ذلك في الحقيقة. جاءت بصدم نفوس المكابرين والمعرضين بالحق الجلي الواضح، مع تفويت ما تحبه تلك النفوس وتهواه من علو دنيوي بالباطل والشرك الذي هم عليه، لأن ذلك الهوى الدنيوي هو مانعها من قبول ما بلغها من رسالة

بعضهم فيزولوا عن أهوائهم التي كانت تصدهم عن قبول الحق من قبل، وهو ما كان مع سحرة فرعون الذين سلموا فورا بما عرفوا من الحق بعدما رأوا آية موسىٰ عليه السلام، لا من زيادة معرفة كانوا يفقدونها قبل ذلك ولا من رجحان أدلة الحق معرفيا علىٰ أدلة الباطل في نفوسهم، وإنما من انكسار ما كان في نفوسهم من قبل من محبة للعلو بالباطل وتلذذ باستغفال العامة واستعبادهم بألاعيب السحرة وأعوانهم من الشياطين وحيلهم، نظرا لتحول ميلهم القلبي من خشية فرعون والطمع فيما عنده (فيما كان هو قول قلوبهم وعملها)، إلىٰ استظهار خشية رب العالمين وكراهة بطشه وعذابه والطمع فيما عنده! فبعدما قالوا لفرعون من قبل «إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين»، تراهم هم أنفسهم يقولون لفرعون نفسه فيما بعد «فاقض ما أنت قاض»! فما الذي تحول؟ هل ظهر لهم ما كان خافيا من قبل؟ أبدا! وإنما تحول ميل القلب (علىٰ أثر ظهور الآية) من طمع فيما عند فرعون إلىٰ طمع فيما عند خالقه سبحانه، ومن خوف فرعون إلىٰ الخوف من خالقه جل شأنه!

هم لم يخف عليهم من قبل مطابقة دعوىٰ موسىٰ للواقع وما افتقروا فيها إلىٰ دليل قط! فإنه لا يصح في العقل المجرد أن يأتي رجل يدعو الناس إلىٰ توحيد خالقهم وتعظيم باريهم بالغيب وتنزيهه عن تلك النقائص الفاحشة التي يستلزمها في حقه مطلق معنىٰ الشرك بجميع أنواعه وصوره، ثم يكون في ذلك كله مفتريا علىٰ خالقه كاذبا فيما ينسبه

محمد ﷺ بالأساس، لا أنها تعاني من خفاء ذلك الحق أو اشتباهه بالباطل علميا أو فلسفيا! فإن حرمنا تلك النفوس من رجاء العلو في الأرض بذلك الباطل، فلعله يسهل على كثير منهم وعلى من يتربى على أيديهم من أجيال لاحقة أن تميل نفوسهم إلى قبول ما عرفوا من الحق لذهاب الداعي النفسي الباطن للمكابرة والإعراض! فأي طمع قلبي أو هوى باطن يمكن أن يمنع الكتابي – مثلا – من الإقرار بصحة دين الإسلام وقبوله والدخول فيه، إن كان يرى أن العلو في البلاد والظهور كله قد انتقل للمسلمين دون غيرهم من أهل الملل؟ هذه من دقائق حكم التشريع التي لا يلتفت إليها كل أحد! فعندما نخاطب تلك النفس بما يزيدها غرقا في ذلك المرض المتسلط عليها، فنتحرى ألا نأتيها عند الخطاب إلا بما تحب وتهوى ما أمكن ذلك، فهذا أمر أزعم أنه مصادم لمقاصد الشرع في خطاب المشركين! فإن كنا في زمان لا غزو فيه ولا فتح ولا شيء من ذلك، فهلا حرصنا – على الأقل – على ألا تفقد دعوة الحق جلاءها وبهاءها وصفاءها بين أيدينا، وعلى ألا نزيد الطريق طولا ونزيد القلوب المريضة مرضا فوق مرضها من حيث نحسب أننا «نواكب العصر» و«نطور الخطاب الديني بما يناسب الزمان» ونحو ذلك من دندنة المتكلمين؟

إليه من محبته التوحيد وأهله وكراهيته الشرك وأهله! لذا أمر الله نوحا أن يقول لقومه حين قالوا له «هذا كذب تفتريه ولست بنبي ولا رسول»: ﴿**إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ**﴾ [**هود**: ٣] أي حتىٰ لو كنت كاذبا أو واهما في ادعائي أن خالقكم قد أرسلني إليكم بدعوة التوحيد، فلا يضيركم كذبي في شيء، لأني أدعوكم إلىٰ دعوة قد عرفتم بمقتضىٰ البداهة المحضة أن خالقكم وخالق كل شيء ما كان ليحب لكم الموت علىٰ خلافها أو يرتضي منكم غيرها دينا وعبادة، فلو كنت مجرما حقا في ادعائي النبوة (ولست أسألكم أجرا ولا منصبا ولا شيئا من لعاعة الدنيا أصلا) فسيحاسبني هذا الذي كذبت عليه بإجرامي في الدنيا وإلا ففي الآخرة، ولكن اشهدوا أنتم الآن علىٰ أني بريء مما تجرمون بصدكم عن دعوىٰ حقيقتها تنزيه خالقكم من تلك الشنائع التي تنسبونها إليه! اشهدوا علىٰ أنكم تركتم ما تصرخ به نفوسكم من بطلان ما أنتم عليه وصحة التوحيد الذي أدعوكم إليه، لدعاوىٰ واهية لا قيمة لها، زينتها لكم شياطينكم وأنفسكم من الاعتراض علىٰ كوني بشرا مثلكم وعلىٰ كوني أدعوكم لترك ما تعودتم عليه أنتم وآباؤكم من قبل!

هذا الخطاب من صاحبه خطاب تخويف وترهيب ونذارة مستندة إلىٰ بداهة عقلية ظاهرة لا تحتاج إلىٰ برهان أو إثبات أو توضيح! ومهما حاول أحد من الناس أن يشرح ما فيها من بدهيات ويفصل في ذلك، فلن يزيد تلك البدهيات وضوحا علىٰ وضوحها الفطري، وإنما هو أقرب إلىٰ التشويش عليها بسوء العبارة والبيان والإجمال إن كان فاعلا، وليس هذا بمطلوب أصلا ولا يفتقر إليه العقلاء ولله الحمد. فإذا ما ظهرت الآيات المادية علىٰ يدي النبي بعد ذلك في موقف كموقف موسىٰ وهارون عليهما السلام، جاء أثرها بمزيد من التخويف والترهيب، كما في قوله جل وعلا: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾ [**الإسراء**: ٥٩] وهذا كما ترىٰ أسلوب حصر، فأمثال تلك الآيات لا تأتي للبرهنة النظرية أو تعليم ما يخفىٰ مثله علىٰ الجاهل، كلا وإنما تأتي لتخويف المكابر الجاحد وترهيب الملحد المائل! تأتي لتذكرة الظالمين بعظمة وبأس خالقهم الذي كذبوا رسله وهم يعلمون.

وفي المقابل تأمل كيف أظهر الله آية لخليله إبراهيم لا ليخوفه ولا ليرهبه ولكن ليطمئن قلبه، إجابة لطلبه عليه السلام. قال تعالىٰ حاكيا ما كان من شأن إبراهيم في ذلك: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [**البقرة**: ٢٦٠] فلم يكن هذا الطلب منه عليه السلام من شك أو من ريبة أو من افتقار إلىٰ دليل كاف يقوم به اليقين والإيمان الصحيح في نفسه، وإنما كان طلبا لتحصيل المزيد من اليقين ومن طمأنينة النفس. ذلك أن أحوال النفس تتقلب، والقلوب قد تصدأ وتفتر، واليقين وقوة الإيمان والتصديق ليست علىٰ درجة واحدة في قلوب المؤمنين المصدقين. لذا كان المؤمن في حاجة دائمة إلىٰ متابعة حال قلبه وتجديد الإيمان مرة بعد مرة، بتذكرة النفس بآيات عظمة الله تعالىٰ وقدرته وبما يكون في الآخرة من ثواب وعقاب. لذا أثنىٰ رب العزة تبارك وتعالىٰ علىٰ المؤمنين بكثرة الذكر والتفكر في آيات الله بما يوصلهم إلىٰ تحصيل المزيد من التقوىٰ، يقول تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [**آل عمران**: ١٩١] فثمرة الذكر والتفكر عند المؤمن: إحياء تلك الحقائق المعرفية الفطرية المركوزة في نفسه واستدعاؤها إلىٰ الوعي الحاضر، واستدعاء ما جاء به الرسول عليه السلام من بشارة بما في الجنة ونذارة مما في النار، بما يتجدد معه اليقين والعزم في تلك النفس لا محالة. وهذا علىٰ خلاف النفس الكافرة المستكبرة التي لا تزيدها الآيات إلا نفورا، فلا تزيدها إلا استحقاقا للعذاب الشديد. يقول تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا**﴾ [**الإسراء**: ٤١] فالنفور يزداد لا من خفاء الحق ولا من ضعف دليله المعرفي ولا من زيادة العلم بأسباب صحة الموقف الباطل الذي يتمسك به المجرم من هؤلاء، ولكن من إغراق تلك النفس الخبيثة في الاستكبار والعلو وتلذذها بذلك، وحصول مزيد من الإشباع لشهواتها وأهوائها من الزيادة من ذلك. هؤلاء المرسلون يأتي الواحد منهم بدعاوىٰ وآيات تحرج هؤلاء المستكبرين المتعاظمين أمام الناس أشد الإحراج، وتهددهم بزوال ما اشتهته أنفسهم

من زبالة الدنيا فيما هم فيه، فما كان لهم إلا أن يزدادوا نفورا كلما زاد الأنبياء من إظهار تلك الآيات بين أيديهم، ويزدادوا صدا عن الحق واستهزاءً به وبأهله وهم يعلمون.

وتأمل كيف قال فرعون بعدما ظهرت بين يديه آية خر سحرته علىٰ أثرها ساجدين لله تعالىٰ: ﴿**قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى**﴾ [**طه**: ٧] فلم يجد الملعون إلا أن يلتمس لنفسه طريقا يحفظ به ماء وجهه ويُعز به نفسه بعدما أعلن سحرته أمام جماهير الناس أنهم يكفرون به وبما كان يحملهم عليه من تزيين الباطل للسفهاء في المعابد ونحوها، وأجابهم بما لا يملك مثله في موقف كهذا إلا أن يجيب به: البطش والتنكيل الشديد، مع ادعاء أنهم أصحاب مؤامرة ومكر قد دبروه من قبل ليقلبوا تلك الجماهير عليه. هذا جواب يزين به لنفسه أولا ما هو عليه (مع أنه يعلم يقينا أنه كاذب متخرص)، ويحاول به ثانيا أن يبقىٰ متعلقا بتلك الغاية الدنيوية التي من أجلها كذب بالحق ورد دعوىٰ المرسلين وهو يعلم، ألا وهي البقاء في محل السيادة والزعامة واستعباد الناس من تحته! هو لم يركه خروج بني إسرائيل من ديارهم ورحيلهم مع موسىٰ، وإنما كره اضطراره إلىٰ ذلك وهو الإله المعبود بين رعيته! كره أن يظهر في ملكه سلطان فوق سلطانه! ولهذا لما أغرقه رب العزة تبارك وتعالىٰ وتيقن الملعون في آخر لحظة من حياته أنه قد هلك وأن سلطانه قد زال عنه تحقيقا إلىٰ غير رجعة، أدرك أنه قد فقد – تحقيقا – ما كان يشتهي من أجله البقاء علىٰ إصراره وعتوه في محاربة الحق، وأن فقدانه حياته نفسها قد أصبح أمرا محققا، فحينئذ، وحينئذ فقط، حدثته نفسه الخبيثة بأن الإذعان للحق خير له وأشهىٰ من الكفر، فلم ينفعه رجوعه إلىٰ الحق في شيء!

قال تعالىٰ: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [يونس: ٩٠، ٩١] لهذا لا تنفع التوبة حال انكشاف أستار الغيب عن الميت عند الغرغرة (خروج الروح)، وعند طلوع الشمس من

مغربها، لأن صاحبها قد فوت علىٰ نفسه فرصة حمل النفس علىٰ قمع هواها الفاسد وعلىٰ قبول الحق (المخالف في مقتضياته لذلك الهوىٰ) وهي بعد لا تزال حرة مختارة، فلم تترك ذلك الهوىٰ ولم تتحول عنه إلىٰ الحق إلا بعدما رأت تأويل النبوات في أمر المصير الأخروي رأي العين، وشهدت ذهاب موضوع ذلك الهوىٰ الدنيوي وضياعه منها عيانا وتحقيقا، فليس هذا من الإيمان بالغيب (الذي هو مدار التكليف) حتىٰ يغني عن صاحبه شيئا!

والقصد أن المدخل إلىٰ مخاطبة الكافرين في القرآن كما ترىٰ أيها القارئ الكريم مدخل معالجة نفسية وقلبية بالأساس، باستدعاء ما هو مركوز فيها من فطرة محضة لعلها تتذكر وتتقي وتفيء إلىٰ الحق، وليس هو شرحا أو تجلية لمعاني قد تخفىٰ أو تشتبه علىٰ العقلاء، بما قد يُحتاج معه إلىٰ مناهج النظار والمحققين، أو إلىٰ طرائق الفلاسفة والمناطقة والمتكلمين وأشباههم، أو إلىٰ عقد المناظرات والمناقشات والحوارات الدقيقة المتعمقة، وما إلىٰ ذلك! لذا قال سبحانه عن فرعون «لعله يتذكر أو يخشىٰ» ولم يقل «لعله يفهم ما خفي عليه من دعوتكما» أو «لعله يقتنع بأنكما علىٰ الحق»، أو «لعله ينقطع في المناظرة لتسليمه بظهور أدلتكما علىٰ أدلته في المسألة» أو «لعله يقرأ ما معكم من كتب ويقارن بينها وبين ما عند فلاسفته وحكمائه وعلمائه، فيقر لكما بصحة أدلتكما»! فإنه ليس في الأمر «مسألة» أصلا حتىٰ يكون فيها نظر وبحث ومناقشة، وتقلب ما بين أدلة نظرية قد تنهض بقول من قولين، وقد تخفىٰ وقد تعارَض بمثلها! الحجة الرسالية في بعض ذلك تذكير وترهيب صرف، وفي بعضه الآخر تذكير وترغيب محض، كلٌّ في موضعه الصحيح. ولهذا لم يصف الله تعالىٰ المرسلين في القرآن إلا بأنهم مبشرون ومنذرون! لم يصفهم بأنهم «متخصصون في مقارنة الأديان»، أو «خبراء في فنون الجدل والكلام والمنطق ورد الشبهات والاعتراضات».

وانظر الآن إلىٰ هذه المفارقة العجيبة في نحو قول الله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ [**التوبة**: ١٢٤، ١٢٥] فما بال السورة الواحدة تنزل من عند الله تعالىٰ فتفيد من العلم عند

المؤمن والكافر مقدارا واحدا، وتوافق في نفسيهما ما هو مركوز في نفس كل إنسان من فطرة وحقائق بدهية ضرورية، نقطع بأن سائر العقلاء يستوون في دركها علىٰ درجة واحدة (وإن أنكر منهم من أنكر)، ثم ترىٰ أحدهما يزداد يقينا وتصديقا من سماعها، ولا يزداد الآخر – في المقابل – إلا تكذيبا وصدودا وإعراضا؟

هذه المسألة تفسيرها نفسي (سيكولوجي) محض، ولا علاقة لها بقوة الدليل أو ضعفه (إبستمولوجيا) ولا بظهور «العلم» أو خفائه. فأما الأول (المؤمن)، فيأتي كلام الله تعالىٰ إلىٰ نفسه فيزيدها حبا في الحق وطمعا فيما أعده الله للمؤمنين، وبغضا للباطل وخوفا مما أعده الله للمكذبين، لأنها نفس قد تجردت وتخلصت – بفضل ربها وحده – من محبة تلك الأغراض والعوارض الدنيوية الزائلة التي من شأنها أن تتلذذ بها وتبقىٰ عليها لو أنها كفرت بالحق وكذّبت به، فهي تُرغب الكافر في البقاء علىٰ ما هو عليه. لهذا لم تكره الإذعان للحق وقبوله والتسليم له، بل أحبته وأحبت ما علمته من كونها بذلك القبول توافق فطرتها ولا تخالفها، ولذا فما تأتيها من سورة من عند الله إلا ازدادت بها محبة للحق وبغضا للباطل، ومن ثم ازداد فيها مقدار التصديق واليقين وازداد مقدار الإيمان.

وأما الثاني (الكافر) في المقابل، فقد اختار لنفسه البقاء علىٰ محبة ما أحب من أعراض دنيوية (من مكانة أو وجاهة اجتماعية أو علاقات شخصية أو منصب سيادي أو نحو ذلك) يعلم أنه لو قبِل بما جاءه من الحق وأذعن له ودخل فيه فإنه سيفقدها كلها لا محالة. ولكنه لا يكره شيئا في الأرض كما يكره مجرد فكرة الزوال عن تلك المحبوبات وأسبابها! فكان لزاما أن يكره التسليم بالحق والقبول بما تصرخ فطرته في نفسه بصحته، ومن ثمّ ضاق صدره بكل ما يُذكره بأنه علىٰ باطل عظيم، وبأنه لو مات علىٰ ما هو عليه لزال عنه ذلك العَرَض الدنيوي الذي أبت نفسه عليه أن يقبل الحق من أجله، ولانقلب إلىٰ هلكة أبدية ومصير أسود لا نهاية له! فكيف لا يزداد مثل هذا إلا بغضا للحق وأهله كلما سمع شيئا مما معهم؟ وكيف لا يزداد كفرا فوق كفره ورجسا إلىٰ رجسه كلما سمع كلام الله يتلوه أولئك الذين نقم منهم أعظم النقمة وحقد عليهم

أعظم الحقد؟ هذا هو رجس النفس ونجاسة النفس التي لا تطهر إلا بانشراح الصدر للإيمان.

فبشيء من التدبر ينكشف لنا أن التكليف الإلهي لبني آدم يقوم بالأساس علىٰ جواب كل واحد منهم عن السؤال: «ها قد جاءك الحق الذي علمت أنه الحق ضرورة وبداهة، فأي شيء ستختار لنفسك أن تحبه وتعظمه وتوالي أهله أيها الإنسان كما تحب مالك وولدك ونفسك، وأي شيء ستختار لنفسك في المقابل أن تبغضه وتحقره وتفر منه ومن أصحابه فرارك من الأسد؟» فأصل الامتحان والابتلاء لبني آدم هو في الحب والبغض والميل القلبي، فإما أن يحب الرجل الحق الذي سمعه ووجد أساسه في فطرته، فيقبل أدلته وصدقها ويعقد قلبه عليها فتطمئن نفسه في الدنيا ويكون من الفائزين في الآخرة، وإما أن يكرهه ويبغضه ويصد عنه وينقم علىٰ أهله، ثم يمضي يصارع ضميره ويحبب نفسه في الباطل وأهله، حتىٰ إذا مات حشر في زمرة الهالكين.

وتأمل قول نوح عليه السلام فيما صنعه مع قومه عبر قرون طويلة امتد بها عمله في دعوتهم إلىٰ الحق: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا**﴾ [نوح: ١٠] ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**﴾ [هود: ٥٢] ﴿**يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [نوح: ٤] فلما آيس من إجابتهم عليه السلام قال ما حكاه الله تعالىٰ في قوله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ**﴾ [يونس: ٧١] فانتقل من التذكير والتخويف إلىٰ التحدي والمراغمة.

فإذا جمعنا بين هذا ونحوه وما جاء به جواب القوم من قولهم ﴿**يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [هود: ٣٢]، تبين لنا أن ذلك الجدال المنسوب إلىٰ الأنبياء والمستحسَن في مثل قوله تعالىٰ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل: ١٢٥] لم يكن ليزيد علىٰ التذكير بما هو مستقر في البداهة المجردة

من بطلان الشرك بمطلقه، تذكيرا موجزا بليغا من غير مراء ولا مخاصمة فلسفية، مع الوعظ والتخويف من أثر الإصرار علىٰ ذلك الباطل الواضح، رجاء تحويل نفوس المخاطبين بتلك الدعوة إلىٰ أن تكره التمسك بالباطل من أجل عرض دنيوي زائل. وإلا فالجدال في صحة ذلك الحق الجلي الذي جاء المرسلون بمصداقه (أو النظر في ثبوته معرفيا من حيث مطابقته الواقع) مراء وسفسطة تفضي إلىٰ فساد الثمرة لا محالة، وهو نقيض المقصود من الدعوة بالأساس، كما سيأتي بيانه والتفصيل فيه فيما يلي من فصول هذا الكتاب.

وتأمل قول الله تعالىٰ في بيان طريقة المرسلين بعموم في محاجة أقوامهم: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ وقوله في بيان جوابهم: ﴿**قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ [**إبراهيم**: ١] فبين سبحانه أن القوم من استكبارهم وجحودهم طالبوا رسلهم بإظهار حقائق هي ظاهرة أصلا، لا شك فيها ولا احتمال ولا التباس ولا خفاء! واتهموهم بما ليس فيه تهمة أصلا في بداهة العقل: ألا وهو دعوتهم الناس لترك الشرك واتخاذ الأنداد والشركاء للباري في ملكه وفي عبادته! فليكن أنهم أرادوا أن يصدوكم عما كان يعبد آباؤكم، فكان ماذا؟ أولو كان آباؤكم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون؟ اتقوا الله وانزعوا عما عرفتم بطلانه بما لا يدع مجالا للشك أو الارتياب!

نقول إن الجاحد المكابر لا يكابر إلا حبا في الدنيا (كحب المنصب والوجاهة والمنزلة الاجتماعية كما أشرنا من قبل وهو الغالب)، فلا يريد أن يذكره أحد بفناء ذلك كله وبزواله عنه لا محالة وإن بعُد الأجل، لأنه يكره الموت ويفر منه فرارا لما عرف من تناقض اعتقاده وكذبه علىٰ نفسه في جحد حق خالقه وباريه عليه في أن يجيب دعوة رسله إذا ما جاؤوه بالحق. وإنما يتخذ من الاعتراضات الواهية والدعاوىٰ الساقطة ستارا نفسيا كثيفا لإيهام نفسه بأنه علىٰ شيء.

ولهذا تجد القرآن طافحا بمعالجة هذا الجانب في نفوس المخاطبين به، حتىٰ المؤمنين، بل حتىٰ الأنبياء أنفسهم الذين هم أطهر بني آدم قلوبا وأسلمهم سريرة.

يقول تعالىٰ مخاطبا محمدا ﷺ: ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾ [**الإسراء**: ٧٤]، أي انتبه يا محمد، فلولا فضلنا عليك، فقد كادت نفسك أن تميل إلىٰ التطلع لما يعرضه عليك المشركون، ولا تأتي الهلكة في الدنيا والآخرة إلا من ذاك الميل. ويقول لداود ﷺ من قبل: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص: ٢٦] فيذكره بأن إضلال الله تعالىٰ لمن يضلهم لا يأتي إلا من ميل نفوسهم إلىٰ اتباع الهوىٰ، فاحذر يا داوود أن تميل بك نفسك إلىٰ ما تحب وتهوىٰ وتشتهي، فتميل بذلك عن الحق. ويقول تعالىٰ للمؤمنين مذكرا إياهم بنعمته عليهم في غزوة الخندق: ﴿**إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** ﴿١٠﴾ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** ﴿١١﴾ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا**﴾ [**الأحزاب**: ١٠ - ١٢] فيمتن الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين بأن ثبتهم ولم يجعل من غلبة الأعداء عليهم مدخلا للشيطان يزين لهم به أن تحدثهم نفوسهم بقولها «ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا»!

والعبرة كما ترىٰ بسلامة النفس أو مرضها! فإن النفس من شدة الابتلاء قد ينفتح عليها باب الوساوس، فيعلو فيها الحس بكراهة ما هي عليه من حال مهزومة متضررة، علىٰ ما فيها من محبة لما علمت أنه يأتيها من ثمرة الصبر علىٰ تلك المكاره التي تتعرض الآن لها، وعلىٰ ما فيها من محبة للحق الذي تعرفه، فإن ترسلت النفس مع ذلك الحس فإنها تصاب بضعف الإيمان وانحدار اليقين وينفتح فيها الباب لسوء الظن بالله ولتزيين الشياطين، فيلزم تطهيرها بالتذكرة والوعظ واستحضار أحوال الأنبياء الذين كانوا أشد الناس بلاء، إلىٰ آخر ما شرعه الله تعالىٰ من أساليب لمعالجة النفس المبتلاة، الكارهة لما تراه من شدة الابتلاء. فمن تعرض لمثل قوله تعالىٰ: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة:

وقوله تعالىٰ: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٤٢] وقوله ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [**التوبة**: ١٦] من تعرض لأمثال هذه النصوص المباركة، فإنه يتذكر أن الدنيا إنما جعلها الله دار بلاء وامتحان ولم يجعلها دار نعيم ولعب وترف، وأن البلاء لا يشتد إلا ويعظم معه الأجر عند الصبر والثبات. ولذا كان الإيمان سلعة غالية ثمينة، ليس الحفاظ عليها وحمايتها في نفس الإنسان بالأمر السهل، وإنما يحتاج إلىٰ عمل ومراقبة ومعالجة دائمة حتىٰ لا تميل النفس بصاحبها إلىٰ ما فيه هلكته من حيث لا يشعر. وإذا لما كان يراه من قبل حقا، يميل عنه إلىٰ الباطل، وما كان يراه من قبل باطلا، يميل إليه ويستحسنه! فما من شيء أسهل علىٰ الإنسان من أن يترك نفسه تحت قياد الهوىٰ، فلا تسوقه إلا إلىٰ حيث تحب وتشتهي، فلا يظهر منه قول ولا عمل إلا بما يشبع شهوته العاجلة وهواه الدنيوي، ثم إذا به يهوي بتلك النفس الفاجرة في جهنم يوم القيامة، يوم لا يجدي الندم.

ويقول تعالىٰ مخاطبا عامة البشر: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ [**المؤمنون**: ٧١] فينبههم إلىٰ أن محبة الواحد منهم لما يحب وتعلقه بما يهوىٰ، ليس دليلا علىٰ أنه هو الحق أو الخير أو الصواب أو مقتضىٰ الحكمة! بل ما أكثر ألا يكون كذلك، لما في نفس الإنسان من شهوات وغرائز لا ينقطع نداؤها وإلحاحها عليه لإشباعها ما دام حيا! فلو أن رب العالمين لم يأت بني آدم في تشريعه وأمره ونهيه إلا بما يحبون هم لأنفسهم، لذاقوا العنت والخبال ولفسدت عليهم السماوات والأرض! فجاء القرآن ليربي تلك النفس ويعلمها كيف تتجرد من نداء الهوىٰ وداعي الشهوة الحثيث حتىٰ يرىٰ صاحبها الحق حقا والباطل باطلا، ويرىٰ أن ربه سبحانه لا يأمره إلا بخير ولا ينهاه إلا عن شر، وأن عليه الخضوع للحق بعدما تبين له وتطويع نفسه لمحبة الحق مهما كان يجد نفسه كارها له ولأهله أول الأمر.

هذا هو لب رسالة القرآن إلىٰ بني آدم كافة وجوهرها. إنها رسالة تربية بالتخلية والتصفية والتحلية، من الرب العليم الحكيم فوق عرشه إلىٰ عباده الذين خلقهم وسواهم وعدلهم، وهو أدرىٰ بنفوسهم وما يجري بها. وهذا – أيها العاقل المتجرد – هو أظهر وجوه «إعجازه» وآية الآيات علىٰ صدق من جاء به الرسول عن ربه، تلك الآية التي لا يراها علىٰ حقيقتها – كما هو شأن كل آية ومعجزة بعث الله بها رسولا من رسله – إلا من وُفق لمعالجة نفسه من أهوائها التي تعميه عن الحق، كما يرشده القرآن نفسه! لم ينزل القرآن علينا ليعلمنا الله به كيف نصوغ البراهين المنطقية والحجج الفلسفية في الرد علىٰ دعاوىٰ المكذبين بضروريات عقولهم وبدهياتها الأولىٰ، فهذا ضرب من اللغو والعبث يتنزه عنه رب العالمين، وإنما نزل ليعلمنا كيف نقدم الحق للمشركين من أهل الملل بطريقة يُرجىٰ له معها أن ينفذ إلىٰ صدورهم التي نعلم أنه مركوز في أعماقها.

ولو تأملت فيما يذكره الله تعالىٰ في كتابه من أجوبة المشركين عن دعاوىٰ المرسلين، لرأيته سبحانه لا ينتقي منها إلا أكثرها كشفا لحقيقة ما في نفوسهم من رجس ومرض. فهؤلاء مشركو قريش يقولون فيما ينقله الله تعالىٰ عنهم من سبب كفرهم بما جاء به محمد ﷺ: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [**الزخرف**: ٣١]، فالذي حملهم علىٰ الصد عنه والكفر به في الحقيقة ليس أنه باطل في نفسه أو أن فيه تناقضا أو اختلافا أو أن فيه ما قد يشتبه بسببه الحق بالباطل علىٰ السامعين، وإنما كرهوه لأنهم كرهوا أن ينزله الله علىٰ ذلك الرجل بعينه من دون الناس. فلو أنه أنزله علىٰ فلان أو فلان من كبراء القوم لكان دخولهم فيه أحب إلىٰ نفوسهم وأهون عليها. أما أن يجد الواحد منهم نفسه مطالبا بأن يخالف هؤلاء العظماء والكبراء في قبيلته في أمر عظيم كأمر الدين، ليدخل في دين جاء به رجل لا يعد من كبراء القوم (محمد بن عبد الله)، وتابعه عليه (في مستهل الدعوة) ضعفاء الناس وصغراؤهم، فهذا أمر تكرهه نفوسهم الخبيثة أشد الكراهة، لأنها تكره ما سيترتب عليه لا محالة من زوال المكانة والمنزلة والحظوة عند الأكابر والعظماء في مجتمعهم. فعندما يخاطبهم القرآن بذلك فهو

يكشف لهم (أولا قبل غيرهم) ما يعرفون من رجس نفوسهم، فإما خافت تلك النفوس وطمعت فيما عند الله علىٰ أثر ذلك، فلانت للحق الذي تعرفه ودخلت في دين الله، وإما ازدادت كرها له فوق كرهها واستكبارا فوق استكبارها، ولم تزدد في الباطل إلا عتوا وفجورا. هذه سنة كونية ماضية لله تعالىٰ في نفوس البشر، ليس في الأرض كتاب يكشفها ويخاطبها بما يناسبها ككتاب رب البشر جل وعلا. ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [**الملك**: ١]

وقال المشركون من قريش كما حكاه الله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾ [**الفرقان**: ٤١ – ٤٤] فتأمل كيف يقرر سبحانه أن المشركين الذين قابلوا رسول الله بتلك الدعاوىٰ التي يعرفون بطلانها قطعا ويقينا، متبعين في ذلك هوىٰ النفس وشهوتها، سيشهد الواحد منهم علىٰ نفسه بالضلال لا محالة يوم يأتيه العذاب ويدرك أنه قد فاتته فرصة الدخول في الحق والتسليم له. أولئك قوم يصفهم الله تعالىٰ – وهو أعلم بهم – بأنهم: ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [**النحل**: ٨٣] ويقول في استهزاء المشركين عامة برسولهم ومن معه: ﴿**فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ**﴾ [**المؤمنون**: ١١٠]، فتأمل كيف يبين سبحانه أن اتخاذهم الرسول ومن معه هزوا ولعبا هو ما أنساهم ذكر الحق المركوز في فطرتهم وقبول ما جاء به ذلك الرسول تبعا لذلك. فواقع الأمر أن تلك المسالك التي ينخرطون فيها رجاء التشويش علىٰ دعوىٰ التوحيد الجلية الباهرة، هي التي أخفت نور تلك الدعوىٰ عن أعينهم وأغفلتهم عنه من بعد ما تبين لهم، لا أن فيها هي نفسها من النقائص والمعايب ما يجعلها جديرة بأن توصف بالبطلان والفساد، أو أنها تفتقر إلىٰ شرح وتوضيح! فخطاب الله تعالىٰ للمشركين كما ترىٰ خطاب كشف وتجلية لبيت الداء في نفوسهم إذ يصرون علىٰ البقاء علىٰ شركهم بعدما سمعوا من الحق.

وتأمل ما يحكيه الله تعالىٰ في موضع آخر من قولهم في محمد ﷺ: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ**﴾ [**القصص**: ٤٨]، فيبين سبحانه كيف أنهم يلتمسون أي ذريعة واهية للصد عما عرفوا من الحق وللإعراض عنه. فقالوا لماذا لم يؤته الله مثل ما آتىٰ موسىٰ من آيات (كما قرؤوه في كتب أهل الكتاب)؟ فجاء جواب الله تعالىٰ بالتقريع، يقول ألستم قد رأيتم كيف صنع المشركون بآيات موسىٰ وبكتابه الذي أنزل عليه من قبل؟ ألم تسمعوا كيف زعموا أنه سحر عظيم؟ فإذا كانت قلوبكم كقلوبهم في ميلوها وأهوائها (وهي كذلك) فأنتم قائلون فيما يكون من رسولكم كما قالوا هم في رسولهم لا محالة.

ثم يقول جل وعلا: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [**القصص**: ٤٩] أي تحداهم يا محمد بأن يأتوا بكتاب أحكم فيما يدعو إليه الناس وأحسن دلالة وإرشادا لهم إلىٰ سبيل النجاة والفلاح من هذين الكتابين (التوراة التي أنزلت علىٰ موسىٰ والقرآن). فما من شك في أنه لا يتصور أن يوجد في الأرض كتاب يكون أهدىٰ للناس في موضوعه من كتاب يأمرهم بالتخلي عن أهواء نفوسهم الصارفة عن الحق، والانخلاع من عبادتهم المخلوقات من دون الباري جل وعلا، والرضىٰ بعبادة خالقهم وحده لا شريك له وتعظيمه بما هو أهله. فإن هذا الهدي الطاهر ناصع البياض - إلىٰ جانب الخلو من الاختلاف والتناقض - هو أعظم ما في القرآن من برهان علىٰ صحة نسبته إلىٰ الرب العالمين، تقوم به حجته علىٰ الناس كافة في كل زمان ومكان، وهو سبب تحدي الله للمشركين في القرآن نفسه بأن يأتوا بمثله، أو حتىٰ بسورة واحدة من مثل سوره، فإن هذا ممتنع قطعا.

فغاية أحدهم أن يأتي بنفس موضوعات القرآن ونفس تراكيبه البيانية والبلاغية مع التلاعب بذلك وتغييره بعض الشيء، وهو ما لا يكون في الحقيقة إلا اقتباسا مع التلاعب بالنص والإفساد فيه ومسخه بطريقة تضحك منها الثكالىٰ. أما أن يأتي بمثله في مضمون هداية الخلق إلىٰ الاعتقاد المطابق لفطرتهم وبداهة عقولهم، وإلىٰ ما يقتضيه ذلك الاعتقاد من إفراد الباري بالعبادة وحده لا شريك له، فهذا ما لن يتكلفه مخلوق إلا

كان فيها ناقلا عن القرآن متتلمذا عليه لا محالة! فأصل تحدي الرب بالقرآن إنما هو في أن يأتي المخلوقون بما هو أهدىٰ منه، وأصل حجية القرآن في هذه الهداية إلىٰ مسلمات الفطرة ومقتضياتها البدهية الصريحة، التي لولا أن كانت كذلك ما قامت الحجة بمثل قوله تعالىٰ: ﴿**قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٢٤]، فهم يعلمون أن ما جاء به الرسول أهدىٰ - بالضرورة - مما وجدوا عليه آباءهم، بل هو أهدىٰ مما عليه أهل الأديان كافة لا محالة، ولا يعقل أن يوجد عند أهل الملل ما هو أهدىٰ منه من اعتقاد في صفة رب العالمين وفيما يريد من خلقه! فهو كتاب كامل في مضمونه لا يأتيه بالباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو معجزة رسولنا الكبرىٰ التي علىٰ مثلها آمن الناس!

ولما أراد أحد المنصرين ذات يوم قبل عدة سنوات أن «ينهض» بنفسه للتحدي، عكف الرجل سبع سنوات كاملة علىٰ تأليف كتاب نشره تحت عنوان «الفرقان الحق»، وانتشر خبره في كل مكان، جاء فيه بكثير من موضوعات القرآن وآياته، ثم تلاعب في الموضوعات (حتىٰ لا يكون مقتبسا إياها كما هي) فأدخل فيها الدعوة إلىٰ الثالوث وعبادة المسيح من دون الله والاعتقاد في صلب الرب وموته وقيامته ونحو ذلك (وهي عقائد باطلة لا يماري عاقل صحيح النفس في بطلانها)، وتلاعب في الألفاظ والتراكيب فأفسدها (من جهة اللغة والبيان)، فصار كتابه أضحوكة للعقلاء! مع أنه كان ولا يزال يزعم هو وأتباعه أنه قد أجاب عن ذلك التحدي بما يثبت أن القرآن ليس هو كلام الله! ولكن تأمل القيد في قولنا «أضحوكة للعقلاء»، لا لغيرهم. وصدق الذي قال في محكم التنزيل: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٣]! فمهما حاول أحد من إنس أو جن أن يُعدل علىٰ النص القرآني ليأتي بأحكم منه أو أهدىٰ للحق أو أحسن بيانا فيقينا لن يقدر!

ويقول تعالىٰ حاكيا مقالة المشركين بما فيها من أنفة فارغة: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٣]، فتأمل علة الاعتراض علىٰ ما جاءهم من الحق: كيف نؤمن بما آمن به هؤلاء السفهاء ضعاف العقل والرأي (بزعمهم)؟ هذا لا يليق بأمثالنا! فبأي برهان حكموا عليهم بأنهم

سفهاء؟ لا برهان ولا شيء ولا يمكن أن يكون لديهم برهان في هذا أصلا، وإنما هي كراهة قلبية محضة لمفارقة ملة الآباء والعظماء في البلاد، ونفور مجمل من حملة دعوة الحق المخالفة لها، وكراهة لما صارت إليه أحوالهم في مجتمع المشركين بسبب إيمانهم (من سخرية أكابر القوم منهم في مكة واضطهادهم إياهم ونحو ذلك). لسان حالهم يقول: كيف نؤمن – هكذا بسهولة – بما آمنت به العامة والجهلاء والدهماء من الناس، ونحن الفلاسفة والحكماء والعلماء والوجهاء والسادة، أصحاب العقول النابهة والدراية الطائلة ببواطن الأمور وفلسفاتها؟ ائتونا بمثل بضاعتنا إن أردتم منا سماعا والتفاتا، أو علىٰ الأقل اجعلوا رسول الدين الجديد واحدا من أكابرنا وعظمائنا! أمّا أن يخرج علينا رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، يتبعه قوم عامة جهلاء، ثم نطالب نحن أكابر الناس ونخبتهم بأن نؤمن كما آمن هؤلاء، نخضع عقولنا وعلومنا وأموالنا ورقابنا لأمره ونهيه، فلا يكون ذلك أبدا!

وانظر كيف يكشف الله سبحانه بعض ما قالته اليهود في مكرهم بالمؤمنين: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ٧٦] فيبين كيف أن منهم من نافقوا المؤمنين وزعموا أنهم يوافقونهم علىٰ أن محمدا هو الرسول الخاتم المبشر به في التوراة عندهم، فإذا ما اختلىٰ بعضهم ببعض قال بعضهم لبعض ما بالكم تظهرون لهم أن رسولهم حق وأنه هو المذكور في كتبكم، أتحبون أن يدخل هؤلاء الحقراء من أهل جزيرة العرب معكم في شعب الله المختار وفي وعده لكم بالعلو والتمكين؟ أتحبون أن ينقلبوا من عبيد عندكم إلىٰ سادة فوق رؤوسكم أو إلىٰ أنداد لكم؟ أتحبون أن يأتوا يوم القيامة وهم يزعمون أنه قد كان لهم حق فيما لكم من وعد الله في التوراة وأنتم منعتموهم منه؟ أتحبون أن تقوم عليكم حجتهم إذا ما أبيتم اتباع رسولهم والدخول في دينه؟ عليكم إذن أن تكتموا ما في كتبكم من أمر نبيهم، وألا تحدثوا به أحدا منهم أبدا!

فهؤلاء قوم مستكبرون متعالون، كرهوا الدخول في دين محمد بن عبد الله ﷺ لأن ربهم اصطفاه من الأميين (الجوييم) لا من بني إسرائيل، اصطفاه من أولئك القوم الذين زعموا أنهم في منزلة أحط من منزلة البشر، وكل من لا يجري في عرقه الدم

الإسرائيلي فهو في منزلة دون البشر عندهم، وفي هذا قول الله تعالىٰ ﴿**وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [**آل عمران**: ٧٥] . فهم وحدهم (أي اليهود) الجنس الأرقىٰ نفسا والأسمىٰ قلبا والأحق بأن يخرج منه الرسول الخاتم الذي بشرهم أنبياؤهم ورسلهم بمجيئه في آخر الزمان. إنهم قوم ابتلاهم الله تعالىٰ بالاصطفاء بسلالة من الأنبياء تتابعت فيهم، كلما هلك نبي خلفه نبي، فاغتروا بتلك النعمة الكبرىٰ وبدوام الاتصال بينهم وبين ربهم من طريق أولئك الأنبياء، وزين لهم الشيطان وزينت لهم نفوسهم الزعم بأن هذا التفضيل من الله تعالىٰ كان لفضل في خلقتهم وفي نفوسهم قد اختصهم الله به من دون البشر، لأنهم «أبناء الله وأحباؤه»، بل بلغوا أن رفعوا أحبارهم إلىٰ منزلة الشراكة في التشريع مع الرب سبحانه وتعالىٰ، ومعاتبته – سبحانه وتعالىٰ علوا كبيرا – علىٰ ما لا يعجبهم من شرائعه! فهم من إلفهم وطول عهدهم بالنبوة والاتصال بالوحي، بلغ الكبر في المستكبرين منهم مبلغا جعلهم يعاملون الرب نفسه معاملة الند المكافئ، سبحان الله وتعالىٰ علوا كبيرا! يقال له لماذا أمرت بهذا ونهيت عن ذاك، ولماذا اصطفيت فلانا نبيا ولم تصطف فلانا، ارجع أيها النبي إلىٰ ربك وقل له إن هذا التشريع لا يناسبنا ولا يعجبنا، لعله ينسخه! ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [**المائدة**: ٢٤]

ولأنهم قد بلغ بهم غرورهم ذاك المبلغ الفاحش، شاء الرب تبارك وتعالىٰ أن يبتليهم ابتلاءات شديدة، قد علم سبحانه أنهم لن يزدادوا علىٰ أثرها إلا استحقاقا لغضبه ولعنته.[1] فقضىٰ سبحانه أن يبتليهم ببطش الملوك وبالاضطهاد والشتات في الأرض، فلما عرفوا أن الله قد قضىٰ أن يأمرهم (في جملة الابتلاءات) بالدخول في طاعة رسول ليس من بني إسرائيل أصلا، وإنما اصطفاه سبحانه من تلك القبائل العربية

(١) وقد تبين للعقلاء أن تلك الابتلاءات كانت جزءا من حكمة الله تعالى في تفضيلهم بتلك النبوة في سلالتهم من الأساس، لا لمزية فيهم ليست في غيرهم من أمم البشر كما زعموا. فقد علم العقلاء أن هذه الدنيا دار بلاء وامتحان، وأن الامتحان كما يكون بالشر فإنه يكون بالخير كذلك ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٣٥]، بل إن من الخير ما قد يكون الابتلاء به أشد من الابتلاء بكثير من المكاره والشرور، لو كانوا يعقلون.

التي كانوا يرون لأنفسهم علوا عرقيا عليها ورقيا نوعيا فوقها، وعرفوا أن هذا الرسول هو ذاك الملك الفاتح المقاتل الذي يقيم دولة الحق الموعودة في آخر الزمان، ويُمَكّن المؤمنين من بني إسرائيل وغيرهم في الأرض بسلطان الحق بعدما استضعفوا فيها، لما عرفوا ذلك كله، أخذتهم عزة النفس واستكبارها وعلوها أضعاف ما كان فيهم من قبل، فحرفوا كتبهم حتىٰ يزعموا أن ذلك الفرع الذي ينحدر منه محمد ﷺ من سلالة إبراهيم ﵇ فرع ملعون كله، وأن العلو في الدم والنسب النبوي إنما يكون لإسحاق ونسله لا لإسماعيل ونسله، ثم أوهموا قومهم بأن ذلك الرسول الخاتم الموعود في كتبهم الذي أمرهم أنبياؤهم باتباعه ووعدهم الله التمكين علىٰ يديه ما زال لم يبعث بعد، وأنه لن يأتي إذا جاء إلا من نسل إسرائيل وسيقيم المملكة الخاتمة ويعيد المجد ليهود إسرائيل وسلالة إسرائيل وحدها، لتسود الأرض وحدها، لا لغيرهم من أمم البشر. وإلىٰ الآن يعتقد رؤوسهم أن الله سيعفو عنهم يوما ما وأنه سيرسل لهم الرسول الخاتم علىٰ نحو ما يحبون ليمجد به «شعبه» الأثير في الأرض.

والقصد أن بهذا ونحوه من جرائم كبرىٰ استحق بها بنو إسرائيل لعائن الله المغلظة، جعلهم الله عبرة يعتبر بها العقلاء فيما يصنعه الكبر والغرور بقلوب البشر في علاقتهم برب العالمين، ودرسا نافعا للغاية في أحوال قلوب المشركين والمجرمين وأسباب صدودهم عن الدخول في الحق وهم يعلمون. فهؤلاء ما كانوا يفتقرون إلىٰ دليل يعرفون به أن محمدا هو رسول من عند ربهم حقا، وأن ما جاء به من التوحيد الخالص هو دين الله قطعا، بل كانوا يجدون ذلك مكتوبا عندهم في كتبهم ونصوصهم في غير موضع! ولكن من شدة حب رؤوسهم وكبرائهم للسيادة والعلو الدنيوي باسم الدين، ومن شدة طمعهم في أن يصبحوا هم أصحاب اليد العليا في الأرض بين الناس، وفي أن يصبح سائر البشر عبيدا عندهم يشبعون شهوتهم للمال والسلطان، كان أمرا بدهيا أن يكرهوا الدخول في طاعة رسول من غير خاصتهم ومن غير نسلهم كراهة تطيش معها عقولهم! فلم تنههم نفوسهم الخبيثة ولم يروا كبير شيء في المكر به وبأتباعه وبسائر الناس وفي الكذب علىٰ رب العالمين. فحرفوا كلام الله عن مواضعه وبدلوه حتىٰ يصبح ذلك الرسول الذي كرهوه «نبيا كاذبا» وسليلا لنسل ملعون مغضوب عليه

منذ زمان إبراهيم عليه السلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.[1]

(١) ولعل قائلا أن يقول عند هذا الموضع: إن اليهودية تدعو إلى عبادة الرب وحده، وتنهى عن الشرك والوثنية كذلك (فيما يزعم أصحابها)، وتكلف أتباعها بشريعة تشبه شريعة الإسلام، فأي شيء يدرينا هل دين الله الحق هو الإسلام أم اليهودية؟ وجواب هذا أن يقال لو كان الأمر كذلك حقا، وكانت الملتان متوافقتين في أصول التوحيد وفي الدعوة ضد الشرك والوثنية على الحقيقة، فلماذا لم يدخل صاحب الدين السابق في الدين اللاحق المصدق له، ليصبح الجميع أتباع رسول واحد، هو الرسول الخاتم ﷺ؟ نحن قوم نؤمن برسلهم وأنبيائهم ونؤمن بأنهم جاؤوا بالتوحيد الخالص وبنبذ الشرك، فلو كانت دعوة محمد (التي لا يسعهم إنكار موافقتها لما جاءهم به رسلهم من قبل) مطابقة للاعتقاد الذي هم عليه الآن حقا، فلماذا لم يقبلوا دعوة القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [**آل عمران**: ٦٤]؟

ونقول إن الجواب واضح: إنه الكبر والغرور القاتل، الذي استحق به رؤوس ملتهم وأحبارها اللعنة في القرآن. لقد تبين استحقاقهم لما جاء في القرآن من ذمهم، إذ أبوا واستكبروا ورفضوا الدخول في دين قد جاء بها عرفوا أنه الحق من ربهم! لقد تبين وثبت بالدليل العملي الظاهر أن أحبارهم ورهبانهم أرباب أهواء وطلاب دنيا، يرفضون الدخول في دين قد جاءهم به من ربهم رجل ينتمي إلى قبائل العرب، لا إلى ذرية إسرائيل التي اشترطوا على ربهم ألا يرسل إليهم رسولا من غيرها! ونحن نقول: لو لم يعلم الإنسان من أمر الملة اليهودية وحقيقة اعتقاد رؤوسها وعلمائها إلا هذا القدر وحده، لكفى به دليلا ظاهرا على أنهم الآن على دين باطل، يخالف ما جاءهم به رسل الله من قبل، ولا يقبله الله منهم يوم القيامة ولا يرتضيه للناس دينا.

فمن أراد أن يموت على دين الله الحق، فدونه القرآن، كتاب محكم لا يسمعه عاقل سوي النفس صادق الطوية إلا شهد أنه لا يمكن أن يكون من كلام البشر، يعظ المشركين من أي ملة كانوا بالحق الخالص المركوز في فطر الناس، ويدعوهم إلى نبذ كل عقيدة فيها من التنقص والذمّ لذات الملك سبحانه ما تخر منه الجبال هدا، نسأل الله السلامة! كيف يسمع القرآن عاقل يعي ما يسمع، ثم يتوقف ويقول: ما يدريني لعل الحق فيما عند بعض أهل الكتاب، خلافا لما جاءهم به محمد؟ هذا التنطع على الحق الواضح من ثمرات الغرق الكلامي والفلسفي والسفسطة التي ماجت بها الأرض في «حوار الأديان» في هذا الزمان، والله المستعان. إذ ترى أتباع هذه الملة وتلك يتجادلون في كل صغيرة وكبيرة من أمور دينهم، بما يمنح لأهل الأهواء (وكلهم أهل أهواء) مادة ثرية للتشويش على الأصول البدهية الكبرى التي نزعم أن فيها الكفاية لكل عاقل متجرد، كما كانت من قبل تكفي أول من خاطبهم رسول الله ﷺ بالقرآن من أهل مكة حتى يروا الحق حقا ويدخلوا فيه من فورهم. فمن أراد أن يدعو الناس إلى الحق، فليجهد في أن ينزع عن أعينهم تلك الغشاوة التي أورثتها في نفوسهم ثقافة خبيثة تفتح أبواب الجدال النظري في كل شيء، وليخاطب فيهم بداهة العقل وداعي الفطرة بالموعظة الحسنة، لعل الله يجعله سببا في نزول الحق في قلوبهم منزله الصحيح الذي به تتأسس قواعد اليقين في النفوس، ويشتد عود بنيان الإيمان فيها. أما من رضي بأن يتتبع كل ناعق ليرد على هذا وذاك، كمن يأتيه بطلب المقارنة التفصيلية بين الإسلام واليهودية مثلا، فليتحمل تبعات تلك الطريقة ولا يلومن إلا نفسه لو لم يزدد الحقَّ بسببه إلا خفاءً تحت ركام الجدال الكلامي الطويل وتشويش السوفسطائيين من أهل الملل. فإنه داخل معه لا محالة في شعاب الاعتقادات التفصيلية لهذه الطائفة أو تلك، وخائض معه في بحثه الشيطاني في عقائد

يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [**النمل**: ٧٦] ولعل واحدا من مسفسطة أهل الكتاب يقول عند هذا الموضع: ولكن خلاف بني إسرائيل لا أول له ولا آخر، وهم يختلفون في كل أمر من أمور الديانة أصولها وفروعها، فكيف يكون في القرآن فصل القول في أكثر ما فيه يختلفون؟ والجواب أن الله تعالىٰ أتي في القرآن علىٰ أمهات المسائل وكبرىٰ القضايا الكلية التي دبّ فيهم الخلاف وتشعب بسببها الدين فصار أديانا، ومعلوم أن الأصل إذا سقط سقطت معه سائر الفروع.

وهو درس نتعلمه من القرآن بالأساس: أن نأتي بنيان الباطل من قواعده، فإن سقط الأصل، أغنانا سقوطه عن تكلف النظر فيما تفرع عليه! ثم إن الله تعالىٰ خاطبهم بما فيه هدايتهم إن كانوا صادقين، فذكرهم بالحق في أصول التوحيد التي أفسدوها بأهوائهم وهم يعلمون، فمن دخل منهم في ذلك الحق الظاهر الجلي وآمن به، فقد جاءه حكم الله فيما اختلفت عليه ملل اليهود والنصارىٰ حتىٰ أصبحت مللا وديانات شتىٰ، وأغناه برحمته وفضله جل وعلا بذلك عن الخوض في تلك النزاعات كلها من أولها إلىٰ آخرها، ونجاه منها كما ينجي الغريق من بحر لا ساحل له. فمن السفاهة والمكابرة أن يعاب القرآن بكونه لم يدخل في تفاصيل خلافات بني إسرائيل ولم يستوعبها، لأن الله لم ينزله من أجل ذلك أصلا، وإنما نزله لدلالة سائر أهل الملل الباطلة والمحرفة – ومنهم بنو إسرائيل علىٰ اختلاف مللهم وطوائفهم وفرقهم – إلىٰ أصول الحق الذي اختلفوا فيه.

طوائف اليهودية أو غيرها من الملل، يغرق في البحث فيها وكأنه لا يرى الحق الناصع الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أو كأن حقيقة تلك الدعوة لا تكفي بمجردها برهانا قاطعا على نسبة القرآن لرب العالمين. مثل هذا قد تبين لنا من حاله أن في نفسه ما يصده عن قبول الحق يقينا، يكره أن يدخل في دين محمد وأتباعه لسبب ما أو لآخر، ولذا فهو يود لو وجد ملة أخرى تأتي على هواه ومزاجه، مع خلوها من التناقض العقلي الظاهر في أصول اعتقادها الكبرى، فأي خير يرجى من الخوض مع مثل هذا في مثل ذلك؟ نحن نقول إن العاقل الصادق سوي النفس لا يحتاج إلى عقد مقارنة تفصيلية بين الإسلام واليهودية أو غيرها من الملل حتى يتبين له أن الإسلام هو الدين الحق ضرورةً، وأن الرب ما كان ليرتضي غيره للناس دينا. فمن عجز عن إيصال الحق للمشركين من هذا الطريق السلفي الخالص، ورآه قد أحوجه المشرك في سياق دعوته إياه إلى الله، إلى عقد مقارنة كهذه التي يشترطها بعضهم في تفاصيل الاعتقاد والتشريع والعبادة .. الخ، فخير له وللدعوة وللدين أن يترك مخاطبة المشركين جملة واحدة لغيره من أهل الشأن، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وتأمل قول الله تعالىٰ حاكيا ما قاله قوم صالح عليه السلام في عتابهم له: ﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ [**هود**: ٦٢] . فانظر كيف كان وجه عتابهم له أنه جاء ينهاهم عن عبادة ما يعبد آباؤهم. فلولا كراهيتهم التحول عما ورثوه عن آبائهم من الملة وعما صارت له الغلبة الدينية والظهور الفكري العام في مجتمعهم، لما وجدوا ما يصدهم عن دعوة الرسول، ولما رأوا في محاربة الناس له من بعد أن كان فيهم مرجوا من قبل أي مانع من الدخول في دينه الحق بعدما تبين لهم. ولكنها نفوس تتحرك تبعا لما تحب وتهوىٰ من ملذات الدنيا، لا تبعا للدليل فضلا عما عرفت أنه الحق الفطري البدهي معرفة كافية لا خفاء فيها ولا التباس.

ويقول تبارك وتعالىٰ مبينا جواب آل فرعون عن دعوىٰ موسىٰ وأخيه: ﴿**فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ**﴾ [**المؤمنون**: ٤]، فما أبىٰ هؤلاء أن يقبلوا الحق الذي جاء به موسىٰ وهارون عليهما السلام إلا من كبر نفوسهم وتعاليها وتشوفها لتعظيم الناس لها. كيف نؤمن لرجلين كعامة الرجال بأن الرب الخالق أرسلهما إلينا، وهما ينتميان إلىٰ قوم هم عبيد عندنا وخدم يخضعون لسيادتنا وأمرنا، بل نحن في البلاد آلهة نعبد وتخضع لنا سائر الرقاب؟ هذا هو المانع الحقيقي من قبول هؤلاء لرسالة الحق، لا أنها تفتقر إلىٰ دليل أو أن فيها اشتباها أو غموضا علىٰ من يسمعها!

ولأن طريق فرعون لتزيين إلهيته المزعومة في أعين الرعية والبطانة كان هو السحر وألاعيب السحرة، يستخفهم بها حتىٰ يطيعوه ويخضعوا له ويسترهبهم بها في كل مناسبة، لم يجد الرجل عندما جاءه موسىٰ وهارون وظهر تهديدهما لما له من سلطان علىٰ الناس إلا أن يأمر سحرته بمزيد من استعراض القوة لمزيد من استرهاب تلك النفوس الضعيفة المفتونة واستخضاعها. ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١١٥ - ١٢٠].

فإذا كانت سفسطة الفلاسفة والمفكرين وأضرابهم هي المدخل الأشهر لتزيين الشرك في نفوس المشركين، فإن ألاعيب السحرة وخوارق الشياطين هي المدخل الثاني، الذي كان أكثر فشوا وانتشارا في الماضي (علىٰ اختلاف صوره) مما هو عليه الآن، وسيأتي تناوله في قسم مستقل من أقسام هذا المجلد.

قال تعالىٰ في فرعون: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [**الزخرف**: ٥٤] ومن استخفاف عامة ملوك مصر الوثنيين (الذين يقال لهم الفراعنة) برعاياهم أنهم كانوا يستغلون جهل العامة وسذاجتهم ويستثمرون ذلك الجهل في تزيين دعاوىٰ إلهيتهم في أعين الناس. فتأمل علىٰ سبيل المثال تلك الحيلة الفلكية التي صممها المهندسون في بلاط رمسيس الثاني في معبد أبي سمبل، ليجعلوا شعاع الشمس يخترق الجدار في غرفته الكهنوتية المظلمة بزاوية مخصوصة فلا يسطع علىٰ وجه تمثاله إلا في يومين في السنة، يوم مولده ويوم تتويجه (علىٰ الأرجح عند المؤرخين). هذه الحيلة، الذي يبدو لي أن الكهنة كانوا يستعملونها في إيهام العامة بأن إله الشمس (آمون رع) كان ولم يزل يعظم الفرعون الإله، ويحييه في يوم احتفاله بميلاده وتتويجه، فيرسل الشعاع إلىٰ وجه تمثال الفرعون وتمثاله هو نفسه إلىٰ جواره داخل تلك الغرفة المظلمة، في هذين اليومين دون غيرهما، قصدا منه لتعظيم الفرعون الإله هو ومن معه من الآلهة! فإذا رأىٰ الناس ما يخرق عادتهم ومعرفتهم من مثل ذلك، مقرونا بدعاوىٰ ألوهية الفرعون، وكانت نفوسهم محمولة علىٰ قبول تلك الدعاوىٰ خوفا أو طمعا أو كليهما، زينت لهم نفوسهم إيهام أنفسهم بأنها حجة دامغة علىٰ تلك الألوهية المزعومة، مع أنهم يعلمون في بواطن نفوسهم علم اليقين بطلان ذلك!

وتأمل كيف يوجه الله تعالىٰ رسوله ليخاطب العقلاء بما يكفي لصيانة نفوسهم من الميل إلىٰ الهوىٰ، يقول سبحانه: ﴿**قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [**المائدة**: ١٠٠] ففي الخطاب خصال ثلاثة يعرفها العقلاء بالفطرة ولكنهم يحتاجون إلىٰ التذكير بها، وإلىٰ الحث علىٰ العمل بمقتضاها: بيان أن الخبيث يظل اسمه خبيثا مهما كثر وساد وانتشر، وأن

الطيب يظل طيبا مهما ضعف وانزوىٰ وانحصر، وبيان أن ما قد تميل إليه نفوس الناس من الإعجاب بالكثرة والوفرة والعلو لا عبرة به في معرفة الحق، ثم بيان لخلاصة الدعوة والنداء الرباني إلىٰ قلوب البشر كافة أن اتقوا الله يا عقلاء الناس إن كنتم تريدون الفوز والفلاح. وأقول للدعاة إلىٰ الله في كل مكان: يا عباد الله، والله لو اكتفيتم باستعمال هذه الآية الكريمة ونحوها في دعوة المشركين إلىٰ دين الله تعالىٰ وأحسنتم إمرارها إلىٰ قلوبهم وضمائرهم لكفتكم بإذن الله كما كفت الذين من قبلكم، فإننا نقطع بأن بطلان الشرك الذي هم عليه لا يشتبه علىٰ عقولهم. ولكن ليست نفوس المشركين وحدها هي التي تحتاج إلىٰ معاهدة ومراجعة وتنقية من الأهواء والفتن، والله المستعان.

لقد اشتهر عن كثير من سلفنا الصالح ﷺ النهي الصريح عن مناظرة المبتدع من أهل القبلة، وآثارهم في ذلك المعنىٰ والتشديد فيه مبثوثة في مظانها، فكيف بمناظرة أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ (وهم أهل أهواء أشد وبدع أعظم مما عند المبتدعة من القدرية والمرجئة والجهمية ونحوهم)؟ ثم كيف بالملاحدة والفلاسفة الذين بلغوا من جحود البدهيات الفطرية الواضحة تشبعا بالأهواء الدنيوية غاية ما يبلغه إنسان؟ هذا وأيم الله أحق وأولىٰ بالمنع والتشديد فيه!

تأمل هذه الرواية التي ذكرها الذهبي رحمه الله في السير (ج ١٢، ص ٢٨٩):

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الوَلِيْدِ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ بنَ أَبِي زيدٍ يسأَلُ ابنَ سعدىٰ لَمَّا جَاءَ مِنَ الشرق: أَحَضَرتَ مَجَالِسَ الكَلاَمِ؟ قال: مرتين ولم أعد، فَأَوَّلُ مَجْلِسٍ جمعُوا الفِرقَ مِنَ السُّنَّةِ، وَالمبتدعَةِ وَاليَهُوْدِ وَالنَّصَارَىٰ وَالمَجُوْسِ وَالدَّهريَّة، وَلِكُلِّ فرقَةٍ رَئِيْسٌ يَتَكَلَّمُ وَينصرُ مَذْهَبَه، فَإِذَا جَاءَ رَئِيْسٌ قَامَ الكلُّ لَهُ، فَيَقُوْلُ وَاحدٌ: تَنَاظرُوا وَلاَ يحْتَجَّ أَحدٌ بكتَابه وَلاَ بنبيِّه، فَإِنَّا لاَ نصدِّقُ بذَلِكَ، وَلاَ نُقرُّ به، بَلْ هَاتُوا العَقْلَ وَالقيَاسَ، فَلَمَّا سَمِعْتُ هَذَا لَمْ أَعُدْ ثُمَّ قيل لي: ههنا مَجْلِسٌ آخرُ لِلْكَلاَمِ، فَذَهَبتُ فَوَجَدْتُهُم عَلَىٰ مِثْلِ سيرَةِ أَصحَابِهِمْ سوَاءً، فَجَعَلَ ابْنُ أَبِي زيدٍ يتعجَّبُ، وَقَالَ: ذَهَبتِ العُلَمَاءُ، وَذهبتْ حُرمَةُ الدِّينِ.

قلت: هذا ما كان يصنعه المتكلمون في القرن الرابع الهجري! كان يؤتىٰ بالمخالفين من أهل الملل من ملاحدة ويهود ونصارىٰ وغيرهم، ثم يناظرهم المتكلم في مجلس واحد، علىٰ أن يجعل العقل (الفلسفة) وحده هو الطريق والدليل والبداية، فيبدأ بإثبات الصانع أولا (لأن الدهرية تنفيه وتزعم افتقار من أثبته إلىٰ دليل) ثم يتدرج في مناظرة أهل الملل باستعمال الميتافزيقا المتفق عليها بينهم جميعا، رجاء أن يصل إلىٰ إقناع الجميع بأن الإسلام هو الدين الحق! فإذا به ينتهي إلىٰ إحداث نحل وعقائد تعطيلية لا تنتمي إلىٰ الإسلام ولا تمت له بصلة! فما أشبه هذا بمن ينشئ الفضائيات المتخصصة في المناظرات أو المنتديات المفتوحة لعامة الزوار علىٰ شبكة الإنترنت في زماننا هذا، بغرض أن يأتي إليها أهل الملل «للحوار» و«المناقشة» المفتوحة، ثم يجعل العقل وحده طريقا لدعوتهم، علىٰ شرطهم هم ومفهومهم «للعقل» و«الدليل العقلي»، علىٰ أساس أنهم لا يقبلون الاحتجاج بالقرآن لأنهم لا يرونه منزلا! وترىٰ هذا يسمع ما يخاطَب به ذاك، والجاهل من كل ملة يأتي ببضاعته ولعله يدخل ليشارك في «الحوار» بين أهل الملل الأخرىٰ، ولعل صنوف وألوان الضلالات أن تتكاثر وتتلاقح علىٰ صفحات تلك المنتديات والمدونات (فتبقىٰ منشورة ولا تمحىٰ) وعلىٰ شاشات تلك الفضائيات إلىٰ الحد الذي يخرج فيه المناظر من الملاحدة أو من أهل الكتاب وقد ازداد تشبعا بمزيد من بضاعة الخصومة والجدال السوفسطائي فوق ما كان عنده قبل ذلك، وإلىٰ الله المشتكىٰ ولا قوة إلا بالله![1]

(١) ولهذا أقول بوجوب زجر المسلمين عن إنشاء ما يسمى بـ«المنتديات الحوارية» مع الملاحدة والنصارى، وألا تفتح أبواب المناظرة مع الجحدة والمجرمين على ذاك المنهج الكلامي الذي ذمه السلف ﷺ وذمّ أصحابه! ولقد كان هذا المنهج الكلامي هو السبب في كون عامة تلك المنتديات فيما رأيت تقوم على القاعدة الإخوانية المجملة الهدامة «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه»! فتجد المعتزلي مع الأشعري والماتريدي مع السروري والقطبي مع المرجئ الجهمي، مع القبوري الوثني، دع عنك ما تولد من ذلك المنهج الكلامي نفسه من طوائف بدعية كلامية معاصرة كالتطويريين والانفجاريين والتصميميين والإعجازيين .. إلخ، كل هؤلاء لا إشكال عند القائمين على تلك المنتديات – هداهم الله – في السماح لهم بنشر بضاعتهم في مناظرة الملاحدة والرد عليهم، بدعوى التعاون فيما اتفقوا عليه، يحسبون أن بدعهم وضلالاتهم إن أمكن عزلها عن مناظراتهم ومادتهم المنشورة فلا إشكال في السماح لهم باعتلاء منابرهم وممارسة الدعوة من عليها!

وهذا – ولا شك – خلاف منهج السلف ﷺ في منابذة أهل البدع والأهواء الداعين إليها (في أي مكان

كانت منهم تلك الدعوة!) وهجرهم وتحذير المسلمين منهم، وهو مما تنقض به عرى الإسلام من حيث يحسب القوم أنهم ينصرونه ويذبون عنه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! دع عنك أنهم لا يدركون أن دعوى إمكان عزل بدع وضلالات تلك الفرق عن «حواراتهم» مع المخالفين وعن براهينهم الكلامية ومناظراتهم ومناقشاتهم في الرد عليهم هي محض الوهم، وآية على الجهل، لأن أكثر تلك البدع ما نبتت عندهم إلا من مناظراتهم الكلامية مع خصومهم الدهرية من الابتداء! وحسبك أن ترى عامة المشتغلين بتلك المنتديات إن سألتهم عن أهم الكتب في نقد الإلحاد، ساقوا إليك كتب أولئك المبتدعة من الجهمية الجدد الذين بينا بدعهم وانحرافاتهم العظيمة في غير هذا الكتاب، بل ولربما رأيتهم ينسبون بعضهم إلى «السلفية» والله المستعان!

فإن سألتهم قالوا لك: وماذا عسانا نصنع؟ الساحة خالية والأيادي الواقفة على ثغر الإلحاد شحيحة، ونيران الإلحاد تحرق المسلمين، فلا يسعنا الآن أن نسقط شيئا من تلك الجهود وإن جاءت من مبتدعة ضلال! تقول لأحدهم – على سبيل المثال –: «يا أخي فلان هذا داعية ضلالة، إن سقت إليه المسلمين ودللتهم عليه فسيحملهم على بدعته لا محالة»، فيأتيك جوابه: «ولكن مادته في نقد الإلحاد ليس «على الساحة» ما يغني عنها، فلا بأس بأن ندل المسلمين عليها مع التنبيه إلى أن له خطأ في كذا وفي كذا (أي في العقيدة)، فالعبرة على أي حال بما كتبه مما لم يخالفنا فيه»! وهذه هي شبهة المتكلمين الأوائل سواء بسواء، الذين فتحوا تلك المجالس على شرط ما سموه بالعقل المجرد أو بـ«قواطع العقل»، يحسبون أنه ما دام موضوع مناظرتهم مع خصمهم الدهري هو حدوث العالم ووجود الصانع، فلا فرق إذن بين أهل الفرق والطوائف والنحل المثبتة له في إمكان تحصيل المطلوب من إثباته بـ«قواطع العقل»، دون تعرض لمواضع النزاع فيما بين تلك الفرق والطوائف نفسها! مع أن مفهوم «قواطع العقل» هذا في الحقيقة هو بيت الداء ومنبت البدعة عند كافة طوائفهم، وهو السبب في أكثر ما تنازعوا فيه من كليات الاعتقاد أصلا، ومن تأويلات مبتدعة لنصوص الوحيين تبعا لها! فما من فرقة منهم إلا لها فيه تعريفها الفلسفي الكلي (سواء تحرر عندهم أم فُهم ضمنا من مسلكهم) المستمد من شرط الخصم الدهري عند المناظرة أولا (بداية من مصادر تلقي المعرفة نفسها) ومن ثمرة التنظير الكلامي الناتجة عن مناظرته هو وغيره من أهل الملل والنحل والفلسفات ثانيا!

وقد سبق مني أن ناصحت بعض هؤلاء الشباب هداهم الله (من مهندسين وأطباء ونحوهم، لهم قدر من الثقافة الدينية) بالتريث وعدم التعجل باعتلاء المنابر في ذلك الشأن (أعني مسألة الإلحاد)، وبالصبر على طلب العلم الشرعي وعلى دراسة الفلسفات الغربية المعاصرة، ولكن ساقهم – بكل أسف – سائق المتكلمين في كل زمان من دواعي الهجوم على المناظرة والمدافعة الكلامية (مع دوافع حزبية عند بعضهم)، على ما يترتب على المنهج الكلامي نفسه من اختلاط اعتقادي ومنهجي كبير فيما يتراكم بين أيديهم من مادة ذلك، كان ولا يزال ماضيا إلى مزيد من التراكم، والله المستعان!

ولقد كنت نشرت في بعض تلك المنتديات بعض مقالاتي قديما ولم أكن قد تفطنت إلى تلك المفسدة حق الفطنة، وكنت قد احتسبت المناصحة ومحاولة الإصلاح، فناصحت القائمين على الإشراف فيها في غير مسألة، ولكن لما تبين لي أن الإدارة نفسها مختلطة في تلك المنتديات، وأن في المشرفين عليها من أخلاط المناهج والعقائد كما في عامة أعضائها، تركتها جملة واحدة ولم أرجع إليها! فأرجو ألا يغتر عامة المسلمين بما يجدونه الآن من مقالاتي القديمة ومداخلاتي في بعض تلك المنتديات، فأنا الآن أدعوهم لاجتنابها وأعزم عليهم وأشدد في ذلك، ولا أجيز لهم العزو إلى مقالاتي فيها، وأدعوهم إلى أن يحققوا اليقين الإيماني في أن الخير كل الخير في مفارقة المبتدعة وفي اجتناب مجالس الفلسفة والكلام، والله يغفر لي ما سلف، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

فإن قيل إن رسول الله ﷺ قد صح عنه فيما رواه أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم»، فجعل من الجهاد الواجب شرعا جهاد اللسان، قلنا سلمنا بأن مجادلة المشركين واجبة، وليست منسوخة كما ذهبت إليه جماعة من السلف، فمن أين لكم أن المقصود هنا هو تلك الطرق الكلامية المعوجة التي تحيل البدهيات الأولىٰ إلىٰ دعاوىٰ نظرية صرفة؟ والله لو كان المقصود من الجدال هو تلك المسالك التي تسلكونها أنتم معاشر المتكلمين معهم في ذلك، فلا مناص من القول بالنسخ قطعا وبلا توقف، لأن الجمع بين ذاك الصنف من الجدال النظري الطويل وبين المقاتلة ممتنع بداهة! كيف أجيز لولاة الأمر قتالهم علىٰ التوحيد وأنا أراهم في نفس الوقت ما زالوا لم «يفهموا» براهين الحق ولم تظهر لهم حجته، وما زلت لم أتمكن من «إقناعهم» بأن الله حق وأن التوحيد هو دينه الذي ارتضاه للعباد؟ إن استمرار الجدال النظري علىٰ تلك الوتيرة الكلامية يقتضي الصبر علىٰ اعتراضات المخالف وأدلته المزعومة مهما أكثر علينا منها، والتماس الترجيح النظري في المسألة في كل مناسبة، وهو ما يقتضي الإعذار لأن الأمر إذن يكون رأيا ونظرا وأدلة تتقارب وتتفاوت في دركها الأذهان والعقول! فكيف يشرع القتال والحالة هذه؟ كيف يشرع القتال علىٰ «مسألة نظرية» أصلا؟

نعم جادل النبي عليه السلام مشركي قريش قطعا، وأكثر من مخاطبتهم بالحق ولا شك، وجادل نصارىٰ نجران وجادل اليهود فيما جاء به الخبر، بل وجادل مشركي قريش في سوء تأويلهم لبعض نصوص القرآن، كما مر معك كلام ابن الزبعري في قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٩٨] وما أنزله الله تعالىٰ في جواب ذلك من قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ١٠١] حتىٰ يُحكم ما قد يتشابه من نص الكتاب، ولا يبقىٰ لأحد حجة يحتجها في ذلك. ومن البدهي أن جميع من أسلم من الصحابة كان من قبل علىٰ غير الإسلام حتىٰ دعي إليه وخوطب به بشكل ما أو بآخر. فهل كان جداله مع المشركين، بأبي هو وأمي، علىٰ طريقة «المناظرة» التي يعتمدها اللاهوتيون والمتكلمون، يفتحون بها أبواب السفسطة واللجاجة الصرفة وهم يحسبون أنهم ينصرون الحق بالحجة

والبرهان؟ هل جمع الناس يوما في «مناظرة علنية» ثم جلس يسمع «أدلة» اليهودي أو النصراني أو المشرك ليرد عليها بالتحليل اللفظي ويناقش صاحبها فيها بالأخذ والرد والتقعيد المنطقي (أو علىٰ شرط العقل زعموا) علىٰ النحو الذي يتكلفونه؟ هل عقد معهم يوما ما، مجلسا علنيا من «مجالس الكلام» علىٰ هذه الطريقة التي بات يقال لها «مناظرة» وتطبق عليها قواعد علم الجدل؟ بل هل صنع ذلك سرا في يوم من الأيام فيما روي عنه ﷺ؟

أنا أتحدىٰ في هذا المقام سائر أهل الكلام والمتفننين في المناظرات الكلامية (مع أهل الملل من ملاحدة ونصارىٰ وغيرهم من عموم المشركين)، من كل فرقة من فرق أهل القبلة، تحديا مفتوحا إلىٰ يوم الدين، أن يأتوني من نصوص السنة الشريفة بواقعة واحدة جاء فيها علىٰ لسان الرسول عليه السلام أو صحابته أو آل بيته فيما صح عنهم، جدال علىٰ هذه الصورة وهذه الطريقة في المجادلة والمناظرة، علىٰ شرط ضروري لا أتهاون فيه: ألا يتكلفوا لي أعناق النصوص وتحميلها ما لا تحتمل، كما صنع الزمخشري المعتزلي فيما مر معك نقده آنفا!

وفي الحقيقة فإن الأمثلة لهذا المدخل الرباني الذي بيناه في نصب الحجة الرسالية ومخاطبة نفوس المشركين من أهل الملل كافة بالنذارة من نفور النفس وصدودها عن قبول ما صرخت به الفطرة في قلوبهم من صحة دعوىٰ التوحيد وبطلان الشرك في مقابلها، القرآن طافح بها والسنة كذلك، ولو أردنا المواصلة في استعراضها لما كفانا هذا المجلد ومثله معه. والحاصل أننا نقول إن كتاب الله لا يحتاج إلىٰ من يأتي بالبرهان النظري (الكلامي) ليثبت صحته! كتاب الله حجة في نفسه، لا يحتاج العاقل من المشركين إلىٰ أن نحرر له الردود علىٰ هذه الدعوىٰ وتلك والأجوبة عن هذه الشبهة وتلك، حتىٰ يتبين له ذلك! من جاءكم من هؤلاء بسؤال مستفهم مستعلم فيما تسمونه بالشبهات فخاطبوا نفسه وقلبه (كما خاطبه القرآن) الذي مال به إلىٰ استحسان تلك الدعوىٰ أو علىٰ الأقل تصور أن ما فيها - أيا ما كان - قد يرقىٰ لتسويغ ما هو عليه من الشرك بخالقه وباريه، والحط من قوة الحق الواضح في دعوة التوحيد! بينوا له أن ما هو

عليه من ميل إلىٰ التقاط اعتراضات السفهاء علىٰ الإسلام يجمعها لنفسه من هنا وهناك، دليل علىٰ أن في قلبه زيغا ومرضا يجب أن يعمل علىٰ إزالته والتخلص منه إن كان يريد النجاة في الآخرة.

لهذا نقول إن أول ما يكون من طالب العلم المتبصر المتشرب بمنهاج النبوة عند دعوة من يعلم أنه قد مر به خبر رسالة التوحيد يقينا، وسمع بمحمد ودعوته الناس لنبذ اتخاذ الأنداد والشركاء لله في الاعتقاد والعبادة، وربما سمع شيئا من القرآن كذلك، ولكنه بقي – مع ذلك – علىٰ ما هو عليه من الشرك [1]، أن يذكره بعظمة ربه وخالقه (إن

---

(١) ونقول ونكرر إن مجرد سماع المشرك برسالة محمد بن عبد الله ﷺ وما جاء به ذلك الرجل من توحيد خالص، حجة عليه، لأن العقل لا يخفى عليه فساد الشرك وبطلانه، ولا يخفى عليه صحة التوحيد وأحقيته بأن يكون هو دين رب العالمين. لذا فإن المشرك يلزمه أن يبادر إلى السؤال عن حقيقة تلك الرسالة وإلى التبرؤ مما هو عليه من الشرك من فوره، بمجرد أن يسمع برسول الله ﷺ وبأصل أصول تلك الملة التي جاء بها سماعا صحيحا. ونقصد بالسماع الصحيح هنا معرفة السامع بأن محمدا ﷺ جاء بالتوحيد المحض ونبذ الشرك، وليس خلو الخبر المسموع مما يثيره أصحاب الاعتراضات و«الشبهات» المتعلقة ببعض تعاليم هذا الدين وتكاليفه الشرعية، فإن المعترض على هذه التعاليم محال، في العقل المجرد، أن يكون في كلامه – أيا ما كان مصدره – حجة أخلاقية على ما نزعم أنه تشريع رب العالمين، ما لم يكن مستنده في ذلك الاعتراض هو ما عرف بالقطع أنه تشريع رب العالمين نفسه!

وهذه مسألة ينبغي الانتباه إليها، لأن كثيرا من طلبة العلم الآن يتساهلون في هذا الباب أيما تساهل، وتراهم يقولون إن صورة الإسلام في الغرب مشوهة بسبب كذا وكذا من أفعال المنتسبين إليه، وبسبب ما يثيره الخصوم والأعداء من اعتراضات على بعض ما جاء به الشرع الحنيف، وكأن في ذلك عذرا للمعرضين عنه أن يبقوا على إعراضهم! وهذا مما يزيد الشيطان تمكنا من قلوب أهل الغرب هؤلاء ويزيدهم إغراقا في أهوائهم في الحقيقة، إذ يوحي إليهم بأن أصل أصول ملة الإسلام (الذي هو التوحيد الخالص والتنزيه عن كل نقيصة) يمكن أن يخفى أو يغمض أو يشتبه على السامعين به بسبب سماعهم تلك الأشياء، وهذا محال أصلا، لأن ما بين التوحيد والشرك في العقل السوي كما بين السماء والأرض، وهو فارق معنوي عظيم ينبغي أن يكون كافيا لحمل السامع به على التماس أسباب الزيادة من السماع بهذا الدين من مصادره الصحيحة، والوصول إلى تحقيق التوحيد في نفسه والبراءة من الشرك!

فإن لم يفعل وأعرض عن الأمر برمته، فنحن نقطع بأنه لم يصده عن ذلك إلا ما في نفسه هو من أنواع المرض ومن طبقات الهوى، وليس ما سمعه من اعتراضات على شريعة الإسلام من هنا أوهناك، أو من اتهامات لبعض المسلمين باقتراف أعمال مذمومة أخلاقيا، تحتاج– بزعمهم – إلى الوقوف على دفاع وجواب عن كل تهمة منها توجه إلى الإسلام نفسه، حتى لا تتشوش حقيقة التوحيد في نظره! فلولا الأهواء في نفوس المعرضين من المشركين، ما اتخذوا من تلك الشبهات والاتهامات ذرائع لمزيد من الإعراض والصدود عن دين الله! لا سيما إن كان الواحد منهم من أهل الكتاب، فإنهم يعلمون عن الرب سبحانه ما لا يعلمه غيرهم

آنس منه ميلا لقبول الحق)، وبأنه هو الذي خلق كل شيء، وهو القادر علىٰ كل شيء، وأنه لا حد ولا انتهاء لعظمته وقدرته، ويذكره بالموت ويخوفه من مصير المكذبين، وأن يعمل علىٰ أن يكشف لنفسه أنها تخادعه إن شككت في ذلك الحق الجلي الواضح وألحدت عنه، وأهم من ذلك أن يكشف لصاحب تلك النفس أنه يعلم أنها تخادعه، وأنه لو تجرد من الهوىٰ والميل القلبي وصدق وأخلص في دعواه التجرد من أهوائه، فسيرىٰ ذلك يقينا، بتوفيق من الله جل وعلا. فكأنما يضع المرآة بذلك أمام نفسه ليكشف لها كذبها عليه وتزيينها الباطل، وذلك مصداقا لقوله تعالىٰ ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ [**البقرة**: ٩]. وتأمل دقة الوصف الإلهي في قوله تبارك وتعالىٰ يخادعون، من كثرة الخداع والإغراق فيه، وكذلك في قوله «وما يشعرون»، إذ إن غفلتهم ليست من خفاء ما يغفلون عنه، أو من اشتباه الحق بالباطل فيه أو صعوبة

من أهل الملل الشركية الأخرى، إذ يقرؤون في نصوص بني إسرائيل (العهد القديم) كيف كان بطش الرب إلههم بالمشركين والوثنيين لاتخاذهم مع الله آلهة أخرى! ومنهم من يعلم أن محمدا هو الرسول الموعود الذي أخذ عليهم أنبياؤهم العهد باتباعه إذا ما بعث فيهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم! فإذا كان المشرك الوثني من غير أهل الكتاب قد عاند وغالب فطرته الدالة على أن التوحيد لا بد وأنه أحب إلى ربه وباريه من الشرك الذي هو عليه كيفما كانت صورته، فإن المشرك من أهل الكتاب قد أتى بما هو أكثر من ذلك إن صدّ عن دعوة محمد عليه السلام.

لذا يقول رسول الله ﷺ فيما صح عنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار». فالمقصود هنا أن الكتابي الذي سمع بالرسول ﷺ وبلغه أنه قد بعث برسالة أساسها التوحيد ونبذ الشرك، ثم لم يبادر إلى مزيد من السماع لتلقي رسالة الرسول عليه السلام من مصادرها الصحيحة فرارا مما هو عليه من الشرك، ولم يبادر إلى الدخول فيها على ما يجب عليه من ذلك، فقد قامت عليه الحجة الرسالية واستحق أن يخلد في النار إن مات على يهوديته أو نصرانيته، والله أعلم.

ينبغي أن يكون واضحا أن في الشرع (كما في العقل) عذرا بالجهل والاشتباه، ولكن ليس فيه عذر بالتفريط والتهاون والإعراض. وحسبك أن تعلم أن الرسول ﷺ لما دعا مشركي قريش في أول زمان الدعوة لم يخاطبهم إلا بنحو ما تراه في القرآن من آيات موجزات محكمات نزلت في بداية العهد المكي، ليس فيها تشريع أصلا وإنما تذكرة بليغة بحق الباري في أن يعبد وحده ولا يشرك معه شيء من خلقه. هذا هو أساس الدعوة وعمودها وركنها الركين، فإذا ما تأسس ذلك الأساس في نفس من نخاطبه بالدعوة، قبلت تلك النفس بعد ذلك ما في الدين من تشريع وأمر ونهي ورضيت به من غير ما حرج. فعلى الداعي إلى الله ألا يلتفت إلى أمثال تلك الاعتراضات والترهات والمهاترات أصلا، وألا يستدرج إلى الغرق فيها، وأن يكون اشتغاله مع المشركين بأصل الأصول: التوحيد، فإنه هو عمود الأمر وأساس الدعوة.

فهم الحق عليهم، وإنما من ستار سميك من التشويش والإيهام النفسي والمخادعة، تضربه عليهم نفوسهم الغارقة في حب الدنيا واتباع الهوىٰ، فلا يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم، وإن كانوا يعلمون – في بواطن نفوسهم – ببطلان ما هم عليه من دين واعتقاد. فإن انكشف ذلك الستار وزال بهرجه – بإذن الله وحده وبفضله ومنته، لا بفضل الداعي إلىٰ الله[1] – انتقلت الحقيقة التي ندعوهم إليها من باطن نفوسهم إلىٰ ظاهرها، فخرجت بذلك إلىٰ دائرة الشعور والوعي والإدراك بعدما كان مطموسا عليها عندهم، وتبين إذن وجهها ووجه ما جعله صاحبها عليها من طبقات من التشويش والتعمية والتزيين العريض، فيقر إذن بالحق الذي كان من قبل يعرفه ويتغافل عنه. وحينئذ يشهد الواحد منهم علىٰ نفسه بأنه كان يخادع نفسه ويتهرب من الإقرار بما عرف من الحق بعدما تبين له، والحمد لله أولا وآخرا.

ففيما يأتي من فصول هذا الكتاب وأبوابه، نستعين بالله تعالىٰ علىٰ بيان آليات النفس المشركة عامة والملحدة الدهرية خاصة، ولا سيما أصحاب الصناعات الفلسفية منهم، وكذلك أصحاب الأعمال الخارقة للعادة، وكيف تخادع صاحبها أبلغ الخداع فتزين له أبطل الباطل جريا علىٰ ميل القلب وهواه فيما يتعلق بالاعتقاد ومقتضيات قبوله أو رده من ثمرة دنيوية وتبعات وآثار اجتماعية، والله الموفق لما يحب ويرضىٰ.

(١) لذا فرق العلماء بين هدايتين: هداية الدلالة والإرشاد، وهي ما يصنعه الرسل وأتباعهم مع المشركين من أقوامهم، وهداية التوفيق والانقياد، وهي ما يكون من قبول الحق والدخول فيه إن وقع. فأما الأولى فهي ما يتكلفه المرسلون والعلماء من أتباعهم، فإن شاء الله تعالى جعلها سببا للثانية (من جملة أسباب نفسية باطنية لا يعلمها إلا الله)، وإلا لم تكن كذلك.

الباب الثاني

وجود الباري وكمال صفاته من المعارف البدهية الأولى التي لا يعوزها دليل.

فصل: الفطرة وميثاق الذر

قال جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [**الأعراف**: ١٧٢] ففي هذه الآية يقرر رب العالمين أن المعرفة بوجوده وربوبيته معرفة متحققة في نفوس البشر تحققا أوليا، قد أخذ بها الميثاق عليهم قبل أن يخرجهم من أصلاب آبائهم، وهم (أي أرواحهم) في عالم الذر. فمع أننا لا نذكر واقعة الأخذ والإشهاد ولا نجد لها أثرا في ذاكرتنا، إلا أنها قد انطبعت في عقولنا وأرواحنا - بفطرتها الخلقية - علىٰ أثرها معرفة بدهية أولىٰ لا تحتاج إلىٰ برهان، ألا وهي علمنا بأننا مخلوقون مربوبون، وبأن ربنا علىٰ أكمل ما يكون من الصفات والخصال. هذه الشهادة (شهادة عالم الذرّ التي صارت المعرفة بمحتواها من أصول فطرة البشر وبداهة عقولهم) هي نصف الحجة القائمة علىٰ المكلفين يوم القيامة، إذ تنبني عليها الحجة الرسالية التي يأتي بها سائر المرسلين إلىٰ أقوامهم، فإذا ما بعثهم الله تعالىٰ للحساب لم يقبل منهم دعواهم أنهم كانوا غافلين عن ربوبية ربهم، أو جاهلين بأن لهم خالقا وبأنه رب عظيم القدرة، لا ندّ له ولا شبيه ولا كفء من خلقه ضرورةً، فهو حقيق بأن تجاب دعوة رسله ويستجاب لأمره ونهيه! فلا يُقبل من عاقل يوم القيامة زعمه بأنه لم يتبع الرسل لأنه لم يجد ما يكفي من «الأدلة» للقول بأنه مخلوق مربوب، أو لم يبلغه العلم بذلك! هذه معرفة قد غرسها الله في فطرة البشر وركبها في نفوسهم تركيبا من قبل أن تبعث أرواحهم في أرحام أمهاتهم، ومن زعم أنه يجهلها فهو كاذب مماحك قطعا! فإذا ما جاءت الرسل بالوحي، جاءت لتؤسس عليها لا لتؤسسها هي نفسها في نفوس الناس! فالغفلة المتصورة للإنسان والجهل المعرفي الذي يدخل صاحبه به في عموم «أهل الفترة» إنما هو الجهل ببعثة الرسول، وليس الجهل بأن له ربا خالقا عظيما من فوقه هو القائم علىٰ جميع أمره، فهذا الأخير لا يعدّ جهلا ولا يتصور حصوله في نفس

إنسان أصلا مهما ادعاه لنفسه! (١)

فلا شك أن من أعظم مغانم الشيطان وأتباعه من الإنس والجن، أن أصبح في الأرض صنعة (بل صناعات وفنون) يتفنن أهلها ويتنافسون في محاربة الفطرة وفي تحويل مسلماتها وبدهياتها الأولىٰ إلىٰ مسائل نظرية جدلية تحتمل الرأي والرأي المقابل، فينهدم بالخوض في ذلك أصل اليقين في نفوس الموتورين والمفتونين، وينقلب المرء علىٰ أثر ذاك «النظر» المزعوم إلىٰ الشك في وجوده هو نفسه، دع عنك الشك في وجود خالقه بالغيب. ومن تلك المغانم أن أصبح أصحاب تلك الصناعات الخبيثة (كالفلاسفة واللاهوتيين والمتكلمين وأضرابهم) يُنسبون– مع هذا، وبصرف النظر عن معتقداتهم الغيبية التي يدافعون عنها – إلىٰ الكمال في قوة العقل وعمق النظر ودقة التحقيق والتحليل وإدراك ما لا تدركه عقول العامة .. الخ!

ولا شك أن من ابتلوا بهذا الداء إنما هم مرضىٰ أهل جحود وأنفة، ولا علاج لهم إلا أن يرحمهم الله ويشرح صدورهم لقبول دعوة الحق (كما جاء بها المرسلون لا كما تفلسف فيها الفلاسفة والمتكلمون) وللبراءة مما أشربت به قلوبهم من محبة ذاك الباطل الشنيع الذي هم عليه واستحسانه والانتصار له بزخارف الألفاظ. فإنه ليس مما يصح أن يطالب به العقلاء، أن ينصبوا البراهين النظرية علىٰ صحة حقائق هي مما لا ينبغي أن يخالف فيه عاقل سوي، بل لا ينبغي أن تُطرح للمساءلة والبحث النظري من الابتداء.

(١) ونحن نسأل أصحاب «علم الكلام»: ما جوابكم يرحمكم الله عن قوله تعالى: ﴿**أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٧٢] في هذا المقام، وقد علمتم أن الرسل ما جاؤوا ببراهين كلامية لإثبات وجود الصانع أو حدوث العالم أو هذه الأشياء التي تكلفتموها بغية إقامة الدليل النظري بين أيدي المكذبين على صحة دعوى معرفية تقطعون – بضرورة إيمانكم بالقرآن نفسه – بأنها لا يتصور الجهل بها والغفلة عنها أصلا (لأن الله أخذ بها الميثاق عليهم في عالم الذرّ)؟ إن قلتم لعلهم غفلوا عن تلك الحقائق فاحتجوا لمن يدلهم عليها، فقد صادمتم هذه الآية وأزلتم الأساس من تحت الحجة الرسالية كلها! وإن قلتم بل هم يعلمون تلك الحقائق مهما زعموا خفاءها عليهم، والمتصور منهم أن يسمعوا دعوى الرسول ليؤمنوا بها كما آمن غيرهم من العقلاء، فأي شيء يكون حجاجكم وخوضكم معهم فيها بنصب البراهين والأدلة النظرية ونحوها إلا ضربا من العبث والسفاهة؟

وعلىٰ رأس تلك الحقائق في باب الغيبيات: وجود الباري وكونه أكمل الموجودات وأحسنها اسما ووصفا، وكونه منزها عن كل نقيصة وتهمة، وأن مبدأ النقص في الصفات من خصائص المخلوقين بمقتضىٰ مخلوقيتهم وحدوثهم بعد أن لم يكونوا، وكون الرب مصدر العلل والأسباب كلها بلا قيد ولا استثناء فلا يخرج شيء في الوجود عن سلطانه وملكه، ولا يشاركه في ذلك شريك ولا ينازعه منازع ولا يناظره نظير. هذه الحقائق الفطرية الأولىٰ يولد الإنسان وهي عنده في محل اليقين المنعقد في النفس من غير ما دليل ولا نظر ولا حاجة إلىٰ تكلف تحريرها والعبارة عنها أصلا، فإذا ما تعرض في حياته للتربية والتنشئة في سنوات الصبىٰ علىٰ ما يطمس تلك المعارف الفطرية في نفسه، وكان (كما هي العادة في ذلك) محبا لأحواله الاجتماعية المتعلقة في وعيه تعلقا تلازميا بدينه الذي يراه الناس عليه، كارها للزوال عن جميع ذلك، فإن عقله الواعي يعمل في كل مناسبة علىٰ التزيين بالتماس التسويغات الواهية لمواضع التناقض في الاعتقاد المتلقىٰ عن طريق الوالدين وغيرهما من الأشخاص أولي النفوذ في محيطه المجتمعي، بسبب مخالفته لتلك الحقائق البدهية الأولىٰ في باطن نفسه، فيما يسمىٰ بالتماس المخارج التسويغية Rationalizations، علىٰ نحو سيأتي بيانه بتفصيل في الباب التالي بإذن الله تعالىٰ. ذلك أنه ما من إنسان من بني آدم إلا يجد نفسه كارها أشد الكراهة لمجرد فكرة أن يخالف ما تربىٰ عليه واعتاد الانغماس فيه من الأقوال والأفعال والأحوال المقبولة المحببة لمن حوله من المقربين إليه في بيئته الاجتماعية المباشرة Immediate Social Environment. لهذا فإنه يجد نفسه مائلة بأهوائها للفرار من العمل بما يقتضيه اعتقاد تلك الحقائق البدهية عند كل عاقل تأتيه دعاوىٰ المرسلين، من ترك الباطل الذي هو عليه والدخول في الحق، وما يترتب علىٰ ذلك من آثار اجتماعية يكرهها. فالشك أو التشكيك في تلك الحقائق الفطرية (التي يكون انعقادها في النفس ضرورة أولية من حيث الأصل) ليس في الحقيقة إلا عرَضا مرضيا Psychopathic Symptom إنما تحركه أهواء النفس وشهواتها وحرصها علىٰ التحلي بجملة من المسالك الظاهرة والبقاء عليها في سياق اجتماعي معين، تتناقض مع تلك الحقائق الفطرية كليا أو جزئيا.

فصل: الأنبياء لم يبعثوا بإثبات البدهيات وإنما بإلزام أقوامهم بمقتضاها

لذا لم يكلف الله تعالىٰ أنبياءه ومرسليه بنصب البرهان النظري علىٰ صحة تلك الحقائق البدهية الأولىٰ نفسها كما أشرنا آنفا، لا لأنهم لم يتعرضوا لمن يخالف فيها، فالفلاسفة والدهرية والملاحدة أصحاب خصومة قديمة مع أهل الأديان وجدال طويل ضارب في عمق التاريخ لا تخلو منه أمة من الأمم، ولكن لأن العقل لا يفتقر إلىٰ تحرير البدهيات الظاهرة والانتصار لها بدليل أو برهان كما يزعمه هؤلاء، وإنما تفتقر النفس المريضة المبتلاة بالانحراف عن تلك الحقائق البدهية وعن مقتضياتها في القول والعمل والسلوك إلىٰ خطاب يأتي بالقرع عليها بالترغيب والترهيب حتىٰ تميل أهواؤها عن متابعة الآباء والعظماء إلىٰ متابعة الحق الواضح البدهي الذي يأتي به الرسل والأنبياء، مهما كان ذلك الحق (بما يقتضيه قبوله من المواقف والأقوال والأفعال) مخالفا لما عليه المجتمع، وهو ما نراه في دعاوىٰ المرسلين تحقيقا كما بينا في المبحث الأول من هذا الكتاب.

لهذا جاء خطاب المرسلين بالتحبيب (الترغيب) في العمل بمقتضيات الحق والتكريه (الترهيب) من البقاء علىٰ الباطل، لأن سبب صدود المشركين عن رسالة التوحيد إذا ما جاءتهم، إنما هو بالأساس محبة ما يجلبه الاعتقاد الفاسد (المخالف لبدهيات الفطرة) لصاحبه من موافقة مجتمعية ومن إشباع لجملة كبيرة من الشهوات والغرائز في ذلك، لا أن «دليل صحة» التوحيد وفساد الشرك (إجمالا) يحتاج إلىٰ من يحرره للناس فلسفيا ونظريا حتىٰ يقتنعوا بأن الرسول ما جاءهم إلا بالحق.

وإلا فمن زعم أن من تلك القضايا الأولية ما يفتقر إلىٰ دليل لمعرفة صحتها، فهو عندنا – معاشر العقلاء – في حكم من أراد نصب البرهان علىٰ أن الواحد والواحد مجموعهما الاثنان، أو علىٰ أن الواحد لا يساوي الاثنين ولا يساوي الثلاثة، أو أننا معاشر العقلاء ذوات منفصلة مستقلة عن بعضها البعض علىٰ الحقيقة، وعما سواها من موجودات في الواقع، ولسنا ذاتا واحدة تتوهم التعدد توهما، أو أن الماضي قد وقع

حقيقة وشهدناه جميعا واشتركنا في حوادثه وأسبابه، ولم يظهر في ذهن أحدنا توهما قبل خمس دقائق (مثلا)، أو أن التذكر دليل كاف لتحقيق المعرفة الفردية بما شهده الواحد منا من وقائع ماضية في حياته (ما لم يكن لديه سبب معتبر للظن بأنه كان واهما في ذلك الذي يتذكره)، أو نحو ذلك من مسائل بدهية لا تفتقر إلىٰ دليل أو برهان أبدا، ومع ذلك لم يخل كثير منها من تطرق الفلاسفة إلىٰ إثباته ونفيه بالدليل النظري والجدال عليه حينا من الدهر، والله المستعان. فلو أن من خالف عن تلك الحقائق الفطرية لم يقابله الناس إلا بالتسفيه والاتهام علىٰ العقل نفسه، لكانت أمم البشر اليوم في حال غير الحال، ولكن لله الحكمة البالغة فيما قضىٰ في خلقه من سنن كونية لا تتبدل. تلك السنن التي نروم القبض بأيدينا علىٰ بعضها في هذا الكتاب، نسأل الله التوفيق والسداد.

وأنت ترىٰ أن من الناس من أدخل في الفيزياء الحديثة قولا يخالف مبدأ السببية، وزعم أن المسبَّب قد يحدث قبل السبب، ومنهم من زعم أن الشيء الواحد يمكن أن يوجد في مكانين مختلفين في نفس الوقت، ومن زعم أن الذات الواحدة تتعدد (تشعبا) مع بقائها ذاتا واحدة (كما في بعض تأويلات ميكانيكا الكم)، وأن الشيء الواحد قد يكون علىٰ الحال ونقيضها معا في نفس الوقت (كقطة شرودينغر!)، ومن زعم أن التزامن بين الحوادث ليس إلا أمرا نسبيا لا حصول له إلا في عين الراصد، ومن زعم أن الماضي لا يزال موجودا في الواقع الآن، وكذلك المستقبل الذي لم يحدث بعد، وأن من الموجودات ما يمكن أن ينفصل عن «جريان الزمان» ليتحرك خلاله كما يحلو له .. إلىٰ آخر ذلك الهراء الذي تناولناه بنفس طويل في غير هذا الكتاب (ولولا أن احتمل بعضه الخفاء علىٰ عامة المسلمين من المشتغلين بالعلوم الطبيعية ما تكلفنا التصنيف في ذلك أصلا).

والآفة التي تعنينا في هذا الكتاب، أيها القارئ الكريم، هي الأسباب الاجتماعية والنفسانية التي صيرت أمثال تلك السخافات العقلية المناقضة للفطرة والبداهة، أمورا «علمية» مستقرة في أكاديميات العلوم! ففي كثير من الأحيان يكون مجرد انفتاح أبواب الجدال الفلسفي الأكاديمي مع أصحاب الدعاوىٰ السوفسطائية الواهية، سببا

في إكسابها «قيمة فكرية» وثقلا نظريا، وإلباسها لبوس القول المعتبر علميا، لاستمرار الجدال والمناظرة عليها فيما بينهم! ولهذا كان السلف والأئمة ينهون عن إحياء ضلالة قد خملت وخمل ذكرها بين الناس، بتكلف الرد عليها! فأمثال هؤلاء إنما نلتفت إلىٰ كذبهم وتخرصهم وهذيانهم بالرد والبيان بقدر ما تعرض له المسلمون من ضرر في العقل والدين بسببه، وبقدر ما احتمل خفاؤه واشتباهه عليهم، دون أن نخوض مع أصحابه في مناظرات أو مناقشات وخصومات أو نحو ذلك مما يحبه الفلاسفة ويتلذذون به، لأننا لو فعلنا لأجبناهم إلىٰ عين ما يريدون: الاستدراج إلىٰ ما تستنزل به البدهيات الأولىٰ سالفة الذكر ونحوها من القطعيات الكبرىٰ إلىٰ درجة الظن الضعيف! فإن مجرد فشو النزاع نفسه بين الناس يكون مغنما اجتماعيا عظيما للمسفسط في كثير من الأحيان! ألا ترىٰ أنه إذا صارت دعواه السوفسطائية العبثية دعوىٰ نزاعية خلافية أكاديمية، يقال فيها إن أدلتها ومادة الكلام فيها مادة دقيقة عميقة صعبة المراس، ألا ترىٰ أنه يغنم بمجرد ذلك ترسا اجتماعيا عظيما يتترس به ضد كل من يرميه بالتهمة علىٰ العقل والدين؟!

فما أكثر ما وقع في التاريخ من سفسطات وسخافات عقلية فجة، لولا أن احتضن الفلاسفة الأكاديميون أصحابها وعاملوهم معاملة النظار العقلاء المحترمين، وتناولوها بالأخذ والرد والجدال حتىٰ صارت مذاهب ومدارس فلسفية معتبرة أكاديميا فيما بينهم، لضرب الناس أصحابها بالنعال ولنكلوا بهم أشد النكال، أو لأنزلوهم المصحات العقلية والنفسية فورا وبلا تردد، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فلهذا نقول إن من خالف في مقدمات العقل الأولىٰ في مسألة وجود الباري والكمال الواجب له، هذا لا نجادله ولا نناظره إلا أتيناه – بمجرد ذلك – بعين ما يطمع فيه. وإنما الواجب أن نتهمه في عقله رأسا، لا لأنه عاجز ذهنيا فلا يميز ولا يدري أن هذه الحقائق واجبة في العقل، وإنما لأنه قد أغلق الهوىٰ علىٰ عقله وطمس علىٰ قلبه حتىٰ حمله علىٰ المراء والجدال فيما يعلم أنه حق لا يُتصور فيه الخفاء، وما جاء الأنبياء والمرسلون إلا بالتذكير به للتأسيس عليه لا لتأسيسه هو نفسه! بل نقول إن مثل هذا

عقله أشد فسادا ممن يخالف في تلك القضايا التي ضربنا بها المثل آنفا. ذلك أن محل اعتقادنا نحن البشر بأن مجموع الواحد والواحد هو الاثنان، أو بأن الشيء الواحد لا يتعدد، ليس هو في نفوسنا كمحل اعتقادنا بأن خالقنا نحن وجميع ما حولنا في هذا العالم، هو الحاكم علىٰ جميع ما يجري من حولنا من حوادث، فإن هذا الأخير أعمق وأشد تأثيرا علىٰ مجموع معارفنا واعتقاداتنا الفردية (وما يترتب عليها من مواقف وأحوال ومسالك وعلاقات في حياتنا) ولا شك.

لذا تهوىٰ نفوس هؤلاء أن يأتيها الداعي بطرائق الفلاسفة لا بطرائق الأنبياء والمرسلين! ولهذا تجد الواحد منهم يستنكر علىٰ من يدعوه إلىٰ الحق من أتباع المرسلين أن يراه متمسكا بذلك الحق بيقين وقطع لا يتزعزع، فيصوره في صورة الجاهل العاميّ المتعصب الذي يقلد تقليد العميان في مسألة نظرية من غير أن يقف علىٰ ما يكفي من الأدلة! ولعله يطالبه بأن يجادل خصومه جدال من يريد الاقتناع لا من يريد الإقناع والانتصار! مع أن الإيمان بوجود الباري وبكماله الواجب ليس مثارا للنظر وليس «مذهبا» يفتقر فيه إلىٰ دليل أصلا حتىٰ يقال للمتمسك به من غير نظر أو استدلال إنه «مقلد» جاهل أو متعصب يوافق ما وجد عليه آباءه! بل إن من زعم أنها تفتقر إلىٰ استدلال ونظر، فهذا هو من حقه أن يذم– أشد الذم – بتقليده لما وجد عليه مجتمعه خلافا لما عرف في باطن نفسه أنه الحق! ولكن لا تزال تنقلب البدهيات إلىٰ نظريات خافيات يستساغ النزاع عليها تحت وطأة الأهواء الاجتماعية، والله المستعان!

ولولا أن كانت المعرفة الفطرية السوية مركوزة في نفوس البشر، ولولا أن كانت باقية في بواطن نفوسهم مهما تراكم عليها من غثاء الأهواء والفلسفات والجدالات التسويغية العبثية، ومن اعتقادات فاسدة تناقضها وتخالفها، لولا هذا، ما قامت عليهم الحجة الرسالية! إذ لو كان الأمر كذلك، ما كان يكفي للرسل أن يؤسسوا علىٰ تلك الفطرة من غير استدلال ولا نظر لإثباتها وتأسيسها هي نفسها ابتداءً. ولولا هذا لرأيت المرسلين أوسع الناس باعا في الفلسفة وأكثرهم استيعابا لجدال أصحابها وطرائقهم، ولرأيت تلاميذهم وحوارييهم يملؤون الدنيا تنظيرا قياسيا «لإثبات الصانع» وتفلسفا

لإثبات وحدانيته وكماله الواجب، يقابلون به كل «برهان عقلي» يأتي به الملحد والمكذب في ذلك! ولكن ما رأينا هذا إلا فيمن شذّ عن طريقتهم واتبع سبيلا غير سبيلهم.

فصل في المنبت السوسيولوجي لمسألة «التقليد في الإيمان»

ولهذا كان مما يتفرع علىٰ هذه القضية الكبرىٰ واختلفت فيه طوائف المتكلمين خلافا عظيما، مسألة التقليد في الإيمان.

فنحن – أهل السنة – نقول إن التقليد لا يقع في البدهيات الأولىٰ وأصول الفطرة، ولا يقع كذلك في المعلومات من الدين بالضرورة أو قضايا الملة التي لا يُتصور في العقل أن يجهلها من ولد وتربىٰ علىٰ الإسلام ولا يُحتاج في العلم بها إلىٰ أكثر من ذلك، وإنما يقع التقليد في القضايا التي يرد عليها الخفاء وتلجئ للنظر والاستدلال والبحث (نوعا)، فيتصور في العامي غير المتخصص أن يجهلها لخفاء أدلتها عليه. ولهذا نقول إنه لما زعمت المتكلمة أن التقليد يدخل في كليات الإيمان الكبرىٰ، بداية من وجود الصانع نفسه، لم يكن لهم سلف في ذلك إلا الفلاسفة ومن لف لفهم من اللاهوتيين ونحوهم، الذين فتحوا – بطبيعة صنعتهم نفسها – كل مبدأ من مبادئ العقل والفطرة وضرورة الذهن للنظر والاستدلال والجدال الطويل، واضطر المتكلمون لالتزام موافقتهم في ذلك بمقتضىٰ السبب الذي من أجله نشأ علم الكلام نفسه (ألا وهو مجادلة الفلاسفة والانتصار عليهم بما أسموه بـ«البرهان العقلي» فيما استدلوا فيه، تماما كما كان سبب نشأة علم اللاهوت عند أهل الكتاب)!

فنحن نقول: كما أن من قال بأن مجموع الواحد والواحد يساوي الاثنين، وبأن الشيء الواحد لا يوجد في مكانين مختلفين في نفس الوقت، وبأن لديه عقلا منفصلا عن عقول غيره من الناس، وبأنه موجود في العالم علىٰ الحقيقة لا وهما ولا خيالا، وبأن الأمس قد مضىٰ وولىٰ بحوادثه ولن يرجع إلىٰ قيام الساعة، وأن الغد لا يزال في قابل ولما يحدث بعد .. الخ، هذا لا يقال له إنه «مقلد» يلزمه الاستدلال حتىٰ يعرف صحة هذه الدعاوىٰ ونحوها لديه، فكذلك من قال إن الرب موجود بالغيب حقيقة، وإنه كامل لا نقص في صفاته ضرورة، وإنه واحد أحد لا شريك له ولا ند ولا ولد ولا

اختلاط بشيء من خلقه، مثل هذا لا يقال له إنه «مقلد» في الإيمان وأنه يلزمه الاستدلال حتىٰ يعرف أنه علىٰ الحق!

ولكن لما أغرق المتكلمون في الخوض مع الفلاسفة علىٰ شرطهم المعرفي في الإثبات والنفي، وهو ذلك الشرط والمنهج الذي لا محل فيه للفطرة كمحتوىٰ معرفي ثابت في النفس البشرية، وحملتهم نفوسهم الطامعة في إظهار التفوق في بضاعة الفلاسفة الأكاديميين المعظمين في عصرهم حتىٰ ينالوا نظير ما نالوه هم من التعظيم والسيادة الاجتماعية، علىٰ التزام ذلك الشرط الفاسد والتسليم بصحته حتىٰ تقبل منهم بضاعتهم، أصبحوا مضطرين لتسويغ السفسطات والسخافات، التي لا نرىٰ في موازين العقل ما هو أعظم في أنواعها من زعم أحدهم بأنه لا يدري أمخلوق هو أم لا، وأصبحوا مطالبين اجتماعيا بتجويز أن يكون الدهري الملحد المقيم علىٰ دهريته وإلحاده، طالبا للحق صادقا في طلبه، لا تثريب عليه ما دام ماضيا في البحث والنظر! بل يصبح التثريب والملام لاحقا بمن قال إنه يؤمن بصحة ما جاء به المرسلون دون أن يكون لديه نوع نظر في حدوث العالم علىٰ أيما طريقة يرتضيها الفلاسفة الأكاديميون، وإلا كان مقلدا في الإيمان، لا يقف علىٰ مستند معرفي كاف لتحقيق الجزم القلبي المطلوب من كل مؤمن بصحة رسالة الرسول ﷺ، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لذا لزم أن يتعلم طلبة العلم والدعاة معنىٰ الفطرة في هذا الشأن الغيبي، وحقيقة ما نعنيه بأن العلم بهذه الحقائق إنما هو من العلوم الفطرية غير المكتسبة، التي جبل الله تعالىٰ البشر عليها، كما جبلهم علىٰ معرفة سائر القضايا البدهية الأولىٰ التي لا تفتقر عندهم إلىٰ برهان أو دليل. فمن كذّب بها وأنكرها فإنما هو مريض بالهوىٰ المحض، فلا يلتمس معه طريق الاستدلال والنظر، لأن هذا الاستدلال نفسه هو غاية ما يرجو صاحب تلك الأهواء الخبيثة أن يتترس به اجتماعيا، يتعلق بدعوىٰ معقوليته ومطلق القول بالافتقار إليه!

فصل: تقرير بداهة البدهيات ليس قولا فلسفيا، ومن تكلف إثباته نظريا فقد تنطع وتناقض، ولا يكون ذلك إلا من مرض في نفسه!

ولهذا نقول إن أعظم جنايات المتكلمين علىٰ عقول المسلمين (كما سبقتهم جناية اللاهوتيين علىٰ عقول أهل الكتاب) وأصل جميع ما وقع منهم من جنايات في دين الله تعالىٰ، أن جعلوا تلك القضية البدهية الأولىٰ (إثبات وجود الباري، أو «الصانع» كما يسمونه، وكمال صفاته) مثارا للجدل والاستدلال والنظر الميتافزيقي، استجابة لأهواء الفلاسفة من حيث يحسبون أنهم ينصرون الحق عليهم. ونقول إن حقيقة كون تلك القضية من مسلمات الفطرة والبداهة العقلية، حقيقة لا تفتقر في نفسها إلىٰ إثبات، ومن حاول أن يثبتها نظريا (فلسفيا)، فقد تسلسل وناقض نفسه بمجرد ذلك.[1]

---

(١) ولا يدخل في هذا من قرر «دليل الفطرة» من أئمة أهل السنة، لأن مفهوم الدليل عنده على خلاف ما عند المتكلمين والفلاسفة. فالدلالة هنا لا يراد بها الابتداء بالجهل وبالافتقار إلى معرفة الدليل، ثم الوقوف على معرفته بعد ذلك (كما هو الداعي إلى النظر ومقتضاه)، وإنما يراد بها ذكر سبب وجود تلك المعرفة تحقيقا في نفوس البشر وجودا جبليا من غير اكتساب. فعندما نقول – مثلا – إن من الأدلة أو الشواهد على فطرية الإيمان بالباري جل وعلا أنك ترى المضطر عند الغرق يتوجه إلى نداء إلهه في السماء وإن كان من أشد الناس كفرا به، فلسنا نسعى بهذا القول إلى إقامة برهان استقرائي (مثلا) لتأسيس المعرفة بفطرية وبداهة القول بوجود الباري في أذهان البشر! لن ترانا نعد بحثا إحصائيا لنثبت به أن أكثر الناس يقع منهم ذلك، حتى «نثبت» أن هذا مركوز في فطرتهم كنوع مخلوق! ولا يعنينا أن يأتي من أعد بحثا كهذا بنتيجة مخالفة، كأن يقول مثلا: «بل قد بحثت ووجدت أن أكثر الناس لا يفعلون كما تقولون»! فالاستقراء ليس هو حجتنا أو أساس معرفتنا في هذا القول (أعني القول ببداهة وفطرية الاعتقاد بوجود الباري وكماله) حتى يكون الاستقراء المخالف إن وجد ناقضا لتلك «الحجة» أو هادما لتلك المعرفة عندنا!

هذا القول عندنا (القول بأن لنا بارئا منفردا بالسلطان على أسباب العالم، وبالحق في ألا يطلب من غيره ما لا يطلب إلا منه) نعرفه معرفة أولى لا يُفتقر في مثلها إلى دليل، وما أدركنا شيئا من الموجودات حولنا إلا رأيناه يؤكد تلك الحقيقة في نفوسنا تأكيدا ويرسخها ترسيخا ولله الحمد. وإنما أردنا من تذكير السامع بأن المشرك (أيا ما كان اعتقاده الشركي) لا يرفع كف الضراعة عند نزول البلاء العظيم إلا إلى ربه الذي في السماء، أن نعظه ونذكره بما عرف من الحق، لا أن نعرِّفه بما قد يزعم أنه يجهله من بداهة وجود باريه ومصوره بالغيب، وأنه هو القادر على كل شيء، السميع لمن يدعوه بالغيب، سبحانه وتعالى. هذا الفرق المنهجي بين طريقة المرسلين وأتباعهم من العلماء والأئمة في استدعاء القرائن والشواهد، وبين طريقة المتكلمين في تأسيس المعارف البدهية وكأنها معارف نظرية، يجب ألا يخفى على طلبة العلم وألا يختلط الأمر فيه عليهم. فليس

لقد كان السائد في نظرية المعرفة عند فلاسفة الغرب عبر آلاف السنين وحتىٰ عهد قريب، القول بالمذهب التأسيسي أو المدرسة التأسيسية Foundationalism، وهي بإيجاز القول بأن كل معرفة تفتقر إلىٰ دليل Inferential knowledge لا بد وأن تقوم في استدلالها علىٰ جملة من المعارف الأساسية Basic Beliefs التي يعرفها الإنسان بداهة ودون الحاجة إلىٰ استدلال أو نظر، وإلا فلو افتقرت هذه المعارف الأساسية نفسها إلىٰ دليل، فإن ذلك يفضي إلىٰ التسلسل بما لا يقوم به أي أساس لأي اعتقاد معرفي في نفس الإنسان.

فعلىٰ سبيل المثل، عندما نصل من طريق النظر إلىٰ القول بأن حاصل جمع العدد (١٢٣) والعدد (٣٢٢) يساوي (٤٤٥)، فإن هذا النظر يتأسس عندنا علىٰ معرفتنا الأولية (اللغوية) باسم العدد الأولي الذي يعبر عن مجموع كل من العددين الأوليين (٣) و(٢)،

اجتماع الشواهد والآيات على نفس المؤمن بما يزيده يقينا فيما عرف ببداهة عقله وفطرته الأولى من وجود باريه وعظمته وطلاقة قدرته سبحانه (وبيان طريقة القرآن في محاجة المشركين)، مساويا لإقامة البرهان المعرفي على وجود تلك الفطرة في نفس الإنسان من الأساس!

فإذا رأيت الإمام من أئمة السنة يسوق إليك الأدلة النقلية من القرآن والسنة على أن وجود الله تعالى معرفة فطرية مركوزة في نفوس البشر بالخلقة والجبلة، فليس هذا سعيا منه في محاجة الملاحدة وأضرابهم، وإنما هو من محاجة المتكلمين من أهل القبلة، الذين أسسوا بدعتهم على الاستدلال النظري لوجود باريهم! وكذلك يقال في سائر ما سماه الأئمة بالأدلة على وجود الباري في تصانيفهم، فليست هي أدلة كلامية أو فلسفية يراد منها إثبات ما هو ثابت مغروس في فطرة الإنسان وبداهته أساسا، وإنما هي من قبيل ذكر ما ساقه الله تعالى في كتابه من آيات وجوده وعظمته وطلاقة قدرته سبحانه، بعضها أقوى من بعض لشدة ما فيه من إبهار لعقول العقلاء. فالمراد بيان أن هذا يكفي ويفي بالمطلوب من إقامة الحجة تمام الوفاء، والفرق بين «إقامة الحجة الرسالية على المكلفين» و«تأسيس المعرفة بوجود الباري» فرق عظيم! لذا لن تجد ذلك «الاستدلال» من الأئمة رحمهم الله إلا في سياق الرد على المتكلمين من أهل القبلة وكشف غلطهم بالأساس، لا الرد على الفلاسفة الجاحدين، فإنهم ما كانوا يجادلون هؤلاء أصلا، ومن جادل منهم الدهرية وأشباههم في وجود باريهم فقد أخطأ ووافق المتكلمين من حيث لا يدري.

فنحن نقول: من بلغ به هواه أن عميت عيناه عن سماع داعي الفطرة في باطن نفسه، فلا طريق «لإقناعه» بوجود هذه الفطرة نفسها لديه، وبأن العلم بوجود ربه علم فطري بدهي لا يحتاج إلى استدلال! من قيل له: «أنت مخلوق مربوب»، فقال: «لا أرى دليلا على ذلك، فأتوني بالأدلة إن كنتم من أهل الدليل»، هذا مثله كمثل من قيل له: «افتح عينيك لترى الشمس في كبد السماء في وسط النهار»، فقال: «أنا مبصر ولكنني لا أراها كما تزعمون أنكم ترونها، فأثبتوا لي أنها موجودة تحقيقا»! مثل هذا كيف يكون الرد عليه، وأي ثمرة ترجى من الجدال معه؟ هذا عبث وسفسطة ولغو لا ينبغي أن يلتفت إليه العقلاء، كما لم تلتفت إليه الرسل والأنبياء.

والعددين (٢) و(٢)، والعددين (٣) و(١). هذه المعرفة الأولية لا نصل إليها هي نفسها من طريق النظر، وإنما نستعملها أحيانا للوصول إلىٰ كسب معارف أخرىٰ نظرية. فمن يزعم أن هذه المعارف الأولية الثلاثة يفتقر كل واحد منها إلىٰ دليل نظري، فقد فتح بابا لتسلسل لا يمكن معه الوصول إلىٰ معرفة جواب المسألة (١٢٣+٣٢٢)، إلا بالوقوف علىٰ جملة أخرىٰ من المعارف الأولية أو الأساسية Basic Beliefs التي ينتهي عندها التسلسل بالضرورة.

والسؤال الآن، وبعيدا عن سفسطة الفلاسفة في هذه الفكرة: هل يحتاج الإنسان العاقل إلىٰ أن يقف علىٰ برهان من براهين التسلسل التي صاغها التأسيسيون من الفلاسفة، حتىٰ «يعرف» أن من معارفه ومعتقداته (كإنسان عاقل) ما لا يفتقر إلىٰ دليل وما هو حق واضح صحيح بنفسه من غير ما تكلف للنظر أو الاستدلال؟ بصرف النظر عن تصورات الفلاسفة للطريقة التي يصل بها الواحد منا معاشر العقلاء إلىٰ معرفة الحق في المسائل النظرية، والهيكل الذي ينبني عليه بنيان المعرفة في عقله الباطن cognitive structure، فلا يسع العاقل إلا أن يجيب عن هذا السؤال بالنفي القاطع! نقول: كلا، لا يحتاج العاقل إلىٰ دراسة براهين التسلسل عند فلاسفة المعرفة (الكلاسيكيين في الأعم الأغلب)، وإلىٰ الرد علىٰ خصومهم من الدليليين الجدليين Evidentialists والمتشككين وغيرهم، حتىٰ يصح وصف موقفه ذاك من مراتب المعارف والاعتقادات بأنه موقف يقوم علىٰ العقل السوي الصحيح!

ولكن كيف ينتسب إلىٰ صنعة الفلسفة من يدعو الناس إلىٰ التسليم ببعض الحقائق كما هي (أو Ipso Facto كما يقال باللاتينية) وإهمال من نازعوا فيها من الفلاسفة وترك الرد عليهم؟

هنا بيت الداء وأصل الآفة أيها القارئ المحترم: إنه القالب الاجتماعي السائد (سوسيو-إبستمولوجيا) في ممارسة الفلسفة نفسها، الناشئ عن موروثها الثقافي كصنعة، وليس معقولية أو عدم معقولية القول بأن من الدعاوىٰ المعرفية ما هو حق في نفسه من غير أن يفتقر إلىٰ دليل خارجي! الآفة في حرص النفس المفتونة علىٰ

«التموضع» داخل الإطار الفكري السائد في المجتمع، والاصطباغ بصبغة النخبة رفيعة العقل عميقة النظر، التي تحرر تعريف «العقل» و«العقلانية» نفسه وتبثه في العامة، وعلىٰ رأس تلك «النخبة» أو «الصفوة» المرموقة اجتماعيا، ذاك المجتمع الأكاديمي المتخصص في صناعات الفلسفة وإعمال النظر العقلي بعموم. فمن أراد أن يعد من نخبة العقلاء، وجب عليه أن يجمع لنفسه من البراهين والدعاوىٰ الفلسفية ما يدرأ به عن نفسه اعتراضات خصومه من أهل ذلك التخصص، وإلا كان «عاميا» يقلد تقليد الدهماء!

وهذا في كل صنوف الدعاوىٰ والأسئلة المعرفية بلا استثناء، بما في ذلك مسألتنا هذه! كل سؤال يمكن أن تجيز اللغة طرحه في عبارة مفهومه، وجب علىٰ الفيلسوف المتخصص أن يجيبه بالفعل أو بالقوة، وأن يقبل من أقرانه الخلاف فيه والنزاع عليه، وأن يُعمِل أدوات النظر في كل شيء! فما دامت هذه الفكرة (في إجابة السؤال) أو تلك مطروحة عند أهل الاختصاص علىٰ أنها «نظرية» لها ما يقابلها ويخالفها من نظريات الفلاسفة، فلا بد وأن يظل الفيلسوف مطالبا بالانتصار لها بالاستدلال النظري علىٰ وفق الطريقة السائدة بين أهل الصناعة، ولا بد وأن يظل راضيا بجريان الجدال فيها بينهم علىٰ تلك الوتيرة، وبالاعتراف بأنها مثار للنزاع المستساغ «عقلا»، فلا يستنكر موقف المخالف ولا يشنع عليه ولا ينفي صفة العقل عمن نازعه فيها وفيما يتأسس عليها من مواقف اعتقادية (تبعا)، سواء في مسائل الغيب أو في غيرها من أبواب المعرفة.

فالآن لو جئت أنا لأقول للفيلسوف: «قف عندك ولا تطرح هذا السؤال لأن العاقل لا يفتقر فيه إلىٰ جواب من الأساس»، أو «هذه القضية صحيحة بنفسها لا تحتاج إلىٰ دليل»، فلن يكون فيلسوفا إن لم يجبني بنحو قوله: «أثبت لي إذن أن العاقل لا يفتقر فيها إلىٰ جواب» أو «برهن علىٰ أن هذه القضية صحيحة بنفسها كما تدعي» أو «قدم لي الدليل علىٰ أن (س) هذه لا تحتاج إلىٰ دليل حتىٰ تتحصل لنا المعرفة بها»! ولا شك أن قرينه من الفلاسفة أمثاله لن يستنكر ذلك الموقف عليه أيا ما كان موضوعه، وإنما سيسارع بإجابته إلىٰ ما يطلب علىٰ عادة القوم، ثم يجري بينهما الجدال الطويل في الدليل ودليل

الدليل، والدليل علىٰ صحة المنطق الاستدلالي نفسه، والدليل علىٰ صحة مقدمات ذلك الدليل وعلىٰ سلامة مفردات التحليل الشكلي لذلك المنطق النظري وهلم جرا، حتىٰ يختلفوا في كل ذلك علىٰ مذاهب شتىٰ لا تكاد تحصىٰ، تتفاوت فيما بينها في مقدار ما أجازه كل مذهب منها من هتك أستار البداهة العقلية وطرح مسلماتها للنظر والإطلاق المجمل والتعمق الفاحش الذي لا يعرف حدا ولا نهاية! وكل هذا باسم «العقل» و«العقلانية» والنظر الصحيح، والله المستعان! ولو أني تمسكت بموقفي من أن الدعوىٰ (س) واضحة بنفسها لا تحتاج إلىٰ برهان، لم يقبلوا ذلك مني أيا ما كان موضوع (س) هذه، وإذن لاتهموني بالتقليد أو بخفة العقل وعدم الأهلية للنظر!

فالسؤال المهم الذي يصح أن يأتي الآن تبعا: أنا أزعم أن ثمة حقائق أولية ضرورية لا تحتاج في معرفتها إلىٰ اكتساب أو نظر، وأن منها وجود الباري وكمال صفاته! فلماذا أجدني الآن مطالبا بتحرير موقف «فلسفي» من مدرسة التأسيسيين أو غيرها من المدارس الفلسفية التي خاض أصحابها في هذه القضية، وبأن أقدم الدليل النظري علىٰ دخول القول بوجود الباري (وليس هو «قولا» أو «رأيا» أو «مذهبا» أصلا إلا عند الفلاسفة) في جملة العقائد الأولية التي لا تفتقر إلىٰ برهان، حتىٰ أكون ذا موقف مقبول أو مستساغ؟ أي شيء يلزمني بهذا (عقلا) وما الذي يوجبه علي؟ لا إلزام ولا وجوب ولا اضطرار إلا ما تقتضيه الوجاهة الاجتماعية من خضوع الباحثين لضغط الأقران من كبار الفلاسفة الأكاديميين لا غير! هذا شرط الفلاسفة والمتكلمين الذين نخالفهم في مفهوم العقل نفسه عندهم. فبأي عقل نطالب بالخضوع لشرط إبستمولوجي لا نقبله؟ أنا أعرف من نفسي كما أزعم أنه يعرفه كل عاقل أن ثمة حقائق لا تفتقر إلىٰ برهان أو دليل، وأن منها مخلوقيته ومربوبيته تحت سلطان رب عظيم لا ترد عليه نقائص المخلوقين! فالذي يطالبني بإثبات تلك المعرفة نظريا، دع عنك إثبات أنها لا تحتاج إلىٰ إثبات، هذا عندي - كما عند كل عاقل سليم النفس فيما أزعم - جاحد مكابر يكذب علىٰ نفسه! هذه هي الدعوىٰ وهي صحيحة بنفسها لا تفتقر إلىٰ ما يثبت صحتها، وانتهت القضية، رضي من رضي وكره من كره!

أما من كان مفتونا بطرائق الفلاسفة ومناهجهم، غارقا معهم في تجويز طرح البدهيات الأولىٰ للجدل والمناظرة، فسيراني مطالبا بهذا النظر والاستدلال ولا بد، فإن مالت نفسه لموافقتي في قولي هذا فسينتصر لموقف المدرسة الفلسفية التي توافقه (أو تقاربه) ببراهين أصحابها من الفلاسفة، ولن يرتضي لذلك بديلا، ما دام طامعا في الفوز بلقب «العقل» الذي لا يمنحونه إلا لمن سلك مسالكهم ولف لفهم! وإن مالت نفسه لمخالفتي، فسيعترض عليّ بأن موقفي هذا يشبه موقف الفيلسوف فلان واللاهوتي فلان، الذي رد عليه فلان وفلان وقالوا له كذا وكذا وألزموه بكذا وكذا ... إلخ، وسيزعم أني إذن مطالب بالرد علىٰ كل واحد من هؤلاء (كما رد بعضهم علىٰ بعض) حتىٰ يصبح لموقفي مستند «برهاني» أو «عقلي» مقبول أكاديميا، وحتىٰ يصح للعقلاء أن يوافقوني عليه (أنا ومن وافقتهم من قبلي) من غير أن يوصموا عند النخبة والصفوة بأنهم من أصحاب التقليد الأعمىٰ!

فإن خضت في هذا الجدال كما يشترطه علي الفلاسفة والمفتونون بهم من كل ملة، من اللاهوتيين والمتكلمين ونحوهم، فقد شهدت بمجرد ذلك – وتأمل! – بأن موقفي يفتقر إلىٰ استدلال نظري من جنس ما يطلبون، وهذا يرجع عليه بالإبطال رأسا لا محالة! إذ كيف يكون موقفي أن (س) لا تحتاج في ثبوت المعرفة بها إلىٰ دليل، ثم تراني في الوقت نفسه أسعىٰ في استخراج الدليل علىٰ أن (س) هذه لا تحتاج إلىٰ دليل؟ ألا أكون بذلك قد تكلفت النظر فيما أزعم أن العاقل لا يفتقر إلىٰ النظر فيه؟ بلىٰ ولا شك!

لقد أجاب القرآن عمن قالوا لدعاوىٰ المرسلين من قبل ﴿**أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**﴾ بجواب حاسم لا فلسفة فيه ولا جدال ولا تكلف للنظر! قال جل وعلا ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٣] هذا هو جواب رب العالمين لأصحاب ذلك المرض النفسي الاجتماعي الخطير الذي لا يزال يُستدرج به العقلاء إلىٰ خوض الجدال في الواضحات بدعوىٰ «البرهان العقلي» ودفع تهمة السفاهة وقلة العقل عن أنفسهم! فمن قال لنا كما تقول

الفلاسفة إن الاعتقاد ببداهة تلك الدعوىٰ الغيبية (أن الرب واحد أحد فرد صمد له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا وجوبا) وعدم افتقارها إلىٰ الدليل النظري، هو ضرب من السفاهة وخفة العقل، وهو موقف أليق بالعامة المقلدين لا العقلاء النبهاء أصحاب العقل الرصين، لم نزد علىٰ أن نقول له: «ألا إنك أنت السفيه الأحمق والله، ولكن لا تعلم!»، ثم لا نزيد علىٰ ذلك حرفا واحدا، وليذهب هذا المريض الجاحد إلىٰ حيث يحلو له بعد، فلا نعبأ به ولا نبالي في أي واد يهلك!

من الذي جعلكم يا هؤلاء حجة علىٰ مفهوم العقل نفسه (والسفاهة في مقابله) عند البشر، ومن الذي أوهمكم أن من لم يتفلسف (أو ينظر علىٰ طرائقكم ومناهجكم أنتم في النظر) في كل ما تكلفتم أنتم النظر فيه فلا عقل له؟ أنتم أصحاب مرض نفسي عضال والله، لا يبقىٰ لصاحبه حظ من الوصف بالعقل وإن كان من أذكىٰ الناس! ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ [**الزمر**: ٤٥]!

أقول وبكل قوة وحزم، إنه لا يعنيني - كعاقل من عقلاء المسلمين - التتبع والرد علىٰ ما ذهبت إليه فلاسفة الغرب من محل «القول» بوجود الباري سبحانه وتعالىٰ من «منظومة المعرفة الإنسانية»، هل هو رأي نظري يفتقر إلىٰ أدلة تسبقه في بداهتها وظهورها و«أوليتها»[1]، وبالتبعية فهو يحتاج إلىٰ استيفاء النظر في مجموع أدلة أصحاب

(١) كما زعمه الدليليون وبعض أتباع التأسيسية الكلاسيكية من المتأخرين كجون لوك وغيره، الذين ظهر قولهم هذا في عصر التنوير الأوروبي في جملة ثورتهم على ما بقي من سلطان الفكر الديني النصراني في بلادهم. إذ قالوا إن أصحاب الاعتقاد بوجود الباري وكمال صفاته (وهم عقلاء البشر دون سفهائهم) مطالبون بنصب البرهان العقلي على صحة اعتقادهم ذاك، حتى يكون لموقفهم الاعتقادي مستند معرفي معتبر، يقف على أساس من مقدمات العقل الأولى غير المفتقرة إلى استدلال في معرفتها. وزعموا أنه لولا أن كان الأمر كذلك، ما اضطر اللاهوتيون وآباء الكنيسة الأوائل كأنسيلم وأوغسطين وغيرهما لصياغة «البراهين» الفلسفية لإثبات الصانع في إطار ما يقال له «اللاهوت الطبيعي» Natural Theology! هذا المسلك دليل عندهم - بمجرد وجوده - على أن الاعتقاد بوجود الباري، رأي من جملة الآراء النظرية المكتسبة معرفيا، التي تفتقر إلى دليل تقف عليه عند القائل بها، فمن لم يتحقق بذاك الدليل فهو مقلد مذموم ولا بد.

لقد تعلق «جون لوك» في دعواه عدم معقولية القول بوجود الباري من غير الوقوف على الأدلة الكافية

اللاهوت الطبيعي Natural Theology ومن تبعهم من المتكلمين وغيرهم عند أهل

(وقد كان يرى أن «الأدلة» حاصلة في ذلك)، بدعوى حق أراد بها باطلا، ألا وهي قوله بأن المعتقد الأشد خطورة والدعوى الأعظم مثقالا، يجب أن تحظى عند المتعلق بها بما يناسب عظمها وثقلها من الأدلة الكافية لقبولها. وبمثل هذا القول قال «ديفيد هيوم» كذلك في جملة كبيرة من فلاسفة الغرب (وورثه عنه فيما بعد كارل ساغان ثم مايكل شيرمر وغيرهما). ولا شك أنه كلما كانت الدعوى المعرفية أعظم وأخطر، كان الدليل المطلوب لقبولها أوثق وأقوى. ولكن محل التلبيس الواضح في ارتكانه إلى هذه الدعوى، هو أنه يزعم أن المعرفة بوجود الباري وكمال صفاته معرفة استدلالية نظرية من حيث الأصل، أي أنها مكتسبة حادثة في النفس من بعد جهل، فتحتاج إلى تكلف الاستدلال حتى تتحصل لصاحبها اكتسابا. فلولا أن كانت نفوس هؤلاء الفلاسفة ممروضة بالأهواء الكبرى التي تدعوهم إلى تسويغ السياق الفكري السائد من حولهم الذي لا يرون طريقا لنوال السبق والعلو الفكري بين الناس إلا به، ذلك السياق الثوري المتمرد على نوع المعرفة الدينية نفسها جملة وتفصيلا، لولا تلك الأهواء ما استندوا إلى هذه القاعدة في هذا المقام! فهذا الكلام إنما يقال في المعارف المكتسبة التي يلتمس لها من الأدلة ما يليق بها. أما عندما تطرح مسلمات العقل والفطرة للنظر على طريقة الفلاسفة ومن وافقهم، ثم يقال إن عظم الأدلة النظرية المتوفرة لا يتناسب مع عظم المسألة (كالقول في وجود الباري مثلا)، فهذا محض الكذب على النفس وعلى الناس.

ونحن نقول إن من استقامت فطرته ولم تتزين في نفسه أوهام الفلاسفة في إسقاط ذلك الأصل الفطري نفسه، فوالله لن يرى شيئا مما تقع عليه عيناه إلا وجد فيه علامة ظاهرة جلية على عظم خالقه وعلى طلاقة قدرته! أما من أصغى بقلبه لتلك البضاعة، فلن يرتضي منك ملء الأرض «أدلة» وعلامات وآيات وبراهين! ولهذا فقد كان مما نقل عن «برتراند راسل» أنه قال ما معناه «لو وقفت بين يدي الرب يوما ما، فسأقول له: سيدي، لماذا لم تعطني دليلا أحسن من هذا على وجودك؟»». فتأمل إلى أي حد يمكن أن يبلغ الكذب والتخرص على النفس وعلى خالقها وعلى الناس! أي أدلة هذه التي تشترطها يا عدو نفسك، حتى تسلم لبارئك بحقه عليك؟ أهو تراكم المزيد من ذلك العبث والطبل اللفظي الأجوف والغثاء السوفسطائي الفارغ، الذي تتلاعبون به أنتم وخصومكم من اللاهوتيين والمتكلمين، وتزخرفه فيما بينكم شياطينكم تمحلا وغرورا، وتسمونه بالأدلة والبراهين «العقلية» والعقل منه ومنكم براء؟ والله إن مثلك لو رأى الله جهرة في هذه الحياة الدنيا ما خضع له ولا سلّم بحقه في التسلط على رقبته كمخلوق من مخلوقاته، لأنكم أشد كبرا وغرورا من أن ترضوا بمثل هذا! قال تعالى ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [**الأنفال**: ٢٣] فكل من تولى وأعرض ورمى الأمر وراء ظهره بعدما سمع به، ففي نفسه مرض ولا خير فيه، فكيف بمن جادل وماري وتكلف وادعى أنه ينتظر «ظهور ما يكفي من الأدلة» حتى يعترف بأنه مصنوع مربوب؟

والأمر الملفت الذي يعنيني في هذا المقام ليس موقف هؤلاء من نفي البداهة والجلاء الفطري عن قضية وجود الباري وكمال صفاته، وإنما موقف من وافقوهم على ذلك الزعم الكلي بدعوى الرد عليهم، أو سبقهم بتأسيس القاعدة الفكرية التي انتصب عليها مذهبهم! بداية من أنسيلم وأوغسطين وغيرهما من اللاهوتيين النصارى (السكولاستيين) Scholastics في القرون الوسيطة الذين تتلمذوا على أرسطو في منهجه المعرفي، وأخذوا عنه صورة من صور المدرسة التأسيسية الكلاسيكية Classical Foundationalism، فانتصروا – إجمالا – للقول بأن وجود الباري يمكن إثباته كمعرفة مكتسبة من طريق التأسيس على مقدمات منطقية

أولية صحيحة في نفسها، وبذلوا في ذلك جهدا كبيرا (رجاء أن يقبل منهم الجحدة الدهرية في زمانهم زعمهم أن لديهم «دليلا» على وجود الباري)، وراحوا يخترعون «الحجج» و«البراهين» الفلسفية لإثبات الصانع، كالدليل الأنطولوجي والتليولوجي والكوزمولوجي وغيرها، مع التماس الأعذار لمن أسس إيمانه على «التقليد» ولم يقف على تلك «الأدلة» بنفسه من عموم أتباع الكنائس! هؤلاء لولا أن افتتنوا ابتداء بالفلسفة اليونانية القديمة وبما كان لها من نفوذ فكري واسع في سياقهم المجتمعي، ولولا أن كانت لديهم أغراض نفسية في الدفاع عن «معقولية» عقيدة الثالوث بصفة خاصة ضد خصومها، ما وافقوا على جعل بعض البدهيات الأولى مثارا للجدل والنظر والاستدلال بغيرها من البدهيات الأولى (كما كانت طريقة فلاسفة اليونان)!

وعند بعض اللاهوتيين المعاصرين كـ«ألفين بلانتيغا» و«نيكولاس والترشتروف» وغيرهما، ترى ثورة على المدرسة التأسيسية (متابعة لما هو سائد في الوسط الفلسفي الأكاديمي المعاصر، تماما كما التزم اللاهوتيون الأوائل بالوسط الفلسفي الذي عاصروه)، مع الانتصار فلسفيا للقول بأن اعتقاد وجود الباري يعتبر معرفة أساسية Basic Belief صحيحة بنفسها لا تفتقر إلى دليل، من غير أن ينتبهوا إلى أن ذلك «الانتصار الفلسفي» نفسه حجة – في مجرده – لخصومهم عليهم كما أشرنا آنفا! إذ ترى بلانتينغا (كما في كتاب له صدر في ١٩٨٣ على سبيل المثل) يفلسف اعتراض الدليليين وموقفهم القائل بأن وجود الباري يفتقر إلى دليل، على أنه موقف معياري Normative بشأن ما يصح وما لا يصح اعتباره تسويغا أو تبريرا Justification لاعتناق معتقد ما. فيبذل جهدا واسعا في طرح الأسئلة «الأخلاقية» و«المعيارية» فيما يتعلق باعتناق العقائد والمعارف، بما في ذلك قضية الاضطرار إلى التقليد، مع بيان أنه من غير الممكن التوصل إلى تعريف جامع مانع لما يقال له «الاعتقاد الأساسي» Properly Basic Belief، وكل هذا حتى ينتصر (في إطار ما يسمى بالهيكل العقلي Noetic Structure) لفكرة أنه من الممكن ومن المقبول – معياريا – أن يعتنق الإنسان اعتقادا لا يدري له دليلا خارجا عنه، فيكون في حقه هو – على الأقل – اعتقادا أساسيا مركزيا في معرفته، مع كونه غير مفتقر إلى غيره من الدعاوى المعرفية الأساسية السابقة عليه ليتأسس عليه عنده. فتراه يذهب ذات اليمين وذات الشمال في التنظير بغية إقامة البرهان النظري على أن وجود الباري من جملة العقائد التي لا تحتاج إلى برهان نظري!

ونحن نقول إن من زعم أنه لا «يعرف» أنه مخلوق وأن خالقه عند الغاية من الحكمة والعلم والقدرة، لا مثيل له ولا نظير له بالضرورة ولا يوصف بنقائص الصفات، هذا ليس يعاني من مشكلة معرفية أو فلسفية، وإنما يعاني من مرض نفسي اسمه الكبر والجحود والكذب على النفس! فلا يحتاج العقلاء إلى أن يثبتوا تناقض دعوى التأسيسيين أو غيرهم من طوائف الفلاسفة أن المعرفة لا تثبت في نفس الإنسان إلا أن تكون صحيحة بنفسها أو ثابتة بالحس المباشر أو مثبتة عن طريق من هذين الطريقين الكليين (كما صنع «بلانتينغا» إذ قرر أن هذه الدعوى نفسها لا تقوم على ما تشترطه في المعرفة الثابتة المعتبرة عقلا)، حتى نبين للملحد ما يزعم خفاءه من بداهة القول بأنه مخلوق محدَث مصنوع! فالإلحاد تكذيب ونفي لما لا يسع العقلاء نفيه (كما يقرر ذلك بنفسه في كثير من مصنفاته)، فهو إذن حالة نفسية صرفة (كما بيناه في هذا المجلد) وليس توقفا معرفيا، لأن المعرفة بوجود الباري وبكمال صنعته واطراد نظامه السببي في تأسيس هذا العالم، معرفة فطرية أساسية تنبني عليها آليات عمل الذهن الإنساني نفسه، ولولاها ما قام للمنطق الاستقرائي القياسي أساس في عقول البشر، فمن أنكر ذلك وكذّب به وتفنن في نفي هذه الحقيقة وسحبها من تحت أساسات المعرفة البشرية، فلا يرجى منه في تنظير البنية المعرفية البشرية الوصول إلى شيء أصلا!

فبالله ما الطريق لإقناع إنسان ما بأنه في كل مرة يفتح فيها عينيه فإنه يرى من حوله واقعا خارجيا منفصلا عن ذاته حقيقة، لا وهما أو خيالا في ذهنه؟ لا طريق إلى ذلك أصلا! من اعتقد افتقار حقيقة كهذه إلى دليل حتى يثبتها فهو عند العقلاء مريض، يريد إيهام نفسه بما يعلم في باطن نفسه أنه باطل محض، ولا نحتاج نحن – وهو ما يعنيني في هذه المسألة – إلى إقامة البرهان حتى نثبت له (تأسيسا) أنه مغالط وأنه مريض، أو نبرهن له على أنه يناقض «اعتقادا أساسيا» من ذاك الصنف الذي لا يعوزه البرهان! فالخوض في جدال كهذا إنما يرضي نفسه المريضة ويزين لها اعتقاد أن خصمها يفتقر في دعواه إلى «دليل نظري» من حيث المبدأ، وأنه على شيء ذي بال! فمن أخضع نفسه لشرط تكلف التدليل النظري على هذه القضية (أعني زعم العقلاء الأسوياء أن حقيقة وجود العالم الخارجي حقيقة بدهية لا تحتاج إلى برهان) فقد هدم موقفه وتناقض بمجرد ذلك! وكذلك يقال فيمن ينفي أنه مركّب مصنوع، وأن صانعه وصانع كل شيء له الكمال في صفاته ولا بد، مستحق للعبادة وحده ولا بد، هذه معرفة أولية أساسية نثبتها من غير ما استدلال ولا تفصيل ولا تأصيل ولا تنظير ولا سعي في تحرير محل هذا الاعتقاد الأساسي في إطار أنموذج «التأسيسيين» أو «الدليليين» أو «التناسقيين» Coherentists (وهم فلاسفة ما بعد الحداثة وما شابهها القائلين بأن معيار سلامة المحتوى المعرفي الفردي إنما هو التناسق بين أجزائه، بصرف النظر عن مفهوم «الأساس» أو «الدليل» أو البناء الهيكلي Structure أو نحو ذلك) أو غيرهم من أصحاب نظريات المعرفة، فمن أنكرها فلا حوار بيننا وبينه ولا جدال!

واليوم نرى من المتكلمين وممن تأثروا بهم وتابعوا طرائقهم من المتسننين من أهل القبلة موافقة لطريقة الجدليين الدليليين التنويريين هذه من حيث لا يشعرون. فتراهم إذا ما أتاهم من الملاحدة من يقول: «أنتم تدعون أن الرب موجود وأنه كامل الصفات، والبينة على من ادعى»، قابلوا صاحب تلك الدعاوى بسوق «البينة» المطلوبة من صنوف «الأدلة العقلية» على وجود الباري إجابة لطلبه، أو رأيت بعضهم – على أحسن الأحوال – يقول: «بل البينة عليكم أنتم لأنكم خالفتم ما عليه عامة البشر». فلا يقول له: «لا بينة عليك ولا علينا لأنك خالفت البداهة والفطرة، فعلى أي شيء يقوم نقاشنا من الأساس؟»، لأنه لو قال ذلك للزمه أن يترك الجدال معه من الأصل والابتداء إذ لا جدال مع من يضرب في البدهيات الأولى ومقدمات العقل نفسه، وهذا ما لا يريده في الأعم الأغلب، بل يريد أن يصارعه ويتغلب عليه «فلسفيا» على الطريقة المعتمدة أكاديميا في عصره، ليظهر «علوه العقلي» بنفس تلك البضاعة الميتافزيقية التي يستكبر بها الخصم الدهري، ويظهر تمكنه منها كما تحب نفسه وتشتهي! فكأنما جعل مستنده في موقفه: استقراء ما عليه عامة البشر من اعتقاد، وحقيقة أن الملاحدة كانوا ولا يزالون هم القلة بين أهل الملل في العالم. فأي شيء هذا إلا أن يكون نوع إجابة لدعوى «الاستدلال العقلي» نفسها كطريقة منهجية، ومخاطبة الملحد – تبعا لذلك – وكأن له موقفا معرفيا يمكن – من حيث المبدأ – أن يقوم له دليل أو شبهة دليل يستساغ لأجلها؟

وقد رأيت بعضهم – ويا للعجب – يجعل الفطرة دليلا من جملة الأدلة النظرية المكتسبة، وكأننا نحتاج إلى أن نعمل النظر العقلي حتى نجد المعرفة بوجود بارينا مركوزة في فطرتنا، فنشهد بأنها من جملة أدلتنا عليه! ولهؤلاء نقول: يا عباد الله، من جعل الفطرة دليلا لاكتساب العلم بوجود خالقه وباريه (أي على هذا المفهوم الفاسد للدليل)، فليقبل إذن من خصمه أن يزعم أن غيرها من «الأدلة» (بنفس مفهوم الدليل عنده) يرقى لمعارضتها! نحن نقول الفطرة هي العلم نفسه والمعرفة نفسها، وليست «دليلها»! وإنما سماها بعض أئمتنا رحمهم الله دليلا جريا على الاستعمال اللغوي للفظة «دليل»، أي أنها هي التي تسوق النفس السوية سوقا إلى إثبات وجود الباري، لا على المصطلح الفلسفي الجدلي للدليل، كما بينا ذلك في غير موضع!

الملل، أم أنه يأتي في منزلة أرفع من هذا، لما يجد في نفس الإنسان المتدين من سند «التجربة الفردية» Religious Experience كما ذهب إليه بعض اللاهوتيين، أم أنه يحتاج إلىٰ تفصيل آخر لمعرفة محله من نظرية فلان ونظرية فلان والانتصار لقول فلان علىٰ فلان في ذلك. كل هذا العبث لا يعنينا الخوض فيه ولا نرىٰ مشروعيته أصلا. فالبناء المعرفي عندنا معاشر المسلمين يبدأ باعتبار وجود الباري جل وعلا وكمال صفاته من البدهيات الكلية الأولىٰ التي لا يصح أن تفتقر إلىٰ استدلال بحال من الأحوال. هذه حقيقة لا نقبل فيها الجدال، ولا نرىٰ أننا مضطرون للانتصار لها علىٰ طريقة الفلاسفة!

أتدري لماذا لا يقال لمثل هذا الكذاب الأشر (الذي يطلب الدليل النظري الجدلي على أنه مخلوق) إنه يكذب على نفسه وهو يعلم، وأننا ولله الحمد قوم عقلاء أصحاء لا نفتح الباب للجدال في مقدمات العقل الأولى، مهما كثرت زبالة الفلاسفة وتراكمت عبر القرون؟ لأنه حينئذ سيذهب (كفيلسوف) ليقول بأن هذه الطائفة من المسلمين طائفة متشددة متغطرسة ترفض «الحوار» ولا تستند في عقائدها إلا على «الدوغمائية» والتعصب الأعمى، و-احتكار الحقيقة- .. إلخ، ولا تريد أن تقدم الدليل على صحة معتقدها! وهذا أمر تتخوف منه بعض الدعاة إلى الله وتكره أن توسم به بين الناس في زمان أصبحت العامة فيه - إلا ما رحم ربك - تسمع من كل جاهل وتتلقى عن كل تافه ولا تبالي عمن تأخذ ما تأخذ! وحينئذ يصبح الخوف على صورة الطائفة (أو في الأعم الأغلب: صورة «الجماعة الدعوية») أمام الناس تسويغا نفسيا مسولا للتنازل والخوض في تلك الزبالة الفكرية مع أصحابها من المرضى والسفهاء.

وكذلك يدخل الشيطان أحيانا من مدخل الخوف من «فراغ الساحة من ممثل للجماعة الدعوية» في ذلك الصراع، وهو ما يعني اعتلاء الفئات المخالفة لتلك الجماعة لمنابر الدعوة في هذا الباب! فإذا رأوا من طرائق اللاهوتيين النصارى في الاستدلال بـ«نظريات الطبيعيين» - مثلا - ما يدخل على أثره بعض الملحدين إلى الدين، حرصوا على تقليد تلك الطريقة و«أسلمتها» حتى يسبقوا خصومهم من أهل القبلة إلى ذلك، وإذا ما رأوا الجماهير تتأثر بصنف معين من صنوف البحث سارعوا إلى التصدر فيه! إذ لا بد أن يسارع الداعية منهم إلى جمع أقرب المواد إلى يده من هنا وهناك، ليدفع بنفسه سريعا إلى منابر الدعوة وليتصدر وليصبح لجماعته أو طائفته اليد العليا والصدارة في ذلك الآن وفورا، مهما كانت بضاعته مزجاة، ومهما كان تأسيسه المنهجي يقوم على أصول مخالفيه من المتكلمين أو على طريقتهم لا على أصول أهل السنة وطريقتهم، من حيث لا يدري، والله المستعان. ونحن نقول: فليكثر المتكلمون من كل فئة، وليكثر جدالهم مع الملاحدة وخوضهم في تلك الزبالة التي نتنزه نحن عن الخوض فيها كما كان شأن سلفهم وشأن سلفنا كذلك من قبل، فكان ماذا؟ هذه سنة الله الماضية في كونه، وقد أنبأنا رسول الله ﷺ بأنها لا تمضي إلا إلى ازدياد، من قرن إلى قرن، مع بقاء أهل الحق الخالص غرباء، وكونهم هم الأقلية التي كانت ولا تزال تضرب على ما معها من الحق سدا واقيا منيعا لا ينفذ منه الماء! أهل السنة كانوا ولا يزالون أهل الحق الرفيع الطاهر الذي يجب أن ينزه عن العبث واللعب من كل صنف ولون، وأن يقابل المرضى المنحرفون عنه بما يليق بمرضهم وفساد قلوبهم وعقولهم لا بما يزيدهم غرقا فيه، ولا يرجع أثره إلا بالإفساد على ذلك الحق نفسه! فمن رأى في ذلك تشددا وتعنتا فهو مريض على أي حال، لا يضيرنا كذبه وجهله، ولا يستدرجنا هو وشيطانه إلى ما يهوى وما يريد، والحمد لله رب العالمين!

بل إننا نرىٰ أن طريقة الفلاسفة في هذا الشأن الغيبي العظيم إنما هي إعمال للعقل علىٰ خلاف مقتضيات العقل السوي نفسه، وانتهاء بالعقل إلىٰ ما حقه أن يُبتدأ باستصحابه عند النظر كمقدمة لا أن يُنتهىٰ إليه كنتيجة! إنه محض الانحطاط العقلي الذي من أجله ذمّ الحكماء من أئمتنا تلك الصناعة وأهلها أشدّ الذم، فتأمل!

نقول إنه لا محيص من فرض القيود المعيارية الحاكمة لعمل العقل بالنظر والاستدلال، فلا يُجرىٰ النظر في غير مجاريه، فيفضي إلىٰ تكلف أو تنطع أو تعمق لا يفيد علما ولا معرفة، وإنما يضيع الحق ويغرق العقول في جدليات أحسن أحوالها أن تلبس الواضحات لبوس الإشكال والغموض والإجمال الممرض، والله المستعان لا رب سواه!

فأما الفلسفة فقد تأسست مباحثها بالفعل – من قديم الزمان – علىٰ تلك الأسئلة العبثية التي نمنع نحن العقلاء من طرحها للنظر والاستدلال من الأساس! لذا كانت ولا تزال وستظل – كصنعة تخصصية – طريق كل سفيه لادعاء خفاء واضطراب ما لا يعجبه ولا يوافق هواه من ضروريات العقلاء، لا سيما ما تأسست عليه دعاوىٰ الرسل والأنبياء! وأما علم اللاهوت والكلام فعلم وضع – بالأساس – لإثبات تلك البدهيات (مع غيرها من عقائد الدين) التي جادل فيها قوم مرضىٰ جاحدون مكابرون، فأبىٰ هؤلاء إلا أن يتكلفوا النظر العقلي للرد عليهم بمثل بضاعتهم (إذ رأوهم لا يطلقون اسم العقل إلا علىٰ نحو ذلك) وجريا علىٰ شروطهم، فأي قيود تلك التي يمكن أن يرتضي الفيلسوف أو المتكلم فرضها علىٰ صنعته يوما ما؟ الفلاسفة تكلفوا النظر في كذا وكذا فوجب أن يتكلف اللاهوتي والمتكلم نظرا مقابلا كذلك حتىٰ يأتي بالجواب، وإلا كان «مقلدا ضعيف العقل خافت النظر»! هذا هو شرطه وعمله (عمل المتخصص في صنعة من الصناعات النظرية العقلية)! إنه أنموذج اجتماعي عملاق Social Archetype قد قامت عليه مفاهيم كلية كثيرة في المجتمعات البشرية توارثتها الأمم من قديم الزمان، حتىٰ باتت تتخوفها نفوس المفتونين وتتهيب منها! من بينها مفهوم «العقل» ومفهوم «البرهان العقلي» ومفهوم «الدليل» ومفهوم «التقليد».

فصل: مفهوم العقل بين أتباع الرسل وأتباع الفلاسفة

فنحن نقول إن مفهوم العقل Reason عند الفلاسفة والمتكلمين (ومعهم أكثر اللاهوتيين وأضرابهم من أهل الملل) يخالف مفهوم العقل عند الرسل والأنبياء وأتباعهم، وعند عامة العقلاء من البشر عند التحقيق. فلا شك أن من شذ بعقله عن مقتضيات البداهة والفطرة، أو تلك الملكة الجبلية الطبعية التي يميز الإنسان بها الحق من الباطل، ثم راح يشترط ذلك المنهج الشاذ كطريق لتحصيل المعرفة بما لا يسع العاقل إنكاره أصلا، يتكلف سباكة البراهين النظرية لإثبات كل شيء، هذا لا يصح أن يوصف بالعقل ابتداء، وإن كان من أشد الناس نبوغا وذكاء.

لهذا يكثر في القرآن سلب اسم «العقل» عن المشركين، ورميهم بمحض السفاهة، لا لأنهم «أغبياء» أو عجزة من جهة القدرة العقلية والذهنية علىٰ الفهم والتنظير وبناء النتائج علىٰ المقدمات وحسن البيان، ولكن لأنهم أعملوا عقولهم جريا علىٰ أصول العقل الصحيحة في سفاسف أمور حياتهم، ثم تعمدوا الخُلف في أعظم قضايا المعرفة علىٰ الإطلاق، التي يترتب عليها معرفة الغاية التي من أجلها خُلق الإنسان وخُلق عقله نفسه وسخرت له أسباب الأرض علىٰ نحو ما يرىٰ! فجاؤوا في هذا الشأن بما يهدم تلك الأصول العقلية وينقضها نقضا، وظنوا أنهم إن اجتهدوا وتفننوا وأبدعوا في التنظير الاستنباطي أو الاستقرائي أو في كليهما معا، وأتوا في ذلك بزخارف «الحجج» اللفظية أشكالا وألوانا، فسيتمكنون من نصب البرهان «العقلي» لصحة موقفهم الجاحد المستكبر، مع أنهم يعلمون أن الوصول إلىٰ مثل هذا البرهان من جملة المحالات.

فإن قلنا إن المجنون أو ذاهب العقل insane هو من يخالف بدهيات العقل الأولىٰ من حيث لا يدري، فالفيلسوف الملحد هو أول من يخالف بدهيات العقل الأولىٰ ويطرحها للشك والنظر وهو يعلم، بل وهو يزعم أن هذا المسلك هو كمال العقل وغايته وذروة سنامه! وإذا كان العاقل هو من يقبل الحق الظاهر ويسلم به ويعمل بمقتضاه مهما كان مخالفا لهواه، ويكون أشد حرصا علىٰ ذلك في القضايا الكبرىٰ

منه فيما دونها، لعظم خطر الاعتقاد الباطل في القضايا الكبرىٰ، فبأي مفهوم للعقل يقال للملحد والمتفلسف إنهما من «العقلاء»؟ إن كنت ترىٰ فيمن يزعم أنه لا دليل علىٰ صحة الاعتقاد بأن الواحد نصف الاثنين أنه سفيه، فأشد سفاهة منه ولا شك من يزعم أنه لا يجد دليلا يقنعه بأنه مخلوق مركب مصنوع! ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ [**الطور**: ٣٥].

ولا شك أن من محض السفسطة أن يجادل الفيلسوف في دعوىٰ إطلاق صفة البداهة علىٰ حقيقة من الحقائق الفطرية بقوله: أثبتوا لي أنها بدهية ضرورية كما تزعمون! هذا يتعين علىٰ العقلاء أن يعاملوه معاملة الكذبة المماحكين لا أن يجيبوه إلىٰ اشتراطه نصب البرهان النظري علىٰ دعوىٰ البداهة نفسها! فإن البدهي بتعريفه إنما هو كل معنىٰ يجده الإنسان في نفسه واضحا جليا من غير ما نظر ولا استدلال، فيعرف صحته ابتداء بلا اكتساب! فمن زعم أنه لا يجده في نفسه من أول وهلة، فلا يدل ذلك علىٰ بطلان دعوىٰ البداهة للمعنىٰ البدهي نفسه (الذي استحق وصف البداهة تحقيقا) وإنما يدل علىٰ أن نفس هذا المعارض تكذب عليه وتزين له ردّ تلك الحقيقة الفطرية لما يترتب علىٰ إثباتها من لوازم ومقتضيات هو يكرهها ولا يتصور نفسه وقد التزمها في اعتقاده وعمله!

وما كان هذا شأنه من المعاني (أن صحته معلومة في النفس بلا استدلال ولا نظر) فإنه لا يختلط بالمعاني البعيدة أو المفتقرة إلىٰ نظر واستدلال حتىٰ تعرف صحتها، إلا علىٰ قلب قد ابتلي بأهواء الفلاسفة من حرصهم علىٰ تتبع بضاعة أقرانهم في التشكيك في كل شيء وطلب البرهان علىٰ كل شيء، وحرصهم علىٰ إظهار التفوق والقوة فيما يتكلفونه من ذلك، فاستهوته زخارف البراهين العقلية المزعومة في بحث بعض البدهيات حتىٰ عدها من النظريات تقليدا لمن نازعوا فيها أو تنطعوا عليها، وهو يحسب مع ذلك - تبعا لتزيين النفس والشيطان - أنه أعمق نظرا وأقوىٰ عقلا من أن يتابع العامة إذ يقلد بعضهم بعضا في التسليم بصحة هذه الدعوىٰ أو تلك، مع أنه لو جرد نفسه من الهوىٰ وشهوة التفوق في النظريات والعقليات لظهر له أن ما زعمه تقليدا

ليس كذلك في الحقيقة، إذ التقليد إنما يُطلق علىٰ اعتناق الدعاوىٰ النظرية (المفتقرة إلىٰ بحث واستدلال يقربها إلىٰ الأذهان ويكسبها الثقة في صحتها) بلا مستند إلا قول فلان أو فلان، أو اتفاق هذه الطائفة أو تلك علىٰ مذهب ما! أما المعاني البدهية الفطرية فلا تعرف بالاكتساب أصلا حتىٰ يقال إن المتعلق بها بلا بحث أو نظر (كما هو اللائق بها عند العقلاء أسوياء النفوس السالمين من أمراض الفلاسفة وأهوائهم) قد تعلق بها «تقليدا»!

فوالله ما قلد من قال إن الواحد نصف الاثنين بلا نظر، ولا قلّد من قال بلا نظر إنه مخلوق مربوب وقرر أن ربه وباريه كامل في صفاته منزه عن نقائص المخلوقين بالضرورة، وأنه ما كان ليرضىٰ من عباده أن يتنقصوه بإشراك بعض خلقه معه في العبادة والتأليه طرفة عين! هذه الدعاوىٰ لا يقال لمن اعتنقها من غير استدلال ولا نظر إنه «مقلد»، لأنها مما يجده الإنسان في نفسه بمجرد أن يعقل، من غير أن يحتاج إلىٰ صياغتها في عبارات لغوية يحدث بها نفسه أو غيره من الناس، فضلا عن أن يبحث عن برهان يسوغ له يقينه في صحتها!

وإنما تتبدل النفوس وتمرض ويُدفن فيها هذا الإثبات الفطري البدهي في جوف العقل الباطن إذا ما أورثها الآباء الشرك في تربيتها الأولىٰ، فإذا ما جاءها من يقرر كونها معان بدهية لا تحتاج إلىٰ إثبات، وأن بطلان ما يخالفها ظاهر بيِّن لا يفتقر العاقل إلىٰ مقدمات كلية بدهية حتىٰ يستند إليها في بيانه وتوضيحه (علىٰ طريقة الفلاسفة في ضرب المقدمات التي يزعمون بدهيتها في نفسها ليجعلوها طريقا لإثبات الدعوىٰ النظرية المراد إثباتها)، تأبَّت تلك النفس المريضة علىٰ صاحبها وتمنعت وكرهت الإذعان للحق من شدة محبتها لما تجد من أثر الباطل الذي هي عليها، وبغضها لما تحاذر من أثر مفارقته.

فالذي يحصل عندما يطلب صاحب الفطرة الملوثة من هواة التفلسف والسفسطة برهانا نظريا لإثبات مسألة فطرية بدهية (نوعا) كوجود الباري جل وعلا، أن نفسه تكذب عليه (بأنواع المغالطات ونحوها) فتوهمه بأن الأمر نظري اجتهادي وأنه يحتاج

إلىٰ دليل مستقل ليقنعها ويرضيها بصحة تلك الدعوىٰ، مع أنه لو عالج أهواء نفسه وشهواتها وتجرد منها عند التأمل في الأمر لأدرك أن وحدانية ربه وباريه ومن ثم وجوب إفراده بالعبادة والتأليه بلا شريك ولا ندّ ولا نظير ولا مكافئ، بداهة محضة لا تحتاج إلىٰ دليل يثبتها في النفس ويقنع العاقل بصحتها! فمن أعيب ما بدعه المتكلمون واللاهوتيون في تاريخ الملل والأديان والأمم كافة من أثر افتتانهم بالفلسفة وطرائق أصحابها، أن اختاروا الخضوع لمفهوم الفيلسوف للعقل والبرهان العقلي وسلموا له به، طمعا في نوال الحظوة والمنزلة الرفيعة عندهم وعند من عظموهم بمثل ذلك، مع أنه مفهوم هادم للعقل نفسه إذ قد استقر فيه بين أصحابه مبدأ الاستدلال ببعض البدهيات لإثبات بعضها الآخر، واعتقاد أنها (أي تلك الحقائق الفطرية البدهية المستدل لها) لا تعرف علىٰ وجه اليقين والتسليم إلا بعد الاستدلال والنظر، وإلا كان الإنسان مقلدا سفيها لا عقل له! هذه هي آفة مفهوم العقل عند الفلاسفة (وعند المتكلمين تبعا) التي بسطنا الكلام عليها في هذا المجلد بعون الله تعالىٰ.

قال الدكتور سليمان دنيا [(١)] في مقدمته لتحقيق كتاب «تهافت الفلاسفة» للغزالي:

> قد يكون حقا أن تصيير الشيء إلىٰ لا شيء، مثل إيجاد الشيء من لا شيء، وأن العجز عن أحدهما، دليل علىٰ العجز عن الآخر، ولكن هل إدراك المساواة بينهما، علىٰ فرض أنهما متساويان، بديهي؟ لو كان بديهيا، لما قال بعض فلاسفة المسلمين إن النفس الإنسانية لا تفنىٰ، برغم أنها عندهم حادثة. فصاحب هذا القول قد فرق بين الإيجاد والإعدام، ولم يسو بينهما. وهذا يجعلني لا أطمئن كل الاطمئنان إلىٰ القول باستحالة إيجاد الشيء من لا شيء، قياسا علىٰ عدم صيرورة الشيء إلىٰ لا شيء. وهذا يعني أن الأمر ليس بديهيا، وإنما هو بحاجة إلىٰ أدلة مقنعة.

قلت: هذا الكلام مشعر بأن مستند الفلاسفة والمتكلمين في التفريق بين البدهي والنظري إنما هو النظر فيما إذا كان قد وجد من نظر في المسألة واستدل لنفيها أو إثباتها

(١) والدكتور سليمان دنيا رحمه الله (توفي سنة ١٤٠٧ هـ) كان أستاذا بجامعة الأزهر وكان أشعريا مكثرا من تحقيق كتب الفلسفة، ثم منّ الله عليه بالاختلاط بعلماء أهل السنة في المملكة والتأثر بهم حيث عمل أستاذا في جامعة أم القرى، وقيل إنه تاب من الفلسفة والكلام وأخذ يحذر منهما في آخر أيامه.

من قبل أم لم يوجد! فإن وجد، علم أن المسألة نظرية وإلا ما قال الفلاسفة كذا وكذا، وإلا فهي بدهية يجوز أن تطمئن النفس لها! وقد وقفت علىٰ كلام للرازي في «أساس التقديس» يوشك أن يصرح فيه بهذا المعنىٰ، إذ قال:

> فنقول: الذي يدل علىٰ أن هذه المقدمات (يعني زعم خصومه امتناع موجود في الواقع لا مكان له!) ليست بديهية، وجوه:
>
> الأول: إن جمهور العقلاء المعتبرين اتفقوا علىٰ أنه تعالىٰ ليس بمتحيز ولا مختص بشيء من الجهات، وأنه تعالىٰ غير حال في العالم، ولا مباين عنه في شيء من الجهات. ولو كان فساد هذه المقدمات معلوما بالبديهة، لكان إطباق أكثر العقلاء علىٰ إنكارها ممتنعا، لأن الجمع العظيم من العقلاء لا يجوز إطباقهم علىٰ إنكار الضروريات. بل نقول: الفلاسفة اتفقوا علىٰ إثبات موجودات ليست بمتحيزة ولا حالة في المتحيز. مثل العقول والنفوس والهيولي. بل زعموا أن الشيء الذي يشير إليه كل إنسان بقوله أنا: موجود وليس بجسم ولا جسماني. ولم يقل أحد بأنهم في هذه الدعوىٰ منكرون للبديهيات، بل جمع عظيم من المسلمين اختاروا مذهبهم مثل معمر بن عباد السلمي من المعتزلة، ومثل محمد بن النعمان من الرافضة، ومثل أبي القاسم الراغب، وأبي حامد الغزالي من أصحابنا. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن يقال بأن القول بأن الله تعالىٰ ليس بمتحيز، ولا حال في المتحيز: قول مدفوع في بدائه العقول؟

قلت: فعندما يصبح مدار معرفة البدهيات والضروريات وتمييزها من النظريات، علىٰ النظر فيمن قال بها ومن خالف فيها، فهذا نسف للبداهة نفسها من أصل معناها ولا شك! فمعلوم أنه ما من دعوىٰ من الدعاوىٰ المعرفية إلا وفي الأرض من يخالف فيها لا محالة، حتىٰ إن من الناس من نفىٰ وجود الواقع نفسه كما هو معلوم، وزعم أن العالم وما فيه إنما هو وهم من صنع خياله! فما ضابط معرفة البدهي والضروري عند المتكلمين علىٰ التحقيق؟ إنه الهوىٰ المحض، تبعا لطريقة الفلاسفة في ذلك. فكل ما بدا للفيلسوف أو المتكلم أن اعتماده كحقيقة بدهية مسلمة يخدمه في بناء برهانه النظري الذي قصد إليه في إثبات ما يريد أو نفيه، فهو بدهي ضروري، ومن خالف فيه كان مسفسطا في العقليات! وكل ما بدا من دعاوىٰ البداهة والضرورة أنه يشوش علىٰ

مراده أو يسقط استدلاله أو يحط علىٰ شيء من مقدماته، فليس هو من الضروريات ولا من البدهيات ولا بد، والدليل أنك لو نظرت لوجدت فلانا وفلانا من الفلاسفة والنظار قد خالفوا فيه، فكيف يكون من البدهيات والضروريات وقد خالف فيه هؤلاء؟ بل لا بد أن المخالف يتوهمه من البداهة لعلة نفسية يعاني منها بعض الناس!

فما «العقل» عند القوم إذن إلا مجموع ما يهوىٰ الفيلسوف أو المتكلم (بهواه المحض) أن يعده من البدهيات والضروريات، لأن به – لا بخلافه – تثبت مقدمات نظرياته وقواعده ودعاواه التي يريد الانتصار لها! أما ما يستند إليه الخصم من دعاوىٰ الضرورة والبداهة، فلن يعدم طريقا من طرق الفلاسفة للتشويش عليه وإحالته إلىٰ نوع الدعاوىٰ المعرفية المكتسبة المفتقرة إلىٰ برهان عقلي مقنع! فمن أراد تقرير البدهيات والضروريات فلا يسلك طريقا من طرق الفلاسفة أصلا، لأنها بمجرد أن يتعرض لها الفيلسوف بالسؤال والاستدلال فإنه يحيلها من الضروريات إلىٰ النظريات بذلك، فيفتح باب الجدال عليها تبعا للهوىٰ المحض، وقد كان الناس في عافية من ذلك! وإنما ينظر في نفسه هو بعدما يبذل الوسع في معالجتها من أهوائها، فما كان من البداهة حقا فسيعينه الله – إن علم فيه خيرا – علىٰ أن يراه كذلك بنفسه لا بدليل متكسب ولا ببرهان مصطنع! بل سيجد نفسه في عجب من أمر نفسه، كيف كان ذلك المعنىٰ الواضح يخفىٰ عليه وكيف كان يشكك فيه من قبل ويتمارىٰ ويجادل ويطيل الجدال؟! فليس من فراغ أن كان الفلاسفة ولا يزالون يفاخرون بأنهم لا يحد أسئلتهم حدّ ولا يمنعهم من التشكيك في أي دعوىٰ من الدعاوىٰ أي مانع، مهما كانت تلك الدعوىٰ من المعاني الفطرية الواضحة الجلية في نفوس العقلاء الأسوياء! لأن تقرير الضروري والنظري والتفريق بينهما مداره عندهم علىٰ الهوىٰ المحض! بل قد تجد الفيلسوف أو المتكلم يجتهد لإثبات المعنىٰ المطلوب إثباته وهو يعتقد في نفس الوقت أنه بدهي ضروري لا يحتاج إلىٰ إثبات! فإن كان حقا لا يحتاج إلىٰ إثبات في اعتقادك فلماذا تكلفت إثباته إذن؟ هذا هو شرط الفلاسفة الذي خضع له اللاهوتيون والمتكلمون من جميع النحل من حيث لا يشعرون!

ومع هذا، تأمل قول الدكتور سليمان دنيا رحمه الله وعفا عنه في نفس المقدمة:

> يا لله ... !! ما أعظم ما أعطيتنا من عقل، وما أجلّ ما وهبتنا من فكر، إنهما شعلتان من نورك، ومدد من قدرتك، لا يضل من يهتدي بهما، ولا يغلب من يلوذ بحصنهما. فها هو ذا الغزالي ينتصر علىٰ جالينوس، لسبب واحد، هو أن الغزالي تذرع بالعقل، والنظر السديد، وأن جالينوس استمسك بالمألوف وركن إليه وجمد عليه».

قلت: فلا نملك إلا أن نقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! من اهتدىٰ بالعقل لم يضل، ومن لاذ بحصن الفكر لم يغلب؟ فمن أي شيء جاء ضلال الفلاسفة والدهرية وكل كافر زنديق زعم أن لديه في كفره «مستند عقلي» و«أساس فكري»؟ بأي شيء اهتدىٰ هؤلاء وبأي شيء لاذوا؟ وفيم أرسل الله الأنبياء والمرسلين أصلا، إن كان العقل لا يضل من اهتدىٰ به ولا يغلب من يلوذ بحصنه؟ وما الذي انتهىٰ إليه عقل الغزالي في انتصاره علىٰ خصمه وما الذي أخرجه لنا نظره «السديد» في كتابه ذاك، وما حكمنا عليه في ميزان الكتاب والسنة؟ نعوذ بالله من فتنة الفلاسفة بعقولهم ومن غرور المتكلمين!

والقصد أن من العقل ومن عمل العقل (علىٰ مفهومه الصحيح لا علىٰ شرط الفلاسفة والمتكلمين) الابتداء بمعالجة ما في النفس من أهواء وميول قلبية قد تعمي البصر والبصيرة، فتحيل المغالطة الواضحة إلىٰ دعوىٰ بدهية ضرورية في عين الطامع في ذلك، والعكس بالعكس! هذه المعالجة جاء بها خطاب المرسلين لعموم المكلفين بعيدا عن كلام الفلاسفة والمتكلمين وجدالهم الذي لا أول له ولا آخر! فهي معالجة من اعتنىٰ بها بحقها فسيكشف الله له سفاهة الفلاسفة والمتكلمين وتهافت ملاعبهم ومهارشهم التي تصارعوا فيها بدعوىٰ «العقل» و«برهان العقل»، والله الهادي لا رب سواه.

وأرجو ألا يفهم القارئ الكريم من هذا الكلام أني أدعي أنه ليس فيما يزعم الفلاسفة أو المتكلمون من مقدماتهم شيء يصح أن يقال إنه بدهي أو ضروري، هذه دعوىٰ لو قلنا بها لأسقطنا باب النظر العقلي كله وأحلناه إلىٰ العبث والتسلسل! وإنما القصد أن الفلاسفة والمتكلمين - بحكم صناعتهم واختصاصهم وشروطهم في

المناظرة والجدال فيما بينهم – قد أصبح مفهوم البداهة والضرورة العقلية نفسه عندهم تابعا لأهوائهم وميول قلوبهم من حيث لا يشعرون. فما اتفقوا علىٰ أنه بدهي (إذ ليس لأحدهم غاية في السفسطة عليه بين يدي مجادله) فهو بدهي ولا إشكال، وما اختلفوا في حكمه المعرفي فجعله فريق منهم بدهيا ضروريا وجعله الآخرون نظريا ظنيا، لم يجد القائلون ببداهته بدا من تكلف إثبات صحته (بل إثبات بداهته في بعض الأحيان!) بالبرهان النظري إرضاء لشرط من خالفوهم فيه، فأسقطوا عنه البداهة والضرورة بمجرد أن فتحوا باب المناظرة عليه، وهم يحسبون أنهم ينتصرون له ولضروريته! فالضرورة البدهية – كما قلنا من قبل ونكرر – إنما تعرف في النفس ابتداءً بلا نظر ولا استدلال (بل لا يجري النظر إلا علىٰ التسليم بها في باطن النفس)، فمن خالف فيها وجب قطعه والتشنيع عليه واتهام نفسه وعقله بالمرض والخلل، لا أن يجاب إلىٰ طلبه إثباتها بالدليل حتىٰ يقبلها! [1]

فعندما يأتي الفيلسوف الملحد إلىٰ المتكلم طالبا نصب البرهان علىٰ وجود الباري، فيجيبه المتكلم ببرهان من مقدماته أن كل حادث لا بد له من محدث، فيجادله الفيلسوف في بداهة وضرورية تلك المقدمة نفسها، فيقطع المتكلم حينئذ المناظرة بدعوىٰ أن الخصم قد انقلب إلىٰ السفسطة والجدال في البدهيات وجحد الضروريات، فهل هذه المقدمة أكثر بداهة عند المتكلم وأوضح للعقل وأقرب إليه من

(١) ولعله مما يحسن في هذا الموضع أن نفصل ونقول إن الضرورة ضرورتان، كما قلنا إن اليقين يقينان. فمن الضروريات ما هو بدهي يظهر لكل عاقل بمجرد أن يصح عليه اسم العقل، فلا يخالف فيه إلا جاحد مكابر، ولا يدعي خفاءه إلا كذاب، وهذا ما جرى استعمالنا لفظة «البدهي» و«الفطري» ونحوهما في هذا الكتاب عليه ما لم ننبه على خلافه. ومن الضروريات نوع آخر تعد ضرورته أمرا مكتسبا في النفس بعد عدمه، كما هو الشأن في أكثر ما يعلمه المسلمون من دينهم بالضرورة، كشرب الخمر وحرمة الزنا ووجوب الصلوات الخمس ونحو ذلك. وكذلك ما يكون ضرورة عند أصحاب التخصص الدقيق في صناعات المعارف، مما يتصور خفاؤه على غير المختصين. فإن هذه الضروريات ليست مما يمتنع ورود الخفاء عليه عند بعض العقلاء. وهذا النوع الأخير (الضروريات النسبية) هو ما يطلقه المتكلمون يجعلونه هو كل ما يقال له ضرورة، لأنهم ينفون المعرفة الفطرية ولا يثبتون في النفس البشرية شيئا يعرف بداهة دونما اكتساب، فلينتبه لهذا.

حقيقة أننا مخلوقون مربوبون، التي جاء الملحد طالبا إثباتها بالبرهان النظري ابتداءً؟ أبدا، بل العكس هو الصحيح عند كل عاقل سوي النفس! فلماذا صار الملحد سفساطا يجب الامتناع من مجادلته عندما تمارىٰ في وجوب إثبات المحدِث لكل حادث، ولم يعد سفساطا جاحدا للبداهة والفطرة عندما جادل في مخلوقيته نفسها من الأساس؟ الجواب أن المتكلم لديه هوىٰ في إجابة الملحد لشرطه وطلبه نصب البرهان النظري! المتكلم يريد أن يظهر أنه قادر علىٰ خوض ذاك الصنف من معامع الجدال مع الفلاسفة وعلىٰ التغلب عليهم فيه بنفس تلك البضاعة التي جذبت إليهم أنظار العامة وجعلتهم من المقدمين الوجهاء في مجتمعهم! فلزم أن يظهر للخصم موافقته علىٰ مبدأ المناظرة تصنعا، بل وقد يصرح قبل الابتداء باستعداده لقبول التحول عن ملة الإسلام إلىٰ الإلحاد لو تبين الحق عند الملحد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فما دام مبدأ الترجيح النظري قد انفتح في أصل أصول الدين والعقل جميعا، فلا بد للمتكلم من التسليم بورود البطلان علىٰ «أدلة» الموحدين في القول بوجود باريهم، وإلا فلا معنىٰ للمناظرة أصلا!

ولك أيها القارئ الكريم عبرة في المقدمة الأخرىٰ لنفس البرهان التي جاء فيها أن العالم حادث، كيف جرىٰ العبث بين المتخاصمين عليها أشكالا وألوانا، حتىٰ لم يجد المتكلمون بدا من استعمال ميتافزيقا أرسطو التي كانوا يرون أن الخصم يسلم بها، كما صاروا يستعملون اليوم ميتافزيقا أينشتاين وليميتر وهايزنبرغ وغيرهم لنفس السبب! فصار الأمر في النهاية لا يعدو أن يكون لعبة شيطانية يتلذذ بها خصمان في محاولة هزلية للوصول إلىٰ نقطة اتفاق علىٰ ما هو بدهي ضروري أو علىٰ الأقل قطعي يقيني (من أنواع المعارف القياسية والاستقرائية) حتىٰ يصلح أن يكون أساسا يبني عليه المتكلم برهانه الذي يريد أن يثبت به للملحد ما يعتقد هو من البداية أنه حقيقة بدهية ضرورية، ويعلم – من البداية كذلك – أن خصمه يجحده!

فإذا كنت تعلم أن خصمك يكابر في البدهيات بمقتضىٰ موضوع الجدال نفسه ونوع الدعوىٰ التي جاء يماريك فيها، فبأي عقل ترجو منه أن يسلم لك ببداهة أي

مقدمة تود أن تجعلها طريقا لإثبات ما تريد؟ مجرد طلب المناظرة علىٰ وجود الباري جل وعلا، مكابرة ومرض عقلي وقلبي عضال، لا يرجىٰ لصاحبه أن يهتدي، بعيدا عن عبث الفلاسفة الذي اشترطه هو علىٰ خصومه! فما أبعد المتكلم الذي يقبل من هذا الكذاب شرطه ويناظره كما يرجو، عن حقيقة «العقل» الذي يزعم أنه يتكلم باسمه، والله المستعان!

وكما أن مفهوم العقل في الإسلام يخرج منه ما أدخله المتكلمون (أعني التنظير الميتافزيقي ونصب البراهين العقلية لإثبات البدهيات الأولىٰ كحدوث العالم ووجود صانعه!) فهو كذلك يدخل فيه ما يخرجه اللاهوتيون والمتكلمون تبعا لفلاسفة اليونان (أعني ميل النفس وهواها وما يخاطب به ذلك الميل في الإنسان من وعظ وترغيب وترهيب)! فقد ذمّ القرآن المشركين في مواضع شتىٰ لاتباعهم أهواءهم الباطلة ونزع عنهم اسم العقل بذلك، مع أن منهم – ولا شك – من كانوا من صفوة قومهم في الفنون الذهنية والنظرية الدقيقة علىٰ اختلافها، وفي فنون البلاغة والفصاحة والأدب ونحوها! فليس يكمل عقل الإنسان عندنا حتىٰ تكون أهواؤه وميول قلبه وعواطفه جارية كلها علىٰ مقتضىٰ الفطرة والحق المنزل، وإن كان من أشد الناس ذكاء ونبوغا! وبقليل من التأمل يتبين لك أن هذا هو الفارق بين عقل الطفل الصغير وعقل الرجل البالغ الحازم! فالطفل الصغير ليس غبيا ولا بليدا ولا فاقدا لأدوات التحليل والنظر Tools of Reasoning التي يتحلىٰ بها الكبار، وإنما هو فاقد للعلم الذي به يضع عاطفته وشهوته وهواه في موضعها الصحيح! تراه تنقدح في نفسه شهوة البكاء والصياح، أو شهوة اللهو واللعب في محل لا يصح فيه ذلك، فلا يجد في نفسه مانعا يمنعه، خلافا للبالغ الحليم!

ولذا فقد صح عن النبي ﷺ كما في صحيح مسلم قوله: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكن»، وقد تأول العلماء نقص العقل الذي يعممه الحديث علىٰ نوع النساء هنا بأنه غلبة العاطفة عليهن في المواضع التي يتوجب كبحها فيها، وسرعة ميلهن إليها عن مقتضىٰ الدليل والحجة الظاهرة، وأن غلبتهن لذي اللبّ من الرجال المذمومة في هذا السياق إنما تأتي من ضعف سلطان العلم في نفوسهن علىٰ

العاطفة والهوىٰ (لا سيما في وقت الحيض أو في وقت الحمل وما يصاحب ذلك من تقلبات نفسية معروفة) ولميل نفوس الرجال لملاينتهن وملاطفتهن إذا ما بدا منهن ضعف الأنثىٰ في أيما مناسبة، لا أنها غلبة تأتي من علوهن بالبراهين العقلية والنظرية والقرائن العلمية علىٰ أهل الألباب من الرجال! ومعلوم أن المرأة لا توضع تحت ضغط عصبي شديد عند احتدام النزاع بينها وبين من تنازعه إلا رأيتها تجهش بالبكاء، فكان هذا نقصا في العقل ابتلي به نوع النساء عامة. والقصد أنه لولا أن كان ميل النفس إلىٰ ما تمليه العاطفة معدودا من أعمال العقل (نوعا)، ولم يكن العقل مقصورا في مفهومه الصحيح علىٰ استجلاب البراهين النظرية والبحث فيها، بل يدخل فيه ضبط الإنسان لعاطفته وميل نفسه، ما عده الرسول ﷺ من جملة نقائص «العقل» (أو أعمال العقل التي يلحق النقص بالقاصرين عنها).

ولهذا أيضا كانت النساء أكثر أهل النار ولم يكمل منهن (أي كمال العقل البشري) إلا قلة كما جاء الحديث كذلك، ولهذا كثر منهن اللعن وكفران العشير، لا لأنهن لا يتمتعن بالذكاء الرياضي أو بحسن المنطق والبيان أو بقوة الفهم والإدراك أو قوة الحافظة والذاكرة، أو نحو ذلك من عناصر ومكونات أداة النظر العقلي في بني آدم، ولا لأنهن ناقصات في القدرة علىٰ المحاججة والمجادلة والإقناع وحسن العبارة، ولا لأنهن يخفىٰ علىٰ عقولهن فساد ذلك الكفران والنكران من جانبهن [1]، وإنما لأنهن قد ابتلين بلاءً شديدا بقوة وسرعة الدافع العاطفي في نفوسهن، يفوق ابتلاء الرجال بميولهم واستجاباتهم العاطفية، بما يتطلب منهن أن يبذلن المزيد من الجهد في معالجة النفس وإصلاحها وضبطها وتحقيق الإخلاص ومراجعة الدوافع والنيات .. إلخ، ويشدد من افتقارهن إلىٰ التزام ما وصاهن به الرسول ﷺ من كثرة الاستغفار والصدقات، وألا يتكلفن ما لا يناسبهن (نوعا) من مواطن السيادة والقيادة العليا التي تشتد فيها الخصومات والمشاحنات وتكثر فيها الخيارات والقرارات الخطيرة ذات

(١) والمرأة يكثر منها ذلك لأن عاطفتها تحملها على تعظيم ما تجده من مكاره تعظيما شديدا والمبالغة فيه والترسل مع شعورها به، فتراها تقول لزوجها إذ كرهت منه شيئا (كما جاء **في الصحيحين**): «ما رأيت منك خيرا قطّ»، وهو ظلم بين لا يخفى، ولكن يكثر وقوعه من النساء لسهولة تغلب العاطفة على عقولهن.

التبعات العظيمة، وتتعاظم فيها الضغوط النفسية المفاجئة والنوازل الصادمة من كل صنف ولون، كالإمامة والقضاء وقيادة الجيش ونحو ذلك.[١]

والقصد أن مفهوم العقل في الإسلام يدخل فيه - بل يأتي في أساسه - كيفية تعامل الإنسان مع عاطفته وميله وهواه وشهوته، وأن من مال عن مقتضىٰ الدليل الظاهر (في النظريات من المسائل) بتأثير هواه وشهوة نفسه العاجلة، فقد نقص عقله بمجرد ذلك، مهما ظهر منه الذكاء والنبوغ في تسويغ ذلك الميل (فلسفيا) والانتصار له! فكيف بمن مال عن مقتضىٰ الفطرة والبداهة الأولىٰ بدواعي الهوىٰ الدنيوي العاجل؟ لا شك أن مثل هذا قد بلغ من العقل أحطّ المنازل، بل صار أدنىٰ بعقله من الأنعام، لأن الأنعام ما بلغت بها عقولها أن كذبت بوجود باريها الذي صنعها وسواها ورزقها، ولا استجازت أن تتخذ له الأنداد والشركاء من خلقه طرفة عين! بل لعلنا لا نبعد النجعة إن عرفنا العقل في الإسلام علىٰ أنه تلك الملكة النفسية التي يُقتدر بها علىٰ ضبط الهوىٰ والعاطفة والميل القلبي (ومن ثم ضبط السلوك والعمل الظاهر والباطن) علىٰ ما تبين من الحق!

ولهذا كان خطاب الناس بالوعد والوعيد وبالترغيب والترهيب، ووعظهم كلما دعت الحاجة إلىٰ ذلك، خطابا عقليا حجاجيا محضا، يبصر الناس بموانع قبول الحق البدهي الواضح في نفوسهم، ويأتيهم بأسباب إزالتها بإذن الله تعالىٰ! فالذي خفّ عقله حتىٰ بلغت به عاطفته وهواه أن أصرّ علىٰ البقاء علىٰ الباطل الواضح والانتصار له، هذا

---

(١) ومن الخُلف الواضح ومن أعاجيب الاستدلال الشرعي حقيقة، أن يأتي بعض المتشرعين ومن دونهم من الوعاظ والقصاصين عند تأول هذا الحديث، بالزعم بأن «نقص العقل» المقصود به هنا هو كون شهادة المرأة تعدل نصف شهادة الرجل! فهذا والله كالذي يجعل العربة قبل الحصان، فيقلب المعلول علة والعلة معلولا، أو يجعلهما شيئا واحدا على أحسن الأحوال! ذلك أنه لا يصح أن يقال إن تفسير نقص العقل (كونا) المنصوص عليه هنا هو كون شهادتها نصف شهادة الرجل (شرعا)، وإنما العكس هو الصحيح، أن شهادتها جُعلت في التشريع نصف شهادة الرجل لثبوت النقص في عقلها كونا وخلقة! ولكن لأن من الدعاة من تضعف نفوسهم أشد الضعف والوهن من هجوم الممارين المخاصمين على تلك المسألة ونحوها، ويحسبون أن الدعوة لن تستقيم حتى نعرض الإسلام على نحو ما تحبه تلك النفوس المريضة الكارهة للحق الجلي الواضح، أصبح الأمر في دعوتهم وخطابهم الديني كما ترى، بل بلغ بعضهم أن جعل الإسلام ما نزل في شيء أهم ولا أعظم من تكريم «المرأة» (هكذا، نوعا!) وتوسعة ما لها من حقوق وتعظيمها وتوقيرها ... الخ، حتى إنك لترجو منهم أن ينصفوا الرجل يوما من الدهر فيما يكتبون ويجعلوا له شيئا مما جعلوه لها من الحقوق، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يحتاج إلىٰ أن يخاطَب عقله (الذي يشمل عندنا كما تقدم ما يسمىٰ علىٰ اصطلاح أهل الصناعات الغربية بـ«النفس» Psyche) بما يرجىٰ معه أن يرجع الأمر عنده إلىٰ نصابه، وليس في خطابه بجنس البراهين النظرية خير يرجىٰ، إن كان في خطابه خير أصلا!

ومعلوم وكما سيأتي التمثيل عليه كثيرا في هذا الكتاب، أنه ما من شيء أسهل علىٰ من اجتمعت في نفسه قوة العقل وغلبة الهوىٰ من أن يفتري الأكذوبة الكلية ويزينها بالزخرف اللفظي والتنظيري لنفسه وللناس، فيصدقها هو أولا ويصدقه الناس عليها ثانيا. ثم تراه مع أقرانه ونظرائه يجعلونها هي مناط الوصف بالعقل نفسه، وتراهم يؤلفون المجلدات الطويلة في الانتصار لتلك الأكذوبة والتفريع عليها والتأصيل بمقتضاها، بل يفتحون لها المعاهد والأكاديميات والجامعات، حتىٰ يصبح من يخالف عنها هو المعدود من جملة الجهلاء والسفهاء والحمقىٰ، والله المستعان لا رب سواه!

ونقول: لسنا مطالبين بالرد علىٰ ما اعترض به عليهم خصومهم، ولا علىٰ ما قد يعترض به علينا أصحاب الفلسفة واللاهوت والكلام من كل ملة. نحن قوم أصحاب منهج واضح في بناء المعرفة وفي إعمال العقل، لا عوج فيه ولا تفلسف ولا تنطع ولا التباس، تقدَّر فيه المسائل بقدرها الصحيح، فلا يختلط علينا الضروري بالنظري، ولا البدهي بالقطعي ولا القطعي بالظني، نطرد ذلك التفريق في كل شيء بداية من منهجية وآداب السؤال نفسه (طرح المسائل للنظر)! فلسنا نفتقر إلىٰ بيان محل دعوتنا من دعاوىٰ الموافقين والمخالفين من هؤلاء، إذ لا متسع عندنا – أصلا – لمن يزعم أن عقله يأبىٰ عليه أن يؤمن بوجود باريه من غير ما «دليل نظري» أو «برهان عقلي»، أيا ما كان نوع ذلك البرهان (استنباطي أو استقرائي أو احتمالي أو غير ذلك). فمن كان من شرطه ألا يقبل منا موقفنا من الغيبيات المحضة ومن البدهيات المحضة، حتىٰ يسمع جوابنا عما تفلسفت به الفلاسفة من سفسطة في مقابله، فلا نعبأ به ولا نلتفت إليه، وإنما نعامله معاملة الكذابين الجاحدين. هكذا كان أئمة السلف ﷺ، وهكذا ينبغي أن نكون! من فهم عنهم طريقتهم حق الفهم، فلن يخالفنا في ذلك!

فإن سألتني: لماذا لا نجد بين كثير من المسلمين في زماننا هذا ممن درسوا تلك الفلسفات، هذا الموقف الحاسم القاطع بإزاء صنعة الفلسفة نفسها وأصحابها، وما

تفرع عليها من صناعات اللاهوت والكلام، أجبتك بأنه الضعف وهوان النفس وغلبة الجهل في الأعم الأغلب، الذي يورث أصحابه الشعور بالدونية العقلية والنقص الفكري بإزاء قوم قد ملؤوا الأرض جدالا وضجيجا وصخبا وتنظيرا وزخرفة للأقوال والمذاهب والنحل، مهما كانت ساقطة منحطة لا يرفع العاقل بها رأسا، فدخل منها علىٰ النفوس الضعيفة ما دخل، والله المستعان لا رب سواه.

من طالبك بالدليل العقلي علىٰ صحة إيمانك بباريك جل وعلا، فقل له: «ليس عندي ما أظهِر به وجه الشمس لمن يأبىٰ أن يفتح عينيه، ويصر علىٰ دفن رأسه في التراب! فهو المعيب المذموم ولست أنا من قصر عن النهوض بما يجب!» فإن كنا نختلف مع من يطالبنا بمثل هذا «الاستدلال العقلي» في معنىٰ العقل نفسه، وحدّ العقل السوي من الفاسد، ومن ثمّ معنىٰ الدليل والبرهان وموارد الاستدلال ومطالب النظر، ففي أي شيء نجادله أصلا؟ نحن نقول كما قال سلفنا وأئمتنا من قبل: «إن بيان الواضحات من أشكل المشكلات». بل إنه والله من أفسد وأضرّ ما يصنعه العاقل بعقله وقلبه وبعقول الناس وقلوبهم! والمطالبة بالتدليل «المنطقي» أو «النظري» أو «العقلي» (علىٰ اصطلاحات الفلاسفة) علىٰ صحة أمر من بدهيات العقل الأولىٰ، فيها من التعجيز ما لا وجه له ولا داعي له عند عاقل، لا لعجز العقل عن التفنن في طرائق لفظية متكلفة للوصول إلىٰ ذلك، بتكلف الجمع بين المتلازمات من الكليات والجزئيات، فهذه صنعة لها أصحابها كما ترىٰ، ولكن لأن العقل لا يفتقر إليها أصلا، بل إنها تضره وتضله وتذهب به ذهابا كما سيأتي بيانه في هذا الكتاب.

فإن مجرد البحث عن «مقدمات نظرية» تكون أسبق إلىٰ الذهن وأقوىٰ ظهورا في العقل من تلك القضايا المطلوب «إثباتها» فيما تنازع عليه الفلاسفة من جانب واللاهوتيون والمتكلمون من الجانب الآخر، وتكون موصلة إليها من طريق أوضح منها هي نفسها، هو عندنا من قبيل جعل العربة أمام الحصان لتجره! والذي يصنع هذا الصنيع مثله عند العقلاء كمثل من يخرج من بيته وهو عازم علىٰ أن يبحث عن الطريق الموصلة إلىٰ ذلك البيت نفسه الذي خرج منه، مع أنه ما بدأ إلا منه أصلا، فبأي عقل

يفارق الإنسان شيئا ويوليه ظهره، بغية البحث عنه وقصده؟! [1] فإن قالت لك الفلاسفة: أنؤمن كما آمن السفهاء، فقل: ألا إنكم أنتم السفهاء ولكن لا تعلمون! بل تؤمنون كما آمن العقلاء والحكماء، فوالله ما أورثكم دورانكم حول البدهيات وتنطعكم عليها، وطول الجدال في الواضحات وترددكم فيها، إلا الخيبة والخسران، والتشكيك في المسلمات والقطعيات، ونقض مقدمات العقل الأولى، وهزيمة الحق في نفوسكم ونفوس من تبعوكم، وذلكم - لو كنتم تعقلون - هو عين الخزي والخذلان!

(١) وهذا ما نبه إلى معناه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (وكم وددت لو أطال النفس فيه فوق ما صنع) حين تكلم في غير موضع من مؤلفاته عن سبب ضلال الطوائف الكلامية (بل سائر طوائف البشر من أهل الخصومات والسفسطة)، التي اتخذت كل طائفة منها - جريا على سنن الفلاسفة - ما سبكه أئمتها من الأدلة والقواعد المجملة على أنه أصل أصول الإيمان الذي لا يصح إلا به، أو يأثم من تخلف عن درايته على أقل تقدير ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [**المؤمنون**: ٥٣]! فإنه لم يكن العقلاء في يوم من الأيام في حاجة أصلا إلى صياغة حجة كذا وبرهان كذا لإثبات وجود الله تعالى، فهو أمر فطري بدهي من مقدمات العقل نفسه، وإنما جاء المرسلون باستحضاره في نفوس الناس بالبينة الواضحة، وبالتأسيس عليه. فلما تكلف هؤلاء في ذلك من البراهين النظرية ما لم يتكلفه أحد من العقلاء قبلهم، أتوا في الدين بما ردوا من أجله كلام المرسلين وخاصموهم من حيث يحسبون أنهم ينتصرون للحق ويرفعون لواء العقل والبرهان العقلي.

وفي الواقع فقد سلك الشيخ رحمه الله في كثير من مؤلفاته طريقا تشبهه طرائق علماء الإنسانيات ومنظري علوم النفس المعاصرين (لا سيما علماء الإدراك الاستعرافي وسوسيولوجيا المعرفة) في تحليل الكيفية التي يعمل بها ذهن الإنسان ووجدانه النفسي، وما ذاك إلا ليبين للمتكلمين فساد مفهوم العقل والمنطق عند فلاسفة اليونان، الذي تأثر به القوم وركبوا ركوبته وكأنه الحق المنزل من السماء، وحتى كاد بعضهم أن ينقل أقوال الفلاسفة بالإسناد! فالتأصيل في ذلك عند شيخ الإسلام لم يكن مداره على تكلف الأجوبة الكلامية والفلسفية «لإثبات الصانع» أو للرد على من ينكرونه (على طرائق المتكلمين ومقاصدهم)، أو بعبارة أخرى: لا علاقة له بما يقال له علم الفلسفة وعلم الكلام كدائرة للبحث النظري، وإنما هو من جملة العلوم النظرية التي ندرس بها آليات عمل العقل والنفس الإنسانية، فنصل من ذلك إلى كل نافع في دراسة أحوال النفوس (بما في ذلك بيان وهاء الأصول الكلية التي قامت عليها فلسفات اليونان في قضايا المعرفة الغيبية وآليات تحصيلها) ما دام مبنيا على الكتاب والسنة كمستند معرفي أساسي، ومعيار مرجعي في القبول والرد، على فهم السلف رضوان الله عليهم. ولا يقال لمن نقد صنعة الفلسفة التخصصية إنه فيلسوف، أو لمن نقد علم الكلام بأصوله وفروعه إنه متكلم! والقصد أن أكثر تصانيف ابن تيمية رحمه الله في ذلك (ومن بعده تلميذه ابن القيم رحمه الله) يمكن اعتبارها مما يقال له على اصطلاح المعاصرين «ما وراء التخصص» Meta-disciplinary على سبيل العموم، وما وراء الفلسفة Meta-philosophy أو ما وراء علم الكلام Meta-Theology على سبيل الخصوص.

ومما يذكر في هذا المقام أنني خاطبت ذات يوم سفيها من سفهاء الإلحاد (وكنت حينئذ ككثير من إخواننا لا أرىٰ بأسا بمناصحة الملحد المعاند ووعظه)، فرأيته حريصا علىٰ استعمال مصطلحات الفلاسفة والمتكلمين وتعاريفهم وإلزامي بالنزاع فيها كنزاعهم، فلما أخبرته بأنه كاذب إذ يزعم أن بعض الألفاظ لا يدري لها معنىٰ لغويا صريحا يمكنه الرجوع إليه خارج إطار ما تنازعته الفلاسفة والمتكلمون من تعاريف وحدود، كلفظة «نقص» مثلا التي ننزه الباري عن معناها ببداهة عقولنا، وبينت له أن هذه اللفظة لن يجدها في المعاجم لو أراد الوقوف علىٰ معناها لأنها من أكثر الألفاظ انتشارا وجريانا علىٰ الألسنة وأقربها إلىٰ أذهان الناس ولا تخفىٰ علىٰ عاقل يفهم اللغة، فبمثلها تقرَّب الألفاظ البعيدة المترادفة أو المشتركة معنويا في المعاجم، لا العكس، رأيته يخاطبني وكأني متهم في عقلي وعلمي إذ أدعوه للانصراف عن مراء الفلاسفة وحدودهم ونظرياتهم وللاعتراف بما يجد في نفسه هو من معنىٰ لغوي واضح لا يحتاج إلىٰ تفسير أو «تعريف»، ثم راح يسخر ويهزأ وكأنه يخاطب صبيا صغيرا!

فلماذا كل هذا الحرص من جانبه علىٰ إلزامي (أنا الخصم المسلم) بدائرة الجدل «الفلسفي/ الكلامي» عند الخصومة وحصري في داخلها؟ لأن في الإجمال جنة لكل مبتدع زائغ! لأنه يعلم أنه لا طريق دونه إلىٰ تسويغ سفاهته وتناقضه الاعتقادي وصدوده عن دين التوحيد وتزيين ذلك كله لنفسه، إلا في تلك الدائرة: دائرة التماس البرهان النظري (أو بعبارة أخرىٰ: التفلسف) في قضايا الغيب الكبرىٰ التي تتأسس دعاوىٰ المرسلين علىٰ بدهيات ومسلمات العقل الأولىٰ فيها. فلا يجد أمامه إلا أن يطالبك بالرد علىٰ ما جاء به هؤلاء من بضاعة في التشغيب علىٰ تلك المسلمات، فلا تكاد تفرغ من واحدة من آحاد تلك البضاعة (وما كنت لتصل فيها إلىٰ ما يُنال به المطلوب مهما حاولت علىٰ أي حال) حتىٰ تراه يأتيك بأختها! فإن رآك صلبا لا تلين بين يديه، ولا تخضع لشرطه المعرفي الجدلي الساقط، بل تروم دفعه عن تلك الدائرة العفنة ولا تصل به إلىٰ ما يرجو من الغرق في بحار الجدل العبثي، اتهمك إذن بالجمود أو الجهل أو ضيق الأفق أو قصور العقل أو نحو ذلك، حتىٰ يخرج من الواقعة وقد سوغ لنفسه موقفه ذاك من كلامك!

فواقع الأمر أن الفيلسوف ومن احتذىٰ حذوه من هؤلاء لا يريد الحق أصلا، وإنما يريد التشاغل عنه والتشويش عليه وتدوير العقلاء من حوله في حلقات مفرغة بذاك العبث اللفظي الفاحش الذي اتخذوه صناعة وفنا، حتىٰ يظل مؤتزرا بإزار الباحث المنظر المحاور والمناقش، مستمدا غطاءه الاجتماعي والنفسي من استمرار واستطالة ذلك الجدال والمناظرة بينه وبين خصومه الموحدين.

مقالتان قديمتان ليتني ما كتبتهما!

وفي نفس السياق فقد كان لي مقال قديم بعنوان «إفحام أعداء الملة بتحقيق مراتب الأدلة»، كنت قد كتبته لأبين للقراء المسلمين - لا غيرهم - أن العاقل من لم يشغله ويلهه بهرج الفروع عن فساد أصولها، ولم يخض مع الخائضين في أمور تشوش علىٰ أصول فاسدة عند المخالف من أهل الملل يظهر فسادها جليا عند من كان له عقل! ولكن للأسف، خرج المقال علىٰ نحو تساوىٰ فيه الجدل في مسألة وجود الباري ومسألة الثالوث ونحوهما من مسائل تعرف صحة القول وفساده فيها ببداهة العقل والفطرة من غير أدلة، بالجدل في المعارف الثابتة ثبوتا قطعيا، التي تقوم من حيث المرتبة المعرفية علىٰ «أدلة» مكتسبة، وإن كانت تلك الأدلة تحقق في النفس معرفة قطعية يقينية! فنحن معرفتنا بصحة القرآن - مثلا - وضرورة نسبته إلىٰ الرحمن معرفة ليست فطرية ولا بدهية كما هو الشأن في معرفتنا بوجود بارينا وكمال صفاته، وإنما هي معرفة مكتسبة سمعية، تأتينا من طرق يتحقق منها القطع واليقين التام، تأسيسا علىٰ بدهيات الفطرة. وقد بدا في تحريري المقال وكأني أدعو الدعاة إلىٰ الله إلىٰ تجاوز المسائل الصغرىٰ مع أهل الأديان عند مخاطبتهم، لصالح مجادلتهم نظريا علىٰ طريقة المتكلمين في المسائل الكبرىٰ والأصول الاعتقادية الأولىٰ عندهم التي من أقر بفسادها، فقد أقر بفساد الملة كلها، من غير حاجة إلىٰ النظر فيما دونها من المسائل. فلو استقبلت من كتابة ذلك المقال ما استدبرت ما أخرجته علىٰ هذا النحو الملتبس، الذي بدا لي أن بعض الإخوة في المنتديات قد اتخذوه منهجا عند مجادلة الملاحدة، والله المستعان.

ومع هذا، جاءني أحد الإخوة هداه الله برد علىٰ المقال يقول فيه:

> الأخ الفاضل المكرم أبو الفدا، حالما رأيت عنوان المقالة هرعت لقراءتها لأرىٰ هل استطاع أحد تصنيف الأدلة إلىٰ مراتب هذا إن كان قد وحد مفهوم الدليل فوجدت أن المقال لم يضع لها مراتب بل اكتفىٰ بالقول أن ثمة أدلة ظنية وأدلة قطعية وثمة ظني أقوىٰ من ظني ولم يدلنا المقال إلىٰ شروط للتفريق بين مراتب أو بين ظني وقطعي سوىٰ إشارات خجولة لادعاء أن العقل يحكم بينهم لندخل في دوامة أخرىٰ للتفريق بين العقلي واللاعقلي فكل يدعي وصلا بليلىٰ والعنوان أكبر كثيرا من المضمون.
>
> الأمر الآخر: جعلت نقل الثقة عن غيره إلىٰ منتهاه دليلا ظنيا (أو حتىٰ يقينيا) وأسأل: ثقة عند من؟ أحمد بن حنبل ثقة عندي ولكن هل هو ثقة عند ملحد؟ فكيف تريد إلزامه بثقتك بأحمد بن حنبل؟ عبت علىٰ النصارىٰ مخالفتهم «للعقل» حين قالوا بالتثليث، فهل وافقته أنت عندهم حين تقول أن القمر انشق؟ وإذا كان أصل قبول «الفرعيات» هو التصديق بالمخبر فماذا ستقدم للملحد دليلا علىٰ صدقه؟ من فضل الله ومنته علي أن جعلني أتفرغ للبحث في قضايا الدليل والعقل وطمعت أن أجد ما أضيفه لما توصلت إليه. هذه ليست كل أسئلتي ولكني في النهاية أود أن أقول: جعل الله جهدك واجتهادك في ميزان حسناتك.

قلت، هذا رجل جاء يدعوني إلىٰ إغراق نفسي في الفلسفة كما أغرق هو نفسه في العقليات ومناهج المتكلمين (ولا يزال ماضيا في ذلك فيما يبدو)، فلم يخرج إلا بما ترىٰ، أصلح الله حاله وهدانا وإياه سبيل الرشاد. فكأنه يجعل ذلك التحرير الفلسفي الكلامي شرطا علي وعلىٰ عامة المسلمين قبل أن نزعم لأنفسنا اسم العقل وننزعه عن خصومنا من أهل الملل! وأقول لصاحبنا هداه الله: ما «مفهوم الدليل» الذي تريد أن تحرره حتىٰ تصل إلىٰ «إقناع» النصراني بأن الثالوث خرق للعقل صريح لا خفاء فيه؟ وهل العاقل الصادق سوي النفس يفتقر إلىٰ ذلك «الدليل» أصلا؟ وأي ثقة في أحمد بن حنبل هذه التي كنت تطمع في أن تراني أشير إلىٰ منهج الاستدلال الذي يرجىٰ معه إيصال الملحد الجاحد بوجود ربه وباريه إلىٰ القول بها كما نقول بها نحن المسلمون؟ نعم ابن حنبل ليس ثقة عند الملحد ولا شك، ولكن الملحد لا عقل له أصلا (علىٰ

اعتبار أن العاقل من يؤسس معرفته علىٰ البدهيات الفطرية الأولىٰ لا علىٰ طلب الأدلة الظنية لإثبات تلك البدهيات أو نفيها!) حتىٰ يعنيني أن أسأله لماذا لا تثق في أحمد ابن حنبل أو أطالبه بذلك أو بغيره من أمر الدين!

من زعم أنه جاء في هذه الدنيا من غير شيء فلا عقل له عندي، ولا أراني مضطرا لإقامة حجة فلسفية أو كلامية للانتصار لمفهوم «العقل» عندي علىٰ مفهومه عند ذاك المسفسط حتىٰ أقنعه بأنه يؤسس اعتقاده علىٰ معان لا متسع لها في عقول الأسوياء! ولا يعنيني فيمن يثق مثل هذا من الناس بعد ذلك وعلىٰ أي أساس يقيم ثقته تلك! هو عندي صاحب هوىٰ متجذر في نفسه، قد بلغ من الاستحكام من قلبه كما لا يكون في أحد من البشر! فإن أراد الله له الهداية، فسينشرح صدره لقبول الحق الجلي الواضح، ولسماع ما جاء به المرسلون من وعظ وتذكير، وإن أبىٰ إلا الجدال في الواضحات فلا شأن لي به! هذا هو منهجي وهو ما أزعم أنه منهج السلف ﷺ في مثل ذلك!

وأنا أسأل صاحب هذا التعقيب: أي ثمرة خرجت بها يا أخانا من الفلسفة وعلم الكلام، وقد جئتنا - وأنت المسلم الموحد - بقولك ما معناه إننا ليس لنا أن نعيب علىٰ النصارىٰ قولهم بمعقولية ثالوثهم من غير أن «نتفهم عنهم عيبهم علينا قولنا بمعقولية انشقاق القمر»؟ أي عاقل هذا الذي يحتاج إلىٰ دليل نظري حتىٰ لا تنزل هاتان القضيتان من نفسه منزلا واحدا (من جهة قوة المستند المعرفي)، وكيف حملتك نفسك علىٰ كتابة هذا الكلام؟ سبحان الله! لو سلمنا تنزلا وعلىٰ سبيل الافتراض بأن القول بانشقاق القمر خرافة، فغاية ما ينال من يقول به من المذمة أن يكون متبعا لرواية باطلة ولرسول كاذب، مع إمكان وقوع ذلك الحادث عقلا وعدم امتناعه، لدخوله في قدرة الباري جل وعلا يقينا! أما التثليث فلا يمكن لعقال أن يفترض - مجرد افتراض - إصابة القائل به من الابتداء، لأن الشيء الواحد لا يكون واحدا وثلاثة معا في العقل السوي! فكيف يسوىٰ بين الجدال علىٰ القول بالثالوث (نوعا) والجدال علىٰ القول بأن القمر لم ينشق علىٰ الحقيقة (نوعا)؟ عند صاحبنا هذا، كلتا القضيتين يعوزهما الاستدلال العقلي (أو بعبارة أدق: النظري) كما ترىٰ، ليس هذا فحسب، بل إنهما تفتقران إلىٰ التحرير النظري

الطويل في حقيقة ومفهوم الدليل ومفهوم العقل واللا-عقل، إلىٰ آخر ما يصرح بأنه قد اتخذه لنفسه مشروعا علميا قد انقطع للبحث فيه، أسأل الله أن يشفي نفسه وأن يشغله عنه بما ينفعه!

ثم يسألني الأخ ماذا سأقدم للملحد دليلا حتىٰ يوافقني في تصديق المخبر، وله الحق في مقابلتي بسؤال كهذا، لأني أنا من ظلمت نفسي ونشرت مقالا بدا كلامي فيه وكأني أدعو الدعاة إلىٰ الله إلىٰ اعتبار أن المناظرة مع الجحدة المسفسطين المجادلين في البدهيات يجب أن تبدأ بالأصول لا الفروع، وها أنا الآن أبرأ إلىٰ الله من كل ما كتبته من قبل مما يوحي لقارئه بأني ممن يرون «مناظرة» المشركين عامة والملاحدة خاصة في شيء من مسلمات الفطرة الأولىٰ، أو يرون أن وجود الباري ووحدانيته وكمال صفاته من المسائل النظرية المفتقرة إلىٰ دليل عقلي (علىٰ طريقة الفلاسفة)، أو يرون أن الفلاسفة ينازعوننا في ذلك بشيء يمكن أن يقال له «دليل» أو حتىٰ «شبهة دليل»، أو بشيء يلجئنا إلىٰ الاستدلال النظري (العقلي) لمقابلته من حيث المبدأ، والله المستعان لا رب سواه.

ولا أجد بدا في هذا السياق أيضا من ذكر مقال كنت قد نشرته في بعض المنتديات علىٰ شبكة الإنترنت علىٰ أنه «ورقة بحثية في فلسفة الأديان» تحت عنوان «قلب الحجة الفلسفية علىٰ المعترضين علىٰ التشريع والأخلاقيات في الإسلام»، أراني اليوم نادما عن نشره ولا أدري والله أي نية استحضرتها يوم شرعت في كتابته، أسأل الله العفو والمغفرة. بل لا أرتاب الآن في أني قد حركني في ذلك محرك خفي من حب الظهور علىٰ أصحاب الصناعات العقلية والفلسفية، وإظهار التمكن من بضاعتهم والقدرة علىٰ مخاطبتهم بها، تماما كما تراني الآن أذمّ به عامة المتكلمين! أي «فلسفة أديان» هذه التي ولجت بابها بالتنظير والبحث حتىٰ «أقلب الحجة الفلسفية» علىٰ من لا يعجبهم تشريع الإسلام وما فيه من أمر ونهي؟ وماذا تركت للمتكلمين من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وأضرابهم ممن فتنتهم تلك الصناعات وأنا أزعم الانتساب إلىٰ سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين ﷺ وأرضاهم، أتحرىٰ منهجهم وأقتفي أثرهم؟ ومن ذا الذي كنت أراني مخاطبه بمقال كهذا، وقد علمت أن أكثر من قرؤوه لم يفهموه أصلا؟

جاء في تقديمي البحث المذكور قولي: «فهذه ورقة بحثية موجزة في فلسفة الأديان، في بيان المنطق الشكلي لطريقتين لقلب الحجة علىٰ المخالف، رأيت أن أعرض لكيفية استعمالهما في نقض دعوىٰ أهل الملل المخالفة (بما فيها الإلحاد بألوانه) أن من شرائع الإسلام ما يعد دليلا علىٰ بطلانه وعلىٰ أنه ليس دين الله عز وجل.» اهـ. فبالله هل يحتاج العاقل إلىٰ استعمال المنطق التحليلي الذي شاع بين فلاسفة الغرب المعاصرين، أو إلىٰ صياغة الحجج الكلامية السيلوغية علىٰ طريقة فلان أو فلان من الفلاسفة في الصياغة أو في «قلب الحجة المنطقية» أو نحو ذلك، حتىٰ يتبين له ما هو واضح جلي من تهافت وبطلان اعتراضات المعترضين علىٰ شرائع هذا الدين، واتخاذهم تلك الاعتراضات دليلا علىٰ بطلان نسبته إلىٰ رب العالمين؟ أما كان يكفيني تقرير ما أشرت إليه في مقدم المقال من كونها مسألة بدهية للغاية أن الرب سبحانه لا يأمر عباده إلا بالخير ولا ينهاهم إلا عن الشر، علم بذلك من علمه وجهل بذلك من جهله، وأن مدار المسألة في النهاية علىٰ التسليم بأن القرآن كتاب الله حقا وصدقا (وهو ما لا نفتقر فيه – أيضا – إلىٰ برهان فلسفي، كما قررناه في هذا المجلد) وأن شريعة الإسلام هي شريعة الرحمن قطعا؟ بلىٰ كان يكفي ولا شك، ولكن يبدو أنه قد كان في النفس ما فيها، أسأل الله العفو والغفران.

والعجيب أني فيما يبدو قد استوحشت هذا المسلك الذي سلكته في ذاك المقال، ونازعتني نفسي فيه (باطنا)، فلم أقو علىٰ زجرها عن نشره، واكتفيت بكتابة حاشية موجزة في ذيل البحث أكرر فيها ما ذكرته في صدر المقال من بيان عدم افتقار العاقل الصادق إلىٰ تلك الألاعيب الفلسفية في معرفة الحق الذي معنا معاشر المسلمين أتباع المرسلين، فقلت:

> تقدم معنا أن إغراق الفلاسفة في ضرب الصياغات الشكلية قد أدىٰ بهم – لا محالة – إلىٰ تطويل الطريق إلىٰ الحق، وفتح الباب أمام المسَلَّمات العقلية والبدهيات الأولىٰ لأن تكون محلا للاشتباه والنظر! فلا يفوتني أن أنبه القارئ الكريم إلىٰ أن هذه الحجة التي رد بها «مور» علىٰ «هيوم» في مثالنا هذا، إنما هي مثال واضح لهذا التطويل والتماس المعنىٰ الأبعد للوصول إلىٰ الأقرب (بحسب تعبير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله)، الذي تورثه تلك الخصلة عند الفلاسفة في الحقيقة. فمع أن الأمر من

الجلاء بما يكفي معه أن يقال للعاقل إنك لا يستقيم لك عقل ولا لغة لو أنك شككت يوما ما في أن هذا الذي أمامك هو يدك علىٰ الحقيقة، إلا أن أمثال «هيوم» لما وضعوا من الحجج السوفسطائية (الشبهات العقلية) ما يضرب في أصول البدهيات العقلية الأولىٰ في قوالب مصوغة بأمثال تلك الصياغات الشكلية، خرج أقرانهم من مخالفيهم ليردوا عليها بمثلها، واستفاض الأمر حتىٰ أصبح من الطبيعي أن نمر في كتب الفلسفة بحجج طويلة ينتهي منها صاحبها إلىٰ إثبات ما يبدأ منه العقلاء بالضرورة المحضة والبداهة الأولىٰ في كل نظر عقلي! فترىٰ رجلا يكتب حجة منمقة طويلة، لينتهي منها إلىٰ إثبات أن هذه التي يكتب بها هي يده، وإلىٰ الله المشتكىٰ! لهذا جاء في الأثر عن بعض السلف أن العلم قطرة كثرها الجهلاء! ولهذا نقول إن من السفاهة بمكان أن يقال لطريقة السلف رضوان الله عليهم في فهم صفات خالقهم إنها «أسلم» في مقابل وصف طريقة من جاء بعدهم من المتأثرين بتلك المسالك بأنها «أحكم»، أو يقال إن العلم بالفلسفة والكلام ضرورة للعقلاء حتىٰ يتمكنوا من معرفة الحق فيما جاء به المرسلون! لا والله إنما طريقة المرسلين ومن تبعهم هي الأسلم والأوفىٰ والأجمع لخصال الحكمة لمن تأمل، وفيها الكفاية لكل عاقل صادق! فالحكمة إنما تكون في قصد السبيل، واحتواء المعنىٰ الجزيل في اللفظ القليل، والتماس أقرب الطرق وأقصرها لبيان الدليل، والسعي إلىٰ تقريب المعنىٰ البعيد بالمعاني القريبة إلىٰ الذهن لا العكس من ذلك، وتغليق الأبواب أمام دعاة السفسطة والتشكيك في المسلمات والبدهيات الأولىٰ، فيا ليت الفلاسفة يتعلمون من طريقة القرآن ومن جوامع الكلم فيما جاء به النبي العدنان، صلوات ربي عليه وآله وسلم، ويا ليتهم يعقلون!

قلت: لو كان الأمر كذلك عندك، فأي خير يخرج به القارئ المسلم من بحثك هذا إذن يا أبا الفداء، ولماذا تكلفت كتابته أصلا هداك الله وأصلح حالك؟ ما ثمرة إيقاف قارئك علىٰ فكرة «معكوس مور» وجوابه عن دعوىٰ «هيوم» أنه لا يدري هل هذه التي يكتب بها هي يده أم لا (!!)، وما تحذلقت بتسميته «معكوس الشبهة» وما سميته بـ«الحجة المعاكسة» وما استعرضته في متن البحث من طريقة صعبة المراس عسيرة الفهم (للوهلة الأولىٰ علىٰ الأقل) في تحليل الدعوىٰ إلىٰ مقدمات ونتائج محررة، ثم قلب تلك المقدمات وعكس بعضها مع استظهار وتحرير ما كان شأنه أن

يكون مستصحبا في كلام العقلاء من مسلمات أولية لا يحتاج العاقل إلىٰ صياغته أصلا لبداهته؟ ما كل هذا العبث يرحمك الله، وما حاجة العقلاء إليه أصلا؟ وما الشأن مع من لم يفهم بعضه أو غمض عليه وجهه؟ هل تجيز له التوقف في إثبات ما تريد إثباته، وهل يتسع العقل لذلك الموقف عندك؟ ألا تتقي الله في نفسك وفي المسلمين؟ وإن كان الجواب بأنك لا تجيز لأحد من بني آدم أن يتوقف في هذه المسألة (وهو ما لا تملك إلا الجواب به): فما ثمرة هذا التكلف القبيح وما نفعه للمسلمين، وأي خير يرجىٰ من إلقائه بين أيدي المجرمين المعاندين؟

لا شيء! وكأني ما أردت في الحقيقة إلا استعراض «عضلاتي» الفلسفية، وإن زينت لي نفسي الظن بأني أنفع المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ومما زاد الأمر قبحا أني حاولت أن أستخرج مثالا لذاك المسلك الفلسفي البعيد الذي جئت به في ذاك البحث، من كتاب الله جل وعلا! فصنعت كما يحلو لكثير من المتكلمين ومن الدعاة المتسننين المتأثرين بهم أن يصنعوا، فاستخرجت النص القرآني الذي فيه المعنىٰ المطلوب، ثم تكلفت إثبات أن الله تعالىٰ قد خاطبنا بـ«قلب الحجة المنطقية» في القرآن! مع أني كنت أرىٰ بجلاء شدة ما عانيته من شقشقة وتكلف وتنطع مذموم في العبارة، حتىٰ أنتهي إلىٰ ما أريد! فلا جاء النص القرآني بـ«مقدمات» ولا «نتائج» ولا بتسلسل لدعوىٰ الخصم أصلا حتىٰ «يقلبه» بعبارة وتسلسل آخر كذاك الذي تكلفته أنا في المقال المذكور، وإنما جاء بعبارة واضحة بينة موجزة لا مزيد عليها في أداء المطلوب وكفاية العقلاء، فأي خير في عمل كهذا؟

تأمل أيها القارئ الكريم فيما تكلفته - غفر الله لي - في ذاك المقال من تلبيس النص القرآني لبوس تلك الطريقة الفلسفية وكأني أدعو القارئ لتعلمها وتكلفها في مثل ذلك. فقد قلت ما نصه:

> ومن أمثلة قلب الحجة في القرآن، ما حكاه الله تعالىٰ علىٰ لسان إبراهيم عليه السلام من محاججته لقومه في قوله: ﴿**وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ٨١].

فكأن حجة أو دعوىٰ المشركين من قوم إبراهيم تنتظم في مقدمتين ونتيجة بيانها كالتالي:

- الجماعة (م) تخاف الآلهة (الباطلة) ولا تخاف الله.

- الجماعة (ع) تخاف الله ولا تخاف الآلهة (الباطلة).

- إذن: (م) في أمن من أمرهم و(ع) علىٰ خطر عظيم.

حيث الجماعة (م): المشركون، والجماعة (ع): إبراهيم عليه السلام ومن وافقوه.

فعليه يكون مقلوب حجتهم «ق» كالتالي:

- الجماعة (م) تخاف آلهتها (الباطلة) ولا تخاف الله..........(١)

- الجماعة (ع) تخاف الله ولا تخاف الآلهة (الباطلة) .... (٢)

- إذن: (م) في خطر عظيم و(ع) في أمن من أمرهم ..... مقلوب (٣)

وتأتي الغلبة والظهور للحجة «ق»، (٤،٥،٦) مما هو مستصحب ومعهود في الذهن من مقدمة أولىٰ «أ» مفادها:

- إن الخالق (الله تعالىٰ) لا يخاف من مخلوقاته (التي منها تلك الآلهة الباطلة)، وإنما يجب في العقل أن تخافه تلك المخلوقات جميعا.

فعلىٰ أي شيء يقيم المشركون دعواهم في مقابل هذه المقدمة «أ»؟ لا شك أنه مقلوبها، وهو باطل كما لا يخفىٰ.

قلت: فما جوابك يا أبا الفداء إن سألك سائل هذا السؤال: «لو كنت حقا تراه باطلا لا يخفىٰ بطلانه كما تقول، فلماذا تكلفت هذا التحرير وتلك الصياغة الصعبة علىٰ طريقة المناطقة؟ لماذا تنطعت علىٰ نفسك وعلىٰ الناس، وسعيت في استظهار المستصحبات والمعهودات الجلية وفي تحليل ما لا يحتاج العقلاء إلىٰ تحليله وتفكيكه وتجريده في تراتيب منطقية «فورمالية» علىٰ نحو ما فعلت؟» فأقول: لست أجد لنفسي جوابا عن هذا السؤال إلا وهو راجع علي بتهمة الهوىٰ الخفي، والله المستعان!

ومما يجدر بي أن أذكره كذلك، أني يوم نشرت ذاك المبحث، راجعته بعدها بسويعات، فوجدتني أخطأت الترقيم والترتيب فيما صغته في ذاك النص المقتبس آنفا من مقدمات ونتائج، فسارعت بمطالبة الإخوة بتعديله في محله، ثم مكثت طويلا في حيرة أتساءل هل يستقيم النص علىٰ هذا النحو أم علىٰ ما كان عليه قبل التعديل، حتىٰ مالت نفسي إلىٰ تركه علىٰ ما صار إليه! أفبعد هذا يسوغ لي أن أزعم أن «الحجة» المطلوبة قد قامت بتلك الطريقة قياما «واضحا جليا»؟

وليت شعري أي خير أو نفع سقته إلىٰ المسلمين ببحث كهذا، وقد أبيت إلا أن أذيله بعزو القارئ إلىٰ كتب وأبحاث الفلاسفة الأكاديميين الذين سلكت طريقتهم في ذاك البحث، كما هو عرف الأكاديميين المعاصرين في كل صنعة (حتىٰ أني التزمت في إثبات المصادر بطريقة APA المشهورة أكاديميا في مثل ذلك)، فعزوت إلىٰ مرجعين، أحدهما ورقة بحثية من أخبث ما أنت راءٍ في تفلسف الملاحدة في إطار ما يقال له «مشكلة الشر» والانتصار بها لشتىٰ صور النحل الإلحادية المعاصرة، والآخر كتاب فيه تقديم لأخبث صناعات الفلسفة علىٰ ظهر الأرض: «فلسفة الدين»، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهل أمثال تلك المواد مما لا يرىٰ الباحث المسلم العاقل بأسا في إحالة القارئ المسلم عليه، حتىٰ يوقفه علىٰ طريقة فلان أو فلان في قلب البرهان؟ سبحانك ربي، لا هداية إلا من عندك ولا بصيرة إلا بك، فاللهم عفوك ومغفرتك، كما هديتني أن أبرأ مما كان خافيا علي من قبل من مسالك المتكلمين، والحمد لله رب العالمين.

فصل: بيان تنطع المتكلمين في مفهوم الفطرة

ولعل مما يناسب في هذا المقام أن نسوقه للقارئ الكريم كمثل لحرص المتكلمين علىٰ التنطع علىٰ معنىٰ الفطرة وعلىٰ كونها تمثل محتوى معرفيا حقيقيا مركوزا في نفوس البشر من غير اكتساب، زعم المتكلم الأشعري الأستاذ «سعيد فودة» في بحث له حول الفطرة، أن الفطرة ليست هي الإسلام وإنما هي شيء آخر بخلاف الأديان كلها، وإلا لو كانت هي الإسلام لما جاز أن تجتمع في نفس إنسان مع دين آخر بخلاف الإسلام!

يقول في الرد علىٰ أدلة السنة عند مخالفيه علىٰ أن الفطرة هي الإسلام [1]: «إن قصدوا أن الفطرة هي عين الإسلام، ونحن نعرف أن الإسلام هو عبارة عن مجموعة من الأحكام والمفاهيم والتعاليم التي أنزلها الله تعالىٰ إلىٰ نبيه ﷺ، فإن قالوا إن هذه هي الفطرة التي يقصدونها وأنها عين الإسلام بهذا المعنىٰ، فقولهم لا دليل عليه»

ثم يضيف معلقا علىٰ الاستدلال بحديث البخاري «ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» الحديث:

> ولكن هذا الاستدلال غلط محض، فالرسول ﷺ لم يقل إن الفطرة مضادة أو مناقضة للمذكور، ولو كان الأمر كذلك لما أمكن أن يصير الإنسان نصرانيا أو يهوديا.. الخ، لأن المفروض أن فطرته تخالف مخالفة تضاد ما ذكره، لأنه يستحيل أن يجتمع النقيضان أو المتضادان في محل واحد. ولكن هذا الكلام باطل، لأنه لو كانت الفطرة هي عين الإسلام لما اجتمع معها النصرانية أو اليهودية أو غير الإسلام. فيلزم أن تكون الفطرة إذن هي أمرا لا هو الإسلام ولا هو النصرانية ولا اليهودية بل هو أمر ثالث، وهو حالة تكون قبل أن يتخذ الإنسان لنفسه دينا أو قبل أن يصيره غيره متدينا بدين معين. فالفطرة بناء علىٰ الحديث يمكن أن تكون حالة ثالثة غير الإسلام وغير الأديان الأخرىٰ، وليست هي دينا خاصا، بل هي وصف للإنسان، تقبل الإسلام كما

(١) المصدر: البحث منشورة خلاصته في ملف على منتداه على شبكة الإنترنت.

تقبل غيره، ولكنه توافق أكثر مع الإسلام. ونحن نقول بذلك لأن الفطرة لو كانت هي الإسلام، لما كلف الإنسان بأن يسلم بعد رشده وتمييزه لأن الفرض أنه مسلم، ولما حصل خلاف في أولاد المشركين أنهم ما حكمهم، ولما كان الحال ما قبل التمييز مغايرا للحال لما بعده.

قلت: إن هذا التلبيس طويل الذيل يكشف قصور صاحبه في تصور العملية النفسية الباطنية التي يحصل بها عند الإنسان قبول الاعتقادات الفاسدة ظاهرة الفساد ورد الاعتقادات الصحيحة ظاهرة الصحة بل البدهية الضرورية! فإن الواضح في نفسه البدهي في نفسه، الذي نزعم نحن أن سبب وضوحه وبداهته مركب في نفوس البشر تركيبا جبليا، يظل هذا وصفه مهما كابر وتمحك كثير من الناس وردوه أو شككوا فيه ليبقوا علىٰ ما هم عليه مما يحبون ويشتهون! ولهذا تواترت أقوال السلف علىٰ ما مفاده أن ذكاء العقل لا يرجع إلا بالخسران، إن لم يجتمع بزكاء القلب والنفس ومحبة الحق عند الإنسان! فإن الشهادة بالحق الواضح الجلي بعدما يتبين، وإعلان قبوله والانقياد له، ليس مداره علىٰ ذكاء العقل وإنما يفتقر فيه الإنسان إلىٰ زكاء النفس وطهارة الباطن، فمن فسد باطنه فلن يستعمل الذكاء والنظر القوي إلا في التشويش علىٰ ذلك الحق الواضح (مهما كان جليا وبدهيا في نفسه) وفي تسويغ رده وتكذيبه لنفسه وللناس من حوله بكل طريق!

والغاية التي يريدها الأستاذ فودة من هذا الكلام إنما هي الوصول إلىٰ تسويغ مسالك علم الكلام في الاستدلال لإثبات الصانع (إجمالا) ودفع التناقضات المنهجية عنها كما سيأتي! ذلك أننا إن قلنا إن الإنسان يولد علىٰ فطرة التوحيد، لكانت المعرفة بوجود الصانع ووحدانيته حاصلة في نفس الإنسان ابتداء دون نظر ولا غيره (والأشاعرة يوافقون أهل السنة ظاهرا في قولهم بضرورية تلك المعرفة وبدهيتها دون القول بأنها فطرية جبلية، حاصلة في النفس ابتداء دون نظر، فلا أدري إلىٰ أي طائفة من طوائف الأشاعرة ينتسب الأستاذ فودة)! وإذن لكان حمل الناس علىٰ التشكيك في وجود الباري أولا ثم تكلف النظر في براهينهم النظرية لإثباته (كما يوجبونه علىٰ كل مكلف)،

مساويا للتهويد والتنصير والتمجيس إذ تُغير به تلك الفطرة نفسها بلا داع أو يشوش عليها في نفس صاحبها (علىٰ أحسن الأحوال)، وهو لازم لا بد لهم من الفرار منه!

فمع أنهم خالفوا غلاة المعتزلة في نزع أصل الإيمان عمن لم يتكلف النظر في حدوث العالم، وشنعوا علىٰ قولهم في حكم إيمان من سموه بالمقلد غاية التشنيع، ووافقوا السنة وسلف الأمة في إثبات اسم الإيمان (إجمالا) لمن لم يحصل منه ذلك النظر الفلسفي الكلامي، إلا أنهم بقوا علىٰ أصل الداء الكلامي نفسه في مصادر تلقي المعرفة الغيبية لديهم، وفيما يسمونه بالدليل العقلي وفي حدود النظر وشرط حصول المعرفة وفي منهجهم الفلسفي في التفريق بين الضرورات العقلية وما دونها بناء مجاري الجدل والسجال فيما بينهم وبين خصومهم، وفي تعريف الفطرة وحدودها وعلاقتها بالمعرفة .. إلخ، ولهذا فعلىٰ الرغم من نقدهم المعتزلة، إلا أنهم بقوا علىٰ تسمية من لم يحصل منه ذلك النظر بـ«المقلد»، مع اضطراب في تعريف المقلد والتقليد نفسه يرجع بهم في الأصل إلىٰ ذلك، كما يأتي بيانه.

فمن المخارج التي يتلمسها الأشاعرة لبقائهم علىٰ تلك الكليات الكلامية (مع تصحيحهم إيمان من سموه بالمقلد كما مر معك)، أن يقال إن الفطرة ليست هي الإسـ أصلا، وليست دليلا موجبا لحصول المعرفة، وإنما هي شيء آخر يقبل الإسلام (يقبل الاجتماع به في نفس الإنسان) كما يقبل غيره! فكيف وصل الأستاذ فودة إلىٰ بناء تلك الدعوىٰ؟ بدأ أولا بتقرير مقدمة مفادها أن الرسول ﷺ لم يقل إن الفطرة تناقض اليهودية والنصرانية والمجوسية وكل ملة بخلاف الإسلام! ثم أضاف مقدمة أخرىٰ مفادها أنه لو كانت الفطرة تناقض تلك الملل كما يناقضها الإسلام، لما أمكن أن تجتمع مع الفطرة في نفس الإنسان، فيصير يهوديا أو نصرانيا .. إلخ، لأن المتناقضان لا يجتمعان في محل واحد!

ونحن نقول إن هذه المقدمة الأخيرة لا علاقة لها بالدين والاعتقاد أصلا! فإن اجتماع المتناقضات وافتراقها في وصف الشيء الواحد إنما يقال عندما تكون القضية المنطقية قضية وصفية، بمعنىٰ أن الشيء الواحد إما أن تكون صفته «أ» أو «نقيض أ»، فلا

يصح في العقل أن يجتمعا معا ولا أن يرتفعا معا. أما عندما نتكلم عن اجتماع العقائد والأفكار في نفوس البشر، فلا مانع في العقل من اجتماع العقائد المتناقضة في النفس الواحدة، وما أكثر ما يكون ذلك في بني آدم! فلا تزال العادة المستفيضة تدلنا علىٰ أن الإنسان قد يتناقض في اعتقاداته الفردية أشد التناقض لهوىٰ في باطن نفسه، فيجمع بين العقيدة وضدها أو بين الملة ونقيضها سواء بالتصريح أو الاقتضاء المباشر، وجميع أهل الملل الباطلة عندهم ذلك التناقض علىٰ تفاوت! بل إن قلنا إن بني آدم كلهم يعانون من ذلك المرض إلا من رحم الله ما بالغنا! وأنت ترىٰ كيف يخاطب رب العالمين المشركين في القرآن بالتبكيت والتوبيخ والتشنيع عليهم فيما تناقضوا فيه، إذ قالوا إنهم يشهدون بأن الخالق واحد والرازق واحد والمدبر واحد، ومع هذا يعبدون غيره معه، يتوجهون إليه بما لا يصح في العقل أن يُتوجه به لغير ذلك الرب الواحد، ويبلغ بهم هواهم أن يعرضوا عن الحجة الرسالية الواضحة بعدما جاءتهم، مع أنهم يؤمنون في الربوبية بما يقتضي قبولها!

فهل يجوز أن يجتمع دين من الأديان ونقيضه في نفس إنسان ما؟ الجواب نعم ولا شك، وهو واقع مطرد في الناس! فالإنسان يولد وفطرته هي التوحيد وتعظيم الباري بالغيب، والاستعداد لقبول رسالات رسله إذا بلغته، وهذا هو أصل الإسلام وأساسه! فإذا ابتلي بالنشأة في قوم مشركين، تشبعت نفسه بما يناقض فطرته مناقضة جزئية أو كلية، وذلك قوله ﷺ «يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»! فإذا كان له ذلك، اجتمع في نفسه الاعتقاد الباطل (فيما سميناه باليقين الظاهر) والعلم الفطري الخفي بأسباب بطلانه (فيما سميناه باليقين الباطن)، ولا إشكال! فلا حجة للرجل في هذا الكلام!

ثم من ذا الذي يزعم أن الفطرة هي «عين الإسلام»، علىٰ هذا التعريف الذي صاغه للإسلام في أول الكلام إذ يقول: «الإسلام هو مجموعة من الأحكام والمفاهيم والتعاليم التي أنزلها الله علىٰ نبيه»؟ ما قال بهذا أحد قط! وافتراض قول لم يقله الخصم ولم يخطر له ببال، ونسبته إليه علىٰ سبيل الاحتمال (علىٰ طريقة فإن قالوا) ثم الرد عليه في هذا السياق تشغيب وتنطع لا وجه له (والمناطقة المعاصرون يعدونه من جملة

المغالطات)! قطعا لا يولد أحد من البشر فيجد نفسه على علم بالأحكام والتعاليم والعقائد المجملة فضلا عن المفصلة التي جاء بها المرسلون، وإلا لو كان الأمر كذلك ما كان لمبعث المرسلين من فائدة أصلا!

قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ٧٨] ! ولكنه كذلك يقول: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٧٢] فلنا أن أول ما يجب إثبات كونه من فطرة البشر هو معرفتهم البدهية بأنهم مخلوقون مربوبون، وبأن خالقهم واحد لا شريك له وأنه مستحق للكمالات كلها منزه عن النقائص كلها بضرورة العقل وبداهته، وبأنه مستحق للعبادة وحده لا شريك له! هذا الميثاق هو سبب وجداننا – معاشر البشر – تلك المعاني البدهية في نفوسنا حاصلة حصولا أوليا بلا اكتساب أو استدلال، مهما أنكرها من جحدها وكذب بها! تلك المعاني التي هي أساس ملة التوحيد (بإجمال) كما ترى، هي أصل أصول دين الإسلام! ولولاها ما ظهر لنا وجه الحق الجلي الواضح فيما بعث الله به المرسلين، وما قمت الحجة الرسالية علينا! وهي – مع هذا – ما طرحه الجهمية المعتزلة للاستدلال والنظر (منهجيا)، فتابعهم الأشاعرة على ذلك، ثم كانوا ولا يزالون يتكلفون غاية التكلف في الفرار من لوازم ذلك المسلك المعرفي الكلي!

لذا نقول إن من ربى ولده على اليهودية أو النصرانية أو غيرها من الملل فقد رباه على خلاف فطرته! ولو لم يكن في حديث البخاري إثبات لتلك المخالفة ما كان للحديث فائدة أصلا!

أما قوله «ونحن نقول بذلك لأن الفطرة لو كانت هي الإسلام، لما كلف الإنسان بأن يسلم بعد رشده وتمييزه لأن الفرض أنه مسلم، ولما حصل خلاف في أولاد المشركين أنهم ما حكمهم، ولما كان الحال ما قبل التمييز مغايرا للحال لما بعده.» فنقول في جوابه بمثل ما قلناه آنفا: الفطرة ليست هي دين محمد ﷺ بنصوصه وأحكامه وتكاليفه قطعا، ولكنها الإقرار بأصل التوحيد، وهو أصل دين الإسلام الذي جاء به

جميع المرسلين، الذي لولاه ما قامت حجة الأنبياء والمرسلين علىٰ أحد من بني آدم أصلا، والذي جعلتم أنتم وغيركم من المتكلمين من لم ينظر فيه ليكتسبه من بعد خلو النفس منه (بزعمكم)، مقلدا في الإيمان! فقولك إن الفرض أنه مسلم مصادرة.

ثم يعلق علىٰ حديث البخاري «قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله أعلم بما كانوا عاملين» بقوله: «وهذا دليل علىٰ أنه لم يحكم عليهم بالإسلام وهم صغار ولا بالإيمان»، وهو استدلال فاسد، لأن مدار التكليف والحساب في الآخرة علىٰ العقل والعمل بعد قيام الحجة الرسالية لا قبلها، فمن مات من قبل أن يميز فلم تقم عليه الحجة الرسالية، لذا يقال فيه: الله أعلم بما كان عاملا لو أنه بلغ التمييز وقامت عليه الحجة! أما أن يكون الحديث دليلا علىٰ أن فطرة الصغير التي يكون عليها قبل التمييز ليست هي أصل الإسلام فلا وجه لذلك. ويضيف قاعدة مفادها أن الإنسان إذا خير بين أمرين لزم أن يكون عاريا عنهما ويكون في حالة ثالثة غيرهما، وهذا إجمال من إجمالات الفلاسفة والمتكلمين التي تغرقهم في التعميمات والإطلاقات الغالطة من حيث لا يشعرون! فصحيح إن التخيير يكون بين رسالة الرسول وبين ما سواها، إلا أن هذا لا يلزم منه القول بخلو النفس من أصل التوحيد من قبل التخيير! فالحالة الثالثة ليست «غيرهما» بهذا الإجمال وإنما يجب التفصيل.

وحتىٰ يصل إلىٰ ما يريد (أعني من سلب المعارف الفطرية عن الإنسان وإفقاره إلىٰ جنس ما تكلفه المتكلمون من براهين وما ترتب عليها عندهم من عقائد تفصيلية!)، يقرر أن ميثاق الذرّ لم تكن ثمرته معرفة في نفس الإنسان، وإلا لتذكرنا ذلك الميثاق في الحياة الدنيا، وهي شبهة الفلاسفة الدهرية بتمامها وحروفها! يقول: «ولكن المعلوم أن هذا الميثاق لا يذكره أحد في الحياة الدنيا، وربما يكشف عنا الغطاء في الآخرة فنتذكر، وما لا نذكره في دنيانا فلا يكلفنا الله تعالىٰ به» قلت: ليس سبب عدم التكليف بالميثاق أننا لم تتحصل في نفوسنا منه معرفة نذكرها، إذ لو كنا نذكرها علىٰ الوجه الذي يتصوره لما كان ثمة وجه لإرسال الرسل أصلا، وإنما سبب عدم التكليف به أن الله أراد ابتلاءنا بالغيب وببعث الأنبياء والمرسلين، حتىٰ تكون الفطرة الكامنة في النفس هي

معيار العقل الأول وداعي النفس الحثيث للحكم بصحة دعوتهم إذا ما جاءت، وفساد ما عليه المشركون من أهل الأمم.

فصحيح إننا لا نذكر واقعة أخذ الميثاق نفسه في عالم الذرّ كذكرنا ما نمر به من حوادث في عالمنا هذا، إلا أننا قد تحصلت في نفوسنا معرفة فطرية ضرورية بأننا مخلوقون مربوبون، وأن بارينا واحد أحد لا شريك له، وأنه وحده المستحق للعبادة والتأليه، ومن ثمّ يتعين علينا أن نجيب رسله إذا ما بعثهم فينا سبحانه. فمن الذي قال إن غرس الفطرة في نفوس البشر في ميثاق الذر، وقولنا جميعا «بلىٰ شهدنا»، ينبغي أن يكون قد وقع علىٰ نحو من جنس ما يمكننا أن نتذكره، كما يكون من تلقين المخلوق عبر سمعه وبصره في ظروف وأحوال يمكنه أن يستحضرها من ذاكرته فيما بعد، حتىٰ يصح أن يحصل في عقل المشرك الباطن علم بدهي ببطلان شركه علىٰ أثر الفطرة في نفسه؟ هذا قياس فاسد، ولا شك، إذ واقعة الميثاق والفطرة نفسها بمجرد تصورها ليس لها نظير في معارفنا المكتسبة، فهي غيب محض!

ونقول مع ذلك إن هذه المعاني نعرفها معرفة ضرورية بدهية أولية لا تحتاج إلىٰ اكتساب أو استدلال، وهذا هو الميثاق الذي يبدأ المرسلون خطابهم بالتأسيس عليه في نفس المتلقي لا بإثبات موضوعه نفسه ونصب البرهان عليه حتىٰ تحصل المعرفة به هو نفسه أولا! وإلا فلو لم يكن من الميثاق معرفة حاصلة في جبلة النفس البشرية في الحياة الدنيا (يتعين عليهم بمقتضاها أن يقبلوا رسالات المرسلين إذا ما بلغتهم)، ما قال جل وعلا: ﴿**أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٧٢]، أي حتىٰ لا يزعم أحدكم أنه لم يجد في نفسه ما يحمله علىٰ الجزم بأن له ربا خالقا وأن ذلك الرب الخالق لا يجوز أن يشرك به أحد من خلقه [1]، وأنه إن بعث رسولا وجبت طاعته فيما جاء به

(١) وقد كنت كتبت قديما في بعض مداخلاتي على شبكة الإنترنت ما يلي:

«لماذا لم يأت القرآن بجواب لشبهات الملاحدة كما جاء بجواب لكثير من شبهات المشركين؟ هل سألت نفسك هذا السؤال من قبل؟ السبب أيها الحبيب أن شبهات الملاحدة كلها من قبيل السفسطة العقلية المحضة التي لو انفتح الباب أمامها لما بقي في أصول العقل ما يمكن الاستناد إليه لمعرفة الحق من الباطل! فمع أن شبهات المشركين في غاية التهافت العقلي كذلك، إلا أن شبهة من ينفي وجود علة تامة محكمة لوجوده ووجود غيره من المخلوقات، مهما زينها وتفلسف في كتابتها فإنها لا تستحق أن تخاطب في القرآن أصلا! نعم

من أمره ونهيه وتكليفه! لن يجد أحد من البشر حجة بهذا المعنىٰ لأنه يجد في نفسه المعرفة الضرورية بهذه الواجبات العقلية، التي بها يمتاز التوحيد في نفسه عن الشرك، ودعاوىٰ المرسلين علىٰ دعاوىٰ الدجاجلة والسحرة والكذابين. والقصد أنه لا تأثير لحقيقة أننا لا نذكر واقعة أخذ الميثاق نفسه، علىٰ حقيقة أن المعرفة الفطرية مطبوعة في نفوسنا وأرواحنا علىٰ أثرها، والله أعلم.

وكما قلت في أول التعقيب، فإن غرض الأستاذ فودة في نصرة أصول المعرفة الكلامية لديه (أو إبستمولوجيا الكلام إن شئت) يظهر في آخر المقال، إذ يقول:

> وقد يدعي البعض أن الإنسان بأصل خلقته يكون عالما ببعض المعلومات، ويدعي المجسمة منهم أنه يكون عالما أن الله تعالىٰ في السماء، أو أنه علىٰ عرشه جالس، تعالىٰ عما يفترون، وهذا كله هراء، ولا قيمة له، فإن الله تعالىٰ يقول ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾

قد يشتبه على بعض العقلاء أن الله قد أمر الناس بعبادة غيره معه، أو أنه يحب ذلك ويقبله، ولكن كيف يشتبه على العقلاء وجود الصانع من عدمه بالأساس؟».

وأقول: ما أكثر ما يود أحدنا لو يرجع به الزمان حتى ينهى نفسه عن كتابة كثير مما كان قد كتب، والله المستعان! هذا الكلام يقتضي عند التدقيق ما صرحت به (أو كدت) في قولي: «قد يشتبه على بعض العقلاء أن الله قد أمر الناس بعبادة غيره معه»، والاشتباه - على هذا التفريق بين تلك المسألة ومسألة وجود الصانع - يعني أن أدلة وجود الباري أقوى (إجمالا) من أدلة استلزام الإشراك به المذمة والنقيصة في حقه، على طريقة المتكلمين في ادعاء أن كلتا المسألتين تحتاج العقول فيها إلى نصب الأدلة والبراهين النظرية! مع أن الواقع أنهما (أي كلتا المسألتين) من بدهيات العقل الأولى والمعارف الفطرية الكبرى التي جاء خطاب المرسلين بالتأسيس عليها عند السامعين بعد التذكير بها، لا بإثباتها بالبرهان الكلامي أو الفلسفي ابتداءً!

فلعل الصواب أن يقال لأداء المعنى الذي أردتُ إيصاله في تلك المداخلة: «إن السبب في عدم التطرق إلى الملاحدة والدهرية وفلسفاتهم بالرد عليها في القرآن، هو نفس السبب في عدم تناول فلسفات المشركين في تزيين وتسويغ عبادتهم ما عبدوا من دون الله تعالى بالرد والتفنيد: وهو أن القرآن ليس كتاب فلسفة وليس حجاجه كطريقة المتكلمين في الحجاج، وإنما تأتي بزلزلة النفوس البشرية ونفضها نفضا وتذكيرها ببدهياتها الأولى، التي منها أنها مخلوقة بالضرورة، وأن خالقها كامل الصفات بالضرورة، وأن إشراك شيء من خلقه به عدوان عليه بالضرورة، فجاء القرآن بتأسيس البشارة والنذارة على تلك المعاني الفطرية، حتى تقوم الحجة الرسالية على المخاطبين. فإذا كان المشرك الذي يؤمن بأنه مخلوق ولكنه يعبد غير الله معه ستزلزله آيات القرآن التي تذمه على التنقص من ربه، فمن باب أولى أن تنخلع قلوب من بلغ بهم جحودهم واستكبارهم أن أنكروا وجود باريهم بالكلية، إن أراد الله أن يُسمعهم أصلا، والله أعلم!

[**النحل**: ٧٨]..... وفي الآية الشريفة نص من الله العلي العزيز علىٰ أن الإنسان لا يكون عالما بأي شيء حين خروجه من بطن أمه، والدليل علىٰ ذلك أن نفىٰ علم أي شيء فقال: لا تعلمون شيئا، ومعلوم أن النكرة في سياق النفي تعمّ. فلا يجوز لواحد بعد ذلك أن يقول إن الله تعالىٰ قد أودع في نفوسنا بعض المعلومات.

قلت: هذا العموم في قوله تعالىٰ «لا تعلمون شيئا» تخصصه آية الميثاق ولا إشكال في ذلك علىٰ الاعتبار الذي بيناه. وإذا اعتبرنا أن العلم المنفي عن المولود إنما هو العلم المكتسب الذي لا يحصل إلا بالمشاهدة والسماع والتلقي الخارجي، فلا تخصيص أصلا، لأن نفي ذلك العلم الإضافي لا يلزم منه نفي العلم الفطري الجبلي! فالمعارف البدهية والفطرية كلها معارف ثابتة في النفس علىٰ الحقيقة، تدعمها خبرة الإنسان وتجربته الحسية التي تحصل له فيما بعد، ولا تعارض بين ثبوتها وبين قوله تعالىٰ «لا تعلمون شيئا» فالآية جاء في سياقها بعد هذا النفي مباشرة، قوله جل وعلا ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾، وهو ما يظهر منه أن العلم المقصود في الآية إنما هو العلم المكتسب الذي يحصل للإنسان بعدما يعقل ويميز من طريق السمع والبصر والفؤاد، لأن المنة بكل من (السمع والأبصار والأفئدة) هي منة بمصادر تلقي ذلك العلم المنفي في أول الآية، ولا علاقة لذلك بما يولد به الإنسان في أصل فطرته، فإنه لا يُكتسب من بعد فقد أصلا.

والملفت أنك ترىٰ الأستاذ يثبت لـ نسان أنه يعلم علما كليا (في أصل فطرته) يستحسن به كثيرا من الخصال التي وصفها النص بأنها من الفطرة (كسنن الفطرة)، ويستحسن بها جميل الخصال ويستقبح سقيمها إجمالا، بل إنه يشهد بأن الإنسان يجد في نفسه ما يحمله علىٰ اللجء إلىٰ الله تعالىٰ «أثناء مواجهته لعاصفة أو إعصار أو مصيبة، فهذا تتحرك نفسه نحو الله تعالىٰ»، فمن أين تأتي تلك الحركة إن لم يكن من معرفة جبلية حاصلة في النفس مسبقا مفادها أن الله وحده هو المتصرف في كل شيء لا شريك له، وإن كان ذلك اللاجئ إلىٰ السماء يتخذ مع الله من الشركاء في دينه ما يتخذ؟ ولماذا لم تلتزم بنفي تلك المعارف كلها لعموم الآية كما نفيت العلم الفطري بصحة

دين الإسلام؟ ما الذي يجعل المشرك المعاند يرفع يديه لربه في عرض البحر حين يشتد عليه الخطب، ولا يدعو غيره ممن يدين بألوهيتهم مع الله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورا﴾ [الإسراء: ٦٧]؟ أليست هذه معرفة جبلية مفادها أنه لن ينفعه علىٰ الحقيقة إلا الرب الذي في السماء وحده، الذي بيده مقاليد كل شيء؟ إما أن يكون ذلك التصرف عن معرفة حاصلة مسبقا في النفس وإما أن يكون عبثا وجهلا لا أساس له في عقل فاعله، فلو كان عبثا وجهلا كان من العبث والظلم أن يحتج الرب جل وعلا به علىٰ فاعله كما في هذه الآية ونحوها، فلزم أن يكون في النفس من المعرفة الجبلية ما تقوم به الحجة علىٰ صاحبها عند تذكيره بها.

قال الذهبي رحمه الله (العرش ١/ ١٥٣):

> فمن المعلوم أن الفطرة السليمة قد جبلت علىٰ الاعتراف بعلو الله سبحانه وتعالىٰ، ويظهر هذا الأمر عندما يجد الإنسان نفسه مضطرا إلىٰ أن يقصد جهة العلو ولو بالقلب حين الدعاء، وهذا الأمر لا يستطيع الإنسان دفعه عن نفسه فضلا عن أن يرد علىٰ قائله وينكر هذا الأمر عليه.
>
> ومن أجل ذلك لم يجد الجويني -إمام الحرمين- جوابا حين سأله الهمداني محتجا عليه بها، فقد ذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الاستاذ أبا المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول: «كان الله ولا عرش، وهو الآن علىٰ ما كان». فقال الشيخ أبو جعفر: «يا أستاذ دعنا من ذكر العرش -يعني لأن ذلك إنما جاء في السمع- أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف تدفع هذه الضرورة علىٰ قلوبنا؟
>
> قال: فلطم أبو المعالي علىٰ رأسه، وقال: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني!

قلت: والمعرفة الجِبلية الفطرية هي أساس حجية القرآن من الأساس كما بينا، فلو لم يكن في النفس معرفة بوجوب الكمال لرب العالمين ومنه وحدانيته وتفرده بعبادة مخلوقاته إياه بلا شريك، ما قامت حجة القرآن علىٰ المخاطبين به أصلا!

وفي هذا السياق، وعلىٰ ذكر ما يفضي إليه داعي الفطرة في نفس المشرك أحيانا من لجء لله وحده لا شريك له، يطيب لي أن أسأل الأستاذ فوده كما سأل الهمداني الجويني، إلىٰ أي وجهة تراه يذهب بوجهه ذلك المشرك في تلك الحالة؟ هل تراه يرمي بوجهه إلىٰ بطن الأرض (أو البحر) تحت رجليه أم إلىٰ السماء من فوقه، أم يتوجه بالدعاء إلىٰ صخرة أو شجرة أو إلىٰ غير ذلك من المخلوقات التي تحيط به؟ لا أحسبك تبلغ بك المكابرة أن تزعم أنه يتوجه ببصره ووجهه إلىٰ الأرض تحت رجليه! فما سبب توجهه إلىٰ السماء إذن؟ لأن فطرته التي حركته لابتغاء وجه ربه، هي نفسها التي دلته علىٰ أن وجه ربه في السماء، فوق خلقه جميعا، في جهة العلو حقيقة لا مجازا! ولولا كون هذا المعنىٰ من الكمال الواجب مركوزا في فطرتنا ما عرفنا بالبداهة الأولىٰ أن الله تعالىٰ لا يصح أن يحلّ بشيء من خلقه ولا أن يكون هو عين خلقه ولا أن يكون مخالطا لشيء من مخلوقاته محايثا لهم، إلىٰ غير ذلك من ملل الوثنيين التي نعرف بطلانها بادي الرأي (أو بأول العقل) بمجرد التدبر في تحرير تلك العقائد عند أصحابها، أو فيما يقتضيها من أفعالهم وعباداتهم! بل لولا معرفتنا الضرورية ببعض صفات الله جل وعلا من قبل الوحي، ما استقام لكم معاشر الأشاعرة ما قلتم به من تقسيم الصفات فجعلتم منها سبعا أزلية واجبة بوجوب ذاته تعالىٰ وبمقتضىٰ كونه العلة التامة لكل حادث، وهي الحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام!

ولكن الأستاذ يريد الانتصار لبدعته، فيلتمس إلىٰ ذلك كل سبيل. ونقول له: علو الذات الإلهية فوق السماوات من معاني الكمال التي جُبل الناس علىٰ معرفتها بداهة، وأنت نفسك تضطر للاعتراف بها ضمنا في كل مرة ترفع كفيك إلىٰ السماء في الدعاء (إن كنت ممن يتعبدون لله علىٰ السنة!)، لا أنها من «الهراء» و«الافتراء» و«التجسيم» وغير ذلك من عدوان المتكلمين الذي طالوا به رسول الله ﷺ نفسه من حيث لا يشعرون! أما سمعت أن النبي عليه السلام سأل جارية جاء بها سيدها ليعتقها (والحديث في صحيح مسلم) فقال لها: أين الله؟ فقالت: في السماء، قال من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة»؟ إن لم تكن قد سمعت به فتلك مصيبة، وإن كنت سمعت به فالمصيبة أعظم!

أما مسألة «الجلوس فوق العرش» فالجلوس ثابت عن بعض الصحابة ﷺ (وعلىٰ رأسهم عمر بن الخطاب ﷺ)، الذين لا نبلغ أنا ولا أنت – يا أستاذ فودة – أن نكون نعلين في قدمي أحدهم، لا في إيمانهم ولا في علمهم بالله تعالىٰ ولا في تنزيههم ربهم جل وعلا عن كل نقيصة! ومع هذا فلم نقل إن الاستواء أو الجلوس (عند من يثبته) من المعاني الفطرية الجبلية التي نجدها في نفوسنا قبل مجيء الشرع، وإنما جاءنا العلم بالعرش والكرسي وبما صنع الله بهما بعد أيام الخلق الستة من السمع لا من غيره، فلا تخلط الأوراق علىٰ الناس!

وفي نهاية البحث يقول:

> فإن قال قائل: فبماذا ثبت الدين الإسلامي عندنا حتىٰ قام حجة في تفاصيله علىٰ البشر. قلنا إن الإسلام ثبت أنه هو الدين الحق بالمعجزات التي قامت دليلا علىٰ نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. وأيضا بما اشتمل عليه من أدلة داخلية علىٰ أنه يستحيل أن يكون من عند البشر، فثبت أنه من عند خالق البشر. وذاك لأنه يشتمل علىٰ تعاليم عالية ومعارف لا يمكن للبشر أن يتوصلوا إليها، ونحن كل يوم ما زلنا نكتشف جانبا من جوانب إعجاز القرآن العظيم. وقد عرفنا ذلك كله بالعقل. وأدركنا وجود القرآن بالحس، فثبت أن الشريعة قد ثبتت حجيتها علىٰ البشر جميعا بأساليب المعرفة التي تم الإشارة إليها.

قلت: حيدة واضحة! وإلا فكيف عرفت من الابتداء يا أستاذ أن ما في الإسلام من معارف «عالية»: لا يمكن أن يصل إليه البشر استقلالا، إن لم يكن في قلبك من الأصل معرفة جبلية تحكم بها بصحة التوحيد وبطلان الشرك بداهة؟ لولا أن جاء القرآن موافقا لما هو مركوز في فطرتنا من معرفة باطنة بربنا تبارك وتعالىٰ (ما يجب له وما لا يجوز عليه)، ما قامت للقرآن حجة علىٰ الناس أصلا، وما كان هو معجزة الرسول الخاتم ﷺ الباقية إلىٰ قيام الساعة! هذا ما نعرف به أنه كتاب رب العالمين، لا بتكلف النظر ولا بالإعجاز العلمي ولا بغير ذلك! فصحيح إن الحس والعقل كان لهما عمل في تحصيل تلك المعرفة المكتسبة بأن القرآن حق، إلا أنها ما كانت لتحدث في النفس عبر تلك الحواس لولا أن سبقتها معرفة جبلية فطرية انفرد القرآن بكونه الكتاب الوحيد المنسوب

إلىٰ رب العالمين الذي يطابقها تمام المطابقة ويلائمها تمام الملاءمة، والحمد لله رب العالمين.

وآية ما عند الأشاعرة من تناقض في مسألة الفطرة وحجيتها المعرفية، تظهر لك في موقفهم وتعريفهم للمعرفة الضرورية، وتفريقهم بينها وبين النظرية.

قال الباقلاني في الإنصاف (ص. ١٣): «فالضروري [أي العلم الضروري] ما لزم أنفس الخلق لزوما لا يمكنهم دفعه والشك في معلومه، نحو العلم بما أدركته الحواس الخمس، وما ابتدئ في النفس من الضرورات. والنظري منهما: ما احتيج في حصوله إلىٰ الفكر والروية، وكان طريقه النظر والحجة، ومن حكمه جواز الرجوع عنه والشك في متعلقه» اهـ.

قلت: تأمل قوله «أنفس الخلق»، فهو هنا يجعل علم النوع المخلوق (أي نوع مخلوق) علىٰ صنفين لا ثالث لهما: علم لا يملك له العاقل منهم دفعا ولا تكذيبا، سواء كان حاصلا في النفس من طريق الحس، أو من طريق البداهة الأولية، وعلم يحتاج حصوله إلىٰ تفكر وترتيب أدلة وتدبر ومحاجة وموازنة .. إلخ. ومفهوم الكلام كما ترىٰ أن العلم الضروري هو العلم البدهي الذي لا يتصور في المخلوق العاقل أن يكذبه أو يماري فيه، وأنه لو ادعىٰ احتياجه إلىٰ الاستدلال عليه فهو كاذب مارٍ! وهذا جيد من حيث التنظير والتقسيم، ولكن عند التطبيق الكلامي والفلسفي، ترىٰ المتكلم أو الفيلسوف (علىٰ السواء) لا يزعم عند المناظرة أن دعوىٰ من الدعاوىٰ لا يظهر له دليلها، إلا التزم خصمه بمعاملتها كمسألة نظرية (إن كان يشتهي مناظرته ومغالبته والظهور عليه بأدوات النظر الفلسفي)، ولو كانت من أظهر البدهيات، اللهم إلا إن كان لا يرىٰ لنفسه أو لفريقه منفعة ظاهرة في تكلف ذلك التنظير الإضافي الذي طالبه به الخصم، فتراه إذن يسارع إلىٰ اتهامه بالمكابرة واتباع الهوىٰ وجحد الضروريات، ويقطع معه المناظرة فورا! أولو كان مجرد طرح المسألة نفسها للمناظرة من المكابرة واتباع الهوىٰ وجحد الضروريات؟!

فالحاصل أن واقع الممارسة الفلسفية (والكلامية تبعا) مغرق في النظر المتنطع الفاسد الذي لا يحتاج إليه عاقل أصلا، مع ادعاء الضرورة العقلية في مقدمات هي أخفىٰ وأعسر وأبعد غالبا عن الذهن السوي وأغرق في المجملات من الدعوىٰ نفسها المراد إثباتها، التي بدأ المتناظران بالتوافق – بمقتضىٰ مبدأ عقد المناظرة نفسه بينهما – علىٰ عدها من جملة المسائل النظرية (كمسألة حدوث العالم ووجود الصانع مثلا)! وهذه حقيقة لا يماري فيها إلا مكابر! وإذن فلا قيمة لادعاء المتكلم أن العلم الضروري عنده هو ما لا يملك العاقل (أي كل من استحق اسم العقل) دفعه عن نفسه، لأنه مطالب بموجب موضوع صنعته نفسها التي تخصص فيها (الكلام) أن يقبل المناظرة علىٰ أشد دعاوىٰ الناس نقضا للبداهة والفطرة والضرورة العقلية (ألا وهي دعوىٰ عدم وجود الباري جل وعلا، وأننا جئنا إلىٰ العالم من غير سبب)، ما دام يرجو لنفسه انتصارا بها علىٰ الخصم المكابر!

هو يبدأ من البداية بنقض ذلك التعريف للضروريات رأسا، بمجرد أن يشرع في تلكم المناظرة، فما فائدته وما قيمته إذن؟ واقع الأمر أن الدعوىٰ لا تنسب إلىٰ الضرورة (سواء عند الفيلسوف أو المتكلم) إلا إن كان دفع الاعتراض الفلسفي النظري عليها مما يعييه ويتعذر عليه، أو إن كان مجرد طرحها للنظر مما يرجع عليه بكلفة لا يطيقها أو لا يرىٰ لنفسه في ذلك النظر طريقا يحقق به من التناسق الداخلي لنظرياته وبراهينه وحدوده وتعاريفه ما يبقيه علىٰ اعتقاده الذي يرىٰ الضرر الاجتماعي البالغ في إعلان الزوال عنه! وهذه قضية يأتي معنا تحليلها سيكولوجيا واجتماعيا في قسم لاحق من هذا الكتاب، بعون الله تعالىٰ. وإلا فما أكثر ما يكون موضوع الجدل المراد إثباته بين المتناظرين (في الفلسفة والكلام) أظهر في البداهة الأولىٰ من تلك المقدمات المراد إثباته من طريقها، التي يتكلفها الفيلسوف أو المتكلم تكلفا طويلا، ثم تراه يدعي – مع ذلك – وضوحها وسهولتها بل وأنها من الضرورات أو يشبه جحدها أن يكون جحدا للضرورات، والله المستعان! فها هنا أيها القارئ الكريم أصل الخلل المعرفي والعقلي في كلتا الصناعتين: الفلسفة والكلام، فتدبر.

وعند أبي المعالي الجويني تجد محاولة للتفريق بين الضرورة والبداهة يتراجع عنها في نفس موضع تقريرها، إذ يقول: «العلم الحادث [أي علم المخلوق] ينقسم إلىٰ الضروري والبديهي والكسبي. فالضروري هو العلم الحادث غير المقدور للعبد مع الاقتران بضرر أو حاجة، والبديهي كالضروري غير أنه لا يقترن بضرر ولا حاجة، وقد يسمىٰ كل واحد من هذين القسمين باسم الثاني، ومن حكم الضروري في مستقر العادة أن يتوالىٰ فلا يتأتىٰ الانفكاك عنه والتشكك فيه، وذلك كالعلم بالمدركات وعلم المرء بنفسه والعلم باستحالة اجتماع المتضادات ونحوها، والعلم الكسبي هو العلم الحادث المقدور بالقدرة الحادثة.» (الإرشاد ص. ١٣/ ١٤).

قلت: تأمل كيف انتهىٰ إلىٰ جعل الضروري مما يحدث في النفس بدون قدرة أو كسب من المخلوق، أي أنه لا يعقل ولا يعي إلا يجد تلك المعارف ثابتة لديه فورا عند ذكرها، وهذا ما نقول نحن به في المعارف الفطرية الجبلية التي يجدها الإنسان في نفسه دون كلفة أو اكتساب، وإنما تصاغ لديه في قالبها اللغوي بمجرد أن يعي لسان قومه، ويجد الداعي للعبارة عنها لفظيا! وهم يلزمهم من هذا التعريف أن يوافقونا علىٰ إثبات حجية الفطرة، وعلىٰ تقرير كفايتها لكل عاقل في معرفة وجود الباري جل وعلا بمجرد أن يعقل، لأنها من جملة المعارف التي تحصل عند العقلاء دون نظر أو كلفة استدلال، كما يعرفه كل صادق متجرد منهم إن تأمل في إيمانه هو نفسه بوجود من صنعه قبل أن يتعلم الكلام ويصبح متكلما متفلسفا، كيف حصل ذلك العلم في نفسه هو ومن أين جاء به؟! ومع ذلك تراهم يسقطون الفطرة كمحتوىٰ معرفي جبلي، مع أنها هي منبع البداهة والضرورة نفسها من حيث كونها معرفة «غير مقدورة» للمخلوق ولا يتأتىٰ الانفكاك عنها! الإنسان يجد في نفسه ما يجد من البداهة والضرورة لأنه مجبول (مفطور) علىٰ أن يجده عالما بصحة البدهيات والضروريات، غير مفتقر إلىٰ اكتسابها بأيما طريق كان!

وتأمل كيف استشعر إمام الحرمين رحمه الله أن الضرورة العقلية مرتبطة (عند إطلاقها علىٰ دعوىٰ من الدعاوىٰ) بغاية استصلاحية لدىٰ المتكلم، سواء كانت حاجة يجلبها إلىٰ نفسه أو ضرورة يرجو دفعها! فلما أراد أن يفرق بين «العلم الضروري» وما

سماه بـ«البديهي»، جعل هذا الأخير غير متعلق بحاجة أو ضرورة. ثم رجع ليقول إن الضرورة قد تعد بديهة غير ضرورية أحيانا والبديهة قد تعد ضرورة، جريا علىٰ دواعي الحاجة! فما حقيقة الحاجة والضرورة هنا وما وجهها علىٰ التحقيق؟ هذا سؤال لا ضابط لجوابه عند المتكلمين إلا ما تمليه عليهم أغراضهم من خوض ما يخوضون من أنواع المناظرات والمخاصمات والمعارك الفلسفية. فإن قدرنا أن كان برهان الحدوث الذي تكلفه أحدهم، لا يثبت ولا يستقيم عند استعماله في مناظرة الملحد إلا علىٰ التسليم بصحة نظرية ميتافزيقية معينة في مقدمة من مقدماته، فقد لزم أن تصبح صحة تلك النظرية من الضروريات عنده! ولهذا قد يضطر المتكلم إلىٰ اختراع التعاريف والحدود الميتافزيقية التي تتخذ بديلا لفهم كافة العقلاء لمعنىٰ هذه اللفظة أو تلك، حتىٰ يصبح لديه مستند معجمي عند المنازعة علىٰ تلك المقدمات وما استعمله فيها من ألفاظ، ويصبح من غير المقبول من خصمه أن يخالفه فيها، لأنه إذن يكون مخالفا في بداهة اللغة نفسها!

اللهم إلا إن جاءه الخصم بتعريف مقابل، ثم اضطره للمناظرة عليه، فحينئذ يخنس عن دعوىٰ الظهور البدهي التي قال بها أولا، ثم يلجأ مضطرا إلىٰ تكلف مزيد من الاستدلال والرد والجدال! فلعله حينئذ يضطر إلىٰ الاعتراف بأن الدعوىٰ وإن كانت ضرورية بالنسبة لنظريته أو برهانه، إلا أنها ليست بديهية، علىٰ الأقل بالنسبة لخصمه! فكل مسألة يقبل المتكلم فتحها للجدال والمناظرة مع خصومه، ولا يضيره تسويغ الخلاف عليها بينه وبين الأقران، فهي عنده نظرية لا ضرورية، وإن كانت من أظهر مسلمات البداهة عند كل عاقل عافاه الله من تخاليط الفلاسفة! ولهذا لم يجد الجويني بدا بعدما فرق ذلك التفريق (بين ما سماه بالضروري وما سماه بالبديهي)، من تجويز التسوية بين القسمين، بحيث يقال للضروري بديهي أحيانا، وللبديهي ضروري، كما في قوله «وقد يسمىٰ كل واحد من القسمين باسم الثاني».

وفي موضع آخر تراه يصرح بأن التفريق بين الضروري والظني لا حاصل له أصلا، لأن العلوم كلها ضرورية عنده.[1] ذلك أن الضرورة عنده تأتي علىٰ معنىٰ اضطرار العقل

(١) البرهان في أصول الفقه، ١/ ٢٦.

للتسليم بصحة الدعوىٰ، لدلالة الدليل عليها، وهو ما يجده كل ناظر في نفسه بمجرد أن يغلب علىٰ ظنه رجحان أدلته في أي مسألة. وإنما تتفاوت آحاد المعلومات في سهولة درك دليلها أو صعوبته علىٰ الناظر المستدل بعينه، سواء لخصيصة في المعلوم نفسه أو في آلة إدراكه عند الناظر المعين. وإذن، وعلىٰ هذا المذهب، فليس لأحد أن يدعي أن من المسائل ما يعد من جملة البديهيات التي لا ينبغي أن تخفىٰ علىٰ عاقل، ولا يماري فيها إلا جاحد مكابر! فطريق حصول المعرفة في النفس واحد عند الجويني (الاكتساب)، وإنما تتفاوت المعارف في قوة ظهورها أو خفائها بتفاوت العقول، فتأمل.

وقد انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ تقسيم المتكلمين المعارف إلىٰ ضروري ونظري، بالنظر إلىٰ استعمالهم تلك القسمة لنصرة بدعهم واتباعهم أهواءهم فيها، ليس هذا وحسب، بل تكفيرهم من خالفوهم في أي نظرية أو مقدمة من مقدمات براهينهم الكلية المحدثة التي أسسوا عليها دينهم، ثم جعلوها من الضروريات وقطعيات العقل التي لا يجوز نقضها! فهو يستنكر طريقة المتكلمين (التي هي نفسها طريقة الفلاسفة) في التماس الدعاوىٰ الكلية المستنبطة بالنظر العقلي، ثم عدهم إياها من الضروريات التي من جحدها فقد جحد قطعيات العقول، يتكلف الواحد منهم ما يتكلف في اختراع تلك الدعاوىٰ والنظريات والشقشقات عند مناظرة المخالفين، ثم يمد رجليه علىٰ أريكته ويقول: «هذه من ضروريات العقل التي لا يصح أن يخالف فيها مخالف»! أو «هذه مما اتفق العقلاء كافة علىٰ صحته»، أو «هذه من قطعيات العقل التي من جحدها فقد جحد البداهة»! فإن خولف ونوقش في بعضها من بعض أقرانه أو أساتذته، رأيته يفتحها للنظر والاستدلال وهو راغم، وقد يضطر لتسويغ الخلاف عليها! بل وتراه يجعلها – هي نفسها – من الضروريات والقطعيات في مناظرة ويجعلها من الظنيات والنظريات في مناظرة أخرىٰ! وقد بينا في هذا الكتاب وغيره بحول الله تعالىٰ وقوته، أن ذلك التلاعب في مفهوم البداهة العقلية إنما يرجع إلىٰ طبيعة صنعة الكلام نفسها، وأنواع المسائل التي أجاز أصحابها فتح باب النظر والاستدلال فيها من الأساس!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٩/ ٧٩ - ٨٠)، مستنكرا منهج الفلاسفة والمتكلمين في جعل القياس المنطقي مدخلا لحصول كافة أنواع المعارف:

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يُقَالَ: إذَا كَانَ لَا بُدَّ فِي الْقِيَاسِ مِنْ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ وَالْحِسُّ لَا يُدْرِكُ الْكُلِّيَّاتِ وَإِنَّمَا تُدْرَكُ بِالْعَقْلِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً بِقِيَاسٍ آخَرَ لِمَا يَلْزَمُ مِنْ الدَّوْرِ أَوْ التَّسَلْسُلِ. فَلَا بُدَّ مِنْ قَضَايَا كُلِّيَّةٍ تُعْقَلُ بِلَا قِيَاسٍ كَالْبَدِيهِيَّاتِ الَّتِي جَعَلُوهَا. فَنَقُولُ: إذْ وَجَبَ الِاعْتِرَافُ بِأَنَّ مِنْ الْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ مَا يَبْتَدِئُ فِي النُّفُوسِ وَيَبْدَهُهَا بِلَا قِيَاسٍ وَجَبَ الْجَزْمُ بِأَنَّ الْعُلُومَ الْكُلِّيَّةَ الْعَقْلِيَّةَ قَدْ تَسْتَغْنِي عَنْ الْقِيَاسِ. وَهَذَا مِمَّا اعْتَرَفُوا بِهِ هُمْ وَجَمِيعُ بَنِي آدَمَ: أَنَّ مِنْ التَّصَوُّرِ وَالتَّصْدِيقِ مَا هُوَ بَدِيهِيٌّ لَا يَحْتَاجُ إلَىٰ كَسْبٍ بِالْحَدِّ وَالْقِيَاسِ وَإِلَّا لَزِمَ الدَّوْرُ أَوْ التَّسَلْسُلُ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَنَقُولُ: إذَا جَازَ هَذَا فِي عِلْمٍ كُلِّيٍّ جَازَ فِي آخَرَ إذْ لَيْسَ بَيْنَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَمَ ابْتِدَاءً مِنْ الْعُلُومِ الْبَدِيهِيَّةِ وَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْلَمَ فَصْلٌ يَطَّرِدُ؛ بَلْ هَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ قُوَّةِ الْعَقْلِ وَصَفَائِهِ وَكَثْرَةِ إدْرَاكِ الْجُزْئِيَّاتِ الَّتِي تُعْلَمُ بِوَاسِطَتِهَا الْأُمُورُ الْكُلِّيَّةُ. [1] فَمَا مِنْ عِلْمٍ مِنْ الْكُلِّيَّاتِ إلَّا وَعِلْمُهُ يُمْكِنُ بِدُونِ الْقِيَاسِ الْمَنْطِقِيِّ. فَلَا

---

(١) وكلامه في هذا الموضع رحمه الله هو في بيان ضرورة وجود معارف كلية في النفس لا تفتقر إلى قياس أو اكتساب أو نظر! وهي معارف لا يحتاج الإنسان إلى من يخبره بأنها بدهية عنده، ولا يحتاج الإنسان أصلا إلى من يقسم له آحاد موضوعات معرفته ليبين له أن هذه الدعوى تحتاج إلى نظر وكسب وهذه لا تحتاج، فمسألة الاحتياج إلى النظر تتفاوت فيها العقول ولا شك، وبعض الدعاوى أظهر لبعض الناس من غيرهم، وهذا معروف. ومع هذا، فالشيخ يثبت جملة من المعارف البدهية الفطرية التي لا تخفى على عاقل، وهو كما ترى ينتصر بهذا الكلام على من يزعمون أن من المعارف الكلية الصحيحة في نفسها، ما يتوقف حصوله في النفس على التزام طريقة الفلاسفة والمتكلمين في القياس المنطقي (كما تكلفوه من براهينهم في ذلك)! فيقرر أن ما كان من تلك الدعاوى الكلية واضحا في معناه جليا ظاهرا، فهو حاصل في نفوس العقلاء ابتداء بالبداهة دون تكلف أصلا، وهذه لا يسعهم أن يخالفوا فيها لأن المخالفة يلزم منها الوقوع في تسلسل الأدلة وهم يمعنونه! ومع ذلك فجميع كليات المتكلمين في مقدماتهم وحدودهم يراد لها أن تكون من الضروريات البدهية التي تظهر صحتها بمجرد تدبر معانيها (كما يكون في باب الحدود الكلامية مثلا، كتعريفهم للحد والحيز والجسم والمكان .. إلخ)، فإن صح أن كانت كذلك، فأي شيء يدعو العاقل لتكلف القياس المنطقي للوصول إليها من الأساس؟ هذا ما يستنكره الشيخ رحمه الله تعالى، وهو من دقة نظره وقوة إدراكه لأصل الخلل في منهج المتكلمين خاصة والفلاسفة والمنطقيين عامة (أعني منهجهم المعرفي: مفهوم المعرفة لديهم وطرق حصولها)!

يَجُوزُ الْحُكْمُ بِتَوَقُّفِ شَيْءٍ مِنَ الْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ عَلَيْهِ. وَهَذَا يَتَبَيَّنُ: بِالْوَجْهِ الرَّابِعِ وَهُوَ أَنْ نَقُولَ: هَبْ أَنَّ صُورَةَ الْقِيَاسِ الْمَنْطِقِيِّ وَمَادَّتَهُ تُفِيدُ عُلُومًا كُلِّيَّةً، لَكِنْ مِنْ أَيْنَ يُعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ الْكُلِّيَّ لَا يُنَالُ حَتَّىٰ يَقُولَ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّفُونَ الْقَافُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ هُمْ وَمَنْ قَلَّدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ وَعُلَمَائِهِمْ: إِنَّ مَا لَيْسَ بِبَدِيهِيٍّ مِنَ التَّصَوُّرَاتِ وَالتَّصْدِيقَاتِ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالْحَدِّ وَالْقِيَاسِ، وَعَدَمُ الْعِلْمِ لَيْسَ عِلْمًا بِالْعَدَمِ. فَالْقَائِلُ لِذَلِكَ لَمْ يَمْتَحِنْ أَحْوَالَ نَفْسِهِ. وَلَوْ امْتَحَنَ أَحْوَالَ نَفْسِهِ لَوَجَدَ لَهُ عُلُومًا كُلِّيَّةً بِدُونِ الْقِيَاسِ الْمَنْطِقِيِّ وَتَصَوُّرَاتٍ كَثِيرَةً بِدُونِ الْحَدِّ. وَإِنْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ بَنِي جِنْسِهِ فَمِنْ أَيْنَ لَهُ أَنَّ جَمِيعَ بَنِي آدَمَ – مَعَ تَفَاوُتِ فِطَرِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَمَوَاهِبِ الْحَقِّ لَهُمْ – هُمْ بِمَنْزِلَتِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَمْنَحُ أَحَدًا عِلْمًا إِلَّا بِقِيَاسٍ مَنْطِقِيٍّ يَنْعَقِدُ فِي نَفْسِهِ حَتَّىٰ يَزْعُمَ هَؤُلَاءِ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا كَذَلِكَ بَلْ صَعِدُوا إِلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَزَعَمُوا أَنَّ عِلْمَهُ بِأُمُورِ خَلْقِهِ إِنَّمَا هُوَ بِوَاسِطَةِ الْقِيَاسِ الْمَنْطِقِيِّ. وَلَيْسَ مَعَهُمْ بِهَذَا النَّفْيِ الَّذِي لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ مِنْ حُجَّةٍ إِلَّا عَدَمُ الْعِلْمِ فَيَدَّعُونَ الْعِلْمَ وَقَدْ تَكَلَّمُوا بِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ السَّالِبَةِ الَّتِي تَعُمُّ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَهُ إِلَّا اللَّهُ بِلَا عِلْمٍ لَهُمْ بِهَا أَصْلًا: وَيَزِيدُ هَذَا بَيَانًا:

الْوَجْهِ الْخَامِسِ: وَهُوَ أَنَّ الْمَبَادِئَ الْمَذْكُورَةَ الَّتِي جَعَلُوهَا مُفِيدَةً لِلْيَقِينِ – وَهِيَ الْحِسِّيَّاتُ الْبَاطِنَةُ وَالظَّاهِرَةُ وَالْبَدِيهِيَّاتُ والتجريبيات وَالْحَدْسِيَّاتُ – لَا رَيْبَ أَنَّهَا تُفِيدُ الْيَقِينَ الْحِسِّيَّ. فَمِنْ أَيْنَ لَهُمْ أَنَّ الْيَقِينَ لَا يَحْصُلُ بِغَيْرِهَا؟ لَا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ عَلَىٰ النَّفْيِ حَتَّىٰ يَصِحَّ قَوْلُهُمْ: لَا يَحْصُلُ الْيَقِينُ بِدُونِهَا. فَهَذَا صَحِيحٌ لَكِنَّهُ لَيْسَ هُوَ قَوْلَ رُءُوسِهِمْ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَإِيمَانٌ يَجِبُ أَنْ يُخَالِفَهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ الْخَارِجِ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ. وَمِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ صَارَ مُنَافِقًا وَتَزَنْدَقَ مَنْ نَافَقَ مِنْهُمْ. وَصَارَ عِنْدَ عُقَلَاءِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ وَغَيْرِهِمْ: أَنَّ الْمَنْطِقَ مَظِنَّةُ التَّكْذِيبِ بِالْحَقِّ وَالْعِنَادِ وَالزَّنْدَقَةِ وَالنِّفَاقِ

قلت: ولن تزال تجد في كلام العلماء – بما فيهم ابن تيمية نفسه رحمه الله – تقريرا في وصف مسألة من المسائل بأنها بديهية، وفي مسألة أخرىٰ بأنها مشتبهة متقاربة، كما لن تزال تجد في كلامهم تقريرا في قضية من القضايا إنها من مسائل الأصول الكلية، وفي قضية أخرىٰ إنها من الفرعيات والجزئيات، فلا يكن موقفك ممن يستعمل تلك التقسيمات والتفريقات قائما علىٰ قبول أو رد مجرد التقسيم (كمبدأ)، وإنما علىٰ قاعدة هذا العالم أو ذاك وشرطه في التقسيم (أصوله المعرفية الكلية)، وتحريره لما يريد من

ذلك التقسيم وما ينتهي به إليه، فإن كان حقا وخيرا فاقبله منه وإلا فلك أن ترد عليه.
وفي هذا الكتاب الذي بين يديك، أنكرنا بحول الله وقوته علىٰ الفلاسفة أصل دعواهم أن وجود باريهم وحدوث هذا العالم من المسائل الخفية التي تحتاج إلىٰ استدلال عقلي عند أحد من بني آدم، أو إلىٰ مقدمات كلية بدهية تكون أوضح منها وأجلىٰ، بحيث تقربها إلىٰ أذهانهم إذا جُمعت إلىٰ بعضها البعض بالقياس المنطقي، فهل يقال إن دعوانا فطرية وبداهة بعض المسائل، قد جرينا بها علىٰ تلك الطريقة التي استنكرها ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ علىٰ المتكلمين والفلاسفة؟ أرجو أن الجواب واضح إن شاء الله تعالىٰ.

فصل: إطلاق نسبية الضرورة عند المتكلمين

سئل «محمد أكرم أبو غوش» (وهو من تلامذة الأستاذ «سعيد فودة») في معيار العلم الضروري هذا السؤال (في صفحته علىٰ موقع «آسك»): «ما المعيار في كون هذا المعلوم نظري أو ضروري؟ إن قيل: المعيار إذعان النفس. قيل: فإذا قال أحدهم أن نفسي لا تذعن لهذا الذي تدعونه ضروريا (كثبوت حقائق الأشياء) فما العمل؟ لا يقال بالاستدلال إلىٰ إذعان سائر البشر وإلا صارت مغالطة التوسل بالأغلبية والأكثرية»

فأجاب قائلا:

> أخي إنَّ الحكم بكون حكم ما ضروريا أو نظريّا نسبيٌّ... فالنَّظريُّ ما يُحتاج في التَّوصُّل إليه إلىٰ التَّأمُّل والتَّفكير والنَّظر. والضَّروريُّ ما لا يُحتاج فيه إلىٰ ذلك. وقد يكون شيء ما ضروريا عندي نظريا عندك، أو العكس.
>
> وقد يكون إدراك شيء ما ضروريا عند الحيوان نظريا عندنا، مثلا رؤية الدِّيك للملائكة عليهم السلام. فإدراك الدِّيك لوجودهم عليهم السلام ضروريٌّ لأنَّه بالمشاهدة، وعندنا نظريٌّ لأنَّنا علمنا بوجودهم عليهم السلام بالدَّليل بثبوت كون القرآن الكريم من عند الله تعالىٰ. ومثال شيء فيما بين أيدينا أنَّني يمكن أن أحسب حرارة الغرفة عندي بتطبيق معادلات الانتقال الحراريِّ وفق معطيات أوَّلية، ويمكن أن أعرف الحرارة (بدقَّة ما) بحسِّي من غير أن أفكِّر وأتأمَّل أصلا، أو فقط بمشاهدة ميزان حرارة معلق علىٰ الحائط. ومثال آخر بأنَّ ٤+٢=٦ ضروريٌّ عندي وعندك، لكنَّه عند الطِّفل الصغير نظريٌّ، فيضمُّ أصابع يديه بالعددين ويعيد عدَّها كلَّها.

قلت: هذا السؤال مع جوابه يكشف للقارئ الكريم أصل العلة والخلل في صنعة الفلسفة منذ زمان أفلاطون وأرسطو وإلىٰ يوم الناس هذا، وفي صنعة اللاهوت والكلام تبعا، ووجه التلازم الذي نزعمه بين الصنعتين (الفلسفة والكلام) في ركوب ذلك الخلل المعرفي العظيم. فإنه إذا كان الإلزام في المناظرات لا يحصل إلا بإرجاع الدعاوىٰ المراد الانتصار لها إلىٰ «الضروريات العقلية الأولىٰ» والبديهيات الواضحة

حتىٰ يتحصل الثبوت المنصرم، فإنه يجب أن تكون تلك الضروريات العقلية معان صحيحة في نفسها لا تفتقر إلىٰ بذل ذهني أو عمل نظري للوصول إلىٰ الحكم بصحتها عند من يفهمها بلسانه! بمعنىٰ أنه ما من عاقل إلا وهو يعلم صحتها ابتداء لا محالة، بمجرد اتصافه بالعقل، وإلا لم يصح أن ينسب إلىٰ العقل والعقلاء أصلا، سواء كان ذلك النقص فيه من عطب في آلة الفكر لديه أو من مرض في قلبه وهوىٰ متجذر في نفسه يصده عن التسليم بتلك المعاني الضرورية. هذا هو المطلوب لحصول الإلزام في المناظرات، بل لمطلق مبدأ المناظرة نفسه، وإلا لم يلزم أحد أحدا بشيء أصلا، وجاز للمعاند أن يزعم اشتباه جميع الحجج والدلائل التي يأتيه بها خصمه أبد الدهر، في أيما مسألة شاء، دون أن يكون لأحد أن يتهمه بالمكابرة أو جحد الضرورة أو المعاندة أو اتباع الهوىٰ! فإنما تأتي التهمة من شناعة المخالفة، ولا تستشنع المخالفة إلا إن كان الفرض أنها لا يماري في جلائها وصحتها من صح عقله وسلم من أسباب العطب! وهو ما يقتضي بالضرورة وجوب الجزم بوجود معان صحيحة بنفسها، لا تنقل إلىٰ الإنسان بلسانه إلا وجب عليه الإذعان لصحتها، وإلا لحقت به التهمة وجوبا! فصحيح إن كثيرا من الضروريات يصح وصفه بالنسبية في درجة الجلاء والظهور بالنظر إلىٰ تفاوت الأحوال والمعارف، إلا إنه يجب الجزم بوجود ما هو بديهي بداهة مطلقة لا يماري فيها ولا يزعم خفاءها عليه إلا كذاب مماحك! ولهذا اضطر عمانويل كانط إلىٰ تقسيم المعارف البديهية إلىٰ قسمين، قسم سماه بالتحليلي Analytic ويعني به ما تعرف صحته عند كل أحد بمجرد سماعه، وقسم سماه بالاكتسابي Synthetic وهو ما يحتاج التوصل إلىٰ تبين صحته البديهية إلىٰ ترتيب منطقي مخصوص قد تتفاوت في دركه الأذهان (ومثاله الحكم بصحة القول بأن حاصل جمع العدد ٥٦٩ والعدد ٨٦٣، هو العدد ١٤٣٢)! فلا مفر علىٰ أي حال من الشهادة بوجود معان لا يفهمها الإنسان علىٰ لسانه (بصرف النظر عن التفاوت في سهولة الوصول إلىٰ ذلك الفهم) إلا وجب عليه التسليم بصحتها وإلا كان كاذبا مماحكا!

ولكن علىٰ كلام صاحبنا، فإنه ينتفي وجود ذلك النوع بالكلية!

فصحيح إن الصبي الصغير لا يدرك بداهة أن ٤+٢ = ٦، إلا أن ذلك إنما يرجع لنقص لديه في درك المعاني اللغوية اللازمة لفهم العبارة (٤ + ٢ = ٦)! فإذا ما اكتملت تلك المدارك اللغوية لديه، وفهم معنىٰ العدد (٤) والعدد (٢) والعدد (٦)، وفهم العملية الحسابية (+) وعلامة التسوية (=)، اكتمل عقله في ذلك الجانب، وأصبح من غير المتصور فيه (من حيث هو عاقل) ألا يعلم بالبداهة من الابتداء أن هذه العبارة صحيحة بمجرد فهمها (لغويا) بلا استدلال! فإن خالف فيها بعد وهو يفهم معنىٰ الكلام علىٰ لسانه، اتهمناه علىٰ العقل وجوبا!

ولا شك أننا – نحن البشر العقلاء – لا نحتاج إلىٰ ضرب الأمثلة في بيان آحاد القضايا البدهية التي يعرفها كل عاقل بمجرد اكتمال أداة العقل لديه (بلوغ الحلم والتمييز وتعلم اللغة والحساب، أو تعلم الأسماء) كما تكلفه المناطقة والفلاسفة، لأن الأمر في آحاد الدعاوىٰ المعرفية ليس محلا للقياس أصلا من هذه الجهة (جهة الوضوح والبداهة)، لثبوت التفاوت في آلات القياس نفسها في ذلك! بمعنىٰ أننا لا يسعنا أن نقيس العبارة (١١+٣٤ = ٤٥) علىٰ العبارة (٢+٤ = ٦)، من حيث الظهور والبداهة، لأنهما قد تستويان عند بعض العقلاء، وقد تكون الثانية أظهر من الأولىٰ وأقرب بداهة عند بعضهم (لأنهم يصلون إليها بإجراء ذهني معين، فيه جمع لمزيد من المعاني المركبة مما لا تبذله نفوسهم في العبارة الثانية). وقد أنكرنا في غير هذا الكتاب علىٰ من يتكلف التنظير المتعمق في تلك القضية ونحوها في أصول علمي الرياضيات والهندسة (الجيومتري)، وأسقطنا كثيرا من تنطعات الفلاسفة وشقاشق المناطقة المعاصرين المغرقة في ذلك. وأنكرنا كذلك في هذا الكتاب علىٰ من تكلف وضع تعريف فلسفي كلي لما سموه بالدعاوىٰ الأساسية أو الاعتقادات الأساسية Basic Beliefs، بحيث يكون كل ما عداها مفتقرا إليها (كلها أو بعضها) في الوصول إلىٰ معرفته! فإذا كانت المعاني البديهية إنما تعرف بالبداهة دون قياس، فما وجه تكلف الفلاسفة أن يضعوا حدا أو تعريفا قياسيا لتمييزها عن غيرها عند عموم العقلاء؟ هذا تنطع وعبث يتناقض به صاحبه بمجرد تكلفه! وهذا هو وجه النقد الذي تقدم نقله في

كلام ابن تيمية رحمه الله لتنظير المنطقيين في بناء كافة الدعاوىٰ الكلية المراد إثباتها (وإن كانت من أوضح الواضحات) علىٰ كليات مستنبطة منطقيا!

فلأن الفلاسفة قد دأبوا - من مبدأ السؤال عندهم في صنعتهم الخبيثة - علىٰ طرح تلك المعاني البدهية نفسها (التي لا يحتاج العقلاء إلىٰ تقريرها كتابة أصلا فضلا عن أن ينتصروا لها إثباتا وبرهنة)، للنظر والاستدلال والسفسطة من كل صنف ولون، ومن ثم ضربت عقولهم المريضة في اختراع النظريات الميتافزيقية الكلية للتلاعب بتلك المعاني التي يسلم بها العقلاء ابتداء بلا تكلف ولا نظر ولا استدلال، أصبح لزاما علىٰ من يريد مناظرتهم في أسئلتهم تلك أن يسلم لهم ابتداء بأن المسألة المطروحة للمناظرة (أيا ما كانت) مسألة نظرية، وإلا كان مجرد قبوله المناظرة عليها (من حيث المبدأ) تناقضا منه لا يخفىٰ!

من هنا أصبح لزاما علىٰ المتكلمين كافة أن يسقطوا حجية الفطرة، وأن ينفوا عنها اسم المعرفة، وأن يوافقوا الدليليين الجدليين - كما بسطنا الكلام عليه في غير هذا الموضع - في مبدأ الاستدلال عندهم (أو بعبارة أخرىٰ: في مصادر التلقي، ومفهوم المعرفة والنظر العقلي)، وإلا ما كان من وجه لقبول المتكلم الخوض معهم في المناظرة لإثبات ما زعموا خفاءه عليهم مما هو بدهي عنده! فإذا كان المتفلسف الملحد لا يقبل دعوانا معاشر المسلمين بأن وجود الباري حقيقة بديهية صحيحة في نفسها لا تحتاج إلىٰ برهان، ويصر علىٰ مطالبة المسلمين بنصب الدليل النظري علىٰ تلك المسألة، فلا يكون المتكلم متكلما حتىٰ يبدأ بالتسليم للسفساط الملحد بمعقولية ذلك المطلب نفسه الذي دعا المسلمين لقبوله (أعني مطلب المناظرة علىٰ وجود الباري كمسألة من جملة المسائل النظرية التي يرد علىٰ دليلها الخفاء ويقبل المعارض)!

من هنا كان لزاما أن يصيب المتكلمين ما أصاب الفلاسفة من تيه في مسألة الضرورة العقلية وضابطها وحدها، ومن اتباع للهوىٰ فيما يقرر الواحد منهم جعله من جملة الضروريات، وما يصر علىٰ جعله من النظريات التي يرد عليها الاعتراض ويعتورها الخفاء والاحتمال، حتىٰ وصلوا إلىٰ الإقرار بأن التقسيم صوري لا محصول

له! ذلك أنه لا بديل عن الإذعان لداعي الفطرة في نفس الإنسان إلا اتباع الهوىٰ، حتىٰ وإن كان مقصوده الوصول إلىٰ إثبات ذلك المعلوم الفطري بالبرهان النظري!

فمن زعم أنه لا يرىٰ الشمس في كبد السماء، وأن حواس البشر تخدعهم، ثم راح يتكلف إثبات دعواه بالبرهان العقلي، فهذا يجب أن يجد من يقرعه علىٰ رأسه قرعا ويتهمه في عقله وقلبه اتهاما لا ملاينة فيه ولا مداهنة، لا أن يجد من النظار من يرتضي مناظرته علىٰ دعواه لإثبات بطلانها بنفس الطريقة التي تكلف هو إثباتها بها فيما يدعي، وكما هي طريقة الفلاسفة، يسوغ له موقفه بأن البداهة نسبية والضرورة تتفاوت فيها العقول! من لم ير مخلوقيته ومربوبيته أمرا بدهيا فطريا من الابتداء، وأبىٰ إلا طلب الدليل النظري عليها، فهو كاذب علىٰ نفسه مكابر مماحك لا محالة، ومن تكلف إقناع ذلك الكاذب (المسفسط بمجرد النظر إلىٰ مطلوبه) بسلوك الطريق النظري كما يشترط، فهو مفتون بذلك الطريق نفسه مغرور به لا محالة، وإلا لامتنع من المناظرة ابتداءً ولقرر بحزم أن السائل مريض مكابر، لا يريد إلا إشغال المسلمين بألاعيب وزخارف لفظية وحيل قياسية يسوغ بها لنفسه ولأمثاله البقاء علىٰ ما هو عليه.

وقد رأينا من كبر وغرور المتكلمين قريبا مما رأيناه عند الفلاسفة، ولا عجب! فهم إنما أرادوا العلو في نفس تلك اللعبة التي كرهوا أن تتعاظم بها الفلاسفة عليهم، وسيأتي معك بيان أن المحرك النفسي واحد (نوعا) فيما يتعلق بالمرغوبات والمرهوبات! فلا شك أن تلك الألاعيب الفلسفية تحير العقول، وتعمل فيها الأذهان عملا غائرا بالغ الدقة، فلا يطيقها كل عاقل! فإن كان معيار قوة العقل بدرك تلك الحيل والتمكن منها، فمن ذا الذي يكره لنفسه أن يوسم بالغاية في قوة العقل والذكاء؟ وهذا من ابتلاء الرب جل وعلا للعقلاء بعقولهم، ولكن كثيرا من الناس لا يعقلون! أما سمعت قول الملك جل وعلا: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣]؟ فهم إنما جعلوا ما عليه من سموهم بـ«العامة» هو السفاهة، لما اغتروا به من ألاعيب وطرائق بالغة التكلف في طرح كل شيء للنظر والقياس بأنواعه، مما لا يكون مثله عند غير الفلاسفة، فأصبحت السفاهة المحضة هي غاية الحكمة وكمال العقل عندهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وقد انتقل ذلك المرض الخبيث من الفلاسفة إلىٰ الجهمية والمعتزلة أولا، ثم من هؤلاء إلىٰ الأشاعرة والماتريدية ثانيا، لأن الأشاعرة لما خرجوا علىٰ المعتزلة وخالفوهم وأرادوا الرجوع إلىٰ ما كان عليه الإمام أحمد رضي الله عنه وغيره من أئمة السلف، أبوا إلا أن يلتزموا في مخالفتهم بنفس الأصول المعرفية الكلية (أي في مفهوم الدليل ومفهوم العقل ومفهوم المعرفة وطرق حصولها)، فبقوا علىٰ القول بنفي حجية الفطرة، والتمسك بضرورة نصب البرهان النظري علىٰ حدوث العالم، مع ما يوصل إلىٰ ذلك (نوعا) من تنظير فلسفي في ميتافزيقا العالم! ذلك أنهم لو لم يلتزموا بتلك الكليات المعرفية، لزال مقعدهم فيما بين الفلاسفة، ولانهارت منزلتهم عند الأقران، ولسقط اسم العقل والعلم عنهم عند أكابر النظار الأكاديميين في زمانهم، وهذه هي «الضرورة» عندهم علىٰ التحقيق! فقد أصبح مترسخا في نفوسهم (المبتلاة بذاك الهوىٰ) أن تلك النظريات هي العلم والعقل، وأنهم لو تخلفوا عن مناظرة الملحد كما اشترط عليهم، للحقتهم تهمة السفاهة وخفة العقل التي أطلقها علىٰ المؤمنين من قبل، وهذا أمر كانوا ولا يزالون يكرهونه أشد الكراهة! ولما كان قد تحصل لديهم من أعمال المنظرين والمتكلمين الكبار عبر القرون والأعصار (المعظمين عندهم لنفس السبب المجمل في تعظيم أتباع الفلاسفة لكبرائهم)، ما تعصبت له نفوسهم وانحازت له قلوبهم غاية الانحياز (لأنهم صار لا يقال لهم علماء ولا محققون في الاعتقاد والأصول إلا بتلك البضاعة)، تراهم الآن لا يتصورون الزوال عن ذلك كله طرفة عين، إلا من رحم الله!

يقول السائل: «إن قيل: المعيار إذعان النفس. قيل: فإذا قال أحدهم أن نفسي لا تذعن لهذا الذي تدعونه ضروري (كثبوت حقائق الأشياء) فما العمل؟ لا يقال بالاستدلال إلىٰ إذعان سائر البشر وإلا صارت مغالطة التوسل بالأغلبية والأكثرية» قلت: فالمشكلة التي يطرحها السائل مشكلة كبيرة ولا شك، وهي من جملة الأمراض المنهجية عند الفلاسفة (بداية من فلاسفة اليونان القدماء)، الذي تفرعت عليها صناعة الكلام عند كافة أهل الملل! وهي مما انتهىٰ بحذاقهم إلىٰ القول بتكافؤ الأدلة! والمشكلة هي بإيجاز: الاضطرار الصناعي (أي بمقتضىٰ التخصص الفلسفي) للقول بنسبية المعيار العقلي في تمييز أظهر المعاني الصحيحة بنفسها التي ينبغي أن يُرفع اسم

العقل بالكلية عمن يدعي خفاءها عليه! فنفاة المعرفة الفطرية لا يرون علىٰ الحقيقة أي دعوىٰ يجب عند مجرد سماعها أن تذعن نفس السامع لها، بحيث إن ادعىٰ خفاء الحق عليه فيها بعد السماع، منعنا من تكلف الجدال معه وحكمنا بقيام الحجة عليه علىٰ أي حال! هذا هو لازم مذهبهم في نفي الفطرة وفي نسبية البداهة وإن لم يلتزموه! أما نحن فعلىٰ ما كان عليه سلفنا ﷺ: نشهد بما ثبت في نفوسنا فطرة وبداهة ولا نجيز النظر فيه والسؤال عنه، ونؤسس قبولنا لما جاء به النبي ﷺ بناء علىٰ ذلك الأساس الظاهر الجلي عندنا دون طلب للدليل عليه هو نفسه! فمن طلب منا إثبات تلك البدهيات الأولىٰ نفسها، اتهمناه بالتنطع والسفسطة ومرض القلب ولا كرامة!

أما المتكلم فقد اضطر لاعتناق قاعدة معرفية كلية عند الفلاسفة مفادها أن الضرورة العقلية والبداهة نسبية من حيث المبدأ! فما قد يراه أحد الناس دعوىٰ ضرورية بدهية، قد يراه غيره دعوىٰ نظرية مفتقرة إلىٰ دليل. وإذن فلا معنىٰ «للضرورة» علىٰ التحقيق إلا أن تكون ضرورة إثبات واستدلال عند بناء البرهان، بمعنىٰ أن المقدمات يجب أن تكون صحيحة نوعا باتفاق المتخاصمين حال المناظرة، وإلا تضرر الاستدلال وسقط بناء البرهان العقلي جدليا! فإذا كان الأمر المراد إثباته (علىٰ شرط الفيلسوف المكذب في طريق حصول المعرفة)، هو وجود رب العالمين نفسه، فلا شك أن المخالف مطالب عند المناظرة بالإتيان بدعاوىٰ كلية يجعلها مقدمات لإثبات الدعوىٰ، بحيث تكون كلها مما يذعن له خصمه ويسلم بصحته! وإذن فالضرورة عند المتكلم علىٰ التحقيق إنما هي ضرورته إلىٰ تقرير سلامة تلك المقدمات البرهانية الكلية عنده وعند خصمه من المعارض، وهي في تلك الحالة أعظم وأخطر الضرورات علىٰ الإطلاق، لأنها تصبح هي الأساس الذي يقوم عليه أصل أصول الملة نفسها (ثبوت الصانع)!

لذا أقول إن قول صاحبنا في بيان مذهبه: «الضروري ما لا يُحتاج فيه إلىٰ التأمل والنظر والتفكير» ينقصه التقييد سالف الذكر! فيقال «ما لا يحتاج الخصم فيه إلىٰ التأمل والنظر والتفكير حتىٰ يسلم بصحته»! فهي إنما تتقرر عند الفيلسوف (والمتكلم تبعا) بإجابته لشرط خصمه في الإثبات والاستدلال والمناظرة! فإذا ما انتهت به المناظرة إلىٰ نقطة يكره الزيادة عليها، رأيته يذهب إلىٰ اتهام الخصم باتباع الهوىٰ وجحد البديهيات!

ولكن ما دامت الضروريات نسبية، فمهما كانت الدعوىٰ التي يزعم الخصم الفيلسوف المسفسط المكابر خفاءها عليه وافتقارها إلىٰ دليل عنده، فقد ألزم المتكلم نفسه – بموجب هذا التعريف للدعوىٰ الضرورية عنده – بأن يقبل مناظرته فيها علىٰ شرطه في الإثبات النظري، مهما كانت دعواه مصادمة للبديهيات، وإلا تناقض!

والحاصل أن قول المتكلمة في مفهوم الضرورة العقلية (أنها نسبية مطلقا) يلزمهم معه فتح باب التسلسل في الاستدلال (أي ما من دليل ينصبه أحد المتنازعين لدعواه، إلا اضطر للتدليل عليه هو نفسه إن طولب بذلك، أو اقتضت المصلحة ذلك حال الخصومة، وهكذا إلىٰ غير ما نهاية)، وهو باطل. بل حتىٰ من زعم أنه لا يرىٰ الواحد نصف الاثنين، وأن لديه دليلا نظريا يثبت به خلاف ذلك (كما في كثير من دعاوىٰ السفساط الطبيعي المعاصر «لورانس كراوس» مثلا) أو علىٰ الأقل أنه لا يجد دليلا نظريا يوجب ذلك، فقد ألزم خصمه المتفلسف نفسه (سواء كان فيلسوفا أو لاهوتيا أو متكلما) بأن يسلك معه طريق النظر العقلي الفلسفي المطروق عند أهل الصناعة، لإقناعه ببطلان دعواه، ما دام يطلبه للمناظرة! ويلزمهم – كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع – التسوية بين نظر الناظر في المسائل الفرعية التي سوغ أئمة الإسلام الخلاف فيها لتقارب الأدلة، وبين نظر الفيلسوف في وجود الباري نفسه من الأساس، وادعاء بعض الفلاسفة خفاء الدليل عليهم وتقارب الأدلة في حدوث العالم! أي أن قول صاحبنا الأشعري ها هنا: «وقد يكون شيء ما ضروريا عندي نظريا عندك، أو العكس.» هذا يلزمه منه أن يقبل من الملحد زعمه أنه كان ولم يزل عاجزا عن الوقوف علىٰ دليل يقنعه بوجود الباري، وأن يعامله – من ثم – معاملة المخالف المعذور في مسألة من المسائل النظرية الدقيقة في الفرعيات، كحكم قبض اليدين عند الرفع من الركوع مثلا! بل إن الأمر في مسألة حدوث العالم أخفىٰ بكثير، والأدلة فيه أشد خفاء وثقلا علىٰ عقول أكثر الناس كما هو معلوم، وكما لا ينكره هذا الأشعري نفسه! وإذن فيلزمه وأصحابه ومشايخه أن يكونوا أشد إعذارا للفيلسوف الأعمق ضربا باعتراضاته وأسئلته في أصول المعقولات والبدهيات، منهم للعالم الشرعي المتفقه المخالف لهم في المسائل الخلافية الاجتهادية في العمليات، الموافق لهم في تلك الأصول، وهو

عكس ما هم عليه! [1]

(١) خذ على سبيل المثال تلك المناظرة الصوتية التي خاضها الأخ أبو غوش نفسه مع ملحد من ملاحدة الإنترنت حول دليل الحدوث (وتأمل كيف أن موضوع المناظرة لم يكن وجود الباري، بل «دليل الحدوث» تحديدا!)، إذ يقول في مقدمتها بعد الثناء على الرب جل وعلا والصلاة على رسوله ﷺ: «وبعد، فإن من أخص خصائص الإنسان كونه عاقلا، والعقل هو ملكة فيه موصلة له إلى الحقائق، ومن الحقائق التي لا تبعد ولا تخفى أن لهذا الكون خالقا خلقه بمحض إرادته وبعظيم قدرته.» اهـ. قلت: فلو صدقت في زعمك أنها من الحقائق التي لا تبعد ولا تخفى، ما تكلفت هذا العناء الشديد الذي تكلفته في البرهنة عليها، وما سلمت للجاحد زعمه خفاءها عليه معرفيا وافتقاره إلى ما يدله عليها! أتحداك – أيها المتكلم المحترم – أن تقنعني أو تقنع عاقلا منصفا من عقلاء الناس، بأن دليل الحدوث هذا (لا سيما على تلك الصورة التي اخترت أن تصوغه عليها)، تكون معه حقيقة وجود الباري جل وعلا على ذاك الوصف الذي وصفته حقا: «من الحقائق التي لا تبعد ولا تخفى»! فإن قلت أنا لا أزعم أن دليل الحدوث هذا بعينه لا يبعد ولا يخفى، وإنما زعمت أن العلم بوجود الباري لا يبعد ولا يخفى، قلنا ففيم أنت إذن إذ تتخذ من ذلك الدليل طريقا لإثبات الصانع، ثم تقدم له بهذه المقدمة، وما حاجة العقلاء إلى دليلك المضني هذا، إن كان العلم بوجود الباري لا يبعد ولا يخفى على الحقيقة؟

إن المتأمل في تلك المناظرة (ولست أدعو القارئ الكريم للاطلاع عليها، بل أنهاه عن ذلك، وإنما سأنقل منها بقدر ما يحصل به مطلوبي) يرى بجلاء كيف أن صاحبنا المتكلم إنما اختار أن يناظر خصمه المذكور مستعملا ذلك البرهان طويل الذيل، كثيف المصطلح، المشحون بالتراتيب المنطقية المعقدة، لا لشيء إلا ليحرج ذلك الخصم ويثبت عجزه وجهله عن فهم دقائق ذلك البرهان! ولكن إن كان هذا هو مقصودك أيها المتكلم، فقد وقعت من حيث لا تدري في نقيض ما قررته في أول المناظرة، من ادعاء أن وجود الباري من الحقائق التي «لا بتعد ولا تخفى»! فلو صدقت وتجردت، لشهدت على نفسك بأنك إنما تريد مباراة ذلك المخالف وإحراجه وإثبات عجزه العقلي عن فهم مقدماتك الفلسفية فضلا عن إبطالها! وهذا ولا شك مشتمل عليه بالتضمن في مجرد فكرة أن يقبل المتكلم مناظرة خصم متفلسف عنيد مكابر، قد عُرف بين متابعيه على الشبكة من المسلمين بكثرة اللجج في الفلسفة والكلام، وعدائه الصريح للإسلام! فالغرض المضمر من البداية ليس هو إظهار الحق للمخالف نفسه رجاء هدايته، فهذا ليس مما يرجى لمثله على أي حال، وإنما يكون غرض المتكلم من المخاصمة في مثل ذلك هو مغالبة الخصم المتفلسف في الفلسفة نفسها، وكسره والعلو عليه وإظهار عجزه عن إثبات ما يريد بنفس تلك الأدوات التي انتفش بها بين الناس، ومن ثم إحراجه أمام أتباعه ومريديه! هذا المقصود عند عموم المتكلمين من عقد المناظرات، هو من أسباب تشديد كثير من أئمة السلف ﷺ في المنع منها من الأساس (أعني مناظرة أهل الأهواء بعموم)، والله المستعان!

ومن تتبع أحوال المتكلمين وجدهم أشد حرصا على المخاصمة وتطلبا لها من الفلاسفة الأكاديميين، إذ يطاردون مخالفيهم بتحديات المناظرة في كل مناسبة كتحديات المبارزة بين مغاوير الفرسان، يعتبرون ذلك من الجهاد في سبيل الله! وهو الغرض الذي من أجله ظهرت صنعة الكلام من الأساس (كصنعة واختصاص)! يعني هذا الأخ المتكلم إن قدرنا أن وقع كتابي هذا في يده في يوم من الأيام، فأغلب الظن عندي أنه سيتحداني للمناظرة العلنية، بحيث إن أبيت وامتنعت (وهو ما يكون مني إذن لا محالة)، قال (أو قال بعض أصحابه): «تهرب، وجبن عن المواجهة، وعجز عن المبارزة .. إلخ!» وإن قبلت وشرعت معه في المناظرة، تتبع زلاتي

وأخطائي (وما أنا إلا بشر يخطئ ويصيب، والرجل كلما كثر كلامه كثر خطؤه على أي حال!) لعله يسقطني بها ويبين تناقضي في بعض تحريراتي بين يديه، على طريقة «مغالطة المغالط» المعروفة: «ها قد أسقطت لك برهانك الذي اخترت أن تسوقه إلي، وإذن فقد سقط مذهبك بالضرورة»! وإن انتهيت إلى موضع لم أعد أرى فيه فائدة من المواصلة وقررت الانقطاع، قال: فر من المناظرة، وعجز عن الوفاء بالمطلوب (إن كان قد طالبني بشيء ورأيت أنا أنه لا ثمرة ترجى من إجابته إليه) أو عجز عن إثبات مذهبه (ولن يعجز المتفلسف المحترف عن التنقير في كلام خصمه حتى يستدرجه إلى التسلسل الأجوف، كلما جاءه بدعوى قال له: «أثبت هذه الدعوى، فما تراه أنت ضروري، ليس كذلك عندي»! فلا يدري الخصم من أين بدأ وإلى أين ينتهي!)!

يقول الأخ مرتبا سلسلة من التراتيب المعرفية المزعومة (التي يبدو من عموم كلامه أنه يطلقها على عامة أصحاب العقول): «فعرفنا بتفكرنا في الكون الذي نحن فيه أن واجب الوجود موجود، ثم لما تفكرنا في كونه تعالى خالقا، عرفنا أنه القدير العليم الفعال لما يريد، فعرفنا بذلك أنه هو الذي خلقنا بحيث نكون قادرين على العلم به لنشكره» اهـ. قلت: كذبت، فما هكذا عرف العقلاء ما ذكرت، لا على هذا الترتيب ولا من تلك الطرق، وإنما هذا ما تكلفه المتكلمون واللاهوتيون في الرد على الفلاسفة المستكبرين بطريقتهم، عندما طالبوهم بإثبات أن للكون خالقا يوصف بتلك الصفات! وإلا فكم من العامة من أهل بيتك أنت والمقربين إليك أنت – أيها المتكلم – قد سبق له أن تكلف هذا الترتيب حتى وصل إلى المعرفة بـ«واجب الوجود» (أن يتأمل أولا في الكون المخلوق، فيعرف – من بعد جهل – أن له خالقا وجوبا، ثم يتأمل في صفات الكون ليعرف – من بعد جهل – أنه يجب أن يكون هو القدير العليم الموصوف بكذا وكذا .. إلخ)؟ بل كم من العامة الذين تعرفهم أنت، سبق له أن «استدل» (على المفهوم النظري المنطقي للاستدلال) ولو بمقولة «البعرة والبعير» المأثورة، التي زعمتم أن بمثلها تعرف العامة أن لها خالقا كامل الصفات (بعد أن لم تعرف)؟ هذه الدعوى العريضة كانت ولا تزال عرية عن الدليل الاستقرائي اللائق بمثلها، لأنه لا يجد العاقل الصادق مساغا لانطباقها عليه هو نفسه إن تدبر واستبطن حاله (بما في ذلك هذا المتكلم نفسه، الذي أكاد أجزم بأنه لم يقع منه ذلك الترتيب النظري يوما من الدهر قبل أن يدرس علم الكلام!)، ومع هذا، فلا يزال المتكلمون يدندنون في كل مناسبة بنسبة تلك التراتيب الاستدلالية إلى «عموم العقلاء»، أو على الأقل إلى عموم المسلمين، ولو بصورة إجمالية (النظر في الممكنات لإثبات الواجب، أو النظر في الحوادث لإثبات الصانع، ثم ما يترتب على ذلك في النظر)، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وما أكثر ما يفني الواحد منهم عمره في تلك البراهين المعقدة أخذا وردا ونظرا ونقدا، ثم يأتي على فراش الموت ويقول: يا ليتني ما درست الكلام ولا تعلمت منه حرفا واحدا، ولكم وددت لو متّ على مثل إيمان العجائز! فمن أي شيء هذا، وما الذي يفضي بهم إليه؟ من تلبسهم بطريقة في الجدال والنظر تمرض العقل والقلب والنفس جميعا، وتدفن معها الفطرة دفنا تحت طبقات من الأقيسة المتنطعة التي لا يحتاج العاقل السوي لشيء منها أصلا، وإنما يتنازعها الفلاسفة وأذنابهم وأشباههم في كبرهم وغرورهم الذي لا يعرف حدا ولا نهاية!

يقول الأخ أبو غوش هداه الله: «وعلى كل حال أنا أطلب من كل مستمع منصف، خصمي وغيره، أن يتفكر وينظر ويراجع الدليل في نفسه، فإن من لم يستمع هذا التقرير من قبل فسيكون جديدا عليه غريبا لديه، وربما لم يصل إليه من أول استماع له لكون بعض المصطلحات جديدة وكون التقرير نفسه لم يفكر فيه من قبل، فلا يصح أن يكون ذلك مانعا من الفهم، بل لا بد من النظر الحقيقي! ومن يمر عليه هذا الدليل من غير أن يتأمل فيه، ويحكم عليه بحكم إجمالي بناء على غرابته، فلا يكون في مرتبة العقلاء أصلا! فإن العاقل لا يكون

عاقلا إلا إن تأمل وتفكر!» اهـ.

قلت: فبالله عليك أيها المتكلم، لو كنت صادقا في طلب هداية ذلك الخصم الذي قابلته في المناظرة، وصادقا في اعتقادك إنصافه وتجرده (ولو على سبيل الإمكان المبدئي)، أفكنت تدعوه إلى دليل (على التسليم بوصفه دليلا) أنت نفسك تصفه بالغرابة والعسارة، وتقول إنه «ربما لا يصل إليه السامع من أول استماع»، حتى «تجلي» له ما تزعم أنه أمر جلي واضح من الابتداء، ألا وهو وجود الباري جل وعلا؟ أم أن الحكمة تقضي بطرق أقصر الطرق وأقربها لتحصيل المطلوب، وأسهلها لأذهان الكافة؟ لو كنت صادقا في طلب الخير والهداية للسامعين يا أخانا المحترم، لما ناظرت ذلك المكابر أصلا، ولاكتفيت ببيان كذبه على نفسه وعلى الناس (الذي هو ظاهر بمجرد حقيقة بقائه على الإلحاد وطلبه المناظرة والمخاصمة عليه، يريد أن يوهم نفسه وغيره بأنه على شيء!)، بقدر ما تندفع به الضرورة الشرعية (إن ثبتت)!

ولكنك – واسمح لي أن أبصرك بما خفي عليك من أمر نفسك، نصيحة لله تعالى – تشتهي مبارزته والعلو عليه، كما يشتهي هو العلو عليك، وترجو كسر أنفه في المخاصمة بنظير ما تفلسف به على الناس هنا وهناك من بضاعة تحار فيها أذهان الكافة، تلك البضاعة التي جعلت نوعها أنت وأقرانك تبعا له ولأمثاله: نهاية العقل وكماله! فالمقصود الحقيقي هو أن يظهر للناس من هو المتكلم فلان ابن فلان وكيف يصنع عندما يناظر ملحدا من الملاحدة، وكيف يأتي بما تقصر دونه عقول الكافة، وكيف يحسن تلك الصناعة النظرية فوق ما يحسنها خصمه الفيلسوف المفكر، فهو لا يطالب خصومه بإيمان من ذلك الصنف الذي تشنع عليه الفلاسفة بأنه «إيمان السفهاء»، أو «إيمان المقلدين»، حاشا وكلا، وإنما يطالبهم بإيمان «عقلاني»، مبني على براهين معقدة عميقة الغور، دقيقة في مقدماتها ومصطلحاتها ومنطقها المنمق، فليست للصغار والعامة ولا يدركها كل أحد، وإنما تليق بالسادة الفلاسفة الكبار! فإن كان الخصم الفيلسوف يشترط في الدليل الذي يحصل به المطلوب أن يكون جاريا على طريقته في التنظير الميتافزيقي المتنطع، فلا يكون الداعية إلى الله موصوفا بالعقل أصلا إن لم يجبه إلى شرطه، يأتيه بمادة تديره حول رأسه!

تأمل كيف ينفي الأخ هداه الله صفة العقل بالكلية عمن «يمر عليه هذا الدليل دون أن يتأمل فيه، ويحكم عليه بحكم إجمالي بناء على غرابته»! فلو أن إماما من أئمة السلف، كالشافعي أو مالك أو أحمد أو سفيان الثوري أو أبي بكر الخلال أو غيرهم بعث اليوم ومشى بين الناس، بل لو بعث أحد الشيخين رضي الله عنهما، أبي بكر وعمر، واتفق أن مر عليه هذا «الدليل» فحكم عليه بحكم إجمالي واستنكره أشد الاستنكار وكره أشد الكراهة أن يجعله بعض الناس طريقا لتقرير المعرفة بوجود الباري جل وعلا، فلن يكون في مرتبة العقلاء أصلا عند صاحبنا هذا وأقرانه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! ونحن نقول: بل والله لا يكون في مرتبة العقلاء من يتكلف بناء البرهان النظري بالغ الدقة والتعقيد، الذي تتركب فيه المقدمات واحدة بعد الأخرى في نظم طويل عسير، كل واحدة منها تحتاج إلى شرح وبيان ثقيل، وكل هذا حتى يصل في النهاية إلى إثبات المعرفة بأن الواحد نصف الاثنين، أو أن وقائع يوم الأمس قد مرت به حقيقة لا وهما، أو أن الواقع الذي يدركه بحواسه موجود خارج ذهنه على الحقيقة، أو أنه لم تركب أجزاء جسده على ذاك التركيب ولم تصور خلقته على تلك الصورة هو والعالم من حوله بأرضه وسمائه من غير خالق عليم حكيم!

السفيه الذي لا ينبغي أن يعد في مراتب العقلاء، هو من طالبك أنت – أيها المتكلم المحترم – بالتفريق بين تلك البديهيات في الرتبة المعرفية أولا، ثم بتكلف نصب البراهين النظرية على حقيقة جلية تصرخ بها الفطرة في كل عاقل ثانيا، واشترطه عليك اشتراطا، فأجبته لطلبه وأذعنت لشرطه افتتانا واغترارا، لا من مر على تلك

البراهين بالغة التنطع فكرهها وحكم عليها حكما مجملا يليق بها من غير أن يتفكر فيها، واتهم طالبها الذي زعم الافتقار إليها حتى يعرف أنه مخلوق، وناظمها الذي تكلف بناءها إجابة له، بالهوى ومرض القلب، ثم فر منهما فراره من الأسد صيانة لعقله ودينه! فإن عقل الفيلسوف الدهري هذا ليس عقلا أصلا عندنا ولا عند سلفنا الكرام ﷺ وأرضاهم، ولو كان صاحبه من أعظم الناس ذكاء ونبوغا فيما سميتموه بـ«العقليات»، فانظر من أين جئت أنت بمفهوم العقل والمعرفة عندك، فإنها – والله – نقطة المفاصلة الأولى فيما بين أهل السنة وأهل الكلام، وأصل النزاع بين الطائفتين، والله المستعان!

يقول الأخ: «وإن مما يقرَّر دليلا على وجود الله تعالى دليل الحدوث الذي نظمه من وفقه الله تعالى بالنظر والتفكر في خلق السماوات والأرض. ولما قصرت بعض الأفهام عن درك هذا الدليل، وجب بيانه أفضل بيان، وإزالة التمويهات عنه بأجلى برهان. والذي نحن فيه اليوم بحمد الله مناقشة في هذا الدليل. فسأقرر هذا الدليل بتقرير واضح غاية الوضوح بأقل مقدمات، بنظم فريد أرجو ممن يسمعه أن ينعم فيه النظر ويستعمه متفكرا فيه.» اهـ.

قلت: أولا: قد بسطنا الكلام في هذا الكتاب وغيره على الفرق بين «النظر في خلق السماوات والأرض»، الذي هو من عدوان الفلاسفة (من ميتافزيقيين وطبيعيين ولاهوتيين وغيرهم) على الغيب المحض، و«التفكر في خلق السماوات والأرض» الذي هو من أفضل العبادات والقربات لله جل وعلا، التي قال الله في أصحابها في مقام الثناء: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [**آل عمران**: ١٩١]، ولا غرو أن المتكلمين لا يفرقون بين هذين النوعين من التفكر، من حيث كونهما عبادة وطاعة، بل إن «النظر» في غيب السماوات والأرض وفي بنائهما الكلي (كتنظير ميتافزيقي أو كوزمولوجي) هو أرفع درجة ومنزلة عندهم من التأمل المطلق في بديع خلق الله تعالى وعظيم قدرته في آحاد المخلوقات المشاهدة في العالم، لأنه به تحصل «المعرفة» بحدوث العالم من الأساس (فيما أحدثوه من البراهين) بزعمهم، ولذا كان هو أول واجبات المكلفين عندهم! وأعني بالتأمل المطلق في المخلوقات المشاهدة، ما يقع لأي عاقل سوي النفس (سالم من الأهواء) من انبهار ببديع صنع الباري جل وعلا في أنواع المخلوقات المشاهدة عيانا، ومن ثم حصول التعظيم الفطري لقدرة الرب سبحانه، وغير ذلك من أعمال القلوب التي يزداد بها الإيمان وينتفع بها المؤمن، كما بيناه في غير هذا الموضع.

ثانيا: دعني أيها القارئ الكريم، أسوق إليك جانبا من مقدمات ذلك البرهان بالغ التنطع الذي أتحف به الأخ المتكلم خصمه المتفلسف، فيما يزعم أنه تقرير «واضح جلي» (!!)، يرجو معه أن يبين للناس مصداق ما قرره أولا من أن وجود الباري قريب إلى العقل لا يبعد، واضح لا يخفى، لترى كيف يعامل الله تعالى أهل الأهواء بنقيض قصدهم جزاءً وفاقا، سنة ماضية لا تبديل لخلق الله، والحمد لله أولا وآخرا.

يقول الأخ «أبو غوش»:

«وها أنا مبتدئ بتقرير الدليل بحول الله، وذلك بمقدمات. الأولى: أن العالم إما أن يكون حادثا (أي لوجوده بداية) أو قديما (أي لا بداية لوجوده). إن كان العالم حادثا، فهذا مطلوبي. فسأفرض نقيضه، وهو كون العالم قديما، ثم أدل على بطلان هذا الفرض، لينتج بالضرورة كون العالم حادثا. الثانية: أن العالم متغير الآن، وهذا بالمشاهدة. الثالثة: أننا لو فرضنا العالم قديما مع قولنا إن العالم متغير الآن، فهناك احتمالان لا ثالث لهما: الأول أن يكون لتغير العالم بداية، فيكون العالم من الأزل غير متغير، ثم بدأ بالتغير. الثاني أن يكون تغير العالم لا بداية له، أي إن العالم لم يزل يتغير من الأزل. والاحتمال بحسب ... (غير واضح). أما الاحتمال

الأول، وهو أن العالم لم يزل ساكنا لا يتغير ثم بدأ بالتغير، فبطلانه من أن العالم لما تغير فهو زماني، فقبل تغيره كان له مدة معينة لا يتغير، هذه المدة المفروضة من الأزل، فيكون امتدادها لا نهاية له. لكن العالم إذا كان يجري زمانه من الأزل في امتداد لا نهاية له، فهذا يقتضي أن تكون أي نقطة على خط الزمان قد مر عليها بالفعل، فإن الخط الذي لا نهاية له مهما فرضت نقطة على امتداده فلا بد أن يكون قد قطعها، وإلا لكان منتهيا بالفعل. فلنرجع الآن إلى فرضنا، وهو أن العالم لم يزل لا يتغير ثم بدأ بالتغير. فيلزم على هذا أن حالة عدم التغير لا نهاية لها من الماضي إلى المستقبل. لكنها تنتهي عند نقطة بدء التغير في المستقبل. وهذا تناقض ظاهر. فإن حاصل هذا الفرض أن ما لا نهاية له قد انتهى».

قلت: أكتفي بهذا القدر من النقل، لأن بمجرد التأمل فيه (ذلك التأمل الإجمالي الذي يكرهه صاحب البرهان) يحصل المقصود من نقله ولله الحمد (ألا وهو بيان غرق المتكلم في التنظير القياسي المتكلف غاية التكلف، بدعوى أن من العقلاء من لا يصل إلى العلم بأن العالم مخلوق مربوب إلا به)! لن أدخل في تفاصيل تلك المقدمات والنظريات (كنظرية القوم في مسألة بداية الزمان، التي لم أر عندهم نظما ولا صياغة لها أردأ ولا أبعد عن الذهن ولا أشد تنطعا من هذا حقيقة! وكمفهومهم الأرسطي المحض للزمان وغير ذلك)، فما لهذا نقلتها، وإنما أردت أن أقول: إن زعم هذا المسكين أن نظمه هذا، على هذا المنوال الذي تراه، لا يرد عليه المعارض ولا يرد عليه الإجمال والاشتباه والإبهام الذي يحوجه هو نفسه عند المخاصمة عليه والانتصار به للتفصيل والشرح والتوضيح، فهو مكابر! ولست أظنه يزعم ذلك، بل في كلامه الذي نقلناه آنفا ما يفصح به عن شعوره بأن الكلام فيه غرابة وغموض! فهل الكلام بالمجملات المشتبهات، فضلا عن أن تكون مقدمات في مقام إثبات وجود الباري جل وعلا نفسه (كما ترجو لها يا أخانا أن تكون)، مشروع عندك من حيث المبدأ؟ فإن قلت: هي مصطلحات يعرفها أهل الاختصاص، قلنا: وهي كذلك مجملات مغرقة في الإجمال عندهم، وأنت تدري بذلك ولا بد إن كنت تعد نفسك منهم، فكان ماذا؟ إن كنت لم تقف على خلاف الفلاسفة والمتكلمين (أهل الاختصاص) أوقفناك، وإلا فقد ألزمناك!

والشاهد من هذا أن الشرح والبيان والتفصيل في تلك المقدمات وقبول الرد والإبطال (مبدئيا) يلزمك مع أهل الاصطلاح قبل غيرهم، وأن ما تعده نظما فريدا واضحا متينا، أنت به كغيرك من المتكلمين المتكلفين ما تكلفوا من مثله: كلهم يرى برهانه واضحا غاية الوضوح، محكما غاية الإحكام، ثم إذا به يغرق به مع أقرانه قبل خصومه في الجدل الطويل والأخذ والرد بلا نهاية! ولا عجب، فإن هذا مقتضى النظر، أي نظر، أن يكون موضوعه مفتوحا للأخذ والرد والظنون المتقابلة، تجويزا للمعارض! لكنك تتوهم أن برهانك هذا من الوضوح بحيث لا ينقضه ولا يعترض عليه إلا خفيف عقل أو عديم نظر أو جاحد للبدهيات! وهو ما يقتضي امتناع المعارض البتة، واتهام المخالف بأنه قاصر الفهم ضعيف العقل! وذلك كما في قولك: «ولما قصرت بعض الأفهام عن درك هذا الدليل، وجب بيانه أفضل بيان، وإزالة التمويهات عنه بأجلى برهان. والذي نحن فيه اليوم بحمد الله مناقشة في هذا الدليل. فسأقرر هذا الدليل بتقرير واضح غاية الوضوح بأقل مقدمات» اهـ. فكل مخالفة أو اعتراض عند الخصم هو عندك «تمويه» بالضرورة، وهو راجع إلى قصور فهمه لا محالة!

فإن قلت: ولكن كل صاحب ترجيح نظري يظن دليله عند الغاية من الوضوح والجلاء، فلا ألام أنا بمثل هذا» قلنا: لم نؤاخذك لأنك ترى «ترجيحك» في غاية الوضوح عندك أنت، فهذا قد يصح في كل ناظر وفي كل متفلسف أيا ما كانت دعواه ورأيه وكيفما كان برهانه! وإنما آخذناك لاعتقادك أن المخالف لن يخالفك

وإذن فبحسب كل مكابر جاحد من أهل الزيغ والهوىٰ، المستكبرين علىٰ الدين وأهله، أن يعتنق لنفسه مذهبا من مذاهب الفلاسفة الدهرية وجملة من براهينهم واعتراضاتهم علىٰ براهين المتكلمين، وأن يدعي خفاء الدليل عليه، وأن يطلب المناظرة علىٰ كل دقيقة من دقائق تلك الأدلة، علىٰ أساس أن ما يعده المتكلم ضرورة فهو ليس كذلك عنده، وإنما هو نظري بعيد عن ذهنه، وبهذا يصبح المتكلم ملزما بالتخوض معهم في كل مناظرة يطلبونها، مهما كان موضوعها مصادما لما يعده المتكلم من ضرورات العقل، ومهما طالت أذيال تلك المناظرات، لأن الضرورة نسبية عنده، والخفاء وارد علىٰ كل شيء! وهو كذلك مطالب باحترامهم غاية الاحترام والصبر عليهم أبد الدهر، مهما كابروا وجحدوا وتماروا، لأنهم بزعمهم أعملوا عقولهم، فبان لهم ما في المسألة من صعوبة ووعورة (زعموا، وإنما الصعوبة في بضاعة الفلسفة والكلام التي بدعوها!) خلافا لما يظنه الأميون و«العامة» من جلائها ووضوحها وبدهيتها، فطلبوا مزيدا من المناظرة والمباحثة ولم يؤمنوا «كما آمن السفهاء»، سواء بملة الإسلام أو بالفلسفة

إلا لقصور فهمه هو عن درك دليلك لا محالة! فأنت لا ترى لاحتمال الغلط ورودا عليك أصلا، مع أنك في مقام نظر وتنظير ومناظرة (مع خصم أنت تعلم من الأصل أنه يجحد ما لا يصح لعاقل أن يجحده)! والسبب في ذلك أنك تعلم أن حدوث العالم (كدعوى معرفية) هو في نفسك من البداهة والجلاء بأرفع مكان من قبل أن تتكلف نظم برهانك الألمعي الفريد لإثباته للخصم المخالف، وتعلم كذلك أنه بدهي عند الناس كافة بما في ذلك خصمك الذي تدري أنه مكابر كذاب من قبل أن تشرع في مناظرته! ولهذا تراك تميل إلى الزعم بأن ما جئت به هو أوضح وأجلى وأخصر ما يصاغ به دليل الحدوث من مقدمات، مع أنك تعلم أنه ليس كذلك، بل هو من أطول طرق البرهنة الكلامية وأشدها غموضا واشتباها! فهل تجيز المخالفة في برهان الحدوث وتسوغها (مبدئيا)، سواء على نظمك هذا أو على نظم غيرك ممن تكلفوه، ومن ثم تسوغ (كما يلزمك) الوصول بعد النظر إلى ادعاء أن الحدوث لا يقوم عليه دليل سالم من المعارضة البتة (كما هي دعوى الفلاسفة ومتمسكهم)، أم أنك لا ترى المخالف فيه إلا سفيها ضعيف العقل بالضرورة، أو جاحدا مكابرا مريض القلب بالضرورة، إن ادعى أنه لم يقف له على دليل يقنعه؟ هذه قضية منهجية يجب أن يحررها المتكلم في نفسه من قبل أن يهجم على مناظرة الخصوم فيما يرى القول به ضرورة بدهية لكل عاقل، ثم إذا هو يقطع المناظرة عند أول اعتراض من الخصم قد تكون له وجاهة (فيما يسلكه النظار من مثله)، متهما إياه في كل مرة بجحد الضروريات الواضحات، وإن كان ما يجحده الخصم في سياق المناظرة هو على الحقيقة من أشد كليات الفلاسفة غموضا واشتباها وقبولا للرد والمعارضة!

أو بعبارة أخصر أقول: أنتم جوزتم النظر في بدهيات العقلاء وضروريات الملة بالقياس العقلي بأنواعه، فلزمكم منهج الفلاسفة الجدليين في أصول دينكم بحذافيره، بما في ذلك التزام ما سمته الفلاسفة بـ«الشك المنهجي» كما هو لازم لكل ناظر في موارد النظر، فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

الدهرية! فلإن كان الأمر في النظر والبحث والفحص العقلي علىٰ ما يقولون، للزم أن يكونوا هم العقلاء الحكماء، وأن يكون الأنبياء وأتباعهم هم الأميون والمقلدون السفهاء، وهو ما تصرح به جماهير الفلاسفة صراحة ولا تبالي، نسأل الله السلامة والعافية!

ولأن بعض الفلاسفة حرصوا علىٰ الانتساب للقبلة والدين (تمويها وإخفاء لإلحادهم وزندقتهم)، فقد آثروا ادعاء أن الأنبياء كانوا يعلمون تلك «العلوم الباطنة» الغيبية التي تفلسف فيها هؤلاء وتكلفوا النظر فيها، ولكنهم لم يخاطبوا بها العامة حتىٰ لا يفتنوهم ولا يصدوهم عن قبول الدعوة! ولهذا ذهب بعضهم كذلك - كما هو معلوم - إلىٰ جعل النبوة منزلة من منازل الفلاسفة التي تنال وتكتسب بالنظر العقلي العميق! فالنبي عندهم فيلسوف قد بلغ منزلة من النظر والتفلسف لم يبلغها غيره! هذه الأقوال ونحوها كلها مدارها علىٰ تعظيم بضاعة الفلاسفة في الإلهيات والغيبيات غاية التعظيم، وجعلها هي العلم والعقل والفكر الذي يُحكم به علىٰ دعاوىٰ الأنبياء قبولا وردا وتأويلا، وهو ما يرجع كله إلىٰ نفس المرض القلبي الخبيث الذي عزمنا علىٰ بيانه وكشفه في هذا الكتاب! تقول له: «يا هذا، الحق واضح جلي فلا تكابر، واتق الله في نفسك، وآمن كما آمن العقلاء كافة»، فيقول لك: «بل أنت الساذج السفيه خفيف العقل، فاذهب وتعلم كيف تنظر في الإلهيات والميتافزيقا أولا ثم تعال لتخاطبني بدعواك أنت ونبيك!» فصدق الذي قال في محكم التنزيل: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣].

وما أحسب إلا أن الأخ أبا غوش قد يعترض علىٰ هذا الإلزام بادعاء أن المتكلم المناظر مطالب في أصول الجدل بأن يميز الحد الذي إن وصل إليه الخصم ثم جاوزه فقد بان له ولغيره أنه مكابر لا يريد الاقتناع بالدليل الواضح، وإذن يتعين الانقطاع! ولكن الاعتراض بمثل هذا القيد اعتراض أجوف مردود علىٰ صاحبه، لأن مجرد تقريره أن الضرورة العقلية نسبية، يلزم منه بطلان القيد نفسه، وسقوط أي دعوىٰ بالمكابرة أو اتباع الهوىٰ من قبل أي جانب من جانبي المناظرة، مهما طالت المناظرة وتشعبت بين

المتخاصمين! كيف يُعرف اتباع الهوىٰ أصلا عند صاحبه، إن لم يكن بظهور مخالفته ومكابرته في مسائل ظاهرة واضحة لا يصح للعاقل (أي عاقل) أن يخالف فيها؟ إن صح أن كانت البداهة والضرورة نسبيتين بإطلاق، فلا طريق إذن لاتهام أحد من الخلق باتباع الهوىٰ أصلا، ولا بالمكابرة ولا بجحد البداهة والتكذيب بالحق الواضح الجلي، بل ولا قيام في البلاد لشيء من الأحكام العامة أصلا، لا في صاحب الهوىٰ ولا في المجرم المنحرف ولا في غير ذلك من مصالح الناس، إذ ثبوت أصل الحكم العام في الناس ومن ثم ثبوت فروعه مشروط بالتسليم بجملة من القطعيات والضروريات [1]،

---

(١) وما يكابر الفلاسفة والمفكرون ويتنطعون على تلك الأحكام الراسخة في دين الله تعالى ويتمحلون عليها إلا بدعوى حق يريدون بها باطلا، ألا وهي قولهم إن للناس عقولا تتفاوت. فبناء على تلك المقدمة التي تقبل بقيد لا بإطلاق، قرروا أن فهم نصوص الوحي وخطاب الدين نسبي بإطلاق، فما يظهر لكم معاشر المسلمين من صحة دين الإسلام قد لا يظهر لغيركم، ولو بعد بحث وفحص ونظر، فمن ذهب به اجتهاده ونظره الحر إلى ترك الملة مختارا، بعد أن كان من قبل يرى (بالنظر والاجتهاد) أنها الحق، فلا يحسن في العقل عندهم أن يُقتل أو يعاقب أصلا، لأن الأمر رأي في رأي ونظر في نظر!

وبنفس المعيار النسبي في الحكم على الواضحات الجليات، لا يجوز عند الفلاسفة وأشباههم أن يتسلط ولي الأمر المسلم على الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي من حيث المبدأ التشريعي الكلي، بل يدعوهم للمناظرة فإن قبلوا منه فخير وإلا سكت، أما أن يأمرهم وينهاهم ويغير المنكر الظاهر بينهم باليد وهم كارهون فهذا عندهم ليس مما تستحسنه العقول! وإذن، ومن نفس المنطلق المعياري الفاسد، فلا يجوز أن يكون ثمة أحكام أخلاقية عامة يلزم بها الكافة في أي بلد إلا تبعا لما تتفق الجماهير على اختياره بهواها (وهو منشأ الفلسفة الديموقراطية في التشريع العام وسياسة الناس، فتأمل)، أو بعبارة أخرى: ما تتوافق أهواء أهل الملل والطوائف في البلد الواحد على قبوله، جاز أن يجعل تشريعا عاما، وإلا فلا التفات إليه! لماذا؟ لأن البشر يتفاوتون في الحكم على كل شيء، والحقائق كلها نسبية على أي حال، فما تعده تلك الطائفة من الضروريات العظمى التي يهلك من يكذب بها، تعده الأخرى من البوائق التي يهلك من يؤمن بها! وإذن فلا يلزم عموم الناس (أخلاقيا) الخضوع العام لشيء من معايير التشريع العام إلا إن «توافقوا» عليه أولا، بأيما طريق حصل ذلك التوافق الجماعي! ونحن نقول: لو أن الله تعالى بعث رسوله بتلك الفلسفة النسبية الخبيثة التي يدعو إليها الفلاسفة والمفكرون ويداهنهم كثير من المتكلمين بتلبسيها بلبوس الدين من حيث لا يشعرون، لما قامت في الأرض قائمة للحق ولما كنا نحن اليوم مسلمين أصلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والقصد أن تسويغ تفاوت الأنظار في الحكم على وجود الباري جل وعلا وعلى وجوب طاعة الرسل بأنه من القضايا البدهية الواضحة لكل عاقل، يلزم منه تسويغ الإلحاد والقول بنسبية الأخلاق! وإذن فليس لأحد أن يفرض على أحد حكما شرعيا إلا إن ارتضته كافة الطوائف في المجتمع، حتى يصبح عرفا توافقيا فيما بينهم، لا يُلتفت لمن شذ عنه! أما أن يقال إن الله تعالى قد أرسل رسولا بكتاب وسنة وأن الحق في ذلك واضح جلي لكل عاقل، وأن ولي الأمر المسلم مكلف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبإقامة حدود الله

في الأرض، وإن كره المشركون، وبأن يأمر أهل الكتاب عند الغزو بأن يدخلوا في الإسلام أو يبذلوا الجزية، فإن أبوا إلا القتال قوتلوا، فهذا لا يجرؤ اليوم على بيان الحق فيه أحد من المتكلمين، لأنهم قد تمسكوا بأصول تلزمهم بتسويغ الخلاف النظري مع كل متفلسف يزعم أن الحق الواضح في وجود الباري وصفته يخفى عليه، وبتحويل كافة مسلمات الملة إلى دعاوى نظرية يتواردها الرأي والرأي المقابل!

ولهذا تراهم اليوم يتمسكون بدعوى أن الجهاد في الإسلام ليس إلا جهاد الدفع، وأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وغير ذلك من طرائق المتكلمة المعاصرين في الجواب عن تحويل العلمانيين كل ما يخالف فلسفتهم الإنسانية المعاصرة إلى «تهمة أخلاقية شنيعة» تتهم بها شريعة الإسلام ونبي الإسلام! لماذا؟ لأنه لا وجود للسيف ولا يُتصور ظهوره عند حاكم من الحكام تحت أي شعار ديني، في بيئة يسود عليها ذلك الأصل الفلسفي الجدلي النسبي المتفق عليه ضمنيا بين الفلاسفة الدهرية وأقرانهم من أهل الملل (كاللاهوتيين والمتكلمين ونحوهم)! فلا يزعم المتكلم في أي مناسبة أن الحجة قد قامت وظهرت وحصل المقصود من المناظرة، إلا جاءه المتفلسف بمزيد من الدعاوى السوفسطائية التي يلتزم ذلك المتكلم إذن بخوض المناظرة بعد المناظرة عليها التزاما بأصله هو الكلي في مفهوم الضرورة والبداهة وإلا تناقض!

فهكذا هي صنعة الفلاسفة: لا يأتي صاحب اعتقاد ببرهان إلا نقضه عليه خصمه، فإن التمس الأول مقدمات يزعم أنها بدهية واضحة في بناء برهانه، ادعى الخصم أنه لا يراها بدهية ولا واضحة، وتفنن في الاعتراض عليها بما يعرفه من عرف طرائق الفلاسفة! فإن ادعى المتكلم أن الخصم يكابر ويجحد الواضحات، فبأي شيء عرف أنها من الواضحات عند الخصم وأنها يحصل بها الإلزام والإفحام، إن كان يرى الوضوح والبداهة أمرا نسبيا من الأساس، كما هو مذهب الفلاسفة الجدليين في المعارف البدهية (وهو ما لأجله استجاز مناظرته من الأساس، على ما هو من ضروريات العقل والدين عنده، كحدوث العالم ووجود الباري وصحة دين الإسلام وحجية الكتاب والسنة ونحو ذلك)؟ بل يلزمه أن يفتح باب المناظرة أبدا حتى ينتهي الخصم إلى التسليم، مهما توسع الخلاف بين المتناظرين، فإن سلم وقبل الدعوى فقد حصل المطلوب من المناظرة، وإلا فلا حجة ولا بينة ولا شيء وإن استمرت المناظرة بين الخصمين أبد الدهر! وإذن، أيها القارئ الفطن، فلا جهاد ولا غزو ولا جزية ولا أمر بمعروف ونهي عن منكر ولا شيء من ذلك، بل جدل في جدل وخصومة في خصومة على طريقة الفلاسفة بلا غاية ولا نهاية، وهذا – بالضبط – هو مطلوبهم ومبتغاهم، فتأمل!

ومع أن هذا الذي تقدم تقريره من فتح المناظرة والخوض فيها بلا حد ولا غاية يخالف ما عليه كافة المتكلمين تحقيقا (على اختلاف طوائفهم) في أصول الجدل والمناظرة المقررة عندهم نظريا (إذ يتفقون على وجوب الوصول إلى نقطة تُقطع فيها المناظرة بدعوى قيام الحجة على الخصم وحصول المطلوب، وإن كابر وزعم أنه لم يحصل)، إلا أن القصد بيان تناقضهم في منهجهم المعرفي الكلي، وبيان ما يلزمهم مما هم عليه (خلافا لما يزعمون التحقق به)، لا بيان ما يصرحون به ويقررونه من مبادئهم المعرفية، ولازم القول ليس بقول كما هو معلوم!

وحتى يتضح هذا الإلزام، هب أن قاضيا شرعيا حكم على منكر للسنة بحد الردة وأمر باستتابته، فإن تاب وإلا قتل، فلما سيق الرجل إلى القاضي، طعن على الحكم وقال: «أنا لا تظهر لي أدلة حجية السنة في الإسلام، ولا أرى أن الرجل لا يكون مسلما إلا بالقول بحجية السنة، بل عندي أنه يكون مسلما كامل الإسلام، وعندي من التأويلات لنصوص القرآن على هذا المذهب ما يجيزه ويسوغه عقلي أنا وعقول أقراني من أهل نحلتي، خلافا لعقولكم، والواضح الضروري عندكم ليس واضحا ولا ضروريا عندي، فأقنعوني بالبرهان وإلا فلا

وإلا فلن يحكم حاكم بشيء إلا أجيز لمخالفه إذن أن يقول: أنا لا أقبل منك حكمك

حجة لكم علي ولا يحق لكم إجباري على التوبة»! فعلى مذهب المتكلمين في نسبية الضرورة والبداهة، لا يصح لذلك القاضي أن يبرم الحكم والاستتابة والحالة هذه، بل يتعين عليه أن يدعو ذلك الكذاب المكابر للمناظرة على شرطه، أي باستعمال أنواع الأدلة التي يرتضيها ذلك المكابر، وبأن يلتمس ما هو ضروري بدهي عند ذلك المخالف نفسه (على شرطه هو) حتى يجعله أساسا لبناء الدليل الذي يرجو أن يقبله على حجية السنة، وإلا فلا تزال الأفهام والعقول تتفاوت، فما يراه هذا بدهيا لا يراه ذاك بدهيا! وإذن فلا حقيقة لما يقال له «معلوم من الدين بالضرورة» أصلا، إذ الضرورة نسبية على أي حال!

بل ولا تقوم حجية الكتاب نفسه إلا بالتسليم بمعاني المحكم من نصوص التنزيل على ما عليه قرون المسلمين من فهمها بلسان الصحابة الذي نزلت به، بحيث يُحمل المتشابه والمجمل من النصوص عليها! هذه المعاني يأتي ظهورها وجلاؤها من جملة واضحة من بدهيات المعنى اللغوي التي لا يماري فيها عاقل من أهل اللسان (ولا يلجئنا لمراجعتها أو إثباتها هي نفسها) مخاطب من المخاطبين بالنص إلا وجب اتهامه بالجنون أو بالمماحكة والمكابرة والجحود المحض، وإلا جاز لكل سفيه متفلسف أن يقول في كل محكم من محكمات الكتاب: هذا فهمكم أنتم للقرآن، وهو لا يلزمني لأني لا أراه، بل لا أرى الآية إلا من متشابه النصوص لا من محكمها كما زعمتم، فإنما المدار في التأويل على عقل كل عاقل بحسبه، فلا يلزمني فهمكم ولا فهم سلفكم الذين تنتسبون إليهم في شيء! وهذه كما لا يخفى هي الزندقة بعينها!

لهذا نص أهل العلم – كما ذكرنا في غير هذا الموضع – على أن سماع الحجة وليس فقهها هو شرط قيامها على وجه التمام، أي وليس شهادة المخاطب على نفسه بأنه قد زالت عن نفسه كافة الشبهات المانعة من قبول الحق الواضح ومن ثم ترجح عنده أنه الحق، فإن كان هذا هو المقصود بفهم الحجة أو فقه الحجة فليس بمشترط في قيامها أصلا، لأنه لا يدعي ورود المعارض على ما في القرآن من الهداية والحق الواضح، ولا يدعي التخلف عنه أو خفاءه عليه من المشركين الذين سمعوا القرآن إلا رجل مغموص عليه في الهوى كما بسطنا القول في بيانه في هذا الكتاب بحول الله تعالى، وهو من قال جل شأنه في مثله: ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً**﴾ [**الإسراء**: ٤٦]، فهؤلاء عرفوا الحق كما يعرفه كل عاقل بمجرد سماعه وفهم ألفاظه على لسانهم، وإنما وجدوا في نفوسهم من الأهواء الصارفة ما يزين لهم الكذب على أنفسهم وعلى الناس وادعاء أن الحق لم يظهر لهم بعد سماع القرآن، وأن الأمر لا يزال يحتاج إلى مزيد من البرهنة ودفع الشبهات حتى يترجح عندهم! هؤلاء من ترسَّل معهم وأجابهم لشرطهم الفاسد في قيام الحجة فلن تقوم له عليهم حجة أصلا، بل لن يترسل معهم في الجدال كما طلبوا إلا توسعوا في الأمر توسعا وطالبوه بالمزيد من «البراهين» والأجوبة عن اعتراضاتهم وتخرصاتهم، حتى يظل الجدال منعقدا أبد الدهر، متسلسلا مد العمر، ويظل الواحد منهم يتترس بدعوى أن الحق لم يظهر له بعد ما دام حيا! ذلك أنهم أهل أهواء قد تماروا وجادلوا في الواضحات الجليات بمجرد زعمهم أن حجة القرآن على الشرك وعلى ملل المشركين تحتاج إلى مزيد من البرهنة والتوضيح! هؤلاء كذبة جحدة، والواجب المتعين على ولي الأمر المسلم أن يعاملهم بهذا الوصف، لا أن يقال إنهم نظار مفكرون «باحثون عن الحقيقة»، يلزم أن يحترموا ويجابوا لشرطهم في المناظرة ونصب البرهان (على ما يعتبرونه هم بأهوائهم برهانا وطريقا لحصول المعرفة، لا على ما تحصل به تحقيقا في نفوس العقلاء الأسوياء السالمين من الأهواء)!

ولا أراه بعقلي فلا يلزمني العمل به ولا تلزمني طاعتك [1]! بل لو قال لا أرىٰ من البداهة والوضوح وجوب أن يُنصب للناس حاكم في البلاد أصلا، أو يُجعل لهم قاضي يحكم فيهم بشريعة ما أو بقانون ما، للزم أن يُقبل من ذلك المخالف خلافه وأن يجاب لطلبه المناظرة مع الحاكم أو مع القاضي إن طلبها! ومهما جاء من رأسه بتأويل مخترع للنصوص القطعية المحكمة التي انعقد إجماع القرون في هذه الأمة عليها وأطبق المسلمون علىٰ فهمها علىٰ ما فهموا، لزمه أن يُسوغ خلافه في ذلك كله وأن يحترم فهمه، لأن العقول تتفاوت! فإذا كان لا يرىٰ وجوب الخضوع لحكم القاضي ولا يعده أمرا ضروريا (من حيث المبدأ)، والضرورة عنده نسبية تتفاوت، فكيف يكون من العدل إذن أن يُحكم عليه بحكم هو لا يراه ولا يرىٰ له أصلا في «العقل» يقوم عليه؟

كيف تُعرف سفسطة المسفسط ومكابرة المكابر معرفة ملزمة معياريا وأخلاقيا، عند من جعل الأمر في الضروريات والبديهيات نسبيا؟ نعم هو له في نفسه – علىٰ مذهبهم – أن يرىٰ خصمه مسفسطا مكابرا، وأن يكون هذا هو رأيه فيه، ولكن كيف له أن يتهمه بذلك اتهاما موضوعيا (بما يترتب عليه استحقاق المساءلة والعقوبة استحقاقا عادلا في حق ذلك الجاحد المستكبر) وقد أجاز له أن يطرح كل شيء للنظر والاستدلال مبدئيا؟ ما دام الأمر كذلك، فما قد يظهر لك أنت من دليلين أو ثلاثة، أو من غير دليل أصلا، قد لا يظهر لغيرك من ثلاثين دليلا! وما دمت قد أجزت المناظرة والاستدلال علىٰ ما تعده من البديهيات حتىٰ تثبتها لغيرك (ممن لا يراها كذلك) باستعمال ما يعده هو من

(١) ولهذا كان من رحمة الله بالمسلمين وعظيم فضله عليهم أن جعل وجوب طاعة أولي الأمر المسلمين وإن كانوا عصاة جائرين (إلا إن أمروا بمعصية ظاهرة البرهان، فلا يطاعوا فيها)، من معاقد الإجماع القطعي في دين الإسلام، بل من أصول السنة الكبرى التي قررها أئمة السلف في كتبهم، فلا يخالف في ذلك الإجماع نفسه إلا مكابر من أهل الأهواء! فإن أمور العباد لا تستقيم ومصالحهم لا تنقضي إن اتخذوا من حكم حاكمهم وأمره وقضائه في كل مسألة مادة للجدل والمناظرة والخلاف فيما بينهم وبينه، فلا يحكم بشيء إلا جادلوه، ولا يقضي بأمر إلا نازعوه (على طريقة ما يسمى في الديموقراطية بـ«أحزاب المعارضة»!)، ولم يجادله مجادل ولم ينازعه منازع إلا تعين عليه أن يناظره ويجادله (وكأنهم أقرانه وأنداده لا محكوميه ومرؤوسيه)، كما هي طريقة الفلاسفة وأهل الكلام في كل عصر من العصور، فلا يقضي أمره إلا إن اقتنع الكافة بصحة حكمه وأمره وسلامته من المعارض في كل مسألة! وإذن، أيها القارئ الفطن، فلا حكم ولا قضاء ولا خير يصل إلى الناس أصلا! فالحمد لله على نعمة الإسلام والسنة، التي لا يصح العقل ولا يستقيم الأمر إلا بها!

الضروريات في مقدمات براهينك، فقد لزمك أن ترتضي منه زعمه بأنه ما من شيء جئته به مما توهمته أنت من ضرورياته التي يناسب أن تقدم بها لبراهينك، إلا وهو عنده من النظريات البعيدات عن ذهنه، لا كما ظننته أنت مما يسلم به! وإذن فقد لزمك أن تثبتها له كذلك إن اعترض عليها باعتراض نظري ما، لمجرد زعمه أنها نظرية عنده، وهكذا في تسلسل لا نهاية له، علىٰ ما عليه طريقة الفلاسفة تحقيقا، ويزعم المتكلمون أنه لا يقع لهم!

والقصد أن جواب الأخ أبي غوش يزيد الأشاعرة تلبسا بنفس الخلل الفلسفي في مصادر التلقي المعرفي بالغيبيات والإلهيات عند عموم الفلاسفة، وفي مفهومهم لكل من العقل والنظر والضرورة والدليل، من حيث لا يشعر.

وأنا أدري أنهم إن قوبلوا بتلك الإلزامات لم يلتزموها قطعا، ولازم القول ليس بقول كما هو متقرر، ولكن لا بد من بيان ذلك التناقض وتحذير المسلمين منه، لأنه ضارب في أصل الصناعة نفسها (صناعة الكلام) وفي منبتها الذي نبتت منه، ولا يسلم منه متكلم، سواء من الأشاعرة أو من غيرهم، لأنه لا يسلم منه الإنسان غاية السلامة إلا بترك الكلام وترك مخاصمة الفلاسفة المكابرين وترك مناظرتهم علىٰ شرطهم في الإلهيات والغيبيات بالكلية، ومن ثم البراءة من أصولهم المعرفية الفاسدة جملة وتفصيلا، وهذا لا يرجىٰ منهم أصلا علىٰ ما تخصصوا فيه من تلك البراهين والنظريات حتىٰ أسسوا عليها دينهم، والله المستعان.

وكثيرا ما يقرر المتكلمون أن الأعرابي في الأثر المشهور قد استدل (علىٰ مفهومهم الفاسد للاستدلال) علىٰ الخالق بالجبال والسماء والأرض قياسا علىٰ استدلالنا علىٰ البعير بالبعرة، أو تفريعا علىٰ أصل دلالة الأثر علىٰ المؤثر، وأن هذا يكفيه ما دام يصل به إلىٰ المطلوب، ولكن إن صح أن يكون في استدلاله المزعوم خللا أو نقصا، كما قد تدعيه الفلاسفة التي تعمقت في الكلام والفلسفة (علىٰ التسليم بأن هذا الكلام من الأعرابي كان نظرا أو استدلالا نظريا، وليس كذلك كما بينا في غير موضع)، فلا بد وأن استدلاله هذا مردود عليه، ويلزمه إذن أن يطلب دليلا «أقوىٰ» من ذلك، بأن يتعلم

برهانا من براهين المتكلمين مثلا، التي كانت أعصىٰ علىٰ الفلاسفة في الرد من ذلك «الاستدلال البدوي الساذج»! وإلا فإن كان استدلاله ذاك يجزئ العاقل ويكفيه علىٰ ما هو عليه، ويحصل به الإيمان المطلوب شرعا، فما وجه التسليم للفيلسوف بمعقولية طلبه المزيد من الأدلة في نفس الأمر (من حيث المبدأ المعرفي) وإجابته إلىٰ ذلك؟

وجهه، أيها القارئ الكريم، أن المتكلم لو لم يسلم للفيلسوف بمعقولية طلبه الإبليسي المتنطع ذاك، للحقه هو نفسه الاتهام بخفة العقل وسذاجة المعتقد والتقليد في الإيمان، وهي تهمة يفر منها المتكلم فراره من الأسد! كيف يكون إيمان المتكلم كإيمان الأعرابي (أي في الأصل الاستدلالي النظري)؟ أيؤمن السادة المتكلمون كما آمن العامة والدهماء من الناس، ثم تراهم يطالبون «النخبة» من الفلاسفة الكبار بمثل ذلك الإيمان؟ معاذ الله! بل يجب أن تصاغ لهم الأدلة المعقدة العميقة المزخرفة التي تليق بمنزلتهم في «العقليات»، وإلا لم يكن لنا أن نعتب عليهم (أي الفلاسفة) صدودهم عن الحق الجلي الواضح أو نؤاخذهم بالإعراض عنه! من هنا جاء قولهم بأن الاستدلال علىٰ حدوث العالم ووجود الصانع أمر نسبي، فما يكفي أحد العقلاء قد لا يكفي غيره، والباب في اختراع الأدلة الجديدة التي تليق بحال طالبها واسع لا انسداد له!

وأقول، من الواضح أن السبر يقتضي ثلاث احتمالات لا رابع لها في الحكم المعياري علىٰ أي دليل: إما أن يكون صحيحا في نفسه ظاهرا وكافيا لكل عاقل (أ)، وإما أن يكون لورود الخفاء أو الإجمال أو الاشتباه علىٰ بعض مقدماته مدخل (ب)، وإما أن يكون باطلا في نفسه فلا يحصل به المطلوب عند أحد من العقلاء أصلا. (ج)

فإن أدخلوا «دليل الأعرابي» (علىٰ التسليم بجعله دليلا نظريا كما زعموا) في القسم (أ)، فقد لزمهم أن يكتفوا ببذله لكل مخالف من الفلاسفة من الدهرية ونحوهم، فإن اعترض أو طلب المزيد عليه أو طلب المناظرة فيه، رموه باتباع الهوىٰ ورفضوا مناظرته البتة، وانتهىٰ الأمر معه (علىٰ قاعدتهم في علم الجدل)، لأنه يكابر في البدهيات الواضحة التي لا ينكرها عاقل، ويلزم التسلسل من طلب الدليل عليها هي نفسها! وإن أدخلوه في القسم (ب)، فقد لزمهم أن يعيبوا الأعرابي بالجهل بمداخل

تلك الاعتراضات الدقيقة والاحتمالات العميقة علىٰ الدليل الذي أسس عليه دينه، وأن يوجبوا عليه هو وأمثاله تعلم الفلسفة والكلام حتىٰ يصح له إيمانه (من حيث الأساس المعرفي) ولا يكون كإيمان السفهاء السذج المقلدين، إذ كيف يقوم اليقين في النفس علىٰ دليل نظري قابل للطعن والإسقاط ولو مبدئيا؟! وإن أدخلوه في القسم (ج)، فقد نزعوا عنه الإيمان بالكلية ولزمهم أن يوجبوا عليه المبادرة إلىٰ تعلم شيء من أنواع الأدلة الأخرىٰ وأن يبلغ أن يحيط علمه بجميع مداخل الاعتراض العقلي (الفلسفي) عليها، ويملك من مدافع تلك الاعتراضات النظرية ما يتحصل به الثبوت اليقيني لديه! وإذن فقد وجب عليه أن يتعلم الكلام حتىٰ يبلغ منزلة المتكلم المختص، إذ مقصود النظر عند أي ناظر علىٰ أي حال، إنما هو حصول المعرفة بناء علىٰ دليل صحيح كاف في أداء المطلوب! فإذا كان الدليل النظري لا يُفهم حق الفهم ولا يتم به الاستدلال ولا يحصل به المطلوب من النظر علىٰ أكمل وجه، حتىٰ يكون صاحبه علىٰ دراية وافية باعتراضات المعترضين عليه والأجوبة الصحيحة عليها، فلا بد أن المستدل لا يكون ناظرا سالما من التقليد حتىٰ يتعلم ما يلزم تعلمه من أجل ذلك باتفاق أهل الصنعة! ولا نظن أننا نحتاج إلىٰ التمثيل علىٰ ذلك بأمثلة من أي صنعة من الصناعات النظرية الدقيقة، سواء في العلوم الإنسانية أو التجريبية أو غيرها! فلا شك أن من عرف الدليل بإجمال، في أي صنعة من تلك الصناعات، دون التفصيل الذي يعقله ويحيط به أهل الاختصاص، فلا يقال له إنه ناظر مجتهد في تلك الصنعة ولا إنه مستدل، وإنما يعد مقلدا ناقص المعرفة! فلما صار النظر في وجود الباري صنعة تخصصية بالغة الدقة والتعقيد، أصبح أصحاب تلك الصنعة في حرج عظيم من مجرد ذلك! إذ كيف يصح عندهم إيمان العامي الجاهل بالكلام وطرقه وأدلته جملة وتفصيلا، وقد لزمهم الطعن علىٰ معرفته نفسها والحكم بعدم كفاية أسباب الإيمان عنده لأداء المطلوب؟

فعلىٰ تعريفهم للمعارف الضرورية (الذي هم فيه تبع للفلاسفة)، فلا وجود إلا للقسم (ب)! أي أنه ليس يتصور حصول دليل يلزم جميع العقلاء (معياريا) أن يشهدوا بكفايته في أداء المطلوب، بحيث تلحق التهمة بمن خالف فيه بالهوىٰ والمراء والمكابرة! وكذلك لا يتصور حصول دليل يلزم كافة العقلاء (معياريا) أن يشهدوا

ببطلانه وعدم أدائه للمطلوب، بحيث يلزم اتهام من جعله دليلا! هذا لازم قولهم عند التأمل. وإذن فقد أصبح إيمان الأعرابي معيبا البتة علىٰ كل تقدير، حتىٰ يستكمل ذلك النقص لديه ويتعلم ما به تندفع موارد الاعتراض علىٰ استدلاله المزعوم (أيا ما كانت)، ويسلم – إذن – من تهمة التقليد الأعمىٰ!

ومع هذا، فالمعتمد من مذهب الأشاعرة أن هذا لا يعد مقلدا أصلا، لأنه قد حصل له نوع استدلال، وإن كان «مجملا»! فهذا هو جوابهم لتلك الإشكالية: التلاعب بتعريف التقليد نفسه! والسؤال الآن: هل يكفي الاستدلال المجمل (معياريا) أم لا يكفي؟ إن قالوا: الكفاية نسبية، فما يكفي الأعرابي قد لا يكفي الفيلسوف، قلنا: أولو كنتم تقرون الفيلسوف علىٰ زعمه أن دليل الأعرابي يرد عليه من الاعتراضات الفلسفية ما يقتضي مزيدا من التحرير لضبطه وإحكامه، أو علىٰ الأقل يجوِّز طلب المزيد من الأدلة والبراهين؟ هذا إذن يكون مقلدا وليس ناظرا أصلا، لأنه لو استوفىٰ النظر علىٰ حقه، لظهر له ما ظهر للفيلسوف من نقائص ومعايب في استدلاله تنزل به عن حدّ الكفاية! والمقلد ليس مستدلا ولا ناظرا علىٰ التحقيق، والنظر الناقص العليل في مقام التحقيق المعرفي، هو كعدمه، إذ يترك صاحبه وقد تعلق في إثباته ما يثبت، بدليل تعتوره من الإشكالات والمآخذ ما لا ينتبه إليه أصلا! وإذن فقد تعين علىٰ «الأعرابي المسكين» صاحب البعرة والبعير أن يصبح فيلسوفا متعمقا متبحرا في الإلهيات والعقليات، لعله يسلم له «استدلاله» من تلك المعايب، ولا يعد من جملة السفهاء!

هذه هي النهاية التي يرجع إليها المتكلمون لا محالة، مهما حاولوا التملص منها! ولا يزال القوم يتناقضون في تقرير موقعهم من الضروريات ومن إيمان المقلد ومن حدود النظر الواجب غاية التناقض، لأن الأمر كما ترىٰ مداره علىٰ استحسان طريقة الفلاسفة في طرح أصول العقل والبداهة الأولىٰ نفسها للنظر والاستدلال والرد والجدال!

وأنبه القارئ إلىٰ أني أفترض وجود ما أعلم أن الفلاسفة لا يعجزون عن تكلفه من أنواع الاعتراضات علىٰ المقدمات وعلاقتها بالنتيجة في ذلك الأثر الذي يحلو لهم أن يضربوا به المثل علىٰ ما يعدونه من أنواع الاستدلال الإجمالي الذي يكفي العامة

من الناس عندهم (أعني أثر الأعرابي)! أما هل وُجدت تلك الاعتراضات وقوعا أم لم توجد فلا يعنيني لحصول مطلوبي ها هنا (وقد رأيت بالفعل من الملاحدة من سفسط عليه).

ونقول إنه من المكابرة أن يسوي الفلاسفة (والمتكلمون معهم) بين المعاني التي عرفت صحتها بالبداهة والفطرة والمعاني التي عرفت من طريق الحس المباشر، والمعاني التي اكتُسبت المعرفة بها من بعد جهل بالنظر والترتيب الذهني الطويل، فيقال إن «النظر» وارد - من حيث المبدأ - علىٰ تلك الأنواع جميعا علىٰ السواء، ومن ثم فدعوىٰ الضرورية في أي منها دعوىٰ نسبية لا محالة! نعم قد تتعطل آلة العقل فلا ترىٰ الواحد نصف الاثنين، وقد تتعطل آلة الإدراك البصري فلا ترىٰ الكرة كرة ولا ترىٰ الأحمر أحمر في نفس الأمر، ولكن تأمل كيف أننا حكمنا عليها معياريا بأنها تعطلت (أي أنها فسدت) لمجرد أن أوهمت بعض الناس بخلاف ما يجب أن تكون عليه معرفتهم! فليس دخول النظر علىٰ مثل ذلك إلا علامة مكابرة ومرض في القلب قطعا! ذلك أن العمل الصحيح الذي يليق بآلة العقل ويليق بآلة الحس، إنما هو أن ترىٰ البدهي بدهيا، والفطري فطريا، والواقع علىٰ ما هو عليه واقعا، ثم تحمل صاحبها علىٰ العمل بمقتضىٰ ذلك! فمن لم يثبت البداهة في المعاني البدهية التي يجب عليه أن ينفي صفة العقل نفيا قاطعا عمن زعم أنه لا يراها من الضروريات ويشترط النظر لإثباتها (ومن تلك المعاني مخلوقية العالم ومربوبيته بما فيه)، فهذا يلزمه من اللوازم ما يذهب به اسم العقل عنه هو نفسه!

ولهذا كان من أقسام تعريف العقل عند أهل السنة، أنه يشمل العمل بمقتضىٰ العلم البدهي الفطري الواضح، فمن ترك العمل اللازم الذي تقتضيه المعرفة البدهية، فليس بعاقل قطعا، بل هو سفيه علىٰ التحقيق، مصاب بالهوىٰ الصارف عن مقتضىٰ البداهة! أي أن مرض النفس وإصابة القلب بالهوىٰ (الذي يصرف الإنسان عن العمل بمقتضىٰ الحق الظاهر)، يرفع عن صاحب ذلك القلب اسم العقل بالكلية ويلحقه بالسفهاء وإن كان من أذكىٰ الناس وأوفرهم نبوغا في العقليات والنظريات، وهذا المعنىٰ مستفيض

في القرآن كما دللنا عليه في غير هذا الموضع. ومن أظهر الشواهد عليه في السنة قول النبي ﷺ: «إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهي القلب»، فصلاح القلب يقتضي صلاح الجسد من حيث صلاح العمل، والعكس بالعكس.

ولما سئل الأخ نفسه في نفس الموقع هذا السؤال: «هل الاجتهاد في معاني الصفات وأصول العقيدة جائز كالاجتهاد بالفرعيات والاختلاف فيها.. كالمذاهب الفقهية؟»

أجاب قائلا:

> الاجتهاد بمعنىٰ بذل الجهد في التَّفكُّر والنَّظر «في أصول العقائد» ليس جائزا فقط، بل هو واجب -عند جمهور العلماء- علىٰ كلِّ مكلَّف بحسب وسعه. ولا يُقصد بذلك دراسة علم الكلام، المقصود النَّظر المقدور لكلِّ عاقل بحسبه، فالاستدلال علىٰ وجود الله تعالىٰ ممكن للطبيب والمزارع والأعرابيِّ، كالذي استدلَّ بالبعرة علىٰ البعير والأثر علىٰ المسير.
>
> وكذلك ليس يصعب علىٰ أيِّ عاقل النَّظر في وحدانيَّة الإله تعالىٰ، وفي أنَّه لا بداية له ولا نهاية، وفي أنَّه مخالف للمخلوقات في ذاته وصفاته وأفعاله، وفي أنَّه علىٰ كلِّ شيء قدير بكلِّ شيء عليم. إذ إنَّ من عرف أنَّ الله تعالىٰ متَّصف بالكمالات أثبت له هذه الصفات ولو إجمالا.
>
> وليس الخلاف في أصول العقائد ممَّا يكون به العذر، أي: لا يُعذر الإنسان لو وصل بنظره إلىٰ شيء باطل في أصول العقائد، فإنَّ الله تعالىٰ قد ضمن لمن ينظر النَّظر الصَّحيح الكامل أن يصل إلىٰ الحقِّ، فمن لم يصل إلىٰ الحقِّ فهو لم يحقِّق النَّظر الصحيح.

قلت: لا ينبغي أن يعرّف الاجتهاد علىٰ أنه «بذل الجهد في التفكر والنظر» وحسب، فهذا تعريف غير مانع، وإنما التعريف الصحيح أن يقال إنه «بذل الوسع في التفكر والنظر في أنواع المسائل النافعة التي تتطلب جهدا في استخراج الدليل وتحقيقه وتجليته لمعرفة الصواب فيها، مع تحقق الأهلية اللازمة لذلك في الناظر المجتهد». فإنه من الحماقة والسفاهة ومحض الجحود أن يبذل أحد الفلاسفة عمره في تطلب

الدليل علىٰ وجود من صنعه وركبه وصوره كما شاء أن يصوره، أو علىٰ أن الواقع الخارجي موجود تحقيقا - مثلا - أو علىٰ أن الواحد نصف الاثنين، ثم إن سئل قال هذا مني اجتهاد، لأنه «بذل للجهد في التفكر والنظر»! وقول صاحبنا «أصول العقائد» فاسد قطعا! فالصحابة والسلف لم نر من أحدهم اجتهادا علىٰ المعنىٰ المستساغ شرعا، في شيء مما اختص الخلف والمتكلمون بعدهم «بالاجتهاد» فيه تحت ذريعة «إثبات أصول الدين»، حتىٰ خصصوا لذلك «الاجتهاد» علما سموه بعلم الكلام، وحتىٰ جعلوا «الاجتهاد» في إثبات الصانع أول واجب علىٰ كل مكلف! والعقائد من حيث هي عقائد، لا يجوز طرحها للنظر والاجتهاد أصلا، إذ كيف تبلغ أن تكون موضوعا لعقد القلب عليها بالجزم المنصرم (كما هو الشأن فيما يقال له في اصطلاح العلماء وأئمة المسلمين «عقيدة»)، ثم هي في نفس الوقت محل للاجتهاد والنظر وموردا للمعارض؟ ثم إذا كان هذا يقال في العقائد، فكيف بـ«أصول العقائد»؟ سبحان الله!

نعم قد اختلف الصحابة بالنظر في أدلة بعض مسائل السمعيات والعلميات كما هو معلوم، كواقعة رؤية الله تعالىٰ ربه في ليلة المعراج بعينيه (هل تثبت أم لا)، أو كمسألة عذاب القبر هل يقع علىٰ البدن أم علىٰ الروح، واختلفوا في تفسير بعض الآيات هل تدخل في آيات الصفات أم لا، لكن تلك المسائل التي اختلفوا فيها، لا يقال إنها من العقائد، فضلا عن أن تكون من «أصول الاعتقاد» (علىٰ المعنىٰ الذي يريده المتكلمون من ذلك الإطلاق)! لا يقال إنها من مسائل الاعتقاد إلا إن كان المراد أنها تُبحث - عند بحثها - تحت علم العقيدة (لاختصاصه بأبواب السمعيات وأدلتها بعموم)، لأن الاعتقاد - بحسب تعريفه - هو عقد القلب علىٰ الجزم المنصرم بمعرفة معينة. وأما مسائل الاعتقاد أو مسائل علم العقيدة، فهي في اصطلاح بعض العلماء (عند من يفرق بينها وبين مسائل المنهج): كل خبر جاء عن الله أو رسوله أو أثر عن الصحابة في حكم المرفوع، يتضمن خبرا غيبيا لا يتعلق به حكم عملي شرعي. لذا لا يجوز بحال من الأحوال أن يقال إن الصحابة اختلفوا في العقيدة (لما في ذلك من إجمال)، فضلا عن أن يقال إنهم اختلفوا في «أصول الاعتقاد»، أو يقال إن ما عده بعضهم من ضروريات الدين، رآه غيرهم من أبواب النظر والاجتهاد، لما في ذلك من بطلان قطعي!

ولما أراد الأشاعرة أن يوافقوا أئمة السنة والسلف علىٰ أن الصحابة لم يقع بينهم ذلك الاختلاف أصلا، وعلىٰ أن من شذ في أصول الاعتقاد شذ في النار، فقد اضطروا لاختراع طريقة يجمعوا بها بين موقفهم الفلسفي الجدلي ذي الأصول اليونانية في مفهوم الضرورة والمعرفة الضرورية والعقل نفسه، وبين موقف السلف من المخالف في كليات الاعتقاد (أنه يرمىٰ بالهوىٰ بمجرد المخالفة، فيبدع ويفسق أو يكفر، ولا يعذر باشتباه أو خفاء دليل)! فبدلا من أن يوجبوا الإعذار لكل مجتهد مخطئ في أي مسألة يعدها هو نظرية (بالنسبة إليه)، سواء كانت في الفرعيات أو في الأصول الاعتقادية (كما هو مذهب الفلاسفة الذي يلزمهم بمجرد إدخالهم أصول الاعتقاد في جملة مسائل النظر والاجتهاد)، فرقوا بين المتماثلات تحكما، وتناقضوا تناقضا إضافيا إذ قرروا – كما ذكره صاحبنا – أن أصول الاعتقاد من لم ينظر فيها النظر الصحيح فليس بمعذور، وأن الخلاف فيها ليس بمستساغ! وذلك قول الأخ: «وليس الخلاف في أصول العقائد ممَّا يكون به العذر، أي: لا يُعذر الإنسان لو وصل بنظره إلىٰ شيء باطل في أصول العقائد، فإنَّ الله تعالىٰ قد ضمن لمن ينظر النَّظر الصَّحيح الكامل أن يصل إلىٰ الحقِّ، فمن لم يصل إلىٰ الحقِّ فهو لم يحقِّق النَّظر الصحيح.»

قلت: ومن نظر النظر الصحيح في المسائل النظرية الأخرىٰ (مما دون مسائل أصول الاعتقاد)، أوليس قد ضمن له الرب جل وعلا أن يعرف الحق والصواب كذلك، عند تحقق كافة الشروط وانتفاء كافة الموانع؟ الجواب بلىٰ ولا شك، وإلا فما أساس التفريق عندكم بين نظر ونظر، وفيم تكلّف الاجتهاد والنظر أصلا إن كان المجتهد الصادق في طلب الحق في مسائل الدين (سواء في العلميات أو العمليات) لا يضمن أن يجد من الأدلة ما يصل به إلىٰ الحق (من حيث الأصل)، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [**العنكبوت**: ٦٩]؟ أنتم أجزتم للمخالف في تلك المسائل الكبرىٰ أن يزعم أن أدلتها تخفىٰ عليه، وأنها ليس فيها ضروري ظاهر ولا بدهي فطري، وإنما كلها نظر في نظر واجتهاد في اجتهاد ورأي في رأي! فما ذريعة الإعذار للمجتهد إن أخطأ عندكم (في أي مسألة توصف بأنها نظرية تتقارب فيها الأدلة عند الناظر)؟ سبب الإعذار عند العقلاء كافة أن ذلك الناظر بعينه

قد بذل وسعه في جمع الأدلة والتفكر فيها والجهد في تأملها، ومع ذلك لم يوفق إلىٰ النظر الصحيح، ولم يصل إلىٰ الحق وهو يقصده صادقا في طلبه! فهذا يعذر لأن قدراته العقلية قصرت عن بلوغ النظر الصحيح، وعن درك وجه الدلالة الصحيحة الذي أدركه غيره، مع صدقه في طلب ذلك، وما ذاك إلا لأن الدلالة يرد عليها الخفاء والاشتباه (نوعا).

فإذا كانت المسألة – أي مسألة – توصف بأن بعض الناس قد يروا أدلتها «ضرورية» وبعضهم قد لا يظهر له ذلك فيها (لأن الضرورة نسبية)، فقد تعين الإعذار (بموجب ذلك) لكل من بذل الوسع والجهد في المسألة التي هي نظرية بالنسبة إليه (أيا ما كان موضوعها)، ولم يصل مع ذلك إلىٰ النظر الصحيح! وإذن فلا فرق بين المعلوم من الدين بالاضطرار، وبين المسائل الاجتهادية النظرية! ولا فرق بين ما اتفقت كافة الطوائف علىٰ كونه من أنواع المسائل النظرية، وبين ما ترونه أنتم ضروريا ويراه الفلاسفة نظريا، أيا ما كان الموضوع، وعليكم إعذارهم في جميع ما زعموا فيه أن الحق يخفىٰ عليهم، وإن كان من أظهر البدهيات عندكم، لأن الحكم المعياري في الضروريات نسبي!

أما إن قلنا إن مسألة من المسائل توصف بأنها ظاهرة ظهورا ضروريا بمعنىٰ أن كل عاقل سوي النفس، ملم باللغة التي جاءت بها المسألة، تأمل أو تفكر أو تدبر فيها فلا بد ألا يصل به عقله إلىٰ خلاف الحق فيها، فما كان ذلك وصفه فلا يوصف – من الأساس – بأنه من مسائل الاجتهاد وبذل الفكر والجهد في النظر التي يستساغ فيها الخلاف! بل هو من القضايا الجلية الظاهرة لكل عاقل، التي نزعم نحن أن من زعم خفاءها عليه وطرحها للنظر فهو كذاب مكابر، جاحد للبدهيات! وهو مفهومنا نحن أهل السنة للضرورة العقلية: أن الإنسان (الذي يصح وصفه بالعقل وسلامة القلب من الأهواء) لا يجد في بداهة فكره إلا ما يوجب عليه التسليم بها وبمقتضاها (إذ لا يُتصور فيها ورود المعارض واحتمال المخالفة البتة)، وإنما قد يجد في قلبه من الهوىٰ ما يصده عن الإذعان لها وعن العمل بمقتضاها كما هو متعين عليه، كراهة لذلك العمل الواجب نفسه! فإن كان من ذاك الصنف المكابر المسفسط، فقد وجب علىٰ قولنا رفع اسم العقل

عنه البتة، لا أن يجاب لشرطه في المناظرة والمجادلة لعله يظهر له ما يزعم خفاءه عليه!

فعلىٰ قولنا هذا يصح في العقل – بل يتعين – ألا يعذر من يخالف في تلك القضايا الواضحة، التي يدخل في حكمها كل معلوم من الدين بالضرورة (أي لا يكون الرجل مسلما من عامة المسلمين إلا وقد مر بذلك المعلوم من أمر دينه ومر بدليله القطعي)، بعدما سمع أدلتها وقامت عليه حجتها، بلسانه الذي يفهمه! فالضرورة المعرفية (ومن ثم عدم الإعذار) إنما تأتي من شدة جلاء ووضوح السبب الذي به تحصل المعرفة في النفس، سواء كان ذلك السبب هو الغرس الفطري في نفس الإنسان، الذي يعمل به العقل علىٰ نحو مخصوص بمجرد أن يعي أسماء الأشياء (ومن ثم يجد في نفسه المعارف البدهية حاضرة ابتداء، التي منها المعرفة بأنه مخلوق وأنه مربوب وأن ربه كامل الصفات ضرورة منزه عن النقائص بداهة، وعن مماثلة المخلوقين)، أو كان دليلا سمعيا ظاهرا جليا محكما في دلالته، قد أطبقت الأمة علىٰ قبول تلك الدلالة فيه كما هي دون خلاف أو احتمال معارض! وأما النظر وتطلب النظر فإنما يُلجأ إليه في المسائل التي لا توصف أسباب المعرفة بها بأنها ظاهرة جلية (فضلا عن أن تكون مغروسة في النفس غرسا سابقا)، بل يتصور فيها خفاء وجه الدلالة أو اشتباهه أو تقاربه أو ورود الاحتمال والمعارضة. وصحيح إن هذه الأسباب المكتسبة، ترجع في بناء دلالتها إلىٰ الصنف الأول من المعارف، من طريق الاستدلال والتجلية وترتيب النتائج علىٰ المقدمات، إلا أن العقول قد تتفاوت في قدرتها علىٰ درك تلك الطرق والتراتيب، ومن ثم صح أن يستساغ الخلاف في الاستدلال عليها وأن يستساغ الإعذار (معياريا).

وبهذا فرقنا بين الشك النظري المحمود إجمالا والشك المذموم (وسيأتي بيان ذلك بمزيد من البسط في مبحث لاحق)، فالأول هو شك العلماء، الذي يُقصد به استعدادهم الدائم لقبول الرأي المخالف لرأيهم والنظر المعارض لنظرهم في المسائل التي يستساغ فيها الخلاف ويرد علىٰ أدلتها الاحتمال، إن ظهر لهم ما يقلب الترجيح عليهم ويوجب تحولهم إلىٰ المذهب المخالف، بخلاف الشك الثاني الذي هو شك الفلاسفة، الذي يذم من استجازه أو دعا إليه أو اتخذه مدخلا لبناء معرفته! أما المتكلمة

فيلزمهم التسوية بين النوعين، لأن الضرورة عندهم نسبية، وإذن فالشك المنهجي النظري يلزم ألا يكون له حدّ عندهم، وأن يستساغ دخوله علىٰ كل شيء بلا تفريق!

وقد أثر عن الشافعي رحمه الله أنه قال: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»! أي أني وإن كنت الآن مطمئنا لترجيحي، إلا أني علىٰ استعداد أبدا لظهور دليل يعارض مذهبي فأنتقل به إلىٰ مذهب المخالف، لأني أعترف باحتمال أن أكون مخطئا فيما ذهبت إليه، وإن كان الاحتمال عندي ضعيفا. فهل يتصور عاقل أنه يسري ذلك المبدأ عند الإمام رحمه الله علىٰ قوله في وجود الباري أو في صحة دين الإسلام وثبوت النبوة، أو في مشروعية الصلاة والزكاة من دين الإسلام أو في منهج تأويل نصوص المعتقد أو في القضاء والقدر أو في دخول العمل في مسمىٰ الإيمان أو في حرمة الخروج علىٰ أئمة الجور أو نحو ذلك من الأصول الكبرىٰ؟ أبدا! وإنما تناول الأئمة بالرأي والنظر والاجتهاد أنواعا من المسائل يرد عليها احتمال المعارض (نوعا)، وهي تلك المسائل التي جوزوا فيها المناظرة (علىٰ خلاف الأصل) بداعي المصلحة الشرعية، وأوجبوا الإعذار فيها وسوغوا الخلاف عليها ومنعوا من هجر المخالف فيها أو تفسيقه أو تبديعه (ما دام مستوفيا لشروط الاجتهاد)، وفي مثلها قال بعضهم «ما ناظرت رجلا إلا رجوت أن يكون الحق معه». أما أن يدخل تحت ذلك الشك النظري، وتحت تسويغ الخلاف والرأي والمناظرة، قضايا العقيدة والمنهج وتلك الكليات التي أجمع السلف علىٰ أنه لا يخالف فيها إلا مبتدع، يقول إن «رأي غيري فيها خطأ يحتمل الصواب»، فهذا مميع صاحب هوىٰ، فيه خصلة من الفلاسفة ومن أذنابهم الجهمية ولا شك.

ولهذا أنكر علماء السنة المعاصرون علىٰ فرقة «الإخوان المسلمين» ما أصله لهم إمامهم «حسن البنا» في قوله «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه» لأنه إنما يقصد بالضمير في «بعضنا»، تلك الفرق والطوائف والجماعات والأحزاب المتنازعة في أصول المنهج والاعتقاد، المنتسبة إلىٰ القبلة، بما فيهم أصحاب البدع المكفرة كالرافضة الصفوية والقبورية المتفلسفة الباطنية! هذه الفرق

عنده وعند أتباعه يتعين أن يعذر بعضها بعضا فيما اختلفوا فيه (بهذا الإطلاق)، وأن تتجاهل ذلك الخلاف وتتحد «سياسيا» في سبيل إنشاء الخلافة الإخوانية تحت سيادة الجماعة، لأن الجماعة لم تنشأ أصلا، ولم ينظّر لها البنا ما نظره من قواعد وأصول، إلا من أجل تأسيس تلك الخلافة البدعية، علىٰ بيعة المرشد العام!

ومن هنا نقول: لما كانت هذه هي حقيقة الضرورة المعرفية الدينية عندنا كما عند السلف ﷺ، كان المخالف في أصول الاعتقاد الكبرىٰ في دين الإسلام غير معذور بتلك المخالفة ولا تستساغ منه البتة، لأنه يدعي خفاء ما لا يُتصور خفاؤه علىٰ عاقل سوي النفس من عقلاء المسلمين، قد سمع من الوحي ما يقتضي التسليم بمجرد السماع، ويوجب التهمة للمعترض المكذب بمجرد ثبوت سماع الحجة في حقه (دونما التفات لدعواه أن الحق لم يظهر له أو أنه «لم يفهم الحجة»)! أما أن يقال إن «أصول الاعتقاد» هي من أنواع المسائل التي يدخلها النظر والاجتهاد وتكلف الجهد ومعاناة البحث حتىٰ يوصل فيها إلىٰ استدلال صحيح، توازن فيه الأدلة بميزان صحيح، وتدفع به المعارضات والاحتمالات ومداخل الاشتباه، وأن الحجة فيها لا تقوم إلا بذلك، فليس هذا من سمات دين الإسلام ولله الحمد، وليس ما به قامت الحجة علىٰ الناس علىٰ يدي الرسول عليه السلام وأصحابه من بعده، وترتبت عليه أحكامها، وإنما هو من خصائص ملل الفلاسفة، تلك الملل الشركية التي تفنن الفلاسفة في زخرفة باطلها الجلي أيما تفنن، بطرائق السوفسطائيين ومغالطات الفلاسفة وحيلهم وألاعيبهم، حتىٰ يجد كل مكابر منهم لنفسه من ذرائع تسويغ الباطل والتشويش عليه ما يبقيه في منزلته المعظمة بين عامة الأتباع!

فحين يقول صاحبنا المتكلم إن الغالط في ذلك النظر البدعي (بعدما أجازوا تكلفه مبدئيا) لا يعذر، لأن الله ضمن لمن ينظر النظر الصحيح أن يصل إلىٰ الحق، فهذا تناقض وكلام أجوف لا يقبله عاقل، إذ ليس في مذهبكم معاشر المتكلمين ما يمنع من وقوع النظر الفاسد في تلك المسائل الجلية، عند فيلسوف «مجتهد» يزعم أنه صادق يريد الحق فيخطئه، وأن ما سميتموه بالنظر الصحيح يخفىٰ عليه وجهه ولا يظهر له، ومن ثم يستحق الإعذار! نعم من لم يصل إلىٰ الحق فلا بد وأنه لم ينظر النظر الصحيح، فبأي

شيء نزعتم عنه الإعذار وقد تكلف ما وجب عليه تكلفه واجتهد كما ينبغي، وأفرغ طاقته ووسعه في ذلك؟ وبأي شيء فرقتم بينه وبين الناظر المجتهد فيما دون الأصول الاعتقادية من أنواع المسائل؟

لا شك أن نفي العذر عمن لم ينظر «النظر الصحيح»، كما يظهر من كلام صاحبنا، هو تفريغ للإعذار من معناه أصلا (وهو كذلك تفريغ لتكلف النظر نفسه من موجبه ومقتضيه)! وإلا فهل يجب علىٰ الناظر في أي مسألة وعلىٰ أي حال إلا أن يتكلف «النظر الصحيح»؟ هل يجوز أن يتكلف رجل النظر الفاسد فيما دون الأصول وهو يعلم أنه فاسد مثلا؟ الجواب لا! وكل من زعم أن وجه الحق يخفىٰ عليه في المسألة محل البحث، وأنه يحتاج إلىٰ تقليب نظر طويل حتىٰ يستجليه، فهو يزعم كذلك - لا محالة - أنه يرجو أن يكون طريقه في النظر صحيحا (وإن لم يكن كذلك في نفس الأمر) وطريق مخالفه باطلا، فإن وفق للطريق الصحيح، وفق للإصابة، وإلا كان مخطئا وكان الصواب عند مخالفه! فما معنىٰ أنه لا يعذر إن لم «ينظر النظر الصحيح»، إلا أن يكون رفعا لمطلق الإعذار عن كل مخطئ في النظر في مسألة قد جوزتم النظر فيها (مبدئيا)؟ فعلىٰ قولكم هذا في مفهوم المعرفة الضرورية وزعمكم نسبيتها، فإما أن تلتزموا بنفي العذر مطلقا في الأصول والفروع جميعا عن كل مخطئ لا يصيب النظر الصحيح، وإما أن تثبتوه في الأصول والفروع جميعا، وإلا تناقضتم!

والواقع أنه كلما استعصىٰ طريق النظر وطال بصاحبه وتشعبت فروعه وبعدت مقدماته عن أذهان الأكثرين (كما هو الشأن في نوع براهين الفلاسفة عموما)، كان ذلك أدعىٰ لمزيد من الإعذار لمن يدعي خفاء الدلالة عليه! وهو ما يلزم المتكلمين معه أن يكونوا أعظم إعذارا للمخالف في أعظم أصول الملة وأصول العقل نفسه، الذي يزعم أنه لا يرىٰ دليلا كافيا للقول بوجود الباري وحدوث العالم، من إعذارهم للفقيه المسلم المخالف في مسائل الفروع التي يدخلها الاجتهاد، مع كون دليل القول الصحيح فيها قويا مترجحا عند جماهير النظار بقليل من التأمل والنظر! وهذا نقيض منهج السلف وعكس طريقتهم في العذر كما لا يخفىٰ!

فعلىٰ سبيل المثال، لو أن فيلسوفا ملحدا قال إن لديه استشكالا علىٰ بعض مقدمات برهان الحدوث، فعليهم أن يطيلوا النفس في مجادلته وأن يبسطوا له من بُسُط الإعذار، ما لا يسعهم مثله في حق من يخالفهم في حكم فوائد القروض البنكية المعاصرة (مثلا)، أو في حكم التدخين، أو في حكم الاختلاط في المدارس والجامعات أو نحو ذلك! بل وعليهم أن يعذروه فوق إعذارهم من خالف في مسألة من مسائل الإجماع القديم في الفقه والعبادات والمعاملات، لأن ظهور الدليل في تلك المسائل أهون وأقرب إلىٰ المجتهد الصادق في طلبه، من ظهور دلالة تلك المقدمات الكلامية المعقدة، وما ترتبط به عندهم من نظريات ميتافزيقية بالغة التكلف، علىٰ ما يريدون! هؤلاء ونحوهم يخالفون في أدلة واضحة (نسبيا)، فلا ينبغي – علىٰ مذهب المتكلم – أن يعذروا كما يعذر ذلك الفيلسوف الجاحد المتغطرس عندما يدعي – وله كل الحق في ذلك – أن مقدمات برهان الحدوث فيها ما لا يقنعه! وهذا عكس ما كان عليه السلف في تقدير منازل الخلاف كما تقدم! وأنا أدري أن الأشاعرة لا يلتزمونه، بل قد حرر الأشاعرة خاصة كلاما كثيرا في التوفيق بين قولهم وقول السلف، ولكن قد وجب الإلزام في هذا المقام، لأنه إذا ظهر بطلان اللازم ظهر بطلان الملزوم، وهو المطلوب! وإلا فهل يجرؤ الأخ «أبو غوش» علىٰ ادعاء أن نظمه لبرهان الحدوث – مثلا – هو في نفس وضوح وظهور الأدلة علىٰ أن صلاة العيدين سنة مؤكدة، مثلا؟

هذا هو أصل الخلل، أيها القارئ الكريم، في المنهج المعرفي الكلي عند المتكلمين كافة – وليس عند الأشاعرة وحدهم –، وهم فيه تبع للفلاسفة الجدليين الذين استجازوا – من حيث المبدأ المعرفي – طرح كل مسألة للجدل والنظر والاستدلال القياسي بأنواعه، وإن كانت من أظهر بدهيات العقل، التي نزعم نحن أنها من أوليات الفطرة التي لا يماري فيها إلا كذاب مماحك، أو من أخفىٰ مغيبات العالم التي يمتنع علىٰ العقل تناولها بالنظر والقياس أصلا، فتأمل مليا، وفقك الله.

نحن نقول إن من لا يرىٰ أعظم البدهيات الجلية علىٰ ما هي عليه، بل يطرحها للسؤال والمناظرة والبحث والاستدلال أو يجادل ويماري فيها ويزعم أنها لا تظهر له، هذا مريض في قلبه ونفسه مرضا لا علاج له فيما يملك البشر! ولسنا نعني بذلك مرض

العقل عند من بلغ به مرضه أن صار لا يميز ولا يعي، فهذا مرفوع عنه قلم التكليف أصلا، وإنما نعني مرض النفس وغرقه بصاحبه المميز الواعي في الأهواء حتىٰ إنه ليرىٰ الحق الظاهر الجلي باطلا، والباطل الجلي الفاحش حقا، ولا يفتأ ينتصر لذلك الباطل الجلي في كل مناسبة، وهو يعلم في باطن نفسه أنه علىٰ باطل! هذا الذي قال الله فيه: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [**البقرة**: ٧]! هؤلاء ليس للواحد منهم معنا جدال ولا نقاش، مهما زعم أن لديه «براهين» تبطل الحق الجلي الذي عندنا!

أما المتكلم، فهو رجل تخصص في مناقشة ومداهنة هذا المكابر المريض المغرور الذي وصفه الله بعمىٰ البصر والبصيرة، يزعم أنه يرجو هدايته إلىٰ الحق بمخاصمته ومجادلته فيما اعترض عليه من الحق الجلي الواضح، أو علىٰ الأقل يرجو الانتصار عليه بنفس بضاعته، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فما كان منه إذ أعلن قبول مناظرته، إلا أن اضطر لموافقته إجمالا علىٰ ما استحق به ذلك الذم في القرآن من الأساس (أعني تسويغ التكذيب بالحق البدهي الفطري من حيث المبدأ وتسويغ قول القائل بأنه لا يراه بدهيا ولا ظاهرا، وإنما يتطلب كثيرا من النظر والاستدلال حتىٰ يظهر وجهه)، ثم نسبة العقل والعلم إلىٰ مطلوب المناظرة نفسه، وإلىٰ أدوات الاستدلال فيها، التي يشترطها ذلك المكابر الجاحد نفسه، وإلىٰ الله المشتكىٰ! وبدلا من معاملته علىٰ أنه كذاب مجرم جاحد (كما كانت طريقه السلف ﷺ)، إذ يكذب علىٰ نفسه قبل غيره بادعاء خفاء الحق عليه، أصبح المتكلم يعامله معاملة النظار الكبار الموقرين المستحقين لكل إجلال، المتعين إعذارهم بـ«اشتباه الأدلة» عليهم! وما ذاك إلا لأن أكابر هؤلاء يملكون سطوة وسلطانا علىٰ تلك الأكاديميات والمدارس العلمية التي لا ينسب إلىٰ العلم والعقل والتحقيق عند جماهير الناس إلا من تفوق فيها بشهادة الأقران!

فصل: سعيد فودة مازال يفكر!

سئل الأستاذ «سعيد فودة» في لقاء تلفزيوني معه (منقول علىٰ شبكة اليوتيوب): «هل وصلت إلىٰ الحق، وكيف؟»

فأجاب في زهو واضح قائلا:

والله يا أخي أنا مازلت أفكر، ما زلت أفكر. لكن هذا لا يعني أني لم أتخذ موقفا من هذه المسائل الكبيرة. أنا منذ صغري وأنا أقرأ وأبحث وأدرس وأناظر في مثل هذه المسائل، وحتىٰ الآن عندما أسمع عن كل مسألة، وأي قول، أبادر فأهجم هجوما علىٰ قراءة ودراسة كل قول مهما كان غريبا عن سمعي وعما أعرفه، أعيد النظر فيه مرة أخرىٰ، مش بناء علىٰ أني أشك فيما علمته، بل علىٰ أنني مستعد لإعادة النظر في أي مسألة، في أي مسألة. المسائل الكبرىٰ الأصلية أعتقد، أنا شخصيا يعني، في سن متقدمة يعني مبكرة وصلت إلىٰ قناعات كثيرة فيها. لكن مازلت أعيد النظر علىٰ الأقل في الأدلة، وفي كثير من التفاصيل، وأعيد التفكير في كثير من المذاهب، وهذا الإنسان يعني، هذه حقيقة الإنسان، الباحث الذي يريد أن يطلب العلم، وصولك إلىٰ قناعة في مسألة، بناء علىٰ دليل، لا يمنعك من إعادة النظر في نفس المسألة، لكن من دليل آخر. فعملية التفكير دائما تكون موجودة. لكن أعتقد إنه الإنسان العادي، أكثر البشر قادرون علىٰ الوصول إلىٰ أجوبة في وقت قصير، خلافا لما يصوره كثير من الناس، شوف كيف المسألة.

يعني باضرب لك مثال. أنا أريد أن أضرب مثالا لك الآن، واحد مرة سألني سؤال، إنه كيف تستطيع، كيف تستطيع، أن تقول بكل سهولة، أن الدين الإسلامي أفضل من المسيحية واليهودية؟ شوف، بيقول لك هذه مسألة خطيرة جدا. كتب وبحوث وحوالي ثلث العالم مسيحيين، والمسلمين مليار وشوية واليهود شوية آلاف وكذا، كويس، ملايين، أنت كيف بتقول بكل بساطة إن هذا هو الأفضل وهذا هو خاطئ؟ والناس ما زالوا يبحثون. وقد نسي هذا السائل، مسألة البحث، مش ما زالوا يبحثون في أن أي دين من هذه الأديان هو الصحيح، لا، الناس جملة ما زالوا يبحثون في

وجود الله! إنه هل الإله موجود أم لا! مش فقط ما زالوا يبحثون في الإسلام أصح أم اليهودية أم كذا! والناس لم ينقطعوا عن البحث فقط في أن أهل السنة هم الحق وغيرهم باطل، هم ما زالوا يبحثون. البحث لم يزل ولا يزال موجودا في هذه المسائل، إلىٰ يوم الدين. ترىٰ كيف المسألة؟ لكن هذا لا ينافي، أن يستطيع إنسان، مش واحد، أن يستطيع كثير من الناس، بمعايير معينة، إذا أحسن التصرف فيها واستعمالها، إنه فعلا يرجح بين هذا الدين وهذا الدين وهذا الدين، من جهات كلية. أحكي لك مثال، تمام؟

بناء علىٰ ماذا أنت تثبت وجود الله؟ بناء علىٰ أنه جاءك نبي وقال لك الإله موجود؟ لا. أنت تعرف وجود الله، شوف كيف المسألة، تعرف أن الإله موجود، فيأتي نبي ويقول لك أنا نبي من عند هذا الإله. واضحة كيف؟ فمعرفتك - يقاطعه أحد الحضور بقوله: «يقول جئت لك بشريعة»، فيواصل: - أيوه، جئت لك بشريعة، النبي، النبي أو الرسول، لا يأتي ليقول لك أنا نبي لأعلمك أن الإله موجود، لا، بل ليعلمك، مش فقط، طبعا النبي يقول إن الإله موجود، لكن هو يقول لك بلحاظ أني نبي أنا جئت أقول لك إنني رسول من عند الله لأبلغك أشياء أنت غفلت عنها. وأنبهك وأدلك علىٰ أشياء أنت تجهلها. لاحظ كيف الرسول يأتي ويقول. فلو فرضنا أنك تريد أن تقارن بين هذه الأديان من جهة إيمانهم بالله، العقل هو الذي يدلك علىٰ الإله. واضحة كيف النقطة؟ العقل هو الذي يدلك علىٰ وجود أو وجوب وجود الإله.

قلت: لقد نقلت هذا الكلام علىٰ طوله لأن فيه بيانا لتلبس أهل الكلام بطريقة الفلاسفة ومنهجهم المعرفي الجدلي المتنطع، إذ القضايا كلها نظرية قياسية عندهم، قابلة للأخذ والرد والمراجعة والتوقف، مهما زعموا أن الحق واضح في بعضها دون بعض! وقد بينا كيف أن المتكلمين يلزمهم من جعلهم البداهة نسبية بإطلاق، أن يسووا بين الشك والتوقف في مسألة فرعية كحكم رفع اليدين في تكبيرات العيدين - مثلا - والشك والتوقف في مسألة وجود الباري نفسه أو في صحة دين الإسلام أو في بطلان القول بخلق القرآن! فكل الدعاوىٰ المعرفية قد وجد في الأرض من يخالف فيها ويزعم أن لديه دليلا علىٰ بطلانها، بلا استثناء! وإذن فجميع القضايا والدعاوىٰ المعرفية يجب علىٰ المتكلم كما يجب علىٰ الفيلسوف (أي في منهجه المعياري) أن يكون مستعدا

للاعتراف بأن ما كان يظنه واضحا منها من قبل، ليس كذلك علىٰ الحقيقة، وأنه علىٰ استعداد للتحول عن مذهبه فيها إلىٰ مذهب المخالف في أي وقت أيا ما كان موضوع المسألة!

فإذا كان طريق حصول المعرفة هو الاستدلال النظري، فما كان من قبل «واضحا» عند أحد النظار، فمن الوارد ولا شك أن يمسي غدا خافيا مضطربا عنده، وأن يظهر للقول المخالف من الدليل ما هو أوضح له منه، فيتعين عليه – إذن – أن يتحول إليه! وقد صرح صاحبنا هداه الله بأنه علىٰ استعداد لسماع أي قول في أي مسألة أيا ما كان موضوعها ومهما كان ذلك القول غريبا عليه، ومن ثم مراجعة «دليله» في تلك المسألة ودليل صاحب ذلك القول والنظر فيه! وهذا كلام الفلاسفة ومنهج الفلاسفة وليس من منهج أتباع المرسلين في شيء! والمتكلمون مضطرون لالتزام ذلك المنهج الجدلي المدمر لأنهم لو لم يفعلوا لما جاز لهم أن يناظروا الفلاسفة والملاحدة في مواطن النزاع بينهم وبين أهل الملة، ولو أنهم لم يتكلفوا تلك المناظرات علىٰ شرط الخصم في طريق الإثبات والنفي، لما وجد في الأرض شيء يقال له «علم الكلام» أصلا، وهم يكرهون ذلك ولا شك!

تأمل كيف أجاب الأستاذ فودة عن سؤال مجمل فاحش الإجمال (علىٰ طريقة الفلاسفة في السؤال)، ألا وهو قول السائل: «هل وصلت إلىٰ الحق؟ وكيف؟»، إذ يقول: «والله يا أخي أنا مازلت أفكر، ما زلت أفكر. لكن هذا لا يعني أني لم أتخذ موقفا من هذه المسائل الكبيرة. أنا منذ صغري وأنا أقرأ وأبحث وأدرس وأناظر في مثل هذه المسائل، وحتىٰ الآن عندما أسمع عن كل مسألة، وأي قول، أبادر فأهجم هجوما علىٰ قراءة ودراسة كل قول حتىٰ مهما كان غريبا عن سمعي وعما أعرفه، أعيد النظر فيه مرة أخرىٰ، مش بناء علىٰ أني أشك فيما علمته، بل علىٰ أنني مستعد لإعادة النظر في أي مسألة، في أي مسألة.» اهـ.

قلت: ما زلت تفكر؟ تفكر في أي شيء يا هداك الله؟ تفكر في الإسلام حق هو أم لا؟ تفكر هل لك رب صنعك وسواك في أي صورة ما شاء ركبك أم أنك خلقت من غير شيء؟ تفكر هل العالم مخلوق معلول أم قديم لا بداية له ولا سبب؟ ما هي

«المسائل الكبيرة» التي ما زلت تفكر فيها، وما معنىٰ أنك ما زلت تفكر؟ هذا الكلام يلزم منه انتقاض أصل من أصول الإيمان الذي هو من شروط كلمة التوحيد، إذ معلوم أن من شروط كلمة التوحيد التصديق الجازم المنتهي، وأن الشك إن دخل إلىٰ أصل الإيمان ذهب به بالكلية! إذ لازم أنه «ما زال يفكر»، أن الشك المنهجي داخل لديه علىٰ تلك «المسائل الكبيرة»، وأنه علىٰ استعداد في أي وقت (كما في صريح كلامه) لأن يعيد النظر مرة أخرىٰ! ولا شك أنه يتناقض تناقضا سخيفا إذ يقول: «مش بناء علىٰ أني أشك فيما علمته، بل علىٰ أنني مستعد لإعادة النظر في أي مسألة»، وذلك أن فتح المسألة – أي مسألة – لإعادة النظر (هكذا!)، لا يقع عند الإنسان إلا إن ورد عنده احتمال المعارض فيها، أي أنه يجيز – من حيث المبدأ الكلي – أن يكون مذهبه فيها باطلا، وأن يظهر له من الدليل في يوم من الأيام ما يدعوه للانتقال عنه إلىٰ خلافه، أو علىٰ الأقل للشك فيه! فأي شيء هذا إلا أن يكون هو اعتقاد جواز المعارض الذي يتعين علىٰ النظار أن يتحلوا به في موارد النظر والترجيح؟ وما وجه قوله إذن «ليس بناء علىٰ أني أشك فيما علمته»؟

المتكلمون علىٰ أي حال متخبطون في تعريف الشك (ولا عجب!)، فيقول بعضهم بمقالة فلاسفة اليونان من أن الشك محمود مطلقا لأنه طريق حصول المعرفة بل واليقين، ولا يحصل يقين إلا من بعد شك عندهم، ويقول بعضهم إن الشك هو ما يكون الناظر فيه بين احتمالين متساويين يتجاذبانه في المسألة، فلا يدري كيف يرجح، وهذا في الحقيقة ليس هو الشك المنهجي كما يعرفه المعاصرون من أصحاب مناهج البحث والنظر (وعبرنا عنه آنفا باعتقاد الباحث إمكان ظهور المعارض مستقبلا)، الذي هو ملازم لعملية النظر والترجيح النظري ملازمة اقتضاء، بصرف النظر عن نوعية الأدلة المستعملة في الترجيح! وإنما هو التوقف والعجز عن الترجيح لتقارب الأدلة والقرائن. أما إن ترجح لديك قول من الأقوال، ولو بظن بالغ القوة (٩٠٪ احتمالية مثلا) بناء علىٰ جملة من الأدلة لديك، فمجرد كونه قد «ترجح» عندك علىٰ خلافه، يقتضي اعترافك بأن لدىٰ المخالف ما يجوز في العقل (مبدئيا) أن يكون دليلا في نفس الأمر وإن كنت أنت لا تراه دليلا، إذ لولا هذا الجواز المبدئي ما تكلفت «الترجيح» أصلا!

قال الغزالي في «ميزان العمل» (ص. ١٧٥): «ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات (يعني ما أسلف تحريره في الكتاب من دعوىٰ للنظر في كل شيء) إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعا، إذ الشكوك هي الموصلة إلىٰ الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمىٰ والضلال»! اهـ. قلت: في هذا الكلام من الإجمال ما هو مورد لكل ضلال، وكما هو معتاد عند المتكلمين. فالشك الذي يحمده هنا، هل يدخل فيه الشك في أصول ملة الإسلام وفي أصول مسلمات العقل نفسه علىٰ طريقة الفلاسفة وأضرابهم، كداعي للنظر والاستدلال، أم هو الشك فيما يغمض وقد يخفىٰ من أنواع المسائل الدقيقة في أنواع العلوم بما يحوج للنظر والبحث وتكلف الترجيح؟ الحق أن يكون الشك المستساغ منهجيا مقصورا (بضابطه) علىٰ النوع الأخير دون الأول! فهو ما يستساغ فيه الخلاف ضرورةً لتقارب الأدلة فيه عند عموم النظار من أهل الشأن! ولكن من تأمل في منهج الغزالي وجده كغيره من المتكلمين يلتزم بجعل كافة الأقوال والمذاهب موردا للنظر تبعا لمصلحة الخصومة عليها، التي جرت بينه وبين الفلاسفة وغيرهم سواء من المنتسبين إلىٰ الإسلام أو من الدهرية الملاحدة، وبحسب حال من يخاطب بتلك الدعاوىٰ والمذاهب! فإن المتكلم إذا طالبه الفيلسوف الدهري بالاستدلال لإثبات كافة أصول الدين في عقول العقلاء، أجابه إلىٰ ذلك فورا بلا تأخر، ثم رجع علينا بوجوب أن نطرح كافة أصول ديننا للشك المنهجي أولا، وأن ننظر فيها كما نظر هو، ونثبتها كما أثبتها هو (ومن ثم نُجوز ورود المعارض عليها مبدئيا!)، حتىٰ يحصل لنا العلم بعد النظر المتكلف بأنها صحيحة (إن حصل!!)، ويصبح ما عندنا إيمانا علىٰ بصيرة، بعد أن كان من «تقليد العامة»، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وإنه لمن العجيب حقا، ومما يدلك علىٰ أحوال النفوس عند أهل الأهواء، أن يخفىٰ علىٰ رجل بذكاء وفطنة أبي حامد الغزالي رحمه الله، ما في هذا التقرير المجمل حول الشك وأهميته من نقض لبنيان الكلام نفسه من أساسه الذي يقف عليه، كالرجل يضرب ساقه بالسيف ليقطعها وهو واقف عليها! إذ لو كان اليقين في أصول الدين، الذي زعموا أن صناعتهم هي الطريق إلىٰ تأسيسه في نفوس المكلفين، لا يوصل إليه

إلا من بعد تشكيك ونظر، للزم أن يكون يقينا ناقصا بالضرورة (كيقين صاحب الترجيح في صحة ترجيحه في أي مسألة نظرية مهما بلغت قوته)، لجواز ورود المعارض عند أصحابه وجواز رجوعهم إلىٰ التشكيك والنظر، وإلا تناقضوا في زعمهم الشك أو في زعمهم اليقين! ولكن آفة المتكلمين كآفة أساتذتهم من الفلاسفة، ليست في ضعف العقل والذهن لديهم ولا في قلة الذكاء والنبوغ عندهم، أبدا، فهم قطعا من أهل الوفرة في ذلك ولا مراء، وإنما أُتِي القوم من أهواء قلوبهم، ومن الحرص علىٰ التفوق والنبوغ في تلك الصناعات النظرية الخبيثة وعلىٰ منافسة عتاة الفلاسفة فيها، والله العاصم من الفتن! إنها تلك المضغة التي إذا فسدت فسد سائر الجسد، تلك التي يحصِّل الله ما فيها يوم القيامة، فإن كان خيرا فخير وإلا كانت الأخرىٰ!

ولهذا أقول (وكما كررت ذلك المعنىٰ في غير موضع): والله لو علم الإنسان ما في العقل القوي النابه من خطر علىٰ صاحبه إن لم يؤت معه قلبا زكيا سالما من الهوىٰ والنفاق، لآثر أن يكون من أصحاب العقول المتوسطة أو دونها، علىٰ أن يكون من العباقرة الأذكياء المشهود لهم بالنبوغ وقوة النظر! ولأن أكون زكيا في قلبي علىٰ ذهن مريض، أحب إلي من أن أكون ذكيا في ذهني علىٰ قلب مريض! فإن سلامة القلب والنفس من الهوىٰ تنجيك يوم القيامة، وإن كنت من ضعاف العقول القاصرين عن درك العويص من المسائل، العاجزين عن النظر فيها، وأما العكس فمهلكة لصاحبه لا تدانيها مهلكة! ولهذا وفي نفس المعنىٰ أثِر عن بعض السلف قوله: «لأن أكون ذنبا في الحق خير لي من أن أكون رأسا في الباطل»! هذا كلام من يدري خطورة أن يبتلىٰ الإنسان بذكاء بالغ وعقل مدقق ثاقب النظر، مع قلب فيه من الهوىٰ ما فيه، فإذا به قد صار رأسا في باطل عظيم عميق الغور واسع الأثر، يحمل وزره ووزر أتباعه يوم الحساب من غير أن ينقص من أوزارهم شيء! ولا يكون الإنسان رأسا متبوعا علىٰ أي حال إلا إن كان من الأذكياء النبهاء أصحاب البيان الساحر والتنظير الباهر، وهذا واضح! ولهذا تمنىٰ كثير من المتكلمين علىٰ فراش الموت لو يموتوا علىٰ ما ماتت عليه عجائز المسلمين، لأن عقولهم النابغة المدققة المتعمقة تلك لم تزدهم إلا شكا وريبة واضطرابا هم ومن تابعوهم علىٰ أقوالهم، من أثر افتتانهم ببضاعة الفلاسفة وتشبعهم بالحرص علىٰ

الظهور بتلك البضاعة المتنطعة علىٰ أصحابها، وهو ما سلمت منه العامة أصلا وفرعا، إذ قام إيمانهم قياما صحيحا علىٰ الفطرة من غير تشكيك ولا عبث!

والواقع أن الشك عند الغزالي وعند عموم الأشاعرة، وهو ما يسمونه بالمنهجي، هو قسيم ما يسمىٰ بالشك المطلق، الذي ذهب إليه بعض الفلاسفة فزعموا أن المعرفة نفسها وهم عقلي ولا يمكن الوصول إلىٰ إثبات شيء أصلا أو نفيه! فالشك المنهجي علىٰ هذه القسمة، لا فرق فيه عندهم بين التشكيك في مسلمات بدهية يراها غيرهم من جماهير البشر من ثوابت الفطرة، والتشكيك في الدعاوىٰ المعرفية المكتسبة بالنظر والاستدلال. كلا الخصلتين عندهم من الشك المنهجي المستحسن المطلوب الذي يوصل إلىٰ تحصيل المعارف وبناء اليقين! وأما ما يسميه خبراء مناهج البحث المعاصرون بالشك النظري ونسوغه نحن ونراه مطلوبا للبحاثين المتخصصين في مختلف العلوم، فإنما هو اعتقاد أن رأيك في «المسألة النظرية» صواب يحتمل الخطأ، ورأي مخالفك خطأ يحتمل الصواب. والمسألة النظرية عندنا هي كل ما عدا البدهيات والضروريات والأصول الكبرىٰ في دين المسلمين، فإن هذه لا توصف عندنا بأنها مسائل نظرية أو بأنها مجال للرأي أصلا، وإن كان العلم في بعضها مكتسبا من السمع وليس فطريا جِبليا! فما نسوغ فيه الخلاف فإنما هو عين ما نسميه بالمسائل النظرية، وأما ما سواها فلا يستساغ فيه الخلاف، ولا يقال للمخالف فيه إنه ناظر أو مستدل، ولا يعامل بتلك المثابة!

والصواب في الحقيقة أن يسمىٰ هذا بالشرط النظري أو الشرط المنهجي، وليس «الشك النظري»، لأن صاحبه لا يشك فيما هو عليه، ولم يكتسب مذهبه من طريق التشكيك في شيء بالضرورة! ولو سئل في أي وقت عن ثقته في استدلاله لأثبت رجاحته وقوة ظنه به، ولربما ذكر يقينه في رجحان رأيه ومذهبه، فلا يقال في هذا إنه «متشكك»، أو أنه كان من قبل متشككا، ولا يلزم والحالة هذه بأن يشك فيما هو عليه مستقبلا لا نظريا ولا غيره! وإنما يقال إنه علىٰ ظن أو يقين مشروط في بقائه عليه، والشرط هو عدم ظهور المعارض النظري، فإن ظهر له في يوم من الأيام من أنواع الأدلة

ما صح أن يكون معارضا، لزمه (لزوما منهجيا) أن ينتقل عن ظنه أو يقينه الأول إلىٰ ظن أو يقين مخالف، تبعا لقوة ذلك المعارض.

فكل ناظر مطالب منهجيا بالاعتراف بذلك الشرط، والقول بجواز أن يتخلف ذلك الشرط مستقبلا فيلتزم إذن بالزوال عن مذهبه ورأيه. فإن سمينا هذا بالشرط المنهجي عند الناظر والباحث، كان ذلك أوفق لحقيقة الأمر من قولهم «الشك»، لا سيما ومعلوم أن من يستعملون هذا المصطلح الأخير من فلاسفة ومتكلمين ومنظرين في مناهج البحث العلمي وغيرهم، يختلفون في حدّ ذلك الشك وضابطه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، بل وفي طبيعة المعرفة المترتبة علىٰ البداءة به، اختلافا عظيما! ومعلوم أن كثيرا من المتكلمين يعتقدون أن الإنسان لا يصل إلىٰ معرفة نظرية إلا إن بدأ بالشك أولا، بحيث يكون هذا هو منهجه في كل مسألة تعرض له![1] وهذا غير لازم ولا صحيح، بل عامة البشر يبدؤون في تحصيل معارفهم النظرية بالتعلم والتلقي المباشر وتقليد مذاهب أساتذتهم علىٰ ثقة في صحة استدلالاتهم كيفما كانت، وهذا تقليد لا يذم به طالب العلم بل يحمد عليه ويندب إليه، كما يكون من المبتدئ في الفقه – مثلا – فيبدأ في طلب العلم بحفظ وتعلم متن من متون الفقه علىٰ مذهب من المذاهب الفقهية المعتبرة عند أهل السنة وحفظه، حتىٰ إذا ما تعلم أدوات النظر عند أئمة المذهب، أطلق نظره في أقوالهم وأخذ في الاجتهاد المستقل والترجيح والموازنة في أقوال المذهب بحسب قدرته، ثم إذا اشتد في العلم عوده، تعلم أصول المذاهب الأخرىٰ وأدلتها، وحينئذ فقد يظهر له معارض لبعض ما كان عليه من ترجيحات في مذهبه الأول، تحمله علىٰ الانتقال عنه إلىٰ غيره في كثير من المسائل، ولا يقال في هذا إنه كان «شاكا» في بداية الطلب، ولا إنه صار إلىٰ الشك لما درس ما حمله علىٰ تبديل مذهبه!

وإنما سماه الفلاسفة والمتكلمون بالشك المنهجي لأنه عندهم ضارب في أصول بنائهم لجميع معارفهم، بداية من البدهيات الأولىٰ! فترىٰ الواحد منهم ينقطع عن الناس فترة من الزمان، يطرح فيها كافة معارفه للنقد والتشكيك، علىٰ طريقة الغزالي

---

(١) وهذا الذي هم عليه هو الشك الديكارتي الذي يقال له «الشك المنهجي» Methodological Skepticism!

وديكارت وغيرهما، ثم يشرع في إعادة بنائها لبنة لبنة! فيكون الشك إذن هو منهجه الذي يحمله علىٰ إعادة النظر في كل شيء! وليس هذا ما نقول به ولا ما ندعو إليه فيما سبق أن سميناه بـ«الشك النظري»، ولا يقول به إلا متفلسف مغبون، أو متكلم مفتون! بل نقول – خلافا لعموم الفلاسفة ومن سلك سلكهم – إن كثيرا من التقليد، بل أكثر ما يكون في الرجل من التقليد لا يذم هو به، وإن كان قد يُذم به غيره من الناس! ذلك أن أكثر معارف الناس التي بها معاشهم وانقضاء حوائجهم، هم فيها مقلدون أصلا، ولا يقال إنهم قد اجتهدوا في النظر في كل مفردة من مفردات تلك المعارف، فإن هذا لا يكون لأحد أصلا، ولا لأكثر الناس علما! ولينظر القارئ الكريم لحال نفسه الآن، فسيجده مقلدا في جميع معارفه الفردية، اللهم إلا ما سبق منه التخصص في دراسته من أنواع الصناعات والمعارف التي بها حصل له ترجيح قول ما ورأي نظري ما علىٰ خلافه في ذلك المجال بعينه! فمن كان غاية حظه في طلب العلم في باب من أبواب المعارف أن يسأل أهل الذكر، فسؤال أهل الذكر وتقليدهم في حق من لا يعلم تحصل به المعرفة المعتبرة الموجبة للعمل، بالعقل والشرع معا!

فأما بالعقل فلأن السائل يجد من الأسباب المعتبرة ما يظن به أن المسؤول أو المستفتىٰ علىٰ دراية بالقول الصحيح في المسألة، فيكون ظنه في صحة ما يفتيه به أنه صواب، مبنيا علىٰ ظنه بأن هذا المسؤول من أهل العلم بالصواب، وممن يغلب صوابهم علىٰ خطئهم في تلك الصنعة. وهذا سبب معتبر لحصول الظن الراجح لدىٰ السائل بصحة المذهب الذي يكتسبه من تلك الطريق، بقوة احتمالية تناسب حال السائل وتكفي للوفاء بالقصد من السؤال (ألا وهو مباشرة العمل المسؤول عنه بعينه)، وصاحبه وإن كان لا يوصف بأن لديه دليلا من جنس ما يحكم به أهل الصنعة المتخصصون في نفس الأمر، إلا أنه يعتبر دليلا في حقه هو بعينه وبحسبه، إذ دله علىٰ الصواب الذي وجب عليه العمل به، في حدود قدرته علىٰ الأخذ بأسباب المعرفة وبالنظر إلىٰ داعيه لطلب تلك المعرفة، خلافا لمن نفىٰ عن هذا اسم الدليل أو الاستدلال بإطلاق، وذم صاحبه بإطلاق!

فهذا من جهة العقل، وأما الشرع، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**النحل**: ٤٣] ويقول: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [**التغابن**: ١] ويقول ﷺ: «فسددوا وقاربوا وأبشروا» الحديث، فهذا ونحوه يدل علىٰ أن سؤال أهل الذكر يحصل به العلم لمن لا يقدر علىٰ التفرغ للدراسة ولتعلم ما يلزم تعلمه للوصول إلىٰ الترجيح بين أقوال أهل الاختصاص! فإن سمي هذا بالمقلد، فلا يذمّ بهذا الاسم ولا يرمىٰ بالجهل إلا إن كان مؤهلا للاستقلال بالنظر ولاستعمال أدوات تلك الصنعة العلمية استعمالا صحيحا، ولا يجد من الموانع ما يمنعه من تكلف النظر والبحث والترجيح، ومع ذلك اكتفىٰ بما دون ذلك وتمسك بمذهب أستاذه أو شيخه مهملا خلاف أقرانه فيه وهو يعلم، فهذا يذمّ من تلك الجهة، لا من جهة أن ما معه لا يصح أن يوصف بأنه معرفة البتة!

ولكن لأن الفلاسفة إنما بدؤوا صناعتهم السوفسطائية (تاريخيا) بطرح الأسئلة المتنطعة الضاربة في أصول كل شيء، بلا حدّ ولا قيد ولا شرط، فجوزوا النظر والسؤال والاستدلال في جميع ما هو عند عموم البشر من جنس المسلمات، كان مما عرض لكثير منهم أن وجد أحدهم نفسه في مأزق من أمر نفسه: كيف له أن يسوغ بين أيدي أقرانه من الفلاسفة ذلك الكم الهائل من الدعاوىٰ الموروثة التي حملها عن أساتذته طيلة عمره وعن آبائه وعن المعظمين من الناس لديه، وتربىٰ عليها من الصغر، تسويغا معرفيا كليا يرتضيه أولئك الذين بلغ بهم تفلسفهم أن شككوا في أظهر البدهيات وأوضح المسلمات، بل بلغوا أن شككوا في وجود ما يصح أن يقال له «حقيقة» من الأساس، أو علىٰ الأقل في إمكان الوصول إلىٰ تحصيل المعرفة بها؟ هذا هو منبع آفة الشك والتشكيك (فيما يكون منهجا كليا) عند الفلاسفة والمتكلمين! فقد وجد هؤلاء المفتونون المغرورون أن المذمة تنالهم والاستهجان يلحقهم لا محالة، إن لم يتكلفوا ما تكلفه أقرانهم من تعمق بالنظر في أصول العقل نفسه، وفي معنىٰ المعرفة نفسها! كيف تكون «فيلسوفا» ولا تكون لك نظرية كلية في أصول المعرفة؟ كيف تكون فيلسوفا (أو مفكرا أو منظرا أو عالما أو واحدا من النخبة أو الخاصة) وأنت تجري

مجاري العامة والدهماء في قبول الدعاوىٰ المعرفية الموروثة (هكذا، بهذا الإجمال) دون نظر واستدلال كلي؟ فهم لما كرهوا أن يطردوا من دوائر الفلاسفة وأكاديمياتهم، حرصوا علىٰ أن يكون لهم حظ من التشكيك الفلسفي (باعتباره مكرمة لصاحبه يرقىٰ به فوق مراتب العامة)، ثم النظر (الذي يستتبعه ذلك التشكيك) في الكليات والشموليات علىٰ طريقة القوم، فما وجدوا أمامهم إلا أن يصطنعوا لأنفسهم مذهبا «علىٰ المقاس»[1] في حدود «الشك» و«التشكيك» عندهم وما يرد عليه وما لا يرد عليه! ومن هنا كان قولهم بـ«التشكيك» (ومن ثم تكلف النظر) كمنهج مطرد، هو المخرج والمفر الوحيد من «التقليد»، وحتىٰ لا يتهموا بإيمان السفهاء! وفي هذا المعنىٰ نفسه قال الغزالي مقالته التي نقلناها عنه آنفا.

وما أشبه كلام الأستاذ فودة – هداه الله – بقول شيخه الغزالي من قبل (في كتابه «المنقذ من الضلال» ص. ١٠٩–١١٠):

> ولم أزل في عنفوان شبابي – منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلىٰ الآن، وقد أناف السن علىٰ الخمسين – أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم علىٰ كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع علىٰ باطنيته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف علىٰ كنه فلسفته، ولا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع علىٰ غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص علىٰ العثور علىٰ سر صفوته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.

قلت: هذه الحال التي تفاخر بها الغزالي رحمه الله هي حال مرضية يؤسف لها ويرثىٰ لصاحبها والله، لا أنه يحمد بها أو يستحق الثناء من أجلها! فإن المؤمن الذي اطمأنت نفسه بالإيمان، لا يجد فيها ما يدعوه إلىٰ تتبع أقوال الناس والتقاط فلسفاتهم

(١) أي بما لا يصادم ما حرصوا على إظهار التمسك به والانتصار له من آحاد العقائد عندهم.

وبواطن أقوالهم، مدعيا أنه يريد بذلك تمييز الحق من الباطل! والسلف ﷺ ما كانوا يتكلفون ذلك، بل كان علماؤهم ينهون عنه ويزجرون العامة عنه أشد الزجر! ولينتبه القارئ الكريم إلىٰ أن الغزالي يقرر هذه الحال وصفا لنفسه في صباه وصغر سنه، أي قبل أن يبلغ منزلة الباحث المتخصص الذي يقدمه الناس لدراسة المذاهب والعقائد المخالفة حتىٰ ينصح للمتأثرين بباطلها مثلا (وهي منزلة من يتكلف ذلك لمصلحة شرعية معتبرة مع تمام الأهلية والاستعداد)، وإنما تكلف ذلك المسلك وأحبه وهجم عليه وجعله ديدنه منذ بداية الطلب، بدعوىٰ أنه يوصله هو نفسه إلىٰ تمييز الحق من الباطل ومعرفة السني من البدعي! فكأنه يرىٰ ذلك لكل عاقل مميز، ويراه أمرا محمودا بالمجمل (وإلا ما تكلم به عن نفسه في مقام الزهو كما ترىٰ)، وهو مذهب الفلاسفة المتشككين في النقد ومراجعة العقائد، الذين كرهوا أن يربىٰ الطفل علىٰ دين آبائه (وإن كان هو دين الحق والفطرة الخالصة) من غير أن تعرض عليه الأديان الأخرىٰ أولا، ويُترك لنفسه و«عقله» حتىٰ يختار ما يترجح لديه منها! لذا يضيف الغزالي مقررا لداعيه إلىٰ مسلك الشك:

> وقد كان التعطش إلىٰ درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتىٰ انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت علىٰ العقائد الموروثة علىٰ قرب عهد شرة الصبا، إذ رأيت صبيان النصارىٰ لا يكون لهم نشوء إلا علىٰ التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا علىٰ التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا علىٰ الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ يقول: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، فتحرك باطني إلىٰ حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد المعارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات.

قلت: فلو كان الرجل تربىٰ من الصغر في كنف أهل السنة أتباع الأثر، ما ابتلي بذلك الداء العضال من الصغر ونعومة الأظفار، ولكنه نشأ في جو من التكلف والتنطع الفلسفي، أورثه الإفراط في السؤال والنظر علىٰ طريقة الفلاسفة من يوم أن عقل، وهذا مما يبتلي الله به بعض خلقه، والله المستعان. فإنه ليس في البشر من تنحل عنه

رابطة التقليد بهذا الإطلاق، بل لا يسلك في التشكيك والنظر مسلكا إلا كان مقلدا فيه لفيلسوف من الفلاسفة الذين تأثر بهم لا محالة، لأن التشكيك في كل شيء ليس من طريقة العقلاء أصلا! ليس يسع إنسانا، مهما بلغت به قوة عقله، أن يتكلف أن يدرك «حقائق الأمور» (هكذا!) استقلالا بذهنه، في صغره أو في كبر سنه، حتىٰ يصل إلىٰ الانفكاك من مطلق التقليد في كل شيء من أمره كما تتخذه الفلاسفة مطلبا فكريا رفيعا تذم من تخلف عنه وتحقره! هذا محال، والله تعالىٰ لم يكلفنا به ولا يتكلفه عاقل سوي النفس أصلا! (١)

فالذي تحرك إليه باطنه إذ ذاك علىٰ التحقيق لم يكن هو الفطرة الأصلية، وإنما كان هو دأب الفلاسفة في طرح مسلمات الفطرة نفسها للتشكيك والنظر والاستدلال بأنواع القياس! وها هو قد انتهىٰ في مسيرته، وانتهىٰ أتباعه من بعده، إلىٰ نفي تلك

(١) ولهذا قرر شيخ الإسلام رحمه الله في بعض كتبه أن التقليد ترد عليه الأحكام الخمسة التكليفية، لا أنه محرم بإطلاق وفي كل حال، وهذا هو أعدل الأقوال وأوسطها في ذلك. فهو طريق لحصول معرفة معتبرة بحدها وشرطها عنده، بحسب حال صاحبها، لا أنها جهالة كيفما كانت. فصحيح إن الأصل في التقليد النقيصة في حق المقلد، إذ التقليد نقص وضعف قطعا، ولكنه لا يذم به صاحبه ولا ينكر عليه إلا إن كان قادرا على ما هو أكمل وأحسن، مطالبا به شرعا، ولكنه اختار النقص لنفسه ورضي به!

وإلا فأي شيء يكون التعلم نفسه، وأي شيء يكون التعليم إن لم يكن حملا للمتعلم على تقليد معلمه (ولو في ابتداء الطلب على الأقل)؟ وكيف يبلغ العاقل أن يكون ناظرا مستقلا بنظره إن لم يبدأ بالتعلم والخضوع أولا لمذهب معلمه والثقة في اختياراته؟ المتعلم مقلد لمعلمه لا محالة، ومع هذا فليست حال المتعلم مما يذم به الإنسان أصلا، وإنما يذم من ترك العلم والتعلم ورضي بجهله مع قدرته على التعلم! ثم إن هو استقل بالنظر يوما ما، فمن أين له العلم بآلة النظر نفسها في هذه الصنعة أو تلك إن لم يكن بالتعلم والتلقي عمن هو أعلم منه؟ مهما كانت آلة البحث والنظر في هذا الموضوع أو ذاك مستندة إلى بدهيات البشر، فالذين صيروها آلة معتمدة عند أهل ذلك الشأن لا مفر من تقليدهم في ذلك، ولو في أصل طريقتهم! ولا يكون المجتهد في العلوم الشرعية منفكا من التقليد بالكلية في مسألة من المسائل، إلا لزمه أن يكون متبعا للسلف ﷺ في ذلك وإلا ضل ضلالا مبينا، لقوله جل شأنه: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً**﴾ [النساء: ١١٥]!

فأي وصف يليق بمن اتخذ الشك المنهجي الجدلي نفسه طريقا لطرح كافة مفردات معرفته للمساءلة والتشكيك، إلا أن يكون مقلدا لبعض الفلاسفة ممن سبقوه إلى ذلك واستحسنوه لأنفسهم ولعموم العقلاء؟ والقصد أن مفهوم التقليد عند المتكلمين قد أفسده اتباعهم طريقة الفلاسفة الجدليين في السؤال والنظر والمخاصمة، وقد كان لذلك الفساد بالغ الأثر على مصنفاتهم في أصول الدين وأصول الفقه كما هو معلوم، وإلى الله المشتكى.

الفطرة نفسها رأسا، وإلىٰ تحويل البداهة إلىٰ أمر نسبي يتفاوت فيه الناس، فما الذي يكسبه العقلاء من مثل مسعاه علىٰ التحقيق، إلا الشك والتيه والإصابة بأمراض النفس والعقل أشكالا وألوانا، حتىٰ إن الرجل ليشك في نفسه وفي العالم الذي يبصره بعينيه من حوله؟! وبأي عقل يكون ذلك المسلك (الشك المنهجي علىٰ طريقة الغزالي) هو طريق من يرجو النجاة من الضلال والخروج من تقليد الآباء علىٰ باطلهم، والوصول إلىٰ اليقين وطمأنينة القلب بالإيمان؟ المطلوب الآن أن يتكلف الناس نظير ما تكلفته أنت، ثم ينتظر أحدهم أن ينقذف في قلبه نور أو يرىٰ كشفا أو مناما أو نحو ذلك قبل أن يبلغ محض الإلحاد، ومن ثم ينطلق إلىٰ حلق الصوفية معتقدا فيها النجاة والسلامة؟ سبحان الله!

لقد بلغت تلك الآفة الخطيرة بأبي حامد (التي هي منتهىٰ المرام في إعمال العقل في صنعة الفلاسفة الأكاديميين) أن وصل بالفعل إلىٰ التشكيك في المحسوس والمعقول معا، كما وقع ذلك لكثير من الفلاسفة من قبل، ثم لما ارتاعت نفسه من فداحة ما أوشك أن يؤول إليه حاله، خرج من عزلته بدعوىٰ أن الله تعالىٰ قد قذف في نفسه نورا ألهمه به الرجوع إلىٰ الوثوق في ضرورات العقل وبديهياته، بما فيها الوثوق في مبدأ الحكم العقلي، وفي مدخلات الحس، من حيث هي مصدر من مصادر المعرفة!

قال مواصلا ذكر قصته وما كان له من ذلك:

> فقلت في نفسي: أولا إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟ فظهر لي: أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقىٰ معه ريب، ولا يقارفه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين، مقارنة لو تحدىٰ بإظهار بطلانه – مثلا – من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا، لم يورث ذلك شكا وإنكارا، فإني إذا علمت: أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه! فأما الشك بسببه فيما علمته فلا، ثم علمت أن كل ما لا أعلمه علىٰ هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني.

قلت: وهنا يبدأ الفيلسوف في تكلف ما لا يحتاج العاقل السوي إلىٰ تكلفه من الحدود والتعريفات، فيأتي فيها إما باختزال فاحش أو بإجمال فضفاض أو بتعميم لا مستند له أو بمعنىٰ متكلف لا قائل به غيره ولا حاجة للعقلاء فيه، مخالفا بذلك ما هو جار عند الناس من استعمال اللفظة التي تكلف تعريفها، مدعيا أن العقل الصحيح يقتضي ما جاء هو به، لا ما عليه عموم البشر من ذلك (مما لا يتكلفون التصريح به والعبارة عنه أصلا لعدم الداعي إليه)! فقوله: «مطلوبي العلم بحقائق الأمور، فلا بد أن من طلب حقيقة العلم ما هي؟»، يقال له: وأي عاقل هذا الذي لا يدري معنىٰ كلمة «علم» في استعمال الناس، حتىٰ يتكلف – علىٰ طريقة الفلاسفة الذين تشرب بهم الغزالي – النظر والبحث والسؤال عما يسميه بـ«حقيقته»، ليحررها لنفسه أولا ثم يؤسس عليها جميع معارفه؟ بل وما حقيقة «الحقيقة» نفسها عنده إن أبىٰ إلا أن يتفلسف؟ وما معناها عنده وما كنهها، وهل الكنه هو الحقيقة أم غيرها، وهل عين الشيء هي حقيقته أم هي وجوده أم صفه من صفاته.. إلىٰ آخر بضاعة الفلاسفة العبثية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تصل بأصحابها إلا للوقوع في عين ما بوب الغزالي نفسه لكلامه اللاحق في نفس الكتاب بالتحذير منه في قوله «مدخل السفسطة وجحد العلوم»؟ من غرق في هذا العبث الذي لا قاع له ولا نهاية من ألاعيب الفلاسفة وحيلهم اللفظية، بأي شيء ترجو له أن يخرج إن كنت صادقا؟ وهل تُجحد العلوم الصحيحة عند من يجحدها، وتقع السفسطة عند من يتلبس بها، إلا بتكلف التعاريف والحدود الكلية المتنطعة التي يلزم أصحابها من اللوازم ما يذهب معه العقل نفسه؟ والله ليس من قليل أن قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون»! ففي التنطع هلاكهم تحقيقا لو كانوا يعقلون! وفي مسالك الفلاسفة وسؤالاتهم السوفسطائية وأقيستهم الواهية آية للموقنين!

تأمل كيف شرع رحمه الله في تعريف العلم بحصره أولا فيما سماه بالعلم اليقيني (وهذا مخالف لما عليه أهل العلوم كافة، إذ الظن عندهم «علم» ولا إشكال، ما دام يترجح علىٰ خلافه)، ثم حصر العلم اليقيني ثانيا فيما يبلغ أن يكون بمنزلة البديهيات

الأولىٰ، كالقطع بأن العشرة أصغر في القيمة من الثلاثة! وقال إن هذا مما «ظهر له»، وليس هو ظهورا ولا غيره وإنما هو تعمق مذموم في التماس الشروط الصارمة الشديدة في إثبات صحة أي دعوىٰ معرفية، لعله يسلم بذلك من اعتراض خصومه من الفلاسفة الجدليين وأضرابهم من أصحاب السفسطة وجحد العلوم، الذين كان يعلم تمام العلم أن كلامه عندهم لن يسلم من اعتراض ونقد وتخطئة، مهما تكلف فيه من الشروط النظرية الصارمة ما تكلف!

والحق أن مفهوم اليقين في معرفة الإنسان أوسع من ذلك، ولا يقتصر اليقين المعرفي أو الثقة في صحة القول علىٰ ما ضرب له المثل، ولا يعاب من زعم تيقنه في صحة بعض أفراد ما سوىٰ ذلك النوع من أنواع الدعاوىٰ المعرفية من غير أن يرد عليه احتمال الإبطال عنده (أو بعبارة الغزالي: من غير أن يكون معه علىٰ ثقة في صحة قوله، آمنا من الخطأ)! فالمعارف اليقينية يدخل فيها جميع ما هو مركوز في فطرة الإنسان، وجميع ما يكتسبه من طريق ظاهرة قاطعة لاحتمال البطلان، بل وجميع ما يتكلف النظر فيه من أنواع المسائل النظرية ثم ينتهي فيه إلىٰ ظن راجح قوي عنده، وإن كان يشهد علىٰ نفسه بالاستعداد للتراجع عن يقينه في هذا النوع الأخير إن قُدر ظهور المعارض القوي. كل هذا لا يمنعنا مانع من وصف المتلبس به بأنه علىٰ «علم» (كما هي مجاري الاستعمال اللغوي السائد للفظة «علم») وبأن علمه علم يقيني (علىٰ درجات في اليقين والجزم)، إلا أن نتابع ما تكلفه الغزالي من تعريف اختزالي محض، وليس ثمة ما يلزمنا بذلك ولله الحمد!

ويقال إن «الأمان» هذا الذي جعله حدّ اليقين، ثم قصره علىٰ ما ذكر في تعريفه، يتفاوت فيه الناس في بعض المعلومات، ويتفق عليه العقلاء في بعضها الآخر، والداعي للتفريق بين النوعين إنما يظهر في كل صنعة من صناعات النظر بحسبها وبحدود الحاجة! أما أن يتطلع الفيلسوف إلىٰ تحرير قياس شمولي كلي يجريه علىٰ جميع ما في نفسه ونفوس البشر من مفردات المعارف فهذا لا داعي إلىٰ تكلفه أصلا، ولا ينتفع به الناس ولا يرجع علىٰ صاحبه في نهاية المطاف إلا بجحد العلوم كلها أو بعضها!

كل صنعة من صناعات المعارف يقدر مقدار الأمان واليقين في مفردات دعاواها عند المشتغلين بها بحسب تقديرهم لقوة أنواع الأدلة الجارية فيها بين أيديهم، وأما المقلد غير المتأهل لدرك تلك الأدلة، فيقينه يكون بحسب ظهور ما يصح اعتباره من أنواع الأدلة في حقه وبسحب حاله كذلك، ولا تثريب عليه إن التمس ما يناسب حاله ويليق بمقصوده من طلب المعرفة سواء كان مقلدا في ذلك أو ناظرا محققا، وهذا كله لا يفتقر فيه العقلاء إلىٰ حد فلسفي كلي لحقيقة «العلم» اليقيني حتىٰ يميزوه به إذا وقفوا عليه!

فبالله ما الذي كان يرجوه الغزالي وما الثمرة التي طمع في نوالها (معرفيا) من إلزام نفسه بذلك التعريف المتكلف عنده؟ اللهم لا ثمرة إلا أن يظهر علىٰ أقرانه ممن جعلوا العقل والحكمة ماثلة في تكلف ذلك الترتيب النظري في هدم موروث النفس من المعارف وإعادة بنائه من جديد، بداية من السؤال عن حقيقة المعرفة نفسها ابتداء! هو لم يعجبه أن منهم من «جحدوا العلوم»، فتكلف ما تكلف يريد الرد عليهم، غير أنه حرص في ذلك - من ميل قلبه إليهم وتأثره بهم - علىٰ ألا يتهموه بالنقص وقصور العقل واتباع سنن الآباء، كما هو ديدنهم في اتهام كل من رماهم بالسفسطة والعبث! والقصد أنه لو لم يتكلف ما تكلف من طريقة الفلاسفة (مقلدا إياهم في ذلك، شعر بذلك أم لم يشعر!)، وبقي علىٰ ما كان عليه قبل (وهو ما كره أن يلحق من أجله عند الفلاسفة بجماهير العامة والدهماء!)، لسلم من ذلك الفساد في العقل والمعرفة، ولسلم من الشك الذي وصل به إلىٰ ما وصل!

ولو سلمنا له تنزلا بتعريفه العلم اليقيني بأنه: «هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقىٰ معه ريب، ولا يقارفه إمكان الغلط والوهم، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك» ثم تمثيله لذلك العلم بمن يقول بأن الثلاثة أقل من العشرة، ولا يزول عن ذلك ولو رأىٰ رجلا يأتي بالمخاريق ويحيل العصي إلىٰ ثعابين، فهل القول بمخلوقية العالم وبوجود الباري جل وعلا هو عنده بتلك المنزلة أم لا؟ إن قال هو كذلك، فقد أسقط علم الكلام علىٰ أم رأسه، ولزمه ألا يشتغل به لا بحثا ولا تدريسا، وإن قال ليس كذلك، لزمه أن يكون القول بوجود الباري داخلا عنده تحت قوله: «ثم علمت أن كل ما لا

أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني»، ومن كان دينه على ذاك النصاب والمقدار، فليس هو على شيء أصلا!

يقول: «ثم فتشت عن علومي، فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة، إلا في الحسيات، والضروريات»! قلت: فهذا إجمال جديد، يجعل أقرانه من الفلاسفة يطالبونه بتكلف تعريف مخصوص لما يسميه بـ«الحسي» وما يسميه بـ«الضروري» يناسب ما سبق أن تكلفه من تعريف لليقيني! فهو يقرر أن ما ليس بحسي أو ضروري فليس هو بيقيني عنده! ولكن ما حدّ الحسي وما حدّ الضروري؟ هنا يتكلف المزيد من التعنت على نفسه فيقول:

> فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات وهي الحسيات والضروريات فلا بد من إحكامها أولا لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات، وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليدات، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات، أم هو أمان محقق لا غدر فيه، ولا غائلة له. فأقبلت بجد بليغ، أتأمل المحسوسات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟

قلت: وهنا يتقرر مفهوم «الشك المنهجي» عند الغزالي، وهو أن يتكلف الإنسان التفتيش ليس فقط في مفردات معارفه من أين جاء بها، بل وفي مصادر تلقي كافة المعارف المكتسبة عنده، بل وفي أصول العقل ومدخلات الحس نفسها، هل يمكنه التشكيك فيها أم لا؟ ولا يخفى أن من شكك في قدرة عقله على معرفة البدهيات، وطرح تلك القدرة نفسها للبحث والنظر، لزمه ألا يثق فيما ينتهي إليه بحثه ونظره فيها، لأنه إذن لا يأمن أن يكون عقله قد غدر به وخدعه حتى في ذلك النظر نفسه! إذ على أي شيء أقامه إن لم يكن على أصول العقل نفسها التي هي موضوعه؟ هذا دور قبلي لا خروج منه! والذي يحيل جميع البدهيات إلى نظريات على هذا النحو، فلا نهاية له إلا الغرق في الدوران والتسلسل في جميع المعقولات والمحسوسات، وهو محض ذهاب العقل ولا شك!

فالذي يجوز عقله ورود الغلط علىٰ أصول العقل والتشكيك فيها، هذا لا يصح أن تكسبه تلك المصادر يقينا فيما يدخل إلىٰ وعيه من طريقها مهما توسل إلىٰ ذلك بكل وسيلة! وهذه طريقة من أفسد الطرق للعقل والمعرفة جميعا! فمن ذا الذي لا يستطيع أن يأتي بتصور لإمكان ورود الغلط علىٰ حواسه في بعض أحوالها وعلىٰ أقيسته وأحكام عقله؟ هذا أمر وارد علىٰ آحاد البشر من جهة الإمكان المجرد مهما ضعف احتمال وقوعه أو تكراره، فمن تكلف تصور أوجه الإمكان في ذلك فلن يعجز قطعا! ولكن هل يوصل منه إلىٰ اعتقاد أن الحس (هكذا!) لا يؤتمن، وأن العقل (هكذا!) لا يعول عليه في قياس ولا نظر؟ أو بعبارة أخرىٰ، هل تصلح حقيقة أن حواسنا قد تنخدع أحيانا، لتكون مستندا لإسقاط الثقة في معطيات الإدراك الحسي وفي كونها حقائق معرفية مطابقة للواقع؟ وهل تصلح حقيقة أن عقولنا قد تخطئ القياس أحيانا، لإسقاط مبدأ النظر والقياس نفسه كطريق من طرق اكتساب المعرفة؟ ومن ثم، هل يصح الوصول في المحصول إلىٰ القول بأن المعرفة المكتسبة المطابقة للواقع لا طريق لتحصيلها أصلا؟

أبدا! ولا يقول بهذا إلا مجنون ذاهب العقل، لا يدري يمينه من شماله! ومع ذلك، فهذا ما ذهب إليه فلاسفة الشك القدماء، وحذا الغزالي رحمه الله حذوهم واقتفىٰ أثرهم، حذو القذة بالقذة، حتىٰ أوشك أن ينفي إمكان حصول المعرفة نفسها بإطلاق كما ذهبوا، وفي هذا يقول:

> فانتهي بي طول التشكيك إلىٰ أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذ يتسع فيها ويقول: من أين الثقة بالحواس؟ وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلىٰ الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة - تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل بالتدريج ذرة، ذرة، حتىٰ لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلىٰ الكوكب، فتراه صغيرا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل علىٰ أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا، وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلىٰ مدافعته. فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا

يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون قديما حادثا، موجودا معدوما، واجبا محالا.

فقالت الحواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر علىٰ تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر، إذا تجلىٰ كذب العقل في حكمه، كما تجلىٰ حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل علىٰ استحالة!! فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا وأيدت إشكالها بالمنام، وقالت: أما تراك تعتقد في النوم أمورا، وتتخيل أحوالا، وتعتقد لها ثباتا، واستقرارا، ولا تشك في تلك الحالة فيها، وثم تستيقظ فتعلم: أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل.

قلت: في كلامه هذا من الأمثلة ما يكشف عن اضطراب الذهن وفساد القياس عند كل من جاء بمثل ما قدم به لنفسه من تنطع الفلاسفة في «حقيقة العلم»! فأما قوله «وأقواها حاسة البصر وهي تنظر إلىٰ الظل فتراه واقفا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة - بعد ساعة - تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل بالتدريج ذرة، ذرة، حتىٰ لم يكن له حالة وقوف»، قلت: فهذا من سوء الاستدلال بما تدخله الحواس إلىٰ وعي الإنسان، وليس من خداع الحواس نفسها للإنسان! فكنت أتوقع أن يلتمس الدليل في هذا الموضع في صورة من صور ما يقال له عند علماء النفس «التوهم البصري» Optical Illusion مثلا، التي ينخدع فيها إدراك الإنسان أحيانا [١]، ولكنه جاء بمثل ليس فيه توهم أصلا! فأنت لما شهدت الظل لوهلة ثم حكمت بادي الرأي بأنه لا يتحرك، فإنما كان ذلك حكما نسبيا في حقك، إذ الحركة البطيئة تتطلب مشاهدة طويلة ممتدة حتىٰ يحصل إدراكها بالنسبة إلىٰ ما هو أبطأ منها حركة. وإلا فأنت حال جلوسك في ظل الشجرة، لا تصفه بأنه يتحرك بالنسبة إليك حالا، وإنما يزول عنك الظل ويتحول بعد وقت إن طال بقاؤك في محلك من

(١) ومجرد حقيقة أننا نعلم أنه «توهم» ونصفه بذلك، تكفي دليلا على أننا - معاشر البشر - نحسن استعمال حواسنا في تمييز ما هو واقع في الخارج حقا مما هو وهم وسوء إدراك، فإن وقع في التوهم بعضنا أحيانا كما هو وارد من جهة الإمكان، لم نعجز عن تنبيهه إلى ذلك ولله الحمد، فتأمل!

الشجرة! فإن قلت والحالة تلك إن الظل واقف ثابت بالنسبة إليك وأنت جالس تحته (لثبات الشجرة في محلها بالنسبة إليك) لم تكن غالطا بذلك، ولا يقال إن بصرك قد خدعك! ثم إنه ليس في العقلاء أصلا من لا يدري أن الظل يتحرك ويزول على امتداد ساعات اليوم، بانتقال الشمس في فلكها ساعة فساعة ما بين شروق وغروب! أي أنه ليس من البشر من قد سبق أن خدعه بصره بتلك الخدعة أصلا، فظن أن الظل مرسوم على الأرض لا يزول، فضلا عن أن يكون ذلك مما يدعوه للشك في إبصاره وفيما يحصل له من المعارف من طريقه! والقصد أن المثال نفسه فيه من التكلف والتنطع ما لا يخفى، وهذا دأب الفلاسفة في تكلف التمثيل لكل فكرة كلية قد سبق منهم ضربها بإجمال في تقديمهم لما يريدون!

وأما المثل الثاني فليس بأسعد حالا من الأول، فقوله «وتنظر إلى الكوكب، فتراه صغيرا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار.» هذا من غلوه في نوع من أنواع الظنون القياسية والاستنباطات النظرية، وليس مما يشكل على مبدأ أداء الحس للمعرفة كما حملته فلسفته الكلية على أن يوهم به نفسه! كيف والحساب الهندسي نفسه إنما هو عمل مركب من أعمال مرتبة يتداخل فيها الإدراك الحسي وتأويله بالقياس النظري بأنواعه، إلى جانب الاستناد إلى بعض مقدمات البداهة الأولى في مسلمات الحساب ونحو ذلك؟ وعلى أي شيء اعتمد الفلكيون في حساباتهم الهندسية أصلا إن لم يكن على تأويل ما أفادتهم به المراصد من أنواع المشاهدات البصرية (سواء برصد العين المجردة أو بأدوات الرصد على اختلاف أنواعها)، ثم تأويل ما تكشفه لهم تلك الأرصاد وتجريده هندسيا؟ فلو شككت في حكم الإنسان على ما يدخل إلى وعيه من طريق البصر بالعين المجردة، فقد لزمك التشكيك في حكمه على كافة أعمال الفلكيين ومراصدهم من باب أولى، لا أن تجعل من تلك الأعمال المتكلفة مستندا لإبطال الثقة بالمحسوسات! فإن كان من شيء يستساغ للعاقل أن يشكك فيه في ذلك المثال، فإنما هو دعاوى الفلكيين الحسابية العريضة بشأن الحجم الحقيقي لجميع الأجرام المشاهدة في جو السماء (إذ تجري لديهم تلك

الدعاوىٰ علىٰ خطوات من الاستدلال النظري يرد عليها الغلط ولا شك، وقد بسطنا الكلام في منطق الاستدلال عند الفلكيين وعند الطبيعيين عامة في غير هذا الكتاب)، وليس حقيقة إفادة أبصارنا نفسها للمعرفة، لمجرد أننا نبصره بحجم الدينار، كما نبصر كل جرم بعيد علىٰ أصغر مما نبصره عليه إن اقتربنا منه! وعندما ينظر الناظر إلىٰ النجوم والكواكب من فوقه فإنه يدري أنها بعيدة عنه في جو السماء، وأنها بالتالي أكبر حجما – ولا بد – مما تبدو له من حيث هو، بصرف النظر عن مستنده في تقدير بعدها الحقيقي وحجمها الحقيقي، وهذا أمر واضح لا يصح في العقل أن يُطرح للتشكيك، وإنما يصح لنا أن نتساءل، إن كنا فاعلين، عن صحة كل مسلك نظري من مسالك الفلكيين في تأويل مشاهداتهم ومراصدهم للوصول إلىٰ تقدير أبعاد تلك الأجرام وأحجامها علىٰ ما هي عليه!

فليس في مجرد حقيقة أنهم استعملوا الحساب والهندسة ما يضمن إصابتهم فيما انتهوا إليه من ذلك ضمانا «لا سبيل إلىٰ مدافعته» (علىٰ حد عبارته)! ومن تتبع أعمال القوم في ذلك يدري كيف أنهم كانوا ولا يزالون يؤسسون حساباتهم علىٰ فرضيات وجودية (أنطولوجية) في تفسير تلك المشاهدات الفلكية ونمذجتها لا تسلم من المعارض (وقد بينا طرفا من ذلك بعون الله تعالىٰ في غير هذا الكتاب)! فصحيح إن استعمال حساب المثلثات علىٰ ذلك النحو يعد استعمالا صحيحا بالمجمل، ولكنه يستصحب عندهم في التطبيق الفلكي جملة من الفرضيات التي ينبغي التسليم بصحتها أولا (وهي فرضيات لا يلزم الحكم بصحتها من مجرد حصول التناسق الداخلي فيما بينها كما يتوهمه كثير من فلاسفتهم!). وحسابات القوم تتراكم فيها أمثال تلك الفرضيات القياسية كما هو معلوم، طبقات بعضها فوق بعض[١]، بما حقه أن يقلل من قوتها وقيمتها المعرفية الإجمالية عند التدبر بتجرد، وليس العكس، فضلا عن أن تُجعل هي (أي تلك النظريات الهندسية الفلكية) معيار الحكم علىٰ صدق حواس البشر نفسها في إفادة المعرفة كما مال إليه الغزالي!

(١) حتى سمى المعاصرون منهم طريقة حساب المسافة للأجرام المفترض أنها بعيدة غاية البعد عن الأرض بسلم المسافات الفلكية Cosmic Distance Ladder.

فتأمل كيف انقلب الميزان عنده رأسا علىٰ عقب من إفراطه وغلوه في بضاعة الفلاسفة الأكاديميين من أهل زمانه! وقد بينا في غير هذا الموضع كيف أنه كان من أشد الناس افتتانا بنظريات الفلكيين وحسابات أهل الهيئة، إلىٰ حدّ أن جعلها هي العلم اليقيني القطعي المنصرم، الذي لا يجوز لأهل الدين أن يشككوا فيه طرفة عين بدعوىٰ مصادمته للنص، بل يتعين عليهم تأويل النص بما يوافقه إن ظهر لهم التعارض، وإلا فقد الدين نفسه مصداقيته وفارقه الناس، والله المستعان! فقوله «هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل إلىٰ مدافعته» غير صحيح بالمرة، إذ كلا المثالين يخلوان من تكذيب العقل للحس علىٰ نحو ما زعم! ولولا أن اعتنق الغزالي منهجا فلسفيا كليا يقوم علىٰ التشكيك في كل مسلمة من مسلمات البشر رجاء الوصول إلىٰ أصل كلي «لا يقبل التشكيك» بحيث يؤسس عليه معرفته بأكملها، لظهر له المدفع الصحيح لذلك التكذيب المزعوم، بل لما تطرق إلىٰ نفسه أصلا، كما هي حال كل عاقل سوي قد عافاه الله من مهالك الفلاسفة، ولكن لله في قلوب عباده شؤون!

ويمضي الغزالي في بيان ترتيب خطوات تلك البلية العقلية والدينية التي وقع فيها (وهو مع ذلك مفاخر بما توهم أنها أكسبته إياه من استقلال بالنظر و«انفكاك من التقليد»)، فيقول في ذكر الخطوة التالية:

> فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات، كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون قديما حادثا، موجودا معدوما، واجبا محالا. فقالت الحواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر علىٰ تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر، إذا تجلىٰ كذب العقل في حكمه، كما تجلىٰ حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل علىٰ استحالة!!

قلت: فتأمل كيف افترض بالقياس إمكان أن يظهر في يوم من الأيام مستند لإبطال الثقة في العقل كما ظهر (بزعمه) مستند لإبطال الثقة في المحسوسات! فالظاهر أنه

لما لم يتمكن من تكلف مثل كمثليه السابقين ليشكك بهما في المعقول كما شكك في المحسوس، اكتفىٰ بافتراض إمكان وجود «حاكم علىٰ المعقول» يبطله، كما جعل من المعقول حاكما علىٰ المحسوس! ثم راح يتكئ لفرضيته تلك علىٰ حال النائم إذ يرىٰ في المنام ما يتوهمه حقا ثم إذا أفاق عرف أنه لم يكن واقعا! فبأي عقل يقال لمن عانىٰ تلك السفسطة إنه كان سالما من الهوىٰ المحض؟!

والعجيب أن الغزالي نفسه يشهد علىٰ نفسه بأنه كان مسفسطا مغرقا في السفسطة، وأن هذا كان من الضلال البعيد الذي أوشك أن يذهب بعقله ودينه بالكلية (بضميمة عنوان الكتاب نفسه)! فما الذي أخرجه منه بعد ذاك الغرق البعيد وكيف امتاز لديه الرأس من القدمين، ورجع (بزعمه) للوثوق فيما سماه إجمالا بالضروريات والمحسوسات؟ هل رجع بمزيد من الكلام والنظر و«التحرر من التقليد»، مع البحث والنظر والموازنة والمقارنة والمراجعة وغير ذلك من مسالك الفلاسفة التي زينها هو وأصحابه وتلامذته من بعده لطلبة العلوم الشرعية تزيينا؟ اللهم لا! وإنما ضرب الشيطان في نفسه بمضرب جديد، ألا وهو مخاريق الصوفية وألاعيبهم!

قال أبو حامد في بيان ما «أنقذه من الضلال» بزعمه (ص. ١١٥):

> فلما خطر لي هذه الخواطر، وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية. فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل الداء، ودام قريبا من شهرين، أنا فيهما علىٰ مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال. حتىٰ شفىٰ الله تعالىٰ من ذلك المرض، وعادت النفس إلىٰ الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها علىٰ أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالىٰ في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف علىٰ الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالىٰ الواسعة.

ثم أخذ في بيان أحوال أربعة من الفرق حصر مظنة شفاء حالته فيما عند بعضهم: (المتكلمين والفلاسفة والتعليميين الباطنية والصوفية)، وانتهىٰ إلىٰ أنه لما جرب النظر في تلك الفرق جميعا وخبر أحوال أهلها (ودرس الفلسفة والكلام دراسة وافية وتعمق

فيهما غاية التعمق) [(١)]، لم يجد ضالته إلا عند الصوفية ولم يعثر على بغيته إلا في كتبهم

(١) قال في (ص. ١٢٦):

«ثم إني ابتدأت – بعد الفراغ من علم الكلام – بعلم الفلسفة، وعلمت يقينا: أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا. ولم أر أحدا من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم – حيث اشتغلوا بالرد عليهم – إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامي، فضلا عمن يدعي دقائق العلم، فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى في عماية. فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب...».

قلت: قوله: «وعلمت يقينا أنه لا يقف على فساد علم من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله» اهـ، فيقال له: فكيف علمت ذلك «يقينا» ولماذا لم تخضعه هو كذلك للشك المنهجي كما أخضعت ما هو أعظم منه؟ ما الدليل على أنه لا يقف على فساد علم من العلوم (بهذا الإطلاق الفلسفي) من لا يقف على منتهى ذلك العلم ثم يزيد عليه؟ هذا كلام فاسد ولا شك، لأن عبارة «فساد علم من العلوم» إن كان المقصود منها قيام الدليل في النفس على بطلان صنعة العلم نفسها من أساسها، فهذا أمر لا يحتاج الإنسان العاقل حتى يحكم به إلى دراسة ذلك العلم أصوله وفروعه ومسائله كلها بل والتوسع والغوص فيه حتى يجاوز مرتبة المتخصص! فالعلم الذي يوصف بأنه فاسد، إنما يعرف فساده بالتأمل في مطلوبه الكلي وموضوعه الذي وضع من أجله، ومصادر تلقي المعرفة فيه! فنحن لا نحتاج إلى دراسة علم «التنجيم» مثلا Astrology على هذا النحو الذي يزعم الغزالي لزومه في حقنا، حتى نصل إلى الحكم بأنه علم زائف باطل من أصل موضوعه! هؤلاء قوم يزعمون أنهم يبحثون في تأثير النجوم والأجرام السماوية وحركاتها على مستقبل البشر في الأرض، وعلى ما يكون فيهم من صفات وخصال وأفعال وأحوال وما يقع لهم من خير وشر .. إلخ، ومعلوم أن مجرد الزعم الكلي بأن ثمة تأثير ما لشيء من تلك الأجرام على شيء من ذلك، زعم واه لا أساس له من دليل ولا شبهة دليل أصلا! وإذن فجميع ما خاض فيه هؤلاء من مباحث ودراسات وكذا، باطل كله بالضرورة لأن موضوع ومطلوب العلم نفسه فاسد رأسا، ولا يقال لعاقل إنه يلزمك أن تتخصص في علم التنجيم (ويسميه بعضهم اليوم بـ«علم الفلك» ويسمي أصحابه بـ«الفلكيين» أو «الخبراء الفلكيين» تلبيسا) وتصبح فيه أعلم به من المتخصصين فيه، حتى تنتهي إلى الحكم عليه بأنه علم فاسد!

ولهذا لما نهى أئمة السلف ﷺ عن الاشتغال بالفلسفة والكلام، لم يتكلفوا هم أولا دراسة تلك العلوم بأنفسهم دراسة تخصصية تامة حتى يعرفوا بطلانها وفسادها وينهوا المسلمين عنها أشد النهي! فقد كان لائحا واضحا من مجرد التأمل في موضوع النظر ومطلب البحث الكلي في تلك الصناعات النظرية، وطريقة أصحابها في البحث والاستدلال، أن مبدأ السؤال والنظر فيها نفسه سفسطة وفساد في العقل والدين معا! قوم غاية صناعتهم أن يتكلفوا نصب البرهان النظري لإثبات قضايا يعرفها كل عاقل بالفطرة والبداهة الأولى (كحدوث العالم ووجود الباري)، ليردوا بتلك البراهين النظرية القياسية المتكلفة على قوم جعلوا صناعتهم ابتداع الأسئلة والاعتراضات أشكالا وألوانا على تلك القضايا البدهية، فأي خير وأي نفع يكون لعاقل سوي النفس في التعرض لأي من الصناعتين ودراستهما، فضلا عن أن يقال له: عليك بتعلمهما أولا

وسيرهم وسلوكهم، فقال (ص. ١٧٧):

وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به. إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالىٰ خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكىٰ الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين علىٰ أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة علىٰ وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوىٰ الله تعالىٰ، ومفتاحها الجاري منها مجرىٰ التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟! وهذا آخرها بالإضافة إلىٰ ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي علىٰ التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه. ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتىٰ أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتا ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقىٰ الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلىٰ درجات يضيق عنها النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه علىٰ خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه. وعلىٰ الجملة، ينتهي الأمر إلىٰ قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. وقد بينا وجه الخطأ

والتخصص فيهما بل وأن تصبح أعلى كعبا من كبار المتخصصين فيها، إن كنت ترجو أن تحكم عليها بالفساد حكما مجملا صحيحا؟

ونظير ذلك يقال في علوم الملل الفاسدة، فإنه لا يحتاج مسلم عاقل لأن يدرس علوم اللاهوت في ملة من الملل الباطلة حتى يصبح حبرا من أحبارها، رجاء أن يظهر له بطلان ذلك العلم عند أصحابه! هذه صنعة علمية موضوعها اختراع البراهين الفلسفية للانتصار لعقائد فاسدة من مبدأ النظر! فأي عاقل هذا الذي يزعم أنه لن يصل إلى الحكم ببطلان ذلك العلم مادة وموضوعا حتى يدرسه بأكمله من أوله إلى آخره، بل ويصبح فيه أعلى كعبا من رؤوسه المقدمين فيه؟ هذا كلام ظاهر الفساد، ولو التزمه إنسان حق الالتزام لضاع عقله وماله وعمره، ولما أمن أن يموت يهوديا أو نصرانيا أو ملحدا أو وثنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فيه في كتاب المقصد الأسنىٰ. بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد علىٰ أن يقول:

وكـــان مـــا كـــان مـــمـــا لـــســـتُ أذكـــرهُ

فــظــنَّ خــيــرًا ولا تــســأل عــن الخبرِ

قلت: فالظاهر والله أعلم أن الغزالي لما بلغ منه قرينه من الجنّ مبلغه من الإغراق في التيه الفلسفي، ثم رأىٰ منه مع ذلك ميلا إلىٰ التزهد والانقطاع عن التدريس فرارا من تلك الشكوك والأمراض العويصة، أظهر له في خلواته من الخوارق ما بمثله يتوهم رؤوس المتصوفة والطرقية أنهم مكرمون، وأنهم قد جاوزوا القنطرة وبلغوا الدرجة والمنزلة، واستحقوا أن تتكشف لهم الملائكة وأن تعرج بهم إلىٰ السماء، فتعلق بذلك الشأن تعلق من يوشك علىٰ الغرق، وهجم عليه بعقله وقلبه ووجدانه حتىٰ بلغ فيه من التعمق ما أفضىٰ به إلىٰ تصنيف كتابه «إحياء علوم الدين»، الذي صدق من سماه من علماء السنة بـ«إماتة علوم الدين»، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولعل هذا الظن يشهد له مثل قوله «ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتىٰ أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتا ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقىٰ الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلىٰ درجات يضيق عنها النطق...» إلىٰ آخر الكلام. فهو لما لم يجد في علم الكلام والفلسفة مخرجا من الشك، أقبل علىٰ تلك الخوارق بجميع قلبه إقبال الغريق، لعلها تذهب بما في نفسه، فكان كالمستغيث من الرمضاء بالنار!

وأما قوله: «وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها – وهي أول شروطها – تطهير القلب بالكلية عما سوىٰ الله تعالىٰ، ومفتاحها الجاري منها مجرىٰ التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟!» فنقول: إنها بدعة بالكلية! فالله تعالىٰ لم يكلفنا بتطهير القلب بالكلية عما سواه، إذ إن هذا أمر لا يُتصور أصلا، ولا يطيقه رجل ولو اختصىٰ، ومن زعمه لنفسه فهو يكذب علىٰ نفسه! والله تعالىٰ لم يكلفنا بذلك «الفناء» المزعوم الموهوم، وإنما كلفنا بتوحيد

المحبة، فيكون هو سبحانه منتهىٰ المحبوبات كلها، فلا يحب المؤمن شيئا أتم المحبة وأكملها، لذاته لا لغيره، إلا الله تعالىٰ، ولا يحب شيئا إذا أحبه إلا لله، لا أن يكون هو سبحانه المحبوب الأوحد في قلوب الموحدين لا محبوب سواه! أمرنا الله تعالىٰ بتطهير القلب بالكلية من الإشراك به في القصد والعبادة، أما أن يصبح الرجل وليس في قلبه ولا في ذهنه ولا في حياته شيء إلا ذكر الله حتىٰ يصبح وكأنه ليس في الوجود سواه، فهذا خلاف سنة الرسول وهديه ﷺ، وهو ما يفضي بأصحابه إلىٰ الحلول أو وحدة الوجود لا محالة (كما في قول الحلاج: «ما في الجبة إلا الله»)، فيما يسمونه تلبيسا بوحدة الشهود، وهو تحقيق منزلة «الفناء الكلي في الله» عند عامة رؤوس القوم وإن نفوا ذلك عن أنفسهم تقية! وهو ما يفتح علىٰ أصحابه أبواب تلك الخوارق الشيطانية التي أشار إليها الغزالي، التي تغرقهم في الزيادة من ذلك الضلال إغراقا! يصبح الرجل يراه يصافح الملائكة ويجالس الأنبياء ويطير في السماء، وما يرىٰ في ذلك كله إلا مردة الشياطين، نسأل الله السلامة! نقول ونجزم بأن ما يكون من ذلك تحقيقا لهؤلاء إنما يكون من أعمال الشياطين، لأننا نقطع بأن الله تعالىٰ لم يجعل لمؤمن كرامة في الغلو والإفراط والتنطع المحض! وفي الحديث أن الرسول ﷺ جاءه من يقول إني أصوم ولا أفطر، ومن يقول إني أقوم ولا أنام، ومن يقول إني لا أتزوج النساء، يريدون الانقطاع عما سوىٰ الله بالكلية، فقال عليه السلام مؤدبا إياهم: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». فكما أن الإفراط في الدنيا مذموم، فكذلك الغلو في تركها للعبادة والذكر مذموم! والقصد أن الله تعالىٰ لا يكرم مبتدعا مخالفا للسنة، فمهما ظهر له من خوارق العادات فليس ذلك مما يجعله الله تعالىٰ كرامة لأوليائه، وإنما هي الأخرىٰ، نسأل الله السلامة!

ولقد مر بي فيما مضىٰ رجل من التبليغيين يصر علىٰ أن ظهور ما سماه بالكرامة هو مقصود التخلي والانقطاع الذي يشترطونه علىٰ من ينضم إليهم، وهو معيار الاستدلال الذي به يُعرف الموصول من المقطوع، والواصل العارف ممن دونه، وفيه تتفاوت مراتب القوم و«طبقاتهم»، وأنه علىٰ المريد أن يظل يجاهد نفسه حتىٰ تأتيه تلك

«الآية»، فإذا ما ظهرت «الكرامة» المزعومة، أدرك إذن أنه قد بدأ في سلك السالكين إلىٰ الله، وحظي بأولىٰ درجات التحقق في الطريق إليه! ولهذا تنصرف هممهم بالكلية إلىٰ ذلك المطلوب، وتراهم لا يقيمون وزنا للشرع ولا لعلومه ولا يشتغلون بهما، لأن تلك العلامات إذا ظهرت، من بعد ما يتكلفه أحدهم من اتباع شيخه علىٰ الطريقة ومن الصبر عليها، فقد حصل بذلك غاية المراد من الدين نفسه عندهم، وأصبح السالك لا يطمع إلا في الزيادة من ذلك، حتىٰ يزداد غرقا في توهمه أنه قد صار من أقرب المقربين إلىٰ الله تعالىٰ، تصاحبه الملائكة ويجالسه الأنبياء! فلا يبلغ الغاية والذروة في ذلك، ولا يرىٰ نفسه منتهيا، إلا إذا قيل له: «أنا ربك وقد أسقطت عنك التكاليف، فلا يضرك ما صنعت بعد اليوم»!! بل قد يبلغ أن يرىٰ أنه هو الرب نفسه، يقول لنفسه «سبحاني سبحاني»، فلا دين إذن ولا عبادة ولا شيء أصلا! وهذا كله من تلبيس الشيطان وخطواته قطعا ويقينا، وهو من طرق الوثنيين ومللهم وليس من هدي المسلمين.

والناظر المتأمل في أحوال الغزالي وتحولاته وتقلباته يدرك أنه إنما تحول من تقليد إلىٰ تقليد، وهو مع ذلك كله يحسب أنه قد تحرر وانفك من التقليد غاية الانفكاك! فبعدما كان يقلد فلاسفة اليونان في طريقة السؤال في البدهيات والفطريات وفي طرح العلوم والمعارف كافة للتشكيك (وكل زعيم لنفسه بالتحرر المطلق من التقليد، هو مقلد لهؤلاء من حيث لا يشعر!)، وبعدما تكبد ما تكبد من محاولة الجمع بين تلك النظرية المعرفية الفاسدة وبين منهج المسلمين في مصادر التلقي، كما يعانيه كل متكلم علىٰ تفاوت في مقادير العقول وما في القلوب، تحول أخيرا إلىٰ تقليد الطرقية الصوفيين، لعله ينعم بما يزعمونه لأنفسهم من اليقين، ولو أنه اهتدىٰ لأن يقلد علىٰ المنهج الكلي إماما من أئمة السنة المشهود له في زمانه بسلامة العقيدة والمنهج السلفي القويم (وما كان يعجزه أن يلتمس واحدا من هؤلاء في قرنه وفي بلده إن كان فاعلا)، لاستقام أمره واعتدل دينه وسلم عقله من تلك الأدران، ولكن سر القلوب وأمرها في يد الملك وحده جل في علاه، يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم.

فالذي أقصده من نقل كلام الغزالي والتعليق عليه أن التحرر من التقليد بالمطلق هو من تكلف المحال، وأن «الشك المنهجي» علىٰ ذلك النحو وعلىٰ هذا المعنىٰ،

مرض عضال! ولا يزال البشر مضطرين ومحتاجين لتقليد من لا يحصيه إلا الله تعالىٰ من العلماء والأساتذة والخبراء في بناء معارفهم الفردية في أكثر المسائل التي يتعرضون لها علىٰ امتداد أعمارهم، ولا يضيرهم ذلك لأن ما يحصل لهم منه، علم ومعرفة علىٰ التحقيق، ينبني عليه العمل وتتعلق به الحقوق والواجبات قطعا، وإن رغمت أنوف الفلاسفة! صحيح إنها معرفة من الدرجة الثانية في حق صاحبها (ما دام لا يستقل بالترجيح والاستدلال الصناعي في المسألة ونحوها)، إن صح التعبير، إلا أنها معرفة ولا شك، يلزمه منها ما يلزم كل إنسان من حصول العلم لديه بأي معلوم، وهي الواجب المتعين عليه (أي فيما لا يتم العمل الواجب إلا به) إن كان لا يقدر علىٰ غيرها، وهي تكفيه لحصول مقصودها ولا تضيره، ولا يقال له «بل يجب عليك أن تجتهد في الأدلة الصناعية الدقيقة لكل قول تعتنقه (بهذا الإطلاق)، من بعد التشكيك فيه أولا»!

ونوع التقليد المستساغ من عموم البشر (ولا مفر منه أصلا مهما عملوا) هو ما يحصل في عموم المسائل المعرفية المكتسبة التي تعرف بالسمع أو بالنظر والقياس، وأما المسائل التي توصف بأنها بدهية أو فطرية ضرورية، فلا تدخل تحت اسم التقليد أصلا، فمن كان عليها فلا يقال له «مقلد»، وإنما يبتلي المتكلمون وأشباههم بتقليد الفلاسفة في مخالفتها أو في التشكيك فيها وطرحها للنظر، والزعم بوجوب إثباتها هي نفسها بالأدلة الكسبية! وهذا ما بذلنا الوسع في تحريره وبيانه في هذا الكتاب بعون الله تعالىٰ. فالتشكيك عند الفلاسفة الجدليين وارد علىٰ كل شيء، وهم يفاخرون بذلك ويعدونه علامة ذكاء ودقة نظر يعلو بها صاحبها فوق رؤوس من سموهم بـ«العوام»! فعندما يقرر أحد من الناس أنه يرىٰ المسألة الفلانية من البديهيات الواضحات، يأتيه الفيلسوف المتخصص ويقول له: «بل هذا من سذاجتك وخفة عقلك، ولو أنك بحثت كما بحثت أنا ودققت كما دققت وفكرت كما فكرت، ما رأيتها كذلك!»، وهذه هي آفة الفلسفة التي من أجلها كتبت هذا الكتاب، وبسببها ترىٰ الفلاسفة كلما همّ أحد من أتباع المرسلين بأن يدعوهم إلىٰ ما يكرهون، سفسطوا عليه وعلىٰ أصول دعوته بطرح السؤال علىٰ «دليلها» عنده (يقصدون أصولها البدهية ومسلماتها الأولىٰ لديه)، وطالبوه بتكلف التقديم لها والبرهنة عليها، ثم البرهنة علىٰ صحة كل برهان تسلسلا، حتىٰ يغرقوا من

يدعوهم في الجدل والسجال الأجوف فلا يرفع بدعوته رأسا! مع أن تلك المسلمات من أوضح الواضحات (كمخلوقية العالم وما فيه مثلا)! لذا لم يفرق القوم (من زمان فلاسفة اليونان) بالتشكيك بين مسألة ضرورية ومسألة نظرية، وكان المؤمن عندهم بوجود الباري جل وعلا بلا تشكيك ونظر سابق، مقلدا مذموما! وهو المذهب المعرفي الذي أشرِبته طوائف اللاهوتيين والمتكلمين من سائر الملل ما بين مستقل ومستكثر كما أشرنا، ثم تخبطوا غاية التخبط في محاولة الجمع بينه وبين الإيمان القطعي المنتهي (غير المشروط) الواجب علىٰ كل مكلف!

والحق أن التشكيك في بعض مفردات المعرفة الفردية الموروثة لا يتكلفه العاقل (خلافا للفيلسوف) إلا إن ظهر ما يدعوه لذلك، وهو أن ترجح به كفة الكسب علىٰ الخسارة والنفع علىٰ الضرر رجحانا موضوعيا لديه، كأن تأتيه دعوىٰ الرسول بالدين الحق المطابق للفطرة، المخالف لما ورثه من دين الآباء مثلا، فيعلم من فوره أنه إن لم يدع إرث الآباء في المعرفة الدينية والغيبية ويخلع نفسه منه خلعا فسيهلك في الآخرة هلاكا محققا، أو أن يتبين له أن رجلا ممن وثق فيهم وفي علمهم من قبل كان جاهلا أو دجالا من الدجاجلة في الحقيقة، فيعيد النظر فيما اكتسب منه من دعاوىٰ معرفية سبق أن قلده عليها، إن كان بقاؤه عليها مما يورثه العنت أو الضرر أو يفوت عليه مصلحة عاجلة أو آجلة! كأن يثبت له أن طبيبا كان يتلقىٰ العلاج عنده، ليس مؤهلا لممارسة الطب كما كان يظن (مثلا) أو أن غيره أوثق منه وأجدر بأن يتابَع علىٰ تشخيصه وعلاجه، بما يستتبع التشكيك في المعرفة التي سبق أن تلقاها من الطبيب الأول بشأن تشخيص حالته!

ومما يدعو إلىٰ ذلك أيضا أن يتكلف باحث من الباحثين في علم من العلوم الإنسانية النظر في مسألة من المسائل في ذلك العلم، فيجد نفسه مضطرا لمراجعة بعض فرضياته ومسلماته بشأن السلوك البشري، التي لم يأت بها ولم تقم عنده علىٰ بحث استقرائي معتبر. فلهذا أن يسأل نفسه (وهو مما يُتعرض له كثيرا في ذلك): «من أين عرفت هذه المسألة، هل جئت بها من بحث سابق وقفت عليه، بمشاهدة نظامية

استقرائية مما يثبت بمثله مثل ذلك، أم من كلام سمعته لا أدري مصدره، أم من وسائل الإعلام أم من القيل والقال وفضول الكلام، أم ماذا؟». وحتىٰ في مثل هذا، فقد يكفي الباحث في كثير من الأحيان عند سعيه في توثيق الدعوىٰ المعرفية الماثلة في نفسه أن يتأكد من نسبتها إلىٰ رأس من رؤوس البحث الموثوقين في علم من تلك العلوم، ثم يؤسس عليها عمله البحثي مستصحبها صحتها ولا حرج، عازيا إياها إلىٰ ذاك الثقة عند النشر، فمن وافقه علىٰ تصحيحها قبل منه ما أسسه عليها، ومن خالفه قبل منه عمله علىٰ أنه مبني علىٰ افتراض صحة تلك الدعوىٰ (وهو احتمال نظري يبقىٰ قائما في تلك العلوم دون أن يحسم حسما نهائيا، مهما تقلبت بين أيديهم الأدلة). فهذا ونحوه هو غاية ما يمكن تصوره من تشكيك وإعادة نظر مرغوبة نوعا (ولعل الصواب أن يقول في مثل هذا: ابتداء نظر) في مصادر بعض المعارف الفردية. وأما التشكيك في جميع ما في النفس من معرفة سابقة وتكلف النظر في أصول ذلك كله جملة واحدة، فهذا لا يكون إلا من فيلسوف مضروب علىٰ قلبه بأهواء الحرص علىٰ منافسة الأقران في بضاعتهم السوفسطائية الكلية!

ونقول: اعلم، وفقك الله لمرضاته، أن عملية النظر نفسها (من حيث هي طريق لاكتساب المعارف الحادثة في النفس من عدمها) إنما تُقصد لغيرها لا لذاتها، فهي وسيلة لغاية أخرىٰ، أو بالأحرىٰ هي وسيلة لوسيلة لغاية ما، كأن تكون طريقا للوصول لمعرفة السبيل الصحيحة لإنجاز عمل صحيح يراد منه التقرب إلىٰ الله تعالىٰ كما يحب سبحانه ويرضىٰ، ومن ثم رفعة الدرجات في الآخرة، أو لإنجاز عمل دنيوي تقضىٰ به الحاجة العاجلة المشروعة أو يدفع به الضرر. ولكن لأن الفلاسفة سفسطوا علىٰ كبرىٰ البدهيات الفطرية المغروسة في نفوس البشر، ونزلوا بذلك العبث إلىٰ أصول الاعتقاد في الغاية نفسها من وجود الإنسان في هذا العالم، ومن حياته ومماته وجميع أمره، وانفتحت البدهيات وأصول العقل نفسه للتسلسل في الاستدلال من أثر ذلك العبث المنهجي، أصبح النظر عندهم مقصودا لذاته لا لغيره، يمارسونه كرياضة من الرياضات، غير عابئين ولا مكترثين (فيما يُظهرون للناس) بأثره علىٰ اعتقاداتهم وما يموت عليه الواحد منهم في نهاية المطاف! لذا لا تجد الفيلسوف يمانع في أي وقت من

تناول أقوال أقرانه أو غيرهم في التشكيك أو الاعتراض علىٰ أي دعوىٰ معرفية أيا ما كان موضوعها، ويظهر الاستعداد الدائم للنظر وإعادة النظر ومراجعة الموقف منها مرة بعد مرة، ويفاخر بأنه يتخذ ذلك الموقف الإجمالي نفسه من جميع الدعاوىٰ المعرفية التي يتصورها عقل الإنسان بلا استثناء! حتىٰ إن بعضهم ليقول للناس من سفاهته ومرض قلبه: «أمهلوني حتىٰ أثبت لنفسي جدوىٰ ذلك العقل نفسه ابتداءً، ثم أنظر معكم فيما تستعملونه فيه»!

ولا شك أن الفيلسوف يكذب إن زعم استعداده التام في كل وقت للتنازل عن أصوله وقواعده ومنهجه الكلي والانتقال إلىٰ غيره، أيا ما كان موضوع ذلك المنهج الكلي، إذ لا بد للرجل حتىٰ يبقىٰ منسوبا إلىٰ الفلاسفة الأكاديميين بطريق من الطرق وبوجه من الوجوه، أن يظل باقيا علىٰ جملة من الأصول الكلية في إعمال الفكر وإجراء النظر التي لا يكون الإنسان معدودا من جملة الفلاسفة إن لم يعتنقها [1]، ومن تلك الأصول (علىٰ أقل تقدير): ذلك الزعم نفسه بأنه علىٰ استعداد دائم للتخلي عن أي اعتقاد أو قول أو مذهب في أي مسألة من المسائل مهما زعم الناس بداهتها، إن ظهر له من «الدليل» ما يعارضها! فالفلاسفة كانوا ولا يزالون يتنقلون عبر المذاهب والأقوال والآراء في القضايا الكلية الكبرىٰ بالهوىٰ والمزاج! كلما بدا لهم اعتناق رأي جديد، رأيتهم يتكلفون تزيينه وزخرفته والانتصار له بأنواع البراهين الفلسفية المنمقة التي قل من يفهمها وينتبه لموطن الفساد فيها، مع العمل علىٰ التلاعب بجملة أخرىٰ من المعتقدات لديهم حتىٰ يظهر لنقادهم أنهم متناسقون منطقيا ولا يتناقضون بهذا الرأي الجديد! وسيظل الأمر كذلك ما دام في العالم تخصصات ومدارس ومعاهد أكاديمية تتخصص في صنعة مستقلة اسمها الفلسفة، والله المستعان! فإذا كانت المصلحة الراجحة هي التي تحرك الإنسان (نوعا) لتكلف النظر والاستدلال في أي مسألة، فهؤلاء إنما تحركهم مصلحة العلو علىٰ الأقران داخل تلك الدائرة الخبيثة التي يحبون الانتماء إليها ويحرصون عليه!

(١) أو «المفكرين» أو «النظار» أو نحو ذلك من ألقاب تبدو أخف وطأة على أسماع الناس في عصرنا هذا من لقب «فلاسفة»!

والحاصل أن المتكلمين يلزمهم، حتىٰ يكون ما يتكلفونه من النظر (بل يوجبونه علىٰ المسلمين إيجابا، ويجعلونه أول واجبات المكلفين) نظرا علىٰ المعنىٰ الصحيح الملازم لنوع عمل الباحث في الاستدلال والترجيح والتماس المعارف المكتسبة بعموم (كيفما كان طريق ذلك الاكتساب)، أن يكون التسليم بصحة الدين مسبوقا عندهم بالتشكيك، أو علىٰ الأقل باعتقاد جواز ظهور المعارض الموجب للتحول عن أصل الملة (أو ما سميناه باليقين المشروط)، مع وجود الداعي الحثيث، وهو ما يسوغ للناظر تكلف النظر نفسه من الأساس! وإلا فإن لم يكن واردا علىٰ نفس أحدهم احتمال أن يكون علىٰ باطل فيما هو عليه من أصل دينه ومعقولية اتباعه المرسلين، مع تضرره من ذلك البطلان إن بقي عليه، فما وجه تكلفه النظر أصلا وأي شيء يدعوه إليه، فضلا عن أن يجعله واجبا علىٰ جميع المكلفين؟

فهذه، أيها القارئ الكريم، هي ثمرة تلبس القوم بمخاصمة الفلاسفة الجدليين ومبارزتهم بشروطهم، أي بما سموه هم (أي أولئك الفلاسفة) بـ«النظر العقلي» و«البرهان العقلي» كما تقدم. ولكن لو أنهم قالوا نحن نشك في أصول إيماننا، ونرىٰ أنها قد يرد عليها المعارض وأنه يجوز في العقل أن يثبت بعد النظر والاستدلال بطلانها، لخرجوا من الملة قولا واحدا، وهذا أمر يكرهونه لأنفسهم ولا شك وهو عندهم ضرر! وهنا تظهر الورطة الكبرىٰ، ويظهر التناقض في منهج الكلام، ذلك التناقض الذي تكلف القوم ما تكلفوه في محاولة الخروج منه دون الخروج من أصل علم الكلام نفسه (لمحبتهم ذلك) أو الخروج من ملة الإسلام (لكراهتهم ذلك)، فكان لهم ما ترىٰ مما مر بك وغيره!

ولهذا نقول إن المرء إما أن يكون سالم القلب والعقل علىٰ الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فتأتيه دعوىٰ المرسلين فيسلم بصحتها فورا ويكون بذلك من العقلاء الصادقين الفائزين، وإما أن يكون من جملة الفلاسفة المسفسطين، الذين زينت لهم أهواؤهم البقاء علىٰ الشرك أو الإلحاد، فتكلفوا رد البدهيات الواضحة والاعتراض عليها ونفي الفطرة نفسها لكراهتهم ما يترتب علىٰ الاعتراف بها من لوازم عملية! أما أن

يكون فيلسوفا متكلفا النظر والاستدلال في كل شيء كما يزعم هؤلاء، ويكون في نفس الوقت مسلما صحيح القلب سليم النفس كما هو واجب كل مكلف، فهذا من الجمع بين متناقضين!

وبالرجوع إلىٰ كلام الأستاذ «فودة» هداه الله، نقول إن النظر الذي يقصده هنا إنما هو نظر الترجيح، الذي هو بمعنىٰ الموازنة بين أدلة الأقوال والمذاهب في المسألة محل البحث، أو علىٰ الأقل التماس الدليل النظري فيما تخلو النفس فيه ابتداء من أي تصور أو معرفة سابقة، فإما أصاب المستدل أو أخطأ. فإن كنا نتكلم عن مسألة وجود الباري مثلا، وقد جعلها هو كما جعلها الفلاسفة من موارد البحث والنظر والاستدلال، فالذي يلزمه من مجرد ذلك المنهج المعرفي الكلي (أي تصور الفلاسفة الجدليين الدليليين لطريق حصول المعرفة بالمسألة)، أن يشهد علىٰ نفسه بالاستعداد التام (منهجيا) للزوال عن القول بوجود الصانع في المستقبل، إن ظهر له في يوم من الأيام من أدلة الخصم الملحد ما يترجح به مذهبه، أو يظهر له في جميع أدلته من النقائص والمعايب ما يسقطها! وعليه – إذن – أن يظل متابعا لأدبيات الفلاسفة والنظار في تلك القضية ما مد الله في عمره، إن كان صادقا فيما زعمه لنفسه من استعداد تام «للهجوم» علىٰ كل قول مخالف في تلك «المسائل الكبيرة»، وكأنه لا يمانع من أن يخرج من تلك المصنفات والأبحاث في يوم من الأيام بما ينقله عن «مذهبه» في تلك المسائل إلىٰ مذهب المخالف!

والسؤال الآن: إذا كان ذلك كذلك، فما داعيك يا أستاذ فودة لذلك الحرص الشديد علىٰ متابعة تلك الأدبيات وإعادة النظر في عقائدك كلها بلا استثناء، المرة بعد المرة؟ ألأنك تكره أن تموت علىٰ الإسلام وأنت غير متيقن من صحته؟ أم لأنك تكره أن تعلن بين الفلاسفة بكل حزم وقوة أنهم أهل سفسطة ومراء باطل وكذب علىٰ نفوسهم إذ يزعمون أن وجود الباري مسألة تلجئ للنظر والاستدلال؟

ما معنىٰ وما فائدة قوله «ليس بناء علىٰ أني أشك»؟ نعم أنت الآن علىٰ مذهب تزعم أنك متيقن منه، وأنه ظاهر لك ظهورا جليا، ولكن هكذا هو موقف أكثر النظار

بطبيعة الحال من مذهب الواحد منهم الذي هو عليه الآن حالا، إذ لولا ظهور بعض «الأدلة» وغلبتها على ظنونهم ما ترجحت لدى أحدهم إحدى الكفتين على الأخرى! فليست المسألة هل أنت الآن تتساوى لديك كفة احتمال صحة مذهبك مع كفة احتمال بطلانه أم لا، أو هل أنت متيقن أم أنك تشك، ولكن المسألة هي (وتأمل هذا الكلام مليا): هل ترى الجواز العقلي لأن يظهر لدى مخالفك في يوم من الأيام معارض صحيح لمذهبك يحملك على الانتقال عنه إلى مذهبه، أو بعبارة أخرى: أن يظهر دليل يوجب عليك التحول عن قولك إلى قوله، وعن دينك إلى دينه، أم لا ترى ذلك؟ فإن كنت لا ترى ذلك فقد تناقضت إذ فتحت المسألة للنظر وإعادة النظر، مع كونك في نفس الوقت تراها مما لا ينبغي أن يخفى وجه الحق فيه على عامي جاهل (أي بلا نظر)، ولا يرد عليه احتمال البطلان أصلا! وأعني بالجواز هنا الجواز العقلي أولا والجواز الشرعي ثانيا، لأن النظر فيما لا يحوج العقلُ صاحبَه لتكلف النظر فيه ممنوع عقلا، والنظر فيما لا يجيز الشرع تكلف النظر فيه كذلك ممنوع شرعا، والعقل والشرع عندنا ولله الحمد لا يتعارضان. فإذا كان المقصود من الشك الذي نفاه المتكلم عن نفسه أنه لا يقدر على الترجيح لتقارب الأدلة وقوة الاحتمال، فهذا هو التوقف، ونحن نقطع بأنه ليس متوقفا! وإنما السؤال هنا عن الشك المنهجي، أي ورود احتمال بطلان ترجيحه السابق في المسألة النظرية (مهما كان الاحتمال ضئيلا عنده)، وهو ذلك الاحتمال الذي يوجب عليه أن يقول: «قولي صواب يحتمل الخطأ وقول خصمي خطأ يحتمل الصواب»! فهل هذا النوع عندك - يا أستاذ فودة - وارد على موقفك في تلك «المسائل الكبيرة» أم لا؟ سؤال واضح لا إجمال فيه ولا التباس! فإن قلت نعم، هدمت ركنا من أركان الإيمان في ملة الإسلام، وإن قلت لا، وقعت في تناقض منهجي معرفي لا يخفى، إذ تثبت الشك المنهجي (الذي هو بمعنى ورود المعارض، مع الاستعداد لقبوله إن ظهر، وهو ما يحوجك للمراجعة وإعادة النظر) وتنفيه في نفس الوقت! أو بعبارة أخرى: تلتزم موقفا يقتضي ورود المعارض (ولو من باب الاحتمال الضئيل، حتى يقبل الفلاسفة مناظرتك)، مع كونك تجزم بانتفائه وامتناعه في نفس الوقت (حتى يصح لك إسلامك)!

نحن أهل السنة نقول: إن هذه «المسائل الكبرىٰ»، إن كنت تقصد بها ثبوت الباري وثبوت مخلوقية العالم ومربوبيته بما فيه وثبوت كمال صفات المولىٰ عز وجل وثبوت نبوة محمد ﷺ وصحة نسبة القرآن إلىٰ الرب جل في علاه، فهذه كلها قضايا هي عند المسلمين قطعيات كبرىٰ منصرمة منتهية لا يكون المسلم مسلما حتىٰ يشهد بأنها لا يرد عليها إمكان ثبوت البطلان ولا يمكن أن يظهر في يوم من الأيام ما يدل علىٰ فساد شيء منها! فما السبب في هذا الاعتقاد عندنا في تلك المسائل (الذي هو سبب جزمنا بها وإيماننا المنتهي الذي لا يرد عليه وارد من احتمال أصلا)؟ أننا استدللنا لكل دعوىٰ منها بدليل نظري قوي ظاهر لا يخطئه العامي فضلا عن خاصة النظار، فحصل اليقين في نفوسنا من تلك الجهة؟ أبدا! لم ننظر في شيء منها يوما من الدهر ولا استدللنا ولا رجحنا ولا قدمنا بمقدمات كلية في أقيسة شمولية ولا شيء من ذلك، ولا استدل الصحابة ولا التابعون ولا نبلاء هذه الأمة الذين تزعمون أنتم كما نزعم جميعا أننا لهم تبع في الدين والإيمان! الصحابي قبل أن يصير صحابيا، لم يطالب الرسول عليه السلام ببرهان عقلي علىٰ وجود الباري، ولا طالبه بمناظرة ولا طالبه بترتيب الأدلة (إثبات الصانع أولا، ثم إثبات وجوب وحدانيته وانفراده بالربوبية وبطلان الشرك، ثم إثبات جواز إرسال الرسل والأنبياء من بني آدم، ثم إثبات صحة رسالته هو نفسه ﷺ)! وإنما جاء في الأثر أن الصحابة كانوا يدخلون في الإسلام بمجرد سماع القرآن، بل وبمجرد بلوغ خبر النبي عليه السلام ومضمون رسالته المجمل إلىٰ أحدهم (أنه رجل جاء يدعو إلىٰ عبادة الله الواحد الأحد ونبذ الأصنام والسلامة من الشرك)!

فهل كان ذلك يقع لهم من أثر التفكر والتأمل في الأديان ومقارنتها، ولو «لنصف ساعة» كما تزعم أنه غاية ما يحتاج إليه العامي من تدبر وتفكير حتىٰ يصل إلىٰ «الحق»؟ أبدا! وإنما كانت تتحرك قلوبهم بداعي الفطرة التي فيها الجزم الأولي (بلا استدلال ولا نظر ولا اكتساب) بأن دعوىٰ كهذه هي الحق قطعا ولا يمكن أن يكون الحق في غيرها! فمن أراد الله له الهداية، فإنه يرىٰ ذلك الحق الظاهر الواضح حقا بمجرد سماعه، وتميل نفسه لمحبته وتتشوف له وتسقط بإزائه كافة التعلقات القلبية الأخرىٰ المانعة من حصول التصديق والقبول عنده!

وأما من لم يرد الله له الهداية، فذاك من تتحرك نفسه بتلك الموانع، وإذا هو يكذب علىٰ نفسه وعلىٰ الناس، فيتكلف التسويغ والإعراض (تسويغ ما هو عليه من باطل) أو المبارزة والاعتراض (أي علىٰ ما يدعىٰ إليه من الحق الجلي الواضح) سواء بدعوىٰ أن الداعي لا برهان معه، أو أن براهينه وأدلته ضعيفة (أي فيما نطق به الرسول من حجة وبلاغ) أو أن فيها خفاءً أو تحتاج إلىٰ المزيد من دفع أدلة الأقوال والملل المخالفة واعتراضاتهم العقلية والنظرية ... إلخ، أو أنها لا تكفي الباحث فيما سموه بـ«العقليات» (زعموا)! فالذي يسمع كلام المرسلين منقولا إليه بلغته ثم لا يؤمن به، هذا إما أن تراه معرضا مستنكفا متجاهلا، أو جاحدا معاندا مجادلا! وذاك النوع الأخير، أيها القارئ المحترم، الذي هو أخبث أنواع المخاطبين بالدعوة جميعا، إن قسمناه إلىٰ أنواع أو طبقات، كان أقبحها وأخبثها علىٰ الإطلاق الفيلسوف المسفسط المتخصص في الجدل والمخاصمة (من أي ملة كان) [1] الذي قارنه المتكلم مقارنة الندّ والنظير المنافس في نفس البضاعة، بدعوىٰ مبارزته ومغالبته انتصارا للدين، فوافقه مبدئيا علىٰ زعمه خفاء الحق عليه واستدعاء ذلك الحق للنظر والمناظرة، ثم راح ينفي الفطرة كمعرفة أولىٰ في نفوس العقلاء في تلك «المسائل الكبيرة» (لا لشيء إلا لأنه سلم له بخفاء ما نزعم نحن أنه مركوز في فطر الناس)، وإذا به يتكلم فلا تكاد ترىٰ فرقا منهجيا بين كلامه وكلام الفلاسفة كما في الكلام المنقول آنفا، يتناقض في أصول المعرفة لديه وهو يرىٰ نفسه

(١) فمعلوم مذمة الجدال في الإسلام، ومعلوم أن الجاحد المكذب إن قاتل وانتصر لباطله بالسنان لكانت طعناته التي تنال المسلمين أهون وأخف ضررا عليهم (بالمجمل) من زبالة الفيلسوف المبارز بالمناظرات والشبهات، التي تصغى إليها أفئدة المرضى والمفتونين فتجد فيها من ذرائع الردة والزندقة ما الله به عليم! وفي ذلك قول الله تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾الآية [البقرة: ١٩١]! ففي قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] دليل على أن من جاء من هؤلاء بتلك البضاعة السوفسطائية العفنة فلا يقابل بالمناظرة كما يرجو ولا يجاب لما يريد، وإنما يتعين على ولي الأمر أن يقطعه قطعا من الابتداء وأن يعزله عن المسلمين عزلا، وإلا كانت الفتنة التي هي أشد على المسلمين من الذبح وأعظم من القتل، والله المستعان! فإن لم يقم ولي الأمر بواجبه من منع ذاك المنكر وإزالته بين المسلمين، فقد تعين على أهل العلم أن يقدروا مقادير الانتشار لتلك البضاعة تقديرا صحيحا، ثم يصنفوا وينشروا في نقضها والرد عليها ما تدعو إليه الضرورة الشرعية بضابطها، ملتزمين في ذلك بمنهج أهل السنة في الرد والنقض وبيان الحق، لا بطرائق المتكلمين، التي هي نفسها طرائق الفلاسفة بإجمال كما ترى، فليتنبه لهذا!

وأقرانه من المتكلمين أذكىٰ الناس وأحقهم باسم العقل والحكمة! فوالله ليس من فراغ أن سماهم أبو العباس رحمه الله تعالىٰ بمخانيث الفلاسفة، والله المستعان!

نقول هذه قضايا بديهية عندنا، منها ما عرفناه بالفطرة ومنها ما عرفنا أنه الحق بمجرد سماعه لإصابته الفطرة، لا أنها «منتهية»، إذ لم تبدأ أصلا عندنا (أي لم تصبح عندنا مسائل مطروحة للبحث والنظر من الابتداء، حتىٰ ننتهي وننصرم فيها بعد البحث، ننفصل إلىٰ قول دون قول)، ولا أنها «محسومة» إذ لم نفتحها أصلا للنزاع حتىٰ يظهر لنا فيها ما يحسم ذلك النزاع! وأما أنت يا أستاذ فودة فتقول فيها بمقالة الفلاسفة: إنك بدأت فيها بالسؤال ثم البحث والنظر، ثم انتهيت إلىٰ موقفك الحالي، ثم إنك بعدُ ما زلت تفكر ولن تزال، وما زلت تراجع موقفك وتقبل من كل صاحب مقالة مخالفة مقالته علىٰ ما يقتضي التسليم المبدئي بأنه قد يكون بها علىٰ شيء! فأي الفريقين أسعد بالحق واليقين وبالإيمان الصحيح وأحرىٰ لسنة سيد المرسلين ونهج الصحابة والتابعين إن كنتم صادقين؟ أي الفريقين علىٰ نهج الصحابة وأئمة السلف الصالحين (في حدود النظر والاستدلال) وأيهما علىٰ نهج الفلاسفة المكابرين المسفسطين؟ الجواب واضح!

يواصل الأستاذ فودة ويقول: «المسائل الكبرىٰ الأصلية أعتقد، أنا شخصيا يعني، في سن متقدمة يعني مبكرة وصلت إلىٰ قناعات كثيرة فيها. لكن مازلت أعيد النظر علىٰ الأقل في الأدلة، وفي كثير من التفاصيل، وأعيد التفكير في كثير من المذاهب، وهذا الإنسان يعني، هذه حقيقة الإنسان، الباحث الذي يريد أن يطلب العلم، وصولك إلىٰ قناعة في مسألة، بناء علىٰ دليل، لا يمنعك من إعادة النظر في نفس المسألة، لكن من دليل آخر. فعملية التفكير دائما تكون موجودة.»

قلت: هذا تقرير واضح لمبدأ الشك المنهجي الذي حررنا مفهومه آنفا، وبينا أن كل ناظر في مسألة توصف بأنها نظرية (أي لا تحصل فيها المعرفة اكتسابا إلا بعد تكلف قدر من البحث والتأمل والنظر والاستدلال والتتبع) لا بد أن يصدق مع نفسه وأن يعترف بحدود قدرته البشرية، وبأنه قد يكون مخطئا فيما تكلف من إعمال نظره

ومن ترجيح واستدلال، ومن ثم يلزمه أن يشهد بأنه علىٰ استعداد دائم لقبول أي دليل جديد يصرفه عن قوله الأول إلىٰ القول المخالف إن ظهر، مهما كان يعتقد ضعف احتمالية ظهور ذلك الدليل المعارض في يوم من الأيام! فظهور المعارض يجب أن يظل واردا عند الناظر المجتهد من جهة الإمكان، وإن كان بعيد الاحتمال. ولأن ما يسميه صاحبنا بالمسائل الكبرىٰ الأصلية، داخل عند المتكلمين عموما في هذا الصنف (المسائل النظرية)، وهم – علىٰ اختلاف مذاهبهم وفرقهم – تبع للفلاسفة في ذلك كما بينا، فقد لزمه أن يصرح بأنه ما زال يبحث ويفكر في تلك المسائل ما دام حيا، وذلك قوله «وصولك إلىٰ قناعة في مسألة بناء علىٰ دليل، لا يمنعك من إعادة النظر في نفس المسألة، لكن من دليل آخر».

ولا أرتاب في أنه يستشعر خطورة ما هو واقع فيه من خلل منهجي كلي، ولا إخاله يخفىٰ عليه ما عند المتكلمين بعموم من اضطراب في ذلك. لذا تراه يقول بعدما ذكر أنه وصل إلىٰ قناعات كثيرة: «لكن مازلت أعيد النظر علىٰ الأقل في الأدلة، وفي كثير من التفاصيل»، فهل يكون النظر في أدلة القول إلا نظرا في ثبوت القول نفسه أو انتفائه؟ فما معنىٰ «علىٰ الأقل في الأدلة» في هذا السياق؟ لا معنىٰ لها علىٰ الإطلاق ولا تفيد بشيء! النظر في الأدلة المكتسبة علىٰ اختلاف أنواعها في المسألة النظرية، ينبغي ألا يستثنىٰ منه أي دليل، وأن تكون جميع الأدلة مفتوحة (مبدئيا) عند الناظر لاحتمال الإبطال أو الإسقاط بظهور ما هو أقوىٰ منها في مقابلتها، لأن ما قد تراه اليوم دليلا قويا (أو حتىٰ ضرورة عقلية علىٰ قولك بنسبيتها)، قد يعرض لك في المستقبل ما يدعوك لتضعيفه! فإما أن تكون أيها المتكلم علىٰ استعداد لأن تخرج من ملة الإسلام غدا وتصرح بالإلحاد والدهرية، تبعا للنظر «في الأدلة»، وإما أن تشهد بأن هذا لا يكون لعاقل صادق مع نفسه لأنه لو صدق لاعترف بأن تلك القضية ليست من موارد النظر والاستدلال أصلا، حتىٰ تصبح من مسائل الرأي والنظر، ومن ثم يرد عليها المعارض الموجب للتحول من الإسلام إلىٰ الردة، ولو من جهة الإمكان العقلي المجرد!

فإن شهدت بهذا، وهو الحق الذي عليه أهل السنة، فقد لزمك البراءة من دعوىٰ نسبية البداهة بإطلاق، والبراءة من منهج الكلام فيما يتعلق بالفطرة وبدواعي الاستدلال والنظر، وإذن للزمك أن تتراجع عن هذا الكلام الذي أجبت به السائل وأن تتوب إلىٰ الله منه، وأن تنهىٰ ذلك السائل عن الإجمال الفاحش في سؤاله «هل وصلت إلىٰ الحقيقة؟ وكيف؟» وتبين له أنه إن كان يقصد بالحق أو الحقيقة وجود الباري وصحة دين الإسلام فهذا مما لا يماري فيه عاقل سوي النفس قد سمع من الحجة الرسالية ما سمعه الصحابة من رسول الله، ولا يجادل فيه ولا يزعم خفاءه عليه إلا خراص كذاب قطعا، وإن كان يقصد بالحق ما يكون في المسائل النظرية التي لا يعرف الحق في مثلها بالفطرة والبداهة من غير اكتساب، وإنما يفتقر فيه الإنسان إلىٰ كلفة وجهد ونظر، فعليه أن يعين ما يقصد من تلك المسائل علىٰ وجه التحديد، وفي أي صنعة وأي موضوع يريد، حتىٰ يكون لسؤاله وجه وللجواب عنه ثمرة! أما أن يأتيك المتفلسف بسؤال مجمل كهذا، فتأبىٰ إلا أن تتفلسف عليه بإجمال مثله، وإذا بك تسوي الأصول بالفروع والبدهيات بالظنيات والنظريات، وتفتح كل شيء للرأي والجدل والمراء (إلا ما تأبىٰ أنت بهواك أن تطرحه للجدال)، فليس هذا من طريق أئمة الهدىٰ وإنما هو من شيم الفلاسفة الغواة، ولا أحسبك تنزع عنه يوما من الدهر إلا أن يرحمك الله!

وفي الواقع فإن الرجل يلزمه أن يقبل من الملحد استقباحه ما يكون من أهل الإسلام من تعليمهم أولادهم الدين من الصغر، مع عدم تعريضهم لشيء من الأديان الأخرىٰ (بما فيها الملل الدهرية والطبيعية ونحوها) حتىٰ «يستدلوا» و«يرجحوا» بأنفسهم استقلالا، أو علىٰ الأقل، يصلوا إلىٰ أمثال تلك «القناعات» في «المسائل الكبرىٰ» التي يزعم صاحبنا أنه قد توصل إليها في سن مبكرة! فعلىٰ سبيل المثال، فمن رؤوس الدهرية الطبيعية المتطرفين في زماننا هذا، الطبائعي البريطاني المدعو «ريتشارد دوكينز» الذي اشتهر بمحاربته للأديان كافة، وباعتقاده أن من انتهاكات الآباء «لحقوق» أطفالهم Child Abuse (زعم)، حرصهم علىٰ تربية أولئك الأطفال علىٰ دينهم هم ودين آبائهم من نعومة الأظفار! فليت شعري لو دخل الأستاذ «فودة» في يوم من الأيام في مناظرة مع ذلك الرجل حول قضية الاستدلال علىٰ صحة الدين وعلاقتها بمسألة

تربية النشء على الدين، إلى أي درجة من الاتفاق معه في محاربته مبدأ التعليم الديني للصبية الصغار سيصل به النقاش في النهاية؟ إذا كان يستحسن الانطلاق لدراسة أقوال المخالفين من الفلاسفة وأهل الملل للترجيح بينها من سن مبكرة (كما حصل منه هو نفسه)، على أساس أن مجرد العلم بوجود الباري يفتقر إلى استدلال ونظر، دع عنك الحكم بأي الملل والديانات هي الدين الحق، فقد تعين إذن أن يكون أول ما يربى أولاده عليه هو الفلسفة وجدال الفلاسفة والمتكلمين في الإلهيات (وهذا لازم قولهم بجعل النظر في وجود الباري أول واجبات المكلفين، فتأمل)، وليس التوحيد ودين الإسلام كما هو واجب كل مسلم عاقل! فإن خرج ولده من دراسة الفلسفة «بقناعة مبكرة» بأن الباري موجود حقا، وبأن العالم مصنوع مخلوق حقا، فحينئذ ينتقل معه لتعليمه كافة الأديان حتى يرجح بينها، على المنهج الذي قرره الغزالي فيما مر بك نقله من ضرورة تعلم كل علم بتمامه حتى يصل الإنسان إلى الحكم بصحته أو فساده! أما إن خرج على قناعة بأن الباري وهم وخرافة، أو سلم بوجود الباري ثم مال إلى ملة أخرى بخلاف الإسلام، فللدهرية إذن أن يلزموه إلزاما صحيحا بقبول ذلك الموقف من ولده وتسويغه له أيا ما كان، لأنه هو ما أداه إليه نظره وبحثه، وهي قناعته التي توصل إليها استقلالا في تلك «المسائل الكبيرة»، وبلا «تقليد»!

فإن زعم صاحبنا المتكلم أن البرهان اليسير قد يكفي الطفل الصغير وإن كان لا يكفى كبار الفلاسفة ولا يناسبهم، وإذن فلا يلزمه أن يعلم ولده الفلسفة والمنطق والنظر العقلي في الإلهيات وهو لا يطيق ذلك، فقد وقع في تناقض منهجي (معرفي) في التفريق بين ما يصلح للعامي من أنواع البراهين، وما يصلح للفيلسوف المتمنطق (من أن الأخير لا يكفيه ولا يقنعه ما يقتنع به الأول)، كما يأتي بيانه! وذلك أنك حتى تحكم بأن القضية النظرية التي تعتقد صحتها، لا بد أن يخاطب فيها كل إنسان بما يناسب عقله من أنواع الأدلة الدالة على صحتها، فلا بد أن تكون معتقدا صحتها من قبل اعتقادا لا علاقة له بجنس الأدلة التي تجيز فيها التفاوت بحسب العقل! فكأنك تقول: لا أبالي بأيما دليل قبلت صحة هذه الدعوة، ما دمت ستنتهي في النهاية إلى قبول صحتها!

ولكن من الواضح أن هذا الموقف متناقض معرفيا! إذ من أين لك أنت نفسك بهذا الجزم المنصرم، إن كنت تراها قضية نظرية، يرد (في الاحتمال) أن تسقط جميع أدلتها جملة واحدة، فلا يبقىٰ لدىٰ العاقل سبب للتمسك بصحتها؟! علىٰ مذهبك، يلزمك أن تقول للطفل الصغير، إن اقتنعت بسذاجة وعدم كفاية أدلته كما يحتج عليها الفلاسفة: أنت ساذج لا تدري وجوه الاعتراض العميق علىٰ استدلالاتك، فدع عنك هذه المسألة حتىٰ تبلغ من العلم بالفلسفة والكلام ما يمكنك من إحكام وجوه الأدلة وفهمها فهما صحيحا، ومن ثم تتمكن في يوم من الأيام من الترجيح فيها، إن كنت فاعلا! أي بعبارة أخرىٰ: أمسك عن الاعتقاد بوجود الباري وتوقف فيه، إلىٰ أن تتمكن في يوم من الأيام من اكتساب القدرة علىٰ الترجيح في ذلك النزاع الطويل العميق عليها فيما بين الفلاسفة والنظار من أهل الملل! أما أن تترك ولدك ليتمسك بدليل فاسد يؤسس عليه دينه ويقينه وإيمانه، ثم تأتي في يوم من الأيام لتصدمه بقولك إنه ليس علىٰ شيء، ولا تنهض استدلالاته كلها بالمطلوب لتصحيح إيمانه، فهذا غش وخداع، كما يقتضيه مذهبك المعرفي!

فكيف تطالب الناس بتأسيس دينهم علىٰ غير ما تسميه بالتقليد، تجعل النظر أول واجبات المكلفين، مع أنك تدري كما يدري كل عاقل ويشهد بأن الصبي المميز لن يقدر علىٰ النظر ولا الاستدلال ولا الترجيح ولا شيء من ذلك (مهما كان يسيرا للعوام في زعمك)، وإنما سيكون – لا محالة – كالصحيفة البيضاء المعدة للتلقين والتعليم والتربية علىٰ ما يربيه عليه والده أيا ما كان، وإذن فسيتأسس دينه في الصغر علىٰ «تقليد» والديه لا محالة[1]؟!

(١) وحينئذ فإما أن يمن الله عليه بسماع الحق البدهي الواضح الذي جاء به محمد ﷺ ثم بانشراح الصدر له وقبوله، وإما أن يكون من أهل الفترة الذين ما بلغهم شيء وما سمعوا شيئا، وإما أن يكون من أهل الإعراض والجحود بعد سماع الحق، الحريصين على البقاء على ما وجدوا عليه آباءهم، وإذن فسيكون من أهل السفسطة والتفلسف والنظر المتكلف من كل صنف ولون، حتى يبقى ما دام حيا على ما يحب لنفسه ويشتهي! فمجرد تكلف النظر بدعوى الطمع في معرفة الحق والوصول إلى اليقين في تلك «الأسئلة الكبرى»، فلا هي محل نظر ولا يوصل فيها من النظر إلى يقين ولا إلى قريب منه أصلا، وما يكون هذا عندنا إلا داخلا في القسم الثالث، المماري في الحق الجلي الواضح، والله المستعان!

من ذا الذي يتكلف أن يقول لولده الصغير بمجرد أن يميز ويعقل (كما يطالبنا به الملاحدة، وكما يلزم المتكلمين أن يقبلوه منهم): «يا بني، عليك بأن تبحث وتستدل استقلالا بعقلك ودون تقليدي أو تقليد غيري من أصحاب الاستدلال العقلي، فيما إذا كان للعالم خالق أم لا، فإن ظهر لك أن له خالقا، فعليك بالبحث والاستدلال فيما إذا كان من الجائز عقلا أن يبعث ذلك الخالق رسلا أم لا، فإن ظهر لك جوازه في حقه، فعليك بالبحث والنظر فيما إذا كان قد بعث في الناس رسولا حقا أم لا، في إطار البحث والنظر والاستدلال فيما إذا كان دين الإسلام هو دينه الحق أم لا، ولا يكون ذلك إلا بمقارنة الأديان وموازنة الكتب والتقاليد الدينية الموروثة عند أهل الملل، فإن أنت أتممت ذلك، فتعال إليّ إذن لأعلمك الدين والإسلام علىٰ أساس معرفي صحيح»!! هذا لا يتكلفه متكلم أبدا ولا شك، ولا يمكن أن يتصوره لولده فلذة كبده، مع أنه هو ما يلزمه من إبستمولوجيا الكلام لزوما لا فكاك له منه لو صدق! فتأمل المآزق العظيمة التي يوقع المتكلم فيها نفسه من حيث لا يشعر، بل وهو يرىٰ نفسه أقوىٰ الناس عقلا وأحسنهم طريقة وأضبطهم وأحكمهم منهجا ودينا، وأقدرهم علىٰ الانتصار لدين الله، والله المستعان لا رب سواه!

يقول الأستاذ: «لكن أعتقد إنه الإنسان العادي، أكثر البشر قادرون علىٰ الوصول إلىٰ أجوبة في وقت قصير، خلافا لما يصوره كثير من الناس، شوف كيف المسألة.» قلت: فإن كان ذلك كذلك، فما وجه التقعر والتحذلق والتكلف والتنطع الذي خضتم فيه مع الفلاسفة إذن وما الداعي إليه يا هداكم الله؟ إن صح أن كان الوصول إلىٰ الأجوبة في تلك «المسائل الكبيرة» (كما سماها الفلاسفة) سهلا ميسورا «لـ نسان العادي»، وكان بمقدور أكثر البشر أن يصلوا إليها في وقت قصير، فلا بد وأنها إذن أجوبة واضحة ملزمة لعموم البشر، إذ وضوحها للإنسان العادي يلزم منه أن تكون أكثر وضوحا للإنسان «غير العادي»! اللهم إلا إن كان من لم تتضح له موصوفا بالنقص أو العجز أو المرض! أي إن كان الإنسان الضعيف يراها بوضوح، فلا بد وأن تكون أوضح وأظهر لمن يزعم أنه يفضُل عامة البشر في العقل والفكر والذكاء!

الإنسان «العادي» لا يحتاج إلىٰ فلسفة ولا إلىٰ علم كلام حتىٰ «يصل» إلىٰ تلك الأجوبة، كما تعترفون بذلك في كثير من تصانيفكم. فأي شيء يكون من يزعم أنه علىٰ علو عقله وسعة علمه، لا يرىٰ ما يراه عامة البشر «الضعفاء» وتقرهم أنت علىٰ كفايته في تحصيل المعرفة المطلوبة في نفس الأمر، إلا أن يكون كاذبا مكابرا جاحدا للواضحات الجليات، حريصا علىٰ التنطع بالنظريات؟ لماذا تقبل منه زعمه أنه لا يكفيه ما يكفي عامة البشر في تحقيق المعرفة في تلك المسائل، ومن ثم تتكلف إتيانه بأدلة علىٰ شرطه ومزاجه وهواه، إلا أن يكون إشباعا لهوىٰ في نفسك أنت من حيث لا تشعر؟

هما خصلتان لا ثالث لهما: إما أن يكون استدلال «الإنسان العادي» واهيا ممخرقا (موضوعيا)، باطلا في نفسه، فلا يكفي ولا يحصل به المطلوب، كما هي دعوىٰ الفلاسفة في أنواع المعرفة البشرية إجمالا، وإذن فقد لزمه ووجب عليه هو تكلف ما تكلفته أنت وأقرانك من صياغة البراهين النظرية المعقدة علىٰ اختلاف أنواعها، لعله يجتمع له من البراهين ما يرفعه إلىٰ منزلة من تحقيق النظر تليق بالمطلب المعرفي العظيم الذي هو بصدد النظر فيه، وبالإيمان القطعي اليقيني الذي هو مكلف به طامع في اكتسابه لنفسه، وإما أن يكون ما عند العامي (أيا ما كان ذلك) كافيا بالفعل (موضوعيا، لا بالذوق الفردي) لحصول معرفة قطعية لا رجعة فيها ولا يرد عليها وارد، بما يغنيه عن بضاعة المتكلمين والنظار المتخصصين من أولها إلىٰ آخرها، وإذن فلا قيمة لتلك البضاعة المتنطعة أصلا إذ لا يحتاج إليها العاقل السوي (نوعا)!

أليس مقصود النظر الوصول إلىٰ المعرفة الصحيحة الكافية للوفاء بالمطلوب؟ أليست أدلة العامة (علىٰ التسليم لكم بزعمكم أنهم يستدلون) أسهل وأظهر من أدلة الفلاسفة والمتكلمين، مع كونها يتحقق بها المطلوب في نفس الأمر؟ ففيم تكلفكم ما تكلفتم إذن؟ هل يعقل أن يحصل بالدليل الأغمض والأبعد عن الذهن والأغرق في المصطلحات والمجملات وفي طبقات الكليات القياسية المتكلفة، ما لا يحصل بما هو أظهر وأوضح منه وأقرب إلىٰ أذهان عموم البشر؟ إذا كان عامة الناس قادرين علىٰ الوصول إلىٰ الأجوبة الكافية في وقت قصير كما تقول، فلا صفة إذن لمن يتكلف الطرق المعقدة والوقت الطويل في تحصيل نفس المطلوب إلا أن يكون سفيها لا عقل

له، أو يكون مدفوعا في عمله ذاك بدافع قلبي بخلاف مطلب الهداية والدلالة علىٰ الخير المزعوم، كأن يكون حريصا علىٰ التفنن في أنواع البراهين الفلسفية المتنطعة المعقدة التي يتنافس فيها أصحابها ليتقدموا بها بين العوام ولتعلو بها منازلهم فيما بين الناس (وهو ذاك الهوىٰ الخفي الذي يحرك عامة المتكلمين في مناظراتهم ومخاصماتهم مع الفلاسفة الدهرية علىٰ الحقيقة من حيث يحسبون أنهم يجاهدون في سبيل الله)!

الواحد من هؤلاء ما يحب وما يريد إلا أن يظهر قوته وذكاءه بين يدي خصمه، هذا هو المحرك الباطن الحقيقي، وإن قال ما قال! وما مثله عندنا إلا كمثل من كره سلوك الطريق المستقيم (الذي هو أقصر الطرق بين النقطتين)، وأبىٰ إلا الوصول إلىٰ مبتغاه من أطول الطرق وأعرجها وأكثرها انحناء واعوجاجا، لا لشيء إلا ليستعرض قدرته علىٰ اقتحام كل طريق وعرة يهلك فيها أكثر الناس، بل لا يرد علىٰ خواطرهم أن يسلكوها أصلا! أو كالذي أصر علىٰ ركوب الطائرة النفاثة حتىٰ ينتقل من بيته إلىٰ البيت المجاور، لا لشيء إلا لأنه يشتهي ركوب الطائرات ويحب أن يراه الناس وهو يطير! هذا ونحوه لا اسم له عندنا إلا السفاهة، وإن كان وقوعه من أقوىٰ الناس عقلا وأذكاهم وأحسنهم بيانا!

ثم ما معنىٰ ظنك بأن أكثر البشر يمكنهم الوصول في وقت قصير؟ هذا يقتضي بالمفهوم أن بعض البشر لا يمكنهم ذلك وإن تكلفوه! فما موقفك من هؤلاء إن زعموا أنهم لا يقدرون علىٰ الاقتناع بأن الإسلام حق، مهما نظروا ومهما بحثوا، أي من بعد أن تأتيهم دعوىٰ المرسلين ويتكلفوا تلك الطرق التي تقول؟

تأمل كيف يواصل الأستاذ فودة ليضرب مثلا، فيقول: «يعني باضرب لك مثال. أنا أريد أن أضرب مثالا لك الآن، واحد مرة سألني سؤال، إنه كيف تستطيع، كيف تستطيع، أن تقول بكل سهولة، أن الدين الإسلامي أفضل من المسيحية واليهودية؟ شوف، بيقول لك هذه مسألة خطيرة جدا. كتب وبحوث وحوالي ثلث العالم مسيحيين، والمسلمين مليار وشوية واليهود شوية آلاف وكذا، كويس، ملايين، أنت كيف بتقول بكل بساطة إن هذا هو الأفضل وهذا هو خاطئ؟ والناس ما زالوا يبحثون.» اهـ.

قلت: هذا السؤال لو طرح علىٰ رجل من أهل السنة، لأجاب بأنه لا يبقىٰ نصراني علىٰ نصرانيته ولا يهودي علىٰ يهوديته ولا ملحد علىٰ إلحاده ولا وثني علىٰ وثنيته بعدما يبلغه أن رجلا خرج في الناس بدعوىٰ ينسبها إلىٰ خالق السماوات والأرض، خلاصتها أن: «اعبدوا الباري وحده لا شريك له ولا تتخذوا من دونه آلهة في القصد والعبادة، ولا تقولوا اثنين ولا ثلاثة ولا أكثر، وعظموه بما هو أهله وسلموا له أنفسكم تسليما واخضعوا له غاية الخضوع»، إلا أن يكون جاحدا أو معرضا صاحب هوىٰ صارف عن قبول الحق الواضح لا محالة! وفي هذا صح قوله ﷺ في الحديث: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بي إلا كان من أصحاب النار». أو كما قال ﷺ! فتأمل قوله «يموت ولم يؤمن بي»! لم يقل: «يموت ولم يتكلف البحث والنظر والموازنة والقراءة والتحليل فيما جئت به»، وإنما قال: سمع بي ثم مات من غير أن يؤمن! لماذا؟ لأن حجة الإسلام قائمة بمجرد السماع بها!

ولولا أن كان في نفوس البشر فطرة توافق ما يسمعون من ذلك، لما قامت عليهم حجة بما جاء به الرسول بين يدي الله يوم القيامة! وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٧٢] ! فلولا ما في الفطرة من ميثاق مبرم يعرف به البشر ما يعرفونه بالاضطرار من أن العالم مخلوق مربوب وأن باريه واحد أحد لا شريك له ولا ندّ ولا كفء له، وأنه يقبح غاية القبح أن يتخذ الإنسان شيئا من خلق الباري إلها معه يتذلل له كما يتذلل للباري ويعبده كعبادته إياه، لما قامت للرسل حجة علىٰ الناس بما بعثهم به ربهم، ولكان للمعرضين والمكذبين حجة علىٰ الله يوم القيامة بمثل قولهم «إنا كنا عن هذا غافلين، فلم تحصل لنا المعرفة اللازمة» أو قولهم «لم يأتنا رسلك بالأدلة الكافية علىٰ وجودك وربوبيتك وصحة دين الإسلام»! وإذن لكان لأمثال الدهري الملعون «برتراند راسل» حجة بين يدي الله إن قال كما نُقل عنه أنه قائله لربه إن سأله بعد موته عن سبب تكذيبه به: «معذرة سيدي، إذ لم أر من الأدلة ما يكفي للتصديق بوجودك وبنبوة رسولك!»، وللزمكم أنتم معاشر المتكلمين أن تعذروه وأمثاله إذ قد تكلف من النظر ما لم يتكلفه أكثر بني آدم، وأقدم علىٰ الغاية

في النظر والتعمق والبحث كما لا يحسنه كثير من الناس، ومع ذلك لم يصل في القضية إلىٰ شيء!

والقصد أن الحجة الرسالية التي جاء بها الرسل لا تقوم أصلا إلا علىٰ ما هو مركوز في الفطرة، وإلا كان أساسها المعرفي معدوما في نفوس المخاطبين، مفتقرا إلىٰ من يقيمه لديهم بالدعوة أولا، وإذن لما كفت الرسالة كما بلغتنا لتحصيل المطلوب، ولكان إيمان الصحابة والحواريين أتباع المرسلين ضربا من التقليد المذموم! ومسألة الفطرة هذه مسألة موضوعية نحكم حكما معياريا بأن وضوحها وجلاءها البدهي في نوع البشر ليس نسبيا، وإن تفاوتوا في الغفلة عنها وفي مقدار ما اجتمع في نفس الواحد منهم من طرق للتشويش عليها ومن تسويغ لمناقضتها في اعتقاده! [1] إلا أنه مهما كان لديه من

---

(١) وقد مر بي من يختلط عليه فهم قول شيخ الإسلام رحمه الله (في رده على المنطقيين ص. ١٣):

«الحادي عشر: أن يقال: هم معترفون بأن من التصورات ما يكون بديهيا لا يحتاج إلى حدّ، وإلا لزم الدور والتسلسل.

وحينئذ فيقال: كون العلم بديهيا أو نظريا هو من الأمور النسبية الإضافية، مثل كون «القضية» يقينية أو ظنية. إذ قد يتيقن زيد ما يظنه عمرو، وقد يبدَه زيد من المعاني ما لا يعرفه غيره إلا بالنظر، وقد يكون حسيا لزيد من العلوم ما هو خبري عند عمرو. وإن كان كثير من الناس يحسب أن كون العلم المعين ضروريا أو كسبيا، أو بديهيا أو نظريا، هو من الأمور اللازمة له بحيث يشترك في ذلك جميع الناس. وهذا غلط عظيم، وهو مخالف للواقع. فإنه من رأى الأمور الموجودة في مكانه وزمانه كانت عنده من الحسيات «المشاهدات»، وهي عند من علمها بالتواتر من «المتواترات»، وقد يكون بعض الناس إنما علمها بخبر ظني، فتكون عنده من باب «الظنيات»، ومن لم يسمعها فهي عنده من المجهولات، وكذلك العقليات، فإن الناس يتفاوتون في الإدراك تفاوتا لا يكاد ينضبط طرفاه، ولبعضهم من العلم البديهي عنده والضروري ما ينفيه غيره أو يشك فيه. وهذا بين في التصورات والتصديقات.

وإذا كان ذلك من الأمور النسبية والإضافية، أمكن أن يكون بديهيا عند بعض الناس من التصورات ما ليس بديهيا لغيره، فلا يحتاج إلى «حد»، وهذا هو الواقع، وإذا قيل: «فمن لم يحصل له تلك المحدودات بالبديهة حصلت له بالحد»، قيل: كثير منهم يجعل هذا حكما عاما في جنس النظريات لجنس الناس، وهذا خطأ واضح. ومن تفطن لما ذكرناه يقال له: ذلك الشخص الذي لم يعلمها بالبديهة يمكن أن تصير بديهية له بمثل الأسباب التي حصلت لغيره، فلا يجوز أن يقال: «لا يعلمها إلا بالحدود».»

قلت: فقد يبدو من أول وهلة أن هذا الكلام يوافق به الشيخ دعوى المتكلمين نسبية البدهيات والضروريات بإطلاق، وهذا باطل غير صحيح، فالشيخ رحمه الله كان يثبت الفطرة كأساس معرفي باطن في النفس يشترك فيه عموم البشر، مع كثرة ذكره في تصانيفه لحقيقة أن العلم بوجود الباري ومخلوقية العالم هو من تلك الفطرة التي لا تحتاج إلى استدلال ولا نظر حتى تحصل بها المعرفة من بعد عدمها! فمن كان هذا مذهبه، فإن ذكر في

ذلك، فلا يأتيه كلام المرسلين ولا يسمع الحق الذي عندهم إلا أدرك في باطن نفسه فورا ومن أول وهلة أنه هو الحق! فنحن نقول إن النصراني – مثلا – لا يحتاج لأن يفكر

شيء من المعاني أنه مما لا يختلف عليه العقلاء (وهو ما وقع منه كثيرا رحمه الله)، فإنما يقصد أنه مما يعرفه الناس فطرة وجبلة (بأصل خلقتهم وتركيب آلة العقل في نفوسهم) أي يشهدون بصحته بمجرد أن يفهموا ألفاظه، لا أنه مما يكتسب العلم بدليل صحته من بعد خلو النفس منه! فهو سالم مما نلزم به الفلاسفة والمتكلمين من الدور القبلي والتسلسل في الاستدلال والنظر لنفيهم المعرفة الفطرية، وسالم مما يقع فيه هؤلاء من التناقض في كل مرة يزعم فأحدهم في دعوى من الدعاوى أنها «لا يختلف عليها العقلاء» أو أن من يجحدها فقد جحد البداهة أو نحو ذلك مما يكثر في تصانيفهم.

وإنما أراد الشيخ رحمه الله في هذا الموضع من رده على المنطقيين أن يقرر أن المعارف المكتسبة (لا الفطرية الجبلية) بعضها أقرب من بعض إلى أذهان بعض الناس، فمنها ما يصح اعتباره بدهيا واضحا لا يحتاج إلى كلفة في إثباته، وهو إذن في حقهم «علم ضروري»، ومنها ما هو دون ذلك، والناس تتفاوت في تقدير مقدار البداهة والظهور في ذلك الصنف تفاوتا واقعيا لا يصح إنكاره. وإذن فمن كان المعنى عنده بديهيا من هذه الجهة، فليس يحتاج هذا في معرفته إلى من يحده له ويعرفه له، حتى يعمم القوم ما عمموه بشأن تلك التعريفات ونفعها المزعوم للناس! فمن عرفه بداهة واضحة دون المرور بتلك الحدود، فلا بد وأنه مستغن عنها ولا يحتاج إليها! فالسؤال الآن: ما الذي أغناه عنها؟ إن كان ذلك كذلك، فحسب من كان مثله أن يستعين بنفس الأسباب التي أوصلته هو إلى تصور المسألة واعتبارها أمرا بديهيا عنده من غير أن يأتيه المتمنطق بحدّ إضافي متكلف يزعم أن به حصول المطلوب لمن لم يحصل له ابتداءً، ومثال ذلك ما يكون عند أصحاب الصناعات النظرية من تمييز بعض المسائل والقضايا على أنها من الضروريات في صناعاتهم، مع أن الأجنبي عن صناعتهم قد لا يراها كذلك. وفي هذا المعنى قوله رحمه الله: «أن الأمم جميعهم من أهل العلم والمقالات وأهل العمل والصناعات يعرفون الأمور التي يحتاجون إلى معرفتها ويحققون ما يعانونه من العلوم والأعمال من غير تكلم بحد منطقي ولا نجد أحدا من أئمة العلوم يتكلم بهذه الحدود لا أئمة الفقه ولا النحو ولا الطب ولا الحساب ولا أهل الصناعات مع أنهم يتصورون مفردات علمهم، فعلم استغناء التصور عن هذه الحدود» اهـ. (نفس الكتاب ص. ٨).

فمن قرأ الكلام في سياقه ولحاقه أدرك مورده ومقصود الشيخ منه رحمه الله تعالى، وتبين له أنه لا ينفي به وجود مسلمات معرفية فطرية في نفوس البشر، ولا يجعل المعرفة كلها مكتسبة بالاستدلال كما هي طريقة المتكلمين، وإنما ينفي احتياج الواضحات الجليات إلى من يُعرفها ويحدها للناس ويلجئهم إلى تلك الحدود التي تكلفها المناطقة والفلاسفة في بيانها. والشيخ رحمه الله ما كتب هذا الكتاب وما في بابه إلا لينقض على المنطقيين طريقتهم في التنطع وتكلف ما لا يحتاج إليه عاقل، ومعلوم أنه يقرر في مواضع أخرى من نفس الكتاب وفي غيره أن نفي البدهيات الأولى يترتب عليه التسلسل في الاستدلال وهو باطل، فلو صح أن لم يكن لدى البشر معرفة فطرية أولية لا يصح لهم أن يجحدوها، للزم التسلسل ولما قام للدليل قائمة أصلا، وهذا مما ألزم الشيخ به خصومه في غير موضع، ومن ذلك قوله في الكتاب نفسه (ص. ٨): «إذا كان الحد قول الحاد، فالحاد إما أن يكون قد عرف المحدود بحد، وإما أن يكون عرفه بغير حد، فإن كان الأول فالكلام في الحد الثاني كالكلام في الأول، وهو مستلزم للدور القبلي أو التسلسل في الأسباب والعلل، وهما ممتنعان باتفاق العقلاء، وإن كان عرفه بغير حد بطل سلبهم وهو قولهم أنه لا يُعرف إلا بالحد» اهـ.

أصلا حتىٰ يعلم أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق الذي يتعين عليه أن يصير إليه! لا يحتاج إلىٰ بحث ونظر واستدلال حتىٰ يدري أن معبوده الذي يألهه ليس هو الله الواحد الأحد! فإن اختار البقاء علىٰ ما هو عليه بعد السماع، فيقينا لم يؤت من قبل الجهل وقلة العلم (اللهم إلا إن أردنا بالعلم: العلم النافع الذي يعمل صاحبه بمقتضاه، وهذا من معاني العلم في القرآن، والتخلف عنه من معاني الجهل) وإنما أتي من قبل هوىٰ قلبه وصدود نفسه عن قبول الحق من بعد ما تبين. فإنما يحتاج هذا إلىٰ صدق مع النفس وإلىٰ سلامة من الأهواء المانعة من قبول الحق الفطري الواضح، حتىٰ يبادر للدخول في دين التوحيد الخالص! يحتاج إلىٰ خطاب يقرع أبواب قلبه ويشعره بالخجل من نفسه إن آثر البقاء علىٰ ما هو عليه بعدما بلغه ما بمثله يؤمن العقلاء الأسوياء!

أما المتكلم المتفلسف فتأمل كيف يزين له اعتقاد أن الأمر حقا يحتاج إلىٰ استدلال وترجيح وتفكير، ليس هذا وحسب، بل ويقبل منه موقفه إن زعم أن ما نعده نحن حقا واضحا جليا وأمرا بدهيا، لا يراه هو كذلك ولا يظهر له كما يظهر لنا، لأن «البدهيات نسبية»! فلو زينت له نفسه أن يطلب المتكلم للمخاصمات والمناقشات بحيث لا يخرج من واحدة إلا دخل في الأخرىٰ، وهكذا ما بقي له من العمر (كما نراه جاريا في منتديات ما يسمىٰ بـ«الحوار بين أهل الملل» علىٰ شبكة الإنترنت) فسيلزم المتكلم أن يرحب بذلك أبدا لا محالة، ما لم يبدُ الخصم سوء أدب أو عدوانا باللفظ! ولعله بعد مدة يتظاهر بأنه يريد هداية ذلك الخصم، بل وبأنه «متجرد للحق» إلىٰ حد التصريح بأنه علىٰ استعداد لأن ينتقل عن ملته لو جاءه الخصم بدليل صحيح، ثم إذا بالأمر يتحول إلىٰ مصارعة عبثية، لا هم لكل واحد من الخصمين فيها إلا أن يبرز قدراته العقلية وملكاته العلمية ويظهر مهارته في التحليل والنظر ودقة نقده وتتبعه لكلام خصمه وتفوقه في ذلك كله عليه، حتىٰ يكون انجذاب المتابعين في كل مناظرة للأظهر منهما، بصرف النظر عن بداهة الحق الواضح في أصل النزاع بين الخصمين وشناعة الباطل!

وما أكثر ما يستدل المتكلم لصحة موقفه المعلن في تلك الخصومات بقول الله تعالىٰ لمحمد ﷺ: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [سبأ: ٢٤]، فتراه يورد الآية في مقام الانتصار لموقفه الفلسفي

الجدلي الخبيث الذي يظهر المتكلم به لخصومه في كل مرة «وكأنه» مستعد لقبول الشرك والإلحاد المحض والانتقال إليه إن تمكن الخصم من الانتصار به عليه في المناظرة و«إقناعه» بأنه علىٰ باطل! يقول: أليس قد أمر الله تعالىٰ نبيه بأن يقول للمشركين: «وإنا أو إياكم»؟ فلا بد وأن هذا تقرير لأدب المناظرة في علم الجدل، وتحقيق لغاية النصفة، إذ يعلن المناظر استعداده لقبول مذهب الخصم لو ظهر له أن الحق عنده، مع أنه يعلم أن ذلك لا يقع! قلت: هذا ولا شك من تحريف الكلم عن مواضعه، لأن الله يأمر النبي عليه السلام في الشطر الأول من الآية بأن يذكرهم بأن الله هو الذي يرزقهم من السماوات والأرض، لا أن يخاصمهم في تلك الحقيقة الفطرية نفسها ويناظرهم عليها علىٰ طريقة الفلاسفة وأهل الكلام! فالمراد: «إحدىٰ هاتين الطائفتين (نحن وإياكم) علىٰ الحق المبين ومخالفتها علىٰ الضلال الواضح الجلي، والواضح لا يحتاج إلىٰ توضيح، فاتقوا الله وآمنوا إن كنتم تعقلون»! ولو كان المراد تقرير ما زعموا أن الآية تقرره من طريقتهم الجدلية في دعوة المشركين، لقال تعالىٰ: «قل تعالوا نناظركم، ونوازن أدلتنا بأدلتكم، وإنا لداخلون في دينكم إن ظهر لنا بعد المناظرة أنكم علىٰ الحق، وإلا فادخلوا أنتم في ديننا» أو نحوا من ذلك!

فالمسألة في الحقيقة من قبيل التشنيع البالغ والتبكيت لمن يزعم من هؤلاء أن لديه مستندا فيما هو عليه من الشرك، وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿**أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [**النمل**: ٦٤]، فهو من التحدي بما لا يتسع العقل السوي لتصور وقوعه، لأنه ليس يُتصور في العقل السوي [١] أن يكون مع الرب الباري خالق آخر في السماء يشترك معه في صفات الربوبية، ومن ثم يستحق أن يصرف له من أعمال العبودية ما لا يصرف إلا لله الواحد الأحد! فعندما يأتي الله عز وجل في القرآن بالتنبيه علىٰ تلك الحقيقة البدهية فليس هو في مقام طلب المخاصمة عليها بين رسوله وفلاسفة المشركين وعتاة مترفيهم وجحدتهم، أو نصب البرهان عليها نظريا حتىٰ «تترجح» عند المشرك علىٰ «براهين» شركه، أو حتىٰ علىٰ

(١) وأعني بالعقل السوي في كل مرة تقع في كلامي: القلب الخالي من الأهواء الصارفة عن قبول الحق.

«شبهاته العقلية» كما يحلو للمتكلمين أن يسموها، وإنما هو في مقام تقريع من كرهوا ترك الشرك والدخول في دين الرسول بعدما جاءهم بالحق البين الواضح! أي أن الله تعالىٰ يشهدهم أولا علىٰ ما في فطرتهم من الإقرار بأنه الخالق الرازق وحده لا شريك له، ثم يتحداهم في مقام الموعظة البالغة والتشنيع علىٰ المعرضين والمكابرين، بأن يأتوا ببرهان لاستحقاق غيره سبحانه للعبادة معه أو من دونه (علىٰ ما في تلك الدعوىٰ من مصادمة شنيعة لما في فطرة كل عاقل) وهم يعلمون أنه محال أصلا، لا أنه يدعوهم للمناظرة علىٰ ذلك، كما يصنع الخصوم في المسائل النظرية، فيورد هذا برهانه وذاك برهانه ثم يُنَقر كل واحد منهما في حجة خصمه ليسقطها عليه!

وسياق الآيات في سورة النمل بالغ في التبكيت والتقريع لمن زعم من الكفار أنه علىٰ شيء في جوابه دعوىٰ المرسلين ورده إياها عليهم، فكأنما يقول لهم سبحانه: ألا ترون كيف خلقكم باريكم وركبكم وأحسن صوركم، فبأي عقل اتخذتم إلها غيره وأشركتم به بعض خلقه في العبادة والتأليه؟ أهذا صنيع رجل عاقل؟ أأخلقكم وأرزقكم ثم أنتم تعبدون بعض خلقي من دوني؟ أأبسط لكم النعم ظاهرة وباطنة، ثم إذا بكم تدعون خلقا أمثالكم وكأنهم هم الذين خلقوا وهم الذين رزقوا؟ أويعقل أن يكون لدعوىٰ ساقطة كهذه برهان أو مستند عند صاحبها، يرد به علىٰ المرسلين ويدعوهم وأتباعهم للخصومة والمناظرة عليه، كما تجري الخصومات والمناظرات علىٰ المسائل النظرية التي قد يخفىٰ وجه الحق في أدلتها؟ أويعقل أن يعبد أحدكم مخلوقا مثله مع ربه وخالقه، ثم يقول إنني علىٰ شيء، وإن لي دليلا أو حتىٰ شبهة دليل؟ أإله مع الله؟ ما لكم كيف تحكمون؟ هذا لا يعقل أصلا ولا يمكن أن يأتي به إنسان صادق! فهذا ونحوه وعظ وإنذار شديد وصدم للقلوب الغافلة لعلها تفيق، والقلوب اللاهية لعلها تتذكر فتنفعها الذكرىٰ، لا أنه دعوىٰ لنصب البراهين النظرية والأقيسة الشمولية والاستدلالات المنطقية والمناظرة والمخاصمة الفلسفية علىٰ وجود الباري وعلىٰ بطلان الإشراك به ووجوب توحيده بالعبادة، كما يزعم المتكلمون أنه المقصود بالمحاججة في القرآن!

ونظير ذلك قوله تعالىٰ ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [**يونس**: ٣٨]، وهو أسلوب معروف في لغة العرب، فيه التسفيه والتوبيخ لمن زعم إمكان ذلك (أي إمكان الإتيان بسورة مثله)! ولا يصح أن يخاطب السامع بمثل ذلك إلا تأسيسا علىٰ أمر بدهي واضح لا يحتاج في نفسه إلىٰ برهان، وإنما يكون مكابرا مماحكا إن زعم بطلانه وخفاءه عليه! فلو كان جواز إتيان البشر بمثل ما في القرآن مما يرد احتماله علىٰ العقل السوي الصحيح، ومن ثم يحتاج إلىٰ ما يثبت امتناعه نظريا، أفكان الرب تبارك وتعالىٰ ينفي الصدق عمن زعموا أن الرسول عليه السلام قد افتراه من عند نفسه؟ أبدا!

فإنه لا يعقل أصلا أن يخرج رجل علىٰ الناس بكتاب يدعوهم فيه إلىٰ عبادة ربهم وخالقهم وحده لا شريك له، وينهاهم أشد النهي عن الغلو في البشر والملائكة والجن والأصنام وغير ذلك مما عبدوا من دونه سبحانه، ويحذرهم من يوم البعث ومما يكون لهم بعد الموت من جزاء عند باريهم إن ماتوا علىٰ الشرك به وأبوا أن يعبدوه وحده، ويكون ذلك الداعي بتلك الهداية المحضة كاذبا علىٰ خالق السماوات والأرض، أو يكون في الأرض من الكتب المنسوبة إلىٰ الرب ما هو أهدىٰ من مضمون هذا الكتاب، وهذا كما في قوله تعالىٰ ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِين**﴾ [**القصص**: ٤٩] إذ لا يعقل أن يكلف خالق السماوات والأرض شيئا من خلقه بأن يعبد بعضهم بعضا من دونه أو يرتضي منهم أن يجعلوا بعض خلقه أندادا له وشركاء ووسائط لا تصل عبادات الخلق إليه إلا من طريقهم! وهذا معنً بدهي واضح لا يحتاج إلىٰ برهان، وهو ظاهر من مجرد السماع بمضمون القرآن إجمالا ومضمون دعوة الرسول! ثم من سمع شيئا من القرآن بعدُ، زاد يقينه بأنه هو الحق من رب العالمين، يقينا فوق يقين وإيمانا فوق إيمان، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [**البقرة**: ١١٨] وقوله تعالىٰ: ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾ [**العنكبوت**: ٤٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [**المائدة**: ٥٠] ! ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يأتي الواحد منهم رسول الله ﷺ مؤمنا به من قبل أن يسمع منه القرآن، أو يؤمن بعضهم من آية أو آيتين يسمعهما، فلم يكن ذلك

لأن البرهان العقلي قد اكتمل لديهم بمقدماته وترتيبه المنطقي وكذا، ولا لأنهم استدلوا أصلا ولا نظروا ولا تكلفوا شيئا من ذلك قبل أن يصرحوا بإيمانهم، وإنما لأنهم ﷺ قد خلت قلوبهم من الأهواء المانعة التي تصدّ المشركين عن قبول الحق الواضح إذا ما بلغهم أن الرب قد بعث به رسولا! فأقبلوا علىٰ الرسول وهم راغبون فيما عنده، حريصون علىٰ الخروج من الشرك والدخول في دين التوحيد!

والقصد أن الآفة في المُعرِض عن الحجة الرسالية بعد سماعها إنما هي في قلبه وميل نفسه وليس في ذهنه أو في قدرته علىٰ الفهم أو علىٰ درك «الأدلة»، أو بعبارة أخرىٰ: المرض لديه في الميل الباطن لا في الفهم الظاهر، في التعلق القلبي الوجداني (الذي يزين له السفسطة والتنطع في الانتصار لموقفه الفاسد) لا في الدراية المعرفية الذهنية بأساس ذلك الحق الذي جاءت به الرسل! المانع في النفس لا في الذهن! ومع ذلك فالمتكلم ملتزم (التزاما منهجيا) بتجويز تلك الطريقة الجدلية الفلسفية التي لا أول لها ولا آخر، ولا ساحل لها ولا قاع، ولا واضح فيها ولا بدهي إلا ما يجعله الناظر كذلك تحكما بالهوىٰ (غالبا)، ولا يطمع رؤوس أهل الملل في أحسن منها ستارا وغطاء فضفاضا لمكابرتهم وجحودهم للحق الواضح، بدعوىٰ أنها هي المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة التي أمرنا الله تعالىٰ بها! فما أهنأهم بكم معاشر المتكلمين وما أسعدهم بتكلفكم إجابتهم لما طلبوا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وها أنت ترىٰ - أيها القارئ الكريم - كيف يبلغ ذلك المنهج الفلسفي بصاحبه المتكلم أن يُجري مبدأ «الشك المنهجي» علىٰ اعتقاده في «المسائل الكبرىٰ الأصلية»، ثم يناقض نفسه في نفس الموضع ويبرئ نفسه من الشك أو من ورود النقص علىٰ إيمانه وتصديقه! فهذا المذهب في تأويل تلك النصوص إنما ينبع علىٰ التحقيق من أصل الخلل في منهجهم المعرفي الكلي وفي مفهوم الجدل عندهم، لا من هدي رسول الله ﷺ ولا من طريقة الصحابة في الدعوة إلىٰ الله وفي مجادلة المشركين. هو من ثمرة نفيهم الفطرة من حيث هي معرفة حقيقية تقوم بها الحجة علىٰ الناس بمجرد حصول السماع من الرسل، من غير حاجة إلىٰ اكتساب أو استدلال أو نظر لإثبات محتوىٰ تلك المعرفة الفطرية نفسها، المركوزة في نفوسهم ابتداءً، وهو ذلك الموقف الذي تابعوا

عليه الفلاسفة الجدليين الذين تكلفوا مناظرتهم في تلك «المسائل الكبرىٰ» ملتزمين بشرطهم السوفسطائي في طريق حصول المعرفة بها!

ولو أنهم خاطبوهم بخطاب القرآن من أول يوم، وكشفوا لهم عن كذبهم علىٰ أنفسهم ومكابرتهم وجحودهم للحق الواضح بدعواهم الجهل بحدوث العالم وزعمهم بأن العلم بمخلوقيته ومربوبيته بجميع ما فيه وبوجود الباري جل وعلا من فوقه وبكمال صفاته واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، مفتقر إلىٰ برهان نظري يحصل به ذلك العلم في نفس الإنسان اكتسابا من بعد عدمه، لسلموا من تلك البدعة الكلية الكبرىٰ، ولسلمت الأمة من فتنة الكلام وأهله بجميع فرقهم وطوائفهم، ولكنه ابتلاء قد قضاه الله علىٰ أهل القبلة، كما قضاه علىٰ سائر الأمم من قبل، ولله الأمر من قبل ومن بعد، أن يظهر فيها من يغتر بزخارف الفلاسفة وطرائقهم المنمقة الفاتنة في التمنطق والتذرع والاستدلال والمجادلة والتشقيق في أي مسألة مهما كانت واضحة ظاهرة كالشمس أو أظهر، انتصارا لأهوائهم وما يشتهون، فتحركه نفسه طمعا في الظهور علىٰ أصحابها بمثلها حتىٰ لا يقال «سفيه» ولا يقال «ضعيف» ولا يرمىٰ بالعجز عن دركها وعن الإتيان بمثلها، أو بأنه آمن «كما آمن السفهاء» من غير «عقل» ولا «نظر» ولا «بحث» .. إلخ!

فنحن ندعو الأستاذ فودة إلىٰ أن يقرر لنفسه موقفا واضحا متناسقا (من حيث مصادر التلقي المعرفي) من تلك «المسائل الكبرىٰ»، بعيدا عن مداهنة الفلاسفة الجدليين والمفكرين و«المثقفين» ونحوهم من أهل التنطع والسفسطة، ونسأله سؤالا صريحا لا إجمال فيه: هل يرد عندك علىٰ الاعتقاد في تلك المسائل احتمال المعارض، بحيث لا ترىٰ مانعا عقليا من أن تتراجع عن موقفك فيها في يوم من الأيام إن ظهر لك الدليل علىٰ بطلان اعتقادك فيها (وإن كنتَ الآن جازما قاطعا بصحته تبعا للدليل بزعمك)، أم لا يرد ذلك عندك ولو من باب الاحتمال الضئيل؟ فإن كانت الأولىٰ فقد فارقت الملة رأسا، لأن من يجوِّز الردة عن الإسلام أو يسوغها لنفسه ولو مستقبلا (اتباعا للدليل بزعمه!) فقد انتقض أصل إسلامه، وهذا واضح! وإن كانت الثانية (وهو ما أحسب أن يكون جوابك) فقد انتقض قولك بمبدأ النظر والترجيح في تلك المسائل وبالتسوية بينها وبين جنس القضايا النظرية الصناعية، وندعوك إذن إلىٰ التوبة

من صنعة الكلام جملة وتفصيلا ولزوم السنة وهدي السلف ﷺ في تلقي خبر الغيب تأسيسا علىٰ ما غرسه الله في فطر الناس وفي نفوسهم من معرفة بدهية واضحة، لا علىٰ ميتافزيقا الفلاسفة ونظرياتهم وبراهينهم المتنطعة إثباتا ونفيا، فإن التأسيس علىٰ ذلك من كبريات البدع في دين الله تعالىٰ، وقد منَّ الله علىٰ أئمة السلف بسبيل المؤمنين في موقفهم المعروف الحاسم من تلك الصنعة السوفسطائية بإجمال يكفي كل من كان إمامه هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا، وليس أرسطو وأفلاطون وأمثالهما من رؤوس التنطع والجحود أعداء المرسلين!

يجب أن يفهم المتكلمون أن النظر العقلي (الذي هو بمعنىٰ الترجيح بين الأدلة، وكما يكون في كافة الصناعات النظرية) لا يوصَل منه إلىٰ يقين نهائي أبدا (الذي يعبر عنه رياضيا باحتمالية تساوي ١٠٠٪ أو الواحد الصحيح)، وإنما غايته أن يوصل صاحبه إلىٰ يقين مشروط. والشرط هو عدم المعارض كما بينا، فإن قُدر ظهور المعارض في يوم من الأيام (مهما كان احتمال ذلك الظهور ضعيفا لديه)، ووقف الناظر عليه تحقيقا، وجب عليه النزول عن ذلك اليقين القديم إلىٰ ما يقتضيه نظره الجديد بعد ثبوت المعارض عنده. فمن كان هذا منهجه (كما يكون لزاما عند كل ناظر مجتهد) في إثبات قول هو عنده من مواطن اليقين والثقة الثبوتية، فليس ذلك القول اليقيني لديه مما يوصف بأنه «يقين نهائي»، بمعنىٰ أنه يعقد نفسه عليه عقدا نهائيا بحيث ينوي ألا يموت إلا عليه، وأن لو عاش علىٰ الأرض أبدا ما تطرق إلىٰ ذهنه مجرد احتمال الانتقال عنه إلىٰ خلافه (وهو اليقين المشترط شرعا في إيمان المؤمن الموحد كما هو واضح)![1]

---

(١) والقرآن والسنة مشحونان بالنصوص الدالة على وجوب أن يكون الإيمان والاعتقاد واليقين نهائيا في نفس المسلم بحيث ينوي جازما ألا يموت إلا عليه مهما طال عمره، وهو من معنى التسليم الذي بينه السلف في شرحهم شروط الإيمان. قال تعالى: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٢] وقوله «لا تموتن إلا وأنتم مسلمون» أي اعقدوا العزم الصادق والجازم على أن تبقوا على الإسلام أبدا ما حييتم وألا تتحولوا عنه برأي أو ظن يوما من الدهر مهما طالت بكم أعماركم، وهذا المعنى ينقضه مبدأ الشك النظري Skepticism أو اليقين المشروط بعدم المعارض (قابلية النظر وإعادة النظر) كما هو واضح. وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ **الآية** [**البقرة**: ٢١٧] وقال جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [**آل عمران**: ١٠٢].

فمن زعم من المتكلمين أن يقينه في حدوث العالم ووجود من خلقه (مثلا) هو يقين منته لا رجعة فيه، مع زعمه في نفس الوقت أنه قد بنىٰ ذلك اليقين في نفسه علىٰ أساس من النظر في الأدلة والترجيح والموازنة وكذا، أو علىٰ شيء من تلك الأقيسة الشمولية التي يتفنن الفلاسفة والمتكلمون في اختراعها لإثبات ما لا يحتاج إلىٰ إثبات، فهو كاذب علىٰ نفسه متناقض في مصادر تلقي المعرفة لديه لا محالة. إذ كيف يجتمع في إنسان عاقل أن يعتقد في مسألة ما اعتقادا نهائيا لا يتطرق لديه احتمال الزوال عنه في يوم من الأيام مهما امتد به عمره، وهو في نفس الوقت مستعد لقبول بضاعة الفلاسفة في مخالفة تلك المسألة والنظر فيها وإعادة النظر ومراجعة موقفه منها في أي وقت، مرة بعد مرة تبعا لوارد تلك البضاعة، كما يلتزمونه هم من طريقة في النظر يقتضيها منهجهم المعرفي نفسه؟ إن عرّفنا الاعتقاد علىٰ أنه عقد النفس علىٰ مقالة ما عقدا نهائيا بحيث لا يتطرق إليه في تلك النفس احتمال الزوال، فيكون صاحبنا هذا معتقدا وغير معتقد في نفس الوقت، وهو تناقض! ولهذا انتقد السلف ﭫ المتكلمين بأنهم أذناب الفلاسفة وأقرانهم، يصبح أحدهم علىٰ اعتقاد ويمسي علىٰ خلافه، ويجعل دينه تابعا لتلك النظريات والخصومات، يتقلب معها حتىٰ لا يدري علىٰ أي ملة يموت!

يجب أن يعلم اللاهوتيون والمتكلمون أن معاركهم مع الفلاسفة لم تزد الحق الجلي الواضح إلا بعدا عن أذهان الناس، ولم تزد القلوب إلا قسوة ومرضا، ولم تزد الفلاسفة إلا عتوا وتترسا بما هم عليه، وإغراقا في المزيد منه! وحسبك أيها القارئ الكريم أن تعلم أن أهم بواعث إمام السوفسطائيين المعاصرين «ديفيد هيوم» علىٰ ابتداع سفسطته الكبرىٰ في مسألة السببية، وأظهر ملهمات نبي الطبيعيين العصريين «تشارلز داروين» في أسطورته التطورية الكبرىٰ، والدافع الأول لخليفته كاهن الإلحاد الجديد «ريتشارد دوكينز» لتأليف كتابه الموسوم «صانع الساعات الأعمىٰ»، هو بدعة اللاهوتي

والذي يزعم أنه مستعد في كل وقت لإعادة النظر في أصل إسلامه إن ظهر له ما يدعوه إلى ذلك، هذا يتناقض ولا شك إن زعم أنه ينوي – في نفس الوقت – ألا يموت إلا على الإسلام وأنه عازم على ذلك عزما قاطعا نهائيا لا رجعة فيه!

النصراني الإنكليزي «ويليام بيلي» في البرهنة الكلامية علىٰ وجود الباري، في إطار ما سماه بـ«الثيولوجيا الطبيعية» Natural Theology، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! فلو أن ذلك الرجل أحجم عن التفلسف علىٰ تلك الوتيرة الفاسدة، التي صيرت خلق الباري جل شأنه للأنواع الحية وفعله الإلهي بعموم إلىٰ وقائع «تدخّل» استثنائية بخلق مخلوقات مخصوصة، في إطار ما هو – فيما عدا ذلك – نظام طبيعي ربوبي آلي لا عمل له فيه ولا تدخل، لعوفيت البشرية من شر كثير، ولما ظهرت في العالم كثير من ملل الربوبية المعاصرة، المتدثرة بدثار النصرانية، التي أخذ قوم الآن في نقلها إلىٰ لساننا وفي التبشير بها في بلاد المسلمين، ولكن لله في خلقه شؤون!

الفلسفة يا كرام هي فن السفسطة، كانت ولم تزل وستظل كذلك إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها! فأي ثمرة يرجوها عاقل من الانخراط مع السوفسطائيين ومخاطبتهم بطريقتهم السوفسطائية إلا إفساد العقل والدين جميعا؟

حتىٰ الدعوىٰ بأن من المعارف ما هو فطري لا يماري فيه عاقل، فلن يُترك صاحبها ليمر بها دون أن يخاصموه عليها ويطالبوه بالدليل النظري القياسي لإثباتها هي نفسها! لماذا؟ لأنهم فلاسفة متخصصون! لأنهم قوم انقطعوا انقطاعا للتنطع علىٰ كل شيء، وللتفنن في ذلك ولطرح كل شيء للسؤال والنظر والقياس، بلا حدّ ولا نهاية! [1] لأنهم تخصصوا في السفسطة والسفسطة المقابلة، وتعليم الناس كيف ينتصر الواحد منهم لما يحلو له أن ينتصر له من أنواع الدعاوىٰ (مهما كانت سخيفة ساقطة بادي الرأي) بطرق

(١) ولا يقال لمن يتعلم المنطق اللغوي كما يتعلمه جميع البشر ميراثا من الوالدين وممن حولهم من المقربين، إنه مقلد! ولا يزال الناس يتوارثون المعاني وما يلازمها من أنواع الكلام (أصوات وحركات)، مع توارثهم كذلك للتلازمات البدهية بين تلك المعاني (كالعلم بأن الواحد نصف الاثنين مثلا، وبأن لكل حادث سببا، وبأن المتوازيين لا يتقاطعان، وبأننا مخلوقون كلنا، ليس منا من جاء من غير شيء أو كان هو خالق نفسه، وبأن لكل معلول علة، وبأن الأعزب غير متزوج.. إلخ)، ولا يطالب أحدهم بنصب البرهان أو الدليل النظري على صحة تلك التلازمات الموروثة! وإلا فنحن نطالب الفلاسفة المسفسطة أصحاب الشك المنهجي (المتوجه لجميع آحاد الدعاوى المعرفية عند الإنسان) والشك المطلق (المتوجه لمطلق مبدأ المعرفة نفسه والحقيقة نفسها) بأن يخرسوا ألسنتهم بالكلية، حتى يأتونا أولا ببرهان يسوغ لهم استعمال اللغة الموروثة نفسها من الأساس! ولا نجيز لهم أن يستعملوا اللغة في برهانهم وإلا وقعوا في الدور القبلي!

قياسية تحار معها أحلام المخالفين! فمن سفسط عليهم بالتنظير، قابلوه بالسفسطة بالتنظير كذلك (بصرف النظر عن قدرة العقل علىٰ تمييز الحق من الباطل في نفس الأمر)، وهكذا كانوا وكان دأبهم من يوم أن تأسست لهم مدارس وأكاديميات يُعلمون فيها تلك الطريقة الإبليسية في بلاد اليونان قبل ثلاثين قرنا أو يزيد!

فليس من كمال العقل عندنا ولا من الحكمة ما تكلفه كثير من هؤلاء أنفسهم – مثلا – في الرد علىٰ من سموهم بالسوفسطائيين، لا لأنهم أخطؤوا في مبدأ إبطال كلامهم أو حتىٰ لأنهم تناقضوا فيما جاؤوا به من أقيسة وبراهين في الرد (في الغالب)، ولكن لأن العاقل لا يحتاج إلىٰ شيء من ذلك أصلا! بل كان حسب الواحد منهم أن يحيل الناس إلىٰ مسلمات الفطرة لديهم التي يعرفونها ابتداءً من غير ما اكتساب، التي بها حكم هو (أي الناقد نفسه) علىٰ تلك الأقوال والآراء «السوفسطائية» من أول وهلة بأنها فاسدة فسادا جليا لا تخطئه العين، قبل أن يتكلف إبطالها ببناء البراهين النظرية المتنطعة ترتيبا وإنشاء! وإلا فمن أين جاء ذلك الجلاء في تقديره هو نفسه ابتداءً؟ لم يأت مما تكلفه من طريقة صناعية في إثبات تلك المسلمات نفسها وفي التنظير والتقديم لها ولطرائق حصولها في نفوس الناس، وإلا ما رمىٰ المشغبين عليها بالسوفسطائية والعبثية ومصادمة العقل!

ولهذا انتقد ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ المنطق الأرسطي نقدا شديدا، وقال مقالته المشهورة بأن المنطق «لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد»! وألزم المناطقة بالاستغناء عن تلك الحدود والقواعد المتكلفة التي زعموا أن من الناس من يحتاج إليها حتىٰ ينضبط له عقله! فإن العقلاء الأسوياء تتحصل نفوسهم من الابتداء علىٰ ما هو صحيح من المعاني والمفاهيم والعلاقات الذهنية التي يروم أصحاب تلك القواعد المتكلفة أن يقرروها ويعلموها للناس وكأن عقولهم لن تعمل أصلا من غير تعلمها! فلو كان العقل مفتقرا إلىٰ تلك القواعد حتىٰ ينضبط عمله، فمن أين جاءت تلك القواعد نفسها عند من وضعوها إن لم يكن من عمل عقولهم؟! فليس يحتاج الواحد منا – في أيما صنعة من صناعات البحث والعلم كان نظره وبحثه – إلىٰ الرجوع إلىٰ تلك القواعد

ليعرف كيف يفكر وكيف يستدل وكيف ينظر، وإنما يتعلم الباحث في أي صنعة من الصناعات المعرفية طريقتها في الاستدلال والنظر بحسبها! والمغالطة المنطقية يعرف العاقل السوي أنها مغالطة وإن لم يسبق له الاطلاع علىٰ تصنيفها وأمثلتها في كتب المناطقة، وإنما يفيد المتعلم الوقوف علىٰ أمثلة للاستدلال الفاسد في الصنعة المعينة التي يريد التخصص فيها، وهذا أمر يعرفه أهل الشأن في كل فن بحسبه، فإن هذا من أصول الصناعات العلمية التي لا يبلغ الباحث أن يعدّ من جملة الخبراء المتخصصين فيها إن لم يتقنها! ولهذا قال بعض العلماء رحمهم الله تعالىٰ: «من لم يعرف خلاف الفقهاء فلم يشمّ رائحة الفقه بأنفه»! أما من تكلف شيئا من المغالطة السوفسطائية (التي عُلم من الابتداء أنها حقيقة بأن تسمىٰ بهذا الاسم، من شدة مصادمتها للبدهيات الواضحات)، فحسبُ العاقل أن يقرر تلك الحقيقة البدهية التي ينكرها ذلك المسفسط إن أراد الرد عليه، وأن يقرعه ويشنع عليه إنكاره لها بما يليق بحاله، دون أن يتكلف إثباتها أو البرهنة عليها بنفس طريقته، وإلا فقد تناقض بمجرد ذلك، وأسقط دعوىٰ البداهة من حيث أراد الانتصار لها!

فإذا صح أن كانت بعض تلك البدهيات الجِبلية غير المكتسبة تتخلف في نفوس بعض الناس وتحتاج إلىٰ من يذكرهم بها، فليس ذلك لأن «أدلتها» قد اختلطت في وعيهم وأصبح الأمر محوجا لإتحافهم بأدلة نظرية وبراهين عقلية جديدة تثبتها هي نفسها عندهم! وإنما سبب ذلك ما تراكم في نفوسهم من أهواء وميول قد زاغت بها قلوبهم عن الحق الواضح وتعلقت بأذيال الباطل وصغت إليه. فالداء والعلة عند هؤلاء أن قلوبهم مالت بهم لباطل جلي قد تزين وتزخرف في أعينهم حتىٰ صار يشتهي الواحد منهم أن يوهم نفسه بأنه حق وأنه به علىٰ شيء! فإذا بالواحد منهم تتعاظم عنده تلك الزبالة السوفسطائية، (مع أن حقها أن توضع تحت الأقدام علىٰ التحقيق) وإذا بالداعية المفتون يكره في باطن نفسه ويخاف من أن يتهم بالسفاهة وخفة العقل ووهاء الرأي إن وقف أمام الواحد من هؤلاء الدجاجلة المسفسطين وليس معه إلا أن يعظهم ويخوفهم من عاقبة ما هم عليه من كذب واضح علىٰ أنفسهم وعلىٰ الناس إذ يزعمون

أنهم علىٰ شيء! كيف يدخل إلىٰ أروقة السادة الفلاسفة كبار النظار المتفننين في كل قياس ورأي (تبعا لطمعه في العلو عليهم في تلك الأروقة نفسها، وبتلك البضاعة نفسها التي يتنافسون فيها)، من غير أن يكون معه من مثل ما معهم مما يسقطون اسم العقل عمن لم يأت به؟

من هنا تصبح الحاجة عند ذلك المفتون ملحة لأن يتحصل علىٰ شيء من مثل ذلك في إثبات ما يريد (أعني ما يسمونه إجمالا بالبرهان أو الدليل العقلي)، لا لبيان بطلان قول المسفسط العابث الذي يخالفه، إذ هو في نفسه قول لا يحوِج العقلاء إلىٰ إبطاله أصلا (ولا يوصف بأنه «سفسطة» من الابتداء – كما بينا – إلا إن كان كذلك علىٰ أي حال [١])، وإنما ليظهر للناس أنه ليس أدنىٰ نظرا ولا أضعف عقلا من ذلك الفيلسوف المستكبر الذي تكلف في إثبات رأيه الفاسد من ألوان البراهين المنمقة والأقيسة المتعمقة ما تحار فيه عقول الأكثرين!

يقول الأستاذ فودة هداه الله معقبا علىٰ ذلك السؤال الذي ضرب به المثل: «وقد نسي هذا السائل، مسألة البحث، مش ما زالوا يبحثون في أن أي دين من هذه الأديان هو الصحيح، لا، الناس جملة ما زالوا يبحثون في وجود الله! إنه هل الإله موجود أم لا! مش فقط ما زالوا يبحثون في الإسلام أصح أم اليهودية أم كذا! والناس لم ينقطعوا عن البحث فقط في أن أهل السنة هم الحق وغيرهم باطل، هم ما زالوا يبحثون. البحث لم يزل ولا يزال موجودا في هذه المسائل، إلىٰ يوم الدين. ترىٰ كيف المسألة؟ لكن هذا لا ينافي أن يستطيع إنسان، مش واحد، أن يستطيع كثير من الناس، بمعايير معينة، إذا أحسن التصرف فيها واستعمالها، إنه فعلا يرجح بين هذا الدين وهذا الدين وهذا الدين، من جهات كلية.» اهـ.

قلت: فعلىٰ هذا الكلام، تكون المسألة في «الترجيح بين هذا الدين وهذا الدين»، مسألة نسبية في النهاية! فإذا كان بعض الناس (أو علىٰ حسبه: كثير من الناس) تستطيع

(١) وعندي أن السفسطة يدخل تحتها تكلف إثبات ما لا يحتاج العقلاء إلى إثباته، وليس فقط تكلف إثبات ما يعلم العقلاء بطلانه بداهة، أو نفي ما يعلم العقلاء صحته بداهة! فكل من تنطع على البدهيات فهو مسفسط، في أيما جهة كان تنطعه، ولأيما غاية كان عمله!

بمعايير معينة (علىٰ حد عبارته)، إذا أحسنت التصرف فيها واستعمالها، أن ترجح من جهات كلية، فالسؤال الذي ينقدح في الذهن الآن هو «ما بال من لم يحسن التصرف فيها واستعمالها مع كونه حريصا علىٰ معرفة الحق (بزعمه)»؟ ما بال من لم يدرك تلك الجهات الكلية بعدما بذل الوسع في تأملها؟ هذا ما موقفك منه؟ بلغته دعوىٰ الإسلام وسمع القرآن وتعرض لما بمثله آمن الناس، ثم هو بعد لا يزال يقول إن الأمر ليس هينا عليه، وإنه لم يتمكن من ترجيح الإسلام باستعمال تلك المعايير، فهل تجد لمثل هذا عذرا عندك؟

علىٰ مذهبك في نسبية الضرورات والبدهيات وما ننسبه إلىٰ الفطرة، يصبح لزاما عليك أن تعذره إن مات علىٰ الشرك، بل وأن تعذر كل من زعم من أمة الدعوة أنه لم يظهر له أن الحق في الإسلام بعدما سمع الحجة الرسالية بلسانه ولغته التي يفهمها، بل وبعدما قرأ القرآن وبحث فيه! رجل بحث وفكر ودرس وتأمل وقرأ ما قرأ، ومع ذلك لم يترجح لديه أن الإسلام هو الدين الحق! هذا علىٰ مذهبك الكلامي الجدلي وعلىٰ مصادر التلقي المعرفي لديك: يجب عليك (ديونطولوجيًّا Deontologically) أن تعذره بالشبهة، بل ويلزمك أن ترىٰ له العذر في الآخرة إن مات علىٰ الشرك بعدما سمع ما بمثله حاجج الرسول ﷺ والصحابة من بعده المكذبين والمعرضين والجاحدين في زمانهم، إذ ما زادوا علىٰ أن عرضوا دعوة التوحيد عليهم فإن قبلوها سلموا بدمائهم وأعراضهم وإن أبوا وأصروا فالجزية أو القتال!

ومن باب أولىٰ، وبالتبعية، يلزمك أن تعذر كل من زعم أنه لم يزل إلىٰ الآن يبحث ويقرأ بجد واهتمام ويفرغ الوسع والطاقة في ذلك، ويقارن ويتأمل ويدرس وكذا، وأنه لم تزل أمامه عشرات بل مئات الأديان التي لم يدرسها بعد، لعل الحق يكون في بعضها وهو لا يدري! [1] فظاهر الكلام ومحصوله عند المتأمل، أن بعض الناس عندهم من

(١) ولهذا ترى كثيرا من طوائف الجهمية يعذرون الواقفة (المتوقفين في مسألة خلق القرآن)، لأن الأمر لما كثر عليه الجدال والمخاصمة بينهم، حتى صار لكل طائفة منهم تراثها الضخم من البراهين والحدود والنظريات وكذا، وأصبح الترجيح بين مذاهبهم البدعية صعبا عسيرا للغاية، وإذن فقد لزمهم إعذار المتوقف الذي يقول: لا أدري القرآن مخلوق أم لا! وأما السلف فلم يتوقفوا في تكفير القائلين بخلق

الذكاء وقوة النظر ما جعلهم يرجحون الإسلام في نصف ساعة (بحسبه)، بينما عجز آخرون عن ذلك، فاستطال الأمر معهم سنين عددا، إذ الأمر في النهاية مداره علىٰ ملكة النظر والقدرة علىٰ «استعمال المعايير المعينة» التي يتفاوت فيها الناس معدنا وخلقة! وليس الأمر قاصرا علىٰ ذلك، بل حتىٰ العلم بوجود الباري نفسه مفتوح لنفس التفاوت بين الناس في القدرة علىٰ النظر والترجيح! فمن الناس من يرجح في وقت يسير، ومنهم من لا يظهر له ذلك الأمر ولو بعد عشرات من الأدلة!

فإذا كان ذلك كذلك، فبأي معيار يحكم صاحبنا المتكلم علىٰ بعض من تخلفوا عن الدخول في ملة الإسلام بعدما بلغتهم الحجة الرسالية، بأن منهم المكابر صاحب الهوىٰ، في مقابل المجتهد الصادق في طلب الحق المعذور في تخلفه وتأخره وزعمه التوقف أو التعلق بالمعارض؟ إن قال: ببيان جحده لمقدمات البراهين العقلية الظاهرة وإبائه التسليم بمقتضاها، قلنا له: فجحده لما تكلف الاستدلال لإثباته (كوجود الباري أو صحة دعوىٰ التوحيد التي علم بمبعث الرسول بها)، أظهر وأشد جلاء لجميع العقلاء من جحده تلك المقدمات الكلية المتكلفة! وعلىٰ التسليم تنزلا بأنه ليس أظهر ولا أجلىٰ، فلماذا لم تشهد عليه بجحد البدهيات من أول وهلة، ولم ترمه بذلك إلا بعدما تكلف النظر لإثبات مسائل تزعم أنها عندك أنت من الضروريات البدهيات؟! أليست البداهة عندك أمرا نسبيا علىٰ أي حال؟ فما كان جوابك عن هذه فهو جوابنا عن تلك!

إما أن المسألة واضحة جلية من أول وهلة، وإذن فكل من تلكأ وتباطأ وأعرض عنها بعدما سمع ما جاء به الرسول فهو من أهل الأهواء بالضرورة (وهذا ما يقطع به في حقهم كل من فهم خطاب القرآن حق الفهم)، ومن ثم يُشرع في حقه ما جاء من أحكام

القرآن، ولم يترددوا في إلحاق الواقفة بهم، ولم يترددوا في تقرير أن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأن الأمر جلي ظاهر، وبطلان القول بخلق القرآن ومصادمته لضروريات الملة ولكثير من محكمات الكتاب والسنة لا يماري فيه عاقل! ولكن الجهمية على أي حال كالفلاسفة، لا يختارون تكفير المخالف أو إعذاره إلا بالهوى الطائفي المحض، وما ذاك إلا لأنهم لا يختارون إطلاق اسم «الضرورة» على هذه الدعوى أو تلك إلا بالهوى المحض، جريا على آخر ما انتهت بهم إليه نظرياتهم وبراهينهم ومخاصماتهم من خيارات ومواقف وآراء واعتقادات، والله المستعان!

الكفار المعاندين المصرين علىٰ كفرهم جحودا أو إعراضا، ولا يشرع إعذاره بدعواه أن الحق لم يظهر له أو أن نظره وبحثه أفضىٰ به إلىٰ ترجيح الشرك علىٰ التوحيد، وإما أن المسألة فيها خفاء ويرد عليها الواردات وتتجاذبها الأدلة، وإذن فمن دخل في الإسلام من أول وهلة فما ذاك إلا لقوة ذهنه وحِدة نظره ومهارته في الترجيح والموازنة، إذ ظهر له ما لم يظهر لغيره، وأما من تخلف فمعذور مهما تأخر، ولا يقاتَل أحد منهم ولا يتهم أصلا لأن الأمر فيه ما فيه، ولا تزال الناس تبحث وتقارن فيه وفيما هو أعظم منه من أصول الملل، بحثا طويلا عميقا ماضيا إلىٰ قيام الساعة، فلا ملام ولا مؤاخذة لمن زعم أنه لم يقتنع بحجة القرآن!

هذان، أيها القارئ الكريم، موقفان كليان لا يجتمعان لدىٰ عاقل صادق! ولكن واقع الأمر أن المتكلمين تكلفوا الجمع بينهما علىٰ ما يترتب بالاقتضاء الصريح علىٰ القول بمصادر تلقي المعرفة في تلك «المسائل الكبرىٰ» في كل منهما من التناقض: منهج الأنبياء والمرسلين وأتباعهم في حصول المعرفة وقيام الحجة، ومنهج الفلاسفة الجدليين وأتباعهم!

ولنا هنا أن نتساءل، كيف يصنع الأستاذ بقوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٦] ؟ فالله عز وجل لم يقل فأجره حتىٰ تناظره وتجيب عن جميع شبهاته واعتراضاته مهما طال به النظر فيها، وإنما كلفه بالإسماع وحسب، فإذا ما سمع المشرك كلام الله، أبلغه بعد ذلك مأمنه، وشهد جل وعلا بأن العلم الموجب للعمل يحصل للنفس السوية بمجرد الإسماع، وهو قوله تعالىٰ «ذلك بأنهم قوم لا يعلمون»! فهل كلف النبيَّ بمجادلتهم ومخاصمتهم علىٰ شرطهم في ذلك (أي علىٰ طريقة الفلاسفة والمتكلمين)، بناء علىٰ دعواهم خفاء الحق عليهم بعدما سمعوا ما عنده؟ الجواب واضح إلا عند متكلم مكابر!

يواصل الأستاذ فودة فيقول: «أحكي لك مثال، تمام؟ بناء علىٰ ماذا أنت تثبت وجود الله؟ بناء علىٰ أنه جاءك نبي وقال لك الإله موجود؟ لا. أنت تعرف وجود الله، شوف كيف المسألة، تعرف أن الإله موجود، فيأتي نبي ويقول لك أنا نبي من عند هذا الإله.

واضحة كيف؟ فمعرفتك – يقاطعه أحد الحضور بقوله: «يقول جئت لك بشريعة»، فيواصل: – أيوة، جئت لك بشريعة، النبي، النبي أو الرسول، لا يأتي ليقول لك أنا نبي لأعلمك أن الإله موجود، لا، بل ليعلمك، مش فقط، طبعا النبي يقول إن الإله موجود، لكن هو يقول لك بلحاظ أني نبي أنا جئت أقول لك إنني رسول من عند الله لأبلغك أشياء أنت غفلت عنها. وأنبهك وأدلك علىٰ أشياء أنت تجهلها. لاحظ كيف الرسول يأتي ويقول. فلو فرضنا أنك تريد أن تقارن بين هذه الأديان من جهة إيمانهم بالله، العقل هو الذي يدلك علىٰ الإله. واضحة كيف النقطة؟ العقل هو الذي يدلك علىٰ وجود أو وجوب وجود الإله.» اهـ.

قلت: هذا السؤال هو مربط الفرس ها هنا أيها القارئ الكريم، فانتبه: «بناء علىٰ ماذا أنت تثبت وجود إله؟» ففي الوقت الذي يشهد فيه المتكلم بأن النبي لا يأتي ليعلِم الناس بوجود الإله، وبأن هذا أمر هم يعلمونه من قبل السمع والشرع، تجده يتفلسف في طريق حصول تلك المعرفة في نفوسهم فيزعم أن النظر العقلي والاستدلال القياسي الكلي هو الذي أوصلهم جميعا إليها من قبل السمع، بصورة ما أو بأخرىٰ، كل واحد منهم بحسبه! وهذا مما لا يسعه ادعاء معرفته – كما ذكرنا من قبل – في حق جميع من جاءهم خطاب الشرع (أعني الزعم بأنهم جميعا لا بد وأن سبق منهم النظر في المسألة من قبل السمع!)، ومع ذلك فهو يدري أنه مضطر لتقرير أن الأنبياء لم يأتوا بتلك البراهين الكلامية ولا بنحوها في إثبات وجود الإله من الأساس! فكيف ولماذا كان ذلك منهم عليهم صلاة ربي وسلامه؟ لماذا لم يعلموا الناس براهين وجود الباري أولا قبل أن يخاطبوهم بالرسالة والتكليف، مع أن تلك البراهين ينبغي أن تكون هي أساس ومنطلق قبول الرسالة أو ردها (كما يشترطه الفيلسوف بموجب منهجه الجدلي)، إذا كانت عقول البشر تتفاوت في درك البدهيات والضروريات (علىٰ مذهبكم)؟

بدلا من أن يشهد المتكلم بما هو واضح من كون السبب في ذلك أن الإنسان مستغن بفطرته وجبلته عن تطلب تلك المعرفة واكتسابها لأنها حاصلة في نفسه من الأصل، ولا يصح له عقله إلا بها، تراه يذهب إلىٰ القول بأنهم لا بد وأنهم جميعا قد

استدلوا بالنظر قبل السمع بصورة ما أو بأخرىٰ، فلم يحتاجوا إلىٰ سماع شيء في ذلك (وهو مفهوم دلالة العقل عنده تبعا للفلاسفة)! وهذا تخرص علىٰ عامة البشر، لا يجد المتكلم لنفسه مخرجا من لوازم اتصاف العوام من أهل الملة بقصور العقل عن درك براهين المتكلمين ومساجلاتهم مع الفلاسفة في تلك المسائل، إلا بمثله! والملفت أنك تجد من المتكلمين من يقرر نحوا من ذلك المعنىٰ، ثم هو في موضع آخر يزعم أن القرآن فيه أدلة نظرية علىٰ حدوث العالم، وأدلة نظرية علىٰ وجود الصانع ووحدانيته واستحقاقه العبادة وحده، بحيث يكون لزاما علىٰ المشرك المخاطب بالقرآن أن يقلب نظره في تلك الأدلة أولا، ويبحث في ترتب نتائجها علىٰ مقدماتها ترتبا منطقيا، ويوازن ويرجح، ثم ينتقل منها إلىٰ ما بعدها في ترتيب النظر! وهذا تناقض في مفهوم الدليل العقلي في القرآن، ناشئ عن تناقضهم في مفهوم الدليل العقلي نفسه في تلك القضايا.

فما أكثر ما ترىٰ المتكلم يتنطع علىٰ النص القرآني بادعاء حصول ذلك الترتيب البرهاني الفلسفي المطلوب (أي عند المناظرة) في كل موضع يذكِّر الرب تبارك وتعالىٰ فيه المشركين بأنه هو خالقهم وحده ورازقهم وحده وأنه لا يعقل لأحدهم أن يعبد غيره معه! وقد ضربنا المثل علىٰ ذلك في هذا الكتاب في كلام بعضهم، وبينا ما يقتضيه ذلك المسلك البدعي من انتقاص حجة الرسل إذ خلت مما يندفع به اعتراض الفلاسفة المسفسطين علىٰ تلك النصوص نفسها، ولم تأت بما يكفي «برهانيا» و «منطقيا» لحصول المطلوب من المناظرة علىٰ شرطهم المعرفي الفاسد! فلو صح ما يزعمه هؤلاء (أي وجود ما يشترطه الفيلسوف عند المخاصمة في نص القرآن)، للزم أن ترىٰ القرآن كتابا في علم الكلام، مشحونا بالبراهين النظرية علىٰ وجود الباري وعلىٰ وحدانيته، وبالأجوبة عن دعاوىٰ الخصم، تلك البراهين والأجوبة التي لا يبقىٰ معها للفيلسوف المعترض أي مدخل للتكذيب والاعتراض [1]، ومن ثم تصلح أن تكون

(١) وهذا تنزل لبيان المقصود، وإلا فما كان الفيلسوف المخاصم لينقطع أبدا ولا ليكف عن الاعتراض، فمهما جئته ببرهان نقضه عليك، فإن لم ينقضه أثار عليك غيره من براهينه واعتراضاته على غيره من براهينك، وهكذا أبد الدهر، ما دام يكره الدخول فيما عندك من الحق! فمن أين قررت أنا هذا المعنى بهذا العموم في شأن الفلاسفة؟ مما بينته لك أيها القارئ الكريم في هذا الكتاب من منهج الفلاسفة في أصول المعرفة، الذي لا يعد الرجل فيلسوفا من جملة الفلاسفة إلا به، ومن طريقتهم في السفسطة على كل

أساسا «عقليا» لقبول دعوة الرسول كما هو شرطه في الإثبات! ولكن من الواضح أنه ليس في القرآن شيء من ذلك، وأن الله لم يبعث رسله بالكلام وبراهين الكلام، على الترتيب والصورة التي يتعاطاها ويتنازعها الفلاسفة فيما بينهم! فما المخرج من تلك الورطة إذن، عند قوم قد اضطرتهم المخاصمة مع هؤلاء الجحدة المستكبرين إلى جعل نوع البراهين الفلسفية أصل أصول الدين وأساس المعرفة التي لا يقوم الإيمان في النفس إلا عليها؟

ترى المتكلم (لا سيما من الأشاعرة) يلتمس التعلق بدعوى أن الاستدلال (بالترجيح النظري) لا بد أنه وقع لكافة المخاطبين لا محالة من قبل سماع النص نفسه، ولعلك تراه يورد أثر الأعرابي المشهور وكأن جميع الأعراب لا بد وأنهم قد وقع لهم مثله (أي الاستدلال بالأثر على المؤثر)، فيدعي أنه ونحوه كان طريقهم لاكتساب المعرفة النظرية بأنهم مخلوقون وبأن خالقهم ورازقهم واحد لا شريك له! وإلا فلو صح أن كان إيمان الصحابة أنفسهم (وهم أعظم المسلمين إيمانا) غير مبني على استدلال سابق في تلك المسائل قط (ولو بمثل «برهان البعر والبعير» عند الأعرابي!![1])، للزم - على مذهبهم - أن يكون إيمان السلف إيمان قوم سفهاء

دعوى لا تعجبهم ولا تأتي على الهوى والمزاج، وإن كانت هي أظهر البدهيات وأوضح الواضحات على الإطلاق! فليست البداهة عند الفيلسوف إلا ما يحب أن يعده كذلك، وليست الضرورة العقلية عنده إلا ما يحلو له (لأغراضه فيما تكلف خوضه من الجدل والخصومة) أن يجعله كذلك، وليست السفسطة عنده (في المقابل) إلا ما يكره الإقرار به لأي سبب كان! وسيأتي معك في هذا الكتاب - بحول الله وقوته - من ضرب المثل على ذلك المعنى ما يتم به المقصود من التصنيف، والله الموفق المستعان!

(١) وليس هو «برهانا نظريا» ولا استدلالا عقليا على شرط الفلاسفة كما بينا في غير هذا الموضع (أي تحصيل المعرفة بوجود الباري من بعد عدمها بالقياس!)، وإنما هو من الشهادة لله بآياته وآلائه ومن التدبر فيها، الذي يزيد العاقل يقينا فوق يقينه الجازم، وفيه - ولا شك - التشنيع على كل سفيه يجحد خالقه وباريه (كما يشعرك به الاستفهام الاستنكاري: «ألا يدل ...؟»)، وليس هو من تكلف البرهان النظري لإثبات صحة الدعوى للنفس أو للغير ابتداءً! وأما المتكلمون فيلزمهم أن يعدوا هذا ونظيره في كلام العرب دليلا وبرهانا عقليا (على شرط الفيلسوف في كل من العقل والمعرفة)، حتى يخرجوا من دعوى الفلاسفة أن إيمان أتباع المرسلين (وعلى رأسهم كافة الصحابة والتابعين) كان قائما على تقليد وجهل وخفة عقل، إذ لم يتكلفوا أنواع البراهين الفلسفية المنطقية اللائقة بجدال الفلاسفة وصناعتهم، ولم يعرفوها أصلا، فتأمل!

مقلدين، يفضله إيمان المتفلسفة والمتكلمين، لقيامه علىٰ أدلة العقل والعلم المتين، وهذا تكذيب لقول الله تعالىٰ: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ [**الحجرات**: ٧] وقوله ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [**النساء**: ١١٥] وقوله: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [**التوبة**: ٢٠] وغير ذلك مما في الكتاب وما في السنة من تزكية صريحة لإيمان الصحابة ﷺ، وبيان أن جميع من يأتي بعدهم مطالب باتباع سبيلهم! فتأمل حجم المأزق الذي يعاني منه المتكلمون في تلك القضية، وكيف يتناقضون في محاولة الخروج منه، وتأمل عظم ما ترتب عليها عندهم من أنواع الباطل، وقل الحمد لله علىٰ نعمة السنة وعلىٰ سلامة القلب من أهواء الفلاسفة!

لكن أين دليلهم علىٰ أن من الصحابة (ولو واحدا فقط) من قد استدل بالنظر علىٰ حدوث العالم ووجود الباري قبل أن يدخل في الإسلام؟ دونهم إلىٰ ذلك خرط القتاد! بل إن الكتاب والسنة مستفيضان علىٰ أن مشركي جزيرة العرب كانوا علىٰ تحريف وثني لدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام! فلا يولد أحدهم إلا أنشأه والداه علىٰ اعتقاد أن في السماء ربا هو الخالق والرازق الذي بيده مقاليد كل شيء، ثم هم – مع ذلك – يعلمانه إذا دعا أن يدعو غيره من دونه! فإن زعم المتكلمون أن طريق العرب الأوائل في تأسيس ذلك الاعتقاد في ربوبية الله تعالىٰ عند أولادهم كان هو النظر البرهاني الفلسفي، فليتحفونا بالدليل الصريح (غير المؤول) إن كانوا صادقين!

وبعد أن يضرب الأستاذ فودة مثلا علىٰ ما عند النصارىٰ من تناقض في عقيدة الثالوث وما عندهم من ظلم (يعني في عقيدة الخطيئة الأصلية) ونحو ذلك، يقول في نفس اللقاء:

> يوجد فرق كبير [يعني بين الإسلام والنصرانية]، بدك تزعل إزعل بدك ترضىٰ إرض، ما [غير واضح]، لكن أن تسوي لي بين الواحد والثلاثة هذا مستحيل. مستحيل! عقلي لا يقبله. عقلك قبله، إنت حر! أما أنا فلا يقبله عقلي. فهذا معيار من المعايير

> الواضحة، الذي يستطيع أن يبادر إليه ويتناوله عامة الناس، حتىٰ العامي يعني إذا تخلص من قرابته ومحبته ودعمه محسوبياته إلىٰ آخره، لاحظ كيف المسألة، جئت واحد مسيحي، وحكيت له، بالله عليك، بالله عليك، الإله واحد والا ثلاثة، قال لي واحد، طيب شو اللي بتحكوه أنتو؟ والله ما باعرف، هذا الإله هيك هو ولازم نؤمن به، ويعتبرون كونه مستحيل التصور أحد أدلة كونه صحيحا. شوف كيف المسألة؟ يعني المسيحيين يقولون أحد أدلة كونه صحيحا أنه مستحيل التصور! أحد أدلة كونه صحيحا أنه مستحيل التصور ومستحيل البرهان عليه؟ كتير هذا الكلام! كلام خطأ. لا يوجد أي فيلسوف يحترم نفسه، يقرر هذا الكلام! لا يوجد! أبدا، ولن يوجد! إلا إذا واحد بده يغالط، زي هيغل، وزي فلان وزي فلان إلىٰ آخره! (غير واضح) نضرب أمثلة تفصيلية.

قلت: أولا: لا يقال لمن زعم أن عقله يقبل أن يجعل الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا: أنت حر! ولكن علىٰ مذهب المتكلمين، يلزمهم أن يقولوها له بل وألا ينكروها عليه، لأن الضروريات عندهم نسبية، والاستدلال لها محل نظر واجتهاد، فمن كان لا يرىٰ أن التسوية بين الواحد والثلاثة باطلة بالضرورة، فلا حجة للمتكلم عليه، إلا أن يأتيه ببرهان عقلي فلسفي متكلف يثبت له به أن الواحد لا يعقل أن يكون مساويا للثلاثة! فإن اعترض النصراني علىٰ مقدمات ذلك البرهان، لزم المتكلم أن يأتيه بما يثبتها له هي نفسها، وهكذا حتىٰ يصل معه في المخاصمة إلىٰ إحدىٰ خصلتين لا ثالث لهما: إما أن ينتهي معه إلىٰ ما يعتبره – أي الخصم النصراني – من البدهيات الضرورية، وإذن يلزمه بقبولها لشهادته علىٰ نفسه في المناظرة نفسها أو في غيرها بأن هذا عنده من الضروريات، وإما أن يمل ويتعب من طول المحاورة، فيقفز إلىٰ الزعم بأن الخصم يماري في الواضحات ويجحد الضروريات إذ لم يقبل منه أداء برهانه المتكلف للمطلوب، ومن ثم يقطع المناظرة علىٰ ما هو متقرر في علم الجدل! مع أنه يلزمه علىٰ التحقيق أن يقول له كما قال الأستاذ ها هنا: أنت حر! إن كان عقلك يقبلها فعندي أنها باطلة بالضرورة والبداهة، ولا تثريب علي إن بقيت علىٰ ما أنا عليه، ولا عليك إن أداك نظرك إلىٰ البقاء علىٰ ما أنت عليه!

ولكنهم لا يجرؤون علىٰ قبول هذا المعنىٰ (الذي هو مقتضىٰ منهج الفلاسفة في الجدل) لأنه مصادم لصريح القرآن! لذا ترىٰ الأستاذ يعقب بعد هذا الكلام مباشرة بقوله: «فهذا معيار من المعايير الواضحة، الذي يستطيع أن يبادر إليه ويتناوله عامة الناس، حتىٰ العامي يعني إذا تخلص من قرابته ومحبته ودعمه محسوبياته إلىٰ آخره» قلت: فعلىٰ هذا الكلام، يكون بطلان قولهم «ثلاثة» واضحا بالضرورة لجميع البشر ولعامة الناس، فمن خالف فيه استحق الذمّ بالضرورة، ولكن من يقول بهذا، كيف يجتمع له أن ينفي المعرفة الفطرية ومن ثم يقول بأن الضروريات نسبية بإطلاق، وأن ما هو ضرورة عند إنسان ما، لا يلزم أن يكون ضرورة عند غيره؟ هذا تناقض منهجي واضح!

ثم قولك «لا يوجد فيلسوف يحترم نفسه يقرر هذا الكلام»، قلت: فهل الفيلسوف أو اللاهوتي الذي يزعم أن الثالوث له دليل عقلي عنده وبرهان يسوغه، وكذلك عقيدة الخطيئة الأولىٰ والفداء وموت الإله وغير ذلك، هذا يحترم نفسه عندك؟ أنت لا تحترم فيلسوفا في زماننا هذا كاحترامك للفيلسوف النصراني الأمريكي وليام لين كريغ، فهل تجرؤ إن لقيته علىٰ أن تقول له في وجهه: «أنت لا تحترم نفسك، إذ تؤمن بأن عدم معقولية الثالوث دليل علىٰ صحته»؟ أبدا! بل يجب أن تحترمه أبلغ الاحترام مهما قال، لأن هذا هو معيار الفلاسفة في معاملة بعضهم البعض!

وإلا فالفيلسوف المشرك المكذب بالتوحيد المعرض عن قبول الحق الذي جاءت به الرسل، لا يحترم نفسه ولا يحترم عقله تحقيقا، ولو احترم نفسه لأشفق عليها ولرحمها بالدخول في دين الإسلام وبإخضاع النفس لاتباع الرسول، ولما حطّ من قدر ربه وباريه بما أصر عليه من الشرك والإلحاد! ولكن الفلاسفة أهل كبر وعلو وغرور، وهم باقون علىٰ ما هم عليه، لا ترجىٰ لأحدهم الهداية مهما عمِّر من فرط غرقه في أهواء نفسه وتشبعه بها! فالفيلسوف المتبوع علىٰ شركه وإلحاده هو أكثر الناس عملا علىٰ إهلاك نفسه وإغراقها في المهانة والخذلان تحقيقا، وهو مع ذلك يرىٰ نفسه أكمل الناس عقلا وأحظاهم بالحكمة وحسن النظر، نسأل الله السلامة! قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣] وقال سبحانه: **﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾** [فاطر: ٨]

والطريف أنه يضرب مثلا لفيلسوف يزعم أنه يغالط بنظير ذاك المعنىٰ الذي ذكر أن بعض النصارىٰ يتعلقون به في إثبات عقائدهم (أن الدعوىٰ تكون صحيحة وإن كان العقل لا يتصورها)، ولا أدري أين وقف علىٰ ذلك المعنىٰ عند هيغل، لعله يقصد ظواهريته Phenomenology واعتقاده أن المعارف بشأن الواقع بعموم إنما مدارها علىٰ التجربة الفردية في الإدراك والنظر؟ هذا غير واضح، والسؤال الذي يعنينا علىٰ أي حال: هل عموم الفلاسفة لا يحترمون «هيغل»؟ أو للدقة: هل «هيغل» عندهم لا يحترم نفسه؟ ما من فيلسوف جاء بسفسطة أو وهم أو خرافة إلا واحترمه غيره من أقرانه وعاملوه معاملة الباحث المجتهد والناظر المكين، فإن وافقهم صوبوه، وإن خالفهم خطؤوه، مع حفظ احترامه ومكانته ولا تثريب ولا حرج! ففي أي شيء أنت يا أستاذ فودة؟

هذه أيها القارئ الكريم، محاولة باهتة للجمع بين متناقضين: النسبة إلىٰ الفلاسفة وطريقتهم في النظر في «المسائل الكبرىٰ» من جانب، والنسبة إلىٰ الصحابة وأتباع المرسلين الذين ما كانوا يقيمون وزنا ولا احتراما للمسفسطين المنازعين في تلك البدهيات من الجانب الآخر! وهكذا كل متكلم، يظل ما بقي حيا كالمعلق بين السماء والأرض، لأنه يشتهي أن يحظىٰ بما عند الفلاسفة وبما عند علماء السنة معا (أي من المنزلة والدرجة والاحترام بين قطاعات عريضة من عامة الناس)، فيعامله الله بنقيض قصده من كل وجه، فلا يقبل بضاعته كبار الفلاسفة الأكاديميين وعتاتهم، ولا يقبلها علماء السنة المنضبطون علىٰ منهج السلف ﷺ، والحمد لله أولا وآخرا!

فصل: سبب اضطراب المتكلمين في مسألة إيمان المقلد

ولمزيد من التحقيق في مسألة نفي المعرفة الفطرية البدهية بوجود الباري عند المتكلمين، وما ترتب عليها عندهم من تناقضات واضطرابات في مصادر تلقي المعرفة بالغيبيات والإلهيات، ومن لوازم كانوا ولا يزالون يفرون منها بتكلف وتناقض، ففيما يلي أنقل جوابا للسبكي رحمه الله في مجموع فتاواه في تهمة الاضطراب التي وجهت إلىٰ إمام الأشاعرة المتقدمين الجويني رحمه الله في حكم إيمان المقلد، ننقله بتمامه ثم نعقب عليه بما يفتح الله به، والله الموفق المعين:

السؤال: ما تقول السادة العلماء في قول إمام الحرمين: إن إيمان المقلد لا يجوز وما الذي ذهب إليه الشافعي في ذلك، وهل ما قاله إمام الحرمين موافق عليه أو لا، وإذا كان كما ذكر فما حيلة العامي الذي لا يعرف الأدلة في صحة إيمانه، وما هو القول المحرر في ذلك؟ أفتونا مأجورين.

الجواب: الحمد لله لم يقل إمام الحرمين هذا ولا قاله بهذا الإطلاق أحد من أهل السنة، والسائل معذور في غلطه، فإن لفظ التقليد مشترك والعلماء قد أطلقوا كلمات ربما توهم كثير من الناس منها ذلك، وأنا أثبتها لك إن شاء الله تعالىٰ بعد بيان قاعدتين:

إحداهما: أن لفظ التقليد يطلق بمعنيين: أحدهما: قبول قول الغير بغير حجة وربما قيل العمل بقول الغير بغير حجة، والمعنىٰ الثاني للتقليد: أنه الاعتقاد الجازم لا لموجب، وربما قيل الاعتقاد الجازم المطابق لا لموجب. فإن عرفت معنىٰ التقليد فهو بالمعنىٰ الأول قد يكون ظنا وقد يكون وهما كما يرىٰ في تقليد إمام في فرع من الفروع مع تجويز أن يكون الحق في خلافه ولا شك أن هذا لا يكفي في الإيمان، وإذا وجد في كلام أحد من الأئمة أن التقليد لا يكفي في أصول الدين فالمراد منه هذا. وأما بالمعنىٰ الثاني وهو الاعتقاد الجازم المطابق لا لموجب، فلم يقل أحد من علماء الإسلام إنه لا يكفي في الإيمان إلا أبو هاشم من المعتزلة وقد انفرد عن طائفته وسائر طوائف الإسلام من أهل السنة وغيرهم وخالف الأدلة السمعية والعقلية في ذلك فمن قال بأن إيمان المقلد لا يصح وأراد هذا المعنىٰ لم نجد له موافقا إلا أبا هاشم، فإياك

أن تحمل كلام العلماء عليه. ومن قال: إنما إيمان المقلد لا يصح وأراد المعنىٰ الأول وهو أن يكون تابعا في ذلك لغيره من غير اعتقاد مصمم فكلامه صحيح بإجماع أهل الإسلام إلا من شذ علىٰ ما سنذكره.

القاعدة الثانية: أنه لا بد في الإيمان من اعتقاد جازم مصمم بحيث لا يتشكك، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: «إلا من شهد بالحق وهم يعلمون» قال الواحدي في تفسيرها: أجمع أصحابنا أن شرط الإيمان طمأنينة القلب علىٰ ما اعتقده بحيث لا يتشكك إذا أشكل عليه ولا يضطرب إذا حرك لقوله «وهم يعلمون» ...

إلىٰ أن قال:

إذا عرفت هاتين القاعدتين، فنرجع إلىٰ المقصود ونقول: المؤمنون طبقتان: أعلاهما أهل المعرفة وهم العلماء العارفون، وأدناهما أهل العقيدة وهم العوام المعتقدون. وإن شئت قلت: الناس في اعتقاد الإيمان علىٰ ثلاث طبقات: العليا أهل المعرفة، والوسطىٰ أهل العقيدة مع التصميم، والدنيا من لم يحصل عنده تصميم، ولكنه قلد فيه كما يقلد في الفروع، وهذا لا أعلم أحدا صرح بأنه يكفي إلا ما يقتضيه إطلاق النقل عن بعض الفقهاء وعن العنبري حيث قال بجواز التقليد في العقليات، وقال: إن كل مجتهد مصيب، والجمهور علىٰ خلافه وعلىٰ أنه لا يكتفىٰ في الإيمان إلا بعقد مصمم. فلنسقط هذه الفرقة من طوائف المؤمنين ونعلم أن المؤمنين طبقتان لا غير: إحداهما العارفون وهؤلاء درجات أعلاها درجة الأنبياء، ثم الذين يلونهم من الصديقين، ثم الذين يلونهم علىٰ درجاتهم. ولا يعلم تفاوتها وتقديرها إلا الله تعالىٰ ومن يحصل له باستدلال ولا بد من مصاحبة بشيء من ذلك النور. وأهل الاستدلال علىٰ مراتب لا يعلمها إلا الله تعالىٰ أدناها ما كان علىٰ طريقة المتكلمين كالاستدلال بالجواهر والأعراض وحدوث العالم ونحوه، وأدلة هذا الصنف كثيرة أيضا لا يحصيها إلا الله تعالىٰ وأحسن منها طريقة أهل الحديث من إثبات المعجزة أولا وتصديق الرسول في كل ما أخبر به، وإنما كانت هذه الطريقة أحسن لأنها أقرب، والشكوك التي ترد عليها أقل واندفاعها أسهل، وكلتا هاتين الطائفتين أهل كلام ونظر وقدرة علىٰ التحرير والتقدير ودفع الشبهة بالتفصيل وأهل علم ومعرفة. ومنهم من يستدل بدلائل الأنفس والآفاق من غير تقييد بأوضاع الجدل لا علىٰ طريقة المتكلمين ولا علىٰ طريقة أهل الحديث بل بحسب ما يترتب في ذهنه من ملكوت السماوات والأرض ودلالتها علىٰ

صانعها، ويعرف ذلك معرفة محققة ويقدر علىٰ تقديرها بحسب ما تيسر له. وهذا أيضا من أهل العلم والمعرفة وإن لم يكن علىٰ طريقة الجدليين، بل طريقة هذا أنفع وأسلم وهذه طريقة السلف. ومنهم من يعرف تلك الأدلة بالإجمال دون التفصيل فيرشده إلىٰ الجزم والتصميم ولكن لجهله بالتفصيل لا يقدر علىٰ التقدير ودفع الشبه وهذا حال كثير من العوام فإنه قد يقرر في عقولهم بما شاهدوه من ملكوت السموات والأرض ووحدانية الله وصدق رسوله في كل ما أخبر به بحيث لا يشكون في ذلك، ولم يكلفوا بأكثر من ذلك. والحاصل عندهم يسمىٰ اعتقادا ويسمىٰ علما لقيام الدليل الإجمالي عليه، وإن سماه بعض الناس تقليدا فلا مشاحة في التسمية، وإن نازع في الاكتفاء به لم يلتفت إليه لقيام الإجماع من زمن النبي ﷺ إلىٰ اليوم علىٰ تقرير العوام علىٰ ذلك، بل أقول: إن هذا ليس من العوام لاعتقاده الدليل الإجمالي بل هذا حال كثير من الأولياء الذين لم يمارسوا العلوم، ولهذا نرىٰ كثيرا منهم يظهر عليه من الكرامات والخوارق ما لا يرتاب فيه ولو سألته عن تقرير دليل لم يعرفه، فهؤلاء الأصناف كلهم من أهل المعرفة وهم من الطبقة العليا.

الطبقة الثانية: الذين لا دليل عندهم البتة، لا إجمالا ولا تفصيلا، بل عندهم عقيدة جازمة قد صمموا عليها وأخذوها عن آبائهم المؤمنين علىٰ ما نشئوا عليه من غير نظر أصلا، وهذا في تصويره عسر، فإن الظاهر أن الإنسان إذا مضىٰ عليه زمن لا بد أن ينظر ويصل إليه من الدلائل ما يحصل له به الالتحاق إلىٰ الطبقة الأولىٰ، فإن فرض من ليس كذلك وأنه ليس عندهم إلا تصميم تقليدي، فهذا هو الذي ينبغي أن يكون محل الخلاف، فأبو هاشم يقول بكفره، وطائفة من أهل السنة يقولون بإيمانه، ولكنه عاص بترك النظر، والصحيح من مذهب أهل السنة أنه ليس بعاص بل هو مطيع مؤمن، لأن الله تعالىٰ لم يكلفه إلا الاعتقاد الجازم المطابق وقد حصل. وأما القيام بتقرير الأدلة ودفع الشبه فذلك فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين فحينئذ نقول القيام بتقرير الأدلة ودفع الشبه فرض كفاية، ويكون بأحد طريقين، إما طريقة المتكلمين والجدليين، وإما طريقة السلف، وهي الأنفع والأسلم. والاعتقاد الجازم المطابق فرض عين في حق الجميع، واختلف في وجوب كونه عن دليل، والأصح أنه لا يجب والقائلون بوجوبه اكتفوا بالدليل الإجمالي وحيث لم يوجد قال بعض المتكلمين بالعصيان وأبعد أبو هاشم فقال: إنه كافر وربما فهم من أبي هاشم إجراء

ذلك في ترك الدليل التفصيلي. والذي تقتضيه الشريعة الحنيفية السهلة أنه ليس بكافر ولا عاص، والله أعلم.

قلت: من تدبر في هذا الجواب الطويل، تبين له استشعار السبكي رحمه الله بفساد منهج الكلام في الاستدلال حتىٰ كاد أن يصرح بذلك! ومع هذا تراه يحاول التملص من لوازم تلك الطريقة الجدلية الذميمة، مع حرصه – علىٰ الرغم من ذلك – علىٰ البقاء علىٰ ما كان عليه أئمة الطائفة من قبله من منهج معرفي كلي يعتمد تلك الطريقة نفسها بل يتأسس عليها ويرفع المتفننين فيها المتمكنين منها إلىٰ أعلىٰ المنازل والدرجات العلمية بين المسلمين، فكان هو أصل البدعة عندهم كما عند خصومهم من الفلاسفة والمعتزلة علىٰ السواء، والله المستعان! وبداية نقول إن هذا التفريق بين استعمالين مشتركين في لفظة «التقليد» عند المتكلمين لا يفيده فيما يريد، لأن التقليد إنما يعني قبول القول دون تكلف النظر ومن ثم معرفة الدليل. فالكلام فيما إذا كان الاعتقاد الحاصل عن ذلك التقليد جازما أو غير جازم عند صاحبه قد يصلح لدفع تهمة التكفير بترك النظر، علىٰ اعتبار أن عدم الجزم شك والشك كفر قطعا! ولكن ما حال إيمان من لم ينظر ولم يستدل عندكم؟ هنا تكمن المشكلة التي يعلم السبكي وغيره من الأشاعرة لازمها في حق الصحابة والسلف الأول بل في حق النبي نفسه ﷺ ومن سبقوه من الأنبياء! فمجرد إثبات احتمال أن يكون إيمان المسلم بوجود ربه وبصحة دين محمد ﷺ حاصلا عنده عن تقليد (بأي من المعنيين الذين حررهما السبكي) هذا يرجع بالمذمة – لا محالة – علىٰ من لم يتكلف النظر في تلك القضايا بوجه من الوجوه قبل أن يؤمن بها ويعقد قلبه عليها، وإن شهدوا له بصحة الإيمان وبأنه «يكفي» أو «يجزئ»!

بل إنه كلما كانت المسألة أعظم وأخطر في الحقيقة، كمسألة وجود الباري نفسه وحدوث العالم، كان القصور والمذمة والمنقصة الراجعة علىٰ المقلد فيها (علىٰ التسليم بكون عامة المسلمين مقلدين فيها) أعظم بالضرورة مما يرجع علىٰ من قلد في مسألة فرعية يسيرة (وهو نفس ما قررناه آنفا في الإعذار)! وهذا ما يلزمهم به الدهرية في كل مناسبة، ولا يزالون يستدرجون بمقتضاه إلىٰ ما عليه كافة طوائف اللاهوتيين والمتكلمين من فساد منهجي عظيم، أنهم لعظم دعواهم (أعني دعوىٰ وجود الباري

بالغيب) وعظم ما يترتب عليها من مقتضيات في حياة الإنسان وبعد موته، يلزمهم أن يكون إيمانهم بها قائما على أدلة نظرية (عقلية) بالغة القوة! فمن لم يكن إيمانه قائما في نفسه على تلك الأدلة النظرية الكافية لدفع كافة الشبهات والاعتراضات وإجابة كافة السؤالات (التي لا يزال الفلاسفة يتفننون في اختراعها أشكالا وألوانا)، فهو مقلد مذموم بالضرورة، والشأن فيه كالشأن فيمن آمن بأن الإله الخالق هو الثالوث الأقدس أو كريشنا أو المعماري الأعظم أو اتحاد الآلهة اليونانية على جبل الأوليمب أو غير ذلك من آلهة عبدها أهل الملل بالباطل، من غير أن يكون لديه دليل نظري كاف لدفع كافة الإيرادات الفلسفية، على استحقاق أي منها الإفراد بالعبادة! وهنا يظهر خلل المنهج الكلامي في نفي المعرفة الفطرية الضرورية في ذلك الشأن العظيم! فاللازم الواضح الذي لا مراء فيه، أن يكون أتباع رسل الله تعالى وحواريوهم جهالا لم يقم إيمانهم (على عظمه في نفوسهم ﷺ) على أساس معرفي صحيح، بصرف النظر عن حكم ذلك الإيمان في ميزان الشرع عندنا! بل إن المذمة ترجع بذلك على الرب نفسه، سبحانه وتعالى وتقدس اسمه، إذ يقر الجهال على جهلهم - بحسب كلام السبكي - ويقبله منهم بلا دليل ولا شيء، ما دام اعتقادهم قد طابق الواقع، بل إنه يكرم بعضهم بالكرامات والخوارق ويرفعهم إلى منازل الأولياء المقربين! فإن لم يكونوا جهالا فهم ليسوا من أهل المعرفة (على ما تكلفه السبكي من تقسيم)، وإنما هم معتقدون على تقليد! والقصد أن في هذا الكلام حيدة واضحة، إذ محل النزاع بينكم معاشر المتكلمين وبين الفلاسفة ليس في حكم إيمان من لم ينظر ولم يستدل، أو آمن بلا استدلال، ولكن في جواز أن يقال لمن لم يستدل في أصل إيمانه إنه عالم بوجود الباري أو لديه «معرفة» بوجود الباري!

ولأن بالمثال يتضح المقال، هب أن رجلا آمن واعتقد اعتقادا جازما بأن الدواء (س) يعالج المرض (أ)، دون أن يكون لديه دليل علمي مما يستدل بمثله على صحة ذلك الاعتقاد (ولو كان ذلك الدليل في منزلة أدلة المقلدين الذين اعتقدوا ذلك الاعتقاد لثقتهم في استدلال عالم مشهود له بالعلم)، وإنما قلد فيه والديه وغيرهما ممن لا يعرف له اشتغال بالطب والدواء، فهل يدفع عنه المذمة والمنقصة والتهمة بفساد العقل، حقيقة

أن اتفق أن كان (س) هذا علاجا للداء (أ) علىٰ الحقيقة، وأنه لم يمت إذ تداوىٰ بالدواء (س) عند إصابته بالمرض (أ)؟ الجواب كلا ولا شك! هذا إيمان واعتقاد قبيح في العقل قطعا.

وكذلك إيمان المقلد بأن الله حق وأن النبي حق، علىٰ تسليمهم للفلاسفة بوصفه بالمقلد! فلولا إدراك المتكلمين هذا القبح، ما سارعوا لبناء البراهين والأدلة المزعومة جوابا لطلب الخصوم ودفعا لتهمة التقليد في الإيمان، وما قالت جماهيرهم بوجوب النظر علىٰ كل مكلف! فهم لما وافقوا الفلاسفة علىٰ جعل المسألة (حدوث العالم ووجود الصانع) من جملة المسائل النظرية التي لا تحصل فيها المعرفة الصحيحة إلا عن دليل مكتسب (بصرف النظر أكان مجملا أم مفصلا عند المستدل)، وأسقطوا دلالة الفطرة فيها معرفيا، لزمهم تقبيح إيمان من سموه بالمقلد، كما يقولونه في حق المقلد في المسألة المذكورة ونحوها، وفي تقرير منزلته من العقل أو السفاهة، سواء بسواء! بل هو عندهم أجدر بالمذمة ولا شك ممن قلد في مسألة الدواء التي مثلنا بها آنفا، لأن تقليده قد يخسر به دنياه وآخرته معا! وإلا فمن أين يأتي الإيمان والتصديق الجازم بلا موجب إلا أن يكون من تعصب وجهل واتباع سنن الآباء بغير هدىٰ؟

ولا حجة لهم ولا مخرج إن قالوا «إن الحسن عندنا ما جعله الشرع حسنا والقبيح ما جعله الشرع قبيحا، فلولا أن قبح الشرع التقليد واتباع سنن الآباء بلا برهان ما قبحناه»! فالمقام كما لا يخفىٰ، وكما أشرنا آنفا، ليس مقام محاججة فيما بينهم وبين المسلمين، وإنما الشأن فيما توجهوا به لخطاب الفلاسفة الدهرية المكذبين، وهو ما فيه وضعوا براهينهم الكلامية في حدوث العالم ووجود الصانع! فلولا أن قبُح لديهم (في العقل لا في الشرع) عدم قيام الإيمان علىٰ برهان فلسفي ميتافزيقي علىٰ النحو الذي تطالبهم به الفلاسفة، ما تكلفوا الاستدلال بميتافزيقا الجوهر والعرض ونحوها، وهذا واضح! فالتقليد علىٰ أي من المعنيين المذكورين قبيح بالعقل ابتداء (من قبل الشرع) كما عند عامة العقلاء لأن حقيقته ادعاء حصول العلم في النفس بلا موجب صحيح، وهو ما يستوي به العلم والجهل عند من لا يرىٰ قبحه! فالمقلد الذي يقلد عالما من أهل الذكر، لقصوره هو نفسه عن النظر في المسائل الخفية، فإنه يتخذه حجة فيما بينه وبين

الله تعالىٰ، ولا يقال إنه آمن بلا حجة أو اعتقد جازما بلا حجة أو عمل بلا حجة، بهذا الإطلاق الذي تراه في كلا حدّي التقليد عند السبكي! فيلزم ألا يخرج من تلك المذمة إلا من كان متكلما في نفسه، أو كان مقلدا متبعا لمتكلم من المتكلمين! وإلا فلا شك أن الذي يؤمن ويعمل بلا حجة علىٰ الإطلاق، مذموم متهم! وهذا الحكم نفسه من جملة المعارف الفطرية البدهية – أيضا – في النفس البشرية، التي لا تحتاج إلىٰ برهان أو بحث أو نظر حتىٰ تعرف صحتها!

يقول السبكي في مستهل الجواب: «لفظ التقليد يطلق بمعنيين: أحدهما: قبول قول الغير بغير حجة وربما قيل العمل بقول الغير بغير حجة، والمعنىٰ الثاني للتقليد: أنه الاعتقاد الجازم لا لموجب، وربما قيل الاعتقاد الجازم المطابق لا لموجب.» اهـ. قلت: فما وجه إدخال قوة الاعتقاد وما إذا كان جازما أو غير جازم، ومطابقة الاعتقاد الواقع أو عدم مطابقته، في تعريف التقليد عند الاصطلاح؟ المقلد هو كل من تقلد قول الغير في مسألة ما دون استقلال بالنظر في أدلتها! أما تلك الزيادات فتفسد الحدّ إذ تخرج منه ما حقه أن يدخل فيه! فالمقلد يبقىٰ مقلدا سواء كان اعتقاده جازما أو غير جازم، وسواء كان مطابقا للواقع أو غير مطابق! والمقلد (بصرف النظر عن تلك الزيادات) يكون مذموما بتقليده إن كان قادرا علىٰ النظر في الأدلة علىٰ طريقة أهل العلم بها، لأنه إذا وجد في نفسه ما يمكنه من استظهار الحق في المسألة استقلالا، كان محجوجا به عند ربه، متهما بالتفريط في أسباب معرفة الحق فيها! إذ ليس في نظر غيره من المكلفين أمثاله حجة علىٰ نظره هو، إن كان مستوفيا شروط الأهلية! ولكنّ للسبكي غرضا من إضافة تلك الزيادات في التعريف الثاني، يتضح لك مما يلي من كلامه.

يقول: «فإن عرفت معنىٰ التقليد فهو بالمعنىٰ الأول قد يكون ظنا وقد يكون وهما كما يرىٰ في تقليد إمام في فرع من الفروع مع تجويز أن يكون الحق في خلافه ولا شك أن هذا لا يكفي في الإيمان، وإذا وجد في كلام أحد من الأئمة أن التقليد لا يكفي في أصول الدين فالمراد منه هذا» قلت: ولكن هذا التجويز هو اللازم الصريح لإجابتكم شرط الفيلسوف الجاحد تكلف النظر من جانبكم وتقديم الدليل العقلي لإثبات

الصانع وإثبات حدوث العالم! وإلا فما معنىٰ النظر العقلي أصلا عندكم؟ النظر إنما يعني استظهار الدليل الذي يتضح به المعنىٰ البعيد عن النفس، فتكتسب به المعرفة لا بدونه، ويترجح به القول المختار علىٰ خلافه! فتجويز صحة القول المخالف (ولو بنسبة ضئيلة من الاحتمال أو بظن ضعيف عند الناظر) هو من مقتضىٰ وصف المسألة (أي مسألة) بأنها مسألة نظرية لا تحصل المعرفة فيها إلا بالنظر والاستدلال (هذا علىٰ التنزل بوصف وجود الباري بأنه «مسألة» أصلا!)! فالنظر والاستدلال إنما هو ترجيح بين قولين محتملين أو أكثر، والمناظرة إنما هي مباحثة بين المتنازعين لإظهار الدليل الأقوىٰ والقول الأرجح ما بين قولين محتملين! فمن قال إن وجود الباري مسألة نظرية (نوعا)، وليس حقيقة بدهية ضرورية فطرية، فقد لزمه بمجرد ذلك تجويز القول المخالف قبل الشروع في النظر، وإلا فما حقيقة النظر أصلا في حقه وما غرضه عنده ولماذا تكلفه؟![1]

ثم كيف يجتمع لديكم الزعم بأن وجود الباري ليس معرفة فطرية حاصلة في نفس الإنسان بالفطرة والجبلة، والقول بأن من جوز القول بعدم وجوده في مبتدأ النظر وشكك فيه، وتعطل عن الإيمان برسالة الرسول ﷺ بعدما بلغته، بدعوىٰ البحث

(١) وننبه على أنه ليس كل ما كان من المسائل التي تكتسب النفس المعرفة بها بعد خلوها منها، هو مما ينزل منزلة المسائل النظرية على هذا المعنى. فجميع ما في دين الإسلام من عقائد لا تعرف إلا بالسمع، هذه لا يجوز للمسلم أن يزول عنها أو يجوز الزوال عنها في يوم من الأيام ولو نظريا، مع أنها مكتسبة حاصلة في نفسه بعد عدمها. فالقضية المعرفية إذا توافرت لها الأدلة القاطعة وامتنع بالضرورة تصور ما تبطل به تلك الأدلة أو تعارض به في يوم من الأيام، فإنها يكون العلم بها علما منتهيا وجوبا، ويكون النزاع عليها نزاعا عبثيا غير مستساغ، ويكون المخالف فيها مستحقا للمذمة والنكير كائنا من كان، فإن قالوا هذه هي منزلة قضية وجود الباري عندنا، فلا يلزمنا ما تريد إلزامنا به من إيراد المعارض النظري عليها وتجويز الزوال عنها في يوم من الأيام، قيل لهم: قد علمتم أن الرسول عليه السلام وإن كان قد جاء بالمستند القطعي التام في إثبات وجود الملائكة، مثلا، إلا أنه لم يأت بنظير ذلك في إثبات وجود الرب الذي أرسله من الأساس، وعلى طريقة الفلاسفة التي سلمتم بصحتها، فإنه لا يقبل منه شيء مما جاء به حتى يقدم البرهان العقلي على وجود الباري أولا! فعلى طريقتكم في إجابة شرطهم، تصبح المسألة مسألة نظرية جدلية فلسفية صرفة، ولا قيمة لشيء من أنواع الأدلة التي تزعمون قيامها بالمطلوب مما دون ذلك! وعلى منهج الفلاسفة، وبالنظر إلى أنواع القضايا التي يقدمون بها لما يريدون، تصبح قضية وجود الباري قضية نظرية من أصعب موارد النظر في تاريخ الفلسفة، ومن أبعدها عن أن ينتهى فيها إلى يقين أو قريب منه، والله المستعان.

والنظر في حدوث العالم بالأساس، ثم مات علىٰ ذلك التوقف والشك، فلا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا يوم القيامة، وهو إذن من الخاسرين؟ بل يلزمكم القول بإعذاره لو كنتم صادقين!

لذا كان الجاحظ المعتزلي أصدق المتكلمين في التزام مقتضيات مذهب الكلام في أصول المعرفة بتمامها، الذي هو مذهب الفلاسفة الجدليين كما بينا، إذ قال بإعذار من أداه نظره إلىٰ التكذيب بوجود الصانع وحدوث العالم، والمنع من معاقبته في الدنيا والآخرة! ذلك أن الناظر الذي أفرغ الوسع في النظر وبذل الجهد في تتبع الأدلة ومقارنتها وموازنتها علىٰ ما هو متبع في كافة المسائل النظرية (نوعا) في شتىٰ فنون العلم، هذا لا ملامة عليه إن ترجح لديه المذهب الغلط في نهاية المطاف، أو بدا له التوقف في المسألة (مثلا) لتقارب الأدلة في نظره، ذلك أنه أدىٰ ما عليه فانتهىٰ إلىٰ مبلغ عقله! فمن جوز له – من الابتداء – الترجيح والموازنة والغوص علىٰ الأدلة ودقائقها والبراهين وخفاياها ومآخذ المتخاصمين عليها ونزاعهم فيها واعتراضاتهم عليها وأجوبة الاعتراضات وأجوبة الأجوبة .. إلخ، فقد فتح له باب الرأي والغلط البشري (الوارد علىٰ كل نظر وبحث ورأي يتكلفه الإنسان ولا شك)، ولزمه إذن أن يعذره إن قصُر به عقله عن تحصيل المطلوب بعدما أفرغ الوسع والجهد كما ينبغي، ما دامت المسألة لا حجة فيها (معرفيا) إلا التنظير البرهاني المتكلف لنصرة كل قول من القولين! لذا فإن المتكلم يتناقض غاية التناقض عندما ينكر المعرفة الفطرية بوجود الباري ليتمسك بفتح باب النظر في المسألة (مبدئيا) كما هي نظرية الفلاسفة واللاهوتيين والمعتزلة في المعرفة من جهة، ومع ذلك يتمسك – في نفس الوقت – بما كان عليه الصحابة والسلف الأول من اتهام المتشكك في وجود الرب جل وعلا وإكفاره وحدِّه من الجهة المقابلة!

فالمسألة – ولله الحمد – واضحة لا اختلاط فيها إلا عند المتكلمين المفتونين ببضاعة الفلاسفة! فإما طريقة الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من السلف الأولين، في الإقرار بالفطرة وما تدل عليه دون تكلف نظر أو استدلال، ومن ثمّ إيجاب الحجر علىٰ كل من رفع عقيرته بالتشويش عليها أو السفسطة فيها بين الناس بحزم وقوة وبلا تهاون،

لأنه كاذب علىٰ نفسه وعلىٰ غيره يكابر في الواضحات البدهيات، ويعرّض الناس لضياع آخرتهم إن نزلت شبهاته من نفوسهم منزل استحسان، وإما طريقة الفلاسفة ومن لفّ لفهم من أشباههم من أهل الملل، بنفي المعرفة الفطرية بوجود الباري وكمال صفاته وحدوث العالم وما فيه، وتحويل تلك البديهيات المطلقة إلىٰ موارد للنظر والرأي والخلاف العميق، ومن ثمّ إيجاب النظر واشتراطه في أصل الإيمان، وإيجاب معاملة المخالف في أصل الدين معاملة من خالف في مسألة من مسائل الطهارة أو فقه البيوع مثلا، سواء في أحكام الدنيا أو في الآخرة! فهما سبيلان متنافران من أصل التأسيس المعرفي نفسه كما ترىٰ، فلا يروم الجمع بينهما إلا متناقض!

يقول السبكي: «ومن قال: إنما إيمان المقلد لا يصح وأراد المعنىٰ الأول وهو أن يكون تابعا في ذلك لغيره من غير اعتقاد مصمم فكلامه صحيح بإجماع أهل الإسلام» قلت: سلمنا بأنه إن كان بلا دليل وبلا اعتقاد مصمم فإيمانه لا يصح ولا خلاف في هذا، ولكن ما وجه تصحيحه بلا دليل إذا كان الاعتقاد جازما مصمما؟ ومن أين يأتي التصميم الجازم في الاعتقاد عند من يتابع غيره بلا موجب معرفي، إلا أن يكون اتباعا للهوىٰ وإغراقا في العصبية لا غير؟ وبأي شيء يفضُل إيمان من هكذا حاله، إيمانَ النصراني المؤمن بالثالوث مثلا أو الوثني المؤمن بحلول الرب في بقرة أو حتىٰ الملحد المؤمن بأن الإله ليس إلا قوة أو طاقة خالقة لا إرادة لها ولا حكمة ولا تكليف؟ بأنه قد اتفِق له (من غير كسب منه) أن قلد والديه المسلمين علىٰ الحق واعتقده اعتقادا جازما بلا موجب، بينما قلد هؤلاء آباءهم علىٰ الباطل اتفاقا، مع الاعتقاد الجازم بلا موجب أيضا؟ إن كان معيار المفاضلة في الآخرة بين هؤلاء الجهلاء المقلدين آباءهم إنما هو اتفاق أن ورث أحدهم عن والديه الحق فعقد عليه إيمانه وجزم به، وورث غيره الباطل فعقد عليه إيمانه وجزم به كذلك، مع افتقار كل منهما للدليل (أو الموجب) الذي به يمتاز الحق من الباطل عند العقلاء، فكيف لا يكون هذا من الظلم الذي يتنزه عنه رب العباد جل وعلا؟ لعلهم يجيبون عن هذا الإلزام بأن الله لا يكون ظالما مهما عمل بعباده، ما دام متصرفا في ملكه (كما هو مذهبهم في نفي التحسين والتقبيح العقليين مطلقا)!

يقول السبكي: «إذا عرفت هاتين القاعدتين، فنرجع إلىٰ المقصود ونقول: المؤمنون طبقتان: أعلاهما أهل المعرفة وهم العلماء العارفون، وأدناهما أهل العقيدة وهم العوام المعتقدون. وإن شئت قلت: الناس في اعتقاد الإيمان علىٰ ثلاث طبقات: العليا أهل المعرفة، والوسطىٰ أهل العقيدة مع التصميم، والدنيا من لم يحصل عنده تصميم، ولكنه قلد فيه كما يقلد في الفروع، وهذا لا أعلم أحدا صرح بأنه يكفي إلا ما يقتضيه إطلاق النقل عن بعض الفقهاء وعن العنبري حيث قال بجواز التقليد في العقليات، وقال: إن كل مجتهد مصيب، والجمهور علىٰ خلافه وعلىٰ أنه لا يكتفىٰ في الإيمان إلا بعقد مصمم.»

قلت: تأمل كيف يجعل هنا «أهل المعرفة» (وهم المتكلمون المتفننون في براهين حدوث العالم ووجود الصانع) في أعلىٰ مراتب الإيمان، بينما يجعل في أدناها من لم يحصل لديهم تصميم! ثم يهمل المرتبة الأخيرة لأنها لا يوصف أصحابها بالإيمان أصلا، فيجعلهما مرتبتين، أعلاهما أهل المعرفة، وأدناهما أهل الاعتقاد مع التصميم سواء حصل منهم استدلال ونظر أم لم يحصل. ثم يثبت هنا أن مذهب الجمهور (وليس الإجماع كما ذكر في أول الكلام) أنه لا يكفي أن يكون تقليده كما يقلد في الفروع بلا تصميم! ثم يذكر مراتب قوة الإيمان كما هي عند أهل السنة وأئمة المسلمين، علىٰ نحو يشتبه فيه من سماهم من قبل «أهل المعرفة» بمن يسميهم الآن بـ«العارفين» إذ يقول: «ونعلم أن المؤمنين طبقتان لا غير: إحداهما العارفون وهؤلاء درجات أعلاها درجة الأنبياء، ثم الذين يلونهم من الصديقين، ثم الذين يلونهم علىٰ درجاتهم. ولا يعلم تفاوتها وتقديرها إلا الله تعالىٰ ومن يحصل له باستدلال ولا بد من مصاحبة بشيء من ذلك النور.» فأين حصل من الأنبياء والمرسلين (الطبقة الأولىٰ في الإيمان التي سماها بطبقة العارفين) استدلال علىٰ وجود الباري وحدوث العالم علىٰ تلك الطريقة التي تُكتسب بها المعرفة من بعد عدمها في نفس المستدل؟ دونكم إلىٰ إثبات ذلك خرط القتاد!

ثم يقول: «وأهل الاستدلال علىٰ مراتب لا يعلمها إلا الله تعالىٰ أدناها ما كان علىٰ طريقة المتكلمين كالاستدلال بالجواهر والأعراض وحدوث العالم ونحوه، وأدلة هذا

الصنف كثيرة أيضا لا يحصيها إلا الله تعالىٰ وأحسن منها طريقة أهل الحديث من إثبات المعجزة أولا وتصديق الرسول في كل ما أخبر به، وإنما كانت هذه الطريقة أحسن لأنها أقرب، والشكوك التي ترد عليها أقل واندفاعها أسهل، وكلتا هاتين الطائفتين أهل كلام ونظر وقدرة علىٰ التحرير والتقدير ودفع الشبهة بالتفصيل وأهل علم ومعرفة. ومنهم من يستدل بدلائل الأنفس والآفاق من غير تقييد بأوضاع الجدل لا علىٰ طريقة المتكلمين ولا علىٰ طريقة أهل الحديث بل بحسب ما يترتب في ذهنه من ملكوت السماوات والأرض ودلالتها علىٰ صانعها، ويعرف ذلك معرفة محققة ويقدر علىٰ تقديرها بحسب ما تيسر له. وهذا أيضا من أهل العلم والمعرفة وإن لم يكن علىٰ طريقة الجدليين، بل طريقة هذا أنفع وأسلم وهذه طريقة السلف» اهـ.

قلت: وهنا يدخل التلبيس من أوسع أبوابه والله المستعان. فالاستدلال في هذه الأقسام كلها هو في زعمه من جنس الاستدلال النظري الذي تكتسب به المعرفة في نفس الإنسان من بعد عدمها! فمَن من أهل الحديث الذين فضل طريقتهم علىٰ طريقة «الجدليين» وشهد لها بأنها «أسلم»، استعمل تلك الطرق التي نسبها إليهم بداعي تحصيل المعرفة بوجود الباري علىٰ أساس أنها مسألة نظرية يفتقر فيها إلىٰ دليل حتىٰ تتحصل فيها المعرفة اكتسابا؟ من منهم استعمل الدليل في ذلك كما استعمله من سماهم بـ«الجدليين» في سياق مخاصمتهم الدهريين الملاحدة وغيرهم؟ ومن هم أهل الحديث الذين يقصدهم بهذا الكلام علىٰ أي حال؟

ثم ما معنىٰ «إثبات المعجزة أولا»، وما قيمة المعجزة (معرفيا) إن لم يكن في نفس من يراها معرفة فطرية سابقة بأن دعوىٰ صاحب المعجزة بشأن الرب ووجوب تقديره حق قدره وإفراده بالعبادة هي تلك الدعوىٰ البدهية التي لا يصح في العقل أن يبعث الله رسولا في الناس ليدعوهم إلىٰ خلافها؟ من أثبت المعجزة أولا من غير حصول ذلك الأصل في نفسه من قبل، فلا فرق بينه وبين من أثبت للسحرة خوارقهم والدجاجلة حيلهم وللمشركين ألاعيب شياطينهم في معابدهم وأوثانهم أولا علىٰ أنها معجزات، من غير أن يكون لديه موجب لجعل تلك الأفعال الخارقة آية ظاهرة علىٰ صدق ما

جاؤوا به من دعوىٰ! وإذن فلا فرق (في الثمرة الاعتقادية) بين من رأىٰ ساحرا يمشي علىٰ الماء أو يطير في الهواء وبين من رأىٰ معجزة من معجزات الأنبياء أو كرامة من كرامات الأولياء، وهو نفس اللازم الذي تقدم تقريره من قبل، فتأمل!

فنحن نقول إن المعجزة التي يجريها الله علىٰ يد رسوله إنما تكون من آيات التأييد، التي تقام بها مزيد من الحجج علىٰ العباد، فيزداد المؤمن إيمانا، بعدما عرف من قبل أن الرسول حق، ويزداد المكذب تكذيبا بعدما عرف - في فطرته - كذلك ما اختار أن يجحده واستكبر علىٰ قبوله من صدق الرسالة، وأنه من المحال عقلا وبالضرورة أن يكون دينه المخالف لدعوىٰ ذلك الرسول (أيا ما كان ذلك الدين) هو الحق الذي يرتضيه رب العالمين من عباده! فلولا حصول المعرفة السابقة في الفطرة بما ينبغي أن يتوقعه العاقل إجمالا من دعوىٰ رسل رب العالمين في صفة الرب وفيما يليق به وما لا يجوز عليه، ما قامت لله حجة علىٰ أحد من الناس من آيات الله وآلائه في الأنفس والآفاق وفي كل شيء، لا من المعجزة ولا من رسالة الرسول نفسه!

ولهذا قال الملك تبارك وتعالىٰ ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠] فأثبت بنص صريح أن الدين الحنيف الذي بعث به الرسل هو فطرته التي فطر الناس عليها، سبحانه وتعالىٰ، ثم نفىٰ العلم علىٰ معناه الأخص عن أكثر الناس، أي العلم المكتسب بما جاء به الرسول، الذي يوافق العلم الفطري في نفوس البشر. وإلا فالذي جحد دعوىٰ الرسول واستكبر عن قبولها فقد خالف العلم الفطري الذي تثبته الآية نفسها، فلم ينطبق علمه المكتسب الحادث في نفسه الموروث عن أبويه وعمله المترتب علىٰ ذلك العلم (في القلب واللسان والجوارح)، علىٰ علمه الفطري الذي فطره الله عليه، الذي يجده في باطن نفسه، ولا يجد فرصة للتشويش عليه وإخماده إلا اغتنمها، كما نبين آليته في نفوس المكذبين والمعرضين في هذا الكتاب.

ونحن نقول إن القرآن هو أعظم معجزات الرسول ﷺ علىٰ الإطلاق، ففي الحديث المتفق عليه أنه ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان

الذي أتيت وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة.» فما رأس الإعجاز وما حقيقته في القرآن التي لا يماري فيها عاقل، والتي تحدىٰ الرب جل وعلا الإنس والجن جميعا أن يأتوا بمثله من أجلها؟ إنها موضوع الكتاب نفسه من الأساس!

ولذا لما قال المشركون للرسول في شأن التوراة والقرآن إنهما «سحران تظاهرا»، مستكبرين علىٰ الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، قال تعالىٰ في ذلك: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ**﴾ [**القصص**: ٤٨]، وكان التحدي الإلهي: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [**القصص**: ٤٩] فالتحدي حاصل أساسا بحقيقة الهداية التي توجد في كتاب الله الحق (التوراة والقرآن) ولا توجد في غيره ولا يمكن أن توجد في غيره! فهؤلاء الذين ذكرهم الله في القرآن ورد عليهم بهذا الكلام، يستكبرون علىٰ قبول الحق بعدما جاءهم، ويزعمون أن محمدا لم يأت بمثل ما أوتي موسىٰ من قبل، مع أنهم قالوا فيما جاء به موسىٰ إنه سحر وكذب، وقالوا مثل ذلك فيما جاء به محمد، عليهما صلاة الله وسلامه! فليأتوا إذن بكتاب أهدىٰ من كتب الله وأوفق للفطرة السوية عند العقلاء إن كانوا صادقين! وما كانوا ليفعلوا قطعا لأن المشرك متناقض بدينه من مبدأ ظنه بربه بالأساس! ولولا الفطرة ما اتضح ذلك المعنىٰ لكل عاقل خوطب في يوم من الأيام بالقرآن فآمن به من أول وهلة! فالصحابة لم يتكلفوا مقارنة الكتب الدينية المنسوبة إلىٰ الرب عند أهل الأديان في يوم من الأيام، ولا تكلفوا موازنة القوة البلاغية ولا انتظروا تحقق النبوات الغيبية ولا غير ذلك مما يدخل إجمالا تحت باب دلائل النبوة! وإنما آمنوا لما وجدوه في مضمون الدعوىٰ من كمال الهداية التي لا يليق برب العالمين أن يبعث رسوله بخلافها! وهو مضمون الدعوىٰ المحمدية الذي كان الصحابة يخاطبون به المشركين بإيجاز، فمن قبل منهم فصلوا له الدين وعلموه القرآن، وإلا كانت الأخرىٰ!

ألا ترىٰ كيف لم يزد رسول الله ﷺ في خطابه لهرقل علىٰ أن قال: «أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»، ثم تلا قوله تعالىٰ:

﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [**آل عمران**: ٦٤]! أفكان يخاطبه بهذا الخطاب، لو لم يكن العلم بما يوجب عليه الخروج من دينه والدخول في دين التوحيد علما بدهيا فطريا لا يماري فيه إلا مكابر؟! لهذا لما جاءه ذلك الكتاب، قال «التمسوا إلي ها هنا أحدا من قومه لنسألهم عنه»، فلما جاءه أبو سفيان، أخذ يسأله عن محمد ﷺ أسئلة من يعلم في باطن نفسه أنه ما جاء إلا بالحق من ربه، ولكن لولا كراهة زوال ملكه وانقلاب الرعية عليه لقبل دعوته ولدخل في دينه!

ولذا نقول إن الإعجاز بحسن البيان في القرآن أو بالوجازة في العبارة أو بتحقق بعض ما فيه من النبوات أو بغير ذلك مما تفنن العلماء في استخراجه وتبويبه، كل هذا لا تكون له قيمة ولا أثر في باب قوله تعالىٰ ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ [**البقرة**: ٢] لو لم يكن مضمون الكتاب علىٰ ما هو عليه من الأساس، من كمال الهداية التي لا يماري عاقل في صحة نسبتها إلىٰ رب العالمين بمجرد أن يسمعها (وأعني - كما بينت في غير هذا الموضع - دعوىٰ تعظيمه سبحانه بما هو أهله وتقديره حق قدره، ونبذ الإشراك به بكافة صوره)، وهو أمر لولا الفطرة المجبولة عليها نفوسنا من قبل ما عرفناه أصلا، ولافتقرنا إذن نحن وسائر أتباع النبيين من قبلنا إلىٰ برهان فلسفي يقرب إلىٰ أذهاننا ويثبت لنا تلك المعاني الأولية التي تأسس عليها خطاب القرآن، كانفراد الرب سبحانه بالخلق والأمر والتصرف والنفع والضر في هذا العالم (عقلا) ووجوب إفراده بالعبادة وبطلان الشرك والوثنية وعبادة الكواكب والجن والملائكة (عقلا) وغير ذلك من المخلوقين، واستحقاق الرب الباري (عقلا) لكل كمال وتنزهه عن كل نقيصة جل شأنه، وهو ما علمنا كما علم مخالفونا أن الأنبياء لم يُبعثوا بنصب البراهين أو الدلائل المعرفية عليه يوما من الدهر! لماذا؟ لأن العلم به حاصل في الفطرة من الابتداء، وإنما يحتاج المخاطبون إلىٰ التذكير به بذكر الآيات وتجليتها، من أجل الإلزام بلازمها (وهو الخروج من الشرك)، لا أنهم نظروا واستدلوا ولا بد قبل السمع ولو علىٰ سبيل الإجمال كما حاول السبكي أن يصل إلىٰ تقريره!

ثم ليس دفع الشبهة بالتفصيل والعلم بذلك، داخلا تحت باب «الاستدلال» عند المكلف نفسه، الذي به تعرف عنده صحة دعوىٰ الرسل بزعم المتكلمين! «الاستدلال» علىٰ المفهوم الكلامي (الذي حقيقته بناء الأساس المعرفي لقبول التكليف نفسه من الابتداء) شيء، والتصدر للرد علىٰ شبهات وخرافات وأكاذيب المكذبين الخراصين شيء آخر بالكلية! ولكن لأن علم الكلام يقوم بأكمله ومن أول يوم، علىٰ مناظرة الفيلسوف الدهري الجاحد في كيفية تحقيق أساس المعرفة الدينية عند المخاطبين بخطاب الرسول، بناء علىٰ التسليم المتفق عليه تضمنا بين الفريقين بصحة الموقف الجدلي للفيلسوف الجاحد تجاه المعرفة الفطرية، كان من الطبيعي أن يتداخل المسلكان (الاستدلال ودفع الشبهات) عندهم كما تداخلا عند اللاهوتيين من أهل الملل الأخرىٰ سواء بسواء، ولنفس السبب، وأن يصبح من يتولىٰ الرد علىٰ تلك الزبالة الفلسفية عند أصحابها، لاهوتيا أو متكلما «اعتذاريا» Apologetic إذ يحاول التماس المخارج والأعذار ليرد بها علىٰ اعتراضات الفلاسفة علىٰ دعواه «عقلانية» مبدأ العبودية ووجود الرب نفسه من أساسه. وإلا فهل يكون مسعىٰ أحدكم معاشر المتكلمين عند تكلفه الرد علىٰ الشبهات، سلوكا في سبيل إقناع نفسه بالأساس (كما يكون عند حصول الاستدلال وجمع الأدلة والقرائن والموازنة والترجيح في نوع المسائل النظرية عموما)، أم أنه يكون منكم سعيا في إبطال الباطل ودفع العامة والجهلاء المفتونين عنه وتنفيرهم منه إذا ما ظهر له انتشار وقبول في الأرض؟ إن كانت الأولىٰ فقد تناقضتم إذا ما قررتم أن الجزم والتصميم شرط في صحة الإيمان (وهو كذلك قطعا)! وإن كانت الثانية، فقد تناقضتم بإدخالكم الرد علىٰ شبهات المخالفين (بالقوة التي يوجبها الإيمان الجازم بصحة ما أنتم عليه) في معنىٰ «الاستدلال النظري» الذي يتصور ورود المعارض عليه (مبدئيا)، فتأملوا!

يقول السبكي في تكلف بالغ رجاء تحصيل ما يريد: «ومنهم من يعرف تلك الأدلة بالإجمال دون التفصيل فيرشده إلىٰ الجزم والتصميم ولكن لجهله بالتفصيل لا يقدر علىٰ التقدير ودفع الشبه وهذا حال كثير من العوام فإنه قد يقرر في عقولهم بما شاهدوه

من ملكوت السموات والأرض ووحدانية الله وصدق رسوله في كل ما أخبر به بحيث لا يشكون في ذلك، ولم يكلفوا بأكثر من ذلك. والحاصل عندهم يسمىٰ اعتقادا ويسمىٰ علما لقيام الدليل الإجمالي عليه، وإن سماه بعض الناس تقليدا فلا مشاحة في التسمية، وإن نازع في الاكتفاء به لم يلتفت إليه لقيام الإجماع من زمن النبي ﷺ إلىٰ اليوم علىٰ تقرير العوام علىٰ ذلك، بل أقول: إن هذا ليس من العوام لاعتقاده الدليل الإجمالي بل هذا حال كثير من الأولياء الذين لم يمارسوا العلوم، ولهذا نرىٰ كثيرا منهم يظهر عليه من الكرامات والخوارق ما لا يرتاب فيه ولو سألته عن تقرير دليل لم يعرفه، فهؤلاء الأصناف كلهم من أهل المعرفة وهم من الطبقة العليا.»

قلت: فهل المعرفة الإجمالية عندكم أفضل أم المعرفة التفصيلية الدقيقة التي لا تنفتح معها ثغرة لدخول «الشبهات» (فيما تأملون)؟ أي المعرفتين أفضل (نوعا)؟ لا شك أنه ما دام الاستدلال الذي تحصل به المعرفة في نفس الإنسان بأن الله حق والرسول حق، مشروطا بتمام المعرفة النظرية اللازمة لذلك، فما لا يحصل الواجب إلا بتمامه، فإتمامه واجب، وإذن لزم أن يكون المتخلف عن التفصيل في ذلك ناقصا في دينه، أو علىٰ الأقل ضعيفا في علمه ومعرفته وإيمانه، معرضا في أي لحظة لورود السؤالات والاعتراضات التي تذهب بأصل إيمان المرء فلا يجد المسكين لها مدفعا، أليس كذلك؟ ولعله من جهله إذا ما حصل له ذلك، أن يضطر إلىٰ تقليد إمام من أئمة الكلام، رجاء أن ينجو من الشك والارتياب، وإذن يصبح تعلقه بما تزعمونه دليلا، تعلق المقلد في فهم الدليل نفسه (علىٰ ما في عامة أدلة المتكلمين من صعوبة ووعورة أنتم تعترفون بها)! ولكن من تقلد الدليل دون أن يفهمه تمام الفهم فلا قيمة لاستدلاله في حصول المعرفة المطلوبة، ومثله في ذلك كمثل العامي الجاهل ولا فرق، أليس كذلك؟ والحاصل أن عليه أن يكون متكلما مكينا متبحرا في الكلام إن أراد أن يكون إيمانه صحيحا لا مدخل فيه لإيراد أو إشكال أو شبهة (وهو ما يطمعون فيه من ثمرة تلك الصناعة، وإلا فالكلام نفسه هو منبت كل شك وشبهة ومصيبة في العقل والدين أصلا)!

والقصد أن التفريق بين فرض العين وفرض الكفاية في نوعية ودرجة وطبيعة المعرفة المطلوبة من المكلف وحدود الدراية الأولية بما زعموا أنه طريق العقلاء لتحصيل العلم بوجود الباري نفسه وبكمال صفاته من الأساس، الموجب لحصول التسليم بصحة دعوىٰ المرسلين تبعا، هذا التفريق واه زائف لا ينضبط، ولا أساس له عندهم إلا إدراكهم لما يترتب علىٰ نفيه من اتهام للصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة الدين الذين ما بحثوا في الكلام يوما من الدهر ولا درسوه بل صح في آثارهم أنهم منعوا المسلمين منه أصلا وذموا أصحابه غاية الذم!

ولهذا ترىٰ السبكي نفسه يجعل الأدلة المستندة في مقدماتها إلىٰ ميتافزيقا الفلاسفة (كنظرية الجهور والعرض) في أدنىٰ المنازل، مع أنه يعلم أن البداية الصحيحة (علىٰ معيار الفلاسفة في الإثبات والنفي) لكل من أراد تأسيس المعرفة بوجود الباري بترتيب صحيح (نظريا، أي علىٰ التسليم باعتقاده أن تلك المعرفة ليست حاصلة في الفطرة من الابتداء)، هي أن يبدأ بإثبات حدوث العالم ومخلوقيته بجملته، وهو ما لا يحصل إلا باستعمال الأقيسة العقلية المعتمد نوعها أكاديميا في عصره في الغيبيات والكونيات (تكلف بناء المقدمات الميتافزيقية)، التي جعلها ها هنا أدنىٰ أنواع الأدلة!

فهو كما ترىٰ متقلب بين موقفين كليين متناقضين في مفهوم المعرفة وفي طريق حصول الإيمان في نفس الإنسان يتنازعانه من جانبيه أشد التنازع، يحاول التوفيق بينهما بلا طائل! فأما الأول فهو تقرير ما كان عليه الصحابة والتابعون من حصول أصل الإيمان في نفوسهم فورا بيقين مصمم منصرم بلا استدلال ولا نظر لا في حدوث العالم ولا في وجود الصانع ولا في كمال صفته ولا في شيء من ذلك كما هو معلوم، مع وجوب تزكية ذلك الإيمان وتعظيم أصحابه ورفعهم به إلىٰ أعلىٰ الدرجات كما جاء به النص الصريح في حق الصحابة وكما عليه إجماع المسلمين! وأما الثاني فنفي حصول المعرفة الفطرية الأولىٰ كأساس أولي للإيمان في نفوس المؤمنين، ومن ثم تسويغ القول بوجوب الاستدلال والنظر ولو بإجمال، مع كون الاستدلال في أصل أصول الدين لا يتم (علىٰ النسق المنطقي الجدلي الذي أخذوه عن الفلاسفة) إلا بنفس

الترتيب الذي ذمه السلف وذموا أصحابه أشد الذمّ، مع اعتراف المتكلمين أنفسهم بأنه يفتح من أبواب الشك والارتياب ما لا يحصيه إلا الله!

فعلىٰ الموقف الأول يكون من لم يستدل أحسن إيمانا وأكمل دينا ممن استدل أو تكلف النظر، مع كونه في المقابل لا معرفة له! وعلىٰ الموقف الثاني، يكون من استدل أحسن عقلا وعلما وأكمل معرفة ممن لم يستدل، مع بقائه محاصرا بالشكوك والإيرادات والإشكالات من كل جانب، فلا يزيد توسعا في البحث إلا ازداد محصوله من تلك المصائب وازداد تأثيرها علىٰ إيمانه ويقينه (كما اعترف به كثير من المتكلمين)! فكيف يجمع المتكلم إذن بين كمال الإيمان (علىٰ معيار السلف لكمال الإيمان) وكمال العلم والمعرفة (علىٰ معيار الفلاسفة لكل من العلم والمعرفة)؟ هذه هي المعضلة التي لا مخرج لهم منها إلا بترك الكلام والفلسفة جملة وتفصيلا، والرجوع لما كان عليه السلف الأول من تقرير المعرفة الفطرية وذمّ من سفسط عليها واستكبر علىٰ التسليم لها، أو تكلف التنظير والتفلسف فيها بوجه من الوجوه سواء بالنفي أو الإثبات! ولكن هذا بعيد غاية البعد عندهم، لأنهم أبوا إلا اتباع أئمتهم والتمسك بما خلفوه لهم من بضاعة الكلام، وتعظيم ما أنتجه أولئك الأئمة (إجمالا) من قواعد وحدود وبراهين ونظريات غاية التعظيم! فهي الطريق والسبيل عندهم للرد علىٰ الخصوم من أهل الملل والنحل والفرق كافة، ولا سبيل غيرها!

فما المخرج إذن؟ ليس أمامهم إلا تكلف نظير ما تراه في كلام السبكي رحمه الله، بأن يحاولوا التفريق بين ما سموه بالدليل الإجمالي والدليل التفصيلي، وأن يكون الدليل الإجمالي هذا عندهم علما ينسبونه إلىٰ الرسل وأتباعهم حتىٰ لا ينسبوهم إلىٰ الجهل بأصل أصول الدين! ولكن إثبات حصول الدليل المكتسب عند الصحابة (إجماليا كان أو تفصيليا) يلزم للتسليم به إثبات حصول الاستدلال من الأساس، وأعني بالاستدلال ما وُضع علم الكلام نفسه من أجله: إثبات أن العالم مخلوق وأن له خالقا، بناء علىٰ نفي المعرفة الفطرية الأولىٰ في ذلك! فمتىٰ حصل استدلال من الصحابة (دع عنك الأنبياء والمرسلين صلوات ربي وسلامه عليهم) في تلك المسائل؟ لم يحصل أبدا! وما دام

لم يحصل استدلال علىٰ هذا المعنىٰ الفلسفي، فلم تحصل معرفة علىٰ نفس المفهوم الفلسفي أيضا، وهذا واضح لا يماري فيه إلا متكلم!

والسبكي رحمه الله كان أذكىٰ وأحوط من أن يفوته ذلك الإلزام، فادعىٰ أن السلف الأول لا بد وأنهم «استدلوا» في يوم من الأيام، وإن لم يبلغنا أثر بذلك! فلا بد – بحسب مذهبه – أنهم تأملوا فيما إذا كان العالم مخلوقا أو غير مخلوق، فأبت عليهم عقولهم إلا القول بحدوثه، وإن كانوا لم يقفوا علىٰ دراية تفصيلية بكيفية الاستدلال «العلمي» أو «العقلي» لإثبات ذلك! وهذا ما سماه بإجمال متعمد «الاستدلال بدلائل الأنفس والآفاق» في قوله: «ومنهم من يستدل بدلائل الأنفس والآفاق من غير تقييد بأوضاع الجدل لا علىٰ طريقة المتكلمين ولا علىٰ طريقة أهل الحديث بل بحسب ما يترتب في ذهنه من ملكوت السماوات والأرض ودلالتها علىٰ صانعها، ويعرف ذلك معرفة محققة ويقدر علىٰ تقديرها بحسب ما تيسر له. وهذا أيضا من أهل العلم والمعرفة وإن لم يكن علىٰ طريقة الجدليين، بل طريقة هذا أنفع وأسلم وهذه طريقة السلف» قلت: ففي أي تلك الطوائف من أصحاب الاستدلال وضعت الصحابة ﭬ وبأي دليل (من أثرهم أو كلامهم)؟ وما حقيقة الاستدلال عندك أصلا إن لم يكن جاريا علىٰ مذهب الجدليين (أو من يسمون علىٰ اصطلاح الفلاسفة المعاصرين بالدليليين Evidentialists)[1] في ادعاء خلو النفس من أي معرفة فطرية أولية أو اعتقادات أساسية Properly

(١) الدليليون هم تلك الطائفة من فلاسفة المعرفة القائلة بأن الإنسان لا يسوغ له is not justified أن يعتنق أي اعتقاد «س» ما لم يكن لديه من الدليل المكتسب بعد النظر والاستدلال ما يعضد «س» ويثبته، فإن لم يكن لديه ذلك الدليل المكتسب فهو إذن «مقلد» Dependent بالنسبة للدعوى «س»، ولا يوصف «س» هذا بأنه معرفة Knowledge في حقه، وإن كان مطابقا للواقع. وهذا المذهب تغني حكايته عن تكلف إبطاله، لما فيه من تعميم فاحش غير مقبول! ذلك أن الإنسان إن كان مضطرا للاستناد إلى دليل ما في جميع الدعاوى المعرفية بلا استثناء، حتى يبني عليه معتقدا معينا يصح أن يقال له «معرفة»، فبأي شيء صح الدليل نفسه عنده (وهو في نفسه دعوى معرفية) وعلى أي أساس سلم بصحة مقدماته؟ إن قالوا بدليل آخر متقدم عليه فقد فتحوا باب التسلسل، وهذا واضح!

ولهذا يضطر الفلاسفة والنظار (واللاهوتيون والمتكلمون تبع لهم في ذلك) إلى التمسك بجملة من الدعاوى يعدونها «ضرورية» أو معلومة صحتها بنفسها ابتداء دون استدلال، ثم يجري النزاع والجدال فيما بينهم عليها بحسب المذهب الميتافزيقي الذي اختار كل واحد منهم أن يعتنقه! فكما ذكرنا في غير هذا الكتاب فإنك لن تبدأ النظر بطرح سؤال لا يصح طرحه للنظر أصلا لبداهة جوابه، ثم تقرر فيما استندت إليه من مقدمات

Basic Beliefs، وضرورة بناء أصول المعرفة الدينية بداية من اعتقاد «حدوث العالم ومخلوقيته» بإعمال طرائق النظر المؤدية إلىٰ اكتساب البراهين والأدلة؟ إما أن تثبت في النفس معرفة أولية فطرية لا يجد العاقل داعيا لإثباتها في نفسها، بحيث تكون هي أساس قبوله رسالة الرسول إذا ما بلغته، وإما أن تنفي تلك المعرفة بالكلية، وإذن يلزمك ألا تصحح إيمان من لم يستدل، وأن تجعل إيمانه كإيمان من دخل في دين المشركين بلا استدلال، أو قلد عليه آباءه جازما مصمما، كلاهما سواء في المذمة والمنقصة!

والقصد أنه ليس «الاستدلال» علىٰ معنىٰ واحد أو منهج واحد علىٰ التقديرين. فالمسألة ليست فرقا بين السلف والخلف (المتكلمين) في مقدار الإجمال أو التفصيل في الاستدلال، وإنما هي فرق في معنىٰ الدليل نفسه وفي طبيعة ما يصح أن يسمىٰ بالمعرفة عند الفريقين، ومن ثمّ علاقة الإيمان بذلك الاستدلال وبتلك المعرفة! فالمتكلمون واللاهوتيون من أهل الملل بعموم، علىٰ اختلاف فرقهم وطوائفهم، يشتركون في أصل كلي معرفي يجري بهم علىٰ مذهب الدليليين، القائلين - إجمالا - بأن المعرفة لا تحصل في النفس إلا باكتساب من بعد بحث ونظر واستدلال. وقد التزموا بذلك المذهب من حيث لا يشعرون (علىٰ تفاوت في وجوه ذلك الالتزام بين

براهينك أنها «ضرورية» إلا تناقضت بذلك، ولزمك ما يلزم الدليليين والجدليين من التسلسل في الاستدلال!

والواقع أنهم غارقون في ذلك التسلسل إلى حدّ ينتهي بأذكيائهم إلى الاعتراف بتكافؤ الأدلة وبأن المسألة لا أساس لها عندهم إلا التوفيق بين أطراف العقائد ظاهريا Coherence لا أكثر! وإلا فالمعتقد الواحد عند أي منهم لا يسلم من أن يكون اليوم ضروريا لمصلحة الجدال مع خصم من الخصوم، ثم يصبح غدا نظريا مطروحا للتشكيك وطلب الدليل المتقدم عليه عند مخاصمة غيره من الفلاسفة والنظار! ولا شك أن مبدأ الفلسفة نفسها (تلك الصنعة النظرية الأكاديمية التخصصية) مداره على فتح أي دعوى أيا ما كانت للتشكيك والاستدلال (من حيث المبدأ)، حتى من زعم في دعوى معينة أنها ضرورية بدهية أو من جملة الاعتقادات الأساسية Basic Beliefs (أي في تأسيس العقل البشري نفسه) فهو مطالب عندهم بتقديم الدليل على ذلك! ولهذا تحولت تلك المسألة نفسها (دعوى وجود جملة من المعارف لا تفتقر إلى استدلال خارجي) إلى مذهب من جملة المذاهب الفلسفية النظرية، وانفتح الجدال بين أصحابها إلى تسلسل آخر في التنظير الميتافزيقي المتهافت، بما لا يختار الواحد منهم اعتناقه إلا بحسب الهوى والمزاج، إذ ينتقي لنفسه من جملة النظريات ما يليق بعضه ببعض ظاهريا، كما يحرص أحدهم على أن يرتدي قميصا يليق بلون النعل في قدمه والسروال على ساقيه، ثم يأتي لتلك التوليفة برابطة عنق تناسبها مثلا! هذا هو شأن الفلاسفة في كل تنظير تكلفوه في الغيبيات والضروريات كما بيناه في هذا الكتاب وغيره، وإلى الله المشتكى!

طوائفهم) من أول يوم تصدر فيه أحدهم لمناظرة الفيلسوف الدهري في دعواه أن الأصل في العالم الاطراد والقدم وأنه لا يُعرف حدوثه إلا بدليل كسبي، وأنه لا يجد ذلك الدليل في نفسه، فضلا عما يدله علىٰ أن له صانعا بالغيب أحدثه، ولا علىٰ أن وراءه غيبا أصلا، يجيبونه لطلبه نصب البرهان النظري القياسي في جميع ذلك!

حتىٰ من قال منهم إنه يؤمن بوجود بعض المعارف الفطرية التي لا تفتقر إلىٰ استدلال (كأصحاب نظرية المعرفة المقوَّمة Reformed Epistemology) من النصارىٰ البروتستانت، فقد تناقض معرفيا إذ سعىٰ لإثبات صحة تلك الدعوىٰ نفسها بالدليل النظري الفلسفي كما ذكرنا في غير هذا الموضع! فاللاهوتي أو المتكلم لا همّ له إلا إظهار قيام دينه علىٰ «دليل علمي» من النوع الذي يستحسنه الأكاديميون الكبار المتصدرون في الخلق بعلومهم ونظرياتهم في زمانه! فإن مجرد ورود التهمة بمصادمة عقيدته لشيء من تلك العلوم والنظريات يعني التهمة بالسفاهة والعامية والجهل ونقص العقل ... إلخ، وهو ما لا يصبر عليه اللاهوتي أو المتكلم ولا يطيقه! لذا تحركت نفوس القوم بضرورة التصدر بالمناظرة وإظهار النِّدِّية (إن لم يظهروا العلو والتفوق) للفيلسوف المكابر المسفسط، حتىٰ يصبح إيمانهم قائما علىٰ أساس معرفي مقبول عند الخاصة من أهل زمانهم! ولكن نسي اللاهوتي والمتكلم في ذلك أو تناسيا أن هذا المسلك بمجرده يقتضي رفع نظرية الفيلسوف وشرطه في مفهوم المعرفة ومعنىٰ الدليل وحقيقة العلم علىٰ كل ما سواه مما يخالفه، وأنه يقتضي خضوعهما لتلك الفلسفة المعرفية الجدلية نفسها لا محالة، وإخضاعهما سائر مصادر التلقي المعرفي في الدين لها تبعا وبالضرورة! فإنه إذا كان الإيمان الجازم بوجود الصانع لا يتأسس في النفس إلا علىٰ تلك المقدمات النظرية الغيبية التي لا يعرف حدوث العالم علىٰ التحقيق إلا بها (عندهم)، فلا مفر من جعلها قطعيات عقلية منصرمة، ومن ثمّ حمل النصّ عليها بالتأويل المتكلف بل الباطني أحيانا!

فالذي أرجو أن يفهمه القارئ الكريم من هذا الكلام، أنني لست أَخُصّ بالنقد منهج الأشاعرة في المعرفة علىٰ وجه الخصوص، وإنما أستخرج أصل المنهج المعرفي عند

أصحاب اللاهوت والكلام بعموم، الذي هو منطلق وأساس علوم اللاهوت والكلام جميعا، حتىٰ يتبين أصل الخلل الكلي الذي أفرز تلك الطوائف القديمة المخالفة لنهج السلف مخالفة كلية كبرىٰ، ولا يزال يفرز المزيد من الطوائف المخالفة إلىٰ يومنا هذا (كما بيناه بحول الله وقوته في غير هذا الكتاب). وإنما نشهد للأشاعرة بأنهم كانوا من أقرب الفرق الكلامية القديمة في مجموع أقوالهم إلىٰ ما كان عليه الصحابة والسلف ﭫ.

يقول السبكي في وصف الفئة الثالثة من المستدلين (بعد المتكلمين وأهل الحديث بزعمه) التي لا تعرف الدليل إلا «إجمالا»: «ومنهم من يعرف تلك الأدلة بالإجمال دون التفصيل فيرشده إلىٰ الجزم والتصميم ولكن لجهله بالتفصيل لا يقدر علىٰ التقدير ودفع الشبه وهذا حال كثير من العوام فإنه قد يقرر في عقولهم بما شاهدوه من ملكوت السموات والأرض وحدانية الله وصدق رسوله في كل ما أخبر به بحيث لا يشكون في ذلك، ولم يكلفوا بأكثر من ذلك. والحاصل عندهم يسمىٰ اعتقادا ويسمىٰ علما لقيام الدليل الإجمالي عليه، وإن سماه بعض الناس تقليدا فلا مشاحة في التسمية، وإن نازع في الاكتفاء به لم يلتفت إليه لقيام الإجماع من زمن النبي ﷺ إلىٰ اليوم علىٰ تقرير العوام علىٰ ذلك، بل أقول: إن هذا ليس من العوام لاعتقاده الدليل الإجمالي بل هذا حال كثير من الأولياء الذين لم يمارسون العلوم، ولهذا نرىٰ كثيرا منهم يظهر عليه من الكرامات والخوارق ما لا يرتاب فيه ولو سألته عن تقرير دليل لم يعرفه، فهؤلاء الأصناف كلهم من أهل المعرفة وهم من الطبقة العليا.»

قلت: فهو ينسب إليهم العلم بالمجملات والجهل بالتفصيلات، والعجز عن دفع الشبهات علىٰ أثر ذلك الجهل. ويقول إنه حال كثير من العامة، ثم يأتي في آخر الفقرة نفسها ليقول: «بل أقول إن هذا ليس من العوام»! فأي اضطراب فوق هذا؟

وأما قوله «والحاصل عندهم يسمىٰ اعتقادا ويسمىٰ علما لقيام الدليل الإجمالي عليه، وإن سماه بعض الناس تقليدا فلا مشاحة في التسمية» فكيف لا مشاحة في التسمية وقد ترتب عليها ما تعلمون من نزاع طوائفكم في باب الأسماء والأحكام (سواء علىٰ استعماله الأول أو الثاني فيما حرره الرجل نفسه في أول الجواب)؟ وفي

نهاية الفقرة كما ترىٰ يصف من ثبتت له الكرامات والخوارق من هؤلاء بأنه من أهل المعرفة والطبقة العليا، فكيف وقد أثبتّ لهم من قبل الجهل بالتفصيل المعرفي والعجز عن دفع الشبهات؟ وبأي شيء استحقوا الكرامة إذن وقد بنوا إيمانهم اليقيني علىٰ دليل لا ينهض بالمطلوب، أو علىٰ التقليد المذموم عندكم، فاستووا فيه بالمؤمنين بالملل الشركية؟

هذا – أيها القارئ الكريم – كلام من يتكلف غاية التكلف ويبذل غاية الوسع في التوفيق بين مذهب الفلاسفة الجدليين ومذهب السلف أهل الحديث، دون أن يطعن في بعض مشايخه وأساتذته أو يقرر ما يرجع عليهم بالطعن بالمقتضىٰ واللزوم، وإن كان ما ينتصر له من أقوالهم في ذلك من أبطل الباطل ومن أكثر المذاهب تناقضا، فهذا هو مسلك المتعصبين في الانتصار لأئمتهم وكبرائهم، والله المستعان. فلا يزال يأبىٰ أن يشهد ويقر بأن الإيمان واليقين الذي يستحق أصحابه الدرجة والمنزلة عند الله تعالىٰ، لا يتحقق في النفس من طريق الاستدلال علىٰ مفهومه الكلامي أصلا، وإنما هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإن انتفت الأهواء الصارفة، انشرح الصدر لقبول الحق الواضح وحصل الإيمان بمن الله تعالىٰ وفضله! أما الاستدلال فطريقة من فتنتهم نظريات الفلاسفة وتقلبت بهم قلوبهم في موارد الشك والاضطراب والحيرة، فصار الواحد منهم لا يكاد يميز يمينه من شماله! إنه بضاعة من أخذت الفتنة بنظريات الفلاسفة بتلابيب قلبه حتىٰ أصبح لا يرىٰ مخرجا لدينه وإيمانه إلا بأن يتخذ لنفسه حظا منها أو نظيرا لها، ينافس به أصحابها عند المخاصمة حتىٰ لا يتهم بالنقص والقصور عن ذلك والجهل به! فلو صدق السبكي رحمه الله لقرر هذا المعنىٰ صريحا واضحا، كما صرح به أئمة السنة ﷺ من قبل! أما أن يشير علىٰ استحياء إلىٰ أن الدليل الكلامي صعب المسلك وأنه قد يدخل منه الشك والحيرة وكذا، فيجعله في أدنىٰ منازل «الأدلة»، مع التسوية بين منهج المتكلمين ومنهج من سماهم بأهل الحديث في ذلك الشأن إجمالا، بداية من مفهوم الدليل نفسه وحدّ العلم والمعرفة ومعنىٰ النظر والتقليد .. إلخ، فهذا من التلبيس ولا شك.

فإذا كانت تلك هي الطبقة التي يصفها بأنها من العارفين أصحاب الاستدلال، فما صفة الطبقة الثانية لديه؟ يقول: «الطبقة الثانية: الذين لا دليل عندهم البتة، لا إجمالا ولا تفصيلا، بل عندهم عقيدة جازمة قد صمموا عليها وأخذوها عن آبائهم المؤمنين علىٰ ما نشئوا عليه من غير نظر أصلا، وهذا في تصويره عسر، فإن الظاهر أن الإنسان إذا مضىٰ عليه زمن لا بد أن ينظر ويصل إليه من الدلائل ما يحصل له به الالتحاق إلىٰ الطبقة الأولىٰ، فإن فرض من ليس كذلك وأنه ليس عندهم إلا تصميم تقليدي، فهذا هو الذي ينبغي أن يكون محل الخلاف، فأبو هاشم يقول بكفره، وطائفة من أهل السنة يقولون بإيمانه، ولكنه عاص بترك النظر، والصحيح من مذهب أهل السنة أنه ليس بعاص بل هو مطيع مؤمن، لأن الله تعالىٰ لم يكلفه إلا الاعتقاد الجازم المطابق وقد حصل.»

قلت: فلو كان السبكي حيا بيننا اليوم لسألته: هل تكلفت أنت النظر في وجود الباري يوما من الدهر، إلا بعدما تعرضت لبضاعة الفلاسفة والمتكلمين وتتلمذت علىٰ أئمة طائفة من طوائفهم؟ فإنه والله لا «يستدل» لإثبات وجود الباري علىٰ تلك الطريقة الإبليسية، المؤسسة علىٰ نفي المعرفة الفطرية نفسها، إلا الفلاسفة واللاهوتيون والمتكلمون وأضرابهم ممن تجاذبتهم تلك الأهواء من كل جانب! فقوله في وصف من لم يستدل: «بل عندهم عقيدة جازمة قد صمموا عليها وأخذوها عن آبائهم المؤمنين علىٰ ما نشئوا عليه من غير نظر أصلا» هذا الكلام إذا انضاف إليه القول بنفي المعرفة الفطرية، لم يبق لصاحبه معيار للمفاضلة في الأساس المعرفي للإيمان بين من قلد أباه علىٰ اليهودية ومن قلده علىٰ النصرانية ومن قلده علىٰ الإسلام، فتأمل! وإذن فلا معنىٰ أصلا للحديث «كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، بل للزم أن يقول «كل مولود يولد علىٰ الجهل [1]، وأبواه إما يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه

---

(١) أو «السذاجة» كما في تعبير المعتزلة الذي وافقهم الأشاعرة على معناه. قالوا إن قوله ﷺ «يولد على الفطرة» أي يولد خالي النفس ساذجا كالورقة البيضاء ليس فيها شيء! وهذا من مكابرة المحسوس والمعقول ولا شك، كما بسط الكلام عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في درء التعارض. وهو أصل أصول الكلام في نظريتهم المعرفية الذي إذا سقط، سقط الكلام كله تبعا، لأنهم يزعمون افتقار العاقل إلى نظر واستدلال حتى يعرف ما نزعم نحن وسلف الأمة من قبلنا أنه معلوم بالفطرة سلفا!

أو يؤسلمانه»! ذلك أن المبدأ واحد عند الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين بصرف النظر عن موضوع الدين الذي ينشأ عليه المولود: أنه من التقليد واتباع الآباء بلا دليل ولا نظر، حتىٰ يبلغ أن يستقل بالنظر، بأيما صورة كان ذلك!

فلا شك أن قوله بصعوبة تصور وجود من لم يستدل من المسلمين علىٰ حدوث العالم ثم علىٰ وجود الباري ثم علىٰ صدق النبوة (علىٰ مفهومه للاستدلال وترتيب القضية لديه هو وأقرانه)، مكابرة واضحة! فإنه لم يستدل علىٰ هذه الطريقة الجدلية إلا من تلبس بالفلسفة والكلام وخضع لفرية الفلاسفة في أصل المعرفة ولإسقاطهم دلالة الفطرة في نفوس البشر!

يقول «فإن الظاهر أن الإنسان إذا مضىٰ عليه زمن لا بد أن ينظر ويصل إليه من الدلائل ما يحصل له به الالتحاق إلىٰ الطبقة الأولىٰ» قلت: أين ظهر لك وقوع ذاك النظر المتكلف المزعوم عند «الإنسان» (هكذا، بإطلاق نوعي) وما دليله؟ حتىٰ الطفل الصغير يعلم من غير ما استدلال أن للزهرة صانعا وأن للأشياء الجميلة خالقا وأنه يستحق أن يشكر، وهو أمر لا يماري فيه كثير من دهرية العصر أصلا [1]! هذه معرفة تحصل في نفوس البشر بمجرد حصول التمييز والإدراك اللغوي عندهم، كما يعرفون أن الماضي

ولو صح زعمهم بأننا نولد بنفس خالية تمام الخلو من المعرفة لما استقام لعاقل أن يميز الضروريات البدهية نفسها مما سواها، وإذن لما كان له عقل يمكنه من تعلم ألفاظ اللغة في السنوات الأولى من صباه، إذ يربط بين الألفاظ المسموعة ومعانيها المعقولة في ذهنه، ويحكم بتلك المعرفة الفطرية بالقبول أو الرد في المعاني التي تصادم عقله، وإذن لما عرف معنى الحق ومعنى الدليل ولما عقل دلالته (وهو ما يصير به مميزا عاقلا)، ولما عرف أن الواحد نصف الاثنين وأن الماضي قد ولى وانصرم وأن المستقبل لا يزال مقبلا، ولما عرف أن الخير أحسن من الشر وأن العدل أحسن من الظلم وأن البطش والإيلام بلا موجب من الظلم، ولما عرف أن عمه هو أخو أبيه وأن الأعزب غير متزوج، وأن كل حادث له محدث وكل مفعول له فاعل، إلى آخر تلك المعاني الضرورية البدهية الأولية (أو الاعتقادات الأساسية)، بل لما عرف كيف يلقم ثدي أمه رضيعا من الأصل، وإذن لهلك في مهده! هذه المعارف غير المكتسبة كلها ونحوها يلزم نفيها من نفي الفطرة في المولود، وهو ما يترتب عليه نفي آلة العقل وآلة المنطق اللغوي نفسه التي هي الأصل الذي تترتب عليه سائر المعارف المكتسبة عند الإنسان، فتأمل!

(١) يرى كثير من الدهريين المعاصرين من الدراونة وأضرابهم أن هذه المعرفة لدى الأطفال إنما تبدو فطرية لأنها من بقايا الارتقاء الدارويني المزعوم في نفوسنا، فترانا نميل من غير شعور منا إلى نسبة العالم وما فيه إلى فاعل مريد ذي صفات «شخصية» (هكذا قالوا)!

قد مر تحقيقا وانصرم، وأن المستقبل لم يأت بعد، وأن الحاضر هو ما يشهدونه الآن في هذه اللحظة، وكما أعلم أنا بيقين أنني الآن أكتب هذه الكلمات حقا وصدقا لا وهما ولا خيالا، وكما يعلمون أن ما تخبرهم به ذاكرتهم من خبراتهم الماضية حق لا وهم (إلا عند من وجد سببا معتبرا لاعتقاد أنه مريض في عقله أو في إدراكه وشعوره)، وأن الواقع الخارجي الذي يؤثرون فيه ويتأثرون به من حولهم حق لا وهم، إلىٰ آخر ما عرفوه في نفوسهم من أنواع المعارف الحاصلة من مبدأ العقل نفسه بلا اكتساب أو استدلال! فكذلك الاعتقاد بأنهم مخلوقون مصنوعون، وبأن صانعهم هو صانع كل شيء، وبأنه لا قياس له علىٰ شيء من خلقه، وبأنه هو المستحق لكل عبادة وكل تأليه وحده بلا شريك ولا ندّ ولا مكافئ! وكذلك الاعتقاد بأن الواحد نصف الاثنين وأن الأعزب غير متزوج وأن الحادث له محدث والفعل له فاعل والأثر له مؤثر، هذه كلها متلازمات معنوية أولية أساسية لا قيام للعقل نفسه إلا عليها ولا صحة لتلك المعاني الذهنية التي تتأسس عليها اللغة نفسها (أو ما يسمىٰ إجمالا باللغة الطبيعية)، إلا بها!

يقول: «فإن فرض من ليس كذلك (أي لم يستدل يوما من الدهر) وأنه ليس عندهم إلا تصميم تقليدي، فهذا هو الذي ينبغي أن يكون محل الخلاف، فأبو هاشم يقول بكفره، وطائفة من أهل السنة يقولون بإيمانه ولكنه عاص بترك النظر، والصحيح من مذهب أهل السنة أنه ليس بعاص بل هو مطيع مؤمن، لأن الله تعالىٰ لم يكلفه إلا الاعتقاد الجازم المطابق وقد حصل».

قلت: بل لو سلمنا بأنه لا معرفة لديه ولا أساس عنده لقبول الحق علىٰ أنه حق، فالله يكلفه بالاستدلال والنظر قطعا، لا بمجرد الاعتقاد الجازم المطابق، وهذا في كل مسألة يتصور فيها حصول المعرفة اكتسابا من بعد جهل! فكل ما في القرآن والسنة من أدلة كلية وجزئية علىٰ وجوب الاستنباط والاجتهاد في موارد النظر من مسائل العلوم الشرعية، تدل علىٰ هذا المعنىٰ! ولا شك أن الأخذ بأسباب حصول المعرفة بوجود الباري والنظر في ذلك يكون إذن أوجب واجبات المكلفين علىٰ الإطلاق، لأنه أصل أصول الملة، التي ينبني عليها الاعتقاد نفسه، وبدونه لا يكون ثمة أساس للنظر في أي شيء أصلا!

فإما أن تقولوا إن النظر في وجود الباري، علىٰ أكمل ما يحصل به ذلك، واجب يأثم تاركه كما يأثم المفرط في كل نظر واجب (إذا ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، وإما أن تقولوا إن كافة المسائل النظرية والعملية في أمر الدين بلا استثناء (بما فيها وجود الباري عندكم)، لم يكلف الله المسلم فيها بأكثر من تحصيل الاعتقاد الجازم المطابق بصرف النظر عن طريق حصوله عنده! فما دام المقلد قد اتُفق له أن كان مقلدا في القول الحق، فلا تثريب عليه أن كان جاهلا بالدليل، ولا يأثم بالتفريط في ذلك مع الاستطاعة، أو مع وجود القدرة علىٰ الأخذ بأسباب درك الدليل وإتقان النظر، إذ العبرة في حصول المقصود إنما هي بما إذا كان قد وافق الحق أم لا، بصرف النظر عن الطريق التي وصل منها إلىٰ ذلك! وعليه فلو أن قاضيا حكم في خصومة من الخصومات من غير أن يكون لديه دليل صحيح، فأصاب الحق بحكمه اتفاقا من غير علم ولا استفراغ الوسع في البحث وجمع القرائن والأدلة، فإنه يلزمكم تصويب مسلكه وعدم تأثيمه (وهو ما يصادم النص الصريح في السنة كما هو معلوم)!

فما كان جوابكم عن هذا الإلزام، فهو جوابنا عما زعمتموه في تلك المسألة (التي جعلتموها من المسائل النظرية الاستدلالية) من أن مجرد موافقة الحق تكفي من لم يستدل ولم ينظر واكتفىٰ بالتقليد المحض، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم!

والقصد أن الذين خالفوا السبكي وموافقيه في قوله في هذه المسألة (الذي هو قول أكثر الأشاعرة) وقالوا بتأثيم هذا المقلد المذكور، لم يبلغ بهم تناقضهم وتفريقهم بين المتساويات والمتماثلات ما بلغ بأصحاب هذا القول! وإنما حملهم عليه علمهم بأنهم إن قالوا بالتأثيم فقد خالفوا إجماعا من إجماعات المسلمين قد سبق منهم العزم والحرص علىٰ التعلق به وإثباته. وإلا فلو كان لهم غرض فلسفي برهاني، أو مصلحة فردية أو طائفية في مخالفة هذا الإجماع نفسه ونفيه وادعاء عدم صحته رأسا كما شذوا عن غيره من إجماعات السلف (بداية من أصل منهجهم في الانتصار لأصول الدين، الذي هو أصل علم الكلام نفسه) لما تكلفوا ما تكلفه السبكي في هذا النقل من محاولة التوفيق بينه وبين نظريتهم المعرفية، وإذن لرأيتهم يوافقون القائلين بالتأثيم، بل ولربما ارتضوا قول غلاة المعتزلة بالتكفير!

والقصد أن دعوىٰ أن الله لم يكلف المسلمين في أصل أصول الدين إلا الاعتقاد المطابق الجازم بصرف النظر عن سبب الجزم وطريق حصوله عندهم، دعوىٰ لا مخرج لهم فيها من التناقض كما يظنون.

هذا وسيأتي معك أيها القارئ الكريم في الأبواب التالية من هذا الكتاب بيان أن التفلسف في الغيبيات والإلهيات (والتكلم فيها - أي علىٰ طرائق أهل الكلام - تبعا) إنما هو مرض نفسي عقلي خبيث في الحقيقة، يقلب البدهيات الأولية اليقينية إلىٰ ظنيات نظرية احتمالية تفتقر إلىٰ تحليل وتفكيك واستدلال، وليس هو فضيلة معرفية أو «عرفانية» أو عقلية كما يزعمه أصحابه لأنفسهم! وهو مرض لا برء لهم منه إلا بأن يعالجوا نفوسهم بما جاء به القرآن من بشارة ونذارة، فإن آمنوا (وهو بعيد نادر الوقوع) فقد انشرحت صدورهم لبغض الباطل وكراهية العبث واللغو والتنطع وأهله والنفور منهم، ولمحبة الحق الذي عرفوا أنه لا حق سواه ومحبة أهله والتودد إليهم، وإذن فقد زالت الغشاوة من علىٰ أعينهم والقفل من علىٰ صدورهم ووافقوا العقلاء الأسوياء في ذلك، وإذن فقد اهتدوا وانعقد اليقين الصحيح في قلوبهم ولله الحمد، وإن صدوا واستكبروا وقالوا لا يكفينا هذا الكلام الذي تنسبونه إلىٰ ربكم، بل نراه مفتقرا إلىٰ الاستدلال النظري والبرهان الفلسفي لإثبات وجود الباري نفسه من الأساس (وهم أصحاب كبر وجحود وغرور عظيم بمجرد حقيقة إلحادهم وتشككهم نفسها، مهما زعموا خلاف ذلك)، فليشربوا صدورهم بما يحلو لهم من بضاعة الفلاسفة واللاهوتيين وأهل الكلام، وإذن فليغرقوا أبدا في بحار الشك والتكافؤ القياسي، وفي حمأة الجحود والاستكبار والمراء الخبيث، ومن يضلل الله فلا هادي له، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

فصل: في الفرقان بين عبادة التفكر في خلق الله وممارسة النظر الكلامي في خلق الله

مما قد يورده بعض المتكلمين والمتأثرين بهم علىٰ ما حررته في هذا الكتاب مما أزعم أنه الموقف السلفي الصحيح فيما يتعلق بمحاجة المشركين من الوثنيين وأهل الكتاب والملاحدة والفلاسفة بطبقاتهم ودرجاتهم، قولهم «إذا كان الله تعالىٰ قد شرع لنا التفكر فيه، وأثنىٰ علىٰ الذين يكثرون من التفكر في خلق الله تعالىٰ فيوصلهم ذلك إلىٰ مزيد من الإيمان واليقين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [**آل عمران**: ١٩١] فالتفنن في صياغة الأدلة الكلامية والبراهين النظرية (كدليل حدوث العالم مثلا) لإثبات وجود الباري هو من تلك البابة.»

ونقول كلا ليس منها والله، بل هو علىٰ نقيض مقصودها عند التأمل!

ذلك أن الآية تنص علىٰ التفكر في خلق السماوات والأرض وعظم ذلك الخلق وطلاقة قدرة الباري فيه، وهذا أمر جلي ظاهر لا يحتاج من العاقل إلىٰ أكثر من أن يقلّب عينيه في السماوات والأرض، ثم يتذكر أن الذي خلقهما هو أعظم وأكبر منهما يقينا، وأنه علىٰ كل شيء قدير، فيحصل له في نفسه من زيادة الإيمان واليقين ما هو مقصود من تلك العبادة. أما الأدلة الكلامية كدليل حدوث العالم مثلا، فلا تبدأ من استصحاب المعرفة بحقيقة وجود الباري وحقيقة أن العالم صنعته وخلقته، بل يراد منها أن تكون أداة تدل العقل علىٰ هاتين الحقيقتين وتوصله إلىٰ إثباتهما وكأنه لا يجد في نفسه علما بهما من الأساس! فكيف يرجىٰ من هذا المسلك في نفس الإنسان مثل ما يرجىٰ من المسلك الأول (الذي أثنىٰ الله علىٰ أهله في القرآن) من تحقق اليقين وزيادة الإيمان؟ أبدا والله، بل هذا من التكلف والتعمق والفكر المذموم في السنة، وما يفضي هذا المسلك النظري إلا إلىٰ الشك والريبة واضطراب القلوب والنفوس، أو إلىٰ تقسية القلب علىٰ أقل تقدير، نسأل الله السلامة!

ذلك أن الدليل المزعوم إذا ما حرره صاحبه، توارد عليه الخصوم باعتراضاتهم النظرية [1] التي قد تتجه وقد لا تتجه، ولهم في الاعتراض حق عرفي يكتسبونه من مجرد حقيقة أن ما مع المتكلم لا يوصف (نوعا) إلا بأنه دليل «نظري»، أي أن الإنسان يحتاج إلىٰ تكلف التحرير والتقرير الكلامي وبناء النتائج علىٰ المقدمات علىٰ طريقة النظار حتىٰ يتحصل علىٰ «دليل» يوصله إلىٰ المطلوب. فإن كنت ناظرا ودليلك نظري بطبيعته وبشهادتك أنت كمتكلم، فعليك أن تقبل اعتراض الخصم «الناظر أيضا» عليه، وأعني مبدأ الاعتراض والرد النظري، إذ لا فضل لرأي عقلي علىٰ رأي عقلي آخر من حيث الأصل! فكيف وبأي فقه أو عقل يقال إن هذا هو ما دعا إليه رب العالمين عباده المؤمنين (لا المشركين المتكبرين) من التفكر في خلق السماوات والأرض، حتىٰ يصلوا إلىٰ تحقيق المزيد من الإيمان واليقين بعظمته وجلال قدرته جل وعلا؟

كيف يستوي من يتفكر في عظم وسعة الخلق ليستشعر الرهبة والخوف من قدرة الخالق سبحانه بمجرد ذلك، ويجد نفسه محمولا علىٰ أن يسبح الرب ويحمده ويقول «سبحانك ما خلقت هذا باطلا فقنا عذاب النار»، بالذي يتفكر فيما إذا كانت السماوات والأرض مخلوقتين مصنوعتين من الأساس، ويتكلف البحث عن دليل نظري يثبت به مخلوقيتهما، ويقال إن هذا الأخير داخل في ثناء الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض؟ هذان ورب الكعبة طريقان متعاكسان علىٰ ما في كل منهما من إعمال للعقل [2]، أحدهما يزيدك يقينا، بينما لا يكسبك الآخر إلا الشك والريبة والحيرة والاضطراب ورهق القلب!

---

(١) كما بينا ذلك في هذا الكتاب وضربنا له من الأمثلة ما نرجو ألا نكون قد أفرطنا فيه ووقعنا به فيما نحذر الناس منه من حيث لا نشعر!

(٢) وأقول «العقل» لا «النظر»، حتى لا يشتبه مفهوم العمل العقلي الذي تدعو إليه هذه الآية ونحوها بالعمل العقلي الذي يمارسه أهل الكلام والفلسفة، فإنه ليس كل إعمال للعقل يقال له «نظر» كما أرجو أن يكون قد اتضح للقارئ الذي بلغ هذا الموضع من الكتاب! وقد رأيت في كلام بعض أئمة المسلمين أنهم يطلقون لفظة «نظر» ولا يريدون بها ما يسلكه المتكلمون والفلاسفة من مسالك، وإنما يريدون ما تدعو إليه تلك الآية الكريمة وننتصر له في هذا الكتاب من طريق يزيد اليقين عند المؤمن وينميه، فلينتبه إلى هذا.

فأما طريق المؤمن فيبدأ من التأسيس علىٰ الحق البدهي الفطري المركوز في نفسه من غير أن يسائله أو يطلب إثباته، ليصل بالتفكر (في معطيات الحس من حوله لا في ذلك الحق البدهي في نفسه) إلىٰ زيادة الإيمان، وأما المتكلم والمتفلسف فيبدأ من مقدمات عقلية (في الذهن) وحسية (خارج الذهن) لينتهي إلىٰ ما يبدأ منه المؤمنون ويؤسسون عليه! المؤمن يبدأ تفكره بالقول بأن الله خالق السماوات والأرض يقينا، فإذا ما تأمل فيهما ازداد يقينه وإيمانه، بينما يبدأ المتكلم تفكره بالاستدلال علىٰ مخلوقية السماوات والأرض من الأساس، فإذا ما قلب النظر فيهما، كان غاية رجائه أن يتمكن من التوصل إلىٰ برهان نظري يثبت به صحة ما يجزم به العقلاء من عوام المؤمنين في ذلك ابتداء، لعله يتمكن من إسكات الفيلسوف الملحد عند الجدال (وما كان الملحد ليسكت أبدا إلا أن يشاء الله)! لذا لا ينقضي عجبي من كون المتكلمين لا يفتؤون في كل مناسبة يكررون دعواهم أن طريقتهم هذه يوصل منها إلىٰ اليقين وتحقيق الإيمان، فأي يقين وأي إيمان يا من خذلتم الحق الجلي الباهر وأحلتموه إلىٰ نظرية تتنازعها «الأدلة» وأنتم في الوقت نفسه تزعمون أنه علم ظاهر جلي ضروري، أفلا تعقلون؟

يقول المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [**الحشر**: ٢١] ففي هذه الآية الكريمة يضرب الله مثلا يبين به للثقلين من الإنس والجن جميعا ما ينبغي أن يتحصل من أثر سماع القرآن في نفوس العقلاء الأسوياء منهم، بقياس الأولىٰ، ثم يقرر أن هذا المثل ونحوه هو مما يضربه الله تعالىٰ للناس حتىٰ يتفكروا في آيات الله وآلائه! فالتفكر المندوب إليه ها هنا كما ترىٰ ليس النظر في «أدلة حدوث العالم» أو «أدلة وجود الصانع» أو نحو ذلك من ألوان التنطع الفلسفي، وإنما التفكر فيما يكون من خشية وتصدع في نفوس الأسوياء السالمين من الأهواء، من مجرد سماع هذا القرآن! فمن لم يجد ذلك في نفسه فلينظر فيما يجد فيها من موانع، وليستبطن منها العلل التي منعتها من أن تكون كذلك!

ولعله لو صدق وتجرد للحق لوجد أن اشتغاله بتلك الأدلة الكلامية التي أراد أن يجادل بها الفلاسفة ومن شاكلهم، إنما هو من جملة تلك العلل والموانع، والله المستعان! فمعلوم أن تلك المجادلة العبثية مما يقسي النفس ويمرضها لأنه يشوش علىٰ الفطرة فيها ويحجبها، فيقلل من مقدار ما فيها من خشية لله جل وعلا، ولا عجب! فمهما كان الإنسان حريصا علىٰ كثرة العبادة والعمل في سبيل الله تعالىٰ، ثم كثر منه الاشتغال ببضاعة الملاحدة ودعاواهم والتفنن في الرد عليهم، فستألف نفسه – رضي أم أبىٰ – التعرض لصنف من الكلام والدعاوىٰ كان لو سمعه من قبل لانتفض له بدنه ولوقف منه شعر رأسه، ولكاد قلبه أن يسقط في جوفه من مجرد سماعه! وقديما قالوا إن كثرة المسّ تميت الحسّ! لذا لا نتصور من سلفنا ﷺ إلا الحرص علىٰ قلوبهم وقلوب المسلمين، ولهذا ما وافتهم المنية إلا وهم أبر الناس نفوسا وأطهرهم قلوبا! ولولا الضرورة الشرعية ما تكلفوا الرد علىٰ بدع المتكلمين وضلالاتهم وتنظيراتهم الفاسدة!

فخبرني بالله عليك أيها القارئ الكريم، كيف يكون التفكر المذكور ها هنا وفي غير موضع من كتاب الله تعالىٰ هو علم الكلام والبرهان الكلامي علىٰ وجود الباري ونحو ذلك مما يدخل في بابته؟ هذا محال! بل كيف يكون البرهان العقلي الذي جاء به القرآن برهانا منطقيا علىٰ المفهوم الفلسفي والكلامي للبرهان العقلي؟ أبدا والله ما رأينا شيئا من ذلك في كتاب الله طرفة عين! هذا القرآن لو نزل علىٰ جبل لهدمه من شدة ما فيه من وعظ وزجر وإيقاظ لقلوب الغافلين، وما ذاك إلا لأن دعوة التوحيد التي جاء بها لا يماري فيها بل لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه! والله تعالىٰ يصرح بهذا المعنىٰ كما في قوله: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [**البقرة**: ١٣٠] والرغبة عن الشيء الإعراض عنه وتجنبه ومفارقته! فما بالك بمن أقبل عليه مجادلا مماريا؟ هذا سفيه ولا شك، ولا يجادل السفيه ولا يخوض معه في سفاهته يقابل سفسطته بمثلها من نوعها، إلا من استهوته تلك السفسطة وفتنه بهرجها وزخرفها اللفظي فلم يرها علىٰ حقيقتها ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول الملك: ﴿**فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ [**النازعات**: ٣٧ – ٤١] فتأمل كيف جعل ربنا سبحانه الخوف من مقام الرب ونهي النفس عن الهوىٰ هو ما يوجب لصاحبه الجنة، وليس التفكر في الحجج والبراهين النظرية ومقارنتها وموازنتها حتىٰ يستدل بها علىٰ أن الله حق وأن الرسول حق! وما ذاك إلا لأن من نهىٰ النفس عن الهوىٰ (والمقصود بالهوىٰ إيثار الحياة الدنيا) فسيظهر له من أول وهلة أن القرآن حق وأن التوحيد الخالص الذي جاء به محمد ﷺ هو دين الله قطعا ومراده من عباده يقينا، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك! هذا أمر لا يحتاج إلىٰ استدلال ونظر وإنما إلىٰ عزم وقوة وصدق مع النفس، حتىٰ تنتهي عن تلك الأهواء التي تصرفها عن العمل بمقتضىٰ العقل السوي الصريح بإزاء ذلك النص المنزل الذي لا ينزل علىٰ نفس سوية إلا قطعت بأنه من عند خالقها وباريها، بلا تردد ولا توقف!

فالحاصل أننا لا ننفي فعل «التفكر» عن المتكلمين والفلاسفة في هذه القضية (خلق السماوات والأرض)، فهم متفكرون ولا شك، وهم يُعملون عقولهم قطعا، ولعلهم يتعمقون بها إلىٰ معان دقيقة لا يدركها كثير من الناس إلا بعد عناء ومشقة، ولكن هل يُحمدون علىٰ هذا التفكر؟ وهل يدخل تفكرهم في ذاك الصنف المحمود في القرآن؟ أبدا والله، وإنما يدخل في نحو قوله تعالىٰ: ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٥٨]، وفيما جاءت به السنة من ذمّ التنطع والتكلف والتعمق، فشتان شتان بين تفكر وتفكر!

وقد يقول بعضهم إن الرد علىٰ المتكلمين كالرد علىٰ الفلاسفة، يتطلب تحرير البرهان النظري العقلي، فما بالكم تجيزون الرد علىٰ المتكلمين وبيان بطلان أقوالهم، وتمنعون الرد علىٰ الفلاسفة، وهما صنوان من بابة واحدة؟ ونقول إن هذا كلام فاسد من وجهين: فأما الوجه الأول فلأن الفلاسفة إن جادلوا في البدهيات الأولىٰ (كوجود الباري جل وعلا) فالأصل ألا نتكلف الرد عليهم ولا نلتفت إليهم، ونكتفي بتذكير العقلاء من المسلمين بأن من جادل في وجود ربه فلا فرق بينه وبين من نازع في وجود عقله: كلاهما جاحد ممار مريض النفس فلا يخاطب بشيء أصلا! وأما المتكلم إن

جادل في اعتقاد المسلمين في أسماء الله وصفاته وفي تأويل كتاب رب العالمين، فلا يجوز السكوت عنه بل يجب دفع شبهته عن عامة المسلمين بالبرهان الشرعي المحرر من القرآن والسنة، لأن من تأويلاتهم وضلالتهم ما قد يخفىٰ دليل بطلانه علىٰ العامة! وأما الوجه الثاني، فلأن الرد علىٰ المتكلمين لا يلزم أن يكون بنفس طريقتهم في الاستدلال النظري، ولو كان كذلك لم يكن ردا علىٰ التحقيق، بل كان نزاعا كلاميا من جملة ما هم غارقون فيه فيما بينهم! وإنما رد عليهم أئمة السنة – من جهة الأصل في الحجاج وبناء الجواب – بقواطع القرآن والسنة، وما كان عليه الصحابة والسلف من فهم مأثور، وليس بصياغة البراهين الكلامية علىٰ طريقة الفلاسفة!

فما رأينا من أئمة السنة من يتكلف اختراع برهان نظري – علىٰ طريقة الفلاسفة – علىٰ وجود الباري يقدمه للمتكلمين ليجعلوه في محل ما ينخرم من براهينهم ونظرياتهم عند مجادلة الملاحدة والدهريين! وما رأينا منهم من يبطل بعض كليات المتكلمين ومقدماتهم وقواعدهم ليضع في مكانها قواعد أخرىٰ من مثلها (كما صنعته الأشاعرة في الرد علىٰ المعتزلة مثلا)! ولو فعلوا لاضطروا لاستعمال تلك المصطلحات المشتبهة التي استعملها المتكلمون كالجوهر والعرض والحدوث والقدم .. الخ، أو إلىٰ اختراع مصطلحات مثلها في الاشتباه أو أشد، في مقام إثبات معان يفترض أن النص قد جاء بها واضحة صريحة، أو أنها مما علم ببداهة العقل ولم يفتقر إلىٰ تنصيص أو إثبات، وهو ما لم يكن ولله الحمد! وإنما رأينا أئمة السنة يفككون إجمال تلك المصطلحات ويتتبعون معانيها ومعاني ما قعده المتكلمون من قواعد باستعمالها، جعلوها هي أصل أصول الدين والملة، حتىٰ يبينوا بطلانها ومخالفتها لصريح العقل وما يترتب عليها من لوازم ومقتضيات مهلكة أولا، ومخالفتها لصحيح النقل ثانيا.

ولا شك أن من العلماء من وقع منه شيء من الخوض بالنظر في بعض كلام الفلاسفة فيما لا يفتقر إلىٰ دليل ولا نظر أصلا (وقلّ من يسلم من ذلك في الحقيقة عند تناول تلك البضاعة الخبيثة)، ولكن في الوقت الذي جعل المتكلمون فيه ذلك النظر منهجا ونحلة أسسوا عليها دينهم كله، ترىٰ أهل السنة يمنعون منه ابتداءً ويشددون

في ذلك، ولا يخوضون في ذلك إلا في أضيق الحدود وبأحكم العبارات وأبعدها عن موارد الإجمال!

فعلىٰ سبيل المثل، من يتأمل في كتاب أبي محمد ابن حزم الموسوم بـ«الفصل في الملل والأهواء والنحل»، يجده قد كتبه بطريقة المتكلم الذي يلزم نفسه بشرط المتكلم والفيلسوف في إجابة البرهان النظري ببرهان نظري مثله، ملتزما المنهج نفسه والأصول الكلية نفسها والحدود والتعاريف نفسها، في سعي واضح لإظهار علوه العقلي علىٰ هؤلاء (كما كانوا ولا يزالون يتنافسون بذلك فيما بينهم)، فأورده ذلك المسلك مورد الجهمية والفلاسفة، ووقع علىٰ أثره فيما لا تحمد عقباه![1] بينما لو تأملت في مصنفات

---

(١) تأمل معي – على ذكر كتاب «الفِصَل» – فيما تفنن في اختراعه ابن حزم الظاهري من «برهان عقلي» لإثبات وجود الباري جل وعلا، ولننظر هل يستحق ذلك المسلك أن ينسب إلى «العقل» حقا أم أنه إلى خلاف ذلك أقرب! يقول – عفا الله عنه – (الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج. ١، ص ٥٩–٦٠):

«وَهَذَا حِين نبدأ بعون الله وتوفيقه وتأييده إن شَاءَ الله لَا إِلَه إِلَّا هُوَ فِي تَبْيِين أَن الْوَاحِد لَيْسَ عددا فَنَقُول وَبِاللَّه التَّوْفِيق أَن خَاصَّة الْعدَد هُوَ أَن يُوجد عدد آخر مساو لَهُ وَعدد آخر لَيْسَ مُسَاوِيا لَهُ هَذَا شَيْء لَا يَخْلُو من عدد أصلا والمساواة هِيَ أَن تكون أبعاضه كلهَا مُسَاوِيَةً لَهُ إِذا جزئت أَلا ترى أَن الْفَرد والفرد مساويان للاثنين وَأَن الزَّوْج والفرد لَيْسَ مُسَاوِيا للزَّوْج الَّذِي هُوَ الاثنان وَالخمسة مُسَاوِيَة للاثنين وَالثَّلَاثَة غير مُسَاوِيَة للثَّلَاثَة وَهَكَذَا كل عدد فِي الْعَالم فَهَذَا معنى قَوْلنَا أَن الْمُسَاوِي وَغير الْمُسَاوِي هُوَ خَاصَّة الْعدَد وَهَذِه الْمُسَاوَاة أردنَا لَا غَيرهَا فَلَو كَانَ لِلْوَاحِد أبعاض مُسَاوِيَة لَهُ لَكَانَ كثيرا بِلَا شكّ لِأَن الْوَاحِد الْمُطلق ع الْحَقِيقَة هُوَ الَّذِي لَيْسَ كثيرا هَذَا مَا لا شك فِيهِ عِنْد كل ذِي حس سليم

وَكَانَ مَا كَانَ لَهُ أبعاض فَهُوَ كثير بلَا شكّ فَهُوَ إِذا بِالضَّرُورَةِ لَيْسَ وَاحِدًا فالواحد ضَرُورَة هُوَ الَّذ لَا أبعاض لَهُ فَإِذْ لَا شكّ فِيهِ فالواحد الَّذِي لَا أبعاض لَهُ تساويه لَيْسَ عددا وَهُوَ الَّذِي أردنَا أَن نبين وَأَيْضًا فَإِن الْحس وضرورة الْعقل يَشْهَدَان بِوُجُود الْوَاحِد إِذْ لَو لم يكن الْوَاحِد مَوْجُودا لم يقدر على عدد أصلا إِذْ الْوَاحِد مبدأ الْعدَد والمعدود الَّذِي لَا يُوصل إِلَى عدد وَلَا مَعْدُود إِلَّا بعد وجوده وَلَو لم يُوجد الْوَاحِد لما وجد فِي الْعَالم عدد وَلَا مَعْدُود أصلا والعالم كُله أعداد ومعدودات مَوْجُودَة فالواحد مَوْجُو ضَرُورَة فَلَمَّا نظرنَا فِي الْعَالم كُله نظرا طبيعياً ضَرُورِيًّا لم نجد فِيهِ وَاحِدًا على الْحَقِيقَة الْبَتَّةَ بِوَجْه من الْوُجُوه لِأَن كل جرم من الْعَالم فَمُنْقَسِم مُحْتَمل للتجزئة متكثر بالانقسام أبدا بِلَا نِهَايَة وكل حَرَكَة فَهِيَ أَيْضا منقسمة بانقسام المتحرك بهَا وَالزَّمَان حَرَكَة الْفلك فَهُوَ منقسم بانقسام الْفلك فَكل مُدَّة فمنقسمة أَيْضا بانقسام المتحرك بهَا الَّذِي هُوَ الْمدَّة وَكَذَلِكَ كل مقول من جنس أَو نوع أَو فصل وَكَذَلِكَ كل عرض مَحْمُول فِي جرم فَإِنَّهُ منقسم بانقسام حامله هَذَا أَمر يعلم بضرورة الْعقل والمشاهدة وَلَيْسَ الْعَالم كُله شَيْئا غير مَا ذكرنَا فصح ضَرُورَة أَنه لَيْسَ فِي الْعَالم وَاحِد الْبَتَّةَ وَقد قدمنَا ببرهان ضَرُورِيّ آنِفا أَنه لَا بُد من وجود الْوَاحِد فَإِذا لَا بُد من وجوده وَلَيْسَ هُوَ فِي شَيْء من الْعَالم الْبَتَّةَ فَهُوَ إِذا بِالضَّرُورَةِ شَيْءٌ غير الْعَالم فَإِذْ ذَلِك كَذَلِك فبالضرورة الَّتِي لَا محيد عَنْهَا فَهُوَ الْوَاحِد الأول الْخَالِق

لِلْعَالم إِذْ لَيْسَ يُوجد بِالْعقلِ الْبَتَّةَ شيءٌ غير الْعَالم إِلَّا خالقه فَهُوَ الْوَاحِد الأول الله لَا إِلَه إِلَّا هُوَ الَّذ لَا يتكثر الْبَتَّةَ أصلا لَا بعَدَد وَلَا صفة وَلَا بوَجْه من الْوُجُو لَا وَاحِد سواهُ الْبَتَّةَ وَلَا أول غَيره أصلا وَلَا مخترع فَاعِلا خَالقًا إِلَّا هُوَ وَحده لَا شريك لَهُ

وَإِنَّمَا قُلْنَا فِي كل فَرد فِي الْعَالم وَهُوَ الَّذِي يُسمى فِي اللُّغَة عِنْد الْعَد وَاحِد على الْمجَاز أَنه كثير بِمَعْنى أَنه يحْتَمل أَن يقسم وَأَن لَهُ مساحة كَثِيرَة الْأَجْزَاء فَإِذا قسم ظَهرت الْكَثْرَة فِيهِ وَأما مَا لم يقسم فَهُوَ يعد فَردا حَقِيقِيًّا وَقد ذكرنَا برهَان وجوب احْتِمَال الانقسام لكل جُزْء فِي الْعَالم فِي آخر كتَابنَا هَذَا بـ ين ضَرُورِيَّة لَا محيد عَنْهَا وَبِاللَّه تَعَالَى التَّوْفِيق. فَإِن قَالَ قَائِل فَمَا تَقول فِي الْبَاء وَالتَّاء والثاء وَسَائِر حُرُوف الهجاء أَلَيْسَ كل وَاحِد مِنْهَا وَاحِدًا لَا يَنْقَسِم قيل لَهُ وَبِاللَّه التَّوْفِيق إِن هَذَا شغب يَنْبَغِي أَن تحفظ من مثله لِأَن الْحَرْف إِنَّمَا هُوَ هَوَاء يَنْدَفع من مخرج ذَلِك الْحَرْف بعصر بعض آلَات الصَّوْت لَهُ من الرئة وأنابيب الصَّدْر وَالْحلق والحنك وَاللِّسَان والأسنان والشفتين فَإِذْ لَا شكّ فِي هَذَا، فَذَلِك الْهَوَاء المندفع جسم طَوِيل عريض عميق فَهُوَ مُحْتَمل الانقسام ضَرُورَة، فَذَلِك الْهَوَاء هُوَ الْحَرْف فالحرف هُوَ جسم مُحْتَمل للْقِسْمَة ضَرُورَة وَبِاللَّه التَّوْفِيق».

وقد نقلت الكلام بطوله لما في نقده والتدبر فيه من فائدة لمقصودنا من هذا الكتاب. فأول سؤال لا يفوتنا أن نطرحه ها هنا هو الآتي: أي عاقل هذا الذي يفتقر إلى ذاك المسلك الطويل الوعر في النظر والاستدلال حتى يشهد على نفسه وعلى العالم من حوله بأنه مخلوق مربوب مسبوق بالواحد الأحد الفرد الصمد بالضرورة؟ والله لو كان هذا ونحوه هو مقتضى عمل «العقل» حقا أو كان مما يفتقر إليه العقلاء حتى يؤمنوا بمخلوقيتهم ومربوبيتهم، لتعين علينا أن نعذر الدهرية والملحدين بإلحادهم، بل لكان الإلحاد أقرب إلى العقل من الإيمان، وليهنأ الملاحدة إذن بعقولهم ولا حول ولا قوة إلا بالله! يبدأ ابن حزم في «برهانه» بتقرير أن الواحد ليس عددا، فابتدأ أولى مقدماته بإجمال مدمر لا يمكن السكوت عليه! فما المقصود هنا بـ«العدد»؟ أهو العدد على المعنى اللغوي، أم على المعنى الاصطلاحي عند الرياضيين، أم على غير ذلك؟ فصحيح إن الواحد ليس عددا في اللغة، لأن لفظة عدد تطلق في العربية ويراد بها التعدد والكثرة لا التفرد، ولكن جميع ما جاء به الرجل بعد ذلك من مقدمات فهو جار فيه على طريقة الرياضيين واصطلاحاتهم كما لا يخفى (ككلامه في مفهوم «يساوي»)! فهذا أول مداخل الأخذ والرد والجدال مع «برهانه العقلي» ينفتح من أول سطر فيه، والله المستعان!

ثم يتكلف بعد ذلك لتأسيس مقدمة أخرى مفادها أن الواحد «لا يتبعض»، فيضرب أمثلة لتراكيب الأعداد حتى يصل في النهاية إلى تقرير ما لم يكن مفتقرا في تقريره إلى شيء من ذلك أصلا، فيقول: «فإن الواحد المطلق على الحقيقة هو الذي ليس كثيرا»! فهل عرفنا أن الواحد ليس «كثيرا» من حقيقة أننا لما حاولنا تفكيكه إلى أبعاض تساوي قيمته في مجموعها لم نتمكن من ذلك، أم عرفنا تلك الحقيقة لأنها «مما لا شك فيه عند كل ذي حس سليم»؟ عجيب أمر المتكلم والله، يسعى غاية وسعه في التشقيق والتفكيك في أمور هو نفسه يشهد عليها بأنها واضحة بنفسها لكل عاقل! وليس هذا عيبا في ابن حزم وحده دون غيره من المتكلمين، وإنما هو مرض وآفة الفلسفة نفسها التي هي عينها مرض وآفة الكلام: الشقشقة المتعمقة في الواضحات الجليات والتنطع الفاحش في البدهيات، وتكلف تعريف ما لا يحتاج العاقل إلى تعريفه أصلا، وتفكيك ما لا علم ولا معرفة تتحصل من تفكيكه! فإذا بالمتكلم يتفنن في ضرب الكليات المطلقة التي يرجو أن تكون صحيحة بنفسها بالضرورة حتى تصلح لأن تجعل مقدمات يصل منها إلى إثبات ما هو أوضح وأجلى وأقرب للعاقل من تلك المقدمات نفسها!

ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالىٰ في المقابل، فلن تراهما يزيدان – من حيث

فعندما يأتي ابن حزم بعدُ بمقدمة تالية يقول فيها: «الواحد ضرورة هو الذي لا أبعاض له»، فحقنا إذن أن نسأله: ما وجه تلك «الضرورة» أصلا ومن الذي يسلم لك بها؟ الواحد لفظ مجمل نطلقه على كل ما أردنا بيان تفرده عند العدّ والإحصاء، بصرف النظر هل يتبعض أم لا يتبعض! فعندما يسألني أحدهم كم يوما مكثت في سفري – مثلا – فأقول مكثت يوما واحدا، فإطلاق «الواحد» هنا صحيح موضوعا بصرف النظر هل اليوم يتبعض زمنيا أم لا يتبعض (وهو متبعض ولا شك، إذ يتكون من ساعات والساعات من دقائق وهكذا!)! فأي «واحد» هذا الذي يقرر له مفهوما تجريديا مجملا من عنده أولا ثم يزعم أنه ضرورة يتفق عليها العقلاء؟ هذه مثالية أفلاطونية ومفيتافزيقا يونانية فاسدة في التعامل مع الكليات التجريدية! فنحن نقول إن معنى الواحد معنى كلي تجريدي لا وجود له على كليته إلا في الذهن، وأما ما يوجد في الخارج فهو الأفراد التي توصف به لغاية لدى صاحب الوصف! فكل شيء أردنا بيان أنه حال وصفه منفرد غير متعدد، فهو داخل تحت ذلك المعنى الكلي عندنا، بصرف النظر هل يتبعض أم لا يتبعض!

تأمل الأفلاطونية في قوله: «فَإِ الْحس وضرورة الْعقل يَشْهَدَانِ بِوُجُود الْوَاحِد إِذْ لَو لم يكن الْوَاحِد مَوْجُودا لم يقدر على عدد أصلا إِذْ الْوَاحِد مبدأ الْعدَد والمعدود الَّذِي لَا يُوصل إِلَى عدد وَلَا مَعْدُود إِلَّا بعد وجوده وَلَو لم يُوجد الْوَاحِد لما وجد فِي الْعَالم عدد وَلَا مَعْدُود أصلا والعالم كُله أعداد ومعدودات مَوْجُودَة فالواحد مَوْجُود ضَرُورَة فَلَمَّا نَظرنَا فِي الْعَالم كُله نظرا طبيعياً ضَرُورِيًّا لم نجد فِيهِ وَاحِدًا على الْحَقِيقَة الْبَتَّةَ بِوَجْه من الْوُجُوه لِأَن كل جرم من الْعَالم فمنقسم مُحْتَمل للتجزئة متكثر بالانقسام أبدا بِلَا نِهَايَة» فلا شك أن كل من أراد أن يعد، فإنه يبدأ بتسمية الفرد المتعدد الأول عند العد «واحدا»، أيا ما كان نوع المتعددات! ولكنه يريد أن يجعل معنى الواحد نفسه، المعني الكلي في أذهاننا، كيانا ميتافزيقيا وجوديا غير حاصل في هذا العالم أصلا حتى يجعله هو الله تعالى، ومن هنا أغرق في التناقض! إذ يقرر أول الأمر أن الواحد موجود بالضرورة لأنه مبدأ العدد والمعدود، بمعنى أن كل عدد يتكون من آحاد وأفراد، كل فرد منها هو «واحد» اسما (وهذا مفهوم كل عاقل للمقصود بمبدأ الأعداد، إذ أول ما نبدأ به العد هو ذلك الشيء الذي نسميه بالواحد، أيا ما كان!) فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يستقيم له القول بأننا لو نظرنا في العالم «نظرا طبيعيا ضروريا» (ولا أدري ما النظر الطبيعي الضروري هذا، فهو إجمال آخر يحتاج إلى تفصيل!) فسنجد أن العالم ليس فيه «واحد» على الحقيقة؟ ما معنى «على الحقيقة» هنا؟ إذا كنا لا نبدأ العدّ ولا يستقيم لنا في العقل أن نحصي شيئا أو نعده حتى نبدأ عددنا بتعريف شيء ما على أنه «واحد»، ثم نمضي في العد نثني ونثلث وهكذا، بجمع الأشياء بعضها إلى بعض، فما معنى أننا لو نظرنا فلن نجد شيئا «واحدا» على الحقيقة؟ هذا الخلط بين التعدد والتبعض جنة وفسحة واسعة لمخالفه لو أمعن النظر! لا يمكن لعاقل أن يعُد أو يحصي نوعا تتعدد أفراده حتى يُعرف شيئا من تلك الأفراد في الابتداء على أنه أول المعدودات! فلو امتنع عن ذلك أو توقف فيه (هل يطلق عليه واحدا على الحقيقة أم لا) لأنه يعلم أن أول المعدودات هذا يتكون في نفسه من أبعاض، فلن يكون ثمة واحد ولا اثنان ولا عدد ولا معدود ولا شيء أصلا! فالمقدمات كما ترى تتناقض عند التأمل!

أما قوله: «وكل حَرَكَة فَهِيَ أَيْضا منقسمة بانقسام المتحرك بهَا وَالزَّمَان حَرَكَة الْفلك فَهُوَ منقسم بانقسام الْفلك فَكل مُدَّة فمنقسمة أَيْضا بانقسام المتحرك بهَا الَّذِي هُوَ الْمدَّة وَكَذَلِكَ كل مقول من جنس أَو نوع أَو فصل وَكَذَلِكَ كل عرض مَحْمُول فِي جرم فَإِنَّهُ منقسم بانقسام حامله هَذَا أَمر يعلم بضرورة الْعقل والمشاهدة وَلَيْسَ الْعَالم كُله شَيْئا غير مَا ذكرنَا فصح ضَرُورَة أَنه لَيْسَ فِي الْعَالم وَاحِد الْبَتَّةَ».

قلت: كلا لم يصح ضرورة ولا قريبا منها، والنتيجة ليست لازمة من مجموع المقدمات! لماذا؟ لأننا ما زلنا لا نفهم ما مراده بـ«الواحد» هنا! دع عنك الإجمال في لفظة «حركة» وفي لفظة «عَرَض» ولفظة «جرم»، وهو إجمال ولا شك لورود النزاع بين المتكلمين والفلاسفة على حدود تلك الألفاظ وتعاريفها، لا سيما عندما يطلقون بها الكليات التي تدخل ذات رب العالمين سبحانه وتعالى تحتها (وهو مورد كل بدعة وضلالة غرقت فيها طوائف القوم كما هو معلوم)! ومعروف خلاف المتكلمين في إثبات ونفي الجوهر الفرد، فما عددته أنت يا أبا محمد ضرورة (أعني امتناع وجود جوهر واحد في العالم لا يمكننا أن نجزئه إلى جواهر أدق منه، ومن ثمّ يفقد واحديته في مفهومك)، لم يعدوه هم من الضروريات، فأي الفريقين نصدق إذن، وما ثمرة إعمال النظر في ذلك؟ وكيف تعرفون الضرورة أصلا وما مفهومها عندكم، إن كنتم تلزمون العقلاء بالتسليم بأمثال تلك المقدمات المهترئة (على طريقة الفلاسفة في أكثر كلامهم) على أنها «ضرورات»؟ ثم إننا لا نسلم بأن كل عرض منقسم بانقسام حامله! فقد يلتصق العرض بأحد القسمين ويفارق الآخر فلا ينقسم بينهما (مثلا) وقد يزول بالكلية عن كلا القسمين جميعا بمجرد الانقسام! هذا مما يتصور العقل جوازه ولا شك، في نظرية الجوهر والعرض! ومعلوم أن الفلاسفة ما كانوا ليتركوا موردا كهذا في برهان كهذا حتى يلجوه وينقروا عليه غاية النقر ويقرعوه أشد القرع ليهدموه على صاحبه هدما!

أما قوله: «وَإِنَّمَا قُلْنَا فِي كل فَرد فِي الْعَالم وَهُوَ الَّذِي يُسمى فِي اللُّغَة عنْد الْعَد وَاحد على الْمجَاز أَنه كثير بِمَعْنى أَنه يحْتَمل أَن يقسم وَأَن لَهُ مساحة كَثِيرَة الْأَجْزَاء فَإِذا قسم ظَهرت الْكَثْرَة فِيهِ وَأما مَا لم يقسم فَهُوَ يعد فَردا حَقِيقِيًّا وَقد ذكرنَا برهَان وجوب احْتِمَال الانقسام لكل جُزْء فِي الْعَالم فِي آخر كتَابنَا هَذَا ب هين ضَرُورِيَّة لَا محيد عَنْهَا وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيق»

قلت: هنا يتجلى خلطه في معنى «الواحد» الذي أشرنا إليه آنفا، فمن الذي قال إننا نقول «واحد» عند العدّ على سبيل المجاز لا الحقيقة؟ هذا غلط ولا شك! وكذلك زعمه أن «كثير» تعني «يحتمل أن ينقسم»، فمن أين جاء بهذا الاستعمال اللغوي للفظة «كثير»؟ المشكلة في الفلاسفة والمتكلمين أنك ترى الواحد منهم يتقلب بين استعمال اللفظة الواحدة على وجهها اللغوي المعروف تارة، واستعمالها على مفهومه هو وتعريفه هو اصطلاحه الخاص تارة بل تارات، يريد أن يصل من ذلك كله إلى ادعاء الضرورة والبداهة العقلية في مقدماته وكلياته (التي لا طريق إلى الزعم بضروريتها إلا القول بأن اللغة الطبيعية لا تجيز للعقل أن يردها أو يبطلها، بمعنى أنها قضية يجزم العقل بصحتها في نفسها بمجرد سماع ألفاظها وفهم معانيها الصريحة، كقولك مثلا: «كل عازب غير متزوج»)! والذي أوقعهم في هذا التقلب الأعمى، أنهم التمسوا البراهين الفلسفية النظرية لإثبات حقائق واضحة في نفسها، ضرورية بمجرد فهم ألفاظها بالأساس، في محاولة للجواب عن مساعي أقرانهم من الفلاسفة في طرح الأسئلة المجملة شديدة التكلف، الموضوعة لا لشيء إلا لإدخال الإجمال والاحتمال على تلك الضروريات، حتى تكون ساحة للنظر والتنطع والجدال الطويل! وقد أطلنا النفس في شرح وجه فساد ذلك المسلك وسببه ومنبعه وتفسيره النفسي في غير موضع من هذا الكتاب وغيره.

ثم إن «التبعض» هذا لفظ مجمل أيضا، وقد كان إطلاق القول بنفيه عن رب العالمين من أبواب الجهمية لتعطيل صفات رب العالمين كما هو معلوم، ولعله كان من مداخل التجهم على ابن حزم نفسه! وتأمل مدافعته تهمة الإجمال في لفظة «التبعض» بذلك الاعتراض الافتراضي العجيب الذي افترضه ثم رد عليه، وكأن برهانه لا يرد عليه إلا هذا الاعتراض! يقول: «فَإِن قَالَ قَائِل فَمَا تَقو فِي الْبَاء وَالتَّاء والثاء وَسَائِر حُرُوف الهجاء

الأصل – علىٰ نقد المصطلحات والعبارات المجملة التي أسس المتكلمون عليها

أَلَيْسَ كل وَاحِد مِنْهَا وَاحِدًا لَا يَنْقَسِم قيل لَهُ وَبِاللَّه التَّوْفِيق إن هَذَا شغب ينبغي أَن تحفظ من مثله لأَن الْحَرْف إِنَّمَا هُوَ هَوَاء يَنْدَفع من مخرج ذَلِك الْحَرْف بعصر بعض آلَات الصَّوْت لَهُ من الرئة وأنابيب الصَّدْر وَالْحلق وَالحنك وَاللِّسَان والأسنان والشفتين فَإِذْ لَا شكّ فِي هَذَا فَذَلِك الْهَوَاء المندفع جسم طَوِيل عريض عميق فَهُوَ مُحْتَمل الانقسا ضَرُورَة فَذَلِك الْهَوَاء هُوَ الْحَرْف فَالحرف هُوَ جسم مُحْتَمل للْقِسْمَة ضَرُورَة وَبِاللَّهِ التَّوْفِيق»

قلت: فأنت إذن تسوي بين حقيقة الحرف اللغوي وحقيقة الآلات المستعملة في نطقه والتلفظ به! فأي شيء يلزمك من هذا؟ يلزمك القول بخلق القرآن! فالذي عليه العقلاء أن الألفاظ وحروفها منفكة في حقيقتها عن حقيقة آلة النطق والتلفظ في الإنسان وعن كنه تلك الآلة وتركيبها! فالحرف – رضيت أم أبيت – هو أدق وحدة في بناء اللغة، وهي – من هذه الجهة – وحدة لا تقبل التبعيض! فتأمل كيف اضطر إلى تكلف التسوية بين المفترقات حتى ينتصر لبرهانه المزعوم، فترتب على كلامه من اللوازم الباطلة ما يجاوز حدود عقله (وقد ينتبه إليه غيره) وما كان ليخطر بباله (أعني خلق القرآن)! فالآن عندما يأتيه عالم سلفي ليقول له: «القرآن كلام الله بحرفه وصوته غير مخلوق»، فسيضطر للرد بأن الحرف وما يتركب منه من ألفاظ مخلوق بالضرورة، لماذا؟ لأنه يريد الاستقرار على مقدمته هذه، التي قرر فيها أنه ما من شيء من أفراد الموجودات في هذا العالم إلا يقبل أن يتجزأ بالضرورة إلى ما لا نهاية له! وحتى تسلم له تلك المقدمة، يلزمه دفع استشكالات الفلاسفة عليها، ومنها ذلك الإشكال حول الحرف اللغوي (كفرد من أفراد الموجودات) الذي لم يجد منه مخرجا إلا أن يطابق بين حقيقة الحرف وكنهه وحقيقة الآلة المخلوقة التي تتلفظ به، حتى يتمكن من تفكيكه إلى جواهر متعددة ويسلم له طرد قاعدته الكلية! فتأمل يرحمك الله في سبب وقوع المتكلمين فيما وقعوا فيه من فساد المعتقد، ثم احمد الله آناء الليل وأطراف النهار على أن هداك إلى السنة، وبغضك في الفلسفة وأهلها والكلام وأهله.

الطريف في الأمر أيها القارئ الكريم أن هذا التشريق والتغريب الواسع والإجمال القاتل في كل جملة سطرها ابن حزم في النقل أعلاه (مع الإحالة على براهين أخرى في مواضع أخرى من كتابه لبعض مقدماته الواردة هنا!)، كان القصد منه أن يقام البرهان «العقلي» على أن الباري هو الواحد الأحد الذي لا يتعدد! فبالله أي عقل هذا الذي تظهر له تلك المقدمات كلها على أنها «ضرورية» في نفسها كما يدعي صاحبها، فوق ما يظهر له صحة ما يعرفه العقلاء بداهة من أحدية الباري وتفرده بالكمال المطلق؟ وما الذي استفاده أصحاب العقول السوية من مثل هذا العبث الطويل؟ الطريف أنه يقول في سياق الكلام: «إِذْ لَيْسَ يُوجد بِالْعقلِ الْبَتَّةَ شيءٌ غير الْعَالم إِلَّا خالقه»، فإن كان ذلك كذلك، وكان هذا مما يعلم بالضرورة عندك، فما فائدة هَذا البرهان أصلا من أوله لآخره وما ثمرته وما الذي دعاك لتكلفه؟ أي عاقل هذا الذي يقول: المقدمة (١) صحيحة بالضرورة، والمقدمة (٢) صحيحة بالضرورة، والنتيجة (٣) كذلك معروفة صحتها بالضرورة، فإن رتبنا (١) على (٢) ثبتت لنا صحة (٣)؟ هل عرفنا صحة (٣) من ترتيب (١) على (٢) أم عرفناها بالضرورة كما عرفنا (١) و(٢) (على التسليم بكون المقدمات ضرورية حقا)؟ وما معنى «الضرورة» إذن أصلا، أم تراها من جملة المجملات في كلام القوم؟

إنها شهوة التفوق على الفلاسفة بسبر أغوار معانيهم وخوض بحار مجملاتهم ومصطلحاتهم والتفوق عليهم فيما يأتون به من تراكيب «برهانية» ورياضة ذهنية عميقة الغور يعسر على أذهان عامة الناس أن تدركها! لست أجد لها تفسيرا إلا هذا، والله المستعان لا رب سواه!

دينهم، وبيان وجه مصادمتها (مع ما ترتب عليها من براهين ونظريات عند أصحابها) للنص ولفهم الأولين من جانب ولصريح المعقول من الجانب الآخر، مع تكرار البيان في غير موضع لفساد مفهوم العقل والاستدلال نفسه في تلك القضايا عند المتكلمين تبعا لأساتذتهم وأئمتهم من الفلاسفة، وأنهم لولا تبعيتهم أولئك الفلاسفة وافتتانهم بهم ما وقعوا فيما وقعوا فيه!

فمثلا في نقد ابن تيمية علىٰ قاعدة الرازي في «درء تعارض العقل والنقل»، نراه يوافق علىٰ أن قطعيات العقل إن ظهر تعارضها مع ظنيات النص وتعذر الجمع، قُدم القطعي علىٰ الظني بلا إشكال، وهي قاعدة كلية لا يختلف عليها الأصوليون عند تناول النصوص والأدلة الشرعية. ولكنه مع ذلك لم يوافق الرازي علىٰ إطلاقاته في تقريرها، لأنه رحمه الله لم يغفل عن الإجمال الفاحش الواقع في مفهوم «العقل» عند المتكلمين (ومن ثمّ في مفهومي القطع والظن عندهم)، الذي هو بيت الداء بالأساس! فعندما يكون مفهوم العقل والقطع العقلي متمثلا في تلك القواعد والنظريات التي قعدوها لأنفسهم ونسبوها إلىٰ «ضرورة العقل» زورا وبهتانا، من غير سلف من الصحابة أو التابعين في شيء منها، باستعمالهم النظر الفلسفي الميتافزيقي الذي خاضوه من قبل مع خصومهم من المتكلمين والفلاسفة من أجل إثبات قضايا بدهية ظاهرة لا تحتمل الجدال أصلا، فلا عبرة بعقولهم إذن ولا التفات إليها، والعقل السوي (الذي جاء القرآن بخطابه وجعله الله مناط التكليف) بريء من أكثر ما نسبوه إليه!

فلولا أن سلك الأشاعرة طريقة المتكلمين في تحقيق مفهوم الدليل العقلي وأسسوا دينهم وإيمانهم علىٰ براهين المتكلمين كصنيع المعتزلة والجهمية وغيرهم من أهل الكلام، ما زعموا أن من الصفات التي أثبتها السلف ما «يوهم المشابهة»، وما جعلوا تلك المعاني الزائدة التي توهموها تبعا لتلك النظريات عندهم من قطعيات العقل التي توجب (بحسب قواعدهم المحدثة) التأويل أو التفويض أو الطعن علىٰ ثبوت النص من جهة كونه ظنيا أو من نصوص الآحاد أو نحو ذلك، وهو ما خاض الإمام رحمه الله في بيانه ومن أجله وغيره من صور تحريف المتكلمين لمفهوم «العقل» و«الدليل

العقلي» نفسه، تكلف كتابة ذلك الكتاب أصلا! نعم العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح ولا شك، وهذه ضرورة لا يخالف فيها مسلم، ولكن كما نقول: «أي نقل تقصدون؟»، فكذلك يجب أن نسأل: «أي عقل هذا الذي تتكلمون عنه»؟ كما ينبغي أن نقف علىٰ حقيقة النقل الصحيح وطرق معرفة صحته، فكذلك يجب أن يفهم المتكلمون (والفلاسفة كذلك) أن مفهومهم للعقل الصريح ليس مسلّما عندنا، وأن أكثر ما يزعمونه من دلالة العقل وبرهانه، إنما هو عندنا – أهل السنة والأثر – من الإجمال الفاحش أو التنطع المذموم علىٰ أحسن أحواله، أو التنظير القياسي في غير محل قياس (في الغيبيات المحضة وفي الإلهيات الصرفة)، فهو محض السفاهة علىٰ كل تقدير!

هذا التفريق بين عقل العاقل سوي الفطرة سليم النفس الذي يرىٰ عموم الضرورات من جنس المعارف المقطوع بها وجوبا غير المفتقرة للنظر ولا يجد في نفسه (من أثر نظرية فلسفية ميتافزيقية أو برهان نظري قد تكلف وضعه في جداله مع مخالفيه من قبل) ما يمنعه من قبول كلام الله ورسوله علىٰ ظاهره الذي نزل به وفهمه الأولون بلسانهم مباشرة من غير تكلف تأويل أو تعريف أو تقعيد إضافي، وبين عقل المتكلم المدخول في فطرته من أثر افتتانه بطرائق الفلاسفة ولوثاتهم الفكرية، الذي راح يطلب الدليل علىٰ قضية زعم أنها عنده من بدهيات العقل وضرورياته، ثم أسس علىٰ ذلك الدليل من التقعيد والتنظير ما حمله علىٰ ادعاء تعارض العقل مع كثير من النصوص التي لا سلف له في تأويلها أو التوقف فيها علىٰ نحو ما صنع، هذا التفريق المنهجي الخطير في مفهوم العقل وبداية النظر ونهايته وحدوده وغايته، هو ما من أجله كتب ابن تيمية سفره العظيم درء التعارض بالأساس، وهو عين ما بالغنا في تحريره وتأصيله في هذا الكتاب وغيره ولله الحمد. فمن لم يفهم ذلك، وادعىٰ أن شيخ الإسلام قد وافق المتكلمين في طريقتهم وتقعيدهم من حيث ظن أنه يخالفهم، فعليه أن يتقي الله في نفسه ولا يتكلف قراءة ما لا يطيق فهمه، والله المستعان.

وأقول: لا شك أن الأصل وجوب اجتناب طرائق المتكلمين ونظريات الفلاسفة، إذ معلوم أن السلف ما كانوا يبحثون في مباحثها ولا يتكلفون ذلك أصلا، بل لا

يستعملون ألفاظ القوم إلا لبيان ضلالهم وفي أضيق الحدود، ودونكم الإمام الحبر أحمد بن حنبل ﷺ وما انتهجه من طريقة في كتابه الوافي في الرد علىٰ الجهمية والزنادقة، الذي صنفه في محبسه وفي أوج محنته رحمه الله تعالىٰ. فقد صدَّر الكتاب في مقدمته ببيان أصل بدعة الكلام نفسها عند الجهمية (ألا وهي مجادلة الدهرية والملاحدة وأضرابهم بما يزعمون أنه دليل العقل)! فبين منبع التنظير الفاسد الذي غرق فيه الجهم بن صفوان حتىٰ اخترع بمجموع ذلك عنده دينا جديدا ما أنزل الله به من سلطان! فلو أنه رأىٰ أن بيان ذلك المنبع يحتاج إلىٰ أكثر من ذلك حتىٰ يتحقق المقصود من الرد لزاد رحمه الله. فقد أورد في كتابه تلك المناظرة التي وقعت بين الجهم ورجل دهري ملحد من طائفة يقال لها السمنية، وأنقلها ها هنا بطولها للأهمية، حيث قال رحمه الله:[١]

«كان مما بلغنا من أمر الجهم عدو الله، أنه كان من أهل خراسان. من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات وكلام[٢]، وكان أكثر كلامه في الله تعالىٰ، فلقي أناسًا من المشركين يقال لهم: السمنية فعرفوا الجهم فقالوا له: نكلمك، فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت في ديننا، وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك[٣]، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له:

ألست تزعم أن لك إلَهًا؟

قال الجهم: نعم.

فقالوا له: فهل رأيت إلهك!

قال: لا.

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة، ص ٩٣ –١٠١.

(٢) تأمل كيف سيق وصف الجهم بأنه «صاحب خصومات وكلام» في مقام الذمّ (لإقران الكلام بالخصومات وهي الجدال المذموم)، وذلك قبل أن يذمه على آحاد أفكاره وعقائده التي كان يتكلم بها ويناظر عليها، بما جاء بعد ذلك من تفصيل كلامه المشار إليه بأن أكثره كان في كذا وكذا.

(٣) وهو شرط الدهرية والملاحدة وعموم المشركين عند مناظرتهم المتكلمين، وهو الشرط الذي قبِل به القوم ورضخوا له بمجرد موافقتهم على خوض ذاك الجدال معهم، فصيروا وجود باريهم من جملة مسائل الرأي والنظر، ومن ثم نفوا المعرفة الفطرية وجعلوا النظر أول واجبات المكلفين!

قالوا: فهل سمعت كلامه؟

قال: لا.

قالوا: فشممت له رائحة؟

قال: لا.

قالوا: فوجدت له حسًّا؟

قال: لا.

قالوا: فوجدت له مجسًّا؟

قال: لا.

قالوا: فما يدريك أنه إله؟

قال: فتحير الجهم فلم يدرِ من يعبد أربعين يومًا. ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارىٰ، وذلك أن زنادقة النصارىٰ يزعمون أن الروح الذي في عيسىٰ هو روح الله من ذات الله، فإذا أراد أن يحدث أمرًا دخل في بعض خلقه فتكلم علىٰ لسان خلقه، فيأمر بما يشاء وينهىٰ عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار.

فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة، فقال للسمني:

ألست تزعم أن فيك روحًا؟

قال: نعم.

فقال: هل رأيت روحك؟

قال: لا.

قال: فسمعت كلامه؟

قال: لا.

قال: فوجدت له حسًّا؟

قال: لا.

قال: فكذلك الله لا يرىٰ له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان.(١) ووجد ثلاث آيات من المتشابه:

قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]

وقوله ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]

وقوله ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

فبنىٰ أصل كلامه علىٰ هذه الآيات، وتأوَّل القرآن علىٰ غير تأويله، وكذب بأحاديث

(١) هنا يظهر التزام المتكلم بلوازم برهانه المزعوم واضطراره إلى ذلك. ولوازم هذا البرهان تشبيه الله تعالى بخلقه، فالجهم أول من شبه وقاس، ثم اضطر إلى التزام لوازم ذلك القياس، ثم راح يزعم بعد ذلك أنه ينزه ربه عن مشابهة المخلوقين! ذلك أنه لما ضرب الرجل الروح مثلا لربه في كونه موجودا غير داخل تحت الحس والمشاهدة، وجد نفسه مضطرا لقياس الصفات على شرط الفلاسفة، حتى يتحقق له المطلوب من القياس، فما كان له أن يتمّ حجته المزعومة إلا بأن يقول: «فكذلك الله لا يرى له وجه، ولا يسمع له صوت، ولا يشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان»! ولربما قيل: «لو أنه اكتفى بأن قال إننا نثبت وجود أشياء من غير أن تكون موضوعا لحواسنا، فإذا نفيتم وجود الله لمجرد ذلك لزمكم نفيها كذلك، لكان إلزاما ظاهرا ولحصل به المطلوب»، فنقول: أبدا! فلعلهم إذن أن يقولوا (جريا على نفس الشرط المعرفي السوفسطائي الذي شرطوه عليه أولا وقبله منهم): «الروح نشعر بوجودها إذا قارنا حال الحي بحال الميت، فهذا ما به أثبتناها، فبأي شيء تثبت أنت ربك؟»! وإذن يغرقونه إغراقا في مزيد من القياس والتعطيل لا محالة!

كل ذلك لأنه التزم شرطهم المعرفي الجدلي الفاسد الذي شرطوه عليه من مبدأ المناظرة، ألا وهو أن يكون إثبات المعرفة بوجود الباري مستمدا من الحس المباشر أو من قياس يقبلونه على المحسوسات! وهم ولا شك كذبة مسفسطون في جميع ذلك وهم يعلمون!

وكثير من عامة الخائضين في جدال الملاحدة في زماننا هذا يسلكون طريقا شبيها بهذا، حين تراهم يقولون للملحد: ألست تزعم أن لك عقلا؟ فإن قال بلى، قالوا من فورهم: فهل تراه؟ هل تسمعه؟ هل تشمه؟ هل تلمسه؟ .. الخ، يجعلون ذلك حجة لهم – على طريقة من طرق القياس المنطقي – على أساس أن الشيء لا يلزم أن يكون محسوسا حتى نشهد بوجوده، مع أن هذا المعنى أظهر وأوضح من أن يصطنع من أجله «برهان» أصلا، دع عنك أن نتكلف القياس لإثباته! ولكن من التزم بشرط الفلاسفة وطريقتهم في الجدال في كل شيء، فلا بد وأن يدفع ثمن ذلك من دينه واعتقاده وسلامة قلبه، نسأل الله العافية.

رسول الله ﷺ وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه أو حدث عنه رسوله كان كافرًا، وكان من المشبهة، فأضل بكلامه بشرًا كثيرًا، وتبعه علىٰ قوله رجال من أصحاب أبي حنيفة، وأصحاب عمرو بن عبيد بالبصرة ووضع دين الجهمية، فإذا سألهم الناس عن قول الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ يقولون: ليس كمثله شيء من الأشياء، وهو تحت الأرضين السبع، كما هو علىٰ العرش، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، ولم يتكلم، ولا يتكلم، ولا ينظر إليه أحد في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفة، ولا يفعل ولا له غاية، ولا له منتهىٰ. ولا يدرك بعقل، وهو وجه كله، وهو علم كله، وهو سمع كله، وهو بصر كله، وهو نور كله، وهو قدرة كله، ولا يكون فيه شيئان، ولا يوصف بوصفين مختلفين، وليس له أعلىٰ ولا أسفل، ولا نواحي ولا جوانب، ولا يمين، ولا شمال، ولا هو خفيف ولا ثقيل، ولا له لون، ولا له جسم، وليس هو بمعلوم ولا معقول وكل ما خطر علىٰ قلبك أنه شيء تعرفه فهو علىٰ خلافه.

قال أحمد: وقلنا: هو شيء.

فقالوا: هو شيء لا كالأشياء.

فقلنا: إن الشيء الذي لا كالأشياء قد عرف أهل العقل أنه لا شيء.

فعند ذلك، تبين للناس أنهم لا يؤمنون بشيء ولكن يدفعون عن أنفسهم الشنعة بما يقرون من العلانية.

فإذا قيل لهم: فمن تعبدون؟

قالوا: نعبد من يدبر أمر هذا الخلق.

فقلنا: هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق هو مجهول لا يعرف بصفة.

قالوا: نعم.

فقلنا: قد عرف المسلمون أنكم لا تؤمنون بشيء، إنما تدفعون عن أنفسكم الشنعة بما تظهرونه.

فقلنا لهم: هذا الذي يدبر هو الذي كلم موسىٰ.

قالوا: لم يتكلم ولا يكلم؛ لأن الكلام لا يكون إلا بجارحة، والجوارح منفية.

فإذا سمع الجاهل قولهم يظن أنهم من أشد الناس تعظيمًا لله، ولا يعلم أنهم إنما يعود قولهم إلىٰ ضلالة وكفر، ولا يشعر أنهم لا يقولون قولهم إلا فرية في الله فمما يسأل عنه يقال له: تجد في كتاب الله آية تخبر عن القرآن أنه مخلوق؟ فلا يجد.

فيقال له: فتجده في سنة رسول الله ﷺ أنه قال: إن القرآن مخلوق؟ فلا يجد». [1]

---

(١) وما أشبه منشأ النحلة الجهمية وما تفرع عنها من طوائف مبتدعة بين أهل القبلة، بمنشأ تلك النحلة التي صارت يقال لها «التطويرية» أو أصحاب «الداروينية الموجهة» (وهم القائلون بأن الخلق الرباني الأول لأصناف الكائنات على الأرض كان في طريقته جاريا على التطور الدارويني!) وعموم من يقال لهم الجهمية الجدد من المشتغلين بالطبيعيات كـ«التصميميين» وغيرهم (الذين راموا الاستدلال على مطلق مخلوقية الكائنات الحية من طريق إثبات علامات ما سموه بـ«التصميم الذكي»!) فكما حاول المتكلم الأول أن يجادل الدهرية ليقيم لهم برهانا نظريا على وجود الباري، أو يرد على برهان ساقوه هم إليه على عدميته أو امتناعه، فابتدأ به نظره عند تحويل وجود باريه إلى مسألة نظرية تتنازعها الأدلة، وانتهى به ذلك النظر والقياس إلى اعتناق أقوال وعقائد مضادة لما كان عليه سلف الأمة من فهم لكتاب رب العالمين، وقع نظير ذلك في زماننا هذا مع من تصدروا لمناظرة الدراونة والارتقائيين والطبيعيين من ملاحدة هذا الزمان، فرأينا من يتكلم عن الخلق والتصوير الإلهي وكأنه نظرية تفتقر إلى دليل نظري طبيعي (كما جعل الأولون حدوث العالم نظرية فلسفية تفتقر إلى دليل فلسفي على طريقة اليونانيين)، فبينما تمسك سلفهم ببرهان الحدوث، تمسكوا هم بنظرية التصميم الذكي مع ما يسمى بالحجة من الانفجار العظيم، بما لزم منه أن يكيفوا اعتقادهم في خلق السماوات والأرض وفهمهم وتأويلهم للنصوص المتعلقة به في كتاب الله تعالى وسنة رسوله لتكون على وفاق مع دعاوى تلك النظريات، وقد بينت بفضل الله تعالى فساد ذلك المسلك وإفساده عقيدة المسلمين في غير هذا الكتاب. كما لزمهم من مناظرة الطبيعيين والدارونيين أن يعتقدوا صحة قصة نشأة الأرض وما عليها من كائنات كما اعتنقها خصومهم (لاضطرارهم لأن يعتمدوا ميتافزيقا القوم في دراستهم قضايا نشأة العالم وما فيه، من أجل أن يجعلوها مقدمات كما جعل الأولون ميتافزيقا اليونانيين مقدمات لبراهينهم)، مع محاولة استعمال جنس الاستدلال الطبيعي والإمبريقي الذي استعمله القوم – والتزمه إخواننا – لنفي الأساس الإلحادي عنها ونفي دلالتها المزعومة على أن المخلوقات كلها ما نشأت إلا من فوضى وعشواء محضة! تماما كما التزم المتكلمون الأوائل منهج أرسطو في منطقه وطريقة فلاسفة اليونان في تناول البدهيات الأولى تناولا جدليا نظريا! فرأينا منهم من يزعم أن من مشاهدات الطبيعيين التي تأولوها في نظرياتهم تلك ما يمكن أن يُعد من جملة «المتشابه الطبيعي» (أو «المتشابه الكوني») الذي ينبغي أن يرجع به الناظر إلى «المحكم الطبيعي» حتى تزول شبهة العشواء والفوضى، وهو ما يلزم منه تجويز وقوع الاشتباه النظري عند العقلاء في كون العالم قد نشأ من فوضى وعشواء بلا خالق أو لم ينشأ أصلا (وإنما تحول من صورة إلى أخرى كما هي عقيدة الملاحدة في الانفجار الكبير)، تماما كما

قلت: تأمل كيف أنه رحمه الله ما زاد علىٰ أن بين حقيقة قول الجهمية وأنهم إذا كانوا لا يعرفون ربهم بصفة وينفون عنه سائر الصفات جميعا (بغض النظر عن فلسفتهم وراء ذلك)، فالشيء الذي لا صفة له، لا وجود له ولا حقيقة أصلا كما هو معلوم بالبداهة التي أفسدوها وأنهكوها إنهاكا، فكانوا - إذن - يعبدون عدما! هذا الفساد في مذهبهم لم يكن يحتاج حتىٰ يثبته - رحمه الله - إلىٰ الخوض في تعاريفهم وحدودهم ونظرياتهم وتلك الأشياء عندهم، ولا إلىٰ بيان محل غلطهم في الرد علىٰ من جادلوهم من الدهرية (والإمام لم يتكلف ذلك كما ترىٰ)، بل كان يمنع أن يأتيه المتكلم بشيء من ذلك أصلا رحمه الله، وإنما يقيم الحجة عليه في بدعته بمثل ما أنهىٰ به الكلام في النقل الآنف من قوله: «تجد في كتاب الله كذا وكذا؟ تجد في سنة رسول الله كذا وكذا؟». فإن جاءه - وهو فاعل لا محالة - بنصوص يتأولها تأويلا فاسدا علىٰ غير وجه، بذل وأطال النفس في بيان فساد ذلك التأويل، في كل نص منها علىٰ حدة، وهو ما وضع كتابه هذا في بسطه رحمه الله وبوبه عليه، فنسف البدعة بذلك نسفا، قائما بحجة الكتاب والسنة في ذلك، مع الوفاء بالمطلوب في بيان منشأ الضلالة الكلامية والحامل علىٰ ابتداعها عند صاحبها كذلك، ألا وهو تكلف الجدال الكلامي مع دهري هالك! فما رأيناه أطال ولا أوغل في شيء مما صرح بأنه يكرهه وينهىٰ عنه رحمه الله تعالىٰ، ولا أحوجه الرد إلىٰ ذلك أصلا! [1] فهذا هو الأصل في ذلك، الذي لا يصح تجاوزه إلا بداعي الحاجة

جوزته المتكلمة الأوائل - وإن أنكروا ذلك ونفوه عن أنفسهم - بمجرد خوضهم في الجدال مع الفلاسفة في تلك القضية، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ورأينا من يتمسك بنظريات اللاهوتيين النصارى في الطبيعيات كنظرية «التصميم الذكي» ونحوها، ويتخذ من الانتصار لها بطرائق الطبيعيين جهادا في سبيل الله، وثغرا لا يقف عليه إلا من جمع إلى العلوم الشرعية تلك العلوم التي استند إليها الملاحدة، تماما كما كان شرط المتكلمين الأوائل في دراسة فلسفة اليونان ومنطق أرسطو وإجادة النظر فيها!

فما أشبه الليلة بالبارحة، وما أحوجنا أهل هذا الزمان إلى من يبين ذلك للمسلمين، والله المستعان لا رب سواه.

(١) ولا شك أن من أراد أن يصنف كلام الإمام رحمه الله في بعض مواطن محاججته للقوم بأنه «قياس» من نوع كذا وكذا، أو أنه يجري على القاعدة المنطقية كذا وكذا، فهذا أمر لم يتكلفه الإمام نفسه ولا حرص على التزامه نوعا ولا كتب فيه ولا أشار إليه ولو من بعيد، وإنما جاء بما يفي بالمطلوب على اقتضاء الفطرة السوية من غير زيادة ولا تعمق ولا تكلف ترتيب نظري ما ولا شيء من هذا. ولو كان يراه واجبا عليه أن ينقطع لدراسة الفلسفة واستقراء أقوال الفلاسفة وتتبع مواطن الغلط عندهم وعند المتكلمين فيما ردوا به

الشرعية المعتبرة (أو بالأحرىٰ: القصد إلىٰ أخف الضررين عند التزاحم)! ولا شك أن الأصل إماتة البدعة وإخماد صوتها والحدّ من انتشارها، من قبل حصول الاضطرار إلىٰ الرد عليها ودفعها عند من اشتبهت عليهم.

فمما روي عنه أن أبا عمرو - عثمان بن عمر- قال: حدثنا أبو بكر - أحمد بن محمد بن هارون- قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد عن أبي عبد الله، وذكر قصة طويلة، قال: «وجعل أولئك يلقون المسائل، قال: قلت: هذا مما لا أتكلم فيه؛ لأنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ. فقلت لهم: أي شيء تقولون إذا دخلتم المسجد؟ وأي شيء تقولون إذا خرجتم من المسجد؟ فسكتوا. قال: قلت: يا أمير المؤمنين! هؤلاء لا يدرون أي شيء يقولون إذا دخلوا المسجد وإذا خرجوا، يسألون عن القرآن؟ أمر القرآن أعظم! وفي رواية، قال أبو عبد الله: «وكنت أصيح عليهم، وأرفع صوتي، وكان أهون عليَّ من كذا وكذا، وذهب الله بالرعب من قلبي، حتىٰ لم أكن أبالي بهم ولا أهابهم، فلما يئسوا مني واجتمعوا عليَّ، قال لي عبد الرحمن: ما رأيت مثلك قط، من صنع ما صنعت؟ قلت له: القرآن، قد اجتمعت أنا وأنتم علىٰ أنه كلام الله، وزعمتم أنه مخلوق، فهاتوه من كتاب أو سنة، فقال لي ابن أبي دؤاد: وأنت تجد في كل شيء كتابًا وسنة؟»

وفي رواية أخرىٰ قال رحمه الله:

«مكثت ثلاثة أيام يناظرونني. قلت: فكان يدخل إليك بالطعام؟ قال: لا. قلت: فكنت تأكل شيئًا؟ قال: مكثت يومين لا أطعم، ومكثت يومين لا أشرب، ومكثت ثلاثة أيام يناظرونني بين يديه - يعني: الرأس أبا إسحاق - وقد جمعوا عليَّ نحوا من خمسين بصريًّا وغير ذلك - يعني: من المناظرين- وفيهم الشافعي الأعمىٰ، فقلت له: كلهم يناظرونك بالليل؟ قال: نعم كل ليلة، وكان فيهم الغلام غسان - يعني: قاضي الكوفة - وقال: إنما كان الأمر أمر ابن أبي دؤاد، قلت له: كانوا كلهم يكلمونك؟ قال: نعم، هذا يتكلم من ههنا، وهذا يحتج من ههنا، وهذا يتأول علىٰ آية، وعجيف عن يمينه، وإسحاق

عليهم، لفعل ذلك، عليه رحمة الله تعالى، ولكنه لم يفعل، بل كان كالصخرة التي لا تلين، يزجر المتكلمين ويمنعهم كلما أرادوا استدراجه إلى كلام الفلاسفة، فلله دره من إمام!

عن يساره قائم، ونحن بين يديه – يعني: أبا إسحاق– فسألني غير مرة فقلت: أوجدني في كتاب أو سنة؛ فقال لي إسحاق وعجيف: وأنت لا تقول إلا ما كان في كتاب أو سنة؟

قلت لهم: ناظروني في الفقه أو في العلم.

فقال عجيف: أنت وحدك تريد أن تغلب هؤلاء الخلق كلهم وَلَزَّني بقائمة سيفه، وأشار أبو عبد الله إلىٰ عنقه يريني بيده هكذا، ثم قال إسحاق بن إبراهيم: وأنت لا تقول إلا ما كان في كتاب أو سنة، ولكزني بقائمة سيفه –وأومأ أبو عبد الله إلىٰ حلقه – قلت: فكان أبو إسحاق يتكلم؟ قال: لا، إلا ساكت، إنما كان الأمر أمر ابن أبي دؤاد.

ثم قال أبو عبد الله: لم يكن فيهم أحد أرق علي من أبي إسحاق مع أنه لم يكن فيهم رشيد.

قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: لما قلت: لا أتكلم إلا ما كان في كتاب أو سنة: احتج الأعمىٰ الشافعي بحديث عمران بن حصين، خلق الله الذكر. قال: فقلت له: هذا خطأ رواه الثوري وأبو معاوية، وإنما وهم فيه محمد بن عبيد، وقد نهيته أن يحدث به. قال: فقال أبو إسحاق: أراه فقيهًا».

وفي رواية أخرىٰ قال رحمه الله: «لقد جعل برغوث يقول يومئذ: الجسم كذا وكلام لا أفهمه؛ فقلت: لا أعرف ولا أدري ما هذا، إلا أنني أعلم أنه أحد صمد، لا شبه له ولا عدل، وهو كما وصف نفسه؛ فيسكت عني». وقال رحمه الله في النكير علىٰ المتكلمين بعموم: «كلما ابتدع رجل بدعة اتسعوا في جوابها».

قلت: والاتساع والتكلف يورث الوقوع في الإجمال والإبهام لا محالة، وما تراكم من الإجمال لم يزدد الناس به إلا خلطا بين الحق والباطل والتباسا في العلم ولا شك، لأن البشر لا يسلمون من الإجمال في كثير من كلامهم مما يتضح مأخذه ولا يلتبس فكيف بألفاظ مغرقة في الغموض والإجمال قصدا وعمدا، يتلاعب بها الفلاسفة للالتفاف حول البدهيات الواضحات التي تفننوا في إنكارها؟ ومعلوم أن صاحب القول البدعي قوله مجمل لا محالة، وإلا ما قبله بعض الناس اغترارا بما فيه من وجه الحق أو احتماله. فعندما يأتي من يتكلف الرد علىٰ المبتدع فيجيب إجماله

بإجمال مثله، ثم يجري بينهما الجدال والسجال والمناظرة علىٰ تلك المجملات، فقد تضاعفت أبواب الضلالة والغموض والإبهام فيما بينهما، وباعدا بذلك بين السامعين وبين الحق الواضح الجلي وأطالا الطريق إليه غاية الطول، وإذا بالمتابع تزل به قدمه في بنيات الطريق، ولا حول ولا قوة إلا بالله. لهذا كان من طريقة الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: تغليق الأبواب في أوجه المتكلمين والمتفلسفة بحزم وصرامة، فمهما حاولوا استدراجه بمجملاتهم ومصطلحاتهم ليوقعوه في مثلها، حتىٰ يصبح الأمر بينهما اشتباها بين ندين متناظرين متكافئين في إجمال واشتباه ما يتناظران عليه، أبىٰ إلا أن يرجعهم إلىٰ ألفاظ الكتاب والسنة وإلىٰ النص المحكم الذي لا يحتمل التأويل، وأصرّ علىٰ الخروج بهم من تلك الألفاظ التي تلاعبوا بها جملة واحدة، يقول لهم: «أكلمكم بالكتاب والسنة فلا تكلموني بهذه الألفاظ» أو نحو ذلك مما هو مأثور عنه رحمه الله، فلله دره من إمام لم تلد نساء المسلمين مثله!

قال المروذي: «كتبت إلىٰ عبد الوهاب في أمر حسين بن خلف العكبري وقال: إنه تنزه عن ميراث أبيه، فقال رجل قدري: إن الله لم يجبر العباد علىٰ المعاصي. فرد عليه أحمد بن رجاء فقال: إن الله جبر العباد علىٰ ما أراد. أراد بذلك إثبات القدر، فوضع أحمد بن علي كتابا يحتج فيه، فأدخلته علىٰ أبي عبد الله، فأخبرته بالقصة فقال: ويضع كتابا!! وأنكر عليهما جميعا، علىٰ ابن رجاء حين قال: جبر العباد، وعلىٰ القدري لما قال: لم يجبر، وأنكر علىٰ أحمد بن علي بن رجاء وضعه الكتاب واحتجاجه، وأمر بهجرانه لوضعه الكتاب، وقال لي: يجب علىٰ ابن رجاء أن يستغفر ربه لما قال: جبر العباد. فقلت لأبي عبد الله: فما الجواب علىٰ المسألة؟ قال: يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء».[(١)]

قلت: فتأمل كيف أن أبا عبد الله رضي الله عنه أنكر علىٰ المجيب جوابه كما أنكر علىٰ صاحب البدعة بدعته، لأن جوابه كان مجملا، يستعمل فيه نفس اللفظ المجمل الذي استعمله المبتدع، فلما كان نفي المبتدع للجبر يحتمل وجهين قد نفاهما جميعا، فكذلك كان

(١) السنة للخلال: ج٣، ص ٥٥٢.

إثبات المجيب لنفس اللفظ (الجبر) يحتمل إثبات الوجهين! فإذا ما جاء الناس من بعدهما ليقفا علىٰ كلام المبتدع وجواب من رد عليه بدعته، وقعوا من كلام صاحب الرد في نظير ما أوقعهم فيه المبتدع من غموض وإبهام، من جنس ما اشتهر به عامة الفلاسفة (والمتكلمون تبع لهم) في جدالهم وسجالهم وتعمقهم الذميم! فإذا كان أساس الكتاب الذي ألفه صاحب الجواب، استعمال تلك اللفظة المجملة ونحوها إثباتا ونفيا، علىٰ طريقة من أراد الرد عليه، فلا بد وأن الكتاب الذي ألفه أكثر إيغالا وتكلفا في المجملات من الألفاظ، وهو ما يجعل مفسدته أشد وضرره أعظم ولا شك، ولذا أطلق أبو عبد الله الحكم عليه وعلىٰ صاحبه دون تكلف قراءته وتقليب النظر فيه!

قال المروذي متابعا روايته: «فما كان بأسرع من أن قدم أحمد بن علي بن رجاء من عكبر، ومعه مشيخة وكتاب من أهل عكبر، فأدخل أحمد بن علي علىٰ أبي عبد الله فقال: يا أبا عبد الله هو ذا الكتاب ادفعه إلىٰ أبي بكر حتىٰ يقطعه، وأنا أقوم علىٰ منبر عكبر أستغفر الله عز وجل. فقال أبو عبد الله لي: ينبغي أن تقبلوا منه، فرجعوا إليه».

ويسوق الإمام اللالكائي أثرا عن الزهري رحمهما الله قال: «سمعت أبا إدريس يقول: أدركت أبا الدرداء ووعيت عنه، وأدركت عبادة بن الصامت ووعيت عنه، وأدركت شداد بن أويس ووعيت عنه، وفاتني معاذ بن جبل، فأخبرت أنه كان يقول في كل مجلس يجلسه: الله حكم قسط - تبارك اسمه - هلك المرتابون، إن من ورائكم فتنا يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن، حتىٰ يأخذه الرجل والمرأة، والحر والعبد، والصغير والكبير، فيوشك الرجل أن يقرأ القرآن فيقول: قد قرأت القرىٰ فما للناس لا يتبعوني؟ وقد قرأت القرآن ثم ما هم بمتبعين حتىٰ أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، واتقوا زيغة الحكيم، فإن الشيطان يلقي علىٰ فيّ الحكيم الضلالة، ويلقي المنافق كلمة الحق. قال قلنا: وما يدرينا يرحمك الله أن المنافق يلقي كلمة الحق، وأن الشيطان يلقي علىٰ في الحكيم كلمة الضلالة؟ قال اجتنبوا من كلام الحكيم كل متشابه الذي إذا سمعته قلت: ما هذا؟ ولا ينأ بك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع ويلقي الحق إذا سمعه، فإن علىٰ الحق نورا»[1].

---

(١) أصول الاعتقاد، ج. ١، ص. ٦٧، رقم ١١٦.

قلت: تأمل قوله «اجتنبوا من كلام الحكيم كل متشابه» ثم بيانه مراده بالمتشابه بأنه كل قول إذا سمعه العامي قال «ما هذا»، فقد يكون الاشتباه راجعا لجهل العامي بالمصطلح الصناعي، وقد يكون راجعا لإجمال وقع في كلام المتكلم نفسه، فإن كانت الأولىٰ وجب عليه ترك ذلك الكلام الذي جاوز عقله وفهمه، وعدم الالتفات إليه (مع البقاء علىٰ احترام ذلك الحكيم إن كان أهلا للاحترام، وحفظ قدره وعدم مفارقته) أما إن كانت الثانية وجب النكير عليه ومراجعته، فإن المتكلم إن كان أهلا لحسن الظن فهو راجع للحق بإذن ربه إذا جيء به، وإلا فنعوذ بالله من أهل الأهواء!

فتأمل يرحمك الله شدة تمسك الإمام أحمد ﵁ باجتناب كل مجمل من اللفظ وتشديده في ذلك علىٰ ما أثر من طريقة الصحابة والتابعين، وحرصه رحمه الله علىٰ ألا يكون موضوع المجادلة بينه وبين أهل البدع الكلامية إلا ما في الكتاب والسنة، بألفاظ الكتاب والسنة! فما كان متكلفا أن يخوض معهم فيما تكلفوه مع خصومهم من الفلاسفة لإثبات ما لا يحتاج العاقل إلىٰ إثباته أصلا! هذا إمام من أئمة الدين يتصدىٰ لانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فما كان ليتكلف وراء ذلك في أصل عمله رحمه الله وأحسن إليه.

أما ما جاء به الفلاسفة والتقطته أذنابهم من المتكلمين من دعاوىٰ ونظريات في الذوات والحقائق والماهيات وحدوث العالم ونحو ذلك، فما كان يلتفت إليها، ولا يخوض في شيء منها لأنه ما كان يرىٰ داعيا شرعيا لذلك. المتكلمون هؤلاء قوم أصحاب فلسفة، جاؤوا بدعاوىٰ يزعمون أن الإسلام جاء بها والقرآن ناطق بمعناها، لتفرعها عندهم عن براهينهم التي قابلوا بها الملاحدة في نفيهم وجود باريهم، فقابلهم إمام السنة بتبرئة الإسلام مما زعموا، وتحقق المقصود بذلك.

وقد ضرب الإمام في صدر كتابه المثل بمناظرة الجهم لأصحاب تلكم البضاعة وما أدت إليه من ثمرة فاسدة، فليس هو متكلما يرد علىٰ فيلسوف أو حتىٰ علىٰ متكلم مثله وإنما هو إمام في السنة يرد علىٰ تأويل فاسد وتحريف لدين رب العالمين، ولا يعنيه ما تنطعت به الفلاسفة فيما وراء ذلك!

حتىٰ عندما استعمل الحجاج العقلي المجرد معهم، لم يزد علىٰ أن قرر حقائق فطرية بدهية، مستعملا الألفاظ الواضحة غير المشتبهة أو المجملة ومبتعدا عن اصطلاحات الفلاسفة التي لا يدعوه داع لاستعمالها، ليبين أن ما منعوه في حق الله تعالىٰ ليس بممتنع كما زعموا أو أن ما أوجبوه ليس بواجب، من غير أن يضع كلامه في قوالب البراهين الكلامية التي اشتغل بها هؤلاء، ومن غير أن يخوض معهم في أجوبتهم عنها فيفتح لهم باب التنطع بالمجملات بين يديه! ففي إطار التدليل العقلي علىٰ بطلان قولهم بما معناه أن الله تعالىٰ يجب أن يكون في كل مكان ولا يخلو منه مكان، ما زاد رحمه الله (وما كان يحتاج إلىٰ أن يزيد) علىٰ أن قال:

يقول: هو إله من في السموات وإله من في الأرض، وهو علىٰ العرش، وقد أحاط علمه بما دون العرش، ولا يخلو من علم الله مكان، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان، فذلك قوله: ﴿**لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [**الطلاق**: ١٢]، ومن الاعتبار في ذلك، لو أن رجلا كان في يديه قدح من قوارير صافٍ وفيه شراب صافٍ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله وله المثل الأعلىٰ قد أحاط بجميع خلقه، من غير أن يكون في شيء من خلقه. وخصلة أخرىٰ: لو أن رجلا بنىٰ دارًا بجميع مرافقها، ثم أغلق بابها وخرج منها، كان ابن آدم لا يخفىٰ عليه كم بيت في داره، وكم سعة كل بيت من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار. فالله وله المثل الأعلىٰ قد أحاط بجميع خلقه، وعلم كيف هو، وما هو، من غير أن يكون في شيء مما خلق.[1]

قلت: فهل ترىٰ في شيء من ذلك ما يكون عليه البرهان الكلامي عند أصحابه من تجريد وترتيب وتنظير وتفريع علىٰ أصول ومقدمات وتعاريف كلامية متفق عليها مع الخصم.. الخ؟ أبدا! ما تكلف هذا رحمه الله ولا قريبا منه. ومع هذا، فلا يجرؤ عاقل ممن ينتسبون إلىٰ السنة علىٰ أن يزعم أنه لم يف بالمطلوب رحمه الله في رده علىٰ القوم.

فالمتكلم - علىٰ ما نخلص إليه من تعريف - ليس في الأصل إلا رجلا تصدر لمجادلة الملاحدة والدهرية في دعواهم الافتقار إلىٰ برهان نظري علىٰ وجود من

(١) الرد على الجهمية ص ١٥٠.

صنعهم، فالتزم أن يخترع لهم ذاك البرهان المطلوب علىٰ شرطهم (منهجهم المعرفي والجدلي)، فلما جاءهم به وعرضه عليهم، عارضوه فيه بالاعتراضات والمتشابهات اللفظية (الأدلة النظرية المزعومة) وما كانوا إلا ليفعلوا، فأخذ في الدفع عنه واضطر للتمسك به وبمثله من بضاعة الكلام والانتصار له بوجوه شتىٰ. لذا فمن المتكلمين من لم يجد بدا من تكييف دينه واعتقاده نفسه في ذات ربه وصفته حتىٰ يتناسق ويتوافق مع ما انتصر له من نظريات قد سبق له الاستناد إليها والدفاع عنها في مناظرته الخصوم! فإنه لما دخل إلىٰ نفسه الضعف والهوان وقلة الحيلة - كما رأينا من حال الجهم في مناظرته مع الدهري - التي هي حامل المتكلم (نفسيا) علىٰ تكلف ما تكلفه من الأساس كما سيأتي بيانه لاحقا في هذا الكتاب، أصبح تعلقه بما يقذفه الشيطان في نفسه من صنوف تلك البراهين النظرية لديه كتعلق رجل غريق بذيل حوت يحسبه طوقا للنجاة! فهو يريد - ولا شك - أن يطمئن لاعتقاده أن الحجة قائمة بما جاء به من براهين نظرية، لأنه لا يملك غيرها من جنسها، ويرىٰ ضرورة أن يكون لديه شيء من ذلك حتىٰ يقابل به الفلاسفة من الدهرية وغيرهم من أهل الملل، فهذا ونحوه هو برهان العقل وطريقه عنده، فإن عجز عن نصب «البرهان العقلي» علىٰ صحة دينه فليس هو إذن من العقلاء أصلا، أو هكذا سيصوره خصمه للناس! وبقدر ما يكون من الخوف والوهن في نفس المتكلم من كلام الخصم المتفلسف وبضاعته وإيراداته، يكون الإغراق في الانتصار للبرهان الكلامي وإقامة بنيان الاعتقاد عليه، حتىٰ يصل الأمر إلىٰ تلك الحال البائسة التي حكاها الإمام أحمد رحمه الله عن ذاك المحترق المفتون المدعو الجهم بن صفوان!

فلما جاء أعلام السنة رحمهم الله تعالىٰ بالرد علىٰ أولئك المرضىٰ الذين بدعوا في الدين ما أصبح يقال له «علم الكلام» وجعلوه ثغرا من ثغور الدفاع عن دين الله جل وعلا (وليس هو في الحقيقة إلا مدخلا لكل شر وضلالة إلىٰ عقول المسلمين وعقائدهم)، لم يردوا عليهم نظرياتهم بمثلها، وإنما جاؤوهم بالنص الواضح الصريح، وفهمه السلفي الصحيح، لينقضوا ما أسسه هؤلاء من تأويلات فاسدة لكلام ربهم ورسوله قد خالفوا بها المنقول والمعقول معا، ومن أصول وفروع في الدين قد أقاموها

علىٰ تلك النظريات عندهم، من غير أن يحتاجوا إلىٰ الخوض معهم في فلسفة الأمر وتنظيره المنطقي إلا في حدود الضرورة [1].

فالذي أراه أقوم بالهدي النبوي في ذلك الشأن - أعني الرد علىٰ المتكلمين فيما ابتدعوا - أن يتعلم طالب العلم من مصطلحات فلاسفة الأديان والغيبيات ما تقتضيه ضرورة الفهم والتصور لما بين يديه من بدعة اعتقادية قد ابتدعها ذاك المتكلم أو المتفلسف في دين الله تعالىٰ، وظهر قرنها وشاع الكلام فيها بين العامة، أو صارت مما يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم، فيتكلف الرد عليها - بضابطه وشرطه - والنصيحة لله ورسوله في الأمر علىٰ بصيرة، لا أكثر ولا أقل، لأن ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب، والحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره. إلا أن تدعو الضرورة الشرعية لتتبع الأصل الفلسفي الذي أسس عليه المتكلم أو المتفلسف كلامه وبيان بطلانه، كأن يكون قد ترتب عليه كثير من القضايا النظرية المشتبهة عند جماهير الناس أو عند طلبة العلم المتخصصين في صنعة من الصناعات أو نحو ذلك، كما اضطررنا إليه في غير هذا الكتاب.

فإذا كان الأصل هو الصد عن مطالعة كلام الفلاسفة وإطلاق المنع من ذلك، فإنما يباح منها ما يباح علىٰ سبيل التقييد وعلىٰ مقتضىٰ الحاجة، علىٰ أساس أن ما يمنع سدا للذرائع يباح للمصلحة الراجحة، والمصلحة هنا هي ضبط التصور بما يقتضيه القيام بواجب إبطال البدعة، وغاية المراد من التصور أن نحسن عن صاحب البدعة فهم مصطلحه وما يقصده منه، كما رأيناه في صنيع الإمام أحمد رحمه الله في كتابه وغيره من الأئمة رحمهم الله جميعا، حتىٰ نحسن إبطال باطله بما عند السلف من فهم لكتاب الله وسنة رسوله، من غير أن نجاوز ذلك إلىٰ ما وراءه، أو نتوسع حيث كان يحسن التضييق، فنقع فيما يصعب التنبؤ بعقباه، والله أعلم. وقد يجد الباحث أن الحاجة

(١) وهي هنا كل ما تفرضه عليهم غاية تطهير الدين من ذلك النتن الذي صار المتكلمة ينشرونه بين عامة المسلمين. ويبقى المنهج السلفي الصافي في التعامل مع بضاعة المتكلمين التي تصل إلى عامة الناس أن تحارب بما في الكتاب والسنة وما اعتمده الأئمة من أصول فقههما وتأويلهما. فالدين قال الله وقال الرسول، فمن أعياه تقرير عقيدته في الله تبارك وتعالى بالكتاب والسنة على ما كان عليه الصحابة والتابعون ﷺ، فلا يخاض معه في بضاعته أيا ما كانت، بل يجب أن يشنع عليه ويطرد من كل مجلس!

الشرعية تقتضي دراسة أصول علم بأكمله أو أكثر، والتعرض لمباحث بالغة التعمق عند أصحاب تلك العلوم، وليس الاقتصار علىٰ التعاريف والحدود الكلية وحدها، وحينئذ يقال: الضرورة تقدر بقدرها.

وإلا فعامة المسلمين وعامة طلبة العلم الشرعي والدنيوي لسنا نتوقف ولا نرتاب في منعهم من دراسة أو حتىٰ مطالعة الفلسفات الغيبية والدينية علىٰ وجه الخصوص عند أهل الأمم (قديمها ومعاصرها) ومن التعرض لعلوم اللاهوت ونحوها، وما صنفه المعاصرون والمتأخرون من متخصصي الفلسفة بعموم (اللهم إلا ما كان مطلوبا لدراسة أصول التنظير المعاصر في الطبيعيات والإنسانيات وضبط مناهج النظر والبحث العلمي في تلك المجالات كما أشرنا)، لأن مادة تلك المباحث مشحونة في أكثرها بالتعمق الفاحش بلا طائل، دع عنك تكلف التنظير المنطقي بغية إثبات أو نفي ما حقه أن يكون معلوما بالبداهة والفطرة الأولىٰ من الأساس، مسلما به بلا أدنىٰ احتمال أو شك! وما كان كذلك فحقه - كما حاولت بيانه في هذا المجلد وأطلت فيه النفس - أن يعد في جملة الأعراض النفسية المرضية لا في جملة المواريث المعرفية المعتبرة عند أهل الأمم التي تستحق أن تدرس وتعامل معاملة الرأي النظري المعتبر ويعتنىٰ بها وتصنف الردود والأجوبة النظرية عنها بمثلها! وما كان كذلك لم يصح أن نخوض الجدال فيه مع أصحابه رجاء إظهار «البرهان العقلي» علىٰ وجود من صنعهم (مثلا) واستحقاقه منهم أن يفردوه بما هو أهله من العبادة والتوقير علىٰ ما جاءت به رسله! هؤلاء قوم مرضىٰ مكابرون، فكيف يكون دواؤهم في نفس تلك البضاعة التي كانت هي الداء (جنسا)؟

ولا شك أن من كان فيلسوفا متخصصا أو كان يعد نفسه متكلما محترفا (بالتخصص الأكاديمي) فلن يقبل منا هذا الكلام، لأنه ليس من خصال الفيلسوف المتخصص أن يأتي لجدال جارٍ بين بعض أقرانه ثم بدلا من أن يتأمل فيه وينظر ويتعمق ويقرر موقفا ورأيا (علىٰ عادتهم في ذلك وكما يعلم أنهم ينتظرونه منه) فإما ينصر مذهب هذا علىٰ ذاك أو يخرج بمذهبه الخاص لينتصر به عليهم جميعا، تراه يقرر الإعراض عن ذلك

الجدال بالكلية ويمتنع عن الخوض فيه البتة بدعوىٰ أنه تكلف مذموم وتعمق ممرض للعقل والقلب جميعا! هذا الموقف ما رأيناه من أحدهم يوما وما كنا لنراه أبدا! ولو وقع ما يشبهه من أحدهم فلأنه «متوقف في المسألة»، لا لأنه لا يرىٰ معقولية أو مشروعية استعمال أداة النظر العقلي فيها من الأساس (وإلا لرفع عقيرته بالنكير علىٰ كل من خاضوا فيها ابتداءً)! ولو افترضنا أنه يرىٰ عدم جدوىٰ النظر فيها، فما دام فيلسوفا أكاديميا متخصصا فستراه ملتزما بقبول مخالفة خصومه إياه في موقفه ذاك، مطالَبا بمناقشتهم ومجادلتهم والرد عليهم، حتىٰ يقنعهم بصحته بالبرهان النظري، وإلا فما معنىٰ أن يعده الناس «فيلسوفا متخصصا» ثم يروه لا يتكلف الرد علىٰ مخالفيه في كل ما خالفوه فيه، ردا نظريا من جنس ما تخصصوا جميعا فيه؟! هذا فنه وصناعته وحرفته التي بها لا بغيرها اكتسب مقامه بين الناس، فعليه أن يجري في ذلك المجرىٰ كما جرىٰ أقرانه من حوله، وإلا زال عنه ذلك المقام، أو علىٰ الأقل شنع عليه الأقران والأصحاب بما يكره!

فالأصل عندنا في الاشتغال بما يسمىٰ بـ«العقليات» المنع والامتناع! [1] ولولا أن كان من مقاصدي وأغراضي من تأليف هذا الكتاب نفسه أن أبين هذه الحقيقة لإخواني من طلبة العلم بيانا يليق بها وبدقة المأخذ فيها، ما تكلفت الخوض فيما خضت فيه من كلام الفلاسفة واللاهوتيين المعاصرين المشتغلين بتلك الأبواب (كما سيأتي معك في أبواب لاحقة)، وما اضطررت إلىٰ النظر فيه ابتداءً. فإنما وضعت هذا المصنف لأبين للمفتونين بتلك «العقليات» أن تعلق القلب بها والطمع في التمكن منها هو أول أبواب زوال العقل نفسه، إلا فيما كان مداره علىٰ ضبط أساليب البحث والترجيح في العلوم

---

(١) وإعلان النكير على الاشتغال بـ«العقليات» لا يساوي محاربة العقل نفسه، إلا عند من أصبحت العقليات (بمعنى طريقة الفلاسفة في تناول الغيبيات المحضة بالتنظير القياسي) هي مرادف العقل نفسه عنده، فلا يكمل عقل الإنسان في اعتقاده إلا بإتيانها والأخذ منها بسهم ما! وهؤلاء هم الفلاسفة وأذنابهم من اللاهوتيين والمتكلمين! وإلا فالأنبياء والمرسلون وأتباعهم من الصحابة وتابعيهم ما عرفوا العقليات ولا المنطق ولا الفلسفة، فهل يجرؤ أحد هؤلاء المرضى المفتونين على أن ينفي عنهم صفة العقل نفسها؟ هذا لازم مذهبهم لو كانوا يعقلون!

الدنيوية النافعة، كبيان أساليب المحاججة وأغلاط النظر والأخطاء المنهجية في مسائل البحث التجريبي في الطبيعيات والإنسانيات، لا في الغيبيات ولا في الإلهيات فإن هذا مجال لا نجيز فيه النظر أصلا!

فلا يغرنهم تفنن المتفننين في العقليات في مباحث الإلهيات وإبداعهم في ضرب البراهين وسباكة الحجج والإتيان بكل عجيب وغريب مما يخلب ألباب العامة والدهماء! فوالله ليس فيما يدرك العقلاء من دعوىٰ باطلة فاسدة مصادمة لبداهة العقل ابتداءً إلا وُجد في الأرض من تكلف صياغة البراهين النظرية المزخرفة لنصرتها وتلبيسها علىٰ الناس من كل مدخل، حتىٰ طفحت المكتبات بأطنان من المطولات والدواوين المصنفة في مثل ذلك الغثاء! فأي خير يرجىٰ من إفناء الأعمار في جرد تلك المطولات الواهية وتكلف الرد علىٰ كل حيلة أو ألعوبة من ألاعيب الفلاسفة في تزيينها علىٰ الخلق، وقد شهدنا عليها بأن مطلبها المعرفي نفسه محض سفسطة وسفاهة من الأصل؟ وكيف يرجو عاقل أن يزيل أصحابَ تلك الأهواء الفاحشة عما هم عليه، بالتخصص معهم في صناعتهم والانضمام إلىٰ أروقتهم التي بها اكتسبوا ما اكتسبوه من حصانة اجتماعية وفكرية منقطعة النظير؟ **﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]** (١)

(١) ومما أحزنني غاية الحزن أن رأيت بعض «الصبية» الصغار المجاهيل على مواقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك وتويتر ونحوهما» ينصب الواحد منهم نفسه فيلسوفا متخصصا لكونه قد درس الفلسفة أو المنطق في الجامعة أو قرأ فيها بعض الكتب، ثم لمس في نفسه ذكاءً وفطنة، واغتر بعقله، فإذا به ينصح العامة من أمثاله، يتلقى أسئلتهم على صفحته ويفتيهم في «فنون الرد على الملاحدة ونقد فلسفاتهم»، وما عليهم أن يقرؤوه في التأسيس ثم في الزيادة والتوسع، تراه يقارن مصنفات العلماء ويقول هذا «ضعيف في العقليات» وهذا «ليس منه رجاء» وهذا «نفض منه يديك» وهذا كذا وهذا كذا، ثم لما يسألونه عن الطريقة التي «وصل بها» لأن يصبح «فيلسوفا» (ولا أدري أين أو متى أصبح مثل هذا شيئا أصلا، ومن الذي أوهمه بذلك!)، رأيته يجيب بأنه لم يقرأ كثيرا كما قد يظن بعض الناس، وأن الأمر سهل ولكن طرق «التعليم التقليدي» هي التي تصد الناس عنه!

ومع أن من هؤلاء من لم يجاوز البضع عشر عاما من العمر أصلا، إلا أنك تسمعه يتكلم عن تأليف الكتب والتفلسف واحتراف الكلام وديبجة الحجج والبراهين ونحو ذلك، يرفع فلانا ممن أعجبه كلامهم فيجعله عالما كبيرا، ويحط على غيره ممن لم يرق له تصنيفه فيجعله جاهلا لا خير فيه، أو «ضعيفا في العقليات» و«له أغلاط» .. الخ، والناس في ذلك تراوده بالسؤال والاستشارة ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهل كان الجهم

مع أن القرآن – كما بينا – ما جاء بفلسفة ولا بعلم كلام، ولا جاء الأنبياء والرسل عليهم صلاة ربي وسلامه بشيء من هذا، علىٰ كثرة ما خاضوه من جدال مع أقوامهم، وإنما كان خطاب العقل عندهم خطابا للنفس المريضة التي تصر – من بعد سماع الحق الجلي الواضح الذي جاء به المرسلون – علىٰ البقاء علىٰ ما هي عليه، فيأتيها بالضوء الكاشف لمكامن المرض فيها، ويصدمها بحالها، مخاطبا دوافع الميل الباطن الذي من أجله بقيت علىٰ سنن الآباء وهي تعلم أنهم علىٰ باطل وأنهم لا يعقلون ولا يهتدون! فقد بينا كيف أن مثل قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٧٠] هذا ليس خطابا بالفلسفة ولا بعلم الكلام، ولا يفتح بابا للجدال النظري في مسلمات الفطرة، وإنما يستدعيها إلىٰ ذهن المخاطب ويبكته تبكيتا لبقائه علىٰ ما يعلم في طوية نفسه أنه يخالفها، وعلىٰ إبائه الدخول في الحق بعدما تبين! كأنما يقول لهم: «كيف تصرون علىٰ البقاء علىٰ ما كان عليه آباؤكم وقد علمتم في بواطن أنفسكم وهاء ما كانوا عليه وتناقضه وفساده في العقل الصريح؟» فالبرهان العقلي في القرآن خطاب نفسي يستصحب تلك المسلمات والبدهيات عند التأسيس، بخلاف مفهوم البرهان العقلي عند المتكلمين، الذي جاء من اشتراط الفلاسفة علىٰ بعضهم البعض وعلىٰ من يدخل في خصوماتهم أن يأتيهم بالبرهان النظري (نوعا) علىٰ كل دعوىٰ معرفية، من غير تفريق بين القضايا البدهية الضرورية والقضايا المكتسبة في ذلك إلا بالهوىٰ والتحكم المحض!

فلماذا كان ولا يزال كثير من المتصدرين للدعوة من الصدر الأول وإلىٰ ما شاء الله، يفتنهم بهرج التنظير الفلسفي إذا ما وقعوا عليه، فتراهم يتخوفون من مجرد التصريح

ابن صفوان والجعد بن درهم وغيلان الدمشقي ومعبد الجهني وواصل بن عطاء وغيرهم من رؤوس الفرق الضالة في أول أمرهم إلا من أمثال هؤلاء الصبية المفتونين، المغرورين بذكائهم؟ فمن أين جاءت تلك الجرأة الفاحشة على العلم وأهله؟ من الافتتان بـ«العقليات» وبصنعة الفلسفة نفسها وأكاديمياتها التخصصية، وبما يغرق أهل تلك الصناعات أنفسهم فيه من قضايا عميقة الغور طويلة الذيل تتعب الأذهان غير المدربة حتى تفهمها إن استطاعت، فكره هؤلاء غاية الكراهة – ولا شك – أن ينسب «العقل» نفسه إلى كلام هم لا يفهمونه! ونحن نقول في هؤلاء وأمثالهم من المفتونين: من بدأ حياته بالتشبع بالفلسفة والمنطق والتخصص في العقليات وفرح بذلك كفرح هؤلاء، فكبر عليه أربعا ونفض منه يديك، ثم تربص بقرن جديد من قرون البدعة والزندقة يخرج من بين أظهرهم وعلى أيديهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

بأن تلك القضايا التي أنكرتها الفلاسفة وجادلت فيها لا يماري فيها إلا مريض جاحد، مغرق في الهوىٰ؟ ألأنهم يخافون أن يُرموا بالقصور عن فهمها وبضعف العقل بإزائها (لما هو معروف من صعوبتها ووعورة ودقة مباحثها)؟ ومتىٰ تنكسر تلك الهيبة والرهبة في نفوسهم ويتبين لهم فساد تلك المسالك - أصلا وأساسا - وينكشف لهم ما حمل أصحابها عليها من الدهرية والملاحدة من مرض عقلي ونفسي خبيث، ومن كبر شيطاني ذميم؟

هذا ما وضعت كتابي هذا في بيانه وتحقيقه، راجيا من الله تعالىٰ أن يوفقني في إرجاع الأمر فيه إلىٰ نصابه السلفي الصحيح. وحتىٰ لا يقال لكل نفس أبية ولكل سلفي صادق في حرصه علىٰ صيانة عقول المسلمين وقلوبهم من سفسطة الفلاسفة وعبث المتكلمين، وعلىٰ صدهم عن الخوض مع هؤلاء فيما تكلفوه وتشدقوا به من بهرج وزخرف لفظي وعقلي سوفسطائي يخلب الألباب: أنتم متشددون جهال، تتخوفون مما تجهلون، وتقصرون عما لا تعقلون! فقد رأيت العقد ينفرط، ورأيت علىٰ شبكة الإنترنت مفارخ تخرّج لنا من الصبية الصغار أنصاف المتعلمين المفتونين بالفلسفة وعلم الكلام ما بات يصعب عده وإحصاؤه، وهم كلهم يحسبون أنهم واقفون علىٰ ثغر وأنهم مجاهدون في سبيل الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هذا ما دفع بي في تلك الأضرب، وحملني علىٰ نقل ما نقلت، وتناوله - فيما مر وما يأتي من أبواب هذا الكتاب - علىٰ ما أزعم أنه هو المفهوم الصحيح للعقل والبرهان العقلي في تلك القضايا التي تنازعتها الفلاسفة والمتكلمون من كل نحلة، لا علىٰ ما اشترطه أهل الفلسفة من مفهوم للعقل والدليل العقلي، وتابعهم عليه المفتونون من أتباعهم ومخانيثهم في كل زمان ومكان! إنه - فيما أرجو - إحياء لمنهج نبوي قرآني طاهر في الدعوة والخطاب، قد أماته ركام التراث الكلامي عند أكثر المسلمين، حتىٰ ما عاد كثير من المنتسبين إلىٰ منهج السلف الأول في زماننا هذا يتصورون كيف يلتزم المسلم بما كان عليه الأولون رحمهم الله تعالىٰ من نبذ الخصومة الجدلية مع الفلاسفة وأهل الملل والتحريم والمنع من الاشتغال بعلم الكلام وتحريم النظر في

الفلسفة جملة واحدة!

لقد كان من العبارات المشهورة التي أصبحت شعارا من شعارات الفلاسفة المعاصرين، عبارة رينيه ديكارت إذ يقول: «أنا أفكر إذن أنا موجود» Cogito Ergo Sum! هذه العبارة يعدها كثير من الناس شعارا للحكمة وكمال العقل، بينما أعدها أنا دليلا علىٰ مرض نفسي خطير في الحقيقة! فعندما يصبح وجودي نفسه مفتقرا إلىٰ برهان نظري عندي، حتىٰ إذا ما بحثت وتأملت وأعياني استخراج ذلك البرهان، جاءتني لحظة إلهام وانقدحت في ذهني شرارة العبقرية وإذا بي أقول: «ما هذا؟ لو لم أكن موجودا ما كنت تكلفت البحث والنظر فيما إذا كنت موجودا أم لا! فما دمت أفكر – من الأساس، فلا بد وأن لذاتي ووعيي وجودا حقيقيا!»، عندما يتحرك ذلك الذهن العليل سعيا في اكتشاف البرهان لإثبات وجوده نفسه، ثم يقال في مثل هذا إنه قد بلغ الغاية من النبوغ والعبقرية وكمال العقل، فقد جعل العقل إذن مرادفا لمحض السفاهة والضياع والمرض النفسي العضال، والله المستعان!

فالسؤال الذي لا يعبأ الفلاسفة بطرحه علىٰ أنفسهم في مثل هذا، هو السؤال عن الدافع والمحرك النفسي الباطن الذي يحمل أحدهم علىٰ التعمق بالنظر العقلي حتىٰ يصل إلىٰ التشكيك في وجوده نفسه! فما الذي دعا رجلا في ذكاء ديكارت ونبوغه لتكلف النظر والبحث عن «برهان» لإجابة سؤال كهذا، يطرحه ويبحثه وكأن مثله مما يجهل العقلاء جوابه، وينتظرون الإلهام الفلسفي من عبقري من العباقرة حتىٰ يأتيهم به، يعرفهم فيه بما جهلوا ويمدهم بما قصرت عنه «عقولهم الضعيفة»؟ ولماذا لم يجد هذا في نفسه وفي سياقه المجتمعي ما يثنيه عن تلك السفاهة ويغنيه عن تكلفها، وما الذي وصل به إلىٰ تلك الحالة؟ وكيف السبيل إلىٰ علاج تلك الآفة النفسية والمجتمعية المدمرة وصيانة عقول البشر منها، من بعد إظهارها علىٰ حقيقتها لعامة الناس؟ أم تُراه يصح أن يقال فيمن لم يتكلف هذا البرهان أو نحوه من البراهين الفلسفية التي «يثبت بها الإنسان أنه موجود في الحقيقة!»، يجعله بداية وأساسا للتفكر في كل شيء كما كانت طريقة ديكارت، إنه جاهل بوجوده نفسه، لا يدري أهو موجود حقا أم لا، أو أن يتهم بأنه

«مقلد» إذ يؤمن بوجود نفسه بلا دليل؟ وإن كنا نثبت له العلم الفطري البدهي بحقيقة أنه موجود، فبالله أي فائدة استفادها من «برهان» كهذا؟ لا فائدة ولا مصلحة ولا نفع، وإنما ضرر محض، والله المستعان! صدق والله من قال «الفلسفة فلس يفضي إلىٰ سفه»!

لو أدرك الفلاسفة أن من الأسئلة ما يورث السفه بمجرد طرحه، وأن مِن الفكر ما هو عبث وضلالة بمجرد تكلفه، وأن للتفكر وإعمال النظر العقلي حدا إن جاوزه آل بصاحبه إلىٰ السفاهة المحضة، وأنه كغيره من أعمال البشر يرد عليه الإفراط كما يرد عليه التفريط، لو أدركوا هذا المعنىٰ بحقه، لارتاحوا وأراحوا، ولعرف برد اليقين الصادق طريقه إلىٰ قلوبهم المريضة المستكبرة! ولكنها الأهواء القاتلة التي تحمل العاقل علىٰ تكلف البحث عن مسائل جديدة يتعمق فيها بآلة النظر العقلي، يتفنن في ضرب البراهين والردود والجوابات والتحليلات أشكالا وألوانا، حتىٰ يسبق أقرانه ويتفوق عليهم فيما تخصصوا فيه!

أم تحسب أن كبار الفلاسفة سيسارع أحدهم إلىٰ الإيمان هكذا بمجرد السماع كما آمن «العامة»؟ وهل صاروا من الأكابر المعظمين – أصلا – إلا بالتعمق النظري في كل شيء، وإيهام من سواهم من الناس بأنهم عوام جهلاء مساكين لا يعقلون؟ لا شك أنه كلما كان السؤال أبعد عن الذهن والخاطر، وكان ضاربا في المزيد مما اعتاد عليه الناس من مسلمات المعارف، كان من شأنه أن يجلب للفيلسوف غاية ما يطمح إليه من اهتمام الأقران ومن تعظيم العامة والسفهاء، إذ لا يكاد يقف أحد من عامة المفتونين بصنعة الفلسفة مع نفسه قبل التأمل في بضاعة هذا الفيلسوف أو ذاك ليسأل نفسه أولا: «كيف زعم هذا المسكين أن هذه المسألة تفتقر إلىٰ دليل نظري أصلا، وبأي حق سوغ الناس له ذلك الموقف؟» ومن ثم يقرر أن بضاعته تلك (مهما عظمت في نفوس الناس) ليست إلا عبثا وهراء لا يستحق الالتفات إليه أصلا، وإنما تراه يسارع من فوره إلىٰ الغوص برأسه في تلك البضاعة كما رأىٰ «المثقفين» وصفوة الناس من حوله يصنعون، فإذا هو مع ذلك القطيع من «المفكرين» المعظمين الموقرين بين الناس، يتأمل في «الحجج» و«البراهين» النظرية، يستخرج من هذه المقدمة خللا، ومن تلك النتيجة تناقضا، ويقارن

هذا بذاك، ويدخل المناظرات والسجالات مع فلان وفلان، يجمع لنفسه من الصيت والسمعة أثناء ذلك ما ترنو إليه وتطمع فيه، فأنىٰ لنفسه أن تنتبه إلىٰ فساد ما هي عليه من منهج في تطبيق آلة النظر العقلي نفسها من الابتداء؟ إنه مرض عضال قلّ من يعافيه الله منه تمام العافية، نسأل الله السلامة!

لقد كان سلفنا رضوان الله عليهم يطردون المتفلسفة والمتكلمة من مجالسهم ويشنعون عليهم أشدّ التشنيع ولا يتساهلون في ذلك، وكان المتكلمة في المقابل يتهمونهم بأنهم ضعاف العقول ولا قدرة لهم علىٰ التأمل في «العقليات»، إذ لو كانوا يقدرون علىٰ ما قدر عليه هؤلاء، لخاضوا معهم في «براهينهم» ولأجابوا «الحجة» بـ«الحجة»! ولو أنهم أجابوهم لما يريدون لضيعوا ما استأمنهم عليه رب العالمين من علم الكتاب، ولأحالوا الحقائق القطعية وثوابت الملة الرواسي إلىٰ ساحة للعب كل عابث سفيه، كما كانت ثمرة كلام المتكلمين وخوضهم معهم! فأي «عقل» وأي «عقليات» وأي «براهين» هذه التي توصل الواحد منكم إلىٰ طرح أمثال تلك الأسئلة يا مرضىٰ القلوب؟ وأي الفريقين أولىٰ بالوصف بضعف العقل وخفته لو كنتم تعقلون؟

ما أكثر ما يتهم العاقل من أهل السنة والديانة بأنه جاهل متعنت ضيق العقل والأفق إذ يدعو العامة لاجتناب مؤلفات فلان أو فلان، وقد يكتفي بالإجابة عن كتاب كامل بجواب موجز دون أن يتكلف قراءته، فيقول قائلهم: «تأملوا كيف يرد الجاهل علىٰ كتاب لم يقرأه»! ونحن نقول «بل أنت الجاهل المريض علىٰ الحقيقة، إذ ليس كل سؤال يصح في العقل أن يطرح للنظر والبحث النظري ابتداءً، وليست القضايا المعرفية كلها سواء في مجاري النظر والاستدلال، لذا جاز بالضرورة أن يحكم العاقل علىٰ كتاب من الكتب (وإن كان واقعا في عدة مجلدات) من مجرد الوقوف علىٰ عنوانه، بل جاز له أن يقذفه في التنور ويحكم علىٰ صاحبه بما هو أهله! فأي عاقل هذا الذي يلزمه استفراغ الوقت لقراءة كتاب عنوانه «نصب البرهان علىٰ أن العالم الخارجي وهم في الأذهان» (مثلا) أو «الفيزياء تثبت أن الكون لا يفتقر إلىٰ خالق» أو «إثبات نسبية الحقيقة» أو نحو

ذلك من زبالة العقول، حتىٰ يحكم عليه من مجرد عنوانه بأنه خرف محض؟ عندما تكون علىٰ يقين صحيح معرفيا، منصرم لا مدفع له ولا يرد عليه المعارض، بأنه من المحال الوصول إلىٰ إثبات أمثال تلك الدعاوىٰ المصادمة للبداهة الأولىٰ بأي طريق من طرق التنظير البتة، فأي شيء يحملك - إذن - علىٰ تكلف الخوض النظري للرد علىٰ تفاصيل ما تكلفه أصحابها من نطاعة وسفسطة؟ لست أراه إلا الوهن والخوف من الاتهام بنقص العقل والعلم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لقد بات كثير من المسلمين يعجبون ولا يفهمون كيف نقول إن الحجة قد قامت علىٰ المشرك بمجرد السماع، مع أنهم قد جادلوا في كذا وفي كذا، ولهم شبهات وخصومات طويلة، وسؤالات واعتراضات لا تنتهي، وقد بالغت رؤوسهم في القول بخفاء الدليل عليهم - بل ظهور خلافه - في قضايا «عقلية» كثيرة مما يستصحبه النص القرآني في نفوس الناس ابتداءً، حتىٰ جاءهم المتكلمون فيها بأطنان من البراهين أشكالا وألوانا، لعلهم يقتنعون، وما رأيناهم ينقطعون إلا ليرجعوا بالمزيد ولو بعد حين؟! فيقال لهؤلاء: كيف يجتمع في العاقل الداعي إلىٰ الله تعالىٰ، القول بأن محاججة المشركين لا تتم إلا بموافاتهم بما يطلبون وما يشترطون من أنواع الأجوبة والبراهين، وهو في نفس الوقت يرىٰ أن الحجة تقوم بمجرد السماع لا باشتراط الفهم وزوال المعارض (كما عليه إجماع الأئمة)؟ ألم يسمعوا قول الله تعالىٰ: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [**البقرة**: ٢] وقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [**يونس**: ٣٧] وقوله تعالىٰ: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [**السجدة**: ٢]؟ الكتاب الموصوف بأنه لا ريب فيه، وأنه هدىٰ للمتقين، لا يماري فيه ولا يرتاب فيه إلا من عميت بصائرهم وطفحت قلوبهم بموانع الهداية، نسأل الله السلامة! قال تعالىٰ ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [**محمد**: ٢٤].

فما فقه أولئك الدعاة لقوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى**

قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [**الأنعام**: ١٩]، وهل الجدل الكلامي هو المقصود بالبلاغ والنذارة في هذه الآية ونحوها عندهم؟ هذا القول القديم الذي أجمع عليه أئمة سلفنا، الذي جاء بالتشديد والتشنيع علىٰ طائفة المتكلمين لخوضهم فيما خاضوا فيه من جدال الفلاسفة، كيف صرنا ننظر إليه اليوم وكم منا من يقدمه للمسلمين حق التقديم ويعتني به حق العناية، من غير أن يقعد به خوفه من تشنيع المتكلمين عليه بأنه فقير في العقليات وأنه يتهرب من خوض الجدال لضعف عقله ووهاء آلة النظر عنده؟

المسألة فتنة ولا شك، فتنة قوم كرهوا أن يقال إن الملحد خاصة أو المشرك عامة عنده من فنون الاعتراض «العقلي» و«النظري» علىٰ دين الإسلام ما لا يطيق المسلمون دفعه، فجعلوا أوجب الواجبات في دينهم أن يجيبوا ذاك المعاند إلىٰ شرطه في أسلوب الجدال ومصادر تلقي (أو أنواع) الدليل العقلي نفسه، فكان من أثر ذلك ما كان للجهم بن صفوان ولكل من أسس علىٰ ذلك الأصل كتأسيسه!

تأمل علىٰ سبيل المثال كيف يبدأ المتفلسف المحترق المدعو «عدنان إبراهيم» سلسلته المسماة «مطرقة البرهان وزجاج الإلحاد» بمقدمة يقرر فيها جريانه علىٰ شرط الملاحدة في مفهوم البرهان الذي يشترطونه للتسليم بوجود من خلقهم، وضرورة إجابة «تحديهم» ومعقولية ذلك التحدي نفسه إلىٰ حدّ أن يقرر اتفاقه مع الفيلسوف الملحد البريطاني المعروف «برتراند راسل» Bertrand Russell (وليس «برنارد راسل» كما سماه!) في قياسه القول بوجود الباري علىٰ القول بوجود إبريق عالق في مدار حول الأرض (!!)، من جهة أن كلا القولين علم مكتسب من بعد جهل، فيحتاج عند من يقول به إلىٰ نصب البرهان عليه أولا (يعني الدليل النظري عموما، حسيا كان أو عقليا) فإن لم يكن ثمّ سبيل للوقوف علىٰ معاينة ومشاهدة ذلك الشيء في الواقع مشاهدة مباشرة، ولا إلىٰ التدليل عليه نظريا، لم يصح الإيمان بوجوده أصلا! هذا هو شرط الفلاسفة والملاحدة الذي نتج عن الالتزام به، القول بوجوب النظر عند جميع المتكلمين قديمهم وحديثهم علىٰ السواء.

يقول[1]:

عموما كان بعض اللاهوتيين، بعض رجال الدين، عبر العصور يستندون إلىٰ ما يعرف بحجة الجهل فكانوا يقولون للملاحدة وربما للشكوكيين واللاأدريين: «هيا أثبتوا لنا أنتم أن الله غير موجود» وهذا من باب حجة الجهل، هذا تطبيق من تطبيقات حجة الجهل في المنطق بمعنىٰ أنك إذا لم تستطع أن تثبت أنه غير موجود إذن هو موجود! وكأنه نوع من برهان الخُلف ..سنبدأ نحن بالمواجهة ..لماذا؟ لأن بعض الملاحدة في القرن العشرين آثروا أن يقذفوا بالكرة في ملعب المؤلهة، قالوا لأول مرة فعلناها.. أنطونيو فلو [والصواب: أنطوني فلو!] مثلا في مرحلة إلحاده فعل هذا، في كتابه فرضية الإلحاد قال: «أنا فعلت هذا لأول مرة، قذفت بالكرة في ملعبهم، قلت لهم: لا ليس الملحد المطالب بإثبات عدم وجود الإله، أنتم تقولون إنه يوجد إله!» وهذا الصحيح طبعا! هذا السير الفكري السليم.. البينة علىٰ من ادعىٰ. أنت تدعي أن الله موجود.. إذن برهن هذا! لأن برهان النفي كما يقال برهان السلب صعب جدا جدا، هناك مثل مشهور لبرنارد راسل يتحدث فيه عن إبريق خرافي أو ابريق افتراضي يقول: «فلنفترض مثلا أنه بين الكوكب الفلاني والكوكب العلاني إبريق خزفي صيني يدور بطريقة معينة بين الكوكبين.. برهن لي أنه غير موجود؟».. لا تستطيع بأي حال من الأحوال، كيف تستطيع أن تبرهن أنه غير موجود؟! تبرهن السلب لكن البرهان دائما يكون علىٰ الوجود. وبالنسبة لنا لا توجد مشكلة قد قبلنا التحدي.. نحن سنبدأ بعرض براهيننا، وفي الأثناء سنعرض لكل براهين وأدلة الملاحدة المنافية والمعارضة، طبعا لديهم اعتراضات لديهم إيرادات كما يقال، وسنجيب عنها واحدة واحدة وبكل نزاهة وموضوعية.

قلت: أولا هذه الطريقة التي استعملها السابقون في زعمه ليست من مغالطة الاحتجاج من الجهل كما يزعم، لأن موضوع النزاع ليس موضوعا مما يتصور فيه خفاء دليل الثبوت أصلا! أنت تؤمن بصحة ما في ذاكرتك مما مر بك بالأمس القريب من حوادث ووقائع، وتجزم جزما منصرما لا يرد عليه المعارض عندك بأنه كان حقا كما تذكره، فيأتيك من يقول لك: «بل أنت وغيرك من البشر واهمون كلكم في جميع ما

(١) المصدر: تفريغ المحاضرة الأولى في السلسلة المذكورة في موقعه الرسمي على شبكة الإنترنت.

تتذكرون، لأن العالم كله إنما خلق في الحقيقة قبل خمس دقائق فقط، وخُلق الناس فيه وهم كلهم يتوهمون أنهم قد مروا بما مروا به في ماضيهم!» فهذا أي موقف هو الصواب معه؟ أن تجادله علىٰ طريقة الجدليين السوفسطائيين، فتسلم له باحتمال أن يكون كلامه صحيحا، وإذا به يلزمك بنظير مسألة إبريق راسل الهزلية السخيفة هذه، فيقول لك: «أنت من تثبت حصول الماضي علىٰ الحقيقة وأنت المدعي فالبينة إذن عليك أنت لا علي؟» أم أن تعظه وتزجره عن هذا الخرف والهذيان المبين، وتبين له أنه صاحب مرض عقلي وقلبي إن كان جادا غير هازل فيما يقول، وتأتيه - إن رأيت المصلحة في ذلك - بما يفضحه أمام نفسه وغيره، فتطالبه هو بأن يقدم لك برهانا علىٰ توهم الناس كافة، ما يعتقدونه بداهة من صحة ما مروا به جميعا من أحوال ووقائع في الماضي القريب والبعيد؟

هذه هي صورة المسألة! الذي يرفع عقيرته بالزعم بأن الواحد ليس هو نصف الاثنين كما تعتقده عقلاء الأرض كافة، هذا لا يخاض معه في المخاصمة أصلا، وإنما يتهم علىٰ العقل وجوبا! لا أن يخاصم ويناقش إلىٰ حد أن يقال له: «صدقت، نحن من نزعم أن الواحد هو نصف الاثنين، وإذن فالبينة علينا نحن لا عليك أنت!»! فمن قابله بمثل هذا السخف ففي نفسه من المرض قريب مما في نفس ذلك الكذاب المكابر ولا شك!

وكذلك يقال في مسألة وجود الباري جل شأنه، بل يقال فيها من باب أولىٰ، إذ إن وجوده أظهر في العقول السوية من ذلك كله وأثبت في الفطرة والبداهة، وإن رغمت أنوف الفلاسفة والمتكلمين، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثانيا: كذب فلو (إن صحت نسبة الكلام إليه)، في زعمه أنه هو أول من سفسط تلك السفسطة الساقطة في مسألة عبء البينة Burden of Proof في الخصومات بين الفلاسفة الدهرية واللاهوتيين والمتكلمين! فإنه لم يزل في أمم البشر - من يوم أن ظهرت صنعة السفسطة التخصصية التي يقال لها الفلسفة، وأصبحت نظاما أكاديميا مرموقا ومعظما بين الناس - طوائف من أهل الملل المثبتة للصانع بالغيب تلتزم بشرط

الفيلسوف الدهري إثبات حدوث العالم، حتىٰ يسلم لهم بوجود من أحدثه! بل ليس في تاريخ الفلسفات الدينية شيء أقدم من براهين إثبات الصانع علىٰ اختلافها وتنوعها! فأي كرة هذه التي قذفها فلو وعن أي ملعب يتكلم؟

ثالثا: هل كان ليخطر ببال مفتون مغرور بعقله كصاحبنا هذا يوما من الدهر أن يصرح باتهام «راسل» في عقله وأن يرميه بالجحود المحض والاستكبار عن الحق وركوب مطايا الهوىٰ بعضها فوق بعض طبقات، ويقرر ما هو واضح جلي من كون ذلك القياس المعرفي بين خالق السماوات والأرض وما فيهما وبين الإبريق الافتراضي السابح في الفضاء، قياسا هزليا سخيفا، وعدوانا عظيما علىٰ رب العالمين وعلىٰ ما في فطرة البشر من معرفة به، وأنه قياس باطل بطلانا لا يحتاج إلىٰ تدليل أو شرح أو توضيح؟ أبدا ما كان ليفعل! لماذا؟ لأنه يعلم أنه لو فعل لاتهمه «المثقفون» وأضرابهم من الملاحدة والزنادقة بأنه يتهرب من المواجهة لأنه ضعيف مسكين لا يقوىٰ عقله علىٰ مقابلة البرهان ببرهان مثله، «فاكتفىٰ» بالتسفيه والاتهام والتشنيع! لذا وجب عليه أن يجيب «التحدي» ويقابل البرهان الفلسفي ببرهان فلسفي معاكس، والدليل التجريبي بدليل تجريبي مقابل، والحجة الرياضية بحجة رياضية مضادة، وهكذا، وإلا نسبوه إلىٰ ضعف العقل وإلىٰ الجهل بالعلوم الحديثة، وما من شيء أكره إلىٰ نفسه من ذلك!

هذا الداء النفسي (مركب النقص Inferiority Complex) الذي كان ولا يزال المتكلمون يعانونه من يوم أن ظهر شيء اسمه علم الكلام، هو الحامل النفسي الحقيقي علىٰ التزام تلك الشروط العبثية التي اشترطها سفهاء الإلحاد ولا يزالون يشترطونها حتىٰ يحيلوا نزاعهم مع أهل الملل إلىٰ نزاع نظري عميق الغور واسع التشعب مشحون بـ«البراهين» و«البراهين المقابلة»، فلا تظهر فيه حجة أو برهان إلا ظهر ما يقابله، وهكذا حتىٰ يصبح وجود الباري نفسه قولا نظريا متقاربا لا تثريب علىٰ من قال إنه لا يعقل له دليلا ولا يدري له برهانا! فمن أين جاء مركب النقص هذا؟ من تعاظم بضاعة الفلاسفة ومنازلهم الرفيعة التي ينزلهم إياها كبراء الأمم ووجهاء البلاد، في نفوس أولئك المفتونين، ومن طمعهم في لعاعة الدنيا التي تحصل لأحدهم بنزول تلك المنازل بين

الناس! فإذا هان أمر الدين والآخرة، وعظم أمر الدنيا في النفوس، انفتح من الأهواء فيها ما تبيع لأجله دينها بعرض من الدنيا قليل، وهي مع ذلك توهم صاحبها المفتون بأن عمله هذا جهاد في سبيل الله كله، وانتصار للحق ودحض لحجج الفلاسفة، وفتح للدين مبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

تأمل كيف يقول «وفي الأثناء سنعرض لكل براهين وأدلة الملاحدة النافية والمعارضة. طبعا لديهم اعتراضات، لديهم إيرادات كما يقال، سنجيب عنها واحدة واحدة»! وأقول له كذبت ورب الكعبة: لم ولن تأتي بكل براهينهم وأدلتهم المعارضة ولو ألفت في ذلك مئة مجلد! هذه حقيقة تعرفها أنت ويعرفها أتباعك الذين حسبت أن كتيبك هذا أو سلسلتك تلك سيكون فيها كفايتهم! ذلك أن السفسطة بحر لا قاع له! فمن استجاز مناقضة بعض البدهيات الأولىٰ، أو حتىٰ فتحها للرأي والنظر، ينتقي منها ما يثبته وما ينفيه بهواه، فلا يحده حد ولا يوقفه برهان ولا أول ولا آخر لما يمكن أن يزينه له شيطانه من صور «البراهين الفلسفية» والألاعيب اللفظية التي يمكنه أن يتكلفها في النقض والتأسيس لنصرة مذهبه، ومن كانت له أدنىٰ مطالعة لأدبيات فلاسفة الإلهيات فهو يعلم عن أي شيء أتكلم!

فهل المطلوب الآن من كل مسلم حتىٰ «يعرف» أنه مخلوق وأن خالقه كامل الصفات مستحق للتوحيد بالعبادة والتأليه، أن يتتبع تلك الأدبيات الشيطانية ويبحث عن ردود المتكلمين عليها وردود الملاحدة علىٰ تلك الردود وأجوبة الاعتراضات وهكذا دواليك، يفني في ذلك عمره كله كما أفنىٰ أصحابك ومشايخك أعمارهم فيما أهلك بعضهم علىٰ البدعة والضلالة، وبعضهم الآخر علىٰ الزندقة والردة عياذا بالله من ذلك؟ إن قلت لا ليس مطلوبا من كل مسلم، فقد ارتضيت منه «التقليد» في الإيمان (علىٰ حدّ اصطلاحكم في وصف من لم يتكلف النظر في وجود الصانع) وجعلته أهلا لكل مذمة في عقله وإيمانه، وإن قلت بل هو مطلوب وواجب علىٰ كل مكلف، فقد أوجبت علىٰ المسلمين أن يرتدوا أولا وينزلوا إلىٰ مثل دعوىٰ الملحد الجهل الأصلي بوجود الباري، فيعلقوا إسلامهم علىٰ الشك والتوقف حتىٰ يقع عندهم برهان نظري واحد

علىٰ الأقل من براهينكم المبتدعة لم يقابله الملاحدة باعتراض وجيه علىٰ مقدمة من مقدماته أو لفظة من ألفاظ صياغته أو نحو ذلك، وهو رجاء بعيد إما أن يجد الواحد من أولئك المساكين من أتباعكم ما يحمل نفسه علىٰ إيهامها بأنه قد تحصل عليه فيمضي به إلىٰ حاله (ولا يسلم حتىٰ مع ذلك من الرجوع إلىٰ البحث والنظر أبدا، ما دام الأمر عنده رأيا ونظرا واجتهادا!)، أو يجد ما يحمل نفسه المفتونة علىٰ استحسان الإلحاد واللاأدرية والتوقف في إثبات الصانع ونحوها من مواقف قد زينتم للناس اعتقاد أن أصحابها «نظار» متعمقون مدققون وإن كانوا «علىٰ خطأ» في نظرهم واجتهادهم!

يقول الفيلسوف الجهمي التطويري «عمرو شريف» في مقدمة كتابه «وهم الإلحاد» (ص. ٥ – ٦):

> وعلىٰ حين كان الضيق الغربي بسباحة العقل في عوالم الأفكار، وبالفروض والشكوك المنهجية قيودا وأغلالا دفعت قطاعات من العقل الفلسفي الغربي إلىٰ الزندقة والإلحاد.. كانت الأبواب الإسلامية مشرعة أمام العقل كي ينظر في الخلق والواقع والمصير دونما قيود.. حتىٰ قال بعض علماء الإسلام: «إن أول شرط للمعرفة هو الشك».. وقال آخرون: «إن الواجب الأول علىٰ الإنسان هو الشك» .. وأعلن البعض: «إن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر ففي العمىٰ والضلال»! ولقد تحول هذا الشك المنهجي – في التراث الإسلامي – إلىٰ «علم» من العلوم التي يجب تعلمها، لأنه هو الطريق إلىٰ تحصيل اليقين الذي تطمئن به القلوب.. وعبر الجاحظ (٣٦١-٥٥٢ هـ) عن ذلك فقال لقارئه: «فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له.. وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، فلم يكن يقين قط حتىٰ كان قبله شك، ولم ينتقل أحد عن اعتقاد إلىٰ اعتقاد غيره حتىٰ يكون بينهما حال شك» اهـ. وبهذا الأفق الإسلامي المتميز – بل الفريد – تم استيعاب العقلانية بكل تجلياتها في أحضان الإيمان الإسلامي، فانعدمت – أو كادت – القيود والضرورات الملجئة إلىٰ الإلحاد.

قلت: ولا عجب من أن يكون هذا منهج من جعل من الجاحظ الجهمي الزنديق سلفا له وإماما، وجعل تراث المعتزلة الجاحظية الغلاة هو تراث المسلمين! أي إسلام

هذا الذي كانت الأبواب فيه «مشرعة أمام العقل كي ينظر في الخلق والواقع والمصير دونما قيود»؟ ليس هذا إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعموم الصحابة وآل البيت ومن تابعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين أبدا والله، وإنما هو إسلام الجهمية من أسلاف صاحبنا هذا، الذين جعلوا الشك طريقا لليقين! ووالله لا يوصل الشك إلىٰ يقين أبدا! وإنما غاية ما يرجىٰ منه فيما يستساغ إعماله فيه من القضايا النظرية (نوعا) أن يوصِل صاحبه من بعد اعتناقه مذهبا غير صحيح، إلىٰ بلوغ ظن قوي في المذهب الصحيح، مع استصحاب قناعة مبطنة مفادها جواز ظهور دليل جديد يرجع به إلىٰ خلاف ذلك الرأي الذي انتهىٰ إليه، مهما كان الآن مقتنعا بصحته! فالشرط النظري (شرط عدم ظهور المعارض) الذي يقول به عقلاء المسلمين وعلماؤهم وأئمتهم (وليس أئمة الجهمية والمتكلمين كالجاحظ وغيره ممن تعلق بأهدابهم عمرو شريف) إنما يحصرونه في العلوم النظرية التي تتسع (بطبيعة موضوعها) للرأي والاجتهاد، وهذه مهما اشتدّت فيها غلبة الظن عند الترجيح، فما دام طريق الوصول إليه الاجتهاد والنظر وموازنة الأدلة، فسيظل باب الاحتمال فيها مفتوحا لظهور معارض يغير مذهب الناظر ليرجع به إلىٰ الشك والتوقف، مع كونه مطالبا بالعمل بآخر ما انتهىٰ إليه نظره وعلمه علىٰ أي حال.

فأي طوائف المسلمين هي تلك الطائفة التي اعتنقت ذلك الشرط النظري بل أوجبته علىٰ المسلمين في أصل اعتقادهم بوجود صانعهم نفسه جل وعلا؟ إنهم أولئك الذين استدرجهم الشيطان للخضوع لشرط الفيلسوف الملحد ومفهومه للعقل وحدود النظر عنده، لعله يتفضل عليهم ويقبل منهم مناظرته ومجادلته في «علمه» و«فلسفته» حتىٰ يظهروا لأنفسهم وللناس أنه ليس أحسن عقلا ولا علما منهم! وهو مفهوم لا مكان فيه لليقين أصلا علىٰ التحقيق! الفلاسفة يشترطون علىٰ من يناظرهم أن يكون علىٰ استعداد للتشكيك في كل شيء، واجتهاد البرهان «العقلي» لإثبات أي شيء يطيب لأنفسهم أن يماروه فيه ويجادلوه عليه، إما هذا وإما اتهموه بالتقليد الأعمىٰ وبأنه لا يعقل ولا يقوم إيمانه علىٰ أساس «عقلي»، بل علىٰ جهل وتعصب وضيق عطن! فلما كان ذلك كذلك، واختار قوم من المسلمين أن يجادلوا هؤلاء وأن يغالبوهم ويناظروهم في حيلهم اللفظية المنطقية، لزمهم قبول شرطهم في مفهوم العقل نفسه، وهو ذلك

المفهوم الذي لا يرىٰ شيئا اسمه اليقين ولا الإيمان أصلا، وإنما نظر مستمر وجدال دائم ومناظرة ومناقشة لا نهاية لها!

لذا نقول إن الجهمية لعنهم الله هم من فتحوا باب الشك النظري واجتهاد الرأي في مسلمات الفطرة وضروريات العقل الأولىٰ علىٰ المسلمين وقد كانوا منه في عافية، حتىٰ جعلوا ذلك النظر الفاسد المهلك أول واجبات المكلفين، لا لشيء إلا لأن الفيلسوف الملحد الخبيث اشترط عليهم ذلك عند المناظرة! فالجهمية والمتكلمون هم من لا يضعون قيدا علىٰ الشك والنظر وهم من يحتضنون «العقلانية بكل تجلياتها» (علىٰ حد إطلاق صاحبنا هذا) وليس العقلاء والعلماء من المسلمين، لأنهم أتباع الفلاسفة بالأساس لا أتباع المرسلين! فتنتهم طريقة القوم وبضاعتهم، فأبوا إلا أن يكونوا أمثالهم بل أبوا إلا أن يظهروا عليهم بتلك البضاعة نفسها! فمن كان سلفه أرسطو (أو في حالة صاحبنا هذا: تشارلز داروين) فمن المتوقع ألا يقبل من أتباع المرسلين أن يحدوا له حدا في النظر وإعمال «العقل» (علىٰ مفهوم أئمته وسلفه للعقل)، وأن ينتزع من أقوال الجهمية والمعتزلة القدماء تلك المقولات التي ساقها صاحبنا في النقل المقتبس أعلاه!

ما أسهلها من دعوىٰ جذابة وبراقة أن يقول الفيلسوف المتأسلم: «وبهذا الأفق الإسلامي المتميز – بل الفريد – تم استيعاب العقلانية بكل تجلياتها في أحضان الإيمان الإسلامي، فانعدمت – أو كادت – القيود والضرورات الملجئة إلىٰ الإلحاد.»! فما دليلك يا من تتنطع بدعاوىٰ البرهنة والدليل، علىٰ أن مطلق تقييد النظر (من حيث المبدأ) بقيود السلطة الدينية (أيا ما كانت صورتها) هي السبب في إلحاد الملحدين؟ كيف وبأي دليل من نقل أو عقل يكون علاج الإلحاد، أن نفتح له الباب ليصبح ظاهرة اجتماعية مستقرة في بلاد المسلمين، يتعرض لها كل مسلم وقتما أحب كيفما أحب، يجالس أصحابها في كل مناسبة، ويناقشهم في كل ما تأتي به أذهانهم القذرة وقلوبهم المريضة من شناعات الفكر وزبالات النظر؟

بأي عقل أيها الطبيب المتخصص يكون علاج الوباء الخطير بأن نفتح له باب التفشي والانتشار بلا قيد ولا حد، بدعوىٰ مشروعية «الشك المنهجي»، ثم ندعو

أصحاب ذاك الوباء الفتاك بعدما أصابهم وتمكن منهم، إلىٰ مناظرة الأطباء لعلهم يقتنعوا بأنهم مرضىٰ وبأن مرضهم قاتل فتاك وأنه يجب عزل المصاب به ومحاصرته لصيانة الأصحاء من خطر العدوىٰ؟ كيف يكون علاج المريض عقليا (المجنون سلمكم الله) بأن نقنعه بأنه عاقل بل بأن طريقته في التفكير هي كمال العقل وهي الموصلة إلىٰ العلم واليقين، وإنما أخطأ في النظر بتلك الطريقة لا غير، مع أنه قد مال به مرض نفسه إلىٰ التشكيك في أنه مخلوق مصنوع من الأساس؟ أي قيود هذه وأي «ضرورات» تلك التي تلجئ رجلا إلىٰ الإلحاد إلا أن يكون قلبه قلبا مريضا يحتاج إلىٰ من يعظه ويعالجه إن كان يرجىٰ منه الخير؟

ومن ذا الذي قال إن النصارىٰ الكاثوليك الذين اتخذوا ضغوط الكنيسة عليهم ذريعة للإلحاد معذورون بإلحادهم؟ كيف وبأي عقل يكون المؤمن برب خالق من فوق السماوات (أيا ما كانت صفته عنده وأيا ما كان دينه الذي يتقرب به إليه) معذورا إن انتقل عن ذلك الاعتقاد إلىٰ القول بالصدفة والدهرية وعدمية الباري، بدعوىٰ أن السلطة الدينية التي ينتمي إليها قد ضيقت عليه حدود النظر والبحث العقلي؟ هذه ذريعة من لا خلاق لهم، فإن أعذرتموهم بها فأنتم إذن أمثالهم! كان أتباع المرسلين يضربون علىٰ رؤوس الملاحدة وينفرون الناس منهم بكل قوة وبكل حزم، فلا تظهر لهم رأس إلا قطعوها ما استطاعوا، ثم جئتم أنتم بتقديمهم ورفعهم وفتح المجال لهم لينشروا بضاعتهم، ولما ناظرتموهم أعذرتموهم بالجهل والشبهة (سواء بلسان المقال أو بلسان الحال) وكأنهم غالطون في مسألة في فقه الطهارة أو في حساب المثلثات مثلا، وإلىٰ الله المشتكىٰ!

أنتم المرضىٰ والله، وأنتم من يحتاج إلىٰ علاج وعزل وكي! أنتم من كان ولا يزال يسيل لعاب الواحد منكم علىٰ بضاعة الفلاسفة والنظار والمناطقة والطبيعيين من فتنة تضرب في جذوع قلوبكم، فتفتتن بكم العامة ومرضىٰ القلوب أشد من فتنتهم بالملاحدة المعاندين! فلو أن العامة عُلموا من الأصل هجران الملحد ومحاصرته «فكريا» واجتماعيا، لضاق الأمر علىٰ الملاحدة أشد الضيق ولما وجدوا من يسمع

منهم ويعاملهم معاملة «الناظر» المجتهد صاحب الرأي والبحث العقلي والمنطقي الجدير بالاستماع إليه والبحث والتنقيب في كيفية الرد عليه! أما وقد حولتم مجادلة القوم إلىٰ «علم» مستقل يجب تعلمه والتعمق فيه، وزينتم للعامة مجالسة المرتدين والزنادقة في كل مناسبة، بدعوىٰ أن الإسلام فيه «أفق متميز فريد يستوعب العقلانية بكل تجلياتها بلا قيد ولا حد»، وبدعوىٰ أن اليقين لا يوصل إليه إلا من بعد شك (وهو محض كذب وإطلاق من لوازمه الكفر والردة)، فقد كانت جنايتكم أنتم علىٰ الإسلام والمسلمين أعظم من جناية الملاحدة أنفسهم!

ذلك أن عامة المسلمين لديهم نفور نفسي فطري من الملحد يصدهم عن مجالسته، فضلا عن الاستماع إليه وقبول ما يتكلم به، أما الجهمي المتكلم فيلبس علىٰ الناس دينهم ويوهم العامة بأن مجالسة الملحد ومناظرته ومعاملته معاملة الند والنظير، هي طريق المسلمين للنجاة من شبهات وحجج وبراهين الملاحدة عامة، ويوهمهم أن بضاعته هو في المناظرة هي الطريق لتحقيق اليقين لمن اجتالته تلك الشبهات وعسر عليه دفع تلك البراهين عميقة الغور طويلة الذيل! فإذا بالمرضىٰ والمفتونين يقبلون عليها أفواجا، فلا يزدادون إلا غرقا في الشك والمرض، وإذا بالله تعالىٰ يعامل المتكلمين بنقيض ما يزعمون أنه مقصودهم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

إنني أعلم أن كثيرا من الناس قد لا يتصورون لأول وهلة كيف يمكن أن يَؤول الحجاج في هذه القضايا الكبرىٰ التي طال نزاع أهل الملل عليها (لا سيما الدهرية والملاحدة)، إلىٰ أن يكون بحثا في علم النفس وعلم الاجتماع، لا في الفلسفة ولا في علم الكلام أو اللاهوت أو نحوه! ولست أرتاب في أن كثيرا منهم يكره أشد الكراهة أن يقال له دع عنك تلك المخاصمات والمناظرات واتق الله، بل ما أحسب إلا أن بعضهم سيكون ممن يشتغلون بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ تحت لواء السلفية، والله المستعان! وقد رأيت كثيرا من شباب الدعاة إلىٰ الله في زماننا هذا يحسبون أنهم سالمون من القول بـ«وجوب النظر» علىٰ المسلمين الذي اتفقت عليه الفرق الكلامية من جهمية ومعتزلة

وأشاعرة وغيرها، مع أن الواحد منهم قد يكون غارقا في التلبس بما يقتضيه من حيث لا يشعر[1]!

وإلا فأنىٰ يبادر العاقل باختياره إلىٰ ترك حال العافية التي كان عليها في دينه، إلىٰ تعريض نفسه وقلبه وعقله لتلك الأمراض الخطيرة، إن لم يجد نفسه مضطرا لذلك لدرء مفسدة أعظم يظن أنها لا تندفع إلا به؟ هذا هو حرف المسألة أيها القارئ الكريم، أن يكون معلوما أن الأمر في تناول مباحث الإلهيات (التي هي مواطن النزاع بين الفلاسفة والمتكلمين واللاهوتيين بعموم) إنما هو بمنزلة أكل الميتة بل أشد، وأن الأصل فيه المنع والتحريم الشديد! وأننا قد نخطئ التقدير فنجاوز الحد في بعض المواضع (وما أقرب أن يقع ذلك من أكابر وأفاضل في العلم والعقل، فكيف بنا نحن؟)، فنخوض فيما لا يأتي منه نفع أصلا، فيكون إذن ضررا محضا، نسأل الله السلامة!

وأنا والله ما زلت أدعو وأضرع إلىٰ الله جل وعلا ألا يجعل بعض ما حررته في هذا الكتاب وغيره فتنة لبعض الناس، وألا أكون قد جاوزت الحدّ ووقعت فيما هو منهي عنه وفيما أردت تحذير المسلمين منه من التكلف أو التعمق أو التنطع المذموم بصريح السنة، أو كتبت ما خفي علي لازمه الفاسد ومقتضاه الباطل، أو دعوت الناس إلىٰ ما لم يسبقني إليه أحد من المسلمين، وأسأله سبحانه ألا يجعله فتنة لي أنا نفسي قبل غيري، والله المستعان لا رب سواه.

---

(١) يقول شاب من الدعاة المشتغلين بمحاربة الإلحاد في «تغريدة» له على شبكة من شبكات التواصل الاجتماعي (وهي شبكة لا تسمح للكاتب فيها بأكثر من سطرين أو ثلاثة في كل مداخلة لا غير، يقال لها التغريدة، فجعل كل عضو فيها يحرص على أن يجعل «تغريداته» تلك تبدو وكأنها درر الحكم وجوامع الكلم!)، يقول عفا الله عنه: «قاعدة: الإيمان والإلحاد رؤيتان للحياة لا تمتاز إحداهما عن الأخرى إلا في النفس. هذا يعني أن علينا تبرير إيماننا مثلما يبرر الملحد إلحاده» قلت: فبمثل هذا الكلام، دخل القول بوجوب النظر على المكلفين إلى اعتقاد المتكلمين، فتأملوا يا أولي الألباب والنهى، يا أصحاب القواعد الفيسبوكية والحكم التويترية! أي تبرير هذا الذي يبرر به الملحد إلحاده، الذي أصبح علينا – وتأمل صيغة الإيجاب – أن نتكلف مثله، وما دليلك على هذا ومن أين جئت به؟ ولماذا يقبله القارئ منك هكذا بلا دليل؟ سبحان الله!

الباب الثالث

الاضطراب النفسي الملازم لحالة التناقض المعرفي Cognitive Dissonance عند أهل الشرك والإلحاد.[1]

---

(١) عطف الإلحاد على الشرك هنا من عطف الخاص على العام لإبراز أهميته.

في الخمسينات من القرن الميلادي الماضي، وضع النفساني الاجتماعي الأمريكي «ليون فستينغر» Leon Festinger نظرية أصبحت فيما بعد من أعمدة علم النفس الاجتماعي، ألا وهي نظرية «الاضطراب المعرفي» Cognitive Dissonance. تقوم النظرية علىٰ ملاحظة لاحظها «فستينغر» مفادها أن الإنسان بطبعه يكره التناقض المعرفي (وهو أن يكون فيما بين بعض عقائدك وأفكارك تناقض ما، أو فيما بينها وبين ما تراه من أحوال في الواقع من حولك)، وأنه يعمل علىٰ إزالة ذلك التناقض من نفسه حيثما ظهر له للتخفيف من حالة الكراهة تلك، التي سماها «فستينغر» بالاضطراب المعرفي Dissonance. وسببها بالأساس كراهته الزوال عن تلك العقائد والأفكار لما قد يترتب علىٰ ذلك من تبعات يكرهها أو يتخوف منها، فحينئذ تراه يتلمس السبل لتسويغ تلك العقائد ولتزيينها بما يكفي لإخفاء ذلك التناقض في نفسه. وكلما كانت تلك العقائد المتناقضة أكثر أهمية بالنسبة له وأحب إلىٰ نفسه، كان اضطرابه الناشئ عن تناقضها أعظم في المقدار، وكان حرصه أشدّ علىٰ التماس وسائل المعالجة (أو التزيين في الأعم الأغلب) مهما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا.

والسبب في دخول تلك النظرية تحت نظريات علم النفس الاجتماعي Social Psychology، أن الإنسان لا يجد نفسه مدفوعا – في الأعم الأغلب – علىٰ تزيين التناقض المعرفي والتمسك به علىٰ الرغم مما هو ظاهر فيه من تناقض، إلا تبعا لدوافع مرتبطة بسياقه الاجتماعي وبعلاقاته بمن حوله من الموافقين والمخالفين.

ففي عام ١٩٥٥ الميلادية، نشر خبر في إحدىٰ الصحف الأمريكية رأىٰ فيه «فستينغر» وتلامذته فرصة سانحة لاختبار النظرية اختبارا واقعيا. فقد ذكرت الصحيفة أن جماعة من سكان الساحل الغربي الأمريكي قد اجتمعت علىٰ اعتقاد عجيب، إذ اعتقدوا أن الأرض ستهلك بسبب طوفان مدمر يقع في يوم الواحد والعشرين من ديسمبر لتلك السنة (١٩٥٥ الميلادية)، وأن البشر جميعا سيهلكون في ذلك الطوفان

خلا تلك الثلة التي آمنت بتلك النبوءة المنسوبة إلىٰ حكماء كوكب «كلاريون»! فبمجرد أن قرأ «فستينغر» ذلك الخبر، حدثته نفسه بالاستفادة (بحثيا) من دراسة ما سيعانيه هؤلاء المساكين من صدمة نفسية واقعة لا محالة (من أثر التناقض المعرفي) بمجرد أن تشرق شمس ذلك اليوم الموعود دون أن يقع طوفان ولا هلاك ولا شيء من ذلك!

وبالبحث والتنقيب حول تلك الجماعة التي سماها بـ«المتشوِّفين» The Seekers، تبين له أنها كانت ثلة من المؤمنين بتلك الدعوىٰ قد اتخذ أكثرهم بالفعل جملة من القرارات والإجراءات الجذرية في حياتهم الخاصة إعدادا لليوم المشهود! فمنهم من باع بيته وممتلكاته كلها، ومنهم من استقال من عمله، ومنهم من طلق زوجه لمخالفتها إياه في ذلك الاعتقاد، كل ذلك علىٰ رجاء أن يرضىٰ عنهم حكماء كوكب «كلاريون» المزعوم، ويرسلوا إليهم سفينة فضائية تنقذهم من الطوفان في منتصف ليلة الواحد والعشرين من ديسمبر، كما وعدتهم امرأة متنبئة تدعىٰ «ماريون كيتش» كانت تزعم أنها علىٰ اتصال بأولئك الفضائيين، وأنهم يتواصلون معها من طريق نوع من أنواع «الوحي» أو «الوساطة الروحية»! (كوبر ٢٠٠٧).

وبغض النظر عن السبب النفسي الذي من أجله قبل هؤلاء السفهاء تلك الدعوىٰ وبلغ بهم قبولها وتصديقها ذلك الحدّ البعيد (ولعله في الأعم الأغلب أن يكون بغضا ونفورا من أحوالهم الشخصية وطمعا في طريقة سهلة للهروب منها هروبا تاما)، فقد أجابوا دعوة المرأة جميعا، وأظهروا الجدّ في ذلك، واجتمعوا في الليلة الموعودة عند بيتها وقد جمعوا متاعهم وأعدوا ما يعده المسافر المهاجر، ومكثوا يحملقون في السماء في شغف ورجاء غامر، منتظرين نزول السفينة الفضائية لتنتشلهم وتنقلهم إلىٰ كوكب «كلاريون» المزعوم! وبحسب ملاحظات «ستانلي شاختر» Schachter (وهو باحث من فريق «فستينغر» تخلل بين صفوف الجماعة متظاهرا بأنه عضو فيها حتىٰ يراقبهم عن قرب [1])، فقد كان ذلك الاجتماع في تلك الليلة مشحونا بالترقب والشغف، وفي

---

(١) وبطبيعة الحال فقد كان ولا يزال التخلل والمخالطة الكاذبة على هذا النحو من طرائق الباحثين الاجتماعيين التي دار حولها جدل أخلاقي ومنهجي طويل في أدبيات مناهج البحث الاجتماعي والأنثروبولوجي. ولا شك أنه لا يجوز في شريعة الإسلام أن يتقمص الباحث دور رجل مشرك أو مبتدع أو مخرف أو صاحب

اللحظة التي دقت فيها ساعة الحائط في بيت المرأة تمام الثانية عشر (منتصف الليل)، ولم يقع شيء مما جاء في النبوءة، نظر أحدهم في ساعة يده ووجدها تقرأ الحادية عشر وخمسا وخمسين دقيقة، فلما أعلن ذلك بين المجموعة، قاموا جميعا بإعادة ضبط ساعاتهم وتأخيرها خمس دقائق كاملة لموافقته.

فلما مرت خمس دقائق بعد بلوغ منتصف الليل علىٰ وفق الضبط الجديد لساعاتهم ولم يقع شيء البتة، طفق أحدهم يقول إنه لم يأت بجميع ما أبلغتهم به المتنبئة من تعليمات وشروط أهل «كلاريون» المزعومين، إذ قد أصروا – كما أبلغتهم المرأة – علىٰ أن يخلو متاع المجموعة من أي شيء مصنوع من المعدن من أي صنف كان. فلما انتبه الرجل إلىٰ أن حشو ضرسه كان مصنوعا من المعدن، قام بنزعه وإزالته من فوره، ومع ذلك لم تظهر سفينة الفضاء ولم يحدث شيء البتة. وقد تلت تلك اللحظات – بطبيعة الحال – بضع ساعات حرجة للغاية، عانت فيها الجماعة مظاهر شتىٰ من الاضطراب النفسي عدها «فيسنغر» مغنما بحثيا كبيرا. فمنهم من بكوا بالدموع ومنهم من تساءلوا عما إذا كانوا قد أغضبوا أهل «كلاريون» بصورة ما أو بأخرىٰ فخذلوهم وتركوهم من غير أن يأتوا لإنقاذهم! ومنهم من بدأ يتساءل علىٰ استحياء عما إذا كان قد غُرر به وخدع، كما كان يقال له من كثير من الناس في محيطه الاجتماعي المباشر!

وفي حوالي الساعة الرابعة صباحا من نهار اليوم التالي، أعلنت المرأة المتنبية الكذابة – في وسط تلك الحالة من اليأس والحزن التي غمرت الحاضرين في بيتها – أنها قد تلقت رسالة أخيرة من «أهل كلاريون»، قالوا فيها ما نصه: «إن هذه الجماعة الصغيرة، التي مكثت طوال الليل في انتظار الخلاص، قد أظهرت من الخير والنور ما اختار إله الكون من أجله أن يعفي العالم من الهلاك»! (كوبر ٢٠٠٧، ص ٥) حينئذ،

اعتقاد فاسد، حتى يتمكن من التقرب إلى جماعة من الجماعات الدينية أو نحوها ليدرسها عن قرب، كما صنع ذلك الرجل، إذ لا اعتبار لأي مصلحة شرعية مزعومة يستجاز من أجلها إظهار الشرك أو الضلالة أو إظهار الرضا بشيء من ذلك والموافقة عليه فضلا عن المشاركة فيه.، بل لا يجوز له الكذب وتغيير هويته بأيما صورة من الصور، لأن الكذب ليس تحريمه سدا للذريعة، وإنما هو محرم لذاته، فلا يباح إلا في حالات مخصوصة دل عليها النص، ليس منها مصلحة البحث الاجتماعي!

تغيرت أحوال الأكثرين منهم، وتهللت أساريرهم، ورأوا في ذلك الكلام الباهت تسويغا مقبولا ومخرجا «معقولا» من تلك الصدمة التي تعرضوا لها جميعا.

فهو كلام من شأنه أن يعيد التناسق الظاهر Consistency بين اعتقادهم الأول من جانب، وما شهدوه عيانا من مخالفة الواقع لذلك المعتقد من جانب آخر. فلا شك أن الواحد من هؤلاء كان يكره أشد الكراهية أن يعترف بأنه كان مخدوعا مغررا به طوال ذلك الوقت، وأن جميع ما قدمه من «تضحيات» في حياته الشخصية كان هباء لا قيمة له! كيف يلقىٰ أصحابه بعد تلك الليلة، وقد وجدوا ما يتتصرون به لما سبق من تسفيههم كلامه، وكيف تلقىٰ المرأة زوجها الذي طلقها بسبب اعتقادها الجازم في ذلك الهراء؟ وقبل استجلاب احترام الناس وحفظ ماء الوجه، كيف يرضي الواحد منهم كبر نفسه ويحفظ احترامه لعقله بالأساس؟ هذه بعض معالم النازلة النفسية الكبرىٰ التي اضطر هؤلاء في تلك الساعات الحرجة إلىٰ أن يصطدموا بها اصطداما مباشرا ويبحثوا عن مخرج منها! لذا كان الحامل في نفس أحدهم في غاية القوة لقبول تلك الرسالة المزعومة، حتىٰ يقنع نفسه بأنه علىٰ شيء. فبسبب تلك الرسالة المزعومة، أصبح بوسع أحدهم أن يزعم ليس فقط أنه كان علىٰ حق وأن تضحياته لم تذهب أدراج الرياح، بل أصبح بوسعه أن يدعي أن تلك التضحيات كانت سببا في إنقاذ العالم كله من هلاك محتوم، إذ بسببها رضي «إله الكون» عن الناس جميعا، ولم يهلكهم بالطوفان المزعوم!

وقد وقع ما تنبأ به «فستينغر» ورفاقه من قبل تلك الليلة. فقد توقعوا أن تلك الثلة ستخرج علىٰ جماهير الناس باعتقادها ودعواها بعد تلك الليلة، بعد أن كانوا من قبل يتهربون من الكلام العلني ومن وسائل الإعلام. فبمجرد أن استقر لديهم الاعتقاد بأنهم قد أنقذوا العالم كله بفضل أعمالهم في تلك الليلة وما قبلها، خرجوا علىٰ وسائل الإعلام لينشروا ذلك الزعم بين الناس بكل حماسة، محمولين بدافع نفسي قوي، ألا وهو حرصهم الشديد علىٰ أن يظهروا للناس أنهم لم يكونوا مخدوعين موهومين كما كانت التهمة تحاصرهم من قبل، فقد كانوا يطمعون في استجلاب غاية ما يمكن استجلابه من الدعم الاجتماعي Social Support لقصتهم.

وبعد سنة من نشر «فستينغر» وفريقه البحثي ملاحظاتهم لتلك الجماعة، نشر «فستينغر» كتابه المعنون «نظرية حول الاضطراب المعرفي» *A Theory of Cognitive Dissonance*، كان فيه من أوائل النفسانيين الذين فرقوا تفريقا عمليا واضحا بين ما يسمىٰ بالوحدة المعرفية أو القضية المعرفية Cognition وغيرها من أعمال النفس البشرية وما ينبثق عنها من سلوكيات. (المصدر السابق). فكانت تلك الوحدة هي كل محتوىٰ معرفي يدخل إلىٰ نفس الإنسان من اعتقاد أو ملاحظة للواقع أو لسلوك الناس أو نحو ذلك. وعليه جاء أول تعريف للتناقض المعرفي Inconsistency في نفس الإنسان في الكتاب المذكور علىٰ أنه التناقض بين محتويين معرفيين two cognitions (أو وحدتين إدراكيتين) سواء بدلالة العبارة الصريحة لكلا المحتويين، أو بدلالة ما يقتضيه أحدهما من مقتضيات ونتائج تخالف الآخر.

وعليه صُنفت المحتويات المعرفية علىٰ صنفين: محتوىٰ معرفي موافق أو قضية معرفية موافقة Consonant cognition ومحتوىٰ معرفي مخالف Discrepant Cognition. وعليه عرف «فستينغر» حالة الاضطراب النفسي المرتبطة بذلك التناقض المعرفي علىٰ أنها تلك الحالة الكريهة التي يجدها الإنسان عند ظهور ذلك التناقض في وعيه. وزاد فبين أن لذلك الاضطراب مقدارا يمكن قياسه، بالنظر في مدىٰ أهمية أو قيمة المحتوىٰ المعرفي الموافق الذي يجد الإنسان نفسه مدفوعا للتمسك به والانتصار له، فكلما ازدادت قيمته وأهميته عنده، ازداد شعوره بالاضطراب عند دخول قضية معرفية مخالفة إلىٰ إدراكه، وهو ما عبر عنه بالعلاقة التالية:

$$\text{DISSONANCE MAGNITUDE} = \frac{\text{SUM (all discrepant cognitions} \times \text{importance)}}{\text{SUM (all consonant cognitions} \times \text{importance)}}$$

فبالتأسيس علىٰ هذه العلاقة اليسيرة في قياس أو تقدير مقدار حالة الاضطراب النفسي Dissonance المترتب علىٰ ما قد يعانيه الإنسان من تناقض معرفي cognitive inconsistency، نقول إننا لو تكلمنا عن قضية معرفية يتعرض لها الإنسان وهو يعلم في باطن نفسه أنه لا طريق لإبطالها بحال من الأحوال (وهو ما يوجب أن تقبلها نفس

ذلك الإنسان وأن تجعلها في منزلة اليقين certainty)، وكان هو يتمسك باعتناق عقيدة أخرىٰ تناقض تلك القضية منطقيا (وهو ما يظهر في المقام من تلك العلاقة)، وكان المحل الذي تشغله هذه المسألة من نفس ذلك الإنسان محلا تبلغ أهميته الغاية القصوىٰ بما لا يمكن التطرق إلىٰ التهوين منه أو اختزاله بحال من الأحوال، أصبح من المحال – منطقيا – أن يتمكن صاحب ذلك التناقض من التخلص من حالة التناقض المعرفي Inconsistency المترتبة علىٰ هذا التناقض الفاحش عنده، مهما قال أو زعم أو جمع لنفسه من الدعاوىٰ المعرفية وسلك من المسالك التسويغية rationalization (مما يوضع مجموعه في المقام من تلك العلاقة)، ومن تصورات لأهمية الكسب العائد عليه من البقاء علىٰ ذلك الموقف الاعتقادي، ما لم يتخل عن القضية الباطلة، ويؤسس سائر أفعاله وسلوكياته علىٰ أساس ردها بالكلية وقبول القضية الصحيحة في محلها، والتسليم بكونها (أي القضية الصحيحة) قضية قطعية يقينية لا يتطرق إليها الشك. وسيظل يجهد في كل مرة يطفو ذلك التناقض إلىٰ وعيه في التماس الطرق والمخارج للتخفيف من حالة الاضطراب النفسي Dissonance الناشئة عنه عنده، بالتغافل والتلهي تارة، وباختراع المزيد من الدعاوىٰ التسويغية تارة أخرىٰ. فما دام في نفسه ميل قلبي ومحبة غالبة لاعتناق القضية الباطلة علىٰ الرغم مما يظهر له ظهورا بدهيا من بطلانها، فسيظل يتفنن في التماس السبل لإقناع نفسه وغيره بأنه علىٰ شيء.

وكما ترىٰ فقد سمينا القضية المعرفية Cognition التي يحبها من يعاني من تلك الحالة ويريد البقاء عليها، علىٰ الرغم من مناقضتها المعرفة القطعية المستفادة من الواقع، أو مخالفتها الحقائق البدهية الأولىٰ في الذهن (كما سيأتي بيانه في تطبيقنا للنظرية)، بالقضية الباطلة في نفسها، لأن العقل السوي يقتضي (أي عند خلو النفس من الميل إليها والتعلق القلبي بها) الحكم عليها بهذا الحكم وإسقاطها بالكلية والتحول إلىٰ اعتناق عقيدة بخلافها. ولكن لأن النفس فيها من الدوافع (في العقل الباطن، إذ تخفىٰ في الأعم الأغلب عن وعي الإنسان حال اعتمال عقله الواعي في المسألة) ما يحملها علىٰ التمسك بتلك القضية الباطلة علىٰ الرغم من جلاء بطلانها، أصبحت هي

القضية المركزية المطلوب التفنن في اختراع طريق لإزالة التناقض الظاهر عما تناقضه من قضايا معرفية أخرىٰ.

هذا التطبيق المباشر لتلك العلاقة التي يقاس بها مقدار الاضطراب النفسي المترتب علىٰ التناقض المعرفي، يُظهر لنا أن أصحاب العقائد الباطلة التي يظهر بطلانها بجلاء، ولا تحتاج إلىٰ شيء من النظر لإقامة البرهان علىٰ ذلك البطلان، هؤلاء يعانون بالضرورة من صور من الاضطراب النفسي من هذا الصنف لا تزول ولا يمكن أن تزول (بما يرجىٰ معه تحقق اليقين الصادق في النفس[1]) حتىٰ يتخلص الواحد منهم من ذلك الاعتقاد الباطل وجميع ما تمسك به من أباطيل وأوهام لتسويغه والانتصار له، جملة واحدة، ويؤسس بنيان منظومته المعرفية الفردية علىٰ أساس يخلو من ذلك التناقض ويقوم علىٰ التسليم بقطعية ما لا يجد سبيلا لإبطاله من الدعاوىٰ المعرفية في نفس الأمر. نعم قد يتمكن صاحبه من إسكاته والتلهي عنه كلما حدثته نفسه بضرورة الوقوف مع النفس والتأمل والتدبر وإعادة النظر، لكنه يظل قابعا في ركن من أركان عقله الباطن مسببا ذلك الاضطراب النفسي في كل مناسبة، حتىٰ ينخلع عنه بالكلية ويتبرأ منه، لا سيما إذا كانت أهمية المسألة محل ذلك الاعتقاد بالنسبة لتلك النفس عند الغاية كما هو الشأن في مسائل الغيب وما يكون بعد الموت.

ولعلنا قد بينا بهذا التطبيق كذلك كيف أنه كلما كثرت العقائد الباطلة في جواب تلك المسألة شديدة الأهمية عند الإنسان، واشتد جلاء البينة في النفس علىٰ بطلانها وفسادها، ازدادت شدة ذلك الاضطراب النفسي عنده، وازداد بذله وسعيه في استجماع الدعاوىٰ المعرفية الداعمة والمواقف والحيل والموافقات من الأقران والمقربين،

---

(١) ونقصد به اليقين الذي تصدقه الفطرة ولا يعكر عليه شيء من التناقض، بخلاف اليقين الكاذب (الذي سميناه في الباب الأول من هذا الكتاب باليقين الظاهر المخالف لليقين الباطن) الذي يعقده الإنسان لنفسه على قضية معرفية هو يعلم - قبل غيره - في باطن نفسه أنها باطلة! فمن السهولة بمكان أن تزين النفس لصاحبها ادعاء أنه على يقين جازم بصحة عقيدته، بل تزين له أن يبذل نفسه وماله من أجلها، على الرغم مما يراه جليا من مخالفتها لبدهيات العقل الأولى، كما في قوله جل شأنه في وصف آل فرعون: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [النمل: ١٤]! فهم جحدوا مع أن أنفسهم قد استيقنت!

تماما كما مثّل «فستينغر» نفسه لتلك المساعي وشدتها في بحثه حول أصحاب خرافة كوكب «كلاريون» كما مر بك.

فواقع الأمر أن الهوىٰ الذي يحمل الإنسان علىٰ التصريح باعتناق موقف هو يعلم بطلانه بداهة (في عقله الباطن، بما يظهر أثره أحيانا في عقله الواعي كما سيأتي)، إنما يأتي من طمعه في نيل كسب دنيوي عاجل يشتهيه، يظن أنه يترتب له علىٰ التصريح بما صرح به (كالمال أو المنصب أو الشهرة أو محبة وتعظيم المقربين إليه لا سيما الزوج والوالدين والأولاد، أو نحو ذلك مما يشتهيه البشر من صور العلو في سياقهم المجتمعي)، ويراه – في نفس الوقت – أكثر أهمية وأعلىٰ قيمة بالنسبة له مما قد يترتب علىٰ ذلك الموقف نفسه من ضرر دنيوي وفوات للشهوات العاجلة. فالأمر في عامة الاستحسان العقلي عند بني آدم ليس جاريا في المقام الأول علىٰ «الدليل المعرفي» أو «البرهان العقلي» أو «المستند النظري» أو نحو ذلك (كيفما كان تعريف الفلاسفة ومن وافقهم أو النفسانيين ومن شابههم لتلك المصطلحات)، كما بينا في الباب الأول، وإنما ينطلق عمل العقل نفسه من البداية – لا محالة – من ترجيح نفسي خفي بين التبعات واللوازم من مرغوبات ومرهوبات، يجري تبعا لصور وأحوال للميل القلبي تجعل العقل يميل إما إلىٰ قبول الحق والتسليم به (سواء كان مستنده المعرفي ضرورة وبداهة أو دليلا ظاهرا) أو إلىٰ قبول موقف تعلم النفس فساده وبطلانه (معرفيا) بيقين فطري باطن فيها، طمعا في ثمرة ترجوها من ذلك القبول (عواقبيا). فمن كان هواه وميل قلبه علىٰ الحق، استقامت له آلة نظره ونزلت الدعاوىٰ المعرفية في منازلها الصحيحة (موضوعيا) لديه بلا زيادة ولا نقصان، وإلا كانت الأخرىٰ. ولهذا قال تعالىٰ في المعرضين من المشركين: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [**الأنفال**: ٢].

ولهذا لم يقتصر منهج الدعوة في الإسلام علىٰ بيان الحقائق والتذكير بها وحسب، بل لزم أن يكون ذلك مصحوبا بالترغيب (التحبيب) و(الترهيب) من عواقب كل من التصديق والتكذيب، كما مر معك بيانه في الباب السابق، فإن أصبح الحق أحب إلىٰ

النفس من الباطل، وأصبحت أميل إليه من ميلها إلىٰ الباطل، صار فيها من الخير ما يرجىٰ معه تحقق الإيمان، وإلا كان الاستكبار والجحود والصدود والاتهام الباهت والتخرص علىٰ المرسلين وأتباعهم، وغير ذلك مما أخبرنا به القرآن من أحوال المشركين عند سماعهم دعاوىٰ المرسلين، التي تكون منهم علىٰ الرغم من علمهم - في بواطن نفوسهم - بأنهم علىٰ باطل يصادم بدهيات العقل الأولىٰ. ولهذا كانت أعظم منة من الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين أن زين الإيمان في قلوبهم وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، لأنهم إن لم تنزل المحبة والكره في قلوبهم منزلها الصحيح، فمهما جئتهم بالآيات والبراهين فلن يؤمنوا! ولهذا نفىٰ الله تعالىٰ عن نبيه القدرة علىٰ تحقيق هداية التوفيق لمن يحب، وإنما تقتصر هدايته للناس علىٰ البلاغ والإرشاد، لأن مفاتيح الميل القلبي والمحبة والكراهة في نفوس البشر إنما هي بيد الله وحده! فالموفق من حببه الله في الحق وبغضه في الباطل، فهذا من يكمل له عقله ويسلم من السفاهة والتناقض ومن الكذب علىٰ الذات بجميع صوره، فضلا من الله وحده! ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [**البقرة**: ١٣٠] فتأمل قوله «يرغب عن»، لأن الذي يميل الإنسان عن الملة الحنيفية التي تظهر صحتها بداهة من أول وهلة، إنما هو راغب عنها إلىٰ غيرها، ذاهبة أهواء نفسه وميول قلبه إلىٰ ما يخالفها، وهو ما به استحق اسم السفاهة تحقيقا، لا أنه لم تظهر له أدلة صحة الملة في نفسها وسلامتها من التناقض المنطقي كما يكذب أحدهم به علىٰ نفسه وغيره آناء الليل وأطراف النهار!

وكما ذكرنا في موضع آخر، فلو كان القرآن من عند غير الله لرأيته كتاب براهين فلسفية وحجج نظرية، لما هو معلوم من بغض الفلاسفة - من زمان أرسطو وإلىٰ اليوم - لصور الخطاب العاطفي والوجداني والوعظ المباشر ونفورهم منه جملة وتفصيلا، وتنحيتهم تلك الصور من مفهوم الخطاب العقلي في الاصطلاح! ولكنه كتاب هداية إلىٰ الحق الواضح الصريح، أنزله خالق البشر وباريهم، العليم الخبير بعقولهم وقلوبهم وآليات عمل نفوسهم وخفاياها التي لا يعلمونها هم أنفسهم، سبحانه وتعالىٰ وتقدس.

فإن شئت أن تعدّ غلبة الخطاب الوعظي الشديد علىٰ محتوىٰ القرآن، من جملة آيات صدق النبوة وصدق نسبة ذلك الكتاب إلىٰ رب العالمين فافعل، فوالله إنه لمنها عند من يتدبر، والحمد لله أولا وآخرا!

ومعلوم أن الانطلاق عند تناول الدعاوىٰ المعرفية والترجيح بينها من هوىٰ النفس الخفي (ويسميه علماؤنا بالاعتقاد قبل الاستدلال، أو توجيه الأدلة تبعا للهوىٰ، بالنظر إلىٰ عواقب قبول القول المخالف)، يعتبره المناطقة المعاصرون من جملة الأدلة الزائفة أو المغالطات المنطقية Fallacies، ويسمىٰ بمغالطة الاستناد إلىٰ العواقب Appeal to consequences، ولكن مسألتنا هاهنا ليست في معرفة أن هذا منطق فاسد أو مغالطة عقلية، فصاحب هذا الموقف لا يصرح بأنه يكره لنفسه عاقبة قبول القول المخالف، ولا يجعل هذا مستنده الظاهر عند المراء والجدل، ولكنه مع هذا يتعلق بذلك الموقف الذي ظهر له بطلانه في باطن نفسه، ويدافع عنه وينتصر له أشد الانتصار، لماذا؟ لأن له طمعا خفيا فيما يترتب علىٰ ذلك الموقف من ثمرة اجتماعية في عاجل أمره كما تقدم التمثيل عليه. فهو إذن يغالط نفسه ويخدعها بالأساس، بصرف النظر عن مسلكه في مجادلة خصومه. وما دام هذا ميل قلبه، فمهما أخبرته أنه «مغالط» منطقيا فلن يقبل منك، وسيتلمس من المخارج في الرد علىٰ كلامك ما يحسنه بعض الناس ويبرعون فيه غاية البراعة!

وفي الوقت الذي يجد فيه صاحب الهوىٰ نفسه مألومة مأزومة مضطربة (من آن لآخر) من أثر ذلك التناقض المعرفي في عقيدته، يعييها ذلك السعي في استجماع ما يغطيه ويشوش عليه من الأقوال والدعاوىٰ والمواقف، فإنه في نفس الوقت يجدها طامعة متشوفة لثمرة ذلك الموقف المتناقض ومنفعته الدنيوية التي يغلب علىٰ ظنه أنه مصيبها بشكل ما أو بآخر، فإذا به يكذب الكذبة ويصدقها، بل يشيد اليقين الظاهر بها في نفسه تشييدا ويزينه تزيينا، ويقاتل من أجلها إن حملته الأهواء والمطامع علىٰ ذلك.[١] ولولا هذا الطمع، في الحقيقة، ما استحسن البقاء علىٰ تلك المسالك المعوجة

(١) ولهذا تنهار نفوس الكثيرين منهم ويصابون بكثير من الاضطرابات النفسية الحادة عندما يُدفع بهم إلى ميادين القتال في سبيل قيمة عليا يزعمون أنها هي المقدمة عندهم، كالحرية والديموقراطية ونحو ذلك،

والمغالطات الفجة والصبر عليها طرفة عين.

ولعلنا بهذا التقرير نقارب بين نظرية التعلم Learning theory لـ«سكينر» وغيره (القائلة بأن الإنسان إنما يتعلم بالترغيب والترهيب)، وهذا المبدأ لفستينغر وموافقيه، خلافا لمن قال من النفسانيين إنهما مدرستان متنافرتان. فأصل الترغيب والترهيب (كطريقة للتعليم والتهذيب) لا ينبغي أن ينازع فيه عاقل فضلا عن مسلم، أعني في تأثيره علىٰ نفس الإنسان في جانب بناء الدوافع الذاتية للعمل والأداء، والسبب في ذلك، تلك الموازنة العقلانية التي يعقدها كل إنسان في نفسه بين الكسب والخسارة (التي هي أساس علم الاقتصاد نفسه كما هو معروف)، قبل الإقدام علىٰ أي عمل. فهو في واقع الأمر - أي صاحب العقائد المتناقضة - يعمل علىٰ إقناع نفسه (في عقله الباطن غالبا)

أو القتال في سبيل ملة باطلة أيا ما كانت. قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً**﴾ [**الأحزاب**: ٢]، فمن أين يأتي الرعب ونحوه من أمراض النفس عند هؤلاء في ذلك السياق؟ يأتي من كونهم يعلمون في أعماق نفوسهم أن تلك القيم والعقائد التي يقاتلون من أجلها ويزعمون الرغبة في الموت في سبيلها، لا يصح أن تكون هي القيم العليا في حياة الإنسان تحقيقا ولا يصح أن يبذل المرء نفسه من أجلها وهو يرجو من بعد موته خيرا! فلا شك أنك تحتاج إلى أن تحقق قدرا عظيما من الطمأنينة لما لديك من معرفة بمصير من يموت على ما اخترت أن تؤمن به من عقائد وقيم عليا وأن تقاتل من أجله، حتى تكون على استعداد لبذل نفسك والموت في سبيل ذلك. ولكن المشرك لا يمكنه تحقيق تلك الطمأنينة وذلك اليقين الصادق أبدا مهما زعمه لنفسه، فما تراه يخلو بنفسه وتتهيأ له الظروف المواتية حتى يراجعها في بطلان ما تدين به من أمر الغيب، ويسائلها فيما إذا كان يرجو الموت - حقا وصدقا - في سبيل تلك الملة أو تلك القيمة العليا التي خرج للقتال من أجلها، أم أنه لم يخرج مع من خرج معهم إلا ابتغاء الوجاهة الدنيوية فيما بينهم؟ من هنا يأتي الرعب والجزع والخوف الشديد من الموت حيث يزعم في ظاهر أمره أنه على أتم استعداد للموت من أجل موقفه وعقيدته!

ولهذا قال تعالى في اليهود عند خروجهم لقتال المسلمين: ﴿**لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**﴾ [**الحشر**: ١٤] فهذا هو وجه كونهم ﴿**لَّا يَعْقِلُونَ**﴾، أن اسم العقل لا يستحقه من كذب على نفسه في اختيار الطائفة التي يواليها ويقاتل من أجل قضيتها، ويبذل نفسه في سبيل انتصارها، وإن كان من أذكى الناس وأكثرهم نبوغا عند المخاصمة والمناظرة والتحليل والتفلسف! ولهذا خاطبهم جل وعلا بقوله: ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [**البقرة**: ٩]، فلأن الله تعالى يعلم أنهم يكذبون على أنفسهم في دعواهم أنهم أولياء الله وأحباؤه، وبأن الجنة لهم وحدهم يقينا إن ماتوا على ما هم عليه، فقد تحداهم بأن يدعوا على أنفسهم بالموت الآن صادقين في طلب ذلك، وهو يعلم سبحانه بأنهم ما كانوا ليفعلوا!

بأنه الآن في حال أفضل مما سيكون عليها لو أنه تنازل عن المعتقد الباطل وأعلن البراءة منه وانتقل إلىٰ الفريق المخالف. فيحاول جاهدا إحداث موازنة ممتنعة بين الدعاوىٰ المعرفية والأعمال التي ترضي نفسه Consonant cognitions وتلك القضايا المعرفية التي قرر التمسك بتكذيبها وهو يعلم أنه لا يملك لها مدفعا من دليل أو نظر، ليقنع نفسه بأنه متناسق عقلا وفكرا وعملا self-consistent فيما هو ماض في تزيينه لنفسه من موقف، وبأن مخالفه لا يفضله في ذلك بشيء!

فإذا كانت القضية محل التناقض في المعرفة والمعتقد هي قضية الغيب وما فيه وما يكون بعد الموت، فلا شك أن هذه هي أخطر القضايا في معرفة الإنسان وأهمها علىٰ الإطلاق، لأن فيها التفسير الموضوعي المرجو لسبب مجيء الإنسان إلىٰ هذا العالم (سبب مولده) ولسبب خروجه منه بالموت، ومعرفة ما يكون من أمره بعد أن يأتيه ذلك الحادث العظيم الذي هو واقع به لا محالة (حادثة الموت). فقد جاءنا معاشر بني آدم من يزعم أنه مرسل من عند رب العالمين، وأن معه جواب تلك الأسئلة التي لم يختلف البشر يوما من الأيام (علىٰ تفننهم في فنون الجدل والسفسطة أشكالا وألوانا) علىٰ تسميتها بالأسئلة الكبرىٰ Big Questions من شدة خطورتها. فإذا كانت القضية قضية مصير أبدي مجهول بعد الموت، فلا شك في أنها لا يعدلها إذن شيء من القضايا المعرفية التي يمكن للإنسان أن يتصورها من جهة الأهمية والخطورة! وإلا فما هو أعظم ضرر يمكن أن يرجع علىٰ الإنسان إن لم يعرف الحق في مسألة من المسائل المتعلقة بمصيره الدنيوي؟ أن يمضي عشرين أو ثلاثين أو حتىٰ ستين سنة نادما علىٰ خطأ اقترفه أو خيار فاسد لم يتحرّ فيه الصواب؟ كل هذا لا يزن شيئا أصلا إذا ما قيس إلىٰ مصير أبدي مكروه (أو حتىٰ مجهول) لا يُرجىٰ الخروج منه أو التحول عنه يوما ما (سواء كان ذلك المصير هو بقاء الوعي أبدا أو زواله أبدا كما يدعيه الدهرية)، وهذا واضح جلي لا يماري فيه إلا واحد من أولئك الذين نتأمل في أحوال نفوسهم المريضة المستكبرة في هذا الكتاب.

والقصد أننا عندما نتكلم عن الشرك وألوانه وعن البدعة وصورها وعن الإلحاد وفلسفاته، وما يقترن بتلك العقائد الدينية الخبيثة شديدة التنوع والتناقض في نفسها

وفيما بينها، من أعمال نفسية حثيثة عند أصحابها بغية إسكات داعي الحق والفطرة فيها repressing dissonance، فإنما نتكلم عن موقف الإنسان من أخطر المسائل المعرفية في وعيه البشري علىٰ الإطلاق، ألا وهي مسألة تفسير الموت وما يتوقعه الإنسان لنفسه من مصير بعده (مع كونه لا يدري متىٰ يأتيه الموت أصلا). فلو أنه أصيب بداء التناقض المعرفي في مسألة يتوقف عليها مصيره الأبدي، فلا شك أن المتوقع منه أن يكون أشد معاناة من الناحية النفسية في كل مرة يعلو ذلك التناقض إلىٰ دائرة وعيه ويراود فكره ونظره، مما لو أصيب بذلك التناقض فيما هو دون تلك المسألة، وهذا ما نراه تحقيقا في واقع الناس.

وبالنظر إلىٰ شدة خطورة هذه القضية، مع استحالة إزالة تلك الحالة النفسية الملازمة للتأمل والتدبر فيها عند صاحب الهوىٰ، فإننا نجده مضطرا لسلوك أحد مسلكين لا ثالث لهما بهذا الخصوص: إما التلهي والتشاغل عنها مع إسكاتها ودفنها دفنا كلما طرأت إلىٰ ذهنه ببعض الدعاوىٰ التلبيسية التزيينية Rationalizations كتذكير النفس بالاعتقاد المجمل في وجود جواب يلائم المعتقد الفاسد عند بعض الخبراء به والدارسين له، فلا يضيره هو افتقاره إليه، أو تعزية النفس بتكرار فكرة أن المؤمنين بهذه العقيدة حالهم أحسن من كثير ممن يعرفهم صاحبنا هذا من أصحاب المعتقد المخالف، سواء في الجانب الأخلاقي أو في المستوىٰ العقلي أو في الإنتاج الصناعي والتقدم العلمي الدنيوي وهذه الأشياء (وسيأتي معنا التمثيل علىٰ تلك المسالك عند الملحد المعاصر خصوصا بشيء من التوسع)، أو بمغالطة الاستناد إلىٰ الكثرة، وأن تلك الجماهير كلها من العقلاء والعلماء الذين يوافقونه علىٰ اعتقاده يمتنع أن يكونوا كلهم علىٰ باطل وضلال .. إلخ. فلا تأتيه تلك الأفكار من آن لآخر إلا أسكتها، ثم انصرف لما يشغله عنها ويلهي ذهنه عن التفكير فيها.

وإما أن يتخذ لنفسه عملا يرفع من قدره ومنزلته عند أصحاب تلك العقيدة، فيتخصص في الدفاع عنها وفي اختراع الدعاوىٰ العقلية والفلسفية للرد علىٰ مخالفيها Apologetics، فإن هذا المسلك من شأنه أن يجلب عليه من ثناء ودعم أقرانه من أهل

ذلك الاعتقاد الباطل ما ترجو نفسه أن يكون فيه تخفيف من شدة ذلك الاضطراب لديها، إذ يساعدها علىٰ التشويش علىٰ ما في تلك الدعاوىٰ نفسها من تناقض وفساد عقلي واضح، من خلال التفنن في جمع ما كتبه الأقران في ذلك من تفلسف ومن زخرف القول، والإضافة إليه والانتصار بمحصول ما عنده من هذا. فيكون السبيل إلىٰ ذلك، العمل علىٰ جعل ما يزعمه الخصم «واضحا وجليا»: غير واضح ولا جلي، بل تعتوره الاعتراضات والحجج والبراهين المخالفة التي يتعين عليه – بزعمهم – أن يبطلها جميعا واحدا واحدا حتىٰ يسلموا له بوضوح ما يزعم وضوحه (وليسوا بفاعلين أبدا، إذ مجرد ظهور الاعتراضات في نفسه يعتبر مستندا كافيا لديهم لزعم بطلان دعوىٰ الوضوح والبداهة التي يتعلق بها المخالف). وهي طريقة الفلاسفة في بناء جدران التشويش العقلي السوفسطائي حول ما يعتقدونه في أمر الغيب كما سنرىٰ.

لهذا تجد في طريقة الفلاسفة في الانتصار لإلحادهم جمعا لتلك الدعاوىٰ الواهية علىٰ طريقة: «حتىٰ وإن لم يصح هذا الاعتراض علىٰ كلامك، فلدينا اعتراض آخر مفاده كذا وكذا، فما جوابك؟» فإن جاءه الجواب التقط اعتراضا آخر وقال: «طيب ما جوابك لهذا الاعتراض الآخر؟» وهكذا، إن لم ينقر علىٰ ما في جواب المخالف عن الاعتراض من مداخل للتشغيب والإبطال، ينتقل من شبهة إلىٰ شبهة ومن اعتراض متهافت إلىٰ غيره، يناظر مخالفيه ويجادلهم مرارا وتكرارا ويحرص علىٰ استطالة تلك المناظرات معهم، حتىٰ يبقىٰ أبد الدهر متترسا بستار تحتجب به نفسه عن الحق الواضح بدعوىٰ أنه لو كان واضحا ما طال الجدل عليه كما طال، وما كثرت الاعتراضات وألوانها وما تفنن فيها الفلاسفة كما فعلوا، وهي مغالطة عقلية لا تخفىٰ، إذ ما من دعوىٰ معرفية – مهما كان العقلاء يقطعون بصحتها – إلا وفي الأرض من يعترض عليها بشكل ما أو بآخر، ويجيد سباكة الاعتراضات الفلسفية وزخرفتها في ذلك، فلا يكون مجرد وجود الاعتراض دليلا علىٰ بطلان الدعوىٰ المعترض عليها وفسادها في نفسها، فكيف إذا كانت الدعوىٰ محل الاعتراض حقيقة بدهية وضرورة لغوية لا ينبغي أن يتطرق إليها نظر أو جدال أصلا؟

ولكن هذا ما زينته لهم نفوسهم المريضة بداء الهوىٰ، لمعالجة الاضطراب الشديد الناتج عن ذلك التناقض المعرفي القاتل في عقائدهم. فترىٰ الواحد منهم يظل ممارسا تلك المسالك متفننا فيها حتىٰ يفنىٰ عمره ويهلك عليها، موهما نفسه أنه قد تكون له بذلك حجة عند ربه إذا لقيه. فإن رأىٰ نفسه قد صار رأسا من رؤوس فلاسفة النحلة الباطلة، ازدادت ضراوته في محاربة الحق، وازداد حرصه علىٰ جمع الأشياع والأتباع من حوله، لأن نفسه تتشوف للرياسة والعلو وتشتهي ذلك أصلا، بصرف النظر عن القيمة المعرفية والقوة الدلالية لبضاعته التي ينتصر لها، فكيف ونفسه تحرص في نفس الوقت علىٰ الزيادة من تلك المسالك التشويشية Repressing والزيادة من مخزون «الشبهات» والمغالطات الاستدلالية رجاء التخفيف من وخز إبرة الضمير واضطراب العقل الباطن فيها لعلمها ببطلان ما هي عليه؟

ومن ذلك المسلك في التسويغ بغية إقناع النفس بصحة الموقف الباطل، اتباع سنن الآباء والاستناد إلىٰ أن هذا ما كانوا عليه جميعا، فلو كان باطلا ما بقوا عليه، كما أشرنا آنفا. وكذلك الاستناد إلىٰ الكثرة العددية وإلىٰ المستوىٰ العلمي والشهرة وكثرة الإنجازات وغير ذلك من مغالطات واستدلالات زائفة صنفها المناطقة أنفسهم في كتبهم من زمان أرسطو! هذه الاستدلالات لا يخفىٰ زيفها وفسادها علىٰ أكثر أهل الأهـواء، لا سيما إن كانت تستعمل في الانتصار لفلسفة تناقض البدهيات الأولىٰ والضروريات اللغوية كفلسفات الشرك عامة والإلحاد خاصة.

فلو أننا قررنا أن الموقف العقلي الحق في قضايا الغيب ومسألة المصير بعد الموت يتركب من مسائل فطرية لا تحتاج إلىٰ دليل نظري، لأن المعرفة بها معرفة ضرورية أساسية Basic Belief كما بيناه في الباب الأول، وسمينا تلك المسائل في مجموعها ف = (أ، ب، ج، د)، إلىٰ جانب المعرفة بدعاوىٰ مكتسبة، ينبغي أن تكون في جملتها حقائق قطعية تتأسس علىٰ المجموعة «ف» وتوافقها، وسمينا تلك المعرفة المكتسبة ك = (س، ص، ع، هـ)، أصبح الإنسان مطالبا بجمع هاتين المجموعتين «ف» و«ك» إلىٰ نفسه (معرفة واعتقادا) إن كان يرجو ألا يدخل إليه التناقض المعرفي في شيء مما

يعتقد، فإن بدل شيئا من «ك» فقد ناقض «ف» كلها أو بعضها! والقصد أن ما يأتي به التلقي المعرفي لتتكون منه مجموعة العقائد «ك»، يجب أن يتفق مع ما يوجبه العقل ببداهته (أو يمنعه) لما في الغيب من موجودات ومن صفات تلك الموجودات (وهي مفردات المجموعة «ف»)، حتىٰ تسلم نفس الإنسان من التناقض الاعتقادي Cognitive Inconsistency. فإن تصورنا نفسا قد اتخذت في المجموعة «ك» جملة من العقائد تناقض بعض ما في المجموعة «ف» من مسلمات العقل والفطرة، فقد ظهر في تلك النفس ذاك الداء الذي نبحثه في هذا المبحث.

فإن كانت العقائد المكتسبة معرفيا في المجموعة «ك» تتناقض مع مسلّمة واحدة من مسلمات «ف»، فلا شك أن صاحب هذا التناقض سيعاني من حالة من الاضطراب المعرفي Cognitive dissonance أخف أو أهون مما يعاني منه من ناقضت مفردات «ك» لديه أكثر من مسلمة واحدة من مسلمات «ف»، لأنه إذن يجد نفسه مطالبا بمغالبة أكثر من مسلمة واحدة من مسلمات البداهة الأولىٰ، وإقناع نفسه بأنها ليست من المسلمات ولا من البدهيات، أو إقناع نفسه بأنه لا يناقضها علىٰ الحقيقة إن عجز عن تكلف برهان نظري يظهر منه إسقاطها هي نفسها من الأصل.

ثم إن من تلك المسلمات في المجموعة «ف» - بل من أساسها - ما يتعلق بذات الباري (الثابت وجودها ببداهة العقل الأولىٰ) من صفات ومعاني، فهي من ثمّ علىٰ طبقتين كليتين، طبقة إثبات الذات نفسها (وهي مسَلَّمة أصلية)، وطبقة إثبات وجوب الكمال في صفات تلك الذات من كل وجه ومن غير تناقض (وهي مسلمة فرعية). فمن أثبت الأصل وتناقض اعتقاده في الفروع، لا يستوي في ثقل ما يعانيه من الاضطراب المعرفي وحدته مع من بلغت مخالفته لبداهته الأولىٰ أن نفىٰ الأصل وفروعه جملة واحدة، ووجد نفسه مضطرا لإنزال صفات الربوبية علىٰ المادة أو علىٰ الطبيعة كما تصنعه عامة الملاحدة الدهرية، وارتكاب جملة كبيرة من المغالطات العقلية من كل صنف ولون لإقناع نفسه بالتناسق والتوافق المنطقي لما اختاره لنفسه من اعتقاد في المجموعة «ك».

وكما أن التناقض المعرفي قد يقع فيما بين مفردات «ك» وأصول الفطرة والبداهة (أو مجموعة المعارف الضرورية غير المكتسبة «ف»)، فقد يقع فيما بين مفردات المجموعة «ك» نفسها، بغض النظر عن موافقة بعض تلك المفردات المتناقضة لبعض ما في المجموعة «ف» أو مخالفتها، وسيأتي معنا ضرب الأمثلة.

ونكرر التنبيه علىٰ أن المجموعة «ف» هذه ليست من قبيل المحتوىٰ المعرفي المكتسب، وإنما هي تمثيلنا لحقائق منطقية بدهية لا يتعلمها الإنسان أصلا، بل يولد بها مركبة في عقله تركيبا فطريا جبليا لا تعمل اللغة نفسها عملا صحيحا إلا بمقتضاها، كما مرّ تقريره في القسم السابق. والتناقض الذي يقع بينها وبين ما قد يكتسبه الإنسان من عقائد باطلة لا يجد له صاحبه مخرجا – مع البقاء علىٰ تلك العقائد – إلا التمحك والسفسطة. فقد تراه يبادر إلىٰ ادعاء أن تلك المعارف ليست فطرية ولا جبلية ولا بدهية ولا شيء من هذا، فتجد من الفلاسفة من يجادل في زعم العقلاء بدهية تلك الأصول، بل يجادل في وجود هذا الصنف من المعارف أصلا في نفس الإنسان، أو في كون التسليم بها دون استدلال أو نظر أمرا «مستساغا في العقل»، كما مر بك في القسم السابق أيضا. هذا الجدال لا تخريج له عندنا إلا حرصهم علىٰ اختراع الدعاوىٰ «العقلية» (علىٰ مفهومهم للعقل) الداعمة لاعتقادهم، لتخفيف ما يعانونه هم وأتباعهم من تلك الحالة النفسية المكروهة، وللتشويش علىٰ هاتف تلك الفطرة وداعيها في أعماق نفوسهم.

وكما يقولون فبالمثال يتضح المقال.

فلو تصورنا رجلا يؤمن بوجود الرب الباري سبحانه وتعالىٰ (وسمينا تلك القضية الاعتقادية «س»)، وكان في نفس الوقت يؤمن – تبعا لما ورثه من أهله – بأنه لا موجود غيره (وسمينا هذه العقيدة «ص»)[1]، فقد وافق هذا ما هو مطبوع في فطر الناس من حقيقة بدهية أولية مفادها أن له ولجميع ما يرىٰ من الأشياء من حوله ربا خالقا بالضرورة (وهي الحقيقة البدهية «أ»)، ولكنه خالف حقيقة فطرية وبدهية أخرىٰ «ب»

(١) وهي عقيدة وحدة الوجود، المنافية للأصل البدهي الفطري القائل بضرورة خلو صفات الباري من التناقض والنقص، إذ لا يعقل أن تكون ذوات المخلوقات كلها هي ذاته، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا!

مفادها امتناع أن يكون الرب سبحانه هو عين المربوب والخالق هو عين المخلوق، أو الصانع هو عين المصنوع. وحينئذ يمكننا أن نكتب في وصف صراعه النفسي مع بطلان ذلك المعتقد (كتطبيق مباشر لمعادلة فستينغر) ما يلي:

مقدار الاضطراب المعرفي = Cognitive Dissonance = (ص) * و / (ع*ط + ر*ل +...)

حيث «و» هي درجة خطورة الاعتقاد الغيبي (نوعا) في تقدير الإنسان بعموم، و«ط» و«ل» هي مقادير أهمية العقائد أو الدعاوىٰ المعرفية «أو الشبهات» الأخرىٰ الداعمة للمعتقد «ص» عنده (ألا وهي العقائد الإضافية «ع» و«ر»)، التي جمعها لنفسه بغرض التخفيف من شدة تأثير التناقض المعرفي بين «ص» والحقيقة البدهية «ب» لديه. فقد يكون المعتقد «ع» هو قوله – مثلا – بأن «الرب الخالق قادر علىٰ ما يشاء، وإذن فلا مانع من أن يجعل نفسه وخلقه شيئا واحدا إذا أراد، فلا يكون في الواقع شيء غيره»، ولكن لأنه يدري كذلك أن هذا القول لا يدفع ما في المعتقد «ص» من بطلان بدهي واضح، فقد يجد نفسه مضطرا لالتماس أقوال تسويغية أخرىٰ كذلك، لعله يسكت صوت الفطرة كلما علا في نفسه. وهو ما يعني أن المقدار «ط» هذا ستكون قيمته ضئيلة تقديريا (لا سيما إن كان لا يجد له موافقين من أقرانه يشجعونه علىٰ التعلق به)، وسيحتاج إلىٰ التنطع بما هو أكثر من هذا القول لإزالة حالة الاضطراب التناقضي التي قد تنشأ في كل مرة يخلو فيها بنفسه ويتأمل في عقيدته «ص»، كأن يحدث نفسه بالقول «ر» (علىٰ سبيل المثال) فيقول: «هذا الواقع الذي نراه قد قالت بعض المدارس الفلسفية بأنه وهم لا حقيقة له أصلا إلا في أذهاننا، وإذن فلا بد وأن الباري هو الحق وحده»، ولكنه يعلم أيضا أن تلك المدارس مبطلة واهمة لا محالة، لأن من بدهيات العقل الأولىٰ التي يجدها الإنسان مركبة في نفسه تركيبا (المجموعة «ف») ما مفاده أن وجوده حق، ووجود هذا الواقع من حوله البائن من نفسه حق أيضا، وأن الشيء الواحد موجود مستقل عن غيره من الأشياء في هذا الواقع.[1]

(١) ومن الطرائف والمضحكات، وعلى ذكر حيل الاتحاديين في تزيين تلك الخرافة لأنفسهم، ما جاء به

ثم إنه لو تجرد من محركات الهوىٰ التي تحمله علىٰ جمع تلك الأقوال الساقطة والمكاثرة منها، لبان له أن الاستناد إلىٰ ما ذهب إليه بعض الفلاسفة لا لشيء إلا لأن ثمة من ذهب إليه، يعد من صور الاستدلال الزائف والمغالطة الفجة، إذ لا يلزم من مجرد وجود من يعتنق هذا المذهب أن يكون حقا صحيحا! ولكن القيمة «ل» المقدرة لهذا القول الدفاعي «ر» لا علاقة لها في نفسه بما يفترض أن ينتهي إليه العاقل المتجرد من الهوىٰ! كيف وهو أصلا إنما يعاني ما يعانيه بسبب الغرق في الهوىٰ؟! فلن تعلو عنده قيمة «ل» إلا إن وجد للقول «ر» قبولا ورواجا اجتماعيا كبيرا بين أقرانه ورؤوس الملة عنده، فحينئذ يزين له شيطانه تقويته ورفع القيمة «ل» من أجل ذلك! وإلا أهمله وبحث عن غيره من الأقوال والمسوغات الدفاعية Rationalizations التي تقدر قوتها في ميزان عقله الباطن، ومن ثم يظهر تأثيرها في التخفيف من أثر الاضطراب المعرفي لديه، بناء علىٰ ما يترتب علىٰ التذرع بها وإعلانها بين الأقران من أهل الملة من قبول واستحسان ظاهري فيما بينهم.

وقد تجده متعلقا بالمزيد من العقائد والمزاعم السوفسطائية الأخرىٰ التي لن تجد في معادلتنا هذه قيمة تقديرية إلا أن تكون أدنىٰ في الحقيقة من هذه التي ذكرنا، كاعتقاد

الكاتب التركي المدعو «عدنان أوكتار» (هارون يحيى) في بعض كتبه من استعمال علم النفس وعلوم الإدراك الحديثة وعلم العصبيات ونحو ذلك، في الانتصار لدعواه بأن المادة وهم لا حقيقة له خارج الأذهان، مع أن أكثر علماء النفس يعدون من يزعم أن العالم خارجي وهم لا حقيقة له، مريضا نفسيا يحتاج إلى علاج (يسمونه Solipsism Syndrome، وإن كان لم يسجل إلى الآن في منظمة علماء النفس الأمريكية APA كمرض نفسي بصفة رسمية)! بل ذهب المسكين إلى التعلق بفيلم سينمائي أمريكي يدعى «المصفوفة» Matrix يضرب به المثل على ما يريد، ووضع كتابا كاملا في ذلك على طريقة: «ما الذي يمنع من أن نكون كلنا الآن في الحقيقة مخدرين نائمين في بطن حوت كبير، أو في بالون معلق في الهواء، وقد رُبطت عقولنا جميعا بجهاز كمبيوتر عملاق يوهمنا بأننا نعيش في هذا العالم كما نراه؟ أليست فكرة رائعة؟»! فالذي أطمح إليه من تأليف هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم، ألا أتركك إلا وقد اقتنعت بأن هذا ونحوه ضرب من المرض النفسي العضال، وأن الحجج والبراهين التي يقال لها «عقلية»، التي يتفنن في جنسها هؤلاء المرضى، لا يمكن أن يكون نوعها هو الطريق لعلاجهم أبدا (إن كان يرجى لأمثالهم علاج)، إذ لا يعقل أن يطلب الدواء في سبب الداء نفسه ومنبع المرض! وأنه لو كان في ذلك الطريق خير لجاء به المرسلون ولرأيناه في خطاب القرآن لعامة المشركين من أهل الملل!

أن الحق لا يمكن أن يكون قد خفي علىٰ هؤلاء جميعا [1]، لأنه إذن لن يكون لديه مستند في رفع قيمته إلا تعظيم رؤوس الملة وكبرائها والاتفاق الاجتماعي بينه وبين أقرانه من أهل الملة علىٰ أنهم يعلمون أجوبة تلك الاعتراضات لا محالة! وقد يضيف إلىٰ ذلك اعتقاده أن بقاءه علىٰ موافقة المقربين إليه هو الأحسن والأسلم، فيستمد لهذه الموافقة وزنا من جهة الكراهة الشديدة في نفسه لما قد ينزل به من أثر اجتماعي إن أعلن مخالفته إياهم جميعا في أصل دينهم! فمن أكره الأشياء وأثقلها علىٰ نفس أي إنسان، ولا شك، أن يضطر إلىٰ مفاصلة الأهل والأصحاب وإلىٰ الانقلاب معهم من المحبة إلىٰ العداوة، ومن الموالفة والمساكنة إلىٰ المفارقة والمقاطعة! ومن الحيل التشويشية كذلك أن يحاول إقناع نفسه بأن الأمر هين إجمالا ولا يستحق أن يفكر فيه أو أن يشغل نفسه به (وهي محاولة التقليل من القيمة «و» نفسها)، كمساعي بعضهم في الحطّ علىٰ مطلق فكرة الدين والاعتقاد الغيبي نفسها، ثم يمضي يتلهىٰ بعمله أو بالإغراق في الشهوات أو نحو ذلك، عساه ألا تراوده تلك المسألة ولا تطفو إلىٰ وعيه فتؤرقه مرة بعد مرة.

ونقول: نظرا لأن القيمة «و» هذه قيمة يصعب تقديرها من عظمها وضخامتها (إذ ليس ثمة قضية أخطر في معرفة الإنسان من مسألة مصيره الأبدي بعد الموت ولا شك)، تعين أن يكون من المحال بالنسبة لهذا الإنسان مهما جمع لنفسه من دعاوىٰ معرفية موافقة Consonant cognitions أن يزيل - بصورة نهائية - حالة الاضطراب النفسي لديه بسبب ذلك التناقض الكبير بين القضية الاعتقادية الفاسدة لديه (المتسببة في معاناته تلك الحالة) علىٰ خطورتها في تقديره، وبين ما هو معلوم من بداهة العقل لديه، أو أن يقنع نفسه بصحة ما هو عليه بصورة تريح تلك النفس المنهكة من إلحاح تلك القضية علىٰ قلبه. ولهذا يظل أحدهم معلولا في نفسه، يخفي علته ويتنكر لها، ولا يعترف بها إلا إن هداه الله للحق بفضله!

---

(١) يعني تلك الجماهير التي وافقها في العقيدة من علماء وكبراء وعقلاء ورؤوس المعبد .. الخ، إذ يقنع نفسه بأن عندهم ولا بد الجواب الكافي الذي تطيقه عقولهم هم وإن لم يسمعه منهم أو وإن سمعه ولم يبلغه عقله، على الرغم مما هو جلي ظاهر أمامه من تناقض فاحش في ذلك الاعتقاد الذي اتفقوا عليه، وهذه أيضا من المغالطات أو الاستدلالات الزائفة المشهورة.

وعليه، فإن رجلا كهذا لا يبقىٰ له مخرج نهائي من ذلك الاضطراب (بما يضمن له ألا يرجع إلىٰ معاناته من جديد) إلا أن يخلع عن نفسه هذا المعتقد الفاسد «ص» بالكلية، ويتبرأ من جميع ما استند إليه من دعاوىٰ ومزاعم معرفية فاسدة لنصرته ودعمه جملة واحدة. ولكن هذا الأمر يعظم جدا ويشق للغاية علىٰ أكثر أصحاب العقائد الغيبية الفاسدة كما أسلفنا! فهو يكره الزوال عما يشتهي من لعاعة الدنيا، التي يعلم أنها ستزول عنه فورا إن صرح بالتحول عن اعتقاده! لذا ترىٰ الواحد منهم يظل مكابرا مماحكا حتىٰ تأتيه منيته وهو علىٰ ذلك، لا سيما إن كان من كبراء أهل ذلك الاعتقاد ورؤوسهم الذين ما اكتسبوا المقام والمنزلة الرفيعة في المجتمع إلا بسببه أصلا! فمثل هذا يعظم في تقديره جدا ما سيخسره في مجتمعه وبين الناس من أمور يشتهيها بسبب انخلاعه من المعتقد الفاسد وإعلانه البراءة منه والكفر به. فتراه يظهر عنده في الشق السفلي من المعادلة معتقد مفاده أنه متضرر لا محالة من إعلان التراجع عما هو عليه، علىٰ تقدير قيمة كبيرة للغاية لهذا المعتقد في الميزان، وإن كان يعلم كذلك أنه مهما عظم ذلك الضرر الدنيوي فإنه لا يزن شيئا في مقابل مصير أبدي لا انتهاء له، ولكن القصد أن مثل هذا، مع كونه صاحب رياسة بين أهل الباطل، يصبح لفقده تلك الرياسة وخسارته تلك المنزلة مقدار عظيم في نفسه بحسب ما فيها من شهوة وهوىٰ. والمفاضلة بين العواقب المحبوبة والمكروهة مفاضلة باطنة، لا تجري في وعي الواحد من هؤلاء في الأعم الأغلب كما سيأتي.

وقد ضربنا مثالا لهذه الحال بعم النبي ﷺ «أبي طالب»، وكيف أنه أبىٰ إلا أن يموت علىٰ ملة قريش، علىٰ الرغم من إقراره بصحة ما جاء به ابن أخيه، ﷺ، وإن كان أبو طالب لا يوصف بأنه كان رأسا في الملة الباطلة، أي لم تكن سيادته في قومه بسبب علوه في الملة نفسها، ولكن للزعامة القبلية. وهو ما يعني أن دخول مثل أبي طالب في الحق وبراءته من الملة الباطلة ربما يكون أقرب احتمالا من إعلان الكاهن الأعظم في معبد من المعابد الوثنية إسلامه (مثلا)، ولكن من ختم الله علىٰ قلبه فقد قضي أمره، ولن تجد له من دون الله وليا مرشدا. ولهذا نقول إنه كلما عظم شأن وقدر ومنزلة صاحب الباطل بين أهل الباطل بسبب ذلك الباطل نفسه، زاد عتوه في الانتصار لذلك الباطل،

وضعفت احتمالية أن يرجع عنه في يوم من الأيام. فالمسألة كما ترىٰ ليس مردها إلىٰ قوة دليل صحة القول الحق في مقابل دليل فساد القول الباطل، فالموازنة الحقيقية في عقل صاحب الهوىٰ لا تجري علىٰ هذا المنوال أصلا! وإنما هو متمسك بالمعتقد الفاسد ابتداء لما في ذلك التمسك من منافع دنيوية عاجلة تعظم في نفسه للغاية، فتراه يتفنن في الاستدلال لنصرة ذلك المعتقد مهما كان ساقطا متهافتا في بداهة العقل، يرجو أن يوهم نفسه وغيره بأنه علىٰ شيء.

وهذا المسلك (اعتقِد ثم استدِل!) يظهر عند مجادلة رجل كهذا أشد الظهور، وأكثر ما يصنفه فلاسفة الدين ورؤوس فلسفة الدفاع الديني في الملل الباطلة (أو ما يعرف باللاهوت الدفاعي) Apologetics من تآليف وحجج وردود ينتظم علىٰ هذا النهج الشيطاني الخبيث.

تبدأ بمخاطبته حول أصل أصول الفساد في دينه، فتراه يقذف في وجهك بجملة من الاعتراضات الفارغة علىٰ دينك أنت، مما جمعه من هنا وهناك، فلماذا يفعل هذا وهو يدري أنه لا يصح في العقل أن يكون بطلان دينك إن ثبت، دليلا علىٰ صحة دينه هو، أو جوابا عن دعوىٰ بطلانه؟ لأنه يجد في هذا المسلك الهجومي ستارا نفسيا يحتاج إلىٰ التعلق به، حتىٰ تصبح المشكلة في شخص ذلك المناظر صاحب الدعوىٰ التي يكرهها.[1] هكذا يريد صاحب الهوىٰ أن يقنع نفسه، حتىٰ ترجع من جديد إلىٰ ارتياحها

(١) وهذا مما يقع فيه كثير من طلبة العلم من حيث لا يشعرون، عندما تجري المناظرة بينهما في مسألة يتعصب أحدهما فيها لقوله واختياره، فتراه يتهم خصمه بأنه يحركه الهوى الخفي من حيث لا يشعر، ويخاطبه وكأنه ينصحه ويحذره من الترسل مع ذلك، مع أنه هو – في الحقيقة – المتمسك بما يمليه عليه هواه. وأخطر من ذلك ما تراه عندما يقع طالب العلم في مخالفة منهجية أو اعتقادية لما عليه أهل السنة، ثم إذا ما خاطبه بعض طلبة العلم المعروفين بشدتهم في التحذير من أهل البدع والانحرافات، كما كان عليه أكثر أئمة السلف رحمهم الله ورضي عنهم، فحذروه وطالبوه بالرجوع عن ذلك القول علنا كما صرح به علنا، أبت عليه نفسه إلا أن يتمسك بقوله ورأيه، وأن يتهم مخالفيه بأنهم من غلاة التجريح وأنهم حاقدون كارهون لا يريدون إلا إسقاطه والحطّ عليه! مع أنه لو تأمل وتجرد لوجد أنهم حتى ولو كانوا كذلك حقا، فإن كان الحق معهم فقد وجب عليه المصير إليه والتراجع عما قاله وإن جاءه من أبغض الناس إلى نفسه! بل حتى لو جاءه شيطان بالحق لوجب عليه أن يقبله منه، كما في حديث أبي هريرة الشهير «صدقك وإنه لكذوب»! فلماذا يجادل ويماري ويأبى النصيحة؟ لأن نفسه تخفي عنه كراهته أن يظهر لتلامذته وأحبابه في لبوس المخطئ المتراجع الذي علا عليه هؤلاء وردوه عن غلطه، فلا ينتبه إلى أن هذا هو دافعه ومحركه الحقيقي

(النسبي) الذي كانت عليه قبل الجدال، واطمئنانها السابق لتمسكها بما هي عليه، وردها تلك الدعوىٰ المخالفة وصدودها عنها.

ثم تراه يتصيد من أثناء كلام خصمه ما يشوش به علىٰ دعوته، إذ يتهمه – مهما كانت حاله – بأنه دون الأهلية وليس علىٰ علم يكفي للنهوض بتلك الدعوىٰ (وهي أيضا مغالطة معروفة عند المناطقة المعاصرين، يقال لها ad hominem). ولعله يأتيك إن ناظرته بنصوص وتفاسير رؤوس الملة وفلسفاتهم ليغرقك في شقشقاتهم وسفسطاتهم وفي فك مشتبهات ومشتركات ألفاظهم، فإذا ما رآك تجري معه وراء ذاك السراب، وتجهد في تتبع مواطن الخلل في هذا النص أو ذاك، وقد تصيب مرة وتخطئ مرات،

في التمسك بما هو عليه من قول فاسد! نعوذ بالله من الكبر ومن الهوى الخفي!

وقد يصل به ذلك البغض إلى صده عن التأمل في أدلة هؤلاء الخصوم صدودا تاما، أو قد يمر بها ولا يتأمل فيها ولا يتكلف ذلك بما قد يكون منه لو كان الكلام خارجا من قوم آخرين، أو لو كان موجها إلى غيره لا إليه هو! هذه أحوال دقيقة قد تخفى عن أكثر طلبة العلم وعليهم أن يدربوا أنفسهم على استبطانها والتقاطها والانتباه إليها متى وقعت عندهم! ومن ذلك ما يقع لكثير من عامة المتدينين من محبي طلبة العلم هؤلاء ومريديهم، يقال لهم الشيخ فلان قال في شيخك كذا وكذا، فيبادر من فوره باتهام ذلك المهاجم، وينتصر لشيخه المحبب إليه من غير أن يتكلف أدنى نظر فيما جاء به ذلك المهاجم من أدلة أو قرائن! لماذا؟ لأن إسقاط صاحب الهجوم وتسفيهه ونسبة هجومه هذا إلى فساد في عقله أو دينه أو منهجه، أحب إلى النفس وأهون عليها بكثير من مجرد افتراض الاحتمال (ولو كان ضعيفا) أن يكون لديه شيء من الحق فيما ذهب إليه من تخطئة ونكير وجرح. فالنفس تود دائما أن تفر بصاحبها إلى الخيار الأحب فيما يترتب عليه من تبعات وعواقب! ولا شك أن مثل هذا يكره في تعصبه أن يجد نفسه مطالبا في غده بأن يقاطع فلانا وفلانا من أحبابه وخلانه من موافقيه على منهجه الذي جاء صاحب الجرح بتغليطه وتبديعه والإغلاظ على كل داع إليه! فالأحب إلى نفسه أن يوافقهم في رد ذلك الجرح على صاحبه واتهامه في دينه بادي الرأي دون أدنى تأمل أو نظر!

وفي المقابل، فقد ترى طالب العلم المتصدر للنكير على المخالف تحمله نفسه على إظهار علوه هو وتفوقه العلمي على مخالفه من حيث لا يدري، فتراه يتصيد مواضع التخطئة والإنكار على ذلك المخالف بتكلف وافتعال ظاهر، ويجاوز حد الإنصاف والعدل في إبطال كلامه. وكأنما بات يرى أنه ما دامت الغاية أن يجرح ذلك المخالف ويصد المسلمين عنه، فلا بأس إذن بتحميل كلامه ما لا يحتمل، أو تقويله ما لم يقل، أو إلزامه بما يعلم أنه لا يلزمه، تحببه نفسه في ذلك كله وتسوغه له، مع أنه قد سمع قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٨] وقوله جل وعلا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾ [النساء: ١٣٥]، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

انتشت نفسه لانفتاح الباب أمامه ليتعلق بدعوىٰ فاسدة مفادها أن مجرد جريان الجدال واستطالته يكفي دليلا في نفسه علىٰ أن ما تزعم أنت (الموحد) أنه حقيقة عقلية بدهية واضحة ليس كذلك في الحقيقة، وإلا ما طال الجدال وتشعب، وما تنازعته طوائف من الفلاسفة والكهنة والعلماء الكبار من قبل، وما تعذر عليك إقامة البرهان النظري القاطع للجدال فيه! وهذه مغالطة عظيمة كما بينا من قبل (وهي في مقدمة المغالطات والحيل التسويغية Rationalization عند الملاحدة كما سيأتي بعد)، ولكنها تصيب في نفسه هواها، وتشبع شهوته في الظهور علىٰ صاحب الحق وكسره ولو بمحض الباطل.

فإن وجد نفسه عاجزا عن إحكام تلك الطريقة السوفسطائية في المجادلة عن الباطل (أو طرائق الفلاسفة والمتكلمين بعموم)، ورأىٰ ثمرتها بعيدة عن نواله، رأيته يلجأ للسب والشتم وبذاءة اللسان، أو إلىٰ استفزاز أخلاق مجادله (علىٰ أقل تقدير)، لعله يقنع نفسه بأنه إنسان وضيع منحط لا يريد إلا الشر، كما يزعم في حقه. هو يرجو أن يقنع نفسه بهذا، وله فيه مطمع وغاية، لأنه يحب أن يعتقد أن أصحاب تلك الملة المخالفة مجرمون مفسدون، وأنه لا يليق به أن ينضم إليهم أو يوافقهم علىٰ ما هم عليه! ولو أنه في مجلس جماعي (أو في منتدىٰ أو موقع من مواقع الإنترنت أو نحو ذلك) وكان له في ذلك المجلس موافقون وأنصار، وتواطأ القوم علىٰ مفاصلة ومنابذة ذلك الخصم، زاد ذلك التواطؤ من إشباع هوىٰ كل واحد من هؤلاء، تبعا لحرصه علىٰ تخفيف الاضطراب النفسي لديه والتشويش عليه. وكلما كثر عدد المتواطئين علىٰ ذلك الأمر، كان ذلك أحسن في نظر كل واحد منهم، إذ يعلو بذلك مجموع الدعاوىٰ الداعمة Consonant cognitions بما يخفف – ولو بصورة مؤقتة – من مقدار الاضطراب النفسي الناتج عن ظهور التناقض المعرفي في الاعتقاد لدىٰ كل واحد منهم في دائرة وعيه.

فصل في عمل نفوس الملاحدة

الآن وقد أحكمنا تصور أداة التقدير النظري لما في نفوس أهل الشرك والاعتقاد الغيبي المتناقض من اضطراب يدفعهم دفعا ويحملهم حملا علىٰ التماس المخارج النفسية والحيل التسويغية لما هم عليه، ومن موازنة للعواقب يحركها الهوىٰ المحض في العقل الباطن، ننتقل إلىٰ تقرير قضية كلية في غاية الأهمية، ألا وهي أن سائر من سوىٰ أهل التوحيد الخالص فهم مشركون - اسما واصطلاحا - بما في ذلك الملاحدة بألوانهم وفئاتهم وطوائفهم. فأما أهل الكتاب فأشركوا بالله الأنبياء والأحبار، وجعلوهم أربابا معه، يحلون حرامه ويحرمون حلاله، ويُعتقد في ميتهم إجابة الدعاء والنفع والضر من دون الله، وهذا معلوم مشاهد. وأما الملاحدة فالله تعالىٰ يقول في محكم التنزيل: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [**الجاثية**: ٢٤] فقرر سبحانه أن اعتقاد بعض الناس أنهم ليس لهم رب يهلكهم ثم يبعثهم بعد موتهم، هو تحويل لصفات الربوبية من رب العالمين إلىٰ الدهر الذي نسبوا إليه الفاعلية في ذلك، فهو عندهم الذي يميت ويهلك، لا يميتهم سواه من بعد ما أنشأهم وأحياهم، بأسباب (عرفوها باسم الأسباب الطبيعية) جعلوه (أي الدهر) هو منتهاها ومصدرها لا غيره، في تسلسل للعلل والمعلولات «الطبيعية» لا بداية له ولا نهاية [١]، فهذا محض الشرك في الربوبية ولا شك (بما يستلزم شرك العبودية والتأله قطعا)، ولهذا سماهم أهل العلم المتقدمون بـ«الدهرية»، ويدخل تحتهم الطبيعيون والماديون والدراونة المعاصرون بجميع نحلهم. كل من لا يقول إنه ليس في الوجود إلا المادة، أو ليس في الوجود إلا ما هو «طبيعي»، فهو دهري، ولا يكون الملحد ملحدا

(١) ولهذا ترى المعاصرين منهم يحرصون أشد الحرص في تنظيرهم الطبيعي على تمديد عمر الكون وعمر الأرض لبلايين السنين، تأسيسا على اعتقادهم أنه كلما استطال الزمان في جهة الماضي، ساغ في العقل اعتقاد صدور أشد الأشياء تعقيدا من مقدمات عدمية عشوائية محضة! فهم يعبدون الدهر تحقيقا، ينسبون إليه الفاعلية والخلق والتدبير، وإن زعموا أنهم لا يعبدون شيئا!

في الحقيقة إلا بأن يكون دهريا. فكل من ينفي وجود باريه ومصوره بالغيب أو يماري فيه أو يشكك فيه، فهو دهري مشرك بالضرورة وبنص القرآن.

والملاحدة في الحقيقة يزيدون علىٰ عامة المشركين باعتقاد مناقض لشركهم نفسه من جانب، ومناقض لأصل البديهة العقلية الأولىٰ المتعلقة بوجوب الخلق والتعليل في الغيب، ألا وهي وجود الباري، أو كونه – إن أثبتوا وجوده – فاعلا مريدا مستحقا للعبادة. ذلك أن الشرك إنما هو نسبة ما ينفرد به الباري من الصفات والأفعال إلىٰ شيء من خلقه (وهو ما يقال له علىٰ اصطلاحنا شرك الربوبية وشرك الأسماء والصفات)، أو العمل بما يستلزم ذلك الاعتقاد أو بمقتضاه الظاهر (ألا وهو شرك الألوهية والعبودية، كدعاء غير الله والاستغاثة بغير الله والذبح لغير الله .. إلخ). فعلىٰ هذا الحد العام، فلن تجد بين أهل الملل في الأرض إلا موحدا ومشركا، لا ثالث لهذين الصنفين. والموحد ليس من زعم أنه يعبد ربا واحدا، فأكثر أهل الملل تزعم ذلك، وليس من زعم أن الرب متفرد بصفات الربوبية، فحتىٰ عبدة الفئران يزعمون ذلك، وإنما الموحد من تحقق بالتوحيد تحققا صادقا في جميع مفردات الاعتقاد في ذات الرب الباري وصفاته وأفعاله أولا، وفيما يقتضيه ذلك الاعتقاد من أفعال المكلفين التي لا يصح أن تصرف لأحد سواه أو أن يشرك به غيره فيها ثانيا.

لذا رد أئمة السنة تعريف المتكلمين للتوحيد في قولهم (كما ذكره القاضي ابن عبد الجبار المعتزلي): «هو العلم بأن الله تعالىٰ واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات»! فهذا هو عين تعريف الفلاسفة للتوحيد أو الأديان التوحيدية Monotheistic، أي التي تزعم أنها تؤمن برب واحد متفرد بصفات الربوبية! فعلىٰ هذا التعريف يكون النصارىٰ موحدين، إذ يعتقدون في إلههم المثلث أنه متفرد بصفات الربوبية وحده لا شريك له! ويكون اليهود موحدين لأنهم يعتقدون في الرب الواحد الذي لا شريك له في صفات الربوبية، وكذلك يقال في السيخ والمجوس بل وفي أكثر الهندوس، ولهذا نص بعض الأئمة علىٰ أنه ليس في الأرض أهل ملة إلا وهم يقولون بذلك! حتىٰ إبليس نفسه يكون موحدا بذلك! فلو علقنا الحكم علىٰ ما يصرح به هؤلاء ويزعمونه،

دون التفات إلىٰ عبادتهم وعملهم وما فيه من شرك في التأله (يقتضي شرك الربوبية والصفات بالتلازم [1])، للزمنا تصحيح دين المشركين!

فعلىٰ هذا الحدّ الذي حررناه للشرك، يكون الملحد مشركا من جهة تعامله مع صفات الربوبية التي ينقل بعضها إلىٰ المادة أو الطبيعة (الدهر) أو نحو ذلك، وينقل بعضها الآخر إلىٰ الإنسان وعلمه وقدراته المعرفية التي لا يرىٰ لها حدا ولا نهاية، فيزيد شركه علىٰ شرك عامة الوثنيين بأنه لا يترك شيئا من صفات الربوبية لذات الباري علىٰ الإطلاق [2] إلا نقله إلىٰ غيره، بخلاف أهل الملل الشركية الأخرىٰ الذين يثبتون للذات الخالقة إرادة (أو «شخصية» Persona باصطلاح الفلاسفة) تأمر وتكلف وتحب وتكره، وتقبض الموتىٰ وتبعثهم من مراقدهم في يوم مشهود .. إلخ. فالخلق والتصوير للكائنات الحية (مثلا) لم يكن خلقا ولا تصويرا وإنما كان «انتخابا طبيعيا»، فالطبيعة هي التي «انتخبت» ما يبقىٰ من الكائنات تمييزا له عما يهلك، كما يركب المفتاح في القفل، ولكنها في نفس الوقت لم تنتخب ولم تفعل وإنما حصل ما حصل من غير فعل أو إرادة أو تدبير أو تقدير سابق.. إلخ، ونشأة الكون لم تكن خلقا ولا تدبيرا ولا تركيبا بفعل فاعل مريد كذلك، وإنما كانت نقطة من الطاقة المركزة التي اتفق أن انفجرت وتوسعت فجأة (هكذا!)، فتركب منها هذا النظام المحكم العظيم من تلقاء نفسه بلا ضبط ولا تركيب ولا تنظيم خارجي. فهو (أعني المشرك المادي الطبيعي المعاصر أو الدارويني) كسائر الدهرية تراه في النهاية يعتقد أن الطبيعة (بهذا الإطلاق) لم تنشأ أصلا ولم تبدأ في نقطة من نقاط الماضي، وإنما يتتابع التفكك والتركب (بما قد ينشأ منه كون أو أكوان متتابعة تنشأ ثم تهلك) من مادة بعد مادة أو طاقة بعد طاقة أو نحو ذلك مما تتركب منه الطبيعة، في أسباب تتسلسل من الأزل من غير مبدئ ولا سبب أول، وإنما

(١) إذ لولا أن أنزل المشركون بعض خصال الربوبية تحقيقا على من عبدوهم من دون الله (مهما أنكروا ذلك وتبرؤوا منه) ما عبدوهم وما جعلوهم شركاء! لذا بين القرآن تناقضهم إذ يزعمون أنهم مؤمنون بتفرد رب العالمين بالنفع والضر، ومع ذلك يتوجهون بالعبادة والتذلل إلى غيره بما يقتضي اعتقاد النفع والضر في ذلك المعبود، وأن سؤاله يغنيهم عن سؤال الله تعالى!

(٢) إلا عند طائفة منهم تؤمن بخالق ليست له إرادة أو فعل أو أمر ونهي وتشريع (أو كما يسمونه: غير متشخص)، ويقال لهم «الربوبيون» Deists.

هي عملية يحكمها قانون ونظام «طبيعي»، يظهر ثم يزول ليحل غيره من النظم محله علىٰ نسق سببي عشوائي يتسلسل من الأزل وإلىٰ الأبد، فهو المهيمن الفاعل الحاكم عندهم (ميتافزيقيا) في محل صاحب الخلق والتكوين والتقدير.

فبهذا يربو تناقض الملحد علىٰ تناقض عامة المشركين بأنه لم يكتف بنقل صفة الخلق والتصوير والتقدير عن ذات الباري إلىٰ غيره (الطبيعة) وحسب، بل زاد بأن زعم أنه لم يكن خلقا ولا تركيبا ولا تصويرا من الأساس[1]، وأن النظام الكوني لم يأت من صانع فاعل حكيم، وإنما جاء من محض الفوضىٰ، فنفىٰ المعنىٰ وأثبته في نفس الوقت، مسويا بين العدمية والوجودية، وبين النظام المحكم (الآلية) والفوضىٰ الأنطولوجية المحضة (التي تنفي السببية عن الواقع نفسه لا عن تفسيرنا الذهني البشري للحوادث)[2]، وهو ما يضيف إلىٰ تناقض عامة المشركين من أهل الملل تناقضا أخطر وأعمق

(١) كما في تشبيه كبيرهم المعاصر ريتشارد دوكينز «للآلية» الداروينية بـ«صانع الساعات الأعمى»، وتنزيله صفات الفاعلين المريدين على ما سماه بـ«الجين الأناني»، وإصراره على «القبض على لسانه» في كل مرة يستعمل لمة «الخلق» أو «المخلوق» في سياق وصف الكائنات الحية. فعلى الرغم من أن لغته نفسها تأبى عليه المخالفة عن معنى الخلق والمخلوقية، إلا أنه لا يرى في ذلك إلا عيبا من عيوب العقل البشري الذي تركب منذ نشأته على ذلك التصور! فأي مكابرة أشد من أن يضطر الإنسان إلى تعطيل حقائق اللغة الطبيعية نفسها، وتركيب معان متناقضة لا تتسع لها ألسنة البشر، كقوله في وصف المخلوقات Designoid (أي شبيهة بأن تكون مخلوقة)، وكقول النصارى Trinity (أي ثلاثة وواحد في نفس الوقت) ونحو ذلك حتى يمرر للناس اعتقاده المصادم لحقائق اللغة نفسها؟

(٢) وقد ذكرت في غير هذا الموضع أن الفوضى Chaos أو العشواء Randomness إنما هي تعبير عن غياب العلم بالسبب في معرفة الإنسان وفي إدراكه لجملة من الحوادث الجارية من حوله، فإذا ما عرف السبب (أو جملة من الأسباب) زالت تلك الجهالة وحلّ العلم محلها، على الأقل في حدود ما يسعه الانتهاء إليه كبشر مخلوق. لهذا ساغ لنا أن نستعمل نظرية الاحتمالات في تتبع كثير من الحوادث التي تجري من حولنا، ولهذا استقام لنا الاستقراء نفسه Induction كطريق عقلي لتحصيل المعرفة بهذا الواقع الذي نجزم – في فطرتنا الأولى – ابتداء بأنه منظم مستقيم على قوانين محكمة، ولهذا فإننا نلتمس الطرق للوصول إلى معرفة تلك القوانين. ولكن عند الطبيعيين المعاصرين تستعمل تلك الكلمة (العشواء) غالبا للعبارة عن النظام الواقعي نفسه لا عن حدود معرفتنا نحن به، وهو ما يلزم منه هدم السببية نفسها في أصولها الأولى (وقد صرحوا بذلك عند تناولهم لنظريات تأويل ميكانيكا الكم، وتفلسفوا في السببية تفلسفا عجيبا كما ذكرت طرفا منه في غير هذا الكتاب). ولا يخفى ما في ذلك الموقف الفلسفي (الاعتقاد) من تناقض فج، وهدم لبدهيات العقل الأولى، ومع ذلك فهو عندهم علم ونهضة وتنوير!

بكثير، إذ تراه مع نقله الصفة والفعل عن ذات الباري جل وعلا، يضرب في أصل فكرة السببية والتعليل نفسها، في تلك القاعدة البدهية الأولىٰ في مسائل الغيب التي تفيد بأن الإنسان وكل نظام طبيعي مادي أو حيوي مخلوق بالضرورة ومركب تركيبا علىٰ قواعد محكمة لغاية منضبطة عند من خلقه. هذه القاعدة الأصلية ينفرد الملاحدة من بين صنوف المشركين في أهل الملل بمناقضتها والمراء فيها.

فإن أردت أن تستخرج الدافع أو المحرك النفسي الدفين خلف ميل الملحد إلىٰ الإلحاد، فانظر في الوصف الجامع لسائر الملل والمذاهب الفلسفية المعاصرة التي تنسب إلىٰ الإلحاد. فبالتتبع والاستقراء يتبين لك أن جميع طوائف الملاحدة (من لاأدرية ولادينيين وربوبيين وما تشعب علىٰ ذلك وما شابهه) إنما تشترك في الكفر بالرسل والنبوات بإطلاق.[1] فهم لا يريدون الخضوع لنبي ولا لرسول، ويكرهون ذلك

(١) هذا ولا ينبغي أن يصور للعامة أن الملاحدة أو الإلحاد «درجات»، بما يغريهم على التفاوت في معاملة الملحد أو في الحكم عليه، فإن هذا هو عين ما يطمح إليه الفلاسفة من تعديد أسماء النحل والطوائف التي يتخير منها عموم الدهرية ما يناسب كل واحد منهم كما يتخير نعليه! فالتهوين من حال من يقول إنه «لاأدري» أو «ربوبي» أو «لاديني» أو نحو ذلك (في مقابل من يقول إنه: ملحد)، هو عين ما يرجوه الملاحدة من ذلك التصنيف أصلا! وإلا فنحن نسألهم، لو قال رجل إنه قد ترجح لديه احتمال أن يكون مخلوقا، بنسبة ٥٥٪ فقط (مثلا) وقال آخر إن النسبة عنده قد بلغت ٩٩٪ (أو قال: قاربت على اليقين لكن لم أبلغه بعد، وما زلت أرى شيئا من الوجاهة لأدلة الملحدين، وإن ضعفت عندي)، وأعلن الرجلان أنهما دخلا في الإسلام تبعا لذلك الترجيح الظني (لحين ظهور دليل آخر)، فهل تعدونهما من جملة المسلمين الموحدين؟ من قال إنه يرى خلاف الملاحدة خلافا عقليا مستساغا، لكنه لا يترجح لديه موقفهم وما انتهوا إليه لضعف ما مر به إلى الآن من أدلة أصحابه عند النظر والموازنة = هذا يكون مسلما عندكم؟

هذا رجل يؤسس دينه على «الشرط النظري» أو «المعرفة المشروطة بعدم ظهور المعارض» وهو ذلك الشرط الذي يعتنقه النظار والباحثون في المسائل النظرية، فلا يزال يرى معقولية الإلحاد (كقول اعتقادي) من حيث المبدأ، ويقول بجواز أن يقف في يوم من الأيام على دليل معارض ينقله إليه، فكيف يعد هذا من جملة المسلمين، مع أنه لم يدخل الإسلام إلا كما يصنع النظار، يترجح لديهم القول اليوم ثم يرجعون عنه غدا لظهور «الدليل» بخلافه عندهم، مع البقاء على اعتقاد مفاده أن الأمر نظري على أي حال، فيُحتمل – من جهة المبدأ – أن يصح فيه أي من القولين؟ هذا لا يزال ملحدا زنديقا على الحقيقة، وإن صلى وصام مع المسلمين، ما لم يعلن توبته عن مطلق التعلق بدعاوى «النظر العقلي» في وجود باريه وفي كمال صفاته، وعن تسويغه الخلاف الفلسفي (الاختلاف في النظر والرأي) في تلك القضية، وعن ارتيابه في انفراد ملة التوحيد التي جاء بها محمد بن عبد الله ﷺ من بين سائر الملل بكونها الحق المنزل من ربه! كيف يتحقق أساس التوحيد (أصل الإيمان) في نفس، الأمرُ عند صاحبها لا يزال مفتوحا للبحث والدراسة، أعني القول باحتمال أن يكون الإسلام دينا باطلا

أشد الكراهةأش وينفرون منه أشد النفور. لا يتصورون أن يضطر الواحد منهم للخضوع لرجل يزعم أنه رسول من عند الرب الذي خلقهم وإليه مصيرهم، جاءهم بتكليف وأمر

واحتمال ألا يكون ثمة خالق ولا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ولا شيء من ذلك؟ لا إسلام لمن رأى جواز أن يظهر دليل معارض يحمله على مفارقة الإسلام في يوم من الأيام! هذا معنى يجب أن يكون واضحا في أذهان المسلمين لا لبس فيه، وهو من أصول المعرفة في الإسلام كما بسطنا الكلام عليه في غير هذا الكتاب!

فإذا كنا نسمي هذا زنديقا مع كونه يزعم أنه مسلم، فما بالنا نخصص اسم «الملحد» بطائفة واحدة من طوائف الجحدة الذين جعلوا وجود باريهم مسألة نظرية خلافية، فتوقف من توقف منهم فيها، وزعم الآخر أنه لم يجد إلى الآن من الأدلة ما يحسم الأمر عنده، وزعم ثالث أنه كلما بات ليلته على دليل، جاءه في نهاره دليل مقابل يرجعه إلى الإلحاد، وزعم رابع أنه لا يزال «باحثا عن الحقيقة» يتقلب بين «الأدلة» ولا يدري إلى أين ستذهب به.. إلخ؟ نحن – أهل السنة – نشهد ونقطع بأنهم جميعا جحدة يكذبون على أنفسهم ويخادعونها إذ يزعمون أن وجود باريهم مسألة نظرية ترجيحية يتقارب فيها قولان تتنازعهما أدلة قد تميل بالعاقل إلى أحد قولين كليهما ممكن عقلا (الوجود أو العدم)، خلافا لما يتوهمه المعاصرون من المتكلمين ومن وافقهم من ثمرة مجادلة هؤلاء بطرائق المناظرة والاستدلال النظري، إذ لا شك أن طريقة الرد الكلامي على كل واحد من هؤلاء تختلف باختلاف دعواه حول سبب تكذيبه بخالقه جل وعلا، والمتكلم هو من ألزم نفسه بتكلف الرد العقلي (الفلسفي) على كل دعوى يأتي بها الواحد من هؤلاء (انتصارا لذلك الهراء) بحسبها، فاحتاج (من أجل ذلك) إلى التفريق بين مذاهبهم على نحو ما يصنعون، وربما إلى تخصيص المتخصصين في مجادلة هؤلاء وهؤلاء كل منهم بحسبه!

والجاحد المكابر من هؤلاء – وكلهم كذلك أيا كان ما تسمى به أحدهم من مذهب إلحادي – لا يزال يحاول أن يختلق لنفسه تسويغا اجتماعيا وفكريا مناسبا لما هو عليه من الصدود عن رسالة التوحيد خصوصا وعن فكرة الخضوع والتعبد لرب العالمين عموما. فإن وجد الناس من حوله (المقربين إليه أو من كان هو حريصا على التقرب إليهم) يتقبلون (إجمالا) الموقف العدائي المبغض للرب ورسله وكتبه وتكاليفه الذي يكافح صاحبه بتلك العداوة علنا، صرح بأنه ملحد جازم بعدم وجود باريه، وإن وجدهم يستثقلون التصريح بالتكذيب بوجود الباري وببغض رسله وكتبه وتكاليفه، زينت له نفسه التخفف من موقفه الظاهر شيئا ما، حتى يبدو في قالب الضحية الفكرية المسكينة المغلوبة على أمرها! فعلى الرغم من «بحثه» و«تحقيقه» ودراسته الطويلة في «الأديان» لم يتمكن – المسكين!! – إلى الآن من الوقوف على دليل يثبت به وجود رب خالق مريد حكيم، أحدثه بعد أن لم يكن شيئا، وركبه على تلك الصورة التي وجد نفسه عليها، أو على الأقل لم يتمكن من الوقوف على دليل يعرف به أي الأديان هو الدين الحق، إن هو سلَّم بوجود الديان نفسه!

لذا فمن أذمّ الأشياء أن ترى بعض المسلمين يفرقون بين «الملحد» و«اللاأدري» و«اللاديني» على تصور مفاده أن الإنسان إذا ما انتقل من تسمية نفسه بالإلحاد إلى اللاأدرية، ثم من تلك الأخيرة إلى اللادينية، فقد ترقى باعتقاده، واقترب من الحق، وهو إذن صادق في «طلب الحق» والوصول إلى معرفته، وإلا ما صرح بذلك الانتقال! فأما أنا فما أقول إلا أن نفس مثل هذا المتقلب لا تقل مرضا وإغراقا في الهوى من صاحبه الذي بقي على إصراره على نفي مخلوقيته ومربوبيته جملة واحدة، ومن عقل عني ما حررته في هذا الكتاب إلى الآن وما يأتي بعد في تحليلي نفسية الملحد، سيجد مصداق ذلك بعون الله تعالى.

ونهي وتشريع ليس لأحد منهم أن ينازعه فيه! إنه كفر الإباء والاستكبار الذي رأيناه أول ما رأينا في إبليس اللعين، يوم أمره الله أن يسجد لآدم فأبىٰ متعللا بأنه ما كان ليسجد لمخلوق أدنىٰ منه في خلقته (بحسب زعمه). هذا المخلوق «إبليس» كان يدري أنه يرد أمر خالقه وخالق السماوات والأرض، ويدري أن في هذا لعنته وهلكته، ومع هذا وجد في نفسه من الهوىٰ والكبر والزهو بالنفس ما كان ولا يزال وسيظل يعميه عن تحقيق ما يكفي في نفسه من الخوف (أو ما نقول له علىٰ اصطلاحنا الشرعي: التقوىٰ) من مصير أبدي ملعون سينزل به لا محالة، ويزين له ما يراه الآن من تلذذ بتألهه علىٰ أتباعه ونجاحه الظاهر في إهلاك أمم بعد أمم من بني آدم!

فقد علمنا أنه يتذرع لهذا المسلك بأن كائنا خلق من نار لا بد وأن يكون أسمىٰ وأرقىٰ منزلة من كائن خلق من الطين اللازب ومن حمأ مسنون. مع أنه يعلم أن هذا ليس بلازم! ثم إنه يعلم كذلك أنه حتىٰ لو كان هو أرقىٰ من آدم في أصل خلقته، فإن هذا لا يسوغ له رد أمر ربه وباريه سبحانه بأن يسجد لمن هو دونه في أصل الخلقة! ولكنه حدثته نفسه المريضة الخبيثة بأنه إذا استطاع أن يغرر بأكثر ذرية آدم ويغويها ويزيحها من علىٰ صراط الله المستقيم، فسيثبت بذلك لنفسه ولربه سبحانه أنه كان خيرا منه، وأنه ما كان له أن يأمره بالسجود لآدم، سبحان الله وتعالىٰ علوا كبيرا! فالقضية ليست علىٰ وجه الانتقام فقط كما قد يظن البعض، وإنما هي مما يزداد به تعاظم إبليس في نفسه ويرجو معه أن يقل ما يعانيه هو في نفسه من اضطراب وخوف بسبب ذلك المآل الذي آل إليه وذاك المصير الذي علم بيقين أنه منقلب إليه لا محالة.

هذا الحقد والنفور والاستكبار الأعمىٰ الذي انطبعت عليه نفس إبليس، هو ذات المنبع النفسي الذي خرجت منه فلسفة العلمانية والليبرالية كذلك، فالليبرالية إنما هي رغبة إنسان مستكبر مغرور في أن يتحرر من أواصر العبودية والخضوع لأمر ونهي ينسبه بعض الناس إلىٰ رب العالمين، ويزعمون أنه تشريع عام واجب الاتباع في عموم أمر المجتمع البشري وفي سياسة الخلائق وولاية الأمر. فإنه قد علم بالبداهة أن شيئا كهذا إن ثبت وجوده في العالم، فلا يملك العاقل فكاكا ولا فرارا من ضرورة

الخضوع له والالتزام به بتمامه وكماله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [**البقرة**: ٢٠٨] ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُّبِينًا**﴾ [**الأحزاب**: ٣٦] إنه أمر ونهي وتشريع نازل من خالق كل شيء، فأي سبيل يمكن التماسه للتهرب منه (كله أو بعضه) إن سلم الإنسان بأنه منزل من رب العالمين حقا وصدقا؟

لهذا اضطرت تلك النفس المريضة للعمل علىٰ التماس كافة السبل للتكذيب بالرسل والرسالات والنبوات بأي طريق. فإن بدأت أولا بالتفنن فيما تسوغ به الانفكاك من بعض الشرائع والأحكام التي تكرهها، مع البقاء علىٰ أصل الإسلام الذي كانت عليه، فعساها ألا تلبث طويلا حتىٰ يربو الهوىٰ فيها ويبلغ حدا يبغضها في أصل الإسلام نفسه (وهي أقرب إلىٰ ذلك مما يظن صاحبها)، ويحملها علىٰ مفارقته بالكلية، إذ تزدان لها فلسفات الملاحدة علىٰ أشكالها وألوانها (وما أكثر ما هو واجد من ذلك إن طلبه!)، وتجد فيها غطاء تسويغيا سابغا، لا سيما ما كان من تلك الفلسفات جاريا علىٰ هوىٰ الطبيعيين الذين عظم شأنهم جدا في هذا الزمان في أوروبا وأمريكا وأكثر بلاد العالم «المتحضر»، فأحب هؤلاء أن ينالوا طرفا من ذلك التعظيم!

والقصد أن المنبت والمنبع النفسي الباطن للتكذيب والجحود واحد، ألا وهو الكبر والإباء وبطر الحق وبغض أصحابه وكراهية الانتقال إليه. هذا المنبع العفن (الكبر والغرور والإعراض بسبب الهوىٰ وحب الشهوات)، أثبته رب العزة تبارك وتعالىٰ في محكم التنزيل في وصف عموم المشركين من الجاحدين والمعرضين في غير موضع كما في قوله ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [**الصافات**: ٣] وفي قوله كذلك: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [**الأنفال**: ٢٣] وفي قوله: ﴿**وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾ [**يوسف**: ١٠٥]، وتأمل إذ لم يقل سبحانه «وهم عاجزون عن النظر فيها وعن الترجيح» وإنما قال «وهم عنها معرضون»، فالخلل والنقص إنما هو في محل الهوىٰ لا في محل

الفهم والتدبر من قلوبهم، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ١]، فهي غفلة من إعراض لا غفلة من خفاء أو اشتباه أو التباس، وفي قوله: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٢٤]، فأثبت الإعراض علة في نفوسهم لبقائهم علىٰ الجهل. والجهل هنا بمعنىٰ اقتراف الجاهلية والبقاء عليها، لا بمعنىٰ خفاء الحق أو تعذر الوصول إلىٰ معرفته، وإلا ما وصفهم في الآية نفسها بأنهم معرضون، وكما في قوله تعالىٰ: ﴿**مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾ [**الأحقاف**: ٣]، فعمم ذلك في جميع من كفروا بعدما جاءهم خطاب الحق وبلغتهم رسالة المرسلين[١].

(١) وقد قسم العلماء الكفر إلى أربعة أقسام، فإما أن يكون كفر إعراض أو كفر إباء واستكبار وتكذيب أو كفر شك أو كفر نفاق. أما كفر الإعراض: فحال القلب فيه أنه كاره لأهل الحق نافر منهم، فلا يسمع ما عندهم، من محبته البقاء على حاله التي هو عليها والزيادة منها. وفيما يتعلق بقول القلب (التصديق)، فهو مصدق للكفر (فيما مر معك أن سميناه باليقين الظاهر) معتقد فيه (على نقيض علمه بل يقينه الفطري الباطن بأنه على باطل). وأما كفر الإباء: فحال القلب فيه أنه كاره لأهل الحق، يسمع منهم ثم يزعم أنهم على باطل وكذب، وأنهم سفهاء جهلاء .. الخ. وفيما يتعلق بقول القلب (التصديق)، فهو كسابقه مصدق للكفر معتقد فيه. وأما كفر الشك: فحال القلب فيه أنه محب للباطل وأهله كمحبته للحق وأهله، فلا يحب أن يعتقد الحق فيبغضه أهل الباطل (وهو يكره ذلك جدا) ولا أن يعتقد الباطل فيبغضه أهل الحق (وهو يكره ذلك أيضا)، فيظل متوقفا في الاعتقاد، يميل إلى هؤلاء يوما وإلى أولئك يوما. وفيما يتعلق بقول القلب فهو إذن الشك أو التوقف عن التصديق، فهو ممتنع عن القول بشيء (مع علمه الفطري الباطن بأن موقفه هذا فاسد قطعا). وأما كفر النفاق: فحال القلب فيه أنه كاره لأهل الحق نافر منهم، محب لأهل الباطل مائل إليهم، ولكنه يظهر الإيمان (بقول اللسان وعمل الجوارح) خوفا من بطش أهل الحق ومنعتهم أو طمعا في بعض ما عندهم. وفيما يتعلق بقول القلب (التصديق)، فهو مصدق للكفر معتقد فيه (مع علمه الفطري بأنه على باطل).

وعلى هذا التقسيم يتبين لك أن كفر النفاق يستوي في قول القلب بجميع أقسام الكفر خلا كفر الشك، فلا يصح فيما يبدو لي – والله أعلم – ما ذهب إليه بعض أهل العلم من جعل كفر النفاق نقيضا لكفر الإباء، على أساس أن المستكبر يجحد ما يعلم أنه الحق، فالعلم المجحود ها هنا إنما هو العلم الفطري البدهي الذي تشترك سائر أقسام الكفر المذكورة أعلاه في مخالفته مع تحقق الدراية الباطنية بأنه الحق، وكلهم كرهوا عقد الجزم القلبي فيما يواطئ تلك المعرفة الفطرية اليقينية المركبة في نفوسهم! والسبب في تخصيص أهل العلم أصحاب كفر الاستكبار في الاصطلاح بقوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [**النمل**: ١٤] أن هؤلاء أصروا على إظهار الباطل وانتصروا له بعدما ظهرت لهم آيات الله الكبرى، فلأنهم بالغوا في معاندة الحق ومبارزته، جاء القرآن بتشديد الذم عليهم لأنهم أشدّ مخالفة (فيما يظهرون من

هذا المنبع القلبي هو ذات السبب الذي من أجله كفر اليهود برسالة محمد وكذبوا بها مع أنهم يعلمون أنه الحق. فقد أبت عليهم نفوسهم المستكبرة أن يخضعوا رقابهم – وهم سلالة بني إسرائيل، ذلك العرق الذي اعتقدوا فيه سموا نوعيا عنصريا فوق سائر البشر، وأنهم أبناء الله وأحباؤه – لسلطان رجل من «الأميين»، تلك القبائل الوثنية الجاهلة غير المنتسبة عرقيا إلىٰ بني إسرائيل، أو «الجوييم» بعبارتهم، أولئك الذين كان اليهود يعدونهم في منزلة منحطة بالنسبة إليهم، بل في منزلة دون البشر.

لقد غرهم تفضيل رب العالمين لهم بسلسلة من الأنبياء يخلف بعضهم بعضا، يتصل بها حبلهم بالوحي عبر أجيال طويلة، فزينت لهم نفوسهم المريضة اعتقاد أنهم إنما خصوا بذلك لفضل لهم علىٰ سائر البشر! فناسب في حكمة رب العالمين في ألوان الابتلاء لخلقه أن يأتي ابتلاء هؤلاء بالرسول الخاتم الموعود الذي يُرجع مجد الموحدين إلىٰ الأرض ويقيم تلك المملكة الموعودة، التي وعد الله بها الموحدين عامة من أتباع الرسل (لا بني إسرائيل خاصة كما زعموا)، ذاك المخلص الذي أخذ عليهم سائر أنبيائهم العهود والمواثيق علىٰ اتباعه بمجرد أن يظهر، جاء ابتلاء هؤلاء بأن يصطفىٰ من أمة غير أمتهم، من غير بني إسرائيل. فلما أبوا واستكبروا وأخذتهم العزة والتعاظم بالنسب والعرق، استحقوا اللعنة والغضب من رب العالمين. هؤلاء

الأقوال والأفعال) لما علموه في نفوسهم من مقتضيات الفطرة، وأشد جحدا له ممن كان كفرهم كفر إعراض أو كفر شك، وأما أصحاب كفر النفاق فلم يبلغوا حد التصريح والمجاهرة بكفرهم أصلا، ولكن هذا لا يمنع من كونهم يعلمون (عند تأمل كل واحد منهم في حاله) أنهم قد جحدوا العلم الفطري الذي استيقنته نفوسهم في باطنها، وهو العلم الذي تقوم به عليهم الحجة الرسالية يوم القيامة بمجرد الإعراض والصدود القلبي عما جاءهم به الرسل، سواء كانوا أهل شكّ أو نفاق أو إباء واستكبار. ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٧٢].

والقصد أن هذه الأنواع أو الأقسام كلها مدارها كما ترى على الهوى الذي تعمى به النفوس، الذي ينتهي بصاحبه إلى البقاء على الكفر مع العلم واليقين الباطن بأنه باطل بين لا مراء في بطلانه وتناقضه. وفائدة هذا التفريق بين أقسام الكفر، أن من كان كفره كفر إعراض أو كفر شك، فقد ترجى له الهداية يوما ما (لقربه من أن يتحول بقلبه عن محبة أهل الباطل وأحوالهم وبغض أهل الحق وأحوالهم إلى محبة أهل الحق والميل إليهم، ومن ثم انشراح الصدر لقبول دعوتهم)، بخلاف من كان كفره كفر إباء واستكبار ومبارزة، كما هو الشأن في المرتد والملحد المجاهر، والله أعلم.

قوم لم يقتصر كبرهم وغرورهم علىٰ الاستكبار عن الدخول في دين رجل من أمة غير أمتهم، ولم يقتصر علىٰ حملهم علىٰ تحريف النصوص وهم يعلمون، بل بلغ بهم أن خالفوا الأنبياء ونازعوهم وقتلوا من لم يأت منهم علىٰ الهوىٰ والمزاج، واتخذوا من حاخاماتهم أربابا من دون الله يحق لهم أن يراجعوا خالقهم وأن يطالبوا الرب (سبحانه وتعالىٰ عما يصفون) بأن يبعث المرسلين بما يريدون، فإن لم يفعل، جاز لهم أن يشرعوا لأنفسهم من الدين ما يحلو لهم، بدعوىٰ أن لهم عند الله منزلة خاصة، وسلطانا ربانيا [(١)] واتصالا بالإرادة الإلهية لا ينقطع!

بل حتىٰ رؤوس قريش لم يأبوا الدخول في دين محمد ﷺ إلا كراهة أن يكون المبعوث بالرسالة هو هذا الرجل - بأبي هو وأمي - خاصة لا غيره! قال تعالىٰ ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [**الزخرف**: ٣١] ! لماذا يصطفيه الله بالرسالة ولا يصطفي فلانا أو فلانا من كبراء قريش؟ وكيف نحمل نفوسنا علىٰ أن تخضع لرجل من عامتنا لا من خاصتنا وأكابرنا، خضوعا وطاعة ما كنا نتكلف مثلها مع أحد من البشر أصلا؟ لو كان محمد هذا من عظمائنا وكبرائنا المتبوعين المطاعين بين الناس لهان الأمر علينا، لأننا لا نجد الآن حرجا ولا كراهة في مطلق الخضوع لأولئك الأكابر واتباعهم، أما أن نتحول إلىٰ حال يقال لنا فيها إنكم صرتم أتباعا لذاك الرجل بعد أن كنتم سادة وجهاء مقدمين بين الناس، فهذا ما تأباه علينا نفوسنا ولا نتصوره!

وعلىٰ هذا فيمكننا أن نعرف «الهوىٰ» بأنه حالة الميل القلبي التي تعتور النفس فتحملها علىٰ حب ما فيه صالحها (وهو ما حقيقته كما بينا، جملة العواقب المرجوة للموقف الاعتقادي أو المذهب أو الرأي أو السلوك المختار)، فتزين لصاحبها البقاء علىٰ ما هو عليه ما امتد به عمره، طمعا في الثمرة المرجوة وفرارا من العاقبة المكروهة. فإن كان الهوىٰ محركا للنفس لتقدر العواقب وتوازنها موازنة صحيحة في العقل الباطن، صار المرء يخاف من عذاب الآخرة فوق خوفه من مكاره الدنيا وإن اجتمعت عليه، ويطمع في نعيم الآخرة فوق طمعه في نعيم الدنيا مهما تقلب فيه. ولا يكون ذلك إلا بفضل من الله

(١) ولا يزال اليهود إلى اليوم ينادون الواحد منهم بلفظة «ربي» Rabbi ذات الأصل المشترك في العربية والعبرانية.

ومنة ربانية يرزق الله بها من يشاء من عباده! وإلا كان القلب منكوسا، يرىٰ الحق باطلا والباطل حقا، لكونه يطمع في لعاعة الدنيا ويخاف من الزوال عنها، نسأل الله السلامة!

وعلىٰ نفس منوال معادلة «فستينغر» في تقدير مقدار ما يعانيه الإنسان من حالة الاضطراب الناشئ عن التناقض المعرفي، في العقل الباطن وفي كل مرة يتأمل في ذلك المعتقد المتناقض لديه (في العقل الواعي)، يمكننا أن نضع علاقة اعتبارية يسيرة نقدر بها مقدار الهوىٰ في نفس صاحب الاعتقاد الباطل (ص) (الذي يحمله علىٰ التعلق بذلك المعتقد والتماس المخارج والتسويغات لمعالجة ما فيه من التناقض وتزيينه، علىٰ الرغم مما هو ظاهر له من بطلانه)، علىٰ حسب تعريفنا الذي تقدم بيانه للهوىٰ، فنكتبها علىٰ النحو التالي:

مقدار الهوىٰ = (و / خ) × (و – خ)

حيث «و» هي مقدار محبة الإنسان (هواه) لبعض العواقب المترتبة علىٰ اعتناقه (ص) × مقدار بغضه لبعض العواقب المترتبة علىٰ تركه (ص)

و «خ» هي مقدار محبته لعواقب أخرىٰ مترتبة علىٰ تركه (ص) × مقدار بغضه لعواقب أخرىٰ مترتبة علىٰ اعتناقه (ص).

فكلما ازداد مقدار محبة صاحب الاعتقاد (ص) لما يجد من ثمرات اعتناقه والتمسك به في حياته [1]، وبغضه ما قد يترتب علىٰ تركه ذلك الاعتقاد ومفارقته من أثر، ازدادت قوة ذلك الدافع والمحرك النفسي الدفين لديه الذي يدفعه في عقله الباطن إلىٰ مزيد من التمسك (والتصديق وتحقيق اليقين الكاذب) بذلك الاعتقاد والانتصار له. فهذا الذي تزايد في نفسه هو ما نسميه في الاصطلاح الشرعي بالهوىٰ. ولهذا تجد أشد الناس تمسكا بالمعتقد الباطل هم رؤوس الناس في ذلك المعتقد الباطل نفسه، الذين ما حازوا العلو بينهم والسيادة عليهم إلا به.

(١) وجميع الشهوات العاجلة المرجوة من البقاء على اعتقاد ما، إنما يترتب تحصيلها عند التأمل على تحقيق منزلة اجتماعية معينة، لا يوصل إليها إلا بإبداء الموافقة الاعتقادية والموالاة القلبية والعملية.

وكذلك فكلما ازداد مقدار محبة الإنسان لعواقب أخرىٰ قد تترتب علىٰ تركه الاعتقاد (ص)، وبغضه لعواقب أخرىٰ قد تترتب علىٰ بقائه علىٰ التمسك به والانتصار له، ضعُف ذلك الدافع الخفي في نفسه وتناقص مقداره. وهو ما يعني أنه إن كان حاصل تلك العلاقة أزيد من الصفر [١]، فإن الميل الباطن الخفي يحرك صاحب المعتقد (ص) للتمسك به والبقاء عليه في كل مناسبة يتعرض فيها ذلك المعتقد للهجوم أو التحدي من قبل الخصوم. وإن كان حاصلها أنقص من الصفر (مقدارا سالبا)، كان الميل إلىٰ ترك (ص) والتبرؤ منه في مناسبة كهذه. [٢]

هذه الموازنة لا تجري في وعيه ولا يدري هو بها [٣]، وإنما هي حاصل الميل

---

(١) على افتراض إمكان تقدير قيمة عددية لهذه المعاني، وهو افتراض نظري صرف لا نفاذ له ولا حاجة لتكلف ذلك البتة، إذ لا غرض من تلك المعادلة إلا بيان المقصود بالعلاقة الطردية، تماما كما صنع «فستينغر» في معادلته.

(٢) وقد روي في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» (وهو ضعيف)، ذلك أن الميل القلبي هو في الحقيقة ما يتحدد به قبول الإنسان للحق من عدمه، بصرف النظر عن قوة الدليل وظهوره كما بينا.

(٣) وهذا في الأعم الأغلب، وإلا فقد يستبطن الإنسان هذه الموازنة في نفسه ويستدعيها إلى وعيه ويقرر على أساسها ما يختاره لنفسه من اعتقاد. ومثال ذلك ما قرأته من قريب لتائب من التائبين من الردة والإلحاد، قال في أحد المنتديات ما نصه:

«كنت جالسا أمام الحاسوب أفكر في الإسلام والإلحاد، وأستحضر أدلة كل واحد منهما، وبعد صراع طويل مع النفس وتخبط كاد أن يفتك بي، فكنت لا أستطيع الأكل والنوم بسبب الأرق والتوتر أصبت بمرض الوسواس القهري وأهلي خائفون علي لأنني انقطعت عن الطعام وهجرتهم ولم أعد أكلم أحدا مللت من الحياة كنت أفكر في الانتحار لكنني في نفس الوقت خائف أن أموت ويبعثني الله ويعذبني، بعدها قلت في نفسي لنفترض أنني أصبحت ملحدا، فماذا سأجني؟ هل سأجني انعدام الأخلاق وغياب الضمير والتكبر والتعالي والأنانية والغرق في الشهوات والضياع في الدنيا والآخرة أو هل سأصبح حيوانا ناطقا، فقلت يا للهول كم الإلحاد مظلم وقاتم لهذا الحد فهو بحر مظلم عميق إن حصل وأن غرقت فيه فلا منجد لك من دون الله سوف تعيش الكآبة والعزلة والمرض والشكوك في كل شيء، فبدأت أرتب أفكاري وأستحضر أيام التزامي وكيف كنت فرحا مسرورا، أصلي وأصوم وأحتفل بعيد الفطر والأضحى ومحبوبا لدى الناس وأكلمهم عن الأخلاق وأحدثهم عن رسول الله ﷺ وكيف كانت الشهوات أحقر شيء عندي وكيف كان وجهي مستنيرا وأقوم لصلاة الفجر وأحس بالراحة النفسية والطمأنينة والتوكل على الله وحلاوة الإيمان والتأمل في خلق الله وتدبر القرآن وحضور حلقات العلم وأخذ التجارب من الشيوخ، فقلت هل يمكنني أن أستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى كما فعلت بنوا إسرائيل عندما استبدلوا عبادة الله بالعجل وكفروا بعد إيمانهم، وبعدها اتخذت قرارا نهائيا لا رجعة فيه، الدين هو الخير والحق وبدونه لا يمكن أن أكون إنسانا

مسرورا مستنيرا وسأضيع في بحر الشكوك والشبهات».س

قلت: تأمل كيف استبطن هذا الشاب تلك الموازنة الخفية في نفسه بين مقدار الرضا عن حاله (نفسيا واجتماعيا) عندما كان مسلما، وحاله بعدما ارتد ودخل في الإلحاد، فوجد أنه يكره تلك الحال التي انتقل إليها أشد الكراهة، وحاول أن يفسر أسباب تلك الكراهة عنده. وبصرف النظر عن تلك التفسيرات، فحقيقة تلك الموازنة نفسها – وإن لم يعبر عن ذلك صراحة – أنه وجد أن كراهته لتلك الحال الجديدة التي انتقل إليها أشد بكثير مما كان يجد من كراهة حاله السابقة في الإسلام التي أدت به إلى مفارقته أول الأمر. فالأسباب التي بها خرج من دينه والتي بها رجع إليه، لا علاقة لها بحقيقة أن التوحيد هو الدين الحق ولا بد (إذ لا يعقل بحال من الأحوال أن يكلف ملك الملوك خالق السماوات والأرض بعض خلقه بأن يعبدوا بعضهم بعضا من دونه، أو أن يرضى منهم تكذيب من أرسله إليهم بالتوحيد الخالص!)، وأن الإلحاد أشد نحل الأرض مصادمة لبدهيات العقل الأولى، هذه قضايا لا تحتاج إلى استدلال أصلا، وأنا أقطع بأن صاحب هذا الكلام ما خفيت عليه تلك الحقيقة طرفة عين، حتى في أيام عتوه في الإلحاد، وأنه كان يعلم أنه مهما أغرق نفسه في تنظير الفلاسفة والمتكلمين في تلك القضية فلن يخرج إلا بالمزيد من الضياع وشتات العقل والنفس. فالمسألة في النهاية مدارها على تلك الموازنة النفسية الخفية بين عواقب التصديق وعواقب التكذيب، وكيفما كانت الحال، فلن يعجز عقله أبدا عن تسويغ اختياراته الاعتقادية وتزيينها له ولموافقيه أيا ما كانت، مهما كانت تلك الاختيارات مصادمة لبدهيات العقل الأولى! فمن أراد الله به الخير، ألهمه أن يحب ما يكون عليه المؤمن من حال في الدنيا، وأن يطمع فيما له في الآخرة من جزاء، فوق محبته ما يجد في الدنيا من أمور محببة لنفسه إن فارق الدين، وأن يكره ما يجده في الدنيا من مكاره إن فارق دينه، ويخاف من مآله في الآخرة إن مات على الكفر، فوق كراهيته ما يجده المؤمن من مكاره دنيوية وهو على الدين! ولهذا قال ﷺ فيما صح عنه: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود للكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»

فالذي يكشفه لنا هذا المثل (على سبيل التحليل النوعي Qualitative لا الكمي) أن تحول قول القلب في الإنسان من التصديق بمعتقد مصادم لبداهة العقل والإيمان به، إلى الكفر به والتصديق بالحق وبمقتضى الفطرة في نفس الأمر، ليس قائما على موازنة الأدلة و«البراهين العقلية» والنظر فيها كما يتوهمه المتكلمون والفلاسفة، لأن المسألة موضوع الاعتقاد ليست مما يفتقر في «معرفة الحق» فيه إلى استدلال أو نظر أصلا، وإنما يقوم على موازنة العواقب والتبعات في النفس في الحال والمآل، وفي العاجل والآجل! وهو السبب في خروج خطاب الأنبياء والمرسلين على الصورة التي بيناها في الباب الأول من هذا الكتاب، خلافا لطريقة الفلاسفة والمتكلمين في الجدال والمناظرة.

ولا يحتاج الأمر إلى إحصاء كمي حتى نثبت أن هذا ما يجري في نفوس كافة المشركين عند تعرضهم لدعوة الحق، وإن لم يستبطنوه في نفوسهم Introspection ويصرحوا به كما فعل صاحبنا هنا. فبعيدا عن صعوبات إجراء البحث الكمي في مثل هذا، فمجرد تكلفه في المسألة تنطع لا داعي له، لأن هذه القضية النفسية التي نتكلم عنها، نحن نقطع – بمقتضى البداهة – أن آليات التصديق والتكذيب لا تعمل فيها بموازنة الأدلة والبراهين كما هو الشأن في المسائل التي تحتاج إلى استدلال ونظر، لأنها عقائد لا تحتاج إلى استدلال ولا نظر أصلا في الحقيقة حتى يعرف صحتها من فسادها، فمن تكلف ذلك النظر والاستدلال وهو باق على الباطل فيها، فهو يكذب على نفسه من الابتداء، ويصطنع لنفسه (بالتسويغ التحايلي Rationalization) يقينا كاذبا لا

القلبي الذي يجده في نفسه، فإما حمله علىٰ قبول الحق بعدما تبين له، وإما حمله علىٰ التكذيب به والتماس الطرق الواهية لإبطاله والصدود عنه. فإن كانت الأولىٰ، فستراه يسلم لك بصحة دعواك، وبأن البداهة تقتضي بطلان (ص) كما تقول، وأن الأمر واضح

يصبِّره عليه ولا يقنِّعه به في الحقيقة إلا ما في عقله الباطن من ميول وأهواء، سواء ظهرت له تلك الأهواء في عقله الواعي أو لم تظهر! ثم إن القرآن عندنا طافح بهذا المعنى، وعليه إجماع المسلمين، أعني القول بأن المشرك الذي سمع بدعوة التوحيد ثم أعرض عنها، لم يكن إعراضه إلا من هوى في نفسه يقينا، لا لأنه تبين له صحة ما هو عليه من معتقد الشرك (عقلا) بالدليل والبرهان!

القضية في الحقيقة ليست قضية برهان أصلا (على المفهوم النظري الفلسفي الكلامي للحجة والبرهان). لذا كان أول ابتلاء يقابله النبي من أنبياء الله تعالى في دعوته قومه، مقابلتهم إياه بالتعلق الشديد بسنن الآباء وتعظيمهم ما وجدوا عليه آباءهم لا لشيء إلا لأنهم قد توارثوه وتواتروا عليه وأصبح من يوافقهم عليه مرفوعا عندهم، ومن يخالفهم فيه مقبوحا مرذولا بينهم! فمهما كان إرث الآباء هذا باطلا بيّن البطلان لا يماري صبي صغير في فساده وتناقضه، فستراهم ينتصرون له أشد الانتصار، لأنهم يحبون تلك المنزلة أو الحالة الاجتماعية العامة التي يتمتع أحدهم بها إجمالا، في موافقة الآباء على ذلك التراث الاعتقادي (أو تقاليد القبيلة أو القرية .. الخ)، ويكرهون ما يتصورونه من عاقبة مفارقته والدخول في دعوى النبي ومتابعة الرسول!

هذه الموازنة بين ما يحبون وما يكرهون هي آلية عمل الهوى في نفس الإنسان التي نبحثها في هذا الباب، وهي آلية باطنة خفية لا تظهر في الوعي إلا عند كشفها لصاحبها (كما جاء به الأنبياء والمرسلون وحكاه القرآن في مواضع شتى) أو عند استبطانها بتأمل المرء في باطن نفسه كما صنع صاحبنا التائب الذي اقتبسنا كلامه آنفا. فلما وجد نفسه كارها لحاله الجديدة، قرر الرجوع إلى اعتناق الإسلام والتوبة عن ردته، فرجع ذهنه الواعي من فوره إلى الاعتراف بما هو واضح جلي من بطلان الشرك بصوره (لا سيما الإلحاد)، والاعتراف بما علمه بالبينة القاطعة من سوء المنقلب في الآخرة إن مات على غير التوحيد، فرجعت نفسه إلى موافقة الفطرة، بتعظيم مقدار كراهتها ونفورها من تلك العاقبة فوق كراهتها لما كانت تكرهه من حالها في الإسلام، وإلى تعظيم مقدار محبتها وميلها لما كانت تجد من حالها في الإسلام فوق مقدار تلذذها بما وجدته من حال محبة في الردة والإلحاد. فبعدما كانت تلك النفس المسكينة تحسب – قبل الردة – أن في التحرر من تكاليف الإسلام وأواصره وقيوده والانخلاع من ربقة العبودية لله تعالى والخضوع لرسوله، راحة ونعيما ولذة، تبين لها أن الأمر على خلاف ذلك، إلى حدّ أن تحركت بصاحبها يوما إلى التفكير في الانتحار، لولا أن صرخت فطرته في باطن نفسه بأنه لو فعل ذلك لحكم على نفسه بلقاء ربه على الإلحاد، وإذن فلا مخرج ولا مناص من الهلاك الأبدي!

إنه الهوى أيها القارئ الكريم، الهوى ثم الهوى، ذلك العمل الخفي (في الأعم الأغلب) في نفس الإنسان الذي قد يعميه عن رؤية الشمس في كبد السماء، نسأل الله السلامة. فمن مالت نفسه إلى الحق، رأى الدليل دليلا، وسلم وهو مرتاح النفس سالم الصدر بما جُبلت عليه عقول البشر من بدهيات أولى، واستقام اسم «العقل» في حقه، فوجد برد الإيمان وحلاوته في صدره بفضل من الله وحده، ومن مالت نفسه إلى باطل يهواه، صار الدليل عنده ما يخدم ذلك الميل في نفسه وما سواه باطل لا محالة، وصار يصارع عقله نفسه ويعاني من أثر ذلك أشد المعاناة، وإذن فلا عقل له مهما تفنن في التنظير والتفلسف، ومهما أجاد في ذلك وأبدع، والحمد لله على نعمة الإسلام والعقل.

لا يحتاج إلىٰ دليل، وإنما كان يكره أن يراه كذلك، كحقيقة واضحة وضوح الشمس، لأن نفسه كانت تزين له التشغيب عليه والتشويش عليه. وإن كانت الثانية، فستراه يماري أشد المراء، ويسفسط ويجادل بالباطل، ويتفنن في اختراع المخارج والتسويغات أشكالا وألوانا، يسميها «أدلة» ويحرص علىٰ دفعها في وجه مخالفه في كل مناسبة.

وعلىٰ هذا التعريف وحده، يتبين لك أن علاج صاحب الهوىٰ – إن كان له من علاج يرجىٰ – ليس في نصب الأدلة والبراهين التي يقال لها «عقلية»، فما دمنا قد تبين لنا أنه صاحب هوىٰ (من إعراضه عن الإقرار بالحق الظاهر بعدما تبين له)، فإما أن يُرهّب مما سيؤول إليه حاله بعد الموت إن مات علىٰ ما هو عليه (لعله يزداد مقدار ما في نفسه من خوف وبغض لعاقبة اعتناق ذلك الاعتقاد والموت عليه، ويربو علىٰ تعلقه بعواقب يحبها للبقاء علىٰ ذلك الاعتقاد، فيميل بقلبه إلىٰ الحق)، وإما أن يُخوَّف من مصير دنيوي يفقد معه تلك المزية التي كان يشتهيها في بقائه علىٰ الموقف الباطل، فيقل مقدار تلك المحبة التي كانت سببا في ميله للباطل.

وهذا المسلك الأخير أزعم أنه من حِكم التشريع الإسلامي في مسألة تأليف قلوب من ترجىٰ لهم الهداية من المشركين (لا سيما أهل الكتاب)، إذ تعزز من أسباب الميل إلىٰ الحق في نفوسهم، وكذلك يقال في تشريع الغزو والفتح، إذ لا شيء أكره عند صاحب الهوىٰ الدنيوي من رؤيته ملكه وسلطانه – الذي زينت له نفسه البقاء علىٰ الباطل من أجل البقاء عليه – ينزع من بين يديه نزعا، بل ويفرض عليه أداء الجزية للحاكم المسلم بعد أن كانت أموال الناس وجباياتهم وخراجهم يأتيه طوعا وكرها! ولهذا فرضت الجزية نفسها، لأن في فرضها علىٰ من تفرض عليهم ما يسلبهم تلك المزية الاجتماعية التي كانوا يتمتعون بها في بقائهم علىٰ دينهم قبل الفتح الإسلامي لبلادهم، وكانت تمنعهم من الدخول في الإسلام بعدما سمعوا به وقامت حجته عليهم، فلعل منهم من يجد في نفسه من بغض ذلك الصغار وتلك الحال الجديدة (أي الزوال عن تلك المنزلة المعظمة التي كانت لمن يدين بدينهم في البلاد) ومن الضيق بها ما يقلب عليه موازنة الهوىٰ في عقله الباطن، ويجعله يفيء إلىٰ رشده ويكره الباطل ويعلن

الدخول في دين الحق! فإن أبىٰ إلا أن يموت علىٰ ما هو عليه، فيكون قد عومل بما يستحقه في الدنيا قبل الآخرة، ولله الحكمة البالغة!

ولهذا أيضا تشرع الدعوة عند مواضع تأليف القلوب التي يرجىٰ فيها ميل قلب المشرك إلىٰ قبول الحق، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٦] ففي سياق استجارة المشرك بالمسلمين واحتياجه إليهم، قد يقع ميل في قلبه عن مباغضتهم ومنافرتهم ويحصل نوع ركون إليهم وطمع فيما عندهم، فقد يجد في حاله فيما بينهم (من إحسانهم إليه) ما هو أحب إلىٰ نفسه من حاله التي كان عليها فيما بين المشركين أمثاله، وحينئذ فلعله يُرجىٰ زوال موانع قبول الحق في نفسه إن أسمعناه كلام الله تعالىٰ ثم أبلغناه مأمنه.

وقد ظهر في جملة اعتراضات أهل الملل علىٰ «حد الردة» – مثلا – قولهم إنه ترهيب اجتماعي لن يفضي بصاحبه إلىٰ البقاء علىٰ الإسلام عن قناعة به بحال من الأحوال، وإنما سيُظهر الإسلام ويبطن الكفر لا محالة خوفا من سيف يسلط علىٰ عنقه إن أعلن الانخلاع من الدين! ونحن نقول إن المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر خوفا من بطش المسلمين هم من يستحقون العقوبة واللعنة لنفاقهم وميل قلوبهم عن الحق الظاهر، وليس من يضطرهم إلىٰ إبطان الكفر وعدم التصريح به بين الناس صيانة للمسلمين من شرهم! ذلك أن الإسلام ليس نظرية فلسفية قد تخفىٰ أدلتها علىٰ بعض الناس (من بعد سماعهم كلام الله)، فيستحق الواحد منهم أن يعذر من أجل زعمه أنه لا يرىٰ الحق فيه ولا يقتنع بـ«أدلته»! الإسلام هو دين الحق الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا خفاء، فلا تعدله في ذلك ملة من ملل الأرض قاطبة ولله الحمد. فإن كان من الناس مَن تحدثه نفسه بالانخلاع عن تلك الملة بعدما دخل فيها، فيقينا لا يكون ذلك الحديث ناشئا عن جهل أو عن افتقار لأدلة الحق أو التباس أو خفاء لذلك الحق، بحيث إذا ما خُوف من أثر إظهاره مفارقته والانخلاع منه (في إطاره المجتمعي)، صار مظلوما مقهورا بذلك، إذ غلبه ضغط الأقران للبقاء علىٰ شيء لا يظهر له وجه

صحته ولا يقف علىٰ أدلته، أو يجد في عقله ما يقنعه بأن غيره من المذاهب هو الحق! وإنما يكون حديث تلك النفس بمفارقة الإسلام ناشئا عن هوىٰ محض ورغبة باطنة في تحصيل كسب دنيوي عاجل، فإن أدخلنا إلىٰ تلك المعادلة الخفية في نفس ذلك المريض عامل الترهيب من فقدان سائر ما يمكن تصوره من مكاسب دنيوية ترجع عليه من إعلان الخروج من الإسلام، فسينغلق ذلك الباب أمام نفس ضعيفة كهذه من البداية، وسينغلق الطريق أمام الشيطان لتزيين الردة وتحليتها وترغيب تلك النفس فيها، أو علىٰ الأقل سيمسك عليه لسانه ويكتم ما في نفسه من أهواء حملته بالفعل علىٰ بغض دين الله جل وعلا، وإذن يسلم المسلمون من شره فيما يظهر لهم من حاله، ويهلك هو علىٰ نفاقه، والله أعلم بنفوس عباده.

ثم إن المرتد عن الإسلام يعلم في أعماق نفسه أنه مفارق للحق الجلي الباهر، تلك الملة الفطرية والمحجة البيضاء الواضحة التي لا تعدلها ملة. فمهما تحول إلىٰ دين غير الإسلام، فقد تحول إلىٰ ما يعلم بطلانه بضرورة العقل، ولم تزل نفسه تحاصره بتلك الفكرة مرارا وتكرارا حتىٰ يجد نفسه محمولا علىٰ إسكاتها بكل طريق، مرة بعد مرة.

فالذي يلحد بعد أن كان مسلما، هذا يعلم أنه قد انتقل من القول بأنه مخلوق مصنوع مربوب، في نظام وضعه رب عليم حكيم قدير، إلىٰ القول بأن الأصل في العالم الفوضىٰ وأنه لم يُخلق ولم يُصنع ولا رب له ولا سبب ولا علة! والذي يتنصر (مثلا) بعد أن كان مسلما، يعلم أنه انتقل من عبادة الرب الواحد الأحد إلىٰ عبادة ثلاثة من الآلهة يجب عليه أن يعتقد أنها جميعها إله واحد! والذي ينتقل من التوحيد إلىٰ الهندوسية (مثلا)، يعلم أنه قد انتقل إلىٰ القول بآلهة مخلوقة تشارك خالقها في ملكه وسلطانه، ويغنيك سؤالهم عن سؤاله لأنه متحد معهم ولأنه منهم وهم منه، ولو أنك عبدت بقرة أو فأرا أو خنزيرا بل لو عبدت نفسك وصليت لصورتك في المرآة، فأنت تعبده هو في الحقيقة لأنه هو كل شيء وكل شيء هو .. وهكذا! فلا حجة لمثل هذا بين يدي ربه يوم القيامة إن زعم أن ضرب عنقه جزاء ردته كان ظلما له!

ولهذا تجد المرتد أشد الناس حربا علىٰ دين الله جل وعلا، وأكثرهم شتما لله ورسوله والمسلمين وأعتاهم وأفجرهم في ذلك! لماذا؟ لأنه يحاول بكل وسيلة أن يغرق نفسه في دواعي بغض الإسلام والنفور منه بعدما تركه، فيزين لنفسه ولغيره تصويب موقفه بعدما أعلنه! وما ذاك إلا لعلمه بأنه لا حجة له ولا مستند، وإنما حيل فلسفية واهية لا تسمن ولا تغني من جوع. فتراه يستجمع من تلك الدواعي سائر ما تقع عليه يده، ويتكلم بذلك في كل مناسبة بلا فتور ولا هوادة، ويتخذ من الحرب علىٰ الإسلام قضية أخلاقية كبرىٰ ربما تتمحور عليها حياته كلها، لأنه يحاول بكل طريقة أن يقنع نفسه بأن لموقفه في ترك الإسلام والانخلاع منه عذرا وجيها، يناسب حجم ما ذلك القرار العظيم!

ولأنه يعلم أنه يحارب الحق الجلي الواضح، وأنه لا يمكن لبداهة العقل الأولىٰ أن يبطلها أي دليل من أيما صنف كان، فستراه يتفنن في اختراع الاتهامات الواهية لنبي الإسلام ﷺ، كما سبقه إلىٰ ذلك غيره من أعداء الملة، ويتفنن في نسبة النقائص إلىٰ رب العالمين زورا وعدوانا، يجمع من ذلك كل شيء تقع يده عليه، ويسلك من المغالطات والأدلة الزائفة في ذلك كل صنف ولون، فوق ما تجده في كافر أصلي مهما بحثت! ومهما جئته بشيء في الجواب فسيقابلك بالتسفيه والتحقير لا محالة! والأخطر من ذلك أنه سيكون أشد الناس حرصا علىٰ اجتذاب المقربين إليه ليسلكوا ذلك الطريق الأسود الذي اختاره لنفسه ويفارقوا الإسلام كما فارقه هو (إن كان يعيش في سياق اجتماعي مسلم)، لأنه بطبيعة الحال لن يجد من الراحة النفسية بين المسلمين ما يرجو أن يجده كل إنسان لنفسه في مجتمعه القريب Immediate Society، وما من أحد من الناس إلا يحب أن يكون المقربون إليه علىٰ مثل ما هو عليه، حتىٰ يشبع شهوة نفسه في التلذذ بمحبتهم وموالاتهم، ومن هنا يأتي خطره العظيم علىٰ المسلمين من حوله، لأنه ما دام قد أعلن ردته، فلن يدخر وسعا في محاولة إخراج المقربين إليه من دينهم كما خرج هو، لعله يحسِّن من موقفه الاجتماعي فيما بينهم!

والسبب في أنك لا تجد تلك العداوة الشنيعة والحرب الضروس من أي متحول عن دينه كما يكون في المرتد عن الإسلام، هو كما أسلفنا أن الإسلام هو دين الحق

الجلي الواضح، الذي تعلم النفس في باطنها صحته وعلوه علىٰ سائر الملل مهما خادعت صاحبها بأهوائه وميول قلبه وحاولت إيهامه في قول القلب بخلاف ذلك، وهذا علىٰ خلاف غيره من الملل، التي يعلم المتحول عنها أنه قد فارق ملة باطلة لا محالة، فلا يمكن أن تكون هي دين ربه وخالقه الذي لا يأمن علىٰ مصيره الأخروي إن مات علىٰ غيره! لذا يكون الاضطراب الناشئ عن التناقض Dissonance عند المرتد عن الإسلام أضعاف ما يكون عند من فارق أي ملة باطلة لينتقل إلىٰ أخرىٰ مثلها أو أشد بطلانا (كانتقال الوثني إلىٰ الإلحاد مثلا).

ولا شك أنه كلما كانت النفس أحرص علىٰ تسويغ ما هي عليه من الباطل، من شدة محبتها للثمرة الدنيوية العاجلة للبقاء عليه، و(/ أو) من شدة كراهتها لثمرة الدخول في الحق في المقابل، كانت أشدّ بعدا وصدودا وإعراضا عن سماع الحق. فإذا كان الملحد الأصلي، أو المتحول إلىٰ الإلحاد عن ملة غير الإسلام، يجد في نفسه من المحبة للباطل والبغض للحق ما يصده عن سماع الحق، فالملحد المرتد عن الإسلام يجد في نفسه أضعاف ذلك، بل أضعاف أضعافه. والواقع الحسي يشهد بهذا في الحقيقة (من غير أن نحتاج إلىٰ إجراء دراسة إحصائية أو نحو ذلك)، فكل من سبق له شيء من الاطلاع علىٰ منتديات ملاحدة العرب (وأكثرهم مرتدون عن الإسلام، وإن كان وراءهم في الأعم الأغلب منصّرون عرب) يرىٰ كيف أن الواحد من أعضائها لا يكاد يكتب مداخلة تخلو من التسفيه والشتم والاستهزاء بالله ورسوله والمؤمنين، بمناسبة وبغير مناسبة، إلا في القليل النادر، نسأل الله السلامة، بخلاف منتديات ملاحدة الغرب مثلا، الذين لا يجدون في نفوسهم (في عقولهم الباطنة) من الضيق والحرج بمفارقة دينهم الأصلي ما يجده ملاحدة العرب المرتدون عن الإسلام.

فنحن نقول: ليس السبب في ذلك أن الغربيين أنضج فكريا أو أعقل أو أعلم أو نحو ذلك، فالملاحدة كلهم مرضىٰ سفهاء جهلاء علىٰ أي حال، بالغين في ذلك منتهاه، وإنما يتمثل السبب في حقيقة أن أكثر الملاحدة العرب مرتدون عن الإسلام بالأساس، يعيش الواحد منهم في مجتمع مسلم، وهو يعلم في أعماق نفسه أنه يحارب

دين الله الحق الذي لا حجة تعلو فوقه، وأنه - بالإضافة إلىٰ هذا - لو انكشفت ردته فسيعاني أشد المعاناة في مجتمع المسلمين، فلا يجد نفسه إلا مدفوعا لاستحضار سائر أسباب البغض والنفور من ذلك الدين والاستهزاء بأهله في كل وقت وحين (متخفيا وراء الأسماء المستعارة والمعرفات الوهمية علىٰ شبكة الإنترنت في الأعم الأغلب، خوفا من عاقبة انكشاف الحال عند المقربين إليه)، بخلاف الملحد الغربي (لا سيما الأوروبي) الذي ربما ولد علىٰ الإلحاد، أو علىٰ اليهودية أو النصرانية أو علىٰ ملة من الملل والفلسفات الوضعية، ثم وجد نفسه يعيش في مجتمع يغلب عليه الفكر المادي الإلحادي، ويعظِّم فيه الطبيعيون الماديون أشد التعظيم، فمع كونه لن يفوت مناسبة يذكر فيها الكلام عن الأديان إلا حرص علىٰ تصوير الإسلام خاصة علىٰ أنه أكثر الملل «شرا» و«همجية» و«وحشية» .. الخ، إلا أنك لن ترىٰ محاربة دينه الذي فارقه إلىٰ الإلحاد هي شغله الشاغل وهمه الأول كحال صاحبنا المرتد عن الإسلام. وإنما يشن الواحد منهم حربه علىٰ الدين الذي فارقه إن وجد من الثمرة الدنيوية ما يرغبه في ذلك ويطمعه فيه، لا لكراهته ما يجد في عمق نفسه من تنافض في مفارقته ذلك الدين!

فرؤوس الإلحاد الجديد كدوكينز والهالك هيتشنز وغيرهما (علىٰ سبيل المثال)، لولا أن وجدوا في رفع العقيرة بمحاربة الدين (لا سيما اليهودية والنصرانية) ما يرفعهم علىٰ أكتاف الأتباع والمحبين رفعا، ويكثر سواد المريدين والمعجبين من تحتهم، ما وجدوا دافعا يحملهم علىٰ تكلف ذلك الهجوم العنيف، وإذن لكفاهم في إلحادهم ما أحبوه من موافقة الصفوة المثقفة في بلادهم ورضاها عنهم (في الأعم الأغلب) كما كان شأن عامة الملاحدة في تلك البلاد من قبل ظهور هؤلاء. وننبه إلىٰ أن هذا التفاوت في بغض الإسلام ومحاربته بين الملحد الأصلي والملحد المرتد، لا يترتب عليه الظن بأنه يرجىٰ للأول من سماع الحق وقبوله ما لا يرجىٰ للثاني، فالملحد صاحب خيار اعتقادي لا ترجىٰ لحامله الهداية أصلا علىٰ أي حال، وإنما القصد بيان التفاوت في شدة العداوة الظاهرة ضد الإسلام والسبب النفسي الحامل علىٰ تلك العداوة العظيمة، وبيان السبب في كون المرتد عن الإسلام أشد الناس حربا وعداوة عليه لا محالة، وأنه

لن يبلغ أن يصرح بردته بين المسلمين إلا وقد بلغ الغاية في ذلك، نسأل الله العافية.

والحاصل، وخلافا لما يظنه أكثر الناس، أن مسألة «الاقتناع العقلي» هذه ليست تتوقف علىٰ ظهور الأدلة والبراهين والآيات والعلامات بقدر ما تتوقف علىٰ الميول القلبية الباطنة وما تجري به آلة الهوىٰ في نفس الإنسان: أي الأحوال المتعلقة بالاعتقاد المعرفي أحب إليه وأيها أبغض ولماذا. وهذا يقال فيما يُفتقر في مثله إلىٰ البرهان النظري ويتصور فيه الخفاء علىٰ من لا يدري، فكيف بما هو معرفة بدهية فطرية مركوزة في نفوس الناس وفي أساس العقل والمنطق اللغوي نفسه؟ فلولا أن اعتمد الفلاسفة والمتكلمون المنهج الجدلي النظري المجرد طريقا وحيدا «للإقناع» و«المحاججة» في كل شيء، ما غابت هذه الحقيقة في مفهوم «العقل» نفسه وتعريف «الدليل العقلي» عند كثير من الدعاة والمتشرعين، وإلىٰ الله المشتكىٰ.

قال جل وعلا في الصحابة الكرام ﷺ: ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [**الأنفال**: ٦٣]، فامتن سبحانه علىٰ رسول الله ﷺ بأنه قد قضىٰ من عنده أسبابا تجمع تلك القلوب التي كانت من قبل شتيتة متفرقة، علىٰ محبة واحدة وميل واحد وهوىٰ واحد، جماعها (أي تلك الأسباب) ما قسمه لها سبحانه من قبول دينه جل وعلا والرضىٰ به والدخول فيه. ولو أنه عليه السلام أنفق ما في الأرض جميعا ما استطاع أن يأتي من جهته هو بتلك الأسباب الغيبية المحضة! فمعلوم أن موالاة القبيلة والعشيرة والتعصب لها كانت أمرا بالغ الشدة عند العرب في الجاهلية، فإذا ما وقع نزاع بين قبيلتين، كانت حمية الجاهلية وأنفتها وكبرها الماثلة في محبة كل نفر منهم لعشيرته وتعصبه لها، سببا في تنافر القلوب وتباغضها أشد التباغض. فلما دخلوا في الإسلام، وأحبوا الله تعالىٰ ورسوله، تآلفت تلك القلوب علىٰ الدين الواحد، بعبادة الإله الواحد، واتباع النبي الواحد، وضعت العصبية الجاهلية تحت الأقدام، لماذا؟ لأن الميل القلبي انتقل بأمر الله تعالىٰ من محبة العلو والغلبة للعشيرة أو القبيلة، إلىٰ محبة العلو والغلبة لأهل الدين علىٰ ما يرضاه رب العالمين، فحصل من ائتلاف القلوب بين القبائل والعشائر (بل وبين أهل القريتين المتباعدتين:

مكة والمدينة) بذلك ما لم يكن ليتصور وقوعه قبل الإسلام. فلو أنك حاولت في الجاهلية أن تؤلف بين تلك القبائل بالمال (مثلا)، ما أمكنك أن تنزع فتيل التعصب والمحبة الجاهلية في نفوسهم مهما أنفقت، ولن يلبث القوم حتىٰ تعرَض عليهم أسباب النزاع والتهارش والقتال بين عشية وضحاها! [١]

هذا الباعث الحثيث علىٰ الانفكاك والتحرر من الخضوع والتسليم واتباع الرسول والميل لاتباع الشهوات في المقابل، يبلغ عند المشركين من الملاحدة مبلغا يجعلهم يتلمسون له من المغالطات والشبهات ما يعظم مقداره عندهم غاية بسبب شدة حرصهم عليه، ويرجو الواحد منهم أن يكون في مجموع ذلك ما يخفف من حدة الاضطراب لديه، الذي يكون - بالضرورة - أشد مما يعانيه صاحبنا المشرك الوثني القائل بوحدة الوجود الذي مر معنا التمثيل بحالته آنفا. فبتطبيق علاقة «فستينغر» يمكننا أن نكتب ما يلي:

مقدار الاضطراب المعرفي = Cognitive Dissonance = (س + ص) * و / (ع*ط + ر*ل + ...)

حيث «س» هنا هي القول بعدم وجود الباري، وهو ما يناقض الأصل البدهي «أ» القائل بضرورة أن يكون لنا وللعالم من حولنا خالق حكيم هو الذي أحدثه علىٰ هذا النحو خاصة لا علىٰ غيره لحكمة لديه، و«ص» هي الاعتقاد الإلحادي في نزع صفات الربوبية عنه وتنزيلها علىٰ مخلوقاته، وهو ما يناقض الأصل «ب» (القائل بوجوب صفات الكمال للباري وحده لا شريك له). فكما ترىٰ، ففي الوقت الذي لا يماري

(١) ولهذا قال علماؤنا إن توحيد الكلمة يأتي تبعا لانتشار كلمة التوحيد، وليس العكس. فإلى جانب حقيقة أن شريعة الإسلام إنما بعث بها رسول الله ﷺ ليدخل الناس في دين التوحيد لا ليجعلهم أمة واحدة على اختلاف عقائدهم، فلا يجوز أن يجعل المقصد الأعلى تابعا لغيره من المقاصد، فقد سن الله تعالى سنة كونية في قلوب عباده تجعلهم يجتمعون على ما يحبون، فإن كانت غاية المحبة والموالاة متوجهة إلى طين الأرض ولعاعتها على الحقيقة، فلن ترى أصحاب تلك الميول القلبية الرخيصة إلا على ملل وفرق وجماعات وأحزاب شتى، يبغض بعضهم بعضا، ولا يجتمعون إلا على مصلحة الحزب، وإن كانت غاية المحبة متوجهة إلى السماء، إلى رب واحد ورسول واحد ودين واحد، على ما جاء به ذلك الدين من صراط واضح مستقيم، لا استواء ولا انتظام لقلوب البشر على حب صحيح وبغض صحيح إلا به، فسيقع الاتحاد والاجتماع في سبيل واحدة وجماعة واحدة تبعا لذلك لا محالة.

الوثنيون وعامة المشركين في «أ»، ويقتصر معتقدهم الباطل المتناقض علىٰ مخالفة «ب» وما يتفرع علىٰ تلك المخالفة من تسويغات متهافتة لديهم، يعتقد الملحد ما ينقض «أ» هذه نفسها، وهو في نفس الوقت يناقض بذلك ما يعتقده في «ص» بالتبعية، لأن إثبات صفات الربوبية قائم علىٰ إثبات الذات ابتداءً، ولكنه لا يثبت ذاتا مريدة حكيمة فاعلة ينسب إليها الخلق والتكوين وإحكام النظام (وهي صفات الربوبية التي ينسبها إلىٰ الطبيعة أو المادة أو الدهر أو الجينات .. الخ). ولعل هذا يستتبع أن يكون مقدار الاضطراب متناسبا عنده مع تربيع القيمة «و» وليس مع القيمة «و» فقط، ولكن في جميع الأحوال فإنه يكون في نفسه من ذلك أشد بكثير مما يكون عند غيره من المشركين. حتىٰ عبدة الفئران والبقر كما رأينا لا يعانون من نصف ما يعانيه الملحد من اضطراب ناشئ عن التناقض الاعتقادي Cognitive Dissonance يلازمه في عقله الباطن، ويؤذيه ويتعبه كلما طفا إلىٰ حيز الوعي في نفسه.

فالوثني الهندوسي – مثلا – يقول إنه مخلوق ولكن الذي خلقه متمثل (أو متصوِّر أو متجسد) في جميع المخلوقات، فهو كل شيء وكل شيء هو، أما الملحد فيقول إنه مخلوق، ولكن الذي خلقه وركبه ليس ذاتا فاعلة حكيمة وإنما هي «العشواء المنظمة» التي جرت عليها الطبيعة بزعمه (كما تقوله الدراونة في هذا الزمان)، فكلاهما متناقض في أصوله الاعتقادية أشد التناقض، مصادم للبداهة الأولىٰ والفطرة العقلية أشد المصادمة، ولكن بينما يعتقد الوثني أن خالقا حيا حكيما ذا إرادة ومشيئة هو الذي خلقه وصوره، لا يرىٰ الملحد ذلك، وهو ما يجعله أشد تناقضا وكذبا علىٰ نفسه من صاحبه ولا شك. أو بعبارة أخرىٰ أكثر مباشرة، نقول إن من يعترف بأنه قد خلقه كائن فاعل مريد حكيم (بصرف النظر عن اعتقاده في ذات وصفات ذلك الخالق)، فهذا لا يعاني من ذلك القدر من التناقض المعرفي Cognitive Inconsistency الذي يعانيه من يزعم أنه لم يخلق أصلا.

لاحظ أيها القارئ المحترم – ونكرر هذا التنبيه للأهمية – أن الموازنة بين الأدلة عند صاحب الهوىٰ (بصرف النظر عن موضوع ذلك الهوىٰ)، موازنة لا تكون مدفوعة

في عقله إلا بذلك الهوىٰ الخفي وحده. فلا يكون تقدير مقادير الأدلة والقرائن وجميع ما يوصف بأنه دليل أو قرينة عنده دائرا علىٰ القوة الموضوعية للدليل نفسه وكفايته في أداء الدلالة (كما يكون عند من سلمت له نفسه من ذاك الداء القبيح) والمفاضلة بينه وبين غيره من الأدلة في ذلك، بأن يقدم الدليل النظري الأقوىٰ (استنباطيا، قياسيا كان أو استقرائيا) علىٰ الأضعف عند ظهور التعارض، (دع عنك أن يقدم الضروريات أو المسلمات البديهية الأولىٰ - كما هو شأن كافة العقلاء الأسوياء - علىٰ كل دعوىٰ تخالفها مما يزعم أصحابه أنه «أدلة»)، وإنما يكون مدار الأمر في عقله الباطن علىٰ العواقب والمنافع التقديرية المرجوة من التمسك بهذا الموقف أو ذاك والدفاع عنه والانتصار له. فهو محرك يخفىٰ في كثير من الأحيان (بل في أكثرها) علىٰ وعي صاحب الهوىٰ نفسه من شدة إغراقه في الدفاع والانتصار لباطله، فما أن يتقرر في وعي صاحب الهوىٰ أن ما تعلق به من المغالطات والأدلة الزائفة: صالح صحيح مؤد للمطلوب في المسألة، فإن نفسه تقطع الطريق دونه إلىٰ مساءلة ذلك الموقف نفسه ومباحثة أصوله العقلية البتة، وإذا به ينطلق في بناء المزيد من الدعاوىٰ الواهية والتسويغات المنطقية الزائفة مستندا إلىٰ ذاك الأساس الفاسد الذي أبت عليه نفسه المريضة أن يرجع عليه بالإبطال أو المراجعة يوما ما. فإن روجع فيه، حملته نفسه علىٰ التفنن في مزيد من السفسطة الجوفاء لنصرة ما زينته له تلك النفس من معتقد باطل من قبل. ولذا فهمها جئت مثل هذا بالأدلة الناصعة والبراهين القاطعة، فلن يراها كذلك أبدا إلا أن يشاء الله.

والقصد أن حالة «العمىٰ» التي وصف الله بها أهل الأهواء في نحو قوله تعالىٰ: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور**﴾ [**الحج**: ٤٦] [1]، ينقلب معها ما حقه أن

---

(١) وفي قوله تعالى ﴿قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] ما يدل دلالة واضحة على أن صاحب الهوى لا يُعمل عقله على النحو الصحيح (في عين المسألة التي له فيها هوى)، وإنما يعمله ويبذله بذلا في سبيل الانتصار لموقف قد اختاره وتمسك به من قبل، فينافح عنه وهو يعلم ضعفه ووهاءه. فليس المقصود بعدم الفقه أنهم لا يفهمون ما يأتيهم به دعاة الحق من براهين وأدلة، وإنما المقصود أنهم لا يفهمونها إلا على ما يصيب أهواءهم، يتأولونها على ما ينصر اعتقادهم، ويؤسسون عليها من الحجاج والتنظير ما يزيد تلك العقائد جذبا لمن كان في نفسه ميل وهوى للتعلق بها، مهما كانت تلك العقائد على قدر من البطلان لا

يُعقد في النفس بيقين إلىٰ موضوع للشك والتردد والريبة، ويتحول الدليل القوي إلىٰ ضعيف، والضعيف إلىٰ حجة دامغة، والبداهة العقلية الواضحة إلىٰ مسألة نظرية تحتمل الصواب والخطأ وترد عليها الإيرادات والإشكالات والاعتراضات أشكالا وألوانا، وتنقلب الأغلوطة أو الدليل الزائف إلىٰ برهان باهر أو علىٰ الأقل إلىٰ مستند معرفي مستساغ، يطلب صاحبه العذر لنفسه (اجتماعيا) عند التعلق به، وهكذا! وليس ذلك من النظر أو المنطق المستقيم في شيء أصلا، وإنما هي دوافع الأهواء والشهوات الباطنة، التي تقلب الحق باطلا والباطل حقا، وتوصل المرء إلىٰ أن يكذب الكذبة ويصدقها، بل ويؤمن بها إيمانا ويقينا قد يبلغ أن يبدي الاستعداد للموت في سبيله، والله المستعان لا رب سواه.(1)

يُتصور خفاؤه على ذي عقل وبصر! ولا شك أن ما كان كذلك من أعمال الذهن والتعقل والحجاج فليس هو فقها ولا فهما ولا عقلا، وإنما هو الجهل بعينه، إذ يطمس الهوى على العقل السوي والفطرة الصحيحة، ويكسب صاحب الهوى بذلك الخبث في نفسه ما يستحق معه الختم على قلبه، كما في قوله جل وعلا: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [**الجاثية**: ٢٣].

(١) يقول رب العزة تبارك وتعالى ضاربا المثل لبيان أحوال هؤلاء: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ [**الأنعام**: ٧] فهؤلاء قوم معقودة نفوسهم على الهوى، فمهما جئتهم بالآيات والبينات فسيخترع الواحد منهم لها تأويلا متهافتا يوافق هواه لا محالة، حتى لو أنه رأى الله جهرة، لقال هذا كذا وهذا كذا، كما قال هؤلاء ﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾! لهذا كانت المعجزات والآيات التي يجريها الله على أيدي المرسلين حجة إضافية، فالغرض منها كما بينا في الفصل الأول من هذا الكتاب ليس إثبات ما لم يثبته ما جاء به المرسلون من حجج وبراهين على أنهم مرسلون من الرب الباري الواحد الأحد، وإنما الغرض منها أن تفضح أهل الأهواء بعدما تكشف لهم هم أولا ما في قلوبهم. فكأنما يقال لهؤلاء: أنتم عرفتم أن ما جاء به الرسول حق، فلما قلنا لكم آمنوا واخضعوا كما خضع المؤمنون من قبل، قلتم فليأتنا الرسول بآية أخرى، فليفعل كذا أو كذا، فلما فعل، قلتم هذا سحر، هذا كذا هذا كذا، فأي شيء تريدون إذن على الحقيقة حتى تؤمنوا؟ ألم يكن هذا الاحتمال المنطقي الذي اعترضتم به واردا من قبل في أذهانكم، حين طالبتم الرسول بأن يأتي بآية؟ فما الذي جعل منه مستندا لكم الآن بعدما جاءتكم الآية على يد الرسول كما طلبتم ورأيتموها بأعينكم؟ واقع الأمر أنكم ما كنتم تريدون إلا المراء والتعلق بأي شيء مهما كان واهيا، حتى تدفعوا عن أنفسكم ما كرهتموه من طاعة ذلك الرسول! أنتم ما أردتم إلا التماس المزيد من ذرائع الصد عما جاء به وتكذيبه، مع أنكم تعلمون أنه ما جاء إلا بالحق، فكشف الله ذلك وأظهره بفضله ومنته بما لا مزيد عليه.

لذا لزم أن يستحق أولئك الذين جاءتهم الآية بعدما طلبوها ثم لم يؤمنوا بعدها أشد العذاب، كما في قوله

فلك أن تتأمل – مثلا – كيف يتفنن الملحد في محاولة إقناع نفسه بأنه لا يمكن أن يوجد رب خالق، مستندا إلىٰ دعوىٰ أنه إن وجد فلا بد وأنه كائن «شرير» خبيث غير أهل لأن يعبد ويحمد، سبحان الله وتعالىٰ عما يقولون علوا كبيرا. هذا المماري يعلم أن وجود ذات حكيمة فاعلة خالقة ضرورة بدهية واضحة لا مفر من إثباتها، كما أنه يعلم أن كماله في العلم والحكمة (الذي لا يتناقض مع حقيقة أننا نجد كراهة طبعية في كثير مما يصيبنا من بعض خلقه وأمره وقضائه) واجب في العقل لا محاله [1]، ولكنه يكره أن يخضع رقبته لذلك الخالق من فوقه الذي يرقب قوله وفعله وكل صغيرة وكبيرة من أمره في كل آن وحين، ولا يخفىٰ عليه شيء من ذلك، فتزين له نفسه (كما سنرىٰ في قسم لاحق من هذا الكتاب) اختراع الدعاوىٰ والاعتراضات الفلسفية أشكالا وألوانا لعله يتمكن من تخفيف ذلك الصراع الداخلي بين فطرته وبداهته العقلية (التي تصرخ فيه بأن طاعة رسل الرب الباري وأنبيائه إذا بعثهم في الناس، واجب أخلاقي من مجرد حقيقة أنه هو الذي منحهم الحياة وما فيها)، وبين كراهيته الخضوع لتعاليم الدين وحبه للشهوات ورغبته في التحرر من تلك الرقابة الإلهية الدائمة من فوق رأسه.

جل شأنه لبني إسرائيل إذ طلبوا من المسيح ﷺ أن ينزل عليهم مائدة من السماء: ﴿**قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ [المائدة: ١١٥].

(١) ولا يجوز أن يقال في هذا الموضع عند مخاطبة ذلك الجاحد المكابر، كما يقع ممن تشربوا بطرائق الجهمية من حيث لا يشعرون: «دعونا نصل معه أولا إلى اتفاق على وجود الباري أيا ما كانت صفته، ثم نناقشه في مسألة الصفات فيما بعد»! يقول له: «طيب سلمنا بأنه رب شرير لا يريد لك خيرا، فهل ينافي هذا حقيقة أنه موجود وأن له عليك حق العبودية لأنه هو الذي صنعك، وبيده أن يهلكك الآن ويعذبك بعد موتك؟» هذه طريقة من اعتمد المنهج الجهمي في المعرفة، القائم على اعتقاد أن الإنسان حتى يشهد شهادة الإسلام الكاملة، فلا بد أولا أن يكتسب المعرفة النظرية القياسية بأن العالم حادث، ثم يؤسس عليها المعرفة النظرية بأن له محدثا، ثم يؤسس عليها المعرفة بأن ذلك المحدث لا بد أن له صفات الكمال كلها ولا يجوز عليه النقص، ثم يؤسس على ذلك المعرفة بأنه قد أرسل الرسل، ثم إن قبل براهينه «العقلية» في ذلك كله، ساق إليه أخيرا دلائل صدق نبوة محمد ﷺ، ثم إن قدرنا أن انتهى معه من الجدال في جميع ذلك إلى تلك النقطة في يوم من الأيام، فلعله حينئذ أن يطالبه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله! ولهذا لم نستغرب أن يكون حد الإيمان عند عامة الجهمية هو مجرد التصديق المعرفي، كما بينا ذلك في غير هذا الموضع! فالواحد منهم يخوض المعارك الضارية والسجالات الطويلة حتى ينتهي إلى حيث يبدأ العقلاء الأسوياء ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هذه القضية هي التي تؤرق الملحد غاية الأرق: ما علمه من ضرورة استحقاق الرب تبارك وتعالىٰ أن تخضع له رقاب خلقه وأن تطاع رسله فيما جاؤوا به طاعة مطلقة لا تحفُّظ فيها ولا تحرج ولا تردد، فهو يرغب في التفلّت من ذلك الالتزام الأخلاقي البدهي بأي وسيلة كما تقدم، فقد يبدأ بالزعم بأنه لا يدري هل أرسل الله دينا صحيحا أم لا، وهو كاذب في هذا ولا شك، لأن البداهة تجزم بأنه لو كان لله دين صحيح فلا بد وأنه دين التوحيد الخالص لا غيره، والتسليم التام لا غيره، وهو يعلم أن هذا لا يوجد في ملة من الملل إلا في الإسلام!

فإن زاد وزعم أنه لا يرىٰ إمكانية أن نعلم أصلا ما إذا كان الباري نفسه موجودا أم لا (كما تقوله بعض فئات من يسمون أنفسهم بـ«اللاأدرية»)، فقد أضاف كذبة أخرىٰ فوق الكذبة الأولىٰ، لأنه لم يكتف بادعاء أن فطرته وبداهته العقلية لا تفضي به (هو بعينه) إلىٰ معرفة وجود الخالق من فوقه معرفة ضرورية، ولم يذهب إلىٰ الزعم بأن الخلاف متصور فيما إذا كان ذلك الوجود واجبا بالبداهة عند عامة البشر أم لا (كما يزعمه بعضهم)، ولا توقف عند القول بأنه لا يدري هل عامة البشر يوافقونه علىٰ عدم بداهة ما زعم أنه ليس بدهيا أم لا يوافقونه، وإنما بلغ أن تعلق بادعاء أن العقل لا يمكن (من حيث المبدأ) أن يوصل الإنسان إلىٰ الإقرار بوجود الباري أصلا، وبما أننا لم نره جهرة فلا يمكن أن نقف علىٰ دليل لوجوده فيما يزعم! فكأنما يقول: لست أنا فقط من لا يدري، بل جميع الناس كذلك لا يعلمون، مهما توهموا أنهم يعلمون (وهو ما تسميه الفلاسفة بالمذهب اللاأدري القوي Strong Agnosticism)!

فإما هذا، وإما أن يذهب إلىٰ أن الباري موجود ضرورة، ويعلن تسليمه بذلك، ولكن يزعم أنه ليس له رسل ولا أنبياء، وهذه ساحة أخرىٰ واسعة من ساحات العبث الفلسفي يبدأ صاحبها من القول بأن الخالق لا بد وأنه كيان لا وعي له (ليس كائنا حيا عليما مريدا، أو شخصا Person علىٰ تعبيرهم) بدعوىٰ أن ادعاء كونه شخصا له علم وحكمة وإرادة وحياة إنما هو ضرب من ضروب التمثيل بالبشر Anthropomorphism،[1]

(١) وهذا ما عليه من يقال لهم «الربوبيون» Deists، إذ يمضي الواحد من معاصريهم في بيان تاريخ تلك «النزعة التشبيهية» في الإنسان وادعاء أن لها أصولا داروينية ارتقائية في المجتمع البشري، يؤسس على ذلك نظاما

متجاهلا الحقيقة البدهية الفطرية التي يقتضيها مطلق التعليل بالخلق والإحداث، من ضرورة وجود «خالق» و«محدث» موصوف بالفعل والإرادة والحكمة وغير ذلك من صفات تشترك في معانيها - ولا بد - مع بعض صفات المخلوقين.

فإن أعياه ذلك المسلك (وبحر الجدال في الارتقائية البيولوجية والاجتماعية والدينية بحر لا ساحل له كما يعلمه أهل الاطلاع)، لم يتعذر عليه أن ينتقل إلىٰ التسليم بأن الباري كائن حكيم ذو إرادة وفعل (متشخص)، مع التمسك بدعوىٰ أنه «ظالم» (سبحانه وتعالىٰ علوا كبيرا) لمجرد أنه اختار أن يجعل في مخلوقاته ومفعولاته ما فيها من صور الشرور والمكروهات. وهذه ساحة أخرىٰ من ساحات السفسطة الواسعة قد اجترأ أصحابها علىٰ الوصول بها إلىٰ نفي وجود الباري نفسه علىٰ سبيل المحاججة المنطقية من ذلك التناقض المزعوم في صفاته (كما سيأتي معنا في قسم لاحق)، بصرف النظر عما تخبر به الأديان والكتب والرسالات من صفته. فإن لم يفلح في هذا، اكتف بالقول بأن المشكلة «عويصة» وأن خصومه (أي فلاسفة اللاهوت) لم يتمكنوا من القضاء عليها بصورة تامة، ومن ثمّ فهو في سعة وعذر إن بقي علىٰ إلحاده بسببها، بل وإن مات عليها! إذ غرض البحث فيها عنده علىٰ أي حال إنما هو تسويغ الزعم بأنا لا ندري هل الخالق - علىٰ التسليم بوجوده - يستحق أن يعبد أم لا، وهذا هو عين مطلوبهم ومبتغاهم علىٰ أي حال (من الناحية النفسية).

فإن أعياهم ذلك المسلك أيضا، انتقلوا إلىٰ التسليم بأن صفة الحكمة والرحمة لا تتناقضان ولا يلزم من مطلق وجود الشر في المخلوقات أن يكون ظلما من الخالق (سبحانه وتعالىٰ عن ذلك)، مع التمسك بأنه ليس له في الأرض دين يخلو من التناقض في وصفه، أو من الخلل «الأخلاقي» (زعموا) في تعاليمه وتكاليفه التي يخاطب بها الناس، أو علىٰ الأقل لا يخلو من الخطأ البشري عند التناول والنقل والتأويل. فيقول أنا مؤمن بالباري وبأنه شخص فاعل ذو إرادة، وأنه يرسل الرسل إذا شاء، ولكني لا أرىٰ

اعتقاديا كاملا تتعلق نفسه بالتفنن في تفصيله وتفريعه ومجادلة الخصوم في تلك الفروع والتفاصيل بما يبعدهم غاية البعد - لا محالة - عن مجرد التطرق إلى ذلك التناقض الفاحش شديد الجلاء في أصلها الكلي.

أن له في الأرض دينا قد أرسل به رسولا يجب علي أن أتبعه، فيقول أنا «لست ملحدا ولا لاأدريا وإنما أنا لاديني»!

وعليه، يظل الواحد منهم يتنقل علىٰ تلك الدركات الاعتقادية الخبيثة صعودا وهبوطا، مع بقائه بعيدا غاية البعد عن فكرة أن يسلم بصحة دين الله الحق ثم يحمل نفسه علىٰ الخضوع لرسوله حملا! فمعلوم عند كل من ابتلاه الله بمتابعة أحوال هؤلاء المجرمين، كيف يفتح أحدهم لنفسه مجالا واسعا للتنقل الحر بين جملة كبيرة من المواقف الاعتقادية المبتدعة التي تفننت فيها شياطين الإنس والجن عبر قرون طويلة، يتحول من أحدها إلىٰ الآخر بالهوىٰ المحض كما يغير الرجل نعله أو إزاره، ولا يبالي طالما أنه يجدها ترجع كلها في النهاية إلىٰ محصلة واحدة من حيث الموقف العملي المترتب علىٰ اعتناق أي منها: الكفر بالرسل والرسالات والتكذيب بسائر ما ينسبه أهل الملل إلىٰ رب البريات (أو ما يسمىٰ إجمالا بـ«اللادينية»).

والقصد أن تلك المواقف الاعتقادية الفلسفية الكثيرة التي يتفنن الملاحدة في اختراعها وزخرفتها والتفريع عليها فيما يتعلق بتلك القضايا الكلية الثلاث: وجود الباري (١) وصفاته (٢) وما إذا كان قد بعث للناس رسلا أم لا (٣)، وإن كان قد فعل، فأي الأديان هو الحق (٤)، يظهر بجلاء لمن تأمل فيها (وكما سيأتي معك لاحقا) أنها ليست إلا ذرائع وزخارف لفظية وحيلا تسويغية متهافتة Rationalization Tricks يتخذ منها أصحاب الجحود والاستكبار غطاءً سيكولوجيا فعالا (وهي من تلك الغشاوة التي وصفها رب العالمين في كتابه) لتزيين بقائهم علىٰ تلك التناقضات الفاحشة Blatant inconsistencies في منظومة الاعتقاد الفردي لديهم Personal Belief System.

فترىٰ الواحد منهم يقرأ ويجادل خصومه من الفلاسفة جدالا طويلا في مسألة وجود الباري (مثلا)، يجمع إلىٰ نفسه سائر ما أبدعته عقول أقرانه من دعاوىٰ واعتراضات فلسفية واهية في هذا الشأن، فكلما أسقط له الخصم اعتراضا [1]، تعلق بغيره، فإذا

(١) فيما يرجوه ذلك الخصم المجادل على أي حال، وإلا فلا سقوط لرأي نظري برأي نظري مقابل إلا على درجة من درجات الظن النظري المتفاوتة في أذهان الناس قوة وضعفا كما هو معلوم، وكما هي مشكلة

ما أعياه ذلك، وأوشك أن يظهر للناس - حتىٰ لأقرانه وأنصار موقفه - أنه قد فرغت جعبته من اختراع التسويغات في مسألة الجزم بعدم وجود الباري، انتقل بكل سهولة إلىٰ موقف آخر من مواقف الإلحاد (في تصنيف الفلاسفة) يقر أصحابه بوجود الباري من الناحية العقلية، بعد أن كان من قبل يحاول الانتصار لامتناعه عقلا! وسنرىٰ في قسم لاحق مثالا جليا لهذا المسلك الشيطاني الخبيث في سجال فلسفي طويل دار بين واحد من رؤوس ما يسمىٰ بـ«مشكلة الشر» من فلاسفة الإلحاد المعاصرين، وخصمه اللاهوتي النصراني، نجح فيه الملحد - علىٰ الرغم من انهيار اعتراضه الفلسفي الأول باتفاق أنصاره قبل خصومه - في استدراج أقرانه من الفلاسفة (سواء الملاحدة أو اللاهوتيين) إلىٰ الشهادة له بأنه من أهل النزاهة والأمانة العلمية وأنه «صادق في طلب الحق» (وتأمل!!)، إذ زال عن موقف فلسفي كان يراه وبرهان نظري كان قد اخترعه ونشره ودافع عنه، بعدما تبين له بطلان ذلك البرهان، منتقلا إلىٰ براهين أخرىٰ لموقف آخر أخف منه في مقدار التناقض العقلي الفاحش، من غير أن يزول في شيء من ذلك عن إلحاده الأصلي وعناده وإعراضه عن الإيمان بوجود الباري وبما أرسل من المرسلين طرفة عين!

والقصد أنه مهما آتاه الخصم من جواب لدعاواه وأدلته الزائفة وشبهاته الساقطة، فسيظل له في أعمال الفلاسفة وحيلهم اللفظية متعلق شديد الثراء، يمضي به عمره

إعمال النظر الفلسفي في هذه القضايا من الأساس! فاللاهوتي أو المتكلم الذي يتفنن في الإتيان ببرهان نظري جديد، يتكلف فيه من الإجمالات والكليات ما لن يخلو من نقائص النظار مهما أحسن فيه، وكما بينا في غير موضع في هذا الكتاب! فهو يفتح للباطل على الحق في تلك القضايا البدهية بمجرد ذلك التكلف من جانبه، سبيلا بل مئات السبل، ولا يأمن بسبب ذلك أن يهلك - هو نفسه - على ضرب من ضروب الشك والزندقة، نسأل الله السلامة. لذا نقول إن الفلسفة جنة الدهرية والملاحدة، والكلام جنة المبتدعة من أهل القبلة! فترى الملحد أو المبتدع يحرص على إغراقك في حدوده وتعريفاته وتركيباته اللفظية وفي فك طلاسمها ومناقشته فيها (كأن يصر على مجادلتك بمصطلحاته هو وأقرانه كالجسم والعرض والجوهر ونحوها، وتعريفات أئمته للمكان والحيز والجهة والجسم ونحو ذلك من مصطلحات مغرقة بلفظها وبتعريفاتهم لها في الإجمال الفاحش) حتى إن لم يتمكن من إسقاط الحق الذي معك، كفاه ما أحدثه عليه من تشويش وما أوقعك أنت فيه من غلط وخلل في تناول بضاعته، بما يوحي بأن الأمر ليس بدعة ولا ضلالة وإنما هو مثار اجتهاد ونظر حقه أن يكون مستساغا معذورا به صاحبه، فتأمل!

موهما نفسه وغيره من أقرانه بأنه «طالب للحق» وبأن البحث أعياه، وأن الحق خفي عليه يروغ منه روغانا، ليس بظاهر جلي كما نزعم نحن معاشر أتباع المرسلين، بل يحتاج من الإنسان إلىٰ عقل قوي ونظر شديد العمق، والله المستعان لا رب سواه. هذه الدعوىٰ الفلسفية الأكاديمية أيها القارئ الكريم، لا نبالغ إن قلنا إنها قد بلغت أن تكون، وبلا منازع، كبرىٰ حيل النفس في تسويغ الشرك والبقاء عليه Rationalization tricks في تاريخ البشرية علىٰ الإطلاق!

وقد رأينا مصنفات الملاحدة الجدد أمثال «ريتشارد دوكينز» و«كريستوفر هيتشنز» و«سام هاريس» وغيرهم تطفح بالانتصار للموقف الإلحادي الرافض للأديان بمجموعها علىٰ أساس من انتزاع بعض النصوص من هذا الكتاب أو ذاك (لا سيما كتابي العهد الجديد والقديم عند النصارىٰ)، والحط علىٰ مطلق مبدأ «الدين» نفسه تأسيسا علىٰ ما يزعمونه في تلك النصوص من فساد وانحطاط أخلاقي (بصرف النظر عن مرجعيتهم الفلسفية الأخلاقية التي لا يلزم أن يسلم لهم أي خصم من خصومهم من أهل تلك الأديان بصحتها أصلا)[1]، ثم الانتقال – من بعد إرواء الغليل والحقد

(١) كزعمهم أن الأديان (بهذا العموم) هي مصدر سائر الشرور والأحقاد والكراهية في العالم، ومن ثمّ فالدين (بهذا الإطلاق) مرض يجب العمل على علاجه وتطهير البشرية منه. فهم يعلمون أولا أن اصطلاح الدين قد اختلف الناس على تعريفه فمنهم من أدخل الإلحاد نفسه فيه ومنهم من لم يدخله (والصحيح إدخاله قطعا وإن رغمت أنوفهم، لأن العبرة في معنى الدين بموضوع الاعتقاد لا بالاعتقاد نفسه، إثباتا كان أو نفيا)! وهم يعلمون أن الأديان (أيا ما كان تعريفها عندهم) ليست كلها حقا ولا يمكن أن تكون كذلك، وهم يعلمون أن الإنسان كان ولا يزال وسيظل يرى قضايا الغيب المصيرية وتلك الأسئلة الوجودية الكبرى المتعلقة بها على أنها أخطر القضايا المعرفية في وعيه على الإطلاق، سواء سمى موقفه فيها دينا أو مذهبا فلسفيا، ومن ثمّ فلا مفر من أن يكون أشد درجات البغضاء والعداوة والكراهية (وهي مشاعر لا انفكاك للنوع البشري عنها أصلا) متعلقة في نفوس البشر بتلك المسائل وبالمخالفين فيها ومسالكهم ومساعيهم! ومع هذا تراهم ينادون إلى نشر ملة الإلحاد والقضاء على غيرها من الملل والعقائد الغيبية، وكأنه لا يأتي – من حيث هو نظام اعتقادي غيبي – مقرونا بعشرات بل مئات المذاهب الفلسفية المتباينة في أصول الاعتقاد الغيبي، التي تتفرع عليها نظريات أخلاقية شتى لا فضل لأي منها على الأخرى، حتى تتخذ مرجعا معرفيا لتقرير ما هو «الشر» وما هو «الخير» وما حده وما هو «الخير الأعظم» Greater Good الذي يُتحمل من أجله من الشرور ما يتحمل... الخ!

فعندما يقرر الملحد أن فكرة «الحرب المقدسة» أو الجهاد مثلا فكرة «شريرة» لأن مطلق دعوة أهل الملة إلى محاربة خصومهم تعد شرا أخلاقيا، فهو يعلم أنه لا يقف في أصول فلسفته الأخلاقية على أساس ذي بال من

جهة الدليل والبرهان، بينما يقف صاحب الدين الحق على حكم أخلاقي موضوعي يعرف به مما علمه خالقه (الذي لا تخفى عليه خافية بموجب كونه خالق كل شيء) ما هو خير الخيرين وما هو شر الشرين، فهو يؤسس أحكامه الأخلاقية على ذلك الأساس المتين! هذه الحقيقة البدهية معلومة لهم ولا بد لأنها لا تحتاج إلى برهان، ولكنهم يجدون في اتهام تعاليم الأديان إجمالا بالشر والفساد الأخلاقي (على وفق فلسفتهم الأخلاقية المختارة أيا ما كانت) حيلة نفسية تهون عليهم ما في نفوسهم من اضطراب بسبب انتصارهم لنظام اعتقادي شديد التناقض، وهم يعلمون أن مجتمعهم سيقبل منهم تلك الاتهامات ويستحسنها في الأعم الأغلب (إلا من كان منهم من أهل الدين المتهم نفسه) لأنهم يستندون فيها إلى جملة من القواعد الأخلاقية العلمانية التي أصبحت محل اتفاق وقبول مجمل في ذلك المجتمع، على اعتبار أنها «قيم المجتمع المدني المعاصر»! ولو كانوا يرتابون ولو لوهلة في قبول المجتمع منهم ما تكلفوه من ذلك، ما بادروا إليه وما انكبوا عليه حتى تصدروا به بين الناس، لأن الأمر في النهاية ليس إلا «هوى» متبعا على أي حال!

لقد كنت في أيام الحداثة أقرأ وأسمع تلك الهجمات الصحافية المتعجرفة التي اشتهر بها الهالك المدعو «كريستوفر هيتشنز»، وسميت من بعده بـ«الصفعات الهيتشية» Hitchslaps، فلا أجده يحاول أن يتكلف شيئا من البرهان العقلي الفلسفي أصلا، ولا قريبا منه، وإنما يقدم أداءً مسرحيا حماسيا صرفا! فقد كان رجلا ماكرا خبيثا يحسن صدم خصومه ومخاطبة عواطفهم Appeal to emotions بأساليب بارعة لاستعراض ذلك «الشر العظيم» الذي يراه في معبودهم وفي تعاليمه ودينه! ونظرا لأن خصومه من النصارى واليهود الغربيين يتفقون معه إجمالا على تلك المرجعيات الفلسفية الأخلاقية الكلية العلمانية التي يرجع إليها في تعريف الخير والشر، بالنظر إلى كونها تلك المعايير السائدة في المجتمع الغربي المعاصر بعموم (ومنها ما هو مستمد من تلك الكتب نفسها التي يهزأ بها الرجل بالمناسبة)، فقد كانت «صفعاته» تلك تنزل من نفوس خصومه منزلا عظيما فتزلزلهم زلزلة، وتخلب ألباب جماهير الحضور في كل مرة، من الأشياع والخصوم على السواء، وتحملهم حملا على التصفيق له وتشجيعه لما تجده نفوسهم من بغض جارف لما يهاجمه في خطابه ذاك من أحوال يكرهونها ومن تكاليف دينية ما عادت تتقبلها النحلة الأخلاقية العلمانية المعاصرة.

والقصد أن رؤوس الإلحاد الجديد في أوروبا وأمريكا لم يحتاجوا حتى إلى تكلف صور البرهان الفلسفي التحليلي المنمق المعتاد عند المختصين بتلك الصناعة، كيما يجتذبوا قلوب العامة المائلة إلى بغض الأديان والنفور منها في مجتمعاتهم! وإنما اكتفوا في ذلك ببيان مخالفة النص القديم إجمالا للقيمة الأخلاقية المتفق على قبولها حاليا في المجتمع الغربي، مع استعمال بعض البهرج اللفظي والمسالك الخطابية المسرحية في التهويل والتشنيع والسخرية، وإذا بالمطلوب يتحقق لهم ويأتيهم من جماهير الناس ما كانوا يطمحون إليه، والله المستعان!

فإن كان «العقل» Reason عندهم هو ما يقوم به المنطق النظري الفلسفي، أو ما يتأسس على ما أثبتته مباحث العلم الطبيعي، أو كل ما يتحصل الحكم به من طرق الاستدلال النظري عموما، فأين هم من ذلك عندما يتكلمون عن الخير والشر الأخلاقي في نصوص تلك الأديان التي أعلنوا الحرب الضروس عليها؟ لا هم احترموا مسلمات البداهة الأولى، ولا انتبهوا لتأسيسهم كلامهم كله على الهوى المحض، ولا اعترفوا بأنهم لا علاقة لهم في أكثر كلامهم في مسألة الأخلاق بمسالك النظار في البرهنة النظرية (سواء من طريق الفلسفة والمنطق أو من طريق العلوم التجريبية)، فما مفهومهم «للعقل» الذي اتخذوه شعارا لحملاتهم الإعلامية الشيطانية إذن؟ لا مفهوم عندهم أصلا ولا يحتاجون إلى بيانه، فالعبرة عند كل صاحب دعوة إنما هي بما تنشرح له صدور الجماهير من مسالك الخطاب! من استطاع أن يجبب الناس في دعوته ويستميلهم إليها

والكراهية باستعمال أشنع وأفحش الألفاظ في شتم الدين والإله المعبود (لا سيما عند اليهود والنصارىٰ) – إلىٰ الاجتراء علىٰ تسفيه فكرة وجود الباري نفسها رأسا، وقد يتكلف بعضهم انتقاء بعض الشبهات والاعتراضات الفلسفية من هنا أو هناك حتىٰ يبدو موقفهم موقفا مستساغا من الناحية العقلية (علىٰ مفهوم الفلاسفة السائد اجتماعيا في بلاد الغرب للعقل وما يحصل به التعقل والاستدلال العقلي)، لا سيما في نظر أهل تلك الكتب الدينية المحرفة الذين يجمعون في اعتقادهم بشأن الباري وصفاته من التناقضات ما يكفي لجعل اعتراضات الملحد علىٰ مللهم حججا ذات وزن وثقل نفسي يزداد معه الملحد فرحا بموقفه من مطلق «الدين» ويقل معه ما يعانيه من اضطراب نفسي علىٰ أثر اعتناق ذلك التناقض الاعتقادي الفاحش، الذي لا يعرف في الأرض تناقض أعظم منه.

لقد كان لنشر كتاب داعية الإلحاد الجديد الأشهر «ريتشارد دوكينز» المعنون بـ«وهم الإله» أثر بالغ الشدة علىٰ أوساط النصارىٰ في أوروبا وأمريكا بمجرد نشره، وصار من أكثر الكتب مبيعا في التاريخ الحديث، وأصبح بمنزلة الانفجار المدوي في أوساط هؤلاء علىٰ الرغم من خلوه مما يجتذب المتفلسفة وأصحاب الصناعات الطبيعية ويحملهم علىٰ قدح زناد الذهن والتريّض بالنظر المنطقي كما يتلذذون به، فما السبب في هذا وما تفسيره النفسي الاجتماعي، في ضوء ما حررناه من تطبيق لقواعد سيكولوجية علىٰ أهل الملل المتناقضة معرفيا؟ أو بعبارة أخرىٰ، ما التفسير السيكولوجي لتدافع النصارىٰ الغربيين للخروج من ملتهم أفواجا في تلك البلاد بسبب ذاك الكتاب؟ السبب أنه مع تخفي الملة الطبيعية المعاصرة Naturalism تحت ستار العلم الطبيعي، وشدة حرص دعاة الإلحاد الجدد علىٰ تصوير الإلحاد علىٰ أنه الموقف الفلسفي الوحيد المتناسق تمام التناسق (فكريا وعقليا) مع «العلم الطبيعي

ويبغضهم في الدعوى المخالفة وينفرهم منها، فقد تحقق له المطلوب من خطاب الدعوة وانتهت القضية. والذي نقرره في هذا الكتاب أن هذا المسلك لا يكون مذموما ولا يوصف صاحبه بالسفاهة ومفارقة العقل إلا إن كانت الدعوى نفسها باطلة فاسدة في نفسها (موضوعيا)، أو كان مبالغا مفرطا في تعظيم فائدة اعتناقها أو خطر التكذيب بها (مبالغا في الترغيب والترهيب)! وإلا فمخاطبة أهواء النفس ومعالجتها بما يناسب، مطلب ضروري لكل صاحب دعوى ولا شك، وهو من العقل ومن مخاطبة العقل نوعا، كما لا ينكره إلا مكابر مماحك لا عقل له!

الحديث» Modern Science (هكذا)، ومع تنامي العلو الفكري والثقافي في المجتمع الغربي المعاصر للعلم الطبيعي الحديث وأنصاره والمشتغلين به فوق ما مع أهل الدين ودارسيه والمدافعين عنه من بضاعة، أصبح النفع والكسب الشخصي (المتمثل في تحقيق الرياسة والعلو في صفوف المجتمع) الذي يمكن أن يطمع النصراني الغربي في تحقيقه لنفسه من التمسك بنحلة قديمة يعلم بطلانها وصحة ما مع الخصم الملحد من اعتراضات عليها، كسبا ضئيلا في أكثر الأحيان إذا ما قورن بالكسب المعنوي والأدبي الذي قد يصيبه إذا ما صرح - بحسب سياقه المجتمعي - بأنه يرىٰ «الدين» (هكذا) ضربا من ضروب الخرافة والأسطورة، وأنه يضاد العلم ويعوق مسيرته وركبه الذي يطمع هو في الانتساب إليه والتحلي بحليته وزينته بين الناس.

مع أنه يعلم في طوية نفسه أن الانتقال من القول بخالق «ثالوثي» (هو واحد وثلاثة في نفس الوقت) إلىٰ القول بعدم الخالق من الأساس (وقد شبهت هذا الموقف من قبل بمساواة الواحد بالصفر)، إنما هو انتقال من موقف متناقض إلىٰ موقف أشد تناقضا ومصادمة لبداهة العقل منه، ولكنه في نفس الوقت، وهذا هو مدار الأمر، يعد انتقالا إلىٰ الموقف الأكثر إغراءً وجاذبية وأكثر موافقة للتيار السائد فكريا وثقافيا في ذلك المجتمع المعاصر الذي يطمع هو في العلو والتقدم في منازله.

ولهذا أستنكر أشد الاستنكار علىٰ من يزعم أن النصراني الذي يخرج من نصرانيته ويدخل في الإلحاد يكون قد اقترب (بميله النفسي) من الحق بذلك، لمجرد أنه كفر بالثالوث! فإلىٰ جانب كونه قد فارق نحلة كتابية ذات أصل سماوي رسالي، إلىٰ نحلة أرضية وضعية صرفة، فقد انتقل من القول بصفة التثليث لخالق يثبت وجوده إجمالا علىٰ مقتضىٰ الفطرة والبداهة، إلىٰ القول بعدم الخلق وعدم الخالق من الأساس، فكيف وبأي عقل يكون هذا موقف رجل «طالب للحق»، يفر هروبا إليه بعدما تبين له بطلان ما كان عليه؟ بل والله حتىٰ لو كان انتقاله إلىٰ اللادينية، التي حقيقتها علىٰ أخف صورها: القول بالجهل بوجود دين حق للَّه تعالىٰ في الأرض، فهو كاذب مماحك أيضا، يحمله هوىٰ النفس علىٰ موافقة النحلة الفكرية ذات المنزلة الثقافية العليا في مجتمعه (أو في المجتمع الذي يطمع في الترقي بين درجاته) مع علمه بأن الحق ليس فيها!

وصاحب الملة المتناقضة في اعتقادها الغيبي (لا سيما في صفات الباري)، الحريص علىٰ اتباع هواه وتقديم المنفعة أو الكسب الدنيوي العاجل وإشباع الشهوة، لا يأتيه خصمه من أهل الملل الأخرىٰ أو من فلاسفة الإلحاد باعتراض علىٰ تناقضات ملته إلا رأيته يسلك معه مسلكا من ثلاثة:

أ - التفنن في اختراع الدفاعات والأجوبة الفلسفية علىٰ طريقة اللاهوتيين، طلبا للظهور بين الأقران من أهل الملة، لما تراه النفس من كسب دنيوي عاجل في ذلك.

ب - الانخلاع من الملة والانصراف إلىٰ النحلة الأكثر حظا من العلو الفكري والثقافي والأكاديمي في المجتمع، وإعلان الحرب علىٰ الملة المتروكة والانضمام إلىٰ صفوف الخصوم، لما ترجوه النفس من كسب دنيوي راجح في ذلك. (ويدخل في ذلك دعوىٰ من يسمون باللادينيين والواقفة، وهي تلك النحلة التي تزعم أن الدين الحق غير ظاهر، وأن معرفته تحتاج إلىٰ بحث طويل، أو من يتوقفون في وجود الباري من الأساس).

جـ - التشاغل عن القضية والتلهي عنها بكل طريقة، وإسكات نداء النفس لمراجعتها، لما تراه النفس من خسارة دنيوية عاجلة تترتب علىٰ الشهادة بالحق وترك العقيدة الباطلة والبراءة منها.

أما من رحمه الله وطهر نفسه من الأهواء الفاسدة كلها، فنحن نقطع بأنه لن يختار غير الإسلام، دين محمد بن عبد الله ﷺ، وسيسارع إليه وإلىٰ الشهادة باعتناقه مهما كان لذلك العمل من أثر دنيوي عاجل (اجتماعي أو غيره) تكرهه نفسه.

ذلك أنه لا يخفىٰ علىٰ عاقل كما مر من قبل وكما سيأتي تكرارا في غير موضع أن الدين الحق لا يمكن- بالبداهة المجردة - إلا أن يكون هو دين التوحيد الخالص، الذي يُقدر فيه الخالق الباري حق قدره، ويفرد فيه بالعبودية والخضوع كما لا يحق لأحد سواه. لذا فلا خير فيمن تغافل هذا الحق الواضح، وادعىٰ أنه يحتاج إلىٰ دراسة «الأديان» ومقارنة تفاصيلها في العقائد والتشريعات، في «رحلة» طويلة من البحث

والتنقيب للوصول إلىٰ الحق بعدما فارق الملة النصرانية! [1] ولا يتصور في عاقل سوي النفس أن يبيع الخلود بعد الموت بنعيم دنيوي زائل مهما طال بقاؤه فيه ومهما توافر عليه!

هذا يكذب علىٰ نفسه يقينا، فلو نظر في باطن نفسه وتجرد لوجد أنه يود في الحقيقة لو يبقىٰ علىٰ ما هو عليه من تعلق في الهواء بلا دين ولا شريعة ولا التزام ما بقي له من العمر، وإنما زينت له نفسه وشيطانه ادعاء أن الأمر عنده مشتبه وأن الأديان قد تشابهت عليه، وأن الأرض فيها عشرات بل مئات الملل بما يحتاج معه إلىٰ عشرات السنوات حتىٰ «يدرسها» جميعا لعله يقرر أيها هو الدين الحق واجب الاتباع! فهل يحسب هذا أن له حجة بين يدي ربه يوم القيامة إن زعم أنه لم يظهر له ببداهة العقل الأولىٰ أن خالق السماوات والأرض ما كان ليقبل من البشر إلا دينا يعبد فيه وحده لا شريك له، وينزه فيه عن سائر نقائص المخلوقين؟ هل وراء هذه الحقيقة ما يحوجنا إلىٰ النظر في تفاصيل الملل المخالفة لذلك الدين الوحيد الذي يدعو الناس للتسليم التام للرب وحده لا شريك له؟ كيف يقبل الله من عاقل أن يقول لرجل بعدما جاءه بدعوىٰ التوحيد ونبذ الشرك بجميع صوره (الذي عليه سائر الملل في الأرض خلا الإسلام)، تلك الدعوىٰ المطابقة لفطرة البشر في صفة الرحمن: «أمهلني حتىٰ أبحث في الأرض لعلي أجد دينا آخر أحسن من دينك اعتقادا وتصورا لصفة رب العالمين حتىٰ أدخل فيه»؟ هذه ذريعة من لا يريد الخضوع لدين أصلا، أو يبحث عن دين علىٰ الهوىٰ والمزاج! والله ما تكون إلا كذلك!

رجل نشأ وتربىٰ علىٰ ملة شركية تنسب فيها صفات الربوبية إلىٰ آحاد المخلوقين وتصرف لهم من العبادات ما لا يعقل أن يستحقه أحد سوىٰ الباري جل وعلا وحده، يأتيه رجل يدعوه إلىٰ دين ينزه الرب عن الشركاء والوسطاء وعن الولد وعن الحلول في خلقه وعن كل ما يلزم منه التنقص من ذاته سبحانه، ويقول له: «أدعوك لنبذ الشركاء

(١) وأخبث من هذا وأذم وأكذب - ولا شك - من كان من قبل على الإسلام ثم ارتد عنه وقال إنه الآن لاديني، قد انطلق في رحلة للبحث عن الدين الحق!

وعباده رب السماوات والأرض وحده لا شريك له»، كيف يقبل من مثل هذا أن يقول لذاك الداعي: «أمهلني أنظر في الأديان الأخرىٰ عند الأمم الأخرىٰ لعلي أجد فيها ما هو أهدىٰ مما جئتني به؟» والله لا يقولها إلا صاحب هوىٰ محض، يكره ما في الدين الحق من تكاليف ويود لو يجد لنفسه دينا لا أمر فيه ولا نهي ولا عبادة أصلا! وأذم منه عند العقلاء وأشد مرضا في النفس ولا شك، من ولد علىٰ ذاك الدين الحق الواحد، ورث عن أبويه دينا هو الدين الوحيد الذي يعظمه بما هو أهله علىٰ مقتضىٰ الفطرة، ثم قرر في يوم من الأيام أن ينخلع منه وراح يدعي أنه يبحث عن الدين الحق! لن يجد مثل هذا في نفسه إلا الهوىٰ الفاسد قطعا، وأعني به محبة الحال المنتقل إليها وبغض الحال التي عزم علىٰ مفارقتها! لا يحب أن يوصم بالانتساب إلىٰ دين «إرهابي» أو إلىٰ دين انتشر بالسيف أو إلىٰ دين يفرض علىٰ المرأة ما تكرهه نساء الدول المتقدمة، أو إلىٰ دين فيه كذا وكذا مما يكره هو نفسه أن يفرض عليه من الفرائض وأن يمنع منه من المحرمات!

فهل يعقل يا عقلاء المسلمين أن يقال لمرتد يزعم أنه يبحث عن الدين الحق بعدما فارقه (مهما زعم في حق نفسه من التجرد كذبا عليها وعلىٰ الناس): إنه طالب للحق يريد الهداية؟ لا يجوز ولا يصح أن يعامل مثل هذا علىٰ أنه صادق في طلب الهداية، ومن عامله بتلك المعاملة فقد زين له اعتقاد أن الدين الحق مشتبه بغيره من الملل [1]،

---

(١) وقد ألف بعض فلاسفة الدين المعاصرين بالفعل فيما سموه بالاشتباه الديني Religious Ambiguity، يقصدون به أن الحق فيما تنازعت عليه الأديان من قضايا وجودية كبرى في أصل الإنسان وأصل الكون ومصيره والغاية من وجوده وحقيقة ما ورائه، يعتريه الغموض ويكتنفه الاشتباه، وأن لكل ملة من الملل مستنداتها الدليلية المعتبرة الناصرة لموقف أصحابها واعتقادهم فيما يذهبون إليه، بداية من وجود الباري نفسه ووصولا إلى أدق تفاصيل التشريع الأخلاقي والالتزام الاجتماعي في كل ملة من تلك الملل! ولذا قال قائلهم: «أنا لا أؤمن بأي شيء أقوله! بل إنني أعد الإيمان مرضا من أمراض المخ، ففيه موت الذكاء وانهيار الإبداع وتيبس الخيال! فالذي عندي «آراء» وليس «عقائد»، ولا أنسب نفسي إلى أي نظام اعتقادي أصلا!»

فمن أين جاء ذلك «الاشتباه» المزعوم، الذي أفضى ببعضهم إلى التصريح بنسبية الحقيقة في هذا الشأن كله، وببعضهم إلى التوقف في القضية برمتها (وهو موقف بعض طوائف اللاأدرية)، وببعضهم الآخر إلى القول بوحدة الأديان (وهو ادعاء أن جهود أهل الأديان كلها مفيدة على السواء في الوصول إلى الصفاء الروحي المرجو من اعتناق الأديان، فلا بأس باعتقاد صحتها جميعا ولو جزئيا، وأن يركب كل امرئ لنفسه من الدين والملة – في العلميات والعمليات – ما يجده أوفق لتجربته الشعورية الفردية وأفضل لتطلعاته الروحية! أو بعبارة أخرى: كل الطرق توصل إلى الله، فاسلك منها ما يحلو لك!)؟ من أين جاء ذلك الاشتباه المزعوم؟

وأن الأمر يحتاج كما يدعي إلىٰ بحث ونظر ومقارنة وتفصيل طويل، وأن المسلم يستساغ منه (من حيث المبدأ) أن يفارق دينه ليبحث في الأديان الأخرىٰ لعله يرجع إليه من جديد «علىٰ قناعة»، وإلىٰ الله المشتكىٰ!

جاء مما اكتسبته طريقة الجدال الفلسفي النظري التحليلي في الأكاديمية الغربية منذ نشأتها على أيدي الآباء اليونانيين القدماء، في تناول أصول الملل (هجوما ودفاعا)، من قدسية وحصانة اجتماعية وفكرية ضاربة في عمق التاريخ! جاء من تحول قضايا الدين كلها إلى مجاري للنظر والرأي ومادة للمناظرة البرهانية، بداية من مخلوقية العالم ووجود باريه بالغيب، ووصولا إلى أدق تفاصيل التعليم الديني! فاستوت من أثر ذلك الإغراق سائر قضايا الاعتقاد الديني في كونها آراءً ظنية اجتهادية يرد عليها من الأدلة المخالفة المعتبرة (في تقدير الفلاسفة) ما يجعلها كلها مورد اشتباه على السواء، بل يجعلها أشد اشتباها من أي قضية نظرية فرعية في أي علم من العلوم الأخرى في الحقيقة، لأن طبيعة تلك المسائل أدت بالمتناظرين عليها من أهل الملل إلى دفنها تحت طبقات من التنظير الكلامي المجمل من كل صنف ولون، كما لم تحظ بمثله أي قضية معرفية أخرى في الوعي البشري أصلا! فمن تكلف البحث في تلك الملل كما يتكلفه الدارس في أي علم من العلوم النظرية، فدونه إلى ذلك مسار طويل للغاية في الحقيقة، لا يكفيه عمره ولا مثله معه حتى يفرغ منه! فلا شك أنه ليس في مسائل المعرفة قضية هي أشد دفعا لمعتنقيها للإتيان بكل جديد ومبتكر في الانتصار لها، من قضية الغيب وما يتعلق بها من معتقدات دينية! وقد درسنا في هذا المجلد تلك الدوافع وحقيقتها عند أهل الملل الشركية، وسبب حرص أصحابها على التزام طرائق الفلاسفة في النظر والجدال!

ولهذا كانت ولا تزال تعلو دعوات المتفلسفة من آن لآخر باستنكار ما يسمونه «احتكار الحقيقة» عند أهل الإسلام خاصة! ذلك أنهم من فرط إغراقهم في المقارنات الفلسفية والمناظرات الكلامية بين الأديان (بلا تفريق بين أصول أو فروع، وبين بدهيات وسمعيات)، تبين لهم أنه ما من مسألة من كبريات المسائل في ذات الباري وصفاته، وضعت يوما ما على مذبح الفلاسفة إلا أصبح الجدال فيها سرمديا أبديا لا يزداد به المتخاصمون إلا غموضا وشتاتا وضلالا بما بين أيديهم من سجال متراكم، وابتعادا عما كان أهل الملل يزعمون من قبل أنه من بدهيات العقول! فبدلا من أن يحركهم داعي الفطرة إلى الطعن في سلامة ذلك المسلك نفسه في تناول تلك القضايا الكبرى، حركتهم أهواء قلوبهم المريضة المغرقة في محبة الفلاسفة والافتتان بالجدل النظري والصناعات العقلية التي تخصصوا فيها وعلوا بها على رقاب الناس، صوب تصحيح الباطل إجمالا وتسويغ النزاع الفلسفي على تلك القضايا كلها بلا تمييز، وإيجاب النظر فيها والتماس «الأدلة» و«اجتهاد الرأي»، والزعم بأن استمرار تلك المناظرات الكلامية وتشعبها وتداخلها بين جميع أهل الملل على نحو ما صار الناس إليه واقعا، أصبح واجبا معياريا أخلاقيا من واجبات المجتمعات المعاصرة أن تنميه وأن تزيد الناس تعرضا له وغرقا فيه (وقد ازدادت المجتمعات غرقا في بعضها البعض عما كانت عليه قديما قبل ثورة الاتصالات والمعلومات الحديثة!)، واجبا لا ينكره ولا يتخلف عنه إلا متعنت متشدد ضيق الأفق من غلاة أهل الأديان! ونحن نقول: ما دام المرء مقيدا مكبلا بذلك المنهج الفلسفي الفاسد والشرط المعرفي الساقط في تناول أصول الإيمان الكبرى (أعني مسألة وجود الباري وصفته ومسألة التوحيد والشرك)، يزعم أنه لا يرى في دين الله تعالى من الهداية في مجرد معنى التوحيد نفسه الذي جاء به والإسلام التام الذي أمر به، ما يرفعه فوق سائر الملل على أنه الحق الجلي الناصع وجوبا، فسيظل الحق مشتبها عليه، وسيظل الشك يأكل قلبه ليل نهار، والله المستعان لا رب سواه!

نحن نقول إن العاقل لا يحتاج إلىٰ دراسة الأديان ولا إلىٰ مقارنتها حتىٰ يعلم أن الإسلام هو دين الله الحق، لو أنه صدق مع نفسه حقا وعالج ما في نفسه من الأهواء. فأما في العقائد، فمعلوم بداهة أن كل ملة تفرعت عقائدها عن أصل يشرك فيه برب العالمين ويساء إليه، بنسبة نقائص البشر إليه وتنزيل صفات الربوبية علىٰ المخلوقين صراحة، أو بمعاملة بعض المخلوقات بما يقتضي ذلك الإشراك وتلك الإساءة العظيمة ضرورة، فهي باطلة ولا بد لأن ما فسد أصله فسد فرعه! ولا يحتاج العقلاء الأسوياء إلىٰ أكثر من سماع دعوة الحق ممن جاء بها حتىٰ يقبلوها في ذلك! وأما في الأخلاق والتشريعات، فمعلوم بداهة أيضا أنه لا معيار للمقارنة الأخلاقية بين الملل والأديان يصح أن يرفع فوق المعيار الحق الذي جاء به الوحي من رب العالمين نفسه، إلا أن يكون انتقاءً بالهوىٰ المجرد لنظام فلسفي أخلاقي من وضع البشر، يتخذه صاحب الهوىٰ مرجعا ومعيارا في تلك المقارنة والمفاضلة نفسها! فإذا تقرر هذا عند العاقل المتجرد من الأهواء حقا وصدقا، ففي أي شيء يبحث هؤلاء وماذا يريدون؟ ترىٰ مثل هذا الكاذب علىٰ نفسه يمضي السنوات الطويلة في القراءة في هذه الملة وتلك، ينشغل بتفاصيل وتفريعات ما في هذا الكتاب وذاك، وبتعاليم هذا الدين وذاك، يقارن أحوال أتباع هذه الملة وتلك، وهو في ذلك كله يبحث – وإن زعم خلاف ذلك – عن أقربها جميعا إلىٰ ما تربىٰ عليه في مجتمعه من مسلمات أخلاقية (كفلسفة النسويين Feminists مثلا في مسألة حقوق المرأة وفلسفة الليبراليين في المساواة والديموقراطية وحقوق الإنسان وحرية التعبير.. إلخ).

فهل يغفل مثل هذا عن أنه قد جعل من ذلك المرجع المعياري Normative Reference /Datum دينه في الحقيقة، يرفعه فوق سائر تلك الملل التي أعلن حرصه علىٰ أن يبحث فيها عن «الدين الحق»، متبعا بذلك هوىٰ النفس وشهوتها في موافقة التيار الفكري والأخلاقي والقيمي السائد في المجتمع الذي يعيش فيه؟ كلا ولا شك، وإنما تزين له نفسه البقاء علىٰ ما هو عليه من ادعاء الحرص علىٰ طلب الحقيقة والبحث عنها هنا وهناك، فهو يكذب الكذبة علىٰ نفسه وعلىٰ الناس ويصدقها!

وغالبا لا يصل مثل هذا في النهاية – إن وصل إلىٰ شيء – إلا إلىٰ الإلحاد المحض، والتخلص من تبعية الأديان كلها جملة واحدة، أو علىٰ الأقل إلىٰ إبطان الإلحاد وإظهار مواصلة «البحث عن الدين الحق» كما يزعم! إذ تحدثه نفسه في سعيها التسويغي الحثيث لتزيين الباطل (كما صرح به بعض دعاة الإلحاد الجديد في غير موضع) قائلة له: ما الحاجة إلىٰ تعاليم الكتب الدينية في باب الأخلاق والمعاملات والسياسة ونحوها وقد توصلنا معاشر البشر في ذلك إلىٰ ما هو أكمل وأحسن، وأصبحت القيم الليبرالية المعاصرة هي المعيار الأعلىٰ والأسمىٰ في هذا الجانب باتفاق فلاسفة الأخلاق وعلماء السياسة في المحافل الأكاديمية الغربية، أو برضىٰ المجتمعات «المعاصرة» بها وقبولها لها أخلاقيا وسياسيا؟[1] إذا كنا نبحث عن جواب أصحاب هذه الملة أو تلك عن دعوىٰ مخالفيهم أن دينهم فيه هتك «لحقوق الإنسان» أو فيه هتك «لحقوق المرأة» أو فيه «حروب دينية» أو عدوان علىٰ أهل الملل المخالفة بما يخرج عن إطار ما هو معترف به في المجتمع الدولي حاليا من أسباب العدوان واللجوء إلىٰ العنف، إلىٰ آخر ذلك مما يتخذ المعيار القياسي فيه الفلسفة الأخلاقية الليبرالية المعاصرة وحدها دون غيرها (بغض النظر عن مصادر تلك الفلسفة نفسها)، نشترط ذلك اشتراطا، فما

---

(١) ونقول إنه إن كان يثقل في نظره الكسب المعنوي المرجو تحصيله في إطار مجتمعه من التصريح بالإلحاد والانتصار له، فسيميل إلى تبني أجوبة الملاحدة والتصريح بذلك والمنافحة عنه، وإلا فسيلتمس الإمساك بالعصا من المنتصف كما يقولون: يعلن أنه كافر بجميع الأديان وأنه لم يظهر له الخير أو الحق في شيء منها (حتى يرقى في أنظار الصفوة المثقفة في بلاده) ويزعم في نفس الوقت أنه لا يزال ماضيا في البحث عن الدين الحق، الذي يخلو من القيم الأخلاقية الرديئة ويتوافق مع العلم الحديث .. الخ (حتى يستجلب احترام من يهمه رأيهم فيه من أهل الأديان في مجتمعه)، ينتقي لنفسه الموقف الأنسب للصورة التي يحب أن يظهر للناس عليها، من حيث تزين له نفسه (كما لغيره ممن حوله) الظن بأنه طالب حق وأنه صادق في ذلك! فإن كان ملحدا من بني جلدتنا من أهل بلادنا المسلمة، يعيش في مجتمع لن يناله من التصريح بالردة والإلحاد فيه إلا اللعن والطرد والازدراء والتهميش (وربما المطاردة من جانب السلطات)، فسيكتفي بالنفاق والتظاهر بالإسلام وبأنه يرى أن الإسلام هو الأوفق لتلك القيم الأخلاقية الديموقراطية والليبرالية التي يروج لها اليوم حتى في مجتمعاتنا العربية على أنها الأسمى والأرقى، مع التلذذ بإظهار الإلحاد عبر المنتديات التي يكتب فيها بمعرفات مجهولة حيث يأمن أو يحسب أنه يأمن على نفسه من الأثر المكروه المترتب على انكشاف حقيقة ردته وإلحاده في محيطه الاجتماعي، لا سيما بين المقربين إليه منهم.

حاجتنا إلىٰ البحث عن الدين الأوفق لهذه الفلسفة المعيارية المختارة والأقرب إليها في مفرداتها وقيمها، وقد شهدنا لها من قبل - إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال وبمنهجية البحث والمقارنة المستعملة في هذا الشأن - بأنها هي العليا وأنها هي المعيار القياسي للمفاضلة بين الملل والأديان؟ فلنتخلّ إذن عن تلك التعاليم والكتب الدينية القديمة كلها جملة واحدة، ولنكتف بما توصلت إليه نخبة المفكرين من فلاسفة الليبرالية في هذا العصر من قيم وأصول وقواعد وتشريعات قد حازت اليوم قبول ما يقال له «المجتمع الدولي»، وصارت هي المعيار الأعلىٰ المستند إليه في الحكم علىٰ سائر القيم الأخلاقية والتشريعية التي تعلمها الأديان لأتباعها، حتىٰ إن من شذ عنها من ساسة هذه الدولة أو تلك، استحق أن تنزل عليه العقوبات الدولية أشكالا وألوانا!

لذا فقد ذكرت من قبل في غير هذا الكتاب أنني أكره من كثير من المشتغلين بدعوة غير المسلمين إلىٰ الإسلام ابتداءهم الدعوة في مجتمعات الغربيين بجواب تلك «الشبهات» (أو الاعتراضات والتمحلات في الحقيقة، إذ ليس في شيء منها ما يمكن أن يوصف بأنه «شبهة دليل»): «موقف الإسلام من المرأة»، «موقف الإسلام من السيف»، «موقف الإسلام من حقوق الإنسان وحرية الإبداع»، .. إلخ، فلا يخرج الداعي إلىٰ الله من خطبة أو محاضرة في شيء منها إلا وقد حوصر بأمثال تلك الأسئلة، فلا يجيب عن أحدها حتىٰ يُدعىٰ إلىٰ الإجابة عن غيره، وبكل أسف، ترىٰ نفسه تزين له التفنن في تحرير الأجوبة عن تلك الشبهات جميعا، كل منها في «مبحث» مستقل، حتىٰ لا تكون نتيجة الجواب إلا طمأنة السائل إلىٰ أنه إن دخل في الإسلام فلن يخرج عن ذاك الإطار المعياري الأخلاقي المختار الذي يراه هو الخير وهو الأحسن والأرقىٰ في هذا الزمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هؤلاء قوم لا يريد أحدهم الدخول في الدين إلا أن يجده علىٰ وفق المزاج والهوىٰ كما في قوله تعالىٰ ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [**يوسف**: ١٠٦]، فلا يتسبب له ذلك الدين إن دخل فيه في نفور المجتمع منه أو في تهميشه إياه أو «تمييزه» اجتماعيا Social Stigmatization أو نحو ذلك مما قد يتعرض له أكثر المسلمين في

الغرب من ضغوط اجتماعية (لا سيما من استقام منهم علىٰ هدي السنة الظاهر، ولا سيما من كان منهم محتكا بأوساط «الصفوة» الفكرية والأكاديمية هناك)، فكيف يكون في هذا المسلك (الاعتذارية الكلامية) علاج تلك النفوس ودواؤها؟ هؤلاء لو أراد الداعية أن يأخذ بطريق يرجو من الله أن يجعله سبحانه سببا في تحرير نفس أحدهم من هواها، فليس أمامه إلا سبيل الأنبياء والمرسلين، الذين نعلم أن دعاواهم ما جاءت علىٰ وفق أهواء الناس في الأخلاق والتشريع، ومع هذا لم نر منهم اشتغالا بجواب تلك الاتهامات (التي يقال لها «شبهات») حول الشريعة والأخلاق التي جاء بها الإسلام، وإنما كان البيان الواضح لعلو ملة الإسلام – بضرورة العقل – علىٰ غيرها من الملل بمجرد حقيقة أنها ملة التوحيد الخالص، وأنها تطهر الإنسان من سائر صور الشرك وألوانه، وتدعوه إلىٰ الخضوع لخالقه علىٰ مقتضىٰ ذلك التوحيد الخالص في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وأن هذا مما لا مرية في أنه لا وجود له إلا في تلك الملة التي دعا إليها محمد بن عبد الله ﷺ!

فإن شهدت النفس بهذا الحق الجلي الواضح، فسينبني عليه عند صاحبها التسليم بأن جميع ما جاء به ذلك الرسول لا بد وأنه الحق من رب العالمين، فإذا ما سمع القرآن، نزل من نفسه كما نزل من نفوس الصحابة الأوائل رضي الله عنهم، إذ علموا من أول وهلة أنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلموا بالبداهة – من غير حاجة إلىٰ تأصيل فلسفي أو منطقي – أنه لا يصح إلا أن يكون هو المرجع المعياري الأخلاقي الحاكم علىٰ سائر الملل والفلسفات، وهو الحاكم علىٰ سائر أقوال البشر، وعليه فلا قيمة ولا وزن لشيء من تلك «الاعتراضات» التي قد يتصورها هؤلاء أو هؤلاء، ولا حاجة لتكلف الرد عليها أصلا! هذا المسلك السلفي الخالص في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، مع الوعظ والتذكير بالآخرة وبخطر الإعراض عن الحق من بعد ما تبين، ومن خطورة انشراح الصدر لأمثال تلك الدعاوىٰ التافهة والاعتراضات المتهافتة ومن تزيين النفس والشيطان لها، نقول إن من لم يستجب ولم ينشرح له صدره فلا والله ما ينفعه أن تأتيه بملء الأرض ردا وجوابا علىٰ الشبهات والأسئلة والاعتراضات! فما أشد حاجة الدعاة في زماننا هذا إلىٰ الانتباه إلىٰ هذا الأصل العظيم عند دعوة غير المسلمين، حتىٰ

لا تنقلب دعوتهم إلىٰ تنظير وتأصيل كلامي يوائم ويقارب بين الحق الخالص النقي من جانب وما يراه أهل الباطل من معايير وقيم أخلاقية في قضايا الحقوق والواجبات والمعاملات ونحو ذلك من جانب آخر، يداهنون ويداعبون أهواء وشهوات أمة الدعوة من أهل البلاد الغربية من حيث يحسبون أنهم يحسنون صنعا ويعملون لنصرة الدين، فيرجع نظرهم علىٰ الدين نفسه بالإفساد والتبديل والتحويل من حيث لا يشعرون!

لقد كنت في بداية طلبي للعلم أسمع من أهل العلم الكبار أجوبة موجزة شديدة الإيجاز كلما عرضت عليهم شبهة من أمثال تلك «الشبهات»، وكنت أراهم لا يتطرقون إلىٰ تفاصيل الشبهة (فلسفيا)، بل يكتفي أكثرهم بتذكير السائل بأن المسؤول عنه إنما هو الله العلي الكبير الذي لا يُسأل عما يفعل وليس لأحد من عباده أن يسيء الظن به وبكمال صفاته، الذي اصطفىٰ للناس رسولا في مختتم الرسالات والنبوات لم تعرف البشرية رجلا أعظم منه، جاء بمحجة بيضاء لا يخفىٰ نورها إلا علىٰ من عميت بصيرته، وأن من ارتاب في ذلك فعليه أن يجدد إسلامه، ثم يستعيذ بالله تعالىٰ من الشيطان. كنت أقرأ أمثال تلك الأجوبة المحكمة الموجزة، فأتساءل لماذا لم يطل في الجواب ويفصل ويفرع ويؤصل، لماذا لم يضرب الأمثال ويبين ويدلل، ثم لما منّ الله تبارك وتعالىٰ عليّ بمزيد من الاطلاع والدراسة، أقلعت عن كثير مما كنت أخوض فيه في أيام الحداثة، وتبين لي أن من لم يكفه جواب النبي عليه الصلاة والسلام عن سؤال السائل «فمن خلق الله» – وما يناظره – ففي قلبه مرض عضال يحتاج – إن كان يرجىٰ لمثله البرء منه – إلىٰ وعظ وتذكير وتخويف، وليس إلىٰ سوق «البراهين العقلية» علىٰ طريقة الفلاسفة والمتكلمين التي تحيل الواضحات الجليات إلىٰ معميات ومشوشات! وازددت ثقة ويقينا في أن الذين سكتوا من الصحابة والسلف، لم يسكتوا عما سكتوا عنه من جهل أو نقص أو عجز أو عن عدم اطلاع علىٰ الخلفيات الفلسفية والثقافية لهذه الدعوىٰ الباطلة أو تلك كما يدعي أهل البدع، وإنما عن علم سكتوا عما سكتوا عنه رضي الله عنهم وأرضاهم، ومن حكمتهم ورجاحة عقولهم أمسكوا عما أمسكوا عنه، ومنعوا غيرهم من الخوض فيه، فقد كانوا أبصر منا وأخبر بأمراض النفوس المرتابة والقلوب المهزوزة، فلا يضيع الواحد منهم وقته وجهده في النقش علىٰ الماء، كما يصنع كثير

من المتصدرين للدعوة إلىٰ الله في زماننا، لا سيما من تخصصوا منهم في دعوة أهل الغرب، فينتج بذلك منتجا يعظم ضرره علىٰ نفعه بين المسلمين، والله المستعان.

فما أكثر ما تنتهي المناظرات العلنية مع النصارىٰ والملاحدة وغيرهم من أهل الملل، بزيادة انتشار ما جاء به صاحب الهوىٰ من دعاوىٰ واهية للانتصار لباطله، وتعريض عامة المسلمين للنظر في ردود الدعاة عليها وأجوبتهم عنها بما من شأنه أن يعين أهل الباطل علىٰ دعواهم أن مواطن النزاع بين أهل الملل نظرية كلها، وأنها كثيرة وافرة تحتاج كل واحدة منها إلىٰ «حوار» طويل وجدل وتحقيق في «الأدلة» والأدلة علىٰ صحة الأدلة، والرد علىٰ جواب المخالف عن جواب شبهاته علىٰ أدلة الأدلة، إلىٰ ما لا آخر له ولا غاية من تفنن في إثارة الغبار الكثير علىٰ الحق الجلي الواضح الذي جاء به المرسلون، وحمله أتباعهم إلىٰ الناس من غير ما تكلف ولا تنطع ولا تفلسف!

أقول: كفىٰ بها إهانة للعقل البشري نفسه أن يفتح الباب لمن يجحد مخلوقيته، ليناظر ويجادل ويقدم «أدلته» المزعومة علىٰ صحة ذلك الاعتقاد لديه! ولكن هذا ما جنته أمتنا من الافتتان بمسالك الفلاسفة الأكاديميين في كل قرن من قرونها، لا سيما بما زاد في زماننا هذا علىٰ ما كان عليه الناس في القرون الخالية من قوالب «حرية التعبير» و«حرية النشر» و«ثقافة الحوار» وهذه الأشياء، وإلىٰ الله المشتكىٰ.

والأمر الذي يجب أن نقرره في هذا المقام، هو أنه خلافا لما انطلق منه «فتسينغر» وغيره في تأسيس نظريتهم من منطلقات مادية صرفة (كاعتقاد أن الأسباب والتفسيرات كلها مادية طبيعية محسوسة ولا بد، أو بعبارة أخرىٰ: لا يخرج منها شيء عن دائرة عالم الحس والشهادة)، فإننا نؤمن معاشر المسلمين بأن الهداية بيد الله وحده، وأن تلك الغشاوة علىٰ القلب (مع ما يقترن بها من حيل وألاعيب يسعىٰ بها صاحبها لإقناع نفسه بصحة ما يعلم فساده بداهة) إن جاء الأمر الغيبي بزوالها عن النفس، فإنك ترىٰ تلك النفس تقدم بشجاعة علىٰ التصريح بالحق والبراءة من الباطل الذي تمسكت به من قبل ونافحت من أجله، وعلىٰ تحمُّل تبعات ذلك أيا ما كانت. فالذي كان يمنعها من قبل من قبول الحق والخضوع له لم يكن خفاء ذلك الحق في نفسه، وإنما كان تسلط حب

الشهوة والهوىٰ علىٰ النفس، بما يجعلها تزين الباطل تزيينا، وتتلمس كل طريق لتخفيف تلك الاضطرابات والآلام والتشويش عليها والتلهي عنها من خلال تلك الآليات التي وصفها النفسانيون وبرهنوا عليها إمبريقيا في إطار نظرية «فتسينغر».

فمهما خوطبت تلك النفس المتشبثة بالباطل طاعة لهواها، بأدلة الحق الذي تعرفه، فلن يؤثر ذلك في موقفها الاعتقادي شبرا واحدا، إلا أن يأذن رب العالمين من عنده بزوال تلك الغشاوة عنها وانفكاك القفل الغليظ عن القلب. فإن حصل ذلك، ورأيت الإنسان ينقلب من بعد المنافحة عن الباطل إلىٰ التصريح بالدخول في الحق وقبول حججه والتسليم له، فستراه يصرح بأنه الآن يرىٰ بطلان ما كان من قبل يتعلق به من دعاوىٰ معرفية وحجج وبراهين مزعومة (مغالطات وأدلة زائفة) كما لم يكن يراه من قبل، ولعله يعجب من نفسه كيف كان يقتنع بتلك المزاعم والدعاوىٰ بل يروج لها ويدعو إليها وينافح عنها علىٰ ما فيها من سعي تنظيري في إبطال الحق البدهي الواضح!

هذا التحول لم يكن سببه تعاظم قوة أدلة الحق عنده حتىٰ ثقلت به الكفة في مقابل شبهات الباطل في نفسه، فهو كما أسلفنا علىٰ دراية سابقة بسائر ما عند الفريقين من حجج وبراهين، وهو يرىٰ قوة الحق وظهوره ولا يخفىٰ عليه ذلك، وإنما كان سببه تحول القلب من حب ذلك المطمع النفعي العاجل الذي من أجله كان يتمسك بالباطل من قبل ويعاند انتصارا له، إلىٰ بغضه والنفور منه، وهذا تحول لا شأن له بقوة الأدلة في نفسها. فهذه الغشاوة التي أزالها الله تعالىٰ عن ذلك القلب لم تكن تحول بين صاحبه وبين أن يرىٰ ذلك البطلان في الحقيقة (من حيث المعرفة به)، بل كان يرىٰ ذلك البطلان ويدري أنه قاصر دون تصحيحه والاقتناع بصحته، وإنما كانت الغشاوة تحول بينه وبين قبول دعوىٰ البطلان والتسليم بها (أو إن شئت فقل «الاقتناع» بها) مع الاستعداد التام لالتزام سائر لوازمها والعمل بجميع مقتضياتها، وما ذاك إلا لكراهيته تلك اللوازم والمقتضيات ونفوره منها بالأساس.

لهذا لا يجب أن يستغرب العاقل من شدة عناد بعض أهل الأهواء في التمسك بباطلهم علىٰ الرغم مما يقدمه أهل الحق لهم من أدلة وبراهين لا يماري في قوتها عاقل، لأن التسليم ببطلان الموقف والاستعداد لقبول تبعات ولوازم ذلك التحول في

الاعتقاد وما يترتب عليه من تحول في القول والعمل، لا تقتصر أسبابه في نفس الإنسان علىٰ استظهار القيمة المعرفية للدليل والدليل المقابل، بل يأتي علىٰ رأس أسبابه في الحقيقة ذلك التحول النفسي العجيب الذي لا يملكه امرؤ لأخيه، ولا يملكه أحد من البشر لنفسه أصلا، وهو ما يسميه علماؤنا بـ«هداية التوفيق»، وهي تلك الهداية التي قال رب العزة فيها: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [**القصص**: ٥٦]، إنها تلك الهداية التي يقف المرء حائرا كيف لعبقري من عباقرة العلم والفكر والفلسفة قد بلغ في تلك الصناعات المعرفية ما بلغ من شأن عظيم، ومع هذا لم يبلغها ولم تصل إليه، فلم يمت إلا علىٰ اعتقاد أنه لا صانع له ولا سبب، أو أن الرب واحد وثلاثة في نفس الوقت، أو أنه وجميع خلقه شيء واحد، أو نحو ذلك من العقائد التي تصادم بدهيات العقل الأولىٰ!

هؤلاء يجعلهم ربهم آية لكل عاقل، حتىٰ يرىٰ مصداق ما أخبر به سبحانه من أن هداية التوفيق، التي ترتفع بها غشاوة القلب وتزول به الأقفال التي عليه، لا يمن الله بها إلا علىٰ من يشاء من عباده، وحده لا شريك له، وأن ذلك لا يكون بكسبهم وقوة عقولهم ولكن بفضله ومنته سبحانه وحده لا شريك له. قال الحق تبارك تعالىٰ في مقام التفضل علىٰ الصحابة ﷺ: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ [**الحجرات**: ٧] ومفهوم الآية أنه لو شاء سبحانه لظللتم علىٰ انتصاركم للباطل الذي عرفتم بطلانه وعلىٰ بغضكم الرسول ودعوته والحق الذي معه من بعد ما تبين لكم أنه الحق، كما رأيتم من حال أولئك الذين سمعوا ما سمعتم ورأوا ما رأيتم ومع هذا أبوا إلا البقاء علىٰ الكفر، وإذن لمِتم علىٰ الشرك والكفر كما ماتوا، ولاستحققتم العذاب كما استحقوا. فلا يحسبن أحدكم أن ذكاءه يغني عنه في أمر الهداية شيئا. وإنما هي المنة والفضل الرباني بتحويل قلوبكم إلىٰ محبة الحق والرضا بلوازمه وتبعاته! هذا الرضا، أن ترضىٰ بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا، هو مفتاح الإيمان!

ومعلوم قصة عمّ رسول الله ﷺ (أبو طالب) الذي بلغ أن صرح بأنه يرىٰ في الإسلام أنه «من خير أديان البرية دينا»، وعلم أنه الحق، وأن محمدا رسول من عند الله حقا وصدقا، ولكنه مع هذا كره الدخول في الإسلام حتىٰ لا يفقد مكانته في قريش، وكان حريصا علىٰ أن تظهر مساندته لابن أخيه ﷺ علىٰ أنها حمية قبلية بالمقام الأول، لا حرصا منه علىٰ نشر ذاك الدين الجديد. فلما حزن رسول الله ﷺ من موت أبي طالب علىٰ الشرك وإبائه النطق بكلمة التوحيد حتىٰ وهو علىٰ فراش الموت، أنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [**القصص**: ٥٦].

فليكتب المرء إذن ما يشاء، وليضع من البراهين والحجج ما يحلو له، ففي النهاية مهما كان الباطل شديد الجلاء والظهور، فلا يقرّ ببطلانه ويسلم بذلك تسليما ويقبل بالعمل بمقتضياته والتزام لوازمه (بالرضا والمحبة والقبول القلبي) إلا من وفقه الله لترك الكذب علىٰ النفس والإقلاع عن تلك المسالك الخبيثة في تزيين الباطل والانتصار له، ووفقه للتخلص من شهوات ومنافع يحرص علىٰ إصابتها في دنياه بالبقاء علىٰ ما هو عليه، ولا فرق في هذا بين العبقري الفذ وضعيف العقل والنظر، فالآفة ليست في الدليل وقوته الموضوعية أصلا كما تقدم.

وانظر علىٰ سبيل المثال إلىٰ تلك الطائفة التي ضرب بها «فتسينغر» مثاله الشهير في خمسينات القرن الماضي الميلادي، أولئك الذين اعتقدوا أن العالم سيهلك وأن سفينة من كوكب «كلاريون» المزعوم ستأتي لتنقذهم من ذاك الهلاك! هؤلاء كانوا يعلمون – قطعا – أن عقيدتهم تلك لا ترتكز عندهم إلا علىٰ دعاوىٰ امرأة متنبئة لم تقدم لهم أي دليل معتبر لتصديق نبوءاتها العجيبة، ولا شك أنهم قوبلوا من أقرانهم والمقربين إليهم بما علموا مصداقه في أعماق نفوسهم من وهاء تلك الدعوىٰ وسخافتها، ونزيد أن هؤلاء جميعا لم يكن يخفىٰ عليهم كذلك أن لخالقهم رسولا اسمه «محمد» يدعو الناس لتعظيم الباري وتنزيهه عن الشريك والولد والصاحبة وعن التثليث وعن كل نقيصة، وأنه ليس في الأرض أمة من البشر تعظم الخالق الحق علىٰ النحو اللائق به جل جلاله كأتباع ذلك الرسول، وليس في الأرض أمة تعظم من شأن التوحيد وتخليص

الخضوع والعبادة والتسليم لأمره ونهيه وحده وتقاوم الإشراك به في ذلك كله كأتباع ذلك الرسول، وقد علموا أن هذا ما يوجبه العقل لخالق السماوات والأرض في أسمائه وصفاته ومقتضيات ذلك من خلقه المكلفين في الدين والعبادة، وعلموا أنه لا يوجد مثل ذلك في ملة من الملل علىٰ ظهر الأرض غير ملة «محمد» ﷺ، ومع هذا كله، لم نعلم أن أيا منهم كان يعبأ بالدخول في الإسلام أو بالاستماع إلىٰ القرآن، بل رأيناهم ينافحون عن عقيدة «كوكب كلاريون» هذا وعن صحة تلك النبوءة الخرافية الكاذبة التي رأوا كذبها بأعين رؤوسهم.

فلماذا ظلوا علىٰ ذاك المسلك المعوج، ومن أين اكتسبوا ذاك الإصرار و«العناد» الذي ظهر منهم بعدما مرت تلك الليلة «الموعودة» من غير أن تقوم القيامة أو يأتي الطوفان أو يهلك العالم أو تأتي سفينة الفضاء المزعومة؟ أَلِخفاء ذلك البطلان عليهم وقوة ما بين أيديهم من دليل علىٰ صحة تلك النبوة الفضائية؟ أبدا! بل كانوا يعلمون في بواطن نفوسهم أنهم ليسوا علىٰ شيء أصلا، ولكن حركهم في مسالك التسويغ والتشويش اتباعهم الهوىٰ وكراهيتهم التزام لوازم الإقرار بذلك الحق الذي يعرفونه والتسليم له.

هذه الخصلة الخبيثة، خصلة التخرص والكذب علىٰ النفس، يزداد صاحب الهوىٰ إغراقا فيها - ولا بد - كلما ازدادت العقيدة التي ينتصر لها بطلانا وفسادا في نفسها، وازدادت المسألة محل تلك العقيدة خطورة وعظما بالنسبة له، وقد مر معنا استعمال معادلة «فستينغر» في تقرير تلك المسألة. فلا عبرة بشدة التناقض والبطلان في الدعوىٰ المعرفية - بالنظر إلىٰ تلك الظاهرة السايكوباتية التي بين أيدينا - ما لم تكن تلك الدعوىٰ من الأهمية بما يكفي لتأريق نفس صاحبها من خطر البقاء عليها. وقد صح عن النبي ﷺ فيما أخرجه الترمذي أنه قال: «ما ضل قوم بعد هدىٰ كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، وتلا قوله تعالىٰ ﴿**وَقَالُوٓا۟ ءَأَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٥٨]، فما وقع هذا الصنف من الجدل الذي نتناوله في هذا الباب في أمة من الأمم (وأعني جدال الفلاسفة و«الثيولوجيين» والمتكلمين وأضرابهم)، إلا بعدما مالت قلوبهم عن الحق الذي كان عندهم فاختصموا عليه انتصارا لأهوائهم.

مغالبة اضطراب التناقض الاعتقادي في النفس من طريق التفنن في مغالبة القطعيات العقلية والبدهيات الأولى (مسالك السوفسطائيين)

في هذا القسم نتناول مسالك الفلاسفة ومن تابعهم في اختراع الحجج الواهية وشبهات البراهين العقلية لنصرة دعاوىٰ معرفية ظاهرة التناقض في كبرىٰ أبواب الاعتقاد الغيبي، مع بيان أن داء «السوفسطائية» في الجدل إنما هو ضرب من ضروب التشويش النفسي الفعال الذي يسعىٰ به أصحابه لتسويغ بقائهم علىٰ ما هم عليه من مواقف اعتقادية شديدة التناقض (لا سيما الملاحدة منهم). وللوصول إلىٰ هذه الغاية، نحتاج أولا إلىٰ بيان ما يفضي إليه مسلك المباحثة النظرية لأي حقيقة تعد من جملة البدهيات العقلية الأولىٰ، من تشويش - بالضرورة - علىٰ جلاء تلك الحقيقة ووضوحها الفطري الضروري في أذهان الناس، بمجرد تكلف تلك المباحثة وذاك النظر.

وقد بينا بفضل الله تعالىٰ في قسم سابق كيف أن الحقائق العقلية الكبرىٰ إنما هي أسس معرفية ضرورية، مركوزة في فطرة الإنسان وبداهته العقلية، يعرفها بمجرد أن يعقل، لأنها داخلة في تلك الثوابت المعنوية التي تشترك فيها سائر لغات البشر (من حيث مبدأ المنطق اللغوي). كضرورة إثبات محدِث لكل حادث، وسبب لكل مسبَّب، وفاعل لكل فعل، ومؤثر لكل أثر، وضرورة إثبات خالق واحد غير مخلوق، لكل ما هو مخلوق حاليا وكل ما خلق في الماضي وما سيخلق في المستقبل وكل ما يمكن حدوثه من أنواع المخلوقات، وإثبات لزوم النقص من مطلق الحدوث والمخلوقية، وامتناعه في حق ذلك الخالق الأزلي، وحقيقة وجود نفس الواحد منا في الواقع ووجود ما سواها من الموجودات، ومبدأ الفرقان بين ما في الذهن وما في خارجه، وحقيقة جريان الزمان ومضي ما مضىٰ منه واستقبال ما هو آت غدا، وتصديق أحدنا لما يذكره من ماضيه (مما لا يجد داعيا للتشكيك في قوة استحضاره إياه في ذاكرته)، ونحو ذلك من معان كلية يجدها الإنسان مركبة في ذهنه بداهة دون أن يجد ما يضطره للعبارة عنها أصلا، دع عنك أن يتكلف النظر فيها ونصب البرهان النظري علىٰ صحة كل واحد منها!

فحتىٰ ما تكلفته أنا الآن من العبارة عنها قد يحيل بعضها إلىٰ مادة للنظر والتشكيك لنقص العبارة نفسها بالنظر إلىٰ الألفاظ التي انتقيتها في كتابتها، لا لاشتباه أو خفاء الفكرة نفسها المراد نقلها لغويا! أي أن العقلاء من حيث الأصل لا يحتاجون حتىٰ إلىٰ من ينقلها إليهم لغويا، فإذا ما تكلف أحدهم العبارة عنها، فلربما أوقعه قصوره البشري في اختيار ألفاظ وتصويرات معنوية تبعدها عن ذهن السامع وتحيلها إلىٰ الضبابية والغبش! فعندما أقرر أني موجود علىٰ الحقيقة (مثلا)، فكلنا يعقل ما المقصود بهذا، ولا يمكن لعاقل أن يخالفني فيه. ولكن هب أني تكلفت قليلا من التفسير والشرح وقلت إن مقصودي بقولي «أنا موجود» هو أني الآن «أشغل حيزا من الزمان والمكان لا يشترك معي فيه غيري»! فقد فتحت الباب بمجرد ذلك لأن يأتي من يسألني: ما معنىٰ «حيز» وما ضابط معرفته وقياسه؟ وما معنىٰ الحيز الزماني وما تصوره، وهل لو قلنا إن حيزي في الزمان والفراغ يتداخل مع حيز غيري من الموجودات، لم يجز لي حينئذ أن أقول إنني «موجود» لحصول الاشتراك في الحيز الذي ينفيه هذا التوصيف أو التصوير؟ وما وجه ذلك النفي إذن وكيف يكون التوصيف صحيحا في بيان معنىٰ كوني «موجودا»، وقد أخرجنا منه الموجودات المشتركة في حيز واحد؟ إلىٰ آخر الأسئلة العبثية التي يحلو لفلاسفة الميتافزيقا التفنن في استخراجها للتنقير والتشقيق علىٰ نحو ذلك من تعاريف متكلفة مجملة لأشياء لا يفتقر العقلاء إلىٰ معرفتها من الأساس!

فهل لو أني عجزت عن شرح وتفسير مقصودي بأني «موجود» بعبارة لا يمكن لفيلسوف من الفلاسفة أن يعترض عليها، ثبت بمجرد ذلك أنني غير موجود علىٰ الحقيقة، أو جاز أن يقال إنني لا يصح لي أن أزعم أني موجود، أو أدعي العلم بوجودي، لعجزي عن مجرد تعريف ذلك الوجود نفسه علىٰ هذه الوتيرة أو تلك، فضلا عن نصب البرهان النظري عليه؟ أبدا! كل من زعم أنه لا يدري أنه «موجود» أو لا يدري معنىٰ قول القائل «أنا موجود»، فيحتاج إلىٰ من يشرحه له بأي صورة من الصور، أو لمن يضع له تعريفا ميتافزيقيا لما يدخل تحت المعنىٰ وما لا يدخل تحته، فهو كذاب أشر، يكذب علىٰ نفسه قبل غيره! هذا الباب للسفسطة علىٰ القضايا الواقعية (التي تثبت أمرا واقعيا في الخارج) والذهنية (المتعلقة بإثبات المعرفة ونفيها) إنما هو ثمرة تكلف ذلك النوع

من النظر والتعريف نفسه من الأساس، لأنه يحيل القضية برمتها إلىٰ الاشتباه لا محالة، مع أن العقلاء الأسوياء لا يفتقرون إليه أصلا!

والقصد أنه كما لا يحتاج الإنسان إلىٰ إقامة البرهان النظري علىٰ صحة ارتباط المعاني اللغوية بمرادفاتها، وارتباط الثوابت المنطقية اللغوية بعضها ببعض بما يفهمه عامة العقلاء بداهة أيا ما كانت اللغة المستعملة في الخطاب بينهم، فكذلك يقال في تلك الأصول المعرفية الكبرىٰ (التي سميناها بالمعارف الأساسية) ولنفس العلة.

دعني أيها القارئ الكريم أتحفك بعون الله تعالىٰ في هذا المبحث بمزيد بيان لما نقرره ها هنا من أن كل محاولة لإقامة البرهان النظري علىٰ صحة أي حقيقة من تلك الحقائق البدهية الكبرىٰ لا تأتي إلا بما من شأنه أن يشوش علىٰ بداهتها ووضوحها الفطري ويبعدها عن الذهن لا محالة (بما يفتح الباب واسعا للتذرع النفسي وتسويغ الباطل عند الفلاسفة وأتباعهم)، إذ يعلق صحتها علىٰ صحة دعاوىٰ معرفية أخرىٰ أحسن أحوالها أن تكون مثلها في المنزلة (إن سلمنا بخلوها من الإجمال وهو ما لا يكاد يحدث أبدا!)، فيشترط جمعها إلىٰ بعضها البعض حتىٰ يتحصل المراد، بما لا ينبغي أن يشترطه عاقل علىٰ نفسه أصلا حتىٰ يقبل تلك القضايا البدهية ويسلم بصحتها. فالعقلاء في غنية عن ذلك العبث الذي تعيث به أيدي الفلاسفة من نظر ومراجعة ومحاجة في بدهيات العقل الأولىٰ، وإنما يرجع ذلك المسلك الجدلي من أصحابه في كل مرة (وإن كانوا متكلمين أو لاهوتيين يرومون الانتصار لبعض تلك البدهيات علىٰ من يخالف فيها) بتشويش لا يستفيد منه إلا أهل الباطل والأهواء جملة (كما سنبين)، وهو السبب في كونه مسلكا مذموما في سائر دعاوىٰ الأنبياء والمرسلين مطلقا، وسبب ذم الفلسفة وعلم الكلام عند سلفنا وأئمتنا رحمهم الله تعالىٰ.

فالآن، هب أن لديك حقيقة بدهية «أ»، وجاء الفيلسوف الذي يريد أن ينصب الدليل النظري علىٰ صحتها ببرهان قياسي (أو منطقي تحليلي) يصوغه علىٰ الترتيب السيلوغي التالي:

مقدمة (١): إثبات الدعوىٰ المعرفية «س١»

مقدمة (٢): إثبات الدعوىٰ المعرفية «س٢»

النتيجة (٣): صحة الدعوىٰ المعرفية «أ».

علىٰ هذا الترتيب[1]، تصبح الدعوىٰ «أ» هذه دعوىٰ نظرية قد تتوقف صحتها علىٰ تأويل بعينه من التأويلات المحتملة لصياغة إحدىٰ المقدمات أو بعضها أو بعض ألفاظها علىٰ أحسن الأحوال. ولكن الدعاوىٰ الموسومة بأنها ضرورية بدهية، ليست دعاوىٰ نظرية، وإنما هي صحيحة بنفسها self-evident، كقولك مثلا إن «الأعزب لا يمكن أن يكون متزوجا»، هذه الدعوىٰ مدار صحتها علىٰ إدراك المعنىٰ اللغوي المجرد للفظة «أعزب» ولفظة «متزوج»، وهو معنىٰ يعرفه كل عاقل له دراية باللغة التي كتبت بها تلك العبارة، فلو أن أحدهم حاول أن يبرهن علىٰ صحة هذه العبارة نظريا، فماذا سيكتب؟

مقدمة (١): لفظة «أعزب» تعني في اللغة: غير المتزوج.

مقدمة (٢): صفة العزوبة وصفة الزواج متناقضتان.

نتيجة (٣): العبارة «الأعزب لا يمكن أن يكون متزوجا» عبارة صحيحة.

الآن تأمل في مقدمة (١)، هل تراها بحاجة إلىٰ أن تكتب أصلا؟ كلا ولا شك، فهي حقيقة يعرفها كل عاقل له دراية بمعاني ألفاظ اللغة (وإنما يحتاج إلىٰ التعريف بها من كان أجنبيا عن اللغة بعموم أو عن تلك اللفظة بخصوص). أما المقدمة (٢)، فتفيد نفس معنىٰ النتيجة (٣) في الحقيقة، فما استفدنا إلا أن أدخلنا الاشتباه علىٰ من لا يدري معنىٰ التناقض في مصطلح المناطقة! وإلا فكما تقدم فإن العاقل الملمّ بلغة الخطاب لا يحتاج إلىٰ دليل أو برهان «نظري» حتىٰ يقبل حقيقة مفادها أن الإنسان لا يمكن أن يكون موصوفا بأنه «أعزب» وبأنه «متزوج» في نفس الوقت.

---

(١) وهو الترتيب المعتاد عند المناطقة والفلاسفة المعاصرين لأي برهان نظري استنباطي يتكون من مقدمتين أو أكثر.

ولهذا كان من العبث المحض أن نتكلف نصب البرهان العقلي علىٰ صحة العبارة في (٣)، فإن هذا من شأنه أن ينزل بها من منزلة الحقيقة البديهية الأولية التي لا تحتاج إلىٰ برهان، إلىٰ منزلة أدنىٰ منها كدعوىٰ نظرية تفتقر إلىٰ دليل حتىٰ يصح للإنسان أن يقبلها. فعلىٰ هذه الصياغة التي حررناها للبرهنة علىٰ صحة العبارة (٣)، فمن فقد بعض تلك المقدمات (١ أو ٢) أو كلها أو افتقر إليها أو غمضت عليه، فمن حقه – من حيث المبدأ المعرفي – أن يزعم أنه لا يملك دليلا علىٰ صحة (٣)، ومن ثمّ فله أن يتوقف فيها فلا يقبلها ولا يردها حتىٰ تظهر له صحة البرهان المحرر أعلاه، وهذا باطل واضح، لأن صحة العبارة (٣) معروفة بالبداهة ابتداء كما بينا. وقد رأينا كيف أفضي مجرد تحريرنا للمقدمتين (١) و(٢) في المثال إلىٰ الوقوع في الدور المنطقي، إذ جاءت إحداهما مطابقة في المعنىٰ للنتيجة، وهو ما يعني محاولة إثبات صحة الدعوىٰ المطلوب إثبات صحتها، باستصحاب الدعوىٰ نفسها كمسلمة صحيحة! فهنا يأتي من يحلو له – لهوىٰ في نفسه – أن يتصيد المغالطات ليقول إن البرهان لا يوصل إلىٰ المطلوب، وإذن فلا ثبوت له، وعليكم إن أردتم إقناعه بصحته أن تخترعوا له «برهانا» آخر من نفس النوع، إن كنتم فاعلين! كل هذا مع أننا نتكلم في هذا المقام في دعوىٰ لا يصح أن يرتاب السامع صحيح العقل سليم اللسان في صحتها أصلا كما ذكرنا، فهي ثابتة بمجرد تلاوتها، ولهذا السبب تحديدا كان من الصعوبة بمكان أن يحاول إنسان إقامة برهان عقلي علىٰ صحتها، فالبراهين العقلية النظرية إنما تعمل علىٰ استصحاب أمثال تلك الحقائق اللغوية البدهية بالأساس!

ونكرر أن هذه الصياغة قد دخل فيها – كما ترىٰ – مصطلح منطقي (التناقض)، وهو ما يعني أن المخاطب بهذا البرهان يلزم أن يكون متفقا معنا في مفهوم هذا المصطلح حتىٰ يؤتي البرهان ثمرته المطلوبة (التي هي إقناعه بأن الإنسان لا يمكن أن يكون موصوفا بأنه أعزب وبأنه متزوج في نفس الوقت)! فلو أنه فهم مثلا أن المقصود بالتناقض أنه يمكن أن يخلو الإنسان منهما معا (أو بعبارة المناطقة: أن يرتفعا معا)، فقد فسدت المقدمة (٢) ولم تؤد المعنىٰ المطلوب. فهل هذا أمر يشترط في أي عاقل حتىٰ يقبل تلك الدعوىٰ (٣) ويسلم بصحتها؟ هل يشترط فيه أن يحقق فهما معينا – أي فهم،

صح أو لم يصح - للمصطلح المنطقي (تناقض)؟ كلا ولا شك. هذا تعطيل لعقول البشر وتحكم لا وجه له!

الآن تأمل في الدعوىٰ المعرفية القائلة بأنه: «ما من إنسان إلا وقد خُلق لا محالة (أو إلا وهو مخلوق بالضرورة)». هذه الدعوىٰ هي نظير الدعوىٰ الآنفة من جهة كونها صحيحة وثابتة ذاتيا Self-Evident تعرف صحتها عند سماعها ببداهة العقل دون الحاجة إلىٰ دليل. فلا أحتاج - أنا العاقل الذي يدري معنىٰ لفظة «خُلق» في اللغة - إلىٰ برهان يثبت لي أنه بما أني حدثت بعد أن لم أكن شيئا، فأنا إذن «مسبَّب»، وكل مسبب فهو «مخلوق»، ولا إلىٰ برهان يثبت لي أن كل ما صح أن يقال له «خُلق» فلا بد وأن له خالقا هو الذي ينسب إليه فعل «الخلق» من غير أن يسمىٰ صراحة! أو بإيجاز أقول: لا يحتاج العاقل إلىٰ تحرير علاقة كلية علىٰ هيئة مقدمة عقلية بدهية مفادها أن «كل حادث مخلوق»، حتىٰ يعرف من ذلك بقياس الشمول أنه ما دام حادثا (ولد بعد أن لم يكن شيئا) فهو مخلوق بالضرورة! هذا نظر وتقعيد لم يفتقر إليه أحد من عقلاء البشر أبدا في يوم من الأيام، وإنما تكلفته المتكلمة ونحوه للرد علىٰ الفلاسفة فجعلوه ساحة للاجتهاد والتنظير والأخذ والرد، والإبداع والتفنن في ابتكار المقدمات الكلية التي لا تخلو أبدا من إجمال واشتباه، والله المستعان!

هب أني صغت برهانا كلاميا علىٰ هذا النحو (مثلا):

مقدمة (١): كل إنسان يحدث من بعد عدمه.

مقدمة (٢): كل ما يحدث من بعد عدمه فلا بد وأن لحدوثه سببا.

مقدمة (٣): كل سبب لا بد وأن له سببا يسبقه، وصولا إلىٰ سبب أول هو الذي أحدث (خلق) سائر الأسباب والحوادث علىٰ حسب إرادته.

النتيجة (٤): كل إنسان مخلوق وكل مخلوق له خالق هو الذي صنعه.

الآن تأمل في هذه الصياغة كيف انفتحت بها أبواب لما لا يعد ولا يحصىٰ من مداخل التلاعب والعبث والتأويل، مع أن العبارة (٤) هذه من البديهيات الأولىٰ التي

لا يحتاج العقلاء إلىٰ نصب البرهان عليها أصلا! فلعل أحدهم أن يتناول المقدمتين (٢) و (٣) ثم يزعم أن البداهة لا تقتضي أن كل حادث له «محدث» أو حتىٰ أن له سببا (وهي مما طرقه الفلاسفة بالفعل، فذهب بعضهم إلىٰ نفي السببية وادعاء أنها ليست قاعدة مطردة في كل حادث، أو في كل صنف من الحوادث، وذهب آخرون إلىٰ إثبات السببية ولكن مع إبطال معنىٰ السبب في اللغة، بنفي أن يكون السبب الأول فاعلا «محدِثا» له إرادة واختيار). فمع أن معنىٰ «الإحداث» ملازم لمعنىٰ «الحدوث» بضرورة اللغة، أي بمقتضىٰ عمل المنطق اللغوي السوي في عقول البشر علىٰ اختلاف ألسنتهم ولغاتهم، ومع أن تسلسل الأسباب كما نراه في هذا العالم يوجب أن يكون في بدايتها سبب أول «محدِث» له فعل وإرادة، هو الذي علىٰ فعله وإرادته تتسلسل سائر الأسباب علىٰ نحو ما نرىٰ لا علىٰ غيره، إلا أن الفلاسفة عندما استدرجوا اللاهوتيين والمتكلمين إلىٰ صياغة تلك الحقائق البدهية في قوالب البراهين الفلسفية المشابهة لهذه التي كتبتها آنفا، انفتح الباب العريض بذلك للمراء بالباطل والمنازعة في مزيد من البدهيات نزاعا لا يستفيد من تكاثر (بل تضاعف) موضوعاته إلا الفلاسفة أنفسهم علىٰ التحقيق، خدمة لأهوائهم هم ومن اتبعهم. فالعاقل لا يحتاج إلىٰ أن يقف علىٰ هذا الترتيب للمقدمات والنتائج حتىٰ يقبل دعوىٰ أنه مخلوق مصنوع! لا يحتاج إلىٰ من يقيم له برهانا علىٰ وجوب «العلة الأولىٰ»، وعلىٰ وجوب أن تكون تلك العلة ذاتا فاعلة لها إرادة وحكمة وتدبير، فضلا عن أن يوقفه أحدهم علىٰ دليل لدعوىٰ أن كل ما يكون بعد أن لم يكن فلا بد وأن له «سببا» (وهو من الحقيقة اللغوية لكلمة سبب أصلا). هذه الكليات علىٰ صحتها، هي أبعد عن الأذهان من الدعوىٰ المراد إثباتها من طريقها أصلا كما لا يخفىٰ!

لهذا كان من العبث أن يتكلف أحدهم أن يضع تفسيرا أو شرحا لمعنىٰ كلمة «سبب» (مثلا)، لأنه معنىٰ معروف للفظ معروف مطروق جار في الاستعمال، من جنس ما تنتهي إليه المعاجم في شرح الألفاظ الغريبة وبيانها.[1] أي عاقل هذا الذي

(١) والمعاجم هي تلك الكتب التي تؤلف بغرض تقريب معاني الألفاظ الغريبة غير المألوفة في استعمال الناس، بتحويلها إلى ما يناظرها أو يقاربها في المعنى من ألفاظ شائعة الاستعمال معروفة المعنى، سواء

يحتاج إلىٰ شرح مفصل لمعنىٰ كلمة «سبب» أو «حادث» أو «أثر» أو «خلق» أو «صنع» أو نحوها، بدعوىٰ أنها من غريب اللغة أو أن في أي منها إجمالا أو اشتباها (مثلا)؟ هذه ألفاظ معروفة لكل عاقل لديه علم الصبية الصغار بهذا اللسان، لا نتكلف شرحها لأطفالنا في صغرهم حتىٰ يفهموها، وإنما نراهم يلتقطونها من استعمالنا اليومي من غير ما شرح، ولا يحتاج الأعجمي إلىٰ أن تُشرح له بلغته حتىٰ يفهم مقصودنا من استعمالها في العربية، وإنما يكفيه أن ننقلها إلىٰ اللفظة المناظرة لها في لسانه (التي التقطها هو الآخر في صغره من غير شرح) حتىٰ يفهم، كأن نقول لصاحب اللسان الإنكليزي (مثلا)، إن كلمة «سبب» معناها (cause) وكلمة «خلق» معناها (created) وهكذا.[١]

في داخل اللغة نفسها، أو من لغة إلى أخرى. فلولا أن كان في كلام الناس وعقولهم ألفاظ واضحة المعنى، وعلاقات معنوية معروفة بالبداهة بين تلك الألفاظ، فلا تحتاج إلى شرح أو تفسير أو تقريب، تفهمها الأذهان بداهة فلا يحتاج إنسان من أهل اللسان الذي تنتمي إليه تلك الألفاظ إلى السؤال عن معناها ومقتضى ذلك المعنى ولازمه المنطقي، لولا أن كان الأمر كذلك، ما أمكن لأحد من الخلق أن ينتفع من تلك المعاجم والقواميس، بل ما أمكن لأحد من العقلاء أن ينتفع باللغة نفسها! فلو أني وقفت في كل لفظ يأتي به مؤلف المعجم لبيان لفظ غريب وقلت «لا أفهمه، اشرحوه لي» (بصرف النظر عن شيوعه بين الناس)، لتسلسل الأمر بما يستحيل معه حصول الفهم والتواصل اللغوي أصلا، ولشهد القاصي والداني علي بأني مكابر مماحك أو مريض العقل! لذا كانت القاعدة البدهية في الشرح والتفسير أنه «توضيح» ينقل الإنسان من الألفاظ والتصورات البعيدة عن ذهنه إلى ما هو أقرب، وليس العكس كما تصنعه الفلاسفة عند تناول تلك القضايا التي نصفها بأنها من البدهيات الفطرية ومن قبيل تلك المعاني والعلاقات اللغوية الأولية التي تأتي في الطبقة الأولى من حيث الفهم والاستعمال، أو التي توضح بها الغوامض عند الحاجة، لا أنها تكون هي نفسها في حاجة إلى توضيح وشرح!

(١) ذكرت في الباب الأول أن أحد سفهاء الإلحاد العرب جاءني في يوم من الأيام بدعوى أنه لا يعقل معنى كلمة «نقص» وكلمة «كمال» في مقابلها، التي ننسبها وجوبا إلى صفات الباري جل وعلا، فيريد مني أن أسوق إليه تعريفهما الكلامي! فما كان مني إلا أن بينت له أنه كاذب، يريد أن يفتح لفظة واضحة المعنى لا يماري في فهمها عاقل لنظير ما غرق فيه الفلاسفة والمتكلمون من تعاريف وحدود لكلمة «عرض» و«حادث» ونحوها، حتى يوهم نفسه بأنه - المسكين - معذور إذ لم يتمكن من الوقوف على معنى مقبول لهذا الشرط الذي نشترطه في صفات الباري وأسمائه (أن تكون على المعنى الأكمل مطلقا). فلما لم يحر ذلك الكذاب طريقة يثبت بها عجزه المزعوم عن فهم مراد الناس بكلمة كمال (التي هي ضد النقص)، ووجدني قد فجأته بذلك الموقف المخالف لمواقف من سبق منه أن «ناظرهم» بهذه اللعبة من قبل، لم يجد إلا الشتم والسخرية والتطاول، حتى يوهم نفسه - كذلك - بأن خصمه هذا أدنى عقلا من أن يرقى بذهنه إلى تلك القضايا الفلسفية العميقة وأدنى من أن يتصورها حتى يجيبه بما يريد! فمثل هذا يحرص على إقناع نفسه بأن فلاسفة الإلحاد لم يختاروا الإلحاد لأنفسهم ملة ودينا إلا عن تعمق رفيع المستوى في

المسائل العقلية، وصل بهم إلى كشف ما لا يراه غيرهم، والله المستعان.

ولعله مر بما نقل عن الجبائي المعتزلي في تعريفه لكلمة كمال في قوله «الكامل الذي له أبعاض مجتمعة»، أو نحوا من ذلك، فوجد فيه بابا لنفي معنى الكمال عن رب العالمين، وجاء طامعا في إلزامنا بأن إثبات الكمال في حق ربنا تبارك وتعالى يلزم منه «تبعيض» ذاته إلى أجزاء تجتمع، والتبعيض (بمعنى القول بأجزاء يركب بعضها في بعض) يلزم منه التمثيل بالمخلوقين وهو ما نمنعه في حقه، فرجع الأمر علينا بالتناقض! ولا شك أننا لا يلزمنا تعريف الجبائي ولا غيره من تعريفات المتكلمين، لأننا ندور مع المعنى اللغوي الفطري الواضح للكلمة عندما نثبتها في حق ربنا، لا مع ما تكلفه الفلاسفة والمتكلمون من حدود وتعاريف أحسن أحوالها أن تكون مشحونة بالإجمال الموهم! فلو تكلفنا الرد على ذاك التعريف لبدأنا بالسؤال عن المقصود بالأبعاض، فإن كان المقصود أجزاء مركبة كما تتركب منه ذوات المخلوقين، فليس من المسلمين من يرد على ذهنه – أصلا – هذا القياس البيولوجي أو الفيزيائي عندما ينسب رب العالمين إلى الكمال في أسمائه وصفاته! وإنما المقصود أنه سبحانه عند الغاية والنهاية من مقدار الحسن في جميع صفاته، فلا يوصف شيء من خلقه بأنه أحسن منه أو أكمل في أي صفة مما يشترك معناها بينه سبحانه وبين أنواع المخلوقين، ويتصور تفاضلها في الحسن والكمال فيما بينهم! هذا معنى مركوز في الفطرة لا يحتاج إلى برهان نظري حتى يُعرف، بل والله لا يحتاج إلى شيء من هذا الشرح والتفصيل نفسه الذي تكلفته أنا في هذه العبارات، ولو زدت على ذلك ما أمنت أن ينقلب هذا المعنى البدهي – على وضوحه – إلى الإجمال والبعد عن الأذهان! نحن نقول إن الصفات كلها تتفاضل في درجاتها بين الموصوفين بها، مع كونها في حق خالقهم عند غاية الكمال ضرورة، وعلى الحقيقة اللائقة بذاته جل وعلا ضرورة! فما الذي سوى بين معنى «التبعض» عند المتكلمين (الذي هو بمعنى تركب الشيء من أجزاء قابلة للانفكاك من بعضها البعض) ومعنى «التفاضل»؟ وأين «الأبعاض» و«الأجزاء» و«التركب» و«الاجتماع» و«الأجسام» وذاك العبث بالمجملات والمتشابهات مما نريد عندما نقول إن ربنا تبارك وتعالى موصوف بالكمال في جميع صفاته؟ التفاضل الممكن في مقدار الصفة (أي صفة) شيء، والتبعض، بمعنى الاتصاف بذات تتركب من أجزاء أو «أبعاض» قياسا على المخلوقين شيء آخر بالكلية، ولا تلازم بينهما أصلا إلا فيما أحدثه المتكلمون بتعريفهم المجمل الفاسد!

والقصد أن مجملات المتكلمين (الواقعة في براهينهم النظرية المخترعة لا محالة، مهما جودوا فيها) كانت وستظل جُنة وستارا سميكا للملاحدة والزنادقة في الحقيقة، يتوصلون منها إلى السفسطة في البديهيات الواضحات، لما فيها من إطلاقات قياسية فاحشة وكليات نظرية مضطربة، أو على أقل تقدير لما في تركيبها اللفظي من صعوبة في الفهم وبعد عن الأذهان، ومن مصطلحات يرد عليها الأخذ والرد والنزاع بين الفلاسفة مع كونها لا يتصور أن يسلم المتكلم من التلبس ببعضها، سواء لخلل أو إجمال في تلك المصطلحات نفسها أو من تشغيب وسفسطة كما يحسنه الفلاسفة ويغرقون فيه بلا نهاية ولا حدّ ولا ضابط! وإلا فنحن نعلم، كما كان يعلم الجبائي نفسه، أن العاقل لا يحتاج إلى تعريفه هذا أو غيره حتى يستقيم له في ذهنه استعمال معنى «الكمال» (على اللسان العربي السوي) في وصف رب العالمين على النحو اللائق بذاته جل وعلا! وإنما هي جملة من القواعد النظرية والتعريفات المتكلفة بناها القوم لنصرة نظرياتهم الميتافزيقية وبراهينهم الكلامية في إثبات الصانع، فاضطروا لالتزامها حتى لا تنهدم تلك البراهين المخترعة على رؤوسهم!

وأغلب الظن أن ذاك الصبي التافه الذي زعم أنه لا يفهم معنى كلمة «كمال» واشترط علي أن أتكلف تعريفها كلاميا، كان أجهل من أن يمر بكلام الجبائي المذكور أو غيره، ولكن القصد أن الطريقة نفسها والمنهج

العقلي نفسه هو الذي جلب علينا تلك الأمراض وسوغها (على أنها جدال نظري عقلي) في سياق «علمي» بل و«أكاديمي» معتمد، وإلى الله المشتكى!

العلم بوجود الباري وكماله علم فطري جبلي جاء المرسلون بالتأسيس عليه لا بتأسيسه هو نفسه ابتداءً، فمن زعم أنه لا يدري أمخلوق هو أم لا، وهل ترد على خالقه النقائص أم لا، فهو كذاب يكذب على عقله وعلى نفسه التي بين جنبيه قطعا، فلا يخاطب مثله بالبرهان النظري كما يطلب!

هؤلاء الممارون الذين يصارعون فطرة الله ويغالبون عقولهم نفسها، قال فيهم ربهم الذي هو أعلم بهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [**الأنعام**: ٢٣ – ٢٨].

لذا قلنا ونقول إن من بلغت به سفسطته أن خاصم وماری في ضرورة كمال باريه وتنزهه عن كل نقيصة (وهي تلك الحقيقة البدهية الفطرية التي يجدها مركبة في نفسه تركيبا دون افتقار إلى برهان)، فلن يتوانى في إسقاط أي برهان نظري يأتيه به المتكلم مهما كان يبدو محكما متينا في أداء المطلوب، تراه يبدع في الرد والاعتراض والتلبيس بحسب قوة عقله وذكائه، لا يمنعه مانع من نفسه ولا يحجزه حاجز من عقله، بل يراه مدفوعا إلى ذلك بمحض الهوى! ولهذا نقول إن الملاحدة أنفسهم كانوا ولا يزالون هم أحرص الناس على استمرار ذلك السجال «النظري» فيما بينهم وبين المتكلمين المتصدرين لجدالهم من أهل الملل أبد الدهر، لأنه كان ولا يزال وسيظل يمدهم بالغطاء النفسي والاجتماعي المطلوب لتسويغ ما هم عليه وتزيينه لأنفسهم ولغيرهم من الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فترى الواحد منهم يبادئك بقوله «أنا مسكين ضعيف لا أفهم، فاشرح لي! وأشهد لك بأني أريد الهداية، وسأقبل الحق بمجرد أن تظهر لي أدلته!». فإن شرحت وأصلت ونظرّت على شرطه كما يريد، جاءك – لا محالة – بمزيد من الاعتراضات والتساؤلات والإشكالات، وإذن ترى أنت نفسك مطالبا بدفع الإجمال لأنك أنت من أوقعته فيه أصلا بلزومك تلك الطريقة التي اشترطها هو عليك، فتعين عليك توضيح ما أجملت وبيان ما أشكلت! فإن تكلفت أنت مزيد تفسير وبيان على نفس المنوال، تكلف هو مزيد اعتراض وسؤال واستشكال (ولن يعجز عن ذلك أبدا)، وصار الأمر إلى ذاك السجال النظري المعروف الذي يتفنن فيه الفلاسفة أيما تفنن، يحرصون على إطالة حبائله أبد الدهر حتى يظل الواحد منهم متعلقا بأن بينه وبين أهل الأديان «مناقشة» و«محاورة» جارية ولا تزال مستمرة متصلة لمّا تفض إلى نتيجة بعد (ولن تفضي!)، وأنهم كلما جاؤوه ببرهان نظري لم يعجز عن استخراج النقائص والزلات البشرية في ذلك البرهان بما يحتاج من صاحب البرهان – على أحسن الأحوال – إلى ترجيح نظري قد يصيب فيه وقد يخطئ! وإذا بالملحد الجاحد المريض يبدو من طول مكثه في النقاش معكم وكأنه حريص على طلب الحقيقة وإلا لترك الحوار وانصرف عنه البتة! وإذا بالقضية نفسها محل النزاع تتحول إلى معترك نظري عويص بالغ التشعب والتعمق، يعتريه الإجمال والغموض ولا يسع أحد الطرفين فيه أن يتهم الطرف الآخر بأنه صاحب هوى أو مرض نفسي أو مكابرة أو بأنه يتغافل عن

هذه المعاني معرفة ضرورية غير مكتسبة، هي لبنة العمل العقلي نفسه عند الإنسان، وإنما تقع من الإنسان العبارة عنها بمجرد أن يتعلم كيف يركب عليها ما يناسبها من ألفاظ اللغة التي التقطها من بيئته في الصغر. هذه المعاني المعلومة بالبداهة والفطرة في عقل الإنسان، يدخل فيها ما يتناوله المناطقة من قواعد منطقية بدهية يستعملها الإنسان بفطرته من غير أن يكون ملما بصياغة المنطقيين لها ومن غير أن يحتاج إلىٰ تعلم تلك الصياغات، وكذلك ما وضعه علماء اللغة من قواعد في علم النحو وما يناظره عند أهل اللغات (كالتفريق بين الفعل والفاعل والمفعول وأركان الجملة المفيدة ونحو ذلك)، هذه يستعملها الناس في كلامهم بالضرورة، وإلا ما قام للغة نفسها قيام فيما بينهم.

هذه المعارف الفطرية الضرورية غير المكتسبة في نفس الإنسان نجعلها – كما بينا في قسم سابق – في منزلة الطبقة الأولىٰ من طبقات المعرفة، التي يتأسس كل شيء في علم الإنسان عليها، ولا يمكن لعاقل أن يُقرب أي فكرة أو أي مجموعة من المعاني المعتملة في نفسه إلىٰ غيره من الناس إلا بالاستعانة بها إجمالا (من غير أن يحتاج إلىٰ الدراية الواعية بأنه يستعين بها، أو يفتقر إلىٰ شرحها وتفسيرها هي نفسها، لنفسه أو لغيره). لهذا كان السعي في توضيح تلك المعاني غاية العبث، ولا يفضي بصاحب ذلك المسعىٰ إلا إلىٰ التشويش عليها وفتح الباب لإدخال ألفاظ وعبارات مجملة تنفتح أبواب التأويل والاشتراك اللفظي فيها علىٰ أوسعها، وحتىٰ وإن لم تكن مجملة حقا فهي كليات متكلفة تزين لصاحب النفس الخبيثة أن يتعلق بما جاءت به من تكلف لفظي ليزعم أنه لا يُسلم بهذه المقدمة أو تلك، يزعم أنها تحتاج بدورها إلىٰ دليل سابق عليها، وإذا به يتسلسل ببرهان خصمه تسلسلا لا يوصل إلىٰ علم أو معرفة البتة، ولا ثمرة له إلا إزكاء الجدل وإطالة أذياله بين أصحابه لتحقيق كسب نفسي واجتماعي صرف قد تكلمنا عنه آنفا.

الحق الواضح أو نحو ذلك، إذ لو كان الأمر كذلك حقا فما معنى فتح الجدال «النظري الفلسفي» في تلك القضايا واستطالته بين أطرافه على هذا النحو من الأساس؟

فتأمل – رحمك الله – كيف تكذب النفس على صاحبها وعلى الناس، وكيف تزين الشياطين للمجرمين الذرائع والحيل والتسويغات الواهية، وتزينها – كذلك – لمن تصدروا لدعوتهم وهدايتهم إلا من رحم الله! تأمل في ذلك طويلا ولا تعجل، فهو ما لأجله كتبت هذا الكتاب، أسأل الله الإخلاص والسداد.

فلو رجعنا إلىٰ الصيغة المجردة التي عرضناها في مستهل هذا المبحث، إذ يرجو أحدهم نصب البرهان النظري علىٰ صحة دعوىٰ معرفية «أ» نعدها من جنس تلك المعارف الأولىٰ الأساسية الصحيحة بنفسها بالضرورة Basic Beliefs:

مقدمة (١): الدعوىٰ المعرفية «س١»

مقدمة (٢): الدعوىٰ المعرفية «س٢»

النتيجة (٣): صحة الدعوىٰ المعرفية «أ».

فبوسعنا الآن أن نتصور كيف أن الدعوىٰ «س١» هذه إما أن تكون أقل في ظهورها العقلي (أو في قرب معانيها من الذهن) من الدعوىٰ «أ» نفسها (لورود الإجمال عليها)، وإما أنها – علىٰ أحسن الأحوال – تساويها أو تناظرها في وضوح وجلاء المعنىٰ، أو بعبارة أخرىٰ نقول: إما أن تكون «س١» صحيحة بنفسها من غير دليل خارجي self-evident كما هو الشأن في «أ»، أي يقطع العامي من أهل اللسان بصحتها بمجرد سماعها، وإما أن تكون مفتقرة إلىٰ دليل خارج عنها حتىٰ يُسلم بصحتها معرفيا (وإن لم يزد ذلك الدليل علىٰ أن يكون شرحا وتوضيحا وتقريرا لما من شأنه أن يدفع عنها الاشتراك اللفظي والاشتباه المعنوي من تعاريف وحدود وكذا كما مثلنا عليه آنفا في المصطلح «تناقض»)، فتكون أدنىٰ من «أ» في المرتبة، وهو ما يعني إذن أن «أ» وما في منزلتها هي التي يُتوصل بمثلها إلىٰ التدليل علىٰ صحة «س١» وما يشاكلها، وليس العكس! ذلك لأننا قررنا كما تقدم أن «أ» هذه تأتي في منزلة الدعاوىٰ المعرفية الضرورية Basic التي لا تحتاج معانيها إلىٰ تحرير وعبارة أصلا، فضلا عن التوضيح والتجلية والتدليل. وكذلك يقال في الدعوىٰ «س٢».

فلو كتبنا هذا الترتيب علىٰ هذا النحو: بر (أ) = (س١ + س٢)، علىٰ اعتبار أن الدعوىٰ «أ» يراد الوصول إلىٰ التدليل علىٰ صحتها بمجموع الدعوتين «س١» و«س٢» (أو ما سميناه «بر(أ)»، أو برهان «أ»)، فإن هذا يعني أن طريقا جديدا قد انفتح أمام الخصم المكذب بالدعوىٰ «أ» للطعن عليها، وذلك بالطعن علىٰ مقدمات أو خطوات

أو مفردات «بر (أ)» هذا. فسواء كان هذا الطاعن متعلقا بما يقال له مغالطة المغالِط (وهي معاملة البرهان النظري الواحد علىٰ أن سقوطه يلزم منه سقوط الدعوىٰ النظرية المستدل به عليها بالكلية، وليس هذا بلازم لإمكان أن يكون ثمة أدلة وبراهين أخرىٰ كما هو معلوم)، أو كان معترفا بإمكان أن تصح «أ» من غير أن يصح «بر (أ)»، فهو يعلم أن «أ» هذه ليست دعوىٰ نظرية ولا تفتقر إلىٰ دليل أصلا، ولكن بظهور تلك الصياغة الفلسفية المتنطعة «بر (أ)»، أصبح لديه المزيد من الطرق الجدلية التي يمكنه استعمالها للتشويش علىٰ ما يزعمه الخصم من كون تلك الدعوىٰ «أ» دعوىٰ بدهية لا تفتقر إلىٰ دليل، وذلك بسباكة الاعتراضات والاستشكالات علىٰ أفراد القضايا التي تتكون منها المجموعة «بر(أ)» هذه (ألا وهي «س١» و«س٢»)، وهذا هو ما تطمح إليه نفسه تبعا لمحرك الهوىٰ فيها، بغية التهوين من ثقل ذلك التناقض الصارخ والمؤلم الذي تعاني منه تلك النفس فيما تنافح عنه من اعتقاد.

ولا شك أنه كلما تعددت أوجه الاستشكالات والاعتراضات والاشتباهات المعنوية التي يمكن طرحها ضد هاتين القضيتين والتفريع عليها والاشتغال بالمجادلة والمناظرة فيها، كان ذلك أحسن وأحب إلىٰ نفس صاحبنا السوفسطائي صاحب الهوىٰ. فكلما كثرت الرود علىٰ كل اعتراض من تلك الاعتراضات، كان إشغال النفس والموافقين والمخالفين بتفنيد تلك الاعتراضات باعتراضات عليها، ثم بالجواب عن رد المخالف علىٰ الاعتراضات، ثم الرد علىٰ جواب الرد، وهكذا دواليك إلىٰ غير ما نهاية، أحسن وأكثر فاعلية في تخفيف ذلك الاضطراب النفسي Dissonance Repression.

فعلىٰ سبيل المثال، قد يجري الاعتراض علىٰ «س١»بالدعاوىٰ «ص١» و«ص٢» و«ص٣»، فيأتي جواب المخالف عن «ص١» بكل من «س١-١» و«س١-٢»، وعن «ص٢» بكل من «س١-٣» و«س١-٤»، وعن «ص٣» بكل من «س١-٥» و«س١-٦»، ثم يأتي جواب صاحبنا عن تلك الاعتراضات كل واحد منها بدعوىٰ أو اثنين أو أكثر، وهكذا، فيمضي الأمر في تضاعف شجري هو أقرب شيء شبها إلىٰ التفاعل الانشطاري الذري. ولا شك أن في هذا المثال شيئا من المبالغة لبيان المعنىٰ، ولكن

القصد بيان أنه كلما كثرت الردود المتبادلة بين المتنازعين في مثل هذه القضية، ازداد الجميع بعدا عن الحق الواضح في الدعوىٰ «أ»، الذي لم يكن بحاجة إلىٰ برهان أو إثبات من الأساس، وانقلب الأمر إلىٰ تسلسل البراهين والأدلة والمسوغات Regress of justification (بمعنىٰ طلب الدليل علىٰ صحة كل دليل، والدليل علىٰ صحة ذاك، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية له)، وهو باطل قطعا، ولكنه واقع لا محالة عندما تبدأ المناقشة من التشكيك في البدهيات الأولىٰ، ويُستعمل النظر العقلي للوصول إلىٰ إثباتها والتدليل عليها!

ولا شك أنه في كثير من الأحيان يستشعر المنتصر للقضية «أ» في هذا النزاع أنه قد ابتعد كثيرا عن لب المسألة، فتراه يتجاهل كثيرا من النزاعات في فروع شجرة الرد والاعتراض الانشطارية هذه، ليرجع بمجادله إلىٰ نقطة أقرب، ولعله يقدم برهانا جديدا من نفس هذا الصنف، فيفتح بابا جديدا لشجرة أخرىٰ موازية من المهارشة السوفسطائية المتبادلة، من غير أن يلتفت إلىٰ أن كل خطوة يخطوها إنما تضيف إلىٰ رصيد خصمه في الحقيقة، إذ يصبح هو أشد تلبسا بما يقتضي منه التنازل عن دعواه أن موضوع النزاع كان قضية بدهية واضحة من الأساس، لا تحتاج إلىٰ برهان نظري (إن كان ممن يزعمون ذلك أصلا)، ومن ثمّ فلا يصح أن تطرح للجدل والمناظرة، بينما يزداد محصول الخصم المعترض علىٰ الدعوىٰ «أ» هذه من الأجوبة الفلسفية عنها والاعتراضات عليها (وإن كانت كلها في غاية التهافت) والنزاعات المفتوحة فيها بسبب تلك المجادلة، مع ما في كل واحد منها من أغوار الاشتباه اللفظي والتعقيد المعنوي، وهو غاية ما يطمع فيه هذا الجاحد للدعوىٰ «أ» علىٰ أي حال، ليحقق لنفسه ما ترنو إليه من وهم الانتصار علىٰ الخصم ومن تشويش علىٰ أصل التناقض الجلي الذي يعاني منه في منظومته الاعتقادية Belief System من مجرد نفيه الدعوىٰ «أ» وتكذيبه بها.

فلو أردنا أن ننظم هذا المسلك في قالب «فستينغر» الرياضي للتناسب الطردي والعكسي بين ما يبذله الإنسان من مسالك ومساعي في تعديل منظومته المعرفية، وبين مقدار الاضطراب النفسي الناشئ عن التناقض الاعتقادي لديه، فلعلنا نكتبه

علىٰ هذا النحو:

مقدار الاضطراب المعرفي = Cognitive Dissonance

(س + ص + ...)❋ و

―――――――――――――――

(ع❋ط + ر❋ل + ...)+(م❋ر)❋ عت ❋ تس²

حيث «م» = عدد المجادلين من المخالفين الذين دخلوا في نزاع مع صاحب تلك النفس، و«ر» = عدد مرات الرد المتبادل بينه وبين مجموعهم، و«عت» = مجموع الاعتراضات علىٰ دقائق وتفاصيل المقدمات والبراهين والردود والأجوبة التي يأتي بها الخصم، وتربيع «تس» = تربيع عدد طبقات التسلسل في المحاجة والاستدلال التي يصل إليها المتفلسف الجاحد في مجموع ما انتهىٰ إليه عمله من ذلك. وقد رفعت هذه القيمة إلىٰ التربيع بالنظر إلىٰ أن الجدال كلما انتقل إلىٰ طبقة أخرىٰ من طبقات الاستدلال (طلب الدليل علىٰ صحة الدليل، أو المنازعة فيما يقوم عليه بناء المقدمات المستخدمة لإثبات المقدمات المستعملة في البرهنة علىٰ ... الخ)، كان ذلك أبلغ أثرا بدرجات كثيرة في تحقيق المراد من التشويش علىٰ الحق الظاهر وإخفائه عن عين النفس. لا سيما وقد علمتَ مما تقدم أن المدافع عن الحقيقة البدهية «أ»، لن يأتي بحجة نظرية في الانتصار لها – مهما عمل – إلا كانت مقدماتها بالضرورة أقل وضوحا وجلاءً (بمجموعها) من المعنىٰ المشتمل عليه في «أ» هذه نفسها، فإذا انفتحت تلك المقدمات للنظر في كل واحدة منها كما انفتح النظر في «أ» نفسها من الأساس، تضاعف طول الطريق بين المتناظرين وبين الحق الواضح بذلك أضعافا كثيرة ولا شك، وهو عين المطلوب عند صاحب الهوىٰ الجاحد المنتصر لهواه، كما سيأتي التمثيل عليه من جدال الفلاسفة المعاصرين في قسم لاحق إن شاء الله تعالىٰ.

ولعله يبدو جليا للقارئ الفطن بعد ما تقدم تحريره، أن الجاحد المكابر صاحب الدعوىٰ السوفسطائية في إنكار «أ»، ما كان ليجد فرصة للانتصار لها لولا أن وجد من يمده ببرهان نظري يراد منه التدليل علىٰ ما علم في نفسه أنه لا يحتاج إلىٰ دليل أصلا! فهذا الأخير (المنتصر للدعوىٰ «أ» بالبرهان النظري) هو الذي أحال مادة تلك الدعوىٰ إلىٰ موضوع للنظر والجدال من حيث يحسب أنه ينتصر لها. ولو أن «النخبة» في

المجتمع توافقوا وتتابعوا علىٰ ألا يردوا علىٰ كل معترض علىٰ قضية من قضايا الفطرة والبداهة الأولىٰ إلا بالتسفيه والتحقير والمنع، لما وجد هؤلاء متسعا لبث زبالتهم وإغراق العقلاء فيها تحت شعار التنظير والتدليل الفلسفي! ولكن قد جرت سنة الله تعالىٰ في خلق بني آدم علىٰ أن يبتليهم بألوان الخلاف والنزاع وأهواء النفوس ابتلاءً، وأن يبتليهم بالعقل نفسه، سبحانه وتعالىٰ، كما في قوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [**هود**: ١١٨، ١١٩]

لذا اقتضت حكمة ربك أن تظهر تلك الصناعات والفنون الفلسفية التي يتخصص أصحابها في المجادلة والمراء فيما لا ينبغي لعاقل أن يجادل فيه أصلا، من أول يوم ظهرت فيه العقائد الشركية (المخالفة بطبيعتها للبدهيات العقلية الأولىٰ) في جماعة من بني آدم علىٰ ظهر الأرض، بل رأيناه من إبليس نفسه في تسويغه العقلي لموقفه الجاحد كما بينا من قبل. يقول جل وعلا: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [**البقرة**: ٢١٣][1]، ويقول عز من قائل: ﴿**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [**يونس**: ١٩].

---

(١) وتأمل قوله تعالى ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ [**البقرة**: ٢١٣]، فرد سبحانه وتعالى أصل الخلاف بين أهل الملل والأديان كلها إلى خلاف الأولين منهم الذين أوتوا البينات ومع ذلك اختلفوا بغيا وظلما من بعد ما جاءتهم تلك البينات وقامت عليهم حجة الحق بها واضحة لا التباس فيها. فلولا أن أصرت طواغيت الشرك في أوائل ظهوره على الأرض، على البقاء على تلك العقائد المتهافتة من بعدما جاءهم خطاب المرسلين بالحق، لما بقي الناس إلا على دين واحد، دين أبيهم آدم عليه السلام: الإسلام، دين التوحيد الخالص. والاختلاف من بعد ظهور البينات إنما هو محض الجحود واتباع الهوى (الذين نتناوله في هذا الكتاب بالبحث النفسي والتنظير السيكولوجي) الذي يحمل صاحبه على رد الحق الواضح الجلي والتمسك بما لا يخفى بطلانه على كل عاقل متجرد سليم النفس. هذا المسلك لا يكون من أصحابه إلا ظلما وبغيا وعلوا، وهو ما اقتضت حكمة الله تعالى جعله ابتلاءً عظيما لكل أمة خوطبت بالرسل والرسالات بداية من آدم ووصولا إلى محمد بن عبد الله، عليهم جميعا صلوات ربي وسلامه.

فلولا أن كان في نفوس المتناظرين والمتنازعين من أهل الملل من الأهواء ما أبقىٰ كلا منهم علىٰ باطله من الأصل، لما انفتح ذلك الباب التلبيسي العظيم الذي تلهو به ولا تزال طوائف الفلاسفة من أهل الملل (بما في ذلك الإلحاد وفروعه). وهذا هو السبب – في الحقيقة – في كون البدع والاختراعات الباطلة في العقائد الغيبية وفي تفاصيل الأديان وشعائرها وممارساتها، لا تمضي في المجتمع البشري – إجمالا – إلا إلىٰ التزايد والتضاعف والتشعب والتفرع بمعدل لعله أن يكون «لوغارتميًا»، إن صح التعبير، بسبب طول جدال أهل الباطل فيما بينهم، ولا بد له أن يطول! فما أن يتناظر اثنان من أهل الملل الباطلة، إلا وسيحرص كل واحد منهما علىٰ الابتعاد بمناقشاته ودعاواه عن أصل التناقض في ملته وسيعمل – لا محالة – علىٰ التشويش عليه، كما سيحرص كذلك علىٰ مواطأة ما عليه أهل مجتمعه من قيم كلية في تعظيم بعض المناهج الفكرية والفلسفية بعينها، لما لذلك من شهوة في نفسه يرجو إصابتها (شهوة العلو بين الأقران). ولو كان منتميا إلىٰ أمة مغلوبة موسومة بالتردي علىٰ المستوىٰ المعرفي والفكري والمادي والتقني (أو ما يقال له اليوم دول العالم الثالث أو الدول النامية أو نحو ذلك) فسيحركه هواه صوب مواطأة ما عليه من يشار إليهم بالعلو الفكري والفلسفي في البلاد الرائدة فكريا وعلميا وصناعيا في زمانه، وهو ما أفرز ما غلب علىٰ أوساط من يقال لهم «المثقفون» في بلادنا في زماننا هذا من تبعية وانهزام نفسي وحرص شديد علىٰ الانخلاع من حُلة المهزوم، والتلبس بـ«لبوس المنتصر المتفوق» والتشدق بفلسفات ونظريات «الرجل الأبيض» صاحب الريادة.

هذا هو منشأ ذلك الصراع بين ما يقال له إجمالا «الأصالة» وما يقال له «المعاصرة»، فيما يقال له «تراثنا الفكري» أو «الثقافي» المعاصر. فهو صراع نفسي في الحقيقة، صراع أهواء أنبتت صور الجدال والسجال الفلسفي أشكالا وألوانا. فليس في العقل السوي ما يستجاز معه إسقاط كل ما كان من إرث الماضي وتركه بالكلية، لصالح كل ما كان من الحاضر أو كل ما كان «معاصرا» من المدارس الفلسفية والعقائد والمذاهب والأفكار، حتىٰ لو قدرنا خلو إرث الماضي من ميراث الأنبياء والمرسلين البتة. فمهما كان الإنسان ملحدا لا دين له، فلا يسعه المكابرة في هذا المعنىٰ أو المنازعة فيه، ولكن هذا الإجمال

المبهم في توصيف «الصراع» علىٰ أنه صراع بين ما هو قديم - هكذا - وما هو حديث من المذاهب والأفكار - هكذا -، إنما هو غطاء نفسي تلبيسي Rationalization trick اتخذته تلك الثلة المنهزمة من بني جلدتنا في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين، لتسويغ ما زينته لهم نفوسهم المفتونة من تفلت من الدين الحق وعلومه وتعاليمه وانخلاع منه ومن موروثه المعرفي. لذا كان لزاما علىٰ أصحاب كل بدعة أن يسموا بدعهم في أول ظهورها بغير أسمائها، فهي حيلة نفسية إبليسية قديمة للتشويش والتغطية علىٰ ما في حقيقة تلك المسميات من تناقض وفساد[1].

ونقول إننا بهذا التحرير، نقدم تفسيرا سيكولوجيا social psychological explanation لصورة تراكم الأدبيات والتصانيف النظرية التي غلبت علىٰ جملة كبيرة

(١) هذا التأصيل السيكولوجي يفسر لنا السبب في كون «تسمية الأشياء بغير أسمائها» من جملة الطرق الفعالة التي يزين بها الشيطان لأهل الأهواء المضي فيما هم فيه من الغي والضلال. وأقدم واقعة نعرفها من عمل الشيطان في ذلك، تسميته الشجرة الممنوعة في الجنة «شجرة الخلد وملك لا يبلى»، حتى يزين لآدم وزوجه الأكل منها! فمن الذي قال إنها «شجرة خلد وملك»؟ بل هي شجرة نهي ومنع وتحريم! ولو أن الملعون قال لآدم عليه السلام «هل أدلك على شجرة تعصي ربك بالأكل منها»، ما أجابه قطعا! ففي كل مرة يسمع المسلم المبتلى - مثلا - أن هذا الذي يشربه اسمه «خمر»، فإن نفسه تتعرض من فورها (في العقل الواعي) لذلك الاضطراب الذي يدركه من اصطدام حقيقة شهادته على نفسه بأن الخمر من كبائر الذنوب الموجبة لاستحقاق الوعيد الشديد، مع حقيقة أنه الآن يقترف تلك الكبيرة والذنب العظيم. لذا تزين له نفسه أن يطلق عليها اسما آخر لا يجلب إلى وعيه ذلك الاضطراب الذي يجلبه اسم «الخمر»، ولا يحضر إلى ذهنه ذلك التناقض الظاهر، كأن يسميها بـ«المشروبات الروحية» مثلا. ومثل هذا يقال في تسمية صراع الفلسفات والملل والأديان بصراع الأصالة والمعاصرة كما مر معك، أو «صراع الحضارات» أو نحو ذلك من أسماء تبعد عن الذهن حقيقة الأمر وما يترتب على الإقرار بتلك الحقيقة من لوازم ومقتضيات تفر منها نفوس أهل الأهواء وتكرهها أشد الكراهة.

والملفت أن بعض الملاحدة الجدد ما عادوا يتورعون عن الاعتراف بأنهم يعبثون باللغة عمدا ويسمون عقائدهم بأسماء جديدة حتى يمرروها لعامة الناس ويشجعوهم على قبولها. ففي مقال في صحيفة الغارديان البريطانية يعترف «ريتشارد دوكينز» داعية الإلحاد البريطاني بأنه في إطار حملته لما سماه بـ«رفع الوعي» (وما هو إلا إفساد مسلمات اللغة حتى تتسع العقول لقبول فكرة خلق بلا خالق وفعل بلا فاعل!)، يعجبه ما ذهب إليه بعض زملائه الملاحدة من تسمية أنفسهم بالمستنيرين Brights وتعريف ذلك الاسم على أنه يطلق على من لا يؤمنون إلا بالطبيعة، ولا يقولون بشيء وراءها أو فوقها! فيصرح بأن سبب إعجابه بهذه الحيلة الشيطانية أنها ستشجع الملاحدة المتخوفين من إعلان إلحادهم في بلد متحفظ دينيا كأمريكا على أن يتسَمَّوا باسم جديد لا تكرهه العامة، ويسهل تمرير الإلحاد إليهم وتزيينه لهم من تحته!

من حقول البحث الفلسفي، سواء عند فلاسفة اللاهوت الديني من أهل الكتاب وأهل الملل الوثنية، أو عند فلاسفة الأديان من الملحدين والماديين ومن لف لفهم. فإذا ما تقرر أن عامة المؤلفين في تلك المجالات الفلسفية ينتصرون لعقائد غيبية قد عُلم تناقضها وفسادها ببداهة العقل وضرورته، مع ما لها من عظيم الشأن عند الإنسان لعلمه بتوقف مصيره فيما بعد الموت عليها، لم نستغرب ما نراه من سجالات سوفسطائية طويلة لا يدري العاقل من أين يبدأ في تناولها بالنقد إن أراد الجواب عن شيء منها. بل إن هذا والله لهو المتوقع عند من فهم ما حررناه في قضية التسويغ النفسي، ولا نتوقع غيره! وقد اخترت أن أخصص شطرا من هذا الكتاب لقضية ما يقال له «مشكلة الشر» عند فلاسفة الدين المعاصرين لما أراه فيها من مثال شديد الجلاء والوضوح للكيفيات التي يحرك بها الهوىٰ المحض أصحاب تلك الصنعة التخصصية، بما يظهر علىٰ أثر ذلك من جريان آليات التشويش والتشعيب في تراكم المحتوىٰ التنظيري في تلك الأبواب علىٰ نحو ما هو متوقع في ضوء تفسيرنا السيكولوجي الآنف.

ولا شك أن أتباع هؤلاء الفلاسفة وأذنابهم من بني جلدتهم وجلدتنا علىٰ السواء، يجد الواحد منهم متسعا فضفاضا للعبث بالأدلة الزائفة والمغالطات الفجة في الانتصار لنحلته من أول وهلة يخاطبه فيها داعية الحق المتلبس بتلك الطريقة اللعينة نفسها. فإن قيل له لماذا لا تؤمن بأن لك ربا خالقا، رأيته يجتر جملة من الاعتراضات و«البراهين» الفلسفية الإلحادية التي تراكمت عند هؤلاء الفلاسفة وهو يزعم أن له فيها مستندا في رد الحق الجلي الواضح والتمسك بما هو عليه – هو ومن يقلدهم من الفلاسفة والمفكرين – من جحود وعناد. فإن قيل له إن هذه الحجج لا ترقىٰ لأن يُرد عليها أصلا، والعاقل ينأىٰ بنفسه عن أن ينزل بدعوىٰ الحق الجلي التي معه إلىٰ تلك المنازل التي يستدرجه الفيلسوف الجاحد المعاند إليها، رأيته يتمسك بدعوىٰ أن صنعة الفلسفة التخصصية قد تطورت وتوسعت وتعمقت مباحثها حتىٰ لم يعد فيها مسلمات أو بدهيات أصلا!

ترىٰ الملحد يقول في جحود ومكابرة لا نظير لهما: «سلمت لكم بأن الباري موجود وأنه مستحق لجميع المحامد وصفات الكمال، فكيف أعرف أنه هو «الله» الذي دعا إليه نبيكم؟ وما يدريني لعله إله آخر فيما يزعمه أهل الأديان الأخرىٰ، أو لعله لا

يكون هو المعبود في أي دين من أديان الناس أصلا!» مع أنه يعلم أن دين محمد بن عبد الله ﷺ هو الدين الوحيد في هذا العالم (بمجرد التأمل في اسمه) الذي يعظم رب العالمين حق التعظيم وينزهه (بالقول والعمل والاعتقاد) عما نسبه إليه المشركون من نقائص، ويقدره حق قدره ويُعبّد الخلائق له بما يليق به سبحانه (وحسبه أن يسمع القرآن ليجد بيان ذلك واضحا جليا من أول وهلة، لا خفاء فيه ولا التباس)! يعلم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يأمر الناس بعبادة خالقهم وحده لا شريك له، كما هو معنىٰ كلمة التوحيد نفسها (لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق سواه)! وهو كذلك يعلم أن الباري قد خلقه هو وغيره من البشر في هذا العالم لغاية ما، من أجلها جعل الموت والحياة، وجعل الدنيا علىٰ نحو ما نراه، فكيف لا يكون من أوليات ومقدمات تلك الغاية بل الأساس الذي تقوم عليه قياما كليا، أن يبرأ الناس من الإشراك بخالقهم وباريهم، وأن يوحدوه بالعبادة والتعظيم والخضوع التام، كما لا تجده إلا في دين محمد بن عبد الله ﷺ؟

نحن نقول ها قد جاء الرسول بفضل من الله ورحمة، وخاطبنا في أصول المعرفة الغيبية بما لا يماري عاقل في صحة نسبته إلىٰ رب الأرض والسماء، فأي شيء يدعو ذلك المخاطَب إلىٰ أن يكذبه ويتمارىٰ فيه؟ هذا رجل لم يُعرف عنه الكذب طرفة عين، بل عرف بخلاف ذلك بشهادة خصومه وأعدائه أنفسهم! ومع ذلك فحتىٰ لو لم يُعرف عنه شيء، فقد جاء بدعوىٰ لا يعقل أن يرسل الرب الباري رسولا للبشر بشيء يخالفها في تعظيمه وتنزيهه عن الشركاء والأنداد والنظائر في الاعتقاد والعمل، وفي إخراجهم من فساد ما اتخذوه لأنفسهم من الملل والنحل، فبأي شيء تُرد تلك الدعوىٰ الفطرية الواضحة ناصعة البياض علىٰ من جاء بها، أو يقال لعله كذب ولعل الحق في غير ما جاء به؟ وهل يليق برب الأرض والسماوات، المنزه عن كل نقيصة ببداهة الذهن ومقتضىٰ الفطرة، أن يترك الرسالة الوحيدة في هذا العالم القائمة قياما تاما علىٰ تنزيهه وتوحيده وتعظيمه بما هو أهله، وصيانة الناس من الإشراك به وانتقاصه وذمه، ليحدث الناس بها ويدعوهم إليها رجل كذاب مجروح في عرضه أو عقله؟ أوَيعقل أن يصطفىٰ الباري رجلا كذابا خبيثا من خلقه ليكون هو المنفرد في زمانه بمخاطبة عموم ذلك الخلق بتنزيه ذات الرب

المقدسة عن كل نقيصة نسبها المشركون إليه؟ بل أيعقل أن يقضي الباري في حكمته[1] أن يكون ذلك الخطاب نفسه (المتفرد بهداية الناس إلىٰ محض التوحيد) كذبا علىٰ الله وافتراء عليه، وادعاءً لرسالة لم يأت منه التكليف بتبليغها أصلا، حتىٰ يأتي الناس يوم القيامة بعدما دخلوا في ذلك الدين أفواجا (وقد علموا علىٰ مقتضىٰ فطرتهم وبداهة عقولهم أن الحق لا يكون في دين غيره)، فيقال لهم لقد اتبعتم نبيا كاذبا وما هكذا أراد الرب لكم أن تتدينوا، ولو أنكم متم علىٰ ملة من ملل المشركين (من الكتابيين أو الوثنيين أو الملحدين) لكان خيرا لكم؟ هذا يلزم منه النقص في حق الباري سبحانه كما لا يخفىٰ، وهو باطل ممتنع يغني تصوره عن تكلف إبطاله.

فبأي عقل يأتي الملحد المكذب يوم القيامة وقد بلغته رسالة محمد، رسالة الهداية المحضة الصافية التي لا نظير لها فيما عند البشر، ليقول لربه: «لعل الحق كان في ملة أخرىٰ لم تبلغني، أو ما يدريني، لعل محمدا هذا كان كاذبا فيما ينسبه إليك»؟ فأي دين آخر هذا الذي تزعم يا عدو نفسك أن يكون هو الحق من ربك، غير دين الإسلام وملة التوحيد الخالص؟ أهذا مما يصح للعقلاء أن يتخذوه ذريعة للصدود عن الحق الجلي الواضح والتخلف عن الدخول فيه إذا ما جاءهم؟ أبدا!

إنما هي كراهة النفس المريضة ونفورها الشديد مما جاء به ذلك الرسول تحديدا من أوامر ونواهي وعبادات! هو لا يحب أن يتصور نفسه وقد صار تابعا لهذا الرجل بعينه، مسلما يعبد الرب علىٰ دين محمد العربي، يلتزم بما يلتزم به أتباع ذلك الرجل العربي، لا سيما المتدينون منهم، الذين يعتقدون وجوب أن يتمسكوا تمسكا لا تهاون فيه، بأشياء قد كره عامة الناس في البلاد المتقدمة في هذا الزمان أن يروها فيما بينهم أشد الكراهة! إنها كراهة إخضاع النفس في سائر أحوالها، وفي كافة جوانب الحياة الفردية والجماعية لتلك التعاليم التي جاء بها محمد! هذا هو المدخل النفسي إلىٰ الإلحاد في زماننا بسائر فروعه وروافده ومقدماته (كالعلمانية والليبرالية وغيرها كما سيأتي). هذا هو ما نقطع بأنه المحرك الوحيد في تلك النفوس الخبيثة فيما وراء وعيها

(١) وكل حادث يقع في خلقه وملكه له فيه حكمة وتقدير سبحانه (بداهةً أيضا)، علمه من عمله وجهله من جهله.

الحاضر (أو اصطلاحا: في العقل الباطن)، الذي يزين لها الإلحاد ويميل بها إلىٰ ما عند فلاسفته وكبرائه من زخارف ألفاظهم وتلبيساتهم المتهافتة.

لسان حال أحدهم يقول «إذا كنت لا أريد أن أكون تابعا لذلك الرسول، فلا بد أن أبتكر الحيل والألاعيب والدعاوىٰ الفلسفية ونحوها حتىٰ أزين لنفسي ولأتباع ذلك الرسول أن الحق ليس فيما جاء به، أو علىٰ الأقل أقنع نفسي وأقنعهم بأن لي مسوغا عقليا ومعرفيا معتبرا وأن لي عذرا أخلاقيا إن بقيت علىٰ ما أنا عليه فيما بينهم! فلا بد وأن أظهر علىٰ أن إلحادي يستند إلىٰ دليل أو علىٰ الأقل يبدو موقفي المختار وكأنه موقف مستساغ عقلا»! فأي طريق يكون ذلك إلا ادعاء أن «الدليل لا يكفي»، وأن الإسلام يفتقر إلىٰ البراهين الدالة علىٰ أنه الدين الحق من خالق السماوات والأرض دون غيره من الأديان؟[1]

---

(١) وقد نص القرآن على أن كل من يروم المحاججة ضد الإسلام فحجته داحضة وهو يعلم بطلانها في نفسه وأن الله لا يقبلها منه يوم القيامة، لذا لم يصح أن يجري الحجاج والخصومة والمناظرة بيننا وبينهم على النحو الذي يطلبونه! قال ابن القيم رحمه الله في «مفتاح دار السعادة» (ص. ١٤٤-١٤٥):

«قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ**﴾ [آل عمران: ٢٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [الشورى: ١٦] وَالْحجّة هِيَ اسْم لما يحْتَج بِهِ من حق وباطل قَالَ تَعَالَى: ﴿**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٠] فانهم يحتجون عَلَيْكُم بِحجَّة بَاطِلَة ﴿**فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الجاثية: ٢٥] وَالْحجَّة الْمُضافة الى الله هِيَ الْحق وَقد تكون الْحجَّة بِمَعْنى الْمُخَاصمَة وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ**﴾ [الشورى: ١٥] أَي قد وضح الْحق واستبان وَظهر فَلَا خُصُومَة بَيْننَا بعد ظُهُوره وَلَا مجادلة فان الْجِدَال شَرِيعَة مَوْضُوعَة للتعاون على إِظْهَار الْحق فَإِذا ظهر الْحق وَلم يبْق بِهِ خَفَاء فَلَا فَائِدَة فِي الْخُصُومَة والجدال على بَصِيرَة، مخاصمة الْمُنكر ومجادلته عناء لَا غنى فِيهِ، هَذَا معنى هَذِه الْآيَة».

قلت وقد أحسن في ذلك البيان رحمه الله أيما إحسان. فالحق إذا ما استبان بحجج القرآن الدامغة لم يفتقر العقلاء إلى دليل بعده، وإذن ففيم الجدال والمخاصمة؟! غير أنه قال بعدها مباشرة، ناقلا كلام الغزالي من الإحياء:

«وَقد يَقع فِي وهم كثير من الْجُهَّال أن الشَّرِيعَة لَا احتجاج فِيهَا وأن الْمُرْسل بهَا صلوَات الله وَسَلَامه عَلَيْهِ لم يكن يحْتَج علىَ خصومه وَلَا يجادلهم ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشَّرِيعَة خطاب للْجُمْهُور وَلَا احتجاج فيها وأن الانبياء دعوا الْجُمْهُور بطرِيق الخطابة والحجج للخواص وهم اهل الْبُرْهَان يعنون نُفُوسهم وَمن سلك طريقتهم وكل هَذَا من جهلهم بِالشريعة وَالْقُرْآن فَإِن الْقُرْآن مَمْلُوء من الْحجَج والادلة والبراهين فِي مسَائِل التَّوْحِيد واثبات الصَّانِع والمعاد وإرسال الرُّسُل وحدوث الْعَالم فَلَا يذكر المتكلمون وَغَيرهم دَلِيلا

هذا هو المطلوب إذن، وفي ذلك فلتتنافس الفلاسفة، وليظهر الأمر في النهاية في دوائر المثقفين، علىٰ أنه نزاع نظري صعب المراس طويل الذيل مفتقر إلىٰ كثير من الجهد والعمل والتأصيل والتنظير الكلامي والأخذ والرد حتىٰ يجتمع للداعية المسلم ما يرجىٰ أن يكون فيه الكفاية لإقناع غير المسلمين بأن الإسلام هو الدين الحق!

صَحِيحا على ذَلِك الا وَهُوَ فِي الْقُرْآن بأفصح عبارَة واوضح بَيَان وَأتم معنى وابعده عَن الايرادات والاسئلة وَقد اعْترف بِهَذَا حذاق الْمُتَكَلِّمين من الْمُتَقَدِّمين والمتأخرين قَالَ ابو حَامِد فِي اول الاحياء»

وأقول ليته ما نقل هذا النقل، رحمه الله وغفر له، فالغزالي إنما اتخذ ذلك الموقف في الدفاع عن القرآن ضد قوم يوجبون على سائر العقلاء سلوك مسلكهم الفاسد في التماس الدليل النظري على صحة البدهيات الأولى (وإلا كانوا أهل «خطابة جوفاء» لا دليل فيها ولا برهان ولا حجة)، لأنه كان متكلما متمنطقا بالأساس، يوافقهم على أصل ذلك المسلك نفسه! فما من شك في أن الزعم بخلو القرآن من جنس البراهين والحجج والأدلة زعم باطل لجلج، ولكن لا يكون جوابه بأن نبادر إلى ادعاء أن القرآن فيه ذاك النوع من الأدلة الذي يشترطه هؤلاء ويطلبونه، كإثبات وجود الله بالبرهان النظري (أي استنادا إلى مقدمات كلية في أقيسة شمول يقبلونها على طريقتهم)، وإثبات الخلق وحدوث العالم ونحو ذلك، فهذا ليس بواقع في نصوص الوحي، ولا هو مما يطلبه العقلاء أصلا حتى يُظَن أن الغرض من تنزيل القرآن على البشر لا يتم إلا بالاشتمال عليه!

بل والله إن خلو القرآن من مثل هذا العبث والسفسطة الفلسفية والكلامية التي يسعى أصحابها في نصب البرهان النظري على ما هو معلوم بداهة وضرورة أصلا، لهو من أظهر الحجج على إلهية مصدره، وأنه مُنزل من رب العالمين وحده لا شريك له، فلو كان من وضع البشر لتكلف كاتبه حشوه بالبراهين الكلامية والفلسفية على نحو ما تشترطه المناطقة والفلاسفة واللاهوتيون من كل ملة فيما هو داخل في جنس الحجاج والاستدلال «العقلي» عندهم، من خوفه أن يوسم الكتاب بالضعف العقلي كما خاف الغزالي وغيره، ولرأيت محمدا عليه السلام يناظر الفلاسفة والدهرية والمتكلمين من اليهود والنصارى وغيرهم، ويتواتر عنه النقل بـ«البراهين المنطقية» في إثبات الصانع وإثبات حدوث العالم ونحو ذلك من زبالة الفلاسفة والمتكلمين التي شغبوا بها على الحق المبين، ولكن ما كان ذلك أبدا ولله الحمد! ولو وقع بين دفتي المصحف شيء من ذلك النوع من الحجاج واللجاج الذي يتشوف إليه هؤلاء ومن افتتن بهم من عامة المتكلمين، لكثر فيه الاختلاف ولما قامت متشابهاته على أصل محكم البتة، وإذن لما جاز لأحد أن يدعي أنه كلام الله جل وعلا، الخبير بنفوس خلقه وعقولهم، العليم بما أودعه في نفوسهم من فطرة وبداهة لا تحتاج إلى برهان نظري أو منطقي حتى تُستدعى إلى وعي من غفل عنها أو تغافلها، وإنما تحتاج إلى صنف آخر من صنوف البرهان ودلالة العقل والنفس، على خلاف ما احترفته الفلاسفة وتناولته المتكلمة وحاول المتأثرون بهم وبطريقتهم أن يثبتوا أنه هو عين ما تكلم به المرسلون في القرآن، والله المستعان! وراجع في هذا إن شئت كتاب «مفهوم العقل والحجة العقلية في القرآن عند أهل السنة والجماعة»، والقصد أنه لولا أن كان الغزالي متضلعا في تلك الطريقة المذمومة نفسها، لأدرك ذلك المعنى ولما قال ما قال، عفا الله عنه.

آليات انتقال النفس من الإسلام إلى الإلحاد وفروعه، مرورا بالليبرالية وأخواتها.

غالبا ما يكون انسلاخ صاحب الأهـواء من أهل القبلة من الإسـلام وانتقاله إلىٰ الإلـحـاد علىٰ خـطـوات ومـراحـل، لا علىٰ خطوة واحـدة، جريا علىٰ تتابع خطوات النفس المريضة في التشبع بالأهواء والتوسع فيها. ولعلنا لو أجرينا بحثا إحصائيا استقرائيا علىٰ حالات المرتدين عن الإسـلام المصرحين بإلحادهم (إن افترضنا إمكان إجراء بحث كهذا علىٰ هؤلاء) لثبت لنا ذلك الزعم الأغلبي بالدليل الإحصائي. فإذا عرّفنا الإلحاد علىٰ أنه **تلك الحالة النفسية التي يكره الإنسان معها أن يُخضع نفسه لدين من الأديان أو لرسالة من الرسالات المنسوبة إلىٰ رب العالمين**[1]، فلا شك أن رد بعض شرائع هذا الدين وفروعه من كراهية النفس لأن تخضع لها وتلتزمها، مع الحرص - في نفس الوقت - علىٰ البقاء عليه والانتماء إليه والخضوع لتعاليمه إجمالا، يعد خطوة في الطريق إلىٰ ذلك. أو بعبارة أخرىٰ نقول إن الانفكاك من شرائع الدين بريد الردة والإلحاد!

فالذي يصرح بأنه يكره الحجاب الشرعي (مثلا) ويراه ليس من الدين في شيء (علىٰ خلاف الحجاب البدعي المنتشر في بعض بلاد المسلمين ويستحسنه أكثر الناس)، ويزعم أن من يطالبون المرأة بالتزامه إنما هم قوم متطرفون غلاة، مع أننا نعلم - وهو كذلك يعلم - أنه لم يسبق له أن طالع كتب السنة أو كتب الفقه من قبل (بل لا يعرف لها طريقا أصلا) ولا نظر في أدلة العلماء علىٰ مشروعيته في يوم من الأيام حتىٰ يكون اعتراضه علىٰ القول به مبنيا علىٰ دليل أو برهان علمي مما يعتبر به في مثل ذلك، هذا صاحب هوىٰ ولا شك. وهو ذلك الهوىٰ الذي لو تعاظم حتىٰ بلغ في النفس حدا معينا فسيزين لصاحبها الردة ومفارقة الإسلام نفسه للانخلاع من شريعته بالكلية، نسأل الله السلامة!

---

(١) وهو التعريف الأعمّ والأشمل والأوعب في نظري لسائر صور الإلحاد وفروعه ومذاهبه المعاصرة عند السبر والاستقراء كما أشرنا في موضع آخر.

وكذلك يقال فيمن يبغض اللحية، فتراه يزعم أنه في حل من إعفائها لأن حالقها لا يأثم، وإنما هي – بزعمه – سنة مستحبة وليست من واجبات الدين، يقول بهذا القول من غير أن يكون قد تلقاه بدليل من أحد من العلماء يوما ما، ولو جئته بأدلة القائلين بالوجوب لزعم أنهم لا يحسنون فهم النصوص وتفلت من ذلك بمستندات زائفة يغالط بها نفسه ويزينها له هواه، كالنظر في أحوال بعض الدعاة الحلقىٰ أو الآخذين من لحاهم، والرجوع إلىٰ كلام بعضهم ونحو ذلك. وغالبا ما تجتمع كراهية اللحية وكراهية النقاب في نفس واحدة، لارتباطهما بسمت بعض المسلمين الذين يحلو لكثير من أهل الأهواء في زماننا أن يعتقدوا أنهم من الغلاة والمتطرفين، لمجرد أن رأوا فيهم شذوذا عما تربوا هم عليه من صغرهم من سمت الدين، وتمسكا بما يخالف حالهم من إعفاء اللحية وتقصير الثياب ولبس النقاب ونحو ذلك من معالم الهدي الظاهر.

وخطورة هذا الهوىٰ ليست في المراء في هذه الشرائع المذكورة وحسب، ولكن في أنه يميل بذلك الضال الجاهل إلىٰ مجالسة من هم أشد منه إغراقا في بغض شرائع الدين ومحبة لما يخالفها، فيزدان له ما هم عليه يوما بعد يوم، لأن النفس تميل إلىٰ مخالطة من يوافقونها فيما تحب وتهوىٰ. ولعله أن يستهويه القول بمقالة الليبراليين المبتدعة من أهل القبلة، الذين يزعمون أن الإسلام ليس فيه تشريع «سياسي»، وأن هذا الباب من قبيل المسكوت عنه مطلقا في شريعتنا، وأن الديموقراطية موافقة لمقاصد الإسلام العليا وأن متغيرات الزمان تقتضي العمل بها وبما هو سائد في كثير من بلاد المسلمين اليوم من تعطيل للحدود الجنائية وإعمال القوانين الوضعية المستوردة في محلها (وهو قول له رؤوسه من أهل الزيغ من المشايخ والمفتين ممن أشبعوه تنظيرا وتسويغا بالباطل والله المستعان)، ويستجيز من ثمّ أن يسمي نفسه بـ«الليبرالي المسلم» أو «العلماني المسلم»، علىٰ اعتبار أنه يرىٰ مشروعية الفصل بين الدين وشؤون الدولة فصلا مطلقا! وقد رأينا لبعضهم تأولا فاسدا لحديث تأبير النخل في صحيح مسلم، فزعموا أن سائر مسائل التشريع الإداري العام في البلاد مسكوت عنها، وهذا جهل وضلال ولا شك.

فهؤلاء قوم بلغ بهم هوىٰ النفس أن التمسوا المسوغ الشرعي للبقاء علىٰ ما هم عليه من موافقة النظم العلمانية الديموقراطية السائدة اليوم في جميع بلاد العالم إلا قليلا، ومن تسويغ ما هو جار في تلك النظم من تشريع عام لا رجوع فيه – البتة – لأحكام الدين، وإنما يكون المرجع الأعلىٰ في ذلك: ما تتفق عليه جماهير الناس من أهل البلد (التي يقال لها: الشعب) ومن يمثلونهم في مجالس التشريع (كطوائف وأحزاب وشرائح وفئات .. إلخ). فما كان لهم أن يتصوروا – طرفة عين – أن يحكموا في البلاد بنظام يخالف الديموقراطية في هذا الركن الركين الذي تقوم عليه! ولهذا لما جاءت دولة محمد علي وأولاده من بعده بالنظام البرلماني والقانون الوضعي إلىٰ مصر، اجتهد المفتونون بذلك النظام من المتشرعين المنسوبين إلىٰ دراسة الفقه والشريعة اجتهادا كبيرا في محاولة تلبيس ذلك النظام لبوس الشرع وتسويغه علىٰ نحو يرجو معه الواحد منهم أن يسكت ما في نفسه من وخز الضمير ومن شعور بأنه قد فتح علىٰ المسلمين باب شر عظيم. فسنوا بذلك بدعة عظيمة لا يزال أتباعهم من المتشرعين يتابعونهم عليها إلىٰ يومنا هذا، وما زالت تدرس في كثير من المعاهد والجامعات علىٰ أنها مقتضىٰ إعمال أصول الفقه ومقاصد الشريعة العليا في هذا الزمان، كما يعرفه من طالع تلك الأعمال.

ومع تعاظم ذاك الهوىٰ الممرض في النفس، فلعلك ترىٰ الواحد من هؤلاء «الليبراليين» يبلغ به هواه دركا أحطّ من هذا، فيزدان له قول بعضهم بأن الشريعة ما عادت تصلح لأن تكون مستندا في الحكم والسيادة في زمان كثر فيه اختلاط الدول والأعراق والأحزاب والفئات، لأنه قد تبين تاريخيا – فيما يزعمون – أن انفراد طائفة واحدة بالحكم في البلاد بمرجعيتها الدينية لا يأتي إلا بالشر والفساد، ولذا فلا يجب أن يصل النزاع الديني (حتىٰ فيما بين المذاهب والفرق المنتمية للدين الواحد) إلىٰ دوائر التشريع العام في البلاد. والقائل بهذه المقالة قد خلع ربقة الإسلام من عنقه قولا واحدا! ذلك أنه يجمع في نفسه بين اعتقاد أن الله تعالىٰ قد شرع أحكاما وشرائع للحكم والسيادة والتشريع العام في بلاد المسلمين، واعتقاد أن تلك الشرائع ما عادت تصلح بها البلاد والعباد أصلا، ولن تفضي عند العمل بها اليوم إلا إلىٰ الفساد والإفساد، فهذا

طاعن في ذات رب العالمين سبحانه طعنا صريحا، يتهمه بالجهل والقصور عن تشريع ما «يناسب» سائر الأزمان والأمكنة إلىٰ قيام الساعة.

ولا شك أن صاحب هذا القول ملحد أو زنديق يبطن الإلحاد، لأنه إذا كان يرىٰ أن البشر قادرون علىٰ وضع شريعة أفضل من شريعة الإسلام، فقد اعتقد بالتبعية أن مشرعيهم أعلم من الله تعالىٰ وأحكم منه (وهذا شرك الملاحدة العلمانيين)، وأن محمدا ﷺ لو درس شيئا من الفلسفات التي افتتنوا بها لجاء بما هو أحسن وأكمل في الأحكام والشرائع، أو علىٰ الأقل بما هو أنسب لزماننا (وقد صرح بذلك المعنىٰ بعضهم)!

والفرق واضح (في الأسماء والأحكام) بين من يرىٰ أن الإسلام لا يتعارض مع ممارسة الديموقراطية العلمانية بوجه من الوجوه، فيلتمس لها مدخلا يسوغها من طريقه فيجعل العمل بها هو مقتضىٰ الشرع، وبين من يرىٰ أن الإسلام يتعارض معها وأن شريعته لا توافقها، فإن خُير بينهما اختار الديموقراطية وزعم أنها أحسن للبلاد والعباد في عصرنا هذا مما كان عليه الحكم في زمان الصحابة والتابعين وفي ظل الممالك الإسلامية التي حكمت بلاد المسلمين لقرون طويلة قبل دخول الديموقراطية إليها! ولذا فأهل السنة يفرقون بين العلماني أو الليبرالي الديموقراطي المبتدع (الباقي علىٰ أصل الإسلام مع كونه علىٰ خطر عظيم) والعلماني أو الليبرالي الديموقراطي المرتد (سواء صرح بالإلحاد أم لم يصرح)، فالليبرالية الأولىٰ فرقة من الفرق النارية، والثانية ملة إلحادية خارجة عن دائرة الإسلام، خلافا لمن يجعل كل من تسمىٰ بالليبرالية أو العلمانية أو امتد إليهما بنسب: كافرا مرتدا بمجرد ذلك، فالأمر فيه تفصيل واجب، والله أعلم.

فمن بلغ هذا الدرك الغالي في ليبراليته وانفكاكه من شرائع الدين، فقد هان عليه أن يصرح بالمزيد من المطاعن علىٰ شريعة رب العالمين، وبالطعن علىٰ مصادر تلقيها (الكتاب والسنة) يتطاول علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ القرآن، ولعله أن يبدأ أولا بإسقاط السنة قبل إسقاط القرآن، حتىٰ إذا ما طاب له في النهاية أن يصرح بإعلان الحرب الشاملة علىٰ الإسلام (من استحسان ثمرة ذلك في عاجل أمر الدنيا، والسلامة من خطره الدنيوي)، صرح به ولم يبال!

والقصد من هذا بيان أن أصل الداء والمرض القلبي المفضي إلىٰ تحول المرء من الإسلام إلىٰ الإلحاد، إنما هو اتباع الهوىٰ في تلقي أحكام الشريعة واستثقالها علىٰ النفس. ثم لا تزال تلك الأهواء يأخذ بعضها بذيل بعض، تتتابع فيها خطوات الانفكاك من دين الله تعالىٰ والانسلاخ منه كلما تشبعت تلك النفس المريضة بمزيد من المطامع في مجالسة ومنافسة المعظمين اجتماعيا من أعداء الدين فيما عظمهم به الناس، وإذا بما كان من قبل مستنكرا يصبح مستساغا ثم مستباحا مقبولا، خطوة بعد خطوة، حتىٰ إذا ما وجد ذلك الغوي الهالك في وسطه الاجتماعي ما يجرئه علىٰ إعلان الردة والإلحاد، ولم يجد ما يخوفه من عاقبته، بل وجد ما يزينه له غاية التزيين، ويطمعه في ثمرته الاجتماعية أعظم الطمع، أقدم عليه ولم يبال!

لذا قال رب العزة تبارك وتعالىٰ: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥]، فلا شك أن تخلية النفس من الحرج والضيق بإزاء أحكام الدين مطلب شرعي عظيم، بل هو أسمىٰ المطالب بعد تصحيح المعتقد، وهو حصن الإيمان الحصين. ولهذا نص أهل العلم علىٰ أن من تتبع الرخص تزندق، لأن حقيقة المكثر من ذلك أنه لا يأخذ من الدين إلا ما يأتي علىٰ هواه. وأنا أقطع بأن الملحد الدهري العاتي في الإلحاد وفي ادعاء عدمية الباري جل وعلا والانتصار لها، لو جيء بدين يوافق هواه ومزاجه فلن يعترض عليه، وسيتحول إليه من فوره! ولكن اتفق أن كان قطيع أهل الأهواء والشهوات اليوم يحكمهم أناس صرحوا ببغض الأديان كلها والانخلاع منها، وبأنها قد باتت أثرا من الماضي وجب علينا أن نتجاوزه وننضج منه، فأصبح التنكر للأديان والانخلاع منها هو كمال الاستنارة وتمام العقل، والله المستعان!

فلا أحد يحب البقاء علىٰ محاربة ومصارعة ما تصرخ به الفطرة في نفسه من كونه مخلوقا مربوبا مطالبا بالخضوع لأمر ربه ونهيه بمجرد أن يبلغه ذلك الأمر والنهي! وإنما أصل المشكلة ومكمنها في نفور تلك النفوس العاتية المستكبرة، من ذلك الأمر والنهي والتكليف إذا ما جاء به الرسول! فإذا كانت النفس قد ركنت إلىٰ ما هي عليه من

شهوات وأهواء، ومن موافقة ما عليه الآباء والعظماء من أهل البلاد من صور الدين وما يتفرع عليه من تشريع أخلاقي علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة (بما في ذلك الإلحاد والعلمانية وما يتفرع عنهما من مذاهب أخلاقية وسياسية)، فسيثقل عليها غاية الثقل – ولا شك – أن تشهد لذلك الرسول بصدق ما جاء به من دعوىٰ، وأن تزول عما هي عليه من الدين لتدخل في دينه وتسلم قيادها له تمام التسليم وتنقاد له تمام الانقياد، كما هو الواجب الأول الذي لا يصير المرء مسلما إلا به! بخلاف ما لو جاءها الداعي بوفاق ما هي عليه تحقيقا من اتباع للأهواء والشهوات، فحينئذ يصبح ذلك الدين الجديد محببا لتلك النفس مرغوبا فيه، ولا ترىٰ مانعا من الدخول فيه.

ولا شك أن الدين يأتي بما يخالف هوىٰ النفس أشد المخالفة! وهذا هو ابتلاء المكلفين بخطاب المرسلين بعموم. ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٤٢] لا بد أن تحف الجنة بالمكاره كما تحف النار بالشهوات، وإلا ففيم الشرور والآلام والحروب والأدران والهموم والأوجاع والأسقام، ولأي شيء شحنت بها الأرض شحنا؟ هي دار بلاء، ولهذا خلقت! ومن البلاء فيها الدين نفسه والتكليف نفسه، رضي من رضي وكره من كره! فمن استسلم لهواه وميل نفسه وتلاعب بدينه حتىٰ يجعله علىٰ وفق ذلك الهوىٰ والميل في نفسه، وقبِل من تلك النفس كذبها عليه وتزيينها الباطل بصنوف الأدلة الزائفة والبراهين المعوجة والمغالطات الفجة، فقد ولج بنفسه طريقا لا ينتهي إلا بمفارقة ذاك الدين والانخلاع منه بالكلية! وذاك من قال الله تعالىٰ فيه: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [**الجاثية**: ٢٣].

فمثل هذا لا ترجىٰ له الهداية إلا أن يشاء الله. ذلك أن ضلاله لم يكن عن جهل (كضلال من لم يأته العلم بالحق ولم يبلغه خبر المرسلين طرفة عين) وإنما كان عن علم ومن بعد سماع، من أثر ميل خفي عظيم في نفسه، لا يرىٰ الحق حقا ولا يرىٰ الباطل باطلا ما دامت نفسه مشحونة به، نسأل الله السلامة. فمثل هذا قد بلغت غشاوة

بصره وخِتم قلبه وزيغ نفسه أن أصبح لا يؤذي نفسه في باطنها ولا في وعيه الحاضر في عامة حاله، ولا يضيره علمه بأنه قد جعل دينه هواه في الحقيقة وليس ما علم أنه الحق من ربه (أو علم أنه إن بحث فيه وتتبع أدلته عند العلماء فقد يجده كذلك حقا)! فمهما خوطب هذا بالنصح والموعظة رأيته يتهم ناصحيه بشتىٰ ألوان التهم الباطلة، فإن كان بعد مسلما يسلك خطواته الأولىٰ في طريق التفلّت من الدين، فستراه يتهم ناصحيه بالتشدد والغلو في فهم ذلك الدين، وبأن الأمر فيه متسع هم لا يعقلونه ولا يدركونه من ضيق عطنهم، مع أنه «يعلم» أنه لا يقف علىٰ دليل صحيح (من جنس ما تعرف بمثله أحكام الدين من الأدلة والبراهين) يترجح به مذهبه واختياره.

لذا قال تعالىٰ ﴿ **وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** ﴾ [**الجاثية**: ٢٣]، فالقضية ليست في الجهل بالدليل المعارض لما هو عليه، وإنما في كراهيته ونفوره من مجرد فكرة أن يصح ذلك الدليل المعارض، مع علمه بأنه لا يقف علىٰ مطعن عليه ولا يجد مدفعا له من مثله من أدلة الدين، أو كراهيته أن يتكلف التماس الدليل عند القائلين بذلك القول الذي يكرهه من الأساس،[١] فهذا أضله الله علىٰ علم، فمع كونه يعلم أنه جاهل بالدليل وبأنه لا يقف في مذهبه علىٰ مستند، إلا أنك تراه لا يجد في نفسه حاملا علىٰ رفع ذلك الجهل عن نفسه طرفة عين، بل يحب أن يوهم نفسه بأنه علىٰ شيء وبأن تلك الكثرة التي وافقها من حوله لا بد وأن لها مستندا كافيا للبقاء علىٰ ما هم عليه! فيصبح جهله هو غاية العلم ونهايته لديه!

لذا نقول إن الجاهل المركب (الذي عرّفه الأصوليون علىٰ أنه ذاك الجاهل الذي يجهل أنه جاهل) ليس المراد بـ«جهله بأنه جاهل» عدم علمه بأنه علىٰ شيء، ولكن المراد ما اختاره لنفسه من التوهم بأنه علىٰ شيء! فقد جعل الأصوليون قسيم ذلك الصنف من الجهلاء من يقال له «الجاهل البسيط»، وهو ذاك الذي يعلم أنه جاهل، أي يقر ويشهد علىٰ نفسه بأنه جاهل، فتراه لا يتكلم في المسألة محل ذلك الجهل عنده ولا يبدي فيها قولا ولا رأيا، وإن سئل قال «لا أدري». فصاحب الجهل المركب مذموم لأنه

---

(١) كذاك الجاهل الذي يصر على أن حكم الدين في هذه المسألة أو تلك على خلاف ما يزعمه مخالفوه فيها، من غير أن يكون قد سبق له تكلف النظر في شيء من أدلة تلك المسألة أصلا، أو المرور فيها على كلام أحد من أهل الشأن البتة! وهذا كثير منتشر!

يحب تلك الجهالة التي هو عليها ولا يرجو الزوال عنها، ولو سئل لتكلف الجدال فيما يدري أنه غير أهل للجدال فيه، بخلاف من أمسك عن الكلام فيما لا يدري، وحرص علىٰ تحصيل ما يفتقر إليه من العلم حتىٰ يكون علىٰ بينة من أمره. والذي عليه أهل السنة والجماعة أنه لا يعذر الجاهل بجهله إن كان مفرطا في الأخذ بأسباب التعلم مع كونه قادرا عليه. فالتخلف عن تعلم العلم الواجب مع القدرة علىٰ ذلك، دليل علىٰ تهاون النفس وتساهلها، وهو ما لا يكون إلا من ميلها ومحبتها لما هي عليه من الباطل.

لذلك نقول إن رد الأحكام الشرعية بدعوىٰ جهل القائلين بها أو خلو القرآن منها أو ضعف الحديث الذي جاء بها، من غير استناد إلىٰ علم ولا برهان ولا حتىٰ الحرص علىٰ طلب ذلك العلم قبل إطلاق الحكم بالاعتراض والرفض، هذا هو بريد العلمانية والليبرالية التي هي بدورها مدخل الإلحاد إلىٰ النفس الإنسانية، فمن وجد ذلك في نفسه فحري به أن يخاف علىٰ نفسه أشد الخوف، وأن يعلم أنما هي بذرة يقذفها الشيطان في نفس الواحد منا في حال غفلة، فإن غفل عنها صاحبها ولم يعالجها علاجا عاجلا وافيا وترسل معها مرة بعد مرة، فستأكل دينه كما تأكل النار أغصان الشجر، ولا يأمن مثل هذا علىٰ نفسه من سوء الخاتمة، بل لا يأمن والله أن يموت علىٰ غير الإسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال أحد الزنادقة الليبراليين الكبار في زماننا (المدعو «إسلام بحيري») في بحث أعده للماجستير في مجال «طرق التعامل مع التراث» في بريطانيا (!!)، ضاربا عرض الحائط بإجماع الأمة، إن الرسول ﷺ تزوج من عائشة رضي الله عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة! فهل خفي علىٰ ذاك اللكع السفيه أن نقض إجماع البخاري ومسلم وجميع المسلمين معهما علىٰ صحة حديث ما، بمثل ما جاء به من أوهام لم يسبقه إلىٰ الاعتراض بمثلها أحد من البشر، هذا يسقط به إجماع المسلمين نفسه، وتسقط به السنة كلها من أولها إلىٰ آخرها، حتىٰ لا يبقىٰ القرآن نفسه إلا رسما ونقشا في الصحف، يفهمه كل جاهل علىٰ ما يحلو له؟ لا والله لا يخفىٰ! ليس لأنه عالم فاهم يدري ما يقول، ويعرف مراتب الأدلة في تلك العلوم التي نطح فيها بقرنه، فهو من أبعد الخلق عن ذلك، وهو يعلم أنه كذلك!

ولكن لأنه يعقل كما يعقل عموم المسلمين أن الحديث إذا اتفق عليه البخاري ومسلم فهو في أعلىٰ درجات الصحة التي يتصور ثبوتها لشيء من السنة، وهذا بإجماع المسلمين كافة، فـ ن جاز إسقاط وإبطال ما كان في تلك المنزلة من آثار السنة في كتبها ودواوينها، بأمثال تلك الآراء والأوهام التي جاء هو بها، فأي ثقة تبقىٰ للمسلمين في عموم السنة وفي جميع ما ورثوه منها بعدُ؟ وأي قيمة تبقىٰ لإجماعهم الذي سماه رب العزة جل وعلا بسبيل المؤمنين وأمر باتباعه في قوله: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ [**النساء**: ١١٥]، وأي شيء يميزهم إذن عن أهل الكتب المحرفة والأديان السماوية المبدلة، التي لا قيمة فيها لإجماع الأولين منهم علىٰ ما أجمعوا عليه من تصحيح النصوص وفهمها؟ لو لم يكن إجماع المسلمين حجة معصومة، فبأي شيء يحفظ الله دينهم، وكيف تثق الأجيال اللاحقة في صحة ما مضت عليه الأجيال السالفة من أمر الدين؟

فهل خفي علىٰ ذلك الزنديق هذا المعنىٰ؟ أبدا! وإنما حمله مرض قلبه وحرصه علىٰ الحصول علىٰ درجة الماجستير المشؤومة في تلك الجامعة الغربية التي سجل فيها للدراسة «الإسلامية»، علىٰ أن يأتي القوم بما يرضّيهم عنه، ويظهره بين أيديهم بمظهر المسلم المستنير، الذي قرر أن يحمل لواء التنوير وإخراج المسلمين من «قرون الجهل» التي تطاولت عليهم، بسبب ثقتهم في صحة هاذين الكتابين خاصة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فمهما خاطبت هذا المجرم بحجية الإجماع وبوجوب اتباع إجماع الصحابة والسلف، تلتمس إلىٰ ذلك ما لا يبقىٰ لعاقل سليم النفس معه شبهة ولا عذر، فلن يقبل منك، ولن يأتيك إلا بالسفسطة والهذيان، علىٰ تلك الطريقة الفلسفية الخبيثة التي تزلف بها من قبل إلىٰ أولئك الذين منحوه درجة الماجستير في أوروبا! فإنه لا يتصور ولا للحظة واحدة أن يتراجع عما أثبته في تلك الرسالة في يوم من الأيام! كيف والتهمة إذن نازلة به علىٰ أم رأسه، بأنه من المتخلفين الرجعيين الذين يجيزون «زواج القاصرات» Child Marriage كما يسمونه؟ وهل تكبد الرجل عناء السفر والكفاح في الغربة ليحصل علىٰ درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية في جامعة ويلز في

بريطانيا، من أجل أن ينقلب بين أيدي محبيه ومماليه ومؤيديه في الداخل والخارج إلىٰ عدو العقل والحضارة والاستنارة .. إلخ؟ كلا وألف كلا!

هذه الحسابات والتقديرات النفعية الدنيوية تجري في عقله الباطن من حيث لا يشعر، وإنما قد تستظهر في عقله الواعي في بعض الأحيان لا غير! ولو أنه تجرد للحق يوما – وما كان ليفعل ولا يرجىٰ لمثله أصلا، إلا أن يشاء الله – لاعترف بأنه إنما تحركه في جميع ذلك دواعي الحرص علىٰ رضا من أراد صرف وجوههم إليه! كيف يكون «باحثا إسلاميا مستنيرا» علىٰ مقاييس هؤلاء، ثم هو يظهر للناس قبوله مجرد فكرة أن يكون النبي الذي يتبع دينه ويشهد له بالنبوة، قد تزوج من فتاة يقال لها في اصطلاحهم الغربي: «طفلة قاصرة»، علىٰ ما في مجرد ذلك من جريمة شنعاء عندهم؟ محال! ولو أنه قرأ هذا الكلام في يوم من الأيام، فقطعا لن يقبله، بل ستثور ثائرة هواه الباطن ونفسه المريضة وسيأخذ في اختلاق المزيد والمزيد من طبقات التسويغ الاضطرابي Rationalization ليقنع نفسه ويرضيها بغضبه من هذا الكلام، وبأنه يستحق النقمة والاعتراض بكل قوة وحزم!

فعساه يقول في نفسه: «كيف يأتيني هذا المتشدد المتطرف بالاعتراض علىٰ بحث المسلمون اليوم في أشد ما يكونون حاجة إليه حتىٰ يلحقوا بركاب الحضارة؟» أو يقول مستندا إلىٰ فلسفات تلك الفئة التي يريد التماس رضاهم عنه: «أيريد منا أن نسلم لصحة حديث قد أجمع العقلاء علىٰ أنه مفسد للمجتمع المعاصر؟» أو يقول في تصوير مغالط لمحل النزاع بيني وبينه: «أي إجماع هذا الذي يريد أن يلزمنا بحجيته وقد اختلف الناس في كل شيء؟» أو يتحول للعدوان علىٰ شخصي فيقول: «من أنت ومن تظن نفسك لتحلل نفسيتي وتزعم أنك ترىٰ ما يحركني وما يدفعني وكذا؟» أو يلجأ إلىٰ استثارة عواطف أنصاره وأشياعه فيقول: «أهذا هو الدين الذي تريدون اعتناقه في هذا الزمان؟ دين يجيز للرجال أن يتزوجوا من فتياتكم القاصرات؟» إلىٰ آخر ما لن يعجزه شيطانه وعقله الفاسد علىٰ أن يفرزه من التسويغات الواهية المغالطة للرد علىٰ ما نقول! فإذا جمع ذلك كله وغيره لنفسه، ونشره في الناس وروج له ردا علىٰ كلامي هذا، فلعله يجد

في إعجاب المعجبين بكلامه وفي تأييدهم له ما يطمئن نفسه المريضة المعلولة بموقفه الفاسد! فالحمد لله الذي بصرنا من نفوس هؤلاء المرضىٰ المجرمين وأحوال عقولهم الخربة بما لا يبصرونه هم ولا يرونه وما كانوا ليفعلوا!

الباب الرابع

«مشكلة الشر»: تلك الخدعة النفسية الكبرى عند أهل الإلحاد.

قدمنا في أقسام سابقة الكلام في الكيفية التي يتفنن بها فلاسفة الغيبيات (أو بالأخص فلاسفة الأديان) وخصومهم من اللاهوتيين ونحوهم في التعمية علىٰ الحق الواضح الظاهر، وفي التماس طرق التشويش عليه، سعيا في دفعه عن منزلته التي يوجبها له العقل السوي الصريح، وذلك لبغضهم ما يترتب علىٰ الإقرار من جانبهم بتلك المنزلة من مقتضيات ولوازم في المواقف والأحوال والأقوال.

وفي هذا الباب نتناول مثالا ظاهرا جليا لتلك المسالك التي يحترفها الفلاسفة (ويزيدهم خصومهم إغراقا فيها من حيث يزعمون أنهم يتصدون لهم)، في إطار ما أصبح يعرف في أوساطهم باسم «مشكلة الشر» The Problem of Evil. وهي بإجمال تلك الدعوىٰ التي تتلخص في قولهم: «لو صح أن الرب كامل القدرة، كامل العلم، وأنه كذلك «كليّ المحبة» (بمعنىٰ أنه يحب جميع خلقه!)، لما جاز أن يخلق الشر في العالم».

وقد ظهرت تلك الدعوىٰ في أول الأمر علىٰ أنها إشكالية نظرية يوردها بعض الفلاسفة علىٰ بعض العقائد الوثنية التي شاعت في أصحاب الملل القديمة التي عاصرها فلاسفة اليونان ومن كان قبلهم. ثم لما دخلت تلك العقائد في جملة ما دخل من الاعتقادات الوثنية في الملة النصرانية في القرون الأربعة الأولىٰ الميلادية، صار الخطاب بها موجها إليهم كذلك بسبب تلك العقائد (لا سيما الزعم بأن الإله «كليّ المحبة» Omnibenevolent أو بعبارة أخرىٰ، الاعتقاد بأنه يحب جميع المخلوقات علىٰ السواء). وبالنظر إلىٰ كون فلاسفة الإلحاد - لا سيما في عصر النهضة وما بعده - قد درجوا علىٰ الزعم بأن تلك الملة التي جاء بها محمد ﷺ لا تربو علىٰ أن تكون فرعا من فروع الملل «اليهودية-النصرانية» ظهر في جزيرة العرب وانتشر بالغزو والقتال، فقد زين لهم الشيطان معاملة الإسلام - إن لم يكن بلسان المقال فبلسان الحال - من منطلق أن ما يرد علىٰ النصرانية من إشكالات واعتراضات فهو وارد عليه كذلك تبعا ولا بد. مع أنهم يعلمون أن هذه الصفة «كليّ المحبة» ليست مما يوصف به الرب في ديننا

أصلا، وأننا ننزهه عنها بما عرفوا صحته في بداهة العقل، إذ الحكمة وضع كل شيء (بما في ذلك الحب والبغض) في موضعه الصحيح، بلا إفراط ولا تفريط! أما التسوية بين الموضعين فحماقة لا تليق بمخلوق عاقل، فكيف برب العالمين سبحانه وتعالىٰ عما يصفون علوا كبيرا؟

وقد كنت في الحقيقة هممت قبل بضع سنوات بإفراد مجلد مخصوص لهذه القضية، لما كثر من الكلام فيها تبعا لتناول ملاحدة العرب لها وتعلقهم بها، علىٰ أن يكون عنوانه «الصوارم الحداد في نسف مشكلة الشر عند فلاسفة الإلحاد»، ولكن تبين لي بفضل الله تعالىٰ أني لو طرحت المسألة في قالب الرد العقلي المجرد، لما أمنت أن أكون بذلك مشاركا فيما أصبحت أرىٰ وجوب نهي المسلمين عنه، ولربما وجدت نفسي وقد استدرجت لعين ما استُدرج إليه فلاسفة اللاهوت والمتكلمون من قبل، محققا لهم عين مرادهم من خوض في الاستدلالات النظرية لإثبات ما لا يصح لمثله أن يطرح للنظر العقلي أصلا. فأحجمت عن ذلك وانصرفت عن الأمر فترة من الزمان.

ثم لما منّ الله علي بالتأمل في صنعة الفلسفة الغيبية نفسها وطرائق أصحابها في التزيين والتلبيس من الجهة النفسانية (السيكولوجية)، تبين لي أن خير طريقة لتناول تلك الدعاوىٰ أن تكون في سياق استعراض مسالك الجحدة والمكذبين للتشويش علىٰ الحق الجلي الواضح، كدراسة حالة لبيان ما قررناه في هذا الكتاب من مرض السوفسطائيين (في العقل والنفس) الذي يحملهم علىٰ التفنن في إنزال ذلك الحق الجلي من منزلته المعرفية الظاهرة التي يجب أن يكون فيها إلىٰ منازل الدعاوىٰ النظرية الضعيفة التي لا نهاية للجدال والخلاف حول «أدلتها» وبراهينها. هذه الحيلة النفسية الخبيثة التي استعرضناها وحللناها نظريا في القسم السابق من هذا المجلد، لم أجد – في الحقيقة – فيما تبارىٰ فيه الفلاسفة المعاصرون من جدال وسجال في قضايا الغيب، مثالا لكشفها وفضحها عند الفلاسفة والمفتونين بهم من أتباعهم وخصومهم علىٰ السواء، أفضل من تلك «الإشكالية» المزعومة، ومن ذاك الغبار الكثيف الذي يحلو لأصحابها أن يثيروه بها لتسويغ صدودهم عن الدخول في دين الله الحق. فالله أسأل أن يوفقني وأن يعينني علىٰ ما عزمته من الأمر في هذا الباب، وأن يعصمني فيه من الزلل.

صور صياغة الفلاسفة «لمشكلة الشر» وجوابها.

اختلفت صور الصياغة الفلسفية لما يسمىٰ بـ«الحجة من الشر» Argument from Evil، كما اختلفت محاولات فلاسفة النصرانية في الرد عليها، وقد دارت سائر تلك «الحجج» حول ثلاث قضايا اعتقادية كلية في صفة الباري:

- القول بأن الخالق قادر علىٰ كل شيء Omnipotent
- القول بأن الخالق عليم بكل شيء Omniscient
- القول بأن الخالق محب لكل شيء Omnibenevolent

هذه القضايا الثلاث، استشكل أصحاب الدعوىٰ من النظار والمتفلسفة الجمع بينها وبين ما هو ظاهر جلي من انتشار الشرور والمكاره في هذا العالم. فقالوا إن المحور الأول (ويدخل فيه الثاني) والثالث وحقيقة وجود الشر، هي قضايا لا تجتمع منطقيا، فما اجتمعت منها قضيتان، في ضوء وجود الشر، إلا لزم إسقاط الثالثة ولا بد. هذه هي الفكرة العامة التي تدور حولها سائر صياغات الفلاسفة لمشكلة الشر.

وسنبين فيما يلي عرضه من صور التلاعب الشيطاني بصياغات تلك الإشكالية المزعومة عند الفلاسفة كيف أنها تحولت (تحت هوىٰ التسويغ النفسي Rationalization عند الدهرية الملاحدة) من اعتراض نظري علىٰ دعوىٰ قالت بها بعض الملل الوثنية القديمة من أن الباري يمكن أن تجتمع فيه صفة محبة جميع المخلوقات علىٰ السواء وإرادة الخير لها جميعا، مع صفة خلق الشرور والمكاره وإصابة تلك المخلوقات بها، إلىٰ اعتراض علىٰ وجود الباري نفسه، سبحانه وتعالىٰ عما يقوله الوثنية والدهرية والمجرمون جميعا. كما سنبين في سياق ذلك، كفاية ما جاء به القرآن وصدقه العقل السوي الصريح، بما لا يحتاج العاقل معه إلىٰ استدلال أو نظر أو صياغة علىٰ تلك الطرائق التي يتفنن فيها السوفسطائيون الملاحدة وخصومهم من اللاهوتيين وأهل الكلام، ولا يغنم منها في منتهىٰ الأمر أحد كمغنم أهل الهوىٰ المحض، والحمد لله رب العالمين.

الصيغة المشهورة بصيغة «إبيقور»، وأصل السفسطة.

وهي تلك الصياغة الفلسفية القديمة التي نُسبت إلىٰ الفيلسوف اليوناني إبيقور Epicurus في القرن الرابع قبل الميلاد، ويعدها الفلاسفة أول ظهور في التاريخ المكتوب لتلك المسألة، وقد أوردها النصراني «لوشيوس لاكتانتيوس» Lactantius في كتابه *De Ira Dei* (الفصل ١٣) بهذه الصيغة:

> إما أن الإله يريد أن يزيل جميع الشرور ولكنه غير قادر، أو هو قادر ولكنه غير مريد، أو أنه غير مريد ولا قادر، أو أنه مريد وقادر. فإن كان مريدا، ولكنه غير قادر، فهو عاجز، علىٰ خلاف صفة الإله (يعني الواجبة)! وإن كان قادرا ولكنه غير مريد، فهو شرير، علىٰ خلاف صفة الإله أيضا! فإن كان غير مريد ولا قادر، فهو عاجز وشرير، ومن ثمّ فليس إلها! فإن كان قادرا ومريدا معا (وهو الملائم لصفة الإله) فمن أين تأتي الشرور إذن؟ أو لماذا لا يزيلها؟[١]

وكما هو واضح من صياغة إبيقور «الاستبارية» هذه، فإن الإشكالية المزعومة تقوم علىٰ تسليمه بمقدمة خفية مفادها أن الخالق الذي لا يريد أن يزيل جميع «الشرور» من خلقه أو يمنعها مع قدرته علىٰ ذلك، فهو إله «شرير» ولا بد. وهذه المقدمة علىٰ طريقة الفلاسفة في تحليل مقدمات البرهان العقلي، تقوم علىٰ مقدمة أخرىٰ خفية (استصحابا) مفادها أن مطلق وجود «الشر» (في هذا العالم أو في غيره من العوالم الممكنة عقلا) «شر» مطلق، أيا ما كان سبب وجوده والغاية من خلقه. وهذا ما يستتبع القول بأن الخالق يجب في العقل ألا يجعل في خلقه شيئا يكرهه هو نفسه أو يكرهه أي مخلوق ذو حس Sentient من مخلوقاته[٢]، أو يعرفه علىٰ أنه «شر» بالنسبة إليه، حتىٰ يصح التسليم ببراءته من لحاق صفة «الشر» أو «الظلم» بذاته، سبحانه وتعالىٰ علوا كبيرا.

---

(1) Quotation by Lactantius, as cited by Herman 1993, pp. 10.

(٢) وهو مصطلح يطلقه الفلاسفة على كل كائن يملك القدرة على تمييز الحال التي هو عليها إما على أنها محببة مستحسنة أو مكروهة مستقبحة بالنسبة إليه.

فبهذا التحليل والتفكيك لصياغة إبيقور، يتبين لنا أن أصل الإشكالية المزعومة يرجع إلىٰ التسليم بهذه المقدمة الضمنية في الابتداء، ألا وهي القول بأن الخالق لا يوصف بمحاسن الصفات إلا إن تحققت لديه إرادة منع سائر ما يراه المخلوقون (أولو الإدراك والحس والشعور) في هذا العالم (أو في غيره من العوالم الممكنة عقلا) علىٰ أنه «شر» في خلقه، فلا يخلق منه شيئا في هذا العالم أو في أي عالم آخر من الأصل، ما دام قادرا علىٰ ألا يفعل. وهذه الدعوىٰ القائلة بأن مطلق وجود الشر في العالم مع قدرة الباري علىٰ منعه يناقض ما يلزم من صفات الكمال في حقه، إنما ترجع إلىٰ عقائد الوثنيين وأهل الملل الشركية القديمة التي تناقض أصحابها في باب الصفات أشد التناقض، حين زعموا أن خالقهم لا يريد لخلقه - جميع خلقه - إلا الخير، ولا يختار لهم إلا ما يحبون (ووافقهم المعتزلة في ردهم علىٰ تلك القضية عند الملاحدة، فذهبوا إلىٰ وجوب فعل الأحسن للمخلوقين عليه سبحانه!).

فمن المعلوم بداهة أن المخلوق الناقص قد يكره - لنقصه الملازم له بموجب مخلوقيته - ما هو خير (له أو لغيره) وقد يحب - لنقصه اللازم له بموجب مخلوقيته - ما هو شر له أو لغيره، وهو معنىٰ بدهي قد جاء القرآن بمصداقه في قوله تعالىٰ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦] وقد يكون الحادث شرا لك في علم الله وخيرا لغيرك، بما تقتضيه حكمة الله وعدله وفضله، فلا يكون لكرهك ذلك الشر أثر في الحكم الواجب علىٰ الله تعالىٰ بكمال الحكمة وكمال العدل! فمن الواضح ومن أول وهلة ودون تفلسف، أن الأمر متعلق تعلقا مباشرا بالعلم وإحاطة العلم وتمام الحكمة، حتىٰ يمتاز الخير والشر في عين المخلوق نفسه علىٰ الوجه الأكمل (أو بعبارة أخرىٰ: حتىٰ يُعرف الخير من الشر معرفة موضوعية وافية)، فليس عدم العلم بالحكمة من هذا والحكمة من ذاك علما بعدمها، وإلا فكيف يكون من كمال الخالق الباري أن يريد الخير لكل مخلوق علىٰ نحو ما يراه ذلك المخلوق الناقص علىٰ أنه الخير؟ هذا تناقض ولا شك. ثم من ذا الذي قال إن إرادة الخير في علم الخالق وحكمته من

خلقه جميع ما خلق، يلزم منها أن يؤتىٰ كل مخلوق غاية ما يحب ذلك المخلوق لنفسه ويرجوه من الخير، وألا يتعرض لشيء يكرهه علىٰ الإطلاق؟

بل إن العاقل سوي النفس يقطع بأنه من الخير في حكمة الله أن يحشر أكثر البشر إلىٰ قعر جهنم وإن كرهوا (وما ربك بظلام للعبيد)، وأن يصاب البشر جميعا بما قدره لهم خالقهم من الشرور وإن كرهوا، لأن هذا ما قضاه رب العالمين، ولا نملك من جهلنا وقصورنا نحن المخلوقين إلا أن نفوض العلم بالحكمة في ذلك التقدير الرباني إلىٰ خالق السماوات والأرض وحده، وإنما علينا أن نعترف بحدودنا في ذلك ولا نتخطاها! ولكن لأن الإنسان عامة لا يحب أن يتعرض لشيء يكرهه بطبيعة الحال، ولأن الدهري خاصة لا يحب أن يأتيه الأمر والنهي من السماء مطلقا، ويكره فكرة العبودية غاية الكراهة، كان من غير المستغرب أن يتفتق ذهن إبيقور الملحد المستكبر عن ذلك الاعتراض السخيف، فيقول: كيف يكون خالقنا ربا مريدا للخير قادرا عليه، ومع ذلك يعرضنا لما نكره أشد الكراهة؟ هو إذن ظالم أو عاجز، وليس كما وصفه من يثبتونه!

فالقضية، أيها القارئ الكريم، قضية سيكولوجية محضة، وليست إشكالية معرفية أو استدلالية أو نظرية، كما سيظهر جليا عند استعراض نزاع القوم عليها فيما يأتي معك. لا أعبده ولا أطيعه حتىٰ لا يجعل في الدنيا إلا ما أحب وأشتهي! وهكذا كل سفسطة يأتي بها فيلسوف من الفلاسفة علىٰ مسألة بدهية، لا يكون الحامل عليها إلا الهوىٰ المحض، ولا يكون الخائض فيها إلا ساعيا غاية وسعه في إظهار نفسه في مظهر الناظر الحريص علىٰ معرفة الحق، وما هو إلا شيطان بقرنين، نسأل الله السلامة!

نقول إن البداهة تقضي بأن حب الشيء واستحسانه (لنفسه أو لغيره) عند المخلوق الناقص، ليس دليلا علىٰ أن هذا المحبوب هو الخير في علم الله بالضرورة، كما أن كره الشيء واستقباحه ليس دليلا علىٰ أنه شر في علم الله وحكمته بالضرورة. هذه مسألة لا يماري فيها عاقل! وكل من ضرب ولده يوما ليؤدبه يرىٰ ذاك المبدأ جاريا علىٰ مسالكه، وكذلك كل من غرس إبرة الدواء في يد مريض، أو عرض نفسه للهلاك يوما لصالح

قضية يؤمن بها، أو حكم علىٰ سفاح مجرم بالإعدام، فهو يعلم أن إنزال المكروه عمدا لا يلزم منه نقص الحكمة أو نقص القدرة أو الاتصاف بشيء من قبيح الصفات! أي أننا نجد في بداهة عقولنا وفطرتنا ما يجيز لنا استحسان فعل المكروه واحتماله أحيانا، مهما كان مكروها لنا مبغضا لنفوسنا، لتحصيل خير أرجح منه! وعندما يكون الكلام عما يحبه الباري وما يكرهه، وما هو الأحكم في علمه سبحانه، فلا يجوز في العقل - كما في الشرع - أن يشبَّه الخالق بالمخلوق في العلم والإحاطة والحكمة (وهي آفة الملاحدة في جميع دعاواهم واعتراضاتهم، وآفة من سلك مسالكهم نفسها في الرد عليهم)، ولا أن يقاس الكامل (بداهة) علىٰ الناقص (بداهة)، وإنما يقال في ذلك ونحوه كما قال تعالىٰ بإحكام تام وبيان لا مزيد عليه: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٢١٦]، وانتهت القضية.

فلماذا لا يريد هؤلاء ولا يرضوا أن يشهدوا بمقتضىٰ البداهة والفطرة بأن خالقهم يعلم ما لا يعلمون، ويسلموا بعلوه وكماله الضروري في الحكمة والعدل والتقدير مهما خفيت عليهم أوجه الخير في أفعاله وتقديراته، ويكفوا عن ذلك العبث جملة واحدة؟ لماذا لم يفوضوا في جواب تلك المسألة فيما يتعلق بالحكمة والتعليل لعدم المعرفة بجوابها عندهم، وإنما اختاروا أن يجعلوا ذلك الجهل بتفاصيل حكم الله وغاياته إشكالا يورد علىٰ كمال صفاته الواجب بداهة، بل علىٰ وجوده نفسه؟ الجواب أن لهم في ذلك العبث غاية ومطمعا نفسيا خبيثا لا يُنال إلا بالإغراق فيه! ذلك أنهم لو فعلوا، ونزلوا علىٰ مقتضيات البداهة والفطرة التي يجدها كل عاقل صادق مغروسة في نفسه غرسا، وسكتوا عما ليس لهم السؤال عنه، للزمهم الدخول في الدين الحق واتباع الرسل، وهذا هو أشد ما تنفر منه نفوسهم الخبيثة، لعنهم الله!

فكان لزاما أن تستثار مشاعر البغض والكره الطبعي لتلك الشرور والبلايا الكثيرة التي قدرها الله في خلقه، حتىٰ يتأسس بها ذلك الستار النفسي السميك الذي يرجىٰ منه مخادعة النفس وإخفاء ما وقر فيها من العلم الفطري البدهي بعلو الباري سبحانه وكماله واستحقاقه للعبادة ولأن يتبع رسله وأنبياؤه فيما جاؤوا به من دعوة

التوحيد والتسليم التام. لهذا كانت «مشكلة الشر» هذه أقوىٰ الأسلحة وأكثرها فاعلية في «ترسانة» الملاحدة علىٰ الإطلاق، وأمضاها وأسرعها وصولا إلىٰ نفوس أهل الأهواء من المفتونين بصنعة الفلاسفة وطريقتهم في تناول كليات المعرفة الغيبية. لا سيما وقد ارتكزت - كما ترىٰ - من أقدم صياغاتها ظهورا عند الفلاسفة، علىٰ عقيدة فاسدة عند كثير من الوثنيين وعند عامة اللاهوتيين النصارىٰ في صفة الباري جل وعلا، فاكتسبت بذلك وقودا فكريا أبقاها مستعرة متوهجة عبر قرون طويلة، ولم يزدد تراكم مادة الجدال فيها إلا بعدا بأصحابه عن الحق الواضح وتشويشا عليه، وهو عين المطلوب عند الملحد المعاند ولا شك!

فقد علم اللاهوتي النصراني أنه لو دعا خصمه الملحد للتسليم المجمل بأن للرب حكمة ما ولا بد وراء كل شر يظهر في مفعولاته مهما كنا نكرهه، وأن يفوض العلم بتلك الحكمة له سبحانه، لجاءه بدعوىٰ التناقض بين ذلك الزعم وبين صفة «محب لكل شيء» التي يدين بها النصارىٰ، التي تقتضي ألا يُقضىٰ لأحد من المخلوقين إلا بما يحبه ذلك المخلوق لنفسه، لأنهم يجدون في كتبهم أن «الله أحب العالم جدا»! لهذا شعر اللاهوتيون باضطرارهم للإتيان بالتفاسير والتعليلات لوجود جميع الشرور في العالم، ولخوض تلك اللعبة مع أصحابها علىٰ شروطها، وهو ما انفتح معه باب اللعب لفلاسفة الإلحاد علىٰ أوسعه كما سيأتي معنا!

فسبحان الله، تأمل كيف يبتلي الله تعالىٰ أهل الباطل بعضهم ببعض، ويزين الشيطان لهم جميعا ما عند كل منهم من بضاعة الباطل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١١٢].

ولعله من نافلة القول أن نذكر أنه قد ترجح عند بعض المؤرخين أن هذه الصياغة الفلسفية القديمة التي تقدم نقلها (بل أصل الإشكالية نفسها كما وثقه التاريخ) لا تصح نسبتها إلىٰ إبيقور. ذلك أنها لم تظهر أول ظهورها منسوبة إليه إلا في مؤلفات لاكتانتيوس النصراني في القرن الرابع الميلادي (أي بعد ما يربو علىٰ خمسة قرون من

موت إبيقور اليوناني) (Larrimore 2001). فالظاهر أنه كان متأثرا في تلك الصياغة وما تقوم عليه من مسلمات – كغيره من آباء الكنيسة الأوائل – بسلفه من اليونانيين الوثنيين أيضا (الرواقيين Stoics والأفلاطونيين وغيرهم)، في تحرير صفة المحبة المطلقة من الرب لجميع مخلوقاته Omni-benevolence. ويُقصد بصفة «محبة كل شيء» عند التحقيق: الذي يحب جميع خلقه ولا يريد لجميع خلقه إلا الخير (أو بعبارة أدق: لا يريد لهم إلا ما يحبون). ففي قاموس أكسفورد للغة الإنكليزية:

"All-loving, or infinitely good, usually in reference to a deity or supernatural being, for example, 'god'."

وفي هذا التعريف نرىٰ التسوية التامة بين معنيين أحدهما مجمل غاية الإجمال، علىٰ طريقة النصارىٰ وبعض الملل الوثنية القديمة تبعا لعقيدتهم وما يعبدون. فإن كان المراد بكلي أو مطلق الخيرية infinitely good: الذي لا يفعل إلا ما هو خير وحسن (أخلاقيا)، فهذا حق يثبت للخالق ببداهة العقل والفطرة، سواء علمنا وجه الخيرية الأخلاقية (الحكمة) لآحاد أفعاله أم لم نعلم، إذ لا يمتنع في العقل أن يكون كمال الخير – علىٰ هذا المفهوم الأخلاقي– في أن يريد الله مكروها لشيء من خلقه، أو في أن يوجد في خلقه مفعولات مكروهة شريرة قلّت أو كثرت، بل قد يكون من الشر الذي يتنزه عنه الباري أن يريد الخير لبعض المخلوقات بأعيانها، بالنظر إلىٰ الأحوال والمآلات والغايات والمقاصد العليا عنده التي لا مرجع لها في علوم البشر أصلا ولا قياس، وإنما مرجعها علمه هو وحكمته هو سبحانه التي لا يشاركه في العلم بها أحد من خلقه إلا بقدر ما يوحي هو به منها لرسله. فيكون الكمال في حقه أن يحب من حقه أن يحَب ويكره من حقه أن يُكرَه، لا أن يحب كل شيء!! لذا فكمال الخيرية علىٰ هذا الوجه يكون معنىٰ لا يناقض في نفوس العقلاء الأسوياء ما عرفوه من مطلق وجود الشر في العالم.

أما إن كان المراد بـ«كامل الخيرية» هذه، أي الذي يحب سائر ما صنع من المخلوقات علىٰ السوية، ولا يريد لشيء من خلقه إلا أن يكون عند أحسن ما يمكن

أن يكون عليه مخلوق من المخلوقات، أو عند غاية ما يحبه ذلك المخلوق لنفسه، كما تعتقده النصارىٰ، فهذا المعنىٰ فاسد مردود قطعا، إذ العقل يشهد بضرورة انتفائه عن الخالق سبحانه كما تقدم، كما يشهد بمناقضته للواقع المحسوس.

وإذا علمنا – من طريق الوحي المنزل علىٰ الرسل والأنبياء، لا من العقل المجرد لأن مثل هذا لا يستقل العقل بمعرفته – أن من الخلق من كان من مقاصد خلقه في هذا العالم أن يُبتلىٰ بالتكليف، فإن كل كائن مكلف ذا اختيار وإرادة (علىٰ سبيل التمثيل بنا معاشر البشر كصنف من صنوف الخلق الموجودة في هذا العالم) يلزم من مطلق معنىٰ كونه مكلفا (في الغاية التي من أجلها خُلق) أن يتعرض لما يتحقق به التكليف والاختبار وإن كان أمرا مكروها له وللذي كلفه وابتلاه سبحانه، كما يلزم من اختياره الحر (أي ذلك المكلف) إما استحقاق المثوبة أو استحقاق العقوبة! فمن استحق العقوبة وانتهىٰ به عمله إلىٰ استحقاق الخلود في العذاب المقيم في الدار الآخرة، كيف يُتصور أن يكون الرب قد أحبه أو أراد له الخير، وكيف يقال إن تنزيه الباري عن القبائح الأخلاقية لا يصح إلا بأن يستوي سائر المكلفين في المآل الأخروي وفي محبة خالقهم لهم؟ هذا ناقض لحقيقة معنىٰ التكليف والاستخلاف والابتلاء، وكذلك صفات العدل والحكمة وغيرها، في اللغة كما في اصطلاح الشرع، ويلزم منه القول بأن الخالق يحب من كان حقه أن يُبغض، وهو كمن يبغض من كان حقه أن يُحب، كلاهما ظالم وواضع للشيء في غير موضعه، وهي نقيصة يتنزه عنها الرب الخالق تبارك وتعالىٰ ببداهة العقل والفطرة السوية كما بينا!

ولكن هنا يظهر السؤال (مرة أخرىٰ): إذا كان ذلك كذلك، وكان بطلان تلك الصفة علىٰ هذا المعنىٰ الوثني الفاسد ظاهرا جليا إلىٰ هذا الحد، فلماذا لا يكتفي أولئك الذين طرحوا هذه القضية للنظر الفلسفي في أول طرح لها علىٰ الإطلاق، لتنزيه الباري عن دعوىٰ فعل ما هو قبيح من كل وجه، بأن يقرروا أن الخير والشر يشترط للقدرة علىٰ تقديرهما والموازنة بينهما علىٰ الوجه الصحيح، التحلي بصفات العلم والحكمة والإحاطة بالعواقب والتبعات تمام الإحاطة، فإن حصل الشرط صح حصول المشروط وإلا فلا، وأنه لا يوصف كائن ما بأنه يحب كل شيء وكل أحد علىٰ السواء، ولا يوصف

صانع ما بأنه يحب كل مصنوعاته بصرف النظر عن وظيفتها والغاية من وجودها في صنعه وتدبيره، إلا كان ذلك نقصا في حكمته وعلمه ولا بد، والنقص ممنوع في حق خالق السماوات والأرض بداهة، سواء علمنا وجه الكمال في آحاد أفعاله أو لم نعلمه؟ لماذا لا يعترفون بأن حب الشيء أو بغضه، وكذا إصابة ذلك الشيء بما يُكره لنفسه أو عكس ذلك، إن لم يكن مداره علىٰ العلم والحكمة كان حماقة وجهلا؟ أهذه معان تحتاج إلىٰ برهان نظري حتىٰ تتجلىٰ للعقلاء؟ أبدا! فلماذا إذن؟

السبب، أيها القارئ المحترم (ونكرر تحريره بألفاظ أخرىٰ لمزيد من التوضيح)، وفقا لما قدمناه من تصوير لآلية العمل النفسي لأصحاب الأهواء، أن أصحاب هذا «الإشكال» لم يكن لهم من وراء إثارته طمع في معرفة هذا الجواب ونحوه أصلا، لأنه لا يخفىٰ علىٰ عاقل ولا يحتاج إلىٰ عبارة وتحرير، فضلا عن الشرح والتفسير والبرهان والتقرير، وإنما أرادوا أن يحيلوا الأمر إلىٰ إشكال جدلي فلسفي كبير يجيز لهم الانخلاع من الملة الشركية التي كانوا عليها (أيا ما كانت تلك الملة)، ومهاجمتها ومهاجمة رؤوسها، وهم يعلمون أن خصومهم سينتصرون - لا محالة - لتلك الصفة الفاسدة (كلي المحبة) علىٰ مفهومها البدعي المعتمد عندهم، وهو ما يفتح ولا بد بابا لجدال طويل واسع التشعب بين طائفتين من الفلاسفة يتخفىٰ تحت ستاره وفي غباره كل من يريد أن يسوغ لنفسه الانخلاع من جميع الملل والأديان جملة واحدة، بدعوىٰ أنه يرىٰ «مشكلة» (بهذا الإجمال) في التناسق المنطقي لصفات الخالق الذي يعبده أهل تلك الملل (أو بعبارة أخرىٰ يرىٰ فيها تناقضا)، ويراها مشكلة واردة علىٰ جميع الملل بلا استثناء!

ومن تتبع التطور التاريخي لتلك الدعوىٰ التي يقال لها مشكلة الشر، رأىٰ بجلاء كيف ازداد تعمق السوفسطائيين وتنطعهم فيها عبر الزمان وتدرجهم في السفسطة حتىٰ وصلوا بها - كما سنرىٰ - إلىٰ زعم بعض المعاصرين صلاحيتها لأن تكون دليلا (منطقيا) علىٰ عدم وجود الباري بالأساس! والقصد أن من أظهر علامات مرض تلك النفوس: حرصهم علىٰ تكثير الشبهات ومضاعفة وجوه الاعتراض والتشغيب واللغط،

وتكثير صوره وصياغاته ومداخله، فلم يزدادوا بجدالهم مع خصومهم إلا بعدا عن الحق الواضح الجلي، وهو عين المطلوب وغاية المراد أصلا.

ويرىٰ بعض الفلاسفة أن أقدم صياغة فلسفية لمشكلة الشرّ هي تلك التي نراها في كلام أفلاطون، حيث ينقل كلاما علىٰ لسان سقراط يبرئ فيه «زيوس» من سائر الشرور التي يتعرض لها الإنسان في الدنيا، فيقول:

> ولا يمكن إذن للإله، فيما أقول، وبما أنه خيِّر، أن يكون، كما تقول الأكثرية، السبب في كل شيء، ولكن بالنسبة للنوع الإنساني، فإنه السبب في بعض الأشياء، ولكنه ليس السبب في أشياء كثيرة. فإن الأمور الطيبة أقل عندنا نحن البشر بكثير من الأمور الشريرة، فلا يجب أن نفترض للأمور الخيرة سببا إلا الإله، أما سبب الشرور فينبغي أن نبحث عنه في أمور أخرىٰ وليس في الإله.[1]

ويظهر من هذا الكلام تعلق أفلاطون بمقدمة مفادها التسليم بأن الإله لا يريد إلا أن يجعل في خلقه الخير (الذي هو خلاف مطلق معنىٰ الشر)، مع اعتقاده بأن الإله لا يقدر علىٰ دفع تلك الشرور المبثوثة في أركان العالم، ومن ثمّ فإنه يلزمه القول بأن الإله «الخير» هذا ليس هو العلة الأولىٰ أو ليس هو السبب الأعلىٰ لكل حادث يحدث في هذا الكون، وليس العالم كله تحت سلطانه وحده كما يوجبه له العقل والفطرة، وإنما هو السبب في بعض الحوادث دون بعض (فقط ما كان منها خيرا في نظر أفلاطون وتقديره)، وهو ما حقيقته نقض التفرد الواجب للباري بصفاته كما لا يخفىٰ، إذ علىٰ هذا التصور يكون من الحوادث ما لا ينبغي أن يُنسب إليه التسبب في وجوده أصلا، وهو ما حقيقته إشراك الباري بغيره في الخلق والإحداث (أو التعليل التام لبعض ما يجري في العالم من حوادث) علىٰ طريقة القدرية والثنوية المجوس.

فلا بد وأن وثنية أفلاطون (باعتقاده في جملة من الآلهة في الغيب!) قد سوغت له تقرير هذا المعنىٰ علىٰ الرغم مما يظهر فيه من فساد وتناقض عقلي بين. وإذا كنا نقطع بأن هذا التناقض ليس مما يخفىٰ علىٰ عاقل أصلا، دع عنك أن يكون بمنزلة

(1) Quotation by W. Greene, as cited by Herman 1993, pp. 10.

أفلاطون، لم يبق لنا إلا إثبات تلبس الرجل بالهوىٰ المحض في ذلك، وسلوكه مسالك السوفسطائيين في التعمية علىٰ تناقضات اعتقاده الغيبي في هذا الباب.

فالإله عند أفلاطون موصوف بأنه «كلي-المحبة» Omni-benevolent، أي لا يريد - في الخلق والتكوين - أن يكون للبشر إلا ما يحبون، ولا يريد لهم أن يصابوا في الدنيا بما يكرهون، ولو أنه «استطاع» لمنع وجود ذلك الشر في مبدإ الخلق والتكوين. وهذا محل الاعتراض عند عموم الفلاسفة في الحقيقة، فإن كان الخالق لم يخلق الشر ولم يكن يريد له أن يوجد بالأساس (بمقتضىٰ ما حرره هؤلاء الوثنيون من معاني صفاته)، فمن الذي خلق الشر إذن ومن أين أتىٰ؟ إن كمال القدرة ينتفي لا محالة عن خالق هذه صفته (أن في الوجود ما لم يكن هو خالقه وسببه الأول)، بل ينتفي عنه الوصف المغروس في بداهة العقل بأنه سبب سائر المسببات والمعلولات كلها وبأنه الأول الذي لا شيء قبله ولا خالق له، بما يلزم منه أن يكون الرب مربوبا (كما هو لازم سائر صور شرك الربوبية والأسماء والصفات)، مسبوقا بإرادة فوق إرادته، فتنتفي عنه الربوبية رأسا بذلك، سبحان الله وتعالىٰ عما يصفون. فهل هذه معان تخفىٰ عن عقل كعقل أفلاطون حتىٰ يحتاج معها إلىٰ دليل أو برهان، أم أنه الهوىٰ المحض، ومحاولات التماس التسويغات الذاتية Rationalizations لاعتقاد وثني فاسد؟ الجواب واضح!

صياغة ديفيد هيوم.

في أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، وضع الفيلسوف الاسكتلندي «ديفيد هيوم» في كتابه «مناقشات حول الدين الطبعي» *Dialogues Concerning Natural Religion* صياغة موجزة للإشكالية المنسوبة إلىٰ إبيقور، ترجمة نصها كالتالي:

> لا تزال أسئلة إبيقور القديمة لم يُجَب عنها إلىٰ الآن. فهل يريد [أي الإله] أن يمنع الشر ولكنه غير قادر؟ فهو إذن عاجز [تعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا]! فهل هو قادر ولكنه غير مريد؟ فهو إذن شرير! فهل هو قادر ومريد معا؟ فلماذا إذن يوجد الشر في العالم؟[1]

ولينتبه القارئ الكريم إلىٰ استهلال الرجل كلامه بقوله «لا تزال أسئلة إبيقور القديمة لم يجَب عنها إلىٰ الآن»، فلهذه العبارة أهميتها البالغة في تتبع الهيكلة المعرفية الفردية Cognitive Structure التي تزدان في نفوس هؤلاء السوفسطائيين المتعلقين بأهداب الدعاوىٰ الإلحادية لتسويغ بقائهم علىٰ التكذيب بسائر الرسل والأنبياء جملة واحدة. فالمطلوب (في نفوس القوم) لذلك الهيكل المعرفي أن يبقىٰ أبد الدهر ملغوما مشحونا بطبقات وطبقات من الأسئلة والشكوك والتناقضات والإشكالات التي لا تنتهي. المطلوب أن تبقىٰ الأسئلة القديمة مطروحة للمناقشة (علىٰ ما فيها وفي أجوبتها من إجمالات وتحكمات!) إلىٰ ما لا نهاية له في قابل الأيام، فلا يأتي أحد بجواب جديد إلىٰ قوبل باعتراضات فلسفية منمقة للغاية Sophisticated تفتح الباب لمزيد من الجدال والسجال هنا وهناك. فإن قدر أن خمل سؤال سوفسطائي من تلك الأسئلة التي كان لبعض الفلاسفة القدماء مصلحة في اختراعها من أجل التترس الاجتماعي بها علىٰ ما يعتقدونه من الباطل، رأيت منهم من يحييه ويعيد بثه ونشره في الناس من جديد!

فإذا انضاف إلىٰ ذلك علو منزلة «الفيلسوف المتشكك» في زمان النهضة الأوروبية، بسبب «جرأته الفكرية» علىٰ كشف كثير مما في الملة الكنسية من تناقضات كبرىٰ لا

(1) Hume, pp. 186.

يخطئها العقل السوي، مع افتتان المجتمع بما تبنته تلك الحركات الفلسفية المتحررة من سلطان الكنيسة من رعاية لنمو المعارف الطبيعية ونصرة لها ولأصحابها وتفان في تأسيس أصولها الفلسفية، أصبح الإكثار من تلك الجدالات والسجالات والجوابات المتبادلة تحت الزعم بأن الأسئلة لا تجد جوابا شافيا «حتىٰ الآن»، بل تزداد غموضا وتعقيدا كل يوم، عملا مستطابا في نفسه، مستحسنا للغاية لكل من أراد أن ينخلع من أي صورة من صور الالتزام الأخلاقي والاجتماعي تجاه رب خالق في السماء له كتاب ورسالة وتكليف في الأرض.

ونقول في هذا السؤال الأخير في نهاية الاقتباس من قوله «فهل هو قادر ومريد؟ فلماذا يوجد الشر في العالم إذن؟»: أي شيء كان يضيره لو شهد بما جُبل عليه العقل السوي من ضرورة أن يكون الباري قادرا ومريدا معا (وعلىٰ حدّ الكمال في ذلك)، ثم ضرورة أن يكون ظهور الشر في بعض مفعولاته في الخلق (بل في أكثرها) واقعا لحكمة بالغة عنده (لأنه موصوف ببداهة العقل بالكمال في الحكمة)، علمنا بها أم لم نعلم، وينتهي الأمر عند هذا؟

الضير يأتي مما تقتضيه تلك الشهادة من مقتضيات في واقع الرجل (هيوم) وحاله وعمله وسلوكه، من اضطرار النفس لترك تلك الصنعة العبثية التي علا بها نجمه في سماء «الصفوة الثقافية والفكرية» في مجتمعه، ثم الخضوع للدين الحق المنزل من رب العالمين. كيف يرتضي الفيلسوف العظيم «ديفيد هيوم» أن يشهد علىٰ نفسه بعبثية حججه ومناقشاته واعتراضاته، ليس هذا فحسب، بل أن يشهد علىٰ نفسه بصحة ذلك الدين الذي جاء به رجل كان يرعىٰ الغنم في صحراء جزيرة العرب، ذلك الدين الذي علم أنه يدعو إلىٰ توحيد الباري وتنزيهه كما لا يكون في دين سواه؟ هذا محال لمثله، إلا أن يشاء ربه في أمره شيئا.

والحيلة النفسية وراء تساؤل كهذا في سياق كهذا، هي أن يبدو السؤال مشكلا ملغزا معضلا، يحتاج إلىٰ الكثير من التمحيص والفحص والتنظير الفلسفي، حتىٰ يُنتهىٰ فيه إلىٰ

جواب «مقبول» (نظريا)! الغرض (أو قل: الهوىٰ أو الطمع) في الحقيقة أن يبقىٰ السؤال عالقا إلىٰ الأبد بلا جواب أصلا، حتىٰ يبقىٰ صالحا لذر الرماد في العيون، ولصنع ذلك الستار النفسي السميك المطلوب لإيهام النفس بأنها علىٰ شيء، ولإيهام الآخرين بأنها بريئة من تهمة التهرب من الإقرار بالحق الظاهر الجلي، ومن الإقرار بشدة التناقض الاعتقادي الذي زينت لصاحبها البقاء عليه. كيف والأمر تعتوره تلك «الإشكالات العويصة» التي لا يعرف أذكىٰ الناس مخرجا منها؟ هكذا يريد الفيلسوف أن يوهم نفسه وأن يوهم أتباعه.

ونظير هذا التساؤل التشويشي ما كتبه «هيوم» في نفس هذا الكتاب في الصفحة السابقة لكلامه هذا، حيث يتساءل حول ما ينسبه الناس إلىٰ الرب من صفات يراها بأنها من التمثيل بالبشر Anthropomorphism حيث يصفونه بالعدل والحكمة والعلم والرحمة .. الخ، فيقول ما معناه: كيف يدعي العقلاء وهم يرون في العالم ما يرون، أن يكون الرب موصوفا بتلك الصفات علىٰ نفس طبيعتها التي نعرفها في البشر؟[1] وذلك أنه يرىٰ أن وجود الشر في العالم يلزم منه أن تكون تلك الصفات في الرب علىٰ خلاف ما نعقل، وإلا ما وجد الشر في الأرض. ونقول لا شك في أنه ما من داع في العقل الصريح ولا فيما يعلمه الإنسان اكتسابا، يقضي بوصف الرب بالشر (أو بمستقبَح الصفات والخصال أيا ما كان ذلك) من مجرد وجود الشرور والمكاره في العالم، ولا من مجرد غلبته علىٰ الخير في أكثر الأحوال، ولا من بشاعة بعض تلك الشرور وفظاعتها، كما تفنن هؤلاء في صياغة مشكلتهم (وكما سيأتي معنا عرضه)!

وننبه إلىٰ أن الاشتراك في معاني هذه الصفات التي ذكرها «هيوم» – بهذا الإطلاق – بين الخالق والمخلوق، ضرورة يوجبها العقل ببداهته أيضا، إذ لا مناص للعقلاء من القطع بإرادة لفاعل حكيم في عالم الغيب يتعلل بها كل شيء، فيكون العالم علىٰ هذا النحو الذي نراه شهادةً لا علىٰ غيره، لكون تلك الإرادة لديه علىٰ ما كانت عليه لا علىٰ غيره، ولكون حكمته في خلق العالم علىٰ نحو ما كانت

(1) Hume, pp. 185.

لا علىٰ غيره. كما أنه ليس الاشتراك في المعنىٰ بما يلزم منه عند العقلاء القول بالاشتراك في الكيفية أو «الطبيعة» nature علىٰ حد تعبير «هيوم» عنها. فإن كان مجرد إثبات هذا الاشتراك المعنوي معدودا من التشبيه عند «هيوم» أو غيره، فلا إشكال في ذلك! هذا القدر من المشابهة حق لا ننفيه، وأهل الملل «المتألهة»[1] theists كلهم يقولون بتلك المشابهة بالضرورة. ولكننا معاشر المسلمين أهل السنة لا نزيد علىٰ ذلك القدر (الاشتراك المعنوي) ولا نستلزم من إثباته علىٰ معناه الظاهر ما يستلزمه غيرنا من كلام في حقائق تلك الصفات في ذات الخالق، يتعلق بكنه ذاته جل وعلا، فلا نخوض في صفة الصفة أو «حقيقتها»[2]، وإنما نفوض العلم فيها لله، مع الجزم بأنها حقيقة تليق بذات الباري بالضرورة فلا قياس لها علىٰ صفات المخلوقين. ولهذا التفريق اللغوي والعقلي بين المعنىٰ والكيفية (أو بين الصفة وصفة الصفة) تفصيل لا يتسع له هذا المقام. فقد غرق المتكلمون الأوائل من أهل القبلة في هذه القضية تأثرا بكلام الفلاسفة حتىٰ خرج بعضهم من دائرة الإسلام نفسه، إذ أمسىٰ بعضهم يعبد عدما وبعضهم يعبد صنما (كما اشتهر من عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله) وبعضهم يروم التوسط بالباطل بين الحق والباطل، فيعبد إلها يثبت له من النعوت ما يرىٰ أن العقل يجيزه، ويعطل سائر ما سوىٰ ذلك أو يحرفه عما جرىٰ عليه فهم الصحابة والتابعين!

والقصد أن دعوىٰ تمثيل الإله بالبشر Anthropomorphism من مجرد إثبات المعاني المشتركة له، دعوىٰ يردها العقل بداهة، وإنما تعلق بها هيوم لأهواء لديه،

(١) الذي يظهر لي صحة أن تترجم هذه الكلمة إلى «المثبتة» أو «الإثباتية»، ولا يقال «التوحيدية» Monotheistic كما يصنع بعضهم، إذ التوحيد لا تصح نسبته إلا إلى ملة محمد عليه السلام، التي يوحَّد فيها الرب في ربوبيته وأسمائه وصفاته وفي عبادته وتأليهه وحده لا شريك له. كما أن المراد بالكلمة المترجمة في الواقع أعم من الملل الثلاث ذات الأصل الإبراهيمي، فيشمل جميع الملل التي يزعم أصحابها الإيمان بوجود إله خالق أيا ما كانت صفته (وهي سائر الملل خلا الإلحاد وفلسفاته، بما في ذلك الهندوسية التي تعبد ملايين الآلهة والنصرانية التي تجعل الواحد ثلاثة!) وقد ذكرنا في موضع آخر أن الجهمية والمعتزلة قد تأثروا بذلك المفهوم القاصر للتوحيد عند الفلاسفة، بما ظهر جليا في تعريفاتهم هم للتوحيد!

(٢) والقول بإثبات الصفة على معناها اللغوي الصريح والاقتصار على ذلك، منهج، والقول بتأويل ذلك المعنى وتفسيره بما يجعله وصفا للصفة وكيفيتها، منهج آخر بالكلية، ولا تلازم بينهما

إذ حرص علىٰ تسويغ إلحاده وإعراضه عن إثبات باريه بالتماس كل حيلة وسفسطة سخيفة مكنه عقله الخبيث من اختراعها!

قال «هيوم» (المرجع السابق، ص ١٨٧):

إن قدرته – كما نصفها – لا منتهىٰ لها: فمهما كان مراده فإنه يحققه: ولكن لا الإنسان ولا غيره من الدواب في هذه الدنيا يوصفون بأنهم سعداء: ومن ثمّ فإنه لا يريد لهم تلك السعادة. وحكمته كذلك لا نهاية لها: فهو لا يخطئ أبدا في اختيار الوسائل المفضية إلىٰ أي غاية: ولكن مجريات الطبيعة لا تخدم سعادة الإنسان ولا الحيوان: ولذا فإن الطبيعة ليست مبنية لهذه الغاية! فبالنظر في سائر معطيات المعرفة الإنسانية، لن نجد استنتاجا آكد ولا أعصىٰ علىٰ الإبطال من هذه المقدمات! فبأي وجه إذن، تكون محبته ورحمته مشابهة لمحبة ورحمة البشر؟

ونقول لقد أصاب «هيوم» في المقدمات الأولىٰ التي أثبتها في كلامه هذا حيث قرر أن الرب لا منتهىٰ لقدرته ولا لحكمته، فترتب علىٰ ذلك أن ما يفتقر إليه الإنسان وغيره من المخلوقات من رغد العيش في الحياة الدنيا ومن الرفاهية السابغة التي لا زوال لها عنه، لا بد أنه ليس مرادا للرب في خلقه وتكوينه وليس داخلا في الغاية التي من أجلها خلق الخلق كله. إلىٰ هذا الحد، فالكلام صحيح ولا شك! ولكن عندما يطرح «هيوم» التساؤل الأخير ويتبعه بصياغته للإشكالية المنسوبة إلىٰ إبيقور كما تقدم نقلها، فإننا ينكشف لنا تصوره لما يسميه برحمة ومحبة البشر التي نفىٰ عن الخالق أن تستوي في طبيعتها (ويقصد هنا معناها اللغوي المجرد، وليس تأويلها أو تفسيرها أو كيفيتها) برحمة ومحبة الخالق سبحانه.

فما «طبيعة» الرحمة والمحبة التي نسبها هيوم للإنسان ها هنا؟ هل هي علىٰ الوجه الذي أشرنا إليه آنفا، تلك الرحمة والمحبة التي يوصف صاحبها بالنقص إن وضعها في غير محلها (ولا يُعرف المحل الصحيح لكل شيء إلا بالعلم والحكمة)؟ إن كان ذلك مراده، فنحن نوافقه في أن رحمة الله ومحبته لا تستويان برحمة الإنسان ومحبته قطعا (وقياس هذه علىٰ تلك من أفسد ما يكون، وهو ما يقال له «تشبيه الأفعال»)، لأن الإنسان قد يخطئ من نقصه وجهله فيضع ذلك كله في غير محله، أما الخالق سبحانه

فهو منزه عن ذلك الخطإ (الذي هو حقيقة الظلم في اللغة). ولكن ليس كذلك يريد الرجل من كلامه، ولو كان هذا الجمع البدهي الواضح بين معاني المحبة والرحمة والحكمة والعدل والعلم (علىٰ وجه الكمال الواجب فيها جميعا) مقبولا عند أصحاب تلك «الإشكالية» كما هو مقرر عند الموحدين أتباع الوحي المنزل، ما بقي لهم شيء يجادلون فيه أصلا، وما بقيت «إشكالية»، وإذن لانهزم المقصد الحقيقي الذي تتحرك به نفوس القوم في مواصلة ذلك الجدال.

لذا استصحب «هيوم» في محاججته القول بأن الرب لا يريد لأهل الأرض والسماء إلا أن يعيشوا في الخير الوفير (وهو ما يعلم أن مخالفيه من أهل الكتاب والوثنيين يسلمون بصحته ولا يجادلون فيه لأنه من أصول ملتهم)، وأنه (أي الإله) – بالتالي – في «صراع دائم» مع قوىٰ الشر والإفساد في العالم علىٰ نحو ألجأه إلىٰ التجسد في صور البشر ليبذل لهم محبته السابغة كما بدعتها أساطير الملل الوثنية، بل ألجأه إلىٰ أن يرضىٰ باعتلاء الصليب ويقبل أن يموت عليه ذليلا مهينا، لأنه «أحب العالم جدا» (سبحانه وتعالىٰ عن ذلك كله علوا كبيرا). وهذا وجه اختلاف تلك «المحبة الكلية» التي نسبوها إلىٰ الله تعالىٰ عن مفهومنا نحن البشر للمحبة، فإن البشر الأسوياء إذا أحبوا كان لمحبتهم حدود وقيود وشروط، ومن ثمّ جاز أن تنقلب محبتهم تلك إلىٰ كراهية بموجب تلك الشروط! أما الرب فلا يجوز ذلك في حقه عندهم لأنهم – أعني المشركين من أهل الكتاب والوثنيين – يرون أن المعنىٰ المطلق للكراهية ومجرد تعليق المحبة علىٰ شروط لاستحقاقها، نقائص أخلاقية في الإنسان لا ينبغي أن تنسب إلىٰ خالقه!

هذا المفهوم للمحبة الربانية المطلقة أو الكلية Omnibenevolence /Providence الذي تبنته الفلسفة اللاهوتية النصرانية (نقلا عن الفلسفات الوثنية القديمة) كما أسلفنا، ونافح عنه «توماس أكويناس» بصفة خاصة، كان له بالغ الأثر في فكر الفلاسفة الغربيين ولا يزال، لا لخفاء تناقضه علىٰ العقلاء فإنه ليس بخاف كما ترىٰ، ولكن لصلاحيته لأن يكون أساسا إبستمولوجيا لتشييد ذلك البناء الجدلي العملاق الذي أصبح يقال له «مشكلة الشر» وصار يوصف عند بعضهم بأنه «صخرة الإلحاد» The Rock of Atheism. والمتأمل في سجالات اللاهوتيين النصارىٰ المعاصرين مع فلاسفة الإلحاد

يظهر له بجلاء كيف أن هذه الصفة التي ينسبها النصارىٰ إلىٰ الرب جل وعلا هي – كما بيّنّا من قبل – الأساس الذي تنتصب فوقه تلك «الصخرة» عند الملاحدة، ويقتات عليها الدهرية لتسويغ إعراضهم عن دعاوىٰ المرسلين جملة واحدة.

فتأمل مثلا كيف عجز اللاهوتي الأمريكي «ألفين بلانتينغا» Alvin Plantinga، صاحب الجواب الفلسفي المشهور الذي يقال له «دفاع حرية الاختيار» Free-Will Defense (وسيأتي معنا تناوله لاحقا) عن التفريق بين المعنيين: «الذي يحب جميع خلقه فلا يصنع بهم إلا الخير»، و«الذي لا يفعل إلا خير الخيرين (أو أحسن) ما يمكن فعله منطقيا»! ولا عجب، فلو أنه تبرأ من المعنىٰ الأول لهتك أصلا من أصول ملته، ألا وهو المحبة الإلهية التامة لكل أحد وكل شيء، بلا شرط ولا قيد. فلزمه أن يتفنن في التلبيس الزخرفي Sophisitication والإجمال العمدي Ambiguation عند الجواب ما وسعه، وما كان ليقلع عن ذلك إلا أن يهديه الله إلىٰ التوحيد!

يقول بلانتينغا في مقدمة كتابه «الإله، الحرية، والشر» *God, Freedom and Evil*:

> إن الإيمان بالإله لا يستوي بالإيمان بوجود الإله، أو الإيمان بأنه يوجد شيء يصح تسميته بالإله. فإن الإيمان بوجود الإله لا يزيد علىٰ قبول قضية معينة، قضية تقرر وجود كائن متشخص Personal، كان، علىٰ سبيل المثال، موجودا من الأزل، وهو كامل القدرة، كامل الحكمة، كامل العدالة، وقد خلق العالم وهو يحب جميع مخلوقاته. أما الإيمان بالإله فهو مسألة أخرىٰ بالكلية. فإن «قانون الإيمان للرسل» يبدأ هكذا: «أنا أومن بالإله الآب القدير، خالق السماوات والأرض...». فالذي يكرر هذه الكلمات وهو صادق فيها، ليس يعد مصرحا بحقيقة أنه يقبل أن قضية ما هي الحق وحسب، وإنما الأمر أكثر من ذلك بكثير. فإن الإيمان بالإله يعني الثقة به، وقبوله، وتسليم حياة المرء له انقيادا. فالمؤمن يرىٰ العالم كله بمنظور مختلف. السماء الزرقاء، الغابات الثرية، الجبال الشاهقة، المحيطات الواسعة، الأصدقاء والأقرباء، الحب في شتىٰ صوره وألوانه – كل هذا يراه المؤمن علىٰ أنه نعمة من الإله.[1]

(1) Plantinga 1977, pp. 2.

ومحل الشاهد في قول الرجل: «وقد خلق العالم وهو يحب جميع مخلوقاته»! فإنه ها هنا يتكلم في معرض تقرير جملة من الخصائص اللازمة عقلا وبداهة لذلك الكائن الأسمىٰ الموصوف بأنه الخالق، التي يجب القول ببديهيتها كالقول بوجوده سواء بسواء، فنراه يعد من بينها صفة المحبة غير المشروطة لجميع المخلوقات، التي هي في حقيقتها بدعة من بدع النصرانية يتنزه عن الاتصاف بها كل مخلوق عاقل حكيم، فضلا عن خالق السماوات والأرض سبحانه وتعالىٰ. فإذا ما سألته، أجابك بأن هذه المحبة لا تتعارض مع وجود الشر، لأنه لولا أنه أحب العالم جدا ما جعل فيه شرا، لأن غاياته العليا والخير الأعظم الذي يريده للمخلوقات لا يتحقق إلا بهذا. ولكن كيف يحب كائن حكيم كريم من يبغضه أشد البغضاء ويناصبه العداوة ويسبه ويهينه ويقاتل أولياءه في الأرض آناء الليل وأطراف النهار، ولا ينوي مهما امتد به العمر إلا أن يظل علىٰ ذلك أبدا؟ وما معنىٰ أن يخلق خلقا من هذا الصنف الخبيث، لو كان مراده من خلق العالم كله وما فيه أن يحبه محبة تامة سابغة كما يزعمون؟ وما صفة من يحب أهل الشر والفساد ولا يبغضهم مهما عملوا؟ ما صفة كائن لا يفرق بين الأبرار والأشرار والفجار فيحبهم جميعا علىٰ السوية؟ هذا تناقض واضح في الصفات، إذ لا يصح أن يُنسب إلىٰ خالق كهذا أنه كامل الصفات لا نقص فيه! ولكن بلانتينغا يحرص كما ترىٰ علىٰ تمرير هذه الصفة النصرانية الوثنية «كلي المحبة» علىٰ أنها من مسلمات العقل في حق الباري جل وعلا!

والسبب في ذلك التناقض، هو أن فلاسفة اللاهوت النصراني كانوا ولا يزالون يريدون إقناع الناس بأن الباري يكون عند حدّ الكمال في الحكمة (أو الكمال الأخلاقي علىٰ اصطلاحهم) عندما يحب جميع خلقه بلا قيد ولا شرط، علىٰ أساس أن مطلق الحب كمال ومطلق البغض نقص، وما ذاك كله إلا ليقوم لعقيدة التجسد والفداء والصلب عندهم أساس في صفات خالقهم تقف عليه. ولنفس السبب اضطر الوثنيون القدماء من قبلهم لإثبات صفة «المحبة المطلقة» تلك، حتىٰ يسوغوا لأنفسهم الزعم بأن الرب الباري الأعظم جل شأنه، قد تجسد بنفسه ونزل علىٰ الأرض ليكون بين أحبابه، أو اتخذ ولدا متجسدا في جسد بشري ثم ضحىٰ به من أجلهم جميعا!! والصواب الذي يعرفه العقلاء ولا يخطئونه، أن الحب إنما يكون كمالا عندما يصرف إلىٰ من

يستحق أن يُحب، ويكون نقصا عندما يصرف إلىٰ من كان حقه أن يُبغض. ولكن لو أنهم تخلوا عن تلك العقيدة الوثنية المتناقضة للزمهم الدخول في دين محمد ﷺ، وهم يكرهون ذلك جدا ولا يتصورونه أصلا. فلم يكن لديهم بد من اتباع طرائق الفلاسفة في مقاومة تناقضات بعض الصيغ الفلسفية الإلحادية لمشكلة الشر، مع التعمية – في ذات الوقت – علىٰ ذلك الفساد في المعتقد النصراني في باب صفات الرب جل وعلا[1].

وكما سنرىٰ، فقد اتخذ فلاسفة الإلحاد المعاصرون تلك المساجلة القديمة بين الملاحدة وبين فلاسفة اللاهوت النصراني تكأة لتشييد حجج فلسفية مبتكرة جديدة أصبحت تعرف باسم «الحجة من الشر» أو «من مشكلة الشر»، كل «حجة» أو «صيغة» منها أشد تناقضا وفسادا من سابقتها. فكانت تلك الصيغ علىٰ ضربين رئيسين عندهم (وهما الأشهر في تصانيف الفلاسفة المعاصرين):

- الحجة المنطقية

- والحجة الدليلية.

(١) والعجيب أن الرب في كتاب النصارى المحرف يتحول إلى تلك الصفة (المعدودة في أصل معناها عندهم من ضروريات الكمال الأخلاقي) بعد أن لم يكن عليها في العهد القديم! إذ يندم على ما صنع بالبشر في زمان نوح، وينقلب إلى المحبة المطلقة التي تصل إلى إنزال ابنه المزعوم ليصلب فداء لخطايا نفس المجرمين الذين أهلكهم من قبل بالطوفان وغيره، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا! فكيف يكون وصف المحبة المطلقة غير المشروطة من الكمالات التي يوجبها العقل للخالق وقد كان على خلافها بحسب نصوصهم ثم تحول إليها بزعمهم ندما وأسفا على ما صنع بخلقه؟ كيف أبغضهم وأهلكهم أولا، ثم تحول بعد ذلك إلى أن أحبهم «جدا»، من غير ظهور ما يقتضي ذلك، ويظل في جميع ذلك موصوفا بكمال الصفات والنزاهة عن كل نقص؟ كيف تخلفت عنه صفة كمال في حقه من قبل عند معاملته قوم نوح، ثم صار موصوفا بها لاحقا بعد أن لم تكن فيه؟ تأسيسا على هذا التناقض ونحوه في عقائد أهل الكتاب في صفات الرب سبحانه، استساغ الفلاسفة اللا-لاهوتيون Atheologians المعاصرون إطلاق القول بأن دعاوى المثبتة – بهذا الإطلاق – في حق الخالق لا تخلو من تناقض منطقي، فأصبحوا يتخذون من تلك التناقضات عند النصارى (التي صورت الرب في صورة الجاهل المريض نفسيا، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا) ستارا فلسفيا يتعلقون به للتمسك بدعوى أن عقائد أهل الملل المتألهة في صفات الخالق متناقضة كلها ولا مخرج من ذلك التناقض لكل من آمن بإله خالق عليم حكيم ذي إرادة.

الصورة المعروفة بـ«الحجة المنطقية من الشر» Logical Argument from Evil

وهي صياغة سوفسطائية جديدة يحاول الملاحدة المعاصرون فيها استعمال تلك الشبهة (التي كانت تصنف من قبل علىٰ أنها إشكالية معرفية وليست تناقضا وجوديا) علىٰ أنها دليل أو حجة منطقية أنطولوجية لنفي وجود الخالق جملة واحدة، إذ يزعمون أن المقدمات الثلاث (في صياغة مشكلة إبيقور) المتعلقة بالصفات الواجبة عقلا للباري لا تتوافق منطقيا مع مطلق وجود الشر في العالم (من حيث المبدأ)، ثم يقفزون من ذلك الزعم إلىٰ الحكم بامتناع وجود الخالق عقلا، علىٰ أساس أن تناقض الصفات يلزم منه امتناع وجود ذات توصف بتلك الصفات. وقد ظهر ذلك المسلك بين فلاسفة الإلحاد الغربيين في أواسط القرن العشرين الميلادي، حين زعم الفيلسوف الأسترالي «جون ليزلي ماكي» J. L. Mackie في مقال له نشر في سنة ١٩٥٥ الميلادية بعنوان «الشر وكمال القدرة» *Evil and Omnipotence* أن مفردات الاعتقاد في وجود الإله وصفاته التي اتفقت عليها الملل لا تتناسق منطقيا (أي يظهر التناقض فيما بينها). قال ماكي (بجرأة غير مسبوقة في تناول الفلاسفة لتلك القضية) في صدر مقاله المذكور:

> بهذا (يعني بالكلام علىٰ مطلق وجود الشر والاحتجاج به) يمكننا أن نبين ليس فقط أن الاعتقادات الدينية (هكذا!) تفتقر إلىٰ السند العقلي، بل كذلك أنها غير منطقية بالأساس، وأن المزاعم المتعددة التي يتكون منها المعتقد الألوهي لا تتناسق مع بعضها البعض، إلىٰ حد أن اللاهوتي لن يكون بوسعه البقاء علىٰ موقفه إجمالا إلا بعد الاضطرار إلىٰ بلوغ درجة أشد إفراطا في رد العقل والمنطق مما كان عليه في سابق الأمر (أي قبل ضمّ إشكالية الشر إلىٰ جملة الأدلة المنطقية المزعومة ضد وجود الإله!). فإنه ليس عليه الآن أن يؤمن فقط بما لا يمكن إثباته، بل إن عليه أن يؤمن كذلك بما يمكن إبطاله في جملة المعتقدات التي يتشبث بها.[1]

فيقرر صاحبنا في هذا الكلام الفاحش فكرة لم تعرفها البشرية قطّ فيما قبل القرن الميلادي الماضي، علىٰ الرغم من قدم «مشكلة الشر» هذه نفسها في تاريخ الفلسفة كما

(1) Mackie 1955, pp. 200.

عرضنا، ألا وهي دعوىٰ أن عدم القدرة علىٰ التوفيق (معرفيا) بين محبة الإله المزعومة لجميع مخلوقاته من جانب وإنزاله الشرور بهم من الجانب الآخر، يستلزم القول بعدم وجوده بالغيب من الأساس!

ولا أدري في الحقيقة هل كان «ماكي» هذا هو مصدر تلك الفكرة (الجريئة) أم أنه قد سبقه إليها بعض معاصريه، ولكنها علىٰ أي حال علامة أخرىٰ من علامات الخزي العقلي الكبرىٰ في مستنقع الإلحاد الغربي، وآية علىٰ مضي القوم إلىٰ المزيد من التردي والانحطاط الفكري عصرا بعد عصر، وقرنا بعد قرن، فلا يأتي فيلسوف منهم إلا بإضافة المزيد من الدعاوىٰ المتهافتة التي تزيد ستار الدخان والغشاوة القلبية ثخانة وسماكة، لستر ما عرفوه من الحق الجلي الواضح، والله المستعان.

تأمل كيف يقرر «ماكي» في الكلام المقتبس عنه آنفا أنه يرىٰ في «حجته» الجديدة هذه إضافة مهمة إلىٰ ما يزعم أن اللاهوتيين مطالبون بالاشتغال بالرد عليه وإبطاله من دعاوىٰ المخالفين، قبل أن يطالبوا الناس باتباع دينهم، إذ يقول عن الخصم اللاهوتي «فإنه ليس عليه الآن أن يؤمن فقط بما لا يمكن إثباته، بل إن عليه أن يؤمن كذلك بما يمكن إبطاله في جملة المعتقدات التي يتشبث بها»، وهذا هو بيت القصيد وغاية المراد لديه في الحقيقة: إضافة المزيد من الاعتراضات - مهما كانت واهية متهافتة - إلىٰ مخزون الفلاسفة من ذلك، وادعاء اضطرار اللاهوتي للرد عليها وإبطالها كلها بردود تلقىٰ القبول (منهجيا) باتفاق أهل الصنعة (أعني صنعة الفلسفة)، حتىٰ يسوغ له أن يبقىٰ علىٰ إيمانه، فضلا عن أن يدعو إليه غيره من الناس. فهو يزعم أن المؤمنين بالإله (أو المتألهين) - وبفضل هذه الحجة الجديدة - بعد أن كانوا يؤمنون بما لا يمكنهم إثباته، أصبحوا الآن مؤمنين بما يتناقض في نفسه بالضرورة!

أو بعبارة أخرىٰ، يقول الرجل إن الملحد الآن بات يمكنه أن يدعي - بسبب مسألة الشر كما يزعم، التي جعلها تبدو في كلامه هذا وكأنها من جملة اكتشافاته! - أن وجود الخالق ليس زعما عاريا عن الدليل فحسب، بل إنه متناقض عقلا بالأساس. فبعد أن كانت مشكلة الشر هذه مشكلة معرفية (أو إبستمية علىٰ اصطلاح الفلاسفة

المعاصرين)، غايتها طرح سؤال أخلاقي يتعلق بقضية الحكمة والتعليل عند الباري، لا يثبت منه إلا النقص المعرفي التفصيلي بالحكم والتعليلات عند من يطرحه، صارت علىٰ يدي هذا السفساط حجة أنطولوجية (دليلا منطقيا) علىٰ عدم وجود الخالق نفسه، وهذا ما لم يجترئ أحد من الفلاسفة علىٰ الزعم به قبله. حتىٰ «هيوم» نفسه الذي بالغ في الحط علىٰ جميع الأديان التأليهية معتضدا بهذه المسألة كما أشرنا إلىٰ طرف منه آنفا، لم يسمح لنفسه – علىٰ عتوه وغرقه في الجحود والهوىٰ – بالتردي إلىٰ ذلك الدرك السحيق في دركات السفه العقلي.

ولا شك أن مجرد فكرة أن يتمكن فيلسوف من التوصل إلىٰ «دليل فلسفي» علىٰ عدم إمكان وجود الباري (الذي كان ولا يزال العقلاء يرونه بداهة عقلية لا مدفع لها وإن رغمت أنوف الفلاسفة) تعد «انتصارا» فلسفيا كبيرا يحلم به كل فيلسوف ملحد لنصرة موقفه الإلحادي، وللتخفيف من شدة الاضطراب النفسي الناشئ عنده من تناقض اعتقاداته الغيبية مع بعضها البعض. فها نحن نرىٰ في كلام الرجل حيلتين من حيل التخفيف النفسي Dissonance Repression! أما الأولىٰ ففي تأكيده علىٰ أن خصمه مطالب – حتىٰ يصح له إيمانه – بأن يثبت وجود الباري، ومعلوم أن الخلق والإحداث والسببية بدهيات أولىٰ كلها لا يماري في رجوعها إلىٰ صانع فاعل ذي علم وإرادة إلا من سفه نفسه، ومعلوم أن البدهيات الأولىٰ لو افتقرت إلىٰ دليل فقد آل الأمر إلىٰ تسلسل يسقط معه العقل نفسه. وأما الحيلة الثانية ففي زعمه أن تلك الدعوىٰ الجديدة تزيد من ثقل ذلك الحمل علىٰ كاهل الخصم (أي خصم من أهل الملل المؤمنة بخالق حكيم)، إذ يصبح مطالبا بالدفاع عن إيمانه ضد تلك الدعوىٰ الفلسفية الجديدة التي تتهمه بالتناقض من مجرد إثباته ربا خالقا قادرا حكيما مع كونه يختار أن يجعل في خلقه الشرور والمكاره.

فإذا ما وقع اللاهوتيون في الفخ، وانطلقوا إلىٰ الرد والبيان والتفنيد – وقد وقع ذلك فعلا كما سنرىٰ – ازداد ثقل تلك الدعاوىٰ كلها في ميزان تلك النفوس الخبيثة وكل من يتابعها ويقلدها علىٰ ما هي عليه (حتىٰ وإن انتهىٰ الفلاسفة الأكاديميون

أخيرا إلىٰ الاتفاق علىٰ نجاح أقرانهم اللاهوتيين في إسقاط بعضها كما في حالتنا هذه تحديدا)، وازداد التشويش علىٰ أصل التناقض العقلي العظيم عند الملحد، بما يرجو معه التخفيف من حدة الاضطراب النفسي لديه كما لا يرجوه في غير ذلك. لذا ترىٰ صاحبنا هذا يفرح بإضافته مشكلة جديدة «مبتكرة» تبدو أكبر من المشكلات السابقة، إلىٰ «ملعب الجدال السرمدي» بينه وبين خصمه، ليس لما يرىٰ فيها من قوة في الدلالة ومن قيام بالمطلوب، ولكن لما يستتبعه نشرها في الوسط الأكاديمي الفلسفي من ظهور هجوم جديد يضطر معه الفريق المخالف لاتخاذ موقف أكثر إغراقا في الدفاعية Apologetic مما كان عليه من قبل، إذ يضطر للاشتغال بدفع دعوىٰ التناقض عن عقيدته في باب جديد لم يكن يضطر فيه إلىٰ ذلك من قبل (أعني باب مشكلة الشر).

فإذا كانت «مشكلة الشر» هذه قد بدأت في أول الأمر في صورة سؤال معلق عن سبب خلق الشرور في العالم إذا كان الخالق يريد الخير ويقدر علىٰ منع الشر، فلا شك أن انفتاح الجدال الفلسفي عليها مع قوم يؤمنون بأن الرب يحب جميع خلقه علىٰ السواء ولا يريد لأي واحد منهم إلا الخير العاجل والآجل، هذا ضاعف من قوتها الاعتراضية وفاعليتها التشويشية علىٰ الحق الواضح أضعافا كثيرة، وجعل منها جُنة عظيمة لكل نفس مريضة! وحتىٰ لو كان ذلك السؤال قد أجيب من أول يوم طرح فيه بجواب قاطع مفاده أن الرب كامل العلم والحكمة وجوبا، فلا يظلم أحدا من عباده، ولا يضع الشيء إلا في موضعه الصحيح، مهما كره الناس ما يجدونه في بعض خلقه من شرور، ثم اقترن ذلك الجواب بالوعظ والتذكير علىٰ طريقة الأنبياء والمرسلين، لما انزجر أصحاب تلك الفكرة وما رجعوا إلىٰ الحق وما قصروا عن نشرها في الناس، لأنهم فلاسفة لا يحبون الانقياد والاتباع، فما كانوا ليؤمنوا «إيمان العوام» كما يسمونه!

أبىٰ الله إلا أن يبتلي العباد بزخارف الفلاسفة!

فما هي إلا بضعة قرون حتىٰ رأينا السؤال يتحول إلىٰ إشكال عويص تتسابق أقلام المتكلمين من أهل الملل في الجواب عنه، كل منهم بحسب اعتقاده في صفة ربه! فتتضاعف المجملات والتناقضات أضعافا فيما بين أيديهم من تقعيد وتنظير، ويزداد

الجدال تشعبا وتشتتا، ويزداد الحق ضياعا تحت ركام ذاك الجدال الطويل، حتىٰ يترسخ في الضمير الجمعي أن المسألة مشكلة كبيرة فعلا، ساحت فيها أنظار الناس بلا ثمرة، وأن الجواب عنها بجواب حاسم قاطع للنزاع من أبعد ما يكون! ولا عجب من أن تضل الأفهام والأنظار للسبب الذي بيناه آنفا من تراكم وتشعب المجملات والتنظيرات بالدوران حول البدهيات الواضحات، وقد بينا أن أي قضية مهما كانت بدهية واضحة للغاية، كالقضية: «جميع ما أجد في ذاكرتي من حوادث الماضي قد شهدته في حينه حقيقة لا وهما» (مثلا)، لو أثير عليها «إشكال» فلسفي ماكر في زخرفة ألفاظه بما يفتحها للتشكيك و«النظر»، ثم جاء من يضع البرهان النظري لإثبات صحتها علىٰ شرط الفلاسفة، ثم تتابع الناس علىٰ الأخذ والرد في ذلك التنظير، فستتحول تلك القضية البدهية - لا محالة - إلىٰ مشكلة نظرية عصية علىٰ الحل، ويصبح من غير المقبول عند خبراء «العقليات» أن يأتيهم من يقول لهم «المسألة بدهية واضحة للغاية، وما كان لكم أن تسفسطوا تلك السفسطة الطويلة عليها، ولكنكم قوم لا تعقلون»، أو يدعوهم للإقلاع عن النظر فيها هكذا جملة واحدة! ثم يصبح ذاك السفيه المريض الذي يشك في ذاكرته ولا يصدقها، مفكرا عبقريا، ما دام يجد لنفسه من «البراهين النظرية» الداعمة لموقفه في تلك الإشكالية ما يجري علىٰ طريقة الفلاسفة في سباكته، فيغرق الأقران فيه أخذا وردا!

وقد كان من الطبيعي والمتوقع أن يأتي زمان يزداد الملاحدة فيه جرأة وعتوا، فيزعم بعضهم أن في «مشكلة الشر» هذه وحدها «حجة عقلية» كافية لنسف أصول الإيمان بالغيب عند أهل الملل جملة واحدة!

قال «ماكي» مقدما «لحجته» المذكورة:

> في أبسط صورها، تتمثل مشكلة الشر فيما يلي: الإله كامل القدرة، وهو كامل الخيرية Perfectly good، ومع ذلك الشر موجود. فيبدو أن ثمة تناقضا بين الدعاوىٰ الثلاث، بحيث إنه لو صحت اثنتان منهما، لزم بطلان الثالثة. ومع ذلك فإن جميع تلك الثلاثة

> تمثل أجزاءً أساسية من اعتقاد أغلب التأليهيين، وعليه فإن المتأله، فيما يظهر، إذا كان يجب عليه أن يؤمن بالثلاثة معا، فإنه لا يمكنه التوفيق بينها جميعا.[1]

في هذه التقدمة الموجزة، يجزم «ماكي» بجسارة بأن المؤمنين بوجود الإله – بهذا الإطلاق – لا يمكنهم التوفيق بين تلك المقدمات الثلاثة التي ذكرها في الجمع بين صفات الخالق ومطلق وجود الشر في العالم. ولكنه – مع ذلك – لا يفوته الاعتراف بافتقار الأمر إلىٰ مقدمات أخرىٰ مضافة إلىٰ تلك الثلاثة، تجعل القفز من تلك الثلاثة إلىٰ هذا التناقض الذي يزعمه هكذا مباشرة، مسلكا فاسدا عقلا! فنراه يشهد علىٰ نفسه عُقيب هذه الفقرة مباشرة بقوله:

> ولكن هذا التناقض لا يظهر من الوهلة الأولىٰ. فلإظهاره نحتاج إلىٰ بعض المقدمات الإضافية، أو ربما إلىٰ بعض القواعد شبه–المنطقية Quasi-logical للربط بين المفاهيم «خير»، «شر» و«كامل القدرة». هذه المبادئ الإضافية تتمثل في أن الخير مناقض للشر، علىٰ نحو يقال معه إن الشيء الموصوف بأنه خيّر، دائما ما يمحو أو يزيل الشر قدرما يمكن، وأنه لا حدود لما يمكن للكائن تام القدرة أن يفعله. فمن هنا، ينتج تبعا أن الكائن الذي يجتمع فيه الوصفان (الخير وكمال القدرة) يزيل الشر بالكلية، وعليه يتأسس أن القضيتين القائلتين بأن كائنا خيِّرا قادرا علىٰ كل شيء موجود، وبأن الشر موجود، لا يتوافقان منطقيا.[2]

وعند هذا التقرير ينكشف لكل عاقل وهاء وتهافت ما يتعلق به صاحبنا هذا ومن وافقوه. فأي عاقل هذا الذي يسَلم له بتعريف الخير الأكمل علىٰ أنه زوال أو غياب الشر بإطلاق؟ إن ما ادعاه من تناقض الخير والشر بإطلاق دعوىٰ فاسدة في العقل المجرد. فالخير والشر ليسا نقيضين وإنما هما ضدان، بمعنىٰ أنه يُتصور في العقل اجتماعهما معا وارتفاعهما معا في الشيء الواحد، علىٰ تفاوت في المقدار. فيمكن تصور أن يكون الشيء الواحد خيرا من وجه أو أكثر وشرا من وجه أو أكثر، تبعا لمفهوم كل من الخير والشر عند الموازنة وتبعا لنظام الحكم الأخلاقي المتبع في ذلك. فلا يتأتىٰ لنا أن نقول

(1) Mackie 1955, pp. 200.

(2) Mackie 1955, pp. 201.

إن الفعل الذي تجتمع فيه الخصلتان لا يُحكم علىٰ فاعله بالخير والحكمة أو بالشر والظلم حتىٰ نؤسس قاعدة الحكم الأخلاقي أولا ونتأكد من صلاحيتها وسلامتها من المعارض المعتبر، وحتىٰ نستجمع العلم بسائر ما يلزم العلم به من أمر ذلك الفعل المراد الحكم عليه ليستقيم التصور، فحينئذ - وحينئذ فقط - يصح لنا أن نستنزل الحكم علىٰ المحل. هذا الكلام يقال فيمن يُتطرق بالنظر والاستدلال إلىٰ معرفة ما إذا كان عادلا أو ظالما في شيء من أفعاله، لإمكان ورود الظلم والفساد الأخلاقي علىٰ شيء من أفعاله! أما وأننا نتكلم عن رب السماوات والأرض، المنزه - وجوبا - عن كل نقيصة سبحانه وتعالىٰ، فالمسألة ليست مطروحة للنظر أو الاستدلال أصلا! هو الأحكم والأعلم والمنزه عن كل ظلم بداهة، بصرف النظر عن علم العالم وجهل الجاهل بوجه الخير الراجح فيما يخلق وما يقضي من الأمر!

فإذا كان ذلك كذلك، وكانت تلك التقريرات التي ذكرناها آنفا من أبجديات النظر في قضايا الحكم الأخلاقي علىٰ آحاد المخلوقين (الذين يرد عليهم النقص ورجحان الشر والظلم في أفعالهم علىٰ ما فيها من الخير)، فكيف يتصور صاحبنا «ماكي» أن قاعدته «شبه المنطقية» التي حررها ها هنا بهذه السهولة، يمكن أن يقبلها العقلاء منه ويسلموا له بما أسسه عليها كأنه الحجة العقلية الدامغة التي لم يستطعها الأولون ولم ترقَ عقول أهل الملل إلىٰ تصورها؟ هل كان يخفىٰ عليه أن مخالفه سيناقشه - مثلا - في تعريفه للخير والشر وفي المصدر الذي جاء به منه؟ هل كان يخفىٰ عليه أن تلك المقدمات الإضافية الخفية التي زعم أنها طريقه إلىٰ إقامة دعواه، سيأتي مخالفه بجواب عليها لا محالة؟ لا أرتاب في أنه لم يكن يخفىٰ عليه ذلك، بل هذا جزء من مراده أصلا (في عقله الباطن)، لما في تشعب النقاش وتطاوله في تلك الدعوىٰ الجديدة التي اخترعها من خدمة للجدار النفسي العازل الذي يراد تشييده لإخفاء التناقض المعرفي العظيم الذي ترتكز عليه منظومته الاعتقادية الغيبية كغيره من الملحدين. فهو بهذا يقدم نفسه للناس علىٰ أنه ملحد باحث صاحب فكر ونظر وتأمل وبحث طويل، وليس ملحدا جاهلا لا يدري لماذا ألحد!

وتأمل مكر الرجل ودهاءه في وصفه هذه الدعوىٰ التي جاء بها بأنها «شبه-منطقية» Quasi-Logical، فلماذا لم يسمها دعوىٰ أو حجة منطقية Logical (مع أنها قد أصبحت تعرف فيما بعد بهذا الاسم)؟ ما معنىٰ «شبه-منطقية» هذه؟ الجواب أنه أراد أن ينفتح الباب بذلك أمامه لمخرج - بل مخارج - يمكنه أن يسلكه إن قوبل بدعوىٰ الخصم أن حجته تلك ليست علىٰ ما هو مألوف من طريقة المناطقة، وحينئذ لا يكون لديه مانع من كتابة ورقة بحثية أخرىٰ، بل كتب ومجلدات، لبيان حقيقة «شبه المنطق» هذا الذي يتكلم عنه، وما المقصود منه، ولعله يقربه إلىٰ بعض نظريات فلاسفة المنطق المعاصرين يلتقطها من هنا وهناك. هذه صنعة يشتهيها كل فيلسوف قد اتخذ إلهه هواه ويتلذذ بها، إذ ينتقل بخصمه من اعتراض علىٰ قاعدة بدهية إلىٰ اعتراض علىٰ الأخرىٰ، يتفنن في ذلك كله بما يجعله يبدو في عين القارئ - فضلا عن عين نفسه هو - أن عمله هذا بحث محكم لرجل منظر محقق مدقق بحّاثة، لا يأخذ المعرفة أخذا سطحيا كالعوام، ولا يتناولها تناول السذج وضعاف العقول! (١)

ومن هؤلاء من يتفنن في كتابة كلامه بأعقد ما يمكن الوقوف عليه من ألفاظ وتراكيب لغوية، بل وتراتيب رياضية منطقية صعبة المراس، والإغراق في استعمال المصطلحات الفلسفية وأسماء المدارس والمذاهب الفكرية يجمعها جمعا، طمعا منه في الانتصار علىٰ المخالف بهزيمته نفسيا حين يعجز - بادي الرأي - عن فهم الكلام فلا يتمكن من الرد عليه. وحينئذ يغتر صاحب هذا الكلام بنفسه وبعقله ويعظم في عين نفسه جدا، ويحسب أنه علىٰ شيء، مع أنه يعلم أن جهل مخالفه وقصوره عن استيعاب الكلام ليس دليلا علىٰ صحة ذلك الكلام في نفسه، فضلا عن أن يكون دليلا علىٰ أن محل ذلك النظر نفسه مما يصح طرحه للسؤال النظري ابتداءً.

(١) ولهذا ترى في كلام الفلاسفة مدحا وثناء بالغا على أصحاب الحجج الفلسفية الطويلة المعقدة المتشابكة، يصفونها بأنها متقنة دقيقة Sophisticated، فيستوي في ذلك عندهم ما كان نظرا في مسألة يُتصور خفاؤها على العقلاء، بما كان سعيا من صاحبه في محاربة البدهيات الجليات الواضحات والتشويش عليها، أو الانتصار لها بما يحيلها إلى مسائل نظرية شديدة التعقد والغموض، كما صنع بعضهم في الرد على صاحبنا هذا، وما أشد تلبيس الشيطان عليهم جميعا في ذلك، والله المستعان!

على أي حال، فقد سبق وأشرنا إلى أن أصحاب تلك الحجة المزعومة إنما يريدون نقل المسألة من سياقها المعرفي إلى سياق الاستدلال المنطقي الوجودي بمجرد طرح مقدماتها الثلاثة والتأسيس على عدم تناسق تلك المقدمات منطقيا. وهذا في الحقيقة هو السبب في اتفاق فلاسفة اللاهوت النصارى في الرد على هذه «الحجة» المزعومة على أنها لا يمكن إقامة بنيان مقدماتها دون الخوض في مقدمات سابقة عليها (Peterson 1992) كما شهد «ماكي» نفسه على نفسه بذلك في النقل الآنف، وهي مقدمات لا يمكن التسليم بصحة ما يفترضونه فيها، بل العقل السوي يجزم بخلافها كما بينا وكما سيأتي. هذه المقدمات المعرفية الأخلاقية هي مظنة جواب الإشكال بالأساس، وهي التي ساحت فيها عقول الفلاسفة من قبل، فوقفوا عند وصفها بالإشكالية واكتفوا بتعجيز اللاهوتيين عن الرد عليها!

فتأمل كيف استساغ هؤلاء الملاحدة المعاصرون (اللا-لاهوتيون [atheologians] كما يسمّون)[1] كالأستراليَّين «ماكي» و«ماكلوسكي» وغيرهما التعلق بفرضيات واهية يردها العقل السوي، حتى يؤسسوا عليها الزعم بأن تلك الصياغات التي حرروها تقوم بها حجة منطقية ضد وجود الخالق، فضربوا مثلا عمليا لصورة جديدة من صور المحاججة من الجهل المحض. هذا المسلك في الاستدلال الزائف، مسلك الاحتجاج بالجهل، أو بعبارة أدق، الاعتراض والتكذيب من الجهل ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**﴾ [**يونس**: ٣٩]، ودعوى أن عدم العلم (بالحكمة والتعليل) يساوي العلم بالعدم (عدم الحكمة والتعليل واقعا)، له صور كثيرة في أدبيات الملاحدة المعاصرين لا سيما من كان منهم مشتغلا بعلم الأحياء والعلوم الطبيعية، كما بيناه ومثلنا عليه في غير هذا الكتاب.

---

(١) ومصطلح الـ«لا-لاهوتيين» هذا مصطلح جديد - نسبيا - ظهر لتسمية تلك الطائفة من الفلاسفة التي اتخذت من بناء الدعاوى الفلسفية لنصرة الإلحاد وللاعتذار عنه صنعة وتخصصا، وهو مقابل صريح لمصطلح اللاهوتي theologian. وله في الحقيقة استعمال آخر في سياق البحث اللاهوتي النصراني تحت المصطلح المركب Biblical Atheology ويقصد به دراسة التأويلات غير القانونية للكتاب المقدس، التي لا يؤمن أصحابها بألوهية المسيح.

فمع أن التعريف الشائع لمغالطة الاحتجاج بالجهل عند المنطقيين المعاصرين، هو التعلق بتصحيح قول ما لا لقيام الأدلة علىٰ صحته ولكن لأننا لا علم لنا بما يبطله، فإن هذه الصورة التي جاء بها الملاحدة المعاصرون في المحاججة بوجود الشر، حقيقتها الزعم بأن جهل الجاهل بتعليل وجود الشر في صنعة الخالق، هو دليل علىٰ عدم صحة وصف الباري بتلك الصفات التي يوجبها العقل له بداهة. فبدلا من استصحاب وتنزيل مقتضيات الصفات الثابتة بالضرورة العقلية، علىٰ مواضع الجهل والوقوف عند ذلك الحد كما يصنع العقلاء الأسوياء، ترىٰ هؤلاء يقلبون المحاججة، فيجعلون مواضع ذلك الجهل عندهم حجة في نفسها، يُتوصل من إثبات الجهل فيها إلىٰ إبطال تلك البدهيات العقلية رأسا!

ونظير ذلك ما نراه كثيرا لدىٰ علماء الأحياء الملاحدة الطبيعيين حين يتخذون من الجهل بوظيفة عضو ما من أعضاء جسد مخلوق من المخلوقات، دليلا علىٰ أنه من مخلفات الارتقاء الدارويني التي لم يعد لذلك المخلوق فيها حاجة! فهي في الحقيقة من صور الاحتجاج أو التذرع بالفجوات المعرفية عند التأمل/ Appeal to ignorance Appeal to epistemic gaps! ونحن في هذا لا نقول كما نقول في مصنوعات البشر إن العقل «يجيز» أن يكون للصانع البشري غاية تخفىٰ علينا فيما نرىٰ من أجزاء لا ندري ما غايتها، ولكن نقول إن العقل يوجب (أو يقطع ببداهته الأولىٰ) أن يكون للباري غاية وحكمة، بل غايات وحكم لا يحصيها أحد سواه، من خلقه هذا العضو أو ذاك الجزء في أي مخلوق من المخلوقات، علمنا من ذلك ما علمنا وجهلنا ما جهلنا، لأن الجهل والخطأ والنسيان والعبث والظلم صفات ممتنعة في حقه بالبداهة. ولكنهم يستروحون أن يتخذوا من تلك «الفجوات» المعرفية الحالية في علمنا معاشر البشر بوظيفة هذا العضو أو ذاك، مستندا لحشر «العشوائية» والفوضىٰ الداروينية في تفاصيل ذاك النظام المخلوق وأسسه وآلياته، لعله يسوغ لهم بذلك أن ينفوا كونه مخلوقا من الأصل.

وليعلم القارئ الكريم أننا بوسعنا – إن أردنا – أن نلزم «ماكي» بأن حجته هذه تناقض أصوله الفلسفية، بالنظر إلىٰ تبنيه فلسفة أخلاقية مفادها أنه ليس من الممكن

عقلا أن تكون ثمة قيم أخلاقية موضوعية (أي صحيحة بصرف النظر عمن يقول بها وعن العلم أو الجهل بها) وأن زعم المعرفة بها عند بعض الناس كذب، والسعي في ذلك عبث! ففي كتابه المعنون «الأخلاقيات: اختراع الصواب والخطإ الأخلاقي» يخترع ماكي برهانا فلسفيا «عبقريا» جديدا للانتصار لمذهبه النسباني القائل بنفي الموضوعية الأخلاقية، علىٰ نمط الاحتجاج ببطلان اللازم reductio ad absurdum ويسميها «الحجة من الغرابة» Argument from Queerness![1] حيث يدعي – بإيجاز – أننا لو افترضنا وجود تلك القيم المطلقة التي يحاول الأخلاقيون معرفتها، فإن لازم ذلك وجود كيانات غريبة لا يمكن للعلم الطبيعي ولا العلم الإنساني (لا علم الفيزياء ولا علم الإدراك ولا علم النفس) أن يتصور حقيقتها، ولن يكون لها قياس علىٰ أي شيء آخر في الوجود، وإذن فلا يمكن أن يكون لها وجود في الحقيقة! وهذا كلام شديد السخف، لأن القيم الأخلاقية ليست كيانات مادية موجودة في الواقع وإنما هي معاني مجردة في الأذهان، مثلها كمثل معاني اللغة وقواعد المنطق نفسها (بل هي مركبة من مفردات اللغة وعلاقاتها المنطقية أصلا)! فهل يجسر ماكي علىٰ نفي وجود اللغة أو المنطق العقلي نفسه محتجا بمثل هذا العبث؟ لا نظن ذلك. وقد أجابه بعضهم بأنه حتىٰ علىٰ التسليم بأن اللازم الوجودي (الأنطولوجي) غريب لا نظير له في الموجودات كما يدعي، فإن «الغرابة» لا تستلزم الامتناع العقلي.

والقصد أننا إذا ما علمنا الموقف النسباني أو الذاتي الذي يتبناه «ماكي» من القيم الأخلاقية من حيث المبدإ، جاز لنا – لو أردنا الانخراط في طريقة الفلاسفة في الجدال المذموم في تلك القضايا البدهية – أن نقلب عليه طاولة الاحتجاج باستعمال اللوازم العقلية لمذهبه ذاك، فنلزمه بالتسليم لنا بأن مشكلة الشر ليست بمشكلة أصلا، لأنه علىٰ عقيدته، ليس ثمة قاعدة أخلاقية توصف بالصحة الموضوعية ابتداء، فتكون مصدرا ومرجعا ثابتا بالحجة والدليل الصحيح في نفسه، للحكم علىٰ أي فعل من أفعال الخالق (أو غيره) بأنه ظلم أو بأنه خير أو شر، وإنما يرجع الأمر في النهاية إلىٰ

---

(1) Mackie 1977, pp. 35-38.

الخيار الذاتي Subjective Choice الذي يختاره الفيلسوف لنظامه الأخلاقي نفسه[1]. وعليه فلا يحق لـ«لماكي» أن يأتينا معترضا ليقول إن مطلق وجود الشر في العالم يمنع من وجود خالق تام القدرة كامل الخيرية. ولو قلنا له إن كل ما تراه أنت من الشر، هو عند الباري خير محض من جميع الوجوه، فبأي شيء يجيبنا؟ لن يحير جوابا، لأن الأمر عنده في الأحكام الأخلاقية نسبي أصلا. إلا أن يتحفنا باختراع حجة أخرىٰ جديدة من خوارم العقل والمنطق ليواصل المراوغة والمراء علىٰ عادة القوم التي لا يبارحونها (ولن يعجزه ذلك!).

فالسؤال المنهجي المهم هنا هو هذا: أيهما أقرب للحق وأبعد عن خدمة الغاية النفسية الخبيثة التي يريدها أمثال هذا الرجل من طول الجدال والمساجلة والمحاججة والرد والجواب، وتشعب تلك السبل وتطاولها بين الفريقين؟ أن نحرر في عبارة موجزة جوابنا المحكم الذي قدمناه في صدر هذا الفصل (تعقيبا علىٰ الكلام المنسوب إلىٰ إبيقور)، بل أوجز من هذا في عبارة واحدة بينة مع الوعظ والزجر ونكتفي بذلك ولا نزيد، مع تقرير أن من جادل أو مارىٰ في تلك البديهيات الفطرية فلا التفات إليه ولا ثمرة ترجىٰ من مخاطبته، أم نترسل معه في متابعة فلسفته الأخلاقية وإلزامه بلوازمها (كما حررناه في الفقرة السابقة)، حتىٰ يأتينا بجواب جديد يعترض به علىٰ الإلزام ويحرر لنفسه «حجة» فلسفية جديدة يتفنن بها في تقرير تناقض عقلي آخر يتخذ من جوابنا عنه سلما جديدا لإضافة جديدة إلىٰ أدبيات المسألة، حتىٰ لا يزداد العقلاء إلا بعدا عن جوهر الفساد والتناقض في أصل المسألة، ولا يزداد الحق الواضح إلا خفاءً تحت ركام الجدل السوفسطائي الذي لا ينتهي؟

لو اخترنا المسلك الثاني لخدمنا مقصد الرجل وهواه ولا شك، وهو ما اختارته فلاسفة اللاهوت النصراني (ولا عجب) في الرد علىٰ تلك الدعوىٰ، كما صنع

(١) وتوصف تلك الحجة حينئذ بأنها (ad hominem) لأنها تثبت تناقض الخصم في اعتقاداته الفردية (لا في خصوص الدعوى المنظورة بعينها) وأنه يلزمه في قول من أقواله مناقضة قول آخر، فإما أن يتمسك بأحدهما ويتراجع عن الآخر أو يتراجع عنهما جميعا! وتكون مغالطة إن أريد بها إبطال مذهب معين من حيث هو، وإنما تستعمل غالبا في بيان بطلان أصول من يستند إليه بعضهم على أنه مرجع أو سلطان معرفي في مجال من المجالات.

اللاهوتي الأمريكي «ألفين بلانتينغا» في رده المشهور علىٰ «ماكي». وفي الوقت الذي اتفق فيه الفلاسفة المعاصرون علىٰ نجاح بلانتينغا في «هدم» الحجة المنطقية من مشكلة الشر (كما شهد به «ماكي» نفسه كما سيأتي)، إلا أننا نقطع بأن نجاحه هذا جاء علىٰ حساب الحق وليس لصالحه، بالنظر إلىٰ ما حررناه في هذا الكتاب من مسالك نفسية خبيثة عند فلاسفة الإلحاد، كان من جملتها، خروج «ماكي» وأقرانه من تلك المساجلة بشهادة خصومهم اللاهوتيين لهم بأنهم «متجردون للحق» وأنهم لما تبين لهم بطلان دعوىٰ الحجة المنطقية من مشكلة الشر التي كان «ماكي» منافحا عنها، تنازلوا عنها وتركوها من فورهم ولم يتمسكوا بها! فأي مصيبة أخطر علىٰ عامة العقلاء وأي تلبيس أشد من ظهور الذئب من هؤلاء في ثياب الحملان؟ لو كان أحدهم صادقا حقا في طلب الحق أمينا عند إعمال العقل، أفكان يبقىٰ علىٰ إلحاده وإنكاره البدهيات الواضحات أصلا؟!

سنرىٰ في كلام القوم في ذلك ما يزيد التلبيس علىٰ الناس أضعافا مضاعفة، بل ينتهي معه اللاهوتيون النصارىٰ إلىٰ موقف لازمه الاعتراف بأن «المشكلة الكبرىٰ» لا تزال قائمة في الحقيقة، علىٰ النحو الذي يُسوِّغ للملحد موقفه المعرفي والاعتقادي إجمالا، ويظهره وكأنه من المعذورين لغرقه بين الأدلـة والبراهين التي تتنازع الحق بزعمه في قضية وجود باريه وتنزهه البدهي سبحانه عن كل نقيصة! فهم (أي اللاهوتيون) إنما نجحوا – أخيرا – في إسقاط فرع من فروع المشكلة لا غير، كانوا به – مع ذلك – كالذي هدم مصرا حتىٰ يبني قصرا كما يقال! فإنه في حقيقة الأمر مكسب عظيم لفلاسفة الإلحاد علىٰ مستويات شتىٰ يأتي بيانها في القسم التالي بعون الله تعالىٰ، وهو غاية ما يطمع إليه الواحد منهم من تحقيق مقصوده النفسي الباطن من الانخراط في ذلك الجدال الطويل والاستمرار في خوضه مع الخصوم أبد الدهر.

من آيات الهوى في سجال «بلانتينغا» وخصميه «ماكي» و«ماكلوسكي»

لعل أشهر من تصدىٰ لدعوىٰ «ماكي» وأصحابه في الأدبيات الفلسفية المعاصرة، كما تقدم، فيلسوف اللاهوت الأمريكي الكبير ألفين بلانتينغا Alvin Plantinga. وقد اخترت عرض جوابه وسجاله مع «ماكي» و«ماكلوسكي» في هذا المبحث لكونه قد شهد له عامة فلاسفة اللاهوت theologians واللا-لاهوت atheologians علىٰ السواء، بأنه قد هدم تلك «الحجة المنطقية» وأسكت أنصارها بصورة نهائية، وهو ما لا يتكرر في أوساط الفلاسفة إلا في القليل النادر في الحقيقة.(١)

إن البدعة الجديدة التي استحدثها فلاسفة الإلحاد المعاصرون عند تناولهم تلك المسألة، حقيقتها وحاصلها السعي إلىٰ إلزام مثبتي الصانع من أهل الملل بما لا يلزمهم، من خلال مطالبتهم بالإتيان بتفسير مقنع لمجمل الشرور في العالم، فإن لم يأتوا بذلك التفسير فلا صحة لزعمهم التناسق والتوافق العقلي بين تلك القضايا الأربعة:

- الإله قادر علىٰ كل شيء،
- الإله عليم بكل شيء،
- الإله حكيم لا يفعل شيئا إلا لخير،
- الشر موجود في العالم.

وجواب تلك الشبهة عند بلانتينغا خلاصته - وتأمل هذا المسلك التحليلي Analytic method جيدا، فهو من أخطر ما أدخله الفلاسفة إلىٰ قضايا الغيب - أن هذا التناقض المزعوم لا يمكن إثبات وجوده. فإن العبارة (أو جملة العبارات) توصف بأنها متسقة منطقيا Consistent إذا كانت تخلو من التناقضات، بمعنىٰ ألا يكون فيها («أ»، وضد «أ») معا! فإذا لم يكن عند المعترض ما به يثبت وقوع التناقض بين المقدمات

---

(١) أنظر إن شئت (Beilby 2005, pp. 11)، وكذا صفحة «موسوعة الفلسفة» على شبكة الإنترنت IEP:
http://www.iep.utm.edu/evil-log/

أو القضايا («س» و «ص» و «ع») بطلت حجته المزعومة وذهبت أدراج الرياح، إذ يبقىٰ من الممكن للمجموعة («س» و«ص» و«ع») في العقل– علىٰ الأقل – أن تتناسق منطقيا، تأسيسا علىٰ مقدمات أخرىٰ إضافية يجب تقريرها أولا قبل إطلاق الحكم. وهذا التحليل التجريدي صحيح إجمالا، ولكنه يفتح الباب كما ترىٰ للانتقال بالسجال الفلسفي السوفسطائي إلىٰ قضية أخرىٰ، ألا وهي تعريف التناسق والتناقض المنطقيين وشروطهما وضوابطهما، وهو ما يعني انصراف أذهان المتنازعين ومن يتابعهم عن أصل الفساد والبطلان في المسألة برمتها، إلىٰ الاشتغال بتفاصيل البرهان التحليلي الذي جاء به «بلانتينغا» وجواب «ماكي» عن تلك التفاصيل، ثم جواب «بلانتينغا» عن ذاك الجواب، وهكذا! وكلما كان التفصيل أعمق وأدق، وكان مشحونا بالمقدمات والمقدمات البديلة والرموز التجريدية – علىٰ طريقة التحليليين الصوريين – ونحو ذلك، كان أكثر بعدا عن أذهان العقلاء إدراكه والإلمام به والوصول منه إلىٰ المطلوب، وكان كذلك أكثر اتساعا لتشغيبات المخالفين واعتراضاتهم، وهو غاية ما يطمع الفلاسفة فيه بالأساس، لأنه مادة تخصصهم وموضوع عملهم وبحثهم وتدريسهم.

وأنبه إلىٰ أنني قد أوجزت واختزلت في هذا العرض جواب بلانتينغا ومقدماته اختزالا شديدا في الحقيقة، حتىٰ لا يتيه القارئ في متاهاته بلا طائل! وللجواب قسم آخر سيأتي عرضه لاحقا.

ونحن معاشر المسلمين نقول إن بداهة العقل توجب لتلك المقدمات الكلية (علىٰ هذا التحرير المكتوب ها هنا) التناسق المنطقي من مجرد علمنا الفطري بوجوب أن يتصف الخالق بكل كمال وأن يتنزه عن كل نقيصة، سواء علمنا بالتعليلات في آحاد أفعاله سبحانه (إجمالا أو تفصيلا) أو لم نعلمها. فلا يحتاج العاقل منا إلىٰ كتابة مقدمات ونتائج علىٰ هذا النحو التحليلي المضني أو غيره مما احترفه الفلاسفة والمناطقة، يجادله في آحادها ومفرداتها وألفاظها واصطلاحاتها الخصم ثم يزعم كذبا وإفكا أن سقطوها – إن سقطت – يترك صاحب الحق مفتقرا إلىٰ «الدليل»، فيضطر الخصم إلىٰ تكلف الإتيان بغيره ليجري عليه الجدال النظري كذلك، وهلم جرا! أي

دليل أصلا وكمال الحكمة في خالق الحكماء والعقلاء جميعا، بدهي لا يماري فيه إلا كذاب أشر؟ فعلىٰ استصحاب هذا الأصل، لا حاجة بنا معاشر العقلاء إلىٰ البحث في تلك المقدمات الإضافية أصلا، ولا أن ندخل فيما دخل فيه «بلانتينغا»، سواء علىٰ أثر عقيدته النصرانية أو علىٰ غير أثر منها.

ولكن كما تقدم فقد شهدت القاعدة العريضة من فلاسفة الدين المعاصرين (من الملاحدة وخصومهم علىٰ السواء) لبلانتينغا بأنه سلك مسلكا جيدا بالجملة (علىٰ مقاييسهم للتحليل والنظر) في رده علىٰ «ماكي» و«ماكلوسكي» ومن وافقهما في سعيهما لإثبات البطلان المنطقي والترجيحي في الجمع بين تلك القضايا الأساسية في معتقد أتباع دينه. ومع هذا، لا يزال فلاسفة الإلحاد ومنظروه من أهل هذا الزمان – ومن تبعهم من عامة أولي الأهواء من بني جلدتهم وجلدتنا – يتعلقون بتلك الشبهة يتخذونها حجة للتكذيب بما تصرخ به البداهة العقلية والفطرة المستقيمة، فما السبب في هذا؟ السبب أن من جعل الدليل النظري طريقه لتحصيل المعرفة بتلك القضايا التي يولد الإنسان فيجدها مركبة في فطرته تركيبا، يعرفها الصبية الصغار قبل أن يُهودوا أو ينصروا أو يُلحّدوا، فمهما جاءه خصمه بملء الأرض من البراهين النظرية المركبة فلن يرضىٰ ولن يقتنع، لأنه إنما بدأ النظر بادعاء أنه لا يجدها في نفسه ولا يعرفها! فسيظل يوهم نفسه ما دام حيا بأنه معذور لأن «الأدلة» كلها ضعيفة ولا تكفي للقيام بالمطلوب! وهي كذلك حقا وصدق (وقد بينا لماذا تعين أن تكون كذلك مهما برع أصحابها من الفلاسفة ومن شاكلهم في سباكتها)، ولكنه يكذب علىٰ نفسه في سلوك تلك الطريق نفسها من الأساس!

في كتابه «الإله وعقول أخرىٰ» قال بلانتينغا في معرض الرد المنطقي المطول علىٰ دعوىٰ ماكلوسكي أن غاية ما عند الإثباتيين Theists (الذين هم في الحقيقة عامة أهل الأرض خلا الملاحدة وأضرابهم) أن يثبتوا أن بعض الشر ربما يكون ضروريا للوصول إلىٰ الخير، وأن الشر في العالم «ربما» يكون له تبرير من هذا الوجه:

وهنا يظهر سوء فهم بعض اللا-لاهوتيين المعاصرين لمنطق المسألة. إذ يبدو أنهم يفترضون أن المتأله إذا أراد أن يدفع تهمة عدم التناسق المنطقي [يعني عن صفات الإله]، فإن عليه أن يبين أن كل حالة من حالات الشر في العالم لها تفسيرها [تسويغها الأخلاقي عند الباري]. فعلىٰ سبيل المثال يقول ماكلوسكي: (إن بعض الحجج التي يضعها بعض المؤلهين، إن صحت، فإن غايتها أن تبرر بعض الشرور فقط. فالاعتقاد في كونها تبرر كل الشر في العالم خطأ، لأنه يلزم أن تقوم حجة أخرىٰ ثانية مكملة للوصول إلىٰ تلك النتيجة. هذه الحجة المكملة ينبغي أن تأخذ صورة البرهان علىٰ أن كل الشر الذي يحدث في العالم له في الحقيقة قيمته وضرورته كوسيلة لتحقيق خير أعظم. والوصول إلىٰ حجة كهذه محال من حيث المبدأ. وبالتالي فإن هذه الحجة الخامسة قد تؤخذ كوسيلة لما لا يزيد علىٰ بيان أن بعض الشر قد يكون ضروريا لتحقيق الخير، وأن بعض الشر في العالم ربما يكون له تبرير من هذا الوجه).[1]

ولكن إذا كانت الحجة محل النظر تبين أن الشر في العالم ربما يكون له تبرير أو تفسير justification، (بمعنىٰ أن هذا التفسير ممكن عقلا غير ممتنع) فإنها تكفي قطعا لإبطال دعوىٰ التناقض المنطقي! فإن الذي يتعين علىٰ ماكلوسكي الآن، علىٰ طريقة الفلاسفة، أن يبين أنه من المحال منطقيا أن يكون هناك شر (يعني في العالم) وأن يكون جميع ذلك الشر مبررا (يعني بتفسير مقبول عقلا، لكونه طريقا إلىٰ خير أعظم لا يتحصل إلا منه): فإنه إذا كان من الممكن أن يكون كل الشر مبررا، فقطعا لا يوجد تناقض بين الدعاوىٰ (أ) إلىٰ (هـ) (وهي جملة من المقدمات أسس بها بلانتينغا جوابه في سباق هذا النقل)! ولكن، علىٰ حد علمي، فإنه لم يتكلف أي من اللا-لاهوتيين إلىٰ الآن من إثبات أو حتىٰ محاولة إثبات أن القضية: «إذا كان ثمة أي شر في العالم، فإذن يوجد شر لا تبرير له»، قضية صحيحة منطقيا بالضرورة.[2]

وخلاصة كلام «بلانتينغا» ها هنا أن من يزعم أن مجرد وجود شر فيما صنع الرب في هذا العالم، لم يتكلم أحد من الناس ببيان تفسير ما وتعليل تام له (علىٰ التسليم بذلك)، يصلح أن يكون دليلا في نفسه علىٰ أنه لا تعليل له علىٰ الإطلاق (كما هو

(1) Plantinga 1967, pp. 122.

(٢) كالعادة: ما بين المعقوفتين توضيح من الناقل وليس من النص المنقول، ما لم أذكر خلاف ذلك في محله.

زعم «ماكلوسكي»)، هذا لا يمكنه إثبات زعمه ذاك مهما حاول، بل إن مجرد الإمكان العقلي لوجود التسويغ أو التعليل عند من يعلمه، كاف تماما لبيان تهافت تلك الدعوىٰ وإن لم نكن نحن نعلمه! وهذا المسلك عند التأمل يبدو محاولة لإرجاع الأمر إلىٰ نصابه الإبستمولوجي (المعرفي) الذي كانت عليه تلك «الإشكالية» في أول ظهورها. فكأنما يقول: نحن لا نعلم تفسير جميع الشرور في العالم، ولكننا نعلم أنه «يمكن» (من حيث المبدأ العقلي) أن يكون لها تفسير يجعلها مستحسنة من خالقها، لائقة بصفات الكمال في حقه، وإذن فلا يصح أن تقوم في المسألة حجة (منطقية) مدارها علىٰ إثبات امتناع وجود ذلك التفسير.

ولكن تأمل معي – أيها القارئ الكريم – كيف أن هذا الجواب المنمق الجذاب، قد حاد بالمسألة عن إثبات الحقيقة المعرفية البدهية في أصل الأمر كله، ألا وهي **وجوب** أن يكون لكل شر من الشرور في مفعولات الباري في هذا العالم حكمة وتعليلا حسنا أخلاقيا، علمه من علمه وجهله من جهله، لضرورة أن يكون الباري موصوفا بأحسن الصفات وأكملها، سبحانه وتعالىٰ. فهو يجعل الكلام منصبا علىٰ إثبات «الإمكان» العقلي دون «الوجوب»، وهما حكمان لا يستويان في الاصطلاح المنطقي.[1]

(١) ينبغي التنبه إلى أن الإمكان العقلي الذي تكلم به بلانتينغا (الذي هو بمعنى إمكان وقوع الشيء أو ضده) إنما هو غاية ما يمكننا إثباته في حق المخلوق العاقل حر الإرادة، فهو لا يوصف بأنه عند غاية الكمال في صفاته (وهو ممتنع في حقه لأنه مخلوق، قائم بغيره)، ومن ثم لا يلزم في العقل أن تكون سائر أفعاله وإراداته مفضية إلى خير راجح تحقيقا، وإنما يقال إن هذه الصفة يمكن أو يجوز أن تنسب إلى بعض أفعاله (على قدر من الاحتمالية الأرجحية يختلف بحسب حال ذلك المخلوق). بمعنى أن المخلوق المكلف (كأمثالنا) غايتنا أن نقول إنه يصح في العقل تصور أن تكون بعض أفعاله ترجح كفة الخير الذي فيها على الشر وإن كثر، وبعض أفعاله على العكس من ذلك، سواء كان ذلك عن خطأ منه في التقدير والموازنة أو عن جهل أو عن عمد.

أما ونحن نتكلم عن الخالق جل وعلا، الكائن من الأزل، الموصوف بالغاية في كمال الحكمة سبحانه بالضرورة، فإنما نتكلم عن امتناع وقوع الظلم منه أصلا، أيا ما كانت صورته، وعن امتناع أن تثقل كفة الشر في مفعولاته على الخير (في علمه وتقديره سبحانه، ولا نقول «ترجيحه» لأن هذا مما يوصف به من يكتسب علمه من طريق النظر من بعد جهل)، وليس عن مجرد «إمكان» أن يوجد وجه راجح للخير فيما خلق من الشرور بعضه أو كله. هذا الخلط في الواجبات والممكنات والمحالات باب عظيم للضلال عند الفلاسفة، وعند المتكلمين تبعا لهم، الذين جاء من يزعم منهم – ويا للعجب! – أن الاشتغال بعلم ما يجب وما يمتنع وما يجوز في حق الله تعالى هو أشرف العلوم وأرفعها وأرجاها لترسيخ عقائد المسلمين في نفوسهم، ودفع

وعلىٰ الرغم من نزول «بلانتينغا» إلىٰ الاكتفاء بمطالبة «ماكلوسكي» بإثبات أنه من

الشكوك عنهم، والله المستعان!

ونقول إن من فضل الله تعالى على أهل السنة أن توسطوا في ذلك الباب (أعني باب الحكمة والتعليل). فقالوا إن الله منزه عن كل نقيصة ببداهة العقل، وعلى مقتضى كمال صفاته الواجب له عقلا، فلا يصدر عنه إلا ما هو أحكم سبحانه. ولكنه لو أراد فعل الظلم ومقارفة شيء من النقائص (على تقدير ذلك تنزلا) لما منعه شيء، لأنه سبحانه لا يخضع لأمر آمر ولا لنهي ناه ولا يسأله أحد عما يفعل، وهو على كل شيء قدير. ولكن هذا لا يعني تجويز وقوع ذلك منه كما قالت الأشاعرة، لأنه منزه عن إرادته أصلا، لاتصافه بسائر صفات الكمال سبحانه.

فلعل من أسباب ذلك الخلط عند هؤلاء المتكلمين خلطهم في مفهوم «الإمكان العقلي» أو «الجواز العقلي» الذي تلقفوه عن الفلاسفة وأجروه في نظرياتهم وبراهينهم على علاته! فنحن أهل السنة نفصّل في مسألة الجواز هذه فنقول: إن كان الكلام عن جواز صدور الظلم عنه من جهة القدرة، فالله قادر على فعل الظلم ولا شك، وإذن فهو جائز في حقه غير ممتنع من هذا الوجه، لأنه سبحانه قادر على كل شيء وجوبا وضرورة، ولكن إن كان الكلام عن الجواز من جهة الإرادة (أو من جهة مطلق الوقوع، وهو ما يجري عليه الاصطلاح الفلسفي في الإمكان العقلي، فانتبه)، فالله منزه عن إرادة الظلم يقينا، وليس هو بجائز من هذا الوجه! فلماذا اختلط عليهم ذلك في اصطلاح الجواز المنطقي؟ الجواب واضح! أما علمتَ أن الفلسفة إغراق في الكليات المجملة، وأن الكلام فن من فنون الفلسفة؟

فإن استدلت الأشاعرة بقوله تعالى في الحديث القدسي «إني حرمت الظلم على نفسي»، بأن قالوا كما قال بعضهم لو كان محالا في العقل بإطلاق لم يكن لتحريمه ذلك على نفسه من معنى، قلنا لهم صدقتم في هذا التقرير، ولكن هذا لا يعني «تجويز» وقوع الظلم منه سبحانه لولا التحريم. فإن تحريم الفعل – لدخوله تحت قدرة المخاطب بالتحريم – ليس دليلا (بمفهوم المخالفة) على أنه جائز أو يُتصور وقوعه منه إن عدم التحريم! المخالفة ليس لها مفهوم هنا، إذ ليس تحريم الله تعالى ما يحرمه على نفسه كتحريمه ما يحرمه على المخلوقين، وكذلك إيجابه ما يوجبه على نفسه ليس كإيجابه ما يوجبه على المكلفين. فالمخلوق المكلف يمكن ويجوز في العقل أن يقع منه ما حرمه الله عليه من القبائح لجواز وقوع النقائص في حق المخلوق الناقص عموما، ولكن ليس الأمر كذلك في حق الله تعالى. فالله قادر على فعل الظلم ولكنه لا يفعله البتة لأنه نقيصة ومذمة، والله منزه – ببداهة العقل – عن كل نقص.

فإنما جاء النص على التحريم الذاتي للظلم لتعظيم أمر الظلم في نفوس المكلفين، لا لأنه لو لم يحرمه على نفسه لاستجازه ولقارفه سبحانه وتعالى كيفما أراد ولم يمتنع عنه! فكأنما يقول الله تعالى للمخاطبين: «إذا كان خالقكم الذي يقدر إن شاء على أن يظلمكم أشد ما يكون الظلم فلا يجد أحدكم لنفسه تحته من سبيل، قد حرم الظلم على نفسه تحريما، وامتنع من فعله لأن الظلم أمره عظيم شديد عنده، فما بال الواحد منكم يستجيزه لنفسه ولا يبالي؟ ألا تستحيون؟».

والحاصل أن من المتكلمين من غلا فنفى هذا الوجه من الامتناع العقلي وعارض النص على التنزه عنه وأبطل الحكمة والتعليل رأسا فنسب إلى الله المذمة المحضة، نسأل الله العافية، ومنهم من غلا في الجهة المقابلة ومنع مجرد إمكان أن يفعل الله شيئا فيه أو في محصوله «شر» لأحد من خلقه، وأوجبوا عليه ألا يصنع إلا الأحسن والأصلح لهم جميعا! ومذهب أهل السنة وسط بين هؤلاء وهؤلاء، والحمد لله رب العالمين.

المحال عقلا أن يكون جميع ما في العالم من شرور معللا بتعليل وحكمة تليق بصفات الباري المذكورة، تأمل كيف جاء جواب «ماكلوسكي» عن هذا التحدي، فيما أراه مثالا مهما لبيان مسالك الفلاسفة في التحايل والروغان وإطالة حبائل الجدل للتشويش على ما هم فيه من التناقض والفساد الفاحش في أصول الاعتقاد. قال ماكلوسكي في كتاب له بعد ذكره أن «الإثباتيين» (ويقصد بهم اللاهوتيين النصارى تحديدا) يستدلون على وجود الإله بجملة من الأدلة يشكل عليها مجرد وجود الشر في العالم:

> هذه القضية ستناقش بالتفصيل في الفصل الثامن الفقرة (أ)، حيث ستقام الحجة على أن الإيمان بوجود إله كامل الصفات، بالرغم من وجود الشر في الواقع، هو في الحقيقة مغامرة ومخاطرة ليست مسوغة تسويغا عقليا كافيا. ومن الكافي في هذا المقام كذلك أن أذكر أن الوعي بالشر والتعرض لتجربته يستوي في التعلق بالتجربة الدينية وما يمكن استنتاجه من التجربة الدينية. وكذلك فما يمكن استنتاجه من المعجزات، يجب أن يعاد تقييمه في ضوء حقيقة الشر. فعلى أي حال، فإن هناك اعتبارات ملحة كثيرة ضد تأسيس الإيمان بوجود إله كامل الصفات على هذه الأسس.
>
> إنني عندما أقترح أن هناك ضعفا في تأسيس الاستنتاج على هذه الاعتبارات التي أشرت إليها أعلاه، فإنما كان يعنيني أن أقترح أن حقيقة وجود الشر ربما تمثل مشكلة للمؤمنين بالإله، الذين ينطلقون من تلك المنطلقات للإيمان بكماله وتنزهه عن كل نقيصة، في ضوء حقيقة الشر. أما مسألة ما إذا كان وجود الشر يمكن أو لا يمكن أن يمثل أساسا كافيا للطعن في وجود كائن كامل الصفات، فإن هذه الحقيقة بشأن مدى تعلق الشر بكفاية تلك الأسس الشائعة التي يتأسس عليها الإيمان بالإله، لها أهميتها. إن الحجج الممكن صوغها لوجود الإله لا حصر لها، ومن ثم فإلى أن يمكن إبطال سائر تلك الحجج الممكنة، وإلى أن يظهر البرهان على أن أي (أو بعض) الشرور الحقيقية لا يمكن التوفيق منطقيا بينها وبين وجود الإله، فسيظل من الممكن أن تكون كلتا القضيتين: «الإله موجود»، و«الشر موجود»، صحيحتين معا.[1]

فتأمل كيف صار الإيمان بوجود الخالق كامل الصفات مع وجود الشر في العالم، «مغامرة» و«مخاطرة» بعد أن كان تناقضا منطقيا في تقريرات «ماكلوسكي» الأولى

(1) MacCloskey 1974, pp. 12.

وفيما كان يعده (حجة) منطقية لإبطال وجوده بالكلية. فالآن صار مآل الأمر إلىٰ مجرد إشكال «له أهميته» عند تأسيس العقلاء إيمانهم علىٰ ما ذكر الرجل أنه لا حصر لعدده من البراهين لوجود الخالق، فهل رجعت المسألة عنده إذن إلىٰ ما كانت عليه يوم ظهرت أول ظهورها في أدبيات الفلاسفة القدماء: إشكالية معرفية محضة؟ كلا! وإنما اكتفىٰ الرجل بأن يعمل علىٰ إقناع قارئه بأنها حتىٰ وإن كانت حججه الجديدة هذه لا توصل إلىٰ «اليقين» في أن الرب غير موجود كما كان يرجو أولا، فلعلها علىٰ الأقل تضيف المزيد من أسباب «الشك» التي يتعين علىٰ المؤمنين به – بحسبه – أن يولوها اهتمامهم! فإن اجتمعت هذه الدعوىٰ إلىٰ غيرها من دعاوىٰ واعتراضات الملاحدة، واجتمعت الردود علىٰ الردود والأجوبة عن الأجوبة في كل واحد من تلك الدعاوىٰ والاعتراضات، وتراكمت فوق بعضها طبقات، تحصل من مجموع ذلك عند مطالعه ما يوصل إلىٰ تحقيق المطلوب من الشك والضياع في نفوس الناس، أو علىٰ الأقل «تسويغ» بقاء الملحد علىٰ إلحاده من الناحية الاجتماعية! فليس هو ملحدا عن «جهل» بل هو ملحد قد أعمل عقله وذهنه في «أدلة» مخالفيه وبراهينهم الكلامية (وهم عموم القائلين بأن لهم صانعا ركبهم وصورهم!)، فلم يصل إلىٰ شيء يزول به «الشك» ويتحقق به الإيمان علىٰ أساس معرفي صحيح!

حسبك بقول الرجل بكل صراحة «إلىٰ أن يصبح من الممكن إبطال سائر تلك الحجج الممكنة وإلىٰ أن يظهر البرهان علىٰ أن أي أو بعض الشرور الحقيقية لا يمكن التوفيق منطقيا بينها وبين وجود الإله، فسيظل من الممكن أن تكون كلتا القضيتين الإله موجود والشر موجود صحيحتين معا.»! هذا النص آية علىٰ ما نثبته في هذا المجلد من مسالك الفلاسفة في التسلح السيكولوجي والتترس السوسيولوجي بكثرة الاعتراضات النظرية علىٰ كل دعوىٰ يكرهونها من أهل الأديان الرسالية (أي المنسوبة إلىٰ رسول من رسل رب العالمين)، لسان حالهم يقول «لن نؤمن لكم حتىٰ تأتونا بجواب نرتضيه عن كل اعتراض طرأ علىٰ أذهاننا، أو يمكن أن يطرأ علىٰ أذهاننا يوما ما!»، يوهمون أنفسهم بأنهم، علىٰ شيء بذلك، وأن لديهم ذريعة عقلية معتبرة إن تخلفوا عن الإذعان لداعي

الفطرة والبداهة الجلية بل الصارخة في نفوس البشر، ولم يؤمنوا كما آمن الناس! ولأن الاعتراضات الفلسفية «الممكنة» لن تنقضي أبدا، ولأنه ما من واحد منها يجيب عنه اللاهوتيون والمتكلمون إلا وفي جوابهم ما يفتح أبواب الأخذ والرد ولا بد (بالنظر إلىٰ منهج الرد وطريقته)، فسيبقىٰ الأمر ماضيا من ضلالة إلىٰ ضلالة أبعد ولا شك، وهو عين المطلوب!

ونقول لا غرابة في ذلك الكلام البتة لمن فقه نفوس هؤلاء! فهو القصد الذي من أجله يمارسون تلك الصناعة الخبيثة من الأساس. أفتتوقع أيها القارئ المحترم أن يشهد هذا الجاحد الغوي علىٰ نفسه بأنه كان ضالا زائغا، ويصرح بقبول الحق الواضح، ثم ينصرف عن دوائر ذاك البحث الأكاديمي الفلسفي العبثي التي تخصص فيها وبرز نجمه بين أهلها، هكذا جملة واحدة؟ أيتصور من مثل هذا أن يأتي يوم يثور فيه علىٰ زملائه وتلامذته وأساتذته وأقرانه من فلاسفة الإلحاد ليقول لهم جميعا «أنتم أهل عبث وضلالة وسفسطة، ولا يمكن الوصول من عبثكم هذا إلىٰ الحق أبدا»؟ والله ما يكون هذا إلا أن يشاء ربي شيئا.

بل يجب أن يبقىٰ الرجل غارقا في الإشكالات والاعتراضات والحجج والحجج المقابلة، والحجج الممكنة والمتوقعة والمتصورة، والبراهين والردود علىٰ البراهين والردود علىٰ الردود علىٰ البراهين وجواب فلان وفلان عن رد فلان علىٰ حجة فلان وهلمّ جرا، أبد الدهر، ولعله يأتي بجواب دامغ قوي ليبطل به هذه «الحجة» أو تلك، ليمد أصحابها وخصومها علىٰ السواء بالمزيد من مداد الجدل الشيطاني العفن، وحيل التسويغ النفسي الخفي، فإذا هم ما بين موافق مستحسن ومخالف مستنكر! المهم أن تزداد سحابة الغبار الجدلي سماكة وكثافة وانتشارا، حتىٰ يقضي هؤلاء أعمارهم كاملة يقتات كل واحد منهم علىٰ أهواء أقرانه، ويظل له «سوق» في الأرض يتاجر فيه ويرفعه الناس فيه بوصفه «الخبير» و«الأستاذ» الكبير! ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١١٢].

يتفنن بعضهم في تصنيف تلك البضاعة الخبيثة وتقسيمها في مذاهب ومدارس شتىٰ، يتخير صاحب كل مدرسة منها جملة مما يزعم ائتلافه منطقيا من دعاوىٰ الغارقين في ذاك المستنقع الجدلي العفن الذي لا قاع له، ليتخذه لنفسه دينا ونظاما اعتقاديا بحسب المزاج، وليصبح اسما جديدا يضاف إلىٰ أسماء «الملل» و«النحل» الإلحادية المعاصرة الجذابة! وإذا بك ترىٰ كل مجرم منهم ينتقي لنفسه ما يحلو له من أسماء «المذاهب الفكرية» الحديثة، فاليوم ملحد جازم (أي بنفي وجود الباري سبحانه) وغدا «لا-أدري» (علىٰ فرع من فروع تلك النحلة) وبعد غد «لا-ديني» (علىٰ صورة أخرىٰ من صورها) وبعده علىٰ صورة جديدة من صور «اللادينية»، ولعله ينتقل من قريب إلىٰ أن يصبح «ربوبيا»، ثم يرجع إلىٰ الإلحاد الجازم من جديد، وهكذا دواليك!

لسان حال أحدهم (وما تحت تلك الحال من أهواء في باطن نفسه) يقول: هل أجعل ديني اليوم أنه لا يمكن الوقوف علىٰ إثبات أو نفي وجود الباري في الغيب، لعدم إمكان التوصل إلىٰ دليل فلسفي يسلم من الاعتراض؟ أم أذهب إلىٰ القول بإمكان الوصول إلىٰ ذلك الدليل من حيث المبدأ، مع عجزي أنا عن الوصول في المسألة إلىٰ شيء، لكثرة البراهين والأدلة المقابلة وتشابه الأمر وتقاربه في نظري؟ أم أذهب إلىٰ القول بوجود خالق ما، ولكن أنفي عنه سائر الصفات غير أن أجعله سببا في خلق الكون وفقط (فلا هو يسمع الدعاء ولا يرسل المرسلين والأنبياء ولا يكلف البشر بشيء من تلك الأديان أصلا)؟ أم أذهب إلىٰ القول بوجوده وبكمال صفاته ضرورة، ولكن مع القول بعدم إمكان معرفة أي الأديان هو دينه الحق (أجعل ذلك مبدءا معرفيا عاما أو أنفيه وأثبته في حق نفسي فقط كعجز فردي)، فأجهد في أن أقنع نفسي والناس بما يتطلبه ذلك المطلب من بحث طويل ومقارنة لمئات بل آلاف الملل والأديان (مع ما علىٰ كل واحد منها من اعتراضات الفلاسفة وأجوبة الاعتذاريين عنها) بما لا يتسع له عمر الإنسان أصلا (أو عمري أنا علىٰ الأقل)؟ أم أزعم أن تلك الأديان كلها باطلة جملة واحدة ولا حق في شيء منها البتة، لعدم سلامة أي منها من التعرض للاعتراضات الفلسفية (من حيث المبدأ)؟ أم أضرب في أصل المنطق البشري نفسه وأقول إنه

لا يمكن الوصول منه إلىٰ شيء ذي بال في تلك البابة من الأساس؟ أم أخترع لنفسي طريقا جديدة بين هذه «المدرسة» أو تلك، أصبح فيها رأسا ويصبح الناس لي فيها تبعا، ما دمت أرىٰ أنه لا فضل لعقل هذا الفيلسوف أو ذاك علىٰ عقلي أنا علىٰ أي حال، وما دمت أجد في نفسي من الذكاء والنبوغ وسعة الاطلاع ما يعينني عليه؟

لا فرق بين ذلك كله كما ترىٰ إلا في الطريقة التي يُمكر بها علىٰ النفس لصدها عن اتباع المرسلين وعن سماع ما جاؤوا به! فالحاصلة واحدة علىٰ أي حال: ليختر الملحد ما يحلو له من تلك المذاهب، فهو في سعة من أمره عند الفلاسفة ما دام لن ينتهي إلىٰ أن يضع عقله وقلبه ونفسه تحت إمرة نبي من النبيين أو رسول من المرسلين! فإن فعل فقد وقع في الكفر الأكبر عند كل فيلسوف، ألا وهو تسليمه عقله وقلبه لرجل مثله يزعم أنه رسول من عند ربه وخالقه! ولا عجب أن يكون التذرع للفرار من مبدأ الطاعة والانقياد لرسول من رسل رب العالمين، هو أكثر صور التذرع التسويغي Rationalization ثراء في حمأة الفلاسفة، فيما يمكن التماسه لها من حيل فلسفية وأسماء مذاهب ونحل ومواقف نظرية ومداخل وموارد للتشكيك والجدال والمراء والمكابرة، كما لا تجد مثله في ملة شركية أخرىٰ علىٰ وجه الأرض! فإنه الاعتقاد الأكثر تعريضا لصحابه لنقمة رب العالمين في الآخرة، الذي يقضي صاحبه علىٰ نفسه بالتكذيب المطلق وبأشنع صور الجحود بحق باريه في أن يشكره علىٰ شيء من نعمه التي تصرخ فيه فطرته بأنه لم يخلق منها شيئا لنفسه ولم يكتسبها بحق كان له فيها! فعندما يكون الاعتقاد علىٰ هذا القدر من الشناعة والمناقضة لبداهة العقل والفطرة، فلا بد أن تجده أحظىٰ المواقف الاعتقادية بالبراهين والتفريعات والنظريات والتسويغات والزخارف اللفظية والمذاهب والأقوال والمدارس الفلسفية لا محالة!

فهل يخفىٰ علىٰ «ماكلوسكي» أن الإشكال المسمىٰ بـ«مشكلة الشر» هذا ساقط من أساسه للأسباب البدهية الواضحة التي ذكرناها من قبل ولا يماري فيها صاحب عقل سوي؟ كلا ولا شك، وإنما منعه الهوىٰ (المتراكم في نفسه طبقات فوق طبقات) وما زينه له الشيطان من الإقرار بذلك، فحملته نفسه المستكبرة علىٰ الزعم بأن سقوط

تلك الدعوىٰ الجديدة (الاعتراض من مشكلة الشر بدعوىٰ التناقض المنطقي) لا يعني سقوط أصل المشكلة نفسها عند الفلاسفة كما ترىٰ (وهو صادق في هذا!)، بل إنه يعني زيادة محصول الإشكال والاعتراض والتشويش (التشكيك) وزيادة بضاعته لمن طلبها. فبالله ماذا كسب «بلانتينغا» علىٰ التحقيق من هذا السجال الطويل؟ لم يكسب إلا مثل ما كسبه خصمه من العلو الفردي في سوق الفلاسفة وإصابة حظ النفس من ذلك![1]

الحمد لله الذي بصّر أتباع نبيه الخاتم ﷺ بأغوار نفوس هؤلاء وأهوائهم، وعافاهم منها تمام المعافاة.

(١) والقارئ في أجوبة «بلانتينغا» ومناقشاته مع خصمه تكاد رأسه تدور في الحقيقة من تفصيل المقدمات الكثيرة والانتصار لكل واحد منها بطبقات أخرى من التقديم والتحليل والتفصيل واللجاج الطويل! ونحن نقول لا والله ما هكذا يعرف الحق في قضية كهذه وما هكذا يظهر على الباطل، إن كان هذا هو ما تريدون حقا!

جواب «بلانتينغا» المعروف بدفاع حرية الإرادة Free-Will Defense

في ضوء ما تقدم من سجال، حرر «بلانتينغا» جوابا عن «الحجة المنطقية من مشكلة الشر» أصبح يعرف بـ«دفاع حرية الإرادة»، يقوم علىٰ أساس تقرير قضيتين كليتين:

تقرير أن خلق كائنات ذات إرادة حرة تكون لأفعالها قيمة في ميزان الأخلاق، لا يُتصور في العقل إلا بتمكينها من اختيار الشر بعلم وحرية. بمعنىٰ أنه يلزم وجود جنس الشر في العالم كضرورة لازمة لوجود حرية الاختيار Free will التي بها تتحقق القيمة الأخلاقية في أفعال المخلوقين moral significance.

وتقرير أن خلق مخلوقات قادرة علىٰ اختيار الشر، وخلق عالم يمكن أن تعيش فيه تلك المخلوقات بحرية حقيقية، ليس شرا في نفسه من حيث الأصل ما دام يفضي (أو يمكن أن يفضي) إلىٰ خير أعظم لا يتحقق إلا به (فيكون تسويغا كافيا لوجود ذلك الشر أخلاقيا)، سواء علمنا وجه ذلك الخير في كل حالة أو لم نعلمه.[١]

وهاتان القضيتان (علىٰ هذا التحرير) صحيحتان إجمالا، وترىٰ فيهما زيادة «بلانتينغا» لما يراه تفسيرا أخلاقيا كافيا لمطلق وجود الشر في هذا العالم، إضافة لما حرره قبل ذلك في سجاله مع خصومه من تقرير «إمكان» وجود ذلك التفسير من حيث المبدأ. ولكن واقع الأمر أن «بلانتينغا» لم يحرر حجته بهذه الصيغة الموجزة التي نقلناها هنا، وإنما اتبع طريقة الفلاسفة التحليليين في تفصيل المقدمات وبسطها بسطا طويلا كما تراه في كتبه. ومع ذلك، فحتىٰ مع وجازة هذا التحرير الذي قدمناه لدفاع «حرية الاختيار»، يظهر للعاقل كيف أن هذا الجواب يبدو معه صاحبه وكأنه قد أحوجه خصمه إلىٰ تقرير تفسير شامل محرر لوجود الشرور في مفعولات الباري، يبين به أن المقصد الأسمىٰ من خلقه ما في هذا العالم من مخلوقات لا يمكن أن يتحقق إلا بوجود تلك المكاره، علىٰ طريقة ما أصبح يقال له عند الفلاسفة Theodicy [٢]. فكأن الاقتناع

(1) Plantinga 1974, 1977.

(٢) وهو مصطلح وضعه الفيلسوف النصراني الألماني «غوتفريد لايبنيز» في القرن السابع عشر الميلادي للإشارة إلى كل دفاع فلسفي عن عدالة الإله، فهي مركبة من اللفظتين اليونانيتين: *theos* بمعنى الإله، و *dike* بمعنى العدالة.

بالأصل البدهي العقلي الذي نقرره في المسألة (ألا وهو امتناع وقوع الظلم من الباري، وضرورة تفويض العلم إليه فيما يخفىٰ علينا من قضايا الحكمة والتعليل) لا يتأتىٰ إلا من قبول ذلك التفسير إذا جاء به صاحبه، فهو مشروط بذلك، وهذا شرط باطل ولا شك. وإنما جرت طريقة السوفسطائيين علىٰ ذلك الشرط في تلك المسألة لما لهم من أهواء في عموم الأمر، وما في نفوسهم الخبيثة من كراهية لمطلق الإقرار بوجود الباري ووجوب الخضوع له ولرسله كما تقدم.

من هنا يأتي «ماكي» – كما هو متوقع – بجواب ماكر يقول فيه:

> إن كان الإله قد خلق البشر علىٰ صفة تجعلهم في حرية اختيارهم يفضلون الخير أحيانا ويفضلون الشر في أحيان أخرىٰ، فلماذا لم يخلقهم علىٰ صفة تجعلهم لا يختارون في حريتهم التامة إلا ما هو خير؟ إذا كان ليس ثمة امتناع منطقي في كون الإنسان يختار الخير في مرة واحدة أو في مرات عدة، فإنه ليس من المحال كذلك أن يكون الإنسان مخلوقا بحيث لا يختار إلا الخير في كل مرة. وإذن فإن الإله لم يكن مخيرا بين أن يخلق ماكينات بريئة مسلوبة الإرادة وأن يخلق كائنات تختار الشر أحيانا بإرادتها الحرة: فقد كان متاحا له أن يصنع ما هو أفضل، بأن يخلق كائنات تتحرك بإرادة حرة، ولكنها في نفس الوقت لا تختار إلا الخير. فمن الواضح أن عدم اتخاذه هذا الخيار لا يتوافق مع كونه كامل القدرة و«كامل الخيرية» في نفس الوقت.[1]

فوقع «بلانتينغا» في الفخ الذي نصبه لنفسه، وأجاب عن هذا الاعتراض بما خلاصته أنه ما لم يكن الكائن الحر قادرا علىٰ أن يختار الشر إن أراده، وأن يوقعه بالفعل تحقيقا، (لا أن يجد نفسه محجوزا عن ذلك بأسباب لا يملك دفعها كما يلزم من هذه الصورة التي يرسمها ماكي)، فإنه بذلك لا يكون حرا علىٰ الحقيقة. فإن الحرية ذات القيمة الأخلاقية يلزم لها – بحسبه – أن يكون الكائن قادرا بأصل خلقته علىٰ إرادة الشر في نفسه أولا، وعلىٰ إحداث أفعال الشر في العالم علىٰ الحقيقة ثانيا، تبعا لتلك الإرادة الحرة لديه. إما هذا وإما آل الأمر إلىٰ الجبر في شأنه وانتفت حرية الإرادة عنه رأسا. فعليه لا يصح في العقل أن يكون الكائن حرا علىٰ الحقيقة (علىٰ المعنىٰ المعتبر

(1) Mackie 1955, p. 209.

أخلاقيا)، وهو مع ذلك لا يملك إلا أن يختار الخير في كل مرة، كما يصوره «ماكي».[1]

فهل حقا لا يمكن أن يخلق الله كائنات ذات إرادة حرة، وتكون لأفعالها «قيمة أخلاقية» تستحق بها الثناء والمدح، مع كونها في نفس الوقت لا تختار - بطبيعتها - إلا الخير، كما يدعي «بلانتينغا»؟ هذا الكلام لا يصح بحال، وهو مخالف للعقل والنقل جميعا. فإننا بوسعنا أن نتصور أن يخلق الله عالما فيه كائنات حرة ذات إرادة حرة، وهي مكلفة بالعبادة، ولكنها من فرط خوفها وخشيتها من فعل الشر لا تجرؤ عليه البتة. هذه الكائنات تستحق التكريم ولا شك. ولولا هذا ما كرم الله تعالىٰ الملائكة في القرآن، فالملائكة لولا أن كانت تملك في أصل خلقتها أن تختار المعصية - ولكنها تتركها خضوعا وإذعانا وتذللا لله وخوفا منه، لما عليه أحوال نفوسهم المطهرة - ما استحقت أن توصف بأنها جنس مكرم من عباد الله. قال تعالىٰ في وصف الملائكة: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٢٦] وقال فيهم: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [**النحل**: ٥٠] وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [**التحريم**: ٦].

فالواقع أن هذا الصنف من المخلوقات ذات «الإرادة الحرة» الذي يزعم «بلانتينغا» أنه لا «قيمة أخلاقية» لخياراته، ليس فقط ممكنا عقلا، بل نحن نؤمن بوجوده تحقيقا!

والسؤال الآن: أما كان يكفي «بلانتينغا» أن يقرر أن حكمة الله تعالىٰ الكاملة والسابغة في كل خلقه (التي نثبتها ببداهة العقل وبمقتضىٰ الفطرة، ولا نعرف تفصيلها إلا بالوحي) ما كانت لتتحقق علىٰ أتم وجه لو اختلفت مقادير الشرور في العالم عما جعلها عليه سبحانه، وينتهي الأمر عند ذلك؟

بلىٰ ما كان يكفيه، لأنه مدفوع بمحرك الحرص في نفسه علىٰ تغطية ما انتهىٰ إليه تراكم التصانيف الفلسفية حول المسألة، وما أثمر عنه ذلك السجال الطويل حولها

(1) Plantinga 1974, 1977.

بين الفلاسفة. فلو اكتفىٰ بهذا الكلام، ثم جاء المخالف واعترض بشبهة يخترعها، أو بشبهات يجمعها من كلام غيره، فانقطع عنه ولم يرد، أو اكتفىٰ بالقول بأن المسألة واضحة ولا ينبغي أن تطرح للمناظرة أصلا، لقيل إنه يفر من المناقشة الفلسفية التي تخصص فيها، ولسقط في أعين تلامذته وأقرانه جميعا. فلما كرهت نفسه ذلك المآل، ذهب إلىٰ تحرير مسألة «حرية الاختيار» هذه ظنا منه أنه بذلك يقوي من موقفه ضد «ماكي» و«ماكلوسكي»، فما لبث أن انفتحت عليه من أبواب الاعتراض والجدل والسجال ما اعتادته الفلاسفة وتخصصت فيه!

ونقول علىٰ سبيل الاستطراد: من ذا الذي قال إن كل فرد من أفراد النوع البشري يجب علىٰ الخالق ألا يخلقه إلا علىٰ أحسن ما يحب ذلك الفرد ويتمنىٰ لنفسه، أو ألا يكتب عليه في المقادير في مآله وعاقبة أمره إلا الخير الوافر (بحسب علم ذلك المخلوق وهواه وتقديره للخير)؟ ومن الذي يملك أن يقول إنه إن خلق رجلا في نعيم وسعة وآخر في فقر وضيق، فقد ظلم هذا الأخير إذ حرمه مما أعطىٰ الأول؟ علىٰ أي أساس معرفي للموازنة بين الخير والشر لأي من الرجلين في حال كل منهما ومآله وما كان من اختياره وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف يكون.. الخ، تقام هذه الدعوىٰ ويُزعم هذا الزعم؟ وأين صاحب هذا الزعم من ضرورة استصحاب كمال صفات خالقه وتنزهه عن الظلم والنقص جميعا؟ وأين هو من حقيقة أن الرب الذي ينعم علىٰ كل مخلوق بكل شيء، بداية من حياته نفسها إلىٰ النفس الذي يصعد في صدره، لا شيء يوجب عليه أن يتفضل بشيء من تلك النعم، فليست هي حقا يستحقه شيء من خلقه حتىٰ يكون ظالما إن سلبها أو لم يتفضل بها ابتداء؟ هذا الزعم (أي اعتقاد أن الرب لا يكون عادلا إلا إن سوىٰ بين جميع خلقه في خلقهم جميعا علىٰ أحسن ما يحبون ويشتهون لأنفسهم من أنواع العطايا والنعم) هو أساس الاعتراض عند الجحدة المكابرين، وهو منبع الإلحاد عند عامة أصحابه، وحامله النفسي الأول: إيهامهم أنفسهم بأن الباري لا يستحق أن يُعبد ويعظم إلا إن جعل كل واحد منهم عند الغاية فيما يحب ويهوىٰ، فإن حرمه من شيء يحبه وأنعم به علىٰ غيره، فقد ظلمه بذلك، وسقط حقه في الإلهية

بالتبعية! أو بعبارة أعم: إن أنزل به شيئا يكرهه، مع أنه كان قادرا علىٰ ألا يقضي به عليه إن شاء كما سلّم منه غيره، كان قاصرا بذلك عن صفات الكمال التي تستوجب عبادته وتأليهه وشكر نعمته.

هذا الحامل النفسي الخبيث يقرره الله تعالىٰ في القرآن في أحكم وأوجز تقرير، فيقول تعالىٰ في محكم التنزيل: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ**﴾ [**هود**: ٩، ١٠] ويقول جل وعلا: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ [**الحج**: ١١] ويقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾ [**الروم**: ٣٦]، وهو معنىٰ يتكرر في القرآن كثيرا.

تحدث الواحد منهم نفسه فتقول: «كيف ينزع الرب مني نعمة أو رحمة كان قد آتانيها من قبل، ثم يطلب مني أن أعبده وأن آتيه محبا خاضعا[1] وكيف يحرمني مما آتاه غيري من ذلك؟ كيف يقضي في حقي تلك الأشياء الكثيرة التي أكرهها، ثم يطالبني بأن أكون له عبدا طائعا، بل محبا متألها؟ فليأتني بما أحب لنفسي وأرجو، وليدفع عني ما هو قادر علىٰ دفعه مما أخاف وأكره، إن أراد أن أكون معه علىٰ ما يحب لا علىٰ ما يكره!» فهل هذا موقف يليق بمخلوق حقير في تعامله مع ربه العلي الكبير، الذي سواه وبرأه وخلق روحه وجوارحه والأرض التي يمشي عليها والسماء التي تظله من فوقه والهواء الذي يتنفسه والدم الذي يجري في عروقه؟ كلا والله، ولكنه الكبر والغرور الشيطاني الأعمىٰ. يخاطب أحدهم خالقه وكأنه ندّ له مكافئ مساو، يشترط عليه الشروط حتىٰ

(١) وكثيرا ما يتبجح بعض الملاحدة بزعمهم أن تكليف الإنسان بأن يحب ربه وأن يخافه ويخشاه معا في نفس الوقت من التناقض، لأن الإنسان لا يحب من يخافه ولا يخاف ممن يحبه. وهذا كذب وتخرص محض. فمعلوم أن الوجهين يصح اجتماعهما في نفس الإنسان بإزاء من عظمهم من أولي السيادة والسلطان، وهذا نراه منهم مع بعض السادة والملوك من البشر: يحبه لنعمه وعطاياه، ويخافه لما يعلم من عاقبة مخالفته وإغضابه، بل إنه يجتمع في أحدنا إن أحب أباه وهو صبي، أن يكون محبا له، خاشيا له ولعقوبته في نفس الوقت، ولا يتعارض هذا مع ذاك ولا يتناقضان بحال من الأحوال، فكيف وبأي عقل يمنعونه في تعاملهم مع ملك الملوك من فوقهم، سبحانه وتعالىٰ؟

يعظمه بما هو حقه، ويعبده بما هو أهله، كما اشترط إبليس الشروط من قبل حتىٰ يسجد لمن أمره خالقه بالسجود له! يقولون لداعي الحق: أخبرنا يا من تدعونا إلىٰ قبول ما تزعم أنه دين خالقنا وأمره ونهيه، قبل أن نسمع ما معك من ذلك: لماذا جعل الرب في الأرض تلك المكاره التي نكرهها كلها علىٰ كثرتها وتنوعها، مع أنه كان قادرا علىٰ ألا يفعل؟ وأي خير أراده من ذلك وكيف يكون خيرا أصلا ونحن نكرهه ونستشنعه؟ فإن لم تأتنا بجواب نرضاه (ولن يرضوا أبدا مهما كان الجواب)، فلا حق معك ولا حجة لك علينا!

لهذا لزم أن يكون مدار البحث في المسألة عند الفلاسفة (واللاهوتيين تبعا) علىٰ طلب (أو «اشتراط» في الحقيقة) الوصول إلىٰ تعيين الحكمة والتعليل لوجود سائر الشرور في العالم بصورة يرتضيها الفيلسوف الملحد تبعا لفلسفته الأخلاقية المختارة، حتىٰ تبقىٰ القضية مثارة في قالب «الإشكال الفلسفي» أبد الدهر لاستحالة أن يرضىٰ عامة الملاحدة بشيء من ذلك أصلا!

لقد كان من سؤالات فلاسفة الإلحاد الدالة علىٰ عتوهم في الجحود والتنطع بالسؤال، قولهم: لماذا اختار الله أن يتستر بالغيب، وقد كان بوسعه أن يظهر نفسه لنا بما يجعل وجوده عين اليقين، فلا يماري فيه ممارٍ؟ هذا السؤال[1] انتظم الجدال والمراء فيه تحت باب مستقل من أبواب «فلسفة الدين» المعاصرة صار يعرف بعنوان Divine Hiddenness أو مسألة «التستر الإلهي بالغيب»، وهو باب مداره السؤال عن أمر لا يحق للمخلوق أن يسأل عنه أصلا: «لماذا اختار الرب أن يغيّب ذاته عن إدراك بعض خلقه، فيجعلهم في الأرض مكلفين ممتحنين، مفتوحا أمامهم الباب لاختيار جحده والتكذيب بوجوده والكفر به؟ بل لماذا يريد أن يخلق خلقا يعبدوه من الأساس؟»![2]

(١) على عبثيته وعدوانه الواضح على حق الخالق جل وعلا في اختيار ما يشاء من صنوف الخلق والتكوين لما يريد من حكم وغايات.

(٢) تقوم تلك الدعوى في أصلها على مغالطة منطقية فجة، إذ يطرح الملحد تساؤله على هذا النحو: «لو كان الباري موجودا حقا، فلماذا يكفر به كثير من الناس في العالم؟ إن مجرد وجود من يخالف في وجوده وينازع فيه، هذا دليل على أن وجوده ليس قضية مسلمة بدهية كما يزعم المؤمنون به!» فإن جاء الجواب بأن «مجرد وجود المخالف في صحة دعوى معرفية معينة لا يعني بطلانها ولا يعني بطلان قول القائل بأنها

ولا جواب عند العاقل المنصف إلا أن يقول إن الرب يريد ذلك ويحبه سبحانه، وإيمان المبتلين بالغيب وبغيره من صنوف الابتلاء أحب إليه من إيمان غيرهم ممن خلق (كما جاء بذلك النص الصحيح)، فما شأنك أنت، ومن تحسب نفسك في ملكوته سبحانه وتعالىٰ حتىٰ تجادله في ذلك أو تنازعه ما يحب وما يكره؟ أتريد أن تكون شريكا له في ملكه؟ أتريد أن تكون له ندا وخصما؟ سبحانه من خالق قادر مريد يفعل ما يشاء ويختار، ولا يظلم من عباده أحدا، فبأي حق تعترض أنت؟ سبحانه ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٢٣].

فإذا ما بدأ الجدال في المسألة (أعني مسألة التعليل) ما بين الفريقين، ترىٰ الملاحدة يقولون بكل وقاحة: «أنتم لا تملكون جوابا يقنع عقولنا، فلا يحق لكم دعوتنا للتسليم بوجود الخالق كما سلمتم». يغالط الواحد منهم محتجا بـ«الفجوات المعرفية» كما أشرنا آنفا، وكأنما صار المرسلون وأتباعهم مطالبين بأن يقدموا الجواب عن كل شاردة وواردة تخطر علىٰ ذهن الواحد من أولئك الجحدة المستكبرين، ليس هذا وحسب،

حقيقة بدهية لا تحتاج إلى دليل أصلا، وما أكثر من يكذّبون بالبدهيات الأولى ويردون الحقائق الجلية الواضحة تحت ستار الفكر الفلسفي!»، انتقلوا بالسؤال إلى صيغة أخرى كقولهم: «فلماذا إذن اختار أن يفتح الباب لبعض الناس ليكذبوا بوجوده نفسه؟ لماذا لم يجعل وجوده ظاهرا جليا لا يملك أحد من الناس أن يماري ويتفلسف فيه؟ لماذا لم يعطنا «ما يكفي» من الأدلة؟»

فبالتأمل في أدبيات القوم في تلك المسألة (مسألة التستر الإلهي هذه)، يتبين لك أن منبعها هو نفس منبع «مشكلة الشر»، وأعني صفة «محبة كل خلقه» هذه التي نسبتها طوائف من الوثنيين وأهل الكتاب إلى الباري وغلت فيها. فكما طرحوا السؤال: «إن كان الرب يحب كل شيء حقا فلماذا خلق في الأرض ألوانا من الشرور والمكاره؟»، طرحوا كذلك السؤال: «إن كان يحب كل شيء حقا، فلماذا ستر نفسه عمن يحبهم وترك الكثيرين ليموتوا وهم به كافرون؟». فالسؤالان كما ترى يخرجان من المخرج نفسه، ويتجهان إلى الخصم نفسه، خدمة للغاية نفسها، وكأنهما سؤال واحد! وتماما كما يتخذ الملحد من كراهيته لحاله في الدنيا دليلا على أنه لا خلق ولا رزق ولا تدبير، فهو كذلك يتخذ من جحوده – هو وأمثاله – وإبائه واستكباره على التسليم بوجود الباري وكمال صفاته، دليلا على أن الرب لا وجود له أصلا! فتأمل كيف يصبح الموقف الاعتقادي نفسه دليلا على صحة نفسه! لا مشكلة عند الملحد في ذلك الخلف العقلي المبين وغيره مما ينتصر به لإلحاده من «براهين» و«اعتراضات» و«إشكالات»، ما دام الطرح نفسه يأتي بثمرته المرجوة في الجدل مع الخصوم، وطالما كان الخصم يقابله مقابلة المفكر العظيم رفيع الشأن والمقدار في مجتمعه، ويعامل دعاواه الساقطة تلك معاملة الإشكال العقلي المعقد الذي يحتاج إلى تأمل وتنقير وتفكير وتنظير، وكلام كثير!

بل عليهم كذلك أن يحرصوا علىٰ أن يكون الجواب علىٰ هوىٰ السائلين ومزاجهم، حتىٰ يتفضل القوم ويتكرموا ويتنزلوا من عليائهم ويقروا بصحة ما جاء به المرسلون من الحق، فيؤمنوا به كما آمن الناس، والله المستعان!

﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [**الحجرات**: ١٧].

والآفة الكبرىٰ أيها القارئ الكريم، كما بينا ذلك مرارا، ليست في مكابرة الجاحد المغرور ودعواه «عدم كفاية الأدلة»، وإنما في زعم بعض العقلاء أن «عدم اقتناع الملحد» بسبب ما بين يديه من بضاعة الفلاسفة وسفسطات أتباعهم، يمثل مشكلة ملحة تحتاج إلىٰ من يتصدىٰ لعلاجها، وكأنما يوافقه - من حيث المبدأ العام - في ضرورة تحقق تلك «الكفاية» التي يشترطها الواحد من أولئك المجرمين علىٰ سائر خصومه! وإذا بالملحد يصبح خصما «فكريا» له وزنه ومنزلته في المجتمع، ويصبح موقفه موقف المفكر الحر المعذور (اجتماعيا) في مخالفته بـ«النظر» و«الرأي»، ويصبح خوض الجدال والمناظرة العلنية معه من أكثر الأعمال الدعوية استحقاقا للثناء علىٰ صاحبها، ويصبح الاعتقاد السائد عند عامة الناس وجماهيرهم في بلاد المسلمين أنه لا طريق لمجابهة الإلحاد دعويا وصيانة المسلمين منه إلا هذا، وأنه من «مقتضيات الواقع» وعموم البلوىٰ وأنه خطاب لم يعد الخصم يقبل غيره، والله المستعان! الآفة في اعتقاد الكثيرين أن علاج شبهات الفلاسفة، يساوي سباكة براهين المتكلمين (التي هي من محض النظر الفلسفي كذلك) والخوض بها معهم! فمن جاءنا متنطعا متكلفا، تنطعنا عليه فوق تنطعه، حتىٰ نرىٰ أينا أعلىٰ كعبا وأوسع حيلة وأطول نفسا في فنون التفلسف وفي التعمق الذي تدور معه رؤوس العقلاء! فكيف تكون هذه طريقة من يريد بيان الحق الواضح ودفعه إلىٰ قلوب المخاطبين دفعا؟

ورجوعا إلىٰ أصل الموضوع، فإنه لم يخل «دفاع حرية الإرادة» هذا كما حرره «بلانتينغا» - وبطبيعة الحال - من أغاليط منبعها بدع الاعتقاد النصراني بالأساس، تأتي في مقدمتها بدعية مفهومه «لحرية الإرادة» نفسه، وجريانه فيه علىٰ القدرية (والنصارىٰ

قدرية لا يؤمنون بالقدر كما هو معلوم). فتراه يقرر أنه بما أن الكائن الحر يختار خيارا حرا، فإنه ليس للباري سلطان تكويني علىٰ اختياراته ولا علىٰ أفعاله، وأنه لو وُجد هذا السلطان وتصورنا أن الخالق قد سبب الأسباب (سواء في نفس الكائن أو فيما حوله أو في كليهما) لألا يختار ذلك الكائن الحر إلا عمل الخير في كل مرة، لانتفىٰ بذلك معنىٰ الحرية نفسه، ولبطلت القيمة الأخلاقية لتلك الأفعال. وهذا هو معتقد النصارىٰ، إذ لا يؤمنون بخلق الله أفعال العباد، بما حقيقته إخراج الحوادث التي يحدثها المخلوق الحر ذو الإرادة الحرة في العالم، من سلطان الباري المطرد وجوبا علىٰ سائر الأسباب والمخلوقات والحوادث! وهذا الشرك المجوسي باب – كما هو معلوم – لسجالات لا أول لها ولا آخر بين الفلاسفة ومن شاكلهم في مسألة القدر! فكيف لم يعقل «بلانتينغا» – علىٰ ذكائه البالغ ونبوغه المشهود له به – أنه قد فتح الباب لذلك السجال (الذي لن يكون موقفه فيه إن خاضه إلا موقفا متناقضا بالضرورة لأنه صاحب عقيدة فاسدة في القدر)، فيما كان يرجو أن يكون جوابا حاسما يأتي علىٰ دعوىٰ الخصم بالجواب الكافي ويظهر للناس فسادها؟ الحق أنه ليس في صنعة الفلسفة جواب حاسم أو كاف أصلا، وهو يعلم هذه الحقيقة تمام العلم كما يعلمها خصمه، بل أنا أكاد أجزم بأنه يدرِّسها لتلامذته في الجامعة في كل مرة يقدم صنعة الفلسفة للمبتدئين فيها، ففي أي شيء يكابر هؤلاء وهؤلاء جميعا، وما الغاية أصلا وإلىٰ أي شيء هم ماضون؟

لن نخوض في مسألة القدر كما يوشك الشيطان أن يستدرجنا، فقد نهينا عن ذلك، ولن نزيد علىٰ أن نقول إن خلق أفعال العباد وتبعية إرادة المخلوق واختياره لإرادة خالقه لا تتنافىٰ مع حقيقة «حرية الاختيار» كما زعمه كثير من الفلاسفة واللاهوتيين ونحوهم. فمن تصور أن المراد بخلق أفعال المخلوقين وأسبابها، أن يجد المخلوق الحر نفسه غير قادر علىٰ اختيار الشر أصلا إن أراده، فهذا جبر ولا شك، حيث تفارق أفعال المخلوق إراداته الواعية وتخالفها. وهذا المعنىٰ ولا شك يهدم مفهوم حرية الاختيار والإرادة ويبطله. ولكنه غير واقع ولا حاصل أصلا، إذ المخلوق الحر لا يجد نفسه مجبرا في أفعاله علىٰ أثر ناموس كوني يحجزه عن أن يأتي أفعالا مخصوصة

كلما أرادها! ولا يقع الجبر إلا في أحوال عارضة يعرفها الإنسان ويميزها ويدري حين وقوعها أنه قد نزعت عنه حريته وأصبح مكرها يأتي من الأفعال ما لا يريد!

فالله تعالىٰ خلق المخلوق ذا الإرادة الحرة بحيث تكون تلك الإرادة عنده وجميع ما يتقدمها من أسباب وجميع ما ينتج عنها من أفعال، داخلة كلها في نظام الحوادث التي يخلقها سبحانه في هذا العالم، فلا تخرج عن منظومة الأسباب الكونية كما قدرها الله قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وخلق أفعال العباد وسائر مراتب القضاء والقدر في عقيدة المسلمين من اللوازم الضرورية لمعنىٰ كمال العلم وكمال القدرة! نحن نؤمن بأن الرب كامل القدرة كامل السلطان علىٰ خلقه، لا يخرج من ملكه شيء من خلقه، يقضي في مستقبل أمرهم بما يشاء ويختار وحده لا شريك له، فلا يخرج حادث في العالم عن مشيئته وإرادته الكونية، فكيف يصح له ذلك، لو كان مع هذا لا يدري ما يحدث فيهم غدا، أو لو كان يعلم بمستقبل الحوادث ولكنه لم يرده من قبل إرادة كونية تامة ولم يكن هو من خلقه في حينه خلقا تاما (هو وجميع أسبابه المفضية إليه من قبله) حتىٰ تجتمع الحوادث كلها لتجري علىٰ حسب ما يريد ربنا من أمر في خلقه وملكوته لا علىٰ غير ذلك؟ كيف يكون له سلطان علىٰ تاريخ العالم إن لم يكن هو خالق كل شيء فيه وحده لا شريك له، علىٰ ما قدره من قبل في علمه السابق، بما لا يخرج عنه أفعال العباد؟ هذا المعنىٰ من نفاه أو نقص منه (كمن اقتصر في الإيمان بالقدر علىٰ إثبات العلم فقط دون المشيئة والخلق)، فقد طعن في ربوبية الله تعالىٰ وانتقص منها ولا شك. ومن زعم أن إثباته ينافي «حرية الاختيار» في العقل أو اللغة، فلا فهم معنىٰ القدر ولا فهم «حرية الاختيار» (بمعناها الذي يليق بالمخلوقين المربوبين)! هذا غاية ما عندنا في هذه القضية ولا نزيد عليه!

فتأسيسا علىٰ قدرية النصارىٰ، يزعم «بلانتينغا» أن حرية الاختيار هذه لا تكون حرية حقيقية تستوجب الجزاء الأخلاقي، إلا أن تكون خارجة عن سلطان الباري من كل وجه. أو لعله يثبت له علما بمستقبل خيارات وأفعال المخلوقين دون أن يكون له حكم تكويني عليها (أي دون أن يكون هو خالقها)! وحسبه – لو تجردت نفسه من

هواها – أن يتأمل فيما فتحه علىٰ نفسه من باب عظيم ما كان يحتاج إلىٰ الولوج فيه أصلا كما سبق أن أشرنا، حتىٰ يثبت ما عُرف بالبداهة الأولىٰ من أن الباري لا يصح في العقل أن يكون قد اختار أن يجعل في الأرض شرا مخلوقا من غير أن يكون ذلك لحكمة عنده ولخير راجح في علمه سبحانه!

ولكن بطبيعة الحال، وكما هي طريقة الفلاسفة، خاض «بلانتينغا» مع خصمه في جدال سوفسطائي طويل[1]، بدأ بسؤال من الخصم عن مفهوم «حرية الإرادة» هذه التي قررها «بلانتينغا»، والبحث عن ثغرات في ذلك المفهوم ينهدم منها ذلك الدفاع. فكان أن سعىٰ «ماكي» في بيان أن خلق حرية الإرادة في بعض المخلوقات لا يستوجب جعل تلك المخلوقات الموصوفة بها مائلة إلىٰ اختيار الشر تحقيقا، بل من الممكن تصور عالم افتراضي فيه مخلوقات ذات إرادة حرة ومع ذلك لا تختار إلا أحسن الخيارات (وهذا ما قررنا آنفا أنه حق وأن الله قد خلق تلك الكائنات بالفعل: الملائكة الأبرار)، وما ذاك إلا ليصل إلىٰ إبطال زعم «بلانتينغا» بضرورة وجود الشر في العالم لخدمة ذلك التعليل الأسمىٰ عنده (الذي هو مجرد أن تكون حرية المخلوقات الحرة، حرية «حقيقية»!).

وقد كان «ماكي» حريصا في كلامه علىٰ بيان أن الصورة التي يقصدها للكائنات الحرة التي لا تختار إلا الخير في عالمه الافتراضي، ليست صورة من هو مضيق عليه أو عاجز عن إمضاء بعض خياراته، وإنما هي صورة من يختار بحرية تامة، ولكنه مع ذلك لا يقع اختياره في كل مرة – بسبب طبيعة خلقته وطبيعة خلق العالم نفسه وما فيه من أسباب – إلا علىٰ ما هو خير دون ما هو شر! وهو ما حمل «بلانتينغا» علىٰ السعي في بيان أن هذه الصورة التي تصور خصمه إمكانها، حقيقتها إثبات تحكم الباري في أفعال المخلوقين الأحرار بصورة ما أو بأخرىٰ، وهو ما ينفي عنهم معنىٰ «الحرية الحقيقية»

---

(١) وكل جدال نظري على البدهيات الأولى فهو جدال سوفسطائي مذموم، يصح أن ينسب كلا الطرفين فيه إلى السفسطة، سواء الخصم النافي أو الخصم المثبت، فأما النافي فواضح، وأما المثبت فلأنه تكلف إثبات البدهيات الأولى بالنظر القياسي، وهذا من السفسطة، كما بينا ذلك آنفا!

كما زعم، فلم يزدد الرجل بذلك إلا غيا وإبعادا للخصم الملحد عن الحق، وإغراقا في باطل يتخذه لنفسه ديانة، مع أنه ما كان مضطرا إلىٰ الوقوع في شيء من ذلك أصلا. ما كان مضطرا إلىٰ الخوض في مسألة «حرية الاختيار» هذه من الأساس!

ولكنه فيلسوف مخضرم من كبار الفلاسفة الأكاديميين، يدري شروط اللعبة وضوابطها جيدا، ويعلم أي بضاعة يقبلها الأقران وأي بضاعة يردونها! فما كان ليأتيهم بما لا يقبلون! بل كان لزاما عليه أن يلعب اللعبة بشروطها حتىٰ يعلو بها فوقهم، وكان لزاما عليه أن ينتصر – في سياق ذلك – لما في اعتقاده نفسه من تناقضات! مع اختراع «حجة جديدة» تدخل كتب التاريخ باسمه، كمن سبقه من رؤوس اللاهوت النصراني في القرون السالفة! فالفلسفة الدينية والمتافزيقية (أو ما يراد عند إطلاق الكلام عن صنعة الفلسفة دون تقييد) ليست الغاية فيها انتصار الحق علىٰ الباطل أصلا، وإنما الغاية أن يتفنن الفيلسوف فيما يعلو به علىٰ خصومه وأقرانه، بصرف النظر عن بضاعته وبضاعتهم وأيا ما كان موضوع النزاع! فمن نجح في ذلك (بمقاييس القوم للنجاح والعلو)، فقد اعتلىٰ ذروة سنام الفلسفة (كصنعة تخصصية)، ونال استحسان أقرانه من خبراء العقليات، ولو كان ما جاء به انتصارا لدعوىٰ من أفسد ما خطر علىٰ أذهان البشر، ولو كان هو محض السفه!

ولعل هذه القدرية التي أشرنا لظهورها عند «بلانتينغا» في سياق جداله مع «ماكي» تتجلىٰ في قوله:

> إن القضية الضرورية «لدفاع حرية الإرادة» تكمن في أن خلق عالم يشتمل علىٰ خير أخلاقي إنما هو عملية «تعاونية»: فإنه يستلزم وجود كائنات حرة (علىٰ نحو يحقق القيمة الأخلاقية) دون أن تتعرض تلك الكائنات إلىٰ جبر ما. ولكن حينئذ فإن تحقيق وجود العالم (ع) الذي يحتوي علىٰ هذا الصنف من الخير الأخلاقي لا يرجع الأمر فيه إلىٰ الإله وحده: فإنه يعتمد كذلك علىٰ ما ستفعله تلك المخلوقات الحرة في العالم (ع).[1]

(1) Plantinga 1974, pp. 190.

فقوله إن «الخلق عملية تعاونية» وقوله «لا يرجع الأمر فيه إلىٰ الإله وحده»، شرك واضح تأباه بداهة العقل والفطرة السوية، ينفي به عن الباري خلقه أفعال العباد كما ترىٰ، وينفي عنه تقديره السابق لكل صغيرة وكبيرة تجري في هذا الكون، وإرادته لمشيئة العبد واختياره ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [**التكوير**: ٢٩]، وهو في الحقيقة ليس بلازم من إثبات وجود مخلوقات حرة مريدة غير مجبرة ولا مكرهة علىٰ ما تختار، كما سبق أن بينا.

فحقيقة كلام «بلانتينغا» هنا أن الرب لا يملك القدرة علىٰ ضبط قسم كبير من الحوادث الجارية في العالم علىٰ حسب إرادته، وذلك لكونه قد جعل في ذلك العالم نوعا من المخلوقات له إرادته المستقلة تمام الاستقلال عن مشيئته سبحانه، واختار أن يجعل تلك الإرادة (أي إرادة ذلك المخلوق الحر) خارجة عن إرادته وتكوينه غير تابعة لأمره وتقديره، فكان أن جعلته تلك الإرادة الحرة التي منحها له الخالق (بحسب تصور الرجل لها) ندا ومكافئا للخالق جل وعلا في إرادته وفي خلقه، أو بحسب عبارته، شريكا «يتعاون معه» في تسيير أحداث العالم وخلقها، لا أنه هو وإرادته وكل شيء يصدر عنه من قول أو فعل، تبع لإرادة الباري من فوقه، وهو ما يجعل من الخالق والمخلوق شركاء في الربوبية وفي تقرير مصير العالم كما لا يخفىٰ.

وكما ذكرنا آنفا فإن خلق أفعال المخلوقات الفاعلة المريدة الحرة صفة لازمة في العقل للباري جل وعلا (سواء وجد ذلك المخلوق نفسه حرا أو وجد نفسه مجبرا[١])،

(١) وللفائدة في مسألة القدر (وحتى لا يلتبس الأمر على القارئ فيما بيناه من قدرية بلانتينغا وما ترتب عليها عنده من الشرك المحض) نكرر بمزيد من التوضيح: إن حتمية جريان الحوادث في هذا العالم المخلوق - أو في غيره من العوالم الممكنة - على وفق ما أراد الخالق له بتعليل تام وسلطان مطلق على كل حادث يقع فيه صغر أو كبر، ضرورة عقلية لا تتعارض بحال من الأحوال مع معنى حرية الاختيار للكائنات المكلفة في ذلك العالم. فإن مفهومنا معاشر المسلمين لحرية الاختيار أو الإرادة لا يجاوز معناها اللغوي الذي يعقله سائر بني آدم ولا يماري فيه أحد، ألا وهو قدرة الإنسان الحقيقية على فعل ما يريد من الأفعال الممكنة لنوع البشر على قصد ونية وترتيب، دونما إكراه ولا جبر. فمعنى الحرية نحن نعقله، ونعقل معنى الجبر والإكراه في مقابله، وهذا يكفينا تمام الكفاية حتى نشهد بأننا غير مجبرين على خياراتنا التي نسميها بـ«الحرة» في هذا العالم.

وعلى هذا المعنى، نقول إن إثباتنا لحقيقة أن هذا الاختيار الحر تحكمه من الخارج إرادة خارجة عليه وتقدير

ولا يتحقق للباري الوصف الواجب له من تمام القدرة والحكمة في تقدير جريان الحوادث في العالم، إلا بأن تكون كلها مخلوقة له معلومة علما كاشفا، مقدرة تقديرا سابقا بتمامها، صغيرها وكبيرها، دقيقها وجليلها، فلا يخرج شيء منها عن سلطانه الكامل وإرادته الكونية. فما كان في أفعال بعض المخلوقات من شر فهو مخلوق لله قطعا علىٰ مراده التكويني، علمه وقدره تقديرا فشاءه وخلقه بقدر معلوم في وقت معلوم، لا أنه يقع حين يقع علىٰ خلاف إرادته الكونية سبحانه أو رغما عن مشيئته أو من دون علمه كما هو اعتقاد «بلانتينغا» واعتقاد النصارىٰ وكثير من أهل الملل الشركية. ومع أن جواب «بلانتينغا» كانت غايته بالأساس إبطال الزعم بأن الرب قد عجز عن منع الشر في العالم بما يخرم صفة كمال القدرة لديه، إلا أنه بالغ في إثبات ضرورية وجود الشر الأخلاقي في أفعال الكائنات ذات الإرادة الحرة، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ نفي إرادة الخالق عن إرادات المخلوقين ونفي خلقه عن أفعالهم بالكلية كما ترىٰ في كلامه المنقول أعلاه، فعاد من حيث لا يدري إلىٰ الوقوع في نفي كمال القدرة، وهو نفس القول الذي ما أراد إلا الفرار منه بالأساس!

سابق من الخالق جل وعلا، لا ينافي ولا يبطل معنى حرية الاختيار نفسه ووقوعه للإنسان تحقيقا (على نقيض معنى الجبر والإكراه الفعلي)، بما تتأسس عليه المسؤولية الأخلاقية، والقيم الأخلاقية بعموم. صحيح إن ما وقع من الحوادث في هذا العالم (بما فيها أفعال المكلفين) من يوم أن خلقه الله وما هو واقع فيه إلى يوم أن يرثه سبحانه، ما كان ليقع غيره حتما، لأن الله تعالى قد سبقت منه كتابته وتقديره قبل خلقه، ولكن هذا لا ينفي عن المخلوق ذي الإرادة، تمتعه بالحقيقة العقلية الكلية لتلك الإرادة الحرة عنده وبما علم من حريته في عقدها في نفسه وتأسيس أفعاله عليها، ومن ثم صحة نسبة تلك الأفعال إليه وصحة محاسبته أخلاقيا عليها! فإنه لا يصح لنا معاشر البشر أن نتصور إرادة الإنسان الحرة بمعزل عن نظام سببي كامل مخلوق كله للرب الواحد الأحد بالضرورة، من أوله إلى آخره، فلا يخرج عنه شيء البتة، بما في ذلك أفعالنا وخياراتنا الحرة. ولا يزال الإنسان ماضيا فيما يعلم أنه اختياره وإرادته الأخلاقية في كل فعل يفعله بوعي واختيار، وهذا هو مناط التكليف والمحاسبة الذي لا فكاك منه لعاقل.

ولا يفوتني أن أنبه القارئ الكريم في هذا السياق إلى أنه لولا أن كانت لي غاية تحليلية نفسانية في تناول هذا الجدال السوفسطائي المحض بين ذاك الملحد المكابر وصاحبه اللاهوتي بشيء من التفصيل، ألا وهي الكشف عن أغوار ما تزينه الشياطين والنفوس المريضة لأصحاب تلك المجادلات العبثية من تشغيب على الحق وتشويش عليه، وجريان خلف السراب وهم يعلمون، وانصراف إلى الشعاب والبنيات وتشقيق فيها، لا سيما في تلك المسألة التي لا يكون الملحد ملحدا إلا التمس فيها ذريعة وتسويغا نفسيا Rationalization لإلحاده، ما عرضت تلك المجادلة الذاهبة من أصولها، بهذا التفصيل الذي تراه (على ما جهدته في عرضها من تهذيب واختصار) ولا بقريب منه، بل ولا ذكرتها أصلا!

ففي الوقت الذي يثبت فيه «بلانتينغا» حرية الاختيار للمخلوق المكلف، فإنه ينفي تعللها بإرادة الباري ومشيئته، ذلك الباري نفسه الذي يشهد له – في نفس الوقت – بأنه السبب الأول لجميع الحوادث في هذا العالم وغيره من العوالم الممكنة التي توجد فيها مخلوقات حرة مختارة كأمثالنا، بما يعني – كما لا يخفىٰ – إخراج جنس اختيارات وأفعال المخلوقات المكلفة الحرة عن سلطان الخالق، مع ما يأتي منها من آثار في الأرض، ومن ثم تنخرم بذلك صفة القدرة التامة التي أراد من الأساس أن يثبت معقولية الجمع بينها وبين وجود الشر في العالم، ويرجع الأمر إلىٰ التناقض!

فالسؤال الآن: أما كان يفي بالمطلوب من البداية، من دون الغوص في تلك الأوحال السوفسطائية، والكلام بتشبيه الأفعال إذ يتلبس كل واحد من الطرفين بدور الباري سبحانه وتعالىٰ علوا كبيرا، لينظر فيما كان الله ليفعله في عالم افتراضي من خلقه لو كان يريد كذا أو كذا (كما أسهب كلا الخصمين في ذلك)، أما كان يكفي أن يقال إن الغايات الأخلاقية العليا التي أرادها الله تعالىٰ من خلق هذا العالم (بموجب صفات الكمال فيه سبحانه) ما كانت لتتحقق في الواقع علىٰ أحسن وجه ممكن إلا بوجود ما في هذا العالم من صور الشر أشكالا وألوانا، لأن حكمة الباري التامة السابغة لا بد وأنها اقتضت ذلك بالضرورة، لا غيره؟

أما كان يكفي أن يدعىٰ العقلاء (إن كانوا حقا عقلاء) إلىٰ التسليم بأحسن الظنون في حق الباري سبحانه وتعالىٰ (لوجوب ذلك له عقلا)، وقد علموا أن الحكيم ما كان ليختار أن يجعل في أفعاله ما يُكره (بل ما يكرهه هو نفسه) إلا لغاية فيها خير راجح عنده، علم ذلك الخير من علمه وجهله من جهله، وبصرف النظر عن حب آحاد المخلوقين لذلك الخير أو بغضهم له، من غير أن يخاض مع المجادلين الممارين في تلك الحقيقة الفطرية البدهية؟ أما كان يكفي أن يقرر هذا المعنىٰ بعبارة موجزة بليغة ويوقف الكلام عند ذلك الحد؟ أما كان يكفي أن يثبت أصل الحكمة السابغة بإجمال، ثم يفوض العلم بالتعليلات المفصلة لتلك الشرور الكثيرة في العالم، للباري جل وعلا؟

بلىٰ ولا شك، ولكنها نفوس خبيثة جاحدة، ما كانت لترضىٰ بالحق الواضح ولا بالإقرار بوضوحه وجلائه، قد دخلت في جدال مع قوم من أهل ملة محرفة، لديهم أغراضهم وأهواؤهم التي تصدهم - هم أيضا - عن الصدع بكثير من الحق مما علموا، ولو أنهم - هؤلاء وهؤلاء - تجردوا من تلك الأهواء جميعا، لرضوا بالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، ولقطعوا الجدال والمراء من فورهم جملة وتفصيلا، ولسارعوا إلىٰ رحاب الموحدين.

ولكن كما أشرنا من قبل فإن «ماكي» هذا وخصمه اللاهوتي «بلانتينغا» يشغلان منصبا أكاديميا رفيعا في تدريس ذلك الجدال والمراء لطلبة الجامعات ليتخصصوا فيه وفي طرقه ومناهجه، فكيف تطالبهم بالإقلاع عن ذلك أو ترجوه لهم؟ حتىٰ تلك الدعوىٰ التي تمسك بها «بلانتينغا» من القول بأن ثمة حقائق بدهية كبرىٰ لا بد من التسليم بصحتها من غير التماس برهان، وأن من تلك الحقائق وجود الباري جل وعلا بالغيب (وهو ما تكلم فيه تحت ما يسمىٰ بالإبستمولوجيا المقومة Reformed Epistemology)، حتىٰ تلك الدعوىٰ نفسها، بذل الرجل من وقته وجهده ما بذل من أجل إقامة البرهان النظري عليها والرد علىٰ المخالفين فيها، فوقع في التناقض بمجرد ذلك! إذ لو كان صادقا في اعتقاده أنها بدهيات أو عقائد أساسية Basic Beliefs لا تفتقر إلىٰ برهان، ما سعىٰ في إثبات صحة موقفه في جعلها بدهيات لا تفتقر إلىٰ برهان، لأن هذا المسعىٰ منه يسوغ لخصمه أن يخالفه فيما يزعم هو أنه لا يصح وصف العقل إلا باتخاذه من جملة المسلمات الأولىٰ التي لا تفتقر إلىٰ برهان! عندما أقول إن هذه الحقيقة لا تفتقر (نوعا) إلىٰ برهان، أي أنها يعرفها العقلاء كافة دون استدلال ولا نظر، ثم أقدم الدليل النظري علىٰ أنها لا تفتقر إلىٰ برهان، فقد تناقضت بمجرد ذلك، لأن مخالفي إذن (الذي لا يعجبه دليلي) يكون قد أثبت بمجرد المخالفة أنها تفتقر إلىٰ برهان! ولكن لأنه «فيلسوف متخصص»، فقد وجد نفسه مطالبا بكتابة الدفاعات الفلسفية المفصلة عن ذلك الموقف الإبستمولوجي نفسه، وبإجابة اعتراضات الخصوم من غير تردد، فوقع من حيث لم يحتسب في نفس التسلسل المعرفي الذي كان يريد محاربته، والله المستعان!

ونبه إلىٰ أن الكمال الأخلاقي[١] لا يعني في الحقيقة الامتناع عن فعل ما فيه «شر» أو «مكروه» من أي وجه من الوجوه، أو الاقتصار علىٰ فعل ما هو خير محض من جميع الوجوه بحيث لا يتصور أن يوجد من الكائنات المميزة Sentient beings[٢] من يكرهه لأي سبب من الأسباب![٣] فإنه ليس يُتصور فعل يفعله فاعل مريد حر إلا وفيه خير من وجه أو وجوه، وشر من وجه أو وجوه[٤]، فلا نحكم عليه «أخلاقيا» حتىٰ نعقد الموازنة بين الخير والشر فيه علىٰ أساس معرفي صحيح. هذا يقال في حق المخلوق الناقص الذي يجوز - عقلا - أن يقع منه الجهل والظلم والخلل في ذلك، فتوزن عليه أفعاله

(١) ولا يقال «الكمال الأخلاقي» عند الكلام عن الله تعالى، وإنما يقال كمال الحكمة، لأن الله تعالى لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.

(٢) مصطلح «الكائن المميِّز» أو الكائن «ذي الحس» Sentient Being يطلقه الفلاسفة ويريدون به كل كائن لديه القدرة على أن يميز المحبوب من المكروه، فيستحسن الأول ويستقبح الثاني، كما ذكرنا من قبل، وهو عندهم أعم من مصطلح «الكائن العاقل» Rational Being نظرا لتصورهم أن من الكائنات الموصوفة بالوصف الأول من لا يوصف بمعنى «العقل»، وهذا باطل نعرف بطلانه بنص القرآن. فالله تعالى يقول: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ [**الأنعام**: ٣٨] وفي القرآن قصص لحديث النملة والهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام. فالقول بنفي العقل عن عموم الكائنات المميزة أو ذوات الحس فيما عدا الإنسان قول داروينى باطل.

(٣) وهذا بخلاف قول المعتزلة الذين يوجبون على الله فعل الأصلح، يقصدون بذلك ما هو أحب وأحسن لكل مخلوق من المخلوقات، أو ما يفضي إلى غاية ما يمكن تحقيقه من صلاح تلك المخلوقات! وهذا باطل من وجهين: (١) أن الله لا يجب عليه شيء مما يجيز العقل وقوعه منه إلا ما أوجبه هو على نفسه سبحانه، وإنما يتنزه على مقتضى صفات الكمال عن الإتيان بما تلزم منه المذمة أو المنقصة في حقه، سبحانه وتعالى، مع قدرته عليه. (٢) أن الأحسن لمخلوق ما أو الأحب إلى نفس ذلك المخلوق، لا يلزم أن يكون هو الأصوب والأحكم في علم الرب جل وعلا بعموم، بل قد يكون من مقتضى الحكمة لديه أن يقضي أمرا مكروها لمخلوق ما، ولا يقضي مثله لمخلوق مثله، وكلاهما يستويان في مجموع أحوالهما، ولا يكون ظالما بذلك لأي منهما، سبحانه وتعالى. ونقول إن الله لو أراد ألا يكون شيء من خلقه إلا على أحسن ما يمكن تصوره في العقل لتلك المخلوقات، لما خلق في الدنيا كفارا ولا مجرمين، ولجعلهم جميعا على خلقة واحدة وعلى قدر واحد، وهذا لم يكن كما لا يخفى. ولو أن الله حرم مخلوقا من فضل أو نعمة أنعم بها على غيره، لم يصح أن يقال إنه قد ظلم ذلك المخلوق، كما ذكرنا من قبل، لأن الزيادة والنقص في الفضل لا تعلق لها بالعدل أصلا. بل البغي والظلم كل الظلم أن يُخلط هذا الخلط الإبليسي بين مقامي العدل والفضل!

(٤) ولا حقيقة للخير المحض الذي لا يُتصور ارتباطه بشيء يمكن أن يُكره لسبب ما أو لآخر، خلافا لما زعمه بعض الفلاسفة ووافقهم ابن القيم رحمه الله في كتابه «مفتاح دار السعادة»، وهذه مسألة لا متسع ها هنا للبسط فيها.

وأقواله حتىٰ يحكم عليه بها عند المحاسبة. أما فيما يتعلق برب العالمين جل وعلا، فنحن نقطع بأنه عند الغاية من الكمال في الحكمة والعدل والرحمة، فهو منزه بالضرورة عن أن تغلب وجوه «الشر» في شيء من مفعولاته علىٰ وجوه الخير، سبحانه وتعالىٰ، وليس عن أن يظهر في شيء منها ما يمكن وصفه بـ«الشر» (علىٰ المعنىٰ اللغوي) بوجه من الوجوه، أو ما يمكن أن يكون «مكروها» لسبب ما أو لآخر عند بعض المخلوقين، كما يزعم هؤلاء أنه اللائق به سبحانه وتعالىٰ![1]

ومن مواطن الخلل في تحرير «بلانتينغا» التي اغتنمها خصومه بطبيعة الحال، كلامه عما يسمىٰ بالشر الطبيعي natural evil، ويراد به كل شر ليس الإنسان متسببا فيه بإرادته واختياره. فبينما يرىٰ «بلانتينغا» أن دفاعه هذا يفي بالمطلوب فلسفيا من نفي الزعم بعدم التناسق العقلي بين عناصر شبهة «مشكلة الشر» فيما إذا كان الشر هنا يراد به الشر في خيارات البشر العاقلين المخيرين (وهو ما يسميه الفلاسفة بالشر الأخلاقي)، يرىٰ بعض خصومه أنه لا يفي بالمطلوب فيما يتعلق بـ«الشر الطبيعي»، الذي لا خيار للإنسان فيه. ولو أن هؤلاء الخصوم قبلوا من «بلانتينغا» قوله بـ«إمكان» وجود الحكمة والتعليل

(١) وها هنا ينبغي التنبيه إلى أن من طريقة أهل السنة الامتناع عن نسبة الشر إلى أفعال الله تعالى عند الكلام عن وجود الشر، وذلك كما في قوله عليه السلام «الخير كله إليك والشر ليس إليك». وهذا من باب التأدب مع الله، ولأنه متقرر لدينا أنه سبحانه لا يقع في مفعولاته الشر إلا لخير أرجح أراده سبحانه من ذلك الشر، لذا فلا ينسب إلى الله فعل موصوف بأنه شر، فما كان شرا من وجه فهو خير كذلك من وجه أرجح في الميزان عند الله أو من وجوه كثيرة، وهو – بمقتضى صفة كمال الحكمة في الله تعالى – خير لا يمكن تحصيله إلا من طريق ذلك الشر. إذ لو كان المطلوب يمكن للفاعل المريد القادر أن يحققه دون أن يقترف أمرا يكرهه، لكان ذلك نقصا في حقه! فالله تعالى لا يحب أن يشرَك به أو أن يُعبد في الأرض شيء من خلقه، ولكن لأن في وجود ذلك الشر الذي يكرهه في بعض خلقه ثمرة يحبها سبحانه ولا يمكن تحصيلها إلا بذلك، اقتضت حكمته جل وعلا أن يوجد الشرك في الأرض على نحو ما نرى، لا على غير ذلك.

لذا ينبغي التنبه إلى أن أهل السنة عندما يتكلمون بنسبة الشر إلى مفعولات الله تعالى وليس إلى أفعاله فإنهم لا ينفون بذلك نسبة ذلك الشر نفسه إلى خلق رب العالمين وتقديره إياه، فإن جميع ما في العالم من الحوادث والوقائع إنما هو من خلقه سبحانه، وإنما ينفون الحكم على المفعول الموصوف بأنه «شر»، بأن فعل الله تعالى له شر، كما يتأدبون في الكلام عن الله تعالى فلا يظهر في كلامهم ما يوحي – ولو من بعيد – بنسبة الشر إليه سبحانه وتعالى. فإن مجرد مخالطة الشر بمقدار ما أو على وجه ما (أو بعبارة أدق: ما كان شرا بالنسبة إلى كائن ما على قدر ما) لفعل من الأفعال، هذه لا تقتضي الحكم على الفعل نفسه (بمجموع وجوهه، في ذاته وفي غايته) بأنه شر!

وراء سائر صور الشر في العالم (علىٰ ما فيه من تلبيس وفساد في مسألة «الإمكان» هذه بيناه آنفا)، ما سلكوا معه هذا المسلك. ولكن ما كانوا ليقبلوا وما كان هو ليمتنع عن التفنن والتحاذق والتنطع في إجابة كل رد يقذفونه في وجهه، والله المستعان. فلما اتسع الجدال مع القوم كما مر بك في تفاصيل ما يكون في عالم افتراضي فيه كائنات وصفها كذا وكذا، واتسع التخليط بين الفريقين في الكلام علىٰ «حرية الإرادة» ولوازمها ومقتضياتها، نظر أحدهم فوجد الكلام كله منصبا علىٰ أفعال المخلوقين الأحرار دون ما يفعله الباري بهم وما يقضيه عليهم وعلىٰ غيرهم من الكائنات غير المكلفة (أو غير الواعية باصطلاحهم) من كوارث «طبيعية» ونحوها (مثلا)، فخرجوا عليه بذلك الاعتراض.

وهنا لا يجد «بلانتينغا» إلا أن يقرر عقيدة النصارىٰ التي عبر عنها «أوغسطين» وغيره في كون كل شر يقع في العالم خارج إرادة البشر، فلا بد وأنه منسوب (خلقا وتكوينا) إلىٰ إبليس، الذي يعتقد النصارىٰ أنه كان ملكا من الملائكة ذا قوة جبارة، ثار مع بعض أقرانه أو «أتباعه» من الملائكة علىٰ ملكوت الرب يوم أمره بالسجود لآدم وأبىٰ، فلما طُرد من السماء، راح يمارس الإفساد في الأرض يضربها بالكوارث الطبيعية وسائر الشرور التي نراها مما يخرج عن اختيار البشر![1]. وهذا اعتقاد باطل ولا شك، ولا يخفىٰ ما فيه من إشراك ومن نقض لكمال القدرة والعلم الواجبين للباري.

فكأنه لم يكتف بجعل سائر البشر شركاء وأنداد للرب في ربوبيته وإرادته وسلطانه علىٰ حوادث العالم حتىٰ يفسر بذلك وجود «الشر الأخلاقي»، بل جعل إبليس ندا مساويا للرب في الخلق والتكوين كذلك، حتىٰ يفسر به وجود ما يسمىٰ بـ«الشرور الطبيعية» التي لا يد لإنسان فيها، فانتهىٰ إلىٰ القول بثلاثة أرباب خالقين للحوادث في العالم (الرب خالق الخير، والشيطان خالق الشر، والإنسان خالق أفعاله)، فسبحان الله وتعالىٰ عما يقول علوا كبيرا! هذا ما استفاده الرجل من قبول تلك القسمة الاصطلاحية المتكلفة (الشر الأخلاقي والشر الطبيعي) والجريان عليها! ولو صدق وتجرد للحق

(1) Plantinga 1977, pp. 58.

لشهد علىٰ نفسه ببطلان تلك التناقضات الجلية التي تمسك بها في دينه، ولانصرف عن هذا العبث الفلسفي الذي فرح به هو وأتباعه جملة واحدة، ولصار من أشد الناس حربا علىٰ المشتغلين به (وفيهم أساتذته وزملاؤه وتلامذته)، ولكنه الانتصار للنفس والهوىٰ لا للحق، والتماس المواقف الفلسفية التسويغية أشكالا وألوانا Philosophical Rationalization.

والذي يريده «بلانتينغا» من تقرير هذا الاعتقاد في هذا المقام ليس التأسيس عليه في جوابه (فإن جوابه يقوم علىٰ إثبات الإمكان العقلي لا غير)، ولكن بيان أن هذا الشر الطبيعي إن تقرر «جواز» نسبته إلىٰ إبليس (الذي هو كائن عاقل حر الاختيار، وإن لم يكن من البشر)، فقد انطرد الجواب الذي حرره الرجل في مسألة «الشر الأخلاقي» (وفقا لتقسيم الفلاسفة المعاصرين لأقسام الشر) علىٰ كل ما يوصف بأنه «شر طبيعي»، إذ يتحول نوع «الشر الطبيعي» علىٰ هذا التوجيه إلىٰ محصول الخيارات الأخلاقية لإبليس نفسه، الكائن العاقل ذي «الإرادة الحرة» المستقلة، فيدخل «الشر الطبيعي» بذلك تحت مفهوم أوسع «للشر الأخلاقي» يقوم علىٰ مفهوم «بلانتينغا» المطلق لـ رادة الحرة في المخلوقين ولخلقهم أفعالهم، ولا يبقىٰ ثمة فرق بين القسمين، ومن ثم يخرج الرجل وقد أجاب عن الاعتراض الفلسفي وانتصر لعقيدته النصرانية في نفس الوقت!

ومما أورده الخصوم علىٰ «دفاع حرية الإرادة» هذا، قولهم إن «بلانتينغا» يلزمه من نفي إمكان وجود كائنات حرة ذات إرادة لها قيمتها الأخلاقية المعتبرة، تكون مخلوقة بحيث لا تختار إلا الخير في كل مرة، أن ينفي وجود الخالق نفسه، لأنه هو نفسه يوصف بأنه كائن حر ذو إرادة حرة لا تفضي إلا إلىٰ ما هو خير مهما كان في مفعولاته من الشر! فإلىٰ جانب فساد نفي بلانتينغا نفسه كما بينا، فلا يخفىٰ أن الكلام عن نوع مخلوق بحيث يمكن للفرد منه أن يختار كذا أو يختار كذا، فيتحمل مسؤولية خياراته الأخلاقية، مع الجواز العقلي لأن تلحقه المذمة ويستحق العقوبة ببعضها، ليس كالكلام علىٰ خالق كل الأنواع سبحانه، الذي لا مستكره له ولا خالق له ولا حاكم عليه من فوقه، الذي لا

يسأل عما يفعل[١] وهم يسألون ، الذي يجب له كمال الحكمة بضرورة العقل، فلا يأتي الظلم ولا يليق به وإن كان قادرا عليه! فلا يرد ذلك الإيراد إلا علىٰ من يُجوّز قياس خالق كل شيء علىٰ بعض خلقه، وهو باطل قطعا، ولكن الشاهد أن الرجل فتح علىٰ نفسه أبوابا لا حصر لها!

وعلىٰ الرغم مما فتحه هذا المسلك عليه من جدال ومراء طويل، إلا أنه لا يعده إلا «دفعا منطقيا» أو defense علىٰ حد عبارته، بخلاف ما يسمىٰ بالجواب التفسيري Theodicy الذي توسع سابقوه من اللاهوتيين في كتابته في الرد علىٰ الخصوم. فعلىٰ مفهومه «للدفاع المنطقي» هذا، من المفترض أن يكون جوابا فلسفيا موجزا لا يزيد علىٰ بيان وجه بطلان دعوىٰ المخالف، دون الدخول في تفسيرات وتعليلات لوجود الشر في العالم. فلا يسعني إلا أن أتساءل: إن كان هذا هو «الجواب الموجز»، بما فيه من كلام عن الشر الطبيعي والشر الأخلاقي وعمل إبليس.. إلخ، فكيف كنت تصنع يا سيد «بلانتينغا» لو كنت حريصا علىٰ أن تحرر «تفسيرا» أو تأويلا مفصلا Theodicy علىٰ طريقة من سبقوك؟

علىٰ أي حال، فالجدال بين الرجلين في تلك القضية قد انتهىٰ من فترة طويلة باعتراف «ماكي» لـ«بلانتينغا» بأنه قد تمكن من إسقاط «الحجة المنطقية من مشكلة الشر» وأتىٰ عليها بتمامها! قال «ماكي»:

> بما أن هذا الدفاع ممكن من الناحية المنطقية، وبما أن مبدأه لا يشتمل علىٰ أي إهدار حقيقي لنظرتنا التقليدية للتعارض ما بين الخير والشر، فلعله يمكننا الآن أن نقبل القول بأن مشكلة الشر لا تدل علىٰ أن العقائد المحورية للملل المتألهة theism لا تتوافق منطقيا مع بعضها البعض. ولكن فيما يتعلق بما إذا كان هذا يمنحنا حلا حقيقيا للمشكلة، فإن هذه مسألة أخرىٰ.[٢]

ولذا فالصورة التي يرسمها اليوم كثير من فلاسفة الأديان من اللاهوتيين وأتباعهم (وكثير من اللا-لاهوتيين كذلك) توحي بأنه بعد دفاع «بلانتينغا» المنمق هذا، لم يبق

(١) والسؤال هنا هو ما يعبَّر عنه بقولهم «قيمته الأخلاقية المعتبرة»، أي معتبرة عند المؤاخذة والمحاسبة!
(2) Mackie 1982, pp. 154.

لفلاسفة الإلحاد المعاصرين من طريق إلىٰ استعمال «مشكلة الشر» كحجة منطقية لإبطال وجود الباري جل وعلا. ولكن هذا في الحقيقة زعم كاذب من صاحبه، وإنما هو الإغراق في حيل التزيين النفسي Rationalization عند أهل الأهواء (من كلا الفريقين المتنازعين جميعا) لما هم عليه. ولا يزال - وسيظل - يوجد من يحيي ذلك البرهان المنطقي ويعاود طرقه بالنظر والتحليل ويعترض علىٰ جوابات بلانتينغا وغيره عنه! فمثل هذا الجدال والسجال العبثي لا يرتفع من الأرض أبدا حتىٰ تقوم الساعة، وإنما يتشعب ويتفرع لا محالة، ولا يزداد أصحابه به إلا غيا وضلالا وبعدا عن الحق الجلي الواضح كما رأيت.

لذا فلا يزال - وسيظل - الفلاسفة كلما تكلموا في تلك المسألة ونحوها من القضايا الغيبية الكبرىٰ التي لا يصح أن تطرح للنظر العقلي أصلا، يتناولون المسائل كلها علىٰ أنها لا حسم ولا قطع فيها ولا ظهور لمذهب علىٰ مذهب، بل هي مجال مفتوح لإبداع كل مبدع بارع منهم، كما أبدع صاحبنا «ماكي» وزميله «ماكلوسكي» صياغتهما الجديدة هذه، وكما أبدع وتفنن زميلهما «بلانتينغا» في الرد عليهما. فهي ملعب مفتوح لا حدود له للتفنن في أساليب الانتصار السوفسطائي لأي ملة باطلة وأي مذهب ساقط، واختراع الملل والمذاهب الجديدة أشكالا وألوانا، حتىٰ لا يبقىٰ لأحد من دعوىٰ يزعم أنها الحق الواضح الجلي إلا جاءه من يقول له: «لقد قال فلان كذا، فما جوابك؟ وأجابه فلان بكذا فرد عليه بكذا، فما جوابك؟» وهكذا إلىٰ ما لا نهاية له ولا مخرج منه أبدا، إلا الإقلاع عن ذلك العبث كله جملة واحدة، ولزوم غرز العلماء الحكماء من ورثة الأنبياء، أسعدنا الله بميراثهم!

وها أنت ترىٰ كيف أن «ماكي» يأبىٰ إلا أن يوثق ويرسخ من غور «المشكلة» المزعومة حتىٰ بعدما أظهر «رجوعه» عن برهانه المنطقي ونزوله علىٰ جواب زميله «بلانتينغا». فحتىٰ علىٰ تسليمه بأن برهانه الجديد قد سقط، إلا أنه يرىٰ أنه قد أصبح لزاما علىٰ «بلانتينغا» أن يعترف - علىٰ الأقل - بأن المشكلة أكثر صعوبة فلسفيا مما كان معتقدا من قبل، لأنها قد تفتح الباب لما وراءها من اعتراضات منطقية لم تخطر

علىٰ ذهن أحد من قبل، وهذا بالنسبة للملحد مغنم في حدّ ذاته، يزداد به زخرف الإلحاد في نفوس الملحدين! وهذا القدر لا أحسب أن يخالفه عليه أحد من الفلاسفة حتىٰ «بلانتينغا» نفسه، الذي قضىٰ من عمره سنوات في الجدال والرد علىٰ ذاك البرهان، حتىٰ انتزع الاعتراف من خصمه أخيرا بأنه قد أسقطه، في سابقة قلّ أن تقع بين الفلاسفة، كما أشرنا من قبل!

ولهذا اخترت أن آتي بهذا السجال بين هذين الرجلين تحديدا لدراسته علىٰ نحو ما مر بك، لأنه من الحالات النادرة حقا التي «انتهىٰ» فيها النقاش بين اثنين من الفلاسفة بنوع اتفاق علىٰ أن أحدهما قد سقط برهانه، وقد يراه بعض المفتونين من المتكلمين بأنه «انتصار» علىٰ الملحد، ولكن هل هو كذلك حقا (أعني بمقاييس العقلاء الأسوياء من أتباع الرسل والأنبياء التي نقررها في هذا الكتاب، لا بمقاييس الفلاسفة والمناطقة المتخصصين)؟ كلا ولا شك! هذا فيلسوف ملحد يعترف (في واقعة نادرة الحدوث) بأنه قد «هُزم» بعد جدال دام عدة سنوات، فأي خير رجع علىٰ الحق وأهله من ذلك علىٰ التحقيق؟ ازدادت القضية محل النزاع الفلسفي إشكالا وتعقدا - فعلا كما ذكر «ماكي» - لزيادة ما انضاف إلىٰ مخزون أدبياتها من نظريات وآراء و«اجتهادات» وبراهين مطولة وخصومات في الأخذ والرد والجواب وإجمالات وأغاليط ومداخل ومخارج جديدة تتسع لكل صاحب هوىٰ ليتعلق منها بما يحلو له، ثم يقول لمن جاءه بالحق الواضح «أمهلوني حتىٰ أبحث هذه الجوابات والردود كلها أولا ثم آتيكم بما أرىٰ، فالأمر أعقد وأشد إشكالا مما يبدو لكم»! فمن الذي انتصر علىٰ الحقيقة؟

الحاصل الآن أن ذاك الباحث في الفلسفة من أهل الأهواء إن اختار أن يكفر بالباري بسبب «مشكلة الشر» هذه علىٰ صياغة فلان وبرهان فلان، فله أن «يطمئن نفسَه» بأنه قد سبقه إلىٰ ذلك الموقف فلاسفة كبار، تكتب أسماؤهم في تاريخ «الصناعات العقلية» بماء الذهب! وإن اختار أن يكفر بباريه ومصوره ويجحده حقه سبحانه بسبب صياغة أخرىٰ تعجبه، فقد وافق بعض الأكابر كذلك، بل وإن اختار أن يتمسك بصياغة «ماكي» و«ماكلوسكي» هذه ليخرج منها بما قالا به في أول الأمر (حتىٰ مع اعتراف «ماكي»

نفسه بأن دعواه قد سقطت!)، فسيجد من يوافقه علىٰ ذلك من الفلاسفة الأكاديميين قطعا، فإن لم يعجبه شيء من تلك الصياغات كلها، فليختر لنفسه موقفا أخفّ من هذا بعض الشيء، فلا يزعم أن مشكلة الشر في مجردها دليل علىٰ عدم منطقية وجود الخالق، وإنما يكتفي بما اتفقوا عليه جميعا من أن في موضوع الشر هذا مشكلة عويصة للغاية لم يظهر إلىٰ الآن جواب فلسفي يغطي جميع جوانبها، وهو ما يزعم إذن أنه يكفي للوقوف - علىٰ الأقل - موقف المشكك المرتاب، أو الذهاب إلىٰ صورة من صور «التوقف» في المسألة واشتراط حسمها «فلسفيا» أولا قبل النظر فيما ينسبه الناس إلىٰ الأنبياء والمرسلين من وحي ورسالة!

وإذن فليبق الملحد علىٰ ما يحلو له من مذاهب الفلاسفة في الإلحاد والجحود المحض (وهي كثيرة جدا في الحقيقة ولا تزال في تكاثر كما ذكرنا!)، وليعلم أنه بذلك ينضم إلىٰ صفوف تلك الصفوة المثقفة رفيعة القدر والشأن في المجتمع الغربي المعاصر، فأي شيء أحب إلىٰ تلك النفس الخبيثة من هذا؟ إنها طبقات فوق طبقات من مخادعة النفس والتسويغ النفسي الكاذب لدفع الاضطراب الناشئ عن تناقض الاعتقاد وعن التمسك به من شدة الهوىٰ Cognitive Dissonance، فلا يزداد الواحد منهم إغراقا في تلك المسالك إلا وجد أقرانه من أهل الفلسفة من حوله يرفعونه علىٰ الأعناق رفعا ويقدمونه فيما بينهم تقديما، فأي شيء أحسن من هذا؟ فليذهب أحدهم إلىٰ أن خصمه اللاهوتي أو المتكلم قد انتصر عليه في رد دعوىٰ متفرعة عن دعوىٰ متفرعة عن «مشكلة» متفرعة عن نظرية ميتافزيقية عميقة الغور مترامية الأطراف، فكان ماذا؟ هو علىٰ أي حال صاحب «رأي واجتهاد»، فيجب أن يُحترم علىٰ أقل تقدير!

وكما ذكرنا من قبل فإن النفس الممروضة بطبقات الهوىٰ الغليظة، تزين لصاحبها بمثل هذا التراجع العلني التاريخي من «ماكي» ادعاء أن الخصم الملحد في هذه المجادلة الطويلة قد «أنصف الحق» من نفسه واتبعه بمجرد أن ظهر له واعترف به لخصمه وتراجع عن موقفه، وهي منقبة أخلاقية نقطع بأن كلا الطرفين في ذاك النزاع من أبعد ما يكون عن استحقاقها، لأنهما لو صدقا وتجردا للحق كما يراد للناس أن

تصفهما به، لأقلعا عن ذاك المسلك الخبيث بالكلية، ولاعتزلا تلك الصنعة المذمومة، ولاعترفا بأنه ليس ثمة «مشكلة» في الحكمة والتعليل إلا في نفوس الجاحدين الذين طرحوا مسألة الشر هذه قبل قرون خلت وأحبوا لها أن تصبح «مشكلة»، وكذا في إصرار خصومهم اللاهوتيين - في المقابل - علىٰ التمسك بما هم عليه من اعتقاد ديني متناقض، وقد عرفوا جميعا أن الحق الخالص الصافي لا فيما عليه هؤلاء ولا ما عليه أولئك، وليس هو بخاف لا علىٰ هؤلاء ولا علىٰ أولئك! فنحن نقول إن التراجع عن الباطل لا يُحمد لصاحبه إلا إن كان تراجعا إلىٰ الحق المحض الذي لا يماري فيه عاقل! أما إن كان تراجعا عن فرع من فروع الباطل مع البقاء علىٰ أصله (بل وأكثر فروعه فيما عدا ذلك الفرع المتراجع عنه بخصوصه)، فهو تلبيس عظيم، لا يزداد الفلاسفة بتصانيفهم إلا إغراقا فيه، يكذبون علىٰ أنفسهم وعلىٰ الناس![1]

---

(١) ومما مررت به من جهود بعض الدعاة المسلمين في محاربة الإلحاد، وأحزنني كثيرا حقيقة وأسفت له أشد الأسف، مقال كتبه أحدهم تحت عنوان «ندم أنتوني فلو بعد ٦٦ سنة من الإلحاد»، فجاء فيه ببعض كلام الفيلسوف الملحد البريطاني أنتوني فلو A. Flew يزعم فيه الرجل أنه قد أخذ على نفسه عهدا بأن يرجع إلى الحق إذا ما ظهر له، فلما تبين له أن وجود الخالق «أرجح» من عدمه نظريا، بسبب ما تبين له - على حد زعمه - من تعقد الخلايا الوراثية الشديد، واستحالة أن يكون ذلك كله قد نشأ من العدم، تراجع عن إلحاده أخيرا من فوره! فإذا بالأخ الناقل يحتفي بالرجل (من هذا الوجه) ويرجو أن يكون في تراجعه «صدمة نفسية» لمن تابعوه من الملاحدة وافتتنوا به على اعتباره من كبار فلاسفتهم! وقد صنف المتفلسف الجهمي الكبير الدكتور عمرو شريف كتابا كاملا في الثناء على الدين الذي انقلب إليه فلو في آخر عمره وعلى صدقه في طلب الحق وأنه أخيرا قد صار من «المؤمنين»، مستدلا الاستدلال الصحيح بنظريات الطبيعيين، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله! وقد تعقبنا كلام الدكتور عمرو بما يليق به في غير هذا الكتاب.

وهذا في الحقيقة من أعظم التلبيس، الذي لم ينتبه إليه صاحب المقال المذكور هداه الله. فهذا الفيلسوف لم ينتقل في الحقيقة إلى الإيمان بالله وإنما انتقل إلى الإيمان بأن ثمة قوة خالقة فعالة خلف العالم، وهو ما صنفه عليه أقرانه على أنه موقف من يقال لهم «الربوبيون» Deists. والربوبيون هؤلاء ملاحدة تحقيقا، على اعتبار أن الملحد هو كل من ينفي وجود الرب الباري الموصوف بأكمل الصفات وأحسنها، الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب والذي يبعث الناس يوم القيامة! ومصطلح الإلحاد عندنا معاشر المسلمين يشمل سائر تلك الطوائف التي ترفض الدخول في الدين الحق (كواحد من جملة الأديان الرسالية الكتابية)، بدعوى أن الدليل على أن للخالق في الأرض دينا صحيح النسبة إليه لا يكفي، كما بينا في موضع متقدم!

فالجاحد المستكبر من هؤلاء لا يرى بأسا في أن يتنقل من موقف اعتقادي إلى غيره ما دام لا يجد في أي من تلك المواقف ما يلزمه بقبول دعوى الإسلام والدخول في اتباع الرسول عليه السلام! و«فلو» هذا كان ولم يزل (حتى هلك في ٢٠١٠ الميلادية) من أشد الناس بغضا للإسلام وكراهية له! فبأي فقه وبأي عقل يأتي

إنني أستعرض هذا السجال بين الرجلين علىٰ إيجاز شديد وحرص علىٰ أن أقتصر علىٰ خلاصة الخلاصة لخدمة مقصد الكتاب، وأنا أعلم أن من إخوتنا حدثاء الأسنان من سيغريه قولي بأن الملحد قد اعترف لخصمه اللاهوتي بإسقاطه حجته الفلسفية ليهرع إلىٰ كتب بلانتينغا ينظر فيها ويتعلم منها كيف استطاع ذلك المتكلم الفذّ أن يصل لانتزاع اعتراف كهذا من رأس من رؤوس الفلسفة الإلحادية من أقرانه! ولا أستبعد أن يظهر من يتكلف ترجمة كتاب بلانتينغا الذي شرح فيه برهانه وأجوبته المنمقة البارعة (بمقاييس الفلاسفة)، حتىٰ يتعلم منه المتكلمون من أهل القبلة! فأنا أشهد الله واشهد أيها القارئ الكريم بأني بريء ممن يفعل ذلك!

داعية مسلم ليقدم تحوله هذا للناس على أنه «ضربة للملاحدة» أو على أن فيه إلزاما لأحد من أتباعه بشيء؟ بل والله فيه عين ما يطمعون فيه جميعا من ترسيخ فكرة أنهم - أي فلاسفة - متجردون للحق وأنهم يتابعون الدليل متى تبين لهم، والدليل على صدقهم هو انتقال أحدهم من الزعم بعدم الباري إلى الزعم بالتوقف في المسألة (مثلا)، والله المستعان!

لقد أمضى ذاك المفكر العظيم أكثر عمره «باحثا عن الحقيقة» (بزعمه)، ثم بعد ما يربو على ستين سنة، نراه يأتي أخيرا ويقرر في النهاية أنه يؤمن بأن الكون لا بد وأنه «مخلوق»، فيا لها من منقبة في حقه، ويا له من صادق متجرد للحق، يتبع «الدليل النظري والعلمي» متى ظهر!! ويا ليت من تابعه - إذن - أن يحذو حذوه، فيصبح «ربوبيا» هو الآخر، متبعا «الدليل» كما اتبعه «فلو»، ولعلها أن تكون خطوة في الطريق لأن يصبح قائلا بوحدة الوجود، ثم بعد مزيد بحث ودراسة عميقة، لعله يصبح لادينيا، ثم ندخل به في مرحلة متقدمة من مراحل البحث العميق للمقارنة بين الأديان، ثم عساه في نهاية المطاف، إن أمهله أجله وبقي له بقية من العمر، أن يصل إلى قبول رسالة التوحيد في يوم من الأيام، من الأيام، فيما يوهم به نفسه، فيصبح زنديقا قائلا بوحدة الوجود ينسبها إلى الإسلام، ومع ذلك فلا تثريب عليه لو لم يصل في النهاية، فقد أدى ما عليه وأظهر «الحرص على طلب الهداية»، ولكل مجتهد نصيب! فلا أدري والله أأضحك أم أبكي! أي كذب على النفس وعلى الناس أعظم من هذا يا هداكم الله، وأنتم تزكونه - مع هذا - بالصدق في طلب الحق؟

والأمر الذي أجزم بأن صاحب المقال لم ينتبه إليه، هو أن نظرية «التصميم الذكي» هذه يمكن أن يقبلها الفيلسوف ويظل - مع ذلك - على شعبة من شعب الإلحاد، وهو عين ما وقع من «فلو» هذا، إذ الإلحاد ليس مقصورا في صوره وغاياته الاعتقادية على نفي الخلق كما بينا في هذا الكتاب وغيره. بل إن من تأمل في منطق النظرية نفسها (كما بينته بتفصيل في غير هذا الكتاب) فسيجد أنها إنما تثبت خالقا مخلوقا في الحقيقة، كإله الـ«إي تي» (الكائن الفضائي الذكي) الذي يقول به بعض الملاحدة! فمتى يكف إخواننا هداهم الله عن بث هذا الوهم (وأعني الوهم باتباع الدليل وطلب الحق في جدال فلاسفة الإلحاد من جانب واللاهوتيين والمتكلمين من الجانب الآخر، فيما تنازعوا فيه) وترسيخه عند أصحابه من حيث لا يشعرون؟ دعوني أهمس في آذان المنتسبين منهم إلى أهل السنة وأقول: «أحقا ما زلتم ترون - بعد كل هذا - بدعية القول بوجوب «النظر» على المكلفين؟»

وها أنت ترىٰ أن الجدال بين الرجلين لم يكن جدالا في أصل الباطل نفسه، وإنما في «برهان» نظري معين تكلفه أحدهم لنصرة فرع عن فرع عن ذلك الأصل. ولو أنهما تجردا للحق بحق لاعتزلا تلك الشجرة الخبيثة كلها جملة واحدة، ولتركا ما هما عليه من اعتقاد غيبي متناقض (أي في صفات الباري جل وعلا)، ولاعترفا بأنه ليس بابا للنظر والظن بالأساس (لوضوحه وجلائه وفطريته الصارخة في نفوسهم)، ولشهدا بأن الظن في مثل هذا لا يغني من الحق شيئا، وإذن لدخلا في الدين الحق جميعا، ولكن من ذا الذي قال إن معرفة الحق التام الخالص هو الغاية عندهما؟ هذا المقصد لا يراه فلاسفة الأديان والغيبيات لأنفسهم أصلا وما عادوا يطمعون فيه!

فليتأمل القارئ الكريم مرة أخرىٰ كيف أبىٰ «ماكي» في النقل السابق حتىٰ مع شهادته علىٰ دعواه بالبطلان والانهيار، إلا أن يُبقي موضوع الشر هذا عند منزلة «الإشكال الكبير» والأزمة العقلية العويصة، من أيما وجه كان ذلك، حتىٰ يبقىٰ له ولغيره من الملحدين ذلك الدثار الفكري الثخين الذي يسوغ القوم به لأنفسهم بقاءهم علىٰ إلحادهم. ولا عجب! ألم يقل أسلافهم من قبل: ﴿**وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا**﴾ [**الإسراء**: ٩٠] فلو أن النبي المخاطب بهذا الشرط فعل وجاءهم بما طلبوا أفكانوا يؤمنون بعدها؟ أفكانوا يرضون بالحق ويشهدون به علىٰ أنفسهم من بعد ما عقلوه؟ كلا! بل كانوا سينسبونه إلىٰ السحر والشعوذة لا محالة! ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾ [**يونس**: ٢] فمهما وجدوا مخرجا يتأولون به ما رأوه من آيات الله علىٰ خلاف الحق، بحيث يقرب التأويل إلىٰ نفوس وقلوب الناس من حولهم ويسهل علىٰ النفوس المريضة أن تلبسه لبوس «التأويل السائغ» مهما كان ساقطا متهافتا مغرقا في المغالطة الظاهرة، فهم سالكوه لا محالة! [1] وكلما كان الواحد منهم أذكىٰ

---

(١) ومما مر بنا من سفاهة الملاحدة، أن ترى أحدهم يقرر الحق من أن الفلسفة لا يوصل منها إلى حق أو باطل فيما يبحثه أصحابها من قضية وجود الباري فيما وراء الطبيعة، ثم يخرج من ذلك التقرير بأن نظريات العلم الطبيعي وطرائقه هي السبيل الوحيد لمعرفة الحق والباطل في تلك القضية وما تعلق بها من قضايا غيبية محضة! فهل يخفى على السفيه من هؤلاء أنه بذلك قد تعلق بمذهب فلسفي ضيق هو من جملة نواتج تلك

وأنبه، وأكثر تمرسا بطرائق تلك الصنعة الخبيثة، صنعة السفسطة الأكاديمية التي يقال لها الفلسفة، كان ذلك عليه أهون وأيسر، والله المستعان!

فسبحان الله هي ذات القلوب لا تتغير! تختلف الدعاوىٰ والاعتراضات والشبهات والكبر هو الكبر، والجحود هو الجحود، والكفر ملة واحدة! ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [**البقرة**: ١١٨] فما فلاسفة الدين والغيبيات إلا ثلة من المستكبرين المغرورين قد تفننوا لأنفسهم في بناء صنعة معقدة شديدة التعمق، لا ينتهي صاحبها إلىٰ الحق أبدا مهما صنع، وإن انتهىٰ إليه لم يبق عليه ولم يثبت، نسأل الله السلامة!

ولذلك لم تكتف تلك النفوس المريضة بما رأيت وما مر معك، بل زينت لأصحابها من الفلاسفة المعاصرين التفنن في اختراع دعوىٰ أخرىٰ وسلوك طريق أخرىٰ لاستعمال «مشكلة الشر» في الاعتراض علىٰ وجود الخالق جل وعلا والطعن عليه! فتفتقت أذهان بعضهم عن صياغة ما بات يسمىٰ بـ«الصيغة الدليلية» أو «الترجيحية» لمشكلة الشر، ولسان حالهم في ذلك يقول: سلمنا لكم بأن وجود الباري لا يمكن نفيه بالتدليل

الصنعة نفسها التي يزعم أنه لا يراها مما يرجى الوصول منه إلى الحق في تلك المسائل، ليس هذا فحسب، بل إنه ذلك المذهب الذي يزعم أصحابه أن دائرة بحثهم مقصورة على الطبيعيات والمحسوسات دون الغيبيات والماورائيات؟ أم تراه يشترط أن يكون الرب الباري مجرة من المجرات السابحة في أطراف الفضاء مثلا، أو جزءا من أجزاء الطبيعة على صورة ما، حتى يتمكن من رصده بوسائل العلم الطبيعي وإثبات وجوده؟ وهل يخفى عليه أن الحق في مسألة وجود الباري ظاهر بنفسه لا يفتقر إلى دليل أصلا، لا من الفلسفة ولا من العلم الطبيعي ولا من شيء من صناعات المعارف البشرية أيا ما كان موضوعه وطريقته؟ أبدا! وإنما هو صاحب هوى يكذب على نفسه، تماما كما كذب عموم الفلاسفة على أنفسهم في ذلك، فهو يتفنن في اختيار الغطاء الأنسب لنفسه والأكثر بريقا ولمعانا بين الصفوة المثقفة في مجتمعه حتى يوهم نفسه والناس بأن إلحاده يقوم على مستند نظري ذي بال! فإذا كانت جماهير الناس في زمانه وبلاده تعظم الفلاسفة، فهو ماض إلى التخصص فيها والكلام بها لا محالة! وإن كانت الناس في زمانه وبلاده تعظم أصحاب العلوم الطبيعية، فلتكن أكاذيب الماديين من رؤوس تلك العلوم وتخرصاتهم في قضايا الغيب هي طريقه إلى نوال المطلوب، ولا إشكال ما دامت المحصلة واحدة! المهم أن تجد نفسه ما تستميل به قلوب الجماهير إليها، حتى تنعم بالتعظيم والتقديم بين الناس وغير ذلك مما تحب وتهوى، وتختار من صور التسويغ والتغطية والكذب والمراوغة ما يناسب السياق المجتمعي المعاصر، وستجد ذلك لا محالة!

المنطقي الاستنباطي A-priori Deductive Reasoning كما حاول ذلك بعض زملائنا، فدعونا إذن نتحفكم بالقول بأن كثرة الشرور وفظاعتها في العالم، تجعل «احتمالية» وجوده ضعيفة للغاية (استقرائيا)، فما جوابكم؟ فسبحان من ركب في الناس عقولهم، وأطبق الأقفال علىٰ قلوب الجاحدين!

صيغة «ويليام روه» المعروفة بالدليلية/الاحتمالية/الاستقرائية/الإمبريقية /Evidential A-posteriori/Probabilistic formulation

وهي صياغة أو مدخل جديد لزخرفة القول بـ«إشكالية الشر» كما يسمونها، يعتمد علىٰ الترجيح الاحتمالي Probabilistic Inference، حيث تطرح بعض القضايا المعينة مما يوصف بأنه من الشرور الكبرىٰ التي ظهرت في مفعولات الله في هذا العالم، ثم يُستدل بها علىٰ أن عجز أهل الملل «الألوهية» عن تفسيرها كلها بتفسير «مقبول» أو «واضح» يقلل من «احتمالية» أو «أرجحية» أن يكونوا علىٰ الحق فيما يتفقون عليه من صفات الباري. وعليه فكلما اجتمعت تلك القضايا الجزئية إلىٰ نظائرها، تكاثر ما يسميه هؤلاء بـ«الأدلة»، التي تقلل باستقرائها – في زعمهم – من أرجحية وجود الإله نفسه، أو علىٰ الأقل، تقلل من حقه في أن يُعبد وأن يفرد بالإلهية – سبحانه وتعالىٰ عما يصفون علوا كبيرا.

ولعل أشهر الصيغ لتلك «الحجة» المزعومة عند الفلاسفة هي تلك التي وضعها الأمريكي «ويليام روه» William Rowe في سنة ١٩٧٨ الميلادية، وكان ولا يزال إلىٰ اليوم يتعلق بفكرتها الأساسية، يعيد صياغتها وتعديلها واجترارها المرة بعد المرة كلما ناقشه فيها مخالفوه.

وكما هي الحال مع صاحبه «ماكي»، ترىٰ عامة الفلاسفة يحمدون هذا المسلك من الرجل (أعني مراجعته برهانه وتعديله بعد كل مناقشة)، إذ يعدونه دليلا علىٰ أنه يعتبر بكلام مخالفيه وملاحظاتهم ويعمل علىٰ تطوير فكرته وتعديلها حتىٰ «تنضج»! مع أن هذا عند العقلاء علامة جلية علىٰ الغرق في الهوىٰ المحض كما بينا من قبل. فإنما يُحمد ذلك المسلك عندما تكون مادة البحث والنظر نفسها فيما يستساغ النزاع فيه بالأساس، ويُتصور أن تخفىٰ فيه دلائل الحق الواضحات بما يسوغ بذل النظر وتقليبه مرة بعد مرة، علىٰ عادة النظار المتخصصين في فنون النظر العلمي، كل في صناعته. أما

والأمر كما نرىٰ، فهو مسلك مقبوح مذموم صاحبه غاية المذمة، حق صاحبه أن يرمىٰ بمحض السفاهة، لا بكمال العقل وحسن النظر!

هذا رجل قيل له – بإيجاز – إنه ليس في العقل ما يلزم منه اتهام الباري بالظلم أو العبث من مطلق وجود الشر في العالم، بل العقل يشهد له بالحكمة التامة في ذلك كله بالضرورة مهما كرهته نفوسنا، وبعلو علمه علىٰ علمنا وحكمته علىٰ حكمتنا، فذهب يقول: «سلمنا بذلك، ولكن أجيبوا لنا عن آحاد تلك الشرور الشنيعة، أي خير يمكن أن يريده الخالق منها؟ فإن لم تجيبوا، لزمكم قبول الاعتراض وأن هذا النقص المعرفي عندكم أنتم، يصح سندا للملاحدة فيما يعتقدون!» فكيف وبأي عقل يحمد للرجل بقاؤه طوال ثلاثين عاما كاملة من عمره يجادل ويماري ويتفنن في ضرب الحجج الفلسفية المطولة لنصرة هذه السفاهة المحضة؟ إنما يحمد ذلك ويحبه من كان له غرض دنيوي وضيع يطمع في إصابته من البروز والظهور بين الأقران في تلك الصناعة الشيطانية والعلو عليهم بأدواتهم. وأما أهل الحق الطاهر الصافي أهل المحجة البيضاء، فلا والله لا يفتنهم ذلك البهرج ولا يعبؤون به ولا يخوضون فيه مع أصحابه طرفة عين، بل هو عندهم موضوع تحت الأقدام، والحمد لله علىٰ نعمة الإسلام والسنة.

انظر إلىٰ صاحبنا «روه» هذا كيف يصدِّر مقاله الأول في تلك المسألة بقوله: «هذه الورقة البحثية تُعنىٰ بثلاث مسائل متداخلة: هل هناك حجة للملحد تتأسس علىٰ مطلق وجود الشر، فتكون بمنزلة تسويغ عقلي مقبول لبقائه علىٰ الإلحاد؟ هذا السؤال الأول أجيبه بالإيجاب، وأحاول أن أعضد دعائم جوابي هذا بتقديم حجة قوية للإلحاد تقوم علىٰ مطلق وجود الشر».[1]

فأي شيء أوضح دلالة علىٰ غرق هؤلاء في الأهواء والتفنن في اختراع الشبهات الواهية لمخادعة النفس بأنها علىٰ شيء، وللتشويش علىٰ ما علموا أنه الحق الواضح الذي لا يماري فيه عاقل؟ الرجل يشهد علىٰ نفسه – بلسانه – بأنه يحاول أن يخترع

(1) Rowe 1979, pp. 335.

حجة جديدة تزين للملحد البقاء علىٰ إلحاده وكأنما خفي علىٰ عقله ما يراه عقلاء العالم من البدهيات الأولىٰ، وكأنما ظهر «القول بوجود خالق ما» يوم ظهر عند عموم البشر، علىٰ أثر ما اخترعه بعض الفلاسفة أمثاله من المزاعم الظنية الاستقرائية الضعيفة أو النظريات العقلية الاستنباطية التي تحتمل النظر وإيراد الإيرادات والاعتراضات والأخذ والرد! بل تراه يزيد ويتفضل علىٰ الخصوم فيذكر أن لهم جوابا قد يكون «جيدا»، ويصنف نفسه في ذلك البحث علىٰ أنه ملحد صديق للمتألهين friendly atheist! وكأنما يقول لخصومه: «أنا خير لكم من غيري، فعلىٰ الأقل أعذركم يا أهل الأديان – بخلاف غيري – لبقائكم علىٰ اعتقادكم في وجود خالقكم، وأرىٰ لديكم في ذلك شبهات فلسفية تستحق أن تطرح للنظر والمجادلة»! قلت: فلتضحك كل ثكلىٰ وليتفكّه بذلك أصحاب الضمائر السوية!

وهكذا طرائق السوفسطائيين من أهل كل ملة باطلة في تزيينه لأنفسهم ولأتباعهم، يكذب أحدهم الكذبة ويصدقها: اعتقد ما يحلو لك، ثم اخترع برهانا نظريا ينصر اعتقادك هذا وزينه وزخرفه ونافح عنه، ثم أوهم خصمك بأن الحق الذي معه (مهما كان بدهيا أو قطعيا متواترا) ليس إلا نظرية تستوي في المنزلة المعرفية – علىٰ أحسن الأحوال – بما جئت أنت به في نفس الأمر، ثم امض ما شئت بعد ذلك من عمرك في المناظرة معهم عليه، مدعيا حرصك علىٰ «اتباع الدليل»، واستعدادك للتحول عن موقفك إلىٰ موقفهم إن ظهر لك ذلك الدليل، ثم نم علىٰ ذلك قرير العين ولا تبال بشيء ما دمت حيا! ومهما هدم عليك الخصوم دعواك فاخترع غيرها، وإن ردوا علىٰ برهانك فبادر باختراع غيره إن أعياك الدفاع عنه، وهكذا، ولا عليك أن تظل علىٰ تلك الخصلة معهم حتىٰ يلتقمك قبرك! المهم أن يبقىٰ الجدال جاريا والنزاع «الفلسفي» مستمرا، وأن يبقىٰ باب التسويغ النفسي rationalization مفتوحا علىٰ أوسعه لكل كافر معاند، يتعلق (إن شاء) بمجرد دعوىٰ أن الأمر فيه خلاف وجدال كبير وأنه لو كان الباب قطعيا محسوما دون الحاجة إلىٰ بذل النظر، ما اختلفت فيه الفلاسفة والمفكرون كما نرىٰ! فسبحان من بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء!

وبعد تقديمه بالاعتراف التلبيسي الماكر بأن ما يسمىٰ بـ«الصيغة المنطقية» لا وزن له ولم يعد من الممكن التعلق به (فلسفيا)، مداعبا بذلك أهواء خصمه المجادل ومشبعا هوىٰ نفسه في زعمها استحقاقه الوصف بأنه «منصف» صادق في مطلبه، يقول «ويليام روه» في حاشية في ورقته البحثية الأكاديمية التي كتبها بعنوان *The Problem of Evil and Some Varieties of Atheism*.

> ... ولكن يبقىٰ ما يمكن تسميته بالصيغة الدليلية – بخلاف الصيغة المنطقية – لمشكلة الشر: وهي وجهة النظر القائلة بأن تنوع وانتشار الشر في عالمنا، وإن كان لا يتناقض منطقيا مع وجود الإله، إلا أنه يقدم سندا عقليا للإلحاد.[1]

قلت: فلا يسع عاقلا يتأمل هذا الكلام إلا أن يتساءل: أي شيء هو «السند العقلي» هذا، وما الفرق بينه وبين «البرهان الفلسفي» عند صاحبنا، إذا كان يزعم أنه يرىٰ أن البرهان الفلسفي أو المنطقي الصريح قد انهار بالكلية؟ المسألة – كما ترىٰ أيها القارئ الكريم – تلاعب خبيث بزخارف الألفاظ وحيل الاصطلاح لا أكثر! زخرفة لفظية يزخرَف بها الإلحاد ويزين للناس حتىٰ يبدو صاحبه وكأنه علىٰ شيء! ولو صدق لقال «سند نفساني» أو «سند تزييني» Rationalization أو نحو ذلك، وليس «سند عقلي»، لأن قضية الشر هذه ليست إلا حيلة الجاحد، المستكبر علىٰ عبودية ربه والخضوع له، ليزين لنفسه البقاء علىٰ ما هو عليه! ما دامت القضية مطروحة للنظر، وما دام الفلاسفة والنظار يفرقون بين البرهان الاستقرائي (نوعا) والبرهان الاستنباطي القياسي، فالباب مفتوح لأكثر من صنف من أصناف البرهان في ذلك، يمكن أن يبدع فيها الفيلسوف كما يحب ويهوىٰ! فكأنما يقول صاحبنا هذا: «إن كان الطريق إلىٰ البرهان القياسي من مسألة الشر قد أغلق أو قوبل بكثير من العراقيل، فما رأيكم في البرهان الاستقرائي الاحتمالي؟ دعونا نفكر في صياغة برهان من هذا النوع، ولنر ما يأتي به أصدقاؤنا اللاهوتيون في الجواب!»

فما حقيقة هذا العقل الذي يتكلم عنه الرجل، الذي يرىٰ به «سندا عقليا» للإلحاد في كثرة صور الشر وتنوعه وانتشاره في العالم؟ إنه عقل يأبىٰ إلا أن يهمل البدهيات

(1) Rowe 1979, pp. 335.

العقلية واللغوية (المنسوبة إلىٰ الفطرة) الصارخة في نفسه بوجود الباري ووجوب الكمال في صفاته، ليظل علىٰ إلحاده يبحث عن «سند عقلي» ينتهي إليه من نقد آحاد الصياغات الشكلية التي وضعها آحاد المشتغلين بعلوم اللاهوت والكلام من أهل الملل للبرهنة علىٰ وجود الخالق، فتراه يفرد التصانيف الفلسفية المستفيضة في التشغيب علىٰ كل واحدة من تلك الصياغات (بحق كان ذلك أو بباطل)، فإذا ما وافقه المخالف علىٰ اعتراضه علىٰ إحدىٰ تلك الصياغات، اعتبر ذلك نصرا للإلحاد وزيادة للقوة «البرهانية» لموقفه، وإذا أثبت الناس بطلان اعتراضه في إحداها، جاءهم باعتراض علىٰ غيرها ليقول في النهاية: «لا يزال في كيسي ما أتعلق بسببه بإلحادي، وانظروا كلامي وغيري في نقد حجة كذا وصيغتها عند فلان وفلان.. الخ، وارجعوا إلىٰ المجلدات والدوريات العلمية الأكاديمية في الفلسفة، لتروا أن الأمر ليس بالهين كما تحسبون، وأن لكل حجة ردا، ولكل جواب جوابا، ولكل دعوىٰ من هاجموها ومن دافعوا عنها!»

ولعل هذه الصياغة بالذات هي أكثر ما يظهر فيه (أي في فكرة الصياغة نفسها ومنطقها الاستدلالي) ذاك الفساد المنهجي الأصيل، الذي يقتات عليه الفلاسفة في تلك القضايا التي نحن بصددها هنا! إذ يحرص الواحد منهم لا علىٰ الوصول إلىٰ الحق ولا حتىٰ علىٰ إظهار السعي في طلبه (ولو فعل، لما مارس الفلسفة أصلا!)، وإنما يتفنن في انتقاد صياغات مخالفيه الرسمية ودعاواهم الفلسفية إما باختراع الشبهات الواهية أو بالنقر علىٰ خلل في لفظ ما أو تركيب لفظي ما أو علىٰ نقص ما هنا أو هناك قد يقع فيه مخالفه في كتابة هذه الصياغة أو تلك (وهو واقع لا محالة لما حررناه من فساد المنهج نفسه، ثم للنقص البشري الملازم لكل ناظر، ولأن ما بطل أصله من الدعاوىٰ، بطل فرعه تبعا)، فيتناول كل واحدة من تلك الصياغات علىٰ حدة حتىٰ تبدو المسألة وكأنها لا قيام لها علىٰ البدهيات الأولىٰ في عقول الناس أصلا، ولكن علىٰ اجتماع تلك الصياغات وموازنتها بما يقابلها من صياغات الخصوم، فيجهد في ذلك وكأنه إن تمكن

من إبطال أكبر عدد ممكن من تلك الصياغات فقد أثبت صحة ما هو عليه من إلحاد! [(١)] وإذن فكلما ازداد مقدار ما رد عليه وأسقطه أو أضعفه من دعاوىٰ خصمه، ازداد رجحان كونه علىٰ الحق في ظنه في مسألة وجود الباري، وهذا باطل ولا شك كما بينا مرارا، وإنما تزينه له نفسه!

لذا كانت غاية المراد عند عامة الفلاسفة أن يتحول موقف عقلاء البشر من كثير من قطعيات العقل الأولىٰ ومن رواسخ الاعتقاد الديني إلىٰ «أطروحات نظرية» من بين نظريات عدة في نفس الأمر، كلها مطروحة للجدل والنزاع والسجال و«موازنة الأدلة»، فلا يكون ثمة فرق في ميزان المعرفة البشرية بينها وبين غيرها من النظريات أو «المدارس» أو «المذاهب» الفلسفية في قوة ما تقوم عليه عند أصحابها من مستند معرفي، بما يكفل لها حق التقدم علىٰ ما يخالفها أو التسلط عليه، أو حق الصيانة (سواء بموجب العرف الاجتماعي أو بالتشريع القانوني) من التعرض للتشكيك والنقد والعبث والجدال! ولهذا كان كل الخلاف عندهم مستساغا، وكل الشك عندهم مقبولا، بصرف النظر هل يوصل من ذلك في النهاية إلىٰ المعرفة الصحيحة أو ما يقاربها أو لا يوصل إلىٰ شيء أصلا! بل لا ضير في أن ينتهي الواحد منهم إلىٰ أنه ليس ثمة «معرفة صحيحة» يرجىٰ للإنسان أن يتوصل إليها ابتداءً (لا سيما في الغيبيات)، ثم يجد من يتلقف كلامه هذا ويتقلده ويدعو إليه أو يناقشه كما يناقش العلماء مواطن الخلاف العلمي المقبول في مطارح النظر وموارد الرأي والاجتهاد! لذلك تراهم يفرحون بتسويد المجلدات والمدونات المطولة في الرد والرد المقابل علىٰ هذه الشاكلة، حتىٰ وإن كانت مادة نزاعهم (وبئس النزاع هذا!) في أمور لا قيام للعقل السوي بإبطالها أصلا.

وما ذلك الفرح الغامر في هؤلاء الفلاسفة - ومن تبعهم من مخانيثهم من بني جلدتنا - إلا لأن مجرد تحول البدهيات والضروريات العقلية عند البشر إلىٰ نظريات

---

(١) مع أنه يعلم أن خصمه لن يكف عن اختراع البراهين الجديدة التي لن يكف هو - في المقابل - عن تكلف الأجوبة عنها، وهكذا دواليك بلا غاية ولا نهاية، فما ثمرة ذلك وما نتيجته معرفيا؟ نتيجته الحكم بأن الحق في هذه المسألة وما يتعلق بها لا يمكن الوصول إلى معرفته أصلا، وهو ما انتهى إليه أكثر الفلاسفة في زماننا بالفعل!

وصياغات فلسفية مطولة، تحتاج كل مقدمة منها إلىٰ مقدمة أخرىٰ سابقة عليها، ينفتح الخلاف فيها في تسلسل لا يرجىٰ له الانتهاء عند حدّ البتة، هذا يحيلهم في العرف الاجتماعي المعاصر من جاحدين مكابرين فجار إلىٰ باحثين محترمين ونظار، وهو المطلوب! ذلك أنه كلما جاءهم من يقول لهم أنت تجادل في الضروريات والقطعيات، قابلوه بقولهم: «من ذا الذي قال إنها قطعيات؟ هي كذلك بالنسبة لك أنت! وأما أنا فلا! ألم ترَ صياغة فلان العالم اللاهوتي كيف فندها فلان الفيلسوف (اللا-لاهوتي) وأثبت ضعفها ونقصها وحاجتها إلىٰ التسليم بمقدمات لا نسلم بها؟ هذه القطعيات عندك ومن وافقك، إنما هي نظريات وظنون عندنا لا أكثر ولا أقل، وأنتم من خفة عقولكم لا ترونها كذلك! فليس ثمة حجة يمكن أن يقيمها أي منكم علينا كما تتوهمون!» وكيف نعجب من موقف كهذا وقد رأينا من فلاسفة هذا الزمان من يفتح معنىٰ كلمة «حق» نفسها للمساءلة، وما إذا كان يمكن أن يطلق علىٰ المعاني والأفكار وصف الحق ووصف الباطل بالأساس، أو يقال إن في بعضها حجة موضوعية Objective وظهورا موضوعيا علىٰ البعض الآخر، أي بما يلزم جميع العقلاء بقبوله؟

إن عامة الفلاسفة - كما سيأتي بيانه في قسم لاحق - ينظرون إلىٰ عامة الناس ممن لا اشتغال لهم بتلك اللعبة البائسة علىٰ أنهم مساكين «عوام» ضعاف العقل لا يدركون أغوار ما يمكن أن يخرج به أهل الصناعات العقلية العميقة من اعتراضات مبتكرة وصياغات شكلية ألمعية وتراكيب منطقية مضادة وحجج وحجج مضادة بالغة التعقيد، إلىٰ آخر تلك الأشياء! مع أن الواحد من هؤلاء - كصاحبنا «ويليام روه» هنا - لو أنصف وتجرد من الهوىٰ، وحاول أن يتوصل إلىٰ وصف كلي جامع يصف عامة ما بذل عمره في تصنيفه من تلك المهاترات والمهارشات السوفسطائية، ليضع ذلك المحصول في موضعه الصحيح من عمليات بناء المعرفة الإنسانية، لما وسعه - والله - إلا أن يتمنىٰ لو أنه عاش عمره كله ومات علىٰ ما يموت عليه أجهل وأغبىٰ عامي من عوام المسلمين، قد تواضع للحق الظاهر وقبله دون عناء ولا تعب، وسلَّم بما يسلم به عامة العقلاء بكل سهولة، من غير كبر ولا بطر للحق! ولشهد علىٰ نفسه بالسفاهة المحضة في مبتدأ أمره ومنتهاه!

وما ذاك إلا لأن أداة النظر العقلي (التي تخصص الفلاسفة في استعمالها) لا يجوز أن تستعمل طلبا لتحصيل المعرفة بما في الغيب من الأساس. وإنما تتحصل المعرفة الغيبية من طريقين لا ثالث لهما: الفطرة والبداهة الأولىٰ (وهي معرفة ضرورية يجدها الإنسان في مركوزة نفسه بلا اكتساب ولا نظر)، والوحي من رب العالمين (وهو خبر الغيب الذي لا يوصل إلىٰ معرفة موضوعه لا بالحس ولا بالنظر العقلي ولا بأي طريق إلا السمع وحده)!

فإذا جاءت رسالة الرسول إلىٰ العقل السوي، أصابت ما فيه من أصول الفطرة في أمر الغيب، ثم أسست عليه وزادت. فلا يعمل نظر العقل في الدين إلا بقدر ما يحتاج إليه المكلف لتأويل بعض النصوص ولتحقيق الانتفاع ببعضها فيما يستنبط منها من أحكام وفوائد، علىٰ ما استقر عليه عمل السلف وطريقتهم ﷺ في ذلك. أما أن يستعمل النظر العقلي (القياس الاستنباطي أو الاستقرائي) في اكتساب (أو بالأحرىٰ: إحداث وابتداع) المعرفة بشيء من أمر الغيب استقلالا فهذا محض الضلال! وثمرته لا تخرج عن إحدىٰ خصلتين: إما أن يكون صاحبه متأليا علىٰ ربه قائلا عليه بغير علم (سواء في صفته سبحانه أو فيما غيّبه علينا من خلقه تغييبا مطلقا) يتبع هواه بالقياس الفاسد علىٰ المحسوس والمشاهد (إذ ليس للعقل طريق في النظر إلا القياس بأنواعه)، أو أن يكون كلامه مما يحيل البدهيات ومسلمات الفطرة إلىٰ مثارات للرأي والنظر والأخذ والرد، يضرب بعض تلك البدهيات ببعض قياسا بدعوىٰ نصب البرهان «العقلي» عليها، وكأن النفس خلت منها ابتداءً فاحتاجت إلىٰ اكتسابها بالاستدلال! وها نحن نرىٰ كيف أن ذاك النظر لا يأتي إلا بالتشويش علىٰ مسلمات الفطرة وتشكيك العقلاء فيها لا محالة، واختراع العقائد الفاسدة في مكانها، سواء استعمله الفيلسوف لنصرة إلحاده، أو استعمله المتكلم لنصرة عقيدته في الغيب (مهما كانت تلك العقيدة نفسها موافقة لمسلمات الفطرة)! فحسبك به فتنة ومفسدة للعقل والدين من كل وجه!

قال السفساط البريطاني الكبير «برتراند راسل» في كتابه *The Problems of Philosophy*:

> إن قيمة الفلسفة، في الحقيقة، تتجلىٰ في خصيصة الشك uncertainty التي تتحلىٰ بها. فإن الإنسان الذي ليس له تعامل مع الفلسفة، يقضي حياته مسجونا في أحكام مسبقة مستمدة من الحدس المجرد، أو من الاعتقادات التقليدية السائدة في زمانه أو في أمته، أو من طريق قناعات نشأت في ذهنه من دون تدخل أو رضىٰ من جانب عمليته المنطقية الفردية. فبالنسبة لرجل كهذا، يميل العالم إلىٰ أن يكون حتميا، محددا، واضحا، فلا تبعث الأمور المعتادة في نفسه أي أسئلة، وتكون الاحتمالات غير المعتادة مرفوضة لديه بكل ازدراء. ولكن علىٰ النقيض من ذلك، فما أن نبدأ في التفلسف حتىٰ نجد، كما رأينا في الفصول السابقة، أنه حتىٰ أكثر أمور الحياة اليومية اعتيادا، تقود إلىٰ إشكالات لا يمكن الوصول في جوابها إلا إلىٰ أجوبة ناقصة للغاية.[1]

ونقول إن كلام «راسل» لا يخفىٰ ما فيه من إفراط وإجمال فاحش وتزيين للباطل، كان وقوعه عند عامة الفلاسفة هو عين السبب في انتهاء القوم إلىٰ تعريف صنعتهم علىٰ نحو ما يراها الرجل، وإلىٰ اعتقاد كثير من الماديين بالتبعية أنها صنعة ماضية إلىٰ الانقراض لا محالة، كلما ازداد محصول المعرفة البشرية «الحاسمة» (أو المعرفة التجريبية Empirical Science بعبارة أخرىٰ!). إن ثمة سبب وجيه لتحول لفظة «التفلسف» هذه في كلام عامة العقلاء مما خلا الفلاسفة إلىٰ معنىٰ مذموم مستهجن، يتبدىٰ بجلاء لمن تأمل هذا الكلام! يقال للرجل «لا تتفلسف»، أي لا تسفسط ولا تماري بادعاء بطلان ما علمت صحته بداهة، والتزم بما عليك التزامه من المسؤولية الأخلاقية إن كنت من العقلاء!

فعندما تكون ممارسة النظر العقلي صنعة غايتها طرح الأسئلة للتشكيك في كل شيء، فإنها تنقلب في الحقيقة إلىٰ تلك الحيلة النفسية الخبيثة التي يتستر بها أهل الأهواء من كل صنف ولون، كما بينا وفصلنا في هذا الكتاب، وليس إلىٰ وسيلة مستحسنة عقلا

---

(1) Russell 1912/2010, pp. 154-155.

للنظر في أدلة المسائل النظرية المحتاجة إلىٰ بحث ونظر! أما تحرر العامي من التقليد المذموم، فلا يكون بـ«التفلسف» والانقلاب إلىٰ الشك في بدهيات العقل وقطعيات المعرفة، وإنما يكون بالتعلم وتلمس الأدلة فيما تخفىٰ أدلته أو يتصور خفاؤها، يطلبها من مظانها ويصبر علىٰ ذلك! فمن تعلم ما يلزم تعلمه في أي دائرة من دوائر المعرفة للتأهل للبحث النظري في مسألة ما، ثم لم يجد فيما انتهت إليه يداه من الأدلة ما ينصر القول السائد بين الناس فيها، جاز له حينئذ أن يشذ عن ذلك القول وأن يتحرك في دعوة الناس إلىٰ قبول الصواب الذي انتهىٰ إليه وإلىٰ ترك الباطل الذي هم عليه، وكان ذلك إذن مما يحمد عليه قطعا لا مما يذم. أما أن يعمل الرجل نظره رجاء الانتهاء إلىٰ ما حقه أن يبدأ منه العقلاء ويؤسسوا عليه، فهذا محض السفه ولا شك!

فلو أننا أردنا من إطلاقنا كلمة «فلسفة» ما يجري من العمليات العقلية والمنطقية علىٰ أيدي أهل الاختصاص العلمي في إطار قواعد العلم الكلية التي اتفق عليها أهل كل صنعة معرفية بحسبها، بما يدخل في ذلك من تشكيك محمود ومن مساءلة راشدة بصيرة تنبثق منها المطالب البحثية المشروعة في مثارات النظر (أي في نوع المسائل النظرية التي تحتمل الخفاء علميا)، سواء كانت تلك الصنعة المعرفية في علوم النص التشريعي (بما فيها من خبر غيبي وتكليف عملي)، أو في مجالات العلم التجريبي المشاهد أو غير ذلك، فإن هذا يكون ضربا من ضروب النظر العقلي المحمود بل هو مطلوب ولا شك، ولا تخلو منه صناعات المعرفة البشرية أصلا، يجري في كل منها علىٰ ما يرجىٰ معه الوصول إلىٰ الحق (أو الاقتراب منه، فإما التسديد وإما المقاربة).

ولكن ليس هذا هو المفهوم المعتبر السائد أكاديميا وثقافيا وعرفيا لما يسمىٰ بصنعة «الفلسفة» التخصصية، هكذا إفرادا للفظة دون إضافة، وليس هو ما يتكلم عنه «راسل» في النقل السالف كما ترىٰ! هذه السوفسطائية التي يحمدها «راسل» في كلامه هي صنعة الفلسفة التي ذمها أئمتنا رحمهم الله تعالىٰ وذموا أهلها والمشتغلين بها أشد الذمّ، وذموا المتكلمين لاشتغالهم بالرد علىٰ أصحابها والخوض معهم في بضاعتهم جريا علىٰ شروطهم في مراتب النظر ومصادر التلقي المعرفي! وقد ازدادت

تلك الصنعة إغراقا في أسباب تلك المذمة واستحقاقا لها أضعافا مضاعفة بعد التنوير الأوروبي، حتىٰ وصلت إلىٰ حمأة «اللا-لاهوتية» التخصصية التي عرضنا عليك بعض نماذجها، في سياق كشفنا لما يعتمل في نفوس أصحابها المتسترين خلف «العقل» Reason والعقلانية Rationality من دوافع وغايات. إنها تلك الصنعة الخبيثة التي يقول أصحابها لكل عامي: تعال إلينا أيها العامي نعلمك كيف تعمل عقلك وكيف تشكك في كل شيء، فتكون مثلنا متخصصا في ذلك «التشكيك المطلق»، خبيرا في تحويل كل مسألة من مسائل المعرفة البشرية إلىٰ ساحة جدال ومراء وتسلسل في النظر لا حدّ له ولا نهاية! فلا مرحبا بطريقة هؤلاء ولا بصنعتهم الخبيثة!

هذه قلوب قد توطنت عند أصحابها وانعقدت انعقادا تاما علىٰ هوىٰ الإلحاد، ثم راحت تتخذ من ذاك الجدال والسجال المستمر - في ذاته - تبريرا وتسويغا سيكولوجيا وغطاء فكريا سميكا لفساد نحلتهم الذي لا يخفىٰ عليهم. لذا فمهما كتب أهل الملل من «حجج»، فسترىٰ هؤلاء يكتبون الاعتراضات والردود المطولة، ولا بأس بأن يخترعوا من آن لآخر «حجة» جديدة كتلك السخافة الأخرىٰ التي نحن بصددها ها هنا، لينظر الواحد منهم بم يأتي المخالفون! فتنعقد المباراة والمبارزة السوفسطائية وتطول جولاتها، وهم في ذلك كله مرفوعون علىٰ أكتاف «نخبة» السفهاء علىٰ أنهم «فلاسفة» كبار ورجال عقولهم كأوزان الجبال، ثم بعد صراع طويل في أمر لا يخفىٰ عليهم قبل خصومهم فساده، ربما لا يجد مخترع تلك الحجة بأسا بأن يتركها أخيرا ويتحول إلىٰ أن يقول إن من معايبها ونقائصها كذا وكذا، فترىٰ القوم يمتدحونه حينئذ علىٰ صدقه و«موضوعيته» العلمية وشجاعته الأدبية، والله المستعان!

تراه يجادل حول حجته الجديدة المزعومة ويخوض في كل سجال مع كل مخالف ثم لا يرىٰ بأسا بأن يخرج منه بمثل ما قال بمعناه «رُوه» (صاحب تلك الصياغة الجديدة هنا): «لا بأس إن سقطت هذه الحجة أو تلك أو هذا الاعتراض أو ذاك، فلدينا فيما سواه من السند العقلي للإلحاد ما يكفي»!

هذا الرجل «روه» ما كتب بحثه المذكور إلا ليتفنن في وصف مراتب ودرجات من الإلحاد يمكن للملحد أن يتخير منها لنفسه ما يحلو له بما لا يظهر فيه تعارض مع موقفه الجديد من سقوط تلك «الحجة المنطقية» المزعومة من «مشكلة الشر»، حتىٰ يبقىٰ علىٰ إلحاده أبد الدهر لا يزول عنه قيد أنملة مهما جاءه اللاهوتيون ببراهينهم. يفصل لأصحابه من المذاهب ما يسعهم أن يتقلبوا فيه، في ضوء انهيار برهان صاحبهم «ماكي»، مع بقائهم علىٰ الجحد المحض لما جاءت به رسل ربهم، ما امتدت بهم أعمارهم! فإن رأىٰ أحدهم شيئا من القوة في أجوبة خصومه فلا بأس بأن «يكيّف» مذهبه الإلحادي مع الوضع الجديد (أي بالنظر إلىٰ الموقف الأكاديمي العام من ذلك الجواب)، فينتقل من كونه ملحدا جلدا عتيدا Militant مثلا، إلىٰ أن يكون «لا-أدريا» أو ملحدا «لينا» Friendly، هو أقرب إلىٰ التشكيك في كلام المتألهين منه إلىٰ الجزم بصحة الإلحاد! المهم أن يبقىٰ في تلك الدائرة التي أحبتها نفسه الخبيثة واشتهت المكث فيها ما بقي حيا، كلما حوصر في زاوية، قفز إلىٰ غيرها، لا يريد إلا اللعب والتفنن في جواب ما يأتي به خصومه من دعاوىٰ وردود نظرية، ولا بأس ما داموا جميعا ملتزمين معه بشروط اللعبة نفسها (ألا وهي الاستغراق في التنطع بالتنظير والجدال حول قضايا بدهية لا تحتاج إلىٰ دليل نظري أصلا)، وما دام يجد في وصفه نفسه - وفي وصفهم إياه - بـ«الفيلسوف» تسويغا كافيا للبقاء علىٰ تلك الحال النكدة! إنه ستار من المخادعة النفسية سميك غليظ، وقوده الكبر العظيم في نفوس أصحابه، لا يبصره إلا من أنار الله بصيرته.

قال «روه» في مختتم ورقته البحثية المذكورة:

> في هذه الورقة، قدمت ما أراه حجة قوية للإلحاد، وأشرت إلىٰ ما أراه أفضل رد للمخالفين علىٰ تلك الحجة، وفرقت بين ثلاثة مواقف مختلفة يمكن للملحد أن يتخذها تجاه عقلانية الإيمان بوجود الخالق، وكانت لي بعض الملاحظات للدفاع عن الموقف الذي يمكن تسميته بالإلحاد الليّن friendly atheism. وأنا علىٰ دراية بأن النقاط المركزية لهذه الورقة لن يتلقاها كثير من الفلاسفة بالقبول علىٰ الأرجح.

> فإن الفلاسفة الملحدين يميلون إلىٰ أن يكونوا حداد الرأي – أو مؤمنين بأنه ليس ثمة أسباب جيدة لافتراض أن الإيمان بالخالق حق. وأما المؤمنون به فيميلون إما لرفض فكرة أن وجود الشر يقدم أساسا عقلانيا جيدا للإلحاد، أو يميلون إلىٰ اعتقاد أن الاعتقاد الديني ليس له علاقة بالعقل ولا بالدليل أصلا. ولكن هكذا سبيل الفلسفة علىٰ أي حال.[1]

ونقول من كانت غايته التفنن في طرح الأسئلة واختراع الألقاب الفلسفية الأنيقة والمدارس الفكرية ذات الأسماء الجذابة للتسمي بها بين الناس، مهما كانت نحلته باطلة وتقوم علىٰ أساس واه، فهنيئا له بضلاله، وليهلك إذن في أي واد يشاء، لا يلومن إلا نفسه! ولكن كما قال الرجل (وصدق): «هكذا سبيل الفلاسفة علىٰ أي حال»، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وتأمل كيف يحاول أن يبدو في موقف الباحث الحر المتجرد من التعصب، المستاء من «تشدد» كلا الفريقين – زعم – في التعامل مع محل النزاع بينهما، فهو – علىٰ خلاف أكثر فلاسفة الإلحاد فيما يزعم – «متفتح الذهن» ولديه استعداد لقبول فكرة وجود الإله إن مرت به «براهين قوية» لإثباته في يوم من الأيام! فالآن عندما يقرأ اللاهوتي المتفلسف (والمتكلم كذلك) هذا الكلام، سيستشعر أن من واجبه الأخلاقي أن يحترم موقفا كهذا من خصمه اللدود وأن يثني عليه علنا، وسيجد نفسه مدفوعا لاختراع المزيد والمزيد من البراهين الكلامية من كل شكل ولون (في الماورائيات تارة، وفي الطبيعيات تارة أخرىٰ)، لعله ينجح يوما ما في «إقناع» أمثال صاحبنا «المتجرد» هذا بأنه مخلوق، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ذكرنا فيما تقدم أن صياغة «ويليام روه» لما يسمىٰ بمشكلة الشر تحت ما سماه بالصيغة «الدليلية»، يظهر في فكرتها فساد المنهج الاستدلالي نفسه الذي اعتمده الفلاسفة في التعامل مع مسلمات الفطرة في قضايا الغيب، فدعونا ننظر في بيان ذلك، ولنَرَ من آيات الله في نفوس الجاحدين ما لا ينقضي منه العجب.

(1) Rowe 1978, pp. 341.

يبدأ «روه» في بحثه المذكور تأسيس «حجته» المزعومة بقوله إنه من المفيد (يعني لنيل مأربه الخبيث!) عند الكلام علىٰ مشكلة الشر أن نركز علىٰ «شر» واحد بعينه يكثر وقوعه جدا في العالم من حولنا. فيتناول الألم أو المعاناة الشديدة التي يعاني منها البشر وكذلك الحيوانات بمختلف صنوفها، فيقرر أنه «شر» حتىٰ وإن كان لوقوعه تسويغ أخلاقي مقبول «في بعض الأحيان» (علىٰ حد عبارته)! وعليه يقرر الرجل صياغته الأولىٰ لحجته المزعومة تأسيسا علىٰ المقدمتين التحليليتين التاليتين:

- يوجد في العالم حالات من المعاناة الشديدة التي يقدر الكائن تام القدرة كامل العلم علىٰ منعها دون تفويت الخير الأعظم، أو السماح بشر مساو أو أسوأ.

- الكائن كامل العلم، كامل الحكمة، سيمنع وقوع أي حالة من حالات المعاناة الشديدة ما وسعه ذلك، ما كان ممكنا أن يفعل ذلك دون تفويت الخير الأعظم أو السماح بوقوع شر مساو أو أسوأ.

فيخلص من ذلك إلىٰ النتيجة:

- ليس يوجد كائن تام القدرة كامل العلم كامل الخيرية![1]

ونقول إنه من الواضح أن كلتا المقدمتين (١ و٢) في غاية الفساد. فالرجل يعلم - قطعا - أنه جاهل بوجوه وحقيقة ذلك «الخير الأعظم» الذي يشهد العقلاء بقصد الباري إليه من خلقه العالم علىٰ ما فيه من تعدد صور ذلك «الشر» الذي لا نختلف معه في كراهيته واستشناعه. ومع أنه يعلم تمام العلم أنه لا يملك أن يحكم علىٰ مخلوق مثله بالظلم أو بسوء العمل من مجرد أن رأىٰ منه فعلا يكرهه (مهما اشتدت كراهيته لذلك الفعل منه)، حتىٰ يكون ملما بما تلزم معرفته بشأن ذلك المخلوق قبل إطلاق الحكم عليه، ومع أنه كذلك يعلم أنه لا يسعه الحكم بأن ذلك المخلوق إن كان موصوفا بالحكمة أو «الخيرية الأخلاقية» فسيكون من حكمته حريصا ولا بد علىٰ منع «س» (ما أمكن) والزيادة من «ص» ما وسعه، أو حتىٰ أنه سيكون حريصا ولا بد علىٰ خدمة الغاية «غ» علىٰ اعتبارها هي «الخير الأعظم» في حقه، ما لم يكن مستندا في ذلك الحكم

(1) Rowe 1978, pp. 336.

الكلي إلىٰ معرفة صحيحة موضوعية لتقييم الخير والشر نفسه والموازنة بينهما!

ومع أنه لا يملك شيئا من ذلك العلم التفصيلي في باب الحكمة والتعليل، وهو يعلم أنه لا يعلم، ها أنت تراه لا يرىٰ بأسا في أن يجترئ علىٰ باريه بذلك الحكم الشيطاني الفاحش متجاوزا تلك المعرفة التي يعلم أنه يفقدها، وقد علم - كذلك - أن العقل يوجب علينا تنزيه الباري عن مطلق النقص (ومنه العجز والظلم)، والشهادة بقصور علمنا عن علمه وحكمتنا عن حكمته، سبحانه وتعالىٰ علوا كبيرا. فالرجل كأنه يقول لخالقه: «لقد جعلت أيها الرب في مخلوقاتك شرا أكثر من اللزوم أو أكثر مما ينبغي، وإذن فأغلب الظن أنك أسطورة لا حقيقة لها»! فمن أين لهذا المجرم عدو نفسه المعرفة بحدّ ما يلزم وما ينبغي في ذلك، وما هو دون الحدّ وما يجاوز الحدّ؟ وأي جحود واستكبار يمكن لعاقل أن يتصوره فوق ذلك؟ والله لو أن اللاهوتيين والمتكلمين الذين جادلوه وناظروه بقيت في نفوسهم بقية من فطرة سوية لثاروا - بكل شعورهم - في وجه ذاك المجرم انتصارا لعزة باريهم ولكرامة عقولهم نفسها، ولقابلوه بالسباب والتقريع! ولكن هكذا الأهواء تغشي الأبصار وتقسي القلوب!

يضرب «روه» (١٩٧٨) مثالا في بحثه ليوضح الفكرة التي يريدها من هاتين المقدمتين، فيتكلم عن حريق نشب في إحدىٰ الغابات واستمر لعدة أيام، وفيما بين الأشجار غزال صغير قد احتبس فلم يملك الخروج، وقد ظلت النيران تعذبه لعدة أيام حتىٰ مات متأثرا بذلك. فبعد تصوير تلك الصورة المؤلمة (التي ندري أنها تبث عاطفة الأسف والحزن البالغ في نفس كل سامع وقارئ سوي لا محالة!)، ينتقل الرجل بنا - هكذا بكل جرأة - إلىٰ تقرير دعواه أن ألما شديدا وعذابا كبيرا كهذا، لا يُتصور - وتأمل - أن يوجد خير أعظم لا يوصل إليه إلا بالسماح بوقوعه في العالم (وهي مقدمته الأولىٰ)! فمن أنت يا حشرة ومن تحسب نفسك، حتىٰ تقيس علمك علىٰ علم باريك، وحكمتك علىٰ حكمة صانعك، تزعم أن جهلك أنت وقصورك المعرفي دليل علىٰ نقصه هو في العدل أو في الحكمة أو في القدرة أو في غير ذلك من صفاته، سبحانه وتعالىٰ عما تصفون؟ ﴿**مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [**الحج**: ٧٤].

ليست هذه إلا حيلة خبيثة لمداعبة عواطف أهل الأهواء من أقرانه كما ترىٰ، حتىٰ تميل قلوبهم «المشفقة» علىٰ ذلك المخلوق المسكين لقبول تلك الدعوىٰ الشيطانية الساقطة، فتضيفها إلىٰ جملة الحيل والخدع والألاعيب النفسية التي ينام عليها الملحد كل ليلة وقد انشرح صدره لما هو عليه! وإلا فبأي علم استجاز الرجل لنفسه نصب الموازين الأخلاقية لأفعال ربه، ليقرر أن ذلك الخير الأعظم المقصود - الذي يشهد علىٰ نفسه بأنه يجهله - لا يسوغ للرب جل وعلا أن يظهر في مفعولاته ذلك الألم والعذاب الشديد لبعض المخلوقات؟ من الذي قال إن شدة كراهة الشيء في أعيننا نحن المخلوقين (علىٰ جهلنا وقصورنا الملازم لنا بموجب مخلوقيتنا نفسها)، دليل علىٰ كونه شرا راجحا البتة، أي لا يمكن أن يحصل منه خير بأي وجه من الوجوه؟ من ذا الذي له أن يزعم أنك أيها الملحد الجاحد لو اشتعلت النار فيك أنت نفسك الآن ومتّ محترقا في بيتك حيث تجلس، فلا خير يمكن أن يقصد إليه خالقك وباريك سبحانه من إهلاكك علىٰ هذا النحو؟ بل حسبنا والله من الخير في ذلك إن وقع، أن طهُرت الأرض منك ومن شرك وفسادك، وشفىٰ الله بذلك صدور قوم مؤمنين، فيرونه خيرا عظيما وإن كان ذلك في عينيك أنت ومن يحبونك شرا عظيما بالغ الشناعة! بل وكفىٰ بها حكمة ربانية من إحراق الغزلان في الغابات علىٰ نحو ما ذكرت، أن يأتي أمثالك ليتخذوا من تلك الوقائع سلما للعدوان علىٰ باريهم بهذه الصورة الفاحشة، فيزدادوا بذلك لعنة فوق لعنتهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، والحمد لله رب العالمين!

والقصد أنه لا عبرة بكره المخلوق لما يكره ولا بمحبته لما يحب في موازين الخير والشر عند الملك الحكيم سبحانه، عالم الغيب والشهادة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. هذه حقيقة بدهية لا يماري فيها إلا خرَّاص جاحد مستكبر!

ولمزيد من تضخيم دعواه في أعين العاطفيين من أتباعه وإحداث أبلغ تأثير في نفوسهم، يطرح «روه» تساؤلا آخر في بحثه ذاك مفاده أنه إذا كان الأمر كذلك في غزالة واحدة تموت محترقة، فما بالنا بمئات بل آلاف بل ملايين الحيوانات تموت ميتة كهذه أو أبشع منها في كل مكان في العالم ولا يدري بأمرها أي واحد منا؟ يا للشناعة

والقسوة! ولعله يتلمس إلىٰ مشاعر النسوة من قرائه (علىٰ وجه الخصوص) سبيلا إذ ينقل الأمر من صورة الغزالة إلىٰ صورة طفل رضيع يموت محترقا! فكأنما قصد إلىٰ مداعبة غريزة الأمومة في نفوسهن Appeal to Motherhood لمضاعفة ما تستدعيه تلك الصورة في نفوس الناس من كراهة. فإذا ما تحقق ذلك المطلب في نفوس أهل الأهواء من أقرانه ومن المفتونين به وبأمثاله، ازداد ثقل تلك الدعوىٰ الساقطة في محل «المقام» من معادلة «فستينغر» عند الواحد منهم زيادة كبيرة (راجع الباب الأول)، بما يرجىٰ معه التخفيف من مقدار ما تعانيه نفوسهم في العقل الباطن من أثر التناقض العظيم في عقائدهم الإلحادية Cognitive Dissonance، وهو غاية المطلوب عندهم جميعا، فتأمل.

وعلىٰ هذا الاعتراض التافه تصبح عاطفة الأسىٰ والألم الشديد لدىٰ الإنسان تجاه أي فعل يقع من أي فاعل أيا من كان، دليلا - في نفسها - علىٰ بطلان حق ذلك الفاعل (أخلاقيا) في أن يفعله (أو وجوبه عليه تكليفيا)، أيا من كان ذلك الفاعل، وبصرف النظر عن غايته وقصده! ويصبح استشناع ما يراه الواحد منا من كثرة تكرار آحاد الفعل المكروه الواحد عند فاعل ما، دليلا علىٰ ظلم ذلك الفاعل ونقصه، أيا ما كان ذلك الفعل وأيا ما كانت الغاية منه عند ذلك الفاعل! [(١)]

فوالله لسفاهة الأطفال عندما يتذمرون من إبرة الطبيب، أحرىٰ بوصف العقل من تذمر هؤلاء وتململهم! فإن الطفل المتألم الذي فيه شيء من التمييز لا يتذمر ولا يفر من الإبرة علىٰ علم ودراية بضرورتها له واحتياجه إليها، بخلاف أهل الجحود والإلحاد الذين

(١) فلو سلمنا لهم بطريقتهم هذه في الاعتراض على ما يكرهون من مفعولات خالقهم في هذا العالم، لجاز لنا الاعتراض على كل صنف من أعمال الناس لا يرتضيه غيرهم من الناس لمجرد أن فيه ما يكرهه المعترض ويستشنعه بجهله، بحق كان ذلك الكره أو بغير حق! كيف تقطع شجرة لتبني بخشبها بيتا؟ يا للقسوة! كيف تضرب بالفأس في التربة المسكينة لتنبت لك ثمرا تأكله، ولا تدري كم دودة قتلتها وكم نملة دهستها بتلك الضربة؟ يا للوحشية! كيف تذبح بقرة لتأكل لحمها وتلبس جلدها؟ أين الرفق بالحيوان؟ (وقد رأينا من أهل الملل الباطلة من يدعو إلى «النباتية» Vegetarianism ويحرم أكل اللحوم كراهية لحال الدواب عند ذبحها، ورأينا حملات دعائية لجمعيات الرفق بالحيوان تخرج فيها نساء عاريات لتشجيع النسوة على الاستغناء عن لبس الفرو!) كيف تدمر الصخر في الجبال لتشق فيها نفقا؟ أليس هذا إفسادا للطبيعة وتشويها لها؟ ما هذا الظلم الشنيع وما هذا الشر الفظيع؟ فالحمد لله على نعمة الإسلام والعقل.

يعلمون تمام العلم علىٰ من يعترضون، وضد من يرفعون عقيرتهم بالتذمر والاعتراض بل بالتجريم والسباب ونفي التعليل وتعطيل صفة الحكمة بل ونفي الوجود بالكلية، نسأل الله السلامة!

إن من المضحكات المبكيات حقا، أن ترىٰ «ويليام روه» هذا يشهد علىٰ نفسه بالفقر المعرفي فيما يتعلق بمعرفة السبب أو المسوغ من وراء تعريض الغزال المسكين إلىٰ ذلك العذاب قبل إماتته، فيقول:

> علىٰ حد ما يمكننا أن نراه، فإن ذلك العذاب الشديد لذاك الغزال لا غاية منه. فإنه لا يظهر لنا أن ثمة خيرا أعظم يتحقق فيه شرط أن يكون تخلف حادث موت ذلك الغزال علىٰ تلك الهيئة مفضيا إلىٰ فواته، أو إلىٰ وقوع شر مساو لذلك العذاب نفسه أو أعظم منه. فهل كان بوسع كائن تام العلم والقدرة أن يمنع ذلك العذاب عديم الغاية من أن يقع؟ الجواب واضح، بما لا يماري فيه حتىٰ المؤمنون بالإله.[1]

فيقال له: وعلىٰ حد ما يمكننا نحن أن نراه بما لا تماري فيه أنت نفسك، أنت جاهل مغرور لا ترىٰ شيئا، ولا تتصور أن ينزل مثلك من مقامه الرفيع ليشهد علىٰ نفسه بمقتضيات ذلك الجهل، وبأنه كان من أشد الناس ظلما لنفسه ولمن تابعوه، إذ يتهم خالقه في حكمته وعدله تأسيسا علىٰ جهالة محضة عنده هو يعترف بها علىٰ نفسه ولا ينكرها! فهل يرجىٰ لمثل هذا أن يعفر وجهه يوما في التراب توبة وندما بين يدي خالقه، إذ علم وأقر بأنه لا يعيب الباري جهل مخلوقه بل جهل سائر خلقه بغايته وحكمته من خلق شيء كهذا مهما كان المخلوق يكرهه ويستفظعه؟ أبدا والله، ما نرجو توبة رجل كهذا في يوم من الأيام ولا نتصور لها وقوعا، إلا أن يشاء ربك أمرا تنخرق به العادة في هؤلاء.

ولأن الرجل يدري أنه لا يمكنه الوصول إلىٰ الزعم بأن مقدمته الأولىٰ صحيحة، تفتق ذهنه عن فكرة جديدة لإقناع أقرانه من الملاحدة بإمكان قبولها علىٰ الرغم من ذلك، حرصا علىٰ أن تبقىٰ الحجة من مشكلة الشر (أو ما بات يوصف بأنه أقوىٰ الحجج

(1) Rowe 1978, pp. 337.

الفلسفية للإلحاد) طافية علىٰ وجه الماء بصورة ما أو بأخرىٰ، ويبقىٰ للمتمسكين بها «عذر»عند عموم الفلاسفة ومن تبعهم من المفكرين والكتاب والمتثقفة وكل من سفه نفسه! هذه الفكرة هي غايته من كتابة تلك الورقة البحثية بالأساس. قال الرجل عقب هذا التقرير المبني بكليته علىٰ الجهالة المحضة والعدوان الفاحش علىٰ ربه كما أسلفنا:

> يجب أن يكون من الواضح الآن أن حالة العذاب الذي يظهر أنه عديم المعنىٰ، الذي تعرض له الغزال في المثال السابق، لا تثبت أن المقدمة (١) حق. لأننا حتىٰ مع كوننا نعجز عن معرفة كيف يمكن أن يكون عذاب ذاك الغزال ضروريا لتحقق خير أعظم، فإننا لا يمكننا الزعم بأنه ليس كذلك في الحقيقة. فإننا علىٰ أي حال كثيرا ما نتفاجأ بأمور ما كنا نحسب أنها مرتبطة ببعضها البعض، يتبين لنا أنها تربطها في الحقيقة روابط حميمية (أي من جهة السببية). فلربما كان ثمة خير مألوف لنا، ترجح كفته علىٰ كفة عذاب الغزال، مع كون ذلك العذاب مرتبطا به بصورة لا يمكننا أن نراها. بل أكثر من ذلك، قد يكون ثمة خير لا نألفه، بل لم نكن نحلم به أصلا، يرتبط ارتباطا (شرطيا) لا يمكن فكه بعذاب هذا الغزال. فمن الواضح أن الأمر يتطلب منا أن نتحلىٰ بالمعرفة الكاملة omniscience أو ما يشبهها قبل أن نتمكن من ادعاء أننا نعلم أنه ليس ثمة خير أعظم مرتبط بعذاب ذلك الغزال بعينه علىٰ هذا النحو بعينه، خير لا يمكن للكائن تام القدرة والعلم أن يحققه مع منع ذلك العذاب من الوقوع، أو مع منع عذاب مماثل أو أشد منه. وعليه فإن حالة عذاب الغزال يقينا لا تمكننا من إثبات صحة المقدمة (١).[١]

قلت: عند هذا الحد، المتصور منه (لو كان صادقا سوي النفس والعقل) أن ينقطع وينكفئ علىٰ نفسه وأن يشهد بلازم ذلك الجهل عنده، وأن يتقي الله في نفسه ويرجع عن اتهام باريه بالنقص، سبحانه وتعالىٰ وتقدس اسمه! ولكن هيهات! فإن صاحبنا لم يكتب هذه الورقة لهذه الغاية أصلا، لم يكتب بحثه هذا للوصول إلىٰ الحق في لب المسألة وغايتها وما كان لمثله أن يفعل، ولو كان صادقا في طلب الهداية ما تكلف كتابته ونشره أصلا، وإنما كتبه ليعرض ابتكاره الجديد وإضافته الألمعية لرصيد فريق الملحدين في المسألة، وليضيف المزيد إلىٰ جملة إنجازاته الفلسفية!

(1) Rowe 1978, pp. 337

لذا تراه يواصل قائلا:

> الحقيقة أننا لسنا في موضع يمَكننا من إثبات صحة (١). فإننا لا يمكننا أن نعرف علىٰ سبيل اليقين أن حالات العذاب من هذا النوع الذي وصفناه في (١) تقع تحقيقا في عالمنا. ولكن العلم بصحة (١) أو إثبات صحتها شيء، وادعاء أن لنا مسوغات عقلية rational grounds في اعتقاد صحة (١) شيء آخر. فإننا غالبا ما يكون موقفنا بحيث أنه في ضوء خبرتنا البشرية ومعرفتنا، يكون من المعقول بالنسبة لنا أن نؤمن بأن عبارة ما صحيحة، حتىٰ وإن لم نكن في موقف يمكننا من إثباتها فعليا، أو من معرفة صحتها علىٰ وجه القطع.

قلت: الآن تظهر فكرة «روه» الجديدة وسفسطته البينة لتمرير ملل الإلحاد بمختلف ألوانها وتسويغها حتىٰ من بعد ما شهد هو نفسه علىٰ بنيان حجة الشر المزعومة في ميزان البرهان والتدليل المنطقي بالانهيار! إنها، كما أشرنا من قبل، عين الدعوىٰ الساقطة التي يتعلق بها عامة الملاحدة لا لشيء إلا لإشباع هوىٰ النفس في دفع الاضطراب المعرفي عن قلوبهم المعلولة، من طريق تعظيم «المشكلة» المزعومة بمجرد تعديد وجوهها عند من يقولون بها وتنويع صورها، وتكثير محاولات الخصوم من اللاهوتيين وغيرهم في التصدي لها، وتضخيم دائرة الجدل الدائر عليها بين الفلاسفة إلىٰ أقصىٰ حدّ ممكن.

فكأن لسان حال الرجل يقول: لا بأس بألا نجد «أساسا منطقيا» للاعتراض علىٰ وجود الباري وكمال صفاته من مجرد كثرة وشناعة صور الشر في العالم (علىٰ مصطلح الفلاسفة في «البرهان المنطقي» Logical Proof)، ولكن هذا لا يعني أنه ليس بوسع الملحد أن يجد شيئا من «الراحة النفسية» في مجرد وجود الإشكال نفسه وطرحه بين الفلاسفة علىٰ هذا النحو! وإذن فلا بأس بأن نجعل المشكلة مشكلة «احتمالية» محضة، فنقول: «ما هي احتمالية أن يكون المخالف علىٰ حق في اعتقاد وجود الرب وكمال صفاته، مع كون الواقع علىٰ نحو ما نرىٰ؟»، ثم لا يكون الجواب علىٰ أي أساس علمي معتبر في تطبيق نظرية الاحتمالات نفسها (ولا يصح ولا يمكن أن تطبق في سؤال كهذا أصلا!)، وإنما علىٰ أساس من التجربة الفردية والمزاج النفسي عند كل ملحد!

ولكل ملحد إذن مطلق الحرية في أن يقدر ما في نفسه من كراهة واستبشاع لما

تعرض له في حياته هو من شرور وبلايا، وما يراه من حوله من الكوارث والنوازل الكريهة ونحو ذلك، ليقرر ما إذا كان يرىٰ في مجموع ذلك ما يكفي لأن يكون هو ذلك «المسوغ العقلي» Rational Grounds الذي يتكلم عنه صاحبنا، لاتهام الباري بالظلم ولاعتناق الإلحاد علىٰ أيما صورة ينتقيها أحدهم لنفسه من صوره ومذاهبه المتعددة (التي لم يفُت صاحبنا أن يرشدهم إلىٰ بعضها في بحثه)! فأي شيء هذا إن لم يكن هو محض المرض النفسي، وغاية ما يمكن لعاقل أن يتصوره من ألوان التشوه الفكري؟ والله لعقول السفاحين المحترفين والقتلة الأجراء المخضرمين وتجار المخدرات والهيروين، أهون مرضا وأقرب للصحة النفسية والعقلية من عقول هؤلاء، لو كانوا يعقلون!

بأي مدخل من مداخل العقل السوي يصح أن يقال إن نفي المعرفة بالدليل علىٰ صحة المقدمة (١) في تلك الصياغة، يترك الباب في مسألة وجود الباري مفتوحا للترجيح الاحتمالي، حتىٰ يقال ما حاصله: «إن كثرة صور الشر في العالم التي نعجز نحن عن تفسير كل واحدة منها تفسيرا نرتضيه، تقوي من احتمالية ألا يكون للعالم خالق حكيم عليم، أو أن يكون له خالق لا يستحق أن يعظم أو يعبد»؟[(١)] إنما هو مدخل من يصر علىٰ رد الفطرة ودلالة البداهة العقلية الواضحة الصارخة في نفسه علىٰ وجود خالقه تبارك وتعالىٰ وعلىٰ كمال علمه وحكمته، ليصور الأمر وكأنما نتكلم عن كائن افتراضي (كإبريق راسل مثلا!) يُتصور عدمه كما يُتصور وجوده، فلا نملك مستندا للقول بوجوده إلا جملة من الظنيات القياسية المحتملة التي يقابلنا القوم بنظيرها من الظنيات المحتملة أيضا، ثم نمكث نتهارش عقودا طويلة في سجالات فلسفية عقيمة لا نصل منها إلىٰ شيء أبدا.

---

(١) بنفس هذا المنطق الأعوج يجوز لقوم أن يقولوا: بما أن الظواهر الطبيعية التي ما زلنا لا نعلم تفسيرها الطبيعي أكثر بكثير من الظواهر التي عرفنا تفسيرها، فإذن لدينا «مسوغ عقلي» احتمالي Rational Grounds لاعتقاد أن تلك الظواهر ليس لها نظام أصلا ولا قانون يحكمها، وليس لها تفسير صحيح يمكن أن نتطلع لمعرفته في يوم من الأيام!

وفي سياق كلامه، يذكر «روه» في ورقته (1978, pp. 339) ما يصفه بأنه أقوىٰ جواب للمؤمنين بالخالق علىٰ شبهته هذه، حيث يقلب مخالفوه البرهان عليه، فيما أسماه بطريقة «جي. إي. مور» G. E. Moore في قلب الحجة، لتبدأ الحجة المضادة بنفي النتيجة (٣) كمقدمة أولىٰ، وتقرير المقدمة (٢)، ومن ثمّ الوصول إلىٰ إبطال المقدمة (١) كنتيجة، فيكون الجواب كالتالي:

(٤) يوجد كائن تام العلم كامل القدرة كامل «الخيرية الأخلاقية».

(٥) الكائن كامل العلم، كامل «الخيرية الأخلاقية»، سيمنع وقوع أي حالة من حالات المعاناة الشديدة ما وسعه ذلك، ما كان ممكنا أن يفعل ذلك دون تفويت خير أعظم أو السماح بوقوع شر مساو أو أسوأ.

ومن ثمّ تكون النتيجة كالتالي:

(٦) لا يوجد في العالم حالات من المعاناة الشديدة التي يقدر الكائن تام القدرة كامل العلم علىٰ منعها دون تفويت الخير الأعظم، أو السماح بشر مساوٍ أو أسوأ.

قلت: قد يبدو لأول وهلة أن هذا التحليل الصوري Formalistic Analysis (أي في صورة مقدمات ونتائج) يستوي إجمالا بما قررناه في جوابنا الموجز من أن الباري كامل الحكمة - بالضرورة والبداهة - له حكمة بليغة وتعليل حميد في كل حالة من حالات الشر التي نكرهها في مفعولاته لا محالة، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها! ولكن ليس الأمر كذلك علىٰ التحقيق!

فالفلاسفة يأبىٰ عليهم كبر نفوسهم المستكبرة وعقولهم المفتونة أن يقتصروا علىٰ العبارة الموجزة الكافية لكل عاقل، التي لا تحتاج إلىٰ شرح أو بيان أو تفصيل! بل لا بد من التشقيق والإجمال والتعمق الممرض في كل شيء، وأن يصبح لدينا ترتيب وترتيب عكسي وقاعدة كلية تتفرع عليها قواعد أخرىٰ تستند إليها بعض المقدمات بكثير من النظر والتدقيق! فمع أننا في غنية عن ذلك كله، ولكن عند النظر في الصياغة الآنفة (والنظر هو غاية ما يدعونا إليه الفلاسفة والمتكلمون إشباعا لشهواتهم) نجد أننا لا

نقبل المقدمة (٥) لعدم حصول العلم لدىٰ جنس المخلوقات عامة بما مفاده أن التقليل من آلام المخلوقات (أو من تعرضهم لما يكرهون بعموم أيا ما كان ذلك) يعد في حد ذاته غاية يريد الخالق جل وعلا أن يحققها في خلقه كلما أمكن ذلك!

فإنه حتىٰ وإن لم تكن الحكمة والتعليل كذلك عند الباري سبحانه (ولا دليل عندنا في نصوص الشرع علىٰ أنه من الغايات أو الحكم التكوينية عند خالقنا أصلا)، لم يكن ذلك نقصا في كمال حكمته فضلا عن أن يلزم منه نفي الحكمة والتعليل رأسا، أو بعبارة أقرب: لم يكن ظلما للمخلوق، أو وضعا للشيء في غير موضعه الصحيح، لأنه ليس ثمة «قانون أخلاقي» ملزِم لخالق السماوات والأرض مفاده أنه يجب عليه إمداد كل مخلوق من مخلوقاته في هذا العالم أو غيره مما خلق بكل ما يحب ذلك المخلوق لنفسه ما أمكن، وتسليمه من كل ما يكره لنفسه ما أمكن! [١] فإنما مدار الأمر في النهاية علىٰ الحكمة العليا التي من أجلها يخلق الله ما يشاء ويختار، سبحانه وتعالىٰ، لا علىٰ ما يحبه الواحد منا لنفسه أو لغيره وما يكرهه، قلّ ذلك أو كثر!

هذه المسألة من أدق وأخطر ما يجب أن يُتنبه إليه في باب الحكمة والتعليل، وقد ضل بسبب الخلط فيها كثير من المتكلمين. فإنه من أعظم الغلط تعريف الخير (بإطلاق مفهومه) علىٰ أنه كل ما نحبه نحن لأنفسنا (أيا من كان المراد بـ«نحن» هذه من آحاد المخلوقين أو جماعاتهم أو أنواعهم)، والشر كذلك علىٰ أنه كل ما نكرهه لأنفسنا. هذا من مداخل التلبيس النفسي الذي قامت عليه مشكلة الشر في أصل منشأها، وهو قياس للصفات والأفعال الإلهية علىٰ صفات وأفعال المخلوقين، كما تعانيه سائر الملل الوثنية علىٰ درجات وصور متفاوتة (لا سيما القياس علىٰ صورة الأب الوالد الذي لا يريد لجميع أولاده إلا أحسن ما يحبونه مما يشتهون).

---

(١) هذا مع استحضار العلم بأنه مهما تألم المخلوق أو تضرر بما يكره، فإنه مغمور على أي حال في بحر عطايا خالقه ونعمه التي لا إحصاء لها، تفضلا منه سبحانه على خلقه وليس التزاما بشيء يجب عليه، لا من جهة غيره (لأنه لا مكره له ولا سلطان فوقه)، ولا من جهة نفسه بمقتضى كمال صفاته وتنزهه عن كل نقيصة سبحانه وتعالى!

ذلك أن المخلوق منا إن أحب مخلوقا مثله، فسيحرص علىٰ أن يحب لذلك المخلوق ما يحبه هو لنفسه (بما في ذلك السلامة من كل أذىٰ أو ضرر أو مكروه)! ولا شيء أحب للواحد منا من أن يكون عند أحسن الأحوال التي يتصورها لنفسه، في الدنيا أولا ثم فيما بعد الموت! ولكن من ذا الذي قال إن الله ما خلقنا معاشر المخلوقين في هذا العالم إلا ليجعلنا جميعا علىٰ أحسن ما يحب أحدنا لنفسه، حتىٰ يصبح (الخير الأعظم) في علمه هو أن يقضي لنا بذلك خلقا وتكوينا وأن يسبب له الأسباب، وما مستند صاحب تلك المقالة أصلا؟ وأي شيء أذمّ في عقول العقلاء من أن يكون تذمر المخلوق من شيء يكرهه، أساسا ومستندا لجحده حق خالقه عليه في الشهادة بأنه هو خالقه ومالكه وفي توحيده بالتأليه والعبادة، كما هو دأب الملاحدة وديدنهم في الدفاع عن إلحادهم؟

هذا الخلل (القياس والتشبيه في الأفعال وفي الحكمة والتعليل) الذي وقعت فيه الفلاسفة في تقدير الخير والشر، وتصور العدل والظلم، وقعت فيه متكلمة أهل القبلة كذلك تبعا لهم وتأثرا بهم من غير أن يشعروا. فإنه ليس من ظلم الله للمخلوق – أي مخلوق – أن يجد ذلك المخلوق من الشرور والمكاره في حياته ما لا يجده نظراؤه من المخلوقين (مهما كره ذلك لنفسه)، أو أن ينتهي أمره بعد موته إلىٰ خلاف الأحسن أو الأصلح له (أي أحسن ما يمكن أن يكون عليه ذلك النوع من المخلوقين من الأحوال) كما زعمته المعتزلة تأثرا بالملاحدة واللاهوتيين. وليس من الظلم أن يجعل الله أكثر خلقه المكلفين في الدنيا من أهل النار في الآخرة (كما جاءت به السنة)، ما داموا لا يدخلونها إلا عن استحقاق بما كسبته أيديهم (وهو ما نقطع به قطعا ونجزم به جزما)، وإنما الظلم أن يوضع الشيء في غير موضعه، كأن يحب الرب من حقه أن يُبغض، أو يخلف الله موعده لمخلوق من مخلوقاته، أو يأخذه بذنب لم يقترفه يوم الحساب (كأن يُخلد مؤمنا في النار)، أو ينزل عليه العقاب في الآخرة من غير أن يبعث إليه البشير والنذير ليعلمه أولا بما يستوجب المثوبة وما يستوجب العقوبة، وقد زعمت الأشاعرة أن ذلك كله جائز (عقلا) في حقه جل وعلا ولا يكون ظلما لو وقع منه، لأنه يكون إذن

من «تصرف المالك فيما يملك»، وذلك من غلوهم وشططهم في الرد علىٰ المعتزلة ولا شك. ونحن أهل السنة ننزه الرب جل وعلا عن كلتا المقالتين جميعا وما شابههما، والحمد لله رب العالمين.

ولو أن هؤلاء الفلاسفة التزموا بالبديهيات الفطرية الأولىٰ في هذه القضية كما صنع سائر العقلاء من بني آدم من غير تكلف ولا تنطع، وقبلوا دعوة الأنبياء والمرسلين (الموافقة لتلك البديهيات) كلما جاءتهم، لما غرقوا في ذاك الخطل وما جنحوا إلىٰ إيجاب ما لا يجب علىٰ خالقهم ومنع ما لا يمتنع، واستشكال ما يرونه يخالف ذلك، وإنكار ما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله! ولو أن من خاطبهم بالرد – وهو ما يهمني في هذا المقام – أراد الحق في مخاطبتهم، لدعاهم إلىٰ ذلك، لا إلىٰ البقاء علىٰ تلك الطريقة الشيطانية الخبيثة في الحجاج والمجادلة النظرية في أمر باريهم وخالقهم! ولكن الفيلسوف (سواء كان ملحدا أو لاهوتيا أو متكلما) مفتون بعقله وبتلك الطريقة العقلية الجذابة التي يريد البروز فيها والعلو بها بين أيدي أصحابها!

فتأمل كيف أن «بلانتينغا» – علىٰ سبيل المثال – عندما تطرق إلىٰ الرد علىٰ دعوىٰ «روه» الاحتمالية هذه (وما كان له – وهو الفيلسوف المتخصص – أن يتركه من غير أن يدلي فيه بدلو أو يرمي فيه بسهم، بطبيعة الحال!)، أقر الرجل علىٰ استعماله المنطق الاحتمالي في المسألة من حيث المبدأ[١]، ولكن خالفه في زعمه أن ما عندنا (معاشر

(١) وقد رأيته يقرّ «مايكل بيهي» كذلك في بعض كتبه على استعماله المنطق الاحتمالي في إثبات حصول «التصميم» في الطبيعة، فيما يراه من البراهين التيليولوجية القوية في استنادها إلى العلم الحديث (وقد نقدت فلسفة البرهان الغائي عند اللاهوتيين التصميميين ومن تابعهم من المتكلمين، وبينت عوارها بتوسع بحول الله وقوته في كتاب «معيار النظر»)! وقد نبهت في كتابي «آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين» إلى زيف ما يستند إليه الطبيعيون من استعمالات المنطق الاحتمالي في قضايا لا مدخل لذلك المنطق فيها نوعا، إذ لا يصح في عقل سوي سالم من العطب أن يقال (مثلا) «إن كون العالم قد خلقه خالق أقل احتمالية من كونه قد نشأ بالصدفة المحضة»، لأن خلق العالم ليس «فرضية نظرية تفسيرية» مما وقع مثله تحت تجربتنا، ووقع خلافه كذلك، بما يجعلها (أي تلك الفرضية) تحتمل الصحة والفساد في هذه الحالة التي بين أيدينا بعينها، حتى نذهب فيها إلى الترجيح بالاحتمالات! وإنما هو ضرورة عقلية ولغوية محضة. وقد بينا في غير ما موضع أننا لم يسبق لنا أن رأينا حالات أخرى لنشوء الكون، بعضها كان بالخلق المباشر والآخر كان بالارتقاء العشوائي (على التسليم تنزلا بمعقولية ذلك النوع)، حتى يمكننا – من حيث المبدأ – أن نرجح بالمنطق الاحتمالي الاستقرائي أن يكون كوننا هذا بعينه قد نشأ على أحد النحوين دون الآخر!

المؤمنين بأننا مخلوقون!) من مقدمات معرفية يكفي للوصول إلىٰ الحكم بـ«ضعف احتمالية» أن يصح اعتقاد المؤمنين بوجود الباري وبكونه كامل «الخيرية»! فاعترض

وكذلك نقول هاهنا إنه لا يعقل أن يطرح للمنطق النظري الاحتمالي تساؤل مفاده «هل يمكن أن يوجد خالق حكيم مع وجود هذه الصور الشنيعة للشر في هذا العالم؟» حتى يقال إن كثرة الشرور تقلل أو تزيد من احتمالية وجوده! أين سبق لنا معاشر البشر أن شاهدنا عوالم أخرى فيها شرور أقل أو أكثر، وشهدنا ما إذا كانت تلك العوالم قد خلقت أو لم تخلق (وهو محال أصلا ألا تكون قد خلقت!)، حتى يكون لدينا مرجعية معرفية استقرائية قياسية نحكم بها على عالمنا هذا بنسبة «احتمالية» معقولة يمكن تقديرها (من حيث المبدأ)، بأنه لم يكن له خالق أو أن خالقه لم يكن حكيما؟ هذه طريقة قد نقبلها في البحث فيما إذا كانت قطعة صخر وجدناها تشبه أن تكون منحوتة، قد نحتها نحات بشري بالفعل لتبدو على هذه الهيئة أم أنها صارت كذلك تحت عوامل لا فعل فيها للبشر! فقد سبقت في عادتنا البشرية حالات كثيرة لقطع صخرية قد نحتها نحات بشري على هيئة مشابهة لتلك، وكذلك حالات لصخور لم تتعرض ليد بشرية تبدو على هيئة قريبة منها كذلك، فحينئذ ينظر في موازنة الاستقراء والعادة لنرى أي الاحتمالين هو الأرجح بالقياس! أما ونحن نتكلم عن أمر غيبي مطلق التغييب، فمن أين تأتي العادة وما مدخلها حتى يلتمس فيها الترجيح الاحتمالي؟ وكيف وموضوع النظر لا يجوز طرحه للنظر أصلا لأنه من ضروريات العقل وبدهيات الفطرة؟

ونظير ذلك في الفساد، تطبيق الطبيعيين من أهل الأحياء للمنطق الاحتمالي في الانتصار لنظرية داروين ضد القول بالخلق والتكوين، وتصويرهم هذا القول الأخير على أنه «نظرية» أصبح يحاول بعض اللاهوتيين المعاصرين «إدخالها» إلى علم الأحياء مع أنها ليست إلا دعوى دينية محضة! فتجد المشاهدة الواحدة يتأولها أحدهم على أنها تعضد المعتقد الإلحادي احتماليا (إذ تزيد من القوة الاحتمالية لصحة القول بالانتخاب الطبيعي) ويتأولها الخصم اللاهوتي الطبيعي في المقابل على أنها تعضد «القول بالخلق» احتماليا! فأي خلق هذا الذي أصبح يحتاج إلى تعضيد احتمالي استقرائي؟ إنه نفس حادث الخلق الذي زعم اللاهوتيون القدماء أنه يحتاج إلى برهان نظري قياسي من حيث المبدأ! وهذا كله محض عبث، وسوء تطبيق متعمد للمنطق الاستقرائي والاحتمالي (تماما كما ساء تطبيق القوم للقياس الاستنباطي القبلي A-Priori في القرون السالفة)، لا غاية من ورائه إلا إدخال الظن والاحتمال والتنظير (من حيث هي طرائق لتحصيل المعرفة إجمالا) إلى حيث لا مدخل لشيء من ذلك أصلا، عسى أن يذهب الملحد إلى فراشه كل ليلة وهو مطمئن إلى أن الداعين إلى رب عظيم بالغيب له حقوق على مخلوقاته، لا «تترجح أدلتهم» على ذلك، ولا نهاية لما يلزمهم الرد عليه ومدافعته «فلسفيا» (لاهوتيا أو كلاميا) من «احتمالات» و«نظريات تفسيرية» ودعاوى ومعارضات الفلاسفة من كل شكل ولون، والله المستعان لا رب سواه!

هذا العبث الشيطاني بالأصول العقلية للمعرفة الإنسانية نفسها وبمصادر تلقيها، قد صارت تقوم عليه نحلة جديدة لها دعاتها في الغرب لا سيما في بريطانيا، ألا وهي ملة الإلحاد الجديد New-atheism حيث ترى أمثال المدعو ريتشارد دوكينز من علماء الأحياء الداروينيين المعاصرين يكثرون من التعويل على «الاحتمالية الأرجحية» في الانتصار لدعواهم أن الكون لم يُخلق على الأرجح Probably (هكذا!!)، دون أدنى تحقيق لوجه الاستدلال الإحصائي ومنطقه في ذلك، فضلا عن بيان الطريق الفلسفي الذي منه ساغ لهم إدخال أداة الاحتمالية الرياضية نفسها إلى مادة النزاع في قضايا الغيب المطلق! واللاهوتيون يتابعونهم – والمتكلمون في أذيالهم! – بلا أدنى تأمل!

علىٰ نقص المقدمات في صياغة «روه» من الناحية المعرفية، مبينا أننا لو كانت لدينا مقدمة إضافية مفادها أن لدينا من الأدلة التي قال بها الثيولوجيون علىٰ وجود الباري وعلىٰ عدله وحكمته - في المقابل - كذا وكذا (كتفسيراتهم الثيوديسية لوجود الشر مثلا)، لما جاز الوصول إلىٰ تلك النتيجة التي زعم «روه» أن ما لديه من مقدمات يكفي للوصول إليها، وإنما تعين - بحسب بلانتينغا - أن يقال إن الاحتمالية قوية لصحة معتقد المؤمنين بوجود الباري وبكونه كامل الصفات، وأن جهل المثبت للباري بتفسير كثرة الشرور وشناعتها في العالم لا يقلل من احتمالية وجوده بالغيب أو احتمالية وجود الحكمة والتعليل لديه، إلىٰ الحد الذي يصبح معه نفي وجوده أرجح من إثباته!

فمتىٰ كان وجود الباري أو وجود الحكمة والتعليل لديه (علىٰ ما يليق بالرب الأحكم الأعلم المنزه عن كل نقيصة)، مسألة احتمالية أصلا؟ صارت كذلك عندما أدخلها الفلاسفة (ونحوها من مسلمات الفطرة والبداهة في حق الباري) إلىٰ دائرة النظر والاستدلال وموازنة الأدلة بالأدلة المخالفة، وجمع البراهين علىٰ كلا القولين للموازنة بينها، بما يفضي إلىٰ «الترجيح الظني» لا أكثر، فوافقهم اللاهوتيون والمتكلمون ونحوهم علىٰ ذلك الإفساد لفطر الناس وعقولهم من حيث الأصل المنهجي ولم ينكروه عليهم، وإلىٰ الله المشتكىٰ!

تأمل كيف يقترف «بلانتينغا» هنا بإقراره لمنهج خصمه في النظر، غلطا وعدوانا عظيما علىٰ عقول الناس، مشابها لذاك الذي ارتكبه مع «ماكي» من قبل إذ أقره علىٰ منهجه كذلك وعلىٰ بعض مقدماته، فانتهىٰ معه في دفاع «حرية الإرادة» إلىٰ إثبات «الإمكان» وليس «الوجوب» كما مر بك، تقيدا بما يمليه سياق الرد الفلسفي التحليلي - بطبيعته - علىٰ كل واحدة من المقدمات التي جاء بها الخصم في ذلك، وأهمّ من هذا، ما يرجوه ذاك الفيلسوف الأكاديمي المتخصص من التزام ما هو سائد في أوساط الفلاسفة من طرائق في الرد والجواب، رجاء البروز والعلو في ذلك كله علىٰ الأقران!

ولا عجب! فعندما يكون الرجل متخصصا في الفلسفة لا صنعة له غيرها، فأي شيء يصنع حتىٰ يترقىٰ ويعلو بين أقرانه، وفي أي شيء يفني عمره؟ لذا كانت

الساحة ولم تزل مفتوحة لكل «مبدع» من نوابغ الفلسفة ليتفنن في رد وجواب جديد، ثم رد علىٰ الرد، وهكذا، إن لم يكن لنصرة اعتقاد غيبي باطل في نفسه [١]، فعلىٰ الأقل لينال به درجة علمية أو يترقىٰ به في أكاديمية تخصصية، أو يحصل به علىٰ منصب تدريسي في إحدىٰ الجماعات المرموقة .. الخ. ولا شك أن مجموع ذلك كله علىٰ أي حال، لا يزيد صاحب المعتقد الغيبي الباطل بالزيادة منه إلا غرورا فوق غروره، وبُعدا عن أن يُرجىٰ له الزوال عن ذلك المعتقد في يوم من الأيام.

وتأمل علىٰ سبيل المثال ما دار بين صاحبنا «روه» هذا وخصم آخر من خصومه من أهل صنعته. فمن الأجوبة المشهورة عند الفلاسفة «للحجة الدليلية» لروه، ما حرره الأمريكي «ستيفن ويكشترا» S. Wykstra من جواب أصبح يعرف في الأدبيات باسم CORNEA، وهو اختصار لفظي Acronym ابتكره «ويكشترا» في ورقته البحثية التي نشر فيها جوابه لأول مرة في سنة ١٩٨٤ الميلادية، كما سيأتي.

قال «ويكشترا» (١٩٨٤) في صدر بحثه المذكور:

> كثير منا، المؤمنون منا وغير المؤمنين، ميكانيكيو السيارات والفلاسفة علىٰ حدّ سواء، قد شعرنا في بعض الأوقات من أعمارنا بأن بعض حالات المعاناة في هذا العالم قد تصلح دليلا ضد معتقد الإثباتيين Theism، الذي يقول بأن الكون صنعة كائن «خيِّر»، يحب مخلوقاته، ولا يعاني من أي نقص في الحكمة أو القدرة. فإذا كان قد ثبت أنه من الصعب أن يتحول ذلك الشعور المجرد إلىٰ حجة عقلية جيدة (يعني ضد ذلك المعتقد)، فلعله قد ثبت كذلك أنه من الصعب أن نتخلص منه بالكلية. إن أكثر الأجوبة المنطقية «لمشكلة الشر» دقة وإحكاما Sophisticated قد تترك المرء وهو يتساءل عما إذا كانت حساسيتنا الحدسية لم تتبدد بين رحىٰ ماكينة «الفورمالية» الفلسفية الثقيلة التي حطت عليها. ربما تكون هذه من الأعراض التي لا يمكن تجنبها

(١) وهو كذلك لا محالة ما دامت مادة الجدال هي فلسفة الدين، إذ تزداد الحُجب النفسية الكثيفة بتزيين النفس لصحابها أن يراه قد بلغ الغاية في التمكن – بالقوة القريبة من الفعل – من استظهار مواضع الخلل العقلي في مجموع عقائده إن وجدت، فما لا يراه من ذلك فلا بد وأنه لا وجود له إلا في أوهام مخالفيه. ويضاف إلى ذلك الارتكان النفسي إلى ما ألفه الأقران من الأولين والآخرين في الانتصار لتلك الأصول الاعتقادية الفاسدة التي يعلم أنه يعاني منها.

عند ممارسة التحليل الفلسفي، ولكن كيفما كان الحال، فأنا أريد أن أحاول التقليل من هذه المشكلة ها هنا.

وبعيدا عن نزق الفلاسفة وتعاليهم علىٰ الناس الذي تلمسه في إقران الرجل بين «ميكانيكي السيارات» و«الفيلسوف» علىٰ أساس أن هذا الأخير يعد أعلىٰ الناس «عقلا» وأحرىٰ بمعرفة الحق (زعموا)، تأمل كيف يعترف بأن المسألة أو «المشكلة» كلها ليست إلا «شعورا» كريها يتعرض له «الإنسان» من آن لآخر، وكيف يقر في نفس الوقت بتهافت محاولات الفلاسفة لتحويلها إلىٰ دليل منطقي ضد وجود الباري أو ضد كمال صفاته، ومع ذلك تراه يأبىٰ إلا أن يُبقي «للمشكلة» أساسا أو جذرا «فلسفيا» تقف عليه وتنبت منه فيما بينه وبين أقرانه وخصومه! فلماذا يكره الرجل أن يزول بالكلية عن تناول تلك «المشكلة» فلسفيا؟ لماذا يكره أن يعترف بما أوشك أن يعترف به تحقيقا من كونها محض تزيين نفسي Rationalization وسراب عاطفي، يرجو أهل الجحود والإباء أن يتخذوه ذريعة لتسويغ تمردهم علىٰ باريهم من فوقهم؟

الجواب أيها القارئ المحترم أنه يعلم أنه لو فعل، لحكم علىٰ مستقبله المهني في تلك الصنعة الأكاديمية بالإعدام! لو فعل لما أمكنه أن يكتب تلك الورقة البحثية الطويلة (وكثير غيرها في نفس بابتها) ويتفنن فيها بالجديد والمبتكر، حتىٰ مع كونه يشهد كما ترىٰ بما معناه أن ذلك المسلك التحليلي الفورمالي المعقد الذي احترفه أصحاب التصانيف الفلسفية المنمقة في هذه القضية ونحوها، هو في مجمله مما يميت الضمائر ويقسي القلوب ويخفت من صوت الحدس والفطرة ويبعد الحق عن أذهان الناس! هذا كلامه هو واعترافه الصريح كما ترىٰ! فلو كان صادقا في هذا التقرير، لما احتاج ليرد علىٰ دعوىٰ هو يعلم كما يعلم خصومه أنها ساقطة مصادمة لبدهيات العقل الأولىٰ! لو أنه صدق مع نفسه وقرائه لاكتفىٰ بتقرير أن الباري لا يمكن أن يكون من كمال حكمته أن يحب كل خلقه علىٰ السواء، أو حتىٰ أن يكون مقتضىٰ تلك المحبة عنده أن يجعل كل واحد منهم علىٰ أحسن ما يحب ذلك المخلوق لنفسه، ولقرر – تنفلا – وبين أن عدم العلم بالحكمة والتعليل في آحاد حالات الشر (قلت أو كثرت) لا يعني عدم ما شهدت الفطرة بضرورة وجوده، ولشدد علىٰ أن هذه المعاني واضحة جلية

صحيحة بنفسها لا تلجئ لالتماس برهان أو تحرير أصلا، ولانتهت القضية بين يديه عند ذلك ولقضي الأمر! وإذن لصح له أن يرجو الوصول إلىٰ ما زعم في الاقتباس الآنف أنه يريد الوصول إليه: التقليل من أثر التنظير الفورمالي المعقد في أجوبة الثيولوجيين لمشكلة الشر!

ولكنه في واقع الأمر يكره – وهو الفيلسوف الأكاديمي المتخصص – أن يبدو في طرحه «أخف عقلا» أو «أضعف تحليلا» أو «أقل تعمقا (أو قُل: أقل تنطعا)» مما جاء به الخصوم والأقران في نفس الأمر، أو أن يبدو وكأنه من جملة «الوعّاظ» الذين لا يقابلون «حجة» الخصم إلا بالوعظ والزجر والتخويف! والحاصل أن مرض النفس وهواها ليس فقط هو المحرك الحامل علىٰ ادعاء وجود «مشكلة» عقلية من مطلق وجود الشر في العالم، وإنما هو المحرك الحامل علىٰ سائر ما كتبه أصحاب الردود والأجوبة الفلسفية واللاهوتية والكلامية عنها كذلك، علىٰ تفاوت في مقدار ذلك الهوىٰ في بواطن النفوس، وعلىٰ جهته التي ينصرف إليها! لولا هذا، ما صارت «مشكلة فلسفية» أصلا!

ويمضي «ويكشترا» في بحثه المذكور ليعلق علىٰ تحول الصياغات الفلسفية «للمشكلة» مع مضي الوقت من قالب الاحتجاج المنطقي الاستنباطي إلىٰ قالب الاحتجاج الاستقرائي الاحتمالي، علىٰ يد «روه» وغيره،[١] إذ يزعم «روه» أن تلك العذابات الكثيرة والشرور والمعاناة الوافرة في العالم «تبدو وكأنها» (does not appear to) لا يمكن أن يجمعها كلها تعليل مقبول وحكمة لا نقص فيها، وهو ما يزيد من احتمالية أن يكون الموقف الإلحادي موقفا صحيحا من الناحية الترجيحية! فيتخذ «ويكشترا» من عبارة «تبدو وكأنها» هذه أساسا لجوابه، إذ ينسب «روه» باستعماله هذه العبارة إلىٰ المغالطة المنطقية، ويفصِّل جوابا طويلا خلاصته أن ليس كل ما يبرق ذهبا.

---

(١) وهو ما يعد شاهدا واضحا للغاية على إصرار الملحد على الانتصار لهواه وعلى الخروج من مسألة الشر هذه بـ«دليل» يخدم عقيدته مهما كان ذلك «الدليل» ساقطا متهافتا، حتى وإن كان مجرد تعلق «احتمالي» بوهم يشهدون على أنفسهم بأنه وهم، كما ترى في تعبيرهم «لا يبدو وكأنه ..» (does not appear to)، والله المستعان!

فليس معنىٰ حقيقة أن ذلك الشر الكثير في العالم «يبدو» وكأنه لا تفسير له يقبله العقلاء، أن يكون لا تفسير له في الواقع تحقيقا. ولكنه لا يضع جوابه في عبارة موجزة كهذه ويقف عند ذلك، فضلا عن أن يجترئ علىٰ مجرد الاقتراب من ادعاء أن وجود ذلك التفسير في الواقع (علمه من المخلوقين من علمه وجهله من جهله) حقيقة عقلية بدهية من مقتضيات كمال الباري الواجب له سبحانه ولا يصح أن يطرح للجدل والمناقشة! أيخرج جواب الفلاسفة الكبار علىٰ ما يجيب بمثله «العامة» والبسطاء و«ميكانيكيو السيارات» من أتباع المرسلين؟ كلا وحاشا! الفيلسوف أرفع من ذلك وأعلىٰ!

لذا تراه يبدأ ورقته بالدفاع عن دعوىٰ «روه» هذه ضد اثنين من الانتقادات التي وُجهت إليها، وذلك حتىٰ «يصقلها» و«يقويها» أولا (علىٰ عبارته) ويخرجها علىٰ أحسن ما يمكن أن تظهر عليه، ثم يستوي لنقضها بجوابه هو بعد ذلك! ولو أنه تأمل بتجرد لأدرك أنه بذلك المسلك لا يزيد التعقيد إلا تعقيدا، ولا يزيد الاشتباه إلا اشتباها، ولا يزيد التحليل الفورمالي (الذي انتهىٰ إليه مجموع تصانيف القوم في المسألة) إلا تشويشا علىٰ الحدس والفطرة عند القراء، ولا يمكن أن يصل بعد ذلك إلىٰ إصابة ما زعم أنه يقصده في قوله: «فأنا أريد أن أحاول التقليل من هذه المشكلة ها هنا»! ولكن لو التزم الرجل ما يلزمه حقيقة من اعترافه بأن آفة الآفات ليست في موضوع البحث ولكن في سياقه المعرفي التراكمي عند الفلاسفة في إطار تلك الصنعة التخصصية المنقطع أصحابها لدراسة هذا الصنف من المسائل، وفي طرائقهم التي يلتزمونها في تناولها والملاججة والمجادلة فيها، لاعتزل الصنعة كلها جملة واحدة، ولما كتب بحثه هذا من الأساس كما تقدم!

فبالتأمل في تلك الورقة البحثية نستخلص أن الرجل كأنما يريد أن يقول لخصمه: «عدم معرفتك بسبب وجود الشر في العالم (قل أو كثر) أو عدم رؤيتك له، لا يعني عدم وجود ذلك السبب وعدم التعليل الكافي واقعا». ولكن لأنه فيلسوف متخصص يريد أن ينشر ورقة بحثية فلسفية في المسألة، تراه يتفنن في الزخرف اللفظي وفي اختراع المصطلحات الجديدة والصياغات التحليلية المركبة، حتىٰ يصل ما معه من رد إلىٰ أن يصبح مادة تكفي لأن يقبلها الفلاسفة في المعتمد من منشوراتهم الأكاديمية

المتخصصة! وإلا فماذا سيكون موقف «روه» وغيره من الفلاسفة المتخصصين، إن جاءهم صاحبنا بهذه العبارة الموجزة في الرد علىٰ ورقة خصمه البحثية؟ لو جاء الرجل بعبارة موجزة يقول فيها: «جهلك أيها الجاهل الأبعد، ليس حجة ولا دليلا علىٰ ظلم خالقك أو افتقاره للحكمة في شيء مما خلق!!»، أو نحوا من هذا، فيقينا لن يتلفت إليه أحد منهم أصلا! أما وقد أتىٰ في تلك الورقة بما أتىٰ به من تنطع وتحاذق وشقشقة الفلاسفة، وتقديم فروض العرفان (إما تصريحا أو ضمنيا أو بالاقتضاء) بجميل الخصم الجاحد المكابر فيما كتب والإقرار بذكائه وتحقيقه وتدقيقه وإضافته القيمة للمجال التخصصي.. إلخ، فقد تحقق له ما يريد، وأثنىٰ عليه «روه» نفسه في مقدمة ورقته البحثية التي أصدرها فيما بعد للرد علىٰ هذا الرد، تحت عنوان «الشر والفرضية الألوهية: الرد علىٰ ويكشترا»، إذ قال (١٩٨٤، ص. ٩٥):

> تعد ورقة «ويكشترا» البحثية المعنونة «العقبة الهيومية أمام الحجج الدليلية من المعاناة» إضافة ثرية فكريا ومهمة لفهمنا للحجة الدليلية من مشكلة الشر. ويكمن ثراؤها الفكري في تحليلها للمعنىٰ الإبستمي لقولنا «يظهر»، وفي تطويرها لشرط ضروري CORNEA لجواز إطلاق أي دعوىٰ مفادها: «الظاهر أن ب (ليس-ب)». فهي تطور فهمنا للحجة الدليلية من الشر من طريق تطبيق هذا الشرط علىٰ أولىٰ مقدمات الحجة الاستقرائية ضد التأليه، في إطار النظر في التبرير أو التسويغ المعرفي Justification لتلك المقدمة، كما قدمتها في ورقتي التي كتب (ويكشترا) مقاله في نقدها.

فانظر كيف وجد الخصم في ذلك الرد «مـادة ثرية» تفيد الفلاسفة في تعميق و«تطوير فهمهم للحجة الدليلية أو الاستقرائية» بحسبه! ولا يخفىٰ ما في ذلك التقرير من شهادة بأن الحجة ما زالت معتبرة علىٰ الرغم من ظهور ذلك الرد المتفنن المنمق، وأنه في الحقيقة إنما فتح بابا لمزيد من المناقشة والمحاورة و«تعميق الفهم الفلسفي» لتلك النوعية من الحجج! فهل هذا ما أراده صاحب الرد، أم أراد إبطال تلك «الحجة» المزعومة وهدمها وقطع الطريق علىٰ من يراود بها العامة؟ واقع الأمر أنه أراد الأمرين معا، وهو تناقض معرفي وأخلاقي عظيم لا تراه إلا عند الفلاسفة! فمن جانب تراهم

يزعمون أنهم يريدون الوصول إلىٰ الحق بالبرهان والدليل والوصول إلىٰ قطع النزاع، ومن جانب آخر تراهم يزعمون أن المنفعة المرجوة من الفلسفة ليست في أجوبتها ولا في «الحق» الذي لم يعد يرجو أكثرهم الوصول إليه أصلا، وإنما في الأسئلة نفسها وفي طريقة المجادلة عليها وإبداعات الفلاسفة في ذلك! لا يهم أين الحق، المهم أن يبقىٰ الملعب مفتوحا لكل من يرجو لنفسه حظا من اللهو واللعب!

لقد أبىٰ «ويكشترا» إلا أن يتفذلك في جوابه من طرق معوجة طويلة الذيل لا غرض لصاحبها من سلوكها إلا إظهار الذكاء وبُعد النظر وسعة الإحاطة فيما بين الأقران. فكما في عنوان ورقته، تقدم الرجل بأطروحة (أو بالأحرىٰ: تساؤل) مفادها أن موقف «روه» من مجموع «براهين» المتألهين «لإثبات الصانع» ومما تؤديه من معرفة نظرية ترجيحية لها ثقلها (بحسبه)، يشبه موقف «ديفيد هيوم» من الواقع المحسوس في برهان من براهينه التي أراد فيها أن يثبت أن الاستقراء لا يكفي للجزم بأن بين يديه قلما يكتب به، وهو ما رد عليه «جورج مور» بقلب الحجة إذ قال إن الواقع المحسوس حجة في نفسه، فما ظهرت فيه للوهلة الأولىٰ مخالفة لذلك الواقع من دعاوىٰ معرفية فهو ما يفتقر إلىٰ الترجيح الاستقرائي لا العكس.

فتأمل كم حفرة من حفر الجدال العبثي السرمدي وضعها الرجل فيما بين خصمه وبين الحق الجلي الظاهر وهو يزعم – مع ذلك – أنه يريد إزاحة تشويش التحليل المنطقي عن البداهة في أصول المسألة:

- الجدل في فكرة افتقار مثبتي الإله إلى برهان نظري «لإثبات الصانع» من حيث المبدأ، ونزاع «بلانتينغا» وخصومه في تلك المسألة.
- الجدل حول مسألة ما يؤدي – أو لا يؤدي – إليه اجتماع تلك البراهين النظرية من معرفة «ترجيحية» ظنية.
- الجدل في مسألة موقف الخصم (الملحد عموما و«روه» خصوصا) من مجموع تلك البراهين الفلسفية.

- الجدل في مسألة برهان «ديفيد هيوم» المذكور خصوصا، وموقفه من الاستقراء عموما.

- الجدل حول جواب «مور» عن برهان «هيوم» ومنطق «قلب الحجة» الذي استعمله في ذلك الجواب.

- الجدل في قياس الموقف من المقدمة الأولى لبرهان «روه»، على موقف «مور»من مقدمة «هيوم» في برهانه المذكور..

فلا عجب والله من أن يشكره خصمه ويثني عليه أبلغ الثناء وأحسنه بأنه «يثري الجدال في المسألة» و«يطور من فهم الفلاسفة للحجة الدليلية»! هذه فعلا إضافة لمادة الجدال حول ما يقال له «الحجة الدليلية» ما كانت لتخطر علىٰ ذهن صاحبها نفسه، وهي مغنم عظيم بالنسبة له ولموافقيه ولا شك! فعندما يكون إظهار البراعة (والتمكن) في الجدال نفسه هو الغاية والمراد في باطن نفس المتكلم، فلن تقابل أمثال تلك «الإضافات» إلا ببالغ الحفاوة والامتنان ولا شك. أليس العبقري هو ذلك الشخص الذي يتمتع بالقدرة علىٰ الربط بين المتشابهات البعيدة، واستخراج الأقيسة التي لا يصل إليها غيره من عامة البشر إلا في القليل النادر؟ فكيف إذن يصل الفيلسوف من هؤلاء إلىٰ أن يعد من جملة العباقرة، وحتىٰ يكون عند أقرانه أهلا لكل ثناء وتقدير؟ الجواب واضح. لا يصل الفيلسوف المتخصص في هذا الباب إلىٰ أن يعد في زمرة العباقرة حتىٰ يبلغ الدرك الأسفل من السفاهة في تناول مسألة «الصانع» وصفاته، ومن تعمية العقلاء عن الحقائق الفطرية البدهية في المسألة والتفنن في استلاك السبل الصارفة عنها! هؤلاء صنيعهم كما ضربنا عليه المثل من قبل: كرجل شد رحاله وخرج من باب بيته في رحلة يريد منها الوصول إلىٰ نفس البيت الذي خرج منه! ليس هذا فحسب، بل وجد من يثني عليه كلما تمكن بعد جهد مضن وبحث طويل من إثبات أن ذاك الطريق الذي زعم أحدهم أنه يوصله إلىٰ البيت، لا يوصل إلىٰ شيء في الحقيقة! فما حكم العقلاء الأسوياء علىٰ رجل كهذا، وعلىٰ أولئك الذين حمدوه وأثنوا عليه لحسن البحث ودقة النظر؟

وليت صاحبنا (ويكشترا) اكتفىٰ بفتحه تلك المثارات الستة للجدل السوفسطائي الملعون (وفيما لا يزيد علىٰ فقرتين من ورقته البحثية!)، بل دلف إلىٰ التعليق علىٰ مفهوم عبارة «لا يظهر أن له تعليلا مقبولا» الواقعة في «برهان» الخصم تعليقا «فلسفيا» أيضا. فبدلا من أن يقرر الحق صراحة، أبىٰ إلا أن يتقدم [1]

(١) وذلك بعد الدفاع عن المفهوم المذكور ضد اعتراضين قد قوبل بهما من قبل، أحدهما يُتهم فيه «ويليام روه» بأنه يؤسس برهانه على الجهل المجرد Appeal to Ignorance! فيعتبر «ويكشترا» أن صاحب هذا الاعتراض (وهو اللاهوتي الأمريكي «بروس رايخنباخ») لا يفرق بين قول القائل: «لا يظهر أن الحق في الدعوى (س)» وقوله «الذي يظهر أن الحق في غير الدعوى (س)»! وهو ما رأى فيه «روه» نفسه مغنما ولا شك. فإن قال «ليس يظهر لي أن ثمة خالقا حكيما لديه خير أعظم في علمه (حكمة أو تعليل) يريد تحقيقه من وراء كل ذلك الشر»، فلا شك أنه يحب أن يجد من الناس من يبرئه من التهمة بالمكابرة والجحود، ويقدم له «الأرضية الفلسفية» التي يقف بها موقف الندّ والنظير عند كل جدال في بدهيات العقلاء! فبالله هل رأيت عبثا أكبر من هذا، في مسألة يراد منها اتهام الباري (المنزه عن كل نقيصة ببداهة العقل) بأن ما في مفعولاته من وجوه الشر (بعضه أو كله) لا حكمة من ورائه أصلا؟ ما الفرق المعتبر عند العقلاء بين أن يقال «لا يظهر أن الحق في كذا» وأن يقال «الظاهر أن الحق ليس في كذا»؟ لا فرق إلا الموقف الفردي للمتكلم في مسألة نظرية، هل هو أميل إلى القول بأنها لا يظهر من مجموع الأدلة أن الحق فيها هو القول (س)، أم إلى القول بأنه قد ظهر له من مجموع الأدلة أن الحق فيها ليس هو القول (س)، وكلاهما موقفان لا يصح لعاقل سوي أن يتخذ أيا منهما في قضايا تأبى الفطرة والبداهة الأولى على العقلاء أن يطرحوها للنظر والاستدلال من الأساس! ومع هذا ينتقل «ويكشترا» بناء على ذلك التفريق إلى التماس التسويغ المعرفي لخصمه في تعلقه بكفاية «عدم ظهور التعليل للناظر» كمسوغ للقول بعدمه واقعا، فيقول: «لأنه لو أن حالة من حالات المعاناة لمخلوق من المخلوقات لم يظهر لنا أن لها تعليلا ما، فهذا يصلح أن يكون سببا لاعتقاد أنها ليس لها تعليل في الحقيقة». وهو يقصد من ذلك – وانتبه إلى هذا التلاعب الماكر – الدفاع عن مخالفه ضد من يقول إن حجته من قبيل «مغالطة الاستناد إلى الجهل»، لا إثبات أنها مبنية على العلم! كل هذا على أساس استصحاب القول بأن مسألة اتصاف الباري بكمال الحكمة (كأصل) مسألة نظرية محضة، تتنازعها الأدلة من كل جانب! وكل هذا يتكلفه صاحبنا حتى يصل إلى أن يضع جوابه هو واختراعه الجديد على أنه هو الجواب الوحيد الذي يتحقق به المطلوب من إبطال حجة الخصم، فيظهر بذلك تفوقه هو – المتكلم المتفلسف – على جميع من سبقوه بالرد في نفس الأمر! فبالله هل رأيت تلاعبا بعقول البشر أخبث من هذا؟

ولهذا فمن أعظم الغلط أن يقول قائل من المسلمين كما قال بعض الإخوة إن ثمة شرور وأمور في هذا العالم يمكن اعتبارها من «المتشابهات» التي لو أرجعناها إلى الأصل المحكم (ألا وهو القطع البدهي بأن الله منزه عن الظلم والنقص في شيء من صفاته)، لزال عنها الاشتباه ولاطمأنت النفس إلى ذلك وإن كانت لا تملك جوابا تفسيريا عن تعليل هذه المسألة أو تلك. أي اشتباه هذا الذي يزعم عاقل من عقلاء المسلمين أنه واقع في السماوات أو في الأرض أو في شيء مما خلق الله تعالى فيهما بين أن يكون ثمة خالق حكيم، وألا يكون ثمة خالق حكيم، أو بين أن يكون له حكمة يثقل ما فيها من الخير على الشر الظاهر، وألا يكون الأمر كذلك؟ هلا انتبه إخواننا – هداهم الله – إلى حقيقة ما يزعمون وقوع «الاشتباه» فيه ها هنا؟ الاشتباه يعني

باختراعه قاعدة معرفية أو شرطا معرفيا تحليليا علىٰ طريقة المناطقة في التعامل

احتمال أحد الوجهين، بما يفتقر الإنسان معه - ولو للوهلة الأولى على الأقل - إلى مرجح خارجي (دليل إضافي) حتى يميل إلى أحدهما دون الآخر. فأي عاقل من عقلاء المسلمين هذا الذي إذا ما نظر إلى شيء مما جعل الله في مخلوقاته من صور المكاره والشرور، فسيشتبه عليه الأمر بما يحوجه إلى التماس الدليل المحكم أو القاعدة المحكمة حتى يزول عنه الاشتباه؟ المسألة ليست من مثارات النظر أصلا، حتى يقال إن تلك الظواهر الكريهة، أو تلك التي لا يعلم أصحاب العلوم الطبيعية تفسيرا لها، هي مما يورد على العقل «الاشتباه» بين مذهبين، أحدهما هو مذهب المسلمين (القائلين بخالق حكيم عليم) والآخر هو مذهب الملاحدة (القائلين بعدمية الخالق أو بنقصه في الحكمة والعلم)!

قال الله تعالى في القرآن مقررا أنه من المحال أن يقف أحد من البشر في خلقه سبحانه على نقص أو خلل: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ**﴾ [**الملك**: ٣] ويزيد بقوله: ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ [**الملك**: ٤] فلو كان بعض خلق الله تعالى في السماوات أو في الأرض مثارا «للاشتباه» فيما إذا كان فيه «فطور» أو «نقائص» أو افتقار إلى الحكمة والغاية الرفيعة من صنعه على هذا النحو، بما يحوج العقلاء لاستحضار الأصل القطعي (حمل المتشابه على المحكم) بأن الله يعلم ما لا نعلم كما زعم الأخ هداه الله، أفكان يأتي الخطاب بهذه القوة في ذمّ ذلك البصر الذي يتطلع صاحبه إلى استخراج وجه من وجوه النقص في صنعة الباري ابتداءً؟ أبدا! وما سمعنا أحدا من المسلمين الأوائل «يشتبه» عليه شيء من خلق الله تعالى بين أن يكون له فيه حكمة وألا يكون كذلك! هذا لازمه الإقرار بمعقولية وقوع الاشتباه نفسه (الذي هو بمعنى استواء الطرفين) عند الإنسان من حيث المبدأ، وهذا لا يكون لمسلم، وإنما لملحد جاحد متشكك. الذي يُتصور وقوعه للمسلم هو أن يوسوس له الشيطان ويقذف في نفسه أن الله قد ظلمه بتعريضه لشيء يكرهه (مثلا)، وحينئذ تتحرك نفسه المؤمنة المطمئنة بإيمانها، بدفع تلك الوسوسة بكل قوة، فلا يبقى لها أثر أصلا! أما أن يبلغ رجل أن يصرح بأنه يرى «اشتباها معرفيا» في بعض ما خلقه الله تعالى، بما لا حقيقة له عند العقلاء إلا «تقارب الأدلة» وورود الاحتمال (وهو معنى الاشتباه عند النظار) بعدم التعليل الحكيم وراء ذلك الخلق، حتى إذا ما ذكرناه بأن الله هو الحكيم العليم، زال «الاشتباه» وترجح لديه أن لله في الأمر حكمة ما بالضرورة، فهذا لا يقع فيه مسلم أبدا! وسيأتي بيان الفرق بين الشك والوسواس في قسم لاحق (في سياق الكلام عن كبر الفلاسفة والمتكلمين).

القول بأن لله حكمة رفيعة بالغة في كل شيء خلقه، علمها من علمها وجهلها من جهلها، ليس «دليلا نظريا» بمنزلة الأدلة القطعية أو القواعد المحكمة التي يندفع بها الاشتباه النظري عن مسائل قد يرد عليها الاحتمال معرفيا! وإنما هو اعتقاد فطري يطرد به الحكم - بالبداهة - على كل شيء نراه في هذا العالم مهما كان كريها لنفوسنا ثقيلا عليها بعيدا عن درك الغاية منه، فلا يكابر في هذا الأصل ولا يشتبه في اطراده في جميع ما خلق الله تعالى إلا جاحد مكابر، يجحد بداهة العقل الأولى ويود لو أن يجعل لنفسه «شبهة» يتعلق بها فيما يقول من نفي وجود الباري أو نفي الكمال عن صفاته! لذا جعله الفلاسفة مثارا للنظر والجدال النظري حتى يقربوا باطلهم الشنيع إلى عموم العقلاء من هذه البابة: بابة الاستدلال النظري والترجيح الظني ودفع الاشتباه المزعوم! فهلا أقلع إخواننا عن تلك المسالك الكلامية الفاسدة التي ما جنينا منها في طول تاريخنا وعرضه إلا البدعة والضلالة؟ فوالله ما ارتكب المتكلمون من جريمة في حق هذا الدين إلا كان أساسها فتحهم باب الاشتباه والاحتمال والاستدلال النظري فيما لا يستقيم لعاقل أن يصل به مرض نفسه إلى أن يطلب في مثله دليلا أصلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

المعرفي مع «ما يظهر» لنا من مدخلات إدراكنا، أسسه علىٰ نقد طويل لتفريق ذهب إليه أحد الفلاسفة بين قول القائل: «الظاهر أن (س)» وقوله «الظاهر أن ليس (س)»، فيما يستساغ به الحكم المعرفي بشأن صحة الدعوىٰ (س) هذه من عدمها. فسمىٰ شرطه ذاك بـ«شرط معقولية إمكان الوصول إلىٰ المعرفة» Condition of Reasonable Epistemic Accessأو بإيجاز CORNEA، وينص عليه كالتالي (١٩٨٤، ص. ١٥٢):

تأسيسا علىٰ الموقف المُدرك (م)، فإنه يحق للإنسان (أ) أن يزعم «أن الظاهر أن (س)»، فقط إن كان من المعقول لـ نسان (أ) أن يعتقد، بالنظر إلىٰ ما أوتي من قدرات إدراكية ومن استعماله لتلك القدرات، أنه لو لم تكن (س) هي الحق واقعا، فإن (المدخلات الإدراكية) (م) ستكون مختلفة علىٰ الأرجح بشكل ما أو بآخر عما أدركه (أ).

والمقصود أن أي زعم بأن «الظاهر أن (س)»، لا يصح أن يخرج منه الإنسان بمعرفة ظنية مفادها أن (س) هذا حق واقع، إلا إن انعدم لديه ما قد يدعوه إلىٰ الظن بأن ما أدركه من ذاك الظاهر كان من الممكن أن يكون علىٰ أي نحو آخر بخلاف ما أدركه، مع كون (س) هذا متحققا في الواقع أيضا. وكل هذا (مع كثير من الأمثلة والأقيسة والتنطع الطويل) حتىٰ يصل في النهاية ليقول لـ«روه» إن زعمه بأن «الظاهر» أن بعض حالات الشر ليس لها سبب حكيم (خير راجح)، لا يمكن الوصول منه إلىٰ الحكم بأن بعض حالات الشر يصح أن يكون هذا وصفها في الواقع تحقيقا، لأن «روه» بحسبه ليس له الحق في الانتقال إلىٰ تلك النتيجة مع علمه بإمكان أن يكون ثمة تعليل حكيم عند الخالق (الذي ينبغي أن يكون علمه أعظم من علمنا وحكمته أعظم من حكمتنا) يخفىٰ علىٰ إدراك البشر (كما يخفىٰ – بحسب تشبيه «ويكشترا» – أكثر ما عند الأم من حِكم ومقاصد في معاملتها بالشدة لوليدها أحيانا)، مع ظهور العالم (في حال وجود ذلك التعليل واقعا) علىٰ نفس هذا النحو الذي نراه لا علىٰ غيره! أو بعبارة أخرىٰ: إنه أيا ما كان الخير العظيم الذي يريده الباري من تلك العذابات والشرور كلها في مفعولاته، فسيظل من الجائز للعالم أن يكون علىٰ هذا النحو الذي نراه، وسنظل عاجزين معه

بإدراكنا البشري عن الوقوف علىٰ معرفة ذلك الخير، وعليه فلا إشكال في القول بأن جهلنا ونقصنا وقصورنا قد «أظهر» لنا أمرا لا يمكن الاستناد إليه في بناء المعرفة الصحيحة في هذا الشأن[1].

(١) وبطبيعة الحال، وكما هو متوقع، فقد تفنن «روه» (١٩٨٤) في الرد على «ويكشترا» بنفس طريقته، في ورقة سماها «الفرضية الألوهية»، قاصدا – بطبيعة الحال – تصوير وجود الباري على أنه فرضية! فعمل على بيان أن برهانه «الدليلي» يحقق شرط CORNEA هذا لو صاغ مقدماته على نحو ما، ولا يحققه لو صاغها على نحو آخر! والتلاعب بصياغة «المقدمات» على الطريقة «التحليلية» صنعة يحسنها الفلاسفة على أي حال ولهم فيها فنون. المهم، فقد انتهى الرجل إلى الزعم بأن القول بوجود الباري ليس مسوغا في حد ذاته لاعتقاد أن ما يقضيه من خير وحكمة في تلك الحالات الكريهة الكثيرة التي نراها في العالم من حولنا، سنعجز نحن البشر عن دركه والإحاطة به ولا بد. فيقول (١٩٨٤، ص. ٩٨): «ولكن مجرد افتراض وجود الباري لا يعطينا أي سبب لافتراض أن الخير الأعظم الذي من أجله يسمح بوقوع تلك العذابات، هو خير من النوع الذي لن يقع إلا في المستقبل البعيد، أو افتراض أن ذلك الخير إذا وقع فسنظل جاهلين به وبعلاقته المباشرة بتلك العذابات التي نراها.» اهـ. فإذا كنا لا نرى وجها لذلك الخير، فالأقرب إلى أذهاننا – بحسبه – ألا يكون له وجه، من غير أن يمنعنا من ذلك الترجيح مانع! وبالتالي فقد تحقق شرط ويكشترا – بحسب «روه» – إذ أصبح من الممكن للملحد أن يقول إنه ليس ثمة داع للقول بأن «ما يظهر لنا» من تخلف الحكمة والتعليل ليس هو الواقع تحقيقا! أو على الأقل، أصبح من حق «روه» – على زعمه – أن يعتقد أن لديه سببا احتماليا وجيها لرد وإسقاط اعتراض الخصم على «برهانه الدليلي» بذلك الشرط. فما دام الخصم يتكلم عن وجود خالق عليم بكل شيء قادر على كل شيء، كامل الحكمة (من غير أن يضيف إلى ذلك الاعتقاد بالآخرة وما سيقع فيها أو نحو ذلك)، فلا وجه «لافتراض» أن ذلك الخير العظيم الذي يريده من تلك الشرور سيقع خارج دائرة إدراكنا لا داخلها!

قلت: فمن الذي قال إن ذلك الخير العظيم المقصود من تلك المكاره الكثيرة لا بد وأن يكون خارجا عن دائرة إدراكنا أو داخلا فيها؟ العقلاء يقولون إن الواقع الآن أننا لا ندري وجه التعليل في أكثر ما نرى من حولنا من مكاره، وما كان لنا أن ندري إلا القليل مما آتانا الله به علما (من طريق الوحي المعصوم)، مع تفويض العلم بما نجهل للباري العليم الحكيم، ولا نجد مشكلة في ذلك! أنتم معاشر الملاحدة من يصر على أن يجعل من ذلك التفويض نفسه مشكلة نظرية (سواء على سبيل القياس الاستنباطي أو الاستقراء الاحتمالي)، ويشترط على باريه – حتى يسلم بما عرف أنه الحق ببداهة العقل – إما ألا يكون ثمة شر أو شيء مكروه أصلا في مفعولاته في هذا العالم، أو أن يكون ملما بالحكمة والتعليل وراء الألم الذي يتعرض له كل أرنب يلتهمه طائر جارح، وكل غزال يتعرض للموت محترقا، وكل طفل يعاني من آلام المرض هنا أو هناك! يعني باختصار: إما أن أعيش في عالم لا أجد فيه إلا ما أحب وأهوى، وإما أن أعيش في عالم أكون فيه عليما وراضيا بحكمة خالقي وتعليله لكل ما أجد فيه من أشياء أكرهها، إن كانت تلك المكاره واقعة لا محالة، إما هذا، وإما أن أكفر بالباري بدعوى أني لا أرى سببا للقول بوجوده أو بكمال حكمته وشمول ذلك الكمال لكل حادث يقع في خلقه! فهل رأيت كبرا وغرورا وعدوانا من المخلوق على خالقه أشدّ من هذا؟

فبالله هي يحتاج العقلاء إلىٰ كل هذا العبث الطويل والتنطع العفن، والتلاعب بالمصطلحات والصياغات الفورمالية المنطقية، واختراع القواعد والشروط .. إلخ، حتىٰ يعقلوا أن الباري أحكم وأعلم ولا بد (بل هو عليم بكل شيء ولا بد)، وأن جهلنا بوجوه الحكمة والتعليل لديه في أكثر ما نرىٰ من المكاره في هذا العالم، لا يصح بحال من الأحوال أن يُجعل «دليلا» تقابَل به بديهيات العقل الأولىٰ فيما يتعلق بوجود الباري وكمال حكمته؟ أهذا طريق العقلاء أم طريق السفهاء الجحدة المستكبرين يا أولي الألباب؟ وما قولك أيها العاقل الكريم في مسلم يتكلف الغوص في ذلك العفن، يرد علىٰ قول فلان وفلان من الفلاسفة في تلك القضية بطريقتهم، بدعوىٰ صيانة المسلمين من «الشبهة»؟ نسأل الله السلامة. والله الذي لا إله غيره، لا صيانة لعقول وقلوب المسلمين إلا باجتناب الفلسفة وأهلها والكلام وأهله والفرار من بضاعتهم جميعا كما يفر أحدهم من الأسد!

تأمل كيف أصبحت صياغة «شرط» ويكشترا هذا هي المشكلة وهي مدار القبول والرد، وكأنه ليس في بداهة العقل ما يوجب للباري البراءة من كل نقيصة (لأن النقص والكمال من وجوه التفريق البدهي بين جنس المخلوقات وبين باريها غير المخلوق)، بما ينزَّه به عن أن يقع في خلقه ظلم أو نقص في الحكمة أو غلبة لكفة الشر على الخير في علمه وإرادته! ولا عجب! فمن أراد أن يرد على كلام ويكشترا على النحو الذي كتبه به، فلن يحتاج إلى أكثر مما أتى به «روه»، أو لعله يحتاج إلى أكثر من ذلك، لا يهم! المهم أن يظل كلا الفريقين يطارد أحدهما الآخر بكلمة كتبها هذا، وقاعدة اخترعها ذاك، وقياس قاسه الآخر، وصياغة ضربها فلان وأخرى خالفتها، وترى هذا يترقى في منصبه الأكاديمي، والآخر مثله، ويشار إليهما جميعا بالتعظيم والتوقير، وتمضي اللعبة إلى غير ما غاية أو نهاية، كل حزب بما لديهم فرحون!

صيغة «دريبر» الاحتمالية Draper's probabilistic argument

لا شك أن انفتاح الباب أمام فكرة إعمال المنطق الاحتمالي في «مسألة الشر» كان مغنما وكنزا كبيرا لرؤوس الإلحاد من الفلاسفة، لا لشيء إلا لزيادة طرق السفسطة والتشغيب علىٰ الحق الواضح وإخفائه وصرف القلوب عنه.

فكأن لسان حالهم يقول كما أشرنا من قبل: «لا بأس، سلمنا لكم بأن مطلق وجود الشر ليس فيه دليل منطقي علىٰ امتناع وجود خالق كامل القدرة، كامل العلم، كامل الحكمة معا. فما قولكم إن قلنا إنه يعطينا – علىٰ الأقل – مستندا احتماليا (بالاستقراء وليس بالمنطق الاستنباطي)، بحيث تقل أرجحية وجود ذلك الخالق احتماليا، كلما ازدادت صور الشر التي لا نعلم لها تفسيرا في العالم من حولنا، وتزداد في المقابل أرجحية الدعوىٰ الإلحادية الطبيعية بشأن أصل العالم؟» أي بإيجاز: إن لم يعجبكم المدخل النظري الاستنباطي في الجدال في هذه المسألة ولم تروه يؤدي إلىٰ مطلوبنا من إثبات العدمية بالمنطق القبلي A-Priori، فلا بأس، فلننتقل إذن إلىٰ المنطق البعدي A-posteriori ولنتناقش فيه، وتحت ذلك، دعونا نجرب تطبيق قواعد الاستقراء الاحتمالي Probabilistic Induction المستعمل في دراسة المحسوسات والمشاهدات في العلم الطبيعي، فنتناول «فرضية وجود الخالق» في مقابل «فرضية عدم وجوده» علىٰ أنهما فرضيتان نظريتان تفسيريتان لحقيقة وجود الخير والشر في العالم، ثم ننظر ما الذي يمكن أن نخرج به من ذلك!

المهم أن يظل الجدال النظري السوفسطائي ضد تلك القضايا المعرفية التي تجعلونها معاشر «المتألهين» من الضروريات العقلية، جاريا مطردا متزايدا فيما يتراكم بين أيدي الناس منه، وألا يزدادوا بذلك إلا استساغة لموقف الملحد المعاند إجمالا، وبعدا عن التسليم ببداهة القول بأن للخلق خالقا وبأنه كامل الصفات لا نقص ولا عيب فيه بوجه من الوجوه، وأن يصبح من كمال العقل عند الإنسان أن يكون لديه «ترجيح دليلي» فردي لما يراه في مجموع ما وقف عليه من «براهين» الفلاسفة واللاهوتيين

في ذلك، وأن يكون له نظر نقدي دقيق في مقدماتهم ونتائجهم حتىٰ يسلم له دينه من المعارضة العقلية! حينئذ يستحق أن يثني عليه الناس بأنه قد أسس إيمانه الغيبي (أيا ما كان موضوع ذلك الإيمان عنده: الإثبات أو النفي أو التوقف أو الانتقائية المحضة) علىٰ «الدليل» لا علىٰ «التقليد»!

فإن كان من ثمرة «معرفية» ترجىٰ من ممارسة تلك الصنعة الخبيثة، فإنما هي إبعاد الناس عن دعاوىٰ المرسلين وطرائقهم في محاججة من خالفوهم، وإيهامهم بأن موقف من يصدّ عن تلك الدعاوىٰ جملة واحدة موقف مستساغ عقلا، علىٰ أساس أن أصحاب تلك الدعاوىٰ مطالبون بخوض معركة عقلية عظيمة مع مشكلات نظرية عويصة تحتاج إلىٰ سنوات طويلة من دراسة الفلسفة وعلومها، فلا يحسن النظر والبحث فيها إلا فيلسوف خبير أو لاهوتي قدير أو متكلم نحرير، وأنه مهما نظر فيها من نظر من هؤلاء «المتخصصين» وألمّ بما قاله أقرانه، فلا إحاطة بسائر جوانبها لمن يطلب ذلك أبدا! ويا له من حكيم - إذن - هذا الذي يقرر أنه ما دامت الفلاسفة قد جربت كل شيء ولم تصل في تلك الأسئلة إلىٰ شيء ذي بال أصلا، فالحكمة في حقه إذن - وهو العامي في صناعات الفلسفة - تقتضي أن يتوقف فلا يثبت لنفسه خالقا بارئا حكيما ولا ينفي حتىٰ يطالع بضاعة القوم ويحسن النظر فيها، إن كان فاعلا!

أليس إن تساوت الأدلة أو تقاربت في قوتها عند الناظر في أي مسألة نظرية خلافية، أصبح الموقف الوحيد المقبول في حقه هو التوقف؟ فما دمتم قد جعلتموها مسألة نظرية، فعليكم إذن أن تقبلوا موقف المتوقف وتلتمسوا له المعاذير! ولا شك أن هذا الموقف يكفيه (في ضوء الموقف الفكري الغالب في مجتمعه من الفلسفة وأهلها) تسويغا نفسيا إن قال به، للانخلاع من سائر الأديان الرسالية، فالتسويغ النفسي Rationalization هو غاية المرام وعين المطلوب علىٰ أي حال!

لذا فلعلي لا أبالغ إن عرَّفت الفلسفة نفسها[١] علىٰ أنها صنعة اختراع المخارج

---

(١) وقد بينت من قبل أن المقصود عند هذا الإطلاق المجرد من الإضافة إنما هو كل صنعة عقلية تطرح فيها البدهيات الأولى ومسلمات الفطرة والغيبيات المحضة للنظر والاستدلال والجدال!

التسويغية النفسية (من طريق الزخرف اللفظي والتنطع بالنظر) لأهل الإلحاد والجحود والإباء من كل شكل وصنف ولون![١]

وها أنت ترىٰ مثال ذلك التفنن في اختراع المخارج التسويغية في مسألة «الشر» هذه ظاهرا جليا لا يخفىٰ. وكأنما يقول قائل القوم: جربنا مع خصومنا طريقا فاعترضوا فرددنا، فردوا علىٰ الرد واتسع النزاع، ثم جاء أحد عباقرتنا بفكرة جديدة كطريق جديد، فزاد بمجرد ذلك من «قوة الموقف الدليلي» لموافقيه في الاعتقاد (والذي ازداد في الحقيقة إنما هو كثافة الغشاوة والغطاء النفسي المطلوب بناؤه وتشييده، فيما بين العقل الواعي وهاتف الفطرة في العقل الباطن عند هؤلاء الفلاسفة، وليس «قوة الدليل» أو الحجة نفسها موضوعيا!)، وازدادت سعة النزاع ولا شك. ومن يدري، لعل عبقريا آخر من عباقرة الفلاسفة يأتي غدا ليطرق طريقا آخر من طرق المنطق الاستدلالي النظري يضيف به «صياغة» جديدة «لمشكلة الشر» تتضاعف بها زخارف الأقوال الباطلة وأبواب الجدال العبثي الكبير أضعافا كثيرة فوق ما هي عليه الآن.

ففي صياغته الجديدة «للحجة الدليلية» من مشكلة الشر، يتفنن الفيلسوف الأمريكي «بول دريبر» P. Draper (١٩٨٩) في تطبيق المنطق الاستقرائي الاحتمالي علىٰ المسألة، مؤسسا ذلك علىٰ ما سبقه إليه «ديفيد هيوم» قبل ما يزيد علىٰ قرنين من الزمان في كتابه «محاورات حول الدين الطبيعي» من ادعاء أنه ليس في العالم

(١) ولقد صدق من قال إن أول من «تفلسف» في تاريخ العالم إنما هو إبليس اللعين، الذي اخترع تعليلا عقليا يسوغ به إباءه السجود لآدم كما أمره ربه، فزعم ما مفاده أن من كان مخلوقا من نار فلا يصح أن يسجد لمن كان مخلوقا من طين، لأنه أعظم منه خلقة. هذه أول حالة يسجلها التاريخ لكائن مريض بمرض الغرور والكبر والهوى المحض، يحاول أن يلتمس لنفسه مخرجا «نظريا» يبدو معه وكأن له الحق في الإباء والاعتراض على التكليف الرباني المباشر! والعجيب أنه على الرغم من أننا لم نسمع عن رسول الله ﷺ وصحابته أنهم تفننوا في الرد على تلك الدعوى الإبليسية الساقطة، إلا أن من المسلمين من أهل الكلام وبعض أهل الفضل من تطرق إلى ذلك، وكأن الأمر يحتاج إلى توضيح! فقال ما حاصله أن عظمة المخلوق لا ارتباط بينها وبين عظمة المادة التي خلق منها بالضرورة، وهو ما يظهر معه قول إبليس وكأنه «غلط نظري»! فنحن نسألهم: هل كان يحتاج إبليس نفسه إلى أن يسمع مثل هذا الشرح لسبب فساد قوله، حتى تقوم عليه حجة بطلان كلامه، قبل أن يلعنه الرب ويطرده من رحمته إلى يوم الدين؟ وإن لم يكن هذا من التنطع الذي قال فيه عليه السلام: هلك المتنطعون، فما التنطع في تصوركم إذن؟

(علىٰ ما فيه من خير وشر) ما يمكن الخروج منه (وتأمل) بالقول بأن له خالقا محسنا حكيما (لا يفعل إلا الخير)، أو القول بأن خالقه ظالم شرير! فهل المعرفة بأن للعالم خالقا حكيما لا يظلم ولا يقضي في خلقه بالباطل، تتحصل (أو لا تتحصل) لدىٰ الإنسان من النظر الاستقرائي في مجموع ما في العالم من خير وشر؟[1] هل المعرفة بكمال صفات الباري وتنزهه عن النقائص التي لا تكون إلا في صفات المخلوقين، مسألة نظرية استقرائية من حيث الأصل؟ هل نحتاج إلىٰ أن نزن مجموع ما نحب من مشاهدات هذا العالم، بإزاء ما نكره فيه في المقابل، حتىٰ نرىٰ أي الكفتين أثقل، وعليه نقرر هل خالقنا حكيم إذ دفع عنا تلك المكاره، أم ظالم لأنه لم يجعل العالم علىٰ أحسن ما نحبه لأنفسنا ونهواه؟ هذا ما زعمه «هيوم»، مع أنه كان يعلم تمام العلم بأن ذاك «النظر الأخلاقي» الشيطاني في أفعال الباري إنما هو اختراع فلسفي حادث، لم يعرفه الناس قطّ قبل ظهوره عند الفلاسفة، ولم يستعمله عاقل من عقلاء البشر في يوم من الأيام حتىٰ ينظر فيما إذا كان الخير راجحا في كل ما يقضيه الخالق ضرورة مهما كان المخلوق يكره ذلك القضاء، وفيما إذا كان خالقه حكيما عليما لا يضع الشيء إلا في موضعه مهما كثرت المكاره والشرور في هذا العالم، يتخذ من نفسه حَكَما (علىٰ نقص علمه الذي يعترف به) علىٰ خالقه صاحب الكمالات كلها!

ولكن من الذي قال إن صفة العقل تليق عند الفلاسفة بغير «الفيلسوف» أصلا، أو أنهم يطلقونها علىٰ من سواهم؟ الناس عند القوم حمقىٰ سفهاء جهلاء حتىٰ يتفلسفوا فيما آمنوا به وسلموا بصحته من مسلمات، كما أومأ إليه راسل فيما مر معك نقله عنه، فإن تفلسفوا صاروا عقلاء مستنيرين بقدر ما فتحوه من تلك المسلمات للتفلسف والنظر، وإن أبدعوا وتفننوا في نصب البراهين النظرية علىٰ صحة أو بطلان ما يعده العقلاء من بدهيات العقل، حازوا بين القوم أرفع الدرجات! ولو سألت أحدهم لقال لك إن هؤلاء الذين يزعمون أن وجود الباري وكمال صفاته حقيقة بدهية لا تفتقر إلىٰ دليل إنما هم «عامة» سفهاء لا يعقلون، ولا يوصف أحدهم بالعقل حتىٰ يتفلسف ويرد

(١) علما بأنه ليس في الأرض رجلان يتفقان في جميع ما يكره كل واحد منهما وما يصفه بأنه شر! بل الأمر كما قيل قديما: مصائب قوم عند قوم فوائد!

علىٰ جميع دعاوىٰ واعتراضات مخالفيه من الفلاسفة في تلك القضايا التي يزعم هو أنها بديهية!

تأسيسا علىٰ هذا المنطق الاستقرائي الأعوج، يتحفنا «دريبر» (١٩٨٩) بموازنة احتمالية ترجيحية بين «فرضيتين» Hypotheses في المسألة، إحداهما مفادها أن مجموع ما تتعرض له الكائنات ذات الشعور Sentient Beings في هذا العالم، المسؤولة منها أخلاقيا Moral Agents (المكلفين) والأخرىٰ غير المسؤولة أخلاقيا، من الآلام والمكاره وكذا الأمور المحببة المتلذذ بها، التي منها ما تظهر له فائدة بيولوجية ومنها ما لا يظهر له ذلك، يتوافق مع القول بوجود خالق حكيم، والأخرىٰ مفادها أن مجموع تلك الظواهر يتوافق - في المقابل - مع مذهب الطبيعيين الماديين القائلين بعدمية الغاية والتعليل وراء وجود تلك الظواهر، بل عدمية الخالق نفسه. فيمضي ليتفنن في تطبيق رياضيات المنطق الاحتمالي تطبيقا مستفيضا، وكأنما يتكلم عن مقدار الأرجحية الاحتمالية لصحة إحدىٰ النظريات المفترضة لتفسير بعض الظواهر المشاهدة في العالم في مقابل نظرية أخرىٰ منافسة لها في علم الجيولوجيا أو علم الاجتماع مثلا، أو عن أرجحية نزول قطعة النردشير علىٰ أحد وجوهها دون ما سواه!

ومع أن فساد وتهافت هذا المدخل العبثي لا يحتاج ممن يسمع به إلىٰ أن يعتني حتىٰ بقراءة كلام الرجل حتىٰ يرميه بالسفسطة والجحود المحض[1]، إلا أنك ترىٰ مخالفيه من اللاهوتيين وأضرابهم يتناولون تفاصيل ما وضعه في مقدمات وخطوات استدلاله الاحتمالي من تقديرات بالنقد والاعتراض، حتىٰ يصلوا في النهاية إلىٰ أنه لم يتمكن من «إثبات» أن «الفرضية الطبيعية» أولىٰ بالقبول من «الفرضية القائلة بوجود خالق حكيم»، وكأن المبدأ نفسه صحيح أو مستساغ من حيث الأصل، وإلىٰ الله المشتكىٰ.

---

(١) إذ لا يحتاج العاقل السوي لدراسة حدود المنطق الاحتمالي وما خاض فيه الفلاسفة من كلام حول مدارس تأويل الاحتمالات وما إلى ذلك، حتى يصل إلى تقرير أن أي محاولة لاستعماله (هو أو غيره من مناهج النظر العقلي) للنظر في حقيقة وجود الباري إنما هو عبث وسفسطة ساقطة بالضرورة من غير ما التفات إلى تفاصيلها أصلا! فمن التفت لتلك التفاصيل واجتهد في بذل الجواب النظري عليها، فقد أجاب الملحد لغاية ما يطمع فيه!

فأي شيء خرجوا به من ذلك إلا ترسيخ فكرة أن وجود الباري فرضية نظرية، كما أن عدميته فرضية مقابلة (من جهة طريق الثبوت المعرفي)، فصح أن تجرىٰ الموازنة الترجيحية الاحتمالية بينهما؟ وما الحامل النفسي علىٰ ذاك الخوض الأعمىٰ؟ إنه الخوف من أن يظهر صاحب الرد وكأنه أقل دراية وفهما لتفاصيل تلك «الحجة المفصلة» من صاحبها وموافقيه، والحرص علىٰ أن يظهر علىٰ الأقران والمخالفين بنفس تلك الأدوات التي من أجلها حاز هؤلاء الأقران والمخالفون ما نالوه من التقدير والاحترام بين الناس! فإذا كانت الدعوىٰ فلسفية، فينبغي أن يكون الجواب فلسفيا أيضا، وإذا كانت طبيعية، لزم أن يكون الجواب طبيعيا، وإذا كانت رياضية لزم أن يأتي الجواب بالرياضيات كذلك، وإلا اتهم صاحبه بالجهل ولم يلتفت إليه الخاصة والمثقفون!

فهذا الذي يقول إن المنطق الاستقرائي يمكن أن يوصَل منه إلىٰ إثبات أن تلك الشرور المنتشرة في هذا العالم لا يترجح مع مجموعها الزعم بأن للعالم خالقا عليما حكيما قديرا، لو صدق وتجرد من الهوىٰ، لاعترف بأن دعواه تلك تضرب بأساس العقل نفسه فتهدمه هدما! ذلك أننا – معاشر البشر – لولا أن كان متقررا في فطرتنا وبداهتنا العقلية (بما لا يفتقر إلىٰ استدلال أصلا، ولو رغمت أنوف الفلاسفة) أن لهذا العالم نظاما مطردا Regularity، وأن لهذا النظام ربا قديرا يقيمه ويمسكه أن يزول، يجعله بإرادته السابقة علىٰ هذا النحو لا علىٰ غيره، ما جاز لنا أن نقول بالسببية، ولا أن نقول بأن للطبيعة قانونا يحكمها (لعلل ومقاصد مخصوصة بالضرورة عند من وضعه علىٰ هذا النحو لا غيره)، نتوصل إلىٰ معرفته بالاستقراء وجمع الشبيه إلىٰ شبيهه! بل لولا هذا ما جاز لنا أن نتوقع في كل مرة يدخل علينا الليل بظلمته، أن الشمس ستشرق غدا!

ولكن الجريمة في هذا الشأن ليست علىٰ الفيلسوف وحده كما ترىٰ، بل يشترك فيها اللاهوتيون والمتكلمون، الذين اختار الواحد منهم إجابة شرط الفيلسوف المعرفي في الإثبات والنفي والخوض معه في سفسطته بدعوىٰ الانتصار للحق، فمنحه الأساس لكثير من سفسطته وتخرصه وتشغيبه علىٰ الحق الواضح من حيث يزعم أنه يدفع

فساد فلسفته عن عقول الناس! ولعل كثيرا من الناس لا يعلمون أن كثيرا من سفسطة الملاحدة في مسألة الشر هذه إنما جاءت في الأصل في جوابهم لما يسمىٰ بـ«الحجج الغائية» أو التليولوجية في إثبات الصانع عند متكلمة النصارىٰ! كيف هذا؟

نقول إن مشكلة نوع «الحجج الغائية» عند اللاهوتيين والمتكلمين بعموم (من أول ظهور لها عند اللاهوتيين النصارىٰ ومن حذا حذوهم من الفلاسفة والمتكلمين المنتسبين إلىٰ الإسلام، ووصولا إلىٰ صورها الحديثة عند التصميميين الأمريكيين «مايكل بيهي» و«ويليام دمبسكي» ورفاقهما) هي فرد من أفراد مشكلة نوع المحاججة الكلامية الفلسفية بعموم. ذلك أن مطلق تكلف التنظير الفلسفي لإثبات الحقائق البدهية الفطرية الضرورية يحيلها إلىٰ قضايا نظرية لا محالة كما أطلنا النفس في بيانه في هذا الكتاب، ومن ثمّ يجعل الوصول إلىٰ إثباتها بصورة نهائية وعلىٰ النحو الذي يتطلبه الاعتقاد الجازم واليقين التام الذي عليه قوام الدين كله، أمرا ممتنعا عند كل من زعم أن المعرفة بتلك الحقائق لا تحصل في النفس إلا بالكسب من طريق الاستدلال النظري (وهو شرط الملحد في المحاججة الذي يخضع له المتكلم عند المناظرة لا محالة)! وإلا فما حاجة من شهد ببدهيتها وضروريتها وفطريتها لأن يتكلف النظر لإثباتها أصلا؟ هذا لا يكون عند عاقل! فهل يرجىٰ لمن أعماه الهوىٰ عن رؤية البدهيات الفطريات علىٰ حقيقتها، أن يصل إلىٰ قبولها من طريق الاستدلال النظري الفلسفي القياسي أو الاستقرائي الطبيعي (إن سلمنا بأن الدليل النظري يوصل إلىٰ تحقيق المطلوب من اعتقاد صحيح في ذات الرب وصفاته، وهذا غير حاصل أصلا نظرا لفساد المقدمات الكلية المشتركة بين المتكلم وخصمه الفيلسوف كما بينا وكما نحن ماضون في بيانه)؟ الجواب لا، إلا أن يرفع الله عن نفسه غشاوة الهوىٰ والميل القلبي لزبالة الفلاسفة وتهوّكاتهم في الغيبيات والإلهيات جملة واحدة، ليرىٰ الحق حقا والضروري ضروريا والقطعي قطعيا، كما يقتضيه العقل الصريح وفطرة النفس السوية!

لذا فعندما يُخضع المتكلم نفسه لشرط الخصم الملحد في تحصيل المعرفة بحصول الخلق الإلهي والتصوير والتدبير الرباني (وهو فاعل ذلك لا محالة ما دام قد

ارتضىٰ أن يناظره علىٰ طريقة الفلاسفة والنظار في تلك القضية الضرورية الفطرية)، فهو يحيل - بمجرد ذلك - عمل الباري جل وعلا في خلق العالم وما فيه إلىٰ مسألة نظرية يرجىٰ الاستدلال لها بالمحسوسات كما يُستدل لإثبات أي عمل تاريخي من أفعال المخلوقين بالقياس والاستقراء! ويصبح ملزما - بمقتضىٰ التصور المعرفي للمسألة الذي تفرضه طبيعة المناظرة نفسها: أنها مسألة استقرائية A-posteriori من مسائل البحث التجريبي - بأن يقدم نفس النوع من الأدلة والبراهين والقرائن التي يستعملها المحقق الجنائي (مثلا) في إثبات أن فاعل تلك الأشياء هو المتهم فلان وليس غيره، أو أنها من هذا الصنف من الجرائم وليس غيره! وهو ما يجعل المنطق الاحتمالي أساسا لكل محاولة لبناء برهان كلامي غائي «تليولوجي» لإثبات حصول فعل «الخلق» بالضرورة، مهما اختلفت صور ذلك البرهان ومقدماته، ويجعل في تلك المقدمات ما يفضي بصاحبه إلىٰ تشبيه الأفعال وقياس الرب جل وعلا (في صفات الذات والأفعال) علىٰ بعض أنواع خلقه لا محالة!

فأصحاب البراهين الغائية يريدون استعمال المشاهدة لإثبات وجود غاية وقصد يمكن الوقوف علىٰ معرفتها بالقياس في نظام العالم (كما يطالبهم به الفلاسفة عند المناظرة، أو كما تكلفوه هم تطوعا لاسترضاء الفلاسفة!)، وحتىٰ يستقيم لهم استعمال المشاهدة علىٰ أنها مستند تعضيدي استقرائي لذلك الزعم Confirming Evidence، فإنه يلزمهم التفريق بين أشياء في العالم ينطبق عليها الوصف المعين الخاص بآحاد المشاهدات التي استدلوا بها دون غيرها، وأشياء لا ينطبق عليها ذلك الوصف، حتىٰ يصبح النوع الأول دليلا حسيا يدعم فرضيتهم النظرية (إذ يتأولونه إذن علىٰ أن ثمة خالق ما قد صنعه لغرض معين قد أمكنهم الوقوف عليه فيما يظنون)، وهو المسلك الاستدلالي الذي نتبعه عموما - معاشر العقلاء - كلما أردنا استعمال المشاهدات للاستدلال علىٰ أن بعض الحوادث بعينها تمتاز عن غيرها بأنها قد أحدثها فاعل معين له غرض معين نملك من استقراءاتنا السابقة دراية بغاياته وأغراضه من صناعاته وأفعاله!

فكما ضربنا المثل آنفا، فأنت عندما ترىٰ قطعة صخر تقترن في ذهنك بهيئة السُلّم الحجري (مثلا)، فستنسبها بالقياس المباشر إلىٰ صنع إنسان أو جماعة بشرية قد جعلته علىٰ هذه الصورة (بأساليب التحويل من نحت وبناء وتشكيل ونحوه) ليخدم وظيفة نوع السلم وغايته، لأن هذا ما جرت عليه عادتك. بخلاف ما لو رأيت قطعة صخر لا تقترن في ذهنك (في مخزون عادتك) بشيء من صناعات البشر فلن تنسبها إلىٰ «مصمم بشري» أو إلىٰ أي ذات فاعلة مخلوقة مما يقاس علىٰ نوع المصمم البشري! فما هي المقدمات الأولىٰ التي أسست عليها هذا الاستدلال؟ مقدمتان لازمتان: (أ) درايتك الاستقرائية السابقة من واقع خبرتك الفردية بنوع مخصوص من المصنوعات يُنسب عندك إلىٰ نوع مخصوص من الصانعين، (ب) ومن ثم اعتقادك إمكان تمييز الصانع الذي تريد نسبة ذلك الشيء المصنوع إليه، من طريق تمييز صنعته عن غيرها من أنواع الموجودات في العالم.

فلو كان غاية الأمر عندك أن تقلب نظرك في خلق الله تعالىٰ وبديع صنعه لتذكر نفسك بأنه الحق وبأنه يبعثك بعد موتك وأنه عليه أهون من الخلق الأول، وأنه أشد بأسا وأعظم شأنا من أن يأمن الإنسان مكره، وبأنه كذلك أوسع رحمة من أن يقنط الظالم التائب من رحمته (كما هو مقصود المؤمنين العقلاء من التفكر المشروع في خلق الله)، فلن يكون في الأمر قياس شمول ولا مقدمات استقرائية كالمقدمة «أ» ولا قياسية كالمقدمة «ب» ولا شيء من ذلك العبث الفلسفي السوفسطائي الصرف! فهو (أي المؤمن) إنما ينظر إلىٰ خلق الله وهو علىٰ علم ويقين فطري سابق بأنه خلق الله وحده بالضرورة لا غيره، فيأتي التأمل والتدبر في نفسه بالثمرة الصحيحة من زيادة الإيمان واليقين وبعث النفس علىٰ العمل القلبي الصحيح، وهذا هو كمال العقل ولا شك!

أما استعمال التدبر والنظر في خلق الله بغرض «الاستدلال الغائي علىٰ وجود الصانع» لتأسيس المعرفة بوجوده من الأصل (وكأن النفس تخلو منها ابتداء)، بنفس الطريقة التي بها يستدل الباحثون الأركيولوجيون علىٰ بقايا الأمم البائدة أو المحققون

الجنائيون علىٰ الجاني في جريمة ما أو التي بها يطمح أصحاب خرافة ساكني كوكب كلاريون المزعوم في إثبات محاولتهم الاتصال بنا، فهذا محض السفسطة والسفاهة مهما ازدان عند أصحابه بزخارف الأدلة والبراهين والأبحاث والإحصائيات والتجارب .. إلخ، ولا يغنم منه بشيء علىٰ الحقيقة إلا الفيلسوف الملحد نفسه، ولا يضاف من ذلك العبث شيء إلىٰ بحر الخصومة الكلامية الفلسفية السرمدية الجارية بين الملحد وبين خصمه المتفلسف إلا كان المحصول في صالح الملحد (اجتماعيا) لا في صالح خصمه، إذ هو المنتفع الوحيد من تشعيب الجدال وتوسيع دائرته وتعديد أوجه الاستدلال والرد، والرد علىٰ الرد، في تلك القضية التي نزعم نحن أهل الحق أنها من بديهيات العقل الأولىٰ! فكيف إذا علمتَ أنك مهما فعلت فلن تأتي بحجة غائية استقرائية من النوع الذي يقبله منك السفساط الملحد إلا لزم من منطق تأسيسها نفسه عندك، التفريق بين نوع من أنواع المحسوسات تنسبه إلىٰ صنع الباري، ونوع آخر تنسبه في التعليل إلىٰ العشواء أو الطبيعة أو إلىٰ غيره من الخالقين؟ وإلا فأين عادتك الاستقرائية السابقة بالعوالم المخلوقة والعوالم غير المخلوقة، حتىٰ ترجح أن يكون لعالمنا هذا خالقا بالنظر إلىٰ صفات بعض الأشياء فيه؟

لذا فعندما ترىٰ اللاهوتي أو المتكلم يستدل بالتعقيد البالغ الذي تذهب منه ألباب العقلاء في بعض النظم الحيوية، أو بانضباط الكون علىٰ قيم مخصوصة لثوابته الكونية دون غيرها، ليقول إن هذا دليل علىٰ أن صانع هذا العالم هو الله، فاسأله من فورك «وما دليلك علىٰ أن الصخرة الصماء العمياء في قعر البحر التي ينسبها خصمك إلىٰ العشواء لأنه لا يعرف لها غرضا ولا وظيفة، هي أيضا من صنع الله؟» فإن قال ضرورة العقل فقد فرق بين متماثلات قد علم تماثلها بمقتضىٰ تلك الضرورة نفسها! ذلك أن ضرورية معنىٰ الخلق والمخلوقية تشمل كل حادث من حوادث العالم، وهو أمر واضح لا يماري فيه إلا الخصم السفساط الذي أسقطه ابتداء ثم اشترط علينا إثباته بالبرهان النظري! فهو (أي المتكلم) قد أبىٰ إلا أن يسلك طريق الاستدلال الاستقرائي القياسي ليثبت أن في العالم ما يدل علىٰ أن له صانعا، فلا نقبل منه الاستناد إلىٰ الضرورة العقلية في مسألة الخلق وقد ارتضىٰ إسقاطها من الابتداء، إجابة لشرط السفساط الملحد

فيما يتحقق به الإثبات المعرفي! وإن قال إنه عرف أن تلك الصخرة البكماء في قلب الصحراء لا بد وأن صانعها هو خالق كل شيء، بنفس المنطق الذي عرف به أن العين المركبة في رأس الذبابة (مثلا) من صنع الله، ألا وهو منطق القياس الاستقرائي في المحسوسات، فقد كذب ولا شك، لأن منطق الاستدلال الغائي يقوم علىٰ التفريق النوعي بين هذين الصنفين من الموجودات، وإلا ما استقام له أن يجعل المشاهدة والقياس الاستقرائي طريقا لبناء هذا الصنف من البراهين النظرية الترجيحية القياسية فيما يوصف بأنه «تصميم»!

وقد اعترض السفساط الأشهر في تاريخ الفلسفة المعاصرة «ديفيد هيوم» في بعض كتبه علىٰ مبدأ البرهنة التليولوجية القياسية عند اللاهوتيين والمتكلمين بكلام مشابه لهذا الكلام، ولا يزال القوم إلىٰ اليوم يحاولون إجابة اعتراضاته بصورة محكمة قاطعة (علىٰ طريقة الفلاسفة) بلا طائل! فمن الذي فتح له ولأمثاله هذا الباب؟ إنه أول متكلم تكلف مخاطبة فلاسفة الإلحاد (الذين لم يبلغ الهوىٰ والجحود والاستكبار والسفسطة علىٰ البدهيات عند أحد من الخلق مبلغه عندهم) بهذا الصنف من «البراهين النظرية» الذي اشترطوه علىٰ أهل الملل، يبذله إليهم قربانا رجاء أن يقبلوه ويعدوه بينهم من جملة العقلاء والنبهاء! أصل علم الكلام وما شابهه من المسالك الجدلية الفلسفية عند كافة أهل الملل إنما هو الطمع في إظهار التفوق «العقلي» و«العلمي» للمتكلم علىٰ خصومه من أهل الملل المخالفة، باستعمال نوع الأدلة النظرية التي يتخذها الخصم نفسه معيارا في الحكم بكمال العقل والعلم، مع تلبيس ذلك المطلب الشهواني البحت بلبوس الانتصار للدين!

وكان من اعتراضات هيوم أن إثبات الصانع من طريق أقيسة البراهين التليولوجية لن يؤدي إلا إلىٰ إثبات خالق ناقص بالضرورة (وصدق والله وهو كذوب!)، لأنه إذا كانت المعرفة البشرية بالمقاصد والغايات التي بها يمتاز ما كان فيه «تصميم وخلق» مما لا يوصف بذلك من عامة الموجودات في العالم، هي طريق الحكم علىٰ بعض الأشياء بأنها من صنع الرب الخالق، فلا محيص من إثبات خالق ناقص لتلك الأشياء لأننا لا

نجد في أقيستنا علىٰ أفعال الصانعين والخالقين العقلاء نظيرا لما نزعم أنه خلقه من تلك الشرور الكثيرة التي جعلها في هذا العالم! فإن أجابه المتكلمون بأننا ننفي عنه النقص بضرورة العقل ونثبت له كمال الحكمة والعلم بضرورة العقل وإن لم تحط معارفنا بالأوجه التفصيلية لتلك الحكم والتعليلات عنده، فلماذا ارتضوا (معرفيا وجدليا) أن يتكلفوا الدليل النظري لمطلق حصول الخلق ثم اختاروا الاستناد إلىٰ الضرورة العقلية في هذه المسألة؟

بل يلزمهم أن يتكلفوا اختراع الجواب النظري عن ذلك الاعتراض أيضا، وعلىٰ نفس الشرط المعرفي الذي استدرجهم إليه السفساط الملحد، كما تكلفوه من قبل في الرد علىٰ اعتراض الملحد علىٰ حقيقة أن له خالقا وصانعا يملك أمره وأمر العالم بأسره من فوقه، وإلا وقعوا في التناقض المنهجي! وإذا بمن أراد منهم التزام ذلك الشرط السوفسطائي بتمامه يستدرج إلىٰ أن يستعمل في حق رب العالمين المزيد من صور الأقيسة والاستقراءات التي لا يصح في العقل السوي إعمالها إلا علىٰ أنواع المخلوقات الواقعة تحت العادة الحسية (إجمالا)، حتىٰ يقنع ذلك المجرم الجاحد المكابر بأن ربه الذي خلقه وخلق كل شيء لا بد - بالبداهة والفطرة - وأن في علمه من الحكمة والتعليل ما لا يرجع عليه بالنقيصة والمذمة من أي وجه! والغرض في الحقيقة ليس إقناع السفساط الملحد علىٰ أي حال، فهم يعلمون من البداية أنه مكابر مغرور وإلا ما أنكر حقيقة مخلوقيته نفسها التي هي عندهم وعند كل عاقل من الضروريات والبدهيات، فلا يطمعون في زواله عن موقفه علىٰ أي حال، وإنما الغرض إحراجه وإظهار التفوق عليه بإسكاته وقطعه في المناظرة بإثبات مصادمته في بعض كلامه لشيء مما يراه هو من الضروريات أو علىٰ الأقل من ثوابت العلوم والمعارف المعتبرة عنده. والسؤال الآن لكل قارئ فطن قد وعىٰ هذا المعنىٰ الذي نريد تقريره: هذا الإغراق في نوع التنظير القياسي والاستقرائي في الإلهيات والغيبيات المحضة، من السبب فيه ومن المسؤول عنه تاريخيا علىٰ الحقيقة، ومن الذي وصل به إلىٰ ما نراه الآن في أدبيات الفلاسفة من تشعب لا أول له ولا آخر، وبأي عقل يقال في مجموع ذلك الخبث المتراكم بعضه فوق بعض عند أصحابه (الذي يصبح «الناظر في مسألة وجود الصانع»

مطالبا بدراسته كـ«علم نظري تخصصي»، حتىٰ يكون «صادقا في طلب الحق»، وحتىٰ لا تتهمه الفلاسفة بخفة العقل «وبالتقليد في الإيمان»!!!)، إنه مما يعلو به الحق علىٰ الباطل؟

إن المتأمل في تاريخ البراهين الغائية (التليولوجية) بعموم سواء عند أهل الكتاب أو عند المتكلمين من بني جلدتنا، يرىٰ ذلك الالتزام بأصل المنطق القياسي الاستقرائي عندهم حاصلا لا مناص منه. واليوم لا تراهم يتكلمون عن الغائية في أدبيات اللاهوتيين والمتكلمين علىٰ السواء إلا تحت باب «البراهين من التصميم» Arguments from Design، وحسبك باستعمال هذه اللفظة وحدها «التصميم» دليلا علىٰ القياس الفاسد وتشبيه الأفعال، الذي هم واقعون فيه لا محالة بمقتضىٰ منطق الاستدلال نفسه الذي خضعوا فيه لشرط الخصم الملحد كما بينا! وهو ذاك المدخل الكلي في خطاب المخالفين الذي يسميه متكلمة هذا الزمان من بني جلدتنا بـ«لغة العصر» و«لغة العلم» ونحو ذلك من زخارف لفظية مغرقة في الإجمال! هذا ما جلب علىٰ اللاهوتيين إلزام الملاحدة إياهم بتقديم نفس النوع من التفسير الاستقرائي والقياسي لطبيعة ذلك الخالق الذي أثبتوه من قبل بالتفسير الاستقرائي والقياسي!

أو كما ألزمهم به «هيوم»: إن كنتم أثبتم الخالق بهذا النوع من القياس، فيلزمكم إثبات خالقه بالقياس كذلك، وهكذا في تسلسل لا يسع أدوات القياس والاستقراء المجردة أن تحسمه أصلا! أو بعبارة أخرىٰ: آخر ما تخدمكم به تلك الأدوات أن تثبتوا بها خالقا من نوع فائق القدرة من أنواع المخلوقين (ككائنات الفضاء الخرافية مثلا!)، أما أن تثبتوا بها الباري رب العالمين فهي لا يوصل منها إلىٰ ذلك! فما كان جوابهم إلا أن قالوا: إننا ما قلنا بخالق مخلوق وإنما بخالق ليس بمخلوق! قلت: فإن كان كذلك حقا عندكم (ليس بمخلوق بالضرورة) فما وجه تكلفكم إثبات وجوده من تلك الطريق القياسية، التي تقاس فيها مخلوقاته علىٰ صناعات المخلوقين وأفعاله علىٰ أفعالهم؟ التزموا ما اخترتم التزامه بتمامه أو اتركوه بملزومه (لأصل الفساد المنهجي المعرفي فيه)، أما التفريق بالتحكم المحض بين ما تجعلونه ضرورة عقلية وما تجعلونه دعوىٰ

نظرية تستدعي تكلف أنواع الاستدلال القياسي لإثباتها بين يدي من يجحدها ويزعم أنه لا يجد ما يدله عليها، فهذا وأيم الله ضرب من الضلالة والتناقض عظيم!

الفيلسوف يشترط علىٰ خصمه أن يثبت له بالقياس (بنوع من أنواعه) أن تلك الأشياء قد صُنعت لغاية وقصد عند خالق غيبي، كما يمكنه أن يرىٰ مثل ذلك في مصنوعات البشر، فهل صاحب هذا الشرط السوفسطائي الفاسد يوصف بأنه عاقل صادق في طلب الحق، وهل يصح أن نرتضي منه - معاشر المسلمين - ذلك الشرط وأن نجيبه إليه متىٰ طلبه، بدعوىٰ أن «دليل الغائية» دليل معتبر في إثبات وجود الله؟

لولا أن كان «ديفيد هيوم» ملحدا متشككا مكابرا، ما طرح أصول المنطق الاستقرائي نفسه للمساءلة المنطقية، وما زعم أنها تفتقر إلىٰ الدليل العقلي حتىٰ تثبت (أي حتىٰ نعرف ما إذا كانت تفيد العلم أم لا)! أو بعبارة أخرىٰ: لولا أن «تفلسف» في المسألة، ما أفسدها علىٰ نفسه وعلىٰ من تابعوه! ولكنه يحب ذلك الإفساد ويطلبه ويتعلق به، ويحب أن يرىٰ الناس وقد تابعته عليه وتنازعت فيه ما بين موافق ومخالف، لأن هذا يمنح الملحد المتشكك مسوغا نفسيا واجتماعيا ضخما للبقاء علىٰ أشد ما أنت راء من المعتقدات الغيبية فسادا وبطلانا وتناقضا، من غير أن يتهمه أحد بالسفاهة المحضة وبالهرطقة الموجبة للبطش والإزالة! وما دامت قد اختفت من المجتمع دعوىٰ أن الحق واضح بدهي لا يفتقر إلىٰ دليل، فهو وأمثاله في سعة من إلحادهم كما يطمعون. بل إنهم عليه يحمدون وبه يعظمون! وإني لأعلم من المنتسبين إلىٰ الدعوة في زماننا من لا يجسر علىٰ اتهام رجل «بمنزلة ديفيد هيوم» وتأثيره في الفلسفة الغربية المعاصرة بالسفسطة والسفاهة، وقد تراه يتباطأ عن ذلك ويتخاذل عنه بدعوىٰ الإنصاف والتروي والحذر من إطلاق الأحكام الجزافية .. إلخ، فمن أي شيء هذا إلا أن يكون من فتنة ذاك المفتون وأمثاله بمن اختار أن يرافقهم في دربهم وأن يجعلهم أقرانه من الفلاسفة والمتكلمين وأشباههم؟ ماذا يقول زملاؤه الفلاسفة والمفكرون والمثقفون إن سمعوا منه كلاما كهذا؟ هذا أمر غير مقبول! بل عليه أن ينزل الفلاسفة وعظماء الفكر العالمي منازلهم، وأن يتناول «براهينهم» و«مؤلفاتهم» تناول الطالب لكلام أستاذه، بل كلام التابع لنبي من الأنبياء، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ألست تراهم يجتهدون في جمع تراث

الواحد من هؤلاء الفلاسفة بكل شغف، ويبذلون الوقت والجهد في استجلاء مواقفهم وآرائهم في هذه القضية وتلك، وكأن ما بين أيديهم من نصوص الأنبياء والمرسلين التي يتعين جمعها إلىٰ بعضها البعض، وحمل بعضها علىٰ بعض حتىٰ يستقيم فهمها علىٰ الوجه الصحيح؟ فمن أي شيء هذا؟

مع أن بيان سفسطة الرجل لا يحتاج إلىٰ نظر أصلا! فإذا كان المنطق الاستقرائي النظري يقوم علىٰ جمع الأشباه والنظائر للخروج من ذلك الجمع بعلة سببية، أو بقاعدة تحكمها سببيا، علىٰ أساس أن تلك العلة أو القاعدة موجودة بالضرورة وإنما المطلوب هو الوصول لكشفها (لعلمنا الفطري بكمال صنعة الباري سبحانه وانتظامها علىٰ ناموس سببي وعلىٰ تعليل حكيم)، فبأي عقل يستعمل ذلك المنطق نفسه (كما سلكه «دريبر») للوصول إلىٰ القول بنفي تلك الصفات التي لولا استقرارها في فطرتنا وبداهتنا الأولىٰ من غير اكتساب أو استدلال، ما بحثنا ولا استقرأنا أصلا؟

نفس هذه المكابرة اللعينة يرتكبها الطبيعيون في كل مرة يقول قائلهم إننا لا ندري ما وظيفة هذا العضو أو ذاك، وإذن فلا نجد إلا أن نزعم أنه لا وظيفة له ولا صانع ولا غاية، وأنه من بقايا التطور الدارويني! مع أن الاستقراء في علوم الطبيعيات والإنسانيات (المفضي إلىٰ الترجيح الاحتمالي بشتىٰ صوره) إنما هو في حقيقته شهادة من الإنسان علىٰ نفسه بالنقص والجهل المعرفي بإزاء خالق حكيم عليم له سنن سببية محكمة في نظام العالم، فلا نملك إلا أن نسعىٰ في استكشاف تلك السنن من طريق جمع الشبيه إلىٰ شبيهه والنظير إلىٰ نظيره! فلولا أن علمنا – بالعلم الفطري البدهي غير المكتسب – أن وراء النظم البيولوجية خالقا حكيما، ما تقرر لدينا في مناهج البحث والنظر الطبيعي أن نستقرئ من مفردات المشاهدات تلك القوانين التي نعتقد أنها تحكم تلك النظم سببيا، وما اجتمع لدينا ما عندنا الآن من علوم في الأحياء والطب ونحوها! فما أشبه تلك الدعاوىٰ الإلحادية من هؤلاء بمن يطلق الرصاص علىٰ قدميه، لو كانوا يعقلون!

كثيرا ما نرىٰ اللاهوتيين والمتكلمين يتذرعون من أجل تكلف اختراع المزيد من «البراهين الغائية» الكلامية بضرورة تحدي الملحد بأن يأتي بتفسير «مادي» لهذه

الظاهرة أو تلك يخلو من اقتضاء واستلزام الفاعل المريد بالغيب من ورائه! ونقول لهم: ولكن لن يعجز الملحد المادي عن تمديد سلسلة الأسباب الطبيعية الأسطورية التي اخترعها الطبيعيون عبر القرنين الأخيرين في تصور قصة نشأة الكون وما فيه والأرض وما عليها، ليستخرج منها تأويلا يغطي تلك الظاهرة التي تتحدونه بها أيا ما كانت، ثم يأتيكم وقد أجاب عن التحدي بتمامه ولا إشكال! تحديتموه بأن يأتي بتفسير نظري مادي طبيعي، فجاء بتفسير مادي طبيعي كما طلبتم، ثم زعم أنه «أسهل» وأخف وزنا من «تفسيركم» أنتم! فكان ماذا؟ أصبحتم إذن مطالبين بإثبات أن «نظريتكم» أحسن من «نظريته» علىٰ شروط المنهج القياسي التفسيري نفسه، فتأملوا!

... بل الآفة في نفوسكم المريضة، لا في صفات خالقكم سبحانه.

ما أحسن ما خطه يراع ابن القيم رحمه الله في صدر كلامه عن هذه القضايا في كتابه (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) حيث قال:

فصل: وقد سلك جماهير العقلاء في هذا الباب في كل واد وأخذوا في كل طريق وتولجوا كل مضيق وركبوا كل صعب وذلول وقصدوا الوصول إلىٰ معرفته والوقوف علىٰ حقيقته، وتكلمت فيه الأمم قديما وحديثا وساروا للوصول إلىٰ مغزاه سيرا حثيثا وخاضت فيه الفرق علىٰ تباينها واختلافها وصنف فيه المصنفون الكتب علىٰ تنوع أصنافها، فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهذا الشأن ويطلب الوصول فيه إلىٰ حقيقة العرفان. فتراه إما مترددا فيه مع نفسه، أو مناظرا لبني جنسه، وكل قد اختار لنفسه قولا لا يعتقد الصواب في سواه، ولا يرتضي إلا إياه، وكلهم إلا من تمسك بالوحي عن طريق الصواب مردود، وباب الهدىٰ في وجهه مسدود، تحسىٰ علما غير طائل، وارتوىٰ من ماء آجن، قد طاف علىٰ أبواب الأفكار، ففاز بأخسّ الآراء والمطالب، فرح بما عنده من العلم الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وقدم آراء من أحسن به الظن علىٰ الوحي المنزل المشروع والنص المرفوع، حيران يأتم بكل حيران، يحسب كل شراب ماءً، فهو طول عمره ظمآن، ينادىٰ إلىٰ الصواب من مكان بعيد، أقبل إلىٰ الهدىٰ، فلا يستجيب إلىٰ يوم الوعيد، قد فرح بما عنده من الضلال، وقنع بأنواع الباطل وأصناف المحال، منعه الكفر الذي اعتقده هدىٰ وما هو ببالغه عن الهداة المهتدين، ولسان حاله أو قاله يقول، ﴿**أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا**﴾؟ ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [**الأنعام**: ٥٣]؟

وصدق رحمه الله، فوالله ما طرق الناس إلىٰ قضايا الغيب بابا خلاف باب الوحي إلا هلكوا، فصاروا كما قال كحيران ضائع يأتم بحيران زائغ، نسأل الله السلامة! وإن العاقل من بني آدم لا يكاد يبدأ بالتأمل فيما كتبه فلاسفة النصارىٰ والملاحدة علىٰ السواء في تلك المضايق – لا سيما ما تراكم من دعاوىٰ وتخرصات فلاسفة أوروبا فيما بعد عصر النهضة – حتىٰ يجد نفسه مدفوعا إلىٰ حمد الله تبارك وتعالىٰ وشكره علىٰ نعمة الإسلام والسنة وكفىٰ بها نعمة، وحتىٰ يرىٰ بعيني رأسه تأويل قول الملك جل وعلا ﴿**بَلْ كَذَّبُوا**

بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [**يونس**: ٣٩] وكذا تأويل قوله مخاطبا رسوله الخاتم: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [**الأنبياء**: ١٠٧] إي وربي صدقت جل شأنك وتقدس اسمك! رحمة وأي رحمة! ولكن علىٰ قلوب القوم أقفالها!

ووالله ما ترىٰ هؤلاء إلا ساخرين هازئين بحملة الحق من عقلاء البشر! يقول الواحد منهم بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال: «أنىٰ لهؤلاء العرب الأجلاف أن يهتدوا إلىٰ الحق فيما خفي علىٰ أساطين فلاسفتنا ولم تبلغه عقولهم؟» يقولون كما قال أسلافهم من قبل: ﴿**أَهَـٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا**﴾ [**الأنعام**: ٥٣]؟ وقولهم ﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾ [**هود**: ٢] فوالله ما كان الحق يوما ما بالذي يخفىٰ علىٰ لبيب حتىٰ يستعضله أولو الأحلام من النظار والباحثين في العقليات، وإنما هو محض الهوىٰ، والتمسك بما يعلو به الفيلسوف وسط أقرانه وإن كان عند الغاية في التهافت والسخافة، وإن كان يدير النظار حول أنفسهم كما يدور الكلب حول ذيله رجاء التقامه بفيه، أو كباسط كفيه إلىٰ الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه!

ولو صدق هؤلاء لزالت الغشاوة عن أبصارهم، ولكنهم يستعذبون تلك الغشاوة نفسها ويتفننون في سباكتها وتشييدها أحسن تشييد، لا تزال شياطين الجن والإنس تؤزهم عليها أزا، يتلذذون بما تجلبه إليهم من ثناء الناس! يقول الواحد منهم لأصحاب الحق أنتم أميون، أنتم عوام لا دراية لكم بطرائق الفلاسفة في نقض الحجج الفاسدة وكشف عوارها، مع أنك ترىٰ الواحد منهم ينتهي بنظره في الغيب وفيما بعد الموت إلىٰ دعاوىٰ في غاية التناقض والسخافة، لا يخفىٰ بطلانها حتىٰ علىٰ الصبية الصغار! ولكنه الغرور والكبر وغمط الناس، تلك الخصلة الذميمة التي ما انتفخت مكتبات الفلاسفة بتلك الأطنان من المصنفات المحشوة بإثبات المحالات وإبطال البدهيات والمحاجة بالأوهام والتخرصات واختراع حجب المغيبات وهدم أصول العقل نفسه، إلا بسببها والله المستعان لا رب سواه!

إن حجة الحق الذي جاءت به الرسل واضحة جلية، لا تحتاج إلىٰ تصانيف طويلة ولا إلىٰ مطولات فلسفية تطفح بالجدليات والسفسطة والاعتراضات الواهية، وهم يعلمون ذلك تمام العلم، ولكنه الهوىٰ قاتله الله! تلك الحجة التي قد أوجزها كتاب رب العالمين في أوجز بيان وأحكم عبارة، في ألفاظ يغني تدبرها والتجرد في تأملها، عن طلب شيء قبلها أو بعدها في تحقيق المعرفة الصحيحة الكافية تمام الكفاية في هذه البابة، إذ تصيب عند السامع معرفة يجدها مركوزة في فطرته وبداهته ويصرخ بها ضميره في باطن نفسه، من غير أن يفتقر فيها إلىٰ اكتساب أو نظر!

يقول الملك سبحانه: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ [**الأنعام**: ١٣٠]

ويقول ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [**الزمر**: ٧١].

ويقول: ﴿**تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾ [**الملك**: ٨].

فالحق يثبت في نفس المتلقي بمجرد سماع تلاوة الآيات والنذر من رب العالمين! ولو كان الحق الذي جاء به الرسل يفتقر إلىٰ معرفة سابقة متقدمة عليه تكتسب من طريق البرهان النظري علىٰ أي صنف كان، لكان لجميع من جاءهم المرسلون وخاصموهم وجادلوهم في ذلك الحق ثم ماتوا وهم يزعمون أنهم لا يرون «كفاية الأدلة»، عذر عند الرب يوم القيامة، وإذن ما كان يصلح أن يقال لهم تبكيتا وتقريعا قبل أن يقذفوا في جهنم: ﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ**﴾!

يقول الملك العليم: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٣٠] فهذه ملائكة الرب تسأله استعلاما لا اعتراضا (وحاشاهم)، تقول

ما معناه: يا رب قد خلقتنا علىٰ ما نحن عليه فما كنا إلا مسبحين لك مقدسين عابدين خاضعين في جميع أحوالنا، فلماذا تجعل في الأرض من يأتي إليها محجوبا عن رؤية ما نراه نحن من أمر السماء، وعن رؤية ما امتلأت به من الملائكة الخاشعة الخاضعة لجلالك سبحانك آناء الليل وأطراف النهار لا يفتُرون، فيؤمن من يؤمن ويجحد من يجحد ويعصىٰ من يعصىٰ، فيكون في الأرض الفساد وسفك الدماء وغيره من الشرور؟

فتأمل جواب رب العالمين إذ قال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٣٠]! ووالله لو لم يكن في القرآن سوىٰ هذا الجواب الموجز البليغ لمثل هذا السؤال لكان فيه الكفاية لكل عاقل منصف ولقامت به وحده الحجة الدامغة علىٰ كل شيطان مارد! تأمل كيف أن الملائكة لم تسأله سبحانه مثل سؤال الفلاسفة: «كيف يكون هذا الشر والفساد وسفك الدماء سببا لخير عظيم وقد كان بوسعك يا رب أن تأتي بهذا الخير العظيم دون خلق الشر أصلا؟» فإن هذا السؤال ونحوه قد انقطع السبيل إليه بالشهادة علىٰ السائل بالجهل والنقص، وبأنه لا يلزم للمخلوق أن يعلم الحكمة وراء كل خلق وكل تقدير قدره الرب في هذا العالم أو غيره حتىٰ يشهد له بكمال العلم والحكمة وينزهه عن الظلم والنقيصة! ومع هذا، فقد جاء الوحي المعصوم ببيان الحكمة الكلية من نزول المكاره بأهل الأرض أشكالا وألوانا، إذ أراد سبحانه أن يستصفي قوما من خلقه يؤمنون به في الغيب ويثبتون علىٰ ذلك مهما اشتد عليهم البلاء في الدنيا بما يكرهون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٤٠] فهذه غاية لا تتحقق في علم رب العالمين إلا بخلق العالم علىٰ نحو ما نراه وعلىٰ ما فيه من المكاره الشديدة، فتكون لله إرادة كونية يخلق بها سبحانه ما يحب وما يكره، وإرادة شرعية يأمر فيها بما يحب وينهىٰ عن اقتراف ما يكره.

من فقه هذا المعنىٰ، أدرك أن الدنيا دار اختبار، بما فيها من خير وشر، لا بما فيها من الشر فقط! حتىٰ عقولنا التي في نفوسنا نحن مبتلون بها، فإما ساقتنا بتوفيق من الله تعالىٰ إلىٰ النجاة واتباع الحق، وإما تردت بنا في الهلكة كما رأينا من أحوال الفلاسفة، نسأل

الله السلامة. بل والله إن الابتلاء بالخير أشد من الابتلاء بالشر، والامتحان به أصعب، لأن الإنسان عند تعرضه للشر يجد نفسه كارها مضطرا للاستعانة بقوة خارجة عن نفسه غالبا، فقد يضطر حالئذ لذكر الله تعالىٰ، بخلاف ما يكون عليه عند اللذة وعند التنعم بالخير! يقول الرب جل وعلا ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٣] وتأمل قوله جل شأنه: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [يونس: ١٢] وقوله: ﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا**﴾ [**الإسراء**: ٦٧] وقوله: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾ [الزمر: ٨] وقوله: ﴿**فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٤٩] وقوله: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ**﴾ [**فصلت**: ٥١] وقوله: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ**﴾ [**هود**: ١٠]، فالإنسان مجبول مفطور علىٰ جملة خصال في نفسه إنما جعلت عليها ليتم ابتلاؤه بما في الأرض من السراء والضراء جميعا، لا ليبتلىٰ بالشر والمكروه وحده! حتىٰ النفس الصاعد في صدره هو مبتلىٰ به، أيشكر من أنعم عليه به أم يكفر! فإذا كان جحد النعمة يتعاظم كلما عظم مقدار النعمة، ومن ثم يتعاظم ما يستحقه الجاحد من العقوبة، فكيف بنعم لا تحصىٰ ولا تعد، يجحدها كل من أشرك بالله غيره، وكيف بمن بلغ به شركه أن تنكر لوجود باريه من فوقه جملة واحدة؟ أي هوىٰ وأي مرض وأي فساد عظيم تعانيه تلك النفس المستكبرة؟ نسأل الله السلامة!

ولهذا فقد اقتضت حكمة الملك العلام أن يجعل في الدنيا أمورا يكرهها المؤمنون (قد تبلغ في شدتها أن تزلزلهم زلزالا شديدا!) وهي في حقيقتها خير لهم، بل أراد كما نصت السنة المطهرة أن يشدد الابتلاء علىٰ المؤمنين حتىٰ يكون أشد الناس بلاءً الأنبياء

ثم الأمثل فالأمثل! فإن كان البلاء بالشر شرا من وجه فهو خير من وجوه لا يحصيها إلا الله وحده! وكلما عظم الابتلاء بالشرور والمكاره، وازداد المؤمن بالغيب – مع ذلك، بل بسببه – صبرا وإيمانا ويقينا وطمعا في جناب ربه، تحققت تلك المرتبة الإيمانية الرفيعة التي أحبها رب العالمين ومن أجلها خلق السماوات والأرض وما فيهما علىٰ ما نجد من حالهما لا علىٰ غيره! لهذا خلقت الدنيا من كلٍّ زوجين، فلا قيام لبناء إلا ب ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [**الذاريات**: ٤٩] هدم، ولا تمام للذة إلا بكدر أو تعب، ولا محبوب فيها لمخلوق إلا يكرهه غيره لا محالة! حتىٰ الذكر الذي جاءت به الرسل، في النفوس البشرية من النوازع والميول والشهوات ومداخل الشيطان ما يصدها عنه صدودا، ما لم يتوافر المؤمن علىٰ علاجها ومراقبتها ما دام حيا! ولأن الله يحب تلك النفس الصابرة الصادقة، فقد جعل للصبر والامتثال علىٰ البلايا لذة لا يجدها إلا أحسن الناس إيمانا وأطهرهم قلوبا. ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [**الرعد**: ٢٨]

وفي معنىٰ كراهية الإنسان (من جهله) لأمور مع كونها خيرا له علىٰ حقيقة الحال كما في مآل الأمر ومنتهاه، يقول العليم الحكيم: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٢١٦] ويقول سبحانه ﴿ **فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [**النساء**: ١٩] وكلما عظم البلاء، عظم الثقل النفسي لمطلب الصبر والاحتساب من المؤمن، من شدة كراهة النفس لذلك بطبيعة الحال، وهو ما يعظم من أجله الأجر والجزاء يوم الحساب أضعافا كثيرة، فيكون كما قال ﷺ: «عجبت لأمر المؤمن فإن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له!» فإن غالب المؤمن نفسه وشيطانه المرة بعد المرة وعلق قلبه بالرب كما ينبغي حتىٰ صار التوكل والإخلاص والمراقبة بالغيب سجية له، انتقلت نفسه في نهاية المطاف إلىٰ أن تصبح تلك النفس الطاهرة المتلذذة بذكر الله ومناجاته، التي لا تزداد بالبلاء إلا يقينا، حتىٰ زكاها رب العالمين في قوله: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً**

مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [**الفجر**: ٢٧ - ٣٠]، فهي إذن نفس تتلذذ بتلك المكاره التي يصاب بها كل مؤمن ابتلاء وامتحانا، فتحب ما يبغضه غيرها، وتستعذب ما يستثقله غيرها، فضلا من الله ومنة!

نعم لو شاء الله تعالىٰ لجعل الدنيا كالجنة: دار خير غالب فياض (فيما يزن الإنسان ويقدر) ونعيم خالص لا يشوبه عذاب، ولكن ما هكذا اقتضت حكمته العليا سبحانه. فإن قالوا «لماذا أراد الباري ذلك كله بالأساس، ولماذا اختار أن يخلق عالما يكون فيه وقوع ما يكره طريقا إلىٰ حصول ما يحب؟»، بينا لهم أن هذا سؤال لا يحق للمخلوق أن يطرحه أصلا، لأنه خوض فيما ليس لمثله أن يخوض فيه.

لذا لما قال الله تعالىٰ للملائكة ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٣٠]، قالوا ﴿**سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [**البقرة**: ٣٢] فقدموا الجواب بقولهم «**سُبْحَانَكَ**» لأن المقام يقتضي تنزيه الرب جل وعلا عن أن يكون علمه كعلم المخلوقين، وأن تكون حكمته محدودة بذلك الحدّ اللازم لكل مخلوق! وحتىٰ عندما أظهر لهم سبحانه أنه قد أعد آدم إعدادا مخصوصا لما خلقه من أجله، ذكرهم - مرة أخرىٰ - بمحدوديتهم بإزاء علم باريهم، فقال: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ [**البقرة**: ٣٣] فما الحكمة من ذكر الجواب الأول في القرآن، ثم من التكرار في الجواب الثاني ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ**﴾؟ الحكمة أن الله تعالىٰ يعلم من أمر البشر - وهم خلقه وصنعته، الذين اقتضت حكمته أن يبتلوا بالغيب - أن قلوبهم قد تحركها كراهة الشرور والبلايا النازلة بهم إلىٰ سوء الظن به سبحانه، وأن للشيطان وللنفس طرقا في تزيين ذلك الميل وزخرفته لصاحبه، من ترسل معها واستغرق فيها أتت علىٰ عقله ودينه فلم تُبق منه شيئا! لذا لزم أن يكون لنا - معاشر المكلفين من الثقلين - درس وعبرة في سؤال الملائكة ثم جواب الله تعالىٰ، ثم توقف الملائكة حيث أوقفهم ربهم وامتناعهم عن السؤال بعد ذلك.

ولهذا قال تبارك وتعالىٰ عن نفسه إنه: ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]، لأن كل سؤال يقتضي بمجرد طرحه، تشبيه الخالق بالمخلوق وقياسه عليه في العلم والحكمة، كأن يقال: «لماذا يحب الله أن يعبده بعض خلقه من وراء حجاب الغيب وهم لا يرونه؟ وأن يتخذ منهم الأنبياء والشهداء والصابرين علىٰ البأساء والضراء، وما وجه الخير في ذلك؟» أو يقال بتعميم أوسع: «إذا كان الله غير مفتقر لنا ولا يحتاج إلىٰ عبادتنا، فلماذا يحب أن يخلق خلقا يعبدونه أصلا؟»، هذه كلها ونحوها من الأسئلة عدوان علىٰ الرب بمجرد طرحها! فقد علمنا أن الله تبارك وتعالىٰ يحب ذلك وأن له فيه حكمة ترجع إلىٰ نفسه المقدسة جل وعلا لا إلىٰ نفوسنا نحن، فما شأننا نسأل عن مثل هذا، وقد علمنا أن مجرد طرحه للسؤال يقتضي تشبيه نفس الله تعالىٰ بنفوسنا، ومقاصده بمقاصدنا، وحكمته بحكمتنا، لا محالة؟

يحضرني الآن سؤال سأله بعضهم من مثل هذه الأسئلة العبثية، إذ قال: «إذا كان الله لا يحتاج إلىٰ خلقنا، فلماذا يحب أن يكون له خلق يعبدونه؟ وإذا كانت صفاته لا تظهر علىٰ أكملها إلا بخلقنا أو بخلق نوع مثلنا، ألا يكون هذا منه احتياجا والاحتياج نقص؟». فوجد صاحب السؤال نفسه (بمجرد طرحه: لماذا يحب ...) عاجزا عن أن يتصور أن يكون خلق الله تعالىٰ لما خلق خارجا عن دائرة الحاجة (التي هي بمعنىٰ الافتقار أو الاضطرار)، علىٰ اعتبار أن مجرد أنه يحب ذلك معناه أنه مفتقر إليه حتىٰ لا يكون علىٰ حال خلاف ما يحب وحتىٰ تظهر كمالات صفاته، وهذا - بزعمه - هو معنىٰ الحاجة عند المخلوق!

مع أنه معلوم بداهة أن الحاجة إنما تعني حصول النقص والضرر (علىٰ مقدار ما أو علىٰ وجه ما) من غياب المطلوب، لذا لا يصح في اللغة إلا أن يوصف بها مخلوق يرد عليه النقصان والتضرر ابتداءً! وفي الحديث: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[1]. أي ليس الله مفتقرا لتجويعه وتعطيشه

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٣) وأبو داود في سننه (٢٣٦٢) والترمذي في مختصر الأحكام والنسائي في السنن الكبرى (٣٢٣٢) وابن حبان في صحيحه (٣٤٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري.

حتىٰ يكون هذا هو غاية ما يخرج به الصائم من صيامه ومع ذلك يقبله منه! الله غني عن عبادة أحدنا علىٰ أي حال، فإن لم نؤدها علىٰ النحو الصحيح، فنحن من ينالنا النقص والخسارة بذلك وليس رب العالمين سبحانه. ولو أن جميع من في الأرض هلكوا علىٰ أكفر قلب رجل واحد منا ما نقص ذلك من ملكه شيئا جل شأنه، وما لحقه من أثره نقص أو ضرر سبحانه وتعالىٰ علوا كبيرا!

وإنما يكون التعرض لشيء مكروه (أو تخلف الشيء المحبوب) نقصانا وافتقارا في حق من يتعرض له، عندما يكون الكلام عن مخلوق قائم بغيره، تحكمه نواميس الأسباب الكونية المخلوقة فلا يخرج عنها طرفة عين! مثل هذا إن فقد شيئا يحبه فقد نقص بعض ما عنده، وصح إذن أن يقال إنه «محتاج» أو «مفتقر» إليه! بل قد يفقد المخلوق منا شيئا يحبه ومع هذا لا يرىٰ نفسه متضررا أو ناقصا أو مفتقرا إليه (محتاجا إليه)، وهذا نراه في كثير من التكميليات والتحسينيات! ولكن هذا كله كلام عن مخلوقين، يرد عليهم النقص والافتقار ابتداء! أما ونحن نتكلم عن رب البريات سبحانه، الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، قيوم السماوات والأرض، فلا يصح أن يرد هذا المعنىٰ علىٰ الذهن في حقه أصلا. لذا كان طرح السؤال نفسه فاسدا من الأساس، لأن مجرد طرحه يقتضي القياس الفاسد وتشبيه الأفعال لا محالة.

ولا يقال إنه «يحتاج إلىٰ أن يخلق خلقا» حتىٰ تظهر صفاته، سبحانه وتعالىٰ، فالحاجة لا تعلق لها بهذه القضية أصلا كما بينا، وإنما هو مقتضىٰ كمال الصفات! نقول إن صفات الله تعالىٰ تقتضي ألا يكون معطلا عن الخلق من الأزل سبحانه وتعالىٰ، فلا يخلق مخلوقا إلا لا بد أن كان له من قبله مخلوق متقدم عليه، بلا بداية في الماضي، وهذا مقتضىٰ كمال صفة الخلق جل شأنه، بل إنه مقتضىٰ اتصاف الذات الموصوفة بأنها أزلية لا ابتداء لوجودها في الماضي، بأي صفة من صفات الأفعال! فإذا كانت موصوفة بالكلام، فلا يجوز أن يكون لكلامها ابتداء في نقطة ما في الماضي، وإلا كانت أزلية وجودها فيما قبل تلك النقطة تمحضا في العطالة عن الكلام، وهو نقص يمنعه العقل قطعا! وكذلك يقال في صفة المشيئة وصفة الخلق والتصوير وصفة الرحمة وصفة

الغضب وصفة الفرح وصفة المحبة وصفة البغض، وغير ذلك من صفات الأفعال! كل ذلك يجب بمقتضىٰ العقل أن تكون أفراده تتجدد فردا بعد فرد، مع قدم النوع وأزليته، لا أن يقال إن الله «يحتاج» لأن يخلق أو «يفتقر» لأن يخلق حتىٰ تظهر في الخلق صفاته، سبحانه وتعالىٰ علوا كبيرا!

ولهذا، ولأننا لا نجد ما نقيس عليه ذاتا أزلية لا ابتداء لها، ولا نقص فيها بحال، فلا نتصور حقيقة صفاتها وأفعالها، كان من الضروري أن يكون ثمة سقف للسؤال في الحكمة والتعليل لا يصح للمكلف أن يجاوزه، بل وجب عليه أن ينهىٰ نفسه عن طلب جوابه، وأن يفوض العلم فيه لله وحده، مع الاستعاذة من تزيين النفس والشيطان!

وفي الباب قوله تعالىٰ: ﴿**فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [**النحل**: ٧] وقوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ**﴾ [**المدثر**: ٣١] فتأمل قوله تعالىٰ: «**وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا**»، هذا السؤال المذموم هو ذاك الصنف الذي نتكلم عنه ها هنا. إذ يطلب صاحب القلب المريض «مثلا» لإرادة الله وحكمته حتىٰ يشهد بأن لله تعالىٰ حكمة رفيعة في هذا الابتلاء أو ذاك، وبأنه لم يظلم أحدا من خلقه بذلك، أو يطرح السؤال تنطعا واعتراضا، أو استغرابا أو لعبا، فلا تراه يقبل جوابا إلا بضرب الأمثال لله تعالىٰ وبتشبيهه بالمخلوقين في أفعاله وحكمه وغاياته، والله المستعان! وإلا فأي جواب يستساغ لمن يسأل: «لماذا اختار الله أن يجعل عدة هؤلاء الملائكة كذا وليس كذا؟»؟ هو سبحانه أراد ذلك وقضاه لحكمة عنده لم يخبرنا بها، فما شأنك أنت وما يمنعك أن تؤمن بما عرفت من الحق كما آمن العقلاء؟

صاحب هذا السؤال قلبه جاحد مستكبر لأنه يسأل عما يعلم أنه لا تأثير للعلم أو الجهل به علىٰ ما يجب في حقه من تعظيم الله بما هو أهله، ومن الخضوع لأمره ونهيه

والانقياد لرسوله تمام الانقياد! فهو إنما يسأل عبثا وتنطعا وتعطيلا لما يجب في حقه من اتباع الحق. ولذا فأيا ما كان عدد تلك الملائكة المنصوص عليه، فسيأتيك بنفس السؤال لا محالة! فلو جاء الخبر بأن الملائكة عددها سبعمائة أو خمسمائة مثلا، فهو سائلك إذن لا محالة: لماذا لم يجعلهم تسعة عشر أو عشرين أو أكثر من ذلك أو أقل، وهو يعلم أنك لا جواب عندك عن هذا السؤال أصلا! فمهما أجبته لن يقبل منك، لأن في قلبه مرضا.

ونظير ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾ [البقرة: ٢] فهنا يضرب الله المثل بالبعوضة لحقارتها، ولما يظهر لكل عاقل بلغه هذا الخطاب من تخلف الإنسان عن صنع شيء مثلها أو قريب منها، والمعنىٰ واضح والمراد واضح جلي لا خفاء فيه ولا التباس! ومع هذا يأتيك من يقول: لماذا اختار أن يضرب المثل بالبعوضة لا بغيرها، مع أن العلم الحديث قد اكتشف كائنات أدق وأصغر منها بكثير؟ لماذا لم يضرب المثل بـ«الخلية الحية» مثلا؟ ثم يزين الشيطان لصاحب السؤال (وهو سؤال معترض متنطع كما ترىٰ)، أن يزعم أنه لولا أن كان هذا مبلغ محمد ﷺ (الذي هو مؤلف القرآن وكاتبه في اعتقاده) من العلم في ذلك الزمان بصنوف الكائنات الدقيقة، لذكر كائنا آخر أدق وأصغر من البعوضة! فمهما قلت لهذا المجرم إن الخطاب جاء بما يراعي أحوال سائر المخاطبين (من زمان التنزيل وإلىٰ قيام الساعة) من العلم والجهل، فما كان يصح أن يخاطبهم بمخلوقات لا يعرفونها أصلا في مقام ضرب المثل لإقامة الحجة، رأيته يراوغ ويتنطع تنطع الفلاسفة، يستخرج من كل جواب سؤالا أو أكثر، أو اعتراضا أو أكثر، حتىٰ يفتح باب الجدل الطويل كما تحب نفسه وتشتهي، مع كونه يعلم – علم اليقين – أن هذا الاعتراض السخيف لا يوصل منه إلىٰ ما يريد، ومع كونه لا يلتبس عليه مراد الباري من هذا المثل! ولو أنه إذ سمع هذه الآية الكريمة، تحرك قلبه بالخوف من مقام ربه العظيم الذي نقطع بأنه خالق كل شيء، ونرىٰ آيات عظمته وقدرته في كل شيء، حتىٰ في أكثر المخلوقات حقارة كالبعوضة ونحوها، فانزجر بذلك عن زيغه

وضلاله وآمن كما آمن الناس من قبل، لكان خيرا له، ولما رجع علىٰ هذه الآية ونحوها بالسؤالات والاعتراضات! ولكن هذا هو شأن الفساق من الجحدة المكابرين، يسألون تفلسفا وتنطعا لا تعلما، سؤال من لا يرجو الجواب أصلا، يقول قائلهم «ماذا أراد الله بهذا مثلا؟»، ما يريد إلا الجدل والخصومة. ﴿**وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٥٨].

لذا يجب أن يعتني طلبة العلم بتعليم المسلمين حدود وآداب السؤال في الدين، وأن يوقفوهم حيث وقف الصحابة والتابعون من قبل، ويبينوا لهم أن الحكمة كل الحكمة فيما كان عليه السلف ﷺ، وأن يرشدوهم ليسألوا أنفسهم قبل كل سؤال: «أي ضرر يرجع علي - أنا المسلم - إن فقدت إجابة هذا السؤال، وما العمل المترتب علىٰ المعرفة بجوابه إن حصُلت عليه»؟ فإنه ليس من العقل ولا من الحكمة أن يسأل الإنسان سؤالا لن ينتفع من جوابه، فما بالك بسؤال يضر صاحبه أشد الضرر؟ فكما أن من السؤال ما قد يكون طريقا إلىٰ العلم النافع، فإن منه ما قد يكون بريدا للكفر والزندقة، تزينه الشياطين لصاحبه حتىٰ يجعله شرطا لقبول الحق الواضح والدخول فيه كما دخل المسلمون من قبل أفواجا، وليس هذا بداخل في الحق مهما جاءه الناس بالجواب! ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ [**الإسراء**: ٣٦].

هذا المرض في نفوس أكثر المشركين (وفي مقدمتهم الملاحدة) لا علاج له إلا بإصلاح تلك القلوب، بأن يزول المغرور عن غروره والمكابر عن مكابرته، فيكسر كبر نفسه ويرغمها علىٰ قبول كثير مما تكره، ولا يكون هذا لأحد من هؤلاء إلا أن يرحمه الله. فإنه ليس من مسائل النظر والاستدلال ما يجده كل عاقل في فطرته من أن الله سبحانه لا يوجد - ولا يعقل أن يوجد - من يملك محاسبته جل وعلا من فوقه، ومراجعة غاياته ومآلات أفعاله وإحصاء ذلك عليه ومساءلته عنه، كما نحصي نحن المخلوقون علىٰ بعضنا البعض، نحاسبهم بأفعالهم وأقوالهم ونحكم عليهم بما يليق بهم، لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، ليس فيما سواه من الموجودات إلا مخلوقات ناقصة قائمة بغيرها

مهما علمت، فلا تملك من العلم أو السلطان ما به تسأل خالقها وتحاسبه! وإنما يكفيها التسليم بما علمت من وجوب الكمال المطلق لباريها في سائر صفاته، والاكتفاء بما جاءها من خبر الوحي، والجزم بأن الخالق لا يظلم ولا يضع الشيء في غير موضعه، ولا تلحق به النقيصة من شيء خلقه سبحانه وتعالىٰ.

بنحو هذا الكلام – وبأوجز منه – يكون جواب العقلاء أتباع المرسلين عن كل سؤال عبثي سوفسطائي، وانتهت المسألة، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، والله لا يهدي القوم الظالمين! وهو جواب قاطع يبطل سائر ما سعىٰ به الفلاسفة من تنقير فيما ليس لهم به علم ولا دونهم إليه من سبيل، ويقطع الطريق دونه من الأساس! فلا شأن لنا نحن المسلمين بصور الـ«ثيوديسيا» اللاهوتية النصرانية، ولا «ثيودوسيا» المتفلسفة والمتكلمين من أهل القبلة، ولا باعتراضات هذا أو ذاك من الفلاسفة ولا بما غرق فيه القوم جميعا! فمن رضي بهذا القدر من العلم ووقف عنده فقد استمسك بما كان عليه الحكماء والعقلاء من أتباع المرسلين في كل زمان ومكان، وأسس بنيانه علىٰ قاعدة لا نقض لها ولا تتطرق إليها شبهة البطلان، والحمد لله رب العالمين!

وليتذكر كل عاقل آلاء الله ونعمه السابغة، فهذا مما يحسن أن يستحضره كل عاقل كلما رمىٰ الشيطان في نفسه بشيء من هذا العبث. وليتذكر أن صاحب الفضل إن أمسك فضله في بعض المواضع التي يمكنه فيها أن يزيد من تفضله إن شاء، ويجزل لعبده العطاء، فإنه لا يذم بمجرد ذلك ولا يكون ظالما، وإنما يجد المخلوق العاقل السوي نفسه مضطرا لسؤاله الفضل والمنة، والاستعاذة به من فقد تلك النعم والعطايا والحرمان منها لأنه يعلم أنها ليست حقا مكفولا له ولأمثاله من المخلوقين أصلا! أما من يجد نفسه مدفوعا للثوران علىٰ ربه والاعتراض علىٰ فقد ما فقد وكأنه قد نُزع منه حق مكتسب، فهذا مريض مغرور قطعا! يقول تعالىٰ مذكرا الإنسان بفقره لنعم الله وعطاياه: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ**﴾ [**الأنعام**: ٤٦] ويقول: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ**﴾ [**الملك**: ٣٠] ويقول: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ**

عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [**القصص**: ٧١، ٧].

فإذا كنا نقول إن مجرد خلق الإنسان وتركيبه في مجموع تلك النعم التي يجد نفسه غارقا فيها بمجرد أن يعي ويعقل، دون أن يكتسبها أو أن يكون مستحقا لشيء منها عن عمل عمله، هذا فضل واسع لا يكاد يحصيه العقل، فقد أثبتنا لله الفضل السابق والرحمة العامة لسائر الخلق علىٰ نحو يلزم منه - بموجب المعنىٰ اللغوي للفضل - أن كل ما يراه المخلوق في الدنيا من انتقاص من هذا الفضل لا يكون ظلما له، لأنه لا يكون سلبا لحق مستحق لذلك المخلوق إلا إن كان عقوبة بذنب لم يُقترف أو نقضا لوعد أو عهد مبرم من الرب لذلك المخلوق بعينه أو بنوعه، والله منزه عن نقض العهد والمؤاخذة بغير ذنب، لأنه حكيم لا يضع الشيء في غير موضعه سبحانه! ولكن لما غلت الملاحدة فجعلوا الظلم (باستقراء مذاهبهم في مسألة الشر): مطلق إصابة المخلوق بما يكره أو مطلق سلبه ما يحب (وهو تحكم باطل بغير وجه حق)، وشابهتهم المعتزلة في أصل التشبيه في الأفعال فجعلوا الظلم القصور عن فعل الأحسن (أي للمخلوق)، غلت الأشاعرة في المقابل فعرّفوا الظالم علىٰ أنه كل من تصرف فيما لا يملك، وهو باطل أيضا لأنه يخرج عن معنىٰ الظلم وضع الشيء في غير موضعه الصحيح ما دام فيما يملك!

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [**النحل**: ١٨].

الله تعالىٰ قد سبق منه الفضل الواسع علىٰ جميع ما خلق، بداية من التفضل عليهم بنعمة الخلق والإيجاد نفسها، سبحانه وتعالىٰ، إذ كان قادرا علىٰ ألا يخلقهم، فلا يبقىٰ لهم وجود إلا في علمه سبحانه كممكنات غير متحققة في الأعيان. فإذا ما اختار أن يفاوت بين المخلوقين في مقدار ما يعطيهم من النعم والعطايا (وهو فاعل ذلك سبحانه علىٰ مقتضىٰ حكمته فيما خلق)، فليس لأحدهم أن يأتيه بقوله «قد ظلمتني إذ أعطيت غيري ما منعتني!» أو كما قال أحد المسفسطين: «إن كنت ما خلقتني إلا

لتجعلني من أهل النار، وخلقت غيري لتجعله من أهل الجنة، فقد ظلمتني!»، فجواب هذا حاضر ميسور، إذ يقال: لا أنت ولا غيرك قد اكتسبتم ما أعطاكم خالقكم بالأساس أو استحققتموه علىٰ وجه المكافأة، فلا حق لكم في المطالبة بما تمنعون أو تُسلبون من ذلك، أيا ما كان، وإنما الأمر كله لله، ولا يظلم ربك مثقال ذرة! ثم إن أحدكم لا يدري بعد علىٰ أي شيء يقبض، علىٰ إيمان أو علىٰ كفر، وقد قامت عليكم الحجة الرسالية وعلمتم أنه لا يزال بوسع أحدكم أن يختار أن يبقىٰ علىٰ كفره حتىٰ الموت، أو أن ينقلب إلىٰ الإيمان حتىٰ الموت، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾ [**فاطر**: ٣٧] فأي حجة تبقىٰ لأحدكم بأن كتب الرب عليكم من قبل أن يخلقكم أن فلانا من أهل الجنة وأن فلانا من أهل النار؟ وأي حجة تتوهمونها لأنفسكم في أن اختار الرب سبحانه لأحدكم من النعم والعطايا في الدنيا ما حرم منه غيره، تقولون إنه يظلم المحروم بذلك؟ إنما يوصف بالظلم ذلك المخلوق نفسه إن زعم أن هذه النعم هي حقه المكفول، كأن يزعم - مثلا - أن ربه ليس له الحق في أن يُنزل به بلاءً لحكمة عنده سبحانه، فيُفقده رجله أو ذراعه أو عينه (مثلا)! فينسىٰ ذاك الجاحد أن تلك الأعضاء كلها إنما كانت فضلا من الله ومنة، ويعاملها وكأنها حقه المكتسب، بل تراه يتاجر فيها أو يتبرع بها كما يحلو له، وكأنه ما حصل عليها من قبل إلا بماله وكسبه، وبحق كان له علىٰ خالقه! أو يرىٰ أنه إن وُلد فوجد نفسه فقيرا في بيت فقراء، فقد ظلمه الله إذ لم يجعله في بيت قوم أغنياء، أو لم يجعله أميرا في بيت ملوك وأمراء، ويتناسىٰ أن الرزق كله (بجميع صوره) إنما هو فضل وعطاء (وابتلاء كذلك) من الله تعالىٰ، فإن بسط فيه لمن شاء وضيق علىٰ من شاء، لم يجز أن يقال له قد ظلمتنا بالتضييق علينا في الهبات والعطايا، وبحرماننا ما تفضلت به علىٰ غيرنا! هذا المتذمر المكابر هو الظالم إذن حقا ولا شك!

ولهذا فإننا نقول إن الرب لو عامل الإنسان بعدله المجرد دون فضله ورحمته لأهلكه، ولو كان يصوم الدهر كله ولا يفطر، ويقوم الليل كله ولا ينام! وقد تكاثرت النصوص في هذا المعنىٰ، وفيه ما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا

يدخل الجنة أحدكم بعمله، فسئل ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل»[1]! وهذا لا ينفي حقيقة أن من العمل ما يوجب المغفرة والرحمة، ومنه ما يوجب الغضب والعقوبة! فقد جاء النص بذلك، ولكنه كذلك جاء بإثبات شروط وموانع للحوق الوعد أو الوعيد بالمعين، فلا تتحقق شروط إنفاذ الوعد في المؤمن المعين إلا بفضل الله ورحمته سبحانه، بل لا يصير مؤمنا أصلا إلا بفضله ورحمته جل شأنه.

ونقول إن مقام الجزاء والعقوبة بعد قيام الحجة الرسالية مقام عدل، ولكنه عدل فيما سبقت به المنة علىٰ العباد من خالقهم جل وعلا! فمهما عمل العبد فإنه لا يؤدي شكر نعم الله عليه سبحانه، ولكن الله لما كلفنا بالشرائع المنزلة لم يكلفنا – من فضله ورحمته – بما يعدل ويقابل تلك النعم من الشكر والعبودية، بل ولا بما يعدل معشار معشارها أصلا! بل إنه سبحانه لم يوجب علينا أن نكون عند منتهىٰ ما يسعنا من أفعال التعبد المحض في أكثر أوقاتنا وأحوالنا في الحياة الدنيا، وإنما في جزء يسير منها، فمن زاد فلنفسه! فأنىٰ لعاقل مع هذا أن يقول إنه إذا دخل الجنة فإنما يدخل بعمله وكسبه لا برحمة الله وفضله؟ ومع هذا يأتي من السفهاء من يقول لقد ظلمنا الله بالتكليف ولم يكن متفضلا بذلك علينا، فسبحانك ربنا ما أحلمك!

صدق رسول الله ﷺ إذ قال فيما رواه عنه أبو موسىٰ الأشعري «ليس أحد أصبر علىٰ أذىٰ سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدا وإنه ليعافيهم ويرزقهم»[2] أو كما قال عليه السلام.

ونكرر فنقول: ليس كل سؤال جاز تصوره جاز طرحه والتطلع لمعرفة الإجابة عنه وتكلف النظر في ذلك! والعاقل من عرف لماذا يسأل فيما يسأل، وإلىٰ من يتوجه بهذا السؤال، وهل يصح طرح ذلك السؤال أصلا أم لا. ولهذا فإن اقتصار الوحي علىٰ إخبارنا ببعض الكليات المجملة فيما يتعلق بسبب وجود الشر في العالم هذا لا يصح في العقل نسبته إلىٰ النقص المعرفي المورث للمذمة، كما هي طريقة عامة الدهرية

(١) والحديث في الصحيحين وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٩٩).

المعاصرين، لأن صاحب تلك الدعوىٰ (الذي يقول إن جوابكم لا يكفينا ويلزمنا أن نعرف المزيد) هذا يشترط شرطا معرفيا فاسدا من الابتداء، لقبول الحجة الدامغة لما جاء به الوحي من الحق الواضح في أمر ربه. فمن ذا الذي يملك أن يقول إن معرفة الإنسان بالعلل والحكم والأسباب وراء خلق الله تعالىٰ لما خلق، يجب أن تكون تامة كاملة لا تدع مجالا لسؤال يتصور في العقل أن يطرح إلا غطته، أو أن تكون شاملة لكذا وكذا بعينه مما يطمع بعضهم في معرفته، فتفسر لكل مخلوق سبب قضاء الرب ما قضىٰ مما كرهته نفسه في كل حالة؟

هذا أفاك متكبر لا يريد قبول ما علم أنه الحق المنزل، يشترط شرطا باطلا، وتراه يهلك عقله في اختراع الحيل التي يتهرب بها من التسليم لربه جل وعلا ولما جاءه من الحق في أمره سبحانه! يقول – في عدوان منقطع النظير – «أقنعوني» بأنه لم يظلمني، وبأن هذه الأشياء التي تكرهها نفسي (سواء فيما أصابني من النوازل أو فيما تطلبونني إليه من أمر الدين) فيها خير راجح، ثم دعوني أنظر وأوازن بعقلي، وإلا فلست مؤمنا لكم حتىٰ تقنعوني! فمهما أجبته بشيء، رأيته يقول «إنني غير راض أو لا أرىٰ هذا الجواب كافيا لتفسير وجود الشر بهذا الانتشار أو بهذه الفظاعة في العالم! جربوا جوابا غيره!»، ونحن نقول لمثل هذا بكل قوة وحزم (إن كنا مخاطبينه أصلا): فلتذهب يا هذا بعدم رضاك إلىٰ قعر جهنم، لا يعنينا في أي واد تهلك! فإن حجة القرآن لا خفاء فيها ولا اضطراب، ولا تناقض يتطرق إليها من أي باب، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ولا يُذم من يقبلها بأنه يقف علىٰ غير أساس، أو بأنه كان يحتاج قبل ذلك إلىٰ أن يعرف المزيد في هذه المسألة النظرية أو تلك، فإن كمال حكمة الخالق تبارك وتعالىٰ وتنزهه عن الظلم ليس مسألة نظرية ظنية أصلا، وإنما هي جبلة مركوزة في نفوس البشر، ولا يقتضي الإقرار بها والدخول في رسالة الحق بمقتضاها، أن يأتي الوحي في تلك الرسالة بأكثر مما جاء به، ولا تشترط للتسليم بصحته أي معرفة تنقصنا معاشر المسلمين، والحمد لله علىٰ نعمة الإسلام والعقل. والله تعالىٰ ما أرسل المرسلين حتىٰ يجيبوا عن كل هاجس شيطاني يقع في روع أحدهم، وإنما أرسلهم ليبينوا للناس طريق

النجاة والهداية، وقد كان في رسالة النبي الخاتم ﷺ التمام والكفاية لكل عاقل والحمد لله رب العالمين.

وتأمل أيها القارئ الكريم إن شئت في قصة موسىٰ مع الخضر عليهما السلام في القرآن، لترىٰ كيف أن حكمة الله تعالىٰ فيما يقضيه من الأمور التي قد يظهر لنا منها الكراهة الشديدة، قد لا تظهر لأحد من الناس أصلا، وكيف أن العاقل - وهذا هو الأهم - لا يحتاج إلىٰ استظهارها في كل مكرهة يجدها من تلك المكاره، حتىٰ يشهد علىٰ نفسه بما عرف بفطرته من النقص العلمي والقصور بإزاء علم خالقه وباريه وحكمته، وبما عرف أنه الحق يقينا من كون الرب سبحانه منزها عن النقائص كلها وأنه لا يظلم مثقال ذرة. هذا الدرس العظيم في القرآن مما يحسن الوقوف عليه طويلا في هذا المقام والتأمل فيه مليا، والله الموفق للرشاد.

ففي سورة الكهف يحكي لنا الرب جل وعلا كيف أن موسىٰ ﷺ لما أراد الله أن يبتليه في باب العلم والدراية عن ربه (كما نص عليه أهل التفسير)، أمره بأن يرتحل لملاقاة نبي آخر من أنبياء الله قد عاصره في زمانه، فيخبرنا سبحانه من خبر ذلك اللقاء ومصاحبة موسىٰ لذلك النبي، وكيف أنه ﷺ رأىٰ منه من الأفعال ما لا يملك أحدنا إن رآها من أحد من عامة الناس إلا أن يحكم عليها (لما يظهر له منها) بأنها إفساد في الأرض، فلم يصبر موسىٰ علىٰ ذلك وأنكر علىٰ صاحبه، فوقع في عين ما حذره منه من قبل.

فرآه أولا يبدأ بخرق سفينة لا يملكها من غير ما سبب يظهر له، فلم يجد إلا أن ينكر عليه لما يظهر له من أثر ذلك العمل، ألا وهو غرق أصحابها. ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾ [**الكهف**: ٧١]، فقال الخضر: ﴿**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾ [**الكهف**: ٧٢]، فاعتذر موسىٰ عن عجلته في الحكم علىٰ ما رأىٰ، ثم مضيا فإذا به يراه يقتل صبيا صغيرا من غير ذنب اقترفه فيما يظهر، فاستنكر عليه ذلك أيضا. ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا**﴾ [**الكهف**: ٧٤] ثم يتكرر التذكير من الخضر والاعتذار من موسىٰ، عليهما السلام. ثم يراه بعد ذلك يبادر بإعادة بناء جدار متهالك

يوشك أن يتهدم من غير أن يطلب علىٰ ذلك أجرا. فيستغرب منه ذلك جدا، لا سيما وقد رفض أهل القرية التي فيها الجدار أن يضيفوه من قبل. ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ [**الكهف**: ٧٧] . فعندئذ ضاق الخضر بموسىٰ عليهما السلام وبكثرة سؤاله، فعزم علىٰ مفارقته ونبأه بتأويل تلك الوقائع التي لم يصبر عليها. قال ﴿**وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾ [**الكهف**: ٨٠ – ٨٢].

ففي واقعة خرق السفينة، كان لدىٰ الخضر عليه السلام علم لدني (من طريق الوحي) بما هو واقع بأصحابها لا محالة لو لم يعبها لهم بذلك العيب. وفي واقعة الصبي، كان لديه علم (من طريق الوحي) بما ستصير إليه حال ذاك الصبي لا محالة لو أنه عاش ليبلغ أشده. وفي واقعة الجدار كان لديه علم (من طريق الوحي) بأنه كان تحته كنز لهما وبأنه لو تهدم الجدار الآن قبل أن يبلغا أشدهما ويستخرجا الكنز من تحته لضاع عليهما ولفاتهما الانتفاع به. فكان مما أمره الله تعالىٰ به أن يأتي بتلك الأفعال الثلاثة رحمة منه سبحانه، من غير أن يكون له (أي الخضر) أي اجتهاد أو نظر في ذلك. أما موسىٰ عليه السلام فلم يدر بتلك الحقيقة أول الأمر، فاستنكر ما رأىٰ من صاحبه وظنه من الجهل والظلم.

والشاهد والدرس المستفاد من هذه القصة أن علم الله تعالىٰ لا يقاس علىٰ علمنا، فلا يحق لعاقل أن يستنكر علىٰ ربه شيئا قد قضاه في خلقه لمجرد أن رآه شيئا تكرهه نفسه، لأنه يعلم أن لدىٰ الله في علمه حكمة وتعليلا لا محالة (أو إن شئت فقل: خير راجح تثقل به كفة الميزان في مقابل ذلك الشر الظاهر) لا يضيرنا الجهل به مهما بدىٰ ذلك الشيء شنيعا مستفظعا، وإنما يضيرنا إساءة الظن بالله من أثر ذلك الجهل عندنا!

فذاك الخرق الذي ضربه الخضر في السفينة، لو لم يكن مستندا فيه إلىٰ علم من طريق الوحي وأمر من ربه، لجاز لنا أن نحكم عليه بالعدوان والإثم، لأنه يكون إذن قد

وضع شيئا في غير موضعه، إذ تصرف فيما لا يملك بغير وجه حق، بل بما يغلب علىٰ الظن البشري باستقراء العادة أنه سيؤدي إلىٰ ضياع المال وربما إلىٰ هلاك أصحابه معه! ولهذا أنكر عليه موسىٰ فعلته، لأنه لم يصبر علىٰ سماع ما لديه من تأويل ذلك، فلما سمع التأويل من الخضر تراجع عن حكمه، لأن العلم فيه لم يكن علم بشر، مبنيا – معرفيا – علىٰ استقراء العادة، وإنما كان وحيا منزلا من رب العالمين. وكذلك يقال في أمر الصبي الذي قتله الخضر بأمر من الله تعالىٰ، فإن موته لم يكن عقوبة لذنب اقترفه، وإنما كان رحمة من الله تعالىٰ به وبأهله، ولكن ظاهر الأمر لأول وهلة، في حدود علمنا البشري بأسباب القتل، هو أن الخضر قد قتل نفسا زكية بغير حق، إذ لم يظهر لموسىٰ إلا أن الصبي لا يمكن أن يكون قد سبق منه اقتراف شيء يوجب قتله، لأنه غير مميز ولا مكلف أصلا، فأنكر عليه لذلك! وكذلك في أمر الجدار، فهؤلاء قوم أساؤوا إليه، ومع هذا بذل جهدا وافرا في ترميم جدار متساقط في قريتهم من غير أن يطلب عليه أجرا منهم، فمن رأىٰ ذلك ولم يعلم أن لدىٰ صاحبه علما وتكليفا جاءه من وحي الله تعالىٰ، فلا شك أنه يستغرب ذلك العمل جدا ولا يرىٰ له وجها، بل يراه إهدارا للجهد والمال.

فالواجب علىٰ كل عاقل ألا ينسىٰ حجمه ومنزلته ومقدار علمه ودرايته بالنسبة إلىٰ علم ربه، خالق السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الذي يتفرد بكونه العليم بما كان وبما هو كائن وبما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم ذلك كله سبحانه علما كاشفا لا علم ظن أو ترجيح أو استقراء عادة كما هو حال علومنا! فالواجب عليه أن يسبحه وينزهه عن كل نقيصة بما يعلم ببداهة العقل أنه منزه عنه، سبحانه وتعالىٰ علوا كبيرا، وأن يتذكر أنه مهما استشنع ما يرىٰ من قضاء الله في خلقه بالمكاره، فهو في جميع الأحوال حق وخير ووضع للشيء في موضعه الصحيح من وجوه لا يحصيها العاقل أصلا مهما حاول إلىٰ ذلك من سبيل. وهو كذلك حتىٰ لو كان منتهىٰ القصد والحكمة والتعليل منه عند رب العالمين أمرا يكرهه أحدنا لنفسه، فإنه ليس معيار خير الخيرين أن يكون أحبهما إلىٰ أحدنا، ولا معيار شر الشرين أن يكون هو أبغضهما إلىٰ نفس الواحد منا! ويجدر بأحدنا أن يتذكر أنه إذا كان أصحاب الرياضيات اليوم يقولون إن الفراشة إن خفقت بجناحها في صحراء سيبيريا (مثلا)، فقد يكون ذلك جزءا من بلايين

الأسباب الدقيقة المفضية عند اجتماعها (في شتىٰ أقطار الأرض) إلىٰ وقوع إعصار في أمريكا، فخبرني بالله عليك، أي علم هذا الذي يتسع للحكم في جنين يموت غرقا أو غزال يموت محترقا، أي حكمة تكون لله تعالىٰ في ذلك وأي خير راجح يحصل به في علمه سبحانه؟ والله ليس هذا بعلم بشر ولا يطيقه مخلوق، ولا يحق له مجرد التطلع إلىٰ اكتسابه أصلا!

كيف يتغافل هؤلاء أننا نتكلم عن علم من هو السبب الأول وراء سائر الأسباب وسائر الحوادث الجارية في السماوات والأرض وما بينهما بلا استثناء، وليس عن مخلوق حقير جاهل غايته أن يحيط علمه بعدد محدود من الأسباب والعواقب والنتائج المتعلقة بهذا الفعل أو ذاك مما يأتي وما يذر؟ وكيف يتغافلون أننا نتكلم عمن لا سلطان ولا حاكم عليه من فوقه لأنه منتهىٰ السلطان والملكوت وغايته؟ أهذا أمر يحتاج إلىٰ إثبات أو برهان حتىٰ تعترف به قلوب العقلاء؟ هل يحتاج ذلك الفارق بين علم خالق كل شيء وعلم المخلوق، وبين حكمة خالق كل شيء وحكمة أحدنا، وبين قدرة خالق كل شيء وقدرة أحدنا، إلىٰ أن نطرحه هو الآخر للاستدلال النظري حتىٰ نؤسس عليه (وعلىٰ ضرورة تنزه الباري عن كل نقص) ما ندعوهم إليه من التوبة والإقلاع عن ذلك العبث الشيطاني وعن الخوض في ذات ربهم وعلمه وحكمته وعلل أفعاله؟ لا والله لن نثبت لكم ما عرفتم أنه الحق حتما ولزاما، فالعاقل الصادق لا يفتقر إلىٰ ذلك! فإن كذبتم به فلا يعنينا في أي واد هلكتم، وعليكم إذن من الله ما تستحقون!

لقد تناولنا في هذا الباب تتبعا لجانب يسير من سجالات الفلاسفة واللاهوتيين في تلك «المشكلة» المزعومة لا لنأتي بجواب «إسلامي» عن أسئلتهم الساقطة، ولا ببرهان كلامي ولا بـ«ثيوديسيا» جديدة رجاء أن يقتنع هؤلاء الكذبة المجرمون، فليس العاقل مطالبا ببذل الجواب عن تلك الأسئلة أو السعي في طلبه أصلا ولا يلزمه ذلك، وليس من عادة من بلغت به الأهواء أن طرح تلك الأسئلة للنظر العقلي علىٰ طريقة هؤلاء، أن يرجع إلىٰ الحق الواضح ويقف عنده مهما خوطب به! وإنما أردنا أن نكشف منبت تلك المسألة عند هؤلاء الجحدة ومنبعها النفسي الخفي الذي أدىٰ بهم إلىٰ أن يجعلوها

«مشكلة» (عقلية أو فكرية) من الأساس، ولنبين الكيفية التي يحرص بها كل واحد منهم علىٰ أن يزيد من حجم تلك المشكلة في عين نفسه وفي أعين الناس، وينمي الجدال والنزاع فيها ويثوره ويزيده تشعبا واتساعا لغرض خبيث في نفسه، وهو يزعم – في الوقت نفسه – أنه يريد الوصول إلىٰ «الحق»، والوقوف علىٰ «الدليل» و«البرهان»! وبينا أن هذه الكيفية المعوجة تبدأ – من الأساس – بإعمال أدوات النظر والترجيح العقلي في مسلمات الفطرة في قضايا الغيب الكبرىٰ وطرحها «للاستدلال» (أو بعبارة أخرىٰ: ممارسة صنعة الفلسفة في باب الماورائيات)! هذا المسلك أعده أخطر الأمراض النفسية التي عرفها النوع الإنساني في تاريخه علىٰ الإطلاق. وسبب خطورته أن أكثر الناس لا يرونه علىٰ أنه «مرض» أصلا، بل يعدونه رقيا عقليا وعلوا فكريا وثقافة رفيعة، والله المستعان!

بل حتىٰ طلبة العلم الشرعي منهم من تراه ينقل إليك نهي السلف عن الاشتغال بالفلسفة وعلم الكلام، وتراه – مع ذلك – يجادل فلاسفة الإلحاد في زبالتهم في قضايا الغيب ومسلمات الفطرة يكثر من ذلك حتىٰ يقال له «المفكر الإسلامي»، وهو لا يدري أنه داخل بذلك في عموم النهي، وأنه مساهم – مهما كان في كلامه من الحق – في إنماء ذاك المرض الخبيث وتغذيته وإرواء نبتته العفنة بين المسلمين. تراه تزين له نفسه ويزين له شيطانه أنه بذلك التصدر للمجادلة يعد من الواقفين علىٰ ثغر من ثغور الدين، وأنه يجاهد في سبيل مقاومة فتنة الإلحاد وإظهار «العلو الفكري» للإسلام فوق سائر الفلسفات المخالفة، وأنه بممارسة الكلام والتفنن علىٰ طرائق الفلاسفة في البرهنة علىٰ وجود الصانع وكماله (أو دفع براهين المخالفين في ذلك) يكون قد أتىٰ بغاية ما يرام من «إعمال العقل» في إظهار الحق وهدم الباطل فيما خاضت فيه الفلاسفة من أصول الإيمان بالغيب، وهذه أيها القارئ الكريم هي الفتنة بعينها. فإن المرض النفسي الذي أزعمه في هذا المقام ليس في فساد بعض الأقوال عند أصحابها من الفلاسفة مع سلامة الآلة التي توصلوا بها إليها، وإنما هو في مبدأ استعمال تلك الآلة نفسها في قضايا الغيب! ولهذا يشترك في أصل ذاك المرض النفسي الفيلسوف والمتكلم (أو اللاهوتي) علىٰ السواء (ولهذا عمهما نكير السلف علىٰ السواء).

لقد ذكرت من قبل أن تلك البابة (مشكلة الشر) كانت ولا تزال بمنزلة الرأس وحجر الزاوية في حيل تسويغ الإلحاد عند القاعدة العريضة من الملاحدة منذ أن ظهرت وإلىٰ يومنا هذا، ولم يزدد كلام الفلاسفة فيها تراكما – علىٰ مر القرون – إلا ازدادت أهميتها وثقلها عند عامة الملاحدة والمتشككين، حتىٰ إن الفيلسوف اللاهوتي السويسري «هانز كونغ» قد سماها بـ«صخرة الإلحاد» the rock of atheism، من شدة تعلق الملاحدة بها! (Kung 1976) وكيف لا تكون كذلك، وقد رأينا كيف أنها تشق طريقها إلىٰ نفوس المرضىٰ المتعلقين بها من جهة العاطفة الفياضة لديهم المتمثلة في الحزن أو الضيق أو الضجر أو الغضب مما يجد أحدهم في حياته من المكاره والشرور، لتوهمه بأن لديه في مجرد ذلك، سببا معقولا للتكذيب بوجود الباري في السماء؟ كيف لا وهي تخاطب أصل الهوىٰ الذي من أجله يلحد من يلحد، مخاطبة صريحة مباشرة، فتفيده – كما لا يكون في غيرها من حيلهم النفسية – بما يحيل سائر مكروهاته ومستثقلات نفسه الخبيثة إلىٰ حجج وبراهين، أو علىٰ الأقل إلىٰ ذرائع يتأبىٰ بها علىٰ الدخول في دين المرسلين، ويتترس بها بين أيدي المخالفين؟ ترىٰ الرجل يصاب في عزيز لديه، وينفطر قلبه حزنا وكمدا عليه، ثم إذا بهاتف يحدثه (من نفسه أو من الشيطان) بأن ربه لو كان «عادلا» وقادرا حقا (بل لو كان موجودا أصلا) ما نزع منه أعز الأشياء إليه، وما آلمه هذا الإيلام الشديد من غير أن يبين له بأي شيء علىٰ وجه التحديد استحق أن ينزل به ذلك النازل الكريه! فمن أين يأتي ذلك الهاتف الخبيث وما الذي يرغبه في الإصغاء إليه ويحمل نفسه علىٰ التجاوب معه؟ إنما يأتي من ميل قلبي سابق (بسبب الهوىٰ الذي تشبعت به) للتحرر من الدين وتكاليفه جملة واحدة! لولا ذاك الميل الباطني ما التفت إليها أصلا وما عظمت في نفسه حتىٰ بلغت أن تكون مستندا تسويغيا للانفكاك من الدين ومن الخضوع لرب العالمين!

فإذا ما قرر ذلك الجاحد أن ينظر فيما كتبه الفلاسفة في تلك القضية، فسيجد لا محالة بسبب ما تراكم من مؤلفاتهم فيها، أساسا «نظريا» (ثريا) كهذا الذي عرضنا منه جانبا فيما مر معك، يقف عليه بجحوده وكذبه علىٰ نفسه، أيا ما كانت نحلة الإلحاد والتكذيب التي اختارها لنفسه، ويجد نفسه مع هذا – وهو الأهم، الذي لا نجده في

أي مدخل آخر من مداخل التلبيس والتزيين عند الملاحدة – قادرا علىٰ إلهاب مشاعر موافقيه أو عامة من كان فيهم ميل كميله، وشحن عواطفهم ونقمتهم وغضبهم ضد باريهم بمجموع ما يجدونه من مكاره في كل مكان! من منا لا يكره رؤية الشر أو التعرض له (هكذا)؟ من منا معاشر العقلاء لا يتأذىٰ أو لا يتضرر إذا ما نزلت به كارثة أو فقد شيئا محببا لنفسه، أو أصيب ببلاء عظيم في نفسه أو ماله أو فيما يحب؟ هذا هو المدخل، وهو ما به استطاب القوم أن يجعلوها «مشكلة».

نحن نقول إن الإنسان إذا ما استقام عقله وسلمت نفسه من ذاك المرض الخبيث، فلن يطلب دليلا نظريا مكتسبا علىٰ صحة حقائق معرفية كبرىٰ هي من العقل بمنزلة الجبال الرواسي، كتلك الضرورات العقلية والبدهيات الأولية في كمال الخالق جل وعلا، ومهما وجد في نفسه من جهل بالحكمة الإلهية المعينة من هذا الخلق المعين أو ذاك، فلن يسوء ظنه بخالقه مهما كان يكره ما يجد في مفعولاته من مكاره أو يثقل علىٰ نفسه ذلك، وسيعلم – إذا ما سمع بضاعة الأنبياء والمرسلين – أن الله يبتليه بتلك الكراهة نفسها ويختبر إيمانه، فإما أن يقول: الله أعلم وأحكم، والحمد لله علىٰ كل حال، ثم يلزم نفسه بذلك ويمتنع عن إعمال ذهنه فيما لا طائل تحته، ويجاهد نوازع الشيطان ووساوسه فيكون من الفائزين في ذلك الامتحان، وإما أن يقع في السخط والجحود، فيسوء ظنه بخالقه حتىٰ يصل إلىٰ إنكار تلك البدهيات العقلية الأولىٰ نفسها بالتفلسف فيها والتنطع عليها، وهو يزعم أن له في ذلك ما يبرر جحوده وكفره، وإذن يكون ممن قال الله فيهم: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ [**الحج**: ١١] نسأل الله السلامة والعافية.

يقول جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [**البقرة**: ١٥٥] ويقول: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾ [**محمد**: ٣١] بل يقول: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى**

يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [**البقرة**: ٢١٤] وتأمل قوله تعالىٰ «زلزلوا»! نعم سيكون في الأرض من النوازل والكوارث ما يندىٰ له الجبين وتنخلع منه القلوب، هذا من حكمة الله في خلقنا في هذا العالم أصلا شئنا أم أبينا (ولا يضير الإباء أحدا سوانا إن أبينا)، مع قطعنا بأنه لا يظلمنا مثقال ذرة! ولكن هؤلاء أهل جحود واستكبار يريدون عالما لا يجدون فيه إلا ما يحبون وما يشتهون، وإن كان من تكليف فليكن علىٰ الهوىٰ والمزاج. هم ما ألحدوا إلا لأنهم يريدون الفرار من مطلق التكليف الديني والخضوع التام والإذعان التام لأمر بشر مثلهم، كما في قوله تعالىٰ حاكيا كلامهم وكاشفا تلك الآفة فيهم (آفة الاستكبار المحض): **﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾** [**المؤمنون**: ٣٤] فأي طريق أسهل وأقصر لإيهام أنفسهم وأقرانهم بأنهم علىٰ شيء وبأن إلحادهم وصدودهم عن الحق له «مستند عقلي» ذو بال، من إشعال مشاعر «الغضب» و«السخط» علىٰ الرب سبحانه وتعالىٰ بسبب ما يتعرضون له في هذا العالم من أمور يكرهونها؟

هذا المعنىٰ (أن مشكلة الشر ليست حجة فلسفية أو عقلية بحال من الأحوال وإنما هي حالة نفسية تحتاج إلىٰ علاج ديني وعظي، إن كان يرجىٰ منها العلاج) يشهد به «ألفين بلانتينغا» نفسه (صاحب الجدال اللاهوتي الطويل في تلك المسألة فيما مر بك في هذا الباب) في كتابه «الإله، والحرية والشر» حيث يقول:

> إن المؤمن بوجود الإله قد يجد صعوبة دينية في وجود الشر، ففي وجود معاناة شخصية يمر بها هو نفسه أو بعض المقربين إليه، قد يجد أنه من الصعب الثبات علىٰ ما يراه الموقف الصحيح من الإله! فإذا ما واجهته معاناة شخصية كبيرة أو نزل به حظ عاثر، فإنه يجد الثورة ضد الإله قد تزينت في عينيه، ويجده مدفوعا لكيل التهمة إلىٰ ربه، بل إلىٰ الكفر به كلية! وهذه المشكلة لا تستدعي التنوير الفلسفي في الحقيقة، وإنما تدعو إلىٰ مزيد من التعليم والتربية الدينية!»[1]

قلت: فهذا والله من العجائب! إذا كان الأمر كذلك عندك حقا يا سيد «بلانتينغا»، وقد كنت كذلك تقول إن الإيمان بالباري من جملة الاعتقادات الأساسية Basic Beliefs

(1) Plantinga 1977, pp. 63-64.

التي لا تفتقر إلىٰ برهان، فلماذا تكلفت خوض الجدل الفلسفي البيزنطي مع هؤلاء الجحدة المرضىٰ علىٰ نحو ما صنعت، ولم تقتصر علىٰ الوعظ و«التعليم الديني»؟ لو كنت صادقا خالي النفس من الأهواء، أنت نفسك، لتركت التخصص في الفلسفة ولانصرفت عن أهلها، ولكنت الآن مسلما موحدا، تدعو الناس إلىٰ الحق الجلي الواضح بالبشارة والنذارة كما جاء بها القرآن، لا بالتفلسف في الأدلة النظرية والمقدمات والحجج المنطقية الطويلة كما صنعت! ولكن للنفس أهواء وحظوظ لو بقيت خافية علىٰ صاحبها لأهلكته من حيث لا يشعر، نسأل الله السلامة!

ماذا يريد الفلاسفة أكثر من العلم الجازم بأن من صبر واحتسب وحسن ظنه بربه في تلك الفتنة (الفتنة بالشرور والمكاره) فقد فاز فوزا عظيما؟ إلىٰ أي شيء يحتاج هؤلاء أكثر من التربية الدينية علىٰ الدين الحق وعلىٰ العقيدة الصحيحة، علىٰ دين خاتم المرسلين صلىٰ الله عليه وآله وسلم؟ وما بالهم يكابرون ولا يقبلون الدخول فيه وقد علموا أنه الحق من ربهم، وأنه لا علاج إلا به ولا شفاء لما في الصدور إلا فيه؟ أم تراهم قد ارتضوا لأنفسهم ملة التثليث والصلب والفداء والخطيئة الأصلية، وصورة الإله المحب لجميع خلقه بلا موجب ولا حكمة ولا مرجح، بل علىٰ نقيض الحكمة كما تقدم، ذلك الإله الذي تمرد عليه الشيطان فصار ندا له في الخلق والتكوين، بل صار أعلىٰ سلطانا في الأرض من سلطانه وأقرب إلىٰ تحقيق غاياته فيها من «خطة» الروح القدس وتلك المحبة غير المشروطة (سبحان الله وتعالىٰ عما يصفون)؟

إن حجة الحق لا تحتاج إلىٰ دكتوراه في الفلسفة حتىٰ يراها السامع واضحة جلية كالشمس في كبد السماء! لا تحتاج إلىٰ مجلدات مطولة من الرد والرد المضاد والتفلسف في كل صغيرة وكبيرة حتىٰ تصل إلىٰ إقناع العقلاء! ولا يكون التفلسف من أجلها تنويرا أو استنارة كما سماه بلانتينغا في النقل الآنف، بل والله لا يكون إلا الظلمة بعينها والضياع بعينه! ولكنه ذلك الهوىٰ الخفي الذي بسببه قاتلت الأمم سائر من بعثهم الرب من الرسل والأنبياء، واستكبر كبراؤها علىٰ إخضاع أنفسهم لرجل منهم.

تأمل قول الفيلسوف الأمريكي «بول درير» (٢٠٠٧) في الفقرة الأولىٰ من مقدمة كتاب له بعنوان: «الإله أم الطبيعة العمياء؟ الفلاسفة يتنازعون في الأدلة (٢٠٠٧-٢٠٠٨)»

مع أن الإله لم يمت، إلا أن حالته الصحية الأكاديمية بعيدة عن السلامة. ليس هذا تعليقا عن الإله نفسه بالطبع، وإنما هو تعليق علىٰ حال الأكاديميين، لا سيما المشتغلين بصفوة الجامعات، وخصوصا المتخصصين منهم في الفنون والعلوم. فقد باتت «الطبيعية الميتافزيقية» Metaphysical Naturalism التي هي صورة من صور الإلحاد ينكر أصحابها وجود أي كائنات غيبية Supernatural Beings، موقفا محترما، واسع التأثير والانتشار بين العلماء والباحثين الأكاديميين. فما السبب في ذلك؟ يرىٰ «ويليام واينرايت» أن الكفر Disbelief (يعني الإلحاد) نادرا ما يكون ناشئا عن اعتراضات فكرية، بل الأغلب أن يكون ناتجا عن «صدام بين المعتقدات الدينية وبعض المشاعر... التي شكلتها بيئة لا متسع فيها للإله وللمقدسات الدينية». فإن كان السؤال عن السبب المباشر للكفر، فلا شك في أن واينرايت محق. إلا أنه يبدو لي أن الاعتراضات الفكرية قد لعبت دورا مهما في خلق البيئة الأكاديمية الإلحادية التي شكلت تلك المشاعر التي تصادم الاعتقاد الديني.

فإذا تركنا جانبا نبرة الاستخفاف المعهودة من الملاحدة، الظاهرة في قول هذا الرجل عن خالقه إن «حالته الصحية .. الخ»، وتأملنا في تعليقه علىٰ حال الأكاديميين الغربيين، لوجدناه حريصا علىٰ إحداث تفريق فاسد بين ما يسميه هو وأقرانه بالاعتراضات الفكرية، وما نسميه نحن ها هنا بالمرض النفسي (ويسمونه بـ«بعض المشاعر» أو «الحساسيات» Sensibilities أو نحو ذلك!). هذه التسمية لا شك أنها من تسمية الأشياء بغير أسمائها لتزيين الباطل. فكما أرجو أنه الآن لا يخفىٰ علىٰ قرائنا العقلاء، هذه الصورة التي يصفها «واينرايت» (ويوافقه عليها صاحب الاقتباس، مع تطرقه إلىٰ محاولة تفسيرها وتزيينها) لا حقيقة لها إلا التمحض في عبادة الهوىٰ.

يخرج الباحث الأكاديمي إلىٰ الوسط البحثي المتخصص فيجد الأساتذة والأقران والطلاب كلهم يعتنقون عقيدة من العقائد، فتنهزم نفسه المريضة ويكره أن يعلن مخالفتهم فيها، مهما كان يعلم أنها مخالفة لبديهيات العقل الأولىٰ ومقدماته، ثم يقال هذه «مشاعر» و«حساسيات»! هذا رجل يجبن عن اتهام أقرانه بحقيقة ما هم فيه من مرض، حتىٰ لا يفاجأ بنفسه وقد طرد من الجامعة التي يعمل بها علىٰ أثر ذلك، واضطر للتنازل عن مستقبله المهني جملة واحدة! والناقل عنه (صاحب الاقتباس: بول دريبر)

يختار أن يوافقه لأن العبارة التي استعملها الرجل تروق له. فهي تصف الصراع النفسي وصفا لا يحيله إلىٰ شيء يوجب المذمة والتشنيع والتضييق الاجتماعي، وإنما يظهره وكأنه شيء مستساغ لا مرض فيه ولا فساد. ولأن «دريبر» هذا من رؤوس فلاسفة الإلحاد (اللا-لاهوتيين) المعاصرين، لم يكن من المستغرب أن تراه يحاول أن يزيد من تسويغ تلك الأحوال النفسية من طريق التأكيد علىٰ قيمة تلك «الاعتراضات الفكرية» الشائعة عندهم علىٰ وجود الباري وصفاته جل وعلا! مع أنه لو صدق وتجرد للحق لاعترف بأن تلك «الاعتراضات» كلها ليست إلا ما تراكم عند الفلاسفة من مجموع تسويغاتهم المرضية الواهية Rationalizations لما اختاروه لأنفسهم من إلحاد وجحود، وجدالهم عن تلك التسويغات ضد الخصوم وإبداعهم وتنافسهم في ذلك وتفننهم فيه، ولاعترف بما اعترف به غيره من أقرانه بأن «مشكلة الشر» هذه ليست إلا خللا نفسيا وعقليا عند أصحابها، مهما كثر فيها الجدال وتشعب واستطال.

ولعل القارئ الكريم الآن يتساءل: إن كان ذلك كذلك، فلماذا لم نر من الأكاديميين الغربيين المعاصرين بحثا جريئا في «السوسيولوجيا» أو «السيكولوجيا» أو «السوسيو-إبيستمولوجيا» أو تحت أي «لوجيا» أخرىٰ يرونها أنسب، يضرب في أصول كثير من صناعاتهم الأكاديمية الفلسفية ليفسرها (كتراكمات أدبية متوارثة) بهذا التفسير الواضح؟ لماذا لم تطرأ هذه الفكرة علىٰ أذهانهم أصلا؟ السبب أيها القارئ المحترم أن المصاب بالمرض النفسي لا يرىٰ نفسه مريضا أصلا، بل يراه أعقل العقلاء، ويرىٰ مخالفيه هم المرضىٰ أصحاب الأوهام الذهانية والأساطير الغيبية!

إنه مرض «الكبر الأكاديمي» الذي تناولناه في غير موضع من هذا الكتاب بالبيان والتمثيل. وعندما يكون مدار التخصص الأكاديمي علىٰ إثراء وإزكاء وتضخيم تلك المادة نفسها التي بها يتذرع الباحث من هؤلاء بين الصفوة في مجتمعه للبقاء علىٰ جحوده واستكباره وإبائه فيما يتعلق بقضية الدين والمعتقد الغيبي، كما هو الشأن عند الفلاسفة، فلا شك أن ذلك «الاستكبار» يكون مضاعفا. وإلا فكيف تتصور أن يظهر في تنظيرهم ما يترتب عليه إغلاق أكاديميات وجامعات كاملة وإسقاط الدرجات العلمية

الممنوحة لأصحابها، بل ربما إحراق مخزونها الأكاديمي المتوارث بأكمله، صيانة للناس من ضرره وفساده[١]، كأن يعترفوا (مثلا) بأن ممارسة الفلسفة في قضايا الغيبيات بعموم: مرض نفسي؟ هذا محال. لن تطرأ الفكرة نفسها علىٰ ذهن أحدهم من الأساس!

وبحسب كل عاقل سوي النفس أن يتأمل في عنوان ذاك الكتاب الذي جئنا منه بالاقتباس الآنف: *God or Blind Nature: Philosophers Debate the Evidence* «الإله أم الطبيعة العمياء؟: الفلاسفة يتنازعون في الأدلة»، حتىٰ يقرر من أول وهلة أن جميع ما فيه من جدل إنما هو محض عبث وسفسطة، لا يصح لمن أراد السلامة بعقله وقلبه ودينه أن يطالعه أصلا! فالكتاب موضوعه ذاك الجدال العبثي اللعين في مسلمة من مسلمات العقل الأولىٰ، الذي يراد فيه نسبة فعل الخلق والتكوين والضبط والتقدير إلىٰ الشيء المخلوق نفسه، أو نفي ذاك الفعل أو السبب بالكلية! فهل هذه «مسألة» يصح

---

(١) نعم، كما كانت تصنع الكنيسة في العصور الوسطى، ولا نخجل من موافقتها على المبدأ نفسه وإن كره من كره، لأن صيانة عموم البشر من انتشار ما يفسد عليهم دينهم ويضيع لهم آخرتهم، واجب أخلاقي على كل من يلي أمر العامة في أي بلد من البلاد، قبل أن يكون واجبا شرعيا دينيا جاءت به شريعة الإسلام. وإنما نخالف الكنيسة فيما أهدرته وأحرقته من علوم نافعة مفيدة، لقيام الأمر عندها على جهل وهوى لا على علم وحق. ومن العجيب حقا أن يعترف الملاحدة والعلمانيون بوجوب فرض السلطان المعرفي على كل ما يطبع وينشر بصورة رسمية في الأكاديميات العلمية المعتبرة (وأعني بالمعتبرة: المرجوع إليها فكريا واجتماعيا وتشريعيا في مجال تخصصها أيا ما كان)، ثم هم في نفس الوقت يرفضون ذلك ويكرهونه أشد الكراهية إن جاء من حاكم البلاد استنادا إلى مرجعية علمية أيا ما كانت! فلو افترضنا أن جاء رئيس إحدى البلاد الغربية اليوم ورجع إلى لجنة من علماء الطب (مثلا) يسألهم عما يجب منعه من المطبوعات والمواد المنشورة بين الناس من تأليف الدخلاء على اختصاصهم، لرأيتهم يفرحون بذلك أشد الفرح، ولاعتبروه أمرا محمودا لذلك الرئيس، أن أقام للعلم وزنه وحرص على صيانة العامة من تجار العلوم الكاذبة... الخ. أما لو جاء بمثل هذا الموقف في صناعات تلك العلوم التي تصح بها العقول والقلوب (وهي أهم بأضعاف كثيرة من صناعات تصح بها الأبدان)، وقد كثر فيها جدال الفلاسفة والمفكرين وأضرابهم بكل سفسطة وعبث، لقيل إنه «ديكتاتور» متسلط لا يُري الناس إلا ما يرى! ولو أنه أصدر قرارا ذات يوم بإغلاق جميع المعاهد القائمة بتدريس التنجيم والأسترولوجيا ونحوها من فنون الدجل، لحمدوه على ذلك (إلا قليلا منهم، من غلاة الليبرالية، الذين لا يرون بأسا في أن يهلك الإنسان نفسه بما يقرأ وما يكتب وما يرتضي من الأفكار ما دام راضيا مختارا)، أما لو أصدر ذات يوم قرارا بمنع تدريس نظرية «داروين» (كما صنعت بعض الولايات في أمريكا) لقامت عليه الدنيا ولم تقعد! فمن أين يأتي ذاك التناقض؟ الجواب واضح ولا يحتاج إلى تحرير.

في العقل المجرد أن تطرح للاستدلال والنزاع النظري؟ أبدا! ولو سلمت نفوس هؤلاء وقلوبهم من الأهواء ومن الكبر لحكموا بأن هذا من محض الجنون! نعم الكون مخلوق قطعا، وكل شيء فيه مخلوق قطعا، وخالقه كائن بائن منه لا يقاس علىٰ شيء منه، وهو رب عليم حكيم لا منتهىٰ لقدرته، خلقه علىٰ نظام محكم لا يتبدل ولا يضطرب. هذه حقيقة بدهية نعرفها من غير اكتساب، تاما كما نعرف أن هذا العالم من حولنا ليس وهما نتوهمه في عقولنا، وأن الزمان يجري من الماضي البعيد إلىٰ المستقبل ولم يبدأ الآن توًّا خلافا لما نتوهمه جميعنا، وأن يدي التي أكتب بها الآن موجودة علىٰ الحقيقة ولست أتوهمها، إلىٰ آخر ذلك الصنف من المعاني الأولية الفطرية التي لم تفتقر يوما إلىٰ برهان عند العقلاء، ولن تراها تطرح للاستدلال النظري إلا فسد العقل نفسه علىٰ أثر ذلك أشد الفساد!

أي أننا لا نبالغ إن قلنا إن أي دعوىٰ سوسفطائية، مهما كانت ساقطة متهافتة، ومهما كان يصح علىٰ قائلها لقب الجنون وذهاب العقل وفساد القلب، فإنه يكفي أن يظهر في الأكاديميات الفلسفية التخصصية من ينتصر لها بطريقة القوم في التنظير والبرهنة المنمقة والزخرفة المنطقية، حتىٰ تصبح مذهبا فكريا معتبرا له احترامه الاجتماعي ووجاهته «الفكرية» التي تجعله يستحق البحث والنظر والمناقشة والجدال الطويل، ولا يجوز اتهام صاحبه من «النخبة المثقفة» بما يسيء إليه من اتباع الهوىٰ أو بالكبر والمراء وجحد البديهيات وغير ذلك مما هو أهله! فأي شر وفساد أعظم للعقل والقلب والدين من هذا السرطان الاجتماعي الخبيث؟ نسأل الله السلامة!

فلما صير «الأكاديميون» مسألة الشر هذه، قبل قرون طويلة مادة للنزاع النظري، ترتب علىٰ ذلك الخُلف العقلي المنهجي أن أصبحت أدلتهم المزعومة فيها (إثباتا ونفيا) من أكثر المواد الأدبية استدعاءً للجدال والاعتراض والتلاعب اللفظي بما لا أول له ولا آخر ولا يرجىٰ من الخوض فيه الوصول إلىٰ نهاية أبدا! كيف والمجادل في هذا لن يجري في جداله إلا عكس اتجاه العقل نفسه في النظر العقلي كما بينا، إذ يستعمل الظنيات النظرية لإثبات (أو نفي) البدهيات الأولىٰ؟

من ثمّ تحقق لأهل الجحود والاستكبار مرامهم من ذلك الجدال علىٰ أحسن ما كانوا يطمعون، من تراكم تلك المادة فيما بين أيديهم أولا، ومن اتفاقهم علىٰ أنها لن يوصل منها إلىٰ جواب حاسم لأي سؤال من أسئلتها أبدا ثانيا[١]، لأن هذا يجعل من مجرد التخصص في مجال اسمه «فلسفة الدين» (مثلا) ستارا نفسيا واجتماعيا سميكا لأصحاب ذلك التخصص ولعموم الملاحدة من غيرهم كذلك، يقال لأصحاب أي دعوىٰ دينية، لو كان الإله حقا ما خفي «دليل وجوده» علىٰ الفلاسفة وما استعصىٰ عليهم «إثباته» علىٰ هذا النحو، فإما أن تقدموا الدليل المطلوب وتدفعوا عنه اعتراضات الفلاسفة بمثلها، وإما أن تتركوا الملحد لإلحاده وأن تشهدوا له بأن لإلحاده «تسويغا

(١) لذا صار «الشك» هو المبتدأ والمنتهى عند كل فيلسوف، بل لا يقال لأحدهم إنه «فيلسوف» إلا إن أبدى استعداده الفكري (ولو بالقوة دون الفعل، ولو بالتعريض دون التصريح) لطرح كافة مسلماته ويقينياته للمساءلة والتشكيك. ولهذا، مهما اختلفت تعريفات صنعة الفلسفة، وتفاوتت تعريفات الفيلسوف (المتخصص)، فلن تراها تتفق إلا في أصل الشك والتشكيك المبدئي فيما اتخذه عموم العقلاء من البديهيات والمسلمات المنصرمة. لا انصرام لشيء عند الفيلسوف ولا يقال له فيلسوف إن قال في بعض المسائل إنه لا يقبل النزاع عليها ولا يرى المخالف فيها إلا متهما في عقله أو في نواياه! حتى عندما ذهب بعضهم إلى موافقة الفطرة والبداهة الأولى بتقرير أن من المعارف ما هو ضروري غير مكتسب، ولا يحتاج إلى دليل نظري حتى يقال به، طالبوه – وهو الفيلسوف الأكاديمي – بالدليل النظري على ذلك الزعم نفسه، ومن ثم طالبوه بقبول مبدأ الشك النظري في أصل تلك الدعوى نفسها، وأصبح غايته أن يصنف عندهم على أنه ينتمي إلى مدرسة فلسفية تقول بهذا القول، على خلاف مدارس أخرى، وعلى الفيلسوف أن يبدأ أولا بالشك في الفكرة نفسها (فكرة أن في العقل مسلمات بدهية لا تحتاج إلى دليل) ثم يتأمل في «أدلة» كل فريق منهم لينظر إلى أين تذهب به!

ولهذا جاء في الأثر الضعيف في رواية من رواياته (ولعله يصح موقوفا على ابن عباس رضي الله عنهما): «تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله، فإن التفكر في الله يورث الشك». فلماذا يورث الشك؟ لأن وجود الله تعالى وكمال صفاته وتنزهه عن كل قياس على خلقه في الكيفيات والحقائق: حقيقة بدهية أولى من طرحها في نفسه للتفكر (بما حقيقته الأقيسة بأنواعها والاستدلالات: كاستدعاء الأدلة والأدلة المخالفة والموازنة بينها) وقع التشكيك في نفسه (بقدر ما أو بآخر) لا محالة. ولهذا صح أن يقال إن التفكر في خلق الله يوصل إلى اليقين والتفكر في الله يوصل إلى الشك. ذلك أن التفكر في خلق الله يذكر النفس بعظمة الباري وكمال صفاته وحكمته، فيطابق بين الشاهد في خارج الذهن، والمعرفة الفطرية المجبولة عليها النفس، فيتحقق من أثر ذلك ما يدعم من قوائم اليقين في تلك النفس التي سلمها الله من الأهواء الصارفة، بخلاف التفكر في ذات الله الذي لا يخرج صاحبه منه إلا بالقياس على المخلوقين بصورة ما أو بأخرى (إما قياس الصفات أو الأفعال) أو بدعوى النظر العقلي في وجود الخالق نفسه، وهو ما يفضي بصاحبه إلى الشك والضلال وتكافؤ الأدلة لا محالة.

معرفيا» ومستندا نظريا له قيمته واعتباره (أو ما يسميه صاحب الاقتباس الآنف بـ«الاعتراضات الفكرية») وبأن له عذرا في البقاء علىٰ إلحاده بل وفي الانتصار له علانية ومجادلة الناس عليه في كل ملأ. والآن كلما حاول أحدهم أو أوشك أن يصرح بما يوحي ولو من بعيد بأن تلك الجدالات عند أصحابها إنما يحركها عطب نفسي متجذر، ومرض اجتماعي عضال، قوبل - كما ترىٰ - بما حقيقته هذه المغالطة نفسها التي قامت عليها تلك الصناعات العبثية عندهم يوم قامت من قرون خلت، ألا وهي الزعم بأن مجرد وجود الجدال والنزاع حول تلك «الأسئلة الكبرىٰ» دليل علىٰ معقولية ذلك الجدال، وعلىٰ سلامة عقل من يطرحها للبحث والنظر، وبأن مجرد ذيوع ذلك النزاع وجريانه علنا في محافل «النخبة المثقفة»، دون مانع ولا رادع، دليل علىٰ سلامة المجتمع وصحته ورقيه فكريا، وإلىٰ الله المشتكىٰ!

لهذا يرفض عامة الفلاسفة (ومن تابعهم) أن يعترفوا بأن ذاك «الصراع مع مشكلة الشر» إنما هو صراع نفسي يعانونه هم - وليس عامة الأسوياء من البشر - بسبب أهوائهم وأمراض نفوسهم، وليس صراعا «فكريا» أو نزاعا نظريا في مسألة يرد عليه الدليل وضده! كيف يُتوقع من أحدهم الاعتراف بما لا ثمرة له إلا رفع لقب «الفيلسوف» عنه رأسا، ليس هذا وحسب، بل الرجوع بالذمّ الشديد علىٰ سائر الأقران والزملاء والأساتذة والتلامذة .. الخ؟ هذا بعيد غاية البعد! أي «فيلسوف» هذا الذي يتصور منه أن ينقلب عدوا لدودا للفلسفة نفسها، يسعىٰ في تغليق أبوابها وإعدام تراثها وقطع الناس (أو علىٰ الأقل صدهم) عنها؟ هذا لا يكون أبدا، والله لا يهدي القوم الظالمين.

فصل في كبر الفلاسفة والمتكلمين

لو أن قائلا قال إن الفلاسفة والمناطقة هم أكثر أهل الصناعات المعرفية الأكاديمية فرحا وغرورا بعقولهم واستكبارا بصناعتهم علىٰ الإطلاق، ما كان مبالغا. ذلك أن الفيلسوف بطبيعة صنعته يرىٰ أنه يعقل ما لا يعقله الآخرون (عامة الناس)، وأنه مؤهل لإبصار ما لا يبصره غيره من دقائق الأمور. إنه ذلك الرجل الذي يزعم أنه أكثر الناس احترافا وتخصصا في ممارسة «التفكير العميق» واستنباط العلاقات المنطقية الصحيحة بصورة «منهجية» systematic في كل مسألة تعرض علىٰ ذهنه أيا ما كانت، وهو في بيته متكئ علىٰ أريكته. ولا شك أن سائر فنون النظر والاستنباط النظري تحتاج إلىٰ تفكير دقيق أحيانا، وإلىٰ طول تأمل وطول نفس في النظر والتتبع، وإلىٰ قدرة علىٰ الربط بين المعاني التي قد تبدو لأول وهلة بعيدة غير مترابطة، وهو ولا شك عمل يتطلب ملكة ذهنية ليس كل أحد يتوفر عليها.

لذلك ترىٰ أن طالب الفلسفة في أي أكاديمية من الجامعات أو المعاهد التي تدرس تلك الصنعة (كمجال تخصصي) يحتاج في بداية دراسته إياها - غالبا - إلىٰ أن يقنعه أساتذته بأهمية وقيمة ذلك التخصص الذي انضم إليه، حتىٰ يستحضر في دراسته وتعبه وعنائه (علىٰ شدة عناء دارسي الفلسفة في تتبع أقوال الفلاسفة وتحليلها وتصنيفها ومقارنتها والترجيح بينها) نية تطمئن إليها نفسه، ودافعا يشبع تطلعاته وطموحاته الفردية! لا سيما وقد علم الأكثرون أنه مجال أكاديمي ليس له تطبيق عملي يذكر، ولا يشتغل أصحابه بأي صناعة تطبيقية يمكن التربح منها كما ترىٰ في الطب والهندسة والكيمياء ونحوها من العلوم التطبيقية، أو حتىٰ في العلوم الإنسانية النظرية كعلم النفس وعلم الاجتماع والجغرافيا ونحوها! وهنا تسمع من هؤلاء من الغلو والإفراط ما يندىٰ له الجبين، وينكشف معه خواء بضاعتهم في جواب السؤال المهم للغاية (علىٰ الأقل من الناحية الأخلاقية البحتة): «ما هي الفلسفة، ولماذا نحتاج إلىٰ دراستها؟»، حتىٰ إنك لتلمس في كلامهم التصريح بأن من لم يدرس الفلسفة أو لم يمر بها في حياته

فليس له عقل أصلا، كما في مثال الكهف الشهير عند أفلاطون Plato's Cave Allegory مثلا! بمعنىٰ أنهم يريدون إيهام طلبتهم بأن الإنسان لا يتحلىٰ بصفة العقل أصلا حتىٰ يدرس الفلسفة!

فهذا «سيزار دومارسيه» (أحد فلاسفة «التنوير» الفرنسيين في القرن السابع عشر الميلادي)، يفرق في مقال كلاسيكي بعنوان «الفيلسوف» *Le Philosophe* بين الفيلسوف والإنسان العامي علىٰ أن هذا الأخير يتحرك في حياته بدون معرفة أسباب أفعاله، أو حتىٰ التوهم بأن لهذه الأسباب وجودا علىٰ نحو ما. أما الفلاسفة فيمتازون - بحسبه - بحرصهم علىٰ تحري تلك الأسباب وبحثها بحثا عميقا والوقوف علىٰ معرفتها بصورة تفصيلية، ومن ثم الوصول إلىٰ بناء أفعالهم كلها علىٰ تلك المعرفة الواعية التي تحصل لهم. ففي الوقت الذي يندفع عامة الناس إلىٰ إتيان أفعالهم بعواطفهم المجردة في الأعم الأغلب، فإن الفيلسوف في المقابل قد اختار لنفسه طريقا لا يؤتىٰ فيه شيء من العمل إلا بناء علىٰ تفكير وتعقل عميق للغاية![1]

ويحق لنا هنا أن نسأل: هل بقي للعقل نفسه من اسم يصح إلحاقه بهذا الذي يسميه صاحبنا بـ«الإنسان العامي»، بعد أن وصفه بهذا الوصف؟ ثم من الذي قال إن الفلسفة تنزه المتخصصين فيها عن اتباع العاطفة في النظر والتقدير والتعقل؟ وأي شيء يكون اتباع الهوىٰ والإغراق فيه إن لم يكن اتباعا للعاطفة كما بينا (الميل مع مشاعر الحب والبغض في العقل الباطن)؟ وإذا كان الهوىٰ قد بلغ بالفيلسوف أن حمله علىٰ التشكيك في بدهيات العقل الأولىٰ نفسها والسعي في إثباتها كما لم يطرأ ببال أكثر العامة في يوم من الأيام، فكيف يقال إن الفيلسوف المتخصص في الغيبيات والإلهيات، الذي يغرق نفسه ليل نهار في الوهم بأن مخلوقيته نفسها محل بحث ونظر (!!)، أكمل عقلا من «العامي» (الذي لا يدري ما الفلسفة)، وأسلم بأحكامه من تأثير العاطفة؟ هذا كلام من لا يدري ما محل العاطفة والمحرك الشعوري من العمل العقلي نفسه.

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

---

(1) Dumarsais, XII: 509/284-285.

تأمل علىٰ سبيل المثال قول «سقراط» لرجل «عامي» كان يخاطبه: «لقد مر بي زمان كنت أجوب فيه أرجاء العالم متوهما أني أعمل في مهنة عظيمة، ولكني كنت في الحقيقة علىٰ أحقر حال، بما لا يفضُل حالك أنت الآن ولا يعلو عليها في شيء. وقد كنت أظن أنه يتعين علي أن أعمل بأي شيء إلا أن أصبح فيلسوفا!»[١] فكأنما يريد أن يقول لمن يخاطبه: كن فيلسوفا إن كنت تريد أن تمارس أعظم المهن وأن يعلو حالك بين الناس، ولا تبقىٰ علىٰ تلك الحال الحقيرة التي أنت عليها الآن.

بل إن «سقراط» كان يبدو في بعض كلامه وكأنه يتدين بممارسة الفلسفة ويعلي من قيمتها الأخلاقية ديانةً وتعبدا، فيقول في خطبة من خطبه[٢]:

> يا أهل أثينا، إنني شاكر لكم وإنني صديق لكم، ولكني سأقدم طاعة الإله علىٰ طاعتكم، ولن أكف عن ممارسة الفلسفة ما دام في صدري نفس يتقلب وما دمت قادرا، حتىٰ أحثكم وأوجه أي واحد ألقاه منكم بطريقتي التي تعودتموها مني بمثل قولي: أيها السيد، أنت رجل أثيني، ينتمي إلىٰ أعظم مدينة تتمتع بأعظم سمعة في كل من الحكمة والقوة، أفلا تخجل من حرصك علىٰ بلوغ غاية ما يمكنك بلوغه من الثروة والصيت ورفعة الشأن بين الناس، مع كونك لا تهتم ولا تفكر في الحكمة والحقيقة، ولا تحرص علىٰ تحقيق أحسن حال يمكن لروحك أن تصل إليه؟

وهذا «نيتشه» يدافع بصراحة – ووقاحة – عن غروره وغطرسته، متهما من ينسبونه إلىٰ ذاك المرض بأنهم يكرهون العلو والتفوق، فيقول[٣]:

> إننا [يعني عموم البشر] نكون أشد أنفة من الكبر Arrogance عندما نراه يصدر عن أصحاب العلو والمنزلة فيما بيننا، مما نكون عليه عندما نراه يصدر عن أولئك الذين ليس لهم قيمة ولا وزن في المجتمع، وما ذاك إلا لأن تميز المتميز وعلوه نفسه يجلب الأنفة والضيق عند غيره من الناس.

(1) As cited by Burton, 2012.

(٢) معزوا إليه في المصدر السابق.

(٣) معزوا إليه في المصدر السابق.

فتأمل كيف بلغ الرجل أن أصبح يرىٰ الكبر والتعالي علىٰ غيره من الناس حقا من حقوقه الأخلاقية لمجرد كونه «متميزا»، ويرىٰ الرضا بذلك التعاظم والاستكبار منه واجبا متعينا علىٰ من هم «دونه» من البشر!

ويقول في سياق آخر[١]: «في كل مرة أحتك برجل متدين، أشعر وكأني يتعين علي أن أغسل يديّ.» فانظر كيف جاء الفيلسوف العظيم (في عين نفسه) «نيتشه» ليعلم البشر الحق والرفعة والسمو الإنساني، بخلاف أهل «التدين» الذين يرفلون كلهم في ثياب الجهل والانحطاط العقلي والتقليد الأعمىٰ بجرد كونهم متدينين! ويقول «هيغل»[٢]: «يجب علىٰ الفلسفة أن تدرك إمكانية أن يرقىٰ الناس إليها، ولكن لا يجب عليها أن تنزل إلىٰ مستواهم». ويقول «ديكارت»[٣]: «إنني أرجو أن تحكم علي الأجيال القادمة ليس فقط في ضوء تلك القضايا التي قمت بشرحها وبيانها، ولكن أيضا في ضوء تلك الأشياء التي تعمدت تركها حتىٰ يستمتع الآخرون باكتشافها».

إن الاستعلاء والكبر في نفوس أصحاب الاختصاص الفلسفي الأكاديمي (علىٰ صنوفهم واختلاف معتقداتهم، وعلىٰ رأسهم نظار الدهرية الطبيعية) مرض لازم لا مفر لهم من التلبس به، والسبب في ذلك عند التأمل أنها تلك الصنعة التي يتخصص أصحابها في طرح كافة مسلمات العقلاء وأصول اعتقاداتهم الكبرىٰ للمساءلة العقلية النظرية المجردة، وفي طرح كبرىٰ الأسئلة الوجودية للجواب من طريقهم، وهو ما يقتضي قولهم بأن من سلّم بشيء من مسلمات الناس في تلك القضايا الخطيرة من غير بحث وتأمل عقلي مستقل في «أدلتها العقلية»، علىٰ طريقتهم، فقد تابع من حوله في أعظم المسائل متابعة القطيع، وقلد تقليد العميان، وهي صفات يبرأ منها أي عاقل ولا شك. وهو ما يعني ضرورة اتهامهم عامة العقلاء ممن سواهم بنقص العقل لا محالة، إذ ما من إنسان (بما في ذلك الفلاسفة أنفسهم لو صدقوا) إلا ولديه جملة من المسلمات العقلية الأولىٰ التي لا يتطرق ذهنه إلىٰ تطلب الدليل عليها البتة!

(١) تراه معزوا إلى الرجل في المصدر السابق.
(٢) تراه معزوا إليه في المصدر السابق.
(٣) تراه معزوا إليه في المصدر السابق.

ولكن لو لم يكن هذا الذي تطرق إلىٰ تلك المسلمات بالتشكيك والمساءلة العقلية مقدما – في ميزان المعرفة – علىٰ من لم يفعل ذلك، فأي قيمة تكون لعمله ذاك أصلا، وأي شيء يكون جوابهم إن قيل لهم إن كثيرا مما خضتم فيه بمناخركم لا ينبغي لعاقل أن يرتاب في صحته أو يبحث له عن أدلة أصلا؟ ما جوابهم في كل مرة يأتيهم من يتهمهم بالسفسطة المحضة لخوضهم في بدهيات العقل الأولىٰ علىٰ نحو ما يصنعون، ولصدهم عن دعاوىٰ الأنبياء والمرسلين وتمسكهم بما هم عليه؟ ما جوابهم في كل مرة يأتيهم من يقول إن العقلاء الأسوياء لا يرون حاجة إلىٰ عبثكم هذا وطلبكم التدليل النظري علىٰ قضايا يعدونها من البدهيات الواضحات؟ ما جوابهم الجاهز لكل من يتهمهم بأنهم علىٰ عقائد غيبية متناقضة (وهي متناقضة قطعا أيا ما كانت، ما داموا علىٰ لون من ألوان الشرك) وأنهم لا يريدون سماع الحق ولا قبوله ولا الدخول فيه، وأن الحكمة عندهم إنما هي في الحقيقة كل ما يأتي علىٰ الهوىٰ والمزاج وليس ما يوافق الحق بدليل كما يزعمون أنه مطلبهم؟ ما جوابهم الجاهز لكل صاحب ديانة (أيا ما كانت) يدعوهم لترك ما هم عليه وقبول دينه؟ وما غطاؤهم الاجتماعي لتسويغ ما هم عليه من كره ونفور وبغض لدعاوىٰ أهل الأديان، إذ يدعونهم لأن يصيروا من الأتباع المنقادين معهم لدعوىٰ هذا النبي أو ذاك؟

إنها شهوة عظيمة ولا شك، أن يجد الواحد من هؤلاء الجحدة المستكبرين من صور التلبيس والزخرف اللفظي العميق ما يأتي به إلىٰ غيره من الناس ليقول لهم: أرأيتم هذه المسألة التي كنتم وما زلتم ترونها من بدهيات العقل وضروريات الاعتقاد التي لا تخضع لديكم لتشكيك ولا نظر؟ ها أنا ذا قد جئتكم بما لا تستطيعونه من البرهان العقلي علىٰ بطلانها أو علىٰ الأقل علىٰ أنكم لا تتحصلون لها علىٰ دليل مقبول عقلا!! أليس يرفع نفسه بذلك فوق الكافة من الناس، ويزعم أنه قد فاقهم عقلا وذكاء، وأنه إذن أجدرهم بأن يكون بينهم إماما متبوعا؟ بلىٰ! ولا شك أنه كلما كانت المسألة التي تصدر فيها بعقله أخطر في حياة الناس وأجدر بأن يلتمس لها الجواب الشافي، كان ذلك أشهىٰ لنفسه لأنه إذن يضمن له السيادة والرياسة في أعظم أبواب المعرفة كافة، ويجلسه مجالس الأنبياء والمرسلين كما تشتهي نفسه الخبيثة وتطمح إليه!

لذا كان لا بد من أن يلبس عليهم شيطانهم اعتقاد أنهم هم أهل العقل الأعلىٰ والأرفع، وأن عامة الناس من مخالفيهم لم يبلغوا أن ترقىٰ عقولهم إلىٰ تلك المنزلة التي بلغوها هم، ولا قريب منها، ولهذا لم يظهر لهؤلاء «العامة المساكين» أو «الأميين السذج» من أهل الدين شيء من فساد ما هم عليه كما ظهر للفلاسفة! ولا بد إذن أن تزدان لنفوسهم المريضة فكرة أن تلك الدعاوىٰ التي يعدها أهل الأديان من البدهيات العقلية الأولىٰ ولا يقبلون فيها جدلا ولا نقاشا إنما هي أوهام اجتماعية سائدة (أيا ما كانت)، اتُفق أن لم تجد من يملك من الذكاء وقوة العقل وعمق النظر ما يجرئه علىٰ مطالبة أصحابها بالدليل العقلي النظري علىٰ صحتها، إلىٰ أن جاء فلان وفلان من الفلاسفة المحققين الكبار ذات يوم، فنخلوها لهم نخلا وكتبوا فيها من النقد العقلي المفصل ما تحار فيه عقولهم الضعيفة!

وطريق التلبيس المضمون عند هؤلاء - الذي لا طريق لهم غيره - يعمل بكفاءة بالغة للسبب الذي حررناه في أقسام آنفة من كون الناظر الذي يبدأ بطرح الحقائق الأولىٰ والبدهيات الفطرية الأولية في عقول الناس للنظر، ويشرع في طلب الدليل النظري عليها، سينتقل - لا محالة - من الظاهر الجلي إلىٰ المشتبه الخفي، يجعل من هذا الأخير دليلا علىٰ الأول، وهو خلف عقلي عظيم، لن تكون بضاعة صاحبه و«أدلته» المزعومة إلا من ذاك البلاء العظيم الذي قال فيه ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل»: «أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل علىٰ حق وباطل فيطلقها مَنْ يريد حقها، فينكرها مَنْ يريد باطلها، فيرد عليه مَنْ يريد حقها؛ وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأىٰ منه عجائب، وخلصه من ورطات تورط فيها أكثر الطوائف».[(١)] ولهذا لا يأتي أحدهم في ذلك الزخرف المجمل الفاسد بشيء إلا تشعبت وتوسعت أبواب الرد والجدال في كل جزء منه كما بينا في قسم آنف، وهو غاية ما تطمح إليه نفوس هؤلاء إذ لا يزداد الحق الجلي الواضح إلا خفاء فيما بينهم وغرقا تحت طبقات وطبقات من تلك البضاعة الخبيثة!

---

(١) شفاء العليل، (ص١٣٦).

لذا نقول إن الفلسفة علىٰ هذا الوجه[1] لم تبق إلىٰ الآن صنعة أكاديمية مستقلة (علىٰ الرغم من انفصال العشرات من المجالات التخصصية الأكاديمية عنها عبر القرون في صورة علوم مستقلة) إلا لشدة حرص أصحابها علىٰ أن يصبح تراكم ما بين أيديهم من مجادلات ومساجلات طويلة فيها، درعا نفسيا واجتماعيا واقيا لا يزداد إلا سماكة مع كل إضافة يضيفها أحدهم إليه. فالقوم تهوىٰ أنفسهم الزيادة من ذلك ولا شك، والتوغل والتوسع والتعمق فيه غاية الوسع، كما تشتهي الزيادة من العلو به علىٰ الأقران بالإتيان بكل نقد جديد يستجلي فيه الواحد منهم ما قد يقع فيه خصمه من فساد لفظة ما أو مقدمة ما، في حجة يكتبها هنا أو هناك. ولأن الأمر كما بينا، كانت كل إضافة جديدة فيه تأتي – لا محالة – بباطل كثير مخلوط بحق قليل، في بحر من التناقضات والتنظيرات العبثية لا أول له ولا آخر، يردّ فيه كل أحد علىٰ كل أحد، بكلام لا يخلو من الاشتباه مهما استقام لأصحابه. فلا نهاية لما يمكن أن يبرع فيه أحدهم من نقد الآخر وبيان تناقضه!

فكيف لا يكون فنّ من فنون البحث الأكاديمي النظامي، هذا هو سبب بقائه وتراكم مادته عند أصحابه بالأساس، وهو دافع جريهم وراء الإبداع والإضافة والعلو فيه، إلا وقودا لأشد ما أنت راء من صور الكبر والغرور في نفوسهم؟ من ذا الذي لا تشتهي نفسه أن يشار إليه بين الخاصة من الناس بأنه من أذكاهم وأنبغهم وأرفعهم عقلا؟ وأي مجال تخصصي أحب إلىٰ صاحب ذلك العجب والهوىٰ الخبيث أن يصير فيه إماما متبوعا، من مجال يوصف بأنه أكثر المجالات النظرية تعمقا في العقليات وأكثرها تطلبا للذهن المتوقد والبديهة الثاقبة، وتعمقا في أعمق المسائل، حتىٰ إن صاحبه ليبلغ فيه أن يؤلف كتابا يسميه «نقد العقل الخالص» مثلا، كما صنع كانط، أو يسميه «مبحث

---

(١) و«الفلسفة» لفظة إن أطلقت في اصطلاح أهل العلم (وهو الاصطلاح المعتبر عندنا) مجردة من الإضافة (كما في قولنا: فلسفة علم كذا تعيينا)، فلا يراد بها إلا هذه الصنعة المذمومة المقبوحة التي ذمها السلف رضي الله عنهم (فلسفة الغيبيات والإلهيات)، وركب في ركابها المتكلمون ومن وافقهم من حيث يحسبون أنهم ينتصرون للدين، فجاؤوا بما يهدم الدين نفسه ويشوش حقائقه الكبرى على العقلاء الأسوياء من حيث لا يشعرون!

في الفهم البشري» كما صنع هيوم، بما يشعر الناس من خارج ذلك المجال بأنهم إن لم يقرؤوا مؤلفاته فلن يكون لهم دخول تحت اسم العقل والفهم البشري نفسه من الأساس؟ أي مجال أحب إلىٰ نفوس هؤلاء المرضىٰ من مجال يزعم البارع فيه أنه جاء يعلم الناس كيف يفكرون وكيف يتعقلون في أعظم المسائل وأخطرها بالنسبة لهم؟ لا يدخل أحدهم إلىٰ دراسة ذلك التخصص الخبيث إلا وهذا هو غاية ما يحلم به، فلا يزداد رقيا فيه بين الأقران إلا ازداد به غرورا واستكبارا وتعاليا علىٰ الخلق لا محالة، مهما زعم خلاف ذلك.

ونحن لا ننفي – ولا شك – أن كثيرا مما يتلقاه طلبة المجالات الفلسفية من تدريب علىٰ التفكير النقدي قد يكون مفيدا – بل هو مفيد قطعا – للباحثين في مختلف التخصصات المعرفية إذ ينمي لديهم ملكة التدقيق في أقوال الأقران في تنظيرهم وبحثهم واستخراج أوجه الضعف فيها، والموازنة بين أنواع الأدلة والترجيح فيما بينها، لذا يقوم بتدريسها كثير من أصحاب التخصصات العلمية المختلفة بقدر ما أو بآخر في أكاديمياتهم ومؤسساتهم التعليمية. ونظير ذلك ما استعمله الأصوليون المسلمون من قواعد فن الجدل والمناظرة. وبعموم أوسع نقول: لا شك أن إعمال العقل بطريقة ممنهجة للنظر فيما يحتاج إلىٰ النظر والترجيح من مسائل المعرفة (وانتبه إلىٰ هذا القيد جيدا)، أمر مطلوب مرغوب من حيث المبدأ. ولكن الفساد كل الفساد، يأتي عندما ينفتح كل شيء للنظر والنقد العقلي المجرد بلا حدّ ولا قيد، حتىٰ ترىٰ الواحد من هؤلاء يفاخر بأنه لم يدع شيئا مما يسلم بصحته غيره من الناس إلا وضعه تحت آلة النقد النظري وبحث في «أدلته» النظرية، ثم يزعم أن من لم يسلك ذلك المسلك «النقدي» في جميع معتقداته ومعارفه، مبتدئا في ذلك بأكثرها قيمة وأهمية بالنسبة له وأكثرها رسوخا في نفسه، فإما أنه جاهل ضعيف العقل، أو مقلد متعصب! هذا هو الجانب الذي من أجله يذم أئمة المسلمين وعقلاؤهم تلك الصنعة ويرونها محض العبث والضلالة، وهو – مع ذلك – أهم ما يفاخر به الفلاسفة المتخصصون ويفرحون به من تزيين النفس والشيطان لهم.

في كتابه «مشكلات الفلسفة»، في فصل تناول فيه قيمة وأهمية الفلسفة، يسوي «برتراند راسل» بين تلك الممارسات العقلية في البحث والتأمل النظري التي يوصل منها إلىٰ إنشاء وتأصيل وضبط مجالات علمية جديدة، كعلوم الطبيعة وعلوم الإنسانيات ونحوها، وبين تلك التي لا يرجو منها أكثر الفلاسفة الوصول إلىٰ شيء أصلا، كنظرهم في الأسئلة الوجودية الكبرىٰ (لماذا نحن في هذا العالم؟ من أين جاءت عقولنا وما قيمتها؟ هل الكون مادة صماء لا قيمة للخير والشر فيها؟ .. الخ)، في أن كلا الطريقين يجمعهما وصف واحد يراه الرجل أهم ما يمنح صنعة الفلسفة قيمتها: الشك والارتياب، أو بالأحرىٰ «عدم اليقين» Uncertainty.

قال راسل:

> ولكن ليس هذا إلا جزءا من الحقيقة فيما يتعلق بعدم اليقين Uncertainty في صنعة الفلسفة بعموم. ذلك أن ثمة أسئلة كثيرة – ومنها ما له أهمية كبرىٰ في حياتنا الروحية – ينبغي، في حدود ما نراه حاليا، أن تبقىٰ بلا جواب حاسم في العقل الإنساني، ما لم يصبح ذلك العقل أقوىٰ بمراحل مما هو عليه الآن. هل للكون أي خطة واحدة أو غاية عليا، أم أنه لا يزيد علىٰ كونه تركيبة عشوائية من الجزئيات؟ هل الوعي مكون أبدي من مكونات العالم، بما يعطي الأمل في نمو غير محدود في الحكمة عند البشر، أم أنه ليس إلا حادثا انتقاليا علىٰ كوكب ضئيل لا بد وأن يأتي يوم تصبح الحياة عليه مستحيلة؟ هل للخير والشر قيمة عند الكون أم أن قيمتهما مما يختص به الإنسان وحده؟ أمثال هذه الأسئلة تتناولها صنعة الفلسفة، وتتفاوت أجوبة الفلاسفة عنها. ولكن قد يبدو من الواضح أنه سواء كانت أجوبة تلك الأسئلة من الممكن (من حيث المبدأ) التوصل إلىٰ معرفتها أم لا، فإن الأجوبة التي تقترحها الفلسفة لا يمكن بيان أن أيا منها هو الحق بصورة حاسمة. ومع ذلك فمهما كان الأمل ضئيلا في التوصل إلىٰ اكتشاف جواب، فإنه جزء من وظيفة الفلسفة أن تواصل (كمجال أكاديمي) البحث والنظر في أمثال تلك الأسئلة، كي تجعلنا ننتبه إلىٰ أهميتها، ولنتفحص في كافة المداخل إليها، وليبقىٰ ذلك الشغف بالتأمل في الكون وأسئلته الكبرىٰ حيا نابضا، وهو ما سيموت حتما لو قصرنا أنفسنا علىٰ نوعيات المعرفة المثبتة بالقطع النهائي.[١]

(1) Russell, 1912/2010, p. 116.

فتأمل ما في هذا الكلام من تلبيس شيطاني عظيم، يجعله الرجل تعليلا للمفاخرة بأذمّ ما في صنعته التخصصية من خصال ممرضة لعقول ونفوس البشر، لا لشيء إلا ليسوغ لنفسه طلبها المزيد من العلو والريادة والزعامة في تلك الصنعة البائسة، ويزين لأتباعه وأقرانه الإغراق فيها، لعنه الله. فهو يبدأ بتقرير أن تلك «الأسئلة» الكبرىٰ التي يشير إليها لم يصل فيها الفلاسفة إلىٰ جواب مقبول معرفيا بسبب قصور عقول البشر (نوعيا) عن درك ذلك الجواب! فمن ذا الذي قال إنها مما يرجىٰ من هؤلاء الوصول فيه إلىٰ شيء أصلا، مهما بلغ بهم ذكاؤهم؟ الفلاسفة قوم يبدأ بعضهم مما عند العقلاء من أجوبة فطرية بدهية، ليشرق أحدهم ويغرب الآخر بدعوىٰ طلب الدليل علىٰ صحتها، ويبدأ البعض الآخر بأسئلة شديدة الاشتباه بل الفساد في نفسها من الأساس، فأي أجوبة تلك التي يزعمون أنهم يريدون الوصول إليها؟ إنما يريد كل واحد منهم أن يصل إلىٰ الانتصار (أو الاعتذار) لجملة من العقائد الغيبية التي اختارها لنفسه (كأجوبة) من طريق الجدل السوفسطائي!

هذا المعنىٰ (أعني البداءة من الواضحات والانتهاء إلىٰ المبهمات المضللات) يفاخر به راسل بل يعده مقصود صناعة الفلسفة نفسها، في مقولة من مقولاته المشتهرة إذ يقول: «الغرض من ممارسة الفلسفة أن يبدأ المرء من شيء يسير للغاية، حتىٰ إنه ليبدو مما لا يستحق أن يذكر أصلا، لينتهي إلىٰ شيء بالغ الإعضال Paradoxical إلىٰ حدّ أنه ربما لا يصدقه أحد.»![1]

تأمل تلك الأمثلة التي يضربها «راسل» لذلك الصنف من الأسئلة الذي يقرر أنه أعلىٰ من أن «يصل البشر» فيه إلىٰ جواب حاسم! يقول: «هل للكون أي خطة واحدة أو غاية عليا، أم أنه لا يزيد علىٰ كونه تركيبة عشوائية من الجزئيات؟» فما المقصود بـ«الكون» في هذا السياق أصلا وما تعرفيه؟ وهل الكون فاعل أم مفعول؟ سبب أم مسبَّب؟ وبأي عقل يكون للمفعول أو المسبَّب إرادة وغاية و«خطة»؟ وما معنىٰ الخطة أصلا في هذا السياق ومن أين يأتي ذلك المعنىٰ؟ وما معنىٰ «التركيبة العشوائية» وما

(1) Russell, 1956/1989, p. 93.

الحامل علىٰ افتراضها أصلا؟ هذه كلها ونحوها أسئلة ومصطلحات مجملة شديدة الاشتباه لا بد وأن يجري فيها الجدال بين القوم من قبل أن يبدأ الإنسان العاقل في تصور معنىٰ هذا السؤال أصلا، وهو ما يستلزم أن يتفرع علىٰ كل واحد منها أسئلة أخرىٰ وجدالات ونقاشات لا أول لها ولا آخر، كما هو عهدنا بالفلاسفة، فكيف وبأي عقل يكون هذا سؤال رجل يرجو الوصول إلىٰ جواب أصلا؟

معلوم أن السؤال الصحيح هنا (علىٰ التسليم تنزلا بأن المسألة تحتاج عند العاقل سوي النفس إلىٰ طرح سؤال أصلا!) هو بكل سهولة: «هل لأنفسنا ولهذا العالم خالق مريد حكيم أم لا؟» والفطرة وبداهة كل عاقل تصرخ بجواب سهل واضح لا لبس فيه ولا عوج البتة، ولا يفتقر إلىٰ دليل أبدا حتىٰ يحتاج إلىٰ أن يكون سؤالا يُطرح من الأساس، سواء بين الفلاسفة أو غيرهم من أهل التخصصات المعرفية: نعم قطعا لأنفسنا ولهذا العالم خالق حكيم يضع الشيء في موضعه الصحيح! ولكن لو أنه كتب السؤال بهذه الصيغة السهلة، وأجاب بهذا الجواب السهل الموجز واقتصر عليه وطلب من الناس أن يكتفوا به، لاتهمه أقرانه من المجرمين أمثاله بأنه من «العامة» السذج ضعاف العقل، أو من «وعاظ الكنائس» ودعاة الدين الذين لم يقفوا علىٰ «الدرس الفلسفي» يوما ما ولم يتعلموا شيئا من صراع الفلاسفة الطويل العميق مع تلك الأسئلة! وإذن لفقد الرجل منزلته ومكانته الرفيعة بين الأقران في تلك الصنعة الشيطانية، وهو أمر لا يمكن لنفسه أن تسمح له بمجرد تصور وقوعه أصلا! إنها الأنفة والكبر المحض، كما لا يُستغرب من رجل من أشد فلاسفة القرن العشرين إغراقا في التنطع والتعمق المقبوح بأدوات التحليل المنطقي!

وتأمل كذلك سؤاله الثاني في نفس السياق: «هل الوعي مكون أبدي من مكونات العالم، بما يعطي الأمل في نمو غير محدود في الحكمة عند البشر، أم أنه ليس إلا حادثا انتقاليا علىٰ كوكب ضئيل لا بد وأن يأتي يوم تصبح الحياة عليه مستحيلة؟» فبالله ماذا تقصد يا هذا بـ«الوعي» وبـ«أبديته» وما وجه تصورك لكونه مكونا من «مكونات العالم» (وهو ذاك الإجمال الذي صار وقودا لجداله الطويل مع المثاليين Idealists كما هو

معروف)، وما معنىٰ الحادث الانتقالي ومن أين جاء هذا التصور لديك؟ قد علمت أن الوعي البشري مخلوق بالضرورة، وأن لخالقه غرضا وقصدا من ذلك بالضرورة، فهلا استمعت إلىٰ ما جاء به الرسول من عند ربك، لعلك تعي ما يجب علىٰ العقلاء أن يعرفوه فيما يتعلق بمآل المكلفين في هذا العالم ومآل العالم نفسه، لعلهم يرشدون؟ أبدا! ولو أنه سمع من مثلي هذا الكلام، لحدثته نفسه بأن يجيب: «أي طلب هذا الذي تتوجه به إلىٰ رأس من رؤوس الفلاسفة يا ذاك «الواعظ» التابع المسكين؟ أي أنبياء وأي مرسلين وأي «خرافة» هذه التي تطالب أمثال هذا الفيلسوف العملاق بأن ينظروا فيها؟ ألا تدري من أنا؟ أنا «برتراند راسل» الفيلسوف العظيم! اتبعوا أنتم من شئتم من هؤلاء الأنبياء والوعاظ ودعوا لنا – معاشر الفلاسفة – معالي الأمور والذهن الحر والعقل الحر الرفيع، واتركوا لنا تلك الحجج والتحاليل المنطقية التي لا تطيقها عقولكم يا أهل الأديان!»

هكذا يتكلم الشيطان في صدر أحدهم فينزل به إلىٰ أدنىٰ دركات السفاهة، وهو يرىٰ نفسه قد بلغ الغاية في كمال العقول وحسن النظر، نسأل الله السلامة!

وكذا السؤال: «هل للخير والشر قيمة عند الكون أم أن قيمتهما مما يختص به الإنسان وحده؟»، فما معنىٰ أن يكون للخير والشر قيمة «عند الكون»؟ إنه سؤال العابث اللاهي، وتلاعب من يكره أن يسمي الأشياء بأسمائها الصحيحة، وتنفر نفسه أشد النفور من مجرد فكرة أن يعترف في يوم من الأيام بأن له ربا خالقا له أمر ونهي وتكليف وتشريع أخلاقي يجب علىٰ كل عاقل بلغه وسمعه عن رسول من المرسلين أن يلتزمه وأن يضبط عليه حياته وتصوره الأخلاقي! لذا لزم أن تظهر أمثال تلك الأسئلة العابثة وأن تكثر وأن يغرق هو وأمثاله في التلاعب بها وبأجوبتها الفاسدة، حتىٰ تندفع أو علىٰ الأقل تحتجب تحت ركام سميك، تلك المطالب الملحة الصادرة من أعماق نفوسهم بإجابة داعي الفطرة والبداهة، والاستماع لما جاء به الرسول الخاتم ﷺ.

كيف يراد من مثله وقد مر بتلك الأسئلة «العميقة» وانخرط مع أصحابها في أغوار الجدال المنطقي «المنمق» شديد الطول والتشعب والتعقد حول كل لفظة وعبارة

وتوليفة يأتي بها أحدهم لمقدمات أجوبتها ونتائجها ومتعلقاتها ولوازمها وأقسامها وتصانيفها .. الخ، أن يخلع نفسه من ذلك كله ويقلع عنه ويرجع ويقول: «نعم والله لقد كنت في سفاهة لا أول لها ولا آخر، ويا ليتني أجبت داعي الرسول وكنت من المسلمين»؟ كيف يراد لمثله أن يتحول ليصبح تابعا مطيعا لنبي أو رسول، بعد أن كان يتمتع بغاية ما تشتهيه نفسه من العلو علىٰ الأقران بل علىٰ عامة العقلاء من البشر، حتىٰ لقد كان يرىٰ أتباعه يرفعونه إلىٰ منزلة الأنبياء والمرسلين؟ من أين يأتيه التميز والعلو إذن وكيف يرفعه الناس علىٰ رؤوسهم ويعظموه علىٰ أنه منبع من منابع الحكمة وقائد من قادة الفكر البشري ورمز من رموز العقل نفسه ومصدر من مصادر التشريع الأخلاقي والسياسي في البلاد.. إلخ، وهو مطالب بأن يجعل عقله وجوارحه خضوعا كلها لأمر ربه وخالقه، كيفما وجهه توجه وأطاع وهو راض واجل ذليل؟

والله إن هذا لمن أشد الأشياء كراهة لنفس خبيثة كهذه، بل لو قلت إنها لا تكره شيئا في الأرض ككراهتها لتلك الصورة ولا تنفر من شيء كنفورها منها، ما بالغت بذلك، ولا عجب. ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [يونس: ٧٤]

لذا نقول إن من تبصر بأصل الداء والمرض في نفوس هؤلاء، لم يستغرب منهم شدة الحرص علىٰ أن يبقىٰ «مجال الفلسفة» مفتوحا للدراسة والمباحثة فيما بينهم، ويبقىٰ الاشتغال بتلك الأسئلة الصعبة (التي لا يرجىٰ عندهم الوصول فيها إلىٰ حسم أو جواب نهائي كما قال راسل) حيا نابضا لا ينقطع، لا يزيد أصحابه إلا إغراقا فيه، لعبا ولهوا وتفاخرا، ما دامت في صدورهم قلوب تنبض وأنفاس تتحرك (كما قال سقراط في نقل آنف)! ولم يُستغرب حرصهم علىٰ أن تصبح صورة ذلك المسلك عند أصحابه أنه مناط الكمال العقلي والعلو الفكري، وغاية ما يمكن أن يطمع العقل البشري في الوصول إليه من رفعة ورقي، فلا يستحق الإنسان وصف العقل نفسه إلا بالزيادة منه والتوسع فيه، وأن تصبح كلمة «فيلسوف» (ونحوها كلمة «مفكر») من ألقاب المدح والثناء والتعظيم في عرف الناس! ولم يُستغرب إذن حرصهم علىٰ الحط من قيمة

«اليقين» معرفيا، وعلىٰ تسفيه من يزعم أنه من الممكن تحصيله في قضايا الغيب بشكل ما أو بآخر!

إننا نقول وبعبارة موجزة إن تلك «الأسئلة الكبرىٰ» التي يتفنن الفلاسفة في الإغراق فيها ليل نهار، وفي دفن الحق الواضح تحت ركامها، تدور ما بين أسئلة ما كان لها أن تطرح عند العقلاء ابتداءً (لأن الحق فيها فطري بدهي لا يفتقر إلىٰ دليل)، وأسئلة قد جاء المرسلون فيها من ربهم بالجواب الكافي، فلا يعرف إلا من طريقهم، وأسئلة لا يصح لعاقل أصلا أن يتطلع لمعرفة جوابها، ولا يلزمه ذلك (كما في كثير من أسئلة ما يقال له: مشكلة الشر)! ولكن لأن من أهل الأهواء من بلغت بهم أهواؤهم الخبيثة ونفوسهم المستكبرة أن كرهوا مجرد فكرة إخضاع النفس لأمر ونهي ينسبه بعض الناس إلىٰ رسول من رب العالمين، كان لزاما أن تظهر أمثال تلك الأسئلة العابثة وتطرح علىٰ أنها مما لا يظهر في الناس طريق إلىٰ معرفة جوابها «النهائي»، وأن تفشو في الأرض وأن يجري فيها من الجدال الطويل ما يرجىٰ معه إخفاء ما لكثير من الأصول العقلية الأولىٰ في أمر الغيب من بداهة فطرية، ومن ثمّ يُتوصل إلىٰ إخفاء الأصل العقلي البدهي الذي تقوم عليه دعاوىٰ أتباع المرسلين وعموم أهل الأديان، ويصبح الباب إذن مفتوحا علىٰ مصراعيه لكل مكذب متخرص أن يبدي بضاعته وأن يعلو بها بين الخاصة من الناس، يزعم أنها «حجج عقلية» تحول بينه وبين الدخول في الدين، وأنها رأي يقابل آراء المثبتين لصحة الدين، ويستحق المناقشة والاحترام! هكذا أصبحت الفلسفة الغيبية صناعة تخصصية، يجب أن يكون الشك الدائم هو قوامها وباعثها الحثيث، ويجب أن تكون كلمة «اليقين» في مجردها كلمة محرمة في قاموسها وقاموس من درسها وتأثر بها!

لذا فلم يكن من المستغرب أن يقول راسل، فيما يشبه تلك الدعوة «الروحانية» التعبدية الموجهة للأتباع والمريدين التي تكلم بها «سقراط» فيما نقلناه عنه آنفا:

> وعليه، وحتىٰ نلخص مناقشتنا لقيمة الفلسفة نقول: إنه لا ينبغي أن تدرس الفلسفة من أجل الوصول إلىٰ إجابات تامة أو نهائية لأسئلتها، بالنظر إلىٰ أنه ليس من الممكن – كقاعدة – التوصل إلىٰ معرفة أن أي من تلك الإجابات النهائية الحاسمة هو الحق.

> ولكن ينبغي أن تدرس الفلسفة لأجل تلك الأسئلة نفسها، لأنها توسع إدراكنا لما هو ممكن، وتثري خيالنا الفكري وتقلص من تلك التأكيدات الدوغمائية الملحة التي تغلق أفق العقل في وجه التأمل الحر، ولأنه – وفوق كل شيء – يعظُم العقل نفسه من خلال عظمة الكون التي تتأملها الفلسفة، ويصبح قادرا علىٰ تحقيق ذلك التوحد مع الكون الذي هو بمنزلة الخير الأسمىٰ فيه.[1]

فتحت أي صنف تراه يندرج هذا الكلام، أيها القارئ الفطن، إلا تحت كلام أئمة الأديان الباطلة الذين يحرصون بأي وسيلة علىٰ إقناع أتباعهم بأن طريقتهم هي الطريقة المثلىٰ التي يجب أن يكون عليها الإنسان في محياه وعند مماته؟ يبدأ الرجل الكلام كما ترىٰ ببيان تبرؤ صنعة الفلسفة الأكاديمية من الغاية التي زعم أصحابها القدماء أنها مقصودها الأول أصلا (كما في موعظة سقراط التي نقلناها آنفا!)، ألا وهي معرفة الحق والتوصل إلىٰ حيازة الحكمة والعمل بها! فهو يقرر بكل صراحة أنهم لم يعد يهمهم الوصول إلىٰ الأجوبة، ولم يعد يصح أن تكون هذه هي الغاية والمقصود من «التفلسف»، لأنها – أي تلك الأجوبة – لا حق فيها أصلا ولا باطل، والأمور كلها متشابهة والأقوال كلها متقاربة، والأدلة كلها متكافئة، والعجين والطحين فيها لا أول له ولا آخر! فمن دخل تلك الصنعة واشتغل بها فليجعل حاديه ودافعه إلىٰ ذلك هو التلذذ بالأسئلة نفسها! فإن لها فائدة عظيمة كما ترىٰ في إسقاط «اليقين» من نفوس الناس، وتسفيه كل من يزعم أن لديه «قطعا» معرفيا منتهيا في أي دعوىٰ من الدعاوىٰ أيا ما كانت! وليكن دينكم – معاشر الفلاسفة – أنه لا يقين يطلب ولا قطع يرام أصلا، وإنما هو التأمل الصوفي المتوحد مع «الكون» Mystical speculation المتجرد من كل قيد معرفي ومن كل مرجعية ملزمة، الذي يشعركم بقوة عقولكم وعلوها، ويشبع لديكم تلك الرغبة الأخلاقية الغريزية في فعل الأحسن وبلوغ الخير الأخلاقي الأسمىٰ (بحسبه)! ففي فقرة موجزة يقدم «راسل» لأتباعه وتلامذته دينا مكتمل الأركان، من عقيدة غيبية إلحادية عدمية ظاهرة من الكلام بدلالة الاقتضاء، ونظام معرفي لا يقين

(1) Russell, 1912/2010, p. 120.

فيه ولا قطع (في شأن الغيب خاصة) ولا مصادر للتلقي المعرفي ولا شيء إلا الشك والاحتمال وتشابه الأقوال، ونظام أخلاقي قيمي يجعل من ذلك العبث السوفسطائي نفسه أسمىٰ ما يمكن أن يطلبه الإنسان لنفسه من معالي الأخلاق علىٰ الإطلاق! فعلىٰ أي شيء يتأسس أي دين إلا علىٰ تلك المحاور الكلية الثلاثة (الغيب وما فيه واقعا، ومصادر التلقي المعرفي بشأنه، والمنظومة الأخلاقية والتشريعية التي تقرر للإنسان القيمة العليا التي يجب عليه أن يحيا بها وأن يموت عليها)؟ وماذا عساهم يطلبون فوق ذلك؟

إنه الحرص علىٰ إشباع كبر كل من يريد أن يثبت لنفسه أنه قد استغنىٰ بالكلية عن فكرة أن يأتيه رجل مثله يزعم أنه رسول من عند ربه وخالقه ليعلمه ما ينتظره بعد موته من مصير، ويرشده إلىٰ سبب وجوده في هذا العالم ومن ثم يعلمه الحكمة ويوجهه إلىٰ طريقة قياسية يتعين عليه التزامها بحذافيرها ليعيش بها حياته، فإذا ما دخل في الدين، وجب عليه أن يقبلها كلها لا بعضها، وأن يصبح واحدا من جملة أتباع ذلك النبي أو الرسول! إنها الصورة الأشد كراهة لنفوس الملاحدة كما بينا، فلا بد أن ترىٰ الواحد منهم يجهد في تصوير تلك الفكرة في مجردها (فكرة اتباع الأنبياء والرسل والانقياد لهم) علىٰ أنها غاية الانحطاط للعقل والنفس، وعلىٰ أن من يعانون من قيودها وآصارها، أولو نقص عقلي وفقر فكري لا دواء له إلا بالانفكاك عنها! بل يصبح كل من زعم أنه علىٰ «يقين» من اعتقاده في أي قضية من القضايا، حتىٰ فيما يتعلق بعالم الشهادة من أمور محسوسة، مادة للتحقير والتسفيه!

ويصبح مطلق التحرر الفكري – في المقابل – والانخلاع من أي صورة من صور الاتباع أو موافقة ما هو موروث، حتىٰ ولو في أمور يعدها عامة العقلاء من البدهيات الأولىٰ (كأصول عقيدة التوحيد في فطرة البشر)، هو الكمال العقلي والخير الأرفع (كما ترىٰ في كلام «راسل»)! ولا شك أن صنعة الفلسفة هي الصنعة الأكاديمية الوحيدة التي يمكن أن يتسع المجال في تعريفها لأن تصبح هي الطريق الموصل إلىٰ نوال تلك الغاية الشيطانية! بل لعل التعريف الأليق بها عند من خبر حقيقتها وعرف أحوال أصحابها، أن

يقال إنها تلك الحصيلة التراكمية لجدالات وخصومات وسفسطات أصحاب العاهات النفسية المستكبرين المغترين بذكائهم، الحريصين علىٰ مفارقة ميراث النبيين بل وعلىٰ منافستهم في قيادة الأمم، الساعين في إقناع أنفسهم بأنهم في ذلك الجحود والصدود هم علىٰ شيء عظيم، بل علىٰ أعظم ما يمكن للإنسان أن يكون عليه من حال!

فلا شك أنه من كبرىٰ آيات الله في خلقه (لمن يعقل) أن ترىٰ الرجل ينسف عقله نسفا، وينزل به إلىٰ سفاهة من لا يدري يمينه من شماله، وهو يزعم – مع ذلك – أنه يرقىٰ به فوق حمأة التقليد والاتباع الأعمىٰ ويبرأ به من كل نقيصة!

أفحسبتم معاشر المؤمنين ألا يجعل الله تعالىٰ – ببالغ حكمته – لهؤلاء المرضىٰ زينة شديدة الجاذبية والبهاء في كل زيادة يزيدها أحدهم من الإغراق في ذاك المسلك المعوج، حتىٰ يسهل علىٰ أحدهم أن يغتر بها وأن يخدع بها نفسه (وهو يعلم أنه خادعها) ويوهمها أنها علىٰ شيء ذي بال؟ بلىٰ والله، إنه لمن كمال الحكمة والتقدير الربانيين لو كانوا يعقلون. فلو كان من يسلك تلك المسالك في تعظيم عقله والغلو فيه أشد الغلو، وفي اختراع الحيل والألاعيب الشيطانية والزخارف الجوفاء لتمرير الباطل وتسويغه والبقاء عليه بين الناس، وللتفلت من اتباع ما جاء به المرسلون من الحق إجمالا أو تفصيلا، لا يجد في نفسه من أثر ذلك كله شيئا يحبه أو يطمع فيه أو تميل إليه شهوته بوجه من الوجوه، ولا يجد سببا يصير به نوال ذلك الشيء أحب إلىٰ نفسه مما وعد الله به المؤمنين، وفقدانه أكره إلىٰ نفسه مما توعد الله به الظالمين، ما كنا رأينا من الناس أحدا يرد دعوىٰ المرسلين أو يكذبهم أو يحاربهم أو يضيق بتلامذتهم وأتباعهم، وإذن لما ظهر في البشر آيات كمال الإيمان بالغيب التي لا تظهرها إلا سنن المدافعة بين الناس والمغالبة والمصارعة، بما في ذلك من التمحيص والتصفية، ولما تحقق في هذا العالم مقصود رب العالمين من ابتلاء أصحاب العقول فيه بعقولهم التي وهبها إياهم، وبالوحي الذي بعث به المرسلين فيهم!

هذه هي الحكمة الإلهية من تزيين طريق النار بالشهوات. فلو كان من يسلك طريق الجحيم والهلاك الأخروي لا يرىٰ في قبالته إلا صورة الجحيم والعذاب المقيم،

حاضرة دائمة الحضور لا تغيب عن بصره طرفة عين، ولا يرىٰ نفسه إلا وقد غلبت الكراهة والجزع علىٰ جميع ما في نفسه من صور التلذذ بما هو عليه من الباطل وبما يجلبه له من ألوان التشهي الدنيوي العاجل، أفكان يبقىٰ علىٰ ذاك الطريق طرفة عين؟ أبدا والله! هذا محال. ﴿**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٣٣] بل سيجد - لا محالة - ما يحبه ويهواه ويتلذذ به في ذلك الباطل الذي هو عليه من ألوان الزينة والزخرف، حتىٰ إذا ما ترك لنفسه قيادها علىٰ ما تشبعت به من هواها، لم تزده إلا غرقا في ذلك الباطل (طلبا في المزيد مما تحب وتهوىٰ) وصدا عن سبيل الحق (نفورا مما تكره).

وإذن فلا فرق عنده بين دليل ومئة دليل، ولا بين الشبهة والحجة، ولا بين المغالطة الواضحة والبرهان الظاهر، ولا بين القضية البدهية والمسألة النظرية، ولا فائدة لملء الأرض آيات وعلامات علىٰ الحق الجلي الظاهر، وإنما العبرة بمدىٰ قدرته علىٰ التفنن في زخرفة الحجج التي يقنع بها خصمه أو يسكته أو علىٰ الأقل يربكه عند الجدال! فكلما أراد أن ينتصر لحاله التي اشتهاها لنفسه وأبت نفسه عليه أن يتصور الانخلاع منها في يوم من الأيام، لم تُعيِه فنون الزخرف اللفظي والسفسطة ولم تعجزه عن أن يأتي من ذلك بما يشبه أن يكون «حجة» و«برهانا» يعجبه هو نفسه ويعجب موافقيه ويزيدهم غرورا فوق غرورهم. ولا شك أنه لن يزداد مثل هذا نبوغا وذكاء وعلوا في قدراته العقلية واللغوية، إلا ازداد قدرة علىٰ الإتيان بالعجائب من تلك البضاعة الشيطانية عند المخاصمة والمناظرة، وإذا بالمزيد من الناس تحار عقولهم في الرد عليه، وإذا بالمزيد من الناس ينتظمون في صف الأتباع والمؤيدين المقبلين بأهوائهم عليه، وهو غاية ما تحبه تلك النفس الخبيثة وتهواه أصلا!

لذا نقول إن من طلب الحكمة فعليه أن يفارق الفلسفة وأهلها، لأنه إذا كانت الحكمة وضع الشيء في موضعه الصحيح، فالفلسفة في حقيقتها - علىٰ مفهومها المطلق غير المقيد الذي يشتغل أصحابه بقضايا الغيب الكبرىٰ أو الأسئلة الكبرىٰ كما يسمونها، وما يرتبط بها من عقائد وجودية أو عدمية وتنظيرات معرفية - إنما هي التفنن في إعمال

أدوات النظر العقلي بلا قيد ولا رابط يمتاز به الموضع الصحيح لتكلف ممارسة النظر العقلي – من الابتداء – مما سواه، إلا ما يخترعونه هم لأنفسهم من الشروط والقيود من طريقهم. وإعمال العقل علىٰ أساس من مناقضة البدهيات الأولىٰ نفسها أو التشكيك فيها، مرض عقلي ونفسي خبيث في مجرده، قوامه اتباع الهوىٰ المحض، وهكذا ينبغي أن يراه العقلاء.

وشتان بين من يبصر هذا المرض ويرىٰ أساسه من تحت بهرج وزخرف «الحجج» و«البراهين» الفلسفية والكلامية عند أصحابها، فيضرب علىٰ ذلك المرض نفسه من غير التفات إلىٰ ما نبع عنه من هراء وعبث، وبين من يقع في نفسه ميل لتلك «المصارعة العقلية» وطمع في مغالبة أصحابها بها والبروز فيها عليهم، فإذا هو خائض في حظ منها، مستدل كما استدلوا، منازع فيما نازعوا فيه، لشيء من ذاك المرض نفسه قد أصابته به العدوىٰ من حيث لا يشعر! ولا شك أن أشد الناس تعرضا لهذا المرض، أكثرهم فرحا بنبوغهم وذكائهم وقوة عقولهم.

ولهذا نقول إن في قوة العقل والنبوغ العقلي ابتلاءً عظيما لا ينتبه إليه إلا من ابتلي بتلك القوة ووجدها في نفسه، ووفقه الله مع ذلك إلىٰ لزوم الإسلام علىٰ منهج أهل السنة الخالص، نسأل الله ألا نموت إلا عليه. فمن كان في نفسه حظ من الأهواء والأمراض، وكان من أهل الذكاء البالغ والنبوغ وقوة العقل، فغالبا لن تراه إلا وقد أصبح رأسا من رؤوس الباطل وإماما من أئمة الضلالة، نسأل الله السلامة، لا سيما في عصر شبكات التواصل الاجتماعي التي يسهل أن يصبح الرجل فيها إماما له أتباع ومريدون من كل مكان في العالم، بأقل جهد وكلفة! فأكثر هؤلاء النوابغ والعباقرة قد جرت العادة علىٰ ألا ينفك الواحد منهم عن إحدىٰ خصلتين: إما أن يموت وقد بلغ أن صار إماما متبوعا في الحق والخير ونفع الناس، وإما أن يموت علىٰ الضد من ذلك، وهو الأكثر. فقلّ أن يؤتىٰ أحد من بني آدم ذلك النبوغ والذكاء والقوة في العقل إلا كان ابتلاء عظيما له أولا قبل أن يكون ابتلاء لأمم من الناس من بعده!

ومعلوم أن ممارسة الفلسفة وفنون الكلام والمنطق وما يقال له العلوم العقلية بعموم، ليست بالأمر الهين الذي يسهل تعاطيه علىٰ أصحاب القدرات الذهنية المتواضعة، بل يحتاج إلىٰ ذكاء وبُعد نظر وسعة إدراك ولا شك، ويحتاج – فوق ذلك – إلىٰ مران ومهارة نقدية مكتسبة (كما في سائر فنون البحث النظري). فما بين تحليل ألفاظ القول الفلسفي وتتبع ما فيها من تشابه، وربط المعاني البعيدة عن الذهن بنظائرها، والتفنن في صياغة المقدمات الخفية التي يراد منها أن تبرهن علىٰ وجود العلاقة المنطقية بين تلك المعاني.. إلخ، هذه كلها ونحوها أعمال تحتاج إلىٰ ذهن قوي نابه ولا شك. فكلما كان الإنسان أقوىٰ عقلا وأسرع بديهة وأحدّ ذكاء، كان أقدر علىٰ ملاحظة ما يخفىٰ علىٰ غيره من الطرق إلىٰ تحقيق ذلك كله، وكان أقدر علىٰ إحراج الخصم باستخراج وجوه الخلل في ذلك عنده، وكان أقدر علىٰ التفنن في تلبيس ما يريد الانتصار له من الباطل، بما يعسر علىٰ خصومه أن يستخرجوا وجوه الخلل فيه من أنواع الزخرف الفلسفي، ما لم يكونوا في مثل ذكائه واطلاعه علىٰ الأقل، وقد مرت معك جملة من الأمثلة علىٰ ذلك كله في هذا المجلد. فكيف لا يغتر أصحاب صناعة كهذه بما يصنعون أشد الغرور، وكيف لا يكون هؤلاء أشد أهل الصناعات استكبارا علىٰ الإطلاق؟

لقد مر بي – والله – من المشتغلين بالفلسفة من يتلذذ وتطرب نفسه من رؤية العجز والقصور عن الفهم في أعين من يسميهم بـ«عامة الناس» عندما يتعرضون لشيء من كتاباته أو أفكاره! ولعل بعضهم إذا ما حضروا له الندوات والمحاضرات، جهدوا بعد انتهائها في أن يهنئوه علىٰ نبوغه وبراعته، يظهر الواحد منهم بين الناس أنه يفهم كلام الرجل ويهضمه هضما، مع أن الأمر ليس كذلك علىٰ الحقيقة! (وسيأتي الكلام عن مرض الاغترار بالفلاسفة في قسم لاحق) لماذا؟ لأن نفسه تكره أشد الكراهة أن يظهر جهلها وعجزها وضعفها في العقليات والنظريات! وإذا بالواحد من هؤلاء الفلاسفة يجد نفسه محاطا من كل جانب بصنفين من الناس: صنف يعظمه لعلوه بعقله وبراعته فيما يصنع مع منافستهم إياه في ذلك وحرصهم علىٰ أن يصبحوا أمثاله أو أعلىٰ منه (وهم الأقران والتلامذة)، وقسم دون هؤلاء، يعظمونه أيضا لما يصنع من غير أن

يفهموا من كلامه شيئا يذكر (وهم عامة من يقال لهم «المثقفون»)، وإنما كرهوا جدا أن يقال إنهم «جهال» أو «غير مثقفين» أو نحو ذلك، إن بدا منهم العجز عن فهم ذلك الكلام! وتمضي تلك المسرحية الهزلية عند هؤلاء من ندوة إلىٰ ندوة ومن محاضرة إلىٰ التي تليها ومن مناسبة إلىٰ مناسبة أفخم وأرفع، لا يفيق منها أحدهم ولا يرجو أن يفيق، حتىٰ يرىٰ الملائكة علىٰ فراش موته! كيف وهو في جميع الأحوال فرحان متلذذ بما هو فيه، حتىٰ وإن كان يعلم تمام العلم أنه – حضرة الفيلسوف المحترم – من أجهل خلق الله وأبعدهم عن نوال الحكمة في شيء مما يأتي أو يذر (كما اعترف بذلك «راسل» نفسه كما مر معك)؟

لذا فقد كان من بصيرة السلف ﵃ ودقة فقههم للنفوس وانتباههم لعظيم خطر ذلك الابتلاء علىٰ المسلم أن قال قائلهم: «لأن أكون ذنَبا في الحق خير لي من أن أكون رأسا في الباطل». هذه مقالة تكتب بماء الذهب والله، يُذكّر بها العاقل نفسه بأن ثناء الناس علىٰ دقة نظره وقوة تنظيره وعلو بيانه وبلوغ حجته علىٰ الخصوم، والوصول إلىٰ مراتب الريادة والإمامة في ذلك كله أمر محبب إلىٰ النفس ولا ريب، تطمع فيه أشد الطمع ولا تكتفي منه، وبأنه – مع ذلك – لا يغني عن صاحبه شيئا إن كان الله قد قضىٰ بأن يكله إلىٰ نفسه وأن يضله ويزيغ قلبه بذاك الكبر والمرض الذي نخر فيه، فيستدرجه إلىٰ قعر جهنم من حيث لا يشعر.

يجب أن ينتبه العقلاء إلىٰ أن أكثر ما يجدون من ذلك إنما هو استدراج وابتلاء شديد! فمن عرف من نفسه تشوفا وتطلعا للشهرة والعلو بين الناس (وكلنا يجد ذلك في نفسه لا محالة)، فليتذكر أن أكثر ما يحظىٰ به الناس من ذلك في الدنيا، لا يرجع عليهم إلا بالهلكة يوم القيامة! فإن لم يكن التزام الحق والاصطبار عليه ميسورا لك أيها الإنسان إلا بأن تصير ذنبا تابعا مغمورا لا يعرفه أحد ولا يدري به أحد، فعليك أن تجاهد نفسك حتىٰ تحب تلك الحال المتواضعة وتطمئن إليها وترضىٰ بها فوق محبتها لحال الريادة والزعامة والعلو علىٰ الأقران والخصوم وشحذ الأتباع والمريدين والمحبين. وإلا فأيهما أحب إليك أيها العاقل: أن يشار إليك بأصابع التعظيم والتفخيم وأن يقال إنك العبقري الفذ، فريد عصره الذي لا يشق له غبار وقلّ أن تنجب النساء

مثله، لبراعتك في الجدال والتفنن في ألاعيب الألفاظ واجتذاب الأتباع والمريدين والعلو علىٰ الخصوم بالباطل الذي عرفت بطلانه، تقضي في الشهرة والرياسة بين الناس عمرك المحدود مهما طال، ثم تنقلب إلىٰ هلكة أبدية لا انتهاء لها؟ أم أن تكون تابعا فيما عرفت وتيقنت أنه الحق، تقضي عمرك من غير ما شهرة ولا علو ولا مريدين ولا أتباع ولا شيء من ذلك، تتقي الله ما استطعت وتتبع رسوله أحسن الاتباع حتىٰ إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فعلت، ثم تنقلب إلىٰ نعيم أبدي لا يفنىٰ؟ الجواب واضح لا يخفىٰ إلا علىٰ أبصار من لا خلاق لهم.

التبعية في الحق ليست مذمة ولا منقصة أبدا والله، وإنما هي الحكمة بعينها! ولا يشتبه ذلك بالتقليد المذموم إلا عند أهل الزيغ والهوىٰ والاغترار بعقولهم! فالتقليد المذموم في الشرع والعقل هو أن يتابع الرجل غيره من الرجال من غير دليل يعرف به أنه علىٰ الحق، ومن غير ضرورة تحوجه إلىٰ ذلك! أما من عرف أن رجلا من البشر هو رسول من عند الله حقا ويقينا، فسلم عقله وقلبه لذلك الرسول واتبعه فيما يبلغ من أمر ربه، وطبع حياته كلها علىٰ ما جاء به ذلك الرسول في انقياد وتسليم تام لا يتجزأ، فهذا قد حيزت له الحكمة بحذافيرها! ومن كان من الناس لا يجد طريقا لمعرفة الدليل استقلالا في آحاد مسائل الدين (لجهله بتلك المسائل)، وأعوزه عمله الحاضر إلىٰ معرفة تلك المسائل إجمالا، فعمد إلىٰ من يُعرف عنهم علو الكعب في العلم بدين الله تعالىٰ واستفتاه وقلده مضطرا، لم يأت بما يذم بمثله العقلاء، وإنما جاء بغاية ما يسع مثله أن يصيبه من الحكمة! والذي لم يحسن أن يسدد الرمي وهو مطالب به وجوبا، فواجبه أن يقارب ما وسعه، وهذا معلوم بالبداهة لا يخالف فيه عاقل! ولكن لأن قوما عميت من الكبر أبصارهم، قد كرهت قلوبهم أن يتبعوا أحدا من الناس في قليل أو كثير، وأحبوا أن يكونوا هم السادة المتبوعين كيفما كان حالهم، كان لزاما أن تجد في كلامهم ما يستوي به كل اتباع لأحد من البشر (أيا من كان ذلك) بأذم ما يمكن أن يكون للاتباع من صورة! مع أنهم لو عقلوا لعلموا أن كلامهم هذا يلزم منه نزول المذمة علىٰ جميع من تابعهم هم أنفسهم وتتلمذ عليهم في قليل أو كثير، ومنحهم تلك المنزلة العظيمة التي تمتع بها الكثيرون منهم بين الناس! إذ لو كانوا صادقين لكرهوه لأنفسهم كما كرهوه

للأنبياء والمرسلين (أعني أن يصبح للمرء تابع عريض من المقلدين والمريدين)! ولكنهم يحبون ذلك ويتلذذون به أيما تلذذ، ومن زعم منهم خلاف ذلك فقد كذب علىٰ نفسه وعلىٰ الناس!

لقد كان مما أُثر عن الهالك «برتراند راسل» قوله: لو وقفت بين يدي الرب يوما ما، فسأقول: «سيدي، لماذا لم تعطني دليلا أحسن من هذا علىٰ وجودك؟»[1] فبالله أي غرور وأي استكبار أظهر من هذا؟! هل كان ذاك المجرم المكابر يعتقد – حقا – أن بضاعة الفلاسفة – مهما تراكمت – تكفي لإقناع عاقل سوي النفس بأنه لا خالق له ولا صانع، وأنه لم يوجد في هذا العالم لسبب أو غاية؟ أبدا، وما كان يملك أن يزعم ذلك أصلا! وإنما هي المكابرة والغرور والغطرسة الإبليسية الملعونة، نسأل الله العافية! وقد روي عن بعضهم أنه قال: «لو كان ثمة خالق حقا، فما أحسب إلا أنه من أضعف المحتملات أن يكون ذلك الخالق المصاب بذاك الغرور المضطرب الذي يجعله يجده أمرا مهينا لذاته أن يشك بعض خلقه في وجوده»! قلت: أرأيت يا عدو نفسك لو شكك ولدك في وجودك أنت أو اتهمك بالظلم والجور وأنت ما زلت تحسن إليه بالعطايا والنعم، أفكنت ترضىٰ منه بذلك؟ والله لا ترضاها إلا أن تكون ناقص النفس كسير العين، أو أن تكون مخلوبا ذاهب العقل! فكيف بتشكيك المخلوق فيمن خلقه وسواه وعدله ورزقه وألهمه النفَس الصاعد في صدره؟

لله المثل الأعلىٰ، فليس هو بوالد ولا مولود، ولكنه خالق كل شيء، المتفضل بسائر النعم والعطايا علىٰ جميع الموجودات في هذا العالم وغيره، فأي جريمة تكون أعظم من ادعاء أنه لا وجود له ولا حقيقة أصلا، أو من التشكيك في ذاته أو في كمال صفاته؟ أعظم منها جريمة اعتقاد أنه يكون ناقص الصفات «مغرورا مضطربا» إن كره ذلك الشك والتكذيب من بعض خلقه، سبحانه وتعالىٰ عما يصفون علوا كبيرا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فهل يجهل هؤلاء أنهم يتكلمون عن ملك الملوك، صاحب الخلق والأمر والجبروت، الذي بيده مقاليد كل شيء سبحانه وتعالىٰ، الذي

---

(1) “Sir, why did you not give me better evidence?”

لا يفتقر إلىٰ العلم بعظمة ملكه وسعة سلطانه كل من سبق له أن أطلق البصر في أرضه وسمائه يوما ما؟ أبدا، ومحال أن يخفىٰ علىٰ نفس الإنسان شيء كهذا أصلا، وإنما هو الكبر والأنفة في قلوب هؤلاء، لعنهم الله. إبليس يوم أمر بالسجود لآدم عليه السلام فأبىٰ، ما خفي عليه أنه بذلك يبارز خالقه وباريه سبحانه، وإنما بلغ الكبر في نفسه مبلغا جعله يأبىٰ الخضوع لأمر الله، مهما كان يعلم ويقطع في نفسه بأنه مربوب مصنوع وبأن لربه الحق في أن يأمره بما يشاء، وأنه كمخلوق لا يملك إلا أن يطيع! كل ذلك ما خفي عليه طرفة عين، ولكن كبر نفسه أعماها عن العمل بمقتضىٰ تلك المعرفة الفطرية البدهية، ﴿**إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٣٤].

وكما يقال في كبر الفلاسفة وإبائهم، يقال في كثير من أولئك «المثقفين» أصحاب المواد المنشورة والمطبوعة في بلادنا الذين يقال لهم «المفكرون». هؤلاء قوم أكثرهم لا أهلية لهم إلا في تخصص من تخصصات الإعلام أو الصحافة أو نحوها، ومع هذا يعمد الواحد منهم إلىٰ الكتابة في كل شيء من غير ما تخصص ولا دراسة، فإذا ما نشر كتابا أو كتابين ورأىٰ الناس تعظمه وترفعه، أخذت نفسه تخادعه وهو يصدق كذبها، إذ توهمه بأنه عالم رفيع القدر والشأن. فإن خاطبه بعض أصحاب تلك التخصصات العلمية التي اقتحمها بجهله، وأنكروا عليه خلطه فيها، استكبر عليهم بتوهم أنه أوسع دراية منهم لأنه قد أحاط بما لم يحيطوا به من أعمال الفلاسفة والمفكرين وأصحاب التخصصات الأخرىٰ الخارجة عن تخصصهم!

وفي ظني أن كلمة «مفكر» هذه لم تظهر في مجتمعاتنا العربية المعاصرة إلا تحايلا علىٰ استثقال عامة المسلمين للقب «فيلسوف»، وفرارا مما في تراثنا الإسلامي من ذمّ للفلسفة وأهلها (كتخصص نظري مستقل)، مع الحرص علىٰ الانخلاع من الالتزام بتخصص معرفي معين، ومن ثمّ اكتساب الحق المعنوي في التصنيف والكتابة في موضوع أي تخصص من التخصصات العلمية بلا قيد ولا شرط[1]. ذلك أن المادة التي يتناولها المفكر هي نفسها - في الأعم الأغلب - مادة الباحث المتخصص في فلسفات

(١) ولا شك أن لغلبة الفكر الديموقراطي في زماننا الدور الأبرز في شيوع ذلك الاجتراء العبثي على التخصصات العلمية، الذي أصبحنا نعانيه في كل مكان!

المعارف (لا سيما العلوم الإنسانية)، مع فارق جوهري، وهو أن المتخصص في فلسفة هذا العلم أو ذاك يلزم نفسه بدراسة ذلك التخصص (دراسة نظامية علىٰ الأغلب) بخلاف «المفكر» الذي يطلق عليه ذلك اللقب غالبا لاشتغاله بتلك المجالات اشتغالا حرا من خارج دائرة الاختصاص.

ولا نقول إن اشتغال الباحث من خارج دائرة الاختصاص بالبحث فيه أمر مذموم بإطلاق، أو أن الافتقار إلىٰ «الشهادة الأكاديمية النظامية» في التخصص يساوي الافتقار لشرط البحث والاجتهاد في موضوعات ذلك التخصص! وإنما نقول إن البحث في مسألة من مسائل التخصص (أي تخصص) من جانب من لم يُعرف بالتخصص فيه، يذمّ عندما يتقحم ذلك الباحث ذاك المجال التخصصي من غير أن يكون قد بلغ فيه من الأهلية والدراية ما يجاز به للكتابة والنظر فيه! وهذا هو الغالب كما مر بك فيمن يقال لهم «مفكرون». ولذا فهو عندي لقب لا يقل مذمة عن لقب «فيلسوف»، بل لعله أخطر علىٰ عوام المسلمين في هذا الزمان لما يجري تحته في الأعم الأغلب من صور التلبيس والتطاول علىٰ العلوم والمعارف، لا سيما علوم الشريعة، والله المستعان.

ولا شك أنه يدخل في هذه البابة (أعني كبر الفلاسفة) كبر المتكلمين كذلك. وقد رأينا وعالجنا من غلاة المتكلمين تحقيرهم أهل السنة وعقول أهل السنة، واتهامهم إياهم بالتقليد المذموم لهذا الإمام أو ذاك من غير فهم أو تحقيق، وبالخوض في صفات الله علىٰ جهل، ورميهم أهل السنة بالحشوية والمجسمة والعامة ونحو ذلك، بل رأينا منهم الاجتراء علىٰ السلف أنفسهم، حين قال قائلهم: «مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم». فالعلم والحكمة عند هؤلاء هي ذلك العبث العقلي الذي تفننوا فيه بغير حق، فمن خاف من الخوض فيما خاض فيه من هم أعلم وأحكم – عندهم – فمذهب السلف أسلم له[1]! فما من متكلم متجهم إلا وهو منتقص من السلف وعلم

(١) وقد ألف الغزالي رحمه الله رسالة توَهَّم بعضُ الناس أنه تراجع فيها عن علم الكلام، جعل اسمها «إلجام العوام عن علم الكلام»، مع أنه في واقع الأمر إنما كتبها ليعظم من شأن علم الكلام ويصرف عنه همم العوام وأشباههم حتى لا يفسدوه على أهله، مدعيا – على طريقة الصوفية في التفريق بين ما يسمونه بالعلم الظاهر والعلم الباطن – أن العامة مطالبين بما كان عليه السلف والصحابة (الذي هو عنده التفويض في

السلف وعقول السلف لا محالة، علىٰ وجه من الوجوه، مهما زعم البراءة من ذلك. فلا شك أن هذه المقالة المنكرة تنبيك عن استعلاء واستكبار متجذر في نفوس المتكلمين، زينه لهم شيطانهم من كثرة ما خاضوا في العقليات والنظريات ونالوا علىٰ ما أتوا به من ذلك الثناء الوافر والتعظيم والتوقير، وهو تلك الغاية التي تحرك أكثر الفلاسفة أيضا وتغرق قلوبهم في الكبر والتعاظم علىٰ خلق الله كما مر بك. وصدق الله مولانا الحق إذ يقول في محكم التنزيل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [**غافر**: ٥٦].

وما من شيء أحب إلىٰ نفس المتكلم من أن يأتيه الاستحسان من أهل الفلسفة والعتاة فيها أنفسهم، الذين اغتر بهم السفهاء من الناس وعدوهم أصحاب العلوم

المعنى)، وأنه «أسلمُ» لهم من خوض مضايق الاشتباه التي يخوضها المتكلمون (الخاصة)! هذا حسبهم وبه نجاتهم، وأما دقائق علم الكلام فليست لكل أحد!

فمما جاء في تلك المخطوطة قوله:

«فإن قيل فلِم لم يكشف [أي رسول الله] الغطاء عن المراد بإطلاق لفظ الإله، ولم يقل إنَّه موجود ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عرض، ولا هو داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا هو في مكان، ولا هو في جهة، بل الجهات كلها خالية عنه، فهذا هو الحق عند قوم، والإفصاح عنه كذلك كما أفصح عنه المتكلمون ممكن، ولم يكن في عبارته ﷺ قصور، ولا في رغبته في كشفه الحق فتور، ولا في معرفته نقصا؟ قلنا: من رأى هذا حقيقة الحق اعتذر بأنَّه إذا ذكره لَنَفَرَ الناسُ عن قبوله، ولبادروا بالإنكار، وقالوا: هذا عين المحال ووقعوا في التعطيل، ولا خير في المبالغة في تنزيهٍ يُنتج التعطيل في حق الكافة إلا الأقلين.»

فتنظير المتكلمين ليس مستحسنا عند الرجل وحسب، وليس هو ضرورة العقل وزبدته وحسب، بل إنه لا يرى بأسا في قول من بلغ أن قال إنه (أي الكلام) العلم الحق الذي كتمه الرسول عليه السلام عن أصحابه حتى لا يفتنوا ويتهموه بالإلحاد والتعطيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ولقد صدق الإمام أبو محمد الطرطوشي المالكي رحمه الله، فيما نقله عنه الذهبي في السير (١٤/ ٣٥٥)، إذ قال في الغزالي:

«وَمَا (مَثَلُ) مَنْ نَصَرَ الإِسْلاَمَ بِمَذَاهِب الفَلاَسِفَة، وَالآرَاء المنطقيَة، إِلاَّ كَمَنْ يغسلُ الثَّوْب بالبول، ثُمَّ يَسُوْقُ الكَلاَم سوقاً يُرْعِدُ فِيْه وَيُبْرِقُ، وَيُمنِّي وَيُشَوِّقُ، حَتَّى إِذَا تَشوَّفت لَهُ النُّفُوْسُ، قَالَ: هَذَا مِنْ علم المعَاملَة، وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ علم المكَاشفَة لاَ يَجُوْزُ تسطيرُ فِي الكُتُب، وَيَقُوْلُ: هَذَا مِنْ سرِّ الصَّدْر الَّذ نُهينَا عَنْ إِفشَائِه. وَهَذَا فعْلُ البَاطنيَّة وَأَهْل الدَّغَل وَالدَّخَل فِي الدّين يَسْتَقلُّ المَوْجُوْدَ وَيُعلِّقُ النُّفُوْسَ بالمفقود، وَهُوَ تَشويشٌ لعقَائِد القُلُوب، وَتوهينٌ لمَا عَلَيْهِ كلمَةُ الجمَاعَة، فَلَئِنْ كَانَ الرَّجُلُ يَعتقد مَا سطَّره، لَمْ يَبْعُدْ تكفيرُهُ، وَإِنْ كَانَ لاَ يَعتقدُه، فَمَا أَقْرَبَ تضليلَه.»

والمعارف (والحكمة) كلها! فهو ما تكلف الكلام إلا من أجل أن يظهر علو عقله علىٰ عقول أقرانه، مع ما يزينه له الشيطان من اعتقاد أن ما يصنعه إنما يعلو به شأن العقل في الإسلام ويثبت به علو العقيدة الإسلامية علىٰ عقائد الفلاسفة! فهل بعد تزكية عظماء الفلاسفة من تزكية ترجىٰ أو شهادة بالعلو والتفوق علىٰ الأقران؟ وهل من شهادة بالعلو المعرفي تعدل شهادة الفيلسوف المعظم أكاديميا بأن إيمان المتكلم ليس «كما آمن السفهاء»؟ هكذا تحدثهم نفوسهم المفتونة!

فقد عُلم أن النفوس الضعيفة تهتز عندما تقابل بكلام الفلاسفة وتغتر بما فيه من زخرف القول ولحنه، إذ يبدو البناء العقلي لكلامهم - لأول وهلة - محكما دقيقا، قد وفّىٰ بالأمر وجاء فيه بما يحتاج إلىٰ عميق فكر ونظر وتدبر من أجل أن يصاغ الرد المحكم عليه! ولا شك أن الاتصاف بكمال العقل أحب إلىٰ النفس من الاتهام بالسفاهة أو بالسذاجة أو بالغباء أو بـ«الاتباع الأعمىٰ» ونحوه! لذا، ولجهل كثير من المسلمين بدينهم ولضعف نفوسهم، ولتعظيم المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه لتلك البضاعة الوافدة المترجمة عن الفلاسفة من أهل اليونان، ودخول الشيطان علىٰ نفوسهم بالشعور بالنقص بإزاء تلك «التأملات العقلية العميقة» التي لا يصل المرء إلىٰ فهمها (علىٰ نقصها وعوارها اللازم) إلا بإعمال كثير من النظر والفكر، أصبح المعرض عنها وعن النظر فيها مذموما متهما بخفة العقل وضعف النظر! وفي المقابل، أصبح المغرق فيها - بدعوىٰ الرد عليها وتحصين المسلمين منها!- مشهودا له بوفرة العقل وقوة النظر. فهل يكره إنسان أن يشهد له الناس بأنه نابغة زمانه، وأنه جاء بما لم تستطعه الأوائل؟ كلا ولا شك.

وهنا - أيها القارئ المحترم - بيت الداء ومكمن الخلل. فنحن معاشر المسلمين قوم قد أكمل الله لهم الدين وأتم عليهم النعمة، ولم يمت رسولهم إلا والحق فيما جاء به بيّن جلي واضح محكم، لا يزيغ عنه إلا هالك، لا سيما في قضايا الغيب والاعتقاد الكبرىٰ فيما يتعلق بذات الله جل وعلا وأسمائه وصفاته ونحو ذلك مما كان ولا يزال مثار النزاع بين سائر أهل الملل في قضايا الغيب! هذه القضايا الكبرىٰ من زعم أن

الوحي لم يأت فيها بما فيه التمام والكفاية من غير أن يحتاج المسلمون معه إلىٰ نظريات المتكلمين لفهمه أو لتأسيس الإيمان به عليها، فقد زعم أن محمدا ﷺ ما أدىٰ أمانة التبليغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد نُقل عن بعض أهل العلم أنه قال: «الناظرُ في علم الكلام كالناظر في عين الشمس؛ كلما ازداد نظرا ازداد عمىٰ»، قلت: وصدق والله، والمصيبة أنه يمعن النظر فيها بغية إثبات وجودها نفسه، وإقناع المكابر المكذب بها بأنها حقيقة وليست وهما، فتأمل! وعن مجاهد قال: «قيل لابن عمر: إن نجدة الحروري - وهو علىٰ رأس أهل البدع - يقول كذا وكذا، فجعل لا يسمع منه؛ كراهية أن يقع في قلبه منه شيء.» وعن الشافعيُّ رضي الله عنه أنه قال: «لو يَعلمُ الناسُ ما في الكلام من الأهواء لفَرُّوا منه فرارَهُم من الأسد».

وقال الربيع، سمعت الشافعي يقول، وقد ناظره رجل من أهل العراق، فخرج إلىٰ شيء من الكلام: «هذا من الكلام، دعه». وقال مصعب: «بلغني عن مالك بن أنس أنه كان يقول: الكلام في الدين كله أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهون القدر ورأي جهم، وكل ما أشبه، ولا أحب الكلام إلا فيما كان تحته عمل، فأما الكلام في الله فالسكوت عنه؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا ما كان تحته عمل»، وقال مصعب: رأيت أهل بلدنا - أهل المدينة - ينهون عن الكلام في الدين». وقال الإمامُ أحمدُ رضي الله عنه: «لا يفلح صاحبُ الكلام أبدا، ولا تكاد ترىٰ أحدا ينظرُ في الكلام إلا وفي قلبه مرضٌ». قلت: صدق رحمه الله، وإنما وضعنا هذا المجلد في بيان ذلك المرض وكشفه، نسأل الله السداد والقبول! بل إن الإمام أحمد ذمّ الحارث المحاسبي لتصنيفه كتابا في الرد علىٰ المتكلمين، فقال له: «ويحكَ! ألست تحكي بدعتهم أولا ثم ترد عليهم؟ ألستَ تحملُ الناس بتصنيفك علىٰ مطالعة كلام أهل البدعة، والتفكُّر في تلك الشبهات، فيدعوهم ذلك إلىٰ الرأي والبحث!» اهـ.

قلت: وتأمل ذمه رحمه الله مطلق الرأي والبحث، أي فيما فتحه المتكلمون للرأي والنظر من قضايا الغيب ومن مسلمات الفطرة! فمن عقل هذا عن الإمام رحمه الله،

أدرك علة إطلاقه المنع من الخوض في الكلام. وعن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: «إذا تكلم الناس في ربهم وفي الملائكة ظهر لهم الشيطان فقدمهم إلىٰ عبدة الأوثان». وعن الفضيل بن عياض قال: «لا تجادلوا أهل الخصومات؛ فإنهم يخوضون في آيات الله». قَالَ الزَّعْفَرَانِي «قَالَ الشَّافِعِي: حكمي فِي أَصْحَاب الْكَلَام أَن يضْربُوا بِالْجَرِيدِ وَيُطَاف بهم فِي الْقَبَائِل والبشائر وَيُقَال: هَذَا جَزَاء من ترك الْكتاب وَالسّنة وَأخذ فِي الْكَلَام.» وَقَالَ الْحسن «لَا تجادلوا أهل الْأَهْوَاء وَلَا تُجَالِسُوهُمْ وَلَا تسمعوا مِنْهُم وَقد اتّفق أهل الحَدِيث من السّلف علىٰ هَذَا، وَلَا ينْحَصر مَا نقل عَنْهُم من التشديدات فِيهِ، وَقَالُوا مَا سكت عَنهُ الصَّحَابَة مَعَ أَنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الْأَلْفَاظ من غَيرهم، إِلَّا لعلمهم بِمَا يتَوَلَّد مِنْهُ الشَّرّ» اهـ. مع أن هؤلاء المتكلمين ما كانوا يريدون من ذلك الخوض – في أصل الأمر – إلا دفع «شبهات الملاحدة» عن حقيقة وجود الله تعالىٰ، فتأمل ما الذي جنَوه من ذلك!

وصدق القحطاني إذ قال في نونيته:

لا تلتمس علم الكلام فإنه
يدعو إلى التعطيل والهيمان

لا يصحب البدعي إلا مثله
تحت الدخان تأجج النيران

علم الكلام وعلم شرع محمد
يتغايران وليس يشتبهان

أخذوا الكلام عن الفلاسفة الأولى
جحدوا الشرائع غرة وأمان

حملوا الأمور على قياس عقولهم
فتبلدوا كتبلد الحيران

فنحن نقول إنه لا يحتاج أصحاب الباطل الجلي الواضح إلىٰ من يخوض معهم في باطلهم بأقيسة العقول حتىٰ يوصلهم إلىٰ الحق، وإنما يحتاجون إلىٰ من يعظهم في نفوسهم وعظا بليغا، حتىٰ ينزعوا عن ذلك العبث جملة واحدة، ويسمعوا ما عرفوا أنه الحق الخالص من غير مراء ولا سفسطة.

ولكن أبىٰ الشيطان إلا أن يزين للمفتونين بتلك البضاعة الفلسفية الظن بأن بيان الحق في دين الله لا يكون إلا بمثلها، وأن الحجة لا تقوم علىٰ العقلاء إلا بطريقة الفلاسفة وبالرد «المنطقي» المفصل والمستفيض علىٰ كل دعوىٰ يدعيها الدهرية والملاحدة وعموم الفلاسفة بشأن الباري جل وعلا ووجوده وصفاته. فقد علم الشيطان أن في نفوسهم ميلا إليها وتشوفا للإتيان بمثلها مما ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب! وأنهم تميل نفوسهم إلىٰ سماع دعاوىٰ هؤلاء وتفانينهم العقلية وإلىٰ التبرؤ من دعوىٰ تخلف عقولهم عن دركها والتمكن من طرائقها، بل وإظهار التفوق علىٰ أصحابها في ذلك، ومن ثمّ نيل ما يناله النوابغ منهم من استحسان العامة والجهلاء وضعاف النفوس. فهل من شيء أحب إلىٰ نفس من كان في قلبه أصل الإسلام، من أن ينال «الحسنيين» (بزعمه)، فيصبح من عظماء الدنيا ووجهاء الآخرة معا؟ لا بد إذن من أن يزدان لنفوس هؤلاء اعتقاد أنهم يخدمون الملة بذلك أعظم الخدمات وأجلها علىٰ الإطلاق، وأنه لولاهم ولولا جهودهم وأعمالهم لغرق المسلمون في بحار الإلحاد ولانمحقت الملة من الأرض! مع أنهم بجهودهم تلك، ما زادوا علىٰ أن قربوا الباطل إلىٰ الحق ولبسوه بلبوسه تلبيسا، وفتحوا أبواب البدع في دين الله من كل صنف ولون، متفاوتين في ذلك بين مستقل ومستكثر!

يأتي الواحد منهم من كتب الفلاسفة بهذا التعريف أو ذاك، أو بهذه النظرية أو تلك، يزعم أنه يستعمل ذلك في بناء البرهان العقلي الذي يرجىٰ منه إقناع الملاحدة بأنهم علىٰ باطل وأن الحق علىٰ خلاف ما يقولون، أو علىٰ الأقل تحذير المسلمين من الاغترار ببضاعتهم! فبالله هل يفتقر وجود الباري سبحانه إلىٰ برهان عقلي أصلا، حتىٰ يتفنن هؤلاء في سباكته؟ لماذا لم يردوا عليهم ذاك الزعم نفسه من الابتداء بالوعظ البليغ

المحكم كما جاء به القرآن، إن كانوا صادقين؟ لماذا لم يكشفوا لهم ما في نفوسهم من مرض، يزجروهم عن ذاك الكبر والجحود الظاهر في مجرد دعوىٰ خفاء الحق في تلك القضايا؟ السبب أيها القارئ الكريم أن نفوسهم هم لم تسلم من المرض! ذلك أنهم استحسنوا ما في مباحث الفلاسفة من متسع للإبداع العقلي والتفوق التنظيري علىٰ الأقران والعلو والظهور الفردي و«استعراض العضلات العقلية»، فخاضوا تلك الضروب الشيطانية كما خاضها الفلاسفة بدعوىٰ الانتصار لأصول التوحيد علىٰ ألدّ خصومه، وصار غاية مرام أحدهم أن يدخل التاريخ علىٰ أنه صاحب «أعظم برهان عقلي» سطرته أقلام المسلمين في إثبات الصانع، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولو أنهم صدقوا وتجردوا من تلك الأهواء كلها لسلم لهم دينهم مما أدخلوه عليه من زبالة الفلسفة، ولما صارت بين طريقتهم وطريقة السلف تلك المفاوز الشاسعة! ولكنهم أحبوا التفوق في تلك البضاعة علىٰ الحقيقة حبا شديدا وتشوفوا له، وانشرحت صدورهم بما أصابوه من ذلك، حتىٰ صاروا يرون نقص الإيمان فيمن لم يقارف ما قارفوه ولم يعالج ما عالجوه منها، بل بطلان الإيمان بالكلية كما قال بعضهم! وما أخسرها من صناعة، صناعة قوم وصل بهم عملهم من تزيين الشيطان لهم إلىٰ أن أوجبوا علىٰ المسلمين الشك في باريهم أولا، لأنهم لا يكمل لهم إيمان (وعند بعضهم أنه لا يصح أصلا) إلا أن يتأسس علىٰ برهان فلان أو حجة فلان الكلامية، فطعنوا بذلك في حجية القرآن وفي تمام قيامها علىٰ من سبقوهم، وفي إيمان الأنبياء والمرسلين كلهم وصحابتهم وأتباعهم وسائر المسلمين من لدن آدم ممن خلوا في أمم البشر قبل ظهور تلك «البراهين» عند أصحابها، من حيث زعموا أنهم ينتصرون للدين، ويقدمون للمسلمين حجة عقلية علىٰ خصومهم من الملاحدة والمكذبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم كيف وبأي عقل يكون تحذير المسلمين من الاغترار ببضاعة الفلاسفة، طريقه استعمال تلك البضاعة نفسها كما صنعوا، والتزام منهج أصحابها في بناء المعرفة بالغيبيات باستعمال النظر والقياس كما التزموا؟ من كان مسلما موحدا معافًى في دينه من تلك الفضلات الفكرية وذاك القيء العقلي، كيف يكون تعريضه لها ثم للرد عليها بطريقتها نفسها (التي هي بيت الداء في الحقيقة ورأس الفتنة في نفوس أصحابها)، هو

الطريق إلىٰ صيانته من خطرها؟ حتىٰ من سبق له أن تعرض للشيء الكثير منها من قبل، كيف يكون علاج ذاك المسكين في أن يؤتىٰ بالمزيد من ذلك؟ أفلا يعقلون؟ بل أنت أيها «المتكلم» من غرته تلك البضاعة وضربت إلىٰ جذع قلبه والله من حيث لا يشعر، وما كنت لترىٰ ذلك في نفسك ولا لتشعر به حتىٰ تطهرها من تلك الأهواء كلها متجردا لله وحده!

لماذا لا يكفيك أن تخاطب الناس بأن وجود باريهم سبحانه وكمال صفاته مسألة بدهية كبرىٰ لا يصح إطلاق اسم العقل علىٰ من يماري فيها؟ والأهم من هذا: لماذا قبلت شرط المكذبين والمخاصمين ألا يقبلوا منك دعوىٰ كهذه حتىٰ يروك تتناول «حجج» الفلاسفة كلها واحدة واحدة بالرد المفصل كما سلكه المتكلمون من قبل، وحتىٰ تقيم البرهان علىٰ حدوث العالم تأسيسا علىٰ ميتافزيقاهم السائدة لديهم أكاديميا؟ وإن لم يقبلوا منك هذا الجواب الموجز (تقرير بدهية معنىٰ وجود الباري وكمال صفاته)، مع الوعظ البليغ بما يلزم، وظنوا أن الشبهة ما زالت لم تندفع، فهل يرجع هذا إلىٰ خلل في آحاد البراهين الكلامية نفسها التي جئتهم أنت بها وفي إفادتها تلك المعرفة التي زعموا الجهل بها، أم في نفوس من اشترطوا عليك ذلك الشرط وزعموا بين يديك ذلك الزعم، بما حقه أن يدعوك إلىٰ مزيد من الوعظ والتذكير والخطاب النفسي (إن كان قدرنا رجاء الخير فيهم) لا التنظير الفلسفي (سواء كان ماورائيا أو طبيعيا)، إن كنت فاعلا؟ أحقا تريد سلوك مسالك الفلاسفة في نقد تلك «الحجج» لأنك لا ترىٰ طريقا إلا هذا لمخاطبة أمة الدعوة وأمة الإجابة بما معك من الحق، أم لأنك تحب – في باطن نفسك – أن يجتمع فيك العلم الشرعي والدراية بتلك النظريات والفلسفات لتعلو بذلك علىٰ أقرانك من المتشرعين بإظهار العلو علىٰ أولئك الفلاسفة والمفكرين المعظمين بين الناس، ولعلك بذلك تنال استحسان من تخاطبهم ممن مالوا عن الكتاب والسنة إلىٰ بضاعة الفلاسفة؟

سل نفسك هذا السؤال أيها «المتكلم» واصدقها الجواب قبل أن تقابَل به بين يدي ربك في مشهد يوم عظيم.

من زعم أن الإيجاز في هذا لا يغني عن التفصيل والتعمق، وأن العقل لا يصل إلىٰ الاقتناع ببطلان حجج وطرائق الفلاسفة في قضايا الغيب الكبرىٰ إلا إن رأىٰ حججا مثلها مكتوبة في الرد عليها علىٰ نفس وتيرتها وطريقتها وبنفس مصطلحاتها ومناهجها، فقد أعظم علىٰ الله الفرية! فإن الله تعالىٰ لم يبعث فينا فلاسفة ولا متكلمين، وإنما بعث رسلا مبشرين ومنذرين، منهم رعاة غنم وأصحاب حرف يدوية ومنهم أميون ما كانوا يقرؤون أصلا ولا يكتبون الكتاب ولا يخطونه بأيمانهم! والله تعالىٰ لم ينزل علينا من السماء كتبا في الفلسفة والجدل الكلامي، وإنما أنزل كتبا في هداية الناس إلىٰ التوحيد والعبادة ترغيبا وترهيبا، بالتأسيس علىٰ ما عرفوا بالفطرة والبداهة الأولىٰ أنه الحق الذي لا يمكن أن يصح سواه. فمن جادل مع الملاحدة في ذلك الأساس الفطري البدهي نفسه، فقد جاء بما لم يسبقه إليه نبي ولا رسول، وهدم بنيان الحق من حيث يحسب أنه يبنيه.

فإذا كانت الرسل ما خاطبت المشركين من أقوامهم (الذين اتخذوا مع الله إلها آخر) إلا بالتذكير المجمل والموعظة البليغة التي ليس فيها ما يوحي بأن بطلان الشرك يفتقر إلىٰ برهان عقلي أصلا (وقد مر بك بيان ذلك في الباب الأول من هذا الكتاب)، فما بالك بمن يجادل في وجود خالقه وباريه من الأساس، ويطالب بالرد المفصل علىٰ كل ضرطة يفسو بها هو وأمثاله في وجوه العقلاء؟ هذا والله أمر حري بكل من أكبّ علىٰ الكلام وتوافر علىٰ مجادلة هؤلاء إجابة لشرطهم أن يتأمل فيه!

وما أقرب المتكلم من هؤلاء الخائضين مع الملاحدة والفلاسفة في بضاعتهم إلىٰ أن يدخل الشك إلىٰ نفسه هو، وأن يزين له الشيطان هذه الحجة الفلسفية أو تلك فتنال من نفسه ما لم يكن يحتسب، وإذا به يقع في عين ما حسب أنه قد تخصص في دفعه عن المسلمين، وظن أنه تمكن منه غاية التمكن! فإن لم يتسرب إلىٰ نفسه الشك والاضطراب فلعلك أن تجده قاسي القلب قليل الحظ من الذكر والعبادة. إذ كيف لرجل يقضي يومه وليلته في البحث في كيفية الرد علىٰ من يطعنون في وجود رب البريات سبحانه وتعالىٰ من الأساس، ويتهمونه بما يندىٰ له جبين العاقل الموحد من

التهم والنقائص، نسأل الله العافية، كيف لمثل هذا أن يجد في وقته متسعا للعمل علىٰ زيادة إيمانه هو نفسه والترقي به إلىٰ ما وراء مرتبة التغلب علىٰ تلك الدعاوىٰ المهلكة التي لا يكاد يفرغ من إحداها حتىٰ تُقذف عليه مثلها أو أشد؟ وكيف لرجل قد أَلِف مطالعة تلك المطاعن الفاحشة في رب العالمين واعتاد عليها (وإن كان كارها) أن يكون في قلبه من تعظيم الله جل وعلا وخشيته كما في قلب من سلم من التعرض لذلك كله جملة واحدة؟ هذا أمر لست أتصوره.

أذكر أنني مررت ذات يوم بسفساط من ملاحدة العرب في منتدىٰ من المنتديات يدعو بعض شباب المسلمين لمناظرته في اعتراضه علىٰ خلق الله البشر وابتلائه إياهم مع أنه كان قادرا علىٰ أن يخلقهم في الجنة مباشرة أو في النار مباشرة مع تركيب «شريحة» في رؤوسهم توهمهم بأنهم عاشوا في الدنيا علىٰ نحو كذا أو كذا. ثم زيادته علىٰ ذلك بدعوىٰ أنه ليس من الممكن لأحد أن يتأكد بيقين من أنه عاش بالأمس ما تخبره ذكرياته بأنه قد عاشه، فمن الوارد والممكن والجائز في عقله المريض أن يكون ذلك كله وهما تمليه علينا شريحة مركبة في رؤوسنا (وما أقرب ذلك من عقيدة القبوري الماسوني التركي «عدنان أوكتار» التي بيناها في غير هذا الكتاب!!)، وإذن فلا ضمان عنده لحقيقة أعمالنا نفسها في الدنيا حتىٰ نستحق الجزاء عليها في الآخرة!

فما كان من أكثر شباب المسلمين إلا أن سخروا منه واستهزؤوا به بما يستحق، حتىٰ سماه أحدهم بـ«أبي شريحة» تحقيرا وتسفيها! والسؤال الآن: لو كان ذاك السفيه علىٰ اطلاع علىٰ أدبيات الفلاسفة وكتبهم وجدالاتهم، وساق إلىٰ هؤلاء شطرا من كلام بعض من انتصروا منهم بزخارف البراهين المنطقية المزعومة لتلك السفاهة، كتلك التجربة الفكرية التي تعرف في الأدبيات باسم «المخ في الدورق» Brain in a Vat، مثلا، وما استعملها فيه كثير من المتشككين لإثبات زبالتهم، أرأيت لو أنه فعل ذلك وطالبهم بتكلف الرد علىٰ أكثر ذلك، أفكانوا يقابلونه بذلك التسفيه الذي استحقه تمام الاستحقاق؟ أبدا! بل كان الشيطان ليستدرجهم لتكلف الرد الفلسفي المنمق، وإذن لتحول الأمر إلىٰ جدال «نظري» علمي فيه أدلة وأدلة مقابلة وأفكار «خطيرة» تحتاج إلىٰ

رد وبيان وإزالة الشبهات .. إلخ، لماذا؟ لأنهم لو سفهوا تلك البابة كلها جملة واحدة عند أولئك الفلاسفة الأكاديميين المعظمين بين أهل الصنعة، وقالوا هؤلاء مرضىٰ لا يجوز النظر في زبالتهم أصلا، لأنهم يجادلون في قضايا بدهية أولية لا تفتقر إلىٰ دليل ولا يجوز التشكيك فيها، إذن لقوبلوا هم بالتسفيه وبالطعن علىٰ «عقولهم»، وهو ما لا يقبلونه لأنفسهم ولا يتصورونه! وإذن فقد وجب الرد والتفصيل والتأصيل وبناء البرهان ... إلخ، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! والسؤال الآن: في أي شيء اختلف من زعم أنه لا يدري أمخلوق هو أم لا، عمن زعم أنه لا يدري هل ما تخبره به ذاكرته عن خبراته الماضية حق واقع أم وهم وخيال كله؟ كلاهما مجرم مريض، ومن المرضىٰ من يملك القدرة علىٰ زخرفة الكلام والتنطع فيه بما يشغل الناس عن وهاء وسفاهة أصل دعواه نفسها، ومنهم من لا يملك تلك القدرة! فإذا كان كلا الرجلين موسوما بالسفاهة، فلا شك أن المتفلسف منهما أحق بالذم والتسفيه والمحاصرة من الآخر، لأن خطره علىٰ عقول العقلاء أعظم ولا شك!

فيا عباد الله لا يغرن أحدكم شيطانه بأن رآه بارعا متفوقا في رد وإبطال كل «حجة» مزعومة يقع عليها في كلام الملاحدة. فإننا نقطع بأنه ليس في لغات البشر من المعاني والمفردات ما يمكن لملحد أن يبرهن به علىٰ صحة اعتقاده في الغيب، لأنه اعتقاد مضاد لأصول اللغة نفسها ولمنطقها الفطري كما ذكرنا وكررنا في غير موضع. فلماذا يُستدرج الواحد منكم في كل مرة إلىٰ أن يتفنن في صياغة الأجوبة الكلامية النظرية علىٰ كل شاردة وواردة يضربها الواحد من هؤلاء، ثم إذا به يفتح من أبواب التأويل والتطويل والجدال والسفسطة ما يباعد بين الناس وبين تلك الحقيقة البدهية لا محالة، بدلا من أن يقربهم إليها، ويثير الغبار عليها من حيث يحسب أنه يزيدها وضوحا وجلاء؟

إنه شعوركم بأن اجتناب مناقشة الملاحدة ومواجهتهم بالعقليات والمنطقيات علىٰ نحو ما يصنعون، دليل ضعف من جانبكم لا يليق بأصحاب الحق كما يزعمون، مع ما تجدونه في نفوسكم - بطبيعة الحال - من قدرة علىٰ رد ذلك الهراء والتصدي له بنوع البرهان الذي اشترطوه هم علىٰ مخالفيهم! هذا هو مدخل الشيطان إلىٰ نفوس

سائر المتكلمين من يوم أن ظهر الكلام في الأرض وإلىٰ يوم الناس هذا! تحدثه نفسه بأن الرد علىٰ هذا الهراء وتلك السفسطة الفارغة سهل ميسور، وأن جوابها حاضر عند كل عاقل لا يحتاج إلىٰ بحث (وكثيرا ما يكون كذلك فعلا)، فلماذا أدع أنا (طالب العلم المعروف بدراستي الشرعية) الرد والجواب، ثم يزعم ذلك المجرم أنني قد فررت منه أو تخوفت من المواجهة أو يزعم - وهو الأكره والأشد علىٰ نفسي - أن عقلي أنا وأمثالي لا يرقىٰ للوصول إلىٰ فهم كلامه فضلا عن تكلف الجواب الدامغ علىٰ بضاعته الفلسفية؟ فماذا أصنع إن دخلت تلك الدعوىٰ علىٰ عامة المسلمين بسبب ذلك الإحجام من جانبي، وارتاب أصحاب القلوب الضعيفة منهم في صحة ما عندي من الحق، وكان ذلك الموقف مني سببا في انقلابهم علىٰ أعقابهم؟ بل علي أن أبادر وأن «أظهر الحق» بكل قوة، وأن أحتسب في ذلك نصرة الدين وصيانة المسلمين!

هكذا تحدث صاحبنا نفسُه، ثم إذا بالحمية تأخذه ليخوض مع الملحد في سفسطة شيطانية طويلة لا يطالعها مؤمن إلا تأذىٰ منها أشد الأذىٰ، والله وحده يعلم مقدار ما قد تخلفه في نفسه من أوهام وأدران ووساوس، وإذا بالنظريات الاعتقادية الجديدة والمبتدعة تنمو في ذلك السياق المغرق في الاشتباهات اللفظية والتلاعبات الفلسفية نمو الفطر في مزرعة الفطريات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يجب أن يعي إخواننا الدعاة إلىٰ الله أن مخاطبة الملحد في سياق المناظرة والمناقشة الكلامية (أي علىٰ شرطه المعرفي والمنهجي في الإثبات والنفي) إنما توحي بأن الملحد علىٰ شيء يستحق أن يعامل من أجله معاملة الندّ والنظير في ميزان العقل والمعرفة، وهذا بمجرده مما تمرض منه قلوب المؤمنين يقينا، وينتج عنه نظير ما رأينا في تاريخ الدعوة من أدران المتكلمة من زندقة واعتزال وتمشعُر ودرجات (بل دركات) بين ذلك، إذ يدعىٰ الناس إلىٰ التفكر في الرأي والرأي المقابل، وتكلف النظر في الموازنة والترجيح كما هو الشأن في أي مسألة نظرية! فلماذا لا يكفي أن نبين للمسلمين أن الملاحدة أصحاب عاهة نفسية ومرض عقلي قلبي عضال، إذ يخادعون أنفسهم أشد المخادعة، ويجادلون في بدهيات العقل الأولىٰ، ثم نقف علىٰ هذا البيان

المجمل ولا نزيد إلا بالوعظ والتخويف من مطالعة غثائهم ومادة مرضهم الفلسفية حتىٰ لا تعلق من ذلك شائبة في قلب المسلم العاقل فتصيبه في أعز ما يملك: في دينه وتوحيده[1]؟

(١) فإن قال قائل إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قد درس الفلسفة والمنطق وله تصنيف في الرد على المنطقيين، قلنا – كما أشرنا في غير موضع – إن ابن تيمية رحمه الله كانت غايته بيان تهافت أصول وكليات المتكلمين بالأساس، لا أن يوافقهم على طريقتهم في تناول ما لا قبل للنظر العقلي بإثباته أو نفيه! فإنما كتب ما كتب (بما في ذلك كتابه في نقد المنطق الأرسطي) حتى يبين للمسلمين فساد ما تناوله المتكلمون من بضاعة خلطوها بعلوم الدين وجعلوها طريق المعرفة، بل جعلوها أساس العلم والعقل كله. فمن زعم أنه رحمه الله كان «متكلما سلفيا» كما زعمه بعض الناس، فقد كذب عليه وافترى. كيف يكون متكلما وقد اشتهر عنه ذم الكلام وأهله والفلسفة وأهلها، واشتهر عنه قوله رحمه الله بأن المنطق الأرسطي لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد؟ وكيف يكون المتكلم «سلفيا» وقد أجمع السلف على ذم الكلام وأهله جملة بلا تفصيل؟ هلا ضبطتم حقيقة علم الكلام وحقيقة منهج السلف أولا قبل أن تسعوا في خلط الماء بالزيت؟

لقد كان لشيخ الإسلام رحمه الله في الرد على المناطقة والمتفلسفة والمتكلمين كلام من وعاه وفهمه حق الفهم لأدرك أنه إنما أراد الإتيان على بنيان المتكلمين من قواعده، لا أن يحاججهم فيه بنفس طريقتهم وعلى شرطهم المعرفي الجدلي في الإثبات والنفي الوجودي في نفس الأمر! وأكتفي في هذا الحيز الضيق بنقل من كتابه في الرد على المنطقيين (ص. ٨– ٩)، حيث يقول في نقد فكرة «الحدود» التي زعم المناطقة والمتكلمون تبعا لهم أن العقلاء يحتاجون إليها حتى يقوم عليها تنظيرهم وبرهنتهم على الجليات الواضحات:

«الثالث إن الأمم جميعهم من أهل العلم والمقالات وأهل العمل والصناعات يعرفون الأمور التي يحتاجون إلى معرفتها ويحققون ما يعانونه من العلوم والأعمال من غير تكلم بحد منطقي. ولا نجد أحدا من أئمة العلوم يتكلم بهذه الحدود، لا أئمة الفقه ولا النحو ولا الطب ولا الحساب ولا أهل الصناعات مع أنهم يتصورون مفردات علمهم، فعلم استغناء التصور عن هذه الحدود.

الرابع أنه إلى الساعة لا يُعلم للناس حد مستقيم على أصلهم بل أظهر الأشياء الإنسان، وحدُّه بِـ (الحيوان الناطق) عليه الاعتراضات المشهورة، وكذلك حد الشمس وأمثال ذلك، حتى إن النحاة لما دخل متأخروهم في الحدود ذكروا لِـ(الاسم) بضعة وعشرين حدا، وكلها معترض عليها على أصلهم، وقيل إنهم ذكروا لِـ(الاسم) سبعين حدا لم يصح منها شيء، كما ذكر ذلك ابن الأنباري المتأخر. والأصوليون ذكروا لِـ(القياس) بضعة وعشرين حدا، وكلها معترض عليها على أصلهم، وعامة الحدود المذكورة في كتب الفلاسفة والأطباء والنحاة والأصوليين والمتكلمة معترضة على أصلهم؛ وإن قيل بسلامة بعضها كان قليلا، بل منتفيا، فلو كان تصور الأشياء موقوفا على الحدود لم يكن إلى الساعة قد تصور الناس شيئا من هذه الأمور؛ والتصديق موقوف على التصور، فإذا لم يحصل تصور لم يحصل تصديق: فلا يكون عند بني آدم علم في عامة علومهم وهذا من أعظم السفسطة» اهـ.

قلت، صدق رحمه الله وأحسن أيما إحسان! فإن كان التصور حاصلا في النفوس من قبل تكلف تلك الحدود، وهو ما نقطع به، فأي نفع وأي غاية تراد من تكلفها إذن، إن لم يكن إشباع الناظر شهوة نفسه في أن

وكما يظهر لك الخلل النفسي والاجتماعي وراء استقرار ونمو الفلسفة (تاريخيا) كصنعة تخصصية بالتأمل في كلام أصحابها في غاياتها وثمراتها المعرفية عندهم، يظهر الخلل وراء اعتماد «علم الكلام» كفن من الفنون التخصصية في علوم الشريعة، سواء بسواء، بمجرد التأمل في كلام أصحابه حول الغاية والثمرة من دراسته.

يأتي بها يستعرض فيه ذكاءه وقوة عقله، فيكون ذخيرة للسجال السوفسطائي الدائر بينه وبين من يجحدون البديهيات، أو طريقا لتأسيس نظرية ميتافزيقية كونية شاملة (كنظرية الجوهر والعرض ونظرية الهيولى والصورة ونظرية الزمكان النسباني وما شاكل ذلك) يعاد توجيه معاني ألفاظ اللغة نفسها بما يناسبها، حتى ينافس بها الفيلسوف أو المتكلم أقرانه ممن لهم باع في استحداث تلك النظريات؟ نسأل الله السلامة!

وقد قدم شيخ الإسلام رحمه الله على هذين الوجهين بكلام قال فيه: «فيقال: إذا كان الحد قول الحاد فالحاد إما أن يكون قد عرف المحدود بحد وإما أن يكون عرفه بغير حد فإن كان الأول فالكلام في الحد الثاني كالكلام في الأول وهو مستلزم للدور القبلي أو التسلسل في الأسباب والعلل وهما ممتنعان باتفاق العقلاء وإن كان عرفه بغير حد بطل سلبهم وهو قولهم إنه لا يعرف إلا بالحد.»

وهذا الذي قرره ها هنا هو برهان التسلسل الذي يستعمله أصحاب المذهب التأسيسي من الفلاسفة المعاصرين ويعرف بالحجة من تسلسل التفسيرات Regress Argument، يجيبون به عن دعوى خصومهم «الدليليين» أن كل الدعاوى المعرفية تفتقر إلى الدليل النظري (ومنه الحدود والتعاريف)! ولا شك أن زعم الدليليين هذا يغني تصوره عن تكلف إبطاله، ولا يحتاج العاقل إلى تصور مسألة التسلسل هذه كلازم له حتى يبطله. ذلك أن مجرد تكلف بيان الواضحات من أعظم السخف وهو مما تمجه النفوس السوية وتأباه، وتجزم بأنها لا تفتقر إليه، بل وبأنه لا يأتيها إلى بالغبش والسفسطة! أما هذا البرهان، ففيه تكلف الإلزام بأن المتفلسف إن زعم أن الحد الذي يتفنن في تحريره من طريقه لمعنى من المعاني المعروفة الواضحة بمجرد معرفة ألفاظ اللغة (كالمكان والزمان والجسم .. الخ)، يفتقر الإنسان إلى معرفته حتى يفهمها، فإنه يصبح هو نفسه مفتقرا إلى ما يحد به تلك الألفاظ التي استعملها هو نفسه في بناء ذلك الحد كما بناه حتى يعرفها! أو بعبارة أخرى: لو أننا قلنا إن الإنسان يفتقر إلى تلك الحدود التي تكلفها القوم حتى يفهم معاني الكلمات، فكل كلمة يتأسس بها أي حدّ يأتي به الفيلسوف فستحوجه (على هذه الطريقة) إلى حدّ سابق عليها (لتفسير ما تركب منه الحدّ نفسه من ألفاظ)، وهكذا إلى ما لا بداية له، وهو ما يعني انهيار المعرفة نفسها وامتناع الوصول إلى معنى ذي قيمة أصلا! وهذا الإلزام قد يتعذر فهمه على بعض الناس بما لا ملجئ له أصلا ولا داعي! ولا يزال الفلاسفة يتحكمون بالهوى والتنطع على أي حال فيما يعدونه معنى بدهيا واضحا بلا تكلف توضيح، وما لا يعدونه كذلك، فمهما حاولت إلزامهم بهذا المعنى أجابوك بأنه لا يلزمهم، متترسين في ذلك بنظرياتهم الميتافزيقية كيفما كانت! وهم بذلك مسفسطون ولا شك، ولكن لا شيء يلجئنا لفتح باب السفسطة معهم وقد علمنا من أحوالهم وأوحالهم ما علمنا! فحسبنا ما انتهى إليه ابن تيمية رحمه الله في الوجهين الثالث والرابع من تقرير عين ما نقرره من أن العقلاء لا يفتقرون – أصلا – إلى تلك الحدود والتعريفات المتعمقة ولا إلى تكلف النظر في صياغتها (ولا في بيان عدم افتقار العقلاء إليها) – وهم يعرفون عدم افتقارهم إليها بداهة بلا حاجة إلى برحان – حتى يحسنوا القيام بصناعاتهم وفهم أقوال بعضهم البعض وإعمال كافة ملكات الذهن الفطرية في نفوسهم، وإنما هي من التنطع في التنظير وتكلف ما لا يحتاج إليه العقلاء الأسوياء!

قال عضد الدين الإيجي الأشعري عن علم الكلام في كتابه المواقف: «علم يقتدر معه علىٰ إثبات العقائد الدينية، بإيراد الحجج ودفع الشبه.»[1]، قلت: ولا شك أن مقصود إثبات العقائد الدينية ودفع الاشتباه عنها مقصود رفيع المقام، بل إنه أسمىٰ المقاصد المعرفية عند المسلم علىٰ الإطلاق، إذ ليس في العلوم والمعارف ما هو أسمىٰ ولا أشرف من علم يوصل الإنسان إلىٰ معرفة ربه تبارك وتعالىٰ وأسمائه وصفاته وما أوجب علىٰ المكلفين أن يؤمنوا به إجمالا أو تفصيلا من القضايا العلمية الخبرية. ولكن عندما يقال إن «علم الكلام» هو الطريق إلىٰ تحصيل تلك الثمرة، فهذا من التلبيس الذي يظهر لك منه تعصب المتكلمين لنظرياتهم وقواعدهم الفلسفية (وهي فلسفية صرفة علىٰ الحقيقة مهما جادلوك في تلك التسمية)، وحرصهم علىٰ جعلها هي «الطريق» وهي السبيل وهي المدخل الأحكم والأعلم لمعرفة الدين. فقد انتقلت تلك القواعد والنظريات بين أيديهم من كونها طريقة للرد علىٰ شبهات الفلاسفة والملحدين (إذ كان أول ظهورها كرد وجواب من بعض المتشرعين علىٰ ما وقع بأيديهم من كلام الفلاسفة)، إلىٰ كونها المدخل الشرعي المطروق لتعلم الدين نفسه وبناء عقائد المسلمين، وهو التحول الذي نزعم أنه أمر لازم لكل من ولج تلك البابة التي ولجها هؤلاء من شدة ما للطرق الفلسفية من أثر خبيث علىٰ عقائد البشر. فما من صاحب بدعة إلا تراه يستحسنها غاية الاستحسان، ويغلو فيها ليجعلها هي رأس الدين وعموده، ويجعل الدفاع عنها والانتصار لها ذروة السنام في عمله ومسعاه! ذلك أنه يجد في نفسه - لا محالة - من آثار اتباع الهوىٰ ما يحمله علىٰ المبالغة في تعظيم ما هو فيه، وإيهامها المرة بعد المرة بأنه يقف علىٰ ثغر عظيم، وبأنه يأتي من الأعمال أعظمها وأرفعها إذ ينتصر لدعواه في كل مناسبة، لا سيما إن كان قد بلغ في ذلك أن جعله موافقوه رأسا وإماما!

قال ابن عبد الأعلىٰ رحمه الله: سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفَرد - وكان من متكلمي المعتزلَة - يَقُول: «لَأَن يَلقىٰ الله عز وَجل العبدُ بكل ذنب ما خلا الشّرك بالله خير له من أَن يلقاه بشيء من علم الكلام». قلت: فتأمل كيف كانت مناظرة الشافعي للمتكلم، لم تكن بعلم الكلام نفسه، بل كانت في النهي عنه من الأساس! ولا شك أن

(١) الإيجي، المواقف، مجلد ١، ص. ٣١.

الذنوب كلها مهما عظمت فإنه يرجىٰ لصاحبها أن يتوب منها، لأنه يعلم أنها من معصية الله، وأما الكلام فما توسع فيه صاحبه إلا رآه هو كمال الدين وطريق البرهان وقوة البيان .. إلخ، وزينت له نفسه ذلك أشد ما يكون التزيين، مع أنه قد يكون مفارقا ملة الإسلام نفسها بكثير مما أعجبه من أقوال المتكلمين أو من أقوال نفسه، أو يكون ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «يصبح مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا» أو كما قال، نسأل الله السلامة!

وقد زعم بعض المتكلمين أن الشافعي رحمه الله إنما قصد بذلك ونحوه مما هو منقول عنه في التنفير من علم الكلام: ذمّ أصحاب البدع الكلامية (أي آحاد النظريات الكلامية الفاسدة)، وليس عموم «علم الكلام» أو نوعه. قال أبو القاسم ابن عساكر الأشعري (المتوفىٰ سنة ٥٧١ هـ) في كتابه «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري»:

فَإِنَّمَا عَنَىٰ الشَّافِعِيُّ بِذَلِكَ كَلامَ الْبِدْعِيِّ الْمُخَالِفِ عِنْدَ اعْتِبَارِهِ لِلدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ فَقَدْ بَيَّنَ زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَىٰ السَّاجِيُّ فِي رِوَايَتِهِ هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَنِ الرَّبِيعِ أَنَّهُ أَرَادَ بِالنَّهْيِ عَنِ الْكَلامِ قَوْمًا تَكَلَّمُوا فِي الْقَدَرِ فَلِذَلِكَ حَكَمَ بِالتَّبْدِيعِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عبد الله مُحَمَّد ابْن الْفضل الفراوي قَالَ أنا أَبُو عُثْمَانَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَن الصَّابُونِي قَالَ أنا خَالِي أَبُو الْفَضْلِ عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيم الزَّاهِد قَالَ أنا أَبُو الْعَبَّاس عبد الله ابْن مُحَمَّدِ بْن جَعْفر الْبُوشَنْجِيُّ قَالَ ثَنَا مُحَمَّد بن اسحق بْن خُزَيْمَةَ قَالَ سَمِعْتُ يُونُسَ بْنَ عَبْدِ الأَعْلَىٰ يَقُولُ جِئْتُ الشَّافِعِيَّ بَعْدَمَا كَلَّمَ حَفصَ الْفَرْد فَقَالَ غِبْتَ عَنَّا يَا أَبَا مُوسَىٰ لَقَد اطَّلَعْتُ مِنْ أَهْلِ الْكَلام عَلَىٰ شَيْءٍ وَاللَّه مَاتَوَهَّمْتُهُ قَطُّ وَلأَنْ يُبْتَلَىٰ الْمَرْءُ بِكُلِّ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ مَا خَلا الشِّرْكَ بِاللَّه خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُبْتَلَىٰ بِالْكَلام فالشافعي رَحمَه اللَّه إِنَّمَا عني بمقاله كَلَام حَفْص الْفَرد القدري وَأَمْثَاله وَيدل عَلَيْهِ مَا أَخْبَرَنَا قراتكين بن الأسعد قَالَ ثَنَا الْحسن بن عَليّ قَالَ أنا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيز قَالَ أنا عبد الرَّحْمَن ابْن أبي حَاتِم قَالَ ثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَىٰ قَالَ قَالَ لي الشَّافِعِيُّ يَعْلَمُ اللَّهُ يَا أَبَا مُوسَىٰ لَقَد اطَّلَعْتُ مِنْ أَصْحَاب الْكَلام عَلَىٰ شَيْءٍ لَمْ أَظُنَّهُ يَكُونُ وَلأَنْ يُبْتَلَىٰ الْمَرْءُ بِكُلِّ ذَنْب نَهَىٰ اللَّهُ عزوجل عَنْهُ مَا عَدَا الشِّرْكَ بِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْكَلامِ قَالَ يُونُسُ يَعْنِي فِي الأَهْوَاءِ.[1]

(١) ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، ص. ٣٣٧.

ونقول إنه حتىٰ علىٰ التسليم تنزلا بمشروعية تأويل كلام العلماء والأئمة علىٰ خلاف ظاهره، (ولا نسلم به)، فهذا تأويل شديد التعسف وتقييد لإطلاق الشافعي رحمه الله بلا قيد كما لا يخفىٰ، يستحق صاحبه أن يوضع فيه مصنف يعارض به عنوان مصنفه فيقال في عنوانه «تبيين كذب المدعي فيما نسب إلىٰ الإمام الشافعي»! فأين في كلام الإمام رحمه الله ما يدل علىٰ أنه كان يرىٰ مشروعية الاشتغال بعلم الكلام بعموم، حتىٰ يفهم أن هذا الذم خاص كما زعمه ابن عساكر؟ ثم إن الشافعي رحمه الله لم ينفرد بذمّ علم الكلام بإطلاق ودون تفصيل، فلماذا اقتصر ابن عساكر علىٰ هذا النص وحده، زاعما أن وروده في سياق النكير علىٰ مبتدع قدري يستفاد منه التقييد بمثله؟ الكلام صريح في أن الابتلاء بعلم الكلام أخطر من الابتلاء بكل معصية (خلا الشرك)، ولو أنه أراد ما ذهب إليه ابن عساكر لقيد كلامه ولقال «الابتلاء بالبدع في علم الكلام» أو نحو ذلك. فإن لفظة «الكلام» هذه كانت في زمان الشافعي ومن قبل الشافعي علما علىٰ أهل طريقة مخصوصة في الجدال في أصول الدين والعقائد، فلا يقيد ذمها عند من ذمها بأنه يقصد من أتىٰ بالبدعة في ذلك، إلا بكلام واضح صريح في الموضع نفسه! أما هذا التعسف فينبيك عما في نفس صاحبه.

والعجيب أن ابن عساكر نفسه ينقل من كلام الشافعي في نفس هذا السياق ما هو أشد صراحة في إطلاق النكير علىٰ الطريقة نفسها (المعروفة بالكلام)، وليس علىٰ بعض المنتسبين إليها كما يزعم، فيقول: «وَأَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو الْأَعَز بن الأسعد قَالَ أَنا الْحَسَنُ بْنُ عَليّ أَبُو مُحَمَّد قَالَ أَنا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ أَنا عَبْدُ الرَّحْمَن بن أَبِي حَاتِم قَالَ ثَنَا الرّبيع بن سُلَيْمَان قَالَ حضرت الشَّافِعِي وَكَلمه رجل فِي الْمَسْجِد الْجَامِع فِي مسألة فطال مناظرته إِيَّاه فَخرج الرجل إِلَىٰ شَيْء من الْكَلَام فَقَالَ لَهُ دع هَذَا فَإِن هَذَا من الْكَلَام» اهـ. فهل هذا قول من يستنكر ظهور البدعة القدرية أو نحوها في كلام خصمه، مع كونه يقره علىٰ الطريقة التي يجادل بها إجمالا (الكلام)، أم هو قول من يستنكر الطريقة نفسها وينهىٰ صاحبها عن استعمالها؟ الجواب واضح.

لذا نقول إنه ينبغي التفريق بين «علم التوحيد» (أو «علم العقيدة») و«علم الكلام» في الاصطلاح والتصنيف العلمي، حتىٰ لا يختلط علىٰ المسلمين ما جرت به أقلام

المتكلمين في التفلسف «لإثبات الصانع» (بدعوىٰ محاججة الملاحدة والدهرية ونحوهم) وما تفرع علىٰ ذلك من نظرياتهم وتخاليطهم العظيمة من جانب، وما رد به أئمة السنة علىٰ هؤلاء جميعا وعلىٰ ما تنازعوه من ذلك فيما بينهم، هم وغيرهم من الفرق المبتدعة في مصنفات علم التوحيد والسنة من الجانب الآخر. فإن الرد علىٰ علم الكلام وعلىٰ مناهج أهله وعقائدهم وطرائقهم في المحاججة والنظر والتأصيل، لا ينبغي علىٰ أي اعتبار أن يدخل (تصنيفا وتقسيما) تحت «علم الكلام» المردود عليه. ذلك أن الخلل الذي رد عليه أئمة السنة خلل منهجي عظيم تقوم به تلك الصنعة نفسها التي يقال لها عند أصحابها «علم الكلام»، وليس خللا فرعيا في هذه المسألة أو تلك من مسائله[1]، والخلاف مع أهل الكلام في أصول الصنعة وطريقتها نفسها ومفهوم العقل فيها (المأخوذ عن الفلاسفة الجدليين الدليليين والمناطقة المشائين) وليس في بعض مسائلها. فعندما تُفتح البدهيات الفطرية الأولىٰ للنظر العقلي والبرهان (علىٰ طريقة الفلاسفة بدعوىٰ الرد عليهم)، ويقال عن هذا إنه «الدليل العقلي» ويحكم علىٰ ثمرته النظرية بأنها «قطعيات العقل»، ثم يُتخذ الدين كله بجميع علومه علىٰ أنه تفريع علىٰ ما يأتي به المتكلمون من بضاعة «برهانية» عقلية في ذلك، فهذا خلل منهجي عظيم ولا شك، يضرب فيما تحت مصادر التلقي نفسها من أساس تقف عليه[2]، فحري بكل

(١) فكأننا نقول بعبارة أخرى إن الأليق بمنهج السلف أن يكون حاصله عند التحقيق: إبطال علم الكلام من أصله الذي يقوم عليه ويتفق عليه المشتغلون به من أهل القبلة بصرف النظر عن النحلة الاعتقادية التي انتهى إليها كل واحد من أصحابه والمشتغلين به. فكأنه قول فيما وراء علم الكلام نفسه أو ما تحته، في الأصول الكلية التي يقوم عليها، كما تقول الفلاسفة للباحثين فيما تقوم عليه صنعة الفلسفة نفسها من أسس كلية، ما وراء الفلسفة Meta-Philosophy. ونحن في هذا الكتاب نتناول العلل النفسية التي بسببها ظهر بين الناس مطلق التفلسف في بدهيات العقل ومسلمات الغيب سواء في إطار الفلسفة أو علم اللاهوت أو علم الكلام، فلا هو – أي نقدنا هذا – بحث فلسفي ولا لاهوتي ولا كلامي لمن يروم تصنيفه بين أصناف العلوم.

(٢) ذلك أن المتكلم يحيل المعرفة الفطرية البدهية إلى نظرية ترجيحية (بمقتضى سعيه في نصب البرهان النظري عليها كما بينا) فيخترع من البراهين النظرية ما لا يجد بدا من أن يؤسس عليه اعتقاده في نهاية الأمر، حتى لا يوسم بأنه «مقلد» جاهل لا أساس لدينه في العقليات و«العلميات»، ولا يُرمى بالتناقض إن ظهر اختلاف ما بين قواعده وبراهينه النظرية من جانب، وفهمه وتأويله نصوص الوحي (لا سيما في قضايا الغيب) من الجانب الآخر! فإذا كانت تلك البراهين التي جاؤوا بها وما تحتها من حدود وما فوقها من قواعد، هي قطعيات العقول عندهم التي بها يثبت وجود الصانع نفسه، فلا بد وأن تُرجح على كل ما تظهر

ما يدخل في ذلك من مباحث أن يُذمّ وأن يُجعل تحت اسم مستقل عن علم العقيدة والتوحيد الذي يجب علىٰ سائر المسلمين أن يتعلموه. فلهذا التفريق فائدته في الفصل الصارم بين ما ذمه السلف ﷺ من ممارسات بعض المشتغلين ببحث العقائد ودراستها في زمانهم تحت اسم «الكلام»، وما هو معدود من واجبات الأعيان علىٰ المكلفين من تعلم التوحيد والإيمان، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [**محمد**: ١٩].

ومما يدلك علىٰ ظهور ذلك التفريق عند السلف والأئمة رحمهم الله أنهم كانوا يطلقون الذم علىٰ علم الكلام وأهله بلا تفصيل(١)، وقد سقنا فيما تقدم أمثلة لذلك، فلا يمكن أن يكون المذموم عندهم هو علم العقيدة وأبواب الإيمان (أو: معرفة العقائد

منه معارضتها، إن لم يمكن الجمع! ومن ثمّ يلزم إسقاط الإجماع وإهدار حجية «فهم السلف»، وتحويل النص إلى مجرى للظن ثبوتا ودلالة! وهو ما حاصله أن تصبح عقول المتكلمين وما أخرجته من «الكلام»، هي المصدر الأساسي لتلقي الاعتقاد الغيبي، الذي تأتي سائر المصادر النصية تبعا له ولتنظيره، ولهذا نقول إنهم يقدمون العقل على النقل، لأن دينهم يقوم بأكمله على تلك البرهاين النظرية التي ظنوا – من مرض قلوبهم – أنهم بدونها لا يملكون دليلا قاطعا للنزاع بينهم وبين الفلاسفة الدهرية، دافعا للشك والريبة في قضية وجود باريهم! وما كان لذلك النزاع أن ينقطع أبدا، بضرورة طريق النظر والاستدلال المسلوكة فيه والمنهج المعرفي الذي يقوم عليه، كما لا يريد المتكلمون أن يفهموه!

وهكذا يصنع اليوم من ينتصر بنظرية الانفجار الكبير المزعوم لوجود الباري جل شأنه، فتراه مائلا من حيث لا يشعر إلى جعلها حقيقة قطعية لا تحتمل النزاع (لأن من نازعه فيها فقد أسقط عليه حجته وبرهانه)، ثم تراه يأتي إلى النصوص النازلة في خلق السماوات والأرض ليؤولها كلها بما يوافق تلك النظرية (دونما اعتبار لفهم السلف ولا إجماعهم ولا أصول الاجتهاد في الترجيح بين أقوال المفسرين)، يصطنع عقيدته على هذا الأساس. فالذي حدث أنه لما سلك منهج المتكلمين في الانتصار لحدوث العالم ووجود الباري، اضطر كاضطرارهم لتأسيس دينه كله على ما معه من برهان نظري في ذلك، واضطر إلى تقديم العقل (أي عقله هو وتنظيره هو، وهو في هذه الحالة التنظير الطبيعي، خلافا للتنظير الفلسفي المنطقي الأرسطي الذي كان عند المتكلمين الأوائل) على النقل كما صنعوا من قبل، والله المستعان. ولهذا أقول إن عامة الإعجازيين متلبسون بأصل البدعة الكلامية في مصادر التلقي، كما أطلنا النفس في بيانه في غير هذا الكتاب، ولهذا تصح تسميتهم بجهمية الطبيعيات أو متجهمة الطبيعيات كما قررنا، والله أعلم.

(١) في مقدمة كتابي «آلة الموحدين»، قلت: «لذا فقد أصبح من الضروري أن يظهر في مكتبات المسلمين من المصنفات الأصولية والكلامية المحكمة ما تندفع به تلك الشبهة الكبرى» اهـ.، فقولي «الكلامية» كنت جاريا فيه على ما كنت أراه سابقا من استعمال لمصطلح «الكلام» و«علم الكلام» قد عدلت عنه الآن ولله الحمد، فلينتبه لهذا. ولعله كان يحسن بي أن أقول: «المصنفات الأصولية والتأصيلية» على أساس أن مصطلح التأصيل أعم من «الكلام» وأبعد عن محل الذمّ والنكارة، ولكن أبى الله أن يكون الكمال في غير كتابه، والحمد لله رب العالمين.

بأدلتها)، التي أدخلها كثير من العلماء المتأخرين في إطار ما يقال له «علم الكلام» إجمالا! بل إن في المأثور عن أَحْمد رَحمَه الله أنه قال كلمة شديدة في المتكلمين، قال: «عُلَمَاء الْكَلَام زنادقة»، فبأي عقل يكون العلماء المشتغلون بأشرف العلوم وأرفعها، علم التوحيد أو (الفقه الأكبر) الذي كان موضوعه المعرفة بالله وصفاته وخبر الغيب إجمالا وتفصيلا، الأصل فيهم أنهم زنادقة عند الإمام رحمه الله؟ وكيف لم يتورع رحمه الله عن التخصيص في مقام الرمي بالزندقة، لو لم يكن «علم الكلام» هو المذموم عنده بإطلاق؟ بل المقصود تلك الصنعة العقلية الحادثة ربيبة الفلسفة الغيبية والإلهية عند الملاحدة وقرينة علم اللاهوت عند أهل الكتاب، التي يقال لها «علم الكلام». ولذا أقول إنه يغلط غلطا عظيما كل من ينتسب إلىٰ الإمام أحمد رحمه الله، ثم هو يوسع تعريف علم الكلام حتىٰ يُدخل فيه كل ما يبذله أهل العلم من جهود في استخراج أدلة العقائد من الكتاب والسنة مع الدفاع عنها والانتصار لها ضد أهل البدع والأهواء!

هذا المفهوم لعلم الكلام إنما ورثه المتكلمون عن أسلافهم من الفلاسفة، الذين اعتمدوا «العقل المجرد» (كما زعموه)[1] مصدرا أساسيا في معرفة الاعتقادات الدينية بالقياس النظري، وعدوا جهود سائر اللاهوتيين والمتفلسفة (أو إن شئت: المتكلمة) من أهل الملل وكأنها صناعة واحدة (نوعا): صناعة إثبات العقائد الدينية والانتصار لها! فتلك الصناعة التي ورثها المتكلمون الأوائل وخاضوا بها في جدال الفلاسفة، كانت ولا تزال فرعا من فروع الفلسفة، يقال له «الإلهيات»، فكيف يسوىٰ بين علم أساسه (مدار التأسيس والبناء المعرفي فيه) الفلسفة، وعلم أساسه الكتاب والسنة والأثر وفهم

(١) ولا يصح أن يقال «العقل المجرد» عند أهل السنة والجماعة، فإنه لا يتجرد العقل مهما تجرد من معارف وجودية فطرية مجبول هو على التسليم بها دونما نظر ولا اكتساب، فإن نفاها أو زعم افتقارها إلى دليل يكسبه إياها، فليس هو مجردا إذن، وإنما هو عقل مكابر مفتون متلبس بباطل عظيم، لا يجري في نظره فيما ينظر فيه إلا بناء على ذلك الباطل، نسأل الله السلامة! فمهما سمعت من محاور متكلم أنه يدعو خصمه للرجوع إلى «العقل المجرد» في المخاصمة الكلامية، فاعلم أنه كاذب على نفسه وعلى خصمه على السواء، ومن الابتداء، إذ لو كان صادقا في اتباع العقل الصحيح السوي على ما فطره الله عليه وركبه في نفوسه الناس، خلقة وجبلة، لما ارتضى من الأصل أن يطرح هذه المسائل التي طرحها للمخاصمة مع مخالفيه، للنظر والاستدلال القياسي (أيا ما كان نوعه) على نحو ما فعل!

الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين؟ لا يصح بحال أن نجمع هذين العلمين تحت مصطلح واحد، لا سيما وقد وقفنا علىٰ ذمّ السلف لذلك المصطلح!

وإليك المزيد من مأثور السلف ﷺ مما يبين أن ذمّ الكلام عندهم ذمّ منهجي كلي، وليس ذما لآحاد الأقوال والنظريات والمصطلحات الكلامية كما قد يتوهمه بعض الناس، وكما يدندن عليه الأشاعرة وغيرهم من طوائف المتكلمين.

قال إمام السنة شيخ الإسلام أبو إسماعيل الهروي رحمه الله في كتابه «ذمّ الكلام وأهله» (ج ٦، رقم ١٠٢٦)[1]: حدثنا محمد بن أحمد الجارودي – إملاء –، أخبرنا إبراهيم بن محمد القراب، حدثنا محمد بن نعيم السمرقندي، حدثنا محمد بن عيسىٰ الطرسوسي، سمعت عبد الرحمن بن عمر رسته – من أهل أصبهان – يقول: «كانت لعبد الرحمن بن مهدي جارية، فطلبها منه رجل، فكان منه شبه العدة، فلما عاد إليه قيل لعبد الرحمن: يا أبا سعيد، هذا صاحب الخصومات، فقال له عبد الرحمن: بلغني أنك تخاصم في الدين، فقال: يا أبا سعيد، إنا نضع عليهم لنحاجهم بها، فقال له عبد الرحمن: أتدفع الباطل بالباطل؟ إنما تدفع كلاما بكلام، قم عني، والله لا بعتك جاريتي أبدا.» اهـ. فالآفة كما ترىٰ في منهج المحاجة نفسه، في مصادر التلقي المعرفي المسلوكة في تلك الطريقة في نفي ما ينفىٰ وإثبات ما يثبت، هذا هو بيت الداء! دفع الكلام بكلام!

وقال رحمه الله (ج ٦، رقم ١٠٣٠): «أخبرني طيب بن أحمد، أخبرنا محمد بن الحسين، سمعت أبا بكر بن شاذان، سمعت الحسين بن علي بن يزدانيار يقول: سمعت أبا عبد الله بن ماجة يقول: حُدثت عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال: «من طلب العربية فآخره مؤدِّب، ومن طلب الشعر فآخره شاعر يهجو ويمدح بالباطل، ومن طلب الكلام فآخر أمره الزندقة، ومن طلب الحديث فإن قام به كان إماما، وإن فرط فيه ثم أناب يوما يرجع إليه وقد عتقت وجادت». اهـ. فالكلام هنا المراد به علم الكلام عامة، وليس بعض نظريات المتكلمين دون بعض!

(١) وهو سفر عظيم جمع فيه الإمام رحمه الله مئات الآثار بسنده عن السلف رحمهم الله تعالى في ذم الكلام والمتكلمين، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء.

وقال (ج ٦، رقم ١٠٧٦): أخبرنا عمر بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أحمد الأزهري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم البزاز - ببغداد -، حدثنا الحسن بن عرفة، سمعت خالد بن الحارث الهجيمي يقول: «إياكم وأصحاب الجدل والخصومات، فإنهم شرار أهل القبلة». اهـ. قلت: «فالمحاور» هذا الذي يفرح بعض إخواننا هداهم الله في عصرنا هذا بأنهم صانعوه، إنما هو ذاك المتخصص في الجدل والخصومات، الذي يتعلم ما يتعلم من أجل أن يبرع في الجدال الكلامي ويبرز به في كل مناظرة، نسأل الله السلامة! فهم في الحقيقة متخصصون في تفريخ المتكلمين العصريين، تحت شعار «محاورة الملحدين والمتشككين»، وإلىٰ الله المشتكىٰ! وكيف يستغرب ذلك ممن ائتموا بكتب اللاهوتيين النصارىٰ ومناظراتهم مع الملحدين، التي أغرقوا أنفسهم في ترجمتها ونشرها بين المسلمين وقد كانوا منها في عافية، حتىٰ أصبح الواحد منهم يثني علىٰ «المحاور» البارز منهم بأنه «ويليام لين كريغ» المسلمين؟!

فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

وقال (ج ٦، رقم ١٠٨٠): أخبرنا محمد بن إبراهيم بن أحمد بن خميرويه الجكاني، حدثنا محمد بن أحمد بن الفضل، حدثنا محمد بن إسحاق القرشي، حدثنا عثمان بن سعيد الدارمي قال: «ذهبت يوما أحكي ليحيىٰ بن يحيىٰ بعض كلام الجهمية، لأستخرج منه نقضا عليهم، وفي مجلسه يومئذ: الحسين بن عيسىٰ البسطامي، وأحمد بن الحريش القاضي، ومحمد ابن رافع، وأبو قدامة السرخسي - فيما أحسب-، وغيرهم من المشايخ، فزبرني يحيىٰ بغضب، وقال: اسكت، وأنكر علي المشايخ الذين في مجلسه استعظاما أن أحكي كلامهم وإنكارا» اهـ. قلت: فهذا إنكار علىٰ رجل جاء ببعض كلام الجهمية ليستخرج منه نقضا عليهم، أنكروا عليه مجرد حكاية الكلام بين أيديهم، مع أن الأصل مشروعية ذلك بضابطه وشرطه عند الضرورة الشرعية، فليت شعري كيف هم لو رأوا ما سلكه بعض الدعاة في عصرنا، هداهم الله، من المسارعة في إنشاء مراكز متخصصة في ترجمة كتب المتكلمين من أهل الكتاب وغيرهم، ونشرها كما هي، بدعوىٰ أن فيها الرد الأقوىٰ والأنجع علىٰ دهرية العصر!

وقال: وذكر يعقوب بن إسحاق بن محمود الفقيه، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الغسيلي، حدثنا يحيىٰ بن أيوب المقابري قال: سمعت أبا معاوية الضرير يقول: «كنت عند هارون الرشيد فجرىٰ حديث النبي ﷺ: التقىٰ آدم وموسىٰ»، فقال شاب عند هارون: وأين التقيا؟ فقال هارون: علي بالنطع والسيف[1]! فقلت له: يا أمير المؤمنين، هذا شاب تكلم بشيء ما يدري ما يقول، قال هارون: إني أدري أن هذا ليس من كلامه، ولكن يجيبني من أي زنديق تلقنه؟! قال فلم أزل به حتىٰ سكن!» اهـ. قلت: تأمل كيف غضب هارون الرشيد رحمه الله لا من قياس أو تأويل فاسد، وإنما من مبدأ السؤال الذي يعلم صاحبه أنه لا جواب له إلا من طريق السمع، ولا سمع!

(١) قلت: تأمل أي سؤال عده رحمه الله من التنطع وأغضبه أشد الغضب حتى كاد يضرب عنق السائل! فكيف به لو رأى ما يجري بين شباب المسلمين اليوم من سؤالات وجدالات وسجالات شيطانية، يحنو بعض إخواننا على أصحابها ويتساهلون معهم على ما في كثير منها من ردة وزندقة شنيعة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! يأتي أحد الشباب بسؤال فيه اتهام صريح لرسول الله ﷺ، أو لرب العالمين سبحانه وتعالى وتقدس اسمه، ومع هذا يجد من يجالسه ويلاطفه و«يحاوره»، مخاطبا إياه بقوله «أخي الفاضل»، و«أستاذي الكريم» ونحو ذلك، يجيبه بالكلام والرأي، وكأن السؤال في دقائق الأمور مما يتصور خفاء وجه كونه من نواقض التوحيد على جاهل من عوام المسلمين! فإن نوصح ذاك المتساهل في تساهله رأيته يتذرع بأننا في زمان غربة وأن الإسلام بات غريبا في بلاد المسلمين، وأن هذا حال الكثيرين في زماننا، فإن أغلظنا وشددنا فلن يقبل الشباب منا ولن يسمع الناس لنا! وكأن الإلحاد لم يظهر إلا في هذا الزمان ولم تعرف الزندقة في قرون المسلمين إلا في عصرنا هذا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ولعلك لو نقرت عليه وفتشت تحته لوجدته يرى أن المجتمع القائم المنتسب إلى الإسلام في هذا الزمان جاهلي كله، قد رجع إلى محض الجاهلية، وأنه هو وأصحابه هم «الجماعة الأولى» الطليعية التي تؤسس لمجتمع المسلمين من جديد، أو تراه يتكلم بما يقتضي ذاك الاعتقاد ولا يصرح به، نسأل الله العافية من ضلالة قوم قد جمعوا بين النقيضين معا من حيث لا يشعرون: الإرجاء والخارجية! وذلك كقولهم: نحن الآن في مثل العهد المكي، فعلينا أن نعامل الناس بفقه الاستضعاف وأن نظهر لهم اللين حتى ندعوهم إلى أصل الإسلام الذي فارقوه! فإذا ما خاطب شابا قد أكل الإلحاد رأسه وهو يرى نفسه مسلما، خاطبه على أنه مسلم، وأظهر له معاملة المسلمين أصحاب الوساوس والشبهات ونحوها، لعله يستميله إلى حزبه وجماعته، مع أنه يراه ينطق بالردة الصريحة التي لا يماري عاقل من عقلاء المسلمين في أن من فاه بها لم يبق له حظ من الإسلام أصلا!

فالمتساهل في مثل هذا، لا يخلو من خصلة من ثلاث: إما أنه مرجع جهمي زنديق لا يكفِّر شاتم الله ورسوله بل يراه مسلما عاصيا أو جاهلا، وإما أنه خارجي جبان ممن يرون التقية والتخفي بالباطل، فيبطن تكفيره ويظهر له خلاف ذلك لمصلحة سياسية أو حزبية أو نحوها، وإما أنه قطبي جهمي متفلسف يجمع بين النقيضين في باب الإيمان من حيث لا يشعر، كما تراه في بعض طوائف الحزبيين السرورية في زماننا، فهو شيطان مضل على كل تقدير، وإلى الله المشتكى!

وقال رحمه الله (ج ٦، رقم ١١١٦): «أفادني أبو يعقوب، وكتبته من خطه، قال: أخبرنا أبو علي الخالدي، قال: سمعت محمد بن الحسين الزعفراني، قال: سمعت عثمان بن سعيد بن بشار الأنماطي أبا القاسم يقول: سمعت المزني يقول: «كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدُم الشافعي، فلما قدم الشافعي أتيته فسألته عن مسألة في الكلام، فقال لي: تدري أين أنت؟! قال: قلت نعم، أنا في المسجد الجامع بالفسطاط! فقال لي: أنت في تاران!! قال أبو القاسم: وتاران موضع في بحر القلزم لا يكاد تسلم منه سفينة، قال: ثم ألقىٰ عليَّ مسألة في الفقه، فأجبت فيها، فأدخل شيئا أفسد جوابي، فأجبت بغير ذلك، فأدخل شيئا أفسد جوابي، فجعلت كلما أجبت بشيء أفسده، قال: ثم قال لي: هذا الفقه الذي فيه الكتاب والسنة وأقاويل الناس يدخله مثل هذا، فكيف بالكلام في رب العالمين الذي الزلل فيه كفر؟ فتركت الكلام وأقبلت علىٰ الفقه.» اهـ[1].

وقال (ج ٦، رقم ١١٢٠): أخبرنا أبو الفضل الجارودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنا زكريا بن يحيىٰ، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: سمعت الحسين بن علي الكرابيسي يقول: «شهدت الشافعي ودخل عليه بشر المريسي، فقال لبشر: أخبرني عما تدعو إليه: أكتاب ناطق وفرض مفترض وسنة قائمة ووجدت عن السلف البحث فيه والسؤال؟ فقال بشر: لا، إلا أنه لا يسعنا خلافه، فقال الشافعي: أقررت بنفسك علىٰ الخطأ، فأين أنت عن الكلام في الفقه والأخبار؟ تواليك الناس عليه، وتترك هذا؟ قال:

---

(١) قلت: تأمل فقه الشافعي رحمه الله وثاقب بصره ووجازة حجته وذكائه في ضرب المثل، إذ بين أن وجه مذمة الكلام ماثل في أنه يفتح باب الرأي والجدال والأخذ والرد في قضايا هي في الأصل من البديهيات الضرورية أو من المغيبات المطلقة التي لا تعرف إلا بالسمع، أو من كليهما جميعا، فإذا به – أي المتكلم – يحيلها – تبعا لمن خاض معهم من الفلاسفة – إلى قضايا نظرية يرد عليها الخلاف والاختلاف، وهو ما لا يفضي بصاحبه في نهاية الأمر إلا إلى الزندقة والضياع، أو مفارقة سبيل السنة على أحسن الأحوال، إذ كلما قبض بيديه على ما يعده «حجة» و«برهانا» لإثبات أصول دينه الكبرى وترسخيها عند منزلة اليقين اللائقة بها في نفسه، أورد عليه الزنادقة والملاحدة من خصومه من الاعتراضات والإشكالات والسؤالات من كل مورد، فإذا به يرى نفسه مضطرا لتقليب النظر في كل ما يدفعه القوم بين يديه، مرة بعد مرة، فلا ينتهي أمره إلى شيء أبدا! وما ذاك إلا لأنه التزم منهجا نظريا يجيز – من الأساس، ومن أصل مفهومي العقل والمعرفة فيه – طرح تلك الأبواب للنظر العقلي! هذا هو بيت الداء ورأس الفساد في الكلام، وسبب نهي الأئمة عنه. فلله درّ الشافعي من إمام!

لنا نهمة فيه، فلما خرج بشر قال الشافعي: لا يفلح[1]!

وقال (ج٦، رقم ١١٣١): حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا علي بن القاسم الخطابي، حدثنا شعيب بن الليث السمرقندي بها، حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثني أبو عبد الرحمن محمد بن عبد العزيز الأشعري – صاحب الشافعي – قال: قال الشافعي: «مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط، وتشريدهم من البلاد» اهـ.

قلت: ولا تزال كل طائفة من أهل الكلام ممن ينسبون أنفسهم إلىٰ سلف الأمة وإلىٰ مذهب الإمام أحمد ﷺ كذبا وزورا، تزعم أن المراد بهذا الأثر غيرها من أهل الكلام ممن بدعوهم هم أو كفروهم! وأما أن يكون في مطلق الاشتغال بعلم الكلام، فهذا عندهم ممتنع ولا يمكن أن يكون هو مراد الإمام! لماذا؟ لأنهم عرفوا الكلام – تحكما – بأنه مطلق الدفاع عن عقائد المسلمين، وليس كذلك علىٰ الحقيقة، وإنما هو صنعة تأسيس المعرفة بوجود الباري جل شأنه (برهانيا وعقليا) علىٰ ما يرجىٰ أن يكون مستساغا عند فلاسفة العصر من طرق لإثبات حدوث العالم! ولهذا يقولون هو «علم يقتدر معه علىٰ إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»، فلو كان المراد بإثبات العقائد هنا إثباتها عن طريق السمع كما هي طريقة الصحابة ومن تبعهم بإحسان من أئمة

(١) قلت: ونحن كذلك نقول «لا يفلح»، لكل من غرق في طريقة الكلام يحاجج الملاحدة بها، فبات يتلذذ بذلك، يعجبه عقله وذكاؤه وما يظهر له ولأصحابه من تفوق وعلو على الخصوم عند المخاصمة والمناظرة، ويجد لذلك الأمر «نهمة» في نفسه، ثم إن سئل عما كان عليه السلف قال «لا أجد لطريقتي هذه سلفا، ولكن لا يسعنا خلافها»! فاليوم ترى الجهمي الإعجازي يقول لك: لغة العصر، وما عاد يسعنا أن ندعو أهل هذا الزمان إلى الإسلام إلا ببيان أن القرآن قد جاء بما يوافق «العلم الحديث» لا بما يخالفه! وترى الجهمي الدارويني يقول لك: أتريدون أن يتهم المسلمون بالجهل في عصر العلم، يقال لنا أنتم تنكرون الحقائق العلمية كحقيقة التطور (زعم)؟ بل لا يسعنا إلا أن نبين موافقة الإسلام للتطور وإلا ارتد الشباب وخرجوا من الملة! وترى الجهمي التصميمي يقول لك: لا يسعنا إلا إثبات التصميم الإلهي في الأنواع الحية من طريق نظريات البيولوجيين! أم تريدون أن ينتصر علينا الدراونة بأننا ليس لدينا بديل «علمي» معتبر لنظرية داروين في أصل الأنواع، وأننا من ثم يلزمنا قبولها؟ وترى الجهمي الكوزمولوجي يقول لك: لا يسعنا إلا إثبات حدوث العالم بالانفجار الكبير، إن أردنا إثبات صانعه على نحو لا يجد أهل هذا الزمان بدا من قبوله! أم تريدون أن يقال إننا لا نقيم للعلم الحديث وزنا؟

هؤلاء كلهم ومن شاكلهم، نفض منهم يديك وقل لهم كما قال الشافعي رحمه الله للمريسي: «لا يفلح»!

المسلمين، وكان المراد بدفع الشبه مجرد بيان بطلان ما عليه المخالفون لتلك العقائد بالأدلة السمعية والعقلية معا، كما سلكه أئمة أهل السنة رحمهم الله تعالىٰ، لكان هو علم العقيدة الذي نندب أذكياء المسلمين من صالحي أهل السنة للتخصص فيه! ولكن ليس هذا هو المراد علىٰ التحقيق، وإنما يريدون إثبات العقائد فلسفيا، أي علىٰ شرط الفلاسفة المعاصرين لهم فيما يحصل به الإثبات والنفي من أنواع «البراهين»! وأما الشبهات التي يدفعونها فإنما هي اعتراضات الخصوم علىٰ ما جاؤوا به من ذلك! هذه هي الحجج التي يتخصصون في إيرادها والشبهات التي يتخصصون في دفعها! وهذا هو السبب في كونه (أي الكلام) يحيل البدهيات الأولىٰ الفطرية التي يقوم عليها تسليم المسلمين بصحة دينهم، إلىٰ مسائل نظرية إذا أخطأ الإنسان فيها كفر، كما مر في كلام الأئمة رحمهم الله! فهم قوم تخصصوا في تأسيس المعرفة بوجود الباري نفسه جل شأنه، علىٰ براهين فلسفية مستندة علىٰ ميتافزيقا الفلاسفة المعاصرين لهم، أخذوا ما أخذوا منها ثم أسسوا عليه دعاوىٰ كلية زعموا أنها من قطعيات العقل (لأن براهينهم لا تقوم إلا علىٰ التسليم بها)، ثم أخذوا في تحرير الاعتقاد في صفات الباري وأفعاله (ما يجب له وما يجوز في حقه وما يمتنع) تأسيسا علىٰ تلك القطعيات المزعومة عندهم، التي بها تأولوا جميع النصوص ذات الصلة في الكتاب والسنة! فكيف لا يكون ذلك المنهج وتلك الطريقة مذمومين من أصل المبدأ نفسه؟

ولا التفات لقولهم إننا (أي سلفية هذا العصر) إنما نتابع في ذلك الإطلاق (أي في ذم الكلام) ابن تيمية الحراني رحمه الله، فإننا لم نستند في تلك الآثار التي سقناها إلىٰ شيء من كلامه البتة كما ترىٰ، وإنما بينا موطن الفساد في أصل منهجهم وطريقتهم، وأن هذا هو ما توجه إليه ذم السلف!

وإليك المزيد من آثارهم في ذم منهج الكلام وطريقته.

قال الهروي رحمه الله (ج ٦، رقم ١١٣٣): أخبرني طيب بن أحمد، أخبرنا محمد بن الحسين قال: سمعت علي بن عمر الدارقطني، سمعت علي بن عبد الله بن الفضل بن العباس البزاز بمصر يقول: سمعت القاسم بن سعيد الفقيه بالرصافة، حدثنا

أحمد بن خالد الخلال، سمعت الشافعي يقول: «ما ناظرت أحدا علمت أنه مقيم علىٰ بدعة»اهـ[1].

وقال (ج٦، رقم ١١٣٩): أخبرنا غالب بن علي، وطيب بن أحمد، قالا: أخبرنا محمد ابن الحسين، أخبرنا الحسن بن رشيق إجازة، حدثنا سعيد بن أحمد ابن زكريا اللخمي، حدثنا يونس بن عبد الأعلىٰ، سمعت الشافعي يقول: «إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمىٰ، والشيء غير الشيء، فاشهد عليه بالزندقة» اهـ[2].

(١) قلت: وهذا الأثر نهديه لمن يقولون إن من مذهب السلف مناظرة أهل الملل الشركية والملاحدة، فهل المقيم على البدعة أهون في هوى النفس والمراء بالباطل من المقيم على الإلحاد والشرك (بعدما بلغه أن في الأمم رجلا جاء يدعو الناس لتوحيد رب العالمين بالعبادة وحده)، حتى نناظره رجاء «إقناعه» بأن الشرك باطل والتوحيد حق؟ وهل يناظر أهل الكلام إلا أهل البدع أمثالهم، فضلا عن الفلاسفة والزنادقة والدهرية الغلاة؟ وهل يخاصمون إلا فيما لا يماري فيه عقلاء المسلمين؟ فأين أهل الكلام من منهج هذه الإمام؟

المشكلة أن بعض الناس أصبح لا يعلم طريقا للدعوة إلى الله تعالى إلا المناظرات والخصومات، بل ولا يرى الحجة تقوم على المخالفين من أهل الملل والفرق والطوائف والنحل وعموم أهل الأهواء إلا بعد المخاصمة والمناظرة على طريقة الجهمية، وإلى الله المشتكى!

(٢) قلت: والمقصود بالذم هنا كل من تكلم بالمجملات المهلكة التي يدخل منها أهل البدع على أهل الإسلام! وهي طريقة المتكلمين في جميع براهينهم وتعريفاتهم وحدودهم البدعية لا محالة كما بيناه في هذا الكتاب وغيره. فإنه ما تفلسف إنسان في الإلهيات والغيبيات برأيه إلا أتى بالمجملات التي تحيل البديهيات والضروريات إلى جدليات مشتبهات لا محالة! فأولئك الجهمية الذين قالوا الاسم غير المسمى (بهذا الإطلاق)، إنما أرادوا أن أسماء الله تعالى (التي هي من كلامه قطعا لأنه هو الذي سمى بها نفسه وعلمها لرسله) مخلوقة، وكذا عطلوا جميع الصفات، حتى لا «يتعدد القدماء» بحسب نظريتهم الفلسفية التي استعملوها في إثبات الصانع! لذا وجب المنع من إطلاق تلك العبارة، لأن في الإجمال فيها غطاء وجنة لأهل البدع كما ترى، وسائر براهين المتكلمين وتعاريفهم على تلك الشاكلة! وكذلك الذين قالوا الشيء غير الشيء، يجعلون في حدودهم الميتافزيقية المحدثة معنى آخر للفظتي «شيء» و«لا شيء» بخلاف ما جرى عليه استعمال أهل اللسان، فهؤلاء ضلال يفسدون اللغة واللسان من أجل تقرير نظرياتهم!

وفي جميع الأحوال فالأصل عند جميع الأئمة رحمهم الله تعالى أن ينظر في كل مسألة تطرح فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته وعامة أصول الملة، هل تكلم السلف فيها أم لا؟ فإن أمسكوا وجب الإمساك على من بعدهم، وشُدد على ذلك تشديدا، ولم يجز الكلام إلا لضرورة النقض على ما أحدثه أهل الأهواء فيها، صيانة لدين المسلمين واعتقادهم. قال الإمام إبراهيم بن إسحاق الحربي رحمه الله (ت. ٢٨٥ هـ) فيما نقله عنه الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء (ج١٣، ص. ٣٦١) عندما سئل في مسألة الاسم والمسمى: «قد كنت وعدتكم أن أملي عليكم في الاسم والمسمى، ثم نظرت فإذا لم يتقدمني في الكلام فيها إمام يقتدى به، فرأيت الكلام فيه بدعة».

وقال (ج. ٦، رقم ١١٤٤): أخبرنا الجارودي، أخبرنا أبو إسحاق القراب، حدثنا أبو يحيىٰ الساجي، حدثني أبو داود، حدثنا أبو ثور، قال: «قلت للشافعي: ضع في الكلام شيئا[١]، فقال: من ارتدىٰ بالكلام لم يفلح». اهـ. وقال رحمه الله (ج ٦، رقم ١١٦٠): أخبرني طيب بن أحمد، أخبرنا محمد بن الحسين، أخبرنا علي بن عمر الرازي، أخبرنا ابن أبي حاتم، سمعت الربيع قال: قال لي الشافعي: «لو أردت أن أضع علىٰ كل مخالف كتابا كبيرا لفعلت، ولكن ليس الكلام من شأني، ولا أحب أن ينسب إلي منه شيء». اهـ.[٢]

---

(١) أي: ألف فيه كتابا أو نحوه.

(٢) وفي هذا جواب لمن يزعمون أن السلف كانوا ينهون عن الكلام أشد النهي لأنه كان يجاوز عقولهم أو لأنهم كانوا لا يقدرون على ما فيه من نظر عقلي وفلسفي دقيق، حتى قال المفتونون من الخلف: السلف أسلم ونحن أعلم وأحكم، وقال بعضهم: لو عرف الأولون ما عرفنا من أحوال الفلاسفة لردوا عليهم كما رددنا، ولتعلموا من ذلك ما تعلمنا، وقال آخرون: لا يرَد على المتفلسف إلا بالفلسفة، ولا على المتكلم إلا بالكلام، كما لا يرد على الغالط في الطب إلا بعلم الطب وفي الهندسة بالهندسة!

وهذا ولا شك قياس فاسد، لأنه عندما يكون المجال العلمي النظري الذي ينتحله المخالف ويتفنن في النظر بطرائقه مجالا فاسدا في أصله ومنهجه (إذ يطرح للنظر ما لا متسع فيه للنظر أصلا)، لم يكن من الحكمة ولا من العلم ولا من مقتضى بيان بطلان الباطل أن يُلتزم بأدوات ومسالك ذلك المجال النظري الفاسد نفسه في الرد على أصحابه، وإنما يبين للناس فساد تلك الصنعة النظرية وتلك المسالك الحجاجية نفسها، مع زجرهم عنها وصدهم عن أصحابها بكل حزم! أرأيت لو أن رجلا جاء يزعم أن التقاء كوكب كذا وكوكب كذا في برج كذا (مثلا) قد دله على أن ملكا من الملوك سيموت غدا، فخرج من يرد عليه كذبه وتخرصه ذاك بأن قال إن التقاء هذين الكوكبين ليس دليلا على ما تذهب أنت إليه وإنما يدل على كذا وكذا، أيكون بذلك قد أثبت بطلان ما عليه ذلك الكاهن العراف وبينه كما هو حقه أن يبين؟ أبدا! بل اقتضى كلامه إقرار وترسيخ أصل الفساد في مصادر تلقي المعرفة والاستدلال عند أصحاب تلك الصنعة، وكذلك يقال هنا!

عندما يأتي المتكلم على قضايا لا متسع فيها للنظر العقلي (لا على طريقة أرسطو ولا غيرها من طرق النظر) إما لكونها من ضرورات العقل وبديهيات الفطرة التي لا يطلب العلم بها عاقل ولا تخفى على إنسان سوي، أو من الغيبيات المحضة التي لا يطلب العلم بها إلا من النص الشرعي على ما فهمه عليه تلامذة الرسول عليه السلام، ثم تراه يتفنن في ضرب البراهين الفلسفية والمنطقية لإثبات تلك القضايا (انتصارا لها) أو نفيها (انتصارا لبدعته)، فلا يجاب عن مخالفته إن خالف فيما انتهى إليه من ثمرة ذاك النظر بما يوحي بتصحيحنا ذلك المسلك النظري نفسه ويقتضي إقرار صاحبه عليه! فالآفة ليست في غلط حصل في استعمال هذا الدليل بعينه، وإنما هي في فساد المنهج النظري الاستدلالي نفسه من الأساس! الآفة ليست في مسألة معينة من مسائل الكلام وإنما هي في نفس علم الكلام، في منهج النظر الكلامي!

قلت: فالإمام رحمه الله كان يكره أن يصنف في الرد علىٰ المخالفين من الفلاسفة والمتكلمين وأن يشتغل بذلك، حتىٰ لا يتذرع جاهل بذلك إلىٰ أن ينسبه إلىٰ الكلام وإلىٰ الاشتغال بالكلام، فتأمل دقة مأخذه، وشدة حرصه علىٰ السلامة له ولتلامذته من تلك التهمة، عليه رحمة الله ورضوانه!

وقال الهروي (ج٦، رقم ١١٦٣): أخبرني طيب بن أحمد، أخبرنا محمد بن الحسين، أخبرنا علي بن عبد العزيز بن مردك البرذعي الزاهد ببغداد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: قال بعض أصحاب الشافعي: «حضرت الشافعي وكلمه رجل في مسجد الجامع في مسألة، فطالت مناظرته له، فخرج الرجل إلىٰ شيء من الكلام، فقال له: دع هذا، فإن هذا من الكلام» اهـ.(١)

وقال (ج ٦، رقم ١١٧١): أخبرني طيب بن أحمد، أخبرنا محمد بن الحسين قال: كتب إلي أبو أحمد بن سعيد العسكري، سمعت أبا بكر الرفا، سمعت محمد بن عيسىٰ السلمي، سمعت أحمد بن الوزير القاضي قال: «قلت لأبي عمر الضرير: الرجل يتعلم شيئا من الكلام يرد به علىٰ أهل الجهل، فقال: الكلام كله جهل! وإنك كلما كنت بالجهل أعلم كنت بالعلم أجهل» اهـ. قلت: أي كلما حشوت صدرك بالكلام خرج منه العلم الحق الذي به نجاة الخلق يوم الحساب! وهذا صريح في أن الذم متجه إلىٰ طريقة الكلام كلها، لا إلىٰ مذهب دون مذهب، أو طائفة من طوائف المتكلمين دون طائفة!

ولهذا قال الإمام السفاريني الحنبلي رحمه الله في كتابه «لوامع الأنوار البهية» بعدما ذكر سوء منقلب المتكلمين وهلاكهم بالشك والزندقة:

---

(١) قلت: وهو ما يدلك على أن منع الشافعي من الكلام إنما هو منع منهجي مسلكي، وليس منعا لبعض آحاد المسائل والمصطلحات في علم الكلام، لأنه لا يتصور أن تكون المناظرة نفسها في مسألة من مسائل الكلام إذ المتقرر أنه رحمه الله لم يكن يناظر في مسائل الكلام ولا يقبل ذلك من طالبه كما مر معك! وإنما أنكر على الرجل استعانته بطريقة المتكلمين في مناظرتهما، مع كونها في غير مسائل المتكلمين، ووجهه إلى ترك ذلك. والظاهر أن الرجل تكلف الرد على نص ثابت صحيح بالنظر على طريقة المتكلمين والمناطقة وأصحاب العقليات، والله أعلم.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانَ عِلْمُ الْكَلَامِ بِالْمَثَابَةِ الَّتِي ذَكَرتَ، وَالْمَكَانَةِ الَّتِي عَنْهَا بَرْهَنْتَ، فَكَيْفَ سَاغَ لِلْأَئِمَّةِ الْخَوْضُ فِيهِ، وَالتَّنْقِيبُ عَمَّا يَحْتَوِيهِ؟ ثُمَّ إِنَّكَ أَتَيْتَ مَا عَنْهُ نَهَيْتَ، وَحَرَّرْتَ مَا عَنْهُ نَفَّرْتَ، وَهَلْ هَذَا فِي بَادِئِ الرَّأْيِ إِلَّا مُدَافَعَةٌ، وَجَمْعٌ لِلشَّيْئَيْنِ اللَّذَيْنِ بَيْنَهُمَا تَمَامُ الْمُمَانَعَةِ، قُلْتُ: إِنَّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ وَهَلَكَ مِنَ التَّمَانُعِ لَمُمْتَنِعٌ، وَمَا سَنَحَ فِي خَلَدِكَ مِنَ التَّدَافُعِ لَمُنْدَفِعٌ، بَلِ الْعِلْمُ الَّذِي نَهَيْنَا عَنْهُ غَيْرُ الَّذِي أَلَّفْنَا فِيهِ. وَالْكَلَامُ الَّذِي حَذَّرْنَا مِنْهُ غَيْرُ الَّذِي صَنَّفَ فِيهِ كُلُّ إِمَامٍ وَحَافِظٍ وَفَقِيهٍ. فَعِلْمُ الْكَلَامِ الَّذِي نَهَىٰ عَنْهُ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ هُوَ الْعِلْمُ الْمَشْحُونُ بِالْفَلْسَفَةِ وَالتَّأْوِيلِ، وَالْإِلْحَادِ وَالْأَبَاطِيلِ، وَصَرْفِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ عَنْ مَعَانِيهَا الظَّاهِرَةِ، وَالْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ عَنْ حَقَائِقِهَا الْبَاهِرَةِ، دُونَ عِلْمِ السَّلَفِ وَمَذْهَبِ الْأَثَرِ، وَمَا جَاءَ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ وَصَحِيحِ الْخَبَرِ، فَهَذَا لَعَمْرِي تِرْيَاقُ الْقُلُوبِ الْمَلْسُوعَةِ بِأَرَاقِمِ الشُّبُهَاتِ، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ الْمَصْدُوعَةِ بِتَرَاجِمِ الْمُحْدَثَاتِ، وَدَوَاءُ الدَّاءِ الْعُضَالِ، وَبَازْهَرُ السُّمِّ الْقَتَّالِ، فَهُوَ فَرْضُ عَيْنٍ، أَوْ عَيْنُ فَرْضٍ عَلَىٰ كُلِّ نَبِيهٍ، وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي تَعْقِدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ لِدَحْضِ حُجَّةِ كُلِّ مُتَحَذْلِقٍ وَسَفِيهٍ. فَزَالَ هَذَا الْإِشْكَالُ، واللهُ وَلِيُّ الْإِفْضَالِ.[1]

قلت: صدق رحمه الله في التفريق بين العلمين، العلم المذموم والعلم المحمود، وبيان أن المذموم علم له منهجه وطرقه، وليست مجرد أقوال ومذاهب مفردة تنتحلها بعض الطوائف التي استحقت الذمّ من أجلها. وإنما يأتي الاشتباه بين العلمين من تسميتهما جميعا باسم واحد (علم الكلام/ علم التوحيد)، وهذا ما لا يصح بحال، والله المستعان[2].

(١) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، ج ١، ص ١١٠-١١١.

(٢) والذي يظهر أن السفاريني كان مضطربا في تعريف علم الكلام وتعيين القدر المذموم منه، إذ تجده في موضع يقول: «وَعِلْمُ الْكَلَامِ هُوَ عِلْمٌ يُقْتَدَرُ مَعَهُ عَلَى إِثْبَاتِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ أَيِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى دِينِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مُطَابِقَةً لِلْوَاقِعِ» (لوامع الأنوار البهية ج١، ص. ٤)، وهو ما يجعله علما واجب التعلم على كل من أراد تلقي العقيدة والتوحيد، لأن تحقيق العلم بالعقيدة (أو بأي مادة من مواد العلوم أيا ما كان موضوعها) إنما مداره على معرفة الإثبات والدليل، لأن العلم ما طابق الواقع بدليل! فإن كان علم الكلام هو العلم الذي يقتدر معه على إثبات العقائد وإقامة الدليل عليها (كما عرَّفه المتكلمة على عادتهم في التعريفات شديدة الإجمال)، لزم ألا يجوز تعلم العقيدة والتوحيد إلا من طريق علم الكلام، لأنه على هذا التعريف، لا يُقام الدليل على صحة الاعتقاد إلا به! وهذا من كلام المتكلمين في الحقيقة لا من كلام أهل السنة!

فواقع الأمر أنهما علمان يختلفان في مصادر التلقي اختلافا جذريا، فعلم الكلام

ولكن في نفس هذا المتن «لوامع الأنوار البهية» تراه رحمه الله يقرر أن علم الكلام إنما هو العلم المستعان بقواعده في دفع شبهات الخصوم واعتراضاتهم العقلية على أصول العقيدة، وليس في تلقي العلم بتلك الأصول نفسها، لأن هذا لا طريق له إلا الكتاب والسنة! فتراه يقول في موضع آخر من نفس الكتاب «لوامع الأنوار البهية» (ج١، ص ٥):

«مما ينبغي أن يعلم أن القواعد الكلامية ما رتبت هذا الترتيب، وبوبت هذا التبويب لتؤخذ منها الاعتقادات الإسلامية والقواعد الدينية، بل المقصود منها ليس إلا دفع شبه الخصوم، ودحض نهج أهل البدع والضلال، فإنهم طعنوا في بعض منها بأنه غير معقول، فبين علماء السنة بأن زعمهم على غاية من الغلط والذهول، فإن الأنبياء تأتي بمحارات العقول لا بمحالها، ثم بين لهم علماء السنة بالقواعد الكلامية معقولية ما أنكروا، وزيفوا عليهم من بدعهم الفظيعة ونزعاتهم الشنيعة ما ابتكروا، وإنما أخذ أهل (السنة) الاعتقادات، واعتمدوا من المعتقدات، على ما جاءت به النصوص الصريحة، والأخبار الصحيحة، ودرج عليه سلف الأمة، ونهج إليه أعلام الأئمة، من الرعيل الأول ومن عليهم دون سواهم المعول.»

ومن قبلها تراه يقول في نفس الكتاب:

«وَمَوْضُوعُهُ: هُوَ الْمَعْلُومُ مِنْ حَيْثُ يَتَعَلَّقُ به إِثْبَاتُ الْعَقَائد الدِّينِيَّة، إِذْ مَوْضُوعُ كُلِّ علْم مَا يُبْحَثُ في ذَلكَ الْعلْم عَنْ عَوارضه الذَّاتيَّة، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يُبْحَثُ في هَذَا الْعلْم عَنْ أَحْوال الصَّنائع، منَ الْقدَم وَالْوُحْدَة، وَالْقُدْرَة وَالْإرَادَة وَغَيْرهَا ليُعْتَقَدَ ثُبُوتُهَا لَهُ تَعَالَى، وَأَحْوال الْجسْمَ وَالْعَرَض منَ الْحُدُوث وَالافْتقَارَ وَالتَّرْكيب منَ الْأَجْزَاء، وَقَبُول الْفَنَاء وَنَحْو ذَلكَ ليُثْبَتَ للصَّانع مَا ذُكرَ ممَّا هُوَ عَقيدَةٌ إسْلَاميَّةٌ، أَوْ وَسيلَةٌ إلَيْهَا. وَكُلُّ هَذَا بَحْثٌ عَنْ أَحْوالِ الْمَعْلُوم كَإِثْبَاتِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ، وَهَذَا أَوْلَى مِنْ زَعْمِ أَنَّ مَوْضُوعَهُ ذَاتُ اللهَّ – تَعَالَى وَتَقَدَّسَ – لِلْبَحْثِ عَنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ».

قلت: الزعم بأن موضوعه ذات الله والبحث في صفاته وأفعاله، هو نفسه الزعم بأن موضوعه «أحوال الصنائع من القدم والوحدة والقدرة والإرادة ... الخ»، لأن هذه هي مصطلحات وأدوات الفلاسفة في البحث النظري «الميتافزيقي» في صفات الله وأفعاله أصلا! فكيف يكون أحد الزعمين عنده رحمه الله أولى من الآخر؟ ثم كيف نجمع بين هذا الكلام الذي يظهر منه قبول مطلق التقعيد الكلامي بغرض الذب عن أصول الملة ودفع شبه الخصوم (كما يتعلق به عامة المتكلمين من غاية ومقصد لتلك الصنعة)، وبين قوله «فَعلْمُ الْكَلَام الَّذ نَهَى عَنْهُ أَئمَّةُ الْإسْلَام هُوَ الْعلْمُ الْمَشْحُونُ بالْفَلْسَفَة وَالتَّأْويل .. الخ»، إلا أن يكون المنهي عنه في نظره إنما هو بعض الأقوال والتأويلات المندرجة تحت علم الكلام، وليس الصنعة العلمية نفسها التي يقال لها «علم الكلام»؟ وهل يُتصور «كلام» لا يجري على قواعد النظر الفلسفي (كما يظهر لك من بيانه رحمه الله لموضوع العلم نفسه في النقل الآنف)، مع كون غايته ومقصوده: إثبات العقائد الغيبية بالنظر العقلي المجرد؟ هذا محال! علم الكلام لم يوضع – بالأساس – إلا للرد على الفلاسفة التزاما بما جعلوه (أي الفلاسفة المردود عليهم) هو شرط العقل ومفهومه، ألا وهو مبدأ التنظير الميتافزيقي عندهم في حال العالم ومادته وما يتركب منه وما كان من شأنه وما هو كائن من أمره وما يجوز عليه وما لا يجوز .. إلخ! فمن أراد أن يحرر موقف السلف رضي الله عنهم من ذلك العلم تحريرا واضحا مطابقا لواقع الحال، فعليه أن يبين أن هذا الموضوع نفسه (إثبات العقائد الغيبية بالنظر العقلي، فيما يتعلق بصفات الله جل وعلا) هو ما ذمه السلف ونهوا عن الاشتغال به، سواء للدفاع عن الدين أو للتأصيل في عقائده أو لأي غاية من غايات أصحابه التي تكلفوه من أجلها!

المذموم يقيم النص الشرعي علىٰ نظريات فلسفية في إثبات حدوث العالم ووجود الخالق وهذه الأشياء التي تكلفوها في الرد علىٰ الفلاسفة، فهي مصدر التلقي الأول للعقائد عندهم علىٰ الحقيقة، وهي ما يسمونه بـ«الأدلة اليقينية» و«القواطع العقلية» علىٰ التحقيق، بخلاف علم التوحيد أو علم الاعتقاد الذي ألف فيه الأئمة والعلماء من أهل السنة والأثر قديما وحديثا متون السنة وأصول السنة، فجمعوا فيها ما استطاعوا من النصوص الأثرية المسندة التي استند إليها السلف لا إلىٰ غيرها في الإثبات والنفي في تلك الأبواب، فجعلوا عقولهم فيها تبعا للنص لا العكس. أي أنه إذا كان علماء السنة والعقيدة السلفية يتخذون من الكتاب والسنة وفهم السلف مصفاة لقبول أقوال الفلاسفة وردها أيا ما كان موضوعها، إذا عرضت عليهم، فإن علماء الكلام يتخذون من ثلة من نظريات الفلاسفة الأكاديميين المعاصرين لهم، المعتمدة عندهم، مصفاة للقبول والرد والتأويل في النصوص الشرعية، ثم يتخذون من ذلك أساسا للقبول والرد في غير ذلك من آحاد النظريات والأقوال، وهم يزعمون مع ذلك أنهم قد جعلوا من الشرع شرطا لنظرهم العقلي!

وإلا فبأي عقل يسوىٰ بين كتاب «السنة» للإمام أحمد أو السنة الإمام الخلال وكتاب الأصول الثلاثة لابن عبد الوهاب ونحوها من جانب، وكتاب شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار والمنهاج في أصول الدين للزمخشري والعدل والتوحيد للقاسم الرسي ونحو ذلك من الجانب الآخر، يقال إنها جميعها كتب في «علم التوحيد»؟ معاذ الله أن يسوىٰ بين الثرىٰ والثريا! بل هما علمان منفصلان بالكلية، علم التوحيد وعلم الكلام، أحدهما متلقىٰ من نور الوحي ومشكاة النبوة، والآخر متلقىٰ من زبالة العقول وفلسفة أرسطو! أحدهما علم بحق، والثاني جهل بحق، فلا يزداد المرء حشوا لصدره بالكلام إلا انطفأ فيه نور العلم بالسنة وانسلخ منه انسلاخا!

والمتكلمون يزعمون أن علمهم يقوم علىٰ الأدلة اليقينية دون الظنية، وهم في الحقيقة عاجزون عن التزام ذلك الشرط الباطل في إثبات العقائد مهما حاولوا! ومهما زعموا أن «براهينهم» وحججهم تحقق اليقين فهم واهمون، وإنما يتحقق اليقين من التسليم بما جاء في الكتاب والسنة وأصاب فطرة العقلاء النقية السوية بلا تكلف ولا

تنطع! ذلك أن نظرياتهم تلك لو كانت من القطع الضروري في العقول حقا كما زعموا، ما تكلفوا إثباتها أصلا وما احتاجوا إلىٰ ذلك، لأن العقلاء الأسوياء لا يفتقرون إلىٰ من يثبت لهم ما تنطق به فطرهم من ضرورات العقل!

وأي يقين يأتي لمن يريد أن يقنع مكابرا جاحدا يزعم جهله بما يدعوه لاعتقاد أنه مخلوق مربوب، مطالب بعبادة ربه الذي خلقه وحده لا شريك له؟ لا يقين ولا شيء! ولولا أنهم (أي المتكلمين) تكلفوا ذلك النظر المذموم ما تقلبوا في أصول دينهم كما يتقلب النظار في مجاري النظر من مسائل العلوم، بين الأقوال الظنية والنظريات التي تتكافأ أدلتها وتتنازعها الظنون، وما اختلفوا عليها حتىٰ انقسموا إلىٰ عشرات النحل والفرق، حتىٰ إنك لا تكاد تجمع ثلاثة منهم في غرفة واحدة ليتخاصموا ويتحاوروا، إلا خرج كل واحد منهم بدين غير الذي دخل به، نسأل الله السلامة!

فهم في الحقيقة قوم أجازوا النظر الفلسفي في البديهيات الأولىٰ والحقائق الفطرية الكبرىٰ (أعني قضية وجود الباري جل وعلا وحدوث العالم) تبعا للفلاسفة الذين جادلوهم فيها، ثم لما انتبهوا إلىٰ فداحة ما صنعوا، وإلىٰ انفتاح باب الظن والوهم والخرافة في تلك البديهيات الضرورية علىٰ أوسعه بسبب صنيعهم ذاك، زين لهم الشيطان الظن بأن علاج ذلك هو أن ينسبوا القطعية واليقينية والبداهة إلىٰ براهينهم النظرية نفسها وإلىٰ بضاعتهم التي أنتجتها أنظارهم في جدالهم مع الدهرية والملاحدة، وهو تناقض منهم وتحكم باطل ولا شك! ثم لما وقعوا بتلك البراهين النظرية التي تكلفوها وما فرعوه عليها من قواعد اعتقادية في مصادمة كثير من النصوص التي كانوا من قبل يقبلونها (نوعا) من غير ما تنطع ولا تكلف، لاستيفائها شروطا قد أجمع أهل صنعة الحديث علىٰ كفايتها في القبول والرد من زمان التابعين، لم يجدوا مخرجا إلا ابتداع قاعدة جديدة مفادها الاقتصار علىٰ قطعي الثبوت دون الظني عند الاستدلال لإثبات العقائد، لأن أكثر ما كرهوه من نصوص تخالف تنظيرهم (أعني في باب الصفات)، يوصف (علىٰ مفهومهم للظنية) بأنه ظني الثبوت وليس قطعيا! فمن تبين له اعوجاج منهج هؤلاء ومسلكهم في إثبات العقائد، أصلا وفرعا، تبين له عظم ما في

قاعدتهم تلك من تلبيس، وتبين له - كذلك - فساد إطلاق تعريف علم الكلام علىٰ هذا النحو!

نعم لا شك أن القطعي مقدم علىٰ الظني عند التعارض، ولكن ما مفهومك أنت أيها المتكلم للقطعي والظني ومن أين جئت به، وعلىٰ أي أساس أقمت قواعدك ونظرياتك فيه؟ من تأمل في رد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله علىٰ قاعدة الرازي واستدراكه عليها في «درء التعارض»، أدرك خطورة هذا السؤال، وفهم من فوره ما نرمي إليه، وفهم ما يقصده أهل السنة عندما يتهمون الأشاعرة والمعتزلة والجهمية ونحوهم بتقديم العقل علىٰ النقل، كما بينه شيخ الإسلام رحمه الله وأجاد في بيانه. فإن الفساد - كل الفساد - في علم الكلام يرجع إلىٰ سلوك أصحابه مسالك الفلاسفة في العقائد مع صبغهم تلك المسالك النظرية المتكلفة شديدة التكلف (وما وقع لديهم فيها من إجمال فاحش وما جنوه من ثمرته الخبيثة) بصبغة الضرورة العقلية (ولا عجب، بالنظر إلىٰ علو طبقة الأسئلة التي ضربها الفلاسفة جدلا وسفسطة، وأبىٰ هؤلاء إلا أن يتصدروا بالخوض معهم فيها علىٰ طريقة الخصم وشرطه المعرفي، مع قيام الرسالات والنبوات كلها علىٰ الموقف الحق فيها!)!

لذا كان من أعظم التلبيس عند الجهمية والمعتزلة وغيرهم من فرق المتكلمين قولهم إن «العقل» (بهذا الإجمال) يجب أن يكون مقدما علىٰ النقل لأنه هو طريق المكلفين لفهم النقل بالأساس! هذا قول حق يراد به باطل. فصحيح إن المكلف لا يفهم النص إلا من طريق «العقل»، ولكن أي عقل؟ أهو العقل السوي الصحيح نقي الفطرة السالم من الشبهات والأهواء، الذي يفهم النقل بمجرد سماعه علىٰ لسان التنزيل فهما سويا لا عوج فيه، أم هو العقل الفلسفي الكلامي الذي راح أصحابه يتكلفون صياغة البراهين النظرية لإثبات أنهم مخلوقون وأن العالم من حولهم حادث مخلوق، ثم راح يتكلف التنظير في الأسماء والصفات وغيرها من أصول الملة تأسيسا علىٰ تلك البراهين، يزعم أن «العقل» (هكذا) يقتضي تناول النصوص علىٰ نحو كذا وكذا؟ لا شك أن مرادهم العقل الثاني، العقل الفلسفي الأرسطي، لا العقل الفطري السليم النقي الذي يولد به بنو آدم ولا

يفتقرون معه إلىٰ «النظر» في وجود من صنعهم! ولولا أن كان مرادهم العقل الفلسفي المريض، لا العقل الآدمي السوي، ما قعّدوا تلك القاعدة أصلا (أعني تقديم العقل علىٰ النقل) لأن مقصودهم في الحقيقة ليس ما تجري به سليقة العقلاء في فهم الخطاب الشرعي (وهو تطبيق العقلاء لقواعد اللغة بصورة تلقائية فطرية)، وإنما يقصدون تقديم تلك البراهين الكلامية المتكلفة عندهم علىٰ وجود الصانع، التي جعلوها شرطا لصحة الإيمان أو لكماله (علىٰ اختلاف بين طوائفهم)، ثم تأويل النصوص كلها تبعا لها ولما تفرع عليها من نظريات صبغوها كلها بصبغة الضرورة العقلية زورا وبهتانا وكذبا علىٰ العقل نفسه، ثم راحوا يكفَر بعضهم بعضا بمخالفتها بعدما جعلوها (أي تلك النظريات) أصل أصول الملة وركن أركان الدين!

قال الرازي في قانونه المشهور الذي حرره في «تأسيس التقديس» ونقده ابن تيمية في «نقض التأسيس»:

> وإما أن نصدق الظواهر النقلية ونكذب الدلائل العقلية، وذلك باطل؛ لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية. إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع، وصفاته، وكيفية دلالة المعجزة علىٰ صدق الرسول، وظهور المعجزات علىٰ يد محمد ﷺ، ولو ساغ القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهما غير مقبول القول، ولو كان كذلك لخرج عن أن يكون مقبول القول في هذه الأصول. وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة. فثبت أن القدح في العقل لتصحيح النقل يفضي إلىٰ القدح في العقل والنقل معا. وإنه باطل.

قلت: فهنا يظهر محل التلبيس في مفهوم «العقل» عندهم، إذ يقول الرازي «لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع، وصفاته .. الخ»! ولا شك أن هذا كذب علىٰ العقل والفطرة، وله لوازم تنتهي بتجهيل الأنبياء والمرسلين وأتباعهم بمفاهيم الوحي الذي أنزله الله عليهم، إذ معلوم أنهم لم يتكلفوا النظر لإثبات الصانع (معرفته) بالدلائل «العقلية» ولا بغيرها، حتىٰ يرتبوا علومهم ومعارفهم بالنص ومفاهيمه علىٰ ذلك النظر كما صنع هؤلاء! فهذا الكلام للرازي إنما هو تقرير لشرط الفلاسفة الميتافزيقيين في تأسيس الدين معرفيا! تأتيهم

الرسل والأنبياء وأتباعهم بخطاب الوحي يدعوهم للإيمان، فيقولوا: أتريدنا، ونحن من نحن، أن نؤمن إيمان السفهاء العوام؟ أبدا! بل يجب عليكم أنتم أن تأتونا أولا بالدليل العقلي القاطع علىٰ وجود من أرسل رسولكم هذا بالغيب من الأساس، إن أردتم منا أن نشهد له بالرسالة، ونخضع له رقابنا كما أخضعتم أنتم رقابكم! بذلك تصطنع تلك النفس المستكبرة ذريعة تسويغية Rationalization Trick توهم بها صاحبها بأن العقل وكماله يقضي بأن يبدأ كل طالب للإيمان بما تزعم الرسل أنها قد جاءت به من رب العالمين، بتقديم البرهان النظري المقبول فلسفيا (أي من نوع البراهين التي يستعملونها هم في هذيانهم فيما بينهم في الغيبيات وما فيها) علىٰ وجود ذلك الرب بالغيب من الأساس! مع أنهم هم الأحق باسم السفاهة بذلك لو كانوا يعقلون! إذ ثبوت الباري في معارف البشر أمر جبلي فطري يولد به الصبية الصغار، ولا يتكلفون شيئا لتحصيله! وآفة أهل الكلام أنهم بدلا من أن يحسموا أمرهم بالقرع علىٰ رؤوس أولئك المستكبرين بما هم أهله، ويرفضوا الاستدراج إلىٰ تلك الحمأة العفنة، وإلىٰ ذلك السفه المبين، سلموا لأولئك المجرمين بشرطهم في طريق المعرفة وسببها في مسألة وجود الباري جل شأنه، حتىٰ قال قائلهم بجعل وجوب النظر في حدوث العالم ووجود من صنعه، أول واجبات المكلفين، وإلىٰ الله المشتكىٰ!

فبالتأمل يتحقق لك أن «العقل» عند الرازي إنما هو كل ما يبدأ صاحبه بناء دينه واعتقاده وإيمانه في نفسه بالبحث عن الأدلة النظرية الفلسفية (التي يسمونها بـ«العقلية» جريا علىٰ طريقة أسلافهم من فلاسفة اليونان) علىٰ وجود الصانع! فهو في الحقيقة إنما هو عقل المتكلم الناظر في البدهيات المستدل - تشبعا بطريقة فلاسفة اليونان - لإثبات الفطريات الأولىٰ ببراهين نظرية يجعلها الرازي وغيره من المتكلمين هي ولوازمها ومقتضياتها المجملة المشتبهة من «ضروريات العقل» و«قطعياته»، ثم يرجع ليدافع عن ذلك «العقل» ويقرر أن القدح فيه وفي براهينه (القطعية بزعمه) يفضي إلىٰ القدح في النقل وإسقاط دلالته بالجملة، ولا عجب، لأنه أقام الدين كله والإيمان كله علىٰ تلك البراهين التي جاء بها في سياق المخاصمة الفلسفية، خضوعا لشرط الخصم بدعوىٰ التنزل!

فما الـذي يصنعه المتكلم في الحقيقة عندما يتكلف أن يبين لمخالفيه من المتكلمين (أيضا) «معقولية» ما طعنوا عليه من العقائد بـ«قواعدهم الكلامية»، مستعملا تلك القواعد نفسها؟ إنه نظير ما يصنعه المتكلم عندما يتكلف بيان «معقولية» ما طعن عليه الفلاسفة من العقائد باستعمال قواعد وحدود الفلسفة، مستعملا في ذلك تلك القواعد والحدود الفلسفية نفسها! فأين الخلل في ذلك؟ الآفة في التزام قواعد وحدود ومسالك الفلاسفة والمتكلمين (إجمالا). الخلل ماثل في إظهار التسليم لهم (أعني الفلاسفة والمتكلمين) بأن إعمال ما اخترعوه من قواعد وحدود (نوعا) هو شرط إدراك «المعقولية»، معرفيا، فيما طعنوا عليه من عقائدنا!

فنحن نزعم أن علم الكلام ما استحق الذمّ والإلحاق بالفلسفة (حكما) عند السلف إلا من هذا! هذا الالتزام يفضي - لا محالة - إلىٰ اختلاط النقض (الذي زعموا أنه مقصودهم من الرد بهذه الطريقة علىٰ الفلاسفة) بالتأسيس (وأعني بناء العقائد أصولا وفروعا، أو «إثباتها» علىٰ اصطلاحهم)، لذا تراهم يجنحون إلىٰ إحداث القواعد (العقلية) الكلية التي تتفرع عنها المفاهيم الفرعية في الاعتقاد الغيبي إجمالا وتفصيلا، بما يترتب عليه قيام مواقف الواحد منهم من آحاد النصوص الاعتقادية (سواء في القبول والرد أو في الاستدلال والتأويل) علىٰ أساس ما تحرر لديه من عقائد فلسفية انفصل عنها من ذلك الجدال الطويل مع الخصم الدهري الملحد الذي لا يقيم وزنا لنصوص المسلمين ولا لكثير من بداهات العقل الأولىٰ وضرورياته أصلا!

فعلىٰ سبيل المثل، من الذي فرض علينا أن نسلم للفيلسوف بمفهومه وحدّه «للمكان»، حتىٰ نؤسس علىٰ ذلك مفهومنا «للداخل» و«الخارج» ثم علىٰ أساسه نقيم برهانا «عقليا» نثبت به صحة وصف الله تعالىٰ بأنه «خارج» العالم، لا أنه «لا داخله ولا خارجه» كما زعمه بعض المتكلمين تأسيسا علىٰ تلك الحدود؟ من الذي يلزمنا بتأسيس عقيدتنا في علو ربنا علىٰ هذه المقدمة أصلا؟ لفظة المكان والخارج والداخل والجهة ونحوها، هذه كلها ألفاظ لها معانيها اللغوية الواضحة التي لا يختلف عليها أهل اللسان، فلا يلزمنا قبول ما زعموه في «تعاريفها» حتىٰ نلتزم بما أسسوه علىٰ تلك

التعاريف! فنحن نعتقد أن الله تعالىٰ في السماء، فوق عرشه وجميع خلقه، والمعنىٰ ولله الحمد معقول واضح علىٰ مقتضىٰ لسان العرب بلا لبس ولا اشتباه ولا سؤال عن الكيف والحقيقة! فإن كان هذا المعنىٰ الواضح هو مقصود من يثبتون الجهة والمكان لله (علىٰ المعنىٰ اللغوي الصريح الذي لا يحتاج إلىٰ تكلف شرح أو تأويل) فنحن معهم، ومستندنا في ذلك الكتاب والسنة والإجماع، وإلا فلا هم منا ولا نحن منهم[1]، لهم دينهم ولنا دين، وانتهت القضية! أما أن نتكلف استعمال «قواعدهم الكلامية» (أو غيرها من صور التقعيد الفلسفي المتنطع الذي يوضح الواضحات أو يعرف ما لا حاجة لتعريفه)، أو غير ذلك من مسالكهم السوفسطائية الخبيثة في «إثبات معقولية عقائدنا» فهذا عين ما ذمه السلف!

نحن لا نتكلف إثبات معقولية عقائدنا أصلا لأنها لا تخفىٰ علىٰ العقلاء ولا يحتاج العاقل إلىٰ أكثر من سماعها بلسانه حتىٰ يعقلها، وإنما نتكلف دفع انتحال المبطلين علىٰ نصوصنا وبيان تلبيسهم علىٰ الناس في حدود الضرورة الشرعية! نتكلف نقض باطل القوم بما قد يدخل فيه التنزل للإلزام أحيانا، لا أننا نتكلف تأسيس الحق الذي عندنا بطريقتهم رجاء أن نقنعهم به!! هكذا كان مسلك الأئمة الكبار رحمهم الله تعالىٰ في بيان بطلان عقائد المتكلمين وقواعدهم أيضا (وعامة تصانيف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من ذلك الصنف). بخلاف طريقة المتكلمين، الذين ما وضعوا علم الكلام نفسه إلا لمجادلة الفلاسفة الذين لا يقولون بنص ولا تنزيل ويمارون فيما يكرهونه من ضروريات العقل ومسلمات الفطرة، فاضطر المتكلمون للخضوع لحدود وكليات أولئك الفلاسفة التي استعملوها في النظر والمناظرة في مسائل لا ينبغي أن يتطرق إليها النظر أصلا، واضطروا لمتابعتهم علىٰ ما تنطعوا به من تعريفات لألفاظ لا ينبغي أن يخفىٰ معناها علىٰ عاقل ولا تحتاج إلىٰ تعريف، حتىٰ يؤسسوا إيمانهم بين أيدي هؤلاء الفلاسفة بكلام يرجىٰ منهم قبوله (أي من هؤلاء الفلاسفة، وهيهات)!

---

(١) ومقصود المرء بكلامه الغامض يعرف بالاستفصال منه مباشرة إن كنا نجد الداعي الشرعي إلى ذلك، وإلا فلا يشرع حمل المجمل على المفصل في كلام أحد غير المعصوم عليه السلام، أما من دونه، فكل من تكلم بالإجمال فيما يجب فيه التفصيل فهو غالط بذلك ويجب النكير عليه كائنا من كان.

وما كان ذلك التنطع من الفلاسفة إلا زخرفة لفظية لتمرير أكاذيبهم وأباطيلهم بغية إثبات «قدم العالم» نظريا ونفي «الصانع»! هذا ما منه جاء الإجمال والاشتباه في الحدود والتعاريف التي ورثها المتكلمون عن الفلاسفة، لأنها تنظير يتكلفونه لتفسير ما لا يحتاج من العقلاء إلىٰ تعريف أو تفسير أصلا، حتىٰ يمرروا ما أرادوا الانتصار له من معان تصادم البداهة والفطرة! فما كان كذلك لزم أن يكون موردا لما لا أول له ولا آخر من صور الاشتباه والإجمال والإبهام والإيهام والتلبيس! ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوىٰ:

> فالسلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة كلفظ «الجوهر» و«العرض» و«الجسم» وغير ذلك؛ بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه لاشتمال هذه الألفاظ علىٰ معاني مجملة في النفي والإثبات. كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع فقال: هم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون علىٰ مخالفة الكتاب، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويلبسون علىٰ جهال الناس بما يتكلمون به من المتشابه.

قلت: فكيف لا يكون كلامه مجملا متشابها من تكلف بناء برهان نظري قياسي لإثبات حقيقة بدهية فطرية، ألا وهي أنه هو وكل ما يرىٰ من حوله مخلوق مربوب؟ هذا هو منبع الاشتباه والإجمال الذي لا مخرج منه إلا بترك تلك الغاية نفسها جملة واحدة (أعني غاية استعمال النظر القياسي في إثبات الغيبيات والبدهيات!)

قال الغزالي في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد»(١) في بيان حكم دراسة علم الكلام والتخصص به:

---

(١) وليته اقتصد حقا، إذن لعوفي المسلمون من شر كثير! فلو أنه فعل، لما جعل علم الكلام من فروض الكفايات وقد شهد واعترف بنفسه بأن السلف قد أطبقوا على ذمه، ولما جعله طريقا لإزالة الأوهام والشكوك من النفوس لأي عاقل يشتغل به أيا ما كانت قوة عقله، بل لأدرك - كما قيل إنه فعل في آخر أيامه - أن أقوياء العقول أكثر عرضة لضياع اليقين بسببه من غيرهم، وأن الشك إنما يدخل على النفوس بسببه وبسبب خوض أصحابه مع الفلاسفة، لا أنه يزول الشك والارتياب بسببه كما زعم في ذلك الكتاب وغيره، نسأل الله أن يعافي المسلمين من ذاك المرض.

اعلم أن التبحر في هذا العلم والاشتغال بمجامعه ليس من فروض الأعيان وهو من فروض الكفايات. فأما أنه ليس من فروض الأعيان فقد اتضح لك برهانه في التمهيد الثاني. إذ تبين أنه ليس يجب علىٰ كافة الخلق إلا التصديق الجزم وتطهير القلب عن الريب والشك في الإيمان. وإنما تصير إزالة الشك فرض عين في حق من اعتراه الشك.

فإن قلت: فلم صار من فروض الكفايات وقد ذكرت أن أكثر الفرق يضرهم ذلك ولا ينفعهم؟ فاعلم أنه قد سبق أن إزالة الشكوك في أصول العقائد واجبة، واعتوار الشك غير مستحيل وإن كان لا يقع إلا في الأقل، ثم الدعوة إلىٰ الحق بالبرهان مهمة في الدين. ثم لا يبعد أن يثور مبتدع ويتصدىٰ لإغواء أهل الحق بإفاضة الشبهة فيهم فلا بد ممن يقاوم شبهته بالكشف ويعارض إغواءه بالتقبيح، ولا يمكن ذلك إلا بهذا العلم.[١]

ونقول: إن في هذا الكلام - رحم الله صاحبه - خلطا كبيرا، فمع أنه يقرر عدم مشروعية تدريس ذلك العلم للعوام، إذ يجعله من فروض الكفايات، إلا أنه يجعله هو الطريق لإزالة الريبة والشك في الإيمان وتطهير القلب منه إذا ما وقع أو أوشك أن يقع في نفس الإنسان. وبصرف النظر عن تقلب موقف أبي حامد نفسه في هذا الشأن، وما انتهىٰ إليه أمره من موقف من ذلك العلم قبل موته، إلا أننا نقطع بفساد الزعم بأن علم الكلام قد يكون طريقا لترسيخ اليقين وإزالة الشك من النفوس! بل هو - وربي - منبع الشك ومنبته وتربته الخصبة في نفوس من تعرضوا له ولأصوله عند الفلاسفة، ولا يقع الشك عند العقلاء في مسلمات الفطرة وأوليات العقل إلا من أثره في الحقيقة! وهذا لا نعرفه بالاستقراء والمشاهدة في أحوال الناس، وإنما نعرفه من قطعنا بأن المسلمات الأولىٰ القاضية بصحة ملة التوحيد وباستحقاق الباري للتنزيه عن كل نقيصة، لا يولد الإنسان إلا وهو موقن بها ابتداء، معقودة نفسه عليه أساسا، لأن البديهيات الأولىٰ محل يقين معرفي مجبولة عليه نفوس الناس فطرة، لا محل ظن وتخمين وتنظير. فإن تعرض في حياته لشيء من الأهواء مما تنشرح به الصدور لأقوال الطاعنين علىٰ ربهم، وتميل

(١) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٦.

بها إلىٰ زخارفهم، ثم قذف الشيطان في نفسه شيئا من تلك الأقوال استقلالا، أو ابتلاه الله بالتعرض لشيء منها، وقع حينئذ الشك والريبة في نفسه، وزالت أصول الملة منها بالكلية، نسأل الله السلامة.

لذا فإننا نقول: لولا أن المتكلمين الأوائل خاضوا في نكير الفلاسفة من الملاحدة وأضرابهم علىٰ كون أهل الأديان (ويقصدون بذلك الوثنيين في الأعم الأغلب) «يجسمون» إلههم ويجعلونه رجلا، بل يجعلونه جماعة من الرجال والنساء يتناكحون ويأكلون ويشربون، ويتناسلون مع بني البشر أحيانا، إلىٰ آخر ذلك الإفك المفترىٰ، ولولا أن أعجبهم ذلك النكير الذي دلفت به الفلاسفة (من غلوهم وجهلهم) إلىٰ مطلق الاشتراك المعنوي في الصفات بين الرب والمخلوقين، ما وقع في نفوسهم شيء من النفور من نصوص الصفات عندنا، أو الزعم بوجوب نفيها أو تعطيلها «تنزيها» أو تأويلها فرارا من «وهم التشبيه»! هذا التصور أو التوهم من أين جاء أصلا وما الذي أدخله إلىٰ أدبيات المسلمين، مع أننا نقطع بأنه ما خطر علىٰ قلب واحد من الصحابة أو التابعين طرفة عين أبدا، عند تعرضهم لنصوص الصفات؟ إنها نظريات فلاسفة اليونان وطريقتهم في التنظير الميتافزيقي، التي غرق هؤلاء في قراءتها والبحث فيها!

فلو لم تتلوث فطرة هؤلاء ويشوش يقينهم في مسلمات الفطرة الأولىٰ فيما يتعلق بصفة الرب سبحانه، وفي كفاية ما ورثناه عن الصحابة والتابعين من معارف في صفاته جل وعلا وفهمها، أفكانوا يزعمون أن المسلم يحتاج إلىٰ الاستدلال والبرهان العقلي حتىٰ يعرف (أو يتيقن) أن العالم لا بد وأنه حادث وأنه لا بد له من صانع، وأن الصانع لا بد وأنه قديم بلا ابتداء .. إلخ، وإلىٰ استعمال تلك المصطلحات المشتبهة التي ما عرفها الصحابة والسلف أصلا وما افتقروا إليها؟ أفكانوا يزعمون أن هذا هو الطريق إلىٰ كمال الإيمان وسلامة القلب من الشبهة والشك؟ أبدا!

فالذي حصل علىٰ التحقيق أن هؤلاء بدلا من أن يعظوا الفلاسفة ويزجروهم وينهوهم عن سلوك تلك المسالك الفاسدة التي تذهب بالدين والعقل جملة واحدة، وتميل النفوس إلىٰ قبول فكرة الشك علىٰ أنها قضية «عقلية» تحتاج إلىٰ جواب «نظري»

يحسمها، ويحذروا المسلمين منها (أي من ذلك المنهج والطريقة في استعمال النظر العقلي) ويدفعوهم عنها وعن مجادلة أهلها صيانة لإيمانهم ويقينهم واعتقادهم، رأيناهم يأخذونها عن أصحابها ويتلبسون بطريقة القوم في النظر والاستدلال العقلي بدعوىٰ الرد عليهم بنفس طريقتهم، فكان أن انتقلت إليهم عدوىٰ الشك والارتياب (علىٰ تفاوت، بحسب حال كل واحد منهم من العلم بالسنة)، وتلبست قلوبهم بذاك الوهم الشيطاني الخبيث الذي فروا منه عند تناول النصوص السلفية بلا موجب عند العقلاء أصلا، فيما باتوا يسمونه بـ«إيهام التشبيه»!

لهذا يحدثنا التاريخ عن رجوع بعضهم علىٰ فراش الموت وتوبته عن علم الكلام، وتمنيه لو يموت علىٰ «عقيدة عجائز نيسابور» أو ما سموه بعقيدة العوام، وقصصهم في ذلك أشهر من أن تروىٰ! فلو كانوا صادقين في زعمهم أن علم الكلام يصل بهم إلىٰ اليقين، أفكانوا يرجعون عنه عند الموت، يود أحدهم لو عاش عمره كله جاهلا بالكلام و«براهينه» و«حججه» وخلاف أصحابه فيه، ويود لو أنه ما تعرض لشيء من ذلك يوما ما؟

يقول الرازي الأشعري في كِتَابه «أقسام اللَّذَّات» فيما ينقله عنه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»:

> «لقد تَأَمَّلت الْكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فَمَا رَأَيْتهَا تروي غليلا وَلَا تشفىٰ عليلا ورأيت اقْربْ الطّرق طَرِيقَة الْقُرْآن أقرأ فِي الإثبات ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ وأقرأ فِي النَّفْي ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ وَمن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».
>
> وَهَذَا الَّذِي أشار اليه بِحَسب ما فتح لَهُ من دلَالَة الْقُرْآن بطرِيق الْخَبَر وَإِلَّا فدلالته البرهانية الْعَقْلِيَّة الَّتِي يُشِير إليها ويرشد اليها فَتكون دَلِيلا سمعيا عقليا أَمْر تميز بِهِ الْقُرْآن وَصَارَ الْعَالم بِهِ من الراسخين فِي الْعلم وَهُوَ الْعلم الَّذِي يطمئن اليه الْقلب وتسكن عِنْده النَّفس ويزكو بِهِ الْعقل وتستنير بِهِ البصيرة وتقوىٰ بِهِ الْحجَّة وَلَا سَبيل لأَحَدَّ من الْعَالمين إلىٰ قطع من حَاج بِهِ بل من خَاصم بِهِ فلجت حجَّته وَكسر شُبْهَة خَصمه وَبِه فتحت الْقُلُوب واستجيب لله وَلِرَسُولِه وَلَكِن أهل هَذَا الْعلم لا تكاد الأعصار تسمح مِنْهُم الا بِالْوَاحِدِ بعد الْوَاحِد؛ فدلالة الْقُرْآن سمعية عقلية قَطْعِيَّة

يقينية لَا تعترضها الشُّبُهَات وَلَا تتداولها الِاحْتِمَالَات وَلَا ينْصَرف الْقلب عَنْهَا بعد فهمها أبدا.

ويضيف ابن القيم:

وَقَالَ بعض الْمُتَكَلِّمين: (أفنيت عمري فِي الْكَلَام أطلب الدَّلِيل وأنا لا أزداد إلا بُعدا عَن الدَّلِيل فَرَجَعت إلىٰ الْقُرْآن أتدبره وأتفكر فِيهِ وإذا أنا بِالدَّلِيلِ حَقًّا معي وأنا لَا أشعر بِهِ ...) إلىٰ أن قال: (فَلَمَّا رجعت الىٰ الْقُرْآن إِذا هُوَ الحكم وَالدَّلِيل وَرَأَيْت فِيهِ من أدلة الله وحججه وبراهينه وبيناته مَا لَو جمع كل حق قَالَه المتكلمون فِي كتبهمْ لكَانَتْ سُورَة من سور الْقُرْآن وافية بمضمونه مَعَ حسن الْبَيَان وفصاحة اللَّفْظ وتطبيق المفصل وَحسن الاحْتِرَاز .. الخ).

قلت: تذكر أيها القارئ الكريم مثل البيت الذي ضربته من قبل للفيلسوف (والمتكلم تبعٌ له)، إذ يبدأ أحدهم من بعض الواضحات الجليات، ثم ينطلق في سلوك أعقد وأشد طرق التنظير القياسي وعورة يرجو الوصول إلىٰ النقطة التي بدأ منها أصلا! فهؤلاء يشترطون الانتهاء إلىٰ حيث يبدأ العقلاء الأسوياء في تأسيس معارفهم المكتسبة! فأي عقل يكون لهم علىٰ التحقيق، وأي يقين هذا الذي يرجىٰ لهم الوصول إليه؟!

فمن أين بدأت رحلة الضلال والسقوط في مهاوي الزندقة والضياع بهؤلاء الذين يزعمون أن صنعتهم هي علاج الشك وهي طريق اليقين؟ ما بدأت إلا يوم تعامل أحد الجهلاء مع «المتشكك» في وجود خالقه وباريه من أهل الفلسفة، المتعلق بما يسميه «برهانا عقليا» في ذلك، علىٰ أن له الحق الشرعي والمساغ المعرفي في أن يطالب ببرهان فلسفي (عقلي/ نظري) علىٰ وجود الله (أو بالأحرىٰ: أن يجاب لطلبه أن نثبت له حدوث العالم بالقياس)، وأن تقابَل براهينه وحججه المزعومة بالجواب الفلسفي المناسب، فإما جئناه (نحن المسلمون) بذلك الذي يشترطه، وإلا لم يقتنع ولم يقبل من أهل الحق أن ما هم عليه من الإيمان بباريهم وبكمال صفاته موقف مستساغ معرفيا، فضلا عن زعمهم أنه حق واضح لا ينبغي أن يطرح للنظر والبرهان عند العقلاء أصلا!

فبدلا من أن يقال لذاك المجرم المستكبر، أنت مريض صاحب هوىٰ متجذر في نفسك يعميك عن الحق الواضح الجلي، فاتق الله وانزع عن تلك السفسطة العمياء، واشهد علىٰ نفسك بقبول ما علمت أنه الحق، وإلا فإليك عنا لا شأن لنا بك، أصبح يقال له هلم إلينا نناقشك في «حججك» و«براهينك» العقلية ونثبت لك أن عندنا بضاعة لا تقل ضبطا وإحكاما عن بضاعتك في تلك البابة، إن كنت لا «تقتنع» إلا بمثل هذا! فإن لم يعجبك هذا الدليل جئناك بغيره، ثم طالبناك بجمع هذا إلىٰ ذلك والموازنة ثم إعادة النظر مرة بعد مرة لعلك تقتنع! ومهما جئتنا باعتراضات علىٰ بعض البراهين أسقطناها وجئناك بغيرها، أو اجتهدنا في بيان ضعف تلك الاعتراضات وواصلنا معك النقاش مهما طلبت ذلك! فلماذا يسلمون لزعم رجل كهذا بأنه لا «يقتنع» إلا بمثل هذا من الأساس، وما معنىٰ الاقتناع عندهم (سيكولوجيا) وما حقيقته وما حده، وما ضابطه الشرعي في مثل هذا ومن أين جاؤوا به؟

ثم إذا بالبراهين الإلحادية المزعومة تنشر بين الناس فيما يقال إنه «رد كلامي» أو «علمي» عليها، وتصبح مادة الإلحاد المحض «شبهات» تستحق أن «يناظر» صاحبها عليها، وتحتاج إلىٰ دراسة طويلة وتخصص فلسفي أو علمي دقيق، حتىٰ يقابل دليله المزعوم بدليل من مثله، وكأن هذا الجنس من الأدلة في هذا النوع من القضايا يجب علينا أن نبذله حتىٰ يتحقق لنا المطلوب معرفيا، وكأن القول فيها بالحق مما يحتاج عند الإنسان إلىٰ دليل نظري بالقياس والاستقراء ونحو ذلك! فبالله أي عبث هذا يا عباد الله لو كنتم تعقلون، وكيف يرجىٰ له أن يكون دواءً للشك والريبة وطريقا لتحقيق اليقين؟

لذا أقول إن أول من وافق ضمنيا (أو إن شئت فقل «عمليا»، أو بمقتضىٰ الحال) علىٰ هذا الشرط الشيطاني الساقط عند مجادلة المشركين وغيرهم ودعوتهم إلىٰ التوحيد، هو أول من فتح باب الشك النفسي والزندقة «العقلية» في بلاد المسلمين، فنقل مرض القوم إلينا، وكان سببا في ظهور ما تفرع علىٰ ذلك المرض الخبيث عندنا من بدع وضلالات في أصول الاعتقاد، بدلا من أن يسعىٰ في اقتلاعه من جذوره عند أصحابه كما كانت طريقة المرسلين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقد مر بك بيان مبدأ ومنشأ

بدعة الجهم في كتاب «الرد علىٰ الجهمية» للإمام أحمد! وأنا أزعم أن الدافع الباطن في نفس ذاك المتفلسف المسكين (سواء الجهم أو غيره ممن بدعوا مجادلة الفلاسفة في البدهيات وأدخلوها إلىٰ بلاد المسلمين) إنما كان هو كراهة استصغار الفلاسفة الدهرية لعقله وسخريتهم منه إن أبىٰ الخوض معهم في بضاعتهم وتخلف عن إظهار فهمها والتمكن منها، والخوف من اتهامهم إياه بالفرار من «المصارعة العقلية» التي من انتصر فيها فقد أثبت أنه هو صاحب الحق وأن خصمه علىٰ باطل!

إنها تلك «الهزيمة النفسية» التي نعرفها في كثير من الدعاة اليوم، عند تناولهم لدعاوىٰ وتخرصات واعتراضات المشركين علىٰ ملة الإسلام ونبي الإسلام، ﷺ! يعظم في عين أحدهم ما يتمتع به المخاطبون بدعوته من علو دنيوي ويطمع في أن يكون له حظ منه، ويراهم يكرهون دعوته أشد ما تكون الكراهة، ولا ينظرون لأصحابها إلا بعين التحقير، إشباعا لهواهم وشهوتهم الخبيثة، فإذا به تعمل يده بالتحريف والإفساد في موضوع الدعوة نفسه من حيث يحسب أنه يقرب الأمر إلىٰ أذهان المخاطبين ويخاطبهم «بأسلوبهم» وبما يفهمون، أو «بلغة العصر» علىٰ اصطلاح الجهمية العصريين! فسبحان الله، اختلف السياق التاريخي والثقافي والمجتمعي، والمرض النفسي واحد، والله المستعان!

لهذا - أيها القارئ الكريم - أصبح من أصول المعتزلة الجدد العقلانيين والعصرانيين والحداثيين وأضرابهم: حمل النص علىٰ أحب التأويلات لنفوس المخاطبين، وأوفقها للفلسفات السائدة والمعظمة بين خاصتهم، وإعادة تقعيد (أو علىٰ اصطلاحهم: تجديد) أصول النظر والاستدلال الفقهي تبعا لذلك! وبالتأمل يتبين لك أن هذا هو بعينه نفس الأصل الكلي الذي احترف الجهمية والمعتزلة الأوائل من أجله صنعة الفلسفة الأرسطية وعملوا علىٰ تقعيد القواعد وصياغة البراهين في إطار ما سموه بعلم الكلام (حتىٰ يستميلوا الفلاسفة ويصبح لهم العلو بينهم بما عظمتهم جماهير الناس من أجله: الفلسفة)، وهو كذلك نفس الأصل الكلي الذي نشأ عنه علم اللاهوت الدفاعي عند أهل الكتاب (حتىٰ يستميلوا العامة من أهل الملل بما لأجله نالت رؤوس تلك الملل التعظيم والتوقير فيما بينهم)!

إنه الوهن النفسي والهوىٰ المتجذر في اجتلاب احترام وتعظيم قوم لا يرجو الداعية هدايتهم ونجاتهم في الآخرة (كما يوهم نفسه) بقدر ما يرجو أن ينال منهم عين ذلك التعظيم والتوقير الذي منحوه لرؤوسهم وكبرائهم، لفرط ما هو غارق فيه من محبة ما هم عليه (أي هؤلاء الكبراء) من شأن الدنيا!

فعندما يشعر ذلك الداعية المفتون بأن دعوته لا تنال قبول الجماهير المخاطبين بها لأنهم يرونها «متشددة» أو «متخلفة» أو «لا تناسب الزمان» أو نحو ذلك، ويكون في نفسه حرص وطمع في العلو بين هؤلاء ونيل احترامهم وتعظيمهم كما ناله رؤوسهم ومعظموهم، فإن نفسه تحمله علىٰ محاولة تحبيبهم في تلك الأصول والفروع التي كرهوها من طريق الدفاع النظري عنها ومحاولة إثبات أنها لا تتناقض ولا تتنافر مع ما يحبون من أمرهم الذي هم عليه، فإن لم يتمكن من ذلك، فلعله يكتم تلك الأصول والفروع المكروهة لديهم أو يهون من شأنها عندما يسأل عنها، فإن لم يكفه ذلك في نوال مطلوبه ولم يؤت ثمرته، فلعله يبلغ (من تزيين شيطانه لنفسه المريضة) أن يسعىٰ في تغييرها وتعديلها (وهذه هي سفلىٰ دركات الغرق في تلك الفتنة) حتىٰ يجلب إليه قلوب من أحب منهم أن يحبوه وأن يقبلوا دعوته وأحب أن يرفعوه فيما بينهم ويقدموه عليهم كما قدموا رؤوسهم وأكابرهم من قبل!

ولذا فعندما قوبل أصحاب برهان حدوث العالم (الذي يقولون فيه بأن كل ما ترد عليه الأعراض الحادثة أو تحل فيه، فهو حادث لا محالة) بما يستلزمه برهانهم هذا من نفي الصفات الفعلية وجنس الأفعال عن ذات الرب جل وعلا جملة (التي هي علىٰ اصطلاحهم أعراض تحدث بعد أن لم تكن) حتىٰ لا تدخل ذاته العلية في جملة الأجسام الحادثة، لم يجدوا بدا - حتىٰ تثبت لهم قواعد برهانهم الفاسد ولا يتهاوىٰ بهم بين أيدي خصومهم من الملاحدة والزنادقة - من تعطيل صفات الرب جل وعلا والتماس الحيل والألاعيب في تناول نصوص الصفات والأفعال في الكتاب والسنة، وإذا بهم يعبدون صنما لا حياة فيه، كما في تلك المقالة المشهورة عن ابن تيمية رحمه الله!

فلما خرجت طائفة أخرىٰ افتتنت بطريقتهم في بناء الاعتقاد علىٰ البرهان العقلي، مع استنكارهم ما وقع فيه هؤلاء من تعطيل سائر صفات الرب جل وعلا واستشناعهم ذلك، قال قائلهم بأن من الصفات ما يستلزم القول بإثباته حلول الأعراض بالذات القديمة (وهو عندهم ممتنع)، وأن منها ما لا يلزم منه ذلك، فقالوا في الصنف الأول من الصفات إنه مما يلزم «التجسيم» ومشابهة المخلوقين من مجرد إثباته لذات ربهم جل وعلا، وقالوا في الثاني إنه لا يلزم منه ذلك، واختلفوا في عدّ ما يدخل في كل من القسمين من الصفات، ثم اتفقوا علىٰ أن ما ورد في النص مما يوهم الدخول في الصنف الأول، فإنه يجب أن يؤول أو يفوض العلم بمعناه، وزينت لهم أنفسهم اعتقاد أنهم بذلك المنهج البدعي الذي لم يقل به من أهل القبلة أحد قبلهم، قد نزهوا الرب جل وعلا عن مشابهة المخلوقين!

فمن أي أصل نبتت تلك النبتة الخبيثة في نفوس أصحابها، إن لم يكن من علوهم واستكبارهم علىٰ الاعتراف بفساد المنهج نفسه، مع طمعهم في العلو بالعقليات علىٰ الفلاسفة وأشباههم؟ لولا حرصهم جميعا علىٰ نصرة تلك «البراهين العقلية» التي بلغ بهم غرورهم أن زعموا أنه لا يوصل إلىٰ معرفة «الصانع» إلا بالتأسيس عليها، ما بدعوا لأنفسهم دينا علىٰ خلاف ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ! فقد كانوا يكرهون جميعا أن ترميهم الفلاسفة والمناطقة بنقص «العقل» وبالإيمان الأعمىٰ والاتباع بلا دليل ونحو ذلك (كما هو دأب الفلاسفة من أول يوم ظهرت فيه تلك الحيلة العقلية الخبيثة بين بني آدم وإلىٰ أن يشاء الله)، ومن ثمّ كانوا حريصين علىٰ ألا يورد القوم علىٰ «براهينهم» اعتراضا فلسفيا (أو «عقليا» علىٰ حسب اصطلاحهم ومن تأثر بهم) إلا أجابوا عنه بنفس الطريقة: طريقة الفلاسفة والمناطقة ولا بد!

ولكأني بأصحاب ما أصبح يقال له اليوم «برهان الانفجار الكبير» يقتاتون علىٰ ما نشره اللاهوتيون النصارىٰ المعاصرون في زماننا هذا من مادة في الانتصار له، يسعون سعيا حثيثا في ترجمتها، وفي التميز والعلو علىٰ أصحابها بمثلها، لأنهم لا يرون خصمهم الملحد (الذي اتخذوا من مناقشته ومجادلته واجبا شرعيا وجهادا باللسان)

يتكلم اليوم إلا بنظريات العلم الطبيعي، تماما كما كان المتكلمون الأوائل يكرهون أن يخالفوا عما تكلم به ملحدة زمانهم من علوم الفلسفة المحضة والمنطق الأرسطي. وإذا بهم يصطنعون اعتقادا جديدا في خلق السماوات والأرض، يتناولون في ضوئه ما ورد من نصوص الكتاب والسنة في تلك الغيبيات الكبرىٰ، ينتقون من كلام العلماء والمفسرين فيها ما يوافق ما التزموه من نظريات الطبيعيين، أو يتخذونه كله ظهريا ويبتدعون من التأويل ما يوافق تلك الطبيعيات، بما يوصلهم إلىٰ اصطناع بناء معرفي اعتقادي لم يسبقهم إليه أحد من أهل القبلة، ينسبونه إلىٰ العلم وهو إلىٰ الجهالة أقرب، والله المستعان لا رب سواه.

كل هذا لأنهم - كسابقيهم من الجهمية القدماء ممن ابتلاهم الله بهذه الفتنة - كرهوا جدا أن يظهر عليهم النفور أو العجز عن النظر في تلك المادة الفكرية التي علا بها أصحابها علىٰ رؤوس العامة في زمانهم! فلزم أن يغرقوا في النظريات الطبيعية التي زعم بها أصحابها أن الكون لم يخلق وأن صنوف الكائنات الحية جاءت إلىٰ هذا العالم من غير شيء، كما غرق فلاسفة اليونان في البراهين الفلسفية التي زعموا بها أن العالم قديم لم يحدث! لذا وجب - عند هؤلاء - أن يكون للمسلم موقف «مستنير» لا يصمه أصحاب تلك العلوم الرفيعة في زمانه بالجهل والتخلف!

وهذا أيها القارئ الكريم من صنوف الهوىٰ والدغل القلبي الخطير التي قد يتعرض كثير من طلبة العلم لشيء منها من غير أن ينتبهوا، وقد مر بك من قريب إعلاني الرجوع عما وقعت فيه من بعض ذلك من حيث لا أشعر، والله المستعان. فإن صح تعريفنا للمتكلم علىٰ أنه كل من استدل وناظر فيما لا يصح أن يُطرح للاستدلال والنظر ابتداءً من الأصول العقلية الكلية لدعوة التوحيد التي جاء بها الأنبياء والمرسلون أو من قضايا الغيب المحض، فما أكثر من كان في واقع الأمر يمارس الكلام وهو يحسب أنه بريء من الكلام وأهله!

ومسألة تعريف علم الكلام وتعريف المتكلم في هذا السياق من أهم ما يكون في الحقيقة، لأن كثيرا من السلف قد أطلقوا الذمّ قديما فيما يقال له «الكلام» كما مر معك

(والفلسفة كذلك)، فإن لم نقف علىٰ ماهية الشيء المذموم وعلة ذمه وقوفا منضبطا محررا، لم نسلم أن نكون واقعين في تلك المذمة من حيث لا نشعر. ولا نريد أن ينفتح علينا باب لبعض الجهلاء وسفهاء الأحلام ليطعنوا علىٰ أئمة كبار في تاريخ أمتنا كانت لهم قدم صدق في إبطال بضاعة المتكلمين وبيان بدعهم وقلب الطاولة علىٰ رؤوسهم، حتىٰ لا يغتر بهم الجاهل أو يفتتن بهم الضعيف، فيرموهم بالكلام وقد كانوا أشد الناس عداء له وجهادا ضد أهله!

ولعله قد بات واضحا بعدما بيناه وبسطنا القول فيه في هذا الكتاب أن التعريف الشائع لعلم الكلام علىٰ أنه «فن الانتصار لأصول الملة وإظهارها بالبراهين العقلية الدامغة» لا يمكن قبوله، لأنه لا يظن عاقل من أهل القبلة بسلفنا الصالح أنهم كانوا يكرهون إظهار الحق وبيان أصول الملة ببراهين واضحة لا يملك العقل إلا أن يسلم لها! ولكن هنا يظهر مكمن الخلل في ذلك التعريف! فما هو نوع تلك «البراهين العقلية» التي تفنن فيها المتكلمون؟ وهل هذا ما استحقوا الذمّ من أجله؟ هذا هو بيت القصيد. فالعقل الذي لا يرىٰ أن حقيقة كونه مصنوعا مخلوقا، وأن خالقه وخالق كل شيء لا بد وأن يكون عند حدّ الكمال في سائر صفاته، وأن مطلق الإشراك به في العبادة انتقاص من قدره لا محالة، العقل الذي لا يرىٰ تلك الحقائق المعرفية من جملة البدهيات الأولىٰ التي لا تفتقر إلىٰ نظر أو بحث أو استدلال، هذا عقل مريض ونفس كاذبة مكابرة، تكذب علىٰ صاحبها قبل غيره، وهو ذاك العقل الذي خاض معه المتكلمون طمعا في الظهور علىٰ أصحابه، لما في نفوسهم هم من أهواء مشابهة، فالتزموا بشرطهم المعرفي التزاما ألبسهم لبوس التناقض والسفسطة والقرمطة من حيث لا يشعرون، وفتح الباب واسعا للداء نفسه ليتضخم في نفوسهم من حيث لا يحتسبون!

فإذا عرّفنا علم الكلام علىٰ أنه كل خوض في الجدال النظري[1] طمعا في إثبات

(١) ولا يقولن قائل من المتكلمين إن قولنا في هذا التعريف «البرهان النظري» قول مشتبه يفتقر إلى بيان، فهذا باب لو فتحناه لدخل علينا التسلسل في الحدود والتعاريف! الجدال النظري صنعة معروفة عند أصحاب الصناعات العلمية كلها، ينتهجون فيها جمع الأدلة والبراهين التي تكلفوا النظر العقلي أو التجريب أو المشاهدة أو الاستقراء حتى يصلوا إليها، ثم المباحثة فيما يؤدي إليه ذلك الجمع من دلالة وما يتحصل بناء عليه من معرفة نظرية (ظنية كانت أو قطعية). فعلى هذا نقول إن من استجاب لدعوى الفلاسفة افتقار تلك

أصول العقائد الإسلامية علىٰ شرط قوم جحدة زعموا خفاء تلك الأصول البدهية الأولىٰ علىٰ عقولهم وافتقارها إلىٰ البرهان النظري، أو زعموا تحصلهم علىٰ براهين نظرية تنفيها، لاستقام لنا الأمر ولاتضح مناط النهي والذمّ لا في علم الكلام فقط، ولكن في ربيبته (الفلسفة) كذلك!

فالفلاسفة ما حاربوا الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من قبل إلا بدعواهم أن أصول رسالاتهم[1] لا تقوم عندهم ولا عند أتباعهم علىٰ «برهان عقلي» معتبر، ولا علىٰ أساس معرفي صحيح، وأن الأمر لا يزال يفتقر منهم - أي من الرسل وأتباعهم - إلىٰ تكلف تنظير ذاك البرهان النظري المطلوب ثم طرحه للمناظرة والمدارسة ودفع الرأي برأي مثله! فمن تراه يلتزم ذاك الشرط في طبيعة «البرهان العقلي» والأساس المعرفي الذي يطلبه هؤلاء، ويخوض معهم بالنظر والتنظير من أجل ذلك، فهذا هو «المتكلم الذي» تلحق به المذمة عندنا، وطريقته (أيا ما كانت الألفاظ والمصطلحات والحدود والقواعد والنظريات التي يخرج بها) هي «الكلام» الذي نطلق القول في ذمه. أما من تكلف بيان فساد ما انتهىٰ إليه هؤلاء المتكلمون من نظريات وبراهين وما فرعوه علىٰ ذلك من قواعد اعتقادية عندهم، فلا يعدّ هذا من المتكلمين، وإن كنا نكره له أن يتوسع في تتبع تلك النظريات والبحث في أصولها الفلسفية بما قد لا يفتقر إليه العلماء في تحقيق المقصود من نقض تلك البضاعة البدعية التي جاؤوا بها، وهو ما يكون الأمر فيه (بالزيادة أو النقصان) محلا للاجتهاد العلمي يدور به صاحبه بين الصواب والخطأ كما بينا في موضع متقدم من هذا الكتاب.

ولذا نقول يجب أن يعي كل من اهتم بدعوة عامة المشركين إلىٰ التوحيد، لا سيما في زماننا هذا، زمان الإعلام المفتوح والفضائيات التي اقتحمت علىٰ الناس بيوتهم، أن المشركين جميعا (إلا القلة القليلة منهم) أهل أهواء بعضها فوق بعض طبقات! ذلك أن

المسائل التي اعترضوا عليها لمثل هذا العمل العقلي، فقد أخضع نفسه، من الابتداء، لشرط أقوام لا عقل لهم ولا خلاق، والله المستعان.

(١) وأعني القول بوجود باريهم الذي أرسلهم بتلك الرسالات، وباستحقاقه التنزيه التام والإفراد بالعبادة، أو القول بلزوم المنقصة في حقه من مطلق الإشراك به على نحو ما اقترفته كافة الملل التي اعتنقتها أمة الدعوة!

كل من سمع بالقرآن وبالنبي العدنان (علىٰ ما لدعوة التوحيد الخالص التي عُرف بها بين الناس من علو بدهي علىٰ كل ما يخالفها من دعاوىٰ أهل الملل) ثم لم يعبأ بأن يبادر بالبراءة من الشرك الذي هو عليه ويطلب طريقا إلىٰ ذلك الحق الجلي وتلك المحجة البيضاء التي جاء بها رسول تلك الملة، فهو صاحب هوىٰ متجذر في نفسه وعلىٰ قلبه غشاوة وقفل عظيم لا محالة! أقول هذا الكلام وأنا أعي أن من «الدعاة» والمتشرعين من أهل القبلة من يكره سماعه، يستثقله أشد الاستثقال، ويود لو أمكنه أن يلتمس المعاذير لإبليس نفسه[١]، وإلىٰ الله المشتكىٰ!

ولهؤلاء نقول: نعم يا عباد الله أكثر جماهير المشركين لن تسمع منكم ولن تقبل دعوتكم، إلا أن تأتي علىٰ هواهم ومزاجهم، وهذا أمر يجب أن تتوقعوه! أما سمعتم قول الله تعالىٰ لرسوله: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾ [**البقرة**: ١٢٠]؟ قد أشرنا في موضع آخر إلىٰ ما مضمونه أن من ظن أن كثرة دخول الناس في الدين علىٰ دعوته إياهم، هي دليل علىٰ صحة وسداد طريقته ومنهجه في الدعوة (والعكس بالعكس) فهو جاهل قطعا، وإلا فما قوله في النبي من أنبياء الله يأتي يوم القيامة وليس معه من قومه رجل واحد يتبعه؟ الحق مر كريه علىٰ نفوس الأكثرين لا محالة، هذه سنة كونية ماضية لا تبديل لها، وهي ابتلاء لحملته والدعاة إليه أولا قبل أن يكون ابتلاءً للمخاطبين به من أهل الملل!

لماذا لا يكتفي أحدهم بأن يقول للملاحدة والمتشككين بكل حزم وبكل قوة: أنتم كذبة تخادعون أنفسكم إن زعمتم أن وجود باريكم الذي خلقكم وصوركم فأحسن صوركم، يخفىٰ عليكم ويفتقر إلىٰ بحث ونظر واستدلال؟ هذا هو الجواب الذي لا ينتبه

---

(١) وقد سمعنا من جهال الجهمية الجدد - بالفعل - من يزعم براءة إبليس من «الكفر بالله»، على أساس أنه كان يؤمن بوجود الله ولا ينكره، فاخترع لنفسه عبارة مجملة فاسدة في قوله «الكفر بالله» حتى يبلغ بنفيه عن إبليس مأربا في نفسه من اجتذاب الجماهير، كما صنعه ذاك الجويهل المدعو «عمرو خالد»، ولا حول ولا قوة إلا بالله! الذي يسمع أمر الله ثم يرده وهو يعلم، يستنكر على ربه أن يأمره به من الأساس، هذا أي شيء يكون إن لم يكن «كافرا بالله»؟ وأي شيء يغني عنه علمه ويقينه بوجود الرب جل شأنه؟ نعوذ بالله من الجهل والهوى!

إليه كثير من إخواننا أصلحهم الله: إنه الافتتان بتلك البضاعة التي يأتي بها الملحد في الانتصار لدعواه. من جاءنا بالفلسفة رددنا عليه بالفلسفة ولا بد، ومن جاءنا بالفيزياء رددنا عليه بالفيزياء ولا بد، ومن جاءنا بدعاوىٰ أصحاب علم الأحياء رددنا عليه بعلم الأحياء وبنظريات أصحابه ولا بد، وإلا فما موقفنا وما جوابنا لو راح يزعم أن ديننا لا مكان فيه «للعقليات» ولا يتسع «للعلوم الحديثة»؟ ما موقفنا إن زعم أننا فقراء في بضاعة الفلسفة وبضاعة «العلم»؟ بل سنثبت له أن الفلسفة فيها برهان علىٰ وجود الباري، وأن ذلك العلم الحديث الذي فرح به الملحد فيه «الدليل» علىٰ أنه مخلوق! إنها نفس العلة الخفية التي أغرقت المتكلمين الأوائل في ضلالهم من حيث لا يشعرون، والله المستعان.

فإذا ما أغرق المتكلم في تلك البضاعة، وذاع صيته بها وظهر تفوقه فيها علىٰ أقرانه، زين له شيطانه وزينت له نفسه اعتقاد أن الإيمان لا يتم في قلوب البشر إلا من تلك الطريق التي ابتدعها هو (أيا ما كانت) وحررها في نظرياته وبراهينه. أو علىٰ الأقل ازدان في عين نفسه الزعم بأن طريقته تلك هي طريق الدعوة الأليق بهذا الزمان، وهي طريق السلامة من كل شك وريبة، وإن كان هو نفسه لا يأمن من الزوال عنها إلىٰ غيرها من مثلها غدا أو بعد غد، تبعا لتقلب نظره فيها وقبول نقد الأقران لها، والانتقال إلىٰ القول بغيرها، وكأنما نتكلم ها هنا عن طرق مقاومة «الشك» في صحة حكم من أحكام الغسل أو الطهارة مثلا، أو في ثبوت سنة قولية أو فعلية أو نحو ذلك، وليس في سبل مواجهة زعم رجل من السفهاء أنه يشك في أن له خالقا حكيما عليما من فوقه، وأن القضية تفتقر إلىٰ برهان ودليل!

نقول- ونكرر ولا نمل من التكرار- إن الشك في تلك القضايا الأولية الكبرىٰ ليس يقع في النفس من جهل حتىٰ يُعَلّم صاحبه، وليس هو افتقارا للدليل النظري حتىٰ يساق إليه (سواء من الفلسفة أو من العلم الطبيعي أو من غير ذلك من صناعات المعارف النظرية)، ولا هو مما يجده الإنسان من تقارب الأدلة في المسائل النظرية، فلا يدري أيقول بالقول أم بخلافه، ولا يترجح له أحدهما علىٰ الآخر، لقوة احتمال أن يكون أي منهما هو الحق! الشك في تلك المعارف البدهية الضرورية (غير المكتسبة) لا حقيقة

له إلا استرواح النفس - مما أصيبت به من المرض وفساد الفطرة - وميلها لأقوال لا يرتاب العاقل سوي النفس في فسادها (نوعا وعينا) طرفة عين. كالشك في وجود الله تعالىٰ ابتداءً، والشك في كمال الله تعالىٰ وفي ضرورة اتصافه بسائر الكمالات وتنزهه عن سائر النقائص التي لا تليق إلا بالمخلوقين، والشك في صحة ملة التوحيد التي جاء بها محمد ﷺ - تبعا - وفساد جميع ما يخالفها بالضرورة، ونحو ذلك مما يزعم أهل الأهواء ممن زعموا لأنفسهم الشك والارتياب في شيء من ذلك أن أدلة الحق فيه متقاربة لا يترجح لديهم منها شيء!

فإن هذه قضايا لا يحتاج العاقل إلىٰ التماس الدليل فيها أصلا حتىٰ يقال إن فيها قولان أحدهما أرجح من الآخر! فإن جيء مثل هذا بحجاج المتكلمين وطرائقهم في مجادلة الفلاسفة، لم يؤت إلا بما يجعل صورة المسألة نفسها علىٰ نحو ما زينه الشيطان لذاك المريض تحقيقا: أنها مسألة نظرية تحتاج إلىٰ استدلال ونظر حتىٰ يترجح فيها أحد القولين علىٰ الآخر، وأن بعض النظار قد يقوىٰ علىٰ رد هذه الشبهة ولكنه قد يقصر عن رد تلك (بطبيعة الحال، والقصور وصف لازم لبني آدم لا انفكاك عنه)، وهو ما يترتب عليه تزيين الدعوىٰ بأن مجموع ما عند الفلاسفة من ذلك يلزم أن يكون له مثقال عند النظر، وأن الإيمان لن يستقيم لصاحبه إلا إن جمع لنفسه الردود القوية (بمقاييس الفلاسفة) علىٰ جميع ما يمر أو يمكن أن يمر به من ذلك!

فإذا كان سبب الشك عند مثل هذا: تلبسه بما تلبست به الفلاسفة من ادعاء الدلالة المعرفية في جنس ما يأتون به من حجج وبراهين في تلك البابة (سواء كانت ميتافزيقية أو طبيعية)، فكيف وبأي عقل يكون دواؤه في أن يؤتىٰ ببراهين فلسفية مقابلة؟ هذا فساد منهجي ولا شك، لأن أصل العلة والمرض عند ذاك «المتشكك» إنما هو ماثل في كونه لا يسَلم بأن هذه القضايا بدهية فطرية ضرورية من الأساس، وليس في افتقاره إلىٰ البرهان العقلي علىٰ صحتها. والفرق بين الوجهين في غاية الأهمية والخطورة، بسببه افترقت طريقة الفلاسفة وأذنابهم من اللاهوتيين والمتكلمين عن طريقة الأنبياء المرسلين، فما جاءت طريقة المرسلين لأتباعها إلا باليقين وطمأنينة النفس وزلزلة

القلب حتىٰ يزال عن فطرة المخاطب ما تراكم عليها من الغبار، وما جاءت طريقة الفلاسفة لأصحابها والمفتونين بها (والمتكلمون داخلون في حكمهم قطعا) في نفس الأمر إلا بالشك والارتياب ومرض القلب، وزيادة طبقات التلاعب والتشويش علىٰ الحق الفطري الواضح، والحمد لله علىٰ نعمة الإسلام والسنة.

ولهذا لا ينتهىٰ من براهين المتكلمين إلىٰ يقين منصرم أبدا، ولا إلىٰ ما ترتاح إليه نفس الإنسان تلك الراحة التي من أجلها خلقت وعلىٰ طلبها جبلت، مهما زعم أهل الكلام أن طريقتهم هي الموصلة إلىٰ ذلك! كيف وقد أزال الفلاسفة الأصل القلبي والعقلي الذي يقف عليه ذلك اليقين في نفوس البشر من الأساس، ألا وهو المعرفة الفطرية الجبلية التي يولد كل إنسان عليها؟ كيف وقد جعلوا طريق المعرفة بتلك القضية التي تقوم عليها جميع مطالب الإنسان المعرفية وجميع مقاصده وأعماله في هذه الحياة الدنيا، طريقا نظرية استدلالية كسبية، تتنازعها استدلالات لا نهاية لجدل الفلاسفة عليها؟ إذا كان الجدال والمناظرة قائمين من الأساس علىٰ التسليم بأن الرأي والقياس الذي ننتهي إلىٰ قبوله اليوم، يلزمنا أن نقبل من الخصوم مبدأ الاعتراض عليه، وأن نجيز ظهور ما ينقضه؟ إذا كنا نعتقد أن جميع البراهين الدالة علىٰ صحة الأصل الأول الذي نقيم عليه المعرفة بسبب وجودنا في هذا العالم، ونبني عليه الإيمان الذي نرجو ألا نخرج من هذه الحياة الدنيا إذا خرجنا إلا ونحن عليه، إذا كنا نعتقد، أو علىٰ الأقل ندعي قبول فكرة أنها كلها قابلة للأخذ والرد مبدئيا، وأنها يرد عليها المعارض، ويتعين علينا أن نقبل من الفيلسوف اعتراضه عليها وإن لم نوافقه عليه، كما هو الشأن في أي مسألة نظرية يتصور فيها خفاء وجه الحق علىٰ بعض النظار، وظهوره لبعضهم الآخر، وإذا كانت هذه هي المنزلة المعرفية التي قبلنا أن تنزل إليها تلك المسألة بمجرد قبولنا الخوض فيها مع الفلاسفة علىٰ نحو ما خاضوا، فبأي عقل يتصور لأصحاب الاعتقاد الحق فيها أن يرتاحوا لما اعتقدوا وأن يحصل لهم من برد اليقين المنصرم فيها ما هم مطالبون في دينهم بألا يموتوا إلا عليه؟ من غرق في تلك الحمأة العفنة وذلك المستنقع المنتن مع أصحابه، كيف لمثله أن يرجو أن ينام ليلته في كل ليلة وهو علىٰ نفس الاعتقاد الذي قام من نومه وهو عليه؟ بل كيف يرجو أن يحصل في نفسه ما يصح

أن يقال له «اعتقاد» أصلا؟ وهل الاعتقاد إلا ذلك العقد الجازم للنفس علىٰ قول ما، بحيث ينوي إلا يموت إذا مات إلا وهو عليه، يصدقه أعظم ما يكون التصديق، ولا يرتاب فيه طرفة عين؟ فإذا كان منهج الكلام منهجا فلسفيا في النظر الميتافزيقي (وهو كذلك علىٰ التحقيق)، فليس والله إلا طريقا لهدم الاعتقاد في نفوس المؤمنين وليس إلىٰ بنائه كما يزعم أصحابه!

ولهذا، ولأنه اشترط علىٰ نفسه التسليم بصحة المنهج الجدلي السوفسطائي اليوناني، وبصحة مصادر تلقي المعرفة بالغيبيات فيه مبدئيا، فمهما وُفق المتكلم في دفع إحدىٰ «الشبهات الفلسفية» عمن ابتلي بها بأن بين له وقوع التناقض أو الخلل في ترتيب المقدمات التي تكلم بها هذا الفيلسوف أو ذاك أو تركيبها اللفظي والمنطقي، فهو مطالب بدفع أجوبة مخالفيه عن جوابه هذا بنفس الطريقة (وهم مجادلوه في جوابه لا محالة)، ثم الرد علىٰ رده، وهكذا دواليك، في سجال سرمدي لا خروج منه لأصحابه أبدا مهما امتدت بهم أعمارهم. وهذا وأيم الله هو مرض النفس وفساد العقل بعينه! وحتىٰ لو انقطع مجادله في هذه الشبهة (وهذا بعيد غاية البعد)، فلا يمكن أن يوفق في وأد ذاك الأصل الفاسد الذي منه خرجت تلك الشبهات كلها عند أصحابها (ألا وهو مطلق طرح البديهيات الأولىٰ للنظر العقلي من الأساس)، لأن طريقته في الرد هي نفس طريقة أصحاب تلك الشبهات في إيرادها بالأساس، ومصادر التلقي المعرفي التي اعتمدوها هي نفسها التي أخذ هو منها كما أخذوا، ومنهجه في الاستدلال والنظر عند الرد والجواب هو منهجهم، فلن يأتيهم بجواب إلا كان في ضمنه وفي مقتضاه الإقرار بصحة منهجهم في النظر في المسألة نفسها، فتأمل!

والقصد أن المتكلم يبقىٰ حبيسا في تلك الدائرة المغلقة المهلكة مهما حرر في يوم من الأيام حجة أو برهانا في هذه المسألة أو تلك، ظن أنه مما تطمئن له نفسه.

لذا قَالَ مَالك رَحمَه الله عن صاحب الكلام فيما روي عنه: «أَرَأَيْت إِن جَاءَهُ من هُوَ أجدل مِنْهُ أيدع دينه كل يَوْم لدين جَدِيد؟» يعني أن صاحب تلك الطرق الجدلية في أصول الدين لا قيام لأصول دينه هو علىٰ شيء من اليقين (المنتهي المنصرم) أبدا،

مهما زعم أن كلامه وحججه يوصل منها إلىٰ ذلك، لأنه لا يزال يتعرض في كل يوم إلىٰ جواب نظري عن كلامه من جنس كلامه نفسه، وبنفس آلة النظر، تتفاوت فيه براعة أصحابه في استعمال تلك الآلة، وفي استعمال المجمل والمتشابه من الألفاظ استعمال السوفسطائيين حتىٰ يظهر وكأن الحق في كلامهم، أو تظهر فيه براعة الفيلسوف في استخراج مواضع الزلل والغلط في تنظير المتكلم (والغلط لا يسلم منه إنسان أصلا)، فيقعد صاحبنا يفكر في تدارك ذلك وكأن دينه يتوقف عليه! فلأن المتكلم قد شرط علىٰ نفسه أن يؤسس اعتقاده علىٰ تلك الآلة وبتلك الطريقة نفسها التي يستعملها الفلاسفة في السفسطة علىٰ كل شيء، ملتزما في ذلك بشرطه في الإثبات، وبمصدر تلقي المعرفة الذي اعتمده في ذلك، صار دينه و«إيمانه» مشروطا علىٰ ذلك السفه والضياع، كالذي ربط ناقته بعمود من الهواء، ثم ذهب لينام وهو يرجو أن يصحو فيجدها حيث تركها!

فالمتكلم قد ألزم نفسه من قبل بأن يظل يقلب النظر في «أدلة الخصم» أو «شبهاته»[1] يجادل هذا وذاك في كل اعتراض يأتي به من مثل ذلك علىٰ كلامه، وبمثله يلتزم الخصوم كذلك، فلزم ألا يسلم لأحد منهم دينه من التقلب بين العقائد أبدا، وألا يكون إيمانه إيمانا منتهيا منصرما لا يرد عليه المعارض ولو نظريا، فلا يزال يدع دينه كل يوم لدين جديد ومذهب اعتقادي مغاير، في صفات الله أو في قضايا الغيب بعموم!

فما أحوجنا لاستجلاء ما أودعه الله في نفوس أئمة السلف الأول ﷺ من فهم رائق وبصيرة نافذة لمكمن الداء في تلك المسالك التي يقال لصنعتها «علم الكلام»، بعيدا عن زخرفة رؤوسه ومراء المفتونين به في الانتصار له، وما هم غارقون فيه من التفريق بين المتماثلات والتسوية بين المتفاوتات! فإن سلفنا ﷺ، يوم تركوا ذلك «العلم» وهجروا أصحابه ونهوا عنه وشددوا في النهي والنكير، ما كان ذلك منهم عن جهل أو قصور عقل أو سوء تصور، أبدا والله، بل من ثاقب فهم وعمق نظر ويقين صادق في كفاية ما جاء به رسول الله ﷺ وما تكلم به أصحابه وتلامذته في بناء الإيمان وترسيخ اليقين في نفس كل عاقل سوي، في أي زمان وفي أي مكان، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) وكل من لا يرى دليل خصمه مؤديا لمطلوبه من النظر، فهو عنده شبهة دليل وليس دليلا!

القوم لم يسكتوا عما سكتوا عنه من جهل أو قصور أو قلة «حكمة»، بل عن غاية ما يرام من العلم والحكمة، فافهم هذا!

لذا نقول: إذا طالبك «المتشكك» بدليل تثبت به قطعية ويقينية ما أنت عليه من اعتقاد في تلك الضروريات، فإن تكلفت نصيحته وأردت هدايته (والصواب وما كان عليه السلف: تركه وعدم الالتفات إليه لأن مثله لا يرجىٰ له الموت علىٰ طريق الهداية، من عظم ما في نفسه من الهوىٰ والفتنة، إلا أن يرحمه الله)، فلا تزد علىٰ أن تزجره زجرا وأن تبين له أنه مصاب بصنوف من الهوىٰ تعمي بصره عن رؤية الشمس في كبد السماء. فلو أنه نظر في نفسه متجردا من هواها لعلم أنك ما جئته إلا بالحق الفطري النقي الذي لا يحصل برد اليقين الصادق في قلب الإنسان إلا بالتأسيس عليه. أما أن تأتيه بحجة كلامية علىٰ طريقة الفلاسفة تريد بها إقناعه بأن لديك «دليلا نظريا» علىٰ صحة ما تيقنته أنت من أوليات الاعتقاد الغيبي وبدهياته الأولىٰ، فهذا عين ما تتوق إليه نفسه المريضة، حتىٰ يحايلها ويوهمها بأن القضية من جنس ما يُلتمس فيه الدليل النظري الذي قد يصيب صاحبه وقد يخطئ، ثم يذهب معك يمنة ويسرة في نقد «دليلك» هذا ويغرق في ذلك إلىٰ غير ما غاية، كما ذهب من قبله من ذهب من الفلاسفة، ولا يزداد في ذلك كله إلا عتوا وغرورا وتشويشا علىٰ الحق الجلي الظاهر.

ولا ينبغي أن يختلط الشك بالوسواس الذي يقع في نفس المؤمن أحيانا فيدفعه عن نفسه ويبرأ إلىٰ الله منه ولا يرجع إليه ولا يترسل معه، فإن المؤمن المطمئنة نفسه بالإيمان، الذي رسخت فيه محبة الحق وأهله وبغض الباطل وأهله، ما كانت نفسه لتنشرح بشيء من ذلك ولا لتصغىٰ إليه، وما كانت لترىٰ فيه شيئا يستحق الالتفات إليه أصلا، بل تنفر منه أشد النفور، وتستشنعه أشد الاستشناع، ويعد ذلك الاستشناع من علامات إيمانها كما وصفه الرسول ﷺ في الحديث إن من وجد ذلك في نفسه فقد وجد صريح الإيمان. فعن أبىٰ هريرة رضي الله عنه قال إن النبي ﷺ جاءه ناس من أصحابه فقالوا: يا رسول الله، نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به، ما نحب أن لنا الدنيا وأنا تكلمنا به، فقال النبي ﷺ: «أوقد وجدتموه، ذلك صريح الإيمان». قال الخطابي فيما حكاه

ابن بطال في شرحه علىٰ صحيح البخاري عند هذا الموضع: «يريد أن صريح الإيمان هو الذي يعظم ما تجدونه في صدوركم ويمنعكم من قول ما يلقيه الشيطان في قلوبكم ولولاه (أي الإيمان) لم يتعاظموه، ولم ينكروه ولم يرد أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، وكيف تكون إيمانًا وهي من قبل الشيطان وكَيده، ألا تراه (ﷺ) حين سئل عن هذا قال: الحمد لله الذي رد كيده إلىٰ الوسوسة.» اهـ.

فأما المسلم صاحب الوسواس فمثاله أن يأتيك قائلا: «أغيثوني، فإنني تحدثني نفسي بأشياء في غاية القبح والبشاعة فيما يتعلق بذات الله جل وعلا، لا أجرؤ علىٰ حكايتها ولا أدري كيف أمنعها من هذا!» وأما الزنديق صاحب الشك (إذ ليس صاحب الشك بمسلم أصلا)، فمثاله أن يقول: «أغيثوني، فقد صرت أجد نفسي عاجزا عن إثبات أن الله موجود، وعن الاقتناع بأن القول بتنزهه عن كل نقيصة أرجح وأقوىٰ في ميزان المعرفة والعقل من القول بخلاف ذلك، فهل من دليل فلسفي أو كلامي يُذهب عن نفسي ذلك الاشتباه؟» أو: «أدركوني، فما عدت أدري هل الإسلام هو الدين الحق أم لا!» أو: «لقد بات الشك يقتلني، فلا أجد من الأدلة ما يكف نفسي عن الشك في صحة التوحيد وعلوه علىٰ غيره من الملل!» أو نحو ذلك!

هذا ليس بمسلم أصلا، ولو ألقىٰ معاذيره! وأكثر أحوال من نتعرض لهم من بني جلدتنا من هذا الصنف أن يكون الواحد منهم مرتدا مفارقا ملة الإسلام بعد أن كان عليها، لا أن يكون كافرا أصليا، وهو ما يعني أن في نفسه – ولا بد – من أسباب الميل عن الإسلام والنفور من أهله، أضعاف ما في نفس من لم يسبق له أن كان مسلما من قبل. ولا عجب من أن يأتيك الملحد والمرتد وهو يصرخ مما في نفسه من عذابات وآلام تنغص عليه حياته، وقد مر بك تفسير ذلك فيما خلا من فصول هذا الكتاب، وأنه لا يدل بحال من الأحوال علىٰ أن صاحبه «طالب حق» أو صادق في طلب الهداية كما قد يتوهمه بعض حدثاء الأسنان، فإنه لا يقع ذلك «الشك» لإنسان عاقل علىٰ أي حال إلا من شدة ما أغرق فيه نفسه من قبل من الأهواء المهلكة، المائلة بالقلب إلىٰ الطمع في الثمرة العاجلة المترتبة علىٰ قبول ذلك الباطل المبين، تلك الأهواء التي قد انشرح

صدره بسببها للإلحاد وأهله تحقيقا وقضي الأمر، حتىٰ أصبح تكذب عليه نفسه وهو يصدقها، إذ يزعم أن الحق الظاهر البدهي قد اشتبه عنده بأشد الأقوال بطلانا فيما يعقله الناس، وما عاد يجد من «الأدلة» ما يحسم به موقفه، نسأل الله السلامة.

فالفرق بين ما يكون من الوسواس وما يكون من الشك (وكلاهما مما يقذفه الشيطان في النفس من حيث الأصل)، إنما يظهر فيما يترتب عليه من موقف النفس ومعالجتها للأمر. فالوسواس لا يعرض لنفس المؤمن إلا دفعه بقوة وحسم، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقال «آمنت بالله»، ثم إذا به يزول عن ذهنه ولا يرجع إلىٰ نفسه. فإن رجع إليه عاود المعالجة بنفس الطريقة مرة بعد مرة، وهو مطمئن تمام الاطمئنان إلىٰ فساده وبطلانه، لا يرد علىٰ ذهنه إلا استفحشه واستعظمه، وعلم أن وراءه شيطانا خبيثا يريد أن يضيق عليه وأن يحزنه.

فإن اشتد إلحاحه علىٰ نفسه، ووجد أنه لا يجد القوة علىٰ إسكاته والانصراف عنه، فليعلم أن ثمة سببا آخر لذلك الإلحاح في نفسه عليه أن يقف عليه وأن يقطعه وأن يبتعد عنه غاية ما في وسعه، وإلا كان بابا لميل تلك النفس إلىٰ الشك والإلحاد، نسأل الله السلامة. يجب أن يسأل المبتلىٰ بذلك السؤال الملح نفسه ويتأمل في سلوكه من يومه وليلته، وفيما يتعرض له من كلام الناس وأن يتأمل في أحوال من يخالطهم ويجالسهم من الناس، لا سيما المقربين إليه، وفيما يطالع وما يقرأ من مواد مكتوبة .. الخ، حتىٰ يرىٰ ما إذا كان في نفسه ميل لبعض ذلك وتعلق به، فإن الشك لا يدخل إلىٰ النفس إلا من الميل مع الهوىٰ الخفي، والغفلة عن ذلك الهوىٰ. فإن عرف ذلك، وجب عليه مفارقته وبتره وهجرانه من فوره، مع الاكتفاء بتذكر أن هذا الذي يريد الشيطان أن يشككه فيه، أمر بدهي ضروري لا يمكن إلا أن يكون حقا، وليس في العقل ما يحمل علىٰ خلاف ذلك أو حتىٰ يوهم به ولو من بعيد.

وأما إن عجز عن الوقوف علىٰ السبب في سلوكه وفي حياته، وكان يجد من نفسه كراهة تلك الحال والنفور منها، وظل الوسواس يلح علىٰ نفسه علىٰ الرغم من ذلك، فليعلم أن من الوسواس ما يكون ذُهانا سببه شيء من الخلل العصبي فيحتاج إلىٰ علاج طبي.

وفي جميع الأحوال فلا صاحب الشك ولا صاحب الوسواس (وإن كان قهريا متسلطا) يصلح في علاجه التعريض للحجج والبراهين الكلامية ونحوها، لأن ذلك إنما يأتي بنقيض ما يراد من إرجاع الأمر إلىٰ نصابه في تلك النفس من التيقن والاطمئنان إلىٰ ما لا يصح لعاقل أن يشك فيه، إذ يهتك مقام البدهيات الأولىٰ بما لا يكون إلا سببا في انفتاح أبواب الشك والاشتباه علىٰ النفوس لا العكس، كما أسلفنا.

أما مدافعة البدع المخالفة لعقيدة أهل السنة، فإنما تكون ببيان السنة (وهذا لا يأتي إلا بإيراد الأثر والنص الصحيح بما تتحقق به الكفاية) ونقض البدعة. ففي الأثر عن عمر أنه قال: «سيأتي أناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله». فأما إن كانت البدعة من جنس الاشتباه في تأويل النص أو إهمال بعض النصوص أو نحو ذلك (كما عند الخوارج وكثير من المرجئة)، كان بيان بطلان البدعة بحمل المتشابه علىٰ المحكم، وبإيراد ما جهله المخالف أو أهمله من الأثر والنص، مما يحصل الفهم الصحيح باجتماعه إلىٰ ما تمسك به، مع بيان ذلك الفهم السلفي الصحيح لمجموع النصوص من غير بتر ولا تعسف (وفهم السلف ومذاهبهم مما يُعتضد له بالمأثورات والمسموعات والمنقولات كذلك، وله من الأسانيد عند حملته ما لدواوين السنة نفسها). وأما إن كانت البدعة من جنس ما اخترعه المتكلمون في الدين من قواعد ونظريات كلية، كان بيان بطلانها ببيان مخالفتها الكتاب والسنة وافتقار أصحابها إلىٰ سلف من فهم الأولين للنصوص (وهذا ما سلكه أئمة السنة من مطالبة رؤوس البدع بسلف لهم فيما تأولوه من نصوص الصفات، وفيما قعدوه من القواعد في ذلك)، وبيان فساد الطريقة والمنهج الذي اتبعوه في اختراعها (وأعني هنا علم الكلام نفسه).

هذا وليُنتبه إلىٰ أن زوال الشك إن وقع (فيما يظهره بعض الناس) من أثر معالجتهم ببراهين الكلام وردوده وأجوبته عن دعاوىٰ الفلاسفة وأشباههم، فليس هو دليلا علىٰ صحة ذلك المسلك في مخاطبة من اختل الإيمان في نفوسهم، سواء من مطالعة دعاوىٰ الفلاسفة أم لغير ذلك من الأسباب. هذه مسألة لا يستدل فيها بالتجريب والمشاهدة

أصلا، وإنما يُستدل بمتابعة النبي ﷺ وما كان عليه من حال هو وأصحابه وما تعاملوا به مع مثل ذلك، لأن المسألة في ذلك تقرير لمنهج كلي، فإما أن يكون للمسلم فيه سلف معتبر تطمئن نفسه به لاتصاله بالصحابة والتابعين وتلامذة خاتم المرسلين، وإما أن يكون في ذلك قائلا برأيه المجرد، ضاربا بنظره المستقل، متابعا ما تميل إليه نفسه يمينا أو شمالا، مع كونه يتكلم في قضايا توقيفية تمس أعظم الأصول والكليات في دين الله تعالىٰ، نسأل الله السلامة. فبداية يقال هاتوا لنا من السلف الأول من استدل علىٰ صحة أي مسلك من مسالك الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ ومسالك إزالة الشك وترسيخ الإيمان ونحو ذلك، بالنظر فيما جربه القصاصون من ذلك وكانت له ثمرة وتأثير في العامة فيما يظهر لهم، قلّ ذلك التأثير أو كثر![1]

فلا يعترضن معترض علينا بأن طريقته قد آتت أكلها وأثمرت عن دخول المئين في الإسلام، أو رجوع كثير من المرتدين إليه، لأن هذا ليس دليلا علىٰ صحتها أصلا.

---

(١) هذا الخلل المنهجي المعرفي تراه أكثر ما تراه عند من يتخصصون في الرقية ومعالجة حالات المس والتلبس، إذ تراهم يقول القائل منهم في كثير من الأحيان إن هذه الرقية على هذه الصفة «مجربة»، وقد رأينا ثمرتها في العديد من الحالات التي مرت بنا، ويكون هذا هو دليل نفعها عندهم، مستجيزين ذلك التجريب ما لم يكن في الأمر شرك، مع أن الرقية من جملة العبادات التي يجب أن يكون الأصل فيها التوقيف على المأثور. ثم إن العامل السببي فيها غيبي متمحض في الغيبية، فكيف يصح اتخاذ التجريب والمشاهدة مستندا في معرفة ما ينفع وما لا ينفع من طرق هؤلاء في معالجة التلبس والمس الشيطاني؟ وتراه (أي ذاك التجريب) كذلك عند كثير من القصاصين والمشتغلين بالدعوة على حظ قليل من بضاعة العلم بدين الله تعالى، إذ ترى الواحد منهم يقول إنه قد رأى من طريقته في تقديم كذا وتأخير كذا (مما يخاطب به المشركين) ما يكثر بسببه (من طريق التجربة) دخول الناس في الإسلام، فلا مانع من استنان تلك الطريق وتحسينها وتزيينها لكل داعية. كأن يقول مثلا إننا وجدنا من نشر بعض مقاطع الفيديو أو المناظرات المسجلة بين بعض الدعاة المسلمين وبعض رؤوس الملل، كالنصارى وغيرهم، أو نشر بعض أبحاث «الإعجاز العلمي» أو نحو ذلك، ثمرة في دخول الناس إلى الإسلام أفواجا، فلا مانع من أن نبدأ معهم بمثل هذا. ألسنا قد جربناه و«نفع»؟ فلم لا؟

وهذه المسألة تدخل كما ترى تحت قضية منهج الدعوة هل هو توقيفي أم اجتهادي، ولا شك أن الحق في ذلك هو التوقيف لا الاجتهاد، لأنه طريق رباني مرسوم لولا أن سلكه المرسلون على نحو ما سلكوه لا غيره، بهذا الترتيب لا بغيره، وبتلك المداخل والأساليب في الخطاب والجدال لا بغيرها، ما جاءت الثمرة فيمن آمنوا من أقوامهم على وفق مراد الله تعالى من إرسال الرسل فيهم، فتأمل.

وقد بينا فيما مر معك المدخل الذي تدخل منه تلك المغالطة أو الاستدلال الزائف علىٰ نفوس بعض الدعاة، فلا داعي للإعادة.

ونقول في مقام الوعظ لكل عاقل: من حدثته نفسه بأنه قد جاء من عقله في شيء كتبه هنا أو هناك بما يستحق من أجله أن يصير إماما للمسلمين، فليتق الله في نفسه وفي المسلمين، وليسأل نفسه: هل مثلي يستحق أن يكون إماما مجددا لهذا الدين، يتخذه العامة رأسا وقدوة؟ هل حالي حال الأئمة أو حتىٰ حال طلبة العلم أولي الهمم الرفيعة في التحصيل والطلب لعلوم السنة والشريعة؟ من حسب أن قليلا من العلم الشرعي يكفيه حتىٰ يحسن التأليف والتصنيف ببيان الحق في كل شاردة وواردة تمر عليه من كلام المتفلسفين (علىٰ نهمته في مطالعته وقراءته والاستزادة منه لشيء خفي في نفسه)، فحري بمثل هذا أن يُزجر عن الكتابة والتأليف زجرا! فقد صدق عمر ﷺ إذ قال فيما أثر عنه في أصحاب الرأي المخالفين به السنة:

«أيها الناس، ألا إن أصحاب الرأي أعداء السنة أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا إذا سألهم الناس أن يقولوا لا ندري، فعاندوا السنن برأيهم، فضلوا وأضلوا كثيرا، والذي نفس عمر بيده ما قبض الله نبيه ولا رفع الوحي عنهم حتىٰ أغناهم عن الرأي، ولو كان الدين يؤخذ بالرأي لكان أسفل الخف أحق بالمسح من ظاهره، فإياك وإياهم ثم إياك وإياهم.» اهـ.

فلله درك يا عمر، قطعت جهيزة قول كل خطيب، وما تركت لمن بعدك شيئا! هذا والله تحليل نفسي كاف واف لأحوال أصحاب الكلام والرأي: إنهم قوم جهلاء بالسنة، بدؤوا طلب العلم فيها ولعلهم قطعوا في ذلك شوطا، ولكنهم استطالوا طريق العلم بها واستصعبوه، وكرهت نفوسهم جدا أن يصبروا حتىٰ يبلغوا المنزلة، إذ كرهوا أن يقولوا لمن يسألهم «لا ندري»، لكبر دخل علىٰ نفوسهم من حيث لم يشعروا، فتصدروا في الناس من تلقاء أنفسهم وضربوا بالرأي فجاؤوا فيه بكل بدعة! ولعل أحدهم أن يسوقه تعظيم السائلين له واستحسانهم لما يجيبهم به إلىٰ أن يوهم نفسه بأنه علىٰ علم، وأن له في ذلك شأنا عظيما، وإذا به يصبح رأسا في البدعة من حيث لم يحتسب!

ونقول: لو كان هذا قوله ﷺ فيمن ظهرت فيهم تلك الخصلة في زمانه، وهم بعد في القرن الأول، بعد موت النبي ﷺ بسنوات، فكيف لو رأىٰ - ﷺ - ما ظهر بعد ذلك بقرنين أو ثلاثة، أو ما ظهر بعده بسبعة قرون، بل كيف لو رأىٰ ما نعانيه نحن اليوم من ذلك؟ نسأل الله السلامة.

وما أكثر ما يتعرض حدثاء الأسنان في طلب العلم في زماننا لهذه الفتنة وما أكثر وقوعهم فيها، والله المستعان. ترىٰ الشاب منهم يقذف الله في قلبه محبة للدين ولبعض المشايخ، فيشرع في حضور دروسهم وفي الاستقامة علىٰ السنة، ثم سرعان ما تزين له نفسه وشيطانه اعتقاد أنه مطالب بدعوة جماهير الناس إلىٰ العلم الذي عنده وإن كان قليلا. فيبادر من نفسه من غير ما إجازة من أحد من العلماء (وإلا فبإجازة مثله من أدعياء العلم الشرعي الدخلاء عليه)، إلىٰ الإفتاء والتدريس وعقد حلق العلم ونحوها، ولا يدري أن التصدر علىٰ هذا النحو يجعل منه مرجعا علميا للناس (لا سيما العامة الجهلاء)، ويجلب عليه من ذلك ما يزيد ابتلاءه بهذه الخصلة في نفوس الناس: كراهية أن يظهر جهله وقلة علمه، وأن يقول لكل سائل «لا أدري»!

ويا لها من فتنة له لا يعلم عظمها إلا الله، لو رأيت العامة تتعلق بأسلوبه وبيانه وتحب سماعه والتلقي عنه، وتزداد تجمهرا عليه وتجمعا حوله! حينئذ يصبح الأمر أشق علىٰ نفسه أضعافا مضاعفه، ويراه مطالبا باستعجال نفسه إلىٰ إبراز الآراء وتقريرها فيما يحسب من جهله أنه «اجتهاد» شرعي مستوف للشروط والضوابط، مع أنه ما استغرق منه إلا سويعات أو أقل، ليجيب بتلك الآراء الفطيرة المتعجلة (لا محالة) علىٰ ما يأتيه من السؤالات من هنا وهناك، وليفتي بها في كبرىٰ النوازل والملمات، ونفسه تزين له أن مثله ممن تستمع له الناس وترتضي قوله لا يجوز له السكوت في مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ويا لها من فتنة أكبر منها بأضعاف كثيرة لقلبه ونفسه العليلة عندما يشتهر ويذيع صيت ذلك المسكين وتلقبه العامة بالعالم والعلامة ونحو ذلك، لا يستندون في خلعهم اللقب عليه إلىٰ شيء أكثر من محبتهم لكلامه ولطريقته وما يظهر لهم من ورعه وديانته، وهي مغالطة أخرىٰ من جانب تلك العامة مردها إلىٰ الجهل

والهوىٰ عندهم كذلك! فتراه لا ينكر عليهم ذلك الجهل، ولا ينهاهم عن تلقيبه بهذا اللقب (جازما عازما في النهي)، وإن فعل في سياق من السياقات فلا يفعله في غيره، بل لعله تستحسن نفسه ما يراه من تلقي مريديه ومحبيه لمثل هذا النكير نفسه إن ظهر منه، وظنهم أنه آية من آيات تواضعه، والله المستعان!

إنني أكتب هذا الكلام الآن وأخاطب به بواطن نفوس الكثيرين من المشتغلين بالبحث الشرعي، وأنا أقطع بأن أكثرهم سيقرؤون هذا الكلام ثم تحدث الواحد منهم نفسه بقولها: «لست أنا هذا الرجل ولله الحمد! فأنا أتحرىٰ النية والإخلاص قبل كل عمل، ولا يمكن أن تكون عندي هذه الخصلة وأنا لا أدري!» وأنا أقول له: بل إعلم أنك ما دمت قد حدثت نفسك بمثل هذا، فهي عندك يا عبد الله يقينا! فأعد مراجعة حالك وتأمل في نفسك المرة بعد المرة، وانظر في كثير مما أجزت أنت لنفسك أن تتكلم فيه من مسائل العلم، كم كان مقدار تحصيلك فيها وكم طالعت من كتب ومصنفات العلماء والأئمة فيها، وكيف عرفت أنك بذلك القدر قد استوفيت المطلوب (بل المشروط) في ذلك؟ سل نفسك هذا السؤال واصدقها الإجابة، فإنك إن كذبت علىٰ نفسك وقبلَت هي منك كذبك واطمأنت له، فاعلم أنك لن تكذب علىٰ الله.

نعم، سبيل العلم الشرعي سبيل طويلة شاقة مرهقة للغاية، تحوج إلىٰ كثير من الصبر والاصطبار، وقد يجاز الطالب من معلمه بعد أن يقطع في العلم شوطا وقد لا يجاز، ولعله أن يندبه شيخه إلىٰ الانشغال بغير العلم الشرعي جملةً واحدة، بعدما حصّل منه القدر الواجب المتعين عليه كفرد من عامة المسلمين، لأنه (أي معلمه) لا يرىٰ التخصص في العلوم الشرعية بالبحث والتأليف والتعليم وعموم التصدر فيها مما يناسب حاله ويليق بخصاله. أما طريق التفلسف العقلي وابتذال الرأي والاستقلال به وتوليف القواعد والنظريات علىٰ حظ قليل من القراءة والسماع، فطريق سهلة ميسورة للغاية، كل أحد يحسنها (في عين نفسه علىٰ الأقل)، ولا تحتاج إلىٰ الصبر عليها أو المكث في الإعداد لها لسنوات طويلة! وإبداء الرأي والتحديث به والتنطع فيه أمر تحبه النفس وتهواه أصالة، وتكره أن تمتنع عنه إذا ما طلب منها ويشق عليها ذلك جدا.

فكم منا معاشر البشر من إذا خلت نفسه عن رأي أو تصور في مسألة من المسائل، اعترف بكل صراحة إذا ما سأله سائل عنها بأنه لا رأي له فيها؟ هذا والله في الناس أندر من الكبريت الأحمر، ولا يحتاج ذلك إلىٰ إثبات بالدليل الإحصائي أو نحوه فهو أمر مشاهد معلوم لا يخفىٰ علىٰ أحد! (١)

فهل يغامر ذاك الرأس المقدم بين العامة بأن يظهر أمام سائله أنه جاهل أو ضيق العلم أو قليل «الثقافة» والاطلاع؟ حاشا وكلا! بل يجب أن يحضُر الرأي لديه حالا وفورا! هكذا تحركه دوافعه الباطنة من حيث لا يشعر.

ولهذا ترىٰ بعض طلاب العلم اليوم، ممن لم تكن بدايتهم في الطلب علىٰ أيدي علماء المنهج السلفي الصحيح، يتسرب إلىٰ نفس الواحد منهم استحسان أن يقال له «المفكر الإسلامي»، وأن يخاطَب بلقب «الأستاذ» في كل مناسبة. هذا عنده أحب من أن يقال له «الشيخ» ونحوها، لأن «الشيخ» هذا لقب لعله يقال لكل من تدلت علىٰ وجهه لحية (في واقع مجتمعه) وإن كان عاميا جاهلا، وهو يرىٰ ذلك ويكرهه قطعا. أما «الأستاذ» و«المفكر» فلا تطلق إلا من «صفوة المثقفين» علىٰ أمثالهم ممن عُرف عنهم

---

(١) ومعلوم أن المجتمعات التي يسود فيها فكر الديموقراطية والتعبير الحر، يصبح من المستحسن فيها للإنسان اجتماعيا – بصفة عامة – أن يكون له رأي حاضر في كل شيء، في كل وقت وفي كل حين، وأن يكون على استعداد لإبداء ذلك الرأي والتعبير عنه في أي وقت وفي كل محفل من محافل الناس، ليس هذا وحسب، بل الانتصار له والمدافعة به فيما بينهم، لا سيما فيما يتعلق بالسياسة وأمور العامة. فالثقافة الديموقراطية لا تشترط في العامي الجاهل أن يكون خبيرا في أي باب من أبواب العلم حتى يُحترم صوته في التشريع أو في اختيار أفراد المجالس التشريعية، أو في اختيار من يحب أن يكون إمامه وزعيم بلاده، أو في موقفه في أي قضية من قضايا السيادة والحكم عامة. بل هي تريده أن يبقى على حاله، لا صفة له في ذلك إلا أنه «مواطن حر» تكفل له «مواطنته» الحق في ابتذال الرأي وإبدائه والانتصار له، وإن كان كلامه هو محض الجهالة! وكذلك لا يشترط فيه شيء إن أراد أن ينشر ذلك الرأي ويجمع عليه الناس من حوله حتى يتخذ منهم عصبة أو حزبا أو تكتلا أو جماعة أو ائتلافا أو نحو ذلك من صور التحزب الجاهلي. بل ما أن ينشأ شيء كهذا (ولو كان أصحابه لم يجتمعوا إلا على التعصب لفريق كرة قدم أو لعبة من الألعاب مثلا!!) وتصبح له شعبية أو مكانة بين بعض الفئات، حتى يتعين على الدولة أن تحترم عصبتهم تلك أو حزبهم ذاك وأن تفتح له الباب ليكون له تمثيل سياسي حزبي في الدولة إن أراد ذلك، وأن يشارك في التشريع العام إن نجح في جمع الناس من حوله بما يكفي لإدخاله إلى مجالس التشريع، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اشتغال بفلسفات الغربيين وعلومهم الحديثة، فهو لقب مرتبط بالعلو العلمي والمعرفي بين الناس، الذي هو أمر تحبه النفس وتتطلع إليه قطعا[1].

فصار استحسان ذلك اللقب تزينه نفوس هؤلاء لهم من حيث لا يشعرون. فترىٰ الواحد منهم بعد أن كان أكثر كلامه قال الله وقال الرسول، يميل إلىٰ أن يحشو كلامه بقال فلان وفلان من فلاسفة الغرب ومفكريهم، ثم يحشر بعض المصطلحات الفلسفية من هنا وهناك، وهو يرىٰ نفسه بذلك قد جاوز القنطرة، وعلا علىٰ الأقران وتبرأ من تلك الصورة الذهنية العامة المنطبعة في أذهان كثير من السفهاء بأن عامة طلبة العلم الشرعي «دراويش» وأنهم «جهلاء» بالعلوم والفلسفات الحديثة، وأنهم لا ترقىٰ عقولهم «لفك طلاسمها» أصلا! وكلما أغفلت الواحدَ منهم نفسُه عن الغاية والقصد الشرعي من وراء ما يكتب، ومالت به إلىٰ طلب المزيد من الاستحسان من حيث لا يشعر، زاد بعدا عن قصد السبيل فيما يكتب، واقترابا من طرائق الفلاسفة والسوفسطائيين المحشوة بالزخرف اللفظي الطويل الأجوف، الخالية من نور الوحي وبهاء الأثر.

ثم إذا بذاك المفتون تزدان له معان كان من قبل يراها بدعا منكرة، يتدرج في ذلك خطوة بعد خطوة، وتأخذ نفسه في التهوين من أمور كان من قبل يراها عظيمة خطيرة،

---

(١) ونظير ذلك ما تراه في لقب «عالم» بين العامة في هذا الزمان. فاليوم لم تعد تلك الكلمة تطلق عند كثير من عامة المسلمين على المشايخ أولي الكعب العالي في علوم الشريعة (أعني في ثقافة العامة وعرفهم)، ممن شهد لهم أهل العلم بأنهم من علماء الملة، وإنما تطلق على الخبير المبرز في العلوم الدنيوية عامة، وفي الطبيعيات خاصة. وترى كثيرا من السفهاء يكره للعالِم الشرعي نقص درايته بشيء من تلك العلوم (لا سيما الإنسانيات)، ويعظم في نفسه جدا - في المقابل - أَن يرى من المشتغلين بالعلم الشرعي من يجمع إليه علما دنيويا، ويحسن الخوض في ذلك العلم بصورة ما أو بأخرى. وهو المدخل الذي منه تزينت في نفوس بعض الناس من غير المنتسبين إلى العلم الشرعي (في الأغلب - فيما لاحظت) مع براعتهم في بعض العلوم الدنيوية، أن يقحموا أنفسهم في علوم القرآن والتفسير ليقدموا للناس أبحاثهم فيما يسمى بـ«الإعجاز العلمي»، وهم على ثقة من أن سوقهم في الناس ستكون أكثر رواجا لا محالة من سوق من اقتصروا على العلم الشرعي وحده، ودعوا الناس إلى دين الله بـ«الطرق التقليدية»! واليوم ترى منهم من يقال له «البروفيسور العالم» فلان، وتروج كتبه في التفسير وعلوم القرآن على أنه «عالم»، مع أنه ليس عالما في الشريعة ولا في التفسير ولا نصف عالم حتى، ولكنها منزلة العلم الدنيوي عند الناس في زماننا هذا، هي التي رفعته عند العامة إلى تلك الدرجة، والله المستعان.

ليس لأنه قد تبين له وانكشف لنظره ما كان يخفىٰ عليه من قبل من قوة دليل القائلين بها، ولكن لأن نفسه مالت به إلىٰ محبة ما عليه أصحاب تلك البدع والأقوال الحادثة المنكرة من أحوال دنيوية ومنازل بين «المثقفين والصفوة الفكرية» في مجتمعه، وباتت تطمع في استجلاب تعظيمهم واستحسانهم في كل مناسبة، وباتت تكره – في المقابل – الامتناع عن كثير مما يشدد مشايخه في النكير عليه. وصار يرىٰ نفسه أجرأ وأقدر علىٰ المجادلة العلمية ممن منعوه منها في كثير من المسائل، وهو يرىٰ في تلك «الصفوة المثقفة» من يستحسن ذلك منه في كل مرة، فلا يزداد إلا ميلا إليهم وتشوفا للمزيد من ثنائهم. وتراه بعد أن كان يتترس بالإجماع في مسألة ما – مثلا – ينتقل إلىٰ موافقة القائلين بعدم ثبوته فيها، من غير أن يكون انتقاله ذاك تبعا لدليل معتبر ظهر له، وبعد أن كان لا يسوِّغ قول المخالفين فيها تراه ينتقل إلىٰ تسويغه. وقضية تسويغ الخلاف من عدمه هذه كثيرا ما يدخلها الهوىٰ الخفي في الجهتين، في جهة الإفراط كما في جهة التفريط، والله المستعان. فإذا اجتمعت علىٰ نفسه أكثر من مسألة يراه كارها لموافقة ما عليه العلماء من القول بالإجماع فيها، زينت له نفسه النظر في الإجماع نفسه من حيث هو مصدر من مصادر التشريع في ديننا، ورمي المتعلقين به في مجموع تلك المسائل بأنهم متشددون مقلدون يغلِّقون أبواب الاجتهاد الفقهي تغليقا! وتراه يميل إلىٰ مذهب نفاة الإجماع من المتكلمين ومن لفّ لفهم، فيبدأ بنفي بعض أنواعه وأقسامه التي كان يثبتها من قبل أولا، ثم يتدرج إلىٰ نفيه بالكلية، إلا ما كان ثابتا عن الصحابة، ثم ينتقل إلىٰ نفي ذلك أيضا والطعن علىٰ أدلته، إن أعياه الوقوف علىٰ سلف له من القرن الأول في بعض ما صارت تميل إليه نفسه من الأقوال!

ثم ينزل دركة أخرىٰ فتراه ينكر علىٰ أهل السنة اعتقادهم بأن ثمة طائفة واحدة من طوائف المسلمين يجتمع في أصولها ومنهجها الحق الكامل دون غيرها من الفرق والطوائف، ويتلقف أقوال من طعنوا في صحة قوله ﷺ «كلها في النار إلا واحدة»، كما تسلكه بعض المتكلمة والعقلانيين من المعاصرين عبثا وتخرصا. وتراه يلزم أهل السنة بما لا يلزمهم كدعوىٰ الحزبيين انحصار أهل السنة في جماعة من الجماعات هنا أو هناك، أو في دعوىٰ الجهلاء انحصارها في شيخ بعينه وتلامذته من مشايخ المملكة

أو غيرها، وهو يعلم أن أولئك المشايخ لا يقولون بهذا ولا يقرونه بل يعدونه محض التعصب الجاهلي عند من يقول به. ثم لا يلبث أن تظهر عليه موافقة الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين في بعض مذاهبهم، بل موافقة الرافضة المشركين والتهوين من الخلاف معهم والسعي في تسويغه، طلبا لمزيد من القبول عند من يرجو العلو بينهم. ثم لا يبعد أن ترىٰ مثل هذا وقد انقلب بين عشية وضحاها إلىٰ الردة والزندقة والتشكيك في مصادر التلقي لدين الله رأسا، ثم الانتصار للإلحاد صراحة كما وقع لأحدهم من قريب[1]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فتأمل كيف يسهل ويقرب جدا أن ينزلق الإنسان بتزيين النفس والشيطان من أعلىٰ عليين إلىٰ أسفل سافلين بمتابعة الهوىٰ وميول القلب، وما قصة إبليس اللعين عنا ببعيد! ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [**الأعراف**: ٩٩] كل هذا من أي شيء يبدأ ومن أي ميل قلبي ينبع عند صاحبه؟ ينبع من كونه - كطالب علم - بعد أن كان من قبل يُضَيِّق عليه كثير من هؤلاء بأنه «متشدد» و«متطرف» و«ضيق الأفق» و«لا يرىٰ إلا من منظور شيوخه»، إلىٰ آخر ما يتكلم به الزنادقة والفساق مما كان يثقل علىٰ نفسه أشد الثقل، أصبح يجد منهم - لتغير موقفه في هذه المسألة أو تلك - ترحيبا وقبولا، وهو أمر يحبه للغاية ويطمع فيه، ويراهم يعدونه لاختياراته فيما مالت به نفسه إلىٰ الكتابة فيه، من جملة «المفكرين» البارعين الذين يخدمون الدين بكل نافع مفيد من فلسفات ونظريات العلوم الحديثة، خدمة لا يطيقها إلا من برع في دراسة تلك النظريات والفلسفات كبراعته، وتمكن منها كتمكنه! وهل يهلك الإنسان إلا مما تبطنه نفسه من محبة وميل للعلو بين الأقران، وكراهة وبغض لخلاف ذلك؟ وهل حقيقة الاستكبار والغرور في نفوس أصحابه إلا هذا؟ لذا قال سلفنا وأئمتنا إن من ترك زمام نفسه من غير ضبط ومراقبة وفحص ومعالجة، أوردته المهالك، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) انظر إن شئت قصة «عبد الله القصيمي» وانتقاله من التميز في طلب العلم الشرعي إلى الإلحاد والزندقة، واعتبر من تلك القصة، نسأل الله السلامة. وتأمل كذلك في ميل الشيخ حاتم بن عارف العوني، هداه الله، عن منهج أهل السنة (فيما كان يظهر) إلى التفويض الأشعري وإلى محاربة أهل السنة والدعوة الوهابية، مع الثناء على الصوفية والرافضة وغير ذلك، بعدما كان معدودا من «علماء» الحديث، والله المستعان.

فصل في داء الاغترار بالفلاسفة

تقدم معنا بيان الكبر العظيم ومحركات الهوىٰ التي تتحرك بها نفوس فلاسفة الملل والنحل (وعلىٰ رأسهم فلاسفة الإلحاد بفروعه ومذاهبه ومدارسه)، في تلبيس وتزيين الباطل والتناقض المعرفي العظيم الذي يعانيه كل واحد منهم في نفسه وفي بنيانه المعرفي الفردي. وفي هذا القسم نبين مسالك عامة المثقفين وأشباههم في مخادعة النفس وتزيين حالها بالرجوع إلىٰ آحاد الفلاسفة أو إلىٰ مجموعهم وما يجري فيما بينهم من نزاع لا أول له ولا آخر.

وأول ما نبدأ به في هذا المقام، تكرار ما قررناه آنفا من كون فلسفة الأديان (أو فلسفة الدين) سواء في الإلهيات خاصة أو في الغيبيات بعموم، صنعة أكاديمية متمحض أصحابها - بطبيعة موضوع الصنعة نفسه - في الهوىٰ من أولهم إلىٰ آخرهم! فجميع أربابها هم من أصحاب الملل الباطلة (وهم سائر رؤوسها في الوسط الأكاديمي الغربي المعاصر) التي عرف العقلاء الصادقون من أول وهلة أن أصولها مناقضة لبدهيات العقل الأولىٰ. أكثرهم يتفلسفون انطلاقا من اعتقاد أنه ليس في الوجود إلا الطبيعة، والبقية تتفلسف من منطلق عقيدة التثليث والفداء! ولذا فأول صور الهوىٰ التي تحرك كل واحد من هؤلاء لا بد وأن تكون هي حرصه علىٰ المدافعة عن نحلته الدينية أو الفلسفية الباطلة والانتصار لها أيا ما كانت، والمنتصر للباطل في قضايا لا يخفىٰ بطلانها علىٰ عاقل سوي النفس، ليس بعاقل أصلا، وإن كان من أكابر فلاسفة الأرض في زمانه، ومن أذكىٰ من ولدتهم بطون النساء في طول التاريخ وعرضه.

والله تعالىٰ نفىٰ في القرآن اسم العقل بالكلية عن عامة المشركين المعرضين عن دعوة الحق لبقائهم علىٰ الشرك من بعدما جاءتهم حجة المرسلين، فما بالك بقوم تخصصوا - علىٰ الرغم من ظهور وجلاء تلك الحجة - في فنون الجدل والسجال السوفسطائي للدفاع عما هم عليه من صور وألوان الشرك (ما بين الوثنية والإلحاد)، كل

حزب بما لديهم فرحون؟ لذا كان أهل تلك الصنعة النظرية هم أحق الناس بما جاءنا في الأثر عن سلفنا الصالح ﷺ من ذمّ الفلاسفة بإجمال.

دع عنك حرص كل واحد من هؤلاء علىٰ العلو في منافسة الأقران والظهور عليهم قبل الظهور علىٰ المخالفين، من طريق التفنن في إبداع واختراع المزيد من الردود والأجوبة والحجج والمدارس الفلسفية الجديدة في إطار ذلك القالب الصوري «الفورمالي» Formalistic/Analytic approach للمحاججة المنطقية الذي يلتزمه القوم في عامة تصانيفهم، مع طمعه في أن يصبح رأسا من رؤوس النظر الفلسفي وإماما متبوعا في ذلك، كما بيناه في القسم السابق. هذه الخصال يتحصل من مجموعها ألا يزداد أصحاب تلك الصناعة بالذات مع كل تصنيف جديد يضيفونه إلىٰ مكتباتهم إلا بعدا عن الحق وشططا في الباطل وتعمقا فيه، وهو ما نراه في حالهم واقعا لا يخفىٰ.

لهذا اشتهرت تلك الصنعة الأكاديمية بين الناس بأنها لا يقع الإجماع في أي مسألة من مسائلها علىٰ قول واحد بين المشتغلين بها أبدا. فليست هي «صنعة معرفية» في الحقيقة، علىٰ ما يجوز إطلاقه من اسم علىٰ أي فنّ من فنون العلم التخصصية المعتبرة في عرف الناس، وإنما هي أشبه ما يكون بملعب أكاديمي كبير، ينزل إليه هواة الجدل والتنطع بالنظر ومحترفوه من أهل الملل والنحل الفلسفية (علىٰ الاختلاف العظيم فيما بينها جميعا في قضايا الغيب الكبرىٰ)، لا لشيء إلا ليتباروا في فنون المراء والتلاعب بالدعاوىٰ العقلية والدعاوىٰ المضادة، والسفسطة والسفسطة المضادة، وهم يعتزمون المكث في ذاك الملعب ما طالت بهم أعمارهم! فلا يخرج كل واحد منهم من كل مباراة تُعقد في ذلك الملعب إلا وقد ازداد زهوا وفرحا بنفسه وغرورا بقدرته الباهرة علىٰ استخراج مواضع الاشتباه والخلل في كلام خصمه، وإلزامه بتغيير صياغته «الفورمالية» المنطقية لدعواه إلىٰ صيغة أخرىٰ جديدة، أو إهمالها بالكلية والتفنن في اختراع غيرها، أو التفنن في صياغة حجة جديدة بالكلية للانتصار لدعوىٰ غيبية ساقطة متناقضة أشد التناقض، حق مثلها عند العقلاء أن تداس بالأقدام لولا ما لها من أنصار في ذاك الملعب العبثي الكبير! أو لعله يخترع لنفسه ولموافقيه ملة أو نحلة جديدة بالكلية، يسميها اسما

يناسبها، ثم يمضي عمره كله في الانتصار لها والرد علىٰ مخالفيها، وهو يرجو أن يدخل التاريخ علىٰ أنه مؤسس هذه المدرسة الفلسفية أو تلك، كما دخله كبار الفلاسفة من قبله! فتراه لا يزداد بمضي الوقت إلا فرحا بإعجاب الأقران والأتباع به وبطريقته في ذلك، وإن كان من أشد الناس ضلالا وعتوا في الباطل وبعدا عن الحق في أصول اعتقاده الغيبي!

هذه الحال البائسة لتلك الصنعة العقلية الساقطة كانت سببا في سلوك عامة أهل الأهواء من الملاحدة وغيرهم من المشركين (من غير المتخصصين فيها والمشتغلين بها) طريقا من طريقين في التعامل معها:

- إما الانتقاء بالهوى من بين الأقوال والمذاهب والمدارس والآراء التي قال بها بعضهم هنا أو هناك، لإشباع شهوة النفس في التعلق بما عند صاحب القول المنتقى من دعاوى فلسفية وحجاج ولجاج يُذرُّ بمجموعه الرماد في عيون المخالفين، فإن لم يعقل أكثر تلك البضاعة ولم يبلغها بفهمه، اكتفى لنفسه بالتترس بموافقته لفلان أو فلان من كبار الفلاسفة، وزينت له نفسه تصور أن تلك الموافقة تسوغ له البقاء على ذلك الباطل العظيم الجلي الذي يعلم أنه باق عليه في أصول اعتقاده الفردي. (أ)

- وإما التذرع بالحال الإجمالية لأصحاب تلك الصنعة من الخلاف والنزاع الطويل المتشعب في كل شيء، ومن عجزهم عن التوصل إلى اتفاق – أو قريب منه – على قول واحد في أي مسألة من مسائل الغيب الكبرى التي يختلف أهل الأديان والملل فيها، لا سيما في باب صفات الباري جل وعلا. فترى أحدهم يتخذ من ذلك الخلاف درعا نفسيا تسويغيا للتعلق بأهداب أصحاب النحلة الطبيعية الذين يكفرون بالغيب كله جملة واحدة (أو الميتافزيقا على اصطلاحهم)، ولا يرون طريقا لتحصيل المعرفة المعتبرة في شيء من القضايا

الوجودية والأسئلة الكبرى إلا طريق الاستقراء التجريبي الطبيعي (الذي يمنع العقل أن يكون له دخول فيما وراء الطبيعة نفسها من الأساس!) بعيدا عن طريقة أصحاب تلك الصنعة الميتافزيقية.(ب)

هذان المسلكان النفسيان في الاغترار أو التذرع بالفلاسفة وأحوالهم يظهران في كلام الملحد عندما تسمعه يقول (علىٰ سبيل المثل): «هذه الدعوىٰ التي تزعمونها دعوىٰ كلاسيكية قديمة وقد رد عليها الفلاسفة المتأخرون والمعاصرون وأشبعوها ردا، وألفوا في ذلك مجلدات ومجلدات!» أو يقول (كما قاله شون كارول الكوزمولوجي الأمريكي المعروف في بعض مناظراته): «الكلام عن السببية والعلة الأولىٰ وهذه الأشياء، إنما هو من بقايا ميتافزيقا أرسطو الساقطة، وأما الآن فنحن نتكلم بلغة المعادلات التفاضلية!»، أو يقول «لو كان الحق في هذه القضية واضحا جليا فطريا كما تزعمون، ما وُجد من يخالف عنه من الفلاسفة، وما ظهرت مدرسة كاملة في ذلك يقال لها كذا وأخرىٰ يقال لها كذا!» أو يقول: «لو جئتموني بجواب مقنع لحجة فلان واعتراض فلان، فسأسلم لكم بأن لديكم دليلا عقليا معتبرا يدعم قولكم بوجود من خلقني وسواني وأقامني في هذا العالم!»[١] أو يقول: «لا أرتضي هذا الكلام السطحي الساذج الذي تزعمون أنه حق في نفسه ولا يحتاج إلىٰ دليل، فقد انقلبت تلك الطاولة علىٰ أسلافكم من دعاة الأديان والإيمان الغيبي من قديم، ولا رجوع إلىٰ تلك العصور المنحطة علميا وفكريا وفلسفيا مهما عملتم!» أو يقول: «المنطق العقلي لعبة لا قانون لها، فلا تلزموني بما لا أجد فيه فضلا لأحد علىٰ أحد!» أو يقول: «ما تسمونه أنتم فطرة أسميه أنا تقليدا أعمىٰ!» أو يقول: «لا تخاطبوني إلا بأدلة العلم الحديث ومكتشفاته، أما الفلسفة والدعاوىٰ العقلية والمنطقية بعموم فآراء شخصية لا حق فيها ولا باطل».. الخ.

(١) ولا والله ليس بزائل عن إلحاده ولو جئته بملء الأرض أجوبة، ولكم في أحوال فلاسفة القوم في «ملعبهم» ذاك عبرة يا أولي الألباب، فما لغير هذه العبرة كتبت هذا الباب! الذي يخالف في البديهيات الواضحة ويدعي خفاءها عليه، ليس جوابه أن يقدم له البرهان النظري لإثباتها أو لتوضحيها، وإنما جوابه أن يوعظ ويخوف من عاقبة ما هو عليه لعله يفيق!

فبأي شيء يخادع الواحد من أصحاب هذا الكلام ونحوِه نفسَه؟ يخادع نفسه بتلك الزخارف اللفظية الباهرة والتعقيدات المنطقية المنمقة التي يتكلفها أصحاب تلك الصنعة العبثية في التأسيس والنقض والتحرير، فلا يزدادون بكل زيادة فيها إلا بعدا وإغماضا وإغراقا في الضلالة. فكلما وجد حججهم وصياغاتهم أصعب في الفهم وأعسر في التتبع، وأكثر طولا وتعمقا وتشعبا، زين له شيطانه وزينت له نفسه تصور أن الأمر ليس بهذه السهولة ولا بهذا الوضوح الذي يزعمه أولئك الذين يسلِّمون بصحة عقائد الموحدين في رب العالمين تسليما تاما من غير ما نظر، وأن فك طلاسم تلك الحجج الفلسفية المتكلفة الصعبة شرط ضروري لكل عاقل حتىٰ تسلم له تلك الدعاوىٰ التي نزعم نحن أنها من بديهيات العقل الأولىٰ ومسلماته، من أي معارض يستحق الالتفات إليه.

وهذا والله من أعظم حيل الشيطان ومن تمام حكمة الله تعالىٰ في ابتلاء البشر بعقولهم كما أشرنا في موضع آخر، إذ تزدان السفاهة المحضة في عين من له فيها هوىٰ وغاية، وتصبح حججا وبراهين عقلية قوية حقيقة بأن تناقش وأن يطالب أتباع المرسلين بالرد عليها، قبل أن يزعموا أن رسلهم قد جاؤوا بالبينات والهدىٰ والكتاب المنير.

مع أن تلك الشقشقات الجوفاء ما مثلها إلا كمثل من سأله رجل عن معنىٰ كلمة لا يفهمها، فبدلا من أن يأتيه بالمرادف القريب إلىٰ استعمال الناس ويفي بالمطلوب، أبىٰ إلا أن يجيبه بالسؤال السخيف: أجيبك إن بينت لي ماذا تقصد هنا بكلمة «معنىٰ»، فإن أجابه السائل بشيء، قذف في وجهه باشتباه لفظي في جوابه وطالبه بفكه (وهو فاعل لا محالة لأن العاقل لا يدري أصلا كيف يعبر عن «معنىٰ» كلمة «معنىٰ» من غير أن يقع في الإشكالات والاشتباهات اللفظية!)، ثم من جوابه عن الاشتباه (إن أجاب)، جاءه بغيره وهكذا إلىٰ ما لا نهاية له، حتىٰ ينسىٰ السائل عن أي شيء جاء ليسأل بالأساس!

أو كمن سأله سائل عن أقصر الطرق الموصلة إلىٰ غاية ما، فأجابه بأنه قد ثبت «علميا» أن الطريق المباشر المستقيم ليس هو أقصر الطرق الموصلة إلىٰ المراد، ثم تركه ليسرح في الوهم والخيال لعله يتمكن من التوصل - بعقله الضعيف المسكين -

إلىٰ الكيفية التي يمكن أن يعقل بها كون الطريق المنحني المعوج أسهل وأقرب لبلوغ القصد من الطريق المباشر المستقيم كما يدعي! فأن أعجزه ذلك وأعياه، عُزّي بأن خاصة الفلاسفة وكبار العلماء وحدهم هم الذين يفهمون ذلك، فلا تثريب عليه إن لم يفهم! تماما كما يقال لمن يعترض علىٰ الثالوث من رعايا الكنيسة (مثلا): «أنت لا تفهم، ولن تفهم إلا أن تصبح راهبا من كبار الرهبان في رأس الإكليروس، حينئذ، وحينئذ فقط، تنكشف لك الكشوفات والفيوضات وتتنزل عليك أنوار الفهم الإلهي». فإن التمس طريق الكهنوت وقطع فيه شوطا، فلعله يظهر له من تلك «الأنوار» و«الكشوفات» ما تتفنن فيه مردة الجن (كما سيأتي تناوله في قسم لاحق)، فتزيد نفسه ركونا للباطل ومحبة له.

هذه المستنقعات العقلية الفلسفية من أكثر الأشياء جذبا وإغراءً لنفوس عامة الناس، ومن أشدها سترا وإخفاءً لتناقضات أهل الأهواء منهم عن أعين نفوسهم، وهم أقرب إلىٰ الوقوع فيها مما يتصورون. جميع أنواع المغالطات والأدلة الزائفة التي وصفها المناطقة في كتبهم من أيام أرسطو في رده علىٰ السوفسطائيين وإلىٰ يوم الناس هذا، ما يجري منها بين الخاصة في أروقة الأكاديميات المتخصصة، وما يجري كذلك علىٰ ألسنة العامة في حياتهم اليومية، لا تقع في الحقيقة إذا وقعت بسبب ضعف في العقل أو قلة في الذكاء واليقظة (في الأعم الأغلب)، وإنما تقع بسبب الهوىٰ وميل النفس وما يضربه علىٰ الإنسان من الغفلة والتغافل!

فعندما يكره أحدهم فئة من الناس بعينها - مثلا - ثم تراه يستدل علىٰ بطلان قول من أقوالهم بما يكرهه من حالهم هم، أي بحال أصحاب القول، لا بحال القول نفسه، هذه مغالطة واستدلال زائف لو تجرد صاحبه من ميل النفس وهواها لظهر له فساده وقصوره عن أداء الدلالة المطلوبة! وعندما يتعصب أحدهم لرأس من رؤوس طائفته، فيصحح قولا من أقواله بعدما جاءه الدليل علىٰ فساده، ويعاند في ذلك، ولا يكون له من مستند إلا أن إمام طائفته أعلم وأفقه ولا بد، ولا يمكن أن يكون قد خفي عليه ذلك الاعتراض، فهذه مغالطة أيضا واستدلال زائف لولا تزيين النفس لما تهوىٰ في عين

صاحبها ما استند إليه ولا قال به. إذ كيف يعقل أن أترك ما عندي من دليل واضح لا يظهر لي دليل يقابله في قوته الموضوعية (مع أني علىٰ يقين من قدرتي علىٰ الاستدلال والنظر في المسألة محل النظر، وقدرتي علىٰ ضبط مذهبي ضبطا علميا صحيحا) لا لشيء إلا لاعتقادي بأن شيخي أو إمامي أو أستاذي لا بد وأنه علىٰ الحق، فلا بد وأن عنده دليل يخفىٰ علي أو وجها لم يظهر لي أو نحو ذلك؟ هذا لا يقع من صاحبه إن وقع إلا اتباعا للمحبة القلبية لا للدليل! محبة أن يكون شيخه أو أستاذه المعظم في نفسه علىٰ الحق في جميع أمره وكراهة أن يضطر إلىٰ مخالفته في شيء، وهذا من مداخل الشرك علىٰ التحقيق، نسأل الله السلامة!

ولا شك أنه كلما عظم مقدار المسألة نفسها، عظمت كراهة ذلك التلميذ المتعصب لأن يخالف أستاذه فيها واشتد ذلك علىٰ نفسه جدا، لا سيما إن كان قد وجد في عموم أقرانه محبة وميلا لمن يحب ذلك المذهب وبغضا لمن يخالفونه. وقديما بلغ التعصب ببعض أهل المذاهب الفقهية في أمتنا أن قالوا بمثل ذلك في أئمة المذهب! قالوا لو كان حقا ما خفي علىٰ الإمام، ولو صح ذلك الدليل ما سكت عنه الإمام، ولو كان ذلك الوجه معتبرا لاعتنىٰ الإمام بالرد عليه .. الخ!

وكذلك عندما يصل إلىٰ المرء خبر من الأخبار لا يدري ما مصدره ولم يتكلف التبين والتحقق من ذلك، ولكنه يجد نفسه – مع ذلك – مدفوعا لنشره بين الناس وإذاعته علىٰ أي حال، فإن سئل عن ذلك تذرع بأنه لا يمكن أن يوجد «دخان من غير نار» كما يقولون أو زعم أنه لا بد وأن يكون الخبر صحيحا أو له أصل ما وإلا ما انتشر علىٰ هذا النحو، هذه مغالطات وألاعيب عقلية تصطنعها النفس لتزين لصاحبها ما سلكه من مسلك لا مستند له فيه إلا هوىٰ النفس فيه وإعجابها به ورغبتها في أن تتلذذ بأثر نقل الخبر نفسه إلىٰ من تنقله إليهم، سواء كان في ذلك تقرب إلىٰ فرد أو فئة يحبها أو تشفي في فرد أو فئة يبغضها أو غير ذلك.

وكذلك التعميمات الجائرة التي يطلقها الناس في أكثر كلامهم إلا من رحم الله! من أين تأتي وما دافعها عندهم؟ هل يخفىٰ عليهم أنهم مفتقرون إلىٰ استقراء صحيح

يؤهلهم إلىٰ إطلاق تلك التعميمات؟ كلا! وإنما يجدون أنفسهم محمولين علىٰ إطلاقها علىٰ أي حال لطمع نفوسهم في تعظيم دعواهم عند من يسمعها منهم! فلا شك أن الدعوىٰ تبدو أكبر وأعظم عندما يقال، مثلا، إن «كل الناس فيهم كذا» بدلا من أن يقال «بعضهم فيهم كذا»! والنفس تشتهي أن تعظم نفسها وتضخمها أمام صاحبها وأمام الآخرين، وأن يبدو صاحبها وكأنه كامل الاستقراء تام النظر، بالغُ ما لم يبلغه غيره من فهم ودراية، ولهذا ذمّ رسول الله ﷺ المتشبع بما لم يعطه وتوعده بثوبي زور يوم القيامة، نسأل الله السلامة. لماذا؟ لأن من أمراض النفس البشرية ميلها لتعظيم صاحبها بتعظيم ما معه من بضاعة يطلبها الناس!

أنا مشتغل بعمل ما، وأريد أن أصرف وجوه الناس إلي، فماذا أصنع؟ أبالغ في تعظيم قيمة ذلك العمل الذي أعمله، حتىٰ تتعاظم نفسي وتعلو منزلتي بعلو ذلك العمل نفسه في قيمته وفي حاجة الناس إليه! فكلما عظمت حاجتهم إليه، عظمت حاجتهم إلي أنا، ومن ثم عظمت منزلتي عندهم! ولهذا لا تكاد تجد صاحب هوىٰ إلا وهو يعظم بدعته وينفخ فيها غاية ما يمكن، حتىٰ لا يكون في الدين شيء أعظم منها! وإذا خولف فيها أو أنكر عليه فيها، فجر في الخصومة وفي الرد علىٰ مخالفه! لماذا؟ لأنه حريص علىٰ أن يظل رأسا متبوعا عليها في الناس، ولو قبل الناس حجة مخالفه فيها لانفضوا من حوله، ولا شيء أكره إلىٰ نفسه من ذلك! وتجد الواحد منهم إذا وضع الحديث المكذوب علىٰ النبي ﷺ في فضل عمل ما، يبالغ في تعظيم ذلك الفضل علىٰ ضآلة العمل، علىٰ نحو يفضحه الله به عند أهل الحديث، الذين يعلمون بالاستقراء أن هذه ليست عادة النبي عليه السلام، لماذا؟ لأنه لو لم يكن يشتهي أن يصرف به وجوه الناس إليه ما ابتدعه أصلا! وكذلك ترىٰ أهل الكلام يزعمون في مصنفاتهم الأصولية أن من لم يتكلف النظر في حدوث العالم فهو آثم، وقد ينقضوا عليه أصل إيمانه وإسلامه نفسه، بأنه لا يقوم علىٰ أساس معرفي صحيح! لماذا؟ لأن الواحد منهم يشتهي أن يصور لنفسه أنه قد أفنىٰ عمره في بضاعة تستحق أن تفنىٰ فيها الأعمار! لأنه إنما أراد بما تكلف من الكلام والخصومة والتأصيل البدعي أن يجمع الناس من حوله وأن يكون متفردا بتعليمهم ما عنده من ذلك! لسان حاله يقول: «انظروا إلي، اعرفوني، امتدحوني،

وارفعوني فوق رؤوسكم كما أشتهي أن ترفعوني! أنا العبقري الفذ وحيد دهره الذي جاءكم أخيرا بأساس صحيح تقيمون عليه دينكم بين أيدي الفلاسفة، فاتبعوني أنا أهدكم سبيل الرشاد!»

ومن ذلك الداء ما يقع للأكاديميين في شتىٰ مجالات البحث العلمي الأكاديمي علىٰ تفاوت في مقداره وعمقه وتأثيره علىٰ العلم نفسه. فعندما يتعصب جمع من الباحثين في مجال من المجالات لنظرية بعينها، لأهواء في نفوسهم تحملهم علىٰ ذلك، فإنك تراهم لا يقبلون من أحد الكلام بما يخالفها (أعني بما يقتضي بطلانها بالكلية، لا بما يبقي علىٰ أصولها ويعالج بعض الفروع) وربما منعوه من النشر عندهم البتة. كيف يقبلون منه ما به يزول سلطانهم وتذهب رياستهم التي بذلوا العمر في تشييدها لأنفسهم؟

هذا المنزع الخبيث نراه واضحا في الدراونة في تمسكهم بنظرية النشوء والارتقاء، وهو ما ينشأ عنه في مواقفهم الأكاديمية الرسمية وفي تنظيراتهم كذلك ما قد يعد من قبيل مغالطة المقطورة Bandwagon Fallacy كما يسمونها (ويقال لها أحيانا: التعلق بالقول الأشهر: Appeal to Popularity). وسميت بهذا الاسم لأن مثلها كمثل من يقول: «هذه هي المقطورة أو العربة التي يركبها أهل هذا الطريق، فاقفز عليها الآن وانضم إلىٰ أصحابها في رحلتهم، وإلا فابحث لك عن طائفة أخرىٰ من الباحثين لتنتسب إليها». فاليوم يقال: الارتقاء الدارويني هو أساس علوم الأحياء المعاصرة، وهو عندنا حقيقة راسخة مقطوع بها كالجاذبية في الفيزياء، فقل به ووافقنا عليه وإلا ابحث عن علم آخر تتخصص فيه! وأغلب الظن أنك – إذ تكفر بنظرية الارتقاء وتصرح بذلك – لن يقبلك أحد من أهل العلوم الطبيعية أصلا في صفوفهم، لا علماء الأحياء ولا غيرهم. فالكفر بنظرية الارتقاء هرطقة محضة عند كهنة العلم الطبيعي لا يمكن التهاون معها.

يقول عالم البيولوجيا الجزيئية البريطاني الأشهر «فرانسيس كريك» مخاطبا تلامذته من باحثي علوم الأحياء، فيما لا أجد له وصفا لائقا إلا الوعظ الديني الإلحادي المحض: «يجب علىٰ البيولوجيين أن يبقوا في أذهانهم دوما أن ما يرونه ليس (مصمما)، وإنما هو

شيء قد (ترقىٰ) Evolved!» اهـ. قلت: نعم، وعليهم التوبة إلىٰ أمهم الطبيعة إن حدثتهم نفوسهم في بعض خلواتها، يوما ما، بفكرة أن لهم خالقا من فوقهم، وأن تلك العظمة والدقة في التركيب الجزيئي والجيني للخلية إنما هي واحدة مما لا يحصىٰ من آيات عظمة قدرته السابغة علىٰ كل شيء! هذه ردة عن دين الطبيعيين ولا شك! ويحضرني في ذلك أيضا ما صرح به البيولوجي الملحد البريطاني أيضا «ريتشارد دوكينز» من أنه يشعر في كثير من الأحيان وكأنه يود لو يعض علىٰ لسانه حتىٰ لا يقول كلمة «مخلوق» أو «خُلق» created أو نحوها، وما فعله من إتحاف أتباعه باختراع لغوي لا أجد له نظيرا في تاريخ الملل والنحَل إلا لفظة «الثالوث»، إذ قال إن الكائنات الحية ليست «مصممة» ولكنها «متصامة» Designoid! فمع أن لفظة «تصميم» نفسها تقتضي الحطّ والتنقص من صنع الباري جل وعلا كما بيناه في غير موضع، إلا أن ذاك المريض أبىٰ إلا أن يخطو خطوة أبعد في محاربة فطرته التي جبله الله عليها، حتىٰ لا يتكلم بأي لفظة يمكن أن توحي ولو من بعيد بأن وراء هذا العالم خالقا حكيما، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ومن ذلك ما هو أسبق وأعمق – في منزلة الخلل البنائي المعرفي – من القول بنظرية داروين نفسها، كما تراه في بعض المذاهب في فلسفة العلم التجريبي نفسه التي يتفق عليها الباحثون اتفاقا ضمنيا عمليا في بناء بعض التخصصات العلمية الجديدة، فيمضي التنظير فيها متراكما علىٰ تلك الأصول التي لا يلتفت القوم لمن خالفهم فيها وإنما يحيلونه إلىٰ دوائر البحث الفلسفي، مع المضي قدما فيما هم فيه وكأن الأمر لا يخصهم ولا يمس عملهم! وأعني بذلك تمسك عامة الأكاديميين الغربيين المعاصرين بالفلسفة الوضعية أو الإمبريقية الصرفة في بناء معارفهم الطبيعية والإنسانية، وكأنها هي الحق المحسوم الذي لا بديل عنه! وسيأتي معك في فصل لاحق في هذا المجلد بيان تأثير ذلك المنهج الأعمىٰ علىٰ بناء علم النفس المعاصر، لا سيما فيما يتعلق بقضية الدين والعبادة! فمن قرر أن ما يقال له «علم نفس الدين» الذي أسسه هؤلاء حديثا إنما هو علم باطل فاسد من أصوله الأولىٰ لهذا السبب علىٰ الأقل، فقد حكم علىٰ جميع من يؤلفون فيه بسلوك «المغالطة» والاستدلال الزائف تبعا للهوىٰ في منهج النظر نفسه، مهما كانوا ملتزمين بالأسس الصحيحة للاستقراء التجريبي في آحاد أبحاثهم.

ومن ذلك ما يقع في كثير من العلوم لا سيما العلوم الإنسانية، من تمسك الباحث بفلسفة غيبية باطلة متناقضة وما يتفرع عليها من تنظير أخلاقي ومعياري معوج (يجعلها أساسا لمسلكه التأويلي والتنظيري دع عنك توجيه مقاصد البحث نفسه، في التعامل مع الظواهر الإنسانية علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة، وهو ما يظهر غاية الظهور في علم الاجتماع علىٰ وجه الخصوص). كاعتقاد بعض الأكاديميين النفسانيين أن أي نظرية سيكولوجية لا تدرَّس في الدوائر الأكاديمية «المعتبرة» فلا قيمة لها، علىٰ أساس أن أي نظرية تدرس في الدوائر الأكاديمية فلا بد وأن لها قيمة ووزنا واعتبارا، وهو ما يدخله النفساني «براد بيترز» (Peters 2012) تحت مغالطة المعكوس الباطل Denying the Antecedent (لو «أ» إذن «ب»، لو ليس «أ» إذن ليس «ب»). وكذلك ما يقع عندما يظن أحد المعالجين النفسانيين أن طريقته صحيحة ما دام لا يتعرض للمساءلة القانونية في ممارستها! فالصواب أن المساءلة القانونية من عدمها، بل التشريع القانوني نفسه وتطبيقه، ليس هو المعيار الكافي لمعرفة صحة الطريقة المستخدمة في العلاج! ولكن لأن لدىٰ ذلك الممارس هوىٰ يحمله علىٰ المضي قدما فيما تدرب عليه وبرع فيه، فلا استعداد لديه لقبول فكرة أو مجرد احتمال أن تكون طريقته قد قوبلت بأبحاث معتبرة تشكك في صحتها، وجب عليه أن ينظر فيها! هذه يمكن تصنيفها منطقيا تحت نفس نوع المغالطة سالفة الذكر (Peters 2012).

ومن ذلك ما يدخل تحت ما يقال له Affirming the Consequent (لو «أ» إذن «ب»، لو «ب» إذن «أ»)، كأن ترىٰ من يرفع من قيمة باحث من الباحثين ويعده عالما كبيرا في قضية من القضايا لمجرد أنه قد أكثر من التأليف فيها وله فيها جملة من الكتب المطبوعة! ذلك أن العالم الكبير في قضية من القضايا غالبا ما يكون كثير التأليف والتصنيف فيها! فهل هذه كتلك في بداهة العقل؟ أبدا! وإنما تجعلها الأهواء (التي يمكن جمعها كلها تحت اسم «الكبر») كذلك! أو يقال لداعية من الدعاة إنه عالم وإمام وحبر عظيم لمجرد أن له جمهورا واسعا من المريدين والمحبين! فهل مقياس معرفة العالم من الجاهل هو بمقدار الأتباع والمريدين والمحبين؟ وهل يحكم العامي الجاهل علىٰ الإنسان بأنه عالم أو جاهل، أو يزداد رجحان الحكم بالعلم والإجادة علىٰ

رجل من الناس، كلما توافرت أعداد العامة الجهال الذين يرونه عالما؟ أبدا! بل لو أن أكثر أهل الأرض عدوه عالما ما جعله ذلك عالما بالضرورة! ولكن محبة موافقة هؤلاء المحبين والمريدين وكراهية الشذوذ عنهم تجعل الجاهل يوافقهم علىٰ قولهم بسبب ميل القلب! وكذلك محبة أن يستحضر الإنسان في نفسه من أسباب تعظيمها وحمل الآخرين علىٰ تعظيمها ما يجعله حريصا علىٰ ألا يثبت بطلان وفساد ما هو عليه من أيما طريق، ومن ذلك اتباعه للشيخ فلان أو الإمام فلان، لا بد أن يبقىٰ ذلك المتبوع معظما في الناس، حتىٰ يصبح أتباعه هم أهل الهداية والرشاد ومخالفوهم هم أهل الزيغ والفساد! فالإمام والمأموم، والتابع والمتبوع، كلاهما معرضان لدخول الهوىٰ والكبر والحرص عليهما، ونمو ذلك المرض الخبيث في نفسيهما وهما عنه غافلان، وإذن ترىٰ المغالطات تظهر أشكالا وألوانا حتىٰ يبقىٰ الوضع الذي يحبه كل واحد منهما علىٰ ما هو عليه!

وهكذا في كل ما صاغه المناطقة وصنفوه من ألوان المغالطة العقلية والاستدلال الزائف، لا ترىٰ شيئا من ذلك إلا ولا بد أن وراءه هوىٰ في نفس صاحبه يتعين التفتيش عنه! وهو ذاك الهوىٰ الذي لولاه لانتبه هذا الإنسان لما هو ظاهر لغيره من الناس من فساد استدلاله، ولاستمع لمن يخالفونه وقبل منهم اعتراضهم علىٰ كلامه، أو لاعتنىٰ – علىٰ الأقل – بأن يبذل ما يكفي من جهد التدقيق والتحقيق للتأكد من صحة استدلاله ونظره قبل أن يسارع بنشر ما عنده! ولأن كثيرا من كلام بني آدم فيما يجري بينهم في اليوم والليلة تحركه الأهواء والشهوات، لم يكن من شيء أخطر علىٰ الإنسان في الدنيا من لسانه، ولا شيء أسهل عليه ولا أقرب إليه من أن يقع بلسانه – من سخط الله – في كلام لا يلقي له بالا، يهوي به في جهنم سبعين خريفا كما صح في الحديث عن رسول الله ﷺ! ولهذا كان حصاد الألسنة هو أول ما يكب الناس علىٰ مناخرهم في جهنم يوم القيامة، نسأل الله السلامة.

ورجوعا إلىٰ أصل الموضوع، نقول إن الستار النفسي الذي يصطنعه الملحد العامي لنفسه (ونقصد به في هذا السياق: غير المتخصص في فلسفة الأديان أو في

العقليات بعموم) بالرجوع إلىٰ كلام الفلاسفة وأحوالهم علىٰ نحو ما بينا، لكبت وتزيين ذاك التناقض العظيم في اعتقاده بشأن خالقه جل وعلا، يشتد سماكة وصلابة كلما ازداد ذلك الملحد اطلاعا علىٰ مصنفات هؤلاء وكلامهم. فحتىٰ وإن لم يفهم كثيرا مما يقرأ من ذلك، فإن نفسه تزين له اعتقاد صورة من صورتين: إما أن هؤلاء القوم قد بلغوا الغاية في العقليات وتحليلاتها المنطقية، ولهذا السبب تجاوزت عقولهم «سذاجة» هؤلاء «البدائيين» مثبتة الغيب، القائلين بأن ما هو معلوم بالفطرة لا يحتاج إلىٰ دليل أو برهان (وهذا ما يميل إليه من سلكوا الطريق «أ»)، وإما اعتقاد أن هؤلاء قوم قد تفننوا في ألاعيب وحيل لفظية لا نهاية لها ولن توصل إلىٰ شيء أبدا (وهذا صحيح)، وإذن فإما أن يزين لنفسه اعتقاد أن «العلم الطبيعي» (أو «العلم» تجريدا من الإضافة كما أصبح يقال له) يكفي بطرائقه وأدواته لإيصالنا إلىٰ معرفة كل شيء من غير تكلف ممارسة الفلسفة في الغيبيات، وإما أن يزعم أن تلك الأسئلة الوجودية الكبرىٰ لا يمكن الوصول فيها إلىٰ معرفة أصلا، ولا إشكال لأننا - بزعمه - لا نحتاج إلىٰ ذلك علىٰ أي حال. (وهذان الخياران يميل إلىٰ أحدهما أو الآخر أولئك الذين سلكوا المسلك «ب»).

مع أن العلم الطبيعي ليس في الحقيقة إلا بابا من أبواب الفلسفة (النظر العقلي في المشاهدات والمحسوسات) التي كان المتقدمون من النظار وإلىٰ وقت قريب يسمونها بالفلسفة الطبيعية[1]، وقد بينت في كتابي «آلة الموحدين» كيف أن جميع ما يعتنقه الطبيعيون من نظريات في مسألة «نشأة الكون» ليست إلا ضربا من الفلسفة الميتافزيقية الواهية في الحقيقة، يقوم علىٰ وضع أدوات البحث الإمبريقي (نوعا) في غير موضعها! ولكن واقع الأمر أن الملحد ما كان ليسمع منك دعوىٰ كهذه أبدا، فإن هذه المغالطات الفجة التي توافرت عليها تخصصات أكاديمية كاملة في زماننا هذا، وليس مجرد جملة من المصنفات المفردة هنا أو هناك، تمده بأريكة ناعمة ومريحة للغاية ليتكئ عليها في قفص الإلحاد الذهبي، إذ تعطيه سندا معنويا كبيرا يبطنه في نفسه، فيقل شعوره بعظم وخطورة ما هو عليه من تناقض مهلك في الاعتقاد، وهو عين المطلوب لديه.

(١) وهو ما يجعل نظريات الطبيعيات أبعد - بالبداهة المجردة - عن إفادة العلم بالغيب المطلق وما فيه، لأنه ليس موضوعها أصلا!

المطلوب حقن النفس بمادة مخدرة أو بأفيون يزول معه الألم ويسكت الإلحاح الداخلي علىٰ أثرها وتخمد نار الصراع النفسي، ويتحقق - في نفس الوقت - مزيد من استساغة المجتمع الذي يعيش فيه لفكرة وجود «مفكر ملحد» بين أظهرهم، له أدلة ومذاهب معقدة تحتاج إلىٰ بحث ورد ومناقشة طويلة! وهو ما لا يتحقق له بشيء كما يتحقق بركوب مطايا الجدال الفلسفي السائد بين أيدي أساتذة وكبراء الملاحدة في زمانه، سواء كان ميتافزيقيا صرفا، أو ميتافزيقيا «بمذاق» الطبيعيات والحسيات! هذه البضاعة تمكنه من أن يصرخ في وجوه الموحدين في بلاده قائلا: «هاتوا لي دليلا يقنعني!»، وتجد - بكل أسف - بيئة خصبة للجدال عليها والأخذ والرد فيها مع طوائف من المسلمين كغيرهم من أهل الملل، لما لها من طابع عقلي نظري عويص يكره كثير من الناس أن يظهر عليهم الجهل به أو القصور عن إدراكه، فكيف لا يتعاطاها ولا يكاثر منها ما استطاع، حتىٰ يضعه الناس في مجتمعه بإلحاده وجحوده العفن هذا في قالب المفكر الباحث الصادق في طلب «الدليل»، أو علىٰ الأقل في قالب المريض المبتلىٰ بأسباب الشك والارتياب، الذي يحتاج إلىٰ من يحنو عليه ويصبر علىٰ معالجته نفسيا؟ هو رابح بتلك البضاعة - اجتماعيا - علىٰ أي حال، فكيف يرجىٰ له أن يتركها وينزع عنها إلا أن يرحمه ربه؟

فنظرا لأن الصناعة التخصصية التي نتكلم عنها ها هنا اسمها «الفلسفة»، فقد استجاز أصحابها لكل صاحب فكرة - مهما كانت ساقطة ومخالفة للبداهة ولمسلمات العقل الكبرىٰ - أن يجعل منها نظرية موثقة، ما دام يمكنه أن يضع لها صيغا عقلية في مقدمات ونتائج وبراهين، قبلها من قبلها وردها من ردها! ولكن معلوم بداهة أنه ليس كل صاحب نظرية فلسفية أو عقلية أو رأي (أيا ما كان موضوعه) يصح أن يوصف بأنه «عاقل» أصلا مهما ركّب لها من البراهين والأدلة المزعومة، ومهما ألف فيها وصنف وطبع من المجلدات وأسس لنفسه مدرسة أو مذهبا يتابعه عليه من يتابعه! وإلا ما أمكننا الوقوف علىٰ حقيقة شيء اسمه «المرض العقلي» أصلا، به نحكم علىٰ بعض الناس بأنهم عقلاء، وعلىٰ بعضهم الآخر بأنهم سفهاء ومجانين ومرضىٰ! وقد وضعت هذا الكتاب لأبين - في جملة من المقاصد الأخرىٰ - مرض تلك النفوس الخبيثة التي

تجادل في الإلهيات بما يقطع صاحب كل نفس سوية بأن مجرد فتح باب النظر والمراء فيه مفسدة للعقل نفسه!

فالعاقل يعلم أنه لا يصح له التذرع بخلاف الفلاسفة في شيء مما اختلفوا فيه، لا سيما إذا كان أكثر خلافهم خلافا بين العقل ونقيضه في الحقيقة! فلا عبرة بكثرة التآليف والتصانيف الفلسفية المطولة فيما يسمىٰ بـ«مشكلة الشر» (مثلا)، ولا يغترن حدث صغير أو عامي جاهل بسعة البحر الذي يراه في كلام الفلاسفة في هذه المسألة ونحوها! فإنه ليس كل سؤال يصح في العقل أن يطرح للسعي في طلب جوابه! وصدق الذي قال بأبي هو وأمي فيما رواه عنه أبو هريرة ﵁: «لَا يَزَالُ النَّاسُ يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْعِلْمِ، حَتَّىٰ يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَلَقَنَا، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟»! فالفلسفة هي صنعة استيلاد الأسئلة وإن كانت محض عبث وعدوان علىٰ أصول العقل الرواسخ، فلا يهم من أين يأتي الجواب ولا يهم ما حجته ومادته التي يتأسس عليها، ولا يهم هل يفتقر العقلاء للوقوف علىٰ جوابه أصلا أم لا، المهم أن يبرع الفيلسوف في ابتداع ما يصلح لأن يكون استشكالا يحار فيه هو من معه، لا لشيء إلا ليسوغ لنفسه البقاء علىٰ ملة باطلة أو علىٰ إلحاد ومروق قد ارتضاه لنفسه وآثر ألا يموت إلا عليه، نسأل الله السلامة! لا يهم عند صاحب السؤال هل يمكن – بالعقل المجرد – أن يوصل إلىٰ معرفة جوابه أم لا، ولا يهم هل يدخل موضوع السؤال نفسه فيما يمكن للإنسان أن يكتسب العلم به أو لا، المهم أن يتحرر بنيان «الإشكال الفلسفي» علىٰ نحو يثقل علىٰ ذهن صاحب الدعوىٰ المخالفة فلا يحير له جوابا!

فلسان الحال يقول: إذا كان انتصار المخاصم علىٰ خصمه في البيان والمجادلة النظرية هو المقياس لمعرفة أي القولين حق وأيهما باطل في أي مسألة مما يطرأ علىٰ ذهن البشر، فدونكم من الآن ألف سنة تأتي في المستقبل حتىٰ تأتوا علىٰ سائر حجاج الفلاسفة في الإلهيات المنشورة في كتبهم وأبحاثهم بالرد والبيان، ولنبق نحن علىٰ إلحادنا هانئين قريري العين حتىٰ تنتهوا أنتم من ذلك الرد والجواب الطويل (كما سبقكم إلىٰ تكلفه اللاهوتيون من كل ملة)، ثم دعونا ننظر هل أحسنتم فيه أم لم توفقوا!

ولتتخصصوا إذن تخصصا دقيقا عميقا في تتبع تلك الأدبيات، كما يكون عليه الشأن في كل صنعة أكاديمية معتبرة وكما سبقكم إليه اللاهوتيون من أهل الكتاب، وإلا فنحن نزعم أن الفلاسفة المتخصصين ما تركوا جوابا إلا جادلوا فيه، وأنكم لن تأتوا بما لم يستطعه اللاهوتيون من قبل في ذلك! فإن فعلتم فهنيئا لكم، واعرضوه علينا إذن – علىٰ طرائق الأكاديميين منا – ولننظر، ولنرد عليه فلسفيا ثم تجيبوا أنتم، وهلمّ جرا إلىٰ غير ما غاية!

ولتعتقدوا أنتم أنكم واقفون بذلك علىٰ ثغر وأنكم تجاهدون بعملكم ذاك في سبيل الله، ولا بأس بأن نبقىٰ نحن تلك الثلة من الشياطين الخبثاء المتفننين في فتح تلك الثغور عليكم، كلما أغلقتم واحدا (أو هكذا حسبتم) فتحنا عليكم غيره، ولا إشكال ما دام الأمر سيصل بنا علىٰ أي حال إلىٰ أن نكون أندادا علىٰ طاولة بحث وتنظير وجدال قديم طويل الذيل لا أول له ولا آخر!

تريدون أن تصيروا فلاسفة؟ أهلا بكم ومرحبا معاشر الموحدين، فلا شك أن تكلف علم الكلام والجدل الكلامي هو أول طريقكم إلىٰ «الاستنارة الفكرية» و«التحرر العقلي» و«التفتح العلمي» .. إلىٰ آخر ما تطمع قلوب الكثيرين منكم في الفوز به من الألقاب والصفات، ولا شك أن العلو في علم الكلام علو في الفلسفة، لأن المتكلم فيلسوف بطبيعة صنعته، والعقبىٰ لما بعد ذلك! ولا شك أن ظهور التخلي بلسان الحال لا المقال وبمقتضىٰ خوض الجدال، عن الجزم «الدوغمائي» بأن هذه العقيدة أو تلك من الرواسخ اليقينية المنتهية التي لا يتطرق إليها الشك ولا تفتقر إلىٰ دليل عقلي، إنما هو خطوة بل خطوات علىٰ طريق الاستنارة الفكرية والعقلية، الذي لا نهاية له إلا بلوغ رتبة الفيلسوف الحر الذي يشكك – بالمقال والتصريح – في كل شيء ولا يرضىٰ بالتسليم بأي شيء! فهلم إلينا نعلمكم قواعد اللعبة، ونكشف لكم عمق البئر الغائرة التي غرق فيها أكابرنا قبل قرون طويلة ولم يصلوا إلىٰ شيء، وأنتم في سذاجتكم تحسبون أن الأمر يقيني وقطعي وبدهي .. الخ! تعالوا لنسبح معا في بحر لا ساحل له، ولتعترفوا أنتم بأن الأمر «علم» له مباحثه وآراء المنظرين من أصحابه، وأن وجود

باريكم المزعوم ليس من البدهيات الواضحات كما كنتم تحسبون (ولو كان كذلك حقا لسهل عليكم نصب البرهان النظري عليه!)، وإنما هي دعوىٰ عريضة ليس إثباتها بالأمر الهين اليسير، بل إنها من أصعب وأثقل المسائل النظرية كلفة علىٰ العلماء، وأبعدها عن السهولة والجلاء، وانظروا إن شئتم خلاف الفلاسفة وما جاء به كل من الفريقين من بضاعة في ذلك ثم أظهروا لنا بضاعتكم أنتم من مثلها إن كنتم فاعلين، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون!

هذا حديث الشيطان أيها القارئ الكريم، فمن عصمه الله وحفظه فلن يصغي إليه طرفة عين، ولن يجيبه إلا بجواب السلف الصالحين: «اخسأ عدوَّ الله فلن تعدو قدرك»، والله الهادي إلىٰ سبيل الرشاد!

الباب الخامس

باب في أمثلة من حيل نفوس المشركين في تسويغ ألاعيب الشياطين.

تناولنا فيما تقدم حيل النفس والشيطان لتزيين الإلحاد علىٰ الفلاسفة وأتباعهم، ألا وهو ذلك القسم من المشركين الذي ينفي وجود الباري جملة واحدة، ومن ثم ينزل خصائص الربوبية علىٰ الماديات والطبيعيات وعلىٰ الدهر من دون الله تعالىٰ، ويتفنن في اختراع الحيل السوفسطائية الخبيثة لتأسيس الدعاوىٰ النظرية في نفي وجوده وكمال صفاته التي ينسبها إليه عامة البشر ببداهتهم، أو نقض الدعاوىٰ النظرية المثبتة لذلك كله عند من تكلفوها من أقرانهم، أو بإيجاز: التماس الذرائع المزخرفة لفظيا وصناعيا (علىٰ طريقة المناطقة والفلاسفة والنظار) للتكذيب برسالات رسله وأنبيائه. وفي هذا الباب نتناول حيل النفس والشيطان لتزيين الوثنية للوثنيين وأشباههم من المشركين.

ولا شك في أن الوثنيين وأهل الكتاب لهم فلسفاتهم وسفسطاتهم وألاعيبهم اللفظية أيضا، وقد غرقوا مع الملاحدة في ذاك السجال الفلسفي اللاهوتي الدائم الذي استعرضنا جانبا منه، بل كانوا من أكبر مصادر المدد المعنوي والفكري للملاحدة بتلك المادة التلبيسية نفسها كما مر بك. فليس الصنف الأول من حيل التلبيس والتزيين مخصوصا بالملاحدة دون غيرهم، وإنما كانوا هم أكثر المستفيدين منه ولا شك. أما هذا القسم من أقسام التلبيس والتزيين والمخادعة النفسية الذي نتناوله في هذا الجزء، فيختص به الوثنيون دون الملاحدة، لأن الدهرية لا يقولون برب في السماء له حياة وإرادة وصفات فعلية وذاتية.. الخ، بخلاف الوثنيين الذين غلوا حتىٰ عبدوا صور المخلوقين من دون الله وعظموا البشر والملائكة والجن، حتىٰ جعلوهم أربابا من دون الله، تتلهف نفوسهم لمخاطبتهم والتواصل معهم حسيا، فكان لشياطين الجنّ مدخل مخصوص في مداعبة أهواء هؤلاء وتزيين الشرك في نفوسهم لا يناسب الملاحدة والماديين، وإنما يأتي للوثنين ليزين لهم الاعتقاد بأن تلك المعبودات التي عبدوها من دون الله تملك لهم النفع والضر علىٰ الحقيقة كما يزعمون وأنها تجيب دعاء السائلين كما يعتقدون وتأتيهم بالمنام وتتمثل لهم باليقظة كما يحبون، فيزداد الواحد منهم بذلك إغراقا في عبادة ما يعبد من دون الله من المخلوقات والصور، أيا ما كان ذلك،

مع أنه يعلم في باطن نفسه أن الشرك باطل لا محالة، وأن هذا الذي يظهر له ويخاطبه ويأتيه بالخوارق والأعاجيب، محال أن يكون مستحقا للتأليه، أي لما لا يجوز صرفه إلا لخالق السماوات والأرض وحده من صور المحبة والتعظيم والخوف والرجاء والتقوىٰ والتذلل والطاعة (أو إجمالا: العبودية).

ولأن العلو الفكري والفلسفي اليوم في أكثر بلاد العالم إنما هو من نصيب الفلسفات المادية وفروعها وشعابها الكثيرة، أصبح لجوء شياطين الجن لتلك الألاعيب التي نستعرضها في هذا المبحث أقل بكثير في هذا الزمان مما كان عليه في الأزمنة السالفة، وأصبح لعبهم بها مقصورا في الأعم الأغلب علىٰ الدوائر الدينية الضيقة لأصحاب الملل الوثنية في معابدهم ومحافلهم دون غيرهم. فالشيطان علىٰ أي حال لا يعنيه أي الوسائل أو الكيفيات توصله إلىٰ إغراق المشرك في هواه وصده بذلك عن سبيل النجاة وإهلاكه في أخراه، المهم أن يصل إلىٰ ذلك تحقيقا. ثم إنه لا يعنيه علىٰ أي ملة من ملل الشرك يهلك المشرك، ما دام سيهلك علىٰ الشرك وعلىٰ منابذة المرسلين والصدود عن دعواهم علىٰ أي حال. فإن كانت نفسه أميل إلىٰ الوثنية علىٰ صورة من صورها زينها له كيفما كانت، وإن كانت نفسه أميل إلىٰ الإلحاد علىٰ صورة من صوره زينه له كيفما كان. المهم ألا يدع للحق طريقا إلىٰ تلك النفس المشركة إلا شوش عليه وزين لها الصدود عنه، وعمل علىٰ إرضائها بتلك الحال الشركية التي تميل إليها وتهواها ما وسعه ذلك. ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [**الحجر**: ٣٩]

يقول الله تعالىٰ: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾ [**الشعراء**: ٢٢١، ٢٢]

ويقول سبحانه: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ [**النحل**: ٩٨ – ١٠٠]

ففي هذا الباب نستعرض في دراسة تحليلية نوعية Qualitative مسألة الخوارق الشيطانية عند أصحاب الملل الفاسدة، وما ينتهجونه بها من حيل تسويغية لإيهام

أنفسهم وأتباعهم بصدق مللهم ونحلهم. والحق أني حين شرعت بالكتابة في هذه القضية ما كنت أظن أنها كبيرة عند عموم المشركين (خلا الملاحدة) إلىٰ هذا الحد. فبقليل من البحث وجدت أنه قد صُنف في أمثال تلك «المعجزات» المزعومة كتبٌ ومؤلفات، ووضعت لقبولها و«تأليه» أصحابها ضوابط ونظم عند أهل الملل الشركية (كما ترىٰ في قانون منح منزلة القديسية في الكنيسة الرومية مثلا)، وراجت في أنحاء العالم وزادت الضالين ضلالا والمغرورين اغترارا وصارت أدوات قوية الأثر والمفعول في الصد عن سبيل الله تعالىٰ، وذرائع تسويغية قلّ نظيرها في التأثير في نفوس المشركين، والله المستعان.

والحق أن لكل عقيدة من المعتقدات الوثنية في كل مكان في العالم، تاريخٌ من تلك الخوارق المكذوبة التي قد يثبت بعضها علىٰ الحقيقة أحيانا ويراه الناس جميعا ويتفقوا علىٰ صحته، ويقع أكثرها علىٰ أيدي رجالهم المقدسين عندهم أو «المتدينين» منهم الغلاة في الملة، وفي معابدهم ودور عبادتهم. وقد جعل الله تعالىٰ في تلك الخوارق فتنة لأهل تلك العقائد الفاسدة. وسبحان الله العظيم، فقد ظهر لي من البحث والنظر أنه كلما كانت العقيدة أضل وأبعد عن الحق، كثرت قصص تلك الخوارق علىٰ أيدي من يدعون إلىٰ تلك العقيدة وزاد تعويل الكهنة عليها في ربط الناس بها وتغذية مشاعرهم وانتمائهم للملة بها. وليس ذلك بمستغرب في ضوء فهمنا للنفس المصابة بالتناقض المعرفي، فكلما ازداد ابتعاد الإنسان عن الصراط المستقيم وصغوه عنه، مع عظم محبته للبقاء علىٰ ما هو عليه من عقيدة في نفس الوقت، ازداد افتقاره إلىٰ اختلاق ترسانة ضخمة من الحيل التسويغية التي تعينه علىٰ إسكات نداء الفطرة في عقله الباطن، ومن ثمّ، سهل أن تتخطفه الشياطين من كل جانب، وصار أسهل قبولا وانقيادا لأعمالهم وخدعهم وأساطيرهم، نسأل الله السلامة من الفتنة ومن الضلال. فبينما يعمل الملحد علىٰ حشو قلبه بالجدل الفلسفي السوفسطائي (سواء كان في باب الميتافزيقيا الفلسفية أو الطبيعية)، فإنك ترىٰ غيره من المشركين يشربون قلوبهم (لا سيما العامة منهم) بما سيأتي معك استعراض جانب منه من ألاعيب الشياطين.

وقد استعملت الشبكة الأخطبوطية الإنترنت في الوصول إلىٰ أكثر ما جمعته من روايات ووقائع في هذا المبحث. وهي في الحقيقة ليست إلا حكايات وقصص أستعمل مجرد حقيقة تداولها بين أصحابها للدلالة علىٰ آليات التسويغ النفسي في تلك القضية، وبيان أنهم يتوافرون علىٰ روايتها وقبولها وتصديقها وإن لم يروا بأعينهم تلك المخاريق، لما في نفوسهم من الهوىٰ الداعي إلىٰ ذلك. ولا شك عندي في أن أكثر تلك الروايات مكذوب مختلق علىٰ أي حال، إلا أني لا أشك – أيضا – في أن بعضها صحيح في مطلق ظهور المشاهدة أو الواقعة الخارقة التي شاهدها أصحاب الرواية، لا فيما يعتقدونه من تأويلها بالطبع. ولا شك في اختلاط المشاهدات الحقيقية بالخرافات والأساطير والأوهام في مثل هذا، التي ينسجها خيال أتباع العقائد الفاسدة لينتصروا بها لعقائدهم المتناقضة. وهذا شأن الأسطورة التي قد تبدأ في أول الأمر بخارق شيطاني حقيقي يراه بعض الناس علىٰ الحقيقة فيتناقلوا خبره فيما بينهم علىٰ تأويلهم الشركي لتلك المشاهدة جيلا بعد جيل، مضخمين له مضيفين إليه الزوائد والأكاذيب والمبالغات من عندهم حتىٰ تنبني عليه ملة كاملة تتبعها أمم وشعوب![١]

وقد وجدت مع ذلك في بعض ما نقلته أخبارا ثابتة متواترة ربما استعان فيها ناقلوها بتسجيلات فيديو أو صور رقمية لبعض تلك الظواهر وشهدها الألاف منهم. ولا عجب في ذلك ولا إشكال عندنا ولله الحمد. فنحن لا نزعم أن كل تلك المشاهدات أو الوقائع أسطورية مكذوبة، بل الحق أن منها ما وقع حقيقة وشاهده الناس بأعينهم وسجلوه ووثقوه، تسجيلا وتوثيقا لا يتصور أن يتواطأ أصحابه علىٰ الكذب! فإن ثبت عندهم صحة ذلك الحادث وصدقه بالتواتر، فنحن حينئذ لا نجد داعيا للتشكيك في كونه قد وقع أمامهم كما رأوه. وليس مذهبنا إنكار وتكذيب كل خوارقهم وردها جميعا عليهم

(١) وبعموم فإن الروايات المكذوبة تروج عند المشركين تماما كما تروج القصص الحقيقية منها لأنهم لا تمييز عندهم ولا ضبط في الرواة وفي مصادر التلقي إلا قليلا، وهم أصحاب أهواء يحركهم هواهم لقبول أمثال تلك القصص كيفما تكون، ما دامت تنصر عقيدتهم الباطلة. فهم يتحمسون لتلك القصص ويتعصبون لها بما يُغَفِّلهم عن متابعة أصلها والتحري فيها. وتنزل عندهم منزل البرهان الخبري والحجة الدامغة التي يفتقدونها جميعا. والشياطين تعرف منهم ذلك الأمر تمام المعرفة وهو ملعب من ملاعبها بين هؤلاء كما سيأتي، كان ولا يزال تربة خصبة لهم منذ أن ظهر الشرك في الأرض وإلى قيام الساعة.

كما يذهب إليه بعض طوائف المتكلمين، فيقعون بذلك في ظلم كبير لديننا وعقيدتنا وهم يحسبون أنهم يدافعون عنها. كدأب الذين حاربوا غلو المتصوفة بإنكار الكرامات بالكلية، فذاك غلو مقابل وليس هو طريق أهل السنة أهل التحقيق. فخرق العادة ثابت وعند أهل العلم فيه بيان فصل من الكتاب والسنة والأثر، يعرف به العقلاء الفرق بين الخارق الرحماني والخارق الشيطاني، ويوضع الأمر في منزلته المعرفية الصحيحة من غير إفراط ولا تفريط.

وفي جميع الأحوال، فنحن نذكر القارئ الكريم بأن هذا المجلد موضوع في دراسة علم النفس بالأساس، فالذي يعنينا في هذا الباب في المقام الأول ليس إثبات أو نفي وقوع هذه الواقعة أو تلك ولا الوقوف على تفسيرها الواقعي (أهو الشيطان حقا أم غير ذلك)، وإنما الذي يعنينا دراسة الموقف النفسي لأتباع الملل الشركية بإزاء أمثال تلك الروايات والكيفية التي يتأولونها بها وينتصرون بها لاعتقادهم الغيبي المتناقض. ولا شك أنه ليس من رأى في ذلك كمن سمع، فمن وقعت له منهم تلك الوقائع وشاهدها بعينيه فسيكون وقعها على نفسه أشدّ ممن سمع عنها دون المعاينة، ولعلنا نحاول في هذا البحث أن نستظهر هذا الفارق ما أمكن، والله الموفق.

المبحث الأول: عقيدتنا في أعمال الشياطين

قبل أن أبـدأ في عرض بعض ما جمعته من القصص ومن الخوارق المروية والمسجلة علىٰ شبكة الإنترنت، فإليك أيها القارئ الكريم بيان لبعض ما تعلمناه من القرآن والسنة عن قدرات الجن والشياطين وأعمالهم، نعرضه اختصارا كمقدمة ومدخل إلىٰ تناول تلك الوقائع الشيطانية التي تفشو في أهل الشرك من كل ملة.

أولا: للجن والشياطين قدرات واسعة ولهم حِرف وآلات وأدوات

دل علىٰ ذلك ما ذكره الله تعالىٰ من عمل الشياطين بأمر سليمان عليه السلام: ﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ: ١٣] .. وقد بين الله أن ممن سُخر لسليمان من الشياطين من كان بناءً وغواصا: (والشياطين كل بناء وغواص)، ومنهم من طلب من سليمان عليه السلام الإذن بأن ينقل له عرش ملكة سبأ إلىٰ مجلسه قبل أن يقوم من مقامه، فعفاريت الجن ومردة الشياطين لهم قوة وبأس ثابت في الكتاب والسنة.

وقد ذكر تقي الدين ابن تيمية الحراني رحمه الله أن بعضا من الشيوخ الذين كان لهم اتصال بالجن حكوا له أنهم أروهم آلات عجيبة تشبه ما نعرفه اليوم بالتلفاز، لها أسطح براقة كالماء والزجاج يمثلون عليها صورا وأخبارا ينقلونها لهم كأنهم يرونها. بل إنهم كانوا يوصلون كلام هؤلاء المشايخ إلىٰ أصحابهم من فوره وفي حينه كما هي الحال عندنا بما يشبه التليفون.[١]

فمعلوم عند الثقات من أهل العلم ممن كانت لهم خبرة بأحوال الجن، أن لهم حرفهم وصناعاتهم التي قد يظهر أثرها في عالمنا هذا إن خُلي بينهم وبينه، بزوال الحاجز أو المانع الغيبي بينهم وبين عالمنا. وقد ذكر غير واحد من العلماء قصص من استعملوا الشياطين فأضلت بهم الناس كالحلاج وغيره من أئمة المذاهب الشيطانية

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٣٠٩.

الذين يسخرون الجن لتظهر لهم خوارق وأحوال يكذبون بها علىٰ الناس، فيحملوهم في الهواء ويطيروا بهم من مكان إلىٰ مكان، ويحركوا لهم الأشياء بمجرد النظر إليها وغير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

> ومثل هذا يحدث كثيرا لغير الحلاج ممن له حال شيطاني، ونحن نعرف كثيرا من هؤلاء في زماننا وغير زماننا، مثل شخص هو الآن في دمشق، كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلىٰ قرية حول دمشق، فيجيء من الهواء إلىٰ طاقة البيت، فيدخل وهم يرونه، ويجيء بالليل إلىٰ باب الصغير (باب من أبواب دمشق الستة)، فيعبر منه هو ورفيقه، وهو من أفجر الناس. وآخر كان بالشوبك (قلعة حصينة في أطراف الشام) من قرية يقال لها: الشاهدة، يطير في الهواء إلىٰ رأس الجبل والناس يرونه، وكان شيطانٌ يحمله، وكان يقطع الطريق. وأكثرهم شيوخ الشر، يقال لأحدهم (البوشي أبي المجيب) ينصبون له خركاه في ليلة مظلمة، ويصنعون خبزا علىٰ سبيل القربات، فلا يذكرون الله، ولا كتاب فيه ذكر الله، ثم يصعد ذلك البوشي إلىٰ الهواء وهم يرونه، ويسمعون خطابه للشيطان، وخطاب الشيطان له. ومن ضحك أو سرق من الخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به.(١)

وقال كذلك: «ويحكىٰ عن شيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس، فيأتي أهل ذلك المصروع إلىٰ الشيخ يطلبون إبراءه، فيرسل إلىٰ أتباعه، فيفارقون ذلك المصروع». اهـ

وذكر من نحو ذلك رحمه الله أنه كان يعرف ممن يشتغلون بالعلم الدنيوي من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما هو شيطان يخاطبه بعد أن دخل فيها. وكذا من تخاطبهم الأحجار والأشجار، والشيطان يدخل فيها كما يدخل في الإنسان يتلبسه.

ونقول إن ألاعيب وخدع الشياطين بالخوارق علىٰ الضالين لا تتجاوز بضعة أنواع معروفة تستعمل في جميع الأمم ومع جميع أهل الملل الشركية لتحقيق الغايات نفسها، كما سيأتي معك في هذا الباب. فمما روىٰ شيخ الإسلام كذلك أن بعضهم كان يأتيه

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٠٠.

الشيطان من حيث لا يدري ويوهمه في نفسه أنه قد اتصل بربه بوحي خفي، فيكلمه علىٰ أنه من أمر الله، فإن خطر له خاطر أن ينقل شيئا من مكانه إلىٰ مكان آخر بمجرد النظر إليه نقله له، وإن خطر له أن تقوم دابة من مكانها أو تقعد، وجدها تستجيب لخواطره، فيغتر بذلك ويفتتن ويضل ضلالا بعيدا، وما هو إلا عمل الشيطان. فهو يسمع خواطر الصدر ويدخل إليه فيوسوس للمرء وهو يحسب أنه فكره هو وأنه حديث نفسه لنفسه، وما هو إلا شيطان يكلمه في نفسه، نعوذ بالله من همزات الشياطين. ومكمن خطر الشيطان أنه يكلمك وأنت تحسب أنه فكرك أنت وكلامك أنت، ولو أنك سمعت صوت الشيطان وهو يوسوس لك لما كان في الأمر ابتلاء ولا اختبار، ولما كانت الاستعاذة بالله منه والتحرز بالأذكار ضرورة شرعية جعل الله لها سننا كونية لا تدور إلا بها.[1]

فالحمد لله الذي علمنا ما لا خلاص ولا نجاة لنا إلا بتعلمه، فبغير علم الله وما أنزل من لدنه في الوحي علىٰ رسوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، كيف السبيل إلىٰ محاربة عدو خفيّ لا قدرة لنا حتىٰ علىٰ رؤيته مع كونه يجرىٰ منا مجرىٰ الدم في العروق؟

ثانيا: قدرتهم على إصابة الإنسان ببعض صور الضرر والمرض بإذن الله

والجن والشياطين يملكون القدرة بإذن الله علىٰ إصابة الإنسان بالمرض. فقد صح عن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وصحبه وسلم قوله: «الطاعون وخز أعدائكم من الجن، وهو لكم شهادة»، كما قال للمرأة المستحاضة وهي حمنة بنت جحش: «إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان»، وثابت كذلك أن الصرعة هي من الشيطان. وعندنا في ذلك المعنىٰ حديث المرأة التي ذهبت إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم فشكت له أنها تصرع فتتكشف ونحوه.

(١) أو بعبارة أخرى نقول: لو كان تمييز وسوسة الشيطان في نفس الإنسان عند وقوعها (بصوت أو بلفظ أو بخاطر ما) ممكنا لذلك الإنسان من حيث الأصل، لزال الابتلاء بها لزوال حجاب الغيب عن عالم الجن والشياطين، وصيرورة أمرهم إلى المشاهدة والحس في معهود الناس. وإنما يعرف الإنسان أن ما في نفسه من حديث شيطان أو من حديث النفس الأمارة، بالنظر في طبيعة ما يأتيه من ذلك، فما عرفه شرا ومعصية فهو من ذلك، ولا فرق إذن بين ما إذا كان ذلك الذي جاءه من وسوسة الشيطان أم من حديث النفس، ما دام يعلم أن عليه تركه وعدم الالتفات إليه على أي حال، فإن نأى بنفسه عنه فلا يضره، وإن استجاب فلا يلومن إلا نفسه.

وليس هناك إشكال معرفي أو تعارض بين معرفتنا بأن الطاعون – علىٰ سبيل المثل – قد صار مرضا يعلمه علماء الطب ويعرفون له العلاج والدواء، ومعرفتنا في نفس الوقت بأن أصله غيبي شيطاني. فلا يمنع علمنا الحسي به وبحقيقة أن الله قد من علىٰ بني آدم بأن اكتشفوا له علاجا، من أن يكون أصل المرض نفسه ومصدره شيطانيا يبدأ بسبب غيبي لا نراه. فالطاعون قد علمنا بالبحث والدراسة أن له سبب مادي معملي مشاهد، وها أنت تسمع الرسول ﷺ يخبرنا بما حقيقته أن وراء ذلك السبب المادي نفسه سببٌ غيبي سابق عليه يفضىٰ إليه من حيث لا تراه أعيننا ولا مجاهرنا ولا نستطيع ذلك، والله سبحانه مكننا بفضله ومنته في هذا الزمان من إزالة أثر ذلك السبب الغيبي والوقاية منه بأسباب مشاهدة في عالمنا ما كان يعرفها السابقون، فصار ذلك بالنسبة لنا معاشر المسلمين علما فوق علم، وفضلا من بعد فضل، والله الحافظ من كل سوء.

فالثابت والمتقرر عندنا أن الشياطين إن سلطها الله علىٰ عبد من العباد قد رفع عنه حفظه وحفظ جنوده له بالغيب، فهي تتمكن منه وتؤذيه وتمرضه بصور شتىٰ. بعضها قد يكون مما عرفه الطب التجريبي ودرسه وفتح الله لنا باب علاج مادي له وأسباب تؤخذ للتداوي منه، وبعضها لا علاج له إلا القرآن والرقية الشرعية، ولا يعرف الطب الحديث له أسبابا مشاهدة إلىٰ الآن. وليس بمستغرب علىٰ الإطلاق أن يتخذ الشياطين وخزهم وخبطهم ببعض تلك الأمراض فتنة للمشركين الضالين ليوهموا بعضهم بأن تلاوة صلواتهم أو التقرب إلىٰ آلهتهم وكهنتهم وقديسيهم يصلح أن يكون سببا فعالا في علاج تلك الأمراض وذهابها كما سيأتي. فهم يعملون في الغيب علىٰ المريض المبتلىٰ بهم فلا يراهم إذا ما أصابوه بالمرض ولا يراهم إذا ما عالجوه منه أو كفوا أذاهم عنه بأي سبب كان.

والمس الشيطاني لا ينكره أحد من أئمة السنة وعليه إجماعهم. قال تعالىٰ ضاربا بذلك المس مثلا: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ [**البقرة**: ٢٧٥] . وقد روي عن عبد الله ابن الامام أحمد رحمه الله أنه قال: «قلت

لأبي إن قوما يقولون إن الجني لا يدخل في بدن المصروع، فقال: يا بني يكذبون، هذا يتكلم علىٰ لسانه». أي أن الذي حمل هؤلاء علىٰ ذلك الزعم إنما هم الشياطين أنفسهم. وقد كان لابن تيمية رحمه الله باع طويل في وصف أحوال المصابين بالمس وما يصنع الشيطان بهم. حتىٰ إنه يقول إن بعضهم يمكن أن تضربه ضربا مبرحا لا يتحمله إنسان وهو لا يشعر حال مسه بشيء إطلاقا. من ذلك قوله في مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٢): «فإنه يصرع الرجل، فيتكلم بلسان لا يعرف معناه، ويضرب علىٰ بدنه ضربا عظيما لو ضرب به جمل لأثر به أثرا عظيما، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب، ولا بالكلام الذي يقوله». أي أن الممسوس قد يفقد الاتصال ببعض حواسه حال المس، ويصبح جسده وكأنه جسد ذلك الجني الذي تلبس به. فإن تمكن الشيطان منه فلربما فتن به الضالة من الناس وأراهم منه احتمالا لآلام جسدية لا تطاق علىٰ العادة، فحسبوها من المعجزات والكرامات. والذي يظهر أن ما يكون من الرجل يأكل الزجاج أو من تراه ينام علىٰ الأرض وتمر العربات الثقيلة علىٰ بطنه فلا تؤذيه، أو من يجر سيارة كبيرة بأسنانه، أو من تراه يثني بأسنانه عملة معدنية، ونحو ذلك من أعمال استعراضية خارقة للعادة يقتات بها بعض الناس من آن لآخر، إنما يرجع إلىٰ سبب شيطاني غيبي، سواء عرف بذلك صاحب تلك الأعمال وقصد إليه أم لم يعرف. ومعلوم أن من السحر ما يقوم علىٰ استعمال الشياطين والتآمر معهم لإصابة البشر بالضرر ورفعه عنهم وغير ذلك، وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله. نسأل الله العافية والسلامة.

ثالثا: التمثل للناس في المنامات:

قال رسول الله صلىٰ الله عليه وأله وسلم: «الرؤيا ثلاث: بشرىٰ من الرحمن، وحديث نفس، وتخويف من الشيطان»[1].

فرؤية الناس إما بشارة من الرب تعالىٰ (وهذه للمؤمنين خاصة) وإما حديث نفس، وهذه للناس عامة، وإما حلم من الشيطان، وهذه للناس عامة أيضا ولا يفتتن بها إلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٠١٧)، والترمذي في سننه (٢٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المشركون الضالون منهم. أما المؤمن فما يراه من رؤىٰ محزنة مخوفة و«كوابيس» وغير ذلك فلا تضره شيئا إن استعاذ بالله ولم يحدث بها أحدا. فهي عبث من الشيطان ليحزن بها الذين آمنوا. وذلك مبلغه منهم في مناماتهم ولله الحمد. فهو إن صور لهم شيئا في المنام فلا يلبس عليهم دينهم ولا يستطيع. وإنما سبيله علىٰ الذين أشركوا وحكم قلوبهم الهوىٰ، فهؤلاء الذين يلبس عليهم ويريهم ما يخوفهم ويؤذيهم تارة، وما يزيدهم ضلالا علىٰ ضلالهم وشركا مع شركهم تارة أخرىٰ.

فكل من زعم أن الرسول عليه السلام قد جاءه في المنام وأمره بأن يبلغ أمته شيئا جديدا من أمر الدين، هذا ما رأىٰ إلا شيطانا في الحقيقة. من زعم أنه رأىٰ الرسول بصورته الحقيقية في ذلك فهو كاذب يقينا، لأنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم ما مات عن هذه الأمة إلا وقد أدىٰ أمانة البلاغ عن الله تعالىٰ علىٰ خير ما يكون الأداء، وترك الأمة علىٰ المحجة البيضاء، وما قبضه الله إليه إلا وقد أكمل به الدين وأتم به النعمة. فالله تعالىٰ يقول في محكم القرآن: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [**المائدة**: ٣] لذا فأهل العلم مطبقون علىٰ أنه لا تؤخذ أحكام شرعية من المنامات، لأن التشريع قد انقطع بموت رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، والمنامات يرد عليها الاحتمال والوهم واللبس وعبث الشيطان ونحو ذلك، فلا يحتج بها ولا يستدل بما يُرىٰ فيها لا علىٰ أمر ولا نهىٰ ولا حكم شرعي.

لذا كان السلف إذا جاءهم من يزعم أنه رأىٰ رسول الله ﷺ في المنام سألوه أن يصف ما رأىٰ، فإن وافق وصفه صفة الرسول الخلقية الثابتة الصحيحة في كتب السنن والمسانيد، فقد رآه حقيقة، وإلا فهو شيطان يلبس عليه ويستغل جهله بتلك الصورة فيوهمه أنه الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

قال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بصورتي».(١)

---

(١) أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦١٩٧)، ومسلم في صحيحه (٢٢٦٦)، والترمذي في سننه (٢٢٧٦)، والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والهيثمي في مجمع الزوائد.

فهذا دليل علىٰ أن الشيطان يتمثل للناس في منامهم وأنه وإن كان يتمثل بأي صورة لإنسان أو لحيوان أو غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله، فإن الله قد منع خلقته (تكوينا) من أن تتصور بصورة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم الحقيقية التي يعرفها المؤمنون. فذاك استثناء لقاعدة عامة.

ولعله مما يناسب ذكره في هذا المقام أن بعض النصارىٰ يقولون إن الشيطان لا يمكن أن يكون قد تمثل لهم بصورة العذراء في مناماتهم، لأن الشيطان لا يتمثل بصورتها أو بصورة المسيح عليه السلام، وهذا كلام واه وهاء خيوط العنكبوت. إذ نحن نسألهم، وقد سارعوا في تقرير أن ما رأوه هو العذراء حقا: ما دليلكم علىٰ أن الشيطان لا يتمثل بصور الأنبياء والصالحين والصديقين (بعموم)؟ هذا من تزيين النفس وتسويغ التناقض الاعتقادي ولا شك، لأنهم يكرهون أن يُسلبوا من ذلك المستند النفسي في تسويغ ما يعتقدون. ثم إنه مهما أرتك عيناك في نوم أو يقظة، ما دلت البداهة والضرورة علىٰ بطلانه[1]، فلا يجوز لك إلا أن تشهد ببطلانه وبأنه حديث نفس أو تهويل من الشيطان! ولكن صاحب الهوىٰ يفرح بالرؤيا الباطلة أعظم ما يكون الفرح، إذا وجد فيها ما يعضد هواه!

رابعا: التمثل للناس في اليقظة

اعلم أن للجن والشياطين قدرة علىٰ أن يتمثلوا ويتشكلوا للناس بصورة الإنسان والحيوان في يقظتهم كما في منامهم، وبأي صورة يريدون (إلا صورة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم الحقيقية لورود النص الثابت بذلك كما تقدم، تكريما من الله لخاتم المرسلين). وقد جاء الشيطان للمشركين يوم بدر في صورة سراقة بن مالك ووعدهم بالنصر وبأنه يجيرهم وينصرهم، وذاك قوله تعالىٰ ﴿**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [**الأنفال**: ٤٨] فسجل القرآن مثالا لما يصنعه الشيطان من تصور وتشكل لإضلال المشركين وفتنتهم،

(١) وهو في هذه الحالة، زيارة المسيح أو العذراء لرجل يعبدها من دون الله، فتجيب دعاءه أو تقره على شركه.

ووصف ذلك العمل بأنه تزيين لأعمال المشركين وإغواء لهم، ولم يصرف ذلك اللعين يومئذ إلا أن رأىٰ ملائكة الله مقبلين، ففر وجبن وهرب كما يهرب المجرمون إذا ما رأوا عقابهم يوشك أن يحيق بهم.

وقصة الشيطان الذي ظهر لأبي هريرة فرآه يحثو ويسرق من طعامه رضيٰ الله عنه قصة ثابتة صحيحة رواها البخاري في صحيحه. وفي ظاهرها كما في غيرها دلالة واضحة علىٰ أن الشياطين إن تشكلت فإنها تدخل في عالمنا هذا الذي نعيش فيه، عالم الشهادة، وتصبح لها القدرة علىٰ إحداث تأثير فيه، وكذا قصة الشيطان الذي جاء للرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم في صلاته فحكىٰ عنه وقال إنه قبض علىٰ رقبته، ولولا دعوة سليمان لربطه في سارية المسجد يلعب به الصبية والغلمان، وغير ذلك مما في نصوص السنة.

فالتلبس بالشياطين ثابت صحيح، وسماع أصواتهم ورؤية الأشياء تتحرك وتنتقل من مكانها بتأثيرهم وعملهم ثابت مشاهد معلوم كذلك، لنا فيه خبر متواتر المعنىٰ عن الثقات من أهل العلم، ورؤية صورهم فيما يسمىٰ بالأشباح وما ثبت من ذلك الأمر، وقصص الناس عن بعض البيوت المهجورة والخرابات بأنها مسكونة يسمعون فيها أصواتا غريبة ويرون فيها أشياء غريبة كل ذلك مشاهد ومعلوم أيضا، وهو موافق لما هو معلوم عند سلف الأمة وخلفهم من أن الخرابات والأراضي المهجورة قد تكون سكنا للجن.

وللكهان الذين يسمون أنفسهم بالوسطاء الروحانيين ممن يحضرون الشياطين ويسخرونهم تجارب كثيرة في تلك الأمور. فتراهم يحضرون الشيطان قرين الميت وهم يظنون علىٰ جهالتهم وكفرهم أو يزعمون كذبا وزورا أنهم يحضرون «روح» الميت نفسه الذي يريدون الاتصال به، هذا إن لم تكن الخدعة من صنف آخر ليس فيه شيطان ولا جني أصلا. فيخاطبهم القرين بصوت الميت ويحدثهم كأنه هو، وهو خبير بذلك الميت من طول مخالطته له، فيكلمهم بأمور من أخص أموره وأحواله كأن يخاطب امرأة ذلك الميت بأمور لا يعرفها عنه أحد سواها، حتىٰ يوهمها بأنه هو.

والشياطين رتب في الخلقة والقدرة، ومن رتبهم من هو مارد قوىٰ له قدة علىٰ إحداث أضرار كبيرة بمن يتعامل معه بالسحر والكهانة من البشر، أعاذنا الله منهم أجمعين.

وتأسيسا علىٰ ذلك ونحوه يتبين لنا أن الشياطين إنما تضل الضالين والمشركين بالخوارق الشيطانية علىٰ صورة من صورتين:

فإما أن تظهر للمتعبدين الناسكين علىٰ غير دين الله الصحيح متصورة متمثلة في صورة شيء أو شخص يعتقدون فيه، أو في صورة أخرىٰ لا يفهمونها، فيضلوهم بمعتقدهم ويزيدوهم ومن تبعهم تشبثا بما هم عليه من الباطل، ويزيدوهم غيا إذ يحسبون أن ذلك من كراماتهم ومعجزاتهم ومن تأييد معبودهم لهم ونصرته، وأنه دليل علىٰ أنهم علىٰ الحق، وإما أن يتمثلوا لأهل الفجور والفسق منهم فيتفقوا معهم علىٰ غواية الناس وخداعهم وإظهارهم علىٰ هيئة الطاهرين الصالحين الأبرار أولي الكرامات والمعجزات، ليأكلوا أموالهم بالباطل بالمنح والقرابين والهبات، وليكون لهم بينهم قدم ومكانة.

فليس من اللازم أن يكون ذلك العمل الشيطاني الخارق مبنيا علىٰ اتفاق وترتيب سابق بين من وقع علىٰ يديه وبين الشياطين، ولا أن يكون استعمالا للجن بسحر أو بغيره. بل قد يكون من مكر الشياطين بالكاهن أو بالعابد نفسه إن كان مبتدعا أو مخالطا للضلالات والشركيات، حتىٰ يُفتن بنفسه ويفتتن به أتباعه ويزدادوا ضلالا مع ضلالهم، وفي كتب أهل العلم من مثل ذلك ما تطول حكايته.

ولعله مما يُستأنس به في هذا المقام ما رواه بعض أهل العلم عن عبد القادر الجيلاني أن الشيطان جاءه ذات يوم في صورة مهيبة جالسا علىٰ عرش بين السماء والأرض وقال له أنه هو ربه وأنه جاء ليسقط عنه تكاليف الشرع. فلما كان الشيخ علىٰ قدر من العلم الشرعي، قيل إنه امتحنه وقال له إن كنت ربىٰ فما اسمك الأعظم؟ فلما عجز اللعين عن النطق باسم الله الأعظم أقر بأنه قد فضحه، وقال له إن تلك الحيلة قد أضل بها من قبل الكثيرين. ولا شك أن الشيخ لو كان مستقيم المنهج حق الاستقامة،

لعلم من مجرد دعوىٰ ذلك المعلون أنه رب العالمين أنه كاذب قطعا، من غير أن يمتحنه بشيء، لأن الله لا يُرىٰ رأي العين في الحياة الدنيا أصلا وإنما يرىٰ في الآخرة، يقول تعالىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [**الشورى**: ٥١] ويوم طلب منه موسىٰ عليه السلام أن يراه في الحياة الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿**لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [**الأعراف**: ١٤]؟، فهل كان يرىٰ نفسه أكرم علىٰ الله من موسىٰ عليه السلام، حتىٰ يجلي له نفسه فيراه من غير حجاب؟ وقد جاءت في بعض كتب الصوفية رواية أخرىٰ لتلك القصة: «أنه [أي الجيلاني] سمع وجبة في الفضاء فرفع رأسه فرأىٰ في الهواء امرأة في أبهج الحلىٰ وهاتف يخاطبه ويقول يا عبد القادر قد أبحنا لك الفواحش فقال مجيبا له اخسأ يا لعين إن الله لا يأمر بالفحشاء فغابت عنه تلك الصورة الخلابة ولم ينخدع بذلك الخطاب الذي تحقق به ببرهان العلم الحقاني.» اهـ.(١)

ومن هنا فإننا لا ننكر وقوع الخوارق بين الكفار والفجار والمشركين، بل نصدق ما ثبت صدقه منها بالبينة الكافية، ونقول لهم أنتم مخدوعون مغرّرون، فذاك من عبث الشياطين بكم يقينا وليس إعجازا وليس برهانا وليس من الله في شيء أصلا، وإنما هي خوارق سفلية شيطانية وليست سماوية إلهية كما تحسبون. فالله لا يكرم بكرامة أو بخرق للعادة رجلا مشركا ذا معتقد فاسد، تعالىٰ الله عن أن يكرم من يهينونه اذ يتخذون له أندادا وشركاء! ويقينا فما كان الرب ليرسل إليكم خلقا من خلقه ليجعلكم له عبادا من دونه! ولا تظهر تلك الأحوال والظهورات فيما بينكم علىٰ مخلوق إلا صرتم له عبادا من دون الله تحقيقا! فلا يغرنكم ضخامة الحادث من مثل ذلك وكثرة شاهديه، فليس في كونه حادثا جماهيريا تراه جموع الناس عامة ما يدل علىٰ كونه إعجازا سماويا كما تزعمون، فالخوارق الشيطانية وتمثلات الشيطان ثبت منها عندنا مما وقع في الضالة من أمتنا من مثل ما وقع في غيرنا من الأمم ورأته الجماهير وتواتر الخبر بوقوعه حقيقة

---

(١) نقلا من كتاب الصوفي التونسي «أحمد سكيرج»: الصراط المستقيم في الرد على مؤلف النهج القويم، وهو كتاب خبيث في الانتصار للطريقة التجانية.

أيضا، وبات ينتصر بها أهل كل ملة شركية لشركهم كما تنتصرون ولا فرق، فتأملوا وتجردوا للحق الذي تعرفونه في باطن نفوسكم، عسىٰ أن يهديكم الله سبيل الرشاد.

ففي هذا القسم، سنرىٰ كيف أن للشياطين طرقا وحيلا محدودة معلومة يطبقونها علىٰ المشركين في كل مكان ومن أي ملة أيا ما كانت، سماوية الأصل كانت أو أرضية (خلا الدهرية الطبيعيين)، يخدعونهم ويستعبدونهم بها جميعا، وأنها إنما تدخل علىٰ قلوب المشركين من جهة الذهول بتلك العجائب التي تشبع طمعهم في الوقوف علىٰ غطاء تسويغي لما هم عليه من إشراك بالله تعالىٰ (لا سيما في مقابل علو صوت دعاة التوحيد، وفي زماننا هذا علو الفكر الإلحادي المادي كذلك)، فإذا كان الواحد منهم يعتقد أن ذلك المخلوق الذي نسب إليه من صفات الربوبية ما يختص به الباري وحده، يستحق التعظيم والعبادة (بالسؤال بالغيب والاستشفاء والدعاء ونحو ذلك)، فلا شك أنه يطمع في أن يرىٰ (ويُرِيَ أتباع ملته معه) أثرا لتلك الصفات في واقع حياته، وهنا تأتي تلك الخوارق والأحوال الشيطانية لتمده بهذا الذي يطمع فيه، فيتخذ منها مستندا ودليلا يثبت به نفسه وأتباعه علىٰ الملة، مع أنه يعلم أن الشرك محض الباطل والافتراء علىٰ رب العالمين والإساءة إليه سبحانه! فما هي إلا جملة من الألاعيب يظهرها الشيطان علىٰ هؤلاء، فإذا بهم تتراقص قلوبهم فرحا بما هم عليه من الشرك والضلال، وإذا بهم يتناقلون أخبارها فيما بينهم ويعظمون أصحابها وكأنها أولىٰ واجبات الدين والاعتقاد، فصدق الله القائل ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [النساء: ٧٦].

المبحث الثاني: من روايات الأحوال الشيطانية عند أهل الملل الشركية

البوذية والهندوسية وكهنة التبت

يؤمن البوذيون بتناسخ الأرواح، وهو القول بأن كل إنسان إذا ما مات، فإن روحه تخرج من جسده لتدخل في جسد مخلوق آخر، فإذا ما مات ذلك المخلوق خرجت الروح فظهرت من جديد في مخلوق آخر (أي بُثت في مخلوق آخر عند مولده فكانت هي روحه)، وهكذا إلىٰ الأبد بلا قيامة ولا فناء للكون ولا شيء من ذلك (إلا من ينال درجة الطهارة التامة Nirvana في إحدىٰ دورات حياته فيبعث في مكان نوراني أسمىٰ ولا يرجع إلىٰ تلك الدورة السرمدية)! ذلك المخلوق كما يعتقدون قد يكون حيوانا أو طائرا أو بهيمة أو حشرة، وقد يكون إنسانا يولد ليعيش في أحوال أفضل أو أسوأ، وهو ما يؤمنون بأنه يتحدد بحسب (الكارما) أو الجزاء الذي يستحقه الميت لأعماله في حياته السابقة.

لذا فهم يؤمنون بأن الإنسان قد يتمكن أحيانا من معرفة من الشخص الذي كان هو صاحب روحه تلك من قبل (التي هو الآن يعاقب علىٰ جرائمها من غير أن يعرفها أصلا، فتأمل)! بل إن لها عندهم طقوسا وشعائر للوصول إلىٰ ذلك إن أرادوا، وما هي إلا محض استحضار للجن والشياطين لو كانوا يعقلون، تأتيهم بخبر رجل من الموتىٰ توهمهم بأن روح هذا الحي الخاضع لتلك الطقوس كانت من قبل في ذلك الميت، فإذا ما ذهبوا إلىٰ أهل ذلك الميت ليسألوهم عما جاءهم من خبره، وجدوه حقا كما جاءهم، فازدادوا إيمانا بكفرهم وضلالهم! ولك أن تتأمل فيما يترتب في نفس الإنسان من تبعات لاعتقاده أنه هو ذلك الشخص الميت الذي توهم أن روحه هي روحه!

وترىٰ أحدهم ينظر إلىٰ قط مثلا فيقول هذا جدي! فيأخذه ويعامله علىٰ أنه جده حقا! وينظر آخر إلىٰ نفسه فيقول أنا تجسُّد (جسد جديد) لفلان ابن فلان الذي مات من قبل! فيزعم أنه هو! فكيف يُثبت ذلك الكلام إن شاء؟ يطلب القوم فيه علامة علىٰ أنه

هو تجسد فلان الميت حقا، فما أقرب علامة إليهم قبولا؟ أن ينبئهم بشيء من أمر ذلك الرجل الميت لا سبيل لأحد غير ذلك الرجل نفسه هو وخاصته إلىٰ معرفته والاطلاع عليه، كسرّ من أسرار بيته مثلا! فإن فعل، صدقوه وزادوا تمسكا بعقيدتهم! فمن أين يأتيه العلم بذلك إن شاء أن يعلمهم به؟ يأتيه قرين ذلك الرجل الميت يوحي إليه بتلك الأمور أو يبثها في مناماته فيوهمه أنه يعلمها من قبل وأنها ترجع إلىٰ ذاكرته هو، فإذا ما حدَّث بها القوم صدقوه، وإذا به هو يصدق نفسه ويطمئن نفسه بأنه علىٰ دين صحيح، إذ تمنحه تلك الحيلة من أدوات التسويغ Rationalization ما لا يجد مثله في غيره، فالله المستعان لا رب سواه!

يُروىٰ أنه في عام ١٩٩٧ الميلادي، تدفق «الحجاج» البورميون بالآلاف علىٰ مدينة «نياونجلايبين» البوذية التي تقع علىٰ بعد ١٦٠ كيلومتر إلىٰ الشمال من مدينة «رانغون» البورمية، ليشاهدوا ظاهرة مثيرة اعتبروها معجزة كبرىٰ، فقد شاهدوا أشعة وأنوارا ملونة غريبة تصدر عن صنم منصوب في أحد المعابد البوذية. هذا ننقله عن واحد من المواقع التي تعرض لبعض الظواهر الخارقة التي سُجلت ولم يُعلم لها تفسير (أعني من الناحية الطبيعية الوضعية).

ويذكر السكان – وفقا لما جاء في المقال – أن الأضواء استمرت لعدة أيام من شهر مارس، وهو ما ساهم في جذب أعداد كبيرة من «الحجيج» البوذيين إلىٰ المدينة من كل مكان ليشهدوا تلك «المعجزة». ويربط أهل تلك المدينة الصغيرة تلك المشاهدات براهب بعينه يسمىٰ «سايادو». إذ يرىٰ المصلون علامات ضوئية نورانية مما ذكر في نصوصهم تظهر عليه وعلىٰ ردائه في خلال أدائه للصلوات والتلاوات. ويقولون إن الناس قد رأوا نورا كألوان الطيف وقوس قزح يخرج من فوق بيته أكثر من مرة.

ويروىٰ – في نفس المصدر – أنه لما تحددت شخصية البوذا الجديد (بوديساتفا مايتريا) في سنة ١٩٨٧ الميلادية، بدأت صوره تظهر في بيت السيد «ياجيما» في مدينة «ناجانو» في اليابان. بعض تلك الصور لم تكن تبث نورا ملونا فحسب بل قيل إنها كانت تتحور وتتغير بالكلية من آن لأخر. واحدة من تلك الصور اكتشفها السيد «يانجا»

هذا منطبعة علىٰ شباك الحمام في بيته بينما كان يغتسل في الرابع من يوليو من سنة ٨٧ الميلادية. وبالتدقيق في الصورة وجدوا أن النور ينبع من رأس وقدمي «بوديساتفا» بشكل دائم. كما تبين لهم أن الصورة تتغير من آن لآخر في بعض تفاصيلها. وفي نفس الوقت ظهرت صورة أخرىٰ علىٰ أحد جدران ذلك الحمام. (ويجدر الإشارة والتنبيه إلىٰ انطلاق تلك الظاهرة من الحمام علىٰ وجه الخصوص، مع ما هو معلوم عندنا من تعلق كثير من الشياطين بمواضع الخراءة). ففي أول الأمر حسبته الزوجة بقعة علىٰ الحائط. ثم لم تلبث أن صارت أكثر جلاءً ووضوحا وبرزت تفاصيلها. وتبين أنها صورة لرجل يلبس قبعة مدببة مستديرة الجوانب، ويمسك بإناء فيه ماء ويجلس القرفصاء علىٰ زهرة لوتس. وعلىٰ كلام الراوي فإن عيني الرجل تزداد ظهورا ووضوحا مع الوقت.

وفي سنة ١٩٨٩ الميلادية، قام الزوجان بوضع وثن صغير أمام واحدة من الصور التي ظهرت في قاعة البيت. فروي أن الناس كانوا يستشعرون «طاقة غريبة» في ذلك المكان كلما وقفوا فيه. وأنهم كانوا يرون أيديهم وقد ظهرت عليها آثار التبر (تراب الذهب) كلما وقفوا أمام تلك الجدران. ويشعرون ببرودة وخدر ينمو إلىٰ أطرافهم أمام ذلك التمثال. وبطبيعة الحال، فلم يمض وقت طويل حتىٰ قرر الزوجان هدم الحمام ليقيما في مكانه معبدا أو «مقاما» ليتعبد الناس فيه لتلك الصور علىٰ الزجاج وعلىٰ الحائط! ولما تم بناء المعبد، روي عن زواره أنهم كانوا يرون نورا من طيف ملون يخرج من بين أصابعهم والحوائط البيضاء بداخله كلما اقتربت أصابعهم منها. وتكون تلك الأضواء الملونة أوضح وأظهر ما يكون عندما يكون الجدار ظليلا، ولا يقع عليه ضوء مباشر.

ومما يروىٰ في موقع آخر من مواقع البوذية أن صحفيا ألمانيا نشر موضوعا في صحيفة (شير إنترناشونال) في سنة ١٩٩٩ الميلادية يصف فيه شيئا مذهلا رآه بعينيه في معبد «جوكانغ» وهو من معابد البوذيين في مدينة لاهسا في التبت. إذ رأىٰ تمثالا لبوذا «شاكياموني» وقد نزلت من عينيه قطع صغيرة من الجواهر البراقة. وقد صرح أحد اللامات (الكهنة) عندهم أن ذلك الأمر يحدث مرارا وأن اللامات هناك يتأثرون به كثيرا ويستبشرون كلما رأوه. وقد جلب الصحفي معه خمسا من تلك الجواهر إلىٰ ميونيخ بعد تلك الرحلة ليقوم الكيميائيون بتحليلها، علىٰ ما جاء في المقال.

(ولعل ذلك يذكرنا بما يروىٰ في أماكن متعددة من العالم بشأن تمثال العذراء الذي يبكي ماءً والذي يبكي دمًا والذي يبكي زيتًا وغير ذلك).

ساتيا ساي بابا: الإله الداعر!

وفي جنوب الهند كاهن (غورو) هندوسي يدعىٰ «ساتيا ساي بابا»، كان يدعو الناس إلىٰ عبادته وتقديسه – قاتله الله وقبحه فوق قبحه ودمامة خلقته – علىٰ زعم أنه مبعوث نوراني (أو «أوتار» كما يسمونه) من الرب، يدعوهم إلىٰ وحدة الأديان (من مدخل هندوسي)، ويظهر لأتباعه خوارق متنوعة، التي كانت تظهر بين أتباعه من آن لآخر، ولا تزال تظهر عندهم بعد موته. ومنها علىٰ سبيل المثال لا الحصر ما حدث لصورته المعلقة في إحدىٰ المدارس التي تدرس تعاليمه في كندا، وقد نقل أحد المواقع علىٰ شبكة الإنترنت صورا لإكليل كان معلقا علىٰ الصورة وقد زاد طوله تدريجيا بقدر ملحوظ خلال يومين أو ثلاثة حتىٰ وصل إلىٰ الأرض. ولا شك أنه لا يبعد أن يكون ذلك من كذب واختلاق القائمين علىٰ ذلك المعبد (وهو الأظهر)، ومن تلاعب الكهنة بذلك الإكليل، ولكن القصد أن حرص أتباع الرجل علىٰ تناقل أمثال تلك الروايات وبثها هو ما يفتح الباب واسعا لشياطين الجن حتىٰ يتحينوا الفرص للدخول علىٰ هؤلاء بألاعيبهم وحيلهم.

كما روي– وهو مما أستبعده – أن طائرة في يوم من الأيام كانت تقل مجموعة من الهندوس، وأصيبت محركات الطائرة بالعطب، فلما صار الهلاك يقينيا وأوشكت علىٰ السقوط، نادىٰ الطيار للمضيفة التي كان يعلم أنها من أتباع «ساي بابا» هذا، وقال لها ادعي لنا إلهك أن ينجينا، فلما صاحت باسم «ساي بابا» ظهرت صورته في السحاب وهو يبتسم، وعادت المحركات لتعمل من جديد! ومما روي من خوارقه أيضا أن بعضا من تلاميذ مدرسة تدرس تعاليمه في باريس كانوا يتدارسون ذات يوم – بعد موته أيضا – والتقطت لهم صورة ضوئية، فلما قام المصور بتحميض تلك الصورة ظهر فيها ذلك الساىٰ بابا وهو يمشىٰ وراءهم مغادرا الغرفة لدىٰ الباب. (رأيت تلك الصورة، ولا يبعد أن تكون مصطنعة ولا شك).

هذا ويروىٰ عنه أيضا أنه كان يرقىٰ في السماء، ويظهر أشياء بيده (كخواتم وأسورة يهديها لأتباعه) لا يعلم الناس مصدرها وهو يزعم أنها خلق جديد (لعنه الله)، وغير ذلك من حيل الشيطان. وكثير منهم يزعمون أنه يأتيهم في المنامات، وأنه يظهر لهم عيانا في بيوتهم بل وفي غرف نومهم ثم يختفي، يسبغ عليهم «نعَمه» ويمن عليهم بـ«الرزق والعطاء السماوي»، وغير ذلك من حيل الحواة وألعاب الشياطين!

ولعله مما يجدر ذكره في هذا المقام ما قضاه الله من أن يفضح به ذلك الساحر الدجال الذي يزعم أنه هو الرب الخالق المتجسد، اذ زعم ذلك المجرم الخبيث ذات يوم أنه سيظهر لتابعيه وعباده معجزة علىٰ غرار معجزات «كريشنا» الكبرىٰ التي سطرها كَتبة النصوص الهندوسية القديمة في أساطيرهم، فزعم أنه سيظهر لهم علىٰ سطح القمر ويحيّيهم من هناك! حدث ذلك في الخامس من شهر أكتوبر من سنة ٢٠٠٧ الميلادية. إذ أعلن الرجل علىٰ لسان بعض أتباعه خبرا أنه سيظهر في ذلك اليوم في معجزة كبرىٰ لجميع أتباعه علىٰ سطح القمر بحيث يرونه من مكانهم علىٰ الأرض، فيما بين الساعة السادسة والسابعة من تلك الليلة. وتوافد آلاف الأتباع إلىٰ المطار في تلك الليلة في شوق وتهافت كما طلب منهم المتحدث باسم ذلك الدجال، وملؤهم الشوق لرؤية معجزة كبرىٰ علىٰ يد ربهم المزعوم، لتثبت للعالم أجمع أنه الحق، وتزيل عن ساحته تلك الاتهامات الثقيلة التي ملأتها ولطختها، التي ترميه باغتصاب الصبية من أتباعه، وكان لها أثر بالغ في فضح حيل السحرة التي يخضع بها رقاب الضالة الذين تبعوه!

ولكن ما دام الله قد قضىٰ له بالفضيحة، فلو أنه استعمل إبليس نفسه وجمع إليه كافة جنوده من شياطين الأرض ومردتها جميعا فلن ينفعوه ولن يُمضوا ما يريده! ففي اليوم الموعود، تجمع القوم والحماسة تؤجج قلوبهم نارا والهتافات والصيحات تجلجل في أرض المطار تملأ ساحته! فها هو الدليل الدامغ يوشك أن يقام للعالمين علىٰ أن معبودهم هو الرب الخالق الحق المتجسد، وأنه العليم بكل شيء - أحرقه الله في قبره!- ومكث القوم ينتظرون المعجزة الكبرىٰ الموعودة، يحملقون في القمر بترقب شديد، حتىٰ إذا ما دخلت الساعة التي وعدهم بها ذلك الدجال المجرم، إذا بسحابة كبيرة تمر

في السماء من حيث لم يحتسبوا، فتخفي عن أعينهم سطح القمر، ويظل القمر محتجبا وراء السحب طوال تلك الساعة التي وعدهم بها ذلك الساحر اللعين، فتخيب آمالهم وينصرفون إلىٰ بيوتهم مخزيين منهزمين. وبدلا من أن يظهر لهم معبودهم فوق القمر كما وعدهم، رأوه في سيارته وظلوا يحاصرونه ساعة كاملة يحاولون أن يسألوه: «لم كذبت علينا؟» «كيف لم تعلم أن سحابة ستمر أمام القمر في تلك اللحظة يا من يزعم أنه بكل شيء عليم؟» «كيف خفي عليك ذلك وعجزت عن دفعها بعيدا وأنت من يزعم أنه يخلق الذهب من الهواء ويشفي المرضىٰ ويعلم كل شيء؟»، وقد عانت الشرطة في تلك الليلة معاناة شديدة لإجلاء هؤلاء الضالة عن إلههم الدجال وإخلاء الطريق له في حراسة مشددة حتىٰ يرجع إلىٰ قصره سالما! هذه الوقائع نشرت في صحف الهند وفي كثير من الصحف العالمية في حينها.

ومما يروىٰ أنه وقع في عام ١٩٩٣ الميلادي وذكرته الصحف العالمية أيضا، أن تعرض الرجل لمحاولة اغتيال في قصره الذي يسمىٰ «مجمع الأمان والسكينة» (أو نحوا من ذلك المعنىٰ)، إذ دخل عليه ذات ليلة في فراشه أربعة من أتباعه متسللين يحمل كل منهم سكينا وانقضوا عليه يريدون قتله، فوقع قتال بينهم وبين اثنين من تابعيه المقيمين معه في القصر ومات الرجلان، وفرّ «ساي بابا» من باب خلفي وأطلق صفير الإنذار، وجاءت الشرطة وأطلقت النيران علىٰ الأربعة فأردتهم قتلىٰ من فورهم! لقد جاء ذلك الحادث هو الآخر بمنزلة الصدمة للتابعين، فما الذي يحمل أتباعا مخلصين علىٰ محاولة قتل معلمهم بل ربهم المعبود بهذه الصورة؟ وكيف يعجز هو عن إيقافهم من قبل أن يدخلوا القصر المهيب، وهو يزعم أنه العليم بالغيب الذي لا يخفىٰ عليه شيء؟

ولأن الرجل كان قد نجح في جمع قاعدة كبيرة من الأتباع في حياته، منها رجال كبار من أولي الوجاهة والمنصب في الدولة الهندية وفي غيرها من الدول (وقد روي عنه أنه حاول مرارا أن يقنع الأمير «تشارلز» بالدخول في ملته)، فقد عملوا علىٰ إخفاء سبب موته عن الأتباع، إذ قيل إنه كان سببا «مخزيا» لا يليق بـ«إله متجسد»! ومما يعنيني نقله في هذا الباب، ما كتبه أحد أتباع ذلك الطاغوت الملعون في الانتصار له والدفاع

عنه ضد الاتهام الأخلاقي بما ثبت عليه من جرائم اغتصاب بعض الصبية الصغار من أتباعه، فهو مثال جلي لحيل التسويغ النفسي Rationalization التي يزين بها المشرك عقيدته لنفسه وللناس، حتىٰ لا يضطر لمواجه حقيقة بطلانها وما يتعين عليه إذن (بمقتضىٰ الفطرة الأخلاقية في الإنسان) من الانخلاع عنها ومفارقة أهلها.

ففي عام ألفين الميلادي تقريبا، نشر أحد الأتباع المقربين لـ«ساي بابا» (وهو رجل هندي يدعىٰ «رام داس أولي») وثيقة علىٰ الإنترنت فيها «تفسير ديني» (أو إن شئت فقل: دفاع لاهوتي) لتلك الوقائع الفاضحة، وزعم أن «ساي بابا» نفسه كان قد دفع بها إليه وكلفه بنشرها، ولم يخرج أحد من أتباع الرجل أو من منظمته الدينية بنفي أو تكذيب لتلك الوثيقة أو لشيء مما جاء فيها. وفيها يزعم الكاتب أننا – أي معاشر البشر – إن اعتقدنا أن «ساي بابا» هو الإله المتجسد حقا، فعلينا أن نعتقد تبعا أنه الحكيم العليم بكل ما يفعل، فلا يصدر عنه إلا الخير مهما كرهته نفوسنا وعجزت عقولنا عن تفسيره. وإذن، فعلينا أن نعتقد أن لديه حكمة خفية من اغتصاب أولئك الصبية جميعا، لأنه – كإله – لا بد وأنه لا شهوة له ولا حاجة فيه إلىٰ ذلك الفعل، ولكن لأن فيه جزءا «ناسوتيا» بشريا، فهو قادر علىٰ تلك الأفعال إن أرادها، ولأنه حكيم، فلعله كان يعلم أن هؤلاء الصبية قد قامت أرواحهم في حياة سابقة بممارسة بعض الجرائم الجنسية التي لم يعاقَبوا عليها قبل موتهم، فقام باغتصابهم حتىٰ يطهرهم منها! ولعل بعضهم كانوا يفتقرون إلىٰ الحب الإلهي، وكانت مواقعتهم الحميمية علىٰ ذلك النحو هي أحسن الطرق لإيصال ذلك «الحب» إليهم! فقد زعم الرجل في تلك الوثيقة أنه قبل أن تصل إليه، وفي أيام «حيرته الإيمانية» من تلك الاتهامات، جاءه صوت الـ«ساي بابا» يخاطبه في رأسه قائلا:

«اعلم أنه أيا ما كان ما أصنعه بعبادي، فهو دائما أحسن وأنجع الدواء لأرواحهم، وهو نعمة لا تضاهيها نعمة. فإن أفعالي لا تكون إلا تعبيرا عن الحب الإلهي، لأن هذه هي حقيقتي.»![1]

---

(١) http://www.saibaba-x.org.uk/6/defence_of_sai_baba_sexual_abuses.htm. دخل عليه في ٢١ من ذي القعدة، ١٤٣٤ من الهجرة، ٢٧ من سبتمبر، سنة ٢٠١٣ الميلادية.

ويزيد الرجل تفلسفا فيقول ما معناه إن «ساي بابا» لا بد وأنه كان يعلم ما ستتعرض له سمعته من اتهام قادح بسبب تلك الأفعال المشينة، وهو ما يؤكد أنه لو كان يجد طريقا آخر لتحرير تلك الأرواح المسكينة ومنحها الحب الإلهي غير هذا الطريق لاختاره يقينا، وإلا ما كان ليعرض سمعته للخطر من غير سبب قوي!

قلت: فتأمل أي مبلغ يبلغه الهوىٰ بأصحابه حتىٰ يُكذب الواحد منهم عقله وفطرته كما يكذب عينيه اللتين في رأسه، والله المستعان! لا شك أن من سلم بإلهية ذلك الطاغوت، فسيتأول له كل شيء يقع منه، وسيسهل عليه التماس المخارج من كل شيء، وتكون الخلاصة أن «الإله» أعلم منا نحن البشر بأسباب أفعاله، فلا يليق بنا أن نسأله عن ذلك. ولكن بأي عقل تُقبل – من الأساس – دعوىٰ بشر مخلوق أنه هو الخالق الباري مالك السماوات والأرض وما فيهما، قد «تجسد» في صورة إنسان، حتىٰ يُنتقل من قبول تلك الدعوىٰ السوفسطائية المحضة إلىٰ الدفاع عن مواقعته الصبية في مواضع الخراءة من أجسامهم – أعزكم الله – بدعوىٰ أنه يمنحهم «الحب الإلهي»؟ سبحان الله وتعالىٰ عما يقول هؤلاء المجرمون علوا كبيرا! ليس هذا عقلا سويا أصلا، وإنما هو قلب ممروض بطبقات من الأهواء والشهوات، نسأل الله السلامة.

ومحل الشاهد من هذه الرواية أنك لو سألت الواحد من هؤلاء: «علىٰ أي شيء أسست دعواك أن هذا القرد الذي عبدته من دون الله كان إلها متجسدا؟»، لأجابك من فوره بسرد ما شاهدوه له من «المعجزات» والأعاجيب، ولساق إليك شهادات الشهود علىٰ أنها لم يكن فيها أي تلاعب ولا خداع بصري ولا شيء من ذلك! ثم تراه يبادرك بالسؤال: «كيف يأتي بتلك الأعمال علىٰ هذا النحو من لم يكن إلها متصفا بقدرات الخلق والتكوين الإلهي؟» وهو يحسب أنه بذلك قد أسكتك وأفحمك إفحاما! فكأن دين المشرك يقوم في نفسه (معرفيا) بالجملة علىٰ ثلاثة أقسام: النص المقدس الموروث (إن وجد)، و«المعجزات» أو «الظهورات» أو خوارق الشياطين، والفلسفة اللاهوتية التزيينية (سواء في التأسيس الاعتقادي أو في الدفاع والنقض علىٰ المخالف). يرىٰ أحدهم الواقعة من تلك الوقائع المذهلة أو يبلغه خبرها فيجد في أعماق نفسه صوتا

يحدثه بأنه يعبد مخلوقا محدودا مثله، لا يمكن أن يكون هو خالق السماوات والأرض وما فيهما، ولا يمكن أن تكون تلك الوقائع دليلا علىٰ إلهيته واستحقاقه العبادة، فيبادر إلىٰ إسكات ذلك الصوت وإخماده في نفسه من فوره بحيل شتىٰ، يأتي علىٰ رأسها التفلسف «اللاهوتي» سواء لتأسيس الإطار المنهجي النظري الذي تصبح به تلك «المعجزات» برهانا كافيا في مجموعها، أو للانتصار ضد كل مخالف يكذب بتلك الوقائع (سواء من جهة الثبوت أو الدلالة).

فهل حقا بهذه السهولة تستعبد الشياطين المشركين وتقودهم من رقابهم كما تقاد الأنعام؟ نعم، والحمد لله علىٰ نعمة الإسلام.

كهنة التبت

يروىٰ عن كثير ممن زاروا بلاد التبت أنهم شاهدوا بأعينهم كهنة المعابد هناك يرتقون بأجسادهم عن الأرض ويطيرون من مكان إلىٰ مكان. كما روي أن لدىٰ بعضهم القدرة علىٰ الاختفاء والظهور في أماكن أخرىٰ. وهذه القصص مشهورة عن هؤلاء الكهنة شهرة عالمية، لا سيما عند الهندوس، فليس ذلك بمستغرب لهم بل هو مبثوث في ملحمتيهم المقدستين عندهم الـ«ماهاباراتا» والـ«رامايانا» اللتين تشكلان أصول الملة الهندوسية. والرقي في السماء مما يكثر وقوعه عند أهل الملل الشركية المغرقة في أعمال السحر والشعوذة والاتصال بالعوالم الروحانية Mysticism، وهو مما رآه المسلمون من بعض المتصوفة كما مر معك في مقدمة هذا الباب، وكله من عمل الشيطان يقينا.

ويريد الشيطان من تلك الحيلة أن يزين لكل مشرك الظن بأن ثمة أسبابا معينة توافق اعتقاده وملته الشركية إن أخذ بها وقع له ذلك الرقي الخارق. ولا تكون تلك الأسباب قطعا إلا بما يناسب ملة ذلك الضال ومعتقده وهواه ويزيده تمسكا به وغلوا فيه وبعدا عن الحق. فيوهمون الناس من أهل تلك الملة بأن «التركيز الذهني» والتأمل واليوغا، مثلا، التي يعتقد فيها البوذيون ويتخذون منها عبادة أساسية في دينهم، هي سبب رئيس في استجلاب تلك الخوارق. فالتركيز وصفاء الذهن والروحانية وغير

ذلك من عبارات جذابة يطلقونها زخرفا ليعلقوا الضالة بملة البوذية، يحرص شياطين الجن ومن تبعهم من شياطين الإنس علىٰ تأكيد المعتقد بأنها سبب مباشر لتحصيل تلك الخوارق وتحقيقها بما يصلح أن يكون «دليلا» علىٰ صحة المعتقد الغيبي لديهم. وعند البوذيين أيضا تعاويذ وترانيم وصلوات ومياه مقدسة يستعملها الكهنة ويقولون إنها تعالج من أصابهم التلبس بـ«الأرواح الشريرة» (ودعاوىٰ الآبار ذات القدرة الخارقة علىٰ العلاج والقبور التي تعالج المرضىٰ بشفاعة الميت فيها أو نحو ذلك من مثله، تنتشر بصورة كبيرة في أكثر بقاع الأرض بدءا من الصين شرقا وحتىٰ أدغال وأحراش قارة أمريكا الجنوبية!).

والبوذيون – كغيرهم من أهل الملل الوثنية الأخرىٰ – لديهم سجلات لحالات كثيرة ينجح فيها ذلك العلاج «الإعجازي» المنسوب لآلهتهم، وهم يتخذونها – كما يصنع أهل الملل الأخرىٰ ولا فرق – برهانا علىٰ صحة اعتقادهم. فالحق أن شياطين البوذيين تخدع كهنة البوذيين وتوهمهم بصحة تعاويذهم المبتدعة وفاعليتها فيما صنعت من أجله، بنفس الصورة التي تخدع بها أهل الملل الأخرىٰ ممن يخترعون تعاويذ وصلوات وأذكار ما أنزل الله بها من سلطان ليطردوا بها «الأرواح الشريرة»، وإذا بها يظهر لها تأثير سببي بين أيديهم في كل مرة يستعملونها! بل حتىٰ أهل الملل الوثنية الشاذة في مجاهل أفريقيا وغابات الأمازون والهنود الحمر وغيرهم، عندهم جميعا في صميم مللهم من التلاوات والصلوات والمناسك المبتدعة ما تعبث بهم الشياطين من طريقه عبثا عريضا فإذا هم يؤمنون ويصدقون. وهذا من إحكام الله تعالىٰ لاستدراجه وفتنته للمشركين بما كسبت أيديهم. تتسلط عليهم الشياطين من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فتلبس عليهم معتقداتهم وتخدعهم بخدع حسية واهنة، فتوهمهم بصحة ما هم عليه، علىٰ الرغم مما لا يخفىٰ علىٰ عاقل سوي النفس من تناقضه، ومخالفته الصارخة للفطرة والبداهة ولما يراه هؤلاء من حولهم في كل مكان من آيات ودلائل صارخة علىٰ وحدانية الله تبارك وتعالىٰ. ولولا أن علم الله تعالىٰ من أحوالهم ومن أهوائهم أن قلوبهم تميل إلىٰ ذلك وتفرح به جدا، ما استدرجهم به!

فإذا هم تلوا تعاويذهم الشركية المفتراة، أطاعتهم الشياطين من فورها علىٰ هواهم وخرجت من جسد من تلبسته، ليس خوفا من تلك التعاويذ ولا بتأثيرها، ولا طاعة للكهنة لما لهم من قدرات خارقة وسلطان تكويني علىٰ الأشياء كما يوهم المشركون أنفسهم، وإنما للمزيد من إغراق هؤلاء جميعا فيما يعتقدون وما يكسبون. فالإله المعبود علىٰ الحقيقة في ذلك كله، الذي يأتي ويظهر ويتمثل ويتكلم ويجيب من يناديه بالغيب.. الخ، إنما هو شيطان مارد، لا يعنيه أن يقال له «بوذا» أو «فيشنو» أو «الغورو فلان» أو «القديس فلان» أو «قطب الأقطاب» أو «المُلا فلان» أو «الإمام فلان».. الخ، المهم أن يشبع هو شهوته في أن يكون إلها يعبد في الأرض من دون الله، وأن تظل الناس تأتيه بالسؤال والضراعة والتعبد والتذلل من حيث لا تراه، تنزل عليه من صفات الربوبية (إما تصريحا أو بمقتضىٰ الفعل التعبدي)، وتعتقد فيه ما لا يوصف به إلا الرب الباري وحده جل في علاه! ولو أن واحدا من هؤلاء المشركين نطق باستعاذة ذكر اسم الله فيها مخلصا صادقا متيقنا لأعاذه خالقه وخالقهم من تلك الطواغيت المتألهة بالغيب جميعا ولما تمكنوا من خداعه بحيلهم وخوارقهم الشيطانية، ولكن حكمة الله ماضية في خلقه لا تبديل لخلق الله، فالحمد لله رب العالمين.

ولا شك أن كل جني كافر سفيه يحب أن يجعل من أولئك الكهنة المعظمين في تلك الملل الشركية عبيدا له من دون الله، فإذا جاء أهل الملة يتذللون لذلك الكاهن يطلبون منه الوساطة والتوجه بالمسألة والدعاء إلىٰ ذاك «الإله» الذي عبدوه من دون الله حتىٰ تجاب مسألتهم أيا ما كانت كما رأوا من قبل تلك «الأعاجيب» و«المعجزات»، توجه الكاهن بدوره بالمسألة والتذلل والتعبد للشيطان الذي يزعم أنه هو ذلك الإله، فيتعاظم ذلك الجني في نفسه غاية التعاظم، إذ يعبده الكاهن من دون الله علىٰ أتم ما تكون العبادة، ويخضع له أعظم ما يكون الخضوع! ونحن البشر في الحقيقة لا نتصور كيف يكون شعور الواحد منا لو أنه تمكن من إخفاء نفسه عن أبصار الناس، وامتلك تلك القدرات التي ابتلىٰ الله بها الجن في خلقتهم، وراح يتلاعب بالناس فيكلمهم ويؤثر فيهم من حيث لا يرونه! لا شك أن شهوة التأله والتسلط علىٰ الخلق ستملأ أركان تلك

النفس حالئذ وتحركها إلىٰ المزيد من ذلك، بصرف النظر عن أي دافع اعتقادي (كعبادة الجني نفسه لإبليس اللعين وخضوعه لأمره ونهيه مثلا).

ولعل مما يجهله الكثيرون أن للبوذيين أيضا «مسيحا» منتظرا من ابتداعهم، يلقبونه بالمعلم أو معلم البشر الموعود، واسمه الـ«بوديساتفا مايتريا». هذه الشخصية الإلهية المزعومة (المعلم أو «الأوتار» المنتظر) يحلو لشياطين الجن أن تُظهر من آن لأخر بعض الخوارق باسمه حتىٰ ينسبها الأتباع إليه. ومن ذلك مثلا ما روي واشتهر ونشر في مجلة «شير إنترناشيونال» الشهرية – التابعة أصلا لمنظمة دولية من المؤمنين بـ«مايتريا» هذا تزعم أنه قد نزل فعلا في مكان ما في لندن – عن «اليد» التي وجدتها امرأة في برشلونه ذات يوم في عام ٢٠٠١ الميلادي مطبوعة علىٰ زجاج المرآة في حمّام بيتها (وننبه القارئ من جديد إلىٰ مسألة «الحمام» هذه). تلك اليد المطبوعة نقلوا صورتها وخبرها وقالوا إن من يقترب منها وينظر إليها ويدعو ويتضرع للمايتريا هذا فإنه يشفىٰ من مرضه! وفي نصوص البوذيين إشارات كثيرة ليد المايتريا هذه وأنها سبيل الأتباع إلىٰ السماء وأنها تمتد إليهم في الأرض لتنقذهم، ونصوص من نحو قول كاتبها «خذ بيدي يا صاحبي ودعني أعبُر بك إلىٰ بر الأمان» و«خذ بيدي ودعني أُرِك الطريق» ونحو ذلك. فمن هنا وجد الكهنة تفسيرا سائغا لكون تلك الخوارق مرتبطة برمز اليد عندهم. فهو اختيار شيطاني مدروس بدقة كما يظهر. ولا عجب، فالشياطين يعلمون نصوص هؤلاء وعقائدهم، وربما كان بعضهم في رفقة من كتبوها من أسلافهم من قبل، يوحي بعضهم إلىٰ بعض زخرف القول غرورا. فهم يعلمون أن أكثر الرموز تأثيرا فيهم وتأصيلا لعقيدتهم الفاسدة والمرتبطة بذلك المنقذ المنتظر إنما هو رمز اليد.

ولمايتريا هذا «ظهورات» كثيرة مدونة بتفصيل عند الجماعة آنفة الذكر، يربطونها بخوارق علاجية وغير ذلك، كقولهم إن المياه تتمغنط عند ظهوره وتصبح دواء لبعض الأمراض.

وفي تايلاند، روايات عن كرة نارية تعرف باسم كرة «ناغا» النارية. وهي كرة من النور تخرج فوق نهر «ميكونغ» في يوم محدد كل عام، وهو يوم له أهمية عقدية عند أكثر

فرق البوذية. فينسبون خروج تلك الكرة لكائن (ثعبان) مائي أسطوري عندهم اسمه ناغا، ويعتبرون وقوع تلك الواقعة بصورة سنوية في نفس الوقت ونفس المكان كل عام، دليلا دامغا علىٰ صحة عقيدتهم وأسطورتهم في ذلك «الناغا»! وتتوافد الناس لتشهد ذلك المشهد في نفس الموعد في كل سنة، وتنقله وسائل الإعلام المحلية وتستغله السلطات في الجذب السياحي للمدينة.

وترجع أول مشاهدة مسجلة تاريخيا لذلك الحدث إلىٰ مائة عام مضت.

إذ يروىٰ أنه في تلك الليلة منذ مائة عام، وقع حادث عجيب علىٰ نهر ميكونغ في وسطه وشاهده الناس علىٰ ضفتي النهر، إذ خرجت من النهر كرة نار قرمزية اللون وارتفعت تدريجيا إلىٰ ارتفاع ما بين عشرة وعشرين مترا ثم اختفت فجأة. ومن ذلك الوقت، صارت كرات النور تخرج من النهر في كل عام في نفس ذلك الموعد، وهو ما صار من معالم الجذب السياحي ومما يعتبره بعض السكان المحليين معجزة لهم تبرهن علىٰ صدق عقيدتهم. وبطبيعة الحال فإن الكثيرين قد شككوا في الأمر واتهموا الحكومة بتلفيق تلك الظاهرة من أجل الجذب السياحىٰ. غير أن تلك المشاهدات في الحقيقة إنما ترجع إلىٰ أكثر من قرن من الزمان، والسكان يبتهلون ويصلون كل سنة مستبشرين بها في ذلك اليوم الذي يقدسونه، ولم تتحول تلك الظاهرة إلىٰ مزار سياحي إلا مؤخرا.

وعلىٰ عادتهم، افترض الطبيعيون وغيرهم من غير المؤمنين بتلك العقيدة، تفسيرا فيزيائيا من واقع ما يرون من أسباب الطبيعة الظاهرة، فقالوا إن تلك الكرات النورانية ما هي إلا دفقات من الغاز المختزن تحت الأرض في قاع النهر، ما أن تخرج إلىٰ الهواء حتىٰ تشتعل، ثم هي تعلو في الهواء وسرعان ما تنطفئ. وفي المقابل فإن عند البوذيين التايلانديين تحفظا يبدو منطقيا علىٰ تلك النظرية. إذ إنها لا تفسر حقيقة أن الظاهرة تحدث في يوم واحد فقط من كل عام، هو ذلك اليوم بالذات وبصفة خاصة، ولا تفسر سبب خروجها من تلك البقعة بالذات في كل مرة، لا سيما وأن طبقة القاع في ذلك الموقع ذات طبيعة رملية. وعموما فلا تزال الظاهرة غير مفسرة عندهم (طبيعيا) إلىٰ

يومنا هذا، ولا يزال الناس في تلك البلاد والحجاج البوذيون منهم علىٰ الخصوص يرونها «ظاهرة روحية» مذهلة يحتفلون بها ويقيمون لها علىٰ النهر عيدا ومهرجانا سنويا يفدون ويحجون إليه. وهذا هو ما يعنينا في هذا الباب علىٰ أي حال، أنه بصرف النظر هل أصل الظاهرة نفسها من لعب الجن والشياطين أم من سبب آخر لا علاقة له بذلك، فقد مالت تلك العقول الشركية بأصحابها إلىٰ التأويل الغيبي الشركي من فورها، واتخذت الأمر من جملة المستندات الدليلية لنصرة معتقدها المتناقض، وراحت تنتصر لذلك التأويل علىٰ ما يخالفه من التفسيرات عند أهل الفلسفات والمذاهب المخالفة، لا لشيء إلا لما في تلك النفوس من هوىٰ الانتصار للملة والتشويش علىٰ ما في أصولها الغيبية من تناقض ومناقضة لمسلمات الفطرة والبداهة.

ولا شك أنه لو قدر أن ظهر لتلك الظاهرة قياس طبيعي معقول، مبناه علىٰ عادة حسية مستفيضة لا علىٰ الوهم والخيال الطبيعي الغيبي، فإنه يكون أرجح في العقل السوي الصحيح من فرض أن يكون الأمر راجعا إلىٰ عمل الشيطان، لأنه وإن كان يقع تحقيقا، إلا أنه قليل الحدوث. اللهم إلا إن ظهرت قرائن تدل علىٰ أن الطبائع المعتادة قد انخرمت تحقيقا، فهذا يرجح كون الأمر من عمل الشيطان ولا شك، ولكن نحن نتكلم عن أناس لا يؤمنون بالجن أصلا، وإنما يؤمنون بأن إلههم المزعوم هو الذي يحدث تلك الأشياء، وهم يشتهون إثبات صحة عقيدتهم الغيبية من ذلك الطريق، أعظم ما يكون الاشتهاء! فمهما جئتهم بما يعكر عليهم إثبات كون تلك الوقائع من خوارق العادة، ردوه عليك بزخارف كهانهم وفلاسفتهم في حيل الاستدلال أشكالا وألوانا.

ومما يروىٰ عن بوذيي أمريكا خبر أنقله عن موقع يسمىٰ بالقناة البوذية Buddhist Channel.tv، هو قصة لظاهرة حدثت في ولاية فلوريدا في الأول من شهر إبريل من العام الميلادىٰ ٢٠٠٦. ففي مدينة نابلس في فلوريدا، شاع الخبر حول صورة لمعبود من معبودات البوذيين في الصين واليابان يعرف باسم «هوتي»، بدأت معالمها في الظهور التدريجي علىٰ جدار (سور) من الطوب في إحدىٰ مقاطعات المدينة. معبودهم هذا له وثن علىٰ صورة رجل بدين يبتسم، وهي الصورة التي أخذت في الظهور شيئا

فشيئا علىٰ ذلك الجدار، كما وصف المحرر علىٰ الموقع. وقد نقل الموقع صورة ضوئية لتلك الظاهرة، وعلق الكاتب علىٰ الأمر بأنه قد صار يجلب «الحجيج» إليه من البوذيين من شتىٰ أقطار البلاد هناك، حتىٰ صار سببا في ضيق السكان واختناق حركة السيارات والمشاة، من كثرة الزوار وتزاحمهم، وعلو صوت ضجيجهم وتلاواتهم وأبخرة صلواتهم!

والحي الذي وقعت فيه تلك الظاهرة، كان القائمون علىٰ الولاية يخططون لإقامة مشروع نصراني كاثوليكي ضخم فيه، وهو ما جعل راوي الخبر في المقال الذي قرأته – وهو بوذي – يؤول الظاهرة علىٰ أنها إشارة من ذلك المعبود إلىٰ القائمين علىٰ الحي بأن المنطقة «إنما يسكنها أناس من ملل أخرىٰ غير الكاثوليكية، وهم لهم حقوقهم أيضا».

والذي يظهر لي علىٰ أي حال أن هذه الظاهرة مختلقة مصطنعة لغاية سياسية. فلعله قد نقش أحدهم تلك الصورة علىٰ الجدار بعناية وإتقان ذات ليلة، فخرج الناس من صبيحتهم إلىٰ أعمالهم فوجدوه علىٰ تلك الحال. وهذا في الحقيقة أمر محتمل جدا، بل هو الأصل في كل رواية عن خوارق عند المشركين بصفة عامة أيا ما كانت، ما لم يتبين أن الأمر وراءه سبب خارق للعادة تحقيقا، كما قدمنا سلفا في تقدمة الكتاب، حيث قررنا أن جريان الحوادث المشاهدة علىٰ وفق العادة، أرجح في الاحتمال من جريانها علىٰ خلافها، ما لم يظهر مرجح إضافي. ولكن ما يعنيني هنا ليس هو ثبوت صحة ذلك الأمر من عدمه، وانما يعنيني الإشارة إلىٰ سرعة وسهولة انقياد المشركين إلىٰ أي شيء أيا كان ما دام يخدم اعتقادهم الشركي، وسهولة ابتلاعهم للحيل والأكاذيب تزيينا وتلبيسا، من شدة اشتهائهم لذلك ورغبتهم فيه، وهو السبب فيما يسميه الماديون (بإجمال يجب فيه التفصيل) بالعقلية الخرافية Superstitious Mentality.

الهندوس

يروىٰ أنه في يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر سبتمبر من سنة ١٩٩٥ الميلادية في معبد «غيتا باهافان» الهندوسي في الهند، اكتشف واحد من الكهنة اكتشافا «مذهلا»، أن واحدا من التماثيل الصغيرة علىٰ هيئة فيل فضي للمعبود «غانِش» كان

إذا وضع أمام فمه ملعقة بها بعض اللبن، قام التمثال الصغير بمص ما فيها من اللبن وكأنه شربه! فلما رأىٰ الكاهن ذلك صاح مذهولا بما حاصله: «أرأيتم كيف يشرب الإله غانش؟ فكيف تكذبون تلك المعجزة، وكيف تكفرون بآلهتنا؟» وتناقلت وكالات الأنباء الخبر وجاء الناس من كل حدب وصوب ليقدموا اللبن بأنفسهم وبأيديهم للتمثال ويشاهدوه في ذهول وهو «يشربه»! وقد تكرر ذلك من تمثال آخر لنفس المعبود وللمعبود «شيفا» كذلك في نفس الليلة حتىٰ أشربه الناس كميات كبيرة من اللبن – كما في الرواية – وهم موهومون مذهولون من عجب ما يرون. أين يذهب كل هذا اللبن؟! لا يبقىٰ له أثر! فلا بد أنها معجزة!

وتسجل الصحفية «ربيكا ماي» مشاهدتها الشخصية لتلك الظاهرة في جريدة «ديلي إكسبرس» البريطانية وهي مبهوتة إذ تقول «كل ما يسعني قوله هو أن الإله يشرب بالفعل! وقد رأيته بعيني من جانبه بوضوح وهو يمص نصف ملعقة من اللبن قدمها إليه واحد من الكهنة!» وتضيف المسكينة في ريبة محضة وتخبط مبين: «مع كوني نصرانية فإني ما كنت أصدق روايات الناس عن تماثيل العذراء التي تبكي، ولكن يصعب علىٰ المرء أن يكذب ما رآه بعينيه!» قلت: سبحان الله! فأي إله تعبدين الآن إذن أيتها المسكينة ومن تتبعين؟ ثم أي إله هذا يا معاشر السفهاء الذي يعطش فلا يكتفي من شرب اللبن؟! إنه لعمر الله أمر في غاية المهانة والوضاعة أن يسقي الرجل الإله الذي يعبده اللبن بالملعقة كما يسقىٰ الأطفال الرضع، ولكن المشركين لا يعقلون. يخزيهم ربهم بكفرهم وشركهم غاية الخزي، وهم مع ذلك يرون أنفسهم علىٰ الحق المبين!

وكما هو متوقع، فقد توافد الهندوس في أعقاب تلك الوقائع العجيبة بحماسة شديدة علىٰ المعبد حاملين الآنية والأطباق والدلاء المملوءة لبنا ليُشربوها إلههم في المعبد، حتىٰ اضطربت شوارع مدينة دلهي وتوقفت حركة المرور وكان يوما مشهودا! وقد تزامنت تلك الوقائع مع مثلها في بعض معابد الهندوس الأخرىٰ في الهند وفي بريطانيا، حتىٰ في البيوت سجلت الأخبار أن تماثيل الهندوس راحت تشرب ما يقدم لها من اللبن كذلك! ولا يسعني إلا أن أتصور حال الواحد من هؤلاء في بيته علىٰ أثر

تلك الأخبار، يقف بملعقة اللبن يضعها أمام في التمثال الذي يصلي له في غرفة نومه كل ليلة، ينتظر منه أن يشرب، ثم يسجد له ويطلب منه الشفاء وإجابة الدعاء بعدما أشربه بيده! ولعله يرجوه أن يشرب و«يرتوي» حتىٰ يخرج للناس ليقول إنه قد وقعت المعجزة في بيته هو أيضا، وصدق الذي قال: «شر البلية ما يضحك»!

وقد خرج بعض الكهنة الهندوس والمنجمون عندهم بتأويل مستمد من نصوصهم مؤداه أن تلك العلامة دليل علىٰ أن إلها جديدا قد وُلد في مكان ما في العالم لينقذ البشر من الشرور والعذابات! ولا أدري أي إله هذا الذي يولد! ولكن ما العجب؟ أليسوا قد سقوا آلهتهم لبنا بأيديهم؟

كما سجل ذلك الحادث الصحافي الهندي «ريكي فيرما» من جريدة «ذا تايمز» الهندية، وقال إنه وضع الملعقة المملوءة بيده أمام صورة للمعبود غانش هذا، وإذا بها قد أفرغت من محتواها تماما. فذهل وفحص الصورة، فلم يجدها قد لحق بها أي بلل أو أثر! فما وسعه إلا أن يقول في نفسه: «لا بد وأن هذه الآلهة تريد أن ترسل إلينا آيات وعلامات»، وصاح بعضهم بكل حماسة: «ها نحن أولاء وذاك دليلنا»، وصاح آخر وقد تلهبت مشاعره: «أخيرا جاء إلهنا لنصرتنا»! وقال آخر: «هذا إلهنا يريد أن يثبت لنا أنه هنا وأنه حق». قلت: الله المستعان علىٰ ما تصفون!

والظاهر أن ذلك الحادث العجيب قد شاهده ملايين البشر من كل أنحاء العالم، وسجلته وكالات الأنباء العالمية وصورته وتناقلته وتواترت به الأخبار، وباءت بالفشل كل محاولات من حاولوا تكذيبه أو إثبات أنه خدعة دبرها كهنة الهندوس، كما فشلت محاولات تصويره علىٰ أنه هيستيريا جماعية أو وهم جماعي. وفشلت كذلك محاولات من حاولوا تفسيره فيزيائيا علىٰ أنه بسبب ظاهرة الامتصاص الشعري Capillarity في الأجسام الصلبة. وقد رد عليهم الكهنة برد أسكتهم إذ قالوا لو كان الأمر مصا شعريا فيزيائيا كما تقولون فأين ذهبت كل تلك الكميات التي أشربناها للتمثال ولماذا حدثت في تلك الفترة الوجيزة فقط ولم يحدث مثل ذلك مع التمثال من قبل أبدا وما عاد يحدث بعد ذلك قط؟

وحينئذ انتفش كهنة الهندوس ورأوا في الأمر نصرا مؤزرا علىٰ كل من قالوا ببطلان عقيدتهم وكذب معبودهم. وتحول الكثيرون من المشركين هناك من فورهم من أثر ذلك إلىٰ الديانة الهندوسية ولا حول ولا قوة الا بالله. وكيف لا وقد اكتسب رؤوس تلك الملة بسبب تلك الوقائع في تلك الأيام علوا اجتماعيا في بلادهم وظهورا إعلاميا كبيرا وأصبحت موجة الذهول والانبهار بالفيل الهندوسي «غانش» موجة كاسحة لا يعلوها شيء؟ وكيف لا وقد تضاعف سعر لتر اللبن خمسة أضعاف في أسواق الهند من شدة إقبال القوم عليه حتىٰ يشربوه آلهتهم؟

السحر الأسود وتحريك (رفع) الموتى أو ما يسمى (بالزومبي)

يعتقد بعض السحرة في بعض القبائل، وبعض أصحاب الملل الشركية أن آلهتهم تستطيع أن تحيي الموتىٰ. وإني وإن كنت أنسب أكثر ما يروىٰ من روايات عندهم في ذلك الباب إن لم يكن كلها إلىٰ المبالغة والكذب، إلا أننا لا نستبعد أن تأتىٰ الشياطين أمام هؤلاء بأعمال يبدو معها الميت وكأنه قد عاد إلىٰ الحياة وقام وتحرك، كأن يقوم الجني بتحريك جثمان الميت والنطق علىٰ لسانه مثلا، فهو علىٰ أي حال عمل من جنس التلبس بالأحياء والتأثير علىٰ أجسامهم من حيث لا يشعرون. أو تقوم بالتصور في صورته إحكاما للخدعة علىٰ الضالين. لذلك فإني رأيت أن أسمي الظاهرة باسمها الصحيح «تحريك صور الموتىٰ» وليس إحيائهم، فالإحياء والإماتة من عمل الله وحده لا شريك له.

بل لعله من الملفت هنا أن أهل الغرب المشرك في لغتهم لا يعبرون عن ذلك المعنىٰ بقولهم إحياء الموتىٰ أو بعثهم، وإنما يسمونه بـ«رفع الموتىٰ» Raising the dead، ويسمونه أحيانا (عندما يعتقدون أن له سببا خارجيا) بإعادة التحريك Reanimation.

ومع قليل من البحث تبين لي أن لهذه النوعية من السحر والعمل الشيطاني عبادة وملة مخصوصة ترجع إلىٰ أكثر من ثلاثة آلاف سنة! وقد كان أول توثيق تاريخي لظهورها يرجع إلىٰ مدينة أور السومرية. ولتلك الملة كهنتها القائمون عليها ومعابدها

المخصوصة، وتسمىٰ بالـ«نيكرومانسي» Necromancy. وهي ملة تقتصر شعائر العبادة فيها علىٰ الرجال فقط، أما النساء فلا عبادة لهن، وإنما يتفرغن لما يسميه هؤلاء بـ«الرحم المقدس»، ويعتبرونها خادمة لإلهين من آلهة بابل القديمة يعرفان باسم «تيامات» و«أبسو» (وهما علىٰ وفق أساطيرهم، الزوجين الذين من نسلهما انحدرت آلهة بابل جميعا). وتقوم تلك الملة قياما تاما علىٰ أعمال السحر والتعامل مع «الأرواح» والشياطين.

وقد انتشرت عقيدة ما يسمىٰ باللامَوتىٰ (الزومبي)، أو الموتىٰ الأحياء، في كثير من الثقافات، لا سيما تلك التي يغلب عليها الانعزال عن العالم الخارجي، وتعيش علىٰ هيئة قبائل منعزلة في أعماق الأدغال والأحراش النائية. و(الزومبي) هذا إنما هو جثة ميت قد أخرجت من قبرها ثم «أعيدت إليه الحياة» كما يزعمون. وهو كما يصفونه، يكون ميت الجسد تماما، بل إنه يستمر جسده في التحلل كسائر أجساد الموتىٰ، غير أنه يتحرك كما الأحياء! وقد كان لصناع السينما الأمريكية ومؤلفيها باع واسع في استعمال تلك العقيدة في أفلامهم، وهو الأمر الذي كان من شأنه أن يزيدها انتشارا بطبيعة الحال.

وقد قرأت في موقع شبكة ABC الإخبارية مقالا في قسم الأخبار العلمية حول نجاح عالم أمريكي للأحياء اسمه «ويد دافيز» في اكتشاف حقيقة أسطورة (الزومبي) في جزيرة هاييتي (التي يبدو لي أنها منبع تلك العقيدة)، إذ تمكن من اكتشاف نشاط إجرامي لبعض العصابات هناك سماه بعملية صناعة (الزومبي) لما يظهر فيها للجاهلين من أنه إخراج للموتىٰ وإحياء لهم. ذلك أنه يقوم مجموعة من الأطباء هناك بانتقاء ضحية لهم، ثم يقومون بتسميمه من حيث لا يدري بمخدر مخصوص شديد الفاعلية، يدخله في غيبوبة عميقة، فيبدو معه نظامه الحيوي وكأنه قد مات. فإذا ما قرر الأطباء الرسميون أنه قد مات ميتة طبيعية لما يظهر لهم من ظاهره، ولتواضع ما معهم من الإمكانات والأدوات الطبية لكشف حقيقة تلك الغيبوبة، ودخلت عليهم الخدعة بذلك، وتقرر دفنه من فوره (وهم يعجلون بدفن جثث الموتىٰ في هاييتي نظرا لأن الحرارة الشديدة تعجل من تحللها)، سارع هؤلاء المجرمون حينئذ بنبشه وإخراجه من قبره قبل مضىٰ

ثمان ساعات بحد أقصىٰ حتىٰ لا يموت مختنقا، ثم قاموا بتغذيته بمواد أخرىٰ تفقده الذاكرة تماما، فإذا ما أفاقوه من تلك الغيبوبة وقاموا بإنعاشه، قام وهو لا يدري من هو ولا من أين أتىٰ ولا يذكر شيئا علىٰ الإطلاق، فيوهمونه بأنه كان عبدا يباع ويشترىٰ، وبأنهم هم مالكوه، ويجعلونه يعمل بالسخرة حيثما يريدون!

فسبحان الله وإنا لله وإنا إليه راجعون. والله إن في الأرض لأقواما من بني أدم يخجل الشيطان ويتصاغر من فداحة شرورهم وبشاعة أعمالهم!

ولتفشي الجهل والشرك في تلك الجزيرة الصغيرة، ظهر الأمر عندهم في قالب السحر وخوارق العادة، وانطلقت الأساطير وتشعبت، حتىٰ صار الفلاحون هناك يدفعون الأموال الطائلة في سبيل دفن موتاهم داخل صناديق من الأسمنت ونحو ذلك منعا من أن يأتي أحد بعد دفنهم ليخرجهم ويحولهم إلىٰ عبيد من «الزومبي»!

ونظرا لأن المكونات التي يتكون منها مركب التخدير الفعال هذا، بعضها مأخوذ من جلود الضفادع، وبعضها من أنواع مخصوصة من السمك، مع تركيبة من الأعشاب، اشتبه الأمر عند الجهال هناك علىٰ أنه من عمل السحر. ولا يخلو الأمر بطبيعة الحال من امتصاص بعض الكهنة والمشعوذين لأموال الجهال هناك بخلط الأمور عليهم، وخلط ما هو من السحر وعمل الشيطان حقيقة، بما ليس منه، والنتيجة واحدة علىٰ أي حال: أن ترىٰ المشرك يخر إلىٰ ركبتيه خاضعا متعبدا كما يراد له.

الشيعة الرافضة

إنه مما لا ريب فيه لدىٰ الحكماء والعلماء أن كل معتقد مؤداه وضع منتهىٰ الخوف والرجاء في أي موجود من الموجودات من دون الله عز وجل، إنما هو شرك في خواص الربوبية وبالتبعية يكون شركا فيما يلزم لتلك الخواص من التأله والعبادة والقصد. والرافضة الإمامية يعتقدون الكثير من خواص الربوبية في أئمتهم (المعصومين بزعمهم)، لا سيما إمامهم الأخير المزعوم محمد بن الحسن العسكري الذي اختفىٰ وهو صبي صغير – كما يأفكون – منذ ألف سنة ويزيد! وكتب الحديث التي عليها

المعول عندهم تنضح بذلك الإفك ولا حول ولا قوة الا بالله. آلاف المكذوبات من القصص والروايات التي وضعوها علىٰ ألسنة آل البيت وعلمائهم ﷺ وبرأهم من إفك الزنادقة الوضاعين، حتىٰ إن بعض محدثيهم ليرسل بمراسيل الحديث عن آل البيت بعد موتهم بثمانية قرون أو يزيد! وتكون تلك المراسيل عندهم معتبرة صحيحة لا عيب فيها، ما دامت تنصر معتقدهم.

وفي أسطورة غيبة المهدي عندهم ما لا يقبله صاحب عقل سوي ولا صاحب فطرة سليمة. وقد صارت هي محور الملة عندهم وقلب الدين وروحه ونبضه وغاية كل قصد فيه. فكل الدين صار يدور عند هؤلاء حول قضية الغيبة والانتظار والولاية لـ«صاحب الزمان».. الخ! فإلىٰ الله المشتكىٰ والله المستعان!

ونظرا لتمكن تلك المعتقدات الشركية من قلوب أتباعها ومواليها فقد كان من الطبيعي أن يجد شياطين الجن بابا ومدخلا سهلا إلىٰ عقول وحواس هؤلاء. فهم يجزمون بأن الصالحين من شيعة الأئمة عندهم هم الذين يكون لهم الحظوة والشرف بلقاء المهدي الغائب بهم من آن لآخر، أو ظهوره أمامهم وحديثه إليهم، ولهم في ذلك من الروايات في أمهات الكتب عندهم الكثير والكثير.

وقد ذهب علماء الشيعة حول قضية الغيبة هذه وتفصيل ما يكون فيها – بزعمهم – من أعمال للمهدي الغائب ومتابعات لشيعته ومراقبة لهم ولأعمالهم وظهور لبعض الخاصة منهم عند الحاجة والضرورة، إلىٰ أقوال مغرقة في إحلاله محل رب العباد عز وجل، وفي تدريب قلوب العباد علىٰ الخشية من اطلاعه عليهم فيما يجب ألا يُصرف من العبادة والخشية بالغيب إلا لرب العباد وحده. فقد تكلم متكلموهم في أسباب الغيبة المزعومة وعللها، وفيما إن كانت بسبب خوف الإمام المهدي من الظهور للعالم [١] أو بسبب تقصير شيعته في طاعته وإظهار الولاية له، أو كليهما معا. فكان نتاج تلك المعتقدات أن صار الشيعة يعتقدون أن تجنب المعاصي هو سبب لرضىٰ المهدىٰ،

(١) وانظر إلى إقرارهم الضمني بأنه يخاف، وتناقض ذلك مع نسبتهم بعضا من خواص الربوبية إليه، ومع معتقد أنه يأتي سيفا قاصما لظهور الخونة والظلمة ومن شايعهم فينصب لهم المذابح!

والإتيان بالصالحات سبب لتعجيل «فرجه الشريف» علىٰ حد اعتقادهم، فبدلا من استرضاء الرب جل وعلا، أصبح الهمّ استرضاء «صاحب الزمان»، والله المستعان.

وعندهم روايات بأن أعمالهم تعرض عليه في غيبته فما كان منها قبيحا ساءه وأحزنه وما كان منها حسنا أعجبه وأسعده (أو نحو ذلك المعنىٰ)! لذا صار دعاؤهم كله موجها إما إليه وإما إلىٰ الله عن طريقه، وإما إليه عن طريق الله سبحانه! فالحاصل إذن أنه قد أمسىٰ هو محور الدين كله ولا عبادة إلا له أو به! حتىٰ إن الشيعي لا يكون شيعيا إلا بالمواظبة علىٰ أدعية كدعاء الندبة ودعاء العهد اليومي وغيرها، وكلها أذكار جُعلت عندهم في مكان أذكار الصباح والمساء والذكر المقيد في السنة عندنا، الذي نذكر الله فيه وحده، شكرا وحمدا وتوحيدا وتسبيحا وتهليلا وتعظيما. فكانت تلك الأدعية كلها منصبة علىٰ طلب رؤية المهدي وتعجيل فرجه وخروجه عليهم وتثبيتهم علىٰ انتظاره ونصرته إذا ظهر، وأن يرزقهم الله رؤيته في الحياة قبل الممات وأن يصلي الله عليه وينقل إليه صلواتهم لعله يرضىٰ .. إلخ! فذاك ذكرهم اليومي وذاك دينهم وديدن عبادتهم التي تفنىٰ أعمارهم فيها! فلا حول ولا قوة الا بالله!

وكان طبيعيا أن يتمحور دين الإمامية بكامله علىٰ العمل من أجل تعجيل خروج ذلك الإمام الغائب بزعمهم، والتضرع إليه بالصلوات والعبادات من أجل ذلك. فقد جعلوا الإيمان بالإمامة والولاية لهم أصلا لا عذر فيه لأحد ولا يصح إسلام الرجل إلا به، وهذا بما صححوا عندهم من أحاديث مكذوبة كثيرة وضعوها علىٰ لسان أبىٰ عبد الله جعفر الصادق رحمه الله وبرأه مما يقولون، وغيره من آل البيت ﷺ أجمعين. فكان ذلك ركن الدين الأعظم عندهم. وقد ألحقت الشيعة في مكذوبات الحديث عندهم علوما مزعومة لا أول لها ولا آخر بأئمتهم الاثني عشر، هي في زعمهم ميراث علوم آل البيت ﷺ، التي فيها من علم الغيب وعلوم الكون وعلوم الأولين والآخرين ما لا حصر له ولا عد من المعارف الغيبية والله المستعان.

وعلىٰ الرغم من أنه ما من أحد منهم قد رأىٰ شيئا من تلك الصحائف والعلوم المزعومة، وما رأىٰ أحد من قبل أي أثر يذكر لتلك العلوم عند الشيعة وأئمتهم علىٰ

طول تاريخهم وعرضه، إلا أنهم يؤمنون إيمانا راسخا بتلك العلوم وبأنها مكتومة محبوسة مع غائبهم في غبيته، تنتظر اليوم الذي تخرج فيه للناس ليعملوا بها. ولا يكل ولا يمل متكلموهم - كما هو حال الفلاسفة والمتكلمة في كافة الملل والنحل - من التفلسف والتذرع واختلاق الحجج الواهية لتلك الغيبة وإيجاد مخارج عقلية واهنة لإقناع عامتهم بتلك الخرافات جميعا. لا سيما وأن العقيدة في الإمام هي ركن الدين، فإن سقطت سقط الدين وضاع التكليف! فكان لا بد من مخارج عقلية فلسفية مزخرفة، تقتات القلوب المشركة عليها وتستكثر منها كلما دعاها داعي الفطرة الباطنة لنبذ الشرك الذي هي عليه، أو قابلها دعاة التوحيد بالحق الذي تكرهه!

ولغلوهم في أمر تلك العلوم المزعومة أثر كبير في بناء المعتقد الشركي عندهم، فمع اعتقاد تلك العلوم المزعومة التي تزاحم بوصفها وحدّها ما عند الخالق عز وجل من العلوم - تعالىٰ الله عما يصفون علوا كبيرا - ومع اعتقاد عصمة وقدرة ذلك الإمام الغائب واطلاعه علىٰ تلك العلوم عنده، فإنهم قد صنعوا لأنفسهم بذلك كيانا غيبيا ينزل منزل الرب عز وجل في قلوب العباد (بل فوق منزلته أحيانا)، فاتخذوه من دون الله إلها وربا وراعيا، يرعىٰ شيعته وأولياءه ويسهر عليهم وينتظر الفرصة (الفرج) لينقض علىٰ البشرية فيفتك بأعداء الشيعة فتكا، ويمكن لهم في الأرض كما يحلمون!

لذلك، ولاضطراب أمر الغيبة هذه وغموضها عندهم، ولبعدها عن عقول العقلاء، ولغموض ذلك المعتقد بين أيدي المتكلمة منهم، ولتمحور جل أمانيهم وأدعيتهم وصلواتهم علىٰ الطمع في «رؤية الإمام المهدي» هذا في الحياة قبل الممات والتلذذ والتنعم بالنظر إليه، وترسخ ذلك الرجاء عندهم جميعا، فإنه كان من المتوقع أن تأتىٰ شياطين الجن بما لا يدع مجالا لأصحاب العقل منهم - إلا ما رحم ربك - لأن يخرجوا من مستنقع الشرك الذي غرقوا فيه، ولا أن يجدوا فرصة للتفكر في حقيقته وإجابة داعي الفطرة في الحكم ببطلانه! فكانت «الظهورات» والأعمال الشيطانية - كما جرت عليه العادة عند أهل الملل الشركية جميعا - سبيل ابليس وجنده لتثبيت القوم علىٰ الباطل الذي هم عليه وترسيخ معتقدهم فيه، ولصرف حجاهم عن محاسبة النفس وعن التأمل المتجرد الصادق في حالها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولأنهم لا يقصر اعتقادهم الشركي علىٰ المهدي المزعوم وحده، بل وعلىٰ سلسلة قبله من أفاضل آل البيت رحمهم الله تعالىٰ، نسبوه إليها بعدما جعلوهم كلهم أئمة معصومين بالنص المزعوم وصولا إلىٰ علي وفاطمة رضي الله عنهما، فقد وجدت الشياطين متسعا ربما لا يجدونه في كثير من النحل الشركية الأخرىٰ للإغراق في ألعابهم وحيلهم، وتكاثرت الرؤىٰ والمشاهدات المتواترة وروايات نحو ذلك وما هو من جنسه من الأساطير والأكاذيب عندهم كثرة هائلة والله المستعان.

وكما ذهبت النصارىٰ إلىٰ أن القديس لا يتحقق الناس من درجته ومنزلته إلا بظهور «المعجزات» و«الأعاجيب»، وكما ذهبت غلاة الصوفية والقبورية إلىٰ أن الولي لا تُعلم ولايته (حيا كان أو ميتا) إلا بـ«الكرامات»[1]، ذهبت الامامية أيضا إلىٰ أن الإمام لا يُعلم ظهوره عند من ظهر له إلا بمعجزات وخوارق، كما أنه لا يتحقق الناس من أن زيدا من الناس هو خليفة للإمام في الشيعة ينوب عنه لحين ظهوره وأنه قد استخلفه فيهم كما يزعم لنفسه، إلا بـ«كرامات» تظهر علىٰ يده كذلك (وإن كان علماؤهم كما يظهر لي، يختلفون في أمر النيابة والوكالة في زمن الغيبة الكبرىٰ، وأكثرهم لا يقولون بها). فلا بد أن يكون للخليفة الذي يصطفيه «إمام الزمان» (عند من يقولون بذلك) علامات وأمارات تدل علىٰ صلاحه وعلىٰ صدقه في زعمه أنه خليفة أو واسطة أو نائب للإمام الغائب. ومن هنا، ومن غيره من الاعتقادات الشركية الكثير والكثير، يدخل شياطين الجن كما دخلوا لكافة أهل الملل والنحل الشركية الأخرىٰ من باب خرق العادة بألعابهم الواهنة، فما هو إلا كيد واحد واهن ضعيف.

---

(١) والكرامة الحق (من انخراق العادة ونحوه) لا تكون إلا لموحد، أما أن يكرم الله مشركا أو زنديقا فمعاذ الله أن يقع ذلك، وإنما هو من تلاعب الشياطين بعموم المشركين! لهذا نص أهل العلم على أن الاستدلال بالخوارق وحدها على صلاح صاحبها واستقامته وولايته لله تعالى (كما هو السائد عند الطرقية والقبوريين) استدلال فاسد قطعا، لأن الخوارق قد تكون من عمل الشيطان ليلبس على الناس دينهم، ولا تظهر الخوارق عند مشرك يقول بوحدة الوجود أو يقول بالأقطاب الأربعة أو نحو ذلك، إلا كانت من عمل الشيطان يقينا! فسواء ظهرت الكرامة أو لم تظهر، فإنما تعرف أحوال الرجال بأقوالهم وأفعالهم وما تكشفه من عقائدهم ومناهجهم، لا بالطيران في الهواء ولا بالمشي على الماء!

بل إن معجزات الظهور (تماما كظهورات النصارىٰ والهندوس وغيرهم) تقع قصصها كثيرا جدا عند الرافضة، لكل من ظهر عليه التدين والاغراق في دين القوم، وفيما يلي جانب مما عثرت عليه من تلك الروايات.

ظهورات ولقاءات «الإمام الحجة صاحب الزمان»!

جاء علىٰ موقع من مواقع «حزب الله» اللبناني الرافضي علىٰ شبكة الإنترنت تحت اسم (ملتقىٰ الجنوب المقاوم)، رواية يقول راويها:

«سمعت آية الله الحاج الشيخ ميرزا علي الفلسفي (حفظه الله) – وهو من علماء مشهد المقدسة – نقلا عن أستاذه المرجع المرحوم السيد الخوئي قدس سره، أن المرحوم أستاذه آية الله العظمىٰ الشيخ محمد حسين الكمباني الأصفهاني قال: كنت وزميل قروي ندرس أيام الشباب عند أحد العلماء، فجاءنا يوما واعتذر إلينا لإلقاء الدرس، لأنه لم يسعه الوقت ليطالع ويحضّر له، ولما ذهب التفت إليَّ زميلي وقال: هل تريد أن أخبرك لماذا؟ قال: إنه كان مشغولا بزوجة تزوّج بها متعة مؤقتة!

لا أدري – والكلام للشيخ الكمباني الأصفهاني – كيف بلغ كلام زميلي القروي إلىٰ أستاذنا، فطلب منه وبإصرار أن يخبره كيف اطلع علىٰ الأمر ومن أخبره بذلك؟

فأجاب الطالب: كان والدي عالما علىٰ مستوىٰ قريتنا، يرجع إليه الناس في مسائلهم الدينية وهو يجيبهم ويبتّ في الزواج والطلاق والقضايا، فمات وجاء أهل قريتنا إليّ ونصبوني مكانه وأنا أجهل كل شيء عن الأحكام الشرعية، ولم ينفع رفضي وامتناعي، فاضطررت لفترة قصيرة إلىٰ أن أمارس هذا الدور المفروض عليَّ كرها، ولكنني سرعان ما أنقذت نفسي وأصغيت لتأنيب ضميري، فدعوت أهل القرية يوما إلىٰ كلمة هامة جدا، فأعلنت لهم في المسجد: أيها الناس! إن والدي كان يفتيكم وهو عارف بعض الشيء بالأحكام الشرعية، أما أنا فقد أجبرتموني أن أحلّ محلّه وليست لي معرفة بالأحكام، فالذي حصل هو أن ما أفتيتكم به وعملته من عقد للزواج وإجراء للطلاق لا يخلو من إشكال وخطأ...

وهنا هاجمني الحاضرون وأشبعوني ضربا، ولا أدري كيف تمكّنت من الهرب، فخرجت من القرية إلىٰ الصحراء من غير هدف ومأوىٰ، وبعد استراحة قليلة فكّرت أن أذهب إلىٰ النجف الأشرف لدراسة العلوم الإسلامية، وما قرّرت الحركة باتجاه النجف وخطوت قليلا إلا لقاني رجل ساطع الوجه فقال: إلىٰ أين ذاهب؟

قلت: إلىٰ النجف الأشرف.

قال: هل تريد صديقا؟..

قلت: نعم وبكل تأكيد.

أتذكر أننا وصلنا إلىٰ النجف ولم أشعر بالتعب، ولعل السبب وهو مؤانستي مع هذا الرجل الطيب.. وهو جزاه الله خيرا منذ تلك المرافقة والصداقة لا زال يأتيني ويتفقد أحوالي في حجرتي، حقا إنه صديق حميم جدا، ورغم ما عليه من هيبة، فإنه متواضع إلىٰ أبعد حدود، يسلب حبه قلب كل إنسان يراه للوهلة الأولىٰ، نعم هذا الرجل هو الذي أخبرني بأنك سوف تأتي غدا وتعتذر إلينا بتعطيل الدرس!..

هنا فهم الاستاذ أن الرجل ذا الوجه الساطع وليّ من أولياء الله، ولعله الإمام الحجة (صلوات الله عليه) ولكن الطالب القروي لبساطته وصفاء نفسه لم يعرفه.. لذا توجه إلىٰ الطالب وقال له: اسأل هذا الرجل هل يقبل أن أزوره وأتعرّف عليه.

قال الطالب: بالتأكيد يقبل، بل إنه لشدة تواضعه وأخلاقه الحسنة ربما يقول أنه يزورك إذا أردت!.. فجاء الطالب وأخبر صاحبه (الرجل المشعّ نورًا) بطلب الأستاذ. فقال له الرجل: أبلغه أنه لا داعي الآن إلىٰ لقائنا، بل إننا لما وجدناه أهلا لذلك نزوره بأنفسنا! ولقد كان لهذا الجواب وقع كبير وهزّة تربوية عظيمة علىٰ نفس الأستاذ.»

وهذه رواية أخرىٰ أنقلها بحرفها ولفظها من الموقع نفسه، يقول الراوي:

«هذه الحكاية نقلها آية الله السيد الحاج شيخ مجتبىٰ القزويني أحد العلماء الأعلام في مدينة مشهد والذي شاهدت منه العديد من الكرامات فقال: كان السيد محمد باقر من أهالي دامغان وقد سكن مدينة مشهد وأصبح من العلماء الروحانيين بعد أن درس

علىٰ يد المرحوم آية الله الحاج ميرزا مهدي الأصفهاني الغزوي. وكان من المقربين إلىٰ المرحوم الأصفهاني وقد ابتلي بمرض السل العضال مما جعله ضعيفا ونحيفا جدا. وفي أحد الأيام رأيت السيد محمد دامغاني نشيطا سريع الحركة باشًّا هاشًّا ولا يظهر عليه ذلك الضعف والخور فعجبت من الأمر وسألته: كيف أصبحت هكذا يا سيد دامغاني؟ فقال: في أحد الأيام وعند الصباح، لاحظت دماء كثيرة قد خرجت من فمي وأصابني الخور والهزال فيئست من حالي بعد مراجعة العديد من الأطباء فقررت الذهاب إلىٰ العلامة آية الله الغزوي عله يتضرع إلىٰ الله في شفائي. وعندما وصلت إلىٰ خدمته وشرحت له حالي، بدا عليه الانزعاج وجلس القرفصاء وقال بصوت حازم: الست سيدا علويا يا رجل؟ لماذا لا تطلب الشفاء من أجدادك؟ لماذا لا تمثل بين يدي صاحب الأمر والزمان وتطلب حاجتك منه؟ ألا تعلم أن أجدادك الأئمة الميامين هم أسماء الله الحسنىٰ؟ ألم تقرأ في دعاء كميليا من اسمه دواء وذكره شفاء؟ فإذا كنت مسلما شيعيا وسيدا علويا عليك الذهاب اليوم إلىٰ بقية الله – أرواحنا له الفداء – فتطلب شفاءك منه. وهكذا أخذ يتحدث إلي بهذه الصورة حتىٰ أخذتني نوبة من البكاء وخرجت من عنده راكضا أريد مقابلة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه)، وبدون أن أشعر بشيء وقد غلبتني العبرات فقطعت الحواري والأسواق ووجدت نفسي في الصحن الرضوي الشريف. لكنني شاهدت الصحن بشكل آخر! فقد كان خاليا من الناس إلا من أشخاص معدودين بينهم سيد تبدو عليه سيماء الهيبة والعزة والكرامة فعلمت بأنه حجة الله في أرضه فقلت في نفسي: قبل أن يذهب الجميع، علي أن أناديه وأطلب منه شفائي. وما أن فكرت بهذه الصورة في قلبي حتىٰ لاحظت السيد وقد أدار رأسه الشريف إلىٰ ناحيتي ورمقني بنظرة من جانب عينه . فتصبب جسمي عرقا غزيرا وأخذتني رعشة مفاجئة ثم نظرت وإذا بالصحن الشريف علىٰ حالته الطبيعية مليء بالزائرين وهم في حركة مستديمة. ثم وقفت عدة لحظات مبهورا لا أدري ماذا أصابني ولكنني شعرت فجأة وكأنني أقوىٰ ما أكون وقد دب النشاط في جميع أعضاء جسمي. وعندما وصل المرحوم الشيخ مجتبىٰ (رحمه الله) إلىٰ هذه النقطة أصابته العَبرة وتدفق الدمع من

مقلتيه بغزارة وهو يقول: نعم هكذا أصبحت حالة السيد محمد باقر الدامغاني وهو في أتم صحة وعافية حتىٰ وافاه الأجل المحتوم رحمه الله.»

قلت: وتؤكد تلك الرواية – علىٰ افتراض صحتها، ولا أحسبها تصح – علىٰ حقيقة مهمة ألا وهي أن الواحد من علمائهم كلما ازداد علمه بملتهم واستغراقه فيها، وعلت درجته في حوزاتهم، ازداد شركا وكفرا وضلالا والعياذ بالله. فذلك «العلامة» الذي استفتاه الرجل إنما أمره بكل حزم وثقة أن يشرك بالله رب العالمين غاية الشرك، وأن يطلب الشفاء من أجداده ومن «صاحب الزمان» المزعوم، من دون الله عز وجل، ولا حول ولا قوة الا بالله. فلما وقع ذلك منه، أجابته الشياطين مسرعة وأظهرت له ما رأىٰ وأحدثت معه ما وقع من الأحداث، نسأل الله السلامة. والسبب في تناقل القوم لتلك الرواية ونحوها (بصرف النظر عن صحتها من كذبها) أنهم يعلقون إيمانهم واعتقادهم علىٰ هذا الصنف من قصص الأعاجيب والخوارق المنسوبة إلىٰ معبوداتهم التي أشركوها بالله تعالىٰ، لعلمهم في بواطن نفوسهم بأن الشرك باطل بداهة وأنهم لا حجة لهم به علىٰ عاقل! إنها تلك الترسانة الدفاعية الأمضىٰ أثرا والأرجىٰ ثمرة، التي يؤسسها كل واحد منهم في نفسه ضد صوت الفطرة والبداهة والعقل! فبعيدا عن تعقيدات اللاهوت الفلسفي وعلم الكلام الذي لا يتقنه كل أحد، الذي ينتصر به أصحابه لأشدّ الملل والاعتقادات مصادمة للفطرة والعقل السوي الصحيح، فإن أمثال تلك الوقائع والمشاهدات وقصص من وقعت لهم[1]، لها من الأثر علىٰ نفوس المشركين ما لا يضاهيه شيء، ولا يتطلب علما ولا دراية ولا دربة علىٰ طرائق الفلاسفة والمتكلمين ومصطلحاتهم، فكيف لا تكون هي المدخل الأول والأثير عند شياطين الإنس والجن جميعا لشرح صدور المشركين بشركهم وكفرهم وتزيينه لهم وتحبيبهم فيه؟

تأمل هذه الرواية من نفس الموقع، إذ يقول الراوي:

«لقد تزوجت حينما كنتُ في السادسة عشرة من عمري فمضت سنوات ولم أُرزق ولدا وقد راجعتُ الكثير من الأطباء واستخدمتُ مختلف الأدوية لكن بلا جدوىٰ، ومع

(١) لا سيما إن كانوا من الكهنة وعلماء الملة، الذين تضمن لهم منزلتهم الدينية بين أهل الملة ألا يتطرق التشكيك أو التكذيب إلى شيء مما يرويه الواحد منهم أبدا!

أنّ الأطباء كانوا يقرّون بسلامتي أنا وزوجتي، إلاّ أنّهم لم يشخّصوا السبب وراء عدم الإنجاب.

وخلاصة القول: لقد أصابني القنوط وأخذت حياتي تسير نحو التدهور، وذات يوم قال لي أحد الأصدقاء: كفّ عن مراجعة الأطباء وتوجه نحو الإمام صاحب الزمان عجل اللّه تعالىٰ فرجه الشريف واطلب حاجتك منه، فذهبتُ ليلة الجمعة إلىٰ مسجد جمكران وبعد فراغي من الصلاة، توسلتُ بالإمام عجل اللّه تعالىٰ فرجه الشريف، بقلب منكسر، فاشتدّ بكائي تلك الليلة، وكنت أقرأ دعاء وأكرر هذه الفقرة (يا مجيب المضطر ويا كاشف الضر) فإذا بالمسجد وكأن الشمس قد طلعت فيه وسمعت صوتا وكأنّه يدوّي في اُذنيّ (لقد أُجبت وكُشف عنك الضرّ) فأتممت الدعاء وقلبي مطمئن بعناية الإمام المهدي عليه السلام فلم تمضِ فترة بعد رجوعي إلىٰ أهلي وإذا به (عجل اللّه تعالىٰ فرجه الشريف) يكون واسطة للفيض الإلهي، إذ منّ الله تعالىٰ عليّ بولدٍ سالمٍ سويّ البنية، والحمد لله، فغمرتني السعادة ولم تتبدد حياتي.»

قلت: ولو صحت هذه الرواية عن راويها يكون قد ابتلي هذا المشرك الضال بفتنتين استدرجه الله بهما استدراجا. أعطاه ذاك الولد الذي طلبه من غيره سبحانه، وتسلطت عليه الشياطين تريه ما رأىٰ وتُسمعه ما سمع حتىٰ يكون فتنة وابتلاء. ولا يبعد أن يكون سبب ذلك المرض من البداية سحر قد ضربه الشيطان عن الرجل وامرأته، حتىٰ يرفعه عنهما بمجرد أن يتحقق المطلوب من غرقه في الدعاء الشركي، وتصبح الواقعة قصة يرويها لغيره من أهل الملة، نسأل الله العافية ونعوذ بالله من عبث الشياطين!

وجاء في نفس الموقع رواية هذا نصها عن راويها:

«انطلق التاجر المعروف السيد أحمد بن السيد هاشم الموسوي الرشتي من مدينة تبريز في إيران، قاصدا حج بيت الله الحرام مع القافلة في إحدىٰ الأعوام، وفي أثناء الطريق كان الحملدار يحذرهم من وعورة الطريق أو التخلف عن الركب، وبسبب تساقط الثلوج وظلام الليل أصبحت حركة السير مع القافلة في غاية الصعوبة إلىٰ درجة – والكلام للسيد الرشتي – لم يسعني اللحوق بها مهما اجتهدت في ذلك، فصرت

متخلفا عن القافلة ولوحدي في الطريق فنزلت من علىٰ ظهر فرسي وجلست ناحية من الطريق، وأنا مضطرب غاية الاضطراب، فقررت أن لا أبرح مكاني حتىٰ يطلع الفجر من هذه الليلة الظلماء، فجأة وإذا ببستان أمامي فيه فلاح، يضرب فروع الأشجار ليتساقط ما تراكم عليها من الثلوج، فدنا مني وسألني: من أنت؟ فأجبت: إني تخلفت عن القافلة وتهت في الطريق، فخاطبني بلغتي الفارسية قائلا: عليك بالنافلة كي تهتدي الطريق، فصليت نافلة الليل، وعندما فرغت من التهجد، أتاني ثانية قائلا: ألم تمض بعد؟! قلت: والله لا أهتدي إلىٰ الطريق. قال: عليك بالزيارة الجامعة الكبيرة، وما كنت حافظا لها وقادرا علىٰ قراءتها عن ظهر قلب، مع إنني كنت كثير القراءة لها وخصوصا عند زيارة العتبات المقدسة، فوقفت قائما وبدأت بقراءة الزيارة واستمررت إلىٰ آخرها عن ظهر القلب، ولما انتهيت قال لي: ألم تبرح مكانك بعد؟! فعرض لي البكاء، وأجبته: لم أغادر مكاني بعد فإني لا أعرف الطريق.

فقال: عليك بزيارة عاشوراء، ولم أكن مستظهرا لها أيضا، وإلىٰ الآن لا أقدر أن أقرأها عن ظهر القلب، فنهضت وأخذت في قراءتها عن ظهر قلب حتىٰ انتهيت من اللعن والسلام ودعاء علقمة، فعاد الرجل إليّ وقال: ألم تنطلق؟! فأجبته: إني باقٍ هنا حتىٰ الصباح علىٰ ما يبدو، فقال لي: أنا الآن ألحقك بالقافلة.

فركب وقال لي: أردف، فردفت له، ثم سحبت عنان فرسي فقاومني ولم يجر معي. فقال الرجل: ناولني العنان، فناولته إياه، فأخذ العنان بيمناه، فطاوعه الفرس بشكل عجيب وأخذ الفرس في المسير، ثم وضع يده علىٰ ركبتي وقال: لماذا لا تؤدون صلاة النافلة، النافلة، النافلة؟ (قالها ثلاث مرات)، ثم قال أيضا: لماذا تتركون زيارة عاشوراء، زيارة عاشوراء، زيارة عاشوراء؟ (ذكرها ثلاث مرات)، ثم قال: لماذا لا تزورون بالزيارة الجامعة الكبيرة، الجامعة، الجامعة (ذكرها ثلاث مرات)، فأخذت الدابة تدور في مسلكها، وإذا به يلتفت إلىٰ الوراء، ويقول: أولئك أصحابك يستعدون للوضوء لصلاة الصبح.

فنزلت من علىٰ ظهر دابته وركبت فرسي، وإذ بي يجول في خاطري السؤال عن هذا الرجل الذي بدت عليه الهيبة والوقار وسيماء الصالحين، فمن يكون وكيف ينطق

باللغة الفارسية في منطقة لا يتكلمون إلا باللغة التركية غالبا وهم من المسيحيين! وكيف أوصلني إلىٰ أصحابي خلال هذه الفترة القصيرة من الزمان؟ فنظرت إلىٰ الوراء، فلم أجد ولم أعثر علىٰ أثر يدل عليه حيث اختفىٰ فورا وكلمح البصر. وعندما رجعت قصصت للعلماء الكبار ما جرىٰ لي مع ذلك الرجل بالتفصيل وشرحت لهم سيماءه وبينت لهم ملامحه، فأيقنوا وأكدوا أنه صاحب الزمان (صلوات الله وسلامه عليه).» انتهت الرواية.

قلت: إن أمثال تلك القصص والروايات - سواء صح وقوعها لأصحابها أو لم يصح - يكون من العجب العجاب لو لم يوص «صاحب الزمان» المزعوم هذا عباده فيها بالمواظبة علىٰ زياراتهم وتلاواتهم وممارساتهم تلك التي لا تخلو من الشرك واللعن والضلال المبين! ومما لفت نظري، سواء وقعت وقائع هذه القصة فعلا علىٰ الحقيقة أو لم تقع، ما يظهر فيها من ركاكة أسلوب ذلك الذي يتكلم علىٰ لسان «صاحب الزمان» المزعوم، ومحاولته الباهتة السقيمة لتقليد الأسلوب النبوي في تكرار الكلام ثلاثا، لعله بذلك يدخل علىٰ قلب سامعه شعورا بقدسية الكلام وسماوية مصدره!

ومما جاء في ذات الموقع من روايات، فيما ينقله الكاتب من كتاب بعنوان «لقاء مع طاووس الجنة المهدي»، هذه الرواية التي يتكلم فيها المهدي المزعوم علىٰ لسان الراوي ويعطي توجيهاته ونصائحه (وإن شئت فقل تشريعاته)، يقول الراوي:

«الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

ننقل لكم هذه الواقعة والحقيقة المهدوية التي تبرز عناية مولانا صاحب الزمان بالذين يغيرون ويخلصون في دينهم. فهذه السيدة التي لم تخرج من البيت حتىٰ لا تجبر علىٰ السفور، استحقت أن يأتي الإمام بنفسه المقدسة، ويحضر وفاتها، هنيئا لها هذا الإخلاص وهذه الروح الطاهرة التي أبت أن تتلوث بما أراده الشيطان للفطرة السليمة! فلتكن هذه السيدة عبرة لنا جميعا لنكون من الذين يتورعون عند المحرمات ويلبسون لباس التقوىٰ وفقكم الله لكل خير فلنقرأ معا هذه الحقيقة:

يقول المرحوم آية الله السيد محمد باقر مجتهد السيستاني الذي كان في مدينة مشهد المقدسة:

إنه بدأ ذات مرة (بختم عاشوراء) لغرض التشرف بلقاء إمام الزمان (عج) حيث يتعبد ويقرأ زيارة عاشوراء لمدة أربعين جمعة. ويختار لهذا الغرض مسجد من المساجد في كل مره. يقول: في إحدىٰ الجمع الأخيرة رأيت فجأة نورا يسطع من أحد البيوت القريبة إلىٰ المسجد الذي كنت أقرأ فيه زيارة عاشوراء، فتملكتني حالة عجيبة. فنهضت من مكاني وتتبعت مصدر النور حتىٰ وصلت إلىٰ ذلك البيت الذي كان صغيرا وكبيرا (!!)، وحينما قرعت الباب وفتحوه لي، شاهدت إمام الزمان (عج) في إحدىٰ غرف البيت، كما رأيت جثة مغطاة بقماش أبيض. وحينما تقدمت بالسلام باكيا قال لي الإمام: لماذا تتبعني بهذه الطريقة وتتحمل المتاعب؟ كن مثل هذه وأشار إلىٰ الجثة الممددة حتىٰ آتيك أنا بنفسي .

ثم أضاف (عج) قائلا: إن هذه السيدة الميتة لم تخرج من بيتها مدة سبع سنين لئلا يراها غير محرم أثناء قضية الإجبار علىٰ السفور في عهد رضا بهلوي.» انتهىٰ النقل.

والظاهر أن لدىٰ القوم اعتقادا بأن من قرأ تلك الأذكار المبتدعة التي يقال لها «ختم عاشوراء» أو أتىٰ ببعض «الزيارات» في الأضرحة والمراقد أو نحو ذلك، أربعين جمعة متتابعة، جاء «المهدي» لزيارته. وتأمل في مسألة «النور» هذه تجدها قاسما مشتركا أعظم في ألاعيب الشيطان عند سائر أهل الملل الشركية. وكذلك مسألة الأربعين يوما، تجدها هي نفسها مدة الخلوة الشركية عند الصوفية ومدة الخروج البدعي عند التبليغيين والخلوة عند النصارىٰ في أديرتهم، هي نفس المدة التي يتعين علىٰ «السالك» منهم أن يلزم فيها شركهم علىٰ أشد ما يكون، رجاء أن يأتيه معبوده في ظهورات خارقة للعادة، تنقله إلىٰ منزلة عليا في منازل أهل الملة!

وهاكم رواية أخرىٰ من نفس المصدر عن سماع صوت من غير رؤية، يظهر فيها مزيد من التبديل والتعديل الشيطاني الذي لا ينتهي أبدا لما بين أيديهم من نصوص وأذكار يتعبدون بها، يقول الراوي:

«كان آية الله المقدس الميرزا مهدي الشيرازي رحمه الله تعالىٰ معتادا علىٰ قضاء أيام الجمعة من كل أسبوع في التضرع والعبادة، فكان مما يقوم به في عصر تلك الأيام الصعود إلىٰ سطح المنزل والتوسل بالإمام صاحب الأمر صلوات الله عليه، فيما كان يقضي الليل في سرداب الغيبة المقدس في سامراء المشرفة متشاغلا بالذكر في خشية وخشوع وبكاء حتىٰ الصباح. ولم يكن السيد ليترك عادته هذه أبدا، بل كان يواظب عليها طوال حياته، في الصيف والشتاء، في الحر والبرد، وفي مختلف الظروف، بل في أحلكها أيضا.

وعندما كان يدخل إلىٰ السرداب المقدس، كان السيد يغلق بابه خلفه، فلا يبقىٰ معه في السرداب أحد في جوف الليل، وذلك درءا لبعض اللصوص الأوباش الذين ما كانوا يتورعون عن تهديد الزوار في تلك المنطقة التي كانت خلوا من الناس إلا القليل منهم في ذلك الزمان.

وذات صباح جمعة، وبعد عبادة متواصلة وانقطاع كامل طوال الليل، همّ السيد الميرزا بقراءة دعاء الندبة، المروي عن الإمام الحجة عليه السلام. شرع في القراءة بصوت شجي يعبّر عن حالة روحانية خاصة، وحينما وصل إلىٰ هذا المقطع: (وسخرت له البراق وعرجت بروحه إلىٰ سمائك) تفاجأ الميرزا بصوت شخص ذي هيبة نورانية كان جالسا إلىٰ يمينه وملتصقا به، إذ خاطبه بصوت ملائكي ملؤه القدس والوقار قائلا له: (نحن لم نقل هكذا.. بل قلنا: وعرجت به إلىٰ سمائك)!

لم يكن السيد - للوهلة الأولىٰ - مستوعبا لما سمعه، فما كان منه إلا أن التفت إلىٰ يمينه بحثا عن الشخص الذي كان جالسا إلىٰ جواره، لكنه لم يجده لقد اختفىٰ! وعندها نهض السيد مسرعا كالملهوف واتجه نحو باب السرداب، فوجده مقفلا كما كان! فكيف دخل إذن هذا الوافد الملكوتي وأين ذهب؟!

ولا يعلم أحد سوىٰ الله تعالىٰ كيف كانت حال الميرزا مهدي في مثل هذا الوقت العصيب، بعد هذا اللقاء المهيب الذي انتهىٰ إلىٰ فراق سريع، اختفىٰ فيه محور عالم الإمكان بعد إسدال الستار منطلقا إلىٰ ما وراء الحجب!

لكن السيد علم أن مقصود الإمام عليه السلام من كلامه، أن معراج النبي الأكرم صلىٰ الله عليه وآله وسلم إلىٰ السماء لم يكن بروحه فقط، بل بجسده الشريف أيضا، وأن النص في دعاء الندبة غير دقيق ويحتاج إلىٰ تعديل. وهكذا كان!

كان هذا اللقاء بين العبد وسيده، احدىٰ لقاءات ثلاثة نُقلت إلينا، والله وحده العالم عن بقية اللقاءات. أما عن الاثنتين الأخريين، فإن تفاصيلهما لم يبح بها الميرزا مهدي قدس سره، وكل ما هو معلوم منها أن إحداها كانت علىٰ درجات سلم السرداب – وهي تبلغ حوالي العشرين – والأخرىٰ كانت في مقبرة النبيين صالح وهود عليهما السلام» انتهىٰ النقل بحروفه.

قلت: انظر إلىٰ قول الراوي «هذا اللقاء بين العبد وسيده»! الرجل يقر بعبودية القوم لمخلوق من مخلوقات الله من دونه تعالىٰ هكذا صراحة! وتأمل كيف أن «الميرزا» المذكور بمجرد أن جاءه هامس في أذنه بأن النص «الذي قلناه» هو كذا وكذا وليس كما تقول، اتخذ من ذلك حجة في مجرده يغير بها دينه ونسكه وعبادته! لماذا؟ لأنه لا بد وأنه الإمام الحجة لا محالة، الذي هو عندهم مصدر الدين نفسه، وهو مقصود الشريعة والعبادة وسائر العمل! فهذه نفس تحركها الأهواء الغائرة المغيبة في جوفها، فلا تتركها إلا تربة ممهدة ومعبدة للشيطان تعبيدا! فإذا انخرط صاحب تلك النفس الخبيثة في تلك العبادات الشركية التي لا تزال دواعي الهوىٰ عنده تحملها علىٰ تصحيحها وتزيينها، وكان ممن تعظم منزلتهم بين جماهير أهل الملة، كان، والحالة تلك، أثمن صيد يصيده الشيطان ليوقعه في عبادته هو وأتباعه ومحبيه، يسحبهم جميعا من أهوائهم سحبا! ولربما لم يكلفه ذلك الصيد أكثر من أن يلقي بكلمة بصوت رخيم في أذن ذلك المسكين من حيث لا يراه، فيوهمه بأن عبادته وضراعته قد آتت أكلها وأثمرت ثمرها كما يشتهي!

فالعابد من المشركين المعروف بعبادته وتنسكه وانقطاعه لذلك في أهل الملة، يعلم أنه يترقىٰ إلىٰ منزلة أرفع بينهم بمجرد أن تقع له تلك الخوارق! كان من قبل عابدا يرجو معبوده، ثم صار بين عشية وضحاها، نبيا موصولا بذلك المعبود صلة حسية، يراه

ويكلمه كفاحا بلا واسطة! فإذا حصل له ذلك، فإن أهل الملة يرونه قد جاوز القنطرة وبلغ في الدين أعلىٰ المنازل علىٰ الإطلاق! فأي شيء أحب إلىٰ نفسه المريضة من ذلك؟ نسأل الله العافية!

وفي ذات الموقع نقل من كتاب برواية لا تزيد الناس إلا شركا وكفرا، هذا نصها:

«جاء في كتاب (عشاق الإمام المهدي عج) ج٢ ص٣٣٨:

كتب لي الفاضل المحترم محب الولاية الشيخ جعفر الإبراهيمي في رسالة له :

حضرت وليمة إفطار في إحدىٰ ضواحي شيراز حيث قصدتها للتبليغ عام (١٤١٥هـ) في شهر رمضان، فنقل صاحب الدعوة هذه الحكاية:

أصيبت امرأتي بآلام شديدة في الرأس بسبب وجود غدة فيه حتىٰ يئس الأطباء من تحسن حالتها... فتوجهت بأهل البيت المعصومين (ع) ولا سيما الإمام الحجة بن الحسن إمام الزمان روحي فداه... وذات يوم حيث كانت جالسة كئيبة ضجرة في البيت وتفاجأت بصوت باب البيت ودخول سيد نوراني الساحة.. وحينما رأت زوجتي هذا السيد وهي كانت من الذين يجلّون الذرية العلوية إلىٰ حد بعيد بادرته تقول: أيها السيد لقد ابتليت بوجع الرأس حتىٰ قطع الأطباء الأمل بشفائي فاطلب من جدتك أن تشفيني وسأعطيك ما تطلب من المال!

فقال السيد (الإمام) وهو يبتسم: نحن لا نحتاج شيئا وقد جئنا لشفائك.. ستعود لك صحتك، ومن الآن وأينما اضطررت قولي (يا صاحب الزمان)! فبدأت تصرخ دون إرادة منها: يا صاحب الزمان.. وفقدت وعيها. وحينما عادت إلىٰ حالتها الطبيعية تنبهت إلىٰ إن رأسها في حضن جارتها، وحينما كانت تسأل عن الحقيقة تقوم بنقل القصة بتفاصيلها وقد زالت عنها الآم رأسها والحمد لله رب العالمين». انتهىٰ النقل.

وثمَّ نقل آخر أيضا من نفس المصدر، لرواية هي في أمهات كتب الرافضة، علىٰ حد قول ناقلها، يتبدىٰ فيها اجتهاد الشياطين لصرف الناس عن عبادة الله وصدهم عن سبيله في كل مكان حتىٰ في وسط شعائر الحج ولا حول ولا قوة الا بالله، وهذا هو لفظ الرواية:

«فاليوم قصتنا عن ابن مهزيار وهو شخص عادي لكنه يعشق الإمام. وقال في (حق اليقين) روىٰ الشيخ الصدوق والشيخ الطوسي والطبرسي وغيرهم ـ قدس سرهم ـ بأسانيد صحيحة عن محمد بن ابراهيم بن مهزيار، ورواها البعض عن علي بن إبراهيم بن مهزيار إنه قال: حججت عشرين حجة كلا أطلب به عيان الإمام (عليه السلام) فلم أجد إلىٰ ذلك سبيلا، فبينا أنا ليلة نائم في مرقدي إذ رأيت قائلا يقول: يا علي بن إبراهيم قد أذن الله لك في الحج. فانتبهت وأنا فرح مسرور فما زلت في الصلاة حتىٰ انفجر عمود الصبح وفرغت من صلاتي وخرجت اسأل عن الحاج، فوجدت فرقة تريد الخروج فبادرت مع أول مَن خرج، فما زلت كذلك حتىٰ خرجوا وخرجت بخروجهم أريد الكوفة. فما وافيتها نزلت عن راحلتي وسلمت متاعي إلىٰ ثقات اخواني وخرجت اسأل عن أبي محمد (عليه السلام)، فما زلت كذلك فلم أجد أثراً ولا سمعت خبراً وخرجت في أول من خرج أريد المدينة، فلما دخلتها لم أتمالك أن نزلت عن راحلتي وسلمت رحلي إلىٰ ثقات اخواني وخرجت أسأل عن الخبر وأقفو الأثر، فلا خبراً سمعت ولا أثراً وجدت. فلم أزل كذلك إلىٰ أن نفر الناس إلىٰ مكة وخرجت مع من خرج حتىٰ وافيت مكة، ونزلت فاستوثقت من رحلي وخرجت اسأل عن آل أبي محمد (عليه السلام) فلم أسمع خبرا ولا وجدت أثراً، فما زلت بين الإياس والرجاء متفكراً في أمري وعائباً علىٰ نفسي وقد جن الليل. فقلت: أرقب إلىٰ أن يخلو لي وجه الكعبة لأطوف بها واسأل الله عزوجل أن يعرفني أملي فيها، فبينما انا كذلك وقد خلا لي وجه الكعبة إذ قمت إلىٰ الطواف فإذا أنا بفتىٰ مليح الوجه، طيب الرائحة متزر ببردة متشح بأخرىٰ وقد عطف بردائه علىٰ عاتقه فرعته.

فالتفت إليّ فقال: ممن الرجل؟ فقلت: من الأهواز. فقال: أتعرف بها ابن الخصيب؟ فقلت: رحمه الله دُعي فأجاب. فقال: رحمه الله. لقد كان بالنهار صائمـًا، وبالليل قائمـًا، وللقرآن تاليـًا، ولنا مواليـًا. فقال: أتعرف بها علي بن إبراهيم بن مهزيار. فقلت: أنا علي. فقال: أهلاً وسهلاً بك يا أبا الحسن أتعرف الصريحين. قلت: نعم، قال: ومن هما؟ قلت: محمد وموسىٰ. ثم قال: ما فعلت العلامة التي بينك وبين أبي محمد (عليه السلام). فقلت: معي. فقال: أخرجها إليّ، فأخرجتها إليه خاتمـًا حسنـًا علىٰ فصه (محمد وعلي) فلما رأىٰ ذلك بكىٰ مليـًا ورن شجيـًا وهو يقول:

رحمك الله يا أبا محمد، فلقد كنت إمامًا عادلاً، ابن أئمة وأبا إمام، أسكنك الله الفردوس الأعلىٰ مع آبائك (عليهم السلام). ثم قال: يا أبا الحسن صر إلىٰ رحلك وكن علىٰ أهبة من كفايتك حتىٰ إذا ذهب الثلث من الليل وبقي الثلثان فالحق بنا فإنك ترىٰ مناك إن شاء الله. قال ابن مهزيار: فصرت إلىٰ رحلي أطيل التفكر، حتىٰ إذا هجم الوقت فقمت إلىٰ رحلي وأصلحته وقدّمت راحلتي وحملتها وصرت في متنها حتىٰ لحقت الشعب، فإذا أنا بالفتىٰ هناك يقول: أهلاً وسهلاً يا أبا الحسن، طوبىٰ لك فقد أُذن لك، فسار وسرت بسيره حتىٰ جاز بي عرفات ومنىٰ وصرت في أسفل ذروة جبل الطائف. فقال لي: يا أبا الحسن انزل وخذ في أهبة الصلاة، فنزل ونزلت حتىٰ فرغ وفرغت، ثم قال لي: خذ في صلاة الفجر وأوجز فأوجزت فيها وسلم وعفر وجهه في التراب، ثم ركب وأمرني بالركوب فركبت، ثم سار وسرت بسيره حتىٰ علا الذروة، فقال: المح هل ترىٰ شيئًا؟ فلمحت فرأيت بقعة نزهة كثيرة العشب والكلاء. فقلت: يا سيدي أرىٰ بقعة نزهة كثيرة العشب والكلاء. فقال لي: هل ترىٰ في أعلاها شيئًا؟ فلمحت فإذا أنا بكثيب من رمل فوق بيت من شعر يتوقد نورا. فقال لي: هل رأيت شيئًا؟ فقلت: أرىٰ كذا وكذا. فقال لي: يا ابن مهزيار طب نفسًا وقرّ عينًا.. فإن هناك أمل كل مؤمّل. ثم قال لي: انطلق بنا، فسار وسرت حتىٰ صار في أسفل الذروة، ثم قال: انزل فها هنا يذّل لك كل صعب، فنزل ونزلت حتىٰ قال لي: يا ابن مهزيار خلّ عن زمام الراحلة. فقلت: علىٰ من أخلّفها وليس ها هنا أحد؟ فقال: إن هذا لا يدخله إلا ولي ولا يخرج منه إلا ولي. فخليت عن الراحلة فسار وسرت، فلما دنا من الخباء سبقني وقال لي: قف هنا إلىٰ أن يؤذن لك، فما كان هنيئه فخرج إلي، وهو يقول: طوبىٰ لك قد أعطيت سؤلك. قال: فدخلت عليه صلوات الله عليه وهو جالس علىٰ نمط، عليه نطع أديم أحمر متكئ علىٰ مسوره أديم، فسلمت عليه وردّ عليّ السلام، ولمحته فرأيت وجهه مثل فلقة قمر، لا بالخرق ولا بالبزق، ولا بالطويل الشامخ ولا بالقصير اللاصق، ممدود القامة صلت الجبين، أزج الحاجبين، ادعج العينين، أقنىٰ الأنف، سهل الخدين، علىٰ خدّه الأيمن خال، فلما أن بصرت به (عجل الله تعالىٰ فرجه) حار عقلي في نعته وصفته.

فقال لي: يا ابن مهزيار كيف خلّفت إخوانك في العراق؟ قلت: في ضنك عيش وهناء، قد تواترت عليهم سيوف بني الشيطان. فقال: قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون، كأني بالقوم قد قتلوا في ديارهم وأخذهم أمر ربهم ليلا ونهارا، لتملكونهم كما ملكوكم وهم يومئذ أذلاّء. ثم قال: إن أبي صلوات الله عليه عهد إلي أن لا أوطن من الأرض إلا أخفاها وأقصاها، إسرارا لأمري وتحصينا لمحلي من مكائد أهل الضلال والمردة من أحداث الأمم والضوال.

اعلم أنه قال صلوات الله عليه يا بني، إن الله جل ثناؤه لم يكن ليخلّي أطباق أرضه وأهل الجّد في طاعته وعبادته بلا حجة يستعلىٰ بها، وإمام يؤتم به ويقتدىٰ بسبل سنته ومنهاج قصده، وأرجو يا بني أن تكون أحد من أعده الله لنشر الحق ووطي الباطل وإعلاء الدين وإطفاء الضلال، فعليك يا بني بلزوم خوافي الأرض وتتبع أقاصيها، فإن لكل ولي من أولياء الله عزوجل عدوا مقارعا، وضدا منازعا... فلا يوحشنّك ذلك. واعلم أن قلوب أهل الطاعة والإخلاص نزع إليك مثل الطير إلىٰ أوكارها، وهم معشر يطلعون بمخائل الذلة والاستكانة وهم عند الله بررة أعزاء يبرزون بأنفس مختلة محتاجة، وهم أهل القناعة والاعتصام، استنبطوا الدين فوازروه علىٰ مجاهدة الأضداد. حضهم الله باحتمال الضيم في الدنيا ليشملهم باتساع العز في دار القرار، وجبلهم علىٰ خلائق الصبر لتكون لهم العاقبة الحسنىٰ وكرامة حسن العقبىٰ، فاقتبس يا بني نور البصر علىٰ مـوارد أمورك، تفز بدرك الصنع في مصادرها، واستشعر العز فيما ينوبك تحظ مما تحمده به إن شاء الله. وكأنك يا بني بتأييد نصر الله، وقد آن وتيسر الفلج وعلو الكعب قد حان، وكأنك بالرايات الصفر والأعلام البيض تخفق علىٰ أثناء إعطافك ما بين الحطيم وزمزم، وكأنك بترادف البيعة وتصافي الولاء يتناظم عليك تناظم الدر في مثاني العقود، وتصافق الأكف علىٰ جنبات الحجر الأسود. تلوذ بفنائك من ملأ برأهم الله من طهارة الولادة، ونفاسة التربة، مقدسة قلوبهم من دنس النفاق، مهذبة أفئدتهم من رجس الشقاق، لينة عرائكهم للدين، خشنة ضرائبهم عن العدوان، واضحة بالقبول أوجههم، نضرة بالفضل عيدانهم، يدينون بدين الحق وأهله، فإذا اشتدت أركانهم وتقوت أعمارهم فدنت بمكانفتهم طبقات الأمم إلىٰ إمام إذ تبعتك

في ظلال شجرة دوحة تشعبت أفنان غصونها علىٰ حافات بحيرة الطبرية فعندها يتلألأ صبح الحق وينجلي ظلام الباطل ويقصم الله بك الطغيان ويعيد معالم الإيمان، يظهر بك استقامة الآفاق وسلام الرفاق يود الطفل في المهد لو استطاع إليك نهوضا ونواشط الوحش لو تجد نحوك مجازا، تهتز بك أطراف الدنيا بهجة، وتنشر بك أغصان العز نضرة، وتستقر بواني الحق في قرارها وتؤوب شوارد الدين إلىٰ أوكارها، تتهاطل عليك سحائب الظفر، فتخنق كل عدو وتنصر كل ولي، فلا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض جبار قاسط ولا جاحد غامط ولا شانئ مبغض ولا معاند كاشح ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا. ثم قال: ليكن مجلسي هذا عندك مكتوما إلا عن أهل الصدق والأخوة الصادقة في الدين. قال إبراهيم بن مهزيار: فمكثت عنده حينا أقتبس ما أؤدي إليهم من موضحات الأعلام ونيرات الأحكام وأروىٰ النبات الصدور من نضارة ما ادخره الله في طبائعه من لطائف الحكم وطرائف فواضل القسم. فاستأذنته بالقفول وأعلمته عظيم ما أصدر به عنه من التوحش لفرقته والتجرع للظعن عن محاله، فأذن وأردفني من صالح دعائه ما يكون ذخرا عند الله ولعقبي وقرابتي إن شاء الله. فلما أزف ارتحالي وتهيّأ اعتزام نفسي غدوت عليه مودّعا ومجددا للعهد وعرضت عليه مالا كان معي يزيد علىٰ خمسين ألف درهم، وسألته أن يتفضل بالأمر بقبوله مني. فابتسم وقال: استعن به علىٰ مصرفك، فان الشقة قذفة وفلوات الأرض أمامك جمة. ثم دعا لي كثيرا وانصرفت إلىٰ وطني». انتهىٰ.

قلت: فإن صدق ذلك الراوي («ابن مهزيار» هذا) فيما زعم أنه وقع معه، فإنما خدعه شيطان يقينا (ولعله أن يكون من شياطين الإنس!) فصرفه عما كان يقصده من أداء مناسك الحج بمكة، ثم بادر بإسماعه ما يحب أن يسمعه من الحط علىٰ أمراء المسلمين، وأخذ يسوق إليه النبوات عما يكون منه (أي المهدي) من مقاومة هؤلاء والانتصار عليهم وإخضاعهم وإذلالهم، فما زاده بذلك كله إلا صدا عن سبيل الله وضلالا فوق ضلاله، وأمده هو وتلامذته وعموم الأتباع بالمزيد من مداد القصص والروايات في عجائب «صاحب الزمان» وتأييده للمؤمنين و«الموالين»! وتأمل كيف يتفاوت مدخل الشيطان بتفاوت حال المشرك المراد إمداده بالمزيد من أدوات التزيين

النفسي لما هو عليه من الشرك بالله جل وعلا. فالعامي يأتيه معبوده بما يحب ويهوىٰ سواء كان ذلك علاجا من داء أو مشاهدة لعلامات من النور أو نحو ذلك مما تبتهج به نفسه ويراه قد امتاز به علىٰ أقرانه وعلت منزلته فيهم، والعالم المتبوع يأتيه بـ«التصويب» والتعديل في مناسك أو شعائر هذه العبادة أو تلك حتىٰ يجعله مقدما بين أقرانه (كما تحب نفسه وتهوىٰ) بأنه حامل لرواية عالية السند من صاحب الشريعة نفسه بإصلاح ما غلطوا فيه كلهم أو افتقروا إليه لقرون طويلة! ومن كان منهم معروفا بمنابذته خصوم الملة بصورة ما أو بأخرىٰ، جاءه بما يحب أن يسمعه من الحط عليهم والبشارة بعاجل زوالهم وهلاكهم... إلخ.

وهاكم رواية أخرىٰ علىٰ نفس صفحة الرواية السابقة ولنفس الرواي، قال:

«كان هناك شخص صالح ومتقي يدعي بمحمد طاهر النجفي وكان خادما في مسجد الكوفة لسنوات ويسكن هناك مع عياله ويعرفه أغلب أهل العلم في النجف الأشرف الذين يتشرفون إلىٰ هناك. وكان محمد طاهر النجفي فاقد البصر ومبتلىٰ بحاله، وقد نقل ذلك العالم هذه القضية عنه في ذلك المسجد الشريف، قال:

قبل سبع أو ثمان سنوات ولعدم مجيء الزوار وذلك للمعارك بين طائفتي الزكرت والشمرت في النجف مما سبب انقطاع مجيء أهل العلم إلىٰ هناك فصارت حياتي مرة لأن معاشي كان منحصرا بين هاتين الطائفتين مع كثرة عيالي وتكفلي بعض الأيتام أيضا ففي ليلة جمعة لم يكن شيء عندنا نقتات به وكان الأطفال يئنون من الجوع فضاق صدري جدا وكنت غالبا منشغلا ببعض الأوراد والختوم ولكن في تلك الليلة ولشدة سوء حالتي، جلست مستقبلا القبلة بين محل السفينة وهو المكان المعروف بالتنور، وبين دكة القضاء. وشكوت حالي إلىٰ القادر المتعال مظهرا رضاي بتلك الحالة من الفقر ومضطربا، وقلت: ليس من الصعب أن تريني وجه سيدي ومولاي، ولا أريد شيئا. فإذا أنا أرىٰ نفسي واقفا علىٰ قدمي وبيدي سجادة بيضاء ويدي الأخرىٰ بيد شاب جليل القدر تلوح منه آثار الهيبة والجلال، لابسا نفسيا يميل إلىٰ السواد، فتصورت في البداية أنه أحد السلاطين، ولكن كانت علىٰ رأسه المبارك عمامة، وقريبا منه شخص

آخر لابسا لباسا أبيض، وفي ذلك الحال مشينا إلىٰ جهة الدكة قريب المحراب. فعندما وصلنا هناك قال ذلك الشخص الجليل الذي كانت يدي بيده: يا طاهر أفرش السجادة. ففرشتها، ورأيتها بيضاء تتلألأ ولم أعرف ماهيتها وقد كتب عليها بخط واضح وقد فرشتها باتجاه القبلة مع ملاحظة الانحراف الموجود في المسجد فقال: كيف فرشتها؟ فقدت الشعور لهيبته ودهشته وقلت بدون شعور: فرشتها بالطول والعرض. فقال: من أين أخذت هذه العبارة؟ قلت: أخذت هذا الكلام من الزيارة التي كنت أزور بها القائم (عجل الله فرجه).

فتبسم في وجهي وقال: لك القليل من الفهم.

فوقف علىٰ تلك السجادة وكبر تكبيرة الصلاة، وإذا بنوره وبهائه يزداد من فوره، فصار كالخيمة حوله بحيث لا يمكن النظر إلىٰ وجهه المبارك! ووقف ذلك الشخص خلفه (ع)، متأخرا عنه بأربعة أشبار، فصلىٰ الاثنان وكنت واقفا أمامها، فوقع في نفسي شيء من أمره، وفهمت من ذلك أن هذين الشخصين ليسا كما ظننت. فلما فرغا من الصلاة لم أر ذلك الشخص الثاني، ورأيته (ع) علىٰ كرسي مرتفعا ارتفاع أربعة أذرع تقريبا، له سقف، وعليه من النور ما يخطف البصر. فالتفت لي وقال: يا طاهر! أي سلطان من السلاطين كنت تظنني؟

قلت: يا مولاي أنت سلطان السلاطين وسيد العالم ولست أنت من أولئك.

قال: يا طاهر قد وصلت إلىٰ بغيتك فما تريد؟ ألم نكن نرعاك كل يوم، ألم تعرض أعمالك علينا؟

وواعدني بحسن الحال والفرج عن ذلك الضيق فدخل في هذا الحال شخص إلىٰ المسجد من طرف صحن مسلم، أعرفه بشخصه واسمه وكانت له أعمال سيئة، فظهرت أثار الغضب (ع) والتفت إليه بوجهه المبارك وظهر العرق الهاشمي في جبهته وقال: يا فلان! إلىٰ أين تفر؟ لأرض لسنا فيها أم لسماء لسنا فيها؟! فأحكامنا تجري فيها ولا طريق لخلاصك من ذلك، إلا أن تكون تحت أيدينا! ثم التفت إلي وتبسم وقال: يا طاهر! وصلت إلىٰ بغيتك، فما تريد؟ فلم أقدر أن أتكلم لهيبته (ع) ولما اعتراني

من الحيرة من جلاله وعظمته فأعاد علي ذلك الكلام مرة أخرىٰ واعتراني من شدة الحال ما لا يوصف، فلم أقدر علىٰ الجواب والسؤال منه فلم يمض أكثر من طرفة عين حتىٰ رأيت نفسي وحدي وسط المسجد ولا يوجد أحد معي فنظرت إلىٰ جهة المشرق فرأيت الفجر قد طلع. قال الشيخ طاهر: فمع أني كنت عدة سنوات أعمىٰ وقد انسدت كثير من طرق المعاش علي، والتي كان أحدها خدمة العلماء والطلاب الذين يتشرفون هناك، فقد توسع أمر معاشي من ذلك التاريخ حسب وعده (ع) ولحد الآن – والحمد لله –، ولم أقع بصعوبة وضيق». انتهىٰ.

قلت: تأمل كيف أن الرجل (إن صح وقوع تلك الواقعة حقا كما يرويها) لما توجه بالدعاء إلىٰ الله قائلا: «ليس من الصعب أن تريني وجه سيدي ومولاي ولا أريد شيئا»، جاءه شيطان من فوره، يخاطبه ويخاطب غيره كأنه الرب الإله المتصرف في مقاليد السماوات والأرض، فلما قال له الرجل: أنت سلطان السلاطين وسيد العالم، قال: «قد وصلت إلىٰ بغيتك (يعني أن ترىٰ المهدي) فما تريد؟ ألم نكن نرعاك كل يوم ألم تعرض أعمالك علينا؟» فلما عرض عليه مسألته، أجابه بأنها قد أجيبت! ثم لما انقضت تلك الواقعة، أخذ الرجل يوهم نفسه بأن أمر معاشه قد اتسع (منذ ذلك التاريخ)، حسب «وعد الإمام»! ولعله قد ابتلاه الله تعالىٰ بأن وسع عليه أمر معاشه حقا بعد ذلك اليوم، حتىٰ يرىٰ أينسب ذلك الفرج والسعة إلىٰ الرب جل وعلا وحده لا شريك له، أم ينسبه إلىٰ «الإمام الحجة» الذي وعده بذلك! ولا شك أن نفسه تكون مائلة ميلا تاما إلىٰ تأويل أول باب من أبواب الرزق يأتيه بعد تلك الواقعة علىٰ أنه إجابة السؤال ووفاء الوعد، حتىٰ وإن لم يكن في كسبه الصافي (إجمالا) أي زيادة عما كان يعتاده من قبل! وهذا من التزيين المضاعف، إذ تزين له نفسه اعتقاد أن ما وعده به ذلك المعبود قد وقع تحقيقا، من طريق التأويل لما يجد من مشاهدات وحوادث ذات صلة، حتىٰ تزين له بتلك الواقعة نفسها وما ترتب عليها البقاء علىٰ ملة الشرك التي هو عليها.

وهذه رواية أخرىٰ من المصدر السابق عن خادم، «أخذه الامام الحجة ليكون من خواصه!» وأذكر القارئ بأن يستصحب وهو يقرؤها روايات كفار أوروبا وأمريكا عن «اختطاف اليوفو» و«الزمن المفقود» وما شابه ذلك!

قال الراوي بلفظه:

«المرحوم السيد غلام رضا الكسائي من العلماء الزهاد المخلصين صهر العلامة الأميني (صاحب الغدير) أعلىٰ الله مقامهما قال: لما كنت طالبا في مدرسة بمدينة تبريز، كان خادم المدرسة رجل مؤدب متواضع ومن أهل التقوىٰ والصلاح يعمل بوظائفه الفردية والاجتماعية بصدق وإخلاص وكان ذا روحية عجيبة قليل الكلام كثير السعي شديد الكتمان وهو إن كانت مسؤوليته تنظيف المدرسة لكنه يعين الطلبة في تنظيف حجرهم دون أن ينتظر منهم مكافأة وثمنا بل وأحيانا كان يغسل ثيابهم أيضا وإذا رأىٰ أحدهم يريد الذهاب لشراء حاجة تقدم إليه وتوسل منه أن يسمح له بهذه الخدمة وبلغ به الأمر أنه كان يملأ إبريق الماء من حوض المدرسة ويحمله إلىٰ بيت الخلاء لئلا تتعب الطلبة بذلك وهذا كله لم تكن من وظائفه المخصصة له كخادم للمدرسة ولكنه كان يقوم بذلك بصفاء النفس وإخلاص النية فيزرع بذلك حبه في قلوب الطلبة ويعلمهم التواضع العلمي.

ذات منتصف ليلة خرجت من حجرتي لإسباغ الوضوء فرأيت شيئا عجبا! رأيت نورا روحانيا في حجرة الخادم ولم تكن الكهرباء قد عرفت بعد حيرني الأمر بشدة وتقدمت خطوات نحو الحجرة لأكتشف حقيقة ما أرىٰ فلما قربت سمعت كلاما يتردد بين الخادم ورجل آخر. من جهة لم أكن أود الدخول عليه ومن جهة قوي حس الاستطلاع في قلبي إذ كان ذلك النور يبهتني ويجذبني فدنوت خطوات أخرىٰ حتىٰ وصلت خلف الباب فصرت أسمع الخادم يتكلم بصوت خافت ولكن الطرف الثاني لم أشخص كلامه وقفت في حيرتي استمع صوتهما دون أن أفهم ما يقولانه وفجأة انقطع الصوت وذهب النور العجيب فلم أصبر طويلا طرقت الباب فورا.

قال الخادم: من؟ قلت: أنا (فلان) افتح الباب. فتح الباب، فسلمت عليه هل تسمح لي بالدخول؟ قال: تفضل. دخلت الحجرة وجلست ولكن لم أر أحدا غيره ولم أجد هناك شيئا غير مألوف سألني: هل من أمر؟ قلت: لا ولكن هل كنت تتكلم مع شخص؟ قل لي الحقيقة ماذا كان يحدث هنا؟ أخبرني وإلا سوف أنبه الطلبة الآن ليأتوا

هنا ويمطروك بأسئلتهم عن واقع الحال! قال: أحكي لك ما جرىٰ هذه الليلة بشرط أن لا تحكيه لأحد. قلت: قبلت الشرط. قال: أنا موجود إلىٰ يوم الجمعة عاهدني أن لا تظهر سري إلىٰ ظهر يوم الجمعة. وكانت تلك الليلة ليلة الأربعاء فعاهدته أن لا أفشي سره إلىٰ يوم الجمعة كما حدده لي. فقال الحقيقة هي أن سيدي ومولاي الإمام الحجة (عليه أفضل الصلاة والسلام) كان هنا وكنت بين يديه نتبادل الحديث، فزاد عجبي وسألته حول ما كان يحدثك الإمام؟ قال: هناك فئات ترتبط بالإمام الحجة (ع) في عصر الغيبة كحواريين ذوي درجات. كل فئة أقل عددا من الأخرىٰ الفئة الأقل عددا هي من الدرجة الأولىٰ في القرب والاعتماد وهكذا الطبقة الثانية والثالثة. هذه الفئات الثلاثة من حيث الناحية المعنوية والباطنية علىٰ شكل حلقات متداخلة وعندما يموت واحد من هؤلاء يختار مكانه الإمام (ع) واحدا من الطبقة التي تليها ويحل مكانه واحد من الطبقة الأخرىٰ ترفيعا لمقام كل من أصلح نفسه من الطبقات الشيعية العامة. تبعا لمستوىٰ التقوىٰ والفضائل الأخلاقية والحالة الروحية التي اكتسبها الفرد وهيأ نفسه بها من قبل. فأنا في يوم الجمعة حيث يموت شخص من الطبقة الثالثة جاءني الإمام (روحي فداه) واختارني لأداء المهام في مكانه. وهنا انتهىٰ كلام الخادم ولم يقل شيئا وأنا غدوت مندهشا خرجت من الحجرة بدهشتي وكانت حالتي عجيبة، مشاهدتي لذلك النور وسماعي لهذه القصة قد أحدثا في وجودي طوفان لا أستطيع وصفه. لم أستقر نفسيا صرت أقول لنفسي: إن رجلا كنا ننظر إليه بعين عادية وأنه خادم لا قيمة له، هو صاحب مقام ومنزلة وسعادة يزوره الإمام الحجة (ع) بنفسه ويدعوه إلىٰ درجة خواصه. يا لها من عظمة خفية وكمال معنوي شامخ! لقد أحدثت هذه القضية موجات في باطني فلم أتمكن من النوم تلك الليلة ولا حتىٰ القيام بالعبادة. وحيث أصبحت بدأت أراقب الخادم، رأيته خرج من حجرته كعادته اليومية وبرزانة ووقار معهود فأخذ يعمل دون أن يرىٰ علىٰ ظاهره ما يدعو إلىٰ استغراب أما أنا فقد كنت قلقا في تفكيري ومضطربا في نفسيتي.

ومر يوم الخميس أيضا كيوم الأربعاء بالطريقة نفسها ولم أجعله يفلت من عيني فقد كان يكنس المدرسة وينظف ويشتري للطلبة ما يحتاجونه، حتىٰ أنني بدلا عني

فما سمحت له وقلت له لن أسمح لنفسي التجاسر علىٰ مقامك بعد هذا أنت سيدي وأنا خادمك ولولا أني عاهدتك أن لا أفشي سرك لأعلنت للطلبة عن مقامك الرفيع. وعند سحر الجمعة بدأ (الخادم) يعمل وكانت حالتي عجيبة لأن ساعة موعده اقتربت وازددت مراقبة له واشتد في قلبي حبا لاستطلاع حاله فقد حضر اليوم الموعود ماذا سوف يحدث يا ترىٰ؟! رأيته خرج من حجرته مع طلوع الشمس فبدأ بعمله اليومي في المدرسة ثم أخذ يغسل ثيابه وينشرها وغسل حذاءه أيضا ووضعه جانبا وعند الزوال جمع ثيابه وأخذ حذاءه ثم ربط ظهره بإزار واغتسل في حوض المدرسة. وكان الجو حارا والطلبة في عطلة أكثرهم خرجوا من أول الصباح إلىٰ زيارة أقاربهم والقليل منهم في الحجر أو ساحة المدرسة مشغولون بأمورهم وكنت أحسب الدقائق باضطراب نفسي شديد عيني لم تنحرف من مشاهدة الخادم إنها اللحظات الأخيرة من سفره مدهشة للغاية. فقد جعلت نظراتي حادة تلاحقه بدقة أريد أن أكتشف ماذا سيحدث ساعة موعده مع الإمام الحجة (ع) كيف ينتقل من عندنا ليلتحق بالصفوة المقربين للإمام (ع)؟ رأيته خرج من الحوض ووقف في الشمس حتىٰ نشف جسمه ثم لبس ثيابه وحذاءه وأخذ ينتظر كالمسافر المشتاق! وعند آذان الظهر ومع الكلمة الأولىٰ للآذان (الله أكبر) فجأة غاب عن عيني فقمت كالمدهوش أبحث عنه ولكن لم أجد له أثرا! شخص كان بين أيدينا قبل لحظات كان جالسا عند الحوض وكان من أول الصباح إلىٰ أول الزوال تحت نظري الفاحص كيف غاب هكذا يا إلهي؟! جئت مسرعا عند حوض المدرسة وأخذت أنادي فخرج بعض الطلبة ليروا ما القضية فجاؤوا وسألوني ما المشكلة؟ أفهل اعتراك جنون؟ قلت: أكثر من الجنون أيها الأخوة سألوني مستغربين: ماذا تقول؟ قلت: أين اختفىٰ الخادم؟ قال: أي خادم؟ قلت: خادم مدرستنا الرجل الذي كان يتفانىٰ في خدمتنا. نظروا حولهم وفتشوا ثم قالوا: غير موجود فلعله ذاهب إلىٰ السوق أو صلاة جماعة. قلت: أبدا إنه الآن التحق بالإمام الحجة (ع) فقد أصبح من أصحابه المقربين من هذه الساعة. سألوني: مال القصة؟ فشرحتها لهم من بدئها في ليلة الأربعاء حتىٰ اختفائه قبل ساعة فشاركوني في الدهشة وكان الحق كذلك دهشة تحاكي دهشة وهكذا لم ير أحد منا بعد ذلك أثرا للخادم ولا تكرار لرؤيته. يقول ناقل

هذه القصة وهو المرجع الورع سماحة الشيخ وحيد الخرساني (دام ظله العالي) الذي حكاها في يوم (٢١ من شعبان/ ١٤٠٤هـ) لطلبته في حوزة قم المقدسة أنه سمعها قبل أربعين سنة من المرحوم غلام رضا الكسائي نفسه من دون واسطه وقد كان رجلا في درجة عالية من الصدق والتقوىٰ والعدالة. وأضاف الشيخ أن السيد الكسائي لما نقل له القصة قال: لقد مرت أربعون سنة علىٰ الحادثة ولم أجد للخادم أثرا.» انتهىٰ النقل.

قلت: وهذه الرواية وإن فرضنا صحة وقوعها علىٰ الكيفية التي رويت بها، فإنما يظهر فيها مزيد من الصد الشيطاني المدروس والمختار بعناية فائقة، عن سبيل الله وعن الصلاة. فانظر إلىٰ اختيار الشياطين لميعاد أذان صلاة الجمعة بالذات، لتلعب فيه تلك اللعبة الخبيثة. فالرجل يختفىٰ عن الأنظار كأعمال السحرة مع لحظة انطلاق أذان الجمعة بالذات والذي جاء الأمر فيه صريحا في القرآن بترك البيع وترك كل شيء حال انطلاق النداء به، والإجابة بالسعي إلىٰ الصلاة وإلىٰ المساجد! فيختفىٰ عن نظر الراوي في تلك اللحظة تحديدا، ليظل هو والذين حكىٰ لهم الأمر من فوره، من ساعتها وإلىٰ آخر اليوم، بل وربما إلىٰ آخر العمر كله يتساءلون ويتجادلون في الأمر، وتضيع الجمعة وتضيع سائر الجمع والصلوات ويهيم هؤلاء الغرر المساكين علىٰ وجوههم يتفكرون فيما كان من أمر «صاحب الزمان» هذا مع خادمهم المتواضع دمث الخلق حسن المعشر، وليفكر كل منهم في العمل الجاد الحريص علىٰ تحسين نفسه وخلقه وعمله والتفاني في ذلك في سبيل أن يحظىٰ هو الآخر بذلك الشرف الرفيع، شرف زيارة «صاحب الزمان» بل والسفر معه إلىٰ حيث يذهب، والدخول في زمرة خاصته والمقربين إليه! والسامع من هؤلاء الضالة لمثل تلك الرواية يحرص بسببها ليس علىٰ ذلك كله فحسب، بل إنه يحرص علىٰ تحري أيام الجمعة بالذات، وفي وقت النداء إلىٰ الجمعة بالذات، ليترقب، لعله يظهر له «صاحب الزمان» ليأخذه في تلك الساعة كما أخذ ذلك الخادم من قبل، وكما روىٰ له الخادم أنه لا يقع ذلك الاختيار منه إلا فيها! ومن ذا الذي لا تهفو نفسه لأن يكون صاحب أحوال خارقة للعادة، وأن يظهر ويختفي في الهواء كأنه دخان، وتحمله الريح علىٰ ظهرها كالطيور، وأن يصبح من صفوة المقربين للإله المعبود الذي بيده مفاتيح ذلك كله؟

وجاء في الموقع أيضا دعاء منقول من كتاب من كتبهم، يزعمون أن من قرأه أربعين صباحا، ظهر له صاحب الزمان! والدعاء في الحقيقة هو أشبه ما يكون بطلاسم السحر وتعويذات الشياطين. قال الكاتب في الموقع المذكور:

«طريقة للتوفيق لرؤية بقية الله الأعظم (عجل الله فرجه الشريف) لمن أراد ذلك (من كتاب خزانة الأسرار في الختوم والأذكار بحار الفيض وروضة الجنات في الشفاء العاجل ونيل الحاجات)، كتب المؤلف حجة الإسلام السيد محمد تقي المقدم ذكر أنه من قرأ هذه الصلوات أربعين صباحا، يحظ بلقاء المهدي (عجل الله تعالىٰ فرجه). يقول كل يوم ألف مرة اللهم صلي علىٰ محمد وآل محمد وعجل فرجهم ويقول عند الانتهاء من الصلوات: إلهي بحق فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها والستر المستودع فيها، وبحق بقية الله، (ثم يقول بنفس واحد) ياااااااااااااالله) وبنفس واحد (يااااااااااااااااربااا ااااااااااااه) وبنفس واحد (ياااااااااااسيدااااااااااااااه) ثم يذكر أسماء الله التسعة والتسعين ويقول: أرني الطلعة الرشيدة والغرة الحميدة واجعلني من أنصاره وأعوانه.

كما أنه من يداوم علىٰ قراءة هذه الجملة الآتية بعد صلاة الصبح فانه يتشرف بلقاء مولانا صاحب العصر والزمان (عجل الله تعالىٰ فرجه الشريف) ويوفق لزيارته: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني اسألك أن تؤخر أجلي ولا تقبض روحي حتىٰ أرىٰ سيدي ومولاي صاحب الزمان الحجة بن الحسن صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين». انتهىٰ النقل.

قلت: وبمثل هذا الشرك، أعني التوسل بالله جل شأنه لنيل الرضا والقبول من المهدي المزعوم، تُستدعىٰ سائر شياطين الجن في غيره من الملل الشركية، وبمثله من أعمال السحر وتعاويذ السحرة كذلك، فلا يزيد الناس إلا شركا ورهقا، نعوذ بالله من ذلك. ولا عجب من أن يصبح غاية الدين كله ومدار العبادة كلها عند هؤلاء أن يحظوا بذلك اللقاء الشريف، وهو ما ترىٰ له نظائر كثيرة عند سائر المشركين من أهل الملل.

وصادفت ذات يوم (في قناة من فضائيات الرافضة) برنامجا يروي فيه أحد «آياتهم» بعض القصص عن «روح الله الخوميني» - تبرأ الله منه -، فذكر فيها أنه عندما تقدم

لخطبة زوجته رفضته. فلما نامت في تلك الليلة رأت في منامها الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم جالسا مع أل بيته وهي كلما حاولت أن تقترب منهم قيل لها اذهبىٰ فأنت لا تحبينهم. فلما روت تلك الرؤية قيل لها إنها من بركات الخوميني وأن ذلك الرجل يجب عليها أن تطيعه وتتزوجه وإلا فلن يرضىٰ عنها آل البيت، فهو من الصالحين المقربين.

ويلاحظ في رواية ذلك المنام الشيطاني – علىٰ فرض صحة وقوع ذلك المنام – كيف أن من ظهروا فيه تمثلوا بهيئة تناسب عقيدة الرافضة وتزيد صاحبة المنام قبولا لها وتصديقا. فقد حرصوا مثلا علىٰ ألا يكون من بين من يتمثلون به من الجلوس في ذلك المجلس، أكابر الصحابة وأقربهم إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم كعمر وأبىٰ بكر رضىٰ الله عنهما، اللذين كانا منه في حياته كظله ﷺ، من شدة ملازمتهما إياه وحرصهما عليها! فهم يعلمون موقف الرافضة وغلاتهم من هؤلاء الصحابة الأطهار الأبرار! لذا أعدوا مشهد المنام وجهزوه علىٰ حسب ما يناسب ويلائم ويوافق معتقد الرافضة لتزيد المرأة تمسكا بعقيدتها وتعلقا بالرجل الذي يمثل تلك العقيدة، هي وكل من تروىٰ عليه تلك القصة من بعدها من أهل تلك العقيدة.

ومن روايات الروافض أيضا في قصص بعض أئمتهم هذه القصة التي أنقلها بنصها ولفظها من موقع من مواقعهم علىٰ الإنترنت باسم «شبكة أنصار الحسين» (برأه الله منهم)، حيث قال الكاتب:

«قال أبو غالب الزراري: تزوّجت بالكوفة امرأة من قوم يقال لهم بنو هلال خزازون، وحصلت لها منزلة من قلبي، فجرىٰ بيننا كلام اقتضىٰ خروجها عن بيتي غضبا، ورمت ردّها فامتنعت عليّ لأنّها كانت في أهلها في عز وعشيرة، فضاق لذلك صدري، وتجهّزت إلىٰ السفر، فخرجت إلىٰ بغداد أنا وشيخ من أهلها فقدمناها، وقضينا الحق في واجب الزيارة، وتوجّهنا إلىٰ دار الشيخ أبي القاسم بن روح، وكان مستترا من السلطان، فدخلنا وسلّمنا. فقال: إن كان لك حاجة فاذكر اسمك هاهنا، وطرح إليّ مدرجة كانت بين يديه، فكتبت فيها اسمي واسم أبي، وجلسنا قليلا، ثمّ ودّعناه وخرجت إلىٰ «سر مـ رأىٰ» للزيارة، وزرنا وعدنا وأتينا دار الشيخ، فأخرج المدرجة

التي كنت كتبت فيها اسمي، وجعل يطويها علىٰ أشياء كانت مكتوبة فيها، إلىٰ أن انتهىٰ إلىٰ موضع اسمطي فناولنيه، فإذا تحته مكتوب بقلم دقيق: أمّا الزراري في حال الزوج أو الزوجة فسيصلح الله، أو فأصلح الله بينهما، وكنت عندما كتبت اسمي أردت أن أسأله الدعاء لي بصلاح الحال مع الزوجة، ولم أذكره بل كتبت اسمي وحده، فجاء الجواب كما كان في خاطري من غير أن أذكره. ثمّ ودعنا الشيخ وخرجنا من بغداد، حتّىٰ قدمنا الكوفة. فيوم قدومي أو من غده أتاني أخوة المرأة فسلّموا عليّ واعتذروا إليّ ممّا كان بيني وبينهم من الخلاف والكلام، وعادت الزوجة علىٰ أحسن الوجوه إلىٰ بيتي، ولم يجر بيني وبينها خلاف ولا كلام مدّة صحبتي لها، ولم تخرج من منزلي بعد ذلك إلاّ بإذني حتّىٰ ماتت». انتهىٰ النقل.

قلت: وهذه الرواية – علىٰ فرض صحتها أيضا – يظهر فيها عمل من أشهر أعمال الشيطان وأوسعها انتشارا، وبمثله يأكل السحرة والعرافون والكهان أموال الناس، إذ يطلع شيطان علىٰ حال الرجل ثم ينبئ به قرين الساحر أو العراف، الذي يعلمه بالأمر فيعمل في ضوء ذلك العلم، فيظهر الشيخ للناس في صورة صاحب الكرامات والمعجزات، الذي انكشفت له حجب الغيب. ولو أنك جادلت صاحب الرواية، لقال لك نحوا من هذا: «فكيف إذن تفسر تغير حال المرأة وإخوانها وأهل بيتها بإزاء الرجل بعد الواقعة؟»

وجواب ذلك أن يقال: إن كان الرجل قد تعرض لعمل شيطان، فما يدرينا أنه لم يذهب لزيارة امرأته وعشيرتها شيطان أيضا، يتصور لهم وكأنه واحد من معبوداتهم (الأئمة أو صاحب الزمان أو العترة أو نحو ذلك)، فيحملهم حملا دينيا علىٰ تغيير موقفهم منه؟ أو ما يدرينا أنه لم يكن قد تقدم منه السحر لهم، ثم لما حصل ما حصل، رفع السحر عنهم؟ ولا شك أن الجدل الكلامي مع هؤلاء في التأويل والتفسير والتفصيل لن ينتفع منه أحد سواهم، لأنه يزين للمشرك اعتقاد أنه علىٰ شيء ذي بال في دينه، بمجموع ما عنده من أمثال تلك الروايات علىٰ نحو ما نرىٰ عند القوم، تماما كما يستزيد ويستكثر الملحد من «الحجج» و«البراهين» و«الاعتراضات» و«الردود»

الفلسفية، ومن أسماء الفلاسفة والمفكرين والعلماء الملحدين انتصارا لإلحاده، وكما ترىٰ الدراونة يستكثرون من تأويلات الحفريات ونحوها مما اجتمع لهم من مشاهدات حتىٰ يصلوا بذلك إلىٰ إخماد صوت البداهة في نفوسهم الذي ينادي فيهم بوجود الباري وضرورة تنزيهه عن كل نقيصة. وتكلف التأويل الاستقرائي والتنظير الظني بما يضاد مسلمات الفطرة والبداهة الأولىٰ، هو حرفة الفلاسفة واللاهوتيين «والدفاعيين» من أهل الملل كما بيناه في غير هذا الكتاب.

وهاكم من نفس المصدر رواية أخرىٰ. يقول الراوي:

«إنّ أبا محمّد الدعلجي كان له ولدان، وكان من خيار أصحابنا، وكان قد سمع الأحاديث، وكان أحد ولديه علىٰ الطريقة المستقيمة، وهو أبو الحسن، كان يغسل الأموات، وولد آخر يسلك مسالك الأحداث في فعل الحرام، ودفع إلىٰ أبي محمّد حجّة يحج بها عن صاحب الزمان (عليه السلام)، وكان ذلك عادة الشيعة وقتئذ، فدفع شيئا منها إلىٰ ابنه المذكور بالفساد، وخرج إلىٰ الحج، فلمّا عاد حكىٰ أنّه كان واقفا بالموقف فرأىٰ إلىٰ جانبه شابا حسن الوجه أسمر اللون بذؤابتين مقبلا علىٰ شأنه في الدعاء والابتهال والتضرّع وحسن العمل، فلمّا قرب نفر الناس التفت إلي وقال: (يا شيخ ماتستحي ؟) قلت: من أي شيء يا سيّدي ؟ قال: (يدفع إليك حجّة عمّن تعلم، فتدفع منها إلىٰ فاسق يشرب الخمر، يوشك أن تذهب عينك هذه)، وأومأ إلىٰ عيني، وأنا منذ ذلك إلىٰ الآن علىٰ وجل ومخافة. وسمع أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان ذلك فقال: فما مضىٰ عليه أربعون يوما بعد مورده حتّىٰ خرج في عينه التي أومأ إليها قرحة فذهبت». انتهىٰ.

قلت: وعمل الشيطان في هذه القصة فيما يبدو لي وبافتراض صحتها، أنه يحدث الشاب في نفسه بأن إحدىٰ عيني الرجل ستفسد، أو بأنها ستفسد إن هو أشار إليها وقال كذا وكذا، ثم بعد فترة من الوقت، يذهب الشيطان إلىٰ تلك العين التي أشار الشاب إليها فيفسدها فعلا، فتقع الفتنة ويتم المراد بذلك. ولربما كان ذلك الشاب الأسمر الذي أشار إلىٰ عين الرجل هو نفسه شيطان متمثل في صورة إنسان، ولعل ذلك أن يكون

أقرب احتمالا، والله تعالىٰ أعلم. ولا يعنينا علىٰ أي حال كيف وقع ذلك إن كان قد وقع حقا، فليس الاحتمال الأول ولا الثاني بما يبعد أو مما يعجز عنه الجن علىٰ أي حال، وإنما الذي يعنينا قول الراوي «وأنا من ذلك إلىٰ الآن علىٰ وجل ومخافة»! الذي يعنينا هو أثر القصة نفسها في نفوس سامعيها من أتباع تلك الملة. فكما يستجلب الأتباع والموالون والمريدون بالطمع والرجاء (وهو الغالب)، فكذلك يلزم أحيانا أن يساقوا بالخوف والرهبة!

وانظر في هذه الرواية من بعض منتدياتهم عن واحد من مشايخهم فيما ينسبونه لفاطمة رضي الله عنها من الخوارق بعد موتها، يقول:

«سألوا ذات مرة أحد الخطباء: ما هو السبب في أن الآخرين رغم إطالتهم في القراءة الحسينية المزوّدة بالأشعار والقصص يعجزون عن إبكاء المستمعين، بينما أنت تبكيهم بمجرّد أن تقول صلىٰ الله عليك أبي عبد الله الحسين؟ فقال: إن لي قصة عجيبة، وقعت لي في مدينة كاشان وهي أني كنت ذات ليلة خارجا من آخر مجلس قرأته عن مصائب الحسين (عليه السلام)، وكان الوقت في ساعة متأخرة من الليل وبالطبع كنت مرهقا من كثرة المجالس في تلك الليلة، وفي أثناء ذهابي إلىٰ البيت جاءني في الطريق أحد الأشخاص ورجا مني أن آتيه إلىٰ بيته وأقرأ له مجلسا ولما لم يقتنع باعتذاري سرت معه رغم تعبي الشديد حتىٰ دخلنا بيته.. فأدخلني غرفة خالية من الحضور وعلىٰ جدرانها الأربع سواد وأعلام للعزاء وفي زاوية منها كرسي صغير فقال لي الرجل: تفضّل اجلس علىٰ الكرسي واقرأ عن مصبية أبي عبد الله (الحسين) عليه السلام! قلت: لمن أقرأ؟ لا أحد عندك يستمع لي! قال: إقرأ للسيدة فاطمة الزهراء. فلما بدأت أقرأ: صلىٰ الله عليك يا أبا عبد الله الحسين. وإذا ارتفع صوت بعض النساء بالبكاء الشديد حولي وأنا لا أراهنّ. فانقلب حالي وتأثرت بشدة فنزلت من الكرسي، وأعطاني الرجل نقودا وذهبت من عنده متجها إلىٰ بيتي، ولما نمت رأيت في المنام من يقول لي: أن السيدة (فاطمة الزهراء) (عليها السلام) كانت في ذلك المجلس تستمع لقراءتك علىٰ ولدها الحسين الشهيد، وإن مكافئتنا لك علىٰ قراءتك هو أننا نجعل تأثيرا قويا في كلمتك (صلىٰ الله

عليك يا أبا عبد الله الحسين) فمن ذلك صِرتُ عندما أقرأ هذه الجملة ينقلب حال المستمعين فيجهشون بالبكاء». انتهت الرواية.

قلت: وسبحان الملك، ما أشبه هذا بما عند أهل كافة الملل الشركية الأخرىٰ، وما أضل من لعبت الشياطين بعقله فضل عن جادة الطريق! وما أسعد الشياطين بمبتدع شديد التعلق ببدعته! فذاك من يسهل العبث به وذاك من يغرر به ويخدع ويغرق أتباعه علىٰ جهلهم في فتنتهم به. وبغض الطرف عن صحة الرواية من عدمها فالشاهد هو عمل الشياطين فيما جاء فيها، وقبله نقلة الرواية علىٰ أنه قد وقع حقا. فذاك الصوت والنحيب والبكاء المكذوب من غير أن يُرىٰ له مصدر، ثم تمثل الشيطان للراوي في المنام بصورة من يخبره بخبر يؤكد له عقيدته الفاسدة ويزيده تعلقا بها، ثم وعده بشيء يجند بعض الشياطين من أجل تحقيقه لمزيد من الإضلال والإفساد في الناس، وغير ذلك من ألعابهم، كل ذلك لا يكلف الشياطين شيئا ذا بال أصلا، ولا يصعب عليهم! فوالله لا جديد عندهم وطرقهم كما ترىٰ واحدة متكررة وكيدهم ضعيف. أعاذنا الله والمسلمين منهم ومن أوليائهم.

وانظر إلىٰ هذه الرواية عن واحد من مراجعهم يقول:

«لدىٰ جناب الشيخ الفاضل عبد النبي الأنصاري الدارابي من العلماء والفضلاء في مدينة قم المقدسة روايات عجيبة. وهذه واحدة من هذه الروايات كما جاءت في مذكراته. يقول فضيلته انه تعرض لصداع ودوار شديدين لمدة سنة، وراجع عددا كبيرا من الأطباء في شيراز وقم وطهران فوصفوا له علاجات مختلفة تناولها جميعها دون أن تتحسن حالته، وفي إحدىٰ الليالي وبينما أعاني من الصداع والدوار الشديدين، ذهبت إلىٰ منزل آية الله بهجت وهو أحد العلماء الأعلام في مدينة قم لإقامة صلاة الجماعة وأثناء الصلاة شعرت بتوعك شديد، وازدادت حالتي سوءا حتىٰ لاحظني أحد الزملاء ووقف علىٰ حالتي وسألني هل أنت بخير؟ فقلت منذ سنة وأنا أعاني من صداع ودوار شديدين وراجعت الأطباء وتناولت علاجات مختلفة دون جدوىٰ، فرد علي ذلك الفاضل قائلا: إن لدينا نحن الشيعة أطباء ممتازين فراجعهم وتوسل بهم. عرفت ما

يقصد، فعزمت علىٰ التوسل بالزهراء (عليها السلام)، خرجت إلىٰ الشارع وأنا في حالة إعياء شديدة، ذهبت إلىٰ حرم السيدة المعصومة (عليها السلام) ومن ثم إلىٰ المنزل واعتكفت في أحد زوايا المنزل وأخذت أبكي وأتضرع وأتوسل بالزهراء (عليها السلام) حتىٰ غلبني النعاس فرأيت في المنام أنّ مجلسا مقاما للزهراء وحضر المجلس عدد من السادة الأفاضل وقام أحدهم وبدأ يدعو لي بالصحة والعافية، استيقظت في الصباح الباكر حركت رأسي في اتجاهات مختلفة فلم أشعر بالصداع أو الدوار فرحت كثيرا ودعوت بعض الأصدقاء إلىٰ المنزل، وأقمت مجلسا للعزاء وقررت أن أستمر في إقامة مجالس العزاء ما دمت حيا. والآن وبعد مرور أكثر من ثمانية أشهر، أشعر بتحسن كبير وأقوم بالتبليغ والتدريس علىٰ أحسن وجه. بجهد من سماحة الشيخ علي رباني خلخالي». انتهىٰ النقل.

قلت: لو فرضنا صحة هذه الرواية، فانظر إلىٰ الشرك إذا أحكم قبضته علىٰ قلب الرجل كيف يفعل الشيطان به! عالجت الجن مرضه - الذي لا يبعد أن يكون من مصدر شيطاني ابتداءً- وظهروا له في المنام وزادوه تمسكا بشركه المحض وثباتا عليه، وتحققت ثمار عملهم كما ترىٰ.

تأمل هذه الرواية من واحد من مواقع الروافض علىٰ الشبكة (وهو الموقع الخاص بمسجد «جمكران» في مدينة قم):

«يقول والدُ طفلٍ في الخامسة من عمره: أصيبت يدا ولدي ورجلاه وجمجمته إثر حادث اصطدام فرقدَ في مستشفىٰ (فيروزگر) ومستشفىٰ السيدة فاطمة (عليها السلام) ثلاث سنين تحت العلاج، وبعد تجبير رأسه قال الأطباء بأنه مشلول بنسبة ٦٠٪ إذ فقد ٣٠٪ من مقاومة الجمجمة بسبب الالتهابات والصدمات، كما يواجه صعوبة في المشي بنسبة ١٠٪ إضافة إلىٰ فقدانه ٢٠٪ من قواه العقلية ولا حيلة لأحد في هذه المجالات علىٰ الإطلاق، فلا تراجعوا الأطباء إذ لاجدوىٰ من ذلك.

فتوسّلت باللّه تعالىٰ والأئمة الأطهار عليهم السلام، وكنّا قبل إصابة ولدي نأتي معا للزيارة كلّ ليلة أربعاء وجمعة، فجئت به إلىٰ مسجد جمكران ليلة خميس حيث

كان خاليا، لعلّ اللّه جلّ وعلا يمنُّ علينا برحمته ويشملنا الإمام المهدي (عجل اللّه تعالىٰ فرجه الشريف) بألطافه، وقبل أن نتناول وجبة العشاء دخلنا المسجد، وتوجهنا إلىٰ جانب المنبر واشتغلنا بالصلاة، وفي الساعة العاشرة جاء شخص من المدينة ومعه طعامٌ، فوضعه عندنا وانصرف. وفي الساعة ٤٠/ ١٠ دخلت مجموعة إلىٰ المسجد وأخذت بالدعاء عند رأس ولدي لما يقارب من ربع ساعة وإذا بولدي نهض من مكانه فجأة وجاءني مناديا: لقد شُفيتُ يا أبة. فقال لي الحاضرون: الحمد للّه لقد شُفي ولدك، وانصرفوا بعد أن سألوني الدعاء. وبقيت متحيرا، من كان ذلك الشخص ومَن كانوا هؤلاء وكيف شفي ولدي. ومازال تحيري إلاّ بعد ما انتبهت أنّي في مسجد جمكران. في بيت أكرم من في الدهر. في بيت صاحب العصر (عليه السلام) وهل يتوقع غير هذا من كريم مثله (عليهالسلام)». انتهىٰ.

قلت: فانظر إلىٰ شرط تحقق العلاج، أن يتوسل إلىٰ الله والأئمة الأطهار، وأن يشمله المهدي بكرمه وألطافه! فنقول: اختلف المعبود واختلفت الشخوص والزمان والمكان، والشرك وعمل الشيطان واحد. وتأمل قول صاحب الرواية «توسلت بالله والأئمة الأطهار»، وما فيه من تسمية الأشياء بغير أسمائها، إذ يسوي الله جل وعلا بالأئمة في كونهم جميعا «وسائل يتوسل بها طلبا للشفاء»، فإذا كان الله من جملة الوسائل، فمن المتوسل إليه إذن؟ هذا هو الشرك بعينه، بخلاف قولنا معاشر المسلمين «توسلت إلىٰ الله بدعاء فلان الصالح» مثلا، نتخذ الوسيلة المباحة إلىٰ الله وحده لا شريك له، نطلب منه الشفاء لا من سواه، فتأمل.

وهذه رواية أخرىٰ من نفس الموقع ولقصة وقعت في المسجد نفسه:

«يقول السيد (خ) أحد سدنة مسجد جمكران: بناء لما يتطلبه عملي في العلاقات العامة فقد كنت أقضي أغلب ليالي الأربعاء والجمعة ساهرا حتىٰ الصباح، ولكن في إحدىٰ الليالي ولما كنتُ أعانيه من الإرهاق الشديد أخلدت للراحة بيد أنني لم أنم، وبلا إرادة منّي عدتُ إلىٰ غرفة العلاقات العامة لكي أطلع علىٰ الأوضاع فجاءني زائر وسألني: أصحيح أنّ امرأة في المسجد الخاص بالنساء – في الطابق السفلي– قد

شُفيت؟ قلتُ: لا علم لي بذلك. فاتصلتُ هاتفيا بمسؤول المسجد الخاص بالنساء مستفسرا منه فأكد الخبر، فقلتُ: أحضروها إلىٰ العلاقات العامة بأيّ شكل كان لمحاورتها. وبعد عدة دقائق وصلت السيدة ومعها بعض النساء ممن كُنّ يحافظن عليها من تدافع الحشود عليها، فأغلقنا باب الغرفة ولم نسمح إلاّ لعدد قليل بالدخول. وبعد أن شربتْ قليلا من الماء، قلتُ لها: نرجوا أن تعرّفي نفسكِ. قالت: أنا (ط ــ ج) بنت عبد الحسين، رقم هوية الأحوال المدنية ٢٩٠ من أهالي مشهد المقدسة.

العنوان: مشهد/ شارع الخواجة ربيع، نوع المرض: شلل أصابع اليدين، ثلاثة في اليد اليمنىٰ إضافة إلىٰ جميع اصابع اليد اليسرىٰ، ممّا جعلني غير قادرة علىٰ القيام بأيّ عملٍ. ويعود السبب وراء هذه الإصابة إلىٰ قبل خمسة عشر عاما حيث أخبروني بوفاة أخيٍّ، فأُغمي عليّ وعندما أُفقتُ وجدتُ أنّ يديّ قد شُلّتا بهذه الصورة. وبعد هذه الحادثة تزوج زوجي – الذي كان ملاّكا في مشهد – بامرأة أخرىٰ وأخذ أطفالي منّي فتلقّيت جراء ذلك ضربة قوية بدنيا ونفسيا. وعلىٰ مدىٰ هذه الأعوام الخمسة عشر، راجعت الكثير من الأطباء، منهم: الدكتور (مصباحي) الكائنة عيادته في شارع (عِشْرَت آباد) مقابل محطة الوقود، والدكتور (حيرتي) الواقعة عيادته في (عشرت آباد) أيضا، والدكتور (رحيمي) الذي يعمل في مستشفىٰ بنت الهدىٰ. وقبل قدومي إلىٰ قم راجعتُ الدكتور (برزين نرواز) وأخضعتُ يدي للصعقة الكهربائية عدة مرات ولكن دون جدوىٰ كما كنت أتناول الأقراص المخدرة دائما لوجود ألم إلىٰ جانب الشلل.

وقبل عدة أيام توجهت إلىٰ زيارة السيد عبد العظيم الحسيني (عليه السلام) بمعيّة ثلاث من النساء من أهالي مشهد، ومن ثمّ أتينا لزيارة قم ومسجد جمكران، فذهبنا إلىٰ دار صهري السيد (ق) وهو من أهالي شيروان ويسكن قم حتىٰ جئنا إلىٰ مسجد جمكران، وبعد القيام بمراسم زيارة المسجد، حضرتُ حفلا أقيم بمناسبة، (فرحة الزهراء عليها السلام) وكان المجلس عامرا بالفرح والسرور وذا طابع معنوي خاص، وبعد المراسم وقراءة دعاء التوسل، شعرتُ بحالةٍ من التحول في نفسي، وبلا إرادة شعرت وكأني في مقابل الإمام الحجة (عليه السلام)، قلتُ: يا إمام الزمان إني أطلب

شفائي بتوسطك، فأخذت تتملكني حالة عجيبة، وإذا بي أشعر فجأة بأنني أرىٰ أنوارا بعيدة وقريبة فانتبهت وكأن أصابعي ويديّ تسحبان. ففهمت بأنني قد شُفيت. تقول سيدة كانت برفقتها: لقد كنتُ إلىٰ جانبها فانتبهتُ وإذا بها تصرخ ثلاثا: يا صاحب الزمان، وحرّكت يديها في الهواء ووجهها يتلألأ. واستوضحنا الأمر من السيدة (ز ـ ك) بنت رضا وهي إحدىٰ مرافقاتها حيث تسكن في شارع الخواجة ربيع ـ زقاق...، فقالت: إنني أعرفها جيدا وإنّ يديها مشلولتان منذ خمسة عشر عاما». انتهىٰ.

قلت: وانظر إلىٰ دعاء التوسل هذا الذي يحضر «صاحب الزمان» لكل من يحلو له أن يجيب نداءه بمجرد أن يتم تلاوته، فتصحبه الأنوار والأضواء والمؤثرات الخاصة (لاحظ لعبة الأنوار)، فيعالج المرض بمجرد أن تطلب المريضة منه الوساطة، ويذهب المرض بفضل الإمام الحجة!

وهذه رواية من نفس الموقع أيضا لرجل أصيبت ابنته بالسرطان. وكثيرا ما نرىٰ نماذج لعلاج السرطان بصفة خاصة بمعجزة القديس أو الراهب أو الجورو أو الشيخ أو الكاهن أو الإمام أو غير ذلك من المعبودات من دون الله في كافة الملل الشركية، وهو الأمر الذي إن صح فربما دل علىٰ أن من أمم الجن من علموا ذلك المرض ووجدوا له علاجا فعالا يفتنون الناس به ويغوونهم، بل ولا يبعد أن يكون مرض السرطان هو من مصدر شيطاني صرف من الأصل، وربما تكون حالة من عمل الشيطان ظاهرها يلبس علىٰ الأطباء وعلىٰ أدواتهم فتبدو في التشخيص كأنها السرطان وليست كذلك، وليس بالمريض شيء أصلا، والله أعلم! فكما تقدم، فإن العلم بكيفية ذلك التلبيس لا يعنينا وليس هو مطلوبنا ها هنا بل لا نرىٰ مشروعية أن نقفوه أصلا! وإنما المراد هو بيان إمكان وسهولة أن يكون المصدر شيطانيا، وأن يكون العلاج كذلك شيطانيا، ولا إشكال في ذلك. وإنما جعله الله فتنة للمشركين من كل ملة، واستدراجا لأصحاب النفوس الخبيثة حتىٰ تسوغ لصاحبها الباطل بباطل مثله!

وصاحب هذه الرواية يروىٰ كالعادة عن قصة عناء ابنته مع المرض وتقلبها بين عيادات الأطباء وفشلهم جميعا في علاجها وتنقلها بين المستشفيات والأدوية

والفحوصات، حتىٰ لا يجد لها في الأخير من بد إلا اللجوء إلىٰ العلاج «الروحاني». فيتوسل إلىٰ ذلك العلاج بصاحب الزمان، وإذا به يرىٰ العجب، وتشفىٰ الفتاة في وقت قياسي. ويقول:

«وفي المرحلة الثامنة من العلاج قال لي الدكتور كيهاني مندهشا: ما فعلتم أيّها الحاج إذ لم يعد هنالك أيّ اثر للالتهابات؟ فأجبته: لقد التجأت إلىٰ من يلجأ إليه جميع المهمومين، فقد توسلت بمولاي صاحب الزمان (عجل اللّه تعالىٰ فرجه الشريف) ولاعجب أن شفاها، لأن الشفاء بيد اللّه وهو باب اللّه المؤتىٰ منه والمأخوذ عنه. ما كان للدكتور إلاّ أن يصدق الأمر. ولمزيد من الاطمئنان التقط صورة شعاعية وأجرىٰ الفحوصات اللازمة وأيّد شفاءها قائلا: لاوجود لآثار المرض علىٰ الإطلاق. وها هي الآن تتمتع بصحة جيدة والحمد للّه، وقد شُفِيَتْ تماما بفضل إمام الزمان (عجل اللّه تعالىٰ فرجه الشريف)». انتهىٰ.

قلت: فلماذا إذن يا هذا تحمد الله في معرض كلامك ما دام الفضل في ظنك هو لإمام الزمان؟ إن كنت تعلم أن الشفاء من الله وحده، فما بالك تتضرع وتطلبه من واحد من مخلوقاته وليس منه؟ وهل الرب في عليائه يحتاج إلىٰ «باب» أو «شباك» أو وسيط يكون في واحد من مخلوقيه، يجعله شريكا له في الربوبية (بالاقتضاء الواضح) حتىٰ يكون هو من يجيب من يدعوه بالغيب نيابة عنه، ويحظىٰ بعبودية المخلوقين وخضوعهم وتذللهم من دون الله وهو خالق السماوات والأرضين جميعا ومن فيهن؟ هؤلاء غلوا فقالوا باب الله المؤتىٰ منه، وأولئك غلوا فقالوا ابن الله وروح القدس، وغيرهم غلوا وقالوا بنات الله وغلا أخرون وقالوا روح الله، وزعم آخرون أن الله قد حل فيهم أو في مشايخهم، وقال غيرهم إن الله يتقرب إليه بعبادة أوثان من صنع أيديهم، وقال غيرهم إن البدوي والدسوقي وغيرهما سبل مضمونة لا تخيب أبدا للوصول إلىٰ الله وهم أبواب وأقطاب وأركان أيضا، وكأن الله لا يملك أن يرد لأحدهم شفاعة أو وساطة، إلىٰ آخر ما تصف ألسنتهم، سبحان الله وتعالىٰ عما يقولون علوا كبيرا!

أقوال متشابهة يريد كل نفر من أصحابها أن يجعلوا لمعبودهم ومقدسهم نصيبا مما انفرد الله به لنفسه وحده لا شريك له، فيجعلوه لله نسبا أو صهرا أو ابنا أو وسيطا أو شريكا أو وعاءً أو «بابا» يحل فيه ويتمثل به أو يتصرف في الكون من طريقه، أو غير ذلك من أقوال كانت ولا تزال تتشابه في أمم بني آدم! وكله غلو شيطاني في المخلوقين إذ يرفعونهم إلىٰ مرتبة الربوبية، فيتألهونهم من دون الله، وإذا بهم إن دعوا، دعوهم من دون الله وإن تضرعوا تضرعوا إليهم وليس إلىٰ الله، وإذا توسلوا لم يتوسلوا بصفات الله إلىٰ الله ولا بعملهم الصالح ولا بشيء مما يقبل الله التوسل به إليه، وانما توسلوا إلىٰ مطلوبهم بمخلوقين أمثالهم، بما وصفت ألسنتهم الكذب أن الله قد اصطفاهم أقطابا ومعاونين ووزراء في السماء يشاركونه (أو ينوبون عنه أو يتوسطون دونه) أمر التصرف في الخلق وإجابة سؤال المخلوقين!

فإن قيل من أين يأتي ذلك الميل عن إفراد الرب سبحانه بخصال الربوبية وإشراك غيره فيها (سواء بصريح الاعتقاد أو بمقتضىٰ الإشراك في الألوهية) وما تفسيره نفسيا، قلنا إن نفس الإنسان فيها حرص فطري جبلي علىٰ تعليق الخوف والطمع في أسباب الغيب العليا علىٰ الكائن الأعظم بالغيب، ألا وهو الله تعالىٰ. فإذا ما اجتالته الشياطين علىٰ حنيفيته الفطرية، دخلت إليه من كبر نفسه ومن حبه في العلو لنفسه ولجماعته المقربين، وفي أن يكون انتسابه الديني الذي قبله منه وارتضاه له هؤلاء المقربون إلىٰ نفسه، هو أعظم ما يرام وأحسن ما يطلب من الانتساب الديني والمنهجي علىٰ الإطلاق! ومن ثم يصبح تعظيمه لمتبوعه هو طريقه لتعظيم نفسه وأقرانه من أتباع ذلك المتبوع من حيث لا يشعر، ويصبح الانتصار لرأس الجماعة أو الطائفة هو أسمىٰ المطالب وأعلاها، وإن كان ذلك الرأس هو إبليس نفسه! بهذا يتزين الباطل في نفسه هو وأقرانه المجتمعين معه عليه، ويشتد تمسكهم به ودفاعهم عنه مهما عظم!

ومن هنا تراه يبالغ في تعظيم مخلوق من المخلوقات بالغيب (كرجل صالح ميت أو ملك أو جني) من طريق الرواية المكذوبة عليه، أو التأويل الفاسد لرواية صحيحة، أو من طريق ما ظهر لذلك الكائن في عالم الشهادة من أحوال خارقة للعادة ألحقها

الشيطان به تلبيسا، أو من اجتماع ذلك كله (وهو الأغلب)، وتزين له ما قد يرىٰ من أثر تخصيص ذلك المخلوق بالتعظيم البالغ في عاجل أمره الدنيوي! فإن جريان الخوارق علىٰ مقتضىٰ ذلك الاعتقاد الفاسد، يأتي في تلك النفوس المريضة المستكبرة بمنزلة التسويغ الأمضىٰ والأظهر Supreme Rationalization الذي يحلو لها أن توهم أصحابها بأنه قد انقضىٰ به الأمر، وبلغ به العابد منهم الغاية والنهاية المطلوبة من الدين نفسه! وهو ما يزيدهم، بطبيعة الحال، غرقا فوق الغرق في الإشراك برب العالمين وفي تمحيض لذلك المخلوق الذي عبدوه من دون الله، تعظيم اليقين الكاذب في تلك النفوس بأن تلك الخوارق إنما تمتع بها ذلك المخلوق المميز لأن الباري قد رفعه إلىٰ منزلة الشريك أو الوكيل أو «القطب» أو «الباب» أو النائب عنه سبحانه في التصرف الكوني السببي بالغيب، أو لأنه سبحانه قد جعله هو الوسيط والوسيلة بينه وبين العباد، فمن أراد أن يجاب سؤله من الله تعالىٰ، فلا طريق أمامه أضمن ولا أرجىٰ من ذلك المخلوق، أو الزعم بأن الرب قد جعل التوجه بأعمال التعبد لذاك المخلوق هو الطريق الأقرب والأرجىٰ لإرضائه سبحانه والتزلف إليه (كما زعمه مشركو قريش في آلهتهم) نظرا لعظم منزلة ذلك المخلوق لديه!

هذا هو أصل ومنبع الشرك في بني آدم (تاريخيا)، إذ كانت تأتي الشياطين فتزين للناس نصب الصور والتماثيل للصالحين من بين رؤوسهم ومعلميهم ومشايخهم، وتبادرهم بالكذب عليهم وإيهامهم بأن هؤلاء الصالحين إنما عظمهم السابقون لأن لهم منزلة خاصة عند الرب سبحانه، وهي منزلة تجعل منهم طريقا مضمونا إلىٰ الرب نفسه! ومن ثم يزينوا لهم الاعتقاد بأنهم يسمعونهم إن نادوهم بالغيب وتوسلوا بهم أن يدعوا الله لهم، كما كان الناس يتوسلون بدعائهم وهم أحياء! مع أن التوسل بروح ذلك الكائن الماثلة بعد موته في عالم الغيب، لا يستوي - بداهة - مع التوسل به في حياته ومخاطبته بذلك الطلب وجها لوجه، فهو يستدعي من ذلك المتوسِّل به من أعمال القلب والنفس ومن مشاعر الرجاء والخوف الذي يقتضيه مطلق التغييب

نفسه (بين المتوسِّل والمتوسَّل به)، ما لا يصح أن يصرف إلىٰ غير الرب سبحانه! [١] ذلك أنه يقتضي الاعتقاد فيه بقدرة علىٰ السمع والإجابة لا تكون إلا لرب العالمين، ويقضتي الاعتقاد فيه بأن له سلطانا علىٰ رب العالمين يجعل الشفاعة به أمرا لا يملك الرب أن يرده، مهما كان المشفوع فيه ومهما كان مطلوبه، سبحان الله وتعالىٰ علوا كبيرا!

لذا صح أن يقال إنه لا يقع الإنسان في شرك الألوهية إلا كان وراء ذلك شرك في الربوبية لديه (في ظاهر نفسه أو باطنها) يقينا، سواء أقر به المشرك واعترف به علىٰ نفسه أو لم يفعل. ولهذا قامت حجة القرآن علىٰ مشركي قريش (كما قامت حجة المرسلين من قبل علىٰ أقوامهم من المشركين) في تأليههم أوثانهم من دون الله تعالىٰ، بمجرد أن ذكرهم الله تعالىٰ بأنها لا تملك الضر والنفع، وأنهم يزعمون الالتزام بالقول بأن الأمر كله لله وحده وأن الخلق كله لله وحده، فلو أنهم صدقوا في شهادتهم بذلك حقا وفي التزامهم به، ما توجهوا بالعبادة والدعاء بالغيب لغير الله معه! ولم يبين الرب سبحانه في كتابه أن فعلهم هذا يقتضي - بمجرده - الإشراك في الربوبية ومخالفة ما زعموا من توحيد الرب في ذلك لا محالة، لأنه واضح جلي لا يخفىٰ علىٰ عاقل. فمجرد أن يتعبد الإنسان لأحد من دون الله ويتألهه كما لا يكون إلا للباري وحده، هذا دليل قاطع كافي بل بدهي علىٰ كذبه في الزعم بأنه يفرد الله تعالىٰ بخصال الربوبية وبمقاليد السلطان السببي والتكويني والتقديري والخلقي علىٰ حياته، لأنه لو صدق في ذلك، ما أخضع رقبته بالتعبد[٢]

---

(١) فيجد المشرك نفسه لا يدري هل يسمعه ذلك المخلوق المقصود كوسيلة أم لا، ولا يدري أين هي ذاته الآن بالغيب، ولكنه مع ذلك يرجو ويحب وتطمع نفسه في أن تعتقد أنه يسمعه تحقيقا، وأنه سيجيب نداءه تحقيقا حيثما كان، ومن هنا تدفع محركات الهوى نفس صاحبنا المشرك في اتجاه تحقيق الثقة المصطنعة واليقين الكاذب بأن هذا المنادى بالغيب لا بد وأنه يسمع كل من يناديه لا محالة، وأنه يجيب قطعا ولا يتخلف عن الإجابة طرفة عين! وإذن تراه يصطنع الخرافات والأوهام لإقناع نفسه ومن معه بأن تلك الأحوال والخوارق التي كانت تظهر لذلك الكائن أو تروى عنه، دليل في مجردها على أنه قد جعل الرب له بالغيب تلك القدرة الفائقة على سماع كل داع في كل وقت وحين وفي كل مكان، وعلى إجابته إن أراد ذلك من فوره دون تأخير، لأنه قد جُعلت له تلك المنزلة في الملأ الأعلى عند رب العالمين!

(٢) ولعل أحسن وأجمع وأمنع حد للتعبد (والتأليه كذلك) في هذا السياق أن يقال: هو التوجه بمنتهى المحبة والرجاء والتعظيم والخضوع والرهبة ونحو ذلك من أعمال قلبية إلى ذاك الكائن الذي يُعتقد فيه (تصريحا أو بدلالة الاقتضاء) أن لديه الإحاطة العلمية والقدرة الذاتية على تحريك الأسباب الكونية بما لا يطيقه أحد

لغير الله طرفة عين! لو صدق ما اعتقد أن دعاءه سيجاب يقينا إن رضي عنه ذلك المخلوق وقبل أن يكون وسيطا (أو بابا) بينه وبين الله، لأنه لا يخفىٰ علىٰ عاقل سوي النفس ما يقتضيه ذلك الاعتقاد اقتضاء بدهيا أوليا من جعل ذلك «الوسيط» نفسه متحليا ببعض صفات الربوبية في سماع الدعاء أولا، وفي الاختيار بين قبوله ورده (أو «رفعه» إلىٰ الله تعالىٰ) ثانيا، ثم فيما إذا كان الرب سيقبل ذلك الدعاء أم لا، ثالثا، ومن ثمّ كون هذا هو السبب في صرف العبادة إليه من دون الله! هذا الاعتقاد يقتضي الظن بأن إجابة الدعاء لها سبب غيبي آخر مع الله تعالىٰ، يشاركه في حق قبول العبادة من الإنسان وردها، بحيث أنه إن رضي عنه ذلك السبب الآخر، فلا بد وأن الله سيرضىٰ ويجيب الدعاء تبعا، وهو ما يجعل إرادة الله تعالىٰ تابعة لإرادة ذلك المخلوق، وتصرفه الكوني تابعا لاختيار ذلك المخلوق، سبحان الله وتعالىٰ عن ذلك علوا كبيرا! وهو يشاركه كذلك – أي ذلك المخلوق – بمقتضىٰ ذلك الظن، في غير ذلك من صفات الربوبية، إذ يسمع من الداعين دعاءهم بالغيب من غير تقيد بأسباب المخلوقين في السمع والإدراك، بل لعله يسمع عشرات بل مئات الداعين معا في آن واحد ويجيبهم جميعا في آن واحد، فيقبل من هذا طلبه ويرد علىٰ ذاك .. إلخ، كما لا يكون مثله إلا من رب العالمين!

وسبحان الله، هذا الذي رأيت في كلام الراوي أيها القارئ الكريم، يقع وأفظع منه في قوم يزعمون الانتماء إلىٰ آل البيت ﷺ، ويزعمون اتباع نهجهم وأثرهم الشريف والانتماء إلىٰ القرآن ورسول رب العالمين! فهل كان آل البيت من السلف مشركين،

من المخلوقين. ولهذا مهما زعم المشرك أنه لا يتخذ من تلك «الوسيلة» أو ذاك «الوسيط» أو «الشفيع» إلها من دون الله فهو كاذب لأن أفعاله وأقواله حقيقتها التعبد والتأليه على نحو ما ذكرنا. فهو يكذب على نفسه وهو يحسب أنه على شيء، ولهذا جاء خطاب المشركين في القرآن بالموعظة الحسنة، يدعوهم للسماع إلى ما تنادي به الفطرة في نفوسهم ويذكرهم بذلك النداء تذكيرا، لأنهم لو انزجرت نفوسهم عن تزيين الباطل فسيظهر لها بطلانه كما يظهر لكل عاقل سوي النفس، وسيتبين لهم أنهم قد أنزلوا على مخلوق من مخلوقات الله من خصائص الربوبية والسلطان الكوني ما لا يعقل أن يكون لأحد مع الله، سبحانه وتعالى عما يشركون. فمن أبى أن يقبل ذلك الحق الجلي الواضح وأبى إلا أن يتمارى فيه، فلا طريق لإقناعه بالحق إلا كما ترجو ممن ينكر ضوء النهار وهو يراه أن يعترف بأنه يراه بعيني رأسه تحقيقا، وهذا ممتنع إلا أن يشاء ربي شيئا! ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾ [**الأعراف**: ٤٠].

وهل كان علي وزوجه وولداهما طواغيت متألهين، يقولون للناس ادعونا بالبر أو البحر حيثما كنتم نجب دعاءكم ونشفع لكم، ونضمن لكم الإجابة من الله؟ معاذ الله! وليأتوا إذن بالقرآن وليتلوه إن كانوا صادقين! كتاب يصرخ فيهم ببطلان ما يصنعون من الشرك المحض، وهم يزعمون أنهم إليه ينتسبون وبه يعملون، فسبحان الله ما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا؟

والله لا يعطيهم إبليس وأعوانه الفرصة أبدا للتوقف والنظر والتنقيب عن الحقيقة التي تقبع في بواطن نفوسهم، فكلما صرخت فطرتهم بالتكذيب والتسفيه عجلت إلىٰ مسامعهم الأخبار بكرامة جديدة ومعجزة جديدة للمعبود الباطل علىٰ نحو ما ترىٰ، ولربما شاهدوها بأعينهم، فتخور عزائم الحق فيهم وتثبط دوافعه! وإذا بأصوات الفطرة ودواعيها في نفوسهم المريضة تعود إلىٰ الاختفاء تحت ركام الخرافة وطبقات من خوارق وألعاب الشياطين من جديد! إلا أن يشاء الله الهداية والرشاد لعبده، فلا يقف حينئذ في سبيل ذلك النور الرباني إذا جاء إنس ولا جان، ولا يحول بينه وبين قلب العبد حائل مهما غلظ ومهما ثقل وأيا ما كان، وإذا به يفر من الشرك وأهله فراره من الأسد: من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

الصوفية وخوارقهم

لقد غلا المتصوفة في باب الكرامات غلوا كبيرا وضلوا فيه ضلالا بعيدا. وهم كما يعلم المحققون وأصحاب التأريخ، فرع عن شجرة الرفض والتشيع! فالقبورية وعباد الأولياء والأقطاب وغيرهم يشركون بالله شركا بينا، وللشيطان معهم أحوال وأحوال أيضا، نسأل الله العافية. فقد زينت لهم نفوسهم وشياطينهم – تماما كما عند أهل الملل الشركية كافة – الاستدلال بمجرد ظهور الخوارق والأعاجيب علىٰ أيدي من تعصبوا لهم وأحبوهم من مشايخهم، علىٰ ورع هؤلاء وولايتهم الخاصة لله تعالىٰ وعلو منزلتهم في الملأ الأعلىٰ، حتىٰ وإن كان الواحد منهم زنديقا لا دين له ولا خلاق!

يقول السراج الطوسي في كتابه «اللمع» لإثبات الآيات والكرامات: «من زهد في الدنيا أربعين يوما صادقا من قلبه مخلصا في ذلك، ظهرت له الكرامات»، قلت: لا والله بل حق لك أن تقول: «من عمل في دينه طالبا بكل قلبه أن تظهر عليه الشياطين بخوارقها، ظهرت له تلك الخوارق!» فالشياطين هي التي أوحت بمثل هذا الكلام الذي ما أنزل الله به من سلطان زخرف القول غرورا، ليظل الرجل منهم يعمل ويبذل بكل قلبه لا في سبيل طاعة الله والأجر المنتظر عنده يوم اللقاء، وإنما في سبيل غرض دنيوي خبيث يشتهيه، وهو أن يرىٰ نفسه وقد صار يمشي علىٰ الماء مثلا أو يطير في الهواء أو تتمثل له صورة ولي أو يزوره النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم في اليقظة، أو غير ذلك من مخاريقهم الشيطانية! فلا حول ولا قوة إلا بالله. ولعل من تتبع مسألة «الأربعين» هذه يجد أنها من المشتركات بين أهل النحل الشركية (وقد مر معك دعوىٰ الرافضة أن مهديهم يظهر لطالبه بعد أن يأتي ببعض العبادات يتم بها الأربعين عددا)، فلعلها أن يكون لها صلة بقدرات الشياطين وأحوالهم، والله أعلم. [1]

وما أزال أذكر أن قريبا لي من المتصوفة قد أخبرني ذات يوم حين كنت صبيا صغيرا، أني لو عكفت في جلسة لي علىٰ ذكر الله بلفظ الجلالة المجرد، ألف مرة (أو ربما بضعة آلاف، لا أذكر علىٰ وجه التحديد) وكنت صادقا حاضر القلب، فإنني سأرىٰ حينئذ وبمجرد أن أفرغ من ذلك، نورا يخرج من صدري، وكأنه قد انفتح باب بيني وبين الله (أو ذكر شيئا من نحو ذلك المعنىٰ)! فجلست بعدها في خلوتي أعد الذكر بهذه الطريقة متلهفا مترقبا حتىٰ وصلت إلىٰ العدد الذي عينه لي، ثم نظرت إلىٰ صدري

---

(١) وعند النصارى أن المسيح عليه السلام بعدما قام من بين الموتى – بزعمهم – مكث أربعين يوما في خفاء فلا يظهر فيها إلا لبعض حوارييه وأتباعه، حتى جاء يوم الصعود إلى السماء، وهو اليوم الأربعون! فهل يمكن أن يصح وقوع تلك المشاهدات المزعومة في كتب القوم بعد واقعة الصلب، على أنها من ألاعيب الجن التي تفننوا فيها لفتنة القوم بعدما رفع الله المسيح إليه في ذاك اليوم الذي ألقي فيه شبهه على المصلوب، كدعوى بولس – مثلا – أنه جاءه المسيح في هيئة نورانية وبعثه رسولا للناس بدعوى الصلب والفداء والبنوة، أو دعوى «توما الشكاك» وغيره من المنافقين أن المسيح ظهر لهم وأراهم آثار الصلب على جسده حتى يؤمنوا؟ لا أراه بعيدا، وإن كنت لا أملك دليلا عليه (ولا أراه مما يمكن الاستدلال لإثباته أو نفيه، ولا أرى داعيا لتكلف ذلك الاستدلال أصلا)، وإنما أردت لفت الانتباه لارتباط العدد أربعين بـ«الظهورات» عند أهل الملل الشركية، والله أعلم بأصل ذلك عند الجن وبسببه الغيبي.

أترقب بشغف فلم أجد شيئا! فساءني ذلك وتصورت أن الله لم يرض عني! وإني والله لا يسعني اليوم إلا أن أحمد الله حمدا كثيرا علىٰ أن الشياطين لم تنتهز تلك الفرصة وترمي بلعبة من ألعابها أمام عيني حينئذ، وإلا لكنت اليوم من أشد المتصوفة غلوا! فالحمد لله الذي عافاني مما ابتلىٰ به كثيرا من الناس.

ومن الملفت أن كثيرا من الصوفية يعترفون ويقرون بأنهم يستعينون بالجن ويستأنسون بهم ولا يرون بأسا في ذلك! وقد نقل عن الجنيد أن الجن كانت تؤنسه وتعينه في أسفاره وغيرها.

وهاكم بعض الروايات لخوارقهم:

فذاك الشعراني يروي في طبقاته – طبقات الكفر والزندقة! – عن واحد من الأولياء المزعومين فيقول:

«... ومنهم أبو محمد عبدالرحمن المغربي القناوي – رضي الله عنه – وهو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين، وعظماء العارفين، صاحب الكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة، حُكي أنهُ نزلَ يوما في حلقة الشيخ شبحٌ من الجو، لا يدري الحاضرون من هو، فأطرق الشيخ ساعة ثم ارتفع الشبح إلىٰ السماء. فسألوا، فقال:هذا مَلَك، وقعت منهُ هفوة، فسقط علينا يستشفع بنا، فقُبِلَ شفاعتنافيه، فارتفع». انتهىٰ كلامه الشيطاني.

قلت: ويظهر بالمناسبة في تلك الرواية ترسيخ الشيطان لآثار المعتقد النصراني في أن الملائكة تخطئ وتهفو، وأنها تسقط إلىٰ الأرض!

وروي– فيما أنقله عن موقع من مواقع المتصوفة – عن المختار جد الشيخ حمزة ابن العباس قال:

«لما ارتحل من الجبل إلىٰ سيدي تريفة حيث توجد لحد الآن أنقاض زاويته. وكانت غابة مخوفة لا يسكنها إلا اللصوص وقطاع الطريق، مرت جماعة من اللصوص بباب داره، فرأوا بقرا له يرعىٰ، قال بعضهم لبعض: يقال أن شيخا سكن هذه الغابة، وأن هذا بقره فهيا نمتحنه ونسرق بقره ونذهب، ولم يسعفهم واحد منهم علىٰ امتحانه، قائلا:

إن هذا من أولاد سيدي المختار الكبير، وأنتم تعلمون شوكة هؤلاء الشرفاءوسطوتهم. فلم يسعفوه وقصدوا خيام الشيخ وطلبوا منه بعض الطعام فأطعمهم وأصلح من حالهم، ولما كانوا راجعين، قال لهم: لا تذهبوا حتىٰ تأخذوا لصاحبكم االذي ينتظركم وسط أدغال الغابة بعض الطعام، فدهشوا وارتبكوا وعادوا إلىٰ صاحبهم وأحجموا عن فعلتهم».

ويروي الشاذلي (أبو الحسن علي بن عبد الله) عن شيخه أبي محمد عبد السلام بن مشيش يقول:

«كنت يوما بين يدي الأستاذ فقلت في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم الأعظم، إنما الشأن من يكون هو عين الاسم، فقال الشيخ من صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدي».(١)

وسماع الأصوات عن بعد من غير سبب ظاهر، ونقل الكلام والأفكار بين الناس، من حيل الشياطين التي رأيناها عند سائر أهل الملل الشركية. وهذه الروايات تعد من أخف ما يجده المطلع علىٰ ما في كتب الصوفية من روايات للكرامات والمكاشفات المزعومة، وإلا فوالله إن الجلود لتقشعر من مجاجة وزندقة وسخافة ما بلغته تلك الروايات، بل ومن بذاءة ما فيها من فحش وزنا وفجور، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فهؤلاء القوم قد أذهبت الشياطين عقولهم بالكلية، فما بقي عند أكثرهم مسحة من تمييز بين طاهر ونجس، أو بين حسن وقبيح، أو بين طيب وخبيث. وأكثر رواياتهم تطعن في ذات الله من باب فنائهم المزعوم فيه – حاشاه ذلك وتقدس اسمه جل وعلا – وتنسب صفاته وأعماله لأوليائهم، وهي في أكثرها خرافات في خرافات مكذوبة، ظاهرة الكذب والفساد، فلا داعىٰ لذكر شيء منها هاهنا.

وعموما فإن الأعمال الشيطانية بشتىٰ أنواعها هي عند الصوفية أمر متواتر مشهور بينهم، نسأل الله العافية. ولا أرىٰ مزيد إطالة فيها أو سرد لها في هذا الباب لأن غيرها

---

(١) نقلا من كتاب لطائف المنن لابن عطاء الإسكندري ص ١٥٩، ١٦٠.

أولىٰ منها مما إخاله يخفىٰ علىٰ كثير من المسلمين، وقد أفاض كثير من علمائنا وأئمتنا رحمهم الله في عرض خرافات الصوفية والقبورية وأحوال الشياطين معهم في كراماتهم المزعومة بيانا وتفنيدا مما أحسب أن فيه الكفاية، والله الموفق المعين. وفي جميع الأحوال فإن الضابط لمعرفة الكرامات الإلهية (التي هي جزء من النبوة) من خوارق الشياطين وألعاب المردة من الجن، إنما يتمثل في حال صاحب تلك الأحوال المخالفة لما اعتاده الناس، وما هو عليه من اعتقاد وقول وعمل، فكما مر من قبل، وكما قرره أهل العلم في مظانه، فإن الله تعالىٰ ما كان ليكرم مشركا ولا ملحدا ولا زنديقا، سبحانه وتعالىٰ عن ذلك علوا كبيرا. ولا عبرة بكثرة العبادة والوروع الظاهر وحسن الخلق ونحو ذلك مما يكتفي جهلاء المتصوفة بإحصائه علىٰ شيوخهم، كطريق يوصل منه إلىٰ نيل الكرامات وبلوغ مراتب العارفين والعلو في «طبقاتهم»، فإن الرجل قد يكون من أشد الناس شركا وضلالا وأكثرهم شتما وسبا لرب العزة جل وعلا في كل دعاء يدعوه وفي كل ذكر يتلفظ به، ومع ذلك تراه من أكثر الناس نسكا وعبادة وزهدا في الدنيا وشهواتها، ثم لا يلبث أن تراه يمشي علىٰ الماء ويرقىٰ في الهواء ويظهر علىٰ يديه من الأعاجيب ما تحار فيه الألباب! فمن اكتفىٰ من العبّاد والنساك بتلك الأحوال يرفعهم بها، فقد نادىٰ علىٰ دينه بالضياع!

ولهذا نقول لكل من أعجبه حال شيخه من همة ونشاط في الدعوة وحب للدين وقوة في الانتصار لما يراه حقا ونكير علىٰ أصحاب البطش والمنعة .. الخ، فلا يغره ذلك منه حتىٰ يتحقق من معتقده ومنهجه أن يكون علىٰ السنة وعلىٰ ما كان عليه سلف الأمة،[1] فإن لم يكن كذلك، فليتق الله في نفسه والناس وليغالب هوىٰ نفسه وكبرها، وليحملها علىٰ البراءة منه وجرحه بما هو أهله، لأنه كلما عظم افتتان الناس بحال الداعية المشهور من دعاة البدعة، عظم الداعي عند عقلاء أهل السنة لمحاربته والحط عليه والتنفير منه وتحذير المسلمين من مجالسته، كما كانت طريقة السلف ﷺ مع رؤوس المبتدعة كما هو مبسوط في كتبهم وآثارهم. ولا شك أنه لو ظهرت لهذا من خوارق العادات ما

(١) وقد سمى رسول الله ﷺ قوما من أهل العبادة والورع البالغ (فوق ما يطيقه عامة الصحابة) بكلاب النار، وذمهم أشدّ الذم، فتأمل.

يجريه الشيطان علىٰ أيدي بعض المبتدعة ليزين بدعتهم للناس، فإنه تتضاعف فتنته إذن لمن أحبوه وتعلقت به قلوبهم ورأوا فيه المثال والقدوة والمربي المعلم .. إلخ، أضعافا كثيرة، لا سيما إن كانوا من أصحاب الميول الشركية الذين يسهل أن يبلغ بهم تعصبهم في الرجل وتعلقهم به أن يتخذوه إلها ينادونه بالغيب ليقضي لهم الحوائج ويجيبهم لما يسألون، في حياته وبعد مماته.

خوارق النصارى

الظهورات المسماة بـ«ستيغماتا آلام المسيح»

يعد هذا الصنف من خوارق العادة من الصنوف المنتشرة عند النصارىٰ الكاثوليك، لا سيما في الأرياف الأوروبية الفقيرة. وهو يتمثل في جروح تظهر علىٰ جسد الرجل أو المرأة منهم، في ذات المواضع التي صلب منها المسيح بزعمهم، وهي الكفين والقدمين وأحيانا تظهر في الجبهة أيضا. وأحيانا تظهر جروح كآثار السياط علىٰ ظهورهم والشوك علىٰ رؤوسهم. ويزعم البعض أن من هذه الأحوال ما يأتي علىٰ هيئة آلام خفية في مواضع الصلب من الجسد بدون ظهور آثار لجروح أو دماء علىٰ تلك المواضع، فيقسمونها إلىٰ ستيغماتا ظاهرة وستيغماتا خفية. ومن الملفت أن تلك الآثار والدماء والجروح لا تلبث إلا بضع ساعات ثم تختفي، كما ذكره كاتب من كتاب النصارىٰ في وصفه لها، وهو من كلام نقلته من موقع لهم باسم (كريستالينكس دوت كوم). ويذكر الكاتب أنه قد سُجل (حتىٰ تاريخ كتابة المقال) ما يزيد علىٰ الخمسمائة حالة من حالات الستيغماتا هذه بشكل رسمي، أولاها كانت في عام ١٢٢٢ الميلادي، ووقعت لرجل إنكليزىٰ اسمه «ستيفن لانغتون». وقد وقعت تلك الأحوال مع الكثيرين ممن اتخذهم النصارىٰ بعد موتهم قديسين، كالقديسة فرانسيس الأسيسية في إيطاليا، والقديسة كاثرين السينية، والقديسة ماريا، ولعل أشهرهم في القرن العشرين الميلادي كان القديس بيو من بيتريلكينا الذي مات في عام ١٩٦٨ الميلادي.

وإني وإن كان يترجح لدي أن تكون مسألة «الستيغماتا» هذه بمجملها من الكذب والتحايل والخداع ولا تقع حقيقة علىٰ الإطلاق، إلا أنني أيضا لا أستبعد وقوعها في بعض الأحيان كما يصفونها، فالشياطين إن سلطها الله علىٰ عبد لشركه وغفلته، صنعت به أكثر من ذلك! نعوذ بالله تعالىٰ.

والكاتب الذي أنقل عنه هنا لا يجد بدا من أن يثبت بعض الحالات المزيفة التي ثبت وتبين زيفها بل واعترف أصحابها بزيفها فيما بعد من تلقاء أنفسهم. ويذكر أيضا أن

بعض الذين سجلت عندهم تلك الأعراض قد ثبت فيما بعد أنهم كانوا مرضىٰ باضطراب نفسىٰ يعرف باسم «مونخاوزن» يندفع المرء بسببه للتظاهر بالمرض أو لإحداث الضرر بنفسه لمجرد أن يستجلب اهتمام الناس به وعنايتهم ورعايتهم له. وكثير ممن زيفوا الستيغماتا هذه إنما زيفوها لعلمهم بأن البابا الفاتيكاني يتخذها في كثير من الأحيان معجزة يحوز صاحبها بسببها درجة القداسة ويُجعل من القديسين بعد موته!

ويرىٰ كثير من علماء النفس الغربيين أن تلك الظاهرة، وإن كانت ذات أعراض جسدية إلا أنها أصلا لا تنشأ إلا نتيجة لأعراض نفسية معنوية، من باب ما يصاب به الجسد من العلل العضوية تأثرا بأحوال نفسية معينة بتأثير الإيحاء.

ويذكر الكاتب أن تلك الدماء التي تخرج علىٰ جسد المصاب بهذا العرض، كثيرا ما تكون من فصيلة دم غير دمه! ويزعمون أنما ذلك هو دم المسيح يخرج من الجروح وليس دم المصاب نفسه! وهذا الكلام في أمر اختلاف نوع الدم إن صح، فهو عندنا قرينة علىٰ أن الموضوع كله من جنس ما تصنعه الشياطين من دفق للزيوت والمياه والدماء علىٰ التماثيل لتظهر وكأنها دموع تخرج منها، أو مص للبن من داخلها كما وقع مع الهندوس فيما مر معك، ونحو ذلك من إخفاء وإظهار للأجسام والسوائل ومص ودفق لها من حيث يريدون تلبيسا علىٰ الناظرين، إلىٰ غير ذلك. فهذا الدم الذي يراه يتدفق من تلك الجروح، ليس دمه ولا يخرج من داخل جسده، بل وليست الجروح جروحا أصلا في حقيقتها، وإن شعر صاحبها بالآلام في موضعها! فهو يراد له أن يعتقد أن المسيح ينزف دمه عبر جسده هو، ترسيخا لمعتقده ومعتقدهم جميعا في «التوحد مع المسيح» والامتزاج معه بلحمه ودمه، وفلسفة الفداء والصلب، وغير ذلك مما يعتقدون، والله أعلم.

ولا غرابة إذن في أن يظل الدم ينزف بطلاقة ولا يستجيب لعلاج طبي كما يقول الكاتب، فهو ليس نزيفا من جسد الرجل أصلا (إن صح وقوع الأمر علىٰ ما في كلامه)!

ويذكر الكاتب أن المصاب بهذه الأعراض تظهر حوله رائحة الورود (الياسمين غالبا) بعد انتهاء وقوعها معه. فإن صح هذا الزعم فلا غرابة علىٰ الإطلاق أيضا، فالغاية

أصلا من الأمر كله ليست إلا التلبيس عليهم وإيهامهم جميعا بأن هذه ظاهرة سماوية مقدسة من عند الرب، تعالىٰ الرب عما يصفون علوا كبيرا.

بل ولا غرابة في قول الكاتب أن الدم أحيانا ما يخرج مضادا لقانون الجاذبية فيصعد لأعلىٰ قبل أن يسقط إلىٰ الأرض، ونحن نقول: لن نجد غرابة والله ولو رأيناه بأعيننا يتشكل في الهواء ويتلون ويخرج منه صوت يكلمكم، وضوء يسطع عليكم! فالحمد لله الذي علمنا في دين الحق ما لا نضل معه ولا نخزىٰ.

حجيج النور المقدس...

حتىٰ وقت ليس ببعيد، كان النصارىٰ يحجون لكنيسة القيامة في بيت المقدس كل عام، ترسيخا لاعتقادهم بموت المسيح عليه السلام علىٰ الصليب من أجلهم ثم قيامته من قبره بعد ثلاثة أيام. ومن المعلوم عندهم أنه في كل عام، في يوم عيد القيامة، وهو يوم حجهم لبيت المقدس، تظهر «معجزة» مزعومة يسمونها بالنار المقدسة في قلب الكنيسة التي بنوها علىٰ ذلك القبر والمشهورة باسم «كنيسة القيامة»، وتكون مرتبطة بأذكار وأناشيد معينة وأدعية يتلوها البطريرك الكبير هناك جاثيا علىٰ ركبتيه راجيا المسيح أن يرسل ذلك النور ويخرجه عليهم. فإذا أتم تلاوتها، انبثقت بقعة ضوء غير محددة المعالم فوق صخرة القبر في قلب الكنيسة علىٰ مرأىٰ من الحضور جميعا، وأحيانا تتحرك تلك البقعة، وفي بعض الأحيان تنفصل منها قطع صغيرة وتتحرك إلىٰ المصابيح فتشتعل المصابيح. وأحيانا تخرج من البقعة ومضات كالبرق، ويتزامن مع ذلك حوادث عجيبة كاشتعال شموع بعض الحجيج بصورة مفاجئة من تلقاء نفسها (فيما يبدو للناس)، وهاكم وصف من موقع نصراني أرثوزوكسي لوقائع ومراسم خروج «النور المقدس» في كنيسة القيامة في يوم الحج إليها، أنقله بحرفه ولفظه وبما وقع فيه من لحن لغوىٰ. قال الكاتب:

«تحدث مراسم النور المقدّس في الساعة ١٢:٠٠ وتتكون من ثلاث مراحل: .الصلاة والتمجيد، دخول الأسقف في القبر المقدس، صلاوات البطريرك طالبا من الرب أن يخرج النور المقدس. يدخل بطريرك أورشاليم (القدس) للروم الأرثوذكس

ومعه رؤساء الأساقفة والكهنة والشمامسة وبطريرك الأرمن. تضرب الأجراس بحزن حتىٰ يدخل البطريرك ويجلس علىٰ الكرسي البابوي، وتتجمع الطوائف المسيحية من أرمن وأقباط أرثوذكس ثم يدخل الجميع أمام القبر ويظل القبر مُقفل ومختوم، يقوم بطريرك الروم الأرثوذكس بالدخول إلىٰ القبر، قبل أن يدخل إلىٰ القبر يتم تفتيشه للتأكد من عدم وجود أي مصدر للنار أو النور معه ويخلع الملابس السوداء ويقف بالملابس البيضاء، ويكون هذا التفتيش علىٰ يد كل من حاكم القدس ومدير شرطة القدس وهم بالطبع (غير مسيحيين) بجانب أخرين من الكهنة، ويتم هذا التفتيش أمام الجميع. ثم يدخل البطريرك في القبر المقدس، وهو يحمل شمعة مطفأة. ومن حقوق الأقباط أنهم في إحتفالات النور المقدس التي تقام في سبت النور فإنهم يدورون حول القبر المقدس ثلاث دورات وذلك بعد الروم والأرمن وهم ينشدون ألحانهم القبطية الشهيرة ويتكرر هذا الإحتفال مرة ثانية في الساعة الرابعة من صباح (فجر) أحد الفصح. في داخل القبر المقدس، يصلّي بطريرك الروم الأرثوذكس وهو راكع ويذكر الطلبات الخاصّة التي تطلب سيّدنا يسوع المسيح أن يرسل نوره المقدّس. ويغلف المكان سكون وصمت شديد لآن الجميع يترقب خروج النور.. بعد صلاة البطريرك يسمع الحاضرين صوت صفيرا ويخرج برق أزرق وأبيض من الضوء المقدّس يخترق من كل المكان، كما لو أن ملايين الومضات الفوتوغرافية تعانق الحاضرين وتنعكس علىٰ الحيطان وتضئ كلّ الشموع من هذا النور. في القبر المقدس يخرج النور ويضيء الشمعة التي يحملها البطريرك. ويبدأ الحاضرين في الهتافات والصلاة بينما تنساب دموع البهجة والإيمان من عيون الناس ...».

ثم يقول الكاتب:

«في عام ١٥٤٩ ميلاديا دفع جماعة من الأرمن الأغنياء إلىٰ السلطان العثماني وحاكم مدينة القدس مبالغ مالية ضخمة كرشوة لكي يخلوا الكنيسة من المسيحيين الأرثوذكس سكان القدس الفقراء، للأسف المال هو الشيطان الذي يعمىٰ العقول، ووافق بالطبع حاكم مدينة القدس والسلطان العثماني علىٰ مطلبهم، وأخلوا الكنيسة

من الحجاج المسيحيين وسكان القدس الأصليين، ودخل الأرمن الأغنياء إلىٰ الكنيسة وأغلقوا الأبواب علىٰ أنفسهم وجلس عامة الشعب خارج الكنيسة وأمامهم جنود الجيش التركي يمنعوهم من الدخول. ومرت الدقائق كالساعات، لا يقطعها إلا صلوات الأرمن الأغنياء داخل الكنيسة وبكاء عامة الشعب والحجاج خارجها، فأملهم الوحيد هو مشاهدة النور المقدس الذي ينبعث من قبر السيد المسيح وها هم قد مُنعوا منه، وجاء موعد أنطلاق النور .. ولم يحدث شيء داخل الكنيسة .. أخذ يصلي الأرمن بداخل الكنيسة .. ولكن بلا أستجابة، وهنا أعلن السيد المسيح أن رسالته إلىٰ خدامه وأبنائه المتواضعين. فخرج النور يشق العمود الشمالىٰ للكنيسة ويغرق كل الحاضرين خارج الكنيسة، وآمن العديد من المسلمين من رجال الجيش التركي ولعل أبرزهم هو الجندىٰ (عُمر) الذي كان يحرس بوابة دير القديس أبراهيم فصرخ مرددا «أؤمن بالله واحد .. يسوع المسيح .. أنه الدين الصحيح» وسقط من أعلىٰ البوابة من ارتفاع أكثر من ٣٥ قدم، فهبطت أقدامه علىٰ الرخام الصلب ولكنه أمتص سقوطه وكأنه شمع.. فغرزت رجل الجندىٰ وهو كان يردد عبارات الأيمان.. وأنطبعت أثار أقدام الجندىٰ في الرخام». انتهىٰ النقل.

قلت: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإنا لله وإنا إليه راجعون. لمثل هذا ورب الكعبة تعمل شياطين الجن ومردته عملها الدؤوب ليل نهار، لتعلق المشركين بشركهم ومللهم الباطلة، ولتخرج المسلمين من ملتهم الحق وتشككهم فيها، وتستعبد البشر أجمعين، تسحبهم بأهوائهم سحب الإبل والخراف، ليكونوا لهم عبيدا من دون الله! ها هم يخرجون بعض الجهلة المفتونين ضعاف الدين من دينهم الحق، يوحون إليهم القول بأن الله هو المسيح عيسىٰ ابن مريم، تعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا. ووالله لو أن ذلك المسلم الذي فتنته وأخرجته الشياطين من ملته – هذا علىٰ افتراض صحة الرواية أصلا، ولا أحسبها تصح – وقف مع نفسه لحظة وتأمل بروية لما انطلت عليه تلك الخدع مهما عظمت، بل والله لو أنه قرأ آية الكرسي حالئذ وصدع بها بقلب ملؤه اليقين والثقة بالله تعالىٰ لفرت تلك الشياطين من ذلك المكان فرارا، ولكان يوم بؤس وكرب علىٰ تلك الجماهير التي عبدته من دون الله!

ولعل أهم ما ينكشف لنا مما تقدم أن عبادة الحج إلىٰ بيت المقدس هذه التي ابتدعوها كاملة من أولها إلىٰ آخرها بعد رفع المسيح بعدة قرون، ولا دليل عليها عندهم ولا برهان علىٰ تشريعها بحال من الأحوال، وقد اتخذوا من القبر مسجدا من أجلها، إنما تتمحور وتنبني بكاملها علىٰ صلاتهم وعبادتهم لذلك القبر، بغية استدعاء ذلك النور الشيطاني إليهم وخروجه عليهم.(١)

وسبحان الله العظيم، هذه حيلة من أهون حيل الشيطان عليه، ومع هذا تأمل كيف صارت ركيزة من ركائز الدين عند بعض الطوائف! فهي في حقيقتها لا تزيد علىٰ كونها ومضات وألعاب من النور والنار تنشر وتبث هنا وهناك، وقد رأينا في أصحاب الملل الأخرىٰ ما هو أكبر من هذا، وإنما بلغت ما بلغت لضخامة وأهمية الحادث والشعيرة التي تقوم عليه من جهة كونها عبادة جماعية كبرىٰ، ولترسيخها لأصول معتقد تتمحور حوله ملة من أكثر الملل تابعا في هذا الزمان. فهي وإن وهنت وصغرت في حقيقتها وأدائها، فهي كبيرة في متعلقها وأثرها وثمرتها، كبيرة لعظم ما يكون منها من أثر في نفوس من يشهدونها ومن يقرؤون عنها. ولعل مثلها في ذلك كمثل ما يسمىٰ بـ«معجزة اللبن» الهندوسية التي تقدم عرضها. فقد جاءت في وقت مدروس وخرجت متزامنة في أماكن مدروسة بعناية، وانتشر خبرها كالنار في الهشيم، وافتتن بها من افتتن أيما افتتان، وخرج نصارىٰ وعلمانيون وشيوعيون من دينهم ودخلوا في الملة الهندوسية من فورهم لما رأوا تلك «المعجزة» بأعينهم، كما مر بك في محله!

وتلك والله لهي من الحكم الربانية الباهرة أن جعل الجن أمة مكلفة تخالطنا في أرضنا، يروننا من حيث لا نراهم، ولهم ما لهم من القدرات التي ابتلاهم الله بها كما ابتلانا بها (وقد كذّب بوجودهم كثير من ملل النصارىٰ كما زعموا أن الشياطين ليسوا إلا ملائكة خبثاء تمردوا علىٰ ملكوت السماء فطردوا منه، وزعم بعضهم أنهم أرواح

(١) وقد فسره بعض المؤرخين والباحثين بأنه تلاعب وتحايل من جانب البطاركة هناك باستعمال بعض خصائص الفوسفور في الاحتراق التلقائي، وهو أمر لا يُستبعد ولا شك، وإن كنت أرجح تلاعب شياطين الجن في المسألة، لا سيما وقد بينا أن تلاعب الجن بالأضواء أمر مطرد وله صوره عند جميع أهل الملل الشركية، وهي في جميع الأحوال فرصة عظيمة لا أظن أن مردة الشياطين يفوتون اغتنامها، والله أعلى وأعلم.

أناس أشرار ماتوا قديما وغير ذلك من الأساطير!). فالله تعالىٰ يبلو الثقلين بعضهما ببعض، الإنس والجن، ويجعل سبحانه بينهما اتصالا بقدر مقدور وبحد محدود ليتحقق الابتلاء علىٰ وجهه وتمضي سنة الله في كونه، لا تبديل لخلقه. ومن ذلك الابتلاء ما نراه من عمل دؤوب للشياطين علىٰ فتنة المشركين بشركهم، ولو شاء الله لفصل بين الثقلين في أصل خلقتهما بما يلزم لذلك من سنن كونية، فلا يتصلان أبدا، بل ولا يعلم أحدهما بوجود الأخر في ذلك الغيب المطلق أصلا، لا بالحس ولا بخبر الوحي، ولحاسب كلا منهما في معزل تام عن الأخر، بل ولجعلهما في عالمين وكونين مستقلين منفصلين تمام الانفصال، لكل منهما قيامته الخاصة، ولكن الله يخلق ما يشاء ويختار، ولله الحكمة البالغة، يبتليهم بنا كما يبتلينا بهم بالغيب والشهادة ويفعل الله ما يشاء. فهو يأمر الجن بالإيمان به وحده وباتباع رسله وينهاهم عن الافتتان بما لهم من قدرة علىٰ رؤية البشر والتأثير في عالمهم من حيث لا يراهم البشر، ويجعل لهم من الذين آمنوا منهم حكماء علىٰ درجات من العلم والحكمة، ينهونهم عن هذا ويدعونهم إلىٰ التوحيد وتقوىٰ الله واتباع المرسلين من بني آدم، وهو أيضا يعلمنا معاشر بني آدم أن الجن يروننا من حيث لا نراهم وأنهم يتصلون بنا ويوسوس شياطينهم وطواغيتهم لنا، فينهانا عن سبلهم ويحذرنا منهم ويعلمنا أنه لا سبيل للحماية من شرهم وأذاهم بالغيب إلا بتحقيق التوحيد والتوكل والاستعانة بالله، وتعلم ما أنزله الله من الذكر تعوذا وتحصنا، وتعلقا بجناب الرب الخالق وحده لا شريك له، فالحمد لله رب العالمين.

وهذه حكاية عثرت عليها في موقع من مواقعهم، تروي ما وصفه أصحاب الموقع بأنه معجزة من معجزات العذراء – برأها الله وابنها مما يقولون، يقول الكاتب:

«قيل إن أيقونة العذراء الأثرية (بمقر الدير بالقاهرة المشهور بالعزباوية بكلوتبك) هذه احدىٰ ثلاث أيقونات قديمة قد رسمها القديس لوقا الإنجيلىٰ، ونذكر لك في إيجاز إحدىٰ المعجزات التي تمت منها:

فىٰ أيام رئاسة القمص فيلوثاؤس السابق لنيافة الأنبا ثاؤفيلس ففي أحد الأيِام وقفت أمام أيقونة السيدة العذراء بالعزباوية عائلة من زوج وزوجته وأولادهما الأربعة

وظلوا يصلون بحرارة إلىٰ أن قرب غلق الباب وأمرهم أحد الرهبان بالانصراف فامتنعت الزوجة قائلة أنا لا أبارح هذا المكان حتىٰ تقضىٰ حاجتىٰ .. فقد كانت مصابة بمرض السرطان في ثديها وقد تحدد لها اليوم التالىٰ لاجراء عملية استئصال الثدىٰ. .

ظلت تلك السيده تبكىٰ «أنا لا أتركك يا أم النور. اعملي أنتي العملية» وأن الرهبان أغلقوا المقصورة عليهم، وفي الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل سمع تهليلا وأصوات فرح فنزل الرهبان وطلبوا من القمص فيلوثاؤس عمل تمجيد للسيدة العذراء. وقد قالت السيدة قصتها: «لما بعد منتصف الليل بساعة تغلب علىٰ النعاس بعد بكاء كثير وشعرت بيد توقظني، وكانوا هم نياما. فرأيت سيدة منيرة كالشمس ومتسربلة بثياب بيضاء وعلىٰ رأسها أكليل مرصع بجواهر ثمينة وتحملها الملائكة. فانزعجت من بهاء المنظر. وعندما سألتها قالت لي أنا العذراء أم النور التي تطلبينني باستمرار وابني أرسلني إليك لأعمل لك العملية. فمدت يدها ولمست الثدي ورسمت عليه علامة الصليب وهي تقول باسم الأب والإبن والروح القدس إله واحد آمين. وإذا بالأورام والقروح تلاشت ولم أر لها أثرا. وقالت لي أشكرىٰ فضل ابني يسوع الذي انعم عليك بالشفاء ورنمي مع داود النبي: باركىٰ يا نفسىٰ الرب ولاتنسىٰ كل حسناته. وفي الصباح ذهبوا إلىٰ المستشفىٰ وإن الطبيب قال انها معجزة غريبة، والذي يدهشني أكثر أن الصليب لا يمحىٰ مهما غسل، وقد آمنت بحقيقة قوة الله وبشفاعة السيدة العذراء. وتم توزيع مبلغ العملية علىٰ الفقراء وصارت هذه السيدة تأتىٰ كل أسبوع لتقدم الشكر لله والتمجيد لأمه الحنونه أمام أيقونتها بالعزباوية». انتهت الرواية.

قلت: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. هكذا لما أظهرت تلك المرأة عقيدة راسخة بأنها لن يصيبها الشفاء إلا من عند صورة العذراء (إذ تعمل لها العملية)، وبأن الرب (الذي هو في دينهم المسيح ابنها) سيرسلها إجابة للدعاء ولشفاعتها في المريضة، حتىٰ تأتي بالشفاء من عنده، جاءتها الشياطين المردة بمثل ما ترىٰ! فما أشبه هذا بما مر بنا مما عند أهل الملل الأخرىٰ، ولا نكرر ما ذكرناه آنفا من تحليل نفسي حتىٰ لا نطيل. فالآفة هي الآفة، والهوىٰ هو الهوىٰ، والحيلة هي الحيلة، ولا فرق!

فالشاهد من النقل أن الذي رأته السيدة (إن كانت رأت شيئا حقا) يستحيل أن يأمرها بأن تشكر الرب الخالق مثلا، أو أن تفرده بالحمد والثناء! ولن يجدوا قصة واحدة من أمثال تلك القصص فيها هذا المعنىٰ. بل كل قصصهم يأتي فيها المعبود من دون الله يأمرهم بالمزيد من شكره وعبادته هو من دون الله! تأتي العذراء لتأمرهم بمزيد من دعائها والطلب منها ومن ابنها، مع إغراق للناس في الصليب والثالوث، كما تراه عند سائر أهل الملل الشركية. أما الرب الخالق فلا ذكر له، وما كان ليذكر! ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ [**الزمر**: ٤] . وما أكذب ذلك الشيطان إذ قال لها بزعم الراوي «أشكري فضل ابني يسوع الذي انعم عليك بالشفاء ورنمي مع داود النبي: باركي يانفسي الرب ولاتنسي كل حسناته»! أيزعم أن داود النبي كان يرنم تقديسا ليسوع، وتذكرة لنفسه بحسنات يسوع، وهو الذي بعث قبل أن يولد يسوع بقرون وقرون؟ هذا كذب واضح! ومع ذلك فلا بد وأن تجد له تخريجا وتأويلا لاهوتيا فلسفيا عند القوم إن طلبته، حتىٰ تظل تلك الواقعة تأتي بأكلها وثمرها المطلوب من «ترسيخ الإيمان» في نفوس العامة والبسطاء كلما طرقت مسامعهم.

والقصد أن شياطين الجن لا تدعوهم بشيء من تلك الألعاب كما هو ظاهر (بداية مما رآه بولس نفسه بعد رفع المسيح) إلا إلىٰ الشرك وعبادة مخلوقات الله من دونه تبارك وتعالىٰ لا محالة، وما كانت لتأتيهم يوما ما بدعوة التوحيد الحق الخالص لله وحده لا شريك له[1].

---

(١) وأغلب الظن عندنا – والله أعلم بالصواب – أن ما رآه «بولس» من ظهور للمسيح (أو سماع لصوته) فيما يزعم، وما وجد من تلبس عقل المسيح بعقله هو وفكره ونحو ذلك مما تكلم به (كما تجده في رسائل بولس إلى أتباعه في العهد الجديد)، إنما هو – إن صح – من عمل شيطان مارد، قد وجد الرجل فيه متكأ نفسيا لإشباع رغبته في التصدر بين الناس، وفي أن يكون نبيا ورأسا من رؤوس الدين. فإن كان المجد الدنيوي لن يحصل له من محاربة أتباع المسيح عليه السلام من الحواريين الصادقين الموحدين ومداعبة سلطان اليهود في ذلك، كما كان يسعى به فيهم قبل رفع المسيح، فليحصل إذن من طريق التنبي وتحقيق الزعامة الدينية بين من تابعه من المنافقين وأهل الزيغ والميول الوثنية في المقابل! ومن هنا تدخل شياطين الإنس والجن لتزين على الإنسان مسعاه من حيث يحسب أنه يحسن صنعا. ومما يذكر في هذا السياق، أن هذا المثال التاريخي تحديدا هو أشهر أمثلة النفسانيين المتخصصين فيما يقال له «علم نفس الدين»

فإذا ما غلب داعي الهوىٰ والحب الجارف في نفس الإنسان إلىٰ تصديق ما يرىٰ من مثل ذلك، فلن يصده عنه ما في باطن نفسه من نداء الفطرة ببطلان الشرك وفساده، ولن يعلو في وعيه صوت فوق صوت تلك المحبة العصبية التي يتنعم بها وبأثرها في وسطه الاجتماعي ولا يتصور طرفة عين أن ينخلع منها أو يزول عنها يوما ما.

ويقول النصارىٰ إن تلك النار المقدسة هي في الحقيقة أنوار وليست نيران، لأنهم إن وضعوا أيديهم فيها لم تحرقهم. والحق أن ظاهرة النار غير المحرقة أو «النور الشيطاني» هذه ظاهرة موجودة عند غير واحد من الملل والمذاهب. وقد لعبت الشياطين بها علىٰ أمم وملل شتىٰ وأضلت بها الكثيرين. وقد شاهدتها ذات يوم في تسجيل فيديو «لحضرة» من الحضرات التي يتعبد فيها غلاة المتصوفة علىٰ الطريقة الرفاعية بالطبل والغناء والزار والرقص. شاهدت امرأة تضع يدها في شعلة النار وهي تتمايل علىٰ الطبول وتمرر تلك الشعلة علىٰ جسدها وملابسها ووجهها ولا تحترق ولا تشعر بشيء علىٰ الإطلاق. رأيت ذلك بعيني في مقطع فيديو لا تظهر عليه علامات الخداع أو التلاعب التقني، وهي بعينها نفس تلك الظاهرة التي رأيت تصويرا وثائقيا لها أيضا (فيديو من أحد المواقع علىٰ الشبكة) عند النصارىٰ في كنيسة القيامة. فإن جعل أحد الفريقين ما شاهدوه من تلك الأحوال في الفيديو دليلا لهم، فماذا عساهم أن يصنعوا بما عند الفريق الآخر من مثل ذلك؟ وأنىٰ لهم الترجيح إن طلبوه؟

ونقول إن بعض أهل العلم ينسبون تلك الأمور إلىٰ السحر، فيقولون إن دخول الرجل في النار وعدم تأثيرها عليه إنما يكون سحرا يسحر به الرجل أعين الناس، وليس ثم نار علىٰ الحقيقة. وأقول لعله من جنس ذلك ولا إشكال، ولكن هذا إن كان الرجل متعمدا أن يسحر أعين الناس وهو يعلم أنه ساحر أفاك، ولكن أغلب الظن أن هذا الذي

لما يسمونه بالتلبس الإيجابي Positive Possession! (ماكنمارا، ٢٠١١) إذ ينظرون إلى ما جاء به من ثمرة «إيجابية» في نفس بولس لا توصف عندهم بالإيجابية إلا من تصريح الرجل برضاه عنها وعن نواتجها في حياته، ورضا مجتمعه المحيط من أتباعه وغيرهم بتلك الثمرة! فهم يقسمون وقائع التلبس فيما يزعمه أصحابها أو ما يظهر من أحوالهم إلى قسمين، إيجابي وسلبي، وسيأتي تناول معيارية الحكم بالإيجابية والسلبية عند هؤلاء في باب لاحق من أبواب هذا الكتاب.

يقع عند هؤلاء، ليس سحرا من عمل ذلك القس أو ذلك الشيخ الصوفي، وإن كان أشبه ما يكون به، وإنما هو في الأغلب لعبة شيطانية تحقق الإيهام البصري لكل من يراها، بداية من ذلك المفتون الذي وقعت تلك اللعبة علىٰ يديه.

وحيلة النار غير المحرقة (صورة النار فقط وليس نارا حقيقية) هذه ليست مما يصعب علىٰ الشياطين اصطناعه، في ضوء ما قدمنا به بحثنا من بيان لقدراتهم، والشياطين يلعبون بالأنوار ويجيدون تلك اللعبة ولهم فيها باع طويل. فليس بغريب أن يخرجوا علىٰ الناس ما يظهر أنه شعلة نار وما هو في الحقيقة إلا نور من أنوارهم الشيطانية يظهر في صورة النار، والله تعالىٰ أعلىٰ أعلم وهو وحده المستعان عليهم وعلىٰ ما يعملون.

وعند التأمل ترىٰ أن أكثر الملل النصرانية (أو الطوائف) تقيم وزنا عظيما لتلك الخوارق. فعند الروم الكاثوليك، لا ترقي الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان رجلا إلىٰ مرتبة (القديسية) إلا إن ثبت له واحد من أمرين رئيسين: أنه مات في سبيل المسيح، أو أنه كانت له «معجزات» ثبتت له بعد موته (وتأمل: بعد موته!)، فحينئذ وحينئذ فقط، يرفع إلىٰ منزلة الإله المعبود المقصود من دون الله جل وعلا، ولعله أن تبنىٰ فوق جثمانه كنيسة تسمىٰ باسمه لذلك الغرض. ولدىٰ الكنيسة الفاتيكانية جهاز مباحث مخصوص للتحري خلف من يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم تلك الأحوال الخارقة للعادة، فإن ثبت شيء منها، اتخذوه مستندا لرفع صاحبها لتلك المنزلة عندهم. وقد قامت الكنيسة الرومية قبل سنوات بتأليه الأخت تيريزا الشهيرة واتخذتها قديسة، كما ثبت عندهم أيضا وفيما تناقلته وكالات أنبائهم أن راهبة كانت مصابة بمرض الباركينسون، دعت وتضرعت للبابا الميت يوحنا بولس الثاني فشفيت تماما وزال عنها المرض (وهو نفس المرض الذي كان يعاني منه هو نفسه في حياته!!)، فكان ذلك هو أول إشارة لبدء البحث والفحص في سبيل اتخاذه قديسا مألوها معبودا من دون الله هو الآخر! والقائمة تطول وتأليه البشر أمر ماض فيهم إلىٰ أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

يوحي الشيطان إلىٰ بعضهم بالغلو في ميت من الموتىٰ من أحبارهم أو صالحيهم، ويزين لهم أن يستغيثوا به وأن يدعوه من دون الله، فإذا دعوه واستشفوه وسألوه

حوائجهم، أظهر لهم من المخاريق ما يصيِّر تأليهه وعبادته من دون الله أمرا دينيا قانونيا، يتخذ له رؤوس الملة من أجله معبدا خاصا من أجل أن يعبده الناس فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والحق أن ما يصنعه رؤوس الكاثوليك في الفاتيكان من هذا الذي ذكرنا، لا يختلف كثيرا عما يصنعه الصوفيون القبوريون من تقرير المراتب والدرجات والطبقات للأموات واعتقاد النفع والضرر فيهم، ومن بناء الأضرحة والمساجد فوق قبورهم واتخاذ الأعياد والموالد لهم. فهو ذات الغلو علىٰ أي حال، وهي نفس الحيلة الشيطانية الخبيثة في مخادعة النفس وإسكات صوت الفطرة فيها. وكما أن الولي عند القبوريين من كانت له كرامة مشهودة، فكذا القديس عند الكاثوليك من كانت له معجزة ثابتة موثقة. وبقدر الخوارق تكون الطبقات والمنازل والرتب التي ينزلها القوم آلهتهم المقبورة، والله المستعان!

ولأنهم يتخذون بعضهم بعضا أربابا ويغلون في تقديس وتزكية بعضهم البعض ويخترعون القواعد الكنسية والقوانين الكهنوتية المعقدة في تلك الأمور، فإن الشياطين تلعب معهم في ملعبهم. فهم يشترطون أن تكون للشخص «معجزة» ما كأن يعالج الناس في حياته بالصلاة من أجلهم، ليس ذلك فحسب، وإنما يجب أن يكون لذلك الرجل معجزات علاج بعد موته (معجزتان ثابتتان علىٰ الأقل في ذلك). بمعنىٰ أنه إن استنجد به أحد من المرضىٰ أو من غيرهم ودعاه بعد موته، فشفي بسبب ذلك بعد رؤيته في المنام أو بعد أن يظهر له في اليقظة أو نحو ذلك، فكل ما يلزم لرفع ذلك الرجل المستنجد به حينئذ إلىٰ مرتبة القديسية (أي الألوهية) هو أن يتحقق اثبات أن المريض قد استعان به حقيقة، وأنه قد شفي حقيقة، وأن سبب الشفاء خارج عن أي علاج طبي من أي نوع. بذلك يتثبتون – ولا حول ولا قوة إلا بالله – من أن ذلك الرجل الميت المراد اتخاذه قديسا، قادر علىٰ إجابة دعاء من يدعوه بعد موته، وأن يحقق للداعي رجاءه بصورة خارقة للعادة! فيثبتونه حينئذ قديسا ليتخذه الناس إلها شريكا في خصال الربوبية، يُعبد ويرجىٰ ويدعىٰ من دون الله. ويتم ذلك من خلال مراسم وإجراءات طويلة من خطوات ومراحل تصل إلىٰ العشرين مرحلة! ويصدر البابا في الفاتيكان حينئذ بيانا رسميا يأمر فيه أهل منطقته بعبادة ذلك القديس ودعائه عند الحوائج! وتقام له كنيسة مخصوصة

يعبد فيها هو بالذات، إلىٰ جانب الأب والابن (وأمه) والروح القدس. ويتخذ له تماثيل وصور وأيقونات وترفع له الصلوات والترانيم في تلك الكنيسة.

فيقينًا ليس من يظهر في المنام أو في اليقظة أو يعالج المرض أو أي شيء من نحو ذلك عند هؤلاء (إن صح ادعاؤهم به)، إلا شيطانا ماردا يريد أن يغرقهم في شركهم إغراقا، ويزيدهم تعبدا في بعضهم البعض، ودعاء لموتاهم من دون الله. ولك أن تقارن ذلك بما يقوله بعض غلاة الطرق الصوفية من أنه ليس الولي إلا من مات، وهو يجيب الدعاء ويشفي المرضىٰ وغير ذلك من صور الشرك في صفات الله. فهو يرقىٰ في طبقاتهم (كما في رتب الكنيسة) ولا يعتبر وليا في الغالب إلا إن ثبت له أن من استغاث به في الغيب أو بعد موته أجابه، وإذن تراهم يتخذون من قبره ضريحا أو مقاما أو مشهدا (كما يتخذ النصارىٰ للقديس كنيسة)، وكثيرا ما يثبت أن الضريح ليس فيه في الحقيقة إلا جيفة دابة كحمار أو رأس بغل أو نحو ذلك أو ليس فيه شيء مدفون أصلا، وإنما كان الأمر كله لعبا في لعب واستهزاء من الغزاة المستعمرين بجهالة الجاهلين من عامة المتصوفة! وكثيرا ما يستغيث المساكين ببئر مثلا يعتقدون أن فلانا قد شرب منه، أو بشجرة يعتقدون أن وليا كان يحب أن يستظل بها، أو نحو ذلك، لما يشيع بينهم من أنها تشفي العلل أو أن «سرها باتع» كما تقوله العامة!

والأصل الشيطاني واللعبة واحدة في كل الأحوال وسبحان الله العظيم.

والقديس تقام من أجله كنيسة لا تقام إلا ليُعبد فيها ذلك القديس بالذات من دون الله، يقدس فيها هو والثالوث (وذاك ما يسمونه بالقدّاس) فتكون الصلاة في أولها تقديس للقديس صاحب الكنيسة، يخاطبونه كما يخاطب الموحدون الرب سبحانه، يذكرون محامده ويثنون عليه ويصفونه بالقدرة والإعجاز وغير ذلك، ثم يقدسون «الآب» إجمالا أو المسيح أو كليهما معا علىٰ اعتبار اشتراكهما في الأصل اللاهوتي (كل ملة أو طائفة بحسب معتقدها في تلك القضية)، ويطلب من المسيح المغفرة والرضوان والرحمة والرزق وغير ذلك إجمالا أيضا، ثم يتضرعون لمريم العذراء كذلك ويطلب منها أن تتوسط هي الأخرىٰ وأن تصلىٰ وتبكي من أجل الرعايا (لذلك فكثيرا ما تجيبهم

الشياطين بإنزال «الدموع» علىٰ تماثيل العذراء في كنائسهم ليلبسوا عليهم أن صلواتهم قد أجيبت!). ثم يتلىٰ دعاء للأب مع الابن مع الروح القدس ثلاثتهم معا. وتختلف تلك العناصر في القداس في الترتيب والصيغ المتلوة من كنيسة إلىٰ أخرىٰ ومن بلد إلىٰ آخر ومن ملة إلىٰ أخرىٰ تحت لواء ملل الكاثوليك والأرثوذكس المتكاثرة.

وعلىٰ أي حال فإنه لا تثبت قديسية الرجل عندهم إلا بوقوع خارق شيطاني (معجزة علىٰ حد اصطلاحهم) ينسب إليه بعد مماته، ليكون عندهم دليلا علىٰ أن روح الرجل مع يسوع في السماء وهي تسمع وتجيب الدعاء. وليس الأمر يقف عند هذا الحد، بل إنه من المعلوم أن الراهب أو الشماس في الكنيسة الأرثوذكسية لا يترقي إلىٰ درجة كهنوتية أرفع من درجته إلا بعد أن يقضي خلوة (توحد) في غرفة مظلمة في مكان معزول لمدة أربعين يوما. وكثيرا ما يروىٰ عن القساوسة بعد خروجهم من تلك الخلوات أنهم قد تعرضوا لظهورات وتجليات للرب يسوع في زعمهم، وأنه قد أخذ منهم موثقا وعهدا أو نحوا من ذلك! فحتىٰ الترقي من درجة إلىٰ أخرىٰ، لا يكون إلا بتجديد المواثيق مع مردة الجن والشياطين، وهم يحسبون أن ذلك هو الرب يتجسد لهم!

هذا عند ملل الكاثوليك والأرثوذكس. وفي المقابل فإن البروتستانت (إحدىٰ الفرق الثلاثة الكبرىٰ عند النصارىٰ)، الذين ظهرت ملتهم بعد حركة الإصلاح الكنسي في القرن السادس عشر الميلادي علىٰ يد القس مارتن لوثر، استشعروا مدىٰ ما عند الكنيسة الكاثوليكية من مخالفة لكثير من نصوص كتبهم، ومن ممارسات لا يجدون عليها برهانا في شيء من الكتب المقدسة عندهم، وتأليه ووساطة إجرائية معقدة لرجال الكهنوت بين الناس وبين الغفران السماوي. فأرادوا قصر مصادر التلقي الديني عندهم علىٰ الكتب الأربعة فقط (ومن ثم سميت طائفة منهم بالإنجيليين) وتلك الكتب هي ذاتها نفس الكتب التي اختارها الكاثوليك من قبل وجمعوها فيما أسموه بالكتاب المقدس!

فهي ثورة عقدية تشريعية علىٰ الكنيسة الرومية بالأساس. فكلمة (بروتست) تعني الرفض باللاتينية والإنكليزية. إذ رأوا دور الكنيسة المتسلط ودور البابا الكبير فيها وقد

خرج عن أي دليل أو برهان من النص الموروث. ورأوا الدرجة التي وصل إليها تعويل الكاثوليك على الخوارق واعتمادهم عليها، فأنكروها كلها جملة واحدة - والغلو في النقيض هو مذهب الجهلاء عموما في رد ما يخالف هواهم أيا ما كانت ملتهم - ووصفوها جميعا بالخرافات والأوهام ونحو ذلك. ومهما حاول بعض الكاثوليك أن يثبتوا لهم وقوع بعض تلك الخوارق حقيقة بدليل مادي، فإن البروتستانت يجدون لحجتهم مخرجا. فأعراض ما يسمى بـ«العلاج الإيماني الإعجازي» مثلا عند الكاثوليك والأرثوذكس الذي لا يتحقق إلا بالتوسل والدعاء لقديس واحد من القديسين على الأقل، ينكره ويكذبه البروتستانت إذ لا يجدون نصا عليه، وينسبون ما سجل ووثق من حالات العلاج الخارق للعادة إلى الصدفة أو إلى العلاج بالإيحاء، أو إلى كون الأمراض التي عولج منها هؤلاء الناس كانت في الأصل سايكوسوماتية (نفسية) ولم تكن عضوية، وغير ذلك من التفاسير والاحتمالات التي قد تكون هي الحق بالفعل في كثير من الحالات. مع أنهم يقولون بالعلاج الإيماني باسم المسيح، ويصلون ويبتهلون في كنائسهم للمسيح ليكون هو من يأتيهم بالشفاء، ويؤمنون بأن ذلك يقع حقا، ولهم في ذلك قصص مشهورة وقسس (أو بالأحرى: وُعاظ Pastors) متخصصون فيه، معروفون به إعلاميا، لا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية، فهو عندهم شرك ووثنية مذمومة إن توجه الطالب به إلى قديس مقبور أو إلى مريم العذراء كما عند الطوائف الأخرى، ولا يكون شركا إن توجه به طالبه إلى المسيح ابن مريم من دون الله كما يصنعون! فسبحان الله وتعالى عما يصفون!

ونقول، لربما وقع عارض خارق واحد في بلدة من البلدان فإذا بالبلدة تعج بالقصص المكذوب عن تكرار ذلك الخارق هنا وهناك عند غير واحد من أهلها، ولا تخلو تلك القصص من مبالغات وتضخيمات وغير ذلك! فهكذا الإنسان إن لم يتعلم كيف يخشى الله الواحد الأحد من فوق سبع سماوات، فإنه لا يستفظع ولا يستشنع نشر الشائعات والأكاذيب وتعمد تحريف القصص وتضخيمها والمغالاة فيها لخدمة هوى في نفسه. فبمثل هذا حرفت ديانات ورسالات، ولمثل هذا افتري على الله الكذب في كل زمان وبين أكثر أهل الأرض، ولمثله قتل أنبياء وذبحوا! فلعل كثيرا من قصص ذلك

العلاج مكذوب بالفعل، ولكن الحق أنه لا يبعد أن يكون بعضها قد وقع تحقيقا كما يصفون: استغاثوا بمعبودهم من دون الله، فشفوا وبرؤوا!

والبروتستانت ينكرون وقوع التلبس الشيطاني أو وجود نشاط خارق للعادة من أي نوع في زماننا، سواء علىٰ يد لاهوت السماء أو أي مخلوق كان، ويقولون إن الشياطين كانت تتلبس البشر في القرن الأول في زمان الحواريين فقط، الذي يسمونه بـ«زمان المعجزات» – وهو الاصطلاح الذي شاع بين الكتاب والروائيين في ظل الفلسفة المادية[١] – لا لشيء إلا ليأتي المسيح وتلامذته فيخرجوا تلك الشياطين ويطردوهم باسم المسيح ليرىٰ الناس – وفق عقيدة هؤلاء – ما تحقق في المسيح من قوة وقدرة وملكوت علىٰ الأرض والسماوات بما فيها علىٰ عالم الأرواح! فهم إذ يرون ذلك، ويجدون في نصوصهم ما يفسرونه علىٰ ذلك النحو، يرون أن الغرض من تلبس الشياطين وتدخل الشياطين في حياة الناس بخوارق أيا ما كان نوعها إنما هو غرض انتهىٰ بقيامة المسيح علىٰ قولهم، والزعم بوجود تلبسات في هذا الزمان إنما هو كذب عندهم، يخالف الحكمة التي تصوروها من وجود تلك الأرواح الشريرة بيننا بالأساس، أيا ما كان القول في مصدرها الذي جاءت منه في الأصل.

ولذلك فهم يستنكرون عملية علاج المتلبسين من التلبس (الموجودة عند أصحاب الملل الكتابية جميعا بصور مختلفة) علىٰ إطلاقها ويعتبرون قضية التلبس هذه ضربا من الدجل والخرافة. وهم إذ حرفوا وضيعوا كلام الله المنزل كما فعل خصومهم، أضاعوا العلم بوجود الجن وبعملهم وبأنهم كائنات مكلفة تعيش علىٰ الأرض بيننا في غيب عنا، منهم الصالحون ومنهم الفسدة والكافرون، فوقعوا في لبس كبير من أمرهم، وفي ضلال بعيد في هذا الجانب كما في غيره واختلفوا فيه كما في غيره اختلافا كثيرا.

---

(١) ومنه بالمناسبة ترديد الجهلاء من مثقفينا مقولة إن «زمان المعجزات قد ولى»، لا ينتبهون غالبا إلى أن المقصود بذلك مطلق وقوع خوارق العادات (بما فيها مس الشيطان والسحر وكرامات الصالحين وخوارق الشياطين ونحو ذلك مما يؤمن به المسلمون من أمور فائقة للعادة، جاء الكتاب والسنة بإثباتها، ولا تزال تقع إلى قيام الساعة).

ويستنكر الكاثوليك وكذا الأرثوذكس ما ذهب إليه البروتستانت من محاولة لصرف الناس عن التعبد للأنبياء والقديسين، ودعوتهم إلىٰ تخصيص المسيح فقط بذلك. فهم – أي البروتستانت – ظنوا أنهم يدعون إلىٰ التوحيد الأصلي الذي جاء به المسيح، فدعوا الناس إلىٰ أن يعبدوا إلها واحدا فقط (المسيح) بدلا من أن يشركوا أمما من البشر لا أول لها ولا أخر بالرب (الذي هو عندهم المسيح) في عبادتهم وصلواتهم وشعائرهم! فهي دعوة إلىٰ شرك رجل واحد فقط بالله بدلا من شرك آحاد من الناس كثيرين. فرد الكاثوليك عليهم دعوتهم بنص من نصوص كتبهم المحرفة، إذ يقولون بأن يسوع المسيح بنفسه صلىٰ لموسىٰ والنبي إيليا عندما تجلىٰ علىٰ الجبل أمام بطرس ويعقوب ويوحنَّا (متىٰ ١٧؛ ١–٨): «وبعد ستة أيام مضىٰ يسوعُ ببطرس ويعقوب وأخيه يوحنَّا، فانفرد بهم علىٰ جبلٍ عالٍ وتجلَّىٰ كالشمس، وتلألأت ثيابه كالنور. وإذا موسىٰ وإيليا قد تراءيا لهم يكلمانه فخاطب بطرس يسوعَ قال: (يا ربّ حسنٌ أن نكون ههُنا. فإن شئت، نصبت ههُنا ثلاث خيم: واحدة لك وواحدة لموسىٰ وواحدة لأيليا).»

وهذا النص بذلك المعنىٰ إنما هو تكريس ظاهر لشرك الناس بعضهم ببعض ونسبة ذلك إلىٰ أنبياء الله الأطهار والله المستعان علىٰ ما يصفون. وإنه لمن الطبيعىٰ أن تجد عند كل ملة من الملل النصرانية نصوصا يستدلون بها (سواء لفسادها أو فساد تأويلهم لها) علىٰ مذهبهم، ويردها ويقابلها عند خصومهم نصوص أخرىٰ مخالفة تماما يستدل بها الأخرون علىٰ بطلان ذلك المذهب. ولا شك أنه إن كان ثمة «فهم سلفي» للنص النصراني الموروث (الذي اتفقت عليه سائر الطوائف النصرانية في مادة الكتب الأربعة) فإنما هو ما عند الكاثوليك والأرثوذكس وآباء الكنيسة الأوائل، وليس ما جاء به البروتستانت في القرون المتأخرة (وإن كان هو الأقرب إلىٰ ملة التوحيد التي كان عليها المسيح إجمالا، ولا شك)! فإن هذه النصوص لم تجمع أصلا ولم توصف بالكتاب المقدس إلا تأسيسا علىٰ ذلك الفهم الكاثوليكي والأرثوذكسي الذي اعتمده قسطنطين في القرن الرابع الميلادي علىٰ أنه هو الملة النصرانية، فلما ظهرت تلك الحركة الإصلاحية، لم تزد الملل النصرانية إلا تفرقا وتشعبا واختلافا في الحقيقة. وقد قرأت في مقال لكاتب كاثوليكي لا يحضرني اسمه أنه بسبب تلك الحركة الثورية الدينية

في القرن السادس عشر الميلادي، صارت بلد كأمريكا مثلا يوجد فيها وحدها حوالي ٢٧ ألف كنيسة ليس منها اثنتان على النحلة نفسها! وعلى الرغم من أن هذا القول لسنا نتيقن من صحته والعهدة فيه على من قاله، إلا أنه ليس بمستبعد على أي حال.

والكاثوليك والأرثوذكس لا يكتفون بالكتب الأربعة وإنما يعتبرون إرث الكنيسة في قوانينها وأحكامها شرعا ملزما وإن لم يكن له مرجع أو سند في أي من تلك الكتب نفسها. فهم يعتقدون –لا سيما الأرثوذكس الشرقيون – أن الآباء الأوائل للكنيسة (فيما يسمونه بالعهد الرسولي) كانوا على اتصال من نوع خاص مع الروح القدس فكأن كلامهم وأحكامهم الموروثة عنهم ترقى إلى مرتبة الوحي. وهم يحذون بذلك حذو اليهود في شأن ما يسمى عندهم بقوانين الحاخامات وكتب التلمود. وقد وقعوا في عين ما أتى المسيح لينهى بني إسرائيل عنه، فاتخذوا الأحبار أربابا تماما كما صنع اليهود بأحبارهم من قبل، إذ أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال كما صنعه الحاخامات الكبار!

وليس أدل على ذلك الاحتكام لغير نصوص الكتب عندهم، من إصرار تلك الكنائس (الكاثوليك والأرثوذكس) على اتهام طائفة كالأريوسية مثلا بالبدعية والهرطقة والكفر، على الرغم من حقيقة أنهم كانوا سابقين في وجودهم على اعتماد نظرية الثالوث في عام ٣٢٥ الميلادية في مجمع نيقوسيا (نيقيا) كعقيدة ملزمة لجميع الكنائس. بل هم الأصل لأنهم كان فيهم بقية مما كان عليه أتباع المسيح الحقيقيون! فقد كان هناك قبل ذلك المجمع فرق شتى، لا سلطان لأي منها على الأخرى، بعضها قريب من دين المسيح وبعضها أقرب إلى الديانات الوثنية، وكان الأريوسيون (أو «الأريسيون» كما جاء في لفظ رسول الله ﷺ) من الطوائف التي حاربها الرومان، التي تمسكت بأنه لا دليل على التثليث ولا التأليه في كتب النصارى الأربعة، وقد صدقوا في ذلك قطعا! ولكن جاء القرار في ذلك المجمع قرارا سياسيا سياديا من سلطة روما تحت الإمبراطور الوثني قسطنطين، فألزم الكنائس جميعا بعقيدة التثليث، وجعلها الملة الرسمية للدولة، وحارب كل ما عداها! ولو أن ذلك المجمع أقر عقيدة التوحيد

أو نفي ألوهية عيسىٰ يومئذ بدلا من اعتماد عقيدة الثالوث، لكان الثالوثيون اليوم هم القلة المبتدعة المهرطقة المستهجنة من قبل الكنائس الكبرىٰ. ولكن كلما كانت الطائفة أقرب إلىٰ ملل الوثنيين، كان أسهل علىٰ روما أن تدخل بها مزيدا من شعوب الوثنيين تحت إمرة كنيستها وتبتلعهم ابتلاعا. ولولا قرب ملة بولس الشديد من وثنية روما، وقيامها علىٰ فكرة الخلاص العالمية للبشر جميعا، وفكرة السلطان الرباني الدائم لقيادة الكنيسة علىٰ الشعوب، وأفكار أخرىٰ تخدم مطامع روما التوسعية، لولا ذلك لما قبلها أباطرة روما ولما تحولوا إليها.

ومما يثبت أن صراع كنيسة روما في بدايته لم يكن إلا صراعا سياسيا متدثرا بدثار الدين، قيام كنيسة روما باضطهاد سائر الطوائف الأخرىٰ حتىٰ القريبة إلىٰ عقيدتها كطوائف الأرثوذكس القبطية التي كانت أشد الطوائف تمسكا بعقيدة الثالوث! وظل نصارىٰ القبط المصري مطاردين هاربين في بطون الجبال تحت سطوة وجبروت كنيسة روما إلىٰ أن أذن الله بفتح مصر علىٰ يد عمرو بن العاص ﵁ بعد قرابة ثلاثة قرون من تاريخ مجمع نيقوسيا المشؤوم، فأخرجهم من مخابئهم وأمنهم علىٰ كنائسهم وأديرتهم وصوامعهم ورفع عنهم اضطهاد الروم، ولا يزالون في أمان علىٰ دمائهم وأموالهم في بلاد المسلمين ببركة ما بقي في أهل مصر من استقامة علىٰ شريعة رب العالمين.

ونذكر في هذا السياق ما يسمىٰ (بالتكلم بالألسنة) عند بعض طوائف البروتستانت. ففي طوائفهم طائفة تسمىٰ بالخمسينيين Pentecostals، وهؤلاء يتعلقون بقصة مذكورة في كتب النصارىٰ يزعم راويها أن الحواريين اجتمعوا ذات ليلة في بيت المقدس، بعد مضي خمسين ليلة علىٰ القيامة المزعومة للمسيح ﵇، وبينا هم جلوس مجتمعون ببعض العوام، إذ نزلت عليهم من السماء ريح خاطفة، وألسنة من نور كأنها ألسنة لهب، ودخلت إلىٰ جسد كل واحد من التلاميذ، فإذا بهم يتكلمون بكلام لا يفهمونه، وإذا بالحضور جميعا يفهمون ذلك الكلام، علىٰ اختلاف لغاتهم وألسنتهم، كما جاء في بعض نصوص كتبهم.

ويرىٰ اللاهوتيون والفلاسفة من أحبار سائر الملل النصرانية أن هذا الحدث هو تأويل لنبوءة جاءت في كتبهم منسوبة لنبي الله يحيىٰ عليه السلام بما معناه أن لحم المسيح ودمه سيفيض علىٰ البشر! فيرونه دليلا علىٰ أن الملة النصرانية قد أراد الله لها أن تكون خلاصا للعالم أجمع لا لأمة بعينها. وكذلك فإنهم يعدون ذلك الحادث المزعوم بمنزلة عملية معادلة لما روي في كتبهم أيضا في سفر التكوين من أنه وقع عند برج بابل من بلبلة ربانية لألسنة البشر ونزول اللغات المختلفة علىٰ البشرية وتفرقها بها. [1]

---

(١) ونحن نقول إننا لا نكذب ولا نصدق قصة برج بابل هذه على إجمالها، والله أعلم بصحتها. ومع هذا نقول إنه ليس ببعيد أن يكون قد حل عذاب من الله على قوم من الأقوام، استكبروا في الأرض وأرادوا أن يبنوا برجا عملاقا يريدون به بلوغ السماوات، فأنزل الله عليهم عقابا على الكيفية التي تليق بذات الله وعظمته، كما أنزل على قوم عاد وثمود وغيرهما، بل وكما أنزل على فرعون الذي أمر هامان ببناء برج يرقى عليه إلى السماء هو الآخر كما نص القرآن. فليس ببعيد أن يهدم الله عليهم برجهم هذا ويشتتهم في الأرض تشتيتا وأن يضرب على ألسنتهم شتات اللغة واللسان، وعلى أبدانهم وأنفسهم شتات السكنى والأوطان، ويجعل في ذلك الحادث العظيم عبرة وتخويفا لنبي إسرائيل (لا سيما وقد ابتلاهم الله بالشتات مرارا لاستكبارهم عليه وعلى أنبيائه) ويجعل فيه كذلك سببا كونيا لأمور أخرى تقتضيها حكمته تبارك وتعالى، والله أعلم.

وكما هي حال أكثر قصص وروايات أهل الكتاب، لم تسلم تلك القصة من تضارب في مصادرها. فوردت القصة في التوارة المحرفة في سياق يفهم منه أن الأرض جميعا كانت قبل ذلك الحادث أمة واحدة بلسان واحد، وهو ما يرجع بها إلى سياق تاريخي يرتبط بزمان نوح عليه السلام وذريته وأتباعه الذين انتشروا في الأرض وعمروها من بعد الطوفان. ولكن قصة ذلك البرج وملابسات بنائه ارتبطت أيضا في بعض النصوص بزمن النمرود! فقد صرحت نصوص في كتب النصارى وكتب اليهود بأن القوم هموا ببناء البرج ليحاربوا به الرب ويعلنوا ثورتهم على استئثاره بملكوت السماء، فأنذرهم وحذرهم نبي الله إبراهيم – على حسب ما جاء في نصوصهم – الذي كان معاصرا لمملكة النمرود، ودعاهم للتوبة والإيمان بالله ولكنهم علوا واستكبروا فنالهم جزاء عملهم. والناس في زمان إبراهيم كما ذكر المؤرخون لم يكونوا أمة واحدة ولا على لسان واحد ولكن كانوا أمما في شتى أقطار الأرض.

وقضية أصل اللغات هذه اختلف فيها الفلاسفة والحكماء قديما وحديثا واتخذ الكثيرون منهم من تلك القصة جوابا حاسما لها وأنكرها آخرون. ولا نلتفت لشيء من ذلك فالله كما ذكر في القرآن علم آدم عليه السلام الأسماء كلها (وهي أول لغة بشرية موحدة في المجتمع البشري) ثم راح البشر بما آتاهم الله من قدرات يصطنعون أسماء جديدة لأمور جديدة من اختراعهم، أو غاب علمهم بها من قبل أن يكتشفوها، أو تحورت مسميات الأشياء. وبمضي القرون تفرق البشر من بعد نوح، ومن الطبيعي أن تتغير أجناسهم وصفاتهم الوراثية بأثر البيئة المتفاوتة بين أقصى الأرض وأدناها وبين المشرق والمغرب فيها. ومن الطبيعي أيضا أن تتغير اللغات واللهجات وتتشعب وتتفرع وتتلاقح كما هو حال العقائد والملل وكما هو حال الثقافات والأفكار وهي سنة ماضية في بني آدم إلى قيام الساعة، ابتلاءً لهم جميعا ببعضهم البعض كما نص القرآن. ولا حاجة

وعلىٰ أي حال فمسألة (معجزة الألسنة) هذه، لم تأتنا نصوص صحيحة تذكرها. ولكن المعنىٰ الذي استنبطه علماء اللاهوت النصراني منها بناء علىٰ نصوص أخرىٰ في كتبهم علىٰ أنها تحقيق لنبوءة ونحو ذلك، وصولا بها إلىٰ كونها من الأدلة علىٰ أن دين المسيح هو دين عالمي خوطب به البشر جميعا من كل جنس ولسان، هذا الكلام يبعث علىٰ الطعن في صحتها. بل نقول إنه إن كان المسيح عليه السلام لم يكلف إلا بدعوة بني إسرائيل لإصلاح دينهم، ولم يؤمر بنشر رسالته في الأرض ولا بتعلم ألسنة الأمم الأخرىٰ، فكيف بتلاميذه من بعده؟ فالذي يظهر والله أعلم أن القصة بأكملها مكذوبة علىٰ الحواريين والتلاميذ.

والذي يعنينا من ذلك الأمر كله، هو ما اتخذه نصارىٰ البروتستانت من متمسك في تلك القصة بمعان باطلة وعقائد فاسدة تتعلق بالروح القدس. فهم لكثير من النصوص المحرفة عندهم يرون الروح القدس جزءا من الله أو كيانا مرتبطا به نابعا منه. ويعتقدون أن المسيح جعله في الكنيسة وفي شعب الكنيسة من بعده معينا ومعزيا وناصرا (كما في سفر يوحنا ١٤: ١٦، ٢٦، ١٥: ٢٦، ١٦: ٧). وفي عقيدة الثالوث وقع الخلاف بين الكنيسة الكاثوليكية وبين الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية في متعلق تلك الروح ومنبعها، فالكاثوليك يرونها تنبع من (الآب والابن معا) والأرثوذكس يرونها تنبع من (الآب) فقط. ولكنهم جميعا متفقون علىٰ أن للروح القدس عملا لم يقتصر علىٰ زمان النبوة، فهو يغير في البشر، ويغير في حياتهم وقلوبهم، ولم يزل. فبما أنهم يعتقدونه جزءا من الله، فإن ذلك أصبح يسوغ لهم أن ينسبوا إليه كثيرا من صفات الله في ربوبيته وسلطانه

بنا لمعرفة الكيفية التي صارت بها اللغات في الأرض إلى ما هي عليه اليوم تفرعا وتشعبا من اللسان الآدمي الأول، فهو أمر غيبي، ولو كان فيه علم ينفعنا معاشر البشر، لما تركه الله لافتراضات الفلاسفة وأوهامهم ولأوحى في أمره بشيء إلى خاتم النبيين ﷺ. أما قضية برج بابل هذه فالله أعلم بها، وعلى فرض صحتها فلا تكون بالضرورة تفسيرا لمطلق الاختلاف والتنوع في ألسنة بني آدم على النحو الذي نراه اليوم، وإنما إن صحت فلربما كانت إيذانا من الله بغرس مزيد من اللغات والألسنة الجديدة في الأرض لمزيد من الابتلاء لسائر البشر، حتى تنتشر تلك اللغات وتظهر تلك الفوارق الجذرية العميقة بين اللغات حتى رأينا ذلك الفارق المذهل بين لغات كلغة الصين ومنغوليا ولغات أوروبا وشمال إفريقيا مثلا. وقد تكون هي بالفعل منبع اللغات جميعا (خلا العربية) في ولد نوح فلم تفترق ألسنة البشر على لغات عدة بخلاف لغة أبيهم إلا في تلك الواقعة، والله أعلم!

علىٰ العباد وتسييره للكون من حولهم. وقد تقلبت بهم أفهامهم وتباينوا كثيرا في عقائدهم حول حدود تلك الأعمال التي يحدثها (الروح القدس).

فهم يعتقدون أن الروح القدس يغرس في قلوب المؤمنين معان وقيم وأخلاقيات (كنتاج للمعمودية وعملية الهداية وغرس الإيمان) تتمثل في: المحبة، والفرح، والسلام، وطول الأناة، واللطف، والصلاح، والإيمان، والوداعة، والتعفف. فتحول مفهوم الروح القدس، كغيره من المفاهيم المحورية في العقائد النصرانية إلىٰ مفهوم رمزي فلسفي غامض مختلف فيه، ومفتوح لمجال واسع للغاية من صنوف التأويل والتنظير، مع أنها ليست في الحقيقة إلا الروح الأمين جبريل عليه السلام، يرسله الله تعالىٰ إلىٰ رسله لينقل إليهم أمره ونهيه وخطابه جل وعلا! فزادت بعض الطوائف الزعم بأن الروح القدس يعطي المؤمن قدرات خارقة للعادة، ويدخله في تجارب روحية فائقة لا يعرف البشر لها نظيرا! فيعطيه الرؤىٰ ويعطيه النبوءات، ويعطيه القدرة علىٰ شفاء المرضىٰ شفاءً إعجازيا، ويعطيه القدرة علىٰ سماع كلام الرب (كما يزعمون)، إلىٰ آخر تلك القدرات الخارقة!

وهذا هو المنعطف الذي تدفعهم إليه شياطين الجن بألعابها وخوارقها وتغرقهم فيه إغراقا كما سنبين.

كان المسيح عيسىٰ ابن مريم - برأه الله مما ينسبونه إليه - نبيا مرسلا، خاطبه جبريل بالوحي من الله كما خاطب غيره من الأنبياء! فلما انتهت رسالته ورفعه الله إليه، انتهىٰ عمل جبريل عليه السلام معه. ولكن القوم دبت فيهم أصابع مغرضة أرادت أن تشتري بآيات الله ثمنا قليلا، فوضعت نصوصا وحرفت نصوصا وحذفت نصوصا. ففكرة أن يكون «روح القدس» ماثلا في الكنيسة محركا ومبَصّرا لرجالها علىٰ طول الزمان، علىٰ تفاوت بينهم في ذلك بقدر إيمان كل واحد منهم، هذه هي التي جُعلت ذريعة عند أساقفة الكنائس ليضعوا ما يحلو لهم من التشريعات والقوانين يتحكمون بها في شعب الكنيسة بلا نص ولا برهان، يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله كما يحلو لهم، فيكون الدين هو ما يقوله القس والمطران، لا ما يقوله الرب الرحمن! وذاك اتخذاهم الرهبان والأحبار

أربابا من دون الله. فأكثرهم لم يعتقدوا أن الرب حال فيهم، وإنما اعتقدوا أنهم إذا ما شرعوا شرعا لم تأت به النصوص، فهو من إرادة «الروح القدس»، ثالث الآلهة الثلاث، التي هي المحرك والتي هي إرادة الله علىٰ زعمهم! ولما كانت عقيدتهم أن الروح القدس من ذات الله، أو من «أقانيم الثالوث»، أيا ما كان معنىٰ تلك اللفظة عندهم، كان دخول تلك الروح في الأجساد عقيدة حلولية مؤداها أن الله يحل فيمن يشاء من البشر.

وهذا الكلام موجود عند بعض طوائفهم البروتستانتية خلافا لما يعتقده أكثر طوائف الكاثوليك والأرثوذكس. فمنهم من تصور أنه بما أن روح القدس لا يزال يحرسهم ويصاحبهم ويحكم حياتهم كما يعتقدون، فلا مانع من أن يحل في أحدهم كما حل في التلاميذ - وفقا للقصة سالفة الذكر - ولا مانع من أن يظهر علىٰ يديه (المعجزات) والأعاجيب فيتكلم بالألسنة كما وقع من التلاميذ، وهنا يأتي المعنىٰ الذي أردت الوصول إليه من عرض قصة (الألسنة) هذه من البداية.

فالشيطان يحلو له أن يتصل بكل من له عقيدة في الاتصال بأوراح سامية علوية مزعومة أو بآلهة مزعومة أو بصالحين من الموتىٰ أو بشيء من ذلك، اتصال دعاء أو توحد أو حلول أو نحو ذلك، كما في ملل الهندوس والبوذية وغيرها من الملل الوثنية، فيلبس علىٰ الواحد منهم إذا ما وجد منه استغراقا في ذلك وحرصا وتلمسا لتحقيق ذلك التواصل مع ذلك المعبود الغيبي، ويتمثل له في صورته أو يتلبسه هو نفسه ويحل فيه ويريه من خوارق العادات ما يجعله يزداد إيمانا بعقيدته الفاسدة واقتناعا بأنها الحق (في ظاهر نفسه)، وبأن الذي اتصل به أو حل فيه إنما هو معبوده الذي يعبده حقا. والتاريخ يفيض بقصص من شتىٰ ملل العالم القديم حول حالات من السمو الروحاني والاتصال (بالأرواح) السماوية، وتلبس الرهبان في المعابد (بالآلهة) يتكلمون علىٰ ألسنتهم بما يحلو لهم، وكل ذلك يدخل عندنا في نفس البابة وتحت نفس التفسير.

ولو تمثل الشيطان لواحد من هؤلاء في صورة جسم من النور لا تظهر فيه ملامح، وقال له أنا الروح القدس، آمرك بكذا وكذا، فإن كنسيته كلها ستصدع بذلك، ليس هو فحسب، بل عسىٰ أن تنشأ حينئذ طائفة تتمحور عقيدتها كلها علىٰ إمكانية تجسد الروح

القدس في صورة جسد نوراني، وإمكانية تلقي الأوامر والتعاليم من الرب مباشرة علىٰ هذا النحو. ولذلك ظهر في تاريخ الكنيسة كثير من الأحبار يزعمون أنهم مرسلون وأن روح القدس يخاطبهم علىٰ الحقيقة.

وظاهرة الكلام بالألسنة هـذه، لها قسمان أو نوعان أو صورتان كما يزعم «الخمسينيون»: نوع يكون الكلام فيه غريبا شاذا لا يوافق أي لغة من لغات الأرض المعروفة Glossolalia، ونوع آخر يتكلم فيه الرجل بلغة هو لا يعلمها ولكنها هي نفس لغة الشخص الذي يخاطبه Xenoglossy! وهم يعتقدون أن تلك الحالات دليل علىٰ حلول روح القدس فيهم! ونقول إنه إن صح وقوع ذلك، فقد حل فيهم روح ولا شك، ولكنه ليس الله، تعالىٰ الله عن ذلك علوا كبيرا، وليس روح القدس، قدسه الله وعليه وعلىٰ نبينا الصلاة والتسليم، وإنما هي روح الشيطان، عياذا بالله تعالىٰ. إنه تلبس شيطاني صريح - كما اضطر للتصريح بذلك بعض المخالفين من الطوائف الأخرىٰ النصرانية - يدخل صاحبه في حالة اتصال بالشيطان، يضع علىٰ لسانه ألفاظا لا يفهمها وكلاما بلغة هو لا يعرفها! وكثيرا ما تكون تلك الألفاظ من طلاسم السحرة، فتحدث في المتكلم وفي السامعين أمورا خارقة للعادة!

وسبحان الله، ما رأيت أظهر ولا أدل من ذلك كله علىٰ كون الشيطان يأمرهم بعبادته من دون الله فيطيعونه كما بين ربنا في كتابه، فليس الأمر بالوسوسة الخفية في صدور الناس وإلقاء الشبهات فحسب، ولا بالتزيين والإغراء بالأهواء والشهوات فحسب، ولا كما يأمر الشيطان ساحرا أن يسجد له أو أن يمتهن كتاب الله ليخدمه، فيطيعه وهو يعلم أنه يسجد للشيطان حقيقة وأنه قد كفر بذلك، وإنما هو في كثير من الأحيان أمر مباشر من خلال التمثل والمخاطبة الشفهية، يأتيهم من وراء صورة معبود لهم يعتقدون فيه ضرا ونفعا من دون الله، في صورة مريم رضي الله عنها أو المسيح عليه السلام أو قديسيهم أو نحوهم فيخرون لذلك ساجدين، والذي يتراءىٰ لهم ويظهر ويأمر ويسجد له الناس ليس قديسا ولا كاهنا ولا راهبا ولا العذراء ولا شيء من هذا الذي يحسبون، وإنما هو شيطان. فإذا توسلوا، توسلوا به وإليه، وإذا دعوا وصلوا صلوا له، وإذا ذهبوا ليحجوا، انتظروا عمله وفعله وظهوره، والله المستعان.

إن القوم من فرط غرقهم في قضية المعجزات والخوارق هذه، صارت عقولهم تصور لهم بعض الأحداث العادية أحيانا التي تقع من باب المصادفة القدرية المحضة، علىٰ أنها معجزة لقديس أو للعذراء أو للمسيح! وأذكر أني قد شاهدت تسجيلا لمقطع فيديو علىٰ موقع من مواقع النصارىٰ لرجل قسيس كان يتلو صلاة في القداس وهو جالس وبين يديه الخبز (المقدس) الذي يصلي عليه ليأكلوا منه بعد ذلك علىٰ أنه لحم المسيح كما يعتقدون. فأخذ الرجل يصلي ويرتل تلاواتهم والكاميرا تصوره، وإذا به فجأة يسقط ميتا ويخر من علىٰ المنضدة إلىٰ الأرض، وتترك يداه الخبز ويتأرجح الإناء قليلا علىٰ المنضدة ثم يستقر في مكانه ولا يسقط إلىٰ الأرض معه، فإذا بهم يعلقون علىٰ ذلك الفيديو بأنه معجزة! فالذي منع الخبز من أن يسقط مع القس إلىٰ الأرض هو بزعمهم تدخل إعجازي للمسيح أو للروح القدس أو لقديس من القديسين ليمنع لحم المسيح المقدس من السقوط إلىٰ الأرض! المهم أني شاهدت ذلك التسجيل مرارا وأعدته المرة بعد المرة لعلي أرىٰ شيئا يمكن حتىٰ أن يوصف بأن فيه خرقا للعادة أو مخالفة لما هو متوقع من سلوك الأشياء وطبيعتها بصورة من الصور، فلم أجد شيئا من ذلك علىٰ الإطلاق!

والشاهد أن الهيكل الإدراكي الاستعرافي عند أهل الملل الشركية عامة Cognitive Structure قد أصبح شديد الميل لقبول دعوىٰ اختراق العادة بمجرد الإيحاء بها، من شدة الطمع والتشوف لتصديق الوهم بتأويل تلك الوقائع وقبول دلالتها المزعومة والاستكثار من ذلك. فتماما كما تستكمل الأعين الأشكال عديمة المعنىٰ أحيانا لتخرج منها معاني موافقة لما هو مطبوع في النفس من ميول (كما سيأتي الإشارة إليه لاحقا) فتستكمل صورة السحاب أو التكوين الصخري أو الرملي أو نحو ذلك لتجعل منها «ظهورا» للفظ الجلالة في السماء أو لصورة البوذا أو العذراء أو نحو ذلك، يقع مثل ذلك في تتبع بعض الوقائع والحوادث والتماس التأويل «الإعجازي» لها، بما يخدم المعتقد الشركي أيا ما كان، ويعضده ويمده بالمزيد من أسباب القبول عند صاحبه. ويمكن العبارة عن هذه الحالة بمقالة بعضهم إن «عين النفس ترىٰ أحيانا ما تريد رؤيته، لا ما هو كائن في الحقيقة».

الرقي في السماء

تقع تلك الحالات أو الوقائع (الرقي في السماء) Levitation عند النصارىٰ بين القديسين والرهبان في كنائسهم، وهي عندهم معلومة مشتهرة، شهدتها جموع المصلين عندهم في مناسبات كثيرة. وهي ذاتها كما يصفها كهنة الهندوس وكهنة التبت وغلاة الصوفية والرافضة وغيرهم من المشركين والسحرة علىٰ اختلاف مللهم وعقائدهم.

فيروىٰ علىٰ سبيل المثال – وذلك نقلا عن مقال نشر في مجلة روسية تحمل اسم «برافدا» – أن القديسة تيريزا كانت من أوائل من ارتقوا في السماء في الكنيسة في العصور الوسطىٰ. وقد شاهد رقيها قرابة المائتان وثلاثين راهبا وكاهنا كاثوليكيا. وقيل إنها ما كانت تريد ذلك ولا تتوقعه، وكانت ترىٰ أن ذلك الأمر إنما جاء كهدية لها أو كهبة أو كأية من السماء علىٰ قدسيتها. كما ذكر في قصة حياتها التي كتبت في أواسط القرن السادس عشر الميلادي، وقيل إنها كانت تقضي ساعات طويلة في الدعاء والتضرع من أجل التخلص من تلك «القدرة الخاصة» التي لم تكن ترغب فيها. والشيطان كما يبدو، وقد كان من قبل يفتنها ويفتن الناس بها ليزيدهم تمسكا بما هم فيه من اعتقاد واغترارا به، ونظرا لأنه ما كان يريد تشكيكها ومن تبعها في أن لها ما تتوهمه هي ومريدوها عند الرب من المنزلة، قد استجاب لرجائها فما عاد يحملها في السماء كما كان يحملها من قبل. ودُون ذلك في كتب المؤرخين علىٰ أنه استجابة من السماء لدعائها وعلىٰ أنه دليل آخر علىٰ قدسية تلك الراهبة، وعلىٰ أن الرب لا يريد أن يزعجها!

ويروي المقال نفسه قصة رجل اسمه «جون ديزا» بوصفه أشهر «رجل طائر» في أوروبا! وقد ولد في أسرة كاثوليكية شديدة التدين في جنوب إيطاليا، وقد كان جون هذا من شدة غلوه يحرص علىٰ إيقاع أشكال من الألم والعذاب علىٰ جسده ليحقق بذلك حالة يتوهمها من الصفاء والرقي النفسي التعبدي (كما يصنع الرفاعية والشيعة الإمامية في لطمياتهم وغيرهم) ولما انضم إلىٰ الفرانسيسكان، وازداد غرقه في وهمه هذا، بدأت ظاهرة الرقي في السماء تتكرر معه، حتىٰ أنها وقعت ذات يوم أمام عيني البابا نفسه. ذلك أنه لما وصل إلىٰ روما، أعد له البابا «أوربان الثامن» زينة وجمهورا،

فلم يتمالك نفسه فارتقىٰ في الهواء أمام أعينهم جميعا وظل كذلك حتىٰ جذبه القديس فرانسيس من الهواء وأنزله (بحسب ما جاء في الرواية). وقد شاهد كثير من رجال العلم الطبيعي رقي جون هذا أكثر من مائة مرة، غير أن البعض من رجال الكنيسة رأوا إبعاده عن أعين الناس. فأخذوا ينقلونه من دير إلىٰ دير ومن كنيسة إلىٰ كنيسة حتىٰ مات في أحد الأديرة في أوسيمو في عام ١٦٦٣ الميلادي. وعلىٰ الرغم من تلك التنقلات في حياته إلا أنه كان يشتهر بلقب الرجل المعجزة، وكان الناس يقفون وراء أسوار الكاتدرائيات والأديرة يترقبون عسىٰ أن يلمحوه طائرا في الهواء هنا أو هناك.

وقد شرعت الكنيسة في إجراءات ترسيمه قديسا بعد موته بأربع سنوات فقط.

ولا يخلو الأمر كالعادة من تنظير لعلماء الطبيعة الماديين، فمنهم من ذهب إلىٰ أن السبب هو قدرة الرجل علىٰ إخراج طاقة عقلية دفينة، ينتج عنها تغيير في العلاقة البيوفيزيائية بين مجال الجاذبية الأرضية وبين جسد المرتقي، ومنهم من طرح خلاف ذلك افتراضا وظنا وتنظيرا، ولو أنهم رأوا بأعينهم ذلك الشيطان الكافر السفيه في الغيب وهو يحمل ذاك المغرور من حيث لا يراه أحد، فيحركه يمينا وشمالا، لأدركوا مدىٰ السفاهة التي أوقعهم فيها اعتمادهم علىٰ عقولهم وحدها مع إنكار وحي الله وما بعث به رسله من أخبار وعلوم.

ووالله إن المرأ لا يسعه إلا أن يتساءل، كيف لا يرتاب هؤلاء من تلك الكثرة المتكاثرة المريبة من خوارق الطبيعة وخورام العادة عند أئمتهم وكهنتهم وقديسيهم وسادتهم في الكنائس والمعابد ونحو ذلك، إن لم يكن حاديهم وحاملهم في جميع ذلك هو الهوىٰ المحض؟ إن الاستثناء عن القاعدة الاستقرائية إذا جاوز حدا معينا لم يعد استثناءً، بل ربما أوشك أن يصير هو القاعدة وليس الاستثناء! إن خارق الطبيعة أو العادة لو كثر وزاد وتكرر مرارا وبمعدل متسارع فإنه يصير جزءا من الطبيعة والعادة نفسها، يألفه الناس ويعتادونه، ولا يعد خارقا لها علىٰ الحقيقة إلا بوجه متكلف! بمعنىٰ أن للعاقل أن يتساءل هنا: تلك الظهورات والعلاجات والأنوار والحمائم النورانية والخوارق بمختلف أشكالها وألوانها، كيف لا تزال تنزل من قلوب المشركين نفس

المنزل وقد أوشكت أن تصير شيئا عاديا معتادا عندهم (علىٰ اختلاف مللهم)؟ كيف لا يشعرون أن الأمر قد فقد قيمته وأن ثمة شيئا مريبا فيه؟ لو صدقوا أنفسهم القول وأمعنوا النظر ودققوا لاعترفوا بذلك الأمر، ولعلموا أن كيد الشيطان واهن ضعيف، مهما بدا عظيما ومهما افتتن به الناس، وأنه هو نفس الكيد الذي يكاد به لأهل الملل الشركية جميعا، ويستدرجون به استدراجا، أيا ما كان معبودهم الذي عبدوه من دون الله! ولكن لأن النفس تهوىٰ وتحب أن تترسل مع الإحساس بالتميز في غوامض الغيب والعلو والخصوصية التي يجدها كل واحد ممن يتعرضون لأمثال تلك الوقائع والأحوال حال وقوعها معه، ولأنها تجد في ذلك ما يشبع كبرها وهواها وحرصها علىٰ الرياسة بين الناس، فلا ترىٰ العقل يلتفت لشيء من ذلك أصلا، ولا يبالي بكونه تعضيدا لعقيدة باطلة متناقضة في نفسها، ولا بدلالة تشابهه بما عند أهل الملل الأخرىٰ من مثله، ولا يظهر في وعيه شيء من نداء الفطرة والبداهة الحبيسة في باطن النفس، وإنما هي الرغبة الغريزية في العلو والتفوق الدنيوي علىٰ سائر الأقران والتودد إلىٰ سائر الأحباب والتفوق علىٰ سائر الخصوم.

فنفوس المشركين وأهواؤها وأمراضها هي السبب فيما تبلغه تلك الألاعيب من تأثير في الحقيقة، وإلا فليس الشيطان من بني الجان بعبقري ولا هو من نوابغ الأذكياء، بل هو مخلوق ناقص سفيه خفيف العقل، علىٰ ما أوتي من القدرات! علمه محدود علىٰ الرغم مما يتراكم عنده من خبرات عمره الذي قد يمتد لقرون طويلة! لا يعلم الغيب، ولا يقوىٰ علىٰ مواجهة جنود الله وملائكته. وهو خناس جبان، ناقص كسائر المخلوقات فلا يحسب كل العواقب ولا يحيط إلا بالقليل من الأسباب والاحتمالات، بل هو دوننا (معاشر بني آدم) في عقله وتدبيره علىٰ ما ذكره أهل العلم بالكتاب والسنة، ولا يقوىٰ من الإفساد والإضلال علىٰ معشار ما يقوىٰ عليه شياطين الإنس أعاذنا الله منهم جميعا. ووالله لولا أن غرس الله في قلوبنا هوىٰ وفي أنفسنا مرضا لا يزكو إلا بالعلم المنزل من عنده، لما قوي علىٰ إضلال أحد منا أبدا ولما كان له من سلطان علينا ولما ملك من أمر الناس شيئا أصلا، ولكنه الابتلاء، فالحمد لله الذي علمنا ما لا قدرة لنا علىٰ شياطين الإنس والجن جميعا إلا به.

وإليك أيها القارئ الكريم رواية أخرىٰ عن «معجزات العذراء» وقعت في أثناء الحرب العالمية الثانية، نقلا عن غير واحد من مواقع النصارىٰ الفرانسيسكان والكاثوليك.

إذ يروىٰ أنه في السادس من شهر أغسطس من عام ١٩٤٥ الميلادية، في يوم انفجار قنبلة هيروشيما، وعلىٰ بعد ثمانية بلوكات من مركز الانفجار، كان يقطن ثمانية من المنصرين الألمان من رتبة «الجيسوي». فلما انفجرت القنبلة، تفحم الناس جميعا من فورهم علىٰ امتداد ١,٥ كيلومتر في كل اتجاه. ومن لم يقتله الانفجار والضغط والحرارة والنيران في توه، أهلكته الإشعاعات هلاكا بطيئا ومات علىٰ أثر ذلك. ولكن بقي هؤلاء الثمانية إلىٰ يومنا هذا لم يصابوا بسوء ولم يتأثروا علىٰ الإطلاق، فلم يؤثر فيهم الانفجار ولم تؤثر فيهم الإشعاعات. ومنذ ذلك اليوم وحتىٰ الآن قام فوق المئتين من الأطباء بفحصهم في محاولة لفهم تفسير تلك الظاهرة الغريبة، ولم يفلح أحد في معرفة أي تفسير معملي تجريبي مقبول. ولما ظهر أحدهم، الأب «أوبرت شيفنر» الألماني في التلفزيون الأمريكي ذات يوم، فسر الموضوع بيقين محض وبكل ثقة بأنه صلاة دعاء العذراء المعروفة باسم (Rosary)، الصلاة الأشهر والأهم عند الكاثوليك. إذ كانوا علىٰ حد قوله لا يكُفون عن تلاوتها آناء الليل وأطراف النهار!

وعلىٰ الرغم من أن كثيرا من المشككين قد أجروا بحثا مستفيضا في تلك القصة وقاموا بتكذيبها وتفنيدها، إلا أننا لا نرىٰ بأسا في افتراض صحتها ونقول سواء صحت القصة أو لم تصح، فالعبرة بما في نفوسهم وقلوبهم من اعتقاد تعضده الرواية نفسها عندهم، وتناقلها فيما بينهم. فهل رأت البشرية في تاريخها الحديث انفجارا حربيا أوسع دمارا وأشد أثرا من ذلك الانفجار؟ كلا علىٰ الإطلاق. فكيف يفوت معاشر جنود إبليس أن يحققوا مكاسب من ذلك الحدث التاريخىٰ الثقيل؟ حتىٰ ولو كان الخبر مكذوبا فناشر الإشاعة من شياطين الإنس إنما يحقق لهم نفعا كبيرا ولا شك. فالمؤمنون من النصارىٰ الكاثوليك وغيرهم سيرون في الأمر معجزة كبرىٰ تتغذىٰ عليها نفوسهم وعقائدهم الفاسدة لسنوات وسنوات. ثم يقال: «إذا كان هؤلاء قد نجوا

من انفجار نووي بفضل دعاء العذراء والتضرع إليها، فما بالنا لا نكثر من ذلك لقضاء حوائجنا كما أكثروا؟»

وبفرض صحة تلك الحادثة (ولا أظنها صحيحة) وأن هؤلاء قد خرجوا من الانفجار أصحاء علىٰ الحقيقة كما يصفون، فلا يبعد أن يكون للشياطين عمل مادىٰ في ذلك أيا كانت حقيقته، بل ولربما كان الأمر تقديرا إلهيا لاستدراج أتباعهم وفتنتهم، من غير أن يكون فيه عمل للشيطان ولا شيء من ذلك! والله أعلم بحقيقة الأمر علىٰ أي حال، ولكن الشاهد أن صلاة الروزاري هذه هي من أشد صلوات الكاثوليك إغراقا في شرك العبودية والتأليه. يشركون العذراء بالرب ويتخذونها وسيطا لا لله تعالىٰ بل للمسيح ابنها، ويطلبون منها الشفاعة عنده والدعاء والمجد والشفاء ونحو ذلك. فإذا فشىٰ الخبر بين الناس بأن تلك الصلاة كانت منجاة لهؤلاء من كارثة بهذه الضخامة والبشاعة، فإن ذلك للشياطين يعد كسبا كبيرا ولا شك.

تلك الصلاة التي يؤمن الكاثوليك بقدراتها الخارقة وبعملها المعجز قال البابا بايوس التاسع ذات يوم فيها «لو كان لي جيش وأمرت كل الجنود فيه بألا يصنعوا شيئا سوىٰ الصلاة بتلك الصلاة، لتمكنت من غزو العالم بهم!» وفي طول الحروب الصليبية بين المسلمين وبين الكنيسة الكاثوليكية وعرضها، كانوا إذا ابتلىٰ الله جيشا من جيوش المسلمين في أي من معاركهم المتكاثرة بهزيمة أو تراجع بما كسبت أيديهم، صاح النصارىٰ وهللوا وزعموا أن سبب نصرهم إنما هو رضىٰ العذراء عنهم لتمسكهم بتلك الصلاة!

فتلك الصلاة بالذات هي مما يهم إبليس وجنوده أن يزداد يقين النصارىٰ بقوتها وأثرها. وسواء صحت رواية قصة هيروشيما هذه أو كذبت فلا فرق كما أسلفت، فالأثر قد وقع وتحقق في قلوب من سمع الرواية من النصارىٰ المتمسكين منهم علىٰ أي حال، نسأل الله العافية.

معجزات صلاة «العذراء»

وفيما يلي نروي المزيد من «المعجزات» الشيطانية التي تروىٰ في أثر تلك الصلاة بالذات عند النصارىٰ الكاثوليك. والملفت أن أكثر تلك الخوارق إنما تروىٰ في

النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي فيما بعد الرواية سابقة الذكر، أي عقب قصة هيروشيما. ولعل مرد ذلك أن الشياطين لما وجدت لقصة هيروشيما هذه بصفة خاصة كل ذلك الأثر في نفوس النصارىٰ الأوروبيين في زمن الهزيمة النفسية والمعنوية التي سادت أوروبا في الحرب العالمية الثانية، التفتوا إلىٰ تلك الصلاة الشركية وعادوا ليركزوا علىٰ إبهار الناس بها وزيادة تعلقهم بها. أو ربما كان السبب هو كثرة أوهام الناس من أثر تلك الرواية ومن أثر الحرب عليهم، فيتوهمون الإعجاز في أمور قدرها الله استدراجا من غير أن يكون فيها خرق للعادة أصلا، أو غير ذلك من التفسيرات الأخرىٰ. المهم أن النفوس كانت ممهدة، علىٰ أي حال، للإغراق في تعظيم تلك الصلاة وفي اعتقاد نفعها!

ومن ذلك مثلا، قصة يرويها قساوسة الكنيسة الرومية عن القس «بيتر بافليكيك» من قساوسة النمسا في أعقاب استعمار روسيا الشيوعية للنمسا خلال الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٨ الميلادي، إذ راح ذلك القس يدعو الناس لأن يصلوا بتلك الصلاة كل يوم بحماسة ويقين لا يفترون عسىٰ أن تمن عليهم العذراء بالخلاص من الاستعمار. فاستجابت العذراء أخيرا بزعمهم بعد سبع سنين، حيث خرج الشيوعيون من النمسا في هدوء ودون إبداء أسباب في عام ١٩٥٥ الميلادي.

ولا شك أن مجرد حقيقة أن ذلك الانسحاب الشيوعي قد وافق ما طلبه القوم من معبودهم، لا يعقل أن تكون دليلا علىٰ أنه جواب من ذلك المعبود لطلبهم، لأنه – بوضوح لا يماري فيه إلا مشرك – معبود باطل ينسب إليه من ألهوه وقصدوه بالغيب دون الله، من التصرف في أسباب الكون ما لا تصح نسبته إلىٰ أحد مع الرب الخالق الواحد الأحد سبحانه! فهذا الحادث (جلاء الشيوعيين عن المدينة) من قضاء الرب جل وعلا يقينا، وهو من خلقه وأمره قطعا وجزما، لا من فعل غيره مما يشركون! فلو أنهم طلبوه من الله تعالىٰ ثم تحقق بعد سبع سنوات أو أقل أو أكثر، لساغ لهم أن يظنوا (من حيث المبدأ، بصرف النظر عن حقيقة الأمر) أن الله قد أجاب دعاءهم بذلك في الوقت الذي اقتضته حكمته ومشيئته، ولكنهم يزعمون أن العذراء هي التي أجابت الرجاء والدعاء ورفعت عنهم أسباب القهر والعناء!

ثم إن إجابة الدعاء ليست من خوارق العادات! فكيف يكون جلاء الجيش الروسي من جملة «معجزات صلاة العذراء»؟ هذا من تزيين الشيطان للمشركين، الذين يحبون أن يعتقدوا أن عباداتهم وطقوسهم الشركية هي السبب في كل خير يأتيهم وهي السبب في دفع كل شر عنهم.

ففي معمعة الحرب، كانت الكنيسة شديدة النشاط في دعوة الرعية للإكثار من أداء تلك الصلاة، وكانت مشاعر الناس متأججة بالرغبة والطمع والرجاء، لا سيما النساء الذين ذهب رجالهم إلىٰ ميادين القتال فهم ينتظرون خبر مقتلهم هناك بين عشية وضحاها. والشيطان يخوف أولياءه، والكنيسة تمتصهم بذلك الخوف امتصاصا. فكانوا يتفقون علىٰ أن تصلي كل الكنائس معا في نفس الوقت، ليكون ذلك أرجىٰ لاستجابة العذراء كما يزعمون. وكانت الكنيسة تجد استجابة واسعة لدعواتها من رعاياها بطبيعة الحال. وكلما استجاب الناس وكثفوا صلواتهم ثم وقع حادث من الحوادث التي قدرها الله إصابة ودحرا للجيش الروسي، وكانت في صالح الأوروبيين، كحادثة انفجار في مستودعاتهم مثلا أو نحو ذلك، رأيتهم يربطون ذلك الأمر بطبيعة الحال بدعائهم وصلاتهم ورسوخ يقينهم فيها. وما ذاك إلا من استدراج الله تعالىٰ، سواء كان لشياطين الجن يد فيه أو لم يكن.

ومنه ما يروىٰ عن انفجار أنموذج جديد متطور عند السوفييت لصاروخ بعيد المدىٰ، كانت نتيجته مقتل ثلاثمائة من قادتهم الكبار، وتقهقر روسيا في تكنولوجيا التسلح النووىٰ بما لا يقل عن عشرين سنة كما يقولون. فيزعمون أن ذلك الانفجار إنما جاء استجابة من العذراء لصلاة «الروزاري» التي قام الملايين من الأوروبيين في نفس تلك الليلة بأدائها بضراعة وإخلاص! فما هذا إلا تتبع لوقائع محببة لنفوس القوم ثم إدراجها (بالتأويل والتفسير اللاهوتي المتكلف) في إطار أعمال المعبود الشركي في إجابة الدعاء والرجاء، طمعا في تسويغ الاعتقاد نفسه الذي يعتنقه هؤلاء أولا، وموقف رؤوس الملة مما يلاقونه من عناء في أحوالهم ونوازلهم التي أصيبوا بها ثانيا.

وفي البرازيل، يقولون إن امرأة تدعىٰ «دونا أميليا باستو»، نظمت حملة لصلاة الروزاري هذه فحشدت حشدا من النساء يزيد علىٰ ستمائة ألف امرأة في عام ١٩٦٢ الميلادي لأداء الصلاة في «ساو باولو» من أجل السلام، وهو ما أدىٰ في زعمهم، إلىٰ خلاص البرازيل من الوقوع في براثن نظام شيوعىٰ دكتاتوري. ونحو ذلك كما يروىٰ عنهم أيضا وقع في البرتغال في عام ١٩٧٥ الميلادي حيث أطيح بالنظام الشيوعي نفسه بصورة سلمية بسبب حملة وطنية محلية لصلاة العذراء (روزاري Rosary) كما يزعمون.

وبطبيعة الحال، صار كل حادث سياسي كبير يقع في صالحهم، ويخدم أهدافهم ومطامعهم ويصب فيما يحبون ويطمعون، يعتبر في نظرهم «تدخلا سماويا» من العذراء باستجابة لما يقدمونه لها من الدعاء والضراعة.

وفي ظل تلك الاستدراجات الربانية وتلك الفتن والحوادث، وازدياد عقيدة تلك الصلاة رسوخا في صدور الكاثوليك في أوروبا وأمريكا شرقا وغربا، لم تفوت شياطين الجن فرصة كهذه لإيقاع مزيد من العبث بألعابهم التقليدية. فتكثفت «الظهورات المقدسة» للعذراء في كنائسهم وفي صلواتهم. ولم تكن تلك الظهورات حينئذ قاصرة علىٰ ظهور أضواء وألوان وصور فحسب، لتؤول علىٰ أنها رضا ومباركة من العذراء كما جرت العادة، بل كان لا بد من زيادة في التأثير لتعميق الاعتقاد عند الضالة المغررين، في ظروف تاريخية لها ما لها من الأثر النفسي العميق عليهم. فصاروا إلىٰ جانب رؤية صورة العذراء، يسمعون صوتا يخاطبهم كذلك من قبلها، يحسبونه هو صوت العذراء. ويملي الشيطان عليهم وصاياه وتعاليمه وهم وجلون، يتلقونها باسم الرب وباسم العذراء، والله وأولياؤه جميعا من ذلك كله براء. ففي يوم تظهر عليهم في صلاتهم وتناديهم أن «زيدوا من صلاة الروزاري، وعليكم بها كل يوم لتحقيق السلام في العالم وإنهاء الحرب» وفي يوم آخر تظهر وتؤكد لهم أنه لولا الروزاري لما كان كذا وكذا، بل نقل رهبان الكنيسة - ومن نفس المصدر - أنها ذات يوم (قبل تلك الحوادث سالفة الذكر، وفي عام ١٩١٧ الميلادي أي عقب الثورة البلشفية مباشرة) خرجت عليهم

في مدينة «فاتيما» في البرتغال وقالت لهم ما نصه (نقلا عن موقع من مواقعهم على الإنترنت):

«لو حققتم ما أرجوه منكم، فسوف تعود روسيا إلى الإيمان في ظل الكنيسة وسيعم السلام. أما إن لم تفعلوا، فستنشر روسيا فسادها في البلاد وتثير الفتن والحروب وتضطهد الكنيسة في كل مكان، فيستشهد الأخيار، ويتعرض الآب في السماء للكثير من الأذى والمعاناة، وتباد أمم بأكملها!» انتهى.

قلت: فها هو ذا الشيطان يأمرهم بأن يعبدوه فيطيعوه خاضعين، فلا يلومن أحد منهم إلا نفسه يوم القيامة. وانظر كيف يتعمد الشيطان إن نطق أمامهم ألا ينطق إلا بكفر بواح يبروزه لهم ويزيدهم تعلقا به. وقد تذكرت قول الذين قالوا يد الله مغلولة وإن الله فقير وهم أغنياء، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا. أي رب هذا الذي سيتعرض للمعاناة والأذى في السماء من طغيان الشيوعيين أو غيرهم؟ إنما هو كلام شيطان!

وكان لتلك «النبوءة» كما سموها أثرها العميق في ترسيخ عقيدة هؤلاء في صلاتهم وفيما تجلب لهم تلك العبادة من الخيرات، وجعلها تبدو وكأنها هي الشرط الأول بل الوحيد لتحقيق السلام العالمي. بمعنى أنه لن يتحقق سلام للعالم كله حتى يصبح الناس يصلون تلك الصلاة تحديدا على أوسع نطاق وبأكبر عدد ممكن من المصلين وفي كل مكان من العالم. فأي فرصة أفضل للشيطان لنشر الشرك في كل مكان من الأرض، من ظروف كهذه؟

وليست هذه بنبوءة قطعا ولا غيب فيها ولا شيء، فكل ذي بصر على دراية بفكر قادة تلك الثورة الشيوعية وعقيدتهم التي تزدري الأديان الكتابية أشد الازدراء، ويرى صعودهم العسكري السريع، واكتساحهم السريع لغالبية بلدان النصارى (والمسلمين كذلك) في تلك البقعة من العالم مما صار يسمى فيما بعد بدول الاتحاد السوفيتي، يمكن أن يصدر عنه ذلك التصور والتعبير عن القلق والترقب، ويمكنه أن يتوقع بنسبة كبيرة من الأرجحية أنها ستزول وتسقط لا محالة ولو بعد حين. ولا شك أن سقوط شطر جغرافي بهذه الضخامة من تحت يد الكنيسة الكاثوليكية وبتلك الصورة الفجائية

إنما هو أمر يثير الرعب بالنسبة لهم ولا شك، لذلك وافقت تلك الكلمة الشيطانية هوىٰ عندهم وقلوبا ممهدة لتلقيها، وصُورت علىٰ أنها نبوءة للعذراء يجب أن يتعلمها الناس في كل مكان!

وقد شهدت مدينة «فاتيما» هذه في البرتغال في تلك الفترة تحديدا، نشاطا شيطانيا مكثفا. فقد كلمتهم صورة العذراء أكثر من مرة بعد تلك النبوءة سابقة الذكر، وتكررت «الظهورات» مرارا هناك، حتىٰ إن صورتها ظهرت ذات يوم – وذلك رواية عن أكثر من موقع من مواقع الكنيسة الكاثوليكية – لثلاثة من الأطفال ووعدتهم بأنه في الثالث عشر من أكتوبر من عام ١٩١٧ سيظهر الرب لهم معجزة كبرىٰ ليؤمن العالم كله بها. وبالفعل، اجتمع القوم في الموقع الذي حددته لهم، وبلغت جموعهم فوق السبعين ألفا. وفي الوقت الذي حددته وفي الموقع الذي حددته، ظهر للشهود ما أذهلهم، إذ بدا لهم وكأن الشمس «ترقص»، بل وكأنها تقترب من الأرض، علىٰ ما في رواية بعضهم. وقد اشتهرت تلك الواقعة فيما بعد (مع أنها لم يرها في أي مكان من العالم أحد غيرهم)، بمعجزة الشمس Sun Miracle. وقد أقرتها الكنيسة الكاثوليكية وعدتها حادثا «يستحق الإيمان والاعتراف به»، في عام ١٩٣٠ الميلادي، وقد عدها بعضهم أعظم حادث خارق للعادة في القرن العشرين الميلادي!

ولكثافة تلك الحوادث الشيطانية وتتابعها، صارت مدينة «فاتيما» هذه مزارا مقدسا جديدا ينضم إلىٰ قائمة الأماكن المقدسة عند الكاثوليك التي يحج إليها «البابا» نفسه من آن لآخر، حتىٰ أن البابا يوحنا بولس الثاني كان يحج إليها مرة علىٰ الأقل كل عشرة أعوام من فترة ولايته للكنيسة!

ومن المضحك المبكي، أن بعض دعاة الروافض يحلو لهم نسبة ذلك الظهور الشيطاني في تلك المدينة إلىٰ فاطمة الزهراء رضي الله عنها، لمجرد أن المدينة اسمها (فاتيما)! فيقولون إن التي ظهرت لم تكن العذراء مريم وإنما كانت فاطمة رضي الله عنهما ولكن نسب البابا ذلك الظهور إلىٰ العذراء حتىٰ لا يخرج الناس من ملة النصارىٰ ويدخلوا في الإسلام (يعني دين الرافضة)! ونقول لهؤلاء الحمقىٰ المساكين، لماذا إذن

بقي اسم المدينة «فاتيما» إلىٰ اليوم ولم يحولوها إلىٰ مدينة العذراء، أو مدينة مريم مثلا، لو كان هذا الكلام صحيحا؟ لا شك أنه عندما يكون جمهور الواحد من هؤلاء الدعاة المجرمين جهلاء لا يقرؤون، فسيسهل عليهم ترويج الكذب فيما بينهم واستعماله لإثارة وإلهاب مشاعر تلك الجماهير العمياء وتعظيم الاعتقاد الباطل في نفوسهم.

والواقع أن تلك المدينة لم تأخذ هذا الاسم بعد تلك الواقعة وإنما كان هذا هو اسمها منذ القرن الثاني عشر الميلادي! وبالنظر في الروايات التاريخية القديمة لتلك المدينة، يتبين لنا أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلىٰ أميرة عربية مسلمة باسم «فاطمة» كانت تعيش في تلك البلاد في أيام انهيار السلطان الإسلامي علىٰ تلك البقعة من العالم! أَسِرت تلك الأميرة ونُصِّرَت وعُمِّدت في الكنيسة وتحول اسمها إلىٰ «أواريانا» وزُوجت من كونت نصراني اسمه «جونزالس هيرميجيه» في عام ١١٥٨ الميلادي وفقا للمصادر التاريخية هناك! ولكن ظل اسم المدينة علىٰ اسمها القديم ولم يتغير إلىٰ اليوم. فلما وقع ما وقع - بفرض صحة وقوعه - من ظهورات في عام ١٩١٧ الميلادي، بنيت كنيسة وسميت بكنيسة «سيدتنا من فاتيما» Our Lady Of Fatima!، ومع الوقت بنيت كنائس أخرىٰ داخل البرتغال وخارجها باسم «صاحبة القداسة من فاتيما» أي قديسة مدينة فاتيما تبركا بتلك الوقائع والحوادث، وليس «القديسة فاتيما» كما درج علىٰ ألسنة عوام المسلمين. فليس عند النصارىٰ قديسة باسم «فاتيما»، وإنما هي نسبة العذراء إلىٰ تلك المدينة البرتغالية الصغيرة من بعد تلك القصة. برأ الله الزهراء والعذراء وكافة الأنبياء والأولياء مما يأفك الضالة والسفهاء!

ولعله من الملفت أن تلك «الظهورات» التي تكون علىٰ مقياس جماعي جماهيري وليس فردي، أو لنقل - إن جازت العبارة - «الظهورات الجماهيرية» التي تشهدها الجموع الكبيرة من الناس، تكون غالبا مرتبطة بأوقات الإحباط والهزيمة النفسية الغالبة لدىٰ الناس (كما كان في مصر ما بين عام ١٩٦٨ و١٩٧٣ الميلاديتين، وكما كان في أوروبا في خضم الحرب العالمية الأولىٰ والثانية). ذلك أن الشياطين إنما تريد استغلال حوادث التاريخ بأفضل صورة ممكنة. فلا شك أن الحالة النفسية والمزاجية العامة

للمتلقي لمثل تلك الأمور إنما يكون لها أكبر الأثر في الكيفية التي تنزل بها من نفسه عند تلقيها، وتأثيرها في عقيدته وإيمانه. وهو أمر من الواضح أن صناع تلك الألاعيب بالغيب علىٰ خبرة به. فليست توقيتات تلك المكاشفات والظهورات اعتباطية أو عشوائية أبدا، أو علىٰ الأقل في أكثر حالاتها. وإن كان غالب تلك الظهورات لا يكون إلا داخل الكنائس والمعابد موجها لأصحابها فقط، فإن ظهورات عام ٦٧ الميلادية في مصر كانت عقيب النكسة مباشرة، في زمان فتنة كبيرة، ضل بسببها كثير من المسلمين، حتىٰ انتحر من انتحر، وأوشك أن يرتد منهم الكثيرون عن دينهم، وقد صدموا مع ضعف عقيدتهم وجهلهم في زعيمهم المبجل المعظم الذي علقوا عليه آمالهم، وفي أمتهم المتشبعة بما لم تعطه من العلو علىٰ أعدائها. فكان من الأكسب للشياطين حينئذ أن تقع تلك الظهورات في خارج الكنائس، علىٰ ملأ كبير من الناس ليشهدها المسلمون كذلك وليفتتنوا بها فتنة فوق فتنتهم، ويضل بها أكبر عدد ممكن من الخلق، فكان كما أرادوا وفتن عن دينه – فيما يروىٰ – من الناس خلق كثير والله المستعان.

ولا شك أن الردة عن الإسلام من أثر شيء كهذا لا تقع إلا لمن بلغ به دينه من الضعف والرقة غاية ما يمكن تصوره في رجل ينسب نفسه إلىٰ القبلة وأهلها.[1] فالأهواء تملأ عليه نفسه طمعا في أن يكون مع الأمة الغالبة المنتصرة، أو علىٰ الأقل في أن يبرأ من ذلة الهزيمة والانكسار، ولا تزال نفسه تحدثه بالانخلاع مما تربىٰ عليه من مواريث دينية واجتماعية لم يعد يرفع بها رأسا بين الأمم، حتىٰ تأتي واقعة كهذه فتدفع به دفعا إلىٰ مفارقة التوحيد وأهله (مع أن الهزيمة لم تكن مرتبطة بأهل ملة من الملل أو فلسفة من الفلسفات كارتباطها بالاشتراكيين الثوريين في الحقيقة)، فتجذبه إلىٰ سياق اجتماعي آخر يجد فيه ما يشتهيه من التحرر مع موروثه المبغض إلىٰ نفسه (إجمالا) من جانب، والتحرر من حالة الإحباط الجماعي التي كان يعيشها في سياقه الاجتماعي من قبل من الجانب الآخر، ثم إذا به وقد ارتد عن الإسلام وضرب الصليب وأصبح من جملة النصارىٰ، أو ارتد وصار دهريا ملحدا. فلا تسأله عن الانتقال من التوحيد إلىٰ التثليث (فضلا عن الإلحاد) وكيف ارتضاه عقله، ولا تسأله عن القول بالبنوة والصلب

(١) وأعني بهذا غلبة الأهواء على النفس إلى حد أن يوشك صاحبها أن يزول عن أصل الإسلام جملة واحدة.

والفداء .. الخ، ولا تكلمه في الفرق بين الموحد والمشرك وجلاء حجة الحق علىٰ الباطل في ذلك، فهذا رجل قد بلغ به مرض نفسه أن اختار بمحض إرادته الانتقال من الحق الواضح الذي بات يبغضه أشد البغض، إلىٰ باطل قد أعجبه وأشبع من أهوائه ورغباته ما لا يجد مثله فيما كان عليه من قبل. ليس هذا اتباعا لدليل ولا جريا بترجيح ولا موازنة بين قرائن وشواهد ولا شيء من ذلك، ولا يكون كذلك أبدا علىٰ الحقيقة! وإنما هو انتكاسة قلبية وعقلية لا يستحق صاحبها إلا العقوبة والنكال![1]

(١) وليتأمل في هذا إخواننا الذين سعوا في التماس الحِكَم التشريعية الربانية وراء تشريع حدّ الردة في الإسلام. فإنه لا يبلغ إنسان أن يفارق دين التوحيد الخالص بعدما كان عليه، ويعلن ذلك على ملإٍ من الناس، إلا وقد انقطع الرجاء – من حيث الأصل – في رجوعه إلى رشده بمجرد وقوع ذلك منه. وما ذاك إلا من عظم وجلاء الحق الذي انخلع عنه وانقلب إلى معاداته ومحاربته، في مقابل الباطل العظيم الذي انتقل إليه باختياره وهو يعلم! مثل هذا المنقلب على الحق، المصرح بالردة، لن تجده إلا شديد العداوة والبغضاء للحق وأهله، شديد الحرب عليهم، لا يفوت فرصة ولا مناسبة للتنكيل بهم إلا اغتنمها (وهذا مشاهد معلوم تراه في أحوال وأنشطة المرتدين المجاهرين بردتهم في زماننا هذا، وتراه على درجات أخف في المنقلبين على أهل السنة المنضمين إلى أهل البدع)، لأن نفسه تزين له في كل يوم وليلة تسويغ تلك النقلة العظيمة التي أحدثها في أمر دينه، وتحمله على التشبع مما يحب ويهوى من موالاة ومناصرة المجتمع الجديد الذي انتقل إليه، في مواجهة المجتمع القديم الذي انخلع منه.

فلا يزال طامعا أشد ما يكون الطمع في أن يتشبع من تلك المزية الدنيوية التي من أجلها انتقل عن دينه إلى دين آخر، فلا بد وأن يستزيد من ذكر ما يحببه في ذلك الدين الجديد وأهله وما يبغضه في دينه القديم وأهله، الذي لا تزال نفسه تذكره بصوت يأتيه من باطنها من آن لآخر بأنه هو الدين الحق ببداهة العقل الأولى وأنه قد ظلم نفسه أشد الظلم فيما أقدم عليه من مفارقته والانتقال عنه!

ولهذا تجد الإسفاف في السباب والتحقير والتسفيه من المسلمين عنده (في الأعم الأغلب) بالغا مبلغا لا ترى نظيره في الكفار الأصليين، ولا قريبا منه! لماذا؟ لأن نفسه تشتهي جمع الذرائع المسوغة لموقفه الجديد، ولخلعه نفسه من مجتمعه القديم، ما لا تشتهي نظيره نفس الكافر الأصلي! فلا يزال عقله الباطن يميل به إلى المبالغة في السب والتسفيه وتصيد الأسباب الداعية للتنقص من المسلمين ومن دينهم كما لا يكون في غيره! ولهذا كانت استتابته على يد القاضي الشرعي في البلاد هي الموقف اللائق به المناسب لحال نفسه أولا، ولما صار إليه من حرب على الإسلام وأهله ثانيا! فإنه إن علم صاحب تلك النفس المريضة أنه قد وقع في يد السلطان، وأن رقبته وحياته الآن في الميزان، إما أن يتوب وإما أن يقتل، فإما أن تميل به أهواء قلبه إذن لإعلان التوبة الصادقة والرجوع إلى سابق عهده، إذ لم يعد يرجو، والحالة تلك، أي خير عاجل من بقائه على الردة، وإما أن يعلن التوبة كذبا ونفاقا، وإذن فإنه يكون مضطرا لأن يكتم كفره، خوفا من عاقبة إظهاره من جديد، ومن ثم يفقد (في ميزان الهوى الخفي في نفسه) أي مزية اجتماعية كان يشتهيها لنفسه من إعلان الردة، بما من شأنه أن يغير في ميزان الهوى في نفسه ولا شك! والقصد أن المجتمع يكون قد عوفي من شره وخطره على أي حال، بل ويكون هو نفسه قد رحمه الله بأن خفف من غلواء كفره ومن عظم العقوبة التي يخلد فيها يوم القيامة إن أبى إلا الموت على ما هو إذن مضطر لإضماره في نفسه من الكفر والزندقة، فتأمل!

هو ميل للقلب مع الهوىٰ الغالب، وليس ميلا للعقل مع الدليل الراجح!

وفي تعليقه عل صلاة الروزاري هذه قال البابا ليو الثالث عشر: «إنها الوسيلة الأهم لتحقيق الوحدة للصفوف النصرانية في العالم».. وقال كذلك: «هناك بالطبع أكثر من وسيلة لاستجلاب حماية العذراء ومعونتها من خلال الصلاة، ولكن بالنسبة لنا فإننا نرىٰ أن أفضل وأكثر السبل فاعلية في الوصول إليها إنما هي صلاة العذراء (الروزاري).» (المصدر السابق)

ولعل حقيقة موقف الكنيسة الكاثوليكية من تلك الصلاة بصفة خاصة وغيرها من صلوات العذراء، يفسر لنا كون أكثر «الظهورات» العلنية أو «الجماهيرية» التي تظهر للنصارىٰ تكون لصورة العذراء بصفة خاصة وليس لصورة المسيح عليه السلام مثلا. كما تكون للقديسين لنفس السبب، وتكون في كل كنيسة أو مذهب أو طائفة أو نحلة تبعا لأكثر المعبودات قدسية عندهم، وللمخلوق الذي غلوا فيه وقدموا عبادته والتوسل والتشفع به ومسألته فوق غيره. فالقضية خاضعة لتوجهات قلوبهم وأهوائها وما يجده الشياطين فيها. فإن كان تعلقهم بزيد، فزيد هو من يأتيهم ويكلمهم ويزيدهم تمسكا بمعتقدهم فيه ومحبة لما يأتيهم من ثمرته وطمعا في المزيد من ذلك، وتظهر لهم الخوارق باسمه وتكثر عنه الروايات والأساطير وتتوه فيها العقول. وإن كان غلوهم في عمرو، فعمرو بذلك أولىٰ وهو الذي يكون له ذلك. ووالله لو أنك عبدت خنزيرا من دون الله وجهدت في ذلك ونصبت فيه كنصب أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ**﴾ [**الغاشية**: ٢، ٣]، لأسمعك الشيطان صوته يكلمك ولرأيته يأتيك في المنام يأمرك وينهاك!

وعلىٰ العموم، وكما هي الحال دائما، فإن كل رواية من روايات الكنيسة الكاثوليكية، لها في مذاهب وملل أخرىٰ من يسعون حثيثا لإنكارها وهدمها وإثبات كذبها. والحق أن أولئك الذين يتخذون من تكذيب روايات تلك الخوارق علىٰ إطلاقها هدفا وغاية وسبيلا، إنما هم في خدمة غاية الشيطان أيضا من حيث لا يشعرون. فالشيطان ليس يضيره أن يتحرىٰ هؤلاء وأن يبحثوا وراء تلك الروايات بهدف تكذيبها وهدمها. بل

علىٰ العكس، فكلما ثار الجدل والأخذ والرد واشتعلت جبهتان للدفاع والهجوم وغرق هؤلاء وهؤلاء جميعا فيما بين أيديهم، كان هذا في ذاته نصرا له علىٰ الجميع من حيث لا يشعرون. فالمتعصبون للشيء الغالون فيه بلا دليل ولا حق، هم كالغالين والمتعصبين ضده بلا دليل أيضا سواء بسواء. كل منهما لا يرىٰ الحق ولا يريد رؤيته ويقاتل من أجل غاية واهية. والغرض الأعلىٰ عند الشيطان إنما هو صرف الجميع عن سبيل الله علىٰ أي حال وبأي شيء أيا كان. ولا شك عندي في أن من تلك الروايات ما قد وقع فعلا! وما لم يقع تحقيقا كما وصفه راويه، فما بين أن يكون مكذوبا بالكلية، أو علىٰ الأقل وقع شيء غامض (بأسباب ليست تدخل في حيز المعتاد) حمل الناس علىٰ صياغته في تلك الصورة وتناقله تضخيما وتفخيما حتىٰ وصل إلىٰ صورته التي سمعها المشكك المكذب ورفضها اعتقاده، فكذبها وكر عليها بحثا وفحصا يبحث عن سبيل لتكذيبها.

المبحث الثالث: التوهم الإدراكي الانطباعي الفردي

كثيرا ما يزدان في نفوس أهل الأهواء اعتقاد ظهورات وهمية، تثبت عندهم من طريق بعض الحيل الإدراكية التي تنطبع بها صورة المعبود في الإدراك الحسي لدىٰ المشرك من إبصاره بعض التكوينات الشكلية المبهمة التي يستكملها إدراكه علىٰ هذا النحو، لوجود شيء من الشبه بينها وبين صورة المعبود الراسخة في ذهنه. هذا التوهم الإدراكي أحسب أنه قد يفتح الباب لتلاعب الشياطين بأمثال تلك «الظهورات» التي مر بنا خبرها عند البوذيين في صدر هذا الباب، وأنه يسهل عليهم طريق شرح صدور المشركين بمزيد من الغرق في شركهم.

والتوهم الإدراكي علىٰ هذا النحو، ليس بالأمر المستغرب من حيث الأصل، بل إنه يقع للواحد منا كثيرا في يومه وليلته من غير أن يشعر. ففي كل مرة تبصر عينك ما يبدو لها وكأنه شكل هندسي «ناقص» فإنها تستكمله قياسا علىٰ أقرب ما يستدعيه ذلك الشكل من أشكال قياسية مشابهة في ذهنك، كأن ترىٰ ثلاثة خطوط متعامدة متتابعة متساوية في الطول، فتصفها علىٰ أنها مربع ينقصه ضلع، أو تستكمله بالقياس إلىٰ أقرب التكوينات الشكلية التجريدية إلىٰ ذهنك كذلك، كأن ترىٰ نقطتين أو دائرتين صغيرتين متجاورتين تحتهما قوس، فتستحضر صورة الوجه المبتسم... إلخ. وكثيرا ما يبصر الواحد منا تركيبا معقدا من أشكال عفوية في رمال الشاطئ أو في صخور الجبل أو في السحاب أو في تراكيب الأشجار وغصونها أو نحو ذلك، فتبدو له وكأنها صورة وجه إنسان أو صورة حيوان أو طائر أو نحو ذلك. ولا شك أن الناس تتفاوت في ذلك، فرب ناظر إلىٰ سحابة في السماء تراه يشير إليها ويقول إنها تشبه أو تذكره بصورة حيوان ما، ويقول صاحبه إنه لا يراها كذلك، بل يطلب منه أن يفسر له كيف ظهر له فيها ذلك التكوين فيها.

هذه الحالة الإدراكية الانطباعية يعرفها علماء النفس باسم «بارايدوليا» Pareidolia، وهي صورة من صور التوهم الإدراكي التي يسميها النفسانيون Apophenia (أو Apophany في بعض المراجع)، وهي كل حالة يتوهم الإنسان فيها

إدراك شيء ذي معنىٰ بسبب حوافز حسية Stimuli تأتيه من شيء ليس له ذلك المعنىٰ أو تلك الحقيقة في الواقع، ويعدها النفسانيون نوعا من أنواع الهلاوس البصرية (أو السمعية) Hallucinations، علىٰ اعتبار ما هو ظاهر من دخول تعريفها تحت التعريف العام للهلاوس[١].

وهي في الحقيقة ترجع إلىٰ عوامل كثيرة قد يصعب تتبعها، كالحالة النفسية المزاجية الفردية، ومخزون الذاكرة البصرية وما في العقل الباطن من علاقات شكلية قريبة الشبه بذلك الشكل الذي توهم فيه الإنسان خلاف حقيقته، مع ما في النفس من موقف تجاه تلك التركيبات الشكلية المتوهمة. فالصورة العالقة في ذهن الإنسان (بموجب الاستغراق العاطفي emotional investment في المحبة أو البغضاء أو الخوف أو الرجاء) التي تلح علىٰ مخيلته وخاطره كثيرا، قد تكون هي أقرب الصور لإدراكه غالبا، وتنطبع كل الصور المشابهة لها بانطباعها الشعوري في نفس الناظر إليها، أو علىٰ الأقل تذكره بها وتستدعيها إلىٰ وعيه وذهنه الحاضر بصورة ما أو بأخرىٰ[٢].

---

(١) نظر على سبيل المثال معجم الهلوسات للنفساني الهولندي جان ديرك بلوم (Blom, 2010)

(٢) ومما يذكر في هذا المقام على سبيل الإطراف أن داعية الإلحاد الطبيعي الهالك «كارل ساغان» أبى إلا أن يفسر تلك الخصيصة الإدراكية في الإنسان تفسيرا داروينيا (ارتقائيا)، فقال في كتابه «عالم مسكون بالشياطين: العلم كشمعة في الظلام» (Sagan 1997, pp. 46):

«يبدأ الرضيع في تمييز الوجوه بمجرد أن يتمكن من الإبصار، وهي مهارة نعلم اليوم أنها مركبة في أمخاخنا (وراثيا). فإن أولئك الصبية الصغار الذين ولدوا قبل ملايين السنين من غير قدرة على تمييز الوجوه، لم يتمكنوا من رد الابتسامة إلا قليلا، فكانوا أقل قدرة على اكتساب محبة والديهم، ومن ثم أقل احتمالية لأن ينجحوا (ارتقائيا). أما في هذا الزمان، فما من طفل – تقريبا – إلا وهو قادر على تمييز الوجه البشري والاستجابة لابتسامة المداعبة».

قلت: صدق والله من قال «شر البلية ما يضحك»! ألا يستحي هؤلاء الدراونة من أمثال تلك «التفاسير» المخزية؟ أحقا يريد أن يقنع العقلاء بهذا الهراء؟ الطفل الذي لا يرد الابتسامة لوالديه بابتسامة مثلها إلا في القليل النادر، لم يكن (قبل ملايين السنين!) يحظى بما يكفي من محبتهم ليلقى ما يلاقيه الأطفال من حب ورعاية وعناية من والديهم، لذا كان أمثال أولئك الأطفال أكثر عرضة ن يُهملوا (!!) ويهلكوا، ومن ثم تنتشر جينات تمييز الوجوه في النوع البشري (أو ما بقي منه!) كمطلب من مطالب بقاء النوع! فعلى هذا، إذا كان الطفل الذي لا يبتسم بما فيه الكفاية يتعرض للهلاك من قلة محبة الوالدين، فلا بد وأن الطفل الذي يبكي ويصرخ بمناسبة وبلا مناسبة (فيما يدركه الوالدان) يكون أكثر عرضة لأن يذبحه والداه أو أن يقذفاه في الخلاء من شدة كراهيتهما له! ما أخيبكم يا هؤلاء!

لذا فقد ابتكر بعض علماء النفس اختبارا من اختبارات تقييم الشخصية والتحليل النفسي Psychometry يدخل في إطار التحليل الإسقاطي Projective Testing المعتمد علىٰ تلك العوالق النفسية الإدراكية في ذهن الإنسان، يسمىٰ باختبار «بقعة الحبر» Inkblot Test. وهو اختبار ابتكره الطبيب النفساني السويسري «هرمان رورشاش» Hermann Rorschach في العشرينات من القرن الميلادي الماضي، يقوم علىٰ عرض عشرة كروت صغيرة «للمريض» أو لمن يخضع للاختبار، في كل منها بقعة من الحبر لها شكل غير منتظم يبدو عشوائيا (غير أنه متماثل حول محور رأسي يمر بوسط الصورة). فيسأل النفساني من يختبره بهذا الاختبار مع كل واحد من تلك الكروت «ما أول شيء يرد علىٰ ذهنك عند رؤيتك هذا الشكل؟» أو «بأي شيء يوحي إليك أو بم يذكرك؟». والحق أنها لا تكون شيئا محددا علىٰ الإطلاق، وانما يفترض واضع الاختبار أن الانطباع الذي يدخل إلىٰ نفس الناظر ويصدر منه أول ما يصدر، سيعطي دلالة علىٰ شخصيته وميوله وتركيبته النفسية، بالنظر إلىٰ أقرب الصور المشابهة إلىٰ ذهنه وأحضرها في نفسه. وبصرف النظر عن حقيقة أنه قد ثار حول هذا الاختبار جدل علمي واسع، ولا يزال الخلاف قائما بين النفسانيين في كل من جدواه Validity ومصداقيته Reliability،[١] إلا أن القصد من ذكره في هذا السياق بيان مدىٰ الارتباط بين السمات الشخصية للإنسان (ويدخل فيها خلفيته التربوية والاعتقادية ولا شك) وبين آلية عمل جهازه الإدراكي الحسي.

فالذي يعبد الإله الهندوسي «فيشنو»، مثلا، ستميل آلته الإدراكية لتأويل بعض الأشكال (الطبيعية) المقاربة لصورته (كسحابة أو تكوين شجري أو صخري أو نحو

ونحن نقول لمن يروم تفسيرا، إن شئت فقل: لعل من حكمة الله تعالى في تركيب تلك السرعة البالغة في تمييز الوجوه وما يقاربها من الأشكال والهيئات في إدراكنا الحسي، هي أن يصان الإنسان من خطر أن يهلك بين يدي عدوه المقبل عليه قبل أن يتمكن من تمييزه على أنه عدو (مثلا). أما أن يقال كما تقوله الدراونة إن أزمنة مديدة من الانتخاب الطبيعي هي التي تسببت في بقاء تلك الجينات في النوع البشري وهلاك من لم يولد بها بسبب عجزه عن تمييز وجه العدو من وجه الحبيب، فهذا اتهام للباري جل وعلا بأن الأصل في خلقه العبث والفوضى وخبط العشواء، سبحانه وتعالى عما تصفه الملاحدة علوا كبيرا.

(١) انظر على سبيل المثال: (Wood et.al 2000, 2003, Lohr, Fowler, & Lillienfeld, 2002)

ذلك) علىٰ أنها هي صورته، بينما لو عرضت تلك الأشكال نفسها علىٰ غيره من أهل الملل الأخرىٰ فلعله يبعد أن يراها كذلك. والذي يرىٰ لفظ الجلالة في تكوين من تلك التكوينات أو اسم النبي محمد ﷺ أو يرىٰ رجلا راكعا أو نحو ذلك، فأغلب الظن أنك لو عرضت التكوين نفسه علىٰ غيره من أهل الملل فلن يراه كذلك، إلا أن تخبره من قبل التعرض له بأنك ترىٰ فيه ما ترىٰ، فحينئذ سيراه وعينه محمولة علىٰ التماس تأويله علىٰ نحو ما وقع معك.

لذا فمن المهم أن يدرك عامة المسلمين أن هذه الإدراكات الانطباعية التأويلية التي تقع في نفوسهم من آن لآخر ليست «خرقا للعادة»، إلا إن عرّفنا العادة في هذا السياق علىٰ أنها مرور التركيبات الحادثة في الأرض والسماوات (في الطبيعة) عبر إدراك الإنسان الحسي من غير أن يظهر له أنها مشابهة لصورة شيء لا يظهر عادة في موضع كهذا. حينئذ، وحينئذ فقط يمكن أن يقال إن عادة هذا الذي وقعت معه تلك الحالة الإدراكية قد «انخرقت». وهو إذن انخراق فردي وليس خرقا موضوعيا، لأنه خرق لما اعتاده إنسان بعينه من تعامل إدراكه هو مع مدخلاته الحسية، وليس خرقا لما اعتاده سائر البشر من أحوال هذا العالم.

والقصد أنه ما من شك في أن الأصل في إدراك الإنسان ألا يتوهم ما لا حقيقة له، والأصل هو العادة بهذا الاعتبار. فإن أريد بخرق العادة في تلك الأحوال الإدراكية أن عادة صاحبها فيما يدركه تنخرق، فصحيح هي كذلك ولا شك. أما أن يقصد بخرق العادة في هذا السياق أن هذه «معجزة» أو «كرامة» أو نحو ذلك، قد أحدثها الله تعالىٰ إحداثا مخصوصا بغرض أن يرىٰ الناس آية من آيات عظمته فيؤمنوا علىٰ أثرها، فهذا ما لا يصح الاكتفاء في إثباته بمجرد وقوع تلك الحالة الإدراكية نفسها لمن تقع له (وإن توافق علىٰ ذلك التأويل الإدراكي الجمع الغفير من الناس علىٰ اختلاف مللهم)[1]!

فإذا علمنا بالبداهة الأولىٰ (وبما هو علم ضروري عند كل موحد) أن المعبودات الوثنية كلها وهم باطل، فلا «شيفا» ولا «غانش» ولا البوذا ولا العذراء ولا القديس فلان

---

(١) والتوهم الفردي قد ينقلب إلى هلاوس جماعية كما سيأتي في قسم لاحق.

ولا سيدي فلان ولا الحسين ولا إمام الزمان لهم فعل في شيء من ذلك البتة، وعلمنا كذلك أنه ليس في نصوص الوحي الشريف ما يدل علىٰ أن الله تعالىٰ قد يخلق ثمرة طماطم أو باذنجان علىٰ نحو مخصوص بحيث يبدو لفظ الجلالة منقوشا عليها لمن حاول أن يتأمل فيها جيدا، ليجعل ذلك آية من الآيات أو نحو ذلك، ولا جاءنا الخبر عن أحد من الصحابة أو السلف أنهم اعتبروا بهذه الأشياء أو عدوها من قبيل الكرامات أو نحوها، لم يبق إلا أن نسمي هذه الأحوال بأسمائها الصحيحة: التوهم الإدراكي!

ولأصحاب هذا التوهم الحسي أن يسألوا أنفسهم: هل عدمت السماوات والأرض من آيات عظمة الباري وبديع قدرته، حتىٰ يصبح مفهومنا للآية الإلهية أنها ظهور اسمه أو اسم نبيه علىٰ سحابة أو في جذع شجرة مثلا؟ أي جهالة هذه يا عقلاء المسلمين؟ ثم لو كان فاعلا – سبحانه وتعالىٰ – أفكان يأتي به مشوها مشوشا علىٰ هذا النحو، حتىٰ لا يراه الناس إلا بتكلف وبعد شرح وتتبع وتأويل (غالبا)؟ ما لكم كيف تحكمون؟

أما كونها (أي أمثال تلك التكوينات) قد أراد الله أن يسبب لها في نفس من رآها من الأسباب ما يجعلها تقاس في صورتها عنده هو بعينه علىٰ لفظ الجلالة مثلا أو كلمة التوحيد أو نحو ذلك، فتذهله وتكون سببا في دخوله إلىٰ الإسلام أو في انشراح صدره بمزيد من الإيمان والتصديق، فصحيح ولا شك، وهو حاصل مشاهد في أحوال الناس، فلا شيء يقع في السماوات والأرض إلا تبعا لإرادة الله جل وعلا ومشيئته. ولكن هذا لا يجعلها من «المعجزات» تحقيقا! وإنما نقول قد كتب الله له أن يتوهم وهما يدفع بنفسه إلىٰ الإقرار بالتوحيد وقبوله والرضا بالدخول فيه، بعدما كان من قبل لا يميل إليه، ولله في قلوب عباده شؤون. وقد يأذن الله تعالىٰ بتغير قلب إنسان ما من الصدود عن الحق وأهله إلىٰ محبته والإقبال عليه، لسبب أهون من هذا فيما يدركه الناس. ولكن هذا لا يستتبع القول بمشروعية استعمال تلك الأسباب في دعوة أهل الملل إلىٰ الإسلام، فانتبه. فمن أذمّ ما يمكن أن يسلكه الداعي إلىٰ الله أن ينتحل ما قد يقع لبعض الناس من وهم إدراكي أو نحوه ليجعله «من آيات الله» طمعا في أن يكون ذلك سببا في إسلام من يراها من غير المسلمين! هذه بدعة وضلالة، ولا يجزئ فيها

حسن نية الداعية، لأن الدعوة إلىٰ الله عبادة والعبادات مدارها علىٰ التوقيف لا علىٰ الاكتشاف والاختراع والتوهم والتخريف!

ثم إنه قد يكون ذلك العمل ذريعة للشرك، إذ ترىٰ من يكتشف في مزرعته شجرة عليها لفظ الجلالة مثلا أو تبدو علىٰ صورة رجل راكع أو ساجد أو نحو ذلك، فيجعلها مزارا للناس حتىٰ يروا «آيات الله» التي ظهرت عنده قاصدا الخير بذلك، فيأتي الجهلاء ليتبركوا بالشجرة وبصاحبها الذي زرعها، لأنها إذن تصبح «كرامة» من كراماته التي أكرمه الله بها، ولعلها أن تتحول هي أو صاحبها إلىٰ وثن يعبد من دون الله بعد فترة من الزمان، وقد وقع الشرك في بلاد المسلمين لأسباب أهون من هذا!

لذا فمما ينبغي أن ننكره علىٰ بعض شبابنا ما قد يقع منهم أحيانا من نشر بعض الصور التي تحمل أمورا كهذه علىٰ شبكة الإنترنت كوسيلة للدعوة والتذكير واستحضار عظمة الله ونحو ذلك. ونقول إن من لم تحضر عظمة الله تعالىٰ إلىٰ نفسه بالتأمل في «الطبيعة» علىٰ معهود الناس لها، فليس علاج هذا أن نأتيه ببطيخة ظهر فيها تخييل لما يبدو وكأنه لفظ الجلالة! وإنما علاجه أن يوعظ بما جاء به القرآن من موعظة بليغة لعل ذاك الحس ينفذ إلىٰ قلبه وتزول الغفلة عن عينيه، فيؤمن كما آمن العقلاء الأسوياء من قبل، قرنا بعد قرن.

زد علىٰ ذلك أنه فقد ثبت زيف كثير مما نشر من تلك الصور وخصوصا ما يتناقله الناس علىٰ شبكة الإنترنت، كقصة الرجل الذي كانت له شجرة علىٰ شكل لفظ الجلالة. فهذا تسفيه للدعوة وحط من شأنها والله، والله المستعان.

ونقول إنه كما يكون في نفوس البعض ما يجعله الله سببا لأن يروا علىٰ ثمرة أو سمكة أو ورقة شجر مثلا لفظ الجلالة مرسوما، فإن في نفوس الأخرين من هوىٰ وشرك وعبث شيطاني ما قد يكون سببا في أن يروا صورة يقربونها إلىٰ شكل الصليب مثلا أو وجه البوذا أو نحو ذلك في قطعة حجر أو علىٰ الرمال أو علىٰ جلد سمكة. فتلك الظاهرة النفسية الإدراكية هي ابتلاء في حقيقتها، كغيرها من خصال النفس البشرية. ذلك أن الشيطان قد يدخل إلىٰ المشرك من طريق هواه ورغبته في أن يرىٰ شيئا عينيا

محسوسا يدل علىٰ صدق عقيدته ويكون له آية. فيذكره بمعبوده الباطل إن هو أبصر شيئا يقرب في صورته من صورة ذلك المعبود، ينتهز تلك الفرصة ويكون ذلك أهون علىٰ الشيطان ولا ريب من التمثل بصورة ذلك المعبود خرقا للعادة. فهو سيوهم الرجل بأن فيما يراه معجزة من غير أن يبذل هو أي مجهود. يستغل هواه وتعلقه بصورة معينة ذات ثقل في قلبه، هو يريد ويحب أن يراها من حوله في كل مكان، فيوهمه بقرب ما يراه من تلك الصورة.

فمن أراد أن يدعو المشركين إلىٰ الإسلام فليبدأ برأس الأمر وعموده، كما هو نهج الأنبياء والمرسلين، فإن حجية التوحيد وبطلان الشرك لا يظهر للعقل السوي شيء أوضح منها! فمن زعم أن هذا التفريق – الذي هو أظهر ما عندنا من حجة للحق – لا يظهر له وجهه، فزعم أنه يشتبه عليه الشرك الذي هو عليه بالتوحيد الذي جاء به محمد ﷺ، ولا يرىٰ فضلا للتوحيد علىٰ الشرك، فلا خير فيه، ولا يرجىٰ له قبول الحق بأيما طريق سلكه الداعي إليه، وهو من أهل الجحود والاستكبار الذين جاء القرآن بقطع الطمع في هدايتهم! من بدأنا دعوته إلىٰ الله تعالىٰ ببيان أن الشرك ظلم عظيم، وأن الرب لا بد أنه واحد أحد لا صاحبة له ولا ولد، ثم رأيناه يتفلت من ذلك ويأبىٰ أن يقبله، أو يزعم أن ما هو عليه ليس «شركا» وليس تأليها لمخلوق من مخلوقات ربه كما ندعي، ويصر علىٰ أنه «موحد» صادق في توحيده، ويفتح في ذلك أبواب المراء اللاهوتي وسفسطة الفلاسفة (دع عنك أن يكون ملحدا يزعم أنه لم يُخلق أصلا!)، فكيف يرجىٰ منه أن يقبل ما عندنا مما هو دون ذلك من دلائل صدق النبوة وإعجاز القرآن، التي يدخل الاستدلال النظري المتفاوت فيها ما بين دليل استقرائي قطعي وآخر ظني؟ من بلغ به مرض نفسه والكبر في قلبه أن زعم كما زعمه برتراند راسل، مثلا، أن رجحان وجود الباري علىٰ عدمه، هو في المعرفة البشرية كرجحان وجود إبريق يدور في فلك حول الأرض علىٰ عدمه، هذا بأي وجه يرجو المسلمون لمثله أن يهتدي يوما ما؟

من زعم من المشركين من أهل الملل أنه لا يتنقص بشركه من كمال صفات ربه، وأبىٰ أن يبرأ من ذلك، فكما أن السابقين من هؤلاء قالوا لما رأوا معجزات الأنبياء إنها

سحر وتخييل، وبلغوا أن كذبوا أعينهم التي في رؤوسهم حتىٰ يسوغ لهم البقاء علىٰ ما هم عليه، فكذلك من تأتيه بالقرآن - معجزة خاتم المرسلين الكبرىٰ - فتراه يقول لك إن هذه الآية فيها كذا وتلك فيها كذا، وليس الكتاب خاليا من الاختلاف أو التناقض كما تزعمون! أو تسمعه القرآن وتذكره بشناعة ما هو عليه من الشرك، فتراه يقول لك: ولكن رسولكم تزوج فتاة في التاسعة من عمرها، أو رسولكم كان فيه كذا وكذا ويفعل كذا وكذا .. إلخ! هؤلاء أصحاب كبر وهوىٰ ومرض نفسي عظيم، هو الذي يحجزهم عن رؤية الحق حقا وقبوله وقبول العمل بمقتضاه، وليس خفاء الحق في نفسه! هم كارهون لأن يكونوا أتباعا لهذا الرجل بعينه، بأبي هو وأمي، ﷺ، ولمن تبعوه من بعده، كما كرهه من سبقوهم من أمثالهم، وليس أنهم لا يعلمون وجه الحق فيما جاء به، والباطل فيما هم عليه!

ينبغي أن يكون واضحا لسائر أهل الملل أننا معاشر المسلمين بفضل الله لسنا ننتظر ظهور النقوش علىٰ ثمر الخيار والأشجار والطماطم لتؤكد لنا صحة عقيدتنا (ومن كان حريصا علىٰ ذلك فسيراه في أي شيء)! ولا نبني ديننا وعقيدتنا علىٰ ألعاب الشياطين وأوهام الواهمين ودعاوىٰ السحرة والدجالين. ولسنا بحاجة إلىٰ إسقاطات نفسية أو انطباعية أو إلىٰ تصور وتشبه لفظ الجلالة هنا أو هناك لكي نتيقن بصحة هذا الدين، أو لندعو الناس إليه. ولا نرضىٰ بحال من الأحوال أن يقوم بعض الباحثين في الغرب بجمع صور من ذلك الصنف لينشرها تحت باب «المعجزات» عند المسلمين، فإذا ما قورنت بـ«معجزة» اللبن الهندوسية مثلا أو بتماثيل العذراء الباكية، بدت تلك الأشياء عند أهل الملل الأخرىٰ أكبر تأثيرا في نفوس الناس وأشد وطأة عليها من خيالات ثبت بالفعل كذب أكثرها، ثم يعرض الأمر - كما يحلو للمشركين أن يصنعوا - وكأن ديننا ليس فيه حجة لأصحابه إلا هذه الأشياء!

فليتق الله إخواننا الدعاة في نفوس من يدعونهم إلىٰ الدين الحق، وليلزموا ما كان عليه سلفهم الأول، فإن الخير كل الخير في اتباع من سلف، والشر كل الشر في ابتداع من خلف، والله المستعان لا رب سواه.

المبحث الرابع: الهلاوس الجمعية Mass/Collective Hallucinations

مما لا شك فيه أن مسألة «الظهورات الجماهيرية» (أو بعبارة أعم: تلك الوقائع التي يروىٰ فيها توافق جمهور من الناس علىٰ ادعاء مشاهدة أمر ديني معين خارق للمعتاد) كانت ولا تزال تؤرق الطبيعيين والماديين وأصحاب المنهج الوضعي الإمبريقي المتشدد في نفي العامل الغيبي بالكلية. ذلك أنهم لا يرون طريقا لتحقيق المعرفة المعتبرة سوىٰ المشاهدة والتجريب واستقراء المحسوسات. فإذا كان جمع من الناس عظيم قد اتفقوا علىٰ إنهم شاهدوا شيئا خارما للنظام الطبيعي المعروف (أيا ما كان ذلك الشيء)، واتفقوا في وصفهم ذلك الشيء أو تقاربوا جدا، مع كونه من المستبعد للغاية أن يتواطأ علىٰ الكذب ذلك العدد الكبير من أناس أكثرهم لا يعرف بعضهم بعضا من الأساس، فكيف يمكن للباحث المتمسك بتعاليم الدين الطبيعي، أن يصل إلىٰ تكذيبهم فيما يزعمون رؤيته؟ ليس ثمة طريق لمن يريد ذلك إلا الاستناد إلىٰ دعوىٰ «الهلوسة الجماعية»، فلا بد وأنهم قد تعرضوا لأحوال نفسية مخصوصة هيأت لهم جميعا أن يصدقوا أنهم رأوا ما كانوا يحسبون أنهم يرونه!

وفي الواقع فإن فكرة الهلوسة الجمعية من حيث المبدأ ليست في جميع الأحوال ضربا من الخرافة أو التنظير التسويغي Rationalization الذي يتعلق به قوم لا همّ لهم إلا الاعتراض علىٰ تلك الأخبار وتكذيبها لأهواء في نفوسهم، بل هي نظرية سوسيو-سيكولوجية لها مستندها من الدليل الحسي المعتمد في مثلها. فقد سجل الباحثون جملة من الوقائع المتعلقة بدعاوىٰ الحوادث الخارقة للعادة، توافق فيها كلام عدد من الشهود الحضور علىٰ صفة مخصوصة (مخالفة للعادة) لذلك الشيء المشاهد في تلك الواقعة، ثم تبين بعد ذلك أنه كان في الحقيقة علىٰ خلاف ما ذهبوا إليه جميعا.[١] فحينئذ لا يجد الباحث الإمبريقي إلا أن يفسر ذلك التوافق علىٰ إدراك صفة مخالفة

(١) ينظر على سبيل المثال: (بيختيريف وستريكلاند، ١٩٩٨)

للواقع المحسوس علىٰ أنه «هلوسة جمعية» أو «وهم جماعي»، مبناها علىٰ الدافع العاطفي (الخوف أو الرجاء) الناشئ عن تلقي الخبر المسبق بذلك الحادث العجيب قبل رؤيته عيانا (وهو ما يمكن اعتباره من صور الإيحاء الإدراكي Suggestion). ينتشر الخبر بأن شيئا عظيما يقع الآن في السماء – مثلا – وأن هذا الشيء هو تجلي أو ظهور للمعبود الشركي الذي يعبده هؤلاء، فهلموا لننظر ونرىٰ بأنفسنا، فإذا نظروا ورأوا، وجدوا نفوسهم وإدراكهم محمولا حملا علىٰ تأويل ما يرونه أيا ما كان علىٰ أنه هو ما يشتهون أن يروه علىٰ التحقيق! لا بد أن يكون ذلك الشيء المتطاول الذي نراه هو هيئة جسد البوذا أو العذراء واقفة في السماء، وتلك الكرة في أعلاه هي رأسها! أو أن يكون ذلك الشيء المكور الذي تبرز منه أطراف مترامية هو جسد الإله شيفا، وهكذا، فيما يمكن اعتباره صورة من صور التمثيل الإدراكي Apophany التي أشرنا إليها في القسم السابق! وكثيرا ما يقع ذلك في دعاوىٰ رصد الـ«يوفو» UFO في السماء، حيث يتفق لجماعة من الناس أن تبصر جسما عجيبا في السماء يطير من فوق رؤوسهم، فيصيح أحدهم قائلا إنه طبق طائر أو نحو ذلك، فيأخذ الكافة ممن حوله في تأويله علىٰ أنه كذلك، ثم ينشر الخبر مفاده أن جمعا من مئات الأشخاص قد شهدوا طبقا طائرا في السماء في يوم كذا في الساعة كذا، مع أن حقيقة ما شهدوه قد لا تزيد علىٰ أن تكون بالونا من بالونات الأرصاد الجوية كما يقع كثيرا في أمثال تلك الأمور! وقد ترىٰ لتلك المشاهدات الجماعية مقاطع مصورة بالفيديو علىٰ موقع يوتيوب وغيره، لا يظهر فيها من تفصيل ذلك الشيء ما يكفي للحكم عليه بأنه شيء خارق للعادة، ومع ذلك يتوافر الناس علىٰ تأويله علىٰ أنه طبق طائر أو كائن فضائي .. إلخ!

فلا شك أن تفسير تلك الاتفاقات الجماهيرية علىٰ أنها توهم جماعي أو هيستيريا جماعية هو في غاية الوجاهة في أكثر الأحيان. ففي تلك الحالة قد يصبح لدىٰ النفس ميل شديد لقبول تأويل مخصوص لبعض الحوافز الحسية الداخلة إلىٰ إدراكها، كالذي يقال له: «السحابة التي في تلك الصورة فيها رسم للفظ الجلالة» أو «الأغصان في المحل الفلاني فيها صورة العذراء» أو نحو ذلك، فلا يأتي إلىٰ محل تلك السحابة أو تلك الأغصان لينظر إليها إلا ونفسه حريصة حرصا مسبقا علىٰ تركيب عناصر تلك

الصورة المزعومة في إدراكه علىٰ نحو ما يشتهون جميعا أن يدركوها. لذا، فمهما كان الواقع مخالفا لما زعم الأول أنه رآه، فبمجرد أن ترتسم في إدراك الثاني بعض عناصر ذلك الشكل أو تلك الهيئة المزعومة فستحمله نفسه علىٰ موافقة الأول (صاحب ذلك الزعم)، ومن ثمّ ينتقل ذلك الإدراك المخالف للواقع من الأول إلىٰ الثاني انتقال العدوىٰ. ولا شك أنه إن تكاثر عدد من انتقلت إليهم تلك العدوىٰ علىٰ هذا النحو، ثم جاء الخبر إلىٰ من بعدهم منقولا عن جمع كبير من الناس، فستكون نفوسهم أميل إلىٰ التصديق، وقد يكذب الواحد منهم عينيه إن لم يدرك ما رآه هؤلاء، أو يلتمس التسويغات العقلية لتخلف تلك الرؤية عنه هو بالذات (تبعا لما في نفسه من دواع قد تحمله علىٰ التصديق). وبهذا تتنامىٰ الهلوسة الجماعية وتتضخم علىٰ نمط كرة الثلج Snowball Model، ولا يزال الناس يتناقلون الخبر بمزيد من الإضافات والزيادات الخيالية طمعا في أن يصبح لدىٰ الواحد منهم زيادة علم ترفعه بين يدي الأقران وتقدمه عليهم!

ولا شك أن هذا التفسير السيكولوجي لا يغفل جانب الاعتقاد والقيم المعرفية الفردية Cognitive values لدىٰ الإنسان وتأثير ذلك علىٰ إدراكه عند تعرضه لحالة كهذه. فالذي يعتقد – من حيث المبدأ – صحة دعوىٰ أن العذراء يمكن أن تظهر لجماهير أهل ملته لتباركهم أو تشفع لهم، أو أن البوذا قد يجيب نداء أحدهم، أو أن الميت قد يأتي بعد موته من عالم الأموات ليتمثل ليقضي بعض حوائجه هو نفسه أو يرفع عن نفسه ظلما وقع عليه أو ينتقم ممن قتلوه أو نحو ذلك، أو أن الكائنات الفضائية Extra-terrestrials قد ترسل أطباقا طائرة UFO في أي وقت لتراقب حياة البشر علىٰ الأرض، وأن هذا يقع كثيرا وفي جميع بلدان العالم (مع اعتقاد وجود مؤامرة حكومية لتغطية هذه الحقيقة!)[1]، الذي يحمل في نفسه اعتقادا من هذا الصنف، فلا بد وأنه سيكون ميل نفسه شديدا للقبول والتصديق إن تعرض لموقف قد يخرج منه وهو معدود من جملة

(١) والذي نقطع به أن قصص ظهورات اليوفو والكائنات الفضائية كلها لا تنفك عن خصلة من ثلاث: فإما أن تكون من الكذب والاختلاق الصرف، وإما أن تكون من التوهم والهلوسة، وإما أن تكون من تلاعب شياطين الجن بعقول بعضهم. وقد انتشرت تلك الوقائع ورواياتها في فترة الخمسينات والستينات من القرن الميلادي الماضي في أمريكا بصفة خاصة بالنظر إلى ما كان سائدا في ذلك الوقت من صراع الحرب الباردة بين أمريكا والاتحاد السوفيتي على غزو الفضاء والتوسع فيه!

من تعرضوا بأنفسهم لتلك الواقعة الفريدة، أو «المعجزة» عظيمة الأثر في حياته هو وعامة من يشاركونه ذلك المعتقد. هم يشتهون أن يثبتوا لأنفسهم تلك المشاهدة أشد ما يكون الاشتهاء، فلا بد لنفسوهم من أن تتلاعب بهم بصورة ما أو بأخرىٰ في تأويل ما يشاهدونه حتىٰ يجعلوا الأمر كما يشتهون!

ولكن المشكلة التي غفل عنها الماديون الإمبريقيون في تطبيقهم تلك النظرية، هي أن عكس ذلك يصح فيمن يعتقد اعتقادا راسخا بأن شيئا من هذا لا يمكن أن يقع أبدا، تأسيسا علىٰ اعتقاده الفلسفي بعدمية الغيب وبأنه لا يمكن أن يقع شيء خارق للعادة (بسبب غيبي) أصلا! فمثل هذا تحمله نفسه – في المقابل – علىٰ تكذيب ما قد يظهر له من مثل ذلك مهما كان خارقا لعادته وعادة الناس! فالذي لا يرىٰ جواز ظهور شيء خارق للعادة Supernatural في العقل من حيث المبدأ، مثل هذا مهما شاهد من المشاهدات ما كان حقه أن يحركه (كمنظر إمبريقي) علىٰ التنازل عن ذلك المعتقد فلن يفعل، وسيظل يتلمس – لا محالة – ما لذ وطاب لنفسه من التفسيرات المادية (الطبيعية) أو ما يسمونه بالتفسير العقلاني Rational Explanation/Explaining away[1]، إلىٰ حد أن يتهم عقله هو نفسه وبصره بالكذب عليه (من غير سابقة مرض عصبي أو عقلي من مثل ذلك قد تعرض لها في حياته قط) لمجرد أن يجد لنفسه تفسيرا يتفق مع عقيدته الغيبية لتلك المشاهدة العجيبة التي يراها. والقصد أنه كما يمكن الوقوع في الهلوسة الفردية أو الجمعية في قبول دعوىٰ من دعاوىٰ المشاهدات الخارقة للمعتاد، تبعا للعقيدة والميل النفسي الشديد لدىٰ المتلقي، فكذلك يمكن الوقوع في الهلوسة أو في التأويل المعوج لرد دعوىٰ من تلك الدعاوىٰ تبعا للعقيدة والميل النفسي الشديد كذلك، ولا فرق. يحصل في النفي كما يحصل في الإثبات سواء بسواء!

---

(١) والتفسير العقلاني عند هؤلاء هو كل تفسير للوقائع المشاهدة يخضع لعقيدة الماديين الطبيعيين في الغيبيات: أنه ليس ثمة شيء من المشاهدات يمكن أن يكون خارجا عن «الطبيعة» سببيا (على أن المراد بالطبيعة في ذلك السياق هو كل ما يمكن – من حيث المبدأ – إخضاعه للحس والمشاهدة من الموجودات). فإذا ما تكلم أحد من الناس بعامل سببي غيبي – أيا ما كان ذلك – فليس تفسيره «عقلانيا» عند أصحاب ذلك المعتقد الفلسفي.

وقد أخبرنا رب العالمين في القرآن عن أناس شاهدوا ما أجراه الله علىٰ أيدي الأنبياء والمرسلين من خوارق للعادة والقدرة البشرية، ومع هذا تأولوها كلها علىٰ أنها «سحر» وخداع ونحو ذلك، ولم يحصل منها في نفوسهم ما حصل في نفوس العقلاء الذين سبقت لهم من الله الحسنىٰ. والسبب في ذلك (نفسيا) واضح لمن تأمل. فالذي يرفض دعوىٰ نبي من الأنبياء بأن الشرك باطل وأن التوحيد هو الأليق برب العالمين وأنه قد جاءهم مبعوثا من عنده ليخرجهم من تلك الظلمات الباطلة (ببداهة العقل) إلىٰ نور الحق، الذي يرفض دعوىٰ كهذه ويصر علىٰ الانتصار لما عبده وتألهه من المخلوقات، هذا مهما جاءه ذلك النبي بعد ذلك بآيات تؤيد زعمه بأنه مرسل من عند الله تعالىٰ حقا لن يقبلها منه المشرك المعاند، وستزين له نفسه تأويلها علىٰ أي وجه متكلف حتىٰ يخرج نفسه من التزام لازمها، تماما كما زينت له من قبل البقاء علىٰ الشرك ورد دعوىٰ التوحيد بادي الرأي، وتبعا لنفس الدوافع والمحركات الباطنة عنده. لهذا لم يكن إظهار الأنبياء والمرسلين للمعجزات والآيات متقدما علىٰ دعوتهم أقوامهم للتوحيد ونبذ الشرك، وإنما كان تابعا متأخرا علىٰ ذلك، فهو لم يكن يأتي إلا لزيادة اليقين في قلوب من سبق أن آمنوا من قبل (بما وجدوه من مطابقة الفطرة في دعوىٰ النبي)، أو لزيادة الخوف والرهبة مع تعظيم الحجة حتىٰ يشتد العذاب علىٰ من سبق أن كذبوا من قبل، كما في قوله جل وعلا: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾ [**الإسراء**: ٥٩].

فالذي يعلم أن هذا الذي يقف أمامه نبي من أنبياء رب العالمين، ولا يعقل إلا أن يكون كذلك، ومع هذا يصر علىٰ تفسير ما بين يديه من الخوارق علىٰ أنها سحر وخداع للأعين، فهذا إنما حمله كبره وهواه علىٰ ركوب مطايا التسويغ المعرفي Cognitive Rationalization كما بسطنا الكلام عليها في قسم سابق من هذا الكتاب.

والقصد أن الهلوسة والوهم الإدراكي يقع تحقيقا (فرديا كان أو جماعيا)، وليست هي بمستبعدة عن تفسير كثير مما مر بنا روايته في هذا الباب عن أهل الملل الشركية من مشاهدات توافر علىٰ إثباتها الجمع الغفير من الناس. ولكن كما أن النفس قد تتحايل

علىٰ صاحبها وتخادعه حتىٰ يثبتها، فهي قد تتحايل كذلك عليه حتىٰ ينفيها. ولهذا كان المسلمون أهل السنة والأثر أسعد الناس حظا بالسلامة من تلك الحيل النفسية ومن الوقوع في الأوهام والهلاوس، مهما ظهر لهم من خوارق العادات، لأنهم أهل اعتقاد صحيح في الغيبيات من الأساس، اعتقاد مطابق للفطرة والبداهة، ليس فيه من التناقض (بين مفرداته في نفوسهم أو بينها وبين ما يرونه من مشاهدات) ما يحملهم علىٰ التماس التسويغات النفسية المعوجة المبنية بعضها فوق بعض طبقات، لنصرته والبقاء عليه!

فلا شيء من تلك الوقائع والعجائب يمكن - مهما عظم واشتد بين أيديهم - أن يضغط علىٰ نفوسهم في جهة الزوال عن ذلك الاعتقاد أو تغييره (كما قد يقع مع نصراني يرىٰ بعينيه ظهورات البوذا أو الإله «كالي» مثلا، أو مع ملحد يرىٰ ظهورات العذراء فوق كنيسة من الكنائس أو إمام الزمان في حسينية من حسينيات الشيعة)، سواء كان ما يدركه من صورة وهما تخيليا أو حقيقة واقعة، بل لا يزيدهم ذلك كله إلا رسوخا وثباتا علىٰ الحق، ولله الحمد والمنة. فأنا كمسلم، لا يعنيني - علىٰ سبيل المثال - هل ما ظهر لي أو لغيري (وإن كثرت وتوافرت أعدادهم وتواتر إثباتهم لما رأوا) من صورة الإله كالي (مثلا) في يوم من الأيام كان وهما أو هلوسة عندهم، أم كان ظهورا لشيء واقعي تمثل في الهواء بين أيديهم بعد أن لم يكن موجودا من قبل![1] هو خداع يخدعون به أنفسهم علىٰ أي حال، لأني أقطع وأتيقن ببطلان اعتقادهم في ذلك المعبود ولا يرد علىٰ ذلك القطع الجازم عندي ولا يتسرب إليه أدنىٰ قدر من احتمال الفساد أصلا! وهو يقين منعقد منصرم في نفس المسلم صحيح الإيمان، بما لا يجد فيباطن تلك النفس من نزع الفطرة ما يصرخ بفساده من حين إلىٰ آخر! أو بعبارة أخرىٰ، قد

(١) حتى ما قد ينسب لأحد الصالحين من كرامة أو نحوها لا يتأثر اعتقادي - أنا المسلم - بنفيه عنه إن نفيته أو إثباته له إن أثبته، ولا ينبني عليه عندي عمل أصلا (خلافا لما ذهبت إليه طوائف المبتدعة من الصوفية والقبورية)، لأن معرفة الإنسان بالصلاح أو الفساد لا تنبني على ظهور الكرامات وإنما المرجع فيها أقواله وأعماله واعتقاداته بالأساس، فإن كانت على السنة، كان جريان ما جرى من خارق للعادة على يده من جنس الكرامات، وإلا كان من عمل الشيطان. فإن وقعت له الواقعة من ذلك الصنف وكانت كرامة حقا، فلا ترفعه عندي إلى منزلة فوق منزلته، وإنما تزيدني يقينا في صحة هذا الدين لأنها إذن تكون من جملة دلائل صدق النبي عليه السلام. أما أن يرفع بها صاحبها إلى منزلة فوق منازل البشر، فهذا مما لا يقع إلا في نفس مشركة خبيثة!

تكون أقرب إلىٰ مصطلح النفسانيين: ليس يجد المؤمن الموحد في شيء من ذلك ما يعرضه للاضطراب المعرفي الاعتقادي Cognitive Dissonance علىٰ أي صورة من الصور، بما يضطره إلىٰ التماس التسويغات والتفسيرات من هذا الصنف أو ذاك، كما يتعرض له أصحاب المعتقد الشركي أيا ما كان ذلك المعتقد (بما فيهم الملاحدة).

فعلىٰ سبيل المثل، ترىٰ الهندوسي محمولا علىٰ الانتصار ضد إطلاق الملحد بأن جميع تلك الوقائع المسجلة عند الهندوس هي من قبيل الهلاوس الفردية أو الجماعية، بل تراه محمولا علىٰ الانتصار للكثرة الكاثرة منها، وربما تراه يحرص علىٰ الضرب في فكرة الهلوسة الجماعية هذه نفسها من حيث الأصل[(١)]، لماذا؟ لأنه يعلم أن زوال تلك «الظهورات» من ترسانة اعتقاده قد يعني زوال الاعتقاد والدين برمته، لأنه سيعني كذب الإله المعبود نفسه، أو كذب من يزعمون أنهم يتكلمون باسمه، والتحول عن تلك الملة أمر يكرهه أشد الكراهة ولا يتصوره لنفسه. وكذلك ترىٰ الملحد المادي حريصا - في المقابل - علىٰ التوصل إلىٰ تكذيب كل واقعة من هذا الصنف تقع عليها يداه، فمهما جاءه خصومه من أهل تلك الملل ببراهين دامغة علىٰ أن شيئا عجيبا مخالفا لمعهود

(١) وانظر إن شئت في كتاب بعنوان «في الدفاع عن المعجزات: انتصار مفصل لدعاوى أعمال الإله عبر التاريخ» من جمع وتحرير النصرانيين غايفيت وهابرماس (١٩٩٧)، حيث يجتهد الباحثان في إبطال فكرة الهلوسة الجمعية من الأساس، بدعوى أنه إن سلمنا بمعقولية إبطال ما تأتي به الحواس للإنسان على أساس من دعوى الهلوسة المجردة من غير سبب يدعو إلى ذلك الظن، لأمكننا أن نسقط أي دعوى إدراكية يزعمها أي إنسان أو أي جماعة من البشر. ولا شك أن هذا الكلام يقبل منهم إن صح أن لم يكن ثمة سبب يدعو لذلك الظن! ولكن واقع الأمر أنكم تنتصرون لدعاوى باطلة بشأن المسيح عليه السلام وأمه، معلوم بطلانها بالضرورة والبداهة، فلا يخلو ما ترونه من أن يكون وهما تتوهمونه، أو عبثا من ألاعيب الشيطان!

فلأن القوم قد قام شطر عظيم من اعتقادهم على تلك الوقائع، فلا بد أن يعمل الواحد منهم بكل قوة على دفع أي احتمال لكونها وهما أو خيالا، فرديا أو جماعيا. فمع أن واقعة كظهورات بلدة «فاتيما» مثلا - وقد مر بك الكلام عليها - من غير المستبعد أن تكون من قبيل الهلوسة الجمعية، بل لعل ثمة مؤشرات كثيرة ترجح ذلك (كحقيقة أن الناس قد توافدت إلى تلك الواقعة على اعتقاد مسبق بأن شيئا عظيما سيقع لا محالة في وقت مخصوص في مكان مخصوص تبعا لما زعمت الفتاتان سماعه من العذراء نفسها، وحقيقة أن الواقعة لم يرها أحد سواهم، على زعمهم بأنها غيرت من صورة الشمس في وسط النهار)، إلا أنك ترى صاحبي هذا الكتاب يحاولان إبطال فكرة الهلوسة الجماعية عن تلك الواقعة بكل طريق، بما نفسره نحن على أنه تهرب مما قد يقتضيه إسقاط تلك الواقعة وتكذيبها ونحوها من روايات الظهورات الخارقة التاريخية المعتمدة لدى الكنيسة من مقتضيات اعتقادية لا يمكنهم تصورها.

البشر من الأسباب الحسية قد وقع تحقيقا، رأيته يتلمس من التنظير والتفسير ما يدفع به عن نفسه حالة الاضطراب المعرفي الناشئ عن علمه بمقتضىٰ إثبات هذه الواقعة أو تلك من اضطراره إلىٰ تغيير اعتقاده الغيبي تغييرا يكرهه أشد الكراهة.

ونقول إن السبب في ظهور نظرية الهلوسة الجمعية وكثير من نظريات التوهم الإدراكي بصفة عامة علىٰ هذا النحو الذي هي عليه، هو حقيقة أن الإنسان (الموصوف عندهم إجمالا بأنه «طبيعي» أو صحيح نفسيا normal بالنظر إلىٰ أداء جهازه العقلي والعصبي والعاطفي) قد يصل به هواه وميله العاطفي تجاه فكرة ما إلىٰ أن يُري عيني رأسه ما لا حقيقة له في الخارج، أو أن يُكذِّب ما تراه عيناه مما هو موجود في الواقع تحقيقا، من أجل إشباع ذلك الهوىٰ والميل في نفسه أيا ما كان. هذه آفة نفسية في الإنسان يعرفها المسلمون بما منّ الله به عليهم من ميراث النبوة كما لا يعرفها غيرهم من أهل الملل والفلسفات، قديمها وحديثها علىٰ السواء. فالعمل النفسي في اتباع الهوىٰ عند الإنسان ليس يقتصر علىٰ دائرة التأويل أو التوجيه المعرفي cognitive interpretation /assessment للشيء المدرك حسيا Perceived، بل قد يتجاوز تلك الدائرة ليصل إلىٰ تشكيل مادة المدخل الإدراكي الحسي نفسه من الأساس، فيخالف المرء بإدراكه الحسي ما هو واقع في الخارج علىٰ الحقيقة!

ولا غرابة في ذلك، فكما هان علىٰ بعض الناس أن يقنعوا أنفسهم بأن وجود العالم الخارجي وهم كله لا حقيقة له إلا في أذهانهم، فكذلك هان علىٰ آخرين أن يقنعوا أنفسهم بأن أعينهم توهمهم برؤية الأشياء علىٰ خلاف ما هي عليه في الواقع! ولا شك أن من أقنع نفسه بالفعل بأن الزعم بأنه مخلوق مصنوع هو وجميع ما حوله من الأشياء الحادثة في عالم الشهادة، وهم وخرافة (كذاك المدعو ريتشارد دوكينز الذي ألف كتابا يدعو فيه إلىٰ الإلحاد أبىٰ إلا أن يسميه «وهم الإله»)، لن يتعذر عليه أن يقنع نفسه بأن جميع ما قد يراه أهل الأديان المخالفة لنحلته من خوارق العادات ذات الطابع الديني ليس إلا وهما وخرافة، ولو أنه تعرض ذات يوم لرؤية شيء من ذلك بعينيه وشهده بنفسه لرأيته يكذّب عينيه تكذيبا. إلا أن تستحسن نفسه (في عقله الباطن) الانتقال إلىٰ

تلك الملة التي يُنسب إليها ذلك الحادث الذي شهده مع من شهدوه من أهل الملة، إذ ترىٰ في ذلك مما تشتهيه وتهواه من عاجل متاع الدنيا ما لا تجده إن بقي صاحبها علىٰ إلحاده، فإذا به تزدان له مسوغات أهل تلك الملة وتنظيراتهم وأقوالهم في ذلك، وإذا به تحمله تلك النفس علىٰ مناصرتهم علىٰ اعتبار أنه كان ملحدا ماديا صرفا ثم «أقنعته» تلك «المعجزة» وحملته علىٰ ترك إلحاده والدخول معهم في دينهم! فإذا ما احتفوا به ورفعوه فيما بينهم، تحقق لتلك النفس الخبيثة ما تريد.

بعبارة أوسع نقول: من أراد أن يقنع نفسه بأي شيء مهما كان باطلا متناقضا فاسدا غاية الفساد، فلن يعجز عن ذلك، شريطة أن يكون في نفسه من الهوىٰ والحرص والميل القلبي ما يكفي لدفن ذلك التناقض في مكان سحيق في أعماق نفسه تحت طبقات وطبقات من التسويغات والحيل والألاعيب والملاهي الفكرية والشعورية. فما دام يجد ما يحب وما يشتهي من ثمرة ذلك الاعتقاد الذي تمسك به (فوق ما يتوقع أن يجده بين الناس إن أعلن مفارقته ذلك الاعتقاد)، فلن يعدم طريقا لإقناع نفسه بصحته وإن كان بطلانه مما لا يماري فيه إلا من لا يدري يمينه من شماله!

الباب السادس

باب في منهاج السنة في مخاطبة المشركين عموما والملاحدة خصوصا.

أقول وبالله المستعان، وفي عبارة موجزة لا أجد أحسن منها للتقديم لهذا الباب: إن كل من خاطب المشرك (سواء كان وثنيا أو كتابيا أو دهريا ملحدا) بالتأسيس العقلي النظري في قضية بديهية فطرية قد جاء هو منازعا مماريا فيها، فقد أساء إلىٰ الحق الذي معه وزاد من إباء واستكبار وبُعد خصمه المماري عن نور الحق الواضح الذي تكلف المراء فيه، من حيث يحسب أنه ينصحه ويقرب الحق إليه!

أتدري أيها الداعي إلىٰ الله لماذا يعجز – أو يتعاجز – الملحد عن الوقوف عند حدّ في السؤال والتشكيك؟ أتدري لماذا لا «يقتنع» بشيء مما يقرأ (أو هكذا تزين له نفسه المريضة)؟ لو زعمت أن السبب في ذلك العرض عنده معرفي أو علمي أو نظري فقد أسأت إلىٰ عقلك أنت قبل غيرك من عقلاء البشر! فإنه لا عقل لمن لا يقيم وزنا – بموقفه الفلسفي أيا كان – للمعاني اللغوية المجردة التي تنبني عليها بديهيات العقل الأولىٰ، كمعنىٰ الحق ومعنىٰ الدليل ومعنىٰ التعليل ومعنىٰ السبب، ونحو ذلك من معاني قد تفنن أهل الجحود في تلبيسها بتعريفات متهافتة لا لشيء إلا لإجراء الجدال والمراء جريان الماء في نهر لا مصبّ له ولا منبع! فالملحد ليس إلا إنسانا مكابرا ارتضىٰ لنفسه ملة تسوي في المنزلة المعرفية بين البديهيات الأولىٰ والقضايا النظرية، وبين الشيء واللا-شيء، وبين الوجودي والعدمي، وبين ما في الذهن وما في الخارج، فلا تنتهي عند ما ينتهي إليه العقلاء الأسوياء لأنها لا تبدأ مما يبدؤون منه أصلا، بل تطالبهم بالتدليل علىٰ ما لا يصح إلا أن يكون أساسا ودليلا يلتمس مثله في إثبات ما هو نظري من الحقائق المعرفية.

لقد ألقيت الضوء في هذا الكتاب علىٰ مرض نفوس المشركين بفئاتهم، الذي يحملهم علىٰ الصدود عن الحق الواضح بعدما جاءت به رسل الله، ولم يفتني أن ألقي الضوء كذلك علىٰ مرض نفوس من تصدروا لمجادلتهم في أعراض مرضهم ذاك ببضاعة الفلاسفة والنظار! فعندما يكون الشيء أظهر من أن يُبذل الدليل النظري من

أجله، ومع هذا، يسعىٰ أحدهم في طلب ذاك الدليل ويتفنن في صياغته بلفظ لن تجده – بالضرورة – إلا أقل جلاءً وظهورا من تلك الحقيقة البدهية التي يراد له أن يكون دليلا عليها من الأساس، فتراه يسعىٰ في توضيح الواضحات بما هو أقل منها وضوحا وأكثر عرضة للتأويلات والاشتراكات اللفظية واختلاط التصور، فإنما يكون هذا هو المذموم عند العقلاء ضرورة، وليس من تخلف عن ذلك العبث كله وقاطعه جملة واحدة ولم ير في نفسه حاجة إليه أصلا! ولولا أن انقلبت موازين العقل عند الفلاسفة من فرط أهوائهم وعظيم كبرهم، هم وأتباعهم، ما استحسنوا التشكيك في تلك البديهيات والتنطع عليها بتلك الألوان من السوفسطائية العجماء التي يصاب العقلاء الأسوياء بالغثيان من إطلاق النظر فيها.أتب

اعلم يا أخ الإسلام أنه لا يعاند فطرته ولا يغالب بداهة عقله رجل إلا مرضت نفسه وذاق من أثر ذلك في خلواته من اضطراب النفس ما لا يعلم منتهاه إلا من يعلم السر وأخفىٰ. فمن أراد أن يحارب الإلحاد (لا سيما في هذا الزمان) فعليه أن يضع جهده في محاربة صنعة الفلسفة الغيبية نفسها وقطع المسلمين عنها، تلك «المسرحية الهزلية» التي يزعم جملة من المجانين فيها أن لكل واحد منهم في موقفه الاعتقادي الغيبي مستندا من «الأدلة العقلية» لا يسعه أن يزول عنه حتىٰ يقتنع ببضاعة خصمه من مثل ذلك، مع أنه يعلم في باطن نفسه أنه كاذب متخرص يخادع نفسه وخصمه بدعواه أن ذاك الجدال يرجىٰ منه الوصول إلىٰ «الحق»! أما أن يدفع الداعية بنفسه إلىٰ تلك المسرحية نفسها، يتقمص دورا فيها، بدعوىٰ «الرد علىٰ الملاحدة» فتراه يتلبس بنفس ذاك اللعب والعبث واللهو الشيطاني الذي تلبس به أصحابها، كما فعله المتكلمون في القديم والحديث، يأتيهم بالبراهين لإثبات الحق الذي يؤمن به، علىٰ شروطهم وطرائقهم، فلينظر هذا في نفسه وليراجعها مرة بعد مرة، فما نراه إلا قد أصابته العدوىٰ من حيث لا يشعر، والله المستعان.

نقول علموا المسلمين الردود والأجوبة الكلية الكافية التي يوصد بها الباب أمام تلك الأجناس من الشبهات جملة واحدة، ثم يقعد المسلم معها آمنا مطمئن النفس

راسخ القدم علىٰ يقين واعتقاد رصين لا تزعزعه هذه الشبهة أو تلك مهما مر به بعدئذ من مثل ذلك، بل يحرص علىٰ اجتناب مواضع ذلك العبث جملة واحدة، وعلىٰ تطهير أذنيه وعينيه منه ما استطاع. علموه ما لا يجد نفسه مدفوعا معه إلىٰ ركوب مطايا الشبهات وتكلف النظر في رد هذه ورد تلك وجواب هذه وجواب تلك، ومقارنة جواب فلان بفلان، بحثا عن الرد الأحسن.. إلخ! علموه كيف يحقق اليقين في نفسه في صحة ما هو عليه، وكيف يحفظ ذلك اليقين في صدره ويصونه كما يصون الدم الجاري في عروقه! فهذا والله ما يحتاج المسلمون إليه في هذا الزمان، أن ينتصر الواحد منهم علىٰ وسوسة الشيطان، ويُعرض عن ذاك اللعب كله جملة واحدة ولا يجد في نفسه ميلا لسماع شيء من ذلك أصلا مهما كثر وانتشر في الأرض من حوله.

وليسأل الدعاة إلىٰ الله أنفسهم: لماذا يشتغل الباحث منهم في العقيدة والتوحيد والقضايا الفلسفية المعاصرة بذلك الباب من أبواب البحث من الأساس، ولماذا يحرص علىٰ خوض المناظرات والسجالات مع هذا وذاك؟ هلا وقف مع نفسه وقفة صدق وتأمل فيها وساءلها هذا السؤال؟ أهو لمناصحة المسلمين وصيانة عقيدتهم بهدم بنيان الباطل من جذوره وأصوله الكلية، وبيان منهج الحق في أصول المعرفة عند المسلمين، بما يليق به من جلاء وشمول وكمال؟ أم أنه الاستعلاء علىٰ الملحد المعاند باستعراض العضلات العقلية وإظهار القدرة علىٰ خوض تلك المتاهات والمضايق التي يتفنن فلاسفة الإلحاد والمنصرون ونحوهم في خوضها، ثم الخروج من ذلك كله بإثبات الحق والانتصار له كما كان يرجوه أهل صنعة الكلام في أول ظهورها في أمتنا؟ أم هو خليط بين المقصدين؟ أم أن المراد التلفيق والترقيع بين مصدرين معرفيين مختلفين اختلافا أصوليا ومنهجيا عظيما، في سبيل بناء عقيدة جديدة لمسلمي هذا الزمان، تتسع لقبول ما جاء به الطبيعيون من اعتقادات ودعاوىٰ نظرية في مسألة أصل الكون والحياة ونحوهما، جعلوها هي العلم الذي يتهم مخالفه بالجهل والسخافة؟ أهو تأسيس لعقيدة جديدة للمسلمين أم دفاع عن عقيدة الصحابة والتابعين أم هجوم علىٰ عقيدة المخالفين أم ترقيع للجمع بين هذه وتلك أم ماذا؟

وأقول لمن أغرقوا في مناظرة ومجادلة هؤلاء حتىٰ «تخصصوا» في ذلك: لا تغتروا بتوبة بعضهم ورجوعهم إلىٰ الإسلام بعد مناظرة طويلة جرت بينكم وبينهم هنا أو هناك، فإننا نقطع بأن سبب إسلامهم إنما هو ما قضاه الله في نفوسهم من تحول في ميزان الأهواء عندهم لانت معه قلوبهم للحق الذي كانوا يعرفونه يقينا، وليس ما جرىٰ بينكم وبينهم من جدل فلسفي سوفسطائي يراد به (من جهتكم) إثبات صحة البدهيات وتوضيح الواضحات! هذا الجدال يبعدهم عن الحق ولا يقربهم إليه، لأنهم لا يبدؤونه معكم إلا والحق عندهم أقل خفاء تحت طبقات التشويش واللغو المفتعل (سيكولوجيا) مما يكون عليه بعده، كما بينا وجه ذلك في هذا الكتاب! وقد بينا بفضل الله كيف أن الله تعالىٰ لم يخاطب المشركين في القرآن بمثل هذا، وإنما خاطبهم بالوعظ والتخويف تارة وبالترغيب تارة، مذكرا إياهم بمقتضيات وبعض تفاصيل ما عرفوا صحته في نفوسهم بالفطرة والضرورة العقلية إجمالا. فلا والله ليس من الحكمة ولا من فقه الدعوة أن ندخل في مناظرة مع رجل جاحد نحاول أن نلتمس معه دليلا «نظريا» لإثبات صحة ما لا يجوز لعاقل صادق أن يزعم خفاءه عليه بالأساس، أو يزعم أنه ليس بينا بنفسه ولا يفتقر إلىٰ دليل كما ندعي!

وقد حذرت بعض الإخوة من قبل من خطورة تراكم تلك المناقشات والمناظرات مع الملاحدة في محل واحدة، ونبهت إلىٰ أن محصولها لن يكون فيه مرجعية لمن يريدون التصدي للإلحاد والفكر الإلحادي كما يحسبون، وإنما سيكون فيه إقرار لمبدأ النقاش الطويل (بل والمكرر مرارا وتكرارا بأساليب شتىٰ وبعقول تتفاوت ما بين القوي الثاقب والضعيف الهزيل) مع أكثر طوائف المشركين إغراقا في الجحود والاستكبار وأكثرهم استفادة من ذلك الجدال نفسه، في ضروريات العقل الأولىٰ وقطعيات الملة الكبرىٰ التي لم يكن المرسلون وتلامذتهم من بعدهم يطرحونها للجدال أصلا. وفيه - بالتبعية - فتح لأبواب لا يعلم حصرها إلا الله من بدع المتكلمين وانحرافاتهم (لأن هذه هي طريقة المتكلمين بالأساس، التي ذمها السلف ﷺ وحذروا منها)، بما يجعله مفرخة للمذاهب البدعية الحادثة كـ«الخلقويين الإسلاميين» المتخصصين في أسلمة الفلسفة البيولوجية الخلقوية النصرانية كطريق للرد علىٰ الدراونة، و«الطبيعيين

الإسلاميين» المتفننين في أسلمة ميتافزيقا الفيزياء الحديثة وعلم الكونيات المعاصر كطريق للرد علىٰ فلاسفة الطبيعيات من الملاحدة، والمعتزلة الجدد من العقلانيين والحداثيين ونحوهم المشتغلين بإغراق المسلمين في ألـوان جديدة من الحجاج الفلسفي الميتافزيقي بدعوىٰ تطوير الخطاب الديني السلفي، إلىٰ آخر ذلك.

أي فائدة أو مصلحة شرعية تراد للمسلم من الغوص في تفاصيل نظرية داروين كما يصنع بعضهم، حتىٰ «يتخصص» بعضهم - هداهم الله - في نقد مفرداتها وتفكيك مفاصلها؟ لو صدق الداعية من هؤلاء مع نفسه والتزم اعتقاد بطلانها بالكلية لانتقاصها من ذات الباري جل وعلا في أصولها (الفلسفية) الأولىٰ وفكرتها الأساسية التي تقوم عليها، لما فتح الباب لمرضىٰ النفوس من أهل القبلة للتهارش في جزئياتها وتفاصيلها علىٰ نحو ما يصنعون! ولكن المشكلة أن من القوم من يكره أن يبدو أمام الملاحدة الطبيعيين من أهل القبلة وغيرهم وكأنه ليس ذا دراية دقيقة متعمقة بتفاصيل تلك النظرية، تماما كما كره المتكلمون الأوائل أن يبدو عليهم الجهل والعجز «العقلي» والقصور عن فهم تخرصات فلاسفة اليونان وسفسطاتهم التي يعترضون بها علىٰ وجود خالقهم وباريهم وكمال حكمته جل وعلا! هي ذات العلة النفسية والهوىٰ الخفي الذي كتبت هذا الكتاب حتىٰ أنبه إليه الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ، وأحذرهم من عاقبته، في جملة من المقاصد الأخرىٰ وراء تأليفه، فأسأل الله أن ينال منهم أذنا صاغية وقلبا متجردا.

وأقـول: علىٰ الداعية المسلم أن يفرق بين مقام التصنيف المرجعي المحكم الذي يكتبه رجل مكين من علوم الشريعة علىٰ عقيدة أهل السنة والجماعة ومن تلك الفلسفات الوافدة كذلك حتىٰ يبين للمسلمين ما لبس عليهم فيها ويصفي عقائدهم من آثارها من غير أن يكون واقعا بعمله في اتباع سنن أهل الكتاب أو المتكلمين من مبتدعة أهل القبلة من حيث لا يدري، وبين مقام من يرجو أن يمد يد الدعوة للملاحدة العرب المصرحين بإلحادهم سواء علىٰ الشبكة العنكبوتية أو خارجها، من كان منهم مرتدا عن الإسلام ومن كان كافرا أصليا (ولا ينبغي أن يستوي هذا وذاك في مدخل الخطاب، دع عنك مشروعية المخاطبة نفسها وما يرجىٰ من ثمرتها بالأساس)! هذان مقامان للعمل

الدعوي لا يجوز أن يستويا عند الداعي إلىٰ الله تعالىٰ في زماننا هذا، ولكننا نراهما قد استويا بالفعل تحقيقا وتداخلا أشد التداخل في أوساط المشتغلين بهذا الشأن، لا سيما علىٰ الشبكة العنكبوتية، وإلىٰ الله المشتكىٰ. ونرىٰ بكل أسف أن باب الكلام في تلك القضايا الخطيرة قد صار مفتوحا علىٰ أوسع ما يكون للمجاهيل وأنصاف المتعلمين وأشباه العوام، يأتي كل واحد منهم يريد أن يتفنن ويبتكر طريقة جديدة لإبطال كلام الملحد المجادل، فيجربها معه ليرىٰ كيف تأتي الثمرة وكيف يكون جوابه، تماما كما هو مدخل اللاهوتيين مع خصومهم في تلك الصنعة الأكاديمية التي يقال لها «فلسفة الدين» وقد مر بك استعراض جانب من مباحثها الشيطانية عند المتخصصين فيها.

ولعل الفارق الأساسي بين ما يصنعه هؤلاء المتناظرون المتحاورون في بلادنا وما يصنعه أولئك في محافلهم الفلسفية الأكاديمية المتخصصة أن الأمر عند بني جلدتنا (سواء من المسلمين أو خصومهم الملاحدة) مفتقر إلىٰ التدرب الأكاديمي المتخصص علىٰ طرائق الفلاسفة ومناهجهم النقدية كما نراه عند أصحاب تلك الصنعة السوفسطائية المتخصصة في بلاد الغرب! ولذا، فبينما يتراكم لدىٰ الأكاديميين في أوروبا وأمريكا محصول تلك المجادلات والمساجلات السوفسطائية بينهم في إطار نظامي منهجي Disciplinary، ترىٰ نظيره يتراكم لدينا في إطار من الفوضىٰ والشعث. وحسبك أن تدخل الآن علىٰ «قوقل» لتبحث عن حوارات المسلمين والملاحدة في أي دعوىٰ من دعاوىٰ فلاسفة الإلحاد (لا سيما دعاوىٰ الطبيعيين والدراونة منهم، وكلام فلاسفتهم فيما يقال له «مشكلة الشر») لترىٰ برهان ما أقول.

فهل هذا الأنموذج الأكاديمي الغربي المتخصص هو ما نطمع الآن في إيصال دعاتنا إلىٰ مضاهاته، حتىٰ يتمكنوا من صيانة المسلمين من زحف الفكر الإلحادي التنويري الأوروبي؟ هل أصبحت الغاية الآن عندنا معاشر الدعاة إلىٰ الله هي أن نخرج «فلاسفة لاهوت إسلامي» يتخصصون في تلك الصنعة الفلسفية السوفسطائية العقيمة، تحت راية «مقارنة الأديان» أو غيرها، ولعلهم في المستقبل يصبح عملهم هذا نواة لتأسيس معهد أكاديمي فلسفي متخصص في بلاد المسلمين علىٰ غرار معاهد الفلسفة الغربية، يصبح

فيه الملحد والمسلم ندين متساويين اجتماعيا وأكاديميا في خصومة «فكرية» سرمدية، هذا فيلسوف متخصص (أو أستاذ أو مفكر أو كيفما أحببتم أن تسموه) والآخر فيلسوف متفنن كذلك، يصرح كل واحد منهما باحترام رأي الآخر وحججه ويواصل الجدال معه والتفنن فيه، بما يصبغ الشأن كله معه بصبغة المشروعية في مجتمعاتنا المسلمة المبتلاة التي لا نراها تمضي إلا إلىٰ مزيد من الإغراق في العلمانية والديموقراطية وحرية الإلحاد؟ هل حقا تريدون هذا المستقبل لحواركم مع هؤلاء؟ والله لا أحسب الملاحدة العرب يطمعون في أكثر من هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

واليوم أصبحنا نرىٰ من إخواننا من يسارع إلىٰ الفضائيات ومحافل العامة ليدخل في مناظرة مع ملحد أو في محاورة حول فلسفات الإلحاد، بدعوىٰ أننا لو تركنا «الساحة» لانقض عليها أهل البدع. فكأن لسان الحال يقول: إن كان ولا بد من انحرافات منهجية أو بدع في ذلك الشأن، فلنكن نحن أصحابها لا غيرنا، المهم أن نكون في الصدارة وأن نحرز لدعوتنا مزيدا من الانتشار والعلو علىٰ المنافسين بذلك، والله المستعان.

ولسان حال الملحد في المقابل يقول: نعم فلتنفتح أبواب الحوار والنقاش الديني والفلسفي علىٰ أوسعها، وليصبح الملحد مفكرا محترما له حججه وله دعاواه المستندة إلىٰ أعمال فلاسفة كبار لهم منزلتهم، وليصبح لدينا في مقابله الفيلسوف اللاهوتي أو الاعتذاري الإسلامي Islamic Apologetic أو إن شئتم فقولوا «المتكلم السلفي» (وكفىٰ به تناقضا!) الذي ينقطع للتفنن في مجادلة كل عابر سبيل من مسفسطة الإلحاد، ولعله يستفيد من تجربة اللاهوتيين الغربيين في ذلك فهي غنية وافرة، ودونه تصانيف المتكلمين من أهل القبلة كذلك، وليصبح ذلك النقاش في مناظرات علنية علىٰ كل ملأ من الناس في بلاد العرب، تلك البلاد التي لا تزال «تعاني من فقر فلسفي وفكري كبير»!

وليفشُ فيهم ذلك الجدل والمناظرة كما فشا في بلاد الغرب سواء بسواء!

نعم هيا بنا إلىٰ الحوار الفلسفي المتعمق، فهو سمة الشعوب «المتحضرة» وهو سبيل البلاد الديموقراطية الراقية، ولتحترموا خصومكم الملاحدة كما يحترمونكم (زعموا)، ولتغرقوا في ذلك السجال الطويل أبد الدهر، فلا يظهر فيكم حق علىٰ باطل

أبدا ولا تقوم لملتكم دعوة ظاهرة علىٰ الدين كله (كما كان في صدر الإسلام) إلا أخمدناها وزلزلنا أركانها في قلوب الناس، وألقينا علىٰ أسماعهم وأبصارهم ما لا أول له ولا آخر من شبهات الفلاسفة واعتراضاتهم عليها! ولا تجزعوا إن نحن فعلنا ذلك، فسيظل حق الرد والجواب العلني مكفولا لكم في كل وقت وفي كل مكان كما هو مكفول لنا، والأمر في ذلك ملعب واسع لا علو فيه لأحد علىٰ أحد، ولا لنحلة علىٰ الأخرىٰ! دعوا الملعب يتسع وأطلقوا أقلامكم كما يحلو لكم في المجادلة والمناظرة وتفننوا في ذلك بكل جديد مبتكر، ودعوا من أراد التأليف لنشر فلسفته – أيا ما كانت – ليؤلف وينشر ويبث ما يحلو له في الناس، واجعلوا ذلك في سياق أكاديمي رسمي محترم، يقام فيه لكل فيلسوف وزنه وحقه (كمفكر حر) في دعوة الناس لاتباعه وموافقته وتعظيمه بما ينشر، فلا يقال له ولا أحد من أتباعه: «أنتم جحَدة أهل أهواء لا تريدون قبول الحق من بعد ما تبين لكم»!

فإن المسائل التي تدعوننا إليها معاشر الموحدين ليست بهذه السهولة التي تبدو عليها بالنسبة لكم، والحقائق الغيبية التي أسستم عليها دينكم ليست بهذا الوضوح الذي تزعمونه، ولو كانت كذلك ما طال الجدال فيها في بلاد الغرب من أيام اليونان وإلىٰ يومنا هذا! هذا هو صوت العقل يكلمكم فاسمعوا ولا تستكبروا علىٰ الخصوم ولا «تحتكروا الحقيقة»!

والقصد يا عقلاء المسلمين أن هذا التوسع في الجدال والمناظرة مع هؤلاء الجحدة هو عين المطلوب والمأمول عندهم أصلا، حتىٰ يصلوا ببلاد المسلمين إلىٰ نظير ما استدرجوا إليه أوروبا من قبل في زمان التنوير: أن يتحول المجتمع المسلم من مجتمع طارد للملاحدة ولفكرة الإلحاد نفسها، ناقم عليها وعلىٰ أهلها أشد ما تكون النقمة، متمسك بشناعة تلك النحلة وعظم ما فيها من جحود للحق يفوق ما في غيرها من الملل الشركية أضعافا مضاعفة، من شدة اشمئزاز نفوسهم – التي لا تزال علىٰ الفطرة السوية فيما يتعلق بقضية وجود باريهم جل وعلا ولله الحمد والمنة – من مجرد تصور فكرة الإلحاد نفسها وما يدعو إليه أصحابها، إلىٰ مجتمع قد مات فيه الإحساس

من كثرة المساس، وصار بعيدا عن تلك الفطرة السوية المستقيمة غارقا في الجدل في تلك القضية في كل ركن وزاوية من أركانه، متقبلا لوجود الملحد (اجتماعيا) من حيث المبدأ، معتادا عليه، ليس هذا فحسب، بل إلىٰ مجتمع يحظىٰ فيه الملحد بعلو في الأوساط الفكرية والثقافية، بسبب إلحاده لا علىٰ الرغم منه، ويصبح له - بوصفه منظِّرا ملحدا داعيا إلىٰ الإلحاد علنا متفننا في فلسفاته - ما للملحد الغربي في أوروبا من منزلة فكرية بين أتباعه وعموم الناس، معترَفٍ بها بين الموافقين والمخالفين علىٰ السواء. هذا الغطاء الفكري الاجتماعي هو ما يحلم ملاحدة العرب اليوم باستدراجكم إلىٰ إمدادهم به من حيث تحسبون أنكم تخدمون الدعوة إلىٰ الله في بلادكم. وأقول إنه في ظل حرية التعبير والديموقراطية ونحوها من سياسات علمانية غالبة علىٰ الوعي الجماعي في بلادنا المبتلاة، لن تفضي مسالك المتكلمين التي تفننتم فيها في معاملة هؤلاء إلا إلىٰ هذه الثمرة التي يطمعون فيها عاجلا أو آجلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فاتقوا الله عباد الله ولا تكونوا جسرا يمشي عليه هؤلاء صوب بلوغ ما يريدون! اتقوا الله واتركوا مجادلتهم البتة كما تركها سلفكم الأول، واعملوا علىٰ صيانة قلوب المسلمين من بضاعة هؤلاء بكل وسيلة، ولا تفتحوا لهم تلك الأبواب فتكونوا فتنة للمسلمين من حيث أردتم الخير والهداية للناس.

فهل تروني أدعوكم بذلك إلىٰ ترك الرد علىٰ دعاوىٰ المبطلين وبيان كذبها وضلالها؟ كلا والله! وإنما أطالبكم بالتحلي بطريقة سلفكم الصالح ﷺ ومن تابعهم من العلماء والأئمة في التعامل مع الملاحدة والدهرية خصوصا والمشركين من أهل الملل عموما، حتىٰ لا تفتحوا أبوابا جديدة في بلادنا قد عافانا الله منها قرونا طويلة، من حيث تحسبون أنكم تحسنون صنعا. أغلقوا «مجالس الكلام» التي فتحتموها تحت دعوىٰ «الحوار» و«صناعة المحاور»، وتفرغوا - إن كنتم فاعلين - لتنقية منابع المعرفة العلمية الطبيعية والإنسانية في بلادنا من ثمرات وفروع التنظير والفلسفة الإلحادية في كثير من العلوم والصناعات الأكاديمية المستوردة إلىٰ بلادنا، التي قامت علىٰ تلك الفلسفات قياما لا ينتبه إليه إلا من توسع في دراستها توسعا أكاديميا متخصصا! نعم هذه طريق

طويلة شاقة، تخلو من أنوار الشهرة والانتشار الإعلامي ولا تنال فيها الثمرة إلا بعد قطع شوط طويل من الدراسة والتحقيق والبحث، وقد لا ينتهي المشتغل بها إلىٰ أن يكون «داعية» معروفا له أتباع ومريدون من عامة المسلمين، فاسألوا الآن أنفسكم صدقا وتجردا: أمن أجل هذه اللعاعة اخترتم لأنفسكم هذا الطريق؟ أمن أجل الانتشار والعلو في الأرض وغزو المنابر الإعلامية وزيادة التابعين والمحبين والمريدين، أم من أجل صيانة جناب التوحيد وعلوم الدين من كل مفسد متهوك مجرم، ومن سفسطة الزنادقة ومن تأثر بهم من صنوف المتكلمين؟ هذه هي المسألة فتأملوها وقفوا مع أنفسكم وقفة صدق فيها يرحمكم الله.

وقد حدثني بعضهم ذات يوم حينما نصحته بمثل هذا الكلام بأن أوان الممانعة من الحوار والنقاش مع هؤلاء ومحاصرتهم فكريا قد فات، لأنهم قد بات لهم وجود علني في الناس تحقيقا وباتت دعاواهم تبث هنا وهناك من فوق منابرهم، بما يستدعي ظهور من يتصدىٰ لهم وجها لوجه. ونحن نقول: سلَّمنا تنزلا بذلك الانتشار (علىٰ الأقل ولو مقارنة بما كان عليه الحال من قريب)، فهل من شيء يلزمكم بأن يكون التصدي والرد لأصحابه في قالب الجدل الكلامي أو المناظرة الكلامية المباشرة مع آحاد هؤلاء؟ ألا يكفي أن يكون عملنا في ذلك بأن نخاطب المسلمين – وليس الملحدين – الذين يغلب علىٰ ظننا تعرضهم لذلك القذر الفكري (نخاطبهم بخصوصهم وليس عموم المسلمين في الفضائيات ونحوها فانتبهوا!) بكلام موجز بليغ يذكِّر فيه المسلمون بمقتضيات الفطرة السوية، ويوعظون فيه بالحرص علىٰ صيانة تلك الفطرة وذاك الحس النقي لديهم، وصيانة دينهم الذي هو لحمهم ودمهم، ويبين لهم ببيان مجمل موجز أن الملاحدة مهما تفلسفوا فهم علىٰ ضلال بعيد، وعلىٰ مرض نفسي ذميم، إذ يحاولون بكل وسيلة أن يشوشوا علىٰ الحق الجلي الواضح الذي شهدت به عليهم بداهة عقولهم وصرخت به في نفوسهم، ويبينوا أن سلامة القلب والنفس من عدوىٰ ذاك المرض النفسي المدمر لديهم (الذي هو غاية ومنتهىٰ ما يمكن أن يصل إليه آدمي من التلبس بالأهواء التي تعمي الأبصار) لا تتحقق للمسلم إلا بالانصراف عن التعرض لكلام

هؤلاء جملة واحدة حيثما وجدوهم، كما كان السلف الأول يصنعون (لا بالتصدر لمجادلتهم كما هي طريقة المتكلمين)، عملا بقوله تعالىٰ:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، فإن سأل أحد المسلمين عن شيء أجبناه بخصوصه بما يناسبه، وإن رأينا انتشارا لفلسفة بعينها بما يستدعي التصنيف المفصل والنشر المدقق في نصيحة المسلمين وبيان بطلانها لهم، فعلنا ذلك بقدره من غير إفراط ولا تفريط؟ ألا يتحقق لكم مقصد صيانة المسلمين من الفكر الإلحادي إلا في سياق ينفتح فيه الباب لمسفسطة الإلحاد هؤلاء ليدخلوا ويجادلوا ويناظروا الخصوم في سفاهتهم الكبرىٰ علىٰ ملأ من المسلمين، يجالسونهم فيها مجالسة الأنداد والأقران؟ كيف يكون في ذلك صيانة للمسلم أصلا وقد علمتم أن المنتصر بالحجاج النظري للبديهيات الأولىٰ (وهو آفة علم الكلام التي من أجلها ذمه سلفنا رحمهم الله) كالنافي لها المحاجج لإنكارها، كلاهما علىٰ السواء فيما يفضي إليه صنيعهما من هدم منزلتها البدهية المنصرمة في قلوب البشر، وإدخال الشك النظري الصناعي عليها؟ وكيف يستقيم لكم سعي في غرس اليقين في تلك المقدمات العقلية الأولىٰ (التي منها بل علىٰ رأسها وجود الباري جل وعلا) في قلوب الناس، وقد اتخذتم من الترجيح النظري الفلسفي طريقا إلىٰ ذلك؟ قفوا عباد الله مع أنفسكم وقفة صدق وتأملوا في هذا المسلك وتبعاته النفسية والاجتماعية علىٰ عامة المسلمين علىٰ المدىٰ البعيد، يرحمكم الله، يتبين لكم - بعون الله وفضله - الحكمة في تشديد سلفكم في المنع منه جملة واحدة.

من قال لكم إن عقول المسلمين اليوم ما عادت تكتفي بالوعظ والتذكير بثوابت الفطرة فيها، وإنما تحتاج إلىٰ جواب نظري تحليلي يقنعها (وقد سمعت المجرم المدعو عدنان إبراهيم يتكلم بمثل هذا)، فقولوا له كذبت، فأنت لست بأحكم ولا أعلم ولا أحسن طريقا من أنبياء الله الذين لم يسلكوا تلك المسالك السوفسطائية الساقطة حتىٰ مع أشد عتاة الشرك علوا بالباطل وتشدقا بالفلسفة في أقوامهم، ولست أحسن منهجا

ولا أقوم سبيلا من أئمة السلف وعلمائهم الذين لم يستدرجهم انتشار الزندقة والإلحاد في بلادهم إلىٰ تلك الأضرب التي أنكروها علىٰ المتكلمين في زمانهم، ولم يجيبوا الملاحدة مهما راودوهم طلبا للمناظرة والمناقشة و«المحاورة»! من كان من عامة المسلمين لا يكتفي بما نأتيه به وظل يشكو من أن الوساوس تطارده والشيطان لا يتركه، سعينا في المزيد من سبل علاج قلبه ونفسه من ذاك الداء بالعلاج النبوي السلفي الناجع قبل أن تنبت منه في نفسه غشاوة ترديه في مستنقعات الشك والإلحاد، وبينا له بطلان ما افتتن به بقدر ما يحصل به المقصود! فلا يكون علاج هذا المسكين بأن نمده بمزيد من البذور لتلك النبتة الشيطانية المهلكة في صدره، نعرضه لجدال المجادلين وحوار المتحاورين وتنظير الفلاسفة من كلا جانبي ذاك النزاع العبثي الأسود الذي نزعم أننا نعتقد أنه لا يصح أن يجري بين الناس أصلا، وإنما يكون العلاج باجتثاث تلك النبتة من جذورها لديه جملة واحدة، من أصل منهجها المعرفي نفسه عند أصحابها. فمن مالت نفسه إلىٰ الإلحاد واستحسنت متابعة كلام أصحابه وظلت تتقلب بين دعاواهم و«حججهم» و«حجج خصومهم» وتنظير كلا الفريقين (الفلاسفة وأهل اللاهوت والكلام) فيما إذا كنا قد خلقنا خالق أصلا أم لا، فليست مفاتيح الهداية بيد أحد من البشر أصلا، وإنما الأمر كله لله! ﴿**مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً**﴾ الآية [**الكهف**: ١] ذكروا المسلمين بقطعيات فطرتهم وخوفوهم من فتح أبواب التشهي بقراءة جدال المجادلين في تلك البديهيات الفطرية الكبرىٰ، فقد علمتم أن النفوس لا تميل عن الحق الجلي الظاهر إلا تشهيا لثمرة عاجلة تأتيها من أثر تركه أو المراء فيه، أو كراهة لما قد يلحق بها من أثر البقاء عليه، وأن العلة عند الجاحد المكابر إنما هي في جحوده ومكابرته، لا في «خفاء الدليل» عليه بما تصلح معه المناظرات والمجادلات النظرية!

يقول أحدهم في مقال كتبه بعنوان «لماذا يلحد بعض شبابنا»، فيما لا أراه إلا مثالا حيا من أمثلة الوهن – بل قل الرعب – التربوي:

> كثيرٌ ممن ألحدوا كان إلحادهم هو نتيجة لتساؤلات أربكت عقولهم فبحثوا عن إجابات لها ولم يجدوا شيئا، والمصيبة الأكبر هي أن تقابل مثل هذه التساؤلات

بالكبت والتخويف والتعنيف، كبت الأسئلة وقمعها وعدم الترحيب بالاختلاف في الرأي ومنع الحوار سبب ردة فعل لدىٰ البعض أدت إلىٰ نفور من الدين والتدين. من الضروري أن يهتم المفكرون والمربون بحوار الشباب المتسائل، وأن يرحبوا بكل أسئلته أيًّا كانت، وأعني بالحوار هنا الحوار الحقيقي، وهو في أن تعطي وتأخذ، تتحدث وتستمع، لا أن تقدم موعظة فكرية ثم تسمي ذلك حوارا! بعض المشايخ أو المفكرين يتعامل مع الشباب بطريقة أستاذية بحيث ينتظره يسأل السؤال أو يطرح الشبهة كي يسرد عليه الإجابة التي يفترض هو أنها ستكون مقنعة، ولكن هذه الطريقة ليست مجدية مع هؤلاء الشباب».

قلت: أي اختلاف – يا رجل – ذاك الذي تدعو «بعض المشايخ» إلىٰ تسويغه، وأي أسئلة تلك التي لا ترىٰ لهم إلا الترحيب بها «أيا كانت»، والحوار مع أصحابها بأي صورة كان؟ أولو كان السؤال نفسه علامة علىٰ خلل نفسي عظيم عند صاحبه (وأعني مرض الهوىٰ والكبر) أو وسوسة شيطان لا يجوز الترسل معها؟ من الذي قال إن كل سؤال يطرحه واحد من البشر فقد تعين علىٰ المخاطبين به أن يجيبوا عنه وأن يحرص المجيب علىٰ أن تكون إجابته «مقنعة»، بل أكثر من ذلك، يجب أن يكون أسلوب المجيب خاليا من منطق الأستاذية، وأن يشعر السائل بأن سؤاله هذا سؤال جيد ووجيه وأن الأمر فيه متسع للرأي والكلام والنظر؟ الذي قال بهذه الأقوال وقررها وأسس عليها منهجا فكريا وتربويا كاملا، يربو عمره في التاريخ المدون علىٰ الثلاثين قرنا، إنما هو الفيلسوف الدهري اليوناني، وعلىٰ أثره ومنهجه جرىٰ اللاهوتيون والمتكلمون من أهل الملل! هؤلاء هم من قالوا بأن كل سؤال – أيا ما كان موضوعه – يجب أن يكون لدينا فيه جواب ما، واشترطوا في الجواب أن يكون «مقنعا»، وهو ما يلزم منه أن يكون جاريا (أي ذاك الجواب) علىٰ طريقة الاستدلال وفئة الأدلة التي يحبها السائل ويرجىٰ من استعمالها معه أن «تقنعه»! فإن لم يظهر اقتناع السائل بالجواب وأثار عليه اعتراضا، وجب – وجوبا – علىٰ المجيب أن يعالج اعتراضه بنفس الشروط التي التزمها في إجابته الأولىٰ، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية له ولا حد أبدا! اللهم إلا أن يملّ المجيب من تكرار نفسه أو من إعادة صياغة الفكرة نفسها مرة بعد مرة، فيعمد حينئذ – وحينئذ فقط – إلىٰ ادعاء أن السائل مكابر معاند لا يريد أن يقتنع بالجواب الواضح الجلي!

كيف - يا عقلاء المسلمين - يريد أحدكم أن يربي ولده علىٰ أنه لا حرج ولا إشكال في طرح أي سؤال أيا ما كان، وأن الأمر كله فكر في فكر، ونظر في نظر، ورأي في رأي؟ وأي غش هذا الذي يتلبس به الشيخ أو الأستاذ أو الوالد إن أسس جوابه لسؤال السائل علىٰ هذا الأساس المنهجي الكلي؟ وأي إيمان يقوم في قلب يتربىٰ علىٰ قول كهذا؟ إنه إيمان المتكلمين، ذاك الإيمان المهتز المهترئ الذي يدور به صاحبه مع آخر نظرية كلامية أو فلسفية قرأها وآخر جواب نظري سمعه وآخر رأي طالعه، يصبح علىٰ دين ويمسي علىٰ غيره! أما إيمان الرسل والأنبياء وأتباعهم فلن يعرفه هؤلاء أبدا إلا أن يشاء الله!

بئس المربي هذا الذي يحتاج هو نفسه إلىٰ من يربيه ويضبط له نفسه وعقله أولا، فيكون كما قيل قديما: فاقد الشيء لا يعطيه!

فليسأل الواحد من هؤلاء نفسه - إن كان صادقا - لماذا يكره أن يعلم أولاده ويربيهم من نعومة الأظفار علىٰ أن من السؤال ما هو مذموم مقبوح بمجرد تصوره، إذ العاقل لا يفتقر إلىٰ إجابته أصلا، وأن منه ما هو تدخل فيما لا حق لنا - معاشر بني آدم - أن نتدخل فيه، كما في قوله تعالىٰ ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [**الأنبياء**: ٢٣]؟ لا سيما وقد علم أن أكثر أسئلة الملاحدة من هذا الصنف أصلا، إما في اعتراض علىٰ حكمة يجهلونها أو تعليل لا يتصورونه، مكذبين بما لم يحيطوا بعلمه، أو تسخط علىٰ حال يكرهونها، وكأن الرب مطالب بأن يعلل لهم ويشرح لهم ويفصل سبب كل فعل يفعله، إن لم يضمن لهم العيش في رفاهة تامة علىٰ نحو ما يحبون، حتىٰ يتكرموا ويتفضلوا ويرضوا بالله ربا وبالإسلام دينا ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ففي الوقت الذي ما كان الواحد من أئمة السلف وحكمائهم ﵃ جميعا يرىٰ بادرة الميل عند أحد من المسلمين إلىٰ طرح هذا الصنف من الأسئلة إلا سارع بتحذيره ووعظه من مثل هذا، ومعالجته بالاستعاذة بالله تعالىٰ من الشيطان الرجيم كما وصىٰ رسول الله ﷺ في مثل هذا، ترىٰ هؤلاء يدفعون به إلىٰ كلام المتكلمين والفلاسفة والنظار، ويزينون له الترسل والتمادي في السؤال و«الحوار» و«الأخذ والرد» .. إلخ، حتىٰ ألف

أحدهم كتابا ضخما في جواب السؤال «فمن خلق الله»، مع أنه يعلم أن الرسول ﷺ ما أجابه بمثل هذا!! فوالله ما ذاك إلا لأنهم أضعف قلوبا وأوهن نفوسا من أن يترفعوا فوق رؤوس الفلاسفة وأذنابهم من أصاغر الإلحاد قدمائهم ومحدثيهم علىٰ السواء، بالحق الخالص الذي معهم، وأن يصرحوا بكل قوة وثقة وحزم بأن السؤال في هذه وتلك إنما هو سفه محض، وإن تكاثرت عليه الفلاسفة وأصحاب اللاهوت والكلام في كل عصر ومصر! وأن يبينوا أن ثمة أمور لو طرحت للسؤال لطار العقل وانهدم العلم علىٰ أصوله، من غير أن يلزموا أنفسهم بشروط الفلاسفة في توضيح الواضحات وبيان الظاهرات الجليات!

ولكن عندما يكون المربي نفسه مهزوز النفس، يحركه الهوىٰ الخفي والكبر الدفين، فيخاف أن يوصم بالضعف العقلي وسوء الفهم لما يُدفع إليه من أسئلة، فهذا الذي كتبه صاحبنا فيما تقدم نقله هو ما ننتظره حينها، ولا حول ولا قوة إلا بالله! إنها «عقدة النقص» يا عباد الله! إنه حب الدنيا وكراهة الآخرة! إنها نفس تلك العلة النفسية التي نشأ منها علم الكلام نفسه من قديم، بل وجميع صور الفلسفة الإلهية والغيبية نفسها من قبل ذلك! نفس ذاك المرض القلبي الذي حمل بعض المنتسبين إلىٰ القبلة علىٰ أن يبالغ في تعظيم أرسطو حتىٰ جعله المعلم الأول وإمام الحكمة ورأس العلماء في كل صنعة .. إلخ، مع أنه كان في الحقيقة من أعظم من خلقهم الله إفسادا لعقول الأمم وقلوبهم، ولم يزل! تأمل كيف يقول ابن رشد الزنديق في أرسطو - الذي أوشك أن يجعله إلها يعبد من دون الله - قولا يرفعه به فوق الأنبياء والمرسلين والعقلاء أجمعين، يقول(١) : «إن مؤلف هذا الكتاب هو أعقل اليونان، أرسطو طاليس بن نيقوماخس، الذي وضع علوم المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة وأكملها، وقد قلت: إنه وضعها لأن جميع الكتب التي ألفت قبله عن هذه العلوم لا تستحق جهد الحديث، ولأنها توارت بمؤلفاته الخاصة، وقد قلت: إنه أكملها، لأن جميع الذين خلفوه حتىٰ زمننا، أي في مدة خمسة عشر قرنا، لم يستطيعوا أن يضيفوا شيئا إلىٰ مؤلفاته أو يجدوا فيها خطأ ذا بال، والواقع

(١) إرنست رينان (١٩٥٧): ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ص. ٧٠.

أن جميع هذا اجتمع في رجل واحد، وهذا أمر عجيب خارق، وهو إذا امتاز علىٰ هذا الوجه يستحق أن يدعىٰ إلهيا أكثر من أن يدعىٰ بشريا، وهذا ما جعل الأوائل يسمونه إلهيا.» اهـ.

لقد كان ابن رشد يهزأ بعلماء الشريعة ويعدهم من العوام، ولا يرىٰ لعقولهم وزنا أصلا، ولا عجب! فكلما عظمت رؤوس الفلسفة في نفس المرء، حقر وصغر دعاة الدين والتشريع الإلهي عنده، والعكس صحيح. فبينما يدعو المتفلسف إلىٰ الانفكاك من كل عرف وخلق وكل مسلمة من مسلمات العقل والدين، حتىٰ يكون تأسيس ذلك كله عند صاحبه (إن تأسس) علىٰ النظر العقلي علىٰ الطريقة التي بدعها سادتهم وأئمتهم، يدعو عالم الشريعة والدين في المقابل إلىٰ توحيد التلقي والاتباع، ونبذ الابتداع والاختراع، وينهىٰ عن مجرد المساءلة والمراجعة فيما جاء النص الإلهي بحسمه وفصل الخطاب فيه! وقد بينا في قسم سابق كيف أنه ما من شيء أكره عند الفيلسوف من مطلق فكرة الإجماع ومبدأ الاتباع وتلقي المعرفة المنسوبة إلىٰ معصوم، كلامه تام كامل لا يرد عليه الخطأ! لذا فأيما نفس تميل بصاحبها إلىٰ اتباع الرسول وزيادة الحرص علىٰ كمال ذلك الاتباع، فهي مائلة – بالضرورة – عن طريق الفلاسفة في تناول الغيبيات والإلهيات وسائر ما عرفت صحته بالبداهة، وما جاء النص الإلهي بفصل الخطاب فيه من قضايا معرفية، والعكس بالعكس.

لهذا كره هؤلاء من يمنع من التفلسف في تلك البابة أو من الرد علىٰ من تفلسف فيها أو التعرض لكلامه. إنه الخوف بل الرعب من أن يُظن بالمانع أنه ضعيف العقل لا يملك «جوابا عقليا» ولا يقدر علىٰ الدفاع عن اعتقاده ضد هجمات أئمة الصنعة العقلية! فإن هذا الظن يورث – عند أولئك الأئمة المزعومين، كالأستاذ الأكبر والمعلم الأول ونحوهم – الطعن في معقولية اعتقاده نفسه! إذ كيف يستساغ اعتقاد لا يملك صاحبه من البراهين «العقلية» ما يؤسسه به علىٰ «العلم» المعتمد أكاديميا في عصره؟ فكأنما نتكلم ها هنا عن الرأي في مسألة نظرية دقيقة يرد عليها القول والقولان والثلاثة بل العشرين والثلاثين أحيانا، ويتصور في الناس أن يغوصوا في نزاع الرأي فيها من

غير أن يسهل استظهار الحق بين المتنازعين، لا أننا نتكلم عن وجود الباري نفسه وعن كمال الحسن في صفاته سبحانه وتعالىٰ وتقدس، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فأي شيء هذا؟ أي مرض هذا الذي استساغ به أناس من المسلمين تحويل العقائد إلىٰ آراء، والبديهيات إلىٰ نظريات، والضروريات المجمع عليها إلىٰ مذاهب يستساغ النزاع عليها؟ إنه الخوف والرعب من أن تنال الواحد منهم اتهامات «المفكرين» وأصحاب الرأي، بأنه منغلق «ضيق الأفق» يريد أن يصد شباب المسلمين عن السؤال والتأمل والبحث والنظر .. إلخ، من شدة ما في نفوس أولئك الجبناء من حرص علىٰ العلو في الأكاديميات المعتمدة بنظير ما علا به أصحابها! فلما صغت قلوب هؤلاء إلىٰ رؤوس تلك الأكاديميات الفلسفية، وضربتها الفتنة ببضاعتهم، قبح عندهم - جدا - أن يمنع العلماء والمشايخ عامة المسلمين من الخوض في تلك الزبالة، وأن يحذروهم ويعظوهم من أثر ذلك، بل أصبحت الموعظة - من حيث مبدؤها - أمرا مكروها مقبوحا، كما كان يكرهها فلاسفة اليونان من قبل، بل ها أنت ترىٰ بعض المفتونين يعدها في جملة أسباب الإلحاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! الشباب لا يريدون أن يسمعوا الموعظة، فلا تسمعوهم إياها، بل يجب أن تأتوهم بما يشتهون، علىٰ ما يشترطون، وإلا تسببتم في إلحادهم وردتهم! فإنا لله وإنا إليه راجعون!

مع أنهم لو تجردوا وصدقوا لوجدوا أنهم هم المصابون في عقولهم ونفوسهم والله، إذ راحوا يتابعون الفلاسفة من دهرية ولاهوتية في مناهجهم ومفاهيم العقل والبرهان والجدل عندهم، يقلدونهم تقليد الخراف والأنعام، يحتذونهم حذو القذة بالقذة، ثم يأتي الواحد منهم ليرمينا بدائه وما هو متلبس به من تقليد أعمىٰ [1]، يقول - إن لم يكن

---

(١) وما أذمه من تقليد أن تقلد رجلا سفيها لا في آحاد أقواله ولكن في الطريقة التي يفكر بها، ويزعم أن العقل لا يكمل إلا بها! والمضحك المبكي أن ترى الواحد من هؤلاء يحسب أنه قد استقل بعقله وذهنه وتحرر بفكره من تقليد «المشايخ»، مع أنه - وربي - ما انقلب إلا إلى أخس وأحقر أنواع التقليد على التحقيق! وقبل أن تتهمني بالإفراط والمبالغة أيها القارئ الكريم، فتفضل بسؤال أي متكلم تعرفه هذه الأسئلة: من أين جئت - يا حكيم زمانك - بقولك بضرورة النظر في وجود صانعك وباريك وفي حدوث العالم، وتكلف الجواب عن كل سؤال يرد عليك في ذلك، وما مصدر ذاك المذهب وما منبعه عندك؟ إن لم يكن مصدرك في ذلك تقليد الفلاسفة الدهرية في مناظراتهم في وجود باريهم ونزاعهم مع أقرانهم في

بالمقال فبلسان الحال – عليكم ألا تؤمنوا بما جاء به المرسلون حتىٰ تخضعوه لمناهج الفلاسفة في الإثبات المعرفي والتأسيس العلمي، وإلا كنتم مقلدين سفهاء! ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ**﴾ [**البقرة**: ١٣][(١)] يحسب الواحد منهم أنه بتفلسفه وخوضه في ألوان من الجدال كانت

حدوث العالم وفي معاني قد شهدت بها فطرة كل إنسان عاقل سوي النفس، فمن أين إذن؟ من أين جئت بتلك البراهين التي تكلفتها كبرهان الحدوث ودليل الوجوب؟ من الذي علمك – من الأساس – أن تتقبل وتستسيغ السؤال: «لماذا نرى من حولنا وجودا لا عدما؟» كسؤال نظري يستحق الالتفات إليه، مع قبول جنس ما أنشأه الفلاسفة من قبلك من جواب عنه ونحوه من الأسئلة؟ من الذي علمك النظر في الوجود الواجب وعرضك لدعوى أزلية العالم، وعلمك أن العقل يجب أن يجهد في النظر في ذلك، فتابعته على القول الكلي المنهجي بأن هذا النظر هو كمال العقل ومبدأ الفكر وأساس الإيمان عند كل عاقل؟ من أين جئت بمفهوم البرهان العقلي عندك في هذه البابة كلها من الأساس، إن لم يكن من تقليدك هؤلاء في منهجهم المعرفي وأصول جدالهم؟

تلك الشهوة الملحة لاختراع الجواب الكلي، مع التعميم والتجريد والتنظير في هذا الصنف من الأسئلة، هل ولدت فوجدت نفسك عليها أم تعلمتها ممن تابعتهم وافتتنت ببضاعتهم المتهافتة؟ وهل بعد التقليد في معنى العقل نفسه وفي موقفه من بدهياته الأولى التي يجد نفسه مجبولا على التسليم بها، تقليد يذمّ به بنو آدم يا ابن آدم؟

إن كنت قد رضيت – أيها المتكلم – بأن تكون تبعا لأرسطو وأفلاطون وكانط وبيكون ومن شاكل هؤلاء في شرطهم لما يستحق أن يوصف بأنه عقل أو «عقلاني» وما لا يستحق، فلا وصف لك بالعقل عندنا أصلا فيما تستحق، وانتظر يوما على فراش موتك تود فيه لو استطعت أن تستقبل أجلك بقلب سليم لا شك فيه ولا دخن، تود لو أنك عشت عمرك كله لا تعرف الفلسفة ولا تطرق لها بابا، والحمد لله على نعمة الإسلام والسنة والعقل!

(١) ولك أن تتأمل طويلا – أيها القارئ الكريم – في قول الملك تبارك وتعالى حاكيا كلام المستكبرين من المشركين: «أنؤمن كما آمن السفهاء؟»! إنه الكبر قاتله الله! أتريدون منا أن نستوي بالعامة والجهلاء والأصاغر في اتباع رسولكم، من غير أن يكون للصفوة والخاصة والأكابر منا وضعهم الخاص فيما يقبلون وما يردون من ذلك؟ فأين إذن يظهر ما لعقولنا من علو وامتياز قد شهد القاصي والداني، على عقول العامة والدهماء والسفهاء؟ إن لم نتفلسف في الأمر ونتفنن في المخاصمة عليه بألوان الزخرف القولي والنظري الجذاب الذي يخلب ألباب الناس، فأي فرق إذن يكون بيننا وبينهم، وكيف نرجو أن نكون معظمين مقدمين في جماعتهم؟ كيف تريدون منا، ونحن من نحن، أن نقبل زعمكم بأن الحق سهل يسير واضح على نحو ما جئتم به، ونحن قد أفنينا أعمارنا في التفلسف والتشدق وتكلف الكلام العسير العويص والبيان الساحر الخلاب الذي يُشعر العامي بجهله وافتقاره إلى من يتوسط بينه وبين ما يعبد، حتى نكون نحن ذاك الوسيط المفتقر إليه، وحتى نظهر بتلك البضاعة بين العامة وكأننا على شيء ذي بال فيما اتبعناه من ملل الشرك أشكالا وألوانا: شيء لا يفقهه حق الفقه إلا من بلغ أعلى درجات الكهنوت فيما بيننا؟ أبدا لا يكون هذا ولا نرضاه!

تترفع عنه الصبية الصغار والجواري والنسوة في بيوت الصحابة والتابعين، قد علا به عقله فوق تلك الثلة من المشايخ والعلماء الذين حرصوا علىٰ ألا يتجاوزوا في خطابهم الديني «قال الله» و«قال الرسول»! لقد صرتم – والله – كالبهائم تسحبها الفلاسفة سحبا من حيث لا تشعرون! قلدتموهم في عقلياتهم حتىٰ صرتم تخافون أن تُعملوا عقولكم التي خلقها الله لكم علىٰ خلاف ما رأيتموهم يصنعون، وأمسيتم تخافون من تحقيرهم عقولكم كما يخاف العبد من عتاب سيده! فيا لله ما هذه القلوب وأي مرض هذا الذي ضرب فيها؟

لذا وجب أن يصبح الداعي منكم – معاشر الموحدين – معدودا من جملة السفهاء ضعاف العقل الفقراء في بضاعة الفكر والنظر والفلسفة، فيكون دينه دين الدهماء والسفهاء، ويكون ديننا نحن دين العقلاء والعلماء! وحتى نظل عالين عليكم بتلك البضاعة بين الناس أبدا، لزم أن نخاصمكم بها في كل مناسبة، ونسحبكم سحبا إلى الخوض فيها معنا، لأن هذه هي البضاعة التي بها علونا على الناس وتسودنا فيهم من قبل بالأساس، فما كنا لندعها لشيء من دعاوى الناس طرفة عين! ولزم أن يكون من قصر منكم عن الخوض فيها (أي فلسفتنا في الغيبيات والإلهيات كيفما كانت) أو زعم أنها كلها باطل لا طائل تحته ولا يصح الاشتغال به أو الالتفات إليه، قد حكم على نفسه بالجهل والسفاهة بمجرد ذلك! وإلا فكيف نزين لأتباعنا الذين ارتضوا الخضوع لنا كما خضعت آباؤهم من قبل، اعتقادا مفاده أن الرب الذي خلقهم واحد ومتعدد في نفس الوقت، أو أنه متحد مع خلقه في ذات واحدة، أو أنه يحب من خلقه أن يعبد بعضهم بعضا من دونه، وأن يتخذوا الوسطاء بينه وبينهم فلا يرضى هو حتى ترضى تلك الواسطة، وحتى يدعو بعضهم بعضا ويسألوهم من دون الله ما لا يعقل أن يكون للمخلوق قدرة على إجابته ولا دخل فيه أصلا.. إلخ؟ إن لم نخترع من زخرف الأقوال والحجاج النظري الفلسفي ما نزين به لأتباعنا البقاء على أمثال تلك العقائد، فلا سلطان لنا إذن في الأرض ولا علو ولا شيء مما نهوى ونحب! ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىبَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١١٢].

لذا – أيها القارئ الكريم – لزم لكل صاحب اعتقاد شركي فاسد (بما في ذلك الدهرية الطبيعيون باختلاف مذاهبهم) أن يتفلسف ويتفنن في اختراع «البراهين العقلية» التي ينتصر بها لباطله المصادم لبداهة العقل ومسلمات الفطرة السوية، من فرط ما في نفسه من أنفة وكبر وعلو على الحق وأهله، وإباء لأن يصبح هو الذنب التابع، بعد أن كان هو السيد المتبوع! كما لزم أن يكون من يخالفه في فلسفته ويحجز الناس عنها من غير أن يخوض معه في مناظرة الأنداد والأقران عليها (على طريقة النظار في تناول موارد النظر والاجتهاد الفكري من مسائل المعرفة)، جاهلا سفيها لا ناقة له ولا جمل في العقليات والنظريات، وقد حكم على نحلته بالبطلان بمجرد ذلك! ولولا هذا الهوى الشيطاني في تلك النفوس الجاحدة المستكبرة، ما كان لفلاسفة الإلهيات واللاهوتيين والمتكلمين ونحوهم ذاك التعظيم والتوقير الاجتماعي الظاهر في سائر مجتمعات البشر بلا استثناء! إنها سنة الله في كونه وحكمته في الابتلاء ﴿**وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾ **الآية** [**محمد**: ٤]، فالحمد لله أولا وآخرا.

فـ ن كان من التشدد والانغلاق والجهل أن نعلم أولادنا وشبابنا أن من السؤال ما هو محض السفه، وأن منه ما يذَم عرفا وخُلقا، وأن منه ما لا يليق ولا يناسب، وأن منه ما يكون فضولا وعبثا وانشغالا بما غيره أولىٰ منه، وأن منه ما يكون مجرد طرحه نقضا علىٰ مبدأ العقل نفسه ..إلخ، أو أن يربىٰ الإنسان من صغره علىٰ الغاية التي من أجلها وجد في نفسه تلك الأداة التي يقال لها العقل، وأن ينشأ علىٰ معرفة حدود تلك الأداة عنده ونهاية علمه (وهو البشر المخلوق) فلا يجاوز ذلك بسؤال ولا نظر ولا «بحث»، ولا يتطرق إلىٰ بدهيات ومسلمات الفطرة بمساءلة ولا نظر، ولا إلىٰ المغيبات المطلقة بشيء من أنواع القياس، أو أن نقابله إن جاء بشيء من ذلك بالموعظة والتحذير والصد عن منابع ذاك المرض، فلا يراه إلا خللا عقليا ونفسيا (كما هي حقيقته)، إن كان ذلك كله من التشدد والجهل، فهنيئا لنا معاشر أهل السنة بهذا الجهل ولا مرحبا بـ«علمكم» الذي أردتم أن ترفعوا به هذا الجهل عنا! ووالله لنربين أولادنا علىٰ «جهلنا» و«تشددنا» و«مواعظنا» هذه ما ترددت الأنفاس في صدورنا، وإن رغمت أنوفكم جميعا من أولكم إلىٰ آخركم، ولنصبرن علىٰ ما آذيتمونا، ونحن خصومكم يوم القيامة، يفصل الله بيننا وبينكم، هو حسبنا ونعم الوكيل.

إنها الفتنة بزخرف اللقول وسحر البيان، التي تأتي من تراكم طبقات الاصطلاح والتعريف والتسلسل المنطقي في التقديم والاستدلال والتجريد والتقعيد والرد والاعتراض .. إلخ، فتوحي للجاهل بأن من يكلمه إمام عالم متحبر لا يشق له غبار في علمه، وأن من قصر عن الخوض وامتنع منه في ذلك فلا بد وأنه جاهل أو ضعيف لا يقدر علىٰ تعقله وفهمه!

لذا ترىٰ المسلم المتعرض لهذه الأشياء يؤزه شيطانه بأنه لا بد وأن يكون لديه جواب «عقلي» دامغ لكلام هذا الملحد وذاك (علىٰ مفهوم الملحد للجواب العقلي بطبيعة الحال) حتىٰ لا يبدو ضعيفا مغلوبا أو جاهلا أميا أمامه! ومهما تعرض للمزيد من ذلك، رأيته يُعمل عقله ونظره فيه كما هي طريقة الفلاسفة والمتكلمين، يكاثر من ذلك فيما بين يديه وينقد هذا الجواب لغيره من المسلمين أو ذاك وتجري نفسه بذلك

جريا ذات اليمين وذات الشمال، إذ توهمه بأنه لا بد له من أن يتمكن من دحض كل كلمة ينطق بها الملحد بين يديه، وأن يظهر العلو عليه في ذلك، ليس هذا فحسب، بل لا بد من أن يتمكن من «إفحامه» و«إسكاته» في مناظرات تجري علىٰ أصول صنعة الجدل (التي لا تستساغ ممارستها إلا في موارد النظر والبحث والاحتمال أصلا!)، وإلا تعرض دينه لخطر السقوط والانهيار! أليس قد زعم هؤلاء الملاحدة - منذ أن ظهر الإلحاد علىٰ ظهر البسيطة - أن ديننا ليس دين عقل وليس له أساس «عقلي» متين؟ «فلنبرهن» إذن للملحد المغرور علىٰ أنه واهم مخطئ باستعمال جنس البرهان المنطقي التحليلي الذي يرتضيه هو ويشترطه علىٰ الناس، ولنتفنن في طرق إقناعه بأن الأمر ليس كذلك! بل لنكن إذن فلاسفة كبارا ومفكرين مهرة مبرزين بين الناس، لا ندع من كلامهم شيئا إلا جادلناهم فيه، حتىٰ يرىٰ الملحد المجرم أننا أصحاب عقول رفيعة، وأن بوسعنا أن نعلو عليهم في ذلك ونفلهم فلا!

فبأي عقل وبأي شرع نغرق أنفسنا وعامة المسلمين معنا في وحل الفلسفة حتىٰ نثبت لأولئك المجرمين (الذين يتهموننا معاشر الموحدين مهما عملنا لمرض نفوسهم هم لا لعيب فينا) أننا لسنا دون فلاسفتهم أولي الزخارف الإلحادية الساحرة، في القدرة النظرية والمنطقية والبيانية؟

هذه يا عباد الله هي الشهوة اللائحة لنفس «الداعية إلىٰ الله» من هؤلاء، التي تحمله علىٰ ذاك الخوض الذميم، وتُعظم في نفسه الرجاء في العلو في ذلك الشأن، علىٰ تغليف ذلك كله بنية التقرب إلىٰ الله تعالىٰ من جانب، والخوف مما قد يترتب علىٰ عجزه عن الإتيان بالجوابات الدامغة عن هذه الدعوىٰ وتلك أو هذه «الشبهة» وتلك، من الجانب الآخر، من أثر علىٰ الشباب والصبية الصغار. هذه هي أصول نبتة الكلام في أمتنا كما في سائر الأمم من قبلنا! فإما أن تعالجوا أصول هذه العلة القلبية في نفس ذاك المفتون بغثاء الفلاسفة في الإلهيات والغيبيات، وما يترتب عليها من خوف وطمع عنده، وتصرفوه ما استطعتم عن ذاك الوسط الفكري الذي يغذيها في نفسه، وإما أن يبقىٰ بين أيديكم متقلبا بين منازل الشك والريبة والقلق تتنازعه الوساوس ليل نهار، كلما خرج من «شبهة»

دخل في أختها، حتىٰ يصبح قلبه «أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا»، كما وصفه رسول الله ﷺ في وصف بليغ لا مزيد عليه[1]، وإذا به لا يدري أمسلم هو الآن أم لا، ولا يدري علىٰ أي ملة يهلك إذا ما جاءه الأجل اليوم أو غدا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يأتي الملحد منتفشا نافخا صدره يقول – كما كان قولهم ودأبهم من أول ظهورهم في تاريخ البشر وكما سيكون إلىٰ قيام الساعة – «أنتم لا تقيمون إيمانكم بالصانع علىٰ دليل عقلي سالم من الاعتراضات أو خال من التناقضات». فيجيبه المسلم المفتون بقوله: «بل نقيمه علىٰ أحدث ما توصل إليه «العلم» وأكمل ما يكون من نظر العقل في موازينكم، وإليكم البرهان علىٰ ذلك». وإذا بالجدال يجري بين رجلين أحدهما ينكر ما عُرف في عقول البشر بالبداهة المحضة، والآخر يحاول الرد عليه بالتفنن في إثبات تلك المعرفة الضرورية البدهية نفسها بنوع البرهان النظري الفلسفي الذي يشترطه هو عليه!

فأي سفاهة هذه التي يرتضي مسلم عاقل أن يُستدرج إليها، وهل هو صادق مع نفسه حقا في دعواه أن العقلاء الصادقين في التزام الحق لا يفتقر أحدهم يوما ما إلىٰ الوقوف علىٰ ذلك العمل من جانبه حتىٰ يرىٰ وهاء ما عليه الملاحدة من أصول الاعتقاد الغيبي (بصرف النظر عن مزاعمهم الفلسفية في تسويغه)؟ هل يفتقر العاقل – حقا – إلىٰ من يقيم له برهانا نظريا مفصلا يرد به علىٰ كتاب ضخم وضعه صاحبه ليثبت به أن العالم ليس إلا وهما في أذهان الناس (مثلا) ولا حقيقة له في الواقع؟ أم أن الأقرب إلىٰ الحكمة وسلامة العقل والقلب والنفس أن يُدفع بذاك المجلد إلىٰ التنور ابتداءً، فيحرق ويرتاح الناس من فساده من غير أن نلفتهم إليه أو نشغلهم بما فيه طرفة عين، أو ننهاهم عن مطالعته أصلا (إن كانوا يجدونه منشورا في مكتباتهم)، فإن سألونا عنه صرحنا بسفاهة قضيته ومسألته وفساد غايته بعبارة موجزة تصيب ما جُبل الناس عليه من

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه».

فطرة وبداهة أولىٰ، ويتحقق بها المراد كاملا غير منقوص، دون الحاجة إلىٰ الخوض مع صاحب ذلك المصنف الإبليسي في شيء مما زعم فيه من أدلة نظرية ومسوغات فلسفية وجدليات نحن نقطع بأن مجرد طرحها للأخذ والرد يفتح باب الرأي فيما لا يصح للعقلاء أن يقع الخلاف فيه بينهم من الأساس؟ من كان صادقا في زعمه أنه يرىٰ تلك الدعوىٰ (أن الواقع ليس إلا وهما) فاسدة مصادمة لضروريات العقل وبدهياته وأن فسادها يجب أن يكون واضحا وضوح الشمس في أذهان العقلاء من غير أن يفتقر إلىٰ برهان تتحقق المعرفة به من طريقه، فلا شك أنه لن يسلك إلا هذا المسلك في مجابهة تلك الفئة من السفسطات الفارغة، أعني مسلك كشف المرض النفسي والمكابرة والجحود الذي حمل صاحب ذلك الطرح علىٰ الظهور به! وسيربي أولاده علىٰ الترفع عن ذلك والفرار منه حيثما وجد! لا أن يشجعهم علىٰ مطالعة تلك الأسئلة ومطالعة الرد النظري الذي أعجبه هو (أو يعجبهم هم ويروق لهم) عليها، بدعوىٰ أن المسلم يجب أن يتعلم كيف يكون مفكرا حرا يجد الجواب عن كل تساؤل يطرأ علىٰ ذهنه ويجد من يحاوره ويناقشه فيه أيا ما كان ذلك التساؤل!

وإلا، فنحن نسأل كل من قال بضرورة التصدي لكل فلسفة يأتي بها ملحد أو مشرك للانتصار لدينه بالرد والجدال والمناظرة واستخراج البرهان النظري علىٰ فسادها في نفسها: ما لازم هذا التصور في ظنه، وما مردوده علىٰ موقفه من قوة الأساس المعرفي الذي يقيم عليه دينه هو وكل عاقل من عامة المسلمين؟ ألا يلزم منه القول بعين ما قال به المتكلمون الأوائل من أهل القبلة بأن من لم يتكلف النظر في أدلة وجود الصانع بوجه من الوجوه فقد آمن إيمان المقلدين واستحق المذمة من أجل ذلك؟ بلىٰ والله، هو لازمه ومقتضاه حتما، ولينتبه القارئ الكريم لتحقيق هذه المسألة فإنها قضية منهجية دقيقة في غاية الأهمية.

كيف يجتمع في مسلم عاقل القول بصحة وكمال إيمان من لم يتكلف النظر العقلي والكلامي في وجود الباري (وهو إيمان المرسلين وأتباعهم جميعا كما لا يماري فيه إلا مماحك)، مع القول بمطلق الحاجة إلىٰ تكلف المناظرة ونصب البراهين النظرية

الدالة علىٰ وجود الباري جل وعلا؟ هذا تناقض منهجي ولا شك! فإنه لو صح عندنا القول بأننا (كبشر) نفتقر إلىٰ الوقوف علىٰ براهين نظرية يتبين للعقلاء من طريقها بطلان ما عليه الملحد من التكذيب بوجود من خلقه وسواه وركبه، فقد لزمنا أن نخوض في تلك المجادلات والمناظرات معهم رجاء تحقيق الدليل علىٰ صحة مذهبنا، وكأننا في صدد مدارسة مسألة نظرية نقابل فيها «الدليل» بدليل معاكس، والبرهان ببرهان مضاد، ونترك الأمر لترجيح الناس فيما جئنا به جميعا من بضاعة نظرية في المسألة، كما صنعته المتكلمة الأوائل مع الدهريين قبل قرون عدة، وكأن القضية المعرفية التي ننتصر لها تحتمل البطلان - في دائرة الإمكان العقلي المجرد! وإذن فقد لزمنا من مجرد ذلك أن نوافقهم في قولهم بعدم الصحة أو عدم الكمال في إيمان من لم يتكلف الوقوف علىٰ تلك الأدلة النظرية الكلامية يوما ما، فإنه إذن يكون مقلدا في مسألة نظرية، يؤمن بما لا يعرف له دليلا في النظر، وهو وجه مذمة التقليد في الدين وسبب حرمته بالأساس! فتأملوا يا عباد الله في لوازم ومقتضيات مسالككم فالأمر جد خطير. هذا الإلزام أزعم أنه لا فكاك منه لأحد ممن خاض في مجادلة الملاحدة في وجود باريهم، والله أعلىٰ وأعلم.

وللأسف فما أكثر أن ترىٰ أحد المسلمين يقول للملحد «أنت مطالب بإقامة الدليل علىٰ صحة إلحادك لأنك أنت من تدعي أن الإيمان بالله مخالف للعقل»، فيجيبه المجرم بقوله «بل أنتم المطالبون بإقامة الدليل علىٰ وجود الخالق لأن البينة علىٰ المدعي لا علىٰ المكذب»! وكأننا ننظر في قضية يكتنفها الغموض وتتجاذبها الأدلة من الطرفين بما يصعب معه الترجيح! ثم ترىٰ الجدال يجري علىٰ طريقة «البيضة قبل الفرخة أم الفرخة قبل البيضة؟»، هذا يأتي بـ«دليل» والآخر يرد عليه ويأتي بدوره بـ«دليل مقابل» فيرد الخصم عليه، وهكذا في تسلسل طويل ذي أذيال وشعب، مع أن المجادل المسلم يعلم تمام العلم أن وجود الباري ضرورة بديهية لا تفتقر إلىٰ دليل أصلا، ويشهد بأن المنازع في هذا مكابر جاحد لا محالة! فبالله أي عبث هذا، وكيف وبأي عقل يُخرج منه بظهور الحق ويرجىٰ إقرار الملحد بذلك الحق؟

ومما يمكن أن نحاجج به المتكلمين في هذا الباب أن نسألهم: لماذا جاء النص بإعذار المجتهد المخطئ الذي يقصد الحق ويخطئه في مسائل النظر الفقهي في الفروع، ولم نر مثل ذلك ولا قريبا منه في حق من يزعم أنه قد أداه اجتهاده ونظره إلىٰ ترجيح القول ببطلان دعاوىٰ المرسلين أو عدم وجود خالقه وباريه أو أزلية العالم .. إلخ؟ الجواب واضح يرحمكم الله: أنه لا يعقل أصلا أن يكون ثمة اجتهاد ونظر في هذا الشأن، حتىٰ يرد احتمال إخطاء الحق مع الصدق في قصده! الحق هنا لا يرد عليه احتمال الاشتباه بالباطل أصلا حتىٰ يعذر «المجتهد» فيه بضعف مكنته العقلية (مثلا)، ويحمد علىٰ صدقه في البذل والمحاولة وإن لم يصل إلىٰ المطلوب، كما يكون مع المجتهد في كافة مسائل الفروع! إن كانت المسائل النظرية تحتاج إلىٰ بذل الوسع والطاقة في النظر (وهي حقيقة الاجتهاد)، فهل العلم بوجود الباري وكماله الواجب يفتقر العاقل فيه إلىٰ «اجتهاد» أصلا حتىٰ يتحقق في نفسه ذلك العلم؟ أبدا! لذا كانت الحجة الرسالية قائمة بمجرد الإبلاغ والإسماع: من سمعها بلسانه الذي يعقله فقد قامت عليه وقضي الأمر! فإن عاند وجحد أو أعرض وأهمل، استحق العذاب الأبدي إن مات علىٰ ذلك!

وإلا، فبالله أي مسألة نظرية هذه التي يكون من الحكمة وتمام العدل الإلهي أن يعاقب من مال فيها إلىٰ أحد القولين بالتخليد في العذاب الأليم؟ بل أي مسألة نظرية هذه (التي يتصور خفاء الدليل فيها بمجرد وصفها بأنها «نظرية») التي يستحق المخالف «المجتهد» فيها أن يعاقب بأي صورة من صور العقوبة أصلا (فضلا عن أن يكون العقاب: أشد وأبشع ما يمكن لعاقل أن يتصوره من العقوبات علىٰ الإطلاق)؟ لو كان متصورا في الواحد من هؤلاء أن يخفىٰ عليه الحق بعد سماعه وأن يؤديه اجتهاده في الأمر إلىٰ «التوقف» مثلا، فلماذا لم يأت النص في حقه بمثل ما جاء في القاضي والمفتي المجتهد من أهل القبلة من إثبات الأجر والأجرين، مع كون الداعي لبذل الوسع في مثل هذه القضية المصيرية (علىٰ القول بأنها من موارد النظر) أشد ولا شك مما عليه الأمر في مسائل الفروع؟ لو كان يتصور في هذا الحق الظاهر أن يخطئه السامع مع كونه صادقا في طلب الحق لجاء النص بإمهاله في الدنيا وإعذاره (بل مكافأته إن صدق في طلب الحق) في الآخرة، ولكن أين يا عباد الله؟

المشكلة أنك إن حدثت بعضهم بمثل هذا تشدقوا عليك بنحو قولهم: ومن الذي قال إننا نرىٰ مشروعية النظر (هكذا)؟ بل نرىٰ العلم بوجود الباري علما ضروريا غير مكتسب وأن من جحده بعدما بلغه التكليف الرسالي بقبوله فقد استحق العذاب الأليم، وإنما نريد أن نبين لهم بأسلوبهم أنهم علىٰ باطل! ونحن نقول: «أسلوبهم» هذا هو بيت الداء لو كنتم تعقلون! فلو صدقتم في اعتقادكم عدم مشروعية النظر ما تكلفتم التفنن في «البراهين النظرية» (كتفننهم) لإثبات وجود باريكم وإثبات استحقاقه سائر الكمالات وتنزهه عن سائر النقائص التي يتهمه بها المشرك بمجرد الإشراك، وما ناظرتم الخاصة والعامة من المعرضين والمكذبين كما يناظر الواحد منكم من يخفىٰ عليه دليل هذا المذهب أو ذاك في العمليات والفرعيات! بل أنتم متناقضون في الحقيقة، تعتنقون المذهب ونقيضه معه، وتسوغون - بلسان الحال - أقوالا قد علمتم وصرحتم - بلسان المقال - أن من مات عليها من بعد سماعه القرآن فقد استحق الخلود في النار، من غير ما تفصيل ولا قيد ولا إعذار! [1] وقد زينت لكم شياطين الإنس والجن - مع ذلك - اعتقاد أنكم أرفع أهل القبلة عقلا وفهما وأكملهم إيمانا، تماما كما زينت للفلاسفة من أسلافكم ما هم عليه من غمط الناس والاستعلاء عليهم، والله المستعان!

(١) وهو ما لولاه ما وجد الفلاسفة مدخلا لاستنكار واستشناع عقوبة الخلود في النار أصلا على نحو ما يصنعون! فما معنى أن نتناظر مع الدهري والوثني ونحوهما في الأدلة والأدلة المقابلة ونسلك مسالك الموازنة والترجيح العقلي ونحو ذلك، ثم نصرح بعد أن ينفضّ المجلس بيننا مع بقائه على ملته بأنه إن لم «يقتنع» بمذهبنا ومات على مذهبه فقد استحق الخلود في جهنم وبئس المصير؟ هذا تناقض في الحقيقة، وهو ما فتح الباب للفلاسفة ليتهموا ربكم بأنه ظالم (سبحانه وتعالى علوا كبيرا) إذ يكتب عقوبة بهذه القسوة والبشاعة على من مات دون أن يكتفي أو «يقتنع بأدلة وجود الباري وأدلة استحقاقه التنزيه والتوحيد التام» التي جاء بها المرسلون، في مسألة جدلية نظرية قد استطال النزاع الفلسفي عليها وتشعب وتطاول لقرون طويلة، فتأملوا! لذا فإنني أتحدى المتكلمين أن يحرروا جوابا كافيا - على طريقتهم - عن مقالة الدهري الإنكليزي «برتراند راسل» الشهيرة التي قال فيها إنه لو قابل خالقه بعد الموت فسيقول له: «لماذا لم تأتني بأدلة أوضح من هذا على وجودك حتى أومن بك؟»! هل سيقولون له أنت كاذب جاحد مكابر إذ تنكر الواضحات الجليات .. إلخ؟ فلماذا - إذن - أطالوا النفس في مناظرة أقرانه من قبله ومن بعده، وتفننوا في الرد والنقاش والحوار ومقابلة «الدليل المزعوم» بالدليل وبناء النتائج على المقدمات مع نقد مقدمات الخصم، إلى آخر ما يتكلفه النظار في محاولة استجلاء الحق في محل النزاع بينهم، لو كانوا يعتقدون - حقا وصدقا - أنه لا يمكن للحق أن يخفى في ذلك، وأنه كاذب جاحد مكابر إذ يزعم خفاءه عليه؟ ألستم قد أجبتموهم للجدال النظري من قبل وخضتم معهم فيه خوضا طويلا؟

صدق ابن القيم رحمه الله إذ قال في المتكلم وفي سلفه من الفلاسفة:

كـــم رام قبـلـك ذاك مــن متلدد
حـيـران عــاش مــدى الـزمــان جهولا
مــا زالـــت الـشـبـهـات تـغـزو قلبه
حـتـى تـشـــحّـط بـيـنـــهـن قـتيلا
فــتــراه بـالـكـلـي والـجـزئـي والـــ
ذاتـــــيِّ طـــول زمـــانـه مشغـولا

يحضرني الآن أني رأيت مناظرة كتابية في أحد المنتديات علىٰ الشبكة العنكبوتية جرت بين عضو مسلم وآخر ملحد حول مسألة لا أذكرها الآن، لكن أذكر أنها كانت من تلك الاعتراضات الهزلية التي حُق للمجادل فيها أن يودع في مصحة عقلية، إن لم يكن في الأرض من سلطان يضرب علىٰ عنقه! وقد رأيت المجادلة بينهما تمتد حتىٰ وصلت إلىٰ ما يزيد علىٰ الخمسمائة مداخلة! فسألت الأخ الذي طال نفسه في ذلك «الحوار» إلىٰ هذا الحد العجيب وقلت: «يا أخي أسألك بالله، ما الذي ترجو أن تصل إليه في النهاية؟ أحقا تطمع في أن ينقطع ذلك السفيه أو يشهد لك بأنه سفساط أَشِر لم يأت إليكم إلا ليلهو ويتسلىٰ؟» فقال ما حاصله: «كلا، وإنما أردت أن أبين له أننا ولله الحمد لا نكل ولا نمل، وأن المسألة عندنا رياضة!» قلت: فبئست الرياضة هذه والله! أما سمع هذا الرجل قول الله تعالىٰ: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**﴾ [النساء: ١٤٠]؟ أما يعنيه ما ستأتي به تلك «المناظرة» الطويلة ونحوها من أثر ممرض في نفوس من يطالعونها من أهل الأهواء والمفتونين بلجاج الفلاسفة وأشباههم وأصحاب الوساوس المرضية من عوام المسلمين؟ أما يدري صاحبنا هذا أن كل مداخلة يكتبها الملحد في بيان وجه اعتراضه علىٰ خالقه أو علىٰ بعض أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا إنما هي عدوان صريح ظاهر علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لا محالة، ورصيد إضافي يزداد منه فيما يزينه لنفسه وللناس

من زخارف الأقوال، مهما كانت متهافتة في نفسها، ومهما التزم فيها بترك الفاحش والبذيء من الألفاظ كما يشترطون عليه؟ فكيف يستجاز السماح بذلك السفه والقذر أن يجري في مجالس المسلمين ونواديهم ويتكرر ويتراكم ويستزيد منه كاتبه تبعا لتطاول «الحوار»، لمصلحة أن يرىٰ الملحد أننا لا نملّ من الرد علىٰ كل تفاهة يأتي بها، وأننا قادرون علىٰ الاختراع والتفنن في صور السفسطة المحضة والتلاعب بها إن شئنا كما أنه يتفنن؟ هذا والله عمل لا يرضاه الله ولا يقبله، ومن زعم خلاف ذلك فأنا خصيمه يوم القيامة، والله المستعان!

أنا أدعو كل داعية إلىٰ الله تعالىٰ في هذا المقام إلىٰ أن يتأمل في باطن نفسه ويسأل نفسه وأن يصدقها الجواب، فإن الله مطلع علىٰ سريرته، وهو سبحانه يعلم السر وأخفىٰ: أي شيء يا عبد الله يحملك – فضلا عن أن يجبرك – علىٰ التزام شرط المشرك (وثنيا كان أو كتابيا أو دهريا ملحدا) في قبول الحق الجلي الواضح الذي معك، فتفتح باب الجدال النظري معه في كل سؤال أو اعتراض يأتيك به، تناقشه وكأن أصل النزاع معه من جنس ما يخفىٰ فيه الحق علىٰ العقلاء ويفتقر إلىٰ تنظير وترجيح وموازنة، ومن ثمّ ترضىٰ بأن تعقد معه المناظرة بعد المناظرة في ذلك، فإن قال لك ناظرني علىٰ وجود خالقك ناظرته، وإن قال لك ناظرني علىٰ اعتقادكم في الثالوث قبلت منه وخضت معه، وإن طلبك إلىٰ جدال طويل في زعمه أن ما هو غارق فيه من دعاء الموتىٰ ليس شركا بالله عز وجل، أجبته إلىٰ ذلك من فورك والتزمت طريقته ومسلكه الجدلي وجئته من أنواع «الأدلة» بما يحب ويهوىٰ؟ وكيف تزعم أن هذه طريقة المرسلين عليهم صلوات ربي وسلامه وقد رأيت حجة القرآن علىٰ المشركين ومحاججة أولي العزم لأقوامهم ليس فيها شيء من ذلك؟

لقد رأيت من أجوبة بعض الإخوة في المنتديات علىٰ اعتراضات الملاحدة وعامة المشركين مما يسمونه بـ«الشبهات» كلاما يندىٰ له الجبين والله، وأنا أقطع بأنه إن كان له من أثر في المخاطبين به فلن يزيد أكثرهم إلا كبرا وغرورا وإعراضا وتشهيا للتشكيك والارتياب، والله المستعان!

وخذ علىٰ سبيل المثال ما تفتق عنه ذهن أحد المساكين في الرد علىٰ «شبهة» الحديث المتفق عليه في طول آدم عليه السلام يوم خلقه الله وأهبطه إلىٰ الأرض، إذ زعم أن الله تعالىٰ لا بد وأنه قد أنقص طوله نقصانا كبيرا لما أنزله إلىٰ الأرض، وأن هذا الطول الشاهق (ستون ذراعا كالنخلة السحوق) كان في الجنة فقط لا علىٰ الأرض، ولا بأس عند صاحبنا بالذهاب إلىٰ هذا التأويل لأن الحديث ينص علىٰ أن طول بني آدم أخذ في التناقص! فهل يعتقد علامة زمانه أن آدم عليه السلام قد انكمش؟ وبأي عقل يكون النص علىٰ تناقص نوع البشر في الطول والحجم شاملا لطول وحجم آدم نفسه عليه السلام؟ كل هذا العبث لا يعنيني، وإنما الذي يعنيني هو ما حمل صاحبه علىٰ الذهاب إليه! إنه الهلع النفسي والفرار من قول القائلين بأنه لو صح أن يكون خلق آدم عليه السلام علىٰ هذه الضخامة المذكورة في الحديث، للزم أن تظهر أحافير واكتشافات أركيولوجية تدل علىٰ ذلك وتدعمه، والحال أن ذلك (أي وجدان أمثال تلك الأحافير البشرية العملاقة) لم يقع فيما يزعمون!

كما أننا لو قلنا بهذا الحجم العظيم لمخلوق من المخلوقات، لواجهتنا مشكلة ساح فيها ذاك المسكين فيما يتعلق بقدرة القلب علىٰ ضخ الدم ضد الجاذبية الأرضية حتىٰ يصل إلىٰ أطراف شرايين رجل بهذا الطول، أو ما يقال له في مجملة مشكلة قانون تربيع المكعب Square Cube Law! فأما السفاهة الأولىٰ فقد قلنا وكررنا مرارا أن عدم العثور علىٰ أثر للحادث لا يعني عدم ذلك الحادث نفسه في الماضي، وهذا معنىٰ لا يحتاج إلىٰ بيان! فعدم العلم لا يعني العدم! والدليل القطعي لا يثار عليه الاعتراض بدليل ظني ضعيف، فكيف إذا كان مستند المعترض دليلا زائفا (مغالطة منطقية) من هذا الصنف العدمي المتهافت؟ أما تلك السفاهة الثانية بشأن ضخ الدم، فلا أقول إلا إنا لله وإنا إليه راجعون! كيف يتأثر مسلم عاقل بهذه التفاهة، حتىٰ يجد نفسه محمولا علىٰ تأويل الحديث علىٰ فهم يخالف ما أجمعت قرون المسلمين عليه، فلا اللغة تخدمه ولا الإجماع ولا شيء البتة، كل هذا لماذا، لأنه عجز عن تصور الكيفية التي يمكن لخالق السماوات والأرض وقيومهما جل في علاه أن يجمع من الأسباب الأرضية ما

يمكن مخلوقا بالحجم المذكور في الحديث من أن ينضخ الدم في شرايينه! ما هذا؟ أجعلتم أنفسكم أندادا لخالق السماوات والأرض؟ ألم تروا من آيات عظمته وقدرته في عقولكم وفيما حولكم ما يكفي لتحقيق التسليم اليقيني القطعي المنصرم في نفوسكم بأنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير؟ أإلىٰ هذا الحد تأخذ شبهة تافهة كهذه بتلابيب قوم يقولون إنهم مسلمون؟ حسبنا الله ونعم الوكيل!

هذا مرض والله، مرض خطير في إيمان الإنسان، أن يزعم أنه يعظم رب العالمين بما هو أهله، ثم تراه يتخوف من اعتراض كهذه التفاهة التي يقيس أصحابها خالقهم علىٰ أنفسهم في العلم والقدرة حتىٰ إذا ما عجزت عقولهم السقيمة الوضيعة ومعارفهم البشرية الضيقة عن تصور الكيفية التي خلق الله بها كذا أو كذا، أو الحكمة من خلقه كذا وكذا، أو الغاية التي من أجلها صور كذا علىٰ نحو كذا، ذهبوا بتشبيههم البدعي الحقير للزعم بأنه لا يمكن أن يصح هذا الذي نزعمه من صنع خالقنا أصلا! لماذا؟ لأن قانون الطبيعة (ذلك التصور البشري الناقص الضعيف مهما كمل[1]، لما وضعه الله في خلقه من نظام سببي دقيق) لا يسمح بهذا! فيا هؤلاء نحن نتكلم عمن بيده ملكوت كل شيء، نتكلم عمن بيده سائر الأسباب من أول السلسلة إلىٰ آخرها، تلك السلسلة التي ما علمتم أنتم بمنتهىٰ علمكم وفهمكم منها شيئا إلا كمثقال قطرة في بحر لا ساحل له! فأين علمكم من علم باريكم الذي تعترضون عليه؟ وأين قدرتكم من قدرته؟ وأين إحاطتكم من إحاطته؟ والله ما عقلتم ولا دريتم، قصم الله ظهوركم!

هذا جوابنا لكل مسلم يؤذيه اعتراض الملحد السفيه علىٰ ربه بتلك الحصيلة العلمية التافهة التي ابتلاه الله بها، يجعل من نفسه ندا لخالقه، يقول كيف فعل كذا وكيف فعل كذا، والله المستعان علىٰ ما يصفون. هذا حقه – كما ذكرنا ونكرر ولا نمل من التكرار – إن لم يضرب عنقه علىٰ يد سلطان مسلم يقيم حدود الله في أرضه، أن يضرب

(١) ووصف الإنسان بما هو خصلة من خصاله المركبة في أصل خلقته، المعروفة حسا ومشاهدة، ليس انتقاصا منه ولا حطا عليه، ما لم يكن السياق سياق ذمّ وتحقير. فعندما نصف الشيء الناقص بأنه ناقص فقد أصبنا كبد الحقيقة! ولكن فلاسفة الطبيعيات المعاصرين لا يقبلون أن يقال لهم إن علم البشر ناقص مهما زاد، وأنه لا يزداد تراكما بين أيديهم إلا ازداد حجم إشكالاته وتحدياته وعلله!

علىٰ رأسه حتىٰ يفيق! ولا يعنيني أن يهلك مثل هذا المجرم في أي واد يشاء، فوالله ليس بعد هذا الجحود جحود، ولا بعد هذا الغرور غرور، ولا بعد هذا الكبر كبر، نسأل الله السلامة! وإنما يعنيني هذا المسكين الذي دخل عليه ذلك الهراء والسخف حتىٰ أصبح يتكلم في سنة رسول الله ﷺ بما يهدمها هدما، من حيث يحسب أنه يرد علىٰ «الشبهة»!

أقول يا أيها الداعية المسلم، مهما جاءك من الغربيين من يقول إن لديه اعتراضا علىٰ أمر أو تشريع جاء به الإسلام، فقل له أنت تكذب علىٰ نفسك وتخدعها! لا تبادئه بالدفاع عن ذلك التشريع الذي لا يعجبه، وكأن لتهمته تلك مساغا في العقل السوي الصحيح، كما نرىٰ أكثر الدعاة اليوم يصنعون! وإنما هاجم في نفسه ذلك الميل الشيطاني الخبيث الذي جعل مبادئه الأخلاقية الموروثة والمعظمة عنده، حجة ومرجعا للحكم علىٰ ما نزعم نحن أنه تشريع رب العالمين! عظه بمثل ما جاء به كتاب ربك في مخاطبة هؤلاء! بين له أنه صاحب هوىٰ، وأنه في واقع الأمر إنما يكره أشد الكراهة أن يتصور نفسه وقد تحول إلىٰ ملة الإسلام، واضطر لأن يعمل بتلك الشرائع التي يمجها مجتمعه وينفر منها ومن أصحابها! هذه صورة وهيئة اجتماعية تنفر منها نفسه، لما فيها من تكاليف هو يعلم أنها ستمنعه من كثير مما يتلذذ به في سياق المجتمع الذي يعيش فيه، كالتلذذ باتخاذ الأخدان والعشيقات قبل الزواج مثلا، وحرية إطلاق النظر إلىٰ النساء العاريات في المحافل العامة والطرقات والتلذذ بأجسادهن ومفاتنهن المكشوفة، وحرية التلذذ بالخمور وألوان الميسر والقمار وغيرها من الملاهي التي جاء الإسلام بتحريمها ومنعها. كما أنه يكره أن يضطر إلىٰ إلزام نفسه بوضع أنفه في التراب بين يدي ربه خمس مرات في اليوم والليلة، ويكره أشد الكراهة أن يراه الناس وقد أعفىٰ لحيته وصار من جملة من توضع عليهم علامة «الإرهابي» أو «المتطرف» في بلاده لمجرد ذلك! يكره أن يقال له إن كتاب الدين الذي يؤمن به فيه ما يصطدم بكثير من مسلمات المجتمع الديموقراطي الحديث الذي لا يتصور لنفسه شذوذا عنه ولا حياة في غيره! هذه كلها ابتلاءات تنفر منها نفسه أشد النفور! ولو أنه صدق في التأمل والتحري في باطن نفسه لوجدها هي المصدر وهي المنبع وراء تلك الاعتراضات والاتهامات عنده، لا مصدر غيرها.

هب أنه جاءك بقوله «إن القرآن يأمركم بأن تقاتلوا الكفار حتىٰ يدخلوا في الإسلام، فكيف يكون هذا هو الدين الحق من رب العالمين؟» فبأي شيء تجيبه؟ أنا أقطع بأن أكثر الدعاة في زماننا هذا سيبادر الواحد منهم إلىٰ تلك الأجوبة الهزيلة التي سئمناها من محاولات لإقناعه بأن الحرب ضد المشركين إنما تشرع حفاظا علىٰ بقاء الدين نفسه وأن الحكمة من ذلك التشريع كذا وكذا مما يتفنن فيه المجيب، ولعله أن يخطئ في أكثره، ويفتح لذلك المغرور بابا - بل أبواب - للرد والمجادلة والاعتراض بعد الاعتراض، ونفسه وشيطانه يزين له - بالمزيد من صور الزخرف التي يمده بها ذلك الداعية نفسه، من حيث يحسب أنه يجيب عن شبهاته وتساؤلاته - أنه علىٰ شيء ذي بال في صدوده عن الدخول في دين رب العالمين!

والصواب - وما أزعم أنه كان من طريقة الصحابة والسلف ﷺ في مخاطبة المشركين - أن يخاطب مثل هذا بخطاب وعظي بليغ، فيبين له أنه يخادع نفسه وهو يعلم، إن كان يزعم أن وجود تشريع كهذا في دين الإسلام قد يكون فيه دليل أو شبهة دليل علىٰ أنه ليس دين رب العالمين! لأن البداهة تقضي بأن رب العالمين لا بد وأنه أحكم وأعلم بما هو أصلح وأحسن للأرض وأحفظ لدين الموحدين فيها وأرجىٰ لسلامتهم من كل شر، فلا يشرع لهم إلا الخير يقينا مهما كرهوه (وما أكثر ما يكره الإنسان شيئا ثم يتبين له أنه كان خيرا له!)أ، ولا عبرة في الحكم الأخلاقي بمخالفة أصحاب الثقافات والملل والفلسفات الأخرىٰ في تصور هذه المسألة أو تلك، لأن الخلاف واقع لا محالة، فإن كانت فيه حجة لأحد فإنما هي لأهل ذلك الدين المعتصمين بنصوص الوحي والتنزيل علىٰ من خالفهم وليس العكس! هذه القضية يعلمها ذلك المخاطب ببداهة العقل، ويعلم أن أي اعتراض يتأسس علىٰ خلفيته الأخلاقية التي تربىٰ عليها في مجتمعه فلا عبرة به ولا قيمة له ولا دليل فيه علىٰ بطلان وفساد ما جاء به الإسلام من تشريع، مهما بدا قاسيا شديدا، وفيه من الحرب والدماء والأسر والرق ونحو ذلك ما فيه!

والذي يعنيني وأرجوه في هذا الكتاب، أن أوفَّق في تنبيه الداعية المسلم إلىٰ أن هذه الحقيقة الكلية لا تحتاج إلىٰ توضيح! وإنما إلىٰ تذكير بمثل ما كتبته آنفا، مع الوعظ

البليغ. فحسبه إن كان فاعلا أن يقول لهذا المعترض نحوا من هذا الكلام: ألم تعلم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يأمر أتباعه بتوحيد رب العالمين أخلص التوحيد وأكمله؟ ألم تعلم أن الإسلام هو الدين الوحيد في الأرض الذي يذمّ الشرك أشد الذم، وينزه الرب تعالىٰ عن كل نقيصة تلزم في حق ذاته العلية من ذلك الشرك، ولا تخلو منها ملة من الملل المخالفة جميعا؟ ألم تعلم أنكم تصفون ربكم في دينكم بكذا وكذا وما حقيقته ولازمه كذا، وأن الإسلام جاء بتنزيهه سبحانه عن ذلك كله؟ فما بالك تأتينا باعتراض علىٰ شريعة لا تعجبك، وقد علمت أنك علىٰ غير الدين، وأنك تنطلق في أحكامك هذه من مرجعية معيارية وضعية بشرية الصنع من أولها إلىٰ آخرها، وأنه ما دام في الأرض دين يدعوك إلىٰ التوحيد الخالص وتنزيه رب العالمين خالق السماوات والأرض وما فيهما بما هو أهله سبحانه وتعالىٰ، فلا بد وأنه هو الدين الحق، وأن تشريعه الأخلاقي هو الأقوم والأحكم لا محالة، مهما كره الناس ما فيه من أوامر ونواهي؟

فليكن أن خالف تشريع الإسلام مفهوما أخلاقيا مستقرا عندك، قد اعتدت أنت عليه في مجتمعك أو رباك عليه والداك، (كمسألة تقبيح نكاح الصغيرات مثلا)، فكان ماذا؟ أتريد دينا علىٰ هواك ومزاجك؟ أيريد كل امرئ منكم دينا علىٰ هواه؟ أتريد شريعة لا تأمرك إلا بما تحب أنت ومجتمعك الذي تنتمي إليه، ولا تنهاك إلا عما تكرهون؟ إذن فلا هداية ترجىٰ لمثلك ولا وصول إلىٰ الحق أبدا والله! واقع الأمر أنك – أيها المسكين – تكره أن تدخل في ذلك الدين وتتخوف من أثر ذلك علىٰ «حريتك» المقدسة في نفسك، وعلىٰ حياتك بين من تحب من أهلك والمقربين إليك، ودليلنا هو هذا السؤال نفسه الذي جئتنا به معترضا علىٰ القرآن: «كيف يأمر القرآن الناس بشيء قد تكرهه مجتمعاتهم التي تربوا فيها، ولا تراه مقبولا أخلاقيا أو سياسيا؟ هذا شيء تكرهه نفسي ولا ترتضيه ولا تصبر عليه! هاتوا لي شريعة علىٰ مزاجي وأنا أدخل في الإسلام راضيا مغتبطا، وإلا فأقنعوني إذن بأن لتلك الأحكام التي أكرهها تسويغا يتلاءم مع منظومتي الأخلاقية الموروثة نفسها! هذا هو الجواب الذي أنتظره منكم، ولعلكم لا تأتوني به وإن حاولتم، لأنه حتىٰ وإن أعجبني كلامكم فأنا مازلت أكره ما

سيجلبه علي دخولي في ذلك الدين من عناء ونقمة حيث أعيش! يكفي أن أمشي في الطرقات والناس ترمقني (لما أظهر من هدي الإسلام الظاهر) وكأني مجرم إرهابي! لا بد وأن يكون في ذلك الدين خلل ما، وإلا ما كلف الناس باحتمال هذه الأشياء والصبر عليها! ولو كنت داخلا في ذلك الدين، فسأنتقي من كلام المسلمين في فهم نصوصه ما تحبه نفسي وترتضيه من التأويلات، وسيكون هذا عندي هو الفهم الصحيح للدين، مهما زعم بعضهم خلاف ذلك، لا لشيء إلا لأني أشتهي أن يكون كذلك. فإما أن يأتي جوابكم أيها الدعاة علىٰ ما ترتضيه نفسي وتحبه وتميل إليه من ذلك، وإما أن تكونوا غلاة متطرفين متشددين لا تلزمني بضاعتكم ولا أقبلها!»

هذه هي العلة أيها الداعية المسلم، علة نفسية قلبية خطيرة فاعقلها يرحمك الله، وعامل أصحابها بما يناسبها وما يليق بها. هذا هو بيت الداء في مثل ذاك المجادل المعرض عن الحق. ووالله ما كان من هدي الأنبياء وأتباعهم أن يدعو الواحد منهم آحاد المشركين إلىٰ الدخول في الملة تبعا لهوىٰ كل واحد منهم وتصوره وما ترتضيه نفسه المريضة من تصور للدين وتكاليفه، ولا كان همهم في المحاجة أن يتلبسوا بلبوس الفلسفة ليخاطبوا الفلاسفة، والعلم الطبيعي ليخاطبوا علماء الطبيعة، والعلوم الإنسانية ليخاطلوا أصحابها .. إلخ! وإنما كان عملهم ماضيا بالوعظ بالترغيب تارة وبالترهيب تارات، حتىٰ تنجلي الأهواء عن نفس من أراد الله له الخير، ويزول الستار والزخرف وينكشف الدافع الخفي وينكشف الداء الدفين الذي من أجله ينصرف الواحد من هؤلاء عن الحق بعدما سمعه وقامت عليه حجته يقينا! وما كانوا يحتاجون في شيء من ذلك إلىٰ الفلسفة أو المنطق أو علوم الاجتماع أو نظريات العلم الطبيعي واكتشافاته أو شيء من نحو هذا، وإنما إلىٰ الخطاب بالنص القرآني الواضح وما في سنة النبي العدنان من وعظ بليغ ومحجة بيضاء ناصعة، وما هو في معناهما وما يجري في مجراهما.

ولكن واقع الحال، والأمر المرير الذي لا نجد محيصا من بيانه للدعاة في هذا المقام، هو أن أكثرهم واقع في وهن القلب وهزيمته، وفي نفسه – هو أيضا – من الأهواء ما فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فعندما يكون همّ الداعية من هؤلاء أن يكثر من أعداد

من دخلوا علىٰ يديه في الدين والملة، يرجو بذلك (فيما يخفىٰ عليه من هوىٰ النفس) أن يكون له فضل علىٰ غيره من أقرانه، فتزين له نفسه اعتقاد أن العبرة في المثوبة عند الله تعالىٰ إنما هي بأعداد من نطقوا بالشهادتين علىٰ يديه، بصرف النظر عن المدخل الذي به دخل هؤلاء إلىٰ الملة ابتداءً، والتصور الذي عليه ومن أجله قبلوا الدخول في دين الله وارتضوه دينا، والطريقة التي استعملها لدعوتهم إليه، والاعتقاد الذي انقلبوا إليه بعد الدخول في الملة، فهذا من تزيين الشيطان والنفس ولا شك.

إنني أدعو ذلك الداعية إلىٰ فحص نفسه والتحقق مما فيها. أقول له: تأمل في دوافع العمل الدعوي لديك، وتأمل فيما تكره وما تحب من ذلك وفي سبب ميلك إليه أو ميلك عنه، انظر في ذلك ودقق فيه وشرّحه تشريحا، وتبين من نفسك هل أنت مستند فيه - حقا وصدقا - إلىٰ دليل من الكتاب والسنة، أم أنه أمر قد رأيت أقرانك يفعلونه أو رأيت جماعتك أو شيخك يستحسنه فسلكت في ركابهم معتقدا أنه الخير ولا بد، لمجرد أنك ترىٰ الناس تدخل في الإسلام بسببه، وترىٰ فئتك أو جمعيتك أو مؤسستك تعلو وترتفع في البلاد بسببه؟

إنني أعرف من الدعاة من لا حديث له ولا كلام - والله - في كل محاضرة وفي كل ملأ يدعو فيه المشركين في رحلاته الدعوية إلا في تلك «الشبهات» كمسألة حقوق المرأة، ومسألة السيف، ومسألة حد الردة، ومسألة الجزية، ونحوها، مع شيء من بضاعة الإعجازيين مما ينتقيه لهم من هنا وهناك، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فأين تقرير علو التوحيد علىٰ سائر الملل بالضرورة والبداهة العقلية المحضة بما جاء بمثله القرآن، وبيان أن من لم يكفه هذا العلو البدهي للتوحيد علىٰ الشرك بشتىٰ صوره دليلا علىٰ صحة رسالة محمد عليه السلام وأحقيتها بالقبول والاتباع دون ما سواها فلا بد وأن في نفسه مرضا؟ أين وعظ هؤلاء المشركين وتخويفهم مما تلبسه عليهم شياطينهم ونفوسهم من مستندات واهية يستسيغون بها البقاء علىٰ ما عرفوا بطلانه يقينا من الإشراك بربهم وباريهم؟ وأين وعظهم وتخويفهم من اتخاذهم تنظير البشر في فلسفات الأخلاق والسياسة والتشريع حكما علىٰ ما نزعم أنه وحي من عند ربهم؟ لن تراه إلا قليلا، لأن

أكثر هؤلاء الدعاة يكرهون أن يقال لأحدهم إنه متشدد أو إنه عاجز عن الإجابة أو إنه ضعيف في العقليات والطبيعيات أو إنه يتهم أهل الملل المخالفة بما ليس فيهم (من الهوىٰ ونحوه)، فينفضّ الناس من حوله!

ونحن نقول لهؤلاء: فليكن أن انفض الأكثرون من حولكم، فهل أنتم أفضل ممن يأتي من أنبياء الله يوم المحشر وليس معه أحد من قومه يتبعونه؟ إن كانت الغاية أن يتبعكم من الناس المئات والملايين، فاعلموا أنكم كلما اقتربتم بدعوتكم مما يهواه الناس ويحبونه علىٰ اختلاف أهوائهم ومشاربهم، فسيزداد حظكم من ذلك التابع يقينا! هذه حقيقة يعرفها دعاة الملل الأخرىٰ (لا سيما المنصرين) ولهم فيها ممارسة وخبرة، ويعرفها كذلك خبراء الدعاية الانتخابية الديموقراطية، الساعين في استمالة الناس من شتىٰ الملل والخلفيات العقلية والتربوية بشيء يحبونه جميعا رجاء العلو عليهم بالحكم والتشريع، ولهم في ذلك فنون ومهارات، فاسألوهم عنها إن كنتم فاعلين، وإذن فهنيئا لكم الوقوف علىٰ أبواب جهنم مع الواقفين. أما إن كانت الغاية أن يتبع الناس الحق الذي معكم وإن كان مرا تكرهه أكثر الناس، وتخالفكم فيه جماهير الأمم، فاعلموا أن قلة التابع لا تضيركم، وأن كثرة الأتباع علىٰ الحق الخالص الصافي إنما تكون بفضل من الله وحده، فإن لم يؤت الواحد منكم ذلك الفضل فلعله قد أراد الله أن يبتليه ليصبر فيكون له فضل أعظم منه إن صبر! ولو أنكم خرجتم من عملكم الدعوي في الأعوام الطويلة برجل واحد سني سلفي منضبط علىٰ التوحيد الحق والاتباع القويم، لكان خيرا لكم من خمسين يدخلون الإسلام علىٰ أهوائهم وعلىٰ ما يحبون هم لأنفسهم من فضلات الجاهلية لا علىٰ ما يحب ربنا ويرضىٰ!

ذلك أن من أعظم الابتلاءات لنفس العالم أو الداعية أن يرىٰ نفسه وقد انفض الناس من حوله، أو نفرت منه الجماهير من أهل البلد وتركته بل حاربته من شدة كراهيتها لدعوته! لماذا؟ لأن النفس تهوىٰ الإمامة والرياسة وتستروح لكثرة الأتباع ولا شك، وتحب منهم زيادة المديح والثناء والتعظيم، وتود أن ترىٰ صاحبها وقد علا في الناس وعظمته الكثرة منهم ورفعته علىٰ أعناقها رفعا.

والابتلاء يكون أشد – ولا شك – لمن أوتي شيئا من ذلك، ثم رآه يوشك أن يذهب عنه. وهذا هو السبب في كون الأكثرين ممن تلبسوا بالبدع والضلالات مما استطابته الجماهير من الأتباع لفترة طويلة من الزمان، لا يتراجعون عنها إلا في القليل النادر جدا، مهما جادلهم أهل الحق بالحق، ولا يموتون إلا عليها، لأنهم لا يتصورون أن يضيع من أيديهم ما جمعوه لأنفسهم من الأتباع والموافقين بعد سنوات طويلة من العمل والجهد الجهيد! يكرهون ذلك جدا، ولا يوفق الواحد منهم إلىٰ الرجوع إلىٰ الحق والصدع به بين الناس مهما كان مرا ومهما كان ثمنه شديدا علىٰ نفسه، إلا أن يرحمه الله تعالىٰ. ولهذا أجمع السلف علىٰ المنع من مجادلة أهل الأهواء من أهل القبلة (أي علىٰ سبيل المناظرة والمناقشة)، لا سيما من كانوا في ذلك رؤوسا متبوعين، لأن سبب بقائهم علىٰ ما هم عليه ليس الافتقار إلىٰ الدليل المعرفي الذي يترجح به الحق عندهم أصلا، وإنما سببه ميل قلوبهم عن ذلك الحق وتعلقهم بالباطل لأهواء نفوسهم، فهؤلاء مهما جادلتهم بالدليل فلا رجاء في رجعوهم أبدا! ومن رجع منهم وتاب عما كان عليه، وهذا مما يندر، فيقينا لا يكون ذلك بسبب الجدل أو المناظرة، وإنما لتغير ميزان الأهواء الخفي في نفسه وانشراح صدره للحق لسبب ربما لا يعلمه إلا الله وحده.

ثم إن من أعظم الابتلاءات لنفوس الباحثين والنظار كذلك، وفي إطار هوىٰ العلو والتفوق علىٰ الأقران، حرصهم علىٰ الإتيان بالشيء الجديد المبتكر، الذي تكون لهم فيه الريادة والسبق، ويكون الناس لهم فيه تبعا، حتىٰ إذا أراد الناس الرجوع فيه إلىٰ مصدر لم يجدوا مصدرا أعظم ولا أعلىٰ منهم ليرجعوا إليه، لأنه هو «صاحب النظرية» أو هو المؤسس الأول فيها. ترىٰ الباحث يطلق العنان لنفسه لتأتي بالجديد في مسائل الشرع من غير أن يضبط نفسه في ذلك علىٰ منهج السلف وعلىٰ طريقة الراسخين في ذاك العلم من قبله، فيكون التجديد إذن مذموما لا محمودا، إذ يشذ عما جاء به الرسول وورثه السابقون من أهل العلم عنه، ولا يشعر بفساد ذلك لجهله وميل نفسه إلىٰ ما يجد من استحسان الجهلاء والسفهاء لذلك الجديد الذي جاء به!

هذه أول قضية يجب أن يقررها كل طالب علم خرج ليخاطب بدعوته أمة الدعوة من يهود ونصارىٰ وملاحدة ومجوس ونحوهم، أن يدعوهم إلىٰ الصدق مع أنفسهم وإلىٰ النظر في أسباب بقائهم علىٰ ما عرفوا أنه لا يمكن أن يكون هو دين باريهم وخالقهم، وقد علموا أن رجلا قد جاءهم بدعوىٰ توحيده سبحانه وتعالىٰ وتنزيهه عن كل نقيصة تلزم من مجرد الإشراك به علىٰ نحو ما يصنعون! أن يدعوهم إلىٰ «لا إله إلا الله» التي لا يماري عاقل في صحتها وعلوها علىٰ سائر ما اختاره أهل الملل لأنفسهم من نحلة وديانة! فلو وفق الداعية في حملهم علىٰ ذاك المسلك النفسي بالتذكير والوعظ البليغ، بعيدا عن الاعتراضات الساقطة والدعاوىٰ اللاهوتية والكلامية والفلسفية ونحوها، فقد وفق في سلوك طريقة الأنبياء والمرسلين في خطاب أقوامهم من قبل، وإلا فقد سقط معهم في طريق لا شيء أحب منه إلىٰ نفوس أهل الأهواء جميعا، حتىٰ يطول بهم الجدل ويتشعب المراء الطويل، ويزدان في أعيانهم ما هم عليه من الباطل المحض فوق زينته التي كان عليها من قبل، والله المستعان لا رب سواه!

يجب أن يتعلم عامة المسلمين أن من كان لا يرىٰ كونه مخلوقا مربوبا من جملة البديهيات الأولىٰ، وأن الذي خلقه وخلق كل شيء من حوله رب عظيم عند الغاية من كمال الحسن في صفاته، ولا يُعقل أن يكون كشيء من خلقه في حقيقة ذاته وكيفية صفته، من كان يرىٰ هذه الحقائق مما يفتقر إلىٰ برهان نظري يكسبه المعرفة بها بعد جهل، فليس عندنا من العقلاء أصلا، لأننا لا نرىٰ ثمرة من تكلف توضيح الواضحات الجليات، كما لا نرجو لمن يزعم أنه معدوم غير موجود، أو أنه ليس في الوجود عقل سوىٰ عقله، أو أن الزمان الماضي كله وهم لا حقيقة له إلا في ذهنه .. إلخ، أن يقتنع يوما ما (بالدليل النظري أو بغيره) بأنه قد اعتنق من العقائد أسفهها وأشدها سخفا!

لقد انحطت أكثر أمم بني آدم أشد الانحطاط يوم أن طرحت أسئلة الوجود الكبرىٰ عندهم للتأمل الفلسفي النظري، فصار الواحد منهم يتفنن في النفي والإثبات كما يحلو له، وكأن وجود باريه مما يُفتقر فيه إلىٰ جنس الدليل النظري حتىٰ يستقر العلم به في نفوس العقلاء! ولم يزل بنو آدم يولدون ويموتون علىٰ الفطرة النفسية والعقلية السوية في تلك الحقيقة (حقيقة أنهم مخلوقون) حتىٰ تعرض من تعرض منهم لتلك الفئة من

الأسئلة المدمرة التي قذف الشيطان بها في نفوس بعض المرضىٰ المستكبرين منهم، فشوهت الفطرة وأفسدت العقل والنفس والقلب، وأصبحت ترىٰ من يأتيك مطالبا بـ«الدليل العقلي علىٰ وجود الخالق»، وكأنه لا يجد تلك الحقيقة البدهية الأولىٰ مركبة في نفسه تركيبا كسائر مسلمات البداهة والفطرة في عقول البشر، بل لا يجدها مركبة في لسانه نفسه تركيبا لا انفكاك منه، كاضطرار كل عاقل إلىٰ وصف نفسه وغيره من الكائنات الحية في هذا العالم بأنها «مخلوقات» (مثلا)، تمنح الحياة ثم تسلب منها تلك الحياة بفعل فاعل عليم مريد لا محالة، وإلىٰ وصف المادة عموما بأنها «مركبات»، قد جمعت أجزاؤها إلىٰ بعضها البعض بفعل فاعل ذي حكمة وإرادة ولا بد![1]

---

(١) لهذا كنا وما زلنا نقول للمتكلمين والمفتونين بطرائق الفلاسفة وبضاعتهم، ونكرر قولنا المرة بعد المرة (ولا نبالي من كثرة التكرار ولا نتخوف من خطر الوقوع في إملال القارئ): إن سكوت الصحابة والتابعين وأئمة السلف عما خضتم أنتم فيه لم يكن تحريا للسلامة وحسب كما زعمتم، وإنما عن علم سكتوا، لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، عملا بمشكاة النبوة ومصباح الحكمة الذي تلقوه من خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم كاملا غير منقوص، لا من أرسطو ولا من أفلاطون ولا أفلوطين ولا أحد من تلك العلوج المشركة الجاحدة التي اتخذها بعضكم قبلة وقدوة، ورفعوها فوق الأنبياء والمرسلين ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فمن جاءكم أيها المتكلمون بمثل هذا السؤال، يشترط على أحدكم أن يكون جوابه ببرهان نظري منطقي (أو علمي طبيعي أو رياضي أو نحو ذلك مما يشترطون) حتى يكون من ذاك الصنف الذي يحلو له – لغاية في نفسه نعلمها – أن ينقر فيه ويتخلله بالتنظير والتحليل والتفكيك، فانبذوه واقطعوه ولا تناظروه! فإنما هو شرط باطل فاسد، لجواب سؤال لا يفتقر العقلاء إلى طرحه من الأساس، فلا شيء يلزمكم بإجابته إليه أبدا، كما لم يلتزم بذلك أحد من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من قبل! بل لو فعلتم لأفسدتم – لا محالة – من حيث أردتم الإصلاح!

واعلموا أنه لو كان الفيلسوف الملحد صادقا في زعمه طلب الحق لاعتزل الناس ولمكث يتأمل في نفسه وحال قلبه طويلا، يستخرج منها مكمن المرض والخلل الذي حمله على التكذيب بما تصرخ به فطرته وبداهة عقله في باطن نفسه! ولجهد في تتبع ما تزينه له تلك النفس من حيل هو يعلم أنها لا طائل تحتها ولا معرفة في آخرها، وإنما محض الضياع والتكذيب والعناد والمكابرة! ولانتبه إلى ألاعيب نفسه في التسويغ والتزيين والمشاغلة والإلهاء، وإلى كذبها عليه حرصا على ما تشتهي، وإذن فلن يحتاج إلى من يأتيه بالرد المفصل على كل سفاهة يتكلم بها عتاة الفلاسفة والنظار في الغيبيات والطبيعيات وغيرها، مما اتخذه لنفسه دينا باختياره وهواه، ولظهر له بجلاء فساد ذلك النوع من الاعتراضات جملة واحدة أيا ما كانت تفاصيل آحاده وتفانين أصحابه في أشكالها وألوانها وتراكيبها وزخارفها! وإذن فلن تروه مفتقرا إلى النظر في دعاوى فيلسوف يدعي أنه لم يُخلق ولم يأت إلى هذا العلم مسبوقا بسبب وخلق وتكوين، لأن القضية المعترَض عليها لا يمكن أن يصل أي حجاج نظري – مهما كان معقدا مركبا من تفانين المنطق أشكالا وألوانا – إلى نفيها أو إسقاطها من عقول

هذه شهوة خبيثة يا عباد الله فانتبهوا! التفلسف شهوة وهوىٰ يجب علىٰ العقلاء أن يحذروا منه! فمن الدعاة من إذا جاءهم السائل – من المسلمين – بنحو السؤال: «لماذا جعل الرب السماوات بهذا الاتساع المذهل الذي تبدو الأرض معه وكأنها ذرة غبار في الفضاء؟» وكانوا قد عرفوا عنه الميل لكلام الفلاسفة، تفلسفوا معه وخاضوا فيما يحب، لا لأنهم يريدون هدايته ولا يرونه يناسبه إلا هذا الكلام كما يزعمون، وإنما لأنهم في الحقيقة يكرهون أن يظن هو وأمثاله فيهم أنهم عاجزين عنه غير قادرين عليه! وإلا، فلماذا لا يكون جواب هذا السائل، المفترض فيه التسليم بصحة مصادر التلقي المعرفي عند المسلمين، مقصورا علىٰ التذكير بقول الله جل وعلا: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [**غافر**: ٥٧] وقوله سبحانه: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ [**الذاريات**: ٤] وما في معناهما؟ ألستم تؤمنون بأن من جمع في نفسه فهم هذه الآيات علىٰ لسان العرب فهما صحيحا، فقد تحصل لديه الجواب الكافي لذاك السؤال؟ من كان مسلما موحدا من الأصل فسيكفيه لا محالة!

العقلاء! وما من حقيقة من حقائق الفطرة والبداهة الأولى عرفها الناس إلا وُجد في الأرض من يتهجم عليها ويجادل فيها من الفلاسفة هنا أو هناك على أي حال! هذا لا يسلم منه شيء من معارف بني آدم! فمن جعل همه ونهمته (دع عنك أن يجعل دينه) أن يتتبع ذاك الهراء والعبث، يشتهي الخوض فيه ومنافسة أهله، فأنى له أن يرجو الموت على عقل سليم ونفس سوية صحيحة؟ هذا محال!

ولا يضيركم قول الواحد منهم: هذه خطابة ووعظ صرف وليست حجاجا عقليا، فقد قررنا من قبل بكل قوة وحزم ووضوح أننا لا نلتزم بشرطهم أصلا فيما يصفونه هم ومن تقلدوا زبالتهم من الفلاسفة بأنه «حجاج العقل»، ولا نقبل منهم مفهومهم لبرهان العقل وتعريفهم لبدهياته وضرورياته، لا نراه ولا نقول به، فلسنا خائضين معهم في ذاك الصنف من الجدال والمناظرة العابثة الذي تحبه وتهفو إليه نفس الواحد منهم وتحرص عليه وتشترطه على الناس، فلن نأتيه بما يشترط من صنوف «البراهين» ولن نخاصمه فيما جاء هو به من مثل ذلك، يود لو يقضي فيه الساعات الطوال من يومه وليلته بلا غاية ولا نهاية، لعله يلهيه عما تصرخ به الفطرة في أعماق نفسه من فساد ما هو عليه! فمن أفاق من هؤلاء على أثر موعظة بليغة سمعها في القرآن أو في كلام العلماء والصالحين والحكماء هنا أو هناك (ولسنا نعاني في بلاد المسلمين من غياب تلاوة القرآن أو مواعظ الدعاة فوق منابر الجمعة ولله الحمد) وانتبه لهذا المرض الذي أهلك من قبله فلاسفة عتاة وعلماء أذكياء كان ولا يزال السفهاء والمفتونون يعظمونهم في شتى الأعصار والأمصار، فقد أنقذ نفسه بفضل من الله ومنة، برحمة الله وحده لا بكسبه ولا بعقله، وإلا فليذهب بنفسه المريضة الخبيثة تلك إلى حيث يشاء، وليتبع من شاء من الفلاسفة والعلماء، وليهلك بقلبه حيثما يحب ويهوى، لا حاجة لنا فيه ولا نأسف عليه كائنا من كان، فقد علمنا أن جدال ذاك المسفسط الخصيم هو محض الظلم ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ الآية [الزخرف: ٥٨] وعلمنا أن الله تعالى لا يهدي القوم الظالمين!

وأما من كان ملحدا مكابرا جاحدا، فقد أبىٰ – من الابتداء – أن يسمع الحق، وأبىٰ إلا إن يجعل من آيات الله الباهرات في السماوات والأرض وفي أنفس البشر دلائل علىٰ نقيض ما تمليه الفطرة السوية علىٰ أهلها! فلولا أن انعقدت نفسه علىٰ كراهة اعتقاد أن للكون ربا له حكمته وقصده من خلق الأشياء علىٰ نحو ما يرىٰ، ومالت في المقابل إلىٰ قبول دعاوىٰ الملاحدة بأن الكون أساسه العشواء وأنه لولا هذا ما بدت الأرض وكأنها «ذرة» لا قيمة لها في قلب الكون، لكفته تلك الآيات البينات المحكمات في كتاب ربه تمام الكفاية، ولما رأيته يسمعها ثم يطلق نظره في السماء إلا يزداد بذلك إيمانا ويقينا وثقة في أنه علىٰ الدين الحق، ويزداد خضوعا وخشوعا وانكسارا بين يدي ربه وخالقه، فإذا كانت السماوات بهذا الاتساع الباهر (الذي أفرط فيه الطبيعيون الغربيون المعاصرون من أصحاب الهيئة إفراطا فاحشا ليس هاهنا مقام نقضه عليهم)، فكيف بالذي خلقها من فوقها سبحانه وتعالىٰ؟ هذه المعاني تتحرك في نفس المؤمن من غير أن يفتقر إلىٰ تحريرها في كلمات أو عبارات، فتزيده يقينا فوق يقينه! أما الملحد البائس فقد عقد نفسه علىٰ نقيض فطرته، وآمن بالمبدأ الكوبرنيكي الدهري القائل بجعل الأرض هباءة لا قيمة لها في بحر الكون، فلا يفتأ يتفنن في اختراع الأسئلة السوفسطائية العابثة رجاء إيهام نفسه بأنه علىٰ شيء. يقول «لو كانت الأرض بهذه المنزلة التي تعتقدون، وكانت هي والسماوات مسخرة لبني آدم كما تزعمون، فلماذا كانت السماوات بهذه السعة الفاحشة، وما الداعي إلىٰ ذلك وأي حكمة تكون فيه؟» فهو سؤال تقريري بالأساس وليس استفهاما! هو يسألك من أجل أن يلزمك بكوبرنيكيته وبتصوره الدهري للعالم بأرضه وسمائه، لا ليسمع منك ما في القرآن!

يقول قائلهم: «ما الدليل علىٰ أن العالم مخلوق وليس أزليا؟» فيقع السؤال في نفوس الضعفاء من أهل القبلة موقعا يوردهم المهالك، وتراهم يتوافرون علىٰ تكلف إجابته وكأن المسألة من موارد البحث والنظر ومحارات العقول! ولا يعلمون أنهم هم الذين جعلوها كذلك، يوم أن حارت عقولهم في تكلف الجواب عن ذاك السؤال الساقط علىٰ شرط صاحبه فيما يحصل بمثله الجواب، لأن خلق السماوات والأرض وما فيهما حقيقة بدهية واضحة أصلا، لا تفتقر إلىٰ دليل ولا برهان! وما كان كذلك

من أنواع القضايا، فلا يطرحه أحدهم للبحث النظري إلا حار عقله بل طار عقله لا محالة! فمهما تكلف الإنسان ذلك البرهان المطلوب فقد أبعد الحق عن أذهان العقلاء من حيث يحسب أنه يقويه في نفوسهم، وانماعت وتسلسلت لديه البديهيات الكبرىٰ من حيث يحسب أنه ينتصر لها! وإنما مثل ذلك – كما ضربناه في محله في باب متقدم من أبواب هذا الكتاب – كمثل أن يتكلف أحدهم الجواب النظري عن السؤال: «كيف أعرف أن العالم موجود علىٰ الحقيقة؟» أو «كيف أعرف أني عندما قمت من نومي هذا الصباح، فقد كنت حيا بالأمس وقبل ذلك علىٰ الحقيقة؟» أو «كيف أعرف أنني أنا أنا ولست أحدا غيري؟» أو «ما الدليل علىٰ أن الواحد والواحد مجموعهما اثنان؟» .. إلخ! وقد رأيت والله من الفلاسفة من يخوض في تلك الأسئلة ونحوها من السفاهات المحضة، بل فيما هو أشد منها سفها وسخافة، ويتكلف الرد عليه ويتكلف اختراع البراهين النظرية المطولة المركبة من مقدمات طويلة ونتائج وسلاسل منطقية وكذا، يتخذها خصومهم عيدا في كل مرة، تماما كما يريدون أن يستدرجوا إليه كل من جاءهم مناديا أن «اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون»، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فما الحامل علىٰ ذلك التكلف والتنطع المحض؟ إنه شعورهم جميعا بصعوبة تلك المسائل، وعلمهم بأنها – لذلك – تفتح الباب واسعا للتنافس العقلي فيما بينهم، وهو أمر يشتهونه جميعا ويطمعون في العلو به فوق أقرانهم. إنه ذاك التزيين الشيطاني والنفسي الذي تكلمنا عنه مرارا في هذا الكتاب، ونرجو أن نكون قد وفيناه البيان والبسط، والله الموفق لكل خير.

فلنعلم عامة المسلمين أن من صنوف الأسئلة ما يصح أن يتسع عند العقلاء للبحث والنظر والاستنباط واستعمال الفكر والتحليل والتنظير العقلي المجرد، وخوض الجدال عليه والخلاف والنزاع العقلي فيه بما يستدعيه السعي في تحصيل المعرفة الصحيحة في ذلك، ومنها ما لا يصح أن يجاب السائل فيه إلا بالنص المنزل وفقط، من غير أن يطرح موضوعه لأي مصدر من مصادر المعرفة غير الوحي المنزل، ومن الأسئلة ما لا يصح للعاقل أن يطرحه أو يحدث به نفسه من الأساس، لأن المعرفة

به حاصلة في النفس ضرورة من غير اكتساب (كالسؤال عما إذا كان الرب الخالق موجودا أم معدوما، أو ما إذا كانت صفاته يرد عليها النقص والخلل أم لا)، أو لأنها لا يصح أن يتطلع الإنسان إلىٰ تحقيق المعرفة فيها أصلا (كالسؤال عن السبب في كون الله تعالىٰ يحب أن يخلق خلقا يعبدونه ويعظمونه سبحانه، مثلا، أو السؤال عن السبب في إنزاله هذا البلاء أو ذاك علىٰ من يختار من عباده، أو السؤال عما كان من خلق الله تعالىٰ قبل ما جاء النص ببيان أنه أول مخلوقات هذا العالم، أو ما قد يخلقه سبحانه من عوالم أخرىٰ بعد أن يقيم قيامة عالمنا هذا ويحشرنا إلىٰ دارنا الآخرة.. إلخ)! فإن هم ضبطوا هذا التفريق، فلن يأخذوا من العلوم الغربية، الفلسفية والإنسانية والطبيعية وغيرها، إلا كل نافع مفيد، وستنفر نفوسهم من عبث أصحاب العقليات في الإلهيات والغيبيات وسيشتد منعهم من مطالعة ذلك أصلا، فيرجع الأمر بذلك إلىٰ نصابه السلفي الصحيح.

أما أن يتكلف قوم تدريب وإعداد الدعاة ليكونوا «متكلمين سلفيين»، وليتصدروا للرد علىٰ الملحدين والماديين بإثبات الصانع من طريق نظريات الطبيعيين، ونفي التعارض بينها وبين ما جاء به الدين، فهذا والله من الجمع بين المتناقضات، والله المستعان! من كان باحثا في العلوم الطبيعية (كالفيزياء مثلا)، فواجبه أن يكون قد حصل في نفسه العلم الشرعي الكافي لتحري الحق من الباطل في تلك العلوم نفسها ابتداء، وحتىٰ لا يقلد بعض الطبيعيين في نظرية لا يدري من جهله أنها مخالفة لعقيدة المسلمين في أصلها الفلسفي الذي تقوم عليه، وكذلك يقال في كل علم حديث نافع - نوعا - تؤخذ نظرياته من أصحابها من الملاحدة والمشركين لاضطرارنا إلىٰ ذلك، فمعلوم أن واجب المسلم أن يمرر تلك النظريات علىٰ مصفاة الكتاب والسنة أولا! فما زلنا نسبح في سيل جارف من مادة الغرب المترجمة التي اجتاحت دوائر الخاصة من أهل بلادنا المبتلاة، بعد بضعة قرون سبقت ذلك الغزو الفكري الفاحش، كنا فيها نعاني من الجهل المحض ومن انتشار البدع والخرافات والشركيات، واندثار العلم والاجتهاد الفقهي والنظر المستقيم.

ولا نقول إن من خاض مع الدهرية ورد علىٰ تفاصيل أقوالهم التي بدعوها في الدين بالتصنيف العلمي فقد خرج عن السلفية وصار من جملة المتكلمين بمجرد ذلك، هذا لا يقوله عاقل أصلا! بل بيان باطلهم واجب بحسب الحاجة الشرعية والضرورة إليه! ولهذا فلا تزال أفهام العلماء من أهل السنة وتقديراتهم الاجتهادية لمقدار تلك الحاجة والضرورة والمصلحة الشرعية نفسها في الرد والبيان تتفاوت تفاوتا نرجو أن يكونوا به متقلبين ما بين الأجر الواحد والأجرين.

فبينما نرىٰ في تصانيف الإمام أحمد رحمه الله كتابا قد وضعه في الرد علىٰ الجهمية وسماه «الرد علىٰ الجهمية»، فقد وضع ابن تيمية رحمه الله كذلك كتابا في الرد علىٰ الجهمية سماه «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية». والمتأمل في الكتابين يجد فرقا مهما بينهما، يتمثل في مقدار التوسع في التأصيل النقدي الذي تكلفه كل من الإمامين رحمهما الله في تناول البدعة المردود عليها. فبينما نرىٰ الإمام أحمد رحمه الله يرىٰ الكفاية في نقض تأويلات الجهمية للقرآن والسنة، ويرىٰ الغاية متحققة بذلك فقط، مع الإشارة العابرة المجملة من آن لآخر إلىٰ فساد أصولهم العقلية، كما ضربنا له المثل من كلامه رحمه الله في الباب الأول من هذا الكتاب، نرىٰ ابن تيمية رحمه الله يتوسع في ذلك (كما هو ظاهر من عنوان الكتاب نفسه) فيأتي بالنظريات الفلسفية التي أسس القوم عليها بدعهم ويرد عليها ويبين تهافتها، كما لم يتكلفه الإمام أحمد رحمه الله ولم ير داعيا إليه.

فالأمر في ذلك مداره علىٰ اجتهاد العالم في تقدير ما يندفع به الشر والمفسدة من تتبع أصول الأقوال ومنابعها وبيان الفساد فيها، جريا علىٰ قاعدة: ما يحرم سدا للذريعة، يباح للمصلحة الراجحة. فتكون إباحة النظر في بضاعة الفلاسفة وتعريض المسلمين لها مع الرد عليها، في حدود المصلحة إن ثبتت بضابطها، وإلا بقي أصل المنع. فلا بد أنه قد رأىٰ ابنُ تيمية رحمه الله تعالىٰ أن الباطل المنتشر في زمانه كان يحتاج في دفعه إلىٰ الإتيان علىٰ أصول الأقوال الفلسفية ومنابعها بالرد المفصل وبيان أوجه الفساد فيها، وهو أمر فيه تفصيل تتفاوت فيه التقديرات الاجتهادية من أهل العلم كل منهم

بحسبه. فمع أن تلك الفلسفات كانت في زمان أحمد معروفة مطروقة عند من رد عليهم من المتكلمين، كما كانت معروفة عند من رد عليهم ابن تيمية رحمهما الله تعالىٰ، بل قد ابتلي أحمد وامتحن فيها أشد الامتحان كما هو معروف، إلا أنه مع هذا لم يتكلف ما تكلفه شيخ الإسلام ابن تيمية من دراسة المنطق والفلسفة للتعمق في تتبع أصول بدعة القوم ومنابع نظرياتهم عند الفلاسفة، وكان متمسكا بموقفه في دفع من يطالبه بالرد علىٰ تلك الفلسفات، وإلزامه بألا يتكلم في الاعتقاد إلا بالكتاب والسنة.

ولعل قائلا يقول: قد كان يكفي ابن تيمية في بعض المواضع ما تحدىٰ به المتكلمين من تقديم الدليل الصحيح من نصوص الوحيين علىٰ صحة قواعدهم الكلية وأقوالهم الجزئية (مع بيان فسادها ومصادمتها للكتاب والسنة كما صنع رحمه الله)، ومما أجمع عليه الصحابة ﷺ في طريقة تناول نصوص صفات الله تعالىٰ (علىٰ ما لأمثال تلك القواعد والأقوال الكلية من خطورة عظيمة تستدعي توافر الهمم علىٰ نقل كل ما أثر منها عن الصحابة والتابعين إن وجد)! ولكن واقع الأمر أن العلوم كانت ولم تزل تتشعب وتتداخل وتترامىٰ أطرافها بمرور الزمان، والعلوم العقلية بعموم كالرياضيات والمنطق والتقعيد الكلي (أو ما يقال له التأصيل المنهجي) لأي صنعة من الصناعات المعرفية، مطلوبة بقدر الحاجة (وهي حاجة تتضخم بتقادم الزمان)، وهو تشعب وتفرع تدخل منه الشبهات علىٰ كثير من دارسي تلك العلوم والتخصصات في بلاد المسلمين من حيث لا يشعرون!

لذا أصبح من المتعذر أشد التعذر علىٰ من يريد بيان مواضع البدعة والضلالة في عقائد جهمية هذا الزمان أن يأتي بشيء ذي بال في ذلك من غير أن يدرس قدرا لا بأس به من فلسفات العلوم المعاصرة (مثلا)، لماذا؟ لأن أصول جهميتهم ومقدماتها الفلسفية قد باتت تبث لطلبة المسلمين في معاهدهم ومدارسهم علىٰ أنها هي «العلم الحديث»، بعيدا عن أي سياق ديني أو شرعي عند طرح تلك النظريات، وذلك في كثير من مجالات البحث النظري بل والتطبيقي! فلزم أن يكون من تبعات ذلك البحث والنقد المنهجي من جانب العالم السلفي في هذا الزمان ما يؤثر تأثيرا جذريا في مباني

وأصول كثير من تلك العلوم الفرعية المعاصرة عند التجريبيين (لا سيما الطبيعيين) في زماننا، مما صارت له أكاديميات متخصصة تبحثه وتدرسه دراسة مستقلة، بناء علىٰ أصول لا تخلو في كثير منها من دخن النحلة الدهرية المادية المعاصرة! حتىٰ أصول البحث التجريبي نفسه (التي تدرس في جميع المعاهد والجامعات المتخصصة في العلوم الدنيوية في زماننا، وكان لي اشتغال بتدريسها لطلبة الدراسات العليا في الجامعة التي أعمل بها) قد باتت تحتاج إلىٰ إعادة صياغة وضبط وتوجيه علىٰ طريقة أهل السنة (تبعا لنقض أصول الفلسفات الدهرية الطبيعية التي تأسست عليها تلك المناهج عند أصحابها) بما لا يُتصور ممن يخوض فيه أن يقدر عليه وقد تخلف عن دراسة ما تلزم دراسته من مواد العلوم والفلسفة المعاصرة اللازمة لذلك! فكيف يستساغ لأحد أن يقول إن ابن تيمية رحمه الله قد بالغ أو جاوز الحدّ في تتبع أقوال الفلاسفة والرد عليها وفي نقد المنطق الأرسطي، وهو لم يطلع علىٰ ما كانت عليه الحال في زمانه من مثل ذلك، فلا يدري لو أنه وضع في موضعه أكان يوافقه في تقديره واجتهاده فيما يلزم الخوض فيه من ذلك أم يخالفه؟

نحن المسلمين نحتاج اليوم إلىٰ دراسة فلسفة وأصول العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد والسياسة وغيرهما، وإلىٰ دراسة مناهج البحث العلمي فيها ومناهج النقد والحجاج والتأسيس المعرفي، ولا يماري في تلك الحاجة إلا مكابر! بل حتىٰ العلوم الطبيعية (التي منها علم الطب والتشريح والصيدلة ونحوها من علوم لا يماري عاقل في نفعها) التي أصبحت تجري اليوم في أدبيات الأوروبيين إرادتها وقصدها عند إطلاق كلمة علم Science (هكذا مجردة من الإضافة)، هذه كانت تسمىٰ بالفلسفة الطبيعية، ولم تنقلب إلىٰ تلك التسمية إلا في القرون المتأخرة! فالذي ذمه السلف رحمهم الله لم يكن مطلق تكلف البحث في العلوم العقلية والفلسفية باختلاف أنواعها، وإنما المذموم فلسفة الإلهيات خاصة والتنظير في الغيبيات عامة، وما تأسس علىٰ طريقة أصحاب ذلك التنظير في تناول موضوعات الاعتقاد (وأعني استعمال النظر العقلي في مسلمات الفطرة الأولىٰ والبداهة وفي المغيبات المطلقة لمناظرة الفلاسفة المكذبين بها) من علم بدعي صار يعرف بـ«علم الكلام»! فالمذموم

هو كل صناعة يتخصص أصحابها في تكلف النظر العقلي في البدهيات والمسلمات التي لا يستحق اسم العقل نفسه من نازع فيها، والقياس في الغيبيات المطلقة التي لا مدخل للقياس فيها، هذا هو المذموم والممنوع عند سلفنا الصالح قولا واحدا، سواء كان فلسفة أو منطقا أو كلاما! أما ما يتصور خفاء الحق فيه من مسائل ومباحث نظرية في أي علم من العلوم (النافعة في أصل موضوعها وطرحها البحثي نفسه)، فلا يمنع من ممارسة البحث العقلي (ومن ثم الجدال النظري) بين قوم يتخصصون فيها - علىٰ طرائق النظر المعتبرة عندهم - إلا من يمنع الناس من اكتساب العلوم النافعة رأسا، وهذا مذموم بلا توقف!

إنني أذكر الآن يوم كنت صبيا صغيرا ووقعَت يدي علىٰ كتاب للمبتدئين في الفلسفة، وكان مما يدرس لطلبة الثانوية العامة وقتها، ومررت علىٰ تعريف مؤلفه لتلك الصنعة فرأيته يضرب الأمثلة ليبين طبيعة الأسئلة التي يتعرض لها الفلاسفة ويتعمقون فيها، فعرض السؤال: «ما معنىٰ الجمال؟» و«ما معنىٰ الحق؟» ونحوه، فوجدت نفسي أتساءل بما معناه: وهل يحتاج عاقل إلىٰ أن يسأل سؤالا كهذا أصلا؟ إذا كانت تلك الكلمات مما عرف معناه علىٰ ألسنة الناس دون تكلف بحث أو ترجمة أو تأويل، فما حاجة العقلاء إلىٰ أن يضعوا لها تعاريف ومذاهب ونظريات وكأن الإنسان يفتقر إلىٰ تلك النظريات حتىٰ يفهم معاني تلك الألفاظ؟

لقد أدركت حينها السبب في استثقال أصحاب الفطر النقية لتلك المباحث وكراهيتهم النظر فيها ومذاكرتها! ولكن ما لم أنتبه إليه حينها، هو أن هذا الموقف الذي اتخذته بإزائها في ذلك اليوم هو الموقف الحق الذي من أجله ذمها الأئمة الأعلام عليهم رحمة الله تعالىٰ ورضوانه! ما كنت وقفت حينها علىٰ ذمّ التكلف والتنطع والتعمق في السنة الشريفة، ولو فعلت لما عرفت أن أول مقصود بذلك هو صنعة قوم يأتي الواحد منهم علىٰ ألفاظ بدهية المعنىٰ واضحة المفهوم لا تخفىٰ علىٰ عاقل، فيتكلف تفسيرها بتعبيرات وتعاريف تكون - حتما ولا محالة - أقل وضوحا وجلاءً منها هي نفسها! إنه مسلك من يقلب معاجم اللغة رأسا علىٰ عقب، كما بيناه في غير هذا الموضع، فيفتح فيها باب التسلسل من حيث يحسب أنه يفيد العقلاء بكلامه!

فعندما يأتي الفيلسوف ليضع تعريفه للفظة «مكان» مثلا، فيقول إنه يقصد «ماهية» المكان وليس معناه اللفظي، ويزعم أنها محصورة ما بين أن تكون ما قالوا له «الهيولىٰ»، أو تكون هي الصورة، أو الخلاء، أو النهاية المحيطة بالجسم الطبيعي، ففي أي علم من العلوم ولأي غاية معرفية يحتاج عاقل إلىٰ عبث كهذا؟ المكان هو تلك العلاقة الذهنية التي يشار إليها في اللغة بالسؤال «أين»، وبالألفاظ الظرفية التي تنسب الأشياء إلىٰ بعضها البعض مكانيا، كقولك «فوق، تحت، .. الخ»! حتىٰ هذا القدر لا نحتاج إلىٰ تحريره لأن معنىٰ المكان معروف في مبتديات اللغة! المكان هو المكان، وانتهت القضية، بل لا قضية أصلا حتىٰ تبتدئ! من أين تأتي القضية إلا عند قوم مرضىٰ سفهوا أنفسهم وهم يرون أنهم أكمل الناس عقلا؟ لو شئت الآن أن أتفلسف لقلت إن الهيولىٰ هذا شيء وجودي في الأعيان والمكان معنىٰ مجرد في الأذهان، فكيف يصبح الشيء الخارجي ماهية للشيء الذهني أو حقيقة له؟ هذا محال، وإذن فلا يصح أن يكون تفسير المكان هو الهيولىٰ هذا! ولكن أي شيء أحرزه إن جاءني من يجادل – وسيأتي لا محالة – في هذا التحرير نفسه؟! هل أطالَب أنا بالرد عليه ثم الرد علىٰ رده وهلم جرا؟ نعم، الفيلسوف والمتكلم يلتزمان هذا السجال لا محالة، ولا يظهر لهما فيه مأخذ ولا غاية! وأما أنا فإنما اخترت ما سبقني إليه السلف الأول ﵃ وأرضاهم: أن آتي علىٰ البنيان من القواعد، فأضرب الواحد من هؤلاء علىٰ أم رأسه لأذكره بوجازة ومن غير لجاجة بأنه يكذب لسانه الذي ركبه الله في ذاك الرأس، بمجرد زعمه أن «المكان» لفظ يحتاج إلىٰ تفسير وبيان «ماهية» و«حقيقة» وهذه الأشياء! وإلا فليخبرنا ما معنىٰ «النهاية المحيطة بالأجسام»؟ وكيف يتصور أن يكون معناها – أيا ما كان – بعدما يجهد سيادته في شرحها، أقرب إلىٰ الذهن من معنىٰ كلمة «مكان»؟ أليس هذا قلبا للعقل نفسه رأسا علىٰ عقب؟ أليس هذا نسفا للغة نفسها يورث التسلسل في معانيها؟ بلىٰ ورب الكعبة، ولا يراه كذلك إلا من أنار الله بصيرته بنور الفطرة!

فلماذا إذن صيروا أمثال تلك الأسئلة مشكلة ومعضلة وجعلوا فيها مدارس ومذاهب ومباحث وجدال وسجال طويل؟ لأن من الناس – كما أرجو أن يكون قد اتضح للقارئ الكريم من أبواب هذا الكتاب – من وجدوا في مثل ذلك العبث اللفظي

متكأً لإسقاط دعاوىٰ المرسلين، ودرعا يتترسون به ضد القائمين بأمر الحسبة وبمهمة صيانة العامة من التعرض لما يفسد معه دينهم وعقلهم! فقد وجدوا فيه ما يحير ألباب العقلاء ويغرقهم في حيص بيص، ويوحي بأن الأمر محل نظر وبحث طويل لا ينتهي، وأقوال نظرية متقاربة، وإذن فلا يصح اتهام القائل فيه بشيء، أيا ما كان، إنه مجرم أو زنديق أو مهرطق أو كذا أو كذا، أو حتىٰ إنه مكابر جاحد، قد قامت عليه الحجة الرسالية وانتهىٰ الأمر! لا حقيقة للحجة الرسالية عند الفيلسوف ولا قيام لها البتة، لأنك مهما خاطبته بشيء جلي بدهي صارخ بأنه الحق الذي لا محيد عنه، لم يتركك دون أن يسفسط عليه ويزعم افتقاره إلىٰ مقدمات ثابتة علىٰ ما يشترطه هو في طريق الثبوت! وهذا هو المطلوب! أن يصير الحق عماء في عماء، وألا يهتدي الناس بما جاءت به الرسل والأنبياء!

يقولون بلسان الحال غالبا والمقال أحيانا: إذا كان قبول رسالة الرسول قائما علىٰ التسليم بأنه رسول، وهذا يقوم بدوره علىٰ التسليم بأن لنا ربا خالقا بالغيب هو الذي أرسل ذلك الرسول، وهو ما يقوم بدوره - في ترتيبهم النظري السوفسطائي - علىٰ التسليم بأن العالم حادث بعد أن لم يكن، وهو ما يقوم بدوره علىٰ التسليم بمعاني كثيرة من هذا القبيل، كمعنىٰ كلمة «حادث» و«أزلي» (أو قديم) و«موجود» و«مكان» و«زمان».. إلخ، وهو ما كان لنا معاشر الفلاسفة فيه ما كان من الجدال والسجال الطويل، فأثبتوا لنا هذه الأصول والمعاني الأولىٰ أولا ثم أسسوا عليها بعد ذلك كما يحلو لكم، إن فرغتم في[1] يوم من الأيام من الجدال معنا في تلك المعاني نفسها! بناء علىٰ هذا التسلسل النظري[2]

(١) ولولا دخول تلك المغالطة الفلسفية الكبيرة تحت دثار «العلم الطبيعي» في هذا الزمان، في إطار ميتافزيقا نظرية النسبية العامة لآينشتاين وتناولهم لما صار يقال له «نسيج الفراغ» والزمكان ونحو ذلك، ما وجدتني مضطرا لخوض ما خضت من الرد والتفنيد في هذه القضية. فإن هذا مما يدق ويخفى على كثير من المسلمين، والله المستعان.

(٢) وأقول إنه تسلسل وليس ترتيبا وحسب، لأن المتفلسف في الإلهيات (والمتكلم تبعا) لا يلتزم نهاية معينة يشهد لها بأنها قد قامت عندها الحجة واتضح المطلوب إلا أن تأتي تلك النهاية على هواه! فالذي قبل أن يسفسط في مخلوقيته ومصنوعيته ومربوبيته، ويجادل فيها طالبا الدليل عليها، فلن تأتيه بمقدمة إلا جادلك فيها وطالبك بإثباتها أولا (كما وقع مع مقدمة «حدوث العالم» ونشأ عنه فساد الفلسفة وعلم الكلام جميعا!)، وهكذا إلى ما لا نهاية له ولا غاية! فهو تسلسل من جهة أن من بدأ بقضية بديهية يريد

الذي اخترعوه وجعلوه - تنطعا وسفسطة - أساس المحاجة العقلية والعمل الصحيح للعقل البشري في تناول دعاوىٰ المرسلين، وجعلوه شرط تحصّل المعرفة (السماع والقبول) عنهم، انفتح الباب علىٰ أوسعه للناس ليختلفوا في تلك المعاني اللغوية الأساسية وليخترعوا فيها ما يحلو لهم من سفسطة عمياء، وليتنازعوا عليها نزاعا عميقا طويلا لا مخرج منه ولا علو فيه لرأي علىٰ رأي، وهو غاية ما يرام عند هؤلاء الخبثاء حتىٰ لا يقوم لدعاوىٰ المرسلين - فيما يوهمون به أنفسهم وغيرهم من مرضىٰ النفوس - أساس تقف عليه أصلا! ومن ثم يصبح من اتبع الرسل من غير أن يمشي علىٰ هذا الترتيب الذي بدعوه واشترطوه، جاهلا سفيها عاميا مقلدا، ولا يليق بالفلاسفة أن يؤمنوا «كما آمن السفهاء»، ومن ثم يخرج من أهل الملل أناس ليقولوا لهؤلاء من موقف المتهم المطالب بدفع التهمة: «لسنا سفهاء، بل عندنا من الفلسفة والنظر ما نجيب به شرطكم وزيادة»، ثم يصير الدين كله رأيا في رأي ونظرا في نظر، وتصبح الفرقة الواحدة فرقتين، والفرقتان أربعا، وتتشعب من كل طائفة طوائف شتىٰ، كل حزب بما لديهم فرحون، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فالذي نراه ونزعم أنه أليق بطريقة السلف ﷺ: تغليق ذاك الباب بحزم وإحكام، ومخاطبة من سبقت الفتنة إلىٰ قلوبهم من عامة المسلمين بأنواع الوعظ البليغ وبمثل هذا الكلام الكلي الذي حررناه في هذا الكتاب، بما يرجىٰ معه صدهم عن تلك السبيل الشيطانية جملة واحدة دون تفصيل (إلا في حدود الضرورة).

وأما ما قد يتكلفه بعض العلماء من رد لبيان تهافت فلاسفة الإلهيات والمتكلمين (تبعا لهم) وبيان اضطرابهم وتكذيبهم ومخالفتهم لما يقطع به العقلاء ولا يجيزون الخلاف عليه، فلا يوصف هذا بأنه من الفلسفة المذمومة. كما لا يوصف بعلم الكلام لأن علم الكلام تنظير يلتزم أصحابه بنفس هذا الشرط الذي التزمه هؤلاء من حجاج نظري لإثبات معان لا يجهلها عاقل ولا تخفىٰ علىٰ ذي نفس سوية ولا تفتقر إلىٰ تحرير

إثباتها، فمهما جئته بدليل نظري فلن يسلم عنده ذلك الدليل من الاعتراض، ويقينا لن يكون أكثر جلاء ووضوحا من المعنى المراد إثباته نفسه (ألا وهو وجود الباري)، كما مر معك في مبحث متقدم من مباحث هذا المجلد، وكما أطلنا النفس في بيانه في سلاسل قناة «إقناع» على اليوتيوب.

أو تفسير! وقد تكلفت شيئا من بيان ذلك في هذا الكتاب كما مر بك في المبحث الذي خصصته لبيان محركات الهوىٰ في تنظير فلاسفة الإلهيات المعاصرين فيما يقال له «مشكلة الشر»، لأني رأيت أن حاجة البحث في هذا المجلد تمس إليه، لكونه موضوعا في بيان الكبر والمرض القلبي العظيم الذي تنطوي عليه نفوس الفلاسفة واللاهوتيين وأضرابهم (في جملة المشركين المعرضين والمستكبرين عن سماع الحق من أهل الملل) الذي يحملهم علىٰ المضي قدما في تلك المسالك الخبيثة من غير أن يرجىٰ لهم الإقلاع عنها يوما ما.

ونقول ونكرر إن مسألة حدود وضوابط التصنيف لبيان انتحال المبطلين وتحريف الغالين في أمر الدين، ومخاطبة عامة المسلمين بتلك التصانيف، أو إصلاح وتنقية المفاهيم التي يتلقاها المتخصصون منهم في بعض العلوم الحديثة من غير تدقيق، هذه كلها في صوب، ومسألة تكلف الجدال النظري مع الملاحدة وأهل الملل بغرض دعوتهم إلىٰ الإسلام أو بغرض الانتصار لملة التوحيد عليهم، هذه في صوب آخر بالكلية! فلولا ما تكلفه بعض الجهلاء من اشتغال بمجادلة الملاحدة، ما اضطر العلماء إلىٰ الاشتغال بالأكثرية الغالبة مما تكلفوه من التصنيف في الرد علىٰ هؤلاء الجهال أصلا، أو بعبارة أخرىٰ: لو امتنع الجهلاء من التصدر لمخاطبة من لا يجوز الالتفات إليهم بخطاب أو بجدال من الأساس، لما وقع عندهم من صنوف البدع والضلالات في دين الله تعالىٰ ما اضطر العلماء الكبار والأئمة للتصدي له بالتأليف والتصنيف! فأرجو أن يكون الفرق بين المسألتين قد اتضح للقارئ الكريم عند هذا الحد، والله الهادي إلىٰ سبيل الرشاد.

الباب السابع

باب في أصول فقه النفس عند السلف و«علم نفس الدين» عند الفلاسفة الغربيين.

قواعد في فقه النفس ومعالجتها عند السلف ﷺ

تقدم معنا في هذا الكتاب بيان أن رسالة التوحيد إنما جاءت بقرع القلوب والعقول بالحق المركوز في فطرة الإنسان، ليكون هو الأساس النفسي والمعرفي لبناء العبودية ولإعمار الأرض بالموحدين، تلك الغاية الاستخلافية التي من أجلها خلق الله الإنسان في هذا العالم. فكان أول ما يخاطب به الرسول قومه أن يدعوهم إلىٰ الشهادة بما عرفوه بالفطرة والبداهة الأولىٰ من بطلان ما هم عليه من الشرك، ومن ثمّ الانتقال إلىٰ لازم تلك الشهادة من قبول ما جاءهم به من الحق. وما يكون ذلك بممارسة المنطق ونصب البراهين والأدلة النظرية (لأن الباب فيه ليس باب نظر وترجيح أصلا كما تقدم البيان والتفصيل)، وإنما بالوعظ والترهيب والترغيب، مع التذكرة بآلاء الرب وآيات عظمته. لهذا لم يشترط العلماء لقيام حجة التوحيد علىٰ العقلاء من المشركين فهمها وإنما اشترطوا سماعها بلسان يعرفونه، لأن فهمها ودرك حقيقتها ومعاناها ومن ثمّ معرفة أنها الحق الواجب، لا يحتاج من الإنسان إلىٰ أكثر من أن يسمعها سماعا صحيحا. ولهذا ترىٰ في القرآن في غير موضع كيف رمىٰ الله تعالىٰ المعاندين الذين زعموا أنهم لم يفهموا ولم يفقهوا ما جاء به الرسول، بأنهم كذبة أهل جحود واستكبار، وعاملهم معاملة الممتنعين، لا معاملة الجهلاء المعذورين، المفتقرين إلىٰ مزيد من التوضيح والإفهام والتبيين! قال تعالىٰ حاكيا قول قوم شعيب: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ [هود: ٩١].

فإذا كان تأسيس الإيمان في النفس مداره علىٰ إصلاح تلك النفس ومعالجتها بتخليتها من الباطل وكسح ما فيها من غشاوات الهوىٰ، حتىٰ تخضع لما عرفت أنه الحق وهي راضية مطمئنة لذلك الحق متيقنة من صحته، وذلك حتىٰ يدخل المخاطب بدعوة التوحيد في دين الإسلام ابتداء، ويتحقق في نفسه أصل الإيمان، فكذلك لا ينبغي أن ينقطع عمل المسلم في متابعة نفسه ومعالجتها بأعمال الجوارح وأعمال القلب (وأقوالهما) حتىٰ يعلو بنيان الإيمان فيها علىٰ نحو ما يحب ربنا ويرضىٰ. فإنه

لا ينقص الإيمان بعد تشبع النفس به لخفاء أدلته، ولا يرتد عن الإسلام من يرتد عنه لترجح أدلة بطلانه عنده، وإنما يقع ذلك إذا وقع من غفلة النفس عن محركات الهوىٰ في باطنها! من غفلة النفس عن ميزان الأهواء الباطن الذي يميل باللسان عن الذكر الذي فيه شفاؤها، وبالجوارح عن العمل الذي به صلاحها، وبالعقل عن الحق الظاهر الذي فيه نجاتها!

وقد فقه سلفنا الصالح رحمهم الله هذه الحقيقة الجوهرية في دعوة الإسلام أتم الفقه وأحكمه، فحرصوا علىٰ تربية النفس وترويضها (تزكيتها) حتىٰ لا تورد صاحبها مهالك الأهواء من حيث لا يشعر، عملا بقوله تعالىٰ: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [**الشمس**: ٧ – ١٠] وقول رسول الله ﷺ فيما صح عنه: «إن في الجسد لمضغة إذا صحت صح سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهي القلب»، أو كما قال ﷺ، وما في بابتهما من نصوص الوحي الشريف. فكان لهم في ذلك فقه دقيق، لتدريب المسلم علىٰ مراقبة نفسه ومتابعة دوافعها وميولها وأهوائها، رجاء تقويمها وتهذيبها ومغالبة أهوائها وإصلاح ما فيها من ميل إلىٰ الشهوة يوقعها في الغفلة والجهالة.

فكانوا بذلك الفقه النفسي الرباني أسبق إلىٰ تقسيم النفس أو العقل إلىٰ قسمين كليين، أحدهما فيه الوعي الحاضر والذهن المتنبه، والآخر باطن خفي، يكون في العادة خارجا عن دائرة الوعي الحاضر، فيحتاج إلىٰ متابعة من الذهن الواعي ومراقبة وتدقيق وفحص من آن لآخر، بل يحتاج إلىٰ مران ومعالجة طويلة، حتىٰ لا تغلب الغفلة وتخرج دوافع النفس وميولها ونواياها عن سلطان صاحبها من حيث لا يشعر، فيصبح منقادا لأهوائه وشهواته وتصبح تلك الأهواء والشهوات والغرائز الباطنة فيما وراء الوعي هي التي تحركه في عامة أحواله، ثم يأتي يوم القيامة وقد قامت عليه حجة العلم المتحقق لديه بفساد وبطلان كثير مما أتىٰ من الأقوال والأفعال، فلا يكون له عذر بغفلة وعيه الحاضر عن نفسه التي حملته علىٰ إتيان تلك الأقوال والأفعال الفاسدة استرواحا وتلذذا وهو يعلم فسادها، إذ لم يتكلف منع تلك النفس وحجزها عن العصيان والتفلت وقد كان قادرا

علىٰ ذلك، وإنما دساها بترك حبلها علىٰ غاربها من غير ما مراقبة ولا ضبط ولا توجيه.

فالذي يحدث في الحقيقة عندما تتحول العبادات إلىٰ عادات (كما حذر منه السلف والأئمة)، أنها تنتقل في الذهن أكثر أقوالها وأفعالها عند ممارستها من دائرة الوعي الحاضر إلىٰ دائرة العقل الباطن، إذ تصبح أعمالا لا تحركها في صاحبها نية تعبدية حاضرة في نفسه وإنما هي حركات آلية قد انطبعت في بنائه العصبي وصارت من جملة ما يمارسه بصورة تلقائية اعتيادية من غير تفكير، كأعمال قيادة السيارة – مثلا – التي لا يتكلف الإنسان استحضارا لشيء من خطواتها ولا تأملا فيها في وعيه الحاضر إلا في مراحل التدرب الأولىٰ عليها وحسب، ثم تراها تنقلب مع الاعتياد والممارسة إلىٰ أعمال آلية يحركها العقل الباطن بعيدا عن دائرة الوعي الحاضر. لذا احتاج المسلم إلىٰ أن «يستحضر» النية في كل مرة، أي يجعلها حاضرة في دائرة العقل الواعي قبل أن يشرع في أداء العمل، فتمتاز العبادة بذلك عن العادة نوعا، ويترتب عليها الأجر تبعا، كما في قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ».

وقد كان السلف يتحرون استحضار النية في كل عمل ويتعلمون معالجة ذلك الأمر في نفوسهم كما يتعلمون العمل نفسه، ويوصون بذلك ويصطبرون عليه مهما طال أمده واشتدت عليهم كلفته، رحمهم الله ورضي عنهم. قال سفيان الثوري رحمه الله: ما عالجت شيئا أشد علي من نيتي، إنها تتقلب علي.[1] وقال بعض السلف: «إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتىٰ في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء». وعن يحيىٰ بن أبي كثير قال: «تعملوا النية، فإنها أبلغ من العمل.» وعن أيوب السختياني قال: «تخليص النيات علىٰ العُمال أشد عليهم من جميع الأعمال». فتفسير تلك الشدة أن تخليص النيات إنما حقيقته استبطان النوايا الباطنة في النفس تحت مستوىٰ الوعي، واستحضار النية الصالحة في العقل الحاضر وجعلها في محل ما فسد من ذلك، والحرص علىٰ ذلك قبل كل عمل، وهي أعمال قلبية تحتاج إلىٰ تصفية الذهن وتدريب العقل علىٰ مراقبة باطن النفس وتتبع ما يجري فيها،

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي.

وهو ما قد يشتد علىٰ الإنسان في كثير من الأحيان وتميل نفسه عنه لمحبتها الترسل مع العادات والطباع وكراهيتها تغييرها أو تطبيعها وتدريبها علىٰ خلاف ما اعتادت وما إليه مالت.

ومثال ذلك أن تحدثك نفسك بإخراج صدقة ما علىٰ نحو ما في وقت ما ولشخص بعينه، فهذه – من حيث النوع – طاعة ولا شك وقربة إلىٰ الله، ولكن عند التأمل في دافعك وحاملك علىٰ إتيانها في هذه الحالة بعينها، يتبين لك أنك إنما أردت أن تنال شيئا من الوجاهة أو الحظوة عند ذاك المسكين الذي نويت التصدق عليه أو عند قومه، فحينئذ يكون الأقوم للنفس والأبعد عن شبهة فساد النية أن تترك ذلك العمل التعبدي (نوعا)، أو تتحول عن إخراج الصدقة إلىٰ ذاك الشخص بعينه وتقصد بها غيره من المساكين، أو أن توصي غيرك من إخوانك بأن يتصدق هو عليه حتىٰ لا تكون يدك أنت هي التي بذلت له ذلك المال.. إلخ. فمعلوم أن المنّ والأذىٰ مما يبطل الصدقات كما في قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٦٤] والأصل عند الاشتباه أن تدع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك، وهو مطرد– من هذا الوجه – علىٰ النيات كما علىٰ الأعمال ولا فرق.

ومن أمثلته أن تحدثك نفسك بتصنيف كتاب أو بحث في مسألة من مسائل الخلاف الفقهي القديم بين أهل العلم، فتشرع في استجماع الأقوال والأدلة وترجح وتوازن وكذا، ثم تعتزم النشر معتقدا أن هذا من الطاعات والقربات، ثم إذا ما تأملت وتحققت مما في نفسك، وجدت أن حاملك الخفي علىٰ التأليف والنشر إنما هو حظ النفس وحرصك علىٰ الانتصار علىٰ بعض مخالفيك، ومحبتك للظهور بين أقرانك من طلبة العلم بكثرة التصانيف والأبحاث! فهنا لا نرىٰ لك إلا الترك والإمساك عن النشر، وإلا فأغلب الظن أن المسلمين لن يخسروا شيئا ذا بال إن امتنعت أنت عن أن تنشر بحثا فقهيا في مسألة قد قتلت نظرا وترجيحا من زمان الصحابة والتابعين، ومهما

كان ما لديك أنت من ترجيح فلن يرتفع به الخلاف في المسألة! ولو تجردت للحق لربما وجدت نفسك مدفوعا إلىٰ تعظيم كفة مستندك من الأدلة في المسألة نفسها فوق مقدارها الصحيح، إظهارا لنفسك ولعلو كعبك في العلم، ولتبين لك إذن أن القول المخالف أقرب مما تظن، وأن لأدلته وجاهتها وحظها من الاعتبار، وما أكثر ما يقع ذلك الإفراط في تقدير قوة الدليل عند بعض الباحثين من حيث لا يشعر، ميلا منه للقول المنتصر له، ولو أنه فتش في نفسه واستبطن كما كان يصنع سلفنا الصالح ﷺ، لبان له ما كان من قبل خافيا عليه![1]

ومن أمثلته أيضا، وهو لصيق بموضوع هذا الكتاب، أن يتكلف طالب العلم تصنيف كتاب في الرد علىٰ بعض المبتدعة من أهل الكلام أو بعض أصحاب الفلسفات المستوردة من بلاد الغرب، فتراه يبالغ في حشو مصنفه بأقوال الفلاسفة والخوض فيها بالتعقب والمناقشة من غير أن يكون في الأمر ضرورة شرعية تقتضي ذلك علىٰ الحقيقة، ولعله أن يكون بذلك أول من يعرض عامة المسلمين لتلك الأقوال والنظريات من حيث يحسب أنه يقيهم منها ومن شرها! فإن فتش هذا في نفسه، فلربما وجد أن حامله علىٰ ذلك التوسع لم يكن تقديره للمصلحة الشرعية والضرورة الدينية كما أوهمته نفسه، وإنما كان حرصه علىٰ أن يظهر علوه هو علىٰ أصحاب تلك النظريات وقدرته علىٰ إبطالها وإسقاطها وبيان تهافتها! وقد وجدت ذلك الميل في نفسي قابعا تحت كثير مما تكلفت كتابته خلال السنوات الماضية في باب الإلحاد والله المستعان. فقد كان أول مصنفاتي في ذلك كتاب كتبته ونشرته باللغة الإنكليزية للرد علىٰ رأس من رؤوس الإلحاد المعاصرين في أوروبا، وكنت أحسب أن نيتي في ذلك خالصة لله جل وعلا، ثم تبين لي فيما بعد أن نفسي كانت تهفو في الحقيقة لرؤية الكتاب وقد وصل إلىٰ الرجل وتكلم عنه الناس واشتهر بينهم علىٰ أنه رد مفحم قوي قد خرج من رجل

---

(١) ولهذا فقد يعد من جملة العلامات الدالة على ورع العالم المفتي المجتهد أن تراه يصرح بتوقفه في بعض مسائل الخلاف، على اشتهار تلك المسائل وطول النزاع عليها بين العلماء، فإن مال إلى قول دون قول رأيته يلتمس المعاذير لمخالفيه ولا يتعصب لاختياره ولا يوالي ويبرأ عليه، ولا يحب ويبغض من أجله، إلا من تبين له بيقين أنه صاحب هوى في النظر، فهذا يبغض البتة مهما كانت الأقوال في المسألة متقاربة.

من مجاهيل المسلمين، وقد تلبس ذلك الميل في نفسي بلبوس الاعتقاد بأن في ذلك علوا للدين نفسه علىٰ ذلك المجرم وأتباعه، وأن المفتونين به من ملاحدة العرب إن رأوا كيف صنع رجل من مجاهيل المسلمين برأسهم المعظم عندهم، يخاطبه بلسانه وينتصر عليه، فسيكون في ذلك مصلحة دعوية معتبرة! والآن أقول إنني كنت واهما بذلك من عدة أوجه.

فأما أولا، فإنه ليس ثمة دليل علىٰ الحقيقة يسعني أن أنهض به بالزعم أو التنبؤ العلمي بأن الكتاب قد يتحقق له من الانتشار وسعة الصيت في أوروبا ما كنت أرجوه (وهو ما لم يكن من يوم نشرته قبل سنوات عدة وإلىٰ يومنا هذا!)، فالمصلحة المزعومة علىٰ أحسن أحوالها: محتملة لا رجحان فيها! وأما ثانيا فإنه لم يكن لدي دليل أرجو معه أن يتحقق ذلك الأثر في نفوس الملاحدة العرب من مجرد معرفتهم بأن الكتاب قد ذاع صيته وانتشر حتىٰ وقع بين يدي إمامهم المعظم عندهم وعلق عليه! بل أنا الآن أعلم علم اليقين أن هؤلاء الجحدة المستكبرين لا يحرك قلوبهم شيء أصلا إلا أن يرحمهم الله، وأن طلب هدايتهم أو رجاء رجوعهم إلىٰ الحق، ضرب من الوهم ومخالفة لما كان عليه السلف! فلا يجوز أن يوجه إليهم خطاب أصلا! بل حتىٰ عامة المسلمين لم يوفقهم الله تعالىٰ إلىٰ ترجمة الكتاب إلىٰ العربية حتىٰ يومنا هذا علىٰ الرغم من شروع أحد الإخوة في ذلك قبل سنوات عدة، وقد كنت أعجب من هذا جدا، ثم زال عجبي لما فقهت حال نفسي، وتبين لي ما لم أكن أراه من قبل، وأدركت أني فيما يبدو قد عاملني الله تعالىٰ في ذلك بنقيض قصدي. فلو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لرأيت الدافع النفسي الخفي، ولظهر لي أن نيتي كانت مدخولة وأن ما أسستها عليه من ترجيحات قد اختلط عليّ من حيث لا أشعر، وإذن لما كتبت ذاك الكتاب علىٰ نحو ما فعلت، والله المستعان.

وقد رأيت من ذلك النزع النفسي (محبة العلو والتفوق بالرد والتنظير) حال كتابتي هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم الشيء الكثير! وقد كنت وما زلت أخشىٰ أن أقع في التكلف والتنطع وأنا أحذر الناس من التكلف والتنطع، ولا

حول ولا قوة إلا بالله! فقد وقفت في نفسي حال كتابتي هذا الكتاب نفسه علىٰ كثير من المنازعة بغير دليل معتبَر عند ترجيح ما يصح طرحه والخوض فيه من القضايا وما لا يصح (من جهة تقدير المصلحة الشرعية التي من أجلها وضعت الكتاب). وكنت أجد الإحجام عن الخوض في بعض المسائل الفلسفية وعن الرد علىٰ أصحابها أمرا شاقا صعبا علىٰ نفسي، يحتاج إلىٰ مجاهدة. وأكثر ما كان ذلك عند تناولي مسألة «مشكلة الشر». فقد كنت شرعت قديما في كتابة مصنف مستقل في تلك المسألة، أناقش فيه ما وجدته في مصنفات الفلاسفة واللاهوتيين المعاصرين من جدال فيها، لا يدري كثير من المسلمين أنه هو مصدر ما يتكلم به عامة الملاحدة اليوم فيما يأتي به أحدهم من هراء وتخرص في تلك القضية. ولم يكن جدالهم المشار إليه قد عرف بين المسلمين بعد، إذ قد نقله حديثا بعض من لا خلاق لهم من متجهمة العصر إلىٰ اللغة العربية وعلقوا عليه تعليقات كلامية لا قيمة لها، ما أراد بها إلا أن يثبت أن له قراءة واطلاعا في كتب الفلاسفة العصريين، وإلىٰ الله المشتكىٰ! فكانت نفسي تزين لي أن أتصور حصول النفع العظيم للمسلمين في الوقوف علىٰ مصنف كامل مستقل في تلك القضية، فيه من تتبع أقوال الفلاسفة المعاصرين في تلك المسألة ونقدها ما يأتي علىٰ أكثرها إن لم يأت عليها كلها، علىٰ أن يصبح ذلك المصنف هو أهم المراجع في الباب!

وكان يخفىٰ علي آنذاك أن ذلك التأويل إنما هو ستار تزييني لرغبتي الدفينة في أن أكون أول من سبق من المسلمين إلىٰ تصنيف الرد علىٰ تلك الدعاوىٰ الفلسفية التي ظهرت خلال العقود الأخيرة عند الفلاسفة الأكاديميين في مجال فلسفة الدين! وكنت قد قطعت في تأليف ذلك المصنف المذكور شوطا كبيرا، حتىٰ أذن الله جل وعلا أن عزمت علىٰ تصنيف هذا الكتاب الذي بين يديك في كشف كبر الفلاسفة من دهرية ولاهوتيين ونحوهم، وبيان أصل التلبيس والفتنة القلبية التي يستدرجون بها خصومهم من كل ملة إلىٰ أذمّ أنواع الخصومة والمراء علىٰ الإطلاق! فترجح لدي شيء من المصلحة الشرعية في استعمال بعض مادة المصنف المذكور وإعادة صياغتها لتظهر في قالب التحليل النفسي المعرفي، لا في قالب الحجاج الفلسفي النظري. بمعنىٰ أن يكون أسلوب العرض موجها لبيان مكمن العلة في نفس هذا الفيلسوف أو ذاك، وما يحمله علىٰ الانتصار لذاك الكلام

المتهافت الذي ينتصر له، وعلىٰ الإصرار عليه وعلىٰ مواصلة الجدال أيا ما كان ما يأتي به الخصم من جواب، لا أن يكون جوابا «نظريا» في الرد علىٰ دعوىٰ نظرية مقابلة علىٰ طريقة المتكلمين في المجادلة (كما كان في صورته الأولىٰ)! فرأيتني أعيد كتابة تلك المادة المذكورة وأحذف منها ما لا يتناسب مع ذلك الغرض، ووجدتني– مع هذا – لا أحذف شيئا إلا وأنا كاره لذلك كما أشرت آنفا، وتحدثني نفسي بأن أتركه علىٰ حاله أو أعدله تعديلا طفيفا، ولا يظهر لي – من فوري – أن سبب تلك الكراهة إنما هو كراهتي أن أحذف شيئا قد أبدعت فيه وتفننت وجئت بالأعاجيب، لأني أطمع في باطن نفسي في أن أتحف به القراء وأجلب به الأنظار وأخلب الألباب وأعلو به علىٰ المخالفين، وأن يكون لي السبق والريادة في ذلك كله! ومع أن الله تعالىٰ قد وفقني للإطاحة بكثير مما كنت كتبته قديما في مادة تلك المسألة (مشكلة الشر ومسألة الحكمة والتعليل) عند تناولها ها هنا، إلا أني أراني علىٰ خوف من أن يكون قد غلب علىٰ نفسي ميلها المذكور عند ترجيحي الإبقاء علىٰ ما أبقيت عليه من تلك المادة، فاستجزت ما حقه المنع من حيث لا أشعر، وفصلت فيما حقه أن يقتصر فيه علىٰ الإجمال وعرضت المسلمين لما كانوا منه في عافية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

بل لا أخفي عليك أيها القارئ الكريم، أنني حتىٰ مع كتابتي هذا الكلام الذي تقرأه الآن، أسمع هاتفا في نفسي يحدثني بأن الناس ستستحسن مني هذا الاعتراف وتعده عملا عظيما يُحسب لي لا علي في رصيدي عندهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فسبحان الله ما أخطر تلك النفس وما أخفىٰ دوافعها وما أحوجنا إلىٰ تدقيق النظر فيها ومعالجتها في كل ما نأتي من الأعمال وما نذر! وما أكثر ما قد نعده طاعة وعبادة وقربة من أعظم القربات، مع أنه ليس في الحقيقة كذلك، وإنما هو ميل النفس فيما يخفىٰ علىٰ أعيننا، وحرصها علىٰ التقرب إلىٰ الله بما تشتهي لا بما يحبه هو ويرضاه علىٰ التحقيق، نسأل الله السلامة من كل هوىٰ خفي.

وفي تقسيم النفس إلىٰ ثلاثة أصناف عند علماء السلوك من سلفنا الصالح ما يبين لك مراتب النفس فيما تحققه من تلك المعالجة الوافية لكل ميل ونزع ودافع فيها. فتجد

في المرتبة الأولىٰ «النفس الأمارة بالسوء»، وهي تلك التي لا تحمل صاحبها إلا علىٰ السوء، فمهما غفل عنها سلكت به في كل معصية! ثم في المرتبة الثانية تأتي «النفس اللوامة»، وهي تلك النفس التي صار فيها (من كثرة المراقبة والمعالجة والمتابعة الواعية والتقويم من جانب صاحبها) ميل طبعي مكتسب(١) إلىٰ كثير من خصال الخير، ونفور من كثير من خصال الشر، فلا تحدثه نفسه بإتيان الشر إلا وجد منها وخزا ونفورا وكراهية لذلك (فيما يقال له «الضمير»)، غير أنه يغلب عليه داعي الشهوة والهوىٰ فيقع في الجهالة في أكثر أحواله. ثم في الأخير تأتي «النفس المطمئنة»، التي لا يظهر فيها داعي السوء إلا كتمه الميل الغالب إلىٰ الخير وأسكته وتغلب عليه (في أكثر أحوالها).

فهي كما ترىٰ مراتب لتربية النفس وتقويمها بالمراقبة الواعية الحثيثة والمعالجة المستمرة، حتىٰ يترسب إلىٰ العقل الباطن (من كثرة المران والتدريب) ما تتغير به ميولها الباطنة الخفية من الشر إلىٰ الخير، ومن نداء الشهوة والهوىٰ إلىٰ نداء الخير (فيما يغلب). أو بعبارة أخرىٰ، يصبح الجزاء الأخروي أحب إليها – حقيقة – من اللذة الدنيوية العاجلة مهما عظمت، ويصبح العقاب الأخروي أكره إليها وأخوف – تحقيقا – من الخسارة الدنيوية العاجلة مهما عظمت، حتىٰ إذا ما مالت بصاحبها تبعا لما تحب وما تكره (كما هو شأن النفس ونظامها بعموم، في ميزان الهوىٰ الباطن فيها)، مالت به إلىٰ الخير في أكثر أحوالها لا إلىٰ الشر، وهذا هو ما نقول له «تزكية النفس»، نسأل الله أن يزكي لنا نفوسنا وأن يعيننا عليها وأن يرزقنا دوام المراقبة والمحاسبة، إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) والطبع يُكتسب بالتطبع.

القاعدة الأولى: حب الشهوات هو الأصل في نفس الإنسان

ولعل أولىٰ قواعد علم النفس عند السلف ﷺ: **أن الأصل الأصيل والركن الركين في نفس الإنسان هو حبها الشديد لما تشتهي من راحة معنوية ومن لذة حسية.** فمن غفل عن نفسه وترك ميزان الهوىٰ فيها من غير مراقبة واعية مستمرة، جعلته تابعا لهواها وشهوتها العاجلة وزينت له سوء عمله من حيث لا يشعر. أو بعبارة أخرىٰ: ما لم يضبط الإنسان نفسه ويزكها ويربها علىٰ الحق، فلن تصدر في قول أو فعل إلا عن الهوىٰ الدنيوي المحض.

وأدلة تلك القاعدة في الكتاب والسنة وافرة متواترة، منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر قوله تعالىٰ: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [**آل عمران**: ١٤] فقوله تعالىٰ «زين للناس» أي إن ذلك الحب والميل الشديد قد جبلت عليه نفس الإنسان في أصل خلقتها لحكمة تتعلق بابتلائه وتكليفه في الأرض، تتجلىٰ في قوله جل وعلا: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [**التوبة**: ٢٤]. فالابتلاء بالإيمان بالغيب في حقيقته ابتلاء بميزان المحبة في نفس الإنسان: هل يجاهد نفسه لتقبل الحق الذي عرفته ولتنشرح له وترضىٰ به حتىٰ يصبح الله ورسوله أحب إليها مما سواهما، أم تتخلف عن ذلك الجهاد الواجب فتبقىٰ تلك الشهوات أحب إليها من الله ورسوله، فيصبح الصدر ضيقا حرجا بذلك الدين وتكاليفه وأحكامه كلها أو بعضها.

فمن ترك نفسه علىٰ أصل خلقتها من غير أن يعالجها ويزكيها بما جاءت به رسل الله، مالت تلك النفس مع حب الشهوات الدنيوية العاجلة لا محالة، وهو ما يترتب عليه ألا ترىٰ الحق حقا ولا ترىٰ الباطل باطلا، إلا ما جاء علىٰ وفق تلك المحبة الخبيثة وذاك الهوىٰ الخفي فيها، فلا يكون الحق إلا ما تحبه تلك النفس من عاجل أمر الدنيا، والباطل ما تكرهه

تلك النفس من مثل ذلك، تبعا لشهوات وغرائز شتىٰ أكثرها مما يخفىٰ أغلب الوقت في العقل الباطن ولا ينتبه إليه الإنسان. وإذا بك تراها تنتصر لباطلها الذي تهواه بالأدلة الزائفة أشكالا وألوانا، وتتراكم طبقات الغشاوة ويعلو الران عليها باجتماع حيل التسويغ الواهية عند صاحبها وانعقادها عليها، كما رأينا من أمثلته في هذا الكتاب ما نرجو ألا مزيد عليه!

وهذا يجري علىٰ كل قول وفعل يفعله الإنسان، لأنه لو لم يضبط الإنسان نفسه علىٰ التزام الحق طمعا فيما عند خالقه وباريه وخوفا من عقابه الأخروي، فلن يضبط نفسه علىٰ التزام الحق إن ظهر له (أيا ما كان موضوع ذلك الحق) إلا طمعا في خير دنيوي عاجل (أو خوفا من شر دنيوي نازل). فإنه ليس في التزام الحق أو التفريط فيه (كموقف أخلاقي مجرد) أي ثمرة تحبها النفس أو تكرهها إلا فيما يترتب علىٰ ذلك الموقف لصاحبه من عواقب عاجلة أو آجلة. فإن زال ذلك الغرض الدنيوي المرجو أو الخطر المتخوف منه في عواقب التزام الحق، وظهر غرض دنيوي أحب إلىٰ نفس الإنسان لا يناله إلا بترك الحق والدخول في الباطل، أو خطر دنيوي أشد كراهة إلىٰ نفسه لا يرىٰ زواله إلا بذلك، لم يمنعه من ترك الحق والدخول في الباطل شيء البتة، وسيجد نفسه - لا محالة - يزين ذلك الباطل لنفسه وللناس بالجدل السوفسطائي والخصومة والزخرفة اللفظية واتباع المتشابهات، علىٰ النحو الذي تناولناه بالشرح والتفصيل وضربنا له الأمثلة فيما مر بك من أبواب هذا الكتاب.

قال تعالىٰ ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ [**إبراهيم**: ٣٤] و«الكفار» هنا بمعنىٰ أن الأصل في الإنسان كفر النعمة وجحود حق صاحبها سبحانه وتعالىٰ، من استثقال نفسه لما يلزمها من فعل وترك لشكر تلك النعمة.

وقال جل وعلا: ﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا**﴾ [**الإسراء**: ٦٧] فيبين كيف أن الإنسان إذا ما تعرض لأسباب الهلاك، تذكر ما غفل عنه من أمر الغيب، ولم يجد من يدعوه ويضرع إليه بالغيب إلا الله وحده بلا شريك ولا واسطة، ثم إذا ما نجاه الله نسي ربه وانقلب إلىٰ

شهواته وأهوائه وإلىٰ دعاء خلقه الذين اتخذهم له شركاء، كأن لم يدعه من قريب لضر مسه، مفردا إياه بالطلب والرجاء! فلولا أن كان الأصل في نفس الإنسان الغرق في طلب الشهوة العاجلة، ما كانت هذه حاله: إذا نزل البلاء الشديد حتىٰ رأىٰ نفسه قد أوشكت أن تفارق هذه الدنيا بما فيها، تذكر الحق إذن وقال به راغما مضطرا، إذ لا يجد بدا في تلك الحال من الاستغاثة بالذي يعلم في قرارة نفسه أنه هو الإله الحق الذي لا إله إلا هو، الذي لا يملك النفع والضر علىٰ التحقيق أحد سواه. فإذا زال الخطر الواقع واطمأنت النفس لرجوع حالها الأولىٰ وإمكان إصابة ألوان الشهوات الدنيوية العاجلة من جديد، رجعت إلىٰ الباطل الذي تلتمس به أسباب تلك الشهوات في الأرض مهما كان شنيعا قبيحا، وكأن شيئا لم يكن، ورجعت إلىٰ الشرك من جديد وكأنها لم يصبها شيء، ولم تدع الرب لضر مسها! ففي هذه الآية ونحوها حجة علىٰ كل من سبق أن وجد ذلك من نفسه، لعله يتذكر أو يخشىٰ!

وقال تعالىٰ: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**﴾ [**النحل**: ٤].

فالأصل في الإنسان أنه خصيم مبين، لا يأتيه الحق إلا عرضه علىٰ شهوته وهواه في باطن نفسه أولا، فإن جاء علىٰ وفق الهوىٰ والمزاج قبله وعمل بمقتضاه وهو راض وتفنن في الدفاع عنه والانتصار له، وإلا تفنن في الجدل والخصومة والفلسفة أشكالا وألوانا حتىٰ يرده ويتخلص منه، ويوهم نفسه بما يطمئنها لذلك الموقف الذي اختاره. فتأمل كيف يذكر الله الإنسان بحقارة الأصل الذي خلق منه، وتأمل كيف تصل الخصومة والجدل بالإنسان عند استحكام الأهواء من نفسه - مع تلك الحقارة في أصل خلقته - إلىٰ حد الزعم بأنه لا خالق له ولا مصور أصلا! لذا قال جل وعلا: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**﴾ [**الكهف**: ٥٤] فلن يأتيه الحق الذي في القرآن وفي نفسه أهواء تجعله يكره قبوله والتسليم به، إلا رأيته يجادل فيه أشد المجادلة، ويخاصم عليه أشد الخصومة، كما لا يكون من أي صنف من أصناف المخلوقات حتىٰ إبليس نفسه (الذي كان أول من خاصم وتفلسف كما بينا في موضع آخر). هذا هو الأصل في الإنسان، ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ [**العصر**: ٢]،

إلا من شرح الله صدره لـ يمان ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:].

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وغير ذلك في معناه كثير.

ولعله يمكن العبارة عن هذه القاعدة بعبارة أخرىٰ أن يقال إن الإنسان «أناني» بطبيعته، يحب الخير لنفسه حبا جما، ويجري علىٰ جلب ذلك الخير لنفسه حتىٰ ترضىٰ. فلا يسعىٰ الإنسان في عمل لا يرجع علىٰ نفسه بشيء تحبه تلك النفس، إن لم يكن في العاقبة العاجلة ففي الآجلة. فلا حقيقة لما يقال له عند بعض فلاسفة الأخلاق العصريين Altruism أو محبة فعل الخير للآخرين تجردا عما تحبه النفس Selflessness! لأن العمل – أيا ما كان – إن لم يجلب علىٰ نفس الإنسان شيئا تحبه (أيا ما كان ذلك)، فسيجلب عليها شيئا تكرهه لا محالة (وأقل مراتب تلك الكراهة ما يجده الإنسان من مشقة تكلف وبذل العمل نفسه) من غير أن تجد مع ذلك أمرا تحبه أو ترغبه، وهذا أمر لا يصير إليه امرؤ عاقل بحرية وإرادة. ولن يصبر إنسان عاقل علىٰ كراهة يجدها في نفسه من عمل يأتيه إلا من علمه بأن ذلك العمل سيأتي بثمرة هي أحب إلىٰ نفسه مما تكون عليه الحال لو لم يأت بذلك العمل. حتىٰ حب الأم لولدها ليس حبا خاليا من إشباع رغبة النفس في الحقيقة. فلولا أن جعل الله في المرأة – من رحمته – حب ولدها المفرط غريزة جبلية مركوزة في نفسها (غريزة الأمومة)، تألم أشد الألم لو لم تشبعها، ما وجدت في نفسها – من جهة الأصل الخلقي الطبعي – ما يدفعها لبذل نفسها في سبيل صيانة وليدها من كل سوء.

لهذا كان من مقتضيات حكمة الملك تبارك وتعالىٰ أن جاء التكليف الشرعي مقرونا بالوعد والوعيد في كل عمل وترك، لأنه لو لم ير الإنسان ثمرة عظيمة تحبها نفسه وتتطلع إليها من إتيان عمل من الأعمال التي تكتنفها المكاره فيما يتوقع لنفسه من أثرها، أو لم ير خطرا عظيما تكرهه نفسه وتهرب منه، من غشيان عمل من الأعمال التي له فيها شهوة عاجلة وهوىٰ فوري، فلن تثقل لديه كفة الخير في الفعل أو الترك علىٰ

كفة الشر (في ترجيحه الفردي) مهما كان الفعل أو الترك ظاهر الصحة أو ظاهر الفساد في نفسه، ومهما عرف ذلك بالدليل القطعي! أو بعبارة أخرىٰ نقول: إن قول الكذب والزور وفعل الفساد معلوم قبحه بالبداهة، ولكن عندما يختار الإنسان لنفسه ألا يعتقد الباطل وألا يقول الكذب وألا يفعل الفساد، فلا يكون ذلك الاختيار نابعا من مجرد ذلك العلم (إن تحقق في نفسه)، وإنما يأتي تبعا لموازنة تجري في نفس الإنسان بين المحبوبات والمكروهات المتوقع ترتبها علىٰ ذلك الاعتقاد والقول والفعل، موازنة بين الحال والمآل، وثمرة الإتيان وثمرة الترك. فمن مال به قلبه (في ميزان الهوىٰ الباطن) إلىٰ تعظيم كراهة العقاب الأخروي المترتب علىٰ الإتيان، فوق كراهة الضرر الدنيوي المترتب علىٰ الترك، كان من الناجين يوم القيامة، والعكس بالعكس! بل حتىٰ اعتناق الدعاوىٰ المعرفية التي عُلم بالبداهة الأولىٰ أنها حق وأن خلافها باطل، لا يكون في علم الإنسان «فضيلة أخلاقية» موجبة للقبول لمجرد أن الدعوىٰ نفسها حق، ولكن لأن الذي يقبلها ويعتنقها يكون أحسن حالا وصفة و/ أو مآلا وعاقبة (أفضل إجمالا) من الذي يكذبها ويردها.

فأنا لا أجد ما يضيرني في العاجل ولا في الآجل إن اعتنقت القول الباطل أو الكذب فيما رواه المؤرخون من سبب موت «جنكيز خان» أو «كيلوباترا» مثلا! نعم هو أمر قبيح في نفسه ولا شك أن أكون علىٰ جهل فيما أعتقد، ودليل قبحه بدهي ظاهر لا يحتاج إلىٰ برهان نظري، إذ الباطل - بإطلاق معناه - شيء قبيح في نفسه قطعا وعلىٰ مقتضىٰ المعنىٰ اللغوي المجرد، وكذلك الجهل قبيح أيضا بإطلاق معناه، فمما يقبح - بالمنطق اللغوي المجرد - ألا أعلم أحق هو أم باطل هذا الذي بلغني به الخبر في تلك المسألة التاريخية ولا أجد طريقا للترجيح في ذلك. ولكن واقع الأمر أن المسألة نفسها لا تزن عندي شيئا أصلا، فلست أجد في نفسي كراهة لذلك الجهل ولا أستقبحه علىٰ الحقيقة، ولا أجد ما يحركني أو يحملني علىٰ تكلف رفعه وطلب زواله عن نفسي.

بخلاف ما لو حدثتني نفسي في حادثة الصلب (مثلا)، هل كان المصلوب فيها هو المسيح عيسىٰ أم رجل غيره، هذه مسألة لو اعتنقت فيها الكذب وأنا أعلم أنه كذب، أو

لو أهملتها ولم أتعلم الحق الذي جاء به رسول الله فيها، لهلكت هلاكا أبديا! فلعلمي بهذا المآل المروع، حملتني نفسي علي أن أفرق بين الحق والباطل فيها تفريقا بينا لا التباس فيه ولا تهاون ولا تفريط، وصار قول الباطل والجهل بالحق فيها أمرا شنيعا شديد القبح في حقي، لا يسعني السكوت عليه.

فالإنسان بطبعه يحب الأحوال والمآلات التي يجد معها أحسن ما تلذ به نفسه، ويكره من الأحوال والمآلات ما تألم له نفسه، هذه خصلة جبلية فيه لا تبديل لها. فإن استوىٰ قول الحق واعتقاده بقول الكذب واعتقاده في الحال والمآل، لم يكن أحد الوجهين «فضيلة» في اعتباره، مهما كان يشهد بأن قول الحق حسن في نفسه وقول الكذب قبيح في نفسه. لهذا لزم ألا يخلو التكليف الشرعي من تفضيل بين المطيع والعاصي في الحال والمآل في الدنيا والآخرة جميعا، حتىٰ يصبح القول أو الفعل أو الاعتقاد الحسن محبوبا للنفس في الحال أو المآل (أو كليهما جميعا) والقبيح مكروها للنفس في الحال والمآل (أو كليهما جميعا). وإلا فكيف يعلن الإنسان تمسكه بموقف اعتقادي ما أو بعمل ما أو بقول ما وهو يعلم أنه (أي ذلك الموقف أو العمل أو القول) لن يرجع عليه – هو نفسه – من الأمور المحببة إلىٰ نفسه بما يربو علىٰ المكاره التي يلقاها من أثر ذلك الموقف أو العمل؟ هذا لا يكون أبدا!

حسبك أن تنظر في المصدر الذي يأخذ منه الإنسان نظامه الأخلاقي، الذي يخبره بأن هذا العمل خير محبب وذاك شر مكروه، فلن تجد المصادر إلا علىٰ ضربين لا ثالث لهما: مصدر سماوي ومصدر أرضي. فأما المصدر الأرضي فهو ما تميل إليه نفوس الناس لمحبتهم أثره العاجل، وغالبا ما يكون نسبيا، بمعنىٰ أن اتفاق الجماهير في بلد من البلدان علىٰ ذلك المصدر (سواء كان من فلسفة منظر من المنظرين أو من تعاليم بعض الحكماء القدماء التي توارثها الناس حتىٰ صارت عرفا مستقرا أو غير ذلك) كفيل بجعله محببا لكل واحد منهم، لأن الواحد منهم يكره أن يخالف تلك الجماهير فيما اختارته من معاني الخير والشر، لأنه يكره أن يكون عندهم شريرا مكروها، أو صاحب تشدد في الدين وشذوذ في السلوك! وأما المصدر السماوي فيجتذب قلب الإنسان

إليه ويستميل نفسه لحقيقة أنه نازل من رب السماوات العليم بكل شيء، الذي وعد المكلفين بخير وافر بعد الموت إن أجابوا، وبعذاب شديد إن عصوا وتفلتوا، فلا يجد الإنسان إلا أن ثمرة الطاعة أحب إلىٰ نفسه، وثمرة المعصية أبغض إلىٰ نفسه، فتميل نفسه للشهادة بالحق، والاعتراف بأن التشريع الأخلاقي حق رباني محض، فإذا نزل من السماء شيء من الأمر أو النهي فلا مناص من طاعته والخضوع له. ومهما كرهت جماعة الناس من الفرد منهم أن يطيع تشريع الرب ويعصىٰ عوائدهم وتقاليدهم وما وجدوا عليه آباءهم، فهو لا يبالي لأن كراهته لوعيد الآخرة أصبحت أعظم من كراهته لما يجد في الدنيا من تضييق الناس عليه ومحاربتهم له.

ولهذا ترىٰ أن الرب سبحانه إذا أراد أن يكلف الإنسان بعمل يرجع علىٰ غيره في الدنيا بالخير ويرجع عليه هو بشيء يكرهه في الدنيا (كالتعب والنصب)، فإنه يرغبه في ذلك العمل بالوعد بجزاء وافر في الآخرة، حتىٰ إذا ما ثقل حب الآخرة علىٰ حب الدنيا في تلك النفس، أتت ذلك العمل وهي راغبة طامعة طمعا محمودا غير مذموم، يحركها حب الخير لصاحبها[1] بعد أن انضبط علىٰ تقدير حكيم للخير والشر، فصارت خصلة محمودة غير مرذولة. وكذلك يقال في الوعيد والترهيب. فالأصل في الإنسان أنه لا يحب تكلف العمل لغير نفسه. فإن خوطب بجزاء تحبه نفسه يترتب علىٰ ذلك العمل الذي يبذله لغيره، أحب ذلك واستحسنه. ولهذا صح عن أنس ﵁ أن رسول الله ﷺ قال «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، فلولا أن كان المكلف منا معاشر البشر قد جاء الشرع بتحبيبه في الإيمان وترغيبه في الزيادة منه بكل وسيلة، لم يجد السامع في هذا الحديث ما يحمله علىٰ أن يحب لغيره من المسلمين ما يحب لنفسه. فلأنه علم – بعد السمع – أنه لو لم يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه فلن يكمل إيمانه، وإذن فلن يحظىٰ بما تهفو نفسه إلىٰ إصابته من حظ الآخرة، فستراه يعمل علىٰ حمل نفسه علىٰ أن تحب الخير لأخيه المسلم كما تحبه لصحابها، لأنها تحب الثمرة المترتبة علىٰ كمال الإيمان وتكره الثمرة المترتبة علىٰ نقصه، لا لأنها تحب ذلك الأخ المسلم بعينه ابتداءً بالطبع والجبلة. فإذا علم أن كمال الإيمان لا يأتي من غير عمل علىٰ زيادة

(١) أو «أنانيتها» الجِبلية (إن صح التعبير)!

ذلك الحب، أحبت النفس أن تبذل فيه وأن تصبر علىٰ كثير مما قد تجده من المكاره الطبعية الدنيوية من أثر ذلك.

ونظير ذلك – وهو أهم وأخطر – قوله ﷺ فيما صح عنه (واللفظ للبخاري): «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين». فلا إيمان لمن لم يحب رسول الله ﷺ، وكذلك لا يملك من آمن برسول الله ﷺ إلا أن يحبه، فلا إيمان بلا محبة ولا محبة بلا إيمان، ولا يتصور الفصل بينهما بترتيب أحدهما علىٰ الآخر سببيا. فمن رضي بالله ربا وبالإسلام دينا، فقد أحب رسول الله ﷺ قطعا، فلا يزداد رضاه بالإسلام دينا إلا ازدادت محبته للرسول، ولا تزداد محبته للرسول إلا ازداد رضاه بالإسلام دينا. ولا يزداد المؤمن تصديقا إلا ازداد محبة، ولا يزداد محبة إلا ازداد تصديقا، ولا يزداد عملا بشرائع الإسلام إلا ازداد محبة، ولا يزداد محبة إلا ازداد عملا. ولا يزداد المحب للشيء محبة له إلا ازداد كرها لخلافه وخوفا من فقده. هذه الزيادة في الإيمان وفي حلاوته في نفس الإنسان المقرونة بالمحبة، هي كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه في الصحيح أن الرسول عليه السلام قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقىٰ في النار». فلأنك علمت أن الله حق وأن الرسول حق، كرهت أن ينزل بك الوعيد الشديد، وأحببت أن تحظىٰ بالرحمة الخاصة والنعيم الأبدي، فكان لزاما أن تحب الإيمان وتحب من جاءك به وزينه لك وحببك فيه، وتبغض الكفر وتبغض من زينه لك وقربه إليك.

وقد كذبت بعض المتصوفة في دعواها أن منهم من بلغ منزلة صار معها لا يعمل بالتكاليف الشرعية إلا محبة لله تعالىٰ، من غير خوف أو رجاء! ذلك أن محبة الله تعالىٰ إن وقعت في نفس الإنسان، فلا تقع بخرق عادة تلك النفس وجبلتها الخلقية في موازنة المحبوبات والمكروهات، وإنما تقع بإصلاح مواضع الحب والبغض في تلك النفس بالتذكرة والوعد والوعيد (وهو مجموع ما جاء به المرسلون من خطاب لنفوس البشر) حتىٰ تأتي الموازنة – الواقعة لا محالة، سواء في الوعي أو في العقل الباطن –

بثمرة صحيحة. وإلا فلو أن الرسول ما بعثه الله بوعد ولا بوعيد، وما أرسله بترغيب ولا بترهيب، وإنما بالدعوة إلىٰ محبته المجردة، فبأي شيء يحبه العباد أصلا إن لم يسمعوا من وعده ووعيده وأفعاله ما يخوفهم من غضبه ويطمعهم في رحمته، وتتجلىٰ به كمالات صفاته فتتحرك النفس حتىٰ تحب طاعته وإرضاءه وتكره معصيته وإغضابه، بما لا يتحقق معنىٰ الحب فيما يعقله الناس إلا بمجموعه؟ لا حصول للمحبة في نفس إنسان أصلا إلا برغبة ورهبة، أيا ما كان المحبوب! فالذي يحب شيئا ما، فإنه يرغب في قربه والزيادة من ذلك ما استطاع، لعلمه بما يرغبه في ذلك ويطمعه فيه، ويرهب من فقده والبعد عنه لعلمه بما يخوفه من ذلك!

ولو قدرنا – تنزلا – أن رسولا من عند الله جاء للمؤمنين من أتباعه بالبشارة بأن لهم الهلاك الأبدي في الآخرة مهما عملوا ومهما عبدوا وخضعوا وأطاعوا، أفكان يعقل من أحدهم أن يحب الله تعالىٰ علىٰ ما نعقله من معنىٰ لغوي للفظة «حب»؟ أبدا، هذا محال، والله منزه عنه بداهة، فما كانوا ليصدقوا أن يكون صاحب دعوىٰ كهذه رسولا من عند ربهم بالأساس.

لذا شبه علماؤنا الإيمان بطائرٍ رأسُه الحب وجناحاه الخوف والرجاء، لأن محبة الله ورسوله لا تتحقق في النفس إلا من ثمرة ذلك الخوف والرجاء بمجموعه. فلو اختل ميزان الخوف والرجاء في النفس، اختل الإيمان واختل معه الحب ضرورة. ولولا أن أغرق المتصوفة في فلسفة وحدة الشهود وما وراءها من القول بوحدة الوجود، لما زعموا أن «فناء النفس» في محبة الله يعميها عن الخوف والرجاء بالكلية!

القاعدة الثانية: في محل المحبة والبغض من عمل النفس

ومن هنا تتحقق لنا القاعدة الثانية في فقه النفوس التي يمكن صوغها كالتالي: المحبة والبغض هما محرك الإيمان في النفس، وكمال الإيمان بكمال المحبة وكمال البغض.

فأما المحبة، فيقول الله تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ**﴾ [**البقرة**: ١٦٥].

﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [**التوبة**: ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ [**آل عمران**: ٩٢] لماذا ﴿**مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾؟ لأن النفس لو كلفت بالإنفاق مما تكره أو مما لا تحب ولا تكره، لما كان في ذلك ابتلاء لصاحبها، والابتلاء هو مقصود التكليف**!** وكذا كل تكليف بقول صالح أو عمل صالح سواء كان قولا أو عملا للقلب، أو قولا للسان أو عملا للجوارح، فهو تكليف بإتيان ما فيه كراهة طبعية وترك ما تميل النفس إلىٰ البقاء عليه، أو بعبارة أخرىٰ: هو ابتلاء في المحبوبات والمكاره، هذه من سنن الله تعالىٰ في خلقه. وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [**آل عمران**: ١٨٨] وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [**المائدة**: ٥٤].

وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [النور: ١٩].

ويقول جل وعلا في الثناء علىٰ الأنصار: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [**الحشر**: ٩] وتأمل قوله تعالىٰ في تعريف المفلح علىٰ أنه من يوق شح نفسه، أي من يطهر قلبه من غلبة محبة الأغراض الدنيوية علىٰ محبته الله ورسوله وما أعده الله للمؤمنين في الآخرة. وقال تعالىٰ في مقام ذمّ المشركين: ﴿**إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً**﴾ [**الإنسان**: ٢٧].

وقد مر بك من قريب ما في الصحيحين من حديث أنس ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». وما فيهما من حديث أنس أيضا أنه ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»

والمحبة والبغض من علامات الإيمان والنفاق. ففي الصحيحين أيضا قوله ﷺ: «آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ» (واللفظ للبخاري).

ولا توجد المحبة في النفس إلا ببغض، ولا يوجد البغض إلا بمحبة، هذه ضرورة عقلية لا فكاك منها! فمن السفه والسخافة أن يقال إن مطلق البغض والكراهية مرض يجب أن يتخلص الناس منه! فأنت إذا أحببت شيئا، فإنك تكره نقيضه ضرورة وبداهة! فالله إنما يبتلينا بأن نتعلم كيف نضع الحب في موضعه الصحيح وكيف نضع البغض في موضعه الصحيح، بلا إفراط ولا تفريط. أما أن يقال للناس: أحبوا كل شيء ولا تكرهوا شيئا أبدا، فهذا محض سفاهة! والذي يزعم أنه يحب الناس جميعا علىٰ السوية لمجرد معنىٰ «الإنسانية» فيهم، هذا كذاب مكابر! وحسبك أن تمهله حتىٰ يتعرض لأول عدوان

من أحد الناس عليه، ثم سله بعدها هل تحب هذا الذي اعتدىٰ عليك، وحرمك من شيء من أحب الأشياء إليك، أم تبغضه!

لا محبة إلا ببغض، ولا نية إلا من رغبة ورهبة، فالنفس البشرية لا تتحرك إذا تحركت ولا تنبعث فيها النوايا إلا رغبة ورهبة، لمحبة شيء وبغض نقيضه، وهذه ضرورة لا يماري فيها إلا مكابر. نفسك يا عبد الله مائلة بك لا محالة، فانظر إلىٰ أي الأشياء مالت، واجعل ميلها إلىٰ ما يحبه الله ويرضاه إن أردت السلامة!

القاعدة الثالثة: في وجوب المداومة على المراقبة وذمّ النفس

من هنا وجب علىٰ العبد عند كل عمل يعمله أن يتحقق من المحركات الخفية والدوافع الباطنة في نفسه حتىٰ يخلص النية لله تعالىٰ، وأن يتهم نفسه ابتداء، فالنفس عند المؤمن متهمة أبدا، بما يوجب النظر في عللها وعلاجها ومعاهدتها بالتأمل والفحص والتحري مرارا وتكرارا. قال مالك ابن دينار: رحم الله عبدا قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالىٰ فكان لها قائدا»، وقال مجاهد: «من أعزّ نفسه أذل دينه، ومن أذلّ نفسه أعزّ دينه» وقال يونس بن عبيد: «إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير، ما أعلم أن في نفسي منها واحدة» .وقال سفيان بن عيينة: «قال رجل من العلماء: اثنتان أنا أعالجهما منذ ثلاثين سنة: ترك الطمع فيما بيني وبين الناس، وإخلاص العمل لله عز وجل». (حلية الأولياء). وقال الإمام الآجري رحمه الله: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنما ينبت علىٰ لون آخر». (تهذيب الحلية). وقال الثوري: «ما زلت أرائي وأنا لا أشعر إلىٰ أن جالست أبا هاشم فأخذت منه ترك الرياء». (حلية الأولياء).

وتأمل قوله رحمه الله «وأنا لا أشعر»، فالآفة والخطر يكمن في خفاء الرياء عن نفوس الأكثرين، مع أنه إنما يقع في قعر تلك النفس لا في غيرها، فهو أمر باطني (في العقل الباطن) يحتاج من الإنسان إلىٰ استبطانه واستخراجه من دائرة اللاوعي إلا الوعي، حتىٰ يُوأد وتطفأ جذوته في النفس قبل الإقدام علىٰ العمل، وإلا كان العمل علىٰ غير نية يقبلها الله تعالىٰ، بل كان فيه من الشرك الأصغر الخفي ما لا يقبله الله تعالىٰ، وهو الغني العزيز سبحانه وتعالىٰ وتقدس، لا يقبل إلا ما كان له وحده، فإن إشراك شيء من خلقه معه في أي عمل يفترض به أن يكون موجها إليه (عبادة) وأن يكون هو المقصود به، هذا فيه إيذاء له سبحانه وانتقاص من قدره جل شأنه، كما في الحديث القدسي: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري، تركته وشركه».

واتهام النفس بالهوىٰ الخفي ليس ظلما لها ولا عدوانا عليها، ومجاهدتها ومغالبتها

والتضييق عليها ليست مرضا نفسيا بإطلاق كما يزعمه بعض منظري علم النفس الغربي والمفتونون بهم من بني جلدتنا، وإنما هو المقتضىٰ الصريح واللازم المباشر لشهادتنا علىٰ نفوسنا بما قررناه في القاعدتين السابقتين، من كونها تحب الشهوة العاجلة كأصل ثابت لا انفكاك لها عنه، ومن كونها تبطن من ذلك تحت كثير من دوافعها ومحركاتها ما لو غفل عنه صاحبها لأوردته المهالك من حيث لا يشعر! فإذا كان خالق تلك النفس قد ذمها في القرآن في كل موضع ذكرها فيه، ولم يزكها إلا عند من جعلها – من بعد جهاد طويل – نفسا لوامة مطمئنة بالإيمان، فكيف نلام نحن بذمها وتحقيرها؟

لا شك أنه من غير المستغرب علىٰ الإطلاق أن نخالف علماء النفس الغربيين في هذا التقعيد مخالفة جوهرية، لاختلاف الأساس الفلسفي الذي يقوم عليه علمنا وعلمهم بالغاية من وجود الإنسان نفسه في هذا العالم، وما يترتب علىٰ ذلك العلم عندنا وعندهم من تفاوت في تصور الحالة السوية لنفس الإنسان وما ينبغي أن تكون عليه. ففي الوقت الذي تراهم يكرهون فيه للإنسان ما يكرهه المشرك المادي لنفسه ويحبون له ما يحبه المشرك المادي لنفسه، من أمور قد تصرخ بفسادها الفطرة السوية والتشريع السماوي الذي جاء بموافقتها، نأتي نحن بما نزعم أن فيه تقويم المحبات والمكاره والميول في نفس الإنسان، وأنه لا يستقيم أمره حتىٰ يقوِّمها ويعالجها أشد ما تكون المعالجة، لتحب كثيرا مما يكرهه المشركون، وتكره كثيرا مما يحبونه.

لذا فبينما نحمل نحن المسلمون نفوسنا حملا علىٰ تقوىٰ الله وخشيته ونعالجها علىٰ مراقبته وعلىٰ الندم علىٰ الخطيئة وتجديد التوبة مرة بعد مرة، ونحرص علىٰ فحص دوافعها وميولها واستبطان الفرق بين النية الخالصة لله تعالىٰ (المتمحضة في طلب ما عنده من الفضل في الآخرة) وتلك التي يدخلها من الشهوة الدنيوية العاجلة ما قد يخفىٰ علىٰ الغافلين، لن يرىٰ المنظر النفساني المادي في ذلك العمل عندنا إلا تضييقا خطيرا علىٰ النفس البشرية، و«جلدا للذات» لا حقيقة له عنده إلا أن يكون مرضا نفسيا، ولعله يأتي ببعض نماذج المرضىٰ والمكتئبين من أصحاب النفوس الضعيفة من أتباع ملتنا الذين أفرطوا أو أساؤوا في ذمّ نفوسهم وتحقيرها، فجنحوا بها إلىٰ العجز والقنوط،

ليجعل من ذلك مستندا إمبريقيا يثبت به أن المسلم لن يتكلف ذم النفس علىٰ ما جاء به الأثر عندنا عن السلف الأولين إلا أورث نفسه المرض والفشل والدمار لا محالة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبينما نتوكل نحن المسلمون علىٰ خالقنا ونستعين به ونستحضر الثقة التامة في توفيقه وتسديده للمخلصين الذين يأخذون بالأسباب مع تمام التوكل علىٰ خالقها ومحدثها لا عليها ولا علىٰ نفوسهم الضعيفة مهما عظمت أو عظمها الناس، يرىٰ المنظر النفساني المشرك في المقابل ضرورة أن يحقق الإنسان ما يسمونه بـ«الثقة بالنفس»، فيبالغ في تعظيم قدراتها وإمكاناتها والتوكل عليها وعلىٰ ما بين يديها من الأسباب، لأنه لا يقول برب ولا إله في الغيب أصلا، فما توفيق الإنسان عندهم إلا بنفسه ومن نفسه وحسب! هذا الفارق في تصور ما تستقيم به النفس الإنسانية من أحوال في الفكر والاعتقاد والميل العاطفي، بين المسلمين من جهة والمشركين باختلاف نحلهم وفلسفاتهم من الجهة الأخرىٰ، يرجع إلىٰ أصل الاعتقاد الغيبي والمعرفي والأخلاقي عند كل من الفريقين كما ترىٰ. فلا ينبغي أن يمر علينا - معاشر الباحثين في علوم النفس من المسلمين - كلام القوم في مسألة «الثقة بالنفس» هذه من غير تدقيق وتحقيق وتحري في مقصودهم بها وفي الخلفية الاعتقادية والفلسفية التي أقاموها عليها.

ولا شك أن ثمة فرقا جوهريا بين تحقيق العلم والدراية بإمكانات النفس والقدرات الفردية، مع الاستعانة بالله تعالىٰ والتوكل عليه لا علىٰ تلك القدرات عند كل عمل ورجاء التوفيق منه لا منها، وبين تحقيق التوكل علىٰ تلك النفس والاكتفاء بها والثقة فيها! الفرق جوهري فيما يحدثه هذا الاعتقاد وذاك من عمل نفسي وميل قلبي ظاهر وباطن، ولا تأتي تلك الحال التي أمر بها الشرع من توكل وإخلاص وضراعة لرب العالمين عند كل عمل، إلا لمن يراقب نفسه ويجاهدها حثيثا ويدافع شهوتها ليضعها في محلها الصحيح، فيجبرها - وهي كارهة - علىٰ أن تحب ما حببه الشرع وتبغض ما بغّضه الشرع من الخصال والأحوال، وهو ما لا يكون إلا مقرونا بالشهادة علىٰ تلك النفس بأنها أمارة بالسوء والشهوة والهوىٰ الدنيوي، الذي منه تلذذها بثناء الأقران وتلذذه بالشعور بالعلو عليهم بما وهبها باريها من أسباب العلو والتفوق.

فلو لم يذم المسلم نفسه كلما حدثته بذلك الاستعلاء والاستغناء، الذي بين رب العزة في القرآن أنه هو باب الطغيان ومدخله: ﴿**كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [**العلق**: ٦، ٧] لو لم يذمها عند ذلك ولم يذكرها بعوارها ونقصها ويحقرها بما هي أهله، فلن يصل بها إلىٰ حسن التوكل واستقامة الحال! لذا جاء في الحديث قول رسول الله ﷺ «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا»، أو كما قال ﵇. فالواجب علىٰ الإنسان ألا يعجز، كما يجب عليه مع ذلك أن يستعين بالله تعالىٰ وأن يتوكل عليه وأن يثق به سبحانه، فإن أصيب بنقص أو فشل، بعدما حقق ذلك الواجب في نفسه، لم يجز له أن يقول لو كان كذا لكان كذا، لأن الشيطان يدخل إلىٰ نفسه من تلك البابة ليوهمه بالعجز ويصيبه باليأس والخذلان، تحت دثار ملامة النفس «يا ليتني ما فعلت كذا» أو «لو فعلت كذا لكان كذا»، ويدخل إليها كذلك بالاعتراض علىٰ قدر الله عز وجل والتسخط عليه. فإن وُفق في عمله ولم يكن قد حقق الاستعانة بالله وحسن التوكل عليه، جاء الشيطان إلىٰ نفسه ليميل بها إلىٰ اعتقاد الكفاية فيها وفي قدراتها، والاستغناء بها، ويصيبها بالعجب والكبر، فما أقرب وما أسهل أن تميل إلىٰ ذلك لو لم يمسك صاحبها بزمامها زجرا وتوبيخا!

لذا فنحن نقول إن ذم النفس في الإسلام وتحقيرها ليس عملا هداما مدمرا كذلك النموذج القانط العاجز اليائس الذي أشرنا إليه، ولا شأن لنا - ولا شك - بنموذج النفس «المازوخية» المريضة التي يتلذذ صاحبها بالألم الحسي والمعنوي! وإنما هو (أعني ذمّ النفس في الإسلام) عمل إنسان واع حذر كريم الخصال يراقب شهواته ويهذب نفسه ويربيها ويعودها علىٰ خصال الخير، حتىٰ لا تذهب بعقله ووقاره ومروءته. فإذا ما وقعت في الإثم - وهي واقعة لا محالة - عاتبها ولامها وعقد العزم علىٰ أن ينتبه إلىٰ ذلك في قابل أمره، ووجد من تكرار ذلك منها محصولا يلجمها به ويحجزها عن ركوب مطايا الغرور بالنفس والعجب والكبر الذي يسبح فيه المشرك ليل نهار كما تسبح الحيتان في الماء! فلا يعالجها بالتذكير بالذنوب والآثام والعيوب إلا عندما يراها تميل به إلىٰ العجب والغرور وغمط الناس (وما أكثر ما يجد المرء منا ذلك علىٰ أثر عمل عمله وأحسنه وأتقنه فقابله الناس بالتعظيم والتكريم عليه!)، فإن مالت إلىٰ العجز

والقنوط عالجها بالتذكير بواسع فضل الله ورحمته وأنه لا يكلفها إلا ما تطيق، وأنه سبحانه يغفر الذنوب جميعا، فيرهبها عندما يلمس منها التساهل والتفريط، ويرغبها ويجدد فيها العزم والهمة عندما يلمس منها الجزع واليأس والعجز، وهو مع ذلك كله متنبه لها مراقب لأحوالها، لعلمه بأنه لو ترك حبلها علىٰ غاربها لأغرقته في الشهوة العاجلة ولصار هواها الدنيوي هو محركها الأول في كل اعتقاد وقول وعمل! فكيف يقال لمن كان هذا فقهه وذاك دأبه في مراقبة نفسه ومحاسبتها وذمها، إنه يقترف عملا مدمرا أو مخذلا أو مما يورث المرض والعجز؟ هذا كلام من لا عقل له ولا خلاق!

ولهذا نستنكر ما نجد عند بعض النفسانيين المسلمين من استنكار مطلق وكراهة بل «تمريض» لما يسمونه بـ«جَلد الذات»[١]، فإذا ما تأملت في كلامهم وجدتهم لا يفرقون التفريق الواجب بين ما حث عليه الإسلام من أعمال تزكية النفس ومراقبتها وتطهيرها ومجاهدتها بل وإذلالها وقهرها أحيانا (التي قد تدخل تحت هذا المعنىٰ المجمل الذي يقولون له «جلد الذات») وبين ما نتفق معهم في كراهته وتمريضه من حال يصاب بها الإنسان عندما يغلب عليه العجز والقنوط والإياس. فاليائس القانط من رحمة الله إنسان مريض، يسيء الظن بربه لا بنفسه، إذ يزين له الشيطان اعتقاد أنه مهما عمل فلن ينال خيرا في أمره قطّ! لذا قال تعالىٰ في محكم التنزيل: ﴿**وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ الآية [**يوسف**: ٨٧].

أما من يرتاب في قدرته علىٰ إتيان أمر معين، فهذا لا يحتاج إلىٰ تحقيق «الثقة في النفس» وإنما إلىٰ تحقيق المعرفة بما إذا كان مجيدا لذلك العمل حقا أم قاصرا عن أسباب تمامه! والعلم بأهلية الإنسان لإتيان عمل ما ليست أمرا معجزا أو ممتنعا، فإما أن يكون قد تعلم ما يلزمه تعلمه للأخذ بأسبابه علىٰ الوجه المعتاد عند الناس، وإما ألا يكون قد استكمل ذلك. وكذا يقال فيما يتطلب شيئا من المهارات الخاصة، هل اكتسبها الإنسان تحقيقا أم لم يكتسبها (وهو ما يأتي بالمران والممارسة)، ويقال

---

(١) وليس هذا مصطلحا علميا معتبرا عند النفسانيين في الحقيقة وإنما هو تعبير شائع في أدبياتنا العربية، لا يخفى على المحققين وأصحاب الملكة العلمية والأكاديمية ما ينطوي عليه من اشتباه وإجمال يستوجب الاستفصال!

فيما يتطلب موهبة خاصة لا تكون إلا في قليل من الناس، فلا أحد يجهل من نفسه هل يملك تلك الموهبة أم لا يملكها، أو علىٰ الأقل لا يدري كيف يعرف ذلك من نفسه! لذا فرقنا بين المعرفة بحدود القدرة الذاتية (كسبب من أسباب النجاح والتوفيق بإذن الله) وبين التوكل علىٰ تلك القدرة (الذي يعني رجاء التمام والتوفيق منها لا ممن بيده سائر الأسباب جميعا سبحانه وتعالىٰ)!

فالنفسانيون الغربيون عندما يتكلمون عن «الثقة بالنفس» قلما يكون كلامهم متوجها للقضية الأولىٰ، وإنما يتوجه إلىٰ الثانية، علىٰ أساس أنها تكون عندهم علاجا لتأثير ما يعانيه الإنسان من فشل علىٰ نفسه، علىٰ الرغم من استكماله للأسباب والمعارف اللازمة لإتيان العمل. فالمشرك الذي يثق بنفسه علىٰ هذا المعنىٰ يسيء الظن بربه قطعا، لأنه يقصد نفسه بطلب تمام الأسباب الموصلة إلىٰ نوال المطلوب، مع أنها (أي تلك النفس) لا تملك من الأسباب إلا قليلا، وحتىٰ ما تملكه من الأسباب فإنما يجعله الله سببا بإذنه وتوفيقه، لا بملك تلك النفس وقدرتها الذاتية التي يراد منه أن يثق فيها! والإنسان الذي يفقد الرجاء في إتيان عمله بالثمرة المرجوة مع كونه يعلم عن نفسه نقص الخبرة بذلك العمل والقصور عن أسباب تمامه، لا يوصم بأنه مريض من أجل ذلك إلا إن زينت له نفسه اليأس من ثمرة التعلم والتدرب والمران! وحينئذ يخاطب صاحب تلك النفس بالثقة في أن الله تعالىٰ قد جعل لكل شيء سببا، وأنه لو أحسن المران والتدرب فسيمن الله عليه - بإذنه - باكتساب ما اكتسبه غيره من الناس من قبل من مهارة ودربة.

فإن لم يكن لديه سبب معتبر لاعتقاد قصور عقله أو جسده (خلقة أو مرضا) عن تحقيق ذلك القدر من المهارة، فليس له أن يفقد الرجاء في ذلك، مع تحقيق التوكل والضراعة لله تعالىٰ أن يوفقه لنوال المطلوب. فمدار الأمر في النهاية - كما ترىٰ - علىٰ حسن الظنّ بالله جل وعلا الذي بيده مقاليد كل شيء وأسباب كل شيء. أما أن يخاطب هذا بأن «يثق في نفسه» فكأنما ندعوه لأن يعتقد علىٰ وجه الجزم واليقين كفاية نفسه وما فيها من قدرات كأسباب لنوال المطلوب، وهذا باطل عقلا وشرعا! وإنما الصواب أن يقال له كما قال رسول الله ﷺ «استعن بالله ولا تعجز»، والله أعلىٰ وأعلم.

القاعدة الرابعة: في ضبط ميزان المحبة والبغضاء

يجب أن يتحرىٰ الإنسان حدّ الاعتدال في الحب والبغض، فلا يسرف ولا يفرط سواء في التعلق أو في النفور.

وهذه قاعدة بالغة الأهمية، مستندها ما أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير عن رسول الله ﷺ (ولم يصح مرفوعا وإنما صح موقوفا علىٰ علي رضي الله عنه) أنه قال: «أحبب حبيبك هونا ما عسىٰ أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسىٰ أن يكون حبيبك يوما ما». وروي عن الحسن البصري أنه قال: «أحبوا هوناً وأبغضوا هوناً فقد أفرط قوم في حب قوم فهلكوا، وأفرط قوم في بغض قوم فهلكوا»

فآفة النفس عند الحب أنها تميل إلىٰ الإفراط فيه، لأنه في حد ذاته شعور محبوب مرغوب، تشتهيه النفس كيفما كان وتتلذذ به، وهو ما يتناسب تناسبا طرديا مع شدة اشتهائها للثمرة المتحصلة من التعلق بالمحبوب. فمن أطلق العنان لنفسه لتحب من تحب أو ما تحب بلا قيد ولا توجيه ولا ضبط، فليعلم أنها ستورده المهالك لا محالة، حتىٰ وإن كان المحبوب من أهل الخير، من المشايخ أو العلماء أو الأفاضل الذين يُتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بحب أمثالهم. فثمرة الإفراط في حب المشايخ والأفاضل يقال لها «التعصب» و«التحزب»، وهي من أخطر الأمراض والآفات فتكا بالعلم الشرعي وبالدعوة والدعاة، وما أسهل أن تتسرب إلىٰ نفس طالب العلم من غير أن يشعر!

ولأن حب الشيء يقتضي بغض ما يضاده أو يناقضه بطبيعة الحال، كان الإفراط في الحب مفضيا – لا محالة – إلىٰ الإفراط في البغض كذلك. وما زلنا نرىٰ من يتعصبون لمذهب من المذاهب يبالغون في الحط علىٰ ما يخالفه، ومن يفرطون في حب شيخ من المشايخ وتصيبهم آفة التعصب له والغلو فيه، فيبالغون في منافرة ومباغضة خصومه أو مخالفيه من أقرانه، وينقمون منهم أشد النقمة لمجرد ذلك! وللأسف فكثيرا ما تكاد تشم رائحة ذلك الإفراط في الحب والبغض بأنفك، وأنت تقرأ كلام بعض هؤلاء

المتعصبة في نقد مخالفهم وجرحه، فتراه يتصيد له من الهفوات والزلات ما نقطع بأنه لو كان منه بمنزلة الأخ المحب من أخيه أو الصاحب من صاحبه، لتجاوز عنها وما تعلق بها وما أنكرها عليه أصلا، أو لهمس بها في أذنه منبها من غير ما تشهير!

فلو أن ذاك المتعصب اتقىٰ الله في نفسه وجرد قلبه من الإفراط في محبة من أحبهم، لأنصف واعتدل وأقسط، ولما فجر في خصومة من خاصمهم من أقرانه، فيما يعد مثله من خصال النفاق (وإذا خاصم فجر)! فصحيح إن واجب الجرح والتعديل قائم في الأمة إلىٰ قيام الساعة، ولكن ما أكثر ما يكون الجرح بالهوىٰ والتعصب لا بالدليل والبرهان، تماما كما يكون التعديل بالمحبة والميل الحزبي المحض، لا علىٰ أساس النظر في مخالفات من نحبه، هل بلغت حقا مبلغا يخرج به صاحبه من سبيل المؤمنين ويستحق أن يجرح من أجله ويُلحق بأهل الأهواء (كما هو قول الخصوم في حقه)، أم لم تبلغ أن تكون كذلك! فعند بعض الناس أن الشيخ المحبب إلىٰ نفوسهم، عدل مطلقا، بما أن له تاريخا طويلا من الجهاد والعمل، يحسبونه كان مخلصا فيه لله تعالىٰ! فمهما جيء المتعصب في مثل هذا، بالبراهين الواضحة الجلية علىٰ فساد المنهج والاعتقاد عند شيخه (بما لا يعدله شيء من العمل الصالح مهما كثر)، قوبلت كلها بالحطّ علىٰ أصحابها واتهامهم بالقوادح في دينهم وسلفيتهم، لمجرد أن أولئك الأتباع والأحباب والأشياع يكرهون أشد الكراهة مجرد فكرة أن يكون شيخهم المحبوب المعظم عندهم مبتدعا قد أزاغهم كما زاغ هو من قبل.

فعلىٰ طلبة العلم أن يدربوا أنفسهم علىٰ الاستعداد لقبول النقد لهم ولمشايخهم، ما دام مشفوعا بالدليل والبينة! ولولا أن كان الترسل مع الحب والبغض الطبعي أمرا مهلكا، ما جعل الله الولاء والبراء أصلا من أصول دينه الكبرىٰ، وما أكثر من التنبيه عليه في القرآن مرارا وتكرارا. فما أسهل أن يميل القلب برجل فيحب ولده أو أباه أو زوجه حبا شديدا يجعله يعجز عن اتباع الأمر الشرعي إن جاءه بالمفاصلة والمنافرة من ذلك الولد أو الأب أو الزوج لسبب ديني شرعي. فمع أن الشرع يجيز للمسلم أن ينكح الكتابية، إلا أنه ينهاه عن أن يسمح لها بإظهار شعائر دينها في بيته، وهو ابتلاء ولا شك،

لأنه مع حبه لها محبة طبعية، إلا أنه يجب عليه أن يبغض دينها وشعائره وعلاماته بغضا شرعيا، وأن يقدم البغض الشرعي علىٰ الحب الطبعي عند التعارض، بل يضع الحب الطبعي تحت قدميه ولا يبالي، كما قال تعالىٰ: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [**المجادلة**: ٢].

فلو أنه ترك نفسه لتترسل مع تلك المحبة الطبعية من غير ما ضبط ولا تقييد، فسيعجز – لا محالة – عن إقامة شرع الله تعالىٰ عليها وعلىٰ بيته عند المفاصلة والمنازعة في أمر الدين. وقد مرت بنا قصص أقوام تزوجوا من أوروبيات وأمريكيات كتابيات (للحصول علىٰ جواز الإقامة) فعجزوا عن استخلاص ما رزقوا به من الولد منهن ليكون ذلك الولد مسلما موحدا علىٰ دينهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

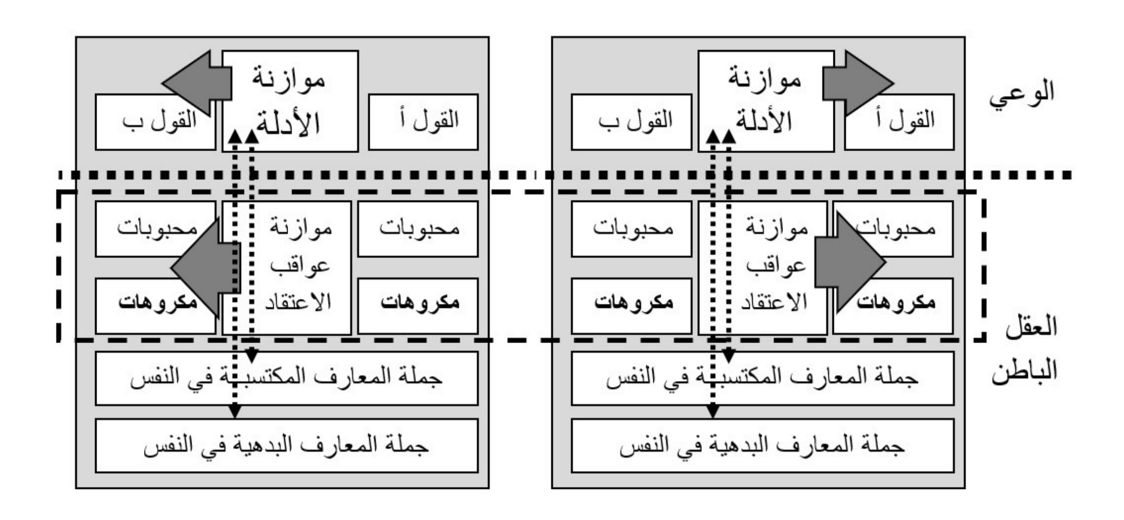
مراقبة النفس ومحاسبتها والاستبطان المعرفي والعاطفي عند السؤال والاستدلال

في ضوء ما تقدم، نقول إنه يجب علىٰ المسلم أن يراجع ميول نفسه من آن لآخر، وأن يتأمل فيما يبطنه قلبه من دوافع ومحركات، وأن يفرض عليها الحق الذي عرفه مهما كانت كارهة لذلك، فليس هذا بيد أحد من أهل السماوات والأرض غيره إن صدق في حرصه عليه، وهو يسير لمن يسره الله له.

والمقصود بالاستبطان المعرفي والعاطفي أن ينظر الإنسان في نفسه ويتتبع المصادر المعرفية والأدلة التي تحركه في كل دعوىٰ معرفية (سواء كانت غيبية أو في عالم الشهادة) يختار لنفسه قبولها واعتناقها، وفي كل موقف من المواقف وفي كل مذهب من المذاهب التي يختارها لنفسه في أمر ديني أو دنيوي وفي كل حكم من الأحكام الشرعية أو الأخلاقية التي يطلقها علىٰ الأنواع والأعيان والأحوال من حوله. فليس من العسير أن يدرب المسلم نفسه علىٰ تحليل آليات تفكيره فيما يصدر عنه من أقوال ومواقف وقرارات وترجيحات واختيارات عند النزاع وعند الوفاق، وأن يحلل أسباب حبه لمن وما يحب، وبغضه لمن وما يبغض، وأن ينظر فيما قد يرجع عليه من تبعات محببة وتبعات مكروهة من أثر الفعل أو الترك أو الاعتقاد، وتتبع ترجيحاته ومواقفه وما إذا كان من تلك المحبوبات ما جذب نفسه إلىٰ موقف لا يوافقه الدليل، أو من تلك المكروهات ما دفعها عن قبول ما ظهرت له صحته.

فلا ريب أن ميول النفس بالمحبة والبغض وما يترتب عليهما من ولاء وبراء، يجب أن تتبع عند المسلم الدليل والبرهان المعرفي في دائرة الحكم الشرعي علىٰ الأقوال والأفعال والأفكار والأعيان والأحوال، بأن يحب من (وما) حقه أن يحَب، ويبغض من (وما) حقه أن يبغَض، ومن ثم يضع عواطفه وميول قلبه في مواضعها الصحيحة. ولكن واقع الأمر أن ثمة جانب طبعي غريزي قد ابتلانا ربنا سبحانه وتعالىٰ في أصل خلقتنا بجعله يؤثر في تلك العاطفة في النفس تأثيرا كبيرا، ويدفعها (في العقل الباطن

وفي غفلة من صاحبها في أكثر الأحيان) إلىٰ أن تغالط صاحبها في التقدير والترجيح والموازنة بين الأدلة (إن كان ذا علم)، وقد تحجزه عن جمع تلك الأدلة من الأساس، وتصده عن السعي في طلبها والوقوف عليها (إن كان عاميا جاهلا)، أو بعبارة أدق: ترغِّبه عن ذلك وتكرهه فيه، علىٰ أساس إيهامه بأنه مستغن عن ذلك الطلب وأن العلم بما يلزمه العلم به متحقق في نفسه بالفعل، وأن أولئك الذين يخالفونه جهال متنطعون يزعمون في الأمر ما ليس فيه (مهما ساقوا إليه الأدلة والبراهين ونصحوه بتعلم ما يجهل). حينئذ يصبح ذلك الميل العاطفي من الهوىٰ المذموم، كما عرَّفناه به في موضع متقدم من هذا الكتاب. وقد بينا بكثير من الأمثلة، كيف يحرك ذلك الهوىٰ الفاسد نفوس الفلاسفة واللاهوتيين والمتكلمين من ملل شتىٰ، ويحملهم علىٰ التفنن في صور المغالطة والاستدلال الزائف أشكالا وألوانا، مع علمهم بأن أصل النحلة الفلسفية التي ينتصرون لها متناقض شديد التناقض، مصادم لمسلمات الفطرة والبداهة! بل بينا أن الفلسفة الغيبية (الميتافزيقا) أو الدينية تحديدا، وعلم الكلام عموما، يقومان بمجملهما علىٰ دعوىٰ معرفية فاسدة ابتداءً، تقلب الضروريات والبدهيات الأولىٰ في القضايا الوجودية الكبرىٰ (أي فيما يتعلق بوجود الخالق وكمال صفاته) إلىٰ نظريات جدلية تفتقر إلىٰ بحث واستدلال وترجيح (من حيث المبدأ المعرفي)! وبينا أن هذا الفساد إنما نشأ عن ميل قلبي نفسي عند قوم يكرهون أن يُخضعوا رقابهم ويسلموها لنبي أو رسول، ويحبون أن يظهروا علىٰ أنهم أعقل من غيرهم وأنهم يرون ما لا تراه «العامة»!



في الشكل الموضح أعلاه، نفصّل العقل إلىٰ قسمين، دائرة العقل الواعي ودائرة العقل الباطن. فإذا ما تعرض الإنسان لمسألة نظرية اختلف الناس فيها بين قولين («أ» و«ب»)، وكان لكل قول منهما أدلته أو قرائنه التي يستند إليها القائلون به، فإن عملية الترجيح التي تجري في العقل الواعي بين تلك الأدلة والقرائن، لا تكون – في الأعم الأغلب – إلا كرأس جبل الجليد البارزة فوق سطح المحيط، بالنسبة إلىٰ جملة العمليات العقلية الجارية في النفس، الموصلة إلىٰ اختيار أحد القولين. فإذا ما تناظر رجلان ينتصر كل منهما لأحد القولين، وساق كل منهما أدلة قوله، فاعلم أن ميل نفسه للقول الذي اختاره لا يقتصر سببه العقلي عنده علىٰ ما تؤدي إليه تلك الأدلة وحدها بالضرورة، بل تحركه دوافع باطنة كثيرة قد يخفىٰ أكثرها علىٰ وعيه ولا يتكلف تحريها من نفسه فيغفل عنها تمام الغفلة، وقد يظهر له بعضها من غير أن يتكلف ذلك، فتسوغها له نفسه بفكرة أو فكرتين تنقدحان في ذهنه فيسكتها في الحال، ثم يمضي إلىٰ ما يحب وكأن شيئا لم يكن، فتراه يزعم الدلالة فيما لا دلالة فيه، ويتفنن في إبطال الأدلة الصحيحة بأي طريق.

تلك الدوافع والمحركات النفسية الباطنة تنقسم بالجملة إلىٰ قسمين كليين أو طبقتين: أما القسم الأول فتنقدح فيه المحبات والمكاره المرتبطة (من حيث الأصل) بالغرائز والشهوات، فتحصل فيه تصورات النفس لعواقب اعتناق كل من القولين محل النزاع، وموازنة ما يرجع به ذلك الاعتقاد عليها من أحوال ومآلات محبوبة أو مكروهة، في العاجل والآجل. ولأن الأصل في النفس أنها تحب الشهوات العاجلة كما بينا، فإن تركها صاحبها من غير متابعة ومراقبة، فسيغلب عليها تحبيبه في الاعتقاد الذي يجلب له ما يشتهي من عاجل أمر الدنيا ويبعده عما يكره من ذلك، مع تكريهه في تذكر أمر الموت والقبر وما يتعلق بهما، وتغفيله عن أمر الآخرة جملة واحدة، وعن القاعدة الأخلاقية الصحيحة [1] فيما يجب اعتقاده وما يحرم اعتقاده، وما يترتب علىٰ ذلك من مثوبة أو عقوبة أخروية.

(١) المعروفة صحتها من قيامها على وحي السماء لا على ميول وأهواء الفلاسفة.

وأما الطبقة الثانية أو القسم الثاني تحت هذا القسم في العقل الباطن، فهو المخزون المعرفي والبناء الإدراكي الاستعرافي Cognitive Structure المنقسم بدوره إلىٰ طبقتين: طبقة المعارف المكتسبة ومن تحتها طبقة المعارف الفطرية أو البدهية الأولىٰ غير المكتسبة. هذا البناء المعرفي والاعتقادي الفردي قد يكون مثخنا بالتناقضات عند صاحبه، مشحونا بالأكاذيب والأوهام والخرافات، التي قد يصل بعضها (وهو ما يكون عند سائر أهل الملل الشركية) إلىٰ انطواء النفس علىٰ تناقض عميق بين بعض محتويات طبقة الضرورات البديهية وطبقة المكتسبات من المعارف، كما بسطنا القول فيه ومثلنا عليه كثيرا في هذا المجلد. ومن المتوقع أنه عندما ينظر الإنسان في قولين مختلفين في مسألة ما، فإنه إن وجد أحدهما مصادما للبديهيات الأولىٰ، أو وجده مصادما لمعرفة قطعية يقينية عنده (قد اكتسب اليقين فيها بالدليل القطعي)، فسيرفضه ويرده ابتداءً، ولا يلتفت إليه. ولكن واقع الأمر أن المسألة ليست بهذه السهولة، وليس هذا ما نراه يقع من كل إنسان عند تناوله المسألة نفسها، وقد رأينا من أمثلة ذلك في هذا المجلد الشيء الكثير.

فبينما قد يكون القول (أ) ظاهر الصحة، والقول (ب) ظاهر الفساد، لأسباب معرفية لا يملك العاقل أن يردها أو يدفعها، فقد ترىٰ رجلا تحركه نفسه إلىٰ قبول (أ) ورد (ب)، ونظيره في العلم والمعرفة والدراية - أو ربما أعلم منه - تحركه نفسه إلىٰ قبول (ب) ورد (أ) وإبطالها.

والسبب في ذلك أن عملية القبول والرد للأقوال والعقائد والآراء والمذاهب ليست مقصورة علىٰ صحتها أو فسادها في نفسها كما ذكرنا، وإنما تحركها في نفس الإنسان طبقات من الميل القلبي يغفل عنها أكثر الناس. فإذا ما مالت كفة الترجيح الخفي بين العواقب المحبوبة والمكروهة، إلىٰ قبول ذلك القول الساقط (ب)، اجتهد العقل - بحسب قدرته وذكائه وإحاطته بموارد الاشتباه - في ابتكار الأدلة الزائفة والمغالطات والحيل الكلامية واللفظية التي تزين له ولغيره قبول ذلك القول ورد ما يخالفه، مهما كان فساده مما لا يحتاج العاقل إلىٰ شيء من النظر حتىٰ يراه، مع كونه في غفلة - في

أغلب الأحيان – عن أن نفسه تخدعه هو نفسه قبل أن تخدع غيره، فإذا به يكذب الكذبة ويصدقها. ولو أنه استبطن، فنظر في عقله الباطن وفيما تبطنه نفسه من موازنات خفية لا علاقة لها بالعلم ولا بالأدلة والبراهين ولا بشيء من ذلك، لأقلع عن ذلك، ولكن عندما يستحكم حب الدنيا في نفس الإنسان ويتمكن منها، فلن يسمع من نفسه إلا مزيدا من التزيين لما هو عليه ومزيدا من الإيهام بأن الأدلة تخدمه وتدعم موقفه، ومهما حدثه خصومه بأنه صاحب هوىٰ وبأنه يخادع نفسه، ما قبل منهم ذلك أبدا، إلا أن يرحمه ربه.

وقد يكون سبب كراهيته قبول الدليل علىٰ فساد القول (ب)، هو أن ذلك القول يترتب علىٰ قبوله انهيار معتقد هو عنده بمنزلة عظيمة. ويكون السبب في تلك المنزلة عنده ليس قوة الدليل وإنما شدة تمسك جماعة من الناس بذلك القول، مع كونه يحبهم ويحب التقرب إليهم والعلو بينهم، فلا يتصور أن يضطر في يوم من الأيام إلىٰ التعايش مع تبعات رد ذلك القول والانقلاب عليه. هو طامع – في الأعم الأغلب – في البقاء علىٰ تلك الحال الاجتماعية المحببة التي يجد نفسه عليها، راض بها، يود ألا يفارقها أو يتحول عنها. ولكن الدليل قد جاءه بفساد القول (ب)، وهو ما يترتب علىٰ إعلان اعتقاده زوال تلك الحال الاجتماعية، وهو يكره ذلك جدا، فماذا يصنع؟ ستراه يتفنن في تفريغ ذلك الدليل من مدلوله بكل وسيلة. وإن كنا نتكلم عن أن (ب) هذا يصادم القضية من بدهيات العقل الأولىٰ، وهو يعتقد ما يوافقه ويكره الزوال عنه، فستراه يجهد – عند الترجيح – في واحد من الطرق التالية:

- إما أن يهوِّن من أمر تلك القضية ويستفز هِمم موافقيه ليعملوا على إظهارها على أنها ليست من مسلمات المنطق ولا من بدهيات العقل كما يدعي مخالفه،
- وإما أن يجهد في إظهار الأمر وكأنه ليس ثمة تناقض ولا شيء، وإنما يتوهم خصومه تلك المصادمة المزعومة،
- وإما أن يعمل على إسقاط القول (أ) إن كان يظهر له أن سقوطه يقتضي قبول (ب) بالضرورة،

- وإما أن تراه - إن عدم الطريق إلى شيء من ذلك - يشوش على محل النزاع بطريقة ما أو بأخرى، أو يستجلب من المغالطات والمستندات الزائفة ما تحسنه العامة من تشويه صورة الخصم، وتعظيم صورة تلك الجماعة التي وافقها على القول (ب) أو على ما يقتضيه قبوله من أقوال واعتقادات.

كل هذا وهو لا ينتبه إلىٰ وهاء وتهافت مستنده في النزاع، لأن شدة الهوىٰ والميل تستجلب علىٰ النفس ختما وقفلا كما وصفه رب العزة في كتابه الكريم في مثل قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢] يزداد سماكة ومنعة وإعتاما كلما ازداد ترسل صاحبه مع شهواته ومطامع نفسه العاجلة، وازداد علوا في الأرض بمجموع مسالكه في ذلك. لذا كان من المعلوم أنه كلما ازدادت شهرة الرجل وعلوه ببضاعته في ذلك المحل الذي ارتضاه لنفسه من مجتمع البشر، ازداد تمسكه بتلك البضاعة وبعُد احتمال أن يتركها في يوم من الأيام وخفت الرجاء في رجوعه عن غيه بعدما ساد به في الناس وصار به رأسا متبوعا. لماذا؟ لأن النفس كلما وجدت ما تشتهيه من شهوات الدنيا (كالمال والجاه والمنصب والسمعة .. إلخ) يأتيها لسبب من الأسباب (اعتقاد اعتنقته أو رأي قالت به أو عمل عملته)، طمعت في تحصيل المزيد من ذلك، وازدادت في إتيان ذلك السبب نفسه مرة بعد مرة، وازدادت حبا فيه لمحبتها ما يترتب علىٰ إتيانه في كل مرة من ثمرات تشتهيها، وازدادت كراهة لمجرد فكرة الانقطاع عنه.

فالآن، دعنا أيها القارئ الكريم نضرب مثلا نبين به ما سيجده صاحب الهوىٰ في باطن نفسه إن عمل علىٰ النظر فيها واستبطانها معرفيا وعاطفيا عند النظر في مسألة يأتيه الداعي فيها بخلاف ما هو عليه. دعنا نتناول حالتين، إحداهما في الموقف من مسألة اكتسابية (بمعنىٰ أن العلم بأدلتها مكتسب، سواء كانت تلك الأدلة قطعية أو ظنية، وليست من قضايا المعرفة البدهية الفطرية)، والأخرىٰ في الموقف من نزاع الناس في مسألة ضرورية (بمعنىٰ أن المخالف فيها يصادم بدهيات العقل الأولىٰ).

فأما الحالة الأولىٰ، فلنفرض أن امرأة من عامة المسلمين تربت في بيت وسياق اجتماعي لا يعرف فريضة الحجاب، بل يراه من جملة العوائد القديمة التي جاءت إلىٰ

بلادهم من جزيرة العرب ولم يعد لها مكان في زماننا، ثم جيئت تلك المرأة في يوم من الأيام بأدلة وجوب الحجاب الشرعي وصفته في كتيب دعوي أو نحوه، دفعت به إليها إحدىٰ الفتيات في المسجد، فإن الموقف المتوقع منها بإزاء ذلك أن تكره مجرد الاطلاع علىٰ تلك الأدلة والتدبر فيها.

فنقول إن نفس تلك الفتاة العامية الجاهلة تنازعها بين قولين أو موقفين: التحول إلىٰ اعتناق (أ) (ألا وهو القول بوجوب الحجاب عليها ووجوب أن تلزم نفسها بلبسه)، والبقاء علىٰ (ب)[1] (وهو القول بعدم وجوب الحجاب وفقا لما هي عليه الآن من اعتقاد وعمل)، فلو أنك أردت تحليل ما في عقلها الباطن من معارف (ضروريات ومكتسبات) وما فيه من ميول عاطفية (محبوبات ومكروهات) فلعلك أن تكتبه علىٰ النحو التالي:

<table>
<tr><th>الموقف (أ)</th><th>الموقف (ب)</th></tr>
<tr><td>القول بوجوب الحجاب الشرعي</td><td>القول بعدم وجوب الحجاب الشرعي</td></tr>
<tr><td colspan="2">الخلفية المعرفية والاعتقادية ذات الصلة:</td></tr>
<tr><td colspan="2">أ- في إطار المعارف البدهية الأولىٰ أو الفطرية:
١- يجب علىٰ المسلم أن يطيع أمر الله ورسوله.
٢- لا يعقل أن يأمرنا خالقنا بما فيه فسادنا أو ضررنا.
ب- في إطار المعارف المكتسبة (مع ذكر مصدرها):
١- لاحظت أن الحجاب (لا سيما النقاب) لا يبالغ في الدعوة إليه إلا المشايخ المتشددون والتكفيريون.
٢- وقفت علىٰ إحصائية في إحدىٰ المجلات تنص علىٰ أن الحجاب بمختلف صوره، حتىٰ النقاب، لا يمنع التحرش الجنسي بالمرأة.
٣- سمعت من أستاذة أزهرية تأكيدا علىٰ أن النصوص الواردة في مشروعية الحجاب والقرار في البيت ونحو ذلك، خاصة بنساء النبي ﷺ.
٤- سمعت واحدا من المفكرين يقول إن ستر وجه المرأة يؤدي إلىٰ تغييب هويتها والإضرار بها اجتماعيا.</td></tr>
</table>

(١) والأحسن في هذا الصنف من التحليل أن تتخذ الخانة (أ) لتعبر عن الموقف الذي نخاطَب بالدعوة إلى التحول إليه، أو جاءنا من يناظرنا من أجل إقناعنا بصحته، بينما تعبر (ب) عن خلاف ذلك مما نحن عليه الآن في نفس الأمر.

العواقب العاجلة المحببة للنفس من اعتناق (أ)	العواقب العاجلة المكروهة للنفس من اعتناق (أ)	العواقب العاجلة المحببة للنفس من البقاء علىٰ (ب)	العواقب العاجلة المكروهة للنفس من البقاء علىٰ (ب)
أن يقال عني إني متدينة وملتزمة.	١- سيقابلني جميع من يعرفونني ومن أحبهم ويحبونني بالاستنكار وبالاتهام بالتطرف والتشدد والغلو، وستعتزلني صديقاتي المقربات. ٢- قد أحرَم من دخول بعض الأماكن التي أهوىٰ التردد عليها. ٣- سيضيق علي في دراستي وفي عملي. ٤- لن أجد فرصة للتعرف علىٰ أي شاب من زملائي في الجامعة أو في العمل، وسينفر مني أكثرهم، ومن ثم ستقل فرصتي في الزواج، ولن يكون أمامي إلا أن أنتظر الزواج من إرهابي أو من رجل متشدد! ٥- الحجاب سيقيد حركتي وسيكون حارا جدا في الصيف.	١- شعري الناعم الجميل تحسدني عليه زميلاتي، وأنا أحب أن أبدو أجملهن جميعا، وأتلذذ بإطراء الناس وثنائهم علىٰ صورتي وهيئتي، وبإعجاب الرجال بجمالي. ٢- يعرفني الناس بأني امرأة حديثة متفتحة مستنيرة، تواكب العصر ولا تغلو في فهم الدين. ٣- أنطلق في مجال العمل الذي اخترته لنفسي وأترقىٰ في مناصبه من غير قيد ولا عائق، وتنفتح أمامي الفرصة لأصبح من المرموقات في أوساط المثقفين والصفوة في مجتمعي. ٤- يمكنني أن أتمتع بلبس «المايوه» علىٰ الشاطئ وأتلذذ بالسباحة في البحر بحرية، المهم أن يكون «محتشما» قدر الإمكان!	لا أجد شيئا أكتبه هنا!

<table>
<tr><td colspan="2">خلاصة تحليل الميل القلبي (أو إن شئت: العاطفي) المجرد:
عاقبة البقاء علىٰ القول (ب) الذي هي عليه الآن، أحب إلىٰ نفسها بكثير من عواقب التحول إلىٰ القول (أ)، فلو أنها تحولت إلىٰ (أ) لترتب علىٰ ذلك مكاره كثيرة، هي عندها أكره بمراحل مما قد تجده إن بقيت علىٰ ما هي عليه.</td></tr>
<tr><td>الأدلة التي تدعم (أ) في مقابل (ب) عند الأسوياء المتجردين من الهوىٰ الذميم
- جملة من النصوص الشرعية كآية سورة النور: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]
وكذا إجماعات أهل العلم وأئمة الفقه علىٰ طريقة واحدة في جمع النصوص بعضها إلىٰ بعض.</td><td>الأدلة التي تدعم (ب) في مقابل (أ)
- لا شيء علىٰ الإطلاق.</td></tr>
<tr><td>الأدلة التي تدعم (أ) في ميزانها هي
- لا شيء يذكر!</td><td>الأدلة التي تدعم (ب)
- ما في خانة المعرفة التراكمية والمكتسبة من دعاوىٰ وظنون (لا يُستند في شيء منها علىٰ دليل يرقىٰ للاعتبار في مسائل النظر الفقهي كما نرىٰ).</td></tr>
<tr><td colspan="2">السبب الحقيقي في ترجيح الموقف المختار:</td></tr>
<tr><td colspan="2">الميل القلبي للعاقبة الدنيوية العاجلة الأحب للنفس، والفرار من العاقبة الأكره، وليس قيام الدليل الصحيح المعتبر علىٰ صحة الموقف المختار.</td></tr>
</table>

فبالتأمل في الجدول أعلاه، يتبين لنا أن لدىٰ هذه الفتاة من أسباب بغض الحجاب الشرعي والنفور منه الشيء الكثير، من غير أن تستند في شيء منها إلىٰ دليل شرعي، وإنما إلىٰ تصورها لما ستكون عليه حالها إن قالت بوجوب الحجاب وألزمت نفسها بلبسه في كل مكان. فلما كرهت تلك الحال، ورأت أنها قد تضطر من أجله إلىٰ التضحية بكثير مما تحب وتهوىٰ من أمور الدنيا، حملتها نفسها علىٰ التقاط كل دعوىٰ ساقطة تمر بها، مما يتذرع به المفرطون والفسقة من أهل الكتابة والنشر والإعلام، وقد يوافقهم عليها – إجمالا – أهل الزيغ والأهواء من متتبعي الرخص من المنتسبين إلىٰ العلوم الشرعية، فإن نصحها الناصحون قابلتهم بتلك الدعاوىٰ علىٰ أنها «أدلة» تصلح لأن ترد بها أدلتهم الشرعية التي يسوقونها بين يدي النصيحة، وتراها تخاصم وتجادل وتسلك من المغالطات والاستدلالات الزائفة ما لو صدقت وتجردت من دافع الميل القلبي القوي (الهوىٰ) لأدركت أنه ليس إلا ضربا من الاعتراض السخيف علىٰ الدلالة الصريحة للنصوص التي أجمع علماء المسلمين علىٰ القول بها من صدر الإسلام وإلىٰ يومنا هذا، وأنه ليس إلا هراءً ولغوا يسعها هي نفسها أن ترد عليه وأن تبين بطلانه وعدم صلاحيته للاستدلال في المسألة، علىٰ ضحالة علمها الشرعي، بمجرد أن تتأمل فيه بتجرد. ولكن علىٰ حالها هذه، فمهما قيل لها إنها تغالط وتكابر، فلا بد وأنك ستراها تصطنع المزيد من المغالطات والدعاوىٰ الساقطة حتىٰ تدافع بها عما منحته لنفسها من حق في معارضة كلام أهل العلم والتخصص وتجهيلهم، وحتىٰ تصرف ذهنها عن رؤية موضع التناقض المعرفي لديها.

ولو أن مثل هذه أراد الله بها خيرا، لشرح صدرها للانتباه إلىٰ العاقبة الأخروية المترتبة علىٰ هذا التفريط والتساهل في قبول الأقوال الشرعية وردها، ومن ثم إدخالها في ميزان الميل العاطفي عندها، وإذن لظهر لها أنها لم تعمل بما يجب عليها كعامية مقلدة، ولاعترفت – بالأساس – بأنها لم يسبق لها التعرض للبحث في هذه المسألة أو نحوها من قبل، كمسألة فقهية لها علمها ولها أدلتها، ولظهر لها بجلاء أنها – مع ذلك – لم تأخذ من أسباب رفع الجهالة عن نفسها بما يتعين عليها بمجرد سماعها الوعيد

في النص في مسألة من المسائل التي رأت بعض المشايخ والدعاة يزعمون أن من كانوا علىٰ مثل حالها يدخلون تحته.

فلو انشرح صدرها برحمة من الله تعالىٰ وفضل، لدخل إلىٰ نفسها خوف من أن تبقىٰ علىٰ ذلك الجهل المركب الذي هي عليه وهي تعلم (وقد انكشف لها ذلك بوضوح بمجرد أن تأملت في مصادر المعرفة لديها)، من غير أن تبادر إلىٰ تعلم هذا الجانب الذي فرطت فيه من دينها، لأنها إذن ستخاف من فكرة أن تموت علىٰ تلك الأهواء فتستحق العذاب في الآخرة من أجل ذلك! ستخاف من مجرد فكرة الجدال في دين الله تعالىٰ وفي شريعته بغير علم، وستراجع المكتوب في خانة «المعرفة المكتسبة» في الجدول السابق فتزيله من نفسها، أو تعطل الاعتبار به والالتفات إليه كلية (لأنها ستكون قد اعترفت بأنه جهل كله لا علم فيه)، حتىٰ تتوجه إلىٰ عالم تثق في علمه الشرعي وفي ورعه (لا في علمه فقط)، ليبين لها ما جهلت (مع كونها تشهد له بأنه أعلم منها في ذلك الشأن)، أو يحيلها علىٰ مادة شرعية فقهية تقرأها في المسألة.

فإن هي فعلت ذلك، فستراها يحملها خوفها من العاقبة الأخروية علىٰ تغيير ميزانها في المحبوبات والمكروهات، وقد يصل الأمر بها - كما وصل ببعض المؤمنين - إلىٰ أن تستعذب تلك الأحوال الدنيوية التي وجدت كراهتها الطبعية من قبل في نفسها، لأنها تعلم أنها طريقها إلىٰ الجنة، كما في قوله ﷺ «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات». وحينئذ، وحينئذ فقط، سينشرح صدرها لاتباع الدليل الشرعي وإسقاط سائر الشبهات أو الأكاذيب أو التهم أو الأغاليط التي كانت من قبل تتعلق بها في رد ذلك الدليل الشرعي الذي لا يماري في دلالته عاقل متجرد. فحقيقة التجرد من الأهواء إنما هي التحول، بحول الله وحده، من بغض الحق وأهله إلىٰ بغض الباطل وأهله. فحينئذ وحينئذ فقط، يرىٰ العبد الحق حقا ويحب اتباعه، ويرىٰ الباطل باطلا ويحب اجتنابه.

ولكن الآفة الحقيقية أيها القارئ الكريم تكمن في عدم وجود الدافع – من الأساس – لدىٰ تلك النفس المفتونة للنظر في باطن شعورها واعتقادها ولاستخراج العلة العقلية (العاطفية أو الشعورية) التي قلبت الأدلة في نظر صاحبها وجعلت المغالطات والشبهات حججا عنده. إنه ذاك الصندوق الأسود في باطن كل نفس مبتلاة بالهوىٰ الفاسد، الذي يحرص صاحب تلك النفس علىٰ ألا يقترب منه حتىٰ لا يجد فيه ما يعلم أنه يكرهه! مثل هذه الفتاة التي ضربنا بها المثل، غالبا ما تجدها تصرح باقتناعها التام بما تقول، وأن الأمر عندها «واضح جدا» وتسمعها تقول: «هؤلاء قوم متطرفون متشددون يريدون تحريم كل شيء، ولو استجبنا لهم لرجعنا إلىٰ العصور الوسطىٰ .. إلخ»! فأنىٰ لها أن تشرع في فحص ومراقبة ما يجري في باطن نفسها من دوافع ومحركات، رجاء تخليتها من كل هوىٰ يميل بها إلىٰ الباطل والفساد ويصدها عن اتباع الدليل من بعد ما تبين؟ هذا لن يقع منها أصلا مهما نصحتها به لأنها صاحبة هوىٰ! وصاحب الهوىٰ لن يتكلف شيئا كهذا إلا إن أراد الله به خيرا، وحينئذ لن يحتاج إلىٰ من يبصره بما في نفسه لأنه هو من سيراه بجلاء، وسينكشف له السبب في مكابرته وعناده في موقفه السابق، وسيستبطن ما كان عليه من حال من غير جداول ولا تحليلات نفسية ولا شيء من ذلك.

فينبغي أن ينتبه القارئ الكريم إلىٰ أننا لا ندعو إلىٰ استعمال ذلك الجدول في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، ولا أحب أن أحدث في الدين شيئا لم أسبق إليه من حيث أريد الخير! وإنما أردت أن أقدم بين يدي القارئ ما يبين له السبب العقلي الحقيقي وراء إصرار صاحب الهوىٰ علىٰ اعتناق المذهب الباطل مهما تكلفت معه المناظرة ونصب البراهين، وأنه لو وقف مع نفسه وقفة صدق (إن وفقه الله إلىٰ ذلك)، لتبين له ما كان من قبل خافيا عليه في باطن نفسه (وهو ما بيناه في هذا الجدول الذي مر معك).

بل أقول إننا ما أردنا من هذا التحليل إلا أن نبين تفسير حقيقة أن الهداية وتحقيق الإخلاص والصدق أمر لا يملكه لـ نسان داعية ولا عالم ولا ملك مقرب ولا نبي

مرسل، وإنما يُلهَم العبد إليه بتوفيق من الله تعالىٰ وحده لا شريك له: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [**القصص**: ٥٦] والسبب في قولي إننا لا نملك إلا أن نعظ هذا المبتلىٰ بنفسه وننبهه ونعمل علىٰ تذكيره بالترهيب تارة وبالترغيب تارة (بمجرد أن نلمس منه إعراضا عن سماع الحق وأدلته أو جدالا فيه)، لعله يجد في نفسه من خشية الله تعالىٰ ما يحمله علىٰ ترك المكابرة والمغالطة والتغافل والتهاون، وحينئذ يمنّ الله عليه بأن يريه الحق حقا ويرزقه اتباعه والباطل باطلا ويرزقه اجتنابه.

وأما المثل الثاني، فهو لشاب عربي صاحب هوىٰ عظيم يخالف به عن حقيقة بدهية فطرية في قضايا الغيب، ألا وهي قضية وجود الباري جل وعلا وكمال صفاته. فلعلنا إن استخرجنا ما يكون في باطن نفس ذاك الشاب حال تعرضه لشيء من كلام الله ورسوله، فسنجده علىٰ النحو التالي:

<table>
<tr><th colspan="2">الموقف (أ)</th><th colspan="2">الموقف (ب)</th></tr>
<tr><td colspan="2">القول بوجود الباري وكمال صفاته</td><td colspan="2">القول بعدم وجود الباري</td></tr>
<tr><td colspan="4">الخلفية المعرفية والاعتقادية ذات الصلة:</td></tr>
<tr><td colspan="4">أ- في إطار المعارف البدهية الأولىٰ أو الفطرية (المركوزة في نفس الإنسان مهما أنكرها):
١- لم يُخلق الإنسان في هذا العالم إلا بصنعة خالق حكيم عليم.
٢- يجب علىٰ الإنسان أن يستجيب لدعاوىٰ المرسلين إن جاؤوه بتكليف خالقه وباريه بأن يوحده وينزهه عن كل نقيصة ويخضع لأمره ونهيه، ومن لم يفعل فقد استحق ما جاء به النص من الوعيد.
ب- في إطار المعارف المكتسبة (مع ذكر مصدرها):
سمعت دعاوىٰ واعتراضات الملاحدة من كل شكل ولون، لا سيما اعتراضات الطبيعيين المعاصرين منهم. (دون دراية أو انتباه إلىٰ مصدر كل دعوىٰ من تلك الدعاوىٰ في الأعم الأغلب)</td></tr>
<tr><td>العواقب العاجلة المحببة للنفس من اعتناق (أ)</td><td>العواقب العاجلة المكروهة للنفس من اعتناق (أ)</td><td>العواقب العاجلة المحببة للنفس من البقاء علىٰ (ب)</td><td>العواقب العاجلة المكروهة للنفس من البقاء علىٰ (ب)</td></tr>
</table>

<table>
<tr>
<td>١- سأكون محبوبا من أهلي غير مغضوب علي ولا مضطهد بين المقربين إلي.
٢- لن أعاني من ملاحقة الأمن ومن تضييقه عليٰ.
٣- سأجد خيارات واسعة عند الزواج.</td>
<td>١- سأجدني مكلفا مطالبا بقائمة طويلة من الأعمال التي يتكرر بعضها لخمس مرات في اليوم الواحد، ويبلغ الأمر بالمتدين أن يجد نفسه يتلفظ ببعض الأدعية والأذكار حتىٰ عند دخوله الخلاء!
٢- سأكون مطالبا باعتقاد أني مراقب في سري وخلواتي وفي جميع أحوالي، لا يخفىٰ من أمري شيء علىٰ من يراقبني، فلا آتي عملا مهما كان دقيقا إلا حرصت علىٰ ألا أخالف فيه إرادة ذلك الرقيب، وإن فعلت، اضطررت إلىٰ الندم حتىٰ يعفو عني وأنجو من عذاب في القبر وبعد الموت.
٣- سأجد نفسي مطالبا بالامتناع عن أعمال وأشياء أحبها وأتلذذ بها!
٤- سأجد نفسي مضطرا لطاعة بشر أمثالي وإخضاع حياتي لأقوالهم، لمجرد أنهم أعلم مني بالدين والشريعة!
٥- سأجدني متهما بالتخلف والجهل بالعلوم الحديثة عند كبراء المجتمع المتقدم، إذ أقول ببطلان نظرية داروين – مثلا – وبطلان كذا وبطلان كذا مما يعده «العلماء» اليوم من مسلمات العلم الحديث.</td>
<td>١- سأكون حرا طليقا من غير تكليف، لا حلال ولا حرام ولا واجب ولا فريضة ولا ممنوع ولا محظور ولا شيء من ذلك. وكم أود لو أن المجتمع الذي أعيش فيه لم يلزمني بشيء من القيود الأخلاقية أو التشريعية أصلا!
٢- إن اتفق أن انكشف إلحادي بين الناس، فلعلي أن أكون بطلا مقدما محبوبا عند المفكرين والمثقفين في بلاد الغرب المتقدم، وعند من يحبهم رجال الفكر والعلم والثقافة في الغرب المتقدم من أهل بلدي، بل قد يعظمني بعض سادة الفكر الأوروبي في يوم من الأيام علىٰ أني بطل من أبطال حرية الفكر والعقلانية، المترفعين بعقولهم فوق قوم ضعاف العقل من بني جلدتهم، لا يعقلون ولا يتحركون إلا كما يأمرهم دينهم!</td>
<td>١- سأعاني من كراهية أهلي والمقربين إلي من المسلمين، ونفورهم مني وغضبهم علي.
٢- قد أعاني من الملاحقة الأمنية ومن تضييق الدولة علي.
٣- قد يضطهدني أصحاب العمل أو أساتذتي في الجامعة، ولن أجد بيتا يقبل بتزويجي لبنت من بناته وإن كانت ملحدة مثلي!</td>
</tr>
</table>

<table>
<tr><td colspan="2">خلاصة تحليل الميل القلبي (أو إن شئت: العاطفي) المجرد:
عاقبة البقاء علىٰ القول (ب) الذي هو عليه الآن، أحب إلىٰ نفسه بكثير من عواقب القول (أ)، فلو أنه تحول إلىٰ (أ) لترتب علىٰ ذلك مكاره كثيرة، هي عنده أكره مما قد يجده إن بقي علىٰ ما هو عليه.</td></tr>
<tr><td>الأدلة التي تدعم (أ) في مقابل (ب) عند العقلاء الأسوياء
- البداهة الأولىٰ والفطرة
- ما يضاف إلىٰ ذلك الأصل البدهي الفطري من آيات عظمة الباري وقدرته في خلقه، التي يراها كل عاقل في نفسه وفي الآفاق من حوله.
- ضرورة بطلان سائر الملل خلا التوحيد، لأنه لا يصح بداهة أن يأتي دين من رب العالمين إلا وهو عند الغاية في تنزيهه وتعظيمه بما هو أهله، جل وعلا.</td><td>الأدلة التي تدعم (ب) في مقابل (أ)
- لا شيء علىٰ الإطلاق.</td></tr>
<tr><td>الأدلة التي قد تدعم (أ) عند صاحبنا، أو الطرق المعرفية التي تفيده:
- لا شيء علىٰ الإطلاق في زعمه!</td><td>الأدلة التي قد تدعم (ب) عنده
- ما في خانة المعرفة التراكمية والمكتسبة من دعاوىٰ واهية واعتراضات سوفسطائية محضة يعتبرها صاحبها أدلة نظرية.</td></tr>
<tr><td colspan="2">السبب الحقيقي في ترجيح الموقف المختار:</td></tr>
<tr><td colspan="2">الميل القلبي (الطمع) للعاقبة الدنيوية العاجلة الأحب للنفس، والفرار (الخوف) من العاقبة الأكره، وليس قيام الدليل الصحيح المعتبر علىٰ صحة الموقف المختار.</td></tr>
</table>

وكما نرىٰ من الجدول السابق، فإن ما هو محرر في العمودين الثاني والثالث من مكاره لمطلق فكرة التدين والعبودية ومرغبات في مطلق الانخلاع من الدين والخضوع للمرسلين، تشترك فيه - إجمالا، وعلىٰ اختلاف قد يقع في بعض التفاصيل - سائر المذاهب الإلحادية المعاصرة، بداية من المغالين في محاربة الأديان والقطع بعدم وجود رب العالمين، ووصولا إلىٰ طوائف اللادينية واللا-أدرية ونحوهم، بل إنه هو الدافع الرئيس والأشد إلحاحا، والحامل الأول علىٰ سائر صور التفكك والانفلات من الدين التي تبلغ ذروتها في الملحد، كما بينا ذلك في مباحث متقدمة من هذا الكتاب. لذا كانت ولا تزال فكرة التكذيب بوجود الباري جل وعلا حاضرة في المجتمع البشري

في كل زمان ومكان، بصرف النظر عن العوامل والاعتبارات الاجتماعية التي يمكن أن تؤثر بقوة في ميزان الترجيح العاطفي في العقل الباطن.

فالسبب في أنك ترىٰ الملحد العربي أكثر مرضا واضطرابا وجزعا بإلحاده إجمالا وفي الأعم الأغلب من الملحد الغربي (لا سيما الأوروبي)، أن الغربي لا يكاد يجد شيئا يحببه في مآله (كعاقبة دنيوية عاجلة، اجتماعية في الأعم الأغلب) إن بقي علىٰ ملة النصرانية أو اليهودية، ولا يجد شيئا يخوفه (كعاقبة دنيوية عاجلة أيضا) من إعلان إلحاده بين الناس صراحة. بخلاف الملحد العربي، كما يتبين لك مما حررناه في العمود الأيمن والأيسر في الجدول السابق. فعند العربي يكون نزاع الأهواء والشهوات والمكاره والمخاوف في العقل الباطن أشد بأضعاف مضاعفة، لا سيما إن كان يعيش في بلد يزداد فيها التدين وحب الدين والمتدينين، وهو يكره أن ينتسب إليها بالأساس ولعله يخجل من ذلك، ويود لو هاجر منها إلىٰ بلد من تلك البلاد التي افتتن بعلوها وتفوقها الدنيوي، وتحررها الاجتماعي والتشريعي من تلك القيود التي يكرهها ويكره أهلها والقائمين عليها في مجتمعه. فالعاقبة الدنيوية هي الأحب والأشهىٰ عند الواحد من هؤلاء ولا شك (لأن الإنسان عجول بطبعه)، مع صرف العقل والنفس عن مسألة الموت وما يكون بعده.

لذا كان التضييق النفسي في التشريع الرباني متحققا بالتخويف من العاقبة الدنيوية كذلك، وليس العاقبة الأخروية وحدها، وهو من جملة مقاصد الشرع الحنيف في فرض الحدود الروادع والأحكام القواطع بين يدي ولي الأمر ضد الخارجين عن الملة في بلاد المسلمين، كما أشرنا من قبل. وكأنما يقال للواحد من هؤلاء: «إن كنت قد كرهت الخضوع للحق الظاهر الجلي الذي لا يجد العقلاء له بديلا، لأنك تطمع في العلو بين فئة من الناس بما يحبونه، فاعلم أن ذا السلطان لن يسمح لك بذلك العلو الذي من أجله تركت الحق الظاهر الجلي واستكبرت علىٰ التسليم به، بل سيجعلك تحت الأقدام، وستضرب عنقك وتفارق هذه الحياة التي من أجلها أردت ما أردت، إن لم تتب عن ذاك الكبر وتلك الأنفة والاستعلاء في نفسك!»

ولهذا لا تجد شيئا أبغض للملحد العربي من حد الردة ومما لا يزال منتشرا في مجتمعات المسلمين بفضل الله تعالىٰ من بغض الإلحاد وتحقير الملحدين والنفور منهم! ولا يجد الواحد منهم لنفسه ترسا يتترس به ولا ذريعة يتذرع بها في مجتمع هذا شأنه، إلا أن يقول (وهو كاذب علىٰ نفسه وغيره): «لقد بحثت عن الحقيقة فلم أجدها! حاوروني وأقنعوني، أنا مسكين، أنا مصاب بالشك والريبة، وعندي شبهات عظيمة لا أجد عنها جوابا، فتعالوا حاوروني وأجيبوني!»، ثم يمكث معهم في تلك الحوارات العقيمة السنوات الطوال، لا يصلي ولا يصوم ولا يقترب من شعائر الدين التي أبغضها، وهو في نفس الوقت يحاول أن يحظىٰ بمنزلة ترفعه بين أيدي الملاحدة الغربيين وتقوي من موقفه، يسارع بالنداء علىٰ نفسه بالمظلومية وبأن المجتمع يطارده ويلاحقه ولا يصبر علىٰ مجادلته «بالعقل» كما يطالبهم به.. إلخ، لعله يضغط عليهم من تلك الجهة حتىٰ يقبلوه فيما بينهم «مواطنا ملحدا» له حقوق، تعترف به الدولة كما تعترف باليهودي والنصراني!

ولهذا نرىٰ الملحد العربي في كثير من الأحيان يدخل إلىٰ المنتديات بمعرفات مجهولة (حتىٰ لا يعرفه أحد من المقربين إليه)،

- فإما أن يهجم هجوما وحشيا ضاريا على الإسلام وسائر مقدساته، لعله يغطي بذاك الضجيج وتلك الضوضاء على صوت الصراع النفسي الجاري في عقله الباطن cognitive dissonance، وحتى يشتد موقفه في مقاومة فطرته الباطنة في أعماق نفسه وبداهة عقله، ويرتاح لكذبه الدائم عليها وتشويهه إياها (١).
- وإما أن تراه يزعم أنه صاحب مشكلة علمية أو فلسفية مع عقائد الإسلام وكليات الإيمان، وأنه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الشك ويود لو يجد دليلا نظريا يقضي على تلك الشكوك في نفسه، فيحاول بذلك أن يوهم نفسه بأنه صاحب عذر في تشكيكه في ربه وباريه (٢).

- وإما أن تراه يعترف بأنه صاحب مشكلة نفسية، فيحدثك بأنه ما عاد يقدر على النوم ليلا، ولا على التركيز في دراسته ولا على الكلام مع أحد من المقربين إليه، بل لعله يكون قد حدثته نفسه بالانتحار (٣).

والآفة التي ننبه عليها هنا، هي أن الحالتين الثانية والثالثة يتوهم بعض المسلمين أن بينهما فرقا في سبب الإلحاد وتفسيره، ومن ثم في طريقة التعامل مع كل منهما، حتىٰ صنفوا أحدهما علىٰ أنه «إلحاد علمي/ فلسفي» والآخر علىٰ أنه «إلحاد نفسي»، وفرق بعضهم بين الإلحاد العلمي والفلسفي، علىٰ أن الأول سببه (في ظنهم) الاشتباه في نظريات العلم الطبيعي الحديث، والثاني أساسه الاشتباه في الدعاوىٰ البرهانية الفلسفية عند فلاسفة الإلحاد. ولا شك أن هذا يكون من الأسباب، ولكن ليس علىٰ سبيل الأصالة. فالرجل إنما يبلغ أن يصرح بالإلحاد من كبر نفسه ومرضها، وهو السبب الأول فيه، ثم يكون منه بعد ذلك التسويغ الباطل والكذب علىٰ النفس والتذرع بتلك الأشياء كأسباب فيما بعد! ولكن عند عامة المتصدرين لمكافحة الإلحاد، لا نرىٰ المدخل النفسي في مكافحة الإلحاد إلا في تلك الحالات التي يأتي فيها الملحد باكيا شاكيا مما يعانيه من العذابات والآلام النفسية وكذا، يصرح بنفسه وبلسانه بأن سبب إلحاده كان نفسيا! وما ذاك إلا لأنهم قد انتهجوا منهجا كلاميا مفاده الالتزام بما يستعظمه المخالف من صنوف الأدلة عند مخاطبته بما تندفع به تلك «الشبهات»، فتراهم يخاطبون المتفلسف بالفلسفة والطبيعي بالطبيعيات والرياضي بالرياضيات .. إلخ، وأما من جاء يصرح بأن نفسه تقتله قتلا وأن صدره يفتك به فتكا، فهذا من يخاطبونه خطاب المريض النفسي، بشكل ما أو بآخر. فمن أزال التأسيس الكلامي لخطاب الملحد (سواء كان مرتدا أو كافرا أصليا) من ذهنه بالكلية، فلن يرىٰ ثمرة لهذا التصنيف النوعي أصلا! فكلهم في الحقيقة مرضىٰ نفسيون يخادعون أنفسهم ويترسلون خلف شهواتها وغرائزها ويجحدون الواضحات الجليات الظاهرات، فلا يلزمنا أن نخوض فيما أتىٰ به الفلاسفة والطبيعيون من زبالة الفكر حتىٰ نظهر لهم معان ندعي أنها ضرورية لا تحتاج إلىٰ بيان أو برهان أصلا!

ومع أن هؤلاء الدعاة قد جعلوا قسما من الملاحدة تحت ما يقال له «الإلحاد النفسي»، إلا أني لم أر – إلىٰ اليوم – أحدا منهم يخاطب ذلك الذي صنفوه علىٰ أنه مريض نفسي، بالموعظة التي تليق بمثله (إن سلمنا تنزلا بمشروعية مخاطبته أصلا، ولا نراها لهم ولا لغيرهم من المسلمين، اللهم إلا ولي الأمر والقضاة ورجال الحسبة)، بل رأيتهم بدلا من أن يدفعوه دفعا عن مواطن الفلسفة وعلم الكلام ومواضع النظر في بدهيات العقل الأولىٰ، يدفعون إليه ببضاعتهم التراكمية من الأجوبة والمناقشات الكلامية عسىٰ أن تدفع عن نفسه الشكوك والتساؤلات، وما ذاك إلا لأن كثيرا منهم لا بضاعة لهم إلا هذا الصنف من التصانيف والمقالات، والله المستعان.

هذه الأصناف الثلاثة لملاحدة العرب (١ و٢ و٣) كما قسمناها نفسيا، تتفاوت في مقدار ما في النفس من الغضب والحقد والنقمة علىٰ المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه. فأما الصنف الأول (ذاك الشاب الوقح الذي لا همّ له ولا شغل علىٰ شبكة الإنترنت إلا السب والشتم والحطّ علىٰ كل ما له صلة بالإسلام والمسلمين)، فهذا هو أكثرهم حظا من الخوف الدنيوي الاجتماعي (الخوف من العاقبة الدنيوية المجتمعية لانكشاف إلحاده بين الناس)، ولهذا تراه يكره المسلمين كراهة مضاعفة، فيبالغ في شتمهم وتحقيرهم علىٰ صفحات الإنترنت تحت ستار المعرفات المجهولة حيث يأمن بطشهم، لأنه يعلم أنه أجبن من أن يجاهر بمثل ذلك بين الناس وهم يرونه وجها لوجه. ولعلنا لو أجرينا دراسة إمبريقية واستطلعنا أحوال ملاحدة الإنترنت المنتمين إلىٰ المملكة أو دولة الكويت أو نحوهما من دول الخليج العربي (بتتبع وتحليل كتابات القوم علىٰ الشبكة)، فسنجد هذه الصورة أغلب في صفوفهم، من صورة الملحد الذي يأتيك طالبا المناظرة والمناقشة مدعيا أن الحق يخفىٰ عليه، أو مدعيا أنه في حيرة من أمره لأن «الأدلة» لديه سواء في الأرجية، أو يأتيك معترفا بأنه مريض نفسي لا يدري ما يصنع بحياته. بخلاف ملاحدة مصر وبلاد المغرب العربي، لزيادة جانب التحرر والتفكك من أحكام الشريعة ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تلك المجتمعات (كما يطمع هؤلاء ويحبون) وقلة المتدينين نسبيا، مقارنة

بما عليه الحال في بلاد الخليج العربي[1].

وخلافا لصاحب الهوىٰ من أهل القبلة، فإن هذا رجل يعلم أن هواه هذا محال أن يفضي به إلىٰ مصير مستحسن بعد موته، بخلاف من يحاول أن يقنع نفسه بأنه إن مات علىٰ ما اختاره لنفسه من أمر الدين (كتلك التي كرهت الحجاب في المثال الأول) فسيموت وهو علىٰ خير وأن الله سيقبل منه ذلك يوم القيامة، وهو ما يزيد - قطعا - من مقدار الاضطراب والجزع والخوف في نفوس الملاحدة من تلك الأصناف الثلاثة ولا شك، وهو - وحده - كفيل بجعل الواحد منهم يخاف إن ذهب إلىٰ فراشه ليلا ألا يقوم منه إلا محمولا إلىٰ قبره! وكلما ذكره أحدهم بالموت وفجأته وبأن الأجل قد يأتينا في أي وقت من غير ما إنذار، نزل الأمر علىٰ نفسه كالإعصار، ووجد نفسه يتكلف أكبر ما عنده من حيل التشويش والتسويغ السوفسطائي لبقائه علىٰ ما هو عليه، بما قد يكون في ذلك من شتم وتحقير وحطّ علىٰ أهل الإسلام خصوصا والأديان الكتابية أو الرسالية عموما! وتراه يحرص علىٰ أن يبدو غير عابئ ولا مكترث بمسألة الموت هذه، تكذب عليه نفسه وهو يصدقها!

ولهذا ظهر عند اللاهوتيين النصارىٰ في القرن السابع عشر الميلادي ما يعرف باسم «رهان باسكال»، الذي يخاطب ذلك الصراع النفسي عند الملحد ويحوله - علىٰ عادة الفلاسفة واللاهوتيين - إلىٰ برهان نظري! [2] فواقع الأمر الذي تصرخ به قلوب

(١) ولست أرى مشروعية القيام ببحث كهذا على أي حال، تحت علم النفس أو علم الاجتماع أو أي علم من العلوم، لأن ثمرته لا تُحتمل من أجلها مفسدة تعريض الباحث نفسه لذاك الكم الهائل من أقوال الملاحدة، ولا يترتب عليها عمل أو حكم تفصيلي في أحوال هؤلاء، فلينتبه لهذا! وإنما أردت أن أبين أن اختلاف المواقف (في مقدار العداوة تجاه الإسلام وأهله) لا يرتبط بشيء عند الواحد من هؤلاء كما يرتبط بمقدار شعوره بضغطهم عليه وتهديدهم لحريته المنشودة! وفي جميع الأحوال فالأمر مرتبط بمتغيرات اجتماعية شتى، فلن تجد اثنين من الملحدين في مصر - مثلا - يعانون من ذلك الضغط الاجتماعي من جانب الأقران والمقربين إليهم أو من جانب الدولة أو نحوها، على درجة واحدة، بما يتوقع منه تشابه المواقف وتقاربها بينهما.

(٢) وقد كان من الطبيعي والمتوقع أنه عندما يقال للملحد المتفلسف في سياق المناظرة الكلامية: «آمن بربك لأنك إن فعلت «فستقل احتمالية» أن تلقى العذاب الأبدي بعد الموت»، أن يأتي جوابه الفلسفي النظري بأن يقول: هذه ليست «حجة عقلية»، وإلا فأي رب هو إذن؟ لو آمنت بأي إله من تلك الآلهة التي ينتسب إليها أهل الأديان، لعظمت احتمالية أن أكون قد آمنت بإله باطل، وإذن فأنا هالك على أي حال! فما الذي

يحملني على المراهنة على نحلة باسكال بالذات؟ (وهو بالمناسبة ما بات يسمى عند الفلاسفة ببرهان الاختلاف بين كتب الوحي الديني Argument from inconsistent revelations)!

مع أن الملحد لو خوطب بالوعظ والتخويف من اتباعه الهوى ومن غمطه مسلمات الفطرة في نفسه، وذكر بأن الحق لا يفتقر إلى أن يؤمن هو به أو غيره، وإنما هو من يفتقر إلى الإيمان بالحق حتى لا يهلك في الآخرة، فسواء بلغ الكلام إلى نفسه وانشرحت له صدره أم لم يقع ذلك (وليس بواقع إلا أن يشاء الله، وليس هو بواقع على يد لاهوتي نصراني على أي حال!) فلن تراه يتكلم «بالاحتمالات الرياضية» ولا تلك الأشياء في جوابه إن أجاب بشيء أصلا، ولما سمعناه يقول كما قال بعضهم: «إن هذا الكلام من أسخف (البراهين) العقلية على وجود الصانع على الإطلاق»! ولكن لأن سياق الجدال بينهما محصور في القالب الفلسفي-الكلامي الجدلي، لم يكن من المقبول عند أحد ممن يوصفون بأنهم صفوة المثقفين من كلا الجانبين، أن يخرج متكلمو الكنيسة على خصومهم بالموعظة وما في بابها! الجدال الفلسفي له أصوله المستقرة في الثقافة الغربية من زمان فلاسفة اليونان، تلك الأصول التي يجب على جميع المشاركين فيه أن يلتزموها! ومن هذه الأصول ألا يتطرق أحد المتخاصمين ولو من بعيد إلى اتهام خصمه بأنه مفرط متهاون في خطورة ما هو عليه من باطل، أو أنه يتحرك بدوافع كذا أو كذا، أو أنه يكابر في البديهيات الواضحة أو يتعامى عن الحق الظاهر أو نحو ذلك مما يتهكم عليه عامة الفلاسفة من خطاب النفس وأهوائها، إن جاءهم من يخاطبهم به! فلم يكن من المستغرب على الإطلاق أن يهاجم الفلاسفة ذلك «البرهان» بدعوى أنه طريقة غير أخلاقية للوصول إلى الاعتقاد بوجود الباري، على أساس أنه لو وجد حقا فلن يقبل منهم أن يكون إيمانهم مبنيا على الخوف من عذابه، وليس على الوقوف على «البرهان النظري» الكافي الذي يزعمون الافتقار إليه! فهل حقا يمكن أن يبلغ عمى النفس من شدة الإغراق في الأهواء مبلغا كهذا؟ نعم، وهكذا الفلسفة الإلهية وأصحابها من الدهرية بشتى طوائفهم كما بينا في باب كامل من أبواب هذا الكتاب!

ومع أن باسكال نفسه لم يكن يقصد من هذا «البرهان» أن يكون برهانا كلاميا نظريا على الطريقة الفلسفية المعتادة، وإنما قصد أن يخوفهم من عاقبة موتهم على الإلحاد، إلا أن الملاحدة أبوا إلا أن يعدوه كذلك ليدخلوه وأصحابه تحت شرطهم المتعسف الفاسد في تحقيق المعرفة في هذا الشأن. وهو أمر متوقع بالنظر إلى السياق اللاهوتي الفلسفي الذي ظهر فيه ذلك الكلام يوم ظهر كما أشرنا، وما تتابع عليه اللاهوتيون من «منطقته» وإعادة صياغته على الطريقة التحليلية مرة بعد مرة، وتكلف الدفاع الفلسفي عنه ضد اعتراضات الخصوم!

والقصد أنه حتى عندما حاول بعض اللاهوتيين أن ينبه الملاحدة إلى كبر نفوسهم وغرورهم واعتدادهم بزبالة ما بدعته عقولهم في التشويش على الحق الذي تصرخ به فطرة العقلاء، وما يترتب على ذلك من القول بمصير أبدي أسود لا يبدو أنهم يكترثون به طرفة عين، غرق كلامهم في بالوعة الفلسفة والجدل النظري الجاري بين الفريقين، بما لم يغنم منه أحد بشيء في النهاية سوى الخصم الملحد نفسه على التحقيق، الذي قولب موعظة خصمه في قالب البرهان الفلسفي الساقط، فسخفها غاية ما يكون التسخيف! فهل كان «باسكال» يطالبهم بترك الفلسفة نفسها والانصراف عن علم اللاهوت، وأن يهرعوا إلى الإيمان بنصرانيته (التي زعم أنها الدين الحق وجميع ما عداها باطل)؟ لو صدق الرجل لبادر هو نفسه إلى اعتزال اللاهوت الطبيعي وعلم الكلام من قبلهم، ولكنه لم يفعل، لأنه ما تكلف الجدال الكلامي إلا لهوى عظيم في نفسه هو الآخر، ألا وهو التصدر في دوائر التنظير الكنسي والعلو به فوق أكتاف أتباعه، ولو صدق هو وتجرد من هواه لقبل رسالة محمد ﷺ ولتبرأ من التثليث ودخل في الإسلام، ولكنه حارب الإسلام في تصانيفه في جملة ما حارب

العقلاء، هو أن وجود الباري من جملة الحقائق البدهية الفطرية المحضة التي لا تفتقر إلىٰ برهان أصلا! فلماذا يُكذب بها الجاحدون؟ لأن الثمرة الدنيوية العاجلة للتكذيب والعلو به في الناس أحب إلىٰ نفوسهم الخبيثة من ثمرة الإقرار والخضوع والتسليم، لا لأن الدليل لم يظهر لهم كما يزعمون! فليس ثمة دليل نظري يُفتقر إليه في القضية أصلا حتىٰ يتصور خفاؤه! هم مكذبون لأنهم يحبون تلك المنزلة الفكرية التي حازها من سبقوهم من كبار المكذبين بسبب تكذيبهم، فتراهم يصرون علىٰ التعلق بأهداب السجال الفلسفي السرمدي بلا نهاية، ويحبون أن يوهموا أنفسهم بأنهم علىٰ شيء. هذه حقيقة الإلحاد التي لا يماري فيها إلا ملحد مماحك قد احترف الكذب علىٰ نفسه قبل الكذب علىٰ الناس! لذا فلما حاول باسكال (اللاهوتي النصراني صاحب التاريخ الطويل في علم الكلام) في سياق ذلك السجال نفسه مع الملاحدة، أن ينبههم إلىٰ مسألة الموت وما يكون بعده، قابلوه بالاعتراض الفلسفي (علىٰ أصول الصنعة كما يقولون)، ولا عجب! أحقا كنت تريد من الفلاسفة أن يتأملوا في دعوىٰ لازمها اتهامهم بالمجازفة الرعناء بمصائر أتباعهم، ومن ثم إزالة تلك المنابر الاجتماعية الرفيعة من تحت أرجلهم؟ كيف كنت تتوقع أن يأتي جوابهم، إن لم يكن بمزيد من التفلسف والتنطع؟

الدرس المستفاد من هذا الاستطراد وحتىٰ لا نطيل: من دخل بدعوته ساحة الجدال النظري مع الدهرية والملاحدة، لم يخرج منها إلا باللغو والسفسطة العمياء، فيا ليت قومي يعقلون!

ولعله من المفيد أن نضيف مثلا ثالثا لهذين المثلين، وهو لرجل من المتدينين من أهل القبلة، المبتلين بمرض التعصب المذموم لشيخ من المشايخ، فلا يراه إلا رأس العلماء وكبير الفقهاء وسيد النبلاء .. إلخ، مع أنه قد ثبت بالبينة العلمية أن الرجل عنده

من الأديان والملل! بل لو أنه التزم برهانه هذا نفسه، لترك النصرانية من فوره ولدخل في الإسلام لما فيه من التصريح بالوعيد الشديد لمن يموتون على القول بأن الله ثالث ثلاثة وقد بلغتهم رسالة محمد ﷺ! فما أعجب تصريف رب العباد لقلوب عباده، سبحانه وتعالى وتقدست أسماؤه!

من الأغلاط بل من البدع والضلالات ما يكفي لإخراجه من أهل السنة ولا كرامة! هذه الحالة تشتد معاناة أهل مصر منها - بصفة خاصة - في هذا الزمان، فيما لاحظت والله المستعان. فإن خوطب هذا بدليل علمي علىٰ غلط شيخه وانحرافه (أ)، رأيته ينتصر لذلك الشيخ بكل ضراوة، ويتهم من يخطئه في الفهم والعلم وربما اتهمه علىٰ السنة بل علىٰ الإسلام، متمسكا بأن الشيخ لم يزِل ولم يضل (ب) وأنه منضبط مستقيم المنهج لا يقع في مثل ذلك. وعليه، فلو أردنا تحليل وفحص الطريق التي سلكها واستظهار الموازنة العقلية الحقيقية التي وصل منها إلىٰ ذلك، فسنجد ما يلي:

<table dir="rtl">
<tr><th colspan="2">الموقف (أ)</th><th colspan="2">الموقف (ب)</th></tr>
<tr><td colspan="2">القول بانحراف الشيخ.</td><td colspan="2">القول بسلامة منهجه وقوله.</td></tr>
<tr><th colspan="4">الخلفية المعرفية والاعتقادية ذات الصلة:</th></tr>
<tr><td colspan="4">أ- في إطار المعارف البدهية الأولىٰ أو الفطرية:
١- ما من بشر إلا ويرد عليه الغلط والخطأ.
٢- يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال! فإن ثبت الغلط علىٰ إنسان ما وجبت تخطئته ومعاملته بموجب ذلك.
ب- في إطار المعارف المكتسبة (مع ذكر مصدرها):
١- بلغته دعاوىٰ الشيخ في المسألة محل النكير، وفيها من نصوص الكتاب والسنة ونقولات الأئمة المستند إليها ما فيها، علىٰ أنه (أي تلميذ ذلك الشيخ) لم يسمع شرحها من غيره قط، ولم يتكلف البحث فيها بنفسه أبدا، فهو فيها مقلد صرف.
٢- ما مر به من معلومة مفادها أن فلانا من المشايخ قد أنكر علىٰ شيخه في مسألة كذا، أو جرحه ونسبه بها إلىٰ البدعة وأخذ يحذر الناس منه.</td></tr>
<tr><th>العواقب العاجلة المحببة للنفس من اعتناق (أ)</th><th>العواقب العاجلة المكروهة للنفس من اعتناق (أ)</th><th>العواقب العاجلة المحببة للنفس من البقاء علىٰ (ب)</th><th>العواقب العاجلة المكروهة للنفس من البقاء علىٰ (ب)</th></tr>
</table>

- نيل رضىٰ المهاجمين والبراءة من طعنهم علىٰ شخصي.	- المعاناة من استهجان وربما بغض ومفارقة قوم كنت قد أحببتهم من قبل ورأيت منهم كثيرا من خصال الخير. - اهتزاز ثقتي الطويلة في شيخي الذي علمني أكثر ما تعلمت (إن كان الغلط المزعوم غلطا كليا عظيما مما يلحق صاحبه بفرقة من الفرق البدعية)، والاضطرار إلىٰ البحث عن غيره ممن صحت عقيدته وسلم منهجه. فهل يبلغ الأمر حقا درجة أن يكون الرجل من أهل الزيغ والضلالة وأنا من كنت أحسبه منضبطا علىٰ الجادة؟ هذا إن صح، فسأكون أنا مثله تبعا (لأني تعلمت منه)، وسأضطر إلىٰ إعادة البناء من جديد، وهو أمر أكرهه غاية الكراهة ولست علىٰ استعداد لتصوره أصلا. - إن كنت أنا قد سبق لبعض الناس أن عظموني وشيخوني وقدموني علىٰ المنابر واستفتوني في بعض مسائلهم وعظموا قولي، فرجوعي في مسألة كهذه وانقلابي علىٰ مشايخي وأقراني إنما يعني عند تلك الجماهير شهادتي علىٰ نفسي بالجهل الطويل أمامهم، وهو أمر أكرهه أشد ما تكون الكراهة.	- التمتع باحترام وتقدير وتعظيم المقربين من تلامذة الشيخ ومن أقرانه وتلامذة من يوافقونه، وهم يمثلون بمجموعهم الدائرة الاجتماعية المباشرة من حولي، دائرة الولاء الصريح والأخوة الإيمانية الخاصة. - التمتع بكثرة الأتباع من عامة المسلمين والجهلاء وتعظيمهم، مما لا يتصور بقاؤه إن أعلنت تحولي عن هذه القضية أو نحوها.	- لحوق المذمة والنكير بشخصي كما نزلت بشيخي الذي أدافع عنه.

<table>
<tr><td colspan="2">خلاصة تحليل الميل القلبي (أو إن شئت: العاطفي) المجرد:
عاقبة البقاء علىٰ القول (ب) الذي هو عليه الآن، أحب إلىٰ نفسه بكثير من عواقب القول (أ)، فلو أنه تحول إلىٰ (أ) لترتب علىٰ ذلك مكاره كثيرة، هي عنده أكره بمراحل مما قد يجده إن بقي علىٰ ما هو عليه.</td></tr>
<tr><td>الأدلة التي تدعم (أ) عند الأسوياء السالمين من ذاك البلاء
- ما يسوقه خصوم الشيخ من نصوص وآثار ونقولات وإجماعات.</td><td>الأدلة التي تدعم (ب) في مقابل (أ)
- لا شيء مما يرقىٰ مثله لإسقاط أدلة (أ) عند العلماء الذين هم أهل الشأن.</td></tr>
<tr><td>الأدلة التي تدعم (أ) عند صاحبنا</td><td>الأدلة التي تعدم (ب) عنده</td></tr>
<tr><td colspan="2">السبب الحقيقي في ترجيح الموقف المختار:</td></tr>
<tr><td colspan="2">الميل القلبي (الطمع) للعاقبة الدنيوية العاجلة الأحب للنفس، والفرار (الخوف) من العاقبة الأكره، وليس قيام الدليل الصحيح المعتبر علىٰ صحة الموقف المختار.</td></tr>
</table>

الآفة في مرض التعصب، أيها القارئ المحترم، هي أن صاحبه قد يحسب أنه لكونه مقلدا فلا يصح له أن يخَطّئ شيخه أو أن يخالفه الرأي في قول أو في مسألة، لا سيما إن كانت مما يعد من جملة قضايا الأصول والكليات الشرعية المنهجية عند أهل السنة. والصواب أن التقليد علىٰ درجات وطبقات، وأن الناس تتفاوت في ذلك بحسب ما عليه كل واحد منهم من عقل وعلم ودراية. فإذا اختلف رجلان من أهل العلم الثقات المشهود لهم بين الأقران (لا بين الأتباع والتلامذة، وانتبه لهذا) بالعلم والورع، وكان كلاهما ممن يعتبر بكلامه وقوله، كان علىٰ المقلد أن يرجح بين قوليهما إما بالأدلة الشرعية أو بأقرب شيء شبها إليها إن عدمها (وأعني ها هنا استناد المقلد إلىٰ ما يراه من حال الرجلين المختلفين، فيرجح قول الأعلم علىٰ قول الأقل علما، والأكثر ورعا وفرارا من الفتوىٰ علىٰ الأقل ورعا وإكثارا منها، وهكذا)، غير أني لست أتصور أن يكون ثمة رجل في هذا الزمان ممن سبق له أن تلقىٰ شيئا من العلم انتسب به إلىٰ شيخ أو طائفة، عند هذا القدر من الجهالة والعطالة الفكرية فلا يميل به عقله إلىٰ أحد القولين دون الآخر لظهور أدلته عليه في نظره، وهذا في عامة المسائل الاجتهادية، فكيف إذا كانت المسألة مما يزعم أهل السنة أنها محل إجماع بينهم وأنها علامة من علامات

المنهج القويم؟ فلا شك أن مسائل الإجماع، الدليل فيها يكون أقوىٰ وأظهر (نوعا) من الدليل في القضايا الخلافية. فإذا رأيت خلافا بين الناس في قضايا يعدها العلماء الكبار من الأصول الرواسي ومن مسلمات منهج أهل السنة والجماعة، فاعلم أنما اختلف فيها المخالفون لجهلهم وتنازع الأهواء نفوسهم وقلوبهم (لا سيما مرض التعصب الذميم).

وكثيرا ما نرىٰ أنصاف المتعلمين والمتعالمين وأشباه العوام يخوضون الجدال الطويل علىٰ صفحات منتديات الشبكة العنكبوتية في قضايا علىٰ خطورتها، قد تزل فيها أقدام كثير من المتقدمين في الطلب، وتحتاج إلىٰ تحرير دقيق وبيان مفصل من أهل العلم الكبار حتىٰ يزول فيها الالتباس علىٰ حدثاء الأسنان والمبتدئين، كقضايا الإيمان والكفر التي يعجل كثير منهم إلىٰ تبديع خصومهم فيها من غير مناط، أو إلىٰ إعذار مشايخهم وتصحيح أقوالهم المنحرفة من غير تدقيق. هؤلاء لا محيص من دخول التعصب الحزبي للشيخ أو للأقران والمقربين كحاجز نفسي بالغ التأثير في اختياراتهم واتهاماتهم وأحكامهم علىٰ الخلق.

فترىٰ أحدهم قد تعلق بفهم شيخه وموافقيه للمسألة، ثم هو قد انعقدت نفسه علىٰ القول بعظمها وخطورتها وحذره شيخه من المخالفين فيها ومن زيغ المبتدعة (بزعمه) الذين يخالفونه في فهمها، فاجتمع إلىٰ جهل ذلك المقلد المسكين وقصوره المعرفي بأدلة البابة وأقوال الأولين فيها، خوفه من المخالفة بغير علم، وكراهته الخروج عن دائرة ذلك الشيخ وموافقيه للأسباب التي ذكرناها من قبل. فتراه بعد أن عرّض نفسه لخلاف الأشياخ في تلك القضية الكبيرة، يصر علىٰ تقليد شيخه في الأقوال والمواقف والأحكام والتمسك بذلك، حتىٰ من بعدما مرّ به من أدلة أقوالهم ما حقه أن يقنع كل عاقل سوي النفس بأن فهم ذلك الشيخ الذي تابعه هو وانتصر له: فهم فاسد منحرف، مخالف لما كان عليه السلف الأول. فمهما راودته نفسه علىٰ قبول الحق الذي ظهر له في كلام مخالفي الشيخ، رأيته يصدها عن ذلك، بسبب ذاك الحاجز الذي أشرنا إليه آنفا، إلا أن يرحمه الله. كيف يتحول إلىٰ قول المخالفين ثم يرىٰ فلانا وفلانا وفلانا

(ممن عظم قدرهم في نفسه) يبدعونه ويحكمون عليه بالضلالة والزيغ ويقطعونه من جماعتهم؟ وكيف يكون مآله إن انفض هؤلاء المحبون الموالون جميعا من حوله؟

هذا أمر عزيز علىٰ النفس شديد الثقل بطبيعة الحال.

ولا شك أن استقطاب التنظيمات القطبية الإرهابية (كالقاعدة وغيرها) للدهماء من الفقراء والجهلاء في بلاد المسلمين مدخله مداعبة الأهواء واستدعاء ذلك الجانب العاطفي الباطن في نفوس فئة بعينها من الناس. فقد دلت الأبحاث الاجتماعية التي توافر عليها الباحثون المتخصصون في مصر علىٰ أن القاعدة العريضة من تلك الطبقة الفقيرة التي تسكن في العشش والخرابات في المناطق الفقيرة في مختلف محافظات مصر، تحوي في نفوسها حقدا دفينا علىٰ الحكومات والحكام (أيا من كانوا)، يتوارثونه عبر أجيالهم. فهؤلاء عندما تأتيهم دعوة «دينية» مفادها أن أولئك الحكام طواغيت كفار وعملاء لليهود وأنه يجب قتالهم ومجاهدتهم بالسلاح، وأن من مات في ذلك «الجهاد» فقد نزل منازل الشهداء يوم القيامة، فلا شك أن دعوة كهذه ستصيب من نفوسهم هوىٰ عظيما!

فالآن بدلا من أن يكون تمرده علىٰ تلك الحكومة التي يبغضها أشد البغض، جريمة شرعية لا يرجو بها أجرا يوم القيامة ولا يعرفه الناس بعدها إلا بسوء السمعة والسيرة، وبأنه وعصابته مجرمون مفسدون في الأرض، أصبح ذلك التمرد نفسه عبادة من العبادات، بل ذورة سنام الإسلام، يموت بها «شهيدا» من الشهداء، ويجد من حوله سياقا مجتمعيا يعظمه ويعظم سيرته من أجله! وبدلا من أن يقتل الواحد منهم نفسه كمدا ويأسا وقنوطا من رحمة الله ومن أن ينفتح عليه باب يخرج به من فقره في يوم من الأيام، يمكنه مع هؤلاء أن يربط حزاما ناسفا علىٰ بطنه ثم يفجر نفسه في سفارة أو شاحنة أو بالقرب من نقطة شرطة، فيخرج من الدنيا إلىٰ أعالي الجنان فيما أوهموه! لذا كانت تلك الفئة ولا تزال حقلا خصبا لاستقطاب وتجنيد المقاتلين في صفوف تلك التنظيمات والجماعات الخارجية الغالية. فلا هم يطلبون علما ولا يصبرون علىٰ مجالسة العلماء ولا يعرفون لهم طريقا أصلا، ولا يعرفون الدليل ولا يقبلونه

إن خوطبوا به (إلا من رحم الله)، وإنما هم قوم مرضىٰ لا يريدون إلا من يشبع هوىٰ نفوسهم بخطاب ديني يزين لهم ما يحبون! فإن جاءهم أهل العلم بالدليل علىٰ فساد طريقتهم ومشربهم، تحركت نفوسهم (في عقولهم الباطنة) بالتسويغات والتذرعات والتأويلات الفارغة التي لو تجدروا من هواهم (ميل قلوبهم الذي انعقدت عليه) لرأوا فسادها ووهاءها واضحا بلا اشتباه.

ونقول إن ذلك الصراع النفسي بين ما عرفت أنه الحق وكراهتك الباطنة لذلك الحق، قد يجري تحت إدراك العقل الواعي وانتباهه في كثير من الأحيان. فما أكثر ما يقع للواحد منا أن يفاجأ بنفسه وهو يصلي بالناس في صلاة الجماعة في المسجد وهو يسأل نفسه: يا ترىٰ ما ظن فلان وفلان ممن يقفون خلفي، هل يرونني قد أحسنت الصلاة إذ أطلتها علىٰ هذا النحو؟ هذا الرياء يظل خافيا في النفس غير مسموع الصوت حتىٰ ينتبه إليه صاحبه في عقله الواعي، فإن انتبه فإما أن ينقطع عنه أو يترسل معه، والله المستعان. وسواء قطعه أو ترسل معه، فقد رأينا كيف أن الأصل في نفس الإنسان وفي عقله الباطن أن محركات الميل العاطفي فيه تحركه صوب الشهوة واللذة العاجلة، فإن غفل عن ذلك وترك لنفسه حبلها علىٰ غاربها، غلب ذلك الميل علىٰ كل قول وعمل واعتقاد وترجيح لديه، حتىٰ تتشوه معرفته المكتسبة وتناقض معرفته الفطرية في غير وجه، ويزداد تراكم طبقات تلك المعارف الواهية عنده بما يجعل رجوعه عن أصولها إلىٰ ما يواطئ الفطرة أمرا بعيد الوقوع.

وأنا أزعم أن أول ما سيكتشفه كثير من عامة المسلمين في زماننا هذا إذا ما تأمل أحدهم في تفكيره وترجيحه وأسباب مواقفه وميوله وقراراته، وبحث في مصادرها المعرفية الحقيقية التي أسسها عليها في علمه الفردي ومن أين أتىٰ بها، فسيذهل من غلبة الخواء والفراغ المعرفي وغلبة الهوىٰ واتباع القيل والقال وفضول الأقوال علىٰ أكثرها.

ليس من الصعب علىٰ أحدنا إن أراد ذلك، أن يحلل نفسه وعقله الباطن ويتتبع بناء المعرفة في صدره، الذي عليه تقوم مواقفه وقراراته واعتقاداته وآراؤه. ليس من الصعب

علىٰ أحدنا أن يتكلف في كل مرة يميل إلىٰ قول ما أو مذهب ما أو يبادر بإصدار قرار ما أو رأي ما أو موقف ما، أن ينظر في مرجعيته المعرفية التي منها استقىٰ أدلته في نفس الأمر، وكذا دافعه النفسي الدفين الذي يحمله علىٰ ذلك، ومن ثمّ يستحضر نيته، فإن وجد نية صالحة أقدم وإلا أحجم أو راجع موقفه وقراره!

قضايا تتعلق بالمنهج العلمي المتبع في هذا الكتاب، وبما يقال له «علم نفس الدين» Psychology of Religion

في هذا الفصل نتناول بعض القضايا المنهجية المتعلقة بالبناء المعرفي لعلم النفس فيما يتعلق بقضية الدين والسلوك الديني، نظرا لما قد يتوهمه بعض القراء من أن هذا المجلد يمكن أن يدخل في إطار مباحث ما يقال له «علم نفس الدين». فالذي نرجوه أن يكون قد تبين للقارئ الذي له شيء من الاطلاع على أبحاث ونظريات علم النفس المعاصر أن هذا الكتاب قد تأسست مباحثه ومداخله إلى التحليل النفسي للعقائد الدينية عند أهل الملل على أسس مخالفة تمام المخالفة لما هو معتمد من تأصيل فلسفي عند المشتغلين بهذه القضية من علماء النفس المعاصرين. فمن الوهلة الأولى يرى القارئ كيف يدلف الكتاب إلى تناول نفوس المشركين على أقسامهم الثلاثة الكبرى: الوثنيين وأهل الكتاب والملاحدة الماديين، تناولا يتأسس على ما تعلمه المسلمون من الأسلوب القرآني في مخاطبة المشركين ومواجهتهم بما يجري في نفوسهم من أهواء متراكمة بعضها فوق بعض طبقات، تعمل عمل الغشاوة الحاجبة فيما بينهم وبين ما فطرهم الله عليه من بداهة العقل وفطرته، وعلى ما تعلموه من أمر تلك المخلوقات الغيبية التي يقال لها الجن والشياطين، خلافا للمدخل المادي التجريبي المحض، المعتمد الآن في أبحاث «علم نفس الدين» عند الغربيين، الذي لا يرى في تلك العقائد نفسها عند المسلمين أي فضل معرفي على عقائد غيرهم من أهل الملل الأخرى، ولا يقيم قواعده التفسيرية والتنظيرية إلا على الأصول المادية والطبيعية الصرفة.

ومن تلك الأصول الكلية (كما يمكننا الخروج بها من تتبع أدبياتهم بالتجريد والاستقراء)، قول الماديين والملاحدة وغلاة الإمبريقيين بأن اعتقاد البشر بوجود إله خالق بالغيب إنما هو ثمرة من ثمرات بعض العلميات النفسية والاجتماعية المادية التي تمر بها نفس الإنسان في الصغر ابتداء، ثم تتتابع عليها عمليات أخرى في مراحل النمو العمري المختلفة للإنسان بما فيها من احتكاك وتفاعل عميق مع أفراد المجتمع

المحيط. وهو ما تفرع – بطبيعة الحال – عن اعتقادهم أن كافة ما يزعم أهل الأديان نسبته إلىٰ خالقهم وباريهم أو إلىٰ رسله وأنبيائه من مادة معرفية فيما يتعلق بقضايا الغيب وبالمعيارية الأخلاقية والتشريع الاجتماعي العام فإنما هو محض اختراع واختلاق، لا قيمة له (موضوعيا: معرفيا وأخلاقيا)، وإنما يستمد قيمته عند المؤمنين به من جملة من العوامل النفسية والاجتماعية وربما العصبية الفيسيولوجية، التي تستحق من هؤلاء أن ينقطعوا لدراستها والبحث فيها بطريقة «علمية/ تجريبية»!

وعليه فأول مواطن المفارقة المعرفية بيننا معاشر المسلمين وبين هؤلاء في التنظير النفسي، أننا نقول بأن الإنسان يولد علىٰ الفطرة، وأن الفطرة إنما هي التوحيد وأصول الأخلاق الكلية التي جاء بها الإسلام. وأن الفطرة معرفة غير مكتسبة، يولد الإنسان عليها فلا يرىٰ فيما يخالفها – إن صدق وتجرد – إلا الخلف العقلي وما يصادم بداهة العقل وثوابت اللغة الطبيعية، ويورث المرض في القلب والعقل جميعا. وأنه إما أن يعلمه والداه دين الله الحق من نعومة أظفاره فينزل من نفسه منزلة اليقين المنعقد الذي لا تشوبه شائبة (لموافقته التامة للفطرة وبداهة العقل)، وإما أن يربياه علىٰ ملة من الملل الشركية (بما في ذلك فلسفات الإلحاد علىٰ اختلاف صورها ودرجاتها)، فينشأ علىٰ جملة من التناقضات العقلية الصارخة في قضايا الغيب الكبرىٰ، التي لا يخفىٰ ما فيها من تناقض علىٰ كل عاقل سوي النفس، فلا يكاد يعقل ويميز في صباه إلا وتراه يسلك معها مسلكا من تلك المسالك التي درسناها ومثلنا عليها وحللناها في هذا الكتاب، من حيل تسويغية وتشويشية يخلق بها الهوىٰ الباطن في نفسه غشاوة سميكة وقفلا محكما يصده ويلهيه عن مساءلة تلك العقائد المتناقضة وعن الانفكاك منها، مهما بلغت به نفسه من تلك الحالة الأليمة التي يقال لها «الشك» ما بلغت!

أما الملاحدة والماديون من المشتغلين بدراسة نفس الإنسان وأحوال المجتمعات البشرية، فلا يقولون بمسألة «الفطرة» هذه ابتداء، أو علىٰ الأقل ليس علىٰ هذا المفهوم الذي قررناه لها. وإلا للزمهم القول بأن وجود الباري وكمال صفاته من بدهيات العقل الأولىٰ التي يلزمهم القبول بها والعمل بما تقتضيه، وإذن لدخلوا في ملة التوحيد

ولصاروا مسلمين! وإنما يرون أن الإنسان يولد دون أن يكون في نفسه شيء من تلك المعاني المتعلقة بالباري تبارك وتعالىٰ وصفاته الواجبة. وهذا ما بدأ به أساتذة الأكاديمية اليونانية القديمة في التأسيس لصنعة الفلسفة نفسها قبل ثلاثين قرنا: أن الدعاوىٰ المعرفية كلها سواء من حيث كونها مكتسبة في النفس بعد عدمها، تلجئ للاستدلال النظري حتىٰ تكتسب! ولهذا تراهم عندما تثبت لهم أبحاثهم أن الأطفال أشد تعلقا باعتقاد وجود الباري من البالغين إجمالا، لا يفسرون تلك الحقيقة علىٰ أن الأطفال لا تزال فيهم تلك المعرفة الفطرية الضرورية التي تدفن في نفوسهم تحت عقائد الشرك التي يربون عليها في المراحل اللاحقة من أعمارهم، وإنما يفسرونها بتفسيرات مدارها علىٰ تصورهم لمطلق اعتقاد وجود الإله (وغيره من الكائنات الغيبية، علىٰ التسوية بينها في ذلك) علىٰ أنه ليس إلا نتاج رغبات غريزية مادية في نفس الإنسان تنشأ فيه من الطفولة، تجعله مائلا «لتوهم» الفاعلية البشرية Human Agency أو ما يسمونه بـ«الأنسنة» Anthropomorphization، فيما وراء الطبيعة التي يراها، وهو ما تنشأ عنه فكرة الأرواح والآلهة وكذا، ثم يأتي التوارث المعرفي (التقليد) داخل المجتمع بعد ذلك ليدعمه ويزيده عمقا.[1]

ولا شك أنه لولا طبيعية وإلحاد الاعتقاد الغيبي (المذهب الفلسفي الميتافزيقي) والتأصيل المعرفي (المذهب الإبستمولوجي) عند هؤلاء ما سعوا بالتحايل علىٰ بدهيات العقل الأولىٰ وثوابت المنطق اللغوي في الشأن الغيبي ومعاملتها وكأنها أعراض نفسية حادثة يمكن للإنسان أن يفسرها تفسيرا نفسانيا، ومن ثمّ فلعله يمكنه أن يتخلص منها في حياته من غير أن يقع في التناقض المعرفي بمجرد ذلك!

فعندما يزعم النفساني الملحد أن الاعتقاد بوجود الخالق ما كان إلا وهما توهمه النوع البشري في طفولته الأولىٰ (مثلا)، ثم ترسخ ذلك الوهم بتتابع الأجيال علىٰ تقليده وتناقله وتعظيمه فيما بينهم، فإننا نقول إن هذا الزعم نفسه من أعظم صور التناقض الاعتقادي الديني عنده كتابع من أتباع تلك النحلة الفلسفية التي يدين بها (الطبيعية

---

(1) *Cf.*: Pyysiainen (2009).

الإمبريقية الصرفة)، وأنه في الحقيقة هو المصاب بالعرض السيكولوجي الحادث علىٰ عقول البشر المخالف لما ينبغي أن يكون عليه كل إنسان عاقل سوي النفس، وليس أولئك الذين يعتنقون– من نعومة أظفارهم – الاعتقاد بوجود الرب الباري الذي خلقهم وخلق كل شيء يرونه من حولهم! التكذيب بوجود الباري هو المرض العقلي الحادث العارض علىٰ نفوس ومجتمعات البشر، يقلد فيه بعضهم بعضا، وليس القول بوجوده!

فإن تحقق لدينا هذا الأصل العظيم، استقام لنا التفريع بعد ذلك. ومنه أن تقليد المجتمع (أو ما يعبر الرب تبارك وتعالىٰ عنه في القرآن باتباع سنن الآباء) إنما يكون في اختيار الديانة التي يتربىٰ عليها الإنسان من الصغر، هذا ما يربينا عليه آباؤنا بغير اختيار منا، ولا يكون في أصل الإيمان بوجود الباري نفسه وكمال صفاته واستحقاقه وحده لمطلق المحبة والتعظيم والعبودية، فهذه فطرة عقلية يولد البشر عليها أصالة، ثم يزيلهم عنها (كلها أو بعضها) آباؤهم المشركون بالتربية والتعليم المخالف المضاد. وهي حقيقة مركبة في لغتنا الطبيعية تركيبا، من مجرد تصورنا لمعنىٰ «السبب» ومعنىٰ «الحدوث» أو «الابتداء» ومعنىٰ «الأولية» ومعنىٰ «الأزلية» ومعنىٰ «الكمال» في مقابل «النقص» ومعنىٰ «الخالقية» في مقابل «المخلوقية» ومعنىٰ «التكوين» و«التركيب» .. الخ، بصرف النظر عن أساليبنا في إنشاء وتركيب العبارة اللفظية عن ذلك التصور، وعن جملة تلك المعاني المتلازمة في فطرتنا. ولكن لأن الملحد المادي الطبيعي يعتنق فلسفة تنفي تلك الحقيقة من أصلها، وتنفي – بالتبعية – سائر ما يقتضيه إثباتها من مقتضيات في الاعتقاد والعمل، كانت علومه الإنسانية كلها فيما يتعلق بالدين والاعتقاد الغيبي قائمة علىٰ أساس باطل، وما بني علىٰ باطل فهو باطل لا محالة.

هذا هو الفارق المؤثر والمهم للغاية في هذه القضية بين اعتقادنا معاشر المسلمين وفلسفة الماديين والطبيعيين الذين هم عامة المشتغلين بتلك الصنعة في محافلها الأكاديمية المتخصصة. فنحن لا نقول بأن الأصل في الاعتقاد بوجود الخالق في نفوس البشر هو العدمية، أي عدم ذلك الاعتقاد، ثم نطلب التفسير السيكولوجي لما تنمو عليه الأطفال وما نجد عليه أهل الأرياف والأحراش البرية ونحوهم من مخالفة لذلك

الأصل، وإنما نقول بأن الأصل وجود ذلك الاعتقاد الراسخ الركين في نفس الإنسان من لغته الطبيعية ومنطقه الفطري نفسه، ثم نفسر – إن رأينا الحاجة لذلك – ما عليه أهل كثير من المدن والحواضر المعاصرة من النشوء علىٰ خلاف ذلك فيما يتحولون إليه من اعتقادات ومذاهب وأفكار.

وتفسير هذا المرض عندنا (أعني تفشي الإلحاد في المدن والحواضر الغربية أكثر من غيرها) سهل ولله الحمد، إذ واقع الأمر أن عامة الحواضر الأوروبية المعاصرة غارقة تمام الغرق في ثقافة مستقاة من فلاسفة الإلحاد التنويري (أكثر بكثير مما فيها من بقايا الفكر النصراني واليهودي Judeo-Christian Culture)، وهي تلك الثقافة التي تصطنع لمن تربىٰ عليها مفهومه للغيب وما فيه وللدين ومكانه من حياته! ينشأ الواحد من هؤلاء فيرىٰ الناس من حوله تحقر سائر صور «التأله» الديني، وترىٰ أن الزمان زمان «علم» لا زمان «دين»، وأن الدين خصلة قد كان عليها الناس في مهد الحضارة لقلة علمهم وحداثة عهدهم بأسباب العلو الدنيوي في العلوم والصناعات.. الخ، ثم يجد نفسه في سياق حضاري مغرق في الترفيه والتنعم، وهو ما يقلل – ولا شك – من شعور من كانت هذه حاله بحاجته إلىٰ ربه من فوقه! فلا عجب في أن يزداد الإلحاد والشك ويفشو في بيئات كهذه، مقارنة ببيئة لا تعاني من تلك الفلسفات والثقافات الإلحادية المتراكبة في طبقات بعضها فوق بعض!

والقصد أن هذه مسألة من مسائل ذلك العلم المزعوم تقوم عند أصحابها قياما كاملا علىٰ فلسفتهم الإلحادية في التصور والتفسير.

ونظير ذلك ما يزعمه كثير من أصحاب تلك الصنعة من كون «الدين» (هكذا، بهذا الإطلاق) سببا في أحوال نفسيه مرفوضة أو توصف عندهم بأنها «مرضية»، فيعدون منها حالات «جلد الذات» والندم والخوف من الآخرة ومن عذابها ونحو ذلك مما يجده في نفسه أكثر المتألهين (علىٰ اختلاف أديانهم) في علاقتهم التعبدية بمعبودهم. وواقع الأمر أن هؤلاء إنما يؤسسون زعمهم بكون تلك المشاعر والعواطف والأحوال النفسية أحوالا سلبية تضر بالإنسان بإطلاق، علىٰ فلسفتهم المادية نفسها كذلك، التي ترىٰ في

التشهي بملذات الحياة واجتناب أي سبب من أسباب الضغط العصبي والمعنوي، غاية الصحة لنفس الإنسان وغاية المراد من وجوده في الحياة أصلا، فهي ترىٰ في التعلق بما في الغيب – أيا ما كان ذلك – والتطلع إليه ضربا من ضروب الوهم المرضي الذي يحتاج إلىٰ علاج، لأنه يفوت عليه كثيرا من أحوال التلذذ المرغوب والتشهي المطلوب عندهم.

هذه الفلسفة لا نعجب عندما نرىٰ تلك الآراء تظهر عند أصحابها. مع أنهم يعلمون بالمشاهدة أن الإنسان قد يصل به اعتقاده الغيبي إلىٰ أن يجعله يتلذذ بالألم الجسدي والمعنوي، حقيقة لا مجازا، ويجعله ينفر ويكره لنفسه أن يكون في تنعم ورفاهة عيش. فالمسألة مدارها علىٰ ما يتشكل عليه الهيكل الاعتقادي المعرفي Cognitive Structure للإنسان بالأساس (سواء بفعله واختياره أو بما يتربىٰ عليه في مجتمعه)، فهو ما تتشكل تبعا له أنماط السلوك النفسي والعصبي لديه، وبالتالي ما يستشعره ذلك الإنسان من راحة أو ألم، ومن اضطراب أو استقرار، تحت أي ظرف من الظروف التي يمر بها في حياته.

والأمر المحسوم عندنا معاشر المسلمين، بعيدا عن تلك الفلسفات كلها، هو أن الله الذي خلق نفس الإنسان هو أعلم بما يصلحها وما يفسدها، مهما كرهت تلك النفس بعض التكاليف الشرعية كراهة طبعية واستثقلتها في أول الأمر، وأن مخالفة الفطرة في البنيان المعرفي والاعتقادي مع العلم بوقوع التناقض في ذلك البنيان نفسه (وهو ما يعاني منه سائر المشركين بالضرورة كما بيناه في هذا الكتاب، وعلىٰ رأسهم الملاحدة الطبيعيون) تضر بنفس الإنسان ضررا عظيما ما كان لأصحاب علم نفس الأديان من الملاحدة وأهل الكتاب والوثنيين أن يعترفوا به، لأنهم متلبسون به تحقيقا، ولا تفتأ نفوسهم تتفنن في التشويش عليه بطرائق نرىٰ أن مجرد اشتغالهم بتلك الصنعة نفسها وبالتصنيف والتفلسف فيها يشهد بها عليهم! فالواحد منهم لا يعلم أنه مريض في عقله ونفسه حتىٰ يشتد عليه وجع النفس، أو حتىٰ يظهر عليه من السلوك ما يشذ به عن النظام المقبول والمستحسن في مجتمعه، فينبهه الناس من حوله حينئذ إلىٰ حاجته لأن يجد من يعالجه!

كثيرا ما ترىٰ في تصانيف المشتغلين بذاك الفرع من فروع علم النفس قولهم إنهم محايدون متجردون «علميون» Scientific، يريدون دراسة ما يسمونه بـ«الظاهرة الدينية» دراسة موضوعية، يعاملونها كما يعاملون أي عرض نفسي من سلوك أو فكر أو إدراك يعرض علىٰ نفوس البشر.

ونحن نقول إنهم بذلك يخادعون أنفسهم في الحقيقة، وآية ذلك الخداع ما غرقوا فيه من تضارب في تعريف الدين نفسه![1] فعندما يعمد الباحث إلىٰ تعريف الدين (الذي يريد دراسة تأثيره علىٰ نفس وفكر وسلوك الإنسان بعموم) علىٰ نحو يلائم دينه هو وعقيدته هو (بداية من المادية الإلحادية ووصولا إلىٰ الوثنية المحضة)، وهو فاعل ذلك لا محالة (ولهذا أثره الواضح الجلي علىٰ مباحث هذا العلم ومناهجه كما سنرىٰ)، فما فائدة هذا التعريف إذن وما مرجعيته المعرفية الموضوعية التي يصح أن يقام عليها علم كامل؟ واقع الأمر أن الفلسفة الوحيدة التي تتناول «الدين» بهذا المفهوم الاختزالي المتعمد، الذي علىٰ أساسه خرجت سائر تعريفات الدين عند الفلاسفة الغربيين المعاصرين في مختلف العلوم الإنسانية، وليس فقط عند هؤلاء، إنما هي الملة المادية الطبيعية الإلحادية (التي هي دين أيضا ولو كرهوا)! هؤلاء هم الذين لا يرون بأسا في معاملة جميع الأديان فيما عدا دينهم، معاملة واحدة، ينقدونها من أعلىٰ نقدا يستوي فيه الدين الحق بغيره، لأنها كلها عندهم مادة أسطورية من صنع البشر علىٰ أي حال، ولا حق فيها أصلا حتىٰ يطلب! وإلا فمن أين يأتي تفسيرهم لميل الإنسان لقبول ما تأتي به الأديان، وتفسيرهم لما يجري في نفسه من أثر هذه العبادة أو تلك، وتفسيرهم لما يجري في نفسه عندما يقرر الانتقال من ديانة إلىٰ أخرىٰ، وتفسيرهم لما يزعمه الواحد منهم عندما يقول إنه قد تعرض لحدث خارق للعادة، وتفسيرهم لما يزعمه بعض أهل الملل من تواصل حسي مع الأرواح أو مع الخالق نفسه، وتفسيرهم لما يزعمونه من علاقة بين «التدين» (هكذا بإطلاق!) وبين الحالة النفسية العامة والسلوك الاجتماعي.. إلخ؟ أليس من فلسفة كل واحد منهم وتصوره الديني لعلاقة عالم الشهادة بعالم الغيب

(1) *Cf.*: Loewenthal 2000, the Introduction).

(إن كان يؤمن بعالم غيبي أصلا)، وتصوره المعياري Normative value system المنبثق عن تلك العقيدة لديه، لما تصلح به نفوس البشر وما يفسدها؟ بلىٰ ولا شك!

لقد انتبه الباحثون في ذلك المجال في أواخر القرن الميلادي الماضي إلىٰ خلل كبير في منهجهم التنظيري، إذ كانوا يعممون النتائج التي يستخرجونها من دراسة المتدينين في المجتمع الغربي النصراني/ اليهودي علىٰ سائر أتباع الأديان في سائر المجتمعات،[1] وهذه مغالطة منهجية عظيمة ولا شك. ولكن أعظم منها في الحقيقة ما نبهنا إليه أولا من قيام المقاصد البحثية والغايات والمفاهيم الكلية التي تأسس عليها ذلك العلم عند أصحابه علىٰ المعتقد الإلحادي والفلسفة الوضعية المادية. فمن المغالطة العقلية أيضا أن يبحث أحد الباحثين في أحوال بعض «المتدينين» في ملة من الملل (كحالهم من جهة الانطوائية مثلا Introversion)، ليخرج من ذلك البحث الإمبريقي المجرد بدعوىٰ أن أتباع ذلك الدين – أيا كان – يعانون من اضطراب اجتماعي سببه تدينهم والتزامهم بتعاليم دينهم! والشيء نفسه يقال فيما إن خرج من البحث بنتيجة مستحسنة عنده! ذلك أن قاعدة الاستحسان والاستقباح عنده مستمدة هي نفسها – لا محالة – من فلسفته المعيارية في تصور الحال التي ينبغي أن يكون عليها المجتمع البشري بعموم، وكل فرد من أفراده بخصوص. هذا أولا. وأما ثانيا، فليست أحوال أتباع الدين (أي دين) دليلا علىٰ كون ذلك الدين هو السبب الوحيد أو الأول أو حتىٰ علىٰ كونه سببا (من الأساس) في تلك المسالك التي يلاحظ الباحث اشتراك «المتدينين» من أتباع ذلك الدين في فئة من الفئات أو مجتمع من المجتمعات فيها. فلو أننا رأينا جماعة من «المتدينين» المنتسبين إلىٰ دين من الأديان تمارس بعض السلوكيات المشتركة بين أعضاء تلك الجماعة (بغض النظر عن الحكم المعياري علىٰ تلك السلوكيات نفسها، هل هي مقبولة أم مرفوضة) فلا يمكننا أن نخرج من ذلك بادعاء علاقة سببية بين اعتناق ذلك الدين والتزام تعاليمه عندهم وبين انتشار تلك المسالك فيما بينهم، حتىٰ نتأكد من خلو العينة المبحوثة من أي متغيرات خفية Confounding variables من شأنها أن يكون لها تأثير سببي في المسألة (كعامل التربية والبيئة الثقافية والموروث الاجتماعي

(١) انظر المصدر السابق، الفصل الثاني.

والحالة الاقتصادية وغير ذلك)، ونتأكد كذلك (وهو الأهم) من وجود ارتباط منطقي بين تعاليم ذلك الدين نفسه (كما تعلمها هؤلاء) وبين تلك المسالك.

دع عنك حقيقة أن ما يتعلمه الإنسان من تعاليم منسوبة إلىٰ دين من الأديان قد لا تكون هي التعاليم المعتبرة orthodox teachings عند علماء ذلك الدين أصلا، وهو ما يجعلها في الحقيقة فرقة دينية منفصلة ينبغي التفريق بينها وبين غيرها من طوائف المنتسبين إلىٰ الدين نفسه، وهو ما يخرج بالكلية من دائرة علم النفس ليدخل في دائرة علم اللاهوت أو علوم الدين، في كل ملة بحسبها! هذه كلها قضايا تجعلنا نتساءل: ما فائدة وما جدوىٰ استعمال وسائل البحث الإمبريقي لدراسة الأحوال النفسية والاجتماعية لأتباع هذا الدين أو ذاك، ومن المنتفع من ذلك في الحقيقة (فكريا وفلسفيا)؟ وما الغاية وما القصد من الأساس ولماذا يراد دراسة تأثير الدين علىٰ الحالة النفسية (الإدراكية والسلوكية) لأتباعه من طريق وسائل البحث الإمبريقي المجرد علىٰ هذا النحو الحادث؟

من عرف أن هذا الدين أو ذاك هو دين الله الحق، فقد عرف بالضرورة أنه لا يأمر الناس إلا بخير ولا ينهاهم إلا عن شر، سواء عرفوا وجه ذلك الخير والشر أم لم يعرفوا. ومن ثم فستكون المرجعية المعيارية في معرفة صلاح النفوس وفسادها مستمدة (كأساس) من ذلك الدين نفسه، ومنه ستنبع سائر الغايات والمقاصد والمطالب البحثية النفسية. ولكن ليس هذا الموقف المعرفي مسموحا به في الفلسفة الإلحادية وفي المادية الوضعية الطبيعية ولا في أكاديميات العلوم الإنسانية المعاصرة بعموم. وإنما تقوم تلك الصنعة (علم نفس الدين) علىٰ موقف الباحث التجريبي الملحد الذي يرجو أن يرسخ دعائم موقفه الفلسفي والأخلاقي من الأديان عموما ومن «المتدينين بها» خصوصا، ومن تأثيرها علىٰ المجتمعات العلمانية الديموقراطية المعاصرة، وكذلك علاقتها بكمال أو نقص العقل عند الإنسان، من طريق الأبحاث التجريبية الإمبريقية التي لا يرتضي وسطه الفكري والثقافي مصدرا معرفيا آخر إلىٰ جانبها تحت اسم «العلم»!

فالقصد أن ما يسميه القوم «موضوعية» علمية، نسميه نحن إلحادا واستكبارا!

ونحن نقول: ما من صنعة من صناعات المعرفة الإنسانية إلا لا بد لها من غاية وثمرة يريد ممارسوها أن يصلوا إلىٰ إصابتها من مجموع سعيهم فيها وتراكم مباحث العلم بين أيديهم فيها. فلماذا وضعت هذه الصنعة بعينها ولماذا ظهرت؟ ما هي الغاية التي يطمع الباحث النفساني المنتمي (لا محالة) إلىٰ عقيدة ما أو إلىٰ تصور معين فيما يتعلق بالغيب أيا ما كان ذلك، إلىٰ تحصيلها من دراسة الأحوال النفسية والسلوكية لأتباع الديانات الأخرىٰ والعقائد الأخرىٰ المخالفة لدينه هو وعقيدته هو، وأي تعميم تنظيري يرجو الوصول إليه من ذلك ولأي غاية؟ هل يريد الوصول إلىٰ أن بعض الأديان - مثلا - يضر اعتناقها وممارسة شعائرها بالصحة النفسية العامة لـ نسان، حتىٰ ينصح أصحاب تلك الأديان بتركها (مثلا)؟ فما تعريف الصحة النفسية العامة Psychological Wellbeing عنده ومن أين يأتي هو به أصلا؟ ما معياره المعرفي في الحكم علىٰ ما هو صحيح نفسيا وما هو فاسد نفسيا، إلا أن يكون بالرجوع إلىٰ نظامه المعرفي المعياري الفردي، المبني بالأساس علىٰ دينه هو وعقيدته هو في الغيبيات وما يتعلق بها من مناهج معرفية؟

هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القاري المحترم، قد أقمته كما ترىٰ علىٰ بيان حقيقة ثابتة في الكتاب والسنة، ألا وهي تزيين الشيطان ومخادعة النفس وكذبها علىٰ صاحبها تبعا للهوىٰ، واستعنت في تفصيل ودراسة صور تلك الحيل الشيطانية والنفسية بنظرية سوسيو-سيكولوجية لها ثقلها عند النفسانيين. والنظرية المختارة هي نظرية (أو إن شئت فقل قانون) «ليون فستينغر» في عمل النفس لإزالة الاضطراب النفسي الناشئ عن التناقض المعرفي، فوسعتها ودلفت بها إلىٰ منطقة ما كان «فستينغر» نفسه ولا غيره من أقرانه ليستعملوها فيها (بالنظر إلىٰ اعتقادهم الديني - أو المادي - بطبيعة الحال)، مع عناية خاصة باستعمالها في تحليل كلام فلاسفة الدين وسجالهم مع فلاسفة اللاهوت الدفاعي بصفة خاصة، وما ذاك إلا لغرض شرعي ديني عندي، أتقرب به إلىٰ الله تعالىٰ وأرجو منه أن يقبله. هذا أشهد به وأصرح به ولا إشكال فيه عندي، فبداية من

الغاية والقصد ووصولا إلىٰ أدق تفاصيل المنهج المتبع في التأليف، الأمر كله قائم بالأساس علىٰ مصادر المعرفة الدينية عندي، التي أزعم أنها الحق المحض الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والمصنف موضوع كله لمخاطبة أهل الإسلام لا غيرهم، الشاهدين بصدق الوحي المنزل علىٰ محمد ﷺ ابتداء. لست أكتبه ملتمسا رضا الأكاديميين النفسانيين الغربيين أو غيرهم. ولست أخاطب به أهل الجحود والإلحاد، فهؤلاء لا خطاب لهم عندنا.

وها أنت ترىٰ في هذا المبحث من الكتاب كيف أن النفسانيين من أهل الملل الشركية يعانون – إجمالا – في تنظيرهم وفلسفتهم ومنهجيتهم فيما يتعلق بمسألة الدين ودراسة السلوك الديني من نفس ذاك الداء الذي وضعت هذا الكتاب في شرحه وبيانه![1] والقصد أنه من الكذب المحض أن يوهم الواحد من هؤلاء الماديين نفسه بأنه متجرد عن خدمة منظومته الاعتقادية الغيبية الفردية أيا ما كانت، بما يصنفه من دراسة لأحوال نفوس أهل الأديان الأخرىٰ! هذا ما يحب القوم أن يقنعوا به أنفسهم حتىٰ يظل الواحد منهم مقتنعا بأن ما يمارسه ويتخصص فيه إنما هو صنعة علمية ومعرفية لها قيمتها.

تضرب النفسانية «كيت لوينثال» (٢٠٠٠، كما في المصدر السابق ص ١٥) مثلا يبين تأثير التفاوت في المنبع المعرفي والاعتقادي والثقافي الذي يقيم النفساني علىٰ أساسه ما يراه من أفعال وسلوكيات منسوبة إلىٰ الدين، وبين ما عند أصحاب ذلك الدين نفسه من مفاهيم. تقول:

(١) وهي دوافع تعتمل في نفوسهم من غير وعي منهم (وهم لا يشعرون)، فتعمل عمل الغشاوة على أبصارهم والقفل على قلوبهم، ولا تنكشف لهم إلا أن يهديهم الله للحق ويشرح صدورهم للإسلام، وهي مع هذا مسألة أصلها ثابت عندنا في القرآن ثبوتا لا مراء فيه، فمن العبث أن أطالَب باستعمال أدوات الاستبيان الاجتماعي أو البحث التجريبي – مثلا – لكوني باحثا مسلما في علوم النفس، لتأكيد ما أزعمه في هذا الشأن. نعم البحث الإمبريقي مطلوب (نوعا) للباحث النفساني ولا شك، ولكن نحن المسلمون لدينا مصادر معرفية أخرى يجب أن تأتي مسلماتها وثوابتها في منزلة الأساس الذي ينطلق منه التجريب والبحث الميداني، لا أن تعامل معاملة العرَض الاجتماعي المراد «تفسيره إمبريقيا» كما دأب الماديون، ولا أن تكون خاضعة في تأويلها وفهمها والاستدلال بها لما يأتي به البحث الإمبريقي كما انقلبت إليه عقول وأفهام بعض أهل القبلة في هذا الزمان، والله المستعان!

كان للأستاذ «ب» وزوجته صبي صغير يعاني من بعض الصعوبات في الدراسة في مدرسته، فلم يكن متابعا لما يجري في الفصل بصورة جيدة، وكان متوترا وكثير الحركة، وكان صعب المراس في البيت كذلك. لذا، اقترحت المدرسة علىٰ والديه أن يصحباه إلىٰ أخصائي نفساني Psychologist. لم ترق تلك الفكرة للأستاذ «ب» وزوجته كثيرا، إذ بلغهما أن غيرهما من الآباء قد مروا بتلك التجربة، وقوبلوا بسوء فهم كبير من جانب النفسانيين للثوابت والقيم السلوكية المعتبرة في المجتمع اليهودي. فقد سمعا بأن أخصائية نفسانية جاءت ذات يوم لمراقبة طفل آخر، ورأته يهز جسده للأمام والخلف بصورة ترددية وهو يقرأ كتابه. هذا السلوك من السلوكيات المستحسنة في مدارس التعليم الديني للصبية اليهود الأرثوذكس، وهو مما يشجعون عليه لا سيما عند التعبد وقراءة النصوص الدينية. ولكن روي أن الأخصائية النفسانية علقت علىٰ هذا المسلك للطفل بأنها تراه دليلا علىٰ اضطراب نفسي لديه. ولما نبهها ولدا الطفل بأن جميع الصبية اليهود يفعلون ذلك، قيل إنها أجابت بقولها «لعلهم جميعا مضطربون نفسيا».

هذا المثل يبين لنا كيف اختلف المصدر المعرفي الذي جاء منه الموقف المعياري بإزاء سلوك بعينه، وأعني في هذا السياق: تعريفه علىٰ أنه سلوك مرضي (سيكوباتي) أو غير مرضي، بين الأخصائية النفسية صاحبة الخلفية الفلسفية المادية المحضة، والأسرة اليهودية ذات الخلفية الدينية، التي تعلم أبناءها ذلك المسلك وتربيهم عليه علىٰ سبيل التعبد. فالآن، لعل السؤال الذي يعنينا أن نسلط عليه الضوء هنا يكون كالتالي: أي المرجعيتين أو أي المصدرين المعرفيين أولىٰ بالقبول في التعامل مع ذلك السلوك؟ هل نعامله علىٰ أنه مرض يحتاج إلىٰ علاج حتىٰ يتخلص منه ومن أسبابه ذلك الصبي؟ أم ننظر إليه علىٰ أنه سلوك مقبول مستحسن نشجعه عليه؟ هنا يظهر لك كيف أن النزاع نزاع عقائد وفلسفات غيبية بالأساس، أو بعبارة أدق: هو نزاع ملل وأديان، ما بين أناس يزعمون أن دينهم حق وأن ربهم الذي خلقهم لم يكلفهم بما فيه ضرر لهم، وأناس يجيبونهم بأن هذا كله وهم تتوهمونه، وهذه السلوكيات لا بد وأن تخضع كغيرها

لمقاييسهم الدهرية المادية المحضة في علم النفس، حتىٰ نرىٰ ما إذا كانت مما يمكن تصنيفه علىٰ أنه اضطراب نفسي (أو مرتبط بصورة من صور الاضطراب النفسي سببيا) أو لا يمكن أن يصنف كذلك.

هذه القضية لها ارتباط وثيق بقضية جدلية كبيرة في أصول العلوم الإنسانية المعاصرة بعموم (وليس علم النفس وحده) يقال لها إشكالية «تعريف السلوك السوي» أو تعريف السواء السلوكي Definition of Normalcy. فلو اكتفينا بتعريف السلوك المرضي علىٰ أنه خلاف السلوك السوي، ثم عرفنا السلوك السوي علىٰ أنه كل ما تتركب منه حال الإنسان الطبيعية من ناحية السلوك والمعاملة ونحو ذلك، فسيظل التعريف غير مانع، مفتقرا إلىٰ تعيين المصدر المعرفي الذي منه حددنا الصفة المعيارية الموضوعية الصحيحة لتلك الحالة، حتىٰ نعمل علىٰ إزالة كل ما يخالفها. وبالنظر إلىٰ نشأة علم النفس في محضن الفكر الأوروبي العلماني المادي خلال القرنين الماضيين، لم يكن من المستغرب أن يكون هو ذلك المصدر المعرفي نفسه.

هذه المشكلة الكبيرة لم تغب عن أعين نظار العلوم الإنسانية في الحقيقة، وهم يتنازعونها من أول يوم ظهر فيه شيء اسمه الطب النفسي في أوروبا وأمريكا. ولكن بدلا من أن يكون جوابها عندهم أن يبحثوا عن المصدر المعياري الموضوعي الصحيح للأحكام السلوكية، وهو - بلا شك - شريعة رب العالمين المنزلة علىٰ خاتم المرسلين، التي فيها تقرير ما تكون عليه الفطرة السوية للإنسان، قبل أن تحرفها الملل الباطلة والنحل الفلسفية المنحرفة، جنح القوم إلىٰ تلك الفلسفة الأخلاقية التي يتبناها الملاحدة والعلمانيون والديموقراطيون بعموم في سائر ما له تعلق بالأحكام المعيارية والأخلاقية علىٰ سلوكيات البشر وأحوالهم: نسبية الأخلاق! فقالوا إن المرجع في معرفة السلوك السوي إنما هو ما عليه المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان محل البحث، أيا ما كان ذلك المجتمع.[1] هذا المفهوم يظهر في عدة صور، أو إن

(1) *Cf.*: King 1932, Ch. XI, Fromm 1991, Sharma 2006.

شئت فقل «مدارس» عند النفسانيين، لعل أشهرها تلك المدرسة التي تطبق الاستقراء الإحصائي للملاحظات السلوكية لشرائح كبيرة من أفراد المجتمع، حتىٰ يتوصل إلىٰ الحالة «المتوسطة» لجماهير الناس في هذا المجتمع أو ذاك، ثم توصف تلك الحالة بأنها هي الحالة «الطبيعية» التي من شذ عنها لم يكن «سويا». ولكن مما لا شك فيه، فإنه ليس كل مخالفة لتلك الحالة التي عليها الجماهير في السلوك والإدراك والعقل والمعرفة، تستنكر عندهم أو يقال إنها «مرضية»، فالعباقرة والنوابغ فائقو الذكاء (علىٰ سبيل المثال) ليسوا مرضىٰ علىٰ اصطلاح أحد من الناس، فكان المرجع – من جديد – في معرفة ما هو مرضي أو انحرافي من تلك الشذوذات عن القاعدة العريضة إنما هو ما يرتضيه المجتمع من ذلك وما لا يرتضيه. من خالفهم مخالفة لا يرتضونها، كان هو المريض عندهم!

ومع أن المدرسة الأخرىٰ الأشهر عند النفسانيين في هذا الباب – ألا وهي المدخل الباثولوجي في تعريف الحالة السوية – لا يعاني من كثير من المشكلات المنهجية التي يعاني منها المدخل الإحصائي (لا سيما فيما يتعلق بفرضية إمكان تقدير سائر القضايا السلوكية تقديرا كميا Quantitative)، وعلىٰ الرغم من كونه يبدو وكأنه أكثر «موضوعية» من المدخل السابق، إلا أنه يعاني من نفس الآفة: الافتقار إلىٰ مرجعية معيارية موضوعية لمعرفة حدود ما هو «مرضي» و«انحرافي» من أحوال السلوك والإدراك والحس، مقارنة بما هو «طبيعي». صحيح إن ثمة أحوال نفسية وسلوكية تتفق جميع الثقافات والفلسفات والملل علىٰ أن من يعاني منها فهو «مريض» عقليا وعصبيا (كالجنون وفقدان الذاكرة والأرق المزمن والوسواس القهري والاكتئاب .. إلخ)، إلا أن الارتكان إلىٰ هذا الاتفاق نفسه علىٰ أنه مرجعية معيارية هو عين المشكلة التي نتكلم عنها هنا من الناحية التنظيرية. فمن السهل أن يقال إن أي خلل في الجهاز العصبي وفي عمل المخ لا بد وأنه يعد حالة مرضية، ولكن ما طريق معرفة ذلك الخلل وتوصيفه علميا، إن لم يكن قياس أثره في السلوك والإدراك علىٰ ما اتُفق من قبل علىٰ جعله معيارا قياسيا للحالة السوية؟

ومن المداخل المتبعة لتعريف الحالة السوية والحالة المرضية مدخل التأقلم الاجتماعي Adjustment. فعند أصحاب ذلك المدخل أن الإنسان كلما كان أقدر علىٰ التأقلم والتكيف مع محيطه الاجتماعي، كان ذلك دليلا علىٰ أن نفسه سوية، والعكس بالعكس. وهذا المفهوم له مرجعيته المعيارية الأخلاقية المستمدة من الفكر العلماني أيضا. إذ عند العلمانيين يجب، معياريا وأخلاقيا، علىٰ كل إنسان في المجتمع أن يعامل غيره من أهل ذلك المجتمع علىٰ السواء بلا «تمييز»، علىٰ أساس الاشتراك في اسم الإنسانية، بصرف النظر عن الدين والاعتقاد. ولكن الحق الذي عليه العقلاء أنه ليس كل سياق اجتماعي يحسن بالإنسان أن يتأقلم معه كيفما كان ويكيف نفسه وسلوكه لموافقته وإرضائه.

وللنفسانيين مداخل أخرىٰ إلىٰ تلك القضية، والمسألة في غاية الدقة في الحقيقة ولا يتسع هذا المجلد للتوسع وبسط الكلام فيها، ولكن القصد بيان أنه بخلاف ما يظهر من أعراض حسية فيسيولوجية واضحة (كاضطراب التنفس أو قلة النوم أو التوتر والاكتئاب أو اضطراب حرارة الجسد أو فقدان الذاكرة أو العجز عن التركيز الذهني أو الاضطراب العاطفي .. إلخ)، فإن تعريف سلوكٍ ما أو حالة ما علىٰ أنها اضطراب أو مرض أو انحراف نفسي ليس بالأمر الذي تعلو فيه فلسفة علم النفس الغربية المعاصرة علىٰ ما عند أهل الملل والنحل، باعتبارها علما تجريبيا موضوعيا في تقييم السلوك الإنساني وقياسه والحكم عليه كما يظنه كثير من المغترين بالماكينة العلمية والفكرية الغربية، وإنما هي فلسفة مستمدة - بالأساس - مما عليه «دين» الأغلبية من ممارسي تلك الصنعة من نظار تلك البلاد. وكلام أصحاب ملة من الملل أو نحلة من النحل الفلسفية في الحكم الأخلاقي والسلوكي ليس حجة علىٰ غيرهم من أهل الملل، إلا أن يكون مستمدا من مرجعية معرفية موضوعية نقطع بضرورة أن تكون هي المعيار الصحيح لمعرفة الحالة الإنسانية السوية (الموافقة للفطرة المعتدلة في السلوك والإدراك)، وليس هذا الوصف لاحقا بملة من الملل ولا فلسفة من الفلسفات، ولا ينطبق تحقيقا إلا علىٰ ما جاء به محمد ﷺ من تعليم أخلاقي إلهي، والحمد لله رب العالمين.

ونقول مع ذلك إن كثيرا مما يتفق القوم علىٰ تعريفه علىٰ أنه مرض نفسي أو اضطراب نفسي، لا نرىٰ بأسا في موافقتهم عليه، ولكن ما ذاك إلا لأن تفسيره عندنا لا يصطدم بثوابتنا الشرعية. ومثال ذلك حالات الوسواس والوساوس القهرية Obsessive Compulsive Disorder التي قد تصيب الإنسان فيما يتعلق بسلوك من السلوكيات المتعددة في حياته، التي يكون لها في نفسه حظ وافر من العناية والاهتمام.

فبينما لا يرىٰ كثير من النفسانيين بأسا في الزعم بأن «الدين» (بهذا الإطلاق المعتاد عندهم) يمكن أن يشكل بيئة خصبة لظهور تلك الحالة النفسية عند أتباع عامة الأديان (لا سيما تلك التي تأمر أتباعها بالعبادات المتكررة في اليوم والليلة، ويقصد بذلك الإسلام واليهودية علىٰ وجه الخصوص)، يرىٰ آخرون أن الأمر ليس مرتبطا بدين بعينه، بقدر ما هو مرتبط باستعداد نفسي لدىٰ بعض الناس يجعل أي سلوك متكرر له أهميته في حياتهم عرضة لأن يكون واحدا من جملة أسباب معاناتهم من هذا الداء. فلماذا ذهب هؤلاء إلىٰ القول الأول وذهب أولئك إلىٰ القول الثاني؟ لاحظ أن القول الأول يجعل من تلك الممارسات الدينية نفسها «سببا» في المرض، أي من مطلق تكليف الدين لصاحبه بتكرارها في حياته، وهو ما يستتبع اتخاذ النفسانيين موقفا معياريا رافضا لتلك الممارسات بالكلية أو داعيا إلىٰ التخفف منها علىٰ الأقل (بصرف النظر عن الموقف الديني التشريعي من تلك الممارسات، القائم علىٰ مصادر المعرفة في ذلك الدين نفسه)، وهو موقف لا يقتضيه القول الثاني، أو علىٰ الأقل ليس فيما يظهر من كلام أصحابه.

ونحن نقول إن المنهج الذي اتبعه هؤلاء وهؤلاء في التنظير والتفسير بل حتىٰ في الملاحظة والتجريب، مرجعه إلىٰ الاعتقاد الديني والغيبي لدىٰ كل فريق منهم بالأساس. فإذا كان تعريفنا لحدّ الإفراط في ممارسة عمل من الأعمال بما يصير معه الإنسان موصوفا بـ«الوسواس»، مع ارتباط ذلك الإفراط بحالة من القلق والخوف من أن يكون العمل لم يؤت به علىٰ وجهه الأكمل، فكلنا نتفق - علىٰ اختلاف دياناتنا وفلسفاتنا - علىٰ أن ثمة معيار ما عند أهل كل ملة يفرَّق به بين المفرِط (بتسكين الفاء) والمفَرِّط (بفتح الفاء) في أداء ذلك السلوك الديني الذي تأمر به تلك الملة، تماما

كما أن في كل مجتمع معيارا قياسيا متفقا عليه بالعرف العام، يقاس به ذلك الأمر في السلوكيات الاعتيادية التي لا تنسب إلىٰ الدين.

فعلىٰ سبيل المثال، متىٰ يقال لمن يأتي بالطهارة عند الغسل أو الوضوء من المسلمين علىٰ هيئة بعينها إنه مصاب بحالة من الوسواس أو العصاب Neurosis؟ عندنا نحن المسلمين أنه يُقاس عمله إلىٰ الصفة المجزئة لذلك العمل في شريعتنا، وإلىٰ ما يزيد علىٰ حد الإجزاء من سنن ونوافل، فإن رأينا ذلك الإنسان يجاوز الحد المشروع، ويتخوف – علىٰ الرغم من ذلك – من أنه لم يأت بالعمل علىٰ تمامه، حكمنا عليه إذن بأن هذا فيه عصاب أو خوف مرضي، وعالجناه بما جاء به الشرع عندنا في مثل ذلك.[١] فهب أن هذا المسكين ذهب إلىٰ طبيب نفساني نصراني أو يهودي (مثلا)، فبأي شيء «سيعالج» حالته؟ ومن أين سيأتي بالحد الصحيح الذي به يعرف ما إذا كان هذا الرجل مبالغا أم غير مبالغ، وبالصفة التي نص الشرع علىٰ أنها تجزئ ويرجىٰ معها تقبل العبادة؟

دع عنك أننا نتكلم في هذا المثل عن عبادة شرعها رب العالمين سبحانه وتعالىٰ، بمعنىٰ أننا نقطع بأنها (في صفتها وضابطها وحدّها) من عند الباري الذي هو أعلم بخلقه وبما يصلحهم وما يفسدهم، فلا يمكن أن يكون في تشريعه نقص من هذه الجهة سبحانه وتعالىٰ، بخلاف ما يكون عليه الحال عندما يكون المصاب بتلك الحالات من أتباع ملة وضعية بشرية أو ملة كتابية محرفة أو من المتمسكين ببدعة فيها من العنت والحرج – في مصدر التشريع نفسه – ما فيها! فعندما يأتي من النفسانيين من يتمسك بالموقف الدهري العلماني المحض، فعلىٰ أي أساس سيكون تفريقه بين ممارسة سلوكية فاسدة

---

(١) ويحضرني الآن أن رجلا من عامة المسلمين دخل ذات يوم إلى منتدى من المنتديات الشرعية يشكو من تخوفه الشديد من عدم وصول الماء إلى منابت شعر رأسه عند الغسل، فكان يخشى ألا يكون غسله صحيحا، ويجد من نفسه مبالغة في غسل الرأس مرة بعد مرة ثم يخرج ولا تزال فكرة عدم الإجزاء تطارده، فأخبرناه بأنه يعاني من الوسواس وأن عليه أن يستحضر في كل مرة تحدثه نفسه بهذا الشك في طهارته أن الله تعالى لم يكلفنا بما لا نطيق، وأن ما لا يمكن الاحتراز منه فهو معفو عنه، وأنه يجزئه في غسل الرأس الحدّ المعتاد من تقليب الشعر وإمرار الماء خلاله، والذي أذكره – إن لم أكن واهما – أن الأخ تحسنت حالته ولله الحمد وزال عنه الوسواس بعد مدة.

مبتدعة في أصل تشريعها، وممارسة سلوكية صحيحة من حيث الأصل ولكن جاوز صاحبها الحد في تطبيقه هو لها، وابتلي في ذلك بمفاهيم فاسدة في الوصف المجزئ للعبادة تحتاج إلىٰ تصحيح؟ لو اتبع النفساني الكافر فلسفته هو وملته هو – وهذا لا مناص منه للإنسان – في التشخيص والعلاج لسوىٰ بين الجميع، ولطالب المريض بما فيه من الفساد ما فيه.

ولهذا نرىٰ بعض هؤلاء يقررون ضرورة التنسيق مع رؤوس الملة الدينية التي ينتمي إليها من يأتيهم من «مرضىٰ العصاب» حتىٰ ينظروا في كيفية مطالبة هؤلاء المرضىٰ بالتخفف من تلك المسالك، مع إقناعهم (وهو الأهم عند النفساني) بأن ذلك التخفف مشروع في دينهم ولا بأس به! (لوينثال ٢٠٠٠) وهو – بطبيعة الحال – ما يرفع من المرجعية المعرفية التي يستند إليها النفساني المادي أو العلماني في ذلك الحكم المعياري والأخلاقي (في مقدار ما يصح وما لا يصح من ممارسة الشعيرة التعبدية أيا ما كانت) فوق ما عند أهل الأديان جميعا، ويجعلهم جميعا بالنسبة إليه بمنزلة الصبية الذين يشغلون أنفسهم وأتباعهم بـ«لعبة لطيفة» لا بأس بتركهم للتلهي بها ما دامت لا «تضر» الناس، فإن تسببت ممارساتهم تلك اللعبة في وقوع الضرر (علىٰ أنفسهم أو علىٰ غيرهم)، وجب إذن أن يتدخل الحكيم النفساني لينبه تلك المرجعيات الدينية حتىٰ تراجع تلك الممارسات وتخفف منها أو تعيد صياغة فقهها في الأدبيات الدينية أو حتىٰ في مصادر التشريع الديني نفسها إن لزم الأمر![1]

---

(١) ينبغي أن ينتبه الأخصائي النفساني المسلم إلى أنه مطالب بأن يجعل دينه وعقيدته وشريعته هي مرجعيته العلمية المستند إليها في تصور علل النفوس وأمراضها وما يرجى لها البرء به من تلك الأمراض. وهو ما يعني أنه يجب على الجامعات المختصة بتدريس علم النفس في بلاد المسلمين أن تؤهل النفساني المسلم تأهيلا كافيا في العلم الشرعي حتى تنضبط ممارسته على مرجعية الإسلام. فلا يأتيه رجل نصراني – على سبيل المثل – ليقول له إنه يعاني من حالة من التوتر النفسي تتعلق بمسألة أخلاقية في علاقته بأهل بيته أو مسألة دينية فيما يتعلق بطقس من طقوس دينه أو بمسألة وجودية لها علاقة بالغاية من وجوده في الحياة أو نحو ذلك، فتراه يحيله إلى تعاليم دينه (النصرانية) ليجد فيها السلام النفسي! بل يجب أن ينظر في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفقه الدعوة ليرى ما على المسلم في مثل ذلك. أنا أعرف كثيرا من المسلمين اليوم لا يرون بأسا في أن تراه يخاطب أناسا ليسوا بمسلمين، في محاضرة أو نحوها، فيقول ما معناه إن جميع الأديان فيها كذا وجميع الأديان تحث على كذا وتدعو الناس إلى كذا (من خصال الأخلاق

فنحن كما ترىٰ نتفق – من حيث المبدأ – مع النفسانيين من أي ملة أو نحلة فلسفية في الأصل القائل بأن مجاوزة الحد في العمل (أيا ما كان ذلك العمل) علىٰ تخوف مفرط من نقص متوهم في أدائه لا حقيقة له، عرض مرضي وداء يحتاج إلىٰ علاج. ونتفق كذلك – وبعبارة أعمّ – علىٰ أن كل شعور بحزن أو خوف أو ندم أو تأنيب للنفس أو نحو ذلك، يجاوز فيه الإنسان «الحدّ المقبول» فهو عرض مرضي أيضا ويحتاج إلىٰ مداواة. ولكن ما هو هذا الحدّ وما مستند قبوله، ومن أين نأتي بمعرفته؟

إن قالوا إن الإفراط المرضي في تلك الأحوال النفسية هو ما نراه عندما يصاب الإنسان بحالة من العجز عن الأداء في حياته اليومية بصورة طبيعية، فستقابلنا المشكلة نفسها في تعريف هذا التركيب: «الأداء في الحياة اليومية بصورة طبيعية»، إذ لا يلزم أن يكون كل أداء قد اعتاده هذا الإنسان في حياته اليومية من قبل، أداء صحيحا

الحميدة ونحو ذلك)، وهذا أمر في غاية الخطورة، ولازمه الذي يجب أن ينبه إليه ذاك المسكين: تصحيح أديان المشركين وأهل الكتاب إجمالا، وتشجيع أصحابها على الرجوع إلى أصولها ومبادئها والالتزام بها، وهو ما يناقض المقصود من دعوة التوحيد نفسها، والله المستعان. نحن نخاطب الناس – إن فعلنا – بديننا نحن وبأخلاقنا نحن وبما هو مستحسن في ملتنا نحن، على أنها هي الحق ومصدر الخير الأخلاقي الأعلى بلا منازع، فإن وافقونا على ما ندعو إليه أو نتكلم به من ذلك فبها ونعمت، وإلا فلا شأن لنا بهم. والخطاب النفساني (الذي يخاطب به المعالج النفساني مرضاه) ليس في حقيقته إلا دعوة للمريض إلى ما يرجو له المعالج أن تصلح به نفسه، فهل ندعو المشرك إلى مزيد من الشرك والإغراق فيه ونحن نظن أن هذا مما يصلح له نفسه؟ نعوذ بالله من ظن كهذا!

القضية أن بلاد المسلمين في زماننا قد تربى فيها أكثر المسلمين على أن الواحد منهم لا يصح له أن يخاطب غير المسلمين في بلاده بما يختص به المسلمون من خطاب ديني، فيما يتصور هو أنه لا علاقة له بالخطاب الديني أصلا، كمسألة العلاج النفسي مثلا، وهذا من غلبة الجهل بدين الله تعالى. حتى إنك لترى بعض كتاب الصحف الرسمية يبلغ بهم الأمر أن يتحرجوا من ذكر الله تعالى أو حمده أو الثناء عليه في تلك الصحف حتى لا يقال إنهم يخاطبون المسلمين بخصوصهم ولا يحترمون مشاعر القراء من أهل الملل الأخرى، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله! يعني ترى الكاتب المسلم يقول – على سبيل المثل – «شاءت الأقدار كذا وكذا» ولا يقول «شاء الله تعالى» أو نحوها حتى لا يوصم خطابه بأنه خطاب ديني! مع أنه يعلم أن الأقدار مكتوبة مقدورة مفعولة لله تعالى، وليست هي فاعلة أو ذات مشيئة، والمضحك المبكي في الأمر حقا أن قُراءه من أهل الكتاب الذين يتخوف من مضايقتهم لا يؤمنون بالقدر أصلا، ولكنه الخوف والرعب من إظهار ولو كلمة واحدة في السياق الرسمي يمكن أن تصنف على أنها «خطاب ديني»، والله المستعان. بل إنك لترى الأستاذ في الفصل الدراسي يتحرج من أن يخاطب التلامذة في موطن من المواطن بقال الله وقال الرسول، خشية أن يضايق النصارى ممن يسمعونه! فأي جبن هذا وأي إسلام وأي إيمان؟ نعوذ بالله من الخذلان.

(موضوعيا) من الناحية المعيارية أو الأخلاقية حتىٰ يُكره له الإقلاع عنه، دع عنك أن يعد من علامات المرض. فلو جاءنا رجل كان في سلوكه المعتاد عربيدا، يسكر ويلهو في المراقص والخمارات كل ليلة، وكان يحب ذلك جدا ويتلذذ به، ثم لما قرر أن يتوب إلىٰ الله تعالىٰ، رأينا عليه بعض علامات الاكتئاب Depression والحزن، ورأيناه يغير من نمط حياته بالكلية، وينفر ويأنف من أشياء كانت من قبل تبهجه وتدخل النشوىٰ علىٰ نفسه، ثم أجرينا علىٰ هذا الرجل تعريف الاكتئاب المرضي العصابي بأنه «الإفراط في الحزن والاكتئاب بما يفضي إلىٰ العجز أو التخلف عن الأداء المعتاد في الحياة اليومية» (مثلا)، لعددنا ذلك التائب مريضا يحتاج إلىٰ أن يقلع عن توبته ويرجع إلىٰ ما كان عليه من قبل حتىٰ يشفىٰ! مع أننا نقطع بأن ما هو عليه الآن خير له في مستقبل أمره، في الدنيا والآخرة جميعا، وإن كان يجد فيه الآن كثيرا من الكراهة النفسية ويشق عليه غايةً، ولكن من أين عرفنا نحن هذا الخير وجهله غيرنا؟ عرفناه من الوحي المعصوم، الذي لا يأمرنا إلا بخير مهما كرهته نفوسنا كراهة طبعية، ولا ينهانا إلا عن شر مهما أحبته نفوسنا وتعلقت به طبعا أو شهوةً.

ولكن انطلاقا من هذه المعرفة نفسها، فلو أنّا رأينا هذا الرجل يمكث في بيته أكثر مما ينبغي، وكان مقياسنا في ذلك أنه لا يخرج للعمل أو لصلاة الجماعة ولا يؤدي حق بيته وأهله وغيرهم من أصحاب الحقوق عليه، أو نحو ذلك مما يعرف من طريق المقارنة بوصف السلوك اليومي السوي للمسلم عندنا، رجعنا إليه بالنصح والمعالجة بما يناسب حاله. فإن كان ثمة خوف زائد لديه يميل به إلىٰ القنوط من رحمة الله، عالجناه بالترغيب، وإن كان ثمة رجاء مفرط في نفسه يميل به إلىٰ الإرجاء والتهاون والتساهل في المعاصي، عالجناه بالترهيب، ولذلك العمل في شريعتنا ضوابط تامة الإحكام يعرفها من أنعم الله عليه بالتفقه فيها. والقصد أن علماء الملة ودعاتها في واقع الأمر يمارسون العلاج النفسي تحقيقا في كل مرة ينصحون رجلا من عامة المسلمين بما فيه صلاح حاله، بل إن ما معهم من مرجعية معرفية في ذلك هو أعظم ما تفتقر إليه الأمم البشرية كافة في علاج النفوس والمجتمعات، والحمد لله رب العالمين.

تقول «كيت لوينثال» (٢٠٠٠، ص. ١٠٢): «إن لدينا من الأدلة الشيء الكثير علىٰ أن الدين، بعموم، يعلو احتمال أن يكون مرتبطا بحسن الحالة الصحية العقلية إجمالا، بما في ذلك انخفاض مستويات الاكتئاب (برغين ١٩٨٣، لوينثال ١٩٩٥، وُرثينكتون وآخرون ١٩٩٦). ولكن من المستبعد أن يكون هذا الارتباط أو التأثير بسيطا، فإن الدين لا يتسبب – بنفسه – في حالة عقلية أحسن. بل إن بعض الأشياء المتعلقة بالدين قد تساعد علىٰ تحسن الصحة العقلية، بينما ترتبط أشياء أخرىٰ مما يتعلق بالدين بالتأثير المضاد لهذا.» اهـ.

ونحن نقول إن مثل هذا الكلام يكشف لك – أيها القارئ الكريم – ما يعانيه أصحاب الفلسفات المادية والوضعية من استكبار وتعال فوق جنس المعارف الدينية بإطلاق. فمع أنهم يعلمون أنهم يقفون علىٰ أساس واه في تعريف الدين نفسه، وعلىٰ انتقائية فلسفية محضة فيما يتعلق بتعريف «الحالة الطبيعية» في مقابل «الحالة المرضية» فيما يتعلق بالصحة العقلية، تراهم مع ذلك يحرصون علىٰ الترسل مع تلك النزعة التعميمية العمياء وإطلاق الأحكام المعيارية المستمدة من دين الواحد منهم وعقيدته، عند التنظير فيما يتعلق بـ«الدين» (هكذا) إشباعا لأهواء نفوسهم.

ولا شك أننا نجد خللا فلسفيا مشابها عند التعامل مع تعريف «الذهان» أيضا Psychosis. فمن أشهر تعريفات «الذهان» في أدبيات علم النفس أنه «تلك الحالات التي يفقد فيها الإنسان اتصاله بالواقع بشكل ما أو بآخر كما يكون في حالات الهلوسة والتوهمات». وهذا التعريف مقبول إجمالا ولا شك، ولكن مثله عندنا كمثل من يقول: «يجب علىٰ الإنسان أن يتحلىٰ بالأخلاق الحميدة في كل حال»، فنقول له نعم صدقت، ولكن ما حدّ الأخلاق الحميدة عندك وكيف تُعرف وما مرجعيتك المعيارية في معرفتها؟ ما حدّ التوهم (بمعنىٰ التعلق بعقائد خاطئة ومخالفة للواقع) عند النفساني وما ضابطه وما مقياسه، وما تعريف الانفصال عن الواقع وما صورته؟ هنا يجري الجدل ويقع النزاع.

فلو أننا جعلنا المقصود بـ«التوهمات» كل ما لا أساس له في الذهن من دليل أو شبهة دليل، مع عدِّ المعرفة الدينية الثابتة الصحيحة هي المرجع المعياري في الحكم علىٰ صحة أو فساد كل ما يمكن تصنيفه علىٰ أنه من قضايا الاعتقاد الغيبي، وجعلنا المقصود بـ«الانفصال عن الواقع» كل مسلك يفضي إلىٰ التفريط فيما يجب أن يلتزمه الإنسان – معياريا – من سلوكيات في بيئته الاجتماعية الواقعية، لكان التعريف مستقيما بشرط أن تكون تلك المرجعية المعيارية العليا هي الدين الحق.

ولكن واقع الأمر أن منظري علم النفس الغربيين لا يرون في أي من الأديان الكتابية ما يوصف بأنه «الدين الحق» الذي يجب أن يكون هو المرجعية المعيارية العليا في تنظيرهم. هذه قضية لا يتطرقون إليها، ولا يريدون – كحقل مستقل من حقوق البحث الأكاديمي – أن يكون لهم انشغال بها من الأساس. وما ذاك إلا لأنهم يدينون بالمادية التجريبية التي لا تقيم وزنا لشيء اسمه «الغيب» أصلا، ولا ترىٰ فضلا أو مزية لنظام أخلاقي أو معياري بعينه علىٰ غيره من النظم، لكونها كلها نظما بشرية وضعية في اعتقادهم، لم تأت إلا من اتفاق المجتمعات عليها. حتىٰ اليهود والنصارىٰ منهم لا يجدون بأسا – في الأعم الأغلب – بالانخراط في تلك الفلسفات المادية العلمانية Secular Philosophies عند ممارسة المهنة، لما لها من غلبة فكرية وثقافية علىٰ الوسط الأكاديمي نفسه من جهة، وعلىٰ مجتمعاتهم المعاصرة من جهة أخرىٰ. فمع أنك قد ترىٰ الأخصائي النفساني النصراني (مثلا) حريصا علىٰ التزام الشعائر التعبدية في الكنيسة بصفة منتظمة، ولعله يقرأ في كل أسبوع في كنيسته فيما يقرأ، تلك النصوص في كتابه المقدس التي تحكي كيف كان المسيح يطرد الأرواح الشريرة ممن تلبست بهم، إلا أنك تراه في المقابل لا يأتيه في مشفاه أو في عيادته من يزعم أنه قد مسه شيطان إلا شخَّص حالته علىٰ أنها نوع من أنواع الذهان أو الفصام Schizophrenia! وهو ما قد يعني في واقع الأمر أن هذا الأخصائي نفسه مصاب بالفصام، إن جاز لنا – علىٰ وجه من وجوه التعريف –أن نعتبر التناقض الاعتقادي والسلوكي Cognitive Incoherence علامة من علامات الاضطراب النفسي!

ومن الطريف أنك ترىٰ في دليل منظمة الأطباء النفسانيين الأمريكية American Psychiatric Association للتشخيص المرضي DSM-IV تعريفات تسمح بالتفريق النظري بين ما هو «عَرَض» لحالة من حالات الاضطراب النفسي، وما هو «تجربة دينية» Religious Experience، ولكنهم في نفس الوقت يقررون أن المعالج أو الطبيب النفساني عليه أن ينظر فيما إذا كان «المريض» يعاني من انحدار أو تردي في بعض السلوكيات الأخرىٰ، كتراجع مستوىٰ الأداء في العمل، أو في العلاقات الاجتماعية أو في العناية بالنفس Self-Care أو نحو ذلك، حتىٰ يتمكن من الوقوف علىٰ تشخيص للحالة تأسيسا علىٰ تلك التعريفات (لوينثال ٢٠٠٠). فهل يحسب القوم أن هذه المصادرة علىٰ المطلوب أو «الإزاحة النظرية» Displacement لمحل النزاع (أعني في مسألة المرجعية المعيارية)، من جعله في تعريف السلوك المبحوث نفسه علىٰ أنه «سلوك مرضي»، إلىٰ جعله في غيره من السلوكيات الناشئة عن ذلك السلوك في حياة الإنسان، يمكن أن يكون فيه مخرج لهم من النزاع؟ ما زلنا نطالبهم بالاعتراف بمرجعيتهم المعيارية وفلسفتهم الغيبية التي يقوم عليها تنظيرهم في الأمر كله.

ولأنهم يدركون عمق ما عندهم من خلل وتناقض في تلك المرجعية نفسها، تجدهم يصرحون في أدبياتهم بضرورة احترام خصوصية الثقافات المختلفة واعتقادها الديني عند تشخيص ما يأتيهم من حالات، منعا لوقوع الصدام الثقافي والسياسي مع أصحاب هذه الثقافة المخالفة أو تلك. ولكن ليس هذا منهم إلا التزاما بقواعد الفكر السياسي الديموقراطي في واقع الأمر، من باب المداراة السياسية Political Correctness، لأنهم مهما أعملوا تعريفاتهم في توصيف حالات الذهان والعصاب وغيرها من صور الاضطراب النفسي، فلن يرجعوا في شيء من ذلك إلا إلىٰ عقائدهم هم ونظمهم المعيارية والأخلاقية دون غيرهم من أهل الملل والنحل لا محالة.

ثم إن هذا الموقف المعلن نفسه لم يأت عندهم إلا من تناقضهم الاعتقادي النابع من فلسفتهم الغيبية نفسها. فعندما يكون موضوع اختصاصي كباحث في مجال «طبي» هو النظر في الأحوال الصحية والمرضية لنفس الإنسان وإدراكه وسلوكه، وأجدني مع

ذلك مضطرا إلىٰ فتح صياغتي لتعريف ماهية المرض نفسه الذي أتخصص في علاجه، للنسبية الأخلاقية (وهي الدعوىٰ القائلة بأن كل ثقافة يجب أن تُحترم وكل معتقد وممارسة دينية ينبغي الامتناع عن الحكم عليها بأنها باطلة أو فاسدة أو مُفسدة)، فهذا تناقض لا يخفىٰ! هؤلاء قوم لازم تنظيرهم أنهم لا يرون بأسا في ممارسة الطب مع السماح بقيامه عندهم (ولو بصورة جزئية) علىٰ النسبية المعيارية في الحكم علىٰ أحوال البشر، وفي تمييز ما هو نافع من الأفكار والسلوكيات مما هو ضار، وهذا موقف مناقض لحقيقة العلم والمعرفة نفسها! وفي الحقيقة فإن واقع ممارستهم عند التتبع والملاحظة يكذبهم في دعواهم احترام سائر التقاليد الدينية وسائر الثقافات، ولا عجب، لأنها دعوىٰ لا يمكن لعاقل أن يَصدُق في التزامها مهما حرص علىٰ ذلك، لا سيما عندما يكون منوطا بتشخيص حالات «المرضىٰ» ومعالجتها!

ومعلوم بالبداهة أن الحق لا يتعدد، وأن الشيء الواقعي – سواء كان موجودا في عالم الغيب أو في عالم الشهادة، وسواء كان موجودا في الذهن (كشيء معنوي) أو في الخارج – لا يمكن إلا أن يكون علىٰ صفة واحدة في نفس الأمر، هي الحق وكل وصف يخالفها باطل، فمن علم تلك الصفة بدليلها فقد علم الحق، ومن جهلها أو زعم غيرها فقد جهل الحق. ولا نحتاج إلىٰ إقامة برهان المناطقة علىٰ فساد فكرة النسبية الأخلاقية أو نسبية الحقيقة، كما في قولهم إن كل من زعم أن جميع الدعاوىٰ في مسألة ما حق لا باطل فيها فهو يناقض نفسه ضرورة لأنه يلزمه أن يزعم أن دعواه هذه نفسها وما يخالفها كلاهما حق، وهو ما يجعل كلامه لغوا لا قيمة له. هذه مسائل يعرفها هؤلاء ويعرفون لزومها من موقفهم هذا، وأنا أقطع بأن كل من التزم منهم بتصحيح بعض عوائد أهل الملل ومسالكهم وأفكارهم مع كونه يرىٰ في نفسه أنها وهم باطل، فإنه يجد في نفسه أشد المعاناة من ذلك التناقض الاعتقادي، فوق ما يجده الساسة الديموقراطيون ونحوهم من أثر القول باستواء أهل الملل جميعا في حقوقهم السياسية ونحو ذلك، لأنهم من حيث كونهم «أطباء»، قد أخذوا علىٰ أنفسهم موثقا أخلاقيا مهنيا ألا يأتيهم مريض يعلمون لعلته علاجا ولدائه دواءً، بقطع كان ذلك العلم أو بظن راجح عندهم، إلا دلوه عليه.

ولعلك لا ترىٰ هذا التناقض والفساد الاعتقادي الغيبي عند القوم وتأثيره في ممارستهم المهنة وفي تعريفهم وتفسيرهم للأمراض والعلل النفسية ومداخلهم إلىٰ علاجها، واضحا جليا كما تراه في موقفهم وممارستهم المهنية بإزاء ما يزعم أهل الملل المخالفة لهم أنه من قبيل «مس الجنّ والشيطان» والتلبس Possession وما يمارسه أهل تلك الأديان من أعمال السحر وأعمال الرقية وطرد الأرواح الشريرة Exorcism ونحو ذلك.

فهم في الحقيقة – أعني النفسانيين الماديين التجريبيين الطبيعيين – يكفرون بالسحر والشياطين والأرواح وهذه الأشياء جملة واحدة، ولا يقيمون لأي دعوىٰ دينية من أي دين كانت أي وزن، فيما يتعلق بإثبات وجود تلك الكائنات في الواقع وما لها من أعمال وتأثير علىٰ حياة الإنسان. هذه قضية اعتقاد غيبي ولا شك. والمسألة بالنسبة إليهم في الحقيقة تعد صورة من صور ذلك الصراع الفكري الكبير بين الفلسفة المادية الطبيعية المسيطرة علىٰ الحقول الأكاديمية العلمية المعاصرة في أوروبا وأمريكا من جانب، وبين ما بقي هنالك من مواقف اعتقادية دينية تتمسك بها بعض المؤسسات الدينية الرسمية ومن انتمىٰ إليها أو وافقها في تلك البلاد، أو ذلك الصراع الذي بات يقال له بإجمال فاسد في أوساطهم الفكرية: «الصراع بين الدين والعلم». فالعلم في هذه القسمة لا يصح أن يدخله «دين»، لأن «الدين» لا يصح أن يوصف بأنه «علم» أصلا عندهم. يقول الواحد منهم بلسان الحال (وبلسان المقال أحيانا): «إما أن تأتونا ببرهان حسي إمبريقي نرتضي مثله في أكاديمياتنا العلمية علىٰ وجود تلك الكائنات التي تزعمون أنها تؤثر في نفس الإنسان وحياته من حيث لا يراها، وإما أن تتقبلوا منا نظرياتنا المادية الصرفة في تفسير تلك الحالات وتخضعوا أنفسكم لمدخلنا التجريبي المحض إلىٰ علاجها». واشتراط نوع الدليل هذا قلما يصرح به أحدهم، ولكنه أصل من أصول فلسفتهم في هذا الشأن كما هو معلوم.

وبنظرة عابرة في تاريخ تناول علماء الإنسانيات الغربيين لتلك «الظاهرة» (ظاهرة التلبس بالأرواح) يتبين لك بجلاء كيف أن أحدا منهم لم يجرؤ في يوم من الأيام علىٰ

أن يدعي – ولو تلميحا – إمكان أن يكون لشيء من تلك الكائنات الغيبية المزعومة وجود في الحقيقة (أعني خارج أذهان من يعتقدون بأن ما يتعرضون له إنما هو بسبب تلك الكائنات)، أو أن يدعو الباحثين للبحث الإمبريقي فيما إذا كان لها وجود واقعي أم لا. أي باحث في علم النفس أو الأنثروبولوجيا أو علم الاجتماع هذا الذي يمكن أن يشغل نفسه بمحاولة إثبات أو نفي صحة المعتقد الديني الذي ترتبط به تلك «الظاهرة»؟ ليس هذا مسلكا «علميا» أصلا حتىٰ يطرح للنظر.

ففي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي (سنة ١٨٩٠)، نشر الأنثروبولوجي الاسكتلندي «جيمس فريزر» James G. Frazer كتابا يعد من أوائل الدراسات الأنثروبولوجية عن مسألة «التلبس بـالأرواح». فقرر فيه أن تلك «الظاهرة» منتشرة في أكثر ثقافات الأرض علىٰ نفس الصفة تقريبا، ثم حكم عليها كلها، جملة واحدة، بأنها ليست إلا كذبا وتمثيلا متعمدا fakery من جانب بعض الأشخاص المهمشين المفتقرين إلىٰ جذب انتباه الناس إليهم، أو بعض رجال الدين المهتمين بإيهام العامة والدهماء في مجتمعاتهم بأنهم علىٰ اتصال دائم بـ«الإله».[1] فمن أين جاء ذاك التفسير «الجريء» لظاهرة يشهد الرجل بأنها لا تكاد تخلو منها، هي نفسها، ثقافة من الثقافات؟ الجواب: من اعتقاده امتناع (وأكرر: امتناع) أن يكون لشيء من تلك الدعاوىٰ ولو أدنىٰ مقدار من المصداقية فيما يتعلق بوجود تلك الكائنات غير المشاهدة التي يؤمن بها أصحاب تلك الثقافات ويزعمون إمكان الاتصال بها! وإلا فلو كان لإمكان ثبوت صحة شيء من هذه الدعاوىٰ الغيبية متسع في منظومته الاعتقادية، لما قرر هذا التكذيب والاتهام الأخلاقي بهذا العموم. فالرجل اعتقاده الميتافزيقي كان ظاهرا لا خفاء فيه: هذه «الأرواح» المزعومة خرافات كلها لا يؤبه بها أصلا. وجدير بالذكر أنه حتىٰ مع ظهور الكثيرين فيما بعد – من أهل التخصص الأكاديمي نفسه أو غيره من التخصصات الأكاديمية ذات الصلة – ممن خالفوه في هذا التعميم، إلا أن أحدا من هؤلاء لم ينتقد كلامه هذا – فيما رأيت – علىٰ أنه قد يخالف اعتقادا دينيا غيبيا صحيحا عند بعض تلك المجتمعات التي تناولوها بنظرياتهم، وأن عليه أن يرجع إلىٰ ما عند هؤلاء من

(1) Schmidt and Huskinson (2010), Introduction.

«أدلة دينية» في ذلك! لماذا؟ لأن الفلسفة المعرفية التي يلتزمونها جميعا إنما تقوم علىٰ الاستناد إلىٰ جملة من طرق الاستدلال وتحصيل المعرفة الأنطولوجية (المعرفة بما هو موجود في الواقع خارج الذهن تحقيقا، سواء في عالم الغيب أو الشهادة) ليس منها النص الديني أو «الدليل الديني» أصلا، اللهم إلا في فهم بعض المسائل التاريخية التي لا تتعارض مع المنظومة الاعتقادية المادية الطبيعية عند هؤلاء.

والمتأمل في أدبيات النفسانيين وباحثي الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وغيرهم من أصحاب العلوم الإنسانية الحديثة ممن لهم اشتغال ودراسة للسلوكيات الدينية بصفة عامة وهذه المسألة بصفة خاصة، يجد أنهم حريصون علىٰ تعدد مجالات البحث الأكاديمي والتداخل فيما بينها Interdisciplinarity، وأنهم يجعلون من جملة المجالات التي ينبغي الاطلاع عليها ودراستها، وبطبيعة الحال: علم اللاهوت Theology أو علوم المعتقد الديني عند أهل تلك الملل. فلماذا يريدون دراسة ما عند أهل تلك الأديان من اعتقادات؟ يريدون ذلك من أجل تحقيق فهم سيكولوجي وسوسيولوجي أدق لتلك الظواهر وآليات انتشارها وتناقلها عبر الثقافات (مكانيا وزمانيا)، بغية استكمال بناء منظومة نظرية تفسيرية أو أنموذج تفسيري يقوم علىٰ فلسفاتهم المادية المختارة في ذلك، وليس من أجل البحث عما إذا كان لشيء من دعاوىٰ وجود تلك الكائنات المزعومة بالغيب أي أساس من دليل معتبر. هذه الفكرة ليست مطروحة عند القوم أصلا كما تقدم.

فعلىٰ سبيل المثال، وبعد عشرين عاما تقريبا من نشر «فريزر» بحثه المذكور، أجرىٰ الألماني «أويستيريخ» T. K. Oesterreich بحثا تحليليا مقارنا بين عدة ثقافات cross-cultural لـ«ظاهرة» التلبس، بغية اختبار فرضية «الطبيعة الواحدة» لتلك الظاهرة علىٰ مر الزمان وفي مختلف الحضارات.[١] فأتىٰ بأهم النصوص الدينية التي تتناول تلك

(١) وليست هي «فرضية» إلا عندهم في الحقيقة، لأنهم قوم بُهت، يكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله! أما نحن المسلمين فنعلم أصل تلك الأحوال والوقائع عند أهل الملل الشركية كلها ونعلم مصدرها ونعلم غايات المخلوقات الغيبية التي تتولى كبرها في أمم المشركين، وقد استعرضنا كثيرا من القواسم المشتركة في تلك الحيل والألاعيب الشيطانية في هذا الكتاب نفسه كما مر معك!

الظاهرة في الكتاب المقدس عند النصارىٰ (العهد الجديد تحديدا)، واستعان بالإضافة إلىٰ ذلك بمصادر أخرىٰ تاريخية وإيثنوغرافية وثقافية ودينية، فوجد أن وصف ما يمر به الشخص المتلبّس من أعراض حال تلبسه، لا يكاد يختلف فيما بين تلك المصادر. (انظر المصدر السابق: المقدمة) فتأمل لأي غاية استعان بالنص الديني. هذا هو بيت القصيد. فالنص الديني – أيا ما كانت صورته ومصدره – ليس إلا موروثا ثقافيا من إنتاج هذه الجماعة من البشر أو تلك، المراد دراستها وتحليل ظواهرها النفسية والسلوكية تحليلا منهجيا مما يُعتبر بمثله في إطار المجال الأكاديمي المتخصص.

وجدير بالذكر أن عامة المتخصصين فيما يقال له علم «أنثروبولوجيا الأديان»، يختلفون في مدخلهم لتناول مسألة التلبس هذه (وما يتعلق بها من أعمال سحرية يتعامل فيها الساحر مع الجن والشياطين) عن المتخصصين في «علم نفس الدين» اختلافا ينبع – بالأساس – من الغرض الأكاديمي الذي من أجله تجري مباحث كل من التخصصين. فالأخصائي النفساني يرجو أن يرجع الناس إلىٰ الحالة النفسية «الطبيعية» التي ينبغي أن يكونوا عليها، بينما يحرص الباحث الأنثروبولوجي علىٰ التعمق في دراسة وفهم ثقافات وأفكار المجتمعات الأخرىٰ رجاء تحقيق التواصل معهم علىٰ النحو المرْضي (كما كان في أصل نشأة ذلك العلم نفسه، إذ حرص المستعمرون الغربيون علىٰ دراسة أحوال وأفكار أولئك الرعاع Savages الذين وجدوهم في الأراضي الجديدة في إفريقيا وأستراليا والأمريكتين، حتىٰ يتمكنوا من استمالتهم وإرساء دعائم الحكم الاستعماري الجديد علىٰ أراضيهم).

لذا ففي الوقت الذي يرىٰ فيه عامة النفسانيين أن تلك الظاهرة تمثل حالة من حالات الشذوذ النفسي الذي يحتاج إلىٰ علاج، حتىٰ وإن كانت تحدث في إطار الممارسة الدينية، بالنظر إلىٰ أن «الوضع الطبيعي» لعامة البشر في أي مجتمع من المجتمعات لا يتفق مع ما تكون عليه صفة الإنسان في تلك الحالات، يرىٰ الأنثروبولوجيون في المقابل أن تلك الظاهرة تمثل جزءا أساسيا من التجربة الدينية لكثير من الثقافات، وبالتالي فلا يلزم أن تكون ظاهرة «سلبية» أو مرَضية Pathological في جميع الأحوال.

بل ذهب بعضهم إلىٰ أن ظاهرة التلبس هذه قد تكون طريقا لتحصيل الصحة النفسية في الحقيقة وليس المرض، كما يبدو عند بعض أهل الملل الوثنية في أحراش إفريقيا، بصرف النظر عن التفسير الفيسيولوجي الذي يتبناه الباحث النفساني عند التعامل معها (أنظر المصدر السابق: الفصل الخامس). وهو الموقف الذي يحلو للأنثروبولوجيين أن يظهروا معه وكأنهم أكثر «تجردا» من التعصب الاعتقادي والأكاديمي Academic Bias من زملائهم النفسانيين في تناول تلك القضية![1]

وبإيجاز: ففي الوقت الذي تسمع فيه النفساني المادي العلماني (لا سيما الممارس الإكلينيكي) يقول لك إن دعوىٰ التلبس هذه خرافة ضارة بنفس الإنسان (علىٰ الرغم من اعتناقهم نسبية الأخلاق ونسبية القيمة المعيارية إجمالا)، إذ تغير من أنماط سلوكه وتحرفه عن الإطار «الطبيعي» وتخرجه عن وعيه وشعوره، فينبغي أن ننظر في أسبابها الفسيولوجية حتىٰ نعالجها في الأفراد والمجتمعات، يأتي الأنثروبولوجي (المادي العلماني أيضا) في المقابل، أو بعبارة أشمل، كل باحث في العلوم الإنسانية له توسع في دراسة السياق الاجتماعي والثقافي للسلوك الديني كنسق شمولي للظواهر الإنسانية بعموم، ليقول لك إن دعوىٰ التلبس هذه علىٰ الرغم من خرافيتها من حيث الأصل المعرفي الذي تتأسس عليه عند أهل تلك الملل، إلا أنها ليست أمرا «سلبيا» في كل الأحوال، بل لعله قد يفيد أن يتعرض الإنسان لها علىٰ صورة من الصور في بعض الأحيان، ما دام مغموسا في سياق اجتماعي يحتفي الناس فيه بالأمر ولا يرون فيه ضررا.

فلعل الموقف الغالب علىٰ الأكاديمية الغربية بعموم، هو أن تلك الظاهرة الدينية إن لم تخلف آثارا سلوكية ونفسية مرفوضة في السياق الاجتماعي الذي يعيش فيه من يتعرض لها، فلا حجة لأحد في اعتبارها ضربا من ضروب الانحراف السلوكي الذي يستوجب العلاج.

والقصد أنه علىٰ اختلاف هذين المدخلين الكليين، إلا أنه يجمعهما التأسيس المنهجي الأكاديمي علىٰ المعتقد الغيبي والمنهج المعرفي المادي الطبيعي العلماني

(١) وإن كان هذا الموقف نفسه يتبناه كذلك بعض النفسانيين المشتغلين بعلم نفس الدين (لوينثال ٢٠٠٠).

اللا-ديني كما ترىٰ، الذي لا يقيم وزنا لأي دعوىٰ اعتقادية تأتي من مصادر أي ملة من تلك الملل محل البحث والدراسة، من جهة إمكان أن يكون شيء من ذلك هو الحق الذي يجب اتباعه والتأسيس عليه (معرفيا) في الأمر كله، في حق أحدهم كباحث نفساني من الأساس! فالقضية كلها عندهم (قضية الدين هذه) خرافة موروثة من اختراع بعض الفلاسفة والحكماء، ولولا تلقي العامة لتلك الأديان بالقبول في كل مجتمع من المجتمعات التي ظهرت فيها لما صار لها بقاء في الأرض. ولكن ليست كل الخرافات أمرا مستهجنا بالضرورة، فكما هو الشأن في سائر مكونات المحتوىٰ الثقافي البشري: ما ثبت نفعه الاجتماعي والنفسي قُبل إجمالا أو تفصيلا وما ثبت ضرره رُفض إجمالا أو تفصيلا.

ولكن كيف يُعرف النافع من الضار تأسيسا علىٰ تلك الفلسفة؟ القاعدة المعيارية العامة التي يمكن استخلاصها من مسالكهم في التنظير والتطبيق أنه لا يعد العرض السلوكي أو الإدراكي أو حتىٰ المعتقد الديني (مهما كان خرافيا أو مخالفا للبداهة الأولىٰ) مرضا أو شذوذا عن الوضع الطبيعي أو أمرا سلبيا (من ناحية الحكم المعياري) إلا إن جاء من الناس من يشكو من تعطيله لمصالحه الدنيوية المعتادة أو تعارضه مع ما يقبله المجتمع من نسق سلوكي وأخلاقي عام. حينئذ، وحينئذ فقط، يستجاز [1] أن يعامل ذلك «العرض» أو تعامل تلك الظاهرة السلوكية الفردية أو الجماعية المرتبطة بالدين في أي مجتمع من المجتمعات، معاملة الخلل الذي يحتاج إلىٰ «إصلاح».

هذا بطبيعة الحال، هو الموقف الأكاديمي «الرسمي» الغالب علىٰ تلك العلوم الإنسانية التي لها عناية بدراسة الأديان وتأثيرها علىٰ الأفراد والجماعات. وواقع الأمر أن صاحب المعتقد الغيبي الإلحادي - كغيره من أهل الملل - يود لو قام من فراشه ذات صباح ليرىٰ الأديان المخالفة له قد اختفت من العالم كلها جملة واحدة، ودانت البشرية كلها بملته هو أيا ما كانت، أو بما يتوافق معها من مذاهب فلسفية فيما تقتضيه أو تتبناه تلك المذاهب من أنساق اجتماعية وسلوكية وسياسية حاكمة للمجتمع البشري

(١) عند الأكاديميين من أصحاب العلوم الإنسانية المشتغلة بدراسة الظواهر السلوكية والإدراكية الدينية.

بصفة عامة. هذه الرغبة لدىٰ سائر أهل الأديان (بما في ذلك الملل الإلحادية والمادية علىٰ اختلاف صورها) في أن يصبح الناس كلهم علىٰ ملتهم وموافقين لهم، تأتي من الكراهة الطبعية للخلاف الاعتقادي الغيبي وتبعاته بعموم، والخلاف في القضايا الوجودية المصيرية الكبرىٰ بخصوص. وتزداد تلك الرغبة إلحاحا في اللا-وعي عند الإنسان، كلما كان المعتقد الغيبي الذي يؤمن به في ذلك الشأن أشد إغراقا في التناقض العقلي وبعدا عن الحق الظاهر الجلي.

فلا شك أن الإنسان يتخوف مما يكون عليه مصيره بعد الموت، كما ذكرنا من قبل، مهما زعم خلاف ذلك، فليس في الذهن مسألة أعظم ولا أخطر من السؤال الوجودي الكبير: «ما الذي يريده مني صانعي، ولماذا خلقني في هذا العالم؟» ولا تُتصور في الذهن مسألة من مسائل المعرفة البشرية الخلاف فيها أخطر علىٰ مصير الإنسان وأخوف له من تلك المسألة. وقد مر بنا في دراسة آليات التلبيس والتشويش النفسي علىٰ تلك الكراهة والخوف عند صاحب الاعتقاد المتناقض في الغيب، كيف أنه يتكثر من دعاوىٰ الموافقين له فيها بالباطل، ويحب أن يراهم وقد ملؤوا الدنيا من حوله، وعلا صوتهم فوق المخالفين في كل مكان، لعله يجد فيهم نصرة له وتخفيفا علىٰ نفسه.(١)

ولهذا ترىٰ من عتاة الإلحاد من يسعىٰ في نشر الدعوىٰ القائلة بأن الدين كله شر مطلقا، وأن النوع البشري قد صار بحاجة إلىٰ التخلص من تلك العوائد القديمة التي

(١) ولهذا يخاطب الله تبارك تعالى تلك الخصلة في نفوس المشركين في كتابه الكريم بما يزلزل أصحابها زلزلة إذ يذكرهم في غير موضع بأنهم سيحرصون على التكثر بأصحابهم في جهنم كذلك كما حرصوا عليه في الدنيا، عسى أن يكون في ذلك تخفيفا عليهم وإشباعا لأحقاد قلوبهم هناك، كما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ**﴾ [**غافر**: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿**قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ**﴾ [**الأعراف**: ٣٨] ونحوه، فهم اليوم في الدنيا يستكبرون ويسخرون من الذين آمنوا، ويتكاثر بعضهم ببعض ويفاخر بعضهم ببعض، ثم في الآخرة يلعن بعضهم بعضا ويود لو يرى العذاب الشديد ينزل بمن كان بالأمس خليله، كما في قوله تعالى: ﴿**الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾ [**الزخرف**: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ**﴾ [**فصلت**: ٢٩]، فالواحد منهم يومئذ يود لو يرى الناس كلهم في النار معه، تشفيا وانتقاما من جهة، وكراهة للانفراد بالآلام والعذابات دون عموم الخلق من الجهة الأخرى.

ترتبط بـ«طفولة النوع الإنساني» Infancy of the human kind ونحو ذلك الهراء، وأن أي «خير» يمكن أن يوجد في أي دين من الأديان فمن الممكن تلمسه في غير الدين أو بمعزل عن المعتقد الديني. ونقول إن هذا ما يتمناه كل ملحد مادي، وإن كان موقفه الرسمي الأكاديمي أو السياسي أو الإعلامي لا يخرج إلا علىٰ وفق ما تقتضيه السياسة الديموقراطية من مراعاة لـ«حقوق» و«خصوصيات» أصحاب «الثقافات المخالفة». فالفيصل في النهاية إنما هو مقدار ما يجد أحدهم من أثر ما ينشر في الناس من ثمرة يحبها ويطمع فيها في عاجل أمر دنياه. فالذي يجد أن التصريح بمحاربة الدين (كل الدين) سيرفعه عند من يحب العلو بينهم من الناس حيث يعيش ويجعله فيهم رأسا متبوعا محبوبا، فستزين له نفسه سلوك ذلك المسلك ولا شك، بخلاف من يخشىٰ أن يجد من أثر ذلك المسلك حرجا بين الناس أو تضييقا عليه وعلىٰ مستقبله المهني الأكاديمي أو السياسي أو نحو ذلك.

فعلىٰ سبيل المثل، لو أن رأسا من رؤوس دعوة الإلحاد في أوروبا، المبالغين في تسفيه الأديان ومحاربتها كلها جملة واحدة، كـ«ريتشارد دوكينز» – مثلا –، نشأ في سياق اجتماعي وأكاديمي يرجىٰ فيه العلو بين المثقفين والصفوة الاجتماعية وأهل الوجاهة في البلاد والصدارة فيهم بالانتصار لبعض الممارسات الدينية أو الانتصار لحق ما يقال له «الدين المنظم» Organized Religion في الوجود في المجتمع الإنساني وفي استغراق أصحابه في شعائره وممارساته، لما حملته نفسه الخبيثة علىٰ إعلان تلك الحرب الفكرية التي أعلنها علىٰ الأديان كلها! ولكنه تربىٰ في بيئة اجتماعية ينظر فيها إلىٰ الملحد علىٰ أنه مفكر حر جريء «تقدمي» «نهضوي» «تنويري» .. إلخ، كما أنه تخصص في مجال أكاديمي يجعل من العلوم الطبيعية غاية المعرفة ومنتهاها، ويجعل من الأصل المادي الصرف الذي تقوم عليه فلسفتها عندهم، أساسا لبناء التصور الوحيد المقبول معرفيا لما وراء الطبيعة (إثباتا أو نفيا)!

فترتب علىٰ ذلك أنه لم ينتقل من محطة من محطات حياته إلىٰ التي تليها إلا وهو يجد في نفسه مزيدا من الاجتراء علىٰ خالقه ومن الحطّ عليه (سبحان الله وتعالىٰ

علوا كبيرا)، مشحونا ومدفوعا بالمزيد من ثناء الأقران عليه من حوله في كل خطوة. فقد وجد – لعنه الله – أن أسلوبه وما يستعمله فيه من تأثير الصدمة علىٰ نفوس العامة الجهلاء من أتباع الأديان (لا سيما في بلاده بريطانيا)، تتسع به قاعدة أتباعه ومحبيه اتساعا كبيرا لما هو غالب في وعيهم من علو الفكر المادي العلماني، مع ما للرجل من مكانة أكاديمية مرموقة بين الناس تداعب أهواءهم وتمدهم بالغطاء النفسي اللازم لتسويغ ما يختارونه من متابعته علىٰ الإلحاد. فوجد من ثمرة ذلك – بالفعل – ما أحب وما تمنىٰ من علو دنيوي، حتىٰ صار بعض كتبه من أعلىٰ الكتب مبيعا في كثير من دول العالم وفي وقت قياسي، وصار لا يكاد يمر عليه أسبوع واحد إلا طلبه بعض المثقفين في هذه الجامعة أو تلك لإلقاء محاضرة أو حضور ندوة أو نحو ذلك، وإذا بهم يعظمونه ويوقرونه أينما حل أو ارتحل. فهل تتوقع من مثل هذا إلا أن يمضي في مستقبل أيامه بكل قوة في المزيد من ذلك الفجور بغية أن تتشبع نفسه بالمزيد مما تحب وتهوىٰ، مع المزيد من خفوت صوت الحق والفطرة فيها وغرقه في ظلمات اللا-وعي عنده تحت طبقات الهوىٰ والتلبيس والتزيين في نفسه؟ كلا ولا شك. هذه سنة الله الماضية في قلوب المجرمين، لا تبديل لسنة الله. ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [**الجاثية**: ٢٣].

وما من شيء أخبث لـ نسان ولا أفسد لنفسه من أن يكون علاج أمراض الهوىٰ فيها بالمزيد من الإغراق في الأهواء أشكالا وألوانا، لو كانوا يعقلون.

وفي المقابل، ففي مقال تحت عنوان «اهتمامي بعلم نفس الدين: الدفاع عن علم النفس، واحترام الدين» يذكر النفساني الإيطالي «ماريو أليتي» M. Aletti (٢٠١٢) الأسباب الشخصية التي حملته علىٰ التخصص في «علم نفس الدين»، فيروي قصة شاب صغير كان يحضر «قداسا» في إحدىٰ الكنائس التي كان يرتادها صاحبنا بانتظام. فحين تكلم الراهب في ذلك «القداس» قائلا ما معناه إنه يجب أن ننظر إلىٰ الرب إلهنا علىٰ أنه الأب الراعي الذي يحب أبناءه جميعا ويريد لهم الخير، قام ذلك الشاب من

بين الحضور معترضا، فقال ما حاصله إن هذا كلام فارغ لا حقيقة له، فإن أباه هو (أي ذلك الشاب) كان يبغضه ويطرده من بيته ويجبر أخته علىٰ البغاء ويضرب أمه .. إلخ، وعليه يقول ما معناه إنه لو عد الإله كأبيه لما عبده ولا أحبه، بل لأبغضه غاية البغض! فيعقب «أليتي» علىٰ تلك القصة بما حاصله أنها كانت سببا في حمله علىٰ دراسة علم نفس الدين والنظر في الأسباب النفسية التي بها يتغير موقف الإنسان من الإله ونظرته إليه، حتىٰ اتخذ من ذلك موضوعا لبحثه في رسالة الدكتوراة.

وقد توسع في ذلك البحث – علىٰ حد كلامه – في فلسفة اللغة كالبنائية والرمزية اللغوية ونحو ذلك، طلبا للتأمل في الجذور النفسية التي يأتي منها ذلك الميل لمعاملة الإله علىٰ أنه «أب» ورعية الكنيسة علىٰ أنهم «أبناؤه»، وما يتعلق بذلك من قضايا في فلسفة اللغة نفسها (كالرمزية والبنائية) من أقيسة لصفات الرب علىٰ البشر وتشخيصه فيما يقال له عندهم Anthropomorphism. وهذه كلها كما ترىٰ أيها القارئ الكريم، قضايا تضرب في لبّ الاعتقاد النصراني، والحق فيها يبدو واضحا لكل ذي عقل صادق متجرد من الهوىٰ، أنه ليس في الملة النصرانية التي يعتنقها الرجل ويسعىٰ في التوفيق بينها وبين ممارسته التنظيرية والبحثية في علم النفس! النصرانية تقول بعقائد في حق الرب الباري تنتقص منه أشد الانتقاص، وتجعله أبا علىٰ الحقيقة لابن مزعوم هو فيها إله مثله، مع كونه هو وأبيه إلها واحدا، قد أرسل أحدهما الآخر (الذي هو هو نفسه!) إلىٰ الأرض ليصلب ويمتهن من أجل بعض المخلوقين، لأنه يحبهم جميعا غاية المحبة، برَّهم وفاجرهم علىٰ السواء، ولا يريد أن يعذبهم .. إلخ! وهذه كلها قضايا اعتقادية قد علم العقلاء بفطرتهم امتناعها، وعلموا وجوب تنزيه الباري عنها، فهل كان يخفىٰ ذلك الخلل علىٰ «أليتي» عندما سمع كلمة ذلك الشاب في الكنيسة واعتراضه علىٰ فكرة كون الرب الخالق لمخلوقاته كالأب لأبنائه، حتىٰ يقرر أن يمضي عمره كله في رحلة أكاديمية طويلة للبحث عن أجوبة لتلك الأسئلة عن ذات الإله وصفاته وتصورات الناس لها في إطار صنعة البحث النفساني، بما حقيقته الانتصار (أو علىٰ الأقل إظهار الاحترام) لبيداغوجية الكنيسة فيما تعلمه للناس عن صفات رب العالمين؟ كلا. ولكنه استطاب أن يجري في نفس ذلك المجرىٰ الذي يتكلم به رجال الكنيسة في الرد علىٰ

تلك الدعوىٰ، واستحسن فكرة أن يكون هو ذلك النفساني الذي يبين لأقرانه من النصارىٰ أن البحث النفسي يفيدهم ولا يضرهم، وإذا به «يضرب عصفورين بحجر واحد»، فيحقق لنفسه العلو المأمول في المقامين معا: في الكنيسة وبين أهل ملته وكبرائها، وفي المجتمع الأكاديمي الذي يتخصص فيه. فلو كان هذا صادقا في تحري الحق، لبدأ بمفارقة الكنيسة ولطلب بغيته في تلك الملة الوحيدة في الأرض التي تنزه الباري جل وعلا عن الشريك والولد والندّ والمكافئ، وتجعل من ذلك رأس الأمر كله وعمود الدين كله!

ولكن ما الحق عند هؤلاء وما ضابط معرفته أصلا؟ الحق في عقيدتهم شيء نسبي، ما لم يكن مدعوما بالدليل الحسي أو التجريبي!

في تقدمة لكتاب له بعنوان «علم نفس الدين: في كلام المتخصصين عن أنفسهم»[(١)] قال النفساني الهولندي «يعقوب بيلزن» J. Belzen (٢٠١٢)، في سياق عرضه للأسئلة الأساسية التي من أجلها قام بتأليف الكتاب، وعلىٰ رأسها السؤال: «لماذا تنازع النفسانيون حول ذلك المجال الاختصاصي فوق ما هو معتاد في سائر القضايا الفلسفية الكلية التي يقوم عليها علم النفس بعموم، حتىٰ زعم بعضهم أنه قد انقرض من الوجود بعد الحرب العالمية الأولىٰ؟»:

> من الواضح أن أي إجابة عن تلك الأسئلة ستعتمد ولا بد علىٰ المعايير التي يستند إليها الناظر، وهذه المعايير ستعتمد بدورها ولا بد علىٰ عدد من العوامل المختلفة. لذلك فمن الواضح أيضا، وبنفس القدر من الوضوح، أن الأجوبة ستتوقف علىٰ تقدير المرء لماهية علم النفس بعموم، وعلىٰ موقفه تجاه الدين، وعلىٰ رأيه في إجراء «البحث العلمي» Scientific Research علىٰ مسائل الدين. هذه التقديرات والمواقف والآراء ستعتمد ولا بد علىٰ ما تلقاه الباحث من تدريب تخصصي، وعلىٰ موقعه داخل الحقل الأكاديمي، وعلىٰ نوعية المؤسسة العلاجية التي يعمل فيها، ولعلها تعتمد كذلك علىٰ عمر الباحث أو علىٰ الأقل علىٰ طول فترة تدربه، ومن المرجح أن تعتمد الإجابة كذلك علىٰ البلد الذي يمارس فيه المهنة.

---

(١) وهو نفس الكتاب الذي نُشر فيه مقال «ماريو أليتي» المذكور آنفا.

وبصورة أقل وضوحا، فستتأثر الأجوبة كذلك ولا بد بكثير من صور الاعتقادات الفردية غير الظاهرة، وبعوامل ودوافـع تدخل في وعي الباحث، وبمصادفات وعـوارض في حياته الشخصية ربما لا يدري أهميتها. وكذلك فستعتمد الأجوبة علىٰ مستوىٰ التعمق النظري المسموح به للباحث، وعلىٰ السياق الذي تطرح فيه السؤالات البحثية نفسها، وعلىٰ الجهة أو الشخص الذي يطرح الأسئلة، وعلىٰ مستوىٰ الخصوصية الممنوح للإجابة. فبإيجاز نقول إنه ستكون ولا بد جملة من الأجوبة المتنوعة للسؤال حول قيمة وإنجازات الباحثين في علم نفس الدين، تماما كما ستكون ثمة أجوبة متباينة وكثيرة للغاية للسؤال عن ماهية علم النفس بالأساس. ومما يزيد الأمور تعقدا فوق تعقدها، أنه لن يكون ثمة معيار (موضوعي) للحكم علىٰ أي تلك الأجوبة هو الصواب التام وأيها هو الخطأ التام. وإنما من الممكن أن نحكم علىٰ أرجحية Plausibility تلك الأجوبة وعلىٰ مدىٰ قوة المحاججة المقدمة لنصرة كل جواب منها علىٰ أيدي المتكلمين بها».

قلت: وبالتأمل في كلام صاحبنا «بيلزن» يظهر لك أن تلك الصنعة أو المجال التخصصي الذي يتحدث عنه الرجل (علم نفس الدين)، ليس في حقيقته إلا مجمعا لأمـراض نفوس المشتغلين به، يحولونها إلىٰ أصـول فلسفية كلية وفـروع تطبيقية وتجريبية، كل منهم بهواه ومزاجه، فلا يُستند عندهم في شيء من ذلك إلىٰ معيارية أخلاقية أو قيمية إلا تلك التي ينتقيها الباحث من هؤلاء لنفسه انتقاءً، بناءً علىٰ حال نفسه هو وما فيها من وجوه الصحة ووجوه المرض، وما نشأت عليه في الصبا من موروث وما تعانيه من أهواء وميول، يمتد تأثيرها ليظهر في عمل صاحبها بداية من مفهومه للدين وعلم النفس جميعا، ووصولا إلا أحكامه الفرعية علىٰ كل حالة يمر بها في ممارسته. وهي أهواء وميول يعترف الرجل كما ترىٰ بأن منها ما يدخل في دائرة وعي الباحث ومنها ما لا يدخل (كما بسطنا القول في هذا الصنف الأخير في هذا الكتاب)! فبالله أي فائدة معرفية يرجىٰ الخروج بها من «علم» كهذا، ولماذا يفني الواحد منهم عمره في ممارسته والتعمق فيه (كما هو حال «بيلزن» هذا نفسه) إن لم يكن لإشباع رغبة نفسه – كما يوشك أن يعترف بذلك صاحب هذا الاقتباس – في أن يصبح رائدا من رواد فرع علمي جديد، فيعظمه أقرانه في مجال عمله والمثقفون في مجتمعه كما

يحب ويهوىٰ من أجل ذلك؟

هذا الدافع الخفي داخل نفوس الباحثين الأكاديميين لا يقتصر علىٰ أصحاب هذا الفرع الأكاديمي وحده، بل إنك تراه عند أصحاب كثير من الصناعات والمجالات التخصصية الأكاديمية ممن لا خلاق لهم من أهل الملل الأرضية والمادية والكتابية المحرفة علىٰ السواء. فالذي لا رجاء له في الآخرة، وهو يعلم أن في عقله الباطن[١]

(١) والعقل الباطن أو تحت-الوعي Subconscious (أو اللاوعي Unconscious mind كما يفضل كثير من النفسانيين أن يسموه) مصطلح سيكولوجي أطلقه سيغموند فرويد وآخرون وأرادوا به سائر ما يجري في نفس الإنسان وعقله من عمليات لا تكون حاضرة في وعيه حال جريانها، أو لا يكون منتبها لها، كما يدخل فيه كذلك وصف مجموع المعارف والاعتقادات Cognitions الكامنة في النفس، التي تؤثر على الخيارات الواعية للإنسان من غير أن يلتفت إلى كونها هي المحرك والدافع الحقيقي لتلك الخيارات لديه، في إطار ما يسميه فرويد Superego أو Conscience ويتعارف عليه الناس باسم «الضمير».

ونحن نقول إن النفس البشرية تجري فيها - ولا شك - كثير من العمليات التي لا ينتبه إليها الإنسان في وعيه الحاضر، ولعلها تصبح من العادات والمواقف التي يتخذها الإنسان لنفسه محبة لها وتعلقا بها من غير أن يلتفت في أكثر الأحيان إلى مصدرها لديه. ولولا هذا ما جاء الوحي بالوعظ والتخويف والتحذير لرفع «الغشاوة» ومعالجة أحوال «الغفلة» واتباع الأهواء والشهوات التي تعتري الإنسان في كثير من أفعاله وأقواله.

أخرج الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: أخوفني عليكم الشرك الأصغر، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله، قال الرياء. وسبب كونه عليه السلام يخافه على المسلمين أنه كثيرا ما يتسرب إلى عمل المسلم من غير أن ينتبه إليه. ولهذا يحذر العلماء من الشرك الأصغر، ويقال له «الشرك الخفي»، ففي الحديث (وإن كان ضعيفا) أن رسول الله ﷺ قال: «الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل»، يعني الشرك الأصغر. ذلك أن الإنسان قد يجود ويحسن في صلاته من غير أن ينتبه إلى أنه لا يفعل ذلك في الحقيقة إلا ليرائي به بعض الناس. هذا الخفاء سببه انشغال النفس بالفعل الحاضر في دائرة الوعي المباشر عن تحري دافعه وسببه والميل القلبي الخفي الذي دفعه إليه أو إلى التجويد فيه، ولعل هذا ما يكون في نفس الإنسان فيما يسمى بالعقل اللا-واعي أو العقل الباطن. بل إن تجويد الصلاة وتحسينها نفسه - كفعل - قد لا ينتبه فاعله إلى أنه يفعله من فرط الاعتياد عليه، فضلا عن أن ينتبه إلى أنه إنما اعتاد عليه في ذلك المقام (كأن يكون إماما يصلي بالناس مثلا) لمحبته أن يستحسن الناس صلاته. لهذا اعتنى سلفنا الصالح وأئمة المسلمين بمراقبة النوايا ومتابعة دوافع النفس والنظر فيها، ومعالجة ذلك مرة بعد مرة، وتدريب النفس عليه، حتى لا تنقلب العبادة إلى عادة لا يؤجر عليها صاحبها، فضلا عن أن يدخلها ميل النفس إلى الرياء والسمعة، وإلى سماع استحسان الناس ومديحهم، فيصبح ذلك هو دافعها على التجويد والتحسين من غير أن تشعر، ثم تصبح تلك الخصلة الذميمة هي سجيتها من غير ما وعي أو انتباه.

هذا وينبغي التنبه إلى أن بعض النظار والفلاسفة الغربيين (والشرقيين كذلك من أهل المشرق الأقصى من الهندوس والبوذيين ونحوهم) قد غلوا وأفرطوا في تصور ما يجري في العقل الباطن من أحوال نفسية، حتى

(أو بعبارة أخرىٰ: في مخزونه المعرفي الفردي) صراعا مع عقائده الدينية الباطلة يريد الهروب منه والتشويش عليه، هذا لن يألو جهدا في التماس طرق العلو الدنيوي بما معه من أسباب ذلك أيا ما كانت. فإن كان متخصصا في صنعة من الصناعات، فلعل نفسه تزين له أن يرىٰ تلك الصنعة – أيا ما كانت – علىٰ أنها أهمّ شيء في علوم البشر ومعارفهم علىٰ الإطلاق، أو علىٰ الأقل أن يرىٰ أن الإنسان لا حياة له بدونها أو بدون ما يرجو هو أن يأتي به من جديد فيها إن كان فاعلا. ولا عجب، فلو أن الناس لم تعظم تلك المهنة التي تخصص هو في ممارستها وحرص علىٰ أن يكون رأسا فيها، فلن يحظىٰ بينهم بتلك الرياسة التي يطمع فيها بفضل ممارسته تلك المهنة وبراعته فيها، ولن يجد في حياته اليومية من الأمور التي تحبها نفسه غاية المحبة وتتلذذ بها وبالانشغال بها وبجعلها ونحوها هي المرام من الفلاح والصلاح في هذا العالم، ما يكفي لإلهائه عن تلك المعركة الكريهة التي تخوضها نفسه أحيانا مع ذلك التناقض الاعتقادي العظيم عنده بشأن خالقه واليوم الآخر، تلك المعركة شديدة الإلحاح التي اختارت نفسه (في لاوعيها) أن تفر منها وأن تدفنها في أعماقها فلا ترجع إليها أبدا.

قال «رالف هود» و«بيتر هيل» و«بيرنارد سبيلكا» (٢٠٠٩، ص. ١-٢) في مقدمة فصل لهم بعنوان «الطبيعة والوظيفة السيكولوجية للدين»:

زعم بعضهم أن فيه طاقة لو تحكم فيها الإنسان لأمكنه أن يتواصل مع ما سموه بطاقة الكون ولأمكنه أن يؤثر في أسبابه كما يريد! وزعم بعضهم أن العقل الباطن لا قدرة للإنسان على فحصه ومعالجة ما فيه مهما أراد ذلك وحرص عليه، وهذا باطل ولا شك، ولو صح لكان الإنسان ريشة في مهب الريح لا يملك حكما ولا سيطرة على شيء من سلوكياته أصلا، وإذن لما كان مسؤولا عن شيء من أعماله! كما زعم آخرون أن العقل الباطن هو ما يحرك سائر الدواب على الأرض من غير وعي أو إرادة كتلك التي توهمها الإنسان لنفسه! وهذا منهم رجم بالغيب، إذ يقولون بنفي ما لا دليل لديهم على نفيه أو إثباته من طرائق التجريب والبحث الإمبريقي، وقد جاءنا معاشر المسلمين النص على خلافه كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾ [**الأنعام**: ٣٨] وكما في قصة هدهد سليمان والنملة. كما غلوا وزعموا أن العقل الباطن هو المصدر الوحيد للأحلام والمنامات، وهذا باطل قد دلت السنة عندنا على خلافه، فالمنامات إما أن تكون رؤى صالحة من الله تعالى أو تخويف من الشيطان أو حديث نفس (وهذا الأخير هو ما اقتصروا عليه). وقد ذهب بعض النقاد في الجهة المقابلة إلى نفي وجود العقل الباطن أصلا، وهذا منهم إفراط ولا شك كما أشرنا في موضع آخر.

ثمة جواب سهل بصورة تثير الدهشة، عن السؤال: لماذا يجب علىٰ النفسانيين أن يدرسوا الدين. فللدين الأهمية القصوىٰ في حياة كثير من الناس، وباسمه تمارس جملة كبيرة من السلوكيات المثيرة للاهتمام. والدين يعد جزءا أساسيا في كثير من جوانب وجودنا الإنساني. فنحن نحيط أنفسنا بالعزو إلىٰ الروحانيات، ونكثر من خلق السياقات التي تُستدعىٰ فيها المقدسات لتصور قيمة كثير من الحوادث المهمة في حياتنا. فحادث المولد نقوم بإسباغه بالقدسية من خلال التعميد أو الختان. والزواج يقدس علىٰ أيدي رجال الدين، الذين يترجمون وظيفة الزوج والزوجة ترجمة دينية بطبيعة الحال. وتعقد التجمعات الدينية الأسبوعية لتوجيه المؤمنين عبر حياتهم. ثم إن الدين يساعد الناس علىٰ التعاطي مع مسألة الموت من خلال ربطه بصور مجيدة لحياة أخرىٰ لا مكان فيها لشيء سوىٰ الخير والعدل. وللآخرين، فإن صور الجحيم واللعنة يمكن أن تعظم من الشعور بالخوف من الموت. حتىٰ مسألة نهاية الزمان تتناولها بعض الأديان، حيث يطمئن المؤمنون بأن لهم بعثا بعد الموت وخلودا. ولا شك أن الدين مرتبط بالحياة اليومية للإنسان بروابط وثيقة، بما يدخل فيه شطر عظيم من اعتقاداته وسلوكياته. ففي بعض أجزاء العالم الإسلامي، علىٰ سبيل المثل، ينادىٰ للصلاة من خلال مكبرات الصوت في كل مكان في المدينة عدة مرات في اليوم. وفي بعض الثقافات، ليس من غير المعتاد أن ترىٰ بعض الناس جاثين علىٰ ركبهم يصلون في وسط ممر مزدحم من ممرات المشاة. حتىٰ في المجتمعات الأكثر علمانية، فإن للدين وجودا حاضرا – سواء كان ذلك في صورة الممارسات الفردية للتأمل والصلاة، أو في صورة حضور المواعظ الكنسية والخدمة في المعابد. فبصرف النظر عن المكان والزمان، فإن الدين موجود لا محالة، ويؤثر في حياة الناس.

قلت: تأمل قولهم في وصف جوابهم هذا عن السؤال «لماذا يجب علىٰ علماء النفس أن يدرسوا الدين؟» إنه جواب سهل للغاية. الجواب باختصار أننا نرىٰ معالم الدين والممارسة الدينية منتشرة حولنا في كل مكان ونراه يؤثر علىٰ حياة الإنسان تأثيرا بالغا، ولذا فيتعين علينا، نحن المتخصصين في دراسة السلوك، أن ندرسه أكاديميا. ولكن واقع الأمر عند كل منصف متجرد للحق أن هذا الجواب علىٰ طوله، ليس جوابا عن السؤال «لماذا يجب علىٰ علماء النفس أن يدرسوا الدين» كما يزعمون، وإنما هو جواب السؤال: «ما مبلغ تأثير الدين في حياة الإنسان؟» أو «ما أهمية الدين في حياتنا؟»

أو نحو ذلك! أما الوصول إلىٰ الحكم بـ«وجوب» تناول هذه القضية علىٰ أهل الصنعة التخصصية التي ينتمي إليها هذا الرجل، من مجرد استشراف أهميتها الكبرىٰ في حياة الإنسان والإقرار بتلك الأهمية، فهذه مغالطة واضحة، تأتي من الإفراط في تعظيم تلك الصنعة نفسها التي يشتغل بها أصحاب هذا الكلام!

إنه مدخل نفس ملحدة مستكبرة لا تقيم وزنا لمسألة الحق والباطل فيما يزعمه أصحاب تلك الأديان الأخرىٰ من مزاعم بشأن الله واليوم الآخر والموت والبعث والنشور.. الخ، فترىٰ الأديان كلها علىٰ قدم السوية علىٰ هذا الاعتبار، ثم تسعىٰ إلىٰ استمداد الشعور بعظمة تخصصها العلمي نفسه الذي اختارته لصاحبها، من خلال الولوج بأدوات ذلك التخصص في تلك القضايا الكبرىٰ في حياة الإنسان، حتىٰ يصبح كل شيء يأتي به صاحب تلك النفس من إضافات «علمية» في تلك القضية العظيمة، عملا عظيما في حد ذاته بالتبعية، ويصبح للطبيعيين والماديين مرجعية «علمية» وأكاديمية عليا في ذلك الشأن الخطير، تناسب عقائدهم وتوافق خياراتهم الاعتقادية الغيبية المادية والعلمانية، بما قد يراه - فيما يرجو هؤلاء - أصحاب تلك الأديان نفسها علىٰ أنه علامة من علامات افتقارهم إلىٰ الدراسة العلمية الأكاديمية والمرجعية «الدليلية» للدين بعامة، ولتلك السلوكيات الدينية التي يمارسونها بصورة اعتيادية من غير ما دراية بأثرها علىٰ نفوسهم وعلىٰ علاقاتهم الاجتماعية حيث يعيشون! فلو صدق هؤلاء لانتقلوا من الإقرار بأهمية الدين في حياة الإنسان وبتأثيره العظيم عليها في كل من المعرفة والاعتقاد والسلوك، إلىٰ الإقرار بضرورة الوقوف علىٰ معرفة الدين الحق الذي يجب أن يدخل فيه الإنسان العاقل حتىٰ يستوي له اعتقاده وسلوكه وحياته ويستقيم علىٰ الغاية التي من أجلها خلقه ربه! ولكن هيهات أن يظهر كلام كهذا في كتاب أكاديمي متخصص في مجال يقال له «علم نفس الأديان»! هؤلاء لا يريدون اعتقاد الحق والعمل بمقتضاه في تلك القضية، وإنما يريدون أن يتعاظم مكانهم بين الناس وتتم سيادتهم المعرفية بأن يصبح لهم الحكم «العلمي» الأرفع علىٰ أحوال وسلوكيات أهل الأديان كافة، وبأن تصبح فلسفتهم الغيبية الدهرية، ونظريتهم القيمية العلمانية، هي المرجع الأعلىٰ في الحكم علىٰ كل ما هو ديني!

ونظير ذلك تجده عند الباحثين الغربيين في الإنسانيات في علم الاجتماع، وكذلك في علم الأنثروبولوجيا، وفي علم التاريخ، بل وحتىٰ علم الجغرافيا بفروعه الحديثة، ترىٰ كل متخصص في تلك العلوم يأتي لتناول مسألة الدين في أبحاثه مدفوعا باعتقاد أن مجاله التخصصي الأكاديمي هو الذي يمكن الوصول منه إلىٰ فهم تلك «الظاهرة» البشرية المعقدة، والوصول من ذلك إلىٰ جملة من الأحكام المعيارية للتعامل معها ومع أصحابها تعاملا صحيحا يرجع بالنفع علىٰ المجتمع العلماني الديموقراطي المعاصر! ثم يأتي المتحاذقون منهم ليقولوا: الآن وقد كثرت مداخل العلوم الحديثة لدراسة الدين (هكذا)، فقد أصبح الأمر يحتاج إلىٰ أبحاث موسعة تجتمع فيها الأطراف من عدة تخصصات، ولا تقتصر علىٰ تخصص علمي واحد، حتىٰ نصل إلىٰ تصورات أشمل وأوفق لما نريد الوقوف عليه من معرفة في هذا الشأن. وبذلك تنفتح دائرة جديدة للتنافس البحثي الأكاديمي في تلك «التوسعة» والتعددية والبينية التخصصية التي قرروا أنها هي الطريق المعرفي الأعلىٰ والأرفع، فلا شك أن من يحيط بأكثر من تخصص بحثي في ذلك الشأن فسيكون له العلو في تلك العلوم علىٰ أقرانه، وهو غاية المطلوب. وما دامت العجلة تجري، ويرىٰ الباحث الأكاديمي نفسه وقد ترقىٰ في المناصب العلمية ولمع نجمه بالإغراق فيما أغرق فيه الأقران، فلن يزداد الدافع الباطن في نفسه إلا قوة وإلحاحا، ولن يزداد عن الحق في مسألة «معرفة الدين الحق» إلا بعدا وصدودا.

هذا الميل إلىٰ تعظيم مجال التخصص وتلميعه في أعين الناس، والإفراط في ذلك، فيما أسميه بـ«العصبية التخصصية أو الأكاديمية»، قد التفت إليه النفسانيون ولاحظوه، وقد تتبع بعضهم أثره في مواقف وآراء واختيارات بعض النظار في بعض المجالات البحثية المتخصصة. ولا تطالبهم – بطبيعة الحال – بأن يعترفوا بإفراطهم هم في تعظيم تخصصهم نفسه، فهذا بعيد الحدوث، وإن حدث فتوقع ألا تراه إلا في أضيق الحدود. فعلىٰ سبيل المثال، تكلم النفساني الأمريكي «إدوارد كروبات» Krupat (١٩٨٥) في كتاب له بعنوان «الناس والمدينة: البيئة العمرانية وتأثيراتها» بتوسع عن ميل المنظرين في مجالات البحث العمراني Urban Studies والمعماريين بعموم

إلىٰ تعظيم أثر أعمالهم المعمارية علىٰ سلوك البشر وإدراكهم ونموهم النفسي كأفراد وجماعات، من غير أن يستندوا في أكثر مزاعمهم في هذا الشأن إلىٰ شيء من الدليل العلمي علىٰ الإطلاق، حتىٰ صار الأمر إلىٰ مغالطة (أو استدلال زائف) يقال لها في أدبيات علماء الإنسانيات بعموم: «المغالطة الفزيقية» Physical Fallacy حيث يُجعل العامل السببي المادي الفزيقي في البيئة التي يعيش بها الإنسان هو العامل الأعظم تأثيرا علىٰ سلوكه وحياته، بما يجعل للمصمم البيئي قدرة فائقة علىٰ التأثير في نفوس البشر ومجتمعاتهم من طريق ذلك الجانب في بيئتهم الاجتماعية. وهذا الإفراط الواضح يقال له الحتمية البيئية أو المعمارية Determinism علىٰ تصنيف بعض علماء الاجتماع وفلاسفة العمارة ومنظريها.

هذه بعض ثمرات ذلك الحرص الشديد عند أكثر هؤلاء علىٰ الاستكثار من الأستار والحجب النفسية التي يراد منها أن تلهيهم عن صراعاتهم الداخلية Internal Conflicts مع تناقضاتهم الاعتقادية في شأن الغيب والقضايا الوجودية الكبرىٰ، أو أن تخفف من وطأة تلك الصراعات علىٰ نفوسهم كلما صرخت بها في أعماقهم تلك النفوس. إنه حرص نتجت عنه آثار عظيمة في بناء المعرفة البشرية نفسها في زماننا الحاضر، من تأمل فيه وتتبعه في أي حقل من حقول البحث الأكاديمي عند أهل الشرك والإلحاد، وجد العجب العجاب!

إنه الحرص علىٰ الهروب من تلك المعركة التي نزعم أنه لا يجد من تنقضي حيل نفسه في إخفائها ودفنها مخرجا منها إلا أحد سبيلين لا ثالث لهما: إما أن يهديه الله للاعتراف بالحق والدخول في دين الإسلام راضيا مختارا، وإما أن يدفعه الشيطان إلىٰ الانتحار وقتل النفس جزعا ونكرانا! وغالبا ما تكون تلك الأخيرة. فما أكثر ما نرىٰ أناسا قد بلغوا الغاية في المجد الدنيوي والعلو في الأرض، ولعلهم رأوا أنهم قد بدؤوا في افتقاد ما لأجله علوا ذلك العلو (كأن تهرم نجمة من نجمات التمثيل مثلا فتبدأ في افتقاد ما لأجله أحبها الناس واشتهوا النظر إليها من محاسن الخلقة)، ولم يبق لهم ما يطلبونه من ملذات وشهوات، فأخذت نفوسهم تحدثهم بتلك الأسئلة الكبرىٰ التي

طالما فروا منها وتهربوا من مواجهتها وتلهوا عنها بما كانوا فيه من غرق فيما تحب نفوسهم وتهوىٰ. وحينئذ تكون مواجهة مع النفس لا مفر فيها من الحسم في جواب السؤال الحرج: «وماذا بعد؟».

لقد اجتهد النفسانيون الغربيون في وضع نظرياتهم لتفسير ظاهرة «الانتحار» وتفسير انتشارها في بعض المجتمعات دون الأخرىٰ، وفي بعض الفئات والأعراق دون الأخرىٰ. ولا شك أن الجانب الوجودي (والأصوب والأوفىٰ أن يقال: الاعتقادي الغيبي) كان داخلا في تنظيرهم، ولكن لأنهم أهل شرك وإلحاد، ما كانوا ليعترفوا ببيت الداء وأصل الخلل في ذلك الجانب أبدا، ألا وهو سوء الظن بالرب الخالق سبحانه، المتفرع عن عموم الاعتقادات الشركية في حقه جل وعلا.

فصحيح إن الإنسان لا يصل به ضيق النفس إلىٰ حدّ الرغبة في الفرار من الحياة وإنهائها البتة، إلا إن كان قد عجز عجزا تاما عن تصور حاله وهو صابر علىٰ ما يعانيه الآن أو ما يتخوف من معاناته في المستقبل من آلام وجراحات، وعجز عن الوقوف علىٰ «ما يستحق أن يعاش من أجله» حتىٰ يتمسك بالحياة في سبيله. هذا أمر يبدو «حدسيا» للغاية في تفسير الميول الانتحارية ولا أظن أن من نظريات النفسانيين الماديين ما يخالف عنه إلا فيما يندر. ولكن واقع الأمر أنك ترىٰ التنظير يدور في مجمله في دائرة الحوافز والعوالق الدنيوية التي تشتهي نفوس عامة البشر التعلق بها والبقاء عليها في هذه الحياة الدنيا، من غير أن يتطرق إلىٰ حقيقة أن البقاء علىٰ عقائد غيبية متناقضة في حق الرب الخالق وفي تفسير ما ينزل به من آلام وبلايا في حياته، وحقيقة ما يكون من أمره بعد الموت، وصراع النفس مع تلك التناقضات كلها والتحايل من أجل التغلب عليها أو إخفائها، يكون له – ولا شك – أعظم الأثر في تلك القضية.

فنحن نقول: إذا كان علاج ذلك التناقض مفقودا عندهم، فبأي بضاعة يعالج هؤلاء أصحاب الميول الانتحارية؟ هذا الذي قرر أن ينهي حياته لا بد وأنه قد قرر أن مفارقة الحياة إلىٰ ما بعد الموت (أيا ما كان اعتقاده في ذلك) خير له، وهذا اعتقاد غيبي لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا (من جهة الحكم العقلي المجرد)! فعندما يكون

العلاج خاليا من مخاطبة ذلك الجانب الاعتقادي الغيبي (بشأن الموت وما يكون بعده) بخطاب وعظي مباشر، يخرج من مشكاة النبوة ليواطئ الفطرة المغروسة في نفس ذلك المبتلىٰ، فليس هو علاجا إذن علىٰ الحقيقة، وإنما هو العمل علىٰ منح تلك النفس المريضة مزيدا من أسباب التعلق بشهوات الدنيا وملذاتها (التي تعلم يقينا أنها زائلة عنها لا محالة، عاجلا أم آجلا) حتىٰ يرجع إليها ذلك الغطاء وتلك الغشاوة التي كانت تحجب تلك التناقضات السوداء المظلمة في الاعتقاد الغيبي عن عيني صاحبها من قبل، وليرجع ذلك المسكين إلىٰ الغرق في الملهاة نفسها من جديد.

ذلك أنك غالبا ما تجد المعالج النفساني الغربي ينظر في حالات الميل الانتحاري أول ما ينظر إلىٰ علتين: ضعف الشعور بالانتماء لدىٰ المريض Thwarted Belongingness، وشعوره باستثقال أفراد المحيط الاجتماعي له ونفورهم منه مع عجزه عن تغيير ذلك Burdensomeness.[1] فكأن هاتين القضيتين الكليتين وما يتفرع عنهما، تشكلان أعظم العلائق النفسية التي يشعر معها المشرك بأن لحياته قيمة ما، فإن أراد معالجه (المشرك أيضا) أن يرجعه إلىٰ رشده ويصده عن الرغبة في قتل نفسه، لزمه أن يحيي في نفسه الحرص عليهما بشكل ما أو بآخر. يجب أن يعمل علىٰ طمأنته إلىٰ أن المجتمع يحبه ويعظمه كما يشتهي هو أن يشعر، وأن قيمته فيه لا تزال محفوظة، فلا داعي لأن يقتل نفسه فرارا من واقعه الاجتماعي الكريه في ظنه! وهذا من التماس معالجة المرض بالإغراق فيه هو نفسه!

وبطبيعة الحال، وكما هو متوقع، فلم تخل تلك المسألة (مسألة التفسير السيكولوجي للانتحار) من نفس الإشكاليات الفلسفية الإبستمية والمعيارية في تعريف ماهية الانتحار التي يعانيها منظرو علم النفس الماديون في تعريف كل شيء: هل يوصف من يقتل نفسه وهو معتقد أنه يموت شهيدا (كقتلىٰ التفجيرات الانتحارية) بأنه منتحر أو بأن» سلوكه انتحاري»، علما بأنه لا يرىٰ نفسه كذلك، ولا يصفه أقرانه من حوله (أي في محيطه الاجتماعي المباشر Immediate Social Environment) بهذا

---

(١) ينظر على سبيل المثال كتاب توماس جوينر ٢٠٠٥.

الوصف؟ وهل يوصف من لقي حتفه في حادث سيارة– مثلا – ثم تبين بعد ذلك أنه كان مخمورا، بأنه منتحر، علىٰ اعتبار أنه كان يعلم أن قيادة المخمور للسيارة تعرضه للهلاك المحقق؟[١] وهل يوصف من حاول الانتحار لمرة واحدة ثم عدل عن ذلك، بأن في نفسه خللا هو الذي مال به إلىٰ ذلك العمل، أم أنه كان في نفسه خلل حالئذ ثم برأت منه، بدليل عدوله عن فكرة الانتحار حين عدل عنها؟ وما ضابط ذلك «البرء» وما معياره؟

نقول: إن كان المرجع في التعريف في ذلك كله، هو ما يظنه كل واحد من هؤلاء القتلىٰ في توصيف ميتته إن سألناه عنها، أو ما يراه مجتمعه المباشر وما يتصورونه من قيمة أخلاقية لذلك الفعل انطلاقا من عقائدهم الدينية والغيبية أيا ما كانت، فلا شك أن هذا لا يمكن أن يكون أساسا معياريا يقام عليه بحث علمي، يرجىٰ منه الخروج بثمرة التقليل من نسبة المنتحرين في المجتمع (كما هو الهدف الأعلىٰ والغاية العليا لكل نفساني يتخصص في دراسة هذه القضية)! وإنما الأساس الصحيح أن تقام تلك التعريفات كلها علىٰ المرجعية المعيارية الصحيحة موضوعيا، بناء علىٰ الأدلة المعتبرة معرفيا في مثل هذا، ليستجاز معها الحكم علىٰ كل فعل بحسبه، ومن ثمّ يُتخذ ما يناسب من أسباب الوقاية منه في المجتمع. وهذا لا يمكن أن يناله الباحث إلا أن يكون منتميا إلىٰ المنظومة الاعتقادية الوحيدة الصحيحة (موضوعيا) في قضايا الغيب وما بعد الموت، ألا وهي دين الله رب العالمين. كيف نحكم علىٰ إنسان قرر أن ينهي حياته بالموت بأنه صحيح النفس أو مريضها، من غير أن يكون لدينا مستند معرفي صحيح في حقيقة الموت نفسه وفيما يقع بعده، وفي الغاية التي من أجلها خلقنا الباري جل وعلا، وفي تشريعه وحكمه في هذا الشأن؟ كيف نقول للذي قرر أن يقتل نفسه بحزام ناسف مدعيا أن ذلك يفضي به إلىٰ منازل الشهداء عند الله تعالىٰ في الآخرة: أنت واهم جاهل، نرجو أن نصلح عقله ونفسه بذلك، إن لم يكن أساس ذلك الخطاب عندنا هو تحرير الموقف الشرعي الصحيح، بالدليل الشرعي المعتبر، من أمثال تلك العمليات التخريبية؟ هذا خلل جسيم لا علاج له إلا الانخلاع من تلك النسبية الأخلاقية التي يعاني منها هؤلاء

(١) المرجع السابق، ص. ٢٨-٣٢.

في الأمر كله، والرضىٰ بالإسلام دينا وباتخاذه الأصل والأساس والمرجع الغيبي والمعياري في التنظير لعلوم الإنسانيات كافة، وإلا فستبقىٰ تلك الجهود من أصحابها أشبه ما يكون بالحرث في الماء، أو بالنقش علىٰ التراب في أحسن الأحوال!

الإسلام هو دين الفطرة، وكل ما عداه من الملل والنظم الاعتقادية (وعلىٰ رأسها المادية الإلحادية) مخالف للفطرة، والنفس الإنسانية لا تصح ولا تتعافىٰ إلا بمواطأة الفطرة التي جبلت عليها في الاعتقاد والقول والعمل. لذا فما دام التنظير في أحوال نفوس البشر نائيا عن تلك الحقيقة، كأصل كلي ومنطلق أول، وما دام القائمون علىٰ توصيف المرض النفسي وتوصيف علاجه يصرون علىٰ اتخاذها ظهريا، فلا برءَ لتلك النفوس التي يعالجونها علىٰ الحقيقة ولا شفاء لها، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

وبعيدا عن هذا الاستطراد الطويل، ورجوعا إلىٰ أصل الموضوع، نقول إن ذلك الغرور و«التعصب الأكاديمي» الذي أغرق فيه النفسانيون المشركون (الماديون في أكثرهم) في تناول مسألة الدين بإجمال، تضخيما لتلك الغشاوة التي تحجبهم عن الحق الفطري الصارخ في نفوسهم، قد تسرب بكل أسف إلىٰ كثير من النفسانيين المسلمين، وإن كانت مادة التناقض المنهجي عند المسلم المبتدع الذي يتبع هواه، تختلف عنها عند الملحد المادي بطبيعة الحال، وهي عند هذا الأول أهون بكثير. فعندما يعتقد النفساني المسلم أن مسألة تلبس الجن - مثلا - من جملة الخرافات، بسبب استنكار أقرانه من «المثقفين» لها في مجتمعه وفي المجتمع الرائد في مجال تخصصه، وليس تبعا للدليل الشرعي في ذلك، ثم يجنح إلىٰ التفسير المادي الفسيولوجي لما يجد من أعراض في مريضه قد يفسرها غيره من المسلمين علىٰ أنها من علامات التلبس، علىٰ أساس من اعتقاد جازم لديه بأن تأثير الجن في تلك الحالات وهم لا حقيقة له إلا في أذهان الخرافيين والجهلة من المسلمين، فهذا تناقض منهجي من جانبه (كمسلم) ولا شك، لأنه لم يتخذ من الكتاب والسنة وعلومهما أساسا للحكم المعرفي عنده في قضية موضوعها ما يمكن وما لا يمكن أن يقع من أعمال كائن غيبي ما عرفنا عنه أصلا إلا من طريق الكتاب والسنة في ديننا! هو رجل قد كرهت نفسه أن يعده أقرانه في

عداد «الخرافيين»، فانحسم الموقف لديه علىٰ هذا القول وقضي الأمر! فصارت تزين له نفسه اعتقاد أن دينه ليس فيه شيء من ذلك أصلا، وأن علم النفس (كما تعلمه من مراجعه الغربية وتشبع بتلك المراجع) هو السبيل الوحيد للتعامل مع تلك الأعراض كلها.

ثم تراه لا يأتيه من عامة المسلمين من يظن أنه قد تلبسه شيطان أو مسه جني أو آذاه إلا نهاه عن ذلك الظن بادي الرأي، وبادر إلىٰ صرف ذهنه عن تلك الفكرة بالكلية، وتوجه به إلىٰ علاج حالات الصرع Epilepsy ونحوها، التي تقوم علىٰ معالجة كيمياء وكهرباء المخ والجهاز العصبي تأسيسا علىٰ نظريات عضوية في تفسير سببها، بصرف النظر عما إذا كان الرجل لديه من قرائن الحال ما قد يكون دليلا علىٰ صحة ظنه أم لا. فلا يسمع من «مريضه» هذا الكلام إلا قابلة بامتعاض وتسفيه بمثل قوله: «لا لا لا، يا رجل هذه خرافات، لا يوجد شيء اسمه تلبس!». فهذا رجل قد حسم موقفه من فكرة تلبس الجنّ بالإنسان هذه علىٰ أنها خرافة لا حقيقة لها، ولعله مر بكلام لبعض المتكلمين القدامىٰ والعقلانيين الجدد في نفي التلبس ودخول الجن في جسد الإنسان جملة واحدة، فأعجبه ذلك واتخذه لنفسه دينا، ثم راح يشن الحرب علىٰ دعوىٰ أن الرقية الشرعية قد تكفي في علاج بعض تلك الأحوال التي يزعم بعض الناس أنها من مس الشياطين.

وبصرف النظر عن موقفنا الشرعي من فكرة أن يتخصص رجل في الرقية ويقال له «راق» أو «معالج» أو نحو ذلك، وما نراه من كون ذلك «التخصص» الحادث بدعة ضلالة لا نظير لها فيما كان عليه السلف والصحابة ﷺ، وكونه يفتح الباب علىٰ أوسعه للإغراق في أعمال السحر وما تمليه الشياطين، إلا أنه ما من شك في أن ما ثبت (بما يكفي من القرائن) أنه من المسّ والتلبس، فإن لعلاجه طرقا شرعية جاءت بها نصوص السنة، وتتابع علماء المسلمين علىٰ استعمالها عبر القرون، وجعل الله فيها شفاءً وخيرا كثيرا ولله الحمد. وأما من لم نجد في قرائن حاله ما يدل علىٰ أن ما يعانيه هو من تلبس الشياطين وإيذائها بالغيب، فإننا نبادر معه إلىٰ إقناعه بأن الأمر ليس كذلك، وأنه واهم،

فإن لم يذهب عنه ذلك الوهم بمجرد هذا، عمدنا إلىٰ معالجته بالعلاج العضوي علىٰ ما هو معتمد في ذلك.

فالقاعدة التي يجب أن تكون ركنا فيما يتعلمه النفساني المسلم في جامعات المسلمين، أن بعض أحوال النفس الإنسانية قد ترجع في الحقيقة إلىٰ عمل ذلك الكائن الغيبي الذي يقال له الشيطان أو القرين، وليس إلىٰ توهم ناشئ عن خلل عضوي في كيمياء المخ والجهاز العصبي. فإذا دلت قرائن الحال علىٰ حلول ذلك الكائن الغيبي في جسد المريض، وعلىٰ أن ذلك هو سبب حالته تلك، لزم أن يعمل الطبيب علىٰ إخراجه وطرده من جسد المصاب علىٰ الطريقة التي اعتمدها علماء المسلمين من أهل السنة عبر القرون، وثبت بفضل الله نفعها وكفايتها، وألا يكابر باستعمال العقاقير والعلاجات الكهربية ونحوها في محاولة تسكين الأعراض العضوية الناشئة عن ذلك التلبس في المريض! فإن هذا في الحقيقة أشبه ما يكون بعلاج آلام الرأس بالحبوب المسكنة دون بحث في أسبابها.

ولا عجب في سلوك النفسانيين الغربيين ومن تتلمذ عليهم ذلك المسلك المادي الصرف في علاج المصابين بالمس الشيطاني، فهذا العلم لم يأت أصله التنظيري والفلسفي من عند قوم مسلمين. حتىٰ فكرة أن يكون في الغيب كائن يوسوس في نفس الإنسان بأفكار يقبلها ذلك الإنسان علىٰ أنها من عند نفسه مع أنها ليست كذلك، كما في قوله تعالىٰ ﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ [الناس: ٥، ٦] هذه فكرة مرفوضة عند الماديين الغربيين جملة وتفصيلا. إذ لا بد وأن تكون سائر أسباب المرض قابلة للإخضاع لوسائل الماديين في العلاج، أما أن يقال إن ثمة عامل سببي خارجي لا يمكن تتبعه بالحس والمشاهدة والتجريب، ولا يعالج إلا بما عند أهل الدين، فهذا عندهم هو الكفر بعينه.

ونحن نقول ونكرر: ما دمنا قد جاءنا علم ومعرفة بسبب غيبي معين لهذا الداء الحسي الظاهر أو ذاك وجاءنا النص والميراث العلمي المنضبط عن الأئمة وأهل العلم الكبار (الخالي من البدعة علىٰ أي صورة من صورها) في كيفية التصدي للجني

المتلبس به ذلك المريض، ومدافعته بالغيب من غير أن نراه، فقد لزمنا العمل بذلك إن كنا نؤمن بالغيب ونؤمن بالله واليوم الآخر. أما ما لا يظهر فيه أثر لذلك السبب الغيبي ولا قرينة معتبرة تدل عليه (كأن تراه يرقىٰ في الهواء مثلا، أو يتكلم بلغة نقطع بأنه ما تعلمها في حياته قط، أو يخبر بأمور نقطع بأنه ما كان ليعرفها أو نحو ذلك)، فليس بين أيدينا في علاجه إلا ما هو مشاهد محسوس من الأسباب العضوية ووسائل معالجتها تجريبيا بحسبها. أي إن النفساني المسلم قد يجد نفسه مطالبا في بعض الأحيان بأن يرقي مريضه، أو أن ينصحه هو بأن يرقي نفسه. إذ سيكون عليه إذن أن يأخذ بالأسباب المشروعة – في حدود ما هو معتمد عند أهل العلم، لا بما عند الرقاة والسحرة والدجاجلة – لطرد تلك النفس الخبيثة من جسد ذلك المريض. وهو أمر يحتاج – ولا شك – إلىٰ تأسيس علمي شرعي مخصوص، أرانا نفتقر إليه في أكثر بلادنا اليوم، في تلك الأكاديميات المتخصصة في تدريس الطب النفسي والبحث فيه.

ورجوعا لأصل الموضوع نقول إن من الأمثلة التاريخية الظاهرة الجلية لتحول صناعة علم النفس تبعا لتحول الاعتقاد الغيبي الغالب والمعياري الغالب علىٰ المشتغلين بها، ما سطره التاريخ الحديث في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي من تحول لموقف النفسانيين الغربيين بإزاء «الشذوذ الجنسي». ففي عام ١٩٧٣ الميلادية، أعلنت منظمة الطب النفسي الأمريكية American Psychiatric Association عن إسقاط صفة الشذوذ النفسي والانحراف الفكري عن «الشذوذ الجنسي». ثم بعد ذلك بعامين، أعلنت منظمة النفسانيين الأمريكيين American Psychological Association نفس الإعلان، ومنذ ذلك الحين تتابعت علىٰ مواقفتهما سائر المنظمات الصحية العالمية، واحدة تلو الأخرىٰ، حتىٰ أعلنت منظمة الصحة العالمية World Health Organization إسقاط تلك الحالات من قوائم الأمراض والانحرافات بصورة نهائية في عام ١٩٩٠ الميلادية. فما الذي حدث في أوساط النفسانيين الغربيين ليحملهم علىٰ هذا التغير؟ لماذا كانوا قبل ذلك يعدون الشذوذ الجنسي شذوذا عقليا وانحرافا نفسيا وسلوكيا، ثم قرروا أخيرا أن يغيروا ذلك الموقف المعياري تجاهه، ليجعلوه مجرد لون من ألوان «الميول الجنسية» (أو ما يسمونه الآن Sexual Orientation) التي يمكن أن يختارها

الإنسان لنفسه بحرية دون أن يوصف بأنه «مريض» أو بأن لديه خللا ما؟

لو سألت أي واحد منهم لأجابك بأنه لم «يثبت» بالبحث الإمبريقي أي دليل علىٰ كون تلك السلوكيات «مرَضية» أو «انحرافية»، ومن ثمّ انتهت الأوساط الأكاديمية إلىٰ متابعة الحراك الديموقراطي الليبرالي في المجتمع الأوروبي والأمريكي علىٰ السواء، المطالب بمنح أصحاب تلك العاهات السلوكية الفاحشة حقا في ممارستها بحرية دون أن يُتهموا بأنهم منحرفون أو مرضىٰ نفسانيون! وهذا محض المراوغة ولا شك. وإلا فما هي نوعية وصفة «الأدلة» التي يرجو هؤلاء أن تظهر لهم (تجريبيا وميدانيا) حتىٰ يثبت بها أن تلك السلوكيات سلوكيات شاذة ومنحرفة؟ [1] واقع الأمر أنه لا يمكن أن تظهر «أدلة» تجريبية تقنع هؤلاء بأن تلك التشوهات الاجتماعية والفكرية انحرافات سلوكية حقها أن تذمّ وتمنع، لأن أساس الحكم المعياري في المسألة ليس هو التجريب والمشاهدة كما قد يزعم بعضهم، وإنما أساسه الانتقاء من بين جملة من تعريفات الحالة السوية Normalcy كما مر بك الإشارة إليه. وهي تعريفات نظرية مردها بمجملها في النهاية إلىٰ ما يرتضيه المزاج الجماهيري العام في هذا المجتمع أو ذاك من مستند للحكم المعياري والقيمي!

لذا فلما كان العلو الفكري في المجتمع الغربي للمرجعية الدينية المستمدة من الملتين اليهودية والنصرانية (وليس للأدلة التجريبية)، كان الشذوذ الجنسي سلوكا منحرفا مرفوضا، وكان النفسانيون متفقين علىٰ اعتباره كذلك، قولا واحدا! ولكن لما

---

(١) أي معنى يمكن أن يكون أليق بميل الرجل لمواقعة رجل مثله (أو امرأة لامرأة مثلها) في عملية التناسل الجنسي Sexual Reproduction (التي إنما يراد منها - عضويا - استحراث الرحم وإنجاب الولد!) من وصفه بأنه سلوك «شاذ» و«منحرف»؟ هذا لعمر الله شذوذ وانحراف لا يماري فيه عاقل يدري يمينه من شماله! وهؤلاء النفسانيون يعلمون ذلك جميعا ويرونه كذلك تحقيقا، وإن صرحوا بالتحول إلى قبوله والرضى به، أو على الأقل الامتناع عن «تمريضه» و«تجريمه»، موافقة للهوى الليبرالي الديموقراطي الغالب حيث يعيشون! فمن لم يكن منهم مصابا في نفسه بذاك الخُلف السلوكي العظيم فتراه ينتصر لشهوته المريضة ويدافع عن حقه في التلذذ بها في كل مكان، فإما أن يكون له من معارفه في مجتمعه من يكره أن يضيق بنكيره عليه في ذلك، أو أن يكون له شهوة وهوى في ارتقاء المنازل الأكاديمية أو الفكرية أو السياسية في بلاده بموافقه التيار الليبرالي السائد فيها، وإن كان يقطع في أعماق نفسه بأن هذا السلوك الجنسي الذي يدعمه هؤلاء فساد محض وشذوذ عظيم.

علا الفكر الليبرالي الديموقراطي في تلك المجتمعات (وليس الأدلة التجريبية أيضا!)، وانحرف الذوق الاجتماعي العام فيها نحو التساهل مع أصحاب تلك السلوكيات الشنيعة، لزم أن ينقلب الموقف بإزائها ويتغير التعريف. لذا نقول بكل قوة: كذب كل من يدعي أن المرجعية في مثل هذا مرجعية «إمبريقية» أو أنها توصف بـ«الموضوعية»، وإنما هي مرجعية اعتقادية فلسفية محضة لا يأتي التجريب إلا بما يخدمها إن فعل، ثم إن مدارها علىٰ مبدأ «نسبية الأخلاق» كما بينا، الذي تقوم عليه الفلسفة الليبرالية والديموقراطية المعاصرة.

فإذا كان هذا الخلل الفكري الخطير مثارا للنظر في منطق التفسير والتشخيص النفساني بعموم، فما بالك بفرع منه يتخصص في دراسة ذاك السلوك الذي يقال له «ديني» علىٰ وجه الخصوص؟ لا شك أن المسألة تحتاج إلىٰ وقفات ووقفات.

ولا أرتاب في أن من تتبع مؤلفات النفسانيين الغربيين المعاصرين فيما يتعلق بالدين وتأثيره علىٰ سلوكيات البشر خلال العقود الخمسة أو الستة الماضية، فسيرىٰ بجلاء كيف وقع التغير التدريجي في الإطار المرجعي الكلي للحكم المعياري علىٰ السلوكيات المختلفة لـ نسان تبعا للتغير التدريجي في الإطار الثقافي والفكري الأشمل للمجتمع الغربي، لا سيما فيما يتعلق بالموقف الفلسفي من الغيبيات ومن المعيارية الأخلاقية علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي. وكما مر بك فإن هذا أمر لا ينكره منظروهم ولا يمكنهم الفكاك منه. وآية ذلك تغير الموقف المعياري من قضية الشذوذ الجنسي كما أشرنا إليه، وما ترتب عليه من إعادة توجيه للمنهج المتبع في تناول تلك القضية في البحث والتصنيف النفساني بعامة.

وبالنظر إلىٰ أن الشهوة الجنسية علىٰ وجه التحديد هي أعلىٰ وأشد الشهوات في نفس الإنسان إلحاحا بلا منازع، ولأنه ما من رسول أرسله الله تعالىٰ إلىٰ البشر إلا جاء بتشريع فيه ضبط وتوجيه للسلوك الجنسي في حياة الإنسان، سواء علىٰ المستوىٰ الفردي أو علىٰ المستوىٰ الجماعي، وبالنظر إلىٰ أن السياق الفكري والثقافي الغالب في بلاد الغرب كان ولم يزل يتبع أهواء فلاسفتهم ومفكريهم وشهواتهم من بداية عصر

النهضة الليبرالية وإلىٰ يومنا هذا، بما ينمو تراكميا علىٰ هيئة بناء لا تأتي اللبنة الجديدة فيه إلا لتصل به إلىٰ مزيد من الانفكاك من كل قيد وسلطان علىٰ سلوك الإنسان، ما دام ذلك ممكنا في إطار ما يقال له «المجتمع الإنساني»، لم يكن ثمة بدّ من أن يصل الأمر في مرحلة من مراحل تاريخ التنظير السيكولوجي في تلك المجتمعات إلىٰ ظهور القول بأن الدين يصيب أتباعه والملتزمين به بالكبت الجنسي ويضرهم بذلك ضررا بالغا! ويقصد بإطلاق كلمة «الدين» في ذلك السياق بطبيعة الحال الأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام علىٰ وجه التحديد، وإلا فليس لدىٰ القوم اعتراض فيما يتعلق بالسلوك الجنسي، علىٰ عامة الملل الوثنية التي تتناول الجماع ومقدماته تناولا روحانيا، وتجعله عبادة وقربىٰ وطريقا إلىٰ إغراق الشعور الإنساني في التواصل مع «الطبيعة الأم» أو مع «أرواح الأسلاف» أو مع «الإلهة» أو نحو ذلك. هذه ديانات «أرضية» تجعل من التحلل الجنسي واستباحة ممارسته في كل مكان ومع كل أحد، بل وفي قلب المعبد نفسه، فضيلة دينية ومزية روحية وقربىٰ للإلهة المعبودة، فكيف يكرهها من تتبع شهوته وحرص – في فلسفته وتنظيره تبعا لمنظومته الأخلاقية والمعيارية الفردية – علىٰ أن يخلع عن تلك الشهوة كل قيد أو ضابط تكرهه نفسه؟ من هنا تنامىٰ في أدبيات القوم ذلك المنزع العام الرافض لفكرة «التابو» أو المحرمات الجنسية بعموم، الداعي إلىٰ تناول ما أصبح يعانيه عُباد الشهوات في تلك المجتمعات المنحلة تحت تأثير التعليم الديني عليهم في هذا الشأن من ضيق وضجر، باعتباره دليلا في نفسه علىٰ أنها (أي فكرة التحريم الديني في باب السلوك الجنسي بعموم) أمر ممرض نفسيا ويجب أن يتعلم الإنسان كيف يحرر نفسه منه طلبا للتمتع بالصحة النفسية.

فعلىٰ سبيل المثل يتكلم النفساني الأمريكي الملحد «داريل راي» D. Ray عن العلاقة بين الدين والجنس في كتاب وضعه حديثا (وصدر في عام ٢٠١٢ الميلادية) تحت عنوان «الجنس والإله: كيف يفسد الدين علينا حياتنا الجنسية»، فيبدأ بحكاية قصة حياته الشخصية ومعاناته (كمراهق نصراني) من اعتبار أكثر الناس في مجتمعه (لا سيما في السياق الديني الذي تربىٰ فيه) مجرد الإشارة إلىٰ السلوكيات الجنسية والحديث عنها علىٰ الملأ أمرا مستقذرا، يستجلب غضب الرب. ويذكر كيف أنه كان

يعاني بشدة حتىٰ يحصل علىٰ أي مادة فيها وصف تفصيلي لممارسات الجماع وكيفية التلذذ به، وأنه كان يضطر إلىٰ التماس تلك «المعرفة المحرمة» سرا في مجلات البورنو ونحوها. وتراه يحكي بأسف بالغ كيف أنه كان يعلم أن جميع من يتظاهرون من حوله بأنهم لم يسبق لهم أن مارسوا الاستمناء في الخفاء، ويزعمون أنه أمر مستقذر مثير للاشمئزاز، قد مارسوه تحقيقا وتلذذوا به كما تلذذ هو سواء بسواء، وأنهم يرون في الكذب علىٰ النفس وفي التظاهر بخلاف ما يشعرون من ذلك، عملا دينيا نبيلا لا ينبغي المحيد عنه. ثم يمضي الرجل في كتابه ليبين كيف أن كثيرا من العوامل النفسية الخفية التي تؤدي إلىٰ التقليل من قدرة الإنسان (ويقصد به في ذلك السياق الإنسان الغربي المعاصر بطبيعة الحال) علىٰ بلوغ أعلىٰ درجات التلذذ والاستمتاع بالممارسة الجنسية حتىٰ فيما بينه وبين زوجته التي يفترض أن «المؤسسة الدينية» راضية بقيام تلك العلاقة بينهما، بل ربما تؤدي إلىٰ فشل الأداء الجنسي نفسه، إنما مرجعها في النهاية إلىٰ ذلك السلطان المعياري الأخلاقي الذي يفرضه «الدين» علىٰ ذلك الجانب من حياة الإنسان. وبالتالي تكون خلاصة الكتاب والرسالة التي يدعو إليها القراء هي: «تحرر أيها الإنسان من الدين كله، تعش هانئ النفس منعما في جنة الجنس الحر بلا قيد ولا ألم».

ولو أردنا أن نوجز علة ذاك الرجل في كلمة لما جاوزنا أن نقول: اتباع الهوىٰ، بل قل «تأليه الهوىٰ». ولكن هذا مقام بسط وتفصيل في آلية عمل النفس عند ذلك المجرم وأمثاله في اتباع الهوىٰ وتسويغه بالتنظير والتأصيل السيكولوجي.

فنقول بحول الله وقوته إنه يعلم – لكونه إنسانا عاقلا – أن الرب الذي خلقه وركب فيه آلة الجنس والشهوة وجعلها وسيلة للتكاثر وبناء الأسرة في المجتمع لم يمنعه من استعمالها منعا تاما مطلقا، وإنما فرض عليه قيودا أخلاقية فيما هو خارج عن دائرة الزواج المشروع من سلوك جنسي، لا بد وأنه يعلم – بعلمه التام – أن الالتزام بها خير للإنسان من الانفكاك منها. فليس أعلم بالمخلوق من خالقه! ولا حجة له علىٰ ذلك المعنىٰ بتشريع الرهبانية عند النصارىٰ، فقد علم أن النصرانية ليست هي دين الله الحق

أصلا، ولكن لو أنه حدثته فطرته يوما ما بأن يطلب الدين الحق ليدخل فيه (ولا بد وأنها فعلت تحقيقا)، لأبت عليه نفسه الغارقة في حب الشهوات أن يسمع كلام الله عند ذلك النبي الذي جاء من صحراء مكة يدعو البشر إلىٰ التوحيد الخالص، ذلك الرجل العربي الذي خرج بدعوته في سياق ثقافي آخر ومجتمع آخر مخالف لمجتمعه بالكلية. فقد علم ببداهة العقل المجردة أنه لو كان لله كلام منزل في الأرض حقا فلا يمكن أن يجده عند أصحاب الملل الشركية التي تضج العقول السوية من شركها وتنقصها من الرب الخالق. ففي مقام المفاضلة بين الملل والفلسفات الغيبية، محال أن يتابع إنسان كهذا بقلب كهذا فطرته وبداهة عقله ليهتدي إلىٰ الإسلام! هذا رجل صاحب نفس تطمع في مزيد من التحرر ومن التلذذ بالشهوات الحسية بلا قيد أو شرط، فكيف ينتقل من دين يعتنقه مجتمع يكره ما يجد فيه من بقايا القيود الدينية علىٰ الشهوة واللذة، إلىٰ دين يعتنقه مجتمع آخر يجد عنده المزيد والمزيد من القيود في ذلك؟ هذا محال! لا بد وأن تعمل نفسه إذن علىٰ الاستكثار من الحجج الواهية والاعتراضات الساقطة يجمعها من هنا وهناك ضد ملة التوحيد خصوصا وضد الأديان الكتابية الثلاثة بعموم، حتىٰ ينشرح صدره باختيار الفلسفة المادية الإلحادية الليبرالية دينا ومذهبا (وهي كما هو معلوم أكثر الفلسفات الغيبية تحريرا للإنسان من قيود التشريع السماوي و«التابو» الجنسي)، وينكتم صراخ الفطرة في أعماق نفسه بفساد ما هو عليه، فلا يلتفت إليه بعدُ أبدا، وهو ما كان منه بالفعل.

وقد صرح الرجل بالفعل في مقدمة كتابه المذكور (راي ٢٠١٢) بأنه قد تأثر تأثرا بالغا في صباه بكلمة سمعها من رجل ملحد متخصص في علم الجنس يدعىٰ «ألبرت إليس»، إذ وجده يتكلم عن الجنس بحرية وطلاقة آسرة خلبت لبه واستحوذت علىٰ نفسه، وآلمه أن يقال لمثلها إنها «حرام» أو مما يغضب الرب، وذكر أن تلك المحاضرة التي حضرها لذلك الرجل (إلىٰ جانب كتاب لكاتب ملحد قرأه وأعجبه للغاية) كانت نقطة فارقة في اختياره الإلحاد ومفارقته الكنيسة.

ثم إنه يعلم كذلك بداعي الفطرة في نفسه أن الحرية الجنسية المطلقة فيها من الفساد ما فيها، كاختلاط الأنساب وضياع حقوق الورثة وفساد العلاقات بين الآباء

والأبناء وبين الأزواج والزوجات، إلىٰ آخر ذلك مما يجده منتشرا من حوله في كل مكان في مجتمعه نفسه. فإذا كانت تلك القضايا من دواعي الفطرة التي لا يسع مثله أن يقنع نفسه بخلافها، فإن شهوته تدعوه إلىٰ الانفكاك من مقتضياتها المباشرة وإلىٰ التشويش عليها والفرار من مواجهة النفس بها، وهي تلك المقتضيات التي تتلخص في ضرورة ضبط النفس وإخضاعها فيما يتعلق بالسلوك الجنسي، سواء علىٰ مستوىٰ الفرد أو الجماعة، إلىٰ التشريع الإلهي الحق، والتسليم بأنه هو الأعلىٰ وهو الأحق بأن يلتزم به في ذلك كما في غيره من القضايا الأخلاقية.

فقد رتب لنفسه من أيام الصبا بنيانا معرفيا يقوم علىٰ التكذيب بوجود الباري جملة واحدة والتماس سائر الطرق لتزيين ذلك الأساس في نفسه والتشييد عليه، لا لشيء إلا ليفتح الباب لنفسه للتحرر الجنسي والسلوكي علىٰ أبلغ ما يشتهي! وهذا هو المحرك الخفي الفعلي في نفس كل ملحد جاحد لوجود باريه جل شأنه كما بينا في هذا الكتاب! الكراهة الشديدة لفكرة الخضوع للأمر والنهي الإلهيين! فكان أمرا بدهيا لا عجب فيه، أن يسعىٰ هذا الملحد – من حيث كونه متخصصا في علم النفس – في بيان حالة السعادة والهناء التي يجدها الآن في حياته الجنسية بعدما تحرر بها من فكرة الحلال والحرام جملة واحدة، وأن يتخذها محورا قياسيا لعمله التنظيري في هذا الشأن. كم من مرة دعته شهوته للقيام بعمل ما أو بسلوك جنسي معين، ثم وجد نفسه كارها أشد الكراهة لفكرة أن يكون ذلك العمل مستقذرا أو مما يلام عليه بين الناس؟ لا مخرج لمثل هذا من تلك الكراهة والضيق الشديد إلا أن يرمي ذلك الحكم الأخلاقي نفسه وراء ظهره ويسعىٰ في إقناع نفسه وغيره ممن تمسكوا به بأنه باطل لا أساس له.

تجد في الدين ما تكره أن تتخذه قيدا لشهوتك الجامحة؟ فلتعمل علىٰ إثبات خلو الدين نفسه من ذلك القيد بكل طريق، إن كنت حريصا علىٰ التمسك بمكانك في مجتمع المنتمين إليه. فإن لم تكن حريصا علىٰ ذلك، وكنت تشتهي الانخلاع من ذلك المجتمع نفسه، فأسقط الدين نفسه من الأساس وأرح نفسك!

فلا بد وأنه (أي هذا الباحث المذكور) سيجد لنفسه من دعم الصفوة المثقفة الليبرالية ومساندتها له ما يزيده قوة علىٰ قوته، وعتوا في محاربته لما يفسد عليه شهوته. فلو كان يعيش في مجتمع لا تزال تعلو فيه القيم النصرانية أو اليهودية في أوساط المفكرين والمثقفين والصفوة، وفي الأوساط العلمية الأكاديمية كافة، ولا يظهر فيه أثر لفكرة التحرر الجنسي هذه بل تعد داعيا للتحقير والازدراء، لعمل علىٰ إشباع شهواته الممنوعة في الخفاء، ولعانىٰ من فقدانه للسند النفسي في أوساط الصفوة الفكرية في بلاده أشد المعاناة، ولافتقر في مجموع الحيل التسويغية التي تستعملها نفسه لإرضائه بالباطل الذي هو عليه إلىٰ حيلة كبرىٰ يطمع فيها كل صاحب هوىٰ أشد ما يكون الطمع، ألا وهي التكثر من الموافقين والمؤيدين من حوله، والتعلق بما لهم من ثقل وقيمة في مجتمعهم.

فنحن نقول، صحيح إن نفسك يا سيد «راي» تكره وتألم أشد ما يكون أن يقال لها إن هذا السلوك الجنسي الذي تشتهيه ممنوع أو محرم أو لا يليق، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن العيب في ذلك الحكم المعياري أو الأخلاقي أو الديني نفسه الذي كرهته نفسك. كراهتك أنت «للتابو» الجنسي لا تعني أن كونه من الممنوعات أمر باطل لمجرد أنه يسبب لأمثالك تلك الكراهة والضيق والضجر! أنت رجل ملحد مغرق في الشهوة واتباع الهوىٰ، فمن البدهي أن يكون المعيار المعرفي المختار لديك للحكم علىٰ ما هو حسن أخلاقيا وما هو قبيح: أن الحسن ما تحبه نفسك (وتجد لك في المجتمع موافقين فيه) وأن القبيح ما تكرهه نفسك! فإن جاءك من يقول إن ثمة مرجعية خارجة عن نفسك يؤخذ منها الحكم الموضوعي بالحسن والقبيح في مسائل الأخلاق والقيم، وفي تلك المرجعية ما يلزمك إن التزمت به أن تأتي شيئا تكرهه وأن تترك شيئا تحبه، لكرهت ذلك غاية الكره، ولاندفعت في طرق التسويغ لرفض تلك المرجعية والاعتراض عليها أعظم الاندفاع. وهذا هو سبب اختيارك الإلحاد بالأساس! فكيف تطالب أهل الملل الأخرىٰ بأن يقبلوا منك تنظيرك في تفسير ما تعانيه نفسك أنت وأمثالك من أهل نحلتك، من ضيق بالتشريع الديني في مسائل الجنس والشهوة؟

نقول إن الأمر الذي يكره هذا الرجل وأمثاله أن يعترفوا به (وبعضهم يفعل علىٰ استحياء) هو أن من أهل الأديان (وأعني أهل الإسلام تحديدا) من بلغ به إيمانه ويقينه في تشريع دينه أن أصبح يحب الامتناع عما منعه منه الدين، ويحب أن يضبط شهوته بما ضبطه به التشريع الديني، ويكره كل شهوة محرمة ويستشنعها أعظم الاستشناع، صدقا لا تصنعا ولا نفاقا، ويجد في ذلك إشباعا نفسيا ووجدانيا عظيما، علىٰ الرغم من داعي الشهوة الجسدية لديه، الكاره لكل قيد وشرط. فإن نفسه تتدرب علىٰ اعتقاد أن تلك الكراهة العاجلة إن صبر عليها فله الخير الوافر آجلا، وأنه إن قصر شهوته علىٰ ما أباحه له دينه، ممتنعا عما عدا ذلك، فسيجد في ذلك إشباعا نفسيا وافرا لعلمه بأن الله يرضىٰ منه ذلك، وهو شعور لا يجده من يمارس شهوته وهو يعلم أنه بذلك يعصي ربه، وأنه سيعاني علىٰ أثره من تأنيب النفس وندمها ما يجده كل عاصي.

وما أكثر ما تسمع من كلام بعضهم بأن الإسلام فيه كبت للمرأة وتضييق شديد عليها Oppression لا سيما بتشريع الحجاب الذي يكرهونه أشد الكراهية وينفرون منه أعظم النفور، مع أنهم يعلمون أن هذا الكبت أو الضيق النفسي المزعوم ربما تعانيه الواحدة منهن، الناشئة علىٰ ثقافتهم الإلحادية العلمانية المنحلة، وعلىٰ قيمهم الأخلاقية السائدة في بلادهم، إذ تتربىٰ مثل هذه من صغرها علىٰ أن تمتعها بجسدها وتلذذها بشهواتها علىٰ النحو الذي يروق لها، وتلذذها باستجلاب أنظار الرجال الأجانب واستشعارها بأنها مشتهاة حيثما تحل وتذهب، واختيارها لمن تشبع معه شهواتها منهم كيفما يكون ذلك، حق من جملة حقوقها الإنسانية التي يجب أن يكفلها لها المجتمع. وعليه فلا عجب أن تكره مثل هذه مجرد فكرة أن تخضع نفسها لدين يمنعها من ذلك، تكرهها كراهة الموت نفسه! بخلاف تلك المرأة التي تربت من نعومة الأظفار علىٰ محبة الدين وعلىٰ إعلاء قيمه الأخلاقية وتعظيمها في نفسها، وعلىٰ التطلع إلىٰ ما بعد هذه الحياة الدنيا الزائلة للمؤمنين في دار البقاء. هذه لا تجد في الحجاب الشرعي – مثلا – وفي أحكام طاعة الزوج ونحوها إلا الخير الوافر والرضا النفسي التام، ذلك الرضا وتلك الصحة النفسية والقلبية التي لا يحلم بها هؤلاء الأنجاس ولا يتصورونها.

لقد كان هؤلاء ولا يزالون يعجبون ولا يفهمون كيف يمكن لإنسان أن يصبح حريصا علىٰ الموت والشهادة في سبيل الدين كحرص كثير من المسلمين علىٰ ذلك، مع أنه يعلم أن هذا معناه نهاية الحياة بالنسبة له، بما فيها من ملذات شاهدة حاضرة هم غارقون فيها أشد الغرق ولا يتصورون الانفكاك عنها طرفة عين! والجواب سهل يسير. فنحن نقول: ما تكرهونه أنتم وتستبشعونه يا هؤلاء، يحبه غيركم ويرتضيه لنفسه، وما تحبونه أنتم وتسعون وراءه في كل وقت وحين، يكرهه غيركم ويشمئز منه ويحتقره أشد الاحتقار. أما أصحاب النفاق العملي الذين يظهرون أنهم يكرهون الانحلال الجنسي – مثلا – أو يكرهون سلوكا بعينه من السلوكيات الممنوعة في دين الله الحق، وهم في واقع الأمر يحبونه ويمارسونه في الخفاء، فهؤلاء لا يعاب دينهم بأن منعهم مما منعهم منه، لأنه الدين الحق، والحق لا يعاب بكذب بعض من ينتسبون إليه أو بتناقضهم في سلوكهم، وإنما يعاب عليهم هم أن تخلفوا عن الوصول بنفوسهم إلىٰ تحقيق الصدق في الخضوع لما عرفت تلك النفوس أنه الحق من ربها.

ولا يغرنك ما يقول الملاحدة والفساق إنهم يجدونه من مزيد لذة في ممارستهم الحرام بسبب تحللهم عن الدين والحرام وممارستهم المعصية وهم يعلمون، فإن لتزيين الباطل وسائل وطرقا شتىٰ وألاعيب تتقنها النفس المنحرفة ويحسنها الشيطان أيما إحسان. ومعلوم أن كثيرا من الناس قد يجد المزيد من اللذة العاجلة في ممارسته الزنا لعلمه بأنه يمارس عملا محرما، والسبب في ذلك أن نفسه تحمله علىٰ استخراج غاية ما يمكن استخراجه من لذة من ذلك العمل «المسروق» تماما كما يحرص اللص علىٰ جمع أكثر ما يمكنه جمعه من بيت ضحيته. فهو يعلم أنه سيندم علىٰ ذلك العمل فيما بعد، وأنه ستكون له تبعات قد تمنعه من تكراره مرة أخرىٰ، وتلك الأفكار تجري في ذهنه وتحدثها به نفسه حال إقدامه علىٰ ذلك العمل، ومن ثمّ تعمل نفسه علىٰ إظهار ذلك العمل أمام عينيه علىٰ أنه كنز يجب اغتنامه والتشبع منه علىٰ غاية ما يمكن من ذلك، حتىٰ تسوغ لنفسها الصبر علىٰ ما قد يترتب عليه فيما بعد من تبعات مكروهة. فلا بد – من الناحية الاقتصادية البحتة، وعلىٰ ما يقال له مدخل الخيار العقلاني عند علماء

الجريمة Rational Choice – أن يكون الكسب المتوقع من ذلك العمل المنحرف متناسبا مع ما تتعرض له النفس من عناء وخطر في سبيل الحصول عليه، وإلا ما أقدم علىٰ القيام به أصلا.

لذلك تجد من يقترف زنا المحارم – مثلا – قد يتلذذ بتلك الفعلة أكثر مما يجد من لذة الزنا مع غير المحارم، والذي ألفت نفسه التلذذ بالزنا عموما، يجد في أحضان عشيقته لذة أكبر مما يجد مع حليلته في فراش الزوجية، وهكذا. لماذا؟ لأن تعظيم الشهوة في الفعل نفسه يتناسب – فيما تطلبه النفس – مع مقدار الخطر والألم والمعاناة التي يعرض المجرم لها نفسه حتىٰ يصل إلىٰ إشباعها وإصابتها.

والقصد أن من كانت مرجعيته في التنظير السيكولوجي هي الإلحاد المحض، فلا شك أنه سيجد في أوامر الدين (أي دين) وزواجره (من حيث المبدأ) وفي مطلق فكرة الخوف من مشهد الآخرة والعمل من أجل يوم الحساب، ضررا نفسيا عظيما يحتاج إلىٰ علاج، وسيبذل ما في وسعه لإثبات أن تلك الأديان التي يكرهها تضر بالصحة النفسية للإنسان، علىٰ أساس تعريفه هو للصحة النفسية وللسلوك السوي كما مر معك مناقشة ذلك. وبتقعيد أعمّ نقول إن من كان من هؤلاء المنظرين النفسانيين يستحسن لنفسه الانغماس في تلك الشهوات والملذات التي لا يرىٰ فيها ضررا لأحد من الناس، فلا شك أن من جاءه بتكليف يحرمه من بعض تلك الملذات فقد ضيق علىٰ نفسه المريضة وجاءها بما تكره! فالأمر في النهاية مرده إلىٰ المرجعية الثقافية والدينية والفلسفية التي ينتمي إليها الباحث نفسه.

ومن ذلك ما يكون من الملاحدة والماديين من حرص علىٰ التسوية بين الأديان جميعا في المثقال المعرفي مقارنة بالفلسفة المادية نفسها، القائلة في هذا الشأن بنسبية الأخلاق: لا حلال في الأخلاق إلا ما أشتهيه أنا ولا حرام إلا ما أكرهه أنا، والأمر كذلك عند كل إنسان بما يهوىٰ وفي كل مجتمع بما يتفق عليه.

قالت «كيت لوينثال» (٢٠٠٠، ص. ١٦): «لا شك أنه من الصعب أن نتناول السمات المميزة الجامعة للتقاليد الدينية الكبرىٰ من غير أن نقع في التعصب Stereotyping، أو

التسطيح الاختزالي Over-simplifying أو إهمال تباينات مهمة ومواقف مميزة لأقليات طائفية تدخل في إطار التقليد الديني الواحد. ولكن هذه المخاطر لا بد من التعرض لها رجاء الوصول إلىٰ بعض التعميمات النافعة Useful Generalizations.» اهـ.

ونحن نسألها: ولكن لماذا تريدون الوصول إلىٰ تلك التعميمات أصلا، وما نفعها وما فائدتها للمعرفة الإنسانية، إن كانت سائر الأديان والفلسفات الغيبية والملل والنحل المخالفة لكم[1]، تقف علىٰ قدم السوية من الناحية المعيارية Normatively في منظور نحلتكم أنتم، التي لا ينبغي – بحسب فلسفتكم المتناقضة نفسها – أن يكون لها فضل معرفي علىٰ غيرها من تلك الفلسفات والنحل من الأساس؟ أليس هذا «التعميم النافع» المزعوم، مبنيا (من حيث الجنس) علىٰ أصول فلسفتكم أنتم في تعريف الدين وفي تناول قضايا الغيب الكبرىٰ؟ أليس مبنيا علىٰ موقفكم أنتم «الإبستمولوجي» مما عند أصحاب سائر الديانات والفلسفات الغيبية المخالفة لفلسفتكم؟ أليست تلك التعميمات ووسائل الوصول إليها، مبنية (بإجمال) علىٰ الفلسفة الطبيعية المادية، وعلىٰ مدارسها الكثيرة المتفرعة عنها عندكم؟ فمن منكم يملك أن يدعي أن الموقف المعياري الصحيح في تعريف السلوك السوي وتمييزه عن السلوك المنحرف، وفي تعريف الطرق الأنفع لتناول تلك السلوكيات علىٰ المستوىٰ الاجتماعي والفردي، ومعاملتها عن طريق التشخيص والعلاج أو غير ذلك من الطرق (إن صح عدها مسالك منحرفة فاسدة من الأساس)، لا يمكن أن يلتمس في أي من تلك الملل نفسها أو في موروثاتها المعرفية التي اتخذتم فلسفتكم أنتم ونظريتكم المعرفية حَكَما عليها وعلىٰ أهلها؟

لا يزعم ذلك ولا يصرح به إلا من كان ملحدا جلدا، لا يرىٰ تلك الأديان (الكبرىٰ) كلها من أولها إلىٰ آخرها إلا صناعة «ميثولوجية» وضعية من اختراع البشر، فلا حق فيها ولا باطل، ولا ينبغي أن يقام أي وزن لشيء منها في ذلك البناء المعرفي الذي استحسنوا تسميته بـ«العلم» دون غيره اختزالا وعدوانا! أما من تابع ذلك الموقف (من أي ملة

(١) والخطاب هنا موجه إلى أصحاب تلك الأصول الفلسفية الجامعة التي تتأسس عليها تلك الصناعة عند النفسانيين.

كان) من غير أن يصرح بالإلحاد ولوازمه، وراح يغرق في تلك الإشكالات يحاول أن يتلمس منها مخرجا – كما نرىٰ في كلام هذه المرأة صاحبة النقل السابق – فهو مقلد لأئمة الفكر الإلحادي المادي السائد في وسطه الأكاديمي، سائر في ركاب ما يستحسنه «المثقفون» والكبراء في مجتمعه كيفما كان، متفنن في التسويغ له والتنظير بما يقربه إلىٰ أذواق تلك الصفوة المحترمة في مجتمعه، فلا يُرجىٰ لمثله – من حيث الأصل – أن ترفع تلك الحُجُب الغليظة عن نفسه بما يكفي لوصول نور الحق من دين الله إليها، والله المستعان.

دعنا – أيها القارئ الكريم – نضرب مثلا من كلام هذه الباحثة نفسها حتىٰ يتضح لك عمق ذلك الخلل المنهجي المعرفي الذي ننبه إليه هنا. تقول «كيت» في مستهل وصفها للملة البوذية في نفس الصفحة التي فيها الاقتباس السابق:

> علىٰ الرغم من أن صور البوذا وتماثيله معظمة عند البوذيين، إلا أن هذه الملة ليست ملة متعددة الآلهة Polytheistic. بل ثمة جدال بين العلماء حول ما إذا كانت البوذية ديانة مؤلهة Theistic أصلا. فقد بدأت البوذية في الهند قبل ألف وخمسمائة سنة، كرد فعل معاكس للأداتية النظامية المصبوغة بالتفرقة الطبقية التي اتسمت بها الملة الوثنية السائدة في ذلك الوقت [ولعلها تعني بذلك الهندوسية].

قلت: إن أول ما يلفت نظر القارئ المسلم الذي لديه ولو قدر يسير من الإلمام بأصول التوحيد، أن هذا التعريف للملة «متعددة الآلهة» أو ما يقال له Polytheism الذي يُخرَج منه أهل ملة كالملة البوذية، لا بد وأنه تعريف فاسد قطعا. فالبوذيون يعبدون البوذا تحقيقا، كما يعبدون حكماءه وممثليه (ومن يقال لهم «النبلاء» عندهم) ويتعبدون لتلك الصور التي يمثلونهم بها، وهو ما يجعلهم متألهين لأولئك المذكورين ونحوهم تحقيقا، علىٰ مقتضىٰ التعريف الفطري البدهي، والتعريف الشرعي الصحيح للعبودية والتأله، الذي يدخل فيه غاية التذلل وغاية المحبة وغاية الرجاء وغاية الطاعة وغاية التعظيم، إلىٰ غير ذلك من أفعال البشر التي لا ينبغي أن يصرف شيء منها إلىٰ غير الرب الباري وحده من فوق سبع سماوات!

فالبوذيون مشركون يعبدون آلهة شتىٰ في الحقيقة، ولكنهم كما ترىٰ ليسوا كذلك علىٰ مصطلح Polytheism الذي تستعمله تلك المرأة في كلامها. فالشرك (أو تعدد الآلهة) عندنا معاشر المسلمين يوصف به من أشرك في الربوبية ومن أشرك في الألوهية ومن أشرك في الأسماء والصفات، سواء شهد علىٰ نفسه بأنه يعبد أكثر من إله أم لم يشهد بذلك. أما هذا المصطلح (تعدد الآلهة) عند أصحابه فيدور حول المعتقد في الربوبية علىٰ وجه الخصوص.[1] فلما كان البوذيون لا يؤمنون بوجود الخالق الباري

---

(١) وهذا – بالمناسبة – هو نفس الغلط الذي نراه في تعريف القوم لما يسمونه «ملة توحيدية» Monotheistic Religion. فهم يقصدون بهذا المصطلح تلك الملل التي تصرح بأن الخالق واحد. وبالتالي فعندهم اليهود بسائر طوائفهم موحدون والنصارى بجميع نحلهم موحدون والسيخ كذلك موحدون، بل حتى الفراعنة الإخناتونيون الذين لم يسموا إلا خالقا واحدا، إله الشمس آتون، كانوا على هذا المصطلح «موحدين»! (وقد رأينا من جهلاء المتثقفة عندنا من يتابعهم على هذا المعنى، ويقول إن «إخناتون» كان أول داعية إلى التوحيد في التاريخ!). ومورد الغلط أن تلك المصطلحات إنما خرجت من خلفية فلسفية لا تبالي بحقائق ما عند أصحاب تلك الملل من دعاوى في العبودية والتأليه، بقدر ما يعنيها أن تصنفها في تصنيف لا يشتمل على أي موقف معياري بإزائها، وهو ما أدى إلى خروج تلك التعريفات على نحو يصف ما يزعمه أصحاب تلك الملل عن عقائدهم في الربوبية، وليس ما هم عليه في العبودية. فما داموا يزعمون أن الصانع واحد، فهم إذن موحدون، وهذا باطل ولا شك! فنحن عندما نصف المشرك بأنه مشرك، لا نصفه بذلك لأنه يصرح باعتقاده أن الرب الخالق له شركاء في الخلق والرزق يقفون معه على قدم المكافأة، ولكن نصفه بذلك لأن الإشراك بالله تعالى هو حقيقة اعتقاده وعبادته ودينه وإن أنكر هو ذلك الوصف عن نفسه وتبرأ منه.

فالنصارى مثلا لا يسلمون لنا بأنهم مشركون، يعبدون أربعة آلهة على الأقل (الآب والابن والروح والعذراء)، لماذا؟ لأنهم يزعمون أن الثالوث إله واحد، وأنهم لا يؤلهون العذراء! وأما ما يقع من أكثر طوائفهم من استغاثة بمريم وبالقديسين والموتى من الرهبان والأحبار وغيرهم ممن أقاموا على قبورهم الكنائس تقربا إليهم وتزلفا، كما في قوله ﷺ «اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»، وما يفعلونه من قبول تحليل الحرام وتحريم الحلال من رؤوس الكنيسة كما في قوله تعالى ﴿**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [**التوبة**: ٣١]، وهو ما يفسره حديث الرسول ﷺ لعدي بن حاتم في قوله «ألم يحلوا لكم الحرام فأطعتموهم؟ قال بلى قال ألم يحرموا عليكم الحلال فأطعتموهم؟ قال بلى، قال: فتلك عبادتكم إياهم» أو كما قال ﷺ، كل ذلك ليس شيء منه عندهم داخلا في اسم العبادة والتأليه أصلا! ولا شك أنهم يخادعون أنفسهم بذلك، تماما كما كان قول كفار قريش حين بادأهم رسول الله ﷺ بدعوة الإسلام، إذ قالوا في تلك المعبودات التي كانوا يتخذون لها الأوثان والصور: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ الآية [**الزمر**: ٣]، فجعلوا معنى العبادة متوجها لغير الله، بزعم أن هذا يوصلهم إلى الله ويقربهم إليه، وهو ما استحقوا بسببه اسم المشركين، وجاء خطاب القرآن من أجل ذلك بتبكيتهم لتأليههم مخلوقات الله وعبادتهم إياهم من دون الله. إذ كيف يعقل أن يكون التعبد

الذي تُنسب إليه سائر الأسباب في الكون، ساغ عند الغربيين أن يعدوهم في جملة الأديان اللا-لاهوتية أو «غير المؤلهة» non-theistic، وهذا غلط كبير لأن التأليه[١] ليس معناه مقصورا علىٰ الاعتقاد في وجود الخالق (مع من يشركه به أكثر المشركين في صفات الربوبية) وحسب!

وتأمل قولها في الاقتباس الآنف «بل ثمة جدال بين العلماء Scholars فيما إذا كانت البوذية ملة متألهة أصلا»، فلنا هنا أن نسألها: أي علماء تقصدين؟ وما مرجعيتهم المعرفية التي توسعوا فيها حتىٰ صاروا «علماء»، وعليها ومنها أطلقوا تلك الأحكام في تصور هذه الملة أو تلك؟ وما حدودهم وتعريفاتهم فيما يستعملون من مصطلحات في الكلام عن الدين ومن أين جاؤوا بها؟ فنحن المسلمين يرىٰ علماؤنا خلاف ما يراه هؤلاء العلماء! ولا شك أن من علماء البوذية نفسها من يرىٰ خلاف ما يراه علماؤكم هؤلاء! فأي تلك العلوم (التي يقال للمتخصصين في كل واحد منها «علماء») هو الأحق بأن تكون له الغلبة والعلو المعرفي (لسلامته من الفساد والتناقض في الأصول والأدلة ومصادر التلقي)، ومن ثمّ تكون له المرجعية الأكاديمية في هذا الشأن كله؟ هذا هو حرف المسألة ومنتهاها.

لطالما كان ولا يزال أهل الأديان والملل والنحل الفلسفية متنازعين فيما بينهم حول حقيقة الدين وحدوده ومصادره المعرفية ومعنىٰ التأليه والإلهية والتأله ومعنىٰ العبادة والعبودية والتعبد ونحو ذلك من المفاهيم الكلية التي يجب أن تنضبط عند

والتأله لمخلوق من المخلوقات (سواء بالتوجه إليه بسؤال لا يوجه مثله إلى مخلوق، أو بالخضوع لتشريعه في محل الرب الباري نفسه، وهو ما حقيقته تأليهه إذ يقتضي جميعه - لا محالة - إنزال بعض خصائص الربوبية عليه) أمرا يقرب فاعله إلى الله؟ هذا تناقض ظاهر، لا مراء في قيام حجة القرآن على من يقول به بمجرد سماعها، والحمد لله رب العالمين.

والقصد أن مفهوم التوحيد والعبادة والتأله و«تعدد الآلهة» عندنا معاشر المسلمين يختلف اختلافا جذريا عما هو عليه عند أهل الملل الأخرى، ولو أنهم وافقونا على مفهومنا في ذلك لتركوا الشرك لزاما وصاروا موحدين، ولو كان الأمر عندهم كذلك ابتداءً لما بعث الله محمدا ولا نزل عليه القرآن!

(١) الذي هو بمعنى اتخاذ المعبود وصرف الأعمال الداخلة في معنى التعبد إليه.

الإنسان علىٰ الحق والصواب حتىٰ يستقيم له تصوره لتلك المادة المعرفية نفسها! [(١)] ولكن هؤلاء «العلماء» الذين ترجع تلك المرأة إليهم قد حسموا أمرهم – في جملة عقائدهم الفلسفية – علىٰ نسبية الحقيقة في هذا الشأن كله: أن هذا الخلاف لا حق فيه ولا باطل أصلا، وأنها كلها تراكيب فلسفية تراثية واهية لا يعنيهم منها – كماديين طبيعيين – إلا ظاهرها الجاري في أحوال الناس وأقوالهم وأفكارهم ومواقفهم، علىٰ المستويين الفردي والجماعي، يبحثون في ذلك خدمة لمقاصدهم الفكرية (المادية) أو غاياتهم السياسية (العلمانية) أو أطماعهم الفردية وطموحاتهم الشخصية (الأكاديمية) من وراء ممارسة البحث العلمي بإجمال.

لذا فلا بأس عندهم بوصف بعض الممارسات والسلوكيات الدينية وصفا معياريا بأنها ضارة نفسيا واجتماعيا Pathological، ووصف البعض الآخر في المقابل بأنه مفيد صحيا بل وعلاجيا Therapeutic، بصرف النظر عن أي قيمة معيارية موضوعية لتلك الممارسات (وما ترتبط به من عقائد ومفاهيم غيبية) يمكن أن تأتي من المصادر المعرفية لتلك الأديان نفسها! وكأن الملاحظة الإمبريقية التي يجعلها القوم بمنزلة حجر الزاوية في تلك الصنعة، هي وحدها الطريق لتحصيل أي معرفة ذات قيمة فيما يتعلق بالدين وفوائد السلوك الديني في مقابل أضراره، وهذا هو التطرف أو إن شئت فقل «الفاشية المادية» بعينها! بل إنه من الكذب علىٰ النفس ولا شك، لأن الملاحظة والمشاهدة والتجريب إنما تأتي (كأداة لبناء المعرفة بناء صحيحا) تبعا للفلسفة أو الاعتقاد الغيبي الكلي والمنهج المعرفي الكلي والمرجعية المعيارية والأخلاقية المستند إليها في جميع ذلك، وليس العكس كما هي فلسفة الماديين، لا سيما التجريبيين منهم Empiricists والوضعيين Positivists!

قال «رالف هود» و«بيتر هيل» و«بيرنارد سبيلكا» في التمهيد للطبعة الرابعة لكتابهم المعنون «علم نفس الدين: مدخل إمبريقي. الإصدار الرابع» (٢٠٠٩، ص XII):

(١) ولا يرجع نزاعهم في الحقيقة إلا إلى حرص الأكثرين منهم على أن يأتي كل واحد منهم بما يحلو له من الخرف في الغيبيات وما فيها وفي أجوبة الأسئلة الوجودية الكبرى من غير أن يحسبه الناس على هذا الدين أو ذاك!

> علىٰ الرغم من كوننا علىٰ وعي ودراية بالصعوبات والحدود التي يفرضها علينا المدخل الإمبريقي الصرف، إلا أننا لم نهمل الالتزام التام بالمدرسة الإمبريقية Empiricism المنفردة بكونها أكثر الطرق إثمارا في تحصيل الفهم بعلم نفس الأديان. ومع هذا، فكثير من الفصول (في هذا الكتاب) تكشف كذلك أن نفس المعطيات الإمبريقية يمكن أن تدعم دعاوىٰ أنطولوجية مختلفة فيما بينها اختلافا جذريا. فبداية من أعمال ويليام جيمس، اقترحت النصوص المنشورة في علم نفس الدين عددا من الخيارات الميتافزيقية المتنوعة (يعني في التأويل النظري) التي يمكن من خلال كل واحد منها أن يُنظر إلىٰ نفس المعلومات الإمبريقية نظرة تترتب عليها تبعات متفاوتة أشد التفاوت. فكل ما نرجوه هنا ألا يفقد المرء رؤيته للبيانات الإمبريقية، حتىٰ يمكن للتأويلات النظرية المختلفة لتلك البيانات أن تُعتبر (علميا) وتقيم في ضوء علاقتها بتلك البيانات نفسها.

قلت: تأمل هذا الغلو الواضح عند أصحاب هذا الاقتباس في قولهم عن تلك الفلسفة المعرفية التي يقال لها «التجريبية» أو «الإمبريقية»: «إنها المنفردة بكونها أكثر الطرق إثمارا في تحصيل الفهم بعلم نفس الدين»!

الفلسفة الإمبريقية هذه أيها القارئ الكريم، هي تلك النحلة في فلسفة المعرفة التي يقول أصحابها بإيجاز إن المعرفة لا تكون صحيحة معتبرة إلا إن وافقت الحس والمشاهدة والتجريب. بمعنىٰ أن أي دعوىٰ معرفية لا يمكن الاستناد إلىٰ تلك الطرق الثلاثة (الحس أو المشاهدة أو التجريب) في إثباتها أو نفيها فلا قيمة لها أصلا، ولا تعد من أنواع المعرفة! ونحن نسألهم: أليس هذا تأسيسا لما تسمونه بـ«علم نفس الأديان»، علىٰ ما تعتنقونه أنتم من فلسفة معرفية، لها ما يلازمها وما تنبع منه وما ينبع منها من الفلسفات والعقائد الغيبية والميتافزيقية ولا شك؟ فما قولكم إن زعمنا أنكم تجعلون دينكم (ونعني بالدين هنا مجموع العقائد الغيبية وما يتفرع عنها من مناهج معرفية وأحكام معيارية) حكما علىٰ ما يمارسه أهل الأديان الأخرىٰ من سلوكيات وممارسات شعائرية وتعبدية ونحوها؟ ما قولكم إن اتخذنا نحن هذا التعريف للدين والملة، وقلنا لكم إن مرجعيتكم المزعومة لا تنتسب إلىٰ «العلم» علىٰ الحقيقة (الذي هو عندنا بمعنىٰ

المعرفة المطابقة للواقع) إلا كانتساب الثرىٰ إلىٰ الثريا، وإنما تنتسب إلىٰ دين باطل في الحقيقة لا حجة فيه علىٰ أحد؟ هذا الإلزام لا مخرج لهم منه مهما قالوا.

ومما يكشف لك الإغراق في الفلسفة المادية الإمبريقية الصرفة عند هؤلاء، أنك تراهم حين ينتقدون نظريات «فرويد» التحليلية في تفسير الدين (بهذا الإطلاق) التي تقول بأنه ليس إلا انعكاسا لشهوات ورغبات الإنسان الدفينة في التعلق بكائن «أبوي» عظيم القدرة يقيه من أخطار الطبيعة ويشبع رغبته في الاستقواء علىٰ أعدائه .. إلخ، لم ينتقدوه علىٰ أن كلامه مخالف لما تقتضيه البداهة من ضرورة وجود خالق بارئ في السماء، تتشوف النفس الإنسانية بطبيعتها إلىٰ الوقوف علىٰ ما يمكن الحصول عليه من معرفة بشأنه، ولم ينتقدوه - بالطبع - علىٰ أساس من مخالفته لما عرفه أهل الدين الحق من معرفة بشأن أصل الدين عند آدم وذريته، جاءت من وحي صحيح ثابت من رب العالمين، وإنما انتقدوه علىٰ أساس افتقاره في دعواه لأي دليل إمبريقي تجريبي أو إكلينيكي يدعم نظريته تلك أو تفسيره ذاك![1] فلو أن «فرويد» تمكن من الوقوف علىٰ جملة من المشاهدات التي يمكنه أن يزعم أنها تدعم اعتقاده هذا بشكل ما أو بآخر (علىٰ ما هو معمول به في طرائق التجريبيين عموما)، لكانت نظريته في «أصل الأديان» عند النفسانيين بمنزلة نظرية داروين في أصل الأنواع عند عموم الطبيعيين، ولكنه لم يفعل. فلهذا، ولهذا فقط (فيما يظهره مخالفوه من حجاجهم)، لا قيمة «علمية» أو «أكاديمية» تذكر لتعميمه وإطلاقه بشأن نشأة الدين.

والحاصل أن موقف علماء النفس الماديين من الدين اعتقادا وسلوكا (وهو الموقف السائد والمعتمد أكاديميا في سائر بلاد الغرب وما تابعها) إنما يقوم عند أصحابه علىٰ فلسفاتهم الإلحادية والمادية الطبيعية قياما كليا، ولو أردنا تتبع ذلك الأمر في مؤلفاتهم لما وسعنا هذا المجلد ومثله معه، ولعل فيما جمعناه في هذا المبحث كفاية إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) انظر كورفيلين وليتن وديزوتر، ٢٠١٣.

وفي ختام هذا المبحث الوجيز لا نجد إلا أن نقول في كلمة جامعة لمن اغتر بهؤلاء الفلاسفة والمنظرين من أهل الجحود والمكابرة: بل هؤلاء هم أصحاب النفوس المريضة والله، وهم في ذلك وكل من أسس بنيانه علىٰ شفا جرف هار من أهل الملل الباطلة علىٰ السواء، وفاقد الشيء لا يعطيه، فإياكم معاشر المسلمين والاغترار بأي دعوىٰ يأتي بها أحدهم ليقول إن شعيرة كذا أو شريعة كذا في دينكم أيها المسلمون قد أثبت «البحث العلمي» أنها تضر بالنفس أو أنها تؤذي الجهاز العصبي أو نحو ذلك! وحسب الواحد منكم ما في نفسه من يقين في أنه علىٰ الدين الحق، فإن جنة اليقين في قلوبكم لا تبلغها أحلام هؤلاء السفهاء، وما كان لها أن تصل إليها إلا بقبول الحق الفطري الجلي والدخول فيه، والحمد لله علىٰ نعمة الإسلام والعقل.

يجب أن يفهم الناس أننا معاشر المسلمين أهل علم منزل من السماء، قوامه نص معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نؤمن بهذا ونؤسس عليه معارفنا وإن كره من كره. لسنا أصحاب خرافة أو وهم ذهاني كما قد يصح في وصف غيرنا من أهل الملل، ولسنا أصحاب محاولة بائسة «لأسلمة» علم النفس أو غيره من العلوم المعاصرة، حيث ترىٰ الباحث من هؤلاء يأتي بنظريات القوم – المتفرعة علىٰ أصولهم هم – ثم يبحث في نصوصنا عما قد يظهر له أنه يوافقها، لعله بذلك يرضي رغبته الخفية في نفسه في أن يوافق ما عليه عامة الأكاديميين الذين ينتمي إليهم من جانب، ويوافق تعاليم دينه من الجانب الآخر، فيخرج من الأمر من غير أن يخسر شيئا يحبه أو يطمع فيه! تماما كما نرىٰ من يحاولون أسلمة الديموقراطية في باب التشريع السياسي، ومن حاولوا من قبلهم أن يؤسلموا الاشتراكية وما تفرع عليها من نظريات وسياسات، ومن يحاولون أسلمة كثير من نظريات العلم الطبيعي في الغيبيات، التي نختلف مع أصولها الفلسفية الأولىٰ اختلافا عظيما.

هذه المساعي كثيرا ما يحركها عند أصحابها أهواء ودوافع باطنة لو وقفوا مع أنفسهم وقفة صدق وتجرد لتمكنوا من تبينها ومعالجتها. فليس من الصعب ولله الحمد علىٰ من أراد ذلك أن ينظر في موقفه من الأدلة المعرفية التي بين يديه من جانب

(ومن التقصير في جمعها إن كان مقصرا في ذلك)، وفي العواقب الدنيوية التي يتوقعها ويرجوها من فعله ما يعزم علىٰ أن يفعله، ومن تركه ذلك والانصراف عنه من الجانب الآخر، أيها أحب إلىٰ نفسه وأيها أبغض إليها، ثم يعالج ذلك بوعظ النفس وتذكيرها ببهاء وعلو عاقبة الحسنىٰ في الآخرة، وشناعة وبشاعة عاقبة السُّوأىٰ في الآخرة، نسأل الله السلامة، ومن ثمّ، وبعد إلحاح ومغالبة ومعاهدة، عسىٰ أن ينشرح الصدر بأن تتبدل المحبة من العاقبة الدنيوية إلىٰ العاقبة الأخروية، ويتبدل البغض والنفور من العاقبة الدنيوية إلىٰ العاقبة الأخروية كذلك، ومن ثم يجد في نفسه من العزم ما يحمله علىٰ التجرد للحق فيما يأتي من الأفعال وما يذر.

بالمراقبة ومحاسبة النفس وحدها يتبين المسلم ما في باطن نفسه من ميول ودوافع، ويمتاز له ما كان منها لله خالصا وما كان لسواه، ويتبين ما إذا كان المذهب الأحب إلىٰ نفسه هو ما يُنصر به الحق ويتبع فيه الدليل وإن كانت نفسه تكرهه، أم ذاك الذي ينتصر به لتلك النفس ولمن تحبهم وتتعلق بهم، ويحصُل من القول به وتقريره والدفاع عنه من علو تلك النفس بين الأقران وتمكنها من الخصوم وقهرها إياهم ما تحبه وتتشوف إليه.

في تعريفنا للانحراف الذهاني Psychosis

بالنظر إلىٰ جملة ما حررناه في هذا المجلد من مفاهيم، وبالتأسيس علىٰ مرجعيتنا الشرعية الإسلامية، فلعلنا نعرف الانحراف الذهاني Psychosis تعريفا نرجو أن يكون جامعا مانعا، فنقول إنه كل صورة من صور التعلق البالغ بمعتقد مخالف للبداهة العقلية الأولىٰ، ومخالف للدليل الشرعي الصحيح الظاهر مخالفة لا يمكن الاشتباه في بطلانها، وهذا بصرف النظر عما عليه عامة الناس من حول صاحب ذلك المعتقد وما يقبله أو يرفضه مجتمعه من ذلك.

فليس كل من يصفه مجتمعه بأنه مجنون فهو مجنون علىٰ الحقيقة ولا بد. وكم من رسول بعثه الله تعالىٰ في أمة من الناس فرموه بالجنون لا لشيء إلا لمخالفته ما وجدوا عليه آباءهم. قال تعالىٰ في ذلك: ﴿**وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ [**الحجر**: ٦] ويقول جل وعلا: ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ [**الصافات**: ٣٦] ويقولون: ﴿**فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾ [**الذاريات**: ٣٩] وقوله جل وعلا بإجمال: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾ [**الذاريات**: ٥٢] إلىٰ غير ذلك من آي الكتاب. فوجه وصفهم رسولهم بالجنون، أنه خالف ما عليه اعتقادهم الذي يتفقون عليه. وكما رأينا فإن الوسط الأكاديمي المعاصر للنفسانيين الغربيين يميل أكثره إلىٰ أن يتخذ من موافقة ما عليه المجتمع علامة من علامات الصحة العقلية، أيا ما كان موضوع تلك العقائد نفسها. مع أن الذين يخالفون الحق الجلي الظاهر بعدما يبين لهم، هم الأليق بالوصف بفساد العقل علىٰ الحقيقة.

فما دمنا نتكلم في هذا الصنف من الانحرافات النفسية عن اعتقادات معرفية، فينبغي أن يكون المرجع في معرفة العاقل من الخَرِف الواهم في ذلك إنما هو موقفه من الدليل الظاهر علىٰ صحة أو بطلان تلك الاعتقادات. ولذا فإننا لا نجد حرجا في أن نقول إن أصحاب الاعتقادات الباطلة المخالفة لبداهة العقل الأولىٰ، الذين يصرون

علىٰ التمسك بها مهما ظهر لهم فسادها، يتبعون في ذلك أهواءهم وشهواتهم، هؤلاء يعانون من نوع من أخطر أنواع الانحراف النفسي الذهاني Psychosis، بل هو أخطرها وأفسدها للعقل والقلب علىٰ الإطلاق. فهم لا يعملون مع حجج الحق إذا ما جاءتهم بحسب ما يقتضيه العقل السوي الصحيح، بل تراهم يتفننون في ألوان التزيين النفسي والتسويغ والتشويش لما يحبونه من البقاء علىٰ ما هم عليه، وإن كانت عاقبة الموت عليه هي الخلود في الجحيم، نسأل الله السلامة. وعلىٰ هذا التعريف، فإن هذا الوصف ينطبق علىٰ جميع أصحاب الملل الشركية الذين قامت عليهم حجة الحق يوما ما، واستكبروا عنها ولم يقبلوها. بل لعله ينطبق علىٰ جميع أهل الملل الشركية سواء من بلغتهم الحجة الرسالية أم لم تبلغهم، وإنما يتضاعف الأمر في حق من بلغتهم الحجة الرسالية واتخذوها ظهريا.

هذا ولينتبه إلىٰ أننا بهذا الوصف للمرض العقلي عند عموم المشركين، لا ندخلهم في صفة الجنون التي يترتب عليها إسقاط التكليف والمسؤولية الأخلاقية في شريعتنا (كما في قوله ﷺ كما عند الإمام أحمد في مسنده: «رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتىٰ يستيقظ، وعن الصبي حتىٰ يبلغ، وعن المجنون حتىٰ يعقل»). فالمجنون في هذا السياق هو ذلك الذي بلغ به الذهان حالة من ضياع العقل بالكلية كالسكران (وهو ما يقال له إغلاق العقل علىٰ اصطلاح الفقهاء)، فلا يميز شيئا ولا يستجيب لخطاب من يخاطبه من الناس استجابة العقلاء. وإلا فمن عقل وأدرك ما عليه من تكاليف الشرع وميزها ووعاها، فلا يرفع عنه القلم، مهما كان في نفسه من صور الانحراف أو الاضطراب. وهذه قضية مهمة في الحقيقة لأن من فلاسفة القانون والتشريع الغربي من يتخذ من دعوىٰ الإصابة بالمرض النفسي مستندا لتبرئة كثير من المجرمين وتحويلهم إلىٰ العلاج النفساني بدلا من العقوبة، وإيداعهم المصحة العقلية بدلا من السجن أو الكرسي الكهربائي، حتىٰ أصبح كثير من المحامين في تلك البلاد يتفننون في دفع العقوبة عن عتاة المجرمين من موكليهم بادعاء الانحراف النفسي لديهم Pleading Insanity Defense.

ونقول إن كل عاقل يعلم ما يفعل، ويعي أن ذلك الفعل محرم وممنوع بالتشريع وأن فاعله يستحق العقوبة، هذا لا يجوز أن تُدفع عنه العقوبة بدعوىٰ الجنون أو المرض النفسي مهما كان في نفسه من صنوف المرض والانحراف، لأنه لا يعتبر في شريعتنا من ذلك، علىٰ الصحيح من أقوال العلماء، إلا إغلاق العقل حال الفعل، بما لا يدري معه الفاعل يمينه من شماله. أما أن يؤتىٰ برجل سفاح واع متنبه لما يفعل، وقد أزهق عشرات بل مئات الأنفس البريئة بغير حق، ثم يودع في مصحة نفسية للعلاج بدعوىٰ أنه ما سلك تلك المسالك إلا لأنه مريض بصنف من صنوف الرهاب أو الفصام أو نحو ذلك، وأنه مغلوب علىٰ أمره فيما فعل، فهذا وأيم الله هو المرض والسفه بعينه.

فالقاعدة إذن: إن كل من بلغه التشريع ووعاه وفهمه فقد خوطب به وقامت عليه حجته، وهو مسؤول مستحق للعقوبة إن جاء بما يستوجبها، ومستحق للمكافأة إن جاء بما يستوجبها. ولا شبهة في هذا بنفي القرآن صفة العقل عن المشركين في غير موضع، لأن المقصود بالنفي ليس فقدان تلك الآلة المنطقية الفطرية التي بها يميز الإنسان الحق من الباطل، وإنما المقصود تخلف نفوسهم الخبيثة عن حملهم علىٰ العمل بما عرفوا من الحق وما عرفوا من الباطل، بعدما تبين لهم، اتباعا للهوىٰ، وهو ما فيه يقول تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]. فالنفس التي رزقت بالتقوىٰ، هذه تحمل صاحبها علىٰ اتباع الحق ومخالفة الهوىٰ (وهو عين العقل وزينه)، بخلاف تلك التي ابتليت بالفجور، نسأل الله السلامة. لذا نقول إنه ليست سفاهة المشركين كسفاهة الأطفال والمجانين، فإن سفاهة الطفل لا يستحق من أجلها الذم (ولا توصف بأنها مرض نفسي أو عقلي أصلا)، وأما المجنون فمبتلىٰ بحالة مرضية لا يملك لها دفعا فلا يذم من أجل ذلك، وكلاهما، الصبي والمجنون، ساقط عنهما قلم التكليف! وأما المشركون المعاندون للحق بعدما جاءهم وعرفوه، فهؤلاء يستحقون الذمّ الشديد ولا شك.



الخاتمة

خلاصة الأمر الذي أدعو إليه في هذا الكتاب، أيها القارئ الكريم، أن نعامل من يأتينا بشبهة ما حول أصول التوحيد معاملة المريض النفسي والعقلي الذي يخاطَب بحسب حاله خطابا نفسيا يرجعه إلىٰ رشده ويعالج ميل نفسه لسماع ذاك الهراء (من الأساس)، لا أن نعامله معاملة الجاهل الذي يخفىٰ عليه هذا البرهان أو ذاك فيلزمنا أن نعلمه ما يجهل، وإذا بنا نعرضه لألوان من التكلف النظري والاشتباه الجدلي في أمور قد جبل العقلاء علىٰ التسليم بها (لموافقتها الفطرة إما بالمطابقة أو الاقتضاء)، فلا نزيده إلا مرضا فوق مرضه من حيث لا نشعر، نحيل المزيد من الضروريات عنده إلىٰ ظنيات وجدليات!

إن جاءك ولدك في يوم من الأيام بشبهة إلحادية أو نحوها مما يعترض به علىٰ وجود الباري أو علىٰ كمال صفاته أو علىٰ صحة نسبة دين الإسلام إليه سبحانه، أو علىٰ حقيقة ثابتة في القرآن، التقطها ولدك من هنا أو هناك يطلب منك الجواب عنها، فلا تحله لجواب الشبهة في هذا الكتاب أو ذاك أو تتكلفه علىٰ شرط أصحاب الشبهة ومفهومهم هم «للجواب العقلي»، إلا وقد علمت ولدك أولا بطلان ذلك الشرط والمفهوم نفسه عند أصحابه وأنه غير ملزم، حتىٰ لا يرجع إلىٰ نفس المنبع يطلب المزيد، تحركه رغبته في أن يرىٰ «انتصار المسلمين» علىٰ هؤلاء المجرمين بنفس الطريقة! علمه فقه قوله عليه السلام «فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله»، فما أشدّ فقرنا إلىٰ هذا الفقه اليوم، والله المستعان! قل له: «أما علمت أنه ما من حقيقة بديهية إلا وجد في الأرض من ينفيها ويجادل ويماري فيها؟ فبالله متىٰ يستقر لك دينك وإيمانك ويقينك إن رحت تجري خلف كل شبهة تبحث عن الرد علىٰ هذه والرد علىٰ تلك؟ أفي مخلوقيتك تشك؟ أفي فاطر السماوات والأرض ترتاب؟ أخلقت من غير شيء أم أنت خلقت نفسك وما حولك؟ أفي صحة التوحيد وبطلان الشرك مطعن يعقل؟

هذا الذي يقال له «جواب الشبهة» إن كان ضربا من التنظير الكلامي أو نحوه (في مسألة هي في أصلها حقيقة بدهية واضحة)، فمهما كان محكما في نظر صاحبه، فلا يلزم أن يكون كذلك في نظر غيره ولا بد، بل أغلب الظن أنه سيكذب المخالف المردود عليه ويماحك فيزعم خفاء وجه الجواب عليه كما زعم خفاء الأصل البدهي المعترض عليه بالشبهة نفسها من الأساس! فإن جيء المتكلم باعتراض علىٰ الرد (نظري أيضا) لزمه الرد عليه (برد نظري مثله)، فإن جاء الجواب قوبل بالجواب، وهكذا في إطار صورة «المناظرة»، فإن توقف في لحظة ما وقال لمجادله: أنت مماحك كذاب فقد تبين الحق في كلامي الأخير وأنت تجحده، فأي شيء يقتضيه ذلك التقرير من جانبه إلا الشهادة علىٰ أصل محل الشبهة نفسه وموضوع الخصومة بأنه يفتقر إلىٰ من يظهر الحق فيه ويجليه، ومن ثمّ تنعقد فيه المناظرة والمباحثة ورد الدليل بنظيره كما هو الشأن في عامة القضايا النظرية؟ الأمر كما بيناه في موضعه ضرب من التناقض الخفي الذي لا ينتبه إليه عامة المتكلمين، وحاصله الحتمي ونتيجته الضرورية أن تتحول البدهيات والضروريات (التي يكفرون من خالف فيها ويلزمهم ذلك) إلىٰ مسائل نظرية اجتهادية مفتوحة للأخذ والرد، حتىٰ إنه قد يتأخر ظهور الحق والبرهان فيها بين المتخاصمين عليها بعد كثير من البيان والشرح والتحرير، فلا نصل إلىٰ معرفة أننا مخلوقون – مثلا – وأن خالقنا مستحق لسائر الكمالات منزه عن جميع النقائص إلا بعد طول نظر وبحث واستبيان واستفصال ورد الاعتراضات الكثيرة بجواب يسلم – في نفسه – من الاعتراض، وهلم جرا! فأنىٰ لمسألة هذا مناط تحصيل المعرفة فيها أن يُتشدد في التكفير بها بلا إعذار ولا إنظار؟ بل يلزمهم أن يعذروا من ينفي وجود رب العالمين أو يتوقف في إثباته بالجهل والاشتباه، ما داموا يعكفون علىٰ «تعليمه» وتوضيح الواضحات له علىٰ نحو ما يصنعون، وإلا تناقضوا! لا مخرج لهم من ذلك الإرجاء والإفساد للعقل والدين جميعا – لو تأملوا – إلا بأن يعترفوا بأن القضية قضية مرض نفسي يعتري المعرضين والمستكبرين، قضية هوىٰ عظيم في باطن النفس، وليست قضية نقص معرفي يستدعي المناظرة والمباحثة لاستجلاء الأدلة والبراهين!

أساس القضية أيها القارئ الكريم عارض يعتري النفس المريضة فيميل بها (بميزان المحبة والبغض فيها، أو الرغبة والنفور) ميلا يزين لها قبول هراء السوفسطائيين من أهل الملل (من «شبهة» أو غيرها)، مهما كان مصادما لبديهيات العقل وأولياته!

أما هذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ الكريم، فقد كتبته لجملة من الأسباب، كان منها عندي أن أبين أن هجر الملحد وإهماله وعدم الالتفات إليه، وزجره إن حاول أن يتكلم بإلحاده في أي محفل عام، وتضييق ذلك السبيل عليه بكل طريقة تؤمَن معها الفتنة ولا يترتب عليها منكر أكبر، هو طريق السلف ﷺ في مثل ذلك، بخلاف طريقة المتكلمين الذين قد يمكث الواحد منهم يجادل الملحد مرارا وتكرارا ربما لشهور بل لسنوات طويلة (كما نرىٰ ذلك واقعا محققا في بعض المنتديات علىٰ الشبكة) من غير أن يرجع ذلك بثمرة إلا ترسيخ فكرة أن الملحد له الحق الأخلاقي (قبل أن يكون حقا تشريعيا سياسيا) في أن يصبر عليه الناس وأن يتقبلوا موقفه ونزاعه معهم، لأنه لو كان باطله واضحا جليا كما يزعم المسلمون، بما يستوجب استشناعه والتضييق علىٰ صاحبه وبتره من المجتمع (كما كانت طريقة السلف في ذلك)، ما طال الجدال معه وما استعصىٰ بيان الحق بين يديه علىٰ هذا النحو!

فالآفة هنا هي أن كثيرا من المتصدرين للدعوة باتوا يتصورون – بكل أسف – أن أصحاب الفتنة بالإلحاد الغربي خصوصا وبالثقافة الأوروبية عموما، لا يجدي معهم إلا أن يسمعوا خطابا مشحونا بالإشارة إلىٰ كلام الفلاسفة والمناطقة والرياضيين وعلماء الطبيعيات وأمثالهم ممن عظمهم القوم وداروا في فلكهم، علىٰ أساس أن الجهل بكلام هؤلاء الكبار عند القوم هو الجهل المحقق، وعليه فالعلم بما كتبوه وما قالوه وما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، هو شرط الأهلية لمخاطبة المرضىٰ والمفتونين بتلك الثقافة الإلحادية الصرفة! فإن لم يكثر في كلامك الـ«إيزم» (ism-) والـ«أولوجي» (ology-) وأخواتهما، ولم تملأ تصانيفك بقال فلان وفلان من الفلاسفة والمفكرين المعظمين لدىٰ من تخاطبهم، فلست أهلا لأن يقرؤوا لك أصلا، ولا يرجىٰ لهم هداية علىٰ يديك! فمن أين جاء هذا الشرط الضمني بأن يكون نوع الخطاب وأسلوبه علىٰ

هوىٰ المخاطب ومزاجه، لا علىٰ ما دلت الأدلة المنهجية علىٰ جدواه مع من كان يرجىٰ له الهداية ممن تلك حاله؟ وما دليلكم في التقيد بذلك الشرط الساقط يرحمكم الله؟

إنه الهوىٰ الخفي كما قررنا في هذا المجلد في غير موضع! إنها كراهة أن أبدو – وأنا الداعية إلىٰ الله – وكأني فقير في بضاعة الفلاسفة أو أن عقلي لا يرقىٰ لفهمها وفك طلاسمها والإتيان بمثلها أو بأشد منها عمقا ودقة في الرد عليها وبيان فسادها! وهو – كما بينا في محله – نفس المرض الذي منه نبتت نابتة «علم الكلام» في بلادنا من القرون الأولىٰ! إنه نوع من الهوىٰ العظيم يخفىٰ، علىٰ عظمه وخطورته، علىٰ كثير من الناس بكل أسف.

فيا عباد الله يا موحدين، يا أتباع خاتم المرسلين، إياكم والفلسفة، إياكم وعلم الكلام، اتقوا الله في أنفسكم وفي أولادكم والمقربين إليكم، ومن استرعاكم الله أمرهم ومن استأمنوكم علىٰ دينهم ودنياهم! لا تعلموهم تلك الأمراض ولا تعرضوهم لها في مدارسكم ولا في جامعاتكم ولا في إعلامكم، فوالله ليست فلسفة الغيبيات والماورائيات وفلسفة الدين وكثير من مباحث فلسفة المعرفة كذلك، إلا ضربا من المرض النفسي المحض والزخرف الشيطاني المدمر، وعلوم اللاهوت الديني عند أهل الملل وعلم الكلام عند أهل القبلة تبع لها في ذلك، حكم هذه من حكم تلك، ومفسدة هذه من مفسدة تلك! هذه كلها مسالك أقوام أعياهم اقتفاء الأثر، وكرهوا أن يكونوا أتباعا لأمثالهم من البشر، وإن كانوا رسلا من عند ربهم العليم المقتدر! أعماهم كبر نفوسهم وغرورهم بعقولهم، فأبوا إلا أن يجعلوا مسلمات الفطرة الأولىٰ من جملة موارد النظر، فإن جاءهم الداعي إلىٰ الله قالوا له عليك بالمناظرة، ودونك إذن خرط القتاد إن أردت أن تقطع خصمك أو تنتصر! فأي خير يرجىٰ من تعلم زبالتهم التي جعلوها عنوان العقل وكماله، وأي نص هذا الذي نزل من السماء بإلزامكم معاشر الدعاة بمواطأة الفلاسفة في ذلك الضرر؟ وأي ثمرة تطلب من موافقتهم – إن لم يكن بالتصريح فبمقتضىٰ الحال – علىٰ التنظير في معان لا ينبغي لمثلها أن تخفىٰ علىٰ عقل بشر؟ كم من رجل كان من قبل علىٰ فطرة سوية وعقل مستقيم ونفس صحيحة،

فأوردتموه موارد الشك والاضطراب، وزرعتم في نفسه بذرة الشيطان التي تفتح باب الرأي فيما لا رأي في مثله ولا نظر؟ وكم من العقول التي خلقها الله نقية طاهرة، تلوثت بذا المرض الذميم حتىٰ فسدت الفطر؟

دخل أحدهم علىٰ صفحة متكلم أشعري علىٰ «الآسك»، فسأله هذا السؤال: «لدي سؤال عن التعليم الديني بالسعودية. لا يمكن أن ننكر بأن أغلب الشعب هنا إيمانهم وراثي وعاطفي اكثر مما هو عقلاني، لماذا لا يدرس علم الفلسفة والكلام والمنطق بالتعليم المدرسي والجامعي؟»

فأجاب الرجل قائلا:

الشعوب والعامة، الغالب فيهم عدم الخوض في مثل هذه العلوم، وهذا ملائم لطبيعتهم، إذ هذه العلوم تتطلب نفسية مختلفة تكون متزنة وتواقه متقدة، وعقل واسع مرن، وإلا سيتعب الإنسان، ولن يستفيد منها شيء.. وليس كل البشر هم علىٰ الصفة الذي ذكرت، فمنهم كذلك ومن غير ذلك.

فالعوام يجب تنبيه عقولهم، وزرع الأدلة اليقينية فيها بشكل مجمل مبسط، ولا نعني بذلك الخوض بهم في غمار بحور لن يسبحوا فيها، إنما سيهلكوا بخوضها، إنما نعني توسيع آفاقهم العقلية، وتعميق نظرتهم إلىٰ الدين والإنسان والحياة. وهذا كاف لإصلاح دينهم، وحياتهم، ونظرتهم للوجود.. وهم أقرب في طبيعتهم لذلك وتقبله!!

وقد وجه الشيخ أبو حامد الغزالي ـ قدس الله سره ـ بأن هذه العلوم كالأدوية التي يقوم عليها الأطباء، وأن المخاطب بها هم المرضىٰ الذين أعيتهم الأدوية والبلايا، وأن من أشد البلاء هو تسليط الدواء علىٰ الأصحاء، بحيث أن هذا سيتلف طبيعتهم، ويورثهم المرض والأتعاب..

وبهذا يجب إعداد جيل من الأطباء يستطيعون التعامل مع مثل هذه الأمراض، وهذه المعضلات، والبداية يجب أن تكون من التعليم، فكما يكون هناك رياضيات مبسطة، تقدم للطالبين، أيضا يكون تدريس لعلم المنطق، والكلام بشكل ابتدائي، ومن ثم متقدم، ومن ثم متوسط، وحتىٰ نصل إلىٰ درجة إعداد المتكلم، الذي تكون له وظيفة شرعية كالفقيه وكالمحدث والقارئ وغيرها من وظائف أهل العلم وصفاتهم..

ولا يكون الأمر إجباريا، إنما يكون عبارة عن تخصص مقترح يتوجه إليه من عنده القدرة علىٰ خوض غماره، كما التخصص الطبي والهندسي وكذا باقي التخصصات.
مع العلم أني درست المنطق علىٰ يد شيخ من الهند، وكان المتن الذي يدرسني فيه متن يدرسه الأطفال، في بلادهم!

ولكن لبعدنا عن المناهج القوية، والعلوم الرصينة، رأينا مثل هذا النوع صعبا معقدا، وهو ليس كذلك.. والأعجب أننا في فترة من الفترات كان يروج لنا عن طريق السخرية والاستهزاء، صعوبة علم الكلام والمنطق، وأنها لا تفيد أحدا، وأن الحمد لله علومنا سهلة وبسيطة، ومن ثم مشي حالك :). ففي واقع الأمر تعليمنا كان سطحيا، وساذجا بعيدا عن المتانة والقوة القائمة علىٰ النظر العميق، والتأصيل الدقيق، ولذلك خرج جيل من الشرعيين، لا يحل مشكلة ولا يمكنه ذلك، حتىٰ تنبه الكثير إلىٰ ضرورة إيراد العلوم الحكمية، والرجوع إلىٰ الطرق القديمة، التي كانت توصف بالتخلف والغموض والصعوبة والتعقيد.

والكلام هذا يجب أن يتوجه إلىٰ من قلده الله مسؤولية الناس، وعنده القدرة علىٰ التأثير، أما يكفي الماضي؟! وحتىٰ متىٰ تكون المكابرة وضيق الأفق؟!

قلت: في هذا الجواب ما يكشف لك عن مرض في القلب عميق وخلل في التصور لا يخفىٰ وجهه إلا علىٰ متكلم مغموص عليه في الهوىٰ! لكن دعنا أولا نكشف ما في السؤال نفسه من مرض، تخلف المجيب عن كشفه وبيانه لأنه مصاب بمثله، فهو يقر السائل عليه! يقول السائل: «لا يمكن أن ننكر بأن أغلب الشعب هنا إيمانهم وراثي وعاطفي أكثر مما هو عقلاني»، وأقول: إن في هذا التقديم للسؤال إجمالا وكذبا لا يخفىٰ! ووجه كونه كذبا أنه يراد منه تقرير أصول المتكلمين المجملة في مفهوم «الإيمان الوراثي» و«الإيمان العقلاني». فمبدأ اتخاذ الإيمانين (المسمىٰ هنا بالوراثي والمسمىٰ بالعقلاني) قسيمين عند عامة المسلمين في أي بلد من البلدان المسلمة علىٰ هذا النحو الذي تكلم به السائل، مرجعه إلىٰ اعتقاد المتكلمين وجوب النظر في وجود الصانع علىٰ المكلفين، وأن إيمانهم لا يكمل إلا بحصول النظر! فالعقلانية عندهم مبدؤها من ذاك النظر، والإيمان لا يكون «عقلانيا» بدون ذلك النظر، وإنما يكون إيمانا «وراثيا»،

والإيمان الذي هكذا صفته: «تقليد» عند المتكلمين، والتقليد في أي شيء مذموم كما هو معلوم! فهم لا يقولون بالفطرة والمعرفة الفطرية أصلا.

لذا أبدىٰ السائل استياءه من خلو مناهج التعليم الديني في المملكة – حفظها الله وحماها من عبث هؤلاء ومكرهم! – من الفلسفة والكلام والمنطق، وطالب المجيب ببيان السبب في ذلك. فالفلسفة والكلام والمنطق هي رأس العقل وكماله عندهم، وهي الصناعات التي بها تصحح العقول وتضبط المفاهيم وتستقيم الأنظار. فإذا كان الإيمان بكافة ضروريات الدين وأصوله ومسلماته الأولىٰ لا يحصل منه شيء في النفس إلا اكتسابا من بعد جهل (كما هي عقيدتهم)، وكانت الأصول الكلية المتقدمة علىٰ السمع نفسه في بناء المعرفة في نفس المسلم أصولا مكتسبة من بعد جهل، لم يكن السمع بمجرده طريقا لتحصيلها، لأنه إنما يتأسس عليها! والفلاسفة والمتكلمون والمناطقة قد غاصوا بالتنظير في تلك الأصول الكلية إثباتا ونفيا وتنظيرا، فلا بد وأن يكون تعلم واكتساب ذلك التنظير هو أول واجبات المكلفين، لأنه لا يقوم التسليم بالسمع وما فيه عند المخاطب به إلا تأسيسا علىٰ ما يفترض بذلك التنظير أن ينتهي إليه! من هنا كان تعليم الفلسفة والمنطق والكلام (أو ما يسمىٰ في مجموعه بـ«العقليات») واجبا عند المتكلمين في أصل التعليم الديني نفسه، حتىٰ يكون الإيمان «عقلانيا» لا «وراثيا»، وحتىٰ يسلم صاحبه من أن يكون «مقلدا في الإيمان»! وهذا الاعتقاد عند المتكلمين في مفهوم العقل ومفهوم التقليد في الإيمان وما ترتب عليه من أحكام عندهم باطل كله عند أهل السنة والأثر، الذين أسسوا تلك المملكة المباركة يوم أسسوها، علىٰ طريقة السلف الصالح ﷺ، وعلىٰ ما هو مقرر محفوظ من ذمهم الشديد للفلسفة والكلام وحجزهم العوام عن تلك البضاعة!

لذا لا تزال شرذمة من أهل الأهواء تئن ألما وتوجعا في كل مناسبة من «افتقار» المملكة في مكتباتها ومؤسساتها التعليمية من كتب «العقليات» ومتون الكلام والمنطق الأرسطي التي يؤسَّس بها للنحل الكلامية عند من يتعلمها! وهي – بكل أسف – فئة متنامية في عددها وتأثيرها في المؤسسات التعليمية بالمملكة، وماضية إلىٰ ازدياد، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والقضية ليست في تلك الفئة وحدها، وإنما في فئة أخرىٰ من أهل

الأهواء المتكلمين كذلك التي تنتسب إلىٰ السلفية وإلىٰ عقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من أئمة السلف، مع أنها تجري في الحقيقة علىٰ أصول المتكلمين الجهمية والأشاعرة في هذا القدر الذي حررناه آنفا من منهجهم من حيث لا تدري![1] فتراهم مغرقين في النظر القياسي في الإلهيات والغيبيات علىٰ طريقة الفلاسفة والمتكلمين، بدعوىٰ مناظرة الملاحدة والعلمانيين والانتصار للدين، يحسبون أنهم إذ خالفوا الأشاعرة والمعتزلة في جملة أقوالهم القديمة في الأسماء والصفات والأفعال الإلهية والقدر فقد خرجوا بذلك من آفة علم الكلام أولها وآخرها! مع أن هذا الاعتقاد هو رأس الآفات في علم الكلام نفسه لو كانوا يعقلون! فالمتكلمون هم من يزعمون أن الخلل في علم الكلام مرجعه إلىٰ آحاد العقائد الفاسدة التي افترقت عليها فرقهم وطوائفهم فيما بينها! أما أهل السنة فيذمون طريقة الكلام نفسها من أصولها المنهجية الأولىٰ ومن تأسيسها المعرفي نفسه (كما بسطنا الكلام عليه بعون الله تعالىٰ في هذا الكتاب وغيره)، بداية من قولهم بهذا التفريق البدعي بين ما سموه بالإيمان الوراثي وما سموه بالإيمان العقلاني، كما أطلقه السائل ثم أظهر الحسرة علىٰ فشو الأول وقلة الثاني في المملكة حفظها الله! أهل السنة يخالفون أصحاب الكلام في الأصل المعرفي الذي قامت عليه صنعة الكلام نفسها، وفي مفهوم «الدليل العقلي» عندهم، وليس فقط في آحاد العقائد التي نشأت عندهم عن إعمال ذلك المنهج الكلي الفاسد! وهو ذلك الأصل الذي يود هذا السائل ومجيبه بالتأسيس عليه أن يأتي يوم قريب في المملكة تدرس فيه «العلوم العقلية» في سياق التعليم الديني النظامي. ولاشتراك تلك الطائفة المائعة المميعة من متسلفة أهل الكلام المشار إليها آنفا مع هؤلاء في ذلك الأصل الجهمي نفسه عندهم، تراهم يدندنون علىٰ نفس الشكوىٰ ونفس الحسرة والمرارة من قلة كتب الفلسفة والكلام في المملكة بعموم! فهي التي يطلب منها الدواء والشفاء لكل مبتلىٰ في دينه بحسب حاله، وهي عدة «المحاور» المتخصص المراد صناعته حتىٰ يكون هو الطبيب القائم علىٰ ذلك العلاج!

(١) بل إن بعضهم متمشعر على التحقيق من حيث لا يشعر، وهو مع ذلك يعد نفسه سلفيا على طريقة شيخ الإسلام!

فهذا الكذب، وأما المرض، ففتنة قلوب المتكلمين بالتنظير العقلي النظري في الغيبيات (علىٰ اختلاف صوره وأنواعه وضروبه في القديم والحديث)، واعتقادهم أن التفريط في ذلك جهل وحماقة وخفة عقل!

لذا يقول المجيب في صدر جوابه: «الشعوب والعامة، الغالب فيهم عدم الخوض في مثل هذه العلوم، وهذا ملائم لطبيعتهم، إذ هذه العلوم تتطلب نفسية مختلفة تكون متزنة وتواقه متقدة، وعقل واسع مرن، وإلا سيتعب الإنسان، ولن يستفيد منها شيء .. وليس كل البشر هم علىٰ الصفة الذي ذكرت، فمنهم كذلك ومن غير ذلك .» اهـ. قلت: إذن علىٰ هذا الكلام يكون الأصل في العوام أنهم حمقىٰ لا عقل لهم! أو علىٰ الأقل: خفاف العقول لا يميزون كما يليق بالعاقل أن تكون نفسيته متزنة تواقة متقدة! أليس كذلك؟ بلىٰ، وهو اعتقاد الجهمية والمتكلمين من كل طائفة، تبعا لأساتذتهم من الفلاسفة الذين تلقوا عنهم أصل إسقاط المعرفة الفطرية وإحالة التسليم بها دون نظر واستدلال إلىٰ الجهالة والسفاهة وإيمان المقلدين! وهو ما يورثهم الكبر والغرور والتعاظم وغمط الناس لا محالة مهما زعموا سلامتهم من ذلك (كما بسطنا الكلام عليه في هذا الكتاب). فالعامي الذي لم ينظر أمخلوق هو أم لا، هذا عند الفلاسفة سفيه خفيف العقل، ليس من أصحاب النفسية «المتزنة التواقة المتقدة المرنة .. إلخ» وليس من أصحاب «الأفق العقلي الواسع»! لأنه يأخذ تلك القضايا الكبرىٰ مأخذ المسلمات البدهية «بادي الرأي» دون أن يطرأ علىٰ ذهنه ما طرأ علىٰ أذهان الفلاسفة الكبار من اعتراضات عليها وما تفنن خصومهم (اللاهوتيون والمتكلمون) في اختراعه من أجوبة عن تلك السؤالات والاعتراضات! فهو – إذن – أحقر وأحطّ عقلا وأخفت ذهنا من أن ينتبه إلىٰ تلك الدقائق المزعومة التي انتبهوا هم إليها وخاضوا فيها من كل جهة! فإنه لا بديل لاتهام العامي المقصر في طرح تلك الأسئلة السوفسطائية التي طرحها الفيلسوف بنقص العقل وخفته، إلا اتهام الفيلسوف نفسه بالسفسطة والكذب ومرض القلب وادعاء الجهل والخفاء فيما لا يخفىٰ علىٰ عاقل سويّ النفس! والصنعة كلها (أعني صنعة الفلسفة) تقوم علىٰ تلك الأسئلة الكلية الكبرىٰ، فكيف يتهم الفيلسوف في

عقله وقلبه؟ وجب إذن أن يكون من لم يتفلسف ولم يتمنطق هو الناقص خفيف العقل الذي يأخذ تلك المسائل كلها وراثة و«تقليدا»!

وهنا يظهر تناقض المتكلم كما بيناه في غير موضع. فهو من جهة يحب ويشتهي أن يوافق الفلاسفة علىٰ زعمهم انحطاط عقول العامة (بطبعهم) لتخلفهم عن النظر الدقيق العميق في تلك المسائل الكبرىٰ (ويرىٰ في ذلك إشباعا لشهوته في إظهار العلو والتفوق بعقله هو علىٰ سائر الناس)، ومن جهة مقابلة فهو يدرك أن الأنبياء والمرسلين والصحابة والسلف الصالحين لم يتكلفوا من ذلك «النظر الدقيق العميق» شيئا أصلا! فإن أطلِقَت المذمة علىٰ هذا النحو في كل من لم «ينظر»، لزم أن ترجع علىٰ الأنبياء وأتباعهم بالضرورة وبالأصالة، لدخولهم تحت اسم «العامي» من هذه الجهة! من هنا تكلف المتكلمون (لا سيما الأشاعرة) ما تكلفوه من تفصيلات في التفريق بين طبقات المعرفة التي يقوم عليها الإيمان عند العامة وعند الأولياء والصالحين وأنواع ما يحصل لديهم من استدلال مزعوم بناء علىٰ نفس المفهوم الفلسفي للدليل والاستدلال والاكتساب (الذي لا محل فيه للمعرفة الفطرية أصلا)!

لهذا يمضي المجيب في جوابه فيقول: «فالعوام يجب تنبيه عقولهم، وزرع الأدلة اليقينية فيها بشكل مجمل مبسط، ولا نعني بذلك الخوض بهم في غمار بحور لن يسبحوا فيها، إنما سيهلكوا بخوضها، إنما نعني توسيع آفاقهم العقلية، وتعميق نظرتهم إلىٰ الدين والإنسان والحياة. وهذا كاف لإصلاح دينهم، وحياتهم، ونظرتهم للوجود.. وهم أقرب في طبيعتهم لذلك وتقبله !!» قلت: فما حدّ ذلك التنبيه و«التوسيع» عندك وما منتهاه علىٰ الحقيقة؟ ألست تريد البداءة معهم من تعليمهم ما تزعم أنه «أدلة يقينية»، من بضاعة أساتذتك المتكلمين؟ أليست تلك الأدلة جارية علىٰ نظرية الجوهر والعرض عندكم وما تفرع عنها من مصطلحات وتعاريف ومفاهيم؟ بلىٰ! ولا ينكر ذلك إلا مكابر! فكيف إذن يكون التعليم علىٰ وجه الإجمال والتبسيط كافيا لزرع «اليقين»، إذا كان في أصل البرهان نظريات وأقيسة لا بد من تعلمها أولا، رجاء أن تقرب الصورة إلىٰ ذهن المتعلم ويحصل الفهم الصحيح؟ علىٰ أحسن الأحوال لا بد من تعلم مصطلحات

المناطقة، وهذه بدورها تعاريف نظرية أيضا، يرد عليها من الإجمال والاشتباه ما يرد! فما حد التفريق بين فرض العامي (الذي هو فرض عين لا ينهض للدين أساس عند كل مسلم إلا به) وفرض المتكلم المتخصص (الذي هو علىٰ الكفاية) عندكم؟ هذه العلوم التي تريدون تعليمها للناس، يزعم الفلاسفة - وأنتم معهم - أن المسلمات الأولىٰ التي عليها يقوم اعتقاد الإنسان العاقل بوجود باريه نفسه، تفتقر إلىٰ الإثبات من طريقها ابتداءً! فلا بد إذن للمسلم - أي مسلم - حتىٰ يكون إيمانه «عقلانيا» أن يكون مجتهدا مطلقا في تلك العلوم، حتىٰ يكون قوله في كل مسألة منها عن اجتهاد حر مكتمل الأركان، وإلا انتهىٰ أمره - لا محالة - إلىٰ التقليد في أصول الإيمان الذي تريدون الفرار منه! أليس كذلك؟ هذا التسلسل الذي فتحتموه في حدّ ونهاية الاجتهاد بالنظر (الذي هو راجع إلىٰ تسلسل الفلاسفة أنفسهم فيما خضتم معهم فيه من سفسطة علىٰ البديهيات) لازم من طريقة الكلام نفسها لا فرار لكم منه! يقول «تعميق فهمهم» (وهو إجمال فاحش كعادتهم) فإلىٰ أي حد وإلىٰ أي نهاية يطلب من العامي أن يتعمق بفهمه في بضاعة الفلاسفة والمتكلمين حتىٰ يبرأ من التقليد المذموم في أصول دينه، إن كنتم صادقين؟ لا حدّ ولا نهاية أصلا، وهم يعلمون ذلك تمام العلم!

لذا يظهر التناقض في الفقرة التالية مباشرة في كلام الأخ إذ ينقل كلام الغزالي فيقول: «وقد وجه الشيخ أبو حامد الغزالي ـ قدس الله سره ـ بأن هذه العلوم كالأدوية التي يقوم عليها الأطباء، وأن المخاطب بها هم المرضىٰ الذين أعيتهم الأدوية والبلايا، وأن من أشد البلاء هو تسليط الدواء علىٰ الأصحاء، بحيث أن هذا سيتلف طبيعتهم، ويورثهم المرض والأتعاب ..» اهـ. قلت: بل أنتم من أعيتكم الأدوية والبلايا في أصول إيمانكم من تعرضكم لسفسطة الفلاسفة علىٰ البدهيات وعلىٰ المعارف الفطرية الجبلية عند البشر، لو كنتم صادقين! أما هم فقد سلمهم الله من ذلك كله! وما أكثر ما يود الواحد منكم في نهاية حياته وعلىٰ فراش موته - يا من تعدون أنفسكم أطباء وحكماء تقدمون للمرضىٰ الدواء - لو يموت علىٰ ما كان عليه قبل أن يغرق برأسه في الكلام والفلسفة! فما بين أيديكم في الحقيقة وما تريدون تعليمه للناس إنما هو الداء والمرض العضال والله، لا الدواء والشفاء لو كنتم تعقلون!

ولهذا يقرر الغزالي أن تعريض من سماهم بالأصحاء لذلك الدواء (يعني بضاعة علم الكلام) من أعظم البلاء! ولكن ألم يقرر صاحبنا ناقل هذا الكلام قبل قليل أن العقل لا يصح ولا يتسع والنفس لا تتزن ولا تتوقد وكذا، إلا بإدخال المنطق والكلام والعقليات بعموم في تعليم الدين، وأن العامة تعاني بالمجمل من بلادة الطبع وضيق العقل بسبب افتقارهم إلىٰ ذلك؟ فمن الصحيح ومن السقيم إذن عندكم؟ من تلبس بشيء من العقليات والفلسفة وضرب فيها بسهم، أم من سلم من ذلك كله ولم يتعرض لشيء منه البتة؟ أكثرهم لا يريدون الاعتراف بأن العاقل سوي النفس كلما ازداد تعرضه لبضاعتهم ازداد مرض قلبه وعقله معا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم ما صفة ذلك الدواء الذي تزعمون التخصص فيه، تقدمونه للمرضىٰ وما تشخيص ذلك المرض أصلا وما حده؟ إن سألتهم هذا السؤال قالوا إنها النفس التي تتعرض لشبهات الفلاسفة وأعداء الدين! فهؤلاء من نخاطبهم ببضاعة المتكلمين علىٰ القدر الذي يناسب حالهم. ويقال: ولكن ما زعمتموه دواءً هو عين الداء أصلا! وأنتم تعترفون بذلك (علىٰ تخبط وتناقض) ولا تنكرونه! ألستم تشهدون بأن في الأمر بحارا من خاض فيها من العامة هلك! الصواب - لو صدقتم - أن من خاض فيها من المتكلمين أنفسهم هلك! أما من خاض فيها وهو عامي فلن يفهم منها شيئا يذكر علىٰ أي حال، إلا أن تعلموه ما يلزمه لفهمها، وحينئذ فقد صيرتموه «متكلما» من أمثالكم! فهل تعالج الحمىٰ بالتعريض للنار يا عقلاء يا حكماء؟ يتفلسف الواحد منهم ويقول: الزيادة من الدواء عن الحد الذي يحصل به الجرعة المطلوبة يضر ولا شك، كما أن النقص عنها لا يحصل به المطلوب! يتشدق عليك وكأنما يتكلم عن معيار كيميائي محسوب بدقة مدروس أثره السببي بالاستقراء المباشر المستفيض مثلا! اتقوا الله في أنفسكم يا هؤلاء واعترفوا بفساد تلك البضاعة الفلسفية الخبيثة وبأن تكلف النظر فيها مرض في نفسه، وأن الحدّ فيها لا ينضبط أصلا ولا يمكن أن ينضبط، بل لا محيص ممن تعرض لبعضها رجاء إثبات أصول دينه بالدليل اليقيني (كما أوهمتموه) من أن يغرق فيها كما غرقتم، وإلا كان الخطر علىٰ دينه أشد وأعظم مما كان قبل أن يتعرض لما عرضتموه له من الكلام!

ولا عبرة بقياس الرجل التخصص في الكلام علىٰ التخصص في غيره من صناعات المعارف، من حيث أن العامي إذا عرِّض في العلم لما يجاوز عقله ودرايته كان فيه فتنة له، وكان تعليمه الكلام مضرا له كما أن تعريض الصحيح للدواء يمرضه! هذا يقال في تلك المعارف التي تقوم علىٰ أصل عقلي صحيح، وعلىٰ منهج معرفي قويم، ويتصور افتقار العامي فيها للقدر الذي يتقوم له به دينه وعبادته، ولا يحسن تعريضه لخلاف العلماء فيه وهو لا يضبط ولا يعقل! أما والكلام هنا عن صنعة فلسفية خبيثة تنفي الأساس الفطري للدين نفسه عند العقلاء، وتعلم الناس كيف ينصبون البرهان النظري لإثبات وجود الباري نفسه من الابتداء، تأسيسا علىٰ ميتافزيقا الفلاسفة وتنطعهم بالقياس علىٰ غيوب الأرض والسماء، وتنسب من تخلف عن ذلك البرهان والنظر إلىٰ التقليد وإيمان السفهاء، فلا فرق في الضرر هنا بين الابتداء والانتهاء! ولا خير يرجىٰ من تلك الصنعة أصلا حتىٰ تعامل معاملة الدواء الذي لا يوصف للمريض إلا علىٰ قدر الداء!

فقوله: «وبهذا يجب إعداد جيل من الأطباء يستطيعون التعامل مع مثل هذه الأمراض، وهذه المعضلات، والبداية يجب أن تكون من التعليم، فكما يكون هناك رياضيات مبسطة، تقدم للطالبين، أيضا يكون تدريس لعلم المنطق، والكلام بشكل ابتدائي، ومن ثم متقدم، ومن ثم متوسط، وحتىٰ نصل إلىٰ درجة إعداد المتكلم، الذي تكون له وظيفة شرعية كالفقيه وكالمحدث والقارئ وغيرها من وظائف أهل العلم وصفاتهم ..» اهـ.

قلت: هذا قياس من أفسد ما يكون! وكأنما يقول: يجب إعداد جيل من الجهمية المتفلسفة يستطيعون التعامل مع مثل هذه الأمراض (الفلسفة)، قياسا علىٰ إعداد الأطباء لمعالجة أدواء الجسد، والله المستعان.

يا هؤلاء، من أصيب بضعف في القلب وميل لتلك الأهواء، فلا يؤتىٰ بمن يميت له ما بقي من قلبه علىٰ طريقة (كثرة المساس تميت الإحساس)، ثم يقال إن في هذا علاجه، فافهموا! العلماء الربانيون الصادقون (لا الفلاسفة وأذنابهم ومخانيثهم) لا يدخلون الفلسفة والكلام علىٰ مسلمات الفطرة والبداهة بدعوىٰ إثباتها نظريا، وإنما يستنهضون

تلك المسلمات في نفوس من ابتلي بكلام الفلاسفة في التشكيك فيها، بالتذكير والوعظ البليغ ومعالجة تلك الأهواء التي تميل النفوس السوية لقبول سفسطة الفلاسفة علىٰ تلك المسلمات، مع بيان سفاهة الفلاسفة وفساد أقوالهم (أصولا وفروعا) في حدود ما يلزم لدفع الاشتباه بفضّ الإجمال الموهم وكسح تنظيرهم الباطل وهدم بنيانه من القواعد، كما كانت طريقة السلف وأئمة السنة ومن سلك سلكهم، وهي طريقة نقطع بأن الشفاء لا يكون إلا فيها بإذن الله تعالىٰ (لمن أراد الله هدايته وإصلاح قلبه)!

أما طريقة الكلام التي تهدر المعرفة الفطرية وتنفيها نفيا، وتحيل البدهيات إلىٰ نظريات يضطر المسلمون إلىٰ التقاط زبالة الفلاسفة (كنظرية الجوهر والعرض مثلا!) للوصول إلىٰ إثباتها، فمذمومة بإجماع السلف، بل وعند كثير من مشايخكم من المتكلمين القدماء أنفسهم، بل قد عرّض الغزالي بذلك في كلامه المنقول نفسه، فاتقوا الله في المسلمين! يقول قائلهم في سياق: علموا المسلمين شيئا من المنطق والكلام لإصلاح عقولهم وتوسعتها، ويقول هو نفسه في سياق آخر إن أدلة الكلام عسيرة للغاية وقد يهلك من يغوص فيها (وكلام أئمتهم مستفيض في ذلك!)، فإذا كانت سعة العقل عندكم لا تؤدي إن فتح لها الباب من طريق الكلام إلا إلىٰ الهلكة والضياع، فأي عقل هذا الذي تنسبون أنفسكم إليه إذن إن كنتم صادقين؟ إنه عقل الفيلسوف المسفسط الجاحد المستكبر الذي بادر - من مبدأ صنعته نفسها - بنفي البداهة والفطرة التي بها يعرف كل عاقل أنه مخلوق مربوب، ثم طالبكم بأن تثبتوا له تلك المعرفة الفطرية بما لا يتكلفه إنسان إلا أفسد علىٰ العقلاء عقولهم لا محالة، فوافقتموه راغمين من كراهتكم أن يتهمكم في كبره وغروره الإبليسي بأن إيمانكم إيمان العوام والسفهاء، ثم الآن تطالبوننا بأن نكون أمثالكم، أذنابا وأذيالا لهؤلاء ندور في فلكهم كما درتم، نتتبع زبالتهم ونلتزم بشروطهم في بناء أصول الدين نفسه عندنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أهل السنة الخلص يريدون دينهم نقيا كما نزل، يريدونه طاهرا سالما من زبالة الفلاسفة والمناطقة التي جعلتموها أنتم أصل أصول الملة، بدعوىٰ علاج الشبهات ومدافعتها واستنقاذ العامة من خطر الإلحاد .. إلخ! فإن أبيتم إلا تعلم الكلام والفلسفة فاطلبوها في غير بلاد الحرمين، حفظها الله وسلمها منكم ومن أهوائكم!

يقول: «مع العلم أني درست المنطق علىٰ يد شيخ من الهند، وكان المتن الذي يدرسني فيه متن يدرسه الأطفال، في بلادهم!» قلت: وهذا من المرض يا أخانا، لا مما يحمد عليه الناس! ثمة فرق دقيق لا يميزه المتكلمون بين تدريب الناس علىٰ مهارات النظر وتنمية ملكة البحث والاستدلال والاستنباط والاستقراء لديهم في المسائل النظرية التي يحمد فيها ذلك كله، وبين تعليمهم المنطق الأرسطي وأصول ميتافزيقا اليونان التي تناولها المتكلمون الأوائل بالتلاعب والتعديل والتكييف وأسسوا عليها أصول الدين وفهم الكتاب والسنة! نعم نتفق معكم ولا شك في أن التعليم الأساسي في أكثر بلاد المسلمين فقير في الجانب الأول (تنمية مهارات البحث والنقد البناء والنظر العقلي المحمود المرغوب)، وهذا أمر يتراكم أثره عبر سنوات التعليم حتىٰ يصل ذلك الطالب الفقير إلىٰ الجامعات المتخصصة في صناعات تحتاج إلىٰ مهارات رائقة في حل المشكلات وابتكار الأفكار وإعمال الأقيسة الدقيقة، فيتخرج منها وهو من أفقر خلق الله فيما تتطلبه تلك الصناعات من دقة نظر وقدرة بحثية وملكة إبداعية .. إلخ، هذا أمر أعانيه في طلبتي في كلية الهندسة فوق ما يظن ذلك الأخ أنه يراه أو يعلم به!

ولكن من التلبيس المحض أن يزيَّن للعوام تعليمهم متون المنطق عند مشايخ الكلام وتدريسهم نظريات المتكلمين وخلافهم ونظريات الفلاسفة وزبالتهم بدعوىٰ أن هذا هو الطريق لشحذ عقولهم وإكسابهم المهارة النقدية وملكة البحث والاستنباط والقياس الصحيح السالم من المغالطات .. إلخ! هذا لا يحتاج إليه أهل الصناعات المعرفية التي يشتد الداعي فيها لاكتساب تلك المهارات، وإنما يحتاج إليه المتكلم الجهمي الساعي في تزيين بدعته الكلية لعوام المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ولا شك أن العلوم الشرعية التي يستساغ - بل يطلب - فيها الاجتهاد والرأي والنظر، تتطلب - كشرط من شروط التأهل للتخصص فيها - ذكاء ونبوغا وملكات عقلية لا يتمتع بها كل أحد. ولا شك أنه مما يستحسن تدريب الطلبة فيها علىٰ فنون القياس وبناء الدليل واستخراج العلة ومناقشة خلاف العلماء وغير ذلك مما ينمي قدرة الطالب علىٰ استجلاء الدقائق والخفايا عند القياس في النوازل الدقيقة التي يصعب تصورها علىٰ كثير من العقول (وهي كثيرة لا تكاد تحصىٰ في هذا الزمان والله المستعان!). ولكن

من زعم أن هذا لا يوصل إليه إلا بتعلم المنطق الأرسطي والكلام الأشعري فهو مكابر مماحك قطعا! الكلام فرع من فروع الفلسفة لا يرىٰ أصحابه أن في عقول البشر فطرة معرفية تدلهم علىٰ أن لهم ربا خالقا في السماء، فيوجبون النظر علىٰ المكلفين لإثبات تلك الحقيقة نفسها من الأساس!

فمن كانت طريقته لا تكسبه التمييز الصحيح بين البداهة الضرورية وبين المعرفة المكتسبة المفتقرة إلىٰ نظر واستدلال، بل تفسد ذلك عنده من حيث أصل تلك الطريقة نفسها، فهذا أضر علىٰ عقول العامة – علىٰ التحقيقي – من بقائهم علىٰ ما هم عليه من ضعف في مهارات القياس والنظر العقلي ولا شك! فإن درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المنافع كما هو متقرر! وخير للعامي الضعيف أن يبقىٰ مقلدا تابعا في النظريات والفرعيات، متأخرا فيما يحتاج الناس فيه حقا إلىٰ النظر والاجتهاد، من أن يصبح مجتهدا مبتدعا ضالا بالرأي والنظر في أصول الملة نفسها، يأخذ الاعتقاد بالرأي والنظر! فإن كنتم لا تعرفون طريقا لتنشيط عقول العامة وتعليمهم ملكة النقد والقياس الدقيق والتفكير العميق إلا بتعليمهم تلك البضاعة الخبيثة عندكم، فوالله لأن يموتوا علىٰ ما هم عليه خير وأهون من أن يموتوا علىٰ الكلام والفلسفة! فلا شك أن بعض الضرر أعظم وأفدح من بعض، فافهموا هذا!

لقد تطورت أساليب النظار المعاصرين في تنمية مهارات النقد والبحث والقياس والنظر في طلبة المجالات العلمية المختلفة (في كل مجال بحسبه) تطورا كبيرا لا علاقة له بالمنطق الأرسطي ولا بعلم الكلام من قريب ولا بعيد، وإني لجازم بأن النظر الفقهي الدقيق لا يحتاج الطالب إلىٰ أن يتعلم بضاعتكم حتىٰ يتمكن منه، ولا إلىٰ كثير مما ملأ به مشايخكم مدوناتهم في أصول الفقه من بضاعة الكلام والنظر المتنطع ومن الشقشقة «الميتافزيقية» التي لا يصح فيها اسم الفقه ولا هي من العلم في شيء أصلا! ولقد كان الشافعي رحمه الله إمام الأئمة في أصول الفقه ينهىٰ الناس عن الكلام والمنطق الأرسطي ويزجر أهله ويزدريهم كما هو معروف عنه رحمه الله تعالىٰ! ولهذا منع علماء السنة في زماننا في بلاد الحرمين حفظها الله طلبتهم من النظر في تلك المطولات إلا

إن بلغوا أن يكونوا مؤهلين لنقدها وغربلتها هي نفسها، لتصفيتها من ذلك الدغل الذي جعله المتكلمون هو العقل نفسه وهو أساس العلم والمعرفة، فأدخلوه علىٰ أصول الفقه وليس هو منها، بل واشترطوا علىٰ طلبة العلوم الشرعية أن يتعلموا أصول ذلك الدخن نفسه المفسد للعقل والدين معا، حتىٰ يكونوا من أهل الاجتهاد والنظر، والله المستعان! وقد كان لكثير من المعاصرين جهد محمود في تنقية تلك المطولات من مسائل الكلام عند المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فنحن نقول للمتكلمين إن مفهومنا للعقل نفسه بخلاف مفهومكم، ومعنىٰ المعرفة عندنا بخلاف معناها عندكم، وآية ذلك خلافنا معكم في مسألة «التقليد في الإيمان»، فنحن لا نقول إن التقليد في الإيمان جائز (كما اضطر كثير منكم إلىٰ النزول إليه!)، وإنما نقول إن إدخال ما سميتموه بأصول الدين في جملة ما يصح أن يوصف بأنه محل اجتهاد ونظر من أنواع المسائل المعرفية (ومن ثم يستحق المتخلف عن ذلك النظر اسم «المقلد»)، هذا منهج معرفي فاسد من الأساس، وفساده هو فساد علم الكلام نفسه، النابع من فساد صنعة الفلسفة الميتافزيقية التي خضع المتكلمون لشرط أصحابها في الإثبات المعرفي (إسقاط المعارف الفطرية واشتراط إثباتها بالدليل القياسي النظري)، فما صاروا متكلمين إلا بذلك، كما بسطنا الكلام في بيانه بعون الله تعالىٰ في هذا الكتاب وغيره! فكفاكم كبرا وغرورا بتلك البضاعة المهلكة التي ظننتم بها أنكم حزتم ناصية العقل ونهاية العلم وكمال الحكمة، مع أنها إلىٰ الضد من ذلك كله أقرب لو كنتم تعقلون! فإن كان من مكابرة وضيق أفق فلأنتم والله أحق به ممن رميتموهم به من علماء السنة، لمنعهم الناس من الوصول إلىٰ بضاعتكم الفلسفية التي جعلتموها سبيل النجاة وما هي إلا باب عريض من أبواب الزندقة وفساد الدين، والله المستعان!

يقول: «ولكن لبعدنا عن المناهج القوية، والعلوم الرصينة، رأينا مثل هذا النوع صعبا معقدا، وهو ليس كذلك .. والأعجب أننا في فترة من الفترات كان يروج لنا عن طريق السخرية والاستهزاء، صعوبة علم الكلام والمنطق، وأنها لا تفيد أحدا، وأن الحمد لله علومنا سهلة وبسيطة، ومن ثم مشي حالك :) . ففي واقع الأمر تعليمنا كان سطحيا، وساذجا بعيدا عن المتانة والقوة القائمة علىٰ النظر العميق، والتأصيل الدقيق،

ولذلك خرج جيل من الشرعيين، لا يحل مشكلة ولا يمكنه ذلك، حتىٰ تنبه الكثير إلىٰ ضرورة إيراد العلوم الحكمية، والرجوع إلىٰ الطرق القديمة، التي كانت توصف بالتخلف والغموض والصعوبة والتعقيد .» اهـ. قلت: أما نفيه الصعوبة والتعقيد عن الكلام فكذب أقرع له قرنان! ولو شاء لنقلت له من كلام مشايخه المتكلمين ما يشهدون فيه بصعوبة وعسارة وغموض واضطراب تلك المسالك الفلسفية الفاسدة، وإني لأظن أنه يعلم أين يجد ذلك الكلام إن طلبه!

وأما أن علومنا الشرعية سهلة ففيه تفصيل. فإن كان يقصد أصول العقيدة والتوحيد الذي تبرأ به ذمة المسلم، فهي كذلك ولله الحمد، لأن الله تعالىٰ قد منّ علينا بميراث النبيين الذي ما أعرض عنه قوم إلا ضلوا وزاغوا، ولم يجدوا فيما بين أيديهم إلا جدال الفلاسفة وعبثهم وتخرصهم علىٰ العقل والعلم معا! فما وسع الصحابة والسلف وسعنا وما ضاقوا به ضقنا به، ولا يلزمنا أن نكون فلاسفة ولا متكلمين حتىٰ نفهم ما جاء به الرسول من كليات الاعتقاد في دين ربنا علىٰ النحو الذي تبرأ به الذمة والحمد لله رب العالمين! وأما إن كان المقصود بالعلوم الشرعية المسائل الخلافية الدقيقة في العلميات أو العمليات، فلا شك أن هذه ليست سهلة، بل فيها نوع خفاء، ولو كانت سهلة واضحة ما اختلف العلماء فيها خلافا سوغه أهل السنة فيما بينهم ولم يتناكروا عليه! فلا عبرة بسخرية هذا الجاهل المغرور بعقله، في قوله «ومن ثم مشي حالك»! النظر العميق والتحليل الدقيق إن وُضع في غير محله كان غاية الحماقة والسفاهة يا هذا، فاتق الله في نفسك! والكلام وضع للنظر العقلي في غير محله بمجرد التدبر في موضوعه: إثبات وجود الباري بالبرهان النظري الفلسفي! فلا علاقة بين الجهل بالكلام وبضاعة المتكلمين والمناطقة، وبين ضعف قدرة كثير من المتشرعين علىٰ الاجتهاد في دقيق النوازل الفقهية وعويصها! صحيح إن من أغرق نفسه في خلافات الفلاسفة والمتكلمين فسيتكسب ملكة النظر والقياس الدقيق، ولكن أنتم تزعمون أنها لا تكتسب إلا من تلك الطريق، وهذا هو التلبيس بعينه!

من أراد أن تصح نسبته إلىٰ العقل والحكمة، فلينظر في صحة نسبته إلىٰ سلف الأمة وإلىٰ الأمر الأول، فيقينا لن يجده هو الكلام وميتافزيقا أرسطو ومنطقه الصوري

السيلوغي، ويقينا سيرىٰ أن هذا ليس هو سبيل المؤمنين الذي أمرنا باتباعه في القرآن، فاتقوا الله في عقولكم وعقول العامة! لقد نقض فلاسفة اليونان أنفسهم منطق أرسطو وتحرروا منه، واليوم لا يُدرس ذلك المنطق الأثري في الجامعات والمعاهد العالمية إلا كجزء من تاريخ الفلسفة القديمة، ومع هذا لا يزال هؤلاء يدرسونه لتلامذتهم في متون الأولين علىٰ أنه هو العقل ومفتاح العلم الشرعي والاجتهاد والنظر وكأنما نزل به نص من السماء، واليوم يتندرون ويهزؤون بمن منعه في التعليم الديني بالمملكة، فأي شيء هذا إلا أن يكون هو محض التعصب الأعمىٰ والغلو الفاحش في اتباع أناس قد زاغوا من قبل وضلوا السبيل؟! ومن المقلد الجاهل في الحقيقة إن كنتم تعقلون؟

ألا يا كل أب ويا كل مرب ويا كل مدرس، مهما جاءك صبي قد أعجبه عقله وبدأ في طرح ذاك الصنف من الأسئلة الذي حق مثله أن يستعاذ بالله من الشيطان الرجيم عند سماعه (كما علمنا رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم) ولا يلتفت إليه أصلا، فقل له: اتق الله في نفسك واعلم أن وجود ربك الذي ركبك وكمال صفته وتنزهه عن كل نقيصة من بدهيات العقل التي لا يشكك فيها إلا مريض قد صار عبدا لأهواء نفسه! فلا تغرنك كثرة المرضىٰ والهالكين والجرحىٰ والساقطين وعلوهم في الأرض وتعظيم الناس لهم في أكاديمياتهم، فقد علمت بنص القرآن أن الله ما جعل أكثر الناس إلا ضالة سفهاء، وقد كفيت ولله الحمد بما جاء به رسول ربك كما كفي الذين سبقوك من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، فلا تناد علىٰ نفسك بالضياع والمرض، فقد علمت أن التعرض للعدوىٰ ومخالطة المجزومين ليس من شيم العقلاء! ففر يا عبد الله من الفيلسوف والمتكلم فرارك من الأسد، واتق الله في نفسك، فإنه ليس بعد ضياع الآخرة من شيء يخاف العقلاء عليه!

فإن قال لك: ولكن قد قرأت كذا وسمعت كذا، فبين له بإيجاز فساد ذلك المنهج النظري نفسه وانحرافه، ومن ثم انحراف من سلكوه في الرد علىٰ دعاوىٰ أصحابه، وازجره عن تلك المصادر التي تعرض فيها لتلك السفسطات، اجهد أشد الجهد في صده عنها وتحذيره منها، إن كنت ترجو له السلامة يوم الحسرة والندامة!

علموا أولادكم عباد الله أن العقل وكماله فيما كان عليه السلف الأول لا ما كان عليه الفلاسفة من أمل الملل وأذنابهم المتكلمون من أهل القبلة! علموهم أن بين مفهوم هؤلاء للعقل ومفهوم أولئك له كما بين السماء والأرض! علموهم هذا المعنىٰ ولا تضعفوا ولا تهنوا فيه ولا تحزنوا، فأنتم والله الأعلون إن كنتم مؤمنين! ربوهم علىٰ أننا معاشر الموحدين لا حاجة بنا إلىٰ مريض مشرك يكلمنا عن «علم نفس الدين»، ولا إلىٰ سفيه متفلسف يعلمنا كيف نقيم حجج الحق التي ورثناها كاملة رائقة ناصعة عن خاتم المرسلين! علموهم كيف يحصنوا نفوسهم وقلوبهم وعقولهم من تلك الزبالة التي تكاثرت من حولهم وهم علىٰ قناعة إيمانية بأنها زبالة مهما تفنن فيها أصحابها! فلقد رأيت من يزعم أنه من عموم البلوىٰ بوسائل الإعلام ونحوها، قد بات من المحال تقريبا أن نحجز شباب المسلمين عن تلك السفسطات، وهذا رأي خطير مردود، يجب أن يراجع صاحبه نفسه حتىٰ لا يأتي يوم القيامة وفي عنقه قوم كان بوسعه أن يصدهم عن الردة والإلحاد وأسبابها، ولكنه تخلف عن ذلك وأبىٰ إلا أن يكون متكلما متفننا في صناعة الكلام بدعوىٰ عموم البلوىٰ!

أقول: إن أصحاب هذا الزعم محجوجون - لو تأملوا - بمجرد حقيقة وجود أناس في هذا الزمان قد ربوا أولادهم علىٰ منهج السلف الخالص، فصارت لا تهفو بهم نفوسهم إلا إلىٰ كل طاهر رفيع من المعارف والعلوم، والحمد لله رب العالمين! أما الجيف ومواضع النتن فلها أهلها الذين تعلّم هؤلاء أن يبغضوهم وأن يجانبوهم بل أن يفروا منهم حيثما وجدوهم، كما قال الشاعر:

ومـــن يـكـــن الـــغـــراب لـــه دلـيـلا

يــمــر بــه عــلــى جــيــف الـكــلاب

وهم كذلك محجوجون بوجود الفلاسفة والزنادقة في كل قرن من قرون هذه الأمة، فلم يزل أئمة السلف يفرقون بين من راح يجادل هؤلاء علىٰ طريقتهم (علم الكلام)، ومن اختار أن يعتزلهم ويطردهم ويحذر الناس منهم ابتداءً، إن لم يدل عليهم الشرطة وأهل الحسبة في البلاد ليطهروا الأرض منهم ومن إفسادهم!

علموا المسلمين أن من كان صادقا مع نفسه في الاعتقاد الجازم بأن التوحيد هو الحق المحض الذي لا يخفىٰ بطلان كل ما يخالفه من الملل والدعاوىٰ والفلسفات علىٰ ذي لب صحيح ونفس سوية ولا يلتبس عليه ولا يشتبه بغيره من الملل طرفة عين، فلن يعنيه نقيق الضفادع ونباح الكلاب ونهيق الحمير من حوله مهما علا به الغبار واغتر به الناس، ولن يلتفت إلىٰ شيء من ذلك ولن يعبأ به، حتىٰ ولو كان أصحاب ذاك الضجيج من أعظم الفلاسفة والعلماء عند المشركين والملاحدة الماديين، ومن أكثرهم جذبا للسذج وضعاف القلوب! أما من كان في قلبه ميل لتلك الأشياء فليعلم أنما ابتلي بالهوىٰ لا بالجهل أو الافتقار إلىٰ الحجة أو البرهان أو جواب الشبهة أو هذه الأشياء! هؤلاء قوم بضاعتهم محض المرض القلبي والنتن النفسي والخطل العقلي، فكيف يخاطبهم المؤمن سوي النفس وكأنما يخاطب من خالفه في مسألة نظرية دقيقة مما يرد عليه خلاف العقلاء؟

القصد أن هذا الاجتناب والمقاطعة والاعتزال ليس بالشيء الممتنع في هذا الزمان لمن صدق العزم وأخلص النية لله تعالىٰ. وليس هو مما لا يتصور أن يُنصح به شاب قد سبق له التعرض لتلك الأوبئة الفكرية والعاهات العقلية والمرور بشيء منها بالفعل! بل مثل هذا يكون والله أحوج بكثير إلىٰ من ينصحه بذلك ويشدد عليه النصيحة ما وسعه، ولا يكل ولا يمل من ذلك إن كان يريد له الخير. ذلك أن من تعرض لكلام الفلاسفة والمتكلمين ووقع في نفسه وهم العلو العقلي في بضاعتهم وطرائقهم، هذا قد سبق إلىٰ نفسه أصل المرض الذي بسطنا الكلام في بيانه في هذا الكتاب. فحاجة مثله تكون أشد لمن يبين له وجه ذلك المرض ويجلي له مدخل الشيطان فيه إلىٰ نفوس البشر، من حاجة من سلمه الله من تلك الأشياء ولم يتعرض لها أصلا من قبل.

ولست ها هنا أتكلم عما تخلل كثيرا من مصنفات العلوم الغربية من أفكار ونظريات قد يخفىٰ وجه استنادها علىٰ الإلحاد علىٰ كثير من العامة (الذين يتخصصون في دراسة تلك العلوم من مظانها) فيحتاجون إلىٰ من يحذرهم من ذلك علىٰ وجه التفصيل، وإنما أتكلم عن تعرض العامي في قعر بيته لكتاب في الفلسفة أو لموقع كلامي أو منتدىٰ

علىٰ الشبكة أو لمحطة تلفزيونية، أو طالب المدرسة أو نحوه فيما يدرسه له أساتذته من مواد! أتكلم عن «القراءة الحرة» التي أصبحت تحمد لمجرد أنها «حرة» ليس ثمة من يرشدها أو حتىٰ يوجهها لتتأسس بها المعرفة الفردية وبناؤها علىٰ خطة صحيحة الأركان! أتكلم عن شباب ضائع يذهب الواحد منهم يغمس رأسه في سلة القاذورات – سلمكم الله – ثم يأتيك شاكيا يقول: لست أرىٰ الدنيا من حولي إلا وسخا في وسخ، ولا أشم في الهواء إلا رائحة العفن، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هؤلاء من المسؤول عنهم يوم العرض؟ إن لم يكن بيدك أيها القارئ الكريم سلطان الأمر في بلاد المسلمين ولا حجز لك بين عامة الناس وتلك المادة في كتبهم وإعلامهم ومدارسهم، فأين سلطانك علىٰ بيتك وأولادك الذين هم رعيتك وأمانتك؟ أين نظرك فيما يقرؤون وما يسمعون وما يطالعون، وأين تحكمك – من نعومة أظفارهم – فيما يرجعون إليه من مادة مقروءة ومسموعة يأخذون عنها العلم والدين؟ وأين اجتهادك في الحجز بينهم وبين ما علمت أن فيه هلكتهم؟

إن ضعفت نفسك أنت عن الحسم والحزم في مثل ذلك داخل بيتك وبين أولادك، فالعلة فيك أنت يا عبد الله، فلا تكلمنا عن عموم البلوىٰ، يرحمك الله! من وجد نفسه عاجزا عن أن يغلق موقعا قد فتحه هو من قبل بيديه علىٰ الشبكة وفيه من الفلسفة والكلام ما فيه، أو وجد نفسه عاجزا عن أن يمنع دخول جهاز الحاسوب في بيته علىٰ بعض المواقع المدمرة أو يمنع دخول جهاز التلفزيون رأسا ويشترط ذلك من يوم زواجه وقبل أن يرزقه الله بالولد، فلا حجة له في الزعم بأن الزمان كذا والواقع كذا والبلوىٰ قد عمت بكذا وكذا .. إلخ!

من أراد أن يبدأ تربية أولاده في بيت هذا وصفه من البداية، حتىٰ إن هم طالعوا ما فيه فساد فيما بعد ولم يتمكن من منعهم منه فقد اطمأن لكراهتهم ذلك الفساد كراهة تربوية قد نشؤوا عليها، فلن يمنعه من ذلك مانع إن شاء الله تعالىٰ، وإلا فما التربية أصلا وما حقيقتها وكيف تكون عندكم؟ هل نحتاج إلىٰ من يعلمنا – معاشر المربين في البيوت – ضرورة أن نحبب أولادنا في الخير وندفعهم إليه دفعا وكيف نكرههم في الشر ونصدهم عنه صدا، من أول يوم يعرفون فيه يمينهم من شمالهم؟

يا أخ الإسلام أنشئ ولدك في بيتك النشأة الصحيحة من أول يوم، تسلم بإذن الله تعالىٰ من أن يأتيك ذات يوم بالسؤال: «من الذي خلق الله»؟ أو السؤال «ما حقيقة القدر»؟، أو السؤال «لماذا اختار الله أن يبتلينا بخلق الشر في العالم؟»، أو حتىٰ السؤال: «ما الدليل علىٰ وجود الله؟» أو «ما الدليل علىٰ أن العالم حادث مخلوق؟» أو نحو ذلك من أسئلة خبيثة تجر من ورائها فساد العقل والدين وضياع الإيمان، وأصحابها يزينون للناس الظن بأن طرحها مما يحمد به عقل صاحبه، ويمتاز به الذكي من الغبي، والخاصة من العامة، وأن الإعراض عن إجابتها وعن الخوض فيها مما يشان به الإنسان وينكشف به ضعف عقله وتقليده الأعمىٰ!

علمه أن يجعل تعظيم ربه وباريه ورازقه ومصوره الذي وهبه سائر النعم، وألهمه النفس الذي يتحرك في صدره والدم الذي يجري في عروقه، غاية ما يستحسن من الإنسان وأعظم ما يكون من عمله! علمه الخشية والمراقبة واستشعار اطلاع ربه عليه بالغيب في كل مناسبة! فإنه إن تعاظم ذلك الأمر في قلبه تضاءل كل ما يخالفه بداهة، وصار قلبه في مأمن من تلك الزبالة مهما تعرض في يوم من الأيام لشيء منها قلّ أو كثر! علمه أن يصد عنها غاية الصدود ويعرض عنها غاية الإعراض، ويبغضها وأصحابها بكل ما أوتي من قوة وعزم، فإنك إن فعلت ذلك، فثق في أنك لن تحتاج في يوم من الأيام إلىٰ منعه منها ومما كتبه المتكلمون من أهل القبلة أو من أهل الملل الأخرىٰ من محاولات في الرد عليها! فإنه من استقام له عقله وانضبط علىٰ الفطرة السوية القويمة فلن يرىٰ في تلك البابة كلها إلا محض السفاهة والجحود العظيم والعدوان الشنيع، وسيفر منها فراره من المجذوم!

إذا كان الله تعالىٰ قد شنع قالة النصارىٰ في حقه (أنه اتخذ ولدا) تشنيعا يندىٰ له الجبين فقال سبحانه: ﴿**لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا**﴾ [مريم: ٨٩ - ٩١]، فكيف بقوم يتهمونه بما هو أشنع من هذا، فينفون عنه الربوبية بالكلية، ويصرحون بشتمه وجحد وجوده وحقه عليهم (بالقول الصريح لا بالمقتضىٰ واللازم) سبحانه وتعالىٰ عما يقولون

جميعا علوا كبيرا؟ هل يصدق المتكلمون حقا عندما يزعم زعيمهم أنهم يستشنعون كلام هؤلاء وعقائدهم وأفكارهم وأن قلوبهم تنفر من ذلك كما ينبغي لها أن تنفر؟ لا والله لا يصدقون، فلو صدقوا لما جادلوهم جدال الفلاسفة والمنظرين كما هو دأبهم في كل مناسبة! لو صدقوا ما صبروا علىٰ كذب هؤلاء المجرمين علىٰ أنفسهم وعلىٰ الناس إذ يزعمون أن مخلوقيتهم ومربوبيتهم تفتقر إلىٰ دليل نظري يكسبهم العلم بها، وما تكلفوا أن يصطنعوا لهم ذاك الدليل علىٰ نحو ما يشترطون، وكأننا معاشر المسلمين لو أعرضنا عنهم للحقت بنا نحن التهمة في العقل والعلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

من ذا الذي يتهمنا نحن في عقولنا إن أعرضنا عن ذاك السفه المبين الذي اتخذه هؤلاء حرفة وصناعة، إلا أن يكون سفيها منهم أو مفتونا بصناعتهم؟ ومتىٰ كان اتهام هؤلاء لأهل الإيمان وسخريتهم منهم مما يلزمنا دفعه والتصدي له في كل مناسبة؟ ألم يسمعوا قول الله جل وعلا: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ [**الأنعام**: ٦٨]؟ ألا تكفيهم هذه الآية البينة المحكمة دليلا علىٰ فساد صنعة الكلام وعلىٰ أنه لا يجوز الاستماع لما عند هؤلاء أصلا ولا مجالستهم ولا الخوض معهم؟ نسأل الله لهم الهداية والرشاد.

المراجع والمصادر

قمت بحذف ثبت المراجع والمصادر لما فيها من إلحاد محض لا أرىٰ مشروعية أن يحال عليه عامة المسلمين لمصلحة أن يقفوا علىٰ مصدر هذه المعلومة أو تلك في كلامي، فمن كان ولا بد مضطرا إلىٰ ذلك، فليراسلني علىٰ هذا العنوان الإلكتروني: BeaconofGuidance@yahoo.com.